



منتظمة رابطة لشباب مسلمين

النهضة العالمية للشباب الإسلامي

عضو المنظمات غير الحكومية - هيئة الأمم المتحدة

زادكم الله علماً

في هدي خير العباد

تأليف الإمام

شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب المشهور

بـ: ابن قيم الجوزية

(٦٩١ - ٧٥١ هـ)

ضبط نصه

شُعَيْب الأرنؤوط و عبد القادر الأرنؤوط

مؤسسة الرسالة

زَادُ الْمَعَادِ

في هدي خير العباد

تأليف الإمام

شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب المشهور

بـ: ابن قيس الجوزية

(٦٩١ - ٧٥١ هـ)

ضبط نصه

شُعَيْب الأرنؤوط و عَبْد القادر الأرنؤوط

مؤسسة الرسالة



بجميع الحقوق محفوظة للناس

الطبعة الأولى

١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م



وطى المصيطبة - شارع حبيب أبي شهلا - بناية المسكن، بيروت - لبنان
للطباعة والنشر والتوزيع تليفاكس: ٣٩٠٣٩٠ - ٨١٥١١٢ فاكس: ٨١٨٦١٥ ص.ب: ١١٧٤٦٠

Al-Resalah
PUBLISHERS

BEIRUT/LEBANON-Telefax: 815112-319039 Fax: 818615-P.O.Box: 117460
Email: Resalah@Cyberia.net.lb

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي عرّف خلقه به بما أنزل في الكتاب، ودلّهم على طريق الحق، وسبيل الرشاد، ودرب الصواب، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على أحبّ الأحباب، سيدنا محمد رسول الهدى، وعظيم الندى، ووفير الجدا، وعلى آله الأطهار وجميع الأصحاب.

وبعد..

فإنّ الدروب إلى الله تعالى كلّها مغلقة إلا درب محمد ﷺ لا يتقبّل الله من أحد بعده عملاً لم يتأسّ به فيه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

حتى الأنبياء والمرسلون عليهم صلوات الله وسلامه نسخت شرائعهم، وبطلت كتبهم بيعته عليه السلام، فهذا عيسى ابن مريم عندما ينزل يحكم في المسلمين حكماً عدلاً بشريته الغراء، ويصلي بصلاتهم خلف إمام منهم، ويموت ويصلون على جنازته ويدفونوه على سنة خير ولد آدم ﷺ.

وعبر العصور الإسلامية الزهراء قام أهل العلم عليهم رضوان الله بتميز الصحيح من غيره من أقواله وأفعاله، وتبيان سنّته، وتوضيح أحكام شريعته؛ فألفوا المؤلفات، وصنّفوا المصنّفات، لتبقى خالدة تالدة تُنير للمسلمين مسالك الحياة، ولتكون أفعالهم على الصواب الذي يرضي الله تعالى، فيُؤجرون ولا يؤزرون.

ومن بين العلماء الأفاضل، والأئمة الجهابذ في خدمة السنة النبوية المطهرة شيخ الإسلام ابن القيم - رحمه الله - الذي تفقّت قريحته عن أن استوحى من قول النبي ﷺ: «وإن خير الهدى هدي محمد ﷺ»^(١) عنواناً لموسوعته الفريدة «زاد المعاد من هدي خير العباد».

ولقد كان المضمون متوافقاً مع العنوان، والمسعى متلائماً مع الاسم، فلم يدع رحمه الله مجالاً عقدياً أو تعبدياً إلا وبين فيه ملامح الهدى النبوي، ورسوم الرشاد المحمّدي، ليستنبط بالمقابل بذعية شعائر لا تقتدي بقُدوته، ولا تتأسى بأسوته، متمثلاً قوله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» [أحمد: ٢٥١٢٨، مسلم: ٤٤٩٣].

ولقد رمى - رحمه الله - كذلك إلى أن يفهم الناس أنّ رحلة الآخرة الطويلة، وعقبتها الكؤود لا تقطع إلا بزاوٍ من التقوى، والتقوى لا تتحقّق إلا بتمام الاتّباع لهدى النبي ﷺ.

ولقد تم طبع هذا الكتاب في المرة الأولى بتحقيق اثنين من كبار العلماء والمحدثين في هذا العصر الشيخ شعيب أرنؤوط والشيخ عبد القادر أرنؤوط، فكانت تلك الطبعة فريدة من نوعها ذات فائدة واضحة، فقدّم فيها الشيخان الخدمة التامة التي تلزم الكتاب والتي تزيده فائدة لكل قارئ وطالب علم من خلال تحقيق النص على

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٠٠٥).

المخطوطة وتخريج الأحاديث ودراسة أسانيدھا والحكم على جميع هذه الأحاديث والتعليق على ما يلزم التعليق عليه من الغريب والخلاف فكانت حقاً طبعة متميزة في درجة عالية من الخدمة والعناية مطبوعة في ستة أجزاء، السادس منها يحتوي على فهرس للكتاب بكامله.

ورغبة منا بنشر هذا التراث القيم لابن القيم رحمه الله، فإننا نقدم هذا السفر الجليل الذي هو أحد كتبه التي تُشكّل باقة طيبة النشر، بديعة العطر، أنيقة الشكل، تروق لناظرها، وتنفع قارئها، نضعه بين يدي القارئ الكريم بحلّيه القشبية، ومظهره الرائق، وقد حرصنا على خدمته بما يقربه من الدارس فيه، وسهّل له للمطلع عليه. فكان الدافع على إخراج الكتاب وطبعه هذه الطبعة الجديدة مع جودة الطبعة الأولى وتميزها عدة أسباب منها:

١ - إيصال الكتاب إلى القراء بمجلد واحد عوضاً عن ستة مجلدات تيسيراً عليهم في حجم الكتاب وتوفيراً لهم في ثمنه.

٢ - تقديم الفائدة العلمية الموجودة في الكتاب وإيضاحها من خلال العناوين والفقرات.

٣ - إثبات تخريجات الأحاديث بين معقوفتين داخل النص تيسيراً على القارئ وتمكيناً له من الاطلاع عليها عوضاً عن الرجوع إلى الحواشي في أسفل الكتاب.

٤ - الحكم على الأحاديث بشكل مختصر ليتمكن القارئ من معرفة درجة كل حديث.

٥ - إحالة التخريجات من الأجزاء والصفحات والأرقام إلى الكتب المطبوعة في مؤسستنا كالإحالة إلى «مسند أحمد» و«صحيح ابن حبان» و«مسيره ابن هشام» رغبة منا في الربط بين مطبوعاتنا وتكميلاً لغرضنا في نشر كتب التراث وإخراج باقة كاملة من هذه الكتب.

عملنا في هذه الطبعة:

١ - اعتمدنا نص طبعنا التي حقّقها الشيخ عبد القادر أرناؤوط - رحمه الله وغفر له - والشيخ شعيب أرناؤوط - حفظه الله ورعاه - .

٢ - تخريج أحاديث الكتاب وإثبات الحكم عليها.

٣ - الحكم على الأحاديث بشكل مختصر وفق منهجية الطباعات الجديدة للدار.

٤ - استفدنا في الحكم على الأحاديث من كتب الحديث المطبوعة بمؤسسة الرسالة مثل «مسند أحمد» و«صحيح ابن حبان» وغيرهما.

٥ - إثبات تخريجات الأحاديث في متن الكتاب بين معقوفتين.

٦ - التعليق على ما يلزم التعليق عليه من الغريب والخلاف.

٧ - التصدير بترجمة للمصنف رحمه الله.

وفي الختام نسأل الله تعالى أن يكتب النفع للمسلمين بهذا العمل، وأن يكون فيه نشرٌ للعلم، وصدعٌ بالحق، وأن ينفع به مؤلفه، ومعيدّه، وناشره، وقارّنه، وأن يتعمّد عملنا بالقبول، وذنوبنا بالمغفرة، وضعفنا بالرحمة، إنه جواد كريم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الناشر



ابن قِيَم الجوزيَّة

هو الإمام العلامة بقيَّة السلف وقُدوة الخلف شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي الحنبلي المشهور بـ: ابن قيم الجوزية؛ والجوزية: مدرسة تقع في سوق البزورية قرب المسجد الأموي أنشأها أبو المحاسن ابن الجوزي، وكان أبوه قِيَمًا عليها؛ فمن ذلك كانت النسبة.

- ولد في بيت علم وفضل وديانة سنة (٦٩١هـ)، ولما بلغ سنَّ التحمُّل توجه إلى دمشق المحروسة، فتلمذ لطائفة من علمائها، فسمع الحديث من الشهاب النابلسي وفاطمة بنت جوهر وغيرهما، وتلقى الفقه وأصوله على شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية؛ فقرأ عليه عدة كتب منها: «الروضة» لابن قدامة، و«المحرر» لابن تيمية الجد وغيرهما، ولو لم يكن له من الشيوخ إلا ابن تيمية لكفاه ذلك عن الرحلة، وأغناه عن التلقي عن غيره، كيف لا، وابن تيمية كان إماماً في كل فنٍّ، وبحراً في كل علم، فقد لازمه ستة عشر سنة، فنهل من فيض علمه الجَمِّ، ونشر أقواله، وهذَّب كتبه، وامْتَحَن لأجله مرات حتى سُجِن معه في قلعة دمشق، فكان سجنهما خلوةً، ونفيهما سياحةً، وأخذ علوم العربية عن الإمام البعلي؛ فقرأ عليه: «الملخص»، وعن المجد التونسي، فقرأ عليه «المقرب» لابن عصفور، وأخذ علم الفرائض عن والده؛ إذ قد كان مبرزاً فيه.

تلامذته:

تلقَّى عن علامتنا هذا أعلام مشهود لهم بالعلم والفضل؛ فمن هؤلاء: أبو الفرج ابن رجب الحنبلي صاحب التصانيف المشهورة، والإمام ابن كثير الدمشقي الغني عن التعريف، ومنهم الشيخ ابن عبد الهادي المقدسي الذي قال عنه الذهبي: والله ما اجتمعت به إلا استفدت منه.

أقوال العلماء فيه:

قال الحافظ ابن كثير: لا أعرف في زماننا من هو أكثر عبادة منه، وكان إذا صلى الصبح جلس مكانه يذكر الله تعالى حتى يتعالى النهار، ويقول: هذه غدوتي لو لم أفلحها سقطت قواي.

وقال شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني: كان واسع العلم عارفاً بمذاهب السلف، وغلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله، وكانت ملازمته لابن تيمية منذ عاد من مصر سنة (٧١٢هـ) إلى أن مات.

وقال ابن ناصر الدمشقي: قلت أمام شيخنا المزي: ابنُ القيم في درجة ابن خزيمة؟ فقال: هو في هذا الزمان كابن خزيمة في زمانه.

مؤلفاته:

كان رضي الله عنه مُكثراً من التأليف، شأنه في ذلك شأن شيخه ابن تيمية، فبلغت مؤلفاته ستين كتاباً ونيِّفاً في مختلف العلوم، وهاك بعض كتبه المشهورة؛ ففي الحديث صنف: «تهذيب سنن أبي داود»، وفي السيرة: صنف: «زاد المعاد في هدي خير العباد»، وفي أصول الفقه صنف: «إعلام الموقعين عن رب العالمين»، وفي

الفقه: «الطرق الحكمية في السياسة الشرعية»، وفي العقيدة صنف: «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة»، وفي علم السلوك صنف: «مدارج السالكين» وغيرها من الكتب الماتعة التي قلَّ أن تجد مثلها عند غيره من المصنفين؛ لما امتاز به مُتَرَجِّمًا من رسوخ في العلم واعتماده على هدي القرآن والسنة النبوية مع حسن التنظيم والتبويب وبساطة الأسلوب وبراعة الاستدلال وكثرة الاستطراد غير الممل والحافل بمعارف جديدة وفوائد جليّة، وأروغ ما يميّزُ منهجَه في التأليف صفاؤه الروحي وأدبه الرفيع في النقد.

وفاته:

توفي رضي الله عنه سنة (٧٥١هـ)، وصُلِّيَ عليه بجامع دمشق الكبير، ودفن بمقبرة الباب الصغير، فالله يرحمه ويشكر له، ويُعلي درجته، ويُسكنه محلَّ كرامته.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حسبي الله ونعم الوكيل

مقدمة المؤلف

(لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن الشهادتين)
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كلمة قامت بها الأرض والسموات، وُخِلِقَتْ لأجلها جميع المخلوقات، وبها أرسل الله تعالى رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه، ولأجلها نُصِبَتْ الموازين، ووضعت الدواوين، وقام سوق الجنة والنار، وبها انقسمت الخليقة إلى المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، فهي منشأ الخلق والأمر، والثواب والعقاب، وهي الحق الذي خلقت له الخليقة، وعنهما وعن حقوقها السؤال والحساب، وعليها يقع الثواب والعقاب، وعليها نُصِبَت القبلة، وعليها أُسِّسَت الملة، ولأجلها جُرِّدَتْ سيوف الجهاد، وهي حق الله على جميع العباد، فهي كلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام، وعنهما يسأل الأولون والآخرون، فلا تزول قدما العبد بين يدي الله حتى يسأل عن مسألتين: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتُم المرسلين؟

فجواب الأولى بتحقيق «لا إله إلا الله» معرفة وإقراراً وعملاً.

وجواب الثانية بتحقيق «أن محمداً رسول الله» معرفة وإقراراً، وانقياداً وطاعة.

(افترض على العباد طاعة الرسول)

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأمينه على وحيه، وخيرته من خلقه، وسفيره بينه وبين عباده، المبعوث بالدين القويم، والمنهج المستقيم، أرسله الله رحمة للعالمين، وإماماً للمتقين، وحجة

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، ولا إله إلا الله إله الأولين والآخرين، وقبوم السماوات والأرضين، ومالك يوم الدين، الذي لا فوز إلا في طاعته، ولا عز إلا في التذلل لعظمته، ولا غنى إلا في الافتقار إلى رحمته، ولا هدى إلا في الاستهداء بنوره، ولا حياة إلا في رضاه، ولا نعيم إلا في قربهِ، ولا صلاح للقلب ولا فلاح إلا في الإخلاص له، وتوحيد حبه، الذي إذا أطيع شكر، وإذا عُصي تاب وغفر، وإذا دُعي أجاب، وإذا عُوْمِل أُناب.

والحمد لله الذي شهد له بالربوبية جميع مخلوقاته، وأقرت له بالإلهية جميع مصنوعاته، وشهدت بآته الله الذي لا إله إلا هو بما أودعها من عجائب صنعته، وبدائع آياته، وسبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضي نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته. ولا إله إلا الله وحده، لا شريك له في إلهيته، كما لا شريك له في ربوبيته، ولا شبه له في ذاته ولا في أفعاله ولا في صفاته، والله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً، وسبحان من سبحت له السماوات وأملاكها، والنجوم وأفلاكها، والأرض وسكانها، والبحار وحيتانها، والنجوم والجيال، والشجر والدواب، والآكام^(١) والزمال، وكل رطب ويابس، وكل حي وميت ﴿سُبْحَ لَهُ أَتَنَزَّلُ النَّبِيُّ مِنَ الْأَرْضِ وَمِنْ فِئَةٍ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْجُدُ يَجْهَدُ لَكُمْ لَكِنْ لَا تَقْهَرُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

(١) الآكام على وزن أعناق، وإكام على وزن جبال: التلال والروابي.

على الخلائق أجمعين. أرسله على حين فترة من الرسل، فهدى به إلى أقوم الطرق وأوضح السبل، وافترض على العباد طاعته وتعزيره^(١) وتوقيره ومحبته، والقيام بحقوقه، وسدّ دون جثته الطرق، فلن تفتح لأحد إلا من طريقه، فشرح له صدره، ورفع له ذكّره، ووضع عنه وزره، وجعل الدّلة والصّغار على من خالف أمره. ففي «المسند» من حديث أبي منيب الجُرشي، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يُعْثُ بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ حَتَّى يُعْبِدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الدّلة والصّغار على مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ» [ضعيف: أحمد: ٥١١٤، والبخاري تعليقاً قيل: ٢٩١٤] وكما أنّ الدّلة مضروبة على من خالف أمره، فالعِزّة لأهل طاعته ومتابعته، قال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]. وقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ حَسْبَكَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]. أي: الله وحده كافيك، وكافي أتباعك، فلا تحتاجون معه إلى أحد.

وهنا تقديران، أحدهما: أن تكون الواو عاطفة لـ «مَنْ» على الكاف المجرورة، ويجوز العطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار على المذهب المختار، وشواهد كثيرة، وشبه المنع منه وإهية.

والثاني: أن تكون الواو واو «مع» وتكون «مَنْ» في محل نصب عطفاً على الموضع، «فإن حسبك» في معنى «كافيك»، أي: الله يكفيك ويكفي من اتبعك، كما تقول العرب: حسبك وزيداً درهم، قال الشاعر:

إِذَا كَانَتْ الْهَيْجَاءُ وَأَنْشَقَّتِ الْعَصَا

فَحَسْبُكَ وَالصُّحَّاءُ سَيْفٌ مُهَنْدٌ

وهذا أصحُّ التقديرين.

وفيها تقدير ثالث: أن تكون «مَنْ» في موضع رفع

بالاتداء، أي: ومن اتبعك من المؤمنين، فحسبهم الله.

(الفرق بين الحسب والتأييد)

وفيها تقدير رابع، وهو خطأ من جهة المعنى، وهو أن تكون «مَنْ» في موضع رفع عطفاً على اسم الله، ويكون المعنى: حسبك الله وأتباعك، وهذا وإن قاله بعض الناس، فهو خطأ محض، لا يجوز حمل الآية عليه، فإن «الحسب» والكفاية لله وحده، كالنكول والتقوى والعبادة، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَنْذَرُ الْمُتَّقِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢]. ففرّق بين الحسب والتأييد، فجعل الحسب له وحده، وجعل التأييد له بنصره وبعياده، وأثنى الله سبحانه على أهل التوحيد والنكول من عباده حيث أفردوه بالحسب، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَبِعَمِّ الْوَكِيلِ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. ولم يقولوا: حسبنا الله ورسوله، فإذا كان هذا قولهم، ومدح الرب تعالى لهم بذلك، فكيف يقول لرسوله: الله وأتباعك حسبك، وأتباعه قد أفردوا الرب تعالى بالحسب، ولم يُشركوا بينه وبين رسوله فيه، فكيف يُشرك بينهم وبينه في حسب رسوله؟! هذا من أمحل المحال وأبطل الباطل، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]. وجعل الحسب له وحده، فلم يقل: وقالوا: حسبنا الله ورسوله، بل جعله خالص حقّه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]. ولم يقل: وإلى رسوله، بل جعل الرغبة إليه وحده، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَفِغَتْ فَانْصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ قَارِعَبٌ﴾ [الشرح: ٨٠٧]. فالرغبة، والنكول، والإنابة، والحسب لله وحده، كما أن العبادة والتقوى، والسجود لله وحده، والنذر والحلف لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اللَّهُ يَكْفِي عِبَادَتَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]. فالحسب: هو الكافي، فأخبر سبحانه وتعالى أنّه

(١) وتعزيره: أي: ونصره وإعانتته. والتعزير أيضاً: التويج على التقصير، والتأديب دون الحد، والكلمة من الأضداد، والقرينة هي التي تعين المراد.

وحده كافٍ عبده، فكيف يجعل أتباعه مع الله في هذه الكفاية؟! والأدلة الدالة على بطلان هذا التأويل الفاسد أكثر من أن تذكرها هنا.

والمقصود أن بحسب متابعة الرسول تكون العزة والكفاية والنصرة، كما أن بحسب متابعتها تكون الهداية والفلاح والنجاة، فالله سبحانه علّق سعادة الدارين بمتابعتها، وجعل شقاوة الدارين في مخالفتها، فلا يتابع الهدى والأمن، والفلاح والعزة، والكفاية والنصرة، والولاية والتأييد، وطيب العيش في الدنيا والآخرة، ولمخالفيه الذل والصغار، والخوف والضللال، والخذلان والشقاء في الدنيا والآخرة. وقد أقسم ﷺ بأن لا يؤمن أحدكم حتى يكون هو أحب إليه من ولده ووالديه والناس أجمعين [البخاري: ١٥، ومسلم: ١٦٨]. وأقسم الله سبحانه بأن لا يؤمن من لا يحكمه في كل ما تنازع فيه هو وغيره، ثم يرضى بحكمه، ولا يجد في نفسه حرجاً مما حكم به ثم يسلم له تسليماً، وينقاد له انقياداً^(١). وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]. فقطع سبحانه وتعالى التخيير بعد أمره وأمر رسوله، فليس لمؤمن أن يختار شيئاً بعد أمره ﷺ، بل إذا أمر، فأمره حتم، وإنما الخيرة في قول غيره إذا خفي أمره، وكان ذلك الغير من أهل العلم به ويستنته، فهذه الشروط يكون قول غيره سائغ الاتباع، لا واجب الاتباع، فلا يجب على أحد اتباع قول أحد سواه، بل غايته أنه يسوغ له اتباعه، ولو ترك الأخذ بقول غيره، لم يكن عاصياً لله ورسوله. فأين هذا ممن يجب على جميع المكلفين اتباعه، ويحرم عليهم مخالفته، ويجب عليهم ترك كل قول لقوله؟ فلا حكم لأحد معه، ولا قول لأحد معه، كما لا تشريع لأحد معه، وكل من سواه، فإنما يجب اتباعه على قوله إذا أمر بما أمر به، ونهى عما نهى عنه، فكان مبلغاً محضاً ومخبراً لا منشئاً ومؤسساً، فمن أنشأ أقوالاً، وأسس قواعد بحسب فهمه وتأويله، لم يجب على الأمة اتباعها، ولا التحاكم إليها حتى تعرض على ما جاء به

الرسول، فإن طابقت، ووافقت، وشهد لها بالصحة، قبلت حيثئذ، وإن خالفت، وجب ردّها وأطرحها، فإن لم يتبين فيها أحد الأمرين، جعلت موقوفة، وكان أحسن أحوالها أن يجوز الحكم والإفتاء بها وتركه، وأما أنه يجب ويتعين، فكلّا، ولّمّا.

(المراد بالاختيار هي)

﴿وَرَبِّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾. وهو

الاصطفا، وما في «ما كان لهم الخيرة» للنفي

وبعد، فإن الله سبحانه وتعالى هو المنفرد بالخلق والاختيار من المخلوقات، قال الله تعالى: ﴿وَرَبِّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصاص: ٦٨]. وليس المراد هاهنا بالاختيار الإرادة التي يشير إليها المتكلمون بأنه الفاعل المختار - وهو سبحانه - كذلك، ولكن ليس المراد بالاختيار هاهنا هذا المعنى، وهذا الاختيار داخل في قوله: ﴿وَرَبِّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ فإنه لا يخلق إلا باختياره، ودخل في قوله تعالى: ﴿مَا يَشَاءُ﴾ فإن المشيئة هي الاختيار، وإنما المراد بالاختيار هاهنا: الاجتباء والاصطفاء، فهو اختيار بعد الخلق، والاختيار العام اختيار قبل الخلق، فهو أعم وأسبق، وهذا أخص، وهو متأخر، فهو اختيار من الخلق، والأول اختيار للخلق. وأصح القولين أن الوقف التام على قوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ ويكون ﴿مَا كَانَتْ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصاص: ٦٨] نفيّاً، أي: ليس هذا الاختيار إليهم، بل هو إلى الخالق وحده، فكما أنه المنفرد بالخلق، فهو المنفرد بالاختيار منه، فليس لأحد أن يخلق، ولا أن يختار سواه، فإنه سبحانه أعلم بمواقع اختياره، ومخالف رضاه، وما يصلح للاختيار مما لا يصلح له، وغيره لا يُشاركه في ذلك بوجه.

(الرد على من قال: إن ما موصولة وهي مفعول «ويختار»)

وذهب بعض من لا تحقيق عنده ولا تحصيل إلى أن «ما» في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ موصولة، وهي مفعول «ويختار» أي: ويختار الذي لهم الخيرة، وهذا باطل من وجوه.

أحدها: أن الصلة حيثئذ تخلو من العائد، لأن

(١) وذلك في قوله تعالى في [النساء: ٦٥] ﴿وَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

«الخيرة» مرفوع بأنه اسم «كان» والخبر «لهم»، فيصير المعنى: ويختار الأمر الذي كان الخيرة لهم، وهذا التركيب محال من القول.

فإن قيل: يمكن تصحيحه بأن يكون العائد محذوفاً، ويكون التقدير: ويختار الذي كان لهم الخيرة فيه، أي: ويختار الأمر الذي كان لهم الخيرة في اختياره.

قيل: هذا يفسد من وجه آخر، وهو أن هذا ليس من المواضع التي يجوز فيها حذف العائد، فإنه إنما يحذف معجوراً إذا جُرَّ بحرف جُرَّ الموصول بمثله مع اتحاد المعنى، نحو قوله تعالى: ﴿بَأْكُلْ مِنَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِنَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣]. ونظائره، ولا يجوز أن يقال: جاعني الذي مررت، ورأيت الذي رغبت، ونحوه.

الثاني: أنه لو أريد هذا المعنى لنصب «الخيرة» وشغل فعل الصلة بضمير يعود على الموصول، فكانه يقول: ويختار ما كان لهم الخيرة، أي: الذي كان هو عين الخيرة لهم، وهذا لم يقرأ به أحد البتة، مع أنه كان وجه الكلام على هذا التقدير.

الثالث: أن الله سبحانه يحكي عن الكفار اقتراحهم في الاختيار، وإرادتهم أن تكون الخيرة لهم، ثم ينفي هذا سبحانه عنهم، ويبين تفرده هو بالاختيار، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ٣١ أَهَرُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَيعَشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ سُلْطَانًا وَرَحْمَتَ رَبِّكَ حَبِيرٌ مِّمَّا يَكْتُمُونَ [الزخرف: ٣١، ٣٢]، فأنكر عليهم سبحانه تخييرهم عليه، وأخبر أن ذلك ليس إليهم، بل إلى الذي قَسَمَ بينهم معاشهم المتضمنة لأرزاقهم ومُددِ آجالهم، وكذلك هو الذي يَقْسِمُ فضله بين أهل الفضل على حسب علمه بمواقع الاختيار، ومن يصلح له ممن لا يصلح، وهو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات، وقسم بينهم معاشهم، ودرجات التفضيل، فهو القاسم ذلك وحده لا غيره، وهكذا هذه الآية بين فيها انفراده بالخلق والاختيار، وأنه سبحانه أعلم بمواقع اختياره، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مَآ أُوْتِيَ رَسُولُ اللَّهِ

اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، أي: الله أعلم بالمحل الذي يصلح لاصطفائه وكرامته وتخصيصه بالرسالة والنبوة دون غيره.

الرابع: أنه نزه نفسه سبحانه عما اقتضاه شريكهم من اقتراحهم واختيارهم فقال: ﴿مَا كُنَّا لَمُ الْخِيَرَةِ سُبْحَنَ اللَّهِ وَنَعْلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصاص: ٦٨]، ولم يكن شريكهم مقتضياً لإثبات خالقي سواء حتى نزه نفسه عنه، فتأمل، فإنه في غاية اللطف.

الخامس: أن هذا نظير قوله تعالى في [الحج: ٧٣ - ٧٦]: ﴿إِنَّ الْآيَاتِ لَتَنفُونَكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْتَأْذِنُوا شَيْئًا لَّا يَسْتَفِذُوهُ مِنْهُ سَمِعَكَ الظَّالِمُ وَالْظَّالِمُ ٧٣ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ثم قال: ﴿اللَّهُ يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُؤْسًا وَمَنَ الثَّانِينَ إِنَّهُ سَجِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ٧٥ يَلَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَئِىَ اللَّهُ تُرْجِعُ الْأُمُورَ. وهذا نظير قوله في [القصاص: ٦٩]: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ونظير قوله في [الأنعام: ١٢٤]: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ فأخبر في ذلك كله عن علمه المتضمن لتخصيصه محال اختياره بما خصصها به، لإعلمه بأنها تصلح له دون غيرها، فتدبر السياق في هذه الآيات تجدّه متضمناً لهذا المعنى، زائداً عليه، والله أعلم.

السادس: أن هذه الآية مذكورة عقب قوله: ﴿وَبِمَ يَبْدِئُهُمْ يَقُولُ مَاذَا أَجْمَعُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ٣٥ فَمَيِّتْ عَلَيْهِمُ الْآلِهَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ٣٦ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَمَنْ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ٣٧ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ [القصاص: ٦٥ - ٦٨] فكما خلقهم وحده سبحانه، اختار منهم من تاب، وآمن، وعمل صالحاً، فكانوا صفوته من عباده، وخيرته من خلقه، وكان هذا الاختيار راجعاً إلى حكمته وعلمه سبحانه لمن هو أهل له، لا إلى اختيار هؤلاء المشركين واقتراحهم، فسبحان الله وتعالى عما يشركون.

فصل

(الاختيار دال على ربوبيته سبحانه)

وإذا تأملت أحوال هذا الخلق، رأيت هذا الاختيار والتخصيص فيه دالاً على ربوبيته تعالى

ووجدانيته، وكمالِ حكمته وعلمه وقدرته، وأنه الله الذي لا إله إلا هو، فلا شريك له يخلق كخلقه، ويختار كاختياره، ويدبر كتدبيره، فهذا الاختيار والتدبير، والتخصيص المشهود أثره في هذا العالم من أعظم آيات ربوبيته، وأكبر شواهد وحدانيته، وصفات كماله، وصدق رسله، فنشيرُ منه إلى يسير يكونُ منبهاً على ما وراءه، دالاً على ما سواه.

فخلق الله السماوات سبعا، فاختار العليا منها، فجعلها مستقرَّ المقرَّبين من ملائكته، واختصها بالقرب من كرسيه ومن عرشه، وأسكنها مَنْ شاءَ مِنْ خلقه، فلها مزيةٌ وفضلٌ على سائر السماوات، ولو لم يكن إلا قربها منه تبارك وتعالى.

وهذا التفضيلُ والتخصيصُ مع تساوي مادة السماوات من أبين الأدلة على كمال قدرته وحكمته، وأنه يخلق ما يشاء ويختار.

ومن هذا تفضيله سبحانه جنة الفردوس على سائر الجنان، وتخصيصها بأن جعل عرشه سقفاً^(١)، وفي بعض الآثار: «إن الله سبحانه غرسها بيده، واختارها لخيرته من خلقه».

ومن هذا اختياره من الملائكة المصطفين منهم على سائرهم، كجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وكان النبي ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تُهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» [مسلم: ١٨١١].

فذكر هؤلاء الثلاثة من الملائكة لكمال اختصاصهم، واصطفائهم، وقربهم من الله، وكم من ملك غيرهم في السماوات، فلم يُسم إلا هؤلاء الثلاثة؛ فجبريل: صاحب الوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، وميكائيل: صاحب القطر الذي به حياة الأرض والحيوان والنبات، وإسرافيل: صاحب

الصُور الذي إذا نفخ فيه، أحييت نفخته بإذن الله الأموات، وأخرجتهم من قبورهم.

(بيان الاختيار من البشر)

وكذلك اختياره سبحانه للأنبياء من ولد آدم عليه وعليهم الصلاة والسلام، وهم مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، واختياره الرسل منهم، وهم ثلاثمئة وثلاثة عشر، على ما في حديث أبي ذر الذي رواه أحمد، وابن حبان في «صحيحه» [ضعيف جداً: أحمد: ٢١٥٥٢، وابن حبان: ٩٤]، واختياره أولي العزم منهم، وهم الخمسة المذكورون في سورة (الأحزاب) و(الشورى) في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، واختار منهم الخليلين: إبراهيم ومحمداً صلى الله عليهما وآلهما وسلم.

ومن هذا اختياره سبحانه ولد إسماعيل من أجناس بني آدم، ثم اختار منهم بني كنانة من خزيمة، ثم اختار من ولد كنانة قريشاً، ثم اختار من قريش بني هاشم، ثم اختار من بني هاشم سيد ولد آدم محمداً ﷺ [مسلم: ٥٩٣٨].

وكذلك اختار أصحابه من جملة العالمين، واختار منهم السابقين الأولين، واختار منهم أهل بدر، وأهل بيعة الرضوان، واختار لهم من الذين أكمله، ومن الشرائع أفضلها، ومن الأخلاق أزكاها وأطيبها وأطهرها.

واختار أمته ﷺ على سائر الأمم، كما في «مسند الإمام أحمد» وغيره من حديث بهز بن حكيم بن معاوية بن حيدة، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنْتُمْ مَوْفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ» [حسن: أحمد: ٢٠٠١٥، والترمذي:

(١) جاء في البخاري (٧٤٢٣) في التوحيد: باب وكان عرشه على الماء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة مئة درجة أعداها الله للمجاهدين في سبيله، كلُّ درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله، فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفرج أنهار الجنة».

٣٠٠٤، وابن ماجه: ٤٢٨٨. قال علي بن المديني وأحمد: حديث بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده صحيح.

وظهر أثر هذا الاختيار في أعمالهم وأخلاقهم وتوحيدهم ومنازلهم في الجنة ومقاماتهم في الموقف، فإنهم أعلى من الناس على تل فوقهم يشرفون عليهم، وفي الترمذي من حديث بريدة بن الحُصَيْب الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة عشرون ومئة صف، ثمانون منها من هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم» [صحيح: أحمد: ٢٢٩٤، والترمذي: ٢٥٤٩] قال الترمذي: هذا حديث حسن. والذي في «الصحيح» من حديث أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ في حديث بعث النار: «والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا أهل الجنة» [مسلم: ٥٣٢]، ولم يزد على ذلك. فإنما أن يقال: هذا أصح، وإنما أن يقال: إن النبي ﷺ طمع أن تكون أمته شطر أهل الجنة، فأعلمه ربّه فقال: «إنهم ثمانون صفاً من مئة وعشرين صفاً». فلا تنافي بين الحديثين، والله أعلم.

ومن تفضيل الله لأمة واختياره لها أنه وهبها من العلم والحلم ما لم يهبه لأمة سواها، وفي «مسند الزبارة» وغيره من حديث أبي الدرداء قال: سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: «إن الله تعالى قال ليعسى ابن مرزم: إني باعث من بعدك أمة إن أصابهم ما يحبون، حميدوا وشكروا، وإن أصابهم ما يكرهون، احتسبوا وصبروا، ولا جلم ولا علم، قال: يا رب، كيف هذا ولا جلم ولا علم؟ قال: أعطيتهم من جلبي وعلمي» [ضعيف: أحمد: ٢٧٥٤٥].

(اختيار البلد الحرام وبيان خصائصه)

ومن هذا اختياره سبحانه وتعالى من الأماكن والبلاد خيرها وأشرفها، وهي البلد الحرام، فإنه سبحانه وتعالى اختاره لنبيه ﷺ، وجعله مناسك لعباده، وأوجب عليهم الإتيان إليه من القرب والبعد من كل فج عميق، فلا يدخلونه إلا متواضعين متخشعين متذللين، كاشفي رؤوسهم، متجردين عن

لباس أهل الدنيا، وجعله حرماً آمناً، لا يسفك فيه دم، ولا تعضد به شجرة، ولا ينفّر له صيد، ولا يختلى خلاه^(١)، ولا تلتقط لقطته للتملك بل للتعريف ليس إلا، وجعل قصده مكفراً لما سلف من الذنوب، ماحياً للأوزار، حاطلاً للخطايا، كما في «الصحيحين» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أتى هذا البيت، فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه» [البخاري: ١٥٢١، ومسلم: ٣٢٩١]، ولم يرض لقاصده من الثواب دون الجنة، ففي «السنن» من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تأبّعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس للحجة المبرورة ثواب دون الجنة» [حسن: أحمد: ٣٦٦٩، والترمذي: ٨١٠]. وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» [البخاري: ١٧٧٣، ومسلم: ٣٢٨٩]، فلو لم يكن البلد الأمين خير بلاد، وأحبها إليه، ومختاره من البلاد، لما جعل عرصاتهما مناسك لعباده، فَرَضَ عليهم قصدها، وجعل ذلك من أكّد فروض الإسلام، وأقسم به في كتابه العزيز في موضعين منه، فقال تعالى: ﴿وَمَعَاذَ اللَّهِ الْآيَاتِ﴾ [التين: ٣]، وقال تعالى: ﴿لَا أَقِيمُ هَذَا الْبَلَدَ﴾ [البلد: ١]، وليس على وجه الأرض بقعة يجب على كل قادر السعي إليها والطواف بالبيت الذي فيها غيرها، وليس على وجه الأرض موضوع يُشرع تقبيله واستلامه، وتُحطّ الخطايا والأوزار فيه غير الحجر الأسود، والركن اليماني. وثبت عن النبي ﷺ أن الصلاة في المسجد الحرام بمئة ألف صلاة، ففي «سنن النسائي» و«المسند» بإسناد صحيح عن عبد الله بن الزبير، عن النبي ﷺ أنه قال: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من صلاة في مسجدي هذا بمئة صلاة» [صحيح: أحمد: ١٦١١٧] ورواه ابن حبان في

(١) لا يعضد شجره: لا يقطع، والخلا: النبات الرطب، واختلاؤه: قطعه.

«صحيحه» [صحيح: ابن حبان: ١٦٢] وهذا صريح في أن المسجد الحرام أفضل بقاع الأرض على الإطلاق، ولذلك كان شد الرحال إليه فرضاً، ولغيره مما يُستحب ولا يجب، وفي «المسند» والترمذي والنسائي، عن عبد الله بن عدي بن الحمراء أنه سمع رسول الله ﷺ وهو واقف على راحلته بالحزورة^(١) من مكة يقول: «وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أَخْرَجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح [صحيح: أحمد: ١٨٧١٥، والترمذي: ٣٩٢١، والنسائي في الكبرى: ٤٢٥٢].

بل ومن خصائصها كونها قبلة لأهل الأرض كلهم، فليس على وجه الأرض قبلة غيرها.

(ترجيح المصنف تحريم استقبال

البلد الحرام واستدباره عند قضاء الحاجة حتى في البنيان) ومن خواصها أيضاً أنه يحرم استقبالها واستدبارها عند قضاء الحاجة دون سائر بقاع الأرض.

وأصح المذاهب في هذه المسألة: أنه لا فرق في ذلك بين الفضاء والبنيان، لبضعة عشر دليلاً قد ذكرت في غير هذا الموضع، وليس مع المفرق ما يقاومها البتة، مع تناقضهم في مقدار الفضاء والبنيان، وليس هذا موضع استيفاء الحجاج من الطرفين.

(المسجد الحرام أول مسجد وضع في الأرض)

ومن خواصها أيضاً أن المسجد الحرام أول مسجد وضع في الأرض، كما في «الصحيحين» عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ عَنْ أَوَّلِ مَسْجِدٍ وَضِعَ فِي الْأَرْضِ؟ فَقَالَ: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى». قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ عَامًا» [البخاري: ٣٣٦٦، ومسلم: ١١٦١]

وقد أشكل هذا الحديث على من لم يعرف المراد به، فقال: معلوم أن سليمان بن داود هو الذي بنى المسجد الأقصى، وبينه وبين إبراهيم أكثر من ألف عام، وهذا من جهل هذا القائل، فإن سليمان إنما كان له من المسجد الأقصى تحديده، لا تأسيسه،

والذي أسسه هو يعقوب بن إسحاق صلى الله عليه وسلم بعد بناء إبراهيم الكعبة بهذا المقدار. ومما يدل على تفضيلها أن الله تعالى أخبر أنها أم القرى، فالقرى كلها تبع لها، وفرغ عليها، وهي أصل القرى، فيجب ألا يكون لها في القرى عديل، فهي كما أخبر النبي ﷺ عن (الفاتحة) أنها أم القرآن [مسلم: ٨٧٨] ولهذا لم يكن لها في الكتب الإلهية عديل.

(اختلاف العلماء في جواز

دخولها لغير أصحاب الحوائج المتكررة بغير إحرام)

ومن خصائصها أنها لا يجوز دخولها لغير أصحاب الحوائج المتكررة إلا بإحرام، وهذه خاصية لا يشاركها فيها شيء من البلاد، وهذه المسألة تلقاها الناس عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقد روي عن ابن عباس بإسناد لا يحتج به مرفوعاً: «لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ مَكَّةَ إِلَّا بِأَحْرَامٍ، مِنْ أَهْلِهَا وَمِنْ غَيْرِ أَهْلِهَا». ذكره أبو أحمد بن عدي، ولكن الحجاج بن أرطاة في الطريق، وآخر قبله من الضعفاء.

وللفقهاء في المسألة ثلاثة أقوال: الثقي، والإثبات، والفرق بين من هو داخل المواقيت ومن هو قبلها، فمن قبلها لا يجاوزها إلا بإحرام، ومن هو داخلها، فحكمه حكم أهل مكة، وهو قول أبي حنيفة، والقولان الأولان للشافعي وأحمد.

(المعاقبة فيه على الهم بالسيئات)

ومن خواصه أنه يعاقب فيه على الهم بالسيئات وإن لم يفعلها، قال تعالى: «وَمَنْ يَذَّكَّرْ فِيهِ بِالْحَكَمِ يَظْلِمِ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ آلِهَةٍ» [النجم: ٢٥] فتأمل كيف عذبي فعل الإرادة هاهنا بالباء، ولا يقال: أردت بكذا إلا لما ضَمَّنَ معنى فعل «هَمَّ»، فإنه يقال: هممت بكذا، فتوعد من هم بأن يظلم فيه بأن يذيقه العذاب الأليم.

(مضاعفة مقادير السيئات فيه)

ومن هذا تضاعف مقادير السيئات فيه، لا كمياتها، فإن السينة جزاؤها سينة، لكن سينة كبيرة، وجزاؤها مثلها، وصغيرة جزاؤها مثلها، فالسينة في حرم الله وبلده وعلى بساطه أكد وأعظم منها في طرف من أطراف الأرض، ولهذا ليس من عصي

(١) الحزورة، قفسورة: موضع بمكة، والحزورة في الأصل: الراية الصغيرة، سميت بذلك لأنه كان هناك راية صغيرة.

الملك على بساط ملكه كمن عصاه في الموضع البعيد من داره وبساطه، فهذا فصلُ النزاع في تضعيف السيئات، والله أعلم.

(انجذاب الأفتدة إلى البلد الحرام)

وقد ظهر سرُّ هذا التفضيل والاختصاص في انجذاب الأفتدة، وهوى القلوب وانعطافها ومحبتها لهذا البلد الأمين، فجذبهُ للقلوب أعظمُ من جذب المغناطيس للحديد، فهو الأولى بقول القائل:

مَحَابِيَةُ هَيُولَى كُلِّ حُسْنٍ

وَمَغْنَطِيسُ أَفْتَدَةِ الرَّجَالِ

ولهذا أخبر سبحانه أنه مثابة للناس، أي: يثوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار، ولا يقضون منه وطراً، بل كلما ازدادوا له زيارة، ازدادوا له اشتياقاً.

لَا يَرْجِعُ الظَّرْفُ عَنْهَا حِينَ يَنْظُرُهَا

حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهَا الظَّرْفُ مُشْتَقاً
فله كم لها من قتل وسلب وجريح، وكم أنفق في حياها من الأموال والأرواح، وَرَضِيَ المحب بمفارقةٍ وَلَذَّ الأكبَاد والأهل، والأحباب والأوطان، مقدماً بين يديه أنواع المخاوف والمتالف، والمعاطف والمشاق، وهو يستلذ ذلك كله ويستطيبه، ويراه - لو ظهر سلطانُ المحبة في قلبه - أطيب من نعيم المتحلية وترفعهم ولذاتهم.

وَلَيْسَ مُجِبّاً مَنْ يَعُدُّ شَقَاءَهُ

عَذَاباً إِذَا مَا كَانَ يَرْضَى حَبِيْبُهُ
وهذا كله سرُّ إضافته إليه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَهَّزَّ بَيْنِي﴾ [الحج: ٢٦] فاقتضت هذه الإضافة الخاصة من هذا الإجلال والتعظيم والمحبة ما اقتضته، كما اقتضت إضافته لعبده ورسوله إلى نفسه ما اقتضته من ذلك، وكذلك إضافته عباده المؤمنين إليه كستهم من الجلال والمحبة والوقار ما كستهم، فكلُّ ما أضافه الرَّبُّ تعالى إلى نفسه، فله من المزية والاختصاص على غيره ما أوجب له الاصطفاء والاجتباء، ثم يكسوه بهذه الإضافة تفضيلاً آخر، وتخصيصاً وجلالة زائداً على ما كان له قبل الإضافة، ولم يُوفق لفهم هذا المعنى من سوى بين الأعيان والأفعال، والأزمان والأماكن، وزعم أنه لا مزية

لشيء منها على شيء، وإنما هو مجرد الترجيح بلا مرجح، وهذا القول باطل بأكثر من أربعين وجهاً قد ذكرت في غير هذا الموضع، ويكفي تصوُّر هذا المذهب الباطل في فساد، فإن مذهباً يقتضي أن تكون ذواتُ الرسل كذوات أعدائهم في الحقيقة، وإنما التفضيل بأمر لا يرجع إلى اختصاص الذوات بصفات ومزايا لا تكون لغيرها، وكذلك نفسُ البقاع واحدة بالذات ليس لبقعة على بقعة مزية البتة، وإنما هو لما يقع فيها من الأعمال الصالحة، فلا مزية لبقعة البيت، والمسجد الحرام، ومنى وعرفة والمشاعر على أي بقعة سميتها من الأرض، وإنما التفضيل باعتبار أمر خارج عن البقعة لا يعود إليها، ولا إلى وصف قائم بها، والله سبحانه وتعالى قد رد هذا القول الباطل بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مَآ أُوْتِيَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَخْتَلِ رِسَالَتُهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] أي: ليس كلُّ أحد أهلاً ولا صالحاً لتحمل رسالته، بل لها محالٌ مخصوصة لا تليق إلا بها، ولا تصلح إلا لها، والله أعلم بهذه المحال منكم. ولو كانت الذوات متساوية كما قال هؤلاء، لم يكن في ذلك ردُّ عليهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيُتْلَوْا أَهْلُؤَلَاءَ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] أي: هو سبحانه أعلم بمن يشكره على نعمته، فيختصه بفضله، ويؤمن عليه ممن لا يشكره، فليس كلُّ محل يصلح لشكره، واحتمال منته، والتخصيص بكرامته.

فذوات ما اختاره واصطفاه من الأعيان والأماكن والأشخاص وغيرها مشتملة على صفات وأمر قائمة بها ليست لغيرها، ولأجلها اصطفاه الله، وهو سبحانه الذي فضّلها بتلك الصفات، وخصها بالاختيار، فهذا خلقه، وهذا اختياره ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، وما أبين بطلان رأيي يقضي بأن مكان البيت الحرام مساوٍ لسائر الأماكن، وذات الحجر الأسود مساوية لسائر حجارة الأرض، وذات رسول الله ﷺ مساوية لذات غيره، وإنما التفضيل في ذلك بأمور خارجة عن الذات والصفات القائمة بها، وهذه الأقاويل وأمثالها من الجنائيات

التي جناها المتكلمون على الشريعة، ونسبوا إليها وهي بريئة منها، وليس معهم أكثر من اشتراك الذوات في أمر عام، وذلك لا يوجب تساويها في الحقيقة، لأن المختلفات قد تشترك في أمر عام مع اختلافها في صفاتها النفسية، وما سوى الله تعالى بين ذات المسك وذات البول أبداً، ولا بين ذات الماء وذات النار أبداً، والتفاوت البين بين الأمكنة الشريفة وأضدادها، والذوات الفاضلة وأضدادها أعظم من هذا التفاوت بكثير، فبين ذات موسى عليه السلام وذات فرعون من التفاوت أعظم مما بين المسك والرجيع، وكذلك التفاوت بين نفس الكعبة وبين بيت السلطان أعظم من هذا التفاوت أيضاً بكثير، فكيف تجعل البقعتان سواء في الحقيقة والتفضيل باعتبار ما يقع هناك من العبادات والأذكار والدعوات؟!

ولم نقصد استيفاء الرد على هذا المذهب المردود المرذول، وإنما قصدنا تصويره، وإلى الليب العادل العاقل التحاكم، ولا يعاب الله وعباده بغيره شيئاً، والله سبحانه لا يخصص شيئاً، ولا يفضل ولا يرجحه إلا ل معنى يقتضي تخصيصه وتفضيله، نعم هو معطي ذلك المرجح وواهبه، فهو الذي خلقه، ثم اختاره بعد خلقه، وربك يخلق ما يشاء ويختار.

(التفضيل بين الأزمنة)

ومن هذا تفضيله بعض الأيام والشهور على بعض، فخير الأيام عند الله يوم النحر، وهو يوم الحج الأكبر^(١) كما في «السنن» عنه ﷺ أنه قال: «أفضل الأيام عند الله يوم النحر، ثم يوم القر» [صحيح: أحمد: ١٩٠٧٥، وأبو داود: ٤١٦٥]. وقيل: يوم عرفة أفضل منه، وهذا هو المعروف عند أصحاب الشافعي، قالوا: لأنه يوم الحج الأكبر، وصيامه يكفر سنتين. [مسلم: ٢٧٤٦]، وما من يوم يغتفر الله فيه الرقاب أكثر منه في يوم عرفة. [مسلم: ٣٢٨٨]، ولأنه سبحانه وتعالى يذنب فيه من عباده، ثم يباهي ملائكته بأهل الموقف. والصواب القول الأول، لأن الحديث الدال على ذلك لا يعارضه شيء يقاومه، والصواب أن يوم الحج الأكبر هو يوم النحر، لقوله

تعالى: ﴿وَأَذِّنْ لِلْعَذَابِ﴾ [التوبة: ٣]، وثبت في «الصحيحين» أن أبا بكر وعلياً رضي الله عنهما أذنا بذلك يوم النحر، لا يوم عرفة. [البخاري: ٤٦٥٥، ومسلم: ٣٢٨٧]. وفي «سنن أبي داود» بأصح إسناد أن رسول الله ﷺ قال: «يوم الحج الأكبر يوم النحر» [صحيح: أبو داود: ١٩٤٥، وابن ماجه: ٣٠٥٨]، وكذلك قال أبو هريرة، وجماعة من الصحابة، ويوم عرفة مقدمة ليوم النحر بين يديه، فإن فيه يكون الوقوف، والتضرع، والتوبة، والابتهاال، والاستقالة، ثم يوم النحر تكون الوفادة والزيارة، ولهذا سمي طوافه طواف الزيارة، لأنهم قد طهروا من ذنوبهم يوم عرفة، ثم أذن لهم ربهم يوم النحر في زيارته، والدخول عليه إلى بيته، ولهذا كان فيه ذبح القرابين، وحلق الرؤوس، ورمي الجمار، ومعظم أفعال الحج، وعمل يوم عرفة كالطهور والاعتسال بين يدي هذا اليوم. وكذلك تفضيل عشر ذي الحجة على غيره من الأيام، فإن أيامه أفضل الأيام عند الله، وقد ثبت في «صحيح البخاري» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام العشر» قالوا: «ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء» [البخاري: ٩٦٩]. وهي الأيام العشر التي أقسم الله بها في كتابه بقوله: ﴿وَالنَّحْرُ وَكَانَ غَنِيًّا﴾ [الفجر: ٢، ١]. ولهذا يستحب فيها الإكثار من التكبير والتهليل والتحميد، كما قال النبي ﷺ: «فَأَكْثَرُوا فِيهِ مِنَ التَّكْبِيرِ وَالتَّهْلِيلِ وَالتَّحْمِيدِ» [حسن: الطبراني في «الكبير»: ١/١١٠/٣]، ونسبها إلى الأيام كنسبة مواضع المناسك في سائر البقاع.

ومن ذلك تفضيل شهر رمضان على سائر الشهور، وتفضيل عشره الأخير على سائر الليالي، وتفضيل ليلة القدر على ألف شهر.

فإن قلت: أي العشرين أفضل؟ عشر ذي الحجة، أو العشر الأخير من رمضان؟ وأي الليلتين أفضل؟ ليلة القدر، أو ليلة الإسراء؟

(١) سمي يوم الحج الأكبر، لأن معظم أعمال الحج ومناسكه تكون فيه.

(المفاضلة بين عشر ليلة القدر وعشر ذي الحجة)

قلت: أمّا السؤال الأول، فالصواب فيه أن يقال: ليالي العشر الأخير من رمضان، أفضل من ليالي عشر ذي الحجة، وأيام عشر ذي الحجة أفضل من أيام عشر رمضان، وبهذا التفضيل يزول الاشتباه، ويدل عليه أن ليالي العشر من رمضان إنما فُضِّلَتْ باعتبار ليلة القدر، وهي من الليالي، وعشر ذي الحجة إنما فُضِّلَ باعتبار أيامه، إذ فيه يوم النحر، ويوم عرفة، ويوم التروية.

(جواب ابن تيمية عن التفضيل بين ليلتي القدر والإسراء)

وأما السؤال الثاني، فقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن رجل قال: ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر، وقال آخر: بل ليلة القدر أفضل، فأيهما المصيب؟

فأجاب: الحمد لله، أما القائل بأن ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر، فإن أراد به أن تكون الليلة التي أسري فيها بالنبي ﷺ ونظائرها من كل عام أفضل لأمة محمد ﷺ من ليلة القدر بحيث يكون قيامها والدعاء فيها أفضل منه في ليلة القدر، فهذا باطل، لم يقله أحد من المسلمين، وهو معلوم الفساد بالاطِّراد من دين الإسلام. هذا إذا كانت ليلة الإسراء تُعرف عيُنُها، فكيف ولم يَقم دليلٌ معلوم لا على شهرها، ولا على عشرها، ولا على عيُنِها، بل النقول في ذلك متقطعةٌ مختلفة، ليس فيها ما يُقطع به، ولا شُرِعَ للمسلمين تخصيص الليلة التي يُظن أنها ليلة الإسراء بقيام ولا غيره، بخلاف ليلة القدر، فإنه قد ثبت في «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَّخِرِ مِنْ رَمَضَانَ» [البخاري: ٢٠٢٠]. وفي «الصحيحين» عنه ﷺ أنه قال: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» [البخاري: ١٩٠١]، وقد أخبر سبحانه أنها خير من ألف شهر، وأنه أنزل فيها القرآن.

وإن أراد أن الليلة المعينة التي أسري فيها بالنبي ﷺ، وحصل له فيها ما لم يحصل له في غيرها من غير أن يُشرع تخصيصها بقيام ولا عبادة، فهذا صحيح، وليس إذا أعطى الله نبيه ﷺ فضيلة في مكان أو زمان، يجب أن يكون ذلك الزمان والمكان أفضل

من جميع الأمكنة والأزمنة. هذا إذا قدر أنه قام دليل على أن إنعام الله تعالى على نبيه ليلة الإسراء كان أعظم من إنعامه عليه بإنزال القرآن ليلة القدر، وغير ذلك من النعم التي أنعم عليه بها.

والكلام في مثل هذا يحتاج إلى علم بحقائق الأمور، ومقادير النعم التي لا تُعرف إلا بوحى، ولا يجوز لأحد أن يتكلم فيها بلا علم، ولا يُعرف عن أحد من المسلمين أنه جعل لليلة الإسراء فضيلة على غيرها، لا سيما على ليلة القدر، ولا كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان يقصدون تخصيص ليلة الإسراء بأمر من الأمور، ولا يذكرونها، ولهذا لا يُعرف أي ليلة كانت، وإن كان الإسراء من أعظم فضائله ﷺ، ومع هذا فلم يُشرع تخصيص ذلك الزمان، ولا ذلك المكان بعبادة شرعية، بل غار حراء الذي ابتدئ فيه بنزول الوحي، وكان يتحرره قبل النبوة، لم يقصده هو ولا أحد من أصحابه بعد النبوة مدة مقامه بمكة، ولا خصَّ اليوم الذي أنزل فيه الوحي بعبادة ولا غيرها، ولا خصَّ المكان الذي ابتدئ فيه بالوحي ولا الزمان بشيء، ومن خص الأمكنة والأزمنة من عنده بعبادات لأجل هذا وأمثاله، كان من جنس أهل الكتاب الذين جعلوا زمانَ أحوال المسيح مواسمَ وعبادات، كيوم الميلاد، ويوم التعميد، وغير ذلك من أحواله. وقد رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه جماعة يتبادرون مكاناً يُصلون فيه، فقال: ما هذا؟ قالوا: مكانٌ صلى فيه رسول الله ﷺ، فقال: أنريدون أن تتخذوا آثار أنبيائكم مساجد؟! إنما هلك من كان قبلكم بهذا، فمن أدركته فيه الصلاة فليصل، وإلا فليمضِ [صحيح: ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢/ ١٨٤)].

وقد قال بعض الناس: إن ليلة الإسراء في حق النبي ﷺ أفضل من ليلة القدر، وليلة القدر بالنسبة إلى الأمة أفضل من ليلة الإسراء، فهذه الليلة في حق الأمة أفضل لهم، وليلة الإسراء في حق رسول الله ﷺ أفضل له.

(المفاضلة بين يومي الجمعة وعرفة)

فإن قيل: فأيهما أفضل: يوم الجمعة، أو يوم عرفة؟ فقد روى ابن حبان في «صحيحه» من حديث

أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ وَلَا تَغْرُبُ عَلَى يَوْمٍ أَفْضَلَ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ» [حسن: ابن حبان: ٥٥١]. وفيه أيضاً حديث أوس بن أوس: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ» [مسلم: ١٩٧٦].

(مزية وقفة الجمعة يوم عرفة)

قيل: قد ذهب بعض العلماء إلى تفضيل يوم الجمعة على يوم عرفة، محتجاً بهذا الحديث، وحكى القاضي أبو يعلى رواية عن أحمد: أن ليلة الجمعة أفضل من ليلة القدر، والصواب أن يوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع، ويوم عرفة ويوم النحر أفضل أيام العام، وكذلك ليلة القدر، وليلة الجمعة، ولهذا كان لوقفة الجمعة يوم عرفة مزية على سائر الأيام من وجوه متعددة.

أحدها: اجتماع اليومين اللذين هما أفضل الأيام. الثاني: أنه اليوم الذي فيه ساعة محققة الإجابة، وأكثر الأقوال أنها آخر ساعة بعد العصر [صحیح: أبو داود: ١٠٤٨، والنسائي (٩٩/٣-١٠٠)] وأهل الموقف كلهم إذ ذاك واقفون للدعاء والتضرع.

الثالث: موافقته ليوم وقفة رسول الله ﷺ.

الرابع: أن فيه اجتماع الخلائق من أقطار الأرض للخطبة وصلاة الجمعة، ويوافق ذلك اجتماع أهل عرفة يوم عرفة بعرفة، فيحصل من اجتماع المسلمين في مساجدهم وموقفهم من الدعاء والتضرع ما لا يحصل في يوم سواه.

الخامس: أن يوم الجمعة يوم عيد، ويوم عرفة يوم عيد لأهل عرفة، ولذلك كره لمن بعرفة صومه، وفي النسائي عن أبي هريرة قال: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ عَرَفَةَ بِعَرَفَةَ [ضعيف: أحمد: ٨٠٣١، وأبو داود: ٢٤٤٠، والنسائي في الكبرى: ٢٨٣١]. وفي إسناده نظر، فإن مهدي بن حرب العبدى ليس بمعروف، ومداره عليه، ولكن ثبت في الصحيح من حديث أم الفضل: أن ناساً تماروا عندها يوم عرفة في صيام رسول الله ﷺ، فقال بعضهم: هُوَ صَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَيْسَ بِصَائِمٍ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ بِقَدَحِ لَبَنٍ، وَهُوَ وَاقِفٌ عَلَى بَيْعِرِهِ بِعَرَفَةَ، فَشَرَبَهُ [البخاري: ١٩٨٨، ومسلم: ٢٦٣٢].

(الحكمة في استحباب فطر يوم عرفة بعرفة)

وقد اختلف في حكمة استحباب فطر يوم عرفة بعرفة، فقالت طائفة: ليتقوى على الدعاء، وهذا هو قول الخرقى وغيره، وقال غيرهم - منهم شيخ الإسلام ابن تيمية -: الحكمة فيه أنه عيد لأهل عرفة، فلا يستحب صومه لهم، قال: والدليل عليه الحديث الذي في «السنن» عنه ﷺ أنه قال: «يَوْمُ عَرَفَةَ، وَيَوْمُ النَّحْرِ، وَيَوْمُ مَنَى عِيدُنَا أَهْلَ الْإِسْلَامِ» [صحیح: أحمد: ١٧٣٧٩، وأبو داود: ٢٤١٩، والترمذي: ٧٧٣].

قال شيخنا: وإنما يكون يوم عرفة عيداً في حق أهل عرفة، لاجتماعهم فيه، بخلاف أهل الأمصار، فإنهم إنما يجتمعون يوم النحر، فكان هو العيد في حقهم، والمقصود أنه إذا اتفق يوم عرفة، ويوم الجمعة، فقد اتفق عيدان معاً.

السادس: أنه موافق ليوم إكمال الله تعالى دينه لعباده المؤمنين، وإتمام نعمته عليهم، كما ثبت في «صحيح البخاري» عن طارق بن شهاب قال: جاء يهودي إلى عمر بن الخطاب فقال: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ آيَةُ تَقَرَّرُونَهَا فِي كِتَابِكُمْ لَوْ عَلَيْنَا مَعَشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ وَنَعْلَمُ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ، لَا تَخْذَنَاهُ عِيداً، قَالَ: أَيُّ آيَةٍ؟ قَالَ: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَبَيَّنْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً» [الثالثة: ٣]. فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: إِنِّي لَأَعْلَمُ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ، وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ، نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ، وَنَحْنُ وَاقِفُونَ مَعَهُ بِعَرَفَةَ [البخاري: ٤٥، ومسلم: ٧٥٢٥].

السابع: أنه موافق ليوم الجمع الأكبر، والموقف الأعظم يوم القيامة، فإن القيامة تقوم يوم الجمعة، كما قال النبي ﷺ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ خَيْراً إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ» [مسلم: ١٩٦٩]. ولهذا شرع الله سبحانه وتعالى لعباده يوماً يجتمعون فيه، فيذكرون المبدأ والمعاد، والجنة والنار، وأدخر الله تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة، إذ فيه كان المبدأ، وفيه المعاد، ولهذا كان النبي ﷺ يقرأ في فجره سورتي (السجدة) و «هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ

[البخاري: ٨٩١، ومسلم: ٢٠٣٤] لاشتغالهما على ما كان وما يكون في هذا اليوم، من خلق آدم، وذكر المبدأ والمعاد، ودخول الجنة والنار، فكان يُذَكَّرُ الأُمَّةَ في هذا اليوم بما كان فيه وما يكون، فهكذا يتذَكَّرُ الإنسانُ بأعظم مواقف الدنيا - وهو يومُ عرفة - الموقفَ الأعظم بين يدي الرب سبحانه في هذا اليوم بعينه، ولا يتنصف حتى يستقرَّ أهلُ الجنة في منازلهم، وأهل النار في منازلهم.

الثامن: أن الطاعة الواقعة من المسلمين يوم الجمعة، وليلة الجمعة، أكثر منها في سائر الأيام، حتى إن أكثر أهل الفجور يحترمون يوم الجمعة وليلته، ويرون أن من تجرأ فيه على معاصي الله عز وجل، عَجَلَ اللهُ عقوبته ولم يُمهله، وهذا أمر قد استقرَّ عندهم وعلموه بالتجارب، وذلك لعظم اليوم وشرفه عند الله، واختيار الله سبحانه له من بين سائر الأيام، ولا ريب أن للوقفة فيه مزية على غيره.

التاسع: أنه موافق ليوم الميزان في الجنة، وهو اليوم الذي يُجمَعُ فيه أهل الجنة في وادٍ أُنْفِخَ، ويُنْصَبُ لهم مَنَابِرُ من لؤلؤ، ومَنَابِرُ من ذهب، ومَنَابِرُ من زَبَرَجَدٍ ويقوت على كُثْبَانِ المسك، فينظرون إلى ربهم تبارك وتعالى، ويتجلى لهم، فيرونه عياناً [ضعيف: الشافعي بنحوه في «الأم» (١/١٨٥)، والطبري في «جامع البيان» (٢٦/١٧٥)] ويكون أسرغهم موافاةً أعجلهم رواحاً إلى المسجد، وأقربهم منه أقربهم من الإمام، فأهل الجنة مشتاقون إلى يوم الميزان فيها لما يتالون فيه من الكرامة، وهو يوم الجمعة، فإذا وافق يوم عرفة، كان له زيادة مزية واختصاص وفضل ليس لغيره.

العاشر: أنه يدنو الربُّ تبارك وتعالى عشية يوم عرفة من أهل الموقف، ثم يُباهي بهم الملائكة فيقول: «مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ، أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ» [مسلم: ٣٢٨٨]. وتحصل مع دنوه منهم تبارك وتعالى ساعة الإجابة التي لا يَرُدُّ فيها سائلاً يسأل خيراً فيقربون منه بدعائه والتضرع إليه في تلك الساعة، ويقرب منهم تعالى نوعين من القرب، أحدهما: قرب الإجابة المحققة في تلك الساعة، والثاني: قرب الخاص من أهل عرفة، ومباهاته بهم ملائكته، فتستشعر قلوب أهل الإيمان هذه الأمور، فتزداد قوة

إلى قوتها، وفرحاً وسروراً وإبتهاجاً ورجاءً لفضل ربها وكرمه، فبهذه الوجوه وغيرها فَضِّلَتْ وَقَمَةُ يَوْمِ الجمعة على غيرها.

وأما ما استفاض على السنة العوام بأنها تعدل ثنتين وسبعين حجة، فباطل لا أصل له عن رسول الله ﷺ، ولا عن أحد من الصحابة والتابعين. والله أعلم.

فصل

والمقصود أن الله سبحانه وتعالى اختار من كل جنس من أجناس المخلوقات أطيبه، واختصه لنفسه وارْتِضَاهُ دون غيره، فإنه تعالى طيب لا يحب إلا الطيب، ولا يقبل من العمل والكلام والصدقة إلا الطيب، فالطيب من كل شيء هو مختاره تعالى.

(خصائص الطيب من عباد الله)

وأما خلقه تعالى، فعام للنوعين، وبهذا يعلم عنوان سعادة العبد وشقاوته، فإن الطيب لا يناسبه إلا الطيب، ولا يرضى إلا به، ولا يسكن إلا إليه، ولا يطمئن قلبه إلا به، فله من الكلام الكَلِمُ الطيب الذي لا يصعد إلى الله تعالى إلا هو، وهو أشدُّ شيء نفرة عن الفحش في المقال، والتفحش في اللسان والبداء، والكذب والغيبة، والنميمة والبُهْت، وقول الزور، وكل كلام خبيث.

وكذلك لا يآلف من الأعمال إلا أطيبها، وهي الأعمال التي اجتمعت على حسنها الفِطْرُ السليمة مع الشرائع النبوية، وزكاتها العقول الصحيحة، فاتفق على حسنها الشرع والعقل والفِطْرَةُ، مثل أن يعبد الله وحده لا يُشْرِكُ به شيئاً، ويؤثّر مرضاته على هواه، ويتحبب إليه جهده وطاقته، ويُحْسِنَ إلى خلقه ما استطاع، فيفعل بهم ما يحب أن يفعلوا به، ويُعَامِلُوهُ بِهِ، وَيَدْعُهُمْ مِمَّا يَحِبُّ أَنْ يَدْعُوهُ مِنْهُ، وَيَنْصَحُهُمْ بِمَا يَنْصَحُ بِهِ نَفْسُهُ، وَيَحْكُمُ لَهُمْ بِمَا يَحِبُّ أَنْ يَحْكُمَ لَهُ بِهِ، وَيَحْمِلُ أَذَاهُمْ وَلَا يَحْمِلُهُمْ أَذَاهُ، وَيَكْتَفِ عَنْ أَعْرَاضِهِمْ وَلَا يُقَابِلُهُمْ بِمَا نَالُوا مِنْ عَرَضِهِ، وَإِذَا رَأَى لَهُمْ حَسَنًا أَذَاعَهُ، وَإِذَا رَأَى لَهُمْ سَيئًا كَتَمَهُ، وَيُقِيمُ أَعْدَارَهُمْ مَا اسْتَطَاعَ فِيمَا لَا يُبْطِلُ شَرِيعَةً، وَلَا يُنَاقِضُ لِلَّهِ أَمْرًا وَلَا نَهْيًا.

وله أيضاً من الأخلاق أطيبها وأزكاها، كالحلم،

والوقار، والسكينة، والرحمة، والصبر، والوفاء، وسهولة الجانب، ولين العريكة، والصدق، وسلامة الصدر من الخُل والغش والحقد والحسد، والتواضع، وخفض الجناح لأهل الإيمان والعزة، والغلظة على أعداء الله، وصيانة الوجه عن بذله وتذله لغير الله، والعِفَّة، والشجاعة، والسخاء، والمُروءة، وكل خلق اتفقت على حسنه الشرائع والفطر والعقول.

وكذلك لا يختار من المطاعم إلا أطيبها، وهو الحلال الهنيء المريء الذي يُغذي البدن والروح أحسن تغذية، مع سلامة العبد من تبعته.

وكذلك لا يختار من المناكح إلا أطيبها وأزكاها، ومن الرائحة إلا أطيبها وأزكاها، ومن الأصحاب والعُشراء إلا الطيبين منهم، فروحه طيب، وبدنه طيب، وخلقه طيب، وعمله طيب، وكلامه طيب، ومطعمه طيب، ومشربه طيب، وملبسه طيب، ومنكبه طيب، ومدخله طيب، ومخرجه طيب، ومُقلبه طيب، ومثواه كله طيب. فهذا ممن قال الله تعالى فيه: ﴿الَّذِينَ تَوْفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَذْخَلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحل: ٣٢]. وَمِنَ الَّذِينَ يَقُولُ لَهُمْ خَزَنَةُ الْجَنَّةِ ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طَبَّيْرًا فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الرؤمر: ٧٣]. وهذه الفاء

تقتضي السببية، أي: بسبب طيبكم ادخلوها. وقال تعالى: ﴿الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [التور: ٢٦]. وقد فُسرت الآية بأن الكلمات الخيئات للخيئين، والكلمات الطيبات للطيبين، وفُسرت بأن النساء الطيبات للرجال الطيبين، والنساء الخيئات للرجال الخيئين، وهي تعم ذلك وغيره، فالكلمات، والأعمال، والنساء الطيبات لمناسبتها من الطيبين، والكلمات، والأعمال، والنساء الخيئة لمناسبتها من الخيئين، فالله سبحانه وتعالى جعل الطَّيِّبَ بحذافيره في الجنة، وجعل الخبيث بحذافيره في النار، فجعل الدُّور ثلاثة: داراً أخلصت للطيبين، وهي حرامٌ على غير الطيبين، وقد جمعت كُلَّ طيب وهي الجنة، وداراً أخلصت للخبيث والخبائث، ولا يدخلها إلا الخبيثون، وهي النَّار، وداراً امتزج فيها الطيب

والخبيث، وخلط بينهما، وهي هذه الدار، ولهذا وقع الابتلاء والمحنة بسبب هذا الامتزاج والاختلاط، وذلك بموجب الحكمة الإلهية، فإذا كان يوم معاد الخليقة، ميز الله الخبيث من الطيب، فجعل الطيب وأهله في دار على حدة لا يُخالطهم غيرهم، وجعل الخبيث وأهله في دار على حدة لا يخالطهم غيرهم، فعاد الأمر إلى دارين فقط: الجنة، وهي دار الطيبين، والنار، وهي دار الخبيثين، وأنشأ الله تعالى من أعمال الفريقين ثوابهم وعقابهم، فجعل طيبات أقوال هؤلاء وأعمالهم وأخلاقهم هي عين نعيمهم ولذاتهم، أنشأ لهم منها أكمل أسباب النعيم والسرور، وجعل خبيثات أقوال الآخرين وأعمالهم وأخلاقهم هي عين عذابهم وآلامهم، فأنشأ لهم منها أعظم أسباب العقاب والآلام، حكمة بالغة، وعزة باهرة قاهرة، لِيُرِيَ عباده كمال ربوبيته، وكمال حكمته وعلمه وعدله ورحمته، وليعلم أعداؤه أنهم كانوا هم المفترين الكذابين، لا رسله البررة الصادقون. قال الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ آمَنِهِمْ لَا يَقَعُ اللهُ بَيْنَ يَدَيْكَ وَغَدَا عَلَيْهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٢٥] لِيُنَبِّهَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَيَعْلَمُ الَّذِي كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [التحل: ٣٩، ٣٨].

والمقصود أن الله - سبحانه وتعالى - جعل للسعادة والشقاوة عنواناً يُعرفان به، فالسعيد الطيب لا يليق به إلا طيب، ولا يأتي إلا طيباً ولا يصدر منه إلا طيب، ولا يُلبس إلا طيباً، والشقي الخبيث لا يليق به إلا الخبيث، ولا يأتي إلا خبيثاً، ولا يصدر منه إلا الخبيث، فالخبيث يتفجر من قلبه الخبث على لسانه وجوارحه، والطَّيِّبُ يتفجر من قلبه الطَّيِّبُ على لسانه وجوارحه. وقد يكون في الشخص مادتان، فأيهما غلب عليه كان من أهلها، فإن أراد الله به خيراً طهره من المادة الخبيثة قبل الموافاة، فثوابه يوم القيامة مطهراً، فلا يحتاج إلى تطهيره بالنار، فيطهره منها بما يوفقه له من التوبة النصوح، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، حتى يلقي الله وما عليه خطيئة، ويُمسك عن الآخر مواد التطهير، فيلقاه يوم القيامة بمادة خبيثة، ومادة طيبة، وحكمته تعالى

تأبى أن يُجاوره أحد في داره بخباته، فيدخله النار طهرة له وتصفية وسبكاً، فإذا خلصت سبيكة إيمانه من الخبث، صلح حينئذ لجواره، ومساكنة الطيبين من عباده. وإقامة هذا النوع من الناس في النار على حسب سرعة زوال تلك الخبائث منهم وبطنتها، فأسرعهم زوالاً وتطهيراً أسرعهم خروجاً، وأبطؤهم أبطؤهم خروجاً، جزاءً وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد.

ولما كان المشرك خبيث العنصر، خبيث الذات، لم تطهر النار خبثه، بل لو خرج منها لعاد خبيثاً كما كان، كالكلب إذا دخل البحر ثم خرج منه، فلذلك حرم الله تعالى على المشرك الجنة.

ولما كان المؤمن الطيب المطيب مبرئاً من الخبائث، كانت النار حراماً عليه، إذ ليس فيه ما يقتضي تطهيره بها، فسبحان من بهرت حكمته العقول والألباب، وشهدت فطر عباده وعقولهم بأنه أحكم الحاكمين، ورب العالمين، لا إله إلا هو.

فصل

(اضطرار العباد إلى معرفة الرسول)

ومن هنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول، وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا، ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا يُنال رضى الله البتة إلا على أيديهم، فالطبيب من الأعمال والأقوال والأخلاق، ليس إلا هديهم وما جاؤوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم تُوزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى

حياتها، فأى ضرورة وحاجة فُرِضَتْ، فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير. وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفة عين، فسد قلبك، وصار كالحوت إذا فارق الماء، ووضع في البقلا، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل، كهذه الحال، بل أعظم، ولكن لا يُحس بهذا إلا قلب حي:

مَا يُخْرِجُ بِمَيِّتٍ يِلَامٌ^(١)

وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ، فيجب على كل من نصح نفسه، وأحب نجاتها وسعادتها، أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه مَا يُخْرِجُ به عن الجاهلين به، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقِل، ومستكثر، ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

فصل

(إشارة المصنف إلى تاليف)

هذا الكتاب في السفر مع تشتت القلب وفقد الكتاب

وهذه كلمات يسيرة لا يستغني عن معرفتها مَنْ له أدنى همة إلى معرفة نبيه ﷺ وسيرته وهديه، اقتضاها الخاطر المكْدُود على عَجْرِهِ وَبُجْرِهِ^(٢) مع البضاعة المزجاة التي لا تفتح لها أبواب السَّدِّ، ولا يتنافس فيها المتنافسون مع تعليقها في حال السفر لا الإقامة، والقلب بكل واحد منه شعبة، والهمة قد تفرقت شَذَر مَذَر^(٣)، والكتاب مفقود، ومَنْ يفتح باب العلم لمذاكرته معدوم غير موجود، فَعُوْدُ العلم النافع الكفيل بالسعادة قد أصبح ذاوياً، وَرَبُّهُ قد أوحش من أهله وعاد منهم خالياً، فلسان العالم قد مُلِيَء بالغلول مضاربةً لغلبة الجاهلين، وعادت موارد شفافته وهي معاطبه لكثرة المنحرفين والمحرّفين، فليس له مُؤَوِّل إلا على الصبر الجميل، وما له ناصر ولا معين إلا الله وحده وهو حسْبنا ونعم الوكيل.

(١) عجز بيت للمنتهي وصدره:

مَنْ يَنْهَى شَهْلَ الْهَوَانِ عَلَيْهِ

وهو في «الديوان» (٢٧٧/٤) من قصيدة يمدح بها أبا الحسين علي بن أحمد المري الخراساني.

(٢) أي: على معايه ومساويه، وأصل العجز: العروق

المتعقدة في الجسد، والبحر: العروق المتعقدة في البطن خاصة.

(٣) يقال: ذهبوا شَذَر مَذَر، بفتح الشين والميم وكسرهما: إذا ذهبوا متفرقين في كل وجه.

فصل

في نسبه ﷺ

فمحال أن يبشرها بأنه يكون لها ولد، ثم يأمر بذبحه، ولا ريب أن يعقوب عليه السلام داخل في البشارة، فتناوُل البشارة لإسحاق ويعقوب في اللفظ واحد، وهذا ظاهر الكلام وسيأفقه.

فإن قيل: لو كان الأمر كما ذكرتموه لكان «يعقوب» مجروراً عطفاً على إسحاق، فكانت القراءة ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِسْحَاقُ يَعْقُوبُ﴾ أي: ويعقوب من وراء إسحاق. قيل: لا يمنع الرفع أن يكون يعقوب مبشراً به، لأن البشارة قولٌ مخصوص، وهي أول خبر سارٌ صادق. وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِسْحَاقُ يَعْقُوبُ﴾ جملة متضمنة لهذه القيود، فتكون بشارة، بل حقيقة البشارة هي الجملة الخبرية. ولما كانت البشارة قولاً، كان موضع هذه الجملة نصباً على الحكاية بالقول، كأن المعنى: وقتلنا لها: من وراء إسحاق يعقوب، والقائل إذا قال: بشرت فلاناً بقُدوم أخيه وتَقَلُّبه في أثره، لم يعقل منه إلا بشارته بالأمرين جميعاً. هذا ممّا لا يستريب ذو فهم فيه البتة، ثم يُضعف الجرّ أمر آخر، وهو ضعف قولك: مرتت بزيد ومِنْ بعده عمرو، ولأن العاطف يقوم مقام حرف الجرّ، فلا يفصل بينه وبين المجرور، كما لا يفصل بين حرف الجار والمجرور. ويدل عليه أيضاً أن الله سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح في سورة (الصافات) قال: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ١٣١ وَتَدَيَّنَتْ أَنْ يُبْرَأَهُ ١٣٢ قَدْ سَدَّقَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ١٣٣ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْبَيْنُ ١٣٤ وَفَدَيْنَهُ بِذَنبِ عَظِيمٍ ١٣٥ وَرَكَّبَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ١٣٦ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ١٣٧ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ١٣٨ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٣ - ١١١]. ثم قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢]. فهذه بشارة من الله تعالى له شكراً على صبره على ما أمر به، وهذا ظاهر جداً في أن المبشّر به غير الأول، بل هو كالتص فيه.

فإن قيل: فالبشارة الثانية وقعت على نبوته، أي: لما صبر الأب على ما أمر به، وأسلم الولد لأمر الله، جازاه الله على ذلك بأن أعطاه النبوة.

قيل: البشارة وقعت على المجموع: على ذاته ووجوده، وأن يكون نبياً، ولهذا نصب «نبياً» على الحال المقدّر، أي: مقدراً نبوته، فلا يمكن إخراج

وهو خير أهل الأرض نسباً على الإطلاق، فلنسبه من الشرف أعلى ذروة، وأعداؤه كانوا يشهدون له بذلك، ولهذا شهد له به عدوه إذ ذاك أبو سفيان بين يدي ملك الروم [البخاري: ٤٥٥٣]، فأشرف القوم قومه، وأشرف القبائل قبيله، وأشرف الأنفاذ فخذه.

فهو محمّد بن عبد الله، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصي، بن كلاب، بن مرة، بن كعب، بن لؤي، بن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النضر، بن كنانة، بن خزيمة، بن مذكرة، بن إلياس، بن مضر، بن يزار، بن معد، بن عدنان.

إلى هنا معلوم الصحة، متفق عليه بين النسابين، ولا خلاف فيه البتة، وما فوق «عدنان» مختلف فيه. ولا خلاف بينهم أن «عدنان» من ولد إسماعيل عليه السلام، وإسماعيل: هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

(بطلان القول بأن الذبيح هو إسحاق)

وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدّس الله روحه يقول: هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم، فإن فيه: إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره، وفي لفظ: وحيد، ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده، والذي غرّ أصحاب هذا القول أن في التوراة التي بأيديهم: اذبح ابنك إسحاق، قال: وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم، لأنها تناقض قوله: اذبح بكرك وحيدك، ولكن اليهود حسدت بني إسماعيل على هذا الشرف، وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم، ويحتازوه لأنفسهم دون العرب، ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله. وكيف يسوغ أن يُقال: إن الذبيح إسحاق، والله تعالى قد بشر أم إسحاق به وبابنه يعقوب، فقال تعالى عن الملائكة: إنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أَزْمَلْنَا لَكَ قُوَّةً لَوْ لَمْ ٧٠ وَأَمَّا أَنتُ فَطَيِّبَةٌ فَصَبِّحْ فَوَجَدَهَا يُاسِقًا وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِسْحَاقُ يَعْقُوبُ﴾ [مُود: ٧٠، ٧١].

فُتِّخَ الأمر، وفُذِيَ الذبيح، وَصَدَّقَ الخليلُ الرؤيا، وحصل مراد الرب.

ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار إنما حصل عند أول مولود، ولم يكن ليحصل في المولود الآخر دون الأول، بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلّة ما يقتضي الأمر بذبحه، وهذا في غاية الظهور.

وأيضاً فإن سارة امرأة الخليل عليه السلام غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة، فإنها كانت جارية، فلما ولدت إسماعيل وأحبّه أبوه، اشتدت غيرة سارة، فأمر الله سبحانه أن يُبعد عنها هاجر وابنها، ويسكنها في أرض مكة لتبرد عن سارة حرارة الغيرة، وهذا من رحمته تعالى ورأفته، فكيف يأمره سبحانه بعد هذا أن يذبح ابنها، ويدع ابن الجارية بحاله، هذا مع رحمة الله لها وإبعاد الضرر عنها وجبره لها، فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية، بل حكمته البالغة اقتضت أن يأمر بذبح ولد السريّة، فحينئذ يرق قلب السيدة عليها وعلى ولدها، وتبدل قسوة الغيرة رحمة، ويظهر لها بركة هذه الجارية وولدها، وأن الله لا يضيع بيتاً هذه وابنها منهم، وليرى عباده جبره بعد الكسر، ولطفه بعد الشدة، وأن عاقبة صبر هاجر وابنها على البعد والوحدة والغربة والتسليم إلى ذبح الولد آلت إلى ما آلت إليه، من جعل آثارهما ومواطىء أقدامهما مناسك لعباده المؤمنين، ومتعبدات لهم إلى يوم القيامة، وهذه سنته تعالى فيمن يريد رفعه من خلقه أن يمنّ عليه بعد استضعافه وذله وانكساره. قال تعالى: ﴿وَرُيِدَ أَنْ تَتَمَنَّيَ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَيَعْمَلَهُمْ آيَةً وَيَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصاص: ٥]. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

(مولده عليه السلام)

ولنرجع إلى المقصود من سيرته عليه السلام وهديه وأخلاقه لا خلاف أنه ولد عليه السلام بجوف مكة، وأن مولده كان عام الفيل، وكان أمر الفيل تقدمة قدمها الله لنبئه وبيته، وإلا فأصحاب الفيل كانوا نصارى أهل كتاب، وكان دينهم خيراً من دين أهل مكة إذ ذاك، لأنهم كانوا عبّاد أوثان، فنصرهم الله على أهل الكتاب نصراً لا صنع للبشر فيه، إرهاباً وتقدمة للنبئ عليه السلام الذي خرج من مكة، وتعظيماً للبيت الحرام.

البشارة أن تقع على الأصل، ثم تخص بالحال التابعة الجارية مجرى الفضلة، هذا مُحال من الكلام، بل إذا وقعت البشارة على نبوته، فوقوعها على وجوده أولى وأحرى.

وأيضاً فلا ريب أن الذبيح كان بمكة، ولذلك جعلت القرابين يوم النحر بها، كما جعل السعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار تذكيراً لشأن إسماعيل وأمه، وإقامة لذكر الله، ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة دون إسحاق وأمه، ولهذا اتصل مكان الذبيح وزمانه بالبيت الحرام الذي اشترك في بنائه إبراهيم وإسماعيل، وكان النحر بمكة من تمام حج البيت الذي كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل زماناً ومكاناً، ولو كان الذبيح بالشام كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقى عنهم، لكانت القرابين والنحر بالشام، لا بمكة.

وأيضاً فإن الله سبحانه سمى الذبيح حليماً، لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه. ولما ذكر إسحاق سمّاه عليماً، فقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ صَيْفِ بْنِ كَثُومٍ﴾ [الذاريات: ٢٤، ٢٥]. إلى أن قال: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ عَليمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]. وهذا إسحاق بلا ريب، لأنه من امرأته، وهي الميصرية به، وأمّا إسماعيل، فمن السريّة. وأيضاً فإنهما بُشرا به على الكبير واليأس من الولد، وهذا بخلاف إسماعيل، فإنه ولد قبل ذلك.

وأيضاً فإن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن بكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده، وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد، ووجه له، تعلقت شعبة من قلبه بمحبته، والله تعالى قد اتخذ خليلاً، والخلّة منصّب يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة، وأن لا يُشارك بينه وبين غيره فيها، فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد، جاءت غيرة الخلّة تنتزعها من قلب الخليل، فأمره بذبح المحبوب، فلما أقدم على ذبحه، وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد، خلصت الخلّة حينئذ من شوائب المشاركة، فلم يبق في الذبيح مصلحة، إذ كانت المصلحة إنما هي في العزم وتوطين النفس عليه، فقد حصل المقصود،

(وفاة أبيه)

واختلف في وفاة أبيه عبد الله، هل توفي ورسول الله ﷺ حَمْلٌ، أو توفي بعد ولادته؟ على قولين: أصحابهما: أنه توفي ورسول الله ﷺ حمل.

والثاني: أنه توفي بعد ولادته بسبعة أشهر. ولا خلاف أن أمه ماتت بين مكة والمدينة بالأبواء^(١) منصرفها من المدينة من زيارة أخواله، ولم يستكمل إذ ذاك سبع سنين.

وَكَفَّلَهُ جَدُّهُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ، وَتُوفِيَ وَلِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَحْوَ ثَمَانِ سِنِينَ، وَقِيلَ: سِتْ، وَقِيلَ: عَشْرٌ، ثُمَّ كَفَّلَهُ عُمُّهُ أَبُو طَالِبٍ، وَاسْتَمَرَّتْ كَفَالَتُهُ لَهُ، فَلَمَّا بَلَغَ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، خَرَجَ بِهِ عُمُّهُ إِلَى الشَّامِ، وَقِيلَ: كَانَتْ سِنُهُ تِسْعَ سِنِينَ، وَفِي هَذِهِ الْخُرُوجَةِ رَأَى بِجِيرَى الرَّاهِبِ، وَأَمَرَ عُمُّهُ أَلَّا يَتَقَدَّمَ بِهِ إِلَى الشَّامِ خَوْفًا عَلَيْهِ مِنَ الْيَهُودِ، فَبِعَثَهُ عُمُّهُ مَعَ بَعْضِ غُلَمَائِهِ إِلَى مَكَّةَ، وَوَقَعَ فِي كِتَابِ التِّرْمِذِيِّ [صحيح: الترمذي: ٣١٢٤] وَغَيْرِهِ أَنَّهُ بَعَثَ مَعَهُ بِلَالًا، وَهُوَ مِنَ الْغُلَطِّ الْوَاضِحِ، فَإِنْ بِلَالًا إِذْ ذَاكَ لَعَلَّهُ لَمْ يَكُنْ مُوجُودًا، وَإِنْ كَانَ، فَلَمْ يَكُنْ مَعَ عُمِّهِ، وَلَا مَعَ أَبِي بَكْرٍ. وَذَكَرَ الْبَزَارِيُّ فِي «مُسْنَدِهِ» هَذَا الْحَدِيثَ، وَلَمْ يَقُلْ: وَأَرْسَلَ مَعَهُ عَمَّهُ بِلَالًا، وَلَكِنْ قَالَ: رَجُلًا.

فَلَمَّا بَلَغَ خَمْسًا وَعَشْرِينَ سَنَةً، خَرَجَ إِلَى الشَّامِ فِي تِجَارَةٍ، فَوَصَلَ إِلَى «بَصْرَى»^(٢) ثُمَّ رَجَعَ، فَتَزَوَّجَ عَقِبَ رَجُوعِهِ خَدِيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ. وَقِيلَ: تَزَوَّجَهَا وَلَهُ ثَلَاثُونَ سَنَةً. وَقِيلَ: إِحْدَى وَعَشْرُونَ، وَسَنَهَا أَرْبَعُونَ، وَهِيَ أَوَّلُ امْرَأَةٍ تَزَوَّجَهَا، وَأَوَّلُ امْرَأَةٍ مَاتَتْ مِنْ نِسَائِهِ، وَلَمْ يَنْكِحْ عَلَيْهَا غَيْرَهَا، وَأَمْرُهُ جَبْرِيلُ أَنْ يَقْرَأَ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا. [البخاري: ٣٨٢٠].

ثُمَّ حَبَّبَ اللَّهُ إِلَيْهِ الْخُلُوعَ، وَالتَّعَبُّدَ لِرَبِّهِ، وَكَانَ يَخْلُو بِـ «غَارِ حِرَاءٍ» يَتَعَبَّدُ فِيهِ اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ [البخاري: ٣، ومسلم: ٤٠٣]، وَيُعَظِّصُ إِلَيْهِ الْأَوْتَانَ وَدِينُ

قومه، فلم يكن شيء أبغض إليه من ذلك.

(نبوته ﷺ)

فَلَمَّا كَمَلَ لَهُ أَرْبَعُونَ، أَشْرَقَ عَلَيْهِ نُورُ النُّبُوَّةِ، وَأَكْرَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِرِسَالَتِهِ، وَبِعَثَهُ إِلَى خَلْقِهِ، وَاخْتَصَّهُ بِكَرَامَتِهِ، وَجَعَلَهُ أَمِينَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ. وَلَا خِلَافَ أَنْ مَبْعَثَهُ ﷺ كَانَ يَوْمَ الْإِثْنِينَ، وَاخْتَلَفَ فِي شَهْرِ الْمَبْعَثِ. فَقِيلَ: لَثَمَانِ مَضِينَ مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ، سَنَةَ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ مِنْ عَامِ الْفِيلِ، هَذَا قَوْلُ الْأَكْثَرِينَ، وَقِيلَ: بَلْ كَانَ ذَلِكَ فِي رَمَضَانَ، وَاحْتَجَّ هَؤُلَاءُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]. قَالُوا: أَوَّلَ مَا أَكْرَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِنُبُوَّتِهِ، أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ جَمَاعَةٌ، مِنْهُمْ يَحْيَى الْمَصْرِيُّ^(٣) حَيْثُ يَقُولُ فِي نُونِيَّتِهِ:

وَأَتَتْ عَلَيْهِ أَرْبَعُونَ فَأُشْرِقَتْ

شَمْسُ النُّبُوَّةِ مِنْهُ فِي رَمَضَانَ
وَالْأَوَّلُونَ قَالُوا: إِنَّمَا كَانَ أَنْزَالُ الْقُرْآنِ فِي رَمَضَانَ جَمْلَةً وَاحِدَةً فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ، ثُمَّ أُنْزِلَ مُنْجَمًا بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ فِي ثَلَاثٍ وَعَشْرِينَ سَنَةً. [صحيح: ابن جرير (١٤٤/٢)، والحاكم (٥٣٠/٢)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٧٠/٦)].

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: أَنْزَلَ فِيهِ الْقُرْآنَ، أَيِ فِي شَأْنِهِ وَتَعْظِيمِهِ، وَفَرَضَ صَوْمَهُ. وَقِيلَ: كَانَ ابْتِدَاءُ الْمَبْعَثِ فِي شَهْرِ رَجَبٍ.

(مراتب الوحي)

وَكَمَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ مَرَاتِبِ الْوَحْيِ مَرَاتِبَ عَدِيدَةٍ:

إِحْدَاهَا: الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ، وَكَانَتْ مَبْدَأَ وَحْيِهِ ﷺ، وَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فُلُقِ الصُّبْحِ.

الثَّانِيَةُ: مَا كَانَ يُلْقِيهِ الْمَلَكُ فِي رُوعِهِ وَقَلْبِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرَاهُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ اسْتِظْأَاءُ

(١) هي قرية من أعمال الرُّقَم من المدينة، بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً.

(٢) بَصْرَى كُحْلِي تَقَعُ جَنُوبَ شَرْقِيِّ دِمَشْقَ، تَبْعَدُ عَنْهَا (١٢٤) كَمْ، وَهِيَ قَصَبَةُ كُورَةِ حُورَانَ.

(٣) هو الشيخ جمال الدين أبو زكريا يحيى بن يوسف بن يحيى المصْرِيُّ نسبة إلى صرصر قرية على فرسخين من بغداد العلامة الحافظ للغوي، كان إليه المنتهى في معرفة اللغة، وحسن الشعر، وديوانه ومدائحه سائرة، يشبه في عصره بحسان، قتله التتار يوم دخلوا بغداد سنة (٦٥٦هـ). «شذرات الذهب» (٢٨٥/٥)، (٢٨٦).

الرُّزْقِ عَلَى أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَإِنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ لَا يَنَالُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ» [صحيح: أبو نعيم في «الحلية» (٢٦/١٠) - ٢٧، والهيثمي في «المجمع» (٧٢/٤)، والحاكم (٤/٢)].

الثالثة: أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَتَمَثَّلُ لَهُ الْمَلَكُ رَجُلًا، فَيُخَاطَبُهُ حَتَّى يَجِيَّ عَنْهُ مَا يَقُولُ لَهُ، وَفِي هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ كَانَ يَرَاهُ الصَّحَابَةُ أحيانًا [مسلم: ٩٣].

الرابعة: أَنَّهُ كَانَ يَأْتِيهِ فِي مِثْلِ صَلَافَةِ الْجَرَسِ، وَكَانَ أَشَدَّهُ عَلَيْهِ، فَيَتَلَبَّسُ بِهِ الْمَلَكُ حَتَّى إِنْ جَبِينَهُ لِيَتَفَصَّدَ عِرْقًا فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ [البخاري: ٢، ومسلم: ٦٠٥٨]. وَحَتَّى إِنْ رَاحِلَتُهُ لَتَبَّرُكَ بِهِ إِلَى الْأَرْضِ إِذَا كَانَ رَاكِبًا [صحيح: أحمد: ٢٤٨٦٨]. وَلَقَدْ جَاءَهُ الْوَحْيُ مَرَّةً كَذَلِكَ، وَفَخَذَهُ عَلَى فَخْذِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، فَتَقَلَّتْ عَلَيْهِ حَتَّى كَادَتْ تَرُضُّهَا [البخاري: ٤٥٩٢].

الخامسة: أَنَّهُ يَرَى الْمَلَكَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا، فَيُوحِي إِلَيْهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُوجِّهَ، وَهَذَا وَقَعَ لَهُ مَرَّتَيْنِ، كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ ذَلِكَ فِي [التَّجْم: ٧، ١٣] [مسلم: ٤٣٩].

السادسة: مَا أَوْحَاهُ اللَّهُ وَهُوَ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ مِنْ فَرَضِ الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا.

السابعة: كَلَامُ اللَّهِ لَهُ مِنْهُ إِلَيْهِ بِلَا وَاسْطَةٍ مَلَكٌ، كَمَا كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ، وَهَذِهِ الْمَرْتَبَةُ هِيَ ثَابِتَةٌ لِمُوسَى قِطْعًا بِنَصِّ الْقُرْآنِ، وَثُبُوتِهَا لِنَبِيِّنَا ﷺ هُوَ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ.

وَقَدْ زَادَ بَعْضُهُمْ مَرْتَبَةً ثَامِنَةً وَهِيَ تَكْلِيمُ اللَّهِ لَهُ كِفَاحًا مِنْ غَيْرِ حِجَابٍ، وَهَذَا عَلَى مَذْهَبٍ مِنْ يَقُولُ: إِنَّهُ ﷺ رَأَى رَبَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَهِيَ مَسْأَلَةٌ خِلَافَ بَيْنِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ، وَإِنْ كَانَ جَمُوهَرُ الصَّحَابَةِ بَلَّ كُلُّهُمْ مَعَ عَائِشَةَ كَمَا حَكَاهُ عُمَانُ بْنُ سَعِيدٍ الدَّارِمِيُّ إِجْمَاعًا لِلصَّحَابَةِ.

فصل

فِي خِتَانِهِ ﷺ

وَقَدْ اخْتَلَفَ فِيهِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ وُلِدَ مَخْتُونًا مُسْرُورًا، وَرَوَى فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ لَا يَصِحُّ، ذَكَرَهُ أَبُو الْفَرَجِ بْنُ الْجَوْزِيِّ فِي

«الموضوعات» وَلَيْسَ فِيهِ حَدِيثٌ ثَابِتٌ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ خَوَاصِهِ، فَإِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يُؤَلِّدُ مَخْتُونًا.

وَقَالَ الْمِيمُونِيُّ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ: مَسْأَلَةٌ سَلْتُ عَنْهَا: خَتَّانُ خَتْنٍ صَبِيًّا، فَلَمْ يَسْتَقْصِرْ؟ قَالَ: إِذَا كَانَ الْخَتَانُ جَاوَزَ نِصْفَ الْحِشْفَةِ إِلَى فَوْقَ، فَلَا يَعِيدُ، لِأَنَّ الْحِشْفَةَ تَغْلُظُ، وَكَلِمَا غَلِظَتْ ارْتَفَعَ الْخَتَانُ. فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْخَتَانُ دُونَ النِّصْفِ، فَكُنْتُ أَرَى أَنْ يَعِيدَ. قُلْتُ: فَإِنْ الْإِعَادَةُ شَدِيدَةٌ جَدًّا، وَقَدْ يُخَافُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِعَادَةِ؟ فَقَالَ: لَا أَدْرِي، ثُمَّ قَالَ لِي: فَإِنْ هَاهُنَا رَجُلًا وَلَدَ لَهُ ابْنٌ مَخْتُونٌ، فَاعْتَمْتُ لَذَلِكَ غَمًّا شَدِيدًا، فَقُلْتُ لَهُ: إِذَا كَانَ اللَّهُ قَدْ كَفَاكَ الْمُؤَنَةَ، فَمَا غَمُّكَ بِهَذَا؟! انْتَهَى. وَحَدَّثَنِي صَاحِبُنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عُثْمَانَ الْخَلِيلِيُّ الْمُحَدَّثُ بَيْتَ الْمَقْدَسِ أَنَّهُ وُلِدَ كَذَلِكَ، وَأَنَّ أَهْلَهُ لَمْ يَخْتَنُوهُ، وَالنَّاسُ يَقُولُونَ لِمَنْ وَلَدَ كَذَلِكَ: خَتْنَةُ الْقَمَرِ، وَهَذَا مِنْ خَرَافَاتِهِمْ.

القول الثاني: أَنَّهُ خُتِنَ ﷺ يَوْمَ شَقَّ قَلْبَهُ الْمَلَانِكَةُ عِنْدَ ظَنَرِهِ حَلِيمَةَ.

القول الثالث: أَنَّ جَدَّهُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ خَتْنَهُ يَوْمَ سَابِعِهِ، وَصَنَعَ لَهُ مَأْذِبَةً وَسَمَّاهُ مُحَمَّدًا.

قَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: وَفِي هَذَا الْبَابِ حَدِيثٌ مُسْنَدٌ غَرِيبٌ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ أَحْمَدَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عِيْسَى، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ الْعَلَّافُ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي السَّرِيِّ الْعَسْقَلَانِيُّ، حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، عَنْ شُعَيْبٍ، عَنْ عَطَاءِ الْخِرَاسَانِيِّ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ عَبْدِ الْمَطْلَبِ خَتَنَ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ سَابِعِهِ، وَجَعَلَ لَهُ مَأْذِبَةً، وَسَمَّاهُ مُحَمَّدًا ﷺ^(١). قَالَ يَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ: طَلَبْتُ هَذَا الْحَدِيثَ فَلَمْ أَجِدْهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ مِمَّنْ لَقِيْتُهُ إِلَّا عِنْدَ ابْنِ أَبِي السَّرِيِّ، وَقَدْ وَقَعَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ بَيْنَ رَجُلَيْنِ فَاضْلَيْنِ، صَنَفَ أَحَدُهُمَا مُصَنَّفًا فِي أَنَّهُ وَلَدَ مَخْتُونًا وَأَجْلَبَ فِيهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي لَا خِطَامَ لَهَا وَلَا زِمَامَ، وَهُوَ كَمَالُ الدِّينِ بْنِ طَلْحَةَ، فَتَقَضَّهِ عَلَيْهِ كَمَالُ الدِّينِ بْنِ الْعَدِيمِ، وَبَيْنَ فِيهِ أَنَّهُ ﷺ خُتِنَ عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ،

(١) مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي السَّرِيِّ قَالَ أَبُو حَاتِمٍ: لَيْسَ بِالْحَدِيثِ، وَقَالَ ابْنُ عَدِيٍّ: كَثِيرُ الْغَلَطِ، وَالْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ مَدْلَسٌ وَقَدْ عَنَنْ،

فَالْخَبَرُ لَا يَصِحُّ.

وكان عموم هذه السُّنة للعرب قاطبة مغنياً عن نقل معين فيها، والله أعلم.

فصل

في أمهاته ﷺ اللاتي أرضعنه

فمنهن ثُوبية [البخاري: ٥١٠١] مولاة أبي لهب، أرضعته أياماً، وأرضعت معه أبا سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي بلبن ابنها مسروح، وأرضعت معهما عمه حمزة بن عبد المطلب، واختلف في إسلامها، فالله أعلم.

ثم أرضعته حليلة السعدية بلبن ابنها عبد الله أخي أنيسة، وجُدامة، وهي الشيماء أولاد الحارث بن عبد العزى بن رفاعة السعدي، واختلف في إسلام أبويه من الرضاعة، فالله أعلم، وأرضعت معه ابن عمه أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وكان شديد العداوة لرسول الله ﷺ، ثم أسلم عام الفتح وحسن إسلامه، وكان عمه حمزة مسترضعاً في بني سعد بن بكر، فأرضعت أمه رسول الله ﷺ يوماً وهو عند أمه حليلة، فكان حمزة رضيع رسول الله ﷺ من جهتين: من جهة ثوبية، ومن جهة السعدية.

فصل

في حواضنه ﷺ

فمنهن أمه أمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب.

ومنهن ثوبية وحليمة، والشيماء ابنتها، وهي أخته من الرضاعة، كانت تحضنه مع أمها، وهي التي قدمت عليه في وفد هوازن، فبسط لها رداءه، وأجلسها عليه رعاية لحقها.

ومنهن الفاضلة الجلييلة أم أيمن بركة الحبشية، وكان ورثها من أبيه، وكانت دايته، وزوجها من جبه زيد بن حارثة، فولدت له أسامة، وهي التي دخل عليها أبو بكر وعمر بعد موت النبي ﷺ وهي تبكي، فقالا: يا أم أيمن ما يبكيك فما عند الله خير لرسوله؟ قالت: إني لأعلم أن ما عند الله خير لرسوله، وإنما أبكي لانقطاع خبر السماء، فهيجتهما على البكاء، فبكيا [مسلم: ٦٣١٨].

فصل

في مبعثه ﷺ وأول ما نزل عليه

بعثه الله على رأس أربعين، وهي سنُّ الكمال. قيل: ولها تبعث الرسل، وأما ما يذكر عن المسيح أنه رُفِعَ إلى السماء وله ثلاث وثلاثون سنة، فهذا لا يعرف له أثر متصل يجب المصير إليه.

وأول ما بدى به رسول الله ﷺ من أمر النبوة الرؤيا، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح [البخاري: ٣]. قيل: وكان ذلك ستة أشهر، ومدة النبوة ثلاث وعشرون سنة، فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، والله أعلم.

ثم أكرمه الله تعالى بالنبوة، فجاءه الملك وهو بغار جبراء، وكان يُحِبُّ الخلوة فيه، فأول ما أنزل عليه ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] هذا قول عائشة [البخاري: ٣، ومسلم ٤٠٤] والجمهور.

وقال جابر: أول ما أنزل عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَنِيُّ﴾ [المدرثر: ١]. [البخاري: ٤٩٢٢، ومسلم: ٤٠٦].

والصحيح قول عائشة لوجوه:

أحدها: أن قوله: ﴿مَا أَنَا بِقَارِيءٍ﴾ صريح في أنه لم يقرأ قبل ذلك شيئاً.

الثاني: الأمر بالقراءة في الترتيب قبل الأمر بالإنذار، فإنه إذا قرأ في نفسه، أُنذِر بما قرأه، فأمره بالقراءة أولاً، ثم بالإنذار بما قرأه ثانياً.

الثالث: أن حديث جابر، وقوله: أول ما أنزل من القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَنِيُّ﴾ قول جابر، وعائشة أخبرت عن خبره ﷺ عن نفسه بذلك.

الرابع: أن حديث جابر الذي احتج به صريح في أنه قد تقدم نزول الملك عليه أولاً قبل نزول ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَنِيُّ﴾ فإنه قال: «فرغت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء، فرجعت إلى أهلي فقلت: زملوني دثروني، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَنِيُّ﴾» وقد أخبر أن الملك الذي جاءه بحراء أنزل عليه ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾. فدل حديث جابر على تأخر نزول ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَنِيُّ﴾ والحجة في روايته، لا في رايه، والله أعلم.

فصل

في ترتيب الدعوة ولها مراتب

المرتبة الأولى: النبوة. الثانية: إنذار عشيرته الأقربين. الثالثة: إنذار قومه. الرابعة: إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله وهم العرب قاطبة.

الخامسة: إنذار جميع مَنْ بلغته دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر.

فصل

(الجهر بالدعوة)

وأقام ﷺ بعد ذلك ثلاث سنين يدعو إلى الله سبحانه مستخفياً، ثم نزل عليه ﴿فَاصْغُرْ﴾ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعِزَّ عَنِ الشُّرَكِيِّ ﴿[الحجر: ٩٤]﴾. فأعلن ﷺ بالدعوة، وجاهر قومه بالعداوة، واشتد الأذى عليه وعلى المسلمين، حتى أذن الله لهم بالهجرة^(١).

فصل

في أسمائه ﷺ

وكلها نعوت ليست أعلاماً محضة لمجرد التعريف، بل أسماء مشتقة من صفات قائمة به تُوجِبُ له المدح والكمال.

فمنها محمد، وهو أشهرها، وبه سُمِّيَ في التوراة صريحاً كما بيناه بالبرهان الواضح في كتاب «جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام» وهو كتاب فرد في معناه لم يُسبق إلى مثله في كثرة فوائده وغزارتها، بينا فيه الأحاديث الواردة في الصلاة والسلام عليه، وصحيحها من حسننها ومعلولها، وبيننا ما في معلولها من العلل بياناً شافياً، ثم أسرار هذا الدعاء وشرقه وما اشتمل عليه من الحكم والفوائد، ثم مواطن الصلاة عليها ومحالها، ثم الكلام في مقدار الواجب منها، واختلاف أهل العلم فيه، وترجيح الراجح، وتزييف المزيف، وَمَخْبَرُ الْكِتَابِ قَوْقُ وصفه.

والمقصود أن اسمه محمد في التوراة صريحاً بما

يوافق عليه كلُّ عالم من مؤمني أهل الكتاب.

ومنها أحمد، وهو الاسم الذي سماه به المسيح، لسر ذكرناه في ذلك الكتاب.

ومنها المتوكل، ومنها الماحي، والحاشر، والعاقب، والمُقَفِّي، ونبيُّ التوبة، ونبيُّ الرحمة، ونبيُّ الملحمة، والفاتح، والأمين.

ويلحق بهذه الأسماء: الشاهد، والمبشِّر، والبشير، والنذير، والقاسم، والضَّحُوك، والقَتَال، وعبد الله، والسراج المنير، وسيد ولد آدم، وصاحب لواء الحمد، وصاحب المقام المحمود، وغير ذلك من الأسماء، لأن أسماءه إذا كانت أوصاف مدح، فله من كل وصف اسم، لكن ينبغي أن يفرق بين الوصف المخصص به، أو الغالب عليه، ويشق له منه اسم، وبين الوصف المشترك، فلا يكون له منه اسم يخصه.

وقال جبير بن مُطْعِم: سَمَى لنا رسول الله ﷺ نفسه أسماء، فقال: «أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِي الْكُفْرَ، وَأَنَا الْخَاشِرُ الَّذِي يُخْشِرُ النَّاسَ عَلَى قَدَمَيَّ، وَالْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ» [البخاري: ٤٨٩٦، ومسلم: ٦١٠٥].

وأسماءه ﷺ نوعان:

أحدهما: خاص لا يُشارِكُه فيه غيره من الرسل، كمحمد، وأحمد، والعاقب، والحاشر، والمقفي، ونبي الملحمة.

والثاني: ما يشاركه في معناه غيره من الرسل، ولكن له منه كماله، فهو مختص بكمالِه دون أصله، كرسول الله، ونبيه، وعبدِه، والشَّاهد، والمبشِّر، والنذير، ونبي الرحمة، ونبي التوبة.

وأما إن جعل له من كل وصف من أوصافه اسم، تجاوزت أسماءه الممتنين، كالصادق، والمصدق، والرووف الرحيم، إلى أمثال ذلك. وفي هذا قال من قال من الناس: إن لله ألف اسم، وللنبي ﷺ ألف اسم، قاله أبو الخطاب بن دحية^(٢) ومقصوده الأوصاف.

(١) أي بالهجرة إلى الحبشة.

(٢) هو عمر بن الحسن بن علي بن محمد أبو الخطاب ابن دحية الكلبي (٥٤٤ - ٦٣٣ هـ) أديب مؤرخ حافظ للحديث من أهل بلنسية بالأندلس.

فصل

في شرح معاني أسمائه ﷺ

مجيئهم باللام، فيقولون: ما أضرب زيداً لعمرو، ولو كان باقياً على تعديه، لقليل: ما أضرب زيداً عمراً، لأنه متعد إلى واحد بنفسه، وإلى الآخر بهمزة التعدية، فلما أن عدّوه إلى المفعول بهمزة التعدية، عدّوه إلى الآخر باللام، فهذا هو الذي أوجب لهم أن قالوا: إنهما لا يُصاغان إلّا من فعل الفاعل، لا من الفعل الواقع على المفعول.

ونازعهم في ذلك آخرون، وقالوا: يجوز صوغهما من فعل الفاعل، ومن الواقع على المفعول، وكثرة السماع به من أبين الأدلة على جوازه، تقول العرب: ما أشغَله بالشيء، وهو من شَغَلَ، فهو مشغول وكذلك يقولون: ما أولعه بكذا، وهو من أولع بالشيء، فهو مُولَع به، مبني للمفعول ليس إلّا، وكذلك قولهم: ما أعجبه بكذا، فهو من أعجَب به، ويقولون: ما أحبه إلي، فهو تعجّب من فعل المفعول، وكونه محبوباً لك، وكذا: ما أبغضه إلي، وأمّته إلي.

وها هنا مسألة مشهورة ذكرها سيويه، وهي أنك تقول: ما أبغضني له، وما أحبني له، وما أمقتني له، إذا كنت أنت المَبْغِضَ الكاره، والمحب المأقّت، فتكون متعجباً من فعل الفاعل، وتقول: ما أبغضني إليه، وما أمقتني إليه، وما أحبني إليه، إذا كنت أنت البغِض الممقوت، أو المحبوب، فتكون متعجباً من الفعل الواقع على المفعول، فما كان باللام فهو للفاعل، وما كان بـ«إلى» فهو للمفعول. وأكثر النحاة لا يعللون بهذا. والذي يقال في علته والله أعلم: إن اللام تكون للفاعل في المعنى، نحو قولك: لمن هذا؟ فيقال: لزيد، فيؤتى باللام. وأما «إلى» فتكون للمفعول في المعنى، فتقول: إلى من يصل هذا الكتاب؟ فتقول: إلى عبد الله، وسر ذلك أن اللام في الأصل للملك والاختصاص، والاستحقاق إنما يكون للفاعل الذي يملك ويستحق، و«إلى» لانتهاء الغاية، والغاية منتهى ما يقتضيه الفعل، فهي بالمفعول أليق، لأنها تمام مقتضى الفعل، ومن

أما مُحَمّد، فهو اسم مفعول، من حَمَدَ، فهو محمد، إذا كان كثير الخصال التي يُحمد عليها، ولذلك كان أبلغ من محمود، فإن محموداً من الثلاثي المجرد، ومحمد من المضاعف للمبالغة، فهو الذي يحمد أكثر ممّا يحمد غيره من البشر، ولهذا - والله أعلم - سمي به في التوراة، لكثرة الخصال المحمودة التي وُصِفَ بها هو ودينه وأمه في التوراة، حتى تَمَنَّى موسى عليه الصلاة والسلام أن يكون منهم، وقد أتينا على هذا المعنى يشواهد هناك، وبيننا غلط أبي القاسم السهيلي^(١) حيث جعل الأمر بالعكس، وأن اسمه في التوراة أحمد.

(هل أحمد تفضيل بمعنى فاعل أو مفعول)

وأما أحمد، فهو اسم على زنة أفعل التفضيل، مشتق أيضاً من الحمد. وقد اختلف الناس فيه: هل هو بمعنى فاعل أو مفعول؟ فقالت طائفة: هو بمعنى الفاعل، أي: حَمَدَهُ لله أكثر من حمد غيره له، فمعناه: أحمد الحامدين لربه، ورجحوا هذا القول بأن قياس أفعل التفضيل، أن يُصاغ من فعل الفاعل، لا من الفعل الواقع على المفعول، قالوا: ولهذا لا يقال: ما أضرب زيداً، ولا زيداً أضرب من عمرو باعتبار الضرب الواقع عليه، ولا: ما أشرّبه للماء، وأكله للخبز، ونحوه، قالوا: لأن أفعل التفضيل، وفعل التعجب، إنما يُصاغان من الفعل اللازم، ولهذا يقدر نقله من «فَعَلَ» و «فَعِلَ» المفتوح العين ومكسورها، إلى «فَعُلَ» المضموم العين، قالوا: ولهذا يعدى بالهمزة إلى المفعول، فهمزته للتعدية، كقولك: ما أظرف زيداً، وأكرم عمراً، وأصلهما: من ظُرف، وكُرِّم. قالوا: لأن المتعجب منه فاعل في الأصل، فوجب أن يكون فعله غير متعد، قالوا: وأما نحو: ما أضرب زيداً لعمرو، فهو منقول من «فَعَلَ» المفتوح العين إلى «فَعُلَ» المضموم العين، ثم عُدي والحالة هذه بالهمزة، قالوا: والدليل على ذلك

(١) هو أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعمي الأندلسي السهيلي المالقي (٥٠٨ - ٥٨١ هـ) حافظ عالم باللغة

والسير.

التعجب من فعل المفعول قول كعب بن زهير في النبي ﷺ:

فَلَهُوَ أَخَوْفُ عِنْدِي إِذْ أَكَلَمَهُ
وَقِيلَ إِنَّكَ مَحْبُوسٌ وَمَقْتُولٌ
مِنْ خَادِرٍ مِنْ يُوثِ الْأَسَدِ مَسْكَنَهُ
بِبَظْنِ عَشْرٍ غَيْلٍ ذُونُهُ غَيْلٌ^(١)

فأخوف هاهنا، من خيف، فهو مخوف، لا من خاف، وكذلك قولهم: ما أجبر زيداً، من جبر فهو مجنون، هذا مذهب الكوفيين ومن وافقهم.

قال البصريون: كل هذا شاذ لا يُعول عليه، فلا نُشوش به القواعد، ويجب الاقتصاد منه على المسموع، قال الكوفيون: كثرة هذا في كلامهم نثراً ونظماً يمنع حمله على الشذوذ، لأن الشاذ ما خالف استعمالهم ومطرد كلامهم، وهذا غير مخالف لذلك، قالوا: وأما تقديركم لزوم الفعل ونقله إلى فعل، فتحكم لا دليل عليه، وما تمسكتم به من التعدية بالهمزة إلى آخره، فليس الأمر فيها كما ذهبتم إليه، والهمزة في هذا البناء ليست للتعدية، وإنما هي للدلالة على معنى التعجب والتفضيل فقط، كالف «فاعل»، وميم «مفعول» وواوه، وتاء الافتعال، والمطاوعة، ونحوها من الزوائد التي تلحق الفعل الثلاثي لبيان ما لحقه من الزيادة على مجرده، فهذا هو السبب الجالب لهذه الهمزة، لا تعدية الفعل.

قالوا: والذي يدل على هذا أن الفعل الذي يُعدى بالهمزة يجوز أن يُعدى بحرف الجر وبالتضعيف، نحو: جلست به، وأجلسته، وقمت به، وأقمته، ونظائره، وهنا لا يقوم مقام الهمزة غيرها، فعلم أنها ليست للتعدية المجردة أيضاً، فإنها تجامع باء التعدية، نحو: أكرّم به، وأخسّر به، ولا يجمع على الفعل بين تعديتين.

وأيضاً فإنهم يقولون: ما أعطاه للدراهم، وأكساه للثياب، وهذا من أعطى وكسا المتعدي، ولا يصح تقدير نقله إلى «عطو»: إذا تناول، ثم أدخلت عليه همزة التعدية، لفساد المعنى، فإن التعجب إنما وقع من إعطائه، لا من عطوه، وهو تناوله، والهمزة التي

فيه همزة التعجب والتفضيل، وحذفت همزته التي في فعله، فلا يصح أن يقال: هي للتعدية.

قالوا: وأما قولكم: إنه غدي باللام في نحو: ما أضربه لزيد... إلى آخره، فالإتيان باللام هاهنا ليس لما ذكرتم من لزوم الفعل، وإنما أتى بها تقوية له لما ضعف بمنعه من التصرف، ولزيم طريقة واحدة خرج بها عن سنن الأفعال، فضعف عن اقتضائه وعمله، فقوي باللام، كما يقوى بها عند تقدم معموله عليه، وعند فرعيته، وهذا المذهب هو الراجح كما تراه.

(ترجيح المصنف أنه بمعنى المفعول)

فلنرجع إلى المقصود فنقول: تقدير أحمد على قول الأولين: أحمد الناس لربه، وعلى قول هؤلاء: أحق الناس وأولاهم بأن يُحمد، فيكون كمحمد في المعنى، إلا أن الفرق بينهما أن «محمداً» هو كثير الخصال التي يحمد عليها، وأحمد هو الذي يُحمد أفضل ممّا يُحمد غيره، فمحمد في الكثرة والكمية، وأحمد في الصفة والكمية، فيستحق من الحمد أكثر ممّا يستحق غيره، وأفضل ممّا يستحق غيره، فيُحمد أكثر حمداً، وأفضل حمداً حمده البشر. فالاسمان واقعان على المفعول، وهذا أبلغ في مدحه، وأكمل معنى. ولو أريد معنى الفاعل لسمي الحماد، أي: كثير الحمد، فإنه ﷺ كان أكثر الخلق حمداً لربه، فلو كان اسمه أحمد باعتبار حمده لربه، لكان الأولى به الحماد، كما سميت بذلك أمته.

(كتابة المؤلف كتابه حال السفر)

وأيضاً: فإن هذين الاسمين، إنما اشتقا من أخلاقه، وخصائصه المحمودة التي لأجلها استحق أن يُسمى محمداً ﷺ، وأحمد وهو الذي يحمده أهل السماء وأهل الأرض وأهل الدنيا وأهل الآخرة، لكثرة خصائصه المحمودة التي تفوق عدّ العاذنين وإحصاء المحصنين، وقد أشبعنا هذا المعنى في كتاب «الصلاة والسلام عليه ﷺ»، وإنما ذكرنا هاهنا كلمات يسيرة اقتضتها حال المسافر، وتشتت قلبه وتفرق همته، وبالله المستعان وعليه التكلان.

(١) البيتان في ديوانه ص(٢١) من قصيدته التي يمدح بها رسول الله ﷺ.

(تفسير معنى المتوكل)

تأخر عنه، ومنه قافية الرأس، وقافية البيت، فالمقفي: الذي قفى من قبله من الرسل، فكان خاتمهم وآخرهم.

(نبي التوبة)

وأما نبي التوبة، فهو الذي فتح الله به باب التوبة على أهل الأرض، فتاب الله عليهم توبة لم يحصل مثلها لأهل الأرض قبله. وكان ﷺ أكثر الناس استغفاراً وتوبة، حتى كانوا يعدّون له في المجلس الواحد مئة مرة: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الْعَفُوفُ» [صحيح: أحمد: ٤٧٢٦، وأبو داود: ١٥١٦، والترمذي: ٣٤٣٠، وابن ماجه: ٣٨١٤].

وكان يقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ رَبِّكُمْ، فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ فِي الْيَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ» [مسلم: ٦٨٥٨]. وكذلك توبه أمته أكمل من توبة سائر الأمم، وأسرع قبلاً، وأسهل تناولاً، وكانت توبة من قبلهم من أصعب الأشياء، حتى كان من توبة بني إسرائيل من عبادة العجل قتل أنفسهم، وأما هذه الأمة، فلكرامتها على الله تعالى جعل توبتها الندم والإقلاع.

(نبي الملحمة)

وأما نبي الملحمة، فهو الذي بعث بجهاد أعداء الله، فلم يجاهد نبي وأمته قط ما جاهد رسول الله ﷺ وأمته، والملاحم الكبار التي وقعت وتقع بين أمته وبين الكفار لم يُعهد مثلها قبله، فإن أمته يقتلون الكفار في أقطار الأرض على تعاقب الأعصار، وقد أوقعوا بهم من الملاحم ما لم تفعله أمة سواهم.

(نبي الرحمة)

وأما نبي الرحمة، فهو الذي أرسله الله رحمة للعالمين، فرحم به أهل الأرض كلهم مؤمنهم وكافرهم، أما المؤمنون، فنالوا النصيب الأوفر من الرحمة، وأما الكفار، فأهل الكتاب منهم عاشوا في ظله، وتحت حبله وعهده، وأما من قتله منهم هو وأمته، فإنهم عجلوا به إلى النار، وأراحوا من الحياة الطويلة التي لا يزداد بها إلا شدة العذاب في الآخرة.

(الفتاح)

وأما الفتاح، فهو الذي فتح الله به باب الهدى بعد

وأما اسمه المتوكل، ففي «صحيح البخاري» عن عبد الله بن عمرو قال: «قرأت في التوراة صفة النبي ﷺ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، عِبْدِي وَرَسُولِي، سَمِيَهُ الْمُتَوَكِّلُ، لَيْسَ يَقْطُ، وَلَا غَلِيْظُ، وَلَا سَخَابُ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، بَلْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ، وَلَنْ أَقْبِضَهُ حَتَّى أَقِيمَ بِهِ الْمِيزَةَ الْعَوْجَاءُ، بَأَن يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» [البخاري: ٤٨٣٨]. وهو ﷺ أحق الناس بهذا الاسم، لأنه توكل على الله في إقامة الدين توكلًا لم يشرّكه فيه غيره.

(تفسير الماحي)

وأما الماحي، والحاشر، والمقفي، والعاقب، فقد فسرت في حديث جبير بن مطعم، فالماحي: هو الذي محا الله به الكفر، ولم يُمحَ الكفر بأحد من الخلق ما محى بالنبي ﷺ، فإنه بُعث وأهل الأرض كلهم كفار، إلا بقايا من أهل الكتاب، وهم ما بين عبّاد أوثان، ويهود مغضوب عليهم، ونصارى ضالين، وصابئة ذهرية، لا يعرفون رباً ولا معاداً، وبين عبّاد الكواكب، وعبّاد النار، وفلاسفة لا يعرفون شرائع الأنبياء، ولا يَقْرُونَ بها، فمحا الله سبحانه برسوله ذلك حتى ظهر دين الله على كل دين، وبلغ دينه ما بلغ الليل والنهار، وسارت دعوته مسير الشمس في الأقطار.

(تفسير الحاشر)

وأما الحاشر، فالحشر هو الضم والجمع، فهو الذي يُحشر الناس على قدمه، فكانه بعث ليحشر الناس.

(تفسير العاقب)

والعاقب: الذي جاء عَقِبَ الأنبياء، فليس بعده نبي، فإن العاقب هو الآخر، فهو بمنزلة الخاتم، ولهذا سمي العاقب على الإطلاق، أي: عقب الأنبياء جاء بعقبهم.

(تفسير المقفي)

وأما المقفي، فكذلك، وهو الذي قفى على آثار من تقدمه، فقفى الله به على آثار من سبقه من الرسل، وهذه اللفظة مشتقة من القفو، يقال: قفاه يقفوه: إذا

أَن كَانَ مُرْتَجًا، وفتح به الأعين العمي، والآذان الصَّم، والقلوب الغُلف، وفتح الله به أمصار الكفار، وفتح به أبواب الجَنَّة، وفتح به طرق العلم النافع والعمل الصالح، ففتح به الدنيا والآخرة، والقلوب والأسماع والأبصار والأمصار.

(الأمين)

وَأَمَّا الْأَمِينُ، فهو أحق العالمين بهذا الاسم، فهو أمين الله على حياه ودينه، وهو أمين مَنْ فِي السَّمَاءِ، وَأَمِينُ مَنْ فِي الْأَرْضِ، ولهذا كانوا يُسَمُّونَهُ قَبْلَ النَّبِيِّ: الْأَمِينُ.

(الضحك القتال)

وَأَمَّا الضَّحُوكُ الْقِتَالُ، فاسمان مزدوجان، لا يُفْرَدُ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ، فإنه ضحك في وجوه المؤمنين، غَيْرُ عَابِسٍ، وَلَا مَقْطَبٍ، وَلَا غَضُوبٍ، وَلَا فَظٍّ، قَتَالَ لِأَعْدَاءِ اللَّهِ، لَا تَأْخُذُهُ فِيهِمْ لُومَةٌ لَأَثَمٍ.

(البشير)

وَأَمَّا الْبَشِيرُ، فهو المبشِّر لمن أطاعه بالثواب، والنذير المنذر لمن عصاه بالعقاب، وقد سماه الله عَبْدَهُ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ، مِنْهَا قَوْلُهُ: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]. وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]. وقوله: ﴿فَلَوْحًا لِّكَ عَبْدِيهِ مَا أَوْحَى﴾ [التنج: ١٠]. وقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] وثبت عنه في «الصحیح» أنه قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر» [البخاري: ٤٧١٢، ومسلم: ٤٨٠]. وسماه الله سِرَاجًا مُنِيرًا، وسمى الشمس سِرَاجًا وَهَّاجًا.

(المنير)

والمنير: هو الذي ينير من غير إحراق بخلاف الوهاج، فإن فيه نوعٌ إحراق وتَوَهُّجٌ.

فصل

في ذكرى الهجرتين الأولى والثانية

(الحصر في الشعب ثم وفاة خديجة فعزم فخروجه للطائف)

(سماع نفر من الجن للقرآن والإسراء)

لما كثر المسلمون، وخاف منهم الكفار، اشتد أذاهم له ﷺ، وفتنتهم إياهم، فأذن لهم رسول الله ﷺ في الهجرة إلى الحبشة وقال: «إِنَّ بِهَا مَلَكًا لَا

يُظْلَمُ النَّاسُ عِنْدَهُ». فهاجر من المسلمين اثنا عشر رجلاً وأربع نسوة، منهم عثمان بن عفان، وهو أول من خرج، ومعه زوجته رُقَيْةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَقَامُوا فِي الْحَبَشَةِ فِي أَحْسَنِ جَوَارٍ، فبلغهم أَنَّ قُرَيْشًا أَسْلَمَتْ، وَكَانَ هَذَا الْخَبْرُ كَذِبًا، فَرَجَعُوا إِلَى مَكَّةَ، فَلَمَّا بَلَغَهُمْ أَنَّ الْأَمْرَ أَشَدُّ مِمَّا كَانَ، رَجَعَ مِنْهُمْ مَنْ رَجَعَ، وَدَخَلَ جَمَاعَةٌ، فَلَقُوا مِنْ قُرَيْشٍ أَذَى شَدِيدًا، وَكَانَ مِنْ دَخَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُسْعُودٍ.

ثم أذن لهم في الهجرة ثانيًا إلى الحبشة، فهاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلاً، إن كان فيهم عمار، فإنه يُشَكُّ فِيهِ، وَمِنْ النِّسَاءِ ثَمَانُ عَشْرَةَ امْرَأَةً، فَأَقَامُوا عِنْدَ النَّجَاشِيِّ عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ، فبلغ ذلك قُرَيْشًا، فَأَرْسَلُوا عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ فِي جَمَاعَةٍ، لِيَكِيدُوهُمْ عِنْدَ النَّجَاشِيِّ، فَرَدَّ اللَّهُ كَيْدَهُمْ فِي نَحْوَرِهِمْ، فَاشْتَدَّ أَذَاهُمْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَحَصَرُوهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ فِي الشَّعْبِ شِغْبَ أَبِي طَالِبٍ ثَلَاثَ سِنِينَ، وَقِيلَ: سَتَيْنِ، وَخَرَجَ مِنَ الْحَصْرِ وَلَهُ تِسْعٌ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً، وَقِيلَ: ثَمَانٌ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً، وَبَعْدَ ذَلِكَ بِأَشْهُرٍ مَاتَ عُمَةُ أَبُو طَالِبٍ وَلَهُ سَبْعٌ وَثَمَانُونَ سَنَةً، وَفِي الشَّعْبِ وَلَدَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، فَنَالَ الْكُفَّارُ مِنْهُ أَذَى شَدِيدًا، ثُمَّ مَاتَتْ خَدِيجَةُ بَعْدَ ذَلِكَ بَيْسِيرًا، فَاشْتَدَّ أَذَى الْكُفَّارِ لَهُ، فَخَرَجَ إِلَى الطَّائِفِ هُوَ وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَأَقَامَ بِهِ أَيَّامًا فَلَمْ يَجِيبُوهُ، وَأَذَوْهُ، وَأَخْرَجُوهُ، وَقَامُوا لَهُ سِمَاطِينَ، فَرَجَمُوهُ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى أَدْمَوْا كَعْبِيهِ، فَانصرفت عنهم رسول الله ﷺ راجعاً إلى مكَّة، وفي طريقه لقي عَدَاً مِنَ النَّصْرَانِيِّ، فَأَمَّنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ، وَفِي طَرِيقِهِ أَيْضًا بَنَخْلَةٌ صُرِفَ إِلَيْهِ نَفَرٌ مِنَ الْجَنِّ سَبْعَةً مِنْ أَهْلِ نَصِيبِينَ، فَاسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ وَأَسْلَمُوا [حسن: ابن جرير في «التفسير» (٣/٢٦)]، وفي طريقه تلك أرسل الله إليه ملك الجبال يأمره بطاعته، وأن يطبق على قومه أخشي مكَّة، وهما جبالها إن أراد، فقال: «لَا بَلَّ أَشْتَأْنِي بِهِمْ، لَعَلَّ اللَّهَ يُخْرِجُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَغْدُو لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» [البخاري: ٧٣٨٩، ومسلم: ٤٦١٢]. وفي طريقه دعا بذلك الدعاء المشهور: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي،... الحديث [ضعيف: الطبراني كما في «المجمع» (٣٥/٦)]، ثم دخل مكَّة في جوار المطعم بن عدي، ثم أسرى بروحه وجسده إلى

المسجد الأقصى، ثم عُرجَ به إلى فوق السماوات بجسده وروحه إلى الله عزَّ وجل، فخاطبه، وفرض عليه الصلوات، وكان ذلك مرة واحدة، هذا أصح الأقوال. وقيل: كان ذلك مناماً، وقيل: بل يقال: أسري به، ولا يقال: يقظة ولا مناماً. وقيل: كان الإسراء إلى بيت المقدس يقظة، وإلى السماء مناماً. وقيل: كان الإسراء مرتين: مرة يقظة، ومرة مناماً. وقيل: بل أسري به ثلاث مرات، وكان ذلك بعد المبعث بالاتفاق.

وأما ما وقع في حديث شريك [البخاري: ٧٥١٧] أن ذلك كان قبل أن يوحى إليه، فهذا من غلط شريك الثماني، وسوء حفظه، لحديث الإسراء. وقيل: إن هذا كان إسراء المنام قبل الوحي. وأما إسراء اليقظة، فبعد النبوة، وقيل: بل الوحي هاهنا مقيد، وليس بالوحي المطلق الذي هو مبدأ النبوة، والمراد: قبل أن يوحى إليه في شأن الإسراء، فأسري به فجأة من غير تقدم إعلام، والله أعلم.

(دعوة القبائل والهجرة إلى المدينة)

فأقام ﷺ بمكة ما أقام، يدعو القبائل إلى الله تعالى، ويغرض نفسه عليهم في كل موسم أن يؤووه، حتى يبلغ رسالة ربه ولهم الجنة، فلم تستجب له قبيلة، وأدخر الله ذلك كرامة للأنصار، فلما أراد الله تعالى إظهار دينه، وإنجاز وعده، ونصر نبيه، وإعلاء كلمته، والانتقام من أعدائه، ساقه إلى الأنصار، لما أراد بهم من الكرامة، فانتهى إلى نفر منهم ستة، وقيل: ثمانية، وهم يحلفون رؤوسهم عند عقبة منى في الموسم، فجلس إليهم، ودعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فاستجابوا لله ورسوله، ورجعوا إلى المدينة، فذعوا قومهم إلى الإسلام، حتى فشا فيهم، ولم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ. فأول مسجد قرئ فيه القرآن بالمدينة مسجد بني زريق، ثم قديم مكة في العام القابل اثنا عشر رجلاً من الأنصار، منهم خمسة من الستة

الأولين، فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء عند العقبة، ثم انصرفوا إلى المدينة، فقدم عليه في العام القابل منهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان، وهم أهل العقبة الأخيرة، فبايعوا رسول الله ﷺ على أن يمنعه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وأنفسهم، فترحل هو وأصحابه إليهم، واختار رسول الله ﷺ منهم اثني عشر نقيباً، وأذن رسول الله ﷺ لأصحابه في الهجرة إلى المدينة، فخرجوا أرسالاً متسللين، أولهم فيما قيل: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وقيل:

مصعب بن عمير [البخاري: ٣٩٢٤] فقدما على الأنصار في دورهم، فأوؤهم، ونصروهم، وفشا الإسلام بالمدينة، ثم أذن الله لرسول الله ﷺ في الهجرة، فخرج من مكة يوم الإثنين في شهر ربيع الأول [البخاري: ٣٩٠٥] وقيل: في صفر، وله إذ ذاك ثلاث وخمسون سنة، ومعه أبو بكر الصديق، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، ودلهلهم عبد الله بن الأرقط الليثي، فدخل غار ثور هو وأبو بكر، فأقاما فيه ثلاثاً، ثم أخذوا على طريق الساحل، فلما انتهوا إلى المدينة، وذلك يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، وقيل غير ذلك، نزل بقباء في أعلى المدينة على بني عمرو بن عوف. وقيل: نزل على كلثوم بن الهذم. وقيل: على سعد بن خيشمة، والأول أشهر، فأقام عندهم أربعة عشر يوماً، وأسس مسجد قباء، ثم خرج يوم الجمعة، فأدركته الجمعة في بني سالم، فجمع بهم بمن كان معه من المسلمين، وهم مئة، ثم ركب ناقته وسار، وجعل الناس يكلمونه في النزول عليهم، ويأخذون بخطام الناقة، فيقول: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة»^(١) فبركت عند مسجده اليوم، وكان مربداً^(٢) لسهل وسهيل غلامين من بني النجار، فنزل عنها على أبي أيوب الأنصاري، ثم بنى مسجده موضع المريد بيده هو وأصحابه بالجريد واللبن [البخاري: ٣٩٠٦]، ثم بنى مسكنه ومساكن أزواجه إلى جنبه، وأقربها إليه مسكن عائشة، ثم تحول بعد سبعة أشهر من دار أبي أيوب إليها، وبلغ أصحابه بالحبيشة

(١) ونزول النبي ﷺ ثابت في «صحيح مسلم» (٥٣٥٨).

(٢) المريد: بكسر الميم وسكون الراء وفتح الباء: الموضع الذي يجفف فيه الثمر، وقال الأصمعي: المريد: كل شيء حبست فيه الإبل أو الغنم، وبه سمي مريد البصرة، لأنه كان موضع سوق الإبل.

هجرته إلى المدينة، فرجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلاً، فحَسِبَ منهم بمكة سبعة، وانتهى بقيتهم إلى رسول الله ﷺ بالمدينة، ثم هاجر بقيتهم في السفينة عام خيبر سنة سبع [البخاري: ٤٢٣٠، ٤٢٣١].

فصل

في أولاده ﷺ

أولهم القاسم، وبه كان يُكنى، مات طفلاً، وقيل: عاش إلى أن ركب الدابة، وسار على النجبية. ثم زينب، وقيل: هي أسن من القاسم، ثم رُقَيَّة، وأم كلثوم، وفاطمة، وقد قيل في كل واحدة منهن: إنها أسنُّ من أختيها، وقد ذُكِرَ عن ابن عباس: أن رُقَيَّة أسن الثلاث، وأم كلثوم أصغرهن.

ثم ولد له عبد الله، وهل ولد بعد النبوة، أو قبلها؟ فيه اختلاف، وصحح بعضهم أنه ولد بعد النبوة، وهل هو الطيب والطاهر، أو هما غيره؟ على قولين. والصحيح: أنهما لقبان له، والله أعلم. وهؤلاء كلهم من خديجة، ولم يُولد له من زوجة غيرها.

ثم ولد له إبراهيم بالمدينة من سُرِّيَّة مارية القبطية، سنة ثمان من الهجرة، وبشَّره به أبو رافع مولاه، فوهب له عبداً، ومات طفلاً قبل الطعام، واختلف هل صلى عليه، أم لا؟ على قولين. وكل أولاده توفي قبله إلا فاطمة، فإنها تأخرت بعده بستة أشهر [البخاري: ٣٦٢٥، ومسلم: ٤٥٨٢] فرجع الله لها بصبرها واحتسابها من الدرجات ما فُضِّلَتْ به على نساء العالمين. وفاطمة أفضل بناته على الإطلاق، وقيل: إنها أفضل نساء العالمين، وقيل: بل أمها خديجة، وقيل: بل عائشة، وقيل: بل بالوقف في ذلك.

فصل

في أعمامه وعماته ﷺ

فمنهم أسدُ اللِّو وأسَدُ رسوله سيّدُ الشهداء حمزةُ ابن عبد المطلب، والعبَّاسُ، وأبو طالب واسمه عبد مناف، وأبو لهب واسمه عبد العزى، والزبير، وعبد الكعبة، والمقوم، وضرار، وقُثم، والمغيرة ولقبه حَجَل، والغدياق واسمه مصعب، وقيل: نوفل، وزاد بعضهم: العوام، ولم يُسلم منهم إلا حمزة والعبَّاس.

وأما عماته، فصفية أم الزبير بن العوام، وعاتكة، وبُرَّة، وأروى، وأميمة، وأم حكيم البيضاء. أسلم منهن صفية، واختلف في إسلام عاتكة وأروى، وصحح بعضهم إسلام أروى.

وأسن أعمامه: الحارث، وأصغرهم سنّاً: العباس، وعَقَبَ منه حتى ملا أولاده الأرض. وقيل: أحصوا في زمن المأمون، فبلغوا ستمئة ألف، وفي ذلك بُعْدٌ لا يخفى، وكذلك أعقب أبو طالب وأكثر، والحارث، وأبو لهب، وجعل بعضهم الحارث والمقوم واحداً، وبعضهم الغدياق وحجلاً واحداً.

فصل

في أزواجه ﷺ

(خديجة)

أولاهن خديجة بنت خُويلد القرشية الأسدية، تزوجها قبل النبوة، ولها أربعون سنة، ولم يتزوج عليها حتى ماتت، وأولاده كلُّهم منها إلا إبراهيم، وهي التي آزرته على النبوة، وجاهدت معه، وواسته بنفسها ومالها، وأرسل الله إليها السلام مع جبريل، وهذه خاصة لا تُعرف لامرأة سواها، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين.

(سودة)

ثم تزوج بعد موتها بأيام سودة بنت زُمَعة القرشية، وهي التي وهبت يومها لعائشة.

(عائشة)

ثم تزوج بعدها أم عبد الله عائشة الصُّدَيْقة بنت الصُّدَيْق، المبرأة من فوق سبع سماوات، حبيبة رسول الله ﷺ عائشة بنت أبي بكر الصُّدَيْق، وعرضها عليه المَلَكُ قبل نكاحها في سَرَقَةٍ من حرير، وقال: «هذه زوجتك» [البخاري: ٣٨٩٥، ومسلم: ٦٢٨٣] تزوج بها في شوال وعمرها ست سنين، وبنى بها في شوال في السنة الأولى من الهجرة وعمرها تسع سنين، ولم يتزوج بكرةً غيرها، وما نزل عليه الوحي في إحاف امرأة غيرها، وكانت أحبَّ الخلق إليه، ونزل عذرها من السماء، واتفقت الأمة على كفر قاذفها، وهي أفقه نسائه وأعلمهن، بل أفقه نساء الأمة وأعلمهن على الإطلاق، وكان الأكابر من أصحاب النبي ﷺ

يرجعون إلى قولها ويستفتونها. وقيل: إنها أسقطت من النبي ﷺ سِقْطاً، ولم يثبت.

(حفصة)

ثم تزوج حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذكر أبو داود أنه طلقها، ثم راجعها [صحيح: أبو داود: ٢٢٨٣، والنسائي: ٣٥٩٠، وابن ماجه: ٢٠١٦].

(زينب بنت خزيمة)

ثم تزوج زينب بنت خزيمة بن الحارث القيسية، من بني هلال بن عامر، وتوفيت عنده بعد ضمّه لها بشهرين.

(أم سلمة من ولي تزويجها)

ثم تزوج أم سلمة هند بنت أبي أمية القرشية المخزومية، واسم أبي أمية حذيفة بن المغيرة، وهي آخر نسائه موتاً. وقيل: آخرهن موتاً صغية. واختلف فيمن ولي تزويجها منه؟ فقال ابن سعد في «الطبقات»: «ولي تزويجها منه سلمة بن أبي سلمة دون غيره من أهل بيتها، ولما زوج النبي ﷺ سلمة بن أبي سلمة أمامة بنت حمزة التي اختصم فيها علي وجعفر وزيد قال: «هل جزيئ سلمة»^(١). يقول ذلك، لأن سلمة هو الذي تولى تزويجه دون غيره من أهلها، ذكر هذا في ترجمة سلمة، ثم ذكر في ترجمة أم سلمة عن الواقدي: حدثني مجمع بن يعقوب، عن أبي بكر بن محمد بن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ خطب أم سلمة إلى ابنها عمر بن أبي سلمة، فزوجها رسول الله ﷺ وهو يومئذ غلام صغير [ابن سعد في «الطبقات» (٩٨/٨) عن الواقدي وهو متروك].

وقال الإمام أحمد في «المسند»: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن أبي سلمة، حدثنا ثابت قال: حدثني ابن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أم سلمة أنها لما انقضت عدتها من أبي سلمة، بعث إليها رسول الله ﷺ، فقالت: مَرْحَباً برسول الله ﷺ إني امرأة غَيْرِي، وإني مُضِيَّةٌ، وَلَيْسَ أَحَدٌ من أوليائي حاضراً... الحديث، وفيه فقالت لابنها عمر: قم

فزوج رسول الله ﷺ، فزوجه [صحيح: أحمد: ٢٦٦٦٩، والنسائي (٨١/٦)]، وفي هذا نظر، فإن عمر هذا كان سنه لما توفي رسول الله ﷺ تسع سنين، ذكره ابن سعد، وتزوجها رسول الله ﷺ في شوال سنة أربع، فيكون له من العمر حينئذ ثلاث سنين، ومثل هذا لا يزوّج، قال ذلك ابن سعد وغيره، ولما قيل ذلك للإمام أحمد، قال: من يقول: إن عمر كان صغيراً؟! قال أبو الفرج بن الجوزي: ولعل أحمد قال هذا قبل أن يقف على مقدار سنه، وقد ذكر مقدار سنه جماعة من المؤرخين، ابن سعد وغيره. وقد قيل: إن الذي زوجها من رسول الله ﷺ ابن عمها عمر بن الخطاب، والحديث: «قم يا عمر فزوج رسول الله ﷺ». ونسب عمر، ونسب أم سلمة يلتقيان في كعب، فإنه عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب، وأم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب، فوافق اسم ابنها عمر اسمه، فقالت: قم يا عمر، فزوج رسول الله ﷺ، فظن بعض الرواة أنه ابنها، فرواه بالمعنى وقال: فقالت لابنها، وزهل عن تعذر ذلك عليه لصغر سنه، ونظير هذا وَهَم بعض الفقهاء في هذا الحديث، وروايتهم له، فقال رسول الله ﷺ: «قم يا غلام فزوج أمك». قال أبو الفرج بن الجوزي: وما عرفنا هذا في هذا الحديث، قال: وإن ثبت، فيحتمل أن يكون قاله على وجه المداعبة للصغير، إذ كان له من العمر يومئذ ثلاث سنين، لأن رسول الله ﷺ تزوجها في سنة أربع، ومات ولعمر تسع سنين، ورسول الله ﷺ لا يفتقر نكاحه إلى ولي. وقال ابن عقيل: ظاهر كلام أحمد أن النبي ﷺ لا يُشترط في نكاحه الولي، وأن ذلك من خصائصه.

(زينب بنت جحش)

ثم تزوج زينب بنت جحش من بني أسد بن خزيمة وهي ابنة عمته أئمة، وفيها نزل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا

(١) قال الحافظ في «الإصابة» (١١٧/٣) في ترجمة سلمة بن أبي سلمة بن عبد الأسد: قال ابن إسحاق: حدثني من لا أتهم عن عبد الله بن شداد قال: كان الذي زوج أم سلمة من النبي ﷺ سلمة بن أبي سلمة ابنها، زوجه النبي ﷺ أمامة بنت حمزة وهما صبيان صغيران فلم يجتمعا حتى ماتا فقال النبي ﷺ: «هل جزيئ سلمة».

فَضَّلَ زَيْدٌ مِّنْهَا وَلَمْ يَرْحَبْهَا) [الأحزاب: ٣٧]. وبذلك كانت تفتخر على نساء النبي ﷺ، وتقول زوجك أها ليكن، وزوجني الله من فوق سبع سموات [البخاري: ٧٤٢٠].

ومن خواصها أن الله سبحانه وتعالى كان هو وليها الذي زوجها لرسوله من فوق سماواته، وتوفيت في أول خلافة عمر بن الخطاب، وكانت أولاً عند زيد بن حارثة، وكان رسول الله ﷺ نبأه، فلما طلقها زيد، زوجه الله تعالى إياها لتأسى به أمته في نكاح أزواج من تبوؤه.

(جويرية)

وتزوج ﷺ جُويرية بنت الحارث بن أبي ضرار المصطلقية، وكانت من سبايا بني المصطلق، فجاءته تستعين به على كتابتها، فأدى عنها كتابتها وتزوجها.

(ام حبيبة)

ثم تزوج أم حبيبة، واسمها رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب القرشية الأموية. وقيل: اسمها هند، تزوجها وهي ببلاد الحبشة مهاجرة، وأصدقها عنه النجاشي أربعمئة دينار، وسيقت إليه من هناك، وماتت في أيام أخيها معاوية. هذا هو المعروف المتواتر عند أهل السير والتواريخ، وهو عندهم بمنزلة نكاحه لخديجة بمكة، ولحفصة بالمدينة، ولصفية بعد خبير.

(توهيم حديث عرض أبي سفيان ام حبيبة عليه ﷺ)

وأما حديث عكرمة بن عمار، عن أبي زميل، عن ابن عباس أن أبا سفيان قال للنبي ﷺ: «أَسْأَلُكَ ثَلَاثًا، فَأَعْظَاهُ إِيَّاهُنَّ، مِنْهَا: وَعِنْدِي أَجْمَلُ الْعَرَبِ أُمُّ حَبِيبَةَ أَزْوَاجِكَ إِيَّاهَا» [مسلم: ٦٤٠٩].

فهذا الحديث غلط لا خفاء به، قال أبو محمد بن حزم: وهو موضوع بلا شك، كذبته عكرمة بن عمار، وقال ابن الجوزي في هذا الحديث: هو وهم من بعض الرواة، لا شك فيه ولا تردد، وقد اتهموا به عكرمة بن عمار، لأن أهل التاريخ أجمعوا على أن أم حبيبة كانت تحت عبد الله بن جحش، وولدت له، وهاجر بها وهما مسلمان إلى أرض الحبشة، ثم تنصّر، وثبت أم حبيبة على إسلامها، فبعث رسول الله ﷺ إلى النجاشي يخطبها عليه، فزوجه إياها، وأصدقها عنه

صداقاً، وذلك في سنة سبع من الهجرة، وجاء أبو سفيان في زمن الهدنة فدخل عليها، فثنت فراش رسول الله ﷺ حتى لا يجلس عليه، ولا خلاف أن أبا سفيان ومعاوية أسلما في فتح مكة سنة ثمان.

وأيضاً ففي هذا الحديث أنه قال له: وتؤمرني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين، قال: نعم. ولا يعرف أن النبي ﷺ أمر أبا سفيان البتة.

وقد أكثر الناس الكلام في هذا الحديث، وتعددت طرقهم في وجهه، فمنهم من قال: الصحيح أنه تزوجها بعد الفتح لهذا الحديث، قال: ولا يُرد هذا بنقل المؤرخين، وهذه الطريقة باطلة عند من له أدنى علم بالسيرة وتواريخ ما قد كان.

وقالت طائفة: بل سأله أن يجدد له العقد تطيباً لقلبه، فإنه كان قد تزوجها بغير اختياره، وهذا باطل، لا يُظن بالنبي ﷺ، ولا يليق بعقل أبي سفيان، ولم يكن من ذلك شيء.

وقالت طائفة منهم البيهقي والمتنري: يحتل أن تكون هذه المسألة من أبي سفيان وقعت في بعض خرجاته إلى المدينة، وهو كافر حين سمع نعي زوج أم حبيبة بالحبشة، فلما ورد على هؤلاء ما لا جيلة لهم في دفعه من سؤاله أن يؤمره حتى يقاتل الكفار، وأن يتخذ ابنه كاتباً، قالوا: لعل هاتين المسألتين وقعتا منه بعد الفتح، فجمع الراوي ذلك كله في حديث واحد، والتسفف والتكلف الشديد الذي في هذا الكلام يُعني عن رده.

وقالت طائفة: للحديث معمل آخر صحيح، وهو أن يكون المعنى: أرضى أن تكون زوجتك الآن، فإنني قبل لم أكن راضياً، والآن فإنني قد رضيت، فأسألك أن تكون زوجتك، وهذا وأمثاله لو لم يكن قد سؤدت به الأوراق، وصنفت فيه الكتب، وحمله الناس، لكان الأولى بنا الرغبة عنه، لضيق الزمان عن كتابته وسماعه والاستغفال به، فإنه من زُبد الصدور لا من زُبدها.

وقالت طائفة: لما سمع أبو سفيان أن رسول الله ﷺ طلق نساءه لما آلى منهن، أقبل إلى المدينة، وقال للنبي ﷺ ما قال، ظناً منه أنه قد طلقها فيمن طلق، وهذا من جنس ما قبله.

عليه دليل، والله سبحانه لما خصه بنكاح الموهوبة له، قال فيها: ﴿عَالِمَكُ أَنتَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحراب: ٥٠]. ولم يقل هذا في المعقنة، ولا قاله رسول الله ﷺ ليقطع ناسي الأمة به في ذلك، فالله سبحانه أباح له نكاح امرأة من بنيته، لئلا يكون على الأمة حرج في نكاح أزواج من تبنته، فدل على أنه إذا نكح نكاحاً، فلائته الناسي به فيه، ما لم يأت عن الله ورسوله نص بالاختصاص وقطع الناسي، وهذا ظاهر.

ولتقرير هذه المسألة، ويسط الحجاج فيها، وتقرير أن جواز مثل هذا هو مقتضى الأصول والقياس موضع آخر، وإنما نهينا عليه تنبيهاً.

(ميمونة)

ثم تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية، وهي آخر من تزوج بها، تزوجها بمكة في عمرة القضاء بعد أن حل منها على الصحيح. وقيل: قبل إحلاله، هذا قول ابن عباس، وهم رضي الله عنه، فإن السفير بينهما بالنكاح أعلم الخلق بالقصة، وهو أبو رافع، وقد أخبر أنه تزوجها حلالاً، وقال: كنت أنا السفير بينهما، وابن عباس إذ ذاك له نحو العشر سنين أو فوقها، وكان غائباً عن القصة لم يحضرها، وأبو رافع رجل بالغ، وعلى يده دارت القصة، وهو أعلم بها، ولا يخفى أن مثل هذا الترجيح موجب للتقديم، وماتت في أيام معاوية، وقبرها بسرف^(١).

(ريحانة)

قيل: ومن أزواجه ريحانة بنت زيد النضرية. وقيل: القرظية، سببت يوم بني قريظة، فكانت صفى رسول الله ﷺ، فأعتقها وتزوجها، ثم طلقها تطليقة، ثم راجعها.

وقالت طائفة: بل كانت أمته، وكان يطؤها يملك اليمين حتى توفي عنها، فهي معدودة في السراي، لا في الزوجات، والقول الأول اختيار الواقدي، ووافقه عليه شرف الدين الدمياطي، وقال: هو الأثبت عند أهل العلم. وفيما قاله نظير، فإن المعروف أنها من سرايره، وإمامته، والله أعلم.

وقالت طائفة: بل الحديث صحيح، ولكن وقع الغلط والوهم من أحد الرواة في تسمية أم حبيبة، وإنما سأل أن يزوجه أختها رملة، ولا يبعد خفاء التحريم للجمع عليه، فقد خفي ذلك على ابنته، وهي أفقه منه وأعلم حين قالت لرسول الله ﷺ: هل لك في أختي بنت أبي سفيان؟ فقال: «أفعل ماذا؟» قالت: تنكحها. قال: «أو تحبين ذلك؟» قالت: لست لك بمُخْلِية، وأحب من شركتي في الخير أختي، قال: «فإنها لا تجل لي» [البخاري: ٥١٠١]. فهذه هي التي عرضها أبو سفيان على النبي ﷺ، فسمها الراوي من عنده أم حبيبة. وقيل: بل كانت كنيهاً أيضاً أم حبيبة، وهذا الجواب حسن لولا قوله في الحديث: فأعطاه رسول الله ﷺ ما سأل، فيقال حينئذ: هذه اللفظة وهم من الراوي، فإنه أعطاه بعض ما سأل، فقال الراوي: أعطاه ما سأل، أو أطلقها اتكلاً على فهم المخاطب أنه أعطاه ما يجوز إعطاؤه مما سأل، والله أعلم.

(صفية)

(جواز جعل عتق المرأة صداقاً)

وتزوج ﷺ صفية بنت حيي بن أخطب سيد بني النضير من ولد هارون بن عمران أخي موسى، فهي ابنة نبي، وزوجة نبي، وكانت من أجمل نساء العالمين، وكانت قد صارت له من الصفى أمة فأعتقها، وجعل عتقها صداقها، فصار ذلك سنة للأمة إلى يوم القيامة، أن يغتق الرجل أمته، ويجعل عتقها صداقها، غتصير زوجته بذلك، فإذا قال: أعتقت أمتي، وجعلت عتقها صداقها، أو قال: جعلت عتق أمتي صداقها، صح العتق والنكاح، وصارت زوجته من غير احتياج إلى تجلید عقد ولا ولي، وهو ظاهر مذهب أحمد وكثير من أهل الحديث.

وقالت طائفة: هذا خاص بالنبي ﷺ وهو مما خصه الله به في النكاح دون الأمة، وهذا قول الأئمة الثلاثة ومن وافقهم، والصحيح القول الأول، لأن الأصل عدم الاختصاص حتى يقوم

(١) سرف على وزن كنف: موضع قرب التنعيم.

فقال النبي ﷺ: «إِنَّهَا لَتَلْتَهُبُ عَلَيْهِ نَارًا» [البخاري: ٣٠٧٤، ٤٢٤٠، وسلم: ٣١٠] وفي «الموطأ»: أن الذي غلَّها مَذْعَمٌ [صحيح: «الموطأ» (٤٥٩/٢)]، وكلاهما قتل بخبير، والله أعلم.

ومنهم أَنْجَسُ الحادي [البخاري: ٦٢١٠، وسلم: ٦٠٣٦]، وَسَفِينَةُ بن فروخ، واسمه مهران، وسماه رسول الله ﷺ: «سَفِينَةُ» لأنهم كانوا يُحْمَلُونَهُ فِي السَّفَرِ مَتَاعَهُمْ، فقال: «أَنْتَ سَفِينَةُ» [حسن: أحمد: ٢١٩٢٨]. قال أبو حاتم: أعتقه رسول الله ﷺ، وقال غيره: أعتقته أُم سلمة [صحيح: أبو داود: ٣٩٣٢، وابن ماجه: ٢٥٢٦ مختصراً]. ومنهم أَنَسُ، ويكنى أبا مِشْرَح، وأفلح، وعُبيد، وطهمان، وهو كيسان، وذكران، ومهران، ومروان، وقيل: هذا خلاف في اسم طهمان، والله أعلم.

ومنهم حُنين، وسندر، وفضالة يمانى، ومابور خصي، وواقد، وأبو واقد، وقسام، وأبو عسيب، وأبو مُرَيْهبة.

ومن النساء سلمى أم رافع، وميمونة بنت سعد، وخضرة، ورضوى، ورزينة، وأم صُمَيْرَة، وميمونة بنت أبي عسيب، ومارية، وريحانة.

فصل

في خُدَّامِهِ ﷺ

فمنهم أَنَسُ بن مالك، وكان على حوائجه، وعَبْدُ اللَّهِ بن مسعود صاحب نعله، وسواكه، وعُقْبَة ابن عامر الجهني صاحب بقلته، يقوده في الأسفار، وأَسْلَحُ بن شريك، وكان صاحب راحلته، وبلال بن رباح المؤذن، وسعد، مَوْلِيَا أَبِي بَكْر الصديق، وأبو ذر الغفاري، وأيمن بن عبيد، وأمه أم أيمن مَوْلِيَا النبي ﷺ، وكان أيمن على مطهرته وحاجته.

فصل

في كُتَّابِهِ ﷺ

أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والزبير،

فهؤلاء نساؤه المعروفات اللاتي دخل بهن، وأما من خطبها ولم يتزوجها، ومن وهبت نفسها له، ولم يتزوجها، فنحو أربع أو خمس، وقال بعضهم: هن ثلاثون امرأة، وأهل العلم بسيرته وأحواله ﷺ لا يعرفون هذا، بل ينكرونها، والمعروف عندهم أنه بعث إلى الجونية ليتزوجها، فدخل عليها ليخطبها، فاستعاذت منه، فأعاذها ولم يتزوجها، وكذلك الكلبيّة، وكذلك التي رأى بكشعها بياضاً، فلم يدخل بها، والتي وهبت نفسها له فزوجهها غيره على سور من القرآن، هذا هو المحفوظ، والله أعلم.

ولا خلاف أنه ﷺ توفي عن تسع، وكان يقسم منهن لثمان: عائشة، وحفصة، وزينب بنت جحش، وأم سلمة، وصفية، وأم حبيبة، وميمونة، وسودة وجويرية.

وأول نساؤه لحوقاً به بعد وفاته ﷺ زينب بنت جحش سنة عشرين، وآخرهن موتاً أم سلمة، سنة اثنتين وستين في خلافة يزيد، والله أعلم.

فصل

في سراويلِهِ ﷺ

قال أبو عبيدة: كان له أربع: مارية وهي أم ولده إبراهيم، وريحانة وجارية أخرى جميلة أصابها في بعض السي، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش.

فصل

في مَوَالِيهِ ﷺ

فمنهم زيد بن حارثة بن شراحيل، جب رسول الله ﷺ، أعتقه وزوجه مولاته أُم أيمن، فولدت له أسامة.

ومنهم أسلم، وأبو رافع، وثوبان، وأبو غُبَّشَة سُكَيْم، وشقران واسمه صالح، ورباح نُوبِي، ويسار نُوبِي أيضاً، وهو قاتل المُزَنِّين، وَمِذْعَم، وَكَزْبَرَة نُوبِي أيضاً^(١)، وكان على ثَقْلِهِ^(٢) ﷺ، وكان يُمسك راحلته عند القتال يوم خيبر. وفي «صحيح البخاري»: أنه الذي غلَّ الشملة ذلك اليوم فَقُتِلَ،

(١) أهدها لرسول الله ﷺ هوبة بن علي الخنفي صاحب اليمامة.

(٢) الثَّقَلُ: العيال، ومتاع السفر، وما ينقل حملة من الأمتعة، وكل شيء نفيس مصون.

وختم به الكتب إلى الملوك، وبعث ستة نفر في يوم واحد في المحرم سنة سبع.

(الكتاب إلى النجاشي)

فأولهم عمرو بن أمية الضمري، بعثه إلى النجاشي، واسمه أصحمة بن أبجر، وتفسير «أصحمة» بالعربية: عطية، فعظم كتاب النبي ﷺ، ثم أسلم، وشهد شهادة الحق، وكان من أعلم الناس بالإنجيل، وصلى عليه النبي ﷺ يوم مات بالمدينة وهو بالحشة، هكذا قال جماعة، منهم الواقدي وغيره، وليس كما قال هؤلاء، فإن أصحمة النجاشي الذي صلى عليه رسول الله ﷺ ليس هو الذي كتب إليه، هذا الثاني لا يعرف إسلامه، بخلاف الأول، فإنه مات مسلماً [البخاري: ١١٣٣]. وقد روى مسلم في «صحيحه» من حديث قتادة، عن أنس قال: كَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى كِسْرَى، وَإِلَى قَيْصَرَ، وَإِلَى النَّجَاشِيِّ، وَإِلَى كُلِّ جَبَّارٍ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَلَيْسَ بِالنَّجَاشِيِّ الَّذِي صَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [مسلم: ٤٦٠٩]. وقال أبو محمد بن حزم: إن هذا النجاشي الذي بَعَثَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عمرو بن أمية الضمري، لم يُسَلِّم، والأول هو اختيار ابن سعد وغيره، والظاهر قول ابن حزم.

(الكتاب إلى هرقل)

وبعث دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر ملك الروم، واسمه هرقل، وهَمَّ بالإسلام وكاد، ولم يفعل، وقيل: بل أسلم، وليس بشيء.

وقد روى أبو حاتم ابن حبان في «صحيحه» عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يُظْلِقُ بِصُحُفَتِي هَذِهِ إِلَى قَيْصَرَ وَلَهُ الْجَنَّةُ؟» فَقَالَ رَجُلٌ مِّنَ الْقَوْمِ: «إِنْ لَمْ يَقْبَلْ؟» قَالَ: «وَأِنْ لَمْ يَقْبَلْ»، فَوَافَقَ قَيْصَرَ وَهُوَ يَأْتِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ قَدْ جُعِلَ عَلَيْهِ سِاسٌ لَا يَمُشِي عَلَيْهِ غَيْرُهُ، فَرَمَى بِالْكِتَابِ عَلَى السِّاسِ، وَتَنَحَّى، فَلَمَّا أَتَتْهُ قَيْصَرَ إِلَى الْكِتَابِ، أَخَذَهُ، فَتَادَى قَيْصَرُ: مَنْ صَاحِبُ الْكِتَابِ؟ فَهُوَ آمِنٌ، فَجَاءَ الرَّجُلُ؛ فَقَالَ: أَنَا. قَالَ: فَلِذَا قَدِمْتَ فَأَتَيْتِ، فَلَمَّا قَدِمَ، أَتَاهُ، فَأَمَرَ قَيْصَرَ بِأَبْوَابِ قَصْرِهِ فَعُلِّقَتْ، ثُمَّ أَمَرَ مُنَادِيًا يُنَادِي: أَلَا إِنَّ قَيْصَرَ قَدْ أَتَبَعَ مُحَمَّدًا، وَتَرَكَ النَّصْرَانِيَّةَ، فَأَقْبَلَ جُنْدُهُ وَقَدْ تَسَلَّحُوا حَتَّى

وعامر بن فهيرة، وعمرو بن العاص، وأبي بن كعب، وعبد الله بن الأرقم، وثابت بن قيس بن شماس، وحنظلة بن الربيع الأسدي، والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن رواحة، وخالد بن الوليد، وخالد بن سعيد بن العاص، وقيل: إنه أول من كتب له. ومعاوية بن أبي سفيان، وزيد بن ثابت وكان الزمهم لهذا الشأن وأخصهم به.

فصل

في كتبه ﷺ التي كتبها إلى أهل الإسلام في الشرائع

فمنها كتابه في الصدقات الذي كان عند أبي بكر، وكتبه أبو بكر لأنس بن مالك لما وجهه إلى البحرين [البخاري: ١٤٤٨] وعليه عمل الجمهور.

ومنها كتابه إلى أهل اليمن، وهو الكتاب الذي رواه أبو بكر بن عمرو بن حزم، عن أبيه، عن جده، وكذلك رواه الحاكم في «مستدركه»، والنسائي، وغيرهما مسنداً متصلاً، ورواه أبو داود وغيره مراسلاً [ضعيف: النسائي (٥٧/٨)، (٥٨)، والحاكم (٣٩٧/١)]، وهو كتاب عظيم، فيه أنواع كثيرة من الفقه، في الزكاة، والدييات، والأحكام، وذكر الكباثر، والطلاق، والعنق، وأحكام الصلاة في الثوب الواحد، والاحتباء فيه، ومس المصحف، وغير ذلك.

قال الإمام أحمد: لا شك أن رسول الله ﷺ كَتَبَهُ، واحتج الفقهاء كلهم بما فيه من مقادير الدييات.

ومنها كتابه إلى بني زهير.

ومنها كتابه الذي كان عند عمر بن الخطاب في نصب الزكاة، وغيرها [أبو داود: ١٥٦٨، والترمذي: ٦٦١، وابن ماجه: ١٧٩٨].

فصل

في كتبه ورسله ﷺ إلى الملوك

لما رجع من الحُدَيْبِيَّةِ، كتب إلى ملوك الأرض، وأرسل إليهم رسله، فكتب إلى ملك الروم، فقيل له: إنهم لا يقرؤون كتاباً إلا إذا كان مختوماً، فاتخذ خاتماً من فضة، ونقش عليه ثلاثة أسطر: محمد سطر، ورسول سطر، والله سطر [البخاري: ٥٨٧٧].

وَبَعَثَ سَلِيطَ بْنَ عَمْرٍو إِلَى هُوَذَةَ بْنِ عَلِيٍّ الْحَنْفِيِّ بِالْإِمَامَةِ، فَأَكْرَمَهُ. وَقِيلَ: بَعَثَهُ إِلَى هُوَذَةَ وَإِلَى ثُمَامَةَ بْنِ أَثَالِ الْحَنْفِيِّ، فَلَمْ يُسَلِّمْ هُوَذَةَ، وَأَسْلَمَ ثُمَامَةَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَهَؤُلَاءِ السِّتَةُ قِيلَ: هُمُ الَّذِينَ بَعَثَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ.

(الكتاب إلى عاملي عُمان)

وَبَعَثَ عَمْرٍو بْنُ الْعَاصِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ ثَمَانَ إِلَى جِيفَرٍ وَعَبْدِ اللَّهِ ابْنِي الْجُلَنْدِيِّ الْأَزْدِيِّ بِعُمان، فَأَسْلَمَا، وَصَدَقَا، وَخَلَا بَيْنَ عَمْرٍو وَبَيْنَ الصَّدَقَةِ وَالْحُكْمِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَلَمْ يَزَلْ فِيمَا بَيْنَهُمْ حَتَّى بَلَغَتْهُ وَفَاةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

(الكتاب إلى ملك البحرين)

وَبَعَثَ الْعَلَاءُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ إِلَى الْمَنْذَرِ بْنِ سَاوَى الْعَيْدِيِّ مَلِكِ الْبَحْرَيْنِ قَبْلَ مَنْصَرَفِهِ مِنَ «الْجِعْرَانَةِ»^(١). وَقِيلَ: قَبْلَ الْفَتْحِ فَأَسْلَمَ وَصَدَّقَ.

(الكتاب إلى ملك اليمن)

وَبَعَثَ الْمَهَاجِرُ بْنُ أَبِي أُمَيَّةِ الْمَخْزُومِيِّ إِلَى الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ كَلَالِ الْجَمِيرِيِّ بِالْيَمَنِ، فَقَالَ: سَأُنْظُرُ فِي أَمْرِي.

(بعوث أخرى)

وَبَعَثَ أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ، وَمَعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى الْيَمَنِ عِنْدَ انْصِرَافِهِ مِنْ تَبُوكَ. وَقِيلَ: بَلْ سَنَةَ عَشْرِ مِنْ زَيْعِ الْأَوَّلِ دَاعِيَيْنِ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَأَسْلَمَ عَامَةً أَهْلُهَا طَوْعًا مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ.

ثُمَّ بَعَثَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ إِلَيْهِمْ، وَوَفَّاهُ بِمَكَّةَ فِي حِجَّةِ الْوَدَاعِ.

وَبَعَثَ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيُّ إِلَى ذِي الْكَلَاعِ الْجَمِيرِيِّ، وَذِي عَمْرٍو، يَدْعُوهُمَا إِلَى الْإِسْلَامِ، فَأَسْلَمَا، وَتَوَفَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَجَرِيرَ عِنْدَهُمْ.

وَبَعَثَ عَمْرٍو بْنُ أُمَيَّةِ الضَّمْنَرِيِّ إِلَى مَسِيلَمَةَ الْكُذَّابِ بِكِتَابٍ، وَكُتِبَ إِلَيْهِ بِكِتَابٍ آخَرَ مَعَ

أَطَاوُفَا بِهِ، فَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: قَدْ تَرَى أَنِّي خَافْتُ عَلَى مَمْلَكَتِي، ثُمَّ أَمَرَ مُنَادِيَهُ قَنَادَى: أَلَا إِنَّ قَيْصَرَ قَدْ رَضِيَ عَنْكُمْ، وَإِنَّمَا اخْتَبَرَكُمْ لِنَظَرِ كَيْفَ صَبْرُكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فَارْجِعُوا فَانْصَرِفُوا، وَكُتِبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنِّي مُسْلِمٌ، وَبَعَثَ إِلَيْهِ بِدَنَانِيرَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ لَيْسَ بِمُسْلِمٍ وَهُوَ عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ»، وَقَسَمَ الدَّنَانِيرَ [صحيح: ابن حبان: ١٦٢٨].

(الكتاب إلى كسرى)

وَبَعَثَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ السَّهْمِيِّ إِلَى كَسْرَى، وَاسْمُهُ أَبُورِيزْ بْنِ هُرْمُزِ ابْنِ أَنْوَشِرَوَانَ، فَمَزَقَ كِتَابَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ مَزَّقْ مُلْكَهُ». فَمَزَقَ اللَّهُ مَلِكَهُ، وَمَلِكُ قَوْمِهِ [البخاري: ٤٤٢٤].

(الكتاب إلى المقوقس)

وَبَعَثَ حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى الْمُقَوَّقُسِ، وَاسْمُهُ جُرَيْجُ بْنُ مِينَاءَ مَلِكِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ عَظِيمِ الْقِبْطِ، فَقَالَ خَيْرًا، وَقَارِبَ الْأَمْرِ وَلَمْ يُسَلِّمْ، وَأَهْدَى لِلنَّبِيِّ ﷺ مَارِيَّةَ، وَاخْتَبَاهَا سِيرِينَ وَقَيْسَرِيَّ، فَتَسَرَّى مَارِيَّةَ، وَوَهَبَ سِيرِينَ لِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ، وَأَهْدَى لَهُ جَارِيَّةَ أُخْرَى، وَأَلْفَ مِثْقَالٍ ذَهَبًا، وَعِشْرِينَ ثَوْبًا مِنْ قِبَاطِي مِصْرَ، وَبَغْلَةَ شَهْبَاءَ وَهِيَ ذُلْدَلٌ، وَحِمَارًا أَشْهَبَ، وَهُوَ غُفِيرٌ، وَغُلَامًا خَصِيًّا يُقَالُ لَهُ: مَابُورٌ. وَقِيلَ: هُوَ ابْنُ عَمِّ مَارِيَّةَ، وَفَرْسًا وَهُوَ اللَّزَّازُ، وَقَدْ حَاحَ مِنْ زَجَاجٍ، وَعَسَلًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «صَنِّ الْأَخْيَاطَ بِمُلْكِهِ، وَلَا بَقَاءَ لِمُلْكِهِ» [ذكره ابن سعد في «الطبقات» (١/٢٦٠ - ٢٦١)، وانظر «الفتح» (٩٧/٧)].

(الكتاب إلى ملك البلقاء)

وَبَعَثَ شِجَاعُ بْنُ وَهَبِ الْأَسَدِيِّ إِلَى الْحَارِثِ بْنِ أَبِي شَيْمٍ الْفَسَّانِيِّ مَلِكِ الْبَلْقَاءِ، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَالْوَاقدِي. قِيلَ: إِنَّمَا تَوَجَّهَ لِجَبَلَةَ بْنِ الْأَيْهَمِ. وَقِيلَ: تَوَجَّهَ لَهَا مَعًا. وَقِيلَ: تَوَجَّهَ لَهْرَقْلَ مَعَ دُحْيَةَ بْنِ خَلِيفَةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) الجعرانة: بكسر أوله إجماعاً، ثم إن أصحاب الحديث يكسرون عنه ويشدون راءه، وأهل الإتيقان والأدب يخطئونهم ويسكتون العين ويخففون الراء. وقد حكى عن الإمام الشافعي رحمه الله أنه قال: المحدثون يخطئون في تشديد «الجعرانة» وتخفيف «الحديبية». والجعرانة بين مكة والطائف. وهي إلى مكة أقرب نزلها النبي ﷺ لما قسم غنائم هوازن مرجعه من غزوة حنين وأحرم منها ﷺ وله فيها مسجد.

السائب بن العوام أخى الزبير فلم يُسلم.

وبعث إلى فروة بن عمرو الجُدَامِي يدعوهُ إلى الإسلام. وقيل: لم يبعث إليه، وكان فروة عاملاً لقيصر بمعان، فأسلم، وكتب إلى النبي ﷺ بإسلامه، وبعث إليه هدية مع مسعود بن سعد، وهي بغلة شهباء يقال لها: فضة، وقرس يقال لها: الطَّرب، وحمار يقال له: يعفور، كذا قاله جماعة، والظاهر - والله أعلم - أن عفيراً ويعفور واحد، عفير تصغير يعفور تصغير الترخيم.

وبعث أثوباً وقيّاباً من سندس مَخْصُصٍ بالذهب، فقبل هديته، ووهب لمسعود بن سعد اثنتي عشرة أوقية ونشأ.

وبعث عياش بن أبي ربيعة المخزومي بكتاب إلى الحارث، ومسروح، ونعيم بن عبد كلال من جُمَيْر.

فصل

في مؤذنيه ﷺ

وكانوا أربعة: اثنان بالمدينة: بلال بن رباح، وهو أول من أذن لرسول الله ﷺ، وعمرو بن أم مكتوم القرشي العامري الأعمى، وبقاء سعد القرظ مولى عمار بن ياسر، وبمكة أبو محذورة واسمه أوس بن مغيرة الجمحي، وكان أبو محذورة منهم يرجع الأذان [صحيح: أبو داود: ٥٠٢، والترمذي: ١٩٢، والنسائي: ٦٣١، وابن ماجه: ٧٠٩]، وبثني الإقامة، وبلال لا يرجع، ويفرد الإقامة [البخاري: ٦٠٥، ومسلم: ٨٣٨]، فأخذ الشافعي رحمه الله وأهل مكة بأذان أبي محذورة، وإقامة بلال، وأخذ أبو حنيفة رحمه الله وأهل العراق بأذان بلال، وإقامة أبي محذورة، وأخذ الإمام أحمد رحمه الله وأهل الحديث وأهل المدينة بأذان بلال وإقامته، وخالف مالك رحمه الله في الموضوعين: إعادة التكبير، وتنشئة لفظ الإقامة، فإنه لا يكررها.

فصل

في أمرائه ﷺ

منهم باذان بن ساسان، من ولد بهرام جور، أمره

رسول الله ﷺ على أهل اليمن كلها بعد موت كسرى، فهو أول أمير في الإسلام على اليمن، وأول من أسلم من ملوك المعجم.

ثم أمر رسول الله ﷺ بعد موت باذان ابنه شهر بن باذان على صنعاء وأعمالها. ثم قُتِلَ شهر، فأمر رسول الله ﷺ على صنعاء خالد بن سعيد بن العاص.

وولّى رسول الله ﷺ المهاجر بن أبي أمية المخزومي كِنْدَةَ والصِّدْف، فتوفي رسول الله ﷺ ولم يَسِرْ إليها، فبعثه أبو بكر إلى قتال أناس من المرتدين.

وولّى زياد بن أمية الأنصاري حضرموت.

وولّى أبا موسى الأشعري زييد وعدن والساحل.

وولّى معاذ بن جبل الجند.

وولّى أبا سفيان صخر بن حرب نَجْرَانَ.

وولّى ابنه يزيد تيماء.

وولّى عَتَابَ بْنَ أَسِيد مَكَّةَ، وإقامة الموسم بالحج بالمسلمين سنة ثمان وله دون العشرين سنة.

وولّى علي بن أبي طالب الأخماس باليمن والقضاء بها.

وولّى عمرو بن العاص عُمان وأعمالها.

وولّى الصدقات جماعة كثيرة، لأنه كان لكل قبيلة وال يقبض صدقاتها، فمن هنا كثر عمال الصدقات.

وولّى أبا بكر إقامة الحج سنة تسع، وبعث في أثره علياً يقرأ على الناس سورة (براءة)، فقيل: لأن أولها نزل بعد خروج أبي بكر إلى الحج. وقيل: بل لأن عادة العرب كانت أنه لا يحلُّ العقود ويعقدها إلا المطاع، أو رجل من أهل بيته. وقيل: أردفه به عوناً له ومساعداً. ولهذا قال له الصديق: أمير أو مأمور؟ قال: بل مأمور [صحيح: النسائي (٢٤٧/٥)].

وأما أعداء الله الرافضة، فيقولون: عزله بعلي، وليس هذا بيدع من يهتهم واقتراهم.

واختلف الناس، هل كانت هذه الحجّة قد وقعت في شهر ذي الحجة، أو كانت في ذي القعدة من أجل النسيء؟ على قولين، والله أعلم.

فصل

في حرسه ﷺ

فمنهم سعد بن معاذ، حرسه يوم بدر حين نام في العريش، ومحمد بن مسلمة حرسه يوم أحد، والزبير بن العوام حرسه يوم الخندق.

ومنهم عبّاد بن بشر، وهو الذي كان على حرسه، وحرسه جماعة آخرون غير هؤلاء، فلما نزل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَتَوَسَّلُكَ مِنْ أَتَائِهِ﴾ [الْمائدة: ٦٧]. خرج على الناس فأخبرهم بها، وصرف الحرس [صحيح: الترمذي: ٣٠٤٩].

فصل

فيمن كان يضرب الأعناق بين يديه ﷺ

علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، ومحمد بن مسلمة، وعاصم بن ثابت بن أبي الأفلح، والضحاك بن سفيان الكلابي، وكان قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري منه ﷺ بمنزلة صاحب الشُرطة من الأمير [بخاري: ٧١٥٥] ووقف المغيرة بن شعبه على رأسه بالسيف يوم الحُدَيْيَةِ.

فصل

فيمن كان على نفقاته وخاتمه ونعله وسواكه

ومن كان يأذن عليه

كان بلال على نفقاته، ومعقيب بن أبي فاطمة الدؤسي على خاتمه، وابن مسعود على سواكه ونعله، وأذن عليه رباح الأسود وأنسة مولياه، وأنس بن مالك، وأبو موسى الأشعري.

فصل

في شعرائه وخطبائه ﷺ

كان من شعرائه الذين يذُبُّون عن الإسلام: كعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وحسان بن ثابت، وكان أشدهم على الكفار حسان بن ثابت وكعب بن مالك يُعِيرُهُم بالكفر والشرك، وكان خطيبه ثابت بن قيس بن شماس^(١).

فصل

في حُداته الذين كانوا يحدون بين يديه ﷺ

في السفر

منهم عبد الله بن رواحة، وأنجشة، وعامر بن الأكوع وعُثمُ سلمة بن الأكوع. وفي [صحيح مسلم]: كان لرسول الله ﷺ حَادٍ حَسَنُ الصَّوْتِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رُؤِيدًا يَا أَنْجَشَةُ، لَا تُكْسِرِ الْقَوَارِيرَ» [مسلم: ٦٠٤٠]. يعني ضعفة النساء.

فصل

في غزواته وبعوثه وسراياه ﷺ

غزواته كلها وبعوثه وسراياه كانت بعد الهجرة في مدة عشر سنين، فالغزوات سبع وعشرون، وقيل: خمس وعشرون، وقيل: تسع وعشرون، وقيل غير ذلك، قاتل منها في تسع: بدر، وأحد، والخندق، وقريظة، والمصطلق، وخيبر، والفتح، وحنين، والطائف. وقيل: قاتل في بني النضير والغابة ووادي القرى من أعمال خيبر.

وأما سراياه وبعوثه، فقريب من ستين، والغزوات الكبار الأمهات سبع: بدر، وأحد، والخندق، وخيبر، والفتح، وحنين، وتبوك. وفي شأن هذه الغزوات نزل القرآن، فسورة (الأنفال) سورة بدر، وفي أحد آخر سورة (آل عمران) من قوله: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١]. إلى قبيل آخرها بيسير، وفي قصة الخندق، وقريظة، وخيبر صدر (سورة الأحزاب)، وسورة (الحشر) في بني النضير، وفي قصة الحديبية وخيبر سورة (الفتح) وأشير فيها إلى الفتح، وذكر الفتح صريحاً في سورة (النصر).

وجرح منها ﷺ في غزوة واحدة وهي أحد، وقاتلت معه الملائكة منها في بدر وحنين، ونزلت الملائكة يوم الخندق، فزلزلت المشركين وهزمتهم، ورمى فيها الحصباء في وجوه المشركين فهربوا،

(١) ابن زهير بن مالك الأنصاري الخزرجي خطيب الأنصار، شهد أحداً وما بعدها من المشاهد، وقتل يوم اليمامة في خلافة أبي بكر شهيداً. «أسد الغابة» (١/ ٢٧٥).

وكان الفتحُ في غزوتين: بدر، وحنين. وقاتل بالمنجنيق منها في غزوة واحدة، وهي الطائف، وتحصّن في الخندق في واحدة، وهي الأحزاب أشار به عليه سلمان الفارسي رضي الله عنه.

فصل

في ذكر سلاحه وأثائه ﷺ

كان له تسعة أسياف:

مأثور، وهو أول سيف ملكه، ورثه من أبيه.

والعصْب، وذو الفقار، بكسر الفاء، وفتح الفاء، وكان لا يكاد يفارقه، وكانت قائمته وقبعته وحلقته وذوابته وبكراته ونعله من فضة. والقلمي، والبتار، والحتف، والرُسوب، والمخْذَم، والقضيب، وكان نعل سيفه فضة، وما بين ذلك حلق فضة.

وكان سيفه ذو الفقار تنقله يوم بدر، وهو الذي أرى فيها الرؤيا، ودخل يوم الفتح مكة وعلى سيفه ذهب وفضة.

وكان له سبعة أدرع:

ذات الفضول: وهي التي رهنها عند أبي الشحم اليهودي على شعير لعياله، وكان ثلاثين صاعاً، وكان الدّين إلى سنة، وكانت الدّرْع من حديد.

وذات الوشاح، وذات الحواشي، والسعدية، وفضة، والبراء، والجُرَيْق.

وكانت له سِتُّ قِسيّ: الزوراء، والروحاء، والصفراء، والبيضاء، والكتوم، كُبرِتَ يوم أحد، فأخذها قتادة بن النعمان، والسّدَاد.

وكانت له جَعْبَةٌ تدعى: الكافور، ومِنْطَقَةٌ من أديم منشور فيها ثلاث حلق من فضة، والإبريز من فضة، والطرف من فضة، وكذا قال بعضهم، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: لم يبلغنا أن النبي ﷺ شدَّ على وسطه منطقة.

وكان له ترس يقال له: الرُّلُوق، وترس يقال له: الفُتْق. قيل: وترس أهدي إليه، فيه صورة تمثال،

فوضع يده عليه، فأذهب الله ذلك التمثال.

وكانت له خمسة أرماح، يقال لأحدهم: المُنْوي، والآخر: المُنْثي، وحرية يقال لها: النبعة، وأخرى كبيرة تدعى: البيضاء، وأخرى صغيرة شبه العكاز يقال لها: العَنْزَةُ يُمشي بها بين يديه في الأعياد، تركز أمامه، فيتخذها سترة يُلصق إليها، وكان يمشي بها أحياناً.

وكان له مِغْفَر من حديد يقال له: الموشَّح، وشح بِشَبِّهِ^(١)، ومِغْفَر آخر يقال له: السبوغ، أو: ذو السبوغ.

وكان له ثلاث جِباب يلبسها في الحرب. قيل فيها: جبة سندس أخضر، والمعروف أن عروة بن الزبير كان له يلمق^(٢) من ديباج، بطانته سندس أخضر، يلبسه في الحرب، والإمام أحمد في إحدى روايته يُجَوِّزُ لبس الحرير في الحرب.

وكانت له راية سوداء يقال لها: المُقَاب. وفي «سنن أبي داود» عن رجل من الصحابة قال: رأيت راية رسول الله ﷺ صفراء [أبو داود: ٢٥٩٣]. وكانت له ألوية بيضاء، وربما جعل فيها الأسود.

وكان له فُسطاط يسمى: الكن، ومِحْجَن قدر ذراع أو أطول يمشي به ويركب به، ويُعلقه بين يديه على بعيره، ومِخْضَرَةٌ تسمى: العرجون، وقضيب من الشوحط يسمى: الممشوق. قيل: وهو الذي كان يتداوله الخلفاء.

وكان له قَدَح يسمى: الرِّيان، ويسمى مغنياً، وقَدَح آخر مضرب بسلسلة من فضة.

وكان له قَدَح من قوارير، وقَدَح من عيدان يوضع تحت سريره يبول فيه بالليل، وركوة تسمى: الصادرة، قيل: وتَوَزَّ^(٣) من حجارة يتوضأ منه، ومِخْضَب من شَبِّ، وقعب يسمى: السعة، ومغتسل من صُفْر، ومُدْمَن، ورَبْعَةٌ يجعل فيها المرأة والمشط. قيل: وكان المُشط من عاج، وهو الذَّبْلُ، ومكحلة يكتحل منها عند النوم ثلاثاً في كل عين بالإثمد، وكان في الرَبعة المقرضان والسواك.

(١) الثَّيْبَة والشَّهْبان، بتحريك الشين والباء: التحاس الأصفر وتكرس شينه.

(٢) هو القباء فارسي معرب.

(٣) إناء يشرب فيه.

وكان له من البغال دُلْدُل، وكانت شهباء، أهداها له المقوقس. وبغلة أخرى. يقال لها: «فضة»، أهداها له فروة الجذامي، وبغلة شهباء أهداها له صاحب أيلة، وأخرى أهداها له صاحب دومة الجندل، وقد قيل: إن النجاشي أهدى له بغلة فكان يركبها.

ومن الحمير عُفِير، وكان أشهب، أهداه له المقوقس ملك القبط، وحمار آخر أهداه له فروة الجذامي. وذكر أن سعد بن عبادة أعطى النبي ﷺ حماراً فركبه.

ومن الإبل القصواء، قيل: وهي التي هاجر عليها، والعضباء، والجداء، ولم يكن بهما غضب ولا جدع، وإنما سُميتا بذلك، وقيل: كان بأذنها غضب، فسميت به، وهل العضباء والجداء واحدة، أو اثنتان؟ فيه خلاف، والعضباء هي التي كانت لا تُسَبَق، ثم جاء أعرابي على قَعود فسبقها، فشق ذلك على المسلمين، فقال رسول الله ﷺ: «إِنْ حَقَّ عَلَى اللَّهِ أَلَا يَرْفَعَ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئاً إِلَّا وَضَعَهُ» (البخاري: ٦٥٠١). وغنم ﷺ يوم بدر جملاً مَهْرِيّاً لأبي جهل في أنفه بُرَّةٌ مِنْ فُضَّةٍ، فأهداه يوم الحديبية ليغيظ به المشركين [صحيح: أحمد: ٢٨٨٠، وأبو داود: ١٧٤٩، عن ابن عباس، والترمذي: ٨١٥، وابن ماجه: ٣٠٧٦، عن جابر].

وكانت له خمس وأربعون لِفْحَةً، وكانت له مَهْرِيَّةٌ أرسل بها إليه سعد بن عبادة من نَعَم بني عقيل. وكانت له مئة شاة وكان لا يُريد أن يزيد، كلما وَلَدَ له الراعي بهمة، ذبح مكانها شاة، وكانت له سبعُ أَعْتَر. مَنَائِحُ ترعاهن أم أيمن.

فصل

في ملابسه ﷺ

كانت له عِمَامَةٌ تُسَمَّى: السحاب، كسأها علياً، وكان يلبسها ويلبَسُ تحتها القَلَنْسُوءة. وكان يلبَسُ القَلَنْسُوءة بغير عمامة، ويلبَسُ العِمَامَةَ بغير قَلَنْسُوءة. وكان إذا اعتم، أرخى عِمَامَتَهُ بين كتفيه، كما رواه مسلم في «صحيحه» عن عمرو بن حريث قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ على المنبرِ وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ سَوْدَاءُ قَدْ أَرْخَى طَرَفَيْهَا بَيْنَ كَتِفَيْهِ [مسلم: ٣٣١٧].

وكانت له قصعة تُسَمَّى: الغراء، لها أربع حلق، يحملها أربعة رجال بينهم، وصاع، ومد، وقطيفة، وسرير قوائمه من ساج، أهداه له أسعد بن زرارة، وفراش من أَدَمٍ حشوه ليف.

وهذه الجملة قد رويت متفرقة في أحاديث.

وقد روى الطبراني في «معجمه» حديثاً جامعاً في الآتية من حديث ابن عباس قال: كان لرسول الله ﷺ سيفٌ قائمته من فضة، وقبعته من فضة، وكان يسمى: ذا القِفَار، وكانت له قوس تسمى: السداد، وكانت له كِنَانَةٌ تسمى: الجمع، وكانت له درع موشحة بالنحاس تسمى: ذات القُفُول، وكانت له حربة تسمى: النبءاء، وكان له مِحْجَنٌ يسمى: الدقن، وكان له ترس أبيض يسمى: الموجز، وكان له فرس أدهم يسمى: السَّكْب، وكان له سرج يسمى: الداج، وكانت له بغلة شهباء تسمى: دُلْدُل، وكانت له ناقة تسمى: القصواء، وكان له حمار يسمى: يعفور، وكان له بساط يسمى: الكن، وكانت له عتزة تسمى: القمرة، وكانت له رَكُوة تسمى: الصادرة، وكان له مقراض اسمه: الجامع، ومراة وقضيب شوحط يسمى: الموت.

فصل

في دوابه ﷺ

فمن الخيل: السَّكْب. قيل: وهو أول فرس ملكه، وكان اسمه عند الأعرابي الذي اشتراه منه بعشر أواق: الضرس، وكان أغرَّ محجلاً، طَلَقَ اليمين، كُتِبَتْ. وقيل: كان أدهم.

والمُرْتَجَز، وكان أشهب، وهو الذي شهد فيه خزيمة بن ثابت.

وَاللَّحِيفُ، وَاللَّزَاؤُ، وَالطَّرِبُ، وَنَبِيْحَةُ، وَالْوَزْدُ. فهذه سبعة متفق عليها، جمعها الإمام أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن جماعة الشافعي في بيت فقال: وَالْخَيْلُ سَكَبٌ لَحِيفٌ سَبِيْحَةٌ ظَرِبَ

لِزَارُ مُرْتَجَزُ وَزْدٌ لَهَا أَسْرَارُ أخبرني بذلك عنه ولده الإمام عز الدين عبد العزيز أبو عمرو، أعزه الله بطاعته.

وقيل: كانت له أفراس آخر خمسة عشر، ولكن مختلف فيها، وكان دفئا سرجه من ليف.

وفي مسلم أيضاً، عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ دخل مكة وعليه عمامة سوداء [مسلم: ٣٣٠٩]. ولم يذكر في حديث جابر: ذؤابة، فدل على أن الذؤابة لم يكن يرتجها دائماً بين كتفيه. وقد يقال: إنه دخل مكة وعليه أهبه القتال والمغفر^(١) على رأسه، فلبس في كل موطن ما يناسبه.

وكان شيخنا أبو العباس ابن تيمية قدس الله روحه في الجنة، يذكر في سبب الذؤابة شيئاً بديعاً، وهو أن النبي ﷺ إنما اتخذها صبيحة المنام الذي رآه في المدينة، لما رأى ربّ العزة تبارك وتعالى، فقال: «يَا مُحَمَّدُ فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: لَا أَذْرِي، فَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ^(٢)» فَعَلِمْتُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...^(٣) الحديث، وهو في الترمذي [صحیح: أحمد: ٢٥٨٠، والترمذي: ٣٣٣٣]، وسئل عنه البخاري، فقال: صحيح. قال^(٤): فمن تلك الحال أرخى الذؤابة^(٥) بين كتفيه، وهذا من العلم الذي تنكره السنة الجاهل وقلوبهم، ولم أر هذه الفائدة في إثبات الذؤابة لغيره.

وليس القميص وكان أحب الثياب إليه، وكان كُفَّهُ إلى الرُشْع، وليس الجبة والفروج وهو شبه القباء، والفرجية، وليس القباء أيضاً، وليس في السفرجية ضيقة الكُمَيْن، وليس الإزار والرداء. قال الواقدي: كان رداؤه وبرده طول ستة أذرع في ثلاثة وشبر، وإزاره من نسج عُمان طول أربعة أذرع وشبر في عرض ذراعين وشبر.

(النهى عن لبس الأحمر)

وليس حُلّة حمراء، والحلة: إزار ورداء، ولا تكون الحُلّة إلا اسماً للثوبين معاً، وغلط من ظن أنها كانت حمراء بحثاً لا يُخالطها غيره، وإنما

الحُلّة الحمراء: بردان يمانيان منسوجان بخطوط حمر مع الأسود، كسائر البرود اليمنية، وهي معروفة بهذا الاسم باعتبار ما فيها من الخطوط الحمر، وإلا فالأحمر البحث منهى عنه أشد النهي، ففي «صحیح البخاري» أن النبي ﷺ نهى عن المياثر الحمر [البخاري: ٥٨٤٩]. وفي «سنن أبي داود» عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ رأى عليه رِيظَةً مُضْرَجَةً بِالْعُصْفَرِ، فَقَالَ: «مَا هَذِهِ الرِيظَةُ الَّتِي عَلَيْكَ؟» فَعَرَفْتُ مَا كَرِهَ، فَأَتَيْتُ أَهْلِي وَهُمْ يَسْجُرُونَ تَوَرّاً لَهُمْ، فَقَذَفْتُهَا فِيهِ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ مِنَ الْعَدِ، فَقَالَ: «يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا فَعَلْتَ الرِيظَةُ؟» فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: «هَلَّا كَسَوْتَهَا بَعْضَ أَهْلِكَ، فَإِنَّهُ لَا بَأْسَ بِهَا لِلنِّسَاءِ» [حسن: أحمد: ٦٨٥٢، وأبو داود: ٤٠٦٦]. وفي «صحیح مسلم» عنه أيضاً، قال: رأى النبي ﷺ عليّ ثوبين معصفرين. فقال: «إِنَّ هَذِهِ مِنْ لِبَاسِ الْكُفَّارِ فَلَا تَلْبَسْهَا» [مسلم: ٥٤٣٤]. وفي «صحیحه» أيضاً عن علي رضي الله عنه قال: نهى النبي ﷺ عن لباس المعصفر [مسلم: ٥٤٣٧]. ومعلوم أن ذلك إنما يصح صيفاً أحمر. وفي بعض «السنن» أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر، فرأى علي رواحلهم أكسية فيها خطوط حمراء، فقال: «أَلَا أَرَى هَذِهِ الْحُمْرَةَ قَدْ عَلَتْكُمْ»، فَقَمْنَا سِرَاعاً لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى نَقَرَ بَعْضُ إِبِلِنَا، فَأَخَذْنَا الْأَكْسِيَةَ فَتَرَعْنَاهَا عَنْهَا. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ [ضعيف: أحمد: ١٥٨٠٧، وأبو داود: ٤٠٧٠].

وفي جواز لبس الأحمر من الشباب والجوخ وغيرها نظر. وأما كراهته، فشديدة جداً، فكيف يُظن بالنبي ﷺ أنه لبس الأحمر القاني، كلا لقد أعاده الله منه، وإنما وقعت الشبهة من لفظ الحُلّة الحمراء، والله أعلم. وليس الخميصة المُعَلَّمَة والساذجة، وليس ثوباً

(١) المغفر بوزن منبر: زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة، أو حلق يتقنع بها المتسلح.

(٢) قال العلامة علي القاري: وذلك كناية عن تخصيصه إياه بمزيد الفضل عليه، وإيصال الفيض إليه، فإن من شأن المتلطف بمن يحنو عليه أن يضع كفه بين كتفيه، تنبيهاً على أنه يريد بذلك تكريمه وتأييده.

(٣) يعني: أعلمه الله تعالى مما فيها من الملائكة وغيرها، وذلك كناية عن سمة علمه الذي فتح الله عليه، ولا يصح إطلاق القول بأنه علم جميع الكائنات التي في السماوات والأرض.

(٤) أي شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

(٥) الذؤابة في الأصل: ضفيرة الشعر المرسلة، والمراد بها هنا طرف العمامة.

أسود، ولبس القُروة المكفوفة بالسندس.

(٢٠٥/٨)، وابن ماجه: [١٤٧٢]. وفي «الصحیح» عن عائشة: أنها أخرجت كساءً ملبداً وإزاراً غليظاً، فقالت: قُبِضَ رُوحُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي هَذَيْنِ [البخاري: ٥٨١٨، ومسلم: ٥٤٤٢].

وروى الإمام أحمد، وأبو داود بإسنادهما عن أنس بن مالك: أن ملك الروم أهدى للنبي ﷺ مُسْتَقَّةً مِنْ سُنْدُسٍ، فلبسها، فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى يَدَيْهِ تَذْدَبَانِ [ضعيف: أحمد: ١٣٤٠، وأبو داود: ٤٠٤٧]. قال الأصمعي: المساتق: فراء طوال الأكمام. قال الخطابي: يشبه أن تكون هذه المستقة مكففة بالسندس، لأن نفس القروة لا تكون سندساً.

فصل

واشترى سراويل، والظاهر أنه إنما اشتراها ليلبسها، وقد روي في غير حديث أنه لبس السراويل، وكانوا يلبسون السراويلات بإذنه.

ولبس الخفين، ولبس النعل الذي يسمى الثَّاسُومَة.

ولبس الخاتم، واختلفت الأحاديث هل كان في يمينه أو يسراه، وكلها صحيحة السند.

ولبس البيضة التي تسمى: الخوذة، ولبس الدرع التي تسمى: الزردية، وظاهر يوم أحد بين الدرعين.

وفي «صحیح مسلم» عن أسماء بنت أبي بكر قالت: هذه جبة رسول الله ﷺ، فأخرجت جبة طيالة كبروانية لها لِيَتَّهَ دِيْبَاج. وفرجها مكفوفان بالديباج، فقالت: هَذِهِ كَانَتْ عِنْدَ عَائِشَةَ حَتَّى قُبِضَتْ، فَلَمَّا قُبِضَتْ قَبِضْتُهَا، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَلْبَسُهَا، فَفَتَحْتُ نَفْسِي لَهَا لِلْمَرْضَى يُسْتَشْفَى بِهَا [مسلم: ٥٤٠٩].

وكان له بردان أخضران، وكساء أسود، وكساء أحمر ملبد، وكساء من شعر.

وكان قميصه من قطن، وكان قصيرَ الطول، قصيرَ الكُمَيْنِ، وأما هذه الأكمام الواسعة الطوال التي هي كالأخراج، فلم يلبسها هو ولا أحدٌ من أصحابه البتة، وهي مخالفة لستته، وفي جوازها نظر، فإنها من جنس الخيلاء.

وكان أحبَّ الثياب إليه القميصُ والجِبرَةُ، وهي ضرب من البرود فيه حمرة.

وكان أحبَّ الألوان إليه البياضُ، وقال: «هِيَ مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ، فَأَلْبَسُوهَا، وَغَفَّوْا فِيهَا مَوَاتِكُمْ» [صحیح: أحمد: ٢٠١٥٤، وأبو داود: ٣٨٧٨، والترمذي: ٩٩٤، والنسائي

ولبس خاتماً من ذهب، ثم رمى به، ونهى عن التختُم بالذهب، ثم اتخذ خاتماً من فضة، ولم ينه عنه. وأما حديث أبي داود: أن النبي ﷺ نهى عن أشياء، وذكر منها: ونهى عن لبوس الخاتم إلا لذي سلطان. فلا أدري ما حال الحديث، ولا وجهه [ضعيف: أبو داود: ٤٠٤٩، والنسائي (١٤٣/٨)، والله أعلم.

وكان يجعل فصَّ خاتمه مما يلي باطن كفه. وذكر الترمذي أنه كان إذا دخل الخلاء نزع خاتمه، وصححه، وأنكره أبو داود [ضعيف: أبو داود: ١٩، والترمذي: ١٧٤٦، والنسائي (١٧٨/٨)، وابن ماجه: ٣٠٣].

(الإشارة إلى كراهة لبس الطيلسان)

وأما الطيلسان، فلم ينقل عنه أنه لبسه، ولا أحدٌ من أصحابه، بل قد ثبت في «صحیح مسلم» من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه ذكر الدُّجَال فقال: «يَخْرُجُ مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنْ يَهُودٍ أَضْبَهَانِ عَلَيْهِمُ الطَّيَالِسَةُ» [مسلم: ٧٣٩٧]. ورأى أنس جماعة عليهم الطيالة، فقال: مَا أَشَبَّهُهُمْ يَهُودَ خَيْبَر. ومن ما هنا كره لبسها جماعة من السلف والخلف، لما روى أبو داود، والحاكم في «المستدرک» عن ابن عمر، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ» [حسن: أبو داود: ٤٠٣١]. وفي الترمذي عنه ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ غَيْرِنَا» [حسن: الترمذي: ٢٦٩٦]. وأما ما جاء في حديث الهجرة أن النبي ﷺ جاء إلى أبي بكر مُتَمَتِّعاً بِالْهَاجِرَةِ، فإنما فعله النبي ﷺ تلك الساعة ليختفي بذلك، ففعله للحاجة، ولم تكن عادته التمتع، وقد ذكر أنس عنه ﷺ أنه كان يكثر القِنَاعَ، وهذا إنما كان يفعله - والله أعلم - للحاجة من الحرِّ ونحوه، وأيضاً ليس التمتع من التطيلس.

فصل

(غالب لبسه ﷺ هو وأصحابه القطن)

وكان غالبٌ ما يلبس هو وأصحابه ما تُسَيِّج من القطن، وربما لبسوا ما تُسَيِّج من الصوف والكثان،

وذكر الشيخ أبو إسحاق الأصبهاني بإسناد صحيح عن جابر بن أيوب قال: دخل الصَّلْتُ بن راشد على محمد بن سيرين وعليه جبة صوف، وإزار صوف، وعمامة صوف، فاشمأز منه محمد، وقال: أظن أن أقواماً يلبسون الصوف ويقولون: قد لبسه عيسى ابن مريم، وقد حدثني من لا أنهم أن النبي ﷺ قد لبس الكتان والصوف والقطن، وسنة نبينا أحق أن تتبع. ومقصود ابن سيرين بهذا أن أقواماً يرون أن لبس الصوف دائماً أفضل من غيره، فيتحرّونه ويمنعون أنفسهم من غيره، وكذلك يتحرّون زياً واحداً من الملابس، ويتحرّون رسوماً وأوضاعاً وهيئات يرون الخروج عنها منكراً، وليس المنكر إلا التقيد بها، والمحافظة عليها، وترك الخروج عنها.

(السنة لبس ما تيسر)

والصواب أن أفضل الطرق طريق رسول الله ﷺ التي سنّها، وأمر بها، ورغب فيها، وداوم عليها، وهي أن هديه في اللباس: أن يلبس ما تيسر من اللباس، من الصوف تارة، والقطن تارة، والكتان تارة.

ولبس البرود اليمانية، والبرد الأخضر، ولبس الجبة، والقباء، والقميص، والسراويل، والإزار، والرداء، والخف، والنعل، وأرخى الذؤابة من خلفه تارة، وتركها تارة.

وكان يتلحى بالعمامة تحت الحنك^(١).

وكان إذا استجدّ ثوباً، سماه باسمه، وقال: «اللَّهُمَّ أَنْتَ كَسَوْتَنِي هَذَا الْقَمِيصَ أَوْ الرِّدَاءَ أَوْ الْعِمَامَةَ، أَسْأَلُكَ خَيْرَهُ وَخَيْرَ مَا صُنِعَ لَهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ» [صحيح: أحمد: ١١٢٤٨، وأبو داود: ٤٠٢٠، والترمذي: ١٧٦٧].

(لبس البرد)

وكان إذا لبس قميصه، بدأ بميامنه. ولبس

الشعر الأسود، كما روى مسلم في «صحيحه» عن عائشة قالت: خرج رسول الله ﷺ وَعَلَيْهِ مِرْطٌ مُرَحَّلٌ مِنْ شَعَرِ أَسْوَدَ [مسلم: ٥٤٤٥]. وفي «الصحيحين» عن قتادة قلنا لأنس: أي اللباس كان أحب إلى رسول الله ﷺ؟ قال: الجبّة [البخاري: ٥٨١٢، ومسلم: ٥٤٤]. والحجرة: برد من برود اليمن^(٢). فإن غالب لباسهم كان من نسج اليمن، لأنها قرية منهم، وربما لبسوا ما يجلب من الشام ومصر، كالقباطي المنسوجة من الكتان التي كانت تنسجها القبط. وفي «سنن النسائي» عن عائشة: أنها جعلت للنبي ﷺ بردة من صوف، فلبسها، فلما عرق، فوجد ريح الصوف، طرحها، وكان يحبّ الرّيح الطيّب [صحيح: أحمد: ٢٥٠٠٣، والنسائي في «الكبرى»: ٩٥٦١].

وفي «سنن أبي داود» عن عبد الله بن عباس قال: لَقَدْ رَأَيْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِنَ الْحُلِيِّ [حسن: أبو داود: ٤٠٣٧]. وفي «سنن النسائي» عن أبي رزمة قال: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ وَعَلَيْهِ بُرْدَانِ أَخْضَرَانِ [صحيح: أحمد: ٧١١٧، وأبو داود: ٤٢٠٦، والترمذي: ٢٨١٣، والنسائي (٢٠٤/٨)]. والبُرد الأخضر: هو الذي فيه خطوط خضر، وهو كالحلة الحمراء سواء، فمن فهم من الحلة الحمراء الأحمر البحت، فينبغي أن يقول: إن البرد الأخضر كان أخضر بحتاً، وهذا لا يقوله أحد.

(مخدته ﷺ)

(الرد على من يمتنعون عما أباح الله)

(النهي عن لباس الشهرة سواء للفخر أو للتردد)

وكانت مَخْدَتُهُ ﷺ من أَدَمَ حَشَوْهَا لَيْفٌ، فالذين يمتنعون عما أباح الله من الملابس والمطاعم والمناكح تزهداً وتعبداً، بإزائهم طائفة قابلوهم، فلا يلبسون إلا أشرف الثياب، ولا يأكلون إلا ألين الطعام، فلا يرون لبس الحشيش ولا أكله تكبراً

(١) قال ابن قدامة في «المغني» (٣٠١/١): ومن شروط جواز المسح على العمامة أن تكون على صفة عمامات المسلمين بأن يكون تحت الحنك منها شيء، لأن هذه عمامات العرب، وهي أكثر سترًا من غيرها ويشق نزاعها، فيجوز المسح عليها سواء كانت لها ذؤابة أو لم يكن قاله القاضي، وسواء كانت صغيرة أو كبيرة، وإن لم يكن تحت الحنك منها شيء، ولا لها ذؤابة، لم يجز المسح عليها لأنها على صفة عمامات أهل الذمة، ولا يشق نزاعها.

(٢) وهي ثياب من كتان أو قطن محبرة، أي: مزينة، والتخثير: التزيين والتحسين.

تركه، كما ترك أكل الضَّبِّ لَمَّا لَمْ يَغْتَذِرْهُ ولم يحرمه على الأمة، بل أكل على مائدته وهو ينظر.

وأكل الحلوى والعسل، وكان يُحبهما، وأكل لحم الجوزور، والضأن، والدجاج، ولحم الحُبَارِي، ولحم جِمار الوحش، والأرنب، وطعام البحر، وأكل الشواء، وأكل الرُطْبَ والتمر، وشرب اللبن خالصاً ومشوباً، والسويق، والعسل بالماء، وشرب نقيع التمر، وأكل الحَزِيرَة، وهي حَسَاء يتخذ من اللبن والدقيق، وأكل القِثَاء بالرُطْبَ، وأكل الأَفْطَ، وأكل التمر بالخبز، وأكل الخبز بالخل، وأكل الثريد، وهو الخبز باللحم، وأكل الخبز بالإهالة، وهي الدوك، وهو الشحم المذاب، وأكل من الكَبِدِ المَشْوِيَّة، وأكل القَدِيد، وأكل الدُّبَاء المطبوخة، وكان يُحبها وأكل المسلوقة، وأكل الثريد بالسُّنن، وأكل الجُبْن، وأكل الخبز بالزيت، وأكل البطيخ بالرُطْبَ، وأكل التمر بالرُّبْد، وكان يُحبه، ولم يكن يردُّ طَيِّباً، ولا يتكلفه، بل كان هديه أكل ما تيسر، فإن أعوزَه، صَبَرَ حتى إنه ليربِّط على بطنه الحجر من الجوع، ويُرَى الهَلَالُ والهَلَالُ والهَلَالُ، ولا يُوقد في بيته نَارٌ. وكان معظم مطعمه يُوضع على الأرض في السُفرة، وهي كانت مائدته، وكان يأكل بأصابعه الثلاث، ويلبِّقها إذا فرغ، وهو أشرف ما يكون من الأكلة، فإن المتكبر يأكل بأصبع واحدة، والجشع الحريص يأكل بالخمس، ويدفع بالراحة.

وكان لا يأكل مُتَكَبِّراً، والاتكاء على ثلاثة أنواع، أحدها: الاتكاء على الجنب، والثاني: التربع، والثالث: الاتكاء على إحدى يديه، وأكله بالأخرى، والثلاث مذمومة.

وكان يسمي الله تعالى على أول طعامه، ويحمده في آخره فيقول عند انقضائه: «الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلَا مُوَدَّعٍ وَلَا مُسْتَفْتَى عَنْهُ رَبَّنَا» [البخاري: ٥٤٥٨]. وربما قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ، مَنْ عَلَيْنَا فَهَدَانَا، وَأَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكُلَّ بَلَاءٍ حَسَنٍ أَبْلَانَا، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَ مِنْ الطَّعَامِ، وَسَقَى مِنَ الشَّرَابِ، وَكَسَا مِنَ الْعُرَى، وَهَدَى مِنَ الضَّلَالَةِ، وَبَصَّرَ مِنَ الْعَمَى، وَفَضَّلَ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»

وتجبراً، وكلا الطائفتين هديه مخالِفٌ لهدى النبي ﷺ، ولهذا قال بعض السلف: كانوا يكرهون الشهرتين من الثياب: العالي، والمنخفض. وفي «السنن» عن ابن عمر يرفعه إلى النبي ﷺ: «مَنْ لَبَسَ ثَوْبَ شَهْرَةٍ، أَلَسَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَوْبَ مَذَلَّةٍ، ثُمَّ تَلَهَّبَ فِيهِ النَّارُ» [حسن: أحمد: ٥٦٦٤، وأبو داود: ٤٠٢٩، وابن ماجه: ٣٦٠٦] وهذا لأنه قصد به الاختيال والفخر، فعاقبه الله بنقيض ذلك، فأذله، كما عاقب من أطال ثيابه خيلاء بأن خسف به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة. وفي «الصحيحين» عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خِيَلَاءَ، لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [البخاري: ٥٧٩١، ومسلم: ٥٤٥٣]. وفي «السنن» عنه أيضاً ﷺ قال: «الْإِسْبَالُ فِي الْإِزَارِ، وَالْقَمِيصِ وَالْعِمَامَةِ، مَنْ جَرَّ شَيْئًا مِنْهَا خِيَلَاءَ، لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [حسن: أبو داود: ٤٠٩٤، والنسائي (٢٠٨/٨)، وابن ماجه: ٣٥٧٦]. وفي «السنن» عن ابن عمر أيضاً قال: مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْإِزَارِ، فَهُوَ فِي الْقَمِيصِ [إسناده قوي: أبو داود: ٤٠٩٥]، وكذلك لبس الدنيا من الثياب يُذَمُّ في موضع، ويُحمد في موضع، فيُذَمُّ إذا كان شهرةً وخيلاءً ويمدح إذا كان تواضعاً واستكانة، كما أن لبس الرفيع من الثياب يذم إذا كان تكبراً وفخراً وخيلاءً، ويمدح إذا كان تجملاً وإظهاراً لنعمة الله، ففي «صحيح مسلم» عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ خَرَدَلٍ مِنْ كِبَرٍ، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ خَرَدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبِي حَسَنًا، وَتُعْطِيَ حَسَنَةً، أَفِيمَنْ الْكِبَرِ ذَاكَ؟ فَقَالَ: «لَا، إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ: بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ» [مسلم: ٢٦٥].

فصل

(هديه ﷺ في الطعام)

وكذلك كان هديه ﷺ، وسيروته في الطعام، لا يردُّ موجوداً، ولا يتكلف مفقوداً، فما قُرِبَ إليه شيء من الطيبات إلا أكله، إلا أن تعافه نفسه، فيتركه من غير تحریم، وما عاب طعاماً قط، إن اشتهاه أكله، وإلا

[سند قوي: ابن حبان: ١٣٥٢].

وربما قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَ وَسَقَى،
وَسَوَّغَهُ» [صحيح: أبو داود: ٣٨٥١].

وكان إذا فرغ من طعامه لَعَقَ أصابعه، ولم يكن
لهم مناديلٌ يمسحون بها أيديهم، ولم يكن عادتهم
غسلَ أيديهم كلما أكلوا.

وكان أكثرُ شربه قاعداً، بل زجر عن الشرب قائماً
[مسلم: ٥٢٧٤] وشرب مرةً قائماً [البخاري: ٥٦١٥].
فقيل: هذا نسخٌ لنهيه، وقيل: بل فعله لبيان جواز
الأمرين، والذي يظهر فيه - والله أعلم - أنها واقعة
عين، شرب فيها قائماً لعذر، وسياق القصة يدل
عليه، فإنه أتى ززم وهم يستقون منها، فأخذ الدلو،
وشرب قائماً.

والصحيح في هذه المسألة: النهي عن الشرب
قائماً، وجوازه لعذر يمنع من القعود، وبهذا تجمع
أحاديث الباب، والله أعلم^(١).

وكان إذا شرب، ناول من على يمينه، وإن كان من
على يساره أكبر منه [البخاري: ٥٦١٢].

فصل

في هديه في النكاح ومعاشرته ﷺ أهله

صح عنه ﷺ من حديث أنس رضي الله عنه،
أنه ﷺ قال: «حَبَّبَ إِلَيَّ، مِنْ دُنْيَاكُمْ: النِّسَاءُ،
وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» [حسن: أحمد:
١٢٢٩، والنسائي (٦١/٧)] هذا لفظ الحديث، ومن رواه
«حَبَّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثَ»، فقد وهم، ولم
يقُلْ ﷺ: «ثَلَاثَ» والصلاة ليست من أمور الدنيا التي
تُضاف إليها. وكان النساء والطيب أحب شيء إليه،

وكان يطوف على نسائه في الليلة الواحدة، وكان قد
أعطى قوة ثلاثين في الجماع وغيره، وأباح الله له من
ذلك ما لم يُبيحه لأحد من أمته.

وكان يقسم بينهن في المبيت والإيواء والنفقة،
وأما المحبة فكان يقول: «اللَّهُمَّ هَذَا قَسِي فِيمَا
أُمْلِكُ، فَلَا تُلْغِنِي فِيمَا لَا أُمْلِكُ» [صحيح: أبو داود:
٢١٣٤، والترمذي: ١١٤٠، والنسائي (٦٤/٧)، وابن ماجه:
١٩٧١] فقيل: هو الحب والجماع، ولا تجب التسوية
في ذلك، لأنه مما لا يملك.

وهل كان القسُم واجباً عليه، أو كان له معاشرتهن
من غير قسم؟ على قولين للفقهاء.
فهو أكثر الأمة نساءً، قال ابن عباس: تزوجوا،
فَإِنَّ خَيْرَ هذه الأمة أكثرها نساءً [البخاري: ٥٠٦٩].

وطلق ﷺ، وراجع، وآلى إيلاءً مؤقتاً بشهر، ولم
يظهر أبداً، وأخطأ من قال: إنه ظاهر، خطأ عظيماً،
وإنما ذكرته هنا تنبيهاً على قبح خطئه ونسبته إلى ما
برأه الله منه.

وكانت سيرته مع أزواجه حسنَ المعاشرة، وحسنَ
الخلق.

وكان يُسرَّبُ إلى عائشة بنتِ الأنصار يلعبن
معهما^(٢). وكان إذا هويت شيئاً لا محذور فيه تابعها
عليه، وكانت إذا شربت من الإناء أخذه، فوضع فمه
في موضع فمها وشرب، وكان إذا تعرت عرقاً - وهو
العظم الذي عليه لحم - أخذه فوضع فمه موضع
فمها، وكان يتكىء في حجرها، ويقرأ القرآن ورأسه
في حجرها، وربما كانت حائضاً، وكان يأمرها وهي
حائض فتزُرُّ ثم يباشرها، وكان يقبلها وهو صائم،
وكان من لطفه وحسن خلقه مع أهله أنه يمكنها من

(١) قال الحافظ في «الفتح» (٧٣/٦٠، ٧٤): وسلك العلماء في ذلك مسالك:

أحدها: الترجيع وأن أحاديث الجواز أثبت من أحاديث النهي.

الثاني: دهوى نسخ أحاديث النهي.

الثالث: الجمع بين الخبرين بضرب من التأويل.

ثم قال: وسلك آخرون في الجمع بحمل أحاديث النهي على كراهة التنزيه، وأحاديث الجواز على بيانه، وهي طريقة
الخطابي وابن بطال في آخرين، وهذا أحسن المسالك وأسلمها وأبعدها من الاعتراض، وقد أشار الأثرم إلى ذلك أخيراً
فقال: إن ثبتت الكراهة حملت على الإرشاد والتأديب لا على التحريم، وبذلك جزم الطبري وأيده بأنه لو كان جائزاً ثم
حرمه، أو كان حراماً، ثم جوزوه، لبين النبي ﷺ ذلك بياناً واضحاً، فلما تعارضت الأخبار بذلك جمعنا بينها بهذا.

(٢) أي يرسلهن سرياً سرياً ويردهن إليها.

اللعب، ويربها الحبشة وهم يلعبون في مسجده، وهي متكنة على منكبيه تنظر، وسابقها في السفر على الأقدام مرتين، وتداخعا في خروجهما من المنزل مرة.

وكان إذا أراد سفراً، أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها، خرج بها معه، ولم يقض للبواقي شيئاً، وإلى هذا ذهب الجمهور.

وكان يقول: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي» [حسن: الترمذي: ٣٨٩٢، وابن ماجه: ١٩٧٧].

وربما مد يده إلى بعض نسائه في حضرة باقيهن [مسلم: ٣٦٢٨].

وكان إذا صلى العصر، دار على نسائه، فلذا منهن واستقرأ أحوالهن، فإذا جاء الليل، انقلب إلى بيت صاحبة الثوبة، فخصها بالليل. وقالت عائشة: كان لا يُفَضَّلُ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فِي مَكَّتِهِ عِنْدَهُمْ فِي الْقَسَمِ، وَقُلْ يَوْمَ إِلَّا كَانَ يَطُوفُ عَلَيْنَا جَمِيعاً، فَيَدْنُو مِنْ كُلِّ امْرَأَةٍ مِنْ غَيْرِ مَسِيسٍ حَتَّى يَبْلُغَ الَّتِي هُوَ فِي نَوْبِهَا، فَيُبَيِّتُ عِنْدَهَا [حسن: ابو داود: ٢١٣٥].

وكان يقسم لثمان منهن دون التاسعة، ووقع في «صحيح مسلم» [مسلم: ٣٦٣٣] من قول عطاء: إن التي لم يكن يقسم لها هي صفية بنت حيي، وهو غلط من عطاء رحمه الله، وإنما هي سودة، فإنها لما كبرت وهبت نوبتها لعائشة.

وكان يقسم لعائشة يومها ويوم سودة، وسبب هذا الوهم - والله أعلم - أنه كان قد وجد على صفية في شيء، فقالت لعائشة: هل لك أن تُرضي رسول الله ﷺ عني، وأحب لك يومي؟ قالت: نعم، فقعدت عائشة إلى جنب النبي ﷺ في يوم صفية، فقال: «إِنَّكَ عَنِّي يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ يَوْمُكَ»، فقالت: ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَأَخْبِرْتَهُ بِالْخَيْرِ، فَرَضِي عَنْهَا [ضعيف: ابن ماجه: ١٩٧٣]. وإنما كانت وهبتها ذلك اليوم وتلك الثوبة الخاصة، ويتعين ذلك، وإلا كان يكون القسم لسبع منهن، وهو خلاف الحديث الصحيح الذي لا ريب فيه أن القسم كان لثمان، والله أعلم. ولو اتفقت مثل هذه الواقعة لمن له أكثر من زوجتين، فوهبت إحداهن يومها للأخرى، فهل للزوج أن يوالي بين ليلة الموهوبة وليلتها

الأصلية وإن لم تكن ليلة الواهبة تليها، أو يجب عليه أن يجعل ليلتها هي الليلة التي كانت تستحقها الواهبة بعينها؟ على قولين في مذهب أحمد وغيره.

وكان ﷺ يأتي أهله آخر الليل، وأوله، فكان إذا جامع أول الليل، ربما اغتسل ونام، وربما توضأ ونام. وذكر أبو إسحاق السبيعي، عن الأسود، عن عائشة أنه كان ربما نام، ولم يمس ماء [صحيح: أحمد: ٢٣٥، وأبو داود: ٢٨٨، والترمذي: ١١٨، وابن ماجه: ٥٨٣] وهو غلط عند أئمة الحديث، وقد أشبعنا الكلام عليه في كتاب «تهذيب سنن أبي داود» وليضاح علله ومشكلاته.

وكان يطوف على نسائه بغسل واحد، وربما اغتسل عند كل واحدة، فعل هذا وهذا.

وكان إذا سافر وقَدِمَ، لم يطرق أهله ليلاً، وكان ينهى عن ذلك [البخاري: ٥٢٤٤، ومسلم: ٤٩٦٥].

فصل

في هديه وسيرته ﷺ في نومه وانتباهه

كان ينام على الفراش تارة، وعلى النطح تارة، وعلى الحصير تارة، وعلى الأرض تارة، وعلى السرير تارة بين رماله، وتارة على كساء أسود. قال عبادة بن تميم عن عمه: رأيت رسول الله ﷺ مُسْتَلْقياً في المسجد واضعاً إحدى رجله على الأخرى [البخاري: ٦٢٨٧، ومسلم: ٥٥٠٤].

وكان فراشه أدمًا حشوه ليف. وكان له منج ينام عليه يشي بشيتين، وثني له يوماً أربع ثنيات، فنهاهم عن ذلك وقال: «رُدُّوهُ إِلَى خَالِهِ الْأَوَّلِ، فَإِنَّهُ مَتَّعَنِي صَلَاتِي اللَّيْلَةَ» [الترمذي في «الشمائل»: ٣٢٢، وسنده منقطع]. والمقصود أنه نام على الفراش، وتغطى باللحاف، وقال لنسائه: «مَا أَتَانِي جَزِيلٌ وَأَنَا فِي لِحَافِ امْرَأَةٍ مِنْكُمْ غَيْرِ عَائِشَةَ» [البخاري: ٣٧٧٥].

وكانت وسادته أدمًا حشوها ليف.

وكان إذا أوى إلى فراشه للنوم قال: «يَا سَمِيكَ اللَّهُمَّ أَحْيَا وَأَمُوتْ» [البخاري: ٦٣١٢، ومسلم: ٦٨٨٧].

وكان يجمع كفَّيْهِ ثم ينفث فيهما، وكان يقرأ فيهما: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) و(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْعَلَمِينَ) و(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) ثم يسمح بهما ما استطاع من

جسده، يبدأ بهما على رأسه، ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات [البخاري: ٦٣١٩].

وكان ينام على شِقِّهِ الأيمن، ويضع يده اليمنى تحت خده الأيمن، ثم يقول: «اللَّهُمَّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ» [صحيح: أحمد: ٣٩٣١، وأبو داود: ٥٠٤٥، والترمذي: ٣٣٩٥]. وكان يقول إذا أوى إلى فراشه: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَكَفَانَا وَآوَانَا، فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤَوِّي». ذكره مسلم [٦٨٩٤]. وذكر أيضاً أنه كان يقول إذا أوى إلى فراشه: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، قَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى، مُنْزِلُ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ، فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ، فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ» [مسلم: ٦٨٨٩].

وكان إذا استيقظ من منامه في الليل قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ لِيَذْنِبِي، وَأَسْأَلُكَ رَحْمَتَكَ، اللَّهُمَّ زِدْنِي عِلْماً، وَلَا تَزِرْ قَلْبِي بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنِي، وَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ» [أبو داود: ٥٠٦١، وصححه ابن حبان: ٥٥٣١، والحاكم (١/٥٤٠) ووافقه الذهبي].

وكان إذا انتبه من نومه قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ» [البخاري: ٦٣٢٤، ومسلم: ٦٨٨٧]. ثم يتسوك، وربما قرأ العشر الآيات من آخر [آل عمران] من قوله: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ...» إلى آخرها [آل عمران: ١٩٠ - ٢٠٠] [البخاري: ١٨٣، ومسلم: ١٧٨٩]. وقال: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاعْفُزْ لِي مَا قَدَّمْتُ، وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ، وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ

إِلَهِي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» [البخاري: ٦٣١٧، ومسلم: ١٨٠٨]. وكان ينام أول الليل، ويقوم آخره، وربما سهر أول الليل في مصالح المسلمين، وكان تنام عيناه، ولا ينام قلبه. وكان إذا نام، لم يُوقظوه حتى يكون هو الذي يستقيظ. وكان إذا عَرَسَ بليل، اضطجع على شقه الأيمن، وإذا عَرَسَ قبيل الصبح، نصب ذراعه، ووضع رأسه على كفه [إسناده قوي: الترمذي في «الشمائل»: ٢٥٧]، هكذا قال الترمذي. وقال أبو حاتم في «صحيحه»: كان إذا عَرَسَ بالليل، توسد يمينه، وإذا عَرَسَ قبيل الصبح، نصب ساعده. وأظن هذا وهماً، والصواب حديث الترمذي.

وقال أبو حاتم: والتعريس إنما يكون قبيل الصبح.

وكان نومه أعدل النوم، وهو أنفع ما يكون من النوم، والأطباء يقولون: هو ثلث الليل والنهار، ثمان ساعات.

فصل

في هديه ﷺ في الركوب

ركب الخيل والإبل والبغال والحمير، وركب الفرس مُسْرِجَةً تارة، وَعَرِيًّا أُخْرَى، وكان يُجربها في بعض الأحيان، وكان يركب وحده، وهو الأكثر، وربما أَرْدَفَ خلفه على البعير، وربما أَرْدَفَ خلفه، وأركب أمامه، وكانوا ثلاثة على بعير، وأردف الرجال، وأردف بعض نسائه، وكان أكثرَ مراكبه الخيل والإبل. وأمّا البغال، فالمعروف أنه كان عنده منها بقلة واحدة أهداها له بعض الملوك، ولم تكن البغال مشهورة بأرض العرب، بل لما أهديت له البغلة قيل: ألا تُنْزِي الخيل على الحمير؟ فقال: «إِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» [صحيح: أحمد: ٧٦٦، وأبو داود: ٢٥٦٥، والنسائي: ٣٦١٠].

فصل

(اتخاذ الغنم والرقيق وعتقاؤه ﷺ)

من العبيد أكثر من الإماء والمواضع التي

تكون فيها الأنثى على النصف من الذكر

واتخذ رسول الله ﷺ الغنم. وكان له مئة شاة،

وكان لا يُحب أن يزيد على مئة، فإذا زادت بهمة، ذبح مكانها أخرى، واتخذ الرقيق من الإماء والعبيد، وكان مواله وعقّاقه من العبيد أكثر من الإماء. وقد روى الترمذي في «جامعه» من حديث أبي أمامة وغيره، عن النبي ﷺ أنه قال: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ أُعْتِقَ امْرَأَةً مُسْلِمًا، كَانَ فَكَاكُهُ مِنَ النَّارِ، يُجْزَى كُلُّ عَضْوٍ مِنْهُ عَضْوًا مِنْهُ، وَأَيُّمَا امْرَأَةٍ مُسْلِمٍ أُعْتِقَ امْرَأَتَيْنِ مُسْلِمَتَيْنِ، كَانَ فَكَاكُهُ مِنَ النَّارِ، يُجْزَى كُلُّ عَضْوَيْنِ مِنْهُمَا عَضْوًا مِنْهُ». وقال: هذا حديث صحيح (صحيح: أحمد: ١٠٨٠١، وأبو داود: ٣٩٦٧، والترمذي: ١٥٤٧، وابن ماجه: ٢٥٢٢). وهذا يدل على أن عتق العبد أفضل، وأن عتق العبد يُعَدُّ عتق امتين، فكان أكثر عتقائه ﷺ من العبيد، وهذا أحد المواضع الخمسة التي تكون فيها الأنثى على النصف من الذكر، والثاني: العقيقة، فإنه عن الأنثى شاة، وعن الذكر شاتان عند الجمهور، وفيه عدة أحاديث صحاح وحسان. والثالث: الشهادة، فإن شهادة امرأتين بشهادة رجل. والرابع: الميراث. والخامس: الدية.

فصل

(هديه ﷺ هي العقود)

وباع رسول الله ﷺ واشترى، وكان شراؤه بعد أن أكرمه الله تعالى برسالته أكثر من بيعه، وكذلك بعد الهجرة لا يكاد يُحفظ عنه البيع إلا في قضايا يسيرة أكثرها لغيره، كبيعة القدح والحلس فيمن يزيد، وبيعه يعقوب المدبّر غلام أبي مذكور، وبيعه عبدًا أسود بعبدين.

وأما شراؤه، فكثير، وأجر، واستأجر، واستجاره أكثر من إيجاره، وإنما يُحفظ عنه أنه أجر نفسه قبل النبوة في رعاية الغنم، وأجر نفسه من خديجة في سفره بمالها إلى الشام.

وإن كان العقد مضاربة، فالمضارب أمين، وأجير، ووكيل، وشريك، فأمين إذا قبض المال، ووكيل إذا تصرف فيه، وأجير فيما يُبأّشره بنفسه من العمل، وشريك إذا ظهر فيه الربح. وقد أخرج

الحاكم في «مستدرکه» من حديث الربيع بن بدر، عن أبي الزبير، عن جابر قال: أجر رسول الله ﷺ نفسه من خديجة بنت خويلد سفرتين إلى جَرَشَ، كل سفرَة بِقُلُوصٍ [الحاكم (١٨٧/٣)]، وقال: صحيح الإسناد.

قال في «النهاية»: جَرَشَ، بضم الجيم وفتح الراء من مخاليف اليمن، وهو بفتحهما بلد بالشام.

قلت: إن صح الحديث، فإنما هو المفتوح الذي بالشام، ولا يَصِحُّ، فإن الربيع بن بدر هذا هو عُثَيْلَةُ^(١)، ضعفه أئمة الحديث. قال النسائي والدارقطني والأزدي: متروك، وكان الحاكم ظنه الربيع بن بدر مولى طلحة بن عبيد الله.

وشارك رسول الله ﷺ، ولَمَّا قدم عليه شريكه قال: أما تَعْرِفُنِي؟ قال: «أما كُنْتُ شَرِيكِي؟ فَنِعَمْ الشَّرِيكُ كُنْتُ لَا تُدَارِي وَلَا تُمَارِي» [إسناده ضعيف: أحمد: ١٥٠٠٢، وأبو داود: ٤٨٣٦، وابن ماجه: ٢٢٨٧].

وتدارى بالهمزة من المداراة، وهي مدافعة الحق، فإن ترك همزها، صارت من المداراة، وهي المدافعة بالتي هي أحسن.

وَوَكَّلَ وَتَوَكَّلَ، وكان توكيله أكثر من توكّله.

وأهدى، وَقَبِلَ الهدية، وأثاب عليها، ووهب، وَاَتَهَبَ، فقال لسلمة بن الأكوع، وقد وقع في سهمه جارية: «هَبْهَا لِي». فَوَهَبَهَا لَهُ، فَقَادَى بِهَا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ أَسَارَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ [مسلم: ٤٥٧٣].

واستدان برهن، وبغير رهن، واستعار، واشترى بالثمن الحال والمؤجل.

(الضمان)

وَضَمِنَ ضَمَانًا خَاصًّا عَلَى رَبِّهِ عَلَى أَعْمَالٍ مَنْ عَمِلَهَا كَانَ مضمونًا له بِالْجَنَّةِ، وَضَمَانًا عَامًّا لِدْيُونٍ مِنْ تَوْفِيٍّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يَدَعْ وِفَاءً، أَنَهَا عَلَيْهِ وَهُوَ يُوفِيهَا [البخاري: ٦٧٣١، ومسلم: ٤١٥٧]. وقد قيل: إن هذا الحكم عام للأئمة بعده، فالسلطان ضامن لدْيُونِ المسلمين إذا لم يُخلفوا وِفَاءً، فإنها عليه يُوفِيها من بيت المال، وقالوا: كما يرثه إذا مات، ولم يَدَعْ

(١) في المطبوع «عليل» وهو تحريف، وإعلال المؤلف رحمه الله للحديث بالربيع بن بدر لا يتم له، لأنه متابع بنفس السند بحمدان بن مسعدة وهو ثقة.

وارثاً، فكذاك يقضي عنه دينه إذا مات ولم يدع
وفاة، وكذلك يُنْفَقُ عليه في حياته إذا لم يكن له مَنْ
يُنْفِقُ عليه. ووقف رسول الله ﷺ أرضاً كانت له،
جعلها صدقة في سبيل الله، وتشفع، وشفع إليه،
وردت بريرة شفاعته في مراجعتها مُغِيثاً، فلم يغضب
عليها، ولا عَظِبَ، وهو الأسوة والقدوة، وحلف في
أكثر من ثمانين موضعاً، وأمره الله سبحانه بالحلف
في ثلاثة مواضع، فقال تعالى: ﴿وَسَيُحْلِفُ أَحَقُّ هُوَ قُلٌّ
إِلَى وَرَثَةٍ إِنَّمَا لِحَقٍّ﴾ [يُونُس: ٥٣] وقال تعالى: ﴿وَقَالَ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْمُرُوا أَسَافَةً قُلٌّ بَلْ وَرَثَتُكُمْ﴾ [سَبَأ: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْطُوا قُلٌّ بَلْ وَرَثَتُهُمْ لِّلَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَرَفْتُمْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ سِيرٌ﴾ [التَّغَابُن: ٧].

وكان إسماعيل بن إسحاق القاضي يُذكر أبا بكر محمد بن داود الظاهري، ولا يُسميه بالفقيه، فتحاكم إليه يوماً هو وخصم له، فتوجهت اليمين على أبي بكر بن داود، فتبهاً للحلف، فقال له القاضي إسماعيل: أو تحلف ومثلك يحلف يا أبا بكر؟! فقال: وما يمنعني من الحلف وقد أمر الله تعالى نبيه بالحلف في ثلاثة مواضع من كتابه، قال: أين ذلك؟ فسردها له أبو بكر، فاستحسن ذلك منه جداً، ودعاه بالفقيه من ذلك اليوم.

وكان ﷺ يَسْتَنِي فِي يَمِينِهِ تَارَةً، وَيَكْفُرُهَا تَارَةً، وَيَمْضِي فِيهَا تَارَةً، وَالِاسْتِثْنَاءُ يَمْنَعُ عَقْدَ الْيَمِينِ، وَالْكَفَارَةُ تَحُلُّهَا بَعْدَ عَقْدِهَا، وَلِهَذَا سَمَّاها اللَّهُ تَحْلَةً.

وكان يُمازح، ويقول في مُزاحه الحقَّ، ويُوَرِّي، ولا يقول في توريته إلا الحقَّ، مثل أن يُريد جهة يقصدها فيسأل عن غيرها كيف طريقها؟ وكيف مياهاها؟ ومسلكها؟ أو نحو ذلك. وكان يُشير ويستشير.

فصل

وسابق رسول اللہ ﷺ بنفسه على الأقدام،
وصارح [أبو داود: ٤٠٧٨، والترمذي: ١٧٨٥]، وخَصَفَ
نعله بيده، وَرَقَعَ ثوبه بيده، وَرَقَعَ دلوهُ، وحلب شاته،
وَقَلَى ثوبَهُ، وخدم أهله ونفسه، وحمل معهم اللَّبَنَ في
بناء المسجد، وربط على بطنه الحجر من الجوع
تارة، وشيع تارة، وَأَصَافَ وَأَضِيفَ، واحتجم في
وَسَطِ رأسه، وعلى ظهر قدمه، واحتجم في
الأخدعين والكاهل وهو ما بين الكتفين، وتداوى،
وكوى ولم يَكْتَوِ، ورقى ولم يَسْتَرْقِ، وحمل المريض
مما يؤذيه.

وأصول الطب ثلاثة: الحِمية، وحِفْظُ الصحة، واستِئْراجُ المادةِ المضرة، وقد جمعها الله تعالى له ولأمته في ثلاثة مواضع من كتابه، فحمى المريض من استعمال الماء خشيَةً من الضرر، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَسْتُمْ عَلَى الْمَاءِ فَدُمُّوا عَلَيْكُمْ صَبِيحًا﴾ [النساء: ٤٣]. فأباح التيمم للمريض حِميةً له،

كما أباحه للعادم، وقال في حفظ الصحة: ﴿مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَمِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤]. فأباح للمسافر الفطر في رمضان حفظاً لصحته، لئلا يجتمع على قوته الصوم ومشقة السفر، فيضعف القوة والصحة. وقال في الاستفراغ في حلق الرأس للمحرم: ﴿مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ يَسُفِرُ فِي رَأْسِهِ فَمِنْ أَيِّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

[١٩٦]. فَأَبَاحَ للمريض وَمَنْ به أَذَى من رَأْسِهِ وهو مُحْرَمٌ أَن يَحْلِقَ رَأْسَهُ، وَيَسْتَفْرِغَ المَوَادَّ الفَاسِدَةَ، والأَبْخَرَةَ الرَدِيئَةَ الَّتِي تُؤَلَّدُ عَلَيْهِ القَمَلُ، كَمَا حَصَلَ لَكَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ، أَوْ تُؤَلَّدُ عَلَيْهِ المَرَضُ، وَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ هِيَ قَوَاعِدُ الطَّبِّ وَأَصُولُهُ، فَذَكَرَ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ مِنْهَا شَيْئاً، وَصُورَةً، تَنْبِيهاً بِهَا عَلَى نِعْمَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي أَمْثَالِهَا مِنْ جَفَمَتِهِمْ، وَحَفِظَ صِحَّتَهُمْ، وَاسْتَفْرَاغَ مَوَادِّ أَذَاهُمْ، رَحْمَةً لِعِبَادِهِ، وَلُطْفاً بِهِمْ، وَرَافِقَةً بِهِمْ، وَهُوَ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ.

فصل

في هديه ﷺ في معاملته

(السلف في العقود)

كان أحسن الناس مُعاملةً. وكان إذا استسلف سلفاً قضى خيراً منه [البخاري: ٢٣٩٢، ومسلم: ٤١١٢]. وكان إذا استسلف من رجل سلفاً، قضاء إياه، ودعا له، فقال: «بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، إِنَّمَا جَزَاءُ السَّلَفِ الْحَمْدُ وَالْأَدَاءُ» [صحيح: أحمد: ١٦٤١٠، والنسائي (٣١٤/٧)، وابن ماجه: ٢٤٢٤].

واستسلف من رجل أربعين صاعاً، فاحتاج الأنصاري، فأنابه، فقال ﷺ: «مَا جَاءَنَا مِنْ شَيْءٍ يَغْدُو». فقال الرجل: وأزاد أن يتكلم، فقال رسول الله ﷺ: «لَا تَقُلْ إِلَّا خَيْرًا، فَإِنَّا خَيْرُ مَنْ تَسَلَّفَ». فأعطاه أربعين فضلاً، وأربعين سلفة، فأعطاه ثمانين. ذكره البزار [البيهقي في مجموع الزوائد: (١٤١/٤)]. واقترض بعيراً، فجاء صاحبه يتقاضاه، فأغلظ للنبي ﷺ، فهم به أصحابه، فقال: «دَعُوهُ فَإِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالًا» [البخاري: ٢٣٠٦، ومسلم: ٤١١٠]. واشتري مرة شيئاً وليس عنده ثمنه فأربح فيه، فباعه، وتصدق بالربح على أرمال بني عبد المطلب، وقال: «لَا أَشْتَرِي بَعْدَ هَذَا شَيْئاً إِلَّا وَعِنْدِي ثَمَنُهُ». ذكره أبو داود [ضعيف: أبو داود: ٣٣٤٤]، وهذا لا يناقض الشراء في الذمة إلى أجل، فهذا شيء، وهذا شيء. وتقاضاه غريم له ديناً، فأغلظ عليه، فهم به عمر بن الخطاب فقال: «مَهْ يَا عُمَرُ كُنْتُ أَخْوَجَ إِلَى أَنْ تَأْمُرَنِي بِالْوَفَاءِ». وَكَانَ أَخْوَجَ إِلَى أَنْ تَأْمُرَهُ بِالصَّبْرِ [الحاكم (٣٢/٢)]، وباعه يهودي بيعاً إلى أجل، فجاءه قبل الأجل يتقاضاه ثمنه، فقال: لم يَجُلْ الأجل، فقال اليهودي: إنكم لمظلل يا بني عبد المطلب، فهم به أصحابه، فنهاهم، فلم يَزِدْهُ ذَلِكَ إِلَّا جِلْماً، فقال اليهودي: كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ قَدْ عَرَفْتَهُ مِنْ عِلَامَاتِ النُّبُوَّةِ، وبقيت واحدة، وهي أنه لا تزيده شدة الجهل عليه إِلَّا جِلْماً، فأردت أن أغْرِفَهَا، فأسلم اليهودي [ابن حبان: ٢٨٨].

فصل

في هديه ﷺ في مشيه وحده ومع أصحابه

كان إذا مشى، تكفأ تكفؤاً، وكان أسرع الناس

مشيةً، وأحسنها وأسكنها، قال أبو هريرة: ما رأيْتُ شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ، كان الشمس تجري في وجهه، وما رأيْتُ أحداً أسرع في مشيته من رسول الله ﷺ، كأنما الأرض تطوى له، وإنا لنَجْهَدُ أنفسنا وإنه لغير مُكْتَرِثٍ. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ إذا مشى تكفأ تكفؤاً كأنما ينحط من صَبَبٍ، وقال مرة: إذا مشى، تقلع. قلت: والتقلع: الارتفاع من الأرض بجملته، كحال المنحط من الصبب، وهي مشية أولي العزم والهمة والشجاعة، وهي أعدل المشيات وأروحها للأعضاء، وأبعدها من مشية الهَوَجِ والمهانة والتماوت، فإن الماشي، إما أن يتماوت في مشيه ويمشي قطعة واحدة، كأنه خشية محمولة، وهي مشية مذمومة قبيحة، وإما أن يمضي بانزعاج واضطراب مشي الجمل الأهوج، وهي مشية مذمومة أيضاً، وهي دالة على خفة عقل صاحباها، ولا سيما إن كان يكثر الالتفات حال مشيه يميناً وشمالاً، وإما أن يمضي هَوْنًا، وهي مشية عباد الرحمن، كما وصفهم بها في كتابه، فقال: ﴿وَيَسْجُدُونَ لِلَّهِ يَكُونُ بَشُورًا عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. قال غير واحد من السلف: بسكينة ووقار من غير تكبر ولا تماوت، وهي مشية رسول الله ﷺ، فإنه مع هذه المشية كان كأنما ينحط من صَبَبٍ، وكأنما الأرض تطوى له، حتى كان الماشي معه يُجْهَدُ نفسه ورسول الله ﷺ غير مُكْتَرِثٍ، وهذا يدل على أمرين: أن مشيته لم تكن مشية بتماوت ولا بمهانة، بل مشية أعدل المشيات.

(أنواع المشي)

والمشيات عشرة أنواع، هذه الثلاثة منها، والرابع: السعي. والخامس: الرَّمْلُ، وهو أسرع المشي مع تقارب الخطأ، ويسمى: الحَبَب، وفي الصحيح من حديث ابن عمر: أن النبي ﷺ حَبَّ فِي ظَوَافِرِهِ ثَلَاثًا، ومشى أربعاً [البخاري: ١٦٤٤].

السادس: التَّسْلَانُ، وهو العَدُو الخفيف الذي لا يُزْعَج الماشي، ولا يَكْرَهُهُ. وفي بعض المسانيد. أن المشاة شَكُّوا إلى رسول الله ﷺ من المشي في حجة الوداع، فقال: «اسْتَعِينُوا بِالتَّسْلَانِ» [صحيح: الحاكم (٤٤٣/١)].

والسابع: الخَوْزَلِي، وهي مشية التمايل، وهي مشية، يقال: إن فيها تكسراً وتخشناً.

والثامن: القهقري، وهي المشية إلى وراء.

والتاسع: الجَمْزَى، وهي مشية يَثْبُ فيها الماشي وثباً.

والعاشر: مشية التبختر، وهي مشية أولي العجب والتكبر، وهي التي خَسَفَ اللَّهُ سبحانه بصاحبها لما نظر في عِظْفَيْهِ وأعجبه نفسه، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة.

وأعدل هذه المشيات مشية الهَوْنِ والتكفُّ.

(مشيه مع أصحابه)

وأما مشيه مع أصحابه، فكانوا يمشون بين يديه وهو خلفهم، ويقول: «دَعُوا ظَهْرِي لِلْمَلَائِكَةِ» [صحيح: أحمد: ١٤٥٥٦، وابن ماجه: ٢٤٦] ولهذا جاء في الحديث: وكان يسوق أصحابه. وكان يمشي حافياً ومتعللاً، وكان يُمَاشِي أصحابه فَرَادَى وجماعة، ومشى في بعض غزواته مرة فَدَمِيت أَصْبَعُهُ، وسال منها الدم، فقال:

هَلْ أَنْتَ إِلَّا أَصْبُعٌ دَمِيتَ

وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتَ

[البخاري: ٦١٤٦، ومسلم: ٤٦٥٤]

وكان في السفر ساقاة أصحابه: يُزْجِي الضعيف، ويُردفه، ويدعولهم. ذكره أبو داود [صحيح: ٢٦٣٩].

فصل

في هديه ﷺ في جلوسه واثكائه

كان يجلس على الأرض، وعلى الحصير، والبساط، وقالت قَيْلَةُ بنت مَخْرَمَةَ: أتيت رسول الله ﷺ وهو قاعد القُرفُصاء، قالت: فلما رأيت رسول الله ﷺ كالمتخشع في الجلسة، أرعدت من الفرق. ولما قدم عليه عديُّ بن حاتم، دعاه إلى منزله، فألقت إليه الجارية وسادة يجلس عليها، فجعلها بينه وبين عدي، وجلس على الأرض. قال عدي: فعرفت أنه ليس بملك. وكان يستلقي أحياناً، وربما وضع إحدى رجله على الأخرى، وكان يتكىء

على الوسادة، وربما اتكأ على يساره، وربما اتكأ على يمينه. وكان إذا احتاج في خروجه، توكأ على بعض أصحابه من الضعف.

فصل

في هديه ﷺ عند قضاء الحاجة

كان إذا دخل الخلاء قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخُبْثِ وَالْخَبَائِثِ» [البخاري: ١٤٢، ومسلم: ٨٣١]، «الرُّجْسِ النَّجِسِ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» [ابن ماجه: ٢٩٩، بهذه الزيادة وسندها ضعيف].

وكان إذا خرج يقول: «عُفْرَانُكَ» [إسناده حسن: أحمد:

٢٥٢٢٠، وأبو داود: ٣٠، والترمذي: ٧، وابن ماجه: ٣٠٠].

وكان يستنجي بالماء تارة، ويستجير بالأحجار تارة، ويجمع بينهما تارة.

وكان إذا ذهب في سفره للحاجة، انطلق حتى يتوارى عن أصحابه، وربما كان يبعد نحو الميلىين.

وكان يستتر للحاجة بالهدف تارة، وَيَحَاشِي النَّخْل تارة، ويشجر الوادي تارة.

وكان إذا أراد أن يبول في عَزَازٍ من الأرض - وهو الموضع الصلب - أخذ عوداً من الأرض، فنكت به حتى يُثْرَى، ثم يبول.

(هل يجوز التبول قائماً؟)

وكان يرتاد لبوله الموضع الدِّمْت - وهو اللين الرخو من الأرض - وأكثر ما كان يبول وهو قاعد، حتى قالت عائشة: مَنْ حَدَّثَكُمْ أَنَّهُ كَانَ يَبُولُ قَائِماً، فلا تُصَدِّقُوهُ، ما كان يبول إلا قاعداً [صحيح: أحمد:

٢٥٠٤٥، والترمذي: ١٢، والنسائي (٢٦/١)، وابن ماجه: ٣٠٧] وقد روى مسلم في «صحيحه» من حديث حُذَيْفَةَ أَنَّهُ بَالَ قَائِماً [مسلم: ٦٧٤]. فقيل: هذا بيان للجواز. وقيل: إنما فعله من وجع كان يَمُاضِيهِ^(١). وقيل: فعله استشفاء. قال الشافعي رحمه الله: والعرب تستشفي من وجع الصُّلب بالببول قائماً، والصحيح أنه إنما فعل ذلك تنزهاً ويُعَدُّ من إصابة البول، فإنه إنما فعل هذا لما أتى سُبَاطَةَ قوم وهو ملقى الكُنَاسَةِ، وتسمى المزبلة، وهي تكون مرتفعة، فلو بال فيها

(١) تنبيه مأبُض: وهي باطن الركبة، وكان في المطبوع «مأبطه». وهو تحريف.

عليه، ثم قال: «إِنَّمَا رَدَدْتُ عَلَيْكَ خَشْيَةَ أَنْ تَقُولَ: سَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ سَلَامًا، فَإِذَا رَأَيْتَنِي هَكَذَا، فَلَا تُسَلِّمْ عَلَيَّ، فَإِنِّي لَا أُرَدُّ عَلَيْكَ السَّلَامَ». وقد قيل: لعل هذا كان مرتين، وقيل: حديث مسلم أصح، لأنه من حديث الضحاك بن عثمان، عن نافع، عن ابن عمر، وحديث البزار من رواية أبي بكر رجل من أولاد عبد الله بن عمر، عن نافع، عنه. قيل: وأبو بكر هذا: هو أبو بكر بن عمر بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر، روى عنه مالك وغيره، والضحاك أوثق منه^(١). وكان إذا استنجد بالماء، ضرب يده بعد ذلك على الأرض، وكان إذا جلس لحاجته، لم يرفع ثوبه حتى يدنو من الأرض.

فصل

في هديه ﷺ في الفطرة وتوابعها

قد سبق الخلاف هل وُلِدَ ﷺ مختوناً، أو خنته الملائكة يوم شُقَّ صدره لأول مرة، أو خنته جدّه عبد المطلب؟

وكان يُعجبه التيمن في تنعله وترجله وطهوره وأخذه وعطائه، وكانت يمينه لبطعامه وشرابه وطهوره، ويساره لإحلاله ونحوه من إزالة الأذى.

وكان هديه في حلق الرأس تركه كله، أو أخذه كله، ولم يكن يحلق بعضه، ويدع بعضه، ولم يحفظ عنه حلقه إلا في نسك.

وكان يُحب السواك، وكان يستاك مفطراً وصائماً، ويستاك عند الانتباه من النوم، وعند الوضوء، وعند الصلاة، وعند دخول المنزل، وكان يستاك يعود الأراك.

وكان يُكثر التطيب، ويحب الطيب، وذكر عنه أنه كان يَطْلِي بالثُورَةِ [ابن ماجه: ٣٧٥١، وإسناده منقطع]. وكان أولاً يَسْدُلُ شعره، ثم فرقه، والفرق: أن يجعل شعره فرقتين، كل فرقة ذؤابة، والسدل: أن يسدله من

الرجل قاعداً، لارتد عليه بوله، وهو ﷺ استتر بها، وجعلها بينه وبين الحائط، فلم يكن بد من بوله قائماً، والله أعلم.

وقد ذكر الترمذي عن عمر بن الخطاب قال: رأيته النبي ﷺ وأنا أبول قائماً، فقال: «يا عمر لا تَبُلْ قائماً»، قال: فما قلت قائماً بعد؟ [ضعيف: الترمذي: ١٢، وابن ماجه: ٣٠٨]. قال الترمذي: وإنما رفعه عبد الكريم بن أبي المخارق، وهو ضعيف عند أهل الحديث.

وفي «مسند البزار» وغيره من حديث عبد الله بن بُريدة عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «ثَلَاثٌ مِنَ الْجَفَاءِ: أَنْ يُبُولَ الرَّجُلُ قَائِماً، أَوْ يَمْسَحَ جَبْهَتَهُ قَبْلَ أَنْ يَفْرُغَ مِنْ صَلَاتِهِ، أَوْ يَنْفَعُ فِي سُجُودِهِ» [الهيثم في «مجمع الزوائد» (٨٣/٢)، وصححه البدر العيني في «صند القاري» (١٣٥/٣)]. ورواه الترمذي وقال: هو غير محفوظ، وقال البزار: لا نعلم من رواه عن عبد الله بن بُريدة إلا سعيد بن عبيد الله، ولم يجرحه بشيء. وقال ابن أبي حاتم: هو بصري ثقة مشهور.

وكان يخرج من الخلاء، فيقرأ القرآن، وكان يستنحي، ويستجمر بشماله، ولم يكن يصنع شيئاً مما يصنعه المبطلون بالوسواس من تَرَّ الذَّكْرِ، والنحنحة، والقفز، ومسك الحبل، وطلوع الدرج، وحشو القطن في الإحليل، وصب الماء فيه، وتفقد الفينة بعد الفينة، ونحو ذلك من يدع أهل الوسواس. وقد روي عنه ﷺ أنه كان إذا بَالَ، تَرَّ ذَكَرُهُ ثلاثاً [سند ضعيف: أحمد: ١٩٠٥٣، وابن ماجه: ٣٢٦]. وروي أنه أمر به، ولكن لا يصح من فعله ولا أمره. قاله أبو جعفر العُقيلي.

وكان إذا سلم عليه أحد وهو يُول، لم يردَّ عليه، ذكره مسلم في «صحيحه» عن ابن عمر [مسلم: ٨٢٣].

وروى البزار في «مسنده» في هذه القصة أنه ردَّ

(١) ذكر ذلك عبد الحق في «أحكامه»، ونقله عنه الزيلعي في «نصب الراية» وقد جاء التصريح باسمه في «المنتقى» ص (٢٧) لابن الجارود فقال: حدثنا محمد بن يحيى، ثنا عبد الله بن رجاء، ثنا سعيد يعني ابن أبي سلمة، ثنا أبو بكر وهو ابن عمر بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، عن نافع عن عبد الله... فذكر الحديث. وكذا جاء مصرحاً بذكر اسمه في مسند أبي العباس السراج فيما نقله الزيلعي عنه. ورجال إسناده ثقات.

حماد بن سلمة عن سِمْكَ بن حرب: قيل لجابر بن سمرة: أكان في رأس النبي ﷺ شيب؟ قال: لم يكن في رأسه شيب إلا شعرات في مَفْرَقِ رَأْسِهِ إِذَا أَدَّهَنَ وَأَرَاهُنَّ الذَّهْنَ. قال أنس: وكان رسول الله ﷺ يُكْثِرُ دُهْنَ رَأْسِهِ وَلَحْيَتِهِ، وَيُكْثِرُ الْقِنَاعَ كَانَ ثَوْبُهُ ثَوْبَ زِيَاةٍ [سند ضعيف: الترمذي في «الشمائل» ٣٢]. وكان يُحِبُّ التَّرْجُلَ، وكان يَرْجُلُ نَفْسَهُ تَارَةً، وَتَرْجُلُهُ عَائِشَةُ تَارَةً. وكان شعره فوق الجُمَّة ودُونَ الْوُفْرَةِ [حسن: أحمد: ٢٤٨٧١، وأبو داود: ٤١٨٧، والترمذي: ١٧٥٥، وابن ماجه: ٣٦٣٥]، وكانت جُمَّتُهُ تُضَرِبُ شَحْمَةَ أُذُنَيْهِ، وَإِذَا طَالَ، جَعَلَهُ غَدَائِرَ أَرْبَعًا، قَالَتْ أُمُّ هَانِيءٌ: قَدِمَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَّةَ قَدَمَةً، وَلَهُ أَرْبَعُ غَدَائِرَ، وَالْغَدَائِرُ: الضَّفَائِرُ، وَهَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ [صحيح: أحمد: ٢٦٨٩٠، وأبو داود: ٤١٩١، والترمذي: ١٧٨٢، وابن ماجه: ٣٦٣٢]. وكان ﷺ لَا يَرُدُّ الطَّيْبَ، وَثَبِتَ عَنْهُ فِي حَدِيثٍ «صَحِيحٌ مُسْلِمٌ» أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ غُرِضَ عَلَيْهِ رَيْحَانٌ فَلَا يَرُدُّهُ، فَإِنَّهُ طَيِّبُ الرَّائِحَةِ، خَفِيفُ الْمَحْمِلِ»، هَذَا لَفْظُ

ورائه وَلَا يَجْعَلُهُ فِرْقَتَيْنِ. وَلَمْ يَدْخُلْ حَمَامًا قَطُّ، وَلَعَلَّهُ مَا رَأَاهُ بَعِينَةً، وَلَمْ يَصْحَ فِي الْحَمَامِ حَدِيثٌ^(١).
وكان له مُكْمَلَةٌ يَكْتَجِلُ مِنْهَا كُلَّ لَيْلَةٍ ثَلَاثًا عِنْدَ النَّوْمِ فِي كُلِّ عَيْنٍ [حسن: أحمد: ٣٣٢٠، والترمذي: ٢٠٤٩، وابن ماجه: ٣٤٩٩]. واختلف الصحابة في خِضَابِهِ، فَقَالَ أَنَسٌ: لَمْ يَخْضِبْ. وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: خَضِبَ، وَقَدْ رَوَى حَمَادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ حُمَيْدٍ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: رَأَيْتُ شَعْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَخْضُوبًا، قَالَ حَمَادُ: وَأَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ عَقِيلٍ قَالَ: رَأَيْتُ شَعْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ مَخْضُوبًا، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِمَّا يُكْثِرُ الطَّيْبَ قَدْ أَحْمَرَّ شَعْرَهُ، فَكَانَ يُظَنُّ مَخْضُوبًا. وَلَمْ يَخْضِبْ. وَقَالَ أَبُو رَمْثَةَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَعَ ابْنِ لِي، فَقَالَ: «أَهَذَا ابْنُكَ؟» قُلْتُ: نَعَمْ أَشْهَدُ بِهِ، فَقَالَ: «لَا تَجْنِي عَلَيْهِ، وَلَا يَجْنِي عَلَيْكَ». قَالَ: وَرَأَيْتُ الشَّيْبَ أَحْمَرَ [صحيح: أحمد: ٧١١٣، وأبو داود: ٤٤٩٥]. قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا أَحْسَنُ شَيْءٍ رَوِيَ فِي هَذَا الْبَابِ وَأَفْسَرُهُ، لِأَنَّ الرِّوَايَاتِ الصَّحِيحَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَبْلُغِ الشَّيْبَ. قَالَ

(١) لقد أخطأ المؤلف رحمه الله في هذا النبي، فقد ورد في الباب ثلاثة أحاديث صحيحة.

الأول: حديث جابر مرفوعاً: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يدخل الحمام، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يدخل الحمام إلا بمئزر، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر». الترمذي (٢٨٠٢) وأخرجه الحاكم في «المستدرک» (٢٨٨/٤)، وأخرج النسائي (١٩٨/١) الشطر الأول منه، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حديث حسن غريب. وجود إسناده الحافظ ابن حجر، وله شواهد كثيرة انظرها في «الترغيب والترهيب» (٨٨/١) (٩١) في الطهارة: باب الترهيب من دخول الرجال الحمام بغير أزر. وفي «مجمع الزوائد» (١/٢٧٧، ٢٧٩) فهو صحيح.

الثاني: حديث أم الدرداء أخرجه أحمد (٢٧٠٣٨)، والدولابي في «الكنى والألقاب» (١٣٤/٢) بإسنادين أحدهما صحيح وقواه المنذري قالت: خرجت من الحمام، فلقيني رسول الله ﷺ فقال: «من أين يا أم الدرداء؟» قالت: من الحمام، فقال: «والذي نفسي بيده ما من امرأة تضع ثيابها في غير بيت أحد من أمهاتها إلا وهي هاتكة كل ستر بينها وبين الرحمن». وأورده الهيثمي في «المجمع» (٢٧٧/١) وقال: رواه أحمد والطبراني في «الكبير» بأسانيد، ورجال أحدهما رجال الصحيح.

الثالث: حديث أبي المليح قال: دخل نسوة من أهل الشام على عائشة رضي الله عنها فقالت: ممن أنتن؟ قلن: من أهل الشام، قالت: لعلكن من الكورة (المدينة) التي تدخل نساؤها الحمامات؟ قلن: نعم، قالت: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من امرأة تخلع ثيابها في غير بيتها إلا هتكت ما بينها وبين الله تعالى». أخرجه أبو داود (٤٠١٠)، والترمذي (٢٨٠٤)، وابن ماجه (٣٧٥٠) وحسنه الترمذي، وصححه الحاكم (٢٨٨/٤)، ووافقه الذهبي وهو كما قالوا. وفي هذه الأحاديث تأكيد مشروعية اتخاذ الحمامات في البيوت. وأخرج الحاكم (٢٨٨/٤) من حديث ابن عباس مرفوعاً: «اتقوا بيتاً يقال له الحمام». قالوا: يا رسول الله إنه يذهب الدرن وينفع المريض، قال: «فمن دخله، فليستتر». وصححه ووافقه الذهبي، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (١/١٠٣/٣)، والضياء المقدسي في «المختارة».

عن أنس قال: وَقَتَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ فِي قَصِّ الشَّارِبِ وَتَقْلِيمِ الْأَطْفَارِ، أَلَّا تَتَرَكَ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً [مسلم: ٥٩٩].

واختلف السلف في قَصِّ الشارب وحلقه أيهما أفضل؟ فقال مالك في «موطئه»: يُؤخذ من الشارب حتى تبدو أطراف الشفة وهو الإطار، ولا يجره فَيَمْتَلِ بنفسه. وذكر ابن عبد الحكم عن مالك قال: يُحفي الشارب، ويُعفي اللحي، وليس إحقاء الشارب حلقه، وأرى أن يُؤدَّب من حلق شاربه. وقال ابن القاسم عنه: إحقاء الشارب وحلقه عندي مثله، قال مالك: وتفسير حديث النبي ﷺ في إحقاء الشارب، إنما هو الإطار، وكان يكره أن يُؤخذ من أعلاه، وقال: أشهد في حلق الشارب أنه بدعة، وأرى أن يُوجَعَ ضرباً مَنْ فعله، قال مالك: وكان عمر بن الخطاب إذا كَرِهَ أمر، نفخ، فجعل رجله بردائه وهو يفتل شاربه. وقال عمر بن عبد العزيز: السنة في الشارب الإطار. وقال الطحاوي: ولم أجد عن الشافعي شيئاً منصوفاً في هذا، وأصحابه الذين رأينا المزني والربيع كانا يُحفيان شواربهما، ويدل ذلك على أنهما أخذاه عن الشافعي رحمه الله، قال: وأما أبو حنيفة وزفر وأبو يوسف ومحمد، فكان مذهبهم في شعر الرأس والشوارب أن الإحقاء أفضل من التقصير، وذكر ابن خُوَيز منداد المالكي عن الشافعي أن مذهبه في حلق الشارب كمذهب أبي حنيفة، وهذا قول أبي عمر. وأما الإمام أحمد، فقال الأثرم: رأيت الإمام أحمد بن حنبل يُحفي شاربه شديداً، وسمعت يُسأل عن السنة في إحقاء الشارب؟ فقال: يُحفي كما قال النبي ﷺ: «أَحْفُوا الشَّوَارِبَ». وقال حنبل: قيل لأبي عبد الله: ترى الرجل يأخذ شاربه، أو يُحفيه؟ أم كيف يأخذه؟ قال: إن أحفاه، فلا بأس، وإن أخذه قصاً فلا بأس. وقال أبو محمد بن قدامة المقدسي في «المغني»: وهو مخير بين أن يُحفيه، وبين أن يقصه من غير إحقاء. قال الطحاوي: وروى المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ أخذ من

الحديث، وبعضهم يرويه «مَنْ عَرِضَ عَلَيْهِ طِيبٌ فَلَا يَرُدُّهُ» [مسلم: ٥٨٨٣] وليس بمعناه، فإن الرياحان لا تكثر الميتة بأخذها، وقد جرت العادة بالتسامح في بذله، بخلاف المسك والعنبر والغالية ونحوها، ولكن الذي ثبت عنه من حديث عَزْرَةَ بن ثابت، عن ثُمَامَةَ، قال أنس: كان رسول الله ﷺ لَا يَرُدُّ الطِّيبَ [البخاري: ٥٩٢٩]. وأما حديث ابن عمر يرفعه: «ثَلَاثٌ لَا تُرَدُّ: الْوَسَائِدُ، وَالذُّهُنُ، وَاللِّبَنُ». فحديث معلول، رواه الترمذي وذكر علته، ولا أحفظ الآن ما قيل فيه، إلا أنه من رواية عبد الله بن مسلم بن جندب، عن أبيه، عن ابن عمر [حسن: الترمذي: ٢٧٩١]. ومن مراسيل أبي عثمان التَّهْدِي قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أُعْطِيَ أَحَدُكُمْ الرَّيْحَانُ، فَلَا يَرُدُّهُ، فَإِنَّهُ خَرَجَ مِنَ الْجَنَّةِ» [الترمذي: ٢٧٩٢، وسنده منقطع]. وكان لرسول الله ﷺ سَكَّةٌ^(١) يتطيب منها، وكان أحبَّ الطيب إليه المسك، وكان يُعجبه الفاغية قيل: وهي نَوَارِ الجَنَاءِ.

فصل

في هديه ﷺ في قص الشارب

قال أبو عمر بن عبد البر: روى الحسن بن صالح، عن سِمَاك، عن عِكْرَمَةَ، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان يقص شاربه، ويذكر أن إبراهيم كان يقص شاربه [الترمذي: ٢٧٦١، ورواية سَمَاك عن حكيم مبطورة]. ووقفه طائفة على ابن عباس. وروى الترمذي من حديث زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَمْ يَأْخُذْ مِنْ شَارِبِهِ، فَلَيْسَ مِنَّا». وقال: حديث صحيح [صحيح: أحمد: ١٩٢٦٣، والترمذي: ٢٧٦٢، والنسائي (٢٩/٨)]. وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قَصُّوا الشَّوَارِبَ، وَأَرْخُوا اللَّحَى، خَالِفُوا الْمَجُوسَ» [مسلم: ٦٠٣]. وفي «الصحيحين» عن ابن عمر، عن النبي ﷺ: «خَالِفُوا الْمُشْرِكِينَ، وَوَقِّرُوا اللَّحَى، وَأَحْفُوا الشَّوَارِبَ» [البخاري: ٥٨٩٢، ومسلم: ٦٠٢]. وفي «صحيح مسلم»

(١) في المطبوعة: «مسكة» وهو تحريف، والسكة: نوع من الطيب عزيز، وقيل: الظاهر أنه وعاء فيه طيب مجتمع من أخلاط شتى. والحديث أخرجه أبو داود (٤١٦٢)، والترمذي في «الشمائل» (٢١٧).

شاربه على سِوَاكَ [صحيح: احمد: ١٨٢١٢، وابو داود: ١٨٨]. وهذا لا يكون معه إحفاء. واحتج من لم ير إحفاءً بحديثي عائشة وأبي هريرة المرفوعين: «عشر من الفطرة...» فذكر منها قَصُّ الشَّارِبِ [مسلم: ٦٠٤]. وفي حديث أبي هريرة المتفق عليه «الفطرة خمس...» [البخاري: ٥٨٩١، ومسلم: ٥٩٧] وذكر منها قص الشارب.

واحتج المحفون بأحاديث الأمر بالإحفاء، وهي صحيحة، وبحديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يَجُزُّ شَارِبَهُ [الترمذي: ٢٧٦١]. قال الطحاوي: وهذا الأغلب فيه الإحفاء، وهو يحتمل الوجهين. وروى العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة يرفعه: «جُزُوا الشَّوَارِبَ، وَأَرْخُوا اللَّحَى» [مسلم: ٦٠٣]. قال: وهذا يحتمل الإحفاء أيضاً، وذكر بإسناده عن أبي سعيد، وأبي أسيد، ورافع بن خديج، وسهل بن سعد، وعبد الله بن عمر، وجابر، وأبي هريرة أنهم كانوا يُحْفُونَ شَوَارِبَهُمْ. وقال إبراهيم بن محمد بن حاطب: رأيت ابن عمر يُحْفِي شَارِبَهُ كَأَنَّهُ يَنْتِفِهِ. وقال بعضهم: حتى يُرى بياضُ الجلد. قال الطحاوي: ولما كان التقصير مسنوناً عند الجميع، كان الحلق فيه أفضل قياساً على الرأس، وقد دعا النبي ﷺ للمحلقين ثلاثاً وللمقصرين واحدة [البخاري: ١٧٢٨، ومسلم: ٣١٤٨]، فجعل حلق الرأس أفضل من تقصيره، فكذاك الشارب.

فصل

في هديه ﷺ في كلامه وسكوته
وضحكه وبكائه

كان ﷺ أنصح خلق الله، وأعذبهم كلاماً، وأسرعهم أداءً، وأحلامهم منطقاً، حتى إن كلامه لَيَأْخُذُ بمجامع القلوب، ويسبي الأرواح، ويشهد له بذلك أعداؤه. وكان إذا تكلم تكلم بكلام مُفْضِلٍ مُبَيَّنٍ يعده العاد، ليس بهذ مُسرِعٍ لا يُحْفَظ، ولا مُنْقَطِعٍ تخلله السكتات بين أفراد الكلام، بل هديه فيه أكمل الهدى، قالت عائشة: ما كان رسول الله ﷺ يَسْرُدُ سرّكهم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام يَبَيِّنُ فَضْلَ يحفظه من جلس إليه [البخاري: ٣٥٦٨، ومسلم: ٦٣٩٩]. وكان

كثيراً ما يُعِيدُ الكلام ثلاثاً لِيُعْقَلَ عنه، وكان إذا سلّم سلّم ثلاثاً. وكان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة، يَفْتَتِحُ الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلام، فصل لا فضول ولا تقصير، وكان لا يتكلم فيما لا يعنيه، ولا يتكلم إلا فيما يرجو نوابه، وإذا كره الشيء عُرِفَ في وجهه، ولم يكن فاحشاً، ولا متفحشاً، ولا صحاباً. وكان جُلُّ ضحكه التيسم، بل كلّه التيسم، فكان نهاية ضحكه أن تبدؤ نواجذه.

وكان يضحك مما يضحك منه، وهو مما يُعْجَب من مثله ويُستغرب وقوعه ويُستلذ.

(أسباب الضحك)

وللضحك أسباب عديدة، هذا أحدها. والثاني: ضحك الفرح، وهو أن يرى ما يسره أو يُبْاشره. والثالث: ضحك الغضب، وهو كثيراً ما يعتري الغضبان إذا اشتد غضبه، وسببه تعجب الغضبان مما أورد عليه الغضب، وشعور نفسه بالقدرة على خصمه، وأنه في قبضته، وقد يكون ضحكه لئلا يفسد نفسه عند الغضب، وإعراضه عن أغضبه، وعدم اكترائه به.

(بكاهه ﷺ)

وأما بكاهه ﷺ، فكان من جنس ضحكه، لم يكن بشهيق ورفع صوت كما لم يكن ضحكه بقهقهة، ولكن كانت تلمع عيناه حتى تهملأ، ويُسمع لصدره أزيز. وكان بكاهه تارة رحمة للميت، وتارة خوفاً على أمته وشفقة عليها، وتارة من خشية الله، وتارة عند سماع القرآن، وهو بكاء اشتياق ومحبة وإجلال، مصاحب للخوف والخشية. ولما مات ابنه إبراهيم، دمعت عيناه وبكى رحمة له، وقال: «تَذَمُّعُ الْعَيْنِ، وَخَزَنُ الْقَلْبِ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضِي رَبَّنَا، وَإِنَّا بِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ» [البخاري: ١٣٠٣، ومسلم: ٦٠٢٥]. وبكى لما شاهد إحدى بناته ونفسها تفيض، وبكى لما قرأ عليه ابن مسعود سورة (النساء) وانتهى فيها إلى قوله تعالى: ﴿كَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] [البخاري: ١٣٠٣، ومسلم: ١٨١٧] وبكى لما مات عثمان بن مظعون، وبكى لما كتفت الشمس، وصلى صلاة

الكسوف، وجعل يبكي في صلاته، وجعل ينفخ، ويقول: «رَبِّ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّا نَعُذُّهُمْ وَأَنَا فِيهِمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ، وَنَحْنُ نَسْتَغْفِرُكَ» [صحيح: أحمد: ٦٤٨٣، وأبو داود: ١١٩٤، والنسائي (١٣٧/٣)] وبكى لما جلس على قبر إحدى بناته [البخاري: ١٣٤٢] وكان يبكي أحياناً في صلاة الليل.

(أنواع البكاء)

والبكاء أنواع. أحدها: بكاء الرحمة، والرقعة.
والثاني: بكاء الخوف والخشية.
والثالث: بكاء المحبة والشوق.
والرابع: بكاء الفرح والسرور.
والخامس: بكاء الجزع من ورود المولم وعدم احتماله.
والسادس: بكاء الحزن.

(الفرق بين بكاء الحزن وبكاء الخوف)

والفرق بينه وبين بكاء الخوف، أن بكاء الحزن يكون على ما مضى من حصول مكروه، أو فوات محبوب، وبكاء الخوف يكون لما يتوقع في المستقبل من ذلك، والفرق بين بكاء السرور والفرح، وبكاء الحزن، أن دعة السرور باردة، والقلب فرحان، ودعة الحزن حارة، والقلب حزين، ولهذا يقال لما يُفرح به: هو قُرَّةُ عَيْنٍ، وأقرَّ اللهُ به عينه، ولما يُحزن: هو سخيَّةُ العين، وأسخن اللهُ عينه به.

والسابع: بكاء الخور والضعف.

والثامن: بكاء النفاق، وهو أن تدمع العين، والقلب قاسي، فيظهر صاحبه الخشوع، وهو من أفسى الناس قلباً.
والتاسع: البكاء المستعار والمستأجر عليه،

(هيات البكاء)

وما كان من ذلك دمعاً بلا صوت، فهو بكى، مقصور، وما كان معه صوت، فهو بكاء، ممدود على بناء الأصوات.
وقال الشاعر:

بَكَتْ عَيْنِي وَحَقُّ لَهَا بُكَاءُهَا

وَمَا يُغْنِي الْبُكَاءُ وَلَا الْقَوْلُ^(١)

وما كان منه مستدعي متكلفاً، فهو التباكي، وهو نوعان: محمود، ومذموم، فالمحمود، أن يُستجلب لِرقة القلب، ولخشية الله، لا للرياء والشمعة. والمذموم: أن يُجْتَلَب لأجل الخلق، وقد قال عمر بن الخطاب للنبي ﷺ وقد رآه يبكي هو وأبو بكر في شأن أسارى بدر: أخبرني ما يُبكيك يا رسول الله؟ فإن وجدت بكاءً بكيتُ، وإن لم أجد تباكيتُ لبكائكما [سلم: ٤٥٨٨]. ولم ينكر عليه ﷺ. وقد قال بعض السلف: ابكوا من خشية الله، فإن لم تبكوا، فتباكوا^(٢).

فصل

في هديه ﷺ في خطبته

خطب ﷺ على الأرض، وعلى المنبر، وعلى البعير، وعلى الناقة. وكان إذا خطب، احمرَّت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه حتى كأنه مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: «صَبَّحَكُمْ وَمَسَّكُمْ». ويقول: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ». وَيَقْرُنُ^(٣) بَيْنَ أَصْبَعَيْهِ السَّبَابَةِ

(١) البيت لعبد الله بن رواحة أو كعب بن مالك في «السيرة» (٥٢٢).

(٢) وقد جاء في المرفوع، ولكنه ضعيف، فقد أخرج ابن ماجه (١٣٣٧) من حديث سعد بن أبي وقاص مرفوعاً: «إن هذا القرآن نزل بحزن، فإذا قرأتموه، فابكوا، فإن لم تبكوا، فتباكوا». وفي إسناده أبو رافع واسمه إسماعيل بن رافع وهو ضعيف.

(٣) في النسخ المطبوعة: يفرق، وهو تحريف.

وَالْوُسْطَى، وَيَقُولُ: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهَذْيِ هَذَا مُحَمَّدٌ ﷺ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُعْدَنَاتُهَا، وَكُلُّ بِذْعَةٍ ضَلَالَةٌ» [مسلم: ٢٠٠٥].
[اللدنية: (٤٤٧/٧)].

وكان مدار خطبه على حمد الله، والثناء عليه بآلآئه، وأوصاف كماله ومحامده، وتعليم قواعد الإسلام، وذكر الجنة والنار والمعاد، والأمر بتقوى الله، وتبيين موارد غضبه، ومواقع رضاه فعلى هذا كان مدار خطبه.

وكان يقول في خطبه: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ لَنْ تُطِيقُوا - أَوْ لَنْ تَفْعَلُوا - كُلَّ مَا أُمِرْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ سَدَّدُوا وَأَبْشِرُوا» [حسن: أحمد: ١٧٨٦٥، وأبو داود: ٤٠٩٦].

وكان يخُطَبُ في كل وقت بما تقتضيه حاجة المخاطبين ومصلحتهم، ولم يكن يخُطَبُ خطبة إلا افتتحها بحمد الله، ويشهد فيها بكلمتي الشهادة، ويذكر فيها نفسه باسمه العلم.

وثبت عنه أنه قال: «كُلُّ خُطْبَةٍ لَيْسَ فِيهَا تَشَهُدٌ، فَهِيَ كَالْيَدِ الْجَذْمَاءِ» [صحيح: أحمد: ٨٥١٨، وأبو داود: ٤٨٤١، والترمذي: ١١٧٠٦].

ولم يكن له شاوئش يخرج بين يديه إذا خرج من حُجْرته، ولم يكن يلبس لباس الخطباء اليوم لا طُرحة، ولا زيقاً واسعاً.

(صفة منبره ﷺ)

وكان منبره ثلاث درجات، فإذا استوى عليه، واستقبل الناس، أخذ المؤذن في الأذان فقط، ولم يقل شيئاً قبله ولا بعده، فإذا أخذ في الخطبة، لم يرفع أحد صوته بشيء البتة، لا مؤذن ولا غيره.

(التوكؤ على العصا)

وكان إذا قام يخُطَبُ، أخذ عصاً، قترها عليها وهو على المنبر، كذا ذكره عنه أبو داود عن ابن شهاب [أبو داود: ١١٤٥]. وكان الخلفاء الثلاثة بعده يفعلون ذلك، وكان أحياناً يتوكأ على قوس، ولم يحفظ عنه أنه توكأ على سيف، وكثير من الجهلة يظن أنه كان يُعْمِكُ السيف على المنبر إشارة إلى أن الدين إنما قام بالسيف، وهذا جهل قبيح من وجهين، أحدهما: أن المحفوظ أنه ﷺ توكأ على العصا وعلى القوس. الثاني: أن الدين إنما قام بالوحي، وأما السيف، فليَمْحَقِ أهل الضلال والشرك، ومدينة النبي ﷺ التي

وكان لا يخُطَبُ خطبة إلا افتتحها بحمد الله. وأما قول كثير من الفقهاء: إنه يفتح خطبة الاستسقاء بالاستغفار، وخطبة العيدين بالتكبير، فليس معهم فيه سنة عن النبي ﷺ البتة، وسنته تقتضي خلافه، وهو افتتاح جميع الخطب بـ «الْحَمْدُ لِلَّهِ»، وهو أحد الوجوه الثلاثة لأصحاب أحمد، وهو اختيار شيخنا قدس الله سره.

وكان يخُطَبُ قائماً، وفي مراسيل عطاء وغيره: أنه كان ﷺ إذا صعد المنبر أقبل بوجهه على الناس، ثم قال: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ». قال الشعبي: وكان أبو بكر وعمر يفعلان ذلك [صحيح: عبد الرزاق: ٥٢٨١، والهيتمي في «المجمع» (١٨٤/٢)، والبيهقي (٢٠٤/٣)]. وكان يختم خطبته بالاستغفار، وكان كثيراً يخُطَبُ بالقرآن.

وفي «صحيح مسلم» عن أم هشام بنت حارثة قالت: ما أخذت «قِفْ وَالْقَرَّانِ الْمَجِيدِ» إِلَّا عَنْ لِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقْرُؤُهَا كُلُّ يَوْمٍ جُمُعَةٍ عَلَى الْمِنْبَرِ إِذَا خُطِبَ النَّاسُ [مسلم: ٢٠١٥]. وذكر أبو داود عن ابن مسعود أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا تَشَهُدَ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ، فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ، فَلَا مُدْبِيَّ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ، مَنْ يَطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقَدْ رَشَدَ وَمَنْ يَعْصِهِمَا، فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ، وَلَا يَضُرُّ اللَّهَ شَيْئًا» [أبو داود: ١٠٩٧،

ورواه أحمد: ٣٧٢٠، والترمذي: ١١٠٥، والنسائي (٨٩/٦) وابن ماجه: ٨٩٢] وقال أبو داود عن يونس أنه سأل ابن شهاب عن تشهد رسول الله ﷺ يوم الجمعة، فذكر نحو هذا إلا أنه قال: «وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَقَدْ عَوَى» [عمر: أبو داود: ١٠٩٨].

قال ابن شهاب: وبلغنا أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا خطب: «كُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ، لَا بَعْدَ لِمَا هُوَ آتٍ، وَلَا يُعْجِلُ اللَّهُ لِعَاجِلَةٍ أَحَدٍ، وَلَا يُخَفِّ لَأَمْرِ النَّاسِ، مَا شَاءَ اللَّهُ، لَا مَا شَاءَ النَّاسُ، يُرِيدُ اللَّهُ شَيْئًا وَيُرِيدُ النَّاسُ شَيْئًا، مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَلَوْ كَرِهَ النَّاسُ،

كان يخطب فيها إنما فُتِحَتْ بالقرآن، ولم تُفتح بالسيف.

وإن كُنْتُ عَلَى نَهْرٍ جَارٍ [ضعيف: أحمد: ٧٠٦٥، وابن ماجه: ٤٢٥].

وصح عنه أنه توضأ مرة مرة، ومرتين مرتين، وثلاثاً ثلاثاً، وفي بعض الأعضاء مرتين، وبعضها ثلاثاً.

(كيفية المضمضة والاستنشاق)

وكان يتمضمض ويستنشق تارة بغرفة، وتارة بغرفتين، وتارة بثلاث. وكان يصل بين المضمضة والاستنشاق، فيأخذ نصف الغرفة لغمه، ونصفها لأنفه، ولا يمكن في الغرفة إلا هذا، وأما الغرفتان والثلاث، فيمكن فيهما الفصل والوصل، إلا أن هديه ﷺ كان الوصل بينهما، كما في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن زيد: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَمَضَضُ واستنشق مِنْ كَفٍّ واحدة، فعل ذلك ثلاثاً وفي لفظ: تَمَضَضُ واستنثر بثلاثِ غَرَاقَاتٍ [البخاري: ١٥٩، ومسلم: ٥٥٥]. فهذا أصح ما روي في المضمضة والاستنشاق، ولم يجيء الفصل بين المضمضة والاستنشاق في حديث صحيح البتة، لكن في حديث طلحة بن مصرف، عن أبيه، عن جده: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَفْصِلُ بين المضمضة والاستنشاق. ولكن لا يروى إلا عن طلحة، عن أبيه، عن جده، ولا يعرف لجده صحبة [أبو داود: ١٣٩].

(مسح الرأس)

وكان يستنشق بيده اليمنى، ويستنثر باليسرى، وكان يمسح رأسه كله، وتارة يَقِيلُ بيديه وَيُذِيرُ، وعليه يُحْمَلُ حديث من قال: مسح برأسه مرتين. والصحيح أنه لم يكرر مسح رأسه، بل كان إذا كرر غَسَلَ الأعضاء، أفرد مسح الرأس، هكذا جاء عنه صريحاً، ولم يصح عنه ﷺ خلافه البتة، بل ما عدا هذا، إما صحيح غير صريح، كقول الصحابي: توضأ ثلاثاً ثلاثاً، وكفوله: مسح برأسه مرتين، وإما صريح غير صحيح، كحديث ابن اليماني، عن أبيه، عن عمر أن النبي ﷺ قال: «مَنْ تَوَضَّأَ فَغَسَلَ كَتِفَيْهِ ثَلَاثًا» [الدارقطني (٩٣/١)] ثم قال: «وَمَسَحَ بِرَأْسِهِ ثَلَاثًا». وهذا لا يحتج به، وابن اليماني وأبوه مضطربان، وإن كان الأب أحسن حالاً [الدارقطني (٩٣/١)]. وكحديث عثمان الذي رواه أبو داود أنه ﷺ: مَسَحَ رَأْسَهُ ثَلَاثًا [أبو داود: ١١٠]. وقال أبو داود: أحاديث

وكان إذا عرض له في خطبته عارض، اشتغل به، ثم رجع إلى خطبته، وكان يخطب، فجاء الحسن والحسين يعثران في قميصين أحمرين، فقطع كلامه، فنزل، فحملهما، ثم عاد إلى منبره، ثم قال: «صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ» «أَمَّا أَنْتُمَا وَآوَلَدُكُمَا فَسَنَةٌ» [الأنفال: ٢٨]. رَأَيْتُ هَذَيْنِ يَعَثُرَانِ فِي قَمِيصَيْهِمَا، فَلَمْ أَضِيرْ حَتَّى قَطَعْتُ كَلَامِي فَحَمَلْتُهُمَا» [أبو داود: ١١٠٩، والترمذي: ٣٧٧٦، والنسائي (١٠٨/٣) وابن ماجه: ٣٦٠٠].

وَجَاءَ سُلَيْكُ الْعَطْفَانِي وهو يخطب، فجلس، فقال له: «قُمْ يَا سُلَيْكُ فَارْكَعْ رَكَعَتَيْنِ وَتَجَوَّزْ فِيهِمَا»، ثم قال وهو على المنبر: «إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ، فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ وَلْيَتَجَوَّزْ فِيهِمَا» [البخاري: ٩٣٠، ومسلم: ٢٠٢٢].

وكان يقصر خطبته أحياناً، ويُطِيلُهَا أحياناً بحسب حاجة الناس. وكانت خطبته العارضة أطول من خطبته الراهية. وكان يخطب النساء على جِدة في الأعياد، ويحضرهنَّ على الصدقة [البخاري: ٩٧٨، والله أعلم].

فصول

في هديه ﷺ في العبادات

فصل

في هديه ﷺ في الوضوء

كان ﷺ يتوضأ لكل صلاة في غالب أحيانه، وربما صلى الصَّلَاةَ بوضوء واحد [مسلم: ٦٤٢]. وكان يتوضأ بالمُد تارة، وبثلثي تارة، وبأزيد منه تارة، وذلك نحو أربع أواق بالدمشقي إلى أوقيتين وثلاث. وكان مِنْ أيسر النَّاسِ صَبًّا لماء الوضوء، وكان يُحَذِّرُ أمته من الإسراف فيه، وأخبر أنه يكون في أمته مَنْ يعتدي في الطهور [صحيح: أحمد: ١٤٨٣، وأبو داود: ٩٦، وابن ماجه: ٤٢٢، وقال: «إِنَّ لِلْوُضُوءِ شَيْطَانًا يُقَالُ لَهُ الْوُلْهَانُ فَاتَّقُوا وَتَوَاسَّ الْمَاءَ» [سنده ضعيف جداً: أحمد: ٧١٣٣٨، والترمذي: ٥٧، وابن ماجه: ٤٢١]. ومر على سعد، وهو يتوضأ فقال له: «لَا تُسْرِفْ فِي الْمَاءِ» فقال: وهل في الماء من إسراف؟ قال: «نعم

اللَّهُمَّ وَيَحْمَدُكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ» [ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٢١)].

(حكم التنشيف بعد الوضوء وتخليل اللحية)

وَلَمْ يَكُنْ يَقُولُ فِي أَوَّلِهِ: نَوَيْتُ رَفْعَ الْحَدِثِ، وَلَا اسْتِبَاحَةَ الصَّلَاةِ، لَا هُوَ، وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ الْبَتَّةَ، وَلَمْ يُرَوْ عَنْهُ فِي ذَلِكَ حَرْفٌ وَاحِدٌ، لَا بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، وَلَا ضَعِيفٍ. وَلَمْ يَتَجَاوَزِ الثَّلَاثَ قَطُّ، وَكَذَلِكَ لَمْ يَثْبُتْ عَنْهُ أَنَّهُ تَجَاوَزَ الْجِرْفَقِينَ وَالْكَعْبَيْنِ، وَلَكِنْ أَبُو هُرَيْرَةَ كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَيَتَأَوَّلُ حَدِيثَ إِطَالَةِ الْغُرَّةِ [البخاري: ١٣٦]. وَأَمَّا حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي صِفَةِ وَضْءِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ غَسَلَ يَدَيْهِ حَتَّى أَسْرَعَ فِي الْعُضْدَيْنِ، وَرَجَلَيْهِ حَتَّى أَسْرَعَ فِي السَّاقَيْنِ [مسلم: ٥٧٩] فَهُوَ إِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى إِدْخَالِ الْمَرْفَقَيْنِ وَالْكَعْبَيْنِ فِي الْوَضْءِ، وَلَا يَدُلُّ عَلَى مَسْأَلَةِ الْإِطَالَةِ.

وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَعَادُ تَنْشِيفَ أَعْضَائِهِ بَعْدَ الْوَضْءِ، وَلَا صَحَّ عَنْهُ فِي ذَلِكَ حَدِيثُ الْبَتَّةِ، بَلِ الَّذِي صَحَّ عَنْهُ خِلَافُهُ، وَأَمَّا حَدِيثُ عَائِشَةَ أَنَّهَا كَانَتْ تَنْشِيفُ خِرْقَةً يُنَشِّفُ بِهَا بَعْدَ الْوَضْءِ، وَحَدِيثُ مَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا تَوَضَّأَ مَسَحَ عَلَى وَجْهِهِ بِطَرَفِ ثَوْبِهِ [الترمذي: ٥٣ - ٥٤]. فَضَعِيفَانِ لَا يَحْتَجُ بِمَثْلِهِمَا، فِي الْأَوَّلِ سُلَيْمَانُ بْنُ أَرْقَمٍ مَتْرُوكٌ، وَفِي الثَّانِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ زِيَادٍ بْنُ أَنْعَمٍ الْأَفْرِيقِيُّ ضَعِيفٌ، قَالَ التِّرْمِذِيُّ: وَلَا يَصَحُّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذَا الْبَابِ شَيْءٌ.

وَلَمْ يَكُنْ مِنْ هَدْيِهِ ﷺ أَنْ يُصَبَّ عَلَيْهِ الْمَاءُ كُلَّمَا تَوَضَّأَ، وَلَكِنْ تَارَةً يُصَبُّ عَلَى نَفْسِهِ، وَرَبَّمَا عَاوَنَهُ مَنْ يُصَبُّ عَلَيْهِ أحياناً لِحَاجَةٍ كَمَا فِي «الصَّحِيحِينَ» عَنِ الْمَغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ: أَنَّهُ صَبَّ عَلَيْهِ فِي السَّفَرِ لَمَّا تَوَضَّأَ [البخاري: ٢٠٣].

وَكَانَ يَخْلُلُ لِحْيَتَهُ أحياناً، وَلَمْ يَكُنْ يُؤَاطِبُ عَلَى ذَلِكَ. وَقَدْ اخْتَلَفَ أَئِمَّةُ الْحَدِيثِ فِيهِ، فَصَحَّحَ

عِثْمَانُ الصَّحَّاحُ كُلُّهَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَسْحَ الرَّأْسِ مَرَّةً، وَلَمْ يَصِحَّ عَنْهُ فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ أَنَّهُ اقْتَصَرَ عَلَى مَسْحِ بَعْضِ رَأْسِهِ الْبَتَّةَ، وَلَكِنْ كَانَ إِذَا مَسَحَ بِنَاصِيَتِهِ كَمَلَ عَلَى الْعِمَامَةِ [مسلم: ٦٣٦]. فَأَمَّا حَدِيثُ أَنَسٍ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَتَوَضَّأُ وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ قُظْرِيَّةٌ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ مِنْ تَحْتِ الْعِمَامَةِ، فَمَسَحَ مُقَدِّمَ رَأْسِهِ، وَلَمْ يَنْقُضْ الْعِمَامَةَ [أبو داود: ١٤٧]. فَهَذَا مَقْصُودُ أَنَسٍ بِهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَنْقُضْ عِمَامَتَهُ حَتَّى يَسْتَوِجِبَ مَسْحَ الشَّعْرِ كُلِّهِ، وَلَمْ يَنْفِ التَّكْمِيلَ عَلَى الْعِمَامَةِ، وَقَدْ أَثْبَتَهُ الْمَغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ وَغَيْرُهُ، فَسَكَوَتْ أَنَسٍ عَنْهُ لَا يَدُلُّ عَلَى نَفْيِهِ. وَلَمْ يَتَوَضَّأَ ﷺ إِلَّا تَمَضُّمُضً وَاسْتِنْشَقً، وَلَمْ يُحْفَظْ عَنْهُ أَنَّهُ أَخْلَعَ بِهِ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَكَذَلِكَ كَانَ وَضْؤُهُ مَرَّتَيْنِ مَتَوَالِيَيْنِ، لَمْ يُجْلَ بِهِ مَرَّةً وَاحِدَةً الْبَتَّةَ، وَكَانَ يَمَسَحُ عَلَى رَأْسِهِ تَارَةً، وَعَلَى الْعِمَامَةِ تَارَةً، وَعَلَى النَّاصِيَةِ وَالْعِمَامَةِ تَارَةً.

وَأَمَّا اقْتِصَارُهُ عَلَى النَّاصِيَةِ مَجْرَدَةً، فَلَمْ يُحْفَظْ عَنْهُ ^(١) كَمَا تَقَدَّمَ. وَكَانَ يَغْسِلُ رِجْلَيْهِ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي خُفَّيْنِ وَلَا جُورِبَيْنِ، وَيَمَسَحُ عَلَيْهِمَا إِذَا كَانَا فِي الْخُفَّيْنِ أَوْ الْجُورِبَيْنِ ^(٢). وَكَانَ يَمَسَحُ أُذُنَيْهِ مَعَ رَأْسِهِ، وَكَانَ يَمَسَحُ ظَاهِرَهُمَا وَبَاطِنَهُمَا، وَلَمْ يَثْبُتْ عَنْهُ أَنَّهُ أَخَذَ لِهَآءِ مَاءً جَدِيداً، وَإِنَّمَا صَحَّ ذَلِكَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ [مالك (٣٤/١)]. وَلَمْ يَصِحَّ عَنْهُ فِي مَسْحِ الْغُنَقِ حَدِيثُ الْبَتَّةِ، وَلَمْ يُحْفَظْ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ عَلَى وَضْؤِهِ شَيْئاً غَيْرَ التَّسْمِيَةِ، وَكُلُّ حَدِيثٍ فِي أَذْكَارِ الْوَضْءِ الَّذِي يَقَالُ عَلَيْهِ، فَكَذِبٌ مُخْتَلَقٌ، لَمْ يَقُلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئاً مِنْهُ، وَلَا عَلَّمَهُ لِأَمَتِهِ، وَلَا ثَبُتَ عَنْهُ غَيْرُ التَّسْمِيَةِ فِي أَوَّلِهِ [سند ضعيف: أحمد: ٩٤١٨، وأبو داود: ١٠١، وابن ماجه: ٣٩٩]، وَقَوْلُهُ: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ» [الترمذي: ٥٥]. فِي آخِرِهِ. وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ فِي «سُنَنِ النَّسَائِيِّ» مِمَّا يَقَالُ بَعْدَ الْوَضْءِ أَيْضاً: «سُبْحَانَكَ

(١) جاء في «فتح الباري» (٣٠٤/١). روى الشافعي من حديث عطاء أن رسول الله ﷺ تَوَضَّأَ، فَحَسَرَ الْعِمَامَةَ عَنْ رَأْسِهِ، فَمَسَحَ مُقَدِّمَ رَأْسِهِ.

(٢) ورد في المسح على الجوربين أحاديثٌ صحيحة ثابتة، جمعها الشيخ جمال الدين القاسمي في رسالة وخرجها، وزاد في تخريجها الشيخ أحمد محمد شاكر رحمه الله، فارجع إليها.

الترمذي وغيره أنه ﷺ كان يُخَلِّلُ لِحِيَّتِهِ [الترمذي: ٣١، وابن ماجه: ٤٣٠]. وقال أحمد وأبو زرعة: لا يثبت في تخليل اللحية حديث.

(تخليل الأصابع)

وكذلك تخليل الأصابع لم يكن يُحافظ عليه، وفي «السنن» عن المُسْتَوْرِدِ بْنِ شَدَادٍ: رأيت النبي ﷺ إذا تَوَضَّأَ يَذْلِكُ أَصَابِعَ رَجُلِهِ بِخَنَصْرِهِ [صحيح لغيره: أحمد: ١٨٠١٠، وأبو داود: ١٤٨، والترمذي: ٤٠، وابن ماجه: ٤٤٦]، وهذا إن ثبت عنه، فإنما كان يفعله أحياناً، ولهذا لم يروه الذين اعتنوا بضبط وضوئه، كعثمان، وعلي، وعبد الله بن زيد، والرُّبَيْعِ، وغيرهم، على أن في إسناده عبد الله بن لهيعة.

(تحريك الخاتمة)

وأما تحريك خاتمه، فقد رُوِيَ فيه حديث ضعيف من رواية معمر بن محمد بن عبيد الله بن أبي رافع، عن أبيه، عن جده: أن النبي ﷺ كان إذا تَوَضَّأَ حَرَّكَ خَاتَمَهُ [ابن ماجه: ٤٤٩]. ومعمر وأبوه ضعيفان، ذكر ذلك الدارقطني.

فصل

في هديه ﷺ في المسح على الخفين

صح عنه أنه مسح في الحضر والسفر، ولم يُنسخ ذلك حتى تُوَفِّي، ووَقَّتَ للمقيم يوماً وليلة، وللمسافر ثلاثة أيام ولياليهن في عدة أحاديث حسان وصحاح، وكان يسمح ظاهراً للخفين، ولم يصح عنه مسح أسفلهما إلا في حديث منقطع. والأحاديث الصحيحة على خلافه، ومسح على الجوربين والتعلين، ومسح على العمامة مقتصران عليها، ومع الناصية، وثبت عنه ذلك فعلاً وأمرأ في عدة أحاديث، لكن في قضايا أعيان يُحتمل أن تكون خاصة بحال الحاجة والضرورة، ويُحتمل العموم كالخفين، وهو أظهر والله أعلم.

ولم يكن يتكلف ضدَّ حاله التي عليها قدماء، بل إن كانتا في الخف مسح عليهما ولم يَتَرُغَّمَا، وإن

فصل

في هديه ﷺ في التيمم

كان ﷺ يتيمم بضربة واحدة للوجه والكفين [البخاري: ٣٤٧، ومسلم: ٨٢٠]، ولم يَصِحَّ عنه أنه تيمم بضربتين، ولا إلى المرفقين. قال الإمام أحمد: من قال: إن التيمم إلى المرفقين، فإنما هو شيء زاده من عنده^(١). وكذلك كان يتيمم بالأرض التي يصلي عليها، تراباً كانت أو سَبِيحَةً أو رملأ. وصح عنه أنه قال: «حَيْثُمَا أَذْرَكْتَ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي الصَّلَاةَ، فَعِنْدَهُ مَسْجِدُهُ وَطَهْرُهُ» [صحيح: أحمد: ٢٢١٣٧]. وهذا نص صريح في أن من أدركته الصلاة في الرمل، فالرمل له طهور. ولما سافر هو وأصحابه في غزوة تبوك، قطعوا تلك الرمال في طريقهم، وماؤهم في غاية القِلَّة، ولم يرو عنه أنه حمل معه التراب، ولا أمر به، ولا فعله أحد من أصحابه، مع القطع بأن في المغاوز الرمال أكثر من التراب، وكذلك أرضُ الحجاز وغيره، ومن تدبر هذا، قطع بأنه كان يتيمم بالرمل، والله أعلم وهذا قول الجمهور.

وأما ما ذكر في صفة التيمم من وضع بطون أصابع يده اليسرى على ظهور اليمنى، ثم إمرارها إلى المرفق، ثم إدارة بطن كفه على بطن الذراع، وإقامة إبهامه اليسرى كالمؤذن، إلى أن يصل إلى إبهامه اليمنى، فَيَطْبِقُهَا عَلَيْهَا، فهذا مما يُعلم قطعاً أن النبي ﷺ لم يفعله، ولا علمه أحدٌ من أصحابه، ولا أمر به، ولا استحسنته، وهذا هديُّه، إليه التحاكم، وكذلك لم يَصِحَّ عنه التيمم لكل صلاة، ولا أمر به، بل أطلق التيمم، وجعله قائماً مقام الوضوء [صحيح: أحمد: ٢١٣٧١، وأبو داود: ٣٣٢، والترمذي: ١٢٤]. وهذا يقتضي أن يكون حكمه حكمه، إلا فيما اقتضى الدليل خلافه.

(١) انظر «نصب الراية» (١/ ١٥١ - ١٥٤)، و«تليخيص الجبير» (١/ ١٥٢، ١٥٣)، فقد وفيما الموضوع حقه.

فصل

في هديه ﷺ في الصلاة

(لم يتلفظ بالنية)

كان ﷺ إذا قام إلى الصلاة قال: «اللَّهُ أَكْبَرُ». ولم يقل شيئاً قبلها ولا تلفظ بالنية البتة، ولا قال: أصلي لله صلاة كذا مُستقبلَ القبلة أربع ركعات إماماً أو مأموماً، ولا قال: أداء ولا قضاء، ولا فرض الوقت، وهذه عشرُ بدع لم يُنقل عنه أحد قط بإسناد صحيح ولا ضعيف ولا مسند ولا مرسل لفظاً واحدة منها البتة، بل ولا عن أحد من أصحابه، ولا استحسنة أحد من التابعين، ولا الأئمة الأربعة، وإنما غرَّ بعض المتأخرين قولُ الشافعي رضي الله عنه في الصلاة: إنها ليست كالصيام، ولا يدخل فيها أحد إلا بذكر، فظن أن الذكر تلفظُ المصلي بالنية، وإنما أراد الشافعي رحمه الله بالذكر: تكبيرة الإحرام ليس إلا، وكيف يستحبُّ الشافعي أمراً لم يفعله النبي ﷺ في صلاة واحدة، ولا أحد من خلفائه وأصحابه، وهذا هديهم وسيرتهم، فإن أوجدنا أحدَ حرفاً واحداً عنهم في ذلك، قبلناه، وقابلناه بالتسليم والقبول، ولا هدياً أكملُ من هديهم، ولا سنة إلا ما تلقَّوه عن صاحب الشرع ﷺ.

(الإحرام)

وكان دأبه في إحرامه لفظاً: «اللَّهُ أَكْبَرُ». لا غيرها، ولم ينقل أحدٌ عنه سواها.

(رفع اليدين عند الإحرام)

وكان يرفع يديه معها ممدودة الأصابع، مستقبلاً بها القبلة إلى فروع أذنيه، ورؤي إلى منكبيه، فأبو حميد الساعدي وَمَنْ معه قالوا: حتى يُحاذيَ بهما المَنكَبَينِ، وكذلك قال ابن عمر. وقال وائل بن حُجر: إلى جبال أذنيه. وقال البراء: قريباً من أذنيه. وقيل: هو من العمل المخير فيه، وقيل: كان أعلاها إلى فروع أذنيه، وكفَّاه إلى منكبيه، فلا يكون اختلافاً، ولم يختلف عنه في محل هذا الرفع. ثم يضحُ اليمنى على ظهر اليسرى.

(الاستفتاح)

وكان يستفتح تارة بـ «اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنَ خَطَايَايَ بِالمَاءِ وَالتَّلَجِ وَالبَرَدِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنَ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ» [البخاري: ٧٤٤، ومسلم: ١٣٥٤].

وتارة يقول: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ، وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذُنُوبِي، فَأَعِزَّنِي لِذُنُوبِي جَمِيعِهَا، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَ الْأَخْلَاقِ، لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ بِيَدِكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ» [مسلم: ١٨١٢]. ولكن المحفوظ أن هذا الاستفتاح إنما كان يقوله في قيام الليل^(١).

وتارة يقول: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَخْتَكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» [مسلم: ١٨١١].

وتارة يقول: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَنْ فِيهِنَّ...» [البخاري: ٦٣١٧، ومسلم: ١٨٠٨] الحديث. وسأيت في بعض طرقه الصحيحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه كبر، ثم قال ذلك.

وتارة يقول: «اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيراً، الْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيراً، الْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيراً،

(١) بل كان يقوله في المكتوبة أيضاً، فقد ثبت في «صحيح ابن خزيمة» (٣٠٧/١) وغيره: أنه كان إذا قام إلى المكتوبة يقول... وإسناده صحيح.

وَسُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا، سُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا، سُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمَزِهِ وَتَفْخِيهِ وَتَفْثِيهِ» [صحيح: أحمد: ٢٠٩٧، وأبو داود: ٧٦٤، وابن ماجه: ٨٠٧].

وتارة يقول: اللَّهُ: أَكْبَرُ عَشْرَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ يُسَبِّحُ عَشْرَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ يَحْمَدُ عَشْرًا، ثُمَّ يُهَلِّلُ عَشْرًا، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ عَشْرًا، ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَاهْدِنِي وَارْزُقْنِي وَعَافِنِي عَشْرًا»، ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ ضَيْقِ الْمَقَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَشْرًا» [صحيح: أحمد: ١٥٦١، وأبو داود: ٧٦٦، والسنائي: (١٣٢/٢)، وابن ماجه: ١٣٥٦].

فكل هذه الأنواع صحت عنه ﷺ.

وروي عنه: أنه كان يستفتح بـ «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَبِتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ». ذكر ذلك أهل السنن من حديث علي بن علي الرفاعي، عن أبي المتوكل التاجي، عن أبي سعيد على أنه ربما أرسل، وقد روي مثله من حديث عائشة رضي الله عنها [أبو داود: ٧٧٦، والترمذي: ٢٤٣، وابن ماجه: ٨٠٦]، والأحاديث التي قبله أثبت منه، ولكن صح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يستفتح به في مقام النبي ﷺ ويجهر به، ويعلمه الناس [سلم: ٨٩٢] وقال الإمام أحمد: أنا أنا فأذهب إلى ما روي عن عمر، ولو أن رجلاً استفتح ببعض ما روي عن النبي ﷺ من الاستفتاح كان حسناً.

(اختيار الإمام أحمد للدعاء: «سبحانك اللهم والتعليل له)

وإنما اختار الإمام أحمد هذا لعشرة أوجه قد ذكرتها في مواضع أخرى. منها جهر عمر به يعلمه الصحابة.

ومنها اشتماله على أفضل الكلام بعد القرآن، فإن أفضل الكلام بعد القرآن: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وقد تضمنها هذا الاستفتاح مع تكبير الإحرام.

ومنها أنه استفتاح أخلص للثناء على الله، وغيره متضمن للدعاء، والثناء أفضل من الدعاء، ولهذا كانت سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن، لأنها أخلصت لوصف الرحمن تبارك وتعالى، والثناء

عليه، ولهذا كان «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» أفضل الكلام بعد القرآن، فيلزم أن ما تضمنها من الاستفتاحات أفضل من غيره من الاستفتاحات.

ومنها أن غيره من الاستفتاحات عامتها إنما هي في قيام الليل في النافلة، وهذا كان عمر يفعل، ويعلمه الناس في الفرض.

ومنها أن هذا الاستفتاح إنشاء للثناء على الرب تعالى، متضمن للإخبار عن صفات كماله، ونعوت جلاله، والاستفتاح بـ «وجهت وجهي» إخبار عن عبودية العبد، وبينهما من الفرق ما بينهما.

ومنها أن من اختار الاستفتاح بـ «وجهت وجهي» لا يكمله، وإنما يأخذ بقطعة من الحديث، ويذكر باقيه، بخلاف الاستفتاح بـ «سبحانك اللهم وبحمدك» فإن من ذهب إليه بقوله كله إلى آخره.

وكان يقول بعد ذلك: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ثم يقرأ الفاتحة، وكان يجهر بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» تارة، ويخفيها أكثر مما يجهر بها.

ولا ريب أنه لم يكن يجهر بها دائماً في كل يوم وليلة خمس مرات أبداً، حضراً وسفراً، ويخفي ذلك على خلفائه الراشدين، وعلى جمهور أصحابه، وأهل بلده في الأعصار الفاضلة، هذا من أمحل المحال حتى يحتاج إلى التثبت فيه بألفاظ مجملة، وأحاديث واهية، فصحيح تلك الأحاديث غير صريح، وصريحها غير صحيح، وهذا موضع يستدعي مجلداً ضخماً.

وكانت قراءته مدداً، يقف عند كل آية، ويمد بها صوته [البخاري: ٥٠٤٦].

فإذا فرغ من قراءة الفاتحة، قال: «آمين» فإن كان يجهر بالقراءة، رفع بها صوته، وقالها من خلفه [أبو داود: ٩٣٢، والترمذي: ٢٤٨].

(سكنتات الإمام)

وكان له سكتتان، سكتة بين التكبير والقراءة، وعنها سأل أبو هريرة، واختلف في الثانية، فروي أنها بعد الفاتحة. وقيل: إنها بعد القراءة وقبل الركوع. وقيل: هي سكتتان غير الأولى، فتكون

ثلاثاً، والظاهر إنما هي اثنتان فقط، وأما الثالثة، فلطيفة جداً لأجل تراؤ النَّفْس، ولم يكن يُصَلِّ القراءة بالركوع، بخلاف السكنة الأولى، فإنه كان يجعلها بقدر الاستفتاح، والثانية قد قيل: إنها لأجل قراءة المأموم، فعلى هذا: ينبغي تطويلها بقدر قراءة الفاتحة، وأما الثالثة، فللراحة والنفس فقط، وهي سكنة لطيفة، فمن لم يذكرها، فلقصرها، ومن اعتبرها، جعلها سكنةً ثالثة، فلا اختلاف بين الروايين، وهذا أظهر ما يقال في هذا الحديث. وقد صح حديث السكتين، من رواية سمرة، وأبي بن كعب، وعمران بن حصين، ذكر ذلك أبو حاتم في «صحيحه» وسمرة هو ابن جندب، وقد تبين بذلك أن أحد من روى حديث السكتين سمرة بن جندب وقد قال: حفظت من رسول الله ﷺ سكتين: سكتة إذا كبر، وسكتة إذا فرغ من قراءة ﴿عَبْرَ الْمَضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [مسل: أحمد: ٢٠٢٤٥، وأبو داود: ٧٧٩، والترمذي: ٢٥١، وابن ماجه: ٨٤٤]. وفي بعض طرق الحديث: فإذا فرغ من القراءة، سكنت وهذا كالمجمل، واللفظ الأول مفسر مبين، ولهذا قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: للإمام سكتتان، فاغتنموا فيهما القراءة بفاتحة الكتاب إذا افتتح الصلاة، وإذا قال: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]. على أن تعيين محل السكتين، إنما هو من تفسير قتادة، فإنه روى الحديث عن الحسن، عن سمرة قال: سكتتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ، فأنكر ذلك عمران، فقال: حفظناها سكتة، فكتبنا إلى أبي بن كعب بالمدينة، فكتب أبي أن قد حفظ سمرة، قال سعيد: فقلنا لقتادة: ما هاتان السكتتان؟ قال: إذا دخل في الصلاة، وإذا فرغ من القراءة، ثم قال بعد ذلك: وإذا قال: ولا الضالين. قال: وكان يعجبه إذا فرغ من القراءة أن يسكت حتى يتراد إليه نفسه [الترمذي: ٢٥١]. ومن يحتج بالحسن عن سمرة يحتج بهذا.

وإذا فرغ من الفاتحة، أخذ في سورة غيرها، وكان يُطِيلُها تارة، وَيُخَفِّفُها لعارض من سفر أو غيره، ويتوسط فيها غالباً.

(فرائده ﷺ في الصلاة)

وكان يقرأ في الفجر بنحو ستين آية إلى مئة آية،

وكان يُصَلِّيها يوم الجمعة بـ (الْمَ تَنْزِيلِ السَّجْدَةِ) وسورة ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ كاملتين، ولم يفعل ما يفعله كثير من الناس اليوم من قراءة بعض هذه وبعض هذه في الركعتين، وقراءة السجدة وحدها في الركعتين، وهو خلاف السنة. وأما ما يظهرك كثير من الجهال أن صبح يوم الجمعة فَضَّلَ بسجدة، فجعل عظيم، ولهذا كره بعض الأئمة قراءة سورة السجدة لأجل هذا الظن، وإنما كان ﷺ يقرأ هاتين السورتين لما اشتملتا عليه من ذكر المبدأ والمعاد، وخلق آدم، ودخول الجنة والنار، وذلك مما كان ويكون في يوم الجمعة، فكان يقرأ في فجرها ما كان ويكون في ذلك اليوم، تذكيراً للأمة بحوادث هذا اليوم، كما كان يقرأ في المجمع العظام كالأعياد والجمعة بسورة (ق) و(اقتربت) و(سبح) و(الغاشية).

فصل

وأما الظهر، فكان يُطِيلُ قراءتها أحياناً، حتى قال أبو سعيد: كانت صلاة الظهر تُقام، فيذهب الذاهب إلى البقيع، فيقضي حاجته، ثم يأتي أهله، فيتوضأ، ويدرك النبي ﷺ في الركعة الأولى ممّا يطيلها. رواه مسلم (١٠٢٠).

وكان يقرأ فيها تارة بقدر ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وتارة بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَكْبَرُ﴾ [صحيح: ابن عزيمة: ٥١٢، وابن حبان: ٤٦٩] و﴿وَأَكْبِلْ إِذَا يَفْتَنُ﴾ [ابن عزيمة: ٥١٢] و﴿وَأَكْبِلْ﴾ [ابن عزيمة: ٥١٢].

وأما العصر، فعلى النصف من قراءة الظهر إذا طالت، وبقدرها إذا قصرت.

وأما المغرب، فكان هديه فيها خلاف عمل الناس اليوم، فإنه صلاها مرة بـ (الأعراف) فقرأها في الركعتين، ومرة بـ (الطور) ومرة بـ (المرسلات).

قال أبو عمر بن عبد البر: روي عن النبي ﷺ أنه قرأ في المغرب بـ (المص) وأنه قرأ فيها بـ (الصافات) وأنه قرأ فيها بـ (حم الدخان) وأنه قرأ فيها بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَكْبَرُ﴾ [صحيح: ابن عزيمة: ٥١٢، وابن حبان: ٤٦٩].

أَنْ لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، لَمْ يَنْسَخْهُ شَيْءٌ.
ولهذا أخذ به خلفاؤه الراشدون من بعده، فقرأ أبو بكر رضي الله عنه في الفجر بسورة (البقرة) حتى سلم منها قريباً من طلوع الشمس، فقالوا: يا خليفة رسول الله ﷺ؟ كادت الشمس تطلع، فقال: لو طلعت لم تجدنا غافلين.

وكان عمر رضي الله عنه يقرأ فيها بـ (يوسف) و (النحل) و بـ (هود) و (نبي إسرائيل) ونحوها من السور، ولو كان تطويله ﷺ منسوخاً لم يخف على خلفائه الراشدين، وَيُطْلَعُ عَلَيْهِ النَّقَّارُونَ.

وأما الحديث الذي رواه مسلم في «صحيحه» عن جابر بن سُرَّة: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يقرأ فِي الْفَجْرِ «قُتِّ وَالْفَرْدَانِ الْحَجِيدِ» وكانت صلاته بعد تخفيفاً (مسلم: 11027). فالمراد بقوله «بعد» أي: بعد الفجر، أي: إنه كان يطيل قراءة الفجر أكثر من غيرها، وصلاته بعدها تخفيفاً. ويدل على ذلك قول أم الفضل وقد سمعت ابن عباس يقرأ و «وَالْمَرْكَاتِ عُرَّةً» فقالت: يا بني لقد ذكّرني بقراءة هذه السورة، إنها لآخر ما سمعت من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب (البخاري: 763، ومسلم: 11033). فهذا في آخر الأمر.

وأيضاً فإن قوله: وكانت صلاته «بعد» غاية قد حذف ما هي مضافة إليه، فلا يجوز إضمار ما لا يدل عليه السياق، وترك إضمار ما يقتضيه السياق، والسياق إنما يقتضي أن صلاته بعد الفجر كانت تخفيفاً، ولا يقتضي أن صلاته كلها بعد ذلك اليوم كانت تخفيفاً، هذا ما لا يدل عليه اللفظ، ولو كان هو المراد، لم يخف على خلفائه الراشدين، فيتمسكون بالمنسوخ، ويدعون الناسخ.

(معنى «ابكم أم فليخفف»)

وأما قوله ﷺ: «أَيُّكُمْ أَمْ النَّاسُ، فَلْيُخَفَّفْ» (البخاري: 703)، وقول أنس رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ أَخَفَّ النَّاسِ صَلَاةً فِي تَمَامِ (البخاري: 706، ومسلم: 11053). فالتخفيف أمر نسبي يَرْجِعُ إِلَى مَا فعله النبي ﷺ، وواظب عليه، لا إلى شهوة المأمومين، فإنه ﷺ لم يكن يأمرهم بأمر، ثم يخالفه، وقد عَلِمَ أَنَّ مِنْ ورائه الكبير والضعيف وذو الحاجة،

رَبِّكَ الْأَخْلَى» (صحيح: النسائي (168/2)) وأنه قرأ فيها بـ «وَالْيَيْنِ وَالْيَتُونَ» وأنه قرأ فيها بـ (المعوذتين) وأنه قرأ فيها بـ (المرسلات) وأنه كان يقرأ فيها بقصار المفصل^(١). قال: وهي كلها آثار صحاح مشهورة. انتهى.

وأما المداومة فيها على قراءة قصار المفصل دائماً، فهو فعل مروان بن الحكم، ولهذا أنكر عليه زيد بن ثابت، وقال: مَا لَكَ تقرأ فِي الْمَغْرِبِ بِقِصَارِ الْمَفْصَلِ؟! وقد رأيتُ رسول الله ﷺ يقرأ فِي الْمَغْرِبِ بِطُولِ الطُّولَيْنِ. قال: قلت: وما طُولُ الطُّولَيْنِ؟ قال: (الأعراف) وهذا حديث صحيح رواه أهل السنن (البخاري: 764).

وذكر النسائي عن عائشة رضي الله عنها: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ فِي الْمَغْرِبِ بِسُورَةِ (الأعراف) فَرَقَهَا فِي الرُّكْعَتَيْنِ (صحيح: النسائي (170/2)).

فالمحافظة فيها على الآية القصيرة، والسورة من قصار المفصل خلافاً السنة، وهو فعل مروان بن الحكم.

وأما العشاء الآخرة، فقرأ فيها ﷺ بـ «وَالْيَيْنِ وَالْيَتُونَ» ووقت لمعاذ فيها بـ «وَالنَّشِيسَ وَحُصْنَهَا» و«سَبَّحَ اسْمُ رَبِّكَ الْأَعْلَى» و«وَالْيَلِ إِذَا بَقِيَ» ونحوها، وأنكر عليه قراءته فيها بـ (البقرة) بعدما صلى معه، ثم ذهب إلى بني عمرو بن عوف، فأعادها لهم بعدما مضى من الليل ما شاء الله، وقرأ بهم بـ (البقرة) ولهذا قال له: «أَتَانَتْ أَنْتَ يَا مَعَاذُ» (البخاري: 6106، ومسلم: 1040) فتعلق النَّقَّارُونَ بهذه الكلمة، ولم يلتفتوا إلى ما قبلها ولا ما بعدها.

وأما الجمعة، فكان يقرأ فيها بسورتَي (الجمعة) و(المنافقين) كَايْلَتَيْنِ و(سورة سَبَّحَ) و(الغاشية).

وأما الاقتصاد على قراءة أواخر السورتين من «بَيِّنَاتٍ أَلَيْسَ آمَنُوا...» إلى آخرها، فلم يفعله قط، وهو مخالف لهديه الذي كان يُحَافِظُ عليه.

وأما قراءته في الأعياد، فتارة كان يقرأ سورتَي (ق) و(اقتربت) كاملتين، وتارة سورتَي (سَبَّحَ) و(الغاشية) وهذا هو الهدى الذي استمر ﷺ عليه إلى

(١) المفصل: هو من أول سورة (ق) إلى آخر القرآن.

فصل

(إطالته ﷻ الركعة الأولى على

الثانية وتعليل إطالته ﷻ صلاة الصبح)

وكان ﷻ يُطِيلُ الركعة الأولى على الثانية من صلاة الصُّبح ومن كل صلاة، وربما كان يُطِيلُها حتى لا يَسْمَعَ وَقَعَ قَدَم، وكان يُطِيلُ صلاة الصبح أكثر من سائر الصلوات، وهذا لأن قرآن الفجر مشهود، يشهده الله تعالى وملائكته، وقيل: يشهده ملائكة الليل والنهار، والقولان مبيان على أن النزول الإلهي هل يدوم إلى انقضاء صلاة الصبح، أو إلى طلوع الفجر؟ وقد ورد فيه هذا وهذا.

وأيضاً فإنها لما نقص عدد ركعاتها، جُعِلَ تطويلها عوضاً عما نقصته من العدد.

وأيضاً فإنها تكون عقيب النوم، والناس مستريحون.

وأيضاً فإنهم لم يأخذوا بَعْدَ في استقبال المعاش، وأسباب الدنيا.

وأيضاً فإنها تكون في وقت تواطأ فيه السمع واللسان والقلب لفراغه وعدم تمكن الاشتغال فيه، فيفهم القرآن ويتدبره.

وأيضاً فإنها أساس العمل وأوله، فأعطيت فضلاً من الاهتمام بها وتطويلها، وهذه أسرار إنما يعرفها من له التفات إلى أسرار الشريعة ومقاصدها وَجَّهَهَا، والله المستعان.

فصل

(الركوع)

وكان ﷻ إذا فرغ من القراءة، سكت بقدر ما يترأد إليه نفسه، ثم رفع يديه كما تقدّم، وكَبَّرَ رَاكِعاً، ووضع كفيه على رُكْبَتَيْهِ كَالْقَابِضِ عليهما، ووتر يديه، فنحاهما عن جنبيه، وبسط ظهره ومدّه، واعتدل، ولم يَنْصَبْ رأسه، ولم يَخْفِضْهُ، بل يجعله حيال ظهره معادلاً له.

وكان يقول: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ» [مسلم: ١٨١٤]. وتارة يقول مع ذلك، أو مقتصراً عليه: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي» [البخاري: ٧٩٤، ومسلم: ١٠٨٥]. وكان ركوعه المعتاد مقدار عشر

فالذي فعله هو التخفيف الذي أمر به، فإنه كان يُمكن أن تكون صلاته أطول من ذلك بأضعاف مضاعفة، فهي خفيفة بالنسبة إلى أطول منها، وهديّ الذي كان واظب عليه هو الحاكم على كل ما تنازع فيه المتنازعون، ويدل عليه ما رواه النسائي وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف ويؤمنا بـ (الصفات) [صحیح: النسائي (٩٥/٢)] فالقراءة بـ (الصفات) من التخفيف الذي كان يأمر به، والله أعلم.

فصل

(عدم تعيينه ﷻ سورة بعينها)

وكان ﷻ لا يُعَيِّن سورة في الصلاة بعينها لا يقرأ إلّا بها إلّا في الجمعة والعيدین، وأمّا في سائر الصلوات، فقد ذكر أبو داود من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدّه أنه قال: مَا مِنْ الْمُفْضَلِ سُورَةٌ صَغِيرَةٌ وَلَا كَبِيرَةٌ إِلَّا وَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ النَّاسِ بِهَا فِي الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ [حسن: أبو داود: ٨١٤].

وكان من هديه قراءة السورة كاملة، وربما قرأها في الركعتين، وربما قرأ أول السورة. وأمّا قراءة أواخر السور وأواسطها، فلم يُحفظ عنه. وأمّا قراءة السورتين في ركعة، فكان يفعله في النافلة، وأمّا في الفرض، فلم يُحفظ عنه. وأمّا حديث ابن مسعود رضي الله عنه: إني لأعرف النظائير التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهن السورتين في الركعة (الرحمن) و (النجم) في ركعة و (اقتربت) و (الحاقة) في ركعة و (الطور) و (النرايات) في ركعة و (إذا وقعت) و (ن) في ركعة... [البخاري: ٧٧٥، ومسلم: ١٩١٣] الحديث. فهذا حكاية فعل لم يُعَيِّن محلّه هل كان في الفرض أو في النفل؟ وهو محتول: وأمّا قراءة سورة واحدة في ركعتين معاً، فقلما كان يفعله. وقد ذكر أبو داود عن رجل من جُهينة أنه سمع رسول الله ﷺ يقرأ في الصبح (إذا زلزلت) في الركعتين كلتيهما، قال: فلا أدري أنسي رسول الله ﷺ، أم قرأ ذلك عمداً [أبو داود: ٨١٦].

البته، بل كان ذلك هديّة دائماً إلى أن فارق الدنيا، ولم يصح عنه حديث البراء: ثم لا يعود [أبو داود: ٧٤٩ - ٧٥٠]. بل هي من زيادة يزيد بن زياد. فليس ترك ابن مسعود الرفع ممّا يُقدّم على هديه المعلوم، فقد ترك من فعل ابن مسعود في الصلاة أشياء ليس مُعارضها مقارباً ولا مدانياً للرفع، فقد ترك من فعله التطبيق والافتراش في السجود، ووقوفه إماماً بين الاثنين في وسطهما دون التقدّم عليهما، وصلاته الفرض في البيت بأصحابه بغير أذان ولا إقامة لأجل تأخير الأمراء، وأبن الأحاديث في خلاف ذلك من الأحاديث التي في الرفع كثرة وصحة وصرحة وعملاً، وبالله التوفيق.

وكان دائماً يُقيم صُلبه إذا رفع من الركوع، وبين السجدين، ويقول: «لَا تُجْزِي صَلَاةً لَا يُقِيمُ فِيهَا الرَّجُلُ صُلبَهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ». ذكره ابن خزيمة في «صحيحه» [صحیح: أحمد: ١٧١٠٣، وأبو داود: ٨٥٥، والترمذي: ٢٦٥، والنسائي (١٨٣/٢)، وابن خزيمة: ٥٩١].

وكان إذا استوى قائماً، قال: «رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ» وربما قال: «رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ» وربما قال: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ» صح ذلك عنه. وأما الجمع بين «اللَّهُمَّ» و«الواو» فلم يصح^(١).

وكان من هديه إطالة هذا الركن بقدر الركوع والسجود، فصح عنه أنه كان يقول: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، مِلءَ السَّمَاوَاتِ، وَمِلءَ الْأَرْضِ، وَمِلءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ، لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِي لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ» [مسلم: ١٠٧١].

وصح عنه أنه كان يقول فيه: «اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالْمَاءِ وَالْثَلَجِ وَالْبَرَدِ، وَتَقْنِي مِنَ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا كَمَا يُقْنِي الثُّوبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، وَبَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ» [مسلم: ١٠٦٩، بلفظ قريب].

تسبيحات، وسجوده كذلك. وأما حديث البراء بن عازب رضي الله عنه: رَمَقْتُ الصَّلَاةَ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ، فكان قيامه فركوعه فاعتدله فسجدته، فجلسته ما بين السجدين قريباً من السواء [البخاري: ٧٩٢، ومسلم: ١٠٥٧]. فهذا قد فهم منه بعضهم أنه كان يركع بقدر قيامه، ويسجد بقدره، ويعتدل كذلك. وفي هذا الفهم شيء، لأنه ﷺ كان يقرأ في الصبح بالتمة آية أو نحوها، وقد تقدم أنه قرأ في المغرب بـ (الأعراف) و(الطور) و(المرسلات) ومعلوم أن ركوعه وسجوده لم يكن قدر هذه القراءة، ويدل عليه حديث أنس الذي رواه أهل السنن أنه قال: ما صليت وراء أحد بعد رسول الله ﷺ أشبه صلاة برسول الله ﷺ إلا هذا الفتى يعني عمر بن عبد العزيز، قال: فحزرتاً في ركوعه عشر تسبيحات، وفي سجوده عشر تسبيحات [أحمد: ١٢٦٦١، وأبو داود: ٨٨٨، والنسائي (٢٢٥/٢)، وسنده ضعيف إلا قول أنس روي بأسانيد ترقى إلى الصحاف. هذا مع قول أنس: أنه كان يؤمهم بـ (الصفافات). فمراد البراء - والله أعلم - أن صلاته ﷺ كانت معتدلة، فكان إذا أطال القيام، أطال الركوع والسجود، وإذا خفف القيام، خفف الركوع والسجود، وتارة يجعل الركوع والسجود بقدر القيام، ولكن كان يفعل ذلك أحياناً في صلاة الليل وحدها، وفعله أيضاً قريباً من ذلك في صلاة الكسوف، وهديه الغالب ﷺ تعديل الصلاة وتناسيها.

وكان يقول أيضاً في ركوعه: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ» [مسلم: ١٠٩١]. وتارة يقول: «اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ أَمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعْتُ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصْبِي» [مسلم: ١٨١٢]. وهذا إنما حفظ عنه في قيام الليل.

(الاعتدال)

ثم كان يرفع رأسه بعد ذلك قائلاً: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ». وَرَفَعَ يَدَيْهِ كَمَا تَقْدُم، وروى رفع اليدين عنه في هذه المواطن الثلاثة نحو من ثلاثين نفساً، واتفق على روايتها العشرة، ولم يثبت عنه خلاف ذلك

(١) بل قد صح ذلك وهو في «صحيح البخاري» (٧٩٥).

فصل

(السجود)

ثم كان يُكَبِّرُ وَيَخْرُ ساجداً، ولا يرفع يديه [البخاري: ٧٣٨]. وقد روي عنه أنه كان يرفعهما أيضاً [صحيح: أحمد: ١٨٨٦١، وأبو داود: ١٧٢٣]، وصححه بعض الحفاظ كأبي محمد بن حزم رحمه الله، وهو وهم، فلا يَصِحُّ ذلك عنه البتة، والذي غَرَّه أن الراوي غلط من قوله: كان يُكَبِّرُ في كل خفض ورفع إلى قوله: كان يرفع يديه عند كل خفض ورفع، وهو ثقة ولم يفتن لسبب غلط الراوي ووهمه، فصححه. والله أعلم.

(مبحث في ترجيح وضع الركبتين قبل اليدين)

وكان ﷺ يَضَعُ رُكْبَتَيْهِ قبل يديه، ثم يديه بعدهما، ثم جبهته وأَنْفَهُ، هذا هو الصحيح الذي رواه شريك، عن عاصم بن كليب، عن أبيه، عن وائل بن حُجر: رأيتُ رسول الله ﷺ إذا سجد، وضع ركبتيه قبل يديه، وإذا نهض، رفع يديه قبل ركبتيه [أبو داود: ٨٣٨، والترمذي: ٢٦٨، والنسائي (٢٠٧/٢)، وابن ماجه: ٨٨٢]، ولم يُرو في فعله ما يُخَالِفُ ذلك^(١).

(شرح برك البعير)

وأما حديثُ أبي هريرة يرفعه: «إِذَا سَجَدَ أَحَدُكُمْ، فَلَا يَبْرُكُ كَمَا يَبْرُكُ الْبَعِيرُ، وَلَيَضَعُ يَدَيْهِ قَبْلَ رُكْبَتَيْهِ» [صحيح: أحمد: ٨٩٥٥، وأبو داود: ٨٤٠، والنسائي (٢/٢٠٧)]^(٢) فالحديث - والله أعلم - قد وقع فيه وهم من بعض الرواة، فإن أوله يُخَالِفُ آخره، فإنه إذا وَضَعَ يديه قبل ركبتيه، فقد بَرَكَ كما يَبْرُكُ البعير، فإن البعير إنما يضع يديه أولاً، ولما علم أصحابُ هذا القول ذلك، قالوا: ركبتا البعير في يديه، لا في رجليه، فهو إذا برك، وضع ركبتيه أولاً، فهذا هو المنهي عنه، وهو فاسد لوجوه.

أحدنا: أن البعير إذا برك، فإنه يضع يديه أولاً، وتبقى رجلاه قائمتين، فإذا نهض، فإنه ينهض برجليه

وصح عنه أنه كرر فيه قوله: «الرُّبِّيُّ الْحَمْدُ، لِرُبِّي الْحَمْدُ» [صحيح: أحمد: ٢٣٣٧٥، وأبو داود: ٨٧٤، والنسائي (١٩٩/٢)] حتى كان يقدر الركوع.

وصح عنه أنه كان إذا رفع رأسه من الركوع يمكث حتى يقول القائل: قد نسي من إِطَالَتِهِ لهذا الرُّكن. وذكر مسلم عن أنس رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ إذا قال: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، قام حتى نقول: قَدْ أَوْهَمَ، ثُمَّ يَسْجُدُ، ثُمَّ يَقْعُدُ بين السجدين حتى نقول: قد أَوْهَمَ [مسلم: ١٠٦١].

وصح عنه في صلاة الكسوف أنه أطال هذا الركن بعد الركوع حتى كان قريباً من ركوعه، وكان ركوعه قريباً من قيامه.

فهذا هديء المعلوم الذي لا مُعَارِضَ له بوجه.

وأما حديثُ البراء بن عازب: كان ركوعُ رسول الله ﷺ وسجودُه وبين السجدين، وإذا رَفَعَ رأسه من الركوع - ما خلا القيام والقعود - قريباً مِنَ السواء. رواه البخاري (٧٩٢)، ومسلم: ١٠٥٧، فقد تَشَبَّهَ به مَنْ ظَنَّ تَقْصِيرَ هَذَيْنِ الركنين، ولا متعلق له، فإن الحديث مصرح فيه بالتسوية بين هذين الركنين وبين سائر الأركان، فلو كان القيام والقعود المستثنَيْنِ هو القيام بعد الركوع والقعود بين السجدين، لناقض الحديث الواحد بعضه بعضاً، فتعين قطعاً أن يكون المراد بالقيام والقعود قيام القراءة، وقعود التشهد، ولهذا كان هديء ﷺ فيهما إِطَالَتُهُمَا على سائر الأركان كما تقدم بيانه، وهذا بحمد الله واضح، وهو مما خفي من هدي رسول الله ﷺ في صلاته على من شاء الله أن يخفي عليه.

قال شيخنا: وتقصيرُ هذين الركنين مما تصرف فيه أمراء بني أمية في الصلاة، وأحدثوه فيها، كما أحدثوا فيها ترك إتمام التكبير، وكما أحدثوا التأخير الشديد، وكما أحدثوا غير ذلك مما يُخَالِفُ هديء ﷺ ورُبِّي في ذلك مَنْ رُبِّي حتى ظن أنه من السنة.

(١) بل ثبت ذلك فيما رواه الحاكم في «مستدرکه» (٢٢٦/١).

(٢) انظر «فتح الباري» (٢/٢٤١)، و«تحفة الأحوذی» (٢/٣٤ - ١٤٠)، و«سبل السلام» (١/٢٦٣ - ٢٦٥)، و«الترمذي» بتحقيق أحمد شاكر (٢/٥٨ - ٥٩)، و«شرح المذهب» (٣/٣٩٣) للنووي.

ابن أم مكتوم». فقال: ابن أم مكتوم يؤذن بليل، فكلوا واشربوا حتى يؤذن بلال^(٢). وكما انقلب على بعضهم حديث: «لَا يَزَالُ يَلْقَى فِي النَّارِ، فَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ... إلى أن قال: وَأَمَّا الْجِنَّةُ فَيُنْشِئُ اللَّهُ لَهَا

خَلْقًا يُسْكِنُهُمْ إِيَّاهَا» (البخاري: ٤٨٥٠، ومسلم: ٧١٧٢). فقال: وَأَمَّا النَّارُ فَيُنْشِئُ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا يُسْكِنُهُمْ إِيَّاهَا، حتى رأيت أبا بكر بن أبي شيبة قد رواه كذلك، فقال ابن أبي شيبة: حدثنا محمد بن فضيل، عن عبد الله بن سعيد، عن جده، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إِذَا سَجَدَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَبْذَأْ بِرُكْبَتَيْهِ قَبْلَ يَدَيْهِ، وَلَا يَبْزُكْ كِبْرُوكَ الْفَحْلِ»^(٣). ورواه الأثرم في «سننه» أيضاً عن أبي بكر كذلك. وقد روي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ما يُصَدِّقُ ذلك، ويُوافق حديث وائل بن حجر. قال ابن أبي داود: حدثنا يوسف بن عدي، حدثنا ابن فضيل هو محمد، عن عبد الله بن سعيد، عن جده، عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ كان إذا سجد بدأ بركبته قبل يديه.

وقد روى ابن خزيمة في «صحيحه» من حديث مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، عن أبيه قال: كنا نضعُ اليدين قبل الركبتين، فأمرنا بالركبتين قبل اليدين (ابن خزيمة: ٦٢٨، والبيهقي (١٠٠/٢)) وعلى هذا فإن كان حديث أبي هريرة محفوظاً، فإنه منسوخ، وهذه طريقة صاحب «المغني» وغيره، ولكن للحديث علتان.

إحدهما: أنه من رواية يحيى بن سلمة بن كهيل، وليس ممن يُحتج به، قال النسائي: متروك. وقال ابن حبان: منكر الحديث جداً لا يُحتج به، وقال ابن معين: ليس بشيء.

أولاً، وتبقى يده على الأرض، وهذا هو الذي نهى عنه ﷺ، وفعل خلافه. وكان أول ما يقع منه على الأرض الأقرب منها فالأقرب، وأول ما يرتفع عن الأرض منها الأعلى فالأعلى.

وكان يضع ركبته أولاً، ثم يديه، ثم جبهته، وإذا رفع، رفع رأسه أولاً، ثم يديه، ثم ركبته، وهذا عكس فعل البعير، وهو ﷺ نهى في الصلاة عن التشبه بالحيوانات، فنهى عن بُرُوك كِبْرُوكِ البعير، والتفات كالتفات الثعلب، وافتراش كافتراش السَّعْبِ، وإقعاء كإقعاء الكلب، ونقر كنقر الغراب (سند ضيف: أحمد: ١٣٤٣٧، وأبو داود: ٨٦٢، والنسائي (٢١٤/٢) وابن ماجه: ١٤٢٩)، ورفع الأيدي وقت السلام كأذنان الخيل الشَّفْسِ (مسلم: ٩٦٨)، فهذه المصلي مخالفت لهدى الحيوانات.

الثاني: أن قولهم: رُكبتا البعير في يديه كلام لا يُعقل، ولا يعرفه أهل اللغة^(٤)، وإنما الركبة في الرجلين، وإن أطلق على اللتين في يديه اسم الركبة، فعلى سبيل التغليب.

الثالث: أنه لو كان كما قالوه، لقال: فليبرز كما يبرز البعير، وإن أول ما يمسُّ الأرض من البعير يده. ويسر المسألة من تأمل بُرُوكِ البعير، وعلم أن النبي ﷺ نهى عن بُرُوك كِبْرُوكِ البعير، علم أن حديث وائل بن حجر هو الصواب، والله أعلم.

وكان يقع لي أن حديث أبي هريرة كما ذكرنا ممّا انقلب على بعض الرواة منه وأصله، ولعله: وليضع ركبته قبل يديه، كما انقلب على بعضهم حديث ابن عمر: «إِنْ بَلَآ يُوْذُنْ بَلِيل، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يُوْذُنْ

(١) بل عرفه غير واحد، ففي «لسان العرب» مادة: ركب: وركبة البعير في يده... وجاء في «شرح معاني الآثار» (٢٥٤/١) للطحاوي في معرض تثبيت الحديث وتصحيحه ونفي الإحالة منه أن البعير ركبته في يديه، وكذلك في سائر البهائم، وروى الإمام قاسم بن ثابت السرقسطي في «غريب الحديث» (٧٠/٢) بسند صحيح عن أبي هريرة أنه قال: لا يبرز أحد برُوك البعير الشارد. قال الإمام: هذا في السجود، يقول: لا يرم بنفسه معاً، كما يفعل البعير الشارد غير المطمئن المواثر، ولكن ينحط مطمئناً يضع يديه، ثم ركبته، وقد روي في هذا حديث مرفوع مفسر وذكر الحديث.

(٢) قال الحافظ في «الفتح» (٥٨/٢): وادعى ابن عبد البر وجماعة من الأئمة بأن الحديث منقول، وأن الصواب حديث الباب (يريد حديث إن بَلَآ يُوْذُنْ بَلِيل...). وقد كنت أميل إلى ذلك إلى أن رأيت الحديث في «صحيح ابن خزيمة» (٤٠٨) من طريقين آخرين عن عائشة، وفي بعض ألفاظه ما يبعد وقوع الوهم فيه.

(٣) عبد الله بن سعيد هو المقبري وهو متروك، وأخرج الرواية الثانية البيهقي في «سننه» (١٠٠/٢)، وفيها عبد الله بن سعيد أيضاً فلا حجة فيها لضعفهما.

الثانية: أن المحفوظ من رواية مصعب بن سعد عن أبيه هذا إنما هو قصة التطبيق، وقول سعد: كنا نصنع هذا، فأمرنا أن نضع أيدينا على الركب.

وأما قول صاحب «المغني» عن أبي سعيد قال: كنا نضع اليدين قبل الركبتين، فأمرنا أن نضع الركبتين قبل اليدين، فهذا - والله أعلم - وهم في الاسم، وإنما هو عن سعد، وهو أيضاً وهم في المتن كما تقدم، وإنما هو في قصة التطبيق، والله أعلم.

وأما حديث أبي هريرة المتقدم، فقد علله البخاري، والترمذي، والدارقطني. قال البخاري: محمد بن عبد الله بن حسن لا يتابع عليه، وقال: لا أدري أسمع من أبي الزناد، أم لا.

وقال الترمذي: غريب لا نعرفه من حديث أبي الزناد إلا من هذا الوجه.

وقال الدارقطني: تفرد به عبد العزيز الدراوردي، عن محمد بن عبد الله بن الحسن العلوي، عن أبي الزناد، وقد ذكر النسائي عن قتيبة، حدثنا عبد الله بن نافع، عن محمد بن عبد الله بن الحسن العلوي، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ، فَيَبْرُكُ كَمَا يَبْرُكُ الْجَمَلُ» [أبو داود: ٨٤١، والترمذي: ٢٦٩، والنسائي ٢/٢٠٧] ولم يزد. قال أبو بكر بن أبي داود: وهذه سنة تفرد بها أهل المدينة، ولهم فيها إسنادان، هذا أحدهما، والآخر عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر - عن النبي ﷺ.

قلت: أراد الحديث الذي رواه أصبغ بن الفرّج، عن الدراوردي، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر أنه كان يضع يديه قبل ركبته، ويقول: كان النبي ﷺ يفعل ذلك. رواه الحاكم في «المستدرک» من طريق محرّر بن سلمة عن الدراوردي وقال: على شرط مسلم [الحاكم ١/٢٢٦]، والبيهقي ٢/١٠٠، وابن خزيمة: ٦٢٧، وقد رواه الحاكم من حديث حفص بن غياث، عن عاصم الأحول، عن أنس قال: رأيت رسول الله ﷺ انحط بالكبير حتى سبّحت ركبته يديه. قال الحاكم: على شرطهما، ولا أعلم له علة [الحاكم ١/٢٢٦]، والدارقطني ١/٣٤٥].

قلت: قال عبد الرحمن بن أبي حاتم: سألت أبي عن هذا الحديث، فقال: هذا الحديث منكر. انتهى. وإنما أنكره - والله أعلم - لأنه من رواية العلاء بن إسماعيل العطار، عن حفص بن غياث، والعلاء هذا مجهول لا ذكر له في الكتب الستة. فهذه الأحاديث المرفوعة من الجانبين كما ترى.

وأما الآثار المحفوظة عن الصحابة، فالمحفوظ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يضع ركبته قبل يديه، ذكره عنه عبد الرزاق [٢٩٥٥] وابن المنذر، وغيرهما، وهو المروي عن ابن مسعود رضي الله عنه، ذكره الطحاوي عن فهد، عن عمر بن حفص، عن أبيه، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن أصحاب عبد الله علقمة والأسود قالوا: حفظنا عن عمر في صلاته أنه خرّ بعد ركوعه على ركبته كما يخرّ البعير، ووضع ركبته قبل يديه، ثم ساق من طريق الحجاج بن أرطاة قال: قال إبراهيم النخعي: حفظ عن عبد الله بن مسعود أن ركبته كانتا تقعان على الأرض قبل يديه، وذكر عن أبي مرزوق، عن وهب، عن شعبة، عن مغيرة قال: سألت إبراهيم عن الرجل يبدأ بيديه قبل ركبته إذا سجد؟ قال: أو يصنع ذلك إلا أحمق أو مجنون!

قال ابن المنذر: وقد اختلف أهل العلم في هذا الباب، فممن رأى أن يضع ركبته قبل يديه: عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبه قال النخعي، ومسلم بن يسار، والثوري، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأبو حنيفة وأصحابه، وأهل الكوفة.

وقالت طائفة: يضع يديه قبل ركبته، قاله مالك: وقال الأوزاعي: أدركنا الناس يضعون أيديهم قبل ركبهم. قال ابن أبي داود: وهو قول أصحاب الحديث.

قلت: وقد روي حديث أبي هريرة بلفظ آخر ذكره البيهقي، وهو: «إذا سجد أحدكم، فلا يبرك كما يبرك البعير، وليضع يديه على ركبته» [البيهقي ٢/١٠٠]، قال البيهقي: فإن كان محفوظاً، كان دليلاً على أنه يضع يديه قبل ركبته عند الإهواء إلى السجود.

وحدث وائل بن حُجر أولى لوجه^(١).

أحدهما: أنه أثبت من حديث أبي هريرة، قاله الخطابي، وغيره.

الثاني: أن حديث أبي هريرة مضطرب المتن كما تقدم، فمنهم من يقول فيه: وليضع يديه قبل ركبته، ومنهم من يقول بالعكس، ومنهم من يقول: وليضع يديه على ركبته، ومنهم من يحذف هذه الجملة رأساً.

الثالث: ما تقدم من تعليل البخاري والدارقطني وغيرهما.

الرابع: أنه على تقدير ثبوته قد ادعى فيه جماعة من أهل العلم النسخ. قال ابن المنذر: وقد زعم بعض أصحابنا أن وضع اليدين قبل الركبتين منسوخ، وقد تقدم ذلك.

الخامس: أنه الموافق لنهي النبي ﷺ عن بروك كبروك الجمل في الصلاة، بخلاف حديث أبي هريرة.

السادس: أنه الموافق للمتنقول عن الصحابة، كعمر بن الخطاب، وابنه، وعبد الله بن مسعود، ولم ينقل عن أحد منهم ما يوافق حديث أبي هريرة إلا عن عمر رضي الله عنه على اختلاف عنه.

السابع: أن له شواهد من حديث ابن عمر وأنس كما تقدم، وليس لحديث أبي هريرة شاهد، فلو تقاوما، نُقِّدْ حديث وائل بن حُجر من أجل شواهد، فكيف وحديث وائل أقوى كما تقدم.

الثامن: أن أكثر الناس عليه، والقول الآخر إنما يُحفظ عن الأوزاعي ومالك، وأما قول ابن أبي داود: إنه قول أهل الحديث، فإنما أراد به بعضهم، وإلا فأحمد والشافعي وإسحاق على خلافه.

التاسع: أنه حديث فيه قصة مُحْكِيَة سِيقَتْ لحكاية فعله ﷺ، فهو أولى أن يكون محفوظاً، لأن الحديث إذا كان فيه قصة مُحْكِيَة، دلَّ على أنه حفظ.

العاشر: أن الأفعال المحكية فيه كلها ثابتة صحيحة من رواية غيره، فهي أفعال معروفة صحيحة، وهذا واحد منها، فله حكمها، ومعارضه ليس مقاوماً له، فيتعين ترجيحه، والله أعلم.

وكان النبي ﷺ يسجد على جبهته وأنفه دون كُور العمامة، ولم يثبت عنه السجود على كُور العمامة من حديث صحيح ولا حسن، ولكن روى عبد الرزاق في «المصنف» من حديث أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يسجد على كُور عمامته «المصنف»: [١٥٦٤]، وهو من رواية عبد الله بن مُحَرَّرٍ، وهو متروك، وذكره أبو أحمد الزبيري من حديث جابر، ولكنه من رواية عمر بن شمر. عن جابر الجعفي، متروك عن متروك، وقد ذكر أبو داود في المراسيل: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يُصلي في المسجد، فسجد بجبينه، وقد اعتم على جبهته، فحسر رسول الله ﷺ عن جبهته.

وكان رسول الله ﷺ يسجد على الأرض كثيراً، وعلى الماء والطين، وعلى الخُمرة المتخذة من خوص النخل، وعلى الحصى المتخذ منه، وعلى الفروة المدبوغة.

وكان إذا سجد، مَكَّنْ جبهته وأنفه من الأرض، ونَحَّى يديه عن جنبه، وجافى بهما حتى يرى بياض إبطيه، ولو شاءت بَهْمَة - وهي الشاة الصغيرة - أن تمرَّ تحتها لمرت.

وكان يضع يديه خَذْو منكبيه وأذنيه، وفي «صحيح مسلم» عن البراء أنه ﷺ قال: «إِذَا سَجَدْتَ، فَصَغْ كَفِّكَ وَارْفَعْ مِرْقَئَكَ» [مسلم: ٤٨٠].

وكان يعتدل في سجوده، ويستقبل بأطراف أصابع رجله القبلة.

وكان يَسْطُ كفّه وأصابعه، ولا يُفَرِّج بينها ولا يقبضها، وفي «صحيح ابن حبان»: كان إذا ركَع، فرج أصابعه، فإذا سَجَدَ، ضَمَّ أصابعه [ابن حبان «موارد»: ٤٨٨، وابن خزيمة: ٥٩٤، والحاكم (١/٢٢٧)].

وكان يقول: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى» [مسلم: ١٨١٤] وأمر به.

وكان يقول: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي» [البخاري: ٧٩٤، ومسلم: ١٠٨٥].

(١) بمراجعة التعليقات السابقة يتبين أن المرجح خلاف ما ذهب إليه المصنف، وأن حديث أبي هريرة هو المرجح على حديث وائل لصحة سند ودعوى الاضطراب فيه متفية لضعف كل الروايات التي فيها الاضطراب.

بإعطائه سؤاله، واستجابة دعاء المُنْتَني بالثواب، وبكل واحد من النوعين فُسِّرَ قوله تعالى: ﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا﴾ [البقرة: ١٨٦]. والصحيح أنه يعم النوعين.

فصل

(أيهما أفضل السجود أم القيام)

وقد اختلف الناس في القيام والسجود أيهما أفضل؟ فرجحت طائفة القيام لوجوه.

أحدها: أن ذكره أفضل الأذكار، فكان ركعته أفضل الأركان.

والثاني: قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

الثالث: قوله ﷺ: «أَفْضَلُ الصَّلَاةِ طُولُ الْقُتُوبِ» [مسلم: ١٧٦٨].

وقالت طائفة: السجود أفضل، واحتجت بقوله ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ» [مسلم: ١٠٨٣]. وبحديث معدان بن أبي طلحة قال: لقيت ثوبان مولى رسول الله ﷺ، فقلت: حدثني بحديث عسى الله أن ينفعني به؟ فقال: عليك بالسجود؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلَّا رَفَعَ اللَّهُ لَهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَظَّ عَنْهُ بِهَا حَظِيطَةٌ». قال معدان: ثم لقيت أبا الدرداء، فسألته، فقال لي مثل ذلك [مسلم: ١٠٩٣].

وقال رسول الله ﷺ لربيعة بن كعب الأسلمي وقد سألته مرافقته في الجنة: «أَعْنِي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ» [مسلم: ١٠٩٤].

وأول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ سورة (اقرأ) على الأصح، وختمها بقوله: ﴿وَأَسْبَغْ وَأَقْرَبْ﴾ [العلق: ١٩].

وبأن السجود لله يقع من المخلوقات كلها علويها وسفليها، وبأن الساجد أذل ما يكون لربه وأخضع له، وذلك أشرف حالات العبد، فلهذا كان أقرب ما يكون من ربه في هذه الحالة، وبأن السجود هو سر العبودية، فإن العبودية هي الذل والخضوع، يقال: طريق معبد، أي ذلته الأقدام، ووطاته، وأذل ما يكون العبد وأخضع إذا كان ساجداً.

وكان يقول: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ» [مسلم: ١٠٩١].

وكان يقول: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» [مسلم: ١٠٨٩].

وكان يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أَخْصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» [مسلم: ١٠٩٠].

وكان يقول: «اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» [مسلم: ١٨١٢].

وكان يقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّةً وَجِلَّةً، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ» [مسلم: ١٠٨٤].

وكان يقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جَدِّي وَهَزْلِي، وَخَطِيئِي وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ، وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» [البخاري: ٦٣٩٨].

وكان يقول: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُوراً، وَفِي سَمْعِي نُوراً، وَفِي بَصَرِي نُوراً، وَعَنْ يَمِينِي نُوراً، وَعَنْ شِمَالِي نُوراً، وَأَمَامِي نُوراً، وَخَلْفِي نُوراً، وَفَوْقِي نُوراً، وَتَحْتِي نُوراً، وَاجْعَلْ لِي نُوراً» [مسلم: ١٧٩٤].

(استحباب الدعاء في السجود)

وأمر بالاجتهاد في الدعاء في السجود وقال: «إِنَّهُ قَبِيحٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ» [مسلم: ١٠٧٤]. وهل هذا أمر بأن يُكثَر الدعاء في السجود، أو أمر بأن الداعي إذا دعا في محل، فليكن في السجود؟ وفرق بين الأمرين، وأحسن ما يحمل عليه الحديث أن الدعاء نوعان: دعاء ثناء، ودعاء مسألة، والنبی ﷺ كان يُكثَر في سجوده من النوعين، والدعاء الذي أمر به في السجود يتناول النوعين.

والاستجابة أيضاً نوعان: استجابة دعاء الطالب

وقالت طائفة: طولُ القيام بالليل أفضل، وكثرة الركوع والسجود بالنهار أفضل، واحتجت هذه الطائفة بأن صلاة الليل قد حُصَّت باسم القيام، لقوله تعالى: ﴿فَرَأَيْتَ﴾ [المُزَل: ٢]. وقوله ﷺ: «مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا» [البخاري: ٢٠٠٩]، ولهذا يُقال: قيامُ الليل، ولا يقال: قيامُ النهار، قالوا: وهذا كان هدي النبي ﷺ، فإنه ما زاد في الليل على إحدى عشرة ركعة، أو ثلاث عشرة ركعة.

وكان يُصلي الركعة في بعض الليالي بالبقرة وآل عمران والنساء [مسلم: ١٨١٤]، وأما بالنهار، فلم يُحفظ عنه شيء من ذلك، بل كان يخفف السنن.

وقال شيخنا: الصواب أنهما سواء، والقيام أفضل بذكره وهو القراءة، والسجود أفضل بهيئته، فهيئة السجود أفضل من هيئة القيام، وذكر القيام أفضل من ذكر السجود، وهكذا كان مَذْيُ رسول الله ﷺ، فإنه كان إذا أطال القيام، أطال الركوع والسجود، كما فعل في صلاة الكسوف، وفي صلاة الليل، وكان إذا خَفَّفَ القيام، خَفَّفَ الركوع والسجود، وكذلك كان يفعل في الفرض، كما قاله البراء بن عازب: كان قيامه وركوعه وسجوده واعتداله قريباً من السواء. والله أعلم.

فصل

(الجلوس بين السجدين)

ثم كان ﷺ يرفع رأسه مكبراً غير رافع يديه، ويرفع من السجود رأسه قبل يديه، ثم يجلس مفترشاً، يفرش رجله اليسرى، ويجلس عليها، ويَنْصِبُ اليمنى. وذكر النسائي عن ابن عمر قال: من سنة الصلاة أن ينصب القدم اليمنى، واستقبله بأصابعها القبلة، والجلوس على اليسرى [النسائي: ٣/٢٦] ولم يحفظ عنه ﷺ في هذا الموضع جلسة غير هذه.

وكان يضع يديه على فخذه، ويجعل مرفقه على فخذه، وطرف يده على رُكبته، ويقبض تثنين من أصابعه، ويحلق حلقة، ثم يرفع أصبعه يدعو بها ويُحرِّكها، هكذا قال واثل بن حُجر عنه [صحيح: أحمد: ١٨٨٧٠، وأبو داود: ٩٥٧].

وأما حديث أبي داود عن عبد الله بن الزبير: أن النبي ﷺ كان يُشير بأصبعه إذا دعا ولا يُحرِّكها [حسن: أبو داود: ٩٨٨، والنسائي: ٣٧/٣ - ٣٨]. فهذه الزيادة في صحتها نظر، وقد ذكر مسلم الحديث بطوله في «صحيحه» عنه، ولم يذكر هذه الزيادة، بل قال: كان رسول الله ﷺ إذا قَعَدَ في الصلاة، جعل قدمه اليسرى بين فخذه وساقه، وفرش قدمه اليمنى، ووضع يده اليسرى على رُكبته اليسرى، ووضع يده اليمنى على فخذه اليمنى، وأشار بأصبعه [مسلم: ١٣٠٧].

وأيضاً فليس في حديث أبي داود عنه أن هذا كان في الصلاة.

وأيضاً لو كان في الصلاة، لكان نافياً، وحديث واثل بن حُجر مثبتاً، وهو مقدم، وهو حديث صحيح، ذكره أبو حاتم في «صحيحه» [٨٥] «موارد» [استاده صحيح].

ثم كان يقول بين السجدين: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَاجْبُرْنِي وَافْعَلْ بِي مَا تَشَاءُ»، هكذا ذكره ابن عباس رضي الله عنهما عنه ﷺ [أبو داود: ٨٥٠، والترمذي: ٢٨٤، وابن ماجه: ٨٩٨] وذكر حذيفة أنه كان يقول: «رَبِّ اغْفِرْ لِي، رَبِّ اغْفِرْ لِي» [أبو داود: ٨٧٤، والنسائي: ٢/٢٣١، وابن ماجه: ٨٩٧].

وكان هديه ﷺ إطالة هذا الركن بقدر السجود، وهكذا الثابت عنه في جميع الأحاديث، وفي «الصحيح» عن أنس رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يقعد بين السجدين حتى نقول: قَدْ أَوْهَمَ [مسلم: ١٠٦١]. وهذه السنة تركها أكثر الناس من بعد انقراض عصر الصحابة، ولهذا قال ثابت: وكان أنس يصنع شيئاً لا أراكم تصنعونه، يمكث بين السجدين حتى نقول: قد نسي، أوقد أوهم [البخاري: ٨٢١، ومسلم: ١٠٦٠].

وأما من حَكَمَ السنة ولم يلتفت إلى ما خالفها، فإنه لا يعبأ بما خالف هذا الهدى.

فصل

(جلسة الاستراحة)

ثم كان ﷺ ينهض على صدور قدميه وركبتيه

معتبداً على فخذيه كما ذكر عنه: واثل وأبو هريرة^(١)، ولا يعتد على الأرض بيديه^(٢). وقد ذكر عنه مالك بن الحويرث: أنه كان لا ينهض حتى يستوي جالساً [بخاري: ٨٢٣]. وهذه هي التي تُسمى جلسة الاستراحة.

واختلف الفقهاء فيها هل هي من سنن الصلاة، فيستحب لكل أحد أن يفعلها، أو ليست من السنن، وإنما يفعلها من احتاج إليها؟ على قولين هما روايتان عن أحمد رحمه الله. قال الخلال: رجع أحمد إلى حديث مالك بن الحويرث في جلسة الاستراحة، وقال: أخبرني يوسف بن موسى، أن أبا أمامة سئل عن النهوض، فقال: على صدور القدمين على حديث رفاعه. وفي حديث ابن عجلان ما يدل على أنه كان ينهض على صدور قدميه، وقد روي عن عدة من أصحاب النبي ﷺ، وسائر من وصف صلاته ﷺ لم يذكر هذه الجلسة، وإنما ذكرت في حديث أبي حميد، ومالك بن الحويرث. ولو كان هديهم فعلها دائماً، لذكرها كل من وصف صلاته ﷺ ومجرد فعله ﷺ لها لا يدل على أنها من سنن الصلاة، إلا إذا علم أنه فعلها على أنها سنة يقتدى به فيها، وأما إذا قُدِّرَ أنه فعلها للحاجة، لم يدل على كونها سنة من سنن الصلاة، فهذا من تحقيق المَنَاط في هذه المسألة^(٣).

وكان إذا نهض، افتتح القراءة، ولم يسكت كما كان يسكت عند افتتاح الصلاة، فاختلف الفقهاء: هل هذا موضع استعادة أم لا بعد اتفاقهم على أنه ليس موضع افتتاح؟ وفي ذلك قولان هما روايتان عن أحمد، وقد بناهما بعض أصحابه على أن قراءة الصلاة هل هي قراءة واحدة؟ فيكفي فيها استعادة واحدة، أو قراءة كل ركعة مستقلة برأسها. ولا نزاع

بينهم أن الاستفتاح لمجموع الصلاة، والاكتفاء باستعادة واحدة أظهر، للحديث الصحيح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان إذا نهض من الركعة الثانية استفتح القراءة بـ (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) ولم يسكت [سلم: ١٣٥٦]. وإنما يكفي استعادة واحدة، لأنه لم يتخلل القراءة سكوت، بل تخللها ذكر، فهي كالقراءة الواحدة إذا تخللها حمد الله، أو تسبيح، أو تهليل، أو صلاة على النبي ﷺ ونحو ذلك^(٤).

وكان النبي ﷺ يصلي الثانية كالأولى سواء، إلا في أربعة أشياء: السكوت، والاستفتاح، وتكبيره الإحرام، وتطويلها كالأولى، فإنه ﷺ كان لا يستفتح، ولا يسكت، ولا يكبر للإحرام فيها، ويقصرها عن الأولى، فتكون الأولى أطول منها في كل صلاة كما تقدم.

(جلسة التشهد الأول)

إذا جلس للتشهد، وضع يده اليسرى على فخذ اليسرى، ووضع يده اليمنى على فخذ اليمنى، وأشار بأصبعه السبابة، وكان لا ينصبها نصباً، ولا يُبَيِّمها، بل يحنيها شيئاً، ويحركها شيئاً، كما تقدم في حديث واثل بن حُجر، وكان يقبض أصبعين وهما الخنصر والبنصر، ويحلق حلقة وهي الوسطى مع الإبهام ويرفع السبابة يدعو بها، ويرمي ببصره إليها، ويبسط الكف اليسرى على الفخذ اليسرى، ويتحامل عليها.

وأما صفة جلوسه، فكما تقدم بين السجدين سواء، يجلس على رجله اليسرى، وينصب اليمنى. ولم يُرو عنه في هذه الجلسة غير هذه الصفة. وأما حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنه الذي

(١) حديث واثل بن حجر تقدم ذكره في فصل كيفية الهبوط من الركوع إلى السجود وهو ضعيف، وحديث أبي هريرة أخرجه سعيد بن منصور بإسناد ضعيف، فيما قاله الحافظ في «الفتح» (٢/ ٢٥٠).

(٢) هذا يخالف ما رواه البخاري (٨٢٤).

(٣) قال النووي في «المجموع» (٤/ ٤٤٣): مذهبا الصحيح المشهور: أنها مستحبة، وبه قال مالك بن الحويرث وأبو حميد وأبو قتادة، وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم وأبواب قلابة وغيره من التابعين.

(٤) قال النووي في «المجموع» (٣/ ٣٢٦): الأصح في مذهبا استحبابه، أي: التعوذ في كل ركعة، وبه قال ابن سيرين. وقال عطاء والحسن والنخعي والثوري وأبو حنيفة: يختص التعوذ بالركعة الأولى.

وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ» [البخاري: ٨٣١].

وقد ذكر النسائي من حديث أبي الزبير عن جابر قال: كان رسول الله ﷺ يُعلمنا التشهد، كما يُعلمنا السورة من القرآن: «بِسْمِ اللَّهِ، وَيَا لِلَّهِ، التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ، وَالصَّلَوَاتُ، وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَسْأَلُ اللَّهَ الْجَنَّةَ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ».

ولم تجيء التسمية في أول التشهد إلا في هذا الحديث، وله علة غير عننة أبي الزبير [النسائي (٢/ ٢٤٣)، وابن ماجه: ٩٠٢].

وكان ﷺ يخفف هذا التشهد جداً حتى كأنه على الرُّضْفِ - وهي الحجارة المحممة - ولم يُنقل عنه في حديث قط أنه صلى عليه وعلى آله في هذا التشهد، ولا كان أيضاً يستعِذُ فيه من عذاب القبر وعذاب النار، وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال، ومن استحَبَّ ذلك، فإنما فهمه من عموماً وإطلاقات قد صح تبين موضعها، وتقيدها بالتشهد الأخير.

(النهوض للركعة الثالثة)

ثم كان ينهض مكبراً على صدور قدميه وعلى ركبتيه معتمداً على فخذه كما تقدم، وقد ذكر مسلم في «صحيحه» من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أنه كان يرفع يديه في هذا الموضع، وهي في بعض طرق البخاري أيضاً [البخاري: ٧٣٩]. على أن هذه الزيادة ليست متفقاً عليها في حديث عبد الله بن عمر، فأكثر رواه لا يذكرونها، وقد جاء ذكرها مصرحاً به في حديث أبي حميد الساعدي قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة، كبر، ثم رفع يديه حتى يُحاذِي بهما مَنكِبَيْهِ، وَيُقِيمُ كُلَّ عَصْرٍ في موضعه، ثم يقرأ، ثم يرفع يديه حتى يُحاذِي بهما مَنكِبَيْهِ، ثم يركع ويضع راحتيه على ركبتيه معتديلاً

رواه مسلم في «صحيحه»: أنه ﷺ كان إذا قَعَدَ في الصلاة، جعل قَدَمَهُ الْيُسْرَى بين فخذه وساقه، وفرش قدمه اليمنى [مسلم: ١٣٠٧]. فهذا في التشهد الأخير كما يأتي، وهو أحد الصفتين اللتين رويتا عنه، ففي «الصحيحين» من حديث أبي حميد في صفة صلاته ﷺ: فإذا جلس في الركعتين، جَلَسَ على رجله الْيُسْرَى، وَنَصَبَ الْآخَرَى، وإذا جلس في الركعة الأخيرة، قَدَمَ رجله اليسرى، وَنَصَبَ اليمنى، وَقَعَدَ على مقعده [البخاري: ٨٢٨]. فذكر أبو حميد أنه كان ينصب اليمنى. وذكر ابن الزبير أنه كان يفرشها، ولم يقل أحد عنه ﷺ: إن هذه صفة جلوسه في التشهد الأول، ولا أعلم أحداً قال به، بل من الناس من قال: يتورك في التشهدين، وهذا مذهب مالك رحمه الله، ومنهم من قال: يفرش فيهما، فينصب اليمنى، ويفترش اليسرى، ويجلس عليها، وهو قول أبي حنيفة رحمه الله، ومنهم من قال: يتورك في كل تشهد يليه السلام، ويفترش في غيره، وهو قول الشافعي رحمه الله، ومنهم من قال: يتورك في كل صلاة فيها تشهدان في الأخير منهما، فرقا بين الجلوسين، وهو قول الإمام أحمد رحمه الله. ومعنى حديث ابن الزبير رضي الله عنه أنه فرش قدمه اليمنى: أنه كان يجلس في هذا الجلوس على مقعده، فتكون قدمه اليمنى مفروشة، وقدمه اليسرى بين فخذه وساقه، ومقعده على الأرض، فوق الاختلاف في قدمه اليمنى في هذا الجلوس: هل كانت مفروشة أم منصوبة؟ وهذا - والله أعلم - ليس اختلافاً في الحقيقة، فإنه كان لا يجلس على قدمه، بل يخرجها عن يمينه، فتكون بين المنصوبة والمفروشة، فإنها تكون على باطنها الأيمن، فهي مفروشة بمعنى أنه ليس ناصباً لها، جالساً على عقبه، ومنصوبة بمعنى أنه ليس جالساً على باطنها وظهرها إلى الأرض، فصح قول أبي حميد ومن معه، وقول عبد الله بن الزبير، أو يقال: إنه ﷺ كان يَقْعُلُ هذا وهذا، فكان ينصب قدمه، وربما فرشها أحياناً، وهذا أروح لها. والله أعلم.

ثم كان ﷺ يتشهد دائماً في هذه الجلسة، وَيُعَلِّمُ أصحابه أن يقولوا: «التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ

لا يُصَوِّبُ رَأْسَهُ وَلَا يُفْنِجُ بِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ» وَيَرْفَعُ يَدَيْهِ حَتَّى يُحَازِيَ بِهِمَا مَنْكِبَيْهِ، حَتَّى يَفْرُقَ كُلُّ عَظْمٍ إِلَى مَوْضِعِهِ، ثُمَّ يَهْوِي إِلَى الْأَرْضِ، وَيُجَافِي يَدَيْهِ عَنِ جَنْبَيْهِ ثُمَّ يَرْفَعُ رَأْسَهُ، وَيَنْتَبِي رِجْلَهُ، فَيَقْعُدُ عَلَيْهَا، وَيَفْتَحُ أَصَابِعَ رِجْلَيْهِ إِذَا سَجَدَ، ثُمَّ يُكَبِّرُ، وَيَجْلِسُ عَلَى رِجْلَيْهِ الْبُسْرَى حَتَّى يَرْجِعَ كُلُّ عَظْمٍ إِلَى مَوْضِعِهِ، ثُمَّ يَقُومُ فَيَصْنَعُ فِي الْأُخْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ إِذَا قَامَ مِنَ الرَّكَعَتَيْنِ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى يُحَازِيَ بِهِمَا مَنْكِبَيْهِ كَمَا يَصْنَعُ عِنْدَ افْتِتَاحِ الصَّلَاةِ، ثُمَّ يُصَلِّي بَقِيَّةَ صَلَاتِهِ هَكَذَا، حَتَّى إِذَا كَانَتْ السُّجْدَةُ الَّتِي فِيهَا التَّسْلِيمُ، أَخْرَجَ رِجْلَيْهِ، وَجَلَسَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْسَرِ مُتَوَرِّكًا [البخاري: ٨٢٨]. هَذَا سِيَاقُ أَبِي حَاتِمٍ فِي «صَحِيحِهِ»، وَهُوَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» أَيْضًا، وَقَدْ ذَكَرَهُ التِّرْمِذِيُّ مُصَحِّحًا لَهُ مِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ كَانَ يُرْفَعُ يَدَيْهِ فِي هَذِهِ الْمَوَاطِنِ أَيْضًا.

(لَمْ يَنْهَتْ عَنْهُ أَنَّهُ قَرَأَ فِي الرَّكَعَتَيْنِ الْأُخْرَيَيْنِ شَيْئًا)

ثُمَّ كَانَ يَقْرَأُ الْفَاتِحَةَ وَحدهَا، وَلَمْ يَثْبِتْ عَنْهُ أَنَّهُ قَرَأَ فِي الرَّكَعَتَيْنِ الْأُخْرَيَيْنِ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ شَيْئًا، وَقَدْ ذَهَبَ الشَّافِعِيُّ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ وَغَيْرِهِ إِلَى اسْتِحْبَابِ الْقِرَاءَةِ بِمَا زَادَ عَلَى الْفَاتِحَةِ فِي الْأُخْرَيَيْنِ، وَاحْتِجَ لِهَذَا الْقَوْلِ بِحَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الَّذِي فِي «الصَّحِيحِ»: حَزْرُنَا قِيَامَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الظُّهْرِ فِي الرَّكَعَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ قَلْبَ قِرَاءَةِ (أَلَمْ تَنْزِيلِ السُّجْدَةِ)، وَحَزْرُنَا قِيَامَهُ فِي الرَّكَعَتَيْنِ الْأُخْرَيَيْنِ قَلْبَ النِّصْفِ مِنْ ذَلِكَ، وَحَزْرُنَا قِيَامَهُ فِي الرَّكَعَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ مِنَ الْعَصْرِ عَلَى قَلْبِ قِيَامِهِ فِي الرَّكَعَتَيْنِ الْأُخْرَيَيْنِ مِنَ الظُّهْرِ، وَفِي الْأُخْرَيَيْنِ مِنَ الْعَصْرِ عَلَى النِّصْفِ مِنْ ذَلِكَ [البخاري: ٧٥٩].

وَحَدِيثُ أَبِي قَتَادَةَ الْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ ظَاهِرٌ فِي الْاِقْتِصَارِ عَلَى فَاتِحَةِ الْكِتَابِ فِي الرَّكَعَتَيْنِ الْأُخْرَيَيْنِ.

(كَانَ يَفْعَلُ فِي الصَّلَاةِ شَيْئًا لِعَارِضٍ لَمْ يَكُنْ يَفْعَلُهُ)

قَالَ أَبُو قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي بِنَا، فَيَقْرَأُ فِي الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ فِي الرَّكَعَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ وَسُورَتَيْنِ، وَيُسَمِّعُنَا الْآيَةَ أحيانًا. زَادَ مُسْلِمٌ: وَيَقْرَأُ فِي الْأُخْرَيَيْنِ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ [مسلم: ١٠١٢]، وَالحَدِيثَانِ غَيْرُ صَرِيحَيْنِ فِي مَحَلِّ التَّزَاوُعِ. وَأَمَّا حَدِيثُ أَبِي سَعِيدٍ، فَإِنَّمَا هُوَ خَزَرُ

مِنْهُمْ وَتَخْمِينٌ، لَيْسَ إِخْبَارًا عَنْ تَفْسِيرِ نَفْسِ فِعْلِهِ ﷺ. وَأَمَّا حَدِيثُ أَبِي قَتَادَةَ، فَيُمْكِنُ أَنْ يُرَادَ بِهِ أَنَّهُ كَانَ يَقْتَصِرُ عَلَى الْفَاتِحَةِ، وَأَنْ يُرَادَ بِهِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُخْلُ بِهَا فِي الرَّكَعَتَيْنِ الْأُخْرَيَيْنِ، بَلْ كَانَ يَقْرؤها فِيهِمَا، كَمَا كَانَ يَقْرؤها فِي الْأُولَيَيْنِ، فَكَانَ يَقْرَأُ الْفَاتِحَةَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ، وَإِنْ كَانَ حَدِيثُ أَبِي قَتَادَةَ فِي الْاِقْتِصَارِ أَظْهَرَ، فَإِنَّهُ فِي مَعْرِضِ التَّقْسِيمِ، فَإِذَا قَالَ: كَانَ يَقْرَأُ فِي الْأُولَيَيْنِ بِالْفَاتِحَةِ وَالسُّورَةِ، وَفِي الْأُخْرَيَيْنِ بِالْفَاتِحَةِ، كَانَ كَالْتَصْرِيحِ فِي اخْتِصَاصِ كُلِّ قِسْمٍ بِمَا ذَكَرَ فِيهِ، وَعَلَى هَذَا، فَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ هَذَا أَكْثَرَ فِعْلِهِ، وَرَبِمَا قَرَأَ فِي الرَّكَعَتَيْنِ الْأُخْرَيَيْنِ شَيْءًا فَوْقَ الْفَاتِحَةِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ حَدِيثُ أَبِي سَعِيدٍ، وَهَذَا كَمَا أَنَّ هَدْيَهُ ﷺ كَانَ تَطْوِيلَ الْقِرَاءَةِ فِي الْفَجْرِ، وَكَانَ يَخْفِفُهَا أحيانًا، وَتَخْفِيفَ الْقِرَاءَةِ فِي الْمَغْرِبِ، وَكَانَ يُطِيلُهَا أحيانًا، وَتَرَكَ الْقُنُوتَ فِي الْفَجْرِ، وَكَانَ يَقْنَتُ فِيهَا أحيانًا، وَالْإِسْرَارَ فِي الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ بِالْقِرَاءَةِ، وَكَانَ يُسْمِعُ الصَّحَابَةَ الْآيَةَ فِيهَا أحيانًا، وَتَرَكَ الْجَهْرَ بِالْبِسْمَةِ [مسلم: ٨٩٠]، وَكَانَ يَجْهَرُ بِهَا أحيانًا [التِّرْمِذِيُّ: ٢٤٥].

(الِاتِّفَاتُ فِي الصَّلَاةِ)

وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ كَانَ يَفْعَلُ فِي الصَّلَاةِ شَيْئًا أحيانًا لِعَارِضٍ لَمْ يَكُنْ مِنْ فِعْلِهِ الرَّائِبِ، وَمِنْ هَذَا لَمَّا بَعَثَ ﷺ فَارَسًا طَلِيعَةً، ثُمَّ قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، وَجَعَلَ يَلْتَفِتُ فِي الصَّلَاةِ إِلَى الشَّعْبِ الَّذِي يَجِيءُ مِنْهُ الطَّلِيعَةُ [صحيح: أبو داود: ٩١٦ - ٢٥٠١] وَلَمْ يَكُنْ مِنْ هَدْيِهِ ﷺ الْاِلْتِفَاتُ فِي الصَّلَاةِ، وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْاِلْتِفَاتِ فِي الصَّلَاةِ؟ فَقَالَ: هُوَ اخْتِلَافٌ يَحْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلَاةِ الْعَبْدِ [البخاري: ٧٥١].

وَفِي التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا بُنَيَّ إِيَّاكَ وَالْاِلْتِفَاتُ فِي الصَّلَاةِ، فَإِنَّ الْاِلْتِفَاتَ فِي الصَّلَاةِ هَلَكَةٌ، فَإِنْ كَانَ وَلَا بُدَّ فَعَلِي التَّطَوُّعَ، لَا فِي الْفَرْضِ» [التِّرْمِذِيُّ: ٥٨٩] وَلَكِنْ لِلْحَدِيثِ عِلَّتَانِ:

إِحْدَاهُمَا: أَنَّ رَوَايَةَ سَعِيدٍ عَنْ أَنَسٍ لَا تَعْرِفُ.

الثَّانِيَةُ: أَنَّ فِي طَرِيقِهِ عَلِيُّ بْنُ زَيْدٍ بْنُ جَدْعَانَ، وَقَدْ ذَكَرَ الْبَزَارُ فِي مُسْنَدِهِ مِنْ حَدِيثِ يُوسُفَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا صَلَاةَ

للملتفت» [ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/٨٠)]. فأما حديث ابن عباس: إن رسول الله ﷺ كان يَلْحَظُ في الصلاة يميناً وشمالاً، ولا يلوي عنقه خلف ظهره. فهذا حديث لا يثبت. قال الترمذي فيه: حديث غريب [صحيح: أحمد: ٢٤٨٦، والترمذي: ٥٨٧، والنسائي: ٩/٣]. ولم يزد.

وقال الخلال: أخبرني الميموني أن أبا عبد الله قيل له: إن بعض الناس أسند أن النبي ﷺ كان يلاحظ في الصلاة. فأنكر ذلك إنكاراً شديداً، حتى تغير وجهه، وتغير لونه، وتحرك بدنه، ورأيتُه في حال ما رأيته في حالٍ قط أسوأ منها، وقال: النبي ﷺ كان يلاحظ في الصلاة؟! يعني أنه أنكر ذلك، وأحسبه قال: ليس له إسناد، وقال: من روى هذا؟! إنما هذا من سعيد بن المسيب، ثم قال لي بعض أصحابنا: إن أبا عبد الله وَهَنَ حديث سعيد هذا، وضعف إسناده، وقال: إنما هو عن رجل عن سعيد، وقال عبد الله بن أحمد: حدثت أبي بحديث حسان بن إبراهيم عن عبد الملك الكوفي قال: سمعت العلاء قال: سمعت مكحولاً يحدث عن أبي أمامة وواثلة: كان النبي ﷺ إذا قام إلى الصلاة لم يلتفت يميناً ولا شمالاً، ورَمَى ببصره في موضع سجوده، فأنكره جداً، وقال: اضرب عليه. فأحمد رحمه الله أنكر هذا وهذا، وكان إنكاره للأول أشد، لأنه باطل سنداً ومتناً.

والثاني: إنما أنكر سنده، وإلا فمتمته غير منكر، والله أعلم.

ولو ثبت الأول، لكان حكاية فعل فعَلَهُ، لعله كان لمصلحة تتعلق بالصلاة ككلامه عليه السلام هو وأبو بكر وعمر، وذو اليمين في الصلاة لمصلحتها، أو لمصلحة المسلمين، كالحديث الذي رواه أبو داود عن أبي كيشة السلولي، عن سهل بن الحنظلية قال: ثُوب بالصلاة يعني صلاة الصبح، فجعل رسول الله ﷺ يصلي وهو يلتفت إلى الشعب. قال أبو داود: يعني وكان أرسل فارساً إلى الشعب من الليل يَخْرُسُ [صحيح: أبو داود: ٩١٦]. فهذا الالتفات من الاشتغال بالجهاد في الصلاة وهو يدخل في مداخل العبادات، كصلاة الخوف، وقريب منه قول عمر: إني لأجهز جيشي وأنا في الصلاة. فهذا جمع

بين الجهاد والصلاة. ونظيره التفكر في معاني القرآن، واستخراج كنوز العلم منه في الصلاة، فهذا جمع بين الصلاة والعلم، فهذا لون، والتفات الغافلين للآمين وأفكارهم لون آخر، وبالله التوفيق.

(إطالة الركعتين الأوليين)

فهذه الراتب ﷺ إطالة الركعتين الأوليين من الرباعية على الآخرين، وإطالة الأولى من الأوليين على الثانية، ولهذا قال سعد لعمر: أما أنا فأطيلُ في الأوليين، وأحذف في الآخرين، ولا ألو أن أقدي بصلاة رسول الله ﷺ.

(إطالة الفجر على سائر الصلوات وكذا)

أول الصلاة على آخرها وإشارة إلى الركعتين بعد الوتر)

وكذلك كان هديهِ ﷺ إطالة صلاة الفجر على سائر الصلوات، كما تقدم. قالت عائشة رضي الله عنها: فرض الله الصلاة ركعتين ركعتين، فلما هاجر رسول الله ﷺ، زيد في صلاة الحضر، إلا الفجر، فإنها أُقِرَّتْ على حالها من أجل طول القراءة، والمغرب، لأنها وتر النهار. رواه أبو حاتم بن حبان في «صحيحه» [ابن حبان: ٥٤٤، وابن خزيمة: ٣٠٥] وأصله في «صحيح البخاري» [البخاري: ٣٥٠، ومسلم: ١٥٧٠]. وهذا كان هديهِ ﷺ في سائر صلاته إطالة أولها على آخرها، كما فعل في الكسوف، وفي قيام الليل لما صلى ركعتين طويلتين، ثم ركعتين وهما دون اللتين قبلهما، ثم ركعتين وهما دون اللتين قبلهما، حتى أتم صلاته. ولا يُناقض هذا افتتاحه ﷺ صلاة الليل بركعتين خفيفتين، وأمره بذلك، لأن هاتين الركعتين مفتاح قيام الليل، فهما بمنزلة سنة الفجر وغيرها، وكذلك الركعتان اللتان كان يُصليهما أحياناً بعد وتره، تارة جالساً، وتارة قائماً، مع قوله: «اجْعَلُوا آخِرَ صَلَاتِكُمْ بِاللَّيْلِ وَتَرّاً» [البخاري: ٩٩٨، ومسلم: ١٧٥٤]. فإن هاتين الركعتين لا تُتَافيان هذا الأمر، كما أن المغرب وترٌ للنهار، وصلاة السنة شفعاً بعدها لا يُخرجها عن كونها وترّاً للنهار، وكذلك الوتر لَمَّا كان عبادة مستقلة، وهو وتر الليل، كانت الركعتان بعده جارتين مجرى سنة المغرب، من المغرب، ولما كان المغرب فرضاً، كانت محافظته عليه السلام على سنتها أكثر من محافظته على سنة الوتر، وهذا على أصل من

يقول بوجوب الوتر ظاهرٌ جداً، وسيأتي مزيد كلام في هاتين الركعتين إن شاء الله تعالى، وهي مسألة شريفة لعلك لا تراها في مصنف، وبالله التوفيق.

فصل

(الجلوس للشهد الأخير)

وكان ﷺ إذا جلس في الشهد الأخير، جلس متوركاً، وكان يُفضي بوركته إلى الأرض، ويُخرج قدمه من ناحية واحدة.

فهذا أحد الوجوه الثلاثة التي رويت عنه ﷺ في التورك. ذكره أبو داود في حديث أبي حميد الساعدي من طريق عبد الله بن لهيعة [أبو داود: ٩٦٥]. وقد ذكر أبو حاتم في «صحيحه» هذه الصفة من حديث أبي حميد الساعدي من غير طريق ابن لهيعة، وقد تقدم حديثه [موارد الطمان: ٤٩١، وسنده صحيح].

الوجه الثاني: ذكره البخاري في «صحيحه» من حديث أبي حميد أيضاً قال: وإذا جلس في الركعة الآخرة، قَدَّم رجله اليسرى ونصب اليمنى، وقعد على مقعدته [البخاري: ٨٢٨]. فهذا هو الموافق الأول في الجلوس على التورك، وفيه زيادة وصف في هيئة القَدَمين لم تتعرض الرواية الأولى لها.

الوجه الثالث: ما ذكره مسلم في «صحيحه» من حديث عبد الله بن الزبير: أنه ﷺ كان يجعل قدمه اليسرى بين فخذه وساقه، ويفرش قدمه اليمنى [مسلم: ١٣٠٧]، وهذه هي الصفة التي اختارها أبو القاسم الخِرقي^(١) في «مختصره»، وهذا مخالف للصفتين الأوليين في إخراج اليسرى من جانبه الأيمن، وفي نصب اليمنى، ولعله كان يفعل هذا تارة، وهذا تارة، وهذا أظهر.

ويحتمل أن يكون من اختلاف الرواة، ولم يُذكر عنه عليه السلام هذا التورك إلا في الشهد الذي يليه السلام. قال الإمام أحمد ومن وافقه: هذا مخصوص بالصلاة التي فيها تشهدان، وهذا التورك فيها جُمِلَ فرقاً بين الجلوس في الشهد الأول الذي يُسن

تخفيفه، فيكون الجالس فيه متهيئاً للقيام، وبين الجلوس في الشهد الثاني الذي يكون الجالس فيه مُطمئناً.

وأيضاً فتكون هيئة الجلوسين فارقةً بين الشاهدين، مذكرة للمصلي حاله فيهما.

وأيضاً فإن أبا حميد إنما ذكر هذه الصفة عنه ﷺ في الجلسة التي في الشهد الثاني، فإنه ذكر صفة جلوسه في الشهد الأول، وأنه كان يجلس مفترشاً، ثم قال: «وإذا جلس في الركعة الآخرة»، وفي لفظ: «فإذا جلس في الركعة الرابعة».

وأما قوله في بعض ألفاظه: حتى إذا كانت الجلسة التي فيها التسليم، أخرج رجله اليسرى، وجلس على شقه متوركاً، فهذا قد يحتج به من يرى التورك يُشرع في كل تشهد يليه السلام، فيتورك في الثانية، وهو قول الشافعي رحمه الله، وليس بصريح في الدلالة، بل سياق الحديث يدل على أن ذلك إنما كان في الشهد الذي يليه السلام من الرباعية والثلاثية، فإنه ذكر صفة جلوسه في الشهد الأول وقيامه منه، ثم قال: حتى إذا كانت السجدة التي فيها التسليم، جلس متوركاً. فهذا السياق ظاهر في اختصاص هذا الجلوس بالشهد الثاني.

فصل

(وضع اليد في الشهد)

وكان ﷺ إذا جلس في الشَّهْد، وضع يده اليمنى على فخذه اليمنى، وضَمَّ أصابعه الثلاث، ونصَّب السبابة. وفي لفظ: وقبض أصابعه الثلاث، ووضع يده اليسرى على فخذه اليسرى. ذكره مسلم عن ابن عمر [مسلم: ١٣٠٩].

وقال وإيل بن حُجر: جعل حَدَّ مِرْقَئِهِ الأيمن على فَخْذِهِ اليمنى، ثم قبض ثنتين من أصابعه، وحلَّقَ حلقة، ثم رفع أصبعه فأرأته يُحرِّكها يدْعُو بها. وهو في «السنن» [صحيح: أحمد: ١٨٨٧٠، وأبو داود: ٩٥٧، والنسائي (١٢٦/٢)، وابن ماجه: ٩١٢].

(١) هو عمر بن الحسين بن عبد الله الخرقى أبو القاسم فقيه حنبلي من أهل بغداد، نسبته إلى بيع الخرق وقد درس على أولاد أحمد ابن حنبل توفي رحمه الله بدمشق سنة (٣٣٤هـ) له تصانيف احترقت وبقي منها المختصر يعرف بـ «مختصر الخرقى» في الفقه الحنبلي وقد شرحه كثيرون، وأعظم شروحه «المغني» لشيخ الإسلام موفق الدين بن قدامة المقدسي رحمه الله.

وفي حديث ابن عمر في «صحيح مسلم»: «عَقَدَ ثَلَاثَةً وَخَمْسِينَ» [مسلم: ١٣١٠].

وهذه الروايات كُلُّهَا واحدة، فإن من قال: قبض أصابعه الثلاث، أراد به: أن الوسطى كانت مضمومة لم تكن منشورة كالسبابة، ومن قال: قبض ثنتين من أصابعه، أراد: أن الوسطى لم تكن مقبوضة مع البنصر، بل الخنصر والبنصر متساويتان في القبض دون الوسطى، وقد صرَّح بذلك من قال: وعقد ثلاثة وخمسين، فإن الوسطى في هذا العقد تكون مضمومة، ولا تكون مقبوضة مع البنصر.

وقد استشكل كثير من الفضلاء هذا، إذ عقد ثلاث وخمسين لا يلائم واحدة من الصفتين المذكورتين، فإن الخنصر لا بد أن تتركب البنصر في هذا العقد.

وقد أجاب عن هذا بعض الفضلاء، بأن الثلاثة لها صفتان في هذا العقد: قديمة، وهي التي ذكرت في حديث ابن عمر: تكون فيها الأصابع الثلاث مضمومة مع تحليق الإبهام مع الوسطى، وحديثة، وهي المعروفة اليوم بين أهل الحساب، والله أعلم.

وكان ييسط ذراعه على فخذه ولا يجافيه، فيكون حد مرفقه عند آخر فخذه، وأما اليسرى، فممدودة الأصابع على الفخذ اليسرى.

(مواضع استقبال أصابعه القبلة)

وكان يستقبل بأصابعه القبلة في رفع يديه، في ركوعه، وفي سجوده، وفي تشهده، ويستقبل أيضاً بأصابع رجله القبلة في سجوده. وكان يقول في كل ركعتين: التحيات.

(مواضع الدعاء في الصلاة)

وأما المواضع التي كان يدعو فيها في الصلاة، فسيعة مواطن.

أحدها: بعد تكبيرة الإحرام في محل الاستفتاح.

الثاني: قبل الركوع وبعد الفراغ من القراءة في الوتر^(١). والقنوت العارض في الصباح قبل الركوع إن صح ذلك، فإن فيه نظراً.

الثالث: بعد الاعتدال من الركوع، كما ثبت ذلك في «صحيح مسلم» من حديث عبد الله بن أبي أوفى: كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، مِلْءُ السَّمَاوَاتِ، وَمِلْءُ الْأَرْضِ، وَمِلْءُ مَا بَيْنَتْ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، اللَّهُمَّ طَهِّرْنِي بِالْثَّلَجِ وَالْبَرْدِ، وَالْمَاءِ الْبَارِدِ، اللَّهُمَّ طَهِّرْنِي مِنَ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا كَمَا يَنْقَى الثُّرْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْوَسَخِ» [مسلم: ١٠٠١].

الرابع: في ركوعه كان يقول: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي» [البخاري: ٧٩٤، ومسلم: ١٠٨٥].

الخامس: في سجوده، وكان فيه غالب دعائه.

السادس: بين السجدين.

السابع: بعد التشهد وقبل السلام، وبذلك أمر في حديث أبي هريرة [مسلم: ١٣٢٤]، وحديث فضالة بن عبيد [صحيح: أبو داود: ١٤٨١، والترمذي: ٣٤٧٥، والنسائي: ٤٤٤/٣] وأمر أيضاً بالدعاء في السجود.

(رأي المصنف في الدعاء بعد الصلاة)

وأما الدعاء بعد السلام من الصلاة مستقبل القبلة أو المأمومين، فلم يكن ذلك من هديه ﷺ أصلاً، ولا روي عنه بإسناد صحيح، ولا حسن.

وأما تخصيص ذلك بصلاتي الفجر والعصر، فلم يفعل ذلك هو ولا أحد من خلفائه، ولا أرشد إليه أمته، وإنما هو استحسان رآه من رآه عوضاً من السنة بعدهما، والله أعلم. وعامة الأدعية المتعلقة بالصلاة إنما فعلها فيها، وأمر بها فيها، وهذا هو اللائق بحال المصلي، فإنه مقبل على ربه، يناجي ما دام في الصلاة، فإذا سلم منها، انقطعت تلك المناجاة، وزال ذلك الموقف بين يديه والقرب منه، فكيف يترك سؤاله في حال مناجاته والقرب منه، والإقبال عليه، ثم يسأله إذا انصرف عنه؟! ولا ريب أن عكس هذا الحال هو الأولى بالمصلي، ألا أن هاهنا نكتة لطيفة، وهو أن المصلي إذا فرغ من صلاته، وذكر الله وهلله وسبَّحه وَحَمِدَهُ وكَبَّرَهُ بالأذكار المشروعة عقيب

(١) قال البيهقي: صح أنه ﷺ قنت قبل الركوع أيضاً، لكن رواة القنوت بعده أكثر وأحفظ، فهو أولى وعليه درج الخلفاء الراشدون في أشهر الروايات عنهم وأكثرها.

الصلاة، استحَبَّ له أن يُصلي على النبي ﷺ بعد ذلك، ويدعو بما شاء، ويكون دعاءه عقيب هذه العبادة الثانية، لا لكونه دبر الصلاة، فإن كل من ذكر الله، وَحَمَدَهُ، وأثنى عليه، وصلى على رسول الله ﷺ استحَبَّ له الدعاء عقيب ذلك، كما في حديث فضالة بن عبيد: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ، فَلْيَبْدَأْ بِحَمْدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ لِيَذْعُ بِمَا شَاءَ». قال الترمذي: حديث صحيح (أبو داود: ١٤٨١، والترمذي: ٣٤٧٥، والنسائي (٤٤/٣)).

فصل

(التسليم وبيان أنه لم تثبت عنه التسليمة الواحدة)

ثم كان ﷺ يُسلم عن يمينه: السلام عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، وَعَنْ يَسَارِهِ كَذَلِكَ. هذا كَانَ فِعْلُهُ الرَّابِعُ رَوَاهُ عَنْهُ خَمْسَةُ عَشْرَ صَحَابِيًّا، وَهُمْ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ، وَسَهْلُ بْنُ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ، وَوَاتِلُ بْنُ حُجْرٍ، وَأَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ، وَخُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ، وَعُمَارُ بْنُ يَاسِرٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، وَالْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ، وَأَبُو مَالِكٍ الْأَشْعَرِيُّ، وَطَلْقُ بْنُ عَلِيٍّ، وَأَوْسُ بْنُ أَوْسٍ، وَأَبُو رَمْثَةَ، وَعَدِي بْنُ عَمِيرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وقد روي عنه ﷺ: أَنَّهُ كَانَ يُسَلِّمُ تَسْلِيمَةً وَاحِدَةً تَلْقَاءُ وَجْهَهُ [صحيح: الترمذي: ٢٩٦، وابن ماجه: ٩١٩]. ولكن لم يثبت عنه ذلك مِنْ وَجْهِ صَحِيحٍ، وَأَجُودُ مَا فِيهِ حَدِيثُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهُ ﷺ: كَانَ يُسَلِّمُ تَسْلِيمَةً وَاحِدَةً: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَرْفَعُ بِهَا صَوْتَهُ حَتَّى يُرْقِطُنَا [صحيح: أحمد: ٢٥٩٨٧، وأبو داود: ١٣٤٦]. وهو حديث معلول، وهو في «السنن»، لكنه كان في قيام الليل، والذين رَوَوْا عَنْهُ التَّسْلِيمَتَيْنِ رَوَوْا مَا شَاهَدُوهُ فِي الْفَرَضِ وَالنَّفْلِ، عَلَى أَنَّ حَدِيثَ عَائِشَةَ لَيْسَ

قال أبو عمر بن عبد البر: روي عن النبي ﷺ: أَنَّهُ كَانَ يُسَلِّمُ تَسْلِيمَةً وَاحِدَةً مِنْ حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ، وَمِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ، وَمِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ، إِلَّا أَنَّهُ مَعْلُوفَةٌ، وَلَا يَصَحُّهَا أَهْلُ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ، ثُمَّ ذَكَرَ عِلَّةَ حَدِيثِ سَعْدٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُسَلِّمُ فِي الصَّلَاةِ تَسْلِيمَةً وَاحِدَةً. قَالَ: وَهَذَا وَهُمْ وَغُلَطٌ، وَإِنَّمَا الْحَدِيثُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُسَلِّمُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ، ثُمَّ سَأَلَ الْحَدِيثَ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ الْمُبَارَكِ، عَنْ مَصْعَبِ بْنِ ثَابِتٍ، عَنْ إِسْمَاعِيلِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُسَلِّمُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ حَتَّى كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى صَفْحَةِ خَدِهِ [مسلم: ١٣١٥]، فَقَالَ الزَّهْرِيُّ: مَا سَمِعْنَا هَذَا مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُحَمَّدٍ: أَكُلَّ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَدْ سَمِعْتَهُ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَنَيْصَةُ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَاجْعَلْ هَذَا مِنَ التَّصَفِّ الَّذِي لَمْ تَسْمَعْ [إيهي: ٢/١٧٨]. قَالَ: وَأَمَّا حَدِيثُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: كَانَ يُسَلِّمُ تَسْلِيمَةً وَاحِدَةً، فَلَمْ يَرْفَعْ أَحَدٌ إِلَّا زُهَيْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ وَحْدَهُ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ، رَوَاهُ عَنْهُ عَمْرُو بْنُ أَبِي سَلَمَةَ وَغَيْرُهُ، وَزُهَيْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ ضَعِيفٌ عِنْدَ الْجَمِيعِ، كَثِيرُ الْخَطَا لَا يَحْتَجُّ بِهِ، وَذَكَرَ لِيَحْيَى بْنُ مَعِينٍ هَذَا الْحَدِيثَ، فَقَالَ: حَدِيثُ عَمْرُو بْنِ أَبِي سَلَمَةَ وَزُهَيْرِ ضَعِيفَانِ، لَا حُجَّةَ فِيهِمَا^(١). قَالَ: وَأَمَّا حَدِيثُ

(١) بل لحديث عائشة المتقدم من طريق زهير بن محمد شواهد يقوى بها كما تقدم، وقد قال الحاكم في «المستدرک» (١/٢٣١) عقب حديث عائشة في المرفوع: وقد رواه وهيب بن خالد عن عبد الله بن عمر عن القاسم عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تسلم تسليمة واحدة وهذا سند صحيح. قال الحافظ في «التلخيص»: ورواه بقي بن مخلد في «مسنده» من رواية عاصم، عن هشام بن عروة به مرفوعاً، وروى ابن حبان في «صحيحه» وأبو العباس السراج في «مسنده» عن عائشة من وجه آخر شيئاً من هذا.

قال الشوكاني في «نيل الأوطار»: وذهب إلى مشروعية التسليمة الواحدة: ابن عمر، وأنس، وسلمة بن الأكوع، وعائشة من الصحابة، والحسن وابن سيرين وعمر بن عبد العزيز من التابعين، ومالك والأوزاعي والإمامية وأحد قولي الشافعي وغيرهم. واختلف القائلون بمشروعية التسليمتين هل الثانية واجبة أم لا؟ فذهب الجمهور إلى استحبابها، وقال النووي=

نِعْمَتِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا،
وَلِسَانًا صَادِقًا، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَأَعُوذُ
بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ» [ضعيف:
أحمد: ١٧١١٤، والترمذي: ٣٤٠٤].

وكان يقول في سجوده: «رَبِّ أَغِطْ نَفْسِي تَقْوَاهَا،
وَرَزَّكَهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ رَزَّكَاهَا، أَنْتَ وَلِيِّهَا وَمَوْلَاهَا»
[أحمد: ٢٥٧٥٧، وفي سنده انقطاع]. وقد تقدم ذكر بعض ما
كان يقول في ركوعه وسجوده وجلسه واعتداله في
الركوع.

فصل

(المحفوظ في ادعيته في الصلاة بلفظ الإفراد)

والمحفوظ في أدعيته ﷺ في الصلاة كلها بلفظ
الإفراد، كقوله: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَأَهْدِنِي»
[مسلم: ٦٨٥٣]، وسائر الأدعية المحفوظة عنه، ومنها
قوله في دعاء الاستفتاح: «اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ
بِالتَّلَجِّ وَالْمَاءِ وَالتَّيِّبِ، اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ
كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»... الحديث
[البخاري: ٧٤٤].

وروى الإمام أحمد رحمه الله وأهل السنن من
حديث ثوبان عن النبي ﷺ: «لَا يَوْمَ عَبْدٌ قَوْمًا فَيُخْصَ
نَفْسُهُ بِدَعْوَةٍ دُونَهُمْ، فَإِنْ فَعَلَ، فَقَدْ خَانَهُمْ» [حسن:
أحمد: ٧١٦٤، وأبو داود: ٩٠، والترمذي: ٣٥٧]. قال ابن
خزيمة في «صحيحه»: وقد ذكر حديث «اللَّهُمَّ بَاعِدْ
بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ»... الحديث قال: في هذا دليل
على رد الحديث الموضوع: «لَا يَوْمَ عَبْدٌ قَوْمًا فَيُخْصَ
نَفْسُهُ بِدَعْوَةٍ دُونَهُمْ، فَإِنْ فَعَلَ فَقَدْ خَانَهُمْ»^(١).
وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: هذا الحديث
عندي في الدعاء الذي يدعو به الإمام لنفسه
وللمؤمنين، ويشتركون فيه كدعاء القنوت ونحوه،
والله أعلم.

أنس، فلم يأت إلا من طريق أيوب السخيتاني عن
أنس، ولم يسمع أيوب من أنس عندهم شيئاً، قال:
وقد روي مرسلًا عن الحسن: أن النبي ﷺ وأبا بكر
وعمر رضي الله عنهما كانوا يُسلمون تسليمة
واحدة، وليس مع القائلين بالتسليمة غير عمل أهل
المدينة، قالوا: وهو عمل قد توارثوه كابراً عن
كابر، ومثله يصح الاحتجاج به، لأنه لا يخفى
لوقوعه في كل يوم مراراً، وهذه طريقة قد خالفهم
فيها سائر الفقهاء، والصواب معهم، والسنن الثابتة
عن رسول الله ﷺ لا تُدفع ولا تُرد بعمل أهل بلد
كائنًا من كان، وقد أحدث الأمراء بالمدينة وغيرها
في الصلاة أموراً استمر عليها العمل، ولم يُلتفت
إلى استمراره وعمل أهل المدينة الذي يحتاج به ما
كان في زمن الخلفاء الراشدين، وأما عملهم بعد
موتهم، وبعد انقراض عصر مَنْ كان بها في
الصحابة، فلا فرق بينهم وبين عمل غيرهم، والسنة
تحكم بين الناس، لا عمل أحد بعد رسول الله ﷺ
وخلفائه، وبالله التوفيق.

فصل

(الدعاء قبل التسليم)

وكان ﷺ يدعو في صلاته فيقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ
بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ
الدَّجَالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، اللَّهُمَّ
إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ» [البخاري: ٨٣٢،
ومسلم: ١٣٢٥].

وكان يقول في صلاته أيضاً: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي
دُنْيِي، وَوَسِّعْ لِي فِي دَارِي، وَبَارِكْ لِي فِيمَا رَزَقْتَنِي»
[حسن: الترمذي: ٣٤٩٦].

وكان يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّنَاتِ فِي
الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ

= في «شرح مسلم»: أجمع العلماء الذين يعتد بهم على أنه لا يجب إلا تسليمة واحدة. وحكى الطحاوي وغيره عن
الحسن بن صالح أنه أوجب التسليمتين جميعاً، وهي رواية عن أحمد، وبها قال بعض أصحاب مالك ونقله ابن عبد البر
عن بعض أصحاب الظاهر.

(١) لم نجد كلام ابن خزيمة هذا في «صحيحه» عقب الحديث الذي ذكره المصنف، فلعله في مكان آخر، فإن ثبت عنه، فإنه
مما جانبه فيه الصواب، فإن سند الحديث لا ينزل عن رتبة الحسن، كما يعلم من كتب الجرح والتعديل.

فصل

(كان براعي حال المأمومين وغيرهم)

وكان ﷺ إذا قام في الصلاة، طأطأ رأسه، ذكره الإمام أحمد رحمه الله، وكان في التشهد لا يجاوز بَصْرُهُ إشارته، وقد تقدم. وكان قد جعل الله تعالى قُرَّة عينه ونعيمه وسروره وروحه في الصلاة. وكان يقول: «يا بلال أَرَحْنَا بِالصَّلَاةِ» [صحيح: أحمد: ٢٣٠٨٨، وأبو داود: ٤٩٨٥]. وكان يقول: «وَجَعَلْتُ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» [حسن: أحمد: ١٢٢٢٩، والنسائي (٧/ ٦١)]. ومع هذا لم يكن يشغله ما هو فيه من ذلك عن مراعاة أحوال المأمومين وغيرهم مع كمال إقباله وقربه من الله تعالى وحضور قلبه بين يديه واجتماعه عليه.

وكان يدخل في الصلاة وهو يُريد إطالتها، فيسمع بكاء الصبي، فيخففها مخافة أن يشق على أمه، وأرسل مرة فارساً طليعة له، فقام يصلي، وجعل يلتفت إلى الشعب الذي يجيء منه الفارس [صحيح: أبو داود: ٩١٦ - ٢٥٠١]، ولم يشغله ما هو فيه عن مراعاة حال فارسه.

وكذلك كان يصلي الفرض وهو حاملُ أمانة بنت أبي العاص بن الربيع ابنة بنته زينب على عاتقه، إذا قام، حملها، وإذا ركع وسجد، وضعها [البخاري: ٥١٦، ومسلم: ١٢١٢].

وكان يصلي فيجيء الحسن أو الحسين فيركب ظهره، فيطيل السجدة كراهية أن يلقيه عن ظهره [صحيح: أحمد: ١٦٠٣٣، والنسائي (٢/ ٢٢٩ - ٢٣٠)].

وكان يصلي، فتجيء عائشة من حاجتها والباب مغلق، فيمشي، فيفتح لها الباب، ثم يرجع إلى الصلاة [صحيح: أحمد: ٢٥٩٧٢، وأبو داود: ٩٢٢، والترمذي: ٦٠١، والنسائي (٣/ ١١)].

(رد السلام في الصلاة)

وكان يرُد السلام بالإشارة على من يُسلم عليه وهو في الصلاة.

وقال جابر: بعثني رسول الله ﷺ لحاجة، ثم أدركته وهو يصلي، فسلمت عليه، فأشار إليّ. ذكره مسلم في «صحيحه» [١٢٠٥].

وقال أنس رضي الله عنه: كان النبي ﷺ يُشير في الصلاة، ذكره الإمام أحمد رحمه الله [صحيح: أحمد: ١٢٤٠٧].

وقال ضهيب: مررتُ برسول الله ﷺ وهو يصلي، فسلمتُ عليه، فرد إشارة، قال الراوي: لا أعلمه، قال: إلا إشارة بأصبعه، وهو في «السنن» و«المسند» [صحيح: أحمد: ١٨٩٣١، وأبو داود: ٩٢٥، والترمذي: ٣٦٧، والنسائي (٥/ ٣)، وابن ماجه: ١٠١٧].

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: خرج رسول الله ﷺ إلى قُبَاء يصلي فيه، قال: فجاءته الأنصار، فسلموا عليه وهو في الصلاة، فقلتُ لبلال: كيف رأيت رسول الله ﷺ يرُد عليهم حين كانوا يُسلمون عليه وهو يصلي؟ قال: يقول هكذا، ويسط جعفر بن عون كفه، وجعل بطنه أسفل، وجعل ظهره إلى فوق [صحيح: أبو داود: ٩٢٧، والترمذي: ٣٦٨]. وهو في «السنن» و«المسند» وصححه الترمذي، ولفظه: كان يشير بيده.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لما قَدِمْتُ من الحيشة أتيت النبي ﷺ وهو يصلي، فسلمت عليه، فأوما برأسه. ذكره البيهقي [٢/ ٢٦٠].

وأما حديث أبي غطفان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَشَارَ فِي صَلَاتِهِ إِشَارَةً تُفْهَمُ عَنْهُ، فَلْيَعِذْ صَلَاتُهُ». فحديث باطل، ذكره الدارقطني [١٩٥، وأبو داود: ٩٤٤] وقال: قال لنا ابن أبي داود: أبو غطفان هذا رجل مجهول^(١)، والصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يُشير في صلاته. رواه أنس وجابر وغيرهما.

وكان ﷺ يصلي وعائشة معترضةً بينه وبين القبلة، فإذا سجد، غَمَزَهَا بيده، فقبضت رجلها، وإذا قام بسطتهما [البخاري: ١٢٠٩، ومسلم: ١١٤٠].

وكان ﷺ يصلي، فجاءه الشيطان ليقطع عليه

(١) أبو غطفان ثقة كما في «التقريب» وأصله، وقد انفرد ابن أبي داود فادعى جهالته، على أن ابن أبي داود كثير الخطأ في الكلام على الحديث كما قال الدارقطني حين سئل عنه.

صلاته، فأخذه، فخنقه حتى سَالَ لُعَابُهُ عَلَى يَدِهِ [البخاري: ١٢١٠، ومسلم: ١٢٠٩].

وكان يُصلي على المنبر ويركع عليه، فإذا جاءت السجدة، نزل القَهْقَرَى، فَسَجَدَ عَلَى الْأَرْضِ ثُمَّ صَعِدَ عَلَيْهِ [البخاري: ٩١٧، ومسلم: ١٢١٦].

وكان يُصلي إلى جدار، فجاءت بَهْمَةٌ تمرُّ من بين يديه، فما زال يُدارئها حتى لَصِقَ بطنه بالجدار، ومرت من ورائه [حسن: أبو داود: ٧٠٨].

يدارئها: يفاعلها من المداراة وهي المدافعة.

وكان يُصلي، فجاءته جارتان من بني عبد المطلب قد اقتتلتا، فأخذهما بيديه، فَتَزَعَ إحداهما من الأخرى وهو في الصلاة [حسن: أبو داود: ٧١٦]. ولفظ أحمد فيه: فأخذتا بركتي النبي ﷺ، فتزع بينهما، أو فَرَّقَ بينهما، ولم يُنْصَرَفْ [حسن: أحمد: ٢٢٩٥].

وكان يُصلي، فمرَّ بين يديه غلام، فقال بيده هكذا، فرجع، ومرت بين يديه جارية فقال بيده هكذا، فمضت، فلما صَلَّى رسولُ الله ﷺ قال: «هُرُّ أَغْلَبَ». ذكره الإمام أحمد، وهو في «السنن» [أحمد: ٢٦٥٢٣، وابن ماجه: ٩٤٨، وفي سننه مجهول].

وكان يُنفخ في صلاته، ذكره الإمام أحمد، وهو في «السنن» [صحيح: أحمد: ٦٤٨٣، والنسائي (١٣٧/٣) - (١٣٨)].

وأما حديث: «الْتَفُخُ فِي الصَّلَاةِ كَلَامٌ». فلا أصل له عن رسول الله ﷺ، وإنما رواه سعيد في «سننه» عن ابن عباس رضي الله عنهما من قوله إن صح.

(البكاء والنحنحة)

وكان يبكي في صلاته، وكان يَتَنَحَّنُ في صلاته. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كان لي من رسول الله ﷺ ساعة أتبه فيها، فإذا أتيته استأذنت، فإن وجدته يُصلي فتحنح، دخلت، وإن وجدته فارغاً، أذن لي. ذكره النسائي وأحمد، ولفظ أحمد: كان لي من رسول الله ﷺ مَدَخْلَانِ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَكُنْتُ إِذَا دَخَلْتُ عَلَيْهِ وَهُوَ يُصَلِّي، تَحْنَحُ. رواه أحمد (في سننه انقطاع: أحمد: ٦٠٨، والنسائي (١٢/٣))، وعمل به، فكان يتحنح في صلاته ولا يرى النحنحة مبجلة للصلاة.

(الحفي والانتعال)

وكان يُصلي حافياً تارةً، ومتمتعاً أخرى، كذلك قال عبد الله بن عمرو عنه [حسن: أحمد: ٦٦٢٧، وأبو داود: ٦٥٣، والنسائي (٨٢/٣)، وابن ماجه: ١٠٣٨]. وأمر بالصلاة بالنعل مُخَالَفَةً لليهود [صحيح: أبو داود: ٦٥٢].

(الصلاة بالنوب الواحد)

وكان يُصلي في النوب الواحد تارةً، وفي الثوبين تارةً، وهو أكثر.

(القنوت)

وقنت في الفجر بعد الركوع شهراً، ثم ترك القنوت. ولم يكن من هديه القنوت فيها دائماً، ومن المحال أن رسول الله ﷺ كان في كل غداة بعد اعتداله من الركوع يقول: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ... الخ. ويرفع بذلك صوته، ويؤمن عليه أصحابه دائماً إلى أن فارق الدنيا، ثم لا يكون ذلك معلوماً عند الأمة، بل يُضَيِّعُهُ أَكْثَرُ أُمَّتِهِ، وَجُمْهُورُ أَصْحَابِهِ، بَلْ كُلُّهُمْ، حَتَّى يَقُولَ مَنْ يَقُولُ مِنْهُمْ: إِنَّهُ مُخَدَّثٌ، كَمَا قَالَ سَعْدُ بْنُ طَارِقٍ الْأَشْجَعِيُّ: قُلْتُ لِأَبِي: يَا أَبَتِ إِنَّكَ قَدْ صَلَيْتَ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَبِي بَكَرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ههنا، وبالكوفة منذ خمس سنين، فكانوا يقنتون في الفجر؟ فقال: أَيُّ بُنَيٍّ مُخَدَّثٌ [صحيح: أحمد: ١٥٨٧٩، والترمذي: ٤٠٢، وابن ماجه: ١٢٤١]. رواه أهل السنن وأحمد. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وذكر الدارقطني عن سعيد بن جبير قال: أشهد أنني سمعت ابن عباس يقول: إن القنوت في صلاة الفجر بدعة [الدارقطني في «سننه» (٢/٤١)، وفي سننه ضيف]. وذكر البيهقي عن أبي مجلز قال: صليت مع ابن عمر صلاة الصبح، فلم يقنت، فقلت له: لا أراك تقنت، فقال: لا أحفظه عن أحد من أصحابنا [حسن: البيهقي في «السنن الكبرى» (٢/٢١٣)].

ومن المعلوم بالضرورة أن رسول الله ﷺ لو كان يقنت كل غداة، ويدعو بهذا الدعاء، ويؤمن الصحابة، لكان نقل الأمة لذلك كُلُّهُمْ كَقَلَمِهِمْ لَجَهْرِهِ بالقراءة فيها وعددها ووقتها، وإن جاز عليهم تضييع أمر القنوت منها، جاز عليهم تضييع ذلك، ولا فرق، وبهذا الطريق علمنا أنه لم يكن هديّه الجهر بالبسملة

كل يوم وليلة خمس مرات دائماً مستمراً ثم يُضَيِّعُ أكثر الأمة ذلك، ويخفي عليها، وهذا من أمحل المحال. بل لو كان ذلك واقعاً، لكان نقله كنفل عدد الصلوات، وعدد الركعات، والجهر والإخفات، وعدد السجعات، ومواضع الأركان وترتيبها، والله الموفق.

والإنصاف الذي يرتضيه العالم المنصف، أنه ﷺ جهر، وأسر، وقت، وترك، وكان إسراره أكثر من جهره، وتركه القنوت أكثر من فعله، فإنه إنما قنت عند النوازل للدعاء لقوم، وللدعاء على آخرين، ثم تركه لما قَدِمَ من دعا لهم، وتخلَّصوا من الأسر، وأسلم من دعا عليهم وجاؤوا تائبين، فكان قنوته لعارض، فلما زال ترك القنوت، ولم يختص بالفجر، بل كان يقنت في صلاة الفجر والمغرب، ذكره البخاري في «صحيحه» عن أنس [البخاري: ١٠٠٤، ومسلم: ١٥٤٥]. وقد ذكره مسلم عن البراء [مسلم: ١٥٥٥]. وذكر الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قنت رسول الله ﷺ شهراً متتابعاً في الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، والصُّبْح في دُبُر كل صلاة إذا قال: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ من الركعة الأخيرة، يدعو كل حيٍّ من بني سليم على رِعل وذُكوان وعُصية، ويؤمن من خلفه، ورواه أبو داود [حسن: أحمد: ٢٧٤٦، وأبو داود: ١٤٤٣].

وكان هديه ﷺ القنوت في النوازل خاصة، وتركه عند عدمها، ولم يكن يخضه بالفجر، بل كان أكثر قنوته فيها لأجل ما شرع فيها من التطويل، ولاتصالها بصلاة الليل، وقربها من السَّحَر، وساعة الإجابة، وللتنزل الإلهي، ولأنها الصلاة المشهودة التي يشهدها الله وملائكته، أو ملائكة الليل والنهار، كما روي هذا وهذا، في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]. وأما حديث ابن

أبي فديك، عن عبد الله بن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه مِنَ الرُّكُوع من صلاة الصُّبْح في الركعة الثانية، يرفع يديه فيها، فيدعو بهذا الدعاء: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، إِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ». فما أبين الاحتجاج به لو كان صحيحاً أو حسناً، ولكن لا يحتج بعبد الله هذا وإن كان الحاكم صحيح حديثه في القنوت عن أحمد بن عبد الله المزني: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن أبي فديك.. فذكره^(١). نعم صحَّ عن أبي هريرة أنه قال: واللَّهِ لَأَنَا أَقْرَبُكُمْ صَلَاةً برسول الله ﷺ، فكان أبو هريرة يقنت في الركعة الأخيرة من صلاة الصبح بعدما يقول: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فيدعو للمؤمنين، ويلعن الكُفَّار [البخاري: ٧٩٧، ومسلم: ١٥٤٤].

ولا ريب أن رسول الله ﷺ فعل ذلك، ثم تركه، فأحبُّ أبو هريرة أن يُعلِّمهم أن مثل هذا القنوت سنة، وأن رسول الله ﷺ فعله، وهذا رد على أهل الكوفة الذين يكرهون القنوت في الفجر مطلقاً عند النوازل^(٢) وغيرها، ويقولون: هو منسوخ، وفعله بدعة. فأهل الحديث متوسطون بين هؤلاء وبين من استحبه عند النوازل وغيرها، وهم أسعد بالحديث من الطائفتين، فإنهم يقننون حيث قنت رسول الله ﷺ، ويتركونه حيث تركه، فيقتدون به في فعله وتركه، ويقولون: فعله سنة، وتركه سنة، ومع هذا فلا يُنكرون على من داوم عليه، ولا يكرهون فعله، ولا يرونه بدعة، ولا فاعله مخالفاً للسنّة، كما لا يُنكرون على من أنكره عند النوازل، ولا يرون تركه بدعة،

(١) قال الحافظ في «التقريب»: عبد الله بن سعيد بن أبي سعيد المقبري متروك.

(٢) فيه نظر، فقد قال العلامة الحلبي في «شرح الكبير» (٤٢٠) (وهو من الحنفية): فتكون شرعيته - أي شرعية القنوت في النوازل - مستمرة، وعليه الجمهور. وقال الإمام أبو جعفر الطحاوي: إنما لا يقنت عندنا في صلاة الفجر من غير بلية، فإذا وقعت فتنة أو بلية، فلا بأس به. وقال الحافظ ابن حجر في «الدراية» (١١٧): كان ﷺ لا يقنت إلا في النوازل، فعند ابن حبان عن أبي هريرة: كان رسول الله ﷺ لا يقنت في صلاة الصبح إلا أن يدعو لقوم أو على قوم. وعند ابن خزيمة (٦٢٠) مثله، وإسناد كل منهما صحيح.

كعب الطويل، وفيه: وكان روح عيسى عليه السلام من تلك الأرواح التي أخذ عليها العهد والميثاق في زمن آدم، فأرسل تلك الروح إلى مريم عليها السلام حين انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً، فأرسله الله في صورة بشر فتمثل لها بشراً سوياً، قال: فحملت الذي يخاطبها، فدخل من فيها^(١) وهذا غلط محض، فإن الذي أرسل إليها الملك الذي قال لها: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩] ولم يكن الذي خاطبها بهذا هو عيسى ابن مريم، هذا محال.

والمقصود أن أبا جعفر الرازي صاحب مناكير، لا يحتج بما تفرد به أحد من أهل الحديث البتة، ولو صح، لم يكن فيه دليل على هذا القنوت المعين البتة، فإنه ليس فيه أن القنوت هذا الدعاء، فإن القنوت يُطلق على القيام، والسكوت، ودوام العبادة، والدعاء، والتسبيح، والخشوع، كما قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْءٌ لَّمْ يَقْنُتْ لَهِ﴾ [الروم: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ مَّائَةً أَلَيْسَ لَهِ سُلْطَانًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكَتَبَ لَهَا مِنَ الْغَنِيِّ﴾ [التخريم: ١٢]، وقال ﷺ: «أَفْضَلُ الصَّلَاةِ طُولُ الْقُنُوتِ» [مسلم: ١٧٦٨]. وقال زيد بن أرقم: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَقَوْمًا يَلْبَسُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] أمرنا بالسكوت، ونهينا عن الكلام [البخاري: ١٢٠٠]، ومسلم: ١٢٠٣. وأنس رضي الله عنه لم يقل: لم يزل يقنّت بعد الركوع رافعاً صوته «اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ...» إلى آخره ويؤمن من خلفه، ولا ريب أن قوله: «رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ، مِلءَ السَّمَاوَاتِ، وَمِلءَ الْأَرْضِ، وَمِلءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ النَّاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ...» إلى آخر الدعاء والثناء الذي كان يقوله، قنوت، وتطويل هذا الركن قنوت، وتطويل القراءة قنوت، وهذا الدعاء المعين قنوت، فمن أين لكم أن أنساً إنما أراد هذا الدعاء المعين دون سائر أقسام القنوت؟!.

ولا تاركه مخالفاً للسنة، بل من قنت، فقد أحسن، ومن تركه فقد أحسن، وركن الاعتدال محل الدعاء والثناء، وقد جمعهما النبي ﷺ فيه، ودعاء القنوت دعاء وثناء، فهو أولى بهذا المحل، وإذا جهر به الإمام أحياناً ليعلم المأمومين، فلا بأس بذلك، فقد جهر عمر بالاستفتاح ليعلم المأمومين، وجهر ابن عباس بقراءة الفاتحة في صلاة الجنازة ليعلمهم أنها سنة، ومن هذا أيضاً جهر الإمام بالتأمين، وهذا من الاختلاف المباح الذي لا يعتف فيه من فعله، ولا من تركه، وهذا كرفع اليدين في الصلاة وتركه، وكالخلاص في أنواع التشهدات، وأنواع الأذان والإقامة، وأنواع النسك من الأفراد والقران والتمتع، وليس مقصودنا إلا ذكر هديه ﷺ الذي كان يفعله هو، فإنه قبلة القصد، وإليه التوجه في هذا الكتاب، وعليه مدار التفيتش والطلب، وهذا شيء، والجائز الذي لا يُنكر فعله وتركه شيء، فنحن لم نتعرض في هذا الكتاب لما يجوز، ولما لا يجوز، وإنما مقصودنا فيه هدي النبي ﷺ الذي كان يختاره لنفسه، فإنه أكمل الهدى وأفضل، فإذا قلنا: لم يكن من هديه المداومة على القنوت في الفجر، ولا الجهر بالسلمة، لم يدل ذلك على كراهية غيره، ولا أنه بدعة، ولكن هديه ﷺ أكمل الهدى وأفضل، والله المستعان.

وأما حديث أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس، عن أنس قال: ما زال رسول الله ﷺ يقنت في الفجر حتى فارق الدنيا. وهو في «المسند» والترمذي لم يخرج الترمذي، وإنما هو عند أحمد: ١٢٦٥٧، وسنده ضعيف وغيرهما، فأبو جعفر قد ضعفه أحمد وغيره. وقال ابن المديني: كان يخلط. وقال أبو زرعة: كان يهم كثيراً. وقال ابن حبان: كان ينفرد بالمناكير عن المشاهير.

وقال لي شيخنا ابن تيمية قدس الله روحه: وهذا الإسناد نفسه هو إسناد حديث ﴿وَإِذَا أَحَدُكُمْ رُئِيَ مِنْ بَيْتٍ أَدَامَ مِنْ ظُهُورِهِ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. حديث أبي بن

(١) الحاكم في «المستدرک» (٢/ ٣٢٣، ٣٢٤)، وفي سننه أبو جعفر الرازي وهو ضعيف كما تقدم، ومن ثم قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ١١٤): هو في غاية الغرابة والتكارة، وكأنه من الإسرائيليات، وأخطأ الحاكم والذهبي، فصححاه.

ولا يقال: تخصيصه القنوت بالفجر دون غيرها من الصلوات دليل على إرادة الدعاء المعين، إذ سائر ما ذكرتم من أقسام القنوت مشترك بين الفجر وغيرها، وأنس خصّ الفجر دون سائر الصلوات بالقنوت، ولا يمكن أن يُقال: إنه الدعاء على الكفار، ولا الدعاء للمستضعفين من المؤمنين، لأن أنساً قد أخبر أنه كان قنت شهراً ثم تركه، فتعين أن يكون هذا الدعاء الذي داوم عليه هو القنوت المعروف، وقد قنت أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والبراء بن عازب، وأبو هريرة، وعبد الله بن عباس، وأبو موسى الأشعري، وأنس بن مالك وغيرهم.

والجواب من وجوه.

أحدها: أن أنساً قد أخبر أنه ﷺ كان يقنّت في الفجر والمغرب كما ذكره البخاري، فلم يخصص القنوت بالفجر، وكذلك ذكر البراء بن عازب سواء، فما بال القنوت اختص بالفجر؟!

فإن قلتم: قنوت المغرب منسوخ، قال لكم منازعوكم من أهل الكوفة: وكذلك قنوت الفجر سواء، ولا تأتون بحجة على نسخ قنوت المغرب إلّا كانت دليلاً على نسخ قنوت الفجر سواء، ولا يُمكنكم أبداً أن تُقيموا دليلاً على نسخ قنوت المغرب وإحكام قنوت الفجر.

فإن قلتم: قنوت المغرب كان قنوتاً للنوازل، لا قنوتاً راتباً، قال منازعوكم من أهل الحديث: نعم كذلك هو، وكذلك قنوت الفجر سواء، وما الفرق؟ قالوا: ويدل على أن قنوت الفجر كان قنوت نازلة، لا قنوتاً راتباً أن أنساً نفسه أخبر بذلك، وعمدتكم في القنوت الراتب إنما هو أنس، وأنس أخبر أنه كان قنوت نازلة ثم تركه، ففي «الصحيحين» عن أنس قال: قنّت رسول الله ﷺ شهراً يدعو على حي من أحياء العرب، ثم تركه.

الثاني: أن شباة روى عن قيس بن الربيع، عن عاصم بن سليمان قال: قلنا لأنس بن مالك: إن قوماً يزعمون أن النبي ﷺ لم يزل يقنّت بالفجر، قال: كذبوا، وإنما قنّت رسول الله ﷺ شهراً واحداً يدعو

على حيٍّ من أحياء العرب، وقيس بن الربيع وإن كان يحيى بن معين ضعفه، فقد وثقه غيره، وليس بدون أبي جعفر الرازي، فكيف يكون أبو جعفر حجة في قوله: لم يزل يقنّت حتى فارق الدنيا. وقيس ليس بحجة في هذا الحديث، وهو أوثق منه أو مثله، والذين ضعفوا أبا جعفر أكثر من الذين ضعفوا قيساً، فإنما يعرف تضعيف قيس عن يحيى، وذكر سبب تضعيفه، فقال أحمد بن سعيد بن أبي مريم: سألت يحيى عن قيس بن الربيع، فقال: ضعيف لا يكتب حديثه، كان يحدث بالحديث عن عبيدة، وهو عنده عن منصور، ومثل هذا لا يُوجب رد حديث الراوي، لأن غاية ذلك أن يكون غلط ووهم في ذكر عبيدة بدل منصور، ومن الذي يسلم من هذا من المحدثين؟

الثالث: أن أنساً أخبر أنهم لم يكونوا يقنّون، وأن بدء القنوت هو قنوت النبي ﷺ يدعو على رعل وذكوان، ففي «الصحيحين» من حديث عبد العزيز بن صهيب، عن أنس قال: بعث رسول الله ﷺ سبعين رجلاً لحاجة يقال لهم: القراء، فعرض لهم حيّان من بني سليم رعل وذكوان عند بشر يقال له: بشر مَعونة، فقال القوم: والله ما إياكم أردنا، وإنما نحن مجتازون في حاجة لرسول الله ﷺ، فقتلوه، فدعا رسول الله ﷺ عليهم شهراً في صلاة الغداة، فذلك بدء القنوت، وما كنا نقنّت [البخاري: ١٠٠٢، ومسلم: ١٥٤٦].

فهذا يدل على أنه لم يكن من هديه ﷺ القنوت دائماً، وقول أنس: فذلك بدء القنوت، مع قوله: قنت شهراً، ثم تركه، دليل على أنه أراد بما أثبت من القنوت قنوت النوازل، وهو الذي وقّته بشهر، وهذا كما قنت في صلاة العتمة شهراً، كما في «الصحيحين» عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قنت في صلاة العتمة شهراً يقول في قنوته: «اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ، اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ أَنْجِ عِيَّاشَ بْنَ أَبِي رَيْبَةَ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِتْرًا كَسِتْنِي يَوْسُفَ». قال أبو هريرة: وأصبح ذات يوم فلم يدعُ لهم، فذكرت ذلك له، فقال: أو ما تراهم قد قَدِمُوا [البخاري: ١٠٠٦، ومسلم: ١٥٤٠]، فقنوته في

الفجر كان هكذا سواء لأجل أمر عارض ونازلة، ولذلك وثَّقه أنس بشهر.

وقد روي عن أبي هريرة: أنه قنت لهم أيضاً في الفجر شهراً، وكلاهما صحيح، وقد تقدم ذكر حديث عكرمة عن ابن عباس: قنت رسول الله ﷺ شهراً متتابعاً في الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، والصبح. ورواه أبو داود وغيره، وهو حديث صحيح [أحمد: ٢٧٤٦، وأبو داود: ١٤٤٣].

وقد ذكر الطبراني في «معجمه» من حديث محمد بن أنس: حدثنا مطرف بن طريف، عن أبي الجهم، عن البراء بن عازب: أن النبي ﷺ كان لا يُصلي صلاة مكتوبة إلا قنت فيها [ذكره الهيثمي في «معجم الزوائد» (١٣٨/٢)، ورجاله ثقات].

قال الطبراني: لم يروه عن مطرف إلا محمد بن أنس. انتهى.

وهذا الإسناد وإن كان لا تقوم به حجة، فالحديث صحيح من جهة المعنى، لأن القنوت هو الدعاء، ومعلوم أن رسول الله ﷺ لم يصل صلاة مكتوبة إلا دعا فيها، كما تقدم، وهذا هو الذي أراده أنس في حديث أبي جعفر الرازي إن صح: أنه لم يزل يقنت حتى فارق الدنيا. ونحن لا نشك ولا نرتاب في صحة ذلك، وأن دعاءه استمر في الفجر إلى أن فارق الدنيا.

الوجه الرابع: أن طرق أحاديث أنس تُبين المراد، ويصدق بعضها بعضاً، ولا تتناقض. وفي «الصحيحين» من حديث عاصم الأحول قال: سألت أنس بن مالك عن القنوت في الصلاة؟ فقال: قد كان القنوت، فقلت: كان قبل الركوع أو بعده؟ قال: قبله قلت: وإن فلاناً أخبرني أنك قلت: قنت بعده. قال: كذب، إنما قلت: قنت رسول الله ﷺ بعد الركوع شهراً^(١) [البخاري: ١٠٠٢، ومسلم: ١٥٤٩]. وقد ظن طائفة أن هذا الحديث معلول تفرد به عاصم، وسائر الرواة عن أنس خالفوه، فقالوا: عاصم ثقة

جداً، غير أنه خالف أصحاب أنس في موضع القنوتين، والحافظ قد بهم، والجواد قد يعثر، وحكوا عن الإمام أحمد تعليقه، فقال الأثرم: قلت لأبي عبد الله - يعني أحمد بن حنبل -: أيقول أحد في حديث أنس: إن رسول الله ﷺ قنت قبل الركوع غير عاصم الأحوال؟ فقال: ما علمت أحداً يقوله غيره. قال أبو عبد الله: خالفهم عاصم كلهم، هشام، عن قتادة، عن أنس، والتميمي، عن أبي مجلز، عن أنس، عن النبي ﷺ: قنت بعد الركوع. وأيوب عن محمد بن سيرين قال: سألت أنساً وحنظلة السدوسي عن أنس أربعة وجوه. وأما عاصم فقال: قلت له؟ فقال: كذبوا، إنما قنت بعد الركوع شهراً. قيل له: من ذكره عن عاصم؟ قال: أبو معاوية وغيره، قيل لأبي عبد الله: وسائر الأحاديث أليس إنما هي بعد الركوع؟ فقال: بلى كلها عن خُفاف بن إيماء بن رخصة، وأبي هريرة.

قلت لأبي عبد الله: فلم ترخص إذاً في القنوت قبل الركوع، وإنما صح الحديث بعد الركوع؟ فقال: القنوت في الفجر بعد الركوع، وفي الوتر يُختار بعد الركوع، ومن قنت قبل الركوع، فلا بأس، لفعل أصحاب النبي ﷺ واختلافهم، فأما في الفجر، فبعد الركوع.

فيقال: من العجب تعليلُ هذا الحديث الصحيح المتفق على صحته، ورواه أئمة ثقات أثبات حفاظ، والاحتجاج بمثل حديث أبي جعفر الرازي، وقيس بن الربيع، وعمرو بن أيوب، وعمرو بن عبيد، ودinar، وجابر الجعفي، وقل من تحمّل مذهباً، وانتصر له في كل شيء إلا اضطر إلى هذا المسلك.

نفقول وبالله التوفيق: أحاديث أنس كلها صحاح، يُصدق بعضها بعضاً، ولا تتناقض، والقنوت الذي ذكره قبل الركوع غير القنوت الذي ذكره بعده، والذي وقته غير الذي أطلقه، فالذي ذكره قبل الركوع هو إطالة القيام للقراءة، وهو الذي قال فيه النبي ﷺ:

(١) معنى كذب: أخطأ وهي لغة أهل الحجاز يطلقون الكذب على ما هو أعم من العمد والخطأ.

«أَفْضَلُ الصَّلَاةِ طُولُ الْقُنُوتِ» [مسلم: ١٧٦٨] والذي ذكره بعده، هو إطالة القيام للدعاء، فعله شهراً يدعو على قوم، ويدعو لقوم، ثم استمرَّ يطيل هذا الركْنَ للدعاء والثناء، إلى أن فارق الدنيا، كما في «الصحيحين» عن ثابت، عن أنس قال: إني لا أزال أصلي بكم كما كان رسول الله ﷺ يصلي بنا، قال: وكان أنس يصنع شيئاً لا أراكم تصنعونه، كان إذا رفع رأسه من الركوع انتصب قائماً، حتى يقول القائل: قد نسي، وإذا رفع رأسه من السجدة يمكث، حتى يقول القائل: قد نسي [البخاري: ٨٢١، ومسلم: ١٠٦٠]. فهذا هو القنوت الذي ما زال عليه حتى فارق الدنيا.

ومعلوم أنه لم يكن يسكُت في مثل هذا الوقوف الطويل، بل كان يثني على ربه، ويمجده، ويدعوه، وهذا غير القنوت الموقت بشهر، فإن ذلك دعاء على رِعل وذُكوان وعُصبة وبني لحيان، ودُعاء للمستضعفين الذين كانوا بمكة. وأما تخصيص هذا بالفجر، فيحسب سؤال السائل، فإنما سأل عن قنوت الفجر، فأجابه عما سأل عنه. وأيضاً، فإنه كان يطيل صلاة الفجر دون سائر الصلوات، ويقرأ فيها بالستين إلى المئة، وكان كما قال البراء بن عازب: رُكُوعُهُ، واعتدالُهُ، وسجودُهُ، وقيامُهُ متقارباً. وكان يظهرُ من تطويله بعد الركوع في صلاة الفجر ما لا يظهر في سائر الصلوات بذلك. ومعلوم أنه كان يدعو ربه، ويثني عليه، ويمجده في هذا الاعتدال، كما تقدمت الأحاديث بذلك، وهذا قنوتٌ منه لا ريب، فنحن لا نشكُّ ولا نرتابُ أنه لم يزل يقنُت في الفجر حتى فارق الدنيا.

ولما صار القنوت في لسان الفقهاء وأكثر الناس، هو هذا الدعاء المعروف: اللهم اهدني فيمن هديت... إلى آخره، وسمِعوا أنه لم يزل يقنُت في الفجر حتى فارق الدنيا، وكذلك الخلفاء الراشدون

وغيرهم من الصحابة، حملوا القنوت في لفظ الصحابة على القنوت في اصطلاحهم، ونشأ من لا يعرف غير ذلك، فلم يشك أن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا مداومين عليه كلَّ غداة، وهذا هو الذي نازعهم فيه جمهور العلماء، وقالوا: لم يكن هذا من فعله الراتب، بل ولا يثبت عنه أنه فعله.

وغاية ما روي عنه في هذا القنوت، أنه علمه للحسن بن علي، كما في «المسند» و«السنن» الأربع عنه قال: عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي قُنُوتِ الْوُتْرِ: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَفِي شَرِّ مَا قَضَيْتَ، فَإِنَّكَ تَقْضِي، وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، إِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ» [صحيح: أحمد: ١٧١٩، وأبو داود: ١٤٢٥، والترمذي: ٤٦٤، والنسائي (٢٤٨/٣) وابن ماجه: ١١٧٨] قال الترمذي: حديث حسن، ولا نعرف في القنوت عن النبي ﷺ شيئاً أحسن من هذا. وزاد البيهقي بعد «وَلَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ»: «لَا يَعْزُزُ مَنْ عَادَيْتَ» [البيهقي في الكبرى (٢/٢٠٩)، وهي زيادة حسنة].

ومما يدل على أن مراد أنس بالقنوت بعد الركوع هو القيام للدعاء والثناء ما رواه سليمان بن حرب: حدثنا أبو هلال، حدثنا حنظلة إمام مسجد قتادة، قلت: هو السدوسي، قال: اختلفت أنا وقاتدة في القنوت في صلاة الصبح، فقال قتادة: قبل الركوع، وقلت، أنا: بعد الركوع، فأتينا أنس بن مالك، فذكرنا له ذلك، فقال: أتيت النبي ﷺ في صلاة الفجر، فكبر، وركع، ورفع رأسه، ثم سجد، ثم قام في الثانية، فكبر، وركع، ثم رفع رأسه، فقام ساعة ثم وقع ساجداً^(١). وهذا مثل حديث ثابت عنه سواء، وهو يبين مراد أنس بالقنوت، فإنه ذكره دليلاً لمن قال: إنه قنُت بعد الركوع، فهذا القيام والتطويل هو كان مراد أنس، فاتفقت أحاديثه كلها، وبالله

(١) إسناده ضعيف، لضعف أبي هلال الراسبي، واسمه محمد بن سليم البصري الراسبي فيه لين، وحنظلة هو السدوسي ضعفه أحمد، وقال: يروي عن أنس أحاديث منكير، وقال ابن معين والنسائي: ضعيف، وقال أبو حاتم: ليس بالقوي، وقال ابن حبان في «الضعفاء»: اختلط بأخرة حتى كان لا يدري ما يحدث به، فاختلط حديثه القديم بحديثه الأخير، تركه يحيى القطان.

وفي «المسند» من حديث يزيد بن هارون، عن المسعودي، عن زياد بن علاقة قال: صَلَّى بنا المغيرةُ بن شعبه، فلما صلى ركعتين، قام ولم يجلس، فسَبَّحَ به مَنْ خلفه، فأشار إليهم: أن قوموا، فلما فَرَغَ من صلاته، سَلَّمَ، ثم سجد سجدتين، وسَلَّمَ، ثم قال: هكذا صنع بنا رسولُ الله ﷺ [حسن: أحمد: ١٨١٦٣، وأبو داود: ١٠٣٧، والترمذي: ٣٦٥]. وصححه الترمذي.

وذكر البيهقي من حديث عبد الرحمن بن شِمَاسَةَ المَهْرِي قال: صَلَّى بنا عُقْبَةُ بن عامر الجُهني، فقام وعليه جلوسٌ، فقال الناس: سُبْحَانَ اللَّهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ، فلم يجلس، ومضى على قيامه، فلما كان في آخر صلاته، سجد سجدتي السهو وهو جالس، فلما سَلَّمَ، قال: إني سمعتكم أفأ تقولون: سُبْحَانَ اللَّهِ لكيما أجلس، لكنَّ السُّنَّةَ الَّتِي صَنَعْتُ [صحح: البيهقي في «الكبرى» (٢/٣٤٤)].

وحديث عبد الله بن بُحَيَّة^(١) أولى لثلاثة وجوه: أحدها: أنه أصح من حديث المغيرة.

الثاني: أنه أصرح منه، فإن قول المغيرة: وهكذا صنع بنا رسول الله ﷺ، يجوز أن يرجع إلى جميع ما فعل المغيرة، ويكون قد سجد النبي ﷺ في هذا السهو مرة قبل السلام، ومرة بعده، فحكى ابنُ بُحَيَّة ما شاهده، وحكى المغيرة ما شاهده، فيكون كلا الأمرين جائزاً، ويجوز أن يُريد المغيرة أنه ﷺ قام ولم يرجع، ثم سجد للسهو.

الثالث: أن المغيرة لعله نسي السجود قبل السلام وسجده بعده، وهذه صفة السهو، وهذا لا يمكن أن يقال في السجود قبل السلام، والله أعلم.

فصل

وسَلَّمَ ﷺ من ركعتين في إحدى صلاتي العِشِيِّ، إما الظُّهْرِ، وإما المَصْرِ، ثُمَّ تَكَلَّمَ، ثُمَّ أُنْمَتَهَا، ثُمَّ سَلَّمَ، ثُمَّ سَجَدَ سَجْدَتَيْنِ بعد السَّلَام والكَلَام، يُكَبِّرُ حين يسجد، ثُمَّ يُكَبِّرُ حين يرفع [البخاري: ٤٨٢، ومسلم: ١٢٨٨].

التوفيق. وأما المروي عن الصحابة، فنوعان: أحدهما: قنوت عند التوازل، كقنوت الصديق رضي الله عنه في محاربة الصحابة لمسيئته، وعند محاربة أهل الكتاب، وكذلك قنوت عمر، وقنوت علي عند محاربته لمعاوية وأهل الشام. الثاني: مطلق، مراد من حكاه عنهم به تطويلُ هذا الركن للدعاء والثناء، والله أعلم.

فصل

في هديه ﷺ في سجود السهو

ثبت عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ، فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي» [البخاري: ٤٠١، ومسلم: ١٢٧٤].

وكان سهوه في الصلاة من تمام نعمة الله على أمته، وإكمال دينهم، ليقصدوا به فيما يشرع لهم عند السهو، وهذا معنى الحديث المنقطع الذي في «الموطأ»: «إِنَّمَا أَنْسَى أَوْ أَنْسَى لِأُسْنٍ» [مالك في «الموطأ» (١/١٠٠)].

(المواضع التي سجد فيها للسهو)

وكان ﷺ ينسى، فيترتب على سهوه أحكام شرعية تجري على سهو أمته إلى يوم القيامة، فقام ﷺ من اثنتين في الرباعية، ولم يجلس بينهما، فلما قضى صلاته، سجد سجدتين قبل السلام، ثم سلم، فأخَذَ من هذا قاعدة: أن من ترك شيئاً من أجزاء الصلاة التي ليست بأركان سهواً، سجد له قبل السلام، وأخَذَ من بعض طرقه أنه: إذا ترك ذلك وشرع في ركن، لم يرجع إلى المتروك، لأنه لما قام، سَبَّحُوا، فأشار إليهم: أن قوموا.

واختلف عنه في محل هذا السجود، ففي «الصحيحين» من حديث عبد الله بن بُحَيَّة: أنه ﷺ قام من اثنتين من الظهر، ولم يجلس بينهما، فلما قضى صلاته، سَجَدَ سَجْدَتَيْنِ، ثم سَلَّمَ بعد ذلك. وفي رواية متفق عليها: يُكَبِّرُ في كل سجدة وهو جالس قبل أن يُسَلَّمَ [البخاري: ١٢٢٥، ومسلم: ١٢٦٩].

(١) هي أم عبد الله، وأبو مالك بن القُشْب الأزدِي من أزد شنوءة، قال ابن سعد: حالف مالك بن القُشْب المطلب بن عبد مناف، وتزوج بحينة بنت الحارث بن عبد المطلب، فولدت له عبد الله.

وذكر أبو داود والترمذي: أن النبي ﷺ صلى بهم، فسجد سجدين، ثم تشهد، ثم سلم [أبو داود: ١٠٣٩، والترمذي: ٣٩٥]. وقال الترمذي: حسن غريب.

وصلى يوماً فسلم وانصرف، وقد بقي من الصلاة ركعة، فأدركه طلحة بن عبيد الله، فقال: نسيت من الصلاة ركعة، فرجع فدخل المسجد، وأمر بلالاً فأقام الصلاة، فصلى للناس ركعة. ذكره الإمام أحمد رحمه الله [صحيح: أحمد: ٢٧٥٤، وأبو داود: ١٠٢٣].

وصلى الظهر خمساً، فقيل له: زيد في الصلاة؟ قال: «وما ذاك؟» قالوا: صليت خمساً، فسجد سجدين بعدما سلم. متفق عليه [البخاري: ١٢٢٦، ومسلم: ١٢٧٤].

وصلى العصر ثلاثاً، ثم دخل منزله، فذكره الناس، فخرج فصلى بهم ركعة، ثم سلم، ثم سجد سجدين، ثم سلم [مسلم: ١٢٩٣].

فهذا مجموع ما حُفِظَ عنه ﷺ من سهوه في الصلاة، وهو خمسة مواضع، وقد تضمن سجوده في بعضه قبل السلام، وفي بعضه بعده.

فقال الشافعي رحمه الله: كُلُّهُ قبل السلام.

وقال أبو حنيفة رحمه الله: كُلُّهُ بعد السلام.

وقال مالك رحمه الله: كُلُّ سَهْوٍ كان نقصاناً في الصلاة، فإن سجوده قبل السلام، وكُلُّ سَهْوٍ كان زيادة في الصلاة، فإن سجوده بعد السلام، وإذا اجتمع سهوان: زيادة ونقصان، فالسجود لهما قبل السلام.

قال أبو عمر بن عبد البر: هذا مذهبه لا خلاف عنه فيه، ولو سجد أحد عنده لسهوه بخلاف ذلك، فجعل السجود كُلُّهُ بعد السلام، أو كُلُّهُ قبل السلام، لم يكن عليه شيء، لأنه عنده من باب قضاء القاضي باجتهاده، لاختلاف الآثار المرفوعة، والسلف من هذه الأمة في ذلك.

وأما الإمام أحمد رحمه الله، فقال الأثر: سمعت أحمد بن حنبل يُسأل عن سجود السهو: قبل السلام، أم بعده؟ فقال: في مواضع قبل السلام، وفي مواضع بعده، كما صنع النبي ﷺ حين سلم من اثنتين، ثم سجد بعد السلام، على حديث أبي هريرة

في قصة ذي الدين.

ومن سلم من ثلاث سجد أيضاً بعد السلام على حديث عمران بن حصين [مسلم: ١٢٩٤]. وفي التحري يسجد بعد السلام على حديث ابن مسعود، وفي القيام من اثنتين يسجد قبل السلام على حديث ابن بُحينة وفي الشك يني على اليقين، ويسجد قبل السلام على حديث أبي سعيد الخدري [مسلم: ١٢٧٢] وحديث عبد الرحمن بن عوف [صحيح: أحمد: ١٦٥٦، والترمذي: ٣٩٨، وابن ماجه: ١٢٠٩].

قال الأثرم: فقلت لأحمد بن حنبل: فما كان يسوي هذه المواضع؟ قال: يسجد فيها كُلُّها قبل السلام، لأنه يُتم ما نقص من صلاته، قال: ولولا ما روي عن النبي ﷺ، لرأيْتُ السجود كُلَّهُ قبل السلام، لأنه من شأن الصلاة، فيقضيه قبل السلام، ولكن أقول: كل ما روي عن النبي ﷺ أنه سجد فيه بعد السلام، فإنه يسجد فيه بعد السلام، وسائر السهو يسجد فيه قبل السلام.

وقال داود بن علي: لا يسجد أحد للسهو إلا في الخمسة المواضع التي سجد فيها رسول الله ﷺ. انتهى.

وأما الشك، فلم يعرض له ﷺ، بل أمر فيه بالبناء على اليقين، وإسقاط الشك، والسجود قبل السلام. فقال الإمام أحمد: الشك على وجهين: اليقين، والتحري، فمن رجع إلى اليقين، ألغى الشك، وسجد سجدي السهو قبل السلام على حديث أبي سعيد الخدري، وإذا رجع إلى التحري وهو أكثر الوهم، سجد سجدي السهو بعد السلام على حديث ابن مسعود الذي يرويه منصور. انتهى.

وأما حديث أبي سعيد، فهو: «إِذَا شَكَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ، فَلَمْ يَدْرِكْكُمْ صَلَّى أَثَلَاثًا أَمْ أَزْبَعًا، فَلْيَطْرَحِ الشَّكَّ، وَيُتَيْنِ عَلَى مَا اسْتَيْقَنَ، ثُمَّ يَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يُسَلَّمَ». انتهى.

وأما حديث ابن مسعود، فهو: «إِذَا شَكَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ، فَلْيَتَحَرَّ الصُّوَابَ، ثُمَّ لِيَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ» متفق عليهما. وفي لفظ «الصحيحين»: «ثُمَّ يُسَلِّمُ، ثُمَّ يَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ». وهذا هو الذي قال الإمام أحمد: وإذا رجع إلى التحري، سجد بعد السلام.

والفرق عنده بين التحري واليقين، أن المصلي إذا كان إماماً بنى على غالب ظنه وأكثر وهمه، وهذا هو التحري، فيسجد له بعد السلام على حديث ابن مسعود، وإن كان منفرداً، بنى على اليقين، وسجد قبل السلام على حديث أبي سعيد، وهذه طريقة أكثر أصحابه في تحصيل ظاهر مذهبه. وعنه: روايتان أخريان: إحداهما: أنه يبنى على اليقين مطلقاً، وهو مذهب الشافعي ومالك، والأخرى: على غالب ظنه مطلقاً، وظاهر نصوصه إنما يدل على الفرق بين الشك، وبين الظن الغالب القوي، فمع الشك يبنى على اليقين، ومع أكثر الوهم أو الظن الغالب يتحرى، وعلى هذا مدار أجوبته. وعلى الحالين حمل الحديثين، والله أعلم.

وقال أبو حنيفة رحمه الله في الشك: إذا كان أول ما عرض له، استأنف الصلاة، فإن عرض له كثيراً، فإن كان له ظن غالب، بنى عليه، وإن لم يكن له ظن، بنى على اليقين.

فصل

(لم يكن من هديه تغميض عينيه في الصلاة)

ولم يكن من هديه ﷺ تغميض عينيه في الصلاة، وقد تقدم أنه كان في التشهد يؤمى ببصره إلى أصبعه في الدعاء، ولا يُجاوِزُ بصره إشارته [حسن: أحمد: ١٥٣٧٠، وأبو داود: ٩٩٠، والنسائي (٢٩/٣)].

وذكر البخاري في «صحيحه» عن أنس رضي الله عنه قال: كان قِرَامٌ لعائشة، سترت به جانب بيتها، فقال النبي ﷺ: «أبيطي عني قِرَامَكَ هَذَا، فَإِنَّهُ لَا تَزَالُ تَصَاوِيرُهُ تَعْرِضُ لِي فِي صَلَاتِي» [البخاري: ٣٧٤]. ولو كان يُغمض عينيه في صلاته، لما عَرَضَتْ له في صلاته. وفي الاستدلال بهذا الحديث نظراً، لأن الذي كان يعرض له في صلاته: هل تذكر تلك التصاوير بعد رؤيتها، أو نفس رؤيتها؟ هذا محتمل، وهذا محتمل، وأبين دلالة منه حديث عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ صَلَّى فِي خَيْصَصَةٍ لَهَا أَعْلَامٌ، فنظر إلى أعلامها نظرة، فلما انصرف قال: «اذْهَبُوا بِخَيْصَصَتِي هَذِهِ إِلَى أَبِي جَهْمٍ، وَأَتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّةِ أَبِي جَهْمٍ، فَإِنَّهَا أَلْهَنَتْنِي آتِيفًا عَنْ صَلَاتِي» [البخاري: ٣٧٣، ومسلم: ١٢٣٨]. وفي الاستدلال بهذا

أيضاً ما فيه، إذ غايته أنه حانت منه التفاته إليها، فشغلته تلك الالتفاتة ولا يدُلُّ حديث التفاته إلى الشعب لما أرسل إليه الفارس طليعة، لأن ذلك النظر والالتفات منه كان للحاجة، لاهتمامه بأمور الجيش، وقد يدُلُّ على ذلك مَدُّ يده في صلاة الكسوف ليتناول العُنُقود لما رأى الجنة، وكذلك رؤيته النَّارَ وصاحبة الهرة فيها، وصاحب المِخْحَنِ [البخاري: ١٠٥٢، ومسلم: ٢١٠٢]، وكذلك حديث مدافعتة للبهيمة التي أرادت أن تمر بين يديه، ورثه الغلام والجارية، وحجزه بين الجارين، وكذلك أحاديث رد السلام بالإشارة على من سلم عليه وهو في الصلاة، فإنه إنما كان يُشير إلى من يراه، وكذلك حديث تعرض الشيطان له فأخذه فحققه، وكان ذلك رؤية عين، فهذه الأحاديث وغيرها يُستفاد من مجموعها العلم بأنه لم يكن يُغمض عينيه في الصلاة.

وقد اختلف الفقهاء في كراهته، فكرهه الإمام أحمد وغيره، وقالوا: هو فعل اليهود، وأباحه جماعة ولم يكرهوه، وقالوا: قد يكون أقرب إلى تحصيل الخشوع الذي هو روح الصلاة وسرّها ومقصودها.

والصواب أن يقال: إن كان تفتيح العين لا يُخلُّ بالخشوع، فهو أفضل، وإن كان يحول بينه وبين الخشوع لما في قلبه من الزخرفة والتزيق أو غيره مما يُشوش عليه قلبه، فهناك لا يُكره التغميض قطعاً، والقول باستحبابه في هذا الحال أقرب إلى أصول الشرع ومقاصده من القول بالكراهة، والله أعلم.

فصل

فيما كان رسول الله ﷺ يقول بعد انصرافه من الصلاة، وجلوبيه بعدها، وسرعة الانتقال منها، وما شرعه لأمته من الأذكار والقراءة بعدها

كان إذا سلم، استغفر ثلاثاً، وقال: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» [مسلم: ١٣٣٤].

ولم يمكث مستقبلاً القبلة إلا مقداراً ما يقول ذلك،

بل يُسرّع الانتقال إلى المأمومين.

والثاني: كان يقوله بعد السلام، ولعله كان يقوله في الموضعين، والله أعلم.

وكان ينقُطِلُ عن يمينه وعن يساره، وقال ابن مسعود: رأيتُ رسولَ الله ﷺ كثيراً ينصرف عن يساره. وقال أنس: أكثر ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ ينصرف عن يمينه، والأول في «الصحيحين» [البخاري: ٨٥٢، ومسلم: ١٦٣٨]. والثاني في «مسلم» [١٦٤٠].

وقال عبد الله بن عمرو: رأيتُ رسولَ الله ﷺ ينقُطِلُ عن يمينه وعن يساره في الصلاة [حسن: أحمد: ٧٠٢١، وأبو داود: ١٠٤١، والترمذي: ٢٠١، وابن ماجه: ٩٣١].

ثم كان ينقُطِلُ على المأمومين بوجهه، ولا يخشُ ناجة منهم دون ناجة.

وكان إذا صلى الفجرَ، جلس في مصلاه حتى تَطْلُعَ الشمسُ [مسلم: ١٥٢٥].

وكان يقول في دُبرِ كلِّ صلاة مكتوبة: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِي لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ» [البخاري: ٨٤٤، ومسلم: ١٦٣٨].

وكان يقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا تَعْبُدُ إِلَّا إِلَهَهُ، لَهُ النِّعْمَةُ، وَلَهُ الْفَضْلُ، وَلَهُ الشَّاءُ الْحَسَنُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» [مسلم: ١٦٤٣].

وذكر أبو داود عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أن رسولَ الله ﷺ كان إذا سلم من الصلاة قال: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ، وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ، وَمَا أَعْلَنْتُ، وَأَنْتَ الْمُقَدِّمُ، وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» [صحيح: أبو داود: ١٥٠٩، والترمذي: ٣٤١٩].

هذه قطعة من حديث علي الطويل الذي رواه مسلم في استفتاحه عليه الصلاة والسلام، وما كان يقوله في ركوعه وسجوده [مسلم: ١٨١٢].

ولمسلم فيه لفظان. أحدهما: أن النبي ﷺ كان يقوله بين التشهد والتسليم، وهذا هو الصواب.

وذكر الإمام أحمد عن زيد بن أرقم قال: كان رسولُ الله ﷺ يقول في دُبرِ كلِّ صلاة: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ، أَنَا شَهِيدُ أَنَّكَ الرَّبُّ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، أَنَا شَهِيدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، أَنَا شَهِيدُ أَنَّ الْعِبَادَ كُلَّهُمْ إِخْوَةٌ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، اجْعَلْنِي مُخْلِصاً لَكَ وَأَهْلِي فِي كُلِّ سَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، اسْمَعْ وَاسْتَجِبْ، اللَّهُ أَكْبَرُ الْأَكْبَرُ، اللَّهُ تَوْرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، اللَّهُ أَكْبَرُ الْأَكْبَرُ، حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، اللَّهُ أَكْبَرُ الْأَكْبَرُ». ورواه أبو داود [١٥٠٨].

ونذب أمته إلى أن يقولوا في دُبرِ كل صلاة: سُبْحَانَ اللَّهِ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَذَلِكَ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ كَذَلِكَ، وتمام المنة: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [مسلم: ١٦٥٢].

وفي صفة أخرى: التكبير أربعاً وثلثين فتم به المنة [مسلم: ١٦٤٩].

وفي صفة أخرى: خمساً وعشرين تسيبحة، ومثلها تحميدة، ومثلها تكبيرة، ومثلها لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير [صحيح: الترمذي: ٣٤١٠، والنسائي (٧٦/٣)].

وفي صفة أخرى: عشر تسبيحات، وعشر تحميدات، وعشر تكبيرات [صحيح: أبو داود: ٥٠٦٥، والترمذي: ٣٤٠٧، والنسائي (٥١/٣)].

وفي صفة أخرى: إحدى عشرة كما في «صحيح مسلم» في بعض روايات حديث أبي هريرة «وَيُسَبِّحُونَ، وَيَحْمَدُونَ، وَيَكْبَرُونَ دُبرَ كُلِّ صلاة ثلاثاً وثلثين، إحدى عشرة، وإحدى عشرة، وإحدى عشرة، فذلك ثلاثة وثلثون» [مسلم: ١٦٤٧]. والذي يظهر في هذه الصفة، أنها من تصرف بعض الرواة وتفسيره، لأن لفظ الحديث: «يُسَبِّحُونَ وَيَحْمَدُونَ، وَيَكْبَرُونَ دُبرَ كُلِّ صلاة ثلاثاً وثلثين». وإنما مراده بهذا أن يكون الثلاث والثلثون في كل واحدة من كلمات التسبيح

والتحميد والتكبير، أي قولوا: سُبْحَانَ اللَّهِ، والْحَمْدُ لِلَّهِ، واللَّهُ أَكْبَرُ، ثلاثاً وثلاثين؛ لأن راوي الحديث سُمي عن أبي صالح السمان، وبذلك فسرهُ أبو صالح قال: قولوا: سُبْحَانَ اللَّهِ، والْحَمْدُ لِلَّهِ، واللَّهُ أَكْبَرُ، حتى يكون منهن كُلُّهن ثلاثاً وثلاثون.

وأما تخصيصه بإحدى عشرة، فلا نظير له في شيء من الأذكار بخلاف المئة، فإن لها نظائر، والعشر لها نظائر أيضاً، كما في «السنن» من حديث أبي ذر: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَالَ فِي ذُبُرِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَهُوَ ثَانٍ رَجُلِيهِ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ يُخَيَّرُ وَيُجِيبُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، عَشْرَ مَرَّاتٍ، كُتِبَ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَمُحِي عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ، وَرَفَعَ لَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ، وَكَانَ يَوْمَهُ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي حِرْزٍ مِنْ كُلِّ مَكْرُوبٍ، وَحُرْسٍ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَلَمْ يَنْبَغِ لِدُنْبِ أَنْ يُذَرِّكَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَّا الشُّرَكَ بِاللَّهِ». قال الترمذي: حديث حسن صحيح [أحمد: ١٧٩٠، وأبو داود: ٥٠٧٧، والترمذي: ٣٤٧٠، وابن ماجه: ٣٨٦٧].

وفي «مسند الإمام أحمد» من حديث أم سلمة أنه ﷺ علَّم ابنته فاطمة لما جاءت تسأله الخادم، فأمرها: أن تسبِّح اللَّه عند النوم ثلاثاً وثلاثين، وتحمده ثلاثاً وثلاثين، وتكبره ثلاثاً وثلاثين. وإذا صَلَّت الصبح أن تقول: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، عَشْرَ مَرَّاتٍ، وَبَعْدَ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ، عَشْرَ مَرَّاتٍ [البخاري: ٣١١٣، ومسلم: ٦٩١٥].

وفي «صحيح ابن حبان» عن أبي أيوب الأنصاري يرفعه: «مَنْ قَالَ إِذَا أَصْبَحَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ عَشْرَ مَرَّاتٍ، كُتِبَ لَهُ بِهِنَّ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَمُحِي عَنْهُ بِهِنَّ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ، وَرَفَعَ لَهُ بِهِنَّ عَشْرُ دَرَجَاتٍ، وَكُنَّ لَهُ عِذْلٌ عَتَاقَهُ أَرْبَعِ رِقَابٍ، وَكُنَّ لَهُ حَرَساً مِنَ الشَّيْطَانِ حَتَّى يُصْبِيَ، وَمَنْ قَالَهُنَّ إِذَا صَلَّى الْمَغْرِبَ ذُبُرَ صَلَاتِهِ فَمِثْلُ ذَلِكَ حَتَّى يُصْبِحَ» [موارد الظمان: ٧٣٤١، وأحمد: ٧٣٥١٨، وسنده حسن]. وقد تقدم قول النبي ﷺ في الاستفتاح: «اللَّهُ أَكْبَرُ عَشْرًا،

والْحَمْدُ لِلَّهِ عَشْرًا، وَسُبْحَانَ اللَّهِ عَشْرًا، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَشْرًا، وَيَسْتَغْفِرُ اللَّهُ عَشْرًا»، ويقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَاهْدِنِي وَارْزُقْنِي» عَشْرًا، ويتعوذ مِنْ ضِيقِ الْمَقَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَشْرًا. فالعشر في الأذكار والدعوات كثيرة. وأما الإحدى عشرة، فلم يجيء ذكرها في شيء من ذلك البتة إلا في بعض طرق حديث أبي هريرة المتقدم واللَّهُ أعلم.

وقد ذكر أبو حاتم في «صحيحه». أن النبي ﷺ كان يقول عند انصرافه من صلاته: «اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي جَعَلْتَهُ عِصْمَةً أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي جَعَلْتَ فِيهَا مَعَاشِي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ نِقْمَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ» [ابن حبان: ٥٤١].

وذكر الحاكم في «مستدركه» عن أبي أيوب أنه قال: ما صليت وراء نبيكم ﷺ إلا سمعته حين ينصرف من صلاته يقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَايَايَ وَذُنُوبِي كُلَّهَا، اللَّهُمَّ أَنْعِمْنِي وَأَخِينِي وَارْزُقْنِي، وَاهْدِنِي لِصَالِحِ الْأَعْمَالِ وَالْأَخْلَاقِ، إِنَّهُ لَا يَهْدِي لِصَالِحِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَضُرُّ عَنْ سَيِّئِهَا إِلَّا أَنْتَ» [الحاكم (٤١٢/٣)].

وذكر ابن حبان في «صحيحه» عن الحارث بن مسلم التميمي قال: قال لي النبي ﷺ: «إِذَا صَلَّيْتَ الصُّبْحَ، فَقُلْ قَبْلَ أَنْ تَتَكَلَّمَ: اللَّهُمَّ أَجْزِنِي مِنَ النَّارِ سَبْعَ مَرَّاتٍ، فَإِنَّكَ إِنْ مِتُّ مِنْ يَوْمِكَ، كَتَبَ اللَّهُ لَكَ جَوَاراً مِنَ النَّارِ، وَإِذَا صَلَّيْتَ الْمَغْرِبَ، فَقُلْ قَبْلَ أَنْ تَتَكَلَّمَ: اللَّهُمَّ أَجْزِنِي مِنَ النَّارِ سَبْعَ مَرَّاتٍ؛ فَإِنَّكَ إِنْ مِتُّ مِنْ لَيْلَتِكَ كَتَبَ اللَّهُ لَكَ جَوَاراً مِنَ النَّارِ» [أبو داود: ٥٠٧٩، وفي سنده مجهول].

وقد ذكر النسائي في «السنن الكبير» من حديث أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فِي ذُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ، لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ» [حسن: ابن السني: ١٢٠، والهيتمي في «المجمع» (١٠٢/١٠)]. وهذا الحديث تفرد به محمد بن حمير، عن محمد بن زياد الألهاني، عن أبي أمامة، ورواه النسائي عن الحسين بن بشر، عن محمد بن حمير. وهذا الحديث من الناس مَنْ يصححه،

ويقول: الحسين بن بشر قد قال فيه النسائي: لا بأس به، وفي موضع آخر: ثقة. وأما المحمّدان، فاحتج بهما البخاري في «صحيحه»، قالوا: فالحديث على رسمه، ومنهم من يقول: هو موضوع، وأدخله أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه في الموضوعات، وتعلق على محمد بن حمير، وأن أبا حاتم الرازي قال: لا يُحتج به، وقال يعقوب بن سفيان: ليس بقوي، وأنكر ذلك عليه بعض الحفاظ، ووثقوا محمداً، وقال: هو أجل من أن يكون له حديث موضوع، وقد احتج به أجل من صف في الحديث الصحيح، وهو البخاري، ووثقه أشد الناس مقالة في الرجال يحيى بن معين، وقد رواه الطبراني في «معجمه» أيضاً من حديث عبد الله بن حسن عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فِي دُبُرِ الصَّلَاةِ الْمُكْتَوِّبَةِ، كَانَ فِي دِمَةِ اللَّهِ إِلَى الصَّلَاةِ الْآخِرَى» [حسن: ذكره الهيثمي في «المجمع» (٢/١٤٨)]. وقد روي هذا الحديث من حديث أبي أمامة، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر، والمغيرة بن شعبة، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، وفيها كلها ضعف، ولكن إذا انضم بعضها إلى بعض مع تباين طرقها واختلاف مَحَارِجِهَا، دلت على أن الحديث له أصل وليس بموضوع. وبلغني عن شيخنا أبي العباس ابن تيمية قدس الله روحه أنه قال: ما تركتها عقيب كل صلاة. وفي «المسند» و«السنن»، عن عتبة بن عامر قال: أمرني رسول الله ﷺ: أن أقرأ بالمُعَوِّذَاتِ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ [صحيح: أحمد: ١٧٤١٧، وأبو داود: ١٥٢٣، والترمذي: ٢٩٠٥، والنسائي (٣/٦٨)]. ورواه أبو حاتم ابن حبان في «صحيحه»، والحاكم في «المستدرک»، وقال: صحيح على شرط مسلم. ولفظ الترمذي: بالمعوذتين.

وفي «معجم الطبراني»، و«مسند أبي يعلى المَوْصِلِي» من حديث عمر بن نيهان، وقد تُكَلِّمُ فِيهِ عَنْ جَابِرٍ يَرْفَعُهُ: «ثَلَاثٌ مَنْ جَاءَ بِهِنَّ مَعَ الْإِيمَانِ، دَخَلَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شَاءَ، وَزُوجَ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ حَيْثُ شَاءَ، مَنْ عَفَا عَنْ قَاتِلِهِ، وَأَدَّى دَيْنًا خَفِيًّا، وَقَرَأَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ عَشْرَ مَرَّاتٍ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾». فقال أبو بكر رضي الله عنه:

أَوْ إِخْدَاهُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «أَوْ إِخْدَاهُنَّ» [الهيثمي في «المجمع» (١٠٢/١٠)]. وأوصى معاذاً أن يقول في دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ» [أبو داود: ١٥٢٢، والنسائي (٣/٥٣)].

وَدُبُرُ الصَّلَاةِ يَحْتَمِلُ قَبْلَ السَّلَامِ وَبَعْدَهُ، وَكَانَ شَيْخُنَا يُرَجِّحُ أَنْ يَكُونَ قَبْلَ السَّلَامِ، فَرَأَيْتُهُ فِيهِ، فَقَالَ: دُبُرُ كُلِّ شَيْءٍ مِنْهُ، كَذُبُرِ الْحَيَوَانِ.

فصل

(السترة في الصلاة)

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا صَلَّى إِلَى الْجِدَارِ، جَعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ قَدْرَ مِمْرِ الشَّاةِ، وَلَمْ يَكُنْ يَتَبَاعَدُ مِنْهُ، بَلْ أَمَرَ بِالْقُرْبِ مِنَ السُّتْرَةِ، وَكَانَ إِذَا صَلَّى إِلَى عُودٍ أَوْ عُمُودٍ أَوْ شَجَرَةٍ، جَعَلَهُ عَلَى حَاجِبِ الْأَيْمَنِ أَوِ الْأَيْسَرِ، وَلَمْ يَضْمُدْ لَهُ صِمْدًا، وَكَانَ يَرْكُزُ الْحَرَبَةَ فِي السَّفَرِ وَالْبَرَّةِ، فَيُصَلِّي إِلَيْهَا، فَتَكُونُ سِتْرَتَهُ، وَكَانَ يُعَرِّضُ رَاحِلَتَهُ، فَيُصَلِّي إِلَيْهَا، وَكَانَ يَأْخُذُ الرَّحْلَ فَيَغْدِلُهُ فَيُصَلِّي إِلَى آخِرَتِهِ [البخاري: ٥٠٧]، وَأَمَرَ الْمُصَلِّيَّ أَنْ يَسْتَرَّ وَلَوْ بِسَهْمٍ أَوْ عَصَا، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيَخْطِ خَطًّا فِي الْأَرْضِ [أبو داود: ٦٨٩، وابن ماجه: ٩٤٣]. قَالَ أَبُو دَاوُدَ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ يَقُولُ: الْخَطُّ عَرْضًا مِثْلُ الْهَلَالِ. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: الْخَطُّ بِالطَّوْلِ، وَأَمَّا الْعَصَا، فَتَنْصَبُ نَصْبًا، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ سِتْرَةً، فَإِنَّهُ صَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ يَقْطَعُ صَلَاتَهُ: «الْمَرْأَةُ وَالْحِمَارُ وَالْكَلْبُ الْأَسْوَدُ». وَثَبِتَ ذَلِكَ عَنْهُ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي ذَرٍّ [مسلم: ١١٣٧]، وَأَبِي هُرَيْرَةَ [مسلم: ١١٣٩]، وَابْنِ عَبَّاسٍ [أبو داود: ٧٠٣، وابن ماجه: ٩٤٩]، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُغَفَّلٍ [ابن ماجه: ٩٥١]. وَمَعَارِضُ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ قِسْمَانِ: صَحِيحٌ غَيْرُ صَرِيحٍ، وَصَرِيحٌ غَيْرُ صَحِيحٍ، فَلَا يَتْرَكُ الْعَمَلُ بِهَا لِمَعَارِضِ هَذَا شَأْنِهِ. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي وَعَاشَتْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا نَائِمَةً فِي قَبْلَتِهِ [البخاري: ٥١٣]. وَكَانَ ذَلِكَ لَيْسَ كَالْمَاءِ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِ الْمُرُورُ بَيْنَ يَدَيْ الْمُصَلِّي، وَلَا يُكْرَهُ لَهُ أَنْ يَكُونَ لَا بَتًّا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَهَكَذَا الْمَرْأَةُ يَقْطَعُ مَرُورَهَا الصَّلَاةَ دُونَ لَبْسِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فصل

في هديه ﷺ في السنن الرواتب

كان ﷺ يحافظ على عشر ركعات في الحضر دائماً، وهي التي قال فيها ابن عمر: حَفِظْتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ عَشْرَ رَكَعَاتٍ: رَكَعَتَيْنِ قَبْلَ الظُّهْرِ، وَرَكَعَتَيْنِ بَعْدَهَا، وَرَكَعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرَبِ فِي بَيْتِهِ، وَرَكَعَتَيْنِ بَعْدَ الْعِشَاءِ فِي بَيْتِهِ، وَرَكَعَتَيْنِ قَبْلَ صَلَاةِ الصُّبْحِ [البخاري: ١١٨٠]. فهذه لم يكن يدعها في الحضر أبداً، ولما فاتته الركعتان بعد الظهر، قضاهما بعد العصر، وداوم عليهما، لأنه ﷺ كان إذا عَمِلَ عَمَلًا أَثَبْتَهُ وَقَضَاءُ السَّنَنِ الرَّوَاطِبِ فِي أَوْقَاتِ النِّهْيِ عَامٌ لَهُ وَلِأَمَّتِهِ، وَأَمَّا الْمَدَاوِمَةُ عَلَى تِلْكَ الرَكَعَتَيْنِ فِي وَقْتِ النِّهْيِ، فَمَخْصُصٌ بِهِ كَمَا سَيَأْتِي تَقْرِيرُ ذَلِكَ فِي ذِكْرِ خِصَائِصِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَكَانَ يُصَلِّي أحياناً قَبْلَ الظُّهْرِ أَرْبَعاً، كَمَا فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهُ ﷺ: «كَانَ لَا يَدَعُ أَرْبَعاً قَبْلَ الظُّهْرِ، وَرَكَعَتَيْنِ قَبْلَ الْغَدَاةِ» [البخاري: ١١٨١]. فَإِذَا أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ ﷺ كَانَ إِذَا صَلَّى فِي بَيْتِهِ صَلَّى أَرْبَعاً، وَإِذَا صَلَّى فِي الْمَسْجِدِ، صَلَّى رَكَعَتَيْنِ، وَهَذَا أَظْهَرُ، وَإِنَّمَا أَنْ يُقَالَ: كَانَ يَفْعَلُ هَذَا، وَيَفْعَلُ هَذَا، فَحَكَى كُلُّ مَنْ عَائِشَةُ وَابْنُ عُمَرَ مَا شَاهَدَهُ، وَالْحَدِيثَانِ صَحِيحَانِ لَا مَطْعَنَ فِي وَاحِدٍ مِنْهُمَا. وَقَدْ يُقَالَ: إِنْ هَذِهِ الْأَرْبَعُ لَمْ تَكُنْ سُنَّةَ الظُّهْرِ، بَلْ هِيَ صَلَاةٌ مُسْتَقِلَّةٌ كَانَ يُصَلِّيُهَا بَعْدَ الزَّوَالِ، كَمَا ذَكَرَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ السَّائِبِ. أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُصَلِّي أَرْبَعاً بَعْدَ أَنْ تَزُولَ الشَّمْسُ، وَقَالَ: «إِنَّهَا سَاعَةٌ تُفْتَحُ فِيهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، فَأَجِبْ أَنْ يَصْعَدَ لِي فِيهَا عَمَلُ صَالِحٍ» [حسن: أحمد: ٢٣٥٥٢، والترمذي: ٤٧٨].

وفي «السنن» أيضاً عن عائشة رضي الله عنها: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا لَمْ يُصَلِّ أَرْبَعاً قَبْلَ الظُّهْرِ، صَلَّاهُنَّ بَعْدَهَا [الترمذي: ٤٢٦]. وَقَالَ ابْنُ مَاجَهَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا فَاتَتْهُ الْأَرْبَعُ قَبْلَ الظُّهْرِ، صَلَّاهَا بَعْدَ الرَكَعَتَيْنِ بَعْدَ الظُّهْرِ [ابن ماجه: ١١٥٨]. وَفِي «الترمذي» عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي أَرْبَعاً قَبْلَ الظُّهْرِ، وَبَعْدَهَا رَكَعَتَيْنِ [الترمذي: ٤٢٤]. وَذَكَرَ ابْنُ مَاجَهَ أَيْضاً عَنْ عَائِشَةَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي أَرْبَعاً قَبْلَ الظُّهْرِ،

يُطِيلُ فِيهِ الْقِيَامَ، وَيَحْسِنُ فِيهِ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ، [ابن ماجه: ١١٥٦] فَهَذِهِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - هِيَ الْأَرْبَعُ الَّتِي أَرَادَتْ عَائِشَةُ أَنَّهُ كَانَ لَا يَدَعُهَا: وَأَمَّا سُنَّةُ الظُّهْرِ، فَالرَكَعَتَانِ اللَّتَانِ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، يُوضَحُ ذَلِكَ أَنَّ سَائِرَ الصَّلَوَاتِ سَنَّتُهَا رَكَعَتَانِ رَكَعَتَانِ، وَالْفَجْرِ مَعَ كَوْنِهَا رَكَعَتَيْنِ، وَالنَّاسِ فِي وَقْتِهَا أَفْرَعُ مَا يَكُونُونَ، وَمَعَ هَذَا سَنَّتُهَا رَكَعَتَانِ، وَعَلَى هَذَا، فَتَكُونُ هَذِهِ الْأَرْبَعُ الَّتِي قَبْلَ الظُّهْرِ وَرَدًّا مُسْتَقِلًّا سَبِيهُ انْتِصَافِ النَّهَارِ وَزَوَالِ الشَّمْسِ. وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ يُصَلِّي بَعْدَ الزَّوَالِ ثَمَانَ رَكَعَاتٍ، وَيَقُولُ: إِنَّهُنَّ يُغْفَلْنَ بِمِثْلِهِنَّ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ. وَسِرُّ هَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ انْتِصَافَ النَّهَارِ مُقَابِلُ لانتِصَافِ اللَّيْلِ، وَأَبْوَابُ السَّمَاءِ تُفْتَحُ بَعْدَ زَوَالِ الشَّمْسِ، وَيَحْصُلُ النُّزُولُ الْإِلَهِيُّ بَعْدَ انْتِصَافِ اللَّيْلِ، فَهَذَا وَقْتُ اقْرَبِ وَرَحْمَةِ، هَذَا تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَهَذَا يَنْزِلُ فِيهِ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا. وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» مِنْ حَدِيثِ أُمِّ حَبِيبَةَ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ صَلَّى فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً، بَنِيَ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ». وَزَادَ النَّسَائِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ فِيهِ: «أَرْبَعاً قَبْلَ الظُّهْرِ، وَرَكَعَتَيْنِ بَعْدَهَا، وَرَكَعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرَبِ، وَرَكَعَتَيْنِ بَعْدَ الْعِشَاءِ، وَرَكَعَتَيْنِ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ». قَالَ النَّسَائِيُّ: «وَرَكَعَتَيْنِ قَبْلَ الْعَصْرِ» بَدَلِ «وَرَكَعَتَيْنِ بَعْدَ الْعِشَاءِ» وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ [مسلم: ١٦٩٤، والترمذي: ٤١٥، والنسائي: ٣/ ٢٦١]. وَذَكَرَ ابْنُ مَاجَهَ عَنْ عَائِشَةَ تَرْفَعُهُ: «مَنْ تَابَرَ عَلَى ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً مِنَ السُّنَّةِ، بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ: أَرْبَعاً قَبْلَ الظُّهْرِ، وَرَكَعَتَيْنِ بَعْدَهَا، وَرَكَعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرَبِ، وَرَكَعَتَيْنِ بَعْدَ الْعِشَاءِ، وَرَكَعَتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ» [حسن: الترمذي: ٤١٤، والنسائي: ٣/ ٢٦٠ - ٢٦١]، وَابْنُ مَاجَهَ: [١١٤٠]. وَذَكَرَ أَيْضاً عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ نَحْوَهُ وَقَالَ: رَكَعَتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ، وَرَكَعَتَيْنِ قَبْلَ الظُّهْرِ، وَرَكَعَتَيْنِ بَعْدَهَا، وَرَكَعَتَيْنِ أَظْنَهُ قَالَ: قَبْلَ الْعَصْرِ، وَرَكَعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرَبِ أَظْنَهُ قَالَ: وَرَكَعَتَيْنِ بَعْدَ الْعِشَاءِ الْآخِرَةُ [حسن: النسائي: ٣/ ٢٦٤]، وَابْنُ مَاجَهَ: [١١٤٢]. وَهَذَا التفسير، يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ بَعْضِ الرُّوَاةِ مُدْرَجًا فِي الْحَدِيثِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ مَرْفُوعًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

في الثالثة: «لَمَنْ شَاءَ» كَرَاهَةً أَنْ يَتَخَذَهَا النَّاسُ سَنَةً [البخاري: ١١٨٣، ومسلم: ١٩٤٠]. وهذا هو الصواب في هاتين الركعتين، أنهما مُسْتَحْتَبَتَانِ مندوبٌ إليهما، وليستا بسنة راتبة كسائر السنن الرواتب.

(كان يصلي عامة السنن في بيته)

وكان يصلي عامة السنن، والتطوع الذي لا سبب له في بيته، لا سيما سنة المغرب، فإنه لم يُنقل عنه أنه فعلها في المسجد البتة.

وقال الإمام أحمد في رواية حنبل: السنة أن يصلي الرجل الركعتين بعد المغرب في بيته، كذا روي عن النبي ﷺ وأصحابه. قال السائب بن يزيد: لقد رأيت الناس في زمن عمر بن الخطاب، إذا انصرفوا من المغرب، انصرفوا جميعاً حتى لا يبقى في المسجد أحد، كأنهم لا يصلون بعد المغرب حتى يصيروا إلى أهليهم. انتهى كلامه. فإن صلى الركعتين في المسجد، فهل يجزئ عنه، وتقع موقعهما؟ اختلف قوله، فروى عنه ابنه عبد الله أنه قال: بلغني عن رجل سماه أنه قال: لو أن رجلاً صلى الركعتين بعد المغرب في المسجد ما أجزأه. فقال: ما أحسن ما قال هذا الرجل، وما أجود ما انتزع، قال أبو حفص: ووجه أمر النبي ﷺ بهذه الصلاة في البيوت. وقال المروزي: من صلى ركعتين بعد المغرب في المسجد يكون عاصياً، قال: ما أعرف هذا، قلت له: يحكى عن أبي ثور أنه قال: هو عاص. قال: لعله ذهب إلى قول النبي ﷺ: «اجْعَلُوهَا فِي بُيُوتِكُمْ» [صحيح: أحمد: ٢٣٦٢٤]. قال أبو حفص: ووجه أنه لو صلى الفرض في البيت، وترك المسجد، أجزأه، فكذاك السنة. انتهى كلامه. وليس هذا وجهه عند أحمد رحمه الله، وإنما وجهه أن السنن لا يُشترط لها مكان معين، ولا جماعة، فيجوز فعلها في البيت والمسجد، والله أعلم.

وفي سنة المغرب ستان، إحداهما: أنه لا يُفصل بينها وبين المغرب بكلام، قال أحمد رحمه الله في رواية الميموني والمروزي: يستحب ألا يكون قبل الركعتين بعد المغرب إلى أن يُصليهما كلاماً. وقال الحسن بن محمد: رأيت أحمد إذا سلم من صلاة المغرب، قام ولم يتكلم، ولم يركع في المسجد قبل

وأما الأربع قبل العصر، فلم يصح عنه عليه السلام في فعلها شيء إلا حديث عاصم بن ضمرة عن علي... الحديث الطويل، أنه ﷺ: كان يصلي في النهار ست عشرة ركعة، يصلي إذا كانت الشمس من هاهنا كَهَيِّتِهَا من هاهنا لصلاة الظهر أربع ركعات، وكان يصلي قبل الظهر أربع ركعات، وبعد الظهر ركعتين، وقبل العصر أربع ركعات. وفي لفظ: كان إذا زالت الشمس من هاهنا كَهَيِّتِهَا من هاهنا عند العصر، صلى ركعتين، وإذا كانت الشمس من هاهنا كَهَيِّتِهَا من هاهنا عند الظهر، صلى أربعاً، ويصلي قبل الظهر أربعاً وبعدها ركعتين، وقبل العصر أربعاً، ويفصل بين كل ركعتين بالتسليم على الملائكة المقربين ومن تبعهم من المؤمنين والمسلمين [حسن: أحمد: ٨٨٥، والترمذي: ٥٩٨، وابن ماجه: ١١٦١]. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يُنكر هذا الحديث ويدفعه جداً، ويقول: إنه موضوع. ويذكر عن أبي إسحاق الحوزجاني إنكاره. وقد روى أحمد، وأبو داود، والترمذي من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «رَجِمَ اللَّهُ امْرَأً صَلَّى قَبْلَ الْعَصْرِ أَرْبَعاً» [حسن: أحمد: ٥٩٨٠، وأبو داود: ١٢٧١، والترمذي: ٤٣٠]. وقد اختلف في هذا الحديث، فصحه ابن حبان، وعلله غيره، قال ابن أبي حاتم: سمعت أبي يقول: سألت أبا الوليد الطيالسي عن حديث محمد بن مسلم بن المثنى عن أبيه، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ: «رَجِمَ اللَّهُ امْرَأً صَلَّى قَبْلَ الْعَصْرِ أَرْبَعاً». فقال: دع ذا. فقلت: إن أبا داود قد رواه، فقال: قال أبو الوليد: كان ابن عمر يقول: حفظت عن النبي ﷺ عشر ركعات في اليوم والليلة. فلو كان هذا لعدّه. قال أبي: كان يقول: حَفِظْتُ ثِنْتِي عشرة ركعة. وهذا ليس بعله أصلاً، فإن ابن عمر إنما أخبر بما حفظه من فعل النبي ﷺ، لم يُخبر عن غير ذلك، فلا تنافي بين الحديثين البتة.

وأما الركعتان قبل المغرب، فإنه لم يُنقل عنه ﷺ أنه كان يصليهما، وصح عنه أنه أقر أصحابه عليهما، وكان يراهم يصلونهما، فلم يأمرهم ولم ينههم، وفي «الصحيحين» عن عبد الله المزني، عن النبي ﷺ أنه قال: «صَلُّوا قَبْلَ الْمَغْرِبِ، صَلُّوا قَبْلَ الْمَغْرِبِ». قال

يُؤْتِكُمْ، فَإِنْ أَفْضَلَ صَلَاةَ الْمَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا الْمَكْتُوبَةَ [البخاري: ٧٢٩٠، ومسلم: ١٨٥٢]. وكان هدي النبي ﷺ فعل السنن، والتطوع في البيت إلا لعارض، كما أن هديه كان فعل الفرائض في المسجد إلا لعارض من سفر، أو مرض، أو غيره مما يمنعه من المسجد، وكان تعاهده ومحافظته على سنة الفجر أشد من جميع النوافل، ولذلك لم يكن يدعها هي والوتر سفرًا وحضرًا، وكان في السفر يُواظب على سنة الفجر والوتر أشد من جميع النوافل دون سائر السنن، ولم يُنقل عنه في السفر أنه ﷺ صَلَّى سنة راتبة غيرهما، ولذلك كان ابن عمر لا يزيد على ركعتين ويقول: سافرتُ مع رسول الله ﷺ، ومع أبي بكر، وعمر رضي الله عنهما، فكانوا لا يزيدون في السفر على ركعتين. وهذا وإن احتمل أنهم لم يكونوا يربعون، إلا أنهم لم يصلوا السنة، لكن قد ثبت عن ابن عمر أنه سئل عن سنة الظهر في السفر، فقال: لو كنتُ مُسَبِّحًا لَأَتِمَمْتُ، وهذا من فقهه رضي الله عنه، فإن الله سبحانه وتعالى خَفَّفَ عن المسافر في الرباعية شطرهما، فلو شرع له الركعتان قبلها أو بعدها، لكان الإنمام أولى به.

(إنهما أكد سنة الفجر أو الوتر)

وقد اختلف الفقهاء: أي الصلاتين أكد، سنة الفجر أو الوتر؟ على قولين: ولا يمكن الترجيح باختلاف الفقهاء في وجوب الوتر، فقد اختلفوا أيضًا في وجوب سنة الفجر، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: سنة الفجر تجري مجرى بداية العمل، والوتر خاتمة. ولذلك كان النبي ﷺ يُصلي سنة الفجر والوتر بسورتي الإخلاص، وهما الجامعتان لتوحيد العلم والعمل، وتوحيد المعرفة والإرادة، وتوحيد الاعتقاد والقصد، انتهى.

(توضيح لمعنى: سورة الإخلاص)

تعديل ثلث القرآن والزلزلة نصفه والكافرون ربه)

فسورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾: متضمنة لتوحيد

أن يدخل الدار، قال أبو حفص: ووجهه قول مكحول: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ، رُفِعَتْ صَلَاتُهُ فِي عِلِّيْنِ»^(١). ولأنه يتصل النفل بالفرض، انتهى كلامه.

والسنة الثانية: أن تفعل في البيت، فقد روى النسائي، وأبو داود، والترمذي من حديث كعب بن عُجرة: أن النبي ﷺ أتى مسجد بني عبد الأشهل، فصلى فيه المغرب، فلما قَضَوْا صَلَاتَهُمْ رَأَاهُمْ يُسَبِّحُونَ بعدها فقال: «هَذِهِ صَلَاةُ الْيُتُوبِ». ورواه ابن ماجه من حديث رافع بن خديج، وقال فيها: «ارْكُؤْا هَاتَيْنِ الرَّكْعَتَيْنِ فِي يَوْمِكُمْ» [أبو داود: ١٣٠٠، والترمذي: ٦٠٤، والنسائي (١٩٨/٣)، وابن ماجه: ١١٦٥].

والمقصود، أن هدي النبي ﷺ فعل عامة السنن والتطوع في بيته. كما في الصحيح عن ابن عمر: خَفِظْتُ عن النبي ﷺ عَشْرَ رَكَعَاتٍ: ركعتين قبل الظهر، وركعتين بعدها، وركعتين بعد المغرب في بيته، وركعتين بعد العشاء في بيته، وركعتين قبل صلاة الصبح [البخاري: ١١٧٢، ومسلم: ١٦٩٨].

(لم يكن يصلي في السفر)

من السنن إلا سنتي الفجر والوتر)

وفي «صحيح مسلم» عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يُصلي في بيته أربعاً قبل الظهر، ثم يخرج فيصلي بالناس، ثم يدخل فيصلي ركعتين، وكان يُصلي بالناس المغرب، ثم يدخل فيصلي ركعتين، ويصلي بالناس العشاء، ثم يدخل بيته فيصلي ركعتين [مسلم: ١٦٩٩]. وكذلك المحفوظ عنه في سنة الفجر، إنما كان يُصلِّيها في بيته كما قالت حفصة [البخاري: ٦٢٦، ومسلم: ١٦٧٦]. وفي «الصحيحين» عن ابن عمر: أنه ﷺ كان يُصلي ركعتين بعد الجمعة في بيته [البخاري: ٩٣٧، ومسلم: ٢٠٣٩]. وسأيت الكلام على ذكر سنة الجمعة بعدها والصلاة قبلها، عند ذكر هديه في الجمعة إن شاء الله تعالى، وهو موافق لقوله ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ صَلُّوا فِي

(١) ذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢٠٥/١) في الصلاة: باب الترغيب في الصلاة بين المغرب والعشاء عن مكحول يبلغ به النبي ﷺ قال: «مَنْ صَلَّى بَعْدَ الْمَغْرِبِ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ رَكْعَتَيْنِ» وفي رواية «أربع ركعات» «رفعت صلاته في عليين» وقال: ذكره رزين ولم أره في الأصول وإسناده منقطع.

صاحبه يرتكب ما يدلله العلم على بطلانه وضرره لأجل غلبة هواه، واستيلاء سلطان الشهوة والغضب على نفسه، فجاء من التأكيد والتكرار في سورة ﴿قُلْ يَتَّابِعَا أَلْكَافِرُونَ﴾ المتضمنة لإزالة الشرك العملي، ما لم يجيء مثله في سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، ولما كان القرآن شطرين: شطراً في الدنيا وأحكامها، ومتعلقاتها، والأمور الواقعة فيها من أفعال المكلفين وغيرها، وشطراً في الآخرة وما يقع فيها، وكانت سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ قد أخلصت من أولها وآخرها لهذا الشطر، فلم يذكر فيها إلا الآخرة. وما يكون فيها من أحوال الأرض وسُكَّانها، كانت تعدل نصف القرآن، فأحرى بهذا الحديث أن يكون صحيحاً - والله أعلم - ولهذا كان يقرأ بهاتين السورتين في ركعتي الطواف، ولأنهما سورتا الإخلاص والتوحيد، كان يفتح بهما عمل النهار، ويختمه بهما^(١)، ويقرأ بهما في الحج الذي هو شعار التوحيد.

فصل

(ضجته بعد سنة الفجر على شقه الأيمن)

وكان ﷺ يضطجع بعد سنة الفجر على شقه الأيمن، هذا الذي ثبت عنه في «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها [البخاري: ١١٦٠، ومسلم: ١٧١٧]. وذكر الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عنه ﷺ أنه قال: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ الرُّكْعَتَيْنِ قَبْلَ صَلَاةِ الصُّبْحِ، فَلْيُضْطَجِعْ عَلَى جَنْبِهِ الْأَيْمَنِ» [حسن: أحمد: ٩٣٦٨، وأبو داود: ١٧٦١، والترمذي: ٤٢٠]. قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب. وسمعت ابن تيمية يقول: هذا باطل، وليس بصحيح، وإنما الصحيح عنه الفعل لا الأمر بها، والأمر تفرد به عبد الواحد بن زياد وغلط فيه، وأما ابن حزم ومن تابعه، فإنهم يوجبون هذه الضجعة، ويُبطل ابن حزم صلاة من لم يضطجعها بهذا الحديث، وهذا مما تفرد به عن الأمة، ورأيت مجلداً لبعض أصحابه قد نصر فيه هذا المذهب. وقد ذكر عبد الرزاق في «المصنف»^(٢) عن معمر، عن أيوب، عن ابن سيرين، أن أبا موسى، ورافع بن خديج،

الاعتقاد والمعرفة، وما يجب إثباته للرَّبِّ تعالى من الأَحَدِيَّةِ المنافية لمطلق المشاركة بوجه من الوجوه، والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال التي لا يلحقها نقص بوجه من الوجوه، ونفي الولد والوالد الذي هو من لوازم الصمدية، وغناه وأَحَدِيَّتِهِ ونفي الكفاء المتضمن لنفي التشبيه والتمثيل والتنظير، فتضمنت هذه السورة إثبات كل كمال له، ونفي كل نقص عنه، ونفي إثبات شبيه أو مثل له في كماله، ونفي مطلق الشريك عنه، وهذه الأصول هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي الذي يُبين صاحبه جميع فرق الضلال والشرك، ولذلك كانت تعدل ثلث القرآن، فإن القرآن مداره على الخبر والإنشاء، والإنشاء ثلاثة: أمر، ونهي، وإباحة. والخبر نوعان: خبر عن الخالق تعالى وأسمائه وصفاته وأحكامه، وخبر عن خلقه. فأخلصت سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ الخبر عنه، وعن أسمائه، وصفاته، فعدلت ثلث القرآن، وخلصت قارئها المؤمن بها من الشرك العلمي، كما خلصت سورة ﴿قُلْ يَتَّابِعَا أَلْكَافِرُونَ﴾ من الشرك العملي الإرادي القسدي. ولما كان العلم قبل العمل وهو إمامه وقائده وسائقه، والحاكم عليه ومنزله منازل، كانت سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن. والأحاديث بذلك تكاد تبلغ مبلغ التواتر، و﴿قُلْ يَتَّابِعَا أَلْكَافِرُونَ﴾، تعدل ربع القرآن، والحديث بذلك في «الترمذي» من رواية ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه: «إِذَا زُلْزِلَتْ تعدل نصف القرآن، وقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، تعدل ثلث القرآن، وقُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، تعدل ربع القرآن» [الترمذي: ٢٨٩٦]. رواه الحاكم في «المستدرک» وقال: صحيح الإسناد [الحاكم (٥٦٦/١)].

ولما كان الشرك العملي الإرادي أغلب على النفوس لأجل متابعتها هواها، وكثير منها تركبه مع علمها بمضرتها وبطلانه، لِمَا لها فيه من نيل الأغراض، وإزالتها، وقلعه منها أصعب، وأشد من قلع الشرك العلمي وإزالته، لأن هذا يزول بالعلم والحجة، ولا يمكن صاحبه أن يعلم الشيء على غير ما هو عليه، بخلاف شرك الإرادة والقصد، فإن

(١) في ركعتي الطواف رواه مسلم (٢٩٥٠)، وفي سنة الفجر رواه مسلم (١٦٩٠)، وفي الوتر أخرجه الترمذي (٤٦٢)، والنسائي (١٣٦/٣).

(٢) انظر «المصنف» (٤٢/٣)، (٤٤).

وأنس بن مالك رضي الله عنهم، كانوا يضطجعون بعد ركعتي الفجر، ويأمرون بذلك، وذكر عن معمر، عن أيوب، عن نافع، أن ابن عمر كان لا يفعله، ويقول: كفانا بالتسليم. وذكر عن ابن جريج: أخبرني من أصدق أن عائشة رضي الله عنها كانت تقول: إن النبي ﷺ لم يكن يضطجع لسنه، ولكنه كان يدأب ليله فيستريح. قال: وكان ابن عمر يحصبهم إذا رآهم يضطجعون على أيمانهم. وذكر ابن أبي شبة عن أبي الصديق الناجي، أن ابن عمر رأى قوماً اضطجعوا بعد ركعتي الفجر، فأرسل إليهم فنهاهم، فقالوا: نريد بذلك السنه، فقال ابن عمر: ارجع إليهم وأخبرهم أنها بدعة. وقال أبو مجلز: سألت ابن عمر عنها فقال: يلعبُ بكم الشيطان. قال ابن عمر رضي الله عنه: ما بال الرجل إذا صَلَّى الركعتين يفعل كما يفعل الحمار إذا تمكَّك.

وقد غلا في هذه الضجعة طائفتان، وتوسط فيها طائفة ثالثة، فأوجبها جماعة من أهل الظاهر، وأبطلوا الصلاة بتركها كابن حزم ومن وافقه، وكرهها جماعة من الفقهاء، وسموها بدعة، وتوسط فيها مالك وغيره، فلم يروا بها بأساً لمن فعلها راحة، وكرهوها لمن فعلها استئناً، واستحبها طائفة على الإطلاق، سواء استراح بها أم لا، واحتجوا بحديث أبي هريرة. والذين كرهوها، منهم من احتج بآثار الصحابة كابن عمر وغيره، حيث كان يحصبُ من فعلها، ومنهم من أنكر فعل النبي ﷺ لها، وقال: الصحيح أن اضطجاعه كان بعد الوتر، وقبل ركعتي الفجر، كما هو مصرح به في حديث ابن عباس [البخاري: ١٨٣، ومسلم: ١٧٨٩]. قال: وأما حديث عائشة، فاختلف على ابن شهاب فيه، فقال مالك عنه: فإذا فرغ يعني من قيام الليل، اضطجع على شقه الأيمن حتى يأتيه المؤذن فيصلي ركعتين خفيفتين [مسلم: ١٧١٨]، وهذا صريح أن الضجعة قبل سنة الفجر، وقال غيره عن ابن شهاب: فإذا سكث المؤذن من أذان الفجر، وتبين له الفجر، وجاءه المؤذن، قام فركع ركعتين خفيفتين، ثم اضطجع على

شقه الأيمن. قالوا: وإذا اختلف أصحاب ابن شهاب، فالقول ما قاله مالك، لأنه أثبتهم فيه وأحفظهم. وقال الآخرون: بل الصواب في هذا مع من خالف مالكا، وقال أبو بكر الخطيب: روى مالك عن الزهري، عن عروة، عن عائشة: كان رسول الله ﷺ يُصلي من الليل إحدى عشرة ركعة، يُوترُ منها بواحدة، فإذا فرغ منها، اضطجع على شقه الأيمن حتى يأتيه المؤذن، فيصلي ركعتين خفيفتين [مسلم: ١٧١٩]. وخالف مالكا، عقيل، ويونس، وشعيب، وابن أبي ذئب، والأوزاعي، وغيرهم، فرووا عن الزهري أن النبي ﷺ كان يركع الركعتين للفجر، ثم يضطجع على شقه الأيمن حتى يأتيه المؤذن، فيخرج معه. فذكر مالك أن اضطجاعه كان قبل ركعتي الفجر. وفي حديث الجماعة، أنه اضطجع بعدهما، فعلم العلماء أن مالكا أخطأ وأصاب غيره، انتهى كلامه^(١).

وقال أبو طالب: قلتُ لأحمد: حدثنا أبو الصلت، عن أبي كُذينة، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: أنه اضطجع بعد ركعتي الفجر، قال: شعبة لا يرفعه، قلتُ: فإن لم يضطجع عليه شيء؟ قال: لا، عائشة ترويه وابن عمر ينكروه. قال الخلال: وأنبأنا المروزي أن أبا عبد الله قال: حديثُ أبي هريرة ليس بذلك. قلت: إن الأعمش يُحدث به عن أبي صالح، عن أبي هريرة. قال: عبد الواحد وحده يُحدث به. وقال إبراهيم بن الحارث: إن أبا عبد الله سئل عن الاضطجاع بعد ركعتي الفجر قال: ما أفعله، وإن فعله رجل، فحسن. انتهى. فلو كان حديث عبد الواحد بن زياد، عن الأعمش، عن أبي صالح صحيحاً عنده، لكان أقلُّ درجاته عنده الاستحباب، وقد يُقال: إن عائشة رضي الله عنها روت هذا، وروت هذا، فكان يفعل هذا تارة، وهذا تارة، فليس في ذلك خلاف، فإنه من المباح، والله أعلم.

(١) قال الحافظ في «الفتح» (٣/٣٦): وأما ما رواه مسلم من طريق مالك عن الزهري عن عروة، عن عائشة: أنه ﷺ اضطجع بعد الوتر. فقد خالفه أصحاب الزهري عن عروة فذكروا الاضطجاع بعد الفجر وهو المحفوظ، ولم يصب من احتج به على ترك استحباب الاضطجاع.

خاصة، والناس جميعاً يعملون ما سوى المكتوبة
لذنوبهم في كفارتها [ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٩٦/٤)]
وزاد نسبه لابن جرير (١٤٣/١٥).

حدثنا محمد بن نصر، حدثنا عبد الله، حدثنا
عمرو، عن سعيد وقبيصة، عن سفيان، عن أبي
عثمان، عن الحسن في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ
فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]. قال: لا تكون
نافلة الليل إلا للنبي ﷺ [ذكره السيوطي في «الدر المنثور»
(١٩٦/٤)]. وذكر عن الضحاك قال: نافلة للنبي ﷺ
خاصة.

وذكر سليم بن حيان، حدثنا أبو غالب، حدثنا أبو
أمامة، قال: إذا وضعت الطهور مواضعه، قمت
مغفوراً لك، فإن قمت تصلي، كانت لك فضيلة
وأجر، فقال رجل: يا أبا أمامة، أرايت إن قام يصلي
تكون له نافلة؟ قال: لا، إنما النافلة للنبي ﷺ،
فكيف يكون له نافلة، وهو يسعى في الذنوب
والخطايا؟! تكون له فضيلة وأجر [حسن: أحمد:
٢٢١٩٦]. قلت: والمقصود أن النافلة في الآية، لم
يُرد بها ما يجوز فعله وتركه، كالمستحب،
والمندوب، وإنما المراد بها الزيادة في الدرجات،
وهذا قدر مشترك بين الفرض والمستحب، فلا يكون
قوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ نافياً لما دلَّ عليه الأمر من
الوجوب، وسيأتي مزيد بيان لهذه المسألة إن شاء الله
تعالى، عند ذكر خصائص النبي ﷺ.

(منابرته عليه سفرأ وحضراً)

ولم يكن ﷺ يدع قيام الليل حضراً ولا سفرأ،
وكان إذا غلبه نوم أو وجع، صلى من النهار اثنتي
عشرة ركعة. فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول:
في هذا دليل على أن الوتر لا يُقضى لفوات محله،
فهو كتحية المسجد، وصلاة الكسوف والاستسقاء
ونحوها، لأن المقصود به أن يكون آخر صلاة الليل
وترأ، كما أن المغرب آخر صلاة النهار، فإذا انقضى
الليل وصليت الصبح، لم يقع الوتر موقعه. هذا معنى
كلامه. وقد روى أبو داود، وابن ماجه من حديث
أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ نَامَ عَنِ
الْوُتْرِ أَوْ نَسِيَهُ، فَلْيَصِلْهُ إِذَا أَصْبَحَ أَوْ ذَكَرَ» [صحح:
أحمد: ١١٢٦٤، وأبو داود: ١٤٣١، والترمذي: ٤٦٥، وابن

وفي اضطجاعه على شقه الأيمن سر، وهو أن
القلب معلق في الجانب الأيسر، فإذا نام الرجل على
الجانب الأيسر، استثقل نوماً، لأنه يكون في دعة
واستراحة، فيثقل نومه، فإذا نام على شقه الأيمن،
فإنه يقلق ولا يستغرق في النوم، لقلق القلب، وطلبه
مستقره، وميله إليه، ولهذا استحَب الأطباء النوم على
الجانب الأيسر لكمال الراحة وطيب المنام،
وصاحب الشرع يستحب النوم على الجانب الأيمن،
لثلاث ثقل نومه فينام عن قيام الليل، فالنوم على
الجانب الأيمن أنفع للقلب، وعلى الجانب الأيسر
أنفع للبدن، والله أعلم.

فصل

في هديه ﷺ في قيام الليل

(هل كان قيام الليل عليه فرضاً؟)

قد اختلف السلف والخلف في أنه: هل كان فرضاً
عليه أم لا؟ والطائفتان احتجوا بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ
فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]. قالوا: فهذا
صريح في عدم الوجوب، قال الآخرون: أمره بالتهجد
في هذه السورة، كما أمره في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ
﴿١﴾ قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ٢، ١]. ولم يجيء ما
ينسخه عنه، وأما قوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾. فلو كان
المراد به التطوع، لم يخصه بكونه نافلة له، وإنما
المراد بالنافلة الزيادة، ومطلق الزيادة لا يدل على
التطوع، قال تعالى: ﴿وَوَعَدْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾
[الأنبياء: ٧٢]، أي زيادة على الولد، وكذلك النافلة في
تهجد النبي ﷺ زيادة في درجاته، وفي أجره ولهذا
خصه بها، فإن قيام الليل في حق غيره مباح، ومكفر
للسيئات، وأما النبي ﷺ، فقد غفر الله له ما تقدم من
ذنبه وما تأخر، فهو يعمل في زيادة الدرجات وعلو
المراتب، وغيره يعمل في التكفير. قال مجاهد: إنما
كان نافلة للنبي ﷺ، لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما
تأخر، فكانت طاعته نافلة، أي: زيادة في الثواب،
ولغيره كفارة لذنوبه. قال ابن المنذر في تفسيره: حدثنا
يعلى بن أبي عبيد، حدثنا الحجاج، عن ابن جريج،
عن عبد الله بن كثير، عن مجاهد قال: ما سوى
المكتوبة، فهو نافلة من أجل أنه لا يعمل في كفارة
الذنوب، وليست للناس نوافل، إنما هي للنبي ﷺ

ماجه: ١١٨٨]. ولكن لهذا الحديث عدة علل .

أحدها : أنه من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف .

الثاني : أن الصحيح فيه أنه مرسل له عن أبيه ، عن النبي ﷺ ، قال الترمذي : هذا أصح ، يعني المرسل [الترمذي : ٤٦٦] .

الثالث : أن ابن ماجه حكى عن محمد بن يحيى بعد أن روى حديث أبي سعيد : الصحيح أن النبي ﷺ قال : «أَوْزِرُوا قَبْلَ أَنْ تُصْبِحُوا» [مسلم : ١٧٦٤] . قال : فهذا الحديث دليل على أن حديث عبد الرحمن واه .

(عدد ركعاته في القيام)

وكان قيامه ﷺ بالليل إحدى عشرة ركعة ، أو ثلاث عشرة ، كما قال ابن عباس وعائشة ، فإنه ثبت عنهما هذا وهذا ، ففي «الصحيحين» عنها : ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة [البخاري : ١١٤٧ ، ومسلم : ١٧٢٣] . وفي «الصحيحين» عنها أيضاً : كان رسول الله ﷺ يُصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة ، يُوتر من ذلك بخمس ، لا يجلس في شيء إلا في آخرهن [البخاري : ١١٤٠ ، ومسلم : ١٧٢٠] . والصحيح عن عائشة الأولى : والركعتان فوق الإحدى عشرة هما ركعتا الفجر ، جاء ذلك مبيناً عنها في هذا الحديث بعينه ، كان رسول الله ﷺ يُصلي ثلاث عشرة ركعة بركعتي الفجر ، ذكره مسلم في «صحيحه» [البخاري : ١١٤٠ ، ومسلم : ١٧٢٠] . وقال البخاري في هذا الحديث : كان رسول الله ﷺ يُصلي بالليل ثلاث عشرة ركعة ، ثم يُصلي إذا سمع النداء بالفجر ركعتين خفيفتين [البخاري : ١١٧٠] . وفي «الصحيحين» عن القاسم بن محمد قال : سمعتُ عائشة رضي الله عنها تقول : كانت صلاة رسول الله ﷺ من الليل عشر ركعات ، ويُوتر بسجدة ، ويركع ركعتي الفجر ، وذلك ثلاث عشرة ركعة [مسلم : ١٧٢٧] ، فهذا مفسر مبين .

وأما ابن عباس ، فقد اختلف عليه ، ففي «الصحيحين» عن أبي جمرة عنه : كانت صلاة رسول الله ﷺ ثلاث عشرة ركعة يعني بالليل [البخاري : ١١٣٨ ، ومسلم : ١٨٠٣] . لكن قد جاء عنه هذا مفسراً أنها بركعتي الفجر . قال الشعبي : سألتُ عبد الله بن

عباس ، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، عن صلاة رسول الله ﷺ بالليل ، فقالا : ثلاث عشرة ركعة ، منها ثمان ، ويُوتر بثلاث ، وركعتين قبل صلاة الفجر . وفي «الصحيحين» عن كُريب عنه ، في قصة مبيته عند خالته ميمونة بنت الحارث : أنه ﷺ صَلَّى ثلاث عشرة ركعة ، ثم نام حتى نفخ ، فلما تبين له الفجر ، صَلَّى ركعتين خفيفتين . وفي لفظ : فصلَّى ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم أوتر ، ثم ركعتين ثم اضطجع حتى جاءه المؤذن . فقام فصلَّى ركعتين خفيفتين ، ثم خرج يُصلي الصبح [البخاري : ١١٩٨ ، ومسلم : ١٧٨٩] . فقد حصل الاتفاق على إحدى عشرة ركعة .

(مجموع الركعات التي كان يحافظ

عليها أربعون ركعة وتدخل فيها ركعات الفريضة)

واختلف في الركعتين الأخيرتين : هل هما ركعتا الفجر أو هما غيرهما ؟ فإذا انضاف ذلك إلى عدد ركعات الفرض والسنن الراتبية التي كان يحافظ عليها ، جاء مجموع ورده الراتب بالليل والنهار أربعين ركعة ، كان يحافظ عليها دائماً سبعة عشر فرضاً ، وعشر ركعات ، أو ثنتا عشرة سنة راتبة ، وإحدى عشرة ، أو ثلاث عشرة ركعة قيامه بالليل ، والمجموع أربعون ركعة ، وما زاد على ذلك ، فعارض غير راتب ، كصلاة الفتح ثمان ركعات [البخاري : ٤٢٩٢ ، ومسلم : ١١٠٨] ، وصلاة الضحى إذا قَدِمَ من سفر ، وصلاته عند من يزوره ، وتحية المسجد ونحو ذلك ، فينبغي للعبد أن يواظب على هذا الورد دائماً إلى الممات ، فما أسرع الإجابة وأعجل فتح الباب لمن يقرؤه كل يوم وليلة أربعين مرة . والله المستعان .

فصل

في سياق صلاته ﷺ بالليل ووتره
وذكر صلاة أول الليل

قالت عائشة رضي الله عنها : ما صَلَّى رسول الله ﷺ العشاء قطّ فدخل علي ، إلا صَلَّى أربع ركعات ، أو ست ركعات [أبو داود : ١٣٠٣] ، ثم يأوي إلى فراشه .

وقال ابن عباس لما بات عنده: صَلَّى العشاء، ثم جاء، ثُمَّ صَلَّى، ثم نام [أبو داود: ١٣٥٧]. ذكرهما أبو داود. وكان إذا استيقظ، بدأ بالسواك، ثم يذكر الله تعالى، وقد تقدم ذكر ما كان يقوله عند استيقاظه، ثم يتطهر، ثم يُصلي ركعتين خفيفتين، كما في «صحيح مسلم»، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل، افتتح صلاته بركعتين خفيفتين [مسلم: ١٨٠٦]. وأمر بذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إذا قام أحدكم من الليل، فليفتتح صلاته بركعتين خفيفتين». رواه مسلم [مسلم: ١٨٠٧]. وكان يقوم تارة إذا انتصف الليل، أو قبله بقليل، أو بعده بقليل، وربما كان يقوم إذا سمع الصارخ وهو الديك وهو إنما يصيح في النصف الثاني، وكان يقطع ورده تارة، ويصله تارة وهو الأكثر، ويقطعه كما قال ابن عباس في حديث مبيته عنده، أنه ﷺ استيقظ، فتسوّك، وتوضأ، وهو يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]. فقرأ هؤلاء الآيات حتى ختم السورة، ثم قام فصلى ركعتين أطال فيهما القيام والركوع والسجود، ثم انصرف، فنام حتى نفخ، ثم فعل ذلك ثلاث مرات بست ركعات، كل ذلك يستاك ويتوضأ، ويقرأ هؤلاء الآيات، ثم أوتر بثلاث، فأذن المؤذن، فخرج إلى الصلاة وهو يقول: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي لِسَانِي نُورًا، وَاجْعَلْ فِي سَمْعِي نُورًا، وَاجْعَلْ فِي بَصَرِي نُورًا، وَاجْعَلْ مِنْ خَلْقِي نُورًا، وَمِنْ أَمَامِي نُورًا، وَاجْعَلْ مِنْ قَوْمي نُورًا، وَمِنْ تَحْتِي نُورًا، اللَّهُمَّ أَعْظِني نُورًا». رواه مسلم [مسلم: ١٧٨٨]. ولم يذكر ابن عباس افتتاحه بركعتين خفيفتين كما ذكرته عائشة، فإما أنه كان يفعل هذا تارة، وهذا تارة، وإما أن تكون عائشة حفظت ما لم يحفظ ابن عباس، وهو الأظهر لملازمتها له، ولمراتها ذلك، ولكونها أعلم الخلق بقيامه بالليل، وابن عباس إنما شاهده ليلة المبيت عند خالته، وإذا اختلف ابن عباس وعائشة في شيء من أمر قيامه بالليل، فالقول ما قالت عائشة.

(أنواع صلاة القيام)

وكان قيامه بالليل ووتره أنواعاً، فمنها هذا الذي ذكره ابن عباس.

النوع الثاني: الذي ذكرته عائشة، أنه كان يفتح صلاته بركعتين خفيفتين، ثم يتمم ورده إحدى عشرة ركعة، يُسلم من كل ركعتين ويوتر بركعة.

النوع الثالث: ثلاث عشرة ركعة كذلك.

النوع الرابع: يُصلي ثمان ركعات، يُسلم من كل ركعتين، ثم يوتر بخمس سرداً متوالية، لا يجلس في شيء إلا في آخرهن [مسلم: ١٧٢٠].

النوع الخامس: تسع ركعات، يسرد منهن ثمانياً لا يجلس في شيء منهن إلا في الثامنة، يجلس يذكر الله تعالى ويحمده ويدعوه، ثم ينهض ولا يُسلم، ثم يُصلي التاسعة، ثم يقعد، ويتشهد، ويُسلم، ثم يُصلي ركعتين جالساً بعدما يسلم [مسلم: ١٧٣٩].

النوع السادس: يُصلي سبعا كالتسع المذكورة، ثم يُصلي بعدها ركعتين جالساً.

النوع السابع: أنه كان يُصلي مثنى مثنى، ثم يوتر بثلاث لا يفصل بينهما. فهذا رواه الإمام أحمد رحمه الله عن عائشة، أنه كان يوتر بثلاث لا فصل فيهن [أحمد: ٢٥٢٢٣]. وروى النسائي عنها: كان لا يُسلم في ركعتي الوتر [صحيح: النسائي (٣/٢٣٤)]. وهذه الصفة فيها نظر، فقد روى أبو حاتم بن حبان في «صحيحه» عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «لا تُؤثروا بثلاث، أو ثُوروا بخمس أو سبع، ولا تشبهوا بِصَلَاةِ الْمَغْرِبِ» [صحيح: ابن حبان: ٦٨٠، والدارقطني (٢/٢٤)، والطحاوي (١٧٢)، والحاكم (١/٣٠٤)، والبيهقي (٣/٣١)]. قال الدارقطني: رواه كلهم ثقات، قال منها: سألت أبا عبد الله: إلى أي شيء تذهب في الوتر، تُسلم في الركعتين؟ قال: نعم. قلت: لأي شيء؟ قال: لأن الأحاديث فيه أقوى وأكثر عن النبي ﷺ في الركعتين. الزهري، عن عروة، عن عائشة، أن النبي ﷺ، سلم من الركعتين [مسلم: ١٧١٨]. وقال حرب: سئل أحمد عن الوتر؟ قال: يُسلم في الركعتين. وإن لم يسلم، رجوت ألا يضره، إلا أن التسليم أثبت عن النبي ﷺ، وقال أبو طالب: سألت أبا عبد الله: إلى أي حديث تذهب في الوتر؟ قال: أذهب إليها كلها: مَنْ صَلَّى خَمْساً لا يجلس إلا في آخرهن، ومن صَلَّى سبعا لا يجلس إلا في آخرهن، وقد روي في حديث زبارة عن عائشة: يوتر بتسع

يجلس في الثامنة [مسلم: ١٧٣٩]. قال: ولكن أكثر الحديث وأقواه ركعة، فأنا أذهب إليها. قلت: ابن مسعود يقول: ثلاث، قال: نعم، قد عاب على سعد ركعة، فقال له سعد أيضاً شيئاً يرد عليه.

النوع الثامن: ما رواه النسائي، عن حذيفة، أنه صلى مع النبي ﷺ في رمضان، فركع، فقال في ركوعه: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ» مثل ما كان قائماً، ثم جلس يقول: «رَبِّ اغْفِرْ لِي، رَبِّ اغْفِرْ لِي» مثل ما كان قائماً. ثم سجد، فقال: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى» مثل ما كان قائماً، فما صلى إلا أربع ركعات حتى جاء بلال يدعوه إلى الغداة [النسائي (٢٢٦/٣)]، وأوتر أول الليل، ووسطه، وآخره. وقام ليلة تامة بآية يتلوها ويرددها حتى الصباح وهي: ﴿إِنْ تَدْرُسْهُمْ فَلَئِنْ عَادُوا﴾ [المائدة: ١١٨] [صحيح: أحمد: ٢١٣٨٨، والنسائي (١٧٧/٢)].

وكانت صلاته بالليل ثلاثة أنواع:

أحدها: وهو أكثرها: صلاته قائماً.

الثاني: أنه كان يصلي قاعداً، ويركع قاعداً.

الثالث: أنه كان يقرأ قاعداً، فإذا بقي يسيراً من قراءته، قام فركع قائماً، والأنواع الثلاثة صحت عنه.

وأما صفة جلوسه في محل القيام، ففي «سنن النسائي»، عن عبد الله بن شقيق، عن عائشة قالت: رأيْتُ رسول الله ﷺ يصلي متربّعاً [النسائي (٢٢٤/٣)] قال النسائي: لا أعلم أحداً روى هذا الحديث غير أبي دود، يعني الحفري، وأبو داود ثقة، ولا أحسب إلا أن هذا الحديث خطأ والله أعلم.

فصل

(الركعتان بعد الوتر)

وقد ثبت عنه ﷺ أنه كان يصلي بعد الوتر ركعتين جالساً تارة، وتارة يقرأ فيهما جالساً، فإذا أراد أن يركع، قام فركع، وفي «صحيح مسلم» عن أبي سلمة قال: سألت عائشة رضي الله عنها عن صلاة رسول الله ﷺ، فقالت: كان يصلي ثلاث عشرة ركعة، يصلي ثمان ركعات، ثم يؤتر، ثم يصلي ركعتين وهو جالس، فإذا أراد أن يركع، قام فركع، ثم يصلي ركعتين بين النداء والإقامة بين صلاة الصبح [مسلم: ١٧٢٤]. وفي «المسند» عن أم سلمة، أن

النبي ﷺ، كان يصلي بعد الوتر ركعتين خفيفتين وهو جالس [صحيح: أحمد: ٢٦٥٥٣]. وقال الترمذي: روي نحوه هذا عن عائشة، وأبي أمامة، وغير واحد عن النبي ﷺ.

وفي «المسند» عن أبي أمامة، أن رسول الله ﷺ، كان يصلي ركعتين بعد الوتر وهو جالس، يقرأ فيهما بـ ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [حسن: أحمد: ٢٢٢٤٦].

وروى الدارقطني نحوه من حديث أنس رضي الله عنه [الدارقطني (٤١/٢)]، وانظر «نصب الراية» (١٣٧/٢).

وقد أشكل هذا على كثير من الناس، فظنوه معارضاً، لقوله ﷺ: «اجْعَلُوا آخِرَ صَلَاتِكُمْ بِاللَّيْلِ وَثَرَاءً» [البخاري: ٩٩٨، ومسلم: ١٧٥٥]. وأنكر مالك رحمه الله هاتين الركعتين، وقال أحمد: لا أفعله ولا أمتنع من فعله، قال: وأنكره مالك وقالت طائفة: إنما فعل هاتين الركعتين، ليعين جواز الصلاة بعد الوتر، وأن فعله لا يقطع التنفل، وحملوا قوله: «اجْعَلُوا آخِرَ صَلَاتِكُمْ بِاللَّيْلِ وَثَرَاءً» على الاستحباب، وصلاة الركعتين بعده على الجواز.

والصواب: أن يقال: إن هاتين الركعتين تجريان مجرى السنة، وتكمل الوتر، فإن الوتر عبادة مستقلة، ولا سيما إن قيل بوجوبه، فتجري الركعتان بعده مجرى سنة المغرب من المغرب، فإنها وتر النهار، والركعتان بعدها تكميل لها، فكذلك الركعتان بعد وتر الليل، والله أعلم.

فصل

(قنوت الوتر)

ولم يحفظ عنه ﷺ أنه قنت في الوتر، إلا في حديث رواه ابن ماجه، عن علي بن ميمون الرقي، حدثنا مخلد بن يزيد، عن سفيان، عن زبيد البامي، عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزي، عن أبيه، عن أبي بن كعب، أن رسول الله ﷺ كان يؤتر فيقنت قبل الركوع [حسن: النسائي (٢٣٥/٢)]، وابن ماجه: ١١٨٢. وقال أحمد في رواية ابنه عبد الله: أختار القنوت بعد الركوع، إن كل شيء ثبت عن النبي ﷺ في القنوت، إنما هو في الفجر لما رفع رأسه من الركوع، وقنوت الوتر أختاره بعد الركوع، ولم يصح عن النبي ﷺ في

الرَّحِيمِ (٢٠)، وَيَقُفُّ: (مَنْ لِكَ يَوْمَ الْآزِمَةِ) [صحيح: أحمد: ٢٦٥٨٣، وأبو داود: ٤٠٠١، والترمذي: ٢٩٢٨].

وذكر الزهري أن قراءة رسول الله ﷺ كانت آية آية، وهذا هو الأفضل، الوقوف على رؤوس الآيات وإن تعلقت بما بعدها، وذهب بعض القراء إلى تتبع الأغراض والمقاصد، والوقوف عند انتهائها، واتباع هدي النبي ﷺ وسنته أولى. وممن ذكر ذلك البيهقي في «شعب الإيمان» وغيره، ورجح الوقوف على رؤوس الآي وإن تعلقت بما بعدها.

وكان ﷺ يُرْتَلُ السورة حتى تكون أطول من أظول منها، وقام بآية يُرَدِّدُهَا حتى الصباح [صحيح: أحمد: ٢٩٣٢٨].

(هل الأفضل الترتيل)

مع قلة القراءة أو السرعة مع كثرتها؟

وقد اختلف الناس في الأفضل من الترتيل وقلة القراءة، أو السرعة مع كثرة القراءة: أيهما أفضل؟ على قولين.

فذهب ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما وغيرهما إلى أن الترتيل والتدبر مع قلة القراءة أفضل من سرعة القراءة مع كثرتها. واحتج أرباب هذا القول بأن المقصود من القراءة فهمه وتدبره، والفقهُ فيه والعملُ به، وتلاوته وحفظه وسيلة إلى معانيه، كما قال بعض السلف: نزل القرآن ليعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً، ولهذا كان أهل القرآن هم العالمون به، والعاملون بما فيه، وإن لم يحفظوه عن ظهر قلب. وأما من حفظه ولم يفهمه ولم يعمل بما فيه، فليس من أهله وإن أقام حروفه إقامة السهم.

قالوا: ولأن الإيمان أفضل الأعمال، وفهم القرآن وتدبره هو الذي يُثمر الإيمان، وأما مجرد التلاوة من غير فهم ولا تدبر، فيفعلها البر والفاجر، والمؤمن والمنافق، كما قال النبي ﷺ: «وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يقرأُ الْقُرْآنَ، كَمَثَلِ الرِّيحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ، وَطَعْمُهَا مُرٌّ» [البخاري: ٥٠٥٩، ومسلم: ١٨٦٠].

والناس في هذا أربع طبقات: أهل القرآن

والإيمان، وهم أفضل الناس. والثانية: من عديم القرآن والإيمان. الثالثة: من أوتي قرآنًا، ولم يؤت إيمانًا، الرابعة: من أوتي إيمانًا ولم يؤت قرآنًا.

قالوا: فكما أن من أوتي إيمانًا بلا قرآن أفضل ممن أوتي قرآنًا بلا إيمان، فكذلك من أوتي تدبرًا، وفهمًا في التلاوة أفضل ممن أوتي كثرة قراءة وسرعتها بلا تدبر. قالوا: وهذا هدي النبي ﷺ، فإنه كان يَرْتَلُ السورة حتى تكون أطول من أطول منها، وقام بآية حتى الصباح.

وقال أصحاب الشافعي رحمه الله: كثرة القراءة أفضل، واحتجوا بحديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِمِثْلِ أَمْتَالِهَا، لَا أُقُولُ الْم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَا م حَرْفٌ، وَمِمْ حَرْفٌ». رواه الترمذي. وصححه [الترمذي: ٢٩١٢].

قالوا: ولأن عثمان بن عفان قرأ القرآن في ركعة، وذكروا آثارًا عن كثير من السلف في كثرة القراءة.

والصواب في المسألة أن يُقال: إن ثواب قراءة الترتيل والتدبر أجل وأرفع قدرًا، وثواب كثرة القراءة أكثر عددًا، فالأول: كمن تصدق بجوهر عظيم، أو أعتق عبدًا قيمته نفيسة جدًّا، والثاني: كمن تصدق بعدد كثير من الدراهم، أو أعتق عددًا من العبيد قيمتهم رخيصة، وفي «صحيح البخاري» عن قتادة قال: سألت أنسًا عن قراءة النبي ﷺ، فقال: كان يمدُّ مدًّا [البخاري: ٥٠٤٥].

وقال شعبة: حدثنا أبو جمرة، قال: قلت لابن عباس: إني رجل سريع القراءة، وربما قرأت القرآن في ليلة مرة أو مرتين، فقال ابن عباس: لأن أقرأ سورة واحدة أعجب إليَّ من أن أفعل ذلك الذي تفعل، فإن كنت فاعلاً ولا بد، فافقرأ قراءة تُسمعُ أذنك، ويعيها قلبك.

وقال إبراهيم: قرأ علقمة على ابن مسعود، وكان حسن الصوت، فقال: رتل فذاك أبي وأمي، فإنه زين القرآن.

وقال ابن مسعود: لَا تَهْذُوا^(١) الْقُرْآنَ هَذَا الشَّعْرُ،

(١) الهذ: سرعة القراءة بغير تأمل، وقوله: نثر الدقل، أي: كما يتساقط الرطب الرديء اليابس من العذق إذا هُزَّ.

وَلَا تَنْتَرُوهُ نَتْرَ الدَّقْلَ، وَفَقُّوا عِنْدَ عَجَائِهِ، وَحَرَّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، وَلَا يَكُنْ هُمْ أَحَدُكُمْ آخِرَ السُّورَةِ.

وقال عبد الله أيضاً: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فاصبح لها سمعك، فإنه خير تؤمر به، أو شر تُصرف عنه.

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى: دخلت علي امرأة وأنا أقرأ (سورة هود) فقالت: يا عبد الرحمن: هكذا تقرأ سورة هود؟! والله إني فيها منذ ستة أشهر وما فرغت من قراءتها.

وكان رسول الله ﷺ يُسرُّ بالقراءة في صلاة الليل تارة، ويجهر بها تارة، ويُطيل القيام تارة، ويخفقه تارة، ويوتر آخر الليل - وهو الأكثر - وأوله تارة، وأوسطه تارة.

(صلاة التطوع على الراحلة)

وكان يُصلي التطوع بالليل والنهار على راحلته في السفر قِبَلَ أي جهة توجهت به، فيركع ويسجد عليها إيماءً، ويجعل سجوده أخفض من ركوعه، وقد روى أحمد وأبو داود عن أنس بن مالك، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يُصلي على راحلته تطوعاً، استقبل القبلة، فكبر للصلاة، ثم خلى عن راحلته، ثم صلى أينما توجهت به [صحیح: أحمد: ١٣١٠٩، وأبو داود: ١٢٢٥]. فاختلف الرواة عن أحمد: هل يلزمه أن يفعل ذلك إذا قدر عليه؟ على روايتين: فإن أمكنه الاستدارة إلى القبلة في صلاته كلها مثل أن يكون في مخيل أو عمارية ونحوها، فهل يلزمه، أو يجوز له أن يُصلي حيث توجهت به الراحلة؟ فروى محمد بن الحكم عن أحمد فيمن صلى في مخيل، أنه لا يجزئه إلا أن يستقبل القبلة، لأنه يمكنه أن يدور، وصاحب الراحلة والداية لا يمكنه. وروى عنه أبو طالب أنه قال: الاستدارة في المخيل شديدة يُصلي حيث كان وجهه. واختلفت الرواية عنه في السجود في المخيل، فروى عنه ابنه عبد الله أنه قال: وإن كان مخيلاً فقدّر أن يسجد في المخيل، فيسجد. وروى عنه الميموني، إذا صلى في المخيل أحب إليّ أن يسجد، لأنه يمكنه. وروى عنه الفضل بن زياد: يسجد في المخيل إذا أمكنه. وروى عنه جعفر بن محمد: السجود على المرفقة إذا كان في المخيل،

وربما أسند على البعير، ولكن يؤمىء ويجعل السجود أخفض من الركوع، وكذا روى عنه أبو داود [١٢٢٧].

فصل

في هديه ﷺ في صلاة الضحى

(من روى ترك النبي ﷺ فعلها)

روى البخاري في «صحيحه» عن عائشة رضي الله عنها، قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ يُصلي سُبحَةً الضحى، وإنني لأُسبِّحها [البخاري: ١١٧٧، ومسلم: ١٦٦٢]. وروى أيضاً من حديث مُورِقِ العجلي، قلت لابن عمر: أتُصلي الضحى؟ قال: لا، قلت: فَعُمَرُ؟ قال: لا، قلت: فأبو بكر؟ قال: لا. قلت: فالنبي ﷺ؟ قال: لا. إخاله [البخاري: ١١٧٥].

وذكر عن ابن أبي ليلى قال: ما حدثنا أحد أنه رأى النبي ﷺ يُصلي الضحى غير أم هانئ، فإنها قالت: إن النبي ﷺ دخل بيتها يوم فتح مكة، فاغتسل، وصلى ثمان ركعات، فلم أر صلاة قط أخف منها، غير أنه يُتم الركوع والسجود [البخاري: ١١٧٦، ومسلم: ١٦٦٧].

وفي «صحيح مسلم»، عن عبد الله بن شقيق قال: سألت عائشة هل كان رسول الله ﷺ يُصلي الضحى؟ قالت: لا إلا أن يجيء من مغيبه.

قلت: هل كان رسول الله ﷺ يقرئ بين السور؟ قالت: من المفصل [مسلم: ١٦٦٠].

(من روى صلاة النبي لها وعند ركعاتها)

وفي «صحيح مسلم» عن عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ يُصلي الضحى أربعاً، ويزيد ما شاء الله [مسلم: ١٦٦٣]. وفي «الصحيحين» عن أم هانئ: أن رسول الله ﷺ صلى يوم الفتح ثمان ركعات وذلك ضحى [مسلم: ١٦٦٧].

وقال الحاكم في «المستدرک»: حدثنا الأصم، حدثنا الصغاني، حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا بكر بن مضر، حدثنا عمرو بن الحارث، عن بكر بن الأشج، عن الضحاك بن عبد الله، عن أنس رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ صلى في سفر سُبحَةً الضحى، صلى ثمان ركعات، فلما انصرف، قال: «إِنِّي صَلَّيْتُ صَلَاةَ رَغَبٍ وَرَهْبٍ، فَسَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا،

فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ، وَمَنْعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُهُ أَلَا يَقْتُلُ أُمَّتِي
بِالسَّيْنِ فَقَعَلَ، وَسَأَلْتُهُ أَلَا يُظْهِرَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا، فَقَعَلَ،
وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُلْسِمَهُمْ شَيْعًا فَأَبَى عَلَيَّ. قال الحاكم
صحيح [صحيح لغيره: أحمد: ١٢٤٨٦، والحاكم (١/٣١٤)].
قلت: الضحاك بن عبد الله هذا يُنظر من هو وما
حاله؟

وقال الحاكم: في كتاب «فضل الضحى»: حدثنا
أبو بكر الفقيه، أخبرنا بشر بن يحيى، حدثنا
محمد بن صالح الدولابي، حدثنا خالد بن
عبد الله بن الحصين، عن هلال بن يساف، عن
زاذان، عن عائشة رضي الله عنها قالت: صَلَّى
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الضحى، ثم قال: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي،
وَارْحَمْنِي، وَثَبِّ عَلَىَّ إِنَّكَ أَنْتَ الثَّوَابُ الرَّحِيمُ
الْعَفُورُ». حتى قالها مئة مرة^(١).

حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا أسد بن عاصم،
حدثنا الحصين بن حفص، عن سُفْيَانَ، عن عمر بن
ذَرٍّ، عن مجاهد، أن رسول الله ﷺ، صَلَّى الضحى
ركعتين، وأربعاً، وستاً وثمانياً^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني
هاشم، حدثنا عثمان بن عبد الملك العمري، حدثنا
عائشة بنت سعد، عن أم ذرة، قالت: رأيتُ عائشة
رضي الله عنها تُصَلِّي الضحى وتقول: ما رأيتُ
رسول الله ﷺ يُصَلِّي إِلَّا أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ [ضعيف: أحمد:
٢٤٧٤٥].

وقال الحاكم أيضاً: أخبرنا أبو أحمد بكر بن
محمد المروزي، حدثنا أبو قلابة، حدثنا أبو الوليد،
حدثنا أبو عوانة، عن حصين بن عبد الرحمن، عن
عمرو بن مرة، عن عمارة بن عمير، عن ابن جبير بن
مطعم، عن أبيه أنه رأى رسول الله ﷺ يصلي صلاة
الضحى [ذكره الهيثمي في «المجمع» (٢/٢٣٨)، ونسبه للطبراني
وقال: إسناده حسن].

قال الحاكم أيضاً: حدثنا إسماعيل بن محمد،
حدثنا محمد بن عدي بن كامل، حدثنا وهب بن بقية
الواسطي، حدثنا خالد بن عبد الله، عن محمد بن
قيس، عن جابر بن عبد الله، أن النبي ﷺ صلى
الضحى ست ركعات^(٣).

ثم روى الحاكم عن إسحاق بن بشير المحاملي،
حدثنا عيسى بن موسى، عن جابر، عن عمر بن
صبح، عن مقاتل بن حيان، عن مسلم بن صبيح، عن
مسروق، عن عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما،
قالتا: كان رسول الله ﷺ يُصَلِّي صلاة الضحى
ثنتي عشرة ركعة، وذكر حديثاً طويلاً^(٤).

وقال الحاكم: أخبرنا أبو أحمد بن محمد
الصيرفي، حدثنا أبو قلابة الرقاشي، حدثنا أبو
الوليد، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق، عن عاصم بن
ضُمرة، عن علي رضي الله عنه، أن النبي ﷺ، كان
يُصَلِّي الضحى^(٥).

وبه إلى أبي الوليد. حدثنا أبو عوانة، عن
حصين بن عبد الرحمن، عن عمرو بن مرة، عن
عمار بن عمير العبدي، عن ابن جبير بن مطعم، عن
أبيه: أنه رأى رسول الله ﷺ يُصَلِّي الضحى [الهيثمي في
«المجمع» (٢/٢٣٨)، وسنده حسن].

قال الحاكم: وفي الباب عن أبي سعيد الخدري،
وأبي ذر الغفاري، وزيد بن أرقم، وأبي هريرة،
وبريدة الأسلمي، وأبي الدرداء، وعبد الله بن أبي
أوفى، وعُتْبَانُ بن مالك، وأنس بن مالك، وعُتْبَةُ بن
عبد الله السلمي، ونعيم بن همار الغطفاني، وأبي
أمامة الباهلي رضي الله عنهم، ومن النساء، عائشة
بنت أبي بكر، وأم هانئ، وأم سلمة رضي الله
عنهن، كلهم شهدوا أن النبي ﷺ كان يُصَلِّيها.

وذكر الطبراني من حديث علي، وأنس، وعائشة،
وجابر: أن النبي ﷺ كان يُصَلِّي الضحى ست ركعات
[الهيثمي (٢/٢٣٧)].

(١) في سنده من لا يعرف.

(٢) مرسل وفيه من لا يعرف.

(٣) محمد بن قيس لم يوثقه غير ابن حبان.

(٤) عمر بن صبح متروك، وكذبه ابن راهويه وغيره، وسيذكر المؤلف فيما بعد أن الخبر موضوع.

(٥) رجاله ثقات.

(ببيان أدلة من رجح الفعل على الترك مع بيان العدد)

فاختلف الناس في هذه الأحاديث على طرق، منهم من رجح رواية الفعل على الترك بأنها مثبتة تتضمن زيادة علم خفيت على النافي. قالوا: وقد يجوز أن يذهب علم مثل هذا على كثير من الناس، ويوجد عند الأقل. قالوا: وقد أخبرت عائشة، وأنس، وجابر، وأم هانئ، وعلي بن أبي طالب، أنه صلاها. قالوا: ويؤيد هذا الأحاديث الصحيحة المتضمنة للوصية بها، والمحافظة عليها، ومدح فاعلها، والثناء عليه، ففي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أوصاني خليلي محمد ﷺ بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام [البخاري: ١١٧٨، ومسلم: ١٦٧٢].

وفي «صحيح مسلم» نحوه عن أبي الدرداء [مسلم: ١٦٧٥].

وفي «صحيح مسلم»، عن أبي ذر يرفعه، قال: يُضَيِّحُ عَلَى كُلِّ سَلَامَةٍ مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَبُجْرَاءٌ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى [مسلم: ١٦٧١].

وفي «مسند الإمام أحمد»، عن معاذ بن أنس الجهني، أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَعَدَ فِي مُصَلَاةٍ حِينَ يَنْصَرِفُ مِنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ حَتَّى يُسَبِّحَ رَكْعَتِي الضُّحَى لَا يَقُولُ إِلَّا خَيْرًا، غَفَرَ اللَّهُ لَهُ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ» [ضعيف: أحمد: ١٥٦٢٣].

وفي الترمذي، و«سنن ابن ماجه» عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَافَظَ عَلَى سُبُحَةِ الضُّحَى، غُفِرَ لَهُ ذُنُوبُهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ» [أحمد: ٩٧١٦، والترمذي: ٤٧٦، وابن ماجه: ١٣٨٢، وفي سنده ضعيف].

وفي «المسند» و«السنن»، عن نعيم بن همار قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: يَا أَيُّهَا آدَمُ لَا تَفْجَرَنَّ عَنْ أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ أَكْثَفُكَ آخِرَهُ». [صحيح: أحمد: ٢٢٤٩٦، وأبو داود: ١٢٨٩] ورواه الترمذي من حديث أبي الدرداء، وأبي ذر [صحيح: أحمد: ٢٢٤٩٦، والترمذي: ٤٧٥].

وفي «جامع الترمذي» و«سنن ابن ماجه»، عن أنس مرفوعاً: «مَنْ صَلَّى الضُّحَى ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً، بَنَى اللَّهُ لَهُ قَصْرًا مِنْ ذَهَبٍ فِي الْجَنَّةِ» [الترمذي: ٤٧٣، وابن ماجه: ١٣٨٠].

وفي «صحيح مسلم»، عن زيد بن أرقم: أنه رأى قوماً يصلون من الضحى في مسجد قباء، فقال: أما لقد علموا أن الصلاة في غير هذه الساعة أفضل، إن رسول الله ﷺ قال: «صَلَاةُ الْأَوَّابِينَ حِينَ تَرْمَضُ الْفُصَالُ» [مسلم: ١٧٤٦].

وقوله: ترمض الفصال، أي: يشتد حر النهار، فتجد الفصال حرارة الرمضاء. وفي «الصحيح». أن النبي ﷺ صلى الضحى في بيت عتيان بن مالك ركعتين [البخاري: ١١٨٦، ومسلم: ١٤٩].

وفي «مستدرک الحاكم» من حديث خالد بن عبد الله الواسطي، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يُحَافِظُ عَلَى صَلَاةِ الضُّحَى إِلَّا أَوَّابٌ» [الحاكم (١/ ٣١٤)، وابن خزيمة: ١٢٢٤]. وقال: هذا إسناد قد احتج بمثله مسلم بن الحجاج، وأنه حدث عن شيوخه، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «مَا أَدْنَى اللَّهِ لِيَشِيءَ مَا أَدْنَى لِنَبِيِّي يَتَقَنَّى بِالْقُرْآنِ» [البخاري: ٧٤٨٢، ومسلم: ١٨٤٥] قال: ولعل قائلًا يقول: قد أرسله حماد بن سلمة، وعبد العزيز بن محمد الدراوردي، عن محمد بن عمرو، فيقال له: خالد بن عبد الله ثقة، والزيادة من الثقة مقبولة.

ثم روى الحاكم: حدثنا عبدان بن يزيد، حدثنا محمد بن المغيرة السكري، حدثنا القاسم بن الحكم الغرني، حدثنا سليمان بن داود اليمامي، حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ: بَابُ الضُّحَى، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ: أَيُّ الَّذِينَ كَانُوا يُدَاوِمُونَ عَلَى صَلَاةِ الضُّحَى؟ هَذَا بَابُكُمْ، فَادْخُلُوهُ بِرَحْمَةِ اللَّهِ» [الطبراني في «الأوسط» (١/ ١٥٩)].

وقال الترمذي في «الجامع»: حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء، حدثنا يونس بن بكير، عن

كَرَّةً، وَأَعْظَمَ غَنِيمَةً: رَجُلٌ تَوَضَّأَ فِي بَيْتِهِ فَأَخْسَرَ وَضُوءَهُ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَصَلَّى فِيهِ صَلَاةَ الْغَدَاةِ، ثُمَّ أَغْقَبَ بِصَلَاةِ الضُّحَى، فَقَدْ أَسْرَعَ الْكَرَّةَ وَأَعْظَمَ الْغَنِيمَةَ [سند قابل للتحسين: ابن حبان: ٦٢٩].

وفي الباب أحاديث سوى هذه، لكن هذه أمثلها. قال الحاكم: صحبت جماعة من أئمة الحديث الحفاظ الأثبات، فوجدتهم يختارون هذا العدد، يعني أربع ركعات، ويصلون هذه الصلاة أربعاً، لتواتر الأخبار الصحيحة فيه، وإليه أذهب، وإليه أَدْعُو أَتْبَاعاً لِلأَخْبَارِ الماثورة، واقتداءً بمشايع الحديث فيه.

قال ابن جرير الطبري - وقد ذكر الأخبار المرفوعة في صلاة الضُّحَى واختلاف عددها -: وليس في هذه الأحاديث حديث يدفع صاحبه، وذلك أن من حكى أنه صلى الضُّحَى أربعاً جائز أن يكون رآه في حال فعله ذلك، ورآه غيره في حال أخرى صلى ركعتين، ورآه آخر في حال أخرى صلاها ثمانية، وسمعه آخر يحث على أن يصلي ستاً، وآخر يحث على أن يصلي ركعتين، وآخر على عشر، وآخر على اثنتي عشرة، فأخبر كل واحد منهم عما رأى وسمع. قال: والدليل على صحة قولنا، ما رُوي عن زيد بن أسلم قال: سمعت عبد الله بن عمر يقول لأبي ذر: أوصني يا عم، قال: سألت رسول الله ﷺ كما سألتني، فقال: «مَنْ صَلَّى الضُّحَى رَكْعَتَيْنِ، لَمْ يَكُتِبْ مِنَ الْعَافِلِينَ، وَمَنْ صَلَّى أَرْبَعاً، كُتِبَ مِنَ الْعَابِدِينَ، وَمَنْ صَلَّى سِتّاً، لَمْ يَلْحَقْهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ ذَنْبٌ، وَمَنْ صَلَّى ثَمَانِيّاً، كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ، وَمَنْ صَلَّى عَشْرًا بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ» [المندري في «الترغيب والترهيب» (١/٤٣٠)، وانظر «مجمع الزوائد» (٢/٢٣٧)، و«فتح الباري» (٣/٤٤)].

وقال مجاهد: صَلَّى رسول الله ﷺ يوماً الضُّحَى ركعتين، ثم يوماً أربعاً، ثم يوماً ستاً، ثم يوماً ثمانية ثم ترك. فأبان هذا الخبر عن صحة ما قلنا من احتمال خبر كل مُخْبِرٍ ممن تقدم أن يكون إخباره لما أخبر عنه في صلاة الضُّحَى على قدر ما شاهده وعينه.

والصواب - إذا كان الأمر كذلك - أن يُصَلِّيَهَا من أراد على ما شاء من العدد. وقد رُوي هذا عن قوم من السلف: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن

محمد بن إسحاق، قال: حدثني موسى بن فلان، عن عمه ثُمَامَةَ بن أنس بن مالك، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى الضُّحَى ثِنْتَيْنِ عَشْرَةَ رَكْعَةً، بَنَى اللَّهُ لَهُ قَصْرًا مِنْ ذَهَبٍ فِي الْجَنَّةِ». قال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه [الترمذي: ٤٧٣، وابن ماجه: ١٣٨٠]. وكان أحمد يرى أصح شيء في هذا الباب حديث أم هانئ. قلت: وموسى ابن فلان هذا، هو موسى بن عبد الله بن المثنى بن أنس بن مالك.

وفي «جامعه» أيضاً من حديث عطية العوفي، عن أبي سعيد الخُدري قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي الضُّحَى حَتَّى يَقُولَ: لَا يَدْعُهَا، وَيَدْعُهَا حَتَّى يَقُولَ: لَا يُصَلِّيَهَا [سند ضعيف: أحمد: ١١١٥٥، والترمذي: ٤٧٧]. قال: هذا حديث حسن غريب.

وقال الإمام أحمد في «مسنده»: حدثنا أبو اليمان، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن يحيى بن الحارث اللُّثُمَارِي، عن القاسم، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ مَشَى إِلَى صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ وَهُوَ مُتَطَهِّرٌ، كَانَ لَهُ كَأَجْرِ الْحَاجِّ الْمُحْرِمِ، وَمَنْ مَشَى إِلَى سُبْحَةِ الضُّحَى كَانَ لَهُ كَأَجْرِ الْمُعْتَمِرِ، وَصَلَاةٌ عَلَى إِثْرِ صَلَاةٍ لَا تُغْوِي بَيْنَهُمَا كِتَابٌ فِي عِلِّيْنِ». قال أبو أمامة: الغدو والرواح إلى هذه المساجد من الجهاد في سبيل الله عزَّ وَجَلَّ [حسن: أحمد: ٢٢٣٠٤، وأبو داود: ١٢٨٨].

وقال الحاكم: حدثنا أبو العباس، حدثنا محمد ابن إسحاق الصغاني، حدثنا أبو المورِّع محاضر بن المورِّع، حدثنا الأَحْوَصُ بن حَكِيم، حدثني عبد الله بن عامر الألْهَانِي، عن منيب بن عيينة بن عبد الله السلمي، عن أبي أمامة، عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول: «مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي مَسْجِدِ جَمَاعَةٍ، ثُمَّ تَبَتَّ فِيهِ حَتَّى الضُّحَى، ثُمَّ يُصَلِّي سُبْحَةَ الضُّحَى، كَانَ لَهُ كَأَجْرِ حَاجٍّ أَوْ مُعْتَمِرٍ تَامَ لَهُ حَجَّتُهُ وَعُمْرَتُهُ».

وقال ابن أبي شيبه: حدثني حاتم بن إسماعيل، عن حميد بن صخر، عن المقبري، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ جيشاً، فأعظموا الغنيمة، وأسرعوا الكَرَّةَ. فقال رجل: يا رسول الله! ما رأينا بعثاً قطَّ أَسْرَعَ كَرَّةً وَلَا أَعْظَمَ غَنِيمَةً مِنْ هَذَا الْبَعْثِ، فقال: «أَلَا أَخْبَرُكُمْ بِأَسْرَعَ

إبراهيم: سأل رجل الأسود، كم أصلي الضحى؟ قال: كم شئت.

(بيان من رجع صلاة الضحى)

وطائفة ثانية، ذهبت إلى أحاديث الترمذ، ورجحتها من جهة صحة إسنادها، وعمل الصحابة بموجبها، فروى البخاري عن ابن عمر أنه لم يكن يُصليها، ولا أبو بكر، ولا عمر. قلت: فالتبني؟ قال: لا إخاله [البخاري: ١١٧٥]. وقال وكيع: حدثنا سفيان الثوري، عن عاصم بن كليب، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: ما رأيت رسول الله ﷺ صلى صلاة الضحى إلا يوماً واحداً^(١). وقال علي بن المديني: حدثنا معاذ بن معاذ، حدثنا شعبة، حدثنا فضيل بن فضالة، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، قال: رأى أبو بكرة ناساً يُصلون الضحى، قال: إنكم لتصلون صلاة ما صلاها رسول الله ﷺ ولا عامة أصحابه^(٢).

وفي «الموطأ»: عن مالك، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة قالت: ما سبَّح رسول الله ﷺ سُبْحَةَ الضُّحَى قَطُّ، وإني لأُسبِّحُها، وإن كان رسول الله ﷺ ليدعُ العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس، فيُفرض عليهم [مالك (١/١٥٢) - ١٥٣]، [البخاري: ١١٧٧، ومسلم: ١٦٦٢].

وقال أبو الحسن علي بن بَطَّال: فأخذ قوم من السلف بحديث عائشة، ولم يَرَوْا صلاة الضحى، وقال قوم: إنها بدعة. روى الشعبي، عن قيس بن عبيد، قال: كنت أختلف إلى ابن مسعود السنَّة كلها، فما رأيته مصلياً الضحى. وروى شعبة، عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه: أن عبد الرحمن بن عوف، كان لا يُصلي الضحى. وعن مجاهد قال: دخلت أنا وعروة بن الزبير المسجد، فإذا ابنُ عمر جالس عند حُجْرَةِ عائشة، وإذا الناس في المسجد يُصلون صلاة الضحى، فسألناه عن صلاتهم، فقال: بدعة، وقال مرة: ونَعَمَتِ البِدْعَةُ [أورده الحافظ في «الفتح» (٤٣/٣)، وعزاه إلى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح].

(بيان من استحَب فعلها غيباً)

وقال الشعبي: سمعتُ ابن عمر يقول: ما ابتدَع

المسلمون أفضلَ صلاةٍ مِنَ الضحى، وسئل أنس بن مالك عن صلاة الضحى، فقال: الصلوات خمس.

وذهبت طائفة ثالثة إلى استحباب فعلها غيباً، فتُصلى في بعض الأيام دون بعض، وهذا أحد الروايتين عن أحمد، وحكاها الطبري عن جماعة، قال: واحتجوا بما روى الجُريري، عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لعائشة: أكانَ رسولُ الله ﷺ يُصلي الضحى؟ قالت: لا إلا أن يَجِيءَ مِنْ مَغِيْبِهِ [مسلم: ١٦٦٠]. ثم ذكر حديث أبي سعيد: كان رسولُ الله ﷺ يُصلي الضحى، حتى تقول: لا يدعُها، ويدعُها حتى تقول: لا يُصليها. وقد تقدم. ثم قال: كذا ذكر من كان يفعل ذلك مِنَ السلف. وروى شعبة، عن حبيب بن الشهيد، عن عكرمة قال: كان ابنُ عباس يُصليها يوماً، ويدعها عشرة أيام يعني صلاة الضحى. وروى شعبة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر: أنه كان لا يُصلي الضحى، فإذا أتى مسجد قُباء، صلى، وكان يأتيه كلُّ سبت. وروى سفيان، عن منصور، قال: كانوا يكرهون أن يُحافظوا عليها كالمكتوبة، ويُصلون ويدعون، يعني: صلاة الضحى. وعن سعيد بن جبیر: إني لأدع صلاة الضحى وأنا أشتتها، مخافة أن أراها حتماً علي. وقال مسروق: كنا نقرأ في المسجد، فنبقى بعد قيام ابن مسعود، ثم نقوم، فنصلي الضحى، فبلغ ابن مسعود ذلك فقال: لِمَ تُحْمَلُونَ عِبَادَ اللَّهِ ما لم يُحْمَلْهُمُ اللَّهُ؟! إن كنتم لا بُدَّ فاعلين، ففي بُيُوتكم. وكان أبو مجلَز يُصلي الضحى في منزله.

قال هؤلاء: وهذا أولى لثلاث توهم متوهم وجوبها بالمحافظة عليها، أو كونها سنَّة راتبَةً، ولهذا قالت عائشة: لو نُشِرَ لي أبواي ما تَرَكْتُها [صحيح: مالك (١/١٥٣)]. فإنها كانت تُصليها في البيت حيث لا يراها الناس.

(تفعل الضحى لسبب)

وذهبت طائفة رابعة إلى أنها تُفعل بسبب من الأسباب، وأن النبي ﷺ إنما فعلها بسبب، قالوا: وصلاته ﷺ يومَ الفتح ثمان ركعات ضحى، إنما

كانت من أجل الفتح، وأن سنة الفتح أن تُصلى عنده ثمان ركعات، وكان الأمراء يُسمونها صلاة الفتح. وذكر الطبري في «تاريخه» عن الشعبي قال: لما فتح خالد بن الوليد الجيرة، صلى صلاة الفتح ثمان ركعات لم يُسلم فيهن، ثم انصرف. قالوا: وقول أم هانيء: وذلك ضحى. تريد أن فعله لهذه الصلاة كان ضحى، لا أن الضحى اسم لتلك الصلاة. قالوا: وأما صلاته في بيت عتبان بن مالك، فإنما كانت لسبب أيضاً، فإن عتبان قال له: إني أنكرت بصري، وإن السيول تحول بيني وبين مسجد قومي، فوددت أنك جئت، فصليت في بيتي مكاناً أتخذة مسجداً، فقال: «أفعل إن شاء الله تعالى» قال: فغدا عليّ رسول الله ﷺ وأبو بكر معه بعدما اشتد النهار فاستأذن النبي ﷺ فأذنت له، فلم يجلس حتى قال: «أَيُّنَ تُحِبُّ أَنْ أَصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ؟» فأشرت إليه من المكان الذي أحب أن يصلي فيه، فقام وصففنا خلفه، وصلى، ثم سلم، وسلمنا حين سلم. متفق عليه [البخاري: ١١٨٦، ومسلم: ١٤٩].

فهذا أصل هذه الصلاة وقصتها، ولفظ البخاري فيها، فاختصره بعض الرواة عن عتبان، فقال: إن رسول الله ﷺ صلى في بيتي شُعبة الضحى، فقاموا وراءه فصلوا.

وأما قول عائشة: لم يكن رسول الله ﷺ يصلي الضحى إلا أن يقدّم من مغيبه، فهذا من أبين الأمور أن صلاته لها إنما كانت لسبب، فإنه ﷺ كان إذا قَدِمَ من سفر، بدأ بالمسجد، فصلى فيه ركعتين [البخاري: ٤٤٣، ومسلم: ١٦٥٩].

فهذا كان هديّه، وعائشة أخبرت بهذا وهذا، وهي القائلة: ما صلى رسول الله ﷺ صلاة الضحى قط.

فالذي أثبتته فعلها بسبب، كقدومه من سفر، وفتحه، وزيارته لقوم ونحوه، وكذلك إتيانه مسجد قُبَاء للصلاة فيه، وكذلك ما رواه يوسف بن يعقوب، حدثنا محمد بن أبي بكر، حدثنا سلمة بن رجاء، حدثنا الشعثاء قالت: رأيت ابن أبي أوفى صلى الضحى ركعتين يوم بُشِّرَ برأس أبي جهل. فهذا إن صحّ فهي صلاة شكر وقعت وقت الضحى، كشكر الفتح. والذي نفتّه، هو ما كان يفعله الناس،

يُصلونها لغير سبب، وهي لم تقل: إن ذلك مكروه، ولا مخالفت لسته، ولكن لم يكن من هديه فعلها لغير سبب. وقد أوصى بها وندب إليها، وحض عليها، وكان يستغني عنها بقيام الليل، فإن فيه غنية عنها، وهي كالبديل منه، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَمَعَ أَلِيلَ وَالنَّهَارَ خَلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]. قال ابن عباس، والحسن، وقتادة: عوضاً وخلفاً يقوم أحدهما مقام صاحبه، فمن فاته عمل في أحدهما، قضاء في الآخر.

قال قتادة: فادوا لله من أعمالكم خيراً في هذا الليل والنهار، فإنهما مطبئان يُقجمان الناس إلى آجالهم، ويُقربان كل بعيد، ويُبليان كل جديد، ويُجيبان بكل موعود إلى يوم القيامة.

وقال شقيق: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: فاتتني الصلاة الليلة، فقال: أدرك ما فاتك من ليلتك في نهارك، فإن الله عز وجل جعل الليل والنهار خلفاً لمن أراد أن يذكّر أو أراد شُكُوراً.

قالوا: وفعل الصحابة رضي الله عنهم يدل على هذا، فإن ابن عباس كان يُصليها يوماً، ويدعها عشرة، وكان ابن عمر لا يصليها، فإذا أتى مسجد قُبَاء، صلاها، وكان يأتيه كل سبت. وقال سفيان: عن منصور: كانوا يكرهون أن يحافظوا عليها، كالمكتوبة، ويصلون ويدعون، قالوا: ومن هذا الحديث الصحيح عن أنس: أن رجلاً من الأنصار كان ضخماً، فقال للنبي ﷺ: إني لا أستطيع أن أصلي معك، فصنع للنبي ﷺ طعاماً، ودعاه إلى بيته، ونضح له طرف حصيد بماء، فصلى عليه ركعتين. قال أنس: ما رأيته صلى الضحى غير ذلك اليوم. رواه البخاري [١١٧٩].

(ترجيح المصنف لفعلها بسبب)

ومن تأمل الأحاديث المرفوعة وآثار الصحابة، وجدها لا تدل إلا على هذا القول، وأما أحاديث الترغيب فيها، والوصية بها، فالصحيح منها كحديث أبي هريرة وأبي ذر لا يدل على أنها سنة راتبة لكل أحد، وإنما أوصى أبا هريرة بذلك، لأنه قد روي أن

أبا هريرة كان يختار درسَ الحديث بالليل على الصلاة، فأمره بالضحي بدلاً من قيام الليل، ولهذا أمره ألا ينام حتى يُوتر، ولم يأمر بذلك أبا بكر وعمر وسائر الصحابة.

وعامة أحاديث الباب في أسانيدھا مقال، وبعضھا منقطع، وبعضھا موضوع لا يحل الاحتجاج به، كحديث يروي عن أنس مرفوعاً: «مَنْ دَاوَمَ عَلَى صَلَاةِ الضُّحَى وَلَمْ يَنْقُطْهَا إِلَّا عَنْ عِلَّةٍ، كُنْتُ أَنَا وَهُوَ فِي زُرُوقٍ مِنْ نُورٍ فِي بَحْرِ مِنْ نُورٍ». وضعه زكريا بن دويد^(١) الكِندي، عن حميد.

وأما حديث يعلى بن أشدق، عن عبد الله بن جراد، عن النبي ﷺ: «مَنْ صَلَّى مِنْكُمْ صَلَاةَ الضُّحَى، فَلْيُصَلِّهَا مُتَعَبِّدًا، فَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُصَلِّيَهَا السَّنَةَ مِنَ الدَّهْرِ ثُمَّ يَنْسَاهَا وَيَدْعُهَا، فَتَجُنُّ إِلَيْهِ كَمَا تَجُنُّ النَّاقَةُ إِلَى وَلَدِهَا إِذَا فَقَدَتْهُ». فيا عجباً للحاكم كيف يحتاج بهذا وأمثاله، فإنه يروي هذا الحديث في كتاب أفرده للضحى، وهذه نسخة موضوعة على رسول الله ﷺ، يعني: نسخة يعلى بن الأشدق. وقال ابن عدي: روى يعلى بن الأشدق، عن عمه عبد الله بن جراد، عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة منكورة، وهو وعمُّه غيرُ معروفين، وبلغني عن أبي مسهر، قال: قلت ليعلى بن الأشدق: ما سمعَ عنك من حديث رسول الله ﷺ؟ فقال: جامعُ سفيان، وموطأُ مالك، وشيئاً من الفوائد. وقال أبو حاتم بن حبان: لقي يعلى عبد الله بن جراد، فلما كبر، اجتمع عليه من لا دين له، فوضعوا له شهياً بمتي حديث، فجعل يُحدِّث بها وهو لا يدري، وهو الذي قال له بعضُ مشايخ أصحابنا: أي شيء سمعته من عبد الله بن جراد؟ فقال: هذه النسخة، وجامعُ سفيان، لا تجلُّ الرواية عنه بحال.

وكذلك حديث عمر بن صُبْح عن مقاتل بن حيان حديث عائشة المتقدم: كان رسول الله ﷺ يُصلي الضحى ثنتي عشرة ركعة، وهو حديث طويل ذكره الحاكم في «صلاة الضحى» وهو حديث موضوع،

المتهم به عمر بن صبح، قال البخاري: حدَّثني يحيى، عن علي بن جرير، قال: سمعت عمر بن صبح يقول: أنا وضعتُ خطبة النبي ﷺ، وقال ابن عدي: منكر الحديث. وقال ابن حبان: يضع الحديث على الثقات، لا يَحِلُّ كُتُبُ حديثه إِلَّا على جهة التعجب منه، وقال الدارقطني: متروك، وقال الأزدي: كذاب.

وكذلك حديث عبد العزيز بن أبان، عن الثوري، عن حجاج بن فُرَافصة، عن مكحول، عن أبي هريرة مرفوعاً: «مَنْ حَافَظَ عَلَى شُبْحَةِ الضُّحَى، غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ، وَإِنْ كَانَتْ بِعَدَدِ الْجَرَادِ، وَأَكْثَرَ مِنْ زَيْدِ الْبَحْرِ». ذكره الحاكم أيضاً. وعبد العزيز هذا، قال ابن نمير: هو كذاب، وقال يحيى: ليس بشيء، كذاب خبيث يضع الحديث، وقال البخاري، والنسائي، والدارقطني: متروك الحديث.

وكذلك حديث النهاس بن قهم، عن شداد، عن أبي هريرة يرفعه: «مَنْ حَافَظَ عَلَى شُبْحَةِ الضُّحَى، غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ وَإِنْ كَانَتْ أَكْثَرَ مِنْ زَيْدِ الْبَحْرِ» [الترمذي: ٤٧٦، وابن ماجه: ١٣٨٢]. والنهاس، قال يحيى: ليس بشيء ضعيف كان يروي عن عطاء، عن ابن عباس أشياء منكورة. وقال النسائي: ضعيف، وقال ابن عدي: لا يساوي شيئاً. وقال ابن حبان: كان يروي المناكير عن المشاهير، ويخالف الثقات، لا يجوز الاحتجاج به. وقال الدارقطني: مضطرب الحديث، تركه يحيى القطان.

وأما حديث حميد بن صخر، عن المقبري، عن أبي هريرة: بعث رسول الله ﷺ بعثاً... الحديث، وقد تقدم. فحميد هذا، ضعفه النسائي، ويحيى بن معين، ووثقه آخرون، وأُنكرَ عليه بعض حديثه، وهو ممن لا يُحتج به إذا انفرد. والله أعلم.

وأما حديث محمد بن إسحاق، عن موسى، عن عبد الله بن المثنى، عن أنس، عن عمه ثُمَامَة، عن أنس يرفعه: «مَنْ صَلَّى الضُّحَى، بَنَى اللَّهُ لَهُ قَصْرًا فِي الْجَنَّةِ مِنْ ذَهَبٍ». فمن الأحاديث الغرائب، وقال

(١) في المطبوع «دريد» وهو تحريف، قال الذهبي في «الميزان»: كذاب ادعى السماع من مالك والثوري والكبار، وزعم أنه ابن مئة وثلاثين سنة، وقال ابن حبان: كان يضع الحديث على حميد الطويل... ثم أورد له هذا الحديث.

الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وأما حديث نعيم بن همار: «ابن آدم لا تَعْجِزُ لِي عَنْ أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ، أَكْفِكَ آخِرَهُ». وكذلك حديث أبي الدرداء، وأبي ذر، فسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: هذه الأربع عندي هي الفجر وستنها.

فصل

(سجود الشكر)

وكان من هديه ﷺ وهدي أصحابه سجود الشكر عند تجدد نعمة تُسرُّ، أو اندفاع نقمة، كما في «المسند» عن أبي بكرة: أن النبي ﷺ، كان إذا أتاه أمر يُسرُّه، خرَّ لله ساجداً شُكراً لله تعالى [حسن: أحمد: ٢٠٤٥٥، وأبو داود: ٢٧٧٤، والترمذي: ١٥٧٨، وابن ماجه: ١٣٩٤].

وذكر ابن ماجه، عن أنس: أن النبي ﷺ بُشِّرَ بِحَاجَةٍ، فخرَّ لله ساجداً [ابن ماجه: ١٣٩٢].

وذكر البيهقي بإسناد على شرط البخاري: أن علياً رضي الله عنه، لما كتب إلى النبي ﷺ بإسلام همدان، خرَّ ساجداً ثم رفع رأسه، فقال: «السَّلامُ عَلَى هَمْدَانَ، السَّلامُ عَلَى هَمْدَانَ». وصدر الحديث في صحيح البخاري [٤٣٤٩] وهذا تمامه بإسناده عند البيهقي [في الكبرى: ٣٦٩/٢].

وفي «المسند» من حديث عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ، سجد شكراً لما جاءته البُشرى من ربه، أنه من صلَّى عليك، صلَّيتُ عليه، ومن سلَّم عليك، سلَّمتُ عليه [حسن: أحمد: ١٦٦٢].

وفي «سنن أبي داود» من حديث سعد بن أبي وقاص: أن رسول الله ﷺ رفع يديه فسأل الله ساعة، ثم خرَّ ساجداً ثلاث مرات، ثم قال: «إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي، وَشَفَعْتُ لَأُمِّي، فَأَعْطَانِي ثَلَاثَ أُمِّي، فَخَرَزْتُ سَاجِداً شُكْراً لِرَبِّي، ثُمَّ رَفَعْتُ رَأْسِي، فَسَأَلْتُ رَبِّي لَأُمِّي، فَأَعْطَانِي الثَّلَاثَ الثَّانِي، فَخَرَزْتُ سَاجِداً شُكْراً لِرَبِّي، ثُمَّ رَفَعْتُ رَأْسِي، فَسَأَلْتُ رَبِّي لَأُمِّي، فَأَعْطَانِي الثَّلَاثَ الْآخِرَ، فَخَرَزْتُ سَاجِداً لِرَبِّي» [أبو داود: ٢٧٧٥].

وسجد كعب بن مالك لما جاءته البُشرى بتوبة الله

عليه. ذكره البخاري [البخاري: ٤٤١٨، ومسلم: ٧٠١٦].

وذكر أحمد عن علي رضي الله عنه، أنه سجد حين وجد ذا الثُدَيَّة في قتل الخوارج [حسن: أحمد: ٨٤٤-١٢٥٤].

وذكر سعيد بن منصور، أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه، سجد حين جاءه قتل مسيلمة [البيهقي: (٣٧١/٢)].

فصل

في هديه ﷺ في سجود القرآن

كان ﷺ إذا مرَّ بسجدة، كَبَّرَ وسجد، وربما قال في سجوده: «سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ» [حسن: أحمد: ٢٤٠٢٢، وأبو داود: ١٤١٤، والترمذي: ٥٨٠، والنسائي: (٢٢٢/٢)].

وربما قال: «اللَّهُمَّ اخْطُطْ عَنِّي بِهَا وَزْراً، وَاكْتُبْ لِي بِهَا أَجْراً، واجْعَلْهَا لِي عِنْدَكَ ذُخْراً، وَتَقَبَّلْهَا مِنِّي كَمَا تَقَبَّلْتَهَا مِنْ عَبْدِكَ دَاوُدَ» [الترمذي: ٥٧٩، وابن ماجه: ١٠٥٣]. ذكرهما أهل السنن.

ولم يذكر عنه أنه كان يُكَبِّرُ للرفع من هذا السجود، ولذلك لم يذكره الجرجي ومتقدمو الأصحاب، ولا نُقِلَ فيه عنه تشهد ولا سلام البتة. وأنكر أحمد والشافعي السلام فيه، فالمنصوص عن الشافعي: إنه لا تشهد فيه ولا تسليم، وقال أحمد: أما التسليم، فلا أدري ما هو، وهذا هو الصواب الذي لا ينبغي غيره.

وصح عنه ﷺ، أنه سجد في (الْمَ تَنْزِيلَ)، وفي (صَ)، وفي (النجم) وفي ﴿إِذَا الشَّمَاةُ انشَقَّتْ﴾، وفي ﴿أَفْرَأَ بِأَسْمَاءِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

وذكر أبو داود عن عمرو بن العاص: أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة، منها ثلاث في المفضل، وفي سورة الحج سجدتان [أبو داود: ١٤٠١، وابن ماجه: ١٠٥٧].

وأما حديث أبي الدرداء: سجدت مع رسول الله ﷺ إحدى عشرة سجدة، ليس فيها من المفضل شيء: (الأعراف)، و(الرعد)، و(النحل)، و(بني إسرائيل)، و(مريم)، و(الحج)، و(سجدة الفرقان)، و(النمل)، و(السجدة)، و(ص)، (سجدة

(الحواميم)، فقال أبو داود: روى أبو الدرداء عن النبي ﷺ إحدى عشرة سجدة، وإسناده واه [الترمذي: ٥٦٩-٥٦٨، وابن ماجه: ١٠٥٦].

وأما حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ لم يسجد في المفصل منذ تحول إلى المدينة. رواه أبو داود [أبو داود: ١٤٠٣]. فهو حديث ضعيف، في إسناده أبو قدامة الحارث بن عبيد، لا يحتاج بحديثه. قال الإمام أحمد: أبو قدامة مضطرب الحديث. وقال يحيى بن معين: ضعيف، وقال النسائي: صدوق عنده منكر، وقال أبو حاتم البستي: كان شيخاً صالحاً ممن كثر وهمه. وعلمه ابن القطان بمطر الوراق، وقال: كان يشبهه في سوء الحفظ محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلي، وعيب على مسلم إخراج حديثه. انتهى كلامه.

ولا عيب على مسلم في إخراج حديثه، لأنه يتقي من أحاديث هذا الضرب ما يعلم أنه حفظه، كما يطرح من أحاديث الثقة ما يعلم أنه غلط فيه، فغلط في هذا المقام من استدرك عليه إخراج جميع حديث الثقة، ومن ضعف جميع حديث سيء الحفظ، فالأولى: طريقة الحاكم وأمثاله، والثانية: طريقة أبي محمد بن حزم وأشكاله، وطريقة مسلم هي طريقة أئمة هذا الشأن والله المستعان.

وقد صح عن أبي هريرة: أنه سجد مع النبي ﷺ في ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، وفي ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [مسلم: ١٢٩٩]، وهو إنما أسلم بعد تقدم النبي ﷺ المدينة بست سنين أو سبع، فلو تعارض الحديثان من كل وجه، وتقابروا في الصحة، لتعين تقديم حديث أبي هريرة، لأنه مثبت معه زيادة علم خفيت على ابن عباس، فكيف وحديث أبي هريرة في غاية الصحة متفق على صحته، وحديث ابن عباس فيه من الضعف ما فيه. والله أعلم.

فصل

في هديه ﷺ في الجمعة
وذكر خصائص يومها

(هدي الله هذه الأمة له)

ثبت في «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «نَحْنُ

الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَيْنَهُمْ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَذَا اللَّهُ لَهُ، وَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبِعٌ، الْيَهُودُ غَدَاً، وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ» [البخاري: ٨٧٦].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة، وحذيفة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «أَصْلَ اللَّهُ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ، فَجَاءَ اللَّهُ بِنَا، فَهَذَا لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالْأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبِعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنَ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمُقْضَى لَهُمْ قَبْلَ الْخَلْقِ» [مسلم: ١٩٨٢].

وفي «المسند» و«السنن»، من حديث أوس بن أوس، عن النبي ﷺ: «مَنْ أَفْضَلَ أَيَّامِكُمْ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ اللَّهُ آدَمُ، فِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فَأَكْثَرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ». قالوا: يا رسول الله وَكَيْفَ تُعَرِّضُ صَلَاتِنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرَمْتَ؟ (يعني: قد بليت) قال: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ» [صحيح: أحمد: ١٦١٦٢، وأبو داود: ١٠٤٧، والنسائي (٩١/٣-٩٢)، وابن ماجه: ١٠٨٥]. ورواه الحاكم، في «المستدرک» وابن حبان في «صحيحه» [الحاكم (١/٢٧٨)، وابن حبان: ٥٥٠].

وفي «جامع الترمذي»، من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ اللَّهُ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ» [مسلم: ١٩٧٦، والترمذي: ٤٨٨]. قال: حديث حسن صحيح، وصححه الحاكم (١/٢٧٨).

وفي «المستدرک» أيضاً عن أبي هريرة مرفوعاً: «سَيِّدُ الْأَيَّامِ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا يَوْمَ الْجُمُعَةِ» [الحاكم (١/٢٧٧)].

وروى مالك في «الموطأ»، عن أبي هريرة مرفوعاً: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ،

فيه خُلِقَ آدَمُ، وفيه أُهْبِطَ، وفيه تَبَّ عَلَيْهِ، وفيه مَاتَ، وفيه تَقُومُ السَّاعَةُ، وما من دَائَةٍ إِلَّا وَهِيَ مُصِيبَةٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ حِينَ تُضَيِّحُ حَتَّى تَظْلُعَ الشَّمْسُ شَفَقًا مِنَ السَّاعَةِ إِلَّا الْجَنَّةَ وَالْإِنْسَ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يُصَادِفُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللَّهَ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ. قال كعب: ذلك في كُلِّ سَنَةٍ يَوْمٌ، فقلت: بَلْ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ، فَقَرَأَ كَعْبُ التَّوْرَةَ، فَقَالَ: صَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ثُمَّ لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ، فَحَدَّثَنِي بِمَجْلِسِي مَعَ كَعْبٍ، قَالَ: قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ سَاعَةٌ هِيَ، قُلْتُ: فَأَخْبِرْنِي بِهَا، قَالَ: هِيَ آخِرُ سَاعَةٍ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَقُلْتُ: كَيْفَ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يُصَادِفُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ يُصَلِّي» وَتِلْكَ السَّاعَةُ لَا يُصَلِّي فِيهَا؟ فَقَالَ ابْنُ سَلَامٍ: أَلَمْ يَقُلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ جَلَسَ مَجْلِسًا يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ، فَهُوَ فِي صَلَاةٍ حَتَّى يُصَلِّي» [صحيح: مالك (١٠٨/١)، وأحمد: ٩٢٠٧، وأبو داود: ١٠٤٦، والترمذي: ٤٩١، والنسائي (١١٣/٣)].

وفي «صحيح ابن حبان» مرفوعاً «لَا تَظْلُعُ الشَّمْسُ عَلَى يَوْمٍ خَيْرٍ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ» [صحيح: ابن حبان: ٥٥١].

وفي «مسند الشافعي» من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ بمِرْآةٍ بَيَاضَاءَ، فِيهَا نُكْتَةٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا هَذِهِ؟» فَقَالَ: «هَذِهِ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فَضَلَّتْ بِهَا أَنْتَ وَأَمَّتْكَ، وَالنَّاسُ لَكُمْ فِيهَا تَبَعٌ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، وَلَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ، وَفِيهَا سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ يَدْعُو اللَّهَ بِخَيْرٍ إِلَّا اسْتَجِيبَ لَهُ وَهُوَ عِنْدَنَا يَوْمَ الْمَزِيدِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا جِبْرِيلُ! مَا يَوْمُ الْمَزِيدِ؟ قَالَ: إِنَّ رَبَّكَ اتَّخَذَ فِي الْفِرْدَوْسِ وَادِيًا أَفِيحًا فِيهِ كُتُبٌ مِنْ مِثْلِكَ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا شَاءَ مِنْ مَلَائِكَتِهِ، وَحَوَّلَهُ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَلَيْهَا مَقَاعِدُ النَّبِيِّينَ، وَخَفَّتْ تِلْكَ الْمَنَابِرُ بِمَنَابِرَ مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلَةٍ بِالْيَاقُوتِ وَالزَّبَرْجَدِ، عَلَيْهَا الشُّهَدَاءُ وَالصَّادِقُونَ، فَجَلَسُوا مِنْ وَرَائِهِمْ عَلَى تِلْكَ الْكُتُبِ،

فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا رَبُّكُمْ قَدْ صَدَقْتُكُمْ وَعَدِي، فَسَلُونِي أُعْطِكُمْ، فيقولون: رَبَّنَا نَسْأَلُكَ رِضْوَانَكَ، فيقول: قَدْ رَضِيتُ عَنْكُمْ وَلَكُمْ مَا تَمَنَّيْتُمْ وَلَدَيَّ مَزِيدٌ، فَهُمْ يُجِئُونَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لِمَا يُعْطِيهِمْ فِيهِ رَبُّهُمْ مِنَ الْخَيْرِ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي اسْتَوَى فِيهِ رَبُّكَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى الْعَرْشِ، وَفِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ» [الشافعي (١٤٨/١)].

رواه الشافعي عن إبراهيم بن محمد، حدثني موسى بن عبيدة قال: حدثني أبو الأزهر معاوية بن إسحاق بن طلحة، عن عبد الله بن عبيد، عن عمير بن أنس.

ثم قال: وأخبرنا إبراهيم قال: حدثني أبو عمران إبراهيم بن الجعد، عن أنس شبيهاً به [الشافعي (١٤٨/١)].

وكان الشافعي حسن الرأي في شيوخه إبراهيم هذا، لكن قال فيه الإمام أحمد رحمه الله: معتزلي جهمي قدرني كُلُّ بلاء فيه.

ورواه أبو اليمان الحكم بن نافع، حدثنا صفوان قال: قال أنس: قال النبي ﷺ: «أَتَانِي جِبْرِيلُ فذَكَرَهُ» ورواه محمد بن شعيب، عن عمر مولى غفرة، عن أنس. ورواه أبو طيبة، عن عثمان بن عمير، عن أنس. وجمع أبو بكر بن أبي داود طرقه.

وفي «مسند أحمد» من حديث علي بن أبي طلحة، عن أبي هريرة قال: قيل للنبي ﷺ: لَأَيِّ شَيْءٍ سُمِّيَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ؟ قَالَ: «لَأَنَّ فِيهِ طُبِعَتْ طِبْنَةُ آيِكَ آدَمَ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، وَالبَغْتَةُ، وَفِيهِ الْبَطْلَةُ، وَفِي آخِرِهِ ثَلَاثُ سَاعَاتٍ، مِنْهَا سَاعَةٌ مَنْ دَعَا اللَّهَ فِيهَا اسْتَجِيبَ لَهُ» [سند مقطع: أحمد: ٨١٠٢].

وقال الحسن بن سفيان الثوري^(١) في «مسنده»: حدثنا أبو مروان هشام بن خالد الأزرق، حدثنا الحسن بن يحيى الحُشْنِي، حدثنا عمر بن عبد الله مولى غفرة، حدثني أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أَتَانِي جِبْرِيلُ وَفِي يَدِهِ كَهَيْئَةِ

(١) هو الحافظ الإمام شيخ خراسان أبو العباس الشيباني النسوي صاحب «المسند الكبير» و«الأربعين»، توفي سنة (٣٠٣) «تذكرة الحفاظ» ص (٧٠٣).

المرأة البيضاء، فيها نُكْتَةُ سَوْدَاءٍ، فقلت: ما هذه يا جبريل؟ فقال: هذه الجمعة يُعْتَشُّ بها إِلَيْكَ تَكُونُ عِيداً لَكَ وَلَأَمَتِكَ مِنْ بَعْدِكَ. فقلت: وما لنا فيها يا جبريل؟ قال: لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ كَثِيرٌ، أَنْتُمْ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وفيها سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يُصَلِّي سَأَلَ اللَّهَ شَيْئاً إِلَّا أُعْطَاهُ. قلتُ: فما هذه النُّكْتَةُ السَّوْدَاءُ يا جبريل؟ قال: هذه السَّاعَةُ تَكُونُ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَهُوَ سَيِّدُ الْأَيَّامِ، وَنَحْنُ نُسَمِّيهِ عِنْدَنَا يَوْمَ الْمَزِيدِ. قلتُ: وما يَوْمُ الْمَزِيدِ يا جبريل؟ قال: ذَلِكَ بِأَنَّ رَبَّكَ اتَّخَذَ فِي الْجَنَّةِ وادياً أَمِيقَ مِنْ مِسْكِ أُنَيْضٍ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ، هَبَّ الرُّبُّ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ عَرْشِهِ إِلَى كُرْسِيِّهِ، وَخَفَّتِ الْكُرْسِيُّ بِمَنَابِرَ مِنَ الثُّورِ فَيَجْلِسُ عَلَيْهَا النَّبِيُّونَ وَتُخَفَّفُ الْمَنَابِرُ بِكَرَاسِي مِنْ ذَهَبٍ، فَيَجْلِسُ عَلَيْهَا الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ، وَيَهْبِطُ أَهْلُ الْغُرَبِ مِنْ عُزْرِهُمْ، فَيَجْلِسُونَ عَلَى كُتُبَانِ الْمِسْكِ لَا يَرُونَ لِأَهْلِ الْمَنَابِرِ وَالْكَرَاسِي فَضْلاً فِي الْمَجْلِسِ، ثُمَّ يَتَبَدَّى لَهُمْ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فيقول: سلوني، فيقولون بِأَجْمَعِهِمْ: نَسْأَلُكَ الرَّضَى يَا رَبِّ، فَيَسْأَلُهُمْ عَلَى الرَّضَى، ثُمَّ يَقُولُ: سلوني، فيسألونه حَتَّى تَنْتَهِيَ نَهْمُهُ كُلُّ عَبْدٍ مِنْهُمْ، قال: ثُمَّ يُسْأَلُ عَلَيْهِمْ بِمَا لَا عَيْنَ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، ثُمَّ يَرْتَفِعُ الْجَبَّارُ مِنْ كُرْسِيِّهِ إِلَى عَرْشِهِ، وَيَرْتَفِعُ أَهْلُ الْغُرَفِ إِلَى عُزْرِهُمْ، وَهِيَ عُرْفَةٌ مِنْ لَوْلُؤَةٍ بَيْضَاءٍ، أَوْ يَأْقُوتَةٍ حُمْرَاءٍ، أَوْ زُمُرَدَةٍ خَضْرَاءٍ، لَيْسَ فِيهَا فَضْمٌ وَلَا وَضْمٌ مُتَوَرَّةٌ، فِيهَا أَنْهَارُهَا، أَوْ قَالَ: مُطَرَّدَةٌ مُتَدَلِّيةٌ فِيهَا بُنَارُهَا، فِيهَا أَزْوَاجُهَا وَخُدَمُهَا وَمَسَاكِينُهَا قال: فَأَهْلُ الْجَنَّةِ يَتَبَاشَرُونَ فِي الْجَنَّةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، كَمَا يَتَبَاشَرُ أَهْلُ الدُّنْيَا فِي الدُّنْيَا بِالْمَطَرِ^(١).

وقال ابن أبي الدنيا في كتاب «صفة الجنة»: حدثني أزهر بن مروان الرقاشي، حدثني عبد الله بن عَرَادَةَ الشيباني، حدثنا القاسم بن مُطِيبٍ، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَتَانِي جِبْرِيلُ وَفِي كَفِّهِ مِرَآةٌ كَأَحْسَنِ الْمِرَآثِي وَأَوْضَرَهَا، وَإِذَا فِي وَسْطِهَا لَمْعَةٌ سَوْدَاءُ،

فقلت: ما هذه اللَّمْعَةُ الَّتِي أَرَى فِيهَا؟ قال: هذه الْجُمُعَةُ، قلت: وما الْجُمُعَةُ؟ قال: يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ رَبِّكَ عَظِيمٍ، وَسَأُخْبِرُكَ بِشَرْفِهِ وَقُضْلِهِ فِي الدُّنْيَا، وَمَا يُرْجَى فِيهِ لِأَهْلِهِ، وَأُخْبِرُكَ بِاسْمِهِ فِي الْآخِرَةِ، فَمَا شَرْفُهُ وَقُضْلُهُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَمَعَ فِيهِ أَمْرَ الْخَلْقِ، وَأَمَّا مَا يُرْجَى فِيهِ لِأَهْلِهِ، فَإِنَّ فِيهِ سَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ أَوْ أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى فِيهَا خَيْراً إِلَّا أُعْطَاهَا إِيَّاهُ، وَأَمَّا شَرْفُهُ وَقُضْلُهُ فِي الْآخِرَةِ وَاسْمُهُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا صَيَّرَ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِلَى الْجَنَّةِ، وَأَهْلَ النَّارِ إِلَى النَّارِ، جَرَتْ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْأَيَّامُ وَهَذِهِ اللَّيَالِي، لَيْسَ فِيهَا لَيْلٌ وَلَا نَهَارٌ إِلَّا قَدْ عَلِمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَقَدَّرَ ذَلِكَ وَسَاعَاتِهِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ حِينَ يَخْرُجُ أَهْلُ الْجُمُعَةِ إِلَى جُمُعَتِهِمْ، نَادَى أَهْلَ الْجَنَّةِ مُنَادٍ، يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ! أَخْرِجُوا إِلَى وَادِي الْمَزِيدِ، وَوَادِي الْمَزِيدِ لَا يَعْلَمُ سَعَةً طَوْلَهُ وَعَرْضَهُ إِلَّا اللَّهُ، فِيهِ كُتُبَانِ الْمِسْكِ، رُؤُوسُهَا فِي السَّمَاءِ قال: فَيَخْرُجُ غُلَمَانُ الْأَنْبِيَاءِ بِمَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، وَيَخْرُجُ غُلَمَانُ الْمُؤْمِنِينَ بِكَرَاسِيٍّ مِنْ يَاقُوتٍ، فَإِذَا وَضَعَتْ لَهُمْ، وَأَخَذَ الْقَوْمُ مَجَالِسَهُمْ، بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ رِيحاً تَدْعِي الْمُسْتِثْرَةَ، تُثِيرُ ذَلِكَ الْمِسْكَ، وَتُدْخِلُهُ مِنْ تَحْتِ ثِيَابِهِمْ، وَتُخْرِجُهُ فِي وَجُوهِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ، يَلْذُقُ الرِّيحُ أَغْلَمَ كَيْفَ تَضَعُ بِذَلِكَ الْمِسْكِ مِنْ امْرَأَةٍ أَحَدِكُمْ، لَوْ دُفِعَ إِلَيْهَا كُلُّ طَيْبٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ. قال: ثُمَّ يُوحِي اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى حَمَلَةِ عَرْشِهِ: ضَعُوهُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، فَيَكُونُ أَوَّلُ مَا يَسْمَعُونَهُ مِنْهُ: إِلَهِي يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَطَاعُونِي بِالْغَيْبِ وَلَمْ يَرُونِي، وَصَدَّقُوا رُسُلِي، وَاتَّبَعُوا أَمْرِي، سَلُونِي فَهَذَا يَوْمُ الْمَزِيدِ، فَيَجْتَمِعُونَ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ: رَضِينَا عَنْكَ قَارِضَ عَنَّا، فَيَرْجِعُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ: أَنْ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنِّي لَوْ لَمْ أَرْضَ عَنْكُمْ لَمْ أَسْكِنَكُم دَارِي، فَسَلُونِي فَهَذَا يَوْمُ الْمَزِيدِ، فَيَجْتَمِعُونَ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ: يَا رَبَّنَا وَجْهَكَ نَنْتَظِرُ إِلَيْهِ، فَيُكْشِفُ تِلْكَ الْحُجُبَ، فَيَتَجَلَّى لَهُمْ عَزَّ وَجَلَّ،

(١) في منده عمر بن عبد الله مولى غفرة، وهو ضعيف، والحسن بن يحيى الخشني كثير الغلط، وقال الدارقطني: متروك.

سهل بن حنيف، عن أبيه، قال: حدثني عبد الرحمن ابن كعب بن مالك، قال: كنت قائد أبي حين كُفَّ بصره، فإذا خرجت به إلى الجمعة، فسمع الأذان بها، استغفر لأبي أمامة أسعد بن زُرارة، فمكث حيناً على ذلك فقلت: إن هذا لعجز ألا أسأله عن هذا، فخرجت به كما كنتُ أخرج، فلما سمع الأذان للجمعة، استغفر له، فقلت: يا أبتاه! أرايت استغفارك لأسعد بن زُرارة كلما سمعت الأذان يوم الجمعة؟ قال: أي بُني! كان أسعد أول من جمع بنا بالمدينة قبل مقدّم رسول الله ﷺ في هزم النيب من حرّة بني يياضة في نقيع يقال له: نقيع الحَضَمَات. قلت: فكم كنتم يومئذ؟ قال: أربعون رجلاً [ابو داود: ١٠٦٩، وابن ماجه: ١٠٨٢].

قال البيهقي: ومحمد بن إسحاق إذا ذكر سماعه من الراوي، وكان الراوي ثقة، استقام الإسناد، وهذا حديث حسن صحيح الإسناد. انتهى.

قلت: وهذا كان مبدأ الجمعة. ثم قديم رسول الله ﷺ المدينة، فأقام بقاء في بني عمرو بن عوف، كما قاله ابن إسحاق يوم الاثنين، ويوم الثلاثاء، ويوم الأربعاء، ويوم الخميس، وأسس مسجدهم، ثم خرج يوم الجمعة، فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، فصلاًها في المسجد الذي في بطن الوادي، وكانت أول جمعة صلاها بالمدينة، وذلك قبل تأسيس مسجده [ابن هشام (٢٧٧)].

قال ابن إسحاق: وكانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ فيما بلغني عن أبي سلمة بن عبد الرحمن - ونعوذ بالله أن نقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل -: أنه قام فيهم خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «أَمَّا بَعْدُ... أَيُّهَا النَّاسُ، فَقَدْ مَوَا لَأَنْفُسِكُمْ، تَعْلَمُونَ وَاللَّهِ لَيُضَعَّقَنَّ أَحَدَكُمْ، ثُمَّ لَيَدَعَنَّ عَمَتَهُ لَيْسَ لَهَا رَاعٍ، ثُمَّ

فَيَمْسَاهُمْ مِنْ نُورِهِ شَيْءٌ لَوْ لَا أَنَّهُ قَضَىٰ أَلَا يَخْتَرُقُوا، لَاخْتَرُقُوا لِمَا يَغْسَاهُمْ مِنْ نُورِهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُمْ: ارْجِعُوا إِلَىٰ مَنَازِلِكُمْ، فَيَرْجِعُونَ إِلَىٰ مَنَازِلِهِمْ وَقَدْ أُعْطِيَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ الضَّعْفَ عَلَىٰ مَا كَانُوا فِيهِ، فَيَرْجِعُونَ إِلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ وَقَدْ خَفُوا عَلَيْهِمْ وَخَفِينَ عَلَيْهِمْ مِمَّا غَشِيَهُمْ مِنْ نُورِهِ، فَإِذَا رَجَعُوا تَرَادَّ الثُّورُ حَتَّىٰ يَرْجِعُوا إِلَىٰ صُورِهِم الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا، فَتَقُولُ لَهُمْ أَزْوَاجُهُمْ: لَقَدْ خَرَجْتُمْ مِنْ عَيْنِنَا عَلَىٰ صُورَةٍ وَرَجَعْتُمْ عَلَىٰ غَيْرِهَا، فَيَقُولُونَ: ذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ تَجَلَّىٰ لَنَا، فَنَظَرْنَا مِنْهُ قَالَ: وَإِنَّهُ وَاللَّهِ مَا أَحَاطَ بِهِ خَلْقٌ، وَلَكِنَّهُ قَدْ أَرَاهُمْ مِنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ مَا شَاءَ أَنْ يُرِيَهُمْ قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُمْ فَنَظَرْنَا مِنْهُ قَالَ: فَهُمْ يَقْلُبُونَ فِي مِسْكِ الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ الضَّعْفَ عَلَىٰ مَا كَانُوا فِيهِ. قال رسول الله ﷺ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخِيتُ لَكُمْ مِنْ قُرَّةٍ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١) [السجدة: ١٧].

ورواه أبو نعيم في «صفة الجنة» من حديث عصمة بن محمد، حدثنا موسى بن عقبة، عن أبي صالح، عن أنس شبيباً به^(٢).

وذكر أبو نعيم في «صفة الجنة» من حديث المسعودي، عن الجنهال، عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: سارعوا إلى الجمعة في الدنيا، فإن الله تبارك وتعالى يَبْرُزُ لأهل الجنة في كل جمعة على كتيب من كافور أبيض، فيكونون منه سبحانه بالقرب على قدر سرعتهم إلى الجمعة، ويُخِذُ لَهُمْ مِنَ الْكَرَامَةِ شَيْئاً لَمْ يَكُونُوا رَأَوْهُ قَبْلَ ذَلِكَ، فَيَرْجِعُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ وَقَدْ أَحْدَثَ لَهُمْ^(٣).

فصل

في مبدأ الجمعة

قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن أبي أمامة بن

(١) عبد الله بن عرادة الشيباني، ضعيف.

(٢) عصمة بن محمد قال أبو حاتم: ليس بقوي، وقال يحيى: كذاب يضع الحديث، وقال العقيلي: حدث بالبواطيل عن الثقات، وقال الدارقطني وغيره: متروك، فالسند باطل.

(٣) المسعودي - وهو عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة بن مسعود المسعودي - قد اختلط قبل موته، وأبو عبيدة بن عبد الله مسعود يروي عن أبيه ولم يسمع منه. فالإسناد ضعيف ومنقطع.

ليقولنَّ لَهُ رَبُّهُ وَلَيْسَ لَهُ تُرْجُمان، ولا حاجبٌ يَحْجُبُهُ دُونُهُ: أَلَمْ يَأْتِكَ رَسُولِي، فَلْيَعْلَمْكَ، وَأَتَيْتُكَ مَالاً، وَأَفْضَلْتُ عَلَيْكَ، فَمَا قَدَّمْتَ لِنَفْسِكَ، فَلْيَنْظُرَنَّ يَمِيناً وَشِمَالاً، فلا يَرى شَيْئاً، ثُمَّ لْيَنْظُرَنَّ قُدَّامَهُ فَلَا يَرى غَيْرَ جَهَنَّمَ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَبْقَى وَجْهَهُ مِنَ النَّارِ ولو بِشِقِّ مِنْ تَمْرَةٍ، فَلْيَفْعَلْ، ومن لَمْ يجدْ، فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ، فَإِنَّ بِهَا تُجْزَى الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِئَةٍ ضِعْفٍ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» [ابن هشام (٢٨١)].

قال ابن إسحاق: ثم خطب رسول الله ﷺ مرة أخرى، فقال: «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ أَحْمَدُهُ وَأَسْتَعِينُهُ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ، فَلَا ضَلِيلَ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ، فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، إِنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَبَّيْتَهُ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، فأختاره على ما سواه مِنْ أَحَادِيثِ النَّاسِ، إِنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ وَأَبْلَغُهُ، أَجِبُوا مَا أَحَبَّ اللَّهُ، أَجِبُوا اللَّهَ مِنْ كُلِّ قُلُوبِكُمْ، وَلَا تَمْلُوا كَلَامَ اللَّهِ وَذِكْرَهُ، وَلَا تَقْسُ عَنْهُ قُلُوبِكُمْ، فَإِنَّهُ مِنْ كُلِّ مَا يَخْلُقُ اللَّهُ يَخْتَارُ وَيَضْطَفِي، قد سَمَّاهُ اللَّهُ خَيْرَتَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَمُصْطَفَاهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَالصَّالِحِ مِنَ الْحَدِيثِ، وَمِنْ كُلِّ مَا أُوتِيَ النَّاسُ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، فَاغْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَاتَّقُوا حَقَّ تَقَاتِهِ، وَاضْطَفُوا اللَّهَ صَالِحٍ مَا تَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ، وَتَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ بَيْنَكُمْ، إِنَّ اللَّهَ يَغْضِبُ أَنْ يُنْكثَ عَهْدُهُ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ» [ابن هشام (٢٨٢)].

وقد تقدم طرف من خطبته عليه السلام عند ذكر هديه في الخطب.

فصل

وكان من هديه ﷺ تعظيمُ هذا اليوم وتشريفه، وتخصيصه بعبادات يختص بها عن غيره. وقد اختلف العلماء: هل هو أفضل، أم يومُ عرفة؟ على قولين: هما وجهان لأصحاب الشافعي.

(خواص يوم الجمعة وهي ثلاث وثلاثون)

وكان ﷺ يقرأ في فجره يسورتي ﴿الزَّحَرَةِ﴾ ﴿تَبَارَكَ﴾ و ﴿هَذَا أَقْبَلُ عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ [مسلم: ٢٠٣١]. ويظن كثير ممن

لا علم عنده أن المراد تخصيصُ هذه الصلاة بسجدة زائدة، ويسمونها سجدة الجمعة، وإذا لم يقرأ أحدهم هذه السورة، استحَبَّ قراءة سورة أخرى فيها سجدة، ولهذا كره من كره من الأئمة المداومة على قراءة هذه السورة في فجر الجمعة، دفعاً لتوهم الجاهلين، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: إنما كان النبي ﷺ يقرأ هاتين السورتين في فجر الجمعة، لأنهما تضمنتا ما كان ويكون في يومها، فإنهما اشتملتا على خلق آدم، وعلى ذكر المعاد، وحشر العباد، وذلك يكون يومَ الجمعة، وكان في قراءتهما في هذا اليوم تذكيرٌ للأمة بما كان فيه ويكون، والسجدة جاءت تبعاً ليست مقصودة حتى يقصد المصلي قراءتها حيث اتفقت. فهذه خاصة من خواص يوم الجمعة.

الخاصة الثانية: استحبابُ كثرة الصلاة على النبي ﷺ فيه وفي ليلته، لقوله ﷺ: «أَكْثَرُوا مِنَ الصَّلَاةِ عَلَيَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَلَيْلَةِ الْجُمُعَةِ» [حسن: البيهقي (٢٤٩/٣)].

ورسول الله ﷺ سيدُ الأنام، ويوم الجمعة سيدُ الأيام، فللصلاة عليه في هذا اليوم مزية ليست لغيره مع حكمة أخرى، وهي أن كل خير نالته أمته في الدنيا والآخرة، فإنما نالته على يده، فجمع الله لأمة به بين خيري الدنيا والآخرة، فأعظم كرامة تحصل لهم، فإنما تحصل يوم الجمعة، فإن فيه بعثهم إلى منازلهم وقصورهم في الجنة، وهو يومُ المزيد لهم إذا دخلوا الجنة، وهو يوم عيد لهم في الدنيا، ويوم فيه يُسعفهم الله تعالى بطلباتهم وحوائجهم، ولا يردُّ سائلهم، وهذا كله إنما عرفوه وحصل لهم بسببه وعلى يده، فمن شكره وحمده، وأداء القليل من حقه ﷺ أن نكثر من الصلاة عليه في هذا اليوم وليلته.

الخاصة الثالثة: صلاة الجمعة التي هي من أكد فروض الإسلام، ومن أعظم مجامع المسلمين، وهي أعظم من كل مجمع يجتمعون فيه وأفرضه سوى مجمع عرفة، ومن تركها تهاوناً بها، طبع الله على قلبه، وقرب أهل الجنة يومَ القيامة، وسبقهم إلى الزيارة يومَ المزيد بحسب قربهم من الإمام يومَ الجمعة وتبكيرهم.

الخاصة الرابعة: الأمر بالاغتسال في يومها، وهو أمرٌ مؤكدٌ جداً، ووجوبه أقوى من وجوب الوتر، وقراءة البسملة في الصلاة، ووجوب الوضوء من مس النساء، ووجوب الوضوء من مس الذكر، ووجوب الوضوء من القهقهة في الصلاة، ووجوب الصلاة على الرُعاف، والحجامة، والقيء، ووجوب الصلاة على النبي ﷺ في الشَّهْد الأخير، ووجوب القراءة على المأموم.

وللناس في وجوبه ثلاثة أقوال: النفي والإثبات، والتفصيل بين من به راحة يحتاج إلى إزالتها، فيجب عليه، ومن هو مستغن عنه، فيستحب له، والثلاثة لأصحاب أحمد.

الخاصة الخامسة: التطيب فيه، وهو أفضل من التطيب في غيره من أيام الأسبوع.

الخاصة السادسة: السَّوَاك فيه، وله مزية على السَّوَاك في غيره.

الخاصة السابعة: التَّكْبِير للصلاة.

الخاصة الثامنة: أن يشتغل بالصلاة، والذكر، والقراءة حتى يخرج الإمام.

الخاصة التاسعة: الإنصات للخطبة إذا سمعها وجوباً في أصح القولين، فإن تركه، كان لاغياً، ومن لغا، فلا جمعة له، وفي «المسند» مرفوعاً: «والذي يقول لصاحبه: أنصت، فلا جمعة له» [البخاري: ٩٣٤، ومسلم: ١٩٦٥].

الخاصة العاشرة: قراءة سورة الكهف في يومها، فقد روي عن النبي ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، سَطَعَ لَهُ نُورٌ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ يُضِيءُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَغُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ» [صحيح: الحاكم (٣٦٨/٢) والدارمي (٤٥٤/٢)].

وذكره سعيد بن منصور من قول أبي سعيد الخدري وهو أشبه.

الحادية عشرة: إنه لا يُكره فعل الصلاة فيه وقت الزوال عند الشافعي رحمه الله ومن وافقه، وهو اختيار شيخنا أبي العباس ابن تيمية، ولم يكن اعتماده على حديث ليث، عن مجاهد، عن أبي الخليل، عن أبي قتادة، عن النبي ﷺ: أنه كره الصلاة يُصَفَّ النهار

إِلَّا يَوْمَ الْجُمُعَةِ. وقال: «إِنَّ جَهَنَّمَ تُسَجَّرُ إِلَّا يَوْمَ الْجُمُعَةِ» [أبو داود: ١٠٨٣]. وإنما كان اعتماده على أن من جاء إلى الجمعة يُسْتَحَبُّ له أن يُصَلِّيَ حتى يخرج الإمام، وفي الحديث الصحيح: «لَا يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَيَتَطَهَّرُ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ طَهْرٍ، وَيَدْهِنُ مِنْ ذَهَبِهِ، أَوْ يَمَسُّ مِنْ طِيبِ بَيْتِهِ، ثُمَّ يَخْرُجُ، فَلَا يَفْرُقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، ثُمَّ يُصَلِّي مَا كُتِبَ لَهُ، ثُمَّ يُنْقِصُ إِذَا تَكَلَّمَ الْإِمَامُ إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى». رواه البخاري [٨٨٣]. فندبه إلى الصلاة ما كُتِبَ له، ولم يمنعه عنها إلا في وقت خروج الإمام، ولهذا قال غير واحد من السلف، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وتبعه عليه الإمام أحمد بن حنبل: خروج الإمام يمنع الصلاة، وخطبته تمنع الكلام، فجعلوا المانع من الصلاة خروج الإمام، لا انتصاف النهار.

وأيضاً، فإن الناس يكونون في المسجد تحت السقوف، ولا يشعرون بوقت الزوال، والرجل يكون متشاغلاً بالصلاة لا يدري بوقت الزوال، ولا يُمكنه أن يخرج، ويتخطى رقاب الناس، وينظر إلى الشمس ويرجع، ولا يشرع له ذلك.

وحديث أبي قتادة هذا، قال أبو داود: هو مرسل لأن أبا الخليل لم يسمع من أبي قتادة، والمرسل إذا اتصل به عمل، وَعَصْدُهُ قِيَاسٌ، أو قولٌ صحابي، أو كان مرسله معروفاً باختيار الشيوخ ورغبته عن الرواية عن الضعفاء والمتروكين ونحو ذلك مما يقتضي قوته، عُجِّلَ به.

وأيضاً، فقد عضده شواهد أخرى، منها ما ذكره الشافعي في كتابه فقال: روي عن إسحاق بن عبد الله، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ نَهَى عَنِ الصَّلَاةِ يُصَفَّ النَّهَارَ حَتَّى تَزُولَ الشَّمْسُ إِلَّا يَوْمَ الْجُمُعَةِ [الشافعي (٥٢/١)]. هكذا رواه رحمه الله في كتاب «اختلاف الحديث» ورواه في «كتاب الجمعة»: حدثنا إبراهيم بن محمد، عن إسحاق، ورواه أبو خالد الأحمر، عن شيخ من أهل المدينة، يقال له: عبد الله بن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. وقد رواه البيهقي في «المعرفة» من حديث عطاء بن عجلان، عن أبي

نضرة، عن أبي سعيد وأبي هريرة قالوا: كان النبي ﷺ ينهى عن الصلاة نصف النهار، إلّا يوم الجمعة. ولكن إسناده فيه من لا يحتج به، قاله البيهقي، قال: ولكن إذا انضمت هذه الأحاديث إلى حديث أبي قتادة أحدثت بعض القوة.

قال الشافعي: من شأن الناس التهجير إلى الجمعة، والصلاة إلى خروج الإمام، قال البيهقي: الذي أشار إليه الشافعي موجود في الأحاديث الصحيحة، وهو أن النبي ﷺ رغب في التكبير إلى الجمعة، وفي الصلاة إلى خروج الإمام من غير استثناء، وذلك يوافق هذه الأحاديث التي أبيحت فيها الصلاة نصف النهار يوم الجمعة، وروينا الرخصة في ذلك عن عطاء، وطاوس، والحسن، ومكحول.

قلت: اختلف الناس في كراهة الصلاة نصف النهار على ثلاثة أقوال أحدها: أنه ليس وقت كراهة بحال، وهو مذهب مالك.

الثاني: أنه وقت كراهة في يوم الجمعة وغيرها، وهو مذهب أبي حنيفة، والمشهور من مذهب أحمد.

والثالث: أنه وقت كراهة إلّا يوم الجمعة، فليس بوقت كراهة، وهذا مذهب الشافعي.

الثانية عشرة: قراءة (سورة الجمعة) و (المنافقين)، أو (سبح والغاشية) في صلاة الجمعة، فقد كان رسول الله ﷺ يقرأ بهن في الجمعة، ذكره مسلم في «صحيحه» [مسلم: ٢٠٢٦].

وفيه أيضاً: أنه ﷺ كان يقرأ فيها بـ (الجمعة) و «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ» [مسلم: ٢٠٢٨] ثبت عنه ذلك كله.

ولا يُستحب أن يقرأ من كل سورة بعضها، أو يقرأ إحداها في الركعتين، فإنه خلاف السنة، وجّهال الأئمة يداومون على ذلك.

الثالثة عشرة: أنه يوم عيد متكرر في الأسبوع، وقد روى أبو عبد الله بن ماجه في «سننه» من حديث أبي ثبابة بن عبد المنذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ سَيِّدُ الْأَيَّامِ، وَأَعْظَمُهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَهُوَ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ يَوْمِ الْأَضْحَى، وَيَوْمُ الْفِطْرِ، فِيهِ خَمْسُ خِلَالٍ: خَلَقَ اللَّهُ فِيهِ آدَمَ، وَأَهْبَطَ فِيهِ آدَمَ إِلَى الْأَرْضِ،

وفيه توفى الله آدم، وفيه ساعة لا يسأل الله العبد فيها شيئاً إلّا أعطاه، ما لم يسأل حراماً، وفيه تقوم الساعة، ما من ملك مقرب، ولا سماء، ولا أرض، ولا رياح، ولا جبال، ولا شجر إلّا وهنّ يُشْفَقْنَ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ» [حسن: أحمد: ٥٥٤٨، وابن ماجه: ١٠٨٤].

الرابعة عشرة: إنه يُستحب أن يلبس فيه أحسن الثياب التي يقدّر عليها، فقد روى الإمام أحمد في «مسنده» من حديث أبي أيوب قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَمَسَّ مِنْ طِيبٍ إِنْ كَانَ لَهُ، وَلَبَسَ مِنْ أَحْسَنِ ثِيَابِهِ، ثُمَّ خَرَجَ وَعَلَيْهِ السَّكِينَةُ حَتَّى يَأْتِيَ الْمَسْجِدَ، ثُمَّ يَرْكَعُ إِنْ بَدَأَ لَهُ، وَلَمْ يُوْذَ أَحَدًا، ثُمَّ أَنْصَتَ إِذَا خَرَجَ إِمَامُهُ حَتَّى يُصَلِّيَ، كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا بَيْنَهُمَا» [حسن: أحمد: ٢٣٥٧١].

وفي «سنن أبي داود»، عن عبد الله بن سلام. أنه سمع رسول الله ﷺ يقول على المنبر في يوم الجمعة: «ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سيوى ثوبَي مَهْنَتِهِ» [صحیح: أبو داود: ١٠٧٨، وابن ماجه: ١٠٩٥].

وفي «سنن ابن ماجه» عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ خطب الناس يوم الجمعة، فرأى عليهم ثياب التمار، فقال: «ما على أحدكم أن يجد سعة أن يتخذ ثوبين لجمعة سيوى ثوبَي مَهْنَتِهِ» [ابن ماجه: ١٠٩٦].

الخامسة عشرة: أنه يستحب فيه تجمير المسجد، فقد ذكر سيعد بن منصور، عن نعيم بن عبد الله المجهري: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر أن يُجمَر مسجد المدينة كل جمعة حين يتصيف النهار. قلت: ولذلك سمي نعيم المجهري.

السادسة عشرة: أنه لا يجوز السفر في يومها لمن تلزمه الجمعة قبل فعلها بعد دخول وقتها، وأما قبله، فللعلماء ثلاثة أقوال، وهي روايات منصوصات عن أحمد، أحدها: لا يجوز، والثاني: يجوز، والثالث: يجوز للجهاد خاصة.

وأما مذهب الشافعي رحمه الله، فيحرم عنده إنشاء السفر يوم الجمعة بعد الزوال، ولهم في سفر

الطاعة وجهان، أحدهما: تحريمه، وهو اختيار النووي، والثاني: جوازه وهو اختيار الرافعي.

وأما السفر قبل الزوال، فللشافعي فيه قولان: القديم: جوازه، والجديد: أنه كالسفر بعد الزوال.

وأما مذهب مالك، فقال صاحب «التفريع»^(١): ولا يسافر أحد يوم الجمعة بعد الزوال حتى يُصلي الجمعة، ولا بأس أن يسافر قبل الزوال، والاختيار: أن لا يسافر إذا طلع الفجر وهو حاضر حتى يُصلي الجمعة.

وذهب أبو حنيفة إلى جواز السفر مطلقاً، وقد روى الدارقطني في «الأفراد»، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سَافَرَ مِنْ دَارِ إِقَامَتِهِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، دَعَتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ أَلَا يُصْحَبْ فِي سَفَرِهِ». وهو من حديث ابن لهيعة.

وفي «مسند الإمام أحمد» من حديث الحكم، عن يقسم، عن ابن عباس قال: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة في سرية، فوافق ذلك يوم الجمعة، قال: فغدا أصحابه، وقال: أتخلّف وأصلي مع رسول الله ﷺ، ثم ألحقهم، فلما صلى النبي ﷺ، رآه، فقال: «مَا مَنَّكَ أَنْ تَغْدُوَ مَعَ أَصْحَابِكَ؟» فقال: أردت أن أصلي معك، ثم ألحقهم، فقال: «لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ مَا أَفْرَكْتُ فَضْلَ غَدَوَتِهِمْ» [أحمد: ١٩٦٦، والترمذي: ٥٢٧].

وأعلل هذا الحديث، بأن الحكم لم يسمع من مقسم^(٢).

هذا إذا لم يخف المسافر قوت رفقته، فإن خاف فوت رفقته وانقطاعه بعدهم، جاز له السفر مطلقاً، لأن هذا عذر يسقط الجمعة والجماعة.

ولعل ما روي عن الأوزاعي: أنه سئل عن مسافر سمع أذان الجمعة وقد أسرج دابته، فقال: ليمض

على سفره، محمول على هذا، وكذلك قول ابن عمر رضي الله عنه: الجمعة لا تحبس عن السفر. وإن كان مرادهم جواز السفر مطلقاً، فهي مسألة نزاع. والدليل: هو الفاصل، على أن عبد الرزاق قد روى في «مصنفه» عن معمر، عن خالد الحذاء، عن ابن سيرين أو غيره: أن عمر بن الخطاب رأى رجلاً عليه ثياب سفر بعد ما قضى الجمعة، فقال: ما شأنك؟ قال: أردت سفراً، فكرهت أن أخرج حتى أصلي، فقال عمر: إن الجمعة لا تمنعك السفر ما لم يحضر وقتها [عبد الرزاق: ٥٥٣٦]. فهذا قول من يمنع السفر بعد الزوال، ولا يمنع منه قبله.

وذكره عبد الرزاق أيضاً عن الثوري، عن الأسود بن قيس، عن أبيه قال: أبصر عمر بن الخطاب رجلاً عليه هيئة السفر، وقال الرجل: إن اليوم يوم الجمعة ولولا ذلك، لخرجت، فقال عمر: إن الجمعة لا تحبس مسافراً، فخرج ما لم يحين الرواح [المصنف: ٥٥٣٧].

وذكر أيضاً عن الثوري، عن ابن أبي ذئب، عن صالح بن كثير، عن الزهري قال: خرج رسول الله ﷺ مسافراً يوم الجمعة ضحى قبل الصلاة [المصنف: ٥٥٤٠].

وذكر عن معمر قال: سألت يحيى بن أبي كثير: هل يخرج الرجل يوم الجمعة؟ فكرهه، فجعلت أحذنه بالرخصة فيه، فقال لي: قلما يخرج رجل في يوم الجمعة إلا رأى ما يكرهه، لو نظرت في ذلك، وجدته كذلك [المصنف: ٥٥٤١].

وذكر ابن المبارك، عن الأوزاعي، عن حسان بن أبي عطية قال: إذا سافر الرجل يوم الجمعة، دعا عليه النهار أن لا يُعَان على حاجته، ولا يُصاحب في سفره [المصنف: ٥٥٤٢].

وذكر الأوزاعي، عن ابن المسيب أنه قال: السفر

(١) هو عبيد الله بن الحسن بن الجلاب البصري أبو القاسم فقيه أصولي توفي عند منصرفه من الحج سنة (٣٧٨هـ) مترجم في «الديباج المذهب» ص (١٤٦).

(٢) وفي سنده أيضاً الحاج بن أرطاة، وهو صدوق كثير الخطأ والتدليس وقد عنعن، وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، قال علي ابن المديني: قال يحيى بن سعيد: قال شعبة: لم يسمع الحكم من مقسم إلا خمسة أحاديث وعددها شعبة، وليس هذا الحديث فيما عدّ شعبة وكان هذا الحديث لم يسمعه الحكم من مقسم.

يوم الجمعة بعد الصلاة. قال ابن جريج: قلت لعطاء: أبلغك أنه كان يقال: إذا أمسى في قرية جامعة من ليلة الجمعة، فلا يذهب حتى يُجمع؟ قال: إن ذلك ليكره. قلت: فمن يوم الخميس؟ قال: لا، ذلك النهار فلا يضره «المصنف»: [٥٥٤٣].

السابعة عشرة: أن للماشي إلى الجمعة بكل خطوة أجر سنة صيامها وقيامها، قال عبد الرزاق: عن معمر، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي قلابة، عن أبي الأشعث الصنعاني، عن أوس بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «من غَسَلَ واغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَبَكَرَ وَاتَّكَرَ، وَدَنَا مِنَ الْإِمَامِ، فَأَنْصَتَ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا صِيَامٌ سَنَةً وقيامها، وذلك على الله يسير». ورواه الإمام أحمد في «مسنده» [صحيح: عبد الرزاق: ٥٥٧٠، وأحمد: ١٦١٧٢].

وقال الإمام أحمد: غَسَلَ، بالتشديد: جامع أهله، وكذلك فسره وكيع.

الثامنة عشرة: أنه يوم تكفير السيئات، فقد روى الإمام أحمد في «مسنده» عن سلمان قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أتدري ما يَوْمُ الْجُمُعَةِ؟» قلت: هو اليوم الذي جمع الله فيه أبناكم آدم، قال: «ولكني أدري ما يَوْمُ الْجُمُعَةِ، لا يَنْتَظِرُ الرَّجُلُ فَيُحْسِنَ طَهْرَهُ، ثُمَّ يَأْتِي الْجُمُعَةَ، فَيَنْصَتُ حَتَّى يَقْضِيَ الْإِمَامُ صَلَاتَهُ، إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ ما اجْتَنَبَتِ الْمَقْتَلَةَ» [أحمد: ٢٣٧١٨، ورجاله ثقات].

وفي «المسند» أيضاً من حديث عطاء الخراساني، عن نُبَيْشَةَ الْهَذَلِي، أنه كان يُحَدِّثُ عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَى الْمَسْجِدِ لَا يُؤْذِي أَحَدًا، فَإِنْ لَمْ يَجِدِ الْإِمَامَ خَرَجَ، صَلَّى مَا بَدَأَ لَهُ، وَإِنْ وَجَدَ الْإِمَامَ قَدْ خَرَجَ، جَلَسَ، فَاسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ حَتَّى يَقْضِيَ الْإِمَامُ جُمُعَتَهُ وَكَلَامَهُ، إِنْ لَمْ يَقْرَأْ لَهُ فِي جُمُعَتِهِ تِلْكَ ذُنُوبُهُ كُلُّهَا، أَنْ تَكُونَ كَفَّارَةً لِلْجُمُعَةِ الَّتِي تَلِيهَا» [أحمد: ٢٠٧٢١، ورجاله رجال الصحيح خلا شيخ أحمد وهو ثقة].

وفي «صحيح البخاري» عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَنْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَيَنْتَظِرُ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ طَهْرٍ، وَيَدْهِنُ مِنْ ذَهَبِهِ أَوْ يَمَسُّ مِنْ

طِيبٍ بَيْنَهُ، ثُمَّ يَخْرُجُ، فَلَا يَفْرُقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، ثُمَّ يُصَلِّي مَا كَتَبَ لَهُ، ثُمَّ يُنْصَتُ إِذَا تَكَلَّمَ الْإِمَامُ، إِلَّا غَيْرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى» [البخاري: ٨٨٣].

وفي «مسند أحمد» من حديث أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، ثُمَّ لَبَسَ ثِيَابَهُ، وَمَسَّ طِيبًا إِنْ كَانَ عِنْدَهُ، ثُمَّ مَشَى إِلَى الْجُمُعَةِ وَعَلَيْهِ السَّكِينَةُ، وَلَمْ يَنْحَطْ أَحَدًا، وَلَمْ يُؤْذِهِ، وَرَكَعَ مَا قُضِيَ لَهُ، ثُمَّ انتَظَرَ حَتَّى يَنْصَرِفَ الْإِمَامُ، غَوَّيَرَهُ مَا بَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ» [صحيح: أحمد: ٢١٧٢٩].

التاسعة عشرة: أن جهنم تُسَجَّرُ كُلَّ يَوْمٍ إِلَّا يَوْمَ الْجُمُعَةِ. وقد تقدم حديث أبي قتادة في ذلك، وسر ذلك - والله أعلم - أنه أفضل الأيام عند الله، ويقع فيه من الطاعات، والعبادات، والدعوات، والابتهاال إلى الله سبحانه وتعالى، ما يمنع من تسجير جهنم فيه. ولذلك تكون معاصي أهل الإيمان فيه أقل من معاصيهم في غيره، حتى إن أهل الفجور ليمتنعون فيه مما لا يمتنعون منه في يوم السبت وغيره.

وهذا الحديث الظاهر منه أن المراد سَجَّرَ جهنم في الدنيا، وأنها تُوقَدُ كُلَّ يَوْمٍ إِلَّا يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وأما يوم القيامة، فإنه لا يُفْتَرُ عَذَابُهَا، وَلَا يُخَفَّفُ عَنْ أَهْلِهَا الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ، ولذلك يَدْعُونَ الْخِزْنَ أَنْ يَدْعُوا رَبَّهُمْ لِيَخَفَّ عَنْهُمْ يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ، فلا يُجِيبُونَهُمْ إِلَى ذَلِكَ.

العشرون: أن فيه ساعة الإجابة، وهي الساعة التي لا يسأل الله عبدٌ مسلمٌ فيها شيئاً إلا أعطاه، ففي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجُمُعَةِ لَسَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللَّهَ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَقَالَ بِيَدِهِ يَقُولُهَا» [البخاري: ٩٣٥، ومسلم: ١٩٦٩].

وفي «المسند» من حديث أبي لبابة بن عبد المنذر، عن النبي ﷺ قال: «سَيِّدُ الْأَيَّامِ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَأَعْظَمُهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَأَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ يَوْمِ الْفِطْرِ، وَيَوْمِ الْأَضْحَى، وَفِيهِ خَمْسُ خِصَالٍ: خَلَقَ اللَّهُ فِيهِ آدَمَ، وَأَهْبَطَ اللَّهُ فِيهِ آدَمَ إِلَى الْأَرْضِ، وَفِيهِ تَوَفَّى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يَسْأَلُ اللَّهَ الْعَبْدُ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا آتَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ مَا لَمْ يَسْأَلْ حَرَامًا، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ،

ما مِنْ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ، وَلَا أَرْضٍ، وَلَا رِيَّاحٍ، وَلَا بَحْرٍ، وَلَا جِبَالٍ، وَلَا شَجَرٍ، إِلَّا وَهُنَّ يُشْفِقْنَ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ [حسن: أحمد: ١٥٥٤٨، وابن ماجه: ١٠٨٤].

فصل

(بيان اختلاف الناس في ساعة الإجابة)

وقد اختلف الناس في هذه الساعة: هل هي باقية أو قد رُفعت؟ على قولين، حكاهما ابن عبد البر وغيره، والذين قالوا: هي باقية ولم تُرفع، اختلفوا، هل هي في وقت من اليوم بعينه، أم هي غير معينة؟ على قولين. ثم اختلف من قال بعدم تعيينها: هل هي تنتقل في ساعات اليوم، أو لا؟ على قولين أيضاً، والذين قالوا بتعيينها، اختلفوا على أحد عشر قولاً.

قال ابن المنذر: روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: هي من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وبعد صلاة العصر إلى غروب الشمس.

الثاني: أنها عند الزوال، ذكره ابن المنذر عن الحسن البصري، وأبي العالية.

الثالث: أنها إذا أذن المؤذن بصلاة الجمعة، قال ابن المنذر: روي ذلك عن عائشة رضي الله عنها.

الرابع: أنها إذا جلس الإمام على المنبر يخطب حتى يفرغ، قال ابن المنذر: رويها عن الحسن البصري.

الخامس: قاله أبو بردة، هي الساعة التي اختار الله وقتها للصلاة.

السادس: قاله أبو السوار العدوي، وقال: كانوا يرون أن الدعاء مستجاب ما بين زوال الشمس إلى أن تدخل الصلاة.

السابع: قاله أبو ذر، إنها ما بين أن ترتفع الشمس شبراً إلى ذراع.

الثامن: أنها ما بين العصر إلى غروب الشمس، قاله أبو هريرة، وعطاء، وعبد الله بن سلام، وطاوس، حكى ذلك كله ابن المنذر.

التاسع: أنها آخر ساعة بعد العصر، وهو قول أحمد، وجمهور الصحابة، والتابعين.

العاشر: أنها من حين خروج الإمام إلى فراغ الصلاة، حكاه النووي وغيره.

الحادي عشر: أنها الساعة الثالثة من النهار، حكاه صاحب «المغني» فيه. وقال كعب: لو قسم الإنسان جمعة في جمع، أتى على تلك الساعة. وقال عمر: إن طلب حاجة في يوم ليسير.

وأرجح هذه الأقوال: قولان تضمنتهما الأحاديث الثابتة، وأحدهما أرجح من الآخر.

(دليل من قال بان ساعة)

(الإجابة من جلوس الإمام إلى انقضاء الصلاة)

الأول: أنها من جلوس الإمام إلى انقضاء الصلاة، وحجة هذا القول ما روى مسلم في «صحيحه» من حديث أبي بردة بن أبي موسى، أن عبد الله بن عمر قال له: أسمعت أباك يُحدث عن رسول الله ﷺ في شأن ساعة الجمعة شيئاً؟ قال: نعم سمعته يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة» [مسلم: ١٩٧٥].

وروى ابن ماجه، والترمذي، من حديث عمرو بن عوف المزني، عن النبي ﷺ قال: «إن في الجمعة ساعة لا يسأل الله العبد فيها شيئاً إلا آتاه الله إياه» قالوا: يا رسول الله! أية ساعة هي؟ قال: «حين تقام الصلاة إلى الانصراف منها» [ابن ماجه: ١١٣٨].

(ترجيح المصنف بأنها بعد العصر مع ادلته)

والقول الثاني: أنها بعد العصر، وهذا أرجح القولين، وهو قول عبد الله بن سلام، وأبي هريرة، والإمام أحمد، وخلق. وحجة هذا القول ما رواه أحمد في «مسنده» من حديث أبي سعيد وأبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «إن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه وهي بعد العصر» [أحمد: ٧١٥١].

وروى أبو داود والنسائي، عن جابر، عن النبي ﷺ، قال: «يوم الجمعة اثنا عشر ساعة، فيها ساعة لا يوجد مسلم يسأل الله فيها شيئاً إلا أعطاه، فالتمسوها آخر ساعة بعد العصر» [أبو داود: ١٠٤٨، والنسائي (٩٩/٣) ١٠٠].

وروى سعيد بن منصور في «سننه» عن أبي سلمة بن عبد الرحمن: أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ اجتمعوا، فتذكروا الساعة التي في يوم الجمعة، ففترقوا ولم يختلفوا أنها آخر ساعة من يوم الجمعة.

وفي «سنن ابن ماجه»: عن عبد الله بن سلام، قال: قُلْتُ ورسولُ الله ﷺ جالس: إِنَّا لَنَجِدُ فِي كِتَابِ اللَّهِ (يعني التوراة) فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ سَاعَةً لَا يُؤَفِّقُهَا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ يَصْلِي يَسْأَلُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ شَيْئاً إِلَّا قَضَى اللَّهُ لَهُ حَاجَتَهُ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَأَشَارَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوْ بَعْضُ سَاعَةٍ. قلت: صدقت يا رسول الله، أو بَعْضُ سَاعَةٍ. قلت: أَيُّ سَاعَةٍ هِيَ؟ قال: «هِيَ آخِرُ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ النَّهَارِ». قلتُ: إِنَّهَا لَيْسَتْ سَاعَةً صَلَاةٍ، قال: بلى إن العبدَ المؤمنَ إِذَا صَلَّى، ثُمَّ جَلَسَ لَا يُجْلِسُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ، فَهُوَ فِي صَلَاةٍ [حسن: ابن ماجه: ١١٣٩].

وفي «مسند أحمد» من حديث أبي هريرة قال: قيل للنبي ﷺ: لَأَيِّ شَيْءٍ سُمِّيَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ؟ قال: «لَأَنَّ فِيهَا طُبِعَتْ طَبِئَةُ أَبِيكَ آدَمَ، وَفِيهَا الصَّعَقَةُ وَالنَّعْتَةُ، وَفِيهَا الْبَطْشَةُ، وَفِي آخِرِ ثَلَاثِ سَاعَاتٍ مِنْهَا سَاعَةٌ مَنْ دَعَا اللَّهَ فِيهَا اسْتَجِيبَ لَهُ» [أحمد: ٨١٠٢، وفي سننه ضعيف].

وفي «سنن أبي داود»، و«الترمذي»، و«النسائي» من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُهْبِطَ، وَفِيهِ تَبَّ عَلَيْهِ، وَفِيهِ مَاتَ، وَفِيهِ تَقْرَأُ السَّاعَةُ، وَمَا مِنْ دَائِيَةٍ إِلَّا وَهِيَ مُصْبِحَةُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، مِنْ حِينَ تُصْبِحُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ شَفَقًا مِنَ السَّاعَةِ، إِلَّا الْجَنَّ وَالْإِنْسَ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يُصَادِفُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ يَصْلِي يَسْأَلُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَاجَةً إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهَا». قال كعب: ذلك في كلِّ سنة يوم؟ فقلتُ: بل في كلِّ جُمُعَةٍ، قال: فقرأ كعبُ التوراة، فقال: صدق رسول الله ﷺ. قال أبو هريرة: ثُمَّ لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ، فَحَدَّثَنِي بِمَجْلِسِي مَعَ كَعْبٍ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ: وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ سَاعَةٌ هِيَ. قال أبو هريرة: فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي بِهَا، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ: هِيَ آخِرُ سَاعَةٍ مِنْ يَوْمِ

الْجُمُعَةِ، فَقُلْتُ: كَيْفَ هِيَ آخِرُ سَاعَةٍ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يُصَادِفُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ يَصْلِي» وَتِلْكَ السَّاعَةُ لَا يَصْلِي فِيهَا؟ فقال عبد الله بن سلام: أَلَمْ يَقُلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ جَلَسَ مَجْلِسًا يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ، فَهُوَ فِي صَلَاةٍ حَتَّى يَصْلِيَ»؟ قال: فقلت: بلى. فقال: هُوَ ذَاكَ [صحيح: أبو داود: ١٠٤٦، والترمذي: ٤٩١، والنسائي (١١٤/٣-١١٥)].

قال الترمذي: حديث حسن صحيح. وفي «الصحيحين» بعضه.

(رد المصنف على بقية الأقوال)

وأما من قال: إنها من حين يفتح الإمام الخطبة إلى فراغه من الصلاة، فاحتج بما رواه مسلم في «صحيحه» عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، قال: قال عبد الله بن عمر: أَسَمِعْتُ أَبَاكَ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي شَأْنِ سَاعَةِ الْجُمُعَةِ؟ قال: قُلْتُ: نعم سمعته يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «هِيَ مَا بَيَّنَّ أَنْ يَجْلِسَ الْإِمَامُ إِلَى أَنْ يَقْضِيَ الْإِمَامُ الصَّلَاةَ» [مسلم: ١٩٧٥].

وأما من قال: هي ساعة الصلاة، فاحتج بما رواه الترمذي، وابن ماجه، من حديث عمرو بن عوف المزني، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ فِي الْجُمُعَةِ لَسَاعَةً لَا يَسْأَلُ اللَّهَ الْعَبْدُ فِيهَا شَيْئاً إِلَّا آتَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ». قالوا: يا رسول الله! أَيُّ سَاعَةٍ هِيَ؟ قال: «حِينَ تَقَامُ الصَّلَاةُ إِلَى الْأَنْصِرَافِ مِنْهَا» [الترمذي: ٤٩٠، وابن ماجه: ١١٣٨]. ولكن هذا الحديث ضعيف، قال أبو عمر بن عبد البر: هو حديث لم يروه فيما علمت إلا كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف، عن أبيه، عن جده، وليس هو من يَحُجُّ بِحَدِيثِهِ. وقد روى روح بن عبادة، عن عوف، عن معاوية بن قرة، عن أبي بردة عن أبي موسى، أنه قال لعبد الله بن عمر: هي الساعة التي يخرج فيها الإمام إلى أن تُقْضَى الصَّلَاةُ. فقال ابن عمر: أصابَ الله بك.

وروى عبد الرحمن بن حُجَيْرَةَ، عن أبي ذر: أن امرأته سألتَه عن الساعة التي يُسْتَجَابُ فِيهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ لِلْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ، فقال لها: هي مع رفع الشمس بيسير، فإن سألتني بعدها، فأنت طالق.

واحتج هؤلاء أيضاً بقوله في حديث أبي هريرة:

«وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي» وبعد العصر لا صلاة في ذلك الوقت، والأخذ بظاهر الحديث أولى. قال أبو عمر: يحتاج أيضاً من ذهب إلى هذا بحديث علي، عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا زالت الشمس، وفاءت الأفياء، ورأحت الأزواج، فاطلبوا إلى الله حوائجكم، فإنها ساعة الأوابين، ثم تلا: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾»^(١) [الإسراء: ٢٥].

وروى سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الساعة التي تذكروا يوم الجمعة: ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس. وكان سعيد بن جبير، إذا صلى العصر، لم يكلم أحداً حتى تغرب الشمس، وهذا هو قول أكثر السلف، وعليه أكثر الأحاديث. ويليه القول بأنها ساعة الصلاة، وبقيّة الأقوال لا دليل عليها.

(ساعة الصلاة ساعة ترجى)

فيها الإجابة ولكنها ليست الساعة المخصوصة)

وعندي أن ساعة الصلاة ساعة تُرجى فيها الإجابة أيضاً، فكلاهما ساعة إجابة، وإن كانت الساعة المخصوصة هي آخر ساعة بعد العصر، فهي ساعة معينة من اليوم لا تتقدم ولا تتأخر، وأما ساعة الصلاة، فتابعة للصلاة تقدمت أو تأخرت، لأن اجتماع المسلمين وصلاتهم وتضرعهم وابتهاهم إلى الله تعالى تأثيراً في الإجابة، فساعة اجتماعهم ساعة تُرجى فيها الإجابة، وعلى هذا تتفق الأحاديث كلها، ويكون النبي ﷺ قد حضّ أمته على الدعاء والابتها إلى الله تعالى في هاتين الساعتين.

ونظير هذا قوله ﷺ وقد سُئل عن المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى، فقال: «هُوَ مَسْجِدُكُمْ هَذَا» وأشار إلى مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ [مسلم: ٨٨٧]. وهذا لا ينفي أن يكون مسجد قُباء الذي نزلت فيه الآية مؤسساً على التقوى، بل كلُّ منهما مؤسس على التقوى.

وكذلك قوله في ساعة الجمعة: «هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تنقضي الصلاة» لا ينافي قوله في

الحديث الآخر: «فالتَّسْبُوحُ آخِرُ سَاعَةِ بَعْدَ الْعَصْرِ». ويشبه هذا في الأسماء قوله ﷺ: «ما تُعَدُّون الرَّقُوبَ فيكم؟» قالوا: مَنْ لَمْ يُولَدْ لَهُ، قال: «الرَّقُوبُ مَنْ لَمْ يَقْدَمْ مِنْ وَلَدِهِ شَيْئاً» [مسلم: ٦٦٤١].

فأخبر أن هذا هو الرَّقُوب، إذ لم يحصل له من ولده من الأجر ما حصل لمن قَدَّمَ منهم فرطاً، وهذا لا ينافي أن يُسمى من لم يولد له رقوباً.

ومثله قوله ﷺ: «ما تُعَدُّونَ الْمُفْلِسَ فيكم؟» قالوا: مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ. قال: «الْمُفْلِسُ مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَثْنَالِ الْجِبَالِ، وَيَأْتِي وَقَدْ لَطَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، فَيَأْخُذُ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ» [الحديث - مسلم: ٦٤٣٥].

ومثله قوله ﷺ: «ليس المسكينُ بهذا الطَّوَّافِ الَّذِي تَرُدُّهُ اللَّقْمَةُ وَاللُّقْمَانِ، وَالتُّفْرَةُ وَالتُّفْرَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمِسْكِينَ الَّذِي لَا يَسْأَلُ النَّاسَ، وَلَا يَتَقَطَّنُ لَهُ، فَيَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ» [البخاري: ١٤٧٩، ومسلم: ٢٣٩٣].

(آخر ساعة من يوم الجمعة يعظمها جميع أهل الملل)
وهذه الساعة هي آخر ساعة بعد العصر، يُعَظَّمُها جميع أهل الملل. وعند أهل الكتاب هي ساعة الإجابة، وهذا مما لا غرض لهم في تبديله وتحريفه، وقد اعترف به مؤمنهم.

(متابعة المصنف لرد بقية الأقوال)

وأما من قال بتنقلها، فرام الجمع بذلك بين الأحاديث، كما قيل ذلك في ليلة القدر، وهذا ليس بقوي، فإن ليلة القدر قد قال فيها النبي ﷺ: «فالتَّسْبُوحُ فِي خَامِسَةِ تَبَقَى، فِي سَابِعَةِ تَبَقَى، فِي تَاسِعَةِ تَبَقَى» [البخاري: ٢٠٢١]. ولم يجيء مثل ذلك في ساعة الجمعة.

وأيضاً فالأحاديث التي في ليلة القدر، ليس فيها حديث صريح بأنها ليلة كذا وكذا، بخلاف أحاديث ساعة الجمعة، فظهر الفرق بينهما.

وأما قول من قال: «إنها رُفِعَتْ، فهو نظير قول مَنْ

(١) قال الحافظ في «الفتح» (٣/٢٤٧): حكاه ابن المنذر عن أبي العالية، وروى نحوه في أثناء حديث عن علي، قال: وروى ابن عساکر من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال: كانوا يرون الساعة المستجاب فيها الدعاء إذا زالت الشمس، وكان مأخذهم في ذلك أنها وقت اجتماع الملائكة، وابتداء دخول وقت الجمعة، وابتداء الأذان ونحو ذلك.

قال: إن ليلة القدر رُفِعَتْ، وهذا القائل، إن أراد أنها كانت معلومة، فرفع علمها عن الأمة، فيقال له: لم يُرفع علمها عن كل الأمة، وإن رُفِعَ عن بعضهم، وإن أراد أن حقيقتها وكونها ساعة إجابة رُفِعَتْ، فقوله باطل مخالف للأحاديث الصحيحة الصريحة، فلا يعول عليه. والله أعلم.

(متابعة لخواص الجمعة)

الحادية والعشرون: أن فيه صلاة الجمعة التي خُصِّصَتْ من بين سائر الصلوات المفروضات بخصائص لا تُوجد في غيرها من الاجتماع، والعدد المخصوص، واشتراط الإقامة، والاستيطان، والجهر بالقراءة. وقد جاء من التشديد فيها ما لم يأت نظيره إلا في صلاة العصر، ففي السنن الأربعة، من حديث أبي الجعد الضمري - وكانت له صحة - إن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمُعَ تَهَاوُنًا، طَلَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ» [حسن: أحمد: ١٥٤٩٨، وأبو داود: ١٠٥٢، والترمذي: ٥٠٠، والنسائي (٨٨/٣)، وابن ماجه: ١١٢٥] قال الترمذي: حديث حسن. وسألت محمد بن إسماعيل عن اسم أبي الجعد الضمري، فقال: لم يُعرف اسمه، وقال: لا أعرف له عن النبي ﷺ إلا هذا الحديث.

وقد جاء في «السنن» عن النبي ﷺ الأمر لمن تركها أن يتصدَّق بدينار، فإن لم يجد، فنصف دينار. رواه أبو داود، والنسائي من رواية قدامة بن وبرة، عن سمرة بن جندب [أحمد: ٢٠٠٨٧، وأبو داود: ١٠٥٣، والنسائي (٨٩/٣)، وابن ماجه: ١١٢٨]. ولكن قال أحمد: قدامة بن وبرة لا يعرف. وقال يحيى بن معين: ثقة، وحكي عن البخاري، أنه لا يصح سماعه من سمرة.

وأجمع المسلمون على أن الجمعة فرض عين، إلا قولاً يحكي عن الشافعي، أنها فرض كفاية، وهذا غلط عليه منشؤه أنه قال: وأما صلاة العيد، فتجب على كل من تجب عليه صلاة الجمعة، فظن هذا القائل أن العيد لما كانت فرض كفاية، كانت الجمعة كذلك. وهذا فاسد، بل هذا نص من الشافعي أن العيد واجب على الجميع، وهذا يحتمل أمرين، أحدهما: أن يكون فرض عين كالجمعة، وأن يكون فرض كفاية، فإن فرض الكفاية يجب على الجميع،

كفرض الأعيان سواء، وإنما يختلفان بسقوطه عن البعض بعد وجوبه بفعل الآخرين.

الثانية والعشرون: أن فيه الخطبة التي يُقصد بها الثناء على الله وتمجيدُه، والشهادة له بالوحدانية، ولرسوله ﷺ بالرسالة، وتذكير العباد بأيامه، وتحذيرهم من بأسه ونقمته، ووصيتهم بما يُقربهم إليه، وإلى جنّاته، ونهيهم عما يُقربهم من سخطه وناره، فهذا هو مقصود الخطبة والاجتماع لها.

الثالثة والعشرون: أنه اليوم الذي يُستحب أن يُتفرَّغ فيه للعبادة، وله على سائر الأيام مزية بأنواع من العبادات واجبة ومستحبة، فالله سبحانه جعل لأهل كل مِلَّةٍ يوماً يتفرغون فيه للعبادة، ويتخلّون فيه عن أشغال الدنيا، فيوم الجمعة يوم عبادة، وهو في الأيام كشهر رمضان في الشهور، وساعة الإجابة فيه كليلة القدر في رمضان. ولهذا من صح له يوم جمعة وسليم، سلمت له سائر جمعه، ومن صح له رمضان وسلم، سلمت له سائر سنته، ومن صحت له حجته وسلمت له، صح له سائر عمره، فيوم الجمعة ميزان الأسبوع، ورمضان ميزان العام، والحج ميزان العمر. وبالله التوفيق.

الرابعة والعشرون: أنه لما كان في الأسبوع كالعيد في العام، وكان العيد مشتملاً على صلاة وقربان، وكان يوم الجمعة يوم صلاة، جعل الله سبحانه التعجيل فيه إلى المسجد بدلاً من القربان، وقائماً مقامه، فيجتمع للرائع فيه إلى المسجد الصلاة، والقربان، كما في «الصحيحين» عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْأُولَى، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ» [البخاري: ٨٨١، ومسلم: ١٩٦٤].

وقد اختلف الفقهاء في هذه الساعة على قولين:

(المقصود بالساعة في قوله، «من راح في الساعة الأولى»)

أحدهما: أنها من أول النهار، وهذا هو المعروف في مذهب الشافعي وأحمد وغيرهما.

والثاني: أنها أجزاء من الساعة السادسة بعد الزوال، وهذا هو المعروف في مذهب مالك،

واختاره بعضُ الشافعية، واحتجوا عليه بحجتين .
إحدهما: أن الرواح لا يكون إلا بعد الزوال،
وهو مقابلُ الغدو الذي لا يكون إلا قبل الزوال، قال
تعالى: ﴿عَذْوَهَا شَهْرٌ وَوَأَحْهَا شَهْرٌ﴾ [سَبَأ: ١٢]. قال
الجوهري: ولا يكون إلا بعد الزوال.

الحجة الثانية: أن السلف كانوا أحرصَ شيء على
الخير، ولم يكونوا يَعدُّون إلى الجمعة من وقت طلوع
الشمس، وأكثر مالك التَّكْبِيرَ إليها في أول النهار،
وقال: لم تُدرك عليه أهل المدينة.

(أدلة من قال بان الساعة)

القول من أول النهار وترجيح المصنف له

واحتج أصحاب القول الأول، بحديث جابر
رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «يَوْمُ الْجُمُعَةِ ثِنْتَا عَشْرَةَ
سَاعَةً» [أبو داود: ١٠٤٨، والنسائي (٩٩/٣)]. قالوا:
والساعات المعمودة، هي الساعات التي هي ثنتا
عشرة ساعة، وهي نوعان: ساعات تعديلية،
وساعات زمانية، قالوا: ويدل على هذا القول، أن
النبي ﷺ إنما بَلَغَ بالساعات إلى ست، ولم يزد
عليها، ولو كانت الساعة أجزاءً صغاراً من الساعة
التي تُفعل فيها الجمعة، لم تنحصر في ستة أجزاء،
بخلاف ما إذا كان المرادُ بها الساعات المعمودة،
فإن الساعة السادسة متى خرجت، ودخلت السابعة،
خرج الإمام، وطُويت الصحف، ولم يُكتب لأحد
قربان بعد ذلك، كما جاء مصرحاً به في «سنن أبي
داود» من حديث علي رضي الله عنه، عن
النبي ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، غَدَتِ الشَّيَاطِينُ
بِرَايَاتِهَا إِلَى الْأَسْوَاقِ، فَيَرْمُونَ النَّاسَ بِالتَّرَائِبِ أَوْ
الرَّيَائِبِ وَيُطْطَوْنَ عَنْ الْجُمُعَةِ، وَتَعْدُو الْمَلَائِكَةُ،
فَتَجْلِسُ عَلَى أَبْوَابِ الْمَسَاجِدِ، فَيَكْتُبُونَ الرَّجُلَ مِنْ
سَاعَةٍ، وَالرَّجُلَ مِنْ سَاعَتَيْنِ حَتَّى يَخْرُجَ الْإِمَامُ»^(١)
[أبو داود: ١٠٥١].

قال أبو عمر بن عبد البر: اختلف أهل العلم في
تلك الساعات، فقالت طائفة منهم: أراد الساعات
من طلوع الشمس وصفاتها، والأفضل عندهم التَّكْبِيرُ

في ذلك الوقت إلى الجمعة، وهو قولُ الثوري، وأبي
حنيفة والشافعي، وأكثر العلماء، بل كلهم يستحب
البكور إليها.

قال الشافعي رحمه الله: ولو بكر إليها بعد
الفجر، وقبل طلوع الشمس، كان حسناً. وذكر
الأثرم قال: قيل لأحمد ابن حنبل: كان مالك بن
أنس يقول: لا ينبغي التهجير يوم الجمعة باكراً،
فقال: هذا خلاف حديث النبي ﷺ. وقال:
سيحان الله إلى أي شيء ذهب في هذا، والنبي ﷺ
يقول: «كالمُهْدِي جُزُوراً». قال: وأما مالك فذكر
يحيى بن عمر، عن حرملة، أنه سأل ابن وهب عن
تفسير هذه الساعات: أهو الغدو من أول ساعات
النهار، أو إنما أراد بهذا القول ساعات الرواح؟ فقال
ابن وهب: سألت مالكا عن هذا، فقال: أما الذي
يقع بقلبي، فإنه إنما أراد ساعة واحدة تكون فيها هذه
الساعات، من راح من أول تلك الساعة، أو الثانية،
أو الثالثة، أو الرابعة، أو الخامسة، أو السادسة. ولو
لم يكن كذلك، ما صَلَّيْتَ الْجُمُعَةَ حَتَّى يَكُونَ النَّهَارُ
تَسَعُ ساعات في وقت العصر، أو قريباً من ذلك.
وكان ابن حبيب يُنكر قول مالك هذا، ويميل إلى
القول الأول، وقال: قول مالك هذا تحريف في
تأويل الحديث، ومحال من وجوه. وقال: يذُّك أنه
لا يجوز ساعات في ساعة واحدة: أن الشمس إنما
تزول في الساعة السادسة من النهار، وهو وقت
الأذان، وخروج الإمام إلى الخطبة، فدل ذلك على
أن الساعات في هذا الحديث هي ساعات النهار
المعروفة، فبدأ بأول ساعات النهار، فقال: من
راح في الساعة الأولى، فكأنما قرب بدنة، ثم قال:
في الساعة الخامسة بيضة، ثم انقطع التهجير، وحان
وقت الأذان، فشرح الحديث بين في لفظه، ولكنه
حُرِّفَ عن موضعه، وُشِّرَحَ بالخُلف من القول، وما
لا يكون، وزُغِدَ شارحُه الناسَ فيما رغبهم فيه
رسولُ الله ﷺ من التهجير من أول النهار، وزعم أن
ذلك كله إنما يجتمع في ساعة واحدة قرب زوال
الشمس، قال: وقد جاءت الآثار بالتهجير إلى

(١) قوله: بالرباثة أي: يذكرونهم الحاجات، ليربثوهم بها عن الجمعة.

الجمعة في أول النهار، وقد سُقنا ذلك في موضعه من كتاب «واضح السنن» بما فيه بيان وكفاية.

هذا كله قول عبد الملك بن حبيب، ثم رد عليه أبو عمر، وقال: هذا تحامل منه على مالك رحمه الله تعالى، فهو الذي قال القول الذي أنكره وجعله خُلُفاً وتحريفاً من التأويل، والذي قاله مالك تشهد له الآثار الصحاح من رواية الأئمة، ويشهد له أيضاً العمل بالمدينة عنده، وهذا مما يصح فيه الاحتجاج بالعمل، لأنه أمر يتردد كل جمعة لا يخفى على عامة العلماء. فمن الآثار التي يحتج بها مالك، ما رواه الزهري عن سعيد بن المسيّب، عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، قَامَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ مَلَائِكَةٌ، يَكْتُبُونَ النَّاسَ، الْأَوَّلَ فَلِأَوَّلٍ، فَالْمُهْجَرُ إِلَى الْجُمُعَةِ كَالْمُهْدِي بِدَنَّةٍ، ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ كَالْمُهْدِي بِقَرَّةٍ، ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ كَالْمُهْدِي كَبْشًا، حَتَّى ذَكَرَ الدَّجَاجَةَ وَالْبَيْضَةَ، فَإِذَا جَلَسَ الْإِمَامُ، طَوَيْتِ الصُّحُفَ، وَاسْتَمَعُوا الْخُطْبَةَ» [البخاري: ٩٢٩]. قال: ألا ترى إلى ما في هذا الحديث، فإنه قال: يكتبون الناس الأول فالأول، فالمهجر إلى الجمعة كالمهدي بدنة، ثم الذي يليه فجعل الأول مهجراً، وهذه اللفظة إنما هي مأخوذة من الهاجرة والتهجير، وذلك وقت النهوض إلى جمعة، وليس ذلك وقت طلوع الشمس، لأن ذلك الوقت ليس بهجرة ولا تهجير، وفي الحديث: «ثم الذي يليه، ثم الذي يليه». ولم يذكر الساعة. قال: والطرق بهذا اللفظ كثيرة، مذكرة في «التمهيد»، وفي بعضها: «المتعجل إلى الجمعة كالمهدي بدنة». وفي أكثرها: «المهجر كالمهدي جزوراً» الحديث. وفي بعضها ما يدل على أنه جعل الرائج إلى الجمعة في أول الساعة كالمهدي بدنة، وفي آخرها كذلك، وفي أول الساعة الثانية كالمهدي بقرة، وفي آخرها كذلك. وقال بعض أصحاب الشافعي: لم يرد ﷺ بقوله: «المهجر إلى الجمعة كالمهدي بدنة»، الناهض إليها في الهجير والهجرة، وإنما أراد التارك لأشغاله وأعماله من أغراض أهل الدنيا للنهوض إلى

الجمعة، كالمهدي بدنة، وذلك مأخوذ من الهجرة وهو ترك الوطن، والنهوض إلى غيره، ومنه سمي المهاجرون. وقال الشافعي رحمه الله: أحبّ التذكير إلى الجمعة، ولا تؤتى إلا مشياً. هذا كله كلام أبي عمر.

قلت: ومدار إنكار التذكير أول النهار على ثلاثة أمور، أحدها: على لفظة الرواح، وإنها لا تكون إلا بعد الزوال، والثاني: لفظة التهجير، وهي إنما تكون بالهجرة وقت شدة الحر، والثالث: عمل أهل المدينة، فإنهم لم يكونوا يأتون من أول النهار.

(قد باتي الرواح بمعنى الذهاب)

فأما لفظة الرواح، فلا ريب أنها تطلق على المضي بعد الزوال، وهذا إنما يكون في الأكثر إذا قرئت بالغدو، كقوله تعالى: «غَدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ» [سَبَأ: ١٢]، وقوله ﷺ: «مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ وَرَاحَ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ تَرْلاً فِي الْحَبَّةِ كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ» [البخاري: ٦٦٦، ومسلم: ١٥٢٤]. وقول الشاعر:

نَرُوحُ وَنَغْدُو لِحَاجَاتِنَا

وَحَاجَةٌ مِنْ عَاشٍ لَا تَقْضِي^(١)

وقد يُطلق الرواح بمعنى الذهاب والمضي، وهذا إنما يجيء، إذا كانت مجردة عن الاقتران بالغدو.

وقال الأزهرى في «التهذيب»: سمعت بعض العرب يستعمل الرواح في السير في كل وقت، يقال: راح القوم: إذا ساروا، وغدوا كذلك، ويقول أحدهم لصاحبه: تروح، ويخاطب أصحابه، فيقول: رُوحوا أي: سيروا، ويقول الآخر: ألا تروحون؟ ومن ذلك ما جاء في الأخبار الصحيحة الثابتة، وهو بمعنى المضي إلى الجمعة والخفة إليها، لا بمعنى الرواح بالعشي^(٢).

(قد باتي التهجير بمعنى التذكير)

وأما لفظ التهجير والمهجر، فمن الهجير، والهجرة، قال الجوهري: هي نصف النهار عند اشتداد الحر، تقول منه: هجر النهار، قال امرؤ القيس:

(١) البيت للسلطان السعدي من قصيدة أوردتها الجاحظ في «الحيوان» (٣/٤٧٧). وانظر تخريجها فيه.

(٢) «التهذيب» (٥/٢٢١، ٢٢٢).

لَا سَبَقُوا إِلَيْهِ» أراد به التكبُّرَ إلى جميع الصَّلوات، وهو المضي إليها في أول أوقاتها، قال الأزهرى: وسائر العرب يقولون: هَجَّرَ الرجل: إذا خرج وقت الهاجرة، وروى أبو عبيد عن أبي زيد: هَجَّرَ الرجل: إذا خرج بالهاجرة. قال: وهي نصف النهار. ثم قال الأزهرى: أنشدني المنذري^(٣) فيما روى لثعلب، عن ابن الأعرابي في «نادره» قال: قال جَعْفَةُ بْنُ جَوَّاسِ الرُّبَيْعِيِّ في ناقة:

هَلْ تَذْكُرِينَ قَسَمِي وَنَذْرِي
أَزْمَانَ أَنْتِ بِغُرُوضِ الْجَفْرِ
إِذْ أَنْتِ بِضَرَارٍ جَوَادُ الْحُضْرِ
عَلَيَّ إِنْ لَمْ تَنْهَضِي بِوَقْرِي
بِأَرْبَعِينَ قُدْرَتِ بِقَنْدَرٍ
بِالْحَالِدِيِّ لَا بِصَاعِ حَجْرِ
وَتَضْحَكِي أَيْبَانًا فِي سَفْرِ
يُهَجِّرُونَ بِهَجِيرِ الْفَجْرِ
ثُمَّتَ تَمْشِي لَيْلَهُمْ قَتْسَرِي
يَطْوُونَ أَغْرَاضَ الْفَجَاجِ الْغُبْرِ
طَلِي أَخِي الثَّجْرِ بُرُودَ الثَّجْرِ^(٤)

قال الأزهرى: يُهَجِّرُونَ بهجير الفجر، أي: يبكرون بوقت السَّحَرِ.

وأما كون أهل المدينة لم يكونوا يَرُوحُونَ إلى الجمعة أوَّلَ النهار، فهذا غاية عملهم في زمان مالك رحمه الله، وهذا ليس بحجة، ولا عند مَنْ يقول: إجماعُ أهل المدينة حجة، فإن هذا ليس فيه إلَّا تركُّ الرواح إلى الجمعة من أول النهار، وهذا جائز بالضرورة. وقد يكون اشتغالُ الرجل بمصالحه ومصالح أهله ومعاشه وغير ذلك من أمور دينه ودنياه

فَدَعَهَا وَسَلَّ الهمَّ عنها بِجَسْرَةٍ
ذَمُولٍ إِذَا صَامَ النَّهَارُ وَهَجْرًا^(١)

ويقال: أتينا أهلنا مهجَّرين، أي: في وقت الهاجرة، والتَّهَجِيرُ والتَّهَجُّرُ: السير في الهاجرة، فهذا ما يقرِّره قولُ أهل المدينة.

قال الآخرون: الكلام في لفظ التَّهَجِيرِ، كالكلام في لفظ الرواح، فإنه يطلق ويُراد به التكبُّر.

قال الأزهرى في «التَّهْذِيبِ»: روى مالك، عن سُمَيٍّ، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي التَّهَجِيرِ، لَأَسْتَبَقُوا إِلَيْهِ» [البخاري: ٦١٥].

وفي حديث آخر مرفوع: «المهَجُّرُ إلى الجمعة كالمُهْدِي بِدَنَةٍ» [البخاري: ٩٢٩]. قال: ويذهب كثيرٌ من الناس إلى أن التَّهَجِيرَ في هذه الأحاديث تفعل من الهاجرة وقت الزوال وهو غلط، والصواب فيه ما روى أبو داود المصاحفي، عن الثَّضَرِ بْنِ شُمَيْلٍ، أنه قال: التَّهَجِيرُ إلى الجمعة وغيرها: التكبُّر والمبادرة إلى كل شيء قال: سمعتُ الخليل يقول ذلك، قاله في تفسير هذا الحديث.

قال الأزهرى: وهذا صحيح، وهي لغة أهل الحجاز ومن جاورهم من قيس، قال ليبد:

رَاحَ الْقَطْلِينَ بِهَجْرِ بَعْدَ مَا ابْتَكَرُوا
فَمَا تَوَاصُلُهُ سَلَمَى وَمَا تَذَرُ^(٢)

فقرن الهَجْر بالابتكار، والرواحُ عندهم: الذهاب والمضي، يقال: راح القوم: إذا خَفُوا وَمَرُّوا أَيَّ وقت كان.

وقوله ﷺ: «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي التَّهَجِيرِ،

(١) البيت في ديوانه ص(٦٣).

والجسرة: الناقة الشيطنة، والذمول: التي تسير الذميل وهو سير سريع، ومعنى صام النهار: قام واعتدل، وهجر: من الهاجرة وشدة الحر.

(٢) ديوانه ص(٤٥).

(٣) هو محمد بن جعفر أبو الفضل المنذري الهروي اللغوي الأديب أخذ العربية عن ثعلب والمبرد، وله عدة مصنفات روى عن الأزهرى توفي (٣٢٩هـ) «معجم الأديباء» (٩٩/١).

(٤) «التَّهْذِيبُ» (٤٣/٦)، (٤٥)، والجفر: موضع بنجد، وناقة مضرار: إذا كانت تَبْدُ وتركب شقها من النشاط، والوقر: الثقل، والخالدي: ضرب من المكابيل، والأيانق جمع ناقة.

فالأول حتى يخرج الإمام، فإذا خرج الإمام، طَوُّوا صُحُفَهُمْ، فمن جاء بعدُ، جاء لحق الله، لما كُتِبَ عليه، وحقُّ على كُلِّ حَالِمٍ أن يغتسل يومئذ كاعتساله من الجنابة، والصدقة فيه أعظم من الصدقة في سائر الأيام، ولم تطلع الشمس ولم تغرب على مثل يوم الجمعة. فقال ابن عباس: هذا حديث كعب وأبي هريرة، وأنا أرى إن كان لأهله طيبٌ يمسُّ منه [المصنف: ٥٥٥٨].

(يوم تجلي الله فيه لأوليائه في الجنة)

السادسة والعشرون: أنه يوم يتجلى الله عز وجل فيه لأوليائه المؤمنين في الجنة، وزيارتهم له، فيكون أقربهم منهم أقربهم من الإمام، وأسبغهم إلى الزيارة أسبغهم إلى الجمعة. وروى يحيى بن يمان، عن شريك، عن أبي اليقظان، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، في قوله عز وجل: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]. قال: يتجلى لهم في كل جمعة^(١).

وذكر الطبراني في «معجمه» من حديث أبي نعيم المسعودي، عن المنهال بن عمرو، عن أبي عبيدة قال: قال عبد الله: سارعوا إلى الجمعة، فإن الله عز وجل يبرز لأهل الجنة في كل جمعة في كتف من كأفور فيكونون منه في القرب على قدر تسارعهم إلى الجمعة، فيحدث الله سبحانه لهم من الكرامة شيئاً لم يكونوا قد رأوه قبل ذلك، ثم يرجعون إلى أهلهم، فيحدثونهم بما أحدث الله لهم. قال: ثم دخل عبد الله المسجد، فإذا هو برجلين، فقال عبد الله: رجلان وأنا الثالث، إن يشأ الله يبارك في الثالث [الهيثم في «مجمع الزوائد» (١٧٨/٢)].

وذكر البيهقي في «الشعَب» عن علقمة بن قيس قال: رُحْتُ مع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه إلى جمعة، فوجد ثلاثة قد سبقوه، فقال: رابع أربعة، وما رابع أربعة ببعيد. ثم قال: إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ النَّاسَ يَجْلِسُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ اللَّهِ عَلَى قَدَرِ رَوَاجِهِمْ إِلَى الْجُمُعَةِ، الأول، ثُمَّ الثاني، ثُمَّ الثالث، ثُمَّ الرابع». ثم قال: وَمَا أَرْبَعُ

أَفْضَلَ مِنْ رَوَاحِهِ إِلَى الْجُمُعَةِ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ، وَلَا رَبَّ أَنْ أَنْتَظَرَ الصَّلَاةَ بَعْدَ الصَّلَاةِ، وَجُلُوسَ الرَّجُلِ فِي مَصْلَاهُ حَتَّى يُصَلِّيَ الصَّلَاةَ الْآخَرَى، أَفْضَلُ مِنْ ذَهَابِهِ وَعُودِهِ فِي وَقْتِ آخَرٍ لِلثَّانِيَةِ، كَمَا قَالَ ﷺ: «وَالَّذِي يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ، ثُمَّ يُصَلِّيَهَا مَعَ الْإِمَامِ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يُصَلِّي، ثُمَّ يَرُوحُ إِلَى أَهْلِهِ» [البخاري: ٦٥١، ومسلم: ١٥١٣]. وأخبر: أن الملائكة لم تزل تُصلي عليه ما دام في مُصْلَاهُ [البخاري: ٦٥٩]. وأخبر: أن انتظار الصلاة بعد الصلاة، مما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات، وأنه الرِّبَاطُ [مسلم: ٥٨٧]. وأخبر: أن الله يباهي ملائكته بمن قضى فريضة وجلس ينتظرُ أُخْرَى [ابن ماجه: ٨٠١]. وهذا يدل على أن من صلى الصبح، ثم جلس ينتظر الجمعة، فهو أفضل ممن يذهب، ثم يجيء في وقتها، وكون أهل المدينة وغيرهم لا يفعلون ذلك، لا يدل على أنه مكروه، فهكذا المجيء إليها والتبكير في أول النهار، والله أعلم.

الخامسة والعشرون: أن للصدقة فيه مزية عليها في سائر الأيام، والصدقة فيه بالنسبة إلى سائر أيام الأسبوع، كالصدقة في شهر رمضان بالنسبة إلى سائر الشهور. وشاهدت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه، إذا خرج إلى الجمعة يأخذ ما وجد في البيت من خبز أو غيره، فيصدق به في طريقه سراً، وسمعتُه يقول: إذا كان الله قد أمرنا بالصدقة بين يدي مناجاة رسول الله ﷺ، فالصدقة بين يدي مناجاته تعالى أفضل وأولى بالفضيلة. وقال أحمد بن زهير بن حرب: حدثنا أبي، حدثنا جرير، عن منصور، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: اجتمع أبو هريرة، وكعب، فقال أبو هريرة: إن في الجمعة لساعة لا يُوافقها رجلٌ مسلم في صلاة يسأل الله عز وجل شيئاً إلا آتاه إياه، فقال كعب: أنا أحدثكم عن يوم الجمعة، إنه إذا كان يوم الجمعة فُرِغَتْ له السماوات والأرض، والبر، والبحر، والجبال، والشجر، والخلائق كلها، إلا ابن آدم والشياطين، وحقت الملائكة بأبواب المسجد، فيكتبون من جاء الأول

(١) يحيى بن يمان، وشريك القاضي، وشيخه ثلاثتهم ضعفاء، وذكره ابن كثير في «التفسير» (٢٢٨/٤) من رواية البزار وابن أبي حاتم.

عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فَيَقُولُ: أَنَا الَّذِي صَدَقْتُكُمْ وَعَدِّي، وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، وَهَذَا مَحَلُّ كَرَامَتِي فَسَلُونِي، فَيَسْأَلُونَهُ الرَّضَى. قَالَ: رَضَايَ أَنْزَلُكُمْ دَارِي، وَأُنَالِكُمْ كَرَامَتِي، فَسَلُونِي، فَيَسْأَلُونَهُ الرَّضَى. قَالَ: فَيَشْهَدُ لَهُمْ بِالرَّضَى، ثُمَّ يَسْأَلُونَهُ حَتَّى تَنْتَهِيَ رَغْبَتُهُمْ، ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ مَا لَا عَيْنَ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. قَالَ: ثُمَّ يَرْتَفِعُ رَبُّ الْعِزَّةِ، وَيَرْتَفِعُ مَعَهُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ، وَيَجِيءُ أَهْلُ الْغُرَفِ إِلَى غُرَبِهِمْ. قَالَ: كُلُّ غُرْفَةٍ مِنْ لُؤْلُؤَةٍ لَا وَضَلَ فِيهَا وَلَا فَضَمَ، يَأْقُوتهُ حَمَرَاءُ، وَغُرْفَةٌ مِنْ زَبَرَجَدٍ خَضَرَاءُ، أَبْوَابُهَا وَعَلَالِيهَا وَسَقَائِفُهَا وَأَعْلَافُهَا مِنْهَا، أَنْهَارُهَا مَطَرٌ مُتَدَلِّةٌ، فِيهَا أَثْمَارُهَا، فِيهَا أَرْوَاجُهَا وَخَدَمُهَا. قَالَ: فَلْيَسُوا إِلَى شَيْءٍ أَخْرَجَ مِنْهُمْ إِلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ لِيُزَادُوا مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ، فَذَلِكَ يَوْمُ الْمَزِيدِ [الشافعي بنحوه (١/١٤٨)، و«الدر المنثور» (٦/ ١٠٨)].

ولهذا الحديث عدة طرق، ذكرها أبو الحسن الدارقطني في كتاب «الرؤية».

(هو الشاهد في قوله تعالى: «وشاهد ومشهود»)

السابعة والعشرون: أنه قد فُسِّرَ الشاهد الذي أقسم الله به في كتابه يوم الجمعة، قال حميد بن زنجويه: حدثنا عبد الله بن موسى، أنبأنا موسى بن عبيدة، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اليَوْمُ الْمَوْعُودُ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَالْيَوْمُ الْمَشْهُودُ: هُوَ يَوْمُ عَرَفَةَ، وَالشَّاهِدُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ، وَلَا غَرَبَتْ عَلَى أَفْضَلٍ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَفَّقُهَا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ يَدْعُو اللَّهَ فِيهَا بِخَيْرٍ إِلَّا اسْتَجَابَ لَهُ، أَوْ يَسْتَعِيذُهُ مِنْ شَرٍّ إِلَّا أَعَادَهُ مِنْهُ» [الترمذي: ٣٣٣٦].

ورواه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده»، عن روح، عن موسى بن عبيدة.

وفي «معجم الطبراني» من حديث محمد بن

قال الدارقطني في كتاب «الرؤية»: حدثنا أحمد بن سلمان بن الحسن، حدثنا محمد بن عثمان بن محمد، حدثنا مروان بن جعفر، حدثنا نافع أبو الحسن مولى بني هاشم، حدثنا عطاء بن أبي ميمونة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، رَأَى الْمُؤْمِنُونَ رَبَّهُمْ، فَأَخَذَتْهُمْ عَهْدًا بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ مَنْ بَكَرَ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ، وَتَرَاهُ الْمُؤْمِنَاتُ يَوْمَ الْفِطْرِ وَيَوْمَ النَّحْرِ»^(١).

حدثنا محمد بن نوح، حدثنا محمد بن موسى بن سفيان السكري، حدثنا عبد الله بن الجهم الرازي، حدثنا عمرو بن أبي قيس، عن أبي طيبة، عن عاصم، عن عثمان بن عمير أبي اليقظان، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «أَتَانِي جِبْرِيلُ وَفِي يَدِهِ كَالْمِرْآةِ الْبَيْضَاءِ فِيهَا كَالْتَكْتَةِ السُّودَاءِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذِهِ الْجُمُعَةُ يَغْرُسُهَا اللَّهُ عَلَيْكَ لِتَكُونَ لَكَ عِيدًا وَلِقَوْمِكَ مِنْ بَعْدِكَ، قُلْتُ: وَمَا لَنَا فِيهَا؟ قَالَ: لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ، أَنْتَ فِيهَا الْأَوَّلُ، وَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى مِنْ بَعْدِكَ، وَلَكَ فِيهَا سَاعَةٌ لَا يَسْأَلُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَبْدٌ فِيهَا شَيْئًا هُوَ لَهُ قَسَمٌ إِلَّا أَغْطَاهُ، أَوْ لَيْسَ لَهُ قَسَمٌ إِلَّا أَغْطَاهُ أَفْضَلَ مِنْهُ، وَأَعَادَهُ اللَّهُ مِنْ شَرِّ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ، وَإِلَّا دَفَعَ عَنْهُ مَا هُوَ أَغْظَمُ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: قُلْتُ: وَمَا هَذِهِ التَّكْتَةُ السُّودَاءُ؟ قَالَ: هِيَ السَّاعَةُ تَقُومُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَهُوَ عِنْدَنَا سَيِّدُ الْأَيَّامِ، وَيَذْعُوهُ أَهْلُ الْآخِرَةِ يَوْمَ الْمَزِيدِ. قَالَ: قُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ! وَمَا يَوْمُ الْمَزِيدِ؟ قَالَ: ذَلِكَ أَنْ رَبَّكَ عَزَّ وَجَلَّ اتَّخَذَ فِي الْحَيَّةِ وَادِيًا أَفْنَحَ مِنْ مِسْكِ أَتَيْصَ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، نَزَلَ عَلَى كُرْسِيِّهِ، ثُمَّ حُفَّتِ الْكُرْسِيُّ بِمَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، فَيَجِيءُ النَّبِيُّونَ حَتَّى يَجْلِسُوا عَلَيْهَا، ثُمَّ حُفَّتِ الْمَنَابِرُ بِمَنَابِرَ مِنْ ذَهَبٍ، فَيَجِيءُ الصُّدِّيْقُونَ وَالشُّهَدَاءُ حَتَّى يَجْلِسُوا عَلَيْهَا، وَيَجِيءُ أَهْلُ الْغُرَفِ حَتَّى يَجْلِسُوا عَلَى الْكُتُبِ، قَالَ: ثُمَّ يَتَجَلَّى لَهُمْ رَبُّهُمْ

إسماعيل بن عياش، حدثني أبي، حدثني ضَمُص بن زرعة، عن شُريح بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «الْيَوْمُ الْمَوْعُودُ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَالشَّاهِدُ: يَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَالْمَشْهُودُ: يَوْمُ عَرَفَةَ، وَيَوْمُ الْجُمُعَةِ ذَخَرَهُ اللَّهُ لَنَا، وَصَلَاةُ الْوُسْطَى: صَلَاةُ الْعَصْرِ»^(١). وقد روي من حديث جُبَيْر بن مطعم [ذكره السيوطي (٣٣٢/٦)].

قلت: والظاهر - والله أعلم -: أنه من تفسير أبي هريرة، فقد قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شُعبة: سمعت علي بن زيد ويونس بن عبيد يحدثان، عن عمار مولى بني هاشم، عن أبي هريرة، أما علي بن زيد، فرفعه إلى النبي، وأما يونس، فلم يُعَدَّ أبا هريرة أنه قال: في هذه الآية: ﴿وَتَأْخِذُ مَشْهُودٍ﴾ قال: الشَّاهِدُ: يوم الجمعة، والمشهودُ: يومُ عَرَفَةَ، والموعودُ: يوم القيامة [سند قوي: أحمد: ١٧٩٧٢].

(هو اليوم الذي تفرغ فيه الخلائق إلا الإنسان والجن)

الثامنة والعشرون: أنه اليوم الذي تفرغ منه السماوات والأرض، والجبال والبحار، والخلائق كلها إلا الإنسان والجن، فروى أبو الجواب، عن عَمَّار بن زريق، عن منصور، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: اجتمع كعب وأبو هريرة، فقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجُمُعَةِ لَسَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ فِيهَا خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ». فَقَالَ كَعْبٌ: «إِلَّا أَحَدُكُمْ عَنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، إِنَّهُ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فَرِغَتْ لَهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْجِبَالُ وَالْبَحَارُ، وَالْخَلَائِقُ كُلُّهَا إِلَّا ابْنَ آدَمَ وَالشَّيَاطِينَ، وَحُفَّتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَبْوَابِ الْمَسَاجِدِ، فَيَكْتُبُونَ الْأَوَّلَ فَلِأَوَّلٍ حَتَّى يَخْرُجَ الْإِمَامُ، فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ، طَوَّأُوا صُحُفَهُمْ، وَمَنْ جَاءَ بَعْدَ جَاءَ لِحَقِّ اللَّهِ، وَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِ، وَيَحِقُّ عَلَى كُلِّ حَالِمٍ أَنْ

يَغْتَسِلَ فِيهِ، كَاغْتِسَالِهِ مِنَ الْجَنَابَةِ، وَالصَّدَقَةُ فِيهِ أَفْضَلُ مِنَ الصَّدَقَةِ فِي سَائِرِ الْأَيَّامِ، وَلَمْ تَطْلُعِ الشَّمْسُ وَلَمْ تَغْرُبْ عَلَى يَوْمِ كَيِّومِ الْجُمُعَةِ». قال ابن عباس: هذا حديث كعب وأبي هريرة، وأنا أرى من كان لأهله طيب أن يمَسَّ منه يومئذ [صحیح: عبد الرزاق: ٥٥٥٨].

وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «لَا تَطْلُعِ الشَّمْسُ وَلَا تَغْرُبُ عَلَى يَوْمٍ أَفْضَلَ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَمَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا وَهِيَ تَفْرُغُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ إِلَّا هَذَيْنِ الثَّقَلَيْنِ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ»، وهذا حديث صحيح [ابن حبان: ٥٥١]. وذلك أنه اليوم الذي تقوم فيه الساعة، ويُطوى العالم، وتُخَرَّبُ فيه الدنيا، ويُبعث فيه الناس إلى منازلهم من الجنة والنار.

(واليوم الذي هلك الله هذه الأمة له)

التاسعة والعشرون: أنه اليوم الذي أذخره الله لهذه الأمة، وأصل عنه أهل الكتاب قبلهم، كما في «الصحيح» من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «مَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ، وَلَا غَرَبَتْ عَلَى يَوْمٍ خَيْرٍ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، هَذَا اللَّهُ لَهُ، وَصَلَّى النَّاسُ عَنْهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، هُوَ لَنَا، وَلِلْيَهُودِ يَوْمُ النَّبِيِّ، وَلِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ» [مسلم: ١٩٨٢]. وفي حديث آخر «ذخره الله لنا».

وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عاصم، عن حُصَيْن بن عبد الرحمن، عن عمر بن قيس، عن محمد بن الأشعث، عن عائشة قالت: بينا أنا عند النبي ﷺ، إذ استأذن رجلٌ من اليهود، فأذن له، فقال: السَّامُ عَلَيْكَ، قال النبي ﷺ: «وَعَلَيْكَ». قالت: فَهَمَمْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ، قالت: ثم دخل الثانية، فقال مثل ذلك، فقال النبي ﷺ: «وَعَلَيْكَ»، قالت: فَهَمَمْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ، ثم دخل الثالثة، فقال: السَّامُ عَلَيْكُمْ، قالت فقلت: بل السَّامُ عَلَيْكُمْ، وَغَضِبَ اللَّهُ، إِخْوَانُ الْقُرْدَةِ وَالْخَنَازِيرِ، أَتُحِبُّونَ رَسُولَ اللَّهِ بِمَا لَمْ يُحِبِّهِ بِهِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. قالت: فنظر إليَّ فقال:

(١) محمد بن إسماعيل بن عياش عابوا عليه أنه لم يسمع من أبيه، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٣٥/٧) في تفسير سورة البروج وقال: وفيه محمد بن إسماعيل بن عياش وهو ضعيف. وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٣٣٢/٦)، وزاد نسبه لابن جرير (١٢٩/٣٠) والطبراني.

«مَهْ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ، قَالُوا قَوْلًا فَرَدَدْنَاهُ عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَضُرُّنَا شَيْئًا، وَلَزِمَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، إِنَّهُمْ لَا يَحْسُدُونَنَا عَلَى شَيْءٍ كَمَا يَحْسُدُونَنَا عَلَى الْجُمُعَةِ الَّتِي هَدَانَا اللَّهُ لَهَا، وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَى الْقَبِيلَةِ الَّتِي هَدَانَا اللَّهُ لَهَا، وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَى قَوْلِنَا خَلَفَ الْإِمَامُ: آمِينَ» [حسن: أحمد: ٢٥٠٢٩].

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَيِّدَ أَنْتَهُمْ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، وَأَوْتَيْنَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَهَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَدَانَا اللَّهُ لَهُ، قَالَتُنَّ لَنَا فِيهِ نَبَّحَ، الْيَهُودُ عَدَا، وَالنَّصَارَى بَعْدَ عَدِيٍّ» [البخاري: ٨٧٦، ومسلم: ١٩٨١].

وفي «بيد» لعتان: بالباء، وهي المشهورة، وميِّد بالميم، حكاهما أبو عبيد. وفي هذه الكلمة قولان، أحدهما: أنها بمعنى «غير» وهو أشهر معنيها، والثاني: بمعنى «على» وأنشد أبو عبيد شاهداً له: عَمْدًا فَعَلْتُ ذَاكَ بَيِّدَ أَتِي

إِخَالٌ لَوْ هَلَكْتُ لَمْ تَرْنِي^(١)

تَرْنِي: تفعلي من الرنين.

(خبرة الله من أيام الأسبوع)

الثلاثون: أنه خبرة الله من أيام الأسبوع، كما أن شهر رمضان خيرته من شهور العام، وليلة القدر خيرته من الليالي، ومكة خيرته من الأرض، ومحمد ﷺ خيرته من خلقه.

(فيه تدنو أرواح الموتى من قبورهم)

قال آدم بن أبي إياس: حدثنا شيبان أبو معاوية، عن عاصم بن أبي النجود، عن أبي صالح، عن كعب الأحبار قال: إن الله عز وجل اختار الشهور، واختار شهر رمضان، واختار الأيام، واختار يوم الجمعة، واختار الليالي، واختار ليلة القدر، واختار

الساعات، واختار ساعة الصلاة، والجمعة تكفر ما بينها وبين الجمعة الأخرى، وتزيد ثلاثاً، ورمضان يكفر ما بينه وبين رمضان، والحج يكفر ما بينه وبين الحج، والعمرة تكفر ما بينها وبين العمرة، ويموت الرجل بين حستين: حسنة قضاها، وحسنة ينتظرها يعني صلاتين، وتصفد الشياطين في رمضان، وتغلق أبواب النار، وتفتح فيه أبواب الجنة، ويقال فيه: يا باغي الخير: هلم. رمضان أجمع، وما من ليل أحب إلى الله العمل فيها من ليلي العشر.

الحادية والثلاثون: إن الموتى تدنو أرواحهم من قبورهم، وتوافيها في يوم الجمعة، فيعرفون زوارهم ومن يمر بهم، ويسلم عليهم، ويلقاهم في ذلك اليوم أكثر من معرفتهم بهم في غيره من الأيام، فهو يوم تلتقي فيه الأحياء والأموات، فإذا قامت فيه الساعة، التقى الأولون والآخرين، وأهل الأرض وأهل السماء، والرب والعبد، والعامل وعمله، والمظلوم وظالمه، والشمس والقمر، ولم تلتقيا قبل ذلك قط، وهو يوم الجمع واللقاء، ولهذا يلتقي الناس فيه في الدنيا أكثر من التقائهم في غيره، فهو يوم التلاق. قال أبو التياح يزيد بن حميد: كان مطرف بن عبد الله يبادر فيدخل كل جمعة، فأدلى حتى إذا كان عند المقابر يوم الجمعة، قال: فرأيت صاحب كل قبر جالساً على قبره، فقالوا: هذا مطرف يأتي الجمعة، قال: فقلت لهم: وتعلمون عندكم الجمعة؟ قالوا: نعم، ونعلم ما تقول فيه الطير، قلت: وما تقول فيه الطير؟ قالوا: تقول: رب سلم سلم يوم صالح^(٢).

وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب «المنامات» وغيره، عن بعض أهل عاصم الجحدري، قال: رأيت عاصماً الجحدري في منامي بعد موته لستين فقلت: أليس قد ميت؟ قال: بلى، قلت: فأين أنت؟ قال: أنا والله في روضة من رياض الجنة، أنا ونفرت من

(١) البيت في اللسان: رنن، ويبد، وأنشده ابن هشام في «المغني» ص (١٥٦) وانظر تخريجه وشرحه في «شرح شواهد المغني» (٢٣/٣) للبغدادى تحقيق عبد العزيز رباح، وأحمد الدقاق.

(٢) وأورده المصنف رحمه الله في كتابه «الروح» ص (٥، ٦) عن «كتاب القبور» لابن أبي الدنيا من طريق خالد بن خدّاش، ثنا جعفر بن سليمان، عن أبي التياح...

أصحابي، نجتمع كل ليلة جمعة وصيحتها إلى بكر بن عبد الله المزني، فتلقي أخباركم. قلت: أجسامكم أم أرواحكم؟ قال: هيهات بليت الأجسام، وإنما تتلاقى الأرواح، قال: قلت: فهل تعلمون بزيارتنا لكم؟ قال: نعلم بها عشية الجمعة، ويوم الجمعة كله، وليلة السبت إلى طلوع الشمس. قال: قلت: فكيف ذلك دون الأيام كلها؟ قال: لفضل يوم الجمعة وعظمته.

وذكر ابن أبي الدنيا أيضاً، عن محمد بن واسع: أنه كان يذهب كل غداة سبت حتى يأتي الجبانة، فيقف على القبور، فيسلم عليهم، ويدعو لهم، ثم ينصرف. فقيل له: لو صيرت هذا اليوم يوم الاثنين. قال: بلغني أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة، ويوماً قبله، ويوماً بعده.

وذكر عن سفيان الثوري قال: بلغني عن الضحاک أنه قال: من زار قبراً يوم السبت قبل طلوع الشمس، علم الميت بزيارته. فقيل له: كيف ذلك؟ قال: لمكان يوم الجمعة^(١).

(يكره إفراده بالصوم)

الثانية والثلاثون: أنه يكره إفراد يوم الجمعة بالصوم، هذا منصوص أحمد، قال الأثرم: قيل لأبي عبد الله: صيام يوم الجمعة؟ فذكر حديث النهي عن أن يُفرد، ثم قال: إلا أن يكون في صيام كان يصومه، وأما أن يُفرد، فلا. قلت: رجل كان يصوم يوماً، ويُفطر يوماً، فوقع فطره يوم الخميس، وصومه يوم الجمعة، وفطره يوم السبت، فصار الجمعة مفرداً؟ قال: هذا إلا أن يتعمد صومه خاصة، إنما كره أن يتعمد الجمعة.

وأباح مالك، وأبو حنيفة صومه كسائر الأيام، قال مالك: لم أسمع أحداً من أهل العلم والفقه ومن يقتدى به ينهى عن صيام يوم الجمعة، وصيامه حسن،

وقد رأيت بعض أهل العلم يصومه، وأراه كان يتحراه. قال ابن عبد البر: اختلفت الآثار عن النبي ﷺ في صيام يوم الجمعة، فروى ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان يصوم ثلاثة أيام من كل شهر، وقال: قلماً رأيت مفطراً يوم الجمعة -حسن: أحمد: ٣٨٦٠، وأبو داود: ٢٤٥٠، والترمذي: ٧٤٢، والنسائي: ٢٠٤/٤. وهذا حديث صحيح. وقد روي عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنه قال: ما رأيت رسول الله ﷺ يُفطر يوم الجمعة قط. ذكره ابن أبي شبة، عن حفص بن غياث، عن ليث بن أبي سليم، عن عمير بن أبي عمير، عن ابن عمر^(٢).

وروى ابن عباس، أنه كان يصومه ويؤاظب عليه. وأما الذي ذكره مالك، فيقولون: إنه محمد بن المنكدر. وقيل: صفوان بن سليم.

وروى الدراوردي، عن صفوان بن سليم، عن رجل من بني جشم، أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَامَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، كُتِبَ لَهُ عَشْرَةُ أَيَّامٍ غُرَّرَ زَهْرٌ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ لَا يُشَاكِلُهُنَّ أَيَّامُ الدُّنْيَا»^(٣).

والأصل في صوم يوم الجمعة أنه عمل بر لا يمنع منه إلا بدليل لا معارض له.

قلت: قد صح المعارض صحة لا مطعن فيها البتة، ففي «الصحيحين» عن محمد بن عباد قال: سألت جابراً: أنهى رسول الله ﷺ عن صيام يوم الجمعة؟ قال: نعم [البخاري: ١٩٨٤، ومسلم: ٢٦٨١].

وفي «صحيح مسلم» عن محمد بن عباد قال: سألت جابر بن عبد الله، وهو يظوف بالبيت: أنهى رسول الله ﷺ عن صيام يوم الجمعة؟ قال: نعم ورب هذه البيعة [مسلم: ٢٨٢٢].

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا يَصُومُنَّ أَحَدُكُمْ يَوْمَ

(١) ذكر هذه الأخبار المؤلف في «كتاب الروح» ص(٥).

(٢) ليث بن أبي سليم ضعيف، وعمير بن أبي عمير مجهول، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٢٠٠/٣) بمعناه، وقال: رواه أبو يعلى واليزار وفيه الحسن بن أبي جعفر وهو ضعيف.

(٣) الدراوردي هو عبد العزيز كان يحدث من كتب غيره فيخطئ، والرجل من بني جشم مجهول.

الْجُمُعَةُ إِلَّا أَنْ يَصُومَ يَوْمًا قَبْلَهُ، أَوْ يَوْمًا بَعْدَهُ.
واللفظ للبخاري [البخاري: ١٩٨٥، ومسلم: ٢٦٨٣].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لَا تَحْصُوا لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ بِقِيَامٍ مِنْ بَيْنِ اللَّيَالِي، وَلَا تَحْصُوا يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِصِيَامٍ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأَيَّامِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِي صَوْمٍ يَصُومُهُ أَحَدُكُمْ» [مسلم: ٢٦٨٣].

وفي «صحيح البخاري» عن جويرية بنت الحارث: أن النبي ﷺ دخل عليها يوم الجمعة وهي صائمة، فقال: «أَصُمْتَ أَمْسٍ؟» قَالَتْ: لَا. قَالَ: «فَتَرِيدِينَ أَنْ تَصُومِي غَدًا؟» قَالَتْ: لَا. قَالَ: «فَأَفْطِرِي» [البخاري: ١٩٨٦].

وفي «مسند أحمد» عن ابن عباس، أن النبي ﷺ قال: «لَا تَصُومُوا يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَحْدَهُ» [أحمد: ٢٦١٥، وفي سنده ضعف].

وفي «مسنده» أيضاً عن جُنَادَةَ الْأَزْدِيِّ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ جُمُعَةٍ فِي سَبْعَةٍ مِنَ الْأَزْدِ، أَنَا ثَامِنُهُمْ وَهُوَ يَتَغَدَّى، فَقَالَ: «هَلُمُّوا إِلَى الْغَدَاءِ» فَقَلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّا صِيَامٌ. فَقَالَ: «أَصُمْتُمْ أَمْسٍ؟» قَلْنَا: لَا. قَالَ: «فَتَصُومُونَ غَدًا؟» قَلْنَا: لَا. قَالَ: «فَأَفْطِرُوا». قَالَ: فَآكَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قَالَ: فَلَمَّا خَرَجَ وَجَلَسَ عَلَى الْمَنْبَرِ، دَعَا بِإِنَاءِ مَاءٍ، فَشَرِبَ وَهُوَ عَلَى الْمَنْبَرِ، وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، يُرِيهِمْ أَنَّهُ لَا يَصُومُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ [أحمد (٢٤٠٠٩/٤)، وفي سنده مجهول].

وفي «مسنده» أيضاً، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يَوْمَ الْجُمُعَةِ يَوْمٌ عِيدٌ، فَلَا تَجْعَلُوا يَوْمَ عِيدِكُمْ يَوْمَ صِيَامِكُمْ إِلَّا أَنْ تَصُومُوا قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ» [أحمد: ٨٠٢٥، وفي سنده ضعف].

وذكر ابن أبي شيبة، عن سفيان بن عُيينة، عن عمران بن ظبيان، عن حُكَيْمِ بْنِ سَعْدٍ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: من كان منكم متطوعاً من الشهر أياماً، فليكن في صومه يوم الخميس، ولا يصم يوم الجمعة، فإنه يوم طعام وشراب، وذكر، فيجمع الله له يومين صالحين: يوم صيامه، ويوم نسكه مع المسلمين^(١).

(علة كراهة صوم يوم الجمعة)

وذكر ابن جرير، عن مغيرة، عن إبراهيم: إنهم كرهوا صوم الجمعة لَيَقُومُوا عَلَى الصَّلَاةِ.

قلت: المأخذ في كراهته: ثلاثة أمور، هذا أحدها، ولكن يُشْكَلُ عَلَيْهِ زَوَالُ الْكَرَاهِيَةِ بِضَمِّ يَوْمٍ قَبْلَهُ، أَوْ بَعْدَهُ إِلَيْهِ.

والثاني: أنه يوم عيد، وهو الذي أشار إليه ﷺ، وقد أُورِدَ عَلَى هَذَا التَّعْلِيلِ إِشْكَالَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ صَوْمَهُ لَيْسَ بِحَرَامٍ، وَصَوْمُ يَوْمِ الْعِيدِ حَرَامٌ. وَالثَّانِي: أَنَّ الْكَرَاهِيَةَ تَزُولُ بِعَدَمِ إِفْرَادِهِ، وَأَجِيبَ عَنْ الْإِشْكَالَيْنِ، بِأَنَّهُ لَيْسَ عِيدُ الْعَامِ، بَلْ عِيدُ الْأَسْبُوعِ، وَالتَّحْرِيمُ إِنَّمَا هُوَ لَصَوْمِ عِيدِ الْعَامِ. وَأَمَّا إِذَا صَامَ يَوْمًا قَبْلَهُ، أَوْ يَوْمًا بَعْدَهُ، فَلَا يَكُونُ قَدْ صَامَهُ لِأَجْلِ كَوْنِهِ جُمُعَةً وَعِيدًا، فَتَزُولُ الْمَفْسَدَةُ النَّاشِئَةُ مِنْ تَخْصِيصِهِ، بَلْ يَكُونُ دَاخِلًا فِي صِيَامِهِ تَبْعًا، وَعَلَى هَذَا يَحْمِلُ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مُسْنَدِهِ»، وَالنَّسَائِيُّ، وَالتِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ: «إِنْ صَحَّ قَالَ: قَلَمًا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُقَطِّرُ يَوْمَ جُمُعَةٍ [حسن: أحمد: ٣٨٦٠، وأبو داود: ٢٤٥٠، والتِّرْمِذِيُّ: ٧٤٢، وَالنَّسَائِيُّ (٢٠٤/٤)]. فَإِنْ صَحَّ هَذَا، تَعَيَّنَ حَمْلُهُ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَدْخُلُ فِي صِيَامِهِ تَبْعًا، لَا أَنَّهُ كَانَ يُفْرِدُهُ لَصَحَّةِ النَّهْيِ عَنْهُ. وَأَيْنَ أَحَادِيثُ النَّهْيِ الثَّابِتَةِ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، مِنْ حَدِيثِ الْجَوَّازِ الَّذِي لَمْ يَرَوْهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الصَّحِيحِ، وَقَدْ حَكَمَ التِّرْمِذِيُّ بِغَرَابَتِهِ، فَكَيْفَ تَعَارَضَ بِهِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ الصَّرِيحَةُ، ثُمَّ يُقَدَّمُ عَلَيْهَا؟!

والمأخذ الثالث: سد الذريعة من أن يُلْحَقَ بِالذِّينِ مَا لَيْسَ فِيهِ، وَيُوجِبُ التَّشْبِيهَ بِأَهْلِ الْكِتَابِ فِي تَخْصِيصِ بَعْضِ الْأَيَّامِ بِالتَّجَرُّدِ عَنِ الْأَعْمَالِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَيَنْتَضِمُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى: أَنَّ هَذَا الْيَوْمَ لَمَّا كَانَ ظَاهِرَ الْفَضْلِ عَلَى الْأَيَّامِ، كَانَ الدَّاعِي إِلَى صَوْمِهِ قَوِيًّا، فَهُوَ فِي مَطْلَعِ تَتَابُعِ النَّاسِ فِي صَوْمِهِ، وَاحْتِفَالِهِمْ بِهِ مَا لَا يَحْتَفِلُونَ بِصَوْمِ يَوْمٍ غَيْرِهِ، وَفِي ذَلِكَ الْإِلْحَاقُ بِالْشَّرْعِ مَا لَيْسَ مِنْهُ. وَلِهَذَا أَلْمَعْنَى - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - نَهَى عَنْ تَخْصِيصِ لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ بِالْقِيَامِ مِنْ بَيْنِ اللَّيَالِي، لِأَنَّهَا

(١) عمران بن ظبيان ضعيف.

من أفضل الليالي، حتى فضلها بعضهم على ليلة القدر، وحكى رواية عن أحمد، فهي في مِظَنَّةٍ تخصيها بالعبادة، فحسم الشارح الذريعة، وسدّها بالنهي عن تخصيصها بالقيام. والله أعلم.

فإن قيل: ما تقولون في تخصيص يوم غيره بالصيام؟ قيل: أما تخصيص ما خصه الشارع، كيوم الإثنين، ويوم عرفة، ويوم عاشوراء، فسنة، وأما تخصيص غيره، كيوم السبت، والثلاثاء، والأحد، والأربعاء، فمكروه. وما كان منها أقرب إلى التشبه بالكفار لتخصيص أيام أعيادهم بالتعظيم والصيام، فأشد كراهة، وأقرب إلى التحريم.

(يوم اجتماع الناس وعلة

قراءة سورتي السجدة والدھر في صلاة فجر يوم الجمعة)

الثالثة والثلاثون: إنه يوم اجتماع الناس وتذكيرهم بالمبدأ والمعاد، وقد شرع الله سبحانه وتعالى لكل أمة في الأسبوع يوماً يفرغون فيه للعبادة، ويجتمعون فيه لتذكّر المبدأ والمعاد، والثواب والعقاب، ويتذكرون به اجتماعهم يوم الجمع الأكبر قياماً بين يدي رب العالمين، وكان أحق الأيام بهذا الغرض المطلوب اليوم الذي يجمع الله فيه الخلائق، وذلك يوم الجمعة، فأذخره الله لهذه الأمة لفضلها وشرفها، فشرع اجتماعهم في هذا اليوم لطاعته، وقدر اجتماعهم فيه مع الأمم لنيل كرامته، فهو يوم الاجتماع شرعاً في الدنيا، وقدر في الآخرة، وفي مقدار انتصافه وقت الخطبة والصلاة يكون أهل الجنة في منازلهم، وأهل النار في منازلهم، كما ثبت عن ابن مسعود من غير وجه أنه قال: لا يتتصف النهار يوم القيامة حتى يقبل أهل الجنة في منازلهم، وأهل النار في منازلهم، وقرأ ﴿أَصْحَبُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤] وقرأ: (ثُمَّ إِنَّهُمْ مُقِيلُهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ)^(١)، وكذلك هي في قراءته. ولهذا كون الأيام سبعة إنما تعرفه الأمم التي لها كتاب، فأما أمة لا كتاب لها، فلا تعرف ذلك إلا من تلقاها منهم عن أمم الأنبياء، فإنه ليس هنا علامة حسية

يُعرف بها كون الأيام سبعة، بخلاف الشهر والسنة، وفصولها، ولما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وتعرف بذلك إلى عباده على السنة رسله وأنبيائه، شرع لهم في الأسبوع يوماً يُذكّرهم فيه بذلك، وحكمة الخلق وما خلّفوا له، وبأجل العالم، وطبيّ السماوات والأرض، وعود الأمر كما بدأه سبحانه وعداً عليه حقاً، وقولاً صدقاً، ولهذا كان النبي ﷺ يقرأ في فجر يوم الجمعة سورتي (الْم تَنْزِيل) و﴿قَدْ أَفْلَحَ عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ لما اشتملت عليه هاتان السورتان مما كان ويكون من المبدأ والمعاد، وحشر الخلائق، وبعثهم من القبور إلى الجنة والنار، لا لأجل السجدة كما يظنه من نقص علمه ومعرفته، فيأتي بسجدة من سورة أخرى، ويعتقد أن فجر يوم الجمعة أفضل بسجدة، وينكر على من لم يفعلها.

وهكذا كانت قراءته ﷺ في المجامع الكبار، كالأعياد ونحوها، بالسورة المشتملة على التوحيد، والمبدأ والمعاد، وقصص الأنبياء مع أممهم، وما عامل الله به من كذبهم وكفرهم من الهلاك والشقاء، ومن آمن منهم وصدقهم من النجاة والعافية.

كما كان يقرأ في العيدين بسورتي ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْجِيدِ﴾، و﴿أَفَرَأَيْتِ السَّاعَةَ أَتَتْكَ﴾ [مسم: ٢٠٥٩] وتارة: بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [مسم: ٢٠٢٨]، وتارة يقرأ في الجمعة بسورة الجمعة [مسم: ٢٠٢٦] لما تضمنت من الأمر بهذه الصلاة، وإيجاب السعي إليها، وترك العلم العائق عنها، والأمر بإكثار ذكر الله ليحصل لهم الفلاح في الدارين، فإن في نسيان ذكره تعالى العطب والهلاك في الدارين، ويقرأ في الثانية بسورة (إذا جاءك المنافقون) تحذيراً للامة من النفاق المردي، وتحذيراً لهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن صلاة الجمعة، وعن ذكر الله، وأنهم إن فعلوا ذلك خسروا ولا بد، وحضاً لهم على الإنفاق الذي هو من أكبر أسباب سعادتهم، وتحذيراً لهم من هجوم الموت وهم على حالة يطلبون الإقالة، ويتمنون الرجعة، ولا

(١) التلاوة ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ مَرْجَعُهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٨]، وقراءة ابن مسعود تفسير لها. والخبر أورده ابن كثير في "تفسيره".

يُجَابُونَ إِلَيْهَا، وكذلك كَانَ ﷺ يفعل عند قدوم وفد يريد أن يُسمِعَهُم القرآن، وكان يُطِيل قراءة الصلاة الجهرية لذلك، كما صَلَّى المغرب بـ (الأعراف) و، بـ (الطور)، و(ق). وكان يُصلي الفجر بنحو مئة آية.

(كانت خطبته تقريراً لأصول الإيمان)

وكذلك كانت خطبته ﷺ، إنما هي تقرير لأصول الإيمان من الإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، ولقايتِه، وذكر الجنة، والنار، وما أعدَّ الله لأوليائه وأهل طاعته، وما أعدَّ لأعدائه وأهل معصيته، فملاً القلوب من خطبته إيماناً وتوحيداً، ومعرفةً بالله وأيامه، لا كخطب غيره التي إنما تُفيد أموراً مشتركة بين الخلائق، وهي التَّوَجُّع على الحياة، والتخويف بالموت، فإن هذا أمر لا يُحْصَلُ في القلب إيماناً بالله، ولا توحيداً له، ولا معرفة خاصة به، ولا تذكيراً بأيامه، ولا بعثاً للنفوس على محبته والشوق إلى لقائه، فيخرج السامعون ولم يستفيدوا فائدة، غير أنهم يموتون، وتُقسَم أموالهم، ويُبلي التراب أجسامهم، فإيا ليت شعري أيُّ إيمان حصل بهذا؟! وأيُّ توحيد ومعرفة وعلم نافع حصل به!؟.

ومن تأمل خطب النبي ﷺ، وخطب أصحابه، وجدها كفضيلة بيان الهدى والتوحيد، وذكر صفات الربِّ جل جلاله، وأصول الإيمان الكلية، والدعوة إلى الله، وذكر آياته تعالى التي تُحِبُّه إلى خلقه وأيامه التي تُخَوِّفُهُم من بأسه، والأمر بذكره وشكره الذي يُحِبُّهُمْ إليه، فيذكرون من عظمة الله وصفاته وأسمائه، ما يُحِبُّه إلى خلقه، ويأمرون من طاعته وشكره، وذكره ما يُحِبُّهُمْ إليه، فينصرف السامعون وقد أحَبُّوه وأحَبُّهم، ثم طال العهد، وخفي نور النبوة، وصارت الشرائع والأوامر رسوماً تُقام من غير مراعاة حقائقها ومقاصدها، فأعْطَوْها صورها، وزَيَّنوها بما زَيَّنوها به، فجعلوا الرسوم والأوضاع سنناً لا ينبغي الإخلال بها، وأخلَّوا بالمقاصد التي لا ينبغي الإخلال بها، فرَصَعُوا الخطب بالتسجيع والفقر، وعلم البديع، فَفَقَصَ بِلِ عَدِمَ حُطُّ القلوب منها، وفات المقصود بها.

فمما حُفِظَ من خطبه ﷺ أنه كان يكثر أن يخطب

بالقرآن وسورة (ق). قالت أم هشام بنت الحارث بن النعمان: ما حفظت (ق) إلَّا مِنْ في رسول الله ﷺ مما يخطب بها على المنبر (مسلم: ٢٠١٢).

وحُفِظَ من خطبته ﷺ من رواية علي بن زيد بن جدعان وفيها ضعف: «يا أيُّها الناسُ تَوَبُّوا إلى الله عز وجل قبل أن تَمُوتُوا، وبادِرُوا بالأعمال الصالحة قَبْلَ أَنْ تُشْعَلُوا، وَصِلُوا الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ بِكثرة ذِكْرِكُمْ له، وكثرة الصدقة في السِّرِّ والعلانية تَوَجُّروا، وَتُحَمَّدُوا، وَتُرْزَقُوا. واعلموا أن الله عز وجل، قد فرض عليكم الجمعة فريضةً مكتوبةً في مقامي هذا، في شهري هذا، في عامي هذا، إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، مَنْ وَجَدَ إِلَيْهَا سَبِيلًا، فَمَنْ تَرَكَهَا في حياتي، أو بعد مماتي جُحُودًا بها، أو استخفافاً بها، وله إمام جائر أو عادِل، فلا جمع الله شمله، ولا بَارَكَ له في أمره، أَلَا وَلَا صَلَاةَ له، أَلَا وَلَا وُضْوءَ له، أَلَا وَلَا صَوْمَ له، أَلَا وَلَا زَكَاةَ له، أَلَا وَلَا حَجَّ له، أَلَا وَلَا بَرَكَةَ له حتى يتوبَ، فإن تابَ، تابَ اللهُ عليه، أَلَا وَلَا تَوْمَنَ امْرَأَةً رَجُلًا، أَلَا وَلَا يَوْمَنَ أَعْرَابِيٍّ مُهَاجِرًا، أَلَا وَلَا يَوْمَنَ فَاجِرٌ مُؤْمِنًا، إِلَّا أَنْ يَفْهَرَهُ سُلْطَانٌ يَخَافُ سَيْفَهُ وَسَوْطَهُ» (ابن ماجه: ١٠٨١).

وحفظ من خطبته أيضاً: «الحمدُ لِلَّهِ نستعينه، ونستغفره، ونعوذُ بالله مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، مَنْ يَهْدِ اللهُ، فلا مُضِلَّ له، وَمَنْ يَضِلَّ فلا هادي له، وأشهدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عبده ورسوله، أرسله بالحق بشيراً ونذيراً بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ، مَنْ يُطِيعِ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَقَدْ رَشَدَ وَمَنْ يَعْصِهِمَا، فَإِنَّهُ لا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ، ولا يَضُرُّ اللهَ شيئاً». رواه أبو داود [١٠٩٧]. وسيأتي إن شاء الله تعالى ذكر خطبه في الحج.

فصل

في هديه ﷺ في خطبه

كان إذا خطب، احمرَّت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه حتى كأنه منذرُ جيش، يقول: «صَبِّحَكُمُ وَمَسَاكُم». ويقول: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ، وَيَقْرُنُ بَيْنَ أَصْعَغِي السَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى». ويقول: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ».

ثم يقول: «أَنَا أَوَّلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ، مَنْ تَرَكَ مَالًا، فَلْأَهْلِهِ، وَمَنْ تَرَكَ دِينًا أَوْ ضَيَاعًا، فَلِإِيَّيَ وَعَلَيَّ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ [٢٠٠٥].

وفي لفظ: كانت حُطْبَةُ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، يَحْمَدُ اللَّهُ وَيُثْنِي عَلَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ عَلَى أَثَرِ ذَلِكَ وَقَدْ عَلَا صَوْتُهُ فَلَذَكَرَهُ.

وفي لفظ: يَحْمَدُ اللَّهُ وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ يَقُولُ: «مَنْ يَهْدِ اللَّهُ، فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ، فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَخَيْرُ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ».

وفي لفظ للنسائي: «وَكُلُّ بِذَعَةٍ ضَلَالَةٍ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ».

وكان يقول في خطبته بعد التَّحْمِيدِ وَالشَّعَاءِ والتَّشْهيدِ: «أَمَّا بَعْدُ» [البخاري: ٩٢٧].

وكان يُقَصِّرُ الحُطْبَةَ، ويُطِيلُ الصَّلَاةَ، وَيُكْثِرُ الذِّكْرَ، وَيَقْصِدُ الكَلِمَاتِ الجَوَامِعَ، وكان يقول: «إِنَّ طُولَ صَلَاةِ الرَّجُلِ وَقَصْرَ حُطْبَتِهِ، مَثْنَةٌ مِنْ فِقْهِهِ» [مسلم: ٢٠٠٩].

وكان يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ فِي حُطْبَتِهِ قَوَاعِدَ الْإِسْلَامِ، وَشُرَائِعَهُ، وَيَأْمُرُهُمْ، وَيَنْهَاهُمْ فِي حُطْبَتِهِ إِذَا عَرَّضَ لَهُ أَمْرٌ، أَوْ نَهْيٌ، كَمَا أَمَرَ الدَّاخِلَ وَهُوَ يَخْطُبُ أَنْ يُصَلِّيَ رَكَعَتَيْنِ [البخاري: ٩٣١، ومسلم: ٢٠١٨].

ونهى المتخَطِّبَ رِقَابَ النَّاسِ عَنْ ذَلِكَ، وَأَمَرَهُ بِالْجُلُوسِ [أبو داود: ١١١٨].

وكان يقطعُ حُطْبَتَهُ لِلْحَاجَةِ تَعْرِضُ، أَوِ السُّؤَالِ مِنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَيُجِيبُهُ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى حُطْبَتِهِ، فَيَتِمُّهَا.

وكان ربما نزل عن المنبر للحاجة، ثم يعودُ فَيَتِمُّهَا، كما نزل لأخذ الحسن والحسين رضي الله عنهما، فأخذهما، ثم رَفَعَ بهما المنبر، فأتم حُطْبَتَهُ [حسن: أبو داود: ١١٠٩، والترمذي: ٣٧٧٦، والنسائي: ٣/١٠٨، وابن ماجه: ٣٦٠٠].

وكان يدعو الرجل في خطبته: تعال يا فلان، اجلس يا فلان، صل يا فلان.

وكان يأمرهم بمقتضى الحال في خطبته، فإذا رأى منهم ذافقة وحاجة، أمرهم بالصدقة، وحضهم عليها [مسلم: ٢٣٥١].

وكان يُشِيرُ بِأَصْبَعِهِ السَّيِّبَةِ فِي حُطْبَتِهِ عِنْدَ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَدَعَائِهِ [مسلم: ٢٠١٦].

وكان يستسقي بهم إذا قَحَطَ المَطَرُ فِي حُطْبَتِهِ [البخاري: ٩٣٣، ومسلم: ٢٠٧٨].

وكان يُمَهِّلُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّاسُ، فَإِذَا اجْتَمَعُوا، خَرَجَ إِلَيْهِمْ وَحْدَهُ مِنْ غَيْرِ شَاوِيشٍ يَصِيحُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلَا لِبَسٍ طِيلِسَانَ، وَلَا طَرَحَةَ، وَلَا سَوَادَ، فَإِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ، سَلَّمَ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا صَعِدَ الْمَنْبِرَ، اسْتَقْبَلَ النَّاسَ بِوَجْهِهِ، وَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَدْعُ مُسْتَقْبِلَ الْقَبْلَةِ، ثُمَّ يَجْلِسُ، وَيَأْخُذُ بِلَالٍ فِي الْأَذَانِ، فَإِذَا فَرِغَ مِنْهُ، قَامَ النَّبِيُّ ﷺ فَيَخْطُبُ مِنْ غَيْرِ قُصْلٍ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالْحُطْبَةِ، لَا بِإِيرَادِ خَيْرٍ وَلَا غَيْرِهِ.

ولم يكن يأخذ بيده سيفاً ولا غيره، وإنما كان يعتَمِدُ عَلَى قَوْسٍ أَوْ عَصَا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَ الْمَنْبِرَ، وَكَانَ فِي الْحَرْبِ يَعْتَمِدُ عَلَى قَوْسٍ، وَفِي الْجُمُعَةِ يَعْتَمِدُ عَلَى عَصَا [أبو داود: ١٠٩٦]. ولم يُحْفَظْ عَنْهُ أَنَّهُ اعْتَمَدَ عَلَى سَيْفٍ، وَمَا يَظُنُّهُ بَعْضُ الْجُهَالِ أَنَّهُ كَانَ يَعْتَمِدُ عَلَى السَّيْفِ دَائِمًا، وَأَنَّ ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الدِّينَ قَامَ بِالسَّيْفِ، فَمِنْ قَرُطِ جَهْلِهِ، فَإِنَّهُ لَا يُحْفَظُ عَنْهُ بَعْدَ اتِّخَاذِ الْمَنْبِرِ أَنَّهُ كَانَ يَرْقَاهُ بِسَيْفٍ، وَلَا قَوْسٍ، وَلَا غَيْرِهِ، وَلَا قَبْلَ اتِّخَاذِهِ أَنَّهُ أَخَذَ بِيَدِهِ سَيْفًا الْبَيْتَةَ، وَإِنَّمَا كَانَ يَعْتَمِدُ عَلَى عَصَا أَوْ قَوْسٍ.

وكان منبره ثلاث درجات، وكان قبل اتِّخَاذِهِ يَخْطُبُ إِلَى جِذْعٍ يَسْتَنْدُ إِلَيْهِ، فَلَمَّا تَحَوَّلَ إِلَى الْمَنْبِرِ، حَنَّ الْجِذْعُ حَتَّىذَا سَمِعَهُ أَهْلُ الْمَسْجِدِ، فَتَنَزَلَ إِلَيْهِ ﷺ وَضَمَّهُ [البخاري: ٣٥٨٣]. قال أنس: حَنَّ لَمَّا فَقَدَ مَا كَانَ يَسْمَعُ مِنَ الْوَحْيِ، وَفَقَدَهُ التَّصَاقُ النَّبِيُّ ﷺ.

ولم يُوضَعْ الْمَنْبِرُ فِي وَسْطِ الْمَسْجِدِ، وَإِنَّمَا وَضِعَ فِي جَانِبِهِ الْغَرْبِيِّ قَرِيبًا مِنَ الْحَائِطِ، وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَائِطِ قَدْرُ مَمَرِ الشَّاةِ [البخاري: ٤٦٩، ومسلم: ١١٣٥].

(الامر بالإنصات للخطبة)

وكان إذا جلس عليه النبي ﷺ فِي غَيْرِ الْجُمُعَةِ، أَوْ خُطِبَ قَائِمًا فِي الْجُمُعَةِ، اسْتَدَارَ أَصْحَابُهُ إِلَيْهِ بِوُجُوهِهِمْ، وَكَانَ وَجْهُ ﷺ قِبَلَهُمْ فِي وَقْتِ الْحُطْبَةِ.

وكان يقوم فيخطب، ثم يجلس جلسة خفيفة، ثم يقوم، فيخطب الثانية، فإذا فرغ منها، أخذ بلال في الإقامة. وكان يأمر الناس بالدُّنُو مِنْهُ، وَيَأْمُرُهُمْ

كلهم، فركعوا ركعتين، فهو أجهل الناس بالسنة، وهذا الذي ذكرناه من أنه لا سنة قبلها، هو مذهب مالك، وأحمد في المشهور عنه، وأخذ الوجهين لأصحاب الشافعي.

والذين قالوا: إن لها سنة، منهم من احتج أنها ظهر مقصورة، فيثبت لها أحكام الظهر، وهذه حجة ضعيفة جداً، فإن الجمعة صلاة مستقلة بنفسها تخالف الظهر في الجهر، والعدد، والخطبة، والشروط المعتبرة لها، وتوافقها في الوقت، وليس إلحاق مسألة النزاع بموارد الاتفاق أولى من إلحاقها بموارد الافتراق، بل إلحاقها بموارد الافتراق أولى، لأنها أكثر مما اتفقا فيه.

ومنها من أثبت السنة لها هنا بالقياس على الظهر، وهو أيضاً قياس فاسد، فإن السنة ما كان ثابتاً عن النبي ﷺ من قول أو فعل، أو سنة خلفائه الراشدين، وليس في مسائلنا شيء من ذلك، ولا يجوز إثبات السنن في مثل هذا بالقياس، لأن هذا مما انعقد سبب فعله في عهد النبي ﷺ، فإذا لم يفعله ولم يشرعه، كان تركه هو السنة، ونظير هذا، أن يُشرع لصلاة العيد سنة قبلها أو بعدها بالقياس، فذلك كان الصحيح أنه لا يُسن الغسل للمبیت بمزدلفة، ولا لرمي الجمار، ولا للطواف، ولا للكسوف، ولا للاستسقاء، لأن النبي ﷺ وأصحابه لم يغتسلوا لذلك مع فعلهم لهذه العبادات.

ومنها من احتج بما ذكره البخاري في «صحيحه» فقال: باب الصلاة قبل الجمعة وبعدها: حدثنا عبد الله بن يوسف، أنبأنا مالك، عن نافع، عن ابن عمر: أن النبي ﷺ كان يُصلي قبل الظهر ركعتين، وبعدها ركعتين، وبعد المغرب ركعتين في بيته، وقبل العشاء ركعتين، وكان لا يُصلي بعد الجمعة حتى ينصرف، فيُصلي ركعتين [البخاري: ٩٣٧]. وهذا لا حجة فيه، ولم يُرد به البخاري إثبات السنة قبل الجمعة، وإنما مراده أنه هل ورد في الصلاة قبلها أو بعدها شيء؟ ثم ذكر هذا الحديث، أي: أنه لم يرو عنه فعل السنة إلا بعدها، ولم يرد قبلها شيء.

وهذا نظير ما فعل في كتاب العيدين، فإنه قال:

بالإنصات، ويُخبرهم أن الرجل إذا قال لصاحبه: أَنْصِتْ فَقَدْ لَعَا [البخاري: ٩٣٤، ومسلم: ١٩٦٥]. ويقول: «مَنْ لَعَا فَلَا جُمُعَةَ لَهُ» [حسن لغره: أحمد: ١٠١٢٨]. وكان يقول: «مَنْ تَكَلَّمَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ، فَهُوَ كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَحْمِلُ أَشْقَاراً، وَالَّذِي يَقُولُ لَهُ: أَنْصِتْ لَيْسَتْ لَهُ جُمُعَةٌ». رواه الإمام أحمد [أحمد: ٢٠٣٣، وفيه ضعف].

وقال أبي بن كعب: قرأ رسول الله ﷺ يوم الجمعة «تَبَارَكَ» وهو قائم، فذكرنا بأيام الله، وأبو الدرداء أو أبو ذر يُغَيِّرُنِي، فقال: متى أنزلت هذه السورة؟ فإني لم أسمعها إلى الآن، فأشار إليه أن اسكت، فلما انصرفوا، قال: سألتك متى أنزلت هذه السورة فلم تُخبرني، فقال: إنه ليس لك من صلاتك اليوم إلا ما لغوت، فذهب إلى رسول الله ﷺ، فذكر له ذلك، وأخبره بالذي قال له أبي، فقال رسول الله ﷺ: «صَدَقَ أَبِي» [حسن: أحمد: ٢١٢٨٧، وابن ماجه: ١١١١]. ذكره ابن ماجه، وسعيد بن منصور، وأصله في «مسند أحمد».

وقال ﷺ: «يُخْضَرُ الْجُمُعَةُ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ: رَجُلٌ خَضَرَهَا يُلْغُو وَهُوَ حَظُّهُ مِنْهَا، وَرَجُلٌ خَضَرَهَا يَدْعُو، فَهُوَ رَجُلٌ دَعَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِنْ شَاءَ أَعْطَاهُ، وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُ، وَرَجُلٌ خَضَرَهَا بِإِنْصَاتٍ وَسُكُوتٍ، وَلَمْ يَتَخَطَّ رَقَبَةً مُسْلِمًا، وَلَمْ يُوْذِ أَحَدًا، فَمَيَّ كَفَّارَةً لَهُ إِلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ الَّتِي تَلِيهَا، وَزِيَادَةً ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: «مَنْ جَلَّ بِالْمَسْنَةِ فَلَمْ عَشَّرْ أَتَالِهَا» [الأنعام: ١٦٠]. ذكره أحمد وأبو داود [حسن: أحمد: ٦٧٠١، وأبو داود: ١١١٣].

(لا سنة قبل الخطبة)

وكان إذا فرغ بلال من الأذان، أخذ النبي ﷺ في الخطبة، ولم يركع ركعتين البتة، ولم يكن الأذان إلا واحداً، وهذا يدل على أن الجمعة كالعيد، لا سنة لها قبلها، وهذا أصح قول العلماء، وعليه تدل السنة، فإن النبي ﷺ كان يخرج من بيته، فإذا رقي المنبر، أخذ بلال في أذان الجمعة، فإذا أكمله، أخذ النبي ﷺ في الخطبة من غير فصل، وهذا كان رأي عين، فمتى كانوا يُصلون السنة؟ ومن ظن أنهم كانوا إذا فرغ بلال رضي الله عنه من الأذان، قاموا

باب الصلاة قبل العيد وبعدها، وقال أبو المعلى^(١): سمعت سعيداً، عن ابن عباس: أنه كره الصلاة قبل العيد [البخاري: ٩٨٩]. ثم ذكر حديث سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن النبي ﷺ خرج يوم الفطر، فصلّى ركعتين، لم يصل قبلهما ولا بعدهما ومعه بلال. الحديث [البخاري: ٩٨٩، ومسلم: ٢٠٤٤]. فترجم للعيد مثل ما ترجم للجمعة، وذكر للعيد حديثاً دالاً على أنه لا تُشرع الصلاة قبلها ولا بعدها، فدل على أن مراده من الجمعة كذلك.

وقد ظن بعضهم أن الجمعة لما كانت بدلاً عن الظهر - وقد ذكر في الحديث السنة قبل الظهر وبعدها - دلّ على أن الجمعة كذلك، وإنما قال: وكان لا يُصلي بعد الجمعة حتى ينصرف، بياناً لموضع صلاة السنة بعد الجمعة، وأنه بعد الانصراف، وهذا الظن غلط منه؛ لأن البخاري قد ذكر في باب التطوع بعد المكتوبة حديث ابن عمر رضي الله عنه: صليت مع رسول الله ﷺ سجدين قبل الظهر، وسجدين بعد الظهر، وسجدين بعد المغرب، وسجدين بعد العشاء، وسجدين بعد الجمعة [البخاري: ١١٧٢]. فهذا صريح في أن الجمعة عند الصحابة صلاة مستقلة بنفسها غير الظهر، وإلا لم يحتج إلى ذكرها لدخولها تحت اسم الظهر، فلما لم يذكر لها سنة إلا بعدها، عُلِمَ أنه لا سنة لها قبلها.

ومنهم من احتج بما رواه ابن ماجه في «سننه» عن أبي هريرة وجابر قال: جاء سُلَيْكُ العُطْفَانِي ورسول الله ﷺ يخطب فقال له: «أَصَلَّيْتَ رَكَعَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ تَجِيءَ؟» قال: لا. قال: «فَصَلِّ رَكَعَتَيْنِ وَتَجَوَّزْ فِيهِمَا». وإسناده ثقات [أبو داود: ١١١٦، وابن ماجه: ١١١٤].

قال أبو البركات ابن تيمية: وقوله: «قبل أن تجيء» يدل على أن هاتين الركعتين سنة الجمعة، وليستا تحية المسجد. قال شيخنا حفيده أبو العباس: وهذا غلط، والحديث المعروف في «الصحيحين» عن جابر قال: دخل رجل يوم الجمعة ورسول الله ﷺ يخطب، فقال: «أَصَلَّيْتَ؟» قال:

لا. قال: «فَصَلِّ رَكَعَتَيْنِ» [البخاري: ٩٣١]. وقال: «إذا جاء أحدكم الجمعة والإمام يخطب، فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ، وَلْيَتَجَوَّزْ فِيهِمَا» [مسلم: ٢٠١٨]. فهذا هو المحفوظ في هذا الحديث، وأفراد ابن ماجه في الغالب غير صحيحة، هذا معنى كلامه.

وقال شيخنا أبو الحجاج الحافظ المزني: هذا تصحيف من الرواة، إنما هو «أَصَلَّيْتَ قبل أن تجلس» فغلط فيه الناسخ. وقال: وكتاب ابن ماجه إنما تداولته شيوخ لم يعتنوا به، بخلاف صحيح البخاري ومسلم، فإن الحفاظ تداولوها، واعتنوا بضبطهما وتصحيحهما، قال: ولذلك وقع فيه أغلاط وتصحيف.

قلت: ويدل على صحة هذا أن الذين اعتنوا بضبط سنن الصلاة قبلها وبعدها، وصنفوا في ذلك من أهل الأحكام والسنن وغيرها، لم يذكر واحد منهم هذا الحديث في سنة الجمعة قبلها، وإنما ذكروه في استحباب فعل تحية المسجد والإمام على المنبر، واحتجوا به على من منع من فعلها في هذه الحال، فلو كانت هي سنة الجمعة، لكان ذكرها هناك، والترجمة عليها، وحفظها، وشهرتها أولى من تحية المسجد. ويدل عليه أيضاً أن النبي ﷺ لم يأمر بهاتين الركعتين إلا الداخل لأجل أنها تحية المسجد. ولو كانت سنة الجمعة، لأمر بها القاعدين أيضاً، ولم يخص بها الداخل وحده.

ومنهم من احتج بما رواه أبو داود في «سننه» قال: حدثنا مسدد، قال: حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب، عن نافع قال: كان ابن عمر يُطيل الصلاة قبل الجمعة، ويُصلي بعدها ركعتين في بيته، وحدث أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك [أبو داود: ١١٢٨، والنسائي: ١١٣/٣]. وهذا لا حجة فيه على أن للجمعة سنة قبلها، وإنما أراد بقوله: إن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك: أنه كان يُصلي الركعتين بعد الجمعة في بيته لا يُصليهما في المسجد، وهذا هو الأفضل فيهما، كما ثبت في «الصحيحين» عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ كان يُصلي بعد الجمعة ركعتين في

(١) واسمه يحيى بن ميمون المطار الكوفي، وليس له في البخاري سوى هذا الموضع، وفي المطبوع أبو الملاء وهو تحريف.

بيته. وفي «السنن» عن ابن عمر: أنه إذا كان بمكة، فصلّى الجمعة، تقدم، فصلّى ركعتين، ثم تقدم فصلّى أربعاً، وإذا كان بالمدينة، صلى الجمعة، ثم رجع إلى بيته، فصلّى ركعتين، ولم يُصل بالمسجد، ف قيل له، فقال: كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك [أبو داود: ١١٣٠]. وأما إطالة ابن عمر الصلاة قبل الجمعة، فإنه تطوُّع مطلق، وهذا هو الأولى لمن جاء إلى الجمعة أن يشتغل بالصلاة حتى يخرج الإمام، كما تقدم من حديث أبي هريرة، وتُبيّنة الهذلي عن النبي ﷺ.

قال أبو هريرة: عن النبي ﷺ: «من اغتسل يوم الجمعة، ثم أتى المسجد، فصلّى ما قُدِّرَ له، ثم أنصتَ حتى يقرعَ الإمام من خطبته، ثم يُصلي معه، غُفِرَ له ما بينه وبين الجمعة الأخرى، وفضلُ ثلاثة أيّام» [مسلم: ١٩٨٧]. وفي حديث تُبيّنة الهذلي: «إن المسلم إذا اغتسل يومَ الجمعة، ثم أقبلَ إلى المسجد لا يؤذّي أحداً، فإن لم يجد الإمامَ خرج، صلى ما بدا له، وإن وجد الإمامَ خرج، جلس، فاستمع وأنصت حتى يقضي الإمامُ جمعته وكلامه، إن لم يُغفر له في جمعته تلك ذنوبه كلّها أن تكون كفّارة للجمعة التي تليها» [صحيح لغيره: أحمد: ٢٠٧٢١]. هكذا كان هديّ الصحابة رضي الله عنهم.

قال ابن المنذر: روي عن ابن عمر: أنه كان يُصلي قبل الجمعة اثنتي عشرة ركعة.

وعن ابن عباس: أنه كان يصلي ثمان ركعات. وهذا دليل على أن ذلك كان منهم من باب التطوع المطلق، ولذلك اختلف في العدد المروي عنهم في ذلك، وقال الترمذي في «الجامع»: «وروي عن ابن مسعود: أنه كان يُصلي قبل الجمعة أربعاً وبعدها أربعاً» [ذكره الترمذي بعد الحديث: ٥٢٣]. وإليه ذهب ابن المبارك والثوري.

وقال إسحاق بن إبراهيم بن هانئ النيسابوري: رأيت أبا عبد الله، إذا كان يوم الجمعة يُصلي إلى أن يعلم أن الشمس قد قاربت أن تزول، فإذا قاربت، أمسك عن الصلاة حتى يؤدّن المؤذن، فإذا أخذ في

الأذان، قام فصلّى ركعتين أو أربعاً، يُفصل بينهما بالسلام، فإذا صلى الفريضة، انتظر في المسجد، ثم يخرج منه، فيأتي بعض المساجد التي بحضرة الجامع، فيُصلي فيه ركعتين، ثم يجلس، وربما صلى أربعاً، ثم يجلس، ثم يقوم، فيصلي ركعتين أخريين، فتلك ست ركعات على حديث علي، وربما صلى بعد الست ستاً آخر، أو أقل، أو أكثر. وقد أخذ من هذا بعض أصحابه رواية: أن للجمعة قبلها سنة ركعتين أو أربعاً، وليس هذا بصريح، بل ولا ظاهر، فإن أحمد كان يُمسك عن الصلاة في وقت النهي، فإذا زال وقت النهي، قام فأتى تطوعه إلى خروج الإمام، فربما أدرك أربعاً، وربما لم يدرك إلا ركعتين.

ومنه من احتج على ثبوت السنة قبلها، بما رواه ابن ماجه في «سننه»: حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا يزيد بن عبد ربّه، حدثنا بقيق، عن مبشر بن عبيد، عن حجاج بن أرطاة، عن عطية العوفي، عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يركع قبل الجمعة أربعاً، لا يفصل بينها في شيء منها. قال ابن ماجه: باب الصلاة قبل الجمعة، فذكره [ابن ماجه: ١١٢٩].

وهذا الحديث فيه عدة بلايا، إحداها: بقيق بن الوليد: إمام المدلسين وقد عنعنه، ولم يصرح بالسماع.

الثانية: مبشر بن عُبيد المنكر الحديث. وقال عبد الله بن أحمد: سمعت أبي يقول: شيخ كان يقال له: مبشر بن عبيد كان بحمص، أظنه كوفيّاً، روى عنه بقيق، وأبو المغيرة، أحاديثه أحاديث موضوعة كذب. وقال الدارقطني: مبشر بن عبيد متروك الحديث، أحاديثه لا يتابع عليها.

الثالثة: الحجاج بن أرطاة الضعيف المدلس.

الرابعة: عطية العوفي، قال البخاري: كان هشيم يتكلم فيه، وضعفه أحمد وغيره.

(ذكر بعض الأحاديث المقلوبة)

وقال البيهقي: عطية العوفي لا يحتج به، ومبشر بن عبيد الحمصي منسوب إلى وضع الحديث، والحجاج بن أرطاة، لا يحتج به. قال

فصلي ركعتين سُتَّها، وأمر مَنْ صلاها أن يُصلي بعدها أربعاً. قال شيخنا أبو العباس ابن تيمية: إن صلى في المسجد، صلى أربعاً، وإن صلى في بيته، صلى ركعتين. قلت: وعلى هذا تدل الأحاديث، وقد ذكر أبو داود عن ابن عمر: أنه كان إذا صلى في المسجد، صلى أربعاً، وإذا صلى في بيته، صلى ركعتين [أبو داود: ١١٣٠].

وفي «الصحيحين»: عن ابن عمر: أن النبي ﷺ كان يصلي بعد الجمعة ركعتين في بيته [البخاري: ٩٣٧، ومسلم: ٢٠٣٩].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ الْجُمُعَةَ، فَلْيُصَلِّ بَعْدَهَا أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ» [مسلم: ٢٠٣٦]. والله أعلم.

فصل

في هديه ﷺ في العيدين

كان ﷺ يصلي العيدين في المصلى، وهو المصلى الذي على باب المدينة الشرقي، وهو المصلى الذي يُوضع فيه مخمّل الحاج، ولم يُصلِّ العيد بمسجده إلا مرة واحدة أصابهم مطر، فصلّى بهم العيد في المسجد إن ثبت الحديث، وهو في سنن أبي داود وابن ماجه [أبو داود: ١١٦٠، وابن ماجه: ١٣١٣]، وهديهما كان فعلهما في المصلى دائماً.

وكان يلبس للخروج إليهما أجمل ثيابه، فكان له حلة يلبسها للعيدين والجمعة، ومرة كان يلبس بُردَيْن أخضرين، ومرة بُرداً أحمر، وليس هو أحمر مُصمّناً كما يظنه بعض الناس، فإنه لو كان كذلك، لم يكن بُرداً، وإنما فيه خطوط حمر كالبرود اليمنية، فسمي أحمر باعتبار ما فيه من ذلك. وقد صح عنه ﷺ من غير معارضٍ النهي عن لبس المعصفر والأحمر، وأمر عبد الله بن عمرو لما رأى عليه ثوبين أحمرين أن يحرقهما [مسلم: ٥٤٣٦] فلم يكن ليكره الأحمر هذه الكراهة الشديدة ثم لبسه، والذي يقوم عليه الدليل تحريم لباس الأحمر، أو كراهيته كراهية شديدة.

وكان ﷺ يأكل قبل خروجه في عيد الفطر تمرات، ويأكلهن وتراً، وأما في عيد الأضحى، فكان لا يطعم حتى يرجع من المصلى، فيأكل من أضحيته.

بعضهم: ولعل الحديث انقلب على بعض هؤلاء الثلاثة الضعفاء، لعدم ضبطهم وإتقانهم، فقال: قَبِلَ الْجُمُعَةُ أربعاً، وإنما هو بعد الجمعة، فيكون موافقاً لما ثبت في «الصحيح». ونظير هذا: قول الشافعي في رواية عبد الله بن عمر العمري: «للفارس سهمان، وللراجل سهم». قال الشافعي: كأنه سمع نافعاً يقول: للفارس سهمان، وللراجل سهم، فقال: للفارس سهمان، وللراجل سهم. حتى يكون موافقاً لحديث أخيه عبيد الله، قال: وليس يشك أحد من أهل العلم في تقديم عيد الله بن عمر على أخيه عبد الله في الحفظ.

قلت: ونظير هذا ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في حديث أبي هريرة: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا، وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟» حتى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ، فَيَزِي بِضُفْعِهَا إِلَى بَعْضٍ، وتقول: قَطَّ، قَطَّ. وأما الجنة: فَيُنْشِئُ اللَّهُ لَهَا خَلْقاً» [البخاري: ٤٨٥٠]. فانقلب على بعض الرواة فقال: أما النار، فيُنْشِئُ اللَّهُ لَهَا خَلْقاً.

قلت: ونظير هذا حديث عائشة: «إِنْ بَلَائاً يُؤْدُنْ بِلِيلٍ، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يُؤْدُنَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ». وهو في «الصحيحين» [البخاري: ٦٢٢، ومسلم: ٢٥٣٦]، فانقلب على بعض الرواة، فقال: ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ يُؤْدُنْ بِلِيلٍ، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يُؤْدُنْ بِلَالٍ.

ونظيره أيضاً عندي حديث أبي هريرة: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلَا يَبْرُكُ كَمَا يَبْرُكُ الْبَعِيرُ وَلِيَضَعَ يَدَيْهِ قَبْلَ رُكْبَتَيْهِ» [صحيح: أحمد: ٨٩٥٥، وأبو داود: ٨٤٠، والترمذي: ٢٦٩، والنسائي (٢٠٧/٢)] وأظنه وهم - والله أعلم - فيما قاله رسوله الصادق المصدوق: وليضع ركبته قبل يديه. كما قال وائل بن حجر: كان رسول الله ﷺ إذا سجد، وضع رُكْبَتَيْهِ قبل يديه [أبو داود: ٨٣٨، والترمذي: ٢٦٨، والنسائي (٢٠٧/٢)]. وقال الخطابي وغيره: وحديث وائل بن حجر، أصح من حديث أبي هريرة. وقد سبقت المسألة مستوفاة في هذا الكتاب والحمد لله.

السنة بعد الجمعة

وكان ﷺ إذا صلى الجمعة، دخل إلى منزله،

يبدأ به في الركعتين، والقراءة يليها الركوع، وقد روي عنه ﷺ أنه والى بين القراءتين، فكبر أولاً، ثم قرأ وركع، فلما قام في الثانية، قرأ وجعل التكبير بعد القراءة، ولكن لم يثبت هذا عنه، فإنه من رواية محمد بن معاوية النيسابوري. قال البيهقي: رماه غير واحد بالكذب.

وقد روى الترمذي من حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف، عن أبيه، عن جده: أن رسول الله ﷺ كبر في العيدين في الأولى سبعاً قبل القراءة، وفي الآخرة خمساً قبل القراءة [حسن: أحمد: ٦٦٨٨، وأبو داود: ١١٤٩، والترمذي: ٥٣٦، وابن ماجه: ١٢٧٩]. قال الترمذي: سألت محمداً يعني البخاري عن هذا الحديث، قال: ليس في الباب شيء أصح من هذا، وبه أقول، وقال: وحديث عبد الله بن عبد الرحمن الطائفي عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده في هذا الباب، هو صحيح أيضاً.

قلت: يُريد حديثه أن النبي ﷺ كبر في عيدِ بُتَي عشرة تكبيرة، سبعاً في الأولى، وخمساً في الآخرة، ولم يُصل قبلها ولا بعدها. قال أحمد: وأنا أذهب إلى هذا. قلت: وكثير بن عبد الله بن عمرو هذا ضرب أحمد على حديثه في «المستند»، وقال: لا يُساوي حديثه شيئاً، والترمذي تارة يُصحح حديثه، وتارة يُحسنه، وقد صرح البخاري بأنه أصح شيء في الباب، مع حكمه بصحة حديث عمرو بن شعيب، وأخبر أنه يذهب إليه. والله أعلم.

(كان يخطبهم في العيد قائماً على الأرض)

وكان ﷺ إذا أكمل الصلاة انصرف، فقام مُقابل الناس، والناسُ جلوس على صفوفهم، فيعظهم ويوصيهم، ويأمرهم وينهاهم، وإن كان يُريد أن يقطع بحثاً قطعه، أو يأمر بشيء أمر به [البخاري: ٩٥٦]. ولم يكن مُنالك منبر يرقى عليه، ولم يكن يُخرج منبر المدينة، وإنما كان يخطبهم قائماً على الأرض، قال جابر: شهدت مع رسول الله ﷺ الصلاة يوم العيد، فبدأ بالصلاة قبل الخطبة بلا أذان ولا إقامة، ثم قام متوكئاً على بلال، فأمر بتقوى الله، وحث على طاعته، ووعظ الناس، وذكرهم، ثم مضى حتى أتى النساء، فوعظهن وذكرهن. متفق عليه [البخاري: ٩٦١، ومسلم: ٢٠٤٧].

وكان يقتسل للعيدين، ولم يصح الحديث فيه، وفيه حديثان ضعيفان: حديث ابن عباس، من رواية جُبارة بن مُغَلَس [ابن ماجه: ١٣١٥]، وحديث الفاكه بن سعد، من رواية يوسف بن خالد السمطي [ابن ماجه: ١٣١٦]. ولكن ثبت عن ابن عمر مع شدة اتباعه للسنة: أنه كان يقتسل يوم العيد قبل خروجه [مالك: ١٧٧/١]، وعبد الرزاق: ٥٧٥٤].

وكان ﷺ يخرج ماشياً، والعزّة تُحمل بين يديه، فإذا وصل إلى المصلّى، نُصبت بين يديه ليصلي إليها، فإن المصلّى كان إذ ذاك قضاءً لم يكن فيه بناء ولا حائط، وكانت الحرّة سُرته [البخاري: ٩٧٣].

وكان يؤخر صلاة عيد الفطر، ويُعجل الأضحى، وكان ابن عمر مع شدة اتباعه للسنة، لا يخرج حتى تطلع الشمس، ويُكبر من بيته إلى المصلّى.

وكان ﷺ إذا انتهى إلى المصلّى، أخذ في الصلاة من غير أذان ولا إقامة [البخاري: ٩٥٧، ومسلم: ٢٠٤٩]، ولا قول: الصلاة جامعة، والسنة: أنه لا يفعل شيء من ذلك.

ولم يكن هو ولا أصحابه يصلون إذا انتهوا إلى المصلّى شيئاً قبل الصلاة ولا بعدها [البخاري: ٩٨٩].

وكان يبدأ بالصلاة قبل الخطبة، فيصلي ركعتين، يكبر في الأولى سبع تكبيرات متوالية بتكبيرة الافتتاح، يسكت بين كل تكبيرتين سكتة يسيرة، ولم يُحفظ عنه ذكر معين بين التكبيرات، ولكن ذكر عن ابن مسعود أنه قال: يَحْمَدُ الله، ويُثني عليه، ويصلي على النبي ﷺ، ذكره الخلال. وكان ابن عمر مع تحريره للاتباع، يرفع يديه مع كل تكبيرة.

وكان ﷺ إذا أتم التكبير، أخذ في القراءة، فقرأ فاتحة الكتاب، ثم قرأ بعدها «تَوَّابُ الْقَرَّانِ الْحَيِّدِ» في إحدى الركعتين، وفي الأخرى «اتَّقُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوا الْقَوْمَ» [مسلم: ٢٠٥٩].

وربما قرأ فيهما «سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَكْبَرُ»، و«قُلْ أَتَنَلَّهِ حَيْثُ أَلْفَنِيذِي» [مسلم: ٨٧٨] صح عنه هذا وهذا، ولم يصح عنه غير ذلك.

فإذا فرغ من القراءة، كبر وركع، ثم إذا أكمل الركعة، وقام من السجود، كبر خمساً متوالية، فإذا أكمل التكبير، أخذ في القراءة، فيكون التكبير أول ما

وقال أبو سعيد الخُدري: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْرُجُ يَوْمَ الْفِطْرِ وَالْأَضْحَى إِلَى الْمُصَلَّى، فَأُولَ مَا يَبْدَأُ بِهِ الصَّلَاةُ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَيَقُومُ مُقَابِلَ النَّاسِ، وَالنَّاسُ جُلُوسٌ عَلَى صُفُوفِهِمْ... الحديث. رواه مسلم [٢٠٥٣].

وذكر أبو سعيد الخُدري: أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَخْرُجُ يَوْمَ الْعِيدِ، فَيُصَلِّي بِالنَّاسِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ يُسَلِّمُ، فَيَقِفُ عَلَى رَاحِلَتِهِ مُسْتَقْبِلَ النَّاسِ وَهُمْ صُفُوفٌ جُلُوسٌ، فَيَقُولُ: «تَصَدَّقُوا»، فَاكْثَرُ مَنْ يَتَصَدَّقُ النِّسَاءَ، بِالْفَرْطِ وَالْخَاتَمِ وَالشَّيْءِ. فَإِنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ يُرِيدُ أَنْ يَبْعَثَ بَعَثًا يَذْكُرُهُ لَهُمْ، وَإِلَّا انْصَرَفَ^(١).

وقد كان يقع لي أن هذا وهم، فإن النبي ﷺ إنما كان يخرج إلى العيد ماشياً، والعزّة بين يديه، وإنما خطب على راحلته يَوْمَ النحر بِنِي، إلى أن رأيتُ بَقِيَّ بْنَ مَخْلَدٍ الْحَافِظَ قَدْ ذَكَرَ هَذَا الْحَدِيثَ فِي «مُسْنَدِهِ» عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نُمَيْرٍ، حَدَّثَنَا دَاوُدُ بْنُ قَيْسٍ، حَدَّثَنَا عِيَاضُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْرُجُ يَوْمَ الْعِيدِ مِنْ يَوْمِ الْفِطْرِ، فَيُصَلِّي بِالنَّاسِ تَيْنِكَ الرَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ يُسَلِّمُ، فَيَسْتَقْبِلُ النَّاسَ، فَيَقُولُ: «تَصَدَّقُوا». وَكَانَ أَكْثَرُ مَنْ يَتَصَدَّقُ النِّسَاءَ. وذكر الحديث.

ثم قال: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ خَلَّادٍ، حَدَّثَنَا أَبُو عَامِرٍ، حَدَّثَنَا دَاوُدُ، عَنْ عِيَاضٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْرُجُ فِي يَوْمِ الْفِطْرِ، فَيُصَلِّي بِالنَّاسِ، فَيَبْدَأُ بِالرَّكْعَتَيْنِ، ثُمَّ يَسْتَقْبِلُهُمْ وَهُمْ جُلُوسٌ، فَيَقُولُ: «تَصَدَّقُوا» فَذَكَرَ مِثْلَهُ، وَهَذَا إِسْنَادُ ابْنِ مَاجَهٍ إِلَّا أَنَّهُ رَوَاهُ عَنْ أَبِي كُرَيْبٍ، عَنْ أَبِي أُسَامَةَ، عَنْ دَاوُدَ [صحيح: أحمد: ١١٣١٥، وابن ماجه: ١٢٨٨]. ولعله: ثم يقوم على رجليه، كما قال جابر: قام متوكِّئاً على بلال، فتصنّف على الكاتب: براحلته. والله أعلم.

فإن قيل: فقد أخرجا في «الصحيحين» عن ابن عباس قال: شهدت صلاة الفِطْرِ مع نبي الله ﷺ، وأبي بكر، وعمر، وعثمان رضي الله عنهم، فكلهم يُصَلِّيها قبل الخطبة، ثم يخطب، قال: فتزل

نبي الله ﷺ، كاني أنظر إليه حين يُجَلِّسُ الرِّجَالَ بيده، ثم أقبل يشقُّهم حتى جاء إلى النساء ومعه بلال، فقال: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبْتَغِينَ عَلَيْكَ أَنْ لَا يَشْرَكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا» [المُتَحَنَّة: ١٢]. فتلا الآية حتى فرغ منها، الحديث [البخاري: ٩٧٩، ومسلم: ٢٠٤٤].

وفي «الصحيحين» أيضاً، عن جابر: أن النبي ﷺ قام، فبدأ بالصلاة، ثم خطب الناسَ بَعْدَ، فلما فرغ نبي الله ﷺ نزل فأتى النساء فذكرهن، الحديث [البخاري: ٩٧٨، ومسلم: ٢٠٤٨]. وهو يدل على أنه كان يخطب على منبر، أو على راحلته، ولعله كان قد بُني له منبر من لَبْنٍ أو طِينٍ أو نحوه؟

قيل: لا ريب في صحة هذين الحديثين، ولا ريب أن المنبر لم يكن يُخْرَجُ من المسجد، وأول من أخرجه مروان بن الحكم، فأنكر عليه، وأما منبر اللَّبْنِ والطِينِ، فأول من بناه كثير بن الصلت في إمارة مروان على المدينة، كما هو في «الصحيحين» [البخاري: ٩٥٦] فلعله ﷺ كَانَ يَقُومُ فِي الْمُصَلَّى عَلَى مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ، أَوْ ذُكَّانٍ وَهِيَ الَّتِي تَسْمَى بِمِصْطَبَةٍ، ثُمَّ يَنْحَدِرُ مِنْهُ إِلَى النِّسَاءِ، فَيَقِفُ عَلَيْهِنَّ، فَيُخَاطِبُهُنَّ، فَيُعْظَمُهُنَّ، وَيَذْكُرُهُنَّ. والله أعلم.

(كان يفتح خطبه بالحمدلة)

وكان يفتح خطبه كلها بالحمد لله، ولم يُحفظ عنه في حديث واحد، أنه كان يفتح خطبتي العيدين بالتكبير، وإنما روى ابن ماجه في «سننه» عن سعد القرظ مؤدّن النبي ﷺ: أَنَّهُ كَانَ يَكْثُرُ التَّكْبِيرَ بَيْنَ أَضْعَافِ الْخُطْبَةِ، وَيَكْثُرُ التَّكْبِيرَ فِي خُطْبَتِي الْعِيدَيْنِ [ابن ماجه: ١٢٨٧]. وهذا لا يدل على أنه كان يفتحها به. وقد اختلف الناس في افتتاح خطبة العيدين والاستسقاء، فقيل: يُفْتَتِحَانِ بِالتَّكْبِيرِ، وَقِيلَ تَفْتَتِحُ خُطْبَةُ الْاسْتِسْقَاءِ بِالْاِسْتِغْفَارِ، وَقِيلَ: يُفْتَتِحَانِ بِالْحَمْدِ. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وهو الصواب، لأن النبي ﷺ قَالَ: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِحَمْدِ اللَّهِ، فَهُوَ أَجْذَمُ» [حسن: أحمد: ٨٧١٢، وأبو داود: ٤٨٤٠، وابن ماجه: ١٨٩٤].

وكان يفتح خطبه كلها بالحمد لله.

(١) إسناده صحيح، وسيذكر المصنف رجال السند بعد قليل.

ورخص ﷺ لمن شهد العيد، أن يجلس للخطبة، وأن يذهب، ورخص لهم إذا وقع العيد يوم الجمعة، أن يجتزلوا بصلاة العيد عن حضور الجمعة [حسن: أحمد: ١٩٣١٨، وأبو داود: ١٠٧٣، والنسائي (١٩٤/٣) وابن ماجه: ١٣١١].

وكان ﷺ يُخالف الطريق يوم العيد، فيذهب في طريق، ويرجع في آخر [البخاري: ٩٨٦] قيل: ليسلم على أهل الطريقين، وقيل: لينال بركته الفريقان، وقيل: ليقضي حاجة من له حاجة منهما، وقيل: ليظهر شعائر الإسلام في سائر الفجاج والطرق، وقيل: ليعظ المنافقين برويتهم عزة الإسلام وأهله، وقيام شعائره، وقيل: لتكثر شهادة البقاع، فإن الذهاب إلى المسجد والمصلّى إحدى خطوتي ترفع درجة، والأخرى تحط خطيئة حتى يرجع إلى منزله، وقيل وهو الأصح: إنه لذلك كله، ولغيره من الحكم التي لا يخلو فعله عنها.

(التكبير من فجر يوم عرفة)

وروي عنه: أنه كان يُكَبِّر من صلاة الفجر يوم عرفة إلى العصر من آخر أيام التشريق: اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ [الحاكم (٢٩٩/١)، والدارقطني (١٨٢)].

فصل

في هديه ﷺ في صلاة الكسوف

لما كَسَفَتِ الشَّمْسُ، خَرَجَ ﷺ إلى المسجد مُسْرِعاً فِرْعاً يَجُرُّ رِداءه، وكان كُسُوفُها في أول النهار على مقدار رُمحين أو ثلاثة مِن طلوعها، فتقدم، فصلّى ركعتين، قرأ في الأولى بفاتحة الكتاب، وسورة طويلة، جهر بالقراءة، ثم ركع، فأطال الركوع، ثم رفع رأسه من الركوع، فأطال القيام وهو دون القيام الأول، وقال لما رفع رأسه: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ»، ثم أخذ في القراءة، ثم ركع، فأطال الركوع وهو دون الركوع الأول، ثم رفع رأسه من الركوع، ثم سجد سجدة طويلة فأطال السجود، ثم فعل في الركعة الأخرى مِثْلَ ما فعل في الأولى، فكان في كُلِّ ركعة رُكُوعان وسُجُودان، فاستكمل في الركعتين أربع ركعات وأربع سجعات، ورأى في صلاته تلك الجنة والنار، وهم أن يأخذ

عُنُقُوداً من الجنة، فَيُرِيهِمْ إِيَّاهُ، ورأى أهل العذاب في النار، فرأى امرأة تَخْدِشُها هِرَّةٌ ربطتها حتى ماتت جُوعاً وعطشاً، ورأى عمرو بن مالك يجر أَمْعاءه في النار، وكان أول من غَيَّرَ دين إبراهيم، ورأى فيها سارقَ الحاج يُعَذِّب، ثم انصرف، فخطب بهم خطبة بليغة، حُفِظَ منها قوله: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَاتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَا يَخْفَيَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ، وَلَا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ، فَادْعُوا اللَّهَ وَكَبِّرُوا، وَصَلُّوا، وَتَصَدَّقُوا يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللَّهُ مَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزَيِّي عِبْدَهُ، أَوْ تَزَيِّي أُمَّتَهُ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللَّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَغْلَمَ لَفَصَحَكُكُمْ قَلِيلاً، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً».

وقال: «لَقَدْ رَأَيْتُ فِي مَقَامِي هَذَا كُلَّ شَيْءٍ وَعِدْتُمْ بِهِ، حَتَّى لَقَدْ رَأَيْتُنِي أُرِيدُ أَنْ أَخَذَ قِطْعاً مِنَ الْجَنَّةِ جِئَ رَأَيْتُمُونِي أَتَقَدَّمُ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بِفُضْها بَعْضاً جِئَ رَأَيْتُمُونِي تَأْخُزْتُ».

وفي لفظ: «وَرَأَيْتُ النَّارَ فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ مَنْظَراً قَطُّ أَفْطَحَ مِنْهَا، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ النِّسَاءَ». قالوا: وَيَمَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: «يَكْفُرْنَ». قيل: أَيْكْفُرْنَ بِاللَّهِ؟ قال: «يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الْإِحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّفْعَ كُلَّهُ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئاً، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْراً قَطُّ».

ومنها: «وَلَقَدْ أَوْجِي إِلَيَّ أَنْتُمْ تُقْتَلُونَ فِي الْقُبُورِ مِثْلَ، أَوْ قَرِيباً مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ، يُؤْتَى أَحَدُكُمْ قَبَالُ له: مَا عَلِمْتُ بِهَذَا الرَّجُلِ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ أَوْ قَالَ: الْمُؤَقِّنُ، فيقول: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى، فَأَجَبْنَا، وَأَمَنَّا، وَاتَّبَعْنَا، فيقال له: نَمَّ صَالِحاً فَقَدْ عَلِمْنَا إِنْ كُنْتَ لِمُؤْمِنًا، وَأَمَّا الْمُنَافِقُ أَوْ قَالَ: الْمُرتَابُ، فيقول: لَا أَفْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئاً، فَقُلْتُهُ [البخاري: ١٠٤٤، ومسلم: ٢٠٨٩].

وفي طريق أخرى لأحمد ابن حنبل رحمه الله أنه ﷺ لما سَلَّمَ، حَمِدَ اللَّهَ، وَاتْنَى عَلَيْهِ، وَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّهُ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، أَنُشِيدُكُمْ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنِّي قَصَّرْتُ فِي شَيْءٍ مِنْ تَبْلِيغِ رِسَالَاتِ رَبِّي لَمَّا أَخْبَرْتُمُونِي بِذَلِكَ؟» فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ رِسَالَاتِ

رَبِّكَ، وَنَصَحْتَ لَأُمَّتِكَ، وَقَضَيْتَ الَّذِي عَلَيْكَ. ثُمَّ قَالَ: «أَنَا بَعْدُ فَإِنَّ رَجُلًا يَزْعُمُونَ أَنَّ كُسُوفَ هَذِهِ الشَّمْسِ، وَكُسُوفَ هَذَا الْقَمَرِ، وَزَوَالَ هَذِهِ النُّجُومِ عَنْ مَطَالِعِهَا لِمَوْتِ رَجَالٍ عَظَمَاءَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَأَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا، وَلَكِنَّهَا آيَاتٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَتَعَبَّرُ بِهَا عِبَادُهُ، فَيَنْظُرُونَ مِنْ يُعْهِدُ مِنْهُمْ تَوْبَةً، وَإِنَّمَا اللَّهُ أَلَّهُ لَقَدْ رَأَيْتُ مُنْذُ قُمْتُ أُصَلِّي مَا أَنْتُمْ لَاقُوهُ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ وَآخِرَتِكُمْ، وَلَئِنَّهُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ ثَلَاثُونَ كَذَابًا أَخْرَجَهُمُ الْأَعْوَرُ الدَّجَالُ، مَسْحُوحَ الْعَيْنِ الْيُسْرَى، كَأَنَّهَا عَيْنُ أَبِي تَحِيٍّ لِشَيْخٍ جَيْتِلَ مِنَ الْأَنْصَارِ، بَيْنَهُ وَبَيْنَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ، وَإِنَّهُ مَتَى يَخْرُجُ، فَسَوْفَ يَزْعُمُ أَنَّهُ اللَّهُ، فَمَنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ وَاتَّبَعَهُ، لَمْ يَنْفَعِهِ صَالِحٌ مِنْ عَمَلِهِ سَلَفَ، وَمَنْ كَفَرَ بِهِ وَكَذَّبَهُ، لَمْ يَعْاقِبْ بِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ سَلَفَ، وَإِنَّهُ سَيَظْهَرُ عَلَى الْأَرْضِ كُلِّهَا إِلَّا الْحَرَمَ وَبَيْتَ الْمَقْدِسِ، وَإِنَّهُ يَخْضَرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَيَزْلَزَلُونَ زَلْزَلًا شَدِيدًا، ثُمَّ يَهْلِكُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَجَنُودُهُ، حَتَّى إِنَّ جَذَمَ الْحَائِطِ أَوْ قَالَ: أَضَلَّ الْحَائِطِ، وَأَضَلَّ الشَّجَرَةَ لِيُنَادِيَ: يَا مُسْلِمُ، يَا مُؤْمِنُ، هَذَا يَهُودِيٌّ، أَوْ قَالَ: هَذَا كَافِرٌ، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ قَالَ: وَلَنْ يَكُونَ ذَلِكَ حَتَّى تَرَوْا أُمُورًا يَتَقَاعَمُ بَيْنَكُمْ شَأْنُهَا فِي أَنْفُسِكُمْ، وَتَسَاءَلُونَ بَيْنَكُمْ: هَلْ كَانَ نَبِيُّكُمْ ذَكَرَ لَكُمْ مِنْهَا ذِكْرًا، وَحَتَّى تَزُولَ جِبَالٌ عَنْ مَرَاتِبِهَا، ثُمَّ عَلَى أَثَرِ ذَلِكَ الْقَبْضُ» [مسند ضعيف: أحمد: ٢٠١٧٨، وأبو داود: ١١٨٤، والنسائي (١٤٠/٣)].

قال البيهقي: من نظر في قصة هذا الحديث، وقصة حديث أبي الزبير، علم أنهما قصة واحدة، وأن الصلاة التي أخبر عنها إنما فعلها مرة واحدة، وذلك في يوم توفي ابنه إبراهيم عليه السلام.

فهذا الذي صبح عنه ﷺ من صفة صلاة الكسوف
وخطبتها. وقد روي عنه أنه صلّاها على صفات
أخر.

منها: كُلُّ رَكْعَةٍ بِثَلَاثِ رُكُوعَاتٍ [مسلم: ٢٠٩٧].

ومنها : أنها كإحدى صلاة صَلَّيْتُ كل ركعة بروكوع واحد، ولكن كيار الأئمة، لا يُصححون ذلك، كالإمام أحمد، والبخاري، والشافعي، ويروونه غلطاً. قال الشافعي وقد سأله سائل، فقال: روي

ذهب إليه إسحاق بن راهويه، ومحمد بن إسحاق بن خزيمة، وأبو بكر بن إسحاق الضبعي، وأبو سليمان الخطابي، واستحسنه ابن المنذر. والذي ذهب إليه البخاري والشافعي من ترجيح الأخبار أولى لما ذكرنا من رجوع الأخبار إلى حكاية صلاته ﷺ يوم توفي ابنه.

قلت: والمنصوص عن أحمد أيضاً أخذه بحديث عائشة وحده في كل ركعة ركوعان وسجودان. قال في رواية المروزي: وأذهب إلى أن صلاة الكسوف أربع ركعات، وأربع سجعات، في كل ركعة ركعتان وسجعتان، وأذهب إلى حديث عائشة، أكثر الأحاديث على هذا. وهذا اختيار أبي بكر وقدماء الأصحاب، وهو اختيار شيخنا أبي العباس ابن تيمية. وكان يُضَعَّفُ كُلُّ ما خالفه من الأحاديث، ويقول: هي غلط، وإنما صَلَّى النبي ﷺ الكسوف مرة واحدة يوم مات ابنه إبراهيم. والله أعلم.

وأمر ﷺ في الكسوف بذكر الله، والصلاة، والدعاء، والاستغفار والصدقة، والعنافة، والله أعلم.

فصل

في هديه ﷺ في الاستسقاء

ثبت عنه ﷺ أنه استسقى على وجوه.

أحدها: يوم الجمعة على المنبر في أثناء خطبته، وقال: «اللَّهُمَّ اغْنِنَا، اللَّهُمَّ اغْنِنَا، اللَّهُمَّ اغْنِنَا، اللَّهُمَّ اغْنِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا» [البخاري: ١٠٢١، ومسلم: ٢٠٧٨].

الوجه الثاني: أنه ﷺ وعد الناس يوماً يخرجون فيه إلى المصلّى، فخرج لما طلعت الشمس متواضعاً، متبذلاً، متخشعاً، مترسلاً، متضرعاً [أبو داود: ١١٦٥، والترمذي: ٥٥٨، والنسائي (١٥٦/٣)، وابن ماجه: ١٢٦٦]، فلما وافى المصلّى، صعد المنبر - إن صح، وإلا ففي القلب منه شيء - فحمد الله وأثنى عليه وكبره، وكان مما حفظ من خطبته ودعائه: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَمُوتُ مَا يُرِيدُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ

وغيره، وقد خولف عبد الملك في روايته عن عطاء، فرواه ابن جريج وقتادة، عن عطاء، عن عُبيد بن عمير: ست ركعات في أربع سجعات، فرواية هشام عن أبي الزبير عن جابر التي لم يقع فيها الخلاف ويُوافقها عدد كثير أولى من روايتي عطاء اللتين إنما إسنادهما أحدهما بالتوهم، والأخرى يتفرد بها عنه عبد الملك بن أبي سليمان، الذي قد أخذ عليه الغلط في غير حديث.

قال: وأما حديث حبيب بن أبي ثابت، عن طاووس، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ: أنه صلى في كسوف، فقرأ، ثم ركع، ثم قرأ، ثم ركع، ثم قرأ، ثم ركع، ثم ركع، ثم سجد قال: والأخرى مثله، فرواه مسلم في «صحيحه» [مسلم: ٢١١٢] وهو مما تفرد به حبيب بن أبي ثابت، وحبيب وإن كان ثقة، فكان يُدلس، ولم يُبين فيه سماعه من طاووس، فيُشبه أن يكون حملة عن غير موثوق به، وقد خالفه في رفعه ومثته سليمان المكي الأحول، فرواه عن طاووس، عن ابن عباس من فعله ثلاث ركعات في ركعة. وقد خولف سليمان أيضاً في عدد الركوع، فرواه جماعة عن ابن عباس من فعله، كما رواه عطاء بن يسار وغيره عنه، عن النبي ﷺ، يعني في كل ركعة ركوعان. قال: وقد أعرض محمد بن إسماعيل البخاري عن هذه الروايات الثلاث، فلم يُخرج شيئاً منها في «الصحيح» لمخالفتهم ما هو أصح إسناده، وأكثر عدداً، وأوثق رجلاً، وقال البخاري في رواية أبي عيسى الترمذي عنه: أصح الروايات عندي في صلاة الكسوف أربع ركعات في أربع سجعات.

قال البيهقي: ورؤي عن حذيفة مرفوعاً: «أربع ركعات في كل ركعة». وإسناده ضعيف [البيهقي في «الكبرى» (٣٥٩/٣)، والبيهقي في «المجموع» (٢٠٨/٢)].

ورؤي عن أبي بن كعب مرفوعاً: «خمس ركعات في كل ركعة» [أبو داود: ١١٨٢]. وصاحبها الصحيح لم يحتج بمثل إسناده حديثه.

قال: وذهب جماعة من أهل الحديث إلى تصحيح الروايات في عدد الركعات، وحملوها على أن النبي ﷺ فعلها مراراً، وأن الجميع جائز، فمن

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، تَفْعَلُ مَا تُرِيدُ، اللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ الْغَنِيُّ وَنَحْنُ الْفُقَرَاءُ، أَنْزِلْ عَلَيْنَا الْغَيْثَ، وَاجْعَلْ مَا أَنْزَلْتَهُ عَلَيْنَا قُوَّةً لَنَا، وَبَلَاغًا إِلَى حِينٍ [ابو داود: ١١٧٣]. ثم رفع يديه، وأخذ في التضرُّع، والابتهاال، والدعاء، وبالح في الرفع حتى بدا يياضُ إبطيه، ثم حوّل إلى الناس ظهره، واستقبل القبلة، وحوّل إذا ذاك رداءه وهو مستقبل القبلة، فجعل الأيمن على الأيسر، والأيسر على الأيمن، وظهر الرداء لبطنه، وبطنه لظهره، وكان الرداء خميصاً سوداء، وأخذ في الدعاء مستقبل القبلة، والناس كذلك، ثم نزل فصلّى بهم ركعتين كصلاة العيد من غير أذان ولا إقامة ولا نداء البتة، جهر فيهما بالقراءة، وقرأ في الأولى بعد فاتحة الكتاب: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، وفي الثانية: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ النَّفْثِيِّ﴾.

الوجه الثالث: أنه ﷺ استسقى على منبر المدينة استسقاء مجرداً في غير يوم جمعة، ولم يُحفظ عنه ﷺ في هذا الاستسقاء صلاة [انظر سنن ابن ماجه: ١٧٧٠].

الوجه الرابع: أنه ﷺ استسقى وهو جالس في المسجد، فرفع يديه، ودعا الله عز وجل، فحُفِظَ من دعائه حينئذ: «اللَّهُمَّ اسْقِنَا غَيْثًا مُغِيثًا مَرِيحًا طَبَقًا عَاجِلًا غَيْرَ رَائِثٍ، نَافِعًا غَيْرَ ضَارٍّ» [ابو داود: ١١٦٩].

الوجه الخامس: أنه ﷺ استسقى عند أحجار الزيت قريباً من الزّوراء، وهي خارج باب المسجد الذي يُدعى اليوم باب السلام نحو قذفة حجر، يتعطف عن يمين الخارج من المسجد [صحیح: أحمد: ٢١٩٤٤، وأبو داود: ١١٦٨، والترمذي: ٥٥٧، والنسائي: ٣/١٥٩].

الوجه السادس: أنه ﷺ استسقى في بعض غزواته لما سبقه المشركون إلى الماء، فأصاب المسلمين العطش، فشكّوا إلى رسول الله ﷺ. وقال بعض المنافقين: لو كان نبياً، لاستسقى لقومه، كما استسقى موسى لقومه، فبلغ ذلك النبي ﷺ؛ فقال: «أَوَقَدْ قَالُوا هَا؟ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُسْقِيَكُمْ» ثُمَّ بَسَطَ يَدَيْهِ، ودعا، فما ردّ يديه من دعائه، حتى أظلم السحاب،

وأمطروا، فأفعم السيل الوادي، فشرب الناس، فارتووا.

وحُفِظَ من دعائه في الاستسقاء: «اللَّهُمَّ اسْقِ عِبَادَكَ وَنَهَائِمَكَ، وَانْشُرْ رَحْمَتَكَ، وَأَخِي بَلَدَكَ الْمَيِّتَ» [ابو داود: ١١٧٦]. «اللَّهُمَّ اسْقِنَا غَيْثًا مُغِيثًا مَرِيحًا، مَرِيحًا، نَافِعًا غَيْرَ ضَارٍّ، عَاجِلًا غَيْرَ آجِلٍ» [صحیح: أبو داود: ١١٦٩]. وأغيث ﷺ في كل مرة استسقى فيها.

واستسقى مرة، فقام إليه أبو لبابة فقال: يا رسول الله! إن النمر في المرابيد، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ اسْقِنَا حَتَّى يَقُومَ أَبُو لُبَابَةَ غُرْبَانًا، فَيَسُدَّ نَعْلَبَ مِرْيَدِهِ بِإِزَارِهِ»، فأمرت، فاجتمعوا إلى أبي لبابة، فقالوا: إنها لن تُقْلِعَ حتى تقوم غُرْبَانًا، فتسُدَّ نعلب مريدك بإزارك كما قال رسول الله ﷺ، ففعل، فاستهلّت السماء [البهيقي في «المجمع» (٢١٥/٢)، وقال: رواه الطبراني في «الصغير»].

ولما كثر المطر، سألوه الاستسقاء، فاستصحبى لهم، وقال: «اللَّهُمَّ حَوِّالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ عَلَى الْأَكَامِ وَالْجِبَالِ، وَالْظُّرَابِ، وَطُطُونِ الْأودية، وَمَنَاتِ الشَّجَرِ»^(١) [البخاري: ١٠٢١، ومسلم: ٢٠٧٨].

وكان ﷺ إذا رأى مطراً، قال: «اللَّهُمَّ صَيِّبًا نَافِعًا» [البخاري: ١٠٣٢].

وكان يحيرُ ثوبه حتى يُصَيِّبه من المطر، فسئل عن ذلك، فقال: «لَأَنَّهُ حَدِيثُ عَهْدٍ بِرَبِّهِ» [مسلم: ٢٠٨٣].

قال الشافعي رحمه الله: أخبرني من لا أنهم عن يزيد بن الهاد، أن النبي ﷺ كان إذا سال السيل قال: «اخرُجُوا بِنَا إِلَى هَذَا الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ طُهوْرًا، فَتَطَهَّرْ منه، وَتَحَمَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ» [الشافعي في «الأم» (١/٢٥٢) - (٢٥٣)، والبيهقي في «الكبرى» (٣/٣٥٩)].

وأخبرني من لا أنهم، عن إسحاق بن عبد الله أن عمر كان إذا سال السيل ذهب بأصحابه إليه، وقال: ما كان ليحيي من مجيئه أحد إلا تمسحنا به.

وكان ﷺ إذا رأى الغيم والريح، عُرف ذلك في

(١) الظراب: الجبال الصغار جمع الظرب، والأكام جمع الأكمة: وهي التل المرتفع من الأرض.

فصل

في هديه ﷺ في سفره وعبادته فيه

كانت أسفاره ﷺ دائرة بين أربعة أسفار: سفره لهجرته، وسفره للجهاد وهو أكثرها، وسفره للعمرة، وسفره للحج.

وكان إذا أراد سفراً، أقرع بين نسائه، فأَيُّهُنَّ خرج سَهْمُهَا، سافر بها معه، ولما حج، سافر بهن جميعاً. وكان إذا سافر، خرج من أول النهار، وكان يستحب الخروج يوم الخميس [البخاري: ٢٩٤٩]، ودعا الله تبارك وتعالى أن يبارك لأُمَّتِهِ في بُكُورِهَا [صحيح بشواهده: أحمد: ١٣٢٠، وأبو داود: ٢٦٠٦، والترمذي: ١٢١٢، وابن ماجه: ٢٢٣٦].

وكان إذا بعث سرية أو جيشاً، بعثهم من أول النهار، وأمر المسافرين إذا كانوا ثلاثة أن يؤمُّوا أحدهم [أبو داود: ٢٦٠٨ - ٢٦٠٩]. ونهى أن يسافر الرجل وحده [البخاري: ٢٩٩٨]، وأخبر أن الراكب شَيْطَانٌ، وَالرَّاكِبَانِ شَيْطَانَانِ، وَالثَّلَاثَةُ رَكْبٌ [أبو داود: ٢٦٠٧، والترمذي: ١٦٧٤].

وذكر عنه أنه كان يقول حين ينهض للسفر: «اللَّهُمَّ إِلَيْكَ تَوَجَّهْتُ، وَبِكَ اغْتَصَمْتُ، اللَّهُمَّ اكْفِنِي مَا أَهْمَنِي وَمَا لَا أَهْمَنُ بِهِ، اللَّهُمَّ زَوِّدْنِي الثَّقَوِي، وَاعْفِرْ لِي ذَنْبِي، وَوَجِّهْنِي لِلْخَيْرِ أَيْنَمَا تَوَجَّهْتُ» [ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (١٨٥) وفي سنده ضعيف].

وكان إذا قُدِّمَتْ إليه دابته ليركبها، يقول: «بسم الله» حين يضع رجله في الركاب، وإذا استوى على ظهرها، قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ» ثُمَّ يَقُولُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ»، ثم يقول: «اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ»، ثم يقول: «سُبْحَانَكَ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي، فَاعْفِرْ لِي إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ» [أبو داود: ٢٦٠٢، والترمذي: ٣٤٤٣].

وكان يقول: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالثَّقَوِي، وَبِمَنْ الْعَمَلُ مَا تَرْضَى، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْلُقْ عَلَيْنَا بُعْدَهُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْحَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ

وجهه، فأقبل وأدبر، فإذا أمطرت، سُرِّيَ عنه، وذهب عنه ذلك، وكان يخشى أن يكون فيه العذاب. قال الشافعي: وروي عن سالم بن عبد الله، عن أبيه مرفوعاً: أنه كان إذا استسقى قال: «اللَّهُمَّ اسْقِنَا غِيثاً مُنِيناً هَنِيئاً مَرِيئاً غَدَقاً مُجَلِّلاً عَامّاً طَقّاً سَحّاً دَائِماً، اللَّهُمَّ اسْقِنَا الْغَيْثَ، وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ الْقَانِطِينَ، اللَّهُمَّ إِنَّا بِالْعِبَادِ وَالْبِلَادِ وَالْبِهَائِمِ وَالْخَلْقِ مِنَ اللَّأْوَاءِ وَالْجَهْدِ وَالضَّنَكِ مَا لَا نَشْكُوهُ إِلَّا إِلَيْكَ، اللَّهُمَّ أَنْتَ لَنَا الزَّرْعُ، وَأَوْرَثَ لَنَا الصَّرْعَ، واسقنا من بركات السماء، وَأَنْتَ لَنَا مِنْ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ، اللهم ارفع عنا الْجَهْدَ وَالْجُوعَ وَالْعُرْيَ، واكشِفْ عَنَّا مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَا يَكْشِفُهُ غَيْرُكَ، اللهم إِنَّا نَسْتَغْفِرُكَ، إِنَّكَ كُنْتَ غَفَّاراً، فأرسل السماء علينا مدراراً» [الشافعي في «الأم» (٢٥٢/١ - ٢٥٣)].

قال الشافعي رحمه الله: وأحب أن يدعوا الإمام بهذا، قال: وبلغني أن النبي ﷺ كان إذا دعا في الاستسقاء رفع يديه [البخاري: ١٠٣١، ومسلم: ٢٠٧٤]. وبلغنا أن النبي ﷺ كان يتمطر في أول مطرة حتى يُصِيبَ جسده. قال: وبلغني أن بعض أصحاب النبي ﷺ كان إذا أصبح وقد مُطِرَ الناس، قال: مُطِرْنَا بِبَرِّهِ الْفَتْحِ، ثم يقرأ: «مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا» [فاطر: ٢] [مالك (١٩٢/١)].

(طلب الإجابة عند نزول الغيث)

قال: وأخبرني من لا أنهم عن عبد العزيز بن عمر، عن مكحول، عن النبي ﷺ أنه قال: «اطلبوا استجابة الدعاء عند التقاء الجيوش، وإقامة الصلاة، ونزول الغيث» [الشافعي في «الأم» (٢٢٣/١)].

وقد حَفِظْتُ عن غير واحد طلب الإجابة عند نزول الغيث، وإقامة الصلاة. قال البيهقي: وقد روي في حديث موصول عن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ: «الدعاء لَا يَرُدُّ عِنْدَ النَّدَاءِ، وَعِنْدَ النَّاسِ، وَتَحْتَ الْمَطَرِ» [أبو داود: ٢٥٤٠]. وروينا عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: «تُفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَيُسْتَجَابُ الدُّعَاءُ فِي أَرْبَعَةِ مَوَاطِنَ: عِنْدَ التَّقَاءِ الصُّغُوفِ، وَعِنْدَ نَزُولِ الْغَيْثِ، وَعِنْدَ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَعِنْدَ رُؤْيَةِ الْكَعْبَةِ» [البيهقي (٣٦٠/٣)].

وَعَفَاءِ السَّفَرِ، وَكَاتِبَةِ الْمُتَقَلِّبِ، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ. وإذا رجع، قالهن، وزاد فيهن: «أَيُّونَ تَأْيِيُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ» [مسلم: ٣٢٧٥].

وكان هو وأصحابه إذا علوا الشيا، كبروا، وإذا هبطوا الأودية، سبّحوا [أبو داود: ٢٥٩٩].

وكان إذا أشرف على قرية يُريد دخولها يقول: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ، وَرَبَّ الْأَرْضِينَ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ، وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَظْلَلْنَ، وَرَبَّ الرِّيَّاحِ وَمَا دَرَيْنَ، أَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَخَيْرَ أَهْلِهَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ أَهْلِهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا» [ابن السني (١٩٧)، وابن حبان: ٢٣٧٧، والحاكم (١٠٠/٢)].

وذكر عنه أنه كان يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَخَيْرِ مَا جَمَعَتْ فِيهَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا جَمَعَتْ فِيهَا، اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا جَنَّتَاهَا، وَأَعِزَّنَا مِنْ بَوَّاهَا، وَحَبِّبْنَا إِلَى أَهْلِهَا، وَحَبِّبْ صَالِحِي أَهْلِهَا إِلَيْنَا» [ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (١٩٦)].

(مبحث في قصر الصلاة)

وكان يَقْصُرُ الرُّبَاعِيَّةَ، فَيُصَلِّيُهَا رَكَعَتَيْنِ مِنْ حِينَ يَخْرُجُ مَسَافِرًا إِلَى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَلَمْ يَثْبِتْ عَنْهُ أَنَّهُ أَنْتَمَ الرُّبَاعِيَّةَ فِي سَفَرِهِ الْبَيْتَةِ، وَأَمَّا حَدِيثُ عَائِشَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْصُرُ فِي السَّفَرِ، وَيُتِمُّ، وَيُفْطِرُ وَيَصُومُ، فَلَا يَصِحُّ لِدَفْعِ الْهَيْثِي فِي «المجمع» (١٥٧/٢). وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: هو كذب على رسول الله ﷺ. انتهى. وقد روي: كان يَقْصُرُ وَيُتِمُّ، الْأَوَّلُ بِالْيَاءِ آخِرَ الْحُرُوفِ، وَالثَّانِي بِالتَّاءِ الْمُثَنَّى مِنَ فَوْقَ، وَكَذَلِكَ يُفْطِرُ وَتَصُومُ، أَي: تَأْخُذُ هِيَ بِالْعَزِيمَةِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ، قَالَ شَيْخُنَا ابْنُ تَيْمِيَّةَ: وَهَذَا بَاطِلٌ مَا كَانَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ لِيُخَالِفَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَجَمِيعَ أَصْحَابِهِ، فَتُصَلِّيَ خِلَافَ صَلَاتِهِمْ، كَيْفَ وَالصَّحِيحُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ الصَّلَاةَ رَكَعَتَيْنِ رَكَعَتَيْنِ، فَلَمَّا هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، زِيدَ فِي صَلَاةِ الْحَضَرِ، وَأَقْرَبَتْ صَلَاةُ السَّفَرِ [البخاري: ١٠٩٠، ومسلم: ١٥٧٠]. فكيف يُظَنُّ بِهَا مَعَ ذَلِكَ أَنَّ تُصَلِّيَ بِخِلَافِ صَلَاةِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ مَعَهُ.

قلت: وقد أتمت عائشة بعد موت النبي ﷺ، قال ابن عباس وغيره: إنها تأولت كما تأول عثمان [البخاري: ١٠٩٠]، وإن النبي ﷺ كان يَقْصُرُ دَائِمًا، فَرُكِبَ بَعْضُ الرِّوَاةِ مِنَ الْحَدِيثَيْنِ حَدِيثًا، وَقَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْصُرُ وَيُتِمُّ هِيَ، فَغَلَطَ بَعْضُ الرِّوَاةِ فَقَالَ: كَانَ يَقْصُرُ وَيُتِمُّ، أَي: هُوَ.

والتأويل الذي تأولته قد اختلف فيه، فقيل: ظنت أن القصر مشروط بالخوف في السفر، فإذا زال الخوف، زال سبب القصر، وهذا التأويل غير صحيح، فإن النبي ﷺ سافر أمنيًا وكان يَقْصُرُ الصَّلَاةَ، وَالْآيَةُ قَدْ أَشْكَلَتْ عَلَى عُمَرُ وَعَلَى غَيْرِهِ، فَسَأَلَ عَنْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَجَابَهُ بِالشُّفَاءِ وَأَنَّ هَذَا صَدَقَةٌ مِنَ اللَّهِ [مسلم: ١٥٧٣] وَشَرَعَ شَرْعَهُ لِلأَمَةِ، وَكَانَ هَذَا بَيَانٌ أَنَّ حُكْمَ الْمَقْهُومِ غَيْرُ مُرَادٍ، وَأَنَّ الْجُنَاحَ مُرْتَفِعٌ فِي قَصْرِ الصَّلَاةِ عَنِ الْأَمْنِ وَالْخَافِ، وَغَايَتُهُ أَنَّهُ نَوْعٌ تَخْصِيصٌ لِلْمَقْهُومِ، أَوْ رَفْعٌ لَهُ، وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّ الْآيَةَ اقْتَضَتْ قَصْرًا يَتَنَوَّلُ قَصْرَ الْأَرْكَانِ بِالتَّخْفِيفِ، وَقَصْرَ الْعَدَدِ بِتُقْصَانِ رَكَعَتَيْنِ، وَقِيْدَ ذَلِكَ بِأَمْرَيْنِ: الضَّرْبُ فِي الْأَرْضِ، وَالْخَوْفُ، فَإِذَا وَجَدَ الْأَمْرَانِ، أَبْخَعَ الْقَصْرَانِ، فَيُصَلُّونَ صَلَاةَ الْخَوْفِ مَقْصُورَةً عَدَدُهَا وَأَرْكَانُهَا، وَإِنْ انْتَفَى الْأَمْرَانِ، فَكَانُوا أَمْنَيْنِ مُقِيمَيْنِ، انْتَفَى الْقَصْرَانِ، فَيُصَلُّونَ صَلَاةَ تَامَةً كَامِلَةً، وَإِنْ وَجَدَ أَحَدُ السَّبَبَيْنِ، تَرْتَبَ عَلَيْهِ قَصْرُهُ وَحَدُّهُ، فَإِذَا وَجَدَ الْخَوْفَ وَالْإِقَامَةَ، قُصِرَتِ الْأَرْكَانُ، وَاسْتَوْفِيَ الْعَدَدُ، وَهَذَا نَوْعُ قَصْرِ، وَلَيْسَ بِالْقَصْرِ الْمَطْلُوقِ فِي الْآيَةِ، فَإِنْ وَجَدَ السَّفَرَ وَالْأَمْنَ، قُصِرَ الْعَدَدُ وَاسْتَوْفِيَ الْأَرْكَانُ، وَسُمِّيَتْ صَلَاةُ أَمْنٍ، وَهَذَا نَوْعُ قَصْرِ، وَلَيْسَ بِالْقَصْرِ الْمَطْلُوقِ، وَقَدْ تُسَمَّى هَذِهِ الصَّلَاةُ مَقْصُورَةً بِاعْتِبَارِ نَقْصَانِ الْعَدَدِ، وَقَدْ تُسَمَّى تَامَةً بِاعْتِبَارِ إِتْمَامِ أَرْكَانِهَا، وَأَنَّهَا لَمْ تَدْخُلْ فِي قَصْرِ الْآيَةِ، وَالْأَوَّلُ اصطلاح كثير من الفقهاء المتأخرين، والثاني يدل عليه كلام الصحابة، كعائشة وابن عباس وغيرهما، قالت عائشة: قُرِئَتِ الصَّلَاةُ رَكَعَتَيْنِ رَكَعَتَيْنِ، فَلَمَّا هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، زِيدَ فِي صَلَاةِ الْحَضَرِ، وَأَقْرَبَتْ صَلَاةُ السَّفَرِ. فهذا يدل على أن صلاة السفر عندها غير مقصورة من أربع، وإنما هي مفروضة

كذلك، وأن فرض المسافر ركعتان. وقال ابن عباس: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة. متفق على حديث عائشة، وانفرد مسلم بحديث ابن عباس [مسلم: ١٥٧٥].

وقال عمر رضي الله عنه: صلاة السفر ركعتان، والجمعة ركعتان، والعيد ركعتان، تمام غير قصر على لسان محمد ﷺ، وقد خاب من افترى [صحيح: أحمد: ٢٥٧، والنسائي (١١٨/٣)، وابن ماجه: ١٠٦٤]. وهذا ثابت عن عمر رضي الله عنه، وهو الذي سأل النبي ﷺ: ما بالنا نقصر وقد أمنا؟ فقال له رسول الله ﷺ: «صَدَقَ تَصَدَّقَ بِهَا اللَّهُ عَلَيَّكُمْ، فَأَقْبَلُوا صَدَقَتَهُ».

ولا تناقض بين حديثيه، فإن النبي ﷺ لما أحابه بأن هذه صدقة الله عليكم، ودينه اليسر السمع، علم عمر أنه ليس المراد من الآية قصر العدد كما فهمه كثير من الناس، فقال: صلاة السفر ركعتان، تمام غير قصر. وعلى هذا، فلا دلالة في الآية على أن قصر العدد مباح منفي عنه الجناح، فإن شاء المصلي، فعله، وإن شاء، أتم.

وكان رسول الله ﷺ يواظب في أسفاره على ركعتين ركعتين، ولم يُرَ يُعْرِضْ قط إلا شيئاً فعله في بعض صلاة الخوف، كما سنذكره هناك، ونبين ما فيه إن شاء الله تعالى.

وقال أنس: خرجنا مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة، فكان يصلي ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة. متفق عليه [البخاري: ١٠٨١، ومسلم: ١٥٨٦].

ولما بلغ عبد الله بن مسعود أن عثمان بن عفان صلى ببنى أربع ركعات قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، صليْتُ مع رسول الله ﷺ ببنى ركعتين، وصليْتُ مع أبي بكر ببنى ركعتين، وصليْتُ مع عمر بن الخطاب ببنى ركعتين، فليت حظي من أربع ركعات ركعتان متباعدتان. متفق عليه [البخاري: ١٠٨٤، ومسلم: ١٥٩٦]. ولم يكن ابن مسعود ليسترجع من فعل عثمان أحد الجائزين المخير بينهما، بل الأولى على قول، وإنما استرجع لما شاهده من مداومة النبي ﷺ وخلفائه على صلاة ركعتين في السفر.

وفي «صحيح البخاري» عن ابن عمر رضي الله عنه قال: صحبت رسول الله ﷺ، فكان في السفر لا يزيد على ركعتين، وأبا بكر وعمر وعثمان [البخاري: ١١٠٢]. يعني في صدر خلافة عثمان، وإلا فعثمان قد أتم في آخر خلافته، وكان ذلك أحد الأسباب التي أنكرت عليه. وقد خرج لفعله تأويلات،

أحدها: أن الأعراب كانوا قد حجوا تلك السنة، فأراد أن يعلمهم أن فرض الصلاة أربع، لئلا يتوهموا أنها ركعتان في الحضر والسفر، ورُدَّ هذا التأويل بأنهم كانوا أخرى بذلك في حج النبي ﷺ، فكانوا حديثي عهد بالإسلام، والعهد بالصلاة قريب، ومع هذا، فلم يُرَ يُعْرِضْ بهم النبي ﷺ.

التأويل الثاني: أنه كان إماماً للناس، والإمام حيث نزل، فهو عمله ومحل ولايته، فكانه وطنه، ورُدَّ هذا التأويل بأن إمام الخلافة على الإطلاق رسول الله ﷺ كان هو أولى بذلك، وكان هو الإمام المطلق، ولم يُرَ يُعْرِضْ.

التأويل الثالث: أن منى كانت قد بُنيت وصارت قرية كثر فيها المساكن في عهده، ولم يكن ذلك في عهد رسول الله ﷺ، بل كانت فضاء، ولهذا قيل له: يا رسول الله ألا نبني لك ببنى بيتاً يُطْلُكُ مِنَ الْحَرِّ؟ فقال: «لَا، مِنَى مُنَاحٌ مِّنْ سَبَقٍ» [أحمد: ٢٥٧١٨، وأبو داود: ٢٠١٩، والترمذي: ٨٨١، وابن ماجه: ٣٠٠٦]. فتأول عثمان أن القصر إنما يكون في حال السفر. ورُدَّ هذا التأويل بأن النبي ﷺ أقام بمكة عشرأ يقصر الصلاة.

التأويل الرابع: أنه أقام بها ثلاثاً، وقد قال النبي ﷺ: «يُقِيمُ الْمُهَاجِرُ بَعْدَ قَضَاءِ نُسُكِهِ ثَلَاثًا» [البخاري: ٣٩٣٣، ومسلم: ٣٢٩٧]. فسماه مقيماً، والمقيم غير مسافر، ورُدَّ هذا التأويل بأن هذه إقامة مقيدة في أثناء السفر ليست بالإقامة التي هي قسيم السفر، وقد أقام ﷺ بمكة عشرأ يقصر الصلاة، وأقام ببنى بعد نُسُكِهِ أيام الحِجَارِ الثلاث يقصر الصلاة.

التأويل الخامس: أنه كان قد عزم على الإقامة والاستيطان ببنى، واتخاذها دار الخلافة، فلهذا أتم، ثم بدا له أن يرجع إلى المدينة، وهذا التأويل أيضاً مما لا يقوى، فإن عثمان رضي الله عنه من المهاجرين الأولين، وقد منع ﷺ المهاجرين من

الإقامة بمكة بعد نُسكهم، ورخص لهم فيها ثلاثة أيام فقط، فلم يكن عثمان ليقيم بها، وقد منع النبي ﷺ من ذلك، وإنما رخص فيها ثلاثاً وذلك لأنهم تركوها لله، وما ترك لله، فإنه لا يُعاد فيه، ولا يُسترجع، ولهذا منع النبي ﷺ من شراء المتصدق لصدقة، وقال لعمر: «لا تشتريها، ولا تعذ في صدقتك» [البخاري: ١٤٨٩، ومسلم: ٤١٦٧]. فجعله عائداً في صدقة مع أخذها باليمن.

التأويل السادس: أنه كان قد تأهل بمنى والمسافر إذا أقام في موضع، وتزوج فيه، أو كان له به زوجة، أتم، ويروى في ذلك حديث مرفوع، عن النبي ﷺ. فروى عكرمة بن إبراهيم الأزدي، عن ابن أبي ذباب، عن أبيه قال: صلى عثمان بأهل منى أربعاً وقال: يا أيها الناس! لما قُدمت تأهلت بها، وإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا تأهل الرجل بِلَدٍّ، فإنه يُصلي بها صلاةً مُقيم». رواه الإمام أحمد رحمه الله في «مسنده» [سند ضعيف: أحمد: ٤٤٣] وعبد الله بن الزبير الحميدي في «مسنده» أيضاً، وقد أعله البيهقي بانقطاعه، وتضعيفه عكرمة بن إبراهيم. قال أبو البركات ابن تيمية: ويمكن المطالبة بسبب الضعف، فإن البخاري ذكره في «تاريخه» ولم يطلع فيه، وعادته ذكر الجرح والمجروحين، وقد نص أحمد وابن عباس قبله أن المسافر إذا تزوج، لزمه الإتمام، وهذا قول أبي حنيفة، ومالك، وأصحابهما، وهذا أحسن ما اعتد به عن عثمان.

وقد اعتدّر عن عائشة أنها كانت أم المؤمنين، فحيث نزلت كان وطنها، وهو أيضاً اعتذار ضعيف، فإن النبي ﷺ أبو المؤمنين أيضاً، وأمومة أزواجه فرع عن أبوته، ولم يكن يتم لهذا السبب. وقد روى هشام بن عروة، عن أبيه: أنها كانت تُصلي في السفر أربعاً، فقلت لها: لو صليت ركعتين، فقالت: يا ابن أختي! إنه لا يشق عليّ [صحیح: البيهقي في «الكبرى» (٣/ ١٤٣)].

قال الشافعي رحمه الله: لو كان فرض المسافر ركعتين، لما أتمها عثمان، ولا عائشة، ولا ابن مسعود، ولم يجز أن يتمها مسافر مع مقيم، وقد قالت عائشة: كل ذلك قد فعل رسول الله ﷺ، أتم

وقصر. ثم روى عن إبراهيم بن محمد، عن طلحة بن عمرو، عن عطاء بن أبي رباح، عن عائشة قالت: كل ذلك فعل النبي ﷺ، قصر الصلاة في السفر وأتم [الشافعي في «الأم» (١/ ١٥٩)، والدارقطني (١/ ٢٤٢)، والبيهقي (٣/ ١٤٢)].

قال البيهقي: وكذلك رواه المغيرة بن زياد، عن عطاء، وأصح إسناده ما أخبرنا أبو بكر الحارثي، عن الدارقطني، عن المحاملي، حدثنا سعيد بن محمد بن ثواب، حدثنا أبو عاصم، حدثنا عمر بن سعيد، عن عطاء، عن عائشة: أن النبي ﷺ كان يقصر في الصلاة ويتم، ويقطر، ويصوم.

قال الدارقطني: وهذا إسناده صحيح [الدارقطني (٢/ ١٨٩)]. ثم ساق من طريق أبي بكر النيسابوري، عن عباس الدوري، أنبأنا أبو نعيم، حدثنا العلاء بن زهير، حدثني عبد الرحمن بن الأسود، عن عائشة: أنها اعتمدت مع النبي ﷺ من المدينة إلى مكة، حتى إذا قُدمت مكة، قالت: يا رسول الله! بأبي أنت وأمي، قصرت وأتممت، وصمت وأفطرت. قال: «أحسن يا عائشة» [صحیح: البيهقي (٣/ ١٤٢)، والدارقطني (٢/ ١٨٨)].

وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: هذا الحديث كذبٌ على عائشة، ولم تكن عائشة تُصلي بخلاف صلاة رسول الله ﷺ وسائر الصحابة، وهي تُشاهدهم يقصرون، ثم تُتم هي وحدها بلا موجب. كيف وهي القائلة: فُرِضَت الصلاة ركعتين ركعتين، فزِيد في صلاة الحضر، وأقِرَّت صلاة السفر. فكيف يُظن أنها تزيد على ما فرض الله، وتُخالف رسول الله ﷺ وأصحابه.

قال الزهري لعروة لما حدثه عنها بذلك: فما شأنها كانت تُتم الصلاة؟ فقال: تأولت كما تأول عثمان [البخاري: ١٠٩٠، ومسلم: ١٥٧٠]. فإذا كان النبي ﷺ قد حسن فعلها وأقرها عليه، فما للتأويل حيث وجه، ولا يصح أن يُضاف إتمامها إلى التأويل على هذا التقدير، وقد أخبر ابن عمر: أن رسول الله ﷺ لم يكن يزيد في السفر على ركعتين، ولا أبو بكر، ولا عمر [البخاري: ١١٠٢]. أفيظن بعائشة

عامر بن ربيعة أنه رأى النبي ﷺ يُصلي السُّبْحَةَ بالليل في السفر على ظهر راحلته [البخاري: ١٠٩٧، ومسلم: ١٦١٩]. فهذا قيام الليل.

وسئل الإمام أحمد رحمه الله، عن التطوع في السفر؟ فقال: أرجو أن لا يكون بالتطوع في السفر بأس. وروى عن الحسن قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يُسافرون، فيتطوعون قبل المكتوبة وبعدها، وروى هذا عن عمر، وعلي، وابن مسعود، وجابر، وأنس، وابن عباس، وأبي ذر.

وأما ابن عمر، فكان لا يتطوع قبل الفريضة ولا بعدها، إلا من جوف الليل مع الوتر، وهذا هو الظاهر من هدي النبي ﷺ أنه كان لا يُصلي قبل الفريضة المقصورة ولا بعدها شيئاً، ولكن لم يكن يمنع من التطوع قبلها ولا بعدها، فهو كالتطوع المطلق، لا أنه سنة راتبة للصلاة، كسنة صلاة الإقامة، ويؤيد هذا أن الرباعية قد خُففت إلى ركعتين تخفيفاً على المسافر، فكيف يجعل لها سنة راتبة يُحافظ عليها وقد خفف الفرض إلى ركعتين، فلولا قصد التخفيف على المسافر، وإلا كان الإتمام أولى به، ولهذا قال عبد الله بن عمر: لو كنت مسبحاً، لامتمت، وقد ثبت عنه ﷺ، أنه صلى يوم الفتح ثمان ركعات ضحى، وهو إذ ذاك مسافر.

وأما ما رواه أبو داود والترمذي في «السنن»، من حديث الليث، عن صفوان بن سليم، عن أبي بكرة الغفاري، عن البراء بن عازب قال: سافرت مع رسول الله ﷺ ثمانية عشر سفراً، فلم أره ترك ركعتين عند زَيْغِ الشمس قبل الظهر [أبو داود: ١٢٢٢، والترمذي: ٥٥٠]. قال الترمذي: هذا حديث غريب. قال: وسألت محمداً عنه، فلم يعرفه إلا من حديث الليث بن سعد، ولم يعرف اسم أبي بكرة ورأه حسناً. وبسرة: بالباء الموحدة المضمونة، وسكون السين المهملة.

وأما حديث عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ كان لا يدع أربعاً قبل الظهر، وركعتين بعدها، فرواه البخاري في «صحيحه» [البخاري: ١١٨١]. ولكنه ليس بصريح في فعله ذلك في السفر، ولعلها أخبرت عن أكثر أحواله وهو الإقامة، والرجال أعلم بسفره من

أم المؤمنين مخالفتهم، وهي تراهم يقصرون؟ وأما بعد موته ﷺ، فإنها أتمت كما أتم عثمان، وكلاهما تأول تأويلاً، والحجة في روايتهم لا في تأويل الواحد منهم مع مخالفة غيره له والله أعلم.

وقد قال أمية بن خالد لعبد الله بن عمر: إنا نجد صلاة الحضر، وصلاة الخوف في القرآن، ولا نجد صلاة السفر في القرآن؟ فقال له ابن عمر: يا أخي! إن الله بعث محمداً ﷺ، ولا نعلم شيئاً، فإنما نفعل كما رأينا محمداً ﷺ يفعل [حسن: البيهقي في «السنن» (١٣٦/٣)].

وقد قال أنس: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى مكة، فكان يُصلي ركعتين ركعتين، حتى رجعنا إلى المدينة [البخاري: ١٠٨١، ومسلم: ١٥٨٦].

وقال ابن عمر: صحبتُ رسول الله ﷺ، فكان لا يزيد في السفر على ركعتين، وأبا بكر وعمر، وعثمان رضي الله عنهم [البخاري: ١١٠٢]، وهذه كلها أحاديث صحيحة.

فصل

(كان يقتصر في سفره)

على الفرض والوتر وسنة الفجر من الرواتب)

وكان من هديه ﷺ في سفره الاقتصارُ على الفرض، ولم يُحفظ عنه ﷺ أنه صلى سنة الصلاة قبلها ولا بعدها، إلا ما كان من الوتر وسنة الفجر، فإنه لم يكن ليدعها حَضراً، ولا سفراً. قال ابن عمر وقد سئل عن ذلك، فقال: صحبتُ النبي ﷺ، فلم أره يُسبِّح في السفر، وقال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] [البخاري: ١١٠١، ومسلم: ١٥٧٩] ومراده بالنسيح: السنة الراتبة، وإلا فقد صحَّ عنه ﷺ أنه كان يُسبِّح على ظهر راحلته حيث كان وجهه. وفي «الصحيحين»، عن ابن عمر، قال: كان رسول الله ﷺ يُصلي في السفر على راحلته حيث توجهت، يؤمُّه إيماء صلاة الليل، إلا الفرائض ويُوتر على راحلته [البخاري: ١٠٠٠، ومسلم: ١٦١٠].

قال الشافعي رحمه الله: وثبت عن النبي ﷺ أنه كان يتنفل ليلاً، وهو يقصر، وفي «الصحيحين»: عن

النساء، وقد أخبر ابن عمر أنه لم يزد على ركعتين، ولم يكن ابن عمر يُصلي قبلها ولا بعدها شيئاً. والله أعلم.

فصل

(صلاته على راحلته)

وكان من هديه ﷺ صلاة التطوع على راحلته حيث توجهت به، وكان يومئذ إيماء برأسه في ركوعه، وسجوده، وسجوده أخفض من ركوعه، وروى أحمد وأبو داود عنه، من حديث أنس: أنه كان يستقبل بناقته القيلة عند تكبيرة الافتتاح، ثم يُصلي سائر الصلاة حيث توجهت به [حسن: أحمد: ١٣١٠٩، وأبو داود: ١٢٢٥]. وفي هذا الحديث نظر، وسائر من وصف صلاته ﷺ على راحلته، أطلقوا أنه كان يُصلي عليها قبل أي جهة توجهت به، ولم يستثنوا من ذلك تكبيرة الإحرام ولا غيرها، كعامر بن ربيعة، وعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله، وأحاديثهم أصح من حديث أنس هذا، والله أعلم.

وصلى على الراحلة، وعلى الحمار إن صح عنه، وقد رواه مسلم في «صحيحه» من حديث ابن عمر [مسلم: ١٦١٤].

وصلى الفرض بهم على الرواحل لأجل المطر والطين إن صح الخبر بذلك، وقد رواه أحمد والترمذي والنسائي: أنه عليه الصلاة والسلام انتهى إلى مضيق هو وأصحابه وهو على راحلته، والسَّماء من فوقهم، والبلَّة من أسفل منهم، فحضرته الصلاة، فأمر المؤذن فأذن، وأقام، ثم تقدَّم رسول الله ﷺ على راحلته، فصلى بهم يومئذ إيماء، فجعل السجود أخفض من الركوع [سند ضعيف: أحمد: ١٧٥٧٣، والترمذي: ٤١١]. قال الترمذي: حديث غريب، تفرد به عمر بن الرماح، وثبت ذلك عن أنس من فعله.

فصل

(الجمع بين الصلاتين)

وإعلال عجيب للحاكم لحديث صحيح

وكان من هديه ﷺ أنه إذا ارتحل قبل أن تزيع

الشمس، أخر الظهر إلى وقت العصر، ثم نزل، فجمع بينهما، فإن زالت الشمس قبل أن يرتحل، صلى الظهر، ثم ركب. وكان إذا أعجله السير، أخر المغرب حتى يجمع بينها وبين العشاء في وقت العشاء. وقد روي عنه في غزوة تبوك أنه كان إذا زاغت الشمس قبل أن يرتحل، جمع بين الظهر والعصر، وإن ارتحل قبل أن تزيع الشمس، أخر الظهر حتى ينزل للعصر، فيصلهما جميعاً، وكذلك في المغرب والعشاء، لكن اختلف في هذا الحديث، فمن مصحح له، ومن محسن، ومن قادح فيه، وجعله موضوعاً كالحاكم، وإسناده على شرط الصحيح، لكن رُمي بعلَّة عجيبة، قال الحاكم: حدثنا أبو بكر بن محمد بن أحمد بن بالويه، حدثنا موسى بن هارون، حدثنا قُتيبة بن سعيد، حدثنا الليث بن سعد، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الطفيل، عن معاذ بن جبل: أن النبي ﷺ كان في غزوة تبوك إذا ارتحل قبل أن تزيع الشمس، أخر الظهر حتى يجمعها إلى العصر، ويصلهما جميعاً، وإذا ارتحل بعد زيع الشمس، صلى الظهر والعصر جميعاً، ثم سار، وكان إذا ارتحل قبل المغرب أخر المغرب حتى يصلها مع العشاء، وإذا ارتحل بعد المغرب عجل العشاء فصلًاها مع المغرب [أحمد: ٢٢٠٩٣، وأبو داود: ١٢٢٠، والترمذي: ٥٥٣، وسند معلول]. قال الحاكم: هذا الحديث رواه أئمة ثقات، وهو شاذ الإسناد والمتن، ثم لا نعرف له علَّة نُعَلِّه بها، فلو كان الحديث عن الليث، عن أبي الزبير، عن أبي الطفيل، لعللنا به الحديث. ولو كان عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الطفيل، لعللنا به، فلما لم نجد له العلتين، خرج عن أن يكون معلولاً، ثم نظرنا فلم نجد ليزيد بن أبي حبيب عن أبي الطفيل رواية، ولا وجدنا هذا المتن بهذه السياقة عن أحد من أصحاب أبي الطفيل، ولا عن أحد ممن روى عن معاذ بن جبل غير أبي الطفيل، فقلنا: الحديث شاذ. وقد حدثوا عن أبي العباس الثقفي قال: كان قُتيبة بن سعيد يقول لنا: على هذا الحديث علامة أحمد ابن حنبل، وعلي بن المديني، ويحيى بن معين، وأبي بكر بن أبي شيبة، وأبي خيثمة، حتى عد قُتيبة سبعة من أئمة الحديث

كتبوا عنه هذا الحديث، وأئمة الحديث إنما سمعوه من قتيبة تعجباً من إسناده ومثته، ثم لم يبلغنا عن أحد منهم أنه ذكر للحديث علّة، ثم قال: فنظرنا فإذا الحديث موضوع، وعتيبة ثقة مأمون، ثم ذكر بإسناده إلى البخاري. قال: قلت لعتيبة بن سعيد: مع من كتبت عن الليث بن سعد حديث يزيد بن أبي حبيب عن أبي طفيل؟ قال: كتبه مع خالد بن القاسم أبي الهيثم المدائني. قال البخاري: وكان خالد المدائني يُدخل الأحاديث على الشيوخ.

قلت: وحكمه بالوضع على هذا الحديث غير مسلم، فإن أبا داود رواه عن يزيد بن خالد بن عبد الله بن موهب الرملي، حدثنا المفضل بن فضالة، عن الليث بن سعد، عن هشام بن سعد، عن أبي الزبير، عن أبي الطفيل، عن معاذ فذكره... [أبو داود: ١٢٠٨] فهذا المفضل قد تابع قتيبة، وإن كان قتيبة أجلاً من المفضل وأحفظ، لكن زال تفرد قتيبة به، ثم إن قتيبة صرح بالسماع فقال: حدثنا ولم يعنعن، فكيف يُقدح في سماعه، مع أنه بالمكان الذي جعله الله به من الأمانة، والحفظ، والثقة، والعدالة. وقد روى إسحاق بن راهويه: حدثنا شعبة، حدثنا الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب، عن أنس، أن رسول الله ﷺ: كان إذا كان في سفر، فزالت الشمس، صلى الظهر والعصر، ثم ارتحل [صحيح: البيهقي (١٦٢/٣)]. وهذا إسناده كما ترى، وشعبة: هو شعبة بن سوار الثقة المتفق على الاحتجاج بحديثه، وقد روى له مسلم في «صحيحه» عن الليث بن سعد بهذا الإسناد، على شرط الشيخين، وأقل درجاته أن يكون مقوياً لحديث معاذ، وأصله في «الصحيحين» لكن ليس فيه جمع التقديم. ثم قال أبو داود: وروى هشام، عن عروة، عن حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس، عن كريب، عن ابن عباس، أنه قال: ألا أخبركم عن صلاة النبي ﷺ في السفر؟ كان إذا زالت الشمس وهو في منزله، جمع بين الظهر والعصر في الزوال، وإذا سافر قبل أن تزول الشمس، أخر الظهر حتى يجمع بينها وبين العصر في وقت العصر، قال: وأخيه قال في المغرب والعشاء مثل

ذلك، ورواه الشافعي من حديث ابن أبي يحيى، عن حسين، ومن حديث ابن عجلان بلاغاً عن حسين. قال البيهقي: هكذا رواه الأكابر، هشام بن عروة وغيره، عن حسين بن عبد الله. ورواه عبد الرزاق، عن ابن جريج، عن حسين، عن عكرمة، وعن كريب كلاهما عن ابن عباس، ورواه أيوب عن أبي قلابة، عن ابن عباس، قال: ولا أعلمه إلا مرفوعاً.

وقال إسماعيل بن إسحاق: حدثنا إسماعيل بن أبي إدريس قال: حدثني أخي، عن سليمان بن مالك، عن هشام بن عروة، عن كريب، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا جد به السير، فراح قبل أن تزيغ الشمس، ركب فسار، ثم نزل، فجمع بين الظهر والعصر، وإذا لم يَزُحْ حتى تزيغ الشمس، جمع بين الظهر والعصر، ثم ركب، وإذا أراد أن يركب ودخلت صلاة المغرب، جمع بين المغرب وبين صلاة العشاء.

قال أبو العباس بن سريج: روى يحيى بن عبد الحميد، عن أبي خالد الأحمر، عن الحجاج، عن الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا لم يرتحل حتى تزيغ الشمس، صلى الظهر والعصر جميعاً، فإذا لم تَزُغْ، أخرها حتى يجمع بينهما في وقت العصر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ويدل على جمع التقديم جمعه بعروة بين الظهر والعصر لمصلحة الوقوف، ليتصل وقت الدعاء، ولا يقطعهُ بالنزول لصلاة العصر مع إمكان ذلك بلا مشقة، فالجمعُ كذلك لأجل المشقة والحاجة أولى.

قال الشافعي: وكان أرفق به يوم عرفة تقديم العصر لأن يتصل له الدعاء، فلا يقطعهُ بصلاة العصر، وأرفق بالمزدلفة أن يتصل له المسير، ولا يقطعهُ بالنزول للمغرب، لما في ذلك من التضييق على الناس. والله أعلم.

فصل

(كان يجمع إذا جد به السير)

ولم يكن من هديه ﷺ الجمعُ ركباً في سفره، كما

عبد الله بن مسعود، فقرأ عليه وهو يسمع، وخَشَع
لسماع القرآن منه، حتى ذرفت عيناه [البخاري:
٥٠٤٩].

وكان يقرأ القرآن قائماً، وقاعداً، ومضطجعاً
ومتوضئاً، ومُخْدِئاً، ولم يكن يمنعه من قراءته إلا
الجنابة.

وكان ﷺ يتغنّى به، ويرُجّع صوته به أحياناً كما
رُجِع يوم الفتح في قراءته: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا لَكَ قَتْلًا بُيِّنًا﴾
[الفتح: ١]. وحكى عبد الله بن مغفل ترجيعه آ آ
ثلاث مرات، ذكره البخاري [٥٠٤٧].

وإذا جمعت هذه الأحاديث إلى قوله: «رَزَوْنَا
الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ» [صحيح: أحمد: ١٨٤٩٤، وأبو داود:
١٤٦٨، والنسائي (١٧٩/٢ - ١٨٠)، وابن ماجه: ١٣٤٢].
وقوله: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ» [البخاري:
٧٥٢٧]. وقوله: «مَا أَذِنَ اللَّهُ لِيَشِيءَ، كَأَذْنِي لِيُنَبِّئَ حَسَنَ
الصَّوْتِ يَتَغَنَّيَ بِالْقُرْآنِ» [البخاري: ٧٤٨٢، ومسلم:
١٨٤٥]. علمت أن هذا الترجيع منه ﷺ، كان اختياراً
لا اضطراراً لهز الناقه له، فإن هذا لو كان لأجل هز
الناقه، لما كان داخلاً تحت الاختيار، فلم يكن
عبد الله بن مغفل يحكيه ويفعله اختياراً ليؤتسى به،
وهو يرى هز الراحلة له حتى ينقطع صوته، ثم يقول:
كان يُرْجِع في قراءته، فنسب الترجيع إلى فعله. ولو
كان من هز الراحلة، لم يكن منه فعل يسمى ترجيعاً.

وقد استمع ليلة لقراءة أبي موسى الأشعري، فلما
أخبره بذلك، قال: لو كنت أعلم أنك تسمعه، لحبّرت
لَكَ تَحْيِيراً [الهيتمي في «المجمع» (١٧٠/٧)]. أي: حسنته
وزيّنته بصوتي تزييناً، وروى أبو داود في «سننه» عن
عبد الجبار بن الورد، قال: سمعتُ ابنَ أبي مُليكة
يقول: قال عبد الله بن أبي يزيد: مر بنا أبو لبابة،
فاتّبعناه حتى دخل بيته، فإذا رجل رث الهيئة، فسمعتُه
يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ
يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ». قال: فقلتُ لابن أبي مُليكة: يا أبا
محمداً! أرايتُ إذا لم يكن حسن الصوت؟ قال:
يُحَسِّنُهُ ما استطاع.

(اختلاف الناس في معنى التَغَنّي بالقرآن)

قلت: لا بد من كشف هذه المسألة، وذكر
اختلاف الناس فيها، واحتجاج كل فريق، وما لهم

يفعله كثير من الناس، ولا الجمع حال نزوله أيضاً،
وإنما كان يجمع إذا جدّ به السير، وإذا سار عقيب
الصلاة، كما ذكرنا في قصة تبوك، وأما جمعه وهو
نازل غير مسافر، فلم يُنقل ذلك عنه إلا بعرفة لأجل
اتصال الوقوف، كما قال الشافعي رحمه الله
وشيوخنا، ولهذا خصه أبو حنيفة بعرفة، وجعله من
تمام النسك، ولا تأثير للسفر عنده فيه. وأحمد،
ومالك، والشافعي، جعلوا سببه السفر، ثم اختلفوا،
فجعل الشافعي وأحمد في إحدى الروايات عنه التأثير
للسفر الطويل، ولم يجوزاه لأهل مكة، وجوز مالك
وأحمد في الرواية الأخرى عنه لأهل مكة الجمع،
والقصر بعرفة، واختارها شيخنا وأبو الخطاب في
عبادته، ثم طرد شيخنا هذا، وجعله أصلاً في جواز
القصر والجمع في طويل السفر وقصيره، كما هو
مذهب كثير من السلف، وجعله مالك وأبو الخطاب
مخصوصاً بأهل مكة.

(حد المسافة للقصر والفطر)

ولم يحدّ ﷺ لأمته مسافة محدودة للقصر والفطر،
بل أطلق لهم ذلك في مُطلق السفر والضرب في
الأرض، كما أطلق لهم التيمم في كل سفر، وأما ما
يُروى عنه من التحديد باليوم، أو اليومين، أو الثلاثة،
فلم يصح عنه منها شيء البتة، والله أعلم.

فصل

في هديه ﷺ في قراءة القرآن، واستماعه،
وخشوعه، وبكائه عند قراءته، واستماعه
وتحسين صوته به وتواضع ذلك

كان له ﷺ حِزْب يقرؤه، ولا يُجْلُ به، وكانت
قراءته ترتيلاً لا هذا ولا عجلة، بل قراءة مفسّرة حرفاً
حرفاً. وكان يُقَطِّع قراءته آية آية، وكان يمدُّ عند حروف
المد، فيمد «الرَّحْمَنَ» ويمد «الرَّحِيمَ»، وكان
يستعِذ بالله من الشيطان الرجيم في أول قراءته،
فيقول: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»، وربّما كان
يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ
هَمَزِهِ وَنَفْخِهِ، وَنَفْثِهِ» [حسن: أحمد: ٣٨٣٠، وأبو داود:
٧٦٤، وابن ماجه: ٨٠٧]. وكان تعودّه قبل القراءة.

وكان يُحِبُّ أن يسمع القرآن من غيره، وأمر

القاضي: وإنما قالوا ذلك، لأن سماع ذلك منها مكروه، فلا يجوز أن يُعاوض عليه كالغناء.

قال ابن بقال: وقالت طائفة: التغني بالقرآن، هو تحسين الصوت به، والترجيع بقراءته، قال: والتغني بما شاء من الأصوات واللحون هو قول ابن المبارك، والنضر بن شميل، قال: ومن أجاز الألحان في القرآن: ذكر الطبري، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه كان يقول لأبي موسى: ذكّرنا ربّنا، فيقرأ أبو موسى ويتلاحن، وقال: من استطاع أن يتغنى بالقرآن غناء أبي موسى، فليفعل، وكان عقبة بن عامر من أحسن الناس صوتاً بالقرآن، فقال له عمر: اعرض عليّ سورة كذا، فعرض عليه، فبكى عمر، وقال: ما كنت أظن أنها نزلت، قال: وأجازه ابن عباس، وابن مسعود، وروي عن عطاء بن أبي رباح، قال: وكان عبد الرحمن بن الأسود بن يزيد، يتتبع الصوت الحسن في المساجد في شهر رمضان. وذكر الطحاوي عن أبي حنيفة وأصحابه: أنهم كانوا يستمعون القرآن بالألحان. وقال محمد بن عبد الحكم: رأيت أبي والشافعي ويوسف بن عمر يستمعون القرآن بالألحان، وهذا اختيار ابن جرير الطبري.

قال المجوّزون - واللفظ لابن جرير -: الدليل على أن معنى الحديث تحسين الصوت والغناء المعقول الذي هو تحزين القارئ سامع قراءته، كما أن الغناء بالشعر هو الغناء المعقول الذي يُطرب سامعه ما روى سفيان، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «مَا أَذِنَ اللَّهُ لشيءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيِّ حَسَنِ التَّرْنَمِ بِالْقُرْآنِ». ومعقول عند ذوي الجحجا، أن الترنم لا يكون إلا بالصوت إذا حسّنه المترنم وطرب به. وروي في هذا الحديث: «مَا أَذِنَ اللَّهُ لشيءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيِّ حَسَنِ الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به». قال الطبري: وهذا الحديث من أبين البيان أن ذلك كما قلنا، قال: ولو كان كما قال ابن عيينة، يعني: يستغني به عن غيره، لم يكن لذكر حسن الصوت والجهر به معنى، والمعروف في كلام العرب أن التغني إنما هو الغناء الذي هو حسن الصوت بالترجيع، قال الشاعر:

وعليهم في احتجاجهم، وذكر الصواب في ذلك بحول الله تبارك وتعالى ومعونه، فقالت طائفة: تكره قراءة الألحان، ومن نص على ذلك أحمد ومالك وغيرهما، فقال أحمد في رواية علي بن سعيد في قراءة الألحان: ما تعجبني وهو مُحدث. وقال في رواية المروزي: القراءة بالألحان بدعة لا تُسمع، وقال في رواية عبد الرحمن المتطبب: قراءة الألحان بدعة، وقال في رواية ابنه عبد الله، ويوسف بن موسى، ويعقوب بن بختان، والأثرم، وإبراهيم بن الحارث: القراءة بالألحان لا تُعجبني إلا أن يكون ذلك حزناً، فيقرأ بحزن مثل صوت أبي موسى، وقال في رواية صالح: «زَيِّتُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»، معناه: أن يُحسنه، وقال في رواية المروزي: «مَا أَذِنَ اللَّهُ لشيءٍ كَأَذْنِهِ لِنَبِيِّ حَسَنِ الصوت أن يتغنى بالقرآن» وفي رواية قوله: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ»، فقال: كان ابن عيينة يقول: يستغني به. وقال الشافعي: يرفع صوته، وذكر له حديث معاوية بن قرة في قصة قراءة سورة الفتح والترجيع فيها، فأنكر أبو عبد الله أن يكون على معنى الألحان، وأنكر الأحاديث التي يُحتج بها في الرخصة في الألحان.

وروى ابن القاسم، عن مالك، أنه سئل عن الألحان في الصلاة، فقال: لا تُعجبني، وقال: إنما هو غناء يتغنون به، ليأخذوا عليه الدراهم. ومن رويت عنه الكراهة، أنس بن مالك، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبيرة، والقاسم بن محمد، والحسن، وابن سيرين، وإبراهيم النخعي. وقال عبد الله بن يزيد العكبري: سمعت رجلاً يسأل أحمد، ما تقول في القراءة بالألحان؟ فقال: ما اسمك؟ قال محمد: قال: أيسرك أن يقال لك: يا موحّد ممدوداً. قال القاضي أبو يعلى: هذه مبالغة في الكراهة. وقال الحسن بن عبد العزيز الجروي: أوصى إليّ رجل بوصية، وكان فيما خُلف جارية تقرأ بالألحان، وكانت أكثر تركته أو عامتها، فسألت أحمد بن حنبل والحارث بن مسكين، وأبا عبيد، كيف أبيها؟ فقالوا: بعها ساذجة، فأخبرتهم بما في بيعها من النقصان، فقالوا: بعها ساذجة، قال

تَعَنَّ بِالشَّعْرِ إِذَا كُنْتَ قَائِلَهُ

إِنَّ الْغِنَاءَ لِهَذَا الشَّعْرِ مَضْمَارٌ^(١)

قال: وأما ادعاء الزاعم، أن تغنيت بمعنى استغنيت فاشي في كلام العرب، فلم نعلم أحداً قال به من أهل العلم بكلام العرب.

وأما احتجاجه لتصحيح قوله بقول الأعشى:

وَكُنْتُ امْرَءاً زَمَنْناً بِالْعِرَاقِ

غَنِيْفَ الْمُنَاحِ طَوِيلَ النَّعْنِ^(٢)

وزعم أنه أراد بقوله: طويل التغني: طويل الاستغناء، فإنه غلط منه، وإنما عن الأعشى بالتغني في هذا الموضع: الإقامة من قول العرب: غني فلان بمكان كذا: إذا أقام به، ومنه قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَتَوَخَّأ فِيهَا﴾ [الأعراف: ٩٢]، واستشهاده بقول الآخر:

كَلَانَا غَنِيٌّ عَنْ أَخِيهِ حَيَاتَهُ

وَنَحْنُ إِذَا مَشْنَا أَشَدُّ تَعَانِيَا^(٣)

فإنه إغفال منه، وذلك لأن التغاني تفاعل من تغنى: إذا استغنى كل واحد منهما عن صاحبه، كما يقال: تضارب الرجلان، إذا ضرب كل واحد منهما صاحبه، وتشاطما، وتقاتلا. ومن قال: هذا في فعل اثنين، لم يجز أن يقول مثله في فعل الواحد، فيقول: تغاني زيد، وتضارب عمرو، وذلك غير جائز أن يقول: تغنى زيد بمعنى استغنى، إلا أن يريد به قائله أنه أظهر الاستغناء، وهو غير مستغن، كما يقال: تجلّد فلان: إذا أظهر جلداً من نفسه، وهو غير جليد، وتشجّع، وتكرّم، فإن وجّه موجه التغني

بالقرآن إلى هذا المعنى على بُعد من مفهوم كلام العرب، كانت المصيبة في خطئه في ذلك أعظم، لأنه يُوجب على من تأوله أن يكون الله تعالى ذكره لم يأذن لنيه أن يستغني بالقرآن، وإنما أذن له أن يظهر من نفسه لنفسه خلافاً ما هو به من الحال، وهذا لا يخفى فساده. قال: ومما يُبين فساد تأويل ابن عيّنة أيضاً أن الاستغناء عن الناس بالقرآن من المحال أن يُوصف أحد به أنه يؤذن له فيه أو لا يؤذن، إلا أن يكون الأذن عند ابن عيّنة بمعنى الإذن الذي هو إطلاق وإباحة، وإن كان كذلك، فهو غلط من وجهين، أحدهما: من اللغة، والثاني: من إحالة المعنى عن وجهه. أما اللغة، فإن الإذن مصدر قوله: أذن فلان لكلام فلان، فهو يأذن له: إذا استمع له وأنصت، كما قال تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ﴾ [الأنشاق: ٢]، بمعنى سمعت لربها وحق لها ذلك، كما قال عدي بن زيد:

إِنَّ هَمِّي فِي سَمَاعٍ وَأَذْنٍ^(٤)

بمعنى، في سماع واستماع. فمعنى قوله: ما أذن الله لشيء، إنما هو: ما استمع الله لشيء من كلام الناس ما استمع لني يتغنى بالقرآن. وأما الإحالة في المعنى، فلأن الاستغناء بالقرآن عن الناس غير جائز وصفه بأنه مسموع وماذون له، انتهى كلام الطبري.

قال أبو الحسن بن بطال: وقد وقع الإشكال في هذه المسألة أيضاً، بما رواه ابن أبي شيبة، حدثنا زيد بن الحباب قال: حدثني موسى بن علي بن

(١) البيت لحسان، وهو في ديوانه ص (٤٢٠).

(٢) هو في ديوانه ص (٢٥) من قصيدة يمدح بها قيس بن معد يكرب الكندي مطلعها:

لعمرك ما طول هذا الزمن

على المرء إلا غناء مَن

(٣) البيت في «الحماسة البصرية» (٥٥/٢)، و«الأغاني»

(١٢٧/١٣) للأيبرد، وفي «ذيل الأماشي» ص (٧٣)

لسيار بن هبيرة، وهو في «الكامل» (١٨٤/١) من

آيات أوردها لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن

جعفر بن أبي طالب وهي:

رَأَيْتُ فَضِيلاً كَانَ شَيْئاً مُلْفَقاً

فَكَشَفَهُ التَّمْحِصَ حَتَّى بَدَأَ لِيَا

أَنْتَ أَخِي مَا لَمْ تَكُنْ لِي حَاجَةً

فإن عرضت أيقنتُ ألا أخاليا

فلا زاد ما بيني وبينك بعدما

بلوتُك في الحاجات إلا تماديا

فلست براء عيب ذي الود كله

ولا بعض ما فيه إذا كنت راضيا

فعين الرضى عن كل عيب كليله

كما أن عين السخط تُبدي المساويا

(٤) عجزيت صدره:

أيها القلب تعلل ببدن

وهو في «أماشي ابن الشجري» (٣٦/٢)، و«ديوان

عدي» ص (١٧٢)، والددن: هو اللهو واللعب.

ورين فهمها، ولم يدر ما معناها، والواقع بخلاف ذلك.

قالوا: وهذا التطريب والتلحين، أمر راجع إلى كيفية الأداء، وتارة يكون سليقة وطبيعة، وتارة يكون تكلفاً وتعملاً، وكيفيات الأداء لا تُخرج الكلام عن وضع مفرداته، بل هي صفات لصوت المؤدي، جارية مجرى ترقيقه وتفخيمه وإمالة، وجارية مجرى مدود القراء الطويلة والمتوسطة، لكن تلك الكيفيات متعلقة بالحروف، وكيفيات الألحان والتطريب، متعلقة بالأصوات، والآثار في هذه الكيفيات، لا يمكن نقلها، بخلاف كيفيات أداء الحروف، فلهذا نُقلت تلك بألفاظها، ولم يمكن نقل هذه بألفاظها، بل نقل منها ما أمكن نقله، كترجيع النبي ﷺ في سورة الفتح بقوله: «آ آ». قالوا: والتطريب والتلحين راجع إلى أمرين: مدٌ وترجيع، وقد ثبت عن النبي ﷺ: أنه كان يمد صوته بالقراءة يمد «الرَّحْمَنُ» ويمد «الرَّحِيمَ»، وثبت عنه الترجيع كما تقدم.

قال المانعون من ذلك: الحجة لنا من وجوه. أحدها: ما رواه حذيفة بن اليمان، عن النبي ﷺ: «اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ يَلْحُونُ الْعَرَبَ وَأَصْوَاتُهَا، وَإِيَّاكُمْ وَلَهُونَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْفَرَسِيِّ، فَإِنَّهُ سَبَّحِيٌّ مِنْ بَعْدِي أَقْوَامٌ يَرْجِعُونَ بِالْقُرْآنِ تَرْجِيعَ الْغَنَاءِ وَالنَّوْحِ، لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، مَقْتُونَةٌ قُلُوبُهُمْ، وَقُلُوبُ الَّذِينَ يُعْجِبُهُمْ شَأْنُهُمْ» [الطبراني في الأوسط: ٧٢٢٣، والبيهقي في شعب الإيمان: ٢٦٤٩، وسنده ضعيف]. رواه أبو الحسن رَزَيْنٌ في «تجريد الصحاح» ورواه أبو عبد الله الحكيم الترمذي في «نوادير الأصول». واحتج به القاضي أبو يعلى في «الجامع»، واحتج معه بحديث آخر، أنه ﷺ ذكر شرائط الساعة، وذكر أشياء، منها: «أَنْ يُتَّخَذَ الْقُرْآنُ مَزَامِيرَ، يُقَدِّمُونَ أَحَدَهُمْ لَيْسَ بِأَقْرَبِهِمْ وَلَا أَفْضَلَهُمْ مَا يُقَدِّمُونَهُ إِلَّا لِيُعْجِبَهُمْ غِنَاءٌ» [صحيح: أحمد: ١٦٠٤٠].

قالوا: وقد جاء زياد النهدي إلى أنس رضي الله عنه مع القراء، ف قيل له: اقرأ، فرفع صوته وطرَّب، وكان رفيع الصوت، فكشف أنس عن وجهه، وكان على وجهه خرقعة سوداء، وقال: يا هذا! ما هكذا

رباح، عن أبيه، عن عَقْبَةَ بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ وَتَقَنُّوا بِهِ، وَاكْتُبُوهُ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُوَ أَشَدُّ تَقْصِيًّا مِنَ الْمَخَاضِ مِنَ الْعُقُلِ» [صحيح: أحمد: ١٧٣٩٤]. قال: وذكر عمر بن شُبَّة قال: ذكر لأبي عاصم النبيل تأويل ابن عيينة في قوله: «يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ» يستغني به، فقال: لم يصنع ابن عيينة شيئاً، حدثنا ابن جريج، عن عطاء، عن عُبيد بن عُمر قال: كانت لداود نبي الله ﷺ مِعْرَظَةٌ يَتَغَنَّى عَلَيْهَا يَبْكِي وَيُبْكِي. وقال ابن عباس: إنه كان يقرأ الزبور بسبعين لحناً تكون فيهن، ويقرأ قراءة يَطْرَبُ منها الجموع. وسئل الشافعي رحمه الله، عن تأويل ابن عيينة فقال: نحن أعلم بهذا، لو أراد به الاستغناء، لقال: «من لم يستغن بالقرآن»، ولكن لما قال: «يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ»، علمنا أنه أراد به التغني.

قالوا: ولأن تزيينه، وتحسين الصوت به، والتطريب بقراءته أوقع في النفوس، وأدعى إلى الاستماع والإصغاء إليه، ففيه تنفيذ للفظه إلى الأسماع، ومعانيه إلى القلوب، وذلك عونٌ على المقصود، وهو بمنزلة الحلاوة التي تجعل في الدواء لتنفذه إلى موضع الداء، وبمنزلة الأفاويه والطيب الذي يجعل في الطعام، لتكون الطبيعة أدعى له قبولاً، وبمنزلة الطيب والتحلّي، وتجميل المرأة لبعْلِها، ليكون أدعى إلى مقاصد النكاح. قالوا: ولا بد للنفس من طرب واشتياق إلى الغناء، فعُوِّضت عن طرب الغناء بطرب القرآن، كما عُوِّضت عن كل محرّم ومكروه بما هو خيرٌ لها منه، وكما عُوِّضت عن الاستقسام بالألزام بالاستخارة التي هي محض التوحيد والتوكل، وعن السّفاح بالنكاح، وعن القمار بالمراهنة بالتّصال وسباق الخيل، وعن السماع الشيطاني بالسماع الرحماني القرآني، ونظائره كثيرة جداً.

قالوا: والمحرم، لا بد أن يشتول على مفسدة راجحة، أو خالصة، وقراءة التطريب والألحان لا تتضمن شيئاً من ذلك، فإنها لا تُخرج الكلام عن وضعه، ولا تحوّل بين السامع وبين فهمه، ولو كانت متضمنة لزيادة الحروف كما ظن المانع منها، لأخرجت الكلمة عن موضعها، وحالت بين السامع

نفسه دفعَ التحزين والتطريب في القراءة، ولكن النفوسَ تقبلُه وتستحليه لموافقته الطبع، وعدم التكلف والتصنع فيه، فهو مطبوع لا متطع، وكلف لا متكلف، فهذا هو الذي كان السلف يفعلونه ويستمعونه، وهو التغني الممدوح المحمود، وهو الذي يثأثر به التالي والسامع، وعلى هذا الوجه تحمل أدلة أرباب هذا القول كلها.

الوجه الثاني: ما كان من ذلك صناعة من الصنائع، وليس في الطبع السماحة به، بل لا يحصل إلا بتكلف وتصنع وتمرن، كما يتعلم أصوات الغناء بأنواع الألحان البسيطة، والمركبة على إيقاعات مخصوصة، وأوزان مخترة، لا تحصل إلا بالتعلم والتكلف، فهذه هي التي كرهها السلف، وعابوها، وذمُّوها، ومنعوا القراءة بها، وأنكروا على من قرأ بها، وأدلة أرباب هذا القول إنما تتناول هذا الوجه، وبهذا التفصيل يزول الاشتباه، وتبين الصواب من غيره، وكلُّ من له علم بأحوال السلف، يعلم قطعاً أنهم برآء من القراءة بالألحان الموسيقي المتكلفة، التي هي إيقاعات وحركات موزونة معدودة محدودة، وأنهم اتقى لله من أن يقرؤوا بها، ويُسَوِّغوها، ويعلم قطعاً أنهم كانوا يقرؤون بالتحزين والتطريب، ويحسنون أصواتهم بالقرآن، وقرؤونه بشجى تارة، ويطرب تارة، وبشوق تارة، وهذا أمر مركوز في الطباع تقاضيه، ولم ينه عنه الشارع مع شدة تقاضي الطباع له، بل أرشد إليه وندب إليه، وأخبر عن استماع الله لمن قرأ به، وقال: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ». وفيه وجهان: أحدهما: أنه إخبار بالواقع الذي كلنا نفعله، والثاني: أنه نفي لهدي من لم يفعله عن هديه وطريقته ﷺ.

فصل

في هديه ﷺ في عبادة المرضى

كان ﷺ يعوذ مَنْ مَرِضَ من أصحابه، وعاد غلاماً كان يخدمه من أهل الكتاب [البخاري: ١٣٥٦]، وعاد عمه وهو مشرك [البخاري: ١٣٦٠]، وسلم: [١٣٢]، وعرض عليهما الإسلام، فأسلم اليهودي، ولم يسلم عمه.

كانوا يفعلون، وكان إذا رأى شيئاً يُنكره، رفع الجِرْقَة عن وجهه. قالوا: وقد منع النبي ﷺ المؤذّن المُطَرَّبَ في أذانه من التطريب، كما روى ابنُ جريج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: كان لرسول الله ﷺ مؤذّن يطرب، فقال النبي ﷺ: «إِنَّ الْأَذَانَ سَهْلٌ سَمَحٌ، فَإِنْ كَانَ أَذَانُكَ سَهْلًا سَمَحًا، وَإِلَّا فَلَا تُؤذِّنْ» رواه الدارقطني [الدارقطني (٢٣٩/١)]. وروى عبد الغني بن سعيد الحافظ من حديث قتادة، عن عبد الرحمن بن أبي بكر، عن أبيه قال: كانت قراءة رسول الله ﷺ المد، ليس فيها ترجيع. قالوا: والترجيع والتطريب يتضمن همزاً ما ليس بهموز، ومد ما ليس بممدود، وترجيع الألف الواحد ألفات، والواو واوات، والياء ياءات، فيؤدّي ذلك إلى زيادة في القرآن، وذلك غير جائز، قالوا: ولا حدّ لما يجوز من ذلك، وما لا يجوز منه، فإن حُدَّ بحدٍّ معيّن، كان تحكماً في كتاب الله تعالى ودينه، وإن لم يُحدَّ بحدٍّ، أفضى إلى أن يُطلق لفاعله ترديد الأصوات، وكثرة الترجيعات، والتنويع في أصناف الإيقاعات والألحان المشبهة للغناء، كما يفعل أهلُ الغناء بالآليات، وكما يفعله كثير من القُرّاء أمام الجنائز، ويفعله كثير من قراء الأصوات، مما يتضمن تغيير كتاب الله والغناء به على نحو ألحان الشعر والغناء، ويوقعون الإيقاعات عليه مثل الغناء سواء، اجترأ على الله وكتابه، وتلاعباً بالقرآن، وركنوا إلى تزوين الشيطان، ولا يُجيز ذلك أحدٌ من علماء الإسلام، ومعلوم: أن التطريب والتلحين ذريعة مُفضية إلى هذا إفشاء قريباً، فالمنع منه، كالمنع من الذرائع الموصلة إلى الحرام، فهذا نهاية إقدام الفريقين، ومنتهى احتجاج الطائفتين.

وفصل النزاع، أن يقال: التطريب والتغني على وجهين، أحدهما: ما اقتضته الطبيعة، وسمحت به من غير تكلف ولا تمرين ولا تعليم، بل إذا خُلّي وطبعه، واسترسلت طبيعته، جاءت بذلك التطريب والتلحين، فذلك جائز، وإن أعان طبيعته بفضل تزوين وتحسين، كما قال أبو موسى الأشعري للنبي ﷺ: «لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تَسْمَعُ لَكَبَّرْتُهُ لَكَ تَحْيِيرًا»، والحزين ومَنْ هاجه الطرب، والحب والشوق لا يملك من

مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَنْفَعُهُ» [مسلم: ٥٧٢٧].

فإن قيل: فما تصنعون بالحديث الذي في «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ، كان إذا أوى إلى فراشه، جمع كفيه ثم نفث فيهما، فقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْتَائِي﴾، ويمسح بهما ما استطاع من جسده، ويبدأ بهما على رأسه ووجهه ما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات قالت عائشة: فلما اشتكى رسول الله ﷺ، كان يأمرني أن أفعل ذلك به [البخاري: ٥٧٤٨، ومسلم: ٥٧١٤].

فالجواب: أن هذا الحديث قد روي بثلاثة ألفاظ. أحدها: هذا. والثاني: أنه كان ينفث على نفسه، والثالث: قالت: كنت أنفث عليه بهن، وأمسح بيد نفسه لبركتها، وفي لفظ رابع: كان إذا اشتكى، يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، وهذه الألفاظ يُفسر بعضها بعضاً. وكان ﷺ ينفث على نفسه، وضعفه ووجهه يمنعه من إمرار يده على جسده كله. فكان يأمر عائشة أن تمر يده على جسده بعد نفثه هو، وليس ذلك من الاسترقاء في شيء، وهي لم تقل: كان يأمرني أن أرقه، وإنما ذكرت المسح بيده بعد النفث على جسده، ثم قالت: كان يأمرني أن أفعل ذلك به، أي: أن أمسح جسده بيده، كما كان هو يفعل.

ولم يكن من هديه عليه الصلاة والسلام أن يَحْضَ يوماً من الأيام بعبادة المريض، ولا وقتاً من الأوقات، بل شرع لأمته عبادة المرضى ليلاً ونهاراً، وفي سائر الأوقات. وفي «المسند» عنه: «إذا عَادَ الرَّجُلُ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ مَشَى فِي حُرْقَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَجْلِسَ، فَإِذَا جَلَسَ، غَمَرَتْهُ الرَّحْمَةُ، فَإِنْ كَانَ غُدُوَّةً، صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُمِيسَ، وَإِنْ كَانَ مَسَاءً، صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُصْبِحَ» [صحيح: أحمد: ٦١٢، وابن ماجه: ١٤٢٢]. وفي لفظ: «ما مِنْ مُسْلِمٍ يَعُوذُ مُسْلِمًا إِلَّا بَعَثَ اللَّهُ لَهُ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ أَيَّ سَاعَةٍ مِنَ النَّهَارِ كَانَتْ حَتَّى يُمِيسَ، وَأَيَّ سَاعَةٍ مِنَ اللَّيْلِ كَانَتْ حَتَّى يُصْبِحَ» [أحمد: ٧٥٤، وأبو داود: ٣٠٩٨، والترمذي: ٩٦٩].

وكان يعود من الرمد وغيره، وكان أحياناً يضع يده

وكان يدنو من المريض، ويجلس عند رأسه، ويسأله عن حاله، فيقول: كيف تجدك؟

وذكر أنه كان يسأل المريض عما يشتهي، فيقول: «هَلْ تَشْتَهِي شَيْئًا؟» فإن اشتهى شيئاً وعلم أنه لا يضره، أمر له به.

وكان يمسح بيده اليمنى على المريض، ويقول: «اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ، أَذْهِبِ الْبَاسَ، وَاشْفِهِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا» [البخاري: ٥٧٤٣، ومسلم: ٥٧٠٧].

وكان يقول: «امْسَحِ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ، بِإِيدِكَ الشِّفَاءَ، لَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا أَنْتَ».

وكان يدعو للمريض ثلاثاً كما قاله لسعد: «اللَّهُمَّ اشْفِ سَعْدًا، اللَّهُمَّ اشْفِ سَعْدًا، اللَّهُمَّ اشْفِ سَعْدًا» [البخاري: ٥٦٥٩، ومسلم: ٩٣].

وكان إذا دخل على المريض يقول له: «لَا بَاسَ ظَهَرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ» [البخاري: ٥٦٦٢].

(الرفقة والاسترقاء)

وربما كان يقول: «كَفَّارَةٌ وَظَهْوَرٌ». وكان يَرْقِي مَنْ به قَرْحَةٌ، أو جُرح، أو سُكُوى، فيضع سبَّابته بالأرض، ثم يرفعها ويقول: «بِسْمِ اللَّهِ، تُرْبَةُ أَرْضِنَا، بِرِيقَةٍ بَغِضْنَا يَشْفِي سَقِيمَنَا، بِإِذْنِ رَبِّنَا». هذا في «الصحيحين» [البخاري: ٥٧٤٦، ومسلم: ٥٧١٩]، وهو يطل اللفظة التي جاءت في حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وأنهم لا يَرْقُونَ ولا يَسْتَرْقُونَ [البخاري: ٥٧٥٢، ومسلم: ٥٣٢]. فقلوه في الحديث: «لا يرقون» غلط من الراوي، سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول ذلك. قال: وإنما الحديث «هم الذين لا يَسْتَرْقُونَ». قلت: وذلك لأن هؤلاء دخلوا الجنة بغير حساب، لكمال توحيدهم، ولهذا نفى عنهم الاسترقاء، وهو سؤال الناس أن يرقوهم. ولهذا قال: «وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»، فلكمال توكلهم على ربهم، وسكونهم إليه، وثقتهم به، ورضاهم عنه، وإنزال حوائجهم به، لا يسألون الناس شيئاً، لا رُقِيَةً ولا غيرها، ولا يحصل لهم طيرة تصدُّهم عما يقصدونه، فإن الطيرة تنقُصُ التوحيد وتضعُفه. قال: والراقي متصدِّقٌ مُحسنٌ، والمسترقى سائلٌ، والنبي ﷺ رَقِيٌّ، ولم يسترق، وقال: «مَنْ اسْتَطَاعَ

على جبهة المريض، ثم يمسح صدره وبطنه ويقول: «اللَّهُمَّ اشْفِهِ»^(١). وكان يمسح وجهه أيضاً.

وكان إذا يش من المريض قال: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» [البقي في المجمع (٣٣١/٢)، وعزاء للطبراني في «الكبير»].

فصل

في هديه ﷺ في الجنائز والصلاة عليها،

وأتباعها، ودفنها، وما كان يدعو به

للميت في صلاة الجنائز

وبعد الدفن وتوابع ذلك

كان هدي ﷺ في الجنائز أكمل الهدى، مخالفاً لهدى سائر الأمم، مشتجلاً على الإحسان إلى الميت ومعاملته بما ينفعه في قبره ويوم معاده، وعلى الإحسان إلى أهله وأقاربه، وعلى إقامة عبودية الحي لله وحده فيما يعامل به الميت. وكان من هديه في الجنائز إقامة العبودية للرب تبارك وتعالى على أكمل الأحوال، والإحسان إلى الميت، وتجهيزه إلى الله على أحسن أحواله وأفضلها، ووقوفه ووقوف أصحابه صفواً يحمّدون الله ويستغفرون له، ويسألون له المغفرة والرحمة والتجاوز عنه، ثم المشي بين يديه إلى أن يؤدعوه حفرته، ثم يقوم هو وأصحابه بين يديه على قبره سائلين له الثبوت أحوج ما كان إليه، ثم يتعاهد بالزيارة له في قبره، والسلام عليه، والدعاء له كما يتعاهد الحي صاحبه في دار الدنيا.

فأول ذلك: تعاهد في مرضه، وتذكيره الآخرة، وأمره بالوصية، والتوبة، وأمر من حضره بتلقينه شهادة أن لا إله إلا الله لتكون آخر كلامه [مسلم: ٦٠٢٥]، ثم النهي عن عادة الأمم التي لا تؤمن بالبعث والنشور، من لطم الخدود، وشق الثياب، وحلق الرؤوس، ورفع الصوت بالثندب، واليأحة وتوابع ذلك.

وسنّ الخشوع للميت، والبكاء الذي لا صوت معه، وحزن القلب، وكان يفعل ذلك ويقول: «تَدْمَعُ الْعَيْنُ وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ وَلَا تَقُولُ إِلَّا مَا يُرِضِي الرَّبَّ» [البخاري: ١٣٠٣، ومسلم: ٢٢٥٢].

وسنّ لأمرته الحمد والاسترجاع، والرضى عن الله، ولم يكن ذلك منافياً للدمع العين وحزن القلب، ولذلك كان أرضى الخلق عن الله في قضائه، وأعظمهم له حمداً، وبكى مع ذلك يوم موت ابنه إبراهيم رافة منه، ورحمة للولد، ورقة عليه، والقلب ممتلئ بالرضى عن الله عز وجل وشكره، واللسان مشغول بذكره وحمده.

ولما ضاق هذا المشهد والجمع بين الأمرين على بعض العارفين يوم مات ولده، جعل يضحك، فقيل له: أتضحك في هذه الحالة؟ قال: إن الله تعالى قضى بقضاء، فأخبئت أن أرضى بقضائه، فأشكل هذا على جماعة من أهل العلم، فقالوا: كيف يبكي رسول الله ﷺ يوم مات ابنه إبراهيم وهو أرضى الخلق عن الله، ويبلغ الرضى بهذا العارف إلى أن يضحك، فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: هذي نبينا ﷺ كان أكمل من هدي هذا العارف، فإنه أعطى العبودية حقها، فأتسع قلبه للرضى عن الله، ولرحمة الولد، والرقّة عليه، فحمد الله، ورضي عنه في قضائه، وبكى رحمة ورافة، فحملته الرافة على البكاء، وعبوديته لله، ومحبه له على الرضى والحمد، وهذا العارف ضاق قلبه عن اجتماع الأمرين، ولم يتسع باطنه لشهودهما والقيام بهما، فشغلته عبودية الرضى عن عبودية الرحمة والرافة.

فصل

(الإسراع بتجهيز الميت)

وكان من هديه ﷺ الإسراع بتجهيز الميت إلى الله، وتطهيره، وتنظيفه، وتطييبه، وتكفينه في الثياب البيض، ثم يؤتى به إليه، فيصلي عليه بعد أن كان يدعى إلى الميت عند احتضاره، فيقيم عنده حتى يقضي، ثم يحضر تجهيزه، ثم يصلي عليه، ويشيعه إلى قبره، ثم رأى الصحابة أن ذلك يشق عليه، فكانوا إذا قضى الميت، دعوه، فحضر تجهيزه، وغسله، وتكفينه. ثم رأوا أن ذلك يشق عليه، فكانوا هم يجهزون ميتهم، ويحملونه إليه ﷺ على سريره، فيصلي عليه خارج المسجد.

(١) تقدم تخريجه من رواية البخاري ومسلم من حديث سعد.

سهيل بن بيضاء في المسجد منسوخة، وترك ذلك آخر الفعلين من رسول الله ﷺ بدليل إنكار عامة الصحابة ذلك على عائشة، وما كانوا ليفعلوه إلا لما علموا خلافت ما نقلت. وزد ذلك على الطحاوي جماعة، منهم: البيهقي وغيره. قال البيهقي: ولو كان عند أبي هريرة نسخ ما روته عائشة، لذكره يوم صُلِّيَ على أبي بكر الصديق في المسجد، ويوم صُلِّيَ على عمر بن الخطاب في المسجد، ولذكره من أنكر على عائشة أمرها بإدخاله المسجد، ولذكره أبو هريرة حين روت فيه الخبر، وإنما أنكره من لم يكن له معرفة بالجواز، فلما روت فيه الخبر، سكتوا ولم يُنكروه، ولا عارضوه بغيره.

قال الخطابي: وقد ثبت أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما صُلِّيَ عليهما في المسجد، ومعلوم أن عامة المهاجرين والأنصار شهدوا الصلاة عليهما، وفي تركهم الإنكار الدليل على جوازه، قال: ويحتل أن يكون معنى حديث أبي هريرة إن ثبت، متاولاً على نقصان الأجر، وذلك أن من صلى عليها في المسجد، فالغالب أنه ينصرف إلى أهله ولا يشهد دفنه، وأن من سعى إلى الجنازة، فصلى عليها بحضرة المقابر، شهد دفنه، وأحرز أجر القبراطين، وقد يؤجر أيضاً على كثرة خطاه، وصار الذي يُصلى عليه في المسجد منقوص الأجر بالإضافة إلى من يصلى عليه خارج المسجد.

وتأولت طائفة معنى قوله: «فلا شيء له»، أي فلا شيء عليه، ليتحد معنى اللفظين، ولا يتناقضان كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ أَسْأَلَهُمْ فَلْهَا﴾ [الاسراء: ٧]، أي: فعليها، فهذه طرق الناس في هذين الحديثين.

والصواب ما ذكرناه أولاً، وأن سُنَّته وهدية الصلاة على الجنازة خارج المسجد إلا لعذر، وكلا الأمرين جائز، والأفضل الصلاة عليها خارج المسجد. والله أعلم.

فصل

وكان من هديه ﷺ تسجيئة الميت إذا مات، وتغميض عينيه، وتغطية وجهه ويدنه، وكان رُبما يُقبَّل الميت كما قبَّل عثمان بن مظعون ويكي [أبو داود: ٣١٦٣، والترمذي: ٩٨٩، وابن ماجه: ١٤٥٦].

ولم يكن من هديه الراتب الصلاة عليه في المسجد، وإنما كان يُصلى على الجنازة خارج المسجد، وربما كان يصلى أحياناً على الميت في المسجد، كما صلى على سهيل بن بيضاء وأخيه في المسجد [مسلم: ٢٢٥٢]. ولكن لم يكن ذلك سنته وعادته، وقد روى أبو داود في «سننه» من حديث صالح مولى التوأمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَى جَنَازَةٍ فِي الْمَسْجِدِ فَلَا شَيْءَ لَهُ» [صحیح: أحمد: ٩٧٣٠، وأبو داود: ٣١٩١، وابن ماجه: ١٥١٧]. وقد اختلف في لفظ الحديث، فقال الخطيب في روايته لكتاب السنن: في الأصل «فلا شيءَ عَلَيْهِ» وغيره يرويه «فَلَا شَيْءَ لَهُ» وقد رواه ابن ماجه في «سننه» ولفظه: «فَلَيْسَ لَهُ شَيْءٌ». ولكن قد ضعف الإمام أحمد وغيره هذا الحديث، قال الإمام أحمد: هو مما تفرد به صالح مولى التوأمة، وقال البيهقي: هذا حديث يُعدُّ في أفراد صالح، وحديث عائشة أصح منه، وصالح مختلف في عدالته، كان مالك يجرحه، ثم ذكر عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، أنه صُلِّيَ عليهما في المسجد.

قلت: وصالح ثقة في نفسه، كما قال عباس الدوري عن ابن معين: هو ثقة في نفسه. وقال ابن أبي مريم ويحيى: ثقة حجة، فقلت له: إن مالكا تركه، فقال: إن مالكا أدركه بعد أن خَرَفَ، والثوري إنما أدركه بعد أن خَرَفَ، فسمع منه، لكن ابن أبي ذئب سمع منه قبل أن يَخَرَفَ. وقال علي بن المديني: هو ثقة إلا أنه خَرَفَ وكَبُرَ فسمع منه الثوري بعد الخرف وسماع ابن أبي ذئب منه قبل ذلك. وقال ابن حبان: تغير في سنة خمس وعشرين ومئة، وجعل يأتي بما يُشبه الموضوعات عن الثقات، فاختلف حديثه الأخير بحديثه القديم ولم يتميز، فاستحق الترك. انتهى كلامه.

وهذا الحديث حسن؛ فإنه من رواية ابن أبي ذئب عنه، وسماعه منه قديم قبل اختلاطه، فلا يكون اختلاطه موجباً لرد ما حدث به قبل الاختلاط. وقد سلك الطحاوي في حديث أبي هريرة هذا، وحديث عائشة مسلماً آخر، فقال: صلاة النبي ﷺ على

وكذلك الصَّدِيقُ أَكْبَ عَلَيْهِ، فَقَبْلَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ ﷺ
[البخاري: ١٢٤١].

في الصلاة على الجنازة [الشافعي في «الأم» (١/ ٢٧٠)،
والحاكم (١/ ٣٦٠)].

وروى يحيى بن سعيد الأنصاري، عن سعيد
المقبري، عن أبي هريرة، أنه سأل عبادة بن الصامت
عن الصلاة على الجنازة فقال: أنا والله أخبرك: تبدأ
تُكَبِّرُ، ثُمَّ تُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وتَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّ
عَبْدَكَ فَلَانًا كَانَ لَا يُشْرِكُ بِكَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ، إِنْ كَانَ
مُحْسِنًا، فَرِّدْ فِي إِحْسَانِهِ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا، فَتَجَاوَزْ
عَنْهُ، اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُ، وَلَا تُفْضِلْنَا بَعْدَهُ [البيهقي
(٤٠/ ٤)].

فصل

(الدعاء للميت في الصلاة عليه)

ومقصود الصلاة على الجنازة: هو الدعاء للميت،
لذلك حُفِظَ عن النبي ﷺ، وتُؤَلَّى عنه ما لم يُثَقَلْ مِنْ
قراءة الفاتحة والصلاة عليه ﷺ.

فَحُفِظَ مِنْ دُعَائِهِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، وَارْحَمْهُ،
وَاعْفُ عَنْهُ، وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ، وَوَسِّعْ مَدْخَلَهُ،
وَاعْبُدْهُ بِأَلَمَاءِ وَتَلْجِ وَبَرْدِ، وَنَقِّهِ مِنَ الْخَطَايَا كَمَا
يَنْقَى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، وَأَبْدِلْهُ دَارًا خَيْرًا مِنْ
دَارِهِ، وَأَهْلًا خَيْرًا مِنْ أَهْلِهِ، وَزَوْجًا خَيْرًا مِنْ زَوْجِهِ،
وَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ، وَأَعِزَّهُ مِنَ عَذَابِ الْقَبْرِ وَمِنْ عَذَابِ
النَّارِ» [مسلم: ٢٢٣٢].

وحُفِظَ مِنْ دُعَائِهِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِحَيَّتِنَا، وَمَيِّتِنَا،
وَصَغِيرِنَا، وَكَبِيرِنَا، وَذَكَرِنَا، وَأُنثَانَا، وَشَاهِدِنَا
وَعَائِلِنَا، اللَّهُمَّ مَنْ أَحْيَيْتَهُ مِنَّا، فَأُخِيهِ عَلَى الْإِسْلَامِ،
وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ مِنَّا، فَتَوَقَّهِ عَلَى الْإِيمَانِ، اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا
أَجْرَهُ، وَلَا تُفْضِلْنَا بَعْدَهُ» [أبو داود: ٣٢٠١، والترمذي:
١٠٢٤، والنسائي (٤/ ٧٤)، وابن ماجه: ١٤٩٨].

وحُفِظَ مِنْ دُعَائِهِ: «اللَّهُمَّ إِنْ فَلَانٌ بَيْنَ فَلَانٍ فِي
دِمْنِكَ وَحَبْلٍ جَوَارِكَ، فَقِهِ مَنْ فُتِنَ الْقَبْرِ، وَمِنْ عَذَابِ
النَّارِ، فَأَنْتَ أَهْلُ الْوَفَاءِ وَالْحَقِّ، فَأَغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ،
إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» [حسن: أحمد: ١٦٠١٨، وأبو
داود: ٣٢٠٢، وابن ماجه: ١٤٩٩].

وحُفِظَ مِنْ دُعَائِهِ أَيْضًا: «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبُّهَا، وَأَنْتَ
خَلَقْتَهَا، وَأَنْتَ رَزَقْتَهَا، وَأَنْتَ هَدَيْتَهَا لِلْإِسْلَامِ، وَأَنْتَ

وكان يأمر بغسل الميت ثلاثاً أو خمساً، أو أكثر
بحسب ما يراه الغاسيل، ويأمر بالكافور في الغسلة
الأخيرة، وكان لا يُغَسَّلُ الشَّهْدَاءُ قَتْلَى المعركة
[البخاري: ٤٠٧٩]. وذكر الإمام أحمد أنه نهى عن
تغسيلهم، وكان ينزع عنهم الجلود والحديد ويدفونهم
في ثيابهم [أبو داود: ٣١٣٤، وابن ماجه: ١٥١٥]، ولم يُصَلَّ
عليهم.

وكان إذا مات المُحَرَّمُ، أمر أن يُغَسَّلَ بماءٍ وِسْذَرٍ،
ويُكْفَنَ فِي ثَوْبِهِ وَهَمَا ثَوْبًا إِحْرَامِهِ: إِزَارُهُ وَرِدَاؤُهُ،
وينهى عن تطييبه وتغطية رأسه [البخاري: ١٢٦٦، ومسلم:
٢٨٩١] وكان يأمر من ولي الميت أن يُحَسِّنَ كَفَنَهُ،
ويُكْفِنَهُ فِي الْيَاسْرِ، وينهى عن المغالاة في الكفن،
وكان إذا قَصَرَ الكفن عن سِتْرِ جميع البدن، غَطَّى
رأسه، وجعل على رجله من العُشْبِ.

فصل

(لم يكن يصلي على المعلن)

وكان إذا قُدِّمَ إِلَيْهِ ميت يُصَلِّي عَلَيْهِ، سأل: هل
عليه دين، أم لا؟ فإن لم يكن عليه دين، صَلَّى عَلَيْهِ،
وإن كان عليه دين، لم يصل عليه، وأذن لأصحابه أن
يُصَلُّوا عَلَيْهِ، فإن صلاته شفاعة، وشفاعته موجبة،
والعبد مرتَهَنٌ بِدَيْنِهِ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ حَتَّى يُقْضَى
عَنْهُ، فلما فتح الله عليه، كان يُصَلِّي عَلَى الْمَدِينِ،
ويتحمَّلُ دينه، ويدع ماله لورثته [البخاري: ٥٣٧١،
ومسلم: ٤١٥٧].

فإذا أخذ في الصلاة عليه، كبر وحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى
عَلَيْهِ، وصلى ابن عباس على جنازة، فقرأ بعد
التكبيرة الأولى بفاتحة الكتاب جهراً، وقال:
لِتَعْلَمُوا أَنَّهَا سُنَّةُ [البخاري: ١٣٣٥] وكذلك قال أبو
أمامة بن سَهْلٍ: إِنَّ قِرَاءَةَ الْفَاتِحَةِ فِي الْأُولَى سُنَّةُ [عبد
الرزاق: ٦٤٢٨، والحاكم (١/ ٣٦٠)]. ويُذَكَّرُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ
أَنَّهُ أَمَرَ أَنْ يقرأ على الجنازة بفاتحة الكتاب. ولا
يصح إسنادُه. قال شيخنا: لا تجب قراءة الفاتحة في
صلاة الجنازة، بل هي سنة، وذكر أبو أمامة بن
سهل، عن جماعة من الصحابة الصلاة على النبي ﷺ

فَبَضَّتْ رُوحَهَا، وَتَغَلَّمُ سِرَّهَا وَعَلَانِيَتَهَا، جُنَّا شُقَعَاءَ
فَأَغْفِرَ لَهَا» [أبو داود: ٣٢٠٠].

(التكبير في الصلاة على الجنازة)

وكان ﷺ يأمر بإخلاص الدعاء للميت، وكان
يُكَبِّرُ أَرْبَعَ تَكْبِيرَاتٍ، وصح عنه أنه كَبَّرَ خَمْسًا، وكان
الصحاباء بعده يُكَبِّرُونَ أَرْبَعًا، وخمسةً، وستًا، فكَبَّرَ
زيد بن أرقم خمسةً، وذكر أن النبي ﷺ كبرها، ذكره
مسلم [مسلم: ٢٢١٦].

وكبر علي بن أبي طالب رضي الله عنه على
سهل بن خنيفة ستًا [البیهقي (٣٦/٤)]، وكان يُكَبِّرُ على
أهل بدر ستًا، وعلى غيرهم من الصحابة خمسةً،
وعلى سائر الناس أربعمائة، ذكره الدارقطني [الدارقطني
(٧٣/٢)]، والطحاوي (٢٨٧/١).

وذكر سعيد بن منصور، عن الحكم بن عُثَيَّة أنه
قال: كانوا يُكَبِّرُونَ على أهل بدر خمسةً، وستًا،
وسبعةً. وهذه آثار صحيحة، فلا موجب للمنع منها،
والنبي ﷺ لم يمنع مما زاد على الأربع، بل فعله هو
وأصحابه بعده.

والذين منعوا من الزيادة على الأربع، منهم من
احتج بحديث ابن عباس: أن آخر جنازة صَلَّى عليها
النبي ﷺ، كَبَّرَ أَرْبَعًا [البیهقي (٣٧/٤)]. قالوا: وهذا
آخر الأمرين، وإنما يؤخذ بالآخر، فالآخر من
فعله ﷺ هذا. وهذا الحديث، قد قال الخلال في
«العلل»: أخبرني حرب قال: سئل الإمام أحمد عن
حديث أبي المليح، عن ميمون، عن ابن عباس، فذكر
الحديث. فقال أحمد: هذا كذب ليس له أصل، إنما
رواه محمد بن زياد الطحان وكان يضع الحديث.
واحتجوا بأن ميمون بن مهران روى عن ابن عباس:
أن الملائكة لما صَلَّتْ على آدم عليه الصلاة والسلام،
كَبَّرَتْ عليه أربعمائة، وقالوا: يَلِكُ ستكم يا بني آدم.
وهذا الحديث قد قال فيه الأثرم: جرى ذكر محمد بن
معاوية النيسابوري الذي كان بمكة، فسمعتُ أبا
عبد الله قال: رأيت أحاديث موضوعه، فذكر منها عن
أبي المليح، عن ميمون بن مهران، عن ابن عباس: أن
الملائكة لما صَلَّتْ على آدم، كَبَّرَتْ عليه أربعمائة،
واستعظمه أبو عبد الله وقال: أبو المليح كان أصح
حديثاً وأتقى لله من أن يروي مثل هذا.

واحتجوا بما رواه البيهقي من حديث يحيى، عن
أبي، عن النبي ﷺ: أن الملائكة لما صَلَّتْ على آدم،
فكَبَّرَتْ عليه أربعمائة، وقالت: هذه ستكم يا بني آدم،
وهذا لا يصح [البیهقي (٣٦/٤)]. وقد روي مرفوعاً
وموقوفاً.

وكان أصحاب معاذ يُكَبِّرُونَ خمسةً، قال علقمة:
قُلْتُ لعبد الله: إن ناساً من أصحاب معاذ قدموا من
الشام، فكَبَّرُوا على ميت لهم خمسةً، فقال عبد الله:
ليس على الميت في التكبير وقت، كَبَّرَ ما كَبَّرَ الإمام،
فإذا انصرف الإمام فانصرف [عبد الرزاق: ٦٤٠٣]، والبيهقي
(٣٧/٤)، وابن حزم في «المحلى» (١٢٦/٥).

فصل

(التسليم من صلاة الجنازة)

وأما هديه ﷺ في التسليم من صلاة الجنازة.
فروي عنه: أنه كان يَسْلِمُ واحدة. وروي عنه: أنه
كان يَسْلِمُ تسليمتين.

فروى البيهقي وغيره، من حديث المقبري، عن
أبي هريرة أن النبي ﷺ صلى على جنازة، فكبر
أربعمائة، وسلم تسليمة واحدة [الدارقطني (٧٢/٢)]، والحاكم
(٣٦٠/١)، والبيهقي (٤٣/٤)]. لكن قال الإمام أحمد في
رواية الأثرم: هذا الحديث عندي موضوع، ذكره
الخلال في «العلل».

وقال إبراهيم الهجري: حدثنا عبد الله بن أبي
أوفى: أنه صلى على جنازة ابنته، فكبر أربعمائة، فمكث
ساعة حتى ظننا أنه يكبر خمسةً، ثم سلم عن يمينه
وعن شماله، فلما انصرف، قلنا له: ما هذا؟ فقال:
إني لا أزيدكم على ما رأيت رسول الله ﷺ يصنع، أو
هكذا صنع رسول الله ﷺ [البیهقي (٤٣/٤)].

قال ابن مسعود: ثلاث خِلال كان رسول الله ﷺ
يفعلهن تركهنَّ الناسُ، إحداهنَّ: التسليم على
الجنازة مثل التسليم في الصلاة [البیهقي (٤٣/٤)]،
والهشمي في «المجمع» (٣٤/٣)، والنووي في «المجموع» (٥/
٢٣٩)]، ذكرهما البيهقي. ولكن إبراهيم بن مسلم
العبدى الهجري، ضعفه يحيى بن معين، والنسائي،
وأبو حاتم، وحديثه هذا قد رواه الشافعي في «كتاب
حرمة» عن سفيان عنه وقال: كَبَّرَ عليها أربعمائة، ثم قام

صلى على القبر [البخاري: ١٣٣٧، ومسلم: ٢٢١١]، فصلى مرة على قبر بعد ليلة، ومرة بعد ثلاث [اليهقي (٤/٤٧)]، ومرة بعد شهر [اليهقي (٤/٤٨)]، ولم يُوقت في ذلك وقتاً.

قال أحمد رحمه الله: من يشك في الصلاة على القبر؟! ويروى عن النبي ﷺ كان إذا فاتته الجنازة، صلى على القبر من ستة أوجه كُلُّها حَسَن، فحدّ الإمام أحمد الصلاة على القبر بشهر، إذ هو أكثر ما روي عن النبي ﷺ أنه صلى بعده، وحده الشافعي رحمه الله بما إذا لم يَبَلِّ الميت، ومنع منها مالك وأبو حنيفة رحمهما الله إلا للولي إذا كان غائباً.

وكان من هديه ﷺ أنه كان يقوم عند رأس الرجل وَوَسَطَ المرأة [البخاري: ١٣٣٢، ومسلم: ٢٢٣٥].

فصل

(الصلاة على الطفل)

وكان من هديه ﷺ الصلاة على الطفل، فصح عنه أنه قال: «الطُّفْلُ يُصَلَّى عَلَيْهِ» [صحيح: أحمد: ١٨١٦٢، وأبو داود: ٣١٨٠، والترمذي: ١٠٣١، والنسائي (٤/٥٥)، وابن ماجه: ١٤٨١].

وفي «سنن ابن ماجه» مرفوعاً: «صَلُّوا عَلَى أَطْفَالِكُمْ، فَإِنَّهُمْ مِنْ أَقْرَابِكُمْ» [ابن ماجه: ١٥٠٩].

قال أحمد بن أبي عبدة: سألت أحمد: متى يَجِبُ أن يُصلى على السَّقَط؟ قال: إذا أتى عليه أربعة أشهر، لأنه يُنْفَخ فيه الروح.

قلت: فحديث المغيرة بن شعبه: «الطفل يُصلى عليه»؟ قال: صحيح مرفوع، قلت: ليس في هذا بيان الأربعة الأشهر ولا غيرها؟ قال: قد قاله سعيد بن المسيّب.

فإن قيل: فهل صلى النبي ﷺ على ابنه إبراهيم يوم مات؟ قيل: قد اختلف في ذلك، فروى أبو داود في «سننه» عن عائشة رضي الله عنها قالت: مات إبراهيم بن النبي ﷺ وهو ابن ثمانية عشر شهراً، فلم يُصل عليه رسول الله ﷺ [حسن: أحمد: ٢٦٣٥، وأبو داود: ٣١٨٧].

قال الإمام أحمد: حدّثنا يعقوب بن إبراهيم، قال: حدّثني أبي عن ابن إسحاق حدّثني عبد الله بن

ساعة، فسبّح به القومُ فسلم، ثم قال: كشتم ترون أن أزيد على أربع، وقد رأيتُ رسول الله ﷺ كبر أربعاً، ولم يقل: ثم سلّم عن يمينه وشماله. ورواه ابن ماجه من حديث المحارب عن ذلك، ولم يقل: ثم سلّم عن يمينه وشماله [ابن ماجه: ١٥٠٣].

وذكر السلام عن يمينه وعن شماله انفرد بها شريك عنه. قال الیهقي: ثم عزاه للنبي ﷺ في التكبير فقط، أوفي التكبير وغيره.

قلت: والمعروف عن ابن أبي أوفى خلاف ذلك، أنه كان يسلم واحدة، ذكره الإمام أحمد عنه. قال أحمد بن القاسم: قيل لأبي عبد الله: أتعرف عن أحد من الصحابة أنه كان يُسلم على الجنازة تسليمتين؟ قال: لا، ولكن عن ستة من الصحابة أنهم كانوا يُسلمون تسليمَةً واحدة خفيفة عن يمينه، فذكر ابن عمر، وابن عباس، وأبا هريرة، وواثلة بن الأسقع، وابن أبي أوفى، وزيد بن ثابت. وزاد الیهقي: علي بن أبي طالب، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، وأبا أمامة بن سهل بن حنيف، فهؤلاء عشرة من الصحابة، وأبو أمامة أدرك النبي ﷺ، وسماه باسم جده لأمه أبي أمامة: أسعد بن زرارة، وهو معدود في الصحابة ومن كبار التابعين.

(رفع اليدين في صلاة الجنازة)

وأما رفع اليدين، فقال الشافعي: ترفع للأثر، والقياس على السنة في الصلاة، فإن النبي ﷺ كان يرفع يديه في كل تكبيرة كبرها في الصلاة وهو قائم.

قلت: يريد بالأثر ما رواه عن ابن عمر، وأنس بن مالك: أنهما كانا يرفعان أيديهما كلُّما كَبَّرَا على الجنازة [اليهقي (٤/٤٤)] ويذكر عنه ﷺ أنه كان يرفع يديه في أول التكبير، ويضع اليمنى على اليسرى، ذكره الیهقي في «السنن».

(وضع اليمين على الشمال في صلاة الجنازة)

وفي الترمذي من حديث أبي هريرة: أن النبي ﷺ وضع يده اليمنى على يده اليسرى في صلاة الجنازة، وهو ضعيف يزيّد بن سنان الراوي [الترمذي: ١٠٧٧].

فصل

(الصلاة على القبر)

وكان من هديه ﷺ إذا فاتته الصلاة على الجنازة،

أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن عمرة، عن عائشة... فذكره.

وقال أحمد في رواية حنبل: هذا حديث منكر جداً، ووهم ابن إسحاق.

وقال الخلال: وقرأ على عبد الله: حدثني أبي، حدثنا أسود بن عامر، حدثنا إسرائيل قال: حدثنا جابر الجعفي، عن عامر، عن البراء بن عازب قال: صلى رسول الله ﷺ على ابنه إبراهيم ومات وهو ابن ستة عشر شهراً [أحمد: ١٨٤٩٧، وفي سننه ضيف].

وذكر أبو داود عن البهي قال: لما مات إبراهيم بن رسول الله ﷺ، صلى عليه رسول الله ﷺ في المقاعد [أبو داود: ٣١٨٨]. وهو مرسل، والبهني اسمه عبد الله بن يسار كوفي.

وذكر عن عطاء بن أبي رباح: أن النبي ﷺ صلى على ابنه إبراهيم وهو ابن سبعين ليلة [أبو داود: ٣١٨٨]. وهذا مرسل وهم فيه عطاء، فإنه قد كان تجاوز السنة.

فاختلف الناس في هذه الآثار، فمنهم من أثبت الصلاة عليه، ومنع صحة حديث عائشة، كما قال الإمام أحمد وغيره، قالوا: وهذه المراسيل، مع حديث البراء، يشد بعضها بعضاً، ومنهم من ضعف حديث البراء بجابر الجعفي، وضعف هذه المراسيل وقال: حديث ابن إسحاق أصح منها.

ثم اختلف هؤلاء في السبب الذي لأجله لم يصل عليه، فقالت طائفة: استغنى بنبوة رسول الله ﷺ عن قرابة الصلاة التي هي شفاعته له، كما استغنى الشهيد بشهادته عن الصلاة عليه.

وقالت طائفة أخرى: إنه مات يوم كسفت الشمس، فاشتغل بصلاة الكسوف عن الصلاة عليه.

وقالت طائفة: لا تعارض بين هذه الآثار، فإنه أمر بالصلاة عليه، فقبل: صلى عليه، ولم يباشرها بنفسه لاشتغاله بصلاة الكسوف، وقيل: لم يصل عليه، وقالت فرقة: رواية المثبت أولى، لأن معه زيادة علم، وإذا تعارض النفي والإثبات، قُدم الإثبات.

فصل

(الصلاة على المنتحر والغال والمقتول حثاً)

وكان من هديه ﷺ، أنه لا يصلّي على من قتل

نفسه، ولا على من غلّ من الغنيمة [مسلم: ٢٢٦٧].

واختلف عنه في الصلاة على المقتول حثاً، كالزاني المجرم، فصح عنه أنه ﷺ صلى على الجهنمية التي رجمها، فقال عمر: تُصلي عليها يا رسول الله وقد زنت؟ فقال: «لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُيِّمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدَتْ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ تَعَالَى». ذكره مسلم [مسلم: ٤٤٣٢].

وذكر البخاري في «صحيحه» قصة ماعز بن مالك وقال: فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ خَيْرًا وَصَلَّى عَلَيْهِ [البخاري: ٦٨٢٠]. وقد اختلف على الزهري في ذكر الصلاة عليه، فأثبتها محمود بن غيلان، عن عبد الرزاق عنه، وخالفه ثمانية من أصحاب عبد الرزاق، فلم يذكروها، وهم: إسحاق بن راهويه، ومحمد بن يحيى اللؤلؤي، ونوح بن حبيب، والحسن بن علي، ومحمّد بن المتوكل، وحُميد بن زنجويه، وأحمد بن منصور الرمادي.

قال البيهقي: وقول محمود بن غيلان: إنه صلى عليه، خطأ لإجماع أصحاب عبد الرزاق على خلافه، ثم إجماع أصحاب الزهري على خلافه.

وقد اختلف في قصة ماعز بن مالك، فقال أبو سعيد الخدري: ما استغفر له ولا سبّه، وقال بريدة بن الحصيب: إنه قال: «اسْتَغْفِرُوا لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ». فقالوا: غَفَرَ اللَّهُ لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ. ذكرهما مسلم [مسلم: ٤٤٧٨]. وقال جابر: فصلّى عليه، ذكره البخاري، وهو حديث عبد الرزاق المعلن، وقال أبو برزة الأسلمي: لم يصلّ عليه النبي ﷺ، ولم ينع عن الصلاة عليه، ذكره أبو داود [٣١٨٦].

قلت: حديث الغامدية، لم يختلف فيه أنه صلى عليها [مسلم: ٤٤٣٢]. وحديث ماعز، إما أن يقال: لا تعارض بين ألفاظه، فإن الصلاة فيه: هي دعاؤه له بأن يَغْفِرَ اللَّهُ له، وترك الصلاة فيه هي تركه الصلاة على جنازته تأديباً وتحذيراً، وإما أن يُقال: إذا تعارضت ألفاظه، عُذِلَ عنه إلى حديث الغامدية.

فصل

(البحاث المشي أمام الجنائز والإسراع بها)

وكان ﷺ إذا صَلَّى على ميت، تبعه إلى المقابر ماشياً أمامه.

وهذه كانت سنة خلفائه الراشدين من بعده، وسنَّ لمن تبعها إن كان راكباً أن يكون وراءها، وإن كان ماشياً أن يكون قريباً منها، إما خلفها، أو أمامها، أو عن يمينها، أو عن شمالها. وكان يأمر بالإسراع بها، حتى إن كانوا ليرملون بها رملًا، وأما ديبُّ الناس اليوم بخطوة خطوة، فبدعة مكروهة مخالفة للسنة، ومتضمنة للتشبه بأهل الكتاب اليهود. وكان أبو بكره يرفع السوط على من يفعل ذلك، ويقول: لقد رأيتنا ونحن مع رسول الله ﷺ نرملُ رملًا [صحيح: أحمد: ٢٠٣٨٨، وأبو داود: ٣١٨٢، والنسائي (٤/٤٣)].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: سألنا نبينا ﷺ عن المشي مع الجنائز، فقال: «ما دُونَ الْحَبِّ». رواه أهل السنن [إسناده ضعيف: أحمد: ٤١١٠، وأبو داود: ٣١٨٤، والترمذي: ١٠١١] وكان يمشي إذا تبع الجنائز ويقول: «لَمْ أَكُنْ لَأَرْكَبْ وَالْمَلَائِكَةُ يَمْشُونَ» [أبو داود: ٣١٧٧]. فإذا انصرف عنها، فربما مشى، وربما ركب.

وكان إذا تبعها، لم يجلس حتى توضع، وقال: «إِذَا تَبِعْتُمُ الْجَنَائِزَ، فَلَا تَجْلِسُوا حَتَّى تَوْضَعَ» [البخاري: ١٣١٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: والمراد وضعها بالأرض. قلت: قال أبو داود: روى هذا الحديث الثوري، عن سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة. قال: وفيه «حَتَّى تَوْضَعَ بِالْأَرْضِ». ورواه أبو معاوية، عن سهيل وقال: «حَتَّى تَوْضَعَ فِي اللَّحْدِ». قال: وسفيان أحفظ من أبي معاوية، وقد روى أبو داود والترمذي، عن عبادة بن الصامت، قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُومُ فِي الْجَنَائِزِ حَتَّى تَوْضَعَ فِي اللَّحْدِ [أبو داود: ٣١٧٦، والترمذي: ١٠٢٠، وابن ماجه: ١٥٤٥].

لكن في إسناده بشرُّ بن رافع، قال الترمذي: ليس بالقوي في الحديث، وقال البخاري: لا يتابع على حديثه، وقال أحمد: ضعيف، وقال ابن معين: حدث بمناكير، وقال النسائي: ليس بالقوي، وقال

ابن حبان: يروي أشياء موضوعة كأنه المتعمد لها.

فصل

(الصلاة على الغائب)

ولم يكن من هديه وسنه ﷺ الصلاة على كُلِّ ميت غائب.

فقد مات خلق كثير من المسلمين وهم غيب، فلم يُصلَّ عليهم، وصح عنه: أنه صَلَّى على النجاشي صلاته على الميت [البخاري: ١٣٣٤، ومسلم: ٢٢٠٤]، فاختلف الناس في ذلك على ثلاثة طرق، أحدها: أن هذا تشريع منه، وسنة للأمة الصلاة على كل غائب، وهذا قول الشافعي وأحمد في إحدى الروايتين عنه، وقال أبو حنيفة ومالك: هذا خاص به، وليس ذلك لغيره، قال أصحابهما: ومن الجائز أن يكون رُفِعَ له سريره فصلى عليه وهو يرى صلاته على الحاضر المشاهد، وإن كان على مسافة من البعد، والصحابة وإن لم يروه، فهم تابعون للنبي ﷺ في الصلاة. قالوا: ويدل على هذا، أنه لم يُنْقَلْ عنه أنه كان يُصلي على كُلِّ الغائبين غيره، وتركته سنة، كما أن فعله سنة، ولا سبيل لأحد بعده إلى أن يُعابن سرير الميت من المسافة البعيدة، ويُرفع له حتى يُصلي عليه، فَعَلِمَ أن ذلك مخصوص به. وقد روي عنه: أنه صلى على معاوية بن معاوية الليثي وهو غائب [البيهقي (٤/٥٠)]، ولكن لا يصح، فإن في إسناده العلاء بن زيد، ويقال: ابن زيد، قال علي ابن المديني: كان يضع الحديث، ورواه محبوب بن هلال، عن عطاء بن أبي ميمونة، عن أنس [البيهقي (٤/٥١)]. قال البخاري: لا يتابع عليه.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: الصواب: أن الغائب إن مات ببلد لم يُصلَّ عليه فيه، صَلَّى عليه صلاة الغائب، كما صَلَّى النبي ﷺ على النجاشي، لأنه مات بين الكفار ولم يُصلَّ عليه، وإن صَلَّى عليه حيث مات، لم يُصلَّ عليه صلاة الغائب، لأن الفرض قد سقط بصلاة المسلمين عليه، والنبي ﷺ صلى على الغائب، وتركه، وفعله، وتركه سنة، وهذا له موضع، وهذا له موضع، والله أعلم، والأقوال ثلاثة، في مذهب أحمد، وأصحابها: هذا التفصيل، والمشهور عند أصحابه: الصلاة عليه مطلقاً.

فصل

(القيام للجنابة)

وصح عنه ﷺ أنه قام للجنابة لما مرّت به، وأمر بالقيام لها، وصح عنه أنه قعد، فاختلف في ذلك، فقيل: القيام منسوخ، والقعود آخر الأمرين [سلم: ٢٢٢٧]، وقيل: بل الأمران جائزان، وفعله بيان للاستحباب، وتركه بيان للجواز، وهذا أولى من ادعاء النسخ.

فصل

(حكم الدفن وسنة اللحد)

وكان من هديه ﷺ ألا يدفن الميت عند طلوع الشمس، ولا عند غروبها، ولا حين يقوم قائم الظهيرة [سلم: ١٩٢٩]. وكان من هديه اللحد وتعميق القبر وتوسيعه من عند رأس الميت ورجليه، ويُذكر عنه: أنه كان إذا وضع الميت في القبر قال: «بِسْمِ اللَّهِ، وَبِاللَّهِ، وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ». وفي رواية: «بِسْمِ اللَّهِ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ» [صحيح: أحمد: ٤٩٩٠، وأبو داود: ٣٢١٣، والترمذي: ١٠٤٦، وابن ماجه: ١٥٥٠].

ويُذكر عنه أيضاً أنه كان يحثو التراب على قبر الميت إذا دُفِنَ مِنْ قَبْلُ رَأْسِهِ ثَلَاثًا [ابن ماجه: ١٥٦٥]. وكان إذا فرغ من دفن الميت قام على قبره هو وأصحابه، وسأل له التَّيِّبَ، وأمرهم أن يسألوا له التَّيِّبَ [أبو داود: ٣٢٢١].

(تلقين الميت)

ولم يكن يجلس يقرأ عند القبر، ولا يُلقن الميت كما يفعله الناس اليوم، وأما الحديث الذي رواه الطبراني في «معجمه» من حديث أبي أمامة، عن النبي ﷺ: «إِذَا مَاتَ أَحَدٌ مِنْ إِخْوَانِكُمْ فَسَوِّتُمْ الثَّرَابَ عَلَى قَبْرِهِ، فَلْيَقُمْ أَحَدُكُمْ عَلَى رَأْسِ قَبْرِهِ ثُمَّ لِيَقُلْ: يَا فُلَانُ، فَإِنَّهُ يَسْمَعُهُ وَلَا يُجِيبُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا فُلَانُ بْنُ فُلَانَةٍ، فَإِنَّهُ يَسْتَوِي قَاعِدًا، ثُمَّ يَقُولُ: يَا فُلَانُ بْنُ فُلَانَةٍ، فَإِنَّهُ يَقُولُ: أَرْضِدْنَا بِرَحْمَتِكَ اللَّهُ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَذْكَرَ مَا خَرَجْتَ عَلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ،

وَأَنَّكَ رَضِيتَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، وَبِالْقُرْآنِ إِمَامًا، فَإِنْ مُتَّكَرًا وَتَكْبِيرًا يَأْخُذُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِيَدِ صَاحِبِهِ وَيَقُولُ: انْطَلِقْ بِنَا مَا نَقْعُدُ عَنْكَ مَنْ لَقِّنَ حُجَّتَهُ، فَيَكُونُ اللَّهُ حَاجِبَهُ دُونَهُمَا». فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَإِنْ لَمْ يَعْرِفْ أُمَّهُ؟ قَالَ: فَيَنْسِبُهُ إِلَى حَوَاءَ: يَا فُلَانُ بْنُ حَوَاءَ» [سننه ضيف جداً: الهيثمي في «المجمع» (٤٥/٣)، وابن علان في «الفتوحات الربانية» (٤/١٩٦)]. فهذا حديث لا يصح رفعه، ولكن قال الأثرم: قلت لأبي عبد الله: فهذا الذي يصنعونه إذا دُفِنَ الميت يقف الرجل ويقول: يا فلان بن فلانة، اذكر ما فارقت عليه الدنيا: شهادة أن لا إله إلا الله. فقال: ما رأيته أحدًا فعل هذا إلا أهل الشام، حين مات أبو المغيرة، جاء إنسان فقال ذلك، وكان أبو المغيرة يروي فيه عن أبي بكر بن أبي مريم، عن أشياخهم، أنهم كانوا يفعلونه، وكان ابن عياش يروي فيه.

قلت: يريد حديث إسماعيل بن عياش هذا الذي رواه الطبراني عن أبي أمامة.

وقد ذكر سعيد بن منصور في «سننه» عن راشد بن سعد، وضمرة بن حبيب، وحكيم بن عمير قالوا: إذا سُوِّيَ عَلَى الْمَيِّتِ قَبْرُهُ، وانصرف الناس عنه، فكانوا يستجيئون أن يقال للميت عند قبره: يا فلان! قل: لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله ثلاث مرات، يا فلان! قل: ربي الله وديني الإسلام، نبيي محمد، ثم ينصرف.

فصل

(لا تعلق القبور ولا تشييد)

ولم يكن من هديه ﷺ تعلية القبور ولا بناؤها بآجر، ولا بحجر ولبن، ولا تشييدها، ولا تطيئها، ولا بناء القباب عليها، فكل هذا بدعة مكروهة، مخالفة لهديه ﷺ. وقد بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى اليمن، ألا يدع تمثالاً إلا طمسه، ولا قبراً مشرفاً إلا سواه [سلم: ٢٢٤٢]، فسنة ﷺ تسوية هذه القبور المشرفة كلها، ونهى أن يُجصص القبر، وأن يُبنى عليه، وأن يكتب عليه [سلم: ٢٢٤٥]. وكانت قبور أصحابه لا مشرفة، ولا لاطئة، وهكذا كان قبره الكريم، وقبر صاحبه، فقبره ﷺ

مُسْتَمَّ بِطُحْ يَطْحَاءُ العرصة الحمراء لا مبني ولا مطين، وهكذا كان قبر صاحبيه [البخاري: ١٣٩٠].
وكان يُعَلِّمُ قَبْرَ مَنْ يُرِيدُ تَعْرِفَ قَبْرَهُ بصخرة [ابوداود: ٣٢٠٦].

فصل

(لا تتخذ القبور مساجد)

ونهى رسول الله ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد، وإيقاد الشرج عليها [سنه ضيف: أحمد: ٢٠٣٠، وأبو داود: ٣٢٣٦، والترمذي: ٣٢٠، والنسائي (٩٥/٤)، وابن ماجه: ١٥٧٥]، واشتد نهيه في ذلك حتى لعن فاعله، ونهى عن الصلاة إلى القبور، ونهى أمته أن يتخذوا قبره عيداً، ولعن زورات القبور.

وكان هديته أن لا تُهان القبور وتوطأ، وألا يُجْلَسَ عليها، ويُتَكَأَ عليها [مسلم: ٢٢٤٨]، ولا تُعْظَمَ بحيث تُتَّخَذَ مساجد فيُصَلَّى عندها وإليها، وتُتَّخَذَ أعياداً وأوثاناً.

فصل

في هديه ﷺ في زيارة القبور

كان إذا زار قبور أصحابه يزورها للدعاء لهم، والترحم عليهم، والاستغفار لهم، وهذه هي الزيارة التي سنّها لأمته، وشرعها لهم، وأمرهم أن يقولوا إذا زاروها: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَآخِفُونَ، نَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَكُمْ الْعَافِيَةَ» [مسلم: ٢٢٥٧].

وكان هديته أن يقول ويفعل عند زيارتها من جنس ما يقوله عند الصلاة على الميت، من الدعاء والترحم، والاستغفار. فأبى المشركون إلا دعاء الميت والإشراك به، والإقسام على الله به، وسؤاله الحوائج، والاستعانة به، والتوجه إليه، بعكس هديه ﷺ، فإنه هدي توحيد وإحسان إلى الميت، وهدي هؤلاء شرك وإساءة إلى نفوسهم، وإلى الميت،

وهم ثلاثة أقسام: إما أن يدعوا الميت، أو يدعوا به، أو عنده، ويرون الدعاء عنده أوجب وأولى من الدعاء في المساجد، ومن تأمل هدي رسول الله ﷺ وأصحابه، تبين له الفرق بين الأمرين وبالله التوفيق.

فصل

(حكم التعزية وعدم الاجتماع لها)

وكان من هديه ﷺ تعزية أهل الميت، ولم يكن من هديه أن يجتمع لل عزاء، ويُقرأ له القرآن، لا عند قبره ولا غيره، وكل هذا بدعة حادثة مكروهة.

وكان من هديه: السكون والرضى بقضاء الله، والحمد لله، والاسترجاع^(١)، ويبرأ ممن خرّق لأجل المصيبة ثيابه، أو رفع صوته بالندب والنياحة، أو حلق لها شعره [البخاري: ١٢٩٦، تعليقاً، ومسلم: ٢٣٢٦].

وكان من هديه ﷺ أن أهل الميت لا يتكلمون الطعام للناس، بل أمر أن يصنع الناس لهم طعاماً يُرسلونه إليهم [حسن: أحمد: ١٧٥١، وأبو داود: ٣١٣٢، والترمذي: ٩٩٨، وابن ماجه: ١٦١٠]. وهذا من أعظم مكارم الأخلاق والشيم، والحمل عن أهل الميت، فإنهم في شغل بمصائبهم عن إطعام الناس.

وكان من هديه ﷺ ترك نعي الميت، بل كان ينهى عنه، ويقول: هو من عمل الجاهلية، وقد كرهه حذيفة أن يعلم به أهله الناس إذا مات وقال: أخاف أن يكون من النعي [حسن: أحمد: ٢٣٤٥٥، والترمذي: ٩٨٦، وابن ماجه: ١٤٧٦].

فصل

(صلاة الخوف)

وكان من هديه ﷺ في صلاة الخوف، أن أباح الله سبحانه وتعالى قصر أركان الصلاة وعدوها إذا اجتمع الخوف والسر، وقصر العدد وحده إذا كان سفر لا خوف معه، وقصر الأركان وحدها إذا كان خوف لا سفر معه وهذا كان من هديه ﷺ، وبه تعلم الحكمة في تقييد القصر في الآية بالضرب في الأرض والخوف.

(١) مسلم (٢١٢٦)، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم تُصيبه مصيبة: فيقول إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجزني في مصيبتى وأخلف لي خيراً منها إلا أجره الله في مصيبتى، وأخلف له خيراً منها».

وكان من هديه ﷺ في صلاة الخوف، إذا كان العدو بينه وبين القبلة، أن يَصِفَّ المسلمين كُلَّهُم خلفه، ويكَبِّرُ ويكبرون جميعاً، ثم يركعُ فيركعون جميعاً، ثم يرفعُ ويرفعون جميعاً معه، ثم ينحدرُ بالسجود والصف الذي يليه خاصة، ويقوم الصف المؤخرُ مواجهة العدو، فإذا فرغ من الركعة الأولى، ونهض إلى الثانية، سجد الصف المؤخر بعد قيامه سجدتين، ثم قاموا، فتقدموا إلى مكان الصف الأول، وتأخر الصف الأول مكانهم لتحصل فضيلة الصف الأول للطائفتين، ولتدرك الصف الثاني مع النبي ﷺ السجدتين في الركعة الثانية، كما أدرك الأول معه السجدتين في الأولى، فتستوي الطائفتان فيما أدركوا معه، وفيما قَصَّوا لأنفسهم، وذلك غاية العدل، فإذا ركع، صنع الطائفتان كما صنعوا أول مرة فإذا جلس للشهد، سجد الصف المؤخر سجدتين، ولحقوه في التشهد، فسلم بهم جميعاً [مسلم: 1940].

وإن كان العدو في غير جهة القبلة، فإنه كان تارة يجعلهم فرقتين: فرقة بإزاء العدو، وفرقة تُصلي معه، فتصلي معه إحدى الفرقتين ركعة، ثم تنصرف في صلاتها إلى مكان الفرقة الأخرى، وتجيء الأخرى إلى مكان هذه، فتصلي معه الركعة الثانية، ثم تسلم، وتقضي كل طائفة ركعة ركعة بعد سلام الإمام [البخاري: 4133، ومسلم: 1942].

وتارة كان يُصلي بإحدى الطائفتين ركعة، ثم يقوم إلى الثانية، وتقضي هي ركعة وهو واقف، وتسلم قبل ركوعه، وتأتي الطائفة الأخرى، فتصلي معه الركعة الثانية، فإذا جلس في التشهد، قامت، فقضت ركعة وهو ينتظرها في التشهد، فإذا تشهدت، يسلم بهم [البخاري: 4129، ومسلم: 1948].

وتارة كان يُصلي بإحدى الطائفتين ركعتين، فتسلم قبله، وتأتي الطائفة الأخرى، فيصلي بهم الركعتين الأخيرتين، ويسلم بهم، فتكون له أربعاً، ولهم ركعتين ركعتين [البخاري: 4136، ومسلم: 1949].

وتارة كان يُصلي بإحدى الطائفتين ركعتين، ويسلم بهم، وتأتي الأخرى، فيصلي بهم ركعتين، ويسلم فيكون قد صلى بهم بكل طائفة صلاة [النسائي

[(178/2)].

وتارة كان يُصلي بإحدى الطائفتين ركعة، فتذهب ولا تقضي شيئاً، وتجيء الأخرى، فيصلي بهم ركعة، ولا تقضي شيئاً، فيكون له ركعتان، ولهم ركعة ركعة [صحيح: أحمد: 2063، وأبو داود: 1246، والنسائي (169/2)]، وهذه الأوجه كُلُّها تجوز الصلاة بها.

قال الإمام أحمد: كلُّ حديث يُروى في أبواب صلاة الخوف، فالعمل به جائز.

وقال: ستة أوجه أو سبعة، تُروى فيها، كُلُّها جائزة، وقال الأثرم: قلت لأبي عبد الله: تقول بالأحاديث كُلُّها، كلُّ حديث في موضعه، أو تختار واحداً منها؟ قال: أنا أقول: من ذهب إليها كُلُّها، فحسن. وظاهر هذا، أنه جَوَّز أن تُصلي كل طائفة معه ركعة ركعة، ولا تقضي شيئاً، وهذا مذهب ابن عباس، وجابر بن عبد الله، وطاوس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والحكم، وإسحاق بن راهويه. قال صاحب «المغني»: وعموم كلام أحمد يقتضي جواز ذلك، وأصحابنا يُنكرونه.

وقد روى عنه ﷺ في صلاة الخوف صفات أخرى، ترجع كُلُّها إلى هذه وهذه أصولها، وربما اختلف بعض الفاضلها، وقد ذكرها بعضهم عشر صفات، وذكرها أبو محمد بن حزم نحو خمس عشرة صفة، والصحيح: ما ذكرناه أولاً، وهؤلاء كلما رأوا اختلاف الرواة في قصة، جعلوا ذلك وجوهاً من فعل النبي ﷺ، وإنما هو من اختلاف الرواة. والله أعلم.

فصل

في هديه ﷺ في الصدقة والزكاة

هديه في الزكاة، أكمل هدي في وقتها، وقدرها، ونصابها، وَمَنْ تَجَبَّ عليه، ومَصْرِفُها. وقد راعى فيها مصلحة أرباب الأموال، ومصلحة المساكين، وجعلها الله سبحانه وتعالى طهرةً للمال ولصاحبه، وقيد النعمة بها على الأغنياء، فما زالت النعمة بالمال على من أدى زكاته، بل يحفظه عليه وينمي له، ويدفع عنه بها الآفات، ويجعلها سوراً عليه، وجعناً له، وحارساً له.

(الأصناف التي تجب فيها الزكاة)

ثم إنه جعلها في أربعة أصناف من المال: وهي أكثر الأموال دَوْرَاناً بين الخلق، وحاجتهم إليها ضرورة.

أحدها: الزرع، والثمار.

الثاني: بهيمة الأنعام: الإبل، والبقر، والغنم.

الثالث: الجوهران اللذان بهما قوام العالم، وهما الذهب والفضة.

الرابع: أموال التجارة على اختلاف أنواعها.

(وقت وجوبها)

ثم إنه أوجبها مرة كل عام، وجعل حول الزرع والثمار عند كمالها واستوائها، وهذا أعدل ما يكون، إذ وجوبها كل شهر أو كل جمعة يضر بأرباب الأموال، ووجوبها في العمر مرة مما يضر بالمساكين، فلم يكن أعدل من وجوبها كل عام مرة.

(نصاب الزكاة)

ثم إنه فاوت بين مقادير الواجب بحسب سعي أرباب الأموال في تحصيلها، وسهولة ذلك، ومشقته، فأوجب الخمس فيما صادفه الإنسان مجموعاً محصلاً من الأموال، وهو الرُّكَّاز [البخاري: ٢٣٥٥، ومسلم: ٤٤٦٥]. ولم يعتبر له حولاً، بل أوجب فيه الخمس متى ظفر به.

وأوجب نصفه وهو العشر فيما كانت مشقة تحصيله وتعبه وكلفته فوق ذلك، وذلك في الثمار والزرع التي يباشر حرق أرضها وسقيها وبذرها، ويتولى الله سقيها من عنده بلا كلفة من العبد، ولا شراء ماء، ولا إثارة بثر ودولاب.

وأوجب نصف العشر، فيما تولى العبد سقيه بالكلفة، والدَّوَالِي، والنواضح، وغيرها.

وأوجب نصف ذلك، وهو ربع العشر، فيما كان الثَّماء فيه موقوفاً على عمل متصل من رب المال، بالضرب في الأرض تارة، وبالإدارة تارة، وبالتربص

تارة، ولا ريب أن كلفة هذا أعظم من كلفة الزرع والثمار، وأيضاً فإن نمو الزرع والثمار أظهر وأكثر من نمو التجارة، فكان واجبها أكثر من واجب التجارة، وظهور النمو فيما يُسقى بالسماء والأنهار، أكثر مما يسقى بالدوالي والنواضح، وظهوره فيما وجد محصولاً مجموعاً، كالكتز، أكثر وأظهر من الجميع.

ثم إنه لما كان لا يحتمل المواسة كل مال وإن قل، جعل للمال الذي تحتمله المواسة نُصَباً مقدَّرة المواسة فيها، لا تُجحف بأرباب الأموال، وتقع موقعها من المساكين، فجعل للورق مئتي درهم [أبو داود: ١٥٧٤، والترمذي: ٦٢٠، وابن ماجه: ١١٧٩]، وللذهب عشرين مثقالاً^(١)، وللحوب والثمار خمسة أوسق [البخاري: ١٤٨٤، ومسلم: ٢٢٦٣]، وهي خمسة أحمال من أحمال إبل العرب، وللغنم أربعين شاة، وللبقر ثلاثين بقرة، وللإبل خمساً، لكن لما كان نصابها لا يحتمل المواسة من جنسها، أوجب فيها شاة. فإذا تكررت الخمس خمس مرات وصارت خمساً وعشرين، احتمل نصابها واحداً منها، فكان هو الواجب.

ثم إنه لما قَدَّرَ سِنَّ الواجب في الزيادة والنقصان، بحسب كثرة الإبل وقلتها من ابن مخاض، وبنث مخاض، وفوقه ابن لبون، وبنث لبون، وفوقه الحِقُّ والحَقَّة، وفوقه الجَذَعُ والجَذَعَةُ^(٢)، وكلما كثرت الإبل، زاد السِّنُّ إلى أن يصل السِّنُّ إلى مُنتَهَاهُ، فحينئذ جعل زيادة عدد الواجب في مقابلة زيادة عدد المال.

وكلما كثرت الإبل، زاد السِّنُّ إلى أن يصل السِّنُّ إلى مُنتَهَاهُ، فحينئذ جعل زيادة عدد الواجب في مقابلة زيادة عدد المال.

(أصناف من يأخذ الزكاة)

فاقتضت حكمته أن جعل في الأموال قَدْرًا يحتمل المواسة، ولا يُجحف بها، ويكفي المساكين، ولا يحتاجون معه إلى شيء، ففرض في أموال الأغنياء ما

(١) أجمع العلماء على أنه لا تجب الزكاة في الذهب حتى يبلغ عشرين مثقالاً.

(٢) ابنة المخاض من الإبل: هي التي أتى عليها حول، وطعت في السنة الثانية. وابنة اللبون: هي التي أتى عليها حولان، وطعت في السنة الثالثة، والذكر ابن لبون. والحقة: هي التي أتى عليها ثلاث سنين، وطعت في الرابعة.

الزكاة قبل أن تؤكل الثمار وتُضرمَ، وليتصرف فيها أربابها بما شاؤوا، ويضمنوا قدر الزكاة، ولذلك كان يبعث الخارصَ إلى من ساقاه من أهل خيبر وزارعه، فيخْرِصُ عليهم الثمار والزروع، ويضمّنهم شطرها، وكان يبعث إليهم عبد الله بن رَواحة، فأرادوا أن يرشّوه، فقال عبد الله: تُطعموني السُّحْتُ؟! والله لقد جئتكم من عند أحبّ الناس إليّ، ولأنتم أبغضُ إليّ من عذبتكم من القردة والخنازير، ولا يحولني بُغضي لكم وحُبِّي إياهم، أن لا أعدل عليكم، فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض (مالك (٧٠٣/٢ - ٧٠٤) ورجاله نفقات لكنه مرسل، وينحوه أبو داود: ٣٤١٠، وابن ماجه: ١٨٢٠).

(بعض الأصناف التي لا تجب فيها الزكاة)

ولم يكن من هديه أخذُ الزكاة من الخيل، والرقيق، ولا البغال، ولا الحمير، ولا الخضراوات ولا المباطخ والمقاتي والفواكه التي لا تُكال ولا تُذخر إلّا العنب والرُّطب فإنه كان يأخذ الزكاة منه جملة ولم يفرق بين ما ييس منه وما لم ييس.

فصل

(زكاة العسل)

واختلف عنه ﷺ في العسل، فروى أبو داود من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جد، قال: جاء هلالٌ أحد بني مُتّعان إلى رسول الله ﷺ بعشور نحل له، وكان سألُه أن يَحِمِّيَ وادياً يُقال له: سَلْبَة، فحمى له رسول الله ﷺ ذلك الوادي، فلما ولي عُمرُ بن الخطاب رضي الله عنه، كتب إليه سفيانُ بن وهب يسأله عن ذلك، فكتب عمر: إن أدّى إليك ما كان يؤدّي إلى رسول الله ﷺ من عُشور نحلّه، فاحم له سَلْبَة، وإلا فلنما هو ذُباب غييث يأكله مَنْ يَشَاءُ [أبو داود: ١٦٠٠، والنسائي (٤٦/٥)، وسنده حسن].

وفي رواية في هذا الحديث «مِنْ كُلِّ عَشْرِ قَرَبٍ قَرَبَةٌ» [حسن: أبو داود: ١٦٠٢].

وروى ابن ماجه في «سننه» من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أنه أَخَذَ مِنَ الْعَسَلِ الْعُشْرَ [حسن: ابن ماجه: ١٨٢٤].

وفي «مسند الإمام أحمد»، عن أبي سيارَةَ

يكفي الفقراء، فوقع الظلم من الطائفتين، الغني يمنع ما وجب عليه، والأخذ يأخذ ما لا يستحقه، فتولد من بين الطائفتين ضررٌ عظيم على المساكين وفاقّة شديدة، أوجبت لهم أنواع الحيل والإلحاف في المسألة، والرُّب سبحانه تولى قَسَمَ الصدقة بنفسه، وجزأها ثمانية أجزاء، يجمعها صنفان من الناس، أحدهما: من يأخذ لحاجة، فيأخذ بحسب شدة الحاجة، وضعفها، وكثرتها، وقتلتها، وهم الفقراء والمساكين، وفي الرقاب، وابن السبيل. والثاني: من يأخذ لمنفعته وهم العاملون عليها، والمؤلفّة قلوبهم، والغارمون لإصلاح ذات البين، والغزاة في سبيل الله، فإن لم يكن إلاّ محتاجاً، ولا فيه منفعة للمسلمين، فلا سهم له في الزكاة.

فصل

(إعطاؤه من هو اهل للزكاة)

وكان من هديه ﷺ إذا علم من الرجل أنه من أهل الزكاة، أعطاه، وإن سأله أحد من أهل الزكاة ولم يَعْرِفْ حاله، أعطاه بعد أن يخبره أنه لا حظّ فيها لغني ولا لِقوي مكتسب [أبو داود: ١٦٣٣، والنسائي (٩٩/٥)].

وكان يأخذها من أهلها، ويضعها في حقها.

(تفريق الزكاة على المستحقين من اهل البلد)

وكان من هديه تفريقُ الزكاة على المستحقين الذين في بلد المال، وما فضلَ عنهم منها حُمِلَتْ إليه، ففرّقها هو ﷺ، ولذلك كان يبعث سُعاته إلى البوادي، ولم يكن يبعثهم إلى القرى، بل أمر معاذ بن جبل أن يأخذ الصدقة من أغنياء أهل اليمن، ويُعطِيها فقراءهم، ولم يأمره بحملها إليه.

(بعث السُّعاة لجباية الزكاة)

ولم يكن من هديه أن يبعث سُعاته إلّا إلى أهل الأموال الظاهرة من المواشي والزروع والثمار، وكان يبعث الخارصَ فيخْرِصُ على أرباب النخيل تمرَ نخيلهم، وينظر كم يجيء منه وسقاً، فيحسِبُ عليهم من الزكاة بقدره [البخاري: ١٤٨١]، وكان يأمر الخارصَ أن يدعَ لهم الثلث أو الربع، فلا يخرصه عليهم [أبو داود: ١٦٠٥، والترمذي: ٦٤٢، والنسائي (٤٢/٥)] لما يعرفون النخيل من النواثب، وكان هذا الخرصُ لكي تُحصى

المتعي، قال: قلت: يا رسول الله! إن لي نحلاً.
قال: «أَدْ الْعُشْرُ» قلت: يا رسول الله! أحملها لي،
فحماتها لي [سند منقطع: أحمد: ١٨٠٦٩، وابن ماجه:
١٨٢٣].

وروى عبد الرزاق، عن عبد الله بن مُحَرَّرٍ عن
الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: كتب
رسولُ الله ﷺ إلى أهل اليمن، أن يُؤْخَذَ مِنَ الْعَسَلِ
الْعُشْرُ [عبد الرزاق: ٦٩٧٢، والبيهقي (١٢٦/٤)، وفي سننه
متروك].

قال الشافعي: أخبرنا أنس بن عياض، عن
الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب، عن أبيه عن
سعد بن أبي ذباب، قال: قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،
فَأَسْلَمْتُ ثُمَّ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! اجْعَلْ لِقَوْمِي مِنْ
أَمْوَالِهِمْ مَا أَسْلَمُوا عَلَيْهِ، ففعل رسولُ الله ﷺ،
واستعملني عليهم، ثم استعملني أبو بكر، ثم عُمرُ
رضي الله عنهما. قال: وكان سعد من أهل السَّراة،
قال: فكلَّمْتُ قَوْمِي فِي الْعَسَلِ، فَقُلْتُ لَهُمْ: فِيهِ
زَكَاةٌ، فَإِنَّهُ لَا خَيْرَ فِي ثَمَرَةٍ لَا تَزْكَى. فَقَالُوا: كَمْ
تَرَى؟ قُلْتُ: الْعُشْرَ. فَأَخَذْتُ مِنْهُمْ الْعُشْرَ، فَلَقِيتُ
عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا كَانَ.
قال: فَقَبَضَهُ عُمَرُ، ثُمَّ جَعَلَ ثَمَنَهُ فِي صَدَقَاتِ
الْمُسْلِمِينَ [الشافعي (٢٤٠/١ - ٢٤١)، ورجاله ثقات إلا عبد
الرحمن، وأحمد: ١٦٧٢٨، وفي سننه ضعيف]. ورواه الإمام
أحمد، ولفظه للشافعي.

(من قال: ليس هي العسل الزكاة)

واختلف أهل العلم في هذه الأحاديث وحكمها،
فقال البخاري: ليس في زكاة العسل شيء يصح،
وقال الترمذي: لا يَصِحُّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذَا الْبَابِ
كَثِيرٌ شَيْءٌ. وقال ابن المنذر: ليس في وجوب صدقة
العسل حديث يثبت عن رسول الله ﷺ ولا إجماع،
فلا زكاة فيه، وقال الشافعي: الحديث في أن في
العسل العُشْرُ ضعيف، وفي أنه لا يؤخذ منه العُشْرُ
ضعيف إلا عن عمر بن عبد العزيز.

قال هؤلاء: وأحاديث الوجوب كلها معلولة، أما
حديث ابن عمر، فهو من رواية صدقة بن عبد الله بن
موسى بن يسار، عن نافع عنه، وصدقة، ضعّفه الإمام

أحمد، ويحيى بن معين، وغيرهما، وقال البخاري:
هو عن نافع، عن النبي ﷺ مرسل، وقال النسائي:
صدقة ليس بشيء، وهذا حديث منكر.

وأما حديث أبي سَيَّارة المتعي، فهو من رواية
سليمان بن موسى عنه، قال البخاري: سليمان بن
موسى لم يدرك أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ.

وأما حديث عمرو بن شعيب الآخر، أن النبي ﷺ
أخذ من العسل العُشْرَ، ففيه أسامة بن زيد بن أسلم
يرويه عن عمرو، وهو ضعيف عندهم، قال ابن
معين: بنو زيد ثلاثهم ليسوا بشيء، وقال الترمذي:
ليس في ولد زيد بن أسلم ثقة.

وأما حديث الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي
هريرة: فما أظهر دلالة لو سلم من عبد الله بن مُحَرَّرٍ
راويه عن الزهري، قال البخاري في حديثه هذا:
عبد الله بن مُحَرَّرٍ متروك الحديث، وليس في زكاة
العسل شيء يصح.

وأما حديث الشافعي رحمه الله: فقال البيهقي:
رواه الصلت بن محمد، عن أنس بن عياض، عن
الحارث بن عبد الرحمن (هو ابن أبي ذباب)، عن
منير بن عبد الله، عن أبيه، عن سعد بن أبي ذباب،
وكذلك رواه صفوان بن عيسى، عن الحارث بن أبي
ذباب. قال البخاري: عبد الله والد منير، عن سعد ابن
أبي ذباب، لم يصح حديثه، وقال علي بن المديني:
منير هذا لا نعرفه إلا في هذا الحديث، كذا قال لي.

قال الشافعي: وسعد بن أبي ذباب، يحكي ما يدل على
أن رسول الله ﷺ لم يأمره بأخذ الصدقة من العسل،
وإنما هو شيء رآه فتطوع له به أهله. قال الشافعي:
واختياري أن لا يؤخذ منه، لأن السنن والآثار ثابتة فيما
يؤخذ منه، وليست ثابتة فيه فكانه عفو.

وقد روى يحيى بن آدم، حدثنا حسين بن زيد، عن
جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي رضي الله عنه
قال: ليس في العسل زكاة [رجاله ثقات، لكنه مرسل].

قال يحيى: وسئل حسن بن صالح عن العسل؟ فلم يرفه
شيئاً. وذكر عن معاذ أنه لم يأخذ من العسل شيئاً. قال
الحُمَيْدي: حدثنا سفيان، حدثنا إبراهيم بن ميسرة، عن
طاوس، عن معاذ بن جبل، أنه أتى بوقص البقر والعسل،

فقال معاذ: كلاهما لم يأمرني فيه رسول الله ﷺ بشيء [عبد الرزاق: ٦٩٦٤، والبيهقي (٤/١٢٧)].

وقال الشافعي: أخبرنا مالك عن عبد الله بن أبي بكر، قال: جاءنا كتابٌ من عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى أبي وهو يَمْنَى، أن لا يأخذ من الخيل ولا من العسل صدقة [صحيح: مالك (١/٢٧٧ - ٢٧٨)]. وإلى هذا ذهب مالك، والشافعي.

(من قال: في العسل زكاة)

وذهب أحمد، وأبو حنيفة، وجماعة، إلى أن في العسل زكاة، ورأوا أن هذه الآثار يقوي بعضها بعضاً، وقد تعددت مخارجها، واختلفت طرقها، ومرسلها يُعَصَّدُ بمسندها. وقد سئل أبو حاتم الرازي، عن عبد الله والد منير، عن سعد بن أبي ذباب، يصح حديثه؟ قال: نعم. قال هؤلاء: ولأنه يتولد من نور الشجر والزهر، ويكال ويدخر، فوجبت فيه الزكاة كالحبوب والثمار. قالوا: والكلفة في أخذه دون الكلفة في الزرع والثمار، ثم قال أبو حنيفة: إنما يجب فيه العشر إذا أخذ من أرض العشر، فإن أخذ من أرض الخراج، لم يجب فيه شيء عنده، لأن أرض الخراج قد وجب على مالكها الخراج ولأجل ثمارها وزرعها، فلم يجب فيها حق آخر لأجلها وأرض العشر لم يجب في ذمته حق عنها، فلذلك وجب الحق فيما يكون منها.

وسوى الإمام أحمد بين الأرضين في ذلك، وأوجه فيما أخذ من ملكه أو موات، عُشْرِيَّة كانت الأرض أو خراجية.

ثم اختلف الموجبون له: هل له نصاب أم لا؟ على قولين. أحدهما: أنه يجب في قليله وكثيره، وهذا قول أبي حنيفة رحمه الله، والثاني: أن له نصاباً معيناً، ثم اختلف في قدره، فقال أبو يوسف: هو عشرة أراطال.

وقال محمد بن الحسن: هو خمسة أفراف، والفرق ستة وثلاثون رطلاً بالعراقي. وقال أحمد: نصابه عشرة أفراف، ثم اختلف أصحابه في الفرق،

على ثلاثة أقوال. أحدها: إنه ستون رطلاً، والثاني: إنه ستة وثلاثون رطلاً.

والثالث: ستة عشر رطلاً، وهو ظاهر كلام الإمام أحمد، والله أعلم.

فصل

(دعاه ﷺ لجابي الزكاة)

(والنهي عن الأخذ من كرائم الأموال)

وكان ﷺ إذا جاءه الرجلُ بالزكاة، دعا له. فتارة يقول: «اللَّهُمَّ بَارِكْ فِيهِ وَفِي إِيْلِهِ» [صحيح: النسائي (٥/٣٠)]. وتارة يقول: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ» [البخاري: ٦٣٥٩، ومسلم: ٢٤٩٢]. ولم يكن من هديه أخذ كرائم الأموال في الزكاة، بل وسط المال، ولهذا نهى معاذاً عن ذلك [البخاري: ٤٣٤٧، ومسلم: ١٢١].

فصل

(التصرف في الصدقة)

وكان ﷺ ينهى المتصدق أن يشتري صدقته [البخاري: ٣٠٠٢، ومسلم: ٤١٦٧]، وكان يُبَيِّح للغني أن يأكل من الصدقة إذا أهداها إليه الفقير، وأكل ﷺ من لحم تُصَدَّقُ به علي بريرة وقال: «هُوَ عَلَيْهَا صَدَقَةٌ وَلَنَا مِنْهَا هَدِيَّةٌ» [البخاري: ٢٥٧٧، ومسلم: ٣٧٧٦].

وكان أحياناً يستدين لمصالح المسلمين علي الصدقة، كما جهَّز جيشاً فَتَفِدَّتِ الإبل، فأمر عبد الله بن عمرو أن يأخذ من قلائص الصدقة [أحمد: ٧٠٢٥، وأبو داود: ٣٣٥٧، بسند ضعيف، والدارقطني (٣١٨) بسند حسن]، وكان يَسُمُّ إبل الصدقة بيده [البخاري: ١٥٠٢]، وكان يسمُّها في أذانها.

وكان إذا عراه أمر، استسلف الصدقة من أربابها، كما استسلف من العباس رضي الله عنه صدقة عامين^(١).

(١) أبو داود (١٦٢٤)، وأحمد (٨٢٢)، والترمذي (٦٧٩)، عن علي رضي الله عنه أن العباس رضي الله عنه سأل النبي ﷺ في تعجيل صدقته قبل أن تحل.

فصل

في هديه ﷺ في زكاة الفطر

(من تجب عليه ومقدارها)

فرضها رسول الله ﷺ على المسلم، وعلى مَنْ يَمُونَهُ مِنْ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ، ذَكَرٍ وَأُنْثَى، حُرٍّ وَعَبْدٍ، صَاعاً مِنْ تَمْرٍ، أَوْ صَاعاً مِنْ شَعِيرٍ، أَوْ صَاعاً مِنْ أَقِطٍ، أَوْ صَاعاً مِنْ زَبِيبٍ [البخاري: ١٥١٢، ومسلم: ٢٢٧٨].

وروي عنه: أَوْ صَاعاً مِنْ دَقِيقٍ، وروي عنه: نصف صاع مِنْ بُرٍّ^(١) [أبو داود: ١٦١٨، والنسائي (٥٢/٥)]. والمعروف: أن عمر بن الخطاب جعل نصف صاع مِنْ بَرِّ مَكَانِ الصَّاعِ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، ذَكَرَهُ أَبُو دَاوُدَ [حسن: أبو داود: ١٦١٤].

وفي «الصحيحين» أن معاوية هو الذي قَوَّمَ ذَلِكَ [البخاري: ١٥٠٨، ومسلم: ٢٢٨٣] وفيه عن النبي ﷺ آثار مرسله، ومسنده، يُقَوِّي بعضها بعضاً.

فمنها: حديث عبد الله بن ثعلبة أو ثعلبة بن عبد الله بن أبي ضعير، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «صَاعٌ مِنْ بُرٍّ أَوْ قَمْحٍ عَلَى كُلِّ اثْنَيْنِ» رواه الإمام أحمد وأبو داود [سند ضعيف: أحمد: ٢٣٦٦٣، وأبو داود: ١٦١٩].

وقال عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن النبي ﷺ بعث منادياً في فجاج مكة: ألا إن صدقة الفِطْرِ واجبة على كُلِّ مُسْلِمٍ، ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى، حُرٍّ أَوْ عَبْدٍ، صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ، مُدَّانٍ مِنْ قَمْحٍ أَوْ سِوَاهُ صَاعاً مِنْ طَعَامٍ [الترمذي: ٦٧٤]. قال الترمذي: حديث حسن غريب.

وروى الدارقطني من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ، أَمَرَ عَمْرُو بْنَ حُزْمٍ فِي زَكَاةِ الْفِطْرِ بِنِصْفِ صَاعٍ مِنْ حِنْطَةٍ [الدارقطني (١٤٥/٢)]، وفي سنه ضعيف.

وفيه سليمان بن موسى، وثقه بعضهم وتكلم فيه بعضهم.

قال الحسن البصري: خطب ابن عباس في آخر رمضان على منبر البصرة فقال: أَخْرِجُوا صَدَقَةَ صَوْمِكُمْ، فَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا. فقال: مَنْ هَا هُنَا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ؟ قَوْمُوا إِلَى إِخْوَانِكُمْ فَعَلُّوهُمْ فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الصَّدَقَةَ صَاعاً مِنْ تَمْرٍ، أَوْ شَعِيرٍ، أَوْ نِصْفَ صَاعٍ مِنْ قَمْحٍ عَلَى كُلِّ حُرٍّ، أَوْ مَمْلُوكٍ، ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى، صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَأَى رُخْصَ السَّعْرِ قَالَ: قَدْ أَوْسَعَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، فَلَوْ جَعَلْتُمُوهُ صَاعاً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. رواه أبو داود وهذا لفظه، والنسائي وعنده: فقال علي: أَمَا إِذَا أَوْسَعَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، فَأَوْسِعُوا، اجْعَلُوهَا صَاعاً مِنْ بُرٍّ وَغَيْرِهِ [أبو داود: ١٦٢٢، والنسائي (٥٢/٥)]. وكان شيخنا رحمه الله: يُقَوِّي هذا المذهب ويقول: هو قياس قول أحمد في الكفارات، أن الواجب فيها مِنَ الْبُرِّ نِصْفُ الْوَاجِبِ مِنْ غَيْرِهِ.

فصل

(وقت إخراج صدقة الفطر وكذا الأضحية)

وكان مِنْ هَدِيهِ ﷺ إخراج هذه الصدقة قَبْلَ صلاة العيد، وفي «السنن» عنه: أنه قال: «مَنْ أَذَاهَا قَبْلَ الصَّلَاةِ، فَهِيَ زَكَاةٌ مَقْبُولَةٌ، وَمَنْ أَذَاهَا بَعْدَ الصَّلَاةِ فَهِيَ صَدَقَةٌ مِنَ الصَّدَقَاتِ» [أبو داود: ١٦٠٩، وابن ماجه: ١٨٢٧].

وفي «الصحيحين»، عن ابن عمر قال: أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِزَكَاةِ الْفِطْرِ أَنْ تُؤَدَّى قَبْلَ خُرُوجِ النَّاسِ إِلَى الصَّلَاةِ [البخاري: ١٥٠٧، ومسلم: ٢٢٨٨].

ومقتضى هذين الحديثين، أنه لا يجوز تأخيرها عن صلاة العيد، وأنها تفوت بالفراغ مِنَ الصَّلَاةِ، وهذا هو الصواب، فإنه لا معارض لهذين الحديثين ولا ناسخ، ولا إجماع يدفع القول بهما، وكان شيخنا يُقَوِّي ذلك وينصره، ونظيره ترتب الأضحية على صلاة الإمام، لا على وقتها، وأن من ذبح قبل صلاة الإمام، لم تكن ذبيحته أضحية بل شاة لحم. وهذا

(١) هذه الجملة «أو صاعاً مِنْ دَقِيقٍ» وهم من سفيان بن عيينة، كما ذكر أبو داود.

عنده، ويأمر بالصدقة، ويحض عليها، ويدعو إليها بحاله وقوله، فإذا رآه البخيلُ الشحيح، دعاه حاله إلى البذل والعطاء، وكان مَنْ خالطه وصحبه، ورأى هديّه لا يملك نفسه من السّماحة والثّدي.

وكان هديه ﷺ يدعو إلى الإحسان والصدقة والمعروف، ولذلك كان ﷺ أشرح الخلق صدراً، وأطيبهم نفساً، وأنعمهم قلباً، فإن للصدقة وفعل المعروف تأثيراً عجيباً في شرح الصدر، وانضاف ذلك إلى ما خصّه الله به من شرح صدره بالنبوة والرسالة، وخصائصها وتوابعها، وشرح صدره حساً وإخراج حظّ الشيطان منه.

فصل

في أسباب شرح الصدور وحصولها على الكمال له ﷺ

فأعظم أسباب شرح الصدر: التوحيد وعلى حسب كماله، وقوته، وزيادته يكون انشراح صدر صاحبه. قال الله تعالى: ﴿أَقَمَ لِلَّهِ صِدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُبُرٍ مِّن رَّيْبٍ﴾ [الزمر: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿فَمَن يُّرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُّرِدْ أَن يُّضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فالهدى والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر، والشُّرك والضلال من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه، ومنها: النور الذي يقذفه الله في قلب العبد، وهو نور الإيمان، فإنه يشرح الصدر ويوسع، ويُفرِّج القلب. فإذا فُقد هذا النور من قلب العبد، ضاق وخرج، وصار في أضيق سجن وأصعبه.

وقد روى الترمذي في «جامعه» عن النبي ﷺ، أنه قال: «إِذَا دَخَلَ النُّورُ الْقَلْبَ، انْفَسَحَ وَانْشَرَحَ». قالوا: وما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال: الإجابة إلى دار الخلود، والتَّجَافِي عَنْ دَارِ الضَّرُورِ، والاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نَزْوِهِ^(١). فيصيب العبد من انشراح

أيضاً هو الصواب في المسألة الأخرى، وهذا هدي رسول الله ﷺ في الموضعين.

فصل

(لا تعطى صدقة الفطر إلا للمساكين)

وكان من هديه ﷺ تخصيصُ المساكين بهذه الصدقة، ولم يكن يقسمها على الأصناف الثمانية قبضة قبضة، ولا أمر بذلك، ولا فعله أحد من أصحابه، ولا من بعدهم، بل أحد القولين عندنا: إنه لا يجوز إخراجها إلا على المساكين خاصة، وهذا القول أرجح من القول بوجوب قسمتها على الأصناف الثمانية.

فصل

في هديه ﷺ في صدقة التطوع

كان ﷺ أعظم الناس صدقة بما ملكته يده، وكان لا يستكثر شيئاً أعطاه الله تعالى، ولا يستقله، وكان لا يسأله أحد شيئاً عنده إلا أعطاه، قليلاً كان أو كثيراً، وكان عطاؤه عطاء من لا يخاف الفقر، وكان العطاء والصدقة أحب شيء إليه، وكان سروره وفرحه بما يعطيه أعظم من سرور الأخذ بما يأخذه، وكان أجود الناس بالخير، يمينه كالريح المرسلة.

وكان إذا عرض له محتاج، أثره على نفسه، تارة بطعامه، وتارة بلباسه. وكان يُنَوِّع في أصناف عطائه وصدقته، فتارة بالهبة، وتارة بالصدقة، وتارة بالهدية، وتارة بشراء الشيء ثم يعطي البائع الثمن والسلعة جميعاً، كما فعل ببيعير جابر [البخاري: ٢٠٩٧، ومسلم: ١٦٥٦]. وتارة كان يقترض الشيء، فيرد أكثر منه، وأفضل وأكبر [البخاري: ٢٣٩٠]، ويشتري الشيء، فيعطي أكثر من ثمنه، ويقبل الهدية ويكافئ عليها بأكثر منها أو بأضعافها، تلطفاً وتنوعاً في ضروب الصدقة والإحسان بكل ممكن، وكانت صدقته وإحسانه بما يملكه، وبحاله، ويقول، فيخرج ما

(١) لم يروه الترمذي كما ذكر المؤلف، وإنما أخرجه الطبري (٢٧/٨)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٤/٣)، وقال الحافظ ابن كثير (١٧٤/٢، ١٧٥) بعد أن ذكره عن عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، وابن جرير: فهذه طرق لهذا الحديث مرسله ومتصلة يشد بعضها بعضاً.

صدره بحسب نصيبه من هذا النور، وكذلك النور الجسِّي، والظلمة الجسِّيَّة، هذه تشرح الصدر، وهذه تُضيِّقه.

ومنها: العلم، فإنه يشرح الصدر، ويوسِّعه حتى يكون أوسع من الدنيا، والجهلُ يورثه الضيق والحُضْر والجس، فكلما اتَّسع علمُ العبد، انشرح صدره واتسع، وليس هذا لكلِّ علم، بل للعلم الموروث عن الرسول ﷺ وهو العلم النافع، فأهلُه أشرح الناس صدراً، وأوسعهم قلوباً، وأحسنهم أخلاقاً، وأطيهم عيشاً.

ومنها: الإنابة إلى الله سبحانه وتعالى، ومحبة بكلِّ القلب، والإقبال عليه، والتَّعَمُّع بعبادته، فلا شيء أشرح لصدر العبد من ذلك. حتى إنه ليقول أحياناً: إن كنتُ في الجنة في مثل هذه الحالة، فإني إذاً في عيش طيب، وللمحبة تأثيرٌ عجيبٌ في انشراح الصدر، وطيب النفس، ونعيم القلب، لا يعرفه إلا من له جسٌّ به، وكلُّما كانت المحبة أقوى وأشدَّ، كان الصدر أفسح وأشرح، ولا يضيِّق إلا عند رؤية البطالين الفارغين من هذا الشأن، فروثتهم قذَى عينه، ومخالطتهم حُمَى روحه.

ومن أعظم أسباب ضيق الصدر الإعراض عن الله تعالى، وتعلُّق القلب بغيره، والغفلة عن ذكره، ومحبة سواه، فإن من أحبَّ شيئاً غيرَ الله، غُذِبَ به، وسُجِنَ قلبه في محبة ذلك الغير، فما في الأرض أشقى منه، ولا أكسف بالاً، ولا أنكد عيشاً، ولا أتعِب قلباً، فهما محبتان، محبة هي جنة الدنيا، وسرور النفس، ولذة القلب، ونعيم الروح، وغذاؤها، ودواؤها، بل حياتها وقرَّة عينها، وهي محبة الله وحده بكلِّ القلب، وانجذاب قوى الميل، والإرادة، والمحبة كلها إليه.

ومحبة هي عذاب الروح، وغم النفس، ويُسْجِنُ القلب، وضيِّق الصدر، وهي سببُ الألم والتكد والعناء وهي محبة ما سواه سبحانه.

ومن أسباب شرح الصدر دوامُ ذكره على كُلِّ حال، وفي كُلِّ موطن، فللذكر تأثيرٌ عجيبٌ في انشراح الصدر، ونعيم القلب، وللغفلة تأثيرٌ عجيبٌ في ضيقه وحبسه وعذابه.

ومنها: الإحسانُ إلى الخلق ونفعهم بما يمكنه من المال، والجاه، والنفع بالبدن، وأنواع الإحسان، فإن الكريم المحسنُ أشرح الناس صدراً، وأطيهم نفساً، وأنعمهم قلباً، والبخلُ الذي ليس فيه إحسان أضيق الناس صدراً، وأنكدُّهم عيشاً، وأعظمهم همّاً وغماً. وقد ضرب رسول الله ﷺ في الصحيح مثلاً للبخلِ والمتصدِّق، «كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُتَّانِ مِنْ حَدِيدٍ، كُلُّمَا هَمَّ الْمُتَصَدِّقُ بِصَدَقَةٍ، انْتَسَعَتْ عَلَيْهِ وَانْبَسَطَتْ، حَتَّى يَجْرَّ ثِيَابُهُ وَيُغْفِي أثرَهُ، وَكُلُّمَا هَمَّ الْبَخِيلُ بِالصَّدَقَةِ، لَزِمَتْ كُلُّ حَلْفَةٍ مَكَانَهَا، وَلَمْ تَنْسِغْ عَلَيْهِ» [البخاري: ٥٢٩٩، ومسلم: ٢٣٥٩]. فهذا مثَل انشراح صدر المؤمن المتصدِّق، وانفساح قلبه، ومثَلُ ضيق صدر البخلِ وانحصار قلبه.

ومنها الشجاعة، فإن الشجاع منشراح الصدر، واسع البطن، متَّسع القلب، والجهانُ: أضيق الناس صدراً، وأحصرُّهم قلباً، لا فرحة له ولا سرور، ولا لذة له، ولا نعيم إلا من جنس ما للحيوان البهيمي، وأما سرور الروح، ولذتها ونعيمها، وابتهاجها، فمحَرَّمٌ على كلِّ جبان، كما هو محَرَّمٌ على كلِّ بخيلٍ، وعلى كُلِّ مُعْرِضٍ عن الله سبحانه، غافلٍ عن ذكره، جاهلٍ به وبأسمائه تعالى وصفاته، ودينه، متعلِّق القلب بغيره. وإن هذا النعيم والسرور، يصير في القبر رياضاً وجنة، وذلك الضيق والحصر، ينقلب في القبر عذاباً وسجناً. فحال العبد في القبر، كحال القلب في الصدر، نعيماً وعذاباً وسجناً وانطلاقاً، ولا عبرة بانشراح صدر هذا لعارض، ولا بضيق صدر هذا لعارض، فإن العوارض تزول بزوال أسبابها، وإنما المعوَّل على الصِّفة التي قامت بالقلب تُوجب انشراحه وحبسه، فهي الميزان والله المستعان.

ومنها بل من أعظمها: إخراج دَعَلِ القلب من الصفات المذمومة التي تُوجب ضيقه وعذابه، وتحوُّل بينه وبين حصول البرِّ، فإن الإنسان إذا أتى الأسباب التي تشرح صدره، ولم يُخْرِجْ تلك الأوصاف المذمومة من قلبه، لم يحطَّ من انشراح صدره بباطل، وغايته أن يكون له مادتان تعتورانِ على قلبه، وهو للمادة الغالبة عليه منهما.

ومنها: تركُ فضولِ النظر، والكلام، والاستماع،

والمخالطة، والأكل، والنوم، فإن هذه الفضول تستحيل آلاماً وعموماً، وهموماً في القلب، تحضره، وتحبس، وتضيئه، ويتعذب بها، بل غالب عذاب الدنيا والآخرة منها، فلا إله إلا الله ما أضيق صدر من ضرب في كل أفة من هذه الآفات بسهم، وما أنكد عيشه، وما أسوأ حاله، وما أشد حصر قلبه، ولا إله إلا الله، ما أنعم عيش من ضرب في كل خصلة من تلك الخصال المحموده بسهم، وكانت همته دائرة عليها، حائمة حولها، فلهذا نصيب وافر من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَيْبٍ﴾ [الأنفطار: ١٣] ولذلك نصيب وافر من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ الْفَجَارَ لَفِي حَيْبٍ﴾ [الأنفطار: ١٤]، وبينهما مراتب متفاوتة لا يُحصيها إلا الله تبارك وتعالى.

والمقصود: أن رسول الله ﷺ كان أكمل الخلق في كل صفة يحصل بها انشراح الصدر، واتساع القلب، وقرّة العين، وحياء الروح، فهو أكمل الخلق في هذا الشرح والحياة، وقرّة العين مع ما خص به من الشرح الحسي، وأكمل الخلق متابعة له، أكملهم انشراحاً ولذة وقرّة عين، وعلى حسب متابعتهم ينال العبد من انشراح صدره، وقرّة عينه، ولذة روحه ما ينال، فهو ﷺ في ذروة الكمال من شرح الصدر، ورفع الذكر، ووضع الوزر، ولاتباعه من ذلك بحسب نصيبهم من اتباعه، والله المستعان.

وهكذا لاتباعه نصيب من حفظ الله لهم، وعصمته إياهم، ودفاعه عنهم، وإعزازه لهم، ونصره لهم، بحسب نصيبهم من المتابعة، فمستقل، ومستكثر. فمن وجد خيراً، فليحمد الله. ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه [مسلم: ٦٥٧٧].

فصل

في هديه ﷺ في الصيام

(المقصود من الصيام وفوائده)

لما كان المقصود من الصيام حبس النفس عن الشهوات، وبقائها عن المألوفات، وتعديل قوتها الشهوانية، لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها

ونعيمها، وقبول ما تزكو به مما فيه حياتها الأبدية، ويكسر الجوع والظما من جذبتها وسورتها، ويذكرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين. وتضيق مجاري الشيطان من العبد بتضييق مجاري الطعام والشراب وتحبس قوى الأعضاء عن استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرها في معاشها ومعادها، ويُسكن كل عضو منها وكل قوة عن جماحه، وتُلجم بلجامه، فهو لجام المتقين، وجنة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقربين، وهو لرب العالمين من بين سائر الأعمال، فإن الصائم لا يفعل شيئاً، وإنما يترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده، فهو ترك محبوبات النفس وتلذذاتها إيثارة لمحبة الله ومرضاته، وهو سِرٌّ بين العبد وربّه لا يُطلّع عليه سواه، والعباد قد يطلعون منه على ترك المفطرات الظاهرة، وأما كونه ترك طعامه وشرابه وشهوته من أجل معبوده، فهو أمر لا يُطلّع عليه بشر، وذلك حقيقة الصوم.

وللصوم تأثير عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة، والقوى الباطنة، وجميها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة التي إذا استولت عليها، أفسدتها، واستفراغ المواد الرديئة المانعة لها من صحتها، فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها، ويُعيد إليها ما استلبته منها أيدي الشهوات، فهو من أكبر العون على التقوى كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقال النبي ﷺ «الصَّوْمُ جُنَّةٌ» [بخاري: ١٨٩٤، ومسلم: ٢٧٠٣]. وأمر من اشتدت عليه شهوة النكاح، ولا قدرة له عليه بالصَّيام، وجعله وجاء هذه الشهوة^(١).

والمقصود: أن مصالح الصوم لما كانت مشهودة بالعقول السليمة، والفطر المستقيمة، شرع الله لعباده رحمة بهم، وإحساناً إليهم، وجمية لهم وجنة. وكان هدي رسول الله ﷺ فيه أكمل الهدي،

(١) البخاري (٥٠٦٦)، ومسلم (٣٣٩٨)، قال رسول الله ﷺ: يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة، فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع، فعليه بالصوم، فإنه له وجاء.

وأعظمَ تحصيل للمقصود، وأسهله على النفوس .

ولما كان قَظُمَ النفوس عن مألوفاتها وشهواتها من أشق الأمور وأصعبها، تأخرَ فرضه إلى وسط الإسلام بعد الهجرة، لما توطَّنت النفوسُ على التوحيد والصلاة، وألفت أوامر القرآن، فقُلت إليه بالتدرج .

(زمن فرضية الصيام)

وكان فرضه في السنة الثانية من الهجرة، فتوفي رسول الله ﷺ وقدم صامَ تسعَ رمضانات، وفُرضَ أولاً على وجه التخيير بينه وبين أن يُطعم عن كُلِّ يوم مسكيناً، ثم نُقِلَ مِنْ ذلك التخيير إلى تحثُّم الصوم، وجعل الإطعام للشيخ الكبير والمرأة إذا لم يُطيقا الصيام، فإنهما يُفطران ويُطعمان عن كُلِّ يوم مسكيناً^(١). ورخص للمريض والمسافر أن يُفطرا ويقضيا، وللحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما كذلك، فإن خافتا على ولديهما، زادتا مع القضاء إطعام مسكين لكلِّ يوم [صحيح: أحمد: ١٩٠٤٧، وأبو داود: ٢٤٠٨، والترمذي: ٧١٥، والنسائي (١٨٠/٤ - ١٨١)، فإن فطرهما لم يكن لخوف مرض، وإنما كان مع الصَّحَّة، فاجر بإطعام المسكين كفطر الصحيح في أوَّل الإسلام .

وكان للصوم رُتَبٌ ثلاث، إحداها: إيجابه بوصف التخيير .

والثانية: تحثُّمه، لكن كان الصائم إذا نام قبل أن يَظَعَمَ حَرَمَ عليه الطعام والشراب إلى الليلة القابلة، فنسخ ذلك بالرتبة الثالثة^(٢)، وهي التي استقر عليها الشرع إلى يوم القيامة .

فصل

(إكثار العبادات في رمضان)

وكان من هديه ﷺ في شهر رمضان، الإكثارُ من أنواع العبادات، فكان جبريلُ عليه الصلاة والسلام يُدارسه القرآن في رمضان، وكان إذا لقيه جبريل أجودَ بالخير من الريح المرسلة، وكان أجودَ الناس، وأجود ما يكون في رمضان [البخاري: ٦، ومسلم: ١٦٠٠٦]، يُكثِّر فيه مِنَ الصدقة والإحسان، وتلاوة القرآن والصلاة، والذكر، والاعتكاف .

(الوصال ومعنى قوله ﷺ: «يطعمني ربي ويسقيني»)

وكان يَحْصُ رمضان من العبادة بما لا يَحْصُ غيره به من الشهور، حتى إنه كان ليُواصل فيه أحياناً لِيُؤَفِّرَ ساعات ليله ونهاره على العبادة، وكان ينهى أصحابه عن الوصال، فيقولون له: إنك تُواصل، فيقول: لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ إِنِّي أَبِيتُ - وفي رواية: إِنِّي أَظَلُّ - عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي [البخاري: ١٩٢٧، ومسلم: ٢٣٢٤] .

وقد اختلف الناس في هذا الطعام والشراب المذكورين على قولين .

أحدهما: أنه طعامٌ وشرابٌ حَسْبِي للفقير، قالوا: وهذه حقيقة اللفظ، ولا مَوْجِبٌ للعدول عنها .

الثاني: أن المرأة به ما يُغْذِيه الله به من معارفه، وما يَقْبِضُ على قلبه من لذة مناجاته، وقُرَّة عينه بقربه، وتنعمه بحبه، والشوق إليه، وتوابع ذلك من الأحوال

(١) البخاري (٤٥٠٥) عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَ فِدْيَةَ طَعَامٍ مِسْكِينٍ﴾ ليست بمنسوخة هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما، فليطعما مكان كل يوم مسكيناً . وقوله: «يطوقونه» بفتح الطاء وتشديد الواو مبنيًا للمفعول، وهي قراءة ابن مسعود أيضاً، وقراءة العامة (يطيقونه) ووقع عند النسائي «يطوقونه» يكلفونه، قال الحافظ: وهو تفسير حسن، أي: يكلفون إطاقته، وذهب الجمهور إلى أن الآية: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَ﴾ منسوخة، فكان المطبق للصوم في الابتداء مخيراً بين أن يصوم، وبين أن يفطر ويفدي فنسخها قوله سبحانه: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ يروى ذلك عن ابن عمر وسلمة بن الأكوع، كما في «صحيح البخاري» (٤٥٠٦)، و (٤٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٥) .

(٢) البخاري (١٩١٥) عن البراء قال: كان أصحاب محمد ﷺ إذا كان الرجل صائماً، فحضر الإفطار، فنام قبل أن يفطر، لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي، وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائماً، فلما حضر الإفطار، أتى امرأته، فقال لها: أعندك طعام؟ قالت: لا، ولكن أنطلق فأطلب لك، وكان يومه يعمل، فغلبته عيناه، فجاءته امرأته، فلما رآته، قالت: خيبة لك، فلما انتصف النهار، غشي عليه، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةُ الْاِيسَارِ أَزِفَتْ لَكُمْ لَيْسَاتِكُمْ﴾ ففرحوا بها فرحاً شديداً، ونزلت: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ .

التي هي غذاء القلوب، ونعيم الأرواح، وقرّة العين، وبهجة النفوس والروح والقلب بما هو أعظم غذاء وأجوده وأنفعه، وقد يقوى هذا الغذاء حتى يُغني عن غذاء الأجسام مدة من الزمان، كما قيل:

لَهَا أَحَادِيثٌ مِنْ ذِكْرِكَ تَشْغَلُهَا

عَنِ الشَّرَابِ وَتُلْهِمُهَا عَنِ الزَّادِ
لَهَا بِوَجْهِكَ نُورٌ تَسْتَضِيءُ بِهِ

وَمِنْ حَدِيثِكَ فِي اغْفَابِهَا حَادِي
إِذَا شَكَّتْ مِنْ كَلَالِ السَّيْرِ أَوْعَدَا

رُوحُ الْقُدُومِ فَتَحِيَا عِنْدَ مِيعَادِ
وَمِنْ لَهُ أَدْنَى تَجَرِبَةٍ وَشَوْقٍ، يَعْلَمُ اسْتِغْنَاءَ الْجِسْمِ

بِغِذَاءِ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْغِذَاءِ الْحَيَوَانِيِّ،
وَلَا سِوَا الْمَسْرُورِ الْفَرَحَانَ الظَّافِرِ بِمَطْلُوبِهِ الَّذِي قَدْ

قَرَّتْ عَيْنُهُ بِمَحْبُوبِهِ، وَتَنَعَّمَ بِقَرْبِهِ، وَالرَّضَى عَنْهُ،
وَالطَّافَ بِمَحْبُوبِهِ وَهَدَايَاهُ، وَتَحَفَهُ تَصِلُ إِلَيْهِ كُلَّ وَقْتٍ،

وَمَحْبُوبُهُ حَفِيٌّ بِهِ، مَعْتَنٍ بِأَمْرِهِ، مُكْرِمٌ لَهُ غَايَةَ الْإِكْرَامِ
مَعَ الْمَحَبَّةِ التَّامَةِ لَهُ، أَفَلَيْسَ فِي هَذَا أَعْظَمُ غِذَاءٍ لِهَذَا

الْمَحَبِّ؟ كَيْفِيفَ بِالْحَبِيبِ الَّذِي لَا شَيْءَ أَجْلُ مِنْهُ، وَلَا
أَعْظَمُ وَلَا أَجْمَلُ، وَلَا أَكْمَلُ، وَلَا أَعْظَمُ إِحْسَانًا إِذَا

امْتَلَأَ قَلْبُ الْمُحِبِّ بِحُبِّهِ، وَمَلَكَ حُبُّ جَمِيعِ أَجْزَاءِ قَلْبِهِ
وَجَوَارِحِهِ، وَتَمَكَّنَ حُبُّهُ مِنْهُ أَعْظَمَ تَمَكُّنًا، وَهَذَا حَالُهُ

مَعَ حَبِيبِهِ، أَفَلَيْسَ هَذَا الْمُحِبُّ عِنْدَ حَبِيبِهِ يُطْعِمُهُ
وَيَسْقِيهِ لَيْلاً وَنَهَاراً؟ وَلِهَذَا قَالَ: «إِنِّي أَظَلُّ عِنْدَ رَبِّي

يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي». وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ طَعَاماً وَشَرَاباً
لِلْفَمِ، لَمَا كَانَ صَائِماً فَضْلاً عَنْ كَوْنِهِ مُوَاصِلاً،

وَأَيْضاً فَلَوْ كَانَ ذَلِكَ فِي اللَّيْلِ، لَمْ يَكُنْ مُوَاصِلاً،
وَلِقَالَ لِأَصْحَابِهِ إِذْ قَالُوا لَهُ: إِنَّكَ تُوَاصِلُ: «لَسْتُ

أُوَاصِلُ». وَلَمْ يَقُلْ: «لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ»، بَلْ أَقْرَبَهُمْ عَلَى
نَسَبَةِ الْوَاصِلِ إِلَيْهِ، وَقَطَعَ الْإِلْحَاقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ فِي

ذَلِكَ، بِمَا بَيَّنَّ مِنَ الْفَارِقِ، كَمَا فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»،
مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَاصِلٌ

فِي رَمَضَانَ، فَوَاصِلُ النَّاسِ، فَنَهَاهُمْ، فَقِيلَ لَهُ: أَنْتَ
تُوَاصِلُ. فَقَالَ: «إِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ إِنِّي أَطْعَمُ وَأَسْقَى»

[مسلم: ٢٣٢٢].

وسياق البخاري لهذا الحديث: نهى
رسول الله ﷺ عن الوصال، فقالوا: إنك تُواصل.

قال: «إِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ إِنِّي أَطْعَمُ وَأَسْقَى» [البخاري: ١٩٦٢] وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة، نهى

رسول الله ﷺ عن الوصال. فقال رجل من
المسلمين: إنك يا رسول الله تُواصل، فقال

رسول الله ﷺ: «وَأَيْتُكُمْ مِثْلِي، إِنِّي أَبَيْتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي
وَيَسْقِينِي» [البخاري: ١٩٦٢، ومسلم: ٢٣٢٤].

وأيضاً: فإن النبي ﷺ لما نهاهم عن الوصال،
فأبوا أن يتنهوا، واصل بهم يوماً، ثم يوماً، ثم رأوا

الهلال فقال: «لَوْ تَأَخَّرَ الْهَلَالُ، لَزِدْتُمْ». كَالْمُتَكَلِّفِ
لَهُمْ حِينَ أَبَوْا أَنْ يَتَنَهَوْا عَنِ الْوَاصِلِ [البخاري: ١٩٦٥،

ومسلم: ٢٣٢٤].

وفي لفظ آخر «لَوْ مَدَّ لَنَا الشَّهْرُ لَوَاصَلْنَا وَصَالاً يَدْعُ
الْمُتَمَتِّعُونَ تَعَمُّقَهُمْ إِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ» أَوْ قَالَ: «إِنَّكُمْ

لَسْتُمْ مِثْلِي، فَإِنِّي أَظَلُّ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي» [مسلم: ٢٣٢٧]
فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يُطْعَمُ وَيُسْقَى، مَعَ كَوْنِهِ مُوَاصِلاً،

وَقَدْ فَعَلَ فَعَلُهُمْ مَنَكَلًا بِهِمْ، مَعْجِزًا لَهُمْ فَلَوْ كَانَ يَأْكُلُ
وَيَشْرِبُ، لَمَا كَانَ ذَلِكَ تَنْكِيلًا، وَلَا تَعْجِيزًا، بَلْ وَلَا

وَاصِلاً، وَهَذَا بِحَمْدِ اللَّهِ وَاضِحٌ.
وَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْوَاصِلِ رَحْمَةً لِلْأَمَةِ،

وَأَذِنَ فِيهِ إِلَى السَّحَرِ، وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»، عَنْ
أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَا

تُوَاصِلُوا فَإِنَّكُمْ أَرَادَ أَنْ يُوَاصِلَ فَلْيُزَاصِلْ إِلَى السَّحَرِ»
[البخاري: ١٩٦٣].

(الاختلاف في حكم الوصال)

وترجيح المصنف بجوازه من السحر إلى السحر

فإن قيل: فما حكم هذه المسألة، وهل الوصال
جائز أو محرّم أو مكروه؟ قيل: اختلف الناس في هذه

المسألة على ثلاثة أقوال.
أحدها: أنه جائز إن قَدَرَ عَلَيْهِ، وهو مروي عن

عبد الله بن الزبير وغيره من السلف، وكان ابن الزبير
يُواصل الأيام، وَمِنْ حُجَّةِ أَرْبَابِ هَذَا الْقَوْلِ، أَنَّ

النبي ﷺ واصل بالصحابة مع نهيه لهم عن الوصال،
كما في «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة، أنه نهى

عن الوصال وقال: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ» فَلَمَّا أَبَوْا أَنْ
يَتَنَهَوْا، وَاصِلٌ بِهِمْ يَوْمًا، ثُمَّ يَوْمًا [البخاري: ١٩٦٥،

ومسلم: ٢٣٢٥] فَهَذَا وَصَالُهُ بِهِمْ بَعْدَ نَهْيِهِ عَنِ الْوَاصِلِ،
وَلَوْ كَانَ النَّهْيُ لِلتَّحْرِيمِ، لَمَا أَبَوْا أَنْ يَتَنَهَوْا، وَلَمَّا

أَقْرَهُمْ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ. قَالُوا: فَلَمَّا فَعَلُوهُ بَعْدَ نَهْيِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ وَيُقْرَهُمْ، عَلِمَ أَنَّهُ أَرَادَ الرَّحْمَةَ بِهِمْ، وَالتَّخْفِيفَ عَنْهُمْ، وَقَدْ قَالَتْ عَائِشَةُ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْوِصَالِ رَحْمَةً لَهُمْ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ [البخاري: ١٩٦٤، ومسلم: ٢٣٢٨].

وقالت طائفة أخرى: لا يجوز الوصال، منهم: مالك، وأبو حنيفة، والشافعي، والثوري، رحمهم الله، قال ابن عبد البر: وقد حكاه عنهم: إنهم لم يُجيزوه لأحد، قلت: الشافعي رحمه الله، نصّ على كراهته، واختلف أصحابه، هل هي كراهة تحريم أو تنزيه؟ على وجهين، واحتج المحرمون بنهي النبي ﷺ، قالوا: والنهي يقتضي التحريم. قالوا: وقول عائشة: «رحمة لهم» لا يمنع أن يكون للتحريم، بل يؤكد، فإن من رحمته بهم أن حرّمه عليهم، بل سائر مناهيه للأمة رحمةً وحنّةً وصيانةً. قالوا: وأما مواصلةً بهم بعد نهيهِ، فلم يكن تقريراً لهم، كيف وقد نهاهم، ولكن تقرّياً وتنكيلاً، فاحتمل منهم الوصال بعد نهيهِ لأجل مصلحة النهي في تأكيد زجرهم، وبيان الحكمة في نهْيهم عنه بظهور المفسدة التي نهاهم لأجلها، فإذا ظهرت لهم مفسدة الوصال، وظهرت حكمة النهي عنه، كان ذلك أدعى إلى قبولهم، وتركهم له، فإنهم إذا ظهر لهم ما في الوصال، وأحسوا منه الملل في العبادة والتقصير فيما هو أهم وأرجح من وظائف الدين من القوة في أمر الله، والخشوع في فرائضه، والإتيان بحقوقها الظاهرة، والباطنة، والجوع الشديد، يُنافي ذلك، ويحوّل بين العبد وبينه، تبيّن لهم حكمة النهي عن الوصال والمفسدة التي فيه لهم دونه ﷺ. قالوا: وليس إقراره لهم على الوصال لهذه المصلحة الراجحة بأعظم من إقرار الأعرابي على البول في المسجد^(١) لمصلحة التأليف، ولثلاث يُنفّر عن الإسلام، ولا بأعظم من إقراره المسيء في صلاته

على الصلاة التي أخبرهم ﷺ أنها ليست بصلاة، وأن فاعلها غير مُصلٍّ، بل هي صلاة باطلة في دينه فأقره عليها لمصلحة تعليمه وقبوله بعد الفراغ، فإنه أبلغ في التعليم والتعلّم، قالوا: وقد قال ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر، فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه» [البخاري: ٧٢٨٨، ومسلم: ٣٢٥٧].

قالوا: وقد ذُكِرَ في الحديث ما يدلُّ على أن الوصال من خصائصه. فقال: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ» ولو كان مباحاً لهم، لم يكن من خصائصه. قالوا: وفي «الصحيحين» من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ ههنا، وَأَذْبَرَ النَّهَارَ مِنْ ههنا، وَغَرِبَتِ الشَّمْسُ فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ» [البخاري: ١٩٥٤، ومسلم: ٢٥٥٨].

وفي «الصحيحين» نحوه من حديث عبد الله بن أبي أوفى [البخاري: ١٩٤١، ومسلم: ٢٥٥٩]. قالوا: فجعله مفطراً حكماً بدخول وقت الفطر وإن لم يفطر، وذلك يُحيل الوصال شرعاً.

قالوا: وقد قال ﷺ: «لَا تَزَالُ أُمُتِي عَلَى الْفِطْرَةِ، أَوْ لَا تَزَالُ أُمُتِي بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْفِطْرَ» [البخاري: ١٩٥٧، ومسلم: ٢٥٥٤].

وفي «السنن» عن أبي هريرة عنه: «لَا يَزَالُ الدِّينُ ظَاهِراً مَا عَجَّلَ النَّاسُ الْفِطْرَ، إِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى يُؤَخَّرُونَ» [حسن: أحمد: ٩٨١٠، وإبوداود: ٢٣٥٣].

وفي «السنن» عنه، قال: قال الله عز وجل: «أَحَبُّ عِبَادِي إِلَيَّ أَعَجَّلَهُمْ فِطْرًا» [أحمد: ٨٣٦٠، والترمذي: ٧٠٠، وفي سننه ضعيف]. وهذا يقتضي كراهة تأخير الفطر، فكيف تركه، وإذا كان مكروهاً، لم يكن عبادة، فإن أقلَّ درجات العبادة أن تكون مستحبة.

والقول الثالث وهو أعدل الأقوال: أن الوصال

(١) البخاري (٦١٢٨) عن أنس: أن أعرابياً بال في المسجد، فقام إليه بعض القوم، فقال رسول الله ﷺ: «دعوه ولا تزرموه (أي: لا تقطعوا عليه بوله) فلما فرغ، دعا بدلو من ماء، فصب عليه. وزاد مسلم في رواية: ثم إن رسول الله ﷺ دعاه، فقال له: إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر، إنما هي لذكر الله عز وجل والصلاة وقراءة القرآن» وفي رواية: دعوة وهريقوا على بوله سجلاً من ماء، أو ذنباً من ماء، فإنما بنتم مسيرين ولم تبتعوا معسرين».

يجوز من سحر إلى سحر، وهذا هو المحفوظ عن أحمد، وإسحاق، لحديث أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ: «لا تُواصلوا فأَيْكم أراد أن يُواصل فليواصل إلى السحر». رواه البخاري [١٩٦٣]. وهو أعدل الوصال وأسهله على الصائم، وهو في الحقيقة بمنزلة عشائه إلا أنه تأخر، فالصائم له في اليوم والليلة أكلة، فإذا أكلها في السحر، كان قد نقلها من أول الليل إلى آخره. والله أعلم.

فصل

(ثبوت رمضان)

وكان من هديه ﷺ، أن لا يدخل في صوم رمضان إلا برؤية محققة، أو بشهادة شاهد واحد، كما صام بشهادة ابن عمر^(١)، وصام مرة بشهادة أعرابي^(٢)، واعتمد على خبرهما، ولم يُكلفهما لفظ الشهادة. فإن كان ذلك إخباراً، فقد اكتفى في رمضان بخبر الواحد، وإن كان شهادة، فلم يُكلف الشاهد لفظ الشهادة. فإن لم تكن رؤية، ولا شهادة، أكمل عدة شعبان ثلاثين يوماً.

(حكم صوم يوم الغيم)

وكان إذا حال ليلة الثلاثين دون منظره غيماً أو سحاباً، أكمل عدة شعبان ثلاثين يوماً، ثم صامه. ولم يكن يصوم يوم الإغمام، ولا أمر به، بل أمر بأن تُكمل عدة شعبان ثلاثين إذا غم، وكان يفعل كذلك، فهذا فعله، وهذا أمره، ولا يناقض هذا قوله: «فإن غم عليكم فاقدرُوا له» [البخاري: ١٩٠٦، ومسلم: ٢٤٩٨]، فإن القدر: هو الحساب المقدّر، والمراد به الإكمال كما قال: «فأكملوا العدة» والمراد بالإكمال، إكمال

عدة الشهر الذي غم، كما قال في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري: «فأكملوا عدة شعبان» [البخاري: ١٩٠٩]. وقال: «لا تصوموا حتى تروه، ولا تفطروا حتى تروه، فإن غم عليكم فأكملوا العدة» [مالك (١/ ٢٨٧) وفيه انقطاع، ورواه أبو داود: ٢٣٢٧، والترمذي: ٦٨٨، ويتحوه مسلم: ٢٥١٤]. والذي أمر بإكمال عدته، هو الشهر الذي يغم، وهو عند صيامه وعند الفطر منه، وأصرح من هذا قوله: «الشهر تسعة وعشرون، فلا تصوموا حتى تروه، فإن غم عليكم فأكملوا العدة» [البخاري: ١٩٠٧]. وهذا راجع إلى أول الشهر بلفظه وإلى آخره بمعناه، فلا يجوز إلغاء ما دل عليه لفظه، واعتبار ما دل عليه من جهة المعنى. وقال: «الشهر ثلاثون والشهر تسعة وعشرون، فإن غم عليكم فعدوا ثلاثين»^(٣).

وقال: «لا تصوموا قبل رمضان، صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن حالت دونه غمامة فأكملوا ثلاثين» [أبو داود: ٢٣٢٧، والترمذي: ٦٨٨، والنسائي (٤/ ١٣٦)].

وقال: «لا تقدّموا الشهر حتى تروا الهلال، أو تُكملوا العدة، ثم صوموا حتى تروا الهلال، أو تُكملوا العدة» [صحيح: أبو داود: ٢٣٢٦، والنسائي (٤/ ١٣٦)].

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يتحفّظ من هلال شعبان ما لا يتحفّظ من غيره، ثم يصوم لرؤيته، فإن غم عليه، عدّ شعبان ثلاثين يوماً، ثم صام. صححه الدارقطني وابن حبان [صحيح: الدارقطني (١٥٦/ ٢) - ١٥٧]، وابن حبان: ٨٦٩، وأحمد: ٢٥١٦١.

(١) أبو داود (٢٣٤٢) عن ابن عمر قال: تراءى الناس الهلال، فأخبرت رسول الله ﷺ أنني رأيته، فصامه وأمر الناس بصيامه. وسنده قوي.

(٢) أبو داود (٢٣٤٠)، والترمذي (٦٩١)، والنسائي (٤/ ١٣١، ١٣٢)، وابن ماجه (١٦٥٢)، عن ابن عباس قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال: إني رأيت الهلال، فقال: أتشهد أن لا إله إلا الله، أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، قال: يا بلال أذن في الناس أن يصوموا غداً. وسماك في روايته عن عكرمة اضطراب، لكن يشهد له حديث ابن عمر المتقدم فيتقوى به.

(٣) مسلم في «صحيحه» (٢٥١١): «الشهر هكذا وهكذا وهكذا، وعقد الإبهام في الثالثة، والشهر هكذا وهكذا وهكذا يعني تمام ثلاثين».

وقال: «صُومُوا لِرُؤْيَيْهِ، وَأَفْطَرُوا لِرُؤْيَيْهِ، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ، فَأَقْدَرُوا ثَلَاثِينَ» [البخاري: ١٩٠٩، ومسلم: ٢٥١٦].

وقال: «لَا تَصُومُوا حَتَّى تَرَوْهُ، وَلَا تَفْطَرُوا حَتَّى تَرَوْهُ، فَإِنْ أَغْمِيَ عَلَيْكُمْ، فَأَقْدَرُوا لَهُ» [البخاري: ١٩٠٦، ومسلم: ٢٤٩٨].

وقال: «لَا تَقْدَمُوا رَمَضَانَ». وفي لفظ: «لَا تَقْدَمُوا بَيْنَ يَدَيْ رَمَضَانَ يَوْمَ، أَوْ يَوْمَيْنِ، إِلَّا رَجُلًا كَانَ يَصُومُ صِيَامًا فَلْيُصِمْهُ» [البخاري: ١٩١٤، ومسلم: ٢٥١٨].

والدليل على أن يوم الإغمام داخل في هذا النهي، حديث ابن عباس يرفعه: «لَا تَصُومُوا قَبْلَ رَمَضَانَ، صُومُوا لِرُؤْيَيْهِ، وَأَفْطَرُوا لِرُؤْيَيْهِ، فَإِنْ خَالَتْ دُونَهُ غَمَامَةٌ، فَأَكْمِلُوا ثَلَاثِينَ» ذكره ابن حبان في «صحيحه» [حسن: ابن حبان: ٨٧٣].

فهذا صريح في أن صوم يوم الإغمام من غير رؤية، ولا إكمال ثلاثين صوم قبل رمضان.

وقال: «لَا تَقْدَمُوا الشَّهْرَ إِلَّا أَنْ تَرَوْا الْهِلَالَ، أَوْ تُكْمِلُوا الْعِدَّةَ، وَلَا تَفْطَرُوا حَتَّى تَرَوْا الْهِلَالَ، أَوْ تُكْمِلُوا الْعِدَّةَ» [صحيح: أبو داود: ٢٣٢٦، والنسائي: ٤/١٣٦].

وقال: «صُومُوا لِرُؤْيَيْهِ، وَأَفْطَرُوا لِرُؤْيَيْهِ، فَإِنْ خَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ سَحَابٌ فَأَكْمِلُوا الْعِدَّةَ ثَلَاثِينَ، وَلَا تَسْتَقْبِلُوا الشَّهْرَ اسْتِقْبَالَ» [الترمذي: ٦٨٨]. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وفي النسائي: من حديث يونس، عن سيماك، عن عكرمة، عن ابن عباس يرفعه: «صُومُوا لِرُؤْيَيْهِ وَأَفْطَرُوا لِرُؤْيَيْهِ، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ، فَعُدُّوا ثَلَاثِينَ يَوْمًا، ثُمَّ صُومُوا، وَلَا تَصُومُوا قَبْلَهُ يَوْمًا، فَإِنْ خَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ سَحَابٌ، فَأَكْمِلُوا الْعِدَّةَ عِدَّةَ شَعْبَانَ» [حسن: النسائي: ١٥٣/٤-١٥٤].

وقال سماك: عن عكرمة: عن ابن عباس: تمارى الناس في رؤية هلال رمضان، فقال بعضهم: اليوم.

وقال بعضهم: غداً. فجاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فذكر أنه رآه، فقال النبي ﷺ: «أَتَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؟» قال: نعم. فأمر النبي ﷺ بلالاً، فنادى في الناس صُومُوا. ثم قال: «صُومُوا لِرُؤْيَيْهِ، وَأَفْطَرُوا لِرُؤْيَيْهِ، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَعُدُّوا ثَلَاثِينَ يَوْمًا، ثُمَّ صُومُوا، وَلَا تَصُومُوا قَبْلَهُ يَوْمًا» [الدارقطني (١٥٧/٢-١٥٨)].

وكل هذه الأحاديث صحيحة، فبعضها في «الصحيحين» وبعضها في «صحيح ابن حبان»، والحاكم، وغيرهما، وإن كان قد أعل بعضهما بما لا يقدر في صحة الاستدلال بمجموعها، وتفسير بعضها ببعض، واعتبار بعضها ببعض، وكلها يصدق بعضها بعضاً، والمراد منها متفق عليه.

(سرد المصنف لروايات من صام يوم الغيم)

فإن قيل: فإذا كان هذا هديته ﷺ، فكيف خالفه عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر، وأنس بن مالك، وأبو هريرة، ومعاوية، وعمر بن العاص، والحكم بن أيوب الغفاري، وعائشة وأسماء ابنتا أبي بكر، وخالفه سالم بن عبد الله، ومجاهد، وطاوس، وأبو عثمان النهدي، ومطرف بن الشخير، وميمون بن مهران، وبكر بن عبد الله المزني، وكيف خالفه إمام أهل الحديث والسنة، أحمد بن حنبل، ونحن نوجدكم أقوال هؤلاء مسندة؟ فأما عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال الوليد بن مسلم: أخبرنا ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، أن عمر بن الخطاب كان يصوم إذا كانت السماء في تلك الليلة مغيمة ويقول: ليس هذا بالتقدم ولكنه التحري^(١).

وأما الرواية عن علي رضي الله عنه، فقال الشافعي: أخبرنا عبد العزيز بن محمد الدراوردي، عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، عن أمه فاطمة بنت حسين، أن علي بن أبي طالب قال: لأن أصوم يوماً من شعبان، أحب إلي من أن أفطر يوماً من رمضان [الشافعي (٢٥١/١)، وفيه انقطاع].

(١) مكحول لم يدرك عمر بن الخطاب، فلا أثر منقطع.

وأما الرواية عن ابن عمر، ففي كتاب عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن أيوب، عن ابن عمر قال: كان إذا كان سحابٌ أصبح صائماً، وإن لم يكن سحاب، أصبح مفطراً [المصنف: ٧٣٢٣، وسنده صحيح].

وفي «الصحيحين» عنه، أن النبي ﷺ قال: «إذا رأيتموه، فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا، وإن غم عليكم فأفدروا له» [البخاري: ١٩٠٦، ومسلم: ٢٤٩٨]. زاد الإمام أحمد رحمه الله بإسناد صحيح، عن نافع قال: كان عبد الله إذا مضى من شعبان تسعة وعشرون يوماً، يَبْتَغُ من ينظر، فإن رأى، فذاك، وإن لم ير، ولم يَحُلْ دون منظره سحابٌ ولا قتر، أصبح مفطراً، وإن حال دون منظره سحابٌ أو قتر أصبح صائماً [صحيح: أحمد: ٤٦١١، وأبو داود: ٢٣٢٠].

وأما الرواية عن أنس رضي الله عنه: فقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا يحيى بن أبي إسحاق قال: رأيت الهلال إما الظهْر، وإما قريباً منه، فأفطر ناسٌ من الناس، فأتينا أنس بن مالك، فأخبرناه برؤية الهلال وبإفطار من أفطر، فقال: هذا اليوم يكمل لي أحد وثلاثين يوماً، وذلك لأن الحكم بن أيوب، أرسل إليّ قبل صيام الناس: إني صائم غداً، فكرهت الخلاف عليه، فصمتُ وأنا مُيَّمٌ يومي هذا إلى الليل.

وأما الرواية عن معاوية، فقال أحمد: حدثنا المغيرة، حدثنا سعيد بن عبد العزيز، قال: حدثني مكحول ويونس بن ميسرة بن حَلْبَس، أن معاوية بن أبي سفيان كان يقول: لأن أصوم يوماً من شعبان، أحب إليّ من أن أفطر يوماً من رمضان^(١).

وأما الرواية عن عمرو بن العاص. فقال أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، أخبرنا ابن لهيعة، عن عبد الله بن هُبَيْرَة، عن عمرو بن العاص، أنه كان يصوم اليوم الذي يُشك فيه من رمضان.

وأما الرواية عن أبي هريرة، فقال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا معاوية بن صالح، عن أبي مريم مولى أبي هريرة قال: سمعتُ أبا هريرة يقول:

لأن أتَعَجَّل في صَوْم رَمَضَانَ يوماً، أحب إليّ من أن أتأخر، لأنني إذا تَعَجَّلْتُ لم يَفْتَنِي، وإذا تأخَّرت فأتني.

وأما الرواية عن عائشة رضي الله عنها، فقال سعيد بن منصور: حدثنا أبو عوانة عن يزيد بن خُمير، عن الرسول الذي أتى عائشة في اليوم الذي يُشك فيه من رمضان قال: قالت عائشة: لأن أصوم يوماً من شعبان، أحب إليّ من أن أفطر يوماً من رمضان.

وأما الرواية عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، فقال سعيد أيضاً: حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن هشام بن عروة، عن فاطمة بنت المنذر قالت: ما غمَّ هلال رمضان إلا كانت أسماء متقدمةً بيوم، وتأمُرُ بتقدمه.

وقال أحمد: حدثنا روح بن عباد، عن حماد بن سلمة، عن هشام بن عروة، عن فاطمة، عن أسماء، أنها كانت تصومُ اليوم الذي يُشك فيه من رمضان.

وكل ما ذكرناه عن أحمد، فمن مسائل الفضل بن زياد عنه.

وقال في رواية الأثرم: إذا كان في السماء سحابةٌ أو غلَّةٌ، أصبح صائماً، وإن لم يكن في السماء غلَّةٌ، أصبح مفطراً، وكذلك نقل عنه ابنه صالح، وعبد الله، والمروزي، والفضل بن زياد، وغيرهم.

فالجواب من وجوه.

(الجواب على من صام يوم الغيم)

أحدهما: أن يُقال: ليس فيما ذكرتم عن الصحابة أثرٌ صالح صريح في وجوب صومه حتى يكون فعلهم مخالفاً لهدى رسول الله ﷺ، وإنما غاية المتقول عنهم صومه احتياطاً، وقد صرح أنس بأنه إنما صامه كراهةً للخلاف على الأمراء، ولهذا قال الإمام أحمد في رواية: الناس تبعٌ للإمام في صومه وإفطاره، والنصوص التي حكيناها عن رسول الله ﷺ من فعله وقوله، إنما تدلُّ على أنه لا يجب صومُ يوم الإغماء، ولا تدلُّ على تحريمه، فَمَنْ أفطره، أخذ بالجواز، وَمَنْ صامه، أخذ بالاحتياط.

(١) رواية منقطعة، ورواية عمرو بن العاص منقطعة أيضاً، وفيها ابن لهيعة، ورواية أبي هريرة لا تدل على الوجوب، بل على الاحتياط والاستحباب.

الثاني: أن الصحابة كان بعضهم يصومه كما حكيتُم، وكان بعضهم لا يصومه، وأصح وأصرح من روي عنه صومه، عبد الله بن عمر، قال ابن عبد البر: وإلى قوله ذهب طائوس اليماني، وأحمد بن حنبل، وروي مثل ذلك عن عائشة وأسماء ابنتي أبي بكر، ولا أعلم أحداً ذهب مذهب ابن عمر غيرهم، قال: وممن روي عنه كراهة صوم يوم الشُّك، عُمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود، وحذيفة، وابن عباس، وأبو هريرة، وأنس بن مالك رضي الله عنهم.

قلت: المنقول عن علي، وعمر، وعمار، وحذيفة، وابن مسعود، المنع من صيام آخر يوم من شعبان تطوعاً، وهو الذي قال فيه عمار: «مَنْ صَامَ الْيَوْمَ الَّذِي يُشَكُّ فِيهِ فَقَدْ عَصَى أَبَا الْقَاسِمِ» [ابو داود: ٢٣٣٤، والترمذي: ٦٨٦، والنسائي (١٥٣/٤)، وابن ماجه: ١٦٤٥، وعلقه البخاري: ١٩٠٦، بصيغة الجزم].

(ترجيح المصنف لجواز

صوم يوم الغيم احتياطاً والنهي عنه تطوعاً)

فأما صوم يوم الغيم احتياطاً على أنه إن كان من رمضان، فهو فرضه وإلا فهو تطوعٌ. فالمنقول عن الصحابة، يقتضي جوازه، وهو الذي كان يفعله ابن عمر، وعائشة. هذا مع رواية عائشة، أن النبي ﷺ كان إذا غَمَّ هلال شعبان، عدَّ ثلاثين يوماً ثم صام. وقد رُدَّ حديثها هذا، بأنه لو كان صحيحاً، لما خالفته، وجعل صيامها علةً في الحديث، وليس الأمر كذلك، فإنها لم تُوجب صيامه، وإنما صامته احتياطاً، وفهمت من فعل النبي ﷺ وأمره أن الصيام لا يجبُ حتى تكمل العدة، ولم تفهم هي ولا ابن عمر، أنه لا يجوز.

وهذا أعدل الأقوال في المسألة، وبه تجتمع الأحاديث والآثار، ويدل عليه، ما رواه معمر، عن أيوب عن نافع، عن ابن عمر، أن النبي ﷺ قال لهلال رمضان: «إِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَصُومُوا، وَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَافْطَرُوا، فَإِنْ غَمَّ عَلَيْكُمْ، فَاقْدُرُوا لَهُ ثَلَاثِينَ يَوْماً». ورواه ابن أبي رَوَاد، عن نافع عنه: «إِنْ غَمَّ عَلَيْكُمْ، فَاقْمِلُوا الْعِدَّةَ ثَلَاثِينَ».

وقال مالك وعبيد الله عن نافع عنه: «فاقدُرُوا لَهُ». فدل على أن ابن عمر، لم يفهم من الحديث وجوب إكمال الثلاثين، بل جوازه، فإنه إذا صام يوم الثلاثين، فقد أخذ بأحد الجائزين احتياطاً، ويدل على ذلك، أنه رضي الله عنه، لو فهم من قوله ﷺ: «اقْدُرُوا لَهُ تِسْعاً وَعَشْرِينَ، ثُمَّ صُومُوا» كما يقوله الموجبون لصومه، لكان يأمر بذلك أهله وغيرهم، ولم يكن يقتصر على صومه في خاصة نفسه، ولا يأمر به، وليين أن ذلك هو الواجب على الناس.

وكان ابن عباس رضي الله عنه، لا يصومه ويحتج بقوله ﷺ: «لَا تَصُومُوا حَتَّى تَرَوْا الْهَيْلَالَ، وَلَا تُفْطَرُوا حَتَّى تَرَوْهُ، فَإِنْ غَمَّ عَلَيْكُمْ، فَاقْمِلُوا الْعِدَّةَ ثَلَاثِينَ».

وذكر مالك في «موطئه» هذا بعد أن ذكر حديث ابن عمر، كأنه جعله مفسراً لحديث ابن عمر، وقوله: «فاقدُرُوا لَهُ».

وكان ابن عباس يقول: عجبٌ ممن يتقدم الشهر بيوم أو يومين، وقد قال رسول الله ﷺ: «لَا تَقْدَمُوا رَمَضَانَ يَوْمٌ وَلَا يَوْمَيْنِ» كأنه يُنكِرُ على ابن عمر.

(بعض المسائل التي

ترخص بها ابن عباس وتشدد بها ابن عمر)

وكذلك كان هذان الصحابان الإمامان، أحدهما يميل إلى التشديد، والآخر إلى الترخيص، وذلك في غير مسألة. وعبد الله بن عمر: كان يأخذ من التشديدات بأشياء لا يُوافقه عليها الصحابة، فكان يغيبُ داخل عينيه في الوضوء حتى غَمِيَ من ذلك، وكان إذا مسح رأسه، أفرَدَ أذنيه بماءٍ جديد، وكان يمنعُ من دخول الحمام، وكان إذا دخله، اغتسل منه، وابن عباس: كان يدخل الحمام، وكان ابن عمر يتيمم بضريرتين: ضربةً للوجه، وضربةً لليدين إلى المرفقين، ولا يقتصر على ضربة واحدة، ولا على الكفَّين، وكان ابن عباس يُخالفه، ويقول: التيمم ضربةً للوجه والكفَّين، وكان ابن عمر يتوضأ من قبلة امرأته، ويُفتي بذلك، وكان إذا قَبِلَ أولاده، تمضمض، ثم صَلَّى، وكان ابنُ عباس يقول: ما

أبالي قَبْلُهَا أَوْ شَمَمْتُ رِيحَانًا.

الشهرَ منكم أحدٌ، وصح عنه ﷺ. أنه قال: «صُومُوا لِرُؤْيَةِ الْهِلَالِ، وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ، فَإِنْ غَمَّ عَلَيْكُمْ، فَعُدُّوا ثَلَاثِينَ يَوْمًا».

وكذلك قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْهِلَالَ، فَصُومُوا لِرُؤْيَتِهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ، فَأَفْطِرُوا، فَإِنْ غَمَّ عَلَيْكُمْ، فَأَكْمِلُوا الْعِدَّةَ».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «فَإِنْ غَمَّ عَلَيْكُمْ، فَعُدُّوا ثَلَاثِينَ يَوْمًا».

فهذه الآثار إن قُدِّرَ أنها معارضة لتلك الآثار التي رُويت عنهم في الصوم، فهذه أولى لموافقتها النصوص المرفوعة لفظاً ومعنى، وإن قُدِّرَ أنها لا تَعَارُضُ بينها، فهنا طريقتان من الجمع، إحداهما: حملها على غير صورة الإغمام، أو على الإغمام في آخر الشهر كما فعله الموجبون للصوم.

والثانية: حمل آثار الصوم عنهم على التحري والاحتياط استجباً لا وجوباً، وهذه الآثار صريحة في نفي الوجوب، وهذه الطريقة أقرب إلى موافقة النصوص، وقواعد الشرع، وفيها السلامة من التفريق بين يومين متساويين في الشك، فيجعل أحدهما يوم شك، والثاني يوم يقين، مع حصول الشك فيه قطعاً، وتكليف العبد اعتقاد كونه من رمضان قطعاً، مع شكه هل هو منه، أم لا؟ تكليف بما لا يُطاق، وتفريق بين المتماثلين، والله أعلم.

فصل

(ثبوت شوال)

وكان من هديه ﷺ، أمرُ الناس بالصَّومَ بِشَهَادَةِ الرَّجُلِ الْوَاحِدِ الْمُسْلِمِ، وَخُرُوجِهِمْ مِنْهُ بِشَهَادَةِ اثْنَيْنِ.

وكان من هديه إذا شهد الشاهدان برؤية الهلال بعد خروج وقت العيد، أن يُفْطَرَ، وَيَأْمُرَهُم بِالْفِطْرِ، وَيُصْلِي الْعِيدَ مِنَ الْغَدِ فِي وَقْتِهَا [صحيح: أحمد: ٢٣٠٦٩، وأبو داود: ٢٣٣٩].

وكان يُعَجِّلُ الْفِطْرَ، وَيَحْضُ عَلَيْهِ، وَيَتَسَحَّرُ،

وكان يأمر من ذكر أن عليه صلاة وهو في أخرى أن يُتِمَّهَا ثُمَّ يُصْلِي الصَّلَاةَ الَّتِي ذَكَرَهَا، ثُمَّ يُعِيدُ الصَّلَاةَ الَّتِي كَانَ فِيهَا، وَرَوَى أَبُو يَعْلَى الْمَوْصِلِيُّ فِي ذَلِكَ حَدِيثاً مَرْفُوعاً فِي «مُسْنَدِهِ» وَالصَّوَابُ: أَنَّهُ مَوْقُوفٌ عَلَى ابْنِ عُمَرَ. قَالَ الْبَيْهَقِيُّ: وَقَدْ رَوَى عَنْ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعاً وَلَا يَصَحُّ، قَالَ: وَقَدْ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعاً، وَلَا يَصَحُّ. وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ كَانَ يَسْلُكُ طَرِيقَ التَّشْدِيدِ وَالْإِحْطَاءِ. وَقَدْ رَوَى مَعْمَرٌ، عَنْ أَبِي يُوْب، عَنْ نَافِعٍ عَنْهُ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَدْرَكَ مَعَ الْإِمَامِ رَكْعَةً أَضَافَ إِلَيْهَا أُخْرَى، فَإِذَا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ، سَجَدَ سَجْدَتِي السَّهْوِ. قَالَ الزَّهْرِيُّ: وَلَا أَعْلَمُ أَحَدًا فَعَلَهُ غَيْرَهُ.

قلت: وكأنَّ هذا السجود لِمَا حَصَلَ لَهُ مِنْ الْجُلُوسِ عَقِيبَ الرُّكْعَةِ، وَإِنَّمَا مَحَلُّهُ عَقِيبَ الشَّفْعِ.

(الدليل على أن الصحابة)

لم يصوموا يوم الغيم على سبيل الوجوب)

ويدل على أن الصحابة لم يصوموا هذا اليوم على سبيل الوجوب، أنهم قالوا: لَأَنْ نَصُومَ يَوْمًا مِنْ شَعْبَانَ، أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَنْ نَفْطِرَ يَوْمًا مِنْ رَمَضَانَ، وَلَوْ كَانَ هَذَا الْيَوْمُ مِنْ رَمَضَانَ حَتْمًا عَنْدهُمْ، لَقَالُوا: هَذَا الْيَوْمُ مِنْ رَمَضَانَ، فَلَا يَجُوزُ لَنَا فِطْرُهُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ويدل على أنهم إنما صاموه استحباباً وتحرياً، ما رُوِيَ عَنْهُمْ مِنْ فِطْرِهِ بَيَانًا لِلْجَوَازِ، فَهَذَا ابْنُ عُمَرَ قَدْ قَالَ حَنْبَلٌ فِي «مَسَائِلِهِ»: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ ابْنُ حَنْبَلٍ، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، عَنْ سَفْيَانَ، عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ حَكِيمٍ الْحَضْرَمِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ يَقُولُ: لَوْ صَمْتُ السَّنَةَ كُلَّهَا لَأَفْطَرْتُ الْيَوْمَ الَّذِي يُشَكُّ فِيهِ^(١).

قال حنبل: وحدَّثنا أحمد ابن حنبل، حدَّثنا عبيدة بن حميد قال: أخبرنا عبد العزيز بن حكيم قال: سألت ابن عمر. قالوا: نَسْبِقُ قَبْلَ رَمَضَانَ حَتَّى لَا يَفُوتَنَا مِنْهُ شَيْءٌ؟ فَقَالَ: أَفْ، أَفْ، صُومُوا مَعَ الْجَمَاعَةِ. فَقَدْ صَحَّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ، إِنَّهُ قَالَ: لَا يَتَقَدَّمَنَّ

(١) إسناده صحيح، وكذا الذي بعده.

وَيُحْتَّ عَلَى السَّحُورِ وَيُؤَخَّرُهُ، وَيُرْغَبُ فِي تَأْخِيرِهِ^(١).

(فوائد الفطر على التمر)

وكان يحضّر على الفطر بالتمر، فإن لم يجد، فعلى الماء، هذا من كمال شفقتة على أمته ونصيحهم، فإن إعطاء الطبيعة الشيء الحلو مع خلّو المعدة، أدعى إلى قبوله، وانتفاع القوى به، ولا سيما القوة الباصرة، فإنها تقوى به، وحلاوة المدينة التمر، ومرباهم عليه، وهو عندهم قوت، وأدم، ورطبته فاكهة. وأما الماء، فإن الكبد يحصل لها بالصوم نوع يس. فإذا رطب بالماء، كمل انتفاعها بالغذاء بعده. ولهذا كان الأولى بالظمآن الجائع، أن يبدأ قبل الأكل بشرب قليل من الماء، ثم يأكل بعده، هذا مع ما في التمر والماء من الخاصية التي لها تأثير في صلاح القلب لا يعلمها إلا أطباء القلوب.

فصل

(ما يفطر عليه)

وكان ﷺ يُفْطِر قبل أن يُصَلِّي، وكان فطره على رطبات إن وجدها، فإن لم يجدها، فعلى تمرات، فإن لم يجد، فعلى حسوات من ماء [صح: أحمد: ١٢٦٧٦، وأبو داود: ٢٣٥٦، والترمذي: ٦٩٦].

(الذكر عند الإفطار)

ويُذَكَّر عنه ﷺ، أنه كان يقول عند فطره: «اللَّهُمَّ لَكَ صُمْتُ وَعَلَى رِزْقِكَ أَفْطَرْتُ، فَتَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» [ابن السني (٤٨١)، وسنده ضعيف]. ولا يثبت.

وروي عنه أيضاً، أنه كان يقول: «اللَّهُمَّ لَكَ صُمْتُ وَعَلَى رِزْقِكَ أَفْطَرْتُ». ذكره أبو داود عن معاذ بن زهرة، أنه بلغه، أن النبي ﷺ كان يقول ذلك [أبو داود: ٢٣٥٨، وابن السني (٢٧٣)، وهو مرسل].

وروي عنه، أنه كان يقول، إذا أفطر: «ذَهَبَ الظَّمَأُ، وَابْتَلَّتِ الْعُرُوقُ، وَبَتَّ الْأَجْرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى» ذكره أبو داود من حديث الحسين بن واقد،

عن مروان بن سالم المقفع، عن ابن عمر [أبو داود: ٢٣٥٧، والدارقطني (١٨٥/٢)، والحاكم (٤٢٢/١)].

(إجابة دعوة الصائم)

ويُذَكَّر عنه ﷺ: «إِنْ لِلصَّائِمِ عِنْدَ فِطْرِهِ دَعْوَةٌ مَا تُرَدُّ». رواه ابن ماجه [١٧٥٣].

(تحديد وقت الإفطار ونهي الصائم عن الرفث)

وصح عنه أنه قال: «إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَاهُنَا، وَأَذْبَرَ النَّهَارَ مِنْ هَاهُنَا، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ» [البخاري: ١٩٥٤، ومسلم: ٢٥٥٨]. وقُسر بأنه قد أفطر حكماً، وإن لم ينه، وبأنه قد دخل وقت فطره، كأصبح وأمسي، ونهى الصائم عن الرفث، والصَّحَب والسَّباب، وجواب السَّباب، فأمره أن يقول لمن سابه: إني صائم، فقل: يقول بلسانه وهو أظهر، وقيل: بقلبه تذكيراً لنفسه بالصوم، وقيل: يقول في الغرض بلسانه، وفي التطوع في نفسه، لأنه أبعد عن الرياء.

فصل

(الفطر في السفر)

وسافر رسول الله ﷺ في رمضان، فصام وأفطر، وخيّر الصحابة بين الأمرين.

(الفطر في القتال)

وكان يأمرهم بالفطر إذا دَنَوْا مِنْ عَدُوِّهِمْ لِيَتَقَوَّأَ عَلَى قِتَالِهِ.

فلو اتفق مثلُ هذا في الحضر وكان في الفطر قوة لهم على لقاء عدوهم، فهل لهم الفطر؟ فيه قولان، أصحُّهما دليلاً: أن لهم ذلك وهو اختيارُ ابن تيمية، وبه أفنى العساكر الإسلامية لما لقوا العدو بظاهر دمشق^(٢)، ولا ريب أن الفطر لذلك أولى من الفطر لمجرد السفر، بل لإباحة الفطر للمسافر تنبيه على إباحته في هذه الحالة، فإنها أحقُّ بجوازها، لأن القوة هناك تختصُّ بالمسافر، والقوة هنا له وللمسلمين، ولأن مشقة الجهاد أعظم من مشقة السفر، ولأن المصلحة الحاصلة بالفطر للمجاهد أعظم من

(١) البخاري (١٩٥٧)، ومسلم (٢٥٥٤) عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَلُوا الْفِطْرَ»، البخاري (١٩٢٣)، ومسلم (٢٥٤٩) «تَسَحَّرُوا فَإِنْ فِي السَّحُورِ بَرَكَةٌ».

(٢) وذلك في سنة (٧٠٢هـ) بمرج الشُّعْر قُلبى دمشق، وتسمى وقعة شقحب، وفيها قتل من التار نفر عظيم، وأسر منهم جماعة، وكتب الله للمسلمين الغلب والظفر.

في رمضان غزوتين: يَوْمَ بَذْرِ، وَالْفَتْحِ، فَأَفْطَرْنَا فِيهِمَا [الترمذي: ٧١٤].

(ما اعتمر ﷺ إلا في ذي القعدة)

وأما ما رواه الدارقطني وغيره، عن عائشة قالت: خرجت مع رسول الله ﷺ في غمرة في رمضان فأفطر رسول الله ﷺ وصمت، وقصر وأتممت... [صحيح: الدارقطني (١٨٨/٢)]. فغلط، إما عليها وهو الأظهر، أو منها وأصابها فيه ما أصاب ابن عمر في قوله: اعتمر رسول الله ﷺ في رجب فقالت: يرحم الله أبا عبد الرحمن، ما اعتمر رسول الله ﷺ إلا وهو معه، وما اعتمر في رجب قط [مسلم: ٣٠٣٦]. وكذلك أيضاً غمره كلها في ذي القعدة، وما اعتمر في رمضان قط.

فصل

(حد السفر لرخصة الإفطار)

ولم يكن من هديه ﷺ تقدير المسافة التي يفطر فيها الصائم بحد، ولا صَحَّ عنه في ذلك شيء. وقد أفطر دحية بن خليفة الكلبي في سفر ثلاثة أميال، وقال لمن صام: قد رغبوا عن هدي محمد ﷺ [ابو داود: ٢٤١٣، وفي سنده مجهول].

(الفطر لا يشترط فيه مجاوزة البيوت)

وكان الصحابة حين يُشؤون السفر، يُفطرون من غير اعتبار مجاوزة البيوت، ويُخبرون أن ذلك سنته وهديه ﷺ، كما قال عبيد بن جبر: ركبْتُ مع أبي بصرة الغفاري صاحب رسول الله ﷺ في سفينة من الفسطاط في رمضان، فلم يُجاوز البيوت حتى دَعَا بالسفرة. قال: اقترِب. قلت: أَلست ترى البيوت؟ قال أبو بصرة: أترغب عن سنة رسول الله ﷺ؟ رواه أبو داود وأحمد (حسن لغيره: أحمد: ٢٧٢٣٢، وأبو داود: ٢٤١٢). ولفظ أحمد: ركبْتُ مع أبي بصرة من الفسطاط إلى الإسكندرية في سفينة، فلما دَنَوْنَا من مرساها، أمر بسفرته، فقُرِبْتُ، ثم دعاني إلى الغداء وذلك في رمضان. فقلت: يا أبا بصرة! واللَّه ما تعيبت عنا منازلنا بعد؟ قال: أترغب عن سنة رسول الله ﷺ؟ فقلت: لا. قال: فكل. قال: فلم نزل مُفطرين حتى بلغنا.

المصلحة بفطر المسافر، ولأن الله تعالى قال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]. والفطر عند اللقاء، من أعظم أسباب القوة.

والنبي ﷺ قد فسَّر القوة، بالرمي [مسلم: ٤٩٤٦]. وهو لا يَتِمُّ ولا يحصلُ به مقصوده، إلا بما يقوي ويعين عليه من الفطر والغذاء، ولأن النبي ﷺ قال للصحابة لما دنوا من عدوهم: «إِنَّكُمْ قَدْ دَنَوْتُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ، وَالْفِطْرُ أَقْوَى لَكُمْ». وكانت رُخْصَةً ثُمَّ نَزَلُوا مَنْزِلًا آخَرَ فَقَالَ: «إِنَّكُمْ مُصِيبُو عَدُوِّكُمْ، وَالْفِطْرُ أَقْوَى لَكُمْ، فَأَفْطِرُوا» فَكَانَتْ عَزْمَةً فَأَفْطَرْنَا [مسلم: ٢٦٦٤]. فعَلَّل بدنوهم من عدوهم واحتياجهم إلى القوة التي يلقون بها العدو، وهذا سبب آخر غير السفر، والسفر مستقِلُّ بنفسه، ولم يذكر في تعليقه، ولا أشار إليه، فالتعليل به اعتباراً لما ألغاه الشارع في هذا الفطر الخاص، والغناء وصف القوة التي يقاوم بها العدو، واعتبار السفر المجرد إلغاء لما اعتبره الشارع وعلل به.

وبالجملة: فتنبه الشارع وحكمته، يقتضي أن الفطر لأجل الجهاد أولى منه لمجرد السفر، فكيف وقد أشار إلى العلة، ونبه عليها، وصرَّح بحكمها، وعزم عليهم بأن يفطروا لأجلها. ويدل عليه، ما رواه عيسى بن يونس، عن شعبة، عن عمرو بن دينار قال: سمعتُ ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ لأصحابه يَوْمَ فَتَحِ مَكَّةَ: «إِنَّهُ يَوْمٌ قِتَالٍ فَأَفْطِرُوا»^(١). تابعه سعيد بن الربيع، عن شعبة. فعَلَّل بالقتال، ورتب عليه الأمر بالفطر بحرف الفاء، وكل أحد يفهم من هذا اللفظ أن الفطر لأجل القتال. وأما إذا تجرَّد السفر عن الجهاد، فكان رسول الله ﷺ يقول في الفطر: هي رُخْصَةٌ مِنَ اللَّهِ، فمن أخذ بها، فحسن، ومن أحب أن يصوم، فلا جناح عليه.

فصل

(الفطر في السفر)

وسافر رسول الله ﷺ في رمضان في أعظم الغزوات وأجلها في غَزَاةِ بَدْرٍ، وفي غَزَاةِ الْفَتْحِ. قال عمر بن الخطاب: غزونا مع رسول الله ﷺ

وأما الحديث الذي رواه أحمد، وابن ماجه، عن ميمونة مولاة النبي ﷺ، قالت: «سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ رَجُلٍ قَبْلَ امْرَأَتِهِ وَهُمَا صَائِمَانِ، فَقَالَ: قَدْ أَفْطَرَ» [سند ضعيف: أحمد: ٢٧٦٢٥، وابن ماجه: ١٦٨٦] فلا يصح عن رسول الله ﷺ، وفيه أبو يزيد الضُّنِّي رواه عن ميمونة، وهي بنت سعد، قال الدارقطني: ليس بمعروف، ولا يثبت هذا، وقال البخاري: هذا لا أحدث به، هذا حديث منكر، وأبو يزيد رجل مجهول.

ولا يَصِحُّ عنه ﷺ التفريق بين الشاب والشيخ، ولم يَجِءَ من وجه يثبت، وأجود ما فيه، حديث أبي داود عن نصر بن علي، عن أبي أحمد الزبيري: حدثنا إسرائيل، عن أبي العنيس، عن الأغر، عن أبي هريرة، أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن المباشرة للصَّائِمِ، فرخص له، وأتاه آخر فسأله عنها، فإذا الذي رخص له شيخ، وإذا الذي نهى شاب^(٢)، وإسرائيل، وإن كان البخاري ومسلم قد احتجا به وبقية الستة، فعلة هذا الحديث أن بينه وبين الأغر فيه أبا العنيس العدوي الكوفي، واسمه الحارث بن عبيد، سكتوا عنه^(٣).

فصل

(صحة صيام من أكل ناسياً)

وكان من هديه ﷺ: إسقاط القضاء عمن أكل وشرب ناسياً، وأن الله سبحانه هو الذي أطعمه وسقاه، فليس هذا الأكل والشرب يُضاف إليه، فيُفْطَرُ به، فإنما يُفْطَرُ بما فعله، وهذا بمنزلة أكله وشربه في نومه، إذ لا تكليف بفعل النائم، ولا بفعل الناسي.

فصل

(المفطرات)

والذي صح عنه ﷺ: أن الذي يُفْطَرُ به الصَّائِمُ: الأكل، والشرب، والحجامة [الشافعي (٢٥٧/١)]، وهب الرزاق: ٧٥٢٠، وأبو داود: ٢٣٦٩، وابن ماجه: ١٦٨١،

وقال محمد بن كعب: أتيت أنس بن مالك في رمضان وهو يُريد سفرًا، وقد رُجِلَتْ له راحلته، وقد لَيسَ ثِيَابَ السفر، فدعا بطعام فأكل، فقلت له: سُنَّة؟ قال: سُنَّة، ثم رَكِبَ [صحيح: الترمذي: ٧٩٩-٨٠٠]. قال الترمذي حديث حسن وقال الدارقطني فيه: فأكل وقد تقارب غروب الشمس.

وهذه الآثار صريحة في أن من أنشأ السفر في أثناء يوم من رمضان فله الفطر فيه^(١).

فصل

(لا حرج في اغتسال الجنب)

بعد الفجر وفي تقبيل أزواجه وهو صائم)

وكان من هديه ﷺ أن يُدرِّكه الفجر وهو جنب من أهله، فيغتسل بعد الفجر ويصوم [البخاري: ١٩٢٦، ومسلم: ٢٥٩٢].

وكان يُقبَلُ بعض أزواجه وهو صائم في رمضان [البخاري: ١٩٢٨، ومسلم: ٢٥٧٣]. وشبه قبلة الصائم بالمضمضة بالماء [أبو داود: ٢٣٨٥].

وأما ما رواه أبو داود عن مُضَدَّع بن يحيى، عن عائشة، أن النبي ﷺ، كان يُقبِّلُها وهو صائم، ويُمصُّ لِسَانَهَا [سند ضعيف: أبو داود: ٢٣٨٦، وابن خزيمة: ٢٠٠٣]. فهذا الحديث، قد اختلف فيه، فضعفه طائفة بمُضَدَّع هذا، وهو مختلف فيه، قال السعدي: زائغ جائر عن الطريق، وحسنه طائفة، وقالوا: هو ثقة صدوق، روى له مسلم في «صحيحه» وفي إسناده محمد بن دينار الطاحي البصري، مختلف فيه أيضاً، قال يحيى: ضعيف، وفي رواية عنه، ليس به بأس، وقال غيره: صدوق، وقال ابن عدي: قوله، ويمص لسانها، لا يقوله إلا محمد بن دينار، وهو الذي رواه، وفي إسناده أيضاً سعد بن أوس، مختلف فيه أيضاً، قال يحيى: بصري ضعيف، وقال غيره: ثقة، وذكره ابن حبان في الثقات...

(١) في مسائل إسحاق بن منصور المروزي ورقة (٢/٣٦).

(٢) أبو داود (٢٣٨٧)، وسنده حسن، وأخرج مالك (٢٩٣/١) عن ابن عباس: سئل عن القبلة للصائم، فأرخص فيها للشيخ، وكرهها للشاب، وإسناده صحيح.

(٣) في كلام المؤلف نظر، فإننا لم نجد أحداً من أئمة الجرح والتعديل طعن فيه.

والدارمي (١٤/٢)، والطحاوي ص (٣٤٩)، والحاكم (٤٢٨/١)، والبيهقي (٢٦٥/٤) والقي^(١). والقرآن دال على أن الجماع مفطر كالأكل والشرب، لا يُعرف فيه خلاف ولا يصح عنه في الكحل شيء.

(غير المفطرات)

وصح عنه أنه كان يستاك وهو صائم^(٢).

(إنكار المصنف — تبعاً للإمام أحمد —

احتجام النبي ﷺ وهو صائم مع أنه في البخاري !!)

وذكر الإمام أحمد عنه، أنه كان يَصُبُّ الماءَ على رأسِهِ وَهُوَ صَائِمٌ [صحيح: أحمد: ٢٣١٩٠، وأبو داود: ٢٣٦٥].

وكان يتمضمض، ويستنشق وهو صائم، ومنع الصائِمَ مِنَ الْمُبَالِغَةِ فِي الاسْتِشْقِاقِ^(٣). ولا يَصِحُّ عنه أنه احتجم وهو صائم، قاله الإمام أحمد. وقد رواه البخاري في «صحيحه» قال أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد قال: لم يسمع الحكم حديث مَقْسَمٍ فِي الْحِجَامَةِ فِي الصَّيَامِ، يعني حديث سعيد، عن الحكم، عن مَقْسَمٍ، عن ابن عباس: أن النبي ﷺ احتجم وَهُوَ صَائِمٌ مُحْرِمٌ [البخاري: ١٩٣٩].

قال مهنا: وسألت أحمد عن حديث حبيب بن الشهيد، عن ميمون بن مهران، عن ابن عباس: أن النبي ﷺ احتجم وهو صائم مُحْرِمٌ. فقال: ليس بصحيح، قد أنكره يحيى بن سعيد الأنصاري، إنما كانت أحاديث ميمون بن مهران عن ابن عباس نحو خمسة عشر حديثاً.

وقال الأثرم: سمعتُ أبا عبد الله ذكر هذا الحديث، فضعه، وقال مهنا: سألتُ أحمد عن حديث قبيصة، عن سفيان، عن حماد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: احتجم رسول الله ﷺ صائماً مُحْرِمًا. فقال: هو خطأ مِنْ قَبْلِ قَبِيصَةَ، وسألت يحيى عن قبيصة بن عقبة، فقال: رجل صدق، والحديث الذي يحدث به عن سفيان، عن سعيد بن جبير، خطأ من قبله. قال أحمد: في كتاب الأشجعي عن سعيد بن جبير مراسلاً أن النبي ﷺ، احتجم وهو محرم، ولا يذكر فيه صائماً.

قال مهنا: وسألتُ أحمد عن حديث ابن عباس، أن النبي ﷺ احتجم وهو صائم محرم؟ فقال: ليس فيه «صائم» إنما هو محرم ذكره سفيان، عن عمرو بن دينار، عن طاوس، عن ابن عباس، احتجم رسول الله ﷺ على رأسه وَهُوَ مُحْرِمٌ. ورواه عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن خثيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، احتجم النبي ﷺ وهو محرم. وروح، عن زكريا بن إسحاق، عن عمرو بن دينار، عن عطاء وطاوس، عن ابن عباس: أن النبي ﷺ احتجم وهو محرم، وهؤلاء أصحاب ابن عباس، لا يذكرون «صائماً».

وقال حنبل: حدثنا أبو عبد الله، حدثنا وكيع، عن ياسين الزيات، عن رجل، عن أنس، أن النبي ﷺ احتجم في رمضان بعد ما قال: «أَفْطَرُ الْحَاجِمُ وَالْمَحْجُومُ». قال أبو عبد الله: الرجل: أراه أبان بن أبي عياش، يعني ولا يحتج به^(٤).

وقال الأثرم: قلت لأبي عبد الله: روى محمد بن

(١) هذا إذا استقاء عمداً، أما إذا ذرعه القيء، فلا يعد مفطراً، فقد أخرج الترمذي (٧٢٠) وأبو داود (٢٣٨٠) عن أبي هريرة مرفوعاً: «... ومن استقاء عمداً فليفطر».

(٢) العمل على هذا عند أكثر أهل العلم لم يروا بأساً بالسواك للصائم أوّل النهار وآخره، وقال ابن خزيمة (٢٤٧/٣): إخبار النبي ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة» ولم يستثن مفطراً دون صائم، ففيها دلالة على أن السواك للصائم عند كل صلاة فضيلة كما هو للمفطر.

(٣) الشافعي (٣٠/١)، وأحمد (١٦٣٨٠)، وأبو داود (١٤٢)، والنسائي (٦٦/١) عن لقيط بن صبرة، قال: قلت: يا رسول الله أخبرني عن الوضوء قال: «أسبغ الوضوء، وخلل بين الأصابع، وبالع في الاستنشاق إلا أن تكون صائماً» وإسناده صحيح.

(٤) في «التقريب»: أبان بن أبي عياش فيروز البصري متروك، وياسين الزيات وهو الراوي عن أبان قال البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي: متروك، وقال ابن حبان: يروي الموضوعات.

معاوية النيسابوري، عن أبي عوانة، عن السدي، عن أنس، أن النبي ﷺ، احتجم وهو صائم، فأنكر هذا، ثم قال: السدي، عن أنس! قلت: نعم فَعَجِبَ مِنْ هذا. قال أحمد: وفي قوله «أفطر الحاجم والمحجوم» غير حديث ثابت.

وقال إسحاق: قد ثبت هذا من خمسة أوجه عن النبي ﷺ. والمقصود، أنه لم يصح عنه ﷺ أنه احتجم وهو صائم، ولا صح عنه أنه نهى الصائم عن السواك أول النهار ولا آخره، بل قد روي عنه خلافه. ويذكر عنه: «مَنْ خَيْرَ خِصَالِ الصَّائِمِ السَّوَاكُ»، رواه ابن ماجه من حديث مجالد وفيه ضعف [ابن ماجه: ١٦٧٧].

فصل

(الاكتحال للصائم)

وروي عنه ﷺ، أنه اكتحل وهو صائم، ورُوي عنه، أنه خرج عليهم في رمضان وعينه مملوءتان من الإثويد لا يَصِيحُ، وروي عنه أنه قال في الإثم: «لِيَتَجَمَّعَ الصَّائِمُ» [أبو داود: ٢٣٧٧] ولا يصح. قال أبو داود: قال لي يحيى بن معين: هو حديث منكر.

فصل

في هديه ﷺ في صيام التطوع

كان ﷺ يَصُومُ حتى يُقال: لا يُفْطِرُ، ويُفْطِرُ حتى يُقال: لا يَصُومُ، وما استكمل صيام شهر غير رمضان، وما كان يصوم في شهر أكثر مما يصوم في شعبان [البخاري: ١٩٦٩، ومسلم: ٢٧١٧].

ولم يكن يخرج عنه شهر حتى يَصُومَ منه.

ولم يَصُمْ الثلاثة الأشهر سرداً كما يفعلُه بعض الناس، ولا صام رجياً قط، ولا استحب صيامه، بل رُوي عنه النهي عن صيامه، ذكره ابن ماجه (١٧٤٣)، وفي سنده ضعف.

وكان يتحرى صيام يوم الإثنين والخميس [صحيح: الترمذي: ٧٤٥، والنسائي (٢٠٢/٤)، وابن ماجه: ١٧٣٩].

وقال ابن عباس رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ لا يُفْطِرُ أَيَّامَ الْبَيْضِ فِي سَفَرٍ وَلَا حَضَرٍ [النسائي (٤/١٩٨)، وسنده ضعيف]. ذكره النسائي. وكان يحضُّ على صيامها^(١). وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يَصُومُ مِنْ غُرَّةِ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ. ذكره أبو داود والنسائي [حسن: أبو داود: ٢٤٥٠، والترمذي: ٧٤٢].

وقالت عائشة: لم يكن يُبَالِي مِنْ أَيِّ الشَّهْرِ صَامَهَا. ذكره مسلم (٢٧٤٤)، ولا تناقض بين هذه الآثار.

وأما صيامُ عشر ذي الحِجَّةِ، فقد اختلفت، فقالت عائشة: ما رأيته صائماً في العشر قط ذكره مسلم (٢٧٨٩).

وقالت حفصة: أربع لم يكن يدعُهنَّ رسول الله ﷺ: صيامُ يوم عاشوراء، والعشر، وثلاثة أيام من كل شهر، وركعتا الفجر [أحمد: ٢٦٤٥٩، وفي سنده مجهول، وباقى رجاله ثقات]. ذكره الإمام أحمد رحمه الله.

وذكر الإمام أحمد عن بعض أزواج النبي ﷺ أنه كان يَصُومُ تِسْعَ ذِي الْحِجَّةِ، وَيَصُومُ عَاشُورَاءَ، وَثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنَ الشَّهْرِ، أَوِ الْاِثْنَيْنِ مِنَ الشَّهْرِ، وَالْخَمِيسِ، وَفِي لَفْظٍ: الْخَمِيسِينَ [أحمد: ٢٦٤٦٨، وأبو داود: ٢٤٣٧، والنسائي (٢٠٥/٤)]. وَالْمَثْبُتُ مُقَدَّمٌ عَلَى النَّافِي إِنْ صَحَّ.

وأما صيامُ ستة أيام من شوال، فصَحَّ عنه أنه قال: «صِيَامُهَا مَعَ رَمَضَانَ يَغْدِلُ صِيَامَ الدُّهْرِ» [مسلم: ٢٧٥٨].

(صيام عاشوراء)

وأما صيامُ يوم عاشوراء، فإنه كان يتحرى صومه على سائر الأيام، ولما قَدِمَ الْمَدِينَةَ، وَجَدَ الْيَهُودَ تَصُومُهُ وَتُعَظِّمُهُ، فَقَالَ: «نَحْنُ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ». فصامه، وأمر بصيامه، وذلك قبل فرض رمضان، فلما فُرِضَ رمضان، قال: «مَنْ شَاءَ صَامَهُ وَمَنْ شَاءَ تَرَكَهُ» [البخاري: ٤٥٠١، ومسلم: ٢٦٤٠].

(١) أحمد (٢١٣٥٠)، والنسائي (٢٢٢/٤) من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ صَائِماً مِنَ الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَلْيَصُمْ الثَّلَاثَ الْبَيْضَ» وسنده حسن.

٢٦٥٣]. ومعاوية إنما سمع هذا بعد الفتح قطعاً.

وإشكال آخر، وهو أن مسلماً روى في «صحيحه» عن عبد الله بن عباس، أنه لما قيل لرسول الله ﷺ: إن هذا اليوم تُعظمه اليهود والنصارى قال: «إِنْ بَقِيَتْ إِلَى قَابِلٍ»، لِأَصْوَمِ النَّاسِ، فلم يأت العام القابل حتى توفي رسول الله ﷺ، ثم روى مسلم في «صحيحه» عن الحكم بن الأعرج قال: انتهيت إلى ابن عباس وهو متوسد رداءه في زمزم، فقلت له: أخبرني عن صوم عاشوراء. فقال: إِذَا رَأَيْتَ هَلَالَ الْمُحَرَّمِ، فاعْدُدْ، وَأَصْبَحَ يَوْمَ النَّاسِ صَائِماً قُلْتُ: هَكَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصُومُ؟ قال: نعم [مسلم: ٢٦٦٤].

وإشكال آخر: وهو أن صومه إن كان واجباً مفروضاً في أول الإسلام، فلم يأمرهم بقضائه، وقد فات تبييت النية له من الليل وإن لم يكن فرضاً، فكيف أمر بإتمام الإمساك مَنْ كان أكل؟ كما في «المسند» والسنن من وجوه متعددة، أنه عليه السلام، أمر من كان طعم فيه أن يصوم بقية يومه^(١). وهذا إنما يكون في الواجب، وكيف يصح قول ابن مسعود: فلما فرض رمضان، ترك عاشوراء، واستجاب له لم يترك؟

وإشكال آخر: وهو أن ابن عباس جعل يوم عاشوراء يوم التاسع، وأخبر أن هكذا كان يصومه ﷺ، وهو الذي روى عن النبي ﷺ: «صُومُوا يَوْمَ عَاشُورَاءَ، وَخَالِفُوا الْيَهُودَ، صُومُوا يَوْمًا قَبْلَهُ أَوْ يَوْمًا بَعْدَهُ» [أحمد: ٢١٥٤، وابن خزيمة: ٢٠٩٥] ذكره أحمد. وهو الذي روى: أمرنا رسول الله ﷺ بصوم عاشوراء يوم العاشر. ذكره الترمذي [الترمذي: ١٧٥٥].

فالجواب عن هذه الإشكالات بعون الله وتأييده وتوفيقه: أما الإشكالات الأولى: وهوائه لما قديم المدينة، وجدهم يصومون يوم عاشوراء، فليس فيه أن يوم قدومه وجدهم يصومونه، فإنه إنما قديم يوم الاثنين في ربيع الأول ثاني عشرة، ولكن أول علمه بذلك بوقوع القصة في العام الثاني الذي كان بعد

وقد استشكل بعض الناس هذا وقال: إنما قديم رسول الله ﷺ المدينة في شهر ربيع الأول، فكيف يقول ابن عباس: إنه قدم المدينة، فوجد اليهود صائماً يوم عاشوراء؟

وفيه إشكال آخر، وهو أنه قد ثبت في «الصحيحين» من حديث عائشة، أنها قالت: كانت قریش تصوم يوم عاشوراء في الجاهلية، وكان عليه الصلاة والسلام يصومه، فلما هاجر إلى المدينة، صامه، وأمر بصيامه، فلما فرض شهر رمضان قال: «مَنْ شَاءَ صَامَهُ وَمَنْ شَاءَ تَرَكَهُ» [البخاري: ٤٥٠١، ومسلم: ٢٦٦١].

وإشكال آخر، وهو ما ثبت في «الصحيحين» أن الأشعث بن قيس دخل على عبد الله بن مسعود وهو يتغذى فقال: يا أبا محمد! اذن إلى الغداء. فقال: أَوَلَيْسَ الْيَوْمَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ؟ فقال: وهل تدري ما يوم عاشوراء؟ قال: وما هو؟ قال: إنما هو يوم كان رسول الله ﷺ يصومه قبل أن ينزل رمضان، فلما نزل رمضان تركه [البخاري: ٤٥٠٣، ومسلم: ٢٦٦٨].

وقد روى مسلم في «صحيحه» عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ حين صام يوم عاشوراء وأمر بصيامه، قالوا: يا رسول الله! إنه يوم تُعظمه اليهود والنصارى، فقال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ صُمْنَا الْيَوْمَ النَّاسِ». فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله ﷺ [مسلم: ٢٦٦٦].

فهذا فيه أن صومه والأمر بصيامه قبل وفاته بعام، وحديثه المتقدم فيه أن ذلك كان عند مقدمه المدينة، ثم إن ابن مسعود أخبر أن يوم عاشوراء ترك برمضان، وهذا يخالفه حديث ابن عباس المذكور، ولا يمكن أن يقال: ترك فرضه، لأنه لم يفرض، لما ثبت في «الصحيحين» عن معاوية بن أبي سفيان، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هَذَا يَوْمَ عَاشُورَاءَ، وَلَمْ يَكُتَبِ اللَّهُ عَلَيْكُمْ صِيَامَهُ، وَأَنَا صَائِمٌ، فَمَنْ شَاءَ، فَلْيَصُمْ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيُفْطِرْ» [البخاري: ٢٠٠٣، ومسلم:

(١) أحمد (١٩٤٥١)، والنسائي (١٩٢/٤)، وابن ماجه (١٧٣٥). وأخرج البخاري (٢٠٠٧)، ومسلم (٢٦٦٨)، أمر النبي ﷺ رجلاً من أسلم أن اذن في الناس أن من كان أكل، فليصم بقية يومه، ومن لم يكن أكل، فليصم، فإن اليوم يوم عاشوراء.

الأمصار بصومه، وإمساك من كان أكل، والظاهر: أنه حُتِمَ ذلك عليهم، وأوجه كما سيأتي تقريره.

وأما الإشكال الثالث: وهو أن رسول الله ﷺ كان يصوم يومَ عاشوراء قبل أن ينزل فرضُ رمضان، فلما نزل فرضُ رمضان تركه، فهذا لا يمكن التخلُّص منه إلا بأن صيامه كان فرضاً قبل رمضان، وحينئذ فيكون المتروك وجوب صومه لا استحبابه، ويتعين هذا ولا بُدَّ، لأنه عليه السلام قال قبل وفاته بعام وقد قيل له: إن اليهود يصومونه: «لِئِنْ عِشْتُ إِلَى قَابِلٍ لَأَصُومَنَّ التَّاسِعَ» أي: معه، وقال: «خَالِفُوا الْيَهُودَ وَصُومُوا يَوْمَ قَبْلَهُ أَوْ يَوْمًا بَعْدَهُ» [أحمد: ٢١٥٤]، وابن خزيمة: ٢٠٩٥، وهو ضعيف مرفوعاً، وصحيح موقوفاً، أي: معه، ولا ريب أن هذا كان في آخر الأمر، وأما في أول الأمر، فكان يُحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء، فعلم أن استحبابه لم يترك.

ويلزم من قال: إن صومه لم يكن واجباً أحدُ الأمرين، إما أن يقول بترك استحبابه، فلم يبق مستحباً، أو يقول: هذا قاله عبد الله بن مسعود رضي الله عنه برأيه، وخفي عليه استحبابُ صومه وهذا بعيد، فإن النبي ﷺ حثهم على صيامه، وأخبر أن صومه يُكفر السنة الماضية [مسلم: ٢٧٤٤]، واستمر الصحابة على صيامه إلى حين وفاته، ولم يُزَوَّ عنه حرف واحد بالنهي عنه وكراهة صومه، فعُلِمَ أن الذي تُرك وجوبه لا استحبابه.

فإن قيل: حديث معاوية المتفق على صحته صريح في عدم فرضيته، وإنه لم يفرض قط. فالجواب: أن حديث معاوية صريح في نفي استمرار وجوبه، وأنه الآن غير واجب، ولا ينفي وجوباً متقدماً منسوخاً، فإنه لا يمتنع أن يقال لما كان واجباً، ونُسِخَ وجوبه: إن الله لم يكتبه علينا.

وجواب ثان: أن غايته أن يكون النفي عاماً في الزمان الماضي والحاضر، فيُخص بأدلة الوجوب في الماضي، وترك النفي في استمرار الوجوب.

وجواب ثالث: وهو أنه ﷺ، إنما نفى أن يكون فرضه وجوبه مستفاداً من جهة القرآن، ويدلُّ على هذا قوله: «إن الله لم يكتبه علينا»، وهذا لا ينفي الوجوب بغير ذلك، فإن الواجب الذي كتبه الله على

قدومه المدينة، ولم يكن وهو بمكة هذا إن كان حساب أهل الكتاب في صومه بالأشهر الهلالية، وإن كان بالشمسية، زال الإشكال بالكلية، ويكون اليوم الذي نجي الله فيه موسى هو يوم عاشوراء من أول المحرم، فضبطه أهل الكتاب بالشهور الشمسية، فوافق ذلك مقدّم النبي ﷺ المدينة في ربيع الأول، وصوم أهل الكتاب إنما هو بحساب سير الشمس، وصوم المسلمين إنما هو بالشهر الهلالي، وكذلك حجتهم، وجميع ما تعتبر له الأشهر من واجب أو مستحب، فقال النبي ﷺ: «نَحْنُ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ»، فظهر حكم هذه الأولوية في تعظيم هذا اليوم وفي تعيينه، وهم أخطؤوا تعيينه لدورانه في السنة الشمسية، كما أخطأ النصارى في تعيين صومهم بأن جعلوه في فصل من السنة تختلف فيه الأشهر.

وأما الإشكال الثاني، وهو أن قريشاً كانت تصوم عاشوراء في الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ يصومه، فلا ريب أن قريشاً تعظم هذا اليوم، وكانوا يكسبون الكعبة فيه، وصومه من تمام تعظيمه، ولكن إنما كانوا يعدّون بالأهلة، فكان عندهم عاشير المحرم، فلما قدِم النبي ﷺ المدينة، وجدهم يُعظمون ذلك اليوم ويصومونه، فسألهم عنه، فقالوا: هو اليوم الذي نَجَّى الله فيه موسى وقومه من فرعون، فقال ﷺ: «نحن أحقُّ منكم بموسى» فصامه وأمر بصيامه تقريراً لتعظيمه وتأكيده، وأخبر ﷺ أنه وأمته أحقُّ بموسى من اليهود، فإذا صامه موسى شُكراً لله، كنا أحقُّ أن نفتدي به من اليهود، لا سيما إذا قلنا: شَرَعُ مَنْ قَبْلَنَا شَرَعُ لَنَا مَا لَمْ يُخَالِفْهُ شَرَعُنَا.

فإن قيل: من أين لكم أن موسى صامه؟ قلنا: ثبت في «الصحاحين» أن رسول الله ﷺ لما سألهم عنه، فقالوا يوم عظيم نَجَّى الله فيه موسى وقومه، وأغرق فيه فرعون وقومه، فصامه موسى شُكراً لله، فنحن نصومه، فقال رسول الله ﷺ: «فَنَحْنُ أَحَقُّ وَأَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ» [البخاري: ٢٠٠٤، ومسلم: ٢٦٥٦]. فصامه، وأمر بصيامه. فلما أفرهم على ذلك، ولم يُكذِّبهم، عُلِمَ أن موسى صامه شُكراً لله، فانضمَّ هذا القدر إلى التعظيم الذي كان له قبل الهجرة، فازداد تأكيداً حتى بعث رسول الله ﷺ منادياً يُنادي في

وعبادته، هو ما أخبرهم بأنه كتبه عليهم، كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، فأخبر ﷺ أن صوم يوم عاشوراء لم يكن داخلاً في هذا المكتوب الذي كتبه الله علينا دفعاً لتوهم من يتوهم أنه داخل فيما كتبه الله علينا، فلا تناقض بين هذا، وبين الأمر السابق بصيامه الذي صار منسوخاً بهذا الصيام المكتوب. يوضح هذا أن معاوية إنما سمع هذا منه بعد فتح مكة، واستقرار فرض رمضان، ونسخ وجوب عاشوراء به. والذين شهدوا أمره بصيامه، والنداء بذلك، وبالإمساك لمن أكل، شهدوا ذلك قبل فرض رمضان عند مقدّمه المدينة، وفرض رمضان كان في السنة الثانية من الهجرة، فتوفي رسول الله ﷺ وقد صام تسع رمضانات، فمن شهد الأمر بصيامه، شهد قبل نزول فرض رمضان، ومن شهد الإخبار عن عدم فرضه، شهد في آخر الأمر بعد فرض رمضان، وإن لم يسلك هذا المسلك، تناقضت أحاديث الباب واضطربت.

طريقة ثانية، هي طريقة أصحاب أبي حنيفة أن وجوب صيام يوم عاشوراء تضمن أمرين: وجوب صوم ذلك اليوم وإجزاء صومه بنية من النهار، ثم نسخ تعيين الواجب بواجب آخر، فبقي حكم الإجزاء بنية من النهار غير منسوخ.

وطريقة ثالثة: وهي أن الواجب تابع للعلم، وجوب عاشوراء إنما عُلم من النهار، وحيث فلم يكن التبييت ممكناً، فالنية وجبت وقت تجدد الوجوب والعلم به، وإلا كان تكليفاً بما لا يطاق وهو ممتنع. قالوا: وعلى هذا إذا قامت اليقينة بالرؤية في أثناء النهار، أجزأ صومه بنية مقارنة للعلم بالوجوب، وأصله صوم يوم عاشوراء، وهذه طريقة شيخنا، وهي كما تراها أصح الطرق، وأقربها إلى موافقة أصول الشرع وقواعده، وعليها تدل الأحاديث، وبجتماع شملها الذي يُظن تفرقه، ويتخلص من دعوى النسخ بغير ضرورة. وغير هذه الطريقة لا بُدّ فيه من مخالفة قاعدة من قواعد الشرع، أو مخالفة بعض الآثار.

وإذا كان النبي ﷺ لم يأمر أهل قباء بإعادة الصلاة التي صلّوا بعضها إلى القبلة المنسوخة إذ لم يبلغهم وجوب التحول، فكذلك من لم يبلغه وجوب فرض الصوم، أو لم يتمكن من العلم بسبب وجوبه، لم يُؤمر بالقضاء، ولا يُقال: إنه ترك التبييت الواجب، إذ وجوب التبييت تابع للعلم بوجوب الميت، وهذا في غاية الظهور.

ولا ريب أن هذه الطريقة أصح من طريقة من يقول: كان عاشوراء فرضاً، وكان يُجزى صيامه بنية من النهار، ثم نُسخ الحكم بوجوبه، فنُسخت متعلقاته، ومن متعلقاته إجزاء صيامه بنية من النهار، لأن متعلقاته تابعة له، وإذا زال المتبوع، زالت توابعه وتعلقاته، فإن إجزاء الصوم الواجب بنية من النهار لم يكن من متعلقات خصوص هذا اليوم، بل من متعلقات الصوم الواجب، والصوم الواجب لم يُزل، وإنما زال تعيينه، فنقل من محل إلى محل، والإجزاء بنية من النهار وعديده من توابع أصل الصوم لا تعيينه.

وأصح من طريقة من يقول: إن صوم يوم عاشوراء لم يكن واجباً قط، لأنه قد ثبت الأمر به، وتأكيده الأمر بالنداء العام، وزيادة تأكيده بالأمر لمن كان

فإن قيل: فكيف يكون فرضاً ولم يحصل تبييت النية من الليل وقد قال: «لا صيام لمن لم يبيت الصيام من الليل» [صحیح: أحمد: ٢٦٤٥٧، وأبو داود: ٢٤٥٤، والترمذي: ٧٣٠، والنسائي (١٩٦/٤)، وابن ماجه: ١٧٠٠]؟ فالجواب: أن هذا الحديث مختلف فيه: هل هو من كلام النبي ﷺ، أو من قول حفصة وعائشة؟ فأما حديث حفصة: فأوقفه عليها معمر، والزهرى، وسفيان بن عُيينة، ويونس بن يزيد الأيلي، عن الزهرى، ورفعه بعضهم وأكثر أهل الحديث يقولون: الموقوف أصح، قال الترمذي: وقد رواه نافع عن ابن عمر قوله، وهو أصح، ومنهم من يصحح رفعه لثقة رافعه وعدالته، وحديث عائشة أيضاً: روي مرفوعاً وموقوفاً، واختلف في تصحيح رفعه. فإن لم يثبت رفعه، فلا كلام، وإن ثبت رفعه، فمعلوم أن هذا إنما قاله بعد فرض رمضان، وذلك متأخر عن الأمر بصيام يوم عاشوراء، وذلك تجديد حكم واجب وهو التبييت، وليس نسخاً لحكم ثابت بخطاب، فإجزاء صيام يوم عاشوراء بنية من النهار، كان قبل فرض رمضان، وقبل فرض التبييت من الليل، ثم نُسخ وجوب صومه برمضان، وتجدد وجوب التبييت، فهذه طريقة.

أكل بالإمساك، وكلُّ هذا ظاهر، قوي في الوجوب، ويقول ابن مسعود: إنه لما قُرِضَ رمضان تَرَكَ عاشوراء. ومعلوم أن استحبابه لم يُترك بالأدلة التي تقدمت وغيرها، فيتعين أن يكون المتروك وجوبه، فهذه خمس طرق للناس في ذلك. والله أعلم.

وأما الإشكال الرابع: وهو أن رسول الله ﷺ قال: «لَنْ يَبْقِيَ إِلَى قَابِلٍ لِأَصُومَنَّ التَّاسِعَ»، وأنه توفي قبل العام المقبل، وقول ابن عباس: إن رسول الله ﷺ كان يصوم التاسع، فابن عباس روى هذا وهذا، وصحَّ عنه هذا وهذا، ولا تنافي بينهما، إذ من الممكن أن يصومَ التاسع، ويخبر أنه إن بقي إلى العام القابل صامه، أو يكون ابنُ عباس أخبر عن فعله مستنداً إلى ما عزم عليه، ووعد به، ويصحُّ الإخبار عن ذلك مقيداً أي: كذلك كان يفعل لو بقي، ومطلقاً إذا علم الحال، وعلى كل واحد من الاحتمالين، فلا تنافي بين الخبرين.

وأما الإشكال الخامس: فقد تقدم جوابه بما فيه كفاية.

وأما الإشكال السادس: وهو قول ابن عباس: اعتد^(١) وأصبح يوم التاسع صائماً. فمن تأمل مجموع روايات ابن عباس، تبين له زوال الإشكال، وسعة علم ابن عباس، فإنه لم يجعل عاشوراء هو اليوم التاسع، بل قال للسائل: صُم اليوم التاسع، واكتفى بمعرفة السائل أن يوم عاشوراء هو اليوم العاشر الذي يعدُّه الناس كلهم يومَ عاشوراء، فأرشد السائل إلى صيام التاسع معه، وأخبر أن رسول الله ﷺ كان يصومه كذلك. فإما أن يكون فعلُ ذلك هو الأولي، وأما أن يكون حُتِلُ فعله على الأمر به، وعزمه عليه في المستقبل، ويدلُّ على ذلك أنه هو الذي روى: «صُومُوا يَوْمَ قَبْلَهُ وَيَوْمَ بَعْدَهُ»^(٢)، وهو الذي روى: أمرنا رسولُ الله ﷺ بصيام يوم عاشوراء يوم العاشر. وكل هذه الآثار عنه، يُصدِّق بعضها

بعضاً، ويؤيِّد بعضها بعضاً. فمراتب صومه ثلاثة: أكملها: أن يُصام قبله يومٌ وبعده يوم^(٣)، يلي ذلك أن يُصام التاسع والعاشر، وعليه أكثرُ الأحاديث، يلي ذلك إفراذُ العاشر وحده بالصوم.

وأما إفراذ التاسع، فمن نقص فهم الآثار، وعدم تتبع ألفاظها وطرقها، وهو بعيد من اللغة والشرع، والله الموفق للصواب.

وقد سلك بعضُ أهل العلم مسلكاً آخر فقال: قد ظهر أن القصد مخالفةُ أهل الكتاب في هذه العبادة مع الإتيان بها، وذلك يحصل بأحد أمرين: إما بنقل العاشر إلى التاسع، أو بصيامهما معاً. وقوله: «إذا كان العامُ المقبلُ صُمنا التاسع»: يحتجُّ الأمرين. فتوفي رسول الله ﷺ قبل أن يتبين لنا مراده، فكان الاحتياطُ صيامَ اليومين معاً، والطريقة التي ذكرناها، أصوبُ إن شاء الله، ومجموع أحاديث ابن عباس عليها تدلُّ، لأن قوله في حديث أحمد: «خالفوا اليهود، صُومُوا يَوْمَ قَبْلَهُ أَوْ يَوْمَ بَعْدَهُ» وقوله في حديث الترمذي: «أَمَرْنَا بِصِيَامِ عَاشُورَاءَ يَوْمَ الْعَاشِرِ» يبين صحة الطريقة التي سلكناها. والله أعلم.

فصل

(صوم يوم عرفة)

وكان من هديه ﷺ: إِفْطَارُ يَوْمِ عَرَفَةَ بعرفة، ثبت عنه ذلك في «الصححين» [البخاري: ١٩٨٨، ومسلم: ٢٦٣٢]. وروي عنه أنه نهى عَنْ صَوْمِ يَوْمِ عَرَفَةَ بِعَرَفَةَ، رواه عنه أهل السنن [أحمد: ٨٠٣١، وأبو داود: ٢٤٤٠، وابن ماجه: ١٧٣٢، وفي سننه من لا يُعرف]. وصح عنه أن صيامه يُكْفِّرُ السَّنةَ الْمَاضِيَةَ وَالْبَاقِيَةَ، ذكره مسلم [٢٧٧٧].

(الحكم من فطر يوم عرفة بعرفة)

وقد ذُكِرَ لِفْطَرِهِ بعرفة عِدَّةُ حُكْمٍ. منها أنه أقوى على الدعاء.

(١) في المطبوع «اعدتسماً» بزيادة «تسماً» وهو خطأ، ولم ترد في الحديث، ولعل ذلك وقع من النسخ، فقد تقدم الحديث بدونها.

(٢) هذه الرواية بلفظ «يوماً قبله ويوماً بعده» أخرجه البيهقي (٢٨٧/٤) وسندها ضعيف.

(٣) الثابت عن ابن عباس قوله: «صوموا اليوم التاسع والعاشر» أخرجه عبد الرزاق (٧٨٣٩) وسنده صحيح.

ومنها: أن الفطرَ في السفر أفضلُ في فرض الصوم، فكيف بنفله.

ومنها: أن ذلك اليومَ كان يومَ الجمعة، وقد نهى عن إفراده بالصوم، فأحب أن يرى الناسُ فطره فيه تأكيداً لنهيهِ عن تخصيصه بالصوم، وإن كان صومُه لكونه يومَ عرفة لا يومَ جمعة، وكان شيخنا رحمه الله يسلكُ مسلماً آخر، وهو أنه يومُ عيد لأهل عرفة لاجتماعهم فيه، كاجتماع الناس يوم العيد، وهذا الاجتماع يختصُ بمن بعرفة دون أهل الآفاق. قال: وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا في الحديث الذي رواه أهلُ السنن: «يَوْمُ عَرَفَةَ، وَيَوْمُ النَّحْرِ، وَأَيَّامٍ مَنَى، عِيدُنَا أَهْلُ الْإِسْلَامِ» (أبو داود: ٢٤١٩، والترمذي: ٧٧٣، والنسائي: ٢٥٧/٥). ومعلوم: أن كونه عيداً، هو لأهل ذلك الجمع، لاجتماعهم فيه. والله أعلم.

فصل

(صوم يومي السبت والأحد)

وقد روي أنه ﷺ: كان يصومُ السبت والأحد كثيراً، يقصدُ بذلك مخالفة اليهود والنصارى كما في «المسند» و«سنن النسائي»، عن كُريب مولى ابن عباس قال: أرسَلني ابنُ عباس رضي الله عنه، وناسٌ من أصحاب النبي ﷺ إلى أم سلمة أسألها: أيُّ الأيام كانَ النبي ﷺ أكثرها صياماً؟ قالت: يومُ السبت والأحد، ويقول: «إِنَّهُمَا عِيدٌ لِلْمُشْرِكِينَ، فَأَنَا أَحِبُّ أَنْ أَخَالَفَهُمْ» [حسن: أحمد: ٢٦٧٥٠، وابن خزيمة: ٢١٦٧، وابن حبان: ٩٤١]. وفي صحة هذا الحديث نظر، فإنه من رواية محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، وقد استنكرَ بعضُ حديثه. وقد قال عبد الحق في «أحكامه» من حديث ابن جريج، عن عباس بن عبد الله بن عباس، عن عمِّه الفضل، زار النبي ﷺ عباساً في بادية لنا. ثم قال: إسناده ضعيف. قال ابن القطان: هو كما ذكر ضعيف، ولا يعرف حال محمد بن عمر، وذكر حديثه هذا عن أم سلمة في صيام يوم السبت والأحد، وقال: سكنت عنه عبد الحق مصححاً له، ومحمد بن عمر هذا، لا يُعرف حاله، ويرويه عنه ابنه عبد الله بن محمد بن

عمر، ولا يُعرف أيضاً حاله، فالحديث أراه حسناً. والله أعلم.

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود، عن عبد الله بن بسر السلمي، عن أخته الصَّماء، أن النبي ﷺ قال: «لَا تَصُومُوا يَوْمَ السَّبْتِ إِلَّا فِيمَا افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ أَحَدُكُمْ إِلَّا لِحَاءَ عِنَبَةٍ أَوْ عُودَ شَجَرَةٍ فَلْيَمْضِغْهُ» [صحيح: أحمد: ٢٧٠٧٥، وأبو داود: ٢٤٢١، والترمذي: ٧٤٤، وابن خزيمة: ٢١٦٤، والبيهقي (٣٠٢/٤)].

فاختلف الناس في هذين الحديثين. فقال مالك رحمه الله: هذا كذب، يريد حديث عبد الله بن بسر، ذكره عنه أبو داود، قال الترمذي: هو حديث حسن، وقال أبو داود: هذا الحديث منسوخ، وقال النسائي: هو حديث مضطرب، وقال جماعة من أهل العلم: لا تعارض بينه وبين حديث أم سلمة، فإن النهي عن صومه إنما هو عن إفراده، وعلى ذلك ترجم أبو داود، فقال: باب النهي أن يخص يومَ السبت بالصوم، وحديث صيامه، إنما هو مع يوم الأحد. قالوا: ونظيرُ هذا أنه نهى عن إفراد يوم الجمعة بالصوم، إلا أن يصوم يوماً قبله أو يوماً بعده (البخاري: ١٩٨٥، ومسلم: ٢٦٨٣)، وبهذا يزول الإشكال الذي ظنه من قال: إن صومه نوعٌ تعظيم له، فهو موافقة لأهل الكتاب في تعظيمه، وإن تضمن مخالفتهم في صومه، فإن التعظيم إنما يكون إذا أُفردَ بالصوم، ولا ريب أن الحديث لم يجرى بإفراده، وأما إذا صامه مع غيره، لم يكن فيه تعظيم. والله أعلم.

فصل

(صيام الدهر)

ولم يكن من هديه ﷺ سرُّ الصوم وصيام الدهر، بل قد قال: «مَنْ صَامَ الدَّهْرَ لَا صَامَ وَلَا أَفْطَرَ» [صحيح: أحمد: ١٦٣٠٤، والنسائي (٢٠٧/٤)، وابن ماجه: ١٧٠٥]، وليس مراده بهذا مَنْ صَامَ الأيامَ المحرَّمة، فإنه ذكر ذلك جواباً لمن قال: أرايت من صَامَ الدهرَ؟ ولا يقال في جواب من فعل المحرم: لا صام ولا أفطر، فإن هذا يؤذن بأنه سواءُ فطره وصومه لا يُثاب عليه، ولا يعاقب، وليس كذلك مَنْ فعل ما حَرَّمَ الله عليه من الصيام، فليس هذا جواباً مطابقاً للسؤال عن المحرَّم من الصوم، وأيضاً فإن هذا عند من استحَب

صوم الدهر قد فعل مستحباً وحراماً، وهو عندهم قد صام بالنسبة إلى أيام الاستحباب، وارتكب محرماً بالنسبة إلى أيام التحريم، وفي كل منهما لا يقال: «لا صَامَ ولا أَفْطَرَ». فتزيل قوله على ذلك غلط ظاهر.

وأيضاً فإن أيام التحريم مستثناة بالشرع، غير قابلة للصوم شرعاً، فهي بمنزلة الليل شرعاً، وبمنزلة أيام الحيض، فلم يكن الصحابة يسألوه عن صومها، وقد علموا عدم قبولها للصوم، ولم يكن ليُجيبهم لو لم يعلموا التحريم بقوله «لا صَامَ ولا أَفْطَرَ»، فإن هذا ليس فيه بيان للتحريم.

فهديهِ لا شك فيه، أن صيامَ يوم، وفطرَ يوم أفضل من صوم الدهر، وأحبُّ إلى الله. وسرد صيام الدهر مكروه، فإنه لو لم يكن مكروهاً، لزم أحد ثلاثة أمور ممتعة: أن يكون أحبَّ إلى الله من صوم يوم وفطر يوم، وأفضل منه، لأنه زيادة عمل، وهذا مردود بالحديث الصحيح. «إِنَّ أَحَبَّ الصَّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ» [البخاري: ١١٣١، ومسلم: ٢٧٣٩]، وإنه لا أفضل منه. وإما أن يكون مساوياً في الفضل وهو ممتنع أيضاً، وإما أن يكون مباحاً متساوي الطرفين لا استحباب فيه، ولا كراهة، وهذا ممتنع، إذ ليس هذا شأن العبادات، بل إما أن تكون راجحة، أو مرجوحة والله أعلم.

فإن قيل: فقد قال النبي ﷺ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ، وَأَتْبَعَهُ سِتَّةَ أَيَّامٍ مِنْ شَوَّالٍ، فَكَأَنَّمَا صَامَ الدَّهْرَ» [مسلم: ٢٧٥٨]. وقال فيمن صام ثلاثة أيام من كل شهر: «إِنَّ ذَلِكَ يَغْدِلُ صَوْمَ الدَّهْرِ» [البخاري: ١٩٧٦، ومسلم: ٢٧٢٩]. وذلك يدل على أن صوم الدهر أفضل مما غُدِلَ به، وأنه أمر مطلوب، وثوابه أكثر من ثواب الصائمين، حتى شُبِّهَ به مَنْ صَامَ هذا الصيام.

قيل: نفسُ هذا التشبيه في الأمر المقدَّر، لا يقتضي جوازه فضلاً عن استحبابه، وإنما يقتضي التشبيه به في ثوابه لو كان مستحباً، والدليل عليه، من نفس الحديث، فإنه جعل صيام ثلاثة أيام من كل شهر بمنزلة صيام الدهر، إذ الحسنة بعشر أمثالها، وهذا يقتضي أن يحصل له ثوابٌ من صام ثلاثمائة وستين يوماً، ومعلوم أن هذا حرام قطعاً، فَعَلِمَ أن المراد به

حصولُ هذا الثواب على تقدير مشروعية صيام ثلاثمائة وستين يوماً، وكذلك قوله في صيام ستة أيام من شوال، إنه يَغْدِلُ مع صيام رمضان السنة، ثم قرأ: «مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْمَالِهَا» [الأنعام: ١٦٠]، فهذا صيامُ ستة وثلاثين يوماً، تعديل صيام ثلاثمائة وستين يوماً، وهو غيرُ جائز بالاتفاق، بل قد يجيء مثلُ هذا فيما يمتنع فعلُ المشبه به عادة، بل يستحيل، وإنما شُبِّهَ به من فعل ذلك على تقدير إمكانه، كقوله لمن سأله عن عمل يعدل الجهاد: «هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تقومَ ولا تَقُتِرَ، وأن تصُومَ ولا تُفْطِرَ؟» [البخاري: ٢٧٨٥] ومعلوم أن هذا ممتنع عادة، كامتناع صوم ثلاثمائة وستين يوماً شرعاً، وقد شبه العملَ الفاضل بكل منهما يزيده وضوحاً: أن أحب القيام إلى الله قيام داود، وهو أفضل من قيام الليل كله بصريح السنة الصحيحة، وقد مثل مَنْ صَلَّى العشاء الآخرة، والطُّبُح في جماعة، بمن قام الليل كله [مسلم: ١١٩١]. فإن قيل: فما تقولون في حديث أبي موسى الأشعري: «مَنْ صَامَ الدَّهْرَ ضُيِّقَتْ عَلَيْهِ جَهَنَّمُ حَتَّى تَكُونَ هَكَذَا، وَقَبِضَ كَفَّهُ» [صحيح: أحمد: ١٩٧١٣، والبيهقي (٣٠٠/٤)]. وهو في «مسند أحمد».

قيل: قد اختلف في معنى هذا الحديث. فقيل: ضُيِّقَتْ عليه حصراً له فيها، لتشديده على نفسه، وحمله عليها، ورغبته عن هدي رسول الله ﷺ، واعتقاده أن غيره أفضل منه. وقال آخرون: بل ضُيِّقَتْ عليه، فلا يبقى له فيها موضع، ورجحت هذه الطائفة هذا التأويل، بأن الصائم لما ضُيِّقَ على نفسه مسالك الشهوات وطرقها بالصوم، ضُيِّقَ الله عليه النار، فلا يبقى له فيها مكان، لأنه ضُيِّقَ طرقها عنه، ورجحت الطائفة الأولى تأويلها، بأن قالت: لو أراد هذا المعنى، لقال: ضُيِّقَتْ عنه، وأما التضييق عليه، فلا يكون إلّا وهو فيها. قالوا: وهذا التأويل موافق لأحاديث كراهة صوم الدهر، وأن فاعله بمنزلة من لم يصم، والله أعلم.

فصل

(إنشاء نية التطوع من النهار)

ولا حرج في الفطر في صيام التطوع)

وكان ﷺ يدخل على أهله فيقول: «هَلْ عِنْدَكُمْ

شَيْءٌ؟ فَإِنْ قَالُوا: لَا. قَالَ: «إِنِّي إِذَا صَائِمٌ» [مسلم: ٣٥٩١]، فينشئ النية للتطوع من النهار، وكان أحياناً ينوي صوم التطوع، ثم يُفْطِرُ بعد [النسائي (١٩٤/٤)]، أخبرت عنه عائشة رضي الله عنها بهذا وهذا، فالأول: في «صحيح مسلم»، والثاني: في «كتاب النسائي». وأما الحديث الذي في «السنن» عن عائشة: «كُنْتُ أَنَا وَحَفْصَةُ صَائِمَتَيْنِ، فَعَرَضَ لَنَا طَعَامٌ اشْتَهَيْنَاهُ، فَأَكَلْنَا مِنْهُ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَبِدَرْتَنِي إِلَيْهِ حَفْصَةُ، وَكَانَتْ ابْنَةُ أَبِيهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّا كُنَّا صَائِمَتَيْنِ، فَعَرَضَ لَنَا طَعَامٌ اشْتَهَيْنَاهُ، فَأَكَلْنَا مِنْهُ» فقال: «أَفْضِيَا يَوْمًا مَكَانَهُ» [صحيح: أحمد: ٢٦٢٦٧، والترمذي: ٧٣٥]، فهو حديث معلول.

قال الترمذي: رواه مالك بن أنس، ومعمّر، وعبد الله بن عمر، وزيد بن سعد، وغير واحد من الحفاظ، عن الزهري، عن عائشة مرسلاً لم يذكروا فيه عن عروة، وهذا أصح. ورواه أبو داود، والنسائي، عن خيثمة بن شريح، عن ابن الهاد، عن زُمَيْلِ مَوْلَى عُرْوَةَ، عن عروة، عن عائشة موصولاً، قال النسائي: زُمَيْلٌ لَيْسَ بِالشَّاهِدِ، وقال البخاري: لا يعرف لزُمَيْلٍ سماع من عروة، ولا ليزيد بن الهاد من زُمَيْلٍ، ولا تقوم به الحجة.

(من نزل على قوم وكان صائماً فليقل: إني صائم)

وكان ﷺ إذا كان صائماً ونزل على قوم، أتم صيامه، ولم يُفْطِرْ، كما دخل على أم سُلَيْمٍ، فأته بتمر وسمن، فقال: «أَعِيدُوا سَمْنَكُمْ فِي سِقَائِهِ، وَتَمَرَكُمْ فِي وَعَائِهِ، فَإِنِّي صَائِمٌ» [البخاري: ١٩٨٢]. ولكنَّ أُمَّ سُلَيْمٍ كَانَتْ عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةِ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَقَدْ ثَبِتَ عَنْهُ فِي «الصَّحِيحِ»: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ إِلَى طَعَامٍ وَهُوَ صَائِمٌ فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ» [مسلم: ٢٧٠٢].

وأما الحديث الذي رواه ابن ماجه، والترمذي، والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها ترفقه، «مَنْ نَزَلَ عَلَى قَوْمٍ، فَلَا يَصُومُونَ تَطَوُّعاً إِلَّا بِإِذْنِهِمْ» [سند ضعيف:

الترمذي: ٧٨٩، وابن ماجه: ١٧٦٣]، فقال الترمذي: هذا الحديث منكر، لا نعرف أحداً من الثقات روى هذا الحديث عن هشام بن عروة.

فصل

(كراهية تخصيص يوم الجمعة بالصوم)

وكان من هديه ﷺ، كراهة تخصيص يوم الجمعة بالصوم فعلاً منه وقولاً. فصح النهي عن إفراذه بالصوم، من حديث جابر بن عبد الله^(١)، وأبي هريرة، وجويرية بنت الحارث، وعبد الله بن عمرو، وجنادة الأزدي وغيرهم. وشرب يوم الجمعة وهو على المنبر، يُريهم أنه لا يصوم يوم الجمعة، ذكره الإمام أحمد، وعلل المنع من صومه بأنه يوم عيد، فروى الإمام أحمد، من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يَوْمُ الْجُمُعَةِ يَوْمٌ عِيدٌ، فَلَا تَجْعَلُوا يَوْمَ عِيدِكُمْ يَوْمَ صِيَامِكُمْ إِلَّا أَنْ تَصُومُوا قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ» [حسن: أحمد: ١٠٨٩٠، وابن خزيمة: ٢١٦١، والحاكم (١/٤٣٧)].

فإن قيل: فيوم العيد لا يُصام مع ما قبله ولا بعده. قيل: لما كان يوم الجمعة مشبهاً بالعيد، أخذ من شبهه النهي عن تحرّي صيامه، فإذا صام ما قبله أو ما بعده، لم يكن قد تحرّاه، وكان حكمه حكم صوم الشهر، أو العشر منه، أو صوم يوم، وفطر يوم، أو صوم يوم عرفة وعاشوراء إذا وافق يوم الجمعة، فإنه لا يكره صومه في شيء من ذلك.

فإن قيل: فما تصنعون بحديث عبد الله بن مسعود؟ قال: ما رأيت رسول الله ﷺ يُفْطِرُ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ، رواه أهل السنن [حسن: الترمذي: ٧٤٢]. قيل: نقله إن كان صحيحاً، ويتعين حملُه على صومه مع ما قبله أو بعده، ونزده إن لم يصح، فإنه من الغرائب. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(١) البخاري (١٩٨٤)، ومسلم (٢٦٨١)، وحديث أبي هريرة أخرجه البخاري (١٩٨٥)، ومسلم (٢٦٨٣)، وحديث جويرية أخرجه البخاري (١٩٨٦)، وأبو داود (٢٤٢٢)، وحديث عبد الله بن عمرو أخرجه ابن خزيمة (٢١٦٤)، وابن حبان (٩٥٧).

فصل

في هديه ﷺ في الاعتكاف

(مقصود الاعتكاف عكوف القلب على الله)

ولم يذكر الله سبحانه الاعتكاف إلا مع الصوم، ولا فعله رسول الله ﷺ إلا مع الصوم.

فالقول الراجح في الدليل الذي عليه جمهور السلف: أن الصوم شرط في الاعتكاف، وهو الذي كان يُرجعه شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية. وأما الكلام، فإنه شرع للأمة حبس اللسان عن كل ما لا ينفع في الآخرة.

وأما فُضول المنام، فإنه شرع لهم من قيام الليل ما هو من أفضل السهر وأحمده عاقبة، وهو السهر المتوسط الذي ينفع القلب والبدن، ولا يعوق عن مصلحة العبد، ومدار رياضة أرباب الرياضات والسلوك على هذه الأركان الأربعة، وأسعدهم بها من سلك فيها المنهاج النبوي المحمدي، ولم ينحرف انحراف الغالين، ولا قصر تقصير المفرطين، وقد ذكرنا هديه ﷺ في صيامه وقيامه وكلامه، فلنذكر هديه في اعتكافه.

كان ﷺ يعتكف العشر الأخير من رمضان، حتى توفاه الله عز وجل [البخاري: ٢٠٢٦، ومسلم: ٢٧٨٢]، وتركه مرة، فقضاه في شوال [البخاري: ٢٠٤١، ومسلم: ٢٧٨٥].

واعتكف مرة في العشر الأول، ثم الأوسط، ثم العشر الأخير، يلتبس ليلة القدر، ثم تبين له أنها في العشر الأخير [مسلم: ٢٧٦٩]، فداوم على اعتكافه حتى لحق بربه عز وجل.

وكان يأمر بخباء فيضرب له في المسجد يخلو فيه بربه عز وجل.

وكان إذا أراد الاعتكاف، صلى الفجر، ثم دخله، فأمر به مرة، فضرب فأمر أزواجه بأخبثتهن، فضربت، فلما صلى الفجر، نظر، فرأى تلك الأخية، فأمر بخبائه فقوض، وترك الاعتكاف في شهر رمضان حتى اعتكف في العشر الأول من شوال [البخاري: ٢٠٣٣، ومسلم: ٢٧٨٥].

وكان يعتكف كل سنة عشرة أيام، فلما كان في

لما كان صلاح القلب واستقامته على طريق سيره إلى الله تعالى، متوقفاً على جمعيته على الله، ولم شعثه بإقباله بالكلية على الله تعالى، فإن شعث القلب لا يُلْمُه إلا الإقبال على الله تعالى، وكان فُضول الطعام والشراب، وفُضول مخالطة الأنام، وفُضول الكلام، وفُضول المنام، مما يزيده شعثاً، ويُشثته في كل واحد، ويقطعه عن سيره إلى الله تعالى، أو يُضعفه، أو يعوقه ويُوقفه: اقتضت رحمة العزيز الرحيم بعباده أن شرع لهم من الصوم ما يُذِهب فُضول الطعام والشراب، ويستفِرغ من القلب أخلاط الشهوات المعوقة له عن سيره إلى الله تعالى، وشرعه بقدر المصلحة، بحيث ينتفع به العبد في دنياه وآخره، ولا يضره ولا يقطعُه عن مصالحه العاجلة والآجلة، وشرع لهم الاعتكاف الذي مقصوده وروحه عكوف القلب على الله تعالى، وجمعيته عليه، والخلوة به، والانقطاع عن الاشتغال بالخلق والاشتغال به وحده سبحانه، بحيث يصير ذكره وحبه، والإقبال عليه في محل هموم القلب وخطراته، فيستولي عليه بدلها، ويصير الهم كله به، والخطرات كلها بذكره، والتفكر في تحصيل مراضيه وما يقرب منه، فيصير أنسه بالله بدلاً عن أنسه بالخلق، فيعده بذلك لأنسه به يوم الوحشة في القبور حين لا أنيس له، ولا ما يفرح به سواه، فهذا مقصود الاعتكاف الأعظم.

(ترجيح المصنف أن الصوم شرط للاعتكاف)

ولما كان هذا المقصود إنما يتم مع الصوم، شرع الاعتكاف في أفضل أيام الصوم، وهو العشر الأخير من رمضان، ولم يُنقل عن النبي ﷺ، أنه اعتكف مفطراً قط، بل قد قالت عائشة: لا اعتكاف إلا بصوم^(١).

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٨٠٣٧) بلفظ «من اعتكف، فعليه الصوم»، وأبو داود (٢٤٧٣)،

والبيهقي (٣١٥/٤)، والدارقطني ص (٢٤٧).

العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين يوماً، وكان يعارضه جبريل بالقرآن كل سنة مرة، فلما كان ذلك العام عارضه به مرتين، وكان يَعْرضُ عليه القرآن أيضاً في كل سنة مرة فعرض عليه تلك السنة مرتين [البخاري: ٤٩٩٨].

وكان إذا اعتكف، دخل قُبَّته وحده، وكان لا يدخل بيته في حال اعتكافه إلا لحاجة الإنسان، وكان يُخرجُ رأسه من المسجد إلى بيت عائشة، فترجله، وتغسله وهو في المسجد وهي حائض [البخاري: ٢٩٦، ومسلم: ٦٨٤]، وكانت بعض أزواجه تزوره وهو معتكف. فإذا قامت تذهب، قام معها يقيها، وكان ذلك ليلاً [البخاري: ٢٠٣٥، ومسلم: ٥٦٧٩]، ولم يباشر امرأة من نسائه وهو معتكف لا يقبله ولا غيرها، وكان إذا اعتكف طرَحَ له فراشه، ووضع له سريره في معتكفه، وكان إذا خرج لحاجته، مرَّ بالمريض وهو على طريقه، فلا يعرجُ عليه ولا يسأل عنه [ابو داود: ٢٤٧٢، وفي سننه ضعيف]. واعتكف مرة في قبة تركية، وجعل على سديتها حصيراً [مسلم: ٢٧٧١]، كلَّ هذا تحصيلاً لمقصود الاعتكاف وروحه، عكس ما يفعله الجهال من اتخاذ المعتكف موضعَ عشرة، ومجلبة للزائرين، وأخذهم بأطراف الأحاديث بينهم، فهذا لون، والاعتكاف النبوي لون. والله الموفق.

فصل

في هديه ﷺ في حجه وعمره

(العمرات التي اعتمرها ﷺ وانها كانت في ذي القعدة)

اعتمر ﷺ بعد الهجرة أربعَ عُمَرٍ، كُلُّهُنَّ في ذي القعدة. الأولى: عُمرةُ الحُدَيْبِيَّةِ، وهي أولاهُنَّ سنةً سبت، فصدهُ المشركون عن البيت، فحَرَ البَدَنَ حَيْثُ صُدَّ بِالْحُدَيْبِيَّةِ، وَحَلَقَ هو وأصحابه رؤوسهم، وحلوا من إحرامهم، ورجع من عابه إلى المدينة [البخاري: ١٧٨١]. الثانية: عُمرةُ القُضَيْيِّ في العام المقبل، دخل مكة فأقام بها ثلاثاً، ثُمَّ خَرَجَ بعد إكمال عُمَرَتِهِ، واختَلَفَ هل كانت قضاءً للعُمرة التي صُدَّ عنها في العام الماضي، أم عُمرةٌ مستأنفة؟ على قولين

للعلماء، وهما روايتان عن الإمام أحمد: إحداهما: أنها قضاء، وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله. والثانية: ليست بقضاء، وهو قول مالك رحمه الله، والذين قالوا: كانت قضاءً، احتجوا بأنها سميت عمرة القضاء، وهذا الاسم تابع للحكم. وقال آخرون: القضاء هنا، من المقاضاة، لأنه قاضى أهل مكة عليها، لا أنه مِنْ قَضَى قَضَاءً. قالوا: ولهذا سُمِّيت عُمرةُ القُضَيْيِّ. قالوا: والذين صُدُّوا عن البيت، كانوا ألفاً وأربعمئة، وهؤلاء كلُّهم لم يكونوا معه في عُمرة القُضَيْيِّ، ولو كانت قضاءً، لم يتخلف منهم أحد، وهذا القولُ أصح، لأن رسول الله ﷺ لم يأمر من كان معه بالقضاء^(١).

الثالثة: عمرته التي قرنها مع حجته، فإنه كان قارناً لبضعة عشر دليلاً، سنذكرها عن قريب إن شاء الله.

الرابعة: عُمَرَتُهُ مِنَ الْجِعْرَانَةِ، لما خرج إلى حُتَيْنٍ، ثم رجع إلى مكة، فاعتمر مِنَ الْجِعْرَانَةِ داخلًا إليها [ابو داود: ١٩٩٦، والترمذي: ٩٣٥].

ففي «الصحيحين»: عن أنس بن مالك قال: اعتمر رسول الله ﷺ أَرْبَعَ عُمَرٍ، كُلُّهُنَّ في ذي القعدة، إلا التي كانت مَعَ حَجَّتِهِ: عُمرةٌ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ أَوْ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَّةِ في ذي القعدة، وَعُمرةٌ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ في ذي القعدة، وَعُمرةٌ مِنَ الْجِعْرَانَةِ حَيْثُ قَسَمَ غَنَائِمَ حُتَيْنٍ في ذي القعدة، وَعُمرةٌ مَعَ حَجَّتِهِ [البخاري: ١٧٧٨، ومسلم: ٣٠٣٣]. ولم يُناقض هذا ما في «الصحيحين» عن البراء بن عازب قال: اعتمر رسول الله ﷺ في ذي القعدة قبل أن يحجَّ مرتين [البخاري: ١٧٨١]، لأنه أراد العمرة المفردة المستقلة، ولا ريب أنهما اثنتان، فإن عمرة القرآن لم تكن مستقلةً، وعُمرةُ الحُدَيْبِيَّةِ صُدَّ عنها، وحل بينه وبين إتمامها، ولذلك قال ابن عباس: اعتمر رسول الله ﷺ أَرْبَعَ عُمَرٍ. عُمرةُ الحُدَيْبِيَّةِ، وعمرة القضاء مِنْ قَابِلٍ، والثالثة من الجِعْرَانَةِ، والرابعة مَعَ حَجَّتِهِ [صحيح: أحمد: ٢٢١١، وابو داود: ١٩٩٣، والترمذي: ٨١٦، وابن ماجه: ٣٠٠٣]، ذكره الإمام أحمد.

ولا تناقض بن حديث أنس: أنهن في ذي القعدة،

(١) وقال السهيلي: سميت عمرة القضاء، لأنه قاضى فيها قريشاً، لا لأنها قضاء عن العمرة التي صُدَّ عنها.

كما يفعل كثير من الناس اليوم، وإنما كانت عمره كلها داخلاً إلى مكة، وقد أقام بعد الوحي بمكة ثلاث عشرة سنة لم يُنقل عنه أنه اعتمر خارجاً من مكة في تلك المدة أصلاً.

فالعمره التي فعلها رسول الله ﷺ وشرعها، هي عمره الداخل إلى مكة، لا عمره من كان بها فيخرج إلى الحل ليعتمر، ولم يفعل هذا على عهده أحد قط إلا عائشة وحدها بين سائر من كان معه، لأنها كانت قد أهلت بالعمره فحاضت، فأمرها، فأدخلت الحج على العمره، وصارت قارئة، وأخبرها أن طوافها بالبيت وبين الصفا والمروة قد وقع عن حجتها وعمرتها، فوجدت في نفسها أن يرجع صواحباتها بحج وعمره مستقلين، فإنهن كنّ متمتعات ولم يحضن ولم يقرن، وترجع هي بعمره في ضمن حجتها، فأمر أخاها أن يعمرها من التنعيم تطيباً لقلبها، ولم يعتمر هو من التنعيم في تلك الحجة ولا أحد ممن كان معه، وسيأتي مزيد تقرير لهذا ويسط له عن قريب إن شاء الله تعالى.

فصل

(كانت عمره في أشهر الحج)

دخل رسول الله ﷺ مكة بعد الهجرة خمس مرات سوى المرة الأولى، فإنه وصل إلى الحديبية، وصُدَّ عن الدخول إليها، أحرم في أربع منهن من الميقات لا قبله، فأحرم عام الحديبية من ذي الحليفة، ثم دخلها المرة الثانية، فقصى عمرته، وأقام بها ثلاثاً، ثم خرج، ثم دخلها في المرة الثالثة عام الفتح في رمضان بغير إحرام، ثم خرج منها إلى حنين، ثم دخلها بعمره من الجعرانة ودخلها في هذه العمره ليلاً، وخرج ليلاً، فلم يخرج من مكة إلى الجعرانة ليعتمر كما يفعل أهل مكة اليوم، وإنما أحرم منها في حال دخوله إلى مكة، ولما قضى عمرته ليلاً، رجع من فوره إلى الجعرانة، فبات بها، فلما أصبح وزالت الشمس، خرج من بطن سرف حتى جامع الطريق [طريق جمع بطن سرف]، ولهذا خفيت هذه العمره

إلا التي مع حجته، وبين قول عائشة، وابن عباس: لم يعتمر رسول الله ﷺ إلا في ذي القعدة، لأن مبدأ عمره القرآن، كان في ذي القعدة، ونهايتها كان في ذي الحجة مع انقضاء الحج، فعائشة وابن عباس أخبرا عن ابتدائها، وأنس أخبر عن انقضائها.

فأما قول عبد الله بن عمر: إن النبي ﷺ اعتمر أربعاً، إحداهن في رجب، فوهم منه رضي الله عنه. قالت عائشة لما بلغها ذلك عنه: يرحم الله أبا عبد الرحمن، ما اعتمر رسول الله ﷺ عمره قط إلا وهو شاهد، وما اعتمر في رجب قط [البخاري: ١٧٧٦، ومسلم: ٣٠٣٦].

وأما ما رواه الدارقطني، عن عائشة قالت: خرجت مع رسول الله ﷺ في عمره في رمضان فأفطر وضمت، وقصر وأتممت، فقلت: بأبي وأمي، أفطرت وضمت، وقصرت وأتممت، فقال: أحسنت يا عائشة^(١). فهذا الحديث غلط، فإن رسول الله ﷺ لم يعتمر في رمضان قط، وعمره مضبوطة العدد والزمان، ونحن نقول: يرحم الله أم المؤمنين، ما اعتمر رسول الله ﷺ في رمضان قط، وقد قالت عائشة رضي الله عنها: لم يعتمر رسول الله ﷺ إلا في ذي القعدة، رواه ابن ماجه (٢٩٩٧) وغيره.

ولا خلاف أن عمره لم تزد على أربع، فلو كان قد اعتمر في رجب، لكانت خمساً، ولو كان قد اعتمر في رمضان، لكانت ستاً، إلا أن يقال: بعضهن في رجب، وبعضهن في رمضان، وبعضهن في ذي القعدة، وهذا لم يقع، وإنما الواقع، اعتماره في ذي القعدة كما قال أنس رضي الله عنه، وابن عباس رضي الله عنه، وعائشة رضي الله عنها. وقد روى أبو داود في «سننه» عن عائشة: أن النبي ﷺ اعتمر في سؤال [صحيح: أبو داود: ١٩٩١]. وهذا إذا كان محفوظاً، فلهل في عمره الجعرانة حين خرج في سؤال، ولكن إنما أحرم بها في ذي القعدة.

فصل

(العمره للداخل إلى مكة)

ولم يكن في عمره عمره واحدة خارجاً من مكة

(١) الدارقطني (١٨٨/٢)، وقد تعقب الحافظ ابن حجر المؤلف في «فتح الباري» (٤٨٠/٣). بأن قولها: «في رمضان» متعلق بقولها: «خرجت»، ويكون المراد سفر فتح مكة، واعتمر في تلك السنة في ذي القعدة.

على كثير من الناس [الترمذي: ٩٣٥].

شَقَّقْتُ عَلَى أَمْتِي [ابو داود: ٢٩٠٢٩، والترمذي: ٨٧٣، وابن ماجه: ٣٠٦٤]. وَهَمَّ أَنْ يَنْزِلَ يَسْتَسْقِي مَعَ سُقَاةِ زَمَرٍ لِلْحَاجِّ، فَخَافَ أَنْ يُغْلَبَ أَهْلُهَا عَلَى سِقَايَتِهِمْ بَعْدَهُ [مسلم: ٢٩٥٠]. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فصل

(لم يعتمر ﷺ في السنة)

(لا مرة واختلاف الناس في تكرارها)

وَلَمْ يُحْفَظْ عَنْهُ ﷺ، أَنَّهُ اعْتَمَرَ فِي السَّنَةِ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً، وَلَمْ يَعْتَمِرْ فِي سَنَةِ مَرَّتَيْنِ، وَقَدْ ظَنَّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهُ اعْتَمَرَ فِي سَنَةِ مَرَّتَيْنِ، وَاحْتِجَّ بِمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «سَنَتِهِ» عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، اعْتَمَرَ عُمْرَتَيْنِ، عُمْرَةً فِي ذِي الْقَعْدَةِ، وَعُمْرَةً فِي شَوَالٍ [ابو داود: ١٩٩١]. قَالُوا: وَلَيْسَ الْمَرَادُ بِهَا ذِكْرُ مَجْمُوعِ مَا اعْتَمَرَ، فَإِنْ أُنْسَأَ، وَعَائِشَةُ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَغَيْرُهُمْ قَدْ قَالُوا: إِنَّهُ اعْتَمَرَ أَرْبَعَ عُمَرٍ، فَلَمَّ أَنْ مُرَادَهَا بِهِ أَنَّهُ اعْتَمَرَ فِي سَنَةِ مَرَّتَيْنِ، مَرَّةً فِي ذِي الْقَعْدَةِ، وَمَرَّةً فِي شَوَالٍ، وَهَذَا الْحَدِيثُ وَهَمٌّ، وَإِنْ كَانَ مُحْفُوظًا عَنْهَا، فَإِنَّ هَذَا لَمْ يَقَعْ قَطُّ، فَإِنَّهُ اعْتَمَرَ أَرْبَعَ عُمَرٍ بِلَا رَيْبٍ: الْعُمْرَةُ الْأُولَى كَانَتْ فِي ذِي الْقَعْدَةِ عُمْرَةً الْحَدِيثِيَّةِ، ثُمَّ لَمْ يَعْتَمِرْ إِلَى الْعَامِ الْقَابِلِ، فَاعْتَمَرَ عُمْرَةً الْقَضِيَّةَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَلَمْ يَخْرُجْ إِلَى مَكَّةَ حَتَّى فَتَحَهَا سَنَةَ ثَمَانٍ فِي رَمَضَانَ، وَلَمْ يَعْتَمِرْ ذَلِكَ الْعَامَ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى حُجَيْنٍ فِي سِتٍّ مِنْ شَوَالٍ وَهَزَمَ اللَّهُ أَعْدَاءَهُ، فَرَجَعَ إِلَى مَكَّةَ، وَأَحْرَمَ بِعُمْرَةٍ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ كَمَا قَالَ أَنَسٌ، وَابْنُ عَبَّاسٍ: فَمَتَى اعْتَمَرَ فِي شَوَالٍ؟ وَلَكِنْ لَقِيَ الْعَدُوَّ فِي شَوَالٍ، وَخَرَجَ فِيهِ مِنْ مَكَّةَ، وَقَضَى عِمْرَتَهُ لَمَّا فَرَغَ مِنْ أَمْرِ الْعَدُوِّ فِي ذِي الْقَعْدَةِ لَيْلًا، وَلَمْ يَجْمَعْ ذَلِكَ الْعَامَ بَيْنَ عُمَرَتَيْنِ، وَلَا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ، وَمَنْ لَهُ عِنَايَةٌ بِأَيَّامِهِ ﷺ وَسِيرَتِهِ وَأَحْوَالِهِ، لَا يَشْكُ لَا يَرْتَابُ فِي ذَلِكَ.

فَإِنْ قِيلَ: فَبِأَيِّ شَيْءٍ يَسْتَحِبُّونَ الْعُمْرَةَ فِي السَّنَةِ مِرَارًا إِذَا لَمْ يُتَّبَعُوا ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؟ قِيلَ: قَدْ اخْتَلَفَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، فَقَالَ مَالِكٌ: أَكْرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ فِي السَّنَةِ أَكْثَرَ مِنْ عُمْرَةٍ وَاحِدَةٍ، وَخَالَفَهُ مَطْرُوفٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَابْنُ الْمُؤَازِ، قَالَ مَطْرُوفٌ: لَا بَأْسَ بِالْعُمْرَةِ

وَالْمَقْصُودُ، أَنَّ عُمْرَةَ كُلِّهَا كَانَتْ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ، مُخَالَفَةً لِهَدْيِ الْمُشْرِكِينَ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَكْرَهُونَ الْعُمْرَةَ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ، وَيَقُولُونَ: هِيَ مِنْ أَفْجَرِ الْفُجُورِ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِعْتِمَارَ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ أَفْضَلُ مِنْهُ فِي رَجَبٍ بِلَا شَكٍّ.

(الاعتمار في أشهر الحج أفضل من الاعتمار في رمضان)

وَأَمَّا الْمَفَاضِلَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْإِعْتِمَارِ فِي رَمَضَانَ، فَمَوْضِعُ نَظَرٍ، فَقَدْ صَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ أَمْرٌ أَمَّ مَعْقِلٌ لِمَا فَاتَهَا الْحَجُّ مَعَهُ، أَنَّ تَعْتِمِرَ فِي رَمَضَانَ، وَأَخْبَرَهَا أَنَّ عُمْرَةَ فِي رَمَضَانَ تَغْدِلُ حَجَّةً [حسن: ابو داود: ١٩٨٨ - ١٩٨٩، والترمذي: ٩٣٩، وابن ماجه: ٢٩٩٣].

وَأَيْضًا: فَقَدْ اجْتَمَعَ فِي عُمْرَةِ رَمَضَانَ أَفْضَلُ الزَّمَانِ، وَأَفْضَلُ الْبِقَاعِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ لِيَخْتَارَ لِنَبِيِّهِ ﷺ فِي عُمْرِهِ إِلَّا أَوْلَى الْأَوْقَاتِ وَأَحَقُّهَا بِهَا، فَكَانَتِ الْعُمْرَةُ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ نَظِيرَ وَقُوعِ الْحَجِّ فِي أَشْهُرِهِ، وَهَذِهِ الْأَشْهُرُ قَدْ خَصَّهَا اللَّهُ تَعَالَى بِهَذِهِ الْعِبَادَةِ، وَجَعَلَهَا وَقْتًا لَهَا، وَالْعُمْرَةُ حَجٌّ أَصْغَرُ، فَأَوْلَى الْأَزْمَةِ بِهَا أَشْهُرُ الْحَجِّ، وَذُو الْقَعْدَةِ أَوْسَطُهَا، وَهَذَا مِمَّا نَسْتَخِيرُ اللَّهَ فِيهِ، فَمَنْ كَانَ عَنْدهُ فَضْلٌ عِلْمٍ، فَلْيُرْسِدْ إِلَيْهِ.

(كَانَ ﷺ يَتْرُكُ الْعَمَلَ خَشْيَةَ الْمَشَقَّةِ عَلَى أَمْتِهِ)

وَقَدْ يُقَالُ: إِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَشْتَغِلُ فِي رَمَضَانَ مِنَ الْعِبَادَاتِ بِمَا هُوَ أَهَمُّ مِنَ الْعُمْرَةِ، وَلَمْ يَكُنْ يُمَكِّنُهُ الْجَمْعُ بَيْنَ تِلْكَ الْعِبَادَاتِ وَبَيْنَ الْعُمْرَةِ، فَأَخَّرَ الْعُمْرَةَ إِلَى أَشْهُرِ الْحَجِّ، وَوَقَّرَ نَفْسَهُ عَلَى تِلْكَ الْعِبَادَاتِ فِي رَمَضَانَ مَعَ مَا فِي تَرْكِ ذَلِكَ مِنَ الرَّحْمَةِ بِأَمْتِهِ وَالرَّافَةِ بِهِمْ، فَإِنَّهُ لَوْ اعْتَمَرَ فِي رَمَضَانَ، لَبَادَرَتْ الْأُمَةُ إِلَى ذَلِكَ، وَكَانَ يَشُقُّ عَلَيْهَا الْجَمْعُ بَيْنَ الْعُمْرَةِ وَالصَّوْمِ، وَرُبَّمَا لَا تَسْمَحُ أَكْثَرُ النَّفُوسِ بِالْفَطْرِ فِي هَذِهِ الْعِبَادَةِ حَرَصًا عَلَى تَحْصِيلِ الْعُمْرَةِ وَصَوْمِ رَمَضَانَ، فَتَحْصُلُ الْمَشَقَّةُ، فَأَخَّرَهَا إِلَى أَشْهُرِ الْحَجِّ، وَقَدْ كَانَ يَتْرُكُ كَثِيرًا مِنَ الْعَمَلِ وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ، خَشْيَةَ الْمَشَقَّةِ عَلَيْهِمْ.

وَلَمَّا دَخَلَ الْبَيْتَ، خَرَجَ مِنْهُ حَزِينًا، فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ فِي ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «إِنِّي أَخَافُ أَنْ أَكُونَ قَدْ

في السنة مراراً، وقال ابن المؤاز: أرجو أن لا يكون به بأس، وقد اعتمدت عائشة مرتين في شهر، ولا أرى أن يمنع أحد من التقرب إلى الله بشيء من الطاعات، ولا من الازدياد من الخير في موضع، ولم يأت بالمنع منه نص، وهذا قول الجمهور، إلا أن أبا حنيفة رحمه الله تعالى، استثنى خمسة أيام لا يُعتمر فيها: يوم عرفة، ويوم النحر، وأيام التشريق. واستثنى أبو يوسف رحمه الله تعالى: يوم النحر، وأيام التشريق خاصة، واستثنت الشافعية: البائت بمعنى لرمي أيام التشريق. واعتمدت عائشة في سنة مرتين. فقيل للقاسم: لم ينكر عليها أحد؟ فقال: أعلى أم المؤمنين؟! وكان أنس إذا حَمَمَ رأسه^(١)، خرج فاعتمر.

ويذكر عن علي رضي الله عنه، أنه كان يعتمر في السنة مراراً، وقد قال ﷺ: «الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا» [البخاري: ١٧٧٣، ومسلم: ٣٢٨٩]. ويكفي في هذا، أن النبي ﷺ، أعمر عائشة من التمتع سوى عمرتها التي كانت أهلت بها، وذلك في عام واحد، ولا يُقال: عائشة كانت قد رفضت العمرة، فهذه التي أهلت بها من التمتع قضاء عنها، لأن العمرة لا يصح رفضها. وقد قال لها النبي ﷺ: «يَسَعُكَ طَوَافُكَ لِحَجَّكَ وَعُمْرَتُكَ» [مسلم: ٢٩٣٣] وفي لفظ: «حَلَلْتَ مِنْهُمَا جَمِيعاً» [مسلم: ٢٩٣٧].

فإن قيل: قد ثبت في «صحيح البخاري»: أنه ﷺ قال لها: اِرْقُضِي عُمْرَتَكَ، وانقضي رأسك وامتشطي، وفي لفظ آخر: «انقضي رأسك وامتشطي»، وفي لفظ: «أَهْلِي بِالْحَجِّ، ودعي العُمرة» [البخاري: ٣١٦، ومسلم: ٢٩١٠]، فهذا صريح في رفضها من وجهين، أحدهما: قوله اِرْقُضِيها ودعيها، والثاني: أمره لها بالامتناع.

قيل: معنى قوله: اِرْقُضِيها: اتركي أفعالها والاعتصار عليها، وكوني في حجة معها، وتعين أن يكون هذا هو المراد بقوله: «حَلَلْتَ مِنْهُمَا جَمِيعاً»،

لما قضت أعمال الحج. وقوله: «يَسَعُكَ طَوَافُكَ لِحَجَّكَ وَعُمْرَتُكَ»، فهذا صريح في أن إحرام العمرة لم يُرفض، وإنما رُفِضَتْ أعمالها والاعتصارُ عليها، وأنها بانقضاء حجها انقضت حجها وعمرتها، ثم أمرها من التمتع تطبيقاً لقلبها، إذ تأتي بعمرة مستقلة كصواحباتها، ويوضح ذلك إيضاحاً بيناً، ما روى مسلم في «صحيحه»، من حديث الزهري، عن عروة، عنها قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع، فحُضْتُ، فلم أزل حائضاً حتى كان يوم عرفة، ولم أهَلْ إِلَّا بِعُمْرَةٍ، فأمرني رسول الله ﷺ أن أنقُضَ رأسي وامتشط، وأهَلَّ بالحج، وأترك العمرة، قالت: ففعلت ذلك، حتى إذا قضيت حجي، بعث معي رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن أبي بكر، وأمرني أن اعتَمِرَ من التمتع مكانَ عُمُرَتِي التي أدركني الحج ولم أهَلْ منها [مسلم: ٢٩١١]. فهذا حديث في غاية الصحة والصرامة، أنها لم تكن أحلت من عمرتها، وأنها بقيت محرمة حتى أدخلت عليها الحج، فهذا خبرها عن نفسها، وذلك قول رسول الله ﷺ لها، كُلُّ منهما يوافق الآخر وبالله التوفيق.

وفي قوله ﷺ: «الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» دليل على التفريق بين الحج والعمرة في التكرار، وتنبه على ذلك، إذ لو كانت العمرة كالحج لا تُفعل في السنة إلا مرة، لسوّى بينهما ولم يفرق.

وروى الشافعي رحمه الله، عن علي رضي الله عنه، أنه قال: اعتمر في كل شهر مرة [الشافعي: ١/٢٩٢]، والبيهقي (٣٤٤/٤)، ورجال ثقات. وروى وكيع، عن إسرائيل، عن سُويد بن أبي ناجة، عن أبي جعفر، قال: قال علي رضي الله عنه: اغْتَمِرْ فِي الشَّهْرِ إِنْ أَطَلَّتْ مَرَاراً. وذكر سعيد بن منصور، عن سفيان بن أبي حسين، عن بعض ولد أنس: أن أنساً كان إذا كان بمكة فَحَمَمَ رَأْسَهُ، خَرَجَ إِلَى التَّعْمِيرِ فَاعْتَمَرَ [الشافعي: ١/٢٩٢]، والبيهقي (٣٤٤/٤)، وفي سننه مجهول.

(١) أي: اسود بعد الحلق بنبات شعره قال ابن الأثير: والمعنى أنه كان لا يؤخر العمرة إلى المحرم، وإنما كان يخرج إلى الميقات ويعتمر في ذي الحجة، والأثر ذكره الشافعي في مسنده (١/٢٩٢، ٢٩٣)، والبيهقي (٣٤٤/٤).

فصل

في سياق هديه ﷺ في حجته

(لما فرض الحج سنة تسع أو عشر

بأمر ﷺ إليه على الفور سنة عشر وهي حجته الوحيدة)

لا خلاف أنه لم يُحجَّ بعد هجرته إلى المدينة سوى حجة واحدة، وهي حجة الوداع، ولا خلاف أنها كانت سنة عشر.

واختُلف: هل حجَّ قبل الهجرة؟ فرؤى الترمذي، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: حجَّ النبي ﷺ ثلاث حجج: حجتين قبل أن يُهاجر، وحجة بعد ما هاجر معها عمرة (الترمذي: ٨١٥، وابن ماجه: ٣٠٧٦، ورجاله ثقات). قال الترمذي: هذا حديث غريب من حديث سفيان. قال: وسألت محمداً - يعني البخاري - عن هذا، فلم يعرفه من حديث الثوري، وفي رواية: لا يعدُّ هذا الحديث محفوظاً.

ولما نزل فرض الحج، بأمر رسول الله ﷺ إلى الحج من غير تأخير، فإن فرض الحج تأخراً إلى سنة تسع أو عشر، وأما قوله تعالى: ﴿وَأَيُّهَا لَمُحَّ وَالْعُمَرَاءُ يَدْعُوا﴾ [البقرة: ١٩٦]، فإنها وإن نزلت سنة ست عام الحديبية، فليس فيها فرضية الحج، وإنما فيها الأمر بإتمامه وإتمام العمرة بعد الشروع فيها، وذلك لا يقتضي وجوب الابتداء، فإن قيل: فَمِنْ أَيْنَ لَكُمْ تأخير نزول فرضه إلى التاسعة أو العاشرة؟ قيل: لأن صدر سورة آل عمران نزل عام الوفود، وفيه قديم وفد نجران على رسول الله ﷺ، وصالحهم على أداء الجزية، والجزية إنما نزلت عام تبوك سنة تسع، وفيها نزل صدر سورة آل عمران، وناظر أهل الكتاب، ودعاهم إلى التوحيد والمباهلة، ويدلُّ عليه أن أهل مكة وجدوا في نفوسهم على ما فاتهم من التجارة من المشركين لما أنزل الله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَاهِهِمْ هَكَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، فأعاضهم الله تعالى من ذلك

بالجزية. ونزول هذه الآيات، والمناداة بها، إنما كان في سنة تسع، وبعث الصديق يؤذن بذلك في مكة في مواسم الحج^(١)، وأردفه بعلي رضي الله عنه، وهذا الذي ذكرناه قد قاله غير واحد من السلف. والله أعلم.

فصل

(خروجه ﷺ بعد أن اعلم الناس)

ولما عزم رسول الله ﷺ على الحج اعلم الناس أنه حاج، فتجهزوا للخروج معه، وسمع ذلك من حول المدينة، فقدموا يريدون الحج مع رسول الله ﷺ، ووافاه في الطريق خلائق لا يحصون، فكانوا من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله مد البصر، وخرج من المدينة نهائراً بعد الظهر ليست بقين من ذي القعدة بعد أن صلى الظهر بها أربعاً، وخطبهم قبل ذلك خطبة علمهم فيها الإحرام وواجباته وسننه.

(ترجيح المصنف أن خروجه ﷺ كان يوم السبت)

وقال ابن حزم: وكان خروجه يوم الخميس، قلت: والظاهر: أن خروجه كان يوم السبت، واحتج ابن حزم على قوله بثلاث مقدمات. إحداها: أن خروجه كان ليست بقين من ذي القعدة. والثانية: أن استهلال ذي الحجة كان يوم الخميس، والثالثة: أن يوم عرفة كان يوم الجمعة، واحتج على أن خروجه كان ليست بقين من ذي القعدة، بما روى البخاري من حديث ابن عباس، انطلق النبي ﷺ من المدينة بعد ما ترجل وأذهن... فذكر الحديث [البخاري: ١٥٤٥]. وقال: وذلك لخمس بقين من ذي القعدة.

قال ابن حزم: وقد نص ابن عمر على أن يوم عرفة، كان يوم الجمعة، وهو التاسع، واستهلال ذي الحجة بلا شك ليلة الخميس، فأخر ذي القعدة يوم الأربعاء، فإذا كان خروجه ليست بقين من ذي القعدة، كان يوم الخميس، إذ الباقي بعده ست ليالٍ سواء.

ووجه ما اخترناه، أن الحديث صريح في أنه خرج لخميس بقين وهي يوم السبت، والأحد، والإثنين،

(١) وإنما تأخر رسول الله ﷺ عن المبادرة إلى الحج في السنة التاسعة لكرهه الاختلاط في الحج بأهل الشرك، لأنهم كانوا يحجون ويطوفون بالبيت عراة، فلما طهر الله البيت الحرام منهم، حج ﷺ.

والثلاثاء، والأربعاء، فهذه خمس، وعلى قوله: يكون خروجه يسبع بقين. فإن لم يعد يوم الخروج، كان لست، وأيهما كان، فهو خلاف الحديث. وإن اعتبر الليالي، كان خروجه لست ليال بقين لا لخمس، فلا يصح الجمع بين خروجه يوم الخميس، وبين بقاء خمس من الشهر البتة، بخلاف ما إذا كان الخروج يوم السبت، فإن الباقي بيوم الخروج خمس بلا شك، وبدل عليه أن النبي ﷺ ذكر لهم في خطبته على منبره شأن الإحرام، وما يلبس المحرم بالمدينة، والظاهر: إن هذا كان يوم الجمعة، لأنه لم يُنقل أنه جمعهم، ونادى فيهم لحضور الخطبة، وقد شهد ابن عمر رضي الله عنهما هذه الخطبة بالمدينة على منبره. وكان من عادته ﷺ أن يُعلمهم في كل وقت ما يحتاجون إليه إذا حضر فعله، فأولى الأوقات به الجمعة التي يليها خروجه، والظاهر: أنه لم يكن ليدع الجمعة وبينه وبينها بعض يوم من غير ضرورة، وقد اجتمع إليه الخلق، وهو أحرص الناس على تعليمهم الدين، وقد حضر ذلك الجمع العظيم، والجمع بينه وبين الحج ممكن بلا تفويت والله أعلم.

ولما علم أبو محمد ابن حزم، أن قول ابن عباس رضي الله عنه، وعائشة رضي الله عنها: خرج لخمس بقين من ذي القعدة، لا يلتزم مع قوله أوله: بأن قال: معناه أن اندفاعه من ذي الحليفة كان لخمس، قال: وليس بين ذي الحليفة وبين المدينة إلا أربعة أميال فقط، فلم تُعد هذه المرحلة القريبة لِقَلَّتْها، وبهذا تأتلف جميع الأحاديث. قال: ولو كان خروجه من المدينة لخمس بقين لذي القعدة، لكان خروجه بلا شك يوم الجمعة، وهذا خطأ لأن الجمعة لا تُصلى أربعاً، وقد ذكر أنس، أنهم صلوا الظهر معه بالمدينة أربعاً [البخاري: ١٥٤٨]. قال: ويزيده وضوحاً، ثم ساق من طريق البخاري، حديث كعب بن مالك: قلما كان رسول الله ﷺ يخرج في سفر إذا خرج: إلا يوم الخميس، وفي لفظ آخر: أن رسول الله ﷺ كان يحب أن يخرج يوم الخميس [البخاري: ١٥٤٩]، فبطل خروجه يوم الجمعة لما ذكرنا عن أنس، وبطل خروجه يوم السبت، لأنه حينئذ يكون خارجاً من المدينة لأربع بقين من ذي القعدة، وهذا ما لم يقله أحد.

قال: وأيضاً قد صحَّ مبيته بذى الحليفة الليلة المستقبلة من يوم خروجه من المدينة، فكان يكون اندفاعه من ذي الحليفة يوم الأحد، يعني: لو كان خروجه يوم السبت، وصحَّ مبيته بذى طوى ليلة دخوله مكة، وصحَّ عنه أنه دخلها صبح رابعة من ذي الحجة، فعلى هذا تكون مدة سفره من المدينة إلى مكة سبعة أيام، لأنه كان يكون خارجاً من المدينة لو كان ذلك لأربع بقين لذي القعدة، واستوى على مكة ثلاث خلون من ذي الحجة، وفي استقبال الليلة الرابعة، فتلك سبع ليال لا مزيد، وهذا خطأ بإجماع، وأمر لم يقله أحد، فصح أن خروجه كان لست بقين من ذي القعدة، واتلفت الروايات كلها، وانتفى التعارض عنها بحمد الله انتهى.

قلت: هي متأكدة متوافقة، والتعارض مُتَنَفٍ عنها مع خروجه يوم السبت، ويزول عنها الاستكراه الذي أولها عليه كما ذكرناه. وأما قول أبي محمد ابن حزم: لو كان خروجه من المدينة لخمس بقين من ذي القعدة، لكان خروجه يوم الجمعة إلى آخره فغير لازم، بل يصح أن يخرج لخمس، ويكون خروجه يوم السبت، والذي غرأ أبا محمد أنه رأى الراوي قد حذف التاء من العدد، وهي إنما تحذف من المؤنث، ففهم لخمس ليال بقين، وهذا إنما يكون إذا كان الخروج يوم الجمعة. فلو كان يوم السبت، لكان لأربع ليال بقين، وهذا بعينه ينقلب عليه، فإنه لو كان خروجه يوم الخميس، لم يكن لخمس ليال بقين، وإنما يكون لست ليال بقين، ولهذا اضطر إلى أن يؤول الخروج المقيّد بالتاريخ المذكور بخمس على الاندفاع من ذي الحليفة، ولا ضرورة له إلى ذلك، إذ من الممكن أن يكون شهر ذي القعدة كان ناقصاً، فوقع الإخبار عن تاريخ الخروج بخمس بقين منه بناءً على المعتاد من الشهر، وهذه عادة العرب والناس في تواريخهم، أن يؤرّخوا بما بقي من الشهر بناءً على كماله، ثم يقع الإخبار عنه بعد انقضائه، وظهر نقصه كذلك، لثلا يختلف عليهم التاريخ، فيصح أن يقول القائل: يوم الخامس والعشرين، كتب لخمس بقين، ويكون الشهر تسعاً وعشرين، وأيضاً فإن الباقي كان خمسة أيام بلا شك بيوم الخروج،

والعرب إذا اجتمعت الليالي والأيام في التاريخ، غلبت لفظ الليالي لأنها أول الشهر، وهي أسبق من اليوم، فتذكر الليالي، ومرادها الأيام، فيصبح أن يُقال: لخمس بقين باعتبار الأيام، ويذكر لفظ العدد باعتبار الليالي، فصَحَّ حينئذ أن يكون خروجه لخمس بقين، ولا يكون يوم الجمعة. وأما حديث كعب، فليس فيه أنه لم يكن يخرج قط إلا يوم الخميس، وإنما فيه أن ذلك كان أكثر خروجه، ولا ريب أنه لم يكن يتقيد في خروجه إلى الغزوات بيوم الخميس.

وأما قوله: لو خرج يوم السبت، لكان خارجاً لأربع، فقد تبين أنه لا يلزم، لا باعتبار الليالي، ولا باعتبار الأيام.

وأما قوله: إنه بات بذي الحليفة الليلة المستقبلة من يوم خروجه من المدينة إلى آخره، فإنه يلزم من خروجه يوم السبت أن تكون مدته سفره سبعة أيام، فهذا عجيب منه، فإنه إذا خرج يوم السبت وقد بقي من الشهر خمسة أيام، ودخل مكة لأربع مَضِين من ذي الحجة، فبين خروجه من المدينة ودخوله مكة تسعة أيام، وهذا غير مشكل بوجه من الوجوه، فإن الطريق التي سلكها إلى مكة بين المدينة وبينها هذا المقدار، وسير العرب أسرع من سير الحضر بكثير، ولا سيما مع عدم المحامل والكجاوات والزوايل الثقّال. والله أعلم.

(إكمال المصنف لسياق حجه ﷺ)

عدنا إلى سياق حجه، فصلّى الظهر بالمدينة بالمسجد أربعاً، ثم ترجل وادّهن، ولبس إزاره ورداءه، وخرج بين الظهر والعصر، فنزل بذي الحليفة، فصلّى بها العصر ركعتين، ثم بات بها [البخاري: ١٥٤٧] وصلى بها المغرب، والعشاء والصبح، والظهر [النسائي (١٢٧/٥)، ورجاله ثقات]، فصلّى بها خمس صلوات، وكان نساؤه كلّهن معه، وطاف عليهن تلك الليلة [البخاري: ١٥٥١، ومسلم: ٢٨٤٢]، فلما أراد الإحرام، اغتسل غسلًا ثانيًا

لإحرامه غير غسل الجماع الأول، ولم يذكر ابن حزم أنه اغتسل غير الغسل الأول للجنازة، وقد ترك بعض الناس ذكره، فلما أن يكون تركه عمدًا، لأنه لم يثبت عنده، وإما أن يكون تركه سهوًا منه، وقد قال زيد بن ثابت: إنه رأى النبي ﷺ تجرّد لإهلاله واغتسل [الترمذي: ٨٣٠]. قال الترمذي: حديث حسن غريب.

(حج ﷺ فارناً والدليل على ذلك)

وذكر الدارقطني، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يُحرم، غسل رأسه بخطمي وأُشْنَانِ [الدارقطني (٢٢٦/٢)، ورجاله ثقات]. ثم طيبته عائشة بيدها بذريعة وطيب فيه مسك في بدنه ورأسه، حتى كان ويبص المسك يرى في مفارقة ولحيته [البخاري: ٢٧١، ومسلم: ٢٨٢٤]، ثم استدامه ولم يغسله، ثم لبس إزاره ورداءه، ثم صلى الظهر ركعتين، ثم أهلّ بالحجّ والعُمرة في مصلاه، ولم يُنقل عنه أنه صلى للإحرام ركعتين غير فرض الظهر^(١).

وقلّد قبل الإحرام بُدْنه نعلين، وأشعرها في جانبها الأيمن، فشقّ صفحة سناميها، وسلّت الدّم عنها [مسلم: ٣٠١٦].

وإنما قلنا: إنه أحرم فارناً ليضعة وعشرين حديثاً صحيحة صريحة في ذلك.

أحدها: ما أخرجه في «الصحيحين» عن ابن عمر، قال: تمتّع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعُمرة إلى الحج، وأهدى، فساق معه الهدْي من ذي الحليفة، وبدأ رسول الله ﷺ فأهلّ بالعُمرة، ثم أهلّ بالحجّ وذكر الحديث [البخاري: ١٦٩١، ومسلم: ٢٩٨٢].

وثانيها: ما أخرجه في «الصحيحين» أيضاً، عن عروة، عن عائشة أخبرته عن رسول الله ﷺ، بمثل حديث ابن عمر سواء [البخاري: ١٦٩٢، ومسلم: ٢٩٨٣].

وثالثها: ما روى مسلم في «صحيحه»، من حديث قُتَيْبَة، عن الليث، عن نافع، عن ابن عمر، أنّه قرن الحجّ إلى العمرة، وطاف لهما طوافاً واحداً، ثم

(١) وما أخرجه مسلم (٢٨١٤) عن عبد الله بن عمر: كان رسول الله ﷺ يركع بذي الحليفة ركعتين، فالمراد بهما ركعتا الظهر، لا سنة الإحرام.

قال: هكذا فعل رسول الله ﷺ [مسلم: ٢٩٩٢].

ورابعها: ما روى أبو داود، عن الثفيلي، حدثنا زهير هو ابن معاوية، حدثنا إسحاق عن مجاهد: سئل ابن عمر: كم اعتمر رسول الله ﷺ؟ فقال: مرتين. فقالت عائشة: لقد عَلِمَ ابنُ عمر أن رسول الله ﷺ اعتمر ثلاثاً سوى التي قرن بحجته [أبو داود: ١٩٩٢، ورجاله ثقات].

ولم يُناقض هذا قول ابن عمر: «إنه ﷺ»، قرن بين الحج والعمرة، لأنه أراد العمرة الكاملة المفردة، ولا ريب أنهما عُمرتان: عمرة القضاء وعمرة الجمرات، وعائشة رضي الله عنها أرادت العمرتين المستقلتين، وعمرة القرآن، والتي صُدَّ عنها، ولا ريب أنها أربع.

وخامسها: ما رواه سفيان الثوري، عن جعفر بن محمد عن أبيه، عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ: حج ثلاث حجج: حجتين قبل أن يُهاجر، وحجة بعد ما هاجر معها عمرة. رواه الترمذي وغيره.

وسادسها: ما رواه أبو داود، عن الثفيلي وقتيبة قالاً: حدثنا داود بن عبد الرحمن العطار، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: اعتمر رسول الله ﷺ أربع عُمر: عمرة الحديبية، والثانية: حين تواطؤوا على عمرة من قابل، والثالثة من الجمرات، والرابعة التي قرن مع حجته [صحيح: أبو داود: ١٩٩٣، والترمذي: ٨١٦، وابن ماجه: ٣٠٠٣].

وسابعها: ما رواه البخاري في «صحيحه» عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ بوادي العقيق يقول: «أنا في الليلة آت من ربِّي عز وجل»، فقال: صل في هذا الوادي المبارك، وقُلْ: عمرة في حجة» [البخاري: ١٥٣٤].

وثامنها: ما رواه أبو داود عن البراء بن عازب قال: كنت مع علي رضي الله عنه حين أُمرَ رسول الله ﷺ على اليمن، فأصبْتُ معه أواقِي من ذهب، فلما قَدِمَ علي من اليمن على رسول الله ﷺ قال: وجدت فاطمة رضي الله عنها قد لبست ثياباً صبيغَات، وقد نضحت البيت بَنُضُوح، فقالت: ما

لك؟ فإن رسول الله ﷺ قد أمر أصحابه فأحلوا، قال: فقلتُ لها: إني أهلكُ بإهلاك النبي ﷺ قال: فأتيتُ النبي ﷺ، فقال لي: كيف صنعتُ؟ قال: قلتُ: أهلكُ بإهلاك النبي ﷺ، قال: فإني قد شُفْتُ الهُدْيَ، وَقَرَنْتُ وذكر الحديث [أبو داود: ١٧٩٧، والنسائي (١٤٩/٥)، ورجاله ثقات].

وتاسعها: ما رواه النسائي عن عمران بن يزيد الدمشقي، حدثنا عيسى بن يونس، حدثنا الأعمش، عن سلم البطن، عن علي بن الحسين، عن مروان بن الحكم قال: كنتُ جالساً عند عثمان، فسمع علياً رضي الله عنه يُكَلِّمُ بِعُمرة وَحَجَّةٍ، فقال: ألم تكن تُنهي عن هذا؟ قال: بلى لكنني سمعتُ رسول الله ﷺ يُكَلِّمُ بهما جميعاً، فلم أدع قول رسول الله ﷺ لِقَوْلِكَ [صحيح: النسائي (١٤٨/٥)].

وعاشرها: ما رواه مسلم في «صحيحه» من حديث شعبة، عن حميد بن هلال قال: سمعتُ مُطَرِّفاً قال: قال عمران بن حصين: أحذرك حديثاً عسى الله أن ينفعك به: إن رسول الله ﷺ جمع بين حجة وعمرة، ثم لم يَنه عنه حتَّى مات، ولم يَنْزِلْ قرآن يُحرِّمُه [مسلم: ٢٩٧٤].

وحادي عشرها: ما رواه يحيى بن سعيد القطان، وسفيان بن عُيينة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن عبد الله بن أبي قتادة، عن أبيه قال: إنما جَمَعَ رسول الله ﷺ بين الحج والعمرة، لأنه علم أنه لا يُحجُّ بعدهما. وله طرق صحيحة إليهما [رجاله ثقات].

وثاني عشرها: ما رواه الإمام أحمد من حديث سُراقَة بن مالك قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «دَخَلَتِ الْعُمرةُ في الْحَجِّ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، قَالَ: وَقَرَنَ النَّبِيُّ ﷺ في حَجَّةِ الْوَدَاعِ [حسن: أحمد: ١٧٥٨٢] إسناده ثقات.

وثالث عشرها: ما رواه الإمام أحمد، وابن ماجه من حديث أبي طلحة الأنصاري أن رسول الله ﷺ جَمَعَ بين الْحَجِّ وَالْعُمرة [أحمد: ١٦٣٤٦، وابن ماجه: ٢٩٧١، وفي سنن الحجاج بن أرطاة فيه مقالاً] ورواه الدارقطني، وفيه الحجاج بن أرطاة.

ورابع عشرها: ما رواه أحمد من حديث الهزْءَاس بن زياد الباهلي أن رسول الله ﷺ قرن في

والنسائي (١٥٢/٥ - ١٥٣)، قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(القرآن أحد نوعي التمتع وهو لغة القرآن)

ومراده بالتمتع هنا بالعمرة إلى الحج: أحد نوعيه، وهو تمتع القرآن، فإنه لغة القرآن، والصحابة الذين شهدوا التنزيل والتأويل شهدوا بذلك، ولهذا قال ابن عمر: تمتع رسول الله ﷺ بالعمرة إل الحج، فبدأ فأهل بالعمرة، ثم أهل بالحج، وكذلك قالت عائشة، وأيضاً: فإن الذي صنعه رسول الله ﷺ، هو تمتع القرآن بلا شك، كما قطع به أحمد، ويدل على ذلك أن عمران بن حصين قال: تمتع رسول الله ﷺ، وتمتعنا معه. متفق عليه [البخاري: ١٥٧١، ومسلم: ٢٩٧٩]. وهو الذي قال لمطرف: أحذتك حديثاً عسى الله أن ينفعك به، إن رسول الله ﷺ، جمع بين حج وعمرة، ثم لم يَنْه عنه حتى مات. وهو في «صحيح مسلم» فأخبر عن قرانه بقوله: تمتع، ويقول: جمع بين حج وعمرة.

ويدل عليه أيضاً، ما ثبت في «الصحيحين» عن سعيد بن المسيب قال: اجتمع علي وعثمان بمُسَفَّان، فقال: كان عثمان ينهى عن المُنْتَعَة أو العمرة، فقال علي: ما تريد إلى أمر فعله رسول الله ﷺ تنهى عنه؟ قال عثمان: دعنا منك، فقال: إني لا أستطيع أن أدعك، فلما أن رأى علي ذلك، أهل بهما جميعاً [البخاري: ١٥٦٩، ومسلم: ٢٩٦٤]. هذا لفظ مسلم، ولفظ البخاري: اختلف علي وعثمان بمُسَفَّان في المُنْتَعَة، فقال علي: ما تريد إلا أن تنهى عن أمر فعله رسول الله ﷺ، فلما رأى ذلك علي، أهل بهما جميعاً.

وأخرج البخاري وحده من حديث مروان بن الحكم قال: شهدت عثمان وعلياً، وعثمان ينهى عن المُنْتَعَة، وأن يُجْمَعَ بينهما، فلما رأى علي ذلك، أهل بهما: ليك بمعمرة وحجة، وقال: ما كنت لأدع سنة رسول الله ﷺ ليقول أحد [البخاري: ١٩٦٣].

فهذا يبين، أن من جمع بينهما، كان متمتعاً عندهم، وأن هذا هو الذي فعله رسول الله ﷺ، وقد وافقه عثمان على أن رسول الله ﷺ فعل ذلك، فإنه

حَجَّةُ الْوَدَاعِ بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ [أحمد: ١٥٩٧١، وفي سنده متروك].

وخامس عشرها: ما رواه البزار بإسناد صحيح أن ابن أبي أوفى قال: إنما جمع رسول الله ﷺ بين الحج والعمرة، لأنه علم أنه لا يحج بعد عامه ذلك [أورد الهيثمي في «المجمع» (٢٣٦/٣)] وقد قيل: إن يزيد بن عطاء أخطأ في إسناده، وقال آخرون: لا سبيل إلى تخطئه بغير دليل.

وسادس عشرها: ما رواه الإمام أحمد، من حديث جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ قرَنَ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ، فَطَافَ لَهْمَا طَوَافاً وَاحِداً [أحمد: ١٥١٦٣، والترمذي: ٩٤٧]. ورواه الترمذي، وفيه الحجاج بن أرطاة، وحديثه لا ينزل عن درجة الحسن ما لم ينفرد بشيء، أو يخالف الثقات.

وسابع عشرها: ما رواه الإمام أحمد، من حديث أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أهلوا يا آل مُحَمَّدٍ بِعُمْرَةٍ فِي حَجِّ» [أحمد: ٢٦٥٤٨، ورجاله ثقات].

وثامن عشرها: ما أخرجاه في «الصحيحين» واللفظ لمسلم، عن حفصة قالت: قلت للنبي ﷺ: ما شأن الناس حلوا ولم تحل أنت من عمرتك؟ قال: «إني قلذت هذبي، وليذت رأسي، فلا أجل حتى أجل من الحج» [البخاري: ١٥٦٦، ومسلم: ٢٩٨٤] وهذا يدل على أنه كان في عمرة معها حج، فإنه لا يحل من العمرة حتى يحل من الحج، وهذا على أصل مالك والشافعي الزم، لأن المعتمر عمرة مفردة، لا ينعمة عندهما الهدي من التحلل، وإنما ينعمة عمرة القرآن، فالحديث على أصلهما نص.

وتاسع عشرها: ما رواه النسائي، والترمذي، عن محمد بن عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، أنه سَمِعَ سَعْدَ بْنَ أَبِي وقاص، والضحاك بن قيس عام حج معاوية بن أبي سفيان، وهما يذكران التمتع بالعمرة إلى الحج، فقال الضحاك: لا يصنع ذلك إلا مَنْ جَهِلَ أَمْرَ اللَّهِ، فقال سعد: بشئ ما قلت يا ابن أخي. قال الضحاك: فإن عمر بن الخطاب نهى عن ذلك، قال سعد: قد صنعها رسول الله ﷺ، وصنعناها معه [حسن: الترمذي: ٨٢٣،

لما قال له: ما تُريد إلى أمر فعله رسول الله ﷺ تنهى عنه، لم يقل له: لم يفعله رسول الله ﷺ، ولولا أنه وافقه على ذلك، لأنكره، ثم قصد علي إلى موافقة النبي ﷺ، والافتداء به في ذلك، وبيان أن فعله لم يُنسخ، وأهلُ بهما جميعاً تقريراً للاقتداء به ومتابعته في القرآن، وإظهاراً لسنة نهى عنها عثمان متأولاً، وحينئذ فهذا دليل مستقل تمام العشرين.

الحادي والعشرون: ما رواه مالك في «الموطأ»، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة أنها قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حجة الوداع، فأهللنا بعُمرة، ثم قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ مَعَهُ هَذِي، فَلْيَهْلِلْ بِالْحَجِّ مَعَ الْعُمْرَةِ، ثُمَّ لَا يَجِلْ حَتَّى يَجِلَّ مِنْهُمَا جَمِيعاً» [صحيح: مالك (١/٤١٠-٤١١)].

ومعلوم: أنه كان معه الهدي، فهو أولى من بادر إلى ما أمر به، وقد دل عليه سائر الأحاديث التي ذكرناها ونذكرها.

وقد ذهب جماعة من السلف والخلف إلى إيجاب القرآن على من ساق الهدي، والتمتع بالعمرة المفردة على من لم يسق الهدي، منهم: عبد الله بن عباس وجماعة، فعندهم لا يجوز العدول عما فعله رسول الله ﷺ، وأمر به أصحابه، فإنه قرن وساق الهدي، وأمر كل من لا هدي معه بالفسخ إلى عمرة مفردة، فالواجب: أن نفعل كما فعل، أو كما أمر، وهذا القول أصح من قول من حرم فسخ الحج إلى العمرة من وجوه كثيرة، سنذكرها إن شاء الله تعالى.

الثاني والعشرون: ما أخرجه في «الصحيحين»، عن أبي قلابة، عن أنس بن مالك. قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ونحْنُ معه بالمدينة الظهر أربعاً، والعصر بذي الحليفة ركعتين، فبات بها حتى أصبح، ثم ركب حتى استوت به راحلته على البيداء، حميد الله وسبح [وكبر] ثم أهل بحج وعمرة، وأهل الناس بهما، فلما قَدِمْنَا أمر الناس، فحلوا، حتى إذا كان يومُ التَّروِيَةِ أهلوا بالحج [البخاري: ١٥٥١، ومسلم: ١٥٨١].

وفي «الصحيحين» أيضاً: عن بكر بن عبد الله المزني، عن أنس قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يُلبّي بالحجِّ والعمرة جميعاً، قال بكر: فحدثتُ بذلك ابنَ عمر، فقال: لبّي بالحجِّ وحده، فلبّيتُ أنساً، فحدثته

بقول ابن عمر، فقال أنس: ما تعدُّونا إلَّا صَيَانًا! سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لَيْتَكَ عُمرَةً وَحَجًّا» [مسلم: ٢٩٩٥، ولم نجده في البخاري]. وبين أنس وابن عمر في السن سنة، أو سنة وشي.

وفي «صحيح مسلم»، عن يحيى بن أبي إسحاق وعبد العزيز بن صهيب، وحُميد، أنهم سمعوا أنساً قال: سمعتُ رسول الله ﷺ أهلُ بهما: «لَيْتَكَ عُمرَةً وَحَجًّا» [مسلم: ٣٠٢٨].

وروى أبو يوسف القاضي، عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن أنس قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «لَيْتَكَ بِحَجٍّ وَعُمْرَةٍ مَعاً».

وروى النسائي من حديث أبي أسماء، عن أنس قال: سمعتُ النبي ﷺ، يُلبّي بهما [النسائي (١٥٠/٥)، وأبو أسماء هو الصبل لا يُعرف].

وروي أيضاً من حديث الحسن البصري عن أنس أن النبي ﷺ أهلُ بالحج والعمرة حين صلى الظهر [النسائي (١٢٧/٥)، ورجاله ثقات].

وروى البزار، من حديث زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب، عن أنس، أن النبي ﷺ، أهل بحجٍّ وعمرة. ومن حديث سليمان التيمي عن أنس كذلك، وعن أبي قدامة عن أنس مثله. وذكر وكيع: حدثنا مُصعب بن سليم قال: سمعتُ أنساً مثله، قال: وحدثنا ابنُ أبي ليلى، عن ثابت البناني، عن أنس مثله، وذكر الخشني: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي قزعة، عن أنس مثله.

وفي «صحيح البخاري»، عن قتادة، عن أنس، اعتمر رسول الله ﷺ أربع عمر، فذكرها وقال: وعمره مع حجته وقد تقدم.

وذكر عبد الرزاق: حدثنا معمر، عن أيوب، عن أبي قلابة وحُميد بن هلال، عن أنس مثله، فهو لاء ستة عشر نفساً من الثقات، كُلُّهم متفقون عن أنس، أن لفظ النبي ﷺ كان إلهالاً بحجٍّ وعمرة معاً، وهم الحسن البصري، وأبو قلابة، وحُميد بن هلال، وحُميد بن عبد الرحمن الطويل، وقاتدة: ويحيى بن سعيد الأنصاري، وثابت البناني، ويكر بن عبد الله المزني، وعبد العزيز بن صهيب، وسليمان التيمي،

ويحيى بن أبي إسحاق، وزيد بن أسلم، ومصعب بن سليم، وأبو أسماء، وأبو قدامة عاصم بن حسين، وأبو قرعة وهو سُويد بن حجر الباهلي.

فهذه أخبار أنس عن لفظ إلهاله ﷺ الذي سمعه منه، وهذا علي والبراء يُخبران عن إخباره ﷺ عن نفسه بالقرآن، وهذا علي أيضاً، يخبر أن رسول الله ﷺ فعله، وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يُخبر عن رسول الله ﷺ، أن ربه أمره بأن يفعله، وعلمه اللفظ الذي يقوله عند الإحرام، وهذا علي أيضاً يخبر، أنه سمع رسول الله ﷺ يُكَلِّمُ بهما جميعاً، وهؤلاء بقية مَنْ ذكرنا يخبرون عنه، بأنه فعله، وهذا هو ﷺ يأمر به آله، ويأمر به من ساق الهدى.

وهؤلاء الذين رَوَوْا القرآن بغاية البيان: عائشة أم المؤمنين، وعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عباس، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان بإقراره لعلي، وتقرير علي له، وعمران بن الحصين، والبراء بن عازب، وحفصة أم المؤمنين، وأبو قتادة، وابن أبي أوفى، وأبو طلحة، والهرماس بن زياد، وأُمّ سلمة، وأنس بن مالك، وسعد بن أبي وقاص، فهؤلاء هم سبعة عشر صحابياً رضي الله عنهم، منهم من روى فعله، ومنهم من روى لفظ إحرامه، ومنهم من روى خبره عن نفسه، ومنهم من روى أمره به.

فإن قيل: كيف تجعلون منهم ابن عمر، وجابراً، وعائشة، وابن عباس؟ وهذه عائشة تقول: أهل رسول الله ﷺ بالحج وفي لفظ: أفرد الحج، والاول في «الصحيحين» [البخاري: ١٦٥١، ومسلم: ٢٩١٣]، والثاني في مسلم وله لفظان، هذا أحدهما والثاني: أهل بالحج مُفرداً [مسلم: ٢٩٢١]، وهذا ابن عمر يقول: لَبَّيْ بالحجّ وحده. ذكره البخاري [مسلم: ٢٩٩٥، وليست في البخاري]، وهذا ابن عباس يقول: وأهل رسول الله ﷺ بالحج رواه مسلم [٣٠١٠]، وهذا جابر يقول: أفرد الحج، رواه ابن ماجه [صحيح: ابن ماجه: ١٧٤٠].

قيل: إن كانت الأحاديث عن هؤلاء تعارضت وتساقت، فإن أحاديث الباقيين لم تعارض، فهب

أن أحاديث من ذكرتم لا حجة فيها على القرآن، ولا على الأفراد لتعارضها، فما الموجب للعدول عن أحاديث الباقيين مع صراحتها وصحتها؟ فكيف وأحاديثهم يُصدّق بعضها بعضاً ولا تعارض بينهما، وإنما ظن من ظن التعارض لعدم إحاطته بمراد الصحابة من الفاظهم، وحملها على الاصطلاح الحادث بعدهم.

ورأيت لشيخ الإسلام فضلاً حسناً في اتفاق أحاديثهم نسوقه بلفظه، قال: والصواب أن الأحاديث في هذا الباب متفقة ليست بمختلفة إلا اختلافاً يسيراً يقع مثله في غير ذلك، فإن الصحابة ثبت عنهم أنه تمتع، والتمتع عندهم يتناول القرآن، والذين رَوَوْا عنهم أنه أفرد، رَوَوْا عنهم أنه تمتع، أما الاول: ففي «الصحيحين» عن سعيد بن المسيّب قال: اجتمع علي وعثمان بفسفان، وكان عثمان ينهي عن المتعة أو العمرة، فقال علي رضي الله عنه: ما تريد إلى أمر فعله رسول الله ﷺ تنهى عنه؟ فقال عثمان: دعنا منك. فقال: إني لا أستطيع أن أذكر. فلما رأى علي رضي الله عنه ذلك، أهل بهما جميعاً. فهذا يبين أن من جمع بينهما كان متمتعاً عندهم، وأن هذا هو الذي فعله النبي ﷺ، ووافقه عثمان على أن النبي ﷺ فعل ذلك، لكن كان النزاع بينهما، هل ذلك الأفضل في حقنا أم لا؟ وهل شرع فسخّ الحج إلى العمرة في حقنا كما تنازع فيه الفقهاء؟ فقد اتفق علي وعثمان، على أنه تمتع، والمراد بالتمتع عندهم، القرآن. وفي «الصحيحين» عن مطرف قال: قال عمران بن حصين: إن رسول الله ﷺ جمع بين حجّ وعمره، ثم إنه لم ينه عنه حتى مات، ولم ينزل فيه قرآن يحرمه. وفي رواية عنه: تمتع رسول الله ﷺ وتمتعنا معه. فهذا عمران وهو من أجل السابقين الاولين، أخبر أنه تمتع، وأنه جمع بين الحجّ والعمره، والقارن عند الصحابة متمتع، ولهذا أوجبوا عليه الهدي، ودخل في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وذكر حديث عمر عن النبي ﷺ: «أَتَانِي آتٌ مِنْ رَبِّي فَقَالَ: صَلِّ فِي هَذَا الرَّايِدِ الْمُبَارَكِ وَقُلْ: عُمْرَةٌ فِي حَجَّةٍ».

قال: فهؤلاء الخلفاء الراشدون، عمر، وعثمان،

وعلي، وعمران بن حصين، روي عنهم بأصح الأسانيد، أن رسول الله ﷺ قرن بين العمرة والحج، وكانوا يسمون ذلك تمتعاً، وهذا أنس يذكر أنه سمي النبي ﷺ يلبي بالحج والعمرة جميعاً.

وما ذكره بكر بن عبد الله المزني، عن ابن عمر، أنه لبي بالحج وحده، فجوابه أن الثقات الذين هم أثبت في ابن عمر من بكر مثل سالم ابنه، ونافع زَوْوَا عنه أنه قال: تمتع رسول الله ﷺ بالعمرة إلى الحج، وهؤلاء أثبت في ابن عمر من بكر. فتغليب بكر عن ابن عمر أولى من تغليب سالم ونافع عنه، وأولى من تغليظه هو على النبي ﷺ، ويُشبه أن ابن عمر قال له: أفرد الحج، فظن أنه قال: لبي بالحج، فإن أفراد الحج، كانوا يُطلقونه ويُريدون به أفراد أعمال الحج، وذلك ردُّ منهم على من قال: إنه قرن قراناً طاف فيه طوافين، وسعى فيه سبعين، وعلى من يقول: إنه حلُّ من إحرامه، فرواية من روى من الصحابة أنه أفرد الحج، تردُّ على هؤلاء، يبين هذا ما رواه مسلم في «صحيحه» عن نافع، عن ابن عمر، قال: أهلكنا مع رسول الله ﷺ بالحج مفرداً، وفي رواية: أهل بالحج مفرداً [مسلم: ٢٩٩٤].

فهذه الرواية إذا قيل: إن مقصودها أن النبي ﷺ أهلٌ بحج مفرداً، قيل: فقد ثبت بإسناد أصح من ذلك، عن ابن عمر، أن النبي ﷺ تمتع بالعمرة إلى الحج، وأنه بدأ، فأهل بالعمرة ثم أهل بالحج، وهذا من رواية الزهري، عن سالم، عن ابن عمر. وما عارض هذا عن ابن عمر، إما أن يكون غلطاً عليه، وإما أن يكون مقصوده موافقاً له، وإما أن يكون ابن عمر لما علم أن النبي ﷺ لم يُحِلَّ، ظنَّ أنه أفرد كما وهم في قوله: إنه اعتمر في رجب، وكان ذلك نسياناً منه، والنبي ﷺ لما لم يُحِلَّ من إحرامه، وكان هذا حال المفرد ظن أنه أفرد، ثم ساق حديث الزهري عن سالم، عن أبيه، تمتع رسول الله ﷺ الحديث. وقول الزهري: وحدثنني عُروة، عن عائشة بمثل حديث سالم عن أبيه قال: فهذا من أصح حديث على وجه الأرض، وهو من حديث الزهري أعلم أهل زمانه بالسُّنة، عن سالم، عن أبيه، وهو من أصح حديث ابن عمر وعائشة.

وقد ثبت عن عائشة رضي الله عنها في «الصحيحين»: أن النبي ﷺ اعتمر أربعَ عُمَر، الرابعة مع حجته. ولم يَتمَيِّزْ بعد الحج باتفاق العلماء، فيتعين أن يكون متمتعاً تمتع قران، أو التمتع الخاص.

وقد صح عن ابن عمر، أنه قرن بين الحج والعمرة، وقال: هكذا فعل رسول الله ﷺ، رواه البخاري في «الصحيح» [١٦٤٠].

قال: وأما الذين نُقِلَ عنهم إفراد الحج، فهم ثلاثة: عائشة، وابن عمر، وجابر، والثلاثة نُقِلَ عنهم التمتع، وحديث عائشة وابن عمر: أنه تمتع بالعمرة إلى الحج أصح من حديثهما، وما صح في ذلك عنهما، فمعناه إفراؤ أعمال الحج، أو أن يكون وقع منه غلط كظنائه، فإن أحاديث التمتع متواترة رواها أكابر الصحابة، كعمر، وعثمان، وعلي، وعمران بن حصين، ورواها أيضاً: عائشة، وابن عمر، وجابر، بل رواها عن النبي ﷺ بضعة عشر من الصحابة.

قلت: وقد اتفق أنس، وعائشة، وابن عمر، وابن عباس، على أن النبي ﷺ اعتمر أربعَ عُمَر، وإنما وهم ابن عمر في كون إحداهن في رجب، وكلهم قالوا: وعمرة مع حجته، وهم سوى ابن عباس. قالوا: إنه أفرد الحج، وهم سوى أنس، قالوا: تمتع. فقالوا: هذا، وهذا، وهذا، ولا تناقض بين أقوالهم، فإنه تمتع تمتع قران، وأفرد أعمال الحج، وقرن بين النسكين، وكان قارناً باعتبار جمعه بين النسكين، ومفرداً باعتبار اقتصراره على أحد الطوافين والسبعين، وتمتعاً ترفهه بترك أحد السفرين.

ومن تأمل الفاظ الصحابة، وجمع الأحاديث بعضها إلى بعض، واعتبر بعضها ببعض، وفهم لغة الصحابة، أسفر له صُبْحُ الصواب، وانقشعت عنه ظلمة الاختلاف والاضطراب، والله الهادي لسييل الرشاد، والموفق لطريق السداد.

(الرد على من ادعى حجه ﷺ مفرداً)

فمن قال: إنه أفرد الحج وأراد به أنه أتى بالحج مفرداً، ثم فرغ منه، وأتى بالعمرة بعده من التمتع أو غيره، كما يظن كثير من الناس، فهذا غلط لم يقله أحد من الصحابة ولا التابعين، ولا الأئمة الأربعة،

ومن لا خيرة له بالسنة.

الرابعة: من قال: إنه لم يعتز في حجته أصلاً، والسنة الصحيحة المستفيضة التي لا يمكن ردها تُبطل هذا القول.

الخامسة: من قال: إنه اعتمر عمرة حل منها، ثم أحرم بعدها بالحج من مكة، والأحاديث الصحيحة تُبطل هذا القول وترده.

فصل

(غلط الناس في حجه ﷺ)

وهم في حجه خمس طوائف.

الطائفة الأولى: التي قالت: حجّ حجاجاً مفرداً لم يعتز معه.

الثانية: من قال: حجّ متمتعاً متمتعاً حلّ منه، ثم أحرم بعده بالحج، كما قاله القاضي أبو يعلى وغيره.

الثالثة: من قال: حجّ متمتعاً متمتعاً لم يحلّ منه لأجل سوق الهدي ولم يكن قارناً، كما قاله أبو محمد بن قدامة صاحب «المغني» وغيره.

الرابعة: من قال: حجّ قارناً قارناً طاف له طوافين، وسعى له سعين.

الخامسة: من قال: حجّ حجاجاً مفرداً، واعتمر بعده من التعميم.

فصل

(غلط الناس في إحرامه ﷺ)

وغلط في إحرامه خمس طوائف.

إحداها: من قال: لبى بالعمرة وحدها، واستمر عليها.

الثانية: من قال: لبى بالحج وحده، واستمر عليه.

الثالثة: من قال: لبى بالحج مفرداً، ثم أدخل عليه العمرة، وزعم أن ذلك خاص به.

الرابعة: من قال: لبى بالعمرة وحدها، ثم أدخل عليها الحج في ثاني الحال.

الخامسة: من قال: أحرم إحراماً مطلقاً لم يعين فيه نُسكاً، ثم عينه بعد إحرامه.

والصواب: أنه أحرم بالحج والعمرة معاً من حين

ولا أحد من أئمة الحديث. وإن أراد به أنه حج حجاجاً مفرداً، لم يعتز معه كما قاله طائفة من السلف والخلف، فوهم أيضاً، والأحاديث الصحيحة الصريحة تردّه كما تبين، وإن أراد به أنه اقتصر على أعمال الحج وحده ولم يفرد للعمرة أعمالاً، فقد أصاب، وعلى قوله تدل جميع الأحاديث. ومن قال: إنه قرن، فإن أراد به أنه طاف للحج طوافاً على حدة، وللعمرة طوافاً على حدة، وسعى للحج سعيّاً، وللعمرة سعيّاً، فالأحاديث الثابتة تردّ قوله. وإن أراد أنه قرن بين النُسكين، وطاف لهما طوافاً واحداً، وسعى سعيّاً واحداً، فالأحاديث الصحيحة تشهد لقوله، وقوله هو الصواب.

(الرد على من ادعى حجه ﷺ متعمتاً)

ومن قال: إنه تمتّع، فإن أراد أنه تمتّع متمتعاً حلّ منه، ثم أحرم بالحجّ إحراماً مستأنفاً، فالأحاديث تردّ قوله وهو غلط، وإن أراد أنه تمتّع متمتعاً لم يحلّ منه، بل بقي على إحرامه لأجل سوق الهدي، فالأحاديث الكثيرة تردّ قوله أيضاً، وهو أقلّ غلطاً، وإن أراد تمتّع القران، فهو الصواب الذي تدل عليه جميع الأحاديث الثابتة، ويأتلف به شملها، ويزول عنها الإشكال والاختلاف.

فصل

(غلط الناس في عمره ﷺ)

غلط في عمر النبي ﷺ خمس طوائف.

إحداها: من قال: إنه اعتمر في رجب، وهذا غلط، فإن عمره مضبوطة محفوظة، لم يخرج في رجب إلى شيء منها البتة.

الثانية: من قال: إنه اعتمر في شوال، وهذا أيضاً وهم، والظاهر - والله أعلم - أن بعض الرواة غلط في هذا، وأنه اعتكف في شوال فقال: اعتمر في شوال، لكن سياق الحديث، وقوله: اعتمر رسول الله ﷺ ثلاث عُمَر: عمرة في شوال، وعمرتين في ذي القعدة، يدل على أن عائشة أو من دونها، إنما قصد العمرة.

الثالثة: من قال: إنه اعتمر من التعميم بعد حجه، وهذا لم يقله أحد من أهل العلم، وإنما يظنه العوام،

أنشأ الإحرام، ولم يحلّ حتى حلّ منهما جميعاً، فطاف لهما طوافاً واحداً، وسعى لهما سعيّاً واحداً. وساق الهدى، كما دلت عليه النصوص المستفيضة التي تواترت تواتراً يعلمه أهل الحديث. والله أعلم.

فصل

في أعذار القائلين بهذه الأقوال،

وبيان منشأ الوهم والغلط

(عذر من قال، اعتمر ﷺ في رجب)

أما عُذر من قال: اعتمر في رجب، فحديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ اعتمر في رجب متفق عليه. وقد غلطت عائشة وغيرها، كما في «الصحيحين» عن مجاهد، قال: دخلت أنا وعُروة بن الزبير المسجد، فإذا عبد الله بن عمر جالساً إلى حُجْرَةِ عائشة، وإذا ناسٌ يُصلُّون في المسجد صلاة الضحى، قال: فسألناه عن صلاتهم. فقال: بدعة. ثم قلنا له: كم اعتمر رسول الله ﷺ؟ قال: أربعاً. إحداهن: في رجب، فكرهنا أن نردّ عليه. قال: وسمعتان عائشة أم المؤمنين في الحُجْرَةِ، فقال عروة: يا أمه، أو يا أم المؤمنين، ألا تسمعين ما يقول أبو عبد الرحمن؟ قالت: ما يقول؟ قال: يقول: إن رسول الله ﷺ اعتمر أربعَ عُمَرٍ، إحداهن في رجب. قالت: يرحمُ الله أبا عبد الرحمن، ما اعتمر عمرة قط إلا وهو شاهدٌ، وما اعتمر في رجب قط. وكذلك قال أنس، وابن عباس: إن عُمَرَهُ كُلُّهَا كانت في ذي القعدة، وهذا هو الصواب.

فصل

(عذر من قال، اعتمر ﷺ في شوال)

وأما مَنْ قال: اعتمر في شوال، فعُذْرُهُ ما رواه مالك في «الموطأ»، عن هشام بن عروة، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ، لم يعتمر إلا ثلاثاً، إحداهن في شوال، وإثنتين في ذي القعدة [مالك (٣٤٢/١)]، وقد وصله أبو داود: ١٩٩١. ولكن هذا الحديث مرسل، وهو غلط أيضاً، إما من هشام، وإما من عروة أصابه فيه ما أصاب ابن عمر. وقد رواه أبو داود مرفوعاً عن عائشة، وهو غلط أيضاً لا يصح رفعه. قال ابن عبد البر: وليس روايته مسنداً مما يذكر عن مالك في

صحة النقل. قلت: ويدلّ على بطلانه عن عائشة: أن عائشة، وابن عباس، وأنس بن مالك قالوا: لم يعتمر رسول الله ﷺ إلا في ذي القعدة. وهذا هو الصواب، فإن عُمَرَةَ الْحُدَيْبِيَّةِ وعُمَرَةَ الْقُضَيْيَّةِ، كانتا في ذي القعدة، وعُمَرَةُ الْقِرَانِ إنما كانت في ذي القعدة، وعُمَرَةُ الْجَعْرَانَةِ أيضاً كانت في أوّل ذي القعدة، وإنما وقع الاشتباه أنه خرج من مكة في شوال للقاء العدو، وفرغ من عدوه، وقسم غنائمهم، ودخل مكة ليلاً معتمراً من الجعرانة، وخرج منها ليلاً، فخفيت عُمَرَتُهُ هذه على كثير من الناس، وكذلك قال مُحَرِّشُ الكعبي. والله أعلم.

فصل

(عذر من قال، اعتمر ﷺ من التمتع بعد الحج)

وأما من ظن أنه اعتمر من التمتع بعد الحج، فلا أعلم له عُذْراً، فإن هذا خلافُ المعلوم المستفيض من حجته، ولم ينقله أحد قط، ولا قاله إمامٌ، ولعل ظاناً هذا سمع أنه أفرد الحج، ورأى أن كلَّ مَنْ أفرد الحج من أهل الآفاق لا بُدَّ له أن يخرج بعده إلى التمتع، فنزل حجة رسول الله ﷺ على ذلك، وهذا عينُ الغلط.

فصل

(عذر من قال، لم يعتمر ﷺ في حجته)

وأما من قال: إنه لم يعتمر في حجته أصلاً، فعُذْرُهُ أنه لما سمع أنه أفرد الحج، وعلم يقيناً أنه لم يعتمر بعد حجته قال: إنه لم يعتمر في تلك الحجة اكتفاءً منه بالعُمرة المتقدمة، والأحاديث المستفيضة الصحيحة تُردُّ قوله كما تقدم من أكثر من عشرين وجهاً، وقد قال: «هذه عمرة استمتعتن بها» وقالت حفصة: ما شأن الناس حلوا ولم تحل أنت من عُمرك؟ وقال سراقه بن مالك: تمتّع رسول الله ﷺ، وكذلك قال ابن عمر، وعائشة، وعمران بن حصين، وابن عباس، وصرح أنس، وابن عباس، وعائشة، أنه اعتمر في حجته وهي إحدى عُمَرَةِ الأربع.

فصل

(عذر من قال، اعتمر ﷺ عمرة حل منها)

وأما من قال: إنه اعتمر عمرة حل منها، كما قاله

رسول الله ﷺ أهل بالحج [مسلم: ٣٠١٠].

وفي «سنن ابن ماجه»، عن جابر، أن رسول الله ﷺ، أفرد الحج [صحيح: ابن ماجه: ١٢٤٠].

وفي «صحيح مسلم» عنه: خرجنا مع رسول الله ﷺ لا ننوي إلا الحج، لسننا نعرف العُمرة [مسلم: ٢٩٥٠].

وفي «صحيح البخاري»، عن عروة بن الزبير قال: حجَّ رسول الله ﷺ، فأخبرتني عائشة أن أول شيء بدأ به حين قَدِمَ مكة، أنه توضأ، ثم طاف بالبيت، [ثم لم تكن عُمرة]، ثم حجَّ أبو بكر رضي الله عنه، فكان أول شيء بدأ به، الطَّواف بالبيت، ثم لم تكن عُمرة، ثم عُمَرُ رضي الله عنه مثل ذلك ثم حجَّ عثمانُ فرأيتُه أول شيء بدأ به الطَّواف بالبيت، ثم لم تكن عُمرة، ثم معاوية، وعبد الله بن عمر، ثم حجَّجت مع أبي الزبير بن القوام، فكان أول شيء بدأ به الطواف بالبيت، ثم لم تكن عُمرة، ثم رأيتُ فعل ذلك ابنُ عمر، ثم لم يَفُضْها عُمرة، وهذا ابنُ عمر عندهم، فلا يسألونه ولا أحد ممن مَضَى ما كانوا يبدؤون بشيء حين يَفُضُّون أقدامهم أول من الطَّواف بالبيت، ثم لا يَجْلُونَ، وقد رأيت أُمِّي وخالتي حين تَقْدَمَانِ، لا تبدآن بشيء أول من البيت تطوفان به، ثم إنهما لا تَجْلَانِ، وقد أخبرتني أُمِّي أنها أهلت هي واختها والزبير، وفلان، وفلان بعُمرة، فلما مسحوا الرُّكْنَ حلوا [البخاري: ١٦٤١].

وفي «سنن أبي داود»: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد بن سلمة، وُوَعِيْبُ بن خالد، كلاهما عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ مُوافين لِهلال ذي الحجة، فلما كان بذي الحليفة قال: «مَنْ شَاءَ أَنْ يُهْلَ بِحَجٍّ فَلْيُهْلْ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلَ بِعُمرة فَلْيُهْلَ بِعُمرة»، ثم انفرد وهيب في حديثه بأن قال عنه ﷺ: «فإني لولا أنني أهديتُ، لأَهْلَلْتُ بِعُمرة». وقال الآخر: «وأنا أنا فأهْلُ بالحج» [أبو داود: ١٧٧٨] فصَحَّ بمجموع الروایتين، أنه أهل بالحج مفرداً.

فأرباب هذا القول عذرهم ظاهر كما ترى، ولكن

القاضي أبو يعلى ومَنْ وافقه، فعذرهم ما صحَّ عن ابن عمر وعائشة، وإمران بن حصين وغيرهم أنه ﷺ تمتع، وهذا يحتل أنه تمتع خلً منه، ويحتمل أنه لم يَجَلْ، فلما أخبر معاوية أنه قصر عن رأسه بِمَشْقَصٍ على المروة، وحديثه في «الصحيحين» [البخاري: ١٥٧١، ومسلم: ٣٠٢١] دلَّ على أنه خلٌ من إحرامه، ولا يُمكن أن يكونَ هذا في غير حَجَّة الوداع، لأن معاوية إنما أسلم بعد الفتح، والنبى ﷺ لم يكن زمن الفتح مُحَرِّماً، ولا يُمكن أن يكون في عمرة الجفرانة لوجهين، أحدهما: أن في بعض ألفاظ الحديث الصحيح «وذلك في حَجَّتِه».

والثاني: أن في رواية النسائي بإسناد صحيح «وذلك في أيام العشر» [النسائي: ١٥٣/٥ - ١٥٤] وهذا إنما كان في حجته، وحمل هؤلاء رواية من روى أن المتعة كانت له خاصة، على أن طائفة منهم خصوا بالتحليل من الإحرام مع سوق الهدي دون مَنْ ساق الهدي من الصحابة، وأنكر ذلك عليهم آخرون، منهم شيخنا أبو العباس. وقالوا: من تأمل الأحاديث المستفيضة الصحيحة، تبين له أن النبي ﷺ لم يَجَلْ، لا هو ولا أحد ممن ساق الهدي.

فصل

في أَعذار الذين وهما في صفة حجته

[عذر من قال، حجَّ مفرداً ولم يعتمر فيه] أما من قال: إنه حجَّ حجاً مفرداً، لم يَتمَيِزْ فيه، فعذره ما في «الصحيحين» عن عائشة، أنها قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حَجَّة الوداع، قَمِينًا مِنْ أَهْلِ بَعْمرة، وَمِنَّا مِنْ أَهْلِ بَحج وعمرة، وَمِنَّا مِنْ أَهْلِ بَحج، وأهل رسول الله ﷺ بالحج [البخاري: ١٦٥١، ومسلم: ٢٩١٣]. وقالوا: هذا التقسيم والتنوع، صريح في إهلاله بالحج وحده.

ولمسلم عنها، أن رسول الله ﷺ أهل بالحج مفرداً [مسلم: ٢٩١٠].

وفي «صحيح البخاري» عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ لَبَّى بالحجَّ وَخَذَهُ [مسلم: ٢٩٩٥، وليس في البخاري].

وفي «صحيح مسلم»، عن ابن عباس، أن

ما عذرهم في حُكمه وخبره الذي حكم به على نفسه، وأخبر عنها بقوله: سَقَتْ الهدْيَ وقرنت، وخبر من هو تحت بطن ناقته، وأقرب إليه حيثنذ من غيره، فهو من أصدق الناس يسمعه يقول: «لَيْتَكَ بِحَاجَةٍ وَعُمْرَةٍ»، وخبر مَنْ هو مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ عَنْهُ ﷺ، علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حين يُخبر أنه أَهْلٌ بهما جميعاً، ولئى بهما جميعاً، وخبر زوجته حفصة في تقريره لها على أنه معتبر بعمرة لم يَحِلَّ منها، فلم يُكَيِّرْ ذلك عليها، بل صدَّقها، وأجابها بأنه مع ذلك حَاجٌّ، وهو ﷺ لا يُقَرُّ على باطل يسمعه أصلاً، بل يُنْكِرُهُ. وما عذرهم عن خبره ﷺ عن نفسه بالوحي الذي جاءه من ربه، يأمره فيه أن يُهْلَ بِحَاجَةٍ فِي عُمْرَةٍ، وما عذرهم عن خبر من أخبر عنه من أصحابه، أنه قرن، لأنه علم أنه لا يَحُجُّ بعدها، وخبر من أخبر عنه ﷺ أنه اعتمر مع حَجَّتِهِ، وليس مع من قال: إنه أفرد الحجَّ شيء من ذلك البتة، فلم يَقُلْ أَحَدٌ منهم عنه: إِنِّي أَفْرَدْتُ، ولا أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي يَأْمُرُنِي بِالْإِفْرَادِ، ولا قَالَ أَحَدٌ: مَا بَالُ النَّاسِ حَلُّوا، ولم تَحِلَّ مِنْ حَجَّتِكَ، كما حَلُّوا هم بعمرة، ولا قال أَحَدٌ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: لَيْتَكَ بِعُمرة مفردة البتة، ولا بحج مفرد، ولا قال أَحَدٌ: إنه اعتمر أربع عُمَرِ الرَّابِعَةِ بعد حجته، وقد شهد عليه أربعة من الصحابة أنهم سمعوه يُخَبِّرُ عَنْ نَفْسِهِ بِأَنْ قَارَنَ، ولا سَبِيلَ إِلَى دَفْعِ ذَلِكَ إِلَّا بِأَنْ يَقَالَ: لَمْ يَسْمَعُوهُ. ومعلوم قطعاً أن تطرُق الوهم والغلط إلى من أخبر عما فهمه هو مِنْ فعله يظُنُّه كذلك أولى من تطرُق التكذيب إلى من قال: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: كَذَا وَكَذَا وإنه لم يسمعه، فإن هذا لا يطرُق إليه إِلَّا التَّكْذِيبُ، بخلاف خبر من أخبر عما ظنَّه مِنْ فعله وكان واهماً، فإنه لا يُنسَبُ إِلَى الكَذِبِ، ولقد نَزَّهَ اللَّهُ عَلِيّاً، وَأَنْسَأَ، وَالْبِرَاءَ، وَحَفْصَةَ عَنْ أَنْ يَقُولُوا: سَمِعْنَاهُ يَقُولُ: كَذَا وَلَمْ يَسْمَعُوهُ، وَنَزَّهَهُ رَبُّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَنْ يَرْسُلَ إِلَيْهِ: أَنْ أَفْعَلَ كَذَا وَكَذَا ولم يفعله، هذا مِنْ أَمَحِلِ الْمُحَالِ، وَأَبْطَلِ الْبَاطِلِ، فكيف والذين ذكروا الإفراد عنه لم يُخَالَفُوا هَؤُلَاءِ فِي مَقْصُودِهِمْ، ولا نَاقِضُوهُمْ، وإنما أَرَادُوا إِفْرَادَ الْأَعْمَالِ، واقتصاره على عمل المفرد،

فإنه ليس في عمله زيادة على عمل المفرد. ومن روى عنهم ما يُؤمُّ خلاف هذا، فإنه عُبِّرَ بحسب ما فهمه، كما سمع بكر بن عبد الله ابن عمر يقول: أفرد الحج، فقال: لئى بالحج وحده، فحمله على المعنى. وقال سالم ابنه عنه ونافع مولاة. إنه تمتع، فبدأ فأهْلَ بِالْعُمرة، ثم أَهْلَ بِالْحَجِّ، فهذا سالم يُخَبِّرُ بخلاف ما أخبر به بكر، ولا يَصِحُّ تأويل هذا عنه بأنه أمر به، فإنه فسره بقوله: وبدأ فأهْلَ بِالْعُمرة، قم أَهْلُ بِالْحَجِّ، وكذا الذين رَوَوْا الإفراد عن عائشة رضي الله عنها، فهما: عُروة، والقاسم، وروى القرآن عنها عُروة، ومجاهد، وأبو الأسود يروي عن عُروة الإفراد، والزُّهري يروي عنه القرآن. فإن قدرنا تساقط الروایتين، سلمت رواية مجاهد، وإن حُوِّلَتْ رواية الإفراد على أنه أفرد أعمال الحج، تصادقت الروايات وصدق بعضها بعضاً، ولا ريب أن قول عائشة، وابن عمر، أفرد الحج، محتمل لثلاثة معان: أحدها: الإهلال به مفرداً.

الثاني: إفراؤه أعماله.

الثالث: أنه حجَّ حجة واحدة لم يحجَّ معها غيرها، بخلاف العمرة، فإنها كانت أربع مرات.

وأما قولهما: تمتع بالعمرة إلى الحج، وبدأ فأهْلَ بِالْعُمرة، ثم أَهْلَ بِالْحَجِّ، فحكما فعله، فهذا صريح لا يحتول غير معنى واحد، فلا يجوز رده بالمجمل، وليس في رواية الأسود بن يزيد وعمرة عن عائشة أنه أَهْلُ بِالْحَجِّ ما يُناقض رواية مجاهد وعُروة عنها أنه قرن، فإن القارن حَاجٌّ مُهْلٌ بِالْحَجِّ قطعاً، وعمرته جزء من حجته، فمن أخبر عنها أنه أَهْلُ بِالْحَجِّ، فهو غير صادق. فإن ضُمَّتْ رواية مجاهد إلى رواية عمرة والأسود، ثم ضُمَّتْا إلى رواية عُروة، تبين من مجموع الروايات أنه كان قارناً، وصدق بعضها بعضاً، حتى لو لم يحتول قول عائشة وابن عمر إِلَّا معنى الإهلال به مفرداً، لَوَجَبَ قطعاً أن يكون سبيله سبيل قول ابن عمر: اعتمر في رجب وقول عائشة أو عُروة: إنه ﷺ اعتمر في شوال، إِلَّا أن تلك الأحاديث الصحيحة الصريحة لا سبيل أصلاً إلى تكذيب روايتها، ولا تأويلها وحملها على غير ما دلت عليه، ولا سبيل إلى

تقديم هذه الرواية المجملة التي قد اضطربت على روايتها، واختلّف عنهم فيها، وعارضهم مَنْ هو أوثق منهم أو مثلهم عليها.

وأما قول جابر: إنه أفرد الحج، فالصريح من حديثه ليس فيه شيء من هذا، وإنما فيه إخباره عنهم أنفسهم أنهم لا ينوون إلا الحج، فأين في هذا ما يدل على أن رسول الله ﷺ لبي بالحج مفرداً.

وأما حديثه الآخر الذي رواه ابن ماجه، أن رسول الله ﷺ أفرد الحج، فله ثلاث طرق. أجودها: طريق الدراوردي عن جعفر بن محمد عن أبيه، وهذا يقيناً مختصر من حديث الطويل في حجة الوداع، ومروي بالمعنى، والناس خالفوا الدراوردي في ذلك. وقالوا: أهل بالحج، وأهل بالتوحيد. والطريق الثاني: فيها مطرّف بن مُصعب، عن عبد العزيز بن أبي حازم، عن جعفر ومطرّف، قال ابن حزم: هو مجهول، قلت: ليس هو بمجهول، ولكنه ابنُ أخت مالك، روى عنه البخاري، وبشر بن موسى، وجماعة. قال أبو حاتم: صدوق مضطرب الحديث، هو أحبُّ إليَّ من إسماعيل بن أبي أويس، وقال ابن عدي: يأتي بمنكير، وكان أباً محمد ابن حزم رأى في النسخة مطرّف بن مُصعب فجعله، وإنما هو مطرّف أبو مصعب، وهو مطرّف بن عبد الله بن مطرّف بن سليمان بن يسار. وممن غلّط في هذا أيضاً، محمد بن عثمان الذهبي في كتابه «الضعفاء» فقال: مطرّف بن مُصعب المدني عن ابن أبي ذئب منكر الحديث. قلت: والراوي عن ابن أبي ذئب، والدراوردي، ومالك، هو مطرّف أبو مصعب المدني، وليس بمنكر الحديث، وإنما غرّه قولُ ابن عدي يأتي بمنكير، ثم ساق له منها ابنُ عدي جملة، لكن هي من رواية أحمد بن داود بن صالح عنه، كذبه الدارقطني، والبلاء فيها منه.

والطريق الثالث: لحديث جابر فيها محمد بن عبد الوهاب يُنظر فيه من هو وما حاله عن محمد بن مسلم، إن كان الطائفي، فهو ثقة عند ابن معين، ضعيف عند الإمام أحمد، وقال ابن حزم: ساقط البتة، ولم أر هذه العبارة فيه لغيره، وقد استشهد به مسلم، قال ابن حزم: وإن كان غيره، فلا أدري من

هو؟ قلت: ليس بغيره، بل هو الطائفي يقيناً. ويكلّ حال فلو صح هذا عن جابر، لكان حكمه حكم المروي عن عائشة وابن عمر، وسائر الرواة الثقات، إنما قالوا: أهل بالحج، فلعن هؤلاء حملوه على المعنى، وقالوا: أفرد الحج، ومعلوم أن العمرة إذا دخلت في الحج، فمن قال: أهل بالحج، لا يُناقض من قال: أهل بهما، بل هذا فصل، وذاك أجمل. ومن قال: أفرد الحج، يحتمل ما ذكرنا من الوجوه الثلاثة، ولكن هل قال أحد قطّ عنه: إنه سمعه يقول: «لبيك بحجّة مفردة»، هذا ما لا سبيل إليه، حتى لو وجد ذلك لم يُقدّم على تلك الأساطين التي ذكرناها والتي لا سبيل إلى دفعها البتة، وكان تغليط هذا أو حملُه على أول الإحرام، وأنه صار قارناً في أثنائه متعيناً، فكيف ولم يثبت ذلك، وقد قدمنا عن سفيان الثوري، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قرن في حجة الوداع. رواه زكريا الساجي، عن عبد الله بن أبي زياد القَطَواني، عن زيد بن الحُبَاب، عن سفيان. ولا تناقض بين هذا وبين قوله: أهل بالحج، وأفرد بالحج، ولبي بالحج، كما تقدم.

فصل

(وجوه الترجيح لرواية من روى القرآن)

فحصل الترجيحُ لرواية من روى القرآن لوجوه عشرة.

أحدها: أنهم أكثرُ كما تقدّم.

الثاني: أن طرق الإخبار بذلك تنوّعت كما بيّناه.

الثالث: أن فيهم من أخبر عن سماعه ولفظه صريحاً، وفيهم من أخبر عن إخباره عن نفسه بأنه فعل ذلك، وفيهم من أخبر عن أمر ربه له بذلك، ولم يجيء شيء من ذلك في الأفراد.

الرابع: تصديقُ روايات مَنْ روى أنه اعتمر أربع عمر لها.

الخامس: أنها صريحة لا تحتجّل التأويل، بخلاف روايات الأفراد.

السادس: أنها متضمنة زيادةً سكّت عنها أهلُ

الإفراد أو نفقوها، والذاكر الزائد مقدّم على الساكت، والمُثَبِّت مقدّم على التافي.

السابع: أن رواية الأفراد أربعة: عائشة، وابن عمر، وجابر، وابن عباس، والأربعة رَوَوْا القرآن، فإن صيرنا إلى تساقط رواياتهم، سلّمَت رواية من عداهم للقرآن عن معارض، وإن صيرنا إلى الترجيح، وجب الأخذ برواية من لم تضطرب الرواية عنه ولا اختلفت، كالبراء، وأنس، وعمر بن الخطاب، وإمران بن حصين، وحفصة، ومن معهم ممن تقدم.

الثامن: أنه النسك الذي أمر به من ربه، فلم يكن ليعدل عنه.

التاسع: أنه النسك الذي أمر به كل من ساق الهدى، فلم يكن ليامرهم به إذا ساقوا الهدى، ثم يسوق هو الهدى ويخالفه.

العاشر: أنه النسك الذي أمر به الله وأهل بيته، واختاره لهم، ولم يكن ليختار لهم إلا ما اختار لنفسه.

وتمت ترجيح حادي عشر، وهو قوله «دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة»، وهذا يقتضي أنها قد صارت جزءاً منه، أو كالجزء الداخل فيه، بحيث لا يفصل بينها وبينه، وإنما تكون مع الحج كما يكون الداخل في الشيء معه.

وترجيح ثاني عشر: وهو قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه للضبي بن معبد وقد أهل بحج وعمره، فأنكر عليه زيد بن صوحان، أو سلمان بن ربيعة، فقال له عمر: هُدَيْتَ لِسَنَةِ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ ﷺ [صحيح: أحمد: ٨٣، والنسائي (١٤٨/٥)، وابن ماجه: ٢٩٧٠]، وهذا يوافق رواية عمر عنه ﷺ أن الوحي جاءه من الله بالإهلال بهما جميعاً، فدل على أن القرآن سنّته التي فعّلها، وامتلأ أمر الله له بها.

وترجيح ثالث عشر: أن القارن تقع أعماله عن كل من النسكين، فيقع إحرامه وطوافه وسعيه عنهما معاً، وذلك أكمل من وقوعه عن أحدهما، وعمل كل فعل على جدة.

وترجيح رابع عشر: وهو أن النسك الذي اشتمل على سق الهدى أفضل بلا ريب من نسك خلا عن الهدى. فإذا قرّن، كان هديّه عن كل واحد من

النسكين، فلم يخلُ نسكٌ منهما عن هدي، ولهذا - والله أعلم - أمر رسول الله ﷺ من ساق الهدى أن يهلّ بالحجّ والعمره معاً، وأشار إلى ذلك في المتفق عليه من حديث البراء بقوله: «إني سقْتُ الهديَّ وقرّنتُ».

(قول المصنف: التمتع لأفضل من الإفراد)

وترجيح خامس عشر: وهو أنه قد ثبت أن التمتع أفضل من الإفراد لوجوه كثيرة. منها: أنه ﷺ أمرهم بفسخ الحج إليه، ومحال أن ينقلهم من الفاضل إلى المفضول الذي هو دونه: ومنها: أنه تأسف على كونه لم يفعله بقوله: «لو استقبلتُ من أمري ما استقبلتُ لما سقْتُ الهديَّ ولَجَعَلْتُهَا عُمْرَةً». ومنها: أنه أمر به كل من لم يسق الهدى. ومنها: أن الحجّ الذي استقر عليه فعله وفعل أصحابه القرآن لمن ساق الهدى، والتمتع لمن لم يسق الهدى، ولوجوه كثيرة غير هذه، والتمتع إذا ساق الهدى، فهو أفضل من متمتع اشتراه من مكة، بل في أحد القولين: لا هدي إلا ما جمع فيه بين الجلّ والحرم. فإذا ثبت هذا، فالقارن السائق أفضل من متمتع لم يسق، ومن متمتع ساق الهدى لأنه قد ساق من حين أحرم، والمتمتع إنما يسوق الهدى من أدنى الجلّ، فكيف يجعل مُقَرَّدَ لم يسق هدياً، أفضل من متمتع ساقه من أدنى الحل؟ فكيف إذا جعل أفضل من قارن ساقه من الميقات، وهذا بحمد الله واضح.

فصل

(عذر من قال: حجّ متعمّلاً متمتعاً حل فيه من إحرامه) وأما قول من قال: إنه حجّ متمتعاً متمتعاً حل فيه من إحرامه، ثم أحرم يوم التروية بالحجّ مع سوق الهدى. فعذره ما تقدم من حديث معاوية، أنه قصر عن رسول الله ﷺ بمشقص في العشر، وفي لفظ: وذلك في حجة. وهذا مما أنكره الناس على معاوية، وغلطوه فيه، وأصابه فيه ما أصاب ابن عمر في قوله: إنه اعتمر في رجب، فإن سائر الأحاديث الصحيحة المستفيضة من الوجوه المتعلّدة كلها تدل على أنه ﷺ لم يحلّ من إحرامه إلا يوم النحر، ولذلك أخبر عن

نفسه بقوله: «لَوْلَا أَنْ مَعِيَ الْهَدْيَ لَأَخَلَّتْ» وقوله: «إِنِّي سُمْتُ الْهَدْيَ وَقَرَنْتُ فَلَا أَجِلُ حَتَّى أَنْتَحِرَ». وهذا خبر عن نفسه، فلا يدخله الوهم ولا الغلط، بخلاف خبر غيره عنه، لا سيما خبراً يخالف ما أخبر به عن نفسه، وأخبر عنه به الجهم الغفير، أنه لم يأخذ من شعره شيئاً، لا بتقصير ولا حلق، وأنه بقي على إحرامه حتى حَلَقَ يَوْمَ النحر، ولعل معاوية قصر عن رأسه في عمرة الجعرانة، فإنه كان حينئذ قد أسلم، ثم نسي، فظن أن ذلك كان في العشر، كما نسي ابن عمر أن عُمَرُ كانت كلها في ذي القعدة. وقال: كانت [إحداهن] في رجب، وقد كان معه فيها، والوهم جائز على من سوى الرسول ﷺ. فإذا قام الدليل عليه، صار واجباً.

وقد قيل: إن معاوية لعله قصر عن رأسه بقية شعر لم يكن استوفاه الحلاق يوم النحر، فأخذه معاوية على المروة، ذكره أبو محمد ابن حزم، وهذا أيضاً من وهمه، فإن الحلاق لا يقي غلطاً شعراً يقصر منه، ثم يقي منه بعد التقصير بقية يوم النحر، وقد قسم شعر رأسه بين الصحابة، فأصاب أبا طلحة أحد الشقين، وبقيّة الصحابة اقتسموا الشق الآخر، الشعرة، والشعرتين، والشعرات [مسلم: ٣١٥٢] وأيضاً فإنه لم يسع بين الصفا والمروة إلا سعيّاً واحداً وهو سعيه الأول، لم يسع عقب طواف الإفاضة، ولا اعتمر بعد الحج قطعاً، فهذا وهم مخض. وقيل: هذا الإسناد إلى معاوية وقع فيه غلط وخطأ، أخطأ فيه الحسن بن علي، فجعله عن معمر، عن ابن طاوس [أبو داود: ١٨٠٣]. وإنما هو عن هشام بن حجير، عن ابن طاوس. وهشام: ضعيف.

قلت: والحديث الذي في البخاري عن معاوية، قَصُرْتُ عَنْ رَأْسِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِمَشْقَصٍ وَلَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا، والذي عند مسلم: قَصُرْتُ عَنْ رَأْسِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِمَشْقَصٍ عَلَى الْمَرْوَةِ. وليس في «الصحيحين» غير ذلك.

وأما رواية من روى «في أيام العشر» فليست في

ويشبه هذا وهم معاوية في الحديث الذي رواه أبو داود، عن قتادة، عن أبي شيخ الهنائي، أن معاوية قال لأصحاب النبي ﷺ: هل تعلمون أن النبي ﷺ نَهَى عَنْ كَذَا، وَعَنْ زُكُوبِ جُلُودِ الثُّمُورِ؟ قالوا: نَعَمْ.

قال: فَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ نَهَى أَنْ يُقَرَّنَ بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ؟ قالوا: أَمَّا هَذَا، فَلَا. فَقَالَ: أَمَّا إِنَّهَا مَعَهَا وَلَكِنَّكُمْ تَنْسِيهِمْ [أحمد: ١٦٨٣٣، وأبو داود: ١٧٩٤]. ونحن نَشْهَدُ بِاللَّهِ: إن هذا وهم من معاوية، أو كذب عليه، فلم يَنْهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ قط، وأبو شيخ لا يحتاج به، فضلاً عن أن يقدم على الثقات الحفاظ الأعلام، وإن روى عنه قتادة ويحيى بن أبي كثير. واسمه خيوان بن خلدة بالخاء المعجمة، وهو مجهول^(١).

فصل

(عذر من قال، حج متعمداً)

تمتعاً لم يحل منه لأجل سوق الهدي

وأما من قال: حج متعمداً تمتعاً لم يحل منه لأجل سوق الهدي كما قاله صاحب «المغني» وطائفة، فعذرهم قول عائشة وابن عمر: تمتع رسول الله ﷺ. وقول حفصة: ما شأن الناس حلوا ولم تحل من عمرتك، وقول سعد في المتعة: قد صنعها رسول الله ﷺ وصنعناها معه، وقول ابن عمر لمن سأله عن متعة الحج هي حلال: فقال له السائل: إن أباك قد نهى عنها، فقال: أرايت إن كان أبي نهى عنها، وصنعها رسول الله ﷺ، أم أمر أبي تنبّع، أم أمر رسول الله ﷺ؟ فقال الرجل: بل أمر رسول الله ﷺ. فقال: لقد صنعها رسول الله ﷺ

[صحيح: الترمذي: ٨٢٤].

(١) لكن نقل في «التهذيب» توثيقه عن ابن سعد، وابن حبان، والمجلي، وذكر أنه روى عن ابن عمر ومعاوية، وروى عنه مولاة عبيد ويهس وقاتة ويحيى بن أبي كثير، ومطر الوراق.

قال هؤلاء: ولولا الهدى لحل كما يحل المتمتع الذي لا هدى معه، ولهذا قال: «لولا أن معي الهدى لأحللت» فأخبر أن المانع له من الحل سوق الهدى، والقارن إنما يمنعه من الحل القرآن لا الهدى. وأرباب هذا القول قد يسمون هذا المتمتع قارناً، لكونه أحرم بالحج قبل التحلل من العمرة ولكن القرآن المعروف أن يحرم بهما جميعاً، أو يحرم بالعمرة، ثم يدخل عليها الحج قبل الطواف.

(الفرق بين القارن والمتمتع السابق للهدى)

والفرق بين القارن والمتمتع السابق من وجهين، أحدهما: من الإحرام، فإن القارن هو الذي يحرم بالحج قبل الطواف، إما في ابتداء الإحرام، أو في أثناءه.

والثاني: أن القارن ليس عليه إلا سعي واحد، فإن أتى به أولاً، وإلا سعى عقيب طواف الإفاضة، والمتمتع عليه سعي ثان عند الجمهور^(١). وعن أحمد رواية أخرى: أنه يكفيه سعي واحد كالقارن، والنبي ﷺ لم يسع سعيًا ثانيًا عقيب طواف الإفاضة، فكيف يكون متمتعاً على هذا القول.

فإن قيل: فعلى الرواية الأخرى، يكون متمتعاً، ولا يتوجه الإلزام، ولها وجه قوي من الحديث الصحيح، وهو ما رواه مسلم في «صحيحه»، عن جابر قال: لم يطف النبي ﷺ، ولا أصحابه بين الصفا والمروة إلا طوافاً واحداً. طوافه الأول لمسلم: ٣٠٨٥ هذا، مع أن أكثرهم كانوا متمتعين. وقد روى سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل قال: حلف طاوس: ما طاف أحد من أصحاب رسول الله ﷺ لحجه وعمرته إلا طوافاً واحداً.

قيل: الذين نظروا أنه كان متمتعاً متمتعاً خاصاً، لا يقولون بهذا القول، بل يوجبون عليه سعيين، والمعلوم من سته ﷺ، أنه لم يسع إلا سعيًا واحداً،

كما ثبت في الصحيح، عن ابن عمر، أنه قرن، وقدم مكة، فطاف بالبيت وبالصفا والمروة، ولم يزد على ذلك، ولم يحلق ولا قصر، ولا حل من شيء حرم منه، حتى كان يوم النحر، فنحر وحلق رأسه، ورأى أنه قد قضى طواف الحج والعمرة بطوافه الأول، وقال: هكذا فعل رسول الله ﷺ [البخاري: ١٦٤٠، ومسلم: ٢٩٨٩]. ومراده بطوافه الأول الذي قضى به حجه وعمرته: الطواف بين الصفا والمروة بلا ريب.

وذكر الدارقطني، عن عطاء ونافع، عن ابن عمر، وجابر: أن النبي ﷺ، إنما طاف لحجه وعمرته طوافاً واحداً، وسعى سعيًا واحداً، ثم قدم مكة، فلم يسع بينهما بعد الصَّدْر^(٢). فهذا يدل على أحد أمرين، ولا بُد إما أن يكون قارناً، وهو الذي لا يمكن من أوجب على المتمتع سعيين أن يقول غيره، وإما أن المتمتع يكفيه سعي واحد، ولكن الأحاديث التي تقدمت في بيان أنه كان قارناً صريحة في ذلك، فلا يُعَدَّل عنها..

فإن قيل: فقد روى شعبة، عن حميد بن هلال، عن مطرف، عن عمران بن حصين، أن النبي ﷺ وسلم، طاف طوافين، وسعى سعيين. رواه الدارقطني [٢٦٤/٢] عن ابن صاعد: حدثنا محمد بن يحيى الأزدي، حدثنا عبد الله بن داود، عن شعبة. قيل: هذا خبر معلول وهو غلط. قال الدارقطني: يقال: إن محمد بن يحيى حدث بهذا من حفظه، فوهم في متنه، والصواب بهذا الإسناد: أن النبي ﷺ قرن بين الحج والعمرة والله أعلم. وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يدل على أن هذا الحديث غلط.

وأظن أن الشيخ أباً محمد بن قدامة، إنما ذهب إلى أن رسول الله ﷺ كان متمتعاً، لأنه رأى الإمام أحمد قد نص على أن المتمتع أفضل من القران، ورأى أن الله سبحانه لم يكن ليختار لرسوله إلا الأفضل، ورأى الأحاديث قد جاءت بأنه تمتع، ورأى أنها صريحة في أنه لم يحل، فأخذ من هذه المقدمات

(١) جاء في حديث عائشة رضي الله عنها المخرج في «الصحيحين»: فطاف الذين كانوا أهلوا بالعمرة بالبيت وبين الصفا والمروة ثم حلوا، ثم طافوا طوافاً آخر بعد أن رجعوا من منى، وأما الذين جمعوا بين الحج والعمرة، فإنما طافوا طوافاً واحداً.

(٢) الدارقطني (٢/٢٦١)، وفي سنده سليمان بن أبي داود الحراني وهو مجهول، ووقع في الدارقطني «عطاء بن نافع» وهو تحريف.

الأربع أنه تمتع تمتعاً خاصاً لم يحل منه، ولكن أحمد لم يرجح التمتع، لكون النبي ﷺ حججاً متمتعاً، كيف وهو القائل: لا أشك أن رسول الله ﷺ كان قارناً، وإنما اختار التمتع لكونه آخر الأمرين من رسول الله ﷺ، وهو الذي أمر به الصحابة أن يفسحوا حجهم إليه، وتأسف على فوته.

(إن ساق الهدى فالقرآن أفضل وإن لم يسق فالتمتع أفضل)

ولكن نقل عنه المروزي، أنه إذا ساق الهدى، فالقرآن أفضل، فمن أصحابه من جعل هذا رواية ثانية، ومنهم من جعل المسألة رواية واحدة، وأنه إن ساق الهدى، فالقرآن أفضل، وإن لم يسق فالتمتع أفضل، وهذه طريقة شيخنا، وهي التي تليق بأصول أحمد والنبي ﷺ لم يتم أنه كان جعلها عمرة مع سوقه الهدى، بل ود أنه كان جعلها عمرة ولم يسق الهدى.

(هل التمتع مع ترك)

سوق الهدى أفضل من القرآن مع السوق؟

بقي أن يقال: فاي الأمرين أفضل، أن يسوق ويفرن، أو يترك السوق ويتمتع كما. ود النبي ﷺ أنه فعله.

قيل: قد تعارض في هذه المسألة أمران.

أحدهما: أنه ﷺ قرن وساق الهدى، ولم يكن الله سبحانه ليختار له إلا أفضل الأمور، ولا سيما وقد جاءه الوحي به من ربه تعالى، وخير الهدى هديه ﷺ.

والثاني قوله: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدى، ولجعلتها عمرة». فهذا يقتضي، أنه لو كان هذا الوقت الذي تكلم فيه هو وقت إحرامه، لكان أحرم بعمرة ولم يسق الهدى، لأن الذي استدبره هو الذي فعله، ومضى فصار خلفه، والذي استقبله هو الذي لم يفعله بعد، بل هو أمامه، فبين أنه لو كان مستقبلاً لما استدبره، وهو الإحرام بالعمرة دون هدي، ومعلوم، أنه لا يختار أن يتنقل عن الأفضل إلى المفضول، بل إنما يختار الأفضل، وهذا يدل على أن آخر الأمرين منه ترجيح التمتع.

ولمن رجح القرآن مع السوق أن يقول: هو ﷺ لم يقل هذا، لأجل أن الذي فعله مفضول مرجوح، بل

لأن الصحابة شق عليهم أن يحلوا من إحرامهم مع بقائه هو مُحَرِّماً، وكان يختار موافقتهم ليفعلوا ما أمروا به مع انشراح وقبول ومحبة، وقد ينتقل عن الأفضل إلى المفضول، لما فيه من الموافقة وتأليف القلوب، كما قال لعائشة: «لولا أن قومك حديثو عهدٍ بجاهليَّةٍ لنقضت الكعبة وجعلت لها بابين» [البخاري: ١٥٨٦، وسلم: ٣٢٤٠]. فهذا ترك ما هو الأولى لأجل الموافقة والتأليف، فصار هذا هو الأولى في هذه الحال، فكذلك اختياره للمتعة بلا هدي. وفي هذا جمع بين ما فعله وبين ما ودّه وتمناه، ويكون الله سبحانه قد جمع له بين الأمرين، أحدهما بفعله له، والثاني: بتمنيه وودّه له، فأعطاه أجر ما فعله، وأجر ما نواه من الموافقة وتمناه، وكيف يكون نُسكٌ يتخلله التحلل ولم يسق فيه الهدى أفضل من نُسكٍ لم يتخلله تحلل، وقد ساق فيه مئة بذنة، وكيف يكون نُسكٌ أفضل في حقه من نسكٍ اختاره الله له، وأتاه به الوحي من ربه.

فإن قيل: التمتع وإن تخلله تحلل، لكن قد تكرّر فيه الإحرام، وإنشاؤه عبادة محبوبة للرب، والقرآن لا يتكرر فيه الإحرام؟

قيل: في تعظيم شعائر الله بسوق الهدى، والتقرب إليه بذلك من الفضل ما ليس في مجرد تكرار الإحرام، ثم إن استدامته قائمة مقام تكرره، وسوق الهدى لا مقابل له يقوم مقامه.

(قول المصنف: التمتع أفضل من إفراد تعقبه عمرة)

فإن قيل: فايما أفضل، أفراد يأتي عقبه بالعمرة أو تمتع يحل منه، ثم يحرم بالحج عقبه؟

قيل: معاذ الله أن نظن أن نُسكاً قط أفضل من النُسك الذي اختاره الله لأفضل الخلق، وسادات الأمة، وأن نقول في نسك لم يفعله رسول الله ﷺ، ولا أحد من الصحابة الذين حجوا معه، بل ولا غيرهم من أصحابه: إنه أفضل مما فعلوه بأمره، فكيف يكون حج على وجه الأرض أفضل من الحج الذي حجّه النبي صلوات الله عليه، وأمر به أفضل الخلق، واختاره لهم، وأمرهم بفسخ ما عداه من الأنسك إليه، وود أنه كان فعله، لا حج قط أكمل من هذا. وهذا وإن صح عنه الأمر لمن ساق الهدى

الحديث، وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، ضعيف.

وأما حديثه الثاني: فيرويه عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي. حدثني أبي عن أبيه عن جده قال الدارقطني: عيسى بن عبد الله يقال له: مبارك، وهو متروك الحديث.

وأما حديث علقمة عن عبد الله، فيرويه أبو بردة عمرو بن يزيد، عن حماد بن إبراهيم، عن علقمة. قال الدارقطني: وأبو بردة ضعيف، ومَنْ دونه في الإسناد ضعفاء انتهى. وفيه عبد العزيز بن أبان، قال يحيى: هو كذاب خبيث. وقال الرازي والنسائي: متروك الحديث.

وأما حديث عمران بن حصين، فهو مما غَلِظَ فيه محمد بن يحيى الأزدي، وحدث به من حفظه، فوهم فيه، وقد حدث به على الصواب مراراً، ويقال: إنه رجع عن ذكر الطواف والسعي.

وقد روى الإمام أحمد، والترمذي، وابن حبان في «صحيحه» من حديث الدراوردي، عن عُبيد الله ابن عمر، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَنَ بَيْنَ حَجَّتِهِ وَعُمْرَتِهِ، أَجَزَّاهُ لُهُمَا طَوَافٌ وَاحِدٌ». ولفظ الترمذي: «مَنْ أَحْرَمَ بِالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ أَجَزَّاهُ طَوَافٌ وَسَعْيٌ وَاحِدٌ عَنْهُمَا، حَتَّى يَجِلَّ مِنْهُمَا جَمِيعاً» [صحيح: أحمد: ٥٣٥٠، والترمذي: ٩٤٨، وابن حبان: ٩٩٣].

وفي «الصحيحين»، عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فَأَهْلَلْنَا بِعُمْرَةٍ، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ كَانَ مَعَهُ هَذِي فَلْيَهْلُ بِالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، ثُمَّ لَا يَجِلَّ حَتَّى يَجِلَّ مِنْهُمَا جَمِيعاً، فَطَافَ الَّذِينَ أَهْلُوا بِالْعُمْرَةِ، ثُمَّ خَلَوْا، ثُمَّ طَافُوا طَوَافاً آخَرَ بَعْدَ أَنْ رَجَعُوا مِنْ مِنًى، وَأَمَّا الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، فَأَتَمُّوا طَوَافاً وَاحِداً».

وصحَّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِعَائِشَةَ: «إِنَّ طَوَافَكَ بِالْبَيْتِ وَالصَّامَةِ وَالْمَرْوَةِ، يَكْفِيكَ لِحَجَّكَ وَعُمْرَتِكَ».

وروى عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء، عن ابن عباس، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، طَافَ طَوَافاً وَاحِداً لِحَجَّتِهِ وَعُمْرَتِهِ [الدارقطني (٢/٢٩٦)]. وعبد الملك: أحد الثقات المشهورين، احتج به مسلم، وأصحاب

بالقرآن، ولمن لم يسقُ بالتمتع، ففي جواز خلافه نظر، وَلَا يُوحِشُكَ قِلَّةُ الْقَاتِلِينَ بِوَجوب ذلك، فإن فيهم البحر الذي لَا يَنْزِفُ عَبْدَ اللَّهِ بن عباس، وجماعة من أهل الظاهر، والسُّنَّةُ هي الْحَكْمُ بين الناس، والله المستعان.

فصل

(عذر من قال: حجٌّ هارناً)

طاف لهما طوافين وسعى لهما سبعين

وأما من قال: إنه حج قارناً قرناً طاف له طوافين، وسعى له سبعين، كما قاله كثير من فقهاء الكوفة، فعُدَّه ما رواه الدارقطني من حديث مجاهد، عن ابن عمر، أنه جمع بين حجٍّ وعُمْرَةٍ معاً، وقال: سيَّلَهُمَا واحد، قال: وطاف لهما طوافين، وسعى لهما سبعين. وقال: هكذا رأيتُ رسولَ الله ﷺ صنع كما صنعت [الدارقطني (٢/٢٥٨)].

وعن علي بن أبي طالب، أنه جمع بينهما، وطاف لهما طوافين، وسعى لهما سبعين، وقال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ صنع كما صنعت [الدارقطني (٢/٢٩٣)].

وعن علي رضي الله عنه أيضاً أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ قَارِناً، فَطَافَ طَوَافَيْنِ، وَسَعَى سَعْيَيْنِ [الدارقطني (٢/٢٩٣)].

وعن علقمة، عن عبد الله بن مسعود قال: طاف رسول الله ﷺ لحجته وعُمْرته طوافين، وسعى سبعين، وأبو بكر، وعمر، وعلي، وابن مسعود [الدارقطني (٢/٢٩٤)]. وعن عمران بن حصين، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ طَافَ طَوَافَيْنِ، وَسَعَى سَعْيَيْنِ [الدارقطني (٢/٢٩٤)].

وما أحسن هذا العذر، لو كانت هذه الأحاديث صحيحة، بل لَا يَصِحُّ مِنْهَا حرف واحد.

أما حديث ابن عمر، ففيه الحسن بن عُمارة، وقال الدارقطني: لم يروه عن الحكم غير الحسن بن عُمارة، وهو متروك الحديث.

وأما حديث علي رضي الله عنه الأول، فيرويه حفص بن أبي داود. وقال أحمد ومسلم: حفص متروك الحديث، وقال ابن خراش: هو كذاب يضع

السنن. وكان يقال له: الميزان، ولم يُتكلم فيه بضعف ولا جرح، وإنما أنكر عليه حديث الشفعة. وَتِلْكَ شَكَاةُ ظَاهِرٍ عَنْ عَارِهَا.

وقد روى الترمذي عن جابر رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قَرَنَ بين الحجِّ والعُمرة، وطاف لهما طوافاً واحداً [الترمذي: ٩٤٧] وهذا، وإن كان فيه الحجاج بن أرطاة، فقد روى عنه سفيان، وشعبة، وابن نمير، وعبد الرزاق، والخلق عنه. قال الثوري: وما بقي أحد أعرف بما يخرج من رأسه منه، وعيب عليه التدليس، وقُلَّ من سَلِمَ منه. وقال أحمد: كان من الحفاظ، وقال ابن معين: ليس بالقوي، وهو صدوق يدلّس. وقال أبو حاتم: إذا قال: حدثنا، فهو صادق لا نرتاب في صدقه وحفظه. وقد روى الدارقطني، من حديث ليث بن أبي سليم قال: حدثني عطاء، وطاوس، ومجاهد، عن جابر، وعن ابن عمر، وعن ابن عباس، أن النبي ﷺ لم يَطْلُفْ هو وأصحابه بين الصفا والمروة إلا طوافاً واحداً لعمرتهم وحجهم [الدارقطني (٢/٢٥٨)]. وليث بن أبي سليم، احتج به أهل السنن الأربعة، واستشهد به مسلم، وقال ابن معين: لا بأس به، وقال الدارقطني: كان صاحب سنة، وإنما أنكروا عليه الجمع بين عطاء وطاوس ومجاهد حسب. وقال عبد الوارث: كان من أوعية العلم، وقال أحمد: مضطرب الحديث، ولكن حدث عنه الناس، وضعفه النسائي، ويحيى في رواية عنه، ومثل هذا حديثه حسن^(١). وإن لم يبلغ رتبة الصحة.

وفي «الصحيحين» عن جابر قال: دخل رسول الله ﷺ على عائشة، ثم وجدها تبكي فَقَالَ: «مَا يَبْكِيكِ؟» فقالت: قد جُضْتُ وقد حَلَّ الناس، ولم أجُلْ ولم أَطْفِ بِالْبَيْتِ، فقال: «اغْتَسِلِي ثُمَّ أَهْلِي ففعلت، ثم وقفت المواقف حتى إذا طَهَّرْتُ، طافت بالكعبة وبالصفا والمروة، ثم قال: «قَدْ حَلَلْتُ مِنْ حَجِّكَ وَعُمْرَتِكَ جَمِيعاً» [البخاري: ١٦٥١، ومسلم: ٢٩٣٧].

وهذا يدل على ثلاثة أمور، أحدها: أنها كانت قارئة، والثاني: أن القارن يكفيه طواف واحد وسعي

واحد. والثالث: أنه لا يجب عليها قضاء تلك العمرة التي حاضت فيها، ثم أدخلت عليها الحج، وأنها لم تَرْفُصْ إحرام العمرة بحيضها، وإنما رفضت أعمالها والاقتصار عليها، وعائشة لم تَطْلُفْ أولاً طواف القدوم، بل لم تَطْلُفْ إلا بعد التعريف، وسعت مع ذلك، فإذا كان طواف الإفاضة والسعي بعد يكفي القارن، فلأن يكفيه طواف القدوم مع طواف الإفاضة، والسعي بعد يكفي القارن، فلأن يكفيه طواف القدوم مع طواف الإفاضة، وسعي واحد مع أحدهما بطريق الأولى، لكن عائشة تعذر عليها الطواف الأول، فصارت قصتها حُجَّةً، فإن المرأة التي يتعذر عليها الطواف الأول، تفعل كما فعلت عائشة، تُدْخِلُ الحجَّ على العُمرة، وتصير قارئة، ويكفيها لهما طواف الإفاضة والسعي عقبيه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ومما بين أنه ﷺ لم يَطْلُفْ طوافين، ولا سعى سبعين قول عائشة رضي الله عنها: وأما الذين جمعوا الحجَّ والعُمرة، فإنما طافوا طوافاً واحداً. متفق عليه. وقول جابر: لم يطف النبي ﷺ وأصحابه بين الصفا والمروة إلا طوافاً واحداً، طوافه الأول. رواه مسلم. وقوله لعائشة «يُخْرِجُ عَنْكَ طَوَافُكَ بِالصَّفا وَالْمَرْوَةِ عَنْ حَجِّكَ وَعُمْرَتِكَ». رواه مسلم. وقوله لها في رواية أبي داود: «طَوَافُكَ بِالْبَيْتِ وَبَيْنَ الصَّفا وَالْمَرْوَةِ يَكْفِيكَ لِحَجِّكَ وَعُمْرَتِكَ جَمِيعاً». وقوله لها في الحديث المتفق عليه لما طافت بالكعبة وبين الصفا والمروة: «قَدْ حَلَلْتُ مِنْ حَجِّكَ وَعُمْرَتِكَ جَمِيعاً» قال: والصحابة الذين نقلوا حجة رسول الله ﷺ، كلهم نقلوا أنهم لما طافوا بالبيت وبين الصفا والمروة، أمرهم بالتحليل إلا من ساق الهدى، فإنه لا يحل إلا يوم النحر، ولم ينقل أحد منهم أن أحداً منهم طاف وسعى، ثم طاف وسعى. ومن المعلوم، أن مثل هذا مما تتوفر الهمم والدواعي على نقله. فلما لم ينقله أحد من الصحابة، عُلِمَ أنه لم يكن.

وعمدة من قال بالطوافين والسعين، أثر يرويه الكوفيون، عن علي، وآخر عن ابن مسعود رضي الله عنهما.

(١) بل ضعيف إذا تفرد بالخبر، لكن حديثه حسن في الشواهد.

من التمتع، فلا يُعلم لهم عذرُ البتة إلا ما تقدم من أنهم سمعوا أنه أفرد الحج، وأن عادة المفردين أن يعتَمِرُوا من التمتع، فتوهموا أنه فعل كذلك.

فصل

(عذر من قال، لبى ﷺ بالعمرة وحدها واستمر عليها)

وأما الذين غلطوا في إهلاله، فمن قال: إنه لبى بالعمرة وحدها واستمر عليها، فعذره أنه سمع أن رسول الله ﷺ تمتع، والتمتع عنده من أهل بَعْمَرَة مفردة بشروطها. وقد قالت له حفصة رضي الله عنها: ما شأن الناس خلّوا ولم تجلّ من عُمَرَتِكَ؟ وكل هذا لا يدل على أنه قال: لَبَيْكَ بِعُمَرَةٍ مُفْرَدَةٍ، ولم يَنْقُلْ هذا أحد عنه البتة، فهو وهم محض، والأحاديث الصحيحة المستفيضة في لفظه في إهلاله تُبَيِّنُ هذا.

فصل

(عذر من قال، لبى ﷺ بالحج وحده واستمر عليه)

وأما من قال: إنه لبى بالحج وحده واستمر عليه، فعذره ما ذكرنا عن قال: أفرد الحجّ ولبى بالحج، وقد تقدّم الكلام على ذلك، وأنه لم يقل أحد قط: إنه قال: لبّيك بحجّة مفردة، وإن الذين نقلوا لفظه، صرّحوا بخلاف ذلك.

فصل

(عذر من قال، لبى ﷺ بالحج وحده ثم أدخل عليه العمرة)

وأما من قال: إنه لبى بالحجّ وحده، ثم أدخل عليه العمرة، وظن أنه بذلك تجتمع الأحاديث، فعذره أنه رأى أحاديث إفراده بالحج صحيحة، فحملها على ابتداء إحرامه، ثم إنه أتاه آت من ربه تعالى فقال: قل: عُمرة في حجة، فأدخل العمرة حينئذ على الحج، فصار قارناً. ولهذا قال للبراء بن عازب: «إِنِّي سَقْتُ الْهَذْيَ وَفَرَنْتُ»، فكان مفرداً في ابتداء إحرامه، قارناً في أثنائه، وأيضاً فإن أحداً لم يَقُلْ إنه أهل بالعمرة، ولا لبى بالعمرة، ولا أفرد العمرة، ولا قال: خرجنا لا ننوي إلا العمرة، بل قالوا: أهل بالحجّ، ولبى بالحجّ، وأفرد الحج، وخرجنا لا ننوي

وقد روى جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي رضي الله عنه، أن القارن يكفيه طواف واحد، وسعي واحد، خلاف ما روى أهل الكوفة، وما رواه العراقيون، منه ما هو منقطع، ومنه ما رجاله مجهولون أو مجروحون، ولهذا طعن علماء النقل في ذلك حتى قال ابن حزم: كل ما روي في ذلك عن الصحابة، لا يصح منه ولا كلمة واحدة. وقد نُقِلَ في ذلك عن النبي ﷺ، ما هو موضوع بلا ريب. وقد حلف طاوس: ما طاف أحد من أصحاب رسول ﷺ لحجته وعمرته إلا طوافاً واحداً، وقد ثبت مثل ذلك عن ابن عمر، وابن عباس، وجابر، وغيرهم رضي الله عنهم، وهم أعلم الناس بحجة رسول الله ﷺ، فلم يُخالفوها، بل هذه الآثار صريحة في أنهم لم يطوفوا بالصفاء والمروة إلا مرة واحدة.

(هل على القارن والمتمتع سعيان أو سعي واحد؟)

وقد تنازع الناس في القارن والمتمتع، هل عليهما سعيان أو سعي واحد؟ على ثلاثة أقوال: في منهج أحمد وغيره.

أحدها: ليس على واحد منهما إلا سعي واحد، كما نص عليه أحمد في رواية ابنه عبد الله. قال عبد الله: قلت لأبي: المتمتع كم يسعى بين الصفا والمروة؟ قال: إن طاف طوافين، فهو أجود. وإن طاف طوافاً واحداً، فلا بأس. قال شيخنا: وهذا منقول عن غير واحد من السلف.

الثاني: المتمتع عليه سعيان، والقارن عليه سعي واحد، وهذا هو القول الثاني في مذهبه^(١)، وقول من يقوله من أصحاب مالك والشافعي رحمهما الله.

والثالث: إن على كل واحد منهما سعيين، كذهب أبي حنيفة رحمه الله، ويُذكر قولاً في مذهب أحمد رحمه الله، والله أعلم. والذي تقدم، هو بسط قول شيخنا وشرحه والله أعلم.

فصل

(عذر من قال، حجّ ﷺ مفرداً اعتمر عقبيه من التمتع)

وأما الذين قالوا: إنه حجّ حجاً مفرداً اعتمر عقبيه

(١) وهو أصح الأقوال.

به، وروى أنس أنه فعله سواء، فصلى الظهر بذى الحليفة، ثم قال: «ليكن حجاً وعُمرة».

(هل يجوز لإدخال العمرة على الحج)

واختلف الناس في جواز إدخال العمرة على الحج على قولين، وهما روايتان عن أحمد، أشهرهما: إنه لا يصح والذين قالوا بالصحة، كأبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله، بنّوه على أصولهم، وأن القارن بطواف طوافين، ويسعى سعيين، فإذا أدخل العمرة على الحج، فقد التزم زيادة عمل على الإحرام بالحج وحده، ومن قال: يكفيه طواف واحد، وسعي واحد، قال: لم يستفد بهذا الإدخال إلا سقوط أحد السفرين، ولم يلتزم به زيادة عمل، بل نقصانه، فلا يجوز، وهذا مذهب الجمهور.

فصل

(عذر من قال: أحرم بعمره ثم أدخل عليها الحج)

وأما القائلون: إنه أحرم بعمره، ثم أدخل عليها الحج، فعذرهم قول ابن عمر: تمتع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج، وأهدى، فساق معه الهدى من ذي الحليفة، وبدأ رسول الله ﷺ فأهل بالعمرة ثم أهل بالحج. متفق عليه.

وهذا ظاهر في أنه أحرم أولاً بالعمرة، ثم أدخل عليها الحج، ويبين ذلك أيضاً أن ابن عمر لما حجّ زمن ابن الزبير أهل بعمره ثم قال: أشهدكم أنني قد أوجبت حجاً مع عمرتي، وأهدى هدياً اشتراه بقدنيد، ثم انطلق يهلّ بهما جميعاً حتى قدم مكة، فطاف بالبيت وبالصفا والمروة، ولم يزد على ذلك، ولم ينحر، ولم يحلق ولم يقصر، ولم يحلّ من شيء حرم منه حتى كان يوم النحر، فنحر وحلق، ورأى أن ذلك قد قضى طواف الحج والعمرة بطوافه الأول. وقال: هكذا فعل رسول الله ﷺ. فعند هؤلاء، أنه كان متمتعاً في ابتداء إحرامه، قارناً في أثناءه، وهؤلاء أعذر من الذين قبلهم، وإدخال الحج على العمرة جائز بلا نزاع يُعرف، وقد أمر النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها بإدخال الحج على العمرة، فصارت

إلاً للحج، وهذا يدل على أن الإحرام وقع أولاً بالحج، ثم جاء الوحي من ربه تعالى بالقران، فلبّي بهما فسمعه أنس يُليي بهما، وصدق، وسمعت عائشة، وابن عمر، وجابر يُليي بالحج وحده أولاً وصدقوا.

قالوا: وبهذا تتفق الأحاديث، ويزول عنها الاضطراب.

وأرباب هذه المقالة لا يجيزون إدخال العمرة على الحج، ويرونه لغواً، ويقولون: إن ذلك خاصٌّ بالنبي ﷺ دون غيره. قالوا: ومما يدل على ذلك: أن ابن عمر قال: لبّي بالحج وحده، وأنس قال: أهلّ بهما جميعاً، وكلاهما صادق فلا يمكن أن يكون إهلاله بالقران سابقاً على إهلاله بالحج وحده، لأنه إذا أحرم قارناً، لم يمكن أن يحرم بعد ذلك بحج مفرد، وينقل الإحرام إلى الأفراد، فتعين أنه أحرم بالحج مفرداً، فسمعه ابن عمر، وعائشة، وجابر، فنقلوا ما سمعوه، ثم أدخل عليه العمرة، فأهلّ بهما جميعاً لما جاءه الوحي من ربه، فسمعه أنس يهل بهما، فنقل ما سمعه، ثم أخبر عن نفسه بأنه قرن، وأخبر عنه من تقدم ذكره من الصحابة بالقران، فاتفقت أحاديثهم، وزال عنها الاضطراب والتناقض. قالوا: ويدلّ عليه قول عائشة: خرجنا مع رسول الله ﷺ. فقال: «من أراد منكم أن يهلّ بحجّ وعُمرة فليهلّ، ومن أراد أن يهلّ بحجّ فليهلّ، ومن أراد أن يهلّ بعُمرة فليهلّ». قالت عائشة: فأهلّ رسول الله ﷺ بحج، وأهلّ به ناس معه. فهذا يدل على أنه كان مفرداً في ابتداء إحرامه، فعلم أن قرانه كان بعد ذلك.

ولا ريب أن في هذا القول من مخالفة الأحاديث المتقدمة، ودعوى التخصيص للنبي ﷺ بإحرام لا يصح في حق الأمة ما يرده ويطلبه، ومما يرده أن أنساً قال: صلى رسول الله ﷺ الظهر بالبيداء، ثم ركب، وصعد جبل البيداء، وأهل بالحج والعمرة حين صلى الظهر [النسائي (١٢٧/٥)].

وفي حديث عمر، أن الذي جاءه من ربه قال له: «صلّ في هذا الوادي المبارك وقل: عُمرة في حجة». فكذلك فعل رسول الله ﷺ، فالذي روى عمر أنه أمر

قَارِنَةً، ولكن سِاقُ الأحاديث الصحيحة، يردُّ على أرباب هذه المقالة. فإن أنسأ أخبر أنه حين صَلَّى الظهر أهلُّ بهما جميعاً، وفي «الصحيح» عن عائشة، قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في حِجَّةِ الوداع مُوَافِينَ لِهلال ذي الحِجَّةِ، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَرَادَ مِنْكُمْ أَنْ يُهْلَ بِعُمْرَةٍ فَلْيُهْلْ، فَلَوْلَا أَنِّي أَهْدَيْتُ لَأَهْلَلْتُ بِعُمْرَةٍ» قالت: وكان من القوم من أهلَّ بعُمْرَةٍ، ومنهم من أهلَّ بالحج، فقالت: فكنتُ أنا ممن أهلَّ بعُمْرَةٍ، وذكرت الحديث رواه مسلم [٢٩١٠]. فهذا صريح في أنه لم يُهْلَ إِذْ ذَاكَ بعُمْرَةٍ، فإذا جمعت بين قول عائشة هذا، وبين قولها في «الصحيح»: تمتع رسول الله ﷺ في حِجَّةِ الوداع، وَبَيَّنَّ قولها وأهلَّ رسول الله ﷺ بالحج، والكلُّ في «الصحيح»، علمت أنها إنما نعت عمرَةً مفردة، وأنها لم تنفِ عُمرة القرآن، وكانوا يُسمونها تمتعاً كما تقدم، وأن ذلك لا يُناقض إهلاله بالحج، فإن عُمرة القرآن في ضمنه، وجزء منه، ولا يُنافي قولها: أفرد الحج، فإن أعمال العُمرة لما دخلت في أعمال الحج، وأفردت أعماله، كان ذلك إفراداً بالفعل.

وأما التلبية بالحج مفرداً، فهو إفراد بالقول، وقد قيل: إن حديث ابن عمر، أن رسول الله ﷺ تمتع في حِجَّةِ الوداع بالعُمرة إلى الحج، وبدأ رسول الله ﷺ فأهلَّ بالعُمرة، ثم أهلَّ بالحج، مروي بالمعنى من حديثه الآخر، وأن ابن عمر هو الذي فعل ذلك عام حِجَّه في فتنة ابن الزبير، وأنه بدأ فأهلَّ بالعُمرة، ثم قال: ما شأنهما إلَّا واحد، أشهدكم أنني قد أوجبت حجاً مع عُمرتي، فأهلَّ بهما جميعاً، ثم قال في آخر الحديث: هكذا فعل رسول الله ﷺ. وإنما أراد اقتصاره على طواف واحد، وسعي واحد، فَحُوِّلَ على المعنى، وزُوي به: إن رسول الله ﷺ بدأ فأهلَّ بالعُمرة، ثم أهلَّ بالحج، وإنما الذي فعل ذلك ابن عمر، وهذا ليس ببعيد، بل متعين، فإن عائشة قالت عنه: «لولا أن مَعِيَ الهِذْيَ لَأَهْلَلْتُ بِعُمْرَةٍ» وأنس قال عنه: إنه حين صلى الظهر، أوجب حجاً وعُمرة؛ وعمر رضي الله عنه، أخبر عنه أن الوحي جاءه من ربه فأمره بذلك.

فإن قيل: فما تصنعون بقول الزهري: إن عروة

أخبره عن عائشة بمثل حديث سالم، عن ابن عمر؟

قيل: الذي أخبرت به عائشة من ذلك، هو أنه ﷺ طاف طوافاً واحداً عن حِجَّه وعمرته، وهذا هو الموافق لرواية عروة عنها في «الصحيحين»، وطاف الذين أهلُّوا بالعُمرة بالبيت وبين الصفا والمروة، ثم حلُّوا، ثم طافوا طوافاً آخر بعد أن رجعوا من مِنى لحجهم، وأما الذين جمعوا الحجَّ والعُمرة، فإنما طافوا طوافاً واحداً، فهذا مثل الذي رواه سالم عن أبيه سواء. وكيف تقول عائشة: إن رسول الله ﷺ بدأ فأهلَّ بالعُمرة، ثم أهلَّ بالحج، وقد قالت: إن رسول الله ﷺ قال: «لَوْلَا أَن مَعِيَ الهِذْيَ لَأَهْلَلْتُ بِعُمْرَةٍ» وقالت: وأهلَّ رسول الله ﷺ بالحجِّ؟ فَعَلِمَ، أنه ﷺ لم يُهْلَ في ابتداء إحرامه بعُمرة مفردة والله أعلم.

فصل

(عمر من قال، أحرم ﷺ إحرامه)

مطلقاً لم يعين فيه نسكاً ثم عينه بعد إحرامه)

وأما الذين قالوا: إنه أحرم إحراماً مطلقاً، لم يعين فيه نسكاً، ثم عينه بعد ذلك لما جاءه القضاء وهو بين الصفا والمروة، وهو أحد أقوال الشافعي رحمه الله، نص عليه في كتاب «اختلاف الحديث». قال: وثبت أنه خرج ينتظر القضاء، فنزل عليه القضاء وهو ما بين الصفا والمروة، فأمر أصحابه أن من كان منهم أهلَّ ولم يكن معه هدي أن يجعله عُمرة، ثم قال: ومن وصف انتظار النبي ﷺ القضاء، إذ لم يحج من المدينة بعد نزول الفرض طلباً للاختيار فيما وسَّع الله من الحج والعُمرة، فُشِبَ أن يكون أحفظ، لأنه قد أتى بالمتلاعين، فانتظر القضاء، كذلك حَفِظَ عنه في الحج ينتظر القضاء. وعذر أرباب هذا القول، ما ثبت في «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «خرجنا مع رسول الله ﷺ لا نذكر حجاً ولا عُمرة» وفي لفظ: «يلبي لا يذكر حجاً ولا عُمرة» وفي رواية عنها: «خرجنا مع رسول الله ﷺ لا نرى إلَّا الحج، حتى إذا دنونا من مكة أمر رسول الله ﷺ مَنْ لم يكن معه هدي إذا طاف بالبيت وبين الصفا والمروة أن يَجِلَّ» وقال طائوس: خرج رسول الله ﷺ من المدينة

لا يُسَمَّى حجاً ولا عُمرَةً يَتَنَظَّرُ الْقَضَاءَ، فَتَزُلْ عَلَيْهِ الْقَضَاءُ وَهُوَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرَّةِ، فَأَمَرُ أَصْحَابِهِ مِنْ كَانَ مِنْهُمْ أَهْلٌ بِالْحَجِّ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ هَدْيٌ أَنْ يَجْعَلَهَا عُمْرَةً... الحديث.

وقال جابر في حديثه الطويل في سياق حجة النبي ﷺ: فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ، ثُمَّ رَكِبَ الْقَضَاءَ حَتَّى إِذَا اسْتَرَتْ بِهِ نَاقَتُهُ عَلَى الْبَيْدَاءِ نَظَرْتُ إِلَى مَذْبُورِي بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ رَاكِبٍ وَمَاشِيٍّ، وَعَنْ يَمِينِهِ مِثْلُ ذَلِكَ، وَعَنْ يَسَارِهِ مِثْلُ ذَلِكَ، وَمِنْ خَلْفِهِ مِثْلُ ذَلِكَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، وَعَلَيْهِ يَنْزِلُ الْقُرْآنُ وَهُوَ يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ، فَمَا عَمِلَ بِهِ مِنْ شَيْءٍ، عَمِلْنَا بِهِ، فَأَهْلٌ بِالتَّوْحِيدِ «لَيْتَكَ اللَّهُمَّ لَيْتَكَ، لَيْتَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَيْتَكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنُّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ». وَأَهْلٌ النَّاسُ بِهَذَا الَّذِي يُهْلُونَ بِهِ، وَلَزِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَلْيِيسُهُ (مسلم: ٢٩٥٠) فَأَخْبَرَ جَابِرٌ، أَنَّهُ لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذِهِ التَّلْيِيسَةِ، وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّهُ أَضَافَ إِلَيْهَا حَجّاً وَلَا عُمْرَةً، وَلَا قِرَاناً، وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَعْدَارِ مَا يُنَاقِضُ أَحَادِيثَ تَعْيِينَةِ النَّسْكِ الَّذِي أَحْرَمَ بِهِ فِي الْإِبْتِدَاءِ، وَأَنَّهُ الْقِرَانُ.

فأما حديث طائوس، فهو مرسل لا يُعارض به الأساطينُ المسنداتُ، ولا يُعرف اتصاله بوجه صحيح ولا حسن. ولو صح، فانتظاره للقضاء كان فيما بينه وبين الميقات، فجاءه القضاء وهو بذلك الوادي، أتاه آتٍ مِنْ رَبِّهِ تَعَالَى فَقَالَ: صَلِّ فِي هَذَا الْوَادِي الْمُبَارَكِ وَقُلْ: عُمْرَةٌ فِي حَجَّةٍ، فهذا القضاء الذي انتظره، جاءه قبل الإحرام، فعين له القرآن. وقول طائوس: نزل عليه القضاء وهو بين الصفا والمروة، هو قضاء آخر غير القضاء الذي نزل عليه بإحرامه، فإن ذلك كان بوادي العقيق، وأما القضاء الذي نزل عليه بين الصفا والمروة، فهو قضاء الفسخ الذي أمر به الصحابة إلى العمرة، فحينئذ أمر كل من لم يكن معه هدي منهم أن يفسخ حجه إلى عمرة وقال: «لَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ لَمَا سَفَّتُ الْهَدْيَ وَلَجَعَلْتُهَا عُمْرَةً»، وكان هذا أمر حتم بالوحي، فإنهم لما توقفوا فيه قال: «انظُرُوا الَّذِي أَمَرَكُمْ بِهِ فافْعَلُوهُ».

فأما قول عائشة: خرجنا لا نذكر حجاً ولا عمرة،

فهذا إن كان محفوظاً عنها، وجب حمله على ما قبل الإحرام، وإلا ناقص سائر الروايات الصحيحة عنها، أن منهم من أهل عند الميقات بحج، ومنهم من أهل بعمرة، وأنها ممن أهل بعمرة. وأما قولها: نلني لا نذكر حجاً ولا عمرة، فهذا في ابتداء الإحرام، ولم تقل: إنهم استمروا على ذلك إلى مكة، هذا باطل قطعاً فإن الذين سمعوا إحرام رسول الله ﷺ وما أهل به، شهدوا على ذلك، وأخبروا به، ولا سبيل إلى رد رواياتهم. ولو صح عن عائشة ذلك، لكان غايتها أنها لم تحفظ إهلالهم عند الميقات، ففتته وحفظه غيرها من الصحابة فأنبتة، والرجال بذلك أعلم من النساء. وأما قول جابر رضي الله عنه: وأهل رسول الله ﷺ بالتوحيد، فليس فيه إلا إخباره عن صفة تليته، وليس فيه نفى لتعيينه النسك الذي أحرم به بوجه من الوجوه. وبكل حال، ولو كانت هذه الأحاديث صريحة في نفى التعيين، لكانت أحاديث أهل الإثبات أولى بالأخذ منها، لكثرتها، وصحتها، واتصالها، وأنها مُتَّبِعَةٌ مُبَيَّنَّةٌ متضمنة لزيادة خفيت على من نفى، وهذا بحمد الله واضح وبالله التوفيق.

فصل

ولنرجع إلى سياق حجته ﷺ

وليد رسول الله ﷺ رأسه بالفنسل [أبو داود: ١٧٤٨] وهو بالغين المعجمة على وزن كفل، وهو ما يُفَسَّلُ به الرأس من خَطْمِيٍّ ونحوه يُلْبَدُّ به الشعر حتى لا يتشتر، وأهل في مصلاه، ثم ركب على ناقته، وأهل أيضاً، ثم أهل لما استقلت به على البيداء. قال ابن عباس: وأيم الله: لقد أوجب في مصلاه، وأهل حين استقلت به ناقته، وأهل حين علا على شرف البيداء [أحمد: ٢٣٥٨، وأبو داود: ١٧٧٠، وفي سننه ضعيف].

وكان يهل بالحج والعمرة تارة، وبالحج تارة، لأن العمرة جزء منه، فمن ثم قيل: قَرَنَ، وقيل: تمتع، وقيل: أفرد، قال ابن حزم: كان ذلك قبل الظهر يسير، وهذا وهم منه، والمحفوظ: أنه إنما أهل بعد صلاة الظهر، ولم يقل أحد قط: إن إحرامه كان قبل الظهر، ولا أدري من أين له هذا. وقد قال ابن عمر: ما أهل رسول الله ﷺ إلا من عند الشجرة حين قام به بغيره [مسلم: ٢٨١٦]. وقد قال أنس: إنه صلى الظهر،

ثم ركب^(١)، والحديثان في «الصحيح».

فإذا جمعت أحدهما إلى الآخر، تبين أنه إنما أهلك بعد صلاة الظهر، ثم لبى فقال: «لَيْتَكَ اللَّهُمَّ لَيْتَكَ، لَيْتَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَيْتَكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنُّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ». ورفع صوته بهذه التلبية حتى سمعها أصحابه، وأمرهم بأمر الله له أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية [أبو داود: ١٨١٤، والترمذي: ٨٢٩، والنسائي (١٦٢/٥)، وابن ماجه: ٢٩٢٢].

وكان حجه على رَحْل، لا في مَخِيل، ولا هَوْدَج، ولا عَمَّارِيَّةَ وَزَامِلَتُهُ تحته. وقد اختلف في جواز ركوب المَخْرِم في المَخِيل، والهَوْدَج، والعَمَّارِيَّة، ونحوها على قولين، هما روايتان عن أحمد أحدهما: الجواز وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة. والثاني: المنع وهو مذهب مالك.

فصل

(تخييره ﷺ لأصحابه بين الأنساك الثلاثة)

ثم إنه ﷺ خيّرهم عند الإحرام بين الأنساك الثلاثة، ثم ندبهم عند ذنوبهم من مكة إلى فسخ الحج والقران إلى العمرة لمن لم يكن معه هَدْيًا، ثم حثهم ذلك عليهم عند المروة.

(السنن التي وردت في قصة)

ولادة أسماء بنت عميس بذي الحليفة)

وولدت أسماء بنت عميس زوجة أبي بكر رضي الله عنهما بذي الحليفة محمّد بن أبي بكر، فأمرها رسول الله ﷺ أن تغتسل، وتستغفر، بثوب وتحرّم وتُهَلِّ [مسلم: ٢٩٥٠]. وكان في قصتها ثلاث سنن، إحداها: غسل المحرم، والثانية: أن الحائض تغتسل لإحرامها، والثالثة: أن الإحرام يصح من الحائض.

ثم سار رسول الله ﷺ وهو يلبي بتليته المذكورة، والناس معه يزيّدون فيها ويَقْصُصُون، وهو يقرّهم ولا يُنْكِرُ عليهم [البخاري: ١٥٤٩، مختصرًا، ومسلم: ٢٨١١].

ولزم تليته، فلما كانوا بالروحاء، رأى جمار وخش عقيراً، فقال: «دَعُوهُ فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ صَاحِبَهُ» فجاء صاحبه إلى رسول الله ﷺ، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ! شَأْنُكُمْ بِهَذَا الْجِمَارِ، فَأَمَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَبَا بَكْرٍ فَقَسَمَهُ بَيْنَ الرَّفَاقِ [صحيح: مالك (٣٥١/١)، وأحمد: ١٥٧٤٤، والنسائي (١٨٢/٥ - ١٨٣)].

(جواز اكل المحرم من صيد الحلال إذا لم يصده لأجله)

وفي هذا دليل على جواز أكل المحرم من صيد الحلال إذا لم يصده لأجله، وأما كون صاحبه لم يُحرّم، فلعله لم يمرّ بذي الحليفة، فهو كأبي قتادة في قصته. وتدل هذه القصة على أن الهبة لا تقتصر إلى لفظ: وهب لك، بل تصح بما يذلّ عليها، وتدلّ على قسمته اللحم مع عظامه بالتحري، وتدلّ على أن الصيد يملك بالإثبات، وإزالة امتناعه، وأنه لمن أثبته لا لمن أخذه، وعلى جُلّ أكل لحم الجمار الوحشي، وعلى التوكيل في القسمة، وعلى كون القاسم واحداً.

فصل

ثم مضى حتى إذا كان بالأثاية بين الرويّة والعرج، إذا ظمّي حاقف في ظلّ فيه سهم، فأمر رجلاً أن يقف عنده لا يريّه أحد من الناس، حتى يُجاوزوا^(٢). والفرق بين قصة الظمي، وقصة الحمار، أن الذي صاد الحمار كان حلالاً، فلم يمنع من أكله، وهذا لم يعلم أنه حلال وهم محرمون، فلم يأذن لهم في أكله، ووكل من يقف عنده، لئلا يأخذه أحد حتى يُجاوزوه.

(قتل المحرم للصيد يجعله بمنزلة الميتة)

وفيه دليل: على أن قتل المحرم للصيد يجعله بمنزلة الميتة في عدم الجلّ، إذ لو كان حلالاً، لم تُفْصَح مَالِيَّتُهُ.

فصل

ثم سار حتى إذا نزل بالعرج، وكانت زمالته وزمالة أبي بكر واحدة، وكانت مع غلام لأبي بكر، فجلس

(١) ليس في الصحيح، وإنما أخرجه أبو داود (١٧٧٤)، والنسائي (١٦٢/٥).

(٢) هو قطعة من الحديث السابق، وحاقف، أي: واقف منحرف رأسه بين يديه إلى رجله. وقيل: الحاقف الذي لجأ إلى حقف وهو ما انعطف من الرمل.

رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى جانبه، وعائشة إلى جانبه الآخر، وأسماء زوجته إلى جانبه، وأبو بكر ينتظر الغلام والزمانة، إذ طلع الغلام ليس معه البعير، فقال: أين بعيرك؟ فقال: أضلته الباردة، فقال أبو بكر: بعير واحد تضيعه. قال: فطفيق يضربه ورسول الله ﷺ يتبسم، ويقول: انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع، وما يزيد رسول الله ﷺ على أن يقول ذلك ويتبسم. ومن تراجم أبي داود على هذه القصة، باب «المحرم يؤذّب غلامه» [أبو داود: ١٨١٨، وابن ماجه: ٢٩٣٣].

فصل

(رده حمار الوحش مع تعليله بانه محرم)

ثم مضى رسول الله ﷺ، حتى إذا كان بالأبواء، أهدى له الصَّعْبُ بن جَثَامَةَ عَجَزَ حِمَارٍ وحشياً، فردّه عليه، فقال: إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ إِلَّا أَنَا حُرْمٌ. وفي «الصحيحين»: «أنه أهدى له حماراً وحشياً»، وفي لفظ لمسلم: «لحم حمار وحشٍ» [البخاري: ٢٥٧٣، ومسلم: ٢٨٤٥].

وقال الحميدي: كان سفيان يقول في الحديث: أَهْدَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَحْمَ حِمَارٍ وحشٍ، وربما قال سفيان: يَقْطُرُ دَمًا، وربما لم يَقُلْ ذلك، وكان سفيان فيما خلا ربما قال: حِمَارٌ وحشٍ، ثم صار إلى لحم حتى مات [سنن البيهقي (١٩٢/٥)]. وفي رواية: شقَّ حِمَارٌ وحشٍ، وفي رواية: رجل حمار وحشٍ.

وروى يحيى بن سعيد، عن جعفر، عن عمرو بن أمية الضمري، عن أبيه، عن الصَّعْبِ، أهدى للنبي ﷺ عَجَزَ حِمَارٍ وحشٍ وهو بالجحفة، فأكل منه وأكل القوم. قال البيهقي: وهذا إسناد صحيح [سنن البيهقي (١٩٣/٥)]. فإن كان محفوظاً، فكأنه ردّ الحي، وقبل اللحم.

وقال الشافعي رحمه الله: فإن كان الصَّعْبُ بن جَثَامَةَ أهدى للنبي ﷺ الحمارَ حياً، فليس للمحرم ذبح حمار وحشٍ، وإن كان أهدى له لحم الحمار، فقد يحتلُّ أن يكون علم أنه صيد له، فردّه عليه، وإيضاحه في حديث جابر. قال: وحديث مالك: أنه أهدى له حماراً أثبت من حديث مَنْ حدّث له من لحم حمار.

قلت: أما حديث يحيى بن سعيد، عن جعفر، فغلط بلا شك، فإن الواقعة واحدة، وقد اتفق الرواة أنه لم يأكل منه، إلا هذه الرواية الشاذة المنكرة.

(الترجى بان الحمار كان لحمًا لا حياً)

وأما الاختلاف في كون الذي أهداه حياً، أو لحمًا، فرواية من روى لحمًا أولى لثلاثة أوجه:

أحدها: أن راويها قد حفظها، وضبط الواقعة حتى ضبطها: أنه يقطر دمًا، وهذا يدل على حفظه للقصة حتى لهذا الأمر لا يؤبه له.

الثاني: أن هذا صريح في كونه بعضَ الحمار، وأنه لحم منه، فلا يُناقض قوله: أهدى له حماراً، بل يُمكن حمله على رواية من روى لحمًا، تسمية للحم باسم الحيوان، وهذا مما لا تأبه اللغة.

الثالث: أن سائر الروايات متفقة على أنه بعض من أبعاضه، وإنما اختلفوا في ذلك البعض، هل هو عجزه، أو شقه، أو رجله، أو لحم منه؟ ولا تناقض بين هذه الروايات، إذ يمكن أن يكون الشق هو الذي فيه العجز، وفيه الرجل، فصح التعبير عنه بهذا وهذا، وقد رجع ابن عينة عن قوله: «حماراً» وثبت على قوله: «لحم حمار» حتى مات. وهذا يدل على أنه تبين له أنه إنما أهدى له لحمًا لا حيواناً، ولا تعارض بين هذا وبين أكله لما صاده أبو قتادة، فإن قصة أبي قتادة كانت عام الحُدَيْبِيَّة سنة ست، وقصة الصَّعْب قد ذكر غير واحد أنها كانت في حجة الوداع، منهم: المحبُّ الطبري في كتاب «حجة الوداع» له. أو في بعض عمره وهذا مما ينظر فيه. وفي قصة الظبي وحمار يزيد بن كعب السلمي البهزي، هل كانت في حجة الوداع، أو في بعض عمره والله أعلم؟ فإن حمل حديث أبي قتادة على أنه لم يصده لأجله، وحديث الصَّعْب على أنه صيد لأجله، زال الإشكال، وشهد لذلك حديث جابر المرفوع: «صَيَّدَ الْبَرَّ لَكُمْ حَلَالًا مَا لَمْ تَصِيدُوهُ أَوْ يُصَادَ لَكُمْ» [أبو داود: ١٨٥١، والترمذي: ٨٤٩، والنسائي (١٨٧/٥)]. وإن كان الحديث قد أُعْلِلَ بأن المطلب بن حنطب راويه عن جابر لا يُعرف له سماع منه، قاله النسائي.

قال الطبري في حجة الوداع له: فلما كان في بعض الطريق، اصطاد أبو قتادة حماراً وحشياً، ولم

العمرة وتصير قارئة؟ فقال بالقول الأول: فقهاء الكوفة، منهم أبو حنيفة وأصحابه، وبالثاني: فقهاء الحجاز. منهم: الشافعي ومالك، وهو مذهب أهل الحديث كالإمام أحمد وأتباعه.

قال الكوفيون: ثبت في «الصحيحين»، عن عروة، عن عائشة، أنها قالت: «أهلكت بعمره، فقديمت مكّة وأنا حائض لم أطف بالبيت ولا بين الصفا والمروة، فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال: انقضي رأسك، وامتشطي، وأهلي بالحج، ودعي العمرة. قالت: ففعلت فلما قضيت الحج، أرسلني رسول الله ﷺ مع عبد الرحمن بن أبي بكر إلى التنعيم، فاعتمرته منه. فقال: «هذه مكانُ عُمرتك» [البخاري: ١٥٥٦، ومسلم: ٢٩١٠]. قالوا: فهذا يدل على أنها كانت متمتعة، وعلى أنها رفضت عُمرتها وأحرمت بالحج، لقوله ﷺ: «دعي عُمرتك» ولقوله: «انقضي رأسك وامتشطي». ولو كانت باقية على إحرامها، لما جاز لها أن تمتشط، ولأنه قال للعمرة التي أتت بها من التنعيم: «هذه مكانُ عُمرتك». ولو كانت عُمرتها الأولى باقية، لم تكن هذه مكانها، بل كانت عُمره مستقلة.

قال الجمهور: لو تأملت قصة عائشة حق التأمل، وجمعتم بين طرقها وأطرافها، لتبين لكم أنها قرنت، ولم ترفض العمرة، ففي «صحيح مسلم»: عن جابر رضي الله عنه، قال: «أهلّت عائشة بعمره، حتى إذا كانت يسرف، عرّكت، ثم دخل رسول الله ﷺ على عائشة، فوجدها تبكي، فقال: «ما شأنك؟» قالت: شأني أنني قد حضت وقد أحلّ الناس، ولم أجعل، ولم أطف بالبيت والناس يذهبون إلى الحج الآن، قال: إن هذا أمر قد كتبه الله على بنات آدم، فاعتبيلي، ثم أهلي بالحج» ففعلت، ووقفت المواقف كلها، حتى إذا طهرت، طافت بالكعبة وبالصفا والمروة. ثم قال: «قد خللت من حجك وعمرتك» قالت: يا رسول الله إني أجدي في نفسي أنني لم أطف بالبيت حتى حججت. قال: «فاذهب بها يا عبد الرحمن فأعمرها من التنعيم» [مسلم: ٢٩٣٧].

وفي «صحيح مسلم»: من حديث طائوس عنها: «أهلكت بعمره، وقديمت ولم أطف حتى حضت،

يكن مُحرمًا، فأحلّه النبي ﷺ لأصحابه بعد أن سألهم: هل أمره أحد منكم بشيء، أو أشار إليه؟ وهذا وهم منه رحمه الله، فإن قصة أبي قتادة إنما كانت عام الحُدبية، هكذا روي في «الصحيحين» من حديث عبد الله ابنه عنه قال: انطلقنا مع النبي ﷺ عام الحُدبية، فأحرم أصحابه ولم أحرم... فذكر قصة الحمار الوحشي [البخاري: ١٨٢٢، ومسلم: ٢٨٥١].

فصل

(مروره ﷺ بوادي عسفان)

فلما مر بوادي عسفان، قال: «يا أبا بكر! أي وادي هذا؟» قال: وادي عسفان. قال: «لقد مر به هودٌ وصالحٌ على بكرين أحمرتين خطبهما الليث وأزرهم العباء، وأزديتهم التمار، يلبون يحجون البيت العتيق» ذكره الإمام أحمد في «المسند» [٢٦٠٧]، وفي سننه ضعيف.

(بحث في إحرام عائشة وهي حائض)

فلما كان يسرف، حاضت عائشة رضي الله عنها، وقد كانت أهلّت بعمره، فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي، قال: «ما يبكيك لعلك نفست؟ قالت: نعم، قال: هذا شيء قد كتبه الله على بنات آدم، إفعلي ما يفعل الحاج، غير أن لا تطوفي بالبيت» [البخاري: ٣٠٥، ومسلم: ٢٩١٧].

وقد تنازع العلماء في قصة عائشة: هل كانت متمتعة أو مفردة؟ فإذا كانت متمتعة، فهل رفضت عُمرتها، أو انتقلت إلى الأفراد، وأدخلت عليها الحج، وصارت قارئة، وهل العمرة التي أتت بها من التنعيم كانت واجبة أم لا؟ وإذا لم تكن واجبة، فهل هي مُجزئة عن عمرة الإسلام أم لا؟ واختلفوا أيضاً في موضع حيضها، وموضع طهرها، ونحن نذكر البيان الشافي في ذلك بحول الله وتوفيقه.

(ما تفعل المرأة إذا أحرمت)

بالعمرة فحاضت ولم يمكنها الطواف قبل التعريف)

واختلف الفقهاء في مسألة مبنية على قصة عائشة، وهي أن المرأة إذا أحرمت بالعمرة، فحاضت، ولم يمكنها الطواف قبل التعريف، فهل ترفض الإحرام بالعمرة، وتبطل بالحج مفرداً، أو تدخل الحج على

فَنَسَكْتُ الْمَنَايِكَ كُلَّهَا، فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ النَّفَرِ: «يَسْعُكَ طَوَافُكَ لِحَجَّكَ وَعُمْرَتِكَ» [مسلم: ٢٩٢١].

فهذه نصوص صريحة، أنها كانت في حجٍّ وعُمْرة، لا في حجٍّ مفرد، وصريحة في أن القارن يكفيه طوافٌ واحد، وسعيٌّ واحد، وصريحة في أنها لم ترفُضْ إحرامَ العُمْرة، بل بقيت في إحرامها كما هي لم تجلَّ منه. وفي بعض ألفاظ الحديث: «كوني في عُمْرَتِكَ، فَعَسَى أَنْ اللَّهُ يَرْفُقَ بِهَا» [البخاري: ١٩٨٨، ومسلم: ٢٩١٨]. ولا يناقض هذا قوله: «دَعِي عُمْرَتِكَ». فلو كان المرادُ به رفضُها وتركها، لما قال لها: «يَسْعُكَ طَوَافُكَ لِحَجَّكَ وَعُمْرَتِكَ»، فعلم أن المراد: دعي أعمالها ليس المرادُ به رفضُ إحرامها.

وأما قوله: «انْقُضِي رَأْسَكَ وَامْتَشِطِي»، فهذا مما أعضل على الناس، ولهم فيه أربعة مسالك. أحدها: أنه دليل، على رفض العُمْرة، كما قالت الحنفية.

المسلك الثاني: إنه دليلٌ على أنه يجوز للمحرم أن يمشط رأسه، ولا دليلٌ من كتاب ولا سنة ولا إجماع على منعه من ذلك، ولا تحريمه وهذا قولُ ابن حزم وغيره.

المسلك الثالث: تعليلُ هذه اللفظة، ورُدُّها بأن عروة انفرد بها، وخالف بها سائر الرواة، وقد روى حديثُها طائوس والقاسم والأسود وغيرهم، فلم يذكر أحد منهم هذه اللفظة. قالوا: وقد روى حماد ابن زيد، عن هشام بن عروة، عن أبيه، من عائشة، حديثٌ حيضها في الحج فقال فيه: حدثني غير واحد، أن رسول الله ﷺ قال لها «دَعِي عُمْرَتِكَ وَانْقُضِي رَأْسَكَ وَامْتَشِطِي» وذكر تمام الحديث... قالوا: فهذا يدلُّ على أن عروة لم يسمع هذه الزيادة من عائشة.

المسلك الرابع: أن قوله: «دَعِي العُمْرَةَ»، أي دَعِيها، بحالها لا تخرجي منها، وليس المرادُ تركها، قالوا: ويدل عليه وجهان.

أحدهما: قوله: «يَسْعُكَ طَوَافُكَ لِحَجَّكَ وَعُمْرَتِكَ».

الثاني: قوله: «كوني في عُمْرَتِكَ». قالوا: وهذا

أولَى مِنْ حمله على رفضها لسلامته من التناقض. قالوا: وأما قوله: «هذه مَكَانُ عُمْرَتِكَ فعائشة أَحَبَّتْ أَنْ تَأْتِيَ بِعُمْرَةٍ مَفْرَدَةٍ، فَأَخْبَرَهَا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ طَوَافَهَا وَقَعَ عَنْ حَجَّتِهَا وَعُمْرَتِهَا، وَأَنْ عُمْرَتِهَا قَدْ دَخَلَتْ فِي حَجَّجِهَا، فَصَارَتْ قَارَنَةً، فَأَبَتْ إِلَّا عُمرَةً مَفْرَدَةً كَمَا قَصَدَتْ أَوَّلًا، فَلَمَّا حَصَلَ لَهَا ذَلِكَ، قَالَ: «هَذِهِ مَكَانُ عُمْرَتِكَ».

وفي «سنن الأثرم»، عن الأسود، قال: قلت لعائشة: اعتمرَتِ بَعْدَ الْحَجِّ؟ قالت: واللَّهِ مَا كَانَتْ عُمرَةً، مَا كَانَتْ إِلَّا زِيَارَةً زُرْتُ الْبَيْتَ.

قال الإمام أحمد: إنما أَعْمَرَ النَّبِيُّ ﷺ عائشةَ حين ألَحَّتْ عليه، فقالت: يَرْجِعُ النَّاسُ بِنُسْكِينَ، وَأَرْجِعُ بِنُسْكِ؟ فقال: «يا عبد الرحمن! أَعْمِرْهَا» فنظر إلى أدنى الجِلِّ، فأعمرها مِنْهُ.

فصل

(ما أحرمت به عائشة أولاً؟)

واختلف الناس فيما أحرمت به عائشة أولاً على قولين.

أحدهما: أنه عُمرَةٌ مَفْرَدَةٌ، وهذا هو الصواب لما ذكرنا من الأحاديث. وفي «الصحيح» عنها، قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في حَجَّةِ الْوَدَاعِ موافين لَهلال ذي الحجة، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَرَادَ مِنْكُمْ أَنْ يُهْلَ بِعُمْرَةٍ، فَلْيُهْلْ فَلَوْلَا أَنِّي أَهْدَيْتُ لَأَهْلَلْتُ بِعُمْرَةٍ». قالت: وَكَانَ مِنَ الْقَوْمِ مَنْ أَهْلَ بِعُمْرَةٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَهْلَ بِالْحَجِّ، قَالَتْ: فَكُنْتُ أَنَا مِنْ أَهْلِ بِعُمْرَةٍ، وَذَكَرْتُ الْحَدِيثَ... وقوله في الحديث: «دَعِي العُمْرَةَ وَأَهْلِي بِالْحَجِّ» قاله لها بِسَرَفٍ قَرِيباً مِنْ مَكَةٍ وهو صريح في أن إحرامها كان بعُمْرة.

القول الثاني: أنها أحرمت أولاً بِالْحَجِّ وكانت مُفْرَدَةً، قال ابن عبد البر: روى القاسمُ بْنُ مُحَمَّدٍ، وَالْأَسْوَدُ بْنُ يَزِيدٍ، وَعُمْرَةً كُلُّهُمَا عَنْ عَائِشَةَ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ مُحَرَّمَةً بِحَجٍّ لَا بِعُمْرَةٍ، منها: حديثُ عُمَرَ عَنْهَا: خرجنا مع رسول الله ﷺ، لا نرى إِلَّا أَنَّهُ الْحَجُّ، وحديثُ الْأَسْوَدِ بْنِ يَزِيدٍ مثله، وحديثُ الْقَاسِمِ: «لَبِينَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْحَجِّ». قال: وَغَلَطُوا عُرْوَةَ فِي قَوْلِهِ عَنْهَا: «كُنْتُ فِيمَنْ أَهْلَ بِعُمْرَةٍ»

قال إسماعيل بن إسحاق: قد اجتمع هؤلاء، يعني الأسود، والقاسم، وعمرة، على الروايات التي ذكرنا، فعلمنا بذلك أن الروايات التي رويت عن عروة غلط، قال: ويشبه أن يكون الغلط، إنما وقع فيه أن يكون لم يُمكنها الطواف بالبيت، وأن تَحِلَّ بعُمرة كما فعل من لم يَسْقِ الهدْي، فأمرها النبي ﷺ أن تترك الطواف، وتمضي على الحج، فتوهّموا بهذا المعنى أنها كانت معتمرة، وأنها تركت عُمرتها، وابتدأت بالحج. قال أبو عمر: وقد روى جابر بن عبد الله، أنها كانت مُهَلَّةً بعُمرة، كما روى عنها عروة. قالوا: والغلط الذي دخل على عروة، إنما كان في قوله: «انقضي رأسك، وامتشطي، ودعي العُمرة، وأهلي بالحج».

وروى حماد بن زيد، عن هشام بن عروة، عن أبيه: حدثني غير واحد، أن رسول الله ﷺ قال لها: «دعي عُمركَ، وانقضي رأسك، وامتشطي، وأفعلي ما يَفْعَلُ الحَاجُّ». فبين حماد، أن عروة لم يسمع هذا الكلام من عائشة.

قلت: من العجب ردّ هذه النصوص الصحيحة الصريحة التي لا مدفع لها، ولا مطعن فيها، ولا تحتمل تأويلاً البتة بلفظ مجمل ليس ظاهراً في أنها كانت مفردة، فإن غاية ما احتجّ به من زعم أنها كانت مفردة، قولها: خرجنا مع رسول الله ﷺ لا نرى إلا أنه الحج. فيا الله العجب! يُظنّ بالمتنّع أنه خرج لغير الحج، بل خرج للحج متمتعاً، كما أن المغتسل للجنابة إذ بدأ فتوضاً لا يمتنع أن يقول: خرجت لغسل الجنابة؟ وصدقت أم المؤمنين رضي الله عنها، إذ كانت لا ترى إلا أنه الحج حتى أحرمت بعُمرة، بأمره ﷺ، وكلامها يَصْدُقُ بعضه بعضاً.

وأما قولها: لَيْتَنَا مع رسول الله ﷺ بالحج، فقد قال جابرٌ عنها في «الصحيحين»: إنها أهلت بعُمرة، وكذلك قال طاوس عنها في «صحيح مسلم»، وكذلك قال مجاهد عنها، فلو تعارضت الروايات عنها، فرواية الصحابة عنها أولى أن يُؤخذ بها من رواية التابعين، كيف ولا تعارض في ذلك البتة، فإن القائل: فعلنا كذا، يصدق ذلك منه بفعله، ويفعل أصحابه.

ومن العجب أنهم يقولون في قول ابن عمر: تمتّع رسول الله ﷺ بالعمرة إلى الحج، معناه: تمتع أصحابه، فأضاف الفعل إليه لأمره به، فهلا قلّمت في قول عائشة: لَيْتَنَا بالحج، أن المراد به جنس الصحابة الذين لَبَّوا بالحج، وقولها: فعلنا، كما قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ، وسافرنا معه ونحوه. ويتعيّن قطعاً - إن لم تكن هذه الرواية غلطاً - أن تُحمل على ذلك للأحاديث الصحيحة الصريحة، أنها كانت أحرمت بعُمرة وكيف يُنسب عروة في ذلك إلى الغلط، وهو أعلم الناس بحديثها وكان يسمع منها مشافهةً بلا واسطة.

وأما قوله في رواية حماد: حدثني غير واحد أن رسول الله ﷺ قال لها: «دعي عُمركَ» فهذا إنما يحتاج إلى تعليله، وردّه إذا خالف الروايات الثابتة عنها، فأما إذا وافقها وصدّقها، وشهد لها أنها أحرمت بعُمرة، فهذا يدل على أنه محفوظ، وأنّ الذي حدّث به ضبطه وحفظه، هذا مع أن حماد بن زيد انفرد بهذه الرواية المعلّلة، وهي قوله: فحدثني غير واحد، وخالفه جماعة، فرووه متصلاً عن عروة، عن عائشة. فلو قُدِّرَ التعارض، فالأكثرون أولى بالصواب، فيا الله العجب! كيف يكون تغليب أعلم الناس بحديثها وهو عروة في قوله عنها: «وكنتم فيمن أهل بعُمرة» سائغاً بلفظ مجمل محتمل، ويُقضي به على النص الصحيح الصريح الذي شهد له سياق القصة من وجوه متعددة قد تقدم ذكر بعضها؟! فهؤلاء، أربعة رَوَوْا عنها، أنها أهلت بعُمرة: جابر، وعروة، وطاوس ومجاهد، فلو كانت رواية القاسم، وعمرة، والأسود، معارضة لرواية هؤلاء، لكانت روايتهم أولى بالتقديم لكثرتهم، ولأن فيهم جابراً، ولفضل عروة، وعلمه بحديث خالته رضي الله عنها.

ومن العجب قوله: إن النبي ﷺ لما أمرها أن تترك الطواف، وتمضي على الحج، توهّموا لهذا أنها كانت معتمرة، فالنبي ﷺ إنما أمرها أن تدع العُمرة وتُشَيء إهلاكاً بالحج، فقال لها: «وأهلي بالحج» ولم يقل: «استمري عليه»، ولا امضي فيه، وكيف يُغلَطُ راوي الأمر بالامتناع بمجرد مخالفته لمذهب الرادّ؟ فأين في كتاب الله وسنة رسوله، وإجماع الأمة

ما يُحرم على المحرم تسريح شعره، ولا يسوغ تغليظ الثقات لنصرة الآراء، والتقليد. والمحرم وإن أمن من تقطيع الشعر، لم يمنع من تسريح رأسه، وإن لم يأمن من سقوط شيء من الشعر بالتسريح، فهذا المنع منه محل نزاع واجتهاد، والدليل. يَفْصِلُ بين المتنازعين، فإن لم يدل كتاب ولا سنة ولا إجماع على منعه، فهو جائز.

فصل

(ما المراد من عمرة التعميم لعائشة؟)

وللناس في هذه العمرة التي أتت بها عائشة من التعميم أربعة مسالك. أحدها: أنها كانت زيادة تطبيقاً لقلبها وجبراً لها، وإلا فطوافها وسعيها وقع عن حجها وعمرتها، وكانت متمتعة، ثم أدخلت الحج على العمرة، فصارت قارئة، وهذا أصح الأقوال، والأحاديث لا تدل على غيره، وهذا مسلك الشافعي وأحمد وغيرهما.

المسلك الثاني: أنها لما حاضت، أمرها أن ترفض عمرتها، وتنتقل عنها إلى حج مفرد، فلما حلت من الحج، أمرها أن تعتبر قضاء لعمرتها التي أحرمت بها أولاً، وهذا مسلك أبي حنيفة ومن تبعه، وعلى هذا القول، فهذه العمرة كانت في حقها واجبة، ولا بُد منها، وعلى القول الأول كانت جائزة، وكل متمتعة حاضت ولم يمكنها الطواف قبل التعريف فهي على هذين القولين، إما أن تدخل الحج على العمرة، وتصير قارئة، وإما أن تنتقل عن العمرة إلى الحج، وتصير مفردة، وتقضي العمرة.

المسلك الثالث: أنها لما قرنت، لم يكن بُد من أن تأتي بعمرة مفردة، لأن عمرة القارن لا تجزئ عن عمرة الإسلام، وهذا أحد الروايتين عن أحمد.

المسلك الرابع: أنها كانت مفردة، وإنما امتنعت من طواف القدوم لأجل الحيض، واستمرت على الأفراد حتى طهرت، وقضت الحج، وهذه العمرة هي عمرة الإسلام، وهذا مسلك القاضي إسماعيل بن إسحاق وغيره من المالكية، ولا يخفي ما في هذا المسلك من الضعف، بل هو أضعف المسالك في الحديث.

وحديث عائشة هذا، يؤخذ منه أصول عظيمة من أصول المناسك.

أحدها: اكتفاء القارن بطواف واحد وسعي واحد. الثاني: سقوط طواف القدوم عن الحائض، كما أن حديث صفية زوج النبي ﷺ أصل في سقوط طواف الوداع عنها.

الثالث: أن إدخال الحج على العمرة للحائض جائز، كما يجوز للطاهر، وأولى، لأنها معذورة محتاجة إلى ذلك.

الرابع: أن الحائض تفعل أفعال الحج كلها، إلا أنها لا تطوف بالبيت.

الخامس: أن التعميم من الحل.

السادس: جواز عُمرتين في سنة واحدة، بل في شهر واحد.

السابع: أن المشروع في حق المتمتع إذا لم يأمن الفوات أن يُدْخَلَ الحج على العمرة، وحديث عائشة أصل فيه.

الثامن: أنه أصل في العمرة المكية، وليس مع من يستحبها غيره، فإن النبي ﷺ لم يعتزم هو ولا أحد ممن حج معه من مكة خارجاً منها إلا عائشة وحدها، فجعل أصحاب العمرة المكية قصة عائشة أصلاً لقولهم، ولا دلالة لهم فيها، فإن عمرتها إما أن تكون قضاء للعمرة المرفوضة عند من يقول: إنها رفضتها، فهي واجبة قضاء لها، أو تكون زيادة محضة، وتطبيقاً لقلبها عند من يقول: إنها كانت قارئة، وإن طوافها وسعيها أجزأها عن حجها وعمرتها. والله أعلم.

فصل

(هل كانت عمرة)

التعميم مجزئة لعائشة عن عمرة الإسلام؟)

وأما كون عمرتها تلك مجزئة عن عمرة الإسلام، ففيه قولان للفقهاء، وهما روايتان عن أحمد، والذين قالوا: لا تجزئ، قالوا: العمرة المشروعة التي شرعها رسول الله ﷺ وفعلها نوعان لا ثالث لهما: عمرة التمتع وهي التي أذن فيها عند الميقات، وندب إليها في أثناء الطريق، وأوجبها على من لم يسقي الهدى عند الصفا والمروة. الثانية: العمرة المفردة التي يُنشأ لها سفر، كعمره المتقدم، ولم يُشرع عمرة مفردة غير هاتين، وفي كليهما المعتمر داخل إلى

مكة. وأما عمرة الخارج إلى أدنى الحل، فلم تُشرع. وأما عمرة عائشة، فكانت زيارة محضة، وإلا فعمرة قرانها قد أجزأت عنها بنص رسول الله ﷺ، وهذا دليل على أن عمرة القارن تُجزئ عن عمرة الإسلام، وهذا هو الصواب المقطوع به، فإن النبي ﷺ قال لعائشة: «يَسَعُكَ طَوَافُكَ لِحَجِّكَ وَعُمْرَتِكَ» وفي لفظ، «يجزئك» وفي لفظ: «يَكْفِيكَ». وقال: «دَخَلْتَ الْعُمْرَةَ فِي الْحَجِّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» وأمر كل من ساق الهدي أن يقرن بين الحج والعمرة، ولم يأمر أحداً ممن قرن معه وساق الهدي بعمرة أخرى غير عمرة القرآن، فصَحَّ إجزاء عمرة القارن عن عمرة الإسلام قطعاً وبالله التوفيق.

فصل

(موضع حيضة عائشة وطهرها)

وأما موضع حيضها، فهو بِسَرَفٍ بلا ريب، وموضع طهرها قد اختلف فيه، فقيل: بعرفة هكذا روى مجاهد عنها [مسلم: 2912] وروى عروة عنها أنها أظللها يوم عرفة وهي حائض [البخاري: 1783، ومسلم: 2913] ولا تنافي بينهما، والحديثان صحيحان، وقد حملهما ابن حزم على معنيين، فطهر عرفة: هو الاغتسال للوقوف بها عنده، قال: لأنها قالت: تطهرت بعرفة، والتطهر غير الطهر، قال: وقد ذكر القاسم يوم طهرها، أنه يوم النحر، وحديثه في «صحيح مسلم». قال: وقد اتفق القاسم وعروة على أنها كانت يوم عرفة حائضاً، وهما أقرب الناس منها. وقد روى أبو داود: حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا حماد بن سلمة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عنها: خرجنا مع رسول الله ﷺ مُوافين هلال ذي الحجة... فذكرت الحديث، وفيه، فلما كانت ليلة البطحاء، طهرت عائشة، وهذا إسناد صحيح [أبو داود: 1978] لكن قال ابن حزم: إنه حديث منكر، مخالف لما روى هؤلاء كلهم عنها، وهو قوله: إنها طهرت ليلة البطحاء، وليلة البطحاء كانت بعد يوم النحر بأربع ليال، وهذا محالٌ إلّا أننا لما تدبرنا وجدنا هذه اللفظة، ليست من كلام عائشة، فسقط التعلّق بها، لأنها ممن دون عائشة، وهي أعلم بنفسها. قال: وقد روى حديث حماد بن سلمة هذا

وهيب بن خالد، وحماد بن زيد، فلم يذكرها هذه اللفظة.

قلت: يتعين تقديم حديث حماد بن زيد ومن معه على حديث حماد بن سلمة لوجوه.

أحدها: أنه أحفظ وأثبت من حماد بن سلمة.

الثاني: أن حديثهم فيه إخبارها عن نفسها، وحديثه فيه الإخبار عنها.

الثالث: أن الزهري روى عن عروة عنها الحديث، وفيه: فلم أزل حائضاً حتى كان يوم عرفة، وهذه الغاية هي التي بينها مجاهد والقاسم عنها، لكن قال مجاهد عنها: فتطهرت بعرفة، والقاسم قال: يوم النحر.

فصل

(العودة إلى سياق حجته ﷺ)

عدنا إلى سياق حجته ﷺ: فلما كان بِسَرَفٍ، قال لأصحابه: «مَنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ هَدْيٌ، فَأَحَبُّ أَنْ يَجْعَلَهَا عُمْرَةً، فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُ هَدْيٌ فَلَا» وهذه رتبة أخرى فوق رتبة التخيير عند الميقات.

(بحث في فسخ الحج إلى العمرة)

فلما كان بمكة، أمر أمراً حتماً مَنْ لا هدي معه أن يجعلها عمرة، ويحلّ من إحرامه، ومن معه هدي، أن يقيم على إحرامه، ولم ينسخ ذلك شيء البتة، بل سأل سراقه بن مالك عن هذه العمرة التي أمرهم بالفسخ إليها، هل هي لِغَايِهِمْ ذَلِكَ، أم لِلْأَيْدِ: قال: «بَلِّ لِلْأَيْدِ، وَإِنَّ الْعُمْرَةَ قَدْ دَخَلَتْ فِي الْحَجِّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» [البخاري: 1785، ومسلم: 2983].

وقد روى عنه ﷺ الأمر بفسخ الحج إلى العمرة أربعة عشر من أصحابه، وأحاديثهم كلها صحاح، وهم: عائشة، وحفصة أمّا المؤمنين، وعلي بن أبي طالب، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ، وأسما بنت أبي بكر الصديق، وجابر بن عبد الله، وأبو سعيد الخدري، والبراء بن عازب، وعبد الله بن عمر، وأنس بن مالك، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن عباس، وسبرة بن معبد الجهني، وسراقه بن مالك المدلجي رضي الله عنهم ونحن نشير إلى هذه الأحاديث.

ففي «الصحيحين»: عن ابن عباس، قَدِمَ النبي ﷺ وأصحابه صَبِيحَةَ رَابِعَةِ مُهْلَيْنَ بِالْحَجِّ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهَا عُمْرَةً، فَنَعَاظَمَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيُّ الْحُلِّ؟ فَقَالَ: «الْحُلُّ كُلُّهُ».

وفي لفظ لمسلم: قَدِمَ النبي ﷺ وأصحابه لأربع خَلَوْنَ مِنَ الْعَشْرِ إِلَى مَكَّةَ، وَهُمْ يُلْبِثُونَ بِالْحَجِّ، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَجْعَلُوهَا عُمْرَةً، وَفِي لَفْظٍ: وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَجْعَلُوا إِحْرَامَهُمْ بِعُمْرَةٍ إِلَّا مَنْ كَانَ مَعَهُ الْهَدْيُ [البخاري: ١٥٦٤، ومسلم: ٣٠٠٩].

وفي «الصحيحين» عن جابر بن عبد الله: أَهَلُّ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ بِالْحَجِّ، وَلَيْسَ مَعَ أَحَدٍ مِنْهُمْ هَدْيٌ غَيْرَ النَّبِيِّ ﷺ وَطَلْحَةَ، وَقَدِمَ عَلَيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْيَمَنِ وَمَعَهُ هَدْيٌ، فَقَالَ: أَهَلَلْتُ بِمَا أَهَلُّ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَجْعَلُوهَا عُمْرَةً، وَيَطُوفُوا، وَيَقْصُرُوا، وَيَحْلُلُوا إِلَّا مَنْ كَانَ مَعَهُ الْهَدْيُ، قَالُوا: نَتَطَلَّقُ إِلَى مَنْى وَذَكَرُوا أَحَدَنَا يَقَطُرُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «لَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا أَهْدَيْتُ، وَلَوْ لَا أَنَّ مَعِيَ الْهَدْيُ لَأَخَلَلْتُ». وَفِي لَفْظٍ: فَقَامَ فِينَا فَقَالَ: «لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَنْفَأَكُمْ اللَّهُ، وَأَضْدَقَكُمْ، وَأَبْرَكُمْ وَلَوْ لَا أَنَّ مَعِيَ الْهَدْيُ لَحَلَلْتُ كَمَا تَحْلُلُونَ، وَلَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ، لَمْ أَسُقِ الْهَدْيَ، فَحَلُّوا» فَحَلَلْنَا، وَسَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، وَفِي لَفْظٍ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمَّا أَهَلَلْنَا، أَنْ نَحْرِمَ إِذَا تَوَجَّهْنَا إِلَى مَنْى. قَالَ: فَأَهَلَلْنَا مِنَ الْأَبْطَحِ، فَقَالَ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ بْنُ جُعْشَمٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لِعَامِنَا هَذَا أَمْ لِلْأَبِيدِ؟ قَالَ: «لِلْأَبِيدِ». وَهَذِهِ الْأَلْفَاظُ كُلُّهَا فِي الصَّحِيحِ [البخاري: ٧٢٣٠، ومسلم: ٢٩٣٧] وَهَذَا اللَّفْظُ الْأَخِيرُ صَرِيحٌ فِي إِبْطَالِ قَوْلِ مَنْ قَالَ: إِنَّ ذَلِكَ كَانَ خَاصًّا بِهِمْ، فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَكُونُ لِعَامِهِمْ ذَلِكَ وَحْدَهُ، لَا لِلْأَبِيدِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّهُ لِلْأَبِيدِ.

وفي «المسند»: عن ابن عمر، قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَّةَ وَأَصْحَابُهُ مُهْلَيْنَ بِالْحَجِّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ شَاءَ أَنْ يَجْعَلَهَا عُمْرَةً إِلَّا مَنْ كَانَ مَعَهُ الْهَدْيُ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيْرُوحُ أَحَدُنَا إِلَى مَنْى وَذَكَرَهُ يَقَطُرُ مَنِيًّا؟ قَالَ: «نَعَمْ» وَسَطَعَتِ الْمَجَابِرُ [صحيح: أحمد: ٤٨٢٢].

وفي «السنن»: عن الربيع بن سبرة، عَنْ أَبِيهِ،

خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِعُسْفَانَ، قَالَ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ الْمُدَلِّجِي: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَقْصَى لَنَا قَضَاءُ قَوْمٍ كَأَنَّمَا وَلِدُوا الْيَوْمَ، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْخَلَ عَلَيْكُمْ فِي حَجَّةِ عُمْرَةٍ، فَإِذَا قَدِمْتُمْ، فَمَنْ تَطَوَّفَ بِالْبَيْتِ وَسَعَى بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَقَدْ حَلَّ إِلَّا مَنْ مَعَهُ هَدْيٌ» [حسن: أبو داود: ١٨٠١، والدارمي (٥١/٢)].

وفي «الصحيحين» عن عائشة: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لَا نَذْكُرُ إِلَّا الْحَجَّ... فَذَكَرْتُ الْحَدِيثَ، وَفِيهِ: فَلَمَّا قَدِمْنَا مَكَّةَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «اجْعَلُوهَا عُمْرَةً» فَاحْلُ النَّاسُ إِلَّا مَنْ كَانَ مَعَهُ الْهَدْيُ... وَذَكَرْتُ بَاقِيَ الْحَدِيثِ.

وفي لفظ للبخاري: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا نَرَى إِلَّا الْحَجَّ، فَلَمَّا قَدِمْنَا تَطَوَّفْنَا بِالْبَيْتِ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ مَنْ لَمْ يَكُنْ سَاقِ الْهَدْيِ أَنْ يَحْلُ، فَحَلَّ مَنْ لَمْ يَكُنْ سَاقِ الْهَدْيِ وَنَسَاوَهُ لَمْ يَسْفُنْ، فَاحْلَلْنَ.

وفي لفظ لمسلم: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ غَضَبَانِ، فَقُلْتُ: مَنْ أَغْضَبَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَخَذَهُ اللَّهُ النَّارَ. قَالَ: أَوْ مَا شَعَرْتُ أَنِّي أَمَرْتُ النَّاسَ بِأَمْرٍ، فَإِذَا هُمْ يَتَرَدَّدُونَ، وَلَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ. مَا سَفَتْ الْهَدْيَ مَعِيَ حَتَّى أَشْتَرِيَهُ، ثُمَّ أَجْلُ كَمَا حَلُّوا» [البخاري: ١٧٧٢، ومسلم: ٢٩٢٢]. وَقَالَ مَالِكٌ: عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ عُمَرَ، قَالَتْ: سَمِعْتُ عَائِشَةَ تَقُولُ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِخَمْسِ لَيَالٍ بَيْنَ مَنْ ذِي الْقَعْدَةِ، وَلَا نَرَى إِلَّا أَنَّهُ الْحَجُّ، فَلَمَّا دُونَا مِنْ مَكَّةَ، أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ هَدْيٌ إِذَا طَافَ بِالْبَيْتِ وَسَعَى بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ أَنْ يَحْلُ، قَالَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ: فَذَكَرْتُ هَذَا الْحَدِيثَ لِلْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ، فَقَالَ: أَنْتَ وَاللَّهُ بِالْحَدِيثِ عَلَى وَجْهِهِ [البخاري: ١٧٢٠، ومسلم: ٢٩٢٥].

وفي «صحيح مسلم»: عَنْ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: حَدَّثَنِي حَفْصَةُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ أَزْوَاجَهُ أَنْ يَخْلُلْنَ عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فَقُلْتُ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَحْلُ؟ فَقَالَ: «إِنِّي لَكِدْتُ رَأْسِي، وَقَلَّدْتُ هَذِي، فَلَا أَجِلْ حَتَّى أَنْعَرَ الْهَدْيَ» [مسلم: ٢٩٨٤].

وفي «صحيح مسلم»: عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، خَرَجْنَا مُحْرِمِينَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كَانَ مَعَهُ هَدْيٌ، فَلْيَقُمْ عَلَى

إخراجه، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ هَذِي، فَلْيُخْلِلْ...
وذكرت الحديث [سلم: ٣٠٠٢].

وفي «صحيح مسلم» أيضاً: عن أبي سعيد الخدري، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، نَضْرُحُ بالحجّ ضراخاً، فلما قَدِمْنَا مَكَّةَ أَمَرْنَا أَنْ نَجْعَلَهَا عُمْرَةً إِلَّا مَنْ سَاقَ الْهَذِي. فلما كَانَ يَوْمُ التَّزْوِيَةِ، وَرُخْنَا إِلَى مِنًى، أَهَلَلْنَا بِالْحَجِّ [سلم: ٣٠٢٣].

وفي «صحيح البخاري»: عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: أَهَلَّ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ، وَأَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، وَأَهَلَلْنَا فَلَمَّا قَدِمْنَا مَكَّةَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اجْعَلُوا إِهْلَالَكُمْ بِالْحَجِّ عُمْرَةً إِلَّا مَنْ قَلَّدَ الْهَذِي»... وذكر الحديث [البخاري: ١٥٧٢].

(غضبه ﷺ ممن لم يفسخ الحج إلى العمرة)

وفي «السنن» عن البراء بن عازب، خرج رسول الله ﷺ وأصحابه، فأحرمنا بالحج، فلما قَدِمْنَا مَكَّةَ، قال: «اجْعَلُوا حَجَّكُمْ عُمْرَةً». فقال الناس: يا رسول الله! قد أحرمنا بالحج، فكيف نجعلها عُمْرَةً؟ فقال: «انظُرُوا مَا أَمَرُكُمْ بِهِ فَأَفْعَلُوهُ»، فرددوا عليه القول، فغضب، ثم انطلق حتى دخل على عائشة وهو غضبان، فرأت الغضب في وجهه فقالت: مَنْ أَغْضَبَكَ، أَغْضَبَكَ اللَّهُ. فَقَالَ: وَمَا لِي لَا أَغْضَبُ وَأَنَا أَمْرُ أَمْرًا فَلَا يَتَّبِعُ [حسن: أحمد: ١٨٥٢٣، وابن ماجه: ٢٩٨٢].

ونحن، نُشْهَدُ اللَّهَ عَلَيْنَا أَنَّا لَوْ أَحْرَمْنَا بِحَجٍّ، لَرَأَيْنَا فَرَضاً عَلَيْنَا فسخه إلى عُمْرَةٍ تَفَادِيًا مِنْ غَضَبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَاتِّبَاعاً لِأَمْرِهِ. فوالله ما تُسَيِّحُ هَذَا فِي حَيَاتِهِ وَلَا بَعْدَهُ، وَلَا صَحَّ حَرْفٌ وَاحِدٌ يُعَارِضُهُ، وَلَا خَصَّ بِهِ أَصْحَابَهُ دُونَ مَنْ بَعْدَهُمْ، بَلْ أَجْرَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى لِسَانِ سُرَاقَةَ أَنْ يَسْأَلَ: هَلْ ذَلِكَ مُخْتَصٌّ بِهِمْ؟ فَأَجَابَ بِأَنْ ذَلِكَ كَائِنْ لَا يَدُ الْأَبَدِ، فَمَا تَدْرِي مَا نَقَدَّمُ عَلَى هَذِهِ الْأَحَادِيثِ، وَهَذَا الْأَمْرُ الْمُؤَكَّدُ الَّذِي غَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ.

والله دَرُّ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، رَحِمَهُ اللَّهُ إِذْ يَقُولُ لِسَلْمَةَ ابْنِ شَيْبٍ وَقَدْ قَالَ لَهُ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ: كُلُّ أَمْرٍ عِنْدِي

حَسَنٌ إِلَّا خَلَّةً وَاحِدَةً: قَالَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: تَقُولُ بِفَسْخِ الْحَجِّ إِلَى الْعُمْرَةِ. فقال: يَا سَلْمَةُ! كُنْتُ أَرَى لَكَ عَقْلاً، عِنْدِي فِي ذَلِكَ أَحَدُ عَشَرَ حَدِيثاً صَحاحاً عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَتَرَكُهَا لِقَوْلِكَ؟!

وفي «السنن» عن البراء بن عازب، أن علياً رضي الله عنه لما قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْيَمَنِ، أَدْرَكَ فَاطِمَةَ وَقَدْ لَبَسَتْ ثِيَاباً صَبِيغاً، وَنَضَحَتْ الْبَيْتَ بِنَضْرُوح، فَقَالَ: مَا بِأَلَيْكَ؟ فَقَالَتْ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ أَصْحَابَهُ فَحَلُّوا [أبو داود: ١٧٩٧، والنسائي: ١٤٤/٥].

وقال ابنُ أبي شيبة: حدثنا ابنُ فضيل، عن يزيد، عن مجاهد، قال: قال عبدُ الله بنُ الزبير: أفردوا الحج، ودَعَوْا قَوْلَ أَعْمَانِكَ هَذَا. فقال عبدُ الله بنُ عباس: إِنْ الَّذِي أَعْمَى اللَّهَ قَلْبَهُ لَأَنْتَ، أَلَا تَسْأَلُ أَمْرَكَ عَنْ هَذَا؟ فَأَرْسَلُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ: صَدَقَ ابْنُ عَبَّاسٍ، جِئْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حُجَّاجاً، فَجَعَلْنَاهَا عُمْرَةً، فَحَلَلْنَا الْإِحْلَالَ كُلَّهُ، حَتَّى سَطَعَتِ الْمَجَامِيرُ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ^(١).

وفي «صحيح البخاري» عن ابن شهاب، قال: دخلتُ على عطاءِ أَسْتَوِيَتِيهِ، فقال: حدثني جابرُ بنُ عبدِ الله: أَنَّهُ حَجَّ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ سَاقِ الْبَدَنِ مَعَهُ، وَقَدْ أَهَلُّوا بِالْحَجِّ مُفْرَدًا، فَقَالَ لَهُمْ: «اجْعَلُوا مِنْ إِخْرَاجِكُمْ بِطَوَافِ الْبَيْتِ، وَبَيْنَ الصُّفَا وَالْمَرَوَةِ، وَقَصِّرُوا، ثُمَّ أَقِيمُوا حَلَالًا، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ التَّزْوِيَةِ، فَأَهَلُّوا بِالْحَجِّ وَاجْعَلُوا الَّتِي قَدِمْتُمْ بِهَا مُتْعَةً». فقالوا: كَيْفَ نَجْعَلُهَا مُتْعَةً وَقَدْ سَمِعْنَا الْحَجَّ؟ فقال: «افْعَلُوا مَا أَمَرُكُمْ بِهِ، فَلَوْلَا أَنِي سَقْتُ الْهَذِي، لَفَعَلْتُ وَمِثْلَ الَّذِي أَمَرْتُمْ بِهِ. وَلَكِنْ لَا يَحِلُّ مِنِّي حَرَامٌ، حَتَّى يَبْلُغَ الْهَذِي مَحِلَّهُ»، ففعلوا [البخاري: ١٥٦٨].

وفي «صحيحه» أيضاً عنه: أَهَلَّ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ بِالْحَجِّ... وذكر الحديث. وفيه: فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ أَنْ يَجْعَلُوهَا عُمْرَةً، وَيَطُوفُوا، ثُمَّ يَقْصُرُوا إِلَّا مَنْ سَاقَ الْهَذِي: فقالوا: انطلق إلى منى وذكر أحدنا يقطر؟ فبلغ النبي ﷺ فقال: «لَوْ اسْتَبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَبَلْتُ مَا أَهْدَيْتُ وَلَوْلَا أَنَّ مَعِي

(١) يزيد هو ابن أبي زياد الهاشمي الكوفي ضعيف، وبإني رجاله ثقات، وأخرجه أحمد (٢٦٩١٧).

الهندي، لأُخْلِثُ» [البخاري: ١٥٥٧].

وصدق ابن عباس، كُلُّ من طاف بالبيت ممن لا هدي معه من مفرد، أو قارن، أو متمتع، فقد حلَّ إما وجوباً، وإما حكماً، هذه هي السنة التي لا رادَّ لها ولا مدفع، وهذا كقولہ ﷺ: «إِذَا أَذْبَرَ النَّهَارَ مِنْ هَاهُنَا، وَأَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَاهُنَا، فَقَدْ أَقْطَرَ الصَّائِمُ» [البخاري: ١٩٥٤، ومسلم: ٢٥٥٨]، إما أن يكون المعنى: أفطر حكماً، أو دخل وقت إفطاره، وصار الوقت في حقه وقت إفطاره. فهكذا هذا الذي قد طاف بالبيت، إما أن يكون قد حلَّ حكماً، وإما أن يكون ذلك الوقت في حقه ليس وقت إحرام، بل هو وقت جِلِّ ليس إلا، ما لم يكن معه هدي، وهذا صريح السنة.

وفي «صحيح مسلم» أيضاً عن عطاء قال: كان ابن عباس يقول: لا يطوف بالبيت حاجٌّ ولا غير حاجٍّ إلا حلَّ. وكان يقول: هو بَعْدَ الْمُعَرَّفِ وَقَبْلَهُ، وكان يأخذ ذلك من أمر النبي ﷺ، حين أمرهم أن يجلُّوا في حَجَّةِ الْوَدَاعِ [مسلم: ٣٠٢٠].

وفي «صحيح مسلم»: عن ابن عباس، أن النبي ﷺ قال: «هذه عُمرَةُ اسْتَمْتَعْنَا بِهَا، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ الْهَدْيُ، فَلْيَجِلْ الْجِلُّ كُلُّهُ فَقَدْ دَخَلَتْ الْعُمْرَةُ فِي الْحَجِّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» [مسلم: ٣٠١٤].

وقال عبد الرزاق: حدثنا معمر، عن قتادة، عن أبي الشعثاء، عن ابن عباس قال: مَنْ جَاءَ مُهَلَّأً بِالْحَجِّ، فَإِنَّ الطَّوْفَ بِالْبَيْتِ يَصِيرُهُ إِلَى عُمرَةٍ شَاءَ أَوْ أَيْ. قُلْتُ: إِنْ النَّاسُ يُنْكِرُونَ ذَلِكَ عَلَيْكَ. قَالَ: هِيَ سُنَّةُ نَبِيِّهِمْ وَإِنْ رَغِمُوا [إسناده صحيح] وقد روى هذا عن النبي ﷺ مَنْ سَمِعْنَا وغيرهم؛ وروى ذلك عنهم طوائف من كبار التابعين، حتى صار منقولاً نقلاً يرفع الشكَّ، ويوجب اليقين، ولا يُمكن أحداً أن ينكره، أو يقول: لم يقع، وهو مذهب أهل بيت رسول الله ﷺ، ومذهب حَبَرِ الْأُمَّةِ وبحرها ابن عباس وأصحابه، ومذهب أبي موسى الأشعري، ومذهب إمام أهل السنة والحديث أحمد بن حنبل وأتباعه، وأهل الحديث معه، ومذهب عبد الله بن الحسن العنبري قاضي البصرة، ومذهب أهل الظاهر.

(أعذار من لم يأخذ بفسخ الحج إلى العمرة)

والذين خالفوا هذه الأحاديث، لهم أعذار.

وفي «صحيح مسلم»: عنه في حَجَّةِ الْوَدَاعِ: حتى إذا قَدِمْنَا مَكَّةَ، طَفْنَا بِالْكَعْبَةِ وَالصَّفَا وَالْمَرْوَةَ، فَأَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، أَنْ يَجِلَّ مِنَّا مَنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ هَدْيٌ، قَالَ: فَقُلْنَا: حَلَّ مَاذَا؟ قَالَ: «الْجِلُّ كُلُّهُ»، فَوَاقَعْنَا النِّسَاءَ، وَتَطَيَّيْنَا بِالطَّيِّبِ، وَلَبَسْنَا ثِيَابَنَا، وَلَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ عَرَفَةَ إِلَّا أَرْبَعُ لَيَالٍ، ثُمَّ أَهْلَلْنَا يَوْمَ التَّروِيَةِ، وَفِي لَفْظٍ آخَرَ لِمُسْلِمٍ. «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ لَيْسَ مَعَهُ هَدْيٌ، فَلْيَجِلْ وَلْيَجْعَلْهَا عُمرَةً، فَحَلَّ النَّاسُ كُلُّهُمْ وَقَصَّروا إِلَّا النَّبِيَّ ﷺ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ هَدْيٌ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ التَّروِيَةِ، تَوَجَّهُوا إِلَى مِنًى، فَأَقْلَمُوا بِالْحَجِّ [مسلم: ٢٩٣٧].

وفي «مسند البزار» بإسناد صحيح: عن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ، أَهَلَّ هُوَ وَأَصْحَابُهُ بِالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، فَلَمَّا قَدِمُوا مَكَّةَ، طَافُوا بِالْبَيْتِ وَالصَّفَا وَالْمَرْوَةَ، وَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَجْلُوا، فَهَابُوا ذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَجْلُوا فَلَوْلَا أَنْ مَعِيَ الْهَدْيُ، لأُخْلِثْتُ، فَأَحْلُوا حَتَّى حَلُّوا إِلَى النِّسَاءِ».

وفي «صحيح البخاري»: عن أنس قال: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ مَعَهُ بِالْمَدِينَةِ الظُّهْرَ أَرْبَعًا، وَالْعَصْرَ بِذِي الْحُلَيْفَةِ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ بَاتَ بِهَا حَتَّى أَصْبَحَ، ثُمَّ رَكِبَ حَتَّى اسْتَوَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ عَلَى الْبَيْدَاءِ، حَمِدَ اللَّهَ، وَسَبَّحَ، ثُمَّ أَهَلَّ بِحَجٍّ وَعُمْرَةٍ، وَأَهَلَّ النَّاسُ بِهِمَا، فَلَمَّا قَدِمْنَا أَمَرَ النَّاسَ فَحَلُّوا، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ التَّروِيَةِ، أَهَلُّوا بِالْحَجِّ... وذكر باقي الحديث.

وفي «صحيحه» أيضاً: عن أبي موسى الأشعري، قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى قومي باليمن، فبحث وهو بالبطحاء، فَقَالَ: «بِمَ أَهْلَلْتُ؟» فَقُلْتُ: أَهْلَلْتُ بِإِهْلَالِ النَّبِيِّ ﷺ. فَقَالَ: «أَهْلَ مَعَكَ مِنْ هَدْيٍ؟» قُلْتُ: لَا، فَأَمَرَنِي، فَطَفْتُ بِالْبَيْتِ وَالصَّفَا وَالْمَرْوَةَ، ثُمَّ أَمَرَنِي فَأُخْلِثُ [البخاري: ١٥٥٩].

وفي «صحيح مسلم»: أن رجلاً من بني الهُجَيم قال لابن عباس: مَا هَذِهِ الْفُتْيَا الَّتِي قَدْ تَشَعَّبَتْ بِالنَّاسِ، أَنْ مَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ فَقَدْ حَلَّ؟ فَقَالَ: سُنَّةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ وَإِنْ رَغِمَتْ [مسلم: ٣٠١٨].

العدر الأول: أنها منسوخة.

العدر الثاني: أنها مخصوصة بالصحابة، لا يجوز لغيرهم مشاركتهم في حكمها.

العدر الثالث: معارضتها بما يدل على خلاف حكمها، وهذا مجموع ما اعتدروا به عنها.

ونحن نذكر هذه الأعدار عُذْرًا عُذْرًا، ونبيِّن ما فيها بمعونة الله وتوفيقه.

(عذر من ادعى النسخ لهذا الفسخ)

أما العذر الأول، وهو النسخ، فيحتاج إلى أربعة أمور، لم يأتوا منها بشيء: يحتاج إلى نصوص أخرى، تكون تلك النصوص معارضة لهذه، ثم تكون مع هذه المعارضة مقاومة لها، ثم يثبت تأخرها عنها. قال المدعون للنسخ: قال عمر بن الخطاب السجستاني: حدثنا الفريابي، حدثنا أبان بن أبي حازم، قال: حدثني أبو بكر بن حفص، عن ابن عمر، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لما ولي: «يا أيها الناس، إن رسول الله ﷺ، أحل لنا المتعة ثم حرَّمها علينا. رواه البزار في «مسنده»^(١) عنه.

قال المبيحون للنسخ: عجباً لكم في مقاومة الجبال الرواسي التي لا تُزعزَعُها الرياح بكَيْبٍ مَهِيلٍ، تسفِيه الرياح يميناً وشمالاً، فهذا الحديث، لا سند ولا متن، أما سنده، فإنه لا تقوم به حجة علينا عند أهل الحديث، وأما متنه، فإن المراد بالمتعة فيه متعة النساء التي أحلها رسول الله ﷺ، ثم حرَّمها، لا يجوز فيها غير ذلك البتة، لوجوه.

أحدها: إجماع الأمة على أن متعة الحج غير محرمة، بل إما واجبة، أو أفضل الأنساك على الإطلاق، أو مستحبة، أو جائزة، ولا نعلم للأمة قولاً خامساً فيها بالتحريم.

الثاني: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، صح عنه من غير وجه، أنه قال: لو حججت لتمتع، ثم لو حججت لتمتع، ذكره الأثرم في «سننه» وغيره.

وذكر عبد الرزاق في «مصنفه»: عن سالم بن

عبد الله، أنه سئل أنهى عمر عن متعة الحج؟ قال: لا، أبعد كتاب الله تعالى؟ وذكر عن نافع، أن رجلاً قال له: أنهى عمر عن متعة الحج؟ قال: لا. وذكر أيضاً عن ابن عباس، أنه قال: هذا الذي يزعمون أنه نهى عن المتعة، - يعني عمر - سمعته يقول: لو اعتمر، ثم حججت، لتمتع.

قال أبو محمد بن حزم: صح عن عمر الرجوع إلى القول بالتمتع بعد النهي عنه، وهذا محال أن يرجع إلى القول بما صح عنده أنه منسوخ.

الثالث: أنه من المحال أن ينهى عنها، وقد قال ﷺ لمن سأل: هل هي ليعامهم ذلك أم للأبد؟ فقال: «بل للأبد»، وهذا قطع لتوهم ورود النسخ عليها، وهذا أحد الأحكام التي يستحيل ورود النسخ عليها، وهو الحكم الذي أخبر الصادق المصدوق باستمراره ودوامه، فإنه لا خلف لخيريه.

فصل

(عذر من ادعى اختصاص الصحابة بهذا الفسخ)

العدر الثاني: دعوى اختصاص ذلك بالصحابة، واحتجوا بوجوه.

أحدها: ما رواه عبد الله بن الزبير الحميدي، حدثنا سفيان، عن يحيى بن سعيد، عن المرقع، عن أبي ذر أنه قال: كان فسَخُ الحج من رسول الله ﷺ لنا خاصة [مسند الحميدي: ١٣٢].

وقال وكيع: حدثنا موسى بن عبيدة، حدثنا يعقوب بن زيد، عن أبي ذر قال: لم يكن لأحدٍ بعدنا أن يجعل حجته عُمرَةً، إنها كانت رُخصةً لنا أصحاب محمد ﷺ.

وقال البزار: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا سلمة بن الفضل، حدثنا محمد بن إسحاق، عن عبد الرحمن الأسدي، عن يزيد بن شريك، قلنا لأبي ذر: كيف تمتع رسول الله ﷺ وأنتم معه؟ فقال: ما أنتم وذاك، إنما ذاك شيء رُخص لنا فيه، يعني المتعة.

(١) أبان بن أبي حازم لين الحفظ، وباقي رجاله ثقات.

وقال البزار: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا عبيد الله بن موسى، حدثنا إسرائيل، عن إبراهيم بن المهاجر، عن أبي بكر التيمي، عن أبيه والحارث بن سويد قالا: قال أبو ذر: في الحج والتمتع، رخصة أعطاناها رسول الله ﷺ.

وقال أبو داود: حدثنا هناد بن السري، عن ابن أبي زائدة، أخبرنا محمد بن إسحاق عن عبد الرحمن بن الأسود، عن سليمان، أو سليم بن الأسود، أن أبا ذر كان يقول فيمن حج ثم فسحها إلى عمره، لم يكن ذلك إلا للرخص الذين كانوا مع رسول الله ﷺ [أبو داود: ١٨٠٧].

وفي «صحيح مسلم»: عن أبي ذر. قال: كانت المنفعة في الحج لأصحاب محمد ﷺ خاصة. وفي لفظ: «كانت لنا رخصة، يعني المنفعة في الحج»، وفي لفظ آخر: «لا تصح المنعتان إلا لنا خاصة، يعني منعة النساء ومنعة الحج». وفي لفظ آخر: «إنما كانت لنا خاصة دونكم، يعني منعة الحج» [مسلم: ٢٩٦٥].

وفي «سنن النسائي» بإسناد صحيح: عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر، في منعة الحج: ليست لكم، ولستم منها في شيء، إنما كانت رخصة لنا أصحاب رسول الله ﷺ [النسائي (١٧٩/٥) - (١٨٠)].

وفي «سنن أبي داود والنسائي»، من حديث بلال بن الحارث قال: قلت: يا رسول الله أرايت فسح الحج إلى العمرة لنا خاصة، أم للناس عامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «بل لنا خاصة»، ورواه الإمام أحمد [أحمد: ١٥٨٥٣، وأبو داود: ١٨٠٨، والنسائي (١٧٩/٥)] وفي سننه مجهول.

وفي «مسند أبي عوانة»^(١) بإسناد صحيح: عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، قال: سئل عثمان عن منعة الحج فقال: كانت لنا، ليست لكم.

هذا مجموع ما استدلوا به على التخصيص بالصحابة.

قال المجوزون للفسخ، والموجبون له: لا حجة

لكم في شيء من ذلك، فإن هذه الآثار بين باطل لا يصح عمن نسب إليه البتة، وبين صحيح عن قائل غير معصوم لا تعارض به نصوص المعصوم.

أما الأول: فإن المرفوع ليس ممن تقوم بروايته حجة، فضلاً عن أن يقدم على النصوص الصحيحة غير المدفوعة. وقد قال أحمد بن حنبل: - وقد عورض بحديثه -: ومن المرفوع الأسدي؟ وقد روى أبو ذر عن النبي ﷺ، الأمر بفسخ الحج إلى العمرة. وغاية ما نقل عنه، إن صح: أن ذلك مختص بالصحابة، فهو رايه. وقد قال ابن عباس، وأبو موسى الأشعري: إن ذلك عام للأمة، فرأي أبي ذر معارض برأيهما، وسلمت النصوص الصحيحة الصريحة ثم من المعلوم أن دعوى الاختصاص باطله بنص النبي ﷺ أن تلك العمرة التي وقع السؤال عنها وكانت عمرة فسخ لأبد الأبد، لا تختص بقرن دون قرن، وهذا أصح سنداً من المروي عن أبي ذر، وأولى أن يؤخذ به منه لو صح عنه.

(الأصل في المسائل الإحكام)

حتى يثبت نسخها أو اختصاصها بأحد)

وأيضاً، فإذا رأينا أصحاب رسول الله ﷺ قد اختلفوا في أمر قد صح عن رسول الله ﷺ أنه فعله وأمر به، فقال بعضهم: إنه منسوخ أو خاص، وقال بعضهم: هو باق إلى الأبد، فقول من ادعى نسخه أو اختصاصه مخالف للأصل، فلا يقبل إلا ببرهان، وإن أقل ما في الباب معارضته بقول من ادعى بقاءه وعمومه، والحجة تفصيل بين المتنازعين، والواجب الرد عند التنازع إلى الله ورسوله. فإذا قال أبو ذر وعثمان: إن الفسخ منسوخ أو خاص، وقال أبو موسى وعبد الله بن عباس: إنه باق وحكمه عام، فعلى من ادعى النسخ والاختصاص الدليل.

وأما حديث المرفوع - حديث بلال بن الحارث - فحديث لا يكتف، ولا يعارض بمثله تلك الأساطين الثابتة.

(١) في الأصل المطبوع: «وفي سنن أبي داود» وهو تحريف. وإسناده صحيح كما قال المؤلف، وهو في «حجة الرداع» ص (٢٧٦) لابن حزم.

امثاله. وأما الجواز والاستحباب، فللأمة إلى يوم القيامة، لكن أبي ذلك البحر ابن عباس، وجعل الوجوب للأمة إلى يوم القيامة، وأن فرضاً على كل مفرد وقارن لم يسق الهدي، أن يحل ولا بد، بل قد حل وإن لم يشأ، وأنا إلى قوله أميل مني إلى قول شيخنا.

الاحتمال الثالث: أنه ليس لأحد من بعد الصحابة أن يتبدى حجاً قارناً أو مفرداً بلا هدي، بل هذا يحتاج معه إلى الفسخ، لكن فرض عليه أن يفعل ما أمر به النبي ﷺ أصحابه في آخر الأمر من التمتع لمن لم يسق الهدي، والقران لمن ساق، كما صح عنه ذلك. وأما أن يحرم بحج مفرد، ثم يفسخه عند الطواف إلى عمرة مفردة، ويجعله متعة، فليس له ذلك، بل هذا إنما كان للصحابة، فإنهم ابتدؤوا الإحرام بالحج المفرد قبل أمر النبي ﷺ بالتمتع والفسخ إليه، فلما استقر أمره بالتمتع والفسخ إليه، لم يكن لأحد أن يخالفه ويُفرد، ثم يفسخه.

وإذا تأملت هذين الاحتمالين الأخيرين، رأيتهما إما راجحين على الاحتمال الأول، أو مساويين له، وتسقط معارضة الأحاديث الثابتة الصريحة به جملة وبالله التوفيق.

وأما ما رواه مسلم في «صحيحه»: عن أبي ذر، أن المتعة في الحج كانت لهم خاصة، فهذا، إن أريد به أصل المتعة، فهذا لا يقول به أحد من المسلمين، بل المسلمون متفقون على جوازها إلى يوم القيامة. وإن أريد به متعة الفسخ، احتمل الوجوه الثلاثة المتقدمة. وقال الأثرم في «سننه»: وذكر لنا أحمد بن حنبل، أن عبد الرحمن بن مهدي حدثه عن سفيان، عن الأعمش عن إبراهيم التيمي، عن أبي ذر، في متعة الحج كانت لنا خاصة. فقال أحمد بن حنبل: رحم الله أبا ذر، هي في كتاب الله عز وجل ﴿فَنَسَعًا بِالْعَمَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ [البقرة: 196].

قال المانعون من الفسخ: قول أبي ذر وعثمان: إن ذلك منسوخ أو خاص بالصحابة، لا يُقال مثله بالرأي، فمع قائله زيادة علم خفيت على من ادعى بقاءه وعمومه، فإنه مستصحب لحال النص بقاءً وعموماً، فهو بمنزلة صاحب اليد في العين المدعاة،

قال عبد الله بن أحمد: كان أبي يرى للمهل بالحج أن يفسخ حجه إن طاف بالبيت وبين الصفا والمروة. وقال في المتعة: هي آخر الأمرين من رسول الله ﷺ. وقال ﷺ: «اجعلوا حجكم عمرة». قال عبد الله: فقلت لأبي: فحديث بلال بن الحارث في فسخ الحج، يعني قوله: «لنا خاصة»؟ قال: لا أقول به، لا يُعرف هذا الرجل، هذا حديث ليس إسناده بالمعروف، ليس حديث بلال بن الحارث عندي بثبت. هذا لفظه.

قلت: ومما يدل على صحة قول الإمام أحمد، وأن هذا الحديث لا يصح أن النبي ﷺ أخبر عن تلك المتعة التي أمرهم أن يفسخوا حجهم إليها أنها لا بُدَّ الأبد، فكيف يثبت عنه بعد هذا أنها لهم خاصة؟ هذا من أمحل المحال. وكيف يأمرهم بالفسخ ويقول: «دَخَلَتِ الْعُمَرَةُ فِي الْحَجِّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، ثم يثبت عنه أن ذلك مختص بالصحابة دون من بعدهم: فنحن نشهد بالله، أن حديث بلال بن الحارث هذا، لا يصح عن رسول الله ﷺ وهو غلط عليه، وكيف تقدم رواية بلال بن الحارث، على روايات الثقات الأثبات، حملة العلم الذين رووا عن رسول الله ﷺ خلاف روايته، ثم كيف يكون هذا ثابتاً عن رسول الله ﷺ، وابن عباس رضي الله عنه يُفتي بخلافه. وينظر عليه طول عمره بمشهد من الخاص والعام، وأصحاب رسول الله ﷺ متوافرون، ولا يقول له رجل واحد منهم: هذا كان مختصاً بنا، ليس لغيرنا حتى يظهر بعد موت الصحابة، أن أبا ذر كان يرى اختصاص ذلك بهم؟

وأما قول عثمان رضي الله عنه في متعة الحج: إنها كانت لهم ليست لغيرهم، فحكمه حكم قول أبي ذر سواء، على أن المروي عن أبي ذر وعثمان يحتمل ثلاثة أمور.

أحدها: اختصاص جواز ذلك بالصحابة، وهو الذي فهمه مَنْ حرّم الفسخ.

الثاني: اختصاص وجوبه بالصحابة، وهو الذي كان يراه شيخنا قدس الله روحه يقول: إنهم كانوا قد فرض عليهم الفسخ لأمر رسول الله ﷺ لهم به، وحتمه عليهم، وغضبه عندما توقفوا في المبادرة إلى

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَجْلُ حَتَّى نَحَرَ، فَهَذَا اتَّفَاقٌ مِنْ أَبِي مُوسَى وَعُمَرُ، عَلَى أَنْ مَنَعَ الْفَسْخَ إِلَى الْمَتْعَةِ وَالْإِحْرَامِ بِهَا ابْتِدَاءً، إِنَّمَا هُوَ رَأْيٌ مِنْهُ أَحَدُهُ فِي النَّسْكِ، لَيْسَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَإِنْ اسْتَدَلَّ لَهُ بِمَا اسْتَدَلَّ، وَأَبُو مُوسَى كَانَ يَقْتِي النَّاسَ بِالْفَسْخِ فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كُلُّهَا، وَصَدْرًا مِنْ خِلَافَةِ عُمَرَ حَتَّى فَارَضَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي نَهْيِهِ عَنْ ذَلِكَ، وَاتَّفَقَا عَلَى أَنَّهُ رَأْيٌ أَحَدُهُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي النَّسْكِ، ثُمَّ صَحَّ عَنْهُ الرَّجُوعُ عَنْهُ.

فصل

(عذر من ادعى معارضة أحاديث الفسخ بما يدل على خلافها)

وأما العذر الثالث: وهو معارضة أحاديث الفسخ بما يدل على خلافها، فذكروا منها ما رواه مسلم في «صحيحه» من حديث الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع، فمنا من أهل بعمرة، ومنا من أهل بحج، حتى قُلبنا مكة فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَخْرَمَ بَعْمَرَةً وَلَمْ يُهْدِ، فَلْيُخَلِّ، وَمَنْ أَخْرَمَ بَعْمَرَةً وَاهْدَى، فَلَا يَجْلُ حَتَّى يَنْحَرَ هَذِهِ، وَمَنْ أَهْلُ بِحَجٍّ، فَلْيَتِمَّ حَجُّهُ»، وذكر باقي الحديث [مسلم: ٢٩١١].

ومنها: ما رواه مسلم في «صحيحه» أيضاً من حديث مالك، عن أبي الأسود، عن عروة عنها: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فَمِنَّا مَنْ أَهْلٌ بِعُمَرَةٍ، وَمِنَّا مَنْ أَهْلٌ بِحَجٍّ وَعُمَرَةٍ، وَمِنَّا مَنْ أَهْلٌ بِالْحَجِّ، وَأَهْلٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْحَجِّ، فَأَمَّا مَنْ أَهْلٌ بِعُمَرَةٍ فَحَلَّ، وَأَمَّا مَنْ أَهْلٌ بِحَجٍّ، أَوْ جَمَعَ الْحَجَّ وَالْعُمَرَةَ، فَلَمْ يَجْلُوا حَتَّى كَانَ يَوْمُ النَّحْرِ [مسلم: ٢٩١٧].

ومنها: ما رواه ابن أبي شيبة: حدثنا محمد بن بشر العبدي، عن محمد بن عمرو بن علقمة، حدثني يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، عن عائشة، قالت: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِلْحَجِّ عَلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ: فَمِنَّا مَنْ أَهْلٌ بِعُمَرَةٍ وَحَجَّةٍ، وَمِنَّا مَنْ أَهْلٌ بِحَجٍّ مُفْرَدٍ، وَمِنَّا مَنْ أَهْلٌ بِعُمَرَةٍ مُفْرَدَةٍ، فَمَنْ كَانَ أَهْلٌ بِحَجٍّ وَعُمَرَةٍ مَعًا، لَمْ يَجْلُ مِنْ شَيْءٍ مِمَّا حَرَّمَ مِنْهُ حَتَّى قَضَى مَنَاسِكَ الْحَجِّ، وَمَنْ أَهْلٌ بِحَجٍّ مُفْرَدٍ، لَمْ يَجْلُ مِنْ

وَمُدَّعِي فَسَخِهِ وَاسْتِخْصَاصِهِ بِمَنْزِلَةِ صَاحِبِ الْبَيْتَةِ الَّتِي تَقْدَمُ عَلَى صَاحِبِ الْيَدِ.

قال المجوزون للفسخ: هذا قول فاسد لا شك فيه، بل هذا رأي لا شك فيه، وقد صرح - بأنه رأي مَنْ هُوَ أَعْظَمُ مِنْ عُثْمَانَ وَأَبِي ذَرٍّ - عِمْرَانُ بْنُ حَصِينٍ، فِي «الصَّحِيحِينَ» وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ: تَمَتَّعْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَزَلَ الْقُرْآنُ، فَقَالَ رَجُلٌ بَرَأَيْهِ مَا شَاءَ. وَلَفْظُ مُسْلِمٍ: نَزَلَتْ آيَةُ الْمَتْعَةِ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: يَعْنِي مَتْعَةَ الْحَجِّ، وَأَمَرْنَا بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ لَمْ تَنْزَلْ آيَةُ تَنْسَخُ مَتْعَةَ الْحَجِّ، وَلَمْ يَنْهَ عَنْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى مَاتَ، قَالَ رَجُلٌ بَرَأَيْهِ مَا شَاءَ. وَفِي لَفْظٍ: يَرِيدُ عُمَرَ [البخاري: ٤٥١٨، ومسلم: ٢٩٧٢].

وقال عبد الله بن عمر لمن سأله عنها؛ وقال له: إِنْ أَبَاكَ نَهَى عَنْهَا: أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَوْ أَمْرُ أَبِي؟!

وقال ابن عباس لمن كان يُعَارِضُهُ فِيهَا بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: يُوشِكُ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْكُمْ حِجَابَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فَهَذَا جَوَابُ الْعُلَمَاءِ، لَا جَوَابُ مَنْ يَقُولُ: عُثْمَانُ وَأَبُو ذَرٍّ أَعْلَمُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْكُمْ، فَهَلَّا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ أَعْلَمُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَّا، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَلَا أَحَدٌ مِنَ التَّابِعِينَ يَرْضَى بِهَذَا الْجَوَابِ فِي دَفْعِ نَصْرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُمْ كَانُوا أَعْلَمَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَاتَّقَى لَهُ مَنْ أَنْ يَقْدُمُوا عَلَى قَوْلِ الْمَعْصُومِ رَأْيٍ غَيْرِ الْمَعْصُومِ، ثُمَّ قَدْ ثَبَتَ النَّصْرُ عَنِ الْمَعْصُومِ، بِأَنَّهَا بَاقِيَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَقَدْ قَالَ بِبَقَائِهَا: عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَابْنُ عُمَرَ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَأَبُو مُوسَى، وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَجَمْعُهُمُ التَّابِعِينَ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ رَأْيٌ مُحْضٌ لَا يُنْسَبُ إِلَى أَنَّهُ مَرْفُوعٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا نَهَى عَنْهَا قَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! مَا أَحْدَثْتَ فِي شَأْنِ النَّسْكِ؟ فَقَالَ: إِنْ نَأْخُذُ بِكِتَابِ رَبَّنَا، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَأَمَّا لِلنَّجِّ وَالْمَرْءِ يَدًا﴾ [البقرة: ١٩٦]، وَإِنْ نَأْخُذُ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِنَّ

شيء مما حرم منه حتى قضى مناسك الحج، ومن أهل بعمرة مفردة، فطاف بالبيت وبالصفاء والمروة، حل مما حرم منه حتى استقبل حجاً [إسناده حسن].

ومنها: ما رواه مسلم في «صحيحه» من حديث ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن محمد بن نوفل، أن رجلاً من أهل العراق، قال له: سل لي عروة بن الزبير، عن رجل أهل بالحج، فإذا طاف بالبيت، أيحل أم لا؟ فذكر الحديث، وفيه: قد حج رسول الله ﷺ، فأخبرتني عائشة، أن أول شيء بدأ به حين قدم مكة، أنه توضأ، ثم طاف بالبيت، ثم حج أبو بكر، ثم كان أول شيء بدأ به الطواف بالبيت، ثم لم تكن عمرة، ثم عمر مثل ذلك، ثم حج عثمان، فرأيت أول شيء بدأ به الطواف بالبيت، ثم لم تكن عمرة. ثم معاوية وعبد الله بن عمر، ثم حججت مع أبي الزبير بن العوام، فكان أول شيء بدأ به الطواف بالبيت، ثم لم تكن عمرة. ثم رأيت المهاجرين والأنصار، يفعلون ذلك، ثم لم تكن عمرة، ثم آخر من رأيت فعل ذلك ابن عمر، ثم لم ينقصها بعمرة، فهذا ابن عمر عندهم، أفلا يسألونه؟ ولا أحد ممن مضى ما كانوا يبدؤون بشيء حين يضعون أقدامهم أول من الطواف بالبيت، ثم لا يحلون، وقد رأيت أمي وخالتي حين تقدمان لا تبدآن بشيء أول من الطواف بالبيت، تطوفان به ثم لا تجلان [مسلم: ٣٠٠١].

(رد المصنف عليهم)

فهذا مجموع ما عارضوا به أحاديث الفسخ، ولا معارضة فيها بحمد الله ومثله.

أما الحديث الأول وهو حديث الزهري، عن عروة، عن عائشة فقلبت فيه عبد الملك بن شعيب، أو أبوه شعيب، أو جدّه الليث، أو شيخه عقيل، فإن الحديث رواه مالك ومعه، والناس، عن الزهري، عن عروة، عنها، ويثبتون أن النبي ﷺ أمر من لم يكن معه هدي إذا طاف وسعى، أن يحل. فقال مالك: عن يحيى بن سعيد، عن عروة، عنها، خرجنا مع رسول الله ﷺ ليحس ليالي بقين لذي القعدة، ولا نرى إلا الحج، فلما دنونا من مكة، أمر رسول الله ﷺ من لم يكن معه هدي، إذا طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة، أن يحل. وذكر الحديث [مالك (١/٤١٠)، وسنده صحيح] قال يحيى: فذكرت هذا الحديث للقاسم بن

محمد، فقال: أتتك والله بالحديث على وجهه.

وقال منصور: عن إبراهيم، عن الأسود، عنها؛ خرجنا مع رسول الله ﷺ ولا نرى إلا الحج، فلما قدمنا، تطوفنا بالبيت، فأمر النبي ﷺ من لم يكن ساق الهدى، أن يحل، فحل من لم يكن ساق الهدى، ونسأله لم يسق فحل فحل [البخاري: ١٧٧٢، ومسلم: ٢٩٢٩].

وقال مالك ومعه كلاهما عن ابن شهاب، عن عروة، عنها: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حجة الوداع، فأهلنا بعمرة، ثم قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ مَعَهُ هَدْيٌ، فَلْيَهْلُ بِالْحَجِّ مَعَ الْعُمْرَةِ، وَلَا يَحِلَّ حَتَّى يَحِلَّ مَعَهُمَا جَمِيعاً» [البخاري: ١٦٣٨، ومسلم: ٢٩١٢].

وقال ابن شهاب: عن عروة عنها، بمثل الذي أخبر به سالم، عن أبيه، عن النبي ﷺ. ولفظه: تمتع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج، فأهدى، فساق معه الهدى من ذي الحليفة، وبدأ رسول الله ﷺ، فأهل بالعمرة، ثم أهل بالحج، وتمتع الناس مع رسول الله ﷺ بالعمرة إلى الحج، فكان من الناس من أهدى، فساق معه الهدى، ومنهم من لم يهد، فلما قدم النبي ﷺ مكة، قال للناس: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ أَهْدَى، فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ مِنْ شَيْءٍ حَرَّمَ مِنْهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَجَّهُ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْدَى فَلْيَطَّفْ بِالْبَيْتِ، وَبَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَلْيَقْصُرْ وَلْيَحِلَّ، ثُمَّ لْيَهْلُ بِالْحَجِّ وَلْيُهْدِ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ هَدْيًا، فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ، وَسَبْعَةٌ إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ»، وذكر باقي الحديث [البخاري: ١٦٩١، ومسلم: ٢٩٨٢].

وقال عبد العزيز الماجشون: عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عائشة، خرجنا مع رسول الله ﷺ، لا نذكر إلا الحج... فذكر الحديث. وفيه، قالت: فلما قدمت مكة، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «اجْعَلُوهَا عُمْرَةً، فَأَحِلَّ النَّاسُ إِلَّا مَنْ كَانَ مَعَهُ الْهَدْيُ» [مسلم: ٢٩١٩].

وقال الأعمش: عن إبراهيم، عن عائشة: خرجنا مع رسول الله ﷺ لا نذكر إلا الحج، فلما قدمنا، أمرنا أن نحل وذكر الحديث [مسلم: ٢٩٣٠].

وقال عبد الرحمن بن القاسم: عن أبيه، عن

يكون قبل الأمر لهم بالفسخ، ولا يجوز غير هذا البتة، والله أعلم.

فصل

وأما حديث أبي الأسود، عن عروة، عنها. وفيه: «وأما من أهل بحج أو جمع الحج والعمره، فلم يجلوا حتى كان يوم النحر». وحديث يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عنها: فمن كان أهل بحج وعمره معاً، لم يجل من شيء مما حرم منه حتى يقضي مناسك الحج، ومن أهل بحج مفرد كذلك. فحديثان، قد أنكرهما الحفاظ، وهما أهل أن ينكرا، قال الأثرم: حدثنا أحمد بن حنبل، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن مالك بن أنس، عن أبي الأسود، عن عروة، عن عائشة: خرجنا مع رسول الله ﷺ، فمنا من أهل بالحج، ومنا من أهل بالعمره، ومنا من أهل بالحج والعمره، وأهل بالحج رسول الله ﷺ، فاما من أهل بالعمره، فأحلوا حين طافوا بالبيت وبالصفا والمروة، وأما من أهل بالحج والعمره، فلم يجلوا إلى يوم النحر، فقال أحمد بن حنبل: أئيش في هذا الحديث من العجب، هذا خطأ، فقال الأثرم: فقلت له: الزهري، عن عروة، عن عائشة، بخلافه؟ فقال: نعم، وهشام بن عروة. وقال الحفاظ أبو محمد بن حزم: هذان حديثان منكران جداً، قال: وأبي الأسود في هذا النحو حديث لا خفاء ينكرته، ووفيه، ويطلانه. والعجب كيف جاز على من رواه؟ ثم ساق من طريق البخاري عنه، أن عبد الله مولى أسماء، حدثه أنه كان يسمع أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما تقول كلما مررت بالحجون: صلى الله على رسوله: لقد نزلنا معه هاهنا، ونحن يومئذ خفاف، قليل ظهرونا، قليلة أزوادنا، فاعتمرنا أنا وأختي عائشة، والزيبر، وفلان، وفلان. فلما مسحنا البيت، أحللنا ثم أهللنا من العشي بالحج [البخاري: ١٧٩٦، ومسلم: ٣٠٠٤] (١). قال وهذه وهلة لا خفاء بها على أحد ممن له أقل علم بالحديث لوجهين باطلين فيه بلا شك.

أحدهما: قوله: فاعتمرنا أنا وأختي عائشة، ولا

عائشة: خرجنا مع رسول الله ﷺ، ولا نذكر إلا الحج، فلما جئنا سرف، طمئت. قالت: فدخل علي رسول الله ﷺ وأنا أبكي. فقال: «ما يبكيك؟» قالت: فقلت: والله لوددت أنني لا أحج العام... فذكر الحديث. وفيه: فلما قدمت مكة، قال النبي ﷺ: «اجعلوها عمرة»، قالت: ففعل الناس إلا من كان معه الهدي [مسلم: ٢٩١٩].

وكل هذه الألفاظ في «الصحيح»، وهذا موافق لما رواه جابر، وابن عمر، وأنس، وأبو موسى، وابن عباس، وأبو سعيد، وأسماء، والبراء، وحفصة، وغيرهم، من أمره ﷺ أصحابه كلهم بالإحلال، إلا من ساق الهدي، وأن يجعلوا حجهم عمرة. وفي اتفاق هؤلاء كلهم، على أن النبي ﷺ، أمر أصحابه كلهم أن يحلوا، وأن يجعلوا الذي قدموا به متعة، إلا من ساق الهدي، دليل على غلط هذه الرواية، ووهم وقع فيها، يبين ذلك أنها من رواية الليث، عن عقيل، عن الزهري، عن عروة، والليث بعينه، هو الذي روى عن عقيل، عن الزهري، عن عروة، عنها مثل ما رواه، عن الزهري، عن سالم، عن أبيه، في تمتع النبي ﷺ، وأمره لمن لم يكن أهدي أن يجل.

ثم تأملنا، فإذا أحاديث عائشة يصدق بعضها بعضاً، وإنما بعض الرواة زاد على بعض، وبعضهم اختصر الحديث، وبعضهم اقتصر على بعضه، وبعضهم رواه بالمعنى. والحديث المذكور: ليس فيه منع من أهل بالحج من الإحلال، وإنما فيه أمره أن يتم الحج، فإن كان هذا محفوظاً، فالمراد به بقاؤه على إحرامه، فيتعين أن يكون هذا قبل الأمر بالإحلال، وجعله عمرة، ويكون هذا أمراً زائداً قد طرأ على الأمر بالإتمام، كما طرأ على التخيير بين الأفراد والقران، ويتعين هذا ولا بد، وإلا كان هذا ناسخاً للأمر بالفسخ، والأمر بالفسخ ناسخاً للأذن بالأفراد، وهذا محال قطعاً، فإنه بعد أن أمرهم بالجل لم يأمرهم بنقصه، والبقاء على الإحرام الأول، هذا باطل قطعاً، فيتعين إن كان محفوظاً أن

(١) قولها: «فلما مسحنا البيت» أي: طفنا بالبيت فاستلمنا الركن.

خلاف بين أحد من أهل النقل، في أن عائشة لم تعتمر في أول دخولها مكة، ولذلك أعمارها من التعظيم بعد تمام الحج ليلة الحصة، هكذا رواه جابر بن عبد الله، ورواه عن عائشة الأثبات، كالأسود بن يزيد، وابن أبي مليكة، والقاسم بن محمد، وعروة، وطاوس، ومجاهد.

الموضع الثاني: قوله فيه: فلما مسحنا البيت، أحللنا، ثم أهللنا من العشي بالحج، وهذا باطل لا شك فيه، لأن جابراً، وأنس بن مالك، وعائشة، وابن عباس، كلهم رَوَوْا أن الإحلال كان يوم دخولهم مكة، وأن إحلالهم بالحج كان يوم التروية، وبين اليومين المذكورين ثلاثة أيام بلا شك.

قلت: الحديث ليس بمنكر ولا باطل، وهو صحيح وإنما أتى أبو محمد فيه من فهمه، فإن أسماء أخبرت أنها اعتمرت هي وعائشة، وهكذا وقع بلا شك. وأما قولها: فلما مسحنا البيت أحللنا، فإخبار منها عن نفسها، وعمن لم يصبه عذر الحيض الذي أصاب عائشة، وهي لم تُصْرَحْ بأن عائشة مسحت البيت يوم دخولهم مكة، وأنها حلت ذلك اليوم، ولا ريب أن عائشة قدمت بعمره، ولم تزل عليها حتى حاضت بِسَرَفٍ، فأدخلت عليها الحج، وصارت قارئة. فإذا قيل: اعتمرت عائشة مع النبي ﷺ، أو قدمت بعمره، لم يكن هذا كذباً.

وأما قولها: ثم أهللنا من العشي بالحج، فهي لم تَقُلْ: إنهم أهلوا من عشي يوم القُدوم، ليلزم ما قال أبو محمد، وإنما أرادت عشي يوم التروية. ومثل هذا لا يحتاج في ظهوره وبيانه إلى أن يصرح فيه بعشي ذلك اليوم بعينه، لعلم الخاص والعام به، وأنه مما لا تذهب الأوهام إلى غيره، فرد أحاديث الثقات بمثل هذا الوهم مما لا سبيل إليه.

قال أبو محمد: وأسلم الوجوه للحديثين المذكورين عن عائشة، يعني اللذين أنكرهما، أن تُخْرَجَ روايتهما على أن المراد بقولها: إن الذين أهلوا بحج، أو بحج وعمره، لم يجلوا حتى كان يوم النحر حين قَضَوْا منابك الحج، إنما عنت بذلك من كان معه الهدى، وبهذا تنتفي التكررة عن هذين الحديثين، وبهذا تأتلف الأحاديث كلها، لأن الزهري عن عروة

يذكر خلاف ما ذكره أبو الأسود عن عروة، والزهري بلا شك أحفظ من أبي الأسود، وقد خالف يحيى بن عبد الرحمن عن عائشة في هذا الباب مَنْ لا يقرن يحيى بن عبد الرحمن إليه، لا في حفظ، ولا في ثقة، ولا في جلالة، ولا في بطانة لعائشة، كالأسود بن يزيد، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وأبي عمرو ذكوان مولى عائشة، وعُمَرَةُ بنت عبد الرحمن، وكانت في حجر عائشة، وهؤلاء هم أهل الخصوصية والبطانة بها، فكيف؟ ولو لم يكونوا كذلك، لكانت روايتهم أو رواية واحد منهم، لو انفرد هي الواجب أن يؤخذ بها، لأن فيها زيادة على رواية أبي الأسود ويحيى، وليس من جهل، أو غفل حجة على من علم، وذكر وأخبر، فكيف وقد وافق هؤلاء الجلة عن عائشة فسقط التعلق بحديث أبي الأسود ويحيى اللذين ذكرنا.

قال: وأيضاً، فإن حديثي أبي الأسود ويحيى، موقوفان غير مسندين، لأنهما إنما ذكرا عنها فعل من فعل ما ذكرت، دون أن يذكر أن النبي ﷺ، أمرهم أن لا يجلوا، ولا حجة في أحد دون النبي ﷺ، فلو صح ما ذكراه، وقد صح أمر النبي ﷺ من لا هدي معه بالفسخ، فتمادى المأمورون بذلك، ولم يجلوا لكانوا عصاة الله تعالى، وقد أعادهم الله من ذلك، وبرأهم منه، فثبت يقيناً أن حديث أبي الأسود ويحيى، إنما عني فيهما: من كان معه هدي، وهكذا جاءت الأحاديث الصحاح التي أوردناها، بأنه ﷺ أمر من معه الهدى، بأن يجمع حجاً مع العمرة، ثم لا يجل حتى يحل منهما جميعاً. ثم ساق من طريق مالك، عن ابن شهاب، عن عروة، عنها ترفعه «مَنْ كَانَ مَعَهُ هَدْيٌ، فَلْيَهْلِلْ بِالْحَجِّ وَالْعُمَرَةِ، ثُمَّ لَا يَجْلُ حَتَّى يَحِلَّ مِنْهُمَا جَمِيعاً» [البخاري: ١٦٣٨، ومسلم: ٢٩١٢]. قال فهذا الحديث كما ترى، من طريق عروة، عن عائشة، يُبين ما ذكرنا أنه المراد بلا شك، في حديث أبي الأسود، عن عروة وحديث يحيى عن عائشة، وارتفع الآن الإشكال جملة، والحمد لله رب العالمين.

قال: ومما يُبين أن في حديث أبي الأسود حذفاً قوله فيه: عن عروة «أن أمه وخالته والزبير، أقبلوا بعمره

فقط، فلما مسحوا الركن، حَلُّوا^(١). ولا خلاف بين أحد، أن من أقبل بعُمْرة لا يَجِلُّ بِمَسْحِ الرُّكْنِ، حتى يسعى بين الصفا والمروة بعد مسح الركن، فصَحَّحَ أن في الحديث حذفاً بيّنه سائر الأحاديث الصحاح التي ذكرنا، وبطل التشغيّب به جملة، وبالله التوفيق.

فصل

وأما ما في حديث أبي الأسود، عن عروة، من فعل أبي بكر، وعمر، والمهاجرين، والأنصار، وابن عمر، فقد أجابه ابن عباس، فأحسن جوابه، فيكتفى بجوابه. فروى الأعمش، عن فضيل بن عمرو، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، تمتع رسول الله ﷺ، فقال عروة: نهى أبو بكر وعمر عن المتعة. فقال ابن عباس: أراكم ستهلكون، أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقول: قال أبو بكر وعمر [أحمد: ٣١٢١، وسنده ضعيف].

وقال عبد الرزاق: حدثنا معمر، عن أيوب، قال: قال عروة لابن عباس: ألا تتقي الله تُرْخِصُ في المتعة؟ فقال ابن عباس: سل أمك يا عروة. فقال عروة: أمّا أبو بكر وعمر، فلم يفعلوا، فقال ابن عباس: والله ما أراكم مُتْنِهين حتى يُعَذِّبَكُمُ اللهُ، أحديثكم عن رسول الله ﷺ، وتحدثونا عن أبي بكر وعمر؟ فقال عروة: لهما أعلم بسنة رسول الله ﷺ، وأنبئ لها منك [إسناده صحيح].

وأخرج أبو مسلم الكجي^(١)، عن سليمان بن حرب، عن حماد بن زيد، عن أيوب السخيتاني، عن ابن أبي مليكة، عن عروة بن الزبير، قال لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ: تأمر الناس بالعمرة في هؤلاء العشر، وليس فيها عمرة؟! قال: أولاً تسأل أمك عن ذلك؟ قال عروة: فإن أبا بكر وعمر لم يفعلوا ذلك، قال الرجل: من هاهنا هلكتم، ما أرى الله عز وجل إلا سيمعذبكم، إني أحدثكم عن رسول الله ﷺ، وتخبروني بأبي بكر وعمر. قال عروة: إنهما والله كان أعلم بسنة رسول الله ﷺ منك، فسكت الرجل.

ثم أجاب أبو محمد بن حزم عروة عن قوله هذا، بجواب نذكره، ونذكر جواباً أحسن منه لشيخنا.

قال أبو محمد: ونحن نقول لعروة: ابن عباس أعلم بسنة رسول الله ﷺ، وبأبي بكر وعمر منك، وخير منك، وأولى بهم ثلاثهم منك، لا يشك في ذلك مسلم. وعائشة أم المؤمنين، أعلم وأصدق منك. ثم ساق من طريق الثوري، عن أبي إسحاق السبيعي، عن عبد الله قال: قالت عائشة: من استعمل على المؤمنين؟ قالوا: ابن عباس. قالت: هو أعلم الناس بالحج. قال أبو محمد: مع أنه قد روي عنها خلاف ما قاله عروة، ومن هو خير من عروة، وأفضل، وأعلم، وأصدق، وأوثق. ثم ساق من طريق البزار، عن الأشج، عن عبد الله بن إدريس الأودي، عن ليث، عن عطاء، وطاوس، عن ابن عباس: تمتع رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمر. وأول من نهى عنها معاوية.

ومن طريق عبد الرزاق، عن الثوري، عن ليث، عن طاوس، عن ابن عباس: تمتع رسول الله ﷺ وأبو بكر. حتى مات، وعمر، وعثمان كذلك. وأول من نهى عنها، معاوية^(٢).

قلت: حديث ابن عباس هذا، رواه الإمام أحمد في «المسند» والترمذي. وقال: حديث حسن [ضعيف: أحمد: ٢٨٦٣، والترمذي: ٨٢٢].

وذكر عبد الرزاق، قال: حدثنا معمر عن ابن طاوس، عن أبيه، قال: قال أيُّ بن كعب، وأبو موسى لعمر بن الخطاب: ألا تقوم فتبين للناس أمر هذه المتعة؟ فقال عمر: وهل بقي أحد إلا وقد عليمها، أما أنا فأفعلها.

وذكر علي بن عبد العزيز البغوي، حدثنا حجاج ابن المنهال، قال: حدثنا حماد بن سلمة، عن حماد بن أبي سليمان، أو حميد، عن الحسن، أن عمر أراد أن يأخذ مال الكعبة، وقال: الكعبة غنيّة عن ذلك المال، وأراد أن ينهى أهل اليمن أن يضيقوا

(١) في الأصل: وفي «صحيح مسلم» وهو تحريف صححناه من حجة الوداع ص (٢٦٨) لابن حزم، وأبو مسلم هذا هو الحافظ المسند إبراهيم بن عبد الله بن مسلم البصري صاحب «السنن» توفي سنة (٢٩٢هـ).

(٢) «حجة الوداع» ص (٢٦٩).

بالبول، وأراد أن ينهى عن مُتعة الحج، فقال أبي بن كعب: قد رأى رسول الله ﷺ وأصحابه هذا المال، وبه وأصحابه الحاجة إليه، فلم يأخذه، وأنت فلا تأخذه، وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه يلبسون الثياب اليمانية، فلم ينه عنها، وقد علم أنها تُصْبَغُ بالبول، وقد تمتعنا مع رسول الله ﷺ فلم ينه عنها، ولم ينزل الله تعالى فيها نهياً^(١).

وقد تقدم قول عمر: لو اعتمرْتُ في وسط السنة، ثم حججت، لتمتعت، ولو حججت خمسين حجة، لتمتعت. ورواه حماد بن سلمة. عن قيس، عن طاوس، عن ابن عباس، عنه: لو اعتمرْتُ في سنة مرتين، ثم حججت، لجعلت مع حجتِي عُمرَةً. والثوري، عن سلمة بن كهيل، عن طاوس، عن ابن عباس، عنه: لو اعتمرْتُ، ثم اعتمرْتُ، ثم حججت، لتمتعت. وابن عيينة: عن هشام بن حجير^(٢)، وليث، عن طاوس، عن ابن عباس، قال: هذا الذي يزعمون أنه نهى عن المتعة - يعني عمر - سمعته يقول: لو اعتمرْتُ، ثم حججت، لتمتعت. قال ابن عباس: كذا وكذا مرة، ما تمت حجة رجل قط إلا بمتعة^(٣).

(بَيَانُ أَنَّ عُمَرَ لَمْ يَنْهَ عَنِ الْمُتَعَةِ الْبَتَّةِ)

وأما الجواب الذي ذكره شيخنا، فهو أن عُمَرَ رضي الله عنه، لم ينه عن المتعة البتة، وإنما قال: إِنَّ أَمَّمْ لِحُجَّكُمْ وَعُمْرَتَكُمْ أَنْ تَقْضُوا بَيْنَهُمَا، فاختار عُمَرَ لَهُمْ أَفْضَلَ الْأُمُورِ، وهو إفراد كل واحد منهما بسفر يُنشئه له من بلده، وهذا أفضل من القرآن والتمتع الخاص بدون سَفَرَةٍ أُخْرَى، وقد نصَّ على ذلك: أحمد، وأبو حنيفة، ومالك، والشافعي رحمهم الله تعالى وغيرهم. وهذا هو الإفراد الذي فعله أبو بكر وعمر رضي عنهما، وكان عُمَرَ يختاره للناس^(٤)، وكذلك علي رضي الله عنهما.

وقال عمر وعلي رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦] قالوا: إتمامهما أن تُحْرِمَ بهما من دَوِيرَةِ أَهْلِكَ وقد قال ﷺ لعائشة في عُمَرَتِهَا: «أَجْرُكَ عَلَى قَدَرِ نَصَبِكَ» [البخاري: ١٧٨٧، ومسلم: ٢٩٢٧] فإذا رجع الحاجُّ إلى دَوِيرَةِ أَهْلِهِ، فأنشأ العُمرة منها، واعتمر قبل أشهر الحج، وأقام حتى يحج، أو اعتمر في أشهره، ورجع إلى أهله، ثم حج، فها هنا قد أتى بكل واحد من النسكين من دَوِيرَةِ أَهْلِهِ، وهذا إتيانٌ بهما على الكمال، فهو أفضل من غيره.

قلت: فهذا الذي اختاره عمر للناس، فظنَّ من غَلِطَ منهم أنه نهى عن المتعة، ثم منهم من حمل نهيه على متعة الفسخ، ومنهم من حمّله على ترك الأولى ترجيحاً للإفراد عليه، ومنهم من عارض روايات النهي عنه بروايات الاستحباب، وقد ذكرناها، ومنهم من جعل في ذلك روايتين عن عمر، كما عنه روايتان في غيرهما من المسائل، ومنهم من جعل النهي قولاً قديماً، ورجع عنه أخيراً، كما سلك أبو محمد بن حزم، ومنهم من يَعدُّ النهي رأياً رآه من عنده لكرامته أَنْ يَظَلَّ الْحَاجُّ مُعْرِسِينَ بِنِسَائِهِمْ فِي ظِلِّ الْأَرَاكِ.

قال أبو حنيفة: عن حماد، عن إبراهيم النخعي، عن الأسود بن يزيد، قال: بينما أنا واقف مع عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ بِعُرْفَةِ عَشِيَّةٍ عُرْفَةٍ، فإذا هو برجل مُرَجَّلٍ شَعْرَهُ، يَفُوحُ مِنْهُ رِيحٌ طَلِيبٌ، فقال له عمر: أَمَحْرِمُ أَنْتَ؟ قال: نعم. فقال عمر: ما هيئتُك بهيئة محرم، إنما المحرمُ الْأَشْعَثُ الْأَغْبَرُ الْأَذْفَرُ. قال: إِنِّي قَدِيمْتُ مَتَمْتَعاً، وكان معي أهلي، وإنما أحرمتُ اليوم. فقال عمر عند ذلك: لَا تَتَمَتَّعُوا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ، فَإِنِّي لَوْ رَخَّصْتُ فِي الْمُتَعَةِ لَهُمْ، لَعَرَّسُوا يَهْنَ فِي الْأَرَاكِ، قم راحوا يَهْنَ حُجَّاجاً^(٥). وهذا يبين، أن هذا من عمر رأي رآه.

قال ابن حزم: فكان ماذا؟ وحجذاً ذلك؟ وقد طاف

(١) «حجة الوداع» ص (٢٧٠)، ورجاله ثقات.

(٢) في المطبوع: محمد، وفي «حجة الوداع» مجير، وكلاهما محرف.

(٣) «حجة الوداع» ص (٢٧١).

(٤) وهو الذي صرح به عثمان في رواية أحمد في «المسند» (٧٠٧).

(٥) «حجة الوداع» ص (٢٧٢)، ومسلم (٢٩٦١) والدفء: التن.

النبي ﷺ على نسائه، ثم أصبح محرماً، ولا خلاف أن الوطء مباح قبل الإحرام بطرفة عين والله أعلم.

فصل

(بقية طرق المانعين من فسخ الحج إلى العمرة)

وقد سلك المانعون من الفسخ طريقتين آخرين، نذكرهما ونبيّن فسادهما.

الطريقة الأولى: قالوا: إذا اختلف الصحابةُ ومَن بعدهم في جواز الفسخ، فالاحتياط يقتضي المنع منه صيانةً للعبادة عما لا يجوزُ فيها عند كثير من أهل العلم، بل أكثرهم.

والطريقة الثانية: أن النبي ﷺ أمرهم بالفسخ لبيّن لهم جواز العمرة في أشهر الحج، لأن أهل الجاهلية كانوا يكرهون العمرة في أشهر الحج، وكانوا يقولون: إذا برأ الدُّبُرُ، وعَفَا الأَثَرُ، وانْسَلَخَ صَفَرُ، فقد حَلَّتِ العمرةُ لِمَن اغْتَمَرَ، فأمرهم النبي ﷺ بالفسخ [البخاري: ١٥٦٤، ومسلم: ٣٠٠٩]، لبيّن لهم جواز العمرة في أشهر الحج، وهاتان الطريقتان باطلتان.

(يشرح الاحتياط إذا لم تتبين السنة)

أما الأولى: فلأن الاحتياط إنما يشرع، إذا لم تتبين السنة، فإذا تبيّن فالاحتياط هو اتباعها وترك ما خالفها؛ فإن كان تركها لأجل الاختلاف احتياطاً، فترك ما خالفها واتباعها، أحوط وأحوط، فالاحتياط نوعان: احتياط للخروج من خلاف العلماء، واحتياط للخروج من خلاف السنة، ولا يخفى رُجحان أحدهما على الآخر.

وأيضاً، فإن الاحتياط ممتنع هنا، فإن للناس في الفسخ ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه محرّم.

الثاني: أنه واجب، وهو قول جماعة من السلف والخلف.

الثالث: أنه مستحب، فليس الاحتياط بالخروج من خلاف من حرّمه أولى بالاحتياط بالخروج من خلاف من أوجبه. وإذا تعذر الاحتياط بالخروج من الخلاف، تعيّن الاحتياط بالخروج من خلاف السنة.

فصل

(بطلان قول من قال، أمرهم ﷺ بالفسخ لبيّن)

لهم جواز العمرة في أشهر الحج من أحد عشر وجهاً)

وأما الطريقة الثانية: فأظهرُ بطلاناً من وجوه عديدة.

أحدها: أن النبي ﷺ اعتمر قبل ذلك عمرة الثلاث في أشهر الحج في ذي القعدة، كما تقدم ذلك، وهو أوسطُ أشهر الحج. فكيف يُظن أن الصحابة لم يعلموا جواز الاعتمار في أشهر الحج إلا بعد أمرهم بفسخ الحج إلى العمرة، وقد تقدم فعله لذلك ثلاث مرات؟

الثاني: أنه قد ثبت في «الصحيحين»، أنه قال لهم عند الميقات: «مَنْ شَاءَ أَنْ يُهْلَ بِعُمْرَةٍ فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ شَاءَ أَنْ يُهْلَ بِحَجَّةٍ فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ شَاءَ أَنْ يُهْلَ بِحَجٍّ وَعُمْرَةٍ فَلْيَفْعَلْ» [البخاري: ١٧٨٣، ومسلم: ٢٩١٣]. فبيّن لهم جواز الاعتمار في أشهر الحج عند الميقات، وعامة المسلمين معه، فكيف لم يعلموا جوازها إلا بالفسخ؟ ولعمري الله إن لم يكونوا يعلمون جوازها بذلك، فهم أجدر أن لا يعلموا جوازها بالفسخ.

الثالث: أنه أمر من لم يسقِ الهدى أن يتحلّل، وأمر من ساق الهدى أن يبقى على إحرامه حتى يبلغ الهدى محلّه، ففرق بين محرّم ومحرّم، وهذا يدل على أن سوق الهدى هو المانع من التحلل، لا مجرد الإحرام الأول، والعلة التي ذكروها لا تختص بمحرّم دون محرّم، فالنبي ﷺ جعل التأثير في الحل وعدمه للهدى وجوداً وعدمًا لا لغيره.

الرابع: أن يقال: إذا كان النبي ﷺ قصد مخالفة المشركين، كان هذا دليلاً على أن الفسخ أفضل لهذه العلة، لأنه إذا كان إنما أمرهم بذلك لمخالفة المشركين، كان يكون دليلاً على أن الفسخ يبقى مشروعاً إلى يوم القيامة، إما وجوباً وإما استحباباً، فإن ما فعله النبي ﷺ وشرعه لأمرته في المناسك مخالفةً للهدى المشركين، هو مشروع إلى يوم القيامة، إما وجوباً أو استحباباً، فإن المشركين كانوا يُقيضون من عرفه قبل غروب الشمس، وكانوا لا يُقيضون من مزدلفة حتى تطلع الشمس، وكانوا يقولون: أشرف يُبَيِّرُ كَيْمَا نُبَيِّرَ [البخاري: ١٦٨٤] فخالفهم النبي ﷺ،

وقال: «خَالَفَ هَذَيْنَا هَذَيَ الْمُشْرِكِينَ، فَلَمْ نَفُضْ مِنْ عَرَفَةَ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ».

وهذه المخالفة، إما ركن، كقول مالك، وإما واجبٌ يَجِبُهُ دم، كقول أحمد، وأبي حنيفة، والشافعي في أحد القولين، وإما سنة، كالقول الآخر له.

والإفاضة من مزدلفة قبل طلوع الشمس سنة باتفاق المسلمين، وكذلك قريش كانت لا تَقِفُ بعرفة، بل تفيض من جُحْم، فخالفهم النبي ﷺ، ووقف بعرفات، وأفاضَ منها، وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ الْأَكَاثُ﴾ [البقرة: 199] وهذه المخالفة من أركانِ الحج باتفاق المسلمين، فالأمور التي تَخَالَفُ فيها المشركين هي الواجبُ أو المستحبُّ، ليس فيها مكروه، فكيف يكون فيها محرم، وكيف يُقال: إن النبي ﷺ أمر أصحابه بِتُسْلُكِ يُخَالَفُ تَسْلُكَ المشركين، مع كون الذي نهاهم عنه، أَفْضَلُ مِنَ الذي أمرهم به. أو يقال: مَنْ حَجَّ كما حجَّ المشركون فلم يتمتع، فحجُّه أَفْضَلُ مِنْ حَجِّ السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، بأمرِ رسول الله ﷺ.

الخامس: أنه قد ثبت في «الصحيحين» عنه، أنه قال: «دَخَلَتِ الْعُمْرَةُ فِي الْحَجِّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». وقيل له: عُمَرْتُنَا هَذِهِ لِعَامِنَا هَذَا، أم لِلْأَبَدِ؟ فَقَالَ: «لَا، بَلْ لِلْأَبَدِ»، دَخَلَتِ الْعُمْرَةُ فِي الْحَجِّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ [حسن: أحمد: 17082].

وكان سؤالهم عن عمرة الفسخ، كما جاء صريحاً في حديث جابر الطويل. قال: حتى إذا كان آخر طوافه عَلَى المروة، قال: «لَوْ اسْتَبَقْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَذْبَرْتُ، لَمْ أَسُقِ الْهَدْيَ، وَلَجَعَلْتُهَا عُمْرَةً، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ لَيْسَ مَعَهُ هَذِي، فَلْيُحِلِّ، وَلْيَجْعَلْهَا عُمْرَةً»، فقام سُرَاقَةُ بن مالك فقال: يا رسول الله! العامنا هذا، أم لِلْأَبَدِ؟ فَشَبَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَصَابِعَهُ وَاحِدَةً فِي الْآخَرَى، وقال: «دَخَلَتِ الْعُمْرَةُ فِي الْحَجِّ مَرَّتَيْنِ، لَا بَلْ لِلْأَبَدِ». وفي لفظ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَبَحَ رَابِعَةً مَضَتْ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ، فَأَمَرْنَا أَنْ نَحِلَّ، فَقُلْنَا: لِمَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ عَرَفَةَ إِلَّا خُمْسُ أَمْرِنَا أَنْ نَغْضِيَّ إِلَى نِسَائِنَا، فَتَأْتِي عَرَفَةَ تَقْطُرُ مَذَاكِيرُنَا

الْمِنَى... فذكر الحديث. وفيه: فقال سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ: لِعَامِنَا هَذَا أَمْ لِلْأَبَدِ؟ فقال: «لِلْأَبَدِ» [مسلم: 2949].

وفي «صحيح البخاري» عنه: أن سُرَاقَةَ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «أَلَكُمُ خَاصَّةٌ هَذِي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «بَلْ لِلْأَبَدِ» [البخاري: 1780] فَيَنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، أن تلك الْعُمْرَةُ التي فسخ من فسخ منهم حَجَّةٌ إِلَيْهَا لِلْأَبَدِ، وَأَنَّ الْعُمْرَةَ دَخَلَتْ فِي الْحَجِّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وهذا يُبَيِّنُ، أن عمرة التمتع بعضُ الحج.

وقد اعترض بعضُ الناس على الاستدلال بقوله: «بَلْ لِلْأَبَدِ الْأَبَدِ» باعترضين، أحدهما: أن المراد، أن سقوط الفرض بها لا يختصُ بذلك العام، بل يُسْقِطُهُ إِلَى الْأَبَدِ، وهذا الاعتراضُ باطل، فإنه لو أراد ذلك لم يَقُلْ: لِلْأَبَدِ، فَإِنَّ الْأَبَدَ لَا يَكُونُ فِي حَقِّ طَائِفَةٍ مَعِينَةٍ، بل إنما يكون لجميع المسلمين، ولأنه قال: «دَخَلَتِ الْعُمْرَةُ فِي الْحَجِّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، ولأنهم لو أرادوا بذلك السؤال عن تكرار الوجوب، لما اقتصروا على الْعُمْرَةِ، بل كان السؤال عن الحج، ولأنهم قالوا له: «عُمَرْتُنَا هَذِهِ لِعَامِنَا هَذَا، أَمْ لِلْأَبَدِ؟» ولو أرادوا تكرار وجوبها كُلَّ عام، لقالوا له، كما قالوا له في الحج: «أَكُلَّ عامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟» ولأجابهم بما أجابهم به في الحج بقوله: «دَرَوْنِي مَا تَرَكْتُكُمْ. لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ». ولأنهم قالوا له: هذه لكم خاصة. فقال: «بَلْ لِلْأَبَدِ». فهذا السؤال والجواب، صريحان في عدم الاختصاص.

الثاني: قوله: إن ذلك إنما يُريد به جوازُ الاعتماد في أشهر الحج، وهذا الاعتراضُ أَبْطُلُ مِنَ الذي قبله، فإن السائل إنما سأل النبي ﷺ فيه عن الْمُتَعَةِ التي هي فَسْخُ الْحَجِّ، لا عن جواز الْعُمْرَةِ في أشهر الحج، لأنه إنما سألَهُ عَقِبَ أمره من لا هَدْيَ معه بفسخ الحج، فقال له سُرَاقَةُ حينئذ: هذا لِعَامِنَا، أَمْ لِلْأَبَدِ؟ فَأَجَابَهُ ﷺ عن نفس ما سألَهُ عنه، لا عما لم يسأله عنه. وفي قوله: «دَخَلَتِ الْعُمْرَةُ فِي الْحَجِّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، عقب أمره من لا هَدْيَ معه بِالْإِحْلَالِ، بيانُ جُلِيِّ أَنَّ ذَلِكَ مُسْتَوِرٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فبطل دعوى الخصوص، وبالله التوفيق.

السادس: أن هذه العلة التي ذكرتموها، ليست في

الحديث، ولا فيه إشارة إليها، فإن كانت باطلة، بطل اعتراضكم بها، وإن كانت صحيحة، فإنها لا تلزم الاختصاص بالصحابة بوجه من الوجوه، بل إن صحَّ اقتضت دوام معلولها واستمراره، كما أن الرَّمْلَ شَرَعُ لِإِيرِي المَشْرَكِينَ قُوَّتَهُ وَقُوَّةَ أَصْحَابِهِ، واستمرت مشروعيته إلى يوم القيامة، فبطل الاحتجاج بتلك العلة على الاختصاص بهم على كل تقدير.

السابع: أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، إذا لم يكتفوا بالعلم بجواز العمرة في أشهر الحج على فعلهم لها معه ثلاثة أعوام، ولا ياذنه لهم فيها عند الميقات حتى أمرهم بفسخ الحج إلى العمرة، فَمَنْ بعدهم أخرى أن لا يَكْتَفِيَ بذلك حتى يَفْسَخَ الْحَجَّ إِلَى الْعُمْرَةِ، اتِّبَاعاً لِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ، واقتداءً بأصحابه، إِلَّا أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: إِنَّا نَحْنُ نَكْتَفِي مِنْ ذَلِكَ بِدُونِ مَا اكْتَفَى بِهِ الصَّحَابَةُ، وَلَا نَحْتَاجُ فِي الْجَوَازِ إِلَى مَا احْتَاجُوا هُمْ إِلَيْهِ، وهذا جهلٌ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهُ.

الثامن: أَنَّهُ لَا يُظَنُّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أن يأمر أصحابه بالفسخ الذي هو حرام، ليعلمهم بذلك مباحاً يُمكن تعلُّمُهُ بِغَيْرِ ارْتِكَابِ هَذَا الْمُحْظُورِ، وبأسهل منه بياناً، وأوضح دلالةً، وأقل كلفةً.

فإن قيل: لم يكن الفسخ حين أمرهم به حراماً. قيل: فهو إذاً إما واجب أو مستحب. وقد قال بكل واحد منهما طائفة؛ فمن الذي حرَّمه بعد إيجابه أو استحبابه، وأي نص أو إجماع رفع هذا الوجوب أو الاستحباب، فهذه مطالبة لا محيص عنها.

التاسع: أَنَّهُ ﷺ قال: «لَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ، لَمَّا سُقْتُ الْهَدْيَ، وَلَجَعَلْتُهَا عُمْرَةً»، أفترى تجدد له ﷺ عند ذلك العلم بجواز العمرة في أشهر الحج، حتى تأسَّفَ على فواتها؟ هذا من أعظم المحال.

العاشر: أَنَّهُ أَمَرَ بِالْفَسْخِ إِلَى الْعُمْرَةِ، مَنْ كَانَ أَفْرَدًا، وَمَنْ قَرْنًا، وَلَمْ يَسْقِ الْهَدْيَ. ومعلوم: أن القارن قد اعتمر في أشهر الحج مع حجته، فكيف يأمره بفسخ قرانه إلى عمرة ليبيِّن له جواز العمرة في أشهر الحج، وقد أتى بها، وضم إليها الحج؟

(بحث في موافقة فسخ الحج إلى العمرة لقياس الأصول)

الحادي عشر: أن فسخ الحج إلى العمرة، موافق لقياس الأصول، لا مخالف له. ولو لم يرد به النص،

لكان القياس يقتضي جوازه، فجاء النص به على وفق القياس، قاله شيخ الإسلام، وقرره بأن المحرم إذا التزم أكثر مما كان لزمه، جاز باتفاق الأئمة. فلو أحرم بالعمرة، ثم أدخل عليها الحج، جاز بلا نزاع، وإذا أحرم بالحج، ثم أدخل عليه العمرة، لم يجز عند الجمهور، وهو مذهب مالك، وأحمد، والشافعي في ظاهر مذهبه، وأبو حنيفة يُجَوِّزُ ذَلِكَ، بناءً على أصله في أن القارن يطوف طوافين، ويسعى سعيين.

قال: وهذا قياس الرواية المحكيَّة عن أحمد في القارن: أَنَّهُ يَطُوفُ طَوَافَيْنِ، وَيَسْعَى سَعْيَيْنِ. وإذا كان كذلك، فالمحرم بالحج لم يلتزم إلا الحج. فإذا صار متمتعاً، صار ملتزماً لعمرة وحج، فكان ما التزمه بالفسخ أكثر مما كان عليه، فجاز ذلك. ولما كان أفضل، كان مستحباً، وإنما أشكل هذا على من ظنَّ أَنَّهُ فسخ حجاً إلى عمرة، وليس كذلك، فإنه لو أراد أن يفسخ الحج إلى عمرة مفردة، لم يجز بلا نزاع، وإنما الفسخ جائز لمن كان من نيَّته أن يحج بعد العمرة، والمتمتع من حين يحرم بالعمرة فهو داخل في الحج، كما قال النبي ﷺ: «دَخَلَتِ الْعُمْرَةُ فِي الْحَجِّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». ولهذا، يجوز له أن يصوم الأيام الثلاثة من حين يُحْرَمُ بِالْعُمْرَةِ، فدل على أنه في تلك الحال في الحج. وأما إحرامه بالحج بعد ذلك، فكما يبدأ الجنب بالوضوء، ثم يقتسل بعده. وكذلك كان النبي ﷺ يفعل. إذا اغتسل من الجنابة. وقال للنسوة في غسل ابنته: «ابْدَأْ بِمَيَّامَيْتِهَا، وَمَوَاضِعِ الْوُضُوءِ مِنْهَا» [البخاري: ١٢٥٥، ومسلم: ٢١٦٨]. فغسل مواضع الوضوء بعض الغسل.

فإن قيل: هذا باطل لثلاثة أوجه. أحدها: أَنَّهُ إِذَا فسخ، استفاد بالفسخ حلاً كان ممنوعاً عنه بإحرامه الأول، فهو دون ما التزمه.

الثاني: أن التُّسْكَ الَّذِي كَانَ قَدْ التَزَمَهُ أَوَّلًا، أَكْمَلُ مِنَ التُّسْكَ الَّذِي فسخ إليه، ولهذا لا يحتاج الأول إلى جبران، والذي يُفسخ إليه، يحتاج إلى هدي جبراناً له، ونسك لا جبران فيه، أفضل من نسك مجبور.

الثالث: أَنَّهُ أَدَا لَمْ يَجُزْ إِدْخَالُ الْعُمْرَةِ عَلَى الْحَجِّ، فَلَا يَجُوزُ إِبْدَالُهَا بِهِ وَفْسُخُهَا بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْأُخْرَى.

فالجواب عن هذه الوجوه، من طريقين، مجمل ومفصل. أما المجمل: فهو أن هذه الوجوه اعتراضات على مجرد السنة، والجواب عنها بالتزام تقديم الوحي على الآراء، وأن كل رأي يُخالف السنة، فهو باطل قطعاً، وبيان بطلانه لمخالفة السنة الصحيحة الصريحة له، والآراء تبع للسنة، وليست السنة تبعاً للآراء.

وأما المفصل: وهو الذي نحن بصدد، فإننا التزمنا أن الفسخ على وفق القياس، فلا بد من الوفاء بهذا الالتزام، وعلى هذا فالوجه الأول جوابه: بأن التمتع - وإن تخلله التحلل - فهو أفضل من الأفراد الذي لا جِلَّ فيه، لأمر النبي ﷺ من لا هدي معه بالإحرام به، ولأمره أصحابه بفسخ الحج إليه، ولتمنيه أنه كان أحرم به، ولأنه التَّسْكُ المنصوص عليه في كتاب الله، ولأن الأمة أجمعت على جوازه، بل على استحبابه، واختلفوا في غيره على قولين، فإن النبي ﷺ، غَضِبَ حين أمرهم بالفسخ إليه بعد الإحرام بالحج، فتوقفوا، ولأنه من المحال قطعاً أن تكون حجة قط أفضل من حجة خير القرون، وأفضل العالمين مع نبيهم ﷺ، وقد أمرهم كلهم بأن يجعلوها متعة إلا من ساق الهدى، فمن المحال أن يكون غير هذا الحج أفضل منه، إلا حج من قرن وساق الهدى، كما اختاره الله سبحانه لنبيه، فهذا هو الذي اختاره الله لنبيه، واختار لأصحابه التمتع، فأي حج أفضل من هذين. ولأنه من المحال أن يقتلهم من التَّسْكِ الفاضل إلى المفضل المرجوح، ولوجوه أخر كثيرة ليس هذا موضعها، فرجحنا هذا التَّسْكِ أفضل من البقاء على الإحرام الذي يفوته بالفسخ، وقد تبين بهذا بطلان الوجه الثاني.

وأما قولكم: إنه نسك مجبور بالهدى، فكلام باطل من وجوه.

أحدها: أن الهدى في التمتع عبادة مقصودة، وهو من تمام النسك، وهو دم شكران لا دم جبران، وهو بمنزلة الأضحية للمقيم، وهو من تمام عبادة هذا اليوم، فالتَّسْكُ المشتل على الدم، بمنزلة العيد المشتل على الأضحية، فإنه ما تَقَرَّبَ إلى الله في ذلك اليوم؛ بمثل إراقة دم سائل.

وقد روى الترمذي وغيره، من حديث أبي بكر الصديق، أن النبي ﷺ سئل: أيُّ الحجِّ أَفْضَلُ؟ فقال: «الْعَجُّ وَالتَّجُّ» [صحيح بشواهد: الترمذي: ٨٢٧، وابن ماجه: ٢٩٢٤]. والعجُّ رفع الصوت بالتلبية، والتَّجُّ: إراقة دم الهدى. فإن قيل: يُمكنُ المفرد أن يُحصَلَ هذه الفضيلة. قيل: مشروعتها إنما جاءت في حق القارن والتمتع، وعلى تقدير استحبابها في حقه، فإن ثوابها من ثواب هدي المتمتع والقارن؟

الوجه الثاني: إنه لو كان دم جبران، لما جاز الأكل منه، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه أكل من هديه، فإنه أمر من كل بدنة بِضَعَةٍ، فُجِعِلَتْ في قِدرٍ، فأكل من لحمها، وشرب من مرقها [اسلم: ٢٩٥]. وإن كان الواجب عليه سُبُعُ بدنة، فإنه أكل من كل بدنة من المائة، والواجب فيها مُشَاعٌ لم يتعين بقسمة. وأيضاً: فإنه قد ثبت في «الصحيحين»: أنه أطلع نساءه من الهدى الذي ذبحه عنهنَّ وكُنَّ مُتَمَتِّعَاتٍ، احتج به الإمام أحمد، فثبت في «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها، أنه أهدى عن نسائه، ثم أرسل إليهنَّ من الهدى الذي ذبحه عنهنَّ [البخاري: ١٧٠٩، ومسلم: ٢٩١٩]. وأيضاً: فإن الله سبحانه وتعالى قال فيما يذبح بمنى من الهدى: «كُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ» [التَّح: ٢٨] وهذا يتناول هدي التمتع والقران قطعاً إن لم يختص به، فإن المشروع هناك ذبح هدي التمتع والقران. ومن هاهنا والله أعلم أمر النبي ﷺ، من كل بدنة بِضَعَةٍ، فُجِعِلَتْ في قِدر امتثالاً لأمر ربه بالأكل ليعم به جميع هديه.

الوجه الثالث: أن سبب الجبران محظور في الأصل، فلا يجوز الإقدام عليه إلا لعذر، فإنه إما ترك واجب، أو فعل محظور، والتمتع مأمور به، إما أمر إيجاب عند طائفة كابن عباس وغيره، أو أمر استحباب عند الأكثرين، فلو كان دمه دم جبران، لم يجز الإقدام على سببه بغير عذر، فبطل قولهم: إنه دم جبران، وعلم أنه دم نسك، وهذا وسع الله به على عباده، وأباح لهم بسببه التحلل في أثناء الإحرام لما في استمرار الإحرام عليهم من المشقة، فهو بمنزلة

ينقُصُ مما التزمه، بل نقل نسكه إلى ما هو أكمل منه، وأفضل، وأكثر واجبات، فبطل القياسُ على كل تقدير، والله الحمد.

فصل

(العودة إلى سياق حجته ﷺ عند نزوله بذى طوى)

عُدنا إلى سياق حجته ﷺ. ثم نهض ﷺ إلى أن نزل بذى طوى، وهي المعروفة الآن بآبار الزاهر، فبات بها ليلة الأحد لأربع خلون من ذي الحجة، وصلى بها الصبح، ثم اغتسل من يومه، ونهض إلى مكة، فدخلها نهاراً من أعلاها من الثنية العليا التي تُشرف على الحجون، وكان في العمرة يدخل من أسفلها، وفي الحج دخل من أعلاها، وخرج من أسفلها، ثم سار حتى دخل المسجد وذلك ضحى.

وذكر الطبراني، أنه دخله من باب بني عبد مناف الذي يُسميه الناس اليوم باب بني شيبه^(٢).

وذكر الإمام أحمد: أنه كان إذا دخل مكاناً من دار يعلى، استقبل البيت فدعا.

وذكر الطبراني: أنه كان إذا نظر إلى البيت، قال: «اللَّهُمَّ زِدْ بَيْتَكَ هَذَا تَشْرِيفاً وَتَعْظِيماً وَتَكْرِيماً وَمَهَابَةً»^(٣) وروي عنه: أنه كان عند رؤيته يرفع يديه، ويكبر ويقول: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ حَيَّنَا رَبَّنَا بِالسَّلَامِ، اللَّهُمَّ زِدْ هَذَا الْبَيْتَ تَشْرِيفاً وَتَعْظِيماً وَتَكْرِيماً وَمَهَابَةً، وَزِدْ مَنْ حَجَّه أَوْ اعْتَمَرَهُ تَكْرِيماً وَتَشْرِيفاً وَتَعْظِيماً وَبِرّاً» [الشافعي (١/٣٣٩)، والبيهقي (٥/٧٣)] وهو مرسل، ولكن سمع هذا سعيد بن المسيب من عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه يقوله [البيهقي (٥/٧٣)].

(دخوله ﷺ المسجد)

فلما دخل المسجد، عمَدَ إلى البيت ولم يركع تحية المسجد، فإن تحية المسجد الحرام الطواف، فلما حاذى الحجر الأسود، استلمه ولم يُزَاحِمَ

القصر والفطر في السفر، وبمنزلة المسح على الخُفَّين، وكان من هدي النبي ﷺ وهدي أصحابه فعلٌ هذا وهذا «وَاللَّهُ تَعَالَى يُحِبُّ أَنْ يُؤْخَذَ بِرُخَصِهِ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ»^(١). فمحبته لأخذ العبد بما يَسْرَهُ عليه وسهله له، مثل كراهته منه لارتكاب ما حرَّمه عليه ومنعه منه. والهدي وإن كان بدلاً عن ترفُّهه بسقوط أحد السفريْن، فهو أفضل لمن قدم في أشهر الحج من أن يأتي بحجٍّ مفرد ويعتبر عقيقه، والبدل قد يكون واجباً كالجمعة عند من جعلها بدلاً، وكالتيمم للعاجز عن استعمال الماء، فإنه واجب عليه وهو بدل، فإذا كان البدل قد يكون واجباً، فكونه مستحباً أولى بالجواز، وتخلل التحلل لا يمنع أن يكون الجميع عبادة واحدة كطواف الإفاضة، فإنه ركن بالاتفاق، ولا يُفعل إلا بعد التحلل الأول، وكذلك رمي الجمار أيام منى، وهو يفعل بعد الحلِّ التام، وصوم رمضان يتخلله الفطر في ليلته، ولا يمنع ذلك أن يكون عبادة واحدة. ولهذا قال مالك وغيره: إنه يجزىء بينة واحدة للشهر كله، لأنه عبادة واحدة. والله أعلم.

فصل

وأما قولكم: إذا لم يجز إدخال العمرة على الحج، فلان لا يجوز فسحه إليها أولى وأحرى، فنسمع جفجفة ولا نرى طحناً. وما وجه التلازم بين الأمرين، وما الدليل على هذه الدعوى التي ليس بأيديكم برهان عليها؟ ثم القائل بهذا إن كان من أصحاب أبي حنيفة رحمه الله، فهو غير معترف بفساد هذا القياس. وإن كان من غيرهم، طوب بصفة قياسه فلا يجد إليه سبيلاً، ثم يقال: مُذْخِلُ الْعُمَرَةِ قد نقص مما كان التزمه، فإنه كان يطوف طوافاً للحج، ثم طوافاً آخر للعمرة. فإذا قرن، كفاه طواف واحد وسعي واحد بالسنة الصحيحة، وهو قول الجمهور، وقد نقص مما كان يلتزمه. وأما الفاسخ، فإنه لم

(١) أحمد (٥٨٦٦) من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ».

(٢) الهيثمي (٢٣٨/٣) وفيه مروان بن أبي مروان قال السليمانى: فيه نظر، وبقي رجاله رجال الصحيح.

(٣) في سنده عاصم بن سليمان الكوزي وهو متروك، وقال ابن عدي: يعد ممن يضع الحديث.

عليه، ولم يتقدم عنه إلى جهة الركن اليماني، ولم يرفع يديه، ولم يَقُلْ: نويت بطوافي هذا الأسبوع كذا وكذا، ولا افتتحه بالتكبير كما يفعله من لا علم عنده، بل هو من البدع المنكرات، ولا حاذي الحَجَرِ الأسود بجميع بدنه ثم انقتل عنه وجعله على شيقه، بل استقبله واستلمه، ثم أخذ عن يمينه، وجعل البيت عن يساره، ولم يدع عند الباب بدعاء، ولا تحت الميزاب، ولا عند ظهر الكعبة وأركانها، ولا وقت للطواف ذكراً معيناً، لا بفعله، ولا بتعليمه، بل حُفِظَ عنه بين الركنين: «رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» [الشافعي (٤٤/٢)]، وأحمد: (١٥٣٩٨)، وأبو داود: (١٨٩٢)، ورجاله ثقات إلا عبيد مولى السائب لم يوثقه غير ابن حبان [ورمّل في طوافه هذا الثلاثة الأشواط الأول، وكان يُسرع في مشيه، ويُقَارِبُ بين خطاه، واضطجع بردائه فجعل طرفه على أحد كتفيه، وأبدى كتفه الأخرى ومنكبه، وكلما حاذى الحجر الأسود، أشار إليه أو استلمه بمحجنه، وقبّل المحجن، والمحجن عصا محنية الرأس. وثبت عنه، أنه استلم الركن اليماني. ولم يثبت عنه أنه قبله، ولا قبل يده عند استلامه، وقد روى الدارقطني عن ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يقبّل الركن اليماني، ويضع خده عليه [الدارقطني (٢٩٠/٢)]، وفي سنده ضعيف. وفيه عبد الله ابن مسلم ابن هُرْمَزٍ، قال الإمام أحمد: صالح الحديث^(١) وضعفه غيره. ولكن المراد بالركن اليماني هاهنا، الحجر الأسود، فإنه يُسَمَّى الركن اليماني ويُقال له مع الركن الآخر اليمانيان، ويقال له مع الركن الذي يلي الحجر من ناحية الباب: العراقيان؛ ويقال للركنين اللذين يليان الحجر الشاميان. ويقال للركن اليماني، والذي يلي الحجر من ظهر الكعبة: الغريان، ولكن ثبت عنه، أنه قبل الحجر الأسود. وثبت عنه، أنه استلمه بيده، فوضع

يده عليه، ثم قبلها، وثبت عنه، أنه استلمه بمحجن، فهذه ثلاث صفات، وروي عنه أيضاً، أنه وضع شفتيه عليه طويلاً يبيكي.

وذكر الطبراني عنه بإسناد جيد: أنه كان إذا استلم الركن اليماني، قال: «بِسْمِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ»^(٢).

وكان كلما أتى على الحجر الأسود قال: «اللَّهُ أَكْبَرُ» [البخاري: (١٦٣٢)].

وذكر أبو داود الطيالسي، وأبو عاصم النبيل، عن جعفر بن عبد الله بن عثمان، قال: رأيت محمد بن عباد بن جعفر قبلَ الحَجَرِ وسجدَ عليه، ثم قال: رأيت ابنَ عباس يُقبّله ويسجدُ عليه، وقال ابن عباس: رأيت عمر بن الخطاب قبّله وسجدَ عليه. ثم قال: رأيت رسولَ الله ﷺ فعل هكذا ففعلت [الطيالسي (٢١٥/١-٢١٦)]، والبيهقي (٧٤/٥)، ورجاله ثقات.

وروى البيهقي عن ابن عباس: أنه قبلَ الركن اليماني، ثم سجدَ عليه، ثم قبله، ثم سجدَ عليه ثلاث مرات [الشافعي في «الأم» (١٤٥/٢)]، والبيهقي (٧٥/٥) من طريقه وفيه تدليس ابن جريج.

وذكر أيضاً عنه، قال: رأيت النبي ﷺ سجد على الحَجَرِ [البيهقي (٧٥/٥)]، وفي سنده ضعيف.

ولم يستلم ﷺ، ولم يمسّ من الأركان إلا اليمانيين فقط. قال الشافعي رحمه الله: ولم يدع أحد استلامهما هجرة لبيت الله، ولكن استلم ما استلم رسول الله ﷺ، وأمسك عما أمسك عنه.

فصل

(صلاته ﷺ خلف المقام والسعي بين الصفا والمروة)

فلما فرغ من طوافه، جاء إلى خلف المقام، فقرأ: «وَأَعِزُّوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى» [البقرة: ١٢٥]، فصلّى ركعتين، والمقام بينه وبين البيت، قرأ فيهما بعد الفاتحة بسورتي الإخلاص^(٣) وقراءته الآية المذكورة بيان منه لتفسير القرآن، ومراد الله منه بفعله ﷺ، فلما

(١) الذي في «التهذيب» و«الجرح والتعديل» (١٦٤/٥) أن الإمام أحمد ضعفه.

(٢) لقد وهم المؤلف رحمه الله، فإن الطبراني لم يروه مرفوعاً، وإنما رواه البيهقي (٧٩/٥) موقوفاً على ابن عمر كما قال الحافظ في «تلخيص الحبير» وسنده صحيح.

(٣) وهما «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ» و«قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ».

الطواف بين الصفا والمروة راكباً، أَسَنُّهُ هُو؟ فَإِنْ قَوْمَكَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ سَنَةٌ. قَالَ: صَدَقُوا وَكَذَبُوا قَالَ: قُلْتُ: مَا قَوْلُكَ: صَدَقُوا وَكَذَبُوا؟ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَثُرَ عَلَيْهِ النَّاسُ، يَقُولُونَ: هَذَا مُحَمَّدٌ، هَذَا مُحَمَّدٌ، حَتَّى خَرَجَ الْعَوَاتِقُ مِنَ الْبُيُوتِ. قَالَ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يُضْرَبُ النَّاسُ بَيْنَ يَدَيْهِ. قَالَ: فَلَمَّا كَثُرَ عَلَيْهِ، رَكِبَ، وَالْمَشْيُ وَالسَّعْيُ أَفْضَلُ [مسلم: ٣٠٥٥].

فصل

(طواف الضوم)

وأما طوافه بالبيت عند قدومه، فاختلِفَ فيه، هل كان على قدميه، أو كان راكباً؟ ففي «صحيح مسلم»: عن عائشة رضي الله عنها، قالت: طاف النبي ﷺ في حَجَّةِ الْوَدَاعِ حَوْلَ الْكَعْبَةِ عَلَى بَعِيرِهِ يَسْتَلِمُ الرُّكْنَ كِرَاهِيَةً أَنْ يُضْرَبَ عَنْهُ النَّاسُ [مسلم: ٣٠٧٦].

وفي «سنن أبي داود»: عن ابن عباس، قال: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ وَهُوَ يَسْتَكْبِي، فَطَافَ عَلَى رَاحِلَتِهِ، كُلَّمَا أَتَى عَلَى الرُّكْنِ، اسْتَلَمَهُ بِمِخْجَنِ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ طَوَافِهِ، أَنَاخَ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ [أبو داود: ١٨٨١، وفي سننه ضعیف]. قال أبو الطفيل: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَطُوفُ حَوْلَ الْبَيْتِ عَلَى بَعِيرِهِ، يَسْتَلِمُ الْحَجَرَ بِمِخْجَنِ، ثُمَّ يَقْبَلُهُ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ دُونَ ذِكْرِ الْبَعِيرِ [مسلم: ٣٠٧٧]. وَهُوَ عِنْدَ الْبَيْهَقِيِّ، بِإِسْنَادٍ مُسْلِمٍ بِذِكْرِ الْبَعِيرِ. وَهَذَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ فِي طَوَافِ الْإِفَاضَةِ، لَا فِي طَوَافِ الْقُدُومِ، فَإِنْ جَابِراً حَكَى عَنْهُ الرَّمْلُ فِي الثَّلَاثَةِ الْأَوَّلِ، وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا مَعَ الْمَشْيِ.

قال الشافعي رحمه الله: أما سبعة الذي طافه لمقدمه، فعلى قدميه، لأن جابراً حكى عنه فيه، أنه رمل ثلاثة أشواط، ومشى أربعة، فلا يجوز أن يكون جابراً يحكي عنه الطواف ماشياً وراكباً في سبع واحد. وقد حفظ أن سبعة الذي ركب فيه في طوافه يوم النحر. ثم ذكر الشافعي: عن ابن عُيَيْنَةَ، عن ابن طاووس، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ أَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ

فَرَّغَ مِنْ صَلَاتِهِ، أَقْبَلَ إِلَى الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ، فَاسْتَلَمَهُ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الصَّافَا مِنَ الْبَابِ الَّذِي يَقَابِلُهُ، فَلَمَّا قَرُبَ مِنْهُ. قَرَأَ: ﴿إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] أبداً بما بدأ الله به، وفي رواية النسائي: «ابدؤوا»، بصيغة الأمر^(١). ثُمَّ رَفَعَ عَلَيْهِ حَتَّى رَأَى الْبَيْتَ، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، فَوَحَّدَ اللَّهَ وَكَبَّرَهُ، وَقَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، أَنْجَزَ وَعَدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ». ثُمَّ دَعَا بَيْنَ ذَلِكَ، وَقَالَ مِثْلَ هَذَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

وقام ابن مسعود على الصُّنْعِ، وَهُوَ الشَّقُّ الَّذِي فِي الصَّافَا. فَقِيلَ لَهُ: هَاهُنَا يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟ قَالَ: هَذَا وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَقَامُ الَّذِي أَنْزَلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ. ذَكَرَهُ الْبَيْهَقِيُّ (١٥٠/٩٥)، وَفِي سَنَدِهِ ضَعِيفٌ.

ثم نزل إلى المروة يمشي، فلما انصبَّت قدماءه في بطن الوادي، سعى حَتَّى إِذَا جَاوَزَ الْوَادِي وَأَضْعَدَ، مَشَى. هَذَا الَّذِي صَحَّ عَنْهُ، وَذَلِكَ الْيَوْمَ قَبْلَ الْمِيلَيْنِ الْأَخْضَرَيْنِ فِي أَوَّلِ الْمَسْعَى وَآخِرِهِ. وَالظَّاهِرُ: أَنَّ الْوَادِي لَمْ يَتَغَيَّرْ عَنْ وَضْعِهِ، هَكَذَا قَالَ جَابِرٌ عَنْهُ فِي «صحيح مسلم» [٢٩٥٠]. وَظَاهِرٌ هَذَا: أَنَّهُ كَانَ مَاشِياً، وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صحيحه» عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: طَافَ النَّبِيُّ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِالْبَيْتِ، وَبَيْنَ الصَّافَا وَالْمَرْوَةِ لِيَرَاهُ النَّاسُ وَلِيُشْرِفَ وَلِيَسْتَلِمُوهُ فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ غَشَوْهُ [مسلم: ٣٠٧٤] وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ: لَمْ يَطْفِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَا أَصْحَابُهُ بَيْنَ الصَّافَا وَالْمَرْوَةِ إِلَّا طَوَافاً وَاحِداً طَوَافَهُ الْأَوَّلُ [مسلم: ٢٩٤٢].

قال ابن حزم: لا تعارض بينهما، لأن الراكب إذا انصبَّ به بغيره، فقد انصبَّ كُلُّهُ، وانصبَّت قدماءه أيضاً مع سائر جسده.

وعندي في الجمع بينهما وجه آخر أحسن من هذا، وهو أنه سعى ماشياً أولاً، ثم أتمَّ سعيه راكباً، وقد جاء ذلك مصرحاً به، ففي «صحيح مسلم»: عن أبي الطفيل، قال: قلت لابن عباس: أخبرني عن

(١) النسائي (٢٣٦/٥)، لكن هذه الرواية شاذة فإن مالكا وسفيان ويحيى بن سعيد القطان قد اجتمعوا على رواية «نبدأ» قال الحافظ: وهم أحفظ من الباقيين.

يُهَجَّرُوا بِالْإِفَاضَةِ، وَأَفَاضَ فِي نَسَائِهِ لَيْلًا عَلَى رَاحِلَتِهِ يَسْتَلِمُ الرُّكْنَ بِمَخَجَّيْهِ، أَحْبَبَهُ قَالَ: فَيَقْبَلُ طَرَفَ الْمُحَجِّجِ [الشافعي (٦٩/٢) وفيه انقطاع].

قلت: هذا مع أنه مرسل، فهو خلاف ما رواه جابر عنه في «الصحيح» أنه طاف طواف الإفاضة يوم النحر نهاراً، وكذلك روت عائشة وابن عمر، كما سيأتي. وقول ابن عباس: إن النبي ﷺ قدم مكة وهو يشتكي، فطاف على راحلته، كلما أتى الركن استلمه. هذا إن كان محفوظاً، فهو في إحدى عمره، وإلا فقد صح عنه الرمل في الثلاثة الأول من طواف القدوم، إلا أن يقول كما قال ابن حزم في السعي: إنه رمل على بعيره، فإن من رمل على بعيره، فقد رمل، لكن ليس في شيء من الأحاديث أنه كان راكباً في طواف القدوم. والله أعلم.

فصل

(غلط ابن حزم وبيان أنه لم يحج)

وقال ابن حزم: وطاف ﷺ بين الصفا والمروة أيضاً سبعا، راكباً على بعيره يَحْبُ ثَلَاثًا، ويمشي أربعاً، وهذا من أوامره وغلطه رحمه الله، فإن أحداً لم يقل هذا قط غيره، ولا رواه أحد عن النبي ﷺ البتة. وهذا إنما هو في الطواف بالبيت، فغلط أبو محمد، ونقله إلى الطواف بين الصفا والمروة. وأعجب من ذلك، استدلاله عليه بما رواه من طريق البخاري، عن ابن عمر، أن النبي ﷺ طاف حين قَدِمَ مكة، واستلم الركنَ أَوَّلَ شيء، ثم حَبَّ ثَلَاثَةَ أَطْوَافٍ، ومشى أربعاً، فركع حين قَضَى طَوَافَهُ بِالْبَيْتِ، وصلى عند المَقَامِ رَكَعَتَيْنِ، ثم سلم فانصرف، فأتى الصفا، فطاف بالصفا والمروة سبعة أشواط... وذكر باقي الحديث [البخاري: ١٦٩١]. قال: ولم نجد عدد الرَّمَلِ بين الصفا والمروة منصوباً، ولكنه متفق عليه. هذا لفظه.

قلت: المتفق عليه: السعي في بطن الوادي في الأشواط كلها. وأما الرَّمَلُ في الثلاثة الأول خاصة، فلم يقله، ولا نقله فيما نعلم غيره. وسألت شيخنا عنه، فقال: هذا من أغلاطه، وهو لم يحجَّ رحمه الله تعالى. ويشبه هذا الغلط، غلط من قال: إنه سعى أربع

عشرة مرة، وكان يحتسبُ بذهابه ورجوعه مرة واحدة. وهذا غلط عليه ﷺ، لم ينقله عند أحد، ولا قاله أحد من الأئمة الذين اشتهرت أقوالهم، وإن ذهب إليه بعض المتأخرين من المنتسبين إلى الأئمة. ومما يبين بطلان هذا القول، أنه ﷺ لا خلاف عنه، أنه ختم سعيه بالمروة، ولو كان الذهاب والرجوع مرة واحدة، لكان ختمه إنما يقع على الصفا.

(متابعة سباق الحج)

وكان ﷺ إذا وصل إلى المروة، رَقِيَ عليها، واستقبل البيت، وكَبَّرَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وفعل كما فعل على الصفا، فلما أكمل سعيه عند المروة، أَمَرَ كُلَّ مَنْ لَا هَدْيَ مَعَهُ أَنْ يَجْلُ حَتْمًا وَلَا بُدَّ، قَارِنًا كَانَ أَوْ مُفْرَدًا، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَجْلُوا الْجِلَّ كُلَّهُ مِنْ وَطْءِ النِّسَاءِ، وَالطَّبِيبِ، وَلَبَسَ الْمَخِيطَ، وَأَنْ يَقُوا كَذَلِكَ إِلَى يَوْمِ التَّرْوِيَةِ، وَلَمْ يَجْلُ هُوَ مِنْ أَجْلِ هَدْيِهِ. وهناك قال: «لَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ لِمَا سَقَتْ الْهَدْيُ، وَلَجَعَلْتُهَا عُمْرَةً».

وقد روي أنه أحلَّ هو أيضاً، وهو غلط قطعاً، قد بيناه فيما تقدم.

وهناك دعا للمحلِّقين بالمغفرة ثلاثاً، وللمقصرين مرة [البخاري: ١٧٢٨، ومسلم: ٣١٤٤]. وهناك سأله سراقَةُ بْنُ مَالِكٍ بْنُ جُعْشُمٍ عَقِيبَ أَمْرِهِ لَهُمْ بِالْفَسْخِ وَالْإِحْلَالِ: هَلْ ذَلِكَ لِإِعَائِهِمْ خَاصَّةً، أَمْ لِلْأَبَدِ؟ فقال: «بَلَى لِلْأَبَدِ». ولم يجلَّ أبو بكر، ولا عمر، ولا علي ولا طلحة، ولا الزبير من أجل الهدْيِ.

وأما نسائه ﷺ، فأحللن، وكنَّ قارنات، إلا عائشة فإنها لم تجلَّ من أجل تعذُّرِ الحلِّ عليها لحيضها، وفاطمة حلَّت، لأنها لم يكن معها هدي، وعلي رضي الله عنه لم يجلَّ من أجل هديه، وأمر ﷺ من أهل ياهلال كاهلاله أن يقيم على إحرامه إن كان معه هدي، وأن يجلَّ إن لم يكن معه هدي.

(خطبة الوداع)

وكان يصلي مدة مُقَامِهِ بِمَكَّةَ إِلَى يَوْمِ التَّرْوِيَةِ بِمَنْزِلِهِ الَّذِي هُوَ نَازِلٌ فِيهِ بِالْمُسْلِمِينَ بِظَاهِرِ مَكَّةَ، فَأَقَامَ بِظَاهِرِ مَكَّةَ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ يَقْضِي الصَّلَاةَ [البخاري: ٢٥٠٦] يَوْمَ الْأَحَدِ وَالْاِثْنَيْنِ وَالثَّلَاثَاءِ وَالْأَرْبَعَاءِ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْخَمِيسِ ضُحَى، تَوَجَّهَ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى

فَشَرِبَ مِنْهُ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ. وفي لفظ: وهو واقف بعرفة [البخاري: ١٩٨٩، ومسلم: ٢٦٦٣٦].

(أهل مكة يقصرون ويجمعون بعرفة)

وموضع خطبته لم يكن من الموقوف، فإنه خطب بعُرْنَةَ، وليست من الموقوف، وهو ﷺ نَزَلَ بِنَجْرَةَ، وخطب بعُرْنَةَ، ووقف بعُرْفَةَ، وخطب خطبة واحدة، ولم تكن خطبتين، جلس بينهما، فلما أتمها، أَمَرَ بِلَاً فَأَذَنَ، ثم أقام الصلاة، فصلى الظهر ركعتين أَسْرَ فِيهِمَا بِالْقِرَاءَةِ، وكان يومَ الجمعة، فدل على أن المسافرين لا يصلي جمعة، ثم أقام فصلى العصر ركعتين أيضاً ومعه أهل مكة، وصلوا بصلاته قصراً وجمعاً بلا ريب، ولم يأمرهم بالإتمام، ولا بترك الجمع، ومن قال: إنه قال لهم: «إِتِمُّوا صَلَاتَكُمْ فَإِنَّا قَوْمٌ سَفَرٌ»، فقد غلط فيه غلطاً بيناً، وهم وهماً قبيحاً. وإنما قال لهم ذلك في غزاة الفتح بجوف مكة، حيث كانوا في ديارهم مقيمين [احمد: ١٩٨٧٨، وأبو داود: ١٢٢٩، والطحاوي (١/ ١٢٤-١٢٥)، والبيهقي (٣/ ١٣٥)، وفي سننه ضعيفاً]. ولهذا كان أصح أقوال العلماء: إن أهل مكة يَقْصُرُونَ ويجمعون بعرفة، كما فعلوا مع النبي ﷺ، وفي هذا أوضح دليل، على أن سفر القصر لا يتحدد بمسافة معلومة، ولا بأيام معلومة، ولا تأثير للشك في قصر الصلاة البتة، وإنما التأثير لما جعله الله سبباً وهو السفر، هذا مقتضى السنة، ولا وجه لما ذهب إليه المحددون.

(الوقوف بعرفة)

فلما فرغ من صلاته، ركب حتى أتى الموقف، فوقف في ذيل الجبل عند الصُّخَرَاتِ، واستقبل القبلة، وجعل حَبْلَ المشاة بين يديه، وكان على بعيره، فأخذ في الدعاء والتضرع والابتهاال إلى غروب الشمس، وأمر الناس أن يرفعوا عن بطن عُرْنَةَ، وأخبر أن عرفة لا تختص بموقفه ذلك، بل قال: «وَقَفْتُ هَاهُنَا وَعُرْفَةُ كُلُّهَا مَوْقِفٌ» [مسلم: ٢٩٥١].

وأرسل إلى الناس أن يكونوا على مشاعرهم، ويقفوا بها، فإنها من إرث أبيهم إبراهيم [أبو داود: ١٩١٩، والترمذي: ٨٨٣، والنسائي (٥/ ٢٥٥)، وابن ماجه:

مِنِي، فَأَحْرَمَ بِالْحَجِّ مَنْ كَانَ أَحَلَّ مِنْهُمْ مِنْ رِحَالِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا إِلَى الْمَسْجِدِ، فَأَحْرَمُوا مِنْهُ، بَلْ أَحْرَمُوا وَمَكَّةُ خَلْفَ ظُهُورِهِمْ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى مِنِي، نَزَلَ بِهَا، وَصَلَّى بِهَا الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ، وَبَاتَ بِهَا، وَكَانَ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، فَلَمَّا طَلَعَتِ الشَّمْسُ، سَارَ مِنْهَا إِلَى عُرْفَةَ، وَأَخَذَ عَلَى طَرِيقِ صَبٍّ عَلَى يَمِينِ طَرِيقِ النَّاسِ الْيَوْمَ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِهِ الْمَلْبِيُّ، وَمِنْهُمْ الْمُكَبَّرُ، وَهُوَ يَسْمَعُ ذَلِكَ وَلَا يُكَبِّرُ عَلَى هَوْلَاءِ وَلَا عَلَى هَوْلَاءِ [البخاري: ١٦٩٥، ومسلم: ٣٠٩٧] فوجد القبة قد ضُرِبَتْ لَهُ بِنَجْرَةَ بِأَمْرِهِ، وَهِيَ قَرْيَةٌ شَرْقِي عُرْفَاتٍ، وَهِيَ خَرَابُ الْيَوْمِ، فَنَزَلَ بِهَا، حَتَّى إِذَا زَالَتِ الشَّمْسُ، أَمَرَ بِنَاتِقَةِ الْقَصْوَاءِ فَرَجَلَتْ، ثُمَّ سَارَ حَتَّى أَتَى بَطْنَ الْوَادِي مِنْ أَرْضِ عُرْنَةَ، فَخَطَبَ النَّاسَ وَهُوَ عَلَى رَاجِلَتِهِ خُطْبَةً عَظِيمَةً قَرَّرَ فِيهَا قَوَاعِدَ الْإِسْلَامِ، وَهَدَمَ فِيهَا قَوَاعِدَ الشِّرْكِ وَالْجَاهِلِيَّةِ، وَقَرَّرَ فِيهَا تَحْرِيمَ الْمَحْرُمَاتِ الَّتِي اتَّفَقَتْ الْجِبَلُ عَلَى تَحْرِيمِهَا، وَهِيَ الدَّمَاءُ وَالْأَمْوَالُ، وَالْأَعْرَاضُ، وَوَضَعَ فِيهَا أُمُورَ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيْهِ، وَوَضَعَ فِيهَا رِبَا الْجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُ وَأَبْطَلَهُ، وَأَوْصَاهُمْ بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، وَذَكَرَ الْحَقَّ الَّذِي لَهْنِ وَالَّذِي عَلَيْهِنَ، وَأَنَّ الْوَاجِبَ لَهْنِ الرِّزْقُ وَالْكِسْوَةُ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَمْ يَقْدِرْ ذَلِكَ بِتَقْدِيرٍ، وَأَبَاحَ لِلزَّوْجِاضِ ضَرْبَهُنَّ إِذَا أُدْخِلْنَ إِلَى بَيْوتِهِنَّ مَنْ يَكْرَهُهُ أَزْوَاجُهُنَّ، وَأَوْصَى الْأُمَّةَ فِيهَا بِالْإِعْتَصَامِ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَنْ يَضِلُّوا مَا دَامُوا مُعْتَصِمِينَ بِهِ، ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُمْ مَسْئُولُونَ عَنْهُ، وَاسْتَطْفَقَهُمْ: بِمَاذَا يَقُولُونَ، وَبِمَاذَا يَشْهَدُونَ، فَقَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَرَفَعَ أَصْبَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَاسْتَشْهَدَ اللَّهَ عَلَيْهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَبْلُغَ شَاهِدُهُمْ غَائِبُهُمْ [مسلم: ٢٩٥٦].

قال ابن حزم: وأرسلت إليه أم الفضل بنت الحارث الهلالية وهي أم عبد الله بن عباس، بقدح لبن، فشربه أمام الناس وهو على بعيره [البخاري: ١٩٨٨، ومسلم: ٢٦٦٣٢] فلما أتم الخطبة، أمر بِلَاً فَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَهَذَا مِنْ وَهْمِهِ وَرَحِمَهُ اللَّهُ، فَإِنَّ قِصَّةَ شَرْبِهِ اللَّبَنِ، إِنَّمَا كَانَتْ بَعْدَ هَذَا جِئْنَ سَارَ إِلَى عُرْفَةَ، وَوَقَفَ بِهَا هَكَذَا جَاءَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مُصَرَّحاً بِهِ عَنْ مَيْمُونَةَ: أَنَّ النَّاسَ شَكُوا فِي صِيَامِ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ عُرْفَةَ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ بِجِلَابٍ وَهُوَ وَاقِفٌ فِي الْمَوْقِفِ،

٣٠١١] وهنالك أقبل ناسٌ من أهل نجد، فسألوه عن الحج، فقال: «الحج عرفة، من جاء قبل صلاة الضحى من ليلة جمع، ثم حجه، أيام منى فلاته، فمن تعجل في يومين، فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه» [صحيح: أحمد: ١٨٩٥٤، وأبو داود: ١٩٤٩، والترمذي: ٨٨٩، والنسائي (٢٥٦/٥)، وابن ماجه: ٣٠١٥].

(ما ورد في دعائه ﷺ بعرفة)

وكان في دعائه رافعاً يديه إلى صدره كاستطعام المسكين، وأخبرهم أن خير الدعاء دعاء يوم عرفة [مالك (٤٢٢/١) - (٤٢٣) والترمذي: ٣٥٧٩].

وذكر من دعائه ﷺ في الموقف: «اللهم لك الحمد كالذي نقول، وخيراً مما نقول، اللهم لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي، وإليك مآبي، ولك ربّي ثرائي، اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وسوسة الصدر، وشتات الأمر، اللهم إني أعوذ بك من شرّ ما يجيء به الريح». ذكره الترمذي [الترمذي: ٣٥٢٠].

ومما ذكر من دعائه هناك «اللهم تسمع كلامي، وترى مكاني، وتعلم سرّي وعلايتي، لا يخفى عليك شيء من أمري، أنا البائس الفقير، المستغيث المستجير، والرجل المشفق، المقرّ المعترف بذنوبي، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهاج المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضريب، من خضعت لك رقبته، وقاضت لك عنيته، وذلل جسده، وزعم أنفه لك، اللهم لا تجعلني بدعائك رب شقياً، وكُن بي رؤوفاً رحيماً، يا خير المسؤولين، ويا خير المعطين». ذكره الطبراني^(١).

وذكر الإمام أحمد: من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: كان أكثر دعاء النبي ﷺ يوم عرفة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له. له الملك وله الحمد، يبيد الخير وهو على كل شيء قدير» [حسن: أحمد: ٦٩٦١].

وذكر البيهقي من حديث علي رضي الله عنه، أنه

ﷺ قال: «أكثرُ دعائي ودُعَاءُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي بِعَرَفَةَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُوراً، وَفِي صَدْرِي نُوراً، وَفِي سَمْعِي نُوراً، وَفِي بَصَرِي نُوراً، اللَّهُمَّ اشْرِخْ لِي صَدْرِي، وَسِّرْ لِي أَمْرِي، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ وَسْوَاسِ الصُّدْرِ، وَشَتَاتِ الْأَمْرِ، وَفِتْنَةِ الْقَبْرِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا يَلِجُ فِي اللَّيْلِ، وَشَرِّ مَا يَلِجُ فِي النَّهَارِ، وَشَرِّ مَا تَهْبُ بِهِ الرِّيحُ، وَشَرِّ بَوَاقِي الدُّهْرِ» [البيهقي (١١٧/٥)، وسنده مقطع وضعيف].

وأسانيد هذه الأدعية فيها لين.

وهناك أنزلت عليه: «الْيَوْمَ أَكَلْتُكُمْ وَبَيْتَكُمْ وَأَمْنْتُ عَلَيْكُمْ يَمُنِّي وَرَبِّيتُكُمْ الْإِسْلَامَ دِيْنًا» [المائدة: ٣] [البخاري: ٤٦٠٦، ومسلم: ٥٢٧].

(بحث يتعلق برجل محرم مات في عرفة)

وهناك سقط رجل من المسلمين عن راحلته وهو محرم فمات، فأمر رسول الله ﷺ أن يكفن في ثوبيه، ولا يمس بطيب، وأن يغسل بماء وسدر، ولا يقطر رأسه، ولا وجّهه، وأخبر أن الله تعالى يبعثه يوم القيامة يلبّي [البخاري: ١٧٦٧، ومسلم: ٢٨٩٦]. وفي هذه القصة اثنا عشر حكماً.

الأول: وجوب غسل الميت، لأمر رسول الله ﷺ به.

(لا ينجس المسلم بموته)

الحكم الثاني: أنه لا ينجس بالموت، لأنه لو نجس بالموت لم يزد غسله إلا نجاسة. لأن نجاسة الموت للحيوان عينية، فإن ساعد المنجسون على أنه يظهر بالغسل، بطل أن يكون نجساً بالموت، وإن قالوا: لا يظهر، لم يزد الغسل أكفأه وثيابه وغاسله إلا نجاسة.

الحكم الثالث: أن المشروع في حق الميت، أن يغسل بماء وسدر لا يقتصر به على الماء وحده، وقد أمر النبي ﷺ بالسدر في ثلاثة مواضع، هذا أحدها. والثاني: في غسل ابنته بالماء والسدر. والثالث في غسل الحائض [مسلم: ٧٥٠].

(١) الطبراني في «الصغير» ص (١٤٤)، وأورده الهيثمي (٢٥٢/٣)، وقال: رواه الطبراني في «الكبير» و«الصغير» وفيه يحيى بن صالح الأيلي، قال المعيلي: روى عنه يحيى بن بكير مناكير، وبقية رجاله رجال الصحيح.

والصواب جوازه للنص، ولم يُحرّم الله ورسوله على المحرم إزالة الشَّعْبِ بالاغْتِسَالِ، ولا قتل القمل، وليس السُّدْرُ من الطيب في شيء.

(الكفن مقدم على ما سواه)

الحكم السابع: أن الكفن مقدّم على الميراث، وعلى الدَّيْنِ، لأن رسول الله ﷺ أمر أن يُكْفَنَ في ثوبيه، ولم يسأل عن وارثه، ولا عن دين عليه. ولو اختلف الحال، لسأل.

وكما أن كسوته في الحياة مقدّمة على قضاء دينه، فكذلك بعد الممات، هذا كلام الجمهور، وفيه خلاف شاذ لا يُعوّل عليه.

الحكم الثامن: جواز الاقتصاد في الكفن على ثوبين، وهما إزارٌ ورداء، وهذا قول الجمهور. وقال القاضي أبو يعلى: لا يجوز أقل من ثلاثة أثواب عند القدرة، لأنه لو جاز الاقتصاد على ثوبين، لم يجز التكفين بالثلاثة لمن له أيتام، والصحيح: خلاف قوله، وما ذكره يُنقض بالخشن مع الرفيع.

(المحرم ممنوع من الطيب)

الحكم التاسع: أن المحرم ممنوع من الطيب، لأن النبي ﷺ نهى أن يُمسَّ طيباً، مع شهادته له أنه يُبَثّ ملئياً، وهذا هو الأصل في منع المحرم من الطيب.

وفي «الصحيحين» من حديث ابن عمر: «لا تَلْبَسُوا مِنَ الثِّيَابِ شَيْئاً مَسَّهُ وَرْسٌ أَوْ زَعْفَرَانٌ» [البخاري: ١٥٤٢، ومسلم: ٢٧٩١].

وأمر الذي أحرم في جبة بعد ما تَضَمَّنَ بِالْخُلُقِ، أن تُنَزَعَ عَنْهُ الْجُبَّةُ، وَيُغْسَلَ عَنْهُ أَثَرُ الْخُلُقِ^(١) [البخاري: ١٥٣٦، ومسلم: ٢٧٩٨]. فعلى هذه الأحاديث الثلاثة مدارُّ منع المحرم من الطيب. وأصرحها: هذه القصة، فإن النهي في الحديثين الأخيرين، إنما هو عن نوع خاص من الطيب، لا سيما الخُلُقُ، فإن النهي عنه عام في الإحرام وغيره.

وإذا كان النبي ﷺ قد نهى أن يُقَرَّبَ طيباً، أو يمس به، تناول ذلك الرأس، والبدن، والثياب، وأما شمه من غير مس، فإنما حرّمه من حرّمه بالقياس، وإلا

وفي وجوب السُّدْرِ في حق الحائض قولان في مذهب أحمد.

(التغير بالطاهرات لا يسلب الماء طهوريته)

الحكم الرابع: أن تغَيَّرَ الماء بالطاهرات، لا يسلبه طهوريته، كما هو مذهب الجمهور، وهو أنصُّ الروايتين عن أحمد، وإن كان المتأخرون من أصحابه على خلافها. ولم يأمر بغسله بعد ذلك بماء قراح، بل أمر في غَسَلِ ابنته أن يجعلن في الغسلة الأخيرة شيئاً من الكافور، ولو سلبه الطهورية، لنهى عنه، وليس القصْدُ مجرد اكتساب الماء من رائحته حتى يكون تغير مجاورة، بل هو تطيب البدن وتصلبيه وتقويته، وهذا إنما يحصل بكافور مخالط لا مجاور.

(إباحة الغسل للمحرم)

الحكم الخامس: إباحة الغسل للمحرم، وقد تناظر في هذا عبد الله بن عباس، والمِسْوَرُ بْنُ مَخْرَمَةَ، فَفَصَّلَ بينهما أبو أيوب الأنصاري، بأن رسول الله ﷺ اغْتَسَلَ وهو مُحْرِمٌ [البخاري: ١٨٤٠، ومسلم: ٢٨٨٩]. واتفقوا على أنه يغتسل من الجنابة، ولكن كره مالك رحمه الله أن يُغَيَّبَ رأسه في الماء، لأنه نوع يستر له، والصحيح أنه لا بأس به، فقد فعله عمر بن الخطاب وابن عباس.

(إباحة الماء والسدر للمحرم)

الحكم السادس: أن المحرم غير ممنوع من الماء والسدر. وقد اختلف في ذلك، فأباحه الشافعي، وأحمد في أظهر الروايتين عنه ومنع منه مالك، وأبو حنيفة، وأحمد في رواية ابنه صالح عنه. قال: فإن فعل، أهدى، وقال صاحب أبي حنيفة: إن فعل، فعليه صدقة.

وللمانعين ثلاث علل.

أحداها: أنه يقتل الهَوَامَّ من رأسه، وهو ممنوع من التلوي.

الثانية: أنه ترثه، وإزالة شَعْبٍ يُنافي الإحرام.

الثالثة: أنه يستلذ رائحته، فأشبه الطيب، ولا سيما الخطمي. والعلل الثلاث واهية جداً،

(١) الخلق: نوع من الطيب مركب من الزعفران وغيره.

هذا أمران، أحدهما: أن دعوى الاختصاص، لا تُسَمَّعُ إِلَّا بدليل.

والثاني: ما رواه أبو داود، عن عائشة، كنا نخرُجُ مع رسول الله ﷺ إلى مكة، فنُضَمِّدُ جِباَهَنَا بالسُّكِّ الْمُطْلَبِ عِنْدَ الإِحْرَامِ، فَإِذَا عَرَقَتْ إِحْدَانَا، سَأَلَ عَلَى وَجْهِهَا، قَبِيرَاهُ النَّبِيِّ ﷺ فَلَا يَنْتَهَانَا^(١) [أبو داود: ١٨٣٠].

(المحرم ممنوع من تغطية رأسه)

الحكم العاشر: أن المُحْرَمَ ممنوع من تغطية رأسه، والمراتب فيه ثلاث: ممنوع منه بالاتفاق، وجائز بالاتفاق، ومختلف فيه، فالأول: كلُّ متصل ملامس يُرَادُ لستر الرأس، كالْعِمَامَةِ، وَالْقُبْعَةِ، وَالطَّاقِيَةِ، وَالْحُوْدَةِ، وغيرها.

والثاني: كالخيمة، والسيب، والشجرة، ونحوها، وقد صحَّ عن النبي ﷺ، أنه ضَرَبَتْ لَهُ قُبَّةٌ بِنَمِرَةٍ وَهِيَ مُحْرَمٌ إِلَّا أَنْ مَالِكًا مَنَعَ الْمُحْرَمَ أَنْ يَضَعَ ثَوْبَهُ عَلَى شَجَرَةٍ لِيَسْتَظِلَّ بِهِ، وخالفه الأكثرون، ومنع أصحابه المحرم أن يَمْنِيَّ فِي ظِلِّ الْمَخُولِ.

والثالث: كالمَخُولِ، وَالْمَحَارَةِ، وَالْهُودَجِ، فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: الجواز، وهو قول الشافعي وأبي حنيفة رحمهما الله، والثاني: المنع. فإن فعل، افتدى، وهو مذهب مالك رحمه الله. والثالث: المنع، فإن فعل، فلا فِدْيَةَ عَلَيْهِ، والثلاثة روايات عن أحمد رحمه الله.

الحكم الحادي عشر: منع المحرم من تغطية وجهه، وقد اختلف في هذه المسألة، فمذهب الشافعي وأحمد في رواية: إباحته، ومذهب مالك، وأبي حنيفة، وأحمد في رواية: المنع منه، وإباحته قال ستة من الصحابة: عثمان، وعبد الرحمن بن عوف، وزيد بن ثابت، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وجابر رضي الله عنهم. وفيه قول ثالث شاذ: إن كان حياً، فله تغطية وجهه، وإن كان ميتاً، لم يجز تغطية وجهه، قاله ابن حزم، وهو اللائق بظاهريته.

فلفظ النهي لا يتناول به بصريحه، ولا إجماع معلوم فيه يجب المصير إليه، ولكن تحريمه من باب تحريم الوسائل، فإنَّ شمه يدعو إلى ملاسته في البدن والثياب، كما يحرم النظر إلى الأجنبية، لأنه وسيلة إلى غيره، وما حَرَّمَ تحريم الوسائل، فإنه يُباح للحاجة، أو المصلحة الرَّاجِحَةُ، كما يُباح النظر إلى الأمة المُسْتَأْمَةِ، والمخطوبة، ومن شَهِدَ عليها، أو يعاملها، أو يَطَّهَرُهَا. وعلي هذا، فإنما يُمنع المحرم من قصد شَمِّ الطيب للترَفِّه واللذَّة، فأما إذا وصلت الرائحة إلى أنفه من غير قصد منه، أو شمه قصداً لاستعلامه عند شرائه، لم يُمنع منه، ولم يجب عليه سدُّ أنفه، فالأول: بمنزلة نظر الفجأة، والثاني: بمنزلة نظر المُسْتَامِ والخاطب. ومما يُوَضِّح هذا، أن الذين أباحوا للمحرم استدامة الطيب قبل الإحرام، منهم من صرح بإباحة تعمُّد شَمِّه بعد الإحرام، صرح بذلك أصحاب أبي حنيفة، فقالوا: في «جوامع الفقه» لأبي يوسف: لا بأس بأن يشم طيباً تطيب به قبل إحرامه، قال صاحب «المفيد»: إن الطيب يتصل به، فيصير تبعاً له ليدفع به أذى التعب بعد إحرامه، فيصير كالسَّحُورِ فِي حَقِّ الصَّائِمِ يَدْفَعُ بِهِ أَذَى الْجُوعِ وَالْعَطَشِ فِي الصَّوْمِ، بخلاف الثوب، فإنه بائن عنه.

وقد اختلف الفقهاء، هل هو ممنوع من استدامته، كما هو ممنوع من ابتدائه، أو يجوز له استدامته؟ على قولين. فمذهب الجمهور: جوازُ استدامته اتباعاً لما ثبت بالسنة الصحيحة عن النبي ﷺ أنه كان يَتَطَيَّبُ قَبْلَ إِخْرَاقِهِ، ثُمَّ يَرَى وَيَبْصُرُ الطَّيِّبَ فِي مَفَارِقِهِ بَعْدَ إِخْرَاقِهِ [البخاري: ١٥٣٩، ومسلم: ٢٨٣٢]. وفي لفظ: «وهو يُلْبِي» وفي لفظ: «بَعْدَ ثَلَاثٍ». وكل هذا يدفع التأويل الباطل الذي تأوله من قال: إن ذلك كان قبل الإحرام، فلما اغتسل، ذهب أثره. وفي لفظ: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يُحْرِمَ، تَطَيَّبَ بِطَيِّبٍ مَا يَجِدُ، ثُمَّ يَرَى وَيَبْصُرُ الطَّيِّبَ فِي رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ بَعْدَ ذَلِكَ [مسلم: ٢٨٣٨]. والله ما يصنع التقليد، ونصرة الآراء بأصحابه.

وقال آخرون منهم: إن ذلك كان مختصاً به، ويردُّ

(١) السك: نوع من الطيب معروف، يضاف إلى غيره من الطيب ويستعمل.

واحتمج الميحيون بأقوال هؤلاء الصحابة، وبأصل الإباحة، وبمفهوم قوله: «وَلَا تُخَمِّرُوا رَأْسَهُ». وأجابوا عن قوله: «ولا تخمروا وجهه»، بأن هذه اللفظة غير محفوظة فيه. قال شعبة: حدثني أبو بشر، ثم سأله عنه بعد عشر سنين، فجاء بالحديث كما كان، إلا أنه قال: «لَا تُخَمِّرُوا رَأْسَهُ، وَلَا وَجْهَهُ». قالوا: وهذا يدل على ضعفها. قالوا: وقد روي في هذا الحديث «خَمِّرُوا وَجْهَهُ، وَلَا تُخَمِّرُوا رَأْسَهُ» [الشافعي في الأم، (٢٣٩/١)، واحمد: ١٩١٥، مختصرأ، والبيهقي (٣/٢٩٣)].

(لا ينقطع الإحرام بالموت)

الحكم الثاني عشر: بقاء الإحرام بعد الموت، وأنه لا ينقطع به، وهذا مذهب عثمان، وعلي، وابن عباس، وغيرهم رضي الله عنهم، وبه قال أحمد، والشافعي، وإسحاق، وقال أبو حنيفة، ومالك، والأوزاعي: ينقطع الإحرام بالموت، ويصنع به كما يصنع بالحلال، لقوله ﷺ: «إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ [مسلم: ٤٢٢٣].

قالوا: ولا دليل في حديث الذي وقصته راحلته، لأنه خاص به، كما قالوا في صلاته على النجاشي: إنها مختصة به.

قال الجمهور: دعوى التخصيص على خلاف الأصل، فلا تقبل وقوله في الحديث: «فَإِنَّهُ يَتَعَتَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلْبِئًا»، إشارة إلى العلة. فلو كان مختصاً به، لم يُشر إلى العلة، ولا سيما إن قيل: لا يصح التعليل بالعلة القاصرة. وقد قال نظير هذا في شهاد أحد، فقال: «رَمَلُوهُمْ فِي ثِيَابِهِمْ، بِكُلُّوْهُمْ»، فَإِنَّهُمْ يَتَعَتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ اللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ، وَالرَّيْحُ رِيحُ الْمِسْكِ» [صحيح: احمد: ٢٣٦٥٧، والنسائي (٤/٧٨)]. وهذا غير مختص بهم، وهو نظير قوله: «كَفَّنُوهُ فِي ثَوْبِهِ»، فإنه يبعث يوم القيامة ملْبِئًا. ولم تقولوا: إن هذا خاص بشهداء أحد فقط، بل عديتم الحكم إلى سائر الشهداء مع إمكان ما ذكرتم من التخصيص فيه. وما الفرق؟ وشهادة النبي ﷺ في الموضعين واحدة، وأيضاً: فإن

هذا الحديث موافق لأصول الشرع والحكمة التي رتب عليها المعاد، فإن العبد يبعث على مامات عليه، ومن مات على حالة بعث عليها فلو لم يرد هذا الحديث، لكان أصول الشرع شاهدة به. والله أعلم.

فصل

(مناجاة سياق حجته ﷺ)

عدنا إلى سياق حجته ﷺ.

(الإفاضة من عرفة)

فلما غربت الشمس، واستحكم غروبها بحيث ذهبَت الصُّفْرَةُ، أفاض من عرفة، وأردف أسامة بن زيد خلفه، وأفاض بالسكينة، وضمَّ إليه زمام ناقته، حتى إن رأسها لَيُصِيبُ ظَرْفَ رَحْلِهِ وَهُوَ يَقُولُ: «أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ، فَإِنَّ الْبِرَّ لَيْسَ بِالْإِيضَاعِ» [البخاري: ١٦٧١، ومسلم: ٢٩٥٠. أي: ليس بالإسراع.

وأفاض من طريق المَازِمِينَ^(١)، ودخل عرفة من طريق ضَبِّ، وهكذا كانت عادته صلوات الله وسلامه في الأعياد، أن يُخالِفَ الطريق، وقد تقدم حكماً ذلك عند الكلام على هديه في العيد.

ثم جعل يسيرُ العَنَقَ، وهو ضربٌ من السير ليس بالسريع، ولا البطيء. فإذا وجد فُجْوَةً وهو المَسْعُ، نَهَضَ سيره، أي: رفعه فوق ذلك، وكلما أتى ربوة من تلك الرُّبَى، أَرخَى للناقة زمامها قليلاً حتى تصعد.

وكان يُلَبِّي في مسيره ذلك، لم يقطع التلبية. فلما كان في أثناء الطريق، نزل صلوات الله وسلامه عليه، فبال، وتوضأ وضوءاً خفيفاً، فقال له أسامة: الصلاة يا رسول الله، فقال: «الصلاة - أو المُصَلَّى - أَمَامَكَ».

ثم سار حتى أتى المزدلفة، فتوضأ وضوء الصلاة، ثم أمر بالأذان، فأَذَّن المؤذِّن، ثم أقام، فَصَلَّى المغرب قبل حطِّ الرِّحَالِ، وتبريك الجمال، فلما حطُّوا رحالهم، أمر فأقيمت الصلاة، ثم صلى عشاء الآخرة بإقامة بلا أذان، ولم يُصلِّ بينهما شيئاً [البخاري: ١٦٧٢، ومسلم: ٣٠٨٧. وقد روي: أنه صلَّاهما بأذنين وإقامتين، وروي بإقامتين بلا أذان،

(١) موضع معروف بين عرفة والمشر.

والصحيح: أنه صلاهما بأذان وإقامتين، كما فعل بعرفة^(١).

ثم نام حتى أصبح، ولم يُحَيَّ تلك الليلة، ولا صحَّ عنه في إحياء ليلتي العيدين شيء.

(هل يجوز رمي الجمار قبل الفجر)

«وَأُذِنَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ لِصُفَّةِ أَهْلِهِ أَنْ يَتَقَدَّمُوا إِلَى مِنًى قَبْلَ طُلُوعِ الْفَجْرِ، وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ غَيْبِوَةِ الْقَمَرِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ لَا يَزُمُوا الْجَمْرَةَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ» [البخاري: ١٦٧٨، ومسلم: ٣١٢٦] حديث صحيح صححه الترمذي وغيره.

وأما حديث عائشة رضي الله عنها: أرسل رسول الله ﷺ بأم سلمة ليلة النحر، فرميت الجمرة قبل الفجر، ثم مضت، فأفاضت، وكان ذلك اليوم الذي يكون رسول الله ﷺ، تعني عندها، رواه أبو داود [١٩٤٢]، فحديث منكر، أنكره الإمام أحمد وغيره. ومما يدل على إنكاره أن فيه، أن رسول الله ﷺ أمرها أن تُوافي صلاة الصبح يوم النحر بمكة. وفي رواية: «تُوافيه بمكة» وكان يومها، فأحب أن تُوافيه، وهذا من المحال قطعاً.

قال الأثرم: قال لي أبو عبد الله: حدثنا أبو معاوية، عن هشام، عن أبيه، عن زينب بنت أم سلمة، أن النبي ﷺ أمرها أن تُوافيه يوم النحر بمكة، لم يُسنده غيره، وهو خطأ.

وقال وكيع: عن أبيه مرسلاً: إن النبي ﷺ، أمرها أن تُوافيه صلاة الصبح يوم النحر بمكة، أو نحو هذا، وهذا أعجب أيضاً، أن النبي ﷺ يوم النحر وقت الصبح، ما يصنع بمكة؟ ينكر ذلك. قال: فجنحت إلى يحيى بن سعيد، فسألته، فقال: عن هشام عن أبيه: «أمرها أن تُوافي» وليس «تُوافيه» قال: وبين ذين فرق. قال: وقال لي يحيى: سل عبد الرحمن عنه، فسألته، فقال: هكذا سفيان عن هشام عن أبيه. قال الخلال: سها الأثرم في حكايته عن وكيع «تُوافيه»، وإنما قال وكيع: تُوافي منى. وأصاب في قوله: «تُوافي» كما قال أصحابه، وأخطأ في قوله: «منى».

قال الخلال: أنبأنا علي بن حرب، حدثنا

هارون بن عمران، عن سليمان بن أبي داود، عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: أخبرني أم سلمة، قالت: قدَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيمَنْ قَدَّمَ مِنْ أَهْلِهِ لَيْلَةَ الْمَزْدَلِفَةِ. قالت: فرميت بليل، ثم مضيت إلى مكة، فصليت بها الصبح، ثم رجعت إلى منى.

قلت: سليمان بن أبي داود هذا: هو الدمشقي الخولاني، ويقال: ابن داود. قال أبو زرعة عن أحمد: رجل من أهل الجزيرة ليس بشيء. وقال عثمان بن سعيد: ضعيف.

قلت: ومما يدل على بطلانه، ما ثبت في «الصحيحين» عن القاسم بن محمد، عن عائشة، قالت: استأذنت سودة رسول الله ﷺ لَيْلَةَ الْمَزْدَلِفَةِ، أَنْ تَذْفَعَ قَبْلَهُ، وَقَبْلَ حَطَمَةِ النَّاسِ، وَكَانَتْ امْرَأَةً ثَبَلَةً، قَالَتْ: فَأَذِنَ لَهَا، فَخَرَجَتْ قَبْلَ دَفْعِهِ، وَحُسْنًا حَتَّى أَصْبَحْنَا، فَذَفَعْنَا بِدَفْعِهِ، وَلَأَنْ أَكُونَ اسْتَأْذَنْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَمَا اسْتَأْذَنْتُهُ سَوْدَةُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ مَفْرُوحٍ بِهِ [البخاري: ١٦٨١، ومسلم: ٣١١٨]. فهذا الحديث الصحيح، يُبَيِّنُ أَنَّ نِسَاءَهُ غَيْرَ سَوْدَةَ، إِنَّمَا دَفَعْنَ مَعَهُ.

فإن قيل: فما تصنعون بحديث عائشة الذي رواه الدارقطني وغيره عنها، أن رسول الله ﷺ أمر نساءه أن يخرجن من جمع لَيْلَةَ جَمْعٍ، فَيَرْمِينَ الْجَمْرَةَ، ثُمَّ تُصْبِحُ فِي مَنْزِلِهَا، وَكَانَتْ تَصْنَعُ ذَلِكَ حَتَّى مَاتَتْ [الدارقطني (٢٧٣/٢) وفي سننه ضعيفاً].

قيل: يرده محمد بن حميد أحد رواة، كَذَّبَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ. ويردُّه أيضاً: حديثها الذي في «الصحيحين» وقولها: وَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ اسْتَأْذَنْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، كَمَا اسْتَأْذَنْتُهُ سَوْدَةُ.

وإن قيل: فَهَبْ أَنْكُمْ يُمَكِّنُكُمْ رَدُّ هَذَا الْحَدِيثِ، فَمَا تَصْنَعُونَ بِالْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ بِهَا مِنْ جَمْعٍ بَلِيلٍ [مسلم: ٣١٢٤]. قيل: قد ثبت في «الصحيحين» أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدَّمَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ صَفَّةَ أَهْلِهِ، وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِيمَنْ قَدَّمَ. وَبُتَّ أَنَّ قَدَّمَ سَوْدَةَ، وَبُتَّ أَنَّ حَبِيبَةَ نِسَاءَهُ عِنْدَهُ حَتَّى دَفَعْنَ بِدَفْعِهِ.

(١) انظر «نصب الرأية» (٣/ ٦٨ - ٧٠).

يوم الحج الأكبر، وهو يوم الأذان ببراءة الله ورسوله من كل مشرك.

ثم ركب حتى أتى موقفه عند المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، وأخذ في الدعاء والتضرع، والتكبير، والتهلل، والذكر، حتى أسفر جداً، وذلك قبل طلوع الشمس.

وهناك سأله غزوة بن مضرس الطائي، فقال: يا رسول الله ﷺ! إني جئت من جبل طيء، أكلت راجلي، وأثعبت نفسي، والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه، فهل لي من حج؟ فقال رسول الله ﷺ: «من شهد صلاتنا هذه وقفت معنا حتى ندفع وقد وقفت بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً، فقد أتم حجه، وقضى نسجه» [ابو داود: ١٩٥٠، والترمذي: ٨٩١، والنسائي: ٢٦٣/٥]. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(مذهب من قال بركنية الوقوف بمزدلفة والمبيت بها) وبهذا احتج من ذهب إلى أن الوقوف بمزدلفة والمبيت بها، ركن كعرفة، وهو مذهب اثنين من الصحابة، ابن عباس، وابن الزبير رضي الله عنهما، وإليه ذهب إبراهيم النخعي، والشعمي، وعلقمة، والحسن البصري، وهو مذهب الأوزاعي، وحمام بن أبي سليمان، وداود الظاهري، وأبي عبيد القاسم بن سلام، واختاره المحمّدان: ابن جرير، وابن خزيمة، وهو أحد الوجوه للشافعية، ولهم ثلاث حجج. هذه إحداها، والثانية: قوله تعالى: ﴿تَذَكَّرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٨]. والثالثة: فعل رسول الله ﷺ الذي خرج مخرج البيان لهذا الذكر المأمور به.

واحتج من لم يره ركناً بأمرين، أحدهما: أن النبي ﷺ مدّ وقت الوقوف بعرفة إلى طلوع الفجر، وهذا يقتضي أن من وقف بعرفة قبل طلوع الفجر بأيسر زمان، صح حجه، ولو كان الوقوف بمزدلفة ركناً لم يصح حجه.

الثاني: أنه لو كان ركناً، لاشترك فيه الرجال والنساء، فلما قدّم رسول الله ﷺ النساء بالليل، علّم أنه ليس بركن، وفي الدليلين نظر، فإن النبي ﷺ إنما

وحديث أم حبيبة، انفرد به مسلم. فإن كان محفوظاً، فهي إذاً من الضعفة التي قدّمها.

فإن قيل: فما تصنعون بما رواه الإمام أحمد، عن ابن عباس أن النبي ﷺ: بعث به مع أهله إلى منى يوم النحر، فرموا الجمرة مع الفجر [أحمد: ٢٩٣٦ - ٢٩٣٧ - ٢٩٣٨، ورجاله ثقات لكنه منقطع]. قيل: تقدّم عليه حديثه الآخر الذي رواه أيضاً الإمام أحمد، والترمذي وصححه، أن النبي ﷺ قدّم ضعفة أهله وقال: «لا ترموا الجمرَةَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ». ولفظ أحمد فيه: قدّمنا رسول الله ﷺ أغليمة بني عبد المطلب على حُمَرَاتِ لَنَا مِنْ جَمْعٍ، فَجَعَلَ يَطْلُعُ أَفْعَادُنَا وَيَقُولُ: «أَيُّ بَنِي لَا تَرْمُوا الْجَمْرَةَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ»^(١) [صحيح: أحمد: ٢٨٤٢، والترمذي: ٨٩٣]. لأنه أصح منه، وفيه نهى النبي ﷺ عن رمي الجمرة قبل طلوع الشمس، وهو محفوظ بذكر القصة فيه. والحديث الآخر: إنما فيه: أنهم رموها مع الفجر، ثم تأملنا فإذا أنه لا تعارض بين هذه الأحاديث، فإنه أمر الصبيان أن لا يرموا الجمرَةَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، فإنه لا عذر لهم في تقديم الرمي، أما من قدّمه من النساء، فرمَيْنَ قبل طلوع الشمس للعذر والخوف عليهن من مزاحمة الناس وحطيمهم، وهذا الذي دلت عليه السنة جواز الرمي قبل طلوع الشمس، للعذر بمرض، أو كِبَرٍ يَشُقُّ عَلَيْهِ مَزَاحِمَةُ النَّاسِ لِأَجَلِهِ، وأما القادر الصحيح، فلا يجوز له ذلك.

وفي المسألة ثلاثة مذاهب، أحدها: الجواز بعد نصف الليل مطلقاً للقادر والعاجز، كقول الشافعي وأحمد رحمهما الله، والثاني: لا يجوز إلا بعد طلوع الفجر، كقول أبي حنيفة رحمه الله، والثالث: لا يجوز لأهل القدرة إلا بعد طلوع الشمس، كقول جماعة من أهل العلم. والذي دلت عليه السنة، إنما هو التعجيل بعد غيوبه القمر، لا نصف الليل، وليس مع من حده بالنصف دليل، والله أعلم.

فصل

فلما طلع الفجر، صلّاها في أول الوقت لا قبله قطعاً بأذان وإقامة يوم النحر، وهو يوم العيد، وهو

(١) اللطخ: الضرب الخفيف ببطن الكف، والأغليمة: تصغير الغلّة كما قالوا: أصيبه في تصغير الصبية.

أحمد: ١٨١٢، والنسائي (١١٩/٥-١٢٠). [٧٤٦٦]

فلما أتى بَقْلَنَ مُحَسَّرٍ، حَرَّكَ نَاقَتَهُ وَأَسْرَعَ السَّيْرَ، وهذه كانت عادته في المواضع التي نزل فيها بأَسْرِ اللَّهِ بأعدائه، فإن هُنَالِكَ أَصَابَ أَصْحَابَ الْفِيلِ مَا قَصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا، ولذلك سُمِّيَ ذَلِكَ الْوَادِي وَادِي مُحَسَّرٍ، لأن الفيل حَسَرَ فيه، أي: أعشى، وانقطع عن الذهاب إلى مكة، وكذلك فعل في سلوكه الحَجَرُ دِيَارَ ثُمُودَ، فإنه تَقَنَّعَ بثوبه، وأسرع السَّيْرَ [البخاري: ٤٤١٩، ومسلم: ٧٤٦٦].

ومحسَّرٌ: برزخ بين منى وبين مُزْدَلِفَةَ، لَا مِنْ هَذِهِ، وَلَا مِنْ هَذِهِ، وَغَرْنَةُ: برزخ بين عرفة والمشعر الحرام، فيبين كُلَّ مشعرين برزخ ليس منهما، فيمنى: من الحرم، وهي مشعر، ومُحَسَّرٌ: من الحرم، وليس بمشعر، ومزدلفة: حرم ومشعر، وَغَرْنَةُ ليست مشعراً، وهي من الحل. وعرفة: حل ومشعر.

وسلك ﷺ الطريق الوُسطى بين الطريقين، وهي التي تَخْرُجُ عَلَى الْجَمْرَةِ الْكُبْرَى، حَتَّى أَتَى مِنَى، فَأَتَى جَمْرَةَ الْعَقْبَةِ، فَوَقَفَ فِي أَسْفَلِ الْوَادِي، وَجَعَلَ الْيَتِّ عَنْ يَسَارِهِ، وَمِنَى عَنْ يَمِينِهِ، وَاسْتَقْبَلَ الْجَمْرَةَ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ، فَرَمَاهَا رَاكِباً بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ، يُكَبِّرُ مَعَ كُلِّ حَصَاةٍ. وَحِينَئِذٍ قَطَعَ التَّلِيَّةَ.

وكان في مسيره ذلك يُلَبِّي حَتَّى شَرَعَ فِي الرَّمْيِ، وَرَمَى بِلَالٍ وَأَسَامَةَ مَعَهُ، أَحَدُهُمَا أَخَذَ بِخُطَامِ نَاقَتِهِ، وَالْآخَرُ يُظَلِّلُهُ بِثُوبٍ مِنَ الْحَرِّ [مسلم: ٣١٣٨]. وفي هذا: دليل على جواز استغلال الْمُحَرَّمِ بِالْمَحْمُولِ ونحوه إن كانت قصة هذا الإِظْلَالِ يَوْمَ النَّحْرِ ثَابِتَةً، وَإِنْ كَانَتْ بَعْدَهُ فِي أَيَّامِ مِنَى، فَلَا حُجَّةَ فِيهَا، وَلَيْسَ فِي الْحَدِيثِ بَيَانٌ فِي أَيِّ زَمَنٍ كَانَتْ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فصل

(خطبة منى)

ثم رجع إلى منى، فخطب الناسَ حُطْبَةً بليغةً أعلمهم فيها بِحُرْمَةِ يَوْمِ النَّحْرِ وتحريمه، وفضله عند الله، وَحُرْمَةَ مَكَّةَ عَلَى جَمِيعِ الْبِلَادِ، وَأَمَرَهُم بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِمَنْ قَادَهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَأَمَرَ النَّاسَ بِأَخْذِ مَنَاسِكِهِمْ عَنْهُ، وَقَالَ: «لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ عَامِي هَذَا» [مسلم: ٢٩٥٠].

قَدَّمَهُمْ بَعْدَ الْمَبِيتِ بِمزدلفة، وَذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا لَصَلَاةَ عِشَاءِ الْآخِرَةِ، وَالْوَاجِبُ هُوَ ذَلِكَ. وَأَمَّا تَوْقِيتُ الْوُقُوفِ بِعَرَفَةَ إِلَى الْفَجْرِ، فَلَا يُنَافِي أَنْ يَكُونَ الْمَبِيتُ بِمزدلفة رُكْنًا، وَتَكُونَ تِلْكَ اللَّيْلَةُ وَقْتًا لِهَاجَتِهِمَا كَوَقْتُ الْمَجْمُوعَتَيْنِ مِنَ الصَّلَاةِ، وَتَضَيِّقُ الْوَقْتُ لِأَحَدِهِمَا لَا يُخْرِجُهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ وَقْتًا لِهَاجَتِهِمَا حَالِ الْقُدْرَةِ.

فصل

وَقَفَ ﷺ فِي مَوْقِفِهِ، وَأَعْلَمَ النَّاسَ أَنَّ مَزْدَلِفَةَ كُلُّهَا مَوْقِفٌ، ثُمَّ سَارَ مِنْ مَزْدَلِفَةَ مُرْدِفًا لِلْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ وَهُوَ يُلَبِّي فِي مَسِيرِهِ، وَانْطَلَقَ أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ عَلَى رَجْلَيْهِ فِي سَبَاقِ قُرَيْشٍ.

وفي طريقه ذلك أمر ابنَ عَبَّاسٍ أَنْ يَلْقُظَ لَهُ حَصَى الْجِمَارِ، سَبْعَ حَصِيَّاتٍ، وَلَمْ يَكْسِرْهَا مِنَ الْجَبَلِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ كَمَا يَفْعَلُ مَنْ لَا عِلْمَ عَنْهُ، وَلَا التَّقْلُطُ بِاللَّيْلِ، فَالْتَقَطَ لَهُ سَبْعَ حَصِيَّاتٍ مِنْ حَصَى الْحَذَفِ، فَجَعَلَ يَنْفُضُهُنَّ فِي كَفِّهِ وَيَقُولُ: «بِأَمْنَالِ هَؤُلَاءِ فَارْمُوا، وَإِنَّا كُمْ وَالْغُلُوُّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ» [صحيح: أحمد: ١٨٥١، والنسائي (٥/٢٦٨)، وابن ماجه: ٣٠٢٩].

(قصة الفضل مع الخنعمية)

وفي طريقه تلك، عَرَضَتْ لَهُ امْرَأَةٌ مِنْ خَنْعَمَ جَبِيلَةٍ، فَسَأَلَتْهُ عَنِ الْحَجِّ عَنْ أَبِيهَا وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا لَا يَسْتَمْسِكُ عَلَى الرُّجُلَةِ، فَأَمَرَهَا أَنْ تَحْجَّ عَنْهُ، وَجَعَلَ الْفَضْلُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى وَجْهِهِ، وَصَرَفَهُ إِلَى الشَّقِّ الْآخَرِ، وَكَانَ الْفَضْلُ وَبِيبًا، فَقِيلَ: صَرَفَ وَجْهَهُ عَنْ نَظَرِهَا إِلَيْهِ. وَقِيلَ: صَرَفَهُ عَنْ نَظَرِهِ إِلَيْهَا، وَالصَّوَابُ: إِنَّهُ فَعَلَهُ لِلأَمْرَيْنِ، فَإِنَّهُ فِي الْقِصَّةِ جَعَلَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ [البخاري: ١٥١٣، ومسلم: ٣٢٥١].

(الحج عن الأم)

وسأله آخرُ هنالك عن أمِّه، فَقَالَ: إِنَّهَا عَجُوزٌ كَبِيرَةٌ، فَإِنْ حَمَلْتُهَا لَمْ تَسْتَمْسِكْ، وَإِنْ رَبَطْتُهَا خَشِيتُ أَنْ أَقْتُلَهَا، فَقَالَ: «أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكَ دَيْنٌ أَكُنْتُ قَاضِيَةً؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَحُجَّ عَنْ أُمِّكَ» [صحيح: ٢٦٥]

وَعَلَّمَهُمْ مَنَاسِكَهُمْ، وَأَنْزَلَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ مَنَازِلَهُمْ، وَأَمَرَ النَّاسَ أَنْ لَا يَرْجِعُوا بَعْدَهُ كُفَّاراً يَضْرِبُ بَعْضُهُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، وَأَمَرَ بِالتَّبْلِيغِ عَنْهُ. وَأَخْبَرَ أَنَّهُ رَبُّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ [البخاري: ٥٥٥٠، ومسلم: ٤٣٨٣].

وقال في خطبته: «لَا يَخْنِي جَانٍ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ» [الترمذي: ٢١٦٠، وابن ماجه: ٣٠٥٥].

وأَنْزَلَ الْمُهَاجِرِينَ عَنْ يَمِينِ الْقِبْلَةِ، وَالْأَنْصَارَ عَنْ يَسَارِهَا، وَالنَّاسَ حَوْلَهُمْ، وَفَتَحَ اللَّهُ لَهُ أَسْمَاعَ النَّاسِ حَتَّى سَمِعَهَا أَهْلُ مِثْنَى فِي مَنَازِلِهِمْ.

وقال في خطبته تلك: «اعْبُدُوا رَبَّكُمْ، وَصَلُّوا حَسَنَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ، تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبَّكُمْ» [صحيح: أحمد: ٢٢١٦١، والترمذي: ٦١٦].

وودع حينئذ الناس، فقالوا: حجة الوداع.

وهناك سُئِلَ عَمَنْ حَلَقَ قَبْلَ أَنْ يَرْمِيَ، وَعَمَنْ ذَبَحَ قَبْلَ أَنْ يَرْمِيَ، فَقَالَ: «لَا حَرَجَ» قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: مَا رَأَيْتُهُ يَسْتَلُّ يَوْمئِذٍ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا قَالَ: «افْعَلُوا وَلَا حَرَجَ» [البخاري: ١٧٣٦، ومسلم: ٣١٥٦].

قال ابن عباس: إنه قيل له ﷺ في الذبح، والحلق، والرمي، والتقديم، والتأخير، فقال: لا حَرَجَ [البخاري: ١٧٣٥].

وقال أسامة بن شريك: خرجت مع النبي ﷺ حاجاً، وكا الناس يأتونه فَمِنْ قَائِلٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ سَعَيْتُ قَبْلَ أَنْ أَطُوفَ، أَوْ قَدَمْتُ شَيْئاً أَوْ أَخَّرْتُ شَيْئاً فَكَانَ يَقُولُ: «لَا حَرَجَ لَا حَرَجَ إِلَّا عَلَى رَجُلٍ اقْتَرَضَ عِزَّ رَجُلٍ مُسْلِمٍ وَهُوَ ظَالِمٌ، فَذَلِكَ الَّذِي حَرَجَ وَهَلَكَ» [ابوداود: ٢٠١٥].

وقوله: سَعَيْتُ قَبْلَ أَنْ أَطُوفَ، فِي هَذَا الْحَدِيثِ لَيْسَ بِمَحْفُوظٍ. وَالْمَحْفُوظُ: تَقْدِيمُ الرَّمْيِ، وَالتَّحْرِي، وَالْحَلْقُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ.

(بحث في نحره ﷺ ثلاثاً وستين ليلة)

ثم انصرف إلى المَنَحْرِ بِمِثْنَى، فَنَحَرَ ثَلَاثًا وَسِتِينَ بَدَنَةً بِيَدِهِ، وَكَانَ يَنْحَرُهَا قَائِمَةً، مَعْقُولَةً يَدُهَا الْيُسْرَى [البخاري: ١٧١٣، ومسلم: ٣١٩٣]. وَكَانَ عِنْدَ هَذَا الَّذِي نَحَرَ عِدَّةَ بَنِي عَمْرٍو، ثُمَّ أَمْسَكَ وَأَمَرَ عَلِيًّا أَنْ يَنْحَرَ مَا

غَبَرَ مِنَ الْمِثْنَةِ، ثُمَّ أَمَرَ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنْ يَتَصَدَّقَ بِجَلَالِهَا وَلُحُومِهَا وَجُلُودِهَا فِي الْمَسَاكِينِ، وَأَمَرَهُ أَنْ لَا يُعْطِيَ الْجَزَارَ فِي جَزَارَتِهَا شَيْئاً مِنْهَا، وَقَالَ: نَحَرْتُ نَعْطِيهِ مِنْ عَيْنِدَنَا، وَقَالَ: «مَنْ شَاءَ اقْتَطَعَ» [البخاري: ١٧١٧، ومسلم: ٣١٩٣].

فإن قيل: فكيف تصنعون بالحديث الذي في «الصحيحين» عن أنس رضي الله عنه، قال: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الظُّهْرَ بِالْمَدِينَةِ أَرْبَعاً، وَالْعَصَرَ بِذِي الْحُلَيْفَةِ رَكَعَتَيْنِ، فَبَاتَ بِهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ، رَكِبَ رَاحِلَتَهُ، فَجَعَلَ يَهْلُلُ وَيُسَبِّحُ، فَلَمَّا عَلَا عَلَى الْبِيدَاءِ، لَبَّى بِهِمَا جَمِيعاً، فَلَمَّا دَخَلَ مَكَّةَ، أَمَرَهُمْ أَنْ يَحْلُوا، وَنَحَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ سَبْعَ بَدَنٍ قِيَاماً، وَضَحَى بِالْمَدِينَةِ كَثِيبَيْنِ أَمْلَحَيْنِ [البخاري: ١٧١٤]. فالجواب: أنه لا تعارض بين الحديثين.

قال أبو محمد ابن حزم: مخرج حديث أنس، على أحد وجوه ثلاثة.

أحدها: أنه ﷺ لم ينحر بيده أكثر من سبع بَدَنٍ، كما قال أنس، وأنه أمر من ينحر ما بعد ذلك إلى تمام ثلاث وستين، ثم زال عن ذلك المكان، وأمر علياً رضي الله عنه، فنحَرَ ما بقي.

الثاني: أن يكون أنس لم يشاهد إلا نحره ﷺ سبعاً فقط بيده، وشاهد جابر تمام نحره ﷺ للباقي، فأخبر كُلُُّ منهما بما رأى وشاهد.

الثالث: أنه ﷺ نحر بيده منفرداً سبع بَدَنٍ كما قال أنس، ثم أخذ هو وعلي الحرية معاً، فنحروا كذلك تمام ثلاث وستين، كما قال عَزْرَةُ بْنُ الْحَارِثِ الْكِنْدِيُّ أَنَّهُ شَاهَدَ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمئِذٍ قَدْ أَخَذَ بِأَعْلَى الْحَرِيَّةِ، وَأَمَرَ عَلِيًّا فَأَخَذَ بِأَسْفَلِهَا، وَنَحَرَ بِهَا الْبَدَنَ [ابوداود: ١٧١٦] ثُمَّ انْفَرَدَ عَلِيٌّ يَنْحَرُ الْبَاقِي مِنَ الْمِثْنَةِ، كَمَا قَالَ جَابِرٌ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فإن قيل: فكيف تصنعون بالحديث الذي رواه الإمام أحمد، وأبو داود عن علي قال: لما نَحَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَدَنَةً، فَنَحَرَ ثَلَاثِينَ بِيَدِهِ، وَأَمَرَنِي فَنَحَرْتُ سَائِرَهَا [سننه ضعيف: أحمد: ١٣٧٤، وأبو داود: ١٧١٤].

قلنا: هذا غلطٌ انقلب على الراوي، فإن الذي نَحَرَ ثَلَاثِينَ: هُوَ عَلِيٌّ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَحَرَ سَبْعاً بِيَدِهِ لَمْ

يُشَاهِدُهُ عَلِيٌّ، وَلَا جَابِرٌ، ثُمَّ نَحَرَ ثَلَاثًا وَسِتِينَ أُخْرَى، فَبَقِيَ مِنَ الْمِثَّةِ ثَلَاثُونَ، فَنَحَرَهَا عَلِيٌّ، فَانْقَلَبَ عَلَى الرَّوَايِ عِدْدُ مَا نَحَرَهُ عَلِيٌّ بِمَا نَحَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا تَصْنَعُونَ بِحَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قُرْطٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ أَغْظَمَ الْأَيَّامِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ النَّحْرِ، ثُمَّ يَوْمَ الْقَرِّ». وَهُوَ الْيَوْمُ الثَّانِي. قَالَ: وَقُرْبَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَدَنَاتٌ خَمْسٌ فَطَلْفَقْنَ يُزْدَلِفْنَ إِلَيْهِ بَأْتِيَهُنَّ يَبْدَأُ؟ فَلَمَّا وَجِبَتْ جُنُوبُهَا قَالَ: فَتَكَلَّمُ بِكَلِمَةٍ خَفِيَّةٍ لَمْ أَفْهَمْهَا، فَقُلْتُ: مَا قَالَ؟ قَالَ: «مَنْ شَاءَ اقْتَطَعَ» [أَبُو دَاوُدَ: ١٧٦٥].

قِيلَ: نَقْبِلُهُ وَنَصَدِّقُهُ، فَإِنْ الْمِثَّةُ لَمْ تُقَرَّبْ إِلَيْهِ جُمْلَةً، وَإِنَّمَا كَانَتْ تُقَرَّبُ إِلَيْهِ أَرْسَالًا، فَقُرْبَ مِنْهُنَّ إِلَيْهِ خَمْسٌ بَدَنَاتٌ رَسَلًا، وَكَانَ ذَلِكَ الرَّسْلُ يَبَاوِزُنَ وَيَقْرَبُنَ إِلَيْهِ لِيَبْدَأَ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا تَصْنَعُونَ بِالْحَدِيثِ الَّذِي فِي «الصَّحِيحِينَ»، مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرَةَ فِي خُطْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ النَّحْرِ بِمَنْى، وَقَالَ فِي آخِرِهِ: ثُمَّ انْكَفَأَ إِلَى كَبِشَيْنَ أَمْلَحَيْنِ فَلَذَبَحَهُمَا، وَإِلَى جُرَيْمَةَ مِنَ الْغَنَمِ فَقَسَمَهَا بَيْنَنَا، لَفْظُهُ لِمُسْلِمٍ [البخاري: ١٧١٤، ومسلم: ٤٢٨٣].

فَفِي هَذَا، أَنْ ذَبَحَ الْكَبِشَيْنِ كَانَ بِمَكَّةَ، وَفِي حَدِيثِ أَنَسٍ، أَنَّهُ كَانَ بِالْمَدِينَةِ.

قِيلَ: فِي هَذَا طَرِيقَتَانِ لِلنَّاسِ.

إِحْدَاهُمَا: أَنْ الْقَوْلُ: قَوْلُ أَنَسٍ، وَأَنَّهُ ضَحَّى بِالْمَدِينَةِ بِكَبِشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ أَقْرَبَيْنِ، وَأَنَّهُ صَلَّى الْعِيدَ، ثُمَّ انْكَفَأَ إِلَى كَبِشَيْنِ، فَفَضَّلَ أَنَسٌ، وَمَيَّزَ بَيْنَ نَحْرِهِ بِمَكَّةَ لِلْبُدْنِ، وَبَيْنَ نَحْرِهِ بِالْمَدِينَةِ لِلْكَبِشَيْنِ، وَبَيَّنَّ أَنَّهُمَا قِصْتَانِ، وَبَدَلَ عَلَى هَذَا أَنْ جَمِيعٌ مِنْ ذِكْرِ نَحْرِ النَّبِيِّ ﷺ بِمَنْى، إِنَّمَا ذَكَرُوا أَنَّهُ نَحَرَ الْإِبِلَ، وَهُوَ الْهَدْيُ الَّذِي سَاقَهُ، وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ نَحْرِ الْغَنَمِ هُنَاكَ بِلَا سَوْقٍ، وَجَابِرٌ قَدْ قَالَ فِي صِفَةِ حِجَةِ الْوَدَاعِ: إِنَّهُ رَجَعَ مِنَ الرَّمْيِ، فَنَحَرَ الْبُدْنَ، وَإِنَّمَا اشْتَبَهَ عَلَى بَعْضِ الرَّوَاةِ، أَنَّ قِصَّةَ الْكَبِشَيْنِ كَانَتْ يَوْمَ عِيدٍ، فَظَنَّ أَنَّهُ بِمَنْى فَوَهِمَ.

الطَّرِيقَةُ الثَّانِيَّةُ: طَرِيقَةُ ابْنِ حَزْمٍ، وَمَنْ سَلَكَ مَسْلَكَهُ، أَنَّهُمَا عَمَلَانِ مُتَغَايِرَانِ، وَحَدِيثَانِ صَحِيحَانِ، فَذَكَرَ أَبُو بَكْرَةَ تَضْحِيَّتَهُ بِمَكَّةَ، وَأَنَسٌ

تَضْحِيَّتَهُ بِالْمَدِينَةِ. قَالَ: وَذَبَحَ يَوْمَ النَّحْرِ الْغَنَمَ، وَنَحَرَ الْقَرَّ وَالْإِبِلَ، كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ: ضَحَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ عَنْ أَزْوَاجِهِ بِالْبَقَرِ، وَهُوَ فِي «الصَّحِيحِينَ» [البخاري: ١٧٠٩، ومسلم: ٢٩١٨].

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»: ذَبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ عَائِشَةَ بَقْرَةً يَوْمَ النَّحْرِ [مُسْلِمٌ: ٣١٩١].

وَفِي «السَّنَنِ»: إِنَّهُ نَحَرَ عَنْ آلِ مُحَمَّدٍ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ بَقْرَةً وَاحِدَةً [أَبُو دَاوُدَ: ١٧٥٠، وَابْنُ مَاجَةَ: ٣١٣٥].

وَمَذْهَبُهُ: إِنْ الْحَاجُّ شَرَعَ لَهُ التَّضْحِيَةُ مَعَ الْهَدْيِ، وَالصَّحِيحُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ: الطَّرِيقَةُ الْأُولَى، وَهَدْيُ الْحَاجِّ لَهُ بِمَنْزِلَةِ الْأَضْحِيَةِ لِلْمَقِيمِ، وَلَمْ يَنْتَقِلْ أَحَدٌ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، وَلَا أَصْحَابَهُ، جَمَعُوا بَيْنَ الْهَدْيِ وَالْأَضْحِيَةِ، بَلْ كَانَ هَدْيُهُمْ هُوَ أَضْحَاهِمُ، فَهُوَ هَدْيُ بِمَنْى، وَأَضْحِيَةُ بِغَيْرِهَا.

وَأَمَّا قَوْلُ عَائِشَةَ: ضَحَّى عَنْ نِسَائِهِ بِالْبَقَرِ [البخاري: ٥٥٤٨، ومسلم: ٢٩١٨]، فَهُوَ هَدْيٌ أُطْلِقَ عَلَيْهِ اسْمُ الْأَضْحِيَةِ، وَأَنَّهُنَّ كُنَّ مُتَمَتِّعَاتٍ، وَعَلَيْهِنَّ الْهَدْيُ، فَالْبَقَرُ الَّذِي نَحَرَهُ عَنْهُنَّ هُوَ الْهَدْيُ الَّذِي يَلْزَمُهُنَّ.

وَلَكِنْ فِي قِصَّةِ نَحْرِ الْبَقَرَةِ عَنْهُنَّ وَهْنٌ تَسَعُ: إِشْكَالٌ، وَهُوَ إِجْزَاءُ الْبَقَرَةِ عَنْ أَكْثَرِ مِنْ سَبْعَةٍ.

(بَيَّانُ بَطْلَانِ قَوْلِ ابْنِ حَزْمٍ بَأَنَّهُ لَا هَدْيَ عَلَى الْقَارَنِ)

وَأَجَابَ أَبُو مُحَمَّدٍ ابْنُ حَزْمٍ عَنْهُ، بِجَوَابٍ عَلَى أَصْلِهِ، وَهُوَ أَنَّ عَائِشَةَ لَمْ تَكُنْ مَعَهُنَّ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهَا كَانَتْ قَارَنَةً وَهُنَّ مُتَمَتِّعَاتٌ، وَعِنْدَهُ لَا هَدْيَ عَلَى الْقَارَنِ، وَأَيَّدَ قَوْلَهُ بِالْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُوَافِينَ لِإِهْلَالِ ذِي الْحِجَّةِ، فَكُنْتُ فِيمَنْ أَهْلُ بِعُمْرَةَ، فَخَرَجْنَا حَتَّى قَلِمْنَا مَكَّةَ، فَأَدْرَكَنِي يَوْمٌ عَرُفَةَ وَأَنَا حَائِضٌ لَمْ أَجَلْ مِنْ عُمْرَتِي، فَشَكُوتُ ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «دَعِي عُمْرَتَكَ وَانْقَضِي رَأْسُكَ، وَامْتَنِّطِي، وَأَهْلِي بِالْحَجِّ». قَالَتْ: فَفَعَلْتُ. فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ الْحَضْبَةِ وَقَدْ قَضَى اللَّهُ حَجَّنا، أَرْسَلَ مَعِيَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي يَكْرَ، فَأَرَدَنِي، وَخَرَجَ إِلَى التَّنْعِيمِ، فَأَهْلَكْتُ بِعُمْرَةَ، فَقَضَى اللَّهُ حَجَّنا وَعُمْرَتنا، وَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ هَدْيٌ وَلَا صَدَقَةٌ وَلَا صَوْمٌ [البخاري: ٣١٧، ومسلم: ٢٩١٤].

وهذا مسلك فاسد تفرد به ابن حزم عن الناس. والذي عليه الصحابة، والتابعون، ومن بعدهم أن القارن يلزمه الهدى، كما يلزم المتمتع، بل هو متمتع حقيقة في لسان الصحابة كما تقدم، وأما هذا الحديث، فالصحيح: أن هذا الكلام الأخير من قول هشام بن عروة، جاء ذلك في «صحيح مسلم» مصرحاً به، فقال: حدثنا أبو كريب، حدثنا وكيع، حدثنا هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها... فذكرت الحديث. وفي آخره: قال عروة في ذلك: إنه قضى الله حجبها وعفرتها. قال هشام: ولم يكن في ذلك هدي، ولا صيام، ولا صدقة [مسلم: ٢٩١٦].

قال أبو محمد: إن كان وكيع جعل هذا الكلام لهشام، فابن نمير، وعبد أذلاء في كلام عائشة، وكل منهما ثقة، فوكيع نسبه إلى هشام، لأنه سمع هشاماً يقوله، وليس قول هشام إياه بدافع أن تكون عائشة قالته، فقد يروي المرء حديثاً يُسنده، ثم يُفتي به دون أن يُسنده، فليس شيء من هذا بمتدافع، وإنما يتعلل بمثل هذا من لا يُتصَف، ومن اتبع هواه، والصحيح من ذلك: أن كل ثقة فمصديق فيما نقل. فإذا أضاف عبدة وابن نمير القول إلى عائشة، صدقاً لعدالتهم. وإذا أضافه وكيع إلى هشام، صدق أيضاً لعدالته، وكل صحيح، وتكون عائشة قالته، وهشام قاله.

قلت: هذه الطريقة هي اللاتقة بظاهريته، وظاهرية أمثاله ممن لا فقه له في علل الأحاديث، كفقه الأئمة النقاد أطباء علله، وأهل العناية بها، وهؤلاء لا يلتفتون إلى قول من خالفهم ممن ليس له ذوقهم ومعرفتهم، بل يقطعون بخطئه بمنزلة الصيارف النقاد، الذين يُميزون بين الجيد والردي، ولا يلتفتون إلى خطأ من لم يعرف ذلك.

ومن المعلوم، أن عبدة وابن نمير لم يقولوا في هذا الكلام: قالت عائشة، وإنما أدرجها في الحديث إدراجاً، يحتمل أن يكون من كلامهما، أو من كلام عروة، أو من هشام، فجاء وكيع، ففصل وميز، ومن فصل وميز، فقد حفظ وأتقن ما أطلقه غيره، نعم لو قال ابن نمير وعبدة: قالت عائشة، وقال وكيع: قال

هشام، لساغ ما قال أبو محمد، وكان موضع نظر وترجيح.

وأما كونهن تسعاً وهي بقرة واحدة، فهذا قد جاء بثلاثة ألفاظ، أحدها أنها بقرة واحدة بينهن، والثاني: أنه ضحى عنهن يومئذ بالبقرة، والثالث: دخل علينا يوم النحر بلحم بقر، فقلت: ما هذا؟ فقيل: ذبح رسول الله ﷺ عن أزواجه.

وقد اختلف الناس في عدد من تُجزى عنهم البدنة والبقرة، فقيل: سبعة وهو قول الشافعي، وأحمد في المشهور عنه، وقيل: عشرة، وهو قول إسحاق. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ، قَسَمَ بينهم المغنم، فَعَدَلَ الْجَزُورَ بِعَشْرِ شِيَاءَ [البخاري: ٢٥٠٧]. وثبت هذا الحديث، أنه ﷺ ضحى عن نسائه وهن تسع ببقرة.

وقد روى سفيان، عن أبي الزبير، عن جابر، أنهم نَحَرُوا الْبَدَنَةَ فِي حُجَّتِهِمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ عَشْرَةِ وَهُوَ عَلَى شَرَطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يَخْرُجْ، وَإِنَّمَا أَخْرَجَ قَوْلَهُ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُهْلِينَ بِالْحَجِّ مَعَنَا النِّسَاءُ وَالْوِلْدَانُ، فَلَمَّا قَمِينَا مَكَّةَ، طَفْنَا بِالْبَيْتِ وَبِالضُّفَا وَالْمَرُوءِ، وَأَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَشْرِكَ فِي الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ كُلُّ سَبْعَةٍ مَنَا فِي بَدَنَةٍ [مسلم: ٣١٨٦].

وفي «المسند»: من حديث ابن عباس: كنّا مع النبي ﷺ في سفر، فحَضَرَ الْأَضْحَى، فاشتركتنا في البقرة سبعة، وفي الجَزُورِ عشرة. ورواه النسائي والترمذي، وقال: حسن غريب [حسن: أحمد: ٢٤٨٤، والترمذي: ٩٠٥، والنسائي (٢٢٢/٧)].

وفي «الصحيحين» عنه: نَحَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ، الْبَدَنَةَ عَنْ سَبْعَةٍ، وَالْبَقَرَةَ عَنْ سَبْعَةٍ [مسلم: ٣١٨٥، ولم يخرج البخاري].

وقال حذيفة: شَرَكْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي حَجَّتِهِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، فِي الْبَقَرَةِ عَنْ سَبْعَةٍ. ذكره الإمام أحمد رحمه الله [أحمد: ٢٣٤٥٣، وهو قوي بغيره].

وهذه الأحاديث، تُخَرِّجُ عَلَى أَحَدٍ وَجْهَ ثَلَاثَةٍ، إِمَّا أَنْ يُقَالَ: أَحَادِيثُ السَّبْعَةِ أَكْثَرُ وَأَصَحُّ، وَإِمَّا أَنْ يُقَالَ: عَدَلَ الْبَعِيرَ بِعَشْرَةٍ مِنَ الْغَنَمِ، تَقْوِيمٌ فِي الْغَنَائِمِ لِأَجْلِ تَعْدِيلِ الْقِسْمَةِ، وَأَمَّا كَوْنُهُ عَنْ سَبْعَةٍ فِي الْهَدَايَا، فَهُوَ تَقْدِيرٌ شَرْعِي، وَإِمَّا أَنْ يُقَالَ: إِنْ ذَلِكَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَزْمَةِ. وَالْأَمْكِنَةُ، وَالْإِبِلُ، فَهِيَ

بعضها كان البعير يُغْدِلُ عشر شياه، فجعله عن عشرة، وفي بعضها يُغْدِلُ سبعة، فجعله عن سبعة، والله أعلم.

وقد قال أبو محمد: إنه ذبح عن نسائه بقرة للهدى، وضحى عنهن ببقرة، وضحى عن نفسه بكبشين، ونحر عن نفسه ثلاثاً وستين هذياً، وقد عرفت ما في ذلك من الوهم، ولم تكن بقرة الضحية غير بقرة الهدى، بل هي هي، وهدي الحاج بمنزلة ضحية الآفاقي.

فصل

(منى كلها منحر ومنى مناخ لمن سبق إليه)

ونحر رسول الله ﷺ بِمَنْحَرِهِ بِمَنَى، وأعلمهم: أن منى كُلُّهَا مَنْحَرٌ، وَأَنْ فِجَاجَ مَكَّةَ طَرِيقٌ وَمَنْحَرٌ [مسلم: ٢٩٥٢]. وفي هذا دليل على أن النحر لا يختص بمنى، بل حيث نحر من فجاج مكة أجزأه، كما أنه لما وقف بعرفة قال: «وَقَفْتُ مَا هُنَا وَعَرَفْتُ كُلُّهَا مَوْقِفٌ»، ووقفت بمزدلفة، وقال: «وَقَفْتُ هَاهُنَا وَمُزْدَلِفَةُ كُلُّهَا مَوْقِفٌ» [مسلم: ٢٩٥٢] وسئل ﷺ أن يُبَيِّنَ لَهُ بِمَنَى بِنَاءَ يُظِلُّهُ مِنَ الْحَرِّ، فقال: «لَا، مِنَى مُنَاقِحٌ لِمَنْ سَبَقَ إِلَيْهِ» [سنن أبي داود: ٢٠١٩، وابن ماجه: ٣٠٠٦]. وفي هذا دليل على اشتراك المسلمين فيها، وأن من سبق إلى مكان منها، فهو أحق به حتى يرتحل عنه، ولا يَمْلِكُهُ بِذَلِكَ.

فصل

(الحلق والتقصير)

فلما أكمل رسول الله ﷺ نحره، استدعى بالحلاق، فحلق رأسه، فَقَالَ لِلْحَلَّاقِ - وهو مَعْمَرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وهو قائم على رأسه بالموسى ونظر في وجهه - وَقَالَ: يَا مَعْمَرُ! أَمْكَنْكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ شَحْمَةِ أُذُنِهِ وفي يَدِكَ الْمَوْسَى، فقال معمر: أَمَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيَّ وَمَنِّهِ. قال: «أَجَلْ إِذَا أَقْرَأْتَ لَكَ»، ذكر ذلك الإمام أحمد رحمه الله [أحمد: ٢٧٢٤٩، ورجالته ثقات إلا عبد الرحمن].

وقال البخاري في «صحيحه»: وزعموا أن الذي حلق للنبي ﷺ معمر بن عبد الله بن نضلة بن عوف انتهى، فقال للحلاق: خُذْ، وَأَشَارَ إِلَى جَانِبِهِ

الْأَيْمَنِ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُ، قَسَمَ شَعْرَهُ بَيْنَ مَنْ يَلِيهِ، ثُمَّ أَشَارَ إِلَى الْحَلَّاقِ، فَحَلَقَ جَانِبَهُ الْأَيْسَرَ، ثُمَّ قَالَ: هَاهُنَا أَبُو طَلْحَةَ؟ فدفعه إليه هكذا وقع في «صحيح مسلم» [٣١٥٢].

وفي «صحيح البخاري»: عن ابن سيرين، عن أنس أن رسول الله ﷺ، لما حلق رأسه، كان أبو طلحة أول من أخذ من شعره [البخاري: ١٧١] وهذا لا يُنَاقِضُ رِوَايَةَ مُسْلِمٍ، لِجَوَازِ أَنْ يُصِيبَ أَبَا طَلْحَةَ مِنَ الشَّقِّ الْأَيْمَنِ، مِثْلُ مَا أَصَابَ غَيْرَهُ، وَيَخْتَصُّ بِالشَّقِّ الْأَيْسَرِ، لَكِنْ قَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صحيحه» أَيْضاً مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ، قَالَ: لَمَّا رَمَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْجِمْرَةَ وَنَحَرَ نُسْكَهُ، وَحَلَقَ، نَاولَ الْحَلَّاقُ شِقَّهُ الْأَيْمَنَ فَحَلَقَهُ، ثُمَّ دَعَا أَبَا طَلْحَةَ الْأَنْصَارِيَّ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، ثُمَّ نَاولَهُ الشَّقَّ الْأَيْسَرَ، فَقَالَ: «اخْلُقْ». فَحَلَقَهُ، فَأَعْطَاهُ أَبَا طَلْحَةَ، فَقَالَ: «أَقْسِمُ بِبَيْنِ النَّاسِ» [مسلم: ٣١٥٣]. ففي هذه الرواية، كما ترى أن نصيب أبي طلحة كان الشَّقُّ الْأَيْمَنِ، وفي الأولى: إنه كان الأيسر. قال الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي، رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ رِوَايَةِ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ، وَعَبْدُ الْأَعْلَى بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى، عَنْ هِشَامِ بْنِ حَسَّانٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، دَفَعَ إِلَى أَبِي طَلْحَةَ شَعْرَ شِقِّهِ الْأَيْسَرِ، وَرَوَاهُ مِنْ رِوَايَةِ سَفْيَانَ بْنِ عَيْنَةَ، عَنْ هِشَامِ بْنِ حَسَّانٍ، أَنَّهُ دَفَعَ إِلَى أَبِي طَلْحَةَ شَعْرَ شِقِّهِ الْأَيْمَنِ. قال: ورواية ابن عون، عن ابن سيرين أراها تقوي رواية سفيان والله أعلم.

قلت: يريد برواية ابن عون، ما ذكرناه عن ابن سيرين، من طريق البخاري، وجعل الذي سبق إليه أبو طلحة، هو الشَّقُّ الذي اختص به. والله أعلم.

والذي يَقْوَى أَنْ نَصِيبَ أَبِي طَلْحَةَ الَّذِي اخْتَصَّ بِهِ كَانَ الشَّقُّ الْأَيْسَرَ، وَأَنَّهُ ﷺ عَمَّ، ثُمَّ خَصَّ، وَهَذِهِ كَانَتْ سُنَّتُهُ فِي عَطَائِهِ، وَعَلَى هَذَا أَكْثَرُ الرِّوَايَاتِ، فَإِنْ فِي بَعْضِهَا أَنَّهُ قَالَ لِلْحَلَّاقِ: «خُذْ» وَأَشَارَ إِلَى جَانِبِهِ الْأَيْمَنِ، فَقَسَمَ شَعْرَهُ بَيْنَ مَنْ يَلِيهِ، ثُمَّ أَشَارَ إِلَى الْحَلَّاقِ إِلَى الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ، فَحَلَقَهُ فَأَعْطَاهُ أُمَّ سُلَيْمٍ، وَلَا يُعَارِضُ هَذَا دَفْعُهُ إِلَى أَبِي طَلْحَةَ، فَإِنَّهَا امْرَأَتُهُ. وفي لفظ آخر: فبدأ بالشَّقِّ الْأَيْمَنِ، فَوَزَعَهُ الشَّعْرَةَ وَالشَّعْرَتَيْنِ بَيْنَ النَّاسِ، ثُمَّ قَالَ: بِالْأَيْسَرِ، فَصَنَعَ بِهِ

مثل ذلك، ثم قال: ها هنا أبو طلحة؟ فدفعه إليه.

وفي لفظ ثالث: دفع إلى أبي طلحة شَعْرَ شِقِّ رَأْسِهِ الأيسر، ثم قَلَمَ أظفاره وقسمها بين الناس. وذكر الإمام أحمد رحمه الله، من حديث محمد بن عبد الله بن زيد، أن أباه حدثه، أنه شَهِدَ النَّبِيَّ ﷺ عند المنحر، ورجُلٌ من قريش وهو يَقْسِمُ أَصَابِحِي، فلم يُصِبْهُ شَيْءٌ ولا صاحبه، فحلق رسولُ الله ﷺ رأسه في ثوبه، فأعطاه، فقسم منه على رجالٍ، وقَلَمَ أظفاره فأعطاه صاحبه، قال: فَإِنَّهُ عِنْدَنَا مَخْضُوبٌ بِالْجَنَاءِ وَالكَتَمِ يعني شعره [أحمد: ١٦٧٤]، ورجاله ثقات.]

ودعا للمَحْلَقِينَ بِالْمَغْفِرَةِ ثَلَاثًا، وَلِلْمُقَصِّرِينَ مَرَّةً، وحلق كثيرٌ من الصحابة، بل أكثرهم، وقَصَّر بعضهم، وهذا مع قوله تعالى: ﴿لَتَلَحُزَنَّ السَّجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَائِمَتٌ حَرِيمَتٌ زُؤُسَكُمُ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] ومع قول عائشة رضي الله عنها، طيَّبْتُ رسولَ الله ﷺ لإحرامه قبل أن يُحْرِمَ، وإِحْلَالَهُ قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ، دليل على أن الحلق نُسْكٌ وليس بإطلاق من محظور.

فصل

(ترجيح المصنف بانه ﷺ لم يطوف

غير طواف الإفاضة بعد إفاضته إلى مكة)

ثم أفاض ﷺ إلى مكة قبل الظهر راكباً، فطاف طواف الإفاضة، وهو طواف الزيارة، وهو طواف الصُّدْر، ولم يَطُفْ غَيْرَهُ، ولم يسع معه، هذا هو الصواب، وقد خالف في ذلك ثلاث طواف: طائفة زعمت أنه طاف طوافين، طوافاً للقدوم سوى طواف الإفاضة، ثم طاف للإفاضة، وطائفة زعمت أنه سعى مع هذا الطواف لكونه كان قارناً، وطائفة زعمت أنه لم يَطُفْ في ذلك اليوم، وإنما أحر طواف الزيارة إلى الليل، فنذكرُ الصَّوَابَ في ذلك، ونبين منشأ الغلط وبالله التوفيق.

قال الأثرم: قلت لأبي عبد الله: فإذا رَجَعَ أعني المتمتع، كم يطوف ويسعى؟ قال: يطوف ويسعى لحجه، ويطوف طوافاً آخر للزيارة، عاودناه في هذا غير مرة، فثبت عليه.

قال الشيخ أبو محمد المقدسي في «المغني»: وكذلك الحكم في القارن والمفرد إذا لم يكونا أتيا مكة قبل يوم النحر، ولا طافا للقدوم، فإنهما يبدآن بطواف القدوم قبل طواف الزيارة، نص عليه أحمد رحمه الله، واحتج بما روت عائشة رضي الله عنها، قالت: «طاف الذين أهلوا بالعمرة بالبيت، وبين الصفا والمروة، ثم حلوا، ثم طافوا طوافاً آخر بعد أن رجعوا من منى لحجهم، وأما الذين جَمَعُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ، فإنما طافوا طوافاً واحداً، فحمل أحمد رحمه الله قول عائشة، على أن طوافهم لحجهم هو طواف القدوم، قال: ولأنه قد ثبت أن طواف القدوم مشروع، فلم يكن طواف الزيارة مسقطاً له، كتحية المسجد عند دخوله قبل التلبس بالصلاة المفروضة.

وقال الخرقى في «مختصره»: وإن كان متمتعاً، فيطوف بالبيت سباً وبالصفا والمروة سباً كما فعل للعمرة، ثم يعود فيطوف بالبيت طوافاً ينوي به الزيارة، وهو قوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ [الحج: ٢٩] فمن قال: إن النبي ﷺ كان متمتعاً كالقاضي وأصحابه عندهم، هكذا فعل، والشيخ أبو محمد عنده، أنه كان متمتعاً التمتع الخاص، ولكن لم يفعل هذا، قال: ولا أعلم أحداً وافق أباه عبد الله على هذا الطواف الذي ذكره الخرقى، بل المشروع طواف واحد للزيارة، كمن دخل المسجد وقد أقيمت الصلاة، فإنه يكفى بها عن تحية المسجد، ولأنه لم يُنْقَلْ عن النبي ﷺ ولا أصحابه الذين تمتعوا معه في حجة الوداع، ولا أمر النبي ﷺ به أحداً، قال: وحديث عائشة: دليل على هذا، فإنها قالت: «طافوا طوافاً واحداً بعد أن رجعوا من منى لحجهم» وهذا هو طواف الزيارة، ولم تذكر طوافاً آخر. ولو كان هذا الذي ذكرته طواف القدوم، لكانت قد أخذت بذكر طواف الزيارة الذي هو ركز الحج الذي لا يتم إلّا به، وذكرت ما يستغنى عنه، وعلى كل حال، فما ذكرت إلّا طوافاً واحداً، فمن أين يُستدل به على طوافين؟

وأيضاً، فإنها لما حاضت، فقرنت الحج إلى العمرة بأمر النبي ﷺ، ولم تكن طافت للقدوم، لم تطف للقدوم، ولا أمرها به النبي ﷺ، ولأن طواف

القدوم لو لم يسقط بالطواف الواجب، لَشَرَعَ في حقّ المعتمر طوافُ القدوم مع طواف العمرة، لأنه أوّل قدومه إلى البيت، فهو به أولى من المتمتع الذي يَعُودُ إلى البيت بعد رؤيته وطوافه به. انتهى كلامه.

قلت: لم يرفع كلامُ أبي محمد الإشكال، وإن كان الذي أنكره هو الحق كما أنكره، والصواب في إنكاره، فإن أحداً لم يقل: إن الصحابة لما رجعوا من عرفة، طافوا للقدوم وسَعَوْا، ثم طافوا للإفاضة بعده، ولا النبي ﷺ، هذا لم يقع قطعاً، ولكن كان منشأ الإشكال، أن أم المؤمنين فرقت بين المتمتع والقارن، فأخبرت أن القارين طافوا بعد أن رجعوا من منى طوافاً واحداً، وأن الذين أهلوا بالعمرة طافوا طوافاً آخر بعد أن رجعوا من منى لحجهم، وهذا غير طواف الزيارة قطعاً، فإنه يشترك فيه القارن والمتمتع، فلا فرق بينهما فيه، ولكنَّ الشيخ أبا محمد، لما رأى قولها في المتمتعين: إنهم طافوا طوافاً آخر بعد أن رجعوا من منى، قال: ليس في هذا ما يدل على أنهم طافوا طوافين، والذي قاله حق، ولكن لم يرفع الإشكال، فقالت طائفة: هذه الزيادة من كلام عروة أو ابنه هشام، أدرجت في الحديث، وهذا لا يتبين، ولو كان، فغايتة أنه مرسل ولم يرتفع الإشكال عنه بالإرسال. فالصواب: أن الطواف الذي أخبرت به عائشة، وفرقت به بين المتمتع والقارن، هو الطواف بين الصفا والمروة، لا الطواف بالبيت، وزال الإشكال جملة، فأخبرت عن القارين أنهم اكتفوا بطواف واحد بينهما، لم يُضيفوا إليه طوافاً آخر يوم النحر، وهذا هو الحق، وأخبرت عن المتمتعين، أنهم طافوا بينهما طوافاً آخر بعد الرجوع من منى للحج، وذلك الأول كان للعمرة، وهذا قول الجمهور، وتزِيل الحديث على هذا، موافق لحديثها الآخر، وهو قول النبي ﷺ: «يَسْعُكَ طَوَافُكَ بِالْبَيْتِ وَبَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ لِحَجَّتِكَ وَعُمْرَتِكَ»، وكانت قارئة، يوافق قول الجمهور.

ولكن يُشْكِلُ عليه حديث جابر الذي رواه مسلم في

«صحيحه»: لم يطف النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا أصحابه بين الصفا والمروة إلا طوافاً واحداً، طوافه الأول. هذا يوافق قول من يقول: يكفي المتمتع سعي واحد كما هو إحدى الروايتين عن أحمد رحمه الله، نص عليها في رواية ابنه عبد الله وغيره، وعلى هذا، فيقال: عائشة أثبتت، وجابر نفى، والمثبت مُقَدِّم على النافي. أو يقال: مراد جابر، من قرن مع النبي ﷺ وساق الهدى، كأبي بكر وعمر وطلحة وعلي رضي الله عنهم، وذوي اليسار، فإنهم إنما سَعَوْا سعيّاً واحداً. وليس المراد به عموم الصحابة، أو يعلل حديث عائشة، بأن تلك الزيادة فيه مدرجة من قول هشام^(١) وهذه ثلاث طرق للناس في حديثها والله أعلم.

(رد القول بالطواف والسعي)

للقدوم بعد إحرام المتمتع بالحج من مكة

وأما من قال: المتمتع يطوف ويسعى للقدوم بعد إحرامه بالحج قبل خروجه إلى منى، وهو قول أصحاب الشافعي، ولا أدري أهو منصوص عنه أم لا؟ قال أبو محمد: فهذا لم يفعله النبي ﷺ، ولا أحد من الصحابة البتة، ولا أمرهم به، ولا نقله أحد، قال ابن عباس: لا أرى لأهل مكة أن يطوفوا، ولا أن يَسْعَوْا بين الصفا والمروة بعد إحرامهم بالحج حتى يَرْجِعُوا من منى. وعلى قول ابن عباس: قول الجمهور، ومالك، وأحمد، وأبي حنيفة وإسحاق، وغيرهم.

والذين استحبُّوه، قالوا: لما أحرَم بالحج، صار كالقادم، فيطوف ويسعى للقدوم. قالوا: ولأن الطواف الأول وقع عن العمرة، فيبقى طواف القدوم، ولم يأت به، فاستحبَّ له فَعَلَهُ عَقِيبَ الإحرام بالحج، وهاتان الحُجَّتَانِ وإهتاتن، فإنه إنما كان قارئاً لما طاف للعمرة، فكان طوافه للعمرة مغنياً عن طواف القدوم، كمن دخل المسجد، فرأى الصلاة قائمة، فدخل فيها، فقامت مقام تحية المسجد، وأغته عنها.

(١) ليس في طريق الحديث هشام، لأنه من رواية مالك عن ابن شهاب، عن عروة بن الزبير عنها، أخرجه مالك في «الموطأ»

(١/٤١٠ و ٤١١) وهذا إسناد في غاية الصحة.

وجابرٌ يقول: إنه صَلَّى الظهر بمكة، وهو ظاهر حديث عائشة من غير رواية أبي الزبير هذه التي فيها أنه آخَر الطواف إلى الليل، وهذا شيء لم يُرو إلا من هذا الطريق، وأبو الزبير مدلس لم يذكرها هنا سماعاً من عائشة، وقد عهد أنه يروي عنها بواسطة، ولا عن ابن عباس أيضاً، فقد عَهِدَ كذلك أنه يروي عنه بواسطة، وإن كان قد سمع منه، فيجب التوقُّف فيما يرويه أبو الزبير عن عائشة وابن عباس مما لا يَذْكُرُ فيه سماعه منهما، لِمَا عُرِفَ به من التدليس، لو عُرِفَ سماعه منها لِغير هذا، فأما ولم يَصِحَّ لنا أنه سمع من عائشة، فالأمر بين في وجوب التوقف فيه، وإنما يختلف العلماء في قبول حديث المدلس إذا كان ممن قد علم لِقَاؤه له وسماعه منه ها هنا. يقول قوم: يُقبل، ويقول آخرون: يُرد ما يُعْنِيهِ عنهم حتى يتبين الاتصال في حديث حديث، وأما ما يُعْنِيهِ المدلس، ممن لم يعلم لِقَاؤه له ولا سماعه منه، فلا أعلم الخلاف فيه بأنه لا يُقبل. ولو كنا نقول بقول مسلم: بأن مُعْتَمِنَ المتعاصرين محمولٌ على الاتصال ولو لم يُعلم التاوهما، فإنما ذلك في غير المدلسين. وأيضاً فلما قدمناه من صحة طواف النبي ﷺ يومئذ نهاراً. والخلاف في رد حديث المدلسين حتى يعلم اتصاله، أو قبوله حتى يعلم انقطاعه، إنما هو إذا لم يُعارضه ما لا شك في صحته، وهذا قد عارضه ما لا شك في صحته. انتهى كلامه.

ويدل على غلط أبي الزبير على عائشة، أن أباسلمة بن عبد الرحمن روى عن عائشة، أنها قالت: حَجَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَقْضَيْنَا يَوْمَ النَّحْرِ [اليهقي (١٤٤/٥)]. وروى محمد بن إسحاق، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عنها، أن النبي ﷺ، أذن لأصحابه فزاروا البيت يوم النحر ظهيرة، وزار رسول الله ﷺ مع نسائه ليلاً [اليهقي (١٤٤/٥)]، وهذا غلط أيضاً.

قال اليهقي: وأصح هذه الروايات حديث نافع عن ابن عمر، وحديث جابر، وحديث أبي سلمة عن عائشة، يعني: أنه طاف نهاراً.

قلت: إنما نشأ الغلط من تسمية الطواف، فإن النبي ﷺ آخَر طوافَ الْوَدَاعِ إلى الليل، كما ثبت في

وأيضاً فإن الصحابة لما أحرموا بالحج مع النبي ﷺ، لم يطوفوا عقيبه، وكان أكثرهم متمتعاً. وروى محمد بن الحسن، عن أبي حنيفة، أنه إن أحرم يوم التروية قبل الزوال، طاف وسعى للقدوم، وإن أحرم بعد الزوال، لم يَطْفُ، وفَرَّقَ بين الوقتين، بأنه بعد الزوال يخرج من فوره إلى منى، فلا يشتغل عن الخروج بغيره، وقبل الزوال لا يخرج فيطوف. وقول ابن عباس والجمهور هو الصحيح الموافق لعمل الصحابة، وبالله التوفيق.

فصل

(الرد على من قال: إن القارن يحتاج إلى سبعين)

والطائفة الثانية قالت: إنه ﷺ سَعَى مع هذا الطواف وقالوا: هذا حُجَّة في أن القارن يحتاج إلى سبعين، كما يحتاج إلى طوافين، وهذا غلط عليه كما تقدم، والصواب: أنه لم يَسْعَ إِلَّا سَعْيَهُ الْأَوَّلَ، كما قالته عائشة، وجابر، ولم يَصِحَّ عنه في السبعين حرف واحد، بل كلها باطلة كما تقدم، فعليك بمراجعتي.

فصل

والطائفة الثالثة: الذين قالوا: آخَر طواف الزيارة إلى الليل، وهم طائوس، ومجاهد، وعروة، ففي «سنن أبي داود»، والنسائي، وابن ماجه، من حديث أبي الزبير المكي، عن عائشة وابن عباس: أن النبي ﷺ آخَر طوافه يوم النحر إلى الليل. وفي لفظ: طواف الزيارة، قال الترمذي: حديث حسن [احمد: ٢٦١٢، وأبو داود: ٢٠٠٠، والترمذي: ٩٢٠، وابن ماجه: ٣٠٥٩، ورجاله ثقات].

وهذا الحديث غلطٌ بين خلاف المعلوم من فعله ﷺ الذي لا يَشْكُ فيه أهل العلم بحجته ﷺ، فنحن نذكر كلام الناس فيه، قال الترمذي في كتاب «العلل» له: سألت محمد بن إسماعيل البخاري عن هذا الحديث، وقلت له: أسمع أبو الزبير من عائشة وابن عباس؟ قال: أما من ابن عباس، فنعم، وفي سماعه من عائشة نظر. وقال أبو الحسن القطان: عندي أن هذا الحديث ليس بصحيح، إنما طاف النبي ﷺ يومئذ نهاراً، وإنما اختلفوا بها بعد أن فرغ من طوافه؟ إلى منى، فصلى الظهر بها بعد أن فرغ من طوافه؟ فابن عمر يقول: إنه رجع إلى منى، فصلى الظهر بها،

«الصحيحين» من حديث عائشة. قالت: خرجنا مع النبي ﷺ... فذكرت الحديث، إلى أن قالت: فَتَرَكْنَا الْمُحْصَبَ، فدعا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، فقال: أَخْرِجْ بِأَخِيكَ مِنَ الْحَرَمِ، ثُمَّ أَفْرُغَا مِنْ طَوَافِكُمَا، ثُمَّ اتَّيَانِي هَا هُنَا بِالْمُحْصَبِ. قالت: فَفَضَى اللَّهُ الْعُمَرَةَ، وَفَرَّغْنَا مِنْ طَوَافِنَا فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، فَاتَيْنَاهُ بِالْمُحْصَبِ، فقال: «فَرَّغْتُمَا؟» قلنا: نعم. فَأَذَّنَ فِي النَّاسِ بِالرَّحِيلِ، فَمَرَّ بِالْبَيْتِ، فَطَافَ بِهِ، ثُمَّ ارْتَحَلَ مُتَوَجِّهًا إِلَى الْمَدِينَةِ [البخاري: ١٥٦٠، ومسلم: ٢٩٢٢].

فهذا هو الطواف الذي أخرجه إلى الليل بلا ريب، فغلط فيه أبو الزبير، أو مَنْ حَدَّثَهُ بِهِ، وقال: طواف الزيارة، والله الموفق.

ولم يَرْمُلْ ﷺ في هذا الطواف، ولا في طَوَافِ الْوَدَاعِ [ابوداود: ٢٠٠١، وابن ماجه: ٣٠٦]، وإنما رَمَلَ فِي طَوَافِ الْقُدُومِ.

فصل

(تعليق شربه ﷺ قائماً)

ثُمَّ أَتَى زَمَزَمَ بَعْدَ أَنْ قَضَى طَوَافَهُ وَهُمْ يَسْقُونَ، فقال: «لَوْلَا أَنْ يَغْلِبَكُمْ النَّاسُ، لَنَزَلْتُ فَسَقَيْتُ مَعَكُمْ»، ثُمَّ نَاولُوهُ الدَّلْوَ، فَشَرِبَ وَهُوَ قَائِمٌ [مسلم: ٢٩٥٣]. فقيل: هذا نسخٌ لِنَهْيِهِ عَنِ الشَّرْبِ قَائِمًا، وقيل: بل بيان منه أن النهي على وجه الاختيار وترك الأولى، وقيل: بل للحاجة، وهذا أظهر.

(طواف ﷺ الإفاضة على راحلته)

وهل كان في طوافه هذا راكباً أو ماشياً؟ فروى مسلم في «صحيحه»، عن جابر قال: طَافَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْبَيْتِ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ عَلَى رَاحِلَتِهِ يَسْتَلِمُ الرُّكْنَ بِمُخْجَنِهِ لِأَن يَرَاهُ النَّاسُ وَلِيُشْرِفَ، وَلِيَسْأَلُوهُ، فَإِنَّ النَّاسَ عَشَوُهُ [مسلم: ٣٠٧٤].

وفي «الصحيحين»، عن ابن عباس قال: طَافَ النَّبِيُّ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، عَلَى بَعِيرٍ يَسْتَلِمُ الرُّكْنَ بِمُخْجَنِهِ^(١) [البخاري: ١٧٦٠، ومسلم: ٣٠٧٢].

وهذا الطواف، ليس بطواف الوداع، فإنه كان

ليلاً، وليس بطواف القدوم لوجهين.

أحدهما: أنه قد صَحَّ عَنْهُ الرَّمْلُ فِي طَوَافِ الْقُدُومِ، وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ قَطُّ: رَمَلْتُ بِهِ رَاحِلَتَهُ، وَإِنَّمَا قَالُوا: رَمَلَ نَفْسُهُ [مسلم: ٣٠٥١].

والثاني: قول الشريد بن سويد: أَفَضْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَا مَسَّتْ قَدَمَاهُ الْأَرْضَ حَتَّى أَتَى جَمْعًا [صحيح: أحمد: ١٩٤٧١].

وهذا ظاهره، أنه من حين أفاض معه، مَا مَسَّتْ قَدَمَاهُ الْأَرْضَ إِلَى أَنْ رَجَعَ، وَلَا يَتَقَضُّ هَذَا بَرَكْعَتِي الطَّوَّافِ، فَإِنْ شَأْنُهُمَا مَعْلُومٌ.

قلت: والظاهر: أن الشريد بن سويد، إِنَّمَا أَرَادَ الْإِفَاضَةَ مَعَهُ مِنْ عَرَفَةَ، وَلِهَذَا قَالَ: حَتَّى أَتَى جَمْعًا وَهِيَ مَزْدَلِفَةُ، وَلَمْ يُرِدْ الْإِفَاضَةَ إِلَى الْبَيْتِ يَوْمَ النَّحْرِ، وَلَا يَتَقَضُّ هَذَا بَزْوَلُهُ عِنْدَ الشَّعْبِ حِينَ بَالٍ، ثُمَّ رَكِبَ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِزَوَّلٍ مُسْتَقَرٍّ، وَإِنَّمَا مَسَّتْ قَدَمَاهُ الْأَرْضَ مَسًّا عَارِضًا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فصل

(ابن صلى ﷺ الظهر حين رجوعه إلى منى)

ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَنْى، وَاخْتَلَفَ آيُنَ صَلَّى الظَّهْرَ يَوْمَئِذٍ، فِي «الصحيحين»: عَنْ ابْنِ عُمرَ: أَنَّهُ ﷺ أَفَاضَ يَوْمَ النَّحْرِ، ثُمَّ رَجَعَ، فَصَلَّى الظَّهْرَ بِمَنْى [مسلم: ٣١٦٥، وليس في البخاري].

وفي «صحيح مسلم»: عَنْ جَابِرٍ، أَنَّهُ ﷺ، صَلَّى الظُّهْرَ بِمَنْى وَكَذَلِكَ قَالَتْ عَائِشَةُ.

وَاخْتَلَفَ فِي تَرْجِيحِ أَحَدِ هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ عَلَى الْآخَرِ، فَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ ابْنُ حَزْمٍ: قَوْلُ عَائِشَةَ وَجَابِرٍ أَوْلَى وَتَبِعَهُ عَلَى هَذَا جَمَاعَةٌ، وَرَجَّحُوا هَذَا الْقَوْلَ بِوَجْهِهِ.

أحدهما: أَنَّهُ رَوَايَةُ اثْنَيْنِ، وَهُمَا أَوْلَى مِنَ الْوَاحِدِ.

الثاني: أَنَّ عَائِشَةَ أَحْصَى النَّاسَ بِهِ ﷺ، وَلَهَا مِنَ الْقُرْبِ وَالِاخْتِصَاصِ بِهِ وَالْمَزِيَّةِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهَا.

الثالث: أَنَّ سِيَاقَ جَابِرٍ لِحِجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، أَتَمُّ سِيَاقٍ، وَقَدْ حَفِظَ الْقِصَّةَ وَضَبَطَهَا، حَتَّى ضَبَطَ جَزْئِيَّاتِهَا. حَتَّى ضَبَطَ مِنْهَا أَمْرًا لَا يَتَعَلَّقُ

(١) والمحجن: عصا معوجة الرأس يتناول بها الراكب ما سقط له، ويحول بطرفها بعيره.

بالمناسك، وهو نزول النبي ﷺ لَيْلَةً جَمَعَ فِي الطَّرِيقِ، فَقَضَى حَاجَتَهُ عِنْدَ الشَّعْبِ، ثُمَّ تَوَضَّأَ وَصَوَّأَ خَفِيفًا، فَمِنْ ضَبَطَ هَذَا الْقَدْرَ، فَهُوَ يَضْبُطُ مَكَانَ صَلَاتِهِ يَوْمَ النُّحْرِ أَوَّلَى.

الرابع: أن حجة الوداع كانت في آذار، وهو تساوي الليل والنهار، وقد دفع من مزدلفة قبل طلوع الشمس إلى منى، وخطب بها الناس، ونحر بُذْنَا عَظِيمَةً، وَقَسَمَهَا، وَطَبَّخَ مِنْ لَحْمِهَا، وَأَكَلَ مِنْهُ، وَرَمَى الْجِمْرَةَ، وَحَلَّقَ رَأْسَهُ، وَتَطَيَّبَ، ثُمَّ أَفَاضَ، فَطَافَ وَشَرَبَ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، وَمِنْ نَبِيذِ السَّقَايَةِ، وَوَقَفَ عَلَيْهِمْ وَهُمْ يَسْقُونَ، وَهَذِهِ أَعْمَالُ تَبْدُو فِي الْأَظْهَرِ أَنَّهَا لَا تَنْقُضِي فِي مَقْدَارٍ يُمَكِّنُ مَعَهُ الرَّجُوعَ إِلَى مَنَى، بِحَيْثُ يُدْرِكُ وَقْتُ الظُّهْرِ فِي فَصْلِ آذَار.

الخامس: أن هذين الحديثين، جاريان مجرى الناقِلِ والمبقي، فقد كانت عادته ﷺ في حَجَّتِهِ الصَّلَاةُ فِي مَنْزِلِهِ الَّذِي هُوَ نَازِلٌ فِيهِ بِالْمُسْلِمِينَ، فَجَرَى ابْنُ عُمَرَ عَلَى الْعَادَةِ، وَضَبَطَ جَابِرٌ، وَعَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الْأَمْرَ الَّذِي هُوَ خَارِجٌ عَنْ عَادَتِهِ، فَهُوَ أَوَّلَى بِأَنْ يَكُونَ هُوَ الْمُحْفَظُ.

ورجحت طائفة أخرى قول ابن عمر، لوجوه.

أحدها: أنه لو صَلَّى الظُّهْرُ بِمَكَّةَ، لَمْ تُصَلِّ الصَّحَابَةُ بِمَنَى وَحِدَانًا وَزَرَافَاتٍ، بَلْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بُدٌّ مِنَ الصَّلَاةِ خَلْفَ إِمَامٍ يَكُونُ نَائِبًا عَنْهُ، وَلَمْ يَنْقُلْ هَذَا أَحَدٌ قَطُّ، وَلَا يَقُولُ أَحَدٌ: إِنَّهُ اسْتَتَابَ مِنْ يُصَلِّي بِهِمْ، وَلَوْلَا عِلْمُهُ أَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ فَيُصَلِّي بِهِمْ. لَقَالَ: إِنْ حَضَرَتِ الصَّلَاةُ وَلَسْتُ عِنْدَكُمْ، فَلْيُصَلِّ بِكُمْ فَلَان، وَحَيْثُ لَمْ يَقَعْ هَذَا وَلَا هَذَا، وَلَا صَلَّى الصَّحَابَةُ هُنَاكَ وَحِدَانًا قَطْعًا، وَلَا كَانَ مِنْ عَادَتِهِمْ إِذَا اجْتَمَعُوا أَنْ يُصَلُّوا جَزِينَ، عَلِمَ أَنَّهُمْ صَلُّوا مَعَهُ عَلَى عَادَتِهِمْ.

الثاني: أنه لو صَلَّى بِمَكَّةَ، لَكَانَ خَلْفُهُ بَعْضُ أَهْلِ الْبَلَدِ وَهُمْ مُقِيمُونَ، وَكَانَ يَأْمُرُهُمْ أَنْ يُتِمُّوا صَلَاتَهُمْ، وَلَمْ يَنْقُلْ أَنَّهُمْ قَامُوا فَأَتَمُّوا بَعْدَ سَلَامِهِ صَلَاتَهُمْ، وَحَيْثُ لَمْ يَنْقُلْ هَذَا وَلَا هَذَا، بَلْ هُوَ مَعْلُومُ الْإِنْتِزَاءِ قَطْعًا، عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يُصَلِّ حِينَئِذٍ بِمَكَّةَ. وَمَا يَنْقُلُهُ بَعْضُ مَنْ لَا عِلْمَ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: «يَا أَهْلَ مَكَّةَ أَتَيْتُمَا صَلَاتَكُمْ فَإِنَّا قَوْمٌ سَفَرٌ»، فَإِنَّمَا قَالَه عَامَّ الْفَتْحِ، لَا فِي حَجَّتِهِ.

الثالث: أنه من المعلوم، أنه لما طاف، ركع ركعتي الطواف، ومعلوم أن كثيرًا من المسلمين كانوا خلفه يقتدون به في أفعاله ومناسكه، فلعله لما ركع ركعتي الطواف، والناس خلفه يقتدون به، طن الظان أنها صلاة الظهر، ولا سيما إذا كان ذلك في وقت الظهر، وهذا الوهم لا يمكن رفع احتمال، بخلاف صلاته بينى، فإنها لا تحتيل غير الفرض.

الرابع: أنه لا يُحْفَظُ عَنْهُ فِي حُجَّةٍ أَنَّهُ صَلَّى الْفَرَضَ بِجُوفِ مَكَّةَ، بَلْ إِنَّمَا كَانَ يُصَلِّي بِمَنْزِلِهِ بِالْأَبْطَحِ بِالْمُسْلِمِينَ مُدَّةَ مَقَامِهِ كَانَ يُصَلِّي بِهِمْ أَيْنَ نَزَلُوا لَا يُصَلِّي فِي مَكَانٍ آخَرَ غَيْرَ الْمَنْزِلِ الْعَامِ.

الخامس: أن حديث ابن عمر، متفق عليه، وحديث جابر، من أفراد مسلم. فحديث ابن عمر، أصح منه، وكذلك هو في إسناده، فإن رواه أحفظ، وأشهر، وأتقن، فأين يقع حاتم بن إسماعيل من عُيَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ الْعُمَرِيِّ، وَأَيْنَ يَقَعُ حَفْظُ جَعْفَرِ بْنِ حَفْظِ نَافِعٍ؟

السادس: أن حديث عائشة، قد اضطرب في وقت طوافه، فُرِّيَ عَنْهَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجَةٍ، أَحَدُهَا: أَنَّهُ طَافَ نَهَارًا، الثَّانِي: أَنَّهُ آخِرَ الطَّوْافِ إِلَى اللَّيْلِ، الثَّالِثُ: أَنَّهُ أَفَاضَ مِنْ آخِرِ يَوْمِهِ، فَلَمْ يَضْبُطْ فِيهِ وَقْتُ الْإِفَاضَةِ، وَلَا مَكَانَ الصَّلَاةِ، بِخِلَافِ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ.

السابع: أن حديث ابن عمر أصح منه لا نزاع، فإن حديث عائشة من رواية محمد بن إسحاق، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عنها، وابن إسحاق مختلف في الاحتجاج به، ولم يُصَرِّحْ بِالسَّمْعِ، بَلْ عَنْتَهُ، فَكَيْفَ يَقْدَمُ عَلَى قَوْلِ عُيَيْدِ اللَّهِ: حَدَّثَنِي نَافِعٌ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ.

الثامن: أن حديث عائشة، ليس بالبَيِّنِ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى الظُّهْرَ بِمَكَّةَ، فَإِنْ لَفْظُهُ هَكَذَا: أَفَاضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ آخِرِ يَوْمِهِ جِزِينَ صَلَّى الظُّهْرَ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَنَى، فَكَثَّرَ بِهَا لِيَالِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ يَرْمِي الْجِمْرَةَ إِذَا زَالَتِ الشَّمْسُ، كُلَّ جِمْرَةٍ بِسَبْعِ حَصِيَّاتٍ. فَأَيْنَ دَلَالَةُ هَذَا الْحَدِيثِ الصَّرِيحَةِ، عَلَى أَنَّهُ صَلَّى الظُّهْرَ يَوْمَئِذٍ بِمَكَّةَ، وَأَيْنَ هَذَا فِي صَرِيحِ الدَّلَالَةِ إِلَى قَوْلِ ابْنِ عُمَرَ: أَفَاضَ يَوْمَ النُّحْرِ، ثُمَّ صَلَّى

الظهر بمنى، يعني راجعاً. وأين حديث اتفق أصحاب الصحيح على إخراجه إلى حديث اختلف في الاحتجاج به. والله أعلم.

فصل

(ذكر طواف ام سلمة)

قال ابن حزم: وطافت أم سلمة في ذلك اليوم على بعيرها من وراء الناس وهي شاكية، استأذنت النبي ﷺ في ذلك اليوم، فأذن لها، واحتج عليه بما رواه مسلم في «صحيحه» من حديث زينب بنت أم سلمة، عن أم سلمة، قالت: شكوْتُ إلى النبي ﷺ، أني أشتكى، فقال: «طوفي من وراء الناس وأنت رَاكبة» قالت: قَطَفْتُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جِيئَ يَصَلِّي إِلَى جَنْبِ الْبَيْتِ، وَهُوَ يَقْرَأُ: «وَالطَّوْرَ وَكِتَابَ مَسْطُورٍ» [سلم: ٣٠٧٨] ولا يَتَبَيَّنُ أن هذا الطواف هُوَ طَوَافُ الْإِفَاضَةِ، لأن النبي ﷺ لم يقرأ في ركعتي ذلك الطواف بالطور، ولا جهر بالقراءة بالنهار بحيث تسمعه أم سلمة من وراء الناس، وقد بَيَّنَّ أبو محمد غلط من قال: إنه أخره إلى الليل، فأصاب في ذلك.

وقد صح من حديث عائشة، أن النبي ﷺ، أرسل بأم سلمة ليلة النحر، فرمت الجمرة قبل الفجر، ثم مضت فأفاضت [ضعيف: أبو داود: ١٩٤٢] فكيف يلتزم هذا مع طوافها يوم النحر وراء الناس، ورسول الله ﷺ إلى جانب البيت يُصَلِّي ويقرأ في صلاته «وَالطَّوْرَ ① وَكِتَابَ مَسْطُورٍ»؟ هذا من المحال، فإن هذه الصلاة والقراءة، كانت في صلاة الفجر، أو المغرب، أو العشاء، وأما أنها كانت يوم النحر، ولم يكن ذلك الوقت رسول الله ﷺ بمكة قطعاً، فهذا من وهمه رحمه الله.

(طواف عائشة)

فطافت عائشة في ذلك اليوم طوافاً واحداً، وسعت سعيًا واحداً أجزأها عن حجها وعمرتها، وطافت صفة ذلك اليوم، ثم حاضت فأجزأها طوافها ذلك عن طواف الوداع، ولم تُؤَذَّخ [البخاري: ١٧٥٧، ومسلم: ٢٩٢٠]، فاستقرت سنته ﷺ في المرأة الطاهرة إذا حاضت قبل الطواف - أو قبل الوقوف - أن تقرن، وتكتفي بطواف واحد، وسعي واحد، وإن حاضت بعد طواف الإفاضة اجتزأت به عن طواف الوداع.

فصل

(رمي الجمار)

ثم رجع ﷺ إلى منى من يومه ذلك، فبات بها، فلما أصبح، انتظر زوال الشمس، فلما زالت، مشى من رحله إلى الجمار، ولم يركب، فبدأ بالجمرة الأولى التي تلي مسجِدَ الحَيْفِ، فرماها بسبع حصياتٍ واحدةً بعدَ واحدةٍ، يقول مع كُلِّ حصاة: «اللَّهُ أَكْبَرُ»، ثم تقدَّم على الجمرة أمامها حتى أسهل، فقام مستقبل القبلة، ثم رفع يديه ودعا دعاءً طويلاً بقدر سورة البقرة، ثم أتى إلى الجمرة الوسطى، فرماها كذلك، ثم انحدر ذات اليسار مما يلي الوادي، فوقَّت مستقبل القبلة رافعاً يديه يدعو قريباً من وقوفه الأول، ثم أتى الجمرة الثالثة وهي جمرة العقبة، فاستبطن الوادي، واستعرض الجمرة، فجعل البيت عن يساره، ومنى عن يمينه، فرماها بسبع حصيات كذلك [البخاري: ١٧٤٨، ومسلم: ٣١٣١].

(التعليل لترك الدعاء بعد العقبة)

ولم يرمها من أعلاها كما يفعل الجهال، ولا جعلها عن يمينه واستقبل البيت وقت الرمي كما ذكره غير واحد من الفقهاء.

فلما أكمل الرمي، رجع من فوره ولم يقف عندها، فقيل: لضيق المكان بالجبل، وقيل وهو أصح: إن دعاءه كان في نفس العبادة قبل الفراغ منها، فلما رمى جمرة العقبة، فرغ الرمي، والدعاء في صلب العبادة قبل الفراغ منها أفضل منه بعد الفراغ منها، وهذا كما كانت سته في دعائه في الصلاة، إذ كان يدعو في صلبها، فأما بعد الفراغ منها، فلم يثبت عنه أنه كان يعتاد الدعاء، ومن روى عنه ذلك، فقد غلط عليه، وإن روي في غير الصحيح أنه كان أحياناً يدعو بدعاء عارض بعد السلام، وفي صحته نظر.

وبالجملة: فلا ريب أن عامة أدعيته التي كان يدعو بها، وعلمها الصديق، إنما هي في صلب الصلاة، وأما حديث معاذ بن جبل: «لَا تَسْ أَنْ تَقُولَ دُبْرَ كُلِّ صَلَاةٍ: اللَّهُمَّ أعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ» [أبو داود: ١٥٢٢، والنسائي (٥٣/٣)]، فدُبْر الصلاة يُراد به آخرها قبل السلام منها، كدُبْر

الحيوان، ويراد به ما بعد السلام كقوله: «تُسَبِّحُونَ اللَّهَ وَتُكَبِّرُونَ وتُحَمِّدُونَ ذُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ» [البخاري: ٨٤٣، ومسلم: ١٣٤٧] الحديث. والله أعلم.

فصل

(مبيل المصنف بانه ﷺ رمى قبل الصلاة)

ولم يزل في نفسي، هل كان يرمي قبل صلاة الظهر أو بعدها؟ والذي يغلب على الظن، أنه كان يرمي قبل الصلاة، ثم يرجع فيصلي، لأن جابراً وغيره قالوا: كان يرمي إذا زالت الشمس، فعقبوا زوال الشمس برميه. وأيضاً، فإن وقت الزوال للرمي أيام منى، كطلوع الشمس لرمي يوم النحر، والنبي ﷺ يوم النحر لما دخل وقت الرمي، لم يقدّم عليه شيئاً من عبادات ذلك اليوم، وأيضاً فإن الترمذي، وابن ماجه، روى في «سنتهما» عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان رسول الله ﷺ يرمي الجمار إذا زالت الشمس. زاد ابن ماجه: فقلّما إذا فرغ من رميه صلى الظهر. وقال الترمذي: حديث حسن [الترمذي: ٨٩٨، وابن ماجه: ٣٠٥٤]، ولكن في إسناد حديث الترمذي الحجاج بن أرطاة، وفي إسناد حديث ابن ماجه إبراهيم بن عثمان أبو شيبة، ولا يحتاج به؛ ولكن ليس في الباب غير هذا.

وذكر الإمام أحمد أنه كان يرمي يوم النحر راكباً، وأيام منى ماشياً في ذهابه ورجوعه.

فصل

(وقفات الدعاء في الحج)

فقد تضمنت حجته ﷺ ست وقفات للدعاء.

الموقف الأول: على الصفا، والثاني: على المروة، والثالث: بعرفة، والرابع: بمزدلفة، والخامس: عند الجمرة الأولى، والسادس: عند الجمرة الثانية.

فصل

(خطبتا منى)

وخطب ﷺ الناس بمنى خطبتين: خطبة يوم النحر وقد تقدّمت والخطبة الثانية: في أوسط أيام التشريق، فقيل: هو ثاني يوم النحر، وهو أوسطها، أي: خيارها، واحتج من قال ذلك: بحديث سراء بنت نبهان، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: أتلدون

أي يوم هذا؟ قالت: وهو اليوم الذي تذعون يوم الرؤوس. قالوا: الله ورأسه أعلم قال: هذا أوسط أيام التشريق. هل تذكرون أي بلد هذا؟ قالوا: الله ورأسه أعلم. قال: هذا المشعر الحرام. ثم قال: إني لا أذري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا، ألا وإنّ دماءكم، وأموالكم، وأغراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، حتى تلقوا ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، ألا قليلاً أذنّاكم أقصاكم، ألا هل بلغت؟ فلمّا قديمنا المدينة، لم يلبث إلّا قليلاً حتى مات ﷺ. رواه أبو داود [البيهقي (١٥١/٥)] ويوم الرؤوس: هو ثاني يوم النحر بالاتفاق.

وذكر البيهقي، من حديث موسى بن عبيدة الرّبيّزي، عن صدقة بن يسار، عن ابن عمر، قال: أنزلت هذه السّورة، «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ» على رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق، وعرف أنه الوداع، فأمر براحلة القضاء، فرجلت، واجتمع الناس فقال: «يا أيها الناس» ثم ذكر الحديث في خطبته [البيهقي (١٥٢/٥)].

فصل

(ترخيصه ﷺ لمن له عذر بالمبيت)

خارج منى وجمع رمي يومين بعد يوم النحر في أحدهما واستأذنه العباس بن عبد المطلب أن يبيت بمكة ليالي منى من أجل سقايته، فأذن له [البخاري: ١٦٣٤، ومسلم: ٣١٧٧].

واستأذنه رعاء الإبل في البيوتة خارج منى عند الإبل، فأرخص لهم أن يرموا يوم النحر، ثم يجمعوا رمي يومين بعد يوم النحر يرمونه في أحدهما [مالك (١/ ٤٠٨)، وأبو داود: ١٩٧٥، والترمذي: ٩٥٥، والنسائي (٥/ ٢٧٣)، وابن ماجه: ٣٠٣٧].

قال مالك: ظننت أنه قال: في أول يوم منهما، ثم يرمون يوم النحر.

وقال ابن عينة: في هذا الحديث رخص للرعاء أن يرموا يوماً، ويدعوا يوماً فيجوز للطائفتين بالسنة ترك المبيت بمنى، وأما الرمي، فإنهم لا يتركونه، بل لهم أن يؤخروه إلى الليل، فيرمون فيه، ولهم أن يجمعوا

مِنْهَا» [البخاري: ١٧٦٢، ومسلم: ٢٩٢٩].

ففي هذا الحديث، أنهما تلاقيا في الطريق، وفي الأول، أنه انتظرها في منزله، فلما جاءت نادى بالرحيل في أصحابه. ثُمَّ فِيهِ إِشْكَالٌ آخَرٌ، وَهُوَ قَوْلُهَا: لَقِيتِي وَهُوَ مُصْعِدٌ مِنْ مَكَّةَ وَأَنَا مُنْهَبَةٌ عَلَيْهَا، أَوْ بِالْعَكْسِ، فَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ، فَيَكُونُ قَدْ لَقِيَهَا مُصْعِدًا مِنْهَا رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَهِيَ مُنْهَبَةٌ عَلَيْهَا لِلْعَمْرَةِ، وَهَذَا يُتَأَنَّى أَنْتَظَرَهَا لَهَا بِالْمَحْصَبِ.

قال أبو محمد بن حزم: الصواب الذي لا شك فيه، أنها كانت مُصْعِدَةً مِنْ مَكَّةَ، وَهُوَ مُنْهَبٌ، لِأَنَّهُا تَقَدَّمَتْ إِلَى الْعَمْرَةِ، وَانْتَظَرَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى جَاءَتْ، ثُمَّ نَهَضَ إِلَى طَوَافِ الْوَدَاعِ، فَلَقِيَهَا مُنْصَرِفَةً إِلَى الْمَحْصَبِ عَنْ مَكَّةَ، وَهَذَا لَا يَصِحُّ، فَإِنَّهَا قَالَتْ: وَهُوَ مُنْهَبٌ مِنْهَا، وَهَذَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ بَعْدَ الْمَحْصَبِ، وَالخروج من مكة، فكيف يقول أبو محمد: إنه نهض إلى طواف الوداع وهو منهبط من مكة؟ هذا محال. وأبو محمد لم يحج. وحديث القاسم عنها صريح كما تقدم في أن رسول الله ﷺ انتظرها في منزله بعد التفرق حتى جاءت، فارتحل، وأذن في الناس بالرحيل، فإن كان حديث الأسود هذا محفوظاً، فصوابه: لقيني رسول الله ﷺ، وأنا مُصْعِدَةٌ مِنْ مَكَّةَ، وَهُوَ مُنْهَبٌ إِلَيْهَا، فَإِنَّهَا طَافَتْ وَقَضَتْ عُمْرَتَهَا، ثُمَّ أَصْعَدَتْ لِمِيعَادِهِ، فَوَافَتْهُ قَدْ أَخَذَ فِي الْهُبُوطِ إِلَى مَكَّةَ لِلْوَدَاعِ، فَارْتَحَلَ، وَأَذَّنَ فِي النَّاسِ بِالرَّحِيلِ، وَلَا وَجْهَ لِحَدِيثِ الْأَسْوَدِ غَيْرَ هَذَا، وَقَدْ جُمِعَ بَيْنَهُمَا بِجَمْعَيْنِ آخَرَيْنِ، وَهُمَا وَهَمٌ.

أحدهما: أنه طاف للوداع مرتين: مرةً بعد أن بعثها، وقبل فراغها، ومرة بعد فراغها للوداع، وهذا مع أنه وَهْمٌ بَيِّنٌ، فَإِنَّهُ لَا يَرْفَعُ الْإِشْكَالَ، بَلْ يَزِيدُهُ قِتَامَلَهُ.

الثاني: أنه انتقل من المحصب إلى ظهر العقبة خوفاً المشقة على المسلمين في التحصيب، فَلَقِيَتْهُ وَهِيَ مُنْهَبَةٌ إِلَى مَكَّةَ، وَهُوَ مُصْعِدٌ إِلَى الْعَقْبَةِ، وَهَذَا أَقْبَحُ مِنَ الْأَوَّلِ، لِأَنَّهُ ﷺ لَمْ يَخْرُجْ مِنَ الْعَقْبَةِ أَصْلًا، وَإِنَّمَا خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ مِنَ الشَّيْءِ السُّفْلَى بِالْإِنْفَاقِ. وَأَيْضًا: فَعَلَى تَقْدِيرِ ذَلِكَ، لَا يَحْصُلُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْحَدِيثَيْنِ.

رَمَى يَوْمَيْنِ فِي يَوْمٍ، وَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ رَخَّصَ لِأَهْلِ السَّقَايَةِ، وَلِلرُّعَاءِ فِي الْبَيْتُوتَةِ، فَمَنْ لَهُ مَالٌ يَخَافُ ضَيَاعَهُ، أَوْ مَرِيضٌ يَخَافُ مِنْ تَخَلُّفِهِ عَنْهُ، أَوْ كَانَ مَرِيضًا لَا تَمَكَّنُهُ الْبَيْتُوتَةُ، سَقَطَتْ عَنْهُ بَتْنِيَةُ النَّصِّ عَلَى هَؤُلَاءِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فصل

(ابن لقي ﷺ عائشة بعد رجوعها من عمرة التنعيم)

ولم يتعجل ﷺ في يومين، بل تأخر حتى أكمل رمي أيام التشريق الثلاثة، وأفاض يوم الثلاثاء بعد الظهر إلى المحصب، وهو الأبطح، وهو خيف بني كنانة، فوجد أبا رافع قد ضرب له فيه قبة هناك، وكان على قلبه توفيقاً من الله عز وجل، دون أن يأمره به رسول الله ﷺ، فصلى الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، وركد ردة [البخاري: ١٧٥٦، ومسلم: ٣١٧٣] ثم نهض إلى مكة، فطاف للوداع ليلاً سحراً، ولم يزل في هذا الطواف، وأخبرته صفيه أنها حائض، فقال: «أَحَابِسْتُنَا هِيَ؟» فقالوا له: إنها قد أقاضت قال: «فَلْتَنْفِرْ إِذَا» [البخاري: ١٧٥٧، ومسلم: ٢٩١٧]. وَرَوَيْتُ إِلَيْهِ عَائِشَةُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ أَنْ يُعْمِرَهَا عُمْرَةً مَفْرَدَةً، فَأَخْبَرَهَا أَنَّ طَوَافَهَا بِالْبَيْتِ وَبِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ قَدْ أَجْزَأَ عَنْ حَجَّهَا وَعُمْرَتِهَا، فَأَبَتْ إِلَّا أَنْ تَعْتِمِرَ عُمْرَةً مَفْرَدَةً، فَأَمَرَ أَخَاهَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ أَنْ يُعْمِرَهَا مِنَ التَّنْعِيمِ، فَفَرَعَتْ مِنْ عُمْرَتِهَا لَيْلًا ثُمَّ وَافَتْ الْمَحْصَبَ مَعَ أَخِيهَا، فَأَتَا فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَرَعْتُمَا؟» قَالَتْ: نَعَمْ، فَنَادَى بِالرَّحِيلِ فِي أَصْحَابِهِ، فَارْتَحَلَ النَّاسُ، ثُمَّ طَافَ بِالْبَيْتِ قَبْلَ صَلَاةِ الصُّبْحِ. هَذَا لَفْظُ الْبَخَارِيِّ [البخاري: ١٧٨٨، ومسلم: ٢٩٢٢].

فإن قيل: كيف تجمعون بين هذا، وبين حديث الأسود عنها الذي في «الصحيح» أيضاً؟ قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ، ولم نَرِ إِلَّا الْحَجَّ... فذكرت الحديث، وفيه: فلما كانت ليلة الحَضْبَةِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! يَرْجِعُ النَّاسُ بِحَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ، وَأَرْجِعُ أَنَا بِحَجَّةٍ؟ قَالَ: أَوْ مَا كُنْتُ طُفْتُ لِيَالِي قَدِمْنَا مَكَّةَ؟ قَالَتْ: قُلْتُ: لَا. قَالَ: «فَاذْهَبِي مَعَ أَخِيكِ إِلَى التَّنْعِيمِ، فَأَهْلِي بِعُمْرَةٍ ثُمَّ مَوْعِدُكَ مَكَانَ كَذَا وَكَذَا»، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَلَقِيتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُصْعِدٌ مِنْ مَكَّةَ، وَأَنَا مُنْهَبَةٌ عَلَيْهَا، أَوْ أَنَا مُصْعِدَةٌ وَهُوَ مُنْهَبٌ

وذكر أبو محمد بن حزم، أنه رجع بعد خروجه من أسفل مكة إلى المحصب، وأمر بالرحيل، وهذا وهم أيضاً، لم يرجع رسول الله ﷺ بعد وداعه إلى المحصب، وإنما مرّ من فوره إلى المدينة.

وذكر في بعض تأليفه، أنه فعل ذلك، ليكون كالمحلّق على مكة بدائرة في دخوله وخروجه، فإنه بات بذي طوى، ثم دخل من أعلى مكة، ثم خرج من أسفلها، ثم رجع إلى المحصب، ويكون هذا الرجوع من يمانى مكة حتى تحصل الدائرة، فإنه ﷺ لما جاء، نزل بذي طوى، ثم أتى مكة من كداء، ثم نزل به لما فرغ من الطواف، ثم لما فرغ من جميع التّسليم، نزل به، ثم خرج من أسفل مكة وأخذ من يمينها حتى أتى المحصب، ويحمل أمره بالرحيل ثانياً على أنه لقي في رجوعه ذلك إلى المحصب قوماً لم يرحلوا، فأمرهم بالرحيل، وتوجه من فوره ذلك إلى المدينة.

ولقد شان أبو محمد نفسه بهذا الهذيان البارد السمج الذي يضحك منه، ولولا التنبيه على أغلاط من غلط عليه ﷺ لرغبنا عن ذكر مثل هذا الكلام. والذي كأنك تراه من فعله أنه نزل بالمحصب، وصلى به الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، وركد رقدةً، ثم نهض إلى مكة، وطاف بها طواف الوداع ليلاً، ثم خرج من أسفلها إلى المدينة، ولم يرجع إلى المحصب، ولا دار ففي «صحيح البخاري»: عن أنس، أن رسول الله ﷺ، صلى الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، وركد رقدةً بالمحصب، ثم ركب إلى البيت، وطاف به [البخاري: ١٧٥٦].

وفي «الصحيحين»: عن عائشة: خرجنا مع رسول الله ﷺ، وذكرنا الحديث، ثم قالت: حين قضى الله الحج، ونفّرنا من منى، فنزلنا بالمحصب، فدعا عبد الرحمن بن أبي بكر فقال له: «اخرج بأختك من الحرم، ثم افرغاً من طوافكما، ثم ايتاني ها هنا بالمحصب». قالت: ففَضِيَ اللهُ الْعُمْرَةَ، وفرغنا من طوافنا في جوف الليل، فاتينا بالمحصب. فقال: فرغتما؟ قلنا: نعم. فأذن في الناس بالرحيل، فمرّ بالبيت فطاف به، ثم ارتحل متوجّهاً إلى المدينة [البخاري: ١٧٨٨، ومسلم: ٢٩٢٢].

فهذا من أصح حديث على وجه الأرض، وأدله على فساد ما ذكره ابن حزم، وغيره من تلك التّفسيرات التي لم يقع شيء منها، ودليل على أن حديث الأسود غير محفوظ، وإن كان محفوظاً، فلا وجه له غير ما ذكرنا وبالله التوفيق.

(هل التحصيب سنة؟)

وقد اختلف السلف في التحصيب هل هو سنة، أو منزل اتفاق؟ على قولين. فقالت طائفة: هو من سنن الحج، فإن في «الصحيحين» عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال حين أراد أن يفر من منى: «نَحْنُ نَازِلُونَ عَدَاً إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِحَيْثُ بَنِي كِنَانَةَ حَيْثُ تَقَاسَمُوا عَلَى الْكُفْرِ» [البخاري: ١٥٩٠، ومسلم: ٣١٧٤]. يعني بذلك المحصب، وذلك أن قريشاً وبني كنانة، تقاسموا على بني هاشم، وبني المطلب، ألا يُناكحوهم، ولا يكون بينهم وبينهم شيء حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ، فقصّد النبي ﷺ إظهار شعائر الإسلام في المكان الذي أظهرها فيه شعائر الكفر، والعداوة لله ورسوله، وهذه كانت عادته صلوات الله وسلامه عليه، أن يقيم شعائر التوحيد في مواضع شعائر الكفر والشرك، كما أمر النبي ﷺ أن يبنى مسجد الطائف موضع اللات والعزى.

قالوا: وفي «صحيح مسلم»: عن ابن عمر أن النبي ﷺ، وأبا بكر، وعمر، كانوا يترجلونه. وفي رواية لمسلم، عنه: أنه كان يرى التحصيب سنة [مسلم: ٣١٦٧].

وقال البخاري عن ابن عمر: كان يصلي به الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، ويهجع، ويذكر أن رسول الله ﷺ فعل ذلك [البخاري: ١٧٦٩].

وذهب آخرون، منهم ابن عباس، وعائشة، إلى أنه ليس بسنة، وإنما هو منزل اتفاق، ففي «الصحيحين» عن ابن عباس: ليس المحصب بشيء، وإنما هو منزل نزل رسول الله ﷺ ليكون أسمع لخروج [البخاري: ١٧٦٥، ومسلم: ٣١٧٢].

وفي «صحيح مسلم»: عن أبي رافع، لم يأمرني رسول الله ﷺ أن أنزل بمن معي بالأبطح، ولكن أنا ضربت قبته، ثم جاء فنزل [مسلم: ٣١٧٣]. فأنزل الله فيه بتوفيقه، تصديقاً لقول رسوله: «نَحْنُ نَازِلُونَ عَدَاً

يَحْتَفِ بْنِ كِنَانَةَ، وَتَنْفِذًا لِمَا عَزَمَ عَلَيْهِ، وَمُوَافَقَةً مِنْهُ لِرَسُولِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

فصل

ها هنا ثلاث مسائل: هل دخل رسول الله ﷺ البيت في حجته، أم لا؟ وهل وقف في الملتزم بعد الوداع، أم لا؟ وهل صَلَّى الصُّبْحَ لَيْلَةَ الْوَدَاعِ بِمَكَّةَ، أو خارجاً منها؟

(هل دخل ﷺ البيت؟)

فأما المسألة الأولى، فزعم كثير من الفقهاء وغيرهم، أنه دخل البيت في حجته، ويرى كثير من الناس أن دخول البيت من سُنَنِ الْحَجِّ اقْتِدَاءً بِالنَّبِيِّ ﷺ. والذي تُدُلُّ عَلَيْهِ سُنَّتُهُ، أَنَّهُ لَمْ يَدْخُلِ الْبَيْتَ فِي حَجَّتِهِ وَلَا فِي عُمْرَتِهِ، وَإِنَّمَا دَخَلَهُ عَامَ الْفَتْحِ، فِيهِ «الصَّحِيحِينَ» عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ عَلَى نَاقَةٍ لِأَسَامَةَ، حَتَّى أَنَاخَ بِفَنَاءِ الْكَعْبَةِ، فَدَعَا عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ بِالْمِفْتَاحِ، فَجَاءَهُ بِهِ، فَفَتَحَ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ، وَأَسَامَةُ، وَبِلَالٌ، وَعُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ، فَاجَاوَرُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ مَلِيًّا، ثُمَّ فَتَحُوهُ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَبادَرْتُ النَّاسَ، فَوَجَدْتُ بِلَالًا عَلَى الْبَابِ. فَقُلْتُ: أَيْنَ صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: بَيْنَ الْعَمُودَيْنِ الْمُقَدَّمَيْنِ. قَالَ: وَنَسِيتُ أَنْ أَسْأَلَهُ، كَمْ صَلَّى [البخاري: ١٥٩٨، ومسلم: ٣١٩١].

وفي «صحيح البخاري» عن ابن عباس، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، لَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ، أَمَى أَنْ يَدْخُلَ الْبَيْتَ وَفِيهِ الْأَلِيَّةُ، قَالَ: فَأَمَرَ بِهَا فَأُخْرِجَتْ، فَأُخْرِجُوا صُورَةَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ فِي أَيْدِيهِمَا الْأَزْلَامَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَاتْلَهُمُ اللَّهُ أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمُوا أَنََّّهُمَا لَمْ يَسْتَفْسِمَا بِهَا قَطُّ». قَالَ: فَدَخَلَ الْبَيْتَ، فَكَبَّرَ فِي تَوَاجِيهِ، وَلَمْ يُصَلِّ فِيهِ [البخاري: ١٦٠١].

فقيل: كان ذلك دُخُولَيْنِ، صَلَّى فِي أَحَدِهِمَا، وَلَمْ يُصَلِّ فِي الْآخَرِ.

وهذه طريقة ضعفاء النقد، كلما رأوا اختلاف لفظ، جعلوه قصة أخرى، كما جعلوا الإسراء مراراً لاختلاف ألفاظه، وجعلوا اشتراءه من جابر بغيره مراراً لاختلاف ألفاظه، وجعلوا طواف الوداع

مرتين لاختلاف سياقه، ونظائر ذلك.

وأما الجهابذة الثَّقَادِ، فِيرْغُبُونَ عَنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، وَلَا يَجِبُونُ عَنْ تَغْلِيطِ مَنْ لَيْسَ مَعْصُومًا مِنَ الْغَلْطِ وَنَسَبَتْهُ إِلَى الْوَهْمِ، قَالَ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأُئِمَّةِ: وَالْقَوْلُ قَوْلُ بِلَالٍ، لِأَنَّهُ مَثْبُتٌ شَاهِدٌ صَلَاتِهِ، بِخِلَافِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ دُخُولَهُ الْبَيْتَ إِنَّمَا كَانَ فِي غَزْوَةِ الْفَتْحِ، لَا فِي حَجِّهِ وَلَا عُمْرِهِ، وَفِي «صحيح البخاري»، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ، قَالَ: قُلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى: أَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فِي عُمْرَتِهِ الْبَيْتَ؟ قَالَ: لَا [البخاري: ١٧٩١، ومسلم: ٣٢٣٩].

وقالت عائشة: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ عِنْدِي وَهُوَ قَرِيرُ الْعَيْنِ، طَيِّبُ النَّفْسِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيَّ وَهُوَ حَزِينُ الْقَلْبِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! خَرَجْتَ مِنْ عِنْدِي وَأَنْتَ كَذَا وَكَذَا. فَقَالَ: إِنِّي دَخَلْتُ الْكَعْبَةَ، وَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ فَعَلْتُ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ أَكُونَ قَدْ أَتَعَيْتُ أُمَّتِي مِنْ يَغْيِي [أحمد: ٢٥٠٥٦، وأبو داود: ٢٠٢٩، والترمذي: ٨٧٣، وابن ماجه: ٣٠٦٤، وفي سننه ضعيف وباهي رجاله ثقات]، فَهَذَا لَيْسَ فِيهِ أَنَّهُ كَانَ فِيهِ حَجَّتُهُ، بَلْ إِذَا تَأَمَّلْتَهُ حَقَّ التَّأَمُّلِ، أَطْلَعَكَ التَّأَمُّلُ عَلَى أَنَّهُ كَانَ فِي غَزَاةِ الْفَتْحِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَسَأَلْتُهُ عَائِشَةُ أَنْ تَدْخُلَ الْبَيْتَ، فَأَمَرَهَا أَنْ تُصَلِّيَ فِي الْحَجَرِ رُكْعَتَيْنِ.

فصل

(هل وقف ﷺ في الملتزم بعد الوداع)

وأما المسألة الثانية: وهي وقوفه في الملتزم، فالذي روي عنه، أَنَّهُ فَعَلَهُ يَوْمَ الْفَتْحِ، فِيهِ «سَنَنُ أَبِي دَاوُدَ»، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي صَفْوَانَ، قَالَ: لَمَّا فَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَّةَ، انْطَلَقْتُ، فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ خَرَجَ مِنَ الْكَعْبَةِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ وَقَدْ اسْتَلَمُوا الرُّكْنَ مِنَ الْبَابِ إِلَى الْحَوْطِ، وَوَضَعُوا خُدُودَهُمْ عَلَى الْبَيْتِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسَطَهُمْ [أبو داود: ٤١٩٨].

وروي أبو داود أيضاً: مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: طُفْتُ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ، فَلَمَّا حَادَى ذُبُرَ الْكَعْبَةِ قُلْتُ: أَلَا تَتَعَوَّذُ؟ قَالَ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ، ثُمَّ مَضَى حَتَّى اسْتَلَمَ الْحَجَرَ، فَقَامَ بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ وَالْبَابِ، فَوَضَعَ صَدْرَهُ

فلما أتى ذَا الْحُلَيْفَةِ، باتَ بها، فَلَمَّا رَأَى الْمَدِينَةَ، كَبَّرَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ سَاجِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ، صَدَقَ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ. ثُمَّ دَخَلَهَا نَهَارًا مِنْ طَرِيقِ الْمُعَرَّسِ، وَخَرَجَ مِنْ طَرِيقِ الشُّجْرَةِ [البخاري: ١٥٣٣] واللَّهُ أعلم.

فصل في الأوهام

(وهم ابن حزم في قوله: إنه ﷺ اعلم)

الناس وقت خروجه ان عمرة في رمضان تعدل حجة)
فمنها: وهم لأبي محمد بن حزم في حجة الوداع، حيث قال: إن النبي ﷺ أَغْلَمَ النَّاسَ وَقْتُ خُرُوجِهِ «أَنْ عُمَرَةَ فِي رَمَضَانَ، تَعْدِلُ حَجَّةً» وهذا وهم ظاهر، فإنه إنما قال ذلك بعد رجوعه إلى المدينة من حجته، إذ قال لَأَمْ سِنَانُ الْأَنْصَارِيَّةِ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَكُونِي حَجَّجَتِ مَعَنَا؟ قَالَتْ: لَمْ يَكُنْ لَنَا إِلَّا نَاضِحَانِ، فَحَجَّ أَبُو وَلَدِي وَإِنِّي عَلَى نَاضِحٍ، وَتَرَكْنَا نَاضِحًا تَنْصَحُ عَلَيْهِ. قَالَ: «فَإِذَا جَاءَ رَمَضَانُ، فَاعْتَمِرِي، فَإِنَّ عُمَرَةَ فِي رَمَضَانَ تَقْضِي حَجَّةً». هكذا رواه مسلم في «صحيحه» [٣٠٣٨].

وكذلك أيضاً قال هذا لأُمِّ مَعْقِلٍ بعد رجوعه إلى المدينة، كما رواه أبو داود، من حديث يوسف بن عبد الله بن سلام، عن جدته أم مَعْقِلٍ، قالت: لما حجَّ رسولُ الله ﷺ حَجَّةَ الْوَدَاعِ، وَكَانَ لَنَا جَمَلٌ، فَجَعَلَهُ أَبُو مَعْقِلٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَأَصَابَنَا مَرَضٌ، فَهَلَكَ أَبُو مَعْقِلٍ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا قَرَعَ مِنْ حَجَّوْ، جِئْتُ، فَقَالَ: «مَا مَنَعَكَ أَنْ تَخْرُجِي مَعَنَا؟» فقالت: لَقَدْ تَهَيَّأْنَا، فَهَلَكَ أَبُو مَعْقِلٍ، وَكَانَ لَنَا جَمَلٌ وَهُوَ الَّذِي نَحُجُّ عَلَيْهِ، فَأَوْصَى بِهِ أَبُو مَعْقِلٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. قَالَ: «فَهَلَّا خَرَجْتَ عَلَيْهِ؟ فَإِنَّ الْحَجَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَائِمًا إِذْ قَاتَلْتَ هَذِهِ الْحَبَّةَ مَعَنَا فَاعْتَمِرِي فِي رَمَضَانَ، فَإِنَّهَا كَحَجَّةٍ» [أبو داود: ١٩٨٨، والترمذي: ٩٣٩].

وَوَجْهُهُ وَذِرَاعِيهِ هَكَذَا، وَبَسَطَهُمَا بَسْطًا، وَقَالَ هَكَذَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْعُلُهُ [أبو داود: ١٨٩٩، وابن ماجه: ٢٩٦٢].

فهذا يحتمل أن يكونَ في وقت الوداع، وأن يكونَ في غيره، ولكن قال مجاهد والشافعي بعده وغيرهما: إنه يُسْتَحَبُّ أَنْ يَقِفَ فِي الْمَلْتَزِمِ بَعْدَ طَوَافِ الْوَدَاعِ وَيَدْعُو، وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ عَنْهُمَا يَلْتَزِمُ مَا بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْبَابِ، وَكَانَ يَقُولُ: لَا يَلْتَزِمُ مَا بَيْنَهُمَا أَحَدٌ يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فصل

(ابن صلى ﷺ الصبح ليلة الوداع؟)

وأما المسألة الثالثة: وهي موضعُ صلاته ﷺ صلاة الصبح صبيحة ليلة الوداع، ففي «الصحيحين»: عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، قَالَتْ: شَكُوْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنِّي اسْتَكْرَيْتُ، فَقَالَ: «طُوفِي مِنْ وَرَاءِ النَّاسِ وَأَنْتِ رَاكِبَةٌ». قَالَتْ: فَطُفْتُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جِئْتُ يَصْلِي إِلَى جَنْبِ الْبَيْتِ، وَهُوَ يَقْرَأُ بِـ ﴿وَالطُّورِ ۝﴾ وَكَتَبَ مَسْطُورٌ [البخاري: ٤٨٥٣، ومسلم: ٣٠٧٨] فهذا يحتمل، أن يكونَ في الفجر وفي غيرها، وأن يكونَ في طواف الوداع وغيره، فنظرنا في ذلك، فإذا البخاري قد روى في «صحيحه» في هذه القصة، أنه ﷺ لما أراد الخروج، ولم تكن أم سلمة طافت بالبيت، وأرادت الخروج، فقال لها رسولُ الله ﷺ: «إِذَا أَقْبَمْتَ صَلَاةَ الصُّبْحِ، فَطُوفِي عَلَى بَعِيرِكَ، وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ»، فَقَعَلْتُ ذَلِكَ فَلَمْ تُصَلِّ حَتَّى خَرَجْتُ» [البخاري: ١٦٢٦]. وهذا محال قطعاً أن يكون يومَ النحر، فهو طواف الوداع بلا ريب، فظهر أنه صَلَّى الصُّبْحَ يَوْمَئِذٍ عِنْدَ الْبَيْتِ، وَسَمِعَتْهُ أُمُّ سَلَمَةَ يَقْرَأُ فِيهَا بِالطُّورِ.

فصل

(ارتحاله ﷺ إلى المدينة)

ثم ارتحل ﷺ راجعاً إلى المدينة، فلما كَانَ بِالرَّوْحَاءِ، لَقِيَ رَكْبًا، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ: «مَنْ الْقَوْمُ؟» فَقَالُوا: الْمُسْلِمُونَ، قَالُوا: فَمَنْ الْقَوْمُ؟ فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَرَفَعَتْ امْرَأَةٌ صَوًّا لَهَا مِنْ مِحْفَتِهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ أَلَيْهَذَا حَجٌّ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَلَكِ أَجْرٌ [مسلم: ٣٢٥٣].

فصل

ومنها وهم آخر له، وهو أن خروجه كان يومَ الخميس لست بَيِّن من ذي القعدة، وقد تقدَّم أنه خرج لخمس، وأن خروجه كان يومَ السبت.

فصل

(وهم محب الدين الطبري)

بقوله، خرج ﷺ يوم الجمعة بعد الصلاة)

ومنها وهم آخر لبعضهم، ذكر الطبري في «حجة الوداع» أنه خرج يومَ الجمعة بعد الصلاة. والذي حمّله على هذا الوهم القبيح، قوله في الحديث: خرج لست بَيِّن، فظن أن هذا لا يُمكن إلا أن يكون الخروجُ يومَ الجمعة، إذ تمامُ الست يوم الأربعاء، وأولُ ذي الحجة كان يوم الخميس بلا ريب، وهذا خط فاحش، فإنه من المعلوم الذي لا ريب فيه، أنه صَلَّى الظهر يومَ خروجه بالمدينة أربعاً، والعصر بذِي الحليفة ركعتين، ثبت ذلك في «الصحيحين».

وحكى الطبري في حجته قولاً ثالثاً: إن خروجه كان يومَ السبت، وهو اختيارُ الواقدي، وهو القول الذي رجحناه أولاً، لكن الواقدي، وهم في ذلك ثلاثة أوهام، أحدها: أنه زعم أن النبي ﷺ صلى يومَ خروجه الظهر بذِي الحليفة ركعتين، الوهم الثاني: أنه أحرم ذلك اليومَ عَقِبَ صلاةِ الظهر، وإنما أحرم من الغد بعد أن بات بذِي الحليفة، الوهم الثالث: أن الوقفة كانت يومَ السبت، وهذا لم يقله غيره، وهو وهم بَيِّن.

فصل

(وهم القاضي عياض أنه ﷺ)

تطّيب قبل غسله ثم غسل الطيب عنه لما اغتسل)

ومنها وهم للقاضي عياض رحمه الله وغيره، أنه ﷺ، تَطَيَّبَ هُنَاكَ قبل غسله، ثم غسل الطيب عنه لما اغتسل. ومنشأ هذا الوهم، من سياق ما وقع في «صحيح مسلم» في حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: طَيَّبْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ طَافَ عَلَى نِسَائِهِ بَعْدَ ذَلِكَ، ثُمَّ أَصْبَحَ مُخْرَماً [مسلم: ٢٨٤٢].

والذي يردُّ هذا الوهم، قولُها: طَيَّبْتُ

رسولَ اللَّهِ ﷺ لإحرامه، وقولُها: كَانِي أَنْظِرَ إِلَى وَيَصِ الطَّيْبَ، أي: بريقه في مفارق رسول الله ﷺ وهو مُحَرَّم، وفي لفظ: وهو يَلْبِي بعد ثلاث من إحرامه، وفي لفظ: كان رسول الله ﷺ، إذا أراد أن يُحرم، تَطَيَّبَ بِطَيِّبٍ ما يجد، ثم أَرَى وَيَصِ الطَّيْبَ في رأسه ولحيته بعد ذلك، وكل هذه الألفاظ ألفاظ الصحيح [مسلم: ٢٨٣١].

وأما الحديث الذي احتج به، فإنه حديث إبراهيم بن محمد بن المشير، عن أبيه، عنها: كُنْتُ أَطَيَّبُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ يَطُوفُ عَلَى نِسَائِهِ، ثُمَّ يُصْبِحُ مُخْرَماً. وهذا ليس فيه ما يمنع الطيب الثاني عند إحرامه.

فصل

(وهم ابن حزم أنه ﷺ أحرم قبل الظهر)

ومنها: وهم آخر لأبي محمد بن حزم أنه ﷺ أحرم قبل الظهر، وهو وهم ظاهر، لم يُنقل في شيء من الأحاديث، وإنما أهل عَقِبَ صلاةِ الظهر في موضع مصلاه، ثم ركب ناقته، واستوت به على البداء وهو يُهْلُ، وهذا يقيناً كان بعد صلاةِ الظهر، والله أعلم.

فصل

(وهم ابن حزم أنه ﷺ)

ساق الهدى مع نفسه وكان هدي تطوع)

ومنها وهم آخر له وهو قوله: وساق الهدى مع نفسه، وكان هدي تطوع، وهذا بناء منه على أصله الذي انفرد به عن الأئمة، أن القارن لا يلزمه هدي، وإنما يلزم المتمتع، وقد تقدم بطلانُ هذا القول.

فصل

ومنها: وهم آخر لمن قال: إنه لم يُعَيَّن في إحرامه نسكاً، بل أطلقه، ووهم من قال: إنه عَيَّنَ عُمرة مفردة كان متمتعاً بها، كما قاله القاضي أبو يعلى، وصاحب «المغني» وغيرهما، ووهم من قال: إنه عين حَجّاً مفرداً مجرداً لم يعتبر معه، ووهم من قال: إنه عَيَّنَ عُمرة، ثم أدخل عليها الحجَّ، ووهم من قال: إنه عَيَّنَ حَجّاً مفرداً، ثم أدخل عليه العُمرة بعد ذلك، وكان من خصائصه، وقد تقدم بيانُ مستند ذلك، ووجهُ الصواب فيه. والله أعلم.

فصل

به قبل ميقاتها الذي كانت عادته أن يُصليها فيه، فعجلها عليه يومئذ، ولا بُدَّ من هذا التأويل، وحديث ابن مسعود، إنما يدل على هذا، فإنه في «صحيح البخاري» عنه، أنه قال: «مِنَّا صَلَاتَانِ تُحَوَّلَانِ عَنْ وَفْتِهِمَا: صَلَاةُ الْمَغْرِبِ بَعْدَ مَا يَأْتِي النَّاسُ الْمُرْدَلِفَةَ، وَالْفَجْرِ حِينَ يَبْزُغُ الْفَجْرُ» [البخاري: ١٦٧٥]. وقال في حديث جابر في حجة الوداع: «فصلى الصبح حين تبيّن له الصبح بأذان وإقامته» [مسلم: ٢٩٥٣].

فصل

ومنها: وهم من وهم في أنه صلى الظهر والعصر يوم عرفة، والمغرب، والعشاء، تلك الليلة، بأذنين وإقامتين، وهم من قال: «صلاهما بإقامتين بلا أذان أصلاً»، وهم من قال: «جمع بينهما بإقامة واحدة، والصحيح: أنه صلاهما بأذان واحد، وإقامة لكل صلاة».

فصل

ومنها: وهم من زعم أنه خطب بعرفة خطبتين، جلس بينهما، ثم أذن المؤذن، فلما فرغ، أخذ في الخطبة الثانية، فلما فرغ منها، أقام الصلاة، وهذا لم يجرى في شيء من الأحاديث البتة، وحديث جابر صريح، في أنه لما أكمل خطبته أذن بلال، وأقام الصلاة، فصلى الظهر بعد الخطبة.

فصل

ومنها: وهم لأبي ثور أنه لما صعد، أذن المؤذن، فلما فرغ، قام فخطب، وهذا وهم ظاهر، فإن الأذان إنما كان بعد الخطبة.

فصل

ومنها: وهم من روى، أنه قدّم أم سلمة ليلة النحر، وأمرها أن تُوافيه صلاة الصبح بمكة، وقد تقدم بيانه.

فصل

ومنها: وهم من زعم، أنه آخر طواف الزيارة يوم النحر إلى الليل، وقد تقدم بيان ذلك، وأن الذي أخره إلى الليل، إنما هو طواف الوداع، ومستند هذا الوهم - والله أعلم - أن عائشة قالت: «أفاض رسول الله ﷺ من آخر يومه، كذلك قال عبد الرحمن بن القاسم،

ومنها: وهم لأحمد بن عبد الله الطبري في «حجة الوداع» له: «إنهم لما كانوا ببعض الطريق، صاد أبو قتادة جماراً وحشياً ولم يكن محرماً، فأكل منه النبي ﷺ، وهذا إنما كان في عمرة الحديبية، كما رواه البخاري».

فصل

ومنها: وهم آخر لبعضهم، حكاه الطبري عنه ﷺ: «أنه دخل مكة يوم الثلاثاء وهو غلط، فإنما دخلها يوم الأحد صبح رابعة من ذي الحجة».

فصل

ومنها: وهم من قال: إنه ﷺ حلّ بعد طوافه وسعيه، كما قاله القاضي أبو يعلى وأصحابه، وقد بينا أن مستند هذا الوهم وهم معاوية، أو من روى عنه أنه قصر عن رسول الله ﷺ بمشقة على المروة في حجته.

فصل

ومنها: وهم من زعم، أنه ﷺ كان يقبل الركن اليماني في طوافه، وإنما ذلك الحجر الأسود، وسماه اليماني، لأنه يطلق عليه وعلى الآخر اليمانيين. فعبر بعض الرواة عنه باليماني منفرداً.

فصل

ومنها: وهم فاحش لأبي محمد بن حزم أنه رمل في السعي ثلاثة أشواط، ومشى أربعة، وأعجب من هذا الوهم، وهمة في حكاية الاتفاق على هذا القول الذي لم يقله أحد سواه.

فصل

ومنها: وهم من زعم أنه طاف بين الصفا والمروة أربعة عشر شوطاً، وكان ذهابه وإيابه مرة واحدة، وقد تقدم بيان بطلانه.

فصل

ومنها: وهم من زعم، أنه ﷺ صلى الصبح يوم النحر قبل الوقت، ومُستند هذا الوهم، حديث ابن مسعود: «أن النبي ﷺ صلى الفجر يوم النحر قبل ميقاتها» [البخاري: ١٦٨٢، ومسلم: ٣١١٦]. وهذا إنما أراد

عن أبيه، عنها، فحمل عنها على المعنى، وقيل: آخر طواف الزيارة إلى الليل.

فصل

ومنها: وهم من وهم وقال: إنه أفاض مرتين: مرةً بالنهار، ومرةً مع نسائه بالليل، ومستند هذا الوهم، ما رواه عمر بن قيس، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عائشة، أن النبي ﷺ، أذن لأصحابه، فزاروا البيت يوم النحر ظهيرة، وزار رسول الله ﷺ مع نسائه ليلاً (اليهني ١٤٤/٥).

وهذا غلط، والصحيح عن عائشة خلاف هذا: أنه أفاض نهاراً وإفاضة واحدة، وهذه طريقة وخيمة جداً، سلكها ضياع أهل العلم المتمسكون بأذيال التقليد والله أعلم.

فصل

ومنها: وهم من زعم، أنه طاف للقدوم يوم النحر، ثم طاف بعده للزيارة، وقد تقدم مستند ذلك وبطلانه.

فصل

ومنها وهم من زعم أنه يومئذ سعى مع هذا الطواف. واحتج بذلك على أن القارن يحتاج إلى سعين، وقد تقدم بطلان ذلك عنه، وأنه لم يسع إلا سعيًا واحداً، كما قالت عائشة وجابر رضي الله عنهما.

فصل

ومنها: على القول الراجح، وهم من قال: أنه صلى الظهر يوم النحر بمكة، والصحيح: إنه صلاها بمكة كما تقدم.

فصل

ومنها: وهم من زعم أنه لم يسرع في وادي مُحَسِّر حين أفاض من جمع إلى منى، وأن ذلك إنما هو فعل الأعراب، ومستند هذا الوهم قول ابن عباس: إنما كان بدء الإيضاع من قبل أهل البادية، كانوا يقفون حافتي الناس حتى قد علّقوا القعاب والعصيّ والجعاب، فإذا أفاضوا، تقععت تلك فنفروا بالناس، ولقد روي رسول الله ﷺ، وإن دُفِرَ ناقته ليمس حاركها وهو يقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! عَلَيْكُمْ السَّكِينَةَ» [حسن: أحمد: ٢١٩٣]. وفي رواية: «إِنَّ الْبِرَّ

لَيْسَ بِإِيْجَابِ الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ، فَعَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ»، فَمَا رَأَيْتُهَا رَافِعَةً يَدَيْهَا حَتَّى أَتَى مِنَى. رواه أبو داود [صحيح: أبو داود: ١٩٢٠]. ولذلك أنكره طاوس والشعبي، قال الشعبي: حدثني أسامة بن زيد، أنه أفاض مع رسول الله ﷺ من عرفة، فلم ترفع راحلته رجلها عادية حتى بلغ جمعاً. قال: وحدثني الفضل بن عباس، أنه كان رديف رسول الله ﷺ في جمع، فلم ترفع راحلته رجلها عادية حتى رمى الجمرة. وقال عطاء: إنما أحدث هؤلاء الإسراع، يريدون أن يفوتوا القبار. ومنشأ هذا الوهم اشتباه الإيضاع وقت الدفع من عرفة الذي يفعله الأعراب وجفأة الناس بالإيضاع في وادي مُحَسِّر، فإن الإيضاع هناك بدعة لم يفعله رسول الله ﷺ، بل نهى عنه، والإيضاع في وادي مُحَسِّر سنة نقلها عن رسول الله ﷺ جابر، وعلي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب رضي الله عنهم، وفعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان ابن الزبير يوضع أشد الإيضاع، وفعلته عائشة وغيرهم من الصحابة، والقول في هذا قول من أثبت، لا قول من نفى. والله أعلم.

فصل

ومنها وهم طاوس وغيره أن النبي ﷺ كان يقيض كل ليلة من ليالي منى إلى البيت، وقال البخاري في «صحيحه» ويذكر عن أبي حسان، عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يزور البيت أيام منى [البخاري معلقاً قبل الحديث: ١٧٣٢]. ورواه ابن عَرَعَرَةَ، قال: دفع إلينا معاذ بن هشام كتاباً قال: سمعته من أبي ولم يقرأه، قال: وكان فيه عن أبي حسان، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يزور البيت كل ليلة ما دام بمنى. قال: وما رأيته أحداً واطأه عليه انتهى. ورواه الثوري في «جامعه» عن ابن طاوس عن أبيه مرسلًا، وهو وهم، فإن النبي ﷺ لم يرجع إلى مكة بعد أن طاف للإفاضة، وبقي في منى إلى حين الوداع، والله أعلم.

فصل

ومنها وهم من قال: إنه ودّع مرتين. ووهم من قال: إنه جعل مكة دائرة في دخوله وخروجه، فبات

بذي طوى، ثم دخل من أعلاها، ثم خرج من أسفلها، ثم رجع إلى المحصب عن يمين مكة، فكملت الدائرة.

فصل

ومنها وهم من زعم أنه انتقل من المحصب إلى ظهر العقبة، فهذه كلها من الأوهام نبهنا عليها مفصلاً ومجماً وبالله التوفيق.

فصل

في هديه ﷺ في الهدايا والضحايا والعقيقة

وهي مختصة بالأزواج الثمانية المذكورة في سورة الأنعام ولم يعرف عنه ﷺ، ولا عن الصحابة هدي، ولا أضحية، ولا عقيقة من غيرها، وهذا مأخوذ من القرآن من مجموع أربع آيات.

إحداها: قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَيْعَتُ الْأَنْثَمِ﴾ [المائدة: ١].

والثانية: قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرُوا أَسْمَ اللَّهِ فِي أَنْبَارٍ مَسْلُومَةٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْعَتِ الْأَنْثَمِ﴾ [الحج: ٢٨].

والثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْثَمِ حَمُولَةٌ وَكَرِهَتْ كُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الْأَشْيَاطِ إِنَّكُمْ لَعِنْدَ سَيِّئٍ ﴿١٤٢﴾ تَسْنِيَةِ أَنْثَمِ﴾ [الأنعام: ١٤٢، ١٤٣] ثم ذكرها.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿هَذَا بَلِغُ الْكَبَرَةِ﴾ [المائدة: ٩٥].

فدل على أن الذي يبلغ الكعبة من الهدي هو هذه الأزواج الثمانية وهذا استنباط علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

والذبايح التي هي قربة إلى الله وعبادة: هي ثلاثة: الهدي، والأضحية، والعقيقة.

فأهدى رسول الله ﷺ الغنم، وأهدى الإبل، وأهدى عن نسائه البقر، وأهدى في مقامه، وفي عمرته، وفي حجه؛ وكانت سنته تقليد الغنم دون إشعارها.

وكان إذا بعث بهديه وهو مقيم لم يخرم عليه شيء كان منه خلالاً.

وكان إذا أهدى الإبل، قلدها وأشعرها، فيشق صفحة سنّامها الأيمن يسيراً حتى يسيل الدم. قال

الشافعي: والإشعار في الصفحة اليمنى، كذلك أشعر النبي ﷺ.

وكان إذا بعث بهديه، أمر رسوله إذا أشرف على عطف شيء منه أن ينحره، ثم يضيغ نعله في دمه، ثم يجعله على صفحته، ولا يأكل منه هو، ولا أحد من أهل رفقته [مسلم: ٣٢١٦] ثم يقيم لحمه، ومنعه من هذا الأكل سداً للذريعة، فإنه لعله ريماً قصراً في حفظه ليشارف العطب، فينحره، ويأكل منه، فإذا علم أنه لا يأكل منه شيئاً، اجتهد في حفظه.

وشرك بين أصحابه في الهدي كما تقدّم: البدنة عن سبعة، والبقرة كذلك.

وأباح لسائق الهدي ركوبه بالمعروف إذا احتاج إليه حتى يجد ظهراً غيره [مسلم: ٣٢١٤] وقال علي رضي الله عنه: يشرب من لبنها ما فضل عن ولدها [صحیح: مالك (٢/٣٢٥)].

وكان هديه ﷺ نحر الإبل قياماً، مقبلة، معقولة اليسرى، على ثلاث، وكان يُسمي الله عند نحره، ويكبر، وكان يذبح نسكه بيده، وربما وكل في بعضه، كما أمر علياً رضي الله عنه أن يذبح ما بقي من المنة. وكان إذا ذبح الغنم، وضع قدمه على صفاها ثم سمي، وكبر وذبح [البخاري: ٥٥٥٨، ومسلم: ٥٠٨٧]، وقد تقدم أنه نحر بمنى وقال: «إِنْ فِجَاجٌ مَكَّةَ كُلُّهَا مَنَحَرٌ» [مسلم: ٢٩٥٢] وقال ابن عباس: مناجر البدن بمكة، ولكنها نُزّهت عن الدماء، ومِنَى مِن مكة، وكان ابن عباس ينحر بمكة.

وأباح ﷺ لأئمة أن يأكلوا من هداياهم وضحاياهم، ويتزودوا منها، ونهاهم مرة أن يذبحوا منها بعد ثلاثٍ لدافّةٍ ذكّت عليهم ذلك العام من الناس، فاحب أن يؤسّعوا عليهم [مسلم: ٥١٠٣].

وذكر أبو داود من حديث جبير بن نفير، عن ثوبان قال: ضحى رسول الله ﷺ ثم قال: «يَا ثَوْبَانُ أَضْلِحْ لَنَا لَحْمَ هَذِهِ الشَّاةِ» قال: فَمَا زِلْتُ أَطْعِمُهُ مِنْهَا حَتَّى قَدِمَ الْمَدِينَةَ.

وروى مسلم هذه القصة، ولفظه فيها: إن رسول الله ﷺ قال له في حجة الوداع: «أضْلِحْ هَذَا اللَّحْمَ» قال: فَأَضْلَحْتُهُ، فَلَمْ يَزَلْ يَأْكُلُ مِنْهُ حَتَّى بَلَغَ الْمَدِينَةَ [مسلم: ٥١١٠].

وكان رُبُّمَا قسم لحوم الهدى، ورُبُّمَا قال: «مَنْ شَاءَ افْتَقَطَ» [البخاري: ١٧١٧، ومسلم: ٣١٨٠] فعل هذا، وفعل هذا، واستدل بهذا على جواز التَّهْيَةِ في النَّثَارِ في الغُرس ونحوه، وفُرِّقَ بينهما بما لا يَتَيَّنُّ.

فصل

(هديه ﷺ في ذبح هدي العمرة والقران)

وكان من هديه ﷺ ذبح هدي العمرة عند المروة، وهدي القران بمنى، وكذلك كان ابنُ عمر يفعل، ولم ينحر هديه ﷺ قطُّ إلَّا بعد أن حَلَّ، ولم ينحره قبل يوم النحر، ولا أحدٌ من الصحابة البتة، ولم ينحره أيضاً إلَّا بعد طلوع الشمس، وبعد الرمي، فهي أربعة أمور مرتبة يوم النحر، أولها: الرمي، ثم النَّحْرُ، ثم الحلق، ثم الطواف، وهكذا ربَّهنا ﷺ ولم يُرَخَّص في النحر قبل طلوع الشمس البتة، ولا ريب أن ذلك مخالف لهديه، فحكمه حكم الأضحية إذا ذُبعت قبل طلوع الشمس.

فصل

وأما هديه في الأضاحي

(وقت الذبح)

فإنه ﷺ لم يكن يَذِّعُ الأضحية، وكان يُصَحِّي بكبشين، وكان ينحرهما بعد صلاة العيد، وأخبر أن مَنْ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلَاةِ، فَلَيْسَ مِنَ الشُّلُكِ في شيء، وإنَّمَا هُوَ لَحْمٌ قَدَّمَه لِأَهْلِهِ [البخاري: ٥٥٦٠، ومسلم: ٥٠٦٩]. هذا الذي دلَّت عليه سُنَّتُهُ وهديه، لا الاعتبار بوقت الصلاة والخطبة، بل بنفس فعلها، وهذا هو الذي ندينُ الله به، وأمرهم أن يَذْبَحُوا الجَدْعَ مِنَ الضَّبَانِ [البخاري: ٥٥٤٧، ومسلم: ٥٠٨٤] والثَّنيَّ مِمَّا سِوَاهُ وهي المُسِنَّة.

وروي عنه أنه قال: «كُلُّ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ذَبْحٌ» [صحيح: أحمد: ١٦٧٥٢] لكنَّ الحديث مُنْقَطِعٌ لا يَثْبُت وصله.

وأما نهيه عن ادِّخَارِ لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فلا يدلُّ على أن أيام الذبح ثلاثة فقط، لأن الحديث

دليل على نهْيِ الذابح أن يَدَّخِرَ شيئاً فوق ثلاثة أيام من يوم ذبحه، فلو أَعْرَ الذَّبِيحَ إلى اليوم الثالث، لجاز له الادِّخَارُ وَقَتَ النهي ما بينه وبين ثلاثة أيام، والَّذِينَ حَدَّدُوهُ بالثلاث، فهموا من نهيه عن الإدِّخَارِ فوق ثلاث أن أولها من يوم النحر، قالوا: وغيرُ جائز أن يكون الذَّبِيحُ مشروعاً في وقت يحرم فيه الأكل، قالوا: ثم نُسيخَ تحريم الأكل بقي وقت الذَّبِيح بحاله.

فيقال لهم: إن النبي ﷺ لم يَنْهَ إلَّا عن الادِّخَارِ فوق ثلاث، لم يَنْهَ عن التضحية بعد ثلاث، فأين أحدهما من الآخر، ولا تلازم بين ما نهى عنه، وبين اختصاص الذَّبِيح بثلاث لوجهين.

أحدهما: أنه يسوغُ الذَّبِيحُ في اليوم الثاني والثالث، فيجوزُ له الادِّخَارُ إلى تمام الثلاث من يوم الذَّبِيح، ولا يَنْهَى لكم الاستدلالُ حتى يثبت النهي عن الذَّبِيح بعد يوم النحر، ولا سبيل لكم إلى هذا.

الثاني: أنه لو ذبح في آخر جزء من يوم النحر؛ لساغ له حينئذ الادِّخَارُ ثلاثة أيام بعده بمقتضى الحديث، وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أيامُ النحر: يوم الأضحية، وثلاثة أيام بعده، وهو مذهبُ إمام أهل البصرة الحسن، وإمام أهل مكة عطاء بن أبي رباح، وإمام أهل الشام الأوزاعي، وإمام فقهاء أهل الحديث الشافعي رحمه الله، واختاره ابنُ المنذر، ولأن الثلاثة تختصُّ بكونها أيام منى، وأيام الرمي، وأيام التشريق، ويحرم صيأها، فهي إخوة في هذه الأحكام، فكيف تفرَّق في جواز الذَّبِيح بغير نص ولا إجماع. وروي من وجهين مختلفين يَشُدُّ أحدهما الآخر عن النبي ﷺ أنه قال: «كُلُّ مَنْى مَنَحَرٌ، وكُلُّ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ذَبْحٌ» وروي من حديث جبير بن مطعم وفيه انقطاع، ومن حديث أسامة بن زيد، عن عطاء، عن جابر^(١).

قال يعقوب بن سفيان: أسامة بن زيد^(٢) عند أهل المدينة ثقة مأمون.

(١) ليس في حديث جابر ما يشهد لقوله في حديث جبير بن مطعم «كل أيام التشريق ذبح».

(٢) أسامة بن زيد هو الليثي أخرج له مسلم. وقال الحافظ في «التقريب» صدوق يهم، فهو حسن الحديث.

وفي هذه المسألة أربعة أقوال، هذا أحدها.

والثاني: أنَّ وقت الذبح، يوم النحر، ويومان بعده، وهذا مذهب أحمد، ومالك، وأبي حنيفة رحمهم الله، قال أحمد: هو قول غير واحد من أصحاب محمد ﷺ، وذكره الأثرم عن ابن عمر، وابن عباس رضي الله عنهم.

الثالث: أنَّ وقت النحر يوم واحد، وهو قول ابن سيرين، لأنه اختص بهذه التسمية، فدل على اختصاص حكمها به، ولو جاز في الثلاثة، لقل لها: أيام النحر، كما قيل لها: أيام الرمي، وأيام منى، وأيام الشريق، ولأن العيد يُضاف إلى النحر، وهو يوم واحد، كما يقال: عيد الفطر.

الرابع: قول سعيد بن جبير، وجابر بن زيد: أنه يوم واحد في الأمصار، وثلاثة أيام في منى، لأنها هناك أيام أعمال المناسك من الرمي والطواف والحلق، فكانت أياماً للذبح، بخلاف أهل الأمصار.

فصل

(مسائل تتعلق بالضحية)

ومن هديه ﷺ: أن من أراد التضحية، ودخل يوم العشر، فلا يأخذ من شعره وبشره شيئاً، ثبت النهي عن ذلك في «صحيح مسلم» [٥١١٧] وأما الدارقطني فقال: الصحيح عندي أنه موقوف على أم سلمة.

وكان من هديه ﷺ اختيار الأضحية، واستحسانها، وسلامتها من الغيوب، ونهى أن يُضْحَى بِعَضْبِ الْأُذُنِ وَالْقَرْنِ، أي: مقطوعة الأذن، ومكسورة القرن، النصف فما زاد، ذكره أبو داود [حسن: أحمد: ٦٣٣، وأبو داود: ٢٨٠٥] وأمر أن تُسْتَشْرَفَ الْعَيْنُ وَالْأُذُنُ، أي: يُنْظَرُ إِلَى سَلَامَتِهَا، وأن لا يُضْحَى بِعَوْرَاءَ، ولا مُقَابَلَةً، ولا مُدَابِرَةً، ولا شَرْقَاءَ، ولا خَرْقَاءَ. والمُقَابَلَةُ: هي التي تُقَطَّعُ مَقْدَمُ أُذُنِهَا، وَالْمُدَابِرَةُ: الَّتِي تُقَطَّعُ مُؤَخَّرُ أُذُنِهَا، وَالشَّرْقَاءُ: الَّتِي شُقَّتْ أُذُنُهَا، وَالْخَرْقَاءُ: الَّتِي خُرِثَتْ أُذُنُهَا. ذكره أبو داود [صحيح: أحمد: ٦٠٩، وأبو داود: ٢٨٠٤].

وذكر عنه أيضاً: «أَرْبَعٌ لَا تُجْزَى فِي الْأَصْحَاي: الْعَوْرَاءُ الْبَيِّنُ عَوْرَتُهَا، وَالْمَرِيضَةُ الْبَيِّنُ مَرَضُهَا،

وَالْعَرْجَاءُ الْبَيِّنُ عَرَجُهَا، وَالْكَسِيرَةُ الَّتِي لَا تُثْقَى، وَالْعَجْفَاءُ الَّتِي لَا تُثْقَى» [صحيح: أحمد: ١٨٥١٠، وأبو داود: ٢٨٠٢، والترمذي ١٤٩٧، والنسائي (٢١٤/٧)، وابن ماجه: ٣١٤٤] أي: من هزالها لا مَثْعُ فيها. وذكر أيضاً أن رسول الله ﷺ نهى عن المُصْفَرَّةِ، والمُسْتَأْصَلَةِ، والبَحْفَاءِ، والمُشَيَّعَةِ، والكُشْرَاءِ. فالمُصْفَرَّةُ: الَّتِي تُسْتَأْصَلُ أُذُنُهَا حَتَّى يَبْدُوَ صِمَاجُهَا، وَالْمُسْتَأْصَلَةُ: الَّتِي اسْتُؤْصِلَ قَرْنُهَا مِنْ أَضْلِيلِهَا، وَالْبَحْفَاءُ: الَّتِي بَخِقَتْ عَيْنُهَا، وَالْمَشَيَّعَةُ: الَّتِي لَا تَتَّبِعُ الْغَنَمَ عَجْفًا وَضَعْفًا، وَالْكُشْرَاءُ: الْكَسِيرَةُ [أبو داود: ٢٨٠٣، وسنده ضعيف]، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فصل

(مكان ﷺ بضحي بالمصلّي)

وكان من هديه ﷺ أن يُضْحَى بِالْمُصَلِّي، ذكره أبو داود عن جابر أنه شَهِدَ مَعَهُ الْأَضْحَى بِالْمُصَلِّي، فَلَمَّا قَضَى خُطْبَتَهُ نَزَلَ مِنْ مِنْبَرِهِ، وَأَتَى بِكَبْشٍ، فَذَبَحَهُ بِيَدِهِ وَقَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، هَذَا عَنِّي وَعَمَّنْ لَمْ يُضَحَّ مِنْ أُمَّتِي» [أبو داود: ٢٨١٠، والترمذي: ١٥٢١] وفي «الصحيحين»: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَذْبَحُ وَيَنْحَرُ بِالْمُصَلِّي [البخاري: ٥٥٥٢].

(دعاؤه ﷺ قبل الذبح)

وذكر أبو داود عنه: أنه ذبح يوم النحر كبشَيْنِ أَقْرَبَيْنِ أَمْلَحَيْنِ مَوْجُوعَيْنِ، فَلَمَّا وَجَّهَهُمَا قَالَ: «وَجَّهْتُ وَجْهَيْ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ: وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ مِنْكَ وَلَكَ، عَنْ مُحَمَّدٍ وَأُمِّي، بِسْمِ اللَّهِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ» [أبو داود: ٢٧٩٥، وابن ماجه: ٣١٢١] ثُمَّ ذَبَحَ.

وأمر الناس إذا ذبحوا أن يُحْسِنُوا، وَإِذَا قَتَلُوا أَنْ يُحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ» [مسلم: ٥٠٥٥].

(تجزئ الشاة عن الرجل وأهل بيته)

وكان من هديه ﷺ أن الشاة تُجْزَى عَنِ الرَّجُلِ، وَعَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَلَوْ كَثُرَ عَدَدُهُمْ، كَمَا قَالَ عَطَاءُ بْنُ يَسَارٍ: سَأَلْتُ أَبَا أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيَّ: كَيْفَ كَانَتْ

الضحايا على عهد رسول الله ﷺ؟ فقال: إِنْ كَانَ الرَّجُلُ يُضْحِي بِالشَّاةِ عَنْهُ وَعَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ فَيَأْكُلُونَ وَيُطْعِمُونَ [الترمذي: ١٥٠٥]. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

فصل

في هديه ﷺ في العقيدة

في «الموطأ» أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ الْعَقِيَّةِ، فَقَالَ: «لَا أَحِبُّ الْعُقُوقَ» كَانَهُ كَرَهُ الْأَسْمَ، ذَكَرَهُ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ بَنِي صَمُرَةَ، عَنْ أَبِيهِ. قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: وَأَحْسَنُ أَصَانِيدِهِ مَا ذَكَرَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَنَّ دَاوُدَ بْنَ قَيْسٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عَمْرُو بْنَ شُعَيْبٍ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْعَقِيَّةِ، فَقَالَ: «لَا أَحِبُّ الْعُقُوقَ» وَكَأَنَّهُ كَرَهُ الْأَسْمَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ يَنْسُكَ أَحَدُنَا عَنْ وَلَدِهِ؟ فَقَالَ: «مَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَنْسُكَ عَنْ وَلَدِهِ، فَلْيَفْعَلْ: عَنِ الْغُلَامِ شَاتَانِ، وَعَنِ الْجَارِيَةِ شَاةٌ» [حسن: أحمد: ٦٧١٣، وأبو داود: ٢٨٤٢، والنسائي (١٦٢/٧)].

وصح عنه من حديث عائشة رضي الله عنها: «عَنِ الْغُلَامِ شَاتَانِ، وَعَنِ الْجَارِيَةِ شَاةٌ» [الترمذي: ١٥١٣، وابن ماجه: ٣١٦٣، وابن حبان: ١٠٥٨، وسنده صحيح].

(معنى: «كل غلام رهينة بعقيقته»)

وقال: «كُلُّ غُلَامٍ رَهِينَةٌ بِعَقِيقَتِهِ تُذْبَحُ عَنْهُ يَوْمَ السَّابِعِ، وَيُخَلَّقُ رَأْسُهُ وَيُسَمَّى» [صحيح: أحمد: ٢٠٠٨٣، وأبو داود: ٢٨٣٨، والترمذي: ١٥٢٣، والنسائي (١٦٦/٧)].

قال الإمام أحمد: معناه: أنه محبوس عن الشفاعة في أبيه، والرهن في اللغة: الحبس، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨] وظاهر الحديث أنه رهينة في نفسه، ممنوع محبوس عن خير يراد به، ولا يلزم من ذلك أن يعاقب على ذلك في الآخرة، وإن حبس بترك أبيه العقيدة عما يناله من عق عنه أبواه، وقد يفوت الولد خير بسبب تفريط الأبوين وإن لم يكن من كسبه، كما أنه عند الجماع إذا سمى أبوه، لم يضر الشيطان ولده، وإذا ترك التسمية، لم يحصل للولد هذا الجفط.

وأيضاً فإن هذا إنما يدل على أنها لازمة لا بُد منها، فشبّه لزومها وعدَم انفكاك المولود عنها

بالرهن. وقد يستدل بهذا من يرى وجوبها كالليث بن سعد والحسن البصري، وأهل الظاهر. والله أعلم.

(هل التسمية من العقيدة صحيحة أو غلط؟)

فإن قيل: فكيف تصنعون في رواية همام عن قتادة في هذا الحديث: «ويُدْمَى» قال همام: سُئِلَ قَتَادَةُ عَنْ قَوْلِهِ: «وَيُدْمَى» كَيْفَ يَصْنَعُ بِالْدَمِ؟ فَقَالَ: إِذَا ذُبِحَتِ الْعَقِيَّةُ، أُخِذَتْ مِنْهَا صَوْفَةٌ، وَاسْتَقْبِلَتْ بِهَا أَوْدَاجُهَا، ثُمَّ تُوَضَّعُ عَلَى يَافُوقِ الصَّبِيِّ حَتَّى تَبْسِلَ عَلَى رَأْسِهِ مِثْلَ الْخِيطِ، ثُمَّ يُغْسَلُ رَأْسُهُ بَعْدَ وَيُحْلَقُ. قيل: اِخْتَلَفَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ، فَمَنْ قَاتَلَ: هَذَا مِنْ رِوَايَةِ الْحَسَنِ عَنْ سَمُرَةَ، وَلَا يَصِحُّ سَمَاعُهُ عَنْهُ، وَمِنْ قَاتَلَ: سَمَاعُ الْحَسَنِ عَنْ سَمُرَةَ حَدِيثَ الْعَقِيَّةِ هَذَا صَحِيحٌ، صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ، وَقَدْ ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» عَنْ حَبِيبِ بْنِ الشَّهِيدِ قَالَ: قَالَ لِي مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ: إِذْهَبْ فَسَلِ الْحَسَنَ مِمَّنْ سَمِعَ حَدِيثَ الْعَقِيَّةِ؟ فَسَأَلَهُ فَقَالَ: سَمِعْتُهُ مِنْ سَمُرَةَ [البخاري: ٥٤٧٢].

ثم اِخْتَلَفَ فِي التَّدْمِيَةِ بَعْدَ: هَلْ هِيَ صَحِيحَةٌ، أَوْ غُلَطٌ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ. فَقَالَ أَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِ»: هِيَ وَهَمٌ مِنْ هَمَامَ بْنِ يَحْيَى. وَقَوْلُهُ: «وَيُدْمَى» إِنَّمَا هُوَ «وَيُسَمَّى» وَقَالَ غَيْرُهُ: كَانَ فِي لِسَانِ هَمَامَ لُغَةً فَقَالَ: «وَيُدْمَى» وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يُسَمَّى، وَهَذَا لَا يَصِحُّ، فَإِنْ هَمَامًا وَإِنْ كَانَ وَهَمٌ فِي اللَّفْظِ، وَلَمْ يَقُمْ لِسَانُهُ، فَقَدْ حَكَى عَنْ قَتَادَةَ صِفَةَ التَّدْمِيَةِ، وَأَنَّهُ سَمِعَ عَنْهَا فَاجَابَ بِذَلِكَ، وَهَذَا لَا تَحْتَمِلُهُ اللَّغَةُ بِوَجْهِ. فَإِنْ كَانَ لَفْظُ التَّدْمِيَةِ هُنَا وَهَمًا، فَهُوَ مِنْ قَتَادَةَ، أَوْ مِنَ الْحَسَنِ، وَالَّذِينَ أَثْبَتُوا لَفْظَ التَّدْمِيَةِ قَالُوا: إِنَّهُ مِنْ سَنَةِ الْعَقِيَّةِ، وَهَذَا مَرُورٍ عَنِ الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ، وَالَّذِينَ مَنَعُوا التَّدْمِيَةَ، كَمَا لَكَ، وَالشَّافِعِيُّ، وَأَحْمَدُ، وَإِسْحَاقُ، قَالُوا: «وَيُدْمَى» غُلَطٌ، وَإِنَّمَا هُوَ «وَيُسَمَّى» قَالُوا: وَهَذَا كَانَ مِنْ عَمَلِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَبْطَلَهُ الْإِسْلَامُ، بِدَلِيلِ مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، عَنْ بُرَيْدَةَ بِنِ الْحُصَيْنِ قَالَ: كُنَّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا وَلِدَ لَأَحَدِنَا غُلَامًا ذُبِحَ شَاةٌ وَلَطَّحَ رَأْسُهُ بِدُمِهَا، فَلَمَّا جَاءَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ، كُنَّا نَذْبَحُ شَاةً وَنَحْلِقُ رَأْسَهُ وَنَلَطُّهُ بِزَعْفَرَانٍ [أبو داود: ٢٨٤٣]. قَالُوا: وَهَذَا وَإِنْ كَانَ فِي إِسْنَادِهِ الْحُسَيْنُ بْنُ وَاقِدٍ،

وَلَا يُحْتَجُّ^(١) بِهِ، فَإِذَا انْضَافَ إِلَى قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَمِيطُوا عَنْهُ الْأَذَى» [البخاري تليفاً: ٥٤٧٢] والدم أذى، فكيف يأمرهم أن يُلَطِّخُوهُ بِالْأَذَى؟ قالوا: ومعلوم أن النبي ﷺ عَقَّ عَنِ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ بِكَبْشٍ كَبْشٍ، وَلَمْ يَذْمُهُمَا، وَلَا كَانَ ذَلِكَ مِنْ هَدْيِهِ، وَهَدْيُ أَصْحَابِهِ، قالوا: وكيف يكونُ مِنْ سِتَّةِ تَنْجِيسٍ رَأْسِ الْمَوْلُودِ، وَأَيْنَ لِهَذَا شَاهِدٌ وَنَظِيرٌ فِي سِتَّةِ، وَإِنَّمَا يَلِيقُ هَذَا بِأَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ.

فصل

(هل عقبة الغلام شاتان)

فإن قيل: عَقَّه عن الحسن والحسين بكبش كبش، يَذُلُّ عَلَى أَنْ هَدِيَهُ أَنْ عَلَى الرَّأْسِ رَأْسًا، وَقَدْ صَحَّحَ عَبْدُ الْحَقِّ الْإِسْبِيلِيُّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَنْسَ أَنْ النَّبِيَّ ﷺ عَقَّ عَنِ الْحَسَنِ بِكَبْشٍ، وَعَنِ الْحُسَيْنِ بِكَبْشٍ^(٢) وَكَانَ مَوْلَدُ الْحَسَنِ عَامَ أُخْدِ الْحُسَيْنِ فِي الْعَامِ الْقَابِلِ مِنْهُ.

وروى الترمذي من حديث علي رضي الله عنه قال: عَقَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْحَسَنِ شَاةً، وَقَالَ: «يَا فَاطِمَةُ اخْلُقِي رَأْسَهُ، وَتَصَدَّقِي بِزَنَةِ شَعْرِهِ فِضَّةً، فَوْزَنَاهُ فَكَانَ وَزَنُهُ دِرْهَمًا أَوْ بَعْضُ دِرْهَمٍ» [الترمذي: ١٥١٩]. وهذا وإن لم يكن إسناده متصلاً فحديث أنس وابن عباس يكفيان. قالوا: لَأَنَّهُ نُسِكَ، فَكَانَ عَلَى الرَّأْسِ مِثْلُهُ، كَالْأُضْحِيَّةِ وَدَمِ التَّمَتُّعِ. فَالْجَوَابُ أَنَّ أَحَادِيثَ الشَّاتَيْنِ عَنِ الذَّكَرِ، وَالشَّاةِ عَنِ الْأُنْثَى، أُولَى أَنْ يُوْخَذَ بِهَا لَوَجْهٍ.

أَحَدُهَا: كَثَرْتُهَا، فَإِنَّ رَوَاتَهَا: عَائِشَةُ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو، وَأُمُّ كُرْزٍ الْكَعْبِيَّةُ، وَأَسْمَاءُ.

فروى أبو داود عن أم كُرْزٍ قالت: سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «عَنِ الْغُلَامِ شَاتَانِ مُكَافِئَتَانِ،

وَعَنِ الْجَارِيَةِ شَاةٌ» [صحيح: أحمد: ٢٧١٣٩، وأبو داود: ٢٨٣٥-٢٨٣٦].

قال أبو داود: وسمعتُ أحمد يقول: مُكَافِئَتَانِ: مَسْتَوِيَتَانِ أَوْ مَقَارِبَتَانِ، قُلْتُ: هُوَ مُكَافَأَتَانِ بَفَتْحِ الْفَاءِ، وَمُكَافِئَتَانِ بِكَسْرِهَا، وَالْمُحَدَّثُونَ يَخْتَارُونَ الْفَتْحَ، قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: لَا فَرْقَ بَيْنَ الرَّوَابِيتَيْنِ، لِأَنَّ كُلَّ مَنْ كَافَأْتَهُ، فَقَدْ كَافَأَكَ. وَرَوَى أَيْضًا عَنْهَا تَرْفَعُهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَقْرِؤُوا الطَّيْرَ عَلَى مَكِنَاتِهَا»^(٣) وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «عَنِ الْغُلَامِ شَاتَانِ مُكَافِئَتَانِ، وَعَنِ الْجَارِيَةِ شَاةٌ، لَا يَضْرُكُكُمْ أَذْكَرَانَا كُنْ أُمَّ إِنَاءً» وَعِنْدَهَا أَيْضًا تَرْفَعُهُ «عَنِ الْغُلَامِ شَاتَانِ مِثْلَانِ، وَعَنِ الْجَارِيَةِ شَاةٌ» وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

وقد تقدّم حديثُ عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده في ذلك، وَعَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَهُمْ عَنِ الْغُلَامِ شَاتَانِ مُكَافِئَتَانِ، وَعَنِ الْجَارِيَةِ شَاةٌ [صحيح: الترمذي: ١٥١٣، وابن ماجه: ٣١٦٣، وابن حبان: ١٠٥٨]. قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وروى إسماعيل بن عيَّاش، عن ثابت بن عجلان، عن مجاهد عن أسماء، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُعَقُّ عَنِ الْغُلَامِ شَاتَانِ مُكَافِئَتَانِ وَعَنِ الْجَارِيَةِ شَاةٌ» [صحيح: أحمد: ٢٧٥٨٢]. قَالَ مَهْنًا: قُلْتُ لِأَحْمَدَ: مِنْ أَسْمَاءَ؟ فَقَالَ: يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ.

وفي كتاب الخلال: قَالَ مَهْنًا: قُلْتُ لِأَحْمَدَ: حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ خِدَاشٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهَبٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ أَنَّ أَيُّوبَ بْنَ مُوسَى حَدَّثَهُ، أَنَّ يَزِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَزْنِيِّ حَدَّثَهُ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يُعَقُّ عَنِ الْغُلَامِ، وَلَا يُمَسُّ رَأْسُهُ بِدَمٍ» [ابن ماجه: ٣١٦٦] وَقَالَ: «فِي الْإِبِلِ الْفَرْعُ، وَفِي الْغَنَمِ الْفَرْعُ» فَقَالَ أَحْمَدُ: مَا أَعْرِفُهُ، وَلَا أَعْرِفُ

(١) بل هو حسن الحديث.

(٢) حديث ابن عباس، رواه أبو داود (٢٨٤١)، والنسائي (١٦٥/٧ - ١٦٦) بلفظ: عَقَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِكَبْشَيْنِ كَبْشَيْنِ. وإسناده قوي، وحديث أنس أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (١٠٦١) والبيهقي (٩/ ٢٩٩) بلفظ: «عَقَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ حَسَنِ وَحُسَيْنِ بِكَبْشَيْنِ».

(٣) قال أبو عبيد: المكنات: بيض الضباب، وأحدها مَكْنَةٌ، فجعل للطيور على وجه الاستعارة، ومعناه أن الرجل في الجاهلية كان إذا أراد حاجة أتى طيراً ساقطاً، أو في وكره، فنفره، فإن طار ذات اليمين، مضى لحاجته، وإن طار ذات الشمال، رجع، فنفروا عن ذلك، أي: لا تزجروها وأقروها على مواضعها التي جعلها الله لها، فإنها لا تضرب ولا تنفع.

عبد بن يزيد المزني، ولا هذا الحديث. فقلتُ له: أتتكهه؟ فقال: لا أعرفه، وقصة الحسن والحسين رضي الله عنهما حديث واحد.

الثاني: أنها من فعل النبي ﷺ، وأحاديث الشاتين من قوله، وقوله عام، وفعله يحتمل الاختصاص.

الثالث: أنها متضمنة لزيادة، فكان الأخذ بها أولى.

الرابع: أن الفعل يدلُّ على الجواز، والقول على الاستحباب، والأخذ بهما ممكن، فلا وجه لتعطيل أحدهما.

الخامس: أن قصة الذبح عن الحسن والحسين كانت عام أحد والعام الذي بعده، وأم كُرِز سَمِعَتْ مِنَ النبي ﷺ ما روته عام الحُدبية سنة ست بعد الذبح عن الحسن والحسين، قاله النسائي في كتابه الكبير.

السادس: أن قصة الحسن والحسين يحتمل أن يُراد بها بيان جنس المذبوح، وأنه من الكباش لا تخصيصه بالواحد، كما قالت عائشة: ضحى رسول الله ﷺ عن نسائه بقرة، وكُنَّ تَسْعًا، ومرادها: الجنس لا التخصيص بالواحدة.

السابع: أن الله سبحانه فضل الذكر على الأنثى، كما قال: ﴿وَلَقَدْ آدَارُ كَالَأُنثَى﴾ [آل عمران: ٣٦]، ومقتضى هذا التفاضل ترجيحه عليها في الأحكام، وقد جاءت الشريعة بهذا التفضيل في جعل الذكر كالأنثيين، في الشهادة، والميراث، والدية، فكذلك ألحقت العقبة بهذه الأحكام.

الثامن: أن العقبة تُشبه العتق عن المولود، فإنه رهين بعقيقته، فالعقبة تفكُّه وتمتعه، وكان الأولى أن يُعقَّ عن الذكر بشاتين، وعن الأنثى بشاة، كما أن عتق الأنثيين يقوم مقام عتق الذكر. كما في «جامع الترمذي» وغيره عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ مُسْلِمَةٍ أَعْتَقَ امْرَأَةً مُسْلِمًا، كَانَ فَكَاهُ مِنَ النَّارِ، يُجْزَى كُلُّ غُضُو مِنْهُ غُضْوًا مِنْهُ، وَأَيُّمَا امْرَأَةٍ مُسْلِمَةٍ أَعْتَقَ امْرَأَتَيْنِ مُسْلِمَتَيْنِ

كَانَتْ فَكَاهُ مِنَ النَّارِ، يُجْزَى كُلُّ غُضُو مِنْهُمَا غُضْوًا مِنْهُ، وَأَيُّمَا امْرَأَةٍ مُسْلِمَةٍ أَعْتَقَتْ امْرَأَةً مُسْلِمَةً كَانَتْ فَكَاهُ مِنَ النَّارِ، يُجْزَى كُلُّ غُضُو مِنْهَا غُضْوًا مِنْهَا» [الترمذي: ١٥٤٧] وهذا حديث صحيح.

فصل

ذكر أبو داود في «المراسيل» عن جعفر بن محمد، عن أبيه أن النبي ﷺ قال في العقبة التي عَقَّتْهَا فَاطِمَةُ عن الحسن والحسين رضي الله عنهما، أن ابْتَعْتُوا إِلَى بَيْتِ الْقَابِلَةِ بِرِجْلِ وَكَلُوا وَأَطْعِمُوا وَلَا تَكْسِرُوا مِنْهَا عَظْمًا [اليهقي (٣٠٢/٩)، وفيه انقطاع].

فصل

(هل عَقَّ عن نفسه؟)

وذكر ابنُ أَيْمَنٍ من حديث أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ عَقَّ عَنْ نَفْسِهِ بَعْدَ أَنْ جَاءَتْهُ النَّبُوءَةُ، وهذا الحديث قال أبو داود في «مسائله»: سمعتُ أحمد حدثهم بحديث الهيثم بن جميل، عن عبد الله بن المشي^(١) عن ثُمَامَةَ عن أنس أن النبي ﷺ عَقَّ عَنْ نَفْسِهِ، فقال أحمد: عبد الله بن محرر عن قتادة عن أنس أن النبي ﷺ عَقَّ عَنْ نَفْسِهِ، قال مهنا: قال أحمد: هذا منكرو، وضعف عبد الله بن المحرر^(٢).

فصل

(الان في ولد المولود)

ذكر أبو داود عن أبي رافع قال: رأيتُ النبي ﷺ أَدْنَى فِي أُذُنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ حِينَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِالصَّلَاةِ [صحيح لغيره: أحمد: ٢٣٨٦٩، وأبو داود: ٥١٠٥، والترمذي: ١٥١٤].

فصل

في هديه ﷺ في تسمية المولود وختانه

قد تقدَّم قوله في حديث قتادة عن الحسن، عن سَمُرَةَ في العقبة: «تَذْبِيحُ يَوْمَ سَابِعِهِ وَيُسَمَّى» قال الميموني: تذكرونا لَكُمْ يُسَمَّى الصَّبِيُّ؟ قال لنا أبو عبد الله: يُروى عن أنس أنه يسمي لثلاثة، وأما

(١) هو كثير الغلط، فالسند ضعيف.

(٢) وذكره الحافظ في «الفتح» (٥١٤/٩)، ونسبه للبزار، وقال البزار: تفرد به عبد الله بن محرر وهو ضعيف، ووصفه الحافظ في «التقريب» بقوله: متروك.

سهلاً فأبى، وقال: «السَّهْلُ يُوطَأُ وَيُمْتَهَنُ» [البخاري: ٦١٩٠].

قال أبو داود: وغيرَ النبي ﷺ اسمَ العاصي وعَزِيز وعَتْلَة وشَيْطَان والحَكَمَ وغَرَاب وحُبَاب وشِهَاب، فسماه هشاماً، وسَمَى حرباً سِلماً، وسَمَى المضطجع المنبِعث، وأرضاً عَفْرَةً سَمَّاهَا خَصْرَةً، وشَغَب الضَّلَالَةَ سَمَّاهَا شَغَبُ الْهُدَى، وبنو الرُّنَيَّة سَمَّاهُم بني الرُّشْدَةِ، وسَمَى بني مُغَوِيَةَ بني رُشْدَةَ [أبو داود: ٤٩٥٦].

فصل

في فقه هذا الباب

(اختيار السماء الحسنة لأن السماء قوالب للمعاني)

لما كانت الأسماء قوالب للمعاني، ودأبها، اقتضت الحكمة أن يكون بينها وبينها ارتباط وتناسب، وأن لا يكون المعنى معها بمنزلة الأجنبي المحض الذي لا تعلق له بها، فإن حكمة الحكيم تأبى ذلك، والواقع يشهد بخلافه، بل للأسماء تأثير في المسميات، ولِلْمُسَمَّيات تأثير عن أسمائها في الحُسن والقبح، والخفة والثقل، واللطافة والكثافة، كما قيل:

وقلما أبصرت عيناك ذا لَقَبٍ
إلا ومَعْنَاهُ إن فُكِّرْتَ في لَقَبِهِ

وكان ﷺ يستحب الاسم الحسن، وأمر إذا أُبْرِدُوا إليه يريد أن يكون حسن الاسم حسن الوجه [أبو الشيخ في «أخلاق النبي ﷺ» (٢٧٤) وفي سننه ضعيفاً]. وكان يأخذ المعاني من أسمائها في المنام واليقظة، كما رأى أنه وأصحابه في دار عُقْبَةَ بن رَافِع، فأثروا بِرُطْبٍ مِنْ رُطْبِ ابْنِ طَابٍ، فأولاه بأن لهم الرفعة في الدنيا، والعاقبة في الآخرة، وأن الذين الذي قد اختاره الله لهم قد أَرُطِبَ وطَابَ [مسلم: ٥٩٣٢]، وتأول سهولة أمرهم يوم الحليية من مجيء سهيل بن عمرو إليه [البخاري: ٣١٥٣].

ونذب جماعة إلى حلب شاة، فقام رجل يحلبها، فقال: «ما اسمُك؟» قال: «مُرَّة»، فقال: اجلس، فقام

سمرة، فقال: يُسَمَّى في اليوم السابع. فأما الخُتَان، فقال ابنُ عَبَّاس: كانوا لا يختنون الغلام حتى يُدْرِكَ. قال الميموني: سمعتُ أحمد يقول: كان الحسن يكره أن يُختن الصبي يومَ سابعه وقال حنبل: إن أبا عبد الله قال: وإن خُتِنَ يومَ السابع، فلا بأس، وإنما كره الحسن ذلك لثلاث يشبهه باليهود، وليس في هذا شيء. قال مكحول: ختن إبراهيمُ ابنه إسحاق لسبعة أيام، وختن إسماعيل ثلاث عشرة سنة، ذكره الخلال. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فصار خُتَانُ إسحاق سنة في ولده، وختان إسماعيل سنة في ولده، وقد تقدم الخلاف في ختان النبي ﷺ متى كان ذلك^(١).

فصل

في هديه ﷺ في الأسماء والكنى

ثبت عنه ﷺ أنه قال: «إِنْ أَخْنَحَ اسْمٌ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسْمَى مَلِكَ الْأَمْلَاقِ، لَا مَلِكَ إِلَّا اللَّهُ» [البخاري: ٦٢٠٦].

وثبت عنه أنه قال: «أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وَمَعَامٌ، وَأَقْبَحُهَا حَرْبٌ وَمُرَّةٌ» [مسلم: ٥٥٨٧].

وثبت عنه أنه قال: «لَا تُسَمِّنُ عَلَامَكَ يَسَاراً وَلَا رِيحاً وَلَا نَجِيحاً وَلَا أَفْلَحَ، فَإِنَّكَ تَقُولُ: أَتَمَّتْ هُو؟ فَلَا يَكُونُ، فَيَقَالُ: لَا» [مسلم: ٥٦٠١].

وثبت عنه أنه غير اسم عاصية، وقال: «أَنْتِ جَمِيلَةٌ» [مسلم: ٥٦٠٤].

وكان اسم جُوَيْرِيَةَ بَرَّةً، فغيَّره رسول الله ﷺ باسم جُوَيْرِيَةَ [مسلم: ٥٦٠٦].

وقالت زينب بنت أم سلمة: نهى رسول الله ﷺ أن يُسَمَّى بهذا الاسم، فقال: «لَا تُرْكُوا أَنْفُسَكُمْ اللَّهُ أَغْلَمُ بِأَهْلِ الْبَرِّ مِنْكُمْ» [مسلم: ٥٦٠٩].

وغير اسم أَضْرَمَ بَرْرَةَ [أبو داود: ٤٩٥٤]، وغيرَ اسمَ أبي الحَكَمِ بِأبي شُرَيْحٍ [أبو داود: ٤٩٥٥، والنسائي: ٢٢٦/٨].

وغيرَ اسمَ حَزْنٍ جَدَّ سعيد بن المسيب وجعله

(١) والختان من خصال الفطرة كما في «الصحيحين».

أَخْرُ فَقَالَ: «مَا اسْمُكَ؟» قَالَ: أَظُنُّ حَرْبَ، فَقَالَ: اجْلِسْ، فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ: «مَا اسْمُكَ؟» فَقَالَ: يَعْيشُ، فَقَالَ: «أَحْلِبُهَا» [مالك (١٧٣/٢)].

وكان يكره الأميكة المنكرة الأسماء ويكره العبور فيها، كما مرَّ في بعض غزواته بين جبلين، فسأل عن اسميهما فقالوا: فاضِحٌ ومُخَزٍ، فعدلَ عنهما، ولم يَجْزُ بينهما.

ولما كان بين الأسماء والمسميات من الارتباط والتناسب والقراءة، ما بين قوالب الأشياء وحقايقها، وما بين الأرواح والأجسام، عَبَّرَ الْعَقْلُ مِنْ كُلِّ مَنَاهَا إِلَى الْآخَرِ، كَمَا كَانَ لِيَاسُ بْنُ مَعَاوِيَةَ وَغَيْرِهِ يَرَى الشَّخْصَ، فَيَقُولُ: يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ اسْمُهُ كَيْتٌ وَكَيْتٌ، فَلَا يَكَادُ يُخْطِئُهُ، وَضِدُّ هَذَا الْعُبُورِ مِنَ الْأَسْمَاءِ إِلَى مَسْمَاهُ، كَمَا سَأَلَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَجُلًا عَنْ اسْمِهِ، فَقَالَ: جَمْرَةٌ، فَقَالَ: وَاسْمُ أَبِيكَ؟ قَالَ: شِهَابٌ، قَالَ وَمَنْ؟ قَالَ: مِنَ الْحُرَقَةِ، قَالَ: فَمَنْزِلُكَ؟ قَالَ: بِحَرَّةِ النَّارِ، قَالَ: فَأَيْنَ مَسْكَنُكَ؟ قَالَ: بِذَاتِ لَطْفِي، قَالَ: أَذْعَبَ فَقَدْ احْتَرَقَ مَسْكَنُكَ، فَذَهَبَ فَوَجَدَ الْأَمْرَ كَذَلِكَ [مالك (١٧٣/٢)]. فَعَبَّرَ عُمَرَ مِنَ الْأَلْفَافِ إِلَى أَرْوَاحِهَا وَمَعَانِيهَا، كَمَا عَبَّرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ اسْمِ سُهَيْلٍ إِلَى سَهْلَةِ أَمْرِهِمْ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ، فَكَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، وَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ بِتَحْسِينِ أَسْمَائِهِمْ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِهَا، وَفِي هَذَا - وَاللَّهِ أَعْلَمُ - تَنْبِيهُ عَلَى تَحْسِينِ الْأَفْعَالِ الْمُنَاسِبَةِ لِتَحْسِينِ الْأَسْمَاءِ، لِتَكُونَ الدَّعْوَةُ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ بِالْأَسْمَاءِ الْحَسَنِ، وَالْوَصْفِ الْمُنَاسِبِ لَهُ.

وتأمل كيف اشتقَّ للنبي ﷺ مِنْ وَصْفِهِ اسْمَانِ مُطَابِقَانِ لِمَعْنَاهُ، وَهُمَا أَحْمَدُ وَمُحَمَّدٌ، فَهُوَ لَكثَرُهُ مَا فِيهِ مِنَ الصِّفَاتِ الْمَحْمُودَةِ مُحَمَّدٌ، وَلِشَرَفِهَا وَفَضْلِهَا عَلَى صِفَاتٍ غَيْرِهِ أَحْمَدُ، فَارْتَبَطَ الْأَسْمُ بِالْمَسْمُومِ ارْتِبَاطُ الرُّوحِ بِالْجَسَدِ، وَكَذَلِكَ تَكْنِيئُهُ ﷺ لِأَبِي الْحَكَمِ بْنِ هِشَامٍ بِأَبِي جَهْلٍ كُنْيَةً مُطَابِقَةً لَوْصِفِهِ وَمَعْنَاهُ، وَهُوَ أَحَقُّ الْخَلْقِ بِهَذِهِ الْكُنْيَةِ، وَكَذَلِكَ تَكْنِيَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِعَبْدِ الْعَزْزِيِّ بِأَبِي لَهَبٍ، لَمَا كَانَ

مَصِيرُهُ إِلَى نَارِ ذَاتِ لَهَبٍ، كَانَتْ هَذِهِ الْكُنْيَةُ الْيَقِيْنُ بِهِ وَأَوْفَقُ، وَهُوَ بِهَا أَحَقُّ وَأَخْلَقُ.

وَلَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَاسْمُهَا يَثْرِبُ لَا تُعْرَفُ بِغَيْرِ هَذَا الْأَسْمَاءِ، غَيَّرَهُ بِطَيْبَةِ [البخاري: ١٤٨١، ومسلم: ٣٣٧١] لَمَّا زَالَ عَنْهَا مَا فِي لَفْظِ يَثْرِبُ مِنْ التَّشْرِيبِ بِمَا فِي مَعْنَى طَيْبَةٍ مِنَ الطَّيِّبِ، اسْتَحَقَّتْ هَذَا الْأَسْمَاءَ، وَازْدَادَتْ بِهِ طَيْبًا آخَرَ، فَأَثَرُ طَيْبِهَا فِي اسْتِحْقَاقِ الْأَسْمَاءِ، وَزَادَهَا طَيْبًا إِلَى طَيْبِهَا.

وَلَمَّا كَانَ الْأَسْمُ الْحَسَنُ يَقْتَضِي مَسْمَاهُ، وَيَسْتَدْعِيهِ مِنْ قَرَبٍ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِبَعْضِ قِبَائِلِ الْعَرَبِ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ: يَا بَنِي عَبْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَسَّنَ أَسْمَاءَكُمْ وَاسْمُ أَبِيكُمْ، فَانْظُرْ كَيْفَ دَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ بِحَسَنِ اسْمِ أَبِيهِمْ، وَبِمَا فِيهِ مِنَ الْمَعْنَى الْمَقْتَضِيَةِ لِلدَّعْوَةِ، وَتَأْمَلْ أَسْمَاءَ السَّتَةِ الْمُتَبَارِزِينَ يَوْمَ بَدْرٍ كَيْفَ اقْتَضَى الْقَدْرُ مُطَابَقَةَ أَسْمَائِهِمْ لِأَحْوَالِهِمْ يَوْمَئِذٍ، فَكَانَ الْكَفَّارُ: شَيْبَةً، وَغُثْبَةً، وَالْوَلِيدُ: ثَلَاثَةُ أَسْمَاءٍ مِنَ الضَّعْفِ، فَالْوَلِيدُ لَهُ بَدَايَةُ الضَّعْفِ، وَشَيْبَةُ لَهُ نَهَايَةُ الضَّعْفِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الرُّوم: ٥٤] وَغُثْبَةً مِنَ الْعَتَبِ، فَذَلَّتْ أَسْمَاؤُهُمْ عَلَى عَتَبٍ يَجْلُ بِهَمْ، وَضَعُفٌ يَنَالُهُمْ، وَكَانَ أَقْرَانُهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: عَلِيٌّ، وَعَبِيدَةُ، وَالْحَارِثُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ثَلَاثَةُ أَسْمَاءٍ تُنَاسِبُ أَوْصَافَهُمْ^(١)، وَهِيَ الْعُلُو، وَالْعُبُودِيَّةُ، وَالسَّعْيُ الَّذِي هُوَ الْحَرِثُ فَعَلَوْا عَلَيْهِمْ بِعُبُودِيَّتِهِمْ وَسَعْيِهِمْ فِي حَرْثِ الْآخِرَةِ. وَلَمَّا كَانَ الْأَسْمُ مَقْتَضِيًا لِمَسْمَاهُ، وَمَوْثِرًا فِيهِ، كَانَ أَحَبَّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ مَا اقْتَضَى أَحَبَّ الْأَوْصَافِ إِلَيْهِ، كَعَبْدِ اللَّهِ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَكَانَ إِضَافَةُ الْعُبُودِيَّةِ إِلَى اسْمِ اللَّهِ، وَاسْمِ الرَّحْمَنِ، أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ إِضَافَتِهَا إِلَى غَيْرِهِمَا، كَالْقَاهِرِ، وَالْقَادِرِ، فَعَبْدُ الرَّحْمَنِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ عَبْدِ الْقَادِرِ، وَعَبْدُ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ عَبْدِ رَبِّهِ، وَهَذَا لِأَنَّ التَّعْلُقَ الَّذِي بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ اللَّهِ إِنَّمَا هُوَ الْعُبُودِيَّةُ الْمُحَضَّةُ، وَالتَّعْلُقُ الَّذِي بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ الْعَبْدِ بِالرَّحْمَةِ الْمُحَضَّةِ، فَبَرَحْمَتِهِ كَانَ وَجُودُهُ وَكَمَالُ وَجُودِهِ، وَالْغَايَةُ الَّتِي أَوْجَدَهُ لِأَجْلِهَا أَنْ يَتَّأَلَّهَ لَهُ

(١) فِي هَذَا التَّعْلِيلِ نَظَرٌ، فَإِنَّ الثَّلَاثَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ هُوَ حِمْزَةُ عَمِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَمَّا عُبَيْدَةُ وَالْحَارِثُ، فَهُمَا وَاحِدٌ، لِأَنَّ عُبَيْدَةَ هُوَ ابْنُ الْحَارِثِ.

عنه «تَسْمَوُا بِأَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ» [أحمد: ١٩٠٣٢، وأبو داود: ٤٩٥٠، والنسائي (٢١٨/٦ - ٢١٩)، وفي سننه مجهول] ولو لم يكن في ذلك من المصالح إلا أن الاسم يُذَكَّرُ بمسماه، ويقضي التعلُّقُ بمعناه، لكفى به مصلحة مع ما في ذلك من حفظ أسماء الأنبياء وذكرها، وأن لا تُنسى، وأن تُذَكَّرَ أسماؤهم بأوصافهم وأحوالهم.

فصل

(علة النهي عن التسمية ببسار وأفلح ونجيج ورباح)

وأما النهي عن تسمية الغلام بـ : يسار وأفلح ونجيج ورباح، فهذا لمعنى آخر قد أشار إليه في الحديث، وهو قوله: «فإنك تقول: أَتُنْتُ هو؟ فيقال: لا» [مسلم: ٥٩٩٩] - والله أعلم - هل هذه الزيادة من تمام الحديث المرفوع، أو مدرجة من قول الصحابي، وبكل حال فإن هذه الأسماء لما كانت قد تُوجب تطييراً تَكَرَّهه النفوس، ويَصُدُّها عما هي بصده، كما إذا قلت لرجل: أعنك يسار، أو رباح، أو أفلح؟ قال: لا، تطيَّرت أنت وهو من ذلك، وقد تقع الطَّيْرَةُ لا سيما على المتطيرين، فقل من تطيَّرت إلا ووقعت به طيرته، وأصابه طائرته، كما قيل:

تَعَلَّمُ أَنَّهُ لَا طَيْرَ إِلَّا

عَلَى مُتَطَيِّرٍ فَهُوَ الثُّبُورُ
اقتضت حكمة الشارع، الرؤوف بأمته، الرحيم بهم، أن يمنعهم من أسباب تُوجب لهم سماعَ المكروه أو وقوعه، وأن يعدل عنها إلى أسماء تُحْصَلُ المقصود من غير مفسدة، هذا أولى، مع ما ينضاف إلى ذلك من تعليق ضد الاسم عليه، بأن يُسمى يساراً من هو من أعسر الناس، ونجيجاً من لا نجاح عنده، ورباحاً من هو من الخاسرين، فيكون قد وقع في الكذب عليه وعلى الله، وأمر آخر أيضاً وهو أن يُطالب المسمَّى بمقتضى اسمه، فلا يوجد عنده، فيجعل ذلك سبباً لذمه وسبه، كما قيل:

سَمَوْكَ مِنْ جَهْلِهِمْ سَدِيداً

وَاللَّهُ مَا فِيكَ مِنْ سَدَادٍ

أَنْتَ الَّذِي كَوْنُهُ فَسَاداً

فِي عَالَمِ الْكَوْنِ وَالْفَسَادِ

فتوصل الشاعر بهذا الاسم إلى ذم المسمَّى به. ولي من أبيات:

وحده محبة وخوفاً، ورجاء وإجلالاً وتعظيماً، فيكون عَبْدُ اللَّهِ وقد عبده لما في اسم الله من معنى الإلهية التي يستحيل أن تكون لغيره، ولما غلبت رحمته غضبه وكانت الرحمة أحب إليه من الغضب، كان عبد الرحمن أحب إليه من عبد القاهر.

فصل

ولما كان كلُّ عبد متحرِّكاً بالإرادة، والهَمُّ مبدأ الإرادة، ويترتب على إرادته حركته وكسبه، كان أصدق الأسماء اسمُ هَمَّامٍ واسمُ حارث، إذ لا ينفكُ مسماهما عن حقيقة معناهما، ولما كان المُلْكُ الحقُّ لِلَّهِ وحده، ولا ملك على الحقيقة سواه، كان أخنخ اسم وأوضعه عند الله، وأغضبه له اسم «شاهان شاه» أي: ملك الملوك، وسلطان السلاطين، فإن ذلك ليس لأحد غير الله، فتسمية غيره بهذا من أبطل الباطل، والله لا يحب الباطل.

وقد ألحق نصُّ أهل العلم بهذا «قاضي القضاة» وقال: ليس قاضي القضاة إلا من يقضي الحق وهو خير الفاصلين، الذي إذا قضى أمراً فإنما يقول له: كن فيكون.

ويلي هذا الاسم في الكراهة والقيح والكذب: سيّد الناس، وسيّد الكل، وليس ذلك إلا لرسول الله ﷺ خاصة، كما قال: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ» [البخاري: ٣٣٤٠، ومسلم: ٥٩٤٠] فلا يجوز لأحد قط أن يقول عن غيره: إِنَّهُ سَيِّدُ النَّاسِ وسَيِّدُ الْكُلِّ، كما لا يجوز أن يقول: إِنَّهُ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ.

فصل

ولما كان مسمى الحرب والمُرة أكرة شيء للنفوس وأقبحها عندها، كان أقبح الأسماء حرباً ومرة، وعلى قياس هذا حنظلة وخزن، وما أشبههما، وما أجدر هذه الأسماء بتأثيرها في مسمياتها، كما أثر اسم «خزن» الحزونة في سعيد بن المسيّب وأهل بيته.

فصل

ولما كان الأنبياء سادات بني آدم، وأخلاقهم أشرف الأخلاق، وأعمالهم أصح الأعمال، كانت أسماؤهم أشرف الأسماء، فندب النبي ﷺ أمته إلى التسمي بأسمائهم، كما في «سنن أبي داود» والنسائي

وَسَمَّيْتُهُ صَالِحًا فَاغْتَدَى

بِضِدِّ اسْمِهِ فِي الْوَرَى سَائِرًا

وَلَقَدْ بَانَ اسْمُهُ سَائِرٌ

لَاوْصَافِهِ فَغَدَا شَاهِرًا

وهذا كما أن من الممدح ما يكون ذمًا وموجبًا لسقوط مرتبة الممدوح عند الناس، فإنه يُمدح بما ليس فيه، فتطالبه النفوس بما مُدِّح به، وتظلمه عنده، فلا تجده كذلك، فتقلب ذمًا، ولو ترك بغير مدح، لم تحصل له هذه المفسدة، ويشبه حاله حال مَنْ ولي ولاية سيئة، ثم عزل عنها، فإنه تنقص مرتبته عما كان عليه قبل الولاية، وينقص في نفوس الناس عما كان عليه قبلها، وفي هذا قال القائل:

إِذَا مَا وَصَفْتَ أَمْرًا لَأَمْرِي

فَلَا تَغُلْ فِي وَصْفِهِ وَأَقْصِدْ

فَإِنَّكَ إِذْ تَغُلْ تَغُلُّ الظُّرُ

نُ فَيَوِي إِلَى الْأَمَدِ الْأَبْعَدِ

فَيَنْقُصُ مِنْ حَيْثُ عَظُمَتْهُ

لِفَضْلِ الْمَغِيبِ عَنِ الْمَشْهَدِ

وأمر آخر: وهو ظنُّ المسمى واعتقاده في نفسه أنه كذلك، فيقع في تركية نفسه وتعظيمها وترفعها على غيره، وهذا هو المعنى الذي نهى النبي ﷺ لأجله أن تُسمى «بِرَّة» وقال: «لَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَقْلٍ الْبِرِّ مِنْكُمْ» [مسلم: ٥٦٠٨].

وعلى هذا ففكره التسمية بـ: التقي، والمُتقي، والمُطيع، والطائع، والراضي، والمُحسن، والمُخلص، والمنيب، والرشيدي، والسديد. وأما تسمية الكفار بذلك، فلا يجوز التمكن منه، ولا دُعَاؤُهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ، ولا الإخبار عنهم بها، والله عز وجل يغضب من تسميتهم بذلك.

فصل

(الكنية)

وأما الكنية فهي نوع تكريم للمكني وتنويه به كما

قال الشاعر:

أَكْنِيهِ حِينَ أَنَادِيهِ لِأَكْرِمَهُ

وَلَا أَلْقِبُهُ وَالسَّوَدَةُ اللَّقْبُ

وكنى النبي ﷺ صهيياً بأبي يحيى، وكنى علياً رضي الله عنه بأبي تراب إلى كنيته بأبي الحسن، وكانت أحب كنيته إليه، وكنى أخا أنس بن مالك وكان صغيراً دون البلوغ بأبي عمير.

(حكم التكني بأبي القاسم)

وكان هذبه ﷺ تكنية من له ولد، ومن لا ولد له، ولم يثبت عنه أنه نهى عن كنية إلا الكنية بأبي القاسم، فصح عنه أنه قال: «تَسَمَّوْا بِأَسْمِي وَلَا تَكْنُؤُوا بِكُنْيَتِي» [البخاري: ٦١٨٧] فاختلف الناس في ذلك على أربعة أقوال.

أحدها: أنه لا يجوز التكني بكنيته مطلقاً، سواء أفردوا عن اسمه، أو قرنوا به، وسواء محياه وبعد ماته، وعمدتهم عموم هذا الحديث الصحيح وإطلاقه، وحكى البيهقي ذلك عن الشافعي، قالوا: لأن النهي إنما كان لأن معنى هذه الكنية والتسمية مختصة به ﷺ، وقد أشار إلى ذلك بقوله: «وَاللَّهُ لَا أُعْطِي أَحَدًا، وَلَا أَمْنَعُ أَحَدًا، وَإِنَّمَا أَنَا قَائِمٌ، أَضْعُ حَيْثُ أَمِرْتُ» [البخاري: ٣١١٧، ومسلم: ٥٥٨٨] قالوا: ومعلوم أن هذه الصفة ليست على الكمال لغيره. واختلف هؤلاء في جواز تسمية المولود بقاسم، فأجازوه طائفة، ومنعه آخرون، والمجيزون نظروا إلى أن العلة عدم مشاركة النبي ﷺ فيما اختص به من الكنية، وهذا غير موجود في الاسم، والمانعون نظروا إلى أن المعنى الذي نهى عنه في الكنية موجود مثله هنا في الاسم سواء، أو هو أولى بالمنع، قالوا: وفي قوله: «إِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ» إشعار بهذا الاختصاص.

القول الثاني: أن النهي إنما هو عن الجمع بين اسمه وكنيته، فإذا أفرد أحدهما عن الآخر، فلا بأس. قال أبو داود: باب من رأى أن لا يجمع بينهما، ثم ذكر حديث أبي الزبير عن جابر أن النبي ﷺ قال: «مَنْ تَسَمَّى بِأَسْمِي فَلَا يَتَكَنَّ بِكُنْيَتِي، وَمَنْ تَكَنَّ بِكُنْيَتِي فَلَا يَتَسَمَّ بِأَسْمِي» [أبو داود: ٤٩٦٦، والترمذي: ٢٨٤٥] ورواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب، وقد رواه الترمذي أيضاً من حديث محمد بن عجلان عن أبيه عن أبي هريرة وقال: حسن صحيح، ولفظه: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَجْمَعَ أَحَدٌ بَيْنَ اسْمِهِ

وكنيته، ويُسمَّى مُحمداً أبا القاسم [الترمذي: ٢٨٤٣] قال أصحاب هذا القول: فهذا مقيدٌ مفسرٌ لما في «الصحيحين» من نهيه عن التكني بكنيته، قالوا: ولأن في الجمع بينهما مشاركةً في الاختصاص بالاسم والكنية، فإذا أُفردَ أحدهما عن الآخر، زال الاختصاص.

القول الثالث، جواز الجمع بينهما وهو المنقول عن مالك، واحتج أصحاب هذا القول بما رواه أبو داود، والترمذي من حديث محمد بن الحنفية، عن علي رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله إنَّ ولَدَ لي وَلَدٌ مِنْ بَعْدِكَ أَسْمِيهِ بِأَسْمِكَ وَأَخْنِيهِ بِكُنْيَتِكَ؟ قال: «نعم». قال الترمذي: حديث حسن صحيح [أبو داود: ٤٩٦٧، والترمذي: ٢٨٤٦].

فصل

(التكني بأبي عيسى)

وقد كره قومٌ من السلف والخلف الكنية بأبي عيسى، وأجازها آخرون، فروى أبو داود عن زيد بن أسلم أن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ضرب ابنًا له يُكنى أبا عيسى، وأن المغيرة بن شعبة تكنى بأبي عيسى، فقال له عمر: أما يكفيك أن تكنى بأبي عبد الله؟ فقال: إنَّ رسول الله ﷺ كُتِنِي، فقال: إن رسول الله ﷺ قد عُفِرَ له ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وما تَأَخَّرَ، وإنا لنفي جَلَجِنًا فلم يَزَلْ يُكنى بأبي عبد الله حتى هَلَكَ^(٢) [أبو داود: ٤٩٦٣].

(كنى امهات المؤمنين)

وقد كنى عائشة بأُمِّ حَبِيبِ اللَّهِ [أبو داود: ٤٩٧٠]، وكان لنسائه أيضاً كنى كأم حبيبة، وأم سلمة.

فصل

(الذي عن تسمية العنب كرمًا)

ونهى رسول الله ﷺ عن تسمية العنب كرمًا وقال: «الْكُرْمُ قُلُوبُ الْمُؤْمِنِ» [البخاري: ٦١٨٢، ومسلم: ٥٨٦٧] وهذا لأن هذه اللفظة تدلُّ على كثرة الخير والمنافع في المسمى بها، وقلب المؤمن هو المستحقُّ لذلك دون شجرة العنب، ولكن: هل المراد النهي عن تخصيص شجرة العنب بهذا الاسم، وأن قلب المؤمن أولى به منه، فلا يُمنع من تسميته بالكرم كما قال في «المسكين» و«الرقوب» و«المفلس»^(٣) أو

وفي «سنن أبي داود» عن عائشة قالت: جاءت امرأة، إلى النبي ﷺ فقالت: يا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إني وَلَدْتُ غُلَامًا فسميته محمداً وكنيته أبا القاسم، فذَكَرَ لي أنك تكره ذلك؟ فقال: «مَا الَّذِي أَحَلَّ اسْمِي وَحَرَّمَ كُنْيَتِي؟ أَوْ مَا الَّذِي حَرَّمَ كُنْيَتِي وَأَحَلَّ اسْمِي؟» [أبو داود: ٤٩٦٨، وفي سننه مجهول]: قال هؤلاء: وأحاديث المنع منسوخة بهذين الحديثين.

القول الرابع: إن التكني بأبي القاسم كان ممنوعاً منه في حياة النبي ﷺ، وهو جازز بعد وفاته، قالوا: وسبب النهي إنما كان مختصاً بحياته، فإنه قد ثبت في «الصحيح» من حديث أنس قال: نادى رجل بالبيع: يا أبا القاسم، فالتفت إليه رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني لَمْ أَهْنِكْ، إنما دعوت فلاناً، فقال رسول الله ﷺ: «تَسَمَّوْا بِاسْمِي وَلَا تَكْنُوا بِكُنْيَتِي» [البخاري: ٣٥٣٧، ومسلم: ٥٥٨١] قالوا: وحديث علي فيه إشارة إلى ذلك بقوله: إن وَلَدَ لي مِنْ بَعْدِكَ وَلَدٌ، ولم يسأله عمن يولد له في حياته، ولكن قال علي رضي الله عنه في هذا الحديث: وكانت رخصة لي. وقد شذ من لا يؤيِّه لقوله، فمنع التسمية باسمه ﷺ

القول الرابع: إن التكني بأبي القاسم كان ممنوعاً منه في حياة النبي ﷺ، وهو جازز بعد وفاته، قالوا: وسبب النهي إنما كان مختصاً بحياته، فإنه قد ثبت في «الصحيح» من حديث أنس قال: نادى رجل بالبيع: يا أبا القاسم، فالتفت إليه رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني لَمْ أَهْنِكْ، إنما دعوت فلاناً، فقال رسول الله ﷺ: «تَسَمَّوْا بِاسْمِي وَلَا تَكْنُوا بِكُنْيَتِي» [البخاري: ٣٥٣٧، ومسلم: ٥٥٨١] قالوا: وحديث علي فيه إشارة إلى ذلك بقوله: إن وَلَدَ لي مِنْ بَعْدِكَ وَلَدٌ، ولم يسأله عمن يولد له في حياته، ولكن قال علي رضي الله عنه في هذا الحديث: وكانت رخصة لي. وقد شذ من لا يؤيِّه لقوله، فمنع التسمية باسمه ﷺ

القول الرابع: إن التكني بأبي القاسم كان ممنوعاً منه في حياة النبي ﷺ، وهو جازز بعد وفاته، قالوا: وسبب النهي إنما كان مختصاً بحياته، فإنه قد ثبت في «الصحيح» من حديث أنس قال: نادى رجل بالبيع: يا أبا القاسم، فالتفت إليه رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني لَمْ أَهْنِكْ، إنما دعوت فلاناً، فقال رسول الله ﷺ: «تَسَمَّوْا بِاسْمِي وَلَا تَكْنُوا بِكُنْيَتِي» [البخاري: ٣٥٣٧، ومسلم: ٥٥٨١] قالوا: وحديث علي فيه إشارة إلى ذلك بقوله: إن وَلَدَ لي مِنْ بَعْدِكَ وَلَدٌ، ولم يسأله عمن يولد له في حياته، ولكن قال علي رضي الله عنه في هذا الحديث: وكانت رخصة لي. وقد شذ من لا يؤيِّه لقوله، فمنع التسمية باسمه ﷺ

(١) بل هو صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح ولا حلة فيه.

(٢) وقوله: «جلجنتا» معناه أنا بقينا في عدد أمثالنا من المسلمين لا ندرى ما يصنع بنا، وفي «النهاية»: الجليج: رؤوس الناس واحداً جلجة.

(٣) أما حديث المسكين، فأخرجه البخاري (١٤٧٩)، ومسلم (١٤٠٠) وأما حديث المفلس، فأخرجه مسلم (٦٥٧٩)، وأما الرقوب، فقد أخرجه مسلم (٦٦٤١).

المراد أن تسميته بهذا مع اتخاذ الخمر المحرم منه وصف بالكرم والخير والمنافع لأصل هذا الشراب الخبيث المحرم، وذلك ذريعة إلى مدح ما حرم الله وتهيج النفوس إليه؟ هذا محتمل، والله أعلم بمراد رسوله ﷺ، والأولى أن لا يسمى شجر العنب كرمًا.

فصل

(هل يجوز تسمية صلاة العشاء بصلاة العتمة)

(محاظته ﷺ على الأسماء التي سمى الله بها العبادات)

قال ﷺ: «لَا تَغْلِبَنَّكُمُ الْأَعْرَابُ عَلَى اسْمِ صَلَاتِكُمْ، أَلَا وَإِنَّهَا الْعِشَاءُ، وَإِنَّهُمْ يُسَمُّونَهَا الْعَتَمَةَ»^(١) وصح عنه أنه قال: «لَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ، لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا» [البخاري: ٦١٥، ومسلم: ٩٨١] قُيِّل: هذا ناسخ للمنع، وقيل بالعكس، والصواب خلاف القولين، فإن العلم بالتاريخ متعذر، ولا تعارض بين الحديثين، فإنه لم يَنْهَ عن إطلاق اسم العتمة بالكُليَّة، وإنما نهى عن أن يُهَجَرَ اسمُ العشاء، وهو الاسم الذي سماها الله به في كتابه، وَيَغْلِبُ عليها اسمُ الْعَتَمَةِ، فإذا سُميت العشاء وأطلق عليها أحيانًا العتمة، فلا بأس، والله أعلم، وهذا محاظته ﷺ على الأسماء التي سمى الله بها العبادات، فلا تهجر، ويؤثر عليها غيرها، كما فعله المتأخرون في هجران ألفاظ النصوص، وإيثار المصطلحات الحادثة عليها، ونشأ بسبب هذا من الجهل والفساد ما لله به عليم، وهذا كما كان يحافظ على تقديم ما قدمه الله وتأخير ما أخره، كما بدأ بالصفاء، وقال: «أَبْدَأْ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ» [مسلم: ٢٩٥٢] وبدأ في العيد بالصلاة، ثم جعل التَّخَرُّعَ بعدها، وأخبر أن مَنْ دَبَّحَ قَبْلَهَا، فَلَا تُسَلِّكُ لَهُ، تقديمًا لما بدأ الله به في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَخَرَّ﴾ [الكوثر: ٢] وبدأ في أعضاء الوضوء بالوجه، ثم اليدين، ثم الرأس، ثم الرجلين، تقديمًا لما قدمه الله، وتأخيرًا لما أخره، وتوسيطًا لما وسطه، وقُدِّمَ زكاة الفطر على صلاة العيد تقديمًا لما قدمه في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ ٥ وَزَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى [الأعلى: ١٤، ١٥] ونظائره كثيرة.

فصل

في هديه ﷺ في حفظ المنطق واختيار الألفاظ

كان يتخير في خطابه، ويختار لأمنته أحسن الألفاظ، وأجملها، والطفها، وأبعد ما من ألفاظ أهل الجفاء والخِلَاطَة والفُحْش، فلم يكن فاحشًا ولا متفحشًا ولا صَحَابًا ولا قُطَا.

وكان يكره أن يُسْتَعْمَلَ اللفظ الشريف المصون في حق مَنْ ليس كذلك، وأن يُسْتَعْمَلَ اللفظ المهين المكروه في حق من ليس من أهله.

(كراهة استعمال اللفظ الشريف في حق من ليس كذلك)

فمن الأول منعه أن يُقال للمنافق: «يا سيدنا» وقال: «إِنَّ يَكُ سَيِّدًا قَدْ اسْتَخْطَمَ رَبُّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ» [صحيح: أحمد: ٢٢٣٩، وأبو داود: ٤٩٧٧] ومنعه أن تُسمى شجرة العنب كرمًا، ومنعه تسمية أبي جهل بأبي الحَكَم، وكذلك تغييره لاسم أبي الحكم من الصحابة: بأبي شريح، وقال: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَم، وَلِلَّهِ الْحَكَمُ» [أبو داود: ٤٩٥٥، والنسائي (٢٢٦/٨-٢٢٧)].

ومن ذلك نهيه للمملوك أن يقول لسيده أو لسيدته: رَبِّي وَرَبِّي، وللسيد أن يقول لمملوكه: عَبْدِي، وَلَكِنْ يَقُولُ الْمَالِكُ: فَتَايَ وَفَتَاتِي، وَيَقُولُ الْمَمْلُوكُ: سَيِّدِي وَسَيِّدَتِي [البخاري: ٢٥٥٢، ومسلم: ٥٨٧٤]، وقال لمن ادَّعى أنه طيب: «أَنْتَ رَجُلٌ رَفِيقٌ، وَطَيِّبٌ الْذِي خَلَقَهَا» [صحيح: أحمد: ١٧٤٩٢، وأبو داود: ٤٢٠٧] والجاهلون يُسَمُّونَ الكافر الذي له عِلْمٌ بشيء من الطبيعة حكميًا، وهو من أسفه الخلق.

ومن هذا قوله للخطيب الذي قال: مَنْ يُطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِيهِمَا فَقَدْ غَوَى: «بَسَّ الْخَطِيبُ أَنْتَ» [مسلم: ٢٠١٠].

ومن ذلك قوله: «لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ فَلَانُ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ مَا شَاءَ فَلَانُ» [صحيح: أحمد: ٢٣٢٦٥، وأبو داود: ٤٩٨٠] وقال له رجل: «مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتُ، فَقَالَ: «أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟ قُلْ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَخَدُّهُ» [صحيح: أحمد: ١٨٣٩].

وفي معنى هذا الشرك المنهي عنه قول من لا يتوقى

(١) البخاري (٥٦٣)، وأحمد (٢٠٥٥٣) من حديث عبد الله المزني بلفظ: «لَا تَغْلِبَنَّكُمُ الْأَعْرَابُ عَلَى اسْمِ صَلَاتِكُمُ الْمَغْرِبِ، قَالَ: وَتَقُولُ الْأَعْرَابُ: هِيَ الْعِشَاءُ» ورواه مسلم (١٤٥٥).

تعالى هو المعطي المانع، الخافض الرافع، المعزّز المذلّ، والدهر ليس له من الأمر شيء، فسبّهم للدهر سبّه الله عز وجل، ولهذا كانت مؤدبة للرّب تعالى، كما في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ» فسبّ الدهر دائر بين أمرين لا بدّ له من أحدهما. إما سبّه لله، أو الشّرك به، فإنه إذا اعتقد أن الدهر فاعل مع الله فهو مشرك، وإن اعتقد أن الله وحده فإنه إذا اعتقد أن الدهر فاعل مع الله فهو مشرك، وإن اعتقد أن الله وحده هو الذي فعل ذلك وهو يسبّ من فعله، فقد سب الله.

ومن هذا قوله ﷺ: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: تَعَسَّرَ الشَّيْطَانُ فَإِنَّهُ يَتَعَاطَمُ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ النَّيْتِ، يَقُولُ: يَقُوْتِي صَرْعَتُهُ، وَلَكِنْ لَيَقُلْ: بِسْمِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يَتَصَاغَرُ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الذُّبَابِ» [صحيح: أحمد: ٢٠٥٩١، وأبو داود: ٤٩٨٢].

وفي حديث آخر: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ الشَّيْطَانَ يَقُولُ: إِنَّكَ لَتَلْعَنُ مَلْعَنًا»^(١).

ومثل هذا قول القائل: أخزى الله الشيطان، وقبح الله الشيطان، فإن ذلك كلّهُ يفرّحه ويقول: علم ابن آدم أنني قد يئته بقوتي، وذلك ممّا يُعينه على إغوائه، ولا يفيد شيئا، فأرشد النبي ﷺ من مسّه شيء من الشيطان أن يذكر الله تعالى، ويذكر اسمه، ويستعيذ بالله منه، فإن ذلك أنفع له، وأغيظ للشيطان.

فصل

من ذلك: نهيه ﷺ أن يقول الرجل: «خَبِثَتْ نَفْسِي، وَلَكِنْ لَيَقُلْ: لَقِئْتُ نَفْسِي» [البخاري: ٦١٧٩، ومسلم: ٥٨٨٠]. ومعناها واحد، أي: عَثَّتْ نَفْسِي، وساء خلُقُها، فكره لهم لفظ الخُبث لما فيه من القبح والشناعة، وأرشدهم إلى استعمال الحسن، وهجران القبيح، وإبدال اللفظ المكروه بأحسن منه.

(النهى عن قول القائل بعد فوات اللّوْن، «لو اني فعلت كذا»)
ومن ذلك نهيه ﷺ عن قول القائل بعد فوات

الشرك: أنا باللّهِ وبِكَ، وأنا في حَسْبِ اللّهِ وَحَسْبِكَ، ومالي إلّا اللّهُ وأنت، وأنا متوكّل على اللّهِ وعليك، وهذا من اللّهِ ومِنكَ، واللّهُ لي في السماء وأنت لي في الأرض، وواللّهِ، وحياتِكَ، وأمثال هذا من الألفاظ التي يجعل فيها قائلُها المخلوق يذّا للمخلوق، وهي أشدّ منعاً وقبحاً من قوله: ما شاء اللّهُ وشئت. فأما إذا قال: أنا باللّهِ، ثم بك، وما شاء اللّهُ، ثم شئت، فلا بأس بذلك، كما في حديث الثلاثة: «لَا بَلَاحَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللّهِ ثُمَّ بِكَ» [البخاري: ٦٦٥٣، ومسلم: ٧٤٣١] وكما في الحديث المتقدم الإذن أن يُقال: ما شاء اللّهُ ثم شاء فلان.

فصل

(مكرهه إطلاق اللفظ الذم على من ليس من أهلها)

وأما القسم الثاني وهو أن تُطلق ألفاظ الذم على من ليس من أهلها، فمثل نهيه ﷺ عن سب الدهر، وقال: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ» وفي حديث آخر: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ فَيَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، يَبْدِي الْأَمْرَ أَقْلَبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارَ» [البخاري: ٦١٨١، ومسلم: ٥٨٦٣] وفي حديث آخر «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: يَا خَبِيَّةَ الدَّهْرِ» [البخاري: ٦١٨٢].

في هذا ثلاث مفاسد عظيمة. إحداها: سبّه من ليس بأهل أن يسب، فإن الدهر خلق مُسَخَّرٌ مِن خَلْقِ اللَّهِ، منقادٌ لأمره، مدللٌ لتسخيره، فسأبه أولى بالذم والسب منه.

الثانية: أن سبّه متضمّن للشرك، فإنه إنما سبّه لأنّه أنه يضرّ وينفع، وأنه مع ذلك ظالم قد ضرّ من لا يستحق الضرر، وأعطى من لا يستحق العطاء، ورفع من لا يستحق الرّفعة، وحرّم من لا يستحقّ الجرم، وهو عند شاتيه من أظلم الظلمة، وأشعار هؤلاء الظلمة الخونة في سبّه كثيرة جداً. وكثير من الجاهل يُصرّح بلعنه وتقييحه.

الثالثة: أن السبّ منهم إنما يقع على من فعل هذه الأفعال التي لو اتّبع الحقّ فيها أهواءهم لفسدت السماوات والأرض، وإذا وقعت أهواؤهم، حيدوا الدهر، وأنزوا عليه. وفي حقيقة الأمر، قُرب الدهر

(١) لم نقف عليه.

والكسل، وعنوانها «لو» فلذلك قال النبي ﷺ: «فإن «لو» تفتح عمل الشيطان» فالتمني من أعجز الناس وأفسههم، فإن التمني رأس أموال المغاليس، والعجز مفتاح كل شر،

وأصل المعاصي كلها العجز، فإن العبد يعجز عن أسباب أعمال الطاعات، وعن الأسباب التي تبعده عن المعاصي، وتحول بينه وبينها، فيقع في المعاصي، فجمع هذا الحديث الشريف في استعاذته ﷺ أصول الشر وفروعه، ومبادئه وغاياته، وموارد مصادره، وهو مشتمل على ثمان خصال، كل خصلتين منها قريتان فقال: «أعوذ بك من الهم والحزن» [البخاري: ٦٣٦٣] وهما قريتان، فإن المكروه الوارد على القلب ينقسم باعتبار سببه إلى قسمين، فإنه إما أن يكون سببه أمراً ماضياً، فهو يحدث الحزن، وإما أن يكون توقع أمر مستقبل، فهو يحدث الهم، وكلاهما من العجز، فإن ما مضى لا يدفع بالحزن، بل بالرضى، والحمد، والصبر، والإيمان بالقدر، وقول العبد: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ. وما يستقبل لا يدفع أيضاً بالهم، بل إما أن يكون له حيلة في دفعه، فلا يعجز عنه، وإما أن لا تكون له حيلة في دفعه، فلا يجزع منه، ويلبس له لباسه، ويأخذ له عذته، ويتأهب له أهبة اللاتقة به، ويستجج بجنت حصينة من التوحيد، والتوكل، والانطراح بين يدي الرب تعالى، والاستسلام له والرضى به رباً في كل شيء، ولا يرضى به رباً فيما يحب دون ما يكره، فإذا كان هكذا، لم يرض به رباً على الإطلاق، فلا يرضاه الرب له عبداً على الإطلاق، فالهم والحزن لا ينفعان العبد البتة، بل مضرتهما أكثر من منفعتهما، فإنهما يضعفان العزم، ويوهنان القلب، ويحولان بين العبد وبين الاجتهاد فيما ينفعه، ويقطعان عليه طريق السير، أو يُكسبانه إلى وراء، أو يعوقانه ويَقْفَاهُ، أو يخجبان عن العلم الذي كلما رآه، شمر إليه، وجد في سيره، فهما جمل ثقيل على ظهر السائر، بل إن عاقبة الهم والحزن عن شهوات وإراداته التي تضره في معاشه ومعاده، انتفع به من هذا الوجه، وهذا من حكمة العزيز الحكيم أن سلط هذين الجندين على القلوب المعرصة عنه، الفارغة من محبته، وخوفه،

الأمر: «لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا»، وقال: «إِنْ لَوْ تَفَتَحَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ» وأرشدته إلى ما هو أنفع له من هذه الكلمة، وهو أن يقول: «قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ» [مسلم: ٦٧٧٤] وذلك لأن قوله: لو كنت فعلت كذا وكذا، لم يفتني ما فاتني، أو لم أفع فيما وقعت فيه، كلام لا يجدي عليه فائدة البتة، فإنه غير مستقبل لما استدبر من أمره، وغير مستقبل عثرته بـ «لو» وفي ضمن «لو» ادعاء أن الأمر لو كان كما قدره في نفسه، لكان غير ما قضاه الله وقدره وشاءه، فإن ما وقع مما يتمنى خلافه إنما وقع بقضاء الله وقدره ومشيته، فإذا قال: لو أنني فعلت كذا، لكان خلاف ما وقع فهو محال، إذ خلاف المقدّر المقتضي محال، فقد تضمن كلامه كذباً وجهلاً ومحالاً، وإن سلم من التكذيب بالقدر، لم يسلم من معارضته بقوله: لو أنني فعلت كذا، لدفع ما قدر الله عليّ.

فإن قيل: ليس في هذا ردٌ للقدر ولا جحد له، إذ تلك الأسباب التي تمنّاها أيضاً من القدر، فهو يقول: لو وقفت لهذا القدر، لا تدفع به عني ذلك القدر، فإن القدر يدفع بعضه ببعض، كما يدفع قدر المرض بالدواء، وقدر الذنوب بالتوبة، وقدر العدو بالجهاد، فكلاهما من القدر.

قيل: هذا حق، ولكن هذا ينفع قبل وقوع القدر المكروه، وأما إذا وقع، فلا سبيل إلى دفعه، وإن كان له سبيل إلى دفعه أو تخفيفه بقدر آخر، فهو أولى به من قوله: لو كنت فعلته، بل وظيفته في هذه الحالة أن يستقبل فعله الذي يدفع به أو يخفف أثر ما وقع، ولا يتمنى ما لا مطمع في وقوعه، فإنه عجز مخص، والله يلوم على العجز، ويحب الكيس، ويأمر به، والكيس: هو مباشرة الأسباب التي ربط الله بها مسيئاتها النافعة للعبد في معاشه ومعاده، فهذه تفتح عمل الخير، وأما العجز، فإنه يفتح عمل الشيطان، فإنه إذا عجز عما ينفعه، وصار إلى الأماني الباطلة بقوله: لَوْ كَانَ كَذَا وَكَذَا، ولو فعلت كذا، يفتح عليه عمل الشيطان، فإن باب العجز والكسل، ولهذا استعاذ النبي ﷺ منهما، وهما مفتاح كل شر، ويصدر عنهما الهم، والحزن، والجبن، والبخل، وصلح الذين، وغلب الرجال، فمصدرها كلها عن العجز

ورجائه، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والأنس به، والفرار إليه، والانقطاع إليه، ليركها بما يتليها به من الهموم والغموم، والأحزان والآلام القلبية عن كثير من معاصيها وشهواتها المُرّية، وهذه القلوب في سجن من الجحيم في هذه الدار، وإن أريد بها الخير، كان حظها من سجن الجحيم في معادها، ولا تزال في هذا السجن حتى تتخلص إلى فضاء التوحيد، والاقبال على الله، والأنس به، وجعل محبته في محل ديب خواطر القلب ووساوسه، بحيث يكون ذكره تعالى وحبه وخوفه ورجاؤه والفرح به والابتهاج بذكره، هو المستولي على القلب، الغالب عليه، الذي متى فقده، فقد قوّته الذي لا قوام له إلا به، ولا بقاء له بدونه، ولا سبيل إلى خلاص القلب من هذه الآلام التي هي أعظم أمراضه وأفسدها له إلا بذلك، ولا بلاغ إلا بالله وحده، فإنه لا يوصل إليه إلا هو، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يصرف السيئات إلا هو، ولا يذل عليه إلا هو، وإذا أراد عبده لأمر، هيأه له، فمته الإيجاد، ومنه الإعداد، ومنه الإمداد، وإذا أقامه في مقام أي مقام كان، فيحمده أقامه فيه ويحكمته أقامه فيه، ولا يليق به غيره ولا يصلح له سواه، ولا مانع لما أعطى الله، ولا مُعطي لما منع، ولا يمنع عبده حقاً هو للعبد، فيكون بمنعه ظالماً له، بل إنما منعه ليتوسل إليه بمحابه ليعبده، وليتضرع إليه، ويتذلّل بين يديه، ويتملقه، ويُعطي فقره إليه حقه، بحيث يشهد في ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة فاقة تامة إليه على تعاقب الأنفاس، وهذا هو الواقع في نفس الأمر، وإن لم يشهده العبد فلم يمنع الرب عبده ما العبد محتاج إليه بخلاصه، ولا نقصاً من خزائنه، ولا استئثاراً عليه بما هو حق للعبد، بل منعه ليرده إليه، وليعزّه بالتذلّل له، وليغنيه بالافتقار إليه، وليجبره بالانكسار بين يديه، وليذيقه بمرارة المنع حلاوة الخضوع له، ولذة الفقر إليه، وليلبسه خلع العبودية، ويؤليه بعزله أشرف الولايات، وليشهد حكمة في قدرته، ورحمته في عزته، وبرّه ولطفه في قهره. وأن منعه عطاء، وعزله تولية. وعقوبته تأديب، وامتحانه محبة وعطية، وتسليط أعدائه عليه سائق يسوقه به إليه.

وبالجملّة فلا يليق بالعبد غير ما أقيم فيه، وحكمته وحمده أقامه في مقامه الذي لا يليق به سواه، ولا يحسن أن يتخطاه، والله أعلم حيث يجعل مواقع عطائه وفضله، والله أعلم حيث يجعل رسالته ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالْمُنْكَرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] فهو سبحانه أعلم بمواقع الفضل، ومحال التخصيص، ومحال الجرم، فبحمده وحكمته أعطى، وبحمده وحكمته حرم، فمن رده المنع إلى الافتقار إليه والتذلّل له، وتملقه، انقلب المنع في حقه عطاء، ومن شغله عطاؤه، وقطعه عنه، انقلب العطاء في حقه منعاً، فكل ما شغل العبد عن الله، فهو مشؤوم عليه، وكل ما رده إليه فهو رحمة به، والرب تعالى يريد من عبده أن يفعل، ولا يقع الفعل حتى يريد سبحانه من نفسه أن يعينه، فهو سبحانه أراد مثلاً الاستقامة دائماً، واتخاذ السبيل إليه، وأخيراً أن هذا المراد لا يقع حتى يريد من نفسه إعانتنا عليها ومشيتنا لنا، فهما إرادتان: إرادة من عبده أن يفعل، وإرادة من نفسه أن يعينه، ولا سبيل له إلى الفعل إلا بهذه الإرادة، ولا يملك منها شيئاً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩] فإن كان مع العبد روح أخرى، نسيبها إلى روحه، كنسبة روحه إلى بدنه يستدعي بها إرادة الله من نفسه أن يفعل به ما يكون به العبد فاعلاً، وإلا فمحله غير قابل للعطاء، وليس معه إناء يوضع فيه العطاء، فمن جاء بغير إناء، رجع بالجرمان، ولا يلومن إلا نفسه.

والمقصود أن النبي ﷺ استعاذ من الهم والحزن، وهما قرينان، ومن العجز والكسل، وهما قرينان، فإن تخلّف كمال العبد وصلاجه عنه، إما أن يكون لعدم قدرته عليه، فهو عجز، أو يكون قادراً عليه، لكن لا يريد فهو كسل، وينشأ عن هاتين الصفتين، فوات كل خير، وحصول كل شر، ومن ذلك الشر تعطيله عن النفع ببدنه، وهو الجبن، وعن النفع بماله، وهو البخل، ثم ينشأ له بذلك غلبتان. غلبة بحق، وهي غلبة الدين، وغلبة بباطل، وهي غلبة الرجال، وكل هذه المفاصل ثمرات العجز والكسل، ومن هذا قوله في الحديث

الصحيح للرجل الذي قضى عليه، فقال: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ [أحمد: ٢٣٩٨٣، وابو داود: ٣٦٢٧] فهذا قال: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ بعد عجزه عن الكَيْس الذي لو قام به، لقصي له على خصمه، فلو فعل الأسباب التي يكون بها كَيْسًا، ثُمَّ غَلِبَ فقال: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، لكانت الكلمة قد وقعت موقعها، كما أن إبراهيم الخليل، لما فعل الأسباب المأمور بها، ولم يعجز بتركها، ولا بترك شيء منها، ثم غلبه عدوه، وألقوه في النار، قال في تلك الحال: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ [البخاري: ٤٥٦٣] فوقعت الكلمة موقعها، واستقرت في مكانها، فأثرت أثرها، وترتب عليها مقتضاها.

(التوكل)

وكذلك رسول الله ﷺ وأصحابه يوم أحد لما قيل لهم بعد انصرافهم من أحد: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فتهجدوا وخرجوا للقاء عدوهم، وأعطوهم الكَيْس من نفوسهم، ثم قالوا: حَسْبَنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ [ابن كثير في السيرة: ١٠٠/٣ - ١٠١/١]، وفي التفسير (١٩/٤٣٠).

فأثرت الكلمة أثرها، واقتضت موجبها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣، ٢] فجعل التوكل بعد التقوى الذي هو قيام الأسباب المأمور بها، فحينئذ إن توكل على الله فهو حسبه، وكما قال في موضع آخر: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١] فالتوكل والحسب بدون قيام الأسباب المأمور بها عجز محض، فإن كان مشوباً بنوع من التوكل، فهو توكل عجز، فلا ينبغي للمعبود أن يجعل توكله عجزاً، ولا يجعل عجزه توكلًا، بل يجعل توكله من جملة الأسباب المأمور بها التي لا يَتِمُّ المقصود إلا بها كلها.

ومن هنا غلط طائفتان من الناس، إحداهما: زعمت أن التوكل وحده سبب مستقل كافٍ في حصول المراد، فعمّلت له الأسباب التي اقتضتها حكمة الله الموصلة إلى مسبباتها، فوقعوا في نوع

تفريط وعجز بحسب ما عطلوا من الأسباب، وَضَعَفَتْ توكلهم من حيث ظنوا قوته بانفراده عن الأسباب، فجمعوا لهم كُله وصيروه هماً واحداً، وهذا وإن كان فيه قوة من هذا الوجه، ففيه ضَعَفٌ من جهة أخرى، فكلما قوي جانب التوكل بإفراده، أضعفه التفريط في السبب الذي هو محل التوكل، فإن التوكل محل الأسباب، وكما أنه بالتوكل على الله فيها، وهذا كتوكل الحرث الذي شق الأرض، وألقى فيها البذر، فتوكل على الله في زرع وإنباته، فهذا قد أعطى التوكل حقه، ولم يَضَعِفْ توكله بتعطيل الأرض وتخليتها بوراً، وكذلك توكل المسافر في قطع المسافة مع جِده في السير، وتوكل الأكياس من النجاة من عذاب الله والقور بوابه مع اجتهدهم في طاعته، فهذا هو التوكل الذي يترتب عليه أثره، ويكون الله حَسْبَ من قام به. وأما توكل العجز والتفريط، فلا يترتب عليه أثره، وليس الله حَسْبَ صاحبه، فإن الله إنما يكون حَسْبَ المتوكل عليه إذا اتقاه، وتقواه فعل الأسباب المأمور بها، لا إضاعته.

والطائفة الثانية: التي قامت بالأسباب، ورأت ارتباط المسببات بها شرعاً وقدرًا، وأعرضت عن جانب التوكل، وهذه الطائفة وإن نالت بما فعلته من الأسباب ما نالته، فليس لها قوة أصحاب التوكل، ولا عون الله لهم وكفاية إياهم ودفاعه عنهم، بل هي مخدولة عاجزة بحسب ما فاتها من التوكل.

فالقوة كل القوة في التوكل على الله كما قال بعض السلف: من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، فالقوة مضمونة للمتوكل، والكفاية والحسب والدفع عنه، وإنما يَنْقُصُ عليه من ذلك بقدر ما يَنْقُصُ من التقوى والتوكل، وإلا فمع تحققه بهما لا بد أن يجعل الله له مخرجاً من كل ما ضاق على الناس، ويكون الله حسبه وكفايه. والمقصود أن النبي ﷺ أرشد العبد إلى ما فيه غاية كماله، ونيل مطلوبه، أن يحرص على ما ينفعه، ويبتذل فيه جهده، وحينئذ ينفعه التحسب وقول: «حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» بخلاف من عجز وفرط حتى فاتته مصلحته، ثم قال: «حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» فإن الله يلومه، ولا يكون في هذا الحال

حَسْبِهِ، فَإِنَّمَا هُوَ حَسْبُ مَنْ اتَّقَاهُ، وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ.

فصل

في هديه ﷺ في الذكر

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَكْمَلَ الْخَلْقِ ذِكْرًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، بَلْ كَانَ كَلَامُهُ كُلُّهُ فِي ذِكْرِ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ، وَكَانَ أَمْرُهُ وَنَهْيُهُ وَتَشْرِيعُهُ لِلَّامَةِ ذِكْرًا مِنْهُ لِلَّهِ، وَإِخْبَارُهُ عَنْ أَسْمَاءِ الرَّبِّ وَصِفَاتِهِ، وَأَحْكَامِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، ذِكْرًا مِنْهُ لَهُ، وَثَنَائِهِ عَلَيْهِ بِآلَانِهِ، وَتَمْجِيدِهِ وَحَمْدِهِ، وَتَسْبِيحِهِ ذِكْرًا مِنْهُ لَهُ، وَسُؤَالِهِ وَدَعَاؤُهُ لِيَاهِ، وَرَغْبَتِهِ وَرَهْبَتِهِ ذِكْرًا مِنْهُ لَهُ، وَسُكُوتِهِ وَصَمْتُهُ ذِكْرًا مِنْهُ لَهُ بِقَلْبِهِ، فَكَانَ ذَاكِرًا لِلَّهِ فِي كُلِّ أَحْيَانِهِ، وَعَلَى جَمِيعِ أَحْوَالِهِ، وَكَانَ ذِكْرُهُ لِلَّهِ يَجْرِي مَعَ أَنْفَاسِهِ، قَائِمًا وَقَاعِدًا وَعَلَى جَنْبِهِ، وَفِي مَشْيِهِ وَرُكُوبِهِ وَمَسِيرِهِ، وَنَزُولِهِ وَظَعْنِهِ وَإِقَامَتِهِ.

وَكَانَ إِذَا اسْتَيْقَظَ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ» [البخاري: ٦٣١٢، ومسلم: ٦٨٨٧].

(الذكر عند الاستيقاظ من الليل)

وَقَالَتْ عَائِشَةُ: كَانَ إِذَا هَبَّ مِنَ اللَّيْلِ، كَبَّرَ اللَّهُ عَشْرًا، وَحَمِدَ اللَّهُ عَشْرًا، وَقَالَ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ عَشْرًا، سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ عَشْرًا، وَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ عَشْرًا، وَهَلَّلَ عَشْرًا، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ ضَيِّقِ الدُّنْيَا، وَضَيِّقِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ» عَشْرًا، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ الصَّلَاةَ [حسن لغيره: أبو داود: ٥٠٨٥].

وَقَالَتْ: أَيْضًا: كَانَ إِذَا اسْتَيْقَظَ مِنَ اللَّيْلِ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ اسْتَغْفِرُكَ لِدُنْيِي، وَأَسْأَلُكَ رَحْمَتَكَ، اللَّهُمَّ زِدْنِي عِلْمًا وَلَا تُزِغْ قَلْبِي بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنِي، وَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ» ذَكَرَهُمَا أَبُو دَاوُدَ [أبو داود: ٥٠٦١].

وَأَخْبَرَ أَنَّ مَنْ اسْتَيْقَظَ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ» - ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي - أَوْ دَعَا^(١)

بَدْعَاءِ آخَرٍ - اسْتَجِيبَ لَهُ، فَإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى، قِيلَتْ صَلَاتُهُ ذَكَرَهُ الْبَخَارِيُّ [١١٥٤].

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ ﷺ لَيْلَةً مَبِيتُهُ عِنْدَهُ: إِنَّهُ لَمَّا اسْتَيْقَظَ، رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَقَرَأَ الْعَشْرَ الْآيَاتِ الْخَوَاتِيمَ مِنْ سُورَةِ (آلِ عِمْرَانَ) ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْغَنِيُّ وَالْأَزَلُّ...﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٩٠] إِلَى آخِرِهَا [البخاري: ٤٥٦٩، ومسلم: ١٧٩٩].

ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ: الْحَمْدُ أَنْتَ قِيَمُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالتَّبْيُوتُ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أُنَبِّئُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاعْفُ عَنِّي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ» [البخاري: ١١٢٠، ومسلم: ١٨٠٨].

وَقَدْ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ قَالَ: «اللَّهُمَّ رَبِّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تُهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» [مسلم: ١٨١١].

وَرُبَّمَا قَالَتْ: كَانَ يَفْتَحُ صَلَاتَهُ بِذَلِكَ. وَكَانَ إِذَا أَوْتَرَ، خَتَمَ وَتَرَهُ بَعْدَ قِرَآءَتِهِ بِقَوْلِهِ: «سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ» ثَلَاثًا، وَيَمُدُّ بِالثَّلَاثَةِ صَوْتَهُ [صحيح: أحمد: ٧١١٤٢، وأبو داود: ١٤٣٠، والنسائي (٣/٢٣٥)].

(الذكر عند الخروج من البيت)

وَكَانَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ يَقُولُ: «بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أَضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أَظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ» حَبِيبٌ صَحِيحٌ [صحيح: أحمد: ٢٦٦١٦، والترمذي:

(١) قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ» (٣/٣٣): كَذَا فِيهِ بِالْشَّكِّ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لِلتَّوْبِيعِ.

وقال ﷺ: «مَنْ قَالَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ: بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، يُقَالَ لَهُ: هُدَيْتَ، وَكُفِّيتَ، وَوُقِّيتَ، وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ» حديث حسن [صحيح: ابو داود: ٥٠٩٥، والترمذي: ٣٤٢٢].

وقال ابن عباس عن ليلة مبيته عنده: إنه خرج إلى صلاة الفجر وهو يقول: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، واجْعَلْ فِي لِسَانِي نُورًا، واجْعَلْ فِي سَمْعِي نُورًا، واجْعَلْ فِي بَصَرِي نُورًا، واجْعَلْ مِنْ خَلْقِي نُورًا، وَمِنْ أَمَامِي نُورًا، واجْعَلْ مِنْ قَوْمي نُورًا، واجْعَلْ مِنْ تَحْتِي نُورًا، اللَّهُمَّ أَعْظِمْ لِي نُورًا» [البخاري: ٦٣١٦، ومسلم: ١٧٩٧].

وقال فضيل بن مرزوق، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْتِهِ إِلَى الصَّلَاةِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ، وَبِحَقِّ مَنْشَائِهِ هَذَا إِلَيْكَ، فَإِنِّي لَمْ أَخْرُجْ بَطَرًا وَلَا أَشْرًا، وَلَا رِيَاءً، وَلَا سُمْعَةً، وَإِنَّمَا خَرَجْتُ اتِّقَاءَ سُخْطِكَ، وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ، أَسْأَلُكَ أَنْ تُفَقِّدَنِي مِنَ النَّارِ، وَأَنْ تُغْفِرَ لِي ذُنُوبِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، إِلَّا وَكَّلَ اللَّهُ بِهِ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ، وَأَقْبَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ حَتَّى يَقْبِضِي صَلَاتَهُ» [احمد: ١١١٥٦، وابن ماجه: ٧٧٨، وفي سنده عطية العوفي وهو ضعيف].

(دعاء دخول المسجد)

وذكر ابو داود عنه ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد قال: «أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ قَالَ الشَّيْطَانُ: حُفِظَ مِنِّي سَائِرَ الْيَوْمِ» [صحيح: ابو داود: ٤٦٦].

وقال ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ، فَلْيَسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، فَإِذَا خَرَجَ، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ» [مسلم: ١٦٥٢].

وذكر عنه: أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، فَإِذَا خَرَجَ صَلَّى عَلَى

مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ» [احمد: ٢٦٤١٦، والترمذي: ٣١٤، وابن ماجه: ٧٧١، وحسنه الترمذي].

(الدعية الصباح والمساء)

وَكَانَ إِذَا صَلَّى الصُّبْحَ، جَلَسَ فِي مُصَلَّاهُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ يَذْكُرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ.

وَكَانَ يَقُولُ إِذَا أَصْبَحَ: «اللَّهُمَّ بَكَ أَصْبَحْنَا، وَبِكَ أَمْسَيْنَا، وَبِكَ نَحْيَا، وَبِكَ نَمُوتُ، وَإِلَيْكَ النُّشُورُ» حديث صحيح [صحيح: ابو داود: ٥٠٦٨، والترمذي: ٣٣٨٨، وابن ماجه: ٣٨٦٨].

وَكَانَ يَقُولُ: «أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هَذَا الْيَوْمِ، وَخَيْرَ مَا بَعْدَهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذَا الْيَوْمِ، وَشَرِّ مَا بَعْدَهُ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ، وَسُوءِ الْكِبَرِ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ، وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ، وَإِذَا أَمْسَى قَالَ: أَمْسَيْنَا وَأَمْسَى الْمُلْكُ لِلَّهِ... إِلَى آخِرِهِ. ذَكَرَهُ مُسْلِمٌ [٦٩٠٨].

وقال له ابو بكر الصديق رضي الله عنه: مُرْنِي بِكَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ، قَالَ: قُلْ: «اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَمَالِكُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وَأَنْ أَقْتَرَفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا أَوْ أَجْرَهُ إِلَى مُسْلِمٍ» قَالَ: قُلْهَا إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ، وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ حديث صحيح [ابو داود: ٥٠٦٧، والترمذي: ٣٣٨٩].

وقال ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ فِي صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ وَمَسَاءِ كُلِّ لَيْلَةٍ: بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضُرُّهُ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، إِلَّا لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ» حديث صحيح [ابو داود: ٥٠٨٨، والترمذي: ٣٣٨٥].

وقال: «مَنْ قَالَ حِينَ يُضْحِكُ وَحِينَ يُبْكِي: رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، كَانَ حَقًّا

على الله أن يؤمِّنَهُ، صححه الترمذي والحاكم [ابو داود: ٥٠٧٢، والترمذي: ٣٣٨٦].

وقال: «مَنْ قَالَ جِئَ يُصْبِحُ وَجِئَ يُمِيسِي: اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ أَشْهَدُكَ، وَأَشْهَدُ حَمَلَةَ عَرْشِكَ وَمَلَائِكَتَكَ، وَجَمِيعَ خَلْقِكَ، أَنْتَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، وَأَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ؛ أَعْتَقَ اللَّهُ رُبْعَهُ مِنَ النَّارِ، وَإِنْ قَالَهَا مَرَّتَيْنِ، أَعْتَقَ اللَّهُ نِصْفَهُ مِنَ النَّارِ، وَإِنْ قَالَهَا ثَلَاثًا، أَعْتَقَ اللَّهُ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِهِ مِنَ النَّارِ، وَإِنْ قَالَهَا أَرْبَعًا، أَعْتَقَ اللَّهُ مِنَ النَّارِ حَدِيثَ حَسَنٍ [حسن: أبو داود: ٥٠٦٩-٥٠٧٨، والترمذي: ٣٤٩٥].

وقال: «مَنْ قَالَ جِئَ يُصْبِحُ: اللَّهُمَّ مَا أَصْبَحَ بِي مِنْ نِعْمَةٍ أَوْ بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ، فَمِنْكَ وَخَدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، لَكَ الْحَمْدُ، وَلَكَ الشُّكْرُ، فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ يَوْمِي، وَمَنْ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ جِئَ يُمِيسِي، فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ لَيْلَتِهِ» حديث حسن [أبو داود: ٥٠٧٣، وابن حبان: ٢٣٦١].

وكان يدعو حين يُصْبِحُ وحين يُمِيسِي بهذه الدعوات: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي، وَآوِن رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيْ، وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أَغْتَالَ مِنْ تَحْتِي» صححه الحاكم [صحيح: أبو داود: ٥٠٧٤، وابن ماجه: ٣٨٧١].

وقال: «إِذَا أَصْبَحَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَقُلْ: أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمَلِكُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذَا الْيَوْمِ فَتَحَهُ وَنَصَرَهُ وَنُورَهُ وَبَرَكَتَهُ وَهِدَايَتَهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِيهِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهُ، ثُمَّ إِذَا أَمْسَى، فَلْيَقُلْ مِثْلَ ذَلِكَ» حديث حسن [أبو داود: ٥٠٨٤].

وذكر أبو داود عنه أنه قال لبعض بنياته: «قُولِي جِئَ تُصْبِحِينَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ

أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، فَإِنَّهُ مَنْ قَالَهُنَّ جِئَ يُصْبِحُ، حُفِظَ حَتَّى يُمِيسِي، وَمَنْ قَالَهُنَّ جِئَ يُمِيسِي حُفِظَ حَتَّى يُصْبِحَ» [أبو داود: ٥٠٧٥، وفي سنده مجاهيل].

وقال لرجل من الأنصار: «أَلَا أَعْلَمُكَ كَلَامًا إِذَا قُلْتَهُ أَذْعَبَ اللَّهُ مَمْلَكَ، وَقَضَى عَنْكَ دَيْنَكَ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «قُلْ إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ، قَالَ: ففعلتهن، فأذعَبَ اللَّهُ هَمِّي، وقضى عني ديني»^(١).

وكان إذا أصبح قال: «أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ، وَكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ، وَدِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمِلَّةِ آيَاتِنَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» [صحيح: أحمد: ١٥٣٦٠].

(الرسول مرسل إلى نفسه وامته)

هكذا في الحديث «ودين نبينا محمد ﷺ» وقد استشكله بعضهم وله حُكْمٌ نظراره كقوله في الخطب والشهد في الصلاة «أشهد أن محمداً رسول الله»، فإنه ﷺ مكلف بالإيمان بأنه رسول الله ﷺ إلى خلقه، ووجوب ذلك عليه أعظم من وجوبه على المرسل إليهم، فهو نبي إلى نفسه وإلى الأمة التي هو منهم، وهو رسول الله إلى نفسه وإلى أمته.

ويذكر عنه ﷺ أنه قال لإفاطمة ابنته: «مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَسْمِعِي مَا أَوْصِيكَ بِهِ: أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ: يَا حَيُّ، يَا قَيُّوْمُ بِكَ اسْتَعِثْ، فَاصْلِحْ لِي شَأْنِي، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرَفَةَ عَيْنٍ» [حسن: الحاكم (٥٤٥/١)، وابن السني: ٤٨].

ويذكر عنه ﷺ أنه قال لرجل شكاً إليه إصابة الآفات: «قُلْ: إِذَا أَصْبَحْتَ: بِسْمِ اللَّهِ عَلَى نَفْسِي، وَأَهْلِي وَمَالِي، فَإِنَّهُ لَا يَذْعَبُ عَلَيْكَ شَيْءٌ» [ضعيف: ابن السني: ٥٠].

ويذكر عنه أنه كان إذا أصبح قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا» [حسن: ابن ماجه: ٩٢٥].

(١) رواه أبو داود (١٥٥٥)، وفي سنده غسان بن عوف وهو لين الحديث، وفي «الصحيحين» من حديث أنس قوله: «اللهم إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ، وَغَلَبَةِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ».

وَيُذَكِّرْ عَنْهُ ﷺ: إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا قَالَ حِينَ يُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ «اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ مِنْكَ فِي نِعْمَةٍ وَعَافِيَةٍ وَسِرٍّ، فَأَتَيْنِي عَلَى نِعْمَتِكَ وَعَافِيَتِكَ وَسِرَّتِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِذَا أَمْسَى، قَالَ ذَلِكَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُتِمَّ عَلَيْهِ» (ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (١٩)، وفي سننه ضعف).

وَقَالَ: (مَنْ قَالَ حِينَ يُضْمَعُ عَشْرَ مَرَّاتٍ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، كَتَبَ اللَّهُ بِهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ، وَمَحَا عَنْهُ بِهَا عَشْرَ سَيِّئَاتٍ، وَكَانَتْ كَعَدْلِ عَشْرِ رِقَابٍ، وَأَجَارَهُ اللَّهُ يَوْمَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَلِذَا أَمْسَى فَوُثِّلَ ذَلِكَ حَتَّى يُضْمَعَ) [صحيح: أحمد: ١٦٥٨٣، وابن داود: ٥٠٧٧، وابن ماجه: ٣٨٦٧].

وَيَذْكُرْ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ فِي كُلِّ يَوْمٍ حِينَ يُضْحِكُ وَحِينَ يُبْكِي: حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَبْعَ مَرَّاتٍ، كَفَّاهُ اللَّهُ مَا أَهَمَّهُ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» (صحيح: ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٧٠)، وأبو داود: ٥٠٨١، موفقاً على أبي المبراد).

وقال: (مَنْ قَالَ حِينَ يُضْحِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي الْيَوْمِ مِائَةً مَرَّةً، كَانَتْ لَهُ عِدَّةُ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَ لَهُ مِثْرُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيتَ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِزْرًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يَمُوتَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا رَجُلٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْهُ) [البخاري: ٦٤٠٣، ومسلم: ٦٨٤٢].

ويذكر عنه ﷺ أنه من قال هذه الكلمات في أول نهاره، لم نصيبه مصيبة حتى يمسي، ومن قالها آخر نهاره لم نصيبه مصيبة حتى يضيح: «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، عَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَأَنْتَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَشَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» وَقَدْ قِيلَ لِأَبِي الدَّرْدَاءِ: قَدْ احْتَرَقَ بَيْتُكَ فَقَالَ: مَا احْتَرَقَ، وَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِيَفْعَلَ، لِكَلِمَاتٍ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَهَا [ابن السني في عمل اليوم والليلة، (٥٦) وفي سننه رجل منكر الحديث].

وفي «المسند» وغيره أنه ﷺ علم زيد بن ثابت، وأمره أن يتخاذه به أهله في كل صباح «لِيَكُ صَبَاحَ «لِيَكُ الْلَّهُمَّ لِيَكُ، لِيَكُ وَسَعْدِيكَ، وَالْحَيَّرْ فِي يَدَيْكَ، وَمِنْكَ وَبِكَ وَلِيَكُ، اللَّهُمَّ مَا قُلْتُ مِنْ قَوْلٍ، أَوْ حَلَفْتُ مِنْ حَلْفٍ، أَوْ نَذَرْتُ مِنْ نَذْرٍ، فَمَشِيتُكَ بَيْنَ يَدَيِ ذَلِكَ كُلِّهِ، مَا شِئْتُ كَانَ، وَمَا لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ مَا صَلَّيْتُ مِنْ صَلَاةٍ فَعَلَى مَنْ صَلَّيْتُ، وَمَا لَعَنْتُ مِنْ لَعْنَةٍ، فَعَلَى مَنْ لَعَنْتُ، أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، تَوْفَّنِي مُسْلِمًا وَالْجَنَّةِ بِالصَّالِحِينَ، اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، فَلَنِي اعهَدْ إِلَيْكَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَأَشْهَدُكَ - وَكَفَى بِكَ شَهِيدًا - بَأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، لَكَ الْمُلْكُ، وَلَكَ الْحُدُودُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ وَعْدَكَ حَقٌّ، وَوَفَاةَكَ حَقٌّ، وَالسَّاعَةَ حَقٌّ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّكَ تَبْتَغِي مَنْ فِي الْقُبُورِ، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ إِنْ تَكَلَّمْتَ إِلَى نَفْسِي تَكَلَّمْتَ إِلَى صَغْفٍ وَعَزَازَةٍ وَذَنْبٍ وَخَطِيئَةٍ، وَإِنِّي لَا أَتَّقِي إِلَّا بِرَحْمَتِكَ، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي كُلَّهَا إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ الثَّوَابُ الرَّحِيمُ» [أحمد: ٢١١٦٦، وفي سننه ضعف] .

وقال: «سَيِّدُ الْاِسْتِغْفَارِ اَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ: اَللّٰهُمَّ اَنْتَ
رَبِّيْ، لَا اِلٰهَ اِلَّا اَنْتَ خَلَقْتَنِيْ وَاَنَا عَبْدُكَ، وَاَنَا عَلَى
عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، اَعُوْذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا
صَنَعْتُ، اَبُوْءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَاَبُوْءُ بِذُنُوبِيْ، فَاغْفِرْ
لِيْ اِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوْبَ اِلَّا اَنْتَ، مَنْ قَالَهَا جِيْنٌ يُّصْبِحُ
مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قَالَهَا
جِيْنٌ يُعْسِي بِهَا مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ»
[البخارى: ٦٣٠٦].

وَمَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمَسِّي: سُبْحَانَ اللَّهِ
وَيَحْمَدُهُ مِائَةَ مَرَّةٍ، لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَفْضَلَ
مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ، أَوْ زَادَ عَلَيْهِ.

فصل

في هديه ﷺ في الذكر عند لبس الثوب ونحوه

أَطْعَمَنِي وَسَقَانِي، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَنَّ عَلَيَّ فَأَفْضَلَ، أَسْأَلُكَ أَنْ تُجِيرَنِي مِنَ النَّارِ [ابن السني في أصل اليوم والليلة (١٥٧)، وفي سننه مجهولاً].

وثبت عنه ﷺ أنه قال لأنس: «إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ، فَسَلِّمْ يَكُنْ بَرَكَةً عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِكَ» قال الترمذي: حديث حسن صحيح [الترمذي: ٢٦٩٩].

وفي «السنن» عنه ﷺ: «إِذَا وَلَّجَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ الْمَوْلِجِ، وَخَيْرَ الْمَخْرَجِ، بِسْمِ اللَّهِ وَلَجْنَا، وَعَلَى اللَّهِ رَبَّنَا تُؤَكِّلُنَا، ثُمَّ لِنُسَلِّمَ عَلَى أَهْلِهِ» [صحيح: أبو داود: ٥٠٩٦].

وفيها عنه ﷺ: «ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمْ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ: رَجُلٌ خَرَجَ غَارِباً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ حَتَّى يَتَوَقَّاهُ فَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ يُرَدَّهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ، وَرَجُلٌ رَاحَ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ حَتَّى يَتَوَقَّاهُ فَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ يُرَدَّهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ، وَرَجُلٌ دَخَلَ بَيْتَهُ بِسَلَامٍ، فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ» حديث صحيح [أبو داود: ٢٤٩٤].

وصح عنه ﷺ: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَيِّتَ لَكُمْ وَلَا عِشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ، فَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: أَذْرَكْتُمُ الْمَيِّتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ: أَذْرَكْتُمُ الْمَيِّتَ وَالْعِشَاءَ. ذكره مسلم [٥٢٦٢].

فصل

في هديه ﷺ في الذكر عند دخوله الخلاء

ثبت عنه في «الصحيحين» أنه كان يقول عند دخوله الخلاء: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخُبْثِ وَالْخَبَائِثِ» [البخاري: ١٤٢، ومسلم: ٨٣١].

وذكر أحمد أنه أمر من دخل الخلاء أن يقول ذلك [صحيح: أحمد: ١٩٢٨٦، وأبو داود: ٦، وابن ماجه: ٢٩٦].

ويذكر عنه «السنن» أنه قال: «إِذَا دَخَلَ مَرْفَقَهُ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الرَّجْسِ النَّجِسِ، الْحَبِيثِ الْمُخْبِثِ، الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» [حسن: ابن ماجه: ٢٩٩].

ويذكر عنه ﷺ قال: «سَتَرُ مَا بَيْنَ الْجَنِّ وَعَوْرَاتِ

كَانَ ﷺ إِذَا اسْتَجَدَّ ثَوْباً سَمَّاهُ بِاسْمِهِ، عِمَامَةً، أَوْ قَمِيصاً، أَوْ رِدَاءً، ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ كَسَوْتَنِيهِ، أَسْأَلُكَ خَيْرَهُ، وَخَيْرَ مَا صُنِعَ لَهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ، وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ» حديث صحيح [أحمد: ١١٢٤٨، وأبو داود: ٤٠٢٠، والترمذي: ١٧٦٧].

ويذكر عنه أنه قال: «مَنْ لَبَسَ ثَوْباً فَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي هَذَا وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةَ، غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» [حسن: أبو داود: ٤٠٢٣، والحاكم (١٩٢/٤ - ١٩٣).

وفي «جامع الترمذي» عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ لَبَسَ ثَوْباً جَدِيداً فَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي مَا أُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي، وَأَتَجَمَّلُ بِهِ فِي حَيَاتِي، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى الثَّوْبِ الَّذِي أَخْلَقَ فَتَصَدَّقَ بِهِ، كَانَ فِي حِفْظِ اللَّهِ، وَفِي كَتَفِ اللَّهِ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، حَيًّا وَمَيِّتًا» [الترمذي: ٣٥٥٥، وابن ماجه: ٣٥٥٧].

وصح عنه أنه قال لأُمّ خالد لما لبسها الثوب الجديد: «أُبَلِّي وَأُخْلِقِي، ثُمَّ أَبْلِي وَأُخْلِقِي مَرَّتَيْنِ» [البخاري: ٥٨٢٣].

وفي «سنن ابن ماجه» أنه ﷺ رأى على عُمَرَ ثَوْباً فَقَالَ: «أَجْدِيدٌ هَذَا، أَمْ غَسِيلٌ؟ فَقَالَ: بَلْ غَسِيلٌ، فَقَالَ: «الْبَسْ جَدِيداً، وَعَشْ حَمِيداً، وَمُتْ شَهِيداً» [منكر: أحمد: ٥٦٢٠، وابن ماجه: ٣٥٥٨].

فصل

في هديه ﷺ عند دخوله إلى منزله

لم يكن ﷺ ليفجأ أهله بغتة يتخوئهم، ولكن كان يدخل على أهله على علم منهم بدخوله، وكان يسلم عليهم، وكان إذا دخل، بدأ بالسؤال، أو سأل عنهم، وربما قال: «هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عَدَاءٍ؟» [مسلم: ٢٧١٤] وربما سكت حتى يحضر بين يديه ما تيسر.

ويذكر عنه ﷺ أنه كان يقول إذا انقلب إلى بيته: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَفَانِي، وَأَوَانِي، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

بَنِي آدَمَ إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْكِنْفَ أَنْ يَقُولَ: بِسْمِ اللَّهِ»
[حسن: الترمذي: ٦٠٦، وابن ماجه: ٢٩٧].

وثبت عنه ﷺ أن رجلاً سَلَّمَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبُولُ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ [مسلم: ٨٢٣].

وأخبر أن الله سبحانه يَمُقَّت الحديث على الغائط: فَقَالَ: «لَا يَخْرُجُ الرَّجُلَانِ يَضْرِبَانِ الْغَائِظَ كَاشِفَيْنِ عَنْ عَوْرَاتِهِمَا يَتَحَدَّثَانِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَمُقَّت عَلَى ذَلِكَ» [أحمد: ١١٣١٠، وأبو داود: ١٥].

(النهى عن استقبال القبلة واستنساها ببول أو غائط)

وقد تَقَدَّمَ أنه كان لا يَسْتَقْبِلُ الْقِبْلَةَ ولا يَسْتَدْبِرُهَا ببولٍ ولا بغائط، وأنه نهى عن ذلك في حديث أبي أيوب، وسلمان الفارسي، وأبي هريرة، ومقل بن أبي مقل، وعبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عمر، رضي الله عنهم، وعامة هذه الأحاديث صحيحة، وسائرهما حسن، والمعارض لها إما معلول السند، وإما ضعيف الدلالة، فلا يَرُدُّ صَرِيحُ نَهْيِهِ الْمُسْتَفِضُّ عَنْ ذَلِكَ، كحديث عراك عن عائشة: ذَكَرَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَنَاسًا يَكْرَهُونَ أَنْ يَسْتَقْبِلُوا الْقِبْلَةَ بِفُرُوجِهِمْ، فَقَالَ: «أَوْقِدْ فَعَلُّوْهَا حَوْلُوا مَقْعَدَتِي قِبَلَ الْقِبْلَةِ» رواه الإمام أحمد [ضعيف: أحمد: ٢٥٠٦٣، وابن ماجه: ٣٢٤].

وقال: هو أحسن ما رُوي في الرخصة وإن كان مرسلًا، ولكن هذا الحديث قد طعن فيه البخاري وغيره من أئمة الحديث، ولم يُبَيِّنُوهُ، ولا يقتضي كلام الإمام أحمد تشيئه ولا تحسينه، قال الترمذي في كتاب «العلل الكبير» له: سألت أبا عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري عن هذا الحديث، فقال: هذا حديث فيه اضطراب، والصحيح عندي عن عائشة من قولها انتهى.

قلت: وله علة أخرى، وهي انقطاعه بين عراك وعائشة، فإنه لم يسمع منها، وقد رواه عبد الوهاب الثقفي عن خالد الحذاء عن رجل عن عائشة، وله علة أخرى، وهي ضعف خالد بن أبي الصلت.

ومن ذلك حديث جابر: نهى رسول الله ﷺ أن تُسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةُ ببول، فرأته قبل أن يُقبض بعام يستقبلها [الترمذي: ٩]. وهذا الحديث استغربه الترمذي بعد تحسينه، وقال الترمذي في كتاب «العلل»: سألت

محمدًا يعني البخاري عن هذا الحديث، فقال: هذا حديث صحيح، رواه غير واحد عن ابن إسحاق، فإن كان مراد البخاري صحته عن ابن إسحاق، لم يدل على صحته في نفسه، وإن كان مراده صحته في نفسه، فهي واقعة عين، حكمها حكم حديث ابن عمر لما رأى «رسول الله ﷺ يقضي حاجته مستدبر الكعبة»، وهذا يحتمل وجوهاً ستة: نسخُ النهي به، وعكسه وتخصيصه به ﷺ، وتخصيصه بالبيان، وأن يكون لعذر اقتضاه المكان أو غيره، وأن يكون بياناً، لأن النهي ليس على التحريم، ولا سبيل إلى الجزم بواحد من هذه الوجوه على التعيين، وإن كان حديث جابر لا يحتمل الوجه الثاني منها، فلا سبيل إلى ترك أحاديث النهي الصحيحة الصريحة المستفيضة بهذا المحتمل. وقول ابن عمر: إنما نهى عن ذلك في الصحراء، فهُمُّ مِنْهُ لاختصاص النهي بها، وليس بحكاية لفظ النهي، وهو معارض بفهم أبي أيوب للعموم مع سلامة قول أصحاب العموم من التناقض الذي يلزم المفرقين بين الفضاء والبيان، فإنه يقال لهم: ما حدُّ الحاجز الذي يجوز ذلك معه في البيان؟ ولا سبيل إلى ذكر حدٍّ فاصل، وإن جعلوا مطلق البيان مجوزاً لذلك، لزمهم جوازه في الفضاء الذي يحول بين البائل وبينه جبل قريب أو بعيد، كتنظيره في البيان، وأيضاً فإن النهي تكرم لجهة القبلة، وذلك لا يختلف بفضاء ولا ببيان، وليس مختصاً بنفس البيت، فكم من جبل وأكمة حائل بين البائل وبين البيت يمثل ما تحول جدرانُ البيان وأعظم، وأما جهة القبلة، فلا حائل بين البائل وبينها، وعلى الجهة وقع النهي، لا على البيت نفسه فتأمله.

فصل

(نداء الخروج من الخلاء)

وكان إذا خرج من الخلاء قال: «غُفْرَانُكَ» [حسن: أبو داود: ٣٠، والترمذي: ٧] ويُذكر عنه أنه كان يقول: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنِّي الْأَذَى، وَعَاقَانِي». ذكره ابن ماجه [ابن ماجه: ٣٠١، وفي سننه ضعيف].

فصل

في هديه ﷺ في أذكار الوضوء

ثبت عنه ﷺ أنه وضع يديه في الإناء الذي فيه

الماء، ثم قال للصحابه: «تَوَضَّؤُوا بِسْمِ اللَّهِ» [صحیح: النسائي (٦١/١)].

وثبت عنه أنه قال لجابر رضي الله عنه: «نَادِ بِوَضُوءٍ» فجاءه بالماء، فقال: «خُذْ يَا جَابِرُ قُصْبٌ عَلَيَّ وَقُلْ بِسْمِ اللَّهِ» قال: فَصَبَّيْتُ عَلَيْهِ، وَقُلْتُ: بِسْمِ اللَّهِ، قال: فَرَأَيْتُ الْمَاءَ يَقُورُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ [البخاري: ٤١٥٢، ومسلم: ٧٥١٩].

وذكر أحمد عنه من حديث أبي هريرة، وسعيد بن زيد، وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهم: «لَا وَضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ» وفي أسانيدنا لين^(١).

وصح عنه عليه السلام أنه قال: «مَنْ أَسْبَغَ الْوُضُوءَ ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَتَحَتَ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ» ذكره مسلم [٥٥٣].

وزاد الترمذي بعد التشهد «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ» [صحیح: الترمذي: ٥٥]. وزاد الإمام أحمد: ثُمَّ رَفَعَ نَظْرَهُ إِلَى السَّمَاءِ [أحمد: ١٧٣٦٣] وزاد ابن ماجه مع أحمد قول ذلك ثلاث مرات^(٢).

وذكر بقي بن مخلد في «مسنده» من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً: «مَنْ تَوَضَّأَ فَفَرَّغَ مِنْ وَضُوءِهِ، ثُمَّ قَالَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ كُحِبَ فِي رَقٍّ وَطَبِخَ عَلَيْهَا بِطَابِخٍ، ثُمَّ رَعِيَتْ تَحْتَ الْعَرْشِ فَلَمْ يُكْسَرْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ورواه النسائي في «كتابه الكبير» من كلام أبي سعيد الخدري^(٣) وقال النسائي: باب ما يقول بعد فراغه من وضوئه، فذكر بعض ما تقدم. ثم ذكر بإسناد صحيح من حديث أبي موسى الأشعري قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضوء فتوضأ، فسمعتة يقول ويدعو: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، وَوَسِّعْ لِي ذَارِي، وَبَارِكْ لِي

في رزقي» فقلت: يَا نَبِيَّ اللَّهِ: سَمِعْتُكَ تَدْعُو بِكَذَا وَكَذَا، قال: «وَهَلْ تَرَكَتَ مِنْ شَيْءٍ؟» وقال ابن السني: باب ما يقول بين ظهرائي وضوئه... فذكره [صحیح: ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٢٨)].

فصل

في هديه عليه السلام في الأذان وأذكاره

(هديه عليه السلام هي اللذان)

ثبت عن عليه السلام أنه سَأَلَ التَّاذِينَ بِتَرْجِيحٍ وَبِغَيْرِ تَرْجِيحٍ، وَشَرَعَ الْإِقَامَةَ مَثْنَى وَفَرَادَى، وَلَكِنْ الَّذِي صَحَّ عَنْهُ تَثْنِيَةُ كَلِمَةِ الْإِقَامَةِ «قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ» وَلَمْ يَصَحَّ عَنْهُ إِفْرَادُهَا الْبَتَةَ، وَكَذَلِكَ صَحَّ عَنْهُ تَكَرُّارُ لَفْظِ التَّكْبِيرِ فِي أَوَّلِ الْأَذَانِ أَرْبَعًا، وَلَمْ يَصَحَّ عَنْهُ الْإِقْتِصَارُ عَلَى مَرَّتَيْنِ وَأَمَّا حَدِيثُ «أَمِيرِ بِلَالٍ أَنْ يَشْفَعَ الْأَذَانَ وَيُؤَيِّرَ الْإِقَامَةَ» [البخاري: ٦٠٣] فَلَا يَنَافِي الشَّفْعَ بِأَرْبَعٍ، وَقَدْ صَحَّ التَّرْبِيعُ صَرِيحًا فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ، وَعَمْرٍو الْخَطَّابِ، وَأَبِي مَحْذُورَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وأما إفْرَادُ الْإِقَامَةِ، فَقَدْ صَحَّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا اسْتِثْنَاءُ كَلِمَةِ الْإِقَامَةِ، فَقَالَ: إِنَّمَا كَانَ الْأَذَانُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ، وَالْإِقَامَةُ مَرَّةً مَرَّةً، غَيْرَ أَنَّهُ يَقُولُ: «قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ»، قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ، وَفِي «صَحِيحِ الْبَخَارِيِّ» عَنْ أَنَسٍ: أَمِيرِ بِلَالٍ أَنْ يَشْفَعَ الْأَذَانَ، وَيُؤَيِّرَ الْإِقَامَةَ، إِلَّا الْإِقَامَةَ [البخاري: ٦٠٧، ومسلم: ٨٣٨] وَصَحَّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ وَعَمْرٍو فِي الْإِقَامَةِ «قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ»، قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ.

وصح من حديث أبي محذورة تثنية كلمة الإقامة مع سائر كلمات الأذان. وكُلُّ هَذِهِ الْوُجُوهُ جَائِزَةٌ مَجْزُوءَةٌ لَا كِرَاهَةَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهَا أَفْضَلَ مِنْ بَعْضٍ، فَالْإِمَامُ أَحْمَدُ أَخَذَ بِأَذَانِ بِلَالٍ وَإِقَامَتِهِ، وَالشَّافِعِيُّ أَخَذَ بِأَذَانِ أَبِي مَحْذُورَةَ وَإِقَامَةِ بِلَالٍ، وَأَبُو حَنِيفَةَ أَخَذَ بِأَذَانِ بِلَالٍ وَإِقَامَةِ أَبِي مَحْذُورَةَ، وَمَالِكٌ

(١) لكن بمجموعها يحدث منها قوة تدل على أن له أصلاً كما قال الحافظ في «التلخيص»، أما حديث أبي هريرة، فأخرجه وحديث سعيد بن زيد أخرجه الترمذي (٢٥)، وابن ماجه (٣٩٨)، وحديث أبي سعيد أخرجه أحمد (١١٣٧٠)، وابن ماجه (٣٩٧)، وسهل بن سعد عند ابن ماجه (٤٠٠).

(٢) وفي سننه زيد العمي وهو ضعيف.

(٣) النسائي في «عمل اليوم والليلة» مرفوعاً وموقوفاً.

أخذ بما رأى عليه عمل أهل المدينة من الاقتصاد على التكبير في الأذان مرتين، وعلى كلمة الإقامة مرة واحدة، رحمهم الله كلهم، فإنهم اجتهدوا في متابعة السنة.

فصل

وَأَمَّا هَدْيُهُ ﷺ فِي الذِّكْرِ عِنْدَ الْأَذَانِ وَبَعْدَهُ، فَشَرَعَ لَأَمَّتِهِ مِنْهُ خَمْسَةُ أَنْوَاعٍ.

أحدهما: أن يقول السامع، كما يقول المؤذن،
إِلَّا فِي لَفْظٍ «حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ» «حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ»
فإنه صح عنه إِبْدَالُهُمَا بِـ «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»
[البخاري: ٦١٢ - ٦١٣، ومسلم: ٨٤٨] ولم يَحِىْ عنه
الْجَمْعُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ «حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ» «حَيَّ عَلَى
الْفَلَاحِ» وَلَا الْاِتِّصَارُ عَلَى الْحِيَعَةِ، وَهَدْيُهُ ﷺ الَّذِي
صَحَّ عَنْهُ إِبْدَالُهُمَا بِالْحَوْقَلَةِ، وَهَذَا مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ
الْمُطَابَقَةِ لِحَالِ الْمُؤَذِّنِ وَالسَّامِعِ، فَإِنَّ كَلِمَاتِ الْأَذَانِ
ذِكْرٌ، فَسَنَ لِلْسَّامِعِ أَنْ يَقُولَهَا، وَكَلِمَةُ الْحِيَعَةِ دَعَاءٌ
إِلَى الصَّلَاةِ لِمَنْ سَمِعَهُ، فَسَنَ لِلْسَّامِعِ أَنْ يَسْتَمِينَ عَلَى
هَذِهِ الدَّعْوَةِ بِكَلِمَةِ الْإِعَانَةِ وَهِيَ «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا
بِاللَّهِ» الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

وَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَقُولَ عِنْدَ أَذَانِ الْمَغْرِبِ: «اللَّهُمَّ إِنَّ هَذَا إِفْبَالٌ لَيْلِكَ، وَإِدْبَارٌ نَهَارِكَ، وَأَصْوَاتُ دُعَايِكَ، فَأَعُوْزُ لِي» ذَكَرَهُ التِّرْمِذِيُّ [ابن داود: ٥٣٠، والترمذي: ٣٥٨٣، وضعفه].

الثالث: أن يُصَلِّيَ على النبي ﷺ بعد قَرَاغِهِ من إجابة المؤذِّن، وأَكْمَلُ مَا يُصَلِّيُ عَلَيْهِ بِهِ، وَيَصِلُ إِلَيْهِ، هِيَ الصَّلَاةُ الْإِبْرَاهِيمِيَّةُ كَمَا عَلَّمَهُ أُمُّهُ أَنْ يُصَلِّتُوا عَلَيْهِ، فَلَا صَلَاةَ عَلَيْهِ أَكْمَلُ مِنْهَا وَإِنْ تَحْذَلُونَ (١).

وذكر عنه عليه السلام أنه كان يقول عند كلمة الإقامة:
«أَقَامَهَا اللَّهُ وَأَدَامَهَا» [أبو داود: ٥٢٨، وفي سننه ضعف].
وفي السنن عنه عليه السلام **«الدُّعَاءُ لَا يَرُدُّ بَيْنَ الْأَذَانِ**

(٢) الحديث بزيادة «إنك لا تخلف الميعاد»، رواه البيهقي في «سننه» (١/ ٤١٠) وقد تفرد بها وهي ضعيفة، ورواه دون هذه الزيادة البخاري (٦١٤).

(٣) قال الحافظ في «الفتح»: وقد جاءت هذه الرواية بالتعريف بعينها يعني (المقام المحمود) عند النسائي، وهي في صحيح ابن خزيمة (٤٢٠) وابن حبان أيضاً وفي الطحاوي والطبراني في «الدعاء» والبيهقي، وفيه تعقيب على من أنكر ذلك.

(٤) وفي مسنده عفير بن معدان وهو ضعيف، والبيهقي في سننه (٤١١/١) موقوفاً على ابن عمر.

وَالْإِقَامَةَ قَالُوا: فَمَا نَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «سَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» حديث صحيح [الترمذي: ٣٥٨٨].

وفيهما عنه: «سَاعَتَانِ، يَفْتَحُ اللَّهُ فِيهِمَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ، وَقَلَمًا تُرَدُّ عَلَى دَاعِ دَعْوَتِهِ: عِنْدَ حُضُورِ النِّدَاءِ، وَالصَّفِّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» [صحيح: أبو داود: ٢٥٤٠].

وقد تقدم هدي في أذكار الصلاة مفصلاً والأذكار بعد انقضاءها، والأذكار في العيدين، والجنائز، والكسوف، وأنه أمر في الكسوف بالفرع إلى ذكر الله تعالى، وأنه كان يسبح في صلاتها قائماً رافعاً يديه يُهَلِّلُ وَيَكْبِّرُ وَيَحْمَدُ ويدعو حتى يحسر عن الشمس، والله أعلم.

فصل

(الدعاء في العشر)

وكان ﷺ يُكَبِّرُ الدعاء في عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ، ويأمر فيه بالإكثار من التهليل والتكبير والتحميد [البخاري: ٩٦٩].

(التكبير من فجر يوم عرفة إلى عصر ثالث أيام التشريق)

ويذكر عنه أنه كان يُكَبِّرُ من صلاة الفجر يوم عرفة إلى العصر من آخر أيام التشريق، فيقول: اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ [الدارقطني (٥٠/٢)، وفي سننه ضعف]. وهذا وإن كان لا يصح إسناده، فالعمل عليه، ولفظه هكذا يشفع التكبير، وأما كونه ثلاثاً، فإنما روي عن جابر وابن عباس من فعلهما ثلاثاً فقط، وكلاهما حسن. قال الشافعي: إن زاد فقال: اللَّهُ أَكْبَرُ كبراً، والحمد لله كثيراً، وَسُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ والله أكبر، كان حسناً.

فصل

في هديه ﷺ في الذكر عند رؤية الهلال

يُذَكِّرُ عنه أنه كان يقول: «اللَّهُمَّ أَهْلَهُ عَلَيْنَا بِالْأَمْنِ وَالْإِيمَانِ، وَالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ» قال الترمذي: حديث حسن [الترمذي: ٣٤٤٧].

ويذكر عنه أنه كان يقول عند رؤيته: «اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُمَّ أَهْلَهُ عَلَيْنَا بِالْأَمْنِ وَالْإِيمَانِ، وَالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ وَالتَّوْفِيقِ لِمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، رَبَّنَا وَرَبُّكَ اللَّهُ» ذكره الدارمي.

وذكر أبو داود عن قتادة أنه بلغه أن نبي الله ﷺ كان إذا رأى الهلال قال: «هَلَالٌ خَيْرٌ وَرُشْدٌ، هَلَالٌ خَيْرٌ وَرُشْدٌ، آمَنْتُ بِالَّذِي خَلَقَكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ذَهَبَ بِشَهْرِ كَذَا، وَجَاءَ بِشَهْرِ كَذَا» [أبو داود: ٥٠٩٢، ورجاله ثقات لكنه مرسل]. وفي أسانيدنا لين.

ويذكر عن أبي داود وهو في بعض نسخ سننه أنه قال: ليس في هذا الباب عن النبي ﷺ حديث مسند صحيح^(١).

فصل

في هديه ﷺ في أذكار الطعام قبله وبعده

كان إذا وضع يده في الطعام قال: «بِسْمِ اللَّهِ» ويأمر الأكل بالتسمية، ويقول: «إِذَا أَكَلْتَ أَخَذْكُمْ، فَلْيَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنْ نَسِيَ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللَّهِ فِي أَوَّلِهِ، فَلْيَقُلْ: بِسْمِ اللَّهِ فِي أَوَّلِهِ وَآخِرِهِ. حديث صحيح [أبو داود: ٣٧٦٧، والترمذي: ١٨٥٩].

والصحيح وجوب التسمية عند الأكل، وهو أحد الوجهين لأصحاب أحمد، وأحاديث الأمر بها صحيحة صريحة [البخاري: ٥٣٧٦، ومسلم: ٥٢٦٩]، ولا معارض لها، ولا إجماع يسوغ مخالفتها وتخرجها عن ظاهرها، وتاريخها شريكه الشيطان في طعامه وشرابه.

(١) هذا صحيح بالنسبة لإسناد كل حديث، لكن مجموع الطريقين يحدث منهما قوة، فيصح.

فصل

(هل تزول مشاركة الشيطان للأكلين بتسمية أحدهم؟)

فالفرق بينهما وبين مسألة الأكل ظاهر، فإن الشيطان إنما يتوصل إلى مشاركة الأكل في أكله إذا لم يُسم، فإذا سُمى غيره، لم تُجز تسمية من سُمى عن من لم يُسم من مقارنة الشيطان له، فيأكل معه، بل يُقَلُّ مشاركة الشيطان بتسمية بعضهم، وتبقى الشركة بين من لم يُسم وبينه، والله أعلم.

ويذكر عن جابر عن النبي ﷺ: «مَنْ نَسِيَ أَنْ يُسَمِّيَ عَلَى طَعَامِهِ، فَلْيَقْرَأْ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ إِذَا قَرَعَ» وفي ثبوت هذا الحديث نظر [ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٦٢) وفي سننه متروك].

وكان إذا رُفِعَ الطعامُ من بين يديه يقول: «الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، غَيْرَ مَكْنِيٍّ وَلَا مُوَدَّعٍ وَلَا مُسْتَغْنَى عَنْهُ رَبَّنَا» عَزَّ وَجَلَّ ذكره البخاري (٥٤٥٨).

وربما كان يقول: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَجَعَلَنَا مُسْلِمِينَ» [الترمذي: ٣٤٥٣].

وكان يقول: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَ وَسَقَى وَسَوَّغَهُ وَجَعَلَ لَهُ مَخْرَجًا» [ابو داود: ٣٨٥١].

وذكر البخاري عنه أنه كان يقول: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَفَانَا وَأَوَانَا» [البخاري: ٥٤٥٩] وذكر الترمذي عنه أنه قال: «مَنْ أَكَلَ طَعَامًا فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةَ، غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» حديث حسن [الترمذي: ٣٤٥٤].

ويذكر عنه أن كان إذا قُرِبَ إليه الطعامُ قال: «بِسْمِ اللَّهِ» فإذا قَرَعَ مِنْ طَعَامِهِ قال: «اللَّهُمَّ أَطْعَمْتَنِي وَسَقَيْتَنِي، وَأَغْنَيْتَنِي وَأَقْنَيْتَنِي، وَهَدَيْتَنِي وَأَخْيَيْتَنِي، فَالْحَمْدُ عَلَى مَا أَعْطَيْتَنِي» وإسناده صحيح [أحمد: ١٦٥٩٥].

وفي «السنن» عنه أنه كان يقول إذا فرغ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَنَّ عَلَيْنَا وَهَدَانَا، وَالَّذِي أَشْبَعَنَا وَأَزَوَانَا، وَمِنْ كُلِّ الْإِحْسَانِ آمَنَّا» حديث حسن [ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٦٩) وفي سننه راو منكر الحديث].

وفي «السنن» عنه أيضاً: «إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَامًا فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وَأَطْعِمْنَا خَيْرًا مِنْهُ. وَمَنْ سَقَاهُ اللَّهُ لَبَنًا، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَزِدْنَا مِنْهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يُجْزَى عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ غَيْرَ اللَّبَنِ» حديث حسن [الترمذي: ٣٤٥١].

وهنا مسألة تدعو الحاجة إليها، وهي أن الأكلين إذا كانوا جماعة، فسُمي أحدهم، هل تزول مشاركة الشيطان لهم في طعامهم بتسميته وحده، أم لا تزول إلا بتسمية الجميع؟ فنص الشافعي على إجزاء تسمية الواحد عن الباقي، وجعله أصحابه كرد السلام، وتسميت العاطس، وقد يُقال: لا تُرفع مشاركة الشيطان للأكل إلا بتسميته هو، ولا يكفيه تسمية غيره، ولهذا جاء في حديث حذيفة: إنا حضرنا مع رسول الله ﷺ طعاماً، فجاءت جارية كأنما تُدْفَع، فذهبت لتضع يدها في الطعام، فأخذ رسول الله ﷺ بيدها، ثم جاء أعرابي كأنما يُدْفَع، فأخذ بيده، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَسْتَجِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لَا يَذْكُرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ جَاءَ بِهِذِهِ الْجَارِيَةِ لَيَسْتَجِلَّ بِهَا، فَأَخَذْتُ بِيَدِهَا، فَجَاءَ بِهَذَا الْأَعْرَابِيُّ لَيَسْتَجِلَّ بِهِ، فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ يَدَهُ لَفِي يَدِي مَعَ يَدَيْهِمَا» ثم ذكر اسم الله وأكل [مسلم: ٥٢٥٩]، ولو كانت تسمية الواحد تكفي، لما وضع الشيطان يده في ذلك الطعام.

ولكن قد يجاب بأن النبي ﷺ لم يكن قد وضع يده وسُمي بعد، ولكن الجارية ابتدأت بالوضع بغير تسمية، وكذلك الأعرابي، فشاركهما الشيطان، فوين أين لكم أن الشيطان شارك من لم يُسم بعد تسمية غيره؟! فهذا مما يمكن أن يُقال، لكن قد روى الترمذي وصححه من حديث عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يأكل طعاماً في بيتٍ من أصحابه، فجاء أعرابي، فأكله بِلَقْمَتَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا إِنَّهُ لَوْ سُمِّيَ لَكَفَاكُم» [الترمذي: ١٨٥٩] ومن المعلوم أن رسول الله ﷺ وأولئك الستة سَمُوا، فلما جاء هذا الأعرابي فأكل ولم يُسم، شاركه الشيطان في أكله فأكل الطعام بِلَقْمَتَيْنِ، ولو سُمي لكفى الجميع.

وأما مسألة رد السلام، وتسميت العاطس، ففيها نظر، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ؛ فَحَمِدَ اللَّهَ فَحَقَّ عَلَى كُلِّ مَنْ سَمِعَهُ أَنْ يُسَمِّتَهُ» [البخاري: ٦٢٢٣] وإن سَلَّمَ الحُكْمَ فيهما،

ويذكر عنه أنه كَانَ إِذَا شَرِبَ فِي الْإِنَاءِ تَنَفَّسَ ثَلَاثَةً أَنْفَاسًا، وَيَتَحَمَّدُ اللَّهَ فِي كُلِّ نَفْسٍ، وَيَشْكُرُهُ فِي آخِرِهَا^(١).

فصل

وكان ﷺ إذا دخل على أهله رُبَّمَا يسألهم: هَلْ عِنْدَكُمْ طَعَامٌ؟ وَمَا عَابَ طَعَامًا قَطُّ، بَلْ كَانَ إِذَا اشْتَهَاهُ أَكَلَهُ، وَإِنْ كَرِهَهُ تَرَكَهُ وَسَكَتَ [البخاري: ٥٤٠٩، ومسلم: ٥٣٨٠] وربما قال: «أَجِدُنِي أَعَاظُهُ إِنِّي لَا أَشْتَهِيهِ» [البخاري: ٥٤٠٠، ومسلم: ٥٠٣٥].

وكان يمدح الطعام أحياناً، كقوله لما سأل أهله الإدام، فقالوا: ما عِنْدَنَا إِلَّا خَلٌّ، فدعا به فجعل يأكل مِنْهُ ويقول: «نِعْمَ الْأَذْمُ الْخَلُّ» [مسلم: ٥٣٥٢] وليس في هذا تفضيل له على اللبن واللحم والعسل والمرق، وإنما هو مدح له في تلك الحال التي حضر فيها، ولو حضر لحم أو لبن، كان أولى بالمدح منه، وقال هذا جبراً وتطلياً لقلب من قدمه، لا تفضيلاً له على سائر أنواع الإدام.

وكان إذا قُرِبَ إليه طعام وهو صائم قال: «إِنِّي صَائِمٌ»^(٢) وأمر من قُرِبَ إليه الطعام وهو صائم أَنْ يُصَلِّيَ، أي يدعو لمن قدمه، وإن كان مفطراً أَنْ يَأْكُلَ مِنْهُ [مسلم: ٣٥٢٠].

(احكام الدعوة إلى الطعام)

وكان إذا دُعِيَ لَطْعَامٍ وَتَبِعَهُ أَحَدٌ، أَعْلَمَ بِهِ رَبَّ الْمَنْزِلِ، وقال: «إِنَّ هَذَا تَبَعًا، فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَأْذَنَ لَهُ، وَإِنْ شِئْتَ رَجَعْ» [البخاري: ٥٤٦١].

وكان يتحدث على طعامه، كما تقدم في حديث الخل، وكما قال لربيبة عمر بن أبي سلمة وهو يُؤَاكِلُهُ: «سَمِ اللَّهَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ» [البخاري: ٥٣٧٦، ومسلم: ٥٢٦٩].

وربما كان يُكرِّر على أضيافه عرض الأكل عليهم

مراراً، كما يفعله أهل الكرم، كما في حديث أبي هريرة عند البخاري في قصة شرب اللبن وقوله له مراراً: «اشْرَبْ»، فَمَا زَالَ يَقُولُ: اشْرَبْ حَتَّى قَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَجِدُ لَهُ مَسْلَكاً [البخاري: ٦٤٥٢].

وكان إِذَا أَكَلَ عند قوم لم يخرج حتى يَذْهَبَ لَهُمْ، فدعا في منزل عبد الله بن بسر، فقال: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِيْمَا رَزَقْتَهُمْ، وَافْزِزْ لَهُمْ، وَارْحَمْهُمْ» ذكره مسلم [مسلم: ٥٣٢٨].

ودعا في منزل سعد بن عبادة فقال: «أَفْطَرْتُ عِنْدَكُمْ الصَّائِمُونَ، وَأَكَلْتُ طَعَامَكُمْ الْأَبْرَارَ، وَصَلَّتْ عَلَيْكُمْ الْمَلَائِكَةُ» [صحیح: أحمد: ١٢٤٠٦، وأبو داود: ٣٨٥٤].

وذكر أبو داود عنه ﷺ أنه لما دعاه أبو الهيثم بن التيهان هو وأصحابه فأكلوا، فلما فرغوا قال: «أَتَيْتُوْا أَحَاكُمُ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا إِثَابَتُهُ؟ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ، فَأَكَلَ طَعَامَهُ، وَشَرِبَ شَرَابَهُ، فَدَعَا لَهُ، فَذَلِكَ إِثَابَتُهُ» [أبو داود: ٣٨٥٣، وفي سنده مجهول].

وصح عنه ﷺ أنه دخل منزلة ليلة، فالتمس طعاماً فلم يجده، فقال: «اللَّهُمَّ أَطْعِمْ مَنْ أَطْعَمَنِي، وَاسْقِ مَنْ سَقَانِي» [مسلم: ٥٣٦٢].

وَذَكَرَ عَنْهُ أَنْ عَمِرُو بْنُ الْحَقِيقِ سَقَاهُ لَبَنًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ أَتَيْتُهُ بِشَبَابِهِ، فَمَرَّتْ عَلَيْهِ ثَمَانُونَ سَنَةً لَمْ يَرَ شَعْرَةً يَنْصَاءُ [ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٧٦) وفي سنده متروك].

وكان يدعو لمن يُضيف المساكين، ويشتي عليهم، فقال مرة: أَلَا رَجُلٌ يُضَيِّفُ هَذَا رَجْمَهُ اللَّهَ، وقال للأنصاري وامرأته اللَّذَيْنِ آتَا بِقُوَّتِهِمَا وَقُوَّتِ صَيَانِهِمَا ضَيْفَهُمَا: «لَقَدْ عَجِبَ اللَّهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ» [البخاري: ٤٨٨٩، ومسلم: ٥٣٥٩].

(١) ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٧٢) وفي سنده المعلى بن عرقان، قال ابن معين: ليس بشيء، وقال البخاري: منكر الحديث، وأصل تليث النفس في الشراب أخرجه البخاري (٥٦٣١)، ومسلم (٢٠٢٨).

(٢) البخاري (١٩٨٢) من حديث أنس بن مالك قال: دخل النبي ﷺ على أم سليم، فأثته بتمر وسمن، فقال: «أعبدوا سمنكم في سقائه، وتمركم في وعائه، فإني صائم» ثم قام إلى ناحية من البيت، فصلى غير المكتوبة، فدعا لأم سليم وأهل بيتها.

(عدم الذنبة من مواكلة أي لسان)

وَكَانَ لَا يَأْتُهُ مِنْ مَوَاكِلَةِ أَحَدٍ صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا، حُرًّا أَوْ عَبْدًا، أَعْرَابِيًّا أَوْ مَهَاجِرًا، حَتَّى لَقَدْ رَوَى أَصْحَابُ السَّنَنِ عَنْهُ أَنَّهُ أَخَذَ بِيَدِ مَجْدُومٍ فَوَضَعَهَا مَعَهُ فِي الْقَصْعَةِ فَقَالَ: «كُلْ بِسْمِ اللَّهِ ثِقَةً بِاللَّهِ، وَتَوَكَّلًا عَلَيْهِ» [أبو داود: ٣٩٢٥، والترمذي: ١٨١٨].

(الاسكل باليمين)

وكان يأمر بالأكْل باليمين، وينهي عن الأكْل بالشمال، ويقول: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ، وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ» [مسلم: ٥٢٦٥] ومقتضى هذا تحريم الأكْل بها، وهو الصحيح، فإن الأكْل بِهَا، إما شيطان، وإما مشبه به. وصح عنه أنه قال لرجل أكل عنده، فأكل بشماله: «كُلْ بِيَمِينِكَ»، فقال: لا أستطيع، فقال: «لَا اسْتَطَعْتَ» فما رفع يده إلى فيه بعدها [مسلم: ٥٢٦٨]. فلو كان ذلك جائزاً، لما دعا عليه بفعله، وإن كان كِبَرُهُ حمله على ترك امتثال الأمر، فذلك أبلغ في العصيان واستحقاق الدعاء عليه.

وأمر من شكوا إليه أنهم لا يشبعون: أن يجتنبوا على طعامهم ولا يتفرقوا، وأن يذكرُوا اسمَ اللَّهِ عليه يُبارك لهم فيه [حسن: أحمد: ١٦٠٧٨، وأبو داود: ٣٧٦٤، وابن ماجه: ٣٢٨٦].

وصح عنه أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ يَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ يَحْمَدُهُ عَلَيْهَا» [مسلم: ٦٩٣٢].

وروي عنه أنه قال: «أَذِيبُوا طَعَامَكُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالصَّلَاةِ، وَلَا تَنَامُوا عَلَيْهِ فَتَقْسُو قُلُوبُكُمْ»^(١) وأخرى بهذا الحديث أن يكون صحيحاً والواقع في التجربة يشهد به.

فصل

في هديه ﷺ في السلام والاستئذان وتشميت العاطس

(السلام)

ثبت عنه ﷺ في «الصحيحين» عن أبي هريرة أن أفضَلَ الإسلام وَخَيْرُهُ إِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَأَنْ تَقْرَأَ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَعَلَى مَنْ لَمْ تَعْرِفْ [البخاري: ١٢، ومسلم: ١٦٠].

وفيهما أن آدمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا خَلَقَهُ اللَّهُ قَالَ لَهُ: اذْقَبْ إِلَى أُولَئِكَ النَّفَرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ، وَاسْتَمِعْ مَا يُحْيُونَكَ بِهِ، فَإِنَّهَا نَجَاتُكَ وَنَجِيَّةُ دُرِّيَّتِكَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَزَادُوهُ «وَرَحْمَةُ اللَّهِ» [البخاري: ٦٢٢٧].

وفيهما أنه ﷺ أَمَرَ بِإِفْشَاءِ السَّلَامِ وَأَحْبَرَهُمْ أَنَّهُمْ إِذَا أَفْشَوْا السَّلَامَ بَيْنَهُمْ تَحَابُّوا، وَأَنَّهُمْ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُؤْمِنُوا، وَلَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يَتَحَابُّوا^(٢).

وقال البخاري في «صحيحه»: قال عمار: ثلاث مَنْ جَمَعَهُنَّ، فَقَدْ جَمَعَ الْإِيمَانَ: الْإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ، وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ، وَالْإِنْفَاقُ مِنَ الْإِقْتَارِ [البخاري معلقاً بعد: ٢٧].

(فضائل الإنصاف)

وقد تضمنت هذه الكلمات أصول الخير وفروعه، فإن الإنصاف يوجب عليه أداء حقوق الله كاملة موقرة، وأداء حقوق الناس كذلك، وأن لا يطالبهم بما ليس له، ولا يحملهم فوق وسعهم، ويُعاملهم بما يُحِبُّ أَنْ يُعَامِلُوهُ بِهِ، وَيُعْطِيَهُمْ مِمَّا يُحِبُّ أَنْ يُعْفُوهُ مِنْهُ، وَيَحْكُمَ لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ بِمَا يَحْكُمُ بِهِ لِنَفْسِهِ وَعَلَيْهَا، ويدخل في هذا إنصافه نفسه من نفسه، فلا يدعي لها ما ليس لها، ولا يُخَبِّئها بتدليسها، وتصغيره إياها،

(١) ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٨٩)، وابن حبان في «الضعفاء» (١/١٩٩) وفي سننه بزيح (بوزن عظيم) بن حسان منهم بالكذب.

وقول المصنف: «وأخرى بهذا الحديث أن يكون صحيحاً...» كلام غير سديد لأن النص لا يثبت بالتجربة باتفاق أهل العلم.

(٢) ليس في صحيح البخاري، وإنما هو في «الأدب المفرد» (٩٨٠)، ورواه مسلم (١٩٤).

وتحقيرها بمعاصي الله، ويُسميها ويكبرها ويرفعها بطاعة الله وتوحيده، وحبّه وخوفه، ورجائه، والتوكل عليه، والإنابة إليه، وإيثار مرضاته ومحابه على مراضى الخلق ومحابهم، ولا يكون بها مع الخلق ولا مع الله، بل يعزلها من بين كما عزلها الله، ويكون بالله لا بنفسه في حبه وبغضه، وعطائه ومنعه، وكلامه وسكوتيه، ومدخله ومخرجه، فينجي نفسه من البين، ولا يرى لها مكانة يعمل عليها، فيكون ممن ذمهم الله بقوله: ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٥] ^(١) فالعبد المحض ليس له مكانة يعمل عليها، فإن مستحق المنافع والأعمال لسيده، ونفسه ملك لسيده، فهو عامل على أن يؤدي إلى سيده ما هو مستحق له عليه، ليس له مكانة أصلاً، بل قد كُتِبَ على حقوق مُنَجَّمَةٍ، كلما أدّى نجماً حلّ عليه نجم آخر، ولا يزال المكاتب عبداً ما بقي عليه شيء من نجوم الكتابة.

والمقصود أن إنصافه من نفسه يُوجب عليه معرفة ربه، وحقّه عليه، ومعرفة نفسه، وما خُلِقَتْ له، وأن لا يُزَاجِمَ بها مالِكها، وفاطرها ويدّعي لها الملكة والاستحقاق، ويزاحم مراد سيده، ويدفعه بمراده

هو، أو يقدمه ويؤثره عليه، أو يقسم إرادته بين مراد سيده ومراده، وهي قسمة ضيزى، مثل قسمة الذين قالوا: ﴿هَذَا لِلَّهِ بِرِئْسِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَيْكَ اللَّهُ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَيْكَ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ^(٢) [الأنعام: ١٣٦].

فلينظر العبد لا يكون من أهل هذه القسمة بين نفسه وشركائه وبين الله لجهله وظلمه وإلا لُبِسَ عليه، وهو لا يشعر، فإن الإنسان خُلِقَ ظلوماً جهولاً، فكيف يُظَلَّبُ الإنصاف ممن وصفه الظلم والجهل؟! وكيف يُنَصِّفُ الخلق من لم يُنصِفِ الخالق؟! كما في أثر إلهي يقول الله عز وجل: ﴿ابْنِ آدَمَ مَا أَنْصَفْتَنِي، خَيْرِي إِلَيْكَ نَازِلٌ، وَشُرْكَ إِلَهِي صَاعِدٌ، كَمْ أَتَجَبَّبُ إِلَيْكَ بِالنَّعَمِ، وَأَنَا غَنِيٌّ عَنْكَ، وَكَمْ تَتَبَغَّضُ إِلَيَّ بِالْمَعَاصِي وَأَنْتَ فَقِيرٌ إِلَيَّ، وَلا يَزَالُ الْمَلَكُ الْكَرِيمُ يُعْرِجُ إِلَيَّ مِنْكَ بِعَمَلٍ قَبِيحٍ».

وفي أثر آخر: «ابن آدم ما أنصفتني، خلقتك وتعبدت غيبي، وأرزقك وتشكر سيواي».

ثم كيف يُنصِفُ غيره من لم يُنصِفِ نفسه، وظلمها

(١) قال ابن كثير: هذا تهديد شديد ووعيد أكيد، أي: استمروا على طريقتكم وناحتكم إن كنتم تظنون أنكم على هدى، فأنما مستمر على طريقتي ومنهجي، كقوله: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿١٣٥﴾ ثم قال: ﴿تَسَوَّفَ تَمَكُّنُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ^(٢) أي: أنكون لي أولكم، وقد أنجز الله موعوده لرسوله صلوات الله عليه وسلامه، فمكته الله تعالى في البلاد، وحكمه في نواصي مخالفين من العباد، وفتح له مكة وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناواه.

(٢) قال علي بن أبي طلحة، والعمري عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً، أو كانت لهم ثمرة، جعلوا لله منه جزءاً وللوثن جزءاً، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان، حفظوه، وأحصوه، وإن سقط منه شيء فيما سمي للصدد، ردوه إلى ما جعلوه للوثن، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن، فسقى شيئاً جعلوه لله، جعلوا ذلك للوثن، وإن سقط شيء من الحرث والثمرة التي جعلوها لله، فاختلط بالذي جعلوه للوثن، قالوا: هذا فقير ولم يردوه إلى ما جعلوه لله، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه لله، جعلوا ذلك للوثن، وإن سقط شيء من الحرث والثمرة التي جعلوها لله، فاختلط بالذي جعلوه للوثن، قالوا: هذا فقير ولم يردوه إلى ما جعلوه لله، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه لله فسقى ما سمي للوثن تركوه للوثن، وكانوا يحرمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فيجعلونه للأوثان، ويزعمون أنهم يحرمونه قربة لله، فقال الله تعالى ﴿وَجَسَلُوا فِيَّ وَمَا ذَرَأَ مِنْ آلِ الْكَافِرِينَ وَالْأَكْثَرُ فِي سَوَاءٍ﴾ وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في الآية: كل شيء يجعلونه لله من ذبح يذبحونه لا يأكلونه أبداً حتى يذكروا معه أسماء الآلهة وما كان للآلهة لم يذكروا اسم الله معه وقرأ هذه الآية حتى بلغ ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ^(٣) أي: ساء ما يقسمون، فإنهم أخطأوا أولاً القسم لأن الله تعالى هو رب كل شيء ومليكه وخالقه وله الملك وكل شيء له وفي تصرفه وتحت قدرته ومشيتته لا إله غيره ولا رب سواه...

بيده [حسن: أحمد: ١٩٢١٤، وأبو داود: ٥٢٠٤، والترمذي: ٢٦٩٨، وابن ماجه: ٣٧٠١].

وفي «صحيح البخاري»: أن الصحابة كانوا ينصرفون من الجمعة فيمرون على عجوز في طريقهم، فيسلمون عليها، فتقدم لهم طعاماً من أصول السلق والشعير [البخاري: ٦٢٤٨].

وهذا هو الصواب في مسألة السلام على النساء يُسلم على العجوز وذوات المحارم دون غيرهن.

فصل

وثبت عنه في «صحيح البخاري» وغيره تسليم الصغير على الكبير، والمار على القاعد، والراكب على الماشي، والقليل على الكثير [البخاري: ٦٢٣٢، ومسلم: ٥٦٤٦].

وفي «جامع الترمذي» عنه: يُسلم الماشي على القائم.

وفي «مسند البزار» عنه: يسلم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والماشيان أيهما بدأ، فهو أفضل [الهيتمي في «المجمع» (٣٦/٨)، وابن حبان: ١٩٣٥].

وفي «سنن أبي داود» عنه: «إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِاللَّهِ مَنْ بَدَأَهُمُ بِالسَّلَامِ» [صحيح: أحمد: ٢٢١٩٢، وأبو داود: ٥١٩٧].

وكان من هديه ﷺ السلام عند المجيء إلى القوم، والسلام عند الانصراف عنهم، وثبت عنه أنه قال: «إِذَا قَعَدَ أَحَدُكُمْ، فَلْيُسَلِّمْ، وَإِذَا قَامَ، فَلْيُسَلِّمْ، وَلْيَسِّتِ الْأَوَّلَى أَحَقُّ مِنَ الْآخِرَةِ» [حسن: أحمد: ٧١٤٢، وأبو داود: ٥٢٠٨، والترمذي: ٢٧٠٧].

وذكر أبو داود عنه «إِذَا لَقِيَ أَحَدُكُمْ صَاحِبَهُ فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَإِنْ حَالَ يَنْتَهَمَا شَجَرَةً أَوْ جِدَارًا، ثُمَّ لَقِيَ، فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ أَيْضًا» [أبو داود: ٥٢٠٠].

وقال أنس: كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَمَاشَوْنَ، فَإِذَا اسْتَبَقَتْهُمُ شَجَرَةٌ أَوْ أَكْمَةٌ، تَفَرَّقُوا بَيْنَهَا وَشِمَالًا، وَإِذَا تَفَرَّقُوا مِنْ وَرَائِهَا، سَلَّمَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ [صحيح: ابن السني: ٢٤٥].

(تحية المسجد قبل السلام)

ومن هديه ﷺ أن الداخل إلى المسجد يبتدئ

أقبح الظلم، وسعى في ضررها أعظم السعي، ومنعها أعظم لذاتها من حيث ظن أنه يعطيها إيَّاهَا، فأتعبها كُلُّ التعب، وأشقاها كُلُّ الشقاء من حيث ظن أنه يُريحها ويُسعدُها، وجَدَّ كلُّ الجدُّ في جرمانها حظها من الله، وهو يظن أنه ينيلها حظوظها، ودساها كُلُّ التدسية، وهو يظن أنه يكبرها ويُسميها، وحقرها كُلُّ التحقير، وهو يظن أنه يعظمها، فكيف يُرجى الإنصاف ممن هذا إنصافه لنفسه؟! إذا كان هذا فعل العبد بنفسه، فماذا تراه بالأجانب يفعل.

والمقصود أن قول عمار رضي الله عنه: ثلاث من جمعهن، فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار، كلام جامع لأصول الخير وفروعه.

(بذل السلام)

وبذل السلام للعالم يتضمن تواضعه وأنه لا يتكبر على أحد، بل يبذل السلام للصغير والكبير، والشريف والوضيع، ومن يعرفه ومن لا يعرفه، والمتكبر ضد هذا، فإنه لا يرُدُّ السلام على كُلِّ من سلم عليه كبراً منه وتيهاً، فكيف يبذل السلام لكل أحد.

(الإنفاق من الإقتار)

وأما الإنفاق من الإقتار، فلا يصدر إلا عن قوة ثقة بالله، وأن الله يُخلفه ما أنفق، وعن قوة يقين، وتوكل، ورحمة، وزهد في الدنيا، وسخاء نفس بها، ووثوق بوعد من وعده مغفرة منه وفضلاً، وتكدياً بوعد من يعده الفقر، ويأمر بالفحشاء، والله المستعان.

فصل

(السلام على الصبيان والنسوان)

وثبت عنه ﷺ أنه مر بصبيان، فسلم عليهم، ذكره مسلم [البخاري: ٦٢٤٧، ومسلم: ٥٦٦٣].

وذكر الترمذي في «جامعه» عنه ﷺ مرَّ يوماً بجماعة نسوة، فألوى بيده بالتسليم.

وقال أبو داود: عن أسماء بنت يزيد مرَّ علينا النبي ﷺ في نسوة، فسلم علينا، وهي رواية حديث الترمذي، والظاهر أن القصة واحدة وأنه سلم عليهن

(السلام قبل السؤال)

وقد روى أبو أحمد بإسناد أحسن منه حديث عبد العزيز بن أبي رواد، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «السَّلَامُ قَبْلَ السُّؤَالِ، فَمَنْ بَدَأَكُمْ بِالسُّؤَالِ قَبْلَ السَّلَامِ، فَلَا تُجِيبُوهُ» [ابن عدي في «الكامل» (٣٠٣/٢)، وفي سننه ضيفاً].

ويذكر عنه أنه كَانَ لَا يَأْذَنُ لِمَنْ لَمْ يَبْدَأْ بِالسَّلَامِ. ويذكر عنه: «لَا تَأْذَنُوا لِمَنْ لَمْ يَبْدَأْ بِالسَّلَامِ» [ابن نمير في «أخبار أصبهان» (٣٥٧/١)، وفي سننه مجهول وبقي رجاله ثقات].

وأجود منها ما رواه الترمذي عن كَلْدَةَ بِنْتِ حَبِيلٍ: أَنَّ صَفْوَانَ بْنَ أُمِيَّةٍ بَعَثَ بِبَلْبَنٍ وَبَلْبَا وَجَدَايَةَ وَصَغَايِنَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالنَّبِيِّ ﷺ بِأَعْلَى الْوَادِي قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، وَلَمْ أَسْلَمْ، وَلَمْ أَسْتَأْذِنْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ارْجِعْ فَقُلْ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَدْخُلْ؟»، قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ [صحيح: أحمد: ١٥٤٢٥، وأبو داود: ٥١٧٦، والترمذي: ٢٧١١].

وكان إذا أتى باب قوم، لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من رُكْنِهِ الْأَيْمَنِ، أَوِ الْأَيْسَرِ، فيقول: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ [أبو داود: ٥١٨٦].

فصل

(تحمل السلام للغائبين)

وكان يُسَلِّمُ بِنَفْسِهِ عَلَى مَنْ يُوَاجِهُهُ، وَيُحْمَلُ السَّلَامُ لِمَنْ يُرِيدُ السَّلَامَ عَلَيْهِ مِنَ الْغَائِبِينَ عَنْهُ^(١)، وَتَحْمَلُ السَّلَامَ لِمَنْ يُلْغِيهِ إِلَيْهِ، كَمَا تَحْمَلُ السَّلَامَ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى صَدِيقَةِ النِّسَاءِ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لَمَّا قَالَ لَهُ جَبْرِيلُ: «هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْكَ بِطَعَامٍ، فَأَقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا، وَمِنِّي وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ» [البخاري: ٣٨٢٠، ومسلم: ٦٢٧٣].

وقال للصَّدِيقَةِ الثَّانِيَةِ بِنْتُ الصَّدِيقِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «هَذَا جَبْرِيلُ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ»

بركعتين تحية المسجد، ثم يجيء فيسلم على القوم، فتكون تحية المسجد قبل تحية أهله، فإن تلك حقُّ الله تعالى، والسلام على الخلق هو حقُّ لهم، وحقُّ الله في مثل هذا أحقُّ بالتقديم، بخلاف الحقوق المالية، فإن فيها نزاعاً معروفاً، والفرق بينهما حاجة الأدمي وعدم اتساع الحق المالي لأداء الحقيقين، بخلاف السلام.

وكانت عادة القوم معه هكذا، يدخل أحدهم المسجد، فيصلي ركعتين، ثم يجيء، فيسلم على النبي ﷺ، ولهذا جاء في حديث رفاعة بن رافع أن النبي ﷺ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ يَوْمًا قَالَ رِفَاعَةُ: وَنَحْنُ مَعَهُ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ كَالْبُدَوِيِّ، فَصَلَّى، فَأَخَفَتْ صَلَاتُهُ، ثُمَّ انْصَرَفَ فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَعَلَيْكَ فَارْجِعْ، فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»... وذكر الحديث [البخاري: ٧٥٧، ومسلم: ٨٨٥] فأنكر عليه صلته، ولم ينكر عليه تأخير السلام عليه ﷺ إلى ما بعد الصلاة.

وعلى هذا: فيُسَنُّ لِدَاخِلِ الْمَسْجِدِ إِذَا كَانَ فِيهِ جَمَاعَةٌ ثَلَاثُ تَحِيَّاتٍ مُتَرَتِّبَةً: أَنْ يَقُولَ عِنْدَ دُخُولِهِ: بِسْمِ اللَّهِ وَالصَّلَاةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ. ثُمَّ يَصَلِّي رَكَعَتَيْنِ تَحِيَّةَ الْمَسْجِدِ. ثُمَّ يُسَلِّمُ عَلَى الْقَوْمِ.

فصل

وكان إذا دَخَلَ عَلَى أَهْلِهِ بِاللَّيْلِ، يُسَلِّمُ تَسْلِيمًا لَا يُوقِفُ النَّائِمَ. وَيُسَمِعُ الْيَقْظَانَ، ذَكَرَهُ مُسْلِمٌ [٥٣٦٢].

فصل

وذكر الترمذي عنه عليه السلام «السَّلَامُ قَبْلَ الْكَلَامِ» [الترمذي: ٢٧٠٠، وفي سننه متروكان فالحديث باطل]. وفي لفظ آخر: «لَا تَدْعُوا أَحَدًا إِلَى الطَّعَامِ حَتَّى يُسَلِّمَ».

وهذا وإن كان إسناده وما قبله ضعيفاً، فالعمل عليه.

(١) مسلم في «صحيحه» (٤٩٠١) أن فتى من أسلم قال: يا رسول الله إني أريد الغزو، وليس معي ما أتجهز، قال: «انت فلاناً، فإنه قد كان تجهز، فمرض فأتاه فقال: إن رسول الله ﷺ يقرئك السلام، ويقول: أعطني الذي تجهزت به، قال: يا فلانة أعطيه الذي تجهزت به، ولا تحسبي منه شيئاً فيبارك لك فيه».

قَالَتْ: وَعَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، يَرَى مَا لَا أَرَى [البخاري: ٣٧٦٨، ومسلم: ٦٣٠١].

فصل

(صفة السلام)

وكان هديته انتهاء السلام إلى «وبركاته» فذكر النسائي عنه أن رجلاً جاء فقال: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَرَدَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ: «عَشْرَةٌ» ثُمَّ جَلَسَ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ: «عَشْرُونَ» ثُمَّ جَلَسَ وَجَاءَ آخَرُ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، فَرَدَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ: «ثَلَاثُونَ» رواه النسائي، والترمذي من حديث عمران بن حصين، وحسنه [أبو داود: ٥١٩٥، والترمذي: ٢٦٩٠].

وذكره أبو داود من حديث معاذ بن أنس، وزاد فيه: «ثُمَّ أَتَى آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ وَمَغْفِرَتُهُ فَقَالَ: «أَرْبَعُونَ» فَقَالَ: هَكَذَا تَكُونُ الْقَضَائِلُ» [ضعيف: أبو داود: ٥١٩٦]. ولا يثبت هذا الحديث. فإن له ثلاث علل: إحداها: أنه من رواية أبي مرحوم عبد الرحيم بن ميمون، ولا يحتج به. الثانية: إن فيه أيضاً سهل بن معاذ وهو أيضاً كذلك. الثالثة: أن سعيد بن أبي مريم أحد رواة لم يجزم بالرواية، بل قال: أظن أني سمعت نافع بن يزيد.

وأضعف من هذا الحديث الآخر عن أنس: كان رجل يشر بالنبي ﷺ يقول: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فيقول له النبي ﷺ: «وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ وَمَغْفِرَتُهُ وَرِضْوَانُهُ» فقيل له: يا رسول الله تُسَلِّمُ على هذا سلاماً ما تُسَلِّمُ على أحد من أصحابك؟ فقال: «وَمَا يَمْنَعُنِي مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ يَنْصَرِفُ بِأَجْرِ بَعْضَةِ عَشْرِ رَجُلٍ، وَكَانَ يَزْعَى عَلَى أَصْحَابِهِ» [ابن السني: ٧٣٤، وفي إسناده جهالة ونكارة].

فصل

(السلام ثلاثاً)

وكان من هديته ﷺ أن يُسَلِّمَ ثلاثاً كما في «صحيح البخاري» عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلَاثًا حَتَّى تَلْفَهُمْ عَنْهُ، وَإِذَا أَتَى عَلَى قَوْمٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ سَلَّمَ ثَلَاثًا

[البخاري: ٩٥] ولعل هذا كان هديته في السلام على الجمع الكثير الذين لا يبلغهم سلام واحد، أو هديته في إسماع السلام الثاني والثالث، إن ظن أن الأول لم يحصل به الإسماع كما سلم لما انتهى إلى منزل سعد بن عبادَةَ ثلاثاً، فلما لم يُجِبْه أحد رجع [البخاري في «الأدب المفرد»: ١٠٧٣، وفي سننه ضعف] وإلا فلو كان هديته الدائم التسليم ثلاثاً لكان أصحابه يُسَلِّمُونَ عليه كذلك، وكان يُسَلِّمُ على كُلِّ من لقيه ثلاثاً، وإذا دخل بيته ثلاثاً، ومن تأمل هديته، علم أن لأمر ليس كذلك، وأن تكرار السلام كان منه أمراً عارضاً في بعض الأحيان، والله أعلم.

فصل

(رد السلام)

وكان يبدأ من لقيه بالسلام، وإذا سلم عليه أحد، ردَّ عليه مثل تحيته أو أفضل منها على الفور من غير تأخير، إلّا لعل، مثل حالة الصلاة، وحالة قضاء الحاجة.

وكان يُسَمِعُ المسلم ردّه عليه، ولم يكن يرُدُّ بيده ولا رأسه ولا أصبعه إلّا في الصلاة، فإنه كان يرد على من سلم عليه إشارة، ثبت ذلك عنه في عدة أحاديث، ولم يجز عنه ما يعارضها إلّا بشيء باطل لا يصح عنه كحديث يرويه أبو غطفان رجل مجهول، عن أبي هريرة عنه ﷺ «مَنْ أَشَارَ فِي صَلَاتِهِ إِشَارَةً تُلْفَهُمْ عَنْهُ فَلْيُعَذِّ صَلَاتَهُ» [ضعيف: أبو داود: ٩٤٤] قال الدارقطني: قال لنا ابن أبي داود: أبو غطفان هذا رجل مجهول. والصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يشير في الصلاة، رواه أنس وجابر وغيرهما عن النبي ﷺ [مسلم: ١٢٠٥، عن جابر، وأحمد: ١٢٤٠٧، عن أنس].

فصل

(كرهية قول المبتدئ: عليك السلام)

وكان هديته في ابتداء السلام أن يقول: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ» وكان يكره أن يقول المبتدئ: عليك السلام.

قال أبو جريُّ الهُجَيُّ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: عَلَيْكَ السَّلَامُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: «لَا تَقُلْ عَلَيْكَ السَّلَامُ، فَإِنَّ عَلَيْكَ السَّلَامَ تَجِيءُ الْمُؤْتَى» حديث

صحيح [أحمد: ١٥٩٥٥، وأبو داود: ٥٢٠٩، والترمذي: ٢٧٢٢].

وقد أشكل هذا الحديث على طائفة، وظنوه معارضاً لما ثبت عنه ﷺ في السَّلام على الأموات بلفظ «السَّلام عَلَيْكُمْ» بتقديم السَّلام، فظنوا أن قوله: «فإن عليك السَّلام تحية الموتى» إخبار عن المشروع، وغلطوا في ذلك غلطاً أوجب لهم ظنَّ التعارض، وإنما معنى قوله: «فإن عَلَيْكَ السَّلام تحية الموتى» إخبار عن الواقع، لا المشروع، أي: إن الشعراء وغيرهم يحيون الموتى بهذه اللفظة، كقول قائلهم:

عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ قَيْسَ بْنَ عَاصِمٍ
وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ أَنْ يَتَرَحَّمَا
فَمَا كَانَ قَيْسٌ هُلُكُهُ هُلُكَ وَاحِدٍ
وَلَكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهْلُمَا
فكره النبي ﷺ أن يُحيى بتحية الأموات، ومن كراهته لذلك لم يردَّ على المسلم بها^(١).

(بحث في الرد على المسلم بـ «وعليك السَّلام»)

والفرق بينها وبين الرد على أهل الكتاب

وكان يردُّ على المُسلم «وَعَلَيْكَ السَّلام» بالواو، وبقديم «عَلَيْكَ» على لفظ السَّلام.

وتكلم الناس ههنا في مسألة، وهي لو حذف الراء «الواو» فقال: «عَلَيْكَ السَّلام» هل يكون صحيحاً؟ فقالت طائفة منهم المتولي وغيره: لا يكون جواباً، ولا يسقط به فرض الرد، لأنه مخالف لسنة الرد، ولأنه لا يعلم: هل هو رد، أو ابتداء تحية؟ فإن صورته صالحة لهما، ولأن النبي ﷺ قال: «إِذَا سَلَّمَ

عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ، فَقُولُوا: «وَعَلَيْكُمْ» [البخاري: ٦٢٥٨، ومسلم: ٥٦٥٢] فهذا تنبيه منه على وجوب الواو في الرد على أهل الإسلام، فإن «الواو» في مثل هذا الكلام تقتضي تقرير الأول، وإثبات الثاني، فإذا أُمِرَ بالواو في الرد على أهل الكتاب الذين يقولون: السَّلام عليكم، فقال: «إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ، فَقُولُوا: «وَعَلَيْكُمْ» فَذَكَرْهَا في الرد على المسلمين أولى وأحرى.

وذهبت طائفة أخرى إلى أن ذلك ردُّ صحيح، كما لو كان بالواو، ونص عليه الشافعي رحمه الله في كتابه الكبير، واحتج لهذا القول بقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ خَبْرٌ حَتِيفٍ يُرْهِمُ الْكُفْرَيْنَ ۖ لَا دَعْوَىٰ عَلَيْهِ قَالُوا سَلَامًا ۚ قَالَ سَلَامٌ﴾ [الذَّارِيَات: ٢٤] أي: سلام عليكم، لا بد من هذا، ولكن حسن الحذف في الرد، لأجل الحذف في الابتداء، واحتجوا بما في «الصحيحين» عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «خَلَقَ اللَّهُ أَدَمَ طَوْلَهُ سِتُونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ، قَالَ لَهُ: أَذَقْتُكَ سَلَامًا عَلَى أَوَّلِيكَ النَّفَرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَاسْتَمِعَ مَا يُحْيُونَكَ، فَإِنَّمَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ نَزَائِكَ، فَقَالَ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ فَقَالُوا: السَّلامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ فَزَادُوهُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ» [البخاري: ٦٢٢٧، ومسلم: ٧١٦٣] فقد أخبر النبي ﷺ أن هذه تحيته وتحية ذريته، قالوا: ولأن المسلم عليه مأمور أن يحيي المسلم بمثل تحيته عدلاً، وبأحسن منها فضلاً، فإذا ردَّ عليه بمثل سلامه، كان قد أتى بالعدل.

وأما قوله: «إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَقُولُوا:

(١) وقد ذكر المؤلف رحمه الله في «مختصر السنن» (٤٩/٦) كلاماً جيداً حول هذه المسألة يحسن نقله هنا، قال: الدعاء بالسلام دعاء بخير، والأحسن في دعاء الخير أن يقدم الدعاء على المدعو له، كقوله تعالى: ﴿رَحِمْتُ أُولَئِكَ بِمَقْعَدِهَا وَبِرَحْمَتِي عَلَيْهِمْ أَهْلُ الْآلِيَّتِ﴾ وقوله: ﴿وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ وَفَؤَادٍ يَوْمَئِذٍ﴾ وقوله: ﴿سَلِّمْ عَلَيْهِ بِمَا صَبَّحْتَ﴾. وأما الدعاء بالشر فيقدم المدعو عليه على الدعاء غالباً، كقوله تعالى لإبليس: ﴿وَلَوْ عَلَيَّ لَعْنَتُ رَبِّي أَن يَبْعِدَ الْإِنسَانَ﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ عَلَيَّ الْفِتْنَةُ﴾ وقوله: ﴿عَلَيْهِمْ ذِكْرُ السَّوْءِ﴾ وقوله: ﴿وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ وإنما قال النبي ﷺ ذلك إشارة إلى ما جرت منهم في تحية الأموات إذ كانوا يقدمون اسم الميت على الدعاء، وهو مذكور في أشعارهم كقول الشماخ:

يد الله في ذاك الأديم الممزق

عليك سلام من أديم وباركت

وليس مراده أن السنة في تحية الميت أن يقال له: عليك السَّلام، كيف وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه دخل المقبرة فقال: «السَّلام عليكم أهل دار قومٍ مؤمنين»، فقدم الدعاء على اسم المدعو كهو في تحية الأحياء، فالسنة لا تختلف في تحية الأحياء والأموات.

وَعَلَيْكُمْ» فهذا الحديث قد اختلف في لفظة «الواو» فيه، فروي على ثلاثة أوجه، أحدها: بالواو، قال أبو داود: كذلك رواه مالك عن عبد الله بن دينار، ورواه الثوري عن عبد الله بن دينار، فقال فيه: «فعلَيْكُمْ» وحديث سفيان في «الصحيحين» ورواه النسائي من حديث ابن عيينة عن عبد الله بن دينار بإسقاط «الواو»، وفي لفظ لمسلم والنسائي: قل: «عليك» بغير واو.

وقال الخطابي: عامة المحدثين يروونه «وعليكم» بالواو، وكان سفيان بن عيينة يرويه «عليكم» بحذف الواو، وهو الصواب، وذلك أنه إذا حذف الواو، صار قولهم الذي قالوه بعينه مردوداً عليهم، ويأدخال الواو يقع الاشتراك معهم، والدخول فيما قالوا، لأن الواو حرف للعطف والاجتماع بين الشيئين. انتهى كلامه.

وما ذكره من أمر الواو ليس بمشكل، فإن «السَّام» الأكثرون على أنه الموت، والمسلم والمسلم عليه مشتركون فيه، فيكون في الإتيان بالواو بيان لعدم الاختصاص، وإثبات المشاركة، وفي حذفها إشعار بأن المسلم أحق به وأولى من المسلم عليه وعلى هذا فيكون الإتيان بالواو هو الصواب، وهو أحسن من حذفها، كما رواه مالك وغيره، ولكن قد فسر السام بالسامة، وهي الملالة وسامة الدين^(١)، قالوا: وعلى هذا فالوجه حذف الواو ولا بد، ولكن هذا خلافاً المعروف من هذه اللفظة في اللغة، ولهذا جاء في الحديث «إِنَّ الْحَبَّةَ السَّوْدَاءَ شِقَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلَّا السَّامَ» [البخاري: ٥٨٨٧، ومسلم: ٥٧٦٦] ولا يختلفون أنه الموت. وقد ذهب بعض المتحذلقين إلى أنه يرد عليهم السلام بكسر السين، وهي الحجارة، جمع سلَمة، ورد هذا الرد متعين.

فصل

في هديه ﷺ في السلام على أهل الكتاب

صَحَّ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا تَبْدُؤُوهُمْ بِالسَّلَامِ، وَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فِي الطَّرِيقِ، فَأَضْطَرُّوهُمْ إِلَى أَضْيَقِ الطَّرِيقِ» لكن قد قيل: إن هذا كان في قضية خاصة لما ساروا

إلى بني قريظة قال: «لَا تَبْدُؤُوهُمْ بِالسَّلَامِ» فهل هذا حُكْمٌ عام لأهل الذمة مطلقاً، أو يختص بمن كانت حاله بمثل حال أولئك؟ هذا موضع نظر، ولكن قد روى مسلم في «صحيحه» من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لَا تَبْدُؤُوا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ، وَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي الطَّرِيقِ، فَأَضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ» [مسلم: ٥٦٦١] والظاهر أن هذا حكم عام.

وقد اختلف السلف والخلف في ذلك، فقال أكثرهم: لا يُبدؤون بالسلام، وذهب آخرون إلى جواز ابتدائهم كما يُردُّ عليهم، روي ذلك عن ابن عباس، وأبي أمامة وابن مُحَيْرِيز، وهو وجه في مذهب الشافعي رحمه الله، لكن صاحب هذا الوجه قال: يُقال له: السَّلَامُ عَلَيْكَ فقط بدون ذكر الرحمة، ويلفظ الأفراد: وقالت: طائفة يجوزُ الابتداء لمصلحة راجحة من حاجة تكون له إليه، أو خوف من أذاه، أو لإقراية بينهما، أو لیسب يقتضي ذلك، يروي ذلك عن إبراهيم النخعي، وعلقمة. وقال الأوزاعي: إن سلَّمت، فقد سلَّم الصالحون، وإن تركت، فقد ترك الصالحون.

واختلفوا في وجوب الرد عليهم، فالجمهور على وجوبه، وهو الصواب، وقالت طائفة: لا يجب الرد عليهم، كما لا يجب على أهل البدع وأولى، والصواب الأول، والفرق أنا مأمورون بهجر أهل البدع تعزيراً لهم، وتحذيراً منهم، بخلاف أهل الذمة.

فصل

وثبت عنه ﷺ أنه مرَّ على مجلس فيه أخلاق من المسلمين، والمُشْرِكِينَ عَبَدَةَ الْأَوْثَانِ، وَالْيَهُودَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ [البخاري: ٦٢٥٤، ومسلم: ٤٦٥٩].

وصحَّ عنه أنه كتب إلى هرقل وغيره: السَّلَامُ عَلَى مَنْ أَتَى الْهُدَى [البخاري: ٦٢٦٠، ومسلم: ٤٦٠٧].

فصل

(هل رد السلام فرض كفاية؟)

وَيُذَكَّرُ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «يُجْزَى عَنْ الْجَمَاعَةِ إِذَا

(١) نقل الخطابي من رواية عبد الوارث بن سعيد، عن سعيد بن أبي عروبة، قال: كان قتادة يقول تفسير «السام عليكم» تسامون دينكم وهو معنى السام مصدر ستمه سامة وساماً مثل رضعه رضاعة ورضعاً.

مَرُّوا أَنْ يُسَلِّمَ أَحَدُهُمْ، وَيُخْزِي عَنْ الْجُلُوسِ أَنْ يَرُدَّ أَحَدُهُمْ» [أبو داود: ٥٢١٠] فذهب إلى هذا الحديث مَنْ قَالَ: إِنَّ الرَّدَّ فَرَضٌ كِفَايَةٌ يَقُومُ فِيهِ الْوَاحِدُ مَقَامَ الْجَمِيعِ، لَكِنْ مَا أَحْسَنَهُ لَوْ كَانَ ثَابِتًا، فَإِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ رِوَايَةِ سَعِيدِ بْنِ خَالِدِ الْخَزَاعِمِيِّ الْمَدَنِيِّ، قَالَ أَبُو زُرْعَةَ الرَّازِيُّ: مَدَنِيٌّ ضَعِيفٌ. وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ الرَّازِيُّ: ضَعِيفُ الْحَدِيثِ، وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: فِيهِ نَظَرٌ. وَقَالَ الدَّارِقُطَنِيُّ: لَيْسَ بِالْقَوِيِّ.

فصل

(رد السلام على المريب والمبلغ)

وكان من هديه ﷺ إذا بلغه أحدُ السلام عن غيره أن يرُدَّ عليه وعلى المبلغ، كما في «السنن» أن رجلاً قال له: إِنَّ أَبِي يُقْرِئُكَ السَّلَامَ، فَقَالَ لَهُ: «عَلَيْكَ وَعَلَى أَبِيكَ السَّلَامُ» [أبو داود: ٥٢٣١].

(ترك السلام ابتداءً ورُدًا على من أحدث حديثاً)

وكان من هديه تركُ السلام ابتداءً ورُدًا على مَنْ أَحْدَثَ حَدِيثًا حَتَّى يَتَوَبَّ مِنْهُ، كَمَا هَجَرَ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ وَصَاحِبِيَّهِ، وَكَانَ كَعْبٌ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ، وَلَا يَدْرِي هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بَرْدَ السَّلَامِ عَلَيْهِ أَمْ لَا؟ [البخاري: ٦٢٥٥، ومسلم: ٧٠١٦].

وسلم عليه عَمَارُ بْنُ يَاسِرٍ، وَقَدْ خَلَقَهُ أَهْلُهُ بِزَعْفَرَانَ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «اأْتَعَبَ فَاغِيلُ هَذَا عَنَّا» [أحمد: ١٨٨٨٦، وأبو داود: ٤١٧٦]. وَهَجَرَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ شَهْرَيْنِ وَبَعْضُ الثَّالِثِ لَمَّا قَالَ لَهَا: «أَعْطِي صَفِيَّةَ ظَهْرًا لَمَّا اعْتَلَّ بِعِيرِهَا» فَقَالَتْ: أَنَا أُعْطِي تِلْكَ الْيَهُودِيَّةَ! ذَكَرَهُمَا أَبُو دَاوُدَ [أحمد: ٢٥٠٠٢، وأبو داود: ٤٦٠٢].

فصل

في هديه ﷺ في الاستئذان

وَصَحَّ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الاسْتِئْذَانُ ثَلَاثٌ، فَإِنْ أَذِنَ لَكَ وَلَا فَارِجَ» [البخاري: ٦٢٤٥، ومسلم: ٥٦٢٦].

وَصَحَّ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّمَا جُعِلَ الْاسْتِئْذَانُ مِنْ أَجْلِ الْبَصَرِ» [البخاري: ٦٢٤١، ومسلم: ٥٦٣٨].

وَصَحَّ عَنْهُ ﷺ، أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَقْفَأَ عَيْنَ الَّذِي نَظَرَ إِلَيْهِ مِنْ جُحْشٍ فِي حَجَرَتِهِ، وَقَالَ: «إِنَّمَا جُعِلَ الْاسْتِئْذَانُ مِنْ

أَجْلِ الْبَصَرِ» [البخاري: ٦٢٤١].

وَصَحَّ عَنْهُ ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنَّ امْرَأَةً أَطَّلَعَ عَلَيْكَ بِغَيْرِ إِذْنٍ، فَخَذَفَتْهُ بِحَصَاةٍ فَفَقَأَتْ عَيْنَهُ، لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ جُنَاحٌ» [البخاري: ٦٨٨٨، ومسلم: ٥٦٤٣].

وَصَحَّ عَنْهُ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَطَّلَعَ عَلَى قَوْمٍ فِي بَيْتِهِمْ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ، فَقَدْ حَلَّ لَهُمْ أَنْ يَقْفُوا عَيْنَهُ» [مسلم: ٥٦٤٢].

وَصَحَّ عَنْهُ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَطَّلَعَ فِي بَيْتِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ، فَقَفُوا عَيْنَهُ، فَلَا دِيَّةَ لَهُ، وَلَا قِصَاصَ» [أحمد: ٨٩٩٧، والنسائي: ٦١/٨].

(التسليم قبل الاستئذان)

وَصَحَّ عَنْهُ: التَّسْلِيمُ قَبْلَ الْاسْتِئْذَانِ فِعْلًا وَتَعْلِيمًا، وَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ رَجُلٌ، فَقَالَ: أَلَيْحَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِرَجُلٍ: «اخْرُجْ إِلَى هَذَا، فَعَلَّمَهُ الْاسْتِئْذَانَ». فَقَالَ لَهُ: قُلْ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَدْخُلْ؟ فَسَمِعَهُ الرَّجُلُ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَدْخُلْ؟ فَأَذِنَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَدَخَلَ [صحيح: أحمد: ٢٣١٢٧، وأبو داود: ٥٧١١ - ٥١٧٨ - ٥١٧٩].

وَلَمَّا اسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ فِي مَشْرِئَتِهِ مَوْلِيًا مِنْ نِسَائِهِ، قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَيْدُخُلْ عُمَرُ؟ [البخاري: ٤٩١٣، ومسلم: ٣٦٩١].

وَقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُهُ ﷺ لِكَلْدَةَ بِنْتِ حَنْبَلٍ لَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ وَلَمْ يُسَلِّمْ: «ارْجِعْ فَقُلْ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَدْخُلْ؟» [صحيح: أحمد: ١٥٤٢٥، وأبو داود: ٥١٧٦، والترمذي: ٢٧١١].

وَفِي هَذِهِ السَّنَنِ رُدُّ عَلَى مَنْ قَالَ: يُقَدَّمُ الْاسْتِئْذَانُ عَلَى السَّلَامِ، وَرُدُّ عَلَى مَنْ قَالَ: إِنْ وَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلَى صَاحِبِ الْمَنْزِلِ قَبْلَ دُخُولِهِ، بَدَأَ بِالسَّلَامِ، وَإِنْ لَمْ تَقَعْ عَيْنُهُ عَلَيْهِ، بَدَأَ بِالْاسْتِئْذَانِ، وَالْقَوْلَانِ مُخَالَفَانِ لِلْسُنَّةِ.

(الاستئذان ثلاثاً)

وكان من هديه ﷺ إذا استأذَنَ ثلاثاً ولم يؤذن له، انصرف، وهو رُدُّ على من يقول: إِنْ ظَنَّ أَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا، زَادَ عَلَى الثَّلَاثِ، وَرُدُّ عَلَى مَنْ قَالَ: يُعِيدُهُ بِلَفْظٍ آخَرَ، وَالْقَوْلَانِ مُخَالَفَانِ لِلْسُنَّةِ.

فصل

(ذكر المستأذن ما يدل عليه)

وكان من هدية أن المستأذن إذا قيل له: مَنْ أَنْتَ؟ يقول: فلان بن فلان، أو يذكر كُنْيته، أو لقبه، ولا يقول: أنا، كما قال جبريل للملائكة في ليلة المعراج لما استفتح باب السماء فسأله مَنْ؟ فقال: جبريل. واستمر ذلك في كل سماء سماء.

وكذلك في «الصحيحين» لما جلس النبي ﷺ في البُستان، وجاء أبو بكر رضي الله عنه، فاستأذن فقال: «من؟» قال: أبو بكر، ثم جاء عمر، فاستأذن فقال: «من؟» قال: عمر، ثم عثمان كذلك [البخاري: ٣٦٩٥، ومسلم: ٦٢١٤].

وفي «الصحيحين»، عن جابر، أتيت النبي ﷺ، فدفقت الباب، فقال: «من ذا؟» فقلت: أنا، فقال: «أنا أنا، كأنه كرهها» [البخاري: ٦٢٥٠، ومسلم: ٥٦٣٥].

ولما استأذنت أم هانئ، قال لها: «مَنْ هَذِهِ؟» قالت: أم هانئ [البخاري: ٢٨٠، ومسلم: ٧٦٤]، فلم يكره ذكرها الكنية. وكذلك لما قال لأبي ذر: «مَنْ هَذَا؟» قال: أبو ذر. وكذلك لما قال لأبي قتادة: «مَنْ هَذَا؟» قال: أبو قتادة.

فصل

(رسول الرجل إلى الرجل لئذنه)

وقد روى أبو داود عنه ﷺ من حديث قتادة، عن أبي رافع، عن أبي هريرة: «رَسُولُ الرَّجُلِ إِلَى الرَّجُلِ إِذْنُهُ» وفي لفظ: «إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ إِلَى طَعَامٍ، ثُمَّ جَاءَ مَعَ الرَّسُولِ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِذْنُهُ» [صحيح: أبو داود: ٥١٨٩].

٥١٩٠، والبخاري في «الأدب المفرد»: ١٠٧٥ وهذا الحديث فيه مقال، قال أبو علي اللؤلؤي: سمعت أبا داود يقول: قتادة لم يسمع من أبي رافع. وقال البخاري في «صحيحه»: وقال سعيد: عن قتادة، عن أبي رافع، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ «هو إذنه»، فذكره تعليقاً لأجل الانقطاع في إسناده.

وذكر البخاري في هذا الباب حديثاً يدل على أن اعتبار الاستئذان بعد الدعوة، وهو حديث مجاهد عن أبي هريرة، دخلت مع النبي ﷺ، فوجدت لبناً في قدح، فقال: «ادْعَبْ إِلَى أَهْلِ الصَّفْوَةِ، فادْعُهُمْ إِلَيَّ»

قال: فَأَتَيْتُهُمْ، فدعوتهم، فأقبلوا، فاستأذنوا، فأذن لهم، فدخلوا [البخاري: ٦٢٤٦] وقد قالت طائفة: بأن الحديثين على حالين، فإن جاء الداعي على الفور من غير تراخ، لم يحتج إلى استئذان، وإن تراخى مجيئه عن الدعوة، وطال الوقت، احتاج إلى استئذان.

وقال آخرون: إن كان عند الداعي مَنْ قد أذن له قبل مجيء المدعو، لم يحتج إلى استئذان آخر، وإن لم يكن عنده من قد أذن له، لم يدخل حتى يستأذن.

وكان رسول الله ﷺ إذا دخل إلى مكان يُحب الانفراد فيه، أمر من يُمِيكُ الباب، فلم يدخل عليه أحد إلا بإذن [حسن: أبو داود: ٥١٨٨].

فصل

(استئذان الممالك ومن لم يبلغ الحلم في العورات الثلاث)

وأما الاستئذان الذي أمر الله به الممالك، ومَنْ لم يَبْلُغِ الْحُلُمَ، في العورات الثلاث: قبل الفجر، ووقت الظهيرة، وعند النوم، فكان ابن عباس يأمر به، ويقول: ترك الناس العمل بها، فقالت طائفة: الآية منسوخة، ولم تأت بحجة. وقالت طائفة: أمر نذب وإرشاد، لا حتم وإيجاب، وليس معها ما يدل على صرف الأمر عن ظاهره، وقالت طائفة: الأمور بذلك النساء خاصة، وأما الرجال، فيستأذنون في جميع الأوقات، وهذا ظاهر البطلان، فإن جمع «الذين» لا يختص به المؤنث، وإن جاز إطلاقه عليهن مع الذكور تغليباً. وقالت طائفة عكس هذا: إن الأمور بذلك الرجال دون النساء، نظراً إلى لفظ «الذين» في الموضعين، ولكن سياق الآية يأباه فتأمل.

وقالت طائفة: كان الأمر بالاستئذان في ذلك الوقت للحاجة، ثم زالت، والحكم إذا ثبت بعلو زال بزوالها، فروى أبو داود في «سننه» أن نفراً من أهل العراق قالوا لابن عباس: يا ابن عباس! كيف ترى هذه الآية التي أمرنا فيها بما أمرنا، ولا يعمل بها أحد؟ «يَتَأْتِيهَا آلُيَرْتِ أَهْمُنَا لِيَسْتَذِينَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» [التور: ٥٨]. فقال ابن عباس: إن الله حكيم رحيم بالمؤمنين، يُحِبُّ السُّتْرَ، وكان الناس ليس ليئوتهم سُتُور ولا جِجَال، فربما دخل الخادوم، أو الولد أو يتيمة الرجل، والرجل على أهله، فأمرهم الله

بالاستئذان في تلك العَوَازِي، فجاءهم الله بالسُّور والخير، فلم أرَ أحداً يَعْمَلُ بِذَلِكَ بَعْدُ [حسن: أبو داود: ٥١٩٢].

وقد أنكر بعضهم ثبوت هذا عن ابن عباس، وطعن في عكرمة، ولم يصنع شيئاً، وطعن في عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب، وقد احتج به صاحبنا الصحيح، فإنكارُ هذا تعنت واستبعاد لا وجه له.

وقالت طائفة: الآية محكمة عامة لا مُعارض لها ولا دافع، والعمل بها واجب، وإن تركه أكثر الناس. والصحيح: أنه إن كان هناك ما يقوم مقام الاستئذان من فتح باب فتحه دليل على الدخول، أو رفع ستر، أو تردد الداخل والخارج ونحوه، أغنى ذلك عن الاستئذان، وإن لم يكن ما يقوم مقامه، فلا بُد منه، والحكم معللٌ بعله قد أشارت إليها الآية، فإذا وُجِدَتْ، وَجِدَ الحكم، وإذا انتفت انتفى، والله أعلم.

فصل

في هديه ﷺ في أذكار العطاس

ثبت عنه ﷺ «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَطَاسَ، وَيَكْرَهُ النَّثَابَ، فَإِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ وَحَمِدَ اللَّهَ، كَانَ حَقًّا عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ سَمِعَهُ أَنْ يَقُولَ لَهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، وَأَمَّا النَّثَابُ، فَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا تَنَاءَبَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَرْدِّهِ مَا اسْتَطَاعَ، فَإِنْ أَحَدُكُمْ إِذَا تَنَاءَبَ، ضَحِكَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ» ذكره البخاري [٦٢٢٦].

وثبت عنه في «صحيحه»: إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلْيَقُلْ لَهُ أَخُوهُ أَوْ صَاحِبُهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَإِذَا قَالَ لَهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَلْيَقُلْ: يَهْدِيكُمُ اللَّهُ وَيُضِلِّحَ بِالْكُمِ [البخاري: ٦٢٢٤].

وفي «الصحيحين» عن أنس: أنه عَطَسَ عِنْدَهُ رَجُلَانِ، فَشَمَّتْ أَحَدَهُمَا، وَلَمْ يُشَمِّتِ الْآخَرَ، فَقَالَ الَّذِي لَمْ يُشَمِّتْهُ: عَطَسَ فَلَا نَفْسَتهُ، وَعَطَسْتُ، فَلَمْ تُشَمِّتْنِي، فَقَالَ: «هَذَا حَمْدُ اللَّهِ، وَأَنْتَ لَمْ تَحْمَدِ اللَّهَ» [البخاري: ٦٢٢٥، ومسلم: ٧٤٨٦].

وثبت عنه في «صحيح مسلم»: «إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَحَمِدَ اللَّهَ، فَشَمَّتُوهُ، فَإِنْ لَمْ يَحْمَدِ اللَّهَ، فَلَا تُشَمِّتُوهُ» [مسلم: ٧٤٨٨].

وثبت عنه في «صحيحه»: من حديث أبي هريرة: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ: إِذَا لَقِيْتَهُ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَاجِبُهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ، فَأَنْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ وَحَمِدَ اللَّهَ، فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرَضَ، فَعُدَّهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ» [البخاري: ١٢٤٠، ومسلم: ٥٦١].

وروى أبو داود عنه بإسناد صحيح: «إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَلْيَقُلْ أَخُوهُ أَوْ صَاحِبُهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، وَلْيَقُلْ هُوَ: يَهْدِيكُمُ اللَّهُ وَيُضِلِّحَ بِالْكُمِ» [صحيح: أبو داود: ٥٠٣٣].

وروى الترمذي، أن رجلاً عَطَسَ عِنْدَ ابْنِ عَمْرٍو، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ. فَقَالَ ابْنُ عَمْرٍو: وَأَنَا أَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَيْسَ هَكَذَا عَلَّمَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَكِنْ عَلَّمَنَا أَنْ نَقُولَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ [الترمذي: ٢٧٣٩، ورجاله ثقات].

وذكر مالك، عن نافع، عن ابن عمر: «كَانَ إِذَا عَطَسَ قَبِيلَ لَهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، قَالَ: يَرْحَمَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ، وَيَغْفِرُ لَنَا وَلَكُمْ» [مالك في «الموطأ» (٢/٩٦٥)].

(حكم التشميت)

فظاهر الحديث المبدوء به: أن التشميت فرض عين على كُلِّ مَنْ سَمِعَ العاطس يحمد الله، ولا يُجْزئ تشميت الواحد عنهم، وهذا أحد قولي العلماء، واختاره ابن أبي زيد، وأبو بكر بن العربي المالكيان، ولا دافع له.

(ليس محل السلام عند العطاس)

وقد روى أبو داود: أن رجلاً عَطَسَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَعَلَى أُمَّكَ» ثُمَّ قَالَ: «إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ» قال: فذكر بعض المخاميد، وليقلَ لَهُ مَنْ عِنْدَهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، وَلْيَرْدِّ - يَغْنِي عَلَيْهِمْ - يَغْفِرُ اللَّهُ لَنَا وَلَكُمْ» [صحيح: أبو داود: ٥٠٣١، والترمذي: ٢٧٤١].

وفي السلام على أم هذا المسلم نكتة لطيفة، وهي إشعاره بأن سلامه قد وقع في غير موقعه اللائق به،

كما وقع هذا السلام على أمه، فكما أن سلامه هذا في غير موضعه كذلك سلامه هو.

(معاني كلمة أمي)

ونكتة أخرى اللفظ منها، وهي تذكيره بأمه، ونسبه إليها، فكانه أمي محض منسوب إلى الأم، باقي على تربيتها لم تره الرجال، وهذا أحد الأقوال في الأمي، أنه الباقي على نسبه إلى الأم.

وأما النبي الأمي: فهو الذي لا يحسن الكتابة، ولا يقرأ الكتاب.

وأما الأمي الذي لا يصح الصلاة خلفه، فهو الذي لا يصح الفاتحة، ولو كان عالماً بعلوم كثيرة.

ونظير ذكر الأم هنا ذكر هن الأبا لمن تعزى بعزاء الجاهلية [صحيح: أحمد: ٢١٢١٨، والبغاري في «الأدب المفرد»: ٩٣٦-٩٤٦] فيقال له: اعضض هن أهلك، وكان ذكر هن الأبا هنا أحسن تذكيراً لهذا المتكبر بدعوى الجاهلية بالعضو الذي خرج منه، وهو هن أبيه، فلا ينبغي له أن يتعدى طوره، كما أن ذكر الأم هاهنا أحسن تذكيراً له، بأنه باقي على أميته. والله أعلم بمراد رسوله ﷺ.

(علة الحمد بعد العطاس ومعنى التشميت)

ولما كان العاطس قد حصلت له بالعطاس نعمة ومنفعة بخروج الأبخرة المحتبنة في دماغه التي لو بقيت فيه أحدثت له أدواءً غيرة، شرع له حمد الله على هذه النعمة مع بقاء أعضائه على التمام وهيبتها بعد هذه الزلزلة التي هي للبدن كزلزلة الأرض لها، ولهذا يقال: سمته وشمته بالسين والشين فليل: هما بمعنى واحد، قاله أبو عبيدة وغيره. قال: وكل داء بخير، فهو مُشْمَتٌ ومُسْمَتٌ. وقيل: بالمهملة دعاء له بحسن السميت، ويعوده إلى حالته من السكون والدعة، فإن العطاس يحدث في الأعضاء حركة وانزعاجاً. وبالمعجمة: دعاء له بأن يصرف الله عنه ما يُشْمَتُ به أعداءه، فشمته: إذا أزال عنه السمات، كفرّد البعير: إذا أزال قرّاده عنه. وقيل: هو دعاء، له يشبّهه على قوائمه في طاعة الله، مأخوذ من الشوامت، وهي القوائم.

وقيل: هو تشميت له بالشیطان، لإغاضته بحمد الله على نعمة العطاس، وما حصل له به من محاب الله، فإن الله يحب، فإذا ذكر العبد الله وحيداً، ساء ذلك الشيطان من وجوه، منها: نفس العطاس الذي يحبه الله، وحمد الله عليه، ودعاء المسلمين له بالرحمة، ودعاؤه لهم بالهداية، وإصلاح البال، وذلك كله غائظ للشیطان، محزن له، فتشميت المؤمن بغيط عدوه وحزنه وكآبته، فسمي الدعاء له بالرحمة تشميماً له، لما في ضمنه من شماتته بعدوه، وهذا معنى لطيف إذا تنبه له العاطس والمشمّت، انتفعا به، وعظمت عندهما منفعة نعمة العطاس في البدن والقلب، وتبين السر في محبة الله له، فله الحمد الذي هو أهله كما ينبغي لكريم وجهه وعز جلاله.

فصل

(أدب العطاس)

وكان من هديه ﷺ في العطاس ما ذكره أبو داود والترمذي، عن أبي هريرة: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا عَطَسَ، وَصَحَّ يَدُهُ أَوْ نَفَثَهُ عَلَى فِيهِ، وَخَفَضَ، أَوْ غَضَّ بِوَضْوَعِهِ قَالَ الترمذي: حديث صحيح. [أحمد: ٩٦٦٢، وأبو داود: ٥٠٢٩، والترمذي: ٢٧٤٦]

ويذكر عنه ﷺ: إِنَّ النَّبَايَ الشَّيْذَ، وَالْعَطَسَةَ الشَّيْذَةَ مِنَ الشَّيْطَانِ [سنه ضعيف: ابن السني: ٢٦٤]. ويذكر عنه: إِنَّ اللَّهَ يَكْرَهُ رَفْعَ الصَّوْتِ بِالنَّبَايِ وَالْعَطَاسِ [ابن السني في «عمل اليوم والليلة»: ٢٦٨، وفي سنه منروك].

(متى يقطع التشميت؟)

وصح عنه: إنه عطس عنده رجل، فقال له: «يَرْحَمُكَ اللَّهُ».

ثم عطس أخرى، فقال: الرَّجُلُ مَرْكُومٌ. هذا لفظ مسلم أنه قال في المرة الثانية وأما الترمذي: فقال فيه عن سلمة بن الأكوع: عطس رجل عند رسول الله ﷺ وأنا شاهد، فقال رسول الله ﷺ: «يَرْحَمُكَ اللَّهُ»، ثم عطس الثانية والثالثة، فقال رسول الله ﷺ: «هَذَا رَجُلٌ مَرْكُومٌ». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح [مسلم: ٢٩٩٣، والترمذي: ٢٧٤٤].

(هل التشميت على من سمع حمد العاطس؟)

وقد اختلف الناس في مسألتين: إحداهما: أن العاطس إذا حمد الله، فسمعه بعض الحاضرين دون بعض، هل يُسَنُّ لمن لم يسمعه تشميته؟ فيه قولان، والأظهر: أنه يُشْمَت إذا تحقَّق أنه حمد الله، وليس المقصود سماع المشمت للحمد، وإنما المقصود نفس حمده، فمتى تحقق ترتب عليه التشميت، كما لو كان المشمت أخرس، ورأى حركة شفثيه بالحمد. والنبى ﷺ قال: فإن حمد الله، فشمتوه هذا هو الصواب.

(هل يستحب تذكر العاطس بالحمد؟)

الثانية: إذا ترك الحمد، فهل يُستحب لمن حضره أن يذكره الحمد؟ قال ابن العربي: لا يذكره، قال: وهذا جهل من فاعله. وقال النووي: أخطأ من زعم ذلك، بل يذكره، وهو مروى عن إبراهيم النخعي. قال: وهو من باب النصيحة، والأمر بالمعروف، والتعاون على البر والتقوى، وظاهر السنة يقوي قول ابن العربي لأن النبي ﷺ لم يُشْمَت الذي عطس، ولم يَحْمَد الله، ولم يذكره، وهذا تعزير له، وحرمان لبركة الدعاء لما حرم نفسه بركة الحمد، فسي الله، فصرفت قلوب المؤمنين وألستهم عن تشميته والدعاء له، ولو كان تذكيره سنة، لكان النبي ﷺ أولى بفعلها وتعليقها، والإعانة عليها.

فصل

(أرد على من عطس من اليهود)

وصح عنه ﷺ: أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يَتَعَاطَسُونَ عِنْدَهُ، يَرْجُونَ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: يَرْحَمُكُمُ اللَّهُ، فكَانَ يَقُولُ: «يَهْدِيكُمُ اللَّهُ وَيُضْلِحُ بِأَلْسِنَتِهِ» [صحيح: أحمد: ١٩٥٨٦، وأبو داود: ٥٠٣٨، والترمذي: ٢٧٤٠].

فصل

في هديه ﷺ في أذكار السفر وآدابه

(الاستخارة)

صح عنه ﷺ أنه قال: «إِذَا مِمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ، فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَعِذُّكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ

وقد روى أبو داود عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة موقوفاً عليه: «شَمْتُ أَحَاكَ ثَلَاثًا، فَمَا زَادَ، فَهُوَ زُكَّامٌ» [حسن: أبو داود: ٥٠٣٤-٥٠٣٥].

وفي رواية عن سعيد، قال: لا أعلمه إلا أنه رفع الحديث إلى النبي ﷺ بمعناه. قال أبو داود: رواه أبو نعيم، عن موسى بن قيس، عن محمد بن عجلان، عن سعيد، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، انتهى. وموسى بن قيس هذا الذي رفعه هو الحضرمي الكوفي يُعرف بمُصَفِّرُ الْجَنَّةِ. قال يحيى بن معين: ثقة. وقال أبو حاتم الرازي: لا بأس به.

وذكر أبو داود، عن عُبيد بن رفاعة الزُّرْقِي، عن النبي ﷺ، قال: «شَمْتُ الْعَاطِسَ ثَلَاثًا، فَإِنْ شِئْتَ، فَشَمْتُهُ، وَإِنْ شِئْتَ فَكَفِّ» [أبو داود: ٥٠٣٦، وهو مرسل، ولكن له عِلْتَان، إحداهما: إرساله، فإن عبيداً هذا ليست له صحبة، والثانية: أن فيه خالد يزيد بن عبد الرحمن الدلاني، وقد تكلم فيه.

وفي الباب حديث آخر، عن أبي هريرة يرفعه: «إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ، فَلْيُشَمِّتْهُ جَلِيسُهُ، فَإِنْ زَادَ عَلَى الثَّلَاثَةِ، فَهُوَ مَرْكُومٌ، وَلَا تُشَمِّتُهُ بَعْدَ الثَّلَاثِ» وهذا الحديث هو حديث أبي داود الذي قال فيه: رواه أبو نعيم، عن موسى بن قيس، عن محمد بن عجلان، عن سعيد، عن أبي هريرة، وهو حديث حسن. فإن قيل: إذا كان به زُكَّام، فهو أولى أن يدعى له ممن لا علة به؟ قيل: يُدعى له كما يدعى للمريض، ومن يوداء ووجع.

وأما سُنَّةُ الْعُطَّاسِ الذي يُحِبُّهُ اللَّهُ، وهو نِعْمَةٌ، ويدلُّ على خفة البدن، وخروج الأبخرة المحْتَقِنَةِ، فإنما يكون إلى تمام الثلاث، وما زاد عليها يدعى لصاحبه بالعافية.

وقوله في هذا الحديث: «الرَّجُلُ مَرْكُومٌ» تنبيه على الدعاء له بالعافية، لأن الزكمة علة، وفيه اعتذار من ترك تشميته بعد الثلاث، وفيه تنبيه له على هذه العلة ليتداركها ولا يهملها، فيصُوبُ أمرها، فكلامه ﷺ كله حكمة ورحمة، وعلم وهدى.

[حسن: أحمد: ١٤٤٤، والترمذي: ٢١٥٢].

فتأمل كيف وقع المقدور مكتشفاً بأمرين: التوكل الذي هو مضمون الاستخارة قبله، والرّضى بما يقضي الله له بعده، وهما عنوان السعادة. وعنوان الشقاء أن يكتنفه ترك التوكل والاستخارة قبله، والسخط بعده، والتوكل قبل القضاء. فإذا أبرم القضاء وتم، انتقلت العبودية إلى الرضى بعده، كما في «المسند»، وزاد النسائي في الدعاء المشهور: «وَأَسْأَلُكَ الرَّضَى بَعْدَ الْقَضَاءِ». وهذا أبلغ من الرضى بالقضاء، فإنه قد يكون عزماً فإذا وقع القضاء، تحل العزيمة، فإذا حصل الرضى بعد القضاء، كان حالاً أو مقاماً.

والمقصود أن الاستخارة تُوكّل على الله وتفويض إليه، واستقسام بقدرته وعلمه، وحسن اختياره لعبده، وهي من لوازم الرضى به رباً، الذي لا يدوق طعم الإيمان من لم يكن كذلك، وإن رضي بالمقدور بعدها، فذلك علامة سعادته.

وذكر البيهقي وغيره، عن أنس رضي الله عنه قال: لم يُرد النبي ﷺ سَقَرًا قط إلا قال حين ينهض من جلوسه: «اللَّهُمَّ بَكَ انْتَشَرْتُ، وَإِلَيْكَ تَوَجَّهْتُ، وَبِكَ اغْتَصَصْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ يَقْنِي، وَأَنْتَ رَجَائِي، اللَّهُمَّ اكْفِنِي مَا أَمْنَنِي وَمَا لَا أَمْنَمَ لَهُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، عَزَّ جَارُكَ، وَجَلَّ ثَنَاؤُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ، اللَّهُمَّ زِدْنِي الثَّقَوَى، وَاغْفِرْ لِي ذَنْبِي، وَوَجِّهْنِي لِلْخَيْرِ أَيْنَمَا تَوَجَّهْتُ» [البيهقي في «السنن» ٥/ ٢٥٠، وابن السني: ٤٩٦، وفي سنده ضعف]، ثم يخرج.

فصل

(الذكر عند ركوب الرحلة)

وكان إذا ركب راحلته، كبر ثلاثاً، ثم قال: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا، وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ». ثم يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالثَّقَوَى، وَمِنْ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْلُ عَنَّا بُعْدَهُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ، اللَّهُمَّ

فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي، وَعَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ، فَأَقْدِرْهُ لِي، وَسِّرْهُ لِي، وَبَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُهُ شَرًّا لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي، وَعَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ، فَاصْرِفْهُ عَنِّي، وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَأَقْدِرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ» قال: وَيُسَمَّى حاجته، قال: رواه البخاري [٦٣٨٢].

فعوض رسول الله ﷺ أمته بهذا الدعاء، عما كان عليه أهل الجاهلية من زجر الطير والاستقسام بالأزلام الذي نظيره هذه القرعة التي كان يفعلها إخوان المشركين، يطلبون بها علم ما قسّم لهم في الغيب، ولهذا سُمي ذلك استقساماً، وهو استعمال من القسم، والسين فيه للطلب، وعوضهم بهذا الدعاء الذي هو توحيد وإفتقار، وعبودية وتوكل، وسؤال لمن بيده الخير كله، الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يصرف السيئات إلا هو، الذي إذا فتح لعبده رحمة لم يستطع أحد حبسها عنه، وإذا أمسكها لم يستطع أحد إرسالها إليه من التطير والتنجيم، واختيار الطالع ونحوه. فهذا الدعاء، هو الطالع الميمون السعيد، طالع أهل السعادة والتوفيق، الذين سبقت لهم من الله الحسنى، لا طالع أهل الشرك والشقاء والخذلان، الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر، فسوف يعلمون.

فتضمن هذا الدعاء الإقرار بوجوده سبحانه، والإقرار بصفات كماله من كمال العلم والقدرة والإرادة، والإقرار بربوبيته، وتفويض الأمر إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، والخروج من عهدة نفسه، والتبرّي من الحول والقوة إلا به، واعتراف العبد بعجزه عن علمه بمصلحة نفسه وقدرته عليها، وإرادته لها، وأن ذلك كله بيد وليه وفاطره وإلهه الحق.

وفي «مسند الإمام أحمد» من حديث سعد بن أبي وقاص، عن النبي ﷺ أنه قال: «مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ اسْتِخَارَةَ اللَّهِ وَرِضَاهُ بِمَا قَضَى اللَّهُ، وَمِنْ شَقَاوَةِ ابْنِ آدَمَ تَرْكُ اسْتِخَارَةِ اللَّهِ، وَسَخَطُهُ بِمَا قَضَى اللَّهُ»

اضْحَيْنَا فِي سَفَرِنَا، وَاحْلُقْنَا فِي أَهْلِنَا». وَإِذَا رَجَعَ قَالَهُمْ وَزَادَ فِيهِمْ: «آيُونَ تَأْيِيُونَ، عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ» [مسلم: ٣٢٧٥].

وذكر أحمد عنه ﷺ أنه كان يقول: «أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الضُّبْنَةِ فِي السَّفَرِ وَالْكَأَبَةِ فِي الْمُنْقَلَبِ، اللَّهُمَّ اقْبِضْ لَنَا الْأَرْضَ، وَهَوِّنْ عَلَيْنَا السَّفَرَ». وَإِذَا أَرَادَ الرجوع قال: «آيُونَ تَأْيِيُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ». وَإِذَا دَخَلَ أَهْلَهُ قَالَ: «تَوْبًا تَوْبًا، لِرَبَّنَا أَوْيَا، لَا يُعَادِرُ عَلَيْنَا حَوْبًا» [أحمد: ٢٣١١].

وفي «صحيح مسلم»: أنه كان إذا سافر يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَغَاءِ السَّفَرِ، وَكَأَبَةِ الْمُنْقَلَبِ، وَمِنْ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكُورِ، وَمِنْ دَعْوَةِ الْمَظْلُومِ، وَمِنْ سُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ»^(١) [مسلم: ٣٢٧٦].

فصل

وكانَ إِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الرِّكَابِ يُرْكِبُ دَائِيَةً، قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ» فَإِذَا اسْتَوَى عَلَى ظَهَرِهَا، قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ» ثَلَاثًا «اللَّهُ أَكْبَرُ» ثَلَاثًا، ثُمَّ يَقُولُ: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا، وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ» ثُمَّ يَقُولُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ» ثَلَاثًا، «اللَّهُ أَكْبَرُ» ثَلَاثًا، ثُمَّ يَقُولُ: «سُبْحَانَ اللَّهِ» ثَلَاثًا، ثُمَّ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، سُبْحَانَكَ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي، فَاعْفُ عَنِّي، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ» [صحيح: أحمد: ٧٥٣-٩٣٠-١٠٥٦، وأبو داود: ٢٦٠٧، والترمذي: ٣٤٤٣].

(توديع المسافرين)

وكانَ إِذَا ودَّعَ أَصْحَابَهُ فِي السَّفَرِ يَقُولُ لِأَحَدِهِمْ: «أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ دِينَكَ وَأَمَانَتَكَ، وَحَوَاتِيمَ عَمَلِكَ» [صحيح: أحمد: ٤٥٢٤، وأبو داود: ٢٦٠٠، والترمذي: ٣٤٣٩].

وجاء إليه رجل وقال: يا رسول الله: إِنِّي أُرِيدُ سَفَرًا، فَرَوِّدْنِي. فقال: «رَوَّدَكَ اللَّهُ النَّصْوَى». قال: «زِدْنِي». قال: «وَعَفَّرَكَ ذَنْبَكَ». قال: زِدْنِي. قال: «وَيَسِّرْ لَكَ الْخَيْرَ حَيْثُمَا كُنْتَ» [حسن: الترمذي: ٣٤٤٠]. وقال له رجل: إِنِّي أُرِيدُ سَفَرًا، فقال: «أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالتَّكْوِيرِ عَلَى كُلِّ شَرْفٍ فَلَمَّا وَلَّى، قَالَ: «اللَّهُمَّ ارْزُقْهُ الْأَرْضَ، وَهَوِّنْ عَلَيْهِ السَّفَرَ» [حسن: الترمذي: ٣٤٤١، وابن ماجه: ٢٧٧١].

(الذكر عند علو الشنايا والهبوط)

وكان النبي ﷺ وأصحابه، إِذَا عَلَوْا الشَّيَا، كَبَّرُوا، وَإِذَا هَبَطُوا، سَبَّحُوا، فَوَضَعَتِ الصَّلَاةُ عَلَى ذَلِكَ [هذه الزيادة وردت في آخر الحديث عند أبي داود: ٢٥٩٩، وهي مدرجة وليست صحيحة].

وقال أنس: كان النبي ﷺ إِذَا عَلَا شَرْفًا مِنَ الْأَرْضِ، أَوْ نَشْرًا، قَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ الشَّرْفُ عَلَى كُلِّ شَرْفٍ، وَلَكَ الْحَمْدُ عَلَى كُلِّ حَمْدٍ» [أحمد: ١٢٢٨١، وفي سننه ضعف].

(كيفية السير)

وكان سيره في حَجَّةِ الْعَتَقِ، فَإِذَا وَجَدَ فَجْوَةً، رَفَعَ السَّيْرَ فَوْقَ ذَلِكَ، وَكَانَ يَقُولُ: «لَا تَضْحَبُ الْمَلَائِكَةُ رَفْقَةً فِيهَا كَلْبٌ وَلَا جَرَسٌ» [مسلم: ٥٥٤٦].

(كراهة السفر وحيداً)

وكان يكره للمسافر وحده أن يسير بالليل، فقال: «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي الْوَحْدَةِ مَا سَارَ أَحَدٌ وَحْدَهُ بِلَيْلٍ» [البخاري: ٢٩٩٨].

يل كان يكره السفر للواحد بلا رفقة، وأخبر: «أَنْ الْوَاحِدَ شَيْطَانٌ. وَالْاِثْنَانِ شَيْطَانَانِ، وَالثَّلَاثَةُ رَجُلٌ» [حسن: أحمد: ٦٨٤٨، وأبو داود: ٢٦٠٧، والترمذي: ١٦٧٤].

(دعاء النزول)

وكان يقول: «إِذَا نَزَلَ أَحَدُكُمْ مَنْزِلًا فَلْيَقُلْ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ الثَّلاثِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَجِلَ مِنْهُ».

ولفظ مسلم: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ

(١) وقوله: «والحور بعد الكور» أي من التفرق بعد الاجتماع يقال: كار العمامة: إذا لفها، وحارها إذا نقضها، وقيل معناه: أن تفسد أمورنا بعد استقامتها كنقض العمامة، وقيل: من نقصان بعد الزيادة.

بِكَلِمَاتِ اللَّهِ الثَّمَانِيَةِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَزْتَجَلَ مِنْ مَثَرِهِ ذَلِكَ» [مسلم: ٦٨٧٨].

(دعاء إدراك المسافر الليل)

وذكر أحمد عنه أنه كان إذا غزا أو سافر، فأدركه الليل، قال: «يا أرضُ رَبِّي وَرَبِّكَ اللَّهُ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّكَ وَشَرِّ مَا فِيكَ، وَشَرِّ مَا خُلِقَ فِيكَ، وَشَرِّ مَا دَبَّ عَلَيْكَ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ كُلِّ أَسَدٍ وَأَسَدٍ، وَحَيَّةٍ وَعَقْرَبٍ، وَمِنْ شَرِّ سَاكِنِ الْبَلَدِ، وَمِنْ شَرِّ وَالِدٍ، وَمَا وَلَدَ» [حسن: أحمد: ١٢٢٤٩، وأبو داود: ٢٦٠٣].

(التعريس والسفر في الخصب)

وكان يقول: «إذا سافرتُم في الخصب، فأعطوا الإبلَ حَطَلَهَا مِنَ الْأَرْضِ، وَإِذَا سَافَرْتُم فِي السَّنَةِ، فبادروا بِقِيَّهَا». وفي لفظ: «فاسرعوا عَلَيْهَا السَّيْرَ، وَإِذَا عَرَسْتُم، فَاجْتَنِبُوا الطَّرِيقَ، فَإِنَّهَا طَرُقُ الدَّوَابِّ وَمَأْوَى الْهَوَامِّ بِاللَّيْلِ» [مسلم: ٤٩٥٩].

(دعاء الدخول إلى قرية)

وكان إذا رأى قرية يُريد دخولها قال حين يراها: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّنِيعِ وَمَا أَظْلَلَنَ، وَرَبَّ الْأَرْضِينَ السَّنِيعِ وَمَا أَظْلَلَنَ، وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضْلَلَنَ، وَرَبَّ الرِّيحِ وَمَا ذَرَزَنَ، إِنَّا نَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَخَيْرَ أَهْلِهَا، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا» [ابن حبان: ٢٣٧٧، والحاكم (١/٤٤٦)].

(دعاء بدو الفجر في السفر)

وكان إذا بدا له الفجرُ في السَّفرِ، قال: «سَمِعَ سَامِعٌ بِحَمْدِ اللَّهِ وَحُسْنِ بِلَايِهِ عَلَيْنَا، رَبَّنَا صَاحِبِنَا وَأَفْضِلَ عَلَيْنَا عَائِذًا بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ» [مسلم: ٦٩٠٠]. وكان يَنْهَى أَنْ يُسَافَرَ بِالْقُرْآنِ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ، مَخَافَةَ أَنْ يَنَالَهُ الْعَدُوُّ [البخاري: ٢٩٩٠، ومسلم: ٤٨٤٠].

(السرعة في الإياب)

وكان يَنْهَى الْمَرْأَةَ أَنْ تُسَافِرَ بِغَيْرِ مَحْرَمٍ، وَلَوْ مَسَافَةً بَرِيدًا [البخاري: ١٠٨٨، ومسلم: ٣٢٦٧].

وكان يَأْمُرُ الْمُسَافِرَ إِذَا قَضَى نَهْمَتَهُ مِنْ سَفَرِهِ، أَنْ يُعْجَلَ الْأَوْبَةَ إِلَى أَهْلِهِ [البخاري: ١٨٠٤، ومسلم: ٤٩٦١].

(دعاء الإياب)

وَكَانَ إِذَا قَفَلَ مِنْ سَفَرِهِ يُكَبِّرُ عَلَى كُلِّ شَرْفٍ مِنَ الْأَرْضِ ثَلَاثَ تَكْبِيرَاتٍ، ثُمَّ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، لَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، آيُّوْنَ تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ، صَدَقَ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَكْزَابَ وَخَدَعَهُ» [البخاري: ١٧٩٧].

(النهى عن طروق الأهل ليلاً)

وكان ينهى أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ لَيْلًا إِذَا طَلَّتْ عَيْنَتُهُ عَنْهُمْ [البخاري: ١٨٠٠].

وفي «الصحيحين»: كان لا يَطْرُقُ أَهْلَهُ لَيْلًا يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ غُدُوَّةً أَوْ عَشِيَّةً [البخاري: ١٨٠٠، ومسلم: ٤٩٦٢].

(مسائل تتعلق بالقدوم من السفر)

وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرِهِ يُلْقَى بِالْوِلْدَانِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ: «وإنه قَدِمَ مَرَّةً مِنْ سَفَرٍ، فَسَبَقَ بِهِ إِلَيْهِ، فَحَمَلَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ جِئْتُ بِأَحَدِ ابْنِي فَاطِمَةَ، إِمَّا حَسَنَ وَإِمَّا حُسَيْنَ، فَأَرَدَنِي خَلْفَهُ. قَالَ: فدخلنا الْمَدِينَةَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ» [مسلم: ٦٢٦٨].

وكان يعتنق الْقَادِمَ مِنْ سَفَرِهِ، وَيُقَبِّلُهُ إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِهِ. قال الزهري: «عن عُرْوَةَ، عن عائشة: قدم زيدُ بْنُ حَارِثَةَ الْمَدِينَةَ، ورسولُ اللَّهِ ﷺ في بَيْتِي، فَأَتَانِي، فَفَرَّقَ الْبَابَ، فَقَامَ إِلَيْهِ وَرسولُ اللَّهِ ﷺ غُرْبَانًا يَجْرُ قُوَّةً، وَاللَّهُ مَا رَأَيْتُهُ غُرْبَانًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ، فَأَعْتَقَهُ وَقَبَّلَهُ» [الترمذي: ٢٧٣٣].

قالت عائشة: لما قَدِمَ جَعْفَرُ وَأَصْحَابُهُ، تَلَقَاهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَبَّلَ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَأَعْتَقَهُ.

قال الشعبي: وكان أصحابُ رسولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَدِمُوا مِنْ سَفَرٍ، تَعَانَقُوا.

وكان إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، يَدُ بِالْمَسْجِدِ، فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ [البخاري معلقاً بعد حديث: ٤٤٢، ومسلم: ٧٠١٦].

فصل

في هديه ﷺ في أذكار النكاح

ثبت عنه ﷺ أنه علمهم خُطْبَةَ الْحَاجَةِ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ

اللَّهُ، لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، فَيَرَى فِيهِ آتَةَ دُونِ الْمَوْتِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩] [الطبراني في «الصغير» (٢٢)، وابن السني (٣٠٩)].

فصل

فيما يقول من رأى مبتلى

صح عنه ﷺ أنه قال: «ما من رجل رأى مبتلى^(١) فقال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به، وقضاني على كثير ممن خلق تفضيلاً إلا لم يُبْصِرْ ذلك البلاء كائناً ما كان» [حسن: الترمذي: ٣٤٢٨].

فصل

فيما يقوله من لحقته الطيرة

ذُكِرَ عنه ﷺ أنه ذُكِرَتِ الطيرة عنده، فقال: «أحسنها القول ولا تُرَدُّ مسلماً، فإذا رأيت من الطيرة ما تكره قُلْ: اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَذْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ» [ضعيف: أبو داود: ٣٩١٩].

وَكَانَ كَعَبٍ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا رَبَّ غَيْرُكَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهَا لِرَأْسِ التَّوَكُّلِ، وَكَثُرَ الْعَبْدُ فِي الْجَنَّةِ، وَلَا يَقُولُهُنَّ عَبْدٌ عِنْدَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَمْضِي إِلَّا لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ»^(٢).

فصل

فيما يقوله من رأى في منامه ما يكرهه

صَحَّ عَنْهُ ﷺ: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللَّهِ، وَالْحُلُمُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَمَنْ رَأَى رُؤْيَا يَكْرَهُ مِنْهَا شَيْئاً، فَلْيَنْتَفِ عَنِ يَسَارِهِ ثَلَاثاً، وَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّهُ، وَلَا يُخْبِرُ بِهَا أَحَدٌ، وَإِنْ رَأَى رُؤْيَا حَسَنَةً، فَلْيَسْتَبْشِرْ، وَلَا يُخْبِرْ بِهَا إِلَّا مَنْ يُحِبُّ» [البخاري: ٦٩٩٥، ومسلم: ٥٩٠٢].

وَأَمَرَ مَنْ رَأَى مَا يَكْرَهُهُ أَنْ يَتَحَوَّلَ عَنْ جَنْبِهِ الَّذِي

بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ، فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلُّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ يَقْرَأُ الْآيَاتِ الثَّلَاثَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْهَا رَجْعاً وَمَنْهَا يُخَالِكُ كَيْثَراً وَمَنْتُمْ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [النساء: ١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً﴾ [ص: ٥] ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١، ٧٠] [صحيح: أحمد: ٤١١٦، والترمذي: ١١٠٥، وابن ماجه: ١٨٩٢].

قال شعبة: قلت لأبي إسحاق: هذه في خطبة النكاح، أو في غيرها؟ قال: في كل حاجة.

وقال: «إِذَا أَقَادَ أَحَدُكُمْ امْرَأَةً، أَوْ خَادِمًا، أَوْ دَابَّةً، فَلْيَأْخُذْ بِنَاصِيَتِهَا، وَلْيَدْعُ اللَّهَ بِالْبَرَكَةِ وَيُسَمِّيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا جُمِلَتْ عَلَيْهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا جُمِلَتْ عَلَيْهِ» [حسن: أبو داود: ٢١٦٠، وابن ماجه: ١٩١٨].

وكان يقول للمتزوج: «بَارَكَ اللَّهُ لَكَ وَبَارَكَ عَلَيْكَ، وَجَمَعَ بَيْنَكُمَا فِي خَيْرٍ» [صحيح: أبو داود: ٢١٣٠، والترمذي: ١٠٩١، وابن ماجه: ١٩٠٥].

وقال: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ، قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يَفْقَدُ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا» [البخاري: ٣٦٨٨، ومسلم: ٣٥٣٣].

فصل

في هديه ﷺ فيما يقول من رأى ما يعجبه من أهله وماله

يُذَكَّرُ عَنْ أَنَسٍ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً فِي أَهْلٍ، وَلَا مَالٍ، أَوْ وَلَدٍ، فَيَقُولُ: مَا شَاءَ

(١) أي ابتلاء دينياً كارتكاب معصية، أو دنيوياً من مال يلهيه عن عبادة ربه، أو لا يحسن التصرف فيه، أو جاء عريض يفضي به إلى الظلم، أو مرض وسع سقم، وهو خال عن ذلك.

(٢) هو من كلام كعب الأحبار كما ذكر المؤلف.

كَانَ عَلَيْهِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُصَلِّيَ [مسلم: ٥٩٠٤-٥٩٠٥].

فأمره بخمسة أشياء: أَنْ يَنْفُتَ عَنْ يَسَارِهِ، وَأَنْ يَسْتَعِيذَ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَأَنْ لَا يُخْبِرَ بِهَا أَحَدًا، وَأَنْ يَتَحَوَّلَ عَنْ جَنْبِهِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ، وَأَنْ يَقُومَ يُصَلِّي، وَمَتَى فَعَلَ ذَلِكَ، لَمْ تَضُرَّهُ الرُّؤْيَا الْمَكْرُوهَةُ، بَلْ هَذَا يَدْفَعُ شَرَّهَا.

وقال: «الرُّؤْيَا عَلَى رَجُلٍ طَائِرٌ مَا لَمْ تُعْبَرْ، فَإِذَا عُبِّرَتْ، وَقَعَتْ، وَلَا يَنْصَحُهَا إِلَّا عَلَى وَادٍّ، أَوْ ذِي رَأْيٍ» [حسن: أبو داود: ٥٠٢٠، والترمذي: ٢٢٧٩، وابن ماجه: ٣٩١٤].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إِذَا قُضَتْ عَلَيْهِ الرُّؤْيَا، قَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ خَيْرًا فَلَنَا، وَإِنْ كَانَ شَرًّا، فَلِعَدُوِّنَا.

ويُذَكَّرُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ عُرِضَتْ عَلَيْهِ رُؤْيَا، فَلْيَقُلْ لِمَنْ عُرِضَ عَلَيْهِ خَيْرًا».

ويذكر عنه أنه كان يقول للرائي قبل أن يعبرها له: «خَيْرًا رَأَيْتَ» ثم يعبرها.

وذكر عبد الرزاق، عن معمر، عن أيوب، عن ابن سيرين، قال: كان أبو بكر الصديق، إِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْبُرَ رُؤْيَا، قَالَ: إِنْ صَدَقْتَ رُؤْيَاكَ، يَكُونُ كَذَا وَكَذَا.

فصل

فِيمَا يَقُولُهُ وَيَفْعَلُهُ مَنْ ابْتُلِيَ بِالْوَسْوَاسِ، وَمَا يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى الْوَسْوَاسَةِ

روى صالح بن كيسان، عن عُبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن مسعود يرفعه: «إِنَّ لِلْمَلِكِ الْمُوَكَّلِ بِقَلْبِ ابْنِ آدَمَ لَمَّةً، وَلِلشَّيْطَانِ لَمَّةً، فَلَمَّةُ الْمَلِكِ إِعَادَ بِالْخَيْرِ، وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ، وَرَجَاءٌ صَالِحٌ ثَوَابِهِ، وَلَمَّةُ الشَّيْطَانِ، إِعَادَ بِالشَّرِّ، وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ، وَقَنُوطٌ مِنَ الْخَيْرِ، فَإِذَا وَجَدْتُمْ لَمَّةَ الْمَلِكِ، فَاحْمَدُوا اللَّهَ، وَسَلُّوهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَإِذَا وَجَدْتُمْ لَمَّةَ الشَّيْطَانِ، فَاسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ فَاسْتَفْرِوهُ» [سند منقطع، وأخرجه الترمذي موصولاً: ٢٩٩١، وسنده ضعيف، وأخرجه الطبري من قول ابن مسعود: ٦١٧٠، وسنده صحيح].

وقال له عثمان بن أبي العاص: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ

الشَّيْطَانُ قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلَاتِي وَقِرَاءَتِي، قَالَ: «ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ: خِنْزَبٌ، فَإِذَا أَحْسَنْتَهُ، قَتَعُوهُ بِاللَّهِ مِنْهُ، وَاتَّقِلْ عَنْ يَسَارِكَ ثَلَاثًا» [مسلم: ٥٧٣٨].

وشكى إليه الصحابة أَنَّ أَحَدَهُمْ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ - يُعَرِّضُ بِالشَّيْءِ - لَنْ يَكُونَ حَمَمَةً أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، فَقَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَاسَةِ» [صحيح: أحمد: ٢٠٩٧، وأبو داود: ٥١١٢].

وأرشد من بُلي بشيءٍ من وسوسة التسلسل في الفاعلين، إِذَا قِيلَ لَهُ: هَذَا اللَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ؟ أَنْ يَقْرَأَ: «هُوَ الْأَوَّلُ * وَالْآخِرُ * وَالظَّاهِرُ * وَالْبَاطِنُ * وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» [الحديد: ٣].

كذلك قال ابن عباس لأبي زُمَيْلِ سَمَاكِ بْنِ الْوَلِيدِ الْحَنْفِيِّ وَقَدْ سَأَلَهُ: مَا شَيْءٌ أَجْدُهُ فِي صَدْرِي؟ قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ: قُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَنْتَكُمُ بِهِ. قَالَ: فَقَالَ لِي: أَشَيْءٌ مِنْ شَكٍّ؟ قُلْتُ: بَلَى، فَقَالَ لِي: مَا نَجَا مِنْ ذَلِكَ أَحَدٍ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ» [يونس: ٩٤] قَالَ: فَقَالَ لِي: فَإِذَا وَجَدْتَ فِي نَفْسِكَ شَيْئًا، فَقُلْ: «هُوَ الْأَوَّلُ * وَالْآخِرُ * وَالظَّاهِرُ * وَالْبَاطِنُ * وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» [حسن: أبو داود: ٥١١٠].

فأرشدهم بهذه الآية إلى بطلان التسلسل الباطل ببيدته العقل، وَأَنْ سِلْسَلَةَ الْمَخْلُوقَاتِ فِي ابْتِدَائِهَا تَنْتَهِي إِلَى أَوَّلٍ لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، كَمَا تَنْتَهِي فِي آخِرِهَا إِلَى آخِرٍ لَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ، كَمَا أَنَّ ظُهُورَهُ هُوَ الْعُلُوُّ الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ، وَبُطُونُهُ هُوَ الْإِحَاطَةُ الَّتِي لَا يَكُونُ دُونُهُ فِيهَا شَيْءٌ، وَلَوْ كَانَ قَبْلَهُ شَيْءٌ يَكُونُ مُؤَثَّرًا فِيهِ، لَكَانَ ذَلِكَ هُوَ الرَّبُّ الْخَلَّاقُ، وَلَا بَدَّ أَنْ يَنْتَهِيَ الْأَمْرُ إِلَى خَالِقٍ غَيْرِ مَخْلُوقٍ، وَغَنِي عَنْ غَيْرِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ، قَائِمٌ بِنَفْسِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَائِمٌ بِهِ، مَوْجُودٌ بِذَاتِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ مَوْجُودٌ بِهِ. قَدِيمٌ لَا أَوَّلَ لَهُ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ فَوْجُودُهُ بَعْدَ عَدَمِهِ، بَاقِي بِذَاتِهِ، وَبِقَاءِ كُلِّ شَيْءٍ بِهِ، فَهُوَ الْأَوَّلُ الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، وَالْآخِرُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ، الظَّاهِرُ الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ، الْبَاطِنُ الَّذِي لَيْسَ دُونَهُ شَيْءٌ.

وقال ﷺ: «لَا يَرَالِ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يَقُولَ قَائِلُهُمْ: هَذَا اللَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ؟ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَتَّقِ» [البخاري: ٣٢٧٦، ومسلم: ٣٤٧]، وقد قال تعالى: ﴿وَلَمَّا يَتَذَكَّرْكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَوِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْكَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

ولما كان الشيطان على نوعين: نوع يُرى عياناً، وهو شيطان الإنس، ونوع لا يُرى، وهو شيطان الجن، أمر سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يكتفي من شر شيطان الإنس بالإعراض عنه، والعفو، والدفع بالتي هي أحسن، ومن شيطان الجن بالاستعاذة بالله منه، والعفو، وجمع بين النوعين في سورة الأعراف، وسورة المؤمنين، وسورة فصلت، والاستعاذة في القراءة والذكر أبلغ في دفع شر شياطين الجن، والعفو والإعراض والدفع بالإحسان أبلغ في دفع شر شياطين الإنس.

قال:

فما هو إلا الاستعاذة ضارِعاً

أو الدُّعَاءُ بِالْحُسْنَى مِمَّا خَيْرَ مَطْلُوبٍ

فَهَذَا دَوَاءُ الدَّاءِ مِنْ شَرِّ مَا يُرَى

وَذَلِكَ دَوَاءُ الدَّاءِ مِنْ شَرِّ مَحْجُوبٍ

فصل

فيما يقوله ويفعله من اشتد غضبه

أمره ﷺ أن يُطْفِئَ عَنْهُ جَمْرَةَ الْغَضَبِ بِالْوُضُوءِ، والقعود إن كَانَ قَائِماً، والاضطجاع إن كَانَ قَاعِداً، والاستعاذة بالله مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.

ولما كان الغضب والشهوة جمرتين من نارٍ في قلب ابن آدم، أمر أن يُطْفِئَهُمَا بِالْوُضُوءِ، والصلاة، والاستعاذة من الشيطان الرجيم، كما قال تعالى: ﴿تَأْتِيَنَّكَ أَلْسُنُ النَّاسِ بِالْبَرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾، الآية [البقرة: ٤٤]. وهذا إنما يحمل عليه شدة الشهوة، فأمرهم بما يُطْفِئُونَهَا بِهَا جَمْرَتَهَا، وهو الاستعاذة بالصبر والصلاة، وأمر تعالى بالاستعاذة من الشيطان عند نزغاته. ولما كانت المعاصي كلها تتولد من الغضب والشهوة، وكان نهاية قوة الغضب القتل، ونهاية قوة الشهوة الزنى، جمع الله تعالى بين القتل

والزنى، وجعلهما قرينين في سورة الأنعام وسورة الإسراء، وسورة الفرقان وسورة الممتحنة.

والمقصود: أنه سبحانه أرشد عباده إلى ما يدفعون به شر قوتي الغضب والشهوة من الصلاة والاستعاذة.

فصل

(الدعاء لرؤية ما يحب وما يكره)

وكان ﷺ إذا رَأَى مَا يُحِبُّ، قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمَّ الصَّالِحَاتُ». وإذا رَأَى مَا يَكْرَهُ، قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ» [ابن ماجه: ٣٨٠٣].

فصل

(ما يفعل مع من صنع إليه معروفاً)

وكان ﷺ يدعو لِمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِمَا يُحِبُّ وبِمَا يَنَاسِبُ، فلما وَضَعَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَضُوءَهُ قال: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمَهُ التَّوْبِيلَ» [البخاري: ١٤٣، ومسلم: ٦٣٦٨].

ولمَّا دَعَّمَهُ أَبُو قَتَادَةَ فِي مَسِيرِهِ بِاللَّيْلِ لَمَّا مَالَ عَنْ رِاحِلَتِهِ، قال: «حَفِظَكَ اللَّهُ بِمَا حَفِظْتَ بِهِ نَبِيَّهُ» [مسلم: ٦٥٦٧].

وقال: «مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ، فَقَالَ لِفَاعِلِهِ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ» [صحيح: الترمذي: ٢٠٣٦]. واستقرض من عبد الله بن أبي ربيعة مالا، ثم وُفَّاه إياه، وقال: «بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، إِنَّمَا جَزَاءُ السَّلَفِ الْحَمْدُ وَالْأَذَاءُ» [صحيح: النسائي (٣١٤/٧)، وابن ماجه: ٢٤٢٤].

ولمَّا أَرَاخُهُ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيُّ مِنْ ذِي الْخَلَصَةِ: صَنَمَ دَوْسَ، بَرَّكَ عَلَى خَيْلِ قَبِيلِهِ أَحْمَسَ وَرَجَالِهَا خَمْسَ مَرَّاتٍ [البخاري: ٤٣٥٦ - ٤٣٥٧، ومسلم: ٦٣٦٦].

(الإثابة على الهدية)

وكان ﷺ إذا أُهْدِيَتْ إِلَهُ هَدِيَّةٌ فقبلها، كافأ عليها بأكثر منها [البخاري: ٢٥٨٥]، وإن ردها اعتذر إلى مُهْدِيهَا، فقولُه ﷺ لِلصَّغْبِ بْنِ جَثَامَةَ لما أهدى إليه لَحْمَ الصَّيْدِ: «إِنَّا لَمْ نَرُدَّ عَلَيْكَ إِلَّا أَنَا حُرْمٌ» [البخاري: ٢٥٧٢، ومسلم: ٢٨٤٥].

أَنْ يَطْنِي عَلَيَّ، عَزَّ جَارُكَ، وَجَلَّ نَأَاؤُكَ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ [ضعيف: الترمذي: ٣٥١٨].

(الدعاء عند الفزع)

وكان ﷺ يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ مِنَ الْفَزَعِ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَمِنْ شَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ شَرِّ مَخْرَاجَاتِ الشَّيَاطِينِ، وَأَنْ يَحْضُرُونِ» [حسن: أحمد: ٦٦٩٦، وأبو داود: ٣٨٩٣، والترمذي: ٣٥١٩].

ويُذَكِّرُ أَنْ رَجُلًا شَكَّى إِلَيْهِ ﷺ أَنَّهُ يَفْزَعُ فِي مَنَامِهِ، فَقَالَ: «إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَقُلْ...» ثُمَّ ذَكَرَهَا، فَقَالَهَا فَذَهَبَ عَنْهُ.

فصل

فِي الْفَافِ كَانَ ﷺ يَكْرَهُ أَنْ تُقَالَ

فَمِنْهَا: أَنْ يَقُولَ: خَبَيْتُ نَفْسِي، أَوْ جَاشَتْ نَفْسِي، وَلِيُقَالَ: لَقَبْتُ [البخاري: ٦١٨٠، ومسلم: ٥٨٧٨]. ومنها: أَنْ يُسَمِّيَ شَجَرَ الْعِنَبِ كَرَمًا، نَهَى عَنْ ذَلِكَ، وَقَالَ: «لَا تَقُولُوا: الْكَرْمُ، وَلَكِنْ قُولُوا: الْعِنَبُ وَالْحَبْلَةُ» [البخاري: ٦١٨٢، ومسلم: ٥٨٦٨].

وكره أن يقول الرجل: هَلَكَ النَّاسُ. وقال: «إِذَا قَالَ ذَلِكَ، فَهُوَ أَهْلُكُمُ» [مسلم: ٦٦٨٣]. وفي معنى هذا: فسد الناس، وفسد الزمان ونحوه.

ونهى أن يُقَالَ: مَا شَاءَ اللَّهُ، وَشَاءَ فُلَانٌ، بَلْ يُقَالَ: مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ. فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ. فَقَالَ: «أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟ قُلْ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ» [صحيح: أحمد: ١٨٣٩].

وفي معنى هذا: لولا الله وفلان، لما كان كذا، بل وهو أقبح وأنكر، وكذلك: أَنَا بِاللَّهِ وَبِفُلَانٍ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ وَبِفُلَانٍ، وَأَنَا فِي حَسْبِ اللَّهِ وَحَسْبِ فُلَانٍ، وَأَنَا مُتَّكِئٌ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى فُلَانٍ، فَقَاتِلْ هَذَا، قَدْ جَعَلَ فُلَانًا نِدًّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

ومنها: أَنْ يُقَالَ: مُطَرْنَا بِنَوٍّ كَذَا وَكَذَا، بَلْ يَقُولُ: مُطَرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ [البخاري: ٨٤٦، ومسلم: ٢٣١]. ومنها: أَنْ يَحْلِفَ بِغَيْرِ اللَّهِ. صَحَّ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ» [صحيح: أحمد: ٤٩٠٤، والترمذي: ١٥٣٥].

فصل

وَأَمَرَ ﷺ أَتَمَّهُ إِذَا سَمِعُوا نَهْيَ الْجَمَارِ أَنْ يَتَعَوَّدُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَإِذَا سَمِعُوا صِيَاحَ الدِّيَكَةِ، أَنْ يَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ [البخاري: ٣٣٠٣، ومسلم: ٦٩٢٠].

ويُروى عَنْهُ ﷺ، أَنَّهُ أَمَرَهُمْ بِالتَّكْبِيرِ عِنْدَ رُؤْيَةِ الْحَرِيقِ، فَإِنَّ التَّكْبِيرَ يُطْفِئُهُ [ابن السني (٢٩٥)].

(الدُّعَاءُ فِي الْمَجْلِسِ)

وكره ﷺ لِأَهْلِ الْمَجْلِسِ أَنْ يُخْلُوا مَجْلِسَهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَالَ: «مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيهِ إِلَّا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِفَةٍ الْجَمَارِ» [صحيح: أحمد: ٩٠٥٢، وأبو داود: ٤٨٥٥].

وقال: «مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تِزَةٌ، وَمَنْ اضْطَجَعَ مُضْجَعًا لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهِ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تِزَةٌ» [حسن: أبو داود: ٤٨٥٦] وَالتِّزَةُ: الْحَسْرَةُ.

وفي لفظ: «وَمَا سَلَكَ أَحَدٌ طَرِيقًا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ فِيهِ، إِلَّا كَانَتْ عَلَيْهِ تِزَةٌ» [صحيح: أحمد: ٩٥٨٣].

وقال ﷺ: «مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ، فَكَثُرَ فِيهِ لَعَنُهُ، فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ» [صحيح: أبو داود: ٤٨٥٩، والترمذي: ٣٤٢٩].

وفي «سنن أبي داود» و«مستدرک الحاكم» أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَقُولُ ذَلِكَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ مِنَ الْمَجْلِسِ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّكَ لَتَقُولُ قَوْلًا مَا كُنْتُ تَقُولُهُ فِيمَا مَضَى. قَالَ: «ذَلِكَ كَفَّارَةٌ لِمَا يَكُونُ فِي الْمَجْلِسِ» [حسن: أبو داود: ٤٨٥٩].

فصل

(الدُّعَاءُ عِنْدَ الْإِرْقِ)

وَشَكَى إِلَيْهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ الْأَرَقِيُّ بِاللَّيْلِ، فَقَالَ لَهُ: «إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَقُلْ: اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلْتُ، وَرَبَّ الْأَرْضِينَ السَّبْعِ وَمَا أَقْلْتُ، وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَصْلَلْتُ، كُنْ لِي جَارًا مِنْ شَرِّ خَلْقِكَ كُلِّهِمْ جَمِيعًا مِنْ أَنْ يَغْرَظَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَيَّ، أَوْ

ومنها: أن يقول في حَلْفِهِ: هو يَهُودِي، أو نصراني، أو كافر، إن فعل كذا [حسن: أبو داود: ٣٢٥٨، والنسائي (٦/٧)، وابن ماجه: ٢١٠٠].

ومنها: أن يقول لعِلمِ: يا كَافِرُ [البخاري: ٦١٠٣، ومسلم: ٢١٥].

ومنها: أن يقول للسلطان: مَلِكُ المُلُوكِ [البخاري: ٦٢٠٥، ومسلم: ٥٦١٠]. وعلى قياسه قاضي القضاة.

ومنها: أن يقول السَّيِّدُ لِغلامه وجاريتته: عَبْدِي، وَأَمَتِي، ويقول الغلامُ لسيده: ربي، وَلِيقُلُ السَّيِّدُ: فَتَايَ وَفَتَاتِي، وَلِيقُلُ الغلامُ، سَيِّدِي وَسَيِّدَتِي [البخاري: ٢٥٥٢، ومسلم: ٥٨٧٤].

ومنها: سُبُّ الرِّيحِ إذا هَبَّتْ، بل يسأل الله خَيْرَهَا، وَخَيْرَ مَا أُرْسَلَتْ بِهِ، وَيَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا أُرْسَلَتْ بِهِ [صحيح: أحمد: ٧٤١٣، وأبو داود: ٥٠٩٧، والترمذي: ٢٢٥٣].

ومنها: سُبُّ الحُمَى، نهى عنه، وقال: «إِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ، كَمَا يُذْهِبُ الْكَبِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ» [مسلم: ٦٥٧٠].

ومنها: النَّهْيُ عَنْ سُبِّ الدَّيْكَ، صحَّ عنه ﷺ أنه قال: «لَا تُسَبِّرُوا الدَّيْكَ، فَإِنَّهُ يُوقِظُ لِلصَّلَاةِ» [حسن: أحمد: ٢١٦٧٩، وأبو داود: ٥١٠١].

ومنها: الدعاء بدعوى الجاهلية، والتعزّي بعزائهم [حسن: أحمد: ٢١٢١٨، والبخاري في «الأدب المفرد»: ٩٦٣ - ٩٦٤]، كالدُّعَاءُ إِلَى الْقِبَائِلِ وَالْعَصَبِيَّةِ لَهَا وَلِلْأَنْسَابِ، ومثلهُ التَّعَصُّبُ لِلْمَذَاهِبِ، وَالطَّرَائِقِ، وَالْمَشَايِخِ، وَتَفْضِيلُ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ بِالْهَوَى وَالْعَصِيَّةِ، وَكَوْنُهُ مُتَنَسِّباً إِلَيْهِ، فَيَدْعُو إِلَى ذَلِكَ، وَيُوَالِي عَلَيْهِ، وَيُعَادِي عَلَيْهِ، وَيَزِنُ النَّاسَ بِهِ، كُلُّ هَذَا مِنْ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ.

ومنها: تسمية العِشَاءِ بِالْعَمَةِ [مسلم: ١٤٥٥] تسمية غالباً يُهَجَّرُ فِيهَا لَفْظُ الْعِشَاءِ.

ومنها: النَّهْيُ عَنْ سِبَابِ الْمُسْلِمِ [البخاري: ٧٠٧٦]، وَأَنْ يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الثَّالِثِ [البخاري: ٦٢٨٨، ومسلم: ٥٦٩٤]. وَأَنْ تُخْبِرَ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا بِمَحَامِسِ امْرَأَةٍ أُخْرَى [البخاري: ٥٢٤٠].

ومنها: أَنْ يَقُولَ فِي دُعَائِهِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ،

وَارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ» [البخاري: ٦٣٣٩، ومسلم: ٦٨١٣].

ومنها: الْإِكْتَارُ مِنَ الْحَلْفِ [مسلم: ٤١٢٦].

ومنها: كِرَاهَةُ أَنْ يَقُولَ: قَوْسُ قَرْحٍ [أبو نعيم في «الحلية» (٣٠٩/٢)]، وَفِي سَنَدِهِ ضَعِيفٌ لِهَذَا الَّذِي يُرَى فِي السَّمَاءِ.

ومنها: أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا بِوَجْهِهِ [أبو داود: ١٦٧١].

ومنها: أَنْ يَسْمِيَ الْمَدِينَةَ بِشَرِّ [البخاري: ١٨١٧].

ومنها: أَنْ يُسْأَلَ الرَّجُلُ فِيمَ ضَرَبَ أَمْرَأَتَهُ [سند ضعیف: أحمد: ١٢٢، وأبو داود: ٢١٤٧، وابن ماجه: ١٩٦٨]، إِلَّا إِذَا دَعَتِ الْحَاجَةَ إِلَى ذَلِكَ.

ومنها: أَنْ يَقُولَ: صُمْتُ رَمَضَانَ كُلَّهُ، أَوْ قَمْتُ اللَّيْلَ كُلَّهُ [أبو داود: ٢٤١٥].

فصل

وَمِنَ الْأَلْفَاظِ الْمَكْرُوهَةِ الْإِفْصَاحُ عَنِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَنْبَغِي الْكِتَابَةُ عَنْهَا بِأَسْمَائِهَا الصَّرِيحَةِ.

ومنها: أَنْ يَقُولَ: أَطَالَ اللَّهُ بَقَاعَكَ، وَأَدَامَ أَيَّامَكَ، وَعِشْتَ أَلْفَ سَنَةٍ وَنَحْوَ ذَلِكَ.

ومنها: أَنْ يَقُولَ الصَّائِمُ: وَحَقُّ الَّذِي خَاتَمَهُ عَلَى فَمِ الْكَافِرِ.

ومنها: أَنْ يَقُولَ: لِلْمَكُوسِ: حَقُّوqًا. وَأَنْ يَقُولَ لِمَا يُنْفَقُهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ: عَرِمْتُ أَوْ خَيْرْتُ كَذَا وَكَذَا: وَأَنْ يَقُولَ: أَنْفَقْتُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مَا لَا كَثِيرًا.

ومنها: أَنْ يَقُولَ الْمُفْتِي: أَحَلَّ اللَّهُ كَذَا، وَحَرَّمَ اللَّهُ كَذَا فِي الْمَسَائِلِ الْاجْتِهَادِيَّةِ، وَإِنَّمَا يَقُولُهُ فِيمَا وَرَدَ النَّصُّ بِتَحْرِيمِهِ.

(كِرَاهَةُ تَسْمِيَةِ آدَةِ الْقُرْآنِ وَالسَّنَةِ ظَوَاهِرَ لَفْظِيَّةٍ وَمَجَازَاتٍ) وَمِنْهَا: أَنْ يُسَمِّيَ آدَةَ الْقُرْآنِ وَالسَّنَةِ ظَوَاهِرَ لَفْظِيَّةٍ وَمَجَازَاتٍ، فَإِنَّ هَذِهِ التَّسْمِيَةَ تُسْقِطُ حُرْمَتَهَا مِنَ الْقُلُوبِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا أَضَافَتْ إِلَى ذَلِكَ تَسْمِيَةَ شَيْءٍ الْمُتَكَلِّمِينَ وَالْفَلَاسِفَةَ قَوَاطِعَ عَقْلِيَّةٍ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَمْ حَصَلَ بِهَاتَيْنِ التَّسْمِيَتَيْنِ مِنْ فُسَادٍ فِي الْعُقُولِ وَالْأَدْيَانِ، وَالْدُّنْيَا وَالْدِّينِ.

فصل

ومنها: أَنْ يُحَدِّثَ الرَّجُلُ بِجَمَاعِ أَهْلِهِ، وَمَا يَكُونُ

بينه وبينها [مسلم: ٣٥٤٢]، كما يفعله السَّفَلَةُ.

ومما يكره من الألفاظ: زعموا [أبو داود: ٤٩٧٢، البخاري في «الأدب المفرد» ٧٦٢]، وذكروا، وقالوا، ونحوه.

ومما يكره منها أن يقول للسلطان: خليفة الله، أو نائب الله في أرضه، فإن الخليفة والنائب إنما يكونان عن غائب، والله سبحانه وتعالى خليفة الغائب في أهله، ووكيل عبده المؤمن.

فصل

(التحذير من : دانه وولي وعندي)

وليحذر كُلُّ الحذر من طغيان «أنا»، «ولي»، «وعندي»، فإن هذه الألفاظ الثلاثة ابتلي بها إبليس، وفرعون، وقارون، «فأنا خير منه» لإبليس، و«أنا ملك مصر» لفرعون، و«إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَيَّ فِئْرٍ ذِينَةً» لقارون. وأحسن ما وُضِعَتْ «أنا» في قول العبد: أنا العبدُ المذنب، المخطئ، المستغفر، المعترف ونحوه. «ولي»، في قوله: لي الذنب، ولي الجرم، ولي المسكنة، ولي الفقر والذل: «وعندي» في قوله: «أَغْنِي لِي جَدِّي، وَهَزَلِي، وَخَطَطِي، وَعَنْدِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي» [البخاري: ٦٣٩٩، ومسلم: ٦٩٠١].

فصل في هديه في الجهاد والغزوات

فصل

في هديه ﷺ في الجهاد والمغازي
والسرايا والبُعُوث

لما كان الجهاد ذروة سَلام الإسلام وقبته، ومنازلُ أهله أعلى المنازل في الجنة، كما لهم الرِّفْعَةُ في الدنيا، فهم الأَعْلَوْنَ في الدُّنْيَا والآخِرَةِ، كان رسولُ الله ﷺ في الذِّروَةِ العُلْيَا منه، واستولى على أنواعه كُلِّها فجاهد في الله حَقَّ جهاده بالقلب، والجَنَانِ، والدَّعْوَةِ، والبيان، والسيف، والسَّانِ، وكانت ساعاته موقوفة على الجهاد، بقلبه، ولسانه، ويدِهِ. ولهذا كان أرفعَ العالمين ذِكْراً، وأعظمهم عند الله قدراً.

(مكان الجهاد في أول الإسلام بتبليغ الحجة)

وأمره الله تعالى بالجهاد من حين بعثه، وقال:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا فِي سَكَنٍ قَرِيبٍ لَّذِكْرًا﴾ [٥٢، ٥١] فلهذه سورة مكية أمر فيها بجهاد الكفار بالحجة، والبيان، وتبليغ القرآن، وكذلك جهاد المنافقين، إنما هو بتبليغ الحجة، وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا جَاهِدُوا الْكَافِرَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَقْلَبْ عَلَيْهِمْ وَأَمَّا إِلَهُكُمْ فَهَهُمْ وَيَسِّرْ أَلَيْسَ﴾ [التوبة: ٧٣]. فجهادُ المنافقين أصعبُ من جهاد الكفار، وهو جهادُ خواصِّ الأمة، وورثة الرُّسل، والقائمون به أفراد في العالم، والمشاركون فيه، والمعاونون عليه، وإن كانوا هم الأقلين عدداً، فهم الأعظمون عند الله قدراً.

ولما كان من أفضل الجهاد قولُ الحقِّ مع شدة المعارض، مثل أن تتكلم به عند من تُخاف سطوته وأذاه، كان للرسل - صلوات الله عليهم وسلامته - من ذلك الحظُّ الأوفر، وكان لنبينا - صلوات الله وسلامته عليه - من ذلك أكملُ الجهاد وأتمه.

(جهاد أعداء الله هرع على جهاد النفس)

ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعاً على جهاد العبد نفسه في ذات الله، كما قال النبي ﷺ: «المجاهدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَالْمُجَاهِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ» [صحيح: أحمد: ٢٣٩٦٧]. كان جهادُ النفس مُقَدِّماً على جهادِ العدوِّ في الخارج، وأصلاً له، فإنه ما لم يُجَاهَدْ هه أولاً لفضل ما أُمِرَتْ به، وترك ما نُهِيت عنه، ويُحَارِبَهَا في الله، لم يُمكنه جهادُ عدوه في الخارج، فكيف يُمكنه جهادُ عدوه والانتصاف منه، وعدوه الذي بين جنبيه قاهرٌ له، متسلِّطٌ عليه، لم يُجاهده، ولم يُحاربه في الله؟ بل لا يُمكنه الخروجُ إلى عدوه، حتى يُجاهد نفسه على الخروج.

(هناك جهاد ثالث هو جهاد الشيطان)

فهذان عدوان قد امْتَحِنَ العبدُ بجهادهما، وبينهما عدوٌّ ثالث، لا يمكنه جهادهما إلا بجهاده، وهو واقف بينهما يُبْطِلُ العبدَ عن جهادهما، ويُخَلِّله، ويُرَجِّفُ به، ولا يزال يُخَيِّلُ له ما في جهادهما من المشاق، وترك الحظوظ، وفوت اللذات، والمشتبهات، ولا يُمكنه أن يُجاهدَ ذَيْنِكَ العدوين

إِلَّا بِجِهَادِهِ، فكان جهاده هو الأصل لجهادهما، وهو الشيطان، قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَلْقَيْتَنَ لَكَ عَذُوًّا فَأَعِزَّهُ عَذُوًّا﴾ [فاطر: ٦]. والأمر باتخاذ عدواً تنبيه على استفراغ الوسع في محاربتة، ومجاهدته، كأنه عدو لا يقتر، ولا يقصر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس.

(جهاد هؤلاء الأعداء الثلاثة ليمتنح من يتولاه)

فهذه ثلاثة أعداء، أمير العبد بمحاربتها وجهادها، وقد بُلي بمحاربتها في هذه الدار، وسُلِّطت عليه امتحاناً من الله له وابتلاء، فأعطى الله العبد مدداً وعُدَّةً وأعاوناً وسلاحاً لهذا الجهاد، وأعطى أعداءه مدداً وعُدَّةً وأعاوناً وسلاحاً، وبَلَا أحدَ الفريقين بالآخر، وجعل بعضهم لبعض فتنة لِيَتْلُوَ أخبارهم، ويمتنح من يتولاه، ويتولى رسله ممن يتولى الشيطان وحزبه، كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَا بِضَعَفِكَ يَتْلُوَ فِتْنَةً أَنْتَ صَبِيرٌ وَكَانَ رِثْكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠]. وقال تعالى ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَلِيَبْلُوَكُمْ حَقَّ نَصْرِ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالْمُتَّقِينَ وَلِيُبْلَا أَعْمَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]. فأعطى عباده الأسماع والأبصار، والمقول والقوى، وأنزل عليهم كُتُبَهُ، وأرسل إليهم رسله، وأمدَّهم بملائكته، وقال لهم: ﴿أَنْتُمْ مَعَكُمْ فَيَتَوَلَّى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢] وأمرهم من أمره بما هو من أعظم العون لهم على حرب عدوهم، وأخبرهم أنهم إن امتثلوا ما أمرهم به، لم يزالوا منصورين على عدوه وعدوهم، وأنه إن سلَّطه عليهم، فلتركهم بعض ما أمروا به، ولمعصيتهم له، ثم لم يؤسِّهم، ولم يُنْقِطْهم، بل أمرهم أن يستقبلوا أمرهم، ويداؤوا جراحهم ويعودوا إلى مُناهضة عدو فينصرهم عليه ويُظفرهم بهم، فأخبرهم أنه مع المتقين منهم، ومع المحسنين، ومع الصابرين، ومع المؤمنين، وأنه يُدافع عن عباده المؤمنين ما لا يدافعون عن أنفسهم، بل بدفاعه عنهم انتصروا على عدوهم،

ولولا دفاعه عنهم، لتخلفهم عدوهم، واجتاحهم. وهذه المدافعة عنهم بحسب إيمانهم، وعلى قُدْرِهِ، فإن قُوَى الإيمان، قُوَى المدافعة، فمن وجد خيراً، فليحمِدِ الله، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومنَّ إلا نفسه.

(معنى «وجاهدوا في الله حق جهاده»)

وأمرهم أن يُجاهدوا فيه حق جهاده، كما أمرهم أن يتقوه حق تقاته^(١)، وكما أن حق تقاته أن يطاع فلا يعصى، ويُذكر فلا ينسى، ويُشكر فلا يكفر، فحق جهاده أن يُجاهد العبد نفسه لِيُسَلِّمَ قلبه ولسانه وجوارحه لله، فيكون كله لله، وباللَّهِ لا لنفسه، ولا بنفسه، ويُجاهد شيطانه بتكذيب وعِدْو، ومعصية أمره، وارتكاب نهيه، فإنه يَعِدُ الأمانِيَّ، وَيُمْنِي الغُرُورَ، وَيَعِدُ الْفَقْرَ، وَيَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، وينهى عن التَّقَى والهُدَى، والعِفَّة والصَّبْر، وأخلاق الإيمان كُلِّهَا، فجاهده بتكذيب وعده، ومعصية أمره، فينشأ له من هذين الجهادين قُوَّة وسلطان، وعُدَّة يُجاهد بها أعداء الله في الخارج بقلبه ولسانه ويده وماله، لِتَكُونَ كلمة الله هي العليا.

واختلف عبارات السلف في حق الجهاد:

(معنى «وما جعل عليكم في الدين من حرج»)

فقال ابن عباس: هو استفراغ الطاقة فيه، وألا يخاف في الله لومة لائم. وقال مقاتل: اعملوا لله حقَّ عمله، واعدُّوه حقَّ عبادته. وقال عبد الله بن المبارك: هو مجاهدة النفس والهوى. ولم يُصِبْ من قال: إن الآيتين منسوختان لظنه أنهما تضمنتا الأمر بما لا يُطاق، وحقُّ تقاته وحقُّ جهاده: هو ما يُطيقه كلُّ عبد في نفسه، وذلك يختلف باختلاف أحوال المكلفين في القُدْرَةِ، والعِزِّ، والعلم، والجهل. فحقُّ التقوى، وحقُّ الجهاد بالنسبة إلى القادر المتمكن العالم شيء، وبالنسبة إلى العاجز الجاهل الضعيف شيء، وتأمَّل كيف عثَّب الأمر بذلك بقوله: ﴿مَنْ أَحْبَبَّنَا وَمَا جَعَلَ عَلَيْكَ فِي آيَاتِنَا مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] والحرَج: الضيق، بل جعله واسعاً يسعُ كلَّ أحد،

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] وقوله تعالى:

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ أَحَبُّ إِلَهِكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي آيَاتِنَا مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

كما جعل رزقه يسع كلَّ حي، وكَلَّفَ العبدَ بما يسعه العبدُ، ورزق العبدَ ما يسع العبد، فهو يسع تكليفه، ويسعه رزقه، وما جعل على عبده في الدين من حرج بوجه ما، قال النبي ﷺ: «يُعِثُّ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ» [سند ضعيف: الخطيب البغدادي في «التاريخ» (٧/٢٠٩)] أي: بالملة، فهي حنيفية في التوحيد، سمحة في العمل.

وقد وسَّعَ اللهُ سبحانه وتعالى على عباده غاية التوسعة في دينه، ورزقه، وعفوه، ومغفرته، وبسط عليهم التوبة ما دامت الروح في الجسد، وفتح لهم باباً لها لا يُقْلَقُ عنهم إلى أن تَطْلُعَ الشمس من مغربها، وجعل لكلِّ سيئة كفارة تُكَفِّرُها من توبة، أو صدقة، أو حسنة ماحية، أو مُصِيبَةٍ مكفرة، وجعل بكل ما حَرَّمَ عليهم عوضاً من الحلال أنفعَ لهم منه، وأطيب، وألذَّ، فيقوم مقامه ليستغني العبد عن الحرام، ويسعه الحلال، فلا يَضِيقُ عنه، وجعل لكل عُسرٍ يمتحنهم به يُسَرُّ قلبه، ويُسَرُّ بعده، «فلن يَغْلِبَ عُسرُ يُسرَيْنِ» [الحاكم (٢/٥٢٨)]، رجاله ثقات لكنه مرسل [فإذا كان هذا شأنه سبحانه مع عباده، فكيف يُكَلِّفُهُمْ ما لا يسعهم فضلاً عما لا يطيقونه ولا يقدرون عليه.

فصل

(مراتب الجهاد)

إِذَا عُرِفَ هذا، فالجهادُ أربع مراتب: جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين.

(مراتب جهاد النفس)

فجهاد النفس أربع مراتب أيضاً:

إحداها: أن يُجَاهِدَهَا على تعلُّمِ الهدى، ودين الحق الذي لا فلاح لها، ولا سعادة في معاشها ومعادها إلَّا به، ومتى فاتها علمه، شقيت في الدارين.

الثانية: أن يُجَاهِدَهَا على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يَضُرَّها لم ينفعها.

الثالثة: أن يُجَاهِدَهَا على الدعوة إليه، وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يَكْتُمُونَ ما أنزل الله من الهدى والبيانات، ولا ينفعه علمه، ولا يُنجيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يُجَاهِدَهَا على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله، وأذى الخلق، ويتجمل ذلك كله لله. فإذا استكمل هذه المراتب الأربع، صابر من الرُّبَّانِيِّينَ، فإن السلفَ مُجْمِعُونَ على أن العالم لا يَسْتَحِقُّ أن يُسمى ربانياً حتى يَعْرِفَ الحقَّ، ويعمل به، ويُعَلِّمَهُ، فمن علم وَعَمِلَ وَعَلَّمَ فذاك يُدعى عظيمًا في ملكوت السماوات.

فصل

(مراتب جهاد الشيطان)

وأما جهادُ الشيطان، فمرتبتان، إحداها: جهاده على دفع ما يُلقِي إلى العبد من الشبهات والشكوك القاذبة في الإيمان.

الثانية: جهاده على دفع ما يُلقِي إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات، فالجهادُ الأول يكون بعده اليقين، والثاني يكون بعده الصبر. قال تعالى: ﴿وَعَمَلْنَا بَيْنَهُمْ آيَةً يَدْعُونَ بِأَمْرٍ لَّا صَبْرًا وَكَانُوا يُعَذِّبُنَا بِقُفُوفِهِمْ﴾ [السجدة: ٢٤] فأخبر أن إمامة الدين، إنما تُنال بالصبر واليقين، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقين يدفع الشكوك والشبهات.

فصل

(مراتب جهاد الكفار والمنافقين)

وأما جهادُ الكفار والمنافقين، فأربع مراتب: بالقلب، واللسان، والمال، والنفس، وجهادُ الكفار أخصُّ باليد، وجهادُ المنافقين أخصُّ باللسان.

فصل

(جهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات)

وأما جهادُ أرباب الظلم، والبدع، والمنكرات، فثلاث مراتب: الأولى: باليد إذا قَدَّرَ، فإن عَجَزَ، انتقل إلى اللسان، فإن عَجَزَ، جاهد بقلبه، فهذه ثلاثة عشر مرتبة من الجهاد، وَمَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالْقَزْوِ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ التَّفَاقِيهِ [مسلم: ٤٩٣١].

فصل

(شرط الجهاد)

ولا يَتِمُّ الجِهَادُ إلَّا بِالْهَجْرَةِ، ولا الهجرة والجهاد

إِلَّا بِالْإِيمَانِ، وَالرَّاجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ هُم الَّذِينَ قَامُوا
بِهَذِهِ الثَّلَاثَةِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ
هَامَزُوا وَجَّهَهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: ٢١٨).

وكما أن الإيمان فرضٌ على كل أحد، ففرضٌ عليه هِجرتان في كل وقت: هجرةٌ إلى الله عزَّ وجلَّ بالتوحيد، والإخلاص، والإبانة، والتوكل، والخوف، والرجاء، والمحبة، والتوبة، وهجرةٌ إلى رسوله بالمُتابعة، والانقيادِ لأمره، والتصديق بخبره، وتقديم أمره وخبره على أمر غيره وخبره: «فمن كانت هِجرتهُ إلى الله ورسوله، فَهَجرتهُ إلى الله ورسوله، ومن كانت هِجرتهُ إلى دُنيا يُصيها، أو امرأةٍ يتزوَّجها، فَهَجرتهُ إلى ما هاجر إليه». وفرضٌ عليه جهادٌ نفسه في ذات الله، وجهادٌ شيطانه، فهذا كله فرضٌ عين لا ينوبُ فيه أحدٌ عن أحد.

وأما جهاد الكفار والمنافقين، فقد يُكفى فيه بعض الأمة إذا حصلَ منهم مقصود الجهاد.

فصل

(أَكْمَلُ الْخَلْقِ مَنْ كَمَلَ مَرَاتِبُ الْجِهَادِ وَأَكْمَلُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ)

وأكمل الخلق عند الله من كَمَل مراتب الجهاد كُلِّهَا، والخلق متفاوتون في منازلهم عند الله، ففاوتهم في مراتب الجهاد، ولهذا كان أكمل الخلق وأكرمهم على الله خاتم أنبيائه ورُسُلِهِ، فإنه كَمَل مراتب الجهاد، وجاهد في الله حق جهاده، وشرع في الجهاد من حين بُعث إلى أن توفاه الله عز وجل، فإنه لما نزل عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدْيَنِيُّ﴾ ﴿قُرْآنُكَ﴾ وَرَبِّكَ ﴿فَكِّدْ﴾ ﴿وَبَلِّغْ فَكِّدْ﴾ [المذثر: ١-٤]. شَمَّر عن ساق الدعوة، وقام في ذات الله أتم قيام، ودعا إلى الله ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، ولما نزل عليه: ﴿فَاصْبِرْ بِمَا تَوَدَّرُ﴾ [الحجر: ٩٤] فصَدَّع بأمر الله لا تأخذه فيه لومة لائم، فدعا إلى الله الصغير، والكبير، والحرَّ والعبد، والذكر، والأنثى، والأحمر، والأسود، والجنَّ، والإنس.

ولما ضَدَعَ بأمرِ الله، وصرَّحَ لقومه بالدُّعْوَةِ،
وناداهم بِسَبِّ الْكُتُومِ^(١)، وَعَيَّبَ دِينَهُم، اشتدَّ أذاهم
له، ولمن استجاب له من أصحابه، ونالوه ونالوهم
بأنواع الأذى، وهذو سُنَّةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي خَلْقِهِ كَمَا
قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾
[فُصِّلَتْ: ٤٣]. وقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا
شَاطِطِينَ إِلَّا إِبْرَاهِيمَ وَالْحُسَيْنَ﴾ [الأنعام: ١١٢] وقال: ﴿كَذَلِكَ
مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَائِرٌ أَوْ مَبْعُوثٌ^(٢)
ثَوَّاصًا يَدْعُوهُ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَافُونَ^(٣)﴾ [الذَّارِيَاتُ:
[٥٣: ٥٣].

فَعَزَّيْ سَبْحَانَهُ نِيَّهَ بِذَلِكَ، وَإِنْ لَهُ أَسْوَةٌ بِمَنْ تَقَدَّمَ
 مِنَ الْمُرْسَلِينَ، وَعَزَّيْ أَتَابِعَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ
 تَدْخُلُوا الْحِكْمَةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ عَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَكْمِلِهِمْ
 الْأَسَاسَ وَالْفَرْقَةَ وَذَرَوْا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ
 مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٧١٤﴾﴾ [البقرة: ٧١٤].

وقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ لَا يُخْشَوْنَ﴾ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفُحُوا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَكَ مُدًّا وَهُوَ السَّيِّئُ الْمَعْمَلُ ۝ وَكَانَ جَهَنَّمَ قَائِمًا يُمْهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌ عَنِ الْعَالَمِينَ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرًا أَكْبَرَ ۝ وَلِلَّهِ حُكْمُ السَّاعَةِ وَلَئِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِالنَّاسِ الْفِتْنَةَ لَا يُبَدِّلُهَا شَيْئًا وَالَّذِينَ هُمْ لَا يُخْشَوْنَ فِي مَا لَيْسَ لَهُمْ بَأْسٌ ۝ وَلَقَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِدُكُمْ فَانْتَحَكُمُوهَا أَلَيْسَ لَكُمْ عِلْمٌ فَلَا تُقْبِلُوهَا إِلَىٰ مَوْعِدِكُمْ فَانْتَحَكُمُوهَا أَلَيْسَ لَكُمْ عِلْمٌ فَلَا تُقْبِلُوهَا ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ۝ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَمَلَ فِتْنَةٍ ۝ وَالنَّاسِ كَذَابٌ مُبِينٌ ۝ وَلَئِنْ جَاءَتْ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ۝ ﴿الزُّكُورُ: ١-١٠﴾.

(ذكر الابتلاء في أول الدعوة)

فَلْيَتَأَمَّلِ الْعَبْدُ سِيَاقَ هَذِهِ الْآيَاتِ، وَمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الْعِبَرِ وَكُنُوزِ الْحِكْمِ، فَإِنَّ النَّاسَ إِذَا أُرْسِلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَقُولُوا أَهْلَهُمْ: آمَنَّا، وَإِمَّا

(١) لم يكن رسول الله ﷺ سيئاً ولا شتاماً ولا فحاشاً، وإنما كان ينفي عن آلهة المشركين ما كانوا يتوهمونه لها من صفات لا تليق إلا بالله سبحانه وتعالى.

ألا يقول ذلك، بل يستمر على الثبات والكفر، فمن قال: آمنا، امتحنه ربُّه، وابتلاه، وفتنه، والفتنة: الابتلاء والاختبار، ليتبين الصادق من الكاذب، ومن لم يقل: آمنا، فلا يحسب أنه يُعجزُ الله ويفوته ويسبقه، فإنه إنما يطوي المراحل في يديه.

وَكَيْفَ يَقْرَأُ الْمَرْءُ عَنْهُ بِذَنْبِهِ

إِذَا كَانَ تُطْوَى فِي يَدَيْهِ الْمَرَاجِلُ
فمن آمن بالرُّسُلِ وأطاعهم، عاداه أعداؤهم وآذوه، فابتلي بما يؤلمه وإن لم يؤمن بهم ولم يُطعمهم، حُوقِبَ في الدنيا والآخرة، فَحَصَلَ له ما يؤلمه، وكان هذا المولم له أعظم ألم وأدوم من ألم اتباعهم، فلا بد من حصول الألم لكل نفس آمنت أو رغبت عن الإيمان، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداء، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، والمُعْرِضُ عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداء، ثم يصير إلى الألم الدائم. وسئل الشافعي رحمه الله أيما أفضل للرجل، أن يُمكن أو يُبتلى؟ فقال: لا يُمكن حتى يُبتلى، والله تعالى ابتلى أولي العزم من الرسل فلما صَبَرُوا مَكْنَهُمْ، فلا يَقْطُرُ أحدُهم يخلص من الألم البتة، وإنما يتفاوت أهل الآلام في العقول، فأعقلهم من باع ألم مستورا عظيماً بألم منقطع يسير، وأشقاهم من باع الألم المنقطع اليسير بالألم العظيم المستمر.

فإن قيل: كيف يختار العاقل هذا؟ قيل: الحامل له على هذا التقذ والتسبئة.

وَالنَّفْسُ مُوَكَّلَةٌ بِحُبِّ الْعَاجِلِ

(من أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئا)

﴿لَا يَلْبِسُونَ الْكَلِيلَةَ ٢٦ وَذَرُوهَا الْآخِرَةَ ٢٧﴾ [التَّيَمَّاتُ:

٢٠، ٢١]. ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يَجْعَلُونَ الْكَلِيلَةَ وَذَرُوهَا وَذَرَاهُمْ يَوْمًا

فَيْكَلُ ٢٨﴾ [الإنسان: ٢٧]. وهذا يحصل لكل أحد،

فإن الإنسان مدني بالطبع، لا بد له أن يعيش مع

الناس، والناس لهم إرادات وتصورات، فيطلبون منه

أن يوافقهم عليها، فإن لم يوافقهم، آذوه وعذبه،

وإن وافقهم، حصل له الأذى والعذاب، تارة منهم،

وتارة من غيرهم، كمن عنده دين وثقى حل بين قوم

فُجَّارٍ ظَلَمَ، ولا يتمكنون من فجورهم وظلمهم إلا

بموافقتهم لهم، أو سكوتهم عنهم، فإن وافقهم، أو

سكت عنهم، سَلِمَ من شرهم في الابتداء، ثم يتسلطون عليه بالإهانة والأذى أضعاف ما كان يخافه ابتداء، لو أنكر عليهم وخالفهم، وإن سَلِمَ منهم، فلا بد أن يُهان ويُعاقب على يد غيرهم، فالحزم كُلُّ الحزم في الأخذ بما قالت عائشة أم المؤمنين لمعاوية: «مَنْ أَرْضَى اللَّهَ سَخَطَ النَّاسُ، كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ سَخَطَ اللَّهُ لَمْ يُغْنُوا عَنْهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» [صحيح: الترمذي: ٢٤١٦].

ومن تأمل أحوال العالم رأى هذا كثيرا فيمن يُعين الرؤساء على أغراضهم الفاسدة، وفيمن يُعين أهل البِدْع على يدِهم مَرَبِّاً من عقوبتهم، فمن هداه الله، وألهمه رُشدَه، ووقاه شر نفسه، امتنع من الموافقة على فعل المحرم، وصَبَرَ على عُذوبتهم، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، كما كانت للرسل وأتباعهم، كالمهاجرين، والأنصار، ومن ابتلي من العلماء، والعباد، وصالحي الوُلاة، والتجار، وغيرهم.

(تعزية الله عباده المؤمنين بأن الحياة الدنيا قصيرة)

ولما كان الألم لا محيص منه البتة، عَزَى اللَّهُ - سبحانه - من اختار الألم اليسير المنقطع على الألم العظيم المستمر بقوله: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَكَلَ اللَّهِ لَآئِيًّا وَهُوَ السَّخِيعُ الْكَاسِي ٢٩﴾ [العنكبوت: ٥]. فضرب لمدة هذا الألم أجلا لا بُدَّ أن يأتي، وهو يوم لقائه، فليتلذذ العبد أعظم اللذة بما تحمّل من الألم من أجله، وفي مرضاته، وتكون لذته وسروره وابتهاجه بقدر ما تحمّل من الألم في الله ولله، وأكد هذا العزاء والتسليه برجاء لقائه، ليحمل العبد اشتياقه إلى لقاء ربه ووليه على تحمّل مشقة الألم العاجل، بل ربما غيبه الشوق إلى لقائه عن شهود الألم والإحساس به، ولهذا سأل النبي ﷺ ربه الشوق إلى لقائه، فقال في الدعاء الذي رواه أحمد وابن جابر: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِعِلْمِكَ الْغَيْبِ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَخْبَنِي إِذَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي، وَأَسْأَلُكَ حَشِيَّتِكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرَّضَى، وَأَسْأَلُكَ الْقَضْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْقُذُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ

الرُّمَى بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَأَسْأَلُكَ الشُّوقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرٍّ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هَذَاهُ مُهْتَدِينَ [صحيح: النسائي (٥٤/٣)، وابن حبان: ٥٠٩].

فالشوق يحمل المشتاق على الجد في السير إلى محبوبه، ويقرّب عليه الطريق، ويطوي له البعيد، ويهون عليه الآلام والمشاق، وهو من أعظم نعم الله بها على عبده، ولكن لهذه النعمة أقوال وأعمال، هما السبب الذي تنال به، والله سبحانه سمع تلك الأقوال، عليم بتلك الأفعال، وهو عليم بمن يصلح لهذه النعمة، ويشكرها، ويعرف قدرها، ويحب المنعم عليه، فتصلح عنده هذه النعمة، ويصلح بها كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيُتَوَلَّوْا أَهْوَاءَهُمْ مِمَّا آتَيْنَاهُمْ أَفْئَةً يَأْكُلْنَ فِيهَا ظِلْمًا﴾ [الأنعام: ٥٣]، فإذا فاتت العبد نعمة من نعم ربه، فليقرأ على نفسه: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾.

(من جاهد فإنما يجاهد لنفسه)

ثم عزّاهم تعالى بعزاء آخر، وهو أن يجاهدوا فيه، إنما هو لأنفسهم، وثمرته عائدة عليهم، وأنه غني عن العالمين، ومصلحة هذا الجهاد، ترجع إليهم، لا إليه سبحانه، ثم أخبر أنه يدخلهم بجهادهم وإيمانهم في زمرة الصالحين.

(معنى «إِذَا لَوْذِي» هي الله جعل فتنة الناس كعذاب الله)

ثم أخبر عن حال الدّاخل في الإيمان بلا بصيرة، وأنه إذا أُوذِيَ في الله جعل فتنة الناس له كعذاب الله، وهي أذاهم له، ونيلهم إياه بالمكروه والألم الذي لا بد أن يناله الرسل وأتباعهم ممن خالفهم، جعل ذلك في فراره منهم، وتركه السبب الذي ناله، كعذاب الله الذي فرّ منه المؤمنون بالإيمان، فالؤمنون لكمال بصيرتهم فرّوا من ألم عذاب الله إلى الإيمان، وتحملوا ما فيه من الألم الزائل المُفارق عن قريب، وهذا لضعف بصيرته، فرّ من ألم عذاب أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم، فرّ من ألم

عذابهم إلى ألم عذاب الله، فجعل ألم فتنة الناس في الفرار منه بمنزلة ألم عذاب الله، وغَيَّبَ كُلَّ الْغَيْبِ إِذْ اسْتَجَارَ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ، وَفَرَّ مِنَ أَلَمِ سَاعَةِ إِلَى أَلَمِ الْأَبَدِ، وَإِذَا نَصَرَ اللَّهُ جُنْدَهُ وَأَوْلِيَاءَهُ، قَالَ: إِنِّي كُنْتُ مَعَكُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا انطوى عليه صدره من النفاق.

والمقصود: أن الله سبحانه اقتضت حكمته أنه لا بد أن يمتحن النفوس ويبتليها، فيظهر بالامتحان طيبها من خبيثها، ومن يصلح لموالاته وكراماته، ومن لا يصلح، وليُمحص النفوس التي تصلح له ويُخلصها بكبر الامتحان، كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو من غشه إلا بالامتحان، إذ النفس في الأصل جاهلة ظالمة، وقد حصل لها بالجهل والظلم من الخُبث ما يحتاج خروجه إلى السبك والتصفية، فإن خرج في هذه الدار، وإلا فني كير جهنم، فإذا هُذِبَ العبد ونُقِيَ، أُذِنَ له في دخول الجنة.

فصل

(ذكر السابقين إلى الإسلام وأبو بكر الصديق)

ولما دعا ﷺ إلى الله عزّ وجلّ، استجاب له عبّاد الله من كل قبيلة، فَكَانَ حَائِزَ قَصَبِ سَيِّقِهِمْ^(١) صِدِّيقُ الأمة، وأسبقها إلى الإسلام أبو بكر رضي الله عنه، فأزّره في دين الله، ودعا معه إلى الله على بصيرة، فاستجاب لأبي بكر: عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص.

(خديجة الكبرى)

وبادر إلى الاستجابة له ﷺ صِدِّيقَةُ النِّسَاءِ: خديجة بنت خويلد، وقامت بأعباء الصّدِّيقِيَّةِ، وقال لها: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي». فَقَالَتْ لَهُ: أَبَشِّرْ قَوْلَ اللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا [البخاري: ٣، وسلم: ٤٠٣] ثم استدلّت بما فيه من الصفات الفاضلة، والأخلاق والشميم، على أن من كان كذلك لا يخزي أبداً، فعلمت بكمال عقلها وفطرتها، أن الأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، والشميم الشريفة، تُنَاسِبُ أَشْكَالَهَا من كرامة الله، وتأييده، وإحسانه، ولا تُنَاسِبُ الْخِزْيَ والخِذْلَانِ، وإنما يُنَاسِبُ أَضْدَادُهَا، فمن رُجِبَ الله على أحسن الصفات وأحسن الأخلاق والأعمال إنما

(١) يقال: حاز قصب السبق، أي: استولى على الأمر.

يليقُ به كرامته وإتمام نعمته عليه، ومن رُكِّبه على أقيح الصفات وأَسْوَأَ الأخلاق والأعمال إنما يليقُ به ما يناسبها، وبهذا العقل والصدقية استحقَّت أن يُرْسَلَ إِلَيْهَا رُثْبًا بِالسَّلَامِ مِنْهُ مَعَ رَسُولَيْهِ جِبْرِيلَ وَمُحَمَّدٍ ﷺ [البخاري: ٢٨٢٠، ومسلم: ٦٢٧٣].

فصل

(علي بن أبي طالب)

ويادر إلى الإسلام عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه وكان ابنَ ثمان سنين، وقيل: أكثر من ذلك، وكان في كفالَةِ رسولِ الله ﷺ، أخذه من عمِّه أبي طالب إعانةً له في سَنَةِ مَحَلٍ.

(زيد بن حارثة و ورقة بن نوفل)

ويادر زيدُ بنُ حارثة جِب رسولِ الله ﷺ، وكان غُلاماً لخديجة، فوهبه لرسولِ الله ﷺ لما تزوّجها، وقَدِمَ أبوه وعُمُّه في فِدائه، فسألا عن النبي ﷺ فقيل: هو في المسجد، فدخلَا عليه، فقالا: يا ابنَ عبدِ المطلب، يا ابنَ هاشم، يا ابنَ سيِّدِ قومه، أنشُم أهلَ حَرَمِ الله وجيرانه، تفكُّونَ العاني وتطعمونَ الأسير، جئتُك في ابنتنا عندك، فامتنُ علينا، وأخسِن إلينا في فِدائه، قال: «ومن هو؟» قالوا: زيدُ بنُ حارثة، فقال رسولُ الله ﷺ: «فَهَلَّا غَيْرَ ذَلِكَ» قالوا: ما هو؟ قال: «أَدْعُوهُ فَأَخِيرْهُ، فَإِنِ اخْتَارَكُمْ، فَهُوَ لَكُمْ، وَإِنِ اخْتَارَنِي، فَوَاللَّهِ مَا أَنَا بِالَّذِي اخْتَارَ عَلَى مَنْ اخْتَارَنِي أَحَدًا» قالَا: قد رددتنا على النَّصْفِ، وأحسنْتَ، فدعاه فقال: «هل تعرفُ هؤلاء؟» قال: نعم، قال: «مَنْ هَؤُلَاءِ؟» قال: هذا أبي، وهذا عمي، قال: «فأنا من قد علمتَ رأيي، وعرفتَ صحبتي لك، فاخترني أو اخترهما» قال: ما أنا بالذي اختارَ عليك أحداً أبداً، أنت مني مكان الأب والعم، فقالا: ويحك يا زيد، أختارُ العبودية على الحرية، وعلى أبيك وعمك، وعلى أهل بيتك؟! قال: نعم، قد رأيتُ من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي اختارُ عليه أحداً أبداً، فلما رأى رسولُ الله ﷺ ذلك، أخرجه إلى الجحر، فقال: «أشهدُكم أن زَيْدًا ابني، يَرِثُنِي

وَارِثُهُ» فلما رأى ذلك أبوه وعُمُّه، طابت نفوسُهما، فانصرفا، ودعي زيدُ بن محمد، حتى جاء الله بالإسلام: فنزلت: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَكْبَارِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥] فَدْعِي من يَوْمئِذٍ زيدُ بن حارثة [البخاري: ٤٧٨٢، ومسلم: ٦٢٦٢]. قال معمر في «جامعه» عن الزهري: ما علمنا أحداً أسلم قبل زيد بن حارثة [عبد الرزاق (٥/ ٣٢٥)] وهو الذي أخبر الله عنه في كتابه أنه أنعم عليه، وأنعم عليه رسوله، وسماه باسمه. وأسلم القسُ ورقة بن نوفل، وتَمَنَّى أن يَكُونَ جَدَّعاً إِذْ يُخْرِجُ رسولُ الله ﷺ قَوْمَهُ [البخاري: ٢٣]، وفي «جامع الترمذي» أن رسولَ الله ﷺ رآه في المنام في هيئة حسنة، وفي حديث آخر: أنه رآه في ثياب بياض [الترمذي: ٢٢٨٩، وفي سننه ضعيف].

(بداية الأذى بمن أسلم)

ودخل الناسُ في الدين واحداً بعد واحد، وقرشٌ لا تُنْكِرُ ذلك، حتى بادأهم بعيبِ دينهم، وسبِّ آلِهِم، وأنها لا تَصُرُّ ولا تَتَفَعُّ، فحيثُ شَرُّوا له ولأصحابه عن سَاقِ العداوة، فحُمِيَ اللهُ رسولُهُ بعَمِّه أبي طالب، لأنه كان شريفاً معظماً في قرش، مُطَاعاً في أهله، وأهل مكة لا يتجاسرونَ على مُكاشفته بشيءٍ من الأذى.

وكان من حكمةِ أحكم الحاكمين بقاءه على دين قومه، لما في ذلك من المصالح التي تبدولمن تأملها. وأما أصحابه، فمن كان له عشيرةٌ تحميه، امتنع بعشيرته، وسافرهم تَصَدُّوا له بالأذى والعذاب، منهم عتار بن ياسر، وأُمُّهُ سَمِيَّةٌ، وأهلُ بيته، عُذِّبُوا في الله، وكان رسولُ الله ﷺ إذا مرَّ بهم وهم يُعَذِّبون يقول: «صَبْرًا يَا آلَ يَاسِرٍ، فَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْجَنَّةُ» [الطبراني في «الكبير» (٧٦٩/٢٤)، وابن هشام (١٧٨)].

ومنهم بلالُ بن رباح، فإنه عُذِّبَ في اللُّو أشدَّ العذاب، فهان على قومه، وهانت عليه نَفْسُهُ في اللُّو، وكان كلما اشتدَّ عليه العذاب يقول: أحدُ أحد، فيمرُّ به ورقة بن نوفل. فيقول: إي واللَّهِ يا بلال أحدُ أحد، أما واللَّهِ لئن قتلْتُمُوهُ، لأَتَّخِذَنَّهُ حَنَاناً^(١).

(١) الزبير بن بكار فيما ذكره الحافظ في «الإصابة» في ترجمة ورقة عن عثمان، وهو مرسل وعثمان ضعيف.

فصل

ولما اشتد أذى المشركين على من أسلم، وفُتِنَ منهم من فُتِنَ، حتى يقولوا لأحدهم: اللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، وحتى إن الجمل ليمر بهم، فيقولون: وهذا إلهك من دون الله، فيقول: نعم. ومرَّ عدو الله أبو جهل بسمية أم عمار بن ياسر، وهي تُعذَّب، وزوجها وابنها، فطعننها بحربة في فرجها حتى قتلها.

(شراء الصديق للعبيد المعدنين)

كان الصديق إذا مرَّ بأحد من العبيد يُعذَّب، اشتراه منهم، وأعتقه، منهم بلال، وعائز بن فهيرة، وأم عبيس، وزئيرة، والنهدية، وابنتها، وجارية لبني عدي كان عمر يُعذَّبها على الإسلام قبل إسلامه، وقال له أبوه: يا بني أراك تَعْتِقُ رِقَاباً ضِعَافاً، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت قوماً جُلُوداً يمتعونك، فقال له أبو بكر: إني أريد ما أريد.

(الهجرة الأولى إلى الحبشة)

وهل قدم ابن مسعود مكة من الهجرة الأولى إلى الحبشة) فلما اشتد البلاء، أذن الله سبحانه لهم بالهجرة الأولى إلى أرض الحبشة، وكان أول من هاجر إليها عثمان بن عفان، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وكان أهل هذه الهجرة الأولى اثني عشر رجلاً، وأربع نسوة: عثمان، وامراته، وأبو حذيفة، وامراته سهلة بنت سهيل، وأبو سلمة، وامراته أم سلمة هند بنت أبي أمية، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن مظعون، وعامر بن ربيعة، وامراته ليلي بنت أبي حنمة، وأبو سبرة بن أبي رهم، وحاطب بن عمرو، وسهيل بن وهب، وعبد الله بن مسعود. وخرجوا متسللين سراً، فوفق الله لهم ساعة وصولهم إلى الساحل سفينتين للتجار، فحملوهم فيهما إلى أرض الحبشة، وكان مخرجهم في رجب في السنة الخامسة من المبعث، وخرجت قريش في آثارهم حتى جاؤوا البحر، فلم يُدركوا منهم أحداً، ثم بلغهم أن قريشاً قد كفوا عن النبي ﷺ، فرجعوا، فلما كانوا دون مكة بساعة من نهار، بلغهم أن قريشاً أشد

ما كانوا عداوة لرسول الله ﷺ، فدخل من دخل بجوار، وفي تلك المرة دخل ابن مسعود، فسلم على النبي ﷺ وهو في الصلاة، فلم يرُدَّ عليه، فتعاطم ذلك على ابن مسعود، حتى قال له النبي ﷺ: إن الله قد أخذت من أمره أن لا تكلموا في الصلاة [ابو داود: ٩٢٤، ودواء بلفظ آخر البخاري: ١١٩٩، ومسلم: ١٢٠١] هذا هو الصواب، وزعم ابن سعد وجماعة أن ابن مسعود لم يدخل، وأنه رجع إلى الحبشة حتى قديم في المرة الثانية إلى المدينة مع من قديم، وزد هذا بأن ابن مسعود شهد بدرًا، وأجهز على أبي جهل، وأصحاب هذه الهجرة إنما قديموا المدينة مع جعفر بن أبي طالب وأصحابه بعد بدر بأربع سنين أو خمس.

قالوا: فإن قيل: بل هذا الذي ذكره ابن سعد يوافق قول زيد بن أرقم: «كنا نتكلم في الصلاة، يكلم الرجل صاحبه، وهو إلى جنبه في الصلاة حتى نزلت: ﴿وَقَوْمُوا لِقَوْمِ قَيْنِي﴾» [البقرة: ٢٣٨] فأمرنا بالسكوت، ونهينا عن الكلام [البخاري: ١٢٠٠، ومسلم: ١٢٠٣]، وزيد بن أرقم من الأنصار، والشورة مدنية، وحينئذ فابن مسعود سلم عليه لما قدم وهو في الصلاة، فلم يرُدَّ عليه حتى سلم، وأعلمه بتحريم الكلام، فاتفق حديثه وحديث ابن أرقم.

قيل: يُبطل هذا شهود ابن مسعود بدرًا، وأهل الهجرة الثانية إنما قديموا عام خيبر مع جعفر وأصحابه، ولو كان ابن مسعود ممن قديم قبل بدر، لكان لقدمه ذكر، ولم يذكر أحد قدوم مهاجري الحبشة إلا في القدمة الأولى بمكة، والثانية عام خيبر مع جعفر، فمتى قدم ابن مسعود في غير هاتين المرتين ومع من؟ وينحو الذي قلنا في ذلك قال ابن إسحاق، قال: وبلغ أصحاب رسول الله ﷺ الذين خرجوا إلى الحبشة إسلام أهل مكة، فأقبلوا لما بلغهم من ذلك، حتى إذا دنوا من مكة، بلغهم أن إسلام أهل مكة كان باطلاً، فلم يدخل منهم أحد إلا بجوار، أو مستخفياً. فكان ممن قدم منهم، فأقام بها حتى هاجر إلى المدينة، فشهد بدرًا وأخذ فذكر منهم عبد الله بن مسعود.

فإن قيل: فما تصنعون بحديث زيد بن أرقم؟ قيل: قد أجيب عنه بجوابين، أحدهما: أن يكون النهي عنه

قد ثبت بمكة، ثم أُذِنَ فيه بالمدينة، ثم نُهي عنه. والثاني: أن زيد بن أرقم كان من صفار الصحابة، وكان هو وجماعة يتكلمون في الصلاة على عاداتهم، ولم يبلغهم النهي، فلما بلغهم انتهوا، وزيد لم يُخبر عن جماعة المسلمين كُلِّهم بأنهم كانوا يتكلمون في الصلاة إلى حين نزول هذه الآية، ولو قُدِّرَ أنه أخبر بذلك لكان وهماً منه.

(الهجرة الثانية إلى الحبشة)

ثم اشتد البلاء بين قريش على من قَدِمَ من مهاجري الحبشة وغيرهم، وسطت بهم عشائرهم، ولَقُوا منهم أذى شديداً، فأذِنَ لهم رسولُ الله ﷺ في الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية، وكان خروجهم الثاني أشقَّ عليهم وأصعبَ، ولَقُوا من قريش تعنيفاً شديداً، ونالوهم بالأذى، وصُئِبَ عليهم ما بلغهم عن النجاشي من حسن جواره لهم، وكان عِدَّةٌ من خرج في هذه المرة ثلاثة وثمانين رجلاً، إن كان فيهم عمار بن ياسر، فإنه يُشك فيهِ، قاله ابن إسحاق، ومن النساء تسع عشرة امرأة.

قلت: قد ذُكِرَ في هذه الهجرة الثانية عثمان بن عفان وجماعة ممن شهد بدرأ، فإما أن يكونَ هذا وهماً، وإما أن يكونَ لهم قَدَمَةٌ أخرى قبل بدر، فيكونَ لهم ثلاث قدمات: قَدَمَةٌ قبل الهجرة، وقَدَمَةٌ قبل بدر، وقَدَمَةٌ عامٍ خبير، ولذلك قال ابنُ سعد وغيره: إنهم لما سَمِعُوا مهاجرَ رسولِ الله ﷺ إلى المدينة، رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلاً، ومن النساء ثمان نسوة، فمات منهم رجلان بمكة، وحُيِسَ بمكة سبعة، وشَهِدَ بدرأ منهم أربعة وعشرون رجلاً.

فلما كان شهر ربيع الأول سنة سبع من هجرة رسولِ الله ﷺ إلى المدينة، كتبَ رسولُ الله ﷺ كتاباً إلى النجاشي يدعوهُ إلى الإسلام، وبعث به مع عمرو بن أمية الضمري، فلما قُرئَ عليه الكتابُ،

أسلم، وقال: لَئِنْ قَدَرْتُ أَنْ آتِيَهُ لَا يَتِيَهُ^(١).

وكتب إليه أن يُزَوِّجَهُ أُمَ حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ، وكانت فيمن هاجرَ إلى أرضِ الحبشة مع زوجها عُبيد الله بن جحش، فتَنَصَّرَ هُنَاكَ ومات، فزَوَّجَهُ النجاشي إياها، وأصدقها عنه أربعمئة دينار، وكان الذي وَلِيَ تزويجها خالد بن سعيد بن العاص^(٢).

وكتب إليه رسولُ الله ﷺ أن يَبْعَثَ إليه مَنْ بَقِيَ عِنْدَهُ من أصحابه، ويَحْمِلَهُمْ، ففعل، وحملهم في سفينتين مع عمرو بن أمية الضمري، فَقَدِمُوا على رسولِ الله ﷺ بِخَيْبَرَ، فوجدوه قد فَتَحَهَا، فَكَلَّمَ رسولُ الله ﷺ المُسْلِمِينَ أن يُدْخِلُوهُمْ فِي سِيَاهِمُ، فَفَعَلُوا [البخاري: ٤٢٣٠، ومسلم: ٦٤١٠-٦٤١١].

وعلى هذا فيزول الإشكال الذي بينَ حديثِ ابنِ مسعود وزيد بن أرقم، ويكون ابنُ مسعود قَدِمَ في المرة الوسطى بعد الهجرة قبل بدر إلى المدينة، وسلم عليه حينئذ، فلم يردَّ عليه، وكان العهدُ حديثاً بتحريم الكلام، كما قال زيد بن أرقم، ويكون تحريمُ الكلام بالمدينة، لا بمكة، وهذا أنسبُ بالنسخ الذي وقع في الصلاة والتغيير بعد الهجرة، كجعلها أربعاً بعد أن كانت ركعتين، ووجوب الاجتماع لها.

فإن قيل: ما أحسنه من جمع وأثبته لولا أن محمد بن إسحاق قد قال ما حكَيْتُمُ عنه أن ابن مسعود أقام بمكة بعد رجوعه من الحبشة حتى هاجر إلى المدينة، وشهد بدرأ، وهذا يدفع ما ذكر.

قيل: إن كان محمد بن إسحاق قد قال هذا، فقد قال محمد بن سعد في «طبقاته»: إن ابن مسعود مكث يسيراً بعد مقدمه، ثم رجع إلى أرض الحبشة، وهذا هو الأظهر، لأن ابن مسعود لم يكن له بمكة من يحميه، وما حكاه ابنُ سعد قد تضمن زيادة أمر خفي على ابنِ إسحاق، وابنُ إسحاق لم يذكر من حدثه، ومحمد بن سعد أسند ما حكاه إلى المطلب بن

(١) ابن سعد (٩٨/٨)، عن الواقدي، وهو ضعيف، وإسلام النجاشي ثابت لأنه ﷺ صلى عليه صلاة الغائب كما في البخاري (١٣٣٤)، ومسلم (٢٢٠٧)، وقال: «مات اليوم عبد لله صالح: أصحمة».

(٢) ابن سعد (٩٧/٨) عن الواقدي، وهو ضعيف، لكن أخرجه أبو داود (٢٠٨٦) ورقم (٢١٠٧)، والنسائي (١١٩/٦) عن أم حبيبة «أنها كانت تحت حبيد الله بن جحش، فمات بأرض الحبشة، فزوجها النجاشي النبي ﷺ وأمهرها أربعة آلاف، وبعث بها إلى رسول الله ﷺ مع شرحبيل بن حسنة».

عبد الله بن حنطب، فاتفقت الأحاديث، وصدق بعضها بعضاً، وزال عنها الإشكال، والله الحمد والمنة.

فصل

(مقاطعة قريش لبني هاشم وبني المطلب)

ثم أسلم حمزة عمه وجماعة كثيرون، وفشا الإسلام، فلما رأت قريش أمر رسول الله ﷺ يعلو، والأمور تتزايد، أجمعوا على أن يتعاهدوا على بني هاشم، وبني المطلب، وبني عبد مناف، أن لا يُبايعوهم، ولا يُنايحوهم، ولا يُكلموهم، ولا يُجالسُوهم، حتى يُسلموا إليهم رسول الله ﷺ، وكتبوا بذلك صحيفة، وعلقوها في سقف الكعبة، يقال: كتبها منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم، ويقال: النضر بن الحارث، والصحيح: أنه بنيف بن عامر بن هاشم فدعا عليه رسول الله ﷺ، فشئت يده، فانهاز بنو هاشم وبني المطلب مؤمنهم وكافرهم، إلا أبا لهب، فإنه ظاهر قريشاً على رسول الله ﷺ وبني هاشم، وبني المطلب، وحُجِسَ رسول الله ﷺ ومَن معه في الشعب شغب أبي طالب لئلا يهلا بالمحرم، سنة سبع من البعثة، وعلقت الصحيفة في جوف الكعبة، وثقوا محبوسين ومحصورين، مضيقاً عليهم جداً، مقطوعاً عنهم الميرة والمادة، نحو ثلاث سنين، حتى بلغهم الجهد، وسمع أصوات صبيانهم بالبكاء من وراء الشعب، وهناك عَمِلَ أبو طالب قصيدته اللامية المشهورة أولها:

جَزَى اللَّهُ عَنَّا عَيْدَ شَمْسٍ وَنَوْفَلًا
عُقُوبَةَ شَرِّ عَاجِلٍ غَيْرِ آجِلٍ

[ابن هشام (١٥٤)]

(نقض الصحيفة)

وكانت قريش في ذلك بين راضٍ وكاره، فسمى في نقض الصحيفة من كان كارهاً لها، وكان القائم بذلك هشام بن عمرو بن الحارث بن حبيب بن نصر بن مالك، مشى في ذلك إلى المظلم بن عدي وجماعة من قريش، فأجابوه إلى ذلك، ثم أطلق الله رسوله على أمر صحيفتهم، وأنه أرسل عليها الأرضة فأكلت جميع ما فيها من جورٍ وقطيعةٍ وظلم، إلا ذكر الله عز وجل، فأخبر بذلك عمه، فخرج إلى قريش فأخبرهم أن ابن أخيه قد قال كذا وكذا، فإن كان كاذباً خَلَيْنَا بينكم وبينه، وإن كان صادقاً، رجعتُ عن قطيعتنا وظلمنا، قالوا: قد أنصفت، فأنزلوا

وقد ذكر ابن إسحاق في هذه الهجرة إلى الحبشة أبا موسى الأشعري عبد الله بن قيس، وقد أنكر عليه ذلك أهل السَّيَر، منهم محمد بن عمر الواقدي وغيره، وقالوا: كيف يخفى ذلك على ابن إسحاق أو على من دونه؟

قلت: وليس ذلك مما يخفى على من دون محمد بن إسحاق فضلاً عنه، وإنما نشأ الوهم أن أبا موسى هاجر من اليمن إلى أرض الحبشة إلى عند جعفر وأصحابه لما سمع بهم، ثم قَدِمَ معهم إلى رسول الله ﷺ بخير، كما جاء مصرحاً به في «الصحيح» فعَدَ ذلك ابن إسحاق لأبي موسى هجرة، ولم يقل: إنه هاجر من مكة إلى أرض الحبشة لينكر عليه.

فصل

(محاولة المشركين رد النجاشي المهاجرين)

فانهاز المهاجرون إلى مملكة أصحمة النجاشي آيين، فلما عَلِمَتْ قريش بذلك، بعثت في أثرهم عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، بهدايا وتُخَفٍ من بلدهم إلى النجاشي ليرُدَّهُم عليهم، فأبى ذلك عليهم، وَشَفَعُوا إليه بعظماء بطارقتة، فلم يجبهم إلى ما طلبوا، فَوَسَّوْا إليه: إن هؤلاء يقولون في عيسى قولاً عظيماً، يقولون: إنه عبد الله، فاستدعى المهاجرين إلى مجلسه، ومَقَدَّمَهُم جعفر بن أبي طالب، فلما أرادوا الدخول عليه، قال جعفر: يستأذن عليك جزب الله، فقال للأذن: قل له يُعِيد استئذانه، فأعاده عليه، فلما دخلوا عليه قال: ما تقولون في عيسى؟ فتلا عليه جعفر صدرًا من سورة (كهيعص) فأخذ النجاشي عُوداً من الأرض فقال: ما زاد عيسى عَلى هذا ولا هذا العود، فتناخرت بطارقتة عنده، فقال: وإن نخرتم، قال: اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي، من سيحكم غُرم. والسيوم: الآمنون في لسانهم، ثم قال للرسولين: لو أعطيتُموني دَبْرًا من ذهب، يقول: جلاً من ذهب، ما أسلمتهم إليكما، ثم أمر قُرُودَتَ عليهما هدايأهما، ورجعا مقبوحين [صحيح: أحمد: ١٧٤٠].

الصَّحِيفَةُ، فلما رأوا الأمر كما أخبر به رسول الله ﷺ، ازدادوا كُفْرًا إلى كُفْرهم، وخرج رسول الله ﷺ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الشَّعْبِ [ابن هشام (٢٠٩ - ٢١٠)]. قال ابن عبد البر: بعد عشرة أعوام من المبعث، ومات أبو طالب بعد ذلك بستة أشهر، وماتت خديجة بعده بثلاثة أيام، وقيل: غير ذلك.

فصل

(الخروج إلى الطائف)

فلما نُفِضَتِ الصحيفة وافق موت أبي طالب وموت خديجة، وبينهما يسير، فاشتد البلاء على رسول الله ﷺ من سفهاء قومه، وتجرؤوا عليه، فكاشفوه بالأذى، فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف رجاء أن يؤروه وينصروه على قومه، ويمنعوه منهم، ودعاهم إلى الله عز وجل فلم يرَ من يؤوي، ولم يرَ ناصرًا، وآذوه مع ذلك أشدَّ الأذى، ونالوا منه ما لم ينله قومه، وكان معه زيد بن حارثة مولاه، فأقام بينهم عشرة أيام لا يدع أخذًا من أشرفهم إلا جاءه وكلمه، فقالوا: اخرج من بلدنا، وأغزوا به سفهاءهم، فوقفوا له سباطين، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى دُمِيت قدامه، وزيد بن حارثة يقيه نفسه حتى أصابه شجاج في رأسه، فانصرف راجعًا من الطائف إلى مكة محزونًا، وفي مرجعه ذلك دعا بالدعاء المشهور دعاء الطائف: «اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ جِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعِفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكَلَّنِي، إِلَيَّ بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟ أَوْ إِلَى عَدُوِّ مَلِكْتُهُ أُمْرِي، إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلَا أَبَالِي، غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَنْ يَجْلَّ عَلَيَّ غَضَبُكَ، أَوْ أَنْ يَنْزِلَ بِي سَخَطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ» [ابن هشام (٢٣٥)].

فأرسل ربه تبارك وتعالى إليه مَلَكَ الْجِبَالِ،

يَسْتَأْمِرُهُ أَنْ يُطْلِقَ الْأَخْشَبِينَ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ، وَمَهْمَا جَبَلَاها اللَّذَانِ هُمَا بَيْنَهُمَا، فَقَالَ: «لَا، بَلْ أَسْتَأْنِي بِهِمْ لَعَلَّ اللَّهَ يُخْرِجُ مِنْ أَضْلَالِهِمْ مَنْ يَعْبُدُهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» [البخاري: ٣٧٣١، ومسلم: ٤٦٥٣].

(استماع الجن لقراءته ﷺ)

فلما نزل بنخلة مَرَجَعَهُ، قام يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ، فَصُرِفَ إِلَيْهِ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ، فَاسْتَمَعُوا قِرَاءَتَهُ، وَلَمْ يَشْعُرْ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى نَزَلَ عَلَيْهِ: «وَاذْكُرْ قَوْمًا أَنْصَرُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْ أَنَّ قَوْمَهُمْ مُنْذِرِينَ» قَالُوا يَقُومُونَ إِنَّا سَمِعْنَا كَقَوْلِ أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مَوْعَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ذَلِكَ طَهُوٌ مُسْتَقِيمٌ يَقُومُونَ لِيُبَيِّنُوا دَعَايَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ لَهُمْ يَفْقَرُ لَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ وَلِيُخْرِجَكُمْ مِنْ عَذَابِ آلِيهِ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَعَايَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي سَلَاطِنٍ لِيَبَيِّنَ

(الاحقاف: ٢٩ - ٣٢) (١).

وأقام بنخلة أيامًا، فقال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم، وقد أخرجوك؟ يعني قريشًا، فقال: «يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجًا ومخرجًا، وأن الله ناصر دينه ومظهر نبيه».

(دخوله ﷺ مكة بجوار المطعم)

ثم انتهى إلى مكة فأرسل رجلًا من خزاعة إلى مطعم بن عدي: أَدْخُلْ فِي جِوَارِكٍ؟ فقال: نعم، ودعا بنوه وقومه، فقال: الْبِسُوا السَّلَاحَ، وَكُونُوا عِنْدَ أَرْكَانِ الْبَيْتِ، فَإِنِّي قَدْ أَجَرْتُ مُحَمَّدًا، فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ومعه زيد بن حارثة، حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام المطعم بن عدي على راحلته، فنادى: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشِ إِنِّي قَدْ أَجَرْتُ مُحَمَّدًا، فَلَا يَهْجُهُ أَحَدٌ مِنْكُمْ، فأنتهى رسول الله ﷺ إلى الرُّكْنِ، فاستلمه، وصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته، والمطعم بن عدي وولده محلقون به بالسلاح حتى دخل بيته [ابن كثير في «السيرة» (١٥٣/٢ - ١٥٤)].

(١) تابع المؤلف رحمه الله ابن إسحاق في كون استماع الجن للقرآن كان تلك الليلة مرجعه من الطائف، وفيه نظر، فإن استماعهم كان في ابتداء المبعث قبل خروجه ﷺ إلى الطائف بستتين، نه على ذلك الحافظ ابن كثير في تفسيره (١٦٢/٤)، وانظر مارواه البخاري (٤٩٢١)، ومسلم (١٠٠٦).

فصل

(الإسراء)

ثم أسري برسول الله ﷺ بجسده على الصحيح، من المسجد الحرام إلى بيت المقدس، ركباً على البراق، صُحبة جبريل عليهما الصلاة والسلام، فنزل هناك، وصلى بالأنبياء إماماً [سلم: ٤١١ - ٤٣٠] وربط البراق بحلقة باب المسجد.

وقد قيل: إنه نزل ببيت لحم، وصلى فيه، ولم يصح ذلك عنه البتة.

(المعراج)

ثم عرج به تلك الليلة من بيت المقدس إلى السماء الدنيا، فاستفتح له جبريل، ففتح له، فرأى هنالك آدم أباً البشر، فسلم عليه، فرد عليه السلام، ورحب به، وأقر بنبوته، وأراه الله أرواح السعداء عن يمينه، وأرواح الأشقياء عن يساره، ثم عرج به إلى السماء الثانية، فاستفتح له، فرأى فيها يحيى بن زكريا وعيسى ابن مريم، فلقيهما وسلم عليهما، فردا عليه، ورحباً به، وأقرأ بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الثالثة، فرأى فيها يوسف، فسلم عليه، فرد عليه، ورحب به، وأقر بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الرابعة، فرأى فيها إدريس. فسلم عليه، ورحب به، وأقر بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الخامسة، فرأى فيها هارون بن عمران، فسلم عليه ورحب به، وأقر بنبوته، ثم عرج به إلى السماء السادسة، فلقي فيها موسى بن عمران، فسلم عليه ورحب به، وأقر بنبوته، فلما جاوزه، بكى موسى، فقيل له، ما يبكيك؟ فقال: أبكي، لأن غلاماً بيث من بغدي، يذخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي، ثم عرج به إلى السماء السابعة، فلقي فيها إبراهيم، فسلم عليه ورحب به، وأقر بنبوته، ثم رفع إلى سدة الشهى، ثم رفع له البيت المعمور، ثم عرج به إلى الجبار جل جلاله، فذنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى [البخاري: ٧٥١٧] فأوحى إلى عبيده ما أوحى، وقرض عليه خمسين صلاة. فرجع حتى مر على موسى، فقال له: بم أمرت؟ قال: بخمسين صلاة،

قال: إن أمتك لا تطيق ذلك، ارجع إلى ربك، فاسأله التخفيف لأمتك، فالتفت إلى جبريل كأنه يستشير في ذلك، فأشار أن نعم إن شئت، فعلا به جبريل حتى أتى به الجبار تبارك وتعالى، وهو في مكانه. هذا لفظ البخاري في بعض الطرق، فوضع عنه عشرًا، ثم أنزل حتى مر بموسى، فأخبره فقال: ارجع إلى ربك، فاسأله التخفيف، فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل حتى جعلها خمسين، فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف، فقال: قد استحييت من ربي، ولكن أرضى وأسلم فلما بعد نادى مناد: قد أمضيت قريضتي، وحققت عن عبادي [البخاري: ٣٢٠٧، وسلم: ٤١٦].

(هل رأى ﷺ ربه ليلة المعراج)

واختلف الصحابة: هل رأى ربه تلك الليلة، أم لا؟ فصح عن ابن عباس أنه رأى ربه، وصح عنه أنه قال: رآه بقواؤه [سلم: ٤٣٦ - ٤٣٧].

وصح عن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك، وقالوا: إن قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ عند سدة الشهى [التجيم: ١٣] إنما هو جبريل [البخاري: ٤٨٥٥، وسلم: ٤٣٩، من عائشة، والبخاري: ٤٨٥٦، وسلم: ٤٣٧، من ابن مسعود].

وصح عن أبي ذر أنه سأله: هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أنى أراه» أي: حال بيني وبين رؤيته النور كما قال في لفظ آخر: «رأيت نوراً» [سلم: ٤٤٣ - ٤٤٤].

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على أنه لم يره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: وليس قول ابن عباس: «إنه رآه» مناقضاً لهذا، ولا قوله: «رآه بقواؤه» وقد صح عنه أنه قال: «رأيت ربي تبارك وتعالى» [صحیح: أحمد: ٣٤٨٤، والترمذي: ٣٢٣١] ولكن لم يكن هذا في الإسراء، ولكن كان في المدينة لما احتبس عنهم في صلاة الصبح، ثم أخبرهم عن رؤية ربه تبارك وتعالى تلك الليلة في منامه، وعلى هذا بنى الإمام أحمد رحمه الله تعالى، وقال: نعم رآه حقاً، فإن روى الأنبياء حق، ولا بد، ولكن لم يقل أحمد رحمه الله تعالى: إنه رآه بعيني رأيه يقظة، ومن حكى عنه ذلك، فقد وهم عليه، ولكن قال مرة:

رأه، ومرة قال: رآه بفؤاده فحكيت عنه روايتان، وحكيت عنه الثالثة من تصرف بعض أصحابه: أنه رآه بعيني رأسه، وهذه نصوص أحمد موجودة، ليس فيها ذلك.

وأما قول ابن عباس: أنه رآه بفؤاديه مرتين، فإن كان استناذه إلى قوله تعالى: ﴿مَا كُتِبَ الْفَوَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١] ثم قال: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: ١٣] والظاهر أنه مستنده، فقد صح عنه عليه السلام أن هذا المرئي جبريل، رآه مرتين في صورته التي خلق عليها، وقول ابن عباس هذا هو مُسْتَنَدُ الإمام أحمد في قوله: رآه بفؤاده، والله أعلم.

وأما قوله تعالى في سورة النجم: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: ٨] فهو غير الدنو والتدلي في قصة الإسراء، فإن الذي في (سورة النجم) هو دنو جبريل وتدليه، كما قالت عائشة وابن مسعود، والسياق يدل عليه، فإنه قال: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥] وهو جبريل ﴿ذُو يَرَقٍ فَاسْتَوَى﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: ٦ - ٨]، فالضمائر كلها راجعة إلى هذا المعلم الشديد القوى، وهو ذو الميرة، أي: القوة، وهو الذي استوى بالأفق الأعلى، وهو الذي دنى فتدلى، فكان من محمد عليه السلام قلر قوسين أو أدنى، فأما الدنو والتدلي الذي في حديث الإسراء، فذلك صريح في أنه دنو الرب تبارك وتدليه^(١) ولا تعرض في (سورة النجم) لذلك، بل فيها أنه رآه نزلة أخرى عند سيدة المنتهى، وهذا هو جبريل، رآه محمد عليه السلام على صورته مرتين: مرة في الأرض، ومرة عند سيدة المنتهى، والله أعلم.

فصل

(إخباره عليه السلام لعريش بالإسراء)

فلما أصبح رسول الله عليه السلام في قومه، أخبرهم بما أراه الله عز وجل من آياته الكبرى، فاشتد تكذيبهم له، وأذاهم وضراوتهم عليه، وسألوه أن يصِفَ لهم بَيِّنَاتِ الْمَقْدِسِ، فبجأه الله له حتى عاينته، فطَفِقَ يُخَبِّرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَرُدُّوا عَلَيْهِ شَيْئًا [البخاري: ٤٧١٠، ومسلم: ٤٢٨].

وأخبرهم عن غيرهم في مسرأه ورجوعه، وأخبرهم عن وقت قدومها وأخبرهم عن البعير الذي يقدّمها، وكان الأمر كما قال الحسن: أحمد: [٣٥٤٦]، فلم يَرِدْهُمْ ذلك إلا نفورا، وأبى الظالمون إلا كفورا.

فصل

(الفرق بين من قال:

كان الإسراء بالروح وبين من قال: كان مناما)

وقد نقل ابن إسحاق عن عائشة ومعوية أنهما قالا: إنما كان الإسراء بروحه، ولم يفقد جسده، ونقل عن الحسن البصري نحو ذلك، ولكن ينبغي أن يعلم الفرق بين أن يقال: كان الإسراء مناماً، وبين أن يقال: كان بروحه دون جسده، وبينهما فرق عظيم، وعائشة ومعوية لم يقلوا: كان مناماً، وإنما قالا: أُسْرِيَ بِرُوحِهِ وَلَمْ يَفْقَدْ جَسَدَهُ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، فَإِنْ مَا يَرَاهُ النَّائِمُ قَدْ يَكُونُ أَمْثَالاً مُضْرُوبَةً لِلْمَعْلُومِ فِي الصُّورِ الْمَحْسُوسَةِ، فَيَرَى كَأَنَّهُ قَدْ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، أَوْ ذَهَبَ بِهِ إِلَى مَكَّةَ وَأَقْطَارِ الْأَرْضِ، وَرُوحُهُ لَمْ تَصْعَدْ وَلَمْ تَذْهَبْ، وَإِنَّمَا مَلَكُ الرُّوْحِ ضَرَبَ لَهُ الْيَمَالَ، وَالَّذِينَ قَالُوا: عُرِجَ بِرَسُولِ اللَّهِ عليه السلام طائفتان: طائفة قالت: عُرِجَ بِرُوحِهِ وَبَدَنِهِ، وطائفة قالت: عُرِجَ بِرُوحِهِ وَلَمْ يَفْقَدْ بَدَنَهُ، وهؤلاء لم يريدوا أن المعراج كان مناماً، وإنما أرادوا أن الروح ذاتها أُسْرِيَ بها، وعُرِجَ بِهَا حَقِيقَةً، وباشرت من جنس ما تُبَاثِرُ بعد المفارقة، وكان حالها في ذلك كحالها بعد المفارقة في صعودها إلى السماوات سماء سماء حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة، فَتَقِفُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فيأمر فيها بما يشاء، ثم تنزل إلى الأرض والذي كان لرسول الله عليه السلام ليلة الإسراء أكمل مما يحصل للروح عند المفارقة.

ومعلوم أن هذا أمر فوق ما يراه النائم، لكن لما كان رسول الله عليه السلام في مقام خَرْقِ الْعَوَائِدِ، حتى شُقَّ بطنه، وهو حي لا يتألم بذلك، عُرِجَ بِذَاتِ رُوحِهِ الْمُقَدَّسَةِ حَقِيقَةً مِنْ غَيْرِ إِمَاتَةٍ، وَمِنْ سِوَاهُ لَا يَنَالُ بِذَاتِ رُوحِهِ الصُّعُودَ إِلَى السَّمَاءِ إِلَّا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْمُفَارَقَةِ، فالأنبياء إنما استقرت أرواحهم هناك بعد

(١) هذا مما تفرد به شريك، فوهم فيه.

مفارقة الأبدان، وروح رسول الله ﷺ صعدت إلى هناك في حال الحياة ثم عادت، وبعد وفاته استقرت في الرفيق الأعلى مع أرواح الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ومع هذا، فلها إشراف على البدن وإشراف وتعلق به، بحيث يرُد السلام على من سلم عليه [حسن: أحمد: ١٠٨١٥، وأبو داود: ٢٠٤١] وبهذا التعلق رأى موسى قائماً يُصَلِّي في قبره، ورآه في السماء السادسة. ومعلوم أنه لم يُعْرَج بموسى من قبره، ثم رُدَّ إليه، وإنما ذلك مقام رُوحه واستقرارها، وقبره مقام بدنه واستقراره إلى يوم معاد الأرواح إلى أجسادها، فرآه يُصَلِّي في قبره، ورآه في السماء السادسة، كما أنه ﷺ في أرفع مكان في الرفيق الأعلى مستقراً هناك، وبدنه في ضريحه غير مفقود، وإذا سلم عليه المسلم رُدَّ الله عليه روحه حتى يرُدَّ عليه السلام، ولم يفارق الملا الأعلى، ومن كثفت إدراكه، وغلظت طباعه عن إدراك هذا، فليَنظُرْ إلى الشمس في علو محلها، وتعلقها، وتأثيرها في الأرض، وحياة النبات والحيوان بها، هذا وشأن الروح فوق هذا، فلها شأن، وللأبدان شأن، وهذه النار تكون في محلها، وحرارتها تؤثر في الجسم البعيد عنها، مع أن الارتباط والتعلق الذي بين الروح والبدن أقوى وأكمل من ذلك وأتم، فشان الروح أعلى من ذلك والطف.

قُلْ لِلْعَالَمِينَ الرَّحْمَةُ إِنَّكَ أَنْ تَرَى

سَنَا الشَّمْسِ قَاسَتْغِي فَلَامَ اللَّيَالِيَا

فصل

(الصحيح ان الإسراء كان مرة)

قال موسى بن عتبة عن الزهري: عُرِجَ بِرُوحِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ وَإِلَى السَّمَاءِ قَبْلَ خُرُوجِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ بَسَنَةً. وقال ابن عبد البر وغيره: كان بين الإسراء والهجرة سنة وشهران انتهى.

وكان الإسراء مرة واحدة. وقيل: مرتين: مرة يقظة، ومرة مناماً، وأرباب هذا القول كأنهم أرادوا أن يجمعوا بين حديث شريك، وقوله: ثم استيقظت، وبين سائر الروايات، ومنهم من قال: بل كان هذا مرتين، مرة قبل الوحي لقوله في حديث شريك: «وذلك قبل أن يوحى إليه» ومرة بعد الوحي، كما

دلَّت عليه سائر الأحاديث، ومنهم من قال: بل ثلاث مرات: مرة قبل الوحي، ومرتين بعده، وكل هذا خبط، وهذه طريقة ضعفاء الظاهرية من أرباب النقل الذين إذا رأوا في القصة لفظة تُخَالِفُ سياقَ بعض الروايات، جعلوه مرة أخرى، فكلما اختلفت عليهم الروايات، عدلوا الوقائع، والصواب الذي عليه أئمة النقل أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة بعد البعثة.

ويا عجباً لهؤلاء الذين زعموا أنه مرار، كيف ساء لهم أن يظنوا أنه في كل مرة تُفرض عليه الصلاة خمسين، ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى تصير خمسيناً، ثم يقول: «أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَفْتُ عَنْ عِبَادِي» ثم يعيدها في المرة الثانية إلى خمسين، ثم يحطها عشراً عشراً؟ وقد غلط الحفاظ شريكاً في الفاظ من حديث الإسراء [ابن حجر في «الفتح» (٤٠٤/١٣)، (٤٠٥)] ومسلم أورد المسند منه ثم قال: فقدم وأخر وزاد ونقص، ولم يسرد الحديث، فأجاد رحمه الله.

فصل

في مبدأ الهجرة التي فُرِّقَ اللَّهُ فيها بين أوليائه وأعدائه، وجعلها مبدأ لإعزاز دينه ونصر عبده ورُسُوله:

(دعوته ﷺ القبائل)

قال الواقدي: حدثني محمد بن صالح، عن عاصم بن عمر بن قتادة ويزيد بن رومان وغيرهما قالوا: أقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاث سنين من أول نبوته مُستخفياً، ثم أعلن في الرابعة، فدعا الناس إلى الإسلام عشر سنين، يوافي الموسم كل عام، يتبع الحاج في منازلهم، وفي المواسم بمكاه، ومكة، وذو المجاز، يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربهم ولهم الجنة، فلا يجد أحداً ينصره ولا يجيبه، حتى إنه ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة، ويقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَقْلِبُوا، وَتَمْلِكُوا بِهَا الْعَرَبَ، وَتَذِلْ لَكُمْ بِهَا الْعَجَمَ، فَإِذَا آمَنْتُمْ، كُنْتُمْ مُلُوكاً فِي الْجَنَّةِ» وأبو لهب وراءه يقول: لا تُطِيعُوهُ فَإِنَّهُ صَائِرٌ كَذَّابٌ، فيردون على رسول الله ﷺ أقبح الرد، ويؤذونه، ويقولون: أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك، وهو يدعوهم إلى الله، ويقول: «اللَّهُمَّ لَوْ شِئْتَ لَمْ يَكُونُوا

الإسلام، فلما كان العام المقبل، جاء منهم اثنا عشر رجلاً، الستة الأول خلا جابر بن عبد الله، ومعهم معاذ بن الحارث بن رفاعه أخو عوف المتقدم، وذكوان بن عبد القيس، وقد أقام ذكوان بمكة حتى هاجر إلى المدينة، فيقال: إنه مهاجري أنصاري، وعبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة، وأبو الهيثم بن التيهان وعويمر بن مالك هم اثنا عشر.

وقال أبو الزبير: عن جابر إن النبي ﷺ لَبِثَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يَتَّبِعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ فِي الْمَوَاسِمِ، وَمَجَنَّةً، وَعُكَاظَ، يَقُولُ: «مَنْ يَأْوِيَنِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي؟ حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَاتِ رَبِّي، وَلَهُ الْجَنَّةُ، فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَنْصُرُهُ وَلَا يُؤْوِيهِ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَرْحَلُ مِنْ مَضَرٍّ أَوْ الْيَمَنِ إِلَى ذِي رَجِيهِ، فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ يَقُولُونَ لَهُ: «اخْذِرْ غَلَامَ قُرَيْشٍ لَا يَفْتَنُكَ، وَيَمْنَحِي بَيْنَ رَجَالِهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُمْ يَشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ، حَتَّى بَعَثْنَا اللَّهُ مِنْ يَثْرِبَ، فَيَأْتِيهِ الرَّجُلُ مِمَّا قَبِوْا بِهِ وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ، فَيُسَلِّمُونَ بِإِسْلَامِهِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ، وَبَعَثْنَا اللَّهُ إِلَيْهِ، فَأَتَمَرْنَا وَاجْتَمَعْنَا وَقُلْنَا: حَتَّى مَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ؟ فَرَحَلْنَا حَتَّى قَدِمْنَا عَلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ، فَوَاعَدَنَا بَيْعَةَ الْعَقَبَةِ، فَقَالَ لَهُ عُمَةُ الْعَبَّاسُ: يَا ابْنَ أَخِي مَا أَذْرِي مَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ الَّذِينَ جَاؤُوكَ، إِنِّي ذُو مَعْرِفَةٍ بِأَهْلِ يَثْرِبَ، فَاجْتَمَعْنَا عِنْدَهُ مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ، فَلَمَّا نَظَرَ الْعَبَّاسُ فِي وَجْهِنَا، قَالَ: هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا تَعْرِفُهُمْ، هَؤُلَاءِ أَحْدَاثٌ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَامَ نُبَايَعُكَ؟ قَالَ: «تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي النَّشَاطِ وَالْكُسَلِ، وَعَلَى التَّقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَعَلَى أَنْ تَقُولُوا فِي اللَّهِ لَا تَأْخُذْكُمْ لَوْمَةٌ لَائِمٌ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ، وَتَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ وَلَكُمْ الْجَنَّةُ، فَقَعْنَا نُبَايَعُهُ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ، وَهُوَ أَضْعَرُّ السَّبْعِينَ، فَقَالَ: رُوَيْدَا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ، إِنَّا لَمْ نَعْزِزْ إِلَيْهِ أَكْبَادَ الْمَطِيِّ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَإِنْ إِيْرَاجُهُ الْيَوْمَ مُقَارَقَةٌ الْعَرَبِ كَافَّةً، وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ، وَأَنْ تَعْصَكُمْ السُّيُوفُ،

هَكَذَا» قَالَ: وَكَانَ مِمَّنْ يَسْمَى لَنَا مِنَ الْقِبَايِلِ الَّذِينَ أَنَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ودعاهم، وعرض نفسه عليهم: بنو عامر بن صعصعة، ومحارب بن خصفة، وقزارة، وغسان، ومرة، وحنيفة، وسليم، وعبس، وبنو النضر، وبنو البكاء، وكندة، وكلب، والحارث بن كعب، وعذرة، والحضارمة، فلم يستجب منهم أحد [ابن سعد ٢١٦/١ - ٢١٧]، وفي سنة الواقي وهو متروك، واخرج احمد نحوه بسند حسن: [١٩٠٠٤].

فصل

(لقباء ﷺ لمن قدم من الأوس والخزرج)

وَكَانَ مِمَّا جَمَعَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ أَنْ الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ كَانُوا يَسْمَعُونَ مِنْ خُلَفَائِهِمْ مِنْ يَهُودِ الْمَدِينَةِ أَنَّ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَبْعُوثٌ فِي هَذَا الزَّمَانِ سَيَخْرُجُ، فَتَتَّبِعُهُ وَتَقْتُلُكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِزْمَ، وَكَانَتِ الْأَنْصَارُ يَحْجُونَ الْبَيْتَ كَمَا كَانَتِ الْعَرَبُ تَحْجُو دُونَ الْيَهُودِ، فَلَمَّا رَأَى الْأَنْصَارُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَتَأَمَّلُوا أَحْوَالَهُ، قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: تَعْلَمُونَ وَاللَّهِ يَا قَوْمُ أَنَّ هَذَا الَّذِي تَوَعَّدُكُمْ بِهِ يَهُودٌ، فَلَا تَسْبِقُنَّكُمْ إِلَيْهِ. وَكَانَ سُودُ بْنُ الصَّامِتِ مِنَ الْأَوْسِ قَدْ قَدِمَ مَكَّةَ، فَدَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَمْ يَبْعُدْ وَلَمْ يُجِبْ حَتَّى قَدِمَ أَنَسُ بْنُ رَافِعٍ أَبُو الْحِيسْرِ فِي فِتْنَةٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ يَطْلُبُونَ الْحِلْفَ، فَدَعَاهُمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَقَالَ لِيَاسُ بْنُ مَعَاذٍ وَكَانَ شَابًا حَدَثًا: يَا قَوْمُ هَذَا وَاللَّهِ خَيْرٌ مِمَّا جِئْنَا لَهُ، فَضَرَبَهُ أَبُو الْحِيسْرِ وَانْتَهَرَهُ، فَسَكَتَ، ثُمَّ لَمْ يَبْقَ لَهُمُ الْحِلْفُ، فَانْصَرَفُوا إِلَى الْمَدِينَةِ [ابن هشام ٢٣٩ - ٢٤٠].

فصل

(لحق النبي ﷺ ستة نفر من الخزرج)

ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَقِيَ عِنْدَ الْعَقَبَةِ فِي الْمَوْسِمِ سِتَّةَ نَفَرٍ مِنَ الْأَنْصَارِ كُلُّهُمْ مِنَ الْخَزْرَجِ، وَهُمْ: أَبُو أَمَامَةَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ، وَعُوفُ بْنُ الْحَارِثِ، وَرَافِعُ بْنُ مَالِكٍ، وَقُطَيْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، وَهَقِيقَةُ بْنُ عَامِرٍ، وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رِقَابٍ، فَدَعَاهُمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْإِسْلَامِ فَاسْلَمُوا [ابن هشام ٢٤٠ - ٢٤١].

(ببيعة العقبة الأولى)

ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَدَعَوْهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَفَسَّحَ الْإِسْلَامُ فِيهَا حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ إِلَّا وَقَدْ دَخَلَهَا

فَمَا أَنْتُمْ تَصْبِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، فَخُذُوهُ، وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللَّهِ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ خِيفَةً قَدَرُوهُ، فَهُوَ أَغْدَرُ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ، فَقَالُوا: يَا أَسْعَدُ أَمِطْ عَنَّا يَدَكَ، فَوَاللَّهِ لَا نَذَرُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ، وَلَا نَسْتَقِيلُهَا، فَقُمْنَا إِلَيْهِ رَجُلًا رَجُلًا، فَأَخَذَ عَلَيْنَا وَشَرَطَ، يُعْطِينَا بِذَلِكَ الْجَنَّةَ [صحيح: أحمد: ١٤٤٥٦].

مؤكداً لبيعته كما تقدم، وكان إذ ذاك على دين قومه، واختار رسول الله ﷺ منهم تلك الليلة اثني عشر نقيباً، وهم: أسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، ورافع بن مالك والبراء بن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر، وكان إسلامه تلك الليلة، وسعد بن عباد، والمنذر ابن عمرو، وعبادة بن الصامت، فهؤلاء تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس: أسيد بن الحضير، وسعد بن خيثمة، ورفاعة بن عبد المنذر. وقيل: بل أبو الهيثم بن التيهان مكانه.

وأما المرأتان: فأم عُمارة نُسبية بنت كعب بن عمرو، وهي التي قَتَلَ مُسَيْلِمَةَ ابْنَهَا حَبِيبَ بْنِ زَيْدٍ، وأسماء بنت عمرو بن عدي.

فلما تمت هذه البيعة استأذنوا رسول الله ﷺ أن يميلوا على أهل العقبة بأسيا فهم، فلم يَأْذَنَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ، وَصَرَخَ الشَّيْطَانُ عَلَى الْعَقْبَةِ بِأَفْزَ صَوْتٍ سَمِعَ: يَا أَهْلَ الْجَبَابِجِ هَلْ لَكُمْ فِي مُدْعَمٍ وَالضُّبَاةِ مَعَهُ قَدْ اجْتَمَعُوا عَلَى حَرْبِكُمْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا أَزْبُ الْعَقْبَةِ، هَذَا ابْنُ أَزْبٍ، أَمَا وَاللَّهِ يَا عَدُوَّ اللَّهِ لَا تَفْرَعَنَّ لَكَ [صحيح: أحمد: ١٥٧٩٨، وابن هشام (٢٥١)].

ثم أمرهم أن ينفضوا إلى رحالهم، فلما أصبح القوم، غَدَتْ عَلَيْهِمْ جَلَّةٌ قَرِيشٍ وَأَشْرَافُهُمْ حَتَّى دَخَلُوا شَيْبَةَ الْأَنْصَارِ، فَقَالُوا: يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ، إِنَّهُ بَلَّغْنَا أَنْكُمْ لَقَيْتُمْ صَاحِبَنَا الْبَارِحَةَ، وَوَاعَدْتُمُوهُ أَنْ تُبَايَعُوهُ عَلَى حَرْبِنَا، وَإِيْمُ اللَّهِ مَا حَيٌّ مِنَ الْعَرَبِ أَبْغَضَ إِلَيْنَا مِنْ أَنْ يُنْشَبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ الْحَرْبُ مِنْكُمْ، فَانْبَعَثَ مَنْ كَانَ هُنَاكَ مِنَ الْخَزْرَجِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، يَحْلِفُونَ لَهُمْ بِاللَّهِ: مَا كَانَ هَذَا وَمَا عَلَّمْنَا، وَجَعَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بِنٍ سُلُولٌ يَقُولُ: هَذَا بَاطِلٌ، وَمَا كَانَ هَذَا، وَمَا كَانَ قَوْمِي لِيَفْتَاتُوا عَلَيَّ مِثْلَ هَذَا، لَوْ كُنْتُ يَبْشِرُ مَا صَنَعَ قَوْمِي

ثُمَّ انْصَرَفُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَبَعَثَ مَعَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَمْرُو بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، وَمُضْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ يَعْلَمَانِ مِنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ الْقُرْآنَ، وَيَدْعَوَانِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَتَزَلَا عَلَى أَبِي أَمَامَةَ أَسْعَدَ بْنِ زُرَّارَةَ، وَكَانَ مُضْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ يَوْمَئِذٍ وَجَّعٌ بِهِمْ لَمَّا بَلَّغُوا أَرْبَعِينَ^(١) فَأَسْلَمَ عَلَى يَدَيْهِمَا بَشَرٌ كَثِيرٌ، مِنْهُمْ أَسِيدُ بْنُ الْحَضِيرِ، وَسَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ [ابن هشام (٢٤٤)]، وَأَسْلَمَ بِإِسْلَامِهِمَا يَوْمَئِذٍ جَمِيعُ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ الرَّجَالِ وَالنِّسَاءِ، إِلَّا أَصْبِرَ عَمْرُو بْنُ ثَابِتٍ وَنَفْسٌ، فَإِنَّهُ تَأَخَّرَ إِسْلَامُهُ إِلَى يَوْمٍ أَحَدٍ، وَأَسْلَمَ حِينَئِذٍ، وَقَاتَلَ فَقَتَلَ قَبْلَ أَنْ يَسْجُدَ لِلَّهِ سَجْدَةً، فَأَخْبَرَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «عَمِلَ قَلِيلًا، وَأَجِرَ كَثِيرًا» [البخاري: ٢٨٠٨، ومسلم: ٤٩٩٤].

(بيعة العقبة الثانية)

وكثر الإسلام بالمدينة، وظهر، ثُمَّ رَجَعَ مُضْعَبُ إِلَى مَكَّةَ، وَوَافَى الْمَوْسِمَ ذَلِكَ الْعَامَ خَلَقَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ، وَزَعِمَ الْقَوْمُ بْنُ مَعْرُورٍ، فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ الْعَقْبَةِ الثَّلَاثِ الْأُولَى مِنَ اللَّيْلِ تَسَلَّلَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَةٌ وَسَبْعُونَ رَجُلًا وَامْرَأَتَانِ، فَبَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خِيفَةً مِنْ قَوْمِهِمْ، وَمِنْ كُفَّارِ مَكَّةَ، عَلَى أَنْ يَمْنَعُوهُ مِمَّا يَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ وَأَزْوَاجَهُمْ، فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ بَايَعَهُ لِيَلْتَمِذَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ، وَكَانَتْ لَهُ الْيَدُ الْبَيْضَاءُ، إِذْ أَكَّدَ الْعَقْدَ، وَبَادَرَ إِلَيْهِ، وَحَضَرَ الْعَبَّاسُ عُمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

(١) أخرج ابن هشام (٢٤٤)، وأبو داود (١٠٦٩)، والحاكم (٢٨١/١)، والبيهقي (١٧٦/٣) عن ابن إسحاق: حدثني محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، عن أبيه أبي أمامة، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، قال: كنت قائد أبي كعب بن مالك حين ذهب بصره، فكنت إذا خرجت به إلى الجمعة، فسمع النداء فترحم لأسعد بن زرارة، فقلت له: إذا سمعت النداء فترحم لأسعد بن زرارة، قال: لأنه أول من جمع بنا في هزم النبيت من حرّة بني يابضة في تقيع يقال له: تقيع الخضضات، قلت: كم أنتم يومئذ؟ قال: «أربعون» وسنده حسن، كما قال الحافظ، وليس فيه حجة على اشتراط الأربعين، لأنه اتفق أن عدتهم كانوا إذ ذاك أربعين، وليس فيه دليل على أن من دون الأربعين لا تعتقد بهم الجمعة.

قبيلة من قريش غلاماً نَهْدًا جَلْدًا، ثُمَّ نَعَطِيهِ سَيْفًا صَارِماً، فيضربونه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل، فلا تدري بنو عبد مناف بعد ذلك كيف تصنع، ولا يُمكنُها معاداة القبائل كلها، ونسوقُ إليهم ديتة، فقال الشيخ: لله ذرُ الفتى، هذا والله الرأي، قال: ففترقوا على ذلك، واجتمعوا عليه، فجاءه جبريلُ بالوحي من عند ربه تبارك وتعالى، فأخبره بذلك، وأمره أن لا ينام في مضجعوه تلك الليلة (ابن هشام ٢٦٩ - ٢٧٠).

(قصة هجرته ﷺ)

وجاء رسولُ الله ﷺ إلى أبي بكرٍ نِصْفَ النهارِ في ساعةٍ لم يكن يأتيه فيها مُتَقَعاً، فقال له: «أُخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ فَقَالَ: إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فقال: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْزَنَ لِي فِي الْخُرُوجِ» فقال أبو بكر: الصحابة يا رسولَ الله؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «نعم» فقال أبو بكر: فخذ بأبي وأمي إحدَى راحلتي هاتين، فقال رسولُ الله ﷺ: «بالتَّحْنُ» [البخاري: ٣٩٠٠].

(يوم علي في مضجعه ﷺ)

وأمر علياً أن يبيت في مَضْجَعِهِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، واجتمع أولئك النفر من قريش يتطلعون من صِيرِ الباب ويرصدونه، ويُريدون بياته، ويأتمرون أيهم يكون أشقاها، فخرج رسولُ الله ﷺ عليهم فأخذ حَفَنَةً من البطحاء، فجعل يذُرُّه على رؤوسهم، وهم لا يرونه، وهو يتلو: ﴿وَمَلَكًا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَكَّاءً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَكَّاءً فَاسْتَبَقْتَهُمْ فَهُمْ لَا يَصِيرُونَ﴾ [يس: ٩] ومضى رسولُ الله ﷺ إلى بيت أبي بكر، فخرجا من خَوْخَةٍ في دار أبي بكر ليلاً، وجاء رجلٌ، ورأى القوم يبابه، فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: محمداً، قال: خَبِثُمْ وَخَسِرْتُمْ قَدْ وَاللَّهِ مَرَّ بَكُمْ وَذَرَّ عَلَى رُؤُوسِكُمُ التُّرَابَ، قالوا: والله ما أبصرناه، وقاموا ينفضون التراب عن رؤوسهم، وهم: أبو جهل، والحكم بنُ العاص، وعُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ، والنَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ، وأُمَيَّةُ بْنُ خَلْفٍ، وزَمْعَةُ بْنُ الْأَسود، وطُيَيْمَةُ بْنُ عدي، وأبو لهب، وأبي بن خلف، ونيبه ومنبه ابنا الحجاج، فلما أصبحوا، قام علي عن الفراش، فسألوه عن رسول الله ﷺ، فقال: لا أعلم لي به (ابن هشام ٢٧١)، وأخرج أحمد نحوه بإسناد حسن: [٣٢٥١].

هذا حتى يُؤامروني، فرجعتُ قريش من عندهم، ورحل البراء بن معرور، فتقدَّم إلى بطنِ يَأْجُجٍ، وتلاحق أصحابه من المسلمين، وتطلبتهم قريش، فأدركوا سعدَ بْنَ عُبَادَةَ، فربطوا يديه إلى عُقْبَةِ بَنِي سَنَعٍ رحله، وجعلوا يضربونه، ويَجْرُونَهُ، وَيَجْذِبُونَهُ بِجُمُوعِهِ حتى أدخلوه مَكَّةَ، فجاء مُطْعِمُ بْنُ عدي والحارث بن حرب بن أمية، فخلصاه من أيديهم، وتشاورت الأنصار حين فقدوه أن يَكْرِؤا إليه، فإذا سعدٌ قد طَلَعَ عليهم، فوصل القوم جميعاً إلى المدينة.

(بدء الهجرة إلى المدينة)

فأذن رسولُ الله ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى المدينة، فبادر الناس إلى ذلك، فكان أولُ مَنْ خرج إلى المدينة أبو سلمة بن عبد الأسد، وامراته أم سلمة، ولكنها احتبست دونه، ومنعت من اللحاق به سنة، وحيل بينها وبين وليها سلمة، ثم خرجت بعد السنة بولدها إلى المدينة، وشيعها عثمان بنُ أبي طلحة (ابن هشام ٢٦٢).

ثم خَرَجَ الناسُ أرسالاً يتبعُ بعضهم بعضاً، ولم يبق بمكة من المسلمين إلا رسولُ الله ﷺ، وأبو بكر وعلي، أقاما بأمره لهما، وإلا من احتبسه المشركون كرهاً، وقد أعد رسولُ الله ﷺ جهازه ينتظر متى يؤمر بالخروج، وأعد أبو بكر جهازه.

فصل

(اقتدار قريش به ﷺ لقتله)

فلما رأى المشركون أصحاب رسول الله ﷺ قد تجهزوا، وخرجوا، وحملوا، وساقوا الذراري والأطفال والأموال إلى الأوس والخزرج، وعرفوا أن الدار دارُ مَنْعَةٍ، وأن القوم أهلُ خَلْقَةٍ وَشَوْكَةٍ وبأسٍ، فخافوا خروج رسول الله ﷺ إليهم ولحقه بهم، فيشتد عليهم أمره، فاجتمعوا في دار الندوة، ولم يتخلف أحد من أهل الرأي والحجج منهم ليتشاوروا في أمره، وحضرهم ولئهم وشيخهم إبليس في صورة شيخ كبير من أهل نجد مشتمل الصماء في كسائه، فتذاكروا أمر رسول الله ﷺ فأشار كلُّ أحد منهم برأي، والشيخ يرذُّه ولا يرضاه، إلى أن قال أبو جهل: قد فَرَّقَ لي فيه رأي ما أراكم قد وقعتم عليه، قالوا: ما هو؟ قال: أرى أن نأخذ من كل

ثم مضى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى غار ثور، فدخلاه، وضرب العنكبوت على بابه.

وكانا قد استأجرا عبد الله بن أريقط الليثي، وكان هادياً ماهراً بالطريق، وكان على دين قومه من قريش، وأمناه على ذلك، وسلمنا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث [البخاري: ٣٩٠٥]، وجذت قريش في طلبهما، وأخذوا معهم القافة، حتى انتهوا إلى باب الغار، فوقفوا عليه.

ففي «الصحيحين» أن أبا بكر قال: يا رسول الله لو أن أحدكم نظر إلى ما تحت قدميه لأبصرنا فقال: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما لا تخزن فإن الله معنا» [البخاري: ٣٩٥٣، ومسلم: ٦١٦٩] وكان النبي ﷺ وأبو بكر يسمعان كلامهم فوق رؤوسهما، ولكن الله سبحانه عني عليهم أمرهما، وكان عامر بن فهيرة يرمي عليهما غمماً لأبي بكر، ويتسمع ما يقال بمكة، ثم يأتيهما بالخبر، فإذا كان السحر سرح مع الناس^(١).

قالت عائشة: وجهزناهما أحث الجهاز، ووضعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فاوكت به الجراب، وقطعت الأخرى فصيرتها عصاً لعم القربة، فلذلك لقبت، ذات النطاقين [البخاري: ٣٩٠٧].

وذكر الحاكم في «مستدرکه» عن عمر قال: خرج رسول الله ﷺ إلى الغار، ومعه أبو بكر، فجعل يمشي ساعة بين يديه، وساعة خلفه، حتى فطن له رسول الله ﷺ، فسأله، فقال له: يا رسول الله أذكر الطلب، فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد، فأمشي بين يديك فقال: «يا أبا بكر لو كان شيء أحببت أن يكون بك دوني؟» قال: نعم والذي بعثك بالحق، فلما انتهى إلى الغار قال أبو بكر: مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ لك الغار، فدخل، فاستبرأه، حتى إذا

كان في أعلاه ذكر أنه لم يستبرأ الجحرة، فقال: مكانك يا رسول الله حتى أستبرأ الجحرة ثم قال: انزل يا رسول الله، فنزل [الحاكم ٦/٣] رسلاً عن محمد بن سيرين، فمكنا في الغار ثلاث ليالٍ حتى خمدت عنهما نار الطلب، فجاءهما عبد الله بن أريقط بالراحلتين، فارتحلا، وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة، وسار الدليل أمامهما، وعين الله تكلوهما، وتأييده يصحبهما، وإسعاده يرحلهما ويؤزلهما.

(قصة سراقه)

ولما ينس المشركون من الظفر بهما، جعلوا لمن جاء بهما دية كل واحد منهما، فجذ الناس في الطلب، والله غالب على أمره، فلما مروا بحي بني مُذَلِّج مُصْعِدِينَ من قديد، بصر بهم رجل من الحي، فوقف على الحي فقال: لقد رأيت أبقاً بالساحل أسودة ما أراها إلا محمداً وأصحابه، ففطن بالأمر سراقه بن مالك، فأراد أن يكون الظفر له خاصة، وقد سبق له من الظفر ما لم يكن في حسابه، فقال: بل هم فلان وفلان، خرجا في طلب حاجة لهما، ثم مكث قليلاً، ثم قام فدخل خبائه وقال لخادمه: اخرج بالفرس من وراء الخباء، وموعدك وراء الأكمة، ثم أخذ رُمحه، وخفض عاليه يحط به الأرض حتى ركب فرسه، فلما قرب منهم وسمع قراءة رسول الله ﷺ، وأبو بكر يُكثِرُ الالتفات، ورسول الله ﷺ لا يلتفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله هذا سراقه بن مالك قد رهقنا، فدعا عليه رسول الله ﷺ فساخت يدا فرسه في الأرض، فقال: قد علمت أن الذي أصابني بدعائكما، فادعوا الله لي، ولكما علي أن أرد الناس عنكما، فدعا له رسول الله ﷺ، فأطلق، وسأل رسول الله ﷺ أن يكتب له كتاباً، فكتب له أبو بكر بأمره في أديم

(١) الذي في البخاري (٣٩٠٥): «إن عبد الله بن أبي بكر كان يبيت معهما في الغار، وهو شاب ثق لقرن، فبدلج من عندهما بسحر، فيصب مع قريش بمكة كبات، فلا يسمع أمراً يُكْتَادِي به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، وأما عامر بن فهيرة، فكان مولى لأبي بكر يرمي عليهما منحة من غنم، فيربحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رسل - وهو لبن منحتهما ورضيقيهما - حتى ينق بها عامر بن فهيرة بغلس يفعل ذلك كل ليلة من تلك الليالي الثلاث» ووقع في حديث ابن عباس عند ابن عائد في هذه القصة: ثم يسرح عامر بن فهيرة، فيصبح في رعيان الناس كبات فلا يفطن به، وفي رواية موسى بن عقبة عن ابن شهاب: وكان عامر أميناً مؤتمناً حسن الإسلام.

[البخاري: ٣٩٠٦، ومسلم: ٥٢٣٩] وكان الكتاب معه إلى يوم فتح مكة، فجاءه بالكتاب، فوقاه له رسول الله ﷺ، وقال: يَوْمَ وَفَاءٌ وَيَوْمٌ وَعْدٌ، وعرض عليهما الزاد والجمالان، فقالا: لا حاجة لنا به، ولكن عَمَّ عَنَّا الطلب، فقال: قد كُفِّيتُم، ورجع فوجد الناس في الطلب، فجعل يقول: قد استبرأت لكم الخبر، وقد كُفِّيتُم ما ها هنا، وكان أول النهار جاهداً عليهما، وآخره حارساً لهما.

فصل

(أم معبد)

ثُمَّ مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَسِيرِهِ ذَلِكَ حَتَّى مَرَّ بِخَيْمَتِي أُمِّ مَعْبِدِ الْخُرَاعِيَّةِ، وَكَانَتْ امْرَأَةً بَرْزَةً جَلْدَةً تَحْتِي بِفَنَاءِ الْخِيْمَةِ، ثُمَّ تَطْعِمُ وَتَسْقِي مَنْ مَرَّ بِهَا، فَسَأَلَاهَا: هَلْ عِنْدَهَا شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ: وَاللَّهِ لَوْ كَانَ عِنْدُنَا شَيْءٌ مَا أَغْوَزَكُمُ الْقَرَى، وَالشَّاءُ عَازِبٌ، وَكَانَتْ سِتَّةَ شَهَابٍ، فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى شَاةٍ فِي كَيْسِ الْخِيْمَةِ، فَقَالَ: مَا هَذِهِ الشَّاةُ يَا أُمَّ مَعْبِدٍ؟ قَالَتْ: شَاةٌ خَلْفُهَا الْجَهْدُ عَنِ الْغَنَمِ، فَقَالَ: هَلْ بِهَا مِنْ لَبَنٍ؟ قَالَتْ: هِيَ أَجْهَدُ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: أَنَاذِنِينِي لِي أَنْ أَحْلِبُهَا؟ قَالَتْ: نَعَمْ، يَا أُمِّي، إِنْ رَأَيْتَ بِهَا حَلْبًا فَاحْلُبِيهَا، فَمَسَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدَيْهِ صَرْعَهَا، وَسَمَّى اللَّهَ وَدَعَا، فَتَفَاجَّتْ عَلَيْهِ، وَدَرَّتْ، فَدَعَا بِإِنَاءٍ لَهَا يُرْبِضُ الرِّهْطَ، فَحَلَبَ فِيهِ حَتَّى عُلْتِ الرِّغْوَةُ، فَسَقَاهَا فَشَرِبَتْ حَتَّى رَوَيْتَ، وَسَقَى أَصْحَابَهُ حَتَّى رَوَوْا، ثُمَّ شَرِبَ، وَحَلَبَ فِيهِ ثَانِيًا، حَتَّى مَلَأَ الْإِنَاءَ، ثُمَّ غَادَرَهُ عِنْدَهَا، فَارْتَحَلُوا، فَقَلَّمَا لَبِثْتُ أَنْ جَاءَ زَوْجُهَا أَبُو مَعْبِدٍ يَسُوقُ اعْتِزًا عِجَافًا، يَتَسَاوَكُنْ هُزَالًا لَا يَقِي بِهِنَ، فَلَمَّا رَأَى اللَّبَنَ، حَبِجَ، فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا، وَالشَّاءُ عَازِبٌ؟ وَلَا حَلْوَبَةٌ فِي الْبَيْتِ؟ فَقَالَتْ: لَا وَاللَّهِ إِلَّا أَنَّهُ مَرَبْنَا رَجُلٌ مَبَارَكٌ كَانَ مِنْ حَدِيثِهِ كَيْتٌ وَكَيْتٌ، وَمِنْ حَالِهِ كَذَا وَكَذَا. قَالَ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُرَاهُ صَاحِبَ قَرِيشٍ الَّذِي تَطْلُبُهُ، صِفِي لِي يَا أُمَّ مَعْبِدٍ، قَالَتْ: ظَاهِرُ الرِّضَاءَةِ، أَبْلَجُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الْخَلْقِ، لَمْ تَعِبْ تَجْلَةً، وَلَمْ تُزَّرْ بِهِ شُعْلَةً، وَسِيمٌ قَيِّمٌ، فِي عَيْنَيْهِ دَعَجٌ، وَفِي أَشْفَارِهِ وَطَفٌ، وَفِي صَوْتِهِ ضَحَلٌ، وَفِي عُنُقِهِ سَطَعٌ، أَحْوَرٌ، أَحْمَلٌ، أَزْجٌ، أَقْرَنٌ، شَدِيدٌ سَوَادُ الشَّعْرِ، إِذَا صَمِتَ عِلَاهُ الْوَقَارُ، وَإِنْ تَكَلَّمَ،

عِلَاهُ الْبَهَاءُ، أَجْمَلُ النَّاسِ وَأَبَاهُمْ مِنْ بَعِيدٍ، وَأَحْسَنُهُ وَأَحْلَاهُ مِنْ قَرِيبٍ، حُلُوُ الْمَنْطِقِ، فَضْلٌ، لَا تَزُرُ وَلَا هَلُرُ، كَأَنَّ مَنْطِقَهُ خُرَازَاتُ نَظْمٍ يَتَحَلَّرْنَ، رِبْعَةٌ، لَا تَقْحُمُهُ عَيْنٌ مِنْ قَصْرِ، وَلَا تَشْنُوهُ مِنْ طَوْلٍ، غُصْنٌ بَيْنَ غُصْنَيْنِ، فَهُوَ أَنْضَرُ الثَّلَاثَةِ مَنْظَرًا، وَأَحْسَنُهُمْ قَدْرًا، لَهُ رُقُقَاءٌ يَحْفُونَ بِهِ، إِذَا قَالَ: اسْتَمِعُوا لِقَوْلِهِ، وَإِذَا أَمَرَ، تَابَدُّرُوا إِلَى أَمْرِهِ، مُحْفُودٌ مُحْشُودٌ، لَا عَابِسٌ وَلَا مُفْنِدٌ، فَقَالَ أَبُو مَعْبِدٍ: وَاللَّهِ هَذَا صَاحِبُ قَرِيشٍ الَّذِي ذَكَرُوا مِنْ أَمْرِهِ مَا ذَكَرُوا، لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَصْحَبَهُ، وَلَا فَعَلْتُ إِنْ وَجَدْتُ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، وَأَصْبَحَ صَوْتُ بَمَكَةٍ عَالِيًا يَسْمَعُونَهُ وَلَا يَرُونَهُ الْقَائِلُ:

جَزَى اللَّهُ رَبَّ الْعَرَضِ خَيْرَ جَزَائِهِ
رَفِيقَيْنِ حَلَا خَيْمَتِي أُمِّ مَعْبِدٍ
هُمَا نَزَلَا بِالْبِرِّ وَارْتَحَلَا بِهِ
وَأَقْلَحَ مَنْ أَمْسَى رَفِيقُ مُحَمَّدٍ
فَيَا لَقُصِي مَا زَوَى اللَّهُ عَنْكُمْ
بِهِ مِنْ قَعَالٍ لَا يُجَازِي وَسُودُ
لِيَهْنُ بَنِي كَعْبٍ مَكَانَ قَتَاتِهِمْ
وَمَقْعَدَهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَرْصِدٍ
سَلُّوا أُخْتَكُمْ عَنْ شَاتِيهَا وَإِنَائِهَا
فَلَنُكْمُ إِنْ تَسَأَلُوا الشَّاءَ تَشْهَدُ

[حسن: الحاكم (٣/٩٠-١٠)]

قَالَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ: مَا دَرَرْنَا أَيْنَ تَوَجَّهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، إِذَا أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنَ الْجَنِّ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ، فَانْشَدَ هَذِهِ الْآيَاتِ، وَالنَّاسُ يَتَّبِعُونَهُ وَيَسْمَعُونَ صَوْتَهُ، وَلَا يَرُونَهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ أَعْلَاهَا، قَالَتْ: فَلَمَّا سَمِعْنَا قَوْلَهُ، عَرَفْنَا حَيْثُ تَوَجَّهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَنْ وَجَّهَهُ إِلَى الْمَدِينَةِ.

فصل

(وصوله ﷺ إلى المدينة)

وَبَلَغَ الْأَنْصَارَ مَخْرُجَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ، وَقَصَدَهُ الْمَدِينَةَ، وَكَانُوا يَخْرُجُونَ كُلُّ يَوْمٍ إِلَى الْحَرَّةِ يَنْتَظِرُونَهُ أَوَّلَ النَّهَارِ، فَإِذَا اشْتَدَّ حَرُّ الشَّمْسِ، رَجَعُوا عَلَى عَادَتِهِمْ إِلَى مَنَازِلِهِمْ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْاِثْنَيْنِ ثَانِي عَشْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ عَلَى رَأْسِ ثَلَاثِ عَشْرَةِ سَنَةٍ مِنَ النَّبُوَّةِ، خَرَجُوا عَلَى عَادَتِهِمْ، فَلَمَّا حَمِيَ حَرُّ الشَّمْسِ

تَوَى فِي قُرَيْشٍ بَضْعَ عَشْرَةَ حِجَّةً
يُذَكِّرُ لَوْ يَلْقَى حَبِيباً مُوَاتِيَا
وَيَعْرِضُ فِي أَهْلِ الْمَوَاسِمِ نَفْسَهُ
فَلَمْ يَرِ مَنْ يُؤْوِي وَلَمْ يَرِ دَاعِيَا
فَلَمَّا أَتَانَا وَاسْتَقَرَّتْ بِهِ النَّوَى
وَأَصْبَحَ مَسْرُوراً بِطَبِيبَةٍ رَاضِيَا
وَأَصْبَحَ لَا يَخْشَى ظُلَامَةَ ظَالِمٍ
بَعِيدٍ وَلَا يَخْشَى مِنَ النَّاسِ بَاغِيَا
بَذَلْنَا لَهُ الْأَمْوَالَ مِنْ حِلٍّ مَالِنَا
وَأَنْفَسْنَا عِنْدَ الْوَعَى وَالتَّوْبَانَا
نُعَادِي الَّذِي عَادَى مِنَ النَّاسِ كُلَّهُمْ
جَمِيعاً وَإِنْ كَانَ الْحَبِيبَ الْمُصَافِيَا
وَنَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ
وَأَنَّ كِتَابَ اللَّهِ أَصْبَحَ هَادِيَا

[ابن هشام (٢٨٩)]

(معنى: «دخلني مدخل صدق».)

قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ بمكة، فأمر
بالهجرة وأنزل عليه: «وَقَدْ رَبَّيْناكَ مِنْ دُونِ
وَأَخْرَجْنِي مِنْ دِينِي وَأَجْعَلَ لِي مِنْ دُونِكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا»
[الاسراء: ٨٠] [إسناده ضعيف: أحمد: ١٩٤٨، والترمذي:
٣١٣٨].

قال قتادة: أخرجه الله من مكة إلى المدينة
مُخْرَجٌ صدق ونبي الله يعلم أنه لا طاقة له بهذا
الأمر إلا بسلطان، فسأل الله سلطاناً نصيراً، وأراه
الله عز وجل دار الهجرة، وهو بمكة فقال: «أَرَيْتَ
دَارَ هِجْرَتِكُمْ يَسْبِقُو ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لَابَتَيْنِ» [الحاكم
٣/٤-٤]، وعلقه البخاري: ٣٩٠٥.

وذكر الحاكم في «مستدركه» عن علي بن أبي
طالب أن النبي ﷺ قال لجبريل: مَنْ يُهَاجِرُ مَعِي؟
قال: أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ [الحاكم (٦٣)].

قال البراء: أَوَّلُ مَنْ قَدِمَ عَلَيْنَا مِنْ أَصْحَابِ
رسول الله ﷺ مُضْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ،
فجعلوا يُقَرِّئَانِ النَّاسَ الْقُرْآنَ، ثم جاء عمارٌ وبلالٌ
وسعدٌ، ثم جاء عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه في
عشرين راكباً، ثُمَّ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فما رأيتُ
النَّاسَ فَرَحُوا بِشَيْءٍ كَفَرَحِهِمْ بِهِ حَتَّى رَأَيْتُ النِّسَاءَ
وَالصَّبِيَّانَ وَالْإِمَاءَ يَقُولُونَ: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ قَدْ جَاءَ
[البخاري: ٤٩٤١].

رجعوا، وصعد رجل من اليهود على أطم من أطام
المدينة لبعض شأنه، فرأى رسول الله ﷺ وأصحابه
مُبِيقِينَ، يزول بهم السراب، فصرخ بأعلى صوته: يا
بني قَيْلَةَ هذا صَاحِبُكُمْ قد جاء، هذا جدُّكم الذي
تنتظرونه، فبادر الأنصار إلى السلاح ليتلقوا
رسول الله ﷺ، وَسَمِعَتِ الرَّجَّةُ وَالتَّكْبِيرُ فِي بَنِي
عمرو بن عوف، وكبر المسلمون فرحاً بقُدومه،
وخرجوا للقاءه، فتلَقَّوه وَحِيَّةً بِتَحِيَّةِ النُّبُوَّةِ، فأحدقوا
به مطفين حوله، والسكينة تغشاه، والوحي ينزل عليه
﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْقَوْمِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ
ذَلِكَ ظَاهِرُونَ﴾ [التخريم: ٤]، فسار حتى نزل بقاء
في بني عمرو بن عوف، فنزل على كُلثوم بنت الهذم،
وقيل: بل على سعد بن خَيْثَمَةَ، والأول أثبت، فأقام
في بني عمرو بن عوف أربع عشرة ليلةً وأسس مسجد
بُقاء، وهو أوَّلُ مسجد، أُسِّسَ بعد النُّبُوَّةِ [ابن سعد (١/
٢٣٣)، ونحوه البخاري: ٣٩٠٦].

فلما كان يوم الجمعة ركب بأمر الله له، فأدركته
الجمعة في بني سالم بن عوف، فجمع بهم في
المسجد الذي في بطن الوادي.

ثم ركب، فأخذوا بِخِطَامِ راحلته، هَلُمُّ إِلَى الْعِدَدِ
وَالْعُدَّةِ وَالسَّلاحِ وَالْمِنْعَةِ، فقال: «خَلُّوا سَبِيلَهَا، فَإِنَّهَا
مَأْمُورَةٌ» فلم تنزل ناقته سائرة به لا تمرُّ بدارٍ من دُورِ
الأنصار إلا رغبوا إليه في النزول عليهم، ويقولون:
«دَعُوها فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ» فسارت حتَّى وصلت إلى
موضع مسجده اليوم، وبركت، ولم ينزل عنها حتى
نَهَضَتْ وَسَارَتْ قَلِيلاً، ثم التفتت، فرجعت، فبركت
في موضعها الأول، فنزل عنها، وذلك في بني النجار
أخواله ﷺ. وكان من توفيق الله لها، فإنه أحب أن
ينزل على أحواله، يُكرمهم بذلك، فجعل الناس
يُكَلِّمونَ رسولَ الله ﷺ في النزول عليهم، وبادر أبو
أيوب الأنصاري إلى رحله، فأدخله بيته، فجعل
رسول الله ﷺ يقول: «الْمَرْءُ مَعَ رَحْلِهِ» وجاء أسعدُ بن
زرارة، فأخذ بزمَامِ راحلته، وكانت عنده [انظر:
«البخاري»: ٣٩١١، وسلم: ١١٧٣] وأصبح كما قال أبو
قيس صِرْمَةُ الأنصاري، وكان ابن عباس يختلف إليه
يتحفَّظُ منه هذه الأبيات:

وقال أنس: شهدته يوم دخل المدينة فما رأيته يوماً قط، كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل المدينة علينا، وشهدته يوم مات، فما رأيته يوماً قط، كان أقبح ولا أظلم من يوم مات [صحيح: أحمد: ١٢٢٣٤].

(قبوم الله ﷺ من مكة)

فأقام في منزل أبي أيوب حتى بنى حُجْرَه ومسجده، وبعث رسول الله ﷺ وهو في منزل أبي أيوب زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ وَأَبَا رَافِعٍ، وأعطاهما بَعِيرَيْنِ وخمسمئة درهم إلى مكة فَقَلِمَا عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه، وسودة بنت زمعة زوجته، وأسامة بن زيد، وأمه أم أيمن، وأما زينب بنت رسول الله ﷺ فلم يُمكنها زوجها أبو العاص بن الربيع من الخروج، وخرج عبد الله بن أبي بكر معهم بعيال أبي بكر، ومنهم عائشة فنزلوا في بيت حارثة بن النعمان [ابن سعد (١/٢٣٧-٢٣٨)].

فصل

في بناء المسجد

قال الزهري: بَرَكْتَ نَاقَةُ النَّبِيِّ ﷺ مَوْضِعَ مسجده وهو يومئذ يُصَلِّي فيه رجال من المسلمين، وكان مِرْبَدًا لِسَهْلٍ وَسَهْلٌ لَغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ، كانا فِي حَجَرٍ أَسَدُ بْنُ زُرَّارَةَ، فسأوم رسول الله ﷺ الْغُلَامَيْنِ بِالْمَرْيَدِ، لِيَتَّخِذَهُ مَسْجِدًا، فقالا: بَلْ نَهْبُهُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَبَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَبْتَاغَهُ مِنْهُمَا بِعَشْرَةِ دَنَانِيرَ، وكانَ جِدَارًا لَيْسَ لَهُ سَقْفٌ، وقيلته إلى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وكانَ يُصَلِّي فِيهِ وَيُجْمَعُ أَسَدُ بْنُ زُرَّارَةَ قَبْلَ مَقْدَمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وكانَ فِيهِ شَجَرَةٌ عَرَقْدٍ وَغَرَبٌ وَنَخْلٌ وَثُيُورٌ لِلْمُشْرِكِينَ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْقُبُورِ فَنُشِثَتْ، وبِالْخَرْبِ فَسُوِّتْ وَبِالنَّخْلِ وَالشَّجَرِ فَقُطِعَتْ وَصِفَتْ فِي قِبْلَةِ الْمَسْجِدِ، وجعل طوله مما يلي الْقِبْلَةَ إلى مؤخره مئة ذراع، والجانبين مثل ذلك أو دونه، وجعل أساسه قريباً من ثلاثة أذرع، ثم بنوه

باللبن، وجعل رسول الله ﷺ يبنى معهم، وَيَنْقُلُ اللَّبْنَ وَالْحِجَارَةَ بِنَفْسِهِ ويقول: اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ

وكان يقول:

هَذَا الْجِمَالُ لَا جِمَالُ خَيْرٌ
هَذَا أَبْرُرُ رَزْنًا وَأَطْهَرُ
[ابن سعد (١/٢٣٩) ونحوه البخاري: ٣٩٠٦، ومسلم: ١١٧٣]
وجعلوا يَرْتَجِرُونَ، وهم ينقلون اللَّبْنَ، ويقول بعضهم في رجزه:

لَيْتُنْ قَعَدْنَا وَالرَّسُولُ يَعْمَلُ
لَذَاكَ مِنَّا الْعَمَلُ الْمُضَلَّلُ
وجعل قبلته إلى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وجعل له ثلاثة أبواب: بَابًا فِي مُوْخَرِهِ، وبَابًا يُقَالُ لَهُ: بَابُ الرَّحْمَةِ، والبَابُ الَّذِي يَدْخُلُ مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وجعل عمده الجذوع، وسقفه بالجريد، وقيل له: أَلَا تُسَقِّفُهُ، فقال: «لَا، عَرِيشُ كَعْرِيشِ مُوسَى» وبني إلى جنبه بيوت أزواجه باللبن، وسقفها بالجريد والجذوع، فلما فرغ من البناء بنى بعائشة في البيت الذي بناه لها شرقي المسجد قبله، وهو مكان حُجْرَتِهِ الْيَوْمَ، وجعل لسودة بنت زمعة بيتاً آخر [ابن سعد (١/٢٤٠)].

فصل

(الْمُؤَاخَاةُ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ)

ثم آخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ فِي دَارِ أَنْسِ بْنِ مَالِكٍ، وكانوا تسعين رجلاً، نصفهم من المهاجرين، ونصفهم من الأنصار، آخَى بينهم على المواساة، يتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام إلى حين وقعة بدر، فلما أنزل الله عز وجل: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الاحزاب: ٦] رد التوارث إلى الرَّجْمِ دون عقد الأخوة^(١).

وقد قيل: إنه آخى بين المهاجرين بعضهم مع

(١) أخرج البخاري (٤٥٨٠) عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّي جَلَلًا مِثْلِي﴾ قال: ورثة «والذين عاقدت أيمانكم» كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه، للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت ﴿وَلِكُلِّي جَلَلًا مِثْلِي﴾ نسخت، ثم قال: «والذين عاقدت أيمانكم فاتوهم نصيبهم» من النصر والرفادة والصيحة، وقد ذهب الميراث، ويوصى له.

اللَّهُ وَجَّهِي عَنْ قَبِيلَةِ الْيَهُودِ، فقال: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ قَادَحٌ رَبِّكَ، وَاسْأَلْهُ، فَجَعَلَ يَقْلُبُ وَجْهَهُ فِي السَّمَاءِ يَرْجُو ذَلِكَ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ: «قَدْ رَأَى ثَقَلَبُ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَوَّلَيْتَكَ قَبِيلَةً رَمَضَهَا قَوْلِي وَجْهَكَ شَقَرُ الْمَسْجِدِ الْخَرَّابِيِّ» [البَقَرَةُ: ١٤٤] وذلك بعد ستة عشر شهراً مِنْ مَقْدَمِهِ الْمَدِينَةَ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرَ بِشَهْرَيْنِ [ابن سعد: (١/٢٤١) وبتحقيق البخاري: ٤٤٨٦].

قال محمد بن سعد: أخبرنا هاشم بن القاسم، قال: أنبأنا أبو معشر عن محمد بن كعب القرظي قال: ما خَالَفَتْ نَبِيَّ نَبِيًّا قَطُّ فِي قَبِيلَةٍ، وَلَا فِي سُنَّةٍ إِلَّا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَقْبَلَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْراً، ثم قرأ: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ» [الشُّورَى: ١٣] [ابن سعد: (١/٢٤٣)، وفي سننه ضعيف].

وكان لله في جعل القبلة إلى بيت المقدس، ثم تحويلها إلى الكعبة جِزْماً عظيمة، ومِثْقَلٌ للمسلمين والمشرّكين واليهود والمنافقين.

فأما المسلمون، فقالوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وقالوا: «إِنَّمَا يَدْعُو كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ» [آل عمران: ٧] وهم الذين هدى الله، ولم تكن كبيرة عليهم.

وأما المشرّكون، فقالوا: كما رجع إلى قبلتنا يُوشِكُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى دِينِنَا، وما رجع إليها إِلَّا أَنَّهُ الْحَقُّ.

وأما اليهود، فقالوا: خَالَفَ قَبِيلَةَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ، وَلَوْ كَانَ نَبِيًّا، لَكَانَ يُصَلِّي إِلَى قَبِيلَةِ الْأَنْبِيَاءِ.

وأما المنافقون، فقالوا: ما يدري محمد أين يتوجه إن كانت الأولى حقاً، فقد تركها، وإن كانت الثانية هي الحق، فقد كان على باطل، وكثرت أقاويل السفهاء من الناس، وكانت كما قال الله تعالى: «وَلِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ» [البَقَرَةُ: ١٤٣] وكانت مِحْنَةً مِنَ اللَّهِ اِمْتَحَنَ بِهَا عِبَادَهُ، ليرى من يَتَّبِعُ الرِّسُولَ مِنْهُمْ مَنْ يَتَّقِلْبُ عَلَى عَقِبِهِ.

ولما كان أمر القبلة وشأنها عظيماً، وطناً

بعض مواخاة ثانية، واتخذ فيها علماً أخاً لنفسه^(١) والثابت الأول، والمهاجرون كانوا مستغنيين بأخوة الإسلام، وأخوة الدار، وقرباية النسب عن عقد مواخاة بخلاف المهاجرين مع الأنصار، ولو آخى بَيْنَ المهاجرين، كان أحقَّ النَّاسِ بأخوته أحبَّ الخلق إليه ورفيقه في الهجرة، وأنيسه في الغار، وأفضل الصحابة وأكرمهم عليه أبو بكر الصديق وقد قال: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلاً لَأَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً، وَلَكِنْ أَخُوهُ الْإِسْلَامُ أَفْضَلُ» وفي لفظ «وَلَكِنْ أَخِي وَصَاحِبِي» [البخاري: ٣٦٥٦، ومسلم: ٦١٧٠] وهذه الأخوة في الإسلام وإن كانت عامة، كما قال: «وَدِدْتُ أَنْ قَدْ رَأَيْتُنَا إِخْوَانًا قَالُوا: أَلَسْنَا إِخْوَانَكَ؟ قَالَ أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَانِي قَوْمٌ يَأْتُونَ مِنْ بَعْدِي يُؤْمِنُونَ بِي وَلَمْ يَزُونِي» [مسلم: ٥٨٤] فَلِلصَّدِيقِ مِنْ هَذِهِ الْأَخُوَّةِ أَعْلَى مَرَاتِبِهَا، كَمَا لَهُ مِنَ الصُّحْبَةِ أَعْلَى مَرَاتِبِهَا، فَالصُّحْبَةُ لَهُمُ الْأَخُوَّةُ، وَمِزَّةُ الصُّحْبَةِ، وَلَا تَبَاعُهُ بَعْدَهُمُ الْأَخُوَّةُ دُونَ الصُّحْبَةِ.

فصل

(معاذته ﷺ مع يهود)

وواعد رسول الله ﷺ مَنْ بِالْمَدِينَةِ مِنَ الْيَهُودِ، وَكَتَبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ كِتَاباً، وَيَادِرَ خَيْرِهِمْ وَعَالَمُهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ، فَدَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ [البخاري: ٣٩٣٨]، وَأَبَى عَامَتُهُمْ إِلَّا الْكُفْرَ.

وكانوا ثلاث قبائل: بنو قَيْنَقَاعَ، وبنو النَّضِيرِ، وبنو قُرَيْظَةَ، وحاربه الثلاثة، فمَنَّ عَلَى بَنِي قَيْنَقَاعَ، وَأَجْلَى بَنِي النَّضِيرِ، وَقَتَلَ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَسَمَى دُرَيْتَهُمْ، وَنَزَلَتْ (سورة الحشر) فِي بَنِي النَّضِيرِ، وَ (سورة الأحزاب) فِي بَنِي قُرَيْظَةَ.

فصل

(تحويل القبلة)

وكان يُصَلِّي إِلَى قَبِيلَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَيُحِبُّ أَنْ يُصَرَّفَ إِلَى الْكَعْبَةِ، وَقَالَ لَجَبْرِيلَ: «وَدِدْتُ أَنْ يُصَرَّفَ

(١) الأحاديث الواردة في مواخاة النبي ﷺ علماً كلها ضعيفة، انظر: والحدِيثُ الَّذِي أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٧٢٢) وَفِيهِ أَنَّهُ ﷺ قَالَ لِعَلِيٍّ: «أَنْتَ أَخِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» وَفِي سَنَدِهِ جَمِيعُ بَنِ عَمِيرٍ، اتَّهَمَهُ ابْنُ حَبَّانَ بِالْوَضْعِ، وَقَالَ ابْنُ نُمَيْرٍ: كَانَ مِنْ أَكْذَبِ النَّاسِ.

- سبحانه - قبلها أمر النسخ وقدرته عليه، وأنه يأتي بخير من المنسوخ أو مثله، ثم عُبِّ ذلك بالتوبيخ لمن تعنت رسول الله ﷺ، ولم يُنْقِذْ له، ثم ذكر بعده اختلاف اليهود والنصارى، وشهادة بعضهم على بعض بأنهم ليسوا على شيء، وحذر عباده المؤمنين من موافقتهم، واتباع أهوائهم، ثم ذكر كفرهم وشركهم به، وقولهم: إن له ولداً، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً، ثم أخبر أن له المشرق والمغرب، وأينما يُؤَلِّي عِبَادَهُ وجوههم، فثم وجهه، وهو الواسع العليم، فلعظمته وسعته وإحاطته أينما يُوجِّه العبد، فثم وجهه اللو.

ثم أخبر أنه لا يسأل رسوله عن أصحاب الجحيم الذين لا يتابعونه ولا يُصدقونه، ثم أعلمه أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى لن يَرْضَوْا عنه حتى يتبع ملتهم، وأنه إن فعل، وقد أعاده الله من ذلك، فماله من اللو من ولي ولا نصير، ثم ذكّر أهل الكتاب بنعمته عليهم، وخوفهم من بأسه يوم القيامة، ثم ذكر خليله باني بيته الحرام، وأثنى عليه ومدحه وأخبر أنه جعله إماماً للناس، يأتهم به أهل الأرض، ثم ذكر بيته الحرام، وبناء خليله له، وفي ضمن هذا أن باني البيت كما هو إمام للناس، فكل ذلك البيت الذي بناه إمام لهم، ثم أخبر أنه لا يَرْعَبُ عن ملة هذا الإمام إلا أسفه الناس، ثم أمر عباده أن يأتوا برسوله الخاتم، ويؤمنوا بما أنزل إليه وإلى إبراهيم، وإلى سائر النبيين، ثم رد على من قال: إن إبراهيم وأهل بيته كانوا هوداً أو نصارى، وجعل هذا كله توطئة ومقدمة بين يدي تحويل القبلة، ومع هذا كله، فقد كَبُرَ ذَلِكَ على الناس إلا مَنْ هدى الله منهم، وأكد سبحانه هذا الأمر مرة بعد مرة، بعد ثالثة، وأمر به رسوله حيثما كان، ومن حيث خرج، وأخبر أن الذي يَهْدِي من يشاء إلى صراط مستقيم هو الذي هداهم إلى هذه القبلة، وأنها هي القبلة التي تليق بهم، وهم أهلها، لأنها أوسط القبل وأفضلها، وهم أوسط الأمم وخيارهم، فاختار أفضل القبل لأفضل الأمم، كما اختار لهم أفضل الرسل، وأفضل الكتب، وأخرجهم في خير القرون، وخصهم بأفضل الشرائع، ومنحهم خير الأخلاق، وأسكنهم

خير الأرض، وجعل منازلهم في الجنة خير المنازل، وموقفهم في القيامة خير المواقع، فهم على تَلٍّ عالٍ، والناس تحتهم، فسبحان من يختص برحمته من يشاء، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وأخبر سبحانه أنه فعل ذلك لثلاث يكون للناس عليهم حُجَّةٌ، ولكن الظالمون الباغون يحتجّون عليهم بتلك الحجج التي ذكّرت، ولا يُعارِضُ الملحّدون الرسل إلا بها وبأمثالها من الحجج الداحضة، وكل من قدّم على أقوال الرسول سيواها، فحجته من جنس حجج هؤلاء.

وأخبر سبحانه أنه فعل ذلك ليُتِمَّ نعمته عليهم، وليهديهم، ثم ذكرهم نعمه عليهم بإرسال رسوله إليهم، وإنزال كتابه عليهم، ليزكيهم ويُعلّمهم الكتاب والحكمة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، ثم أمرهم بذكره ويشكروه، إذ بهنئين الأمرين يستوجبون إتمام نعمه، والمزيد من كرامته، ويستجلبون ذكره لهم، ومحبتهم لهم، ثم أمرهم بما لا يتم لهم ذلك إلا بالاستعانة به، وهو الصبر والصلاة، وأخبرهم أنه مع الصابرين.

فصل

(الثلاث وزيادة الصلاة إلى رباعية)

وأنتم نعمته عليهم مع القبلة بأن شرع لهم الأذان في اليوم واللييلة خمس مرات، وزادهم في الظهر والعصر والعشاء ركعتين أخريين بعد أن كانت ثنائية [البخاري: ١٠٩٠، ومسلم: ١٥٧٠]، فكل هذا كان بعد مقدّمه المدينة.

فصل

(الإن من القتال)

فلما استقرّ رسول الله ﷺ بالمدينة، وأيّد الله بنصره، بعباده المؤمنين الأنصار، وألّف بين قلوبهم بعد العداوة والإحن التي كانت بينهم، فمنعته أنصار الله وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر، وبنلوا نفوسهم دونه وقدموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج، وكان أولى بهم من أنفسهم، رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة، وشكروا لهم

عن ساقِ العداوة والمحاربة، وصاحوا بهم من كُلِّ جانب، واللَّه سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح حتى قويت الشوكة، واشتد الجناح، فأذن لهم حيثُذ في القتال، ولم يفرضه عليهم، فقال تعالى: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

فصل

(هرض القتال)

ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يُقاتلهم فقال: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠].

ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة، وكان محرماً، ثم مآذوناً به، ثم مأموراً به لمن بداهم بالقتال، ثم مأموراً به لجميع المشركين إما فرض عين على أحد القولين، أو فرض كفاية على المشهور.

(التحقيق في مسألة هرضية الجهاد)

والتحقيق أن جنس الجهاد فرض عين إما بالقلب، وإما باللسان، وإما بالمال، وإما باليد، فعلى كُلِّ مسلم أن يُجاهد بنوع من هذه الأنواع.

أما الجهاد بالنفس، ففرض كفاية، وأما الجهاد بالمال، ففي وجوبه قولان، والصحيح وجوبه لأن الأمر بالجهاد به وبالنفس في القرآن سواء، كما قال تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١] وعلق النجاة من النار به، ومغفرة الذنب، ودخول الجنة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَغْرَرٍ يُجْنِبُكُمْ عَنِ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١﴾ تَوَدُّونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ يَقُولُ لَكُمْ دُونُكُمْ وَيَدْخُلُكُمْ جَنَّتُ بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَكُنُ سُبْحَةٍ فِي جَنَّتِ عِنْدَ ذَلِكَ الْغُرُزُ الْعَظِيمِ ﴿٣﴾﴾ [الصَّف: ١٠ - ١٢] وأخبر أنهم إن فعلوا ذلك، أعطاهم ما يُحبون من النصر والفتح القريب فقال: ﴿وَلَنُرِيَنَّكُمْ بَيِّنَاتٍ﴾ [الصَّف: ١٣] أي: ولكم خصلة أخرى تُجبرونها في الجهاد، وهي ﴿نَمُرُ مِنَ اللَّهِ وَنَمُتُ مِنَ قُرَيْشٍ﴾ [الصَّف: ١٣] وأخبر سبحانه أنه ﴿أَشَدُّ مِنْ الْأَنْهَارِ وَأَشَدُّ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِكُمْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [التوبة: ١١١] وأعاضهم عليها الجنة، وأن هذا العقد والوعد قد أودعه أفضل كتبه المنزلة من السماء، وهي التوراة والإنجيل والقرآن، ثم أكد ذلك بإعلامهم أنه لا أحد أوفى بعهده منه تبارك وتعالى، ثم أكد ذلك بأن أمرهم بأن يستبشروا ببيعهم الذي عاقدوه عليه،

وقد قالت طائفة: إن هذا الإذن كان بمكة، والشورة مكية، وهذا غلط لوجه:

أحدها: أن الله لم يأذن بمكة لهم في القتال، ولا كان لهم شوكة يتمكنون بها من القتال بمكة.

الثاني: أن سياق الآية يدل على أن الإذن بعد الهجرة، وإخراجهم من ديارهم، فإنه قال: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْتَ بِقَوْلِ رُسُلَا اللَّهِ﴾ [الحج: ٤٠] وهؤلاء هم المهاجرون.

الثالث: قوله تعالى: ﴿هَذَانِ حَصَمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَسُولِهِ﴾ [الحج: ١٩] نزلت في الذين تبارزوا يوم بدر من الفريقين [البخاري: ٣٩٦٩].

الرابع: أنه قد خاطبهم في آخرها بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ١٠٤] والخطاب بذلك كله مدني، فأما الخطاب ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فمشترك.

الخامس: أنه أمر فيها بالجهاد الذي يُعمُ الجهاد باليد وغيره، ولا ريب أن الأمر بالجهاد المطلق إنما كان بعد الهجرة، فأما جهاد الحجة، فأمر به في مكة بقوله: ﴿فَلَا تَطْعَمُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢] فهذه سورة مكية، والجهاد فيها هو التبليغ، وجهاد الحجة، وأما الجهاد المأمور به في (سورة الحج) فيدخل فيه الجهاد بالسيف.

السادس: أن الحاكم روى في «مستدرکه» من حديث الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما خرج رسول الله ﷺ مِنْ مَكَّةَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرِجُوا نَبِيَّهُمْ، إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ لِيَهْلِكُنَّ، فَأَنزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَلِدْ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾ [الحج: ٣٩] وهي أول آية نزلت في القتال [الحاكم (٢/٦٦) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي]. وإسناده على شرط «الصحيحين» وسياق السورة يدل على أن فيها المكي والمدني، فإن

ثم أعلمهم أن ذلك هو الفوز العظيم.

فليتأمل العاقد مع ربه عقد هذا التباع ما أعظم خطرَه وأجلَه، فإن الله عز وجل هو المشتري، والتمن جنات النعيم، والفوز برضاه، والتمتع برؤيته هناك؛ والذي جرى على يده هذا العقد أشرف رسله وأكرمهم. عليه من الملائكة والبشر، وإن سلعة هذا شأنها لقد هيئت لأمر عظيم وخَطْب جسيم: قَدْ هَيَّوْكَ لِأَمْرِ لَوْ قَطُنْتَ لَهُ

فَارَبَّا بِتَفْسِيكَ أَنْ تَرَعَى مَعَ الْهَمَلِ (١) مهرُ المحبة والجنة بذل النفس والمال للمالكهما الذي اشتراهما من المؤمنين، فما للجبان المعرض المُفْلِس وسوم هذه السلعة، بالله ما هزلت فيستامها المفلسون، ولا كسدت، فيبيعها بالنسيئة المُعْصِرُونَ، لقد أقيمت للعرض في سوق من يُريد، فلم يرض رُبُّها لها بتمن دون بذل النفوس، فتأخر البطالون، وقام المحبون ينتظرون أيُّهم يصلح أن يكون نفسه الثمن، فدارت السلعة بينهم، ووقعت في يد (أَوَّلُو عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَمْرًا عَلَى الْكَافِرِينَ) [المائدة: ٥٤].

(شروحه ٢٢٢ بعيراً من جابر)

لما كثر المدعون للمحبة، طَوَّلُوا بإقامة البيئة على صحة الدعوى، فلو يُعطى الناس بدعواهم، لادّعى الخَلْقُ جرقة الشَّجِي، فتتوعد المدعون في الشهود، فقيل: لا تثبت هذه الدعوى إِلَّا بِبَيِّنَةٍ (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) [آل عمران: ٣١] فتأخر الخلق كُلُّهم، وثبت أتباع الرسول في أفعاله وأقواله وهديه وأخلاقه، فطَوَّلُوا بعدالة البيئة، وقيل: لا تُقْبَلُ العدالة إِلَّا بِتَرْكِة (يُحِبُّهُمُ اللَّهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُؤُنَ لَوْمَةً لَآخِرَةً) [المائدة: ٥٤] فتأخر أكثر المدعين للمحبة، وقام المجاهدون، فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم، فسلموا ما وقع عليه العقد، فإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وعقد التباع يوجب التسليم من الجانبين، فلما رأى التجارُ عظمة المشتري وقدر الثمن، وجلالة قدر من جرى عقد التباع على يديه، ومقدار الكتاب الذي أثبت فيه هذا العقد، عرفوا أن للسلعة قدراً وشأناً

ليس لغيرها من السلع، فراوا من الخسران البين والغبن الفاحش أن يبيعوها بتمن بخس ذراهم معدودة، تذهب لذتها وشهوئها، وتبقى تبعثها وحسرتها، فإن فاعل ذلك معدود في جملة السفهاء، فمقدوا مع المشتري ببيعة الرضوان رضى واختياراً من غير ثبوت خيار، وقالوا: والله لا نقيلك ولا نستقيلك فلما تم العقد، وسلموا المبيع، قيل لهم: قد صارت أنفسكم وأموالكم لنا، والآن فقد ردناها عليكم أوفر ما كانت وأضعاف أموالكم معها (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ) [آل عمران: ١٦٩] لم نبتع منكم نفوسكم وأموالكم طلباً للربح عليكم، بل ليظهر أثر الجود والكرم في قبول المبيع والإعطاء عليه أجل الأثمان، ثم جمعنا لكم بين الثمن والمؤمن. تأمل قصة جابر بن عبد الله (وقد اشترى منه ﷺ بعيره، ثم وفاه الثمن وزاده، وردَّ عليه البعير) [البخاري: ٢٣٠٩، ومسلم: ١٩٠ - ٢٨٠٠] فسيحان من عظم جوده وكرمه أن يحيط به علم الخلاق، فقد أعطى السلعة، وأعطى الثمن، ووفق لتكميل العقد، وقبل المبيع على عيه، وأعاض عليه أجل الأثمان، واشترى عبده من نفسه بماله، وجمع له بين الثمن والمؤمن، وأثنى عليه، ومدحه بهذا العقد، وهو سبحانه الذي وفقه له، وشاء منه.

فَحَبَّالًا إِنْ كُنْتَ ذَا هِمَّةٍ فَقَدْ حَدَا بِكَ حَادِي الشَّوْقِ فَاطُورِ الْمَرَاجِلَا وَقُلْ لِمَنَادِي حُبِّهِمْ وَرِضَاهُمْ إِذَا مَا دَعَا لَيْسَ لَكَ أَلْفًا كَوَامِلًا وَلَا تَنْظُرِ الْأَطْلَالَ مِنْ دُونِهِمْ فَإِنْ نَظَرْتَ إِلَى الْأَطْلَالِ غَدَنَ حَوَائِلًا وَلَا تَنْتَظِرُ بِالسَّيْرِ رَفْقَةً قَاعِدٍ وَدَعُهُ فَإِنَّ الشَّوْقَ يَكْفِيكَ حَامِلًا وَخُذْ مِنْهُمْ زَادًا إِلَيْهِمْ وَيَسِّرْ عَلَى طَرِيقِ الْهُدَى وَالْحُبِّ تُصْبِحُ وَاصِلًا

وقال: «مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ اللَّائِي بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ وَلَا صَلَاةٍ حَتَّى يَرْجِعَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَتَوَكَّلَ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ بِأَنْ يَتَوَفَّاهُ أَنْ يُذِخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ سَالِمًا مَعَ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ» [البخاري: ٢٧٨٦].

وقال: «غَدَاةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ زَوْجَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» [البخاري: ٢٧٩٢، ومسلم: ٤٨٧٣].

وقال فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: «أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي خَرَجَ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِي ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي، ضَمِنْتُ لَهُ أَنْ أَرْجِعَهُ إِنْ أَرْجَعْتُهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ، وَإِنْ قَبَضْتُهُ أَنْ أَغْفِرَ لَهُ وَأَرْحَمَهُ وَأُذِخِلَهُ الْجَنَّةَ» [حسن لغيره: النساوي (١٨/٦)].

وقال: «جَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يُنْجِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهَمِّ وَالْعَمَلِ» [حسن: أحمد: ٢٢٦٨٠].

وقال: «أَنَا زَعِيمٌ - وَالزَّعِيمُ الْحَمِيلُ - لِمَنْ آمَنَ بِي، وَأَسْلَمَ وَهَاجَرَ بَيْتِي فِي رِبْعِ الْجَنَّةِ، وَبَيْتِي فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ، وَأَنَا زَعِيمٌ لِمَنْ آمَنَ بِي وَأَسْلَمَ، وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَيْتِي فِي رِبْعِ الْجَنَّةِ، وَبَيْتِي فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ، وَبَيْتِي فِي أَعْلَى غُرَبِ الْجَنَّةِ، مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، لَمْ يَدْعُ لِلْخَيْرِ مُطْلَبًا، وَلَا مِنَ الشَّرِّ مَهْرَبًا يَمُوتُ حَيْثُ شَاءَ أَنْ يَمُوتَ» [حسن: النساوي (٢١/٦)].

وقال: «مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ فُوقَ نَاقَةٍ، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ» [صحيح: أبو داود: ٢٥٤١، والنساوي (٢٥/٦)].

وقال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاَسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ» [البخاري: ٢٧٩٠].

وقال لأبي سعيد: «مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ» فعجب لها أبو سعيد، فقال: أَعَدَّهَا عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَعَلَ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَأُخْرَى يَرْفَعُ اللَّهُ بِهَا الْعَبْدَ مِائَةَ دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ

وَأَخِي بِذِكْرَاهُمْ شِرَاكَ إِذَا دَنَتْ رِكَابُكَ قَالِدُكَرَى تُعِينُكَ عَابِلًا وَإِنَّا نَخَافَنَّ الْكَلَالَ قُلْ لَهَا أَمَامِكَ وَرَدُّ الْوَضَلِ قَابِغِي الْمَنَابِلَا وَخُذْ قَبَسًا مِنْ نُورِهِمْ ثُمَّ يَزِي بِه قُتُورُهُمْ يَهْدِيكَ لَيْسَ الْمَشَاعِلَا وَحَيَّ عَلَى وَادِي الْأَرَاكِ قُفْلٌ بِهِ عَسَاكَ تَرَاهُمْ ثُمَّ إِنْ كُنْتَ قَائِلًا وَلَا قَفِي نَعْمَانِ عِنْدِي مَعْرُوفُ ال أَحَبُّ فَاظْلُبْهُمْ إِذَا كُنْتَ سَائِلًا وَلَا قَفِي جَنِّعْ بِلَيْلَتِهِ فَإِنْ تَقَتَّ فَمَيَّ يَا وَنَحْ مَنْ كَانَ غَافِلًا وَحَيَّ عَلَى جَنَابِ عَذْنٍ فَإِنَّهَا مَنَازِلُكَ الْأَوَّلَى بِهَا كُنْتَ نَازِلًا وَلَكِنْ سَبَاكَ الْكَاشِحُونَ لِأَجْلِ ذَا وَقَفْتَ عَلَى الْأَطْلَالِ تَبْكِي الْمَنَازِلَا وَحَيَّ عَلَى يَوْمِ الْمَزِيدِ بِجَنَّةِ ال خُلُودِ فَعُجِدْ بِالنَّفْسِ إِنْ كُنْتَ بَاذِلًا فَذَغَهَا رُسُومًا دَارِسَاتٍ فَمَا بِهَا مَقِيلٌ وَجَاوِزَهَا فَلَيْسَتْ مَنَازِلَا رُسُومًا عَفَتْ يَتَنَابَهَا الْخَلْقُ كَمَ بِهَا قَتِيلٌ وَكَمَ فِيهَا لِذَا الْخَلْقِ قَائِلًا وَخُذْ يَمْنَةً عَنْهَا عَلَى الْمَنْهَجِ الَّذِي عَلَيْهِ سَرَى وَفَدَّ الْأَجْبَةَ آهِلَا وَقُلْ سَاعِدِي يَأْتِفُ بِالصَّبْرِ سَاعَةً فَبِعِذِّ اللَّقَا ذَا الْكُدِّ يُضْبِحُ زَائِلًا فَمَا مَيَّ إِلَّا سَاعَةً ثُمَّ تَنْقَضِي وَتُضْبِحُ دُو الْأَخْزَانِ فَرَحَانَ جَاذِلَا

لقد حرك الداعي إلى الله، وإلى دار السلام النفوس الأبية، والهمم العالية، وأسمع منادي الإيمان من كانت له أذن واعية، وأسمع الله من كان حيا، فهزه السماع إلى منازل الأبرار، وحدا به في طريق سيره، فما حظت به رحاله إلا بدار القرار فقال: «انْتَدَبَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا لِمَانٍ بِي، وَتَضَدِّقُ بِرُسُلِي أَنْ أَرْجِعَهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ أَوْ أُذِخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَلَوْلَا أَنْ أَشَقَّ عَلَى أُمَّتِي مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ، وَلَوْ دِدْتُ أَنِّي أَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ أَحْيَا، ثُمَّ أَقْتُلُ، ثُمَّ أَحْيَا، ثُمَّ أَقْتُلُ» [البخاري: ٣٦].

مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» قَالَ:
وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»
[مسلم: ٤٨٧٩].

وقال: «مَنْ أَنْفَقَ رُوحَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، دَعَاَهُ
خَزَنَةُ الْجَنَّةِ كُلُّ خَزَنَةٍ بَابٍ، أَيْنِ قُلْ هَلُمَّ، فَمَنْ كَانَ
مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ
مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ
مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، وَمَنْ كَانَ
مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الرِّيَّانِ» فقال أبو
بكر: يَا بَنِي أَنْتَ وَآمِي يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ
مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ مِنْ ضُرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ
تِلْكَ الْأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ وَارْجُو أَنْ تَكُونَ
مِنْهُمْ» [البخاري: ١٨٩٦، ومسلم: ٢٣٧١].

وقال: «مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فَاضِلَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ،
فَسَبَّعُمُتْ، وَمَنْ أَنْفَقَ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِيهِ، وَعَادَ مَرِيضاً
أَوْ أَمَاتَ الْأَدَى عَنْ طَرِيقٍ، فَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا،
وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ مَا لَمْ يَخْرِقْهَا، وَمَنْ ابْتَلَاهُ اللَّهُ فِي
جَسَدِهِ فَهُوَ لَهُ حِطَّةٌ» [أحمد: ١٦٩٠].

وذكر ابن ماجه عنه: «مَنْ أَرْسَلَ بِنَفَقَةٍ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ، وَأَقَامَ فِي بَيْتِهِ فَلَهُ بِكُلِّ دِرْهَمٍ سَبْعُمُتٌ دِرْهَمٌ،
وَمَنْ غَزَا بِنَفْسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَنْفَقَ فِي وَجْهِهِ
ذَلِكَ، فَلَهُ بِكُلِّ دِرْهَمٍ سَبْعُمِائَةِ أَلْفٍ دِرْهَمٌ» ثم تلا
هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يُكْفِلُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١] ابن
ماجه: ٢٧٦١، وفي سننه مجهول.

وقال: «مَنْ أَعَانَ مُجَاهِداً فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ غَارِماً
فِي غَزْوِهِ أَوْ مَكَاتِباً فِي رَقَبَتِهِ أَظَلَّهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا
ظِلُّ إِلَّا ظِلُّهُ» [ضعيف: أحمد: ١٥٩٨٧، والحاكم (٢/٢١٧)].
وقال: «مَنْ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَرَّمَهُ اللَّهُ
عَلَى النَّارِ» [البخاري: ٩٠٧].

وقال: «لَا يَجْتَمِعُ شُحٌّ وَإِيمَانٌ فِي قَلْبِ رَجُلٍ
وَاحِدٍ، وَلَا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ
فِي وَجْهِ عَبْدٍ» وفي لفظ «فِي قَلْبِ عَبْدٍ» وفي لفظ «فِي
جَوْفِ امْرِئٍ» وفي لفظ «فِي مَنْحَرَيْ مُسْلِمٍ» [حسن
لغيره: أحمد: ٧٤٨٠، والنسائي (١/١٢)].

وذكر الإمام أحمد رحمه الله تعالى: «مَنْ اغْبَرَّتْ

قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَهَمَّا حَرَامٌ عَلَى
النَّارِ» [صحيح: أحمد: ٢١٩٦٣].

وذكر عنه أيضاً أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَجْتَمِعُ اللَّهُ فِي جَوْفِ
رَجُلٍ غُبَاراً فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ، وَمَنْ اغْبَرَّتْ
قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، حَرَّمَ اللَّهُ سَائِرَ جَسَدِهِ عَلَى النَّارِ،
وَمَنْ صَامَ يَوْمَاً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، بَاعَدَ اللَّهُ عَنْهُ النَّارَ
مَسِيرَةَ أَلْفِ سَنَةٍ لِلرَّاكِبِ الْمُسْتَعْجِلِ، وَمَنْ جُرِحَ
جِرَاحَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، حُتِمَ لَهُ بِحَاتِمِ الشَّهَادَةِ، لَهُ نُورٌ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَوْنُهَا لَوْنُ الرَّعْفَرَانِ، وَرِيحُهَا رِيحُ الْمِسْكِ
يَغْرِفُهَا بِهَا الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ، وَيَقُولُونَ: فَلَانٌ عَلَيْهِ
طَابِعُ الشَّهَادَةِ، وَمَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَوَاقٍ نَاقَةً،
وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ» [أحمد: ٢٧٥٠٣، ورجاله ثقات].

وذكر ابن ماجه عنه: «مَنْ رَاحَ رُوحَةً فِي سَبِيلِ
اللَّهِ، كَانَ لَهُ بِمِثْلِ مَا أَصَابَتْهُ مِنَ الْغُبَارِ مِثْكَالُ يَوْمِ
الْقِيَامَةِ» [حسن: ابن ماجه: ٢٧٧٥].

وذكر أحمد - رحمه الله - عنه: «مَا خَالَطَ قَلْبَ
امْرِئٍ رَمَحٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ»
[صحيح: أحمد: ٢٤٥٤٨].

وقال: «رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا
عَلَيْهَا» [البخاري: ٢٨٩٢].

وقال: «رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ،
وَإِنْ مَاتَ، جَزِيَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ
عَلَيْهِ رِزْقُهُ وَأَمِنَ الْفِتَانُ» [مسلم: ٤٩٣٨].

وقال: «كُلُّ مَيِّتٍ يُحْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الَّذِي مَاتَ
مُرَاطِطاً فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يَنْمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ
الْقِيَامَةِ، وَيُؤْمَنُ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ» [حسن: أبو داود: ٢٥٠٠،
والترمذي: ١٦٢١].

وقال: «رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ يَوْمٍ
فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَنَازِلِ» [حسن: أحمد: ٤٤٢، والترمذي:
١٦٦٧، والنسائي (٢٩/٦)].

وذكر ابن ماجه عنه: «مَنْ رَاطَبَ لَيْلَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ،
كَانَتْ لَهُ كَأَلْفِ لَيْلَةٍ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا» [حسن: أحمد:
٤٦٣، وابن ماجه: ٢٧٦٦].

وقال: «مَقَامُ أَحَدِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ
أَحَدِكُمْ فِي أَهْلِهِ سِتِّينَ سَنَةً، أَمَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ
لَكُمْ وَتَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، جَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَنْ

قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَوَاقٍ نَاقِوً، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ [حسن]:
أحمد: ٩٧٦٢، والترمذي: ١٦٥٠.

وذكر أحمد عنه: «مَنْ رَاقَبَ فِي شَيْءٍ مِنْ سَوَاجِلِ
الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَجْرَتْ عَنْهُ رِيَابَ سَنَةٍ [أحمد]:
٢٧٧٠٤٠.

وذكر عنه أيضاً: «حَرَسُ لَيْلَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ
مِنْ أَلْفِ لَيْلَةٍ يَقَامُ لَيْلَهَا، وَيُصَامُ نَهَارُهَا» [حسن: أحمد]:
٤٣٣.

وقال: «حَرُمَتِ النَّارُ عَلَى عَيْنٍ دَمَعَتْ أَوْ بَكَتْ مِنْ
خَشْيَةِ اللَّهِ، وَحَرُمَتِ النَّارُ عَلَى عَيْنٍ سَهَرَتْ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ» [حسن: أحمد: ١٧٢١٣، والنسائي: ١٥٠/٦].

وذكر أحمد عنه: «مَنْ حَرَسَ مِنْ وَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ مُتَطَوِّعًا لَا يَأْخُذُهُ سُلْطَانٌ، لَمْ يَرِ النَّارَ
بَعِيْنِيَّةً إِلَّا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَلَنْ يَنْكَرَ إِلَّا
وَارِدُهَا﴾ [مرتب: ٧١] [ضعيف: أحمد: ١٥٦١٢].

وقال ليرجل حَرَسَ المسلمین ليلة في سفرهم من
أولها إلى الصباح عَلَى ظَهْرِ فَرَسِهِ لَمْ يَنْزِلْ إِلَّا لَصَلَاةٍ
أَوْ قَضَاءِ حَاجَةٍ: «قَدْ أَوْجَبَتْ فَلَا عَلَيْكَ إِلَّا تَعْمَلَ
بَعْدَهَا» [صحیح: أبو داود: ٢٥٠١].

(فضل الرمي)

وقال: «مَنْ بَلَغَ بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَلَهُ دَرَجَةٌ فِي
الْجَنَّةِ» [صحیح: أبو داود: ٣٩٦٥، والنسائي: ٢٧/٦].

وقال: «مَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَهُوَ عِذْلٌ
مُحَرَّرٌ، وَمَنْ شَابَ شَيْئَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كَانَتْ لَهُ نُورًا
يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [صحیح: أحمد: ١٧٠٢٤، والترمذي: ١٦٦٨]
وعند النسائي تفسير الدرجة بمئة عام، (١).

وقال: «إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ الْجَنَّةَ:
صَانِعُهُ يَخْتَصِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْخَيْرَ، وَالْمُجِدُّ بِهِ،
وَالرَّامِي بِهِ، وَارْتُمُوا وَارْكَبُوا، وَأَنْ تَرْتُمُوا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ
أَنْ تَرْكَبُوا، وَكُلُّ شَيْءٍ يَلْهُو بِهِ الرَّجُلُ فَبَاطِلٌ إِلَّا رَمِيَّةُ
بِقَوْسِهِ، أَوْ تَأْذِيهِ فَرَسِهِ، وَمَلَاعِيَتِهِ أَمْرَانِهِ، وَمَنْ عَلِمَهُ
اللَّهُ الرَّمِيَّ، فَتَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ، فَنِعْمَةً كَفَرَهَا» رواه أحمد
وأهل السنن [حسن: أحمد: ١٧٣٠٠، وأبو داود: ٢٥١٣]

وعند ابن ماجه «مَنْ تَعَلَّمَ الرَّمِيَّ ثُمَّ تَرَكَهُ، فَقَدْ
عَصَانِي» [ابن ماجه: ٢٨١٤].

وذكر أحمد عنه أَنَّ رجلاً قال له: أَوْصِنِي فَقَالَ:
«أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ، وَعَلَيْكَ
بِالْجِهَادِ، فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ الْإِسْلَامِ، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللَّهِ
وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ رُوحُكَ فِي السَّمَاءِ، وَذِكْرُكَ لَكَ فِي
الْأَرْضِ» [حسن: أحمد: ١١٧٧٤].

وقال: «فِرْزَةُ سَنَامِ الْإِسْلَامِ الْجِهَادُ» [صحیح بطرته:
أحمد: ٢٢٠١٦، والترمذي: ٢٦١٩].

وقال: «ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: الْمَجَاهِدَةُ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمُكَاتَبَةُ الَّتِي يُرِيدُ الْأَذَاءَ، وَالنَّاسِخُ
الَّذِي يُرِيدُ الْعَفَاةَ» [حسن: أحمد: ٧٤١٦، والترمذي:
١٦٥٥، وابن ماجه: ٢٥١٨].

وقال: «مَنْ مَاتَ، وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ،
مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ» [مسلم: ٤٩٣١].

وذكر أبو داود عنه: «مَنْ لَمْ يَغْزُ، أَوْ يُجَاهِزْ
غَازِيًا، أَوْ يُخَالِفْ غَازِيًا فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ، أَصَابَهُ اللَّهُ
بِقَارِعَةٍ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ» [صحیح: أبو داود: ٢٥٠٣، وابن
ماجه: ٢٧٦٧].

وقال: «إِذَا صَنَعَ النَّاسُ بِالْبَيْتَارِ وَالذَّرْهَمِ، وَتَبَايَعُوا
بِالْبَيْعَةِ، وَاتَّبَعُوا أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَتَرَكُوا الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ، أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ بَلَاءً، فَلَمْ يَرْفَعْهُ عَنْهُمْ حَتَّى
يُرَاجِعُوا دِينَهُمْ» [حسن: أحمد: ٤٨٢٥، وأبو داود: ٣٤٦٢].

وذكر ابن ماجه عنه: «مَنْ لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ،
وَلَيْسَ لَهُ أَثَرٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لَقِيَ اللَّهَ، وَفِيهِ ثُلْمَةٌ»
[الترمذي: ١٦٦٦، وابن ماجه: ٢٧٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:
١٩٥]، وفسر أبو أيوب الأنصاري الإلقاء باليد إلى
التهلكة بِتَرْكِ الْجِهَادِ [أبو داود: ٢٥١٢، والترمذي: ٢٩٧٦]،
وصح عنه ﷺ: «إِنَّ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ تَحْتَ ظِلَالِ
السُّيُوفِ» [مسلم: ٤٩١٦].

وصح عنه ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ لِيَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ فِي
الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» [البخاري: ٢٨١٠، ومسلم:
٤٩٢٠].

(١) وصحها ابن حبان (١٦٤٣) وقد ذكر المؤلف أن تفسيرها عند النسائي بخمسة عام، وهو وهم منه رحمه الله.

يَوْمَ بَدْرٍ، فَسَأَلَتْهُ أَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: «إِنَّهُ فِي الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى» [البخاري: ٢٨٠٩].

وقال: «إِنَّ أَرْوَاحَ الشَّهَدَاءِ فِي حُجُوفِ طَيْرٍ خَضِرٍ، لَهَا قَنَادِيلٌ مُمَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطْلُعُ إِلَيْهِمْ رُبُّهُمْ اِطْلَاعَةً، فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ فَقَالُوا: أَيْ شَيْءٍ نَشْتَهِي، وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، فَقَعَلَ بِهِمْ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يَتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نَقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرَكُّوا» [مسلم: ٤٨٨٥].

وقال: «إِنَّ لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ خِصَالًا أَنْ يُغْفَرَ لَهُ مِنْ أَوَّلِ دَفْعَةٍ مِنْ دَمِيهِ، وَيُرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُحَلَّى جِلْبَةَ الْإِيمَانِ، وَيُزَوَّجُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُجَارَى مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْقَرْعِ الْأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، الْيَاقُوتَةُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا. وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُسْفَعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَقَارِبِهِ» ذكره أحمد وصححه الترمذي [صحيح: أحمد: ١٧١٨٢، والترمذي: ١٦٦٣، وابن ماجه: ٢٧٩٩].

وقال لجابر: «أَلَا أَخْبِرُكَ مَا قَالَ اللَّهُ لَأَيُّكُم؟» قال: بلى، قال: «مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَكَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا، فَقَالَ: يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيَّ أَغْطِكَ، قَالَ: يَا رَبِّ تُحْيِيَنِي فَأَقْتُلَ فِيكَ ثَانِيَةً، قَالَ: إِنَّهُ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يَرْجِعُونَ قَالَ: يَا رَبِّ فَأَبْلِغْ مَنْ وَرَائِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَدُّونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] [الترمذي: ٣٠١٣، وابن ماجه: ٢٨٠٠].

وقال: لَمَّا أَصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأَحَدٍ جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خَضِرٍ، تَرُدُّ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، وَتَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلٍ مِنْ دَهَبٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طَيْبَ مَا كُلِيهِمْ وَمَشْرَبِيهِمْ

وَصَحَّ عَنْهُ ﷺ: «إِنَّ النَّارَ أَوَّلُ مَا تُسْعَرُ بِالنَّعَالِمِ وَالْمَنْفِقِ وَالْمَقْتُولِ فِي الْجِهَادِ إِنَّا قَعَلُوا ذَلِكَ لِيَقَالَ» [مسلم: ٤٩٢٣].

وَصَحَّ عَنْهُ ﷺ: «أَنْ مَنْ جَاهَدَ يَبْتَغِي عَرْضَ الدُّنْيَا، فَلَا أَجْرَ لَهُ» [قوي بشواهد: أحمد: ٨٧٩٣، وأبو داود: ٢٥١٦].

وَصَحَّ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو: «إِنْ قَاتَلْتَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا، بَعَثَكَ اللَّهُ صَابِرًا مُحْتَسِبًا، وَإِنْ قَاتَلْتَ مُرَائِيًا مُكَاثِرًا، بَعَثَكَ اللَّهُ مُرَائِيًا مُكَاثِرًا، يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو عَلَى أَيِّ وَجْهِ قَاتَلْتَ أَوْ قُتِلْتَ، بَعَثَكَ اللَّهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ» [أبو داود: ٢٥١٩].

فصل

وَكَانَ يَسْتَحِبُّ الْقِتَالَ أَوَّلَ النَّهَارِ، كَمَا يَسْتَحِبُّ الْخُرُوجَ لِلسَّفَرِ أَوَّلَهُ، فَإِنْ لَمْ يَقَاتِلْ أَوَّلَ النَّهَارِ، أَخَّرَ الْقِتَالَ حَتَّى تَزُولَ الشَّمْسُ، وَتَهْبِ الرِّيحُ وَيَنْزِلَ النَّضْرُ [أبو داود: ٢٦٠٦، والترمذي: ٢٧١٢].

فصل

قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَكُلُّمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - وَاللَّهُ أَغْلَمُ بِمَنْ يَكُلُّمُ فِي سَبِيلِهِ - إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ اللَّوْنُ لَوْنِ الدِّمِّ، وَالرِّيحُ رِيحُ الْمِسْكِ» [مسلم: ٤٨٦٢].

وفي الترمذي عنه «لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ قَطْرَتَيْنِ أَوْ اثْنَتَيْنِ، قَطْرَةٌ دَمْعَةٍ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَقَطْرَةٌ دَمٍ تُهْرَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَمَّا الْأَثَرَانِ، فَأَتَرَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَتَرَفِي فَرِيضَةٍ مِنْ فَرَاثِصِ اللَّهِ» [الترمذي: ١٦٦٩].

(فضل الشهيد)

وصحَّ عنه أنه قال: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَمُوتُ، لَهُ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لَا يَسْرُهُ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا، وَأَنْ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، إِلَّا الشَّهِيدَ لَمَّا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ، فَإِنَّهُ يَسْرُهُ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا، فَيَقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى» وفي لفظ: «فَيَقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ لَمَّا يَرَى مِنَ الْكَرَامَةِ» [البخاري: ٢٨١٧، ومسلم: ٤٨٦٨].

وقال لَامَ حَارِثَةَ بِنْتَ الثُّعْمَانِ، وَقَدْ قُتِلَ ابْنُهَا مَعَهُ

وَحَسَنَ مَقِيلِهِمْ، قَالُوا: يَا لَيْتَ إِخْوَانَنَا يَعْلَمُونَ مَا صَنَعَ اللَّهُ لَنَا لِقَلَّا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، وَلَا يَنْكَلُوا عَنِ الْحَرْبِ، فَقَالَ اللَّهُ: أَنَا أَبْلَغُهُمْ عَنَكُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ هَذِهِ الْآيَاتِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ [آل عمران: ١٦٩] [صحيح: أحمد: ٢٣٨٨، وابو داود: ٢٥٢٠].

وفي «المسند» مرفوعاً: «الشُّهَدَاءُ عَلَى بَارِقٍ نَهْرٍ بِيَابِ الْجَنَّةِ، فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بَكْرَةً وَعَشِيَّةً» [صحيح: أحمد: ٢٣٩٠].

وقال: «لَا تَجِفُّ الْأَرْضُ مِنْ دَمِ الشَّهِيدِ حَتَّى يَتَبَدَّرَ رُوحُهَا، كَأَنَّهَا ظِلْرَانٌ أَضَلَّتَا فَصَلَبَهُمَا بِرَاحٍ مِنَ الْأَرْضِ يَبِيدُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا حُلَّةً خَيْرَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» [ضعيف: أحمد: ٧٩٥٥، وابن ماجه: ٢٧٩٨].

وفي «المستدرک» والنسائي مرفوعاً: «لَأَنْ أَقْتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَالْوَيْلُ» [صحيح: أحمد: ١٧٨٩٤، والنسائي (٣٣/٦)].

وفيهما: «مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنَ الْقَتْلِ إِلَّا كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنْ مَسِّ الْقَرْصَةِ» [حسن: أحمد: ٧٩٥٣، والترمذي: ١٦٦٨، والنسائي (٣٦/٦)].

وفي «السنن»: «يَشْفَعُ الشَّهِيدُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ» [ابو داود: ٢٥٢٢].

وفي «المسند»: «أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ الَّذِينَ إِنْ يَلْقَوْا فِي الصَّفِّ لَا يَلْمُتُونَ وَجوهَهُمْ حَتَّى يُقْتَلُوا، أَوْ لِيَكُ يَنْتَلِبُونَ فِي الْغُرَبِ الْعُلَى مِنَ الْجَنَّةِ، وَيَضْحَكُ إِلَيْهِمْ رَبُّكَ، وَإِذَا ضَحِكَ رَبُّكَ إِلَى عَبْدٍ فِي الدُّنْيَا، فَلَا حِسَابَ عَلَيْهِ» [صحيح: أحمد: ٢٢٤٧٦].

وفيه: «الشُّهَدَاءُ أَرْبَعَةٌ: رَجُلٌ مُؤْمِنٌ جَيِّدُ الْإِيمَانِ لَقِيَ الْعَدُوَّ، فَصَدَّقَ اللَّهَ حَتَّى قُتِلَ، فَذَلِكَ الَّذِي يَرْفَعُ إِلَيْهِ النَّاسُ أَغْنَاهُمْ، وَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَأْسَهُ حَتَّى وَقَعَتْ فَلَنْسَوْتُهُ، وَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ جَيِّدُ الْإِيمَانِ، لَقِيَ الْعَدُوَّ فَكَأَنَّمَا يُضْرَبُ جِلْدُهُ بِشَوْكِ الطَّلَحِ أَتَاهُ سَهْمٌ غَرِبَ، فَقَتَلَهُ، هُوَ فِي الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ، وَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ جَيِّدُ الْإِيمَانِ، خَلَطَ عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا لَقِيَ الْعَدُوَّ فَصَدَّقَ اللَّهَ حَتَّى قُتِلَ، فَذَلِكَ فِي الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ، وَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ أَشْرَفَ عَلَى

نَفْسِهِ إِسْرَافًا كَثِيرًا لَقِيَ الْعَدُوَّ فَصَدَّقَ اللَّهَ حَتَّى قُتِلَ، فَذَلِكَ فِي الدَّرَجَةِ الرَّابِعَةِ» [ضعيف: أحمد: ١٥٠].

وفي «المسند» و«صحيح ابن حبان»: «الْقَتْلَى ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ مُؤْمِنٌ جَاهِدَ بِمَالِهِ وَنَفْسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى يُقْتَلَ، فَذَلِكَ الشَّهِيدُ الْمُتَمَتِّنُ فِي حَيَمَةِ اللَّهِ تَحْتَ عَرْشِهِ، لَا يُفْضَلُهُ النَّبِيُّونَ إِلَّا بِدَرَجَةِ النَّبِيِّ، وَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ فَرَّقَ عَلَى نَفْسِهِ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا، جَاهِدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ، قَاتَلَ حَتَّى يُقْتَلَ، فَذَلِكَ مُضْمِصَةٌ مَحْتٌ ذُنُوبُهُ وَخَطَايَاهُ، إِنَّ السَّيْفَ مَحَاءُ الْخَطَايَا، وَأَدْخِلَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شَاءَ، فَإِنَّ لَهَا ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ، وَلِجَهَنَّمَ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ، وَبَعْضُهَا أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ، وَرَجُلٌ مُتَأَفِّقٌ جَاهِدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، حَتَّى إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ، قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يُقْتَلَ، فَإِنَّ ذَلِكَ فِي النَّارِ، إِنَّ السَّيْفَ لَا يَمْسَحُو الثَّقَاقُ» [حسن: أحمد: ١٧٦٥٧، والدارمي (٢٠٦/٢-٢٠٧)].

وصح عنه: «أَنْتَ لَا يَجْتَمِعُ كَافِرٌ وَقَاتِلُهُ فِي النَّارِ أَبَدًا» [سلم: ٤٨٩٥].

وسئل أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: «مَنْ جَاهَدَ الْمُشْرِكِينَ بِمَالِهِ وَنَفْسِهِ» قيل: فَأَيُّ الْقَتْلِ أَفْضَلُ؟ قال: «مَنْ أَهْرَيْقَ دَمَهُ، وَعَقَرَ جَوَادَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» [ابو داود: ١٤٤٩، والنسائي (٥٨/٥)].

وفي «سنن ابن ماجه»: «إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْجِهَادِ كَلِمَةً عَدَلَ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ» [ابو داود: ٤٣٤٤، والترمذي: ٢١٧٤، وابن ماجه: ٤٠١١، وهو لأحمد والنسائي مرسلًا].

وصح عنه: «أَنْتَ لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يَقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَفْشِرُهُمْ مِنْ خَذَلَهُمْ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ» [البخاري: ٧٣١١، ومسلم: ٢٣٩٢] وفي لفظ: «حَتَّى يَقَاتِلَ آخِرُهُمُ الْمَسِيحُ الدَّجَالُ».

فصل

(مبايعته ﷺ اصحابه)

وكان النبي ﷺ يُبَايِعُ أَصْحَابَهُ فِي الْحَرْبِ عَلَى أَلَّا يَفِرُّوا، وَرُبَّمَا يَابِعُهُمْ عَلَى الْمَوْتِ، وَيَابِعُهُمْ عَلَى الْجِهَادِ كَمَا يَابِعُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَيَابِعُهُمْ عَلَى الْهَجْرَةِ قَبْلَ الْفَتْحِ، وَيَابِعُهُمْ عَلَى التَّوْحِيدِ،

والتزام طاعة الله ورسوله، وبإيعان نفراً من أصحابه ألا يسألوا الناس شيئاً.

وكانَ السَّوْطُ يَنْقُطُ مِنْ يَدِ أَحَدِهِمْ، فَيَنْزِلُ عَنْ دَابَّتِهِ، فَيَأْخُذُهُ، وَلَا يَقُولُ لِأَحَدٍ: نَأْوِلُنِي لِإِيَّاهُ [مسلم: ٢٤٠٣].

(مشورته ﷺ في الجهاد)

وكان يُشاور أصحابه في أمر الجهاد، وأمر العدو، وتخير المنازل، وفي «المستدرک» عن أبي هريرة: ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ.

وكان يتخلف في ساقيتهم في المسير، فيُزجي الضعيف، ويُردف المتقطع، وكان أرفق الناس بهم في المسير [أبو داود: ٢٦٣٩].

وكان إذا أراد غزوة ورى بغيرها [البخاري: ٢٩٤٨، ومسلم: ٦٧١٠]، فيقول مثلاً إذا أراد غزوة حنين: كيف طريق نجد ومياها ومن بها من العدو ونحو ذلك.

وكان يقول: «الْحَرْبُ خَدْعَةٌ»^(١) [البخاري: ٣٠٣٠، ومسلم: ٤٥٣٩].

وكان يبعث العيون يأتونه بخبر عدوه، ويُطلعُ الطلائع، ويبعثُ الحرس [مسلم: ٤٩١٥].

وكان إذا لقي عدوه، وقف ودعا، واستنصر الله، وأكثر هو وأصحابه من ذكر الله، وخفضوا أصواتهم [البخاري: ٤٢٠٥، ومسلم: ٤٥٨٨].

وكان يرتب الجيش والمقاتلة، ويجعل في كل جنبه كُفّاً لها، وكان يبارز بين يديه بأمره، وكان يلبس للحرب عُدَّتَهُ، وربما ظاهر بين درعين [صحيح: أحمد: ١٥٧٢٢، وأبو داود: ٢٥٩٠]، وكان له الألوَّةُ والرايات [البخاري: ٢٩٧٤].

وكان إذا ظهر على قوم، أقام بعرضتهم ثلاثاً، ثم قفل [البخاري: ٣٠٦٥].

وكان إذا أراد أن يغير، انتظر، فإن سمع في الحي مؤذناً، لم يغير وإلا أغار [البخاري: ٧١٠، ومسلم: ٣٣٢١]. وكان ربما يبتعد عدوه، وربما فاجأهم نهراً

[البخاري (٢٥٤١)، ومسلم: ٤٥١٩].

وكان يحب الخروج يوم الخميس [البخاري: ٢٩٤٩] بكرة النهار، وكان العسكر إذا نزل انضم بعضه إلى بعض حتى لو بسط عليهم كساء لعمهم [صحيح: أحمد: ١٧٧٣٦، وأبو داود: ٢٦٢٨].

وكان يرتب الصفوف [البخاري: ٢٩٣٠] ويُعَيِّنُهُمْ عند القتال بيده، ويقول: «تقدم يا فلان، تأخراً يا فلان». وكان يستحب للرجل منهم أن يُقاتل تحت راية قومه.

(دعاء لقاء العدو)

وكان إذا لقي العدو، قال: «اللَّهُمَّ مَنَزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ، اهْزِمْنَهُمْ، وَاغْزِبْنَا عَلَيْهِمْ» [البخاري: ٤١١٥، ومسلم: ٤٥٤٢]، وربما قال: «سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلِّقُونَ الدُّبُرَ بِلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمُ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ» [البخاري: ٣٩٥٣].

وكان يقول: «اللَّهُمَّ أَنْزِلْ نَصْرَكَ» وكان يقول: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضْدِي وَأَنْتَ نَصِيرِي، وَبِكَ أَقَاتِلُ» [صحيح: أحمد: ١٨٩٣٧، وأبو داود: ٢٦٣٢، والترمذي: ٣٥٨٤]. وكان إذا اشتد له بأس، وَحِيَ الحرب، وقصده العدو، يُعَلِّمُ بِنَفْسِهِ ويقول:

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ [البخاري: ٤٣١٥، ومسلم: ٤٦١٥]

وكان الناس إذا اشتدَّ الحَرْبُ اتَّقَوْا به ﷺ [مسلم: ٤٦١٥] وكان أقربهم إلى العدو.

وكان يجعل لأصحابه شعاراً في الحرب يُعْرِفُونَ به إذا تكلَّموا، وكان شعارُهُمْ مرَّةً: «أَمِيتْ» [أبو داود: ٢٥٩٦، ومرَّةً: «يَا مَنْصُورُ» ومرَّةً: «حُمَ لَا يُنْصَرُونَ» [حسن: أحمد: ١٦٦١٥، وأبو داود: ٢٥٩٧، والترمذي: ١٦٨٢].

(علته ﷺ في الحرب)

وكان يلبس الدرع والخوذة، ويتقلد السيف، ويحمل الرمح والقوس العربية، وكان يتترس بالترس، وكان يحبُّ الحِيَاءَ في الحرب وقال: «إِنَّ

(١) وقوله «خدعة» يروى هذا الحرف على ثلاثة أوجه أصوبها خدعة بفتح الخاء وسكون الدال، ومعناه: أنها مرة واحدة، أي إذا خدع المقاتل مرة، لم يكن لها إقالة.

مِنْهَا مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ، وَمِنْهَا مَا يَخْصُهُ اللَّهُ عَامًّا الْخِيَلَاءُ
الَّتِي يُحِبُّهَا اللَّهُ، فَاخْتِالَ الرَّجُلُ بِنَفْسِهِ عِنْدَ الْقَاءِ،
وَاخْتِالَهُ عِنْدَ الصَّدَقِ، وَأَمَّا الَّتِي يَخْصُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ،
فَاخْتِالَهُ فِي الْبَغْيِ وَالْفَخْرِ [أبو داود: ٢٦٥٩، والنسائي: ٥/
٧٨-٧٩]، والدارمي (١٤٩/٢)، وابن حبان: [١٦٦٦].

وقاتل مرة بالمنجنيق نصبه على أهل الطائفة.
وكان ينهى عن قتل النساء والولدان [البخاري: ٣٠١٥،
ومسلم: ٤٥٤٧] وكان ينظر في المقاتلة، فمن رآه أثبت،
فَقَتَلَهُ، ومن لم يُثَبِّتْ، استحياه [أبو داود: ٤٤٠٤،
والترمذي: ١٥٨٤، والنسائي: (١٥٥/٦)، وابن ماجه: ٢٥٤١].

وكان إذا بعث سرية يُوصيهم بتقوى الله، ويقول:
«سِيرُوا بِسْمِ اللَّهِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَعَاتِلُوا عَنْ كَفَرِ
بِاللَّهِ، وَلَا تَمُتُوا، وَلَا تَغْرُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِدَاءَ»
[مسلم: ٤٥٢١].

وكان ينهى عن السفري بالقرآن إلى أرض العدو.

(الدعوة قبل القتال)

وكان يأمر أمير سريته أن يدعو عدوه قبل القتال إما
إلى الإسلام والهجرة، أو إلى الإسلام دون الهجرة،
ويكونون كأعراب المسلمين، ليس لهم في الفداء
نصيب، أو بذل الجزية، فإن هُم أجابوا إليه، قُبِلَ
منهم، وإلا استعان بالله وقتلهم.

(الأسلاب والغنائم)

وكان إذا ظفر بعدوه، أمر منادياً، فجمع الغنائم
كلها، فبدأ بالأسلاب فأعطاهما لأهلها، ثم أخرج
خُمُسَ الباقي، فوضعه حيث أراه الله، وأمره به من
مصالح الإسلام، ثم يَرْتَحُّ^(١) من الباقي لمن لا سهم
له من النساء والصبيان والعبيد، ثم قسم الباقي
بالسوية بين الجيش، للفارس ثلاثة أسهم: سهم له،
وسهمانٍ لفروسه، وللراجل سهم [البخاري: ٢٨٦٣،
ومسلم: ٤٥٧٦] هذا هو الصحيح الثابت عنه.

(حكم النفل)

وكان يُنْفَلُ من صُلْبِ الغنيمَةِ بحسب ما يراه من
المصلحة، وقيل: بل كان النفل من الخمس، وقيل
وهو أضعف الأقوال: بل كان من خُمُسِ الخُمُسِ.

وجمع لِسْلَمَةً بن الأكوخ في بعض مغازيه بين سهم
الراجل والفارس، فأعطاه أربعة أسهم لعظم غنائه في
تلك الغزوة [مسلم: ٤٦٧٨].

وكان يُسَوِّي الضعيف والقوي في القسمة ما عدا
النفل [أبو داود: ٢٧٣٩، وبنحوه البخاري: ٢٨٩٦، والنسائي:
٤٥/٦].

وكان إذا أغار في أرض العدو، بعث سرية بين
يديه، فما غنمَتْ، أخرج خُمُسَهُ، ونفلها رُبْعَ الباقي،
وقسم الباقي بينها وبين سائر الجيش، وإذا رجع،
فعل ذلك، ونفلها الثلث [أبو داود: ٢٧٥٠، ومع ذلك،
فكان يكره النفل ويقول: «لَيْزِدُ قَوِيَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى
ضَعِيفِهِمْ» [ضمف: أحمد: ٢٢٧٢٢].

(الصفى)

وكان له ﷺ سهمٌ من الغنيمَةِ يُدْعَى الصَّفِيَّ، إن
شاء عبداً، وإن شاء أمةً وإن شاء فرساً يختاره قبل
الخمسة [أبو داود: ٢٩٩١].

قالت عائشة: «وَكَاثَتْ صَفِيَّةٌ مِنَ الصَّفِيِّ» رواه أبو
داود [٢٩٩٤]. ولهذا جاء في كتابه إلى بني زهير بن
أقيش «إِنَّكُمْ إِنْ شَهِدْتُمْ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا
رَسُولُ اللَّهِ، وَأَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ، وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ، وَكُفَيْتُمُ
الْحُمْسَ مِنَ الْمَغْنَمِ وَسَهْمَ النَّبِيِّ ﷺ، وَسَهْمَ الصَّفِيِّ
أَنْتُمْ آيُونُ بِأَمَانٍ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ» [أبو داود: ٢٩٩٩].

وكان سيفُهُ ذُو الْمَقَارِ مِنَ الصَّفِيِّ [حسن: أحمد:
٢٤٤٥، والترمذي: ١٥٦١، وابن ماجه: ٢٨٠٨].

(السوم لمن غاب لمصلحة المسلمين)

وكان يُسَوِّمُ لمن غاب عن الوقعة لمصلحة
المسلمين، كما أسهم لعثمان سهمه من بدر، ولم
يحضرها لِمَكَانِ تَمْرِضُهُ لَامْرَأَتِهِ رُقِيَّةَ ابنة
رسولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ عُثْمَانَ انْطَلَقَ فِي حَاجَةِ اللَّهِ
وَحَاجَةِ رَسُولِهِ، فَضَرَبَ لَهُ سَهْمَهُ وَأَجْرَهُ» [أبو داود:
٢٧٢٦].

(التجارة في الغزو)

وكانوا يشترون معه في الغزو ويبيعون، وهو يراهم
ولا ينهاهم، وأخبره رجل أنه ربح ربحاً لم يربح أحدٌ
مثله، فقال: «ها هو؟» قال: ما زلت أبيع وأبتاع حتى

(١) الرضخ: العطية القليلة.

رَبِّحْتُ ثَلَاثَمِةَ أُوقِيَّةٍ، فَقَالَ: «أَنَا أَتَيْتُكَ بِخَيْرِ رَجُلٍ رَبِّحَ» قَالَ: مَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «رَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الصَّلَاةِ» [أبو داود: ٢٧٨٥].

وكانوا يستأجرون الأجراء للغزو على نوعين أحدهما: أن يخرج الرجل، ويستأجر من يأخذه في سفره. والثاني: أن يستأجر من ماله من يخرج في الجهاد، ويسمون ذلك الجمائل، وفيها قال النبي ﷺ: «للغازي أجره، وللجاعل أجره وأجر الغاري» [صحيح: أحمد: ٦٦٢٤، وأبو داود: ٢٥٢٦].

(التشارك في الغنمة)

وكانوا يتشاركون في الغنمة على نوعين أيضاً. أحدهما: شركة الأبدان، والثاني: أن يدفع الرجل بغيره إلى الرجل أو فرسه يغزو عليه على النصف مما يغنم حتى ربما اقتسما السهم، فأصاب أحدهما قذحه، والآخر نصله وبريشه.

وقال ابن مسعود: اشتركت أنا وعُمَارٌ وسعدٌ فيما نصيب يوم بدرٍ، فجاء سعدٌ بأسيْرَيْنِ، ولم أجد أنا وعُمَارٌ بشيءٍ [أبو داود: ٣٣٨٨، والنسائي (٥٧/٧)، وابن ماجه: ٢٢٨٨].

وكان يبعث بالسرية فرساناً تارةً، ورجالاً أخرى، وكان لا يسهم لمن قدم من المدد بعد الفتح^(١).

فصل

(سهم ذي القربى)

وكان يُعطي سهم ذي القربى في بني هاشم وبني المطلب دون إخوانهم من بني عبد شمس وبني نوفل، وقال: «إنما بنو المطلب وبنو هاشم شيء واحد وشبك بين أصابعهم»، وقال: «إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام» [البخاري: ٤٢٢٩].

فصل

(لا يخمس الطعام)

وكان المسلمون يصيرون معه في مغازيهم الغسل والحب والطعام يأكلونه، ولا يرفعونه في المغامات

[البخاري: ٣١٥٤]، قال ابن عمر: «إن جيشاً غنموا في زمان رسول الله ﷺ طعاماً وعسلاً، ولم يؤخذ منهم الخمس» ذكره أبو داود [٢٧٠١].

وانفرد عبد الله بن المغفل يوم خيبر بجواب شحم، وقال: لا أعطي اليوم أحداً من هذا شيئاً، فسمعه رسول الله ﷺ، فتبسم ولم يقل له شيئاً [البخاري: ٣١٥٣، ومسلم: ٤٦٠٥].

وقيل لابن أبي أوفى: كنتم تخمسون الطعام في عهد رسول الله ﷺ؟ فقال: أصبنا طعاماً يوم خيبر، وكان الرجل يجيء، فيأخذ منه مقدار ما يكفيه، ثم ينصرف [أبو داود: ٢٧٠٤].

وقال بعض الصحابة: «كنا نأكل الحوز في الغزو، ولا نقسمه حتى إن كنا لنرجع إلى رحالنا وأجرتنا منه مملوءة» [أبو داود: ٢٧٠٦، وفي سننه مجهول].

فصل

(حكم النهية والمثلة)

وكان ينهى في مغازيه عن النهية والمثلة وقال: «من انتهت نهية فليس مئاً»^(٢) [صحيح: أحمد: ١٢٤٢٧، والترمذي: ١٦٠١] وأمر بالقذور التي طيحت من النهي فأُكفئت [البخاري: ٢٤٨٨، ومسلم: ٥٠٩٢].

وذكر أبو داود عن رجل من الأنصار قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فأصاب الناس حاجة شديدة وجهد، وأصابوا غنماً، فانتهبوها وإن قدورنا لتغلي إذ جاء رسول الله ﷺ يمشي على قوسه، فأكفأ قدورنا بقويسه، ثم جعل يرمي اللحم بالتراب، ثم قال: «إن النهية ليست بأحل من الميتة، أو إن الميتة ليست بأحل من النهية» [أبو داود: ٢٧٠٥].

(النهي عن استعمال الفء في غير حال الحرب)

وكان ينهى أن يركب الرجل دابةً من الفء حتى إذا أصعبها، ردّها فيه، وأن يلبس الرجل ثوباً من الفء حتى إذا أحلقه، ردّه فيه [صحيح: أحمد: ١٦٩٩٠، وأبو داود: ٢٧٠٨] ولم يمنع من الاتقاء به حال الحرب.

(١) أخرج البخاري (٤٢٣٨) في المغازي: باب غزوة خيبر من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ بعث أبا بن سعيد بن العاص على سرية من المدينة قبل نجد، فقدم أبا بن وأصحابه على رسول الله ﷺ بخيبر بعد أن فتحها فلم يقسم لهم.

(٢) النهي: الأخذ على وجه العالانية والقهر، والنهية بالفتح مصدره، والنهم: المال المنهوب.

فصل

(الغلول)

وكان يُشدُّد في الغلول جدًّا، ويقول: «هُوَ عَارٌ وَنَارٌ وَشَنَارٌ عَلَى أَهْلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [النسائي (٦/٢٦٢)، وابن ماجه: ٢٨٥٠].

ولما أصيب غلامه مدغم قالوا: هنيئاً لهُ الْجَنَّةُ قال: «كَلَّا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ الشُّمْلَةَ الَّتِي أَخَذَهَا يَوْمَ خَبِيرٍ مِنَ الْغَنَائِمِ، لَمْ تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ لَتَشْتَمِلَ عَلَيْهِ نَارًا» فجاء رجل بِشْرَاكٍ أو شِرَاكَيْنِ لما سمع ذلك، فقال: «شِرَاكٌ أَوْ شِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ» [البخاري: ٤٢٣٤، ومسلم: ٣١٠].

وقال أبو هريرة: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ الْغُلُولَ وَعَظَّمَهُ، وَعَظَّمَهُ أَمْرُهُ، فَقَالَ: «لَا أَلْفَيْنِ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شاةٌ لَهَا ثَمَاءٌ، عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمَمَةٌ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اغْنِي، فَأَقُولُ: لَا أُمْلِكُ لَكَ شَيْئاً قَدْ أَبْلَغْتُكَ، عَلَى رَقَبَتِهِ صَامَةٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اغْنِي، فَأَقُولُ: لَا أُمْلِكُ لَكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اغْنِي، فَأَقُولُ: لَا أُمْلِكُ لَكَ شَيْئاً قَدْ أَبْلَغْتُكَ» [البخاري: ٣٠٧٣، ومسلم: ٤٧٣٤].

وقال لمن كانَ عَلَى ثَقَلِهِ وقد مات «هُوَ فِي النَّارِ فَذَهَبُوا يَنْظُرُونَ فَوَجَدُوا عِبَادَةً قَدْ غَلَّهَا» [البخاري: ٣٠٧٤].

وقالوا في بعضِ غَزَوَاتِهِمْ: «فُلَانٌ شَهِيدٌ، وَفُلَانٌ شَهِيدٌ حَتَّى مَرُّوا عَلَى رَجُلٍ، فَقَالُوا: وَفُلَانٌ شَهِيدٌ، فقال: «كَلَّا إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ فِي بُرْدَةٍ غَلَّهَا أَوْ عِبَادَةٌ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اذْهَبْ يَا ابْنَ الْحَطَّابِ، اذْهَبْ فَنَادِ فِي النَّاسِ: إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ» [مسلم: ٣٠٩].

وتوفي رجلٌ يومَ خيبر، فذكروا ذلكَ لرسولِ الله ﷺ فقال: «اصْلُوا عَلَى صَاحِبِكُمْ فَتَغَيَّرَتْ وَجْوهُ النَّاسِ

لِلذِّكِّ، فَقَالَ: «إِنْ صَاحِبُكُمْ عَلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ شَيْئاً» ففَتَّشُوا مَتَاعَهُ، فوجدوا خَرَزاً مِنْ خَرَزِ يَهُودٍ لَا يُسَاوِي دِرْهَمَيْنِ [صحيح: أحمد: ١٧٠٣١، وأبو داود: ٢٧١٠، والنسائي (٤/٦٤)، وابن ماجه: ٢٨٤٨].

وكانَ إذا أَصَابَ غَنِيمةً أَمَرَ بِإِلَاقَةٍ، فَنَادَى فِي النَّاسِ، فَيَجِئُونَ بِغَنَائِمِهِمْ، فَيَحْمُسُهُ، وَيَقْسُمُهُ، فجاء رجلٌ بعد ذلكَ بِزَمَامٍ مِنْ شَعَرٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَمِعْتُ بِلَالاً نَادَى ثَلَاثًا؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَجِيءَ بِهِ؟» فاعتذر، فقال: «كُنْ أَنْتَ تَجِيءُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَنْ أَقْبَلَهُ مِنْكَ» [حسن: أحمد: ٦٩٩٦، وأبو داود: ٢٧١٢].

فصل

(تحريق متاع الغال وضربه)

وأمر بتحريق متاع الغالِ وضربه، وحرقة الخليفَتانِ الراشِدَينِ بعده [أخرج نحوه الترمذي: ١٤٦١، وأبو داود: ٢٧١٣]، فقليل: هذا منسوخٌ بسائرِ الأحاديثِ التي ذَكَرْتُ، فإنه لم يَجِبْ التحريقُ في شيءٍ منها، وقيل - وهو الصواب ^(١) - إنَّ هَذَا مِنْ بَابِ التَّعْزِيرِ والعقوباتِ الماليةِ الراجعةِ إلى اجتِهَادِ الأئمةِ بحسَبِ المصلحة، فإنه حَرَقَ وَتَرَكَ، وكذلكَ خلفاؤه مِنْ بعده، ونظيرُ هذا قَتْلُ شَارِبِ الخمرِ في الثالثةِ أو الرابعةِ ^(٢) فليسَ بِحَدٍّ ولا منسوخ، وإنما هو تعزيرٌ يتعلَّقُ باجتِهَادِ الإمامِ.

فصل

في هديه ﷺ في الأسارى

كانَ يُمْنُ عَلَى بَعْضِهِمْ، وَيَقْتُلُ بَعْضَهُمْ، وَيُقَادِي بَعْضَهُمْ بِالْمَالِ، وَبَعْضَهُمْ بِأَسْرَى الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ بِحَسَبِ الْمصلحة، ففادى أسارى بدرٍ بِمَالٍ، وَقَالَ: لَوْ كَانَ الْمُطْلَمُ مِنْ عَدِيٍّ حَيًّا، ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّسَى، لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ» [البخاري: ٤٠٢٤].

وهبطَ عليه في صلحِ الحديبيةِ ثمانونَ مُتَسَلِّحُونَ يُريدونَ غِرَّتَهُ، فَأَسْرَهُمْ ثُمَّ مَنَّ عَلَيْهِمْ [مسلم: ٤٦٧٩]. وأسرَ ثُمَامَةَ بْنَ اثَّالٍ سَيِّدَ بَنِي حَنِيفَةَ، فَرَبَطَهُ بِسَارِيَةٍ

(١) إنما يتجه هذا فيما إذا كان النص ثابتاً عن رسول الله ﷺ، أما إذا كان ضعيفاً كما تقدم، فلا وجه له.

(٢) حديث: «من شرب الخمر فاجلدوه، فإن عاد الثانية، فاجلدوه، فإن عاد الثالثة فاجلدوه، فإن عاد الرابعة، فاقتلوه» حديث صحيح، أخرجه أحمد (٤٨٢٣)، وأبو داود (٤٤٨٤)، والنسائي (٨/٣١٣).

المَسْجِد، ثم أطلقه فأسلم» [البخاري: ٤٦٢، ومسلم: ٤٥٨٩].

(أسارى بدر)

واستشار الصحابة في أسارى بدر، فأشار عليه الصديق أن يأخذ منهم فدية تكون لهم قوة على عدوهم ويطلقهم، لعل الله أن يهديهم إلى الإسلام، وقال عمر: لا والله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكن أرى أن نتمكننا فنضرب أعناقهم، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قال عمر، فلما كان من الغد، أقبل عمر، فإذا رسول الله ﷺ يبكي هو وأبو بكر، فقال: يا رسول الله! من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء، تباكيت لبعائكما؟ فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض علي عذابهم أذى من هذه الشجرة، وأنزل الله: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنْيَ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَتْرَى حَتَّى يَنْخَبِتَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧] [مسلم: ٤٥٨٨].

وقد تكلم الناس، في أي الرأيين كان أصوب، فرجعت طائفة، قول عمر لهذا الحديث، ورجعت طائفة قول أبي بكر، لاستقرار الأمر عليه، وموافقته الكتاب الذي سبق من الله بإحلال ذلك لهم، ولموافقته الرحمة التي غلبت الغضب، ولتشبيهه النبي ﷺ له في ذلك بإبراهيم وعيسى، وتشبيهه لعمر بنوح وموسى [أحمد: ٣٦٣٢] ولحصول الخير العظيم الذي حصل بإسلام أكثر أولئك الأسرى، ولخروج من خرج من أصلابهم من المسلمين، ولحصول القوة التي حصلت للمسلمين بالفداء، ولموافقة رسول الله ﷺ لأبي بكر أولاً، ولموافقة الله له آخراً حيث استقر الأمر على رأيه، ولكمال نظر الصديق، فإنه رأى ما يستقر عليه حكم الله آخراً، وغلب جانب الرحمة على جانب العقوبة.

قالوا: وأما بكاء النبي ﷺ، فإنما كان رحمة لنزول العذاب لمن أراد بذلك عرض الدنيا، ولم يرد ذلك

رسول الله ﷺ، ولا أبو بكر، وإن أراد بعض الصحابة، فالفتنة كانت تعم ولا تُصيب من أراد ذلك خاصة، كما هزم العسكر يوم حنين بقول أحدهم: (لَنْ نُغْلِبَ الْيَوْمَ مِنْ قَلْبٍ) [الطبري (٩٩/١٠) - ١٠٠] وبإعجاب كثرتهم لمن أعجبه منهم، فهزم الجيش بذلك فتنة ومحنة، ثم استقر الأمر على النصر والظفر والله أعلم.

(الفداء)

واستأذنه الأنصار أن يتركوا للعباس عمه فداءه، فقال: «لا تدعوا منه ذمماً» [البخاري: ٣٠٤٨].

واستوهب من سلمة بن الأكوع جارية نقله إليها أبو بكر في بعض مغازيه، فوهبها له، فبعث بها إلى مكة، ففدى بها ناساً من المسلمين [مسلم: ٤٥٧٣]، وفدى رجلين من المسلمين برجل من عقيل، ورد سبي هوازن عليهم بعد القسمة، واستطاب قلوب الغانمين، فطیبوا له، وعرض من لم يطيب من ذلك يكمل إنسان سيئ فرائض [البخاري: ٤٣١٨ - ٤٣١٩]، وقتل عقبة بن أبي معيط من الأسرى، وقتل النضر بن الحارث^(١) لشدة عداوتهما لله ورسوله.

وذكر الإمام أحمد عن ابن عباس قال: كان ناس من الأسرى لم يكن لهم مال، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة [أحمد: ٢٢١٦، وسند ضيف]، وهذا يدل على جواز الفداء بالعمل، كما يجوز بالمال.

(الاسترقاق)

وكان هديه أن من أسلم قبل الأسر، لم يُسرق، وكان يُسرق سبي العرب، كما يُسرق غيرهم من أهل الكتاب، وكان عند عائشة سبيّة منهم فقال «أغنيها فإنها من ولد إسماعيل» [البخاري: ٢٥٤٣، ومسلم: ٦٤٥١].

وفي الطبراني مرفوعاً: «مَنْ كَانَ عَلَيْهِ رَقَبَةٌ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، فَلْيَتَّقِ مِنْ يَلْعَنُ» [الهيثم (٤٧/١٠)].

ولما قسم سبايا بني المصطلق، وقعت جويرية بنت الحارث في السبي لثابت بن قيس بن شماس،

(١) ابن هشام (٣٧٤)، وأخرج أبو داود (٢٦٨٦) بسند حسن عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ لما أراد قتل عقبة بن أبي معيط، فقال: من للصية. قال: «التار».

قتله، كمالك، وابن عقيل من أصحاب أحمد - رحمه الله - وغيرهما قالوا: لأنه علل بعلو مانعة من القتل متفية في غيره، ولو كان الإسلام مانعاً من قتله، لم يُعلل بأخص منه، لأن الحكم إذا حُلل بالأعم، كان الأخص عديم التأثير، وهذا أقوى. والله أعلم.

فصل

وكان هديه ﷺ عتيق عبيد المشركين إذا خرجوا إلى المسلمين وأسلموا، ويقول: «مَنْ هَتَقَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» [ابو داود: ٢٧٠٠، والترمذي: ٣٧١٦].

(من أسلم على ضي)

في يده فهو له ولم ينظر إلى سببه قبل الإسلام)

وكان هديه أن من أسلم على شيء في يده، فهو له، ولم ينظر إلى سببه قبل الإسلام، بل يُقره في يده كما كان قبل الإسلام، ولم يكن يُضمّن المشركين إذا أسلموا ما أتلفوه على المسلمين من نفس، أو مال حال الحرب ولا قبله، وعزم الصديق على تضمين المحاربين من أهل الردة ديات المسلمين وأموالهم، فقال عمر: تلك دماء أصيبت في سبيل الله، وأجورهم على الله، ولا دية لشهيد، فاتفق الصحابة على ما قال عمر، ولم يكن أيضاً يرّد على المسلمين أعيان أموالهم التي أخذها منهم الكفار قهراً بعد إسلامهم، بل كانوا يرونها بأيديهم، ولا يتعرضون لها سواء في ذلك العقار والمتقول، هذا هديه الذي لا شك فيه.

ولما فتح مكة، قام إليه رجال من المهاجرين يسألونه أن يرد عليهم دورهم التي استولى عليها المشركون، فلم يرّد على واحد منهم داره، وذلك لأنهم تركوها لله، وخرجوا عنها ابتغاء مرضاته، فأعاضهم عنها دوراً خيراً منها في الجنة، فليس لهم أن يرجعوا فيما تركوه لله، بل أبلغ من ذلك أنه لم يُرخص للمهاجر أن يقيم بمكة بعد نُسكه أكثر من ثلاث [البخاري: ٣٩٣٣، ومسلم: ٣٢٩٧]، لأنه قد ترك بلده لله، وهاجر منه، فليس له أن يعود يستوطنه، ولهذا رثى لسعد بن خولة، وسمّاه بانساً أن مات بمكة، ودُفن بها بعد هجرته منها [البخاري: ١٢٩٥، ومسلم: ٤٢٠٩].

فكاتبته على نفسها، فَقَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كِتَابَهَا وَتَزَوَّجَهَا، فَأَعْتَقَ بِتَزَوُّجِهَا، إِيَّاهَا مَتَةً مِنْ أَهْلِ يَتِيمَ بَنِي الْمُضْطَلِّقِ إِكْرَاماً لَصَهِرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [صحيح: أحمد: ٢٦٢٦٥، وابو داود: ٣٩٣١]. وهي من صريح العرب، ولم يكونوا يتوقفون في وطء سبايا العرب على الإسلام، بل كانوا يطؤونهن بعد الاستبراء، وأباح الله لهم ذلك، ولم يشترط الإسلام، بل قال تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]، فأباح وطء مَلَكَ اليمين، وإن كانت محصنة إذا انقضت عدتها بالاستبراء، وقال له سلمة بن الأكوع، لما استوهبه الجارية الفزارية من السبي: والله يا رسول الله! لقد أعجبتني، وما كشفت لها ثوباً! [مسلم: ٣٥٧٣]، ولو كان وطؤها حراماً قبل الإسلام عندهم، لم يكن لهذا القول معنى، ولم تكن قد أسلمت، لأنه قد فدى بها ناماً من المسلمين بمكة، والمسلم لا يُغادى به، وبالجمل لا تُعرف في أثر واجد قط اشتراط الإسلام منهم قولاً أو فعلاً في وطء المسيية، فالصواب الذي كان عليه هديه وهدى أصحابه استرقاق العرب، ووطء إمائهن المسييات بملك اليمين من غير اشتراط الإسلام.

فصل

(لا يفرق في السبي بين الوالدة وولدها)

وكان ﷺ يمنع التفريق في السبي بين الوالدة وولدها، ويقول: «مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا، فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَجَبِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [صحيح: أحمد: ٢٣٤٩٩ - ٢٣٥١٣، والترمذي: ١٥٦٦] وكان يؤتى بالسبي، فيعطي أهل البيت جميعاً كراهية أن يفرق بينهم.

فصل

في هديه فيمن جَسَّ عليه

ثبت عنه أنه قتل جاسوساً من المشركين [البخاري: ٣٠٥١]. وثبت عنه أنه لم يقتل حاطباً، وقد جَسَّ عليه، واستأذنه عمر في قتله فقال: «وما يُدريك لعلَّ الله أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَذْرِ فَقَالَ: اغْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ خَفَرْتُ لَكُمْ» [البخاري: ٣٠٠٧، ومسلم: ٦٤٠١] فاستدل به من لا يرى قتل المسلم الجاسوس، كالشافعي، وأحمد، وأبي حنيفة رحمهم الله، واستدل به من يرى

فصل

في هديه في الأرض المغنومة

وأحل لهم ديار الكفر وأرضهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوِّمُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَقَوِّمُ أَدْعَاؤَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢٠، ٢١]، وقال في ديار فرعون وقومه وأرضهم: ﴿كَذَلِكَ وَأَوَفَّتْهَا بِقِيَّ لِمَنْ يَدَّ﴾ [الشعراء: ٥٩]، فعلم أن الأرض لا تدخل في الغنائم، والإمام مخير فيها بحسب المصلحة، وقد قسم رسول الله ﷺ وترك، وعمر لم يقسم، بل أقرها على حالها وضرب عليها خراجاً مستمراً في رقبتهما يكون للمقاتلة، فهذا معنى وقفها، ليس معنا الوقف الذي يمنع من نقل الملك في الرقبة، بل يجوز بيع هذه الأرض كما هو عمل الأمة، وقد أجمعوا على أنها تورث، والوقف لا يورث، وقد نص الإمام أحمد - رحمه الله تعالى - على أنها يجوز أن تجعل صداقاً، ولأن الوقف إنما امتنع بيعه ونقل مهرأ في النكاح، ولأن الوقف لا يورث، ولا يجوز أن يكون الملك في رقبته لما في ذلك من إبطال حق البطون الموقوف عليهم من منفعة، والمقاتلة حقهم في خراج الأرض، فمن اشتراها صارت عنده خراجية، كما كانت عند البائع سواء، فلا يطل حق أحد من المسلمين بهذا البيع، كما لم يطل بالميراث والهبه والصدقة، ونظير هذا بيع رقة المكاتب، وقد انعقد فيه سبب الحرية بالكتابة، فإنه ينتقل إلى المشتري مكاتباً كما كان عند البائع، ولا يطل ما انعقد في حقه من سبب العتق ببيعه، والله أعلم.

ومما يدل على ذلك أن النبي ﷺ قسم نصف أرض خيبر خاصة، ولو كان حكمها حكم الغنime، لقسمها كلها بعد الخمس، ففي «السنن» و«المستدرک»: أن رسول الله ﷺ لما ظهر على خيبر قسمها على ستة وثلاثين سهماً، جمع كل سهم مائة سهم، فكان لرسول الله ﷺ ولل المسلمين النصف من ذلك، وعزل النصف الباقي لمن نزل به من الوفود والأمور ونواب الناس. هذا لفظ أبي داود، وفي لفظ: عزل رسول الله ﷺ ثمانية عشر سهماً، وهو الشطر لثوابه، وما يتزل به من أمر المسلمين، وكان ذلك الوطيح والكثيب، والسلايم وتوابعها. وفي لفظ له أيضاً: عزل نصفها لثوابه وما نزل به:

ثبت عنه أنه قسم أرض بني قريظة وبني النضير وخيبر بين الغانمين، وأما المدينة، ففتحت بالقرآن، وأسلم عليها أهلها، فأقرت بحالها. وأما مكة، ففتحها عنوة، ولم يقسمها، فأشكل على كل طائفة من العلماء الجمع بين فتحها عنوة، وترك قسمتها، فقالت طائفة: لأنها دار المناسك، وهي وقت على المسلمين كلهم، وهم فيها سواء، فلا يمكن قسمتها، ثم من هؤلاء من منع بيعها وإجارتها، ومنهم من جوز بيع ربايعها، ومنع إجارتها، والشافعي لما لم يجمع بين العنوة وبين عدم القسمة، قال: إنها فُتحت صلحاً، فلذلك لم تقسم. قال: ولو فُتحت عنوة، لكانت غنime، فيجب قسمتها كما تجب قسمة الحيوان والمنقول، ولم ير بأساً من بيع ربايع مكة وإجارتها، واحتج بأنها ملك لأربابها تورث عنهم وتوهب، وقد أضافها الله سبحانه إليهم إضافة الملك إلى مالكه، واشترى عمر بن الخطاب داراً من صفوان بن أمية، وقيل للنبي ﷺ: أين تنزل غداً في دارك بمكة؟ فقال: «وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ رِبَاعٍ أَوْ دُورٍ» [البخاري: ١٥٨٨، ومسلم: ٣٢٩٤] وكان عقيلاً ورث أبا طالب، فلما كان أصل الشافعي أن الأرض من الغنائم، وأن الغنائم تجب قسمتها، وأن مكة تملك وتباع، ورباعها ودورها لم تقسم، لم يجد بداً من القول بأنها فُتحت صلحاً.

(هل الأرض تدخل في الغنائم)

لكن من تأمل الأحاديث الصحيحة، وجدها كلها دالة على قول الجمهور، أنها فتحت عنوة. ثم اختلفوا لأي شيء لم يقسمها؟ فقالت طائفة: لأنها دار الشك ومحل العبادة، فهي وقف من الله على عباده المسلمين. وقالت طائفة: الإمام مخير في الأرض بين قسمتها وبين وقفها، والنبي ﷺ قسم خيبر، ولم يقسم مكة، فدل على جواز الأمرين. قالوا: والأرض لا تدخل في الغنائم المأمور بقسمتها، بل الغنائم هي الحيوان والمنقول، لأن الله تعالى لم يحل الغنائم لأمة غير هذه الأمة،

الوطيحة والكثبية، وما أحيزَ مَهْمَا، وعزل النصف الآخر، فقسمة بين المسلمين: الشَّقُّ والنَّطَاءُ، وما أحيزَ معهما، وكان سهمُ رسول الله ﷺ فيما أحيزَ معهما^(١) [ابو داود: ٣٠١١].

فصل

(الدلة على أن مكة فتحت عنوة)

والذي يدل على أن مكة فتحت عنوة وجوه:

أحدها: أنه لم ينقلَ أحدٌ قط أن النبي ﷺ صالح أهلها زمنَ الفتح، ولا جاءه أحدٌ منهم صالحه على البلد، وإنما جاءه أبو سفيان، فأعطاه الأمانَ لمن دخل داره، أو أغلقَ بابه، أو دخل المسجد، أو ألقى سلاحه [مسلم: ٤٦٧٢].. ولو كانت قد فتحت صلحاً، لم يقل: من دخل داره، أو أغلقَ بابه، أو دخل المسجد فهو آمن، فإن الصلح يقتضي الأمان العام.

الثاني: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ، وَسَلَّطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّهُ أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ» وفي لفظ: «إِنَّهَا لَا تَجُلُ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَنْ تَجُلَ لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ» [البخاري: ٢٤٣٤، ومسلم: ٣٣٠٥] وفي لفظ: «فَإِنْ أَحَدٌ تَرَحَّصَ لِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُولُوا: إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ، وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ» [البخاري: ١٠٠٤، ومسلم: ٣٣٠٤]. وهذا صريح في أنها فتحت عنوة.

وأيضاً، فإنه ثبت في «الصحيح»: أنه جعل يومَ الفتح خالد بن الوليد على الْمُجَنَّبَةِ الْيُمْنَى، وجعل الزبير على الْمُجَنَّبَةِ الْيُسْرَى، وجعلَ أبا عبيدة على الحُسْرِ وَبَطْنِ الْوَادِي، فَقَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ اذْعُ لِي الْأَنْصَارَ فَجَاؤُوا يَهْرَوُلُونَ، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، هَلْ تَرَوْنَ أَوْبَاشَ قُرَيْشٍ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «انْظُرُوا إِذَا لَقِيتُمُوهُمْ غَدًا أَنْ تَحْصِدُوهُمْ حَصْدًا، وَأَخْفَى بَيْتِهِ، وَوَضَعَ بَيْتَهُ عَلَى شِمَالِهِ، وَقَالَ: «مَوْعِدُكُمْ الصُّفَا، قَالَ: فما أشرفَ يَوْمٌ مِثْلُ لَمْ أَحَدٌ إِلَّا أَنَامُوهُ، وَصَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصُّفَا،

وَجَاءَتِ الْأَنْصَارُ، فَأَطَافُوا بِالصُّفَا، فَجَاءَ أَبُو سَفْيَانَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أُبَيِّدْتُ حَضْرَاءَ قُرَيْشٍ، لَا قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سَفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَلْقَى السَّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ» [مسلم: ٤٦٧٢].

وأيضاً، فإنَّ أُمَّ هَانِيَةَ أَجَارَتْ رَجُلًا، فَأَرَادَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ قَتْلَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَدْ أَجْرْنَا مَنْ أَجْرْتَ يَا أُمَّ هَانِيَةَ» وفي لفظ عنها: لَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ، أَجَرْتُ رَجُلَيْنِ مِنْ أَحْمَانِي، فَأَدْخَلْتُهُمَا بَيْتًا، وَأَغْلَقْتُ عَلَيْهِمَا بَابًا، فَجَاءَ ابْنُ أُمِّي عَلِيٍّ فَتَغَلَّتْ عَلَيْهِمَا بِالسَّيْفِ، فَذَكَرْتُ حَدِيثَ الْأَمَانِ، وَقَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «قَدْ أَجْرْنَا مَنْ أَجْرْتَ يَا أُمَّ هَانِيَةَ» وذلك ضحى بجوف مكة بعد الفتح [البخاري: ٣١٧١، ومسلم: ١٦٦٩]. فإجارتها له، وإرادته علي رضي الله عنه قتله، وإمضاء النبي ﷺ إجارتها صريح في أنها فُتِحَتْ عنوةً.

وأيضاً فإنه أمر قتل مَيْسِرَ بْنِ ضُبَابَةَ، وابنِ خَطْلٍ، وجاريتين، ولو كانت فُتِحَتْ صلحاً، لم يأمر بقتل أحد من أهلها، ولكان ذكرُ هؤلاء مستثنى من عقد الصلح، وأيضاً ففي «السنن» بإسناد صحيح: «أن النبي ﷺ لَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ، قَالَ: «أَمُّوا النَّاسَ إِلَّا أَمْرَاتَيْنِ، وَأَرْبَعَةَ نَفَرٍ: اقْتُلُوهُمْ وَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلِّقِينَ بِأَسْتَارِ الْكُفَّةِ» [ابو داود: ٢٦٨٣، والنسائي ٧/ ١٠٥] والله أعلم.

فصل

(الإقامة بين المشركين)

ومنع رسول الله ﷺ من إقامة المُسْلِمِ بين المُشْرِكِينَ إِذَا قَدَّرَ عَلَى الْهَجْرَةِ مِنْ بَيْنِهِمْ، وَقَالَ: «أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يَقِيمُ بَيْنَ أَظْهَرِ الْمُشْرِكِينَ». قيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَلِمَ؟ قَالَ: «لَا تَرَأَى نَارَاهُمَا» [ابو داود: ٢٦٤٥، والترمذي: ١٦٠٤، والنسائي ٣٦/٨]. وقال: «مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ وَسَكَنَ مَعَهُ فَهُوَ مِثْلُهُ» [ابو داود: ٢٧٨٧]. وقال: «لَا تَنْقُطُ الْهَجْرَةُ حَتَّى تَنْقُطَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقُطَ التَّوْبَةُ حَتَّى تَنْطَلِعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»

(١) والوطيحة: حصن من حصون خيبر، والكثبية: اسم لبعض قرى خيبر، والشق: من حصون خيبر، والنطاة: عين بخيبر نسقي بعض النخيل، وقيل: حصن بخيبر، وقيل: اسم لأرض خيبر، والسلالم: حصن من حصون خيبر.

[حسن: أحمد: ١٦٩٠٦، وأبو داود: ٢٤٧٩]، وقال: «سَتَكُونُ هِجْرَةٌ بَعْدَ هِجْرَةٍ، فَخِيَارُ أَهْلِ الْأَرْضِ الزَّمُومُ مُهَاجِرَ إِبْرَاهِيمَ، وَيَبْقَى فِي الْأَرْضِ شِرَارُ أَهْلِهَا، تَلْفِظُهُمْ أَرْضُهُمْ، تَقْدَرُهُمْ نَفْسُ اللَّهِ، وَتُخْشَرُهُمُ النَّارُ مَعَ الْقِرْقَرَةِ وَالْخَنَازِيرِ» [أحمد: ٦٨٧١، وأبو داود: ٢٤٨٢، وفي سننه ضيف].

فصل

في هديه في الأمان، والصلح، ومعاملة رسل الكفار، وأخذ الجزية، ومعاملة أهل الكتاب، والمنافقين، وإجارة من جاءه من الكفار حتى يسمع كلام الله، وردّه إلى مأمته، ووفائه بالعهد، وبراءته

من الغدر

ثبت عنه أنه قال: «ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ، يَسْعَى بِهَا أَذْنَاهُمْ، فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا، فَقَلْبُهُ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا»^(١) [البخاري: ١٨٧٠، ومسلم: ٣٣٢٧].

وقال: «الْمُسْلِمُونَ تَنَكَّافًا دِمَائُهُمْ، وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَذْنَاهُمْ، لَا يَقْتُلُ مُؤْمِنٌ كَافِرًا، وَلَا دُوَّ عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ، مَنْ أَخَذَ حَدَثًا فَعَلَى نَفْسِهِ، وَمَنْ أَخَذَ حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا، فَقَلْبُهُ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» [أبو داود: ٤٥٣٠، والنسائي: ٢٤/٨].

وثبت عنه أنه قال: «مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَحُلُّ عُقْدَةً وَلَا يَشُدُّهَا حَتَّى يَمْضِيَ أَمَدُهُ، أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سِوَاءٍ» [أبو داود: ٢٧٥٩، والترمذي: ١٥٨٠].

وقال: «مَنْ أَمَّنَ رَجُلًا عَلَى نَفْسِهِ فَقَتَلَهُ، فَأَنَا بَرِيءٌ مِنَ الْقَاتِلِ». وفي لفظ: «أُعْطِيَ لِيَوَاءَ غَدْرٍ» [صحيح: أحمد: ٢١٩٤٦، وابن ماجه: ٢٦٨٨] وقال: «لِكُلِّ غَادِرٍ لِيَوَاءٍ عِنْدَ اسْتِئْذَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعْرَفُ بِهِ يُقَالُ: هَذِهِ غَدْرُهُ فَلَانُ بْنُ فُلَانٍ» [البخاري: ٦١٧٧، ومسلم: ٤٥٢٩].

ويذكر عنه أنه قال: «مَا تَقَضَّ قَوْمٌ الْعَهْدَ إِلَّا أَدِيلَ عَلَيْهِمُ الْعَدُوُّ» [الحاكم (١٢٦/٢)].

فصل

(تقرير مصير الكفار مع النبي ﷺ)

ولما قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ، صَارَ الْكَفَارُ مَعَهُ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ: قِسْمٌ صَالِحُهُمْ وَوَادِعُهُمْ عَلَى الْإِحَارِيوهِ، وَلَا يُظَاهِرُوا عَلَيْهِ، وَلَا يُؤَالُوا عَلَيْهِ عَدُوَّهُ، وَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ آمِنُونَ عَلَى دِمَائِهِمْ، وَأَمْوَالِهِمْ. وقسم: حَارِبُوهُ وَنَصَبُوا لَهُ الْعَدَاوَةَ. وقسم: تَارَكُوهُ، فَلَمْ يُصَالِحُوهُ، وَلَمْ يُحَارِبُوهُ، بَلْ انْتَظَرُوا مَا يُؤُولُ إِلَيْهِ أَمْرُهُ، وَأَمْرُ أَعْدَائِهِ، ثُمَّ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ كَانَ يُحِبُّ ظَهْرَهُ، وَانْتَصَارَهُ فِي الْبَاطِنِ، وَمِنْهُمْ: مَنْ كَانَ يُحِبُّ ظَهْرَ عَدُوِّهِ عَلَيْهِ وَانْتَصَارَهُمْ، وَمِنْهُمْ: مَنْ دَخَلَ مَعَهُ فِي الظَّاهِرِ، وَهُوَ مَعَ عَدُوِّهِ فِي الْبَاطِنِ، لِيَأْمَنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُتَافِقُونَ، فَعَامِلٌ كُلُّ طَائِفَةٍ مِنْ هَذِهِ الطَّوَائِفِ بِمَا أَمَرَهُ بِهِ رَبُّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

(محاربة بنو قينقاع للمسلمين)

فصالح يهود المدينة، وكتب بينهم وبينه كتاب أمن، وكانوا ثلاث طوائف حول المدينة: بني قَيْنِقَاعَ، وبني النَّضِيرِ، وبني قُرَيْظَةَ، فحاربه بنو قَيْنِقَاعَ بعد ذلك بعد بدر، وشرَقُوا بوقعة بدر، وأظهروا البغي والحسد فسارت إليهم جنود الله، يَقْدَمُهُمْ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ يَوْمَ السَّبْتِ لِلنِّصْفِ مِنْ شَوَالٍ عَلَى رَأْسِ عَشْرِينَ شَهْرًا مِنْ مُهَاجِرِهِ، وَكَانَ خُلَفَاءَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَنٍ سُلُوكَ رُئِيسِ الْمُنَافِقِينَ، وَكَانُوا أَشْجَعَ يَهُودِ الْمَدِينَةِ، وَحَامِلُ لَوَاءِ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ حِمَزَةُ بَنِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْدِ الْمَنْذَرِ، وَحَاصَرَهُمْ خَمْسَةَ عَشَرَ لَيْلَةً إِلَى هَلَالِ ذِي الْقَعْدَةِ، وَهُمْ أَوَّلُ مَنْ حَارَبَ مِنَ الْيَهُودِ، وَتَحَصَّنُوا فِي حَصُونِهِمْ، فَحَاصَرَهُمْ أَشَدُّ الْحِصَارِ، وَقَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ الَّذِي إِذَا أَرَادَ خِذْلَانُ قَوْمٍ وَهَزِيْمَتُهُمْ أَنْزَلَهُ عَلَيْهِمْ، وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ، فَنَزَلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي رِقَابِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَنَسَانَهُمْ وَدَرَيْتَهُمْ، فَأَمَرَ بِهِمْ فَكُفُّوا، وَكَلَّمَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنَ أَبِي فِيهِمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَالْحَجَّ عَلَيْهِ، فَوَهَبَهُمْ لَهُ،

(١) الصرف: الفريضة، والعدل: النافلة، وعن الأصمعي: الصرف: التوبة، والعدل: الفدية مسلم (٣٣٣٠).

وأمرهم أن يخرجوا من المدينة، ولا يُجاوِزوه بها، فخرجوا إلى أَدْرَعَاتٍ من أرض الشام، فقلَّ أن لَبِثُوا فيها حتى هَلَكَ أَكْثَرُهُمْ، وكانوا صَاغَةً وَتُجَارًا، وكانوا نحوَ السِّمْتَةِ مقاتل، وكانت دارُهم في طرفِ المدينة، وَقَبَضَ مِنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ، فأخذ منها رسولُ اللَّهِ ﷺ ثلاثَ قِسِيٍّ وِدرَعين، وثلاثةَ أسياف، وثلاثةَ رماح، وَخَمْسَ غَنَائِمِهِمْ، وكان الذي تولى جمع الغنائم محمدُ بن مسلمة [ابن هشام ٤٤٩].

فصل

(نقض بني النضير العهد)

ثم نقض العهد بنو النضير، قال البخاري: وكان ذلك بعد بدرٍ بستةَ أشهر، قاله عروة [البخاري تعليقاً قبل الحديث: ٤٠٢٨، وقد وصله عبد الرزاق: ٩٧٣٢] وسبب ذلك أنه ﷺ خرج إليهم في نفرٍ من أصحابه، وكلَّمهم أن يُعِينُوهُ في دِيَةِ الْكَلَابِيتَيْنِ اللَّذَيْنِ قَتَلَهُمَا عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ، فقالوا: نفعلُ يا أبا القاسم، اجلسْ ها هنا حتى نَقْضِي حاجتك، وخلا بعضهم ببعض، وسوَّلَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ الشَّقَاءَ الَّذِي كُتِبَ عَلَيْهِمْ، فتأمروا بقتله ﷺ، وقالوا: أَيُّكُمْ يأخذ هذه الرُّحَا ويصعدُ، فيلقِيها على رأسه يَشْدُخُهَا بها؟ فقال أشقاهم عمرُ بْنُ جَحَاشٍ: أنا، فقال لهم سلامٌ بِنُ مِشْكَم: لا تفعلوا فواللَّهِ لَيُخَبِّرَنَّ بما هممتم به، وإنه لنقضُ العهد الذي بيننا وبينه، وجاء الوحي على الفور إليه من ربه تبارك وتعالى بما هموا به، فنهض مسرعاً، وتوجَّه إلى المدينة، وَلَحِقَهُ أَصْحَابُهُ، فقالوا: نهضت ولم تُشْعَرْ بِكَ، فأخبرهم بما همَّت يهود به، وبعث إليهم رسولُ اللَّهِ ﷺ: أن اخرجوا من المدينة، ولا تساكُنُونِي بها، وقد أَجَلْتُكُمْ عَشْرًا، فمن وجدْت بعد ذلك بها، ضَرَبْتُ عُقَّةً، فأقاموا أياماً يتجهَّزُونَ، وأرسل إليهم المنافِقُ عبدُ اللَّهِ بن أبي: أن لا تُخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دُونَكُمْ، وتنصركم قُرَيْظَةُ وحلفاؤكم من غَطَفَانَ، وطَمِعَ رِيسُهُمْ حُيَّ بْنُ أَخْطَبٍ فيما قال له، وبعث إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ يقول: إنا لا نُخْرُجُ مِنْ دِيَارِنَا، فاصْنَعْ ما بَدَأَ لَكَ، فكَبَّرَ رسولُ اللَّهِ ﷺ وأصحابه، ونهضوا إليه، وعليه بَنُ أَبِي طَالِبٍ يحومل اللواء، فلما انتهى إليهم، قاموا على حُصُونِهِمْ يرمون

بالنَّيل والحجارة، واعتزلتهم قُرَيْظَةُ، وخانهم ابنُ أَبِي وَحْلَفَاؤُهُمْ مِنْ غَطَفَانَ، ولهذا شَبَّهَ سَبْحَانَهُ وتعالى قِصَّتَهُمْ، وجعل مثْلَهُمْ ﴿كَذَلِكَ أَنشَأَ لِيُذَكِّرَ الْأَنْبِيَاءَ﴾ [الحشر: ١٦]، فإن سورة الحشر هي سورة بني النضير، وفيها مبدأ قِصَّتِهِمْ ونهايتها، فحاصرهم رسولُ اللَّهِ ﷺ، وقَطَعَ نخلهم، وحرَّقَ [البخاري: ٤٨٨٤، ومسلم: ٤٥٥٢]، فأرسلوا إليها: نحن نخرج عن المدينة، فأَنْزَلَهُمْ على أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذرياتهم، وأن لهم ما حَمَلَتِ الْإِبِلُ إِلَّا السِّلَاحَ، وقبض النبي ﷺ الأموالَ والحَلَقَةَ، وهي السِّلَاحُ، وكانت بنو النضير خالصةً لرسولِ اللَّهِ ﷺ لِإِنِائِهِ ومصالحِ المُسلمين، ولم يُخَمَّسْهَا لأن الله أفاءها عليه، ولم يُوجِبِ المُسلمُونَ عَلَيْهَا بِحَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ. وَخَمَسَ قُرَيْظَةُ [البخاري: ٤٨٨٥، ومسلم: ٤٥٧٥].

قال مالك: خَمَسَ رسولُ اللَّهِ ﷺ قُرَيْظَةَ، ولم يُخَمَّسَ بني النضير، لأن المسلمين لم يُوجِبُوا بخيلهم ولا رِكَابَهُمْ على بني النضير، كما أوجفوا على قُرَيْظَةَ وأجلاهم إلى خير، وفيهم حُيَّ بْنُ أَخْطَبٍ كبيرهم، وقبض السِّلَاحَ، واستولى على أرضهم وديارهم وأموالهم، فوجد من السِّلَاحِ خمسينَ دِرْعًا، وخمسينَ يَبِضَةً، وثلاثمائةَ وأربعينَ سِيفًا، وقال: هؤلاء في قَوْمِهِمْ يَمْنَزِلُوهُ بَنِي الْمُغِيرَةِ فِي قُرَيْشٍ، وكانت قصتهم في ربيع الأول سنة أربع من الهجرة [ابن هشام ٥٤٠].

فصل

(نقض قريضة العهد)

وأما قُرَيْظَةُ، فكانت أشدَّ اليهودِ عداوةً لرسولِ اللَّهِ ﷺ، وأغلظهم كُفْرًا، ولذلك جرى عليهم ما لم يجرِ على إخوانهم.

كان سببُ غزوهم أن رسولَ اللَّهِ ﷺ لما خرج إلى غزوة الخندق والقوم معه ضَلُّجٌ، جاء حُيَّ بْنُ أَخْطَبٍ إلى بني قُرَيْظَةَ في ديارهم، فقال: قد جئتكم بعزِّ الدَّهْرِ، جئتكم بقرِيشٍ على سادتها، وَغَطَفَانَ على قادتها، وأنتم أهلُ الشُّوْكَةِ والسِّلَاحِ، فهلَمْ حتى نناجزَ محمدًا ونفرُغَ منه، فقال له رِيسُهُمْ: بل جئتني واللَّهِ بِذُلِّ الدَّهْرِ، جئتني بسحابٍ قد أراق مائه، فهو

يرعُد ويبرق، فلم يزل حُبي يُخادعه ويَعِدُه ويُمنيه حتى أجابه بشرط أن يدخل معه في حصنه، يُصيبه ما أصابهم، ففعل، ونقضوا عهد رسول الله ﷺ، وأظهروا سيئه، فبلغ رسول الله ﷺ الخبر، فأرسل يستعلم الأمر، فوجدهم قد نقضوا العهد، فكبر وقال: «ابْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ».

(الاختلاف في قوله ﷺ)

«لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة»

فلما انصرفت رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إلى المدينة، لم يكن إلّا أن وضع سلاحه، فجاءه جبريلُ، فقال: أوضعت السلاح، واللّٰهُ إِنْ الْمَلَائِكَةُ لَمْ تَضَعْ أَسْلِحَتَهَا! فانهض بمن معك إلى بني قريظة، فإني سائرُ أمامك أزلزل بهم حصونهم، وأقذف في قلوبهم الرُّعبَ، فسار جبريلُ في موكبه من الملائكة، ورسولُ الله ﷺ على أثره في موكبه من المهاجرين والأنصار [البخاري: ٤١١٧، ومسلم: ٤٥٩٨]، وقال لأصحابه يومئذ: «لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ»، فبادروا إلى امتثال أمره، ونهضوا من فورهم، فادركتهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نُصَلِّيها إلّا في بني قريظة كما أمرنا، فصلّوها بعد عشاء الآخرة، وقال بعضهم: لم يَرُدْ مِنَّا ذلك، وإنما أراد سرعة الخروج، فَصَلَّوْهَا فِي الطَّرِيقِ، فلم يُعْتَفَ واحدة من الطائفتين [البخاري: ٩٤٦، ومسلم: ٤٦٠٢].

واختلف الفقهاء أيّهما كان أصوب؟ فقالت طائفة: الذين أخروها هم المُصَلِّين، ولو كُنّا معهم، لأخرناها كما أخرجوها، ولما صلّيناها إلّا في بني قريظة امتثالاً لأمره، وتركنا للتأويل المخالف للظاهر.

وقالت طائفة أخرى: بل الذين صلّوها في الطريق في وقتها حازوا قَصَبَ السَّبْقِ، وكانوا أسعد بالفضليلتين، فإنهم بادروا إلى امتثال أمره في الخروج، وبادروا إلى مرضاته في الصلاة في وقتها، ثم بادروا إلى اللحاق بالقوم، فحازوا فضيلة الجهاد، وفضيلة الصلاة في وقتها، وفهموا ما يُراد منهم، وكانوا أفقه من الآخرين، ولا سيما تلك الصلاة، فإنها كانت صلاة العصر، وهي الصلاة الوسطى بنص رسول الله ﷺ الصحيح الصريح الذي لا مدفع له ولا مطعن فيه، ومجيء السنة بالمحافظة عليها، والمبادرة

إليها، والتبكير بها، وأن من فاتته، فقد وُتِرَ أهله وماله، أو قد خِبطَ عمله [البخاري: ٥٥٣، ومسلم: ٤١١٧]، فالذي جاء فيها أمر لم يَجِئْ مثله في غيرها، وأما المؤخرون لها، فغايتهم أنهم معذورون، بل مأجورون أجراً واحداً لتمسكهم بظاهر النص، وقصدهم امتثال الأمر، وأما أن يكونوا هم المصيبين في نفس الأمر، ومن بادر إلى الصلاة وإلى الجهاد مخطئاً، فحاشا وكلاً، والَّذِينَ صَلَّوْا فِي الطَّرِيقِ، جمعوا بين الأدلة، وحصلوا الفضيلتين، فلهم أجران، والآخرون مأجورون أيضاً رضي الله عنهم. فإن قيل: كان تأخير الصلاة للجهاد حيتن جازراً مشروعاً، ولهذا كان عقب تأخير النبي ﷺ العصر يوم الخندق إلى الليل، فتأخيرهم صلاة العصر إلى الليل، كتأخيرهم ﷺ لها يوم الخندق إلى الليل سواء، ولا سيما أن ذلك كان قبل شروع صلاة الخوف. قيل: هذا سؤال قوي، وجوابه من وجهين.

أحدهما: أن يقال: لم يثبت أن تأخير الصلاة عن وقتها كان جازراً بعد بيان المواقيت، ولا دليل على ذلك إلّا قصة الخندق، فإنها هي التي استدلت بها مَنْ قال ذلك، ولا حُجَّةَ فيها لأنه ليس فيها بيان أن التأخير من النبي ﷺ كان عن عمد، بل لعله كان نسياناً، وفي القصة ما يُشعر بذلك، فإن عمر لما قال له: يا رسول الله! ما كُذِّتْ أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب، قال رسول الله ﷺ: «وَاللّٰهُ مَا صَلَّيْتُهَا» ثم قام، فصلاها [البخاري: ٤١١٢]. وهذا مشعر بأنه ﷺ كان ناسياً بما هو فيه من الشغل، والاهتمام بأمر العدو المحيط به، وعلى هذا يكون قد أخرجها بعذر النسيان، كما أخرجها بعذر النوم في سفره، وصلاها بعد استيقاظه، وبعد ذكره لِتَأْسَى أَمَّتْهُ بِهِ.

والجواب الثاني: أن هذا على تقدير ثبوته إنما هو في حال الخوف والمُسايفة عند اللّٰعْش عن تعقّل أفعال الصلاة، والإتيان بها، والصحابة في مسيرهم إلى بني قريظة، لم يكونوا كذلك، بل كان حكمهم حكم أسفارهم إلى العدو قبل ذلك وبعده، ومعلوم أنهم لم يكونوا يؤخرون الصلاة عن وقتها، ولم تكن قريظة ممن يخاف قوتهم، فإنهم كانوا مقيمين بدارهم، فهذا انتهى أقدام الفريقين في هذا الموضع.

فصل

سَيِّدُكُمْ، فلما أنزلوه، قالوا: يا سعدُ! إن هؤلاء القوم قد نزلوا على حُكْمِكَ، قال: وحكمي نافذٌ عليهم؟ قالوا: نعم. قال: وعلى المسلمين؟ قالوا: نعم. قال: على من ها هنا وأعرض بوجهي، وأشار إلى ناحية رسول الله ﷺ إجلالاً له وتعظيماً؟ قال: نعم، وعليّ. قال: فإني أحكم فيهم أن يقتل الرِّجَالُ، وتُسَبَّى الذَّرِيَّةُ، وتقسَمُ الأموالُ، فقال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ مِنْ فَوْقِ سَنَاعَاتِ» [ابن هشام (٥٦٦)]. وأسلم منهم تلك الليلة نفر قبل النزول، وهرب عمرو بن سعد، فانطلق فلم يعلم أين ذهب، وكان قد أبى الدخول معهم في نقض العهد، فلما حكم فيهم بذلك، أمر رسول الله ﷺ بقتل كُلِّ من جرت عليه العوسى منهم، ومن لم يُثَبِّث، الحقُّ بالدرية [أبو داود: ٤٤٠٤، والترمذي: ١٥٨٤، والنسائي (٦/ ١١٥٥)، فحفر لهم خنادق في سوق المدينة، وضربت أعناقهم، وكانوا ما بين الستمئة إلى السبعمئة، ولم يُقتل من النساء أحد سوى امرأة واحدة كانت ظَرَحَتْ على رأس سويد بن الصامت رحي، فقتلته، وجعل يذهب بهم إلى الخنادق أرسالاً أرسالاً، فقالوا لرئيسهم كعب بن أسد: يا كعبُ! ما تراه يصنعُ بنا؟ فقال: أفي كل موطن لا تعقلون؟ أما ترون الدَّاعِيَ لا يَنْزِعُ، والذَّاهِبُ منكم لا يرجعُ، هو والله القتلُ.

قال مالك في رواية ابن القاسم: قال عبد الله بن أبي إسعد بن معاذ في أمرهم: إنهم أحد جناحَي، وهم ثلاثمئة دارع، وستمئة حاسر، فقال: قد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم، ولما جيء بخبي بن أخطب إلى بين يديه، ووقع بصره عليه، قال: أما والله ما لُت نفسي في معاداتك، ولكن مَنْ يُغَالِبُ اللَّهَ يُغْلِبْ ثم قال: يا أيُّها الناس، لا بأسَ قدر الله وملحمته كتبت على بني إسرائيل، ثم حبس، فضربت عنقه. واستوهب ثابت بن قيس الزبيري بن باطا وأهله وماله من رسول الله، فوهبهم له، فقال له ثابت بن قيس: قد وهبك لي رسول الله ﷺ ووهب لي مالك وأهلك، فهم لك. فقال: سألتك بيدي عندك يا ثابتُ إلا الحققتي بالأحبة، فضرب عنقه، والحقه بالأحبة من اليهود، فهذا كُلُّه في يهود المدينة، وكانت غزوة كل طائفة منهم عَقَبَ كُلُّ غزوة من الغزوات الكبار.

وأعطى رسول الله ﷺ الراية علي بن أبي طالب، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، ونازل حصون بني قريظة، وحصرهم خمسا وعشرين ليلة، ولما اشتد عليهم الحصارُ، عرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد ثلاث خصال: إما أن يُسَلِّمُوا ويدخلوا مع محمد في دينه، وإما أن يقتلوا ذراريهم، ويخرجوا إليه بالسيوف مُصلَّنة يناجزونه حتى يظفروا به، أو يقتلوا عن آخرهم، وإما أن يهجموا على رسول الله ﷺ وأصحابه ويكسبهم يوم السبت، لأنهم قد أمِنُوا أن يُقاتلوهم فيه، فأبوا عليه أن يُجِيبُوهُ إلى واحدة منهم، فبعثوا إليه أن أرسل إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر نستشيرهُ، فلما رآوه، قاموا في وجهه يبكون، وقالوا: يا أبا لبابة! كيف ترى لنا أن ننزل على حكم محمد؟ فقال: نعم، وأشار بيده إلى حلقة يقول: إنه اللُّبَّح، ثم عَلِمَ من فوره أنه قد خان الله ورسولهُ، فمضى على وجهه، ولم يَرْجِعْ إلى رسول الله ﷺ حتى أتى المسجد مسجد المدينة، فربط نفسه بسارية المسجد، وحلف ألا يحلَّهُ إلا رسول الله ﷺ بيده، وأنه لا يدخل أرض بني قريظة أبداً، فلما بلغ رسول الله ﷺ ذلك، قال: «دَعُوهُ حَتَّى يَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِ» ثم تاب الله عليه، وحلَّهُ رسول الله ﷺ بيده، ثم إنهم نزلوا على حُكْمِ رسول الله ﷺ فقامت إليه الأوسُ، فقالوا: يا رسول الله! قد فعلت في بني قَيْنَقَاع ما قد عَلِمْتَ وهم حلفاء إخواننا الخزرج، وهؤلاء موالينا، فأحسِن فيهم فقال: «أَلَا تَرَضُونَ أَنْ يَحْكُمَ فِيهِمْ رَجُلٌ مِنْكُمْ؟» قالوا: بلى. قال: «فَذَاكَ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ». قالوا: قد رضينا، فأرسل إلى سعد بن معاذ، وكان في المدينة لم يخرج معهم لجرح كان به، فأَرْكَبَ حماراً وجاء إلى رسول الله ﷺ، فجعلوا يقولون له وهم كُفْتَاة: يا سَعْدُ! أجعل إلى مواليك، فأحسن فيهم، فإن رسول الله ﷺ قد حَكَمَكَ فِيهِمْ لِتُخَيَّرَ فِيهِمْ، وهو ساكت لا يرجع إليهم شيئاً، فلما أكثرُوا عليه، قال: لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم، فلما سَمِعُوا ذَلِكَ منه، رجَعَ بعضهم إلى المدينة، فنعى إليهم القوم، فلما انتهى سعد إلى النبي ﷺ، قال للصحاباء: «قُومُوا إِلَيَّ

غزوة بني قينقاع عقب بدر، وغزوة بني النضير عقب غزوة أحد، وغزوة بني قريظة عقب الخندق [البخاري: ٤١١٨، ومسلم: ٤٥٩٦].

وأما يهود خيبر، فسيأتي ذكر قصتهم إن شاء الله تعالى.

فصل

(حكم من نقض العهد وقرر به الباقون)

وكان هديبه ﷺ أنه إذا صالح قوماً فنَقَضَ بعضهم عهده، وصُلِّحَ، وأقرَّهم الباقُونَ، ورضوا به، غزا الجميع، وجعلهم كُلَّهُمْ ناقضين، كما فعل بقريظة، والنضير، وبني قينقاع، وكما فعل في أهل مكة، فهذه سُنَّةُ في أهل العهد، وعلى هذا ينبغي أن يجري الحُكْمُ في أهل الذمة كما صرح به الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم، وخالفهم أصحاب الشافعي، فحَصَرُوا نَقْضَ العهد بمن نقضه خاصة دون من رَضِيَ به، وأقرَّ عليه، وفرَّقوا بينهما بأن عقد الذمة أقوى وأكْثَرُ، ولهذا كان موضوعاً على التأييد، بخلاف عقد الهدنة والصلح.

والأولون يقولون: لا فَرْقَ بَيْنَهُمَا، وعقد الذمة لم يُوضَّع للتأييد، بل بشرط استمرارهم ودوامهم على التزام ما فيه، فهو كعقد الصلح الذي وضع للهدنة بشرط التزامهم أحكاماً ما وقع عليه العقد، قالوا: والنبِيُّ ﷺ لم يُوقِّعْ عقدَ الصلح والهدنة بينه وبين اليهود لما قدم المدينة، بل أطلقه ما داموا كافين عنه، غير محاربين له، فكانت تِلْكَ ذِمَّتُهُمْ، غير أن الجزية لم يكن نَزْلُ فرضها بعد، فلما نَزَلَ فرضها، ازداد ذلك إلى الشروط المشترطة في العقد، ولم يغير حكمه، وصار مقتضاها التأييد، فإذا نقض بعضهم العهد، وأقرَّهم الباقُونَ، ورضوا بذلك، ولم يُعْلِمُوا به المسلمين، صاروا في ذلك كنقض أهل الصلح، وأهل العهد والصلح سواء في هذا المعنى، ولا فَرْقَ بينهما فيه، وإن اختلفا من وجه آخر يُوضَّحُ هذا أن المقرَّ الراضي الساكت إن كان باقياً على عهده وصُلِّحَ، لم يجز قَتْلُهُ ولا قَتْلُهُ في الموضوعين، وإن كان بذلك خارجاً عن عهده وصلحه راجعاً إلى حاله الأولى قبل العهد والصلح،

لم يفتريق الحال بين عقد الهدنة وعقد الذمة في ذلك، فكيف يكون عائداً إلى حاله في موضع دون موضع، هذا أمر غير معقول. توضيحه: أن تجدد أخذ الجزية منه، لا يُوجب له أن يكون مُوفياً بعهده مع رضاه، وممالاته ومواطناته لمن نقض، وعدم الجزية يُوجب له أن يكون ناقضاً غادراً غير موفٍ بعهده، هذا بين الامتناع.

فالأقوال ثلاثة: النقض في الصورتين، وهو الذي دَلَّتْ عليه سنة رسول الله ﷺ في الكفار، وعدم النقض في الصورتين، وهو أبعد الأقوال عن السنة، والافتراق بين الصورتين، والأولى أصوبها، وبالله التوفيق.

(فتوى المصنف لولي الأمر)

وبهذا القول أفتينا وليَّ الأمر لما أحرقت النصارى أموال المسلمين بالشام ودورهم، وراموا إحراق جامعهم الأعظم حتَّى أحرقوا منارته، وكاد - لولا دفع الله - أن يحترق كُلُّهُ، وعلم بذلك مَنْ علم من النصارى، وواطؤوا عليه وأقروه، ورضوا به، ولم يُعْلِمُوا وليَّ الأمر، فاستفتى فيهم وليَّ الأمر من حضره من الفقهاء، فأفتيناه بانتقاض عهد من فعل ذلك، وأعان عليه بوجه من الوجوه، أو رضي به، وأقر عليه، وأن حدَّه القتلُ حتماً، لا تخيير للإمام فيه، كالأسير، بل صار القتل له حداً، والإسلام لا يسقط القتل إذا كان حداً مَنْ هو تحت الذمة، ملتزماً لأحكام الله بخلاف الحربي إذا أسلم، فإن الإسلام يعصم دمه وماله، ولا يُقْتَلُ بما فعله قبل الإسلام، فهذا له حُكْم، والذمي الناقض للعهد إذا أسلم له حكم آخر، وهذا الذي ذكرناه هو الذي تقتضيه نصوص الإمام أحمد وأصوله، ونص عليه شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه، وأفتى به في غير موضع.

فصل

(من دخل هي عقد)

المصالحين ثم حارب المسلمين فقد نقض العهد)

وكان هديهِ وسُنَّتُهُ إذا صالح قوماً وعاهدهم، فانضاف إليهم عدوٌ له سواهم، فدخلوا معهم في

رسولُ الله ﷺ أن يرُدَّ إليهم مَنْ جاء منهم، وإن كان مسلماً، وأما اليوم، فلا يصلح هذا انتهى.

وفي قوله: لا أخيسُ البردَ إشعار بأن هذا حكم يختص بالرسُل مطلقاً، وأما ردُّه لمن جاء إليه منهم وإن كان مسلماً، فهذا إنما يكون مع الشرط، كما قال أبو داود، وأما الرسلُ، فلهم حكم آخر، ألا تراه لم يتعرض لرسولي مسيلة وقد قال له في وجهه: نشهد أن مسيلة رسول الله.

وكان من هديه، أن أعداءه إذا عاهدوا واحداً من أصحابه على عهد لا يضرُّ بالمسلمين من غير رضاه، أمضاه لهم، كما عاهدوا حذيفة وأباه الحَسِيلَ أن لا يُقاتِلَهم معه ﷺ، فأمضى لهم ذلك وقال لهما: «انصِرْفَا فَنَفِي لَهْمُ بِمَعْدِهِمْ، وَنَسْتَعِينُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ» [مسلم: ٤٦٣٩].

فصل

(صلحه ﷺ مع قريش)

وصالح قريشاً على وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين، على أن من جاءه منهم مسلماً ردُّه إليهم، ومن جاءهم من عنده لا يرُدُّونه إليه [البخاري: ٧٧٣١، ومسلم: ٤٦٧٣]، وكان اللفظ عاماً في الرجال والنساء، ففسخ الله ذلك في حق النساء، وأبقى في حق الرجال، وأمر الله نبيّه والمؤمنين أن يمتحنوا مَنْ جاءهم من النساء، فإن عَلِمُوا مؤمنةً، لم يرُدُّوها إلى الكُفَّار، وأمرهم برَدِّ مهرها إليهم لما فات على زوجها من منفعة بُضعها، وأمر المسلمين أن يرُدُّوا على من ارتدت امرأته إليهم مهرها إذا عاقبوا، بأن يجب عليهم ردُّ مهر المهاجرة، فيردونه إلى من ارتدت امرأته، ولا يردونها إلى زوجها المشرك، فهذا هو العقاب، وليس من العذاب في شيء، وكان في هذا دليل على أن خروج البُضع من مُلك الزوج متقوّم، وأنه متقوّم بالمسئ الذي هو ما أنفق الزوج لا بمهر المثل، وأن أنكحة الكفار لها حكم الصحة، لا يُحكم عليها بالبطلان، وأنه لا يجوز ردُّ المسلمة المهاجرة إلى الكُفَّار ولو شرط ذلك، وأن المسلمة لا يحلُّ لها نكاح الكافر، وأن المسلم له أن يتزوَّج

عقدهم، وانضاف إليه قوم آخرون، فدخلوا معه في عقده، صار حُكم مَنْ حارب من دخل معه في عقده من الكفار حكم من حاربه، وبهذا السبب غزا أهل مكة، فإنه لما صالحهم على وضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين، توثب بنو بكر بن وائل، فدخلت في عهد قريش، وعقدها، وتوثبت خزاعة، فدخلت في عهد رسول الله ﷺ وعقده، ثم عدت بنو بكر على خزاعة فيبتتهم، وقتلت منهم، وأعانتهم قريش في الباطن بالسلاح، فعُدَّ رسول الله ﷺ قريشاً ناقضين للعهد بذلك، واستجاز غزو بني بكر بن وائل ليعذبهم على خلفائه، وسيأتي ذكر القصة إن شاء الله تعالى.

وبهذا أفتى شيخ الإسلام ابن تيمية بغزو نصارى المشرق لما أعانوا عدوَّ المسلمين على قتالهم، فأمدوهم بالمال والسلاح، وإن كانوا لم يغزونا ولم يُحاربونا، ورأهم بذلك ناقضين للعهد، كما نقضت قريشُ عهد النبي ﷺ بإعانتهم بني بكر بن وائل على حرب خلفائه، فكيف إذا أعان أهل الذمّة المشركين على حرب المسلمين. والله أعلم.

فصل

(رسل الأعداء لا يُتعرض لها)

وكانت تُقدَّم عليه رُسُل أعدائه، وهم على عداوته، فلا يَهْجُبهم، ولا يَقْتُلهم، ولما قَدِم عليه رسولاً مُسَلِّمَةً الكذاب: وهما عبد الله بن النواحة وابن أثال، قال لهما: «فَمَا تَقُولَانِ أَتَمَّا؟» قالَا: نقول كما قال فقال رسول الله ﷺ: «لَوْ لَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ أَغْثَاكَمَا» [صحيح: أحمد: ١٥٩٨٩، وأبو داود: ٢٧٦١] فجرت سته ألا يَقْتُلَ رسولاً.

وكان هديه أيضاً ألا يحبس الرسولَ عنده إذا اختار دينه، فلا يمنعه من اللحاق بقومه، بل يرُدُّه إليهم، كما قال أبو رافع: بعثني قُريشٌ إلى النبي ﷺ، فلما أتيتُه، وقع في قلبي الإسلام، فقلت: يا رسولَ الله! لا أرجع إليهم. فقال: «إني لا أخيسُ بالعهد، ولا أخيسُ البردَ، أرجع إليهم، فَإِنْ كَانَ فِي قَلْبِكَ الَّذِي فِيهِ الْآنَ، فَارْجِعْ»^(١) [صحيح: أحمد: ٢٣٨٥٧، وأبو داود: ٢٧٥٨].

قال أبو داود: وكان هذا في المدة التي شرط لهم

(١) «لا أخيس العهد» معناه: لا أنقض العهد ولا أفسده، من قولك: خاس الشيء في الوعاء؛ إذا فسد.

المرأة المهاجرة إذا انقضت عدتها، وآتاها مهرها، وفي هذا أبين دلالة على خروج بُضعها من ملك الزوج، وانساخت نكاحها منه بالهجرة والإسلام.

(تحريم نكاح المشركة على المسلم)

وفيه دليل على تحريم نكاح المشركة على المسلم، كما حرم نكاح المسلمة على الكافر.

وهذه أحكام استفيدت من هاتين الآيتين^(١)، وبعضها مجمع عليه، وبعضها مختلف فيه، وليس مع من ادعى نسختها حجة البتة، فإن الشرط الذي وقع بين النبي ﷺ وبين الكفار في رد من جاءه مسلماً إليهم، إن كان مختصاً بالرجال، لم تدخل النساء فيه، وإن كان عاماً للرجال والنساء، فالله سبحانه وتعالى خصص منه رد النساء ونهاهم عن ردهن، وأمرهم برد مهورهن، وأن يردوا منها على من ارتدت امرأته إليهم من المسلمين المهر الذي أعطاها، ثم أخبر أن ذلك حكمه الذي يحكم به بين عباده، وأنه صادر عن علمه وحكمته، ولم يأت عنه ما ينافي هذا الحكم، ويكون بعده حتى يكون ناسخاً.

ولما صالحهم على رد الرجال، كان يُمكنهم أن يأخذوا من أتى إليه منهم، ولا يُكرهه على العود، ولا يأمره به، وكان إذا قتل منهم، أو أخذ مالا، وقد فصل عن يده، ولما يلحق بهم، لم يُكره عليه ذلك، ولم يضمنه لهم، لأنه ليس تحت قهره، ولا في قبضته، ولا أمره بذلك، ولم يقتض عقد الصلح الأمان على النفوس والأموال إلا عمن هو تحت قهره، وفي قبضته، كما صير لبي جليمة ما أتلفه عليهم خالد من نفوسهم وأموالهم، وأنكره، وتبرأ منه^(٢) [البخاري: ٤٣٣٩]. ولما كان إصابته لهم عن نوع شبهة، إذ لم يقولوا: أسلمنا، وإنما قالوا: صيأنا، فلم يكن إسلاماً صريحاً، ضمنهم بنصف دياتهم لأجل التأويل والشبهة، وأجراهم في ذلك مجرى أهل الكتاب الذين قد عصموا نفوسهم وأموالهم بعقد الذمة [حسن: أحمد: ٧٠١٢، والترمذي: ١٤١٣، والنسائي: ٨/٤٥]، وابن ماجه: ٢٦٤٤] ولم يدخلوا في الإسلام، ولم

يقتض عهد الصلح أن ينصّرهم على من حاربهم ممن ليس في قبضة النبي ﷺ وتحت قهره، فكان في هذا دليل على أن المعاهدين إذا غزاهم قوم ليسوا تحت قهر الإمام وفي يده، وإن كانوا من المسلمين أنه لا يجب على الإمام ردّهم عنهم، ولا منعهم من ذلك، ولا ضمان ما أتلّفوه عليهم.

وأخذ الأحكام المتعلقة بالحرب، ومصالح الإسلام، وأهله، وأمره، وأمور السياسات الشرعية من سيره، ومغازيه أولى من أخذها من آراء الرجال، فهذا لون، وتلك لون، وبالله التوفيق.

فصل

(الصلح مع أهل خيبر)

وقصة حيي في تضييبه المسك والحلي

وكذلك صالح أهل خيبر لما ظهر عليهم على أن يُجلبهم منها، ولهم ما حملت ركبهم، ولرسول الله ﷺ الصفراء والبيضاء، والحلقة، وهي السلاح. واشترط في عقد الصلح ألا يكتسبوا ولا يُغيّبوا شيئاً، فإن فعلوا، فلا ذمة لهم، ولا عهد، فغيّبوا مسكاً فيه مال وحلي لحيي بن أخطب كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النصير، فقال رسول الله ﷺ: لعن حيي بن أخطب، واسمه سعية: «مَا قَعَلَ مَسْكُ حَيٍّ الَّذِي جَاءَ بِهِ مِنَ النَّصِيرِ؟» فقال: أذهبت النفقات والحروب، فقال: «العهد قريب، والمال أكثر من ذلك». وقد كان حيي قتل مع بني قريظة لما دخل معهم، فدفع رسول الله ﷺ عنه إلى الزبير ليستقره، فمسه بعباد، فقال: «قد رأيت حياً يطوف في خربة ها هنا، فذهبوا فطافوا، فوجدوا المسك في الخربة، فقتل رسول الله ﷺ ابني أبي الحقيق، وأحدهما زوج صفية بنت حيي بن أخطب، وسبى نساءهم وذرياتهم، وقسم أموالهم بالتكث الذي نكثوا، وأراد أن يُجلبهم من خيبر، فقالوا: دعنا نكون في هذه الأرض نُصلحها ونقوم عليها، فنحن أعلم بها منكم، ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يكفونهم مؤنتها، فدفعها إليهم على

(١) وهما العاشرة والحادية عشرة من سورة الممتحنة.

(٢) ولم تنف على مستند المؤلف في أن النبي ﷺ ضمنهم بنصف دياتهم.

أَنْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ الشُّطْرَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَخْرُجُ مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ أَوْ زَرْعٍ، وَلَهُمُ الشُّطْرُ، وَعَلَى أَنْ يَبْرَهُمْ فِيهَا مَا شَاءَ [أبو داود: ٣٠٠٦].

ولم يعمهم بالقتل كما عمَّ قُرَيْظَةُ لاشتراك أولئك في نقض العهد، وأما هؤلاء فالذين عَلِمُوا بِالسَّكِّ وَغَيْبِهِ، وشرطوا له إن ظهر، فلا ذمة لهم ولا عهد، فإنه قتلهم بشرطهم على أنفسهم، ولم يتعد ذلك إلى سائر أهل خيبر، فإنه معلوم قطعاً أن جميعهم لم يعلموا بِسَكِّ حَيٍّ، وأنه مدفون في حَرَبَةٍ، فهذا نظيرُ الذَّمِّ والمعاهد إذا نقض العهد، ولم يُمَالِثْ عليه غيره، فإن حكم النقض مختص به.

(جواز المساقاة والمزارعة)

ثم في دفعه إليهم الأرضَ على النصف دليل ظاهر على جواز المساقاة والمزارعة، وكون الشجر نخلاً لا أثر له البتة، فحكم الشيء حكم نظيره، فَبَلَدَ شَجَرُهُمُ الْأَعْنَابَ وَالتِّينَ وَغَيْرَهُمَا مِنَ الثَّمَارِ فِي الْحَاجَةِ إِلَى ذَلِكَ، حكمه حكم بلد شَجَرُهُمُ النَّخْلَ سواء، ولا فرق.

وفي ذلك دليل على أنه لا يُشْتَرَطُ كَوْنُ الْبَذْرِ مِنْ رَبِّ الْأَرْضِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَالِحُهُمْ عَنِ الشُّطْرِ، وَلَمْ يُعْطِهِمْ بِذَرَأَ الْبِتَةِ، وَلَا كَانَ يُرْسِلُ إِلَيْهِمْ يَبْذِرُ، وَهَذَا مَقْطُوعٌ بِهِ مِنْ سِيرَتِهِ، حَتَّى قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِنَّهُ لَوْ قِيلَ بِاشْتِرَاطِ كَوْنِهِ مِنَ الْعَامِلِ، لَكَانَ أَقْوَى مِنَ الْقَوْلِ بِاشْتِرَاطِ كَوْنِهِ مِنْ رَبِّ الْأَرْضِ، لِمَوَافَقَتِهِ لِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي أَهْلِ خَيْبَرَ.

والصحيح: أنه يجوز أن يكون من العامل، وأن يكون من رب الأرض، ولا يُشْتَرَطُ أَنْ يَخْتَصَّ بِهِ أَحَدُهُمَا، وَالَّذِينَ شَرَطُوهُ مِنْ رَبِّ الْأَرْضِ، لَيْسَ مَعَهُمْ حُجَّةٌ أَصْلًا أَكْثَرُ مِنْ قِيَاسِهِمُ الْمَزَارِعَةَ عَلَى الْمُضَارِبَةِ، قَالُوا: كَمَا يُشْتَرَطُ فِي الْمَضَارِبَةِ أَنْ يَكُونَ رَأْسُ الْمَالِ مِنَ الْمَالِكِ، وَالْعَمَلُ مِنَ الْمُضَارِبِ، فَهَكَذَا فِي الْمَزَارِعَةِ، وَكَذَلِكَ فِي الْمَسَاقَاةِ يَكُونُ الشَّجَرُ مِنْ أَحَدِهِمَا، وَالْعَمَلُ عَلَيْهَا مِنَ الْآخَرِ، وَهَذَا الْقِيَاسُ إِلَى أَنْ يَكُونَ حِجَّةٌ عَلَيْهِمْ أَقْرَبُ مِنْ أَنْ يَكُونَ حِجَّةً لَهُمْ، فَإِنْ فِي الْمَضَارِبَةِ يَعُودُ رَأْسُ الْمَالِ إِلَى الْمَالِكِ، وَيَقْتَسِمَانِ الْبَاقِي، وَلَوْ شَرَطَ ذَلِكَ فِي الْمَزَارِعَةِ، فَسَدَتْ عَنْدهم، فَلَمْ يُجْزُوا الْبَذْرَ مَجْرَى

رَأْسُ الْمَالِ، بَلْ أَجْرُوهُ مَجْرَى سَائِرِ الْبَقْلِ، فَبَطَلَ إِحْقَاقُ الْمَزَارِعَةِ بِالْمَضَارِبَةِ عَلَى أَصْلِهِمْ.

وأيضاً فإن البذر جارٍ مجرى الماء، ومجرى المنافع، فإن الزرع لا يتكون وينمو به وحده، بل لا بد من السقي والعمل، والبذر يموت في الأرض، ويُنشئ الله الزرع من أجزاء آخر تكون معه من الماء والرياح، والشمس والتراب والعمل، فحكم البذر حكم هذه الأجزاء.

وأيضاً فإن الأرض نظيرُ رأس المال في القراض، وقد دفعها مالِكُهَا إِلَى الْمُزَارِعِ، وَبَذَرَهَا وَحَرَّثَهَا وَسَقَّيَهَا نظيرُ عمل المضارب، وهذا يقتضي أن يكون المزارع أولى بالبذر من رب الأرض تشبيهاً له بالمضارب، فالذي جاءت به السنة هو الصواب الموافق لقياس الشرع وأصوله.

(جواز عقد الهنئة)

وفي القصة دليل على جواز عقد الهنئة مطلقاً من غير توقيت، بل ما شاء الإمام، ولم يجيء بعد ذلك ما ينسخ هذا الحكم البتة، فالصواب جوازه وصحته، وقد نصَّ عليه الشافعي في رواية المزني، ونص عليه غيره من الأئمة، ولكن لا ينهض إليهم ويحاربهم حتى يُعْلِمَهُمْ عَلَى سِوَاهُ لَيْسَتُوا هُمْ وَهُوَ فِي الْعِلْمِ بِنَقْضِ الْعَهْدِ.

(جواز تعزير المتهم)

وفيها دليل على جواز تعزير المتهم بالعقوبة، وأن ذلك من السياسات الشرعية، فَإِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ كَانَ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَذِلَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى مَوْضِعِ الْكَتْرِ بِطَرِيقِ الْوَحْيِ، وَلَكِنْ أَرَادَ أَنْ يَسُرَّ لِلْأُمَّةِ عَقُوبَةَ الْمُتَمَتِّهِينَ، وَيُوسِّعَ لَهُمْ طُرُقَ الْأَحْكَامِ رَحْمَةً بِهِمْ، وَتَيْسِيرًا لَهُمْ.

(جواز الأخذ بالقرائن)

وفيها دليل على الأخذ بالقرائن في الاستدلال على صحة الدعوى وفسادها، لقوله ﷺ لِيُغْنِيَ لِمَا ادَّعَى نَفَادَ الْمَالِ: «الْعَهْدُ قَرِيبٌ، وَالْمَالُ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ».

(اعتبار القرائن)

وكذلك فعل نبي الله سليمان بن داود في استدلاله

بالقرينة على تعيين أم الطفل الذي ذهب به الذئب،
وادعت كل واحدة من المرأتين أنه ابنها، واختصمتا
في الآخر، فقضى به داود للكبرى، فخرجتا إلى
سليمان، فقال: يَمْ قَضَى بَيْنَكُمَا نَبِيُّ اللَّهِ، فأخبرناه،
فقال: انتوني بالسكين أشقه بينكما، فقالت
الصغرى: لا تفعلْ رحمك الله، هو ابْنُهَا، فقضى به
للصغرى [البخاري: ٦٧٦٩، ومسلم: ٤٤٩٥] فاستدل بقرينة
الرحمة والرفقة التي في قلبها، وعدم سماحتها بقتله
وسماحة الأخرى بذلك، لتصير أسوتها في فقد الولد
على أنه ابن الصغرى.

فلو اتفقت مثل هذه القضية في شريعتنا، لقال
أصحاب أحمد والشافعي ومالك رحمهم الله: عمل
فيها بالقامة، وجعلوا القافة سبباً لترجيح المدعي
للسب رجلاً كان أو امرأة.

قال أصحابنا: وكذلك لو ولدت مسلمة وكافرة
ولَدَيْنِ، وادَّعَتِ الكافرة ولد المسلمة، وقد سئل عنها
أحمد، فتوقف فيها. فقيل له: ترى القافة؟ فقال: ما
أحسنها، فإن لم توجد قافة، وحكم بينهما حاكم
بمثل حكم سليمان، لكان صواباً، وكان أولى من
القرعة، فإن القرعة إنما يصار إليها إذا تساوى
المدعيان من كل وجه، ولم يترجح أحدهما على
الآخر، فلو ترجح بيد أو شاهد واحد، أو قرينة
ظاهرة من لوث^(١) أو نكول خصمه عن اليمين، أو
موافقة شاهد الحال لصدقه، كدعوى كل واحد من
الزوجين ما يصلح له من قماش البيت والأنية،
ودعوى كل واحد من الصانعين آلات صنعته،
ودعوى حابر الرأس عن العمامة عمامة من بيده
عمامة، وهو يشتد عدواً، وعلى رأسه أخرى، ونظائر
ذلك، قُدِّمَ ذَلِكَ كله على القرعة.

ومن تراجم أبي عبد الرحمن النسائي على قصة
سليمان (هذا باب، الحكم يُوهم خلاف الحق،
ليستعلم به الحق)، والنبي ﷺ لم يقص علينا هذه
القصة لتخذها سراً، بل لنعبر بها في الأحكام، بل
الحكم بالقسامة وتقديم إيمان مدعي القتل هو من هذا

استناداً إلى القرائن الظاهرة، بل ومن هذا رجم
الملاعنة إذا التعن الزوج، ونكَلَتْ عن الالتعان.
فالشافعي ومالك رحمهما الله، يقتلانيها بمجرد
التعان الزوج، ونكولها استناداً إلى اللوث الظاهر
الذي حصل بالتعان، ونكولها.

(قبول شهادة أهل الكتاب)

على المسلمين في الوصية في السفر)

ومن هذا ما شرعه الله سبحانه وتعالى لنا من قبول
شهادة أهل الكتاب على المسلمين في الوصية في
السفر، وأن ولي الميت إذا اطلعا على خيانة من
الوصيين، جاز لهما أن يحلفا ويستحفا ما حلفا عليه،
وهذا لوث في الأموال، وهذا نظير اللوث في
الدماء، وأولى بالجواز منه، وعلى هذا إذا اطلع
الرجل المسروق ماؤه على بعضه في يد خاتن معروف
بذلك، ولم يتبين أنه اشتراه من غيره، جاز له أن
يَحْلِفَ أن بقية ماله عنده، وأنه صاحب السرقة استناداً
إلى اللوث الظاهر، والقرائن التي تكشف الأمر
وتوضحه، وهو نظير حلف أولياء المقتول في القسامة
أن فلاناً قتله: سواء، بل أمر الأموال أسهل وأخف،
ولذلك ثبت بشاهد ويمين، وشاهد وامرأتين،
ودعوى ونكول، بخلاف الدماء. فإذا جاز إثباتها
باللوث، فإثبات الأموال به بالطريق الأولى
والأخرى.

والقرآن والسنة يدلان على هذا وهذا، وليس مع
مَنْ ادَّعَى نسخ ما دلَّ عليه القرآن من ذلك حُجَّةٌ
أصلاً، فإن هذا الحكم في (سورة المائدة)، وهي من
آخر ما نَزَلَ من القرآن، وقد حكم بموجبها أصحاب
رسول الله ﷺ بعده، كأبي موسى الأشعري، وأقره
الصحابه.

(استدلال الشاهد في قصة يوسف بقرينة قَدِّ القميص)

ومن هذا أيضاً ما حكاه الله سبحانه في قصة
يوسف من استدلال الشاهد بقرينة قَدِّ القميص من دُبر
على صدقه، وكذب المرأة، وأنه كان هارباً مولى،
فأدركته المرأة من ورائه، فحبذته، فُقدت قميصه من

(١) في حديث القسامة ذكر اللوث وهو: أن يشهد شاهد واحد على إقرار المقتول قبل أن يموت أن فلاناً قتلني، أو يشهد
شاهدان على عداوة بينهما، أو تهديد منه له، أو نحو ذلك، وهو من التلوث: التلطخ.

دُبِّرَ، فلم يعلم بها الحاضرون صدقه، وقبلوا هذا الحكم، وجعلوا الذنب ذنبها، وأمروها بالتوبة، وحكاه الله - سبحانه وتعالى - حكاية مقرر له غير منكر، والثَّاسِي بذلك وأمثاله في إقرار الله له، وعدم إنكاره، لا في مجرد حكايته، فإنه إذا أخبر به مقرأ عليه، ومثنياً على فاعله، ومادحاً له، دل على رضاه به، وأنه موافق لحكمه ومرضاته، فليُتَدَبَّر هذا الموضع، فإنه نافع جداً، ولو تتبعنا ما في القرآن والسنة، وعمل رسول الله ﷺ وأصحابه من ذلك لطلال، وعسى أن نُقَرِّد فيه مصنفًا شافياً إن شاء الله تعالى. والمقصود: التنبيه على هديه، واقتباس الأحكام من سيرته، ومغازيه، ووقائمه صلوات الله عليه وسلامه.

ولما أقرَّ رسول الله ﷺ أهل خيبر في الأرض، كان يبعث كلَّ عام من يَخْرُصُ^(١) [البخاري: ٣١٦١، ومسلم: ٣٣٧١] عليهم الثمار، فينظرُ: كم يُجْنَى منها، فيُضْمَنُهم نصيب المسلمين، ويتصرفون فيها.

(جواز خرص الثمار البادي صلاحها)

وكان يكتفي بخارص واحد. ففي هذا دليل على جواز خرص الثمار البادي صلاحها كثمر النخل، وعلى جواز قسمة الثمار خرصاً على رؤوس النخل، ويصير نصيب أحد الشريكين معلوماً وإن لم يتميز بعد لمصلحة النماء، وعلى أن القسمة إقرار لا بيع، وعلى جواز الاكتفاء بخارص واحد، وقاسم واحد، وعلى أن يمين الثمار في يده أن يتصرف فيها بعد الخرص، ويضمّن نصيب شريكه الذي خرص عليه.

فلما كان في زمن عمر، ذهب عبد الله ابنه إلى ماله بخيبر، فعَدَّوا عليه، فألقوه من فوق بيت، ففكُّوا يده فأجلاهم عمر منها إلى الشام، وقسمها بين من كان شهد خيبر من أهل الحُدَيْبِيَّة.

فصل

(عقد النمة واخذ الجزية)

وأما هديه في عقد النمة وأخذ الجزية، فإنه لم يأخذ من أحد من الكفار جزية إلا بعد نزول (سورة

(بها نزول طائفة

من اليهود كتاباً فيه إسقاطه ﷺ الجزية)

ولما كان في بعض الدول التي خفيت فيها السنة وأعلامها، أظهر طائفة منهم كتاباً قد عَتَّقُوهُ وزَوَّوهُ، وفيه: أن النبي ﷺ أسقط عن يهود خيبر الجزية، وفيه: شهادة علي بن أبي طالب، وسعد بن معاذ، وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم، فراج ذلك على مَنْ جَهِلَ سنة رسول الله ﷺ ومغازيه وبسيره، وتوهموا، بل ظنوا صحتهم، فجزَّوا على حكم هذا الكتاب المزور، حتى ألقى إلى شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - وطلب منه أن يعين على تنفيذه، والعمل عليه، فبصق عليه، واستدل على كذبه بعشرة أوجه:

(١) الخَرْصُ بفتح الخاء وحكي كسرهما، ويسكون الراء: حزر ما على النخل من الرطب تمرًا، وفائدة الخرص التوسعة على أرباب الثمار في تناول منها، والبيع من زهوها، وإيثار الأهل والجيران والفقراء، لأن في منعهم تضيقاً.

منها: أن فيه شهادة سعد بن معاذ. وسعد توفي قبل خيبر قطعاً.

ومنها: أن في الكتاب، أنه أسقط عنهم الجزية، والجزية لم تكن نزلت بعد، ولا يعرفها الصحابة حينئذ، فإن نزولها كان عام تبوك بعد خيبر بثلاثة أعوام.

ومنها: أنه أسقط عنهم الكُلفَ والسُّخَر، وهذا محال، فلم يكن في زمانه كُلفٌ ولا سُخَرٌ تُؤخذ منهم، ولا من غيرهم، وقد أعاده الله، وأعاد أصحابه من أخذ الكُلفِ والسُّخَر، وإنما هي من وضع الملوك القُلَمَة، واستمر الأمر عليها.

ومنها: أن هذا الكتاب لم يذكره أحد من أهل العلم على اختلاف أصنافهم، فلم يذكره أحد من أهل المغازي والسير، ولا أحد من أهل الحديث والسنة، ولا أحد من أهل الفقه والإفتاء، ولا أحد من أهل التفسير، ولا أظهروه في زمان السلف، لعلمهم أنهم إن زُوروا مثل ذلك، عرفوا كذبه ويطلانه، فلما استخفوا بعض الدول في وقت فتنة وخفاء بعض السنة، زُوروا ذلك، وعُتِقُوا وأظهروه، وساعدتهم على ذلك طمع بعض الخائنين لله ولرسوله، ولم يستمر لهم ذلك حتى كشف الله أمره، وبين خلفاء الرسل بطلانه وكذبه.

فصل

(هل يجوز أخذ الجزية من غير المجوس واليهود والنصارى؟)
فلما نزلت آية الجزية، أخذها ﷺ من ثلاث طوائف: من المجوس، واليهود، والنصارى، ولم يأخذها من عبّاد الأصنام. فقيل: لا يجوز أخذها من كافر غير هؤلاء، ومن دان بدينهم، اقتداءً بأخذه وتركه. وقيل: بل تؤخذ من أهل الكتاب وغيرهم من الكفار كعبدة الأصنام من المعجم دون العرب، والأول: قول الشافعي رحمه الله، وأحمد، في إحدى روايته. والثاني: قول أبي حنيفة، وأحمد رحمهما الله في الرواية الأخرى.

وأصحاب القول الثاني: يقولون: إنما لم يأخذها من مشركي العرب، لأنها إنما نزلت فرضها بعد أن أسلمت دارة العرب، ولم يبق فيها مشرك، فإنها نزلت بعد فتح مكة، ودخول العرب في دين الله

أفواجاً، فلم يبق بأرض العرب مشرك، ولهذا غزا بعد الفتح تبوك، وكانوا نصارى، ولو كان بأرض العرب مشركون، لكانوا يلونه، وكانوا أولى بالغزو من الأبعدين.

ومن تأمل السير، وأيام الإسلام، علم أن الأمر كذلك، فلم تؤخذ منهم الجزية لعدم من يؤخذ منه، لا لأنهم ليسوا من أهلها، قالوا: وقد أخذها من المجوس، وليسوا بأهل كتاب، ولا يصح أنه كان لهم كتاب ورفع، وهو حديث لا يثبت مثله، ولا يصح سنده (عبد الرزاق: ١٠٠٢٩، والبيهقي (١٨٨/٩)).

ولا فرق بين عبّاد النار، وعبّاد الأصنام، بل أهل الأوثان أقرب حالاً من عبّاد النار، وكان فيهم من التمسك بدين إبراهيم ما لم يكن في عبّاد النار، بل عبّاد النار أعداء إبراهيم الخليل، فإذا أُخِذَتْ منهم الجزية، فأخذها من عبّاد الأصنام أولى، وعلى ذلك تدل سنة رسول الله ﷺ، كما ثبت عنه في «صحيح مسلم» أنه قال: «إِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَادْعُهُمْ إِلَى إِحْدَى خِلَالِ ثَلَاثٍ، فَأَتَيْتَهُمْ أَجَابُوكَ إِلَيْهَا، فَأَقْبَلَ مِنْهُمْ، وَكُفَّتْ عَنْهُمْ». ثم أمره أن يدعُوهم إلى الإسلام، أو الجزية، أو يُقَاتِلَهُمْ [مسلم: ٤٥٢١].

وقال المغيرة لعامل كسرى: أمرنا نبينا أن نقَاتِلَكُم حتى تُعبدوا الله، أو تؤدُّوا الجزية [البخاري: ٣١٥٩].

وقال رسول الله ﷺ لقريش: «هَلْ لَكُمْ فِي كَلِمَةٍ تَدِينُ لَكُمْ بِهَا الْعَرَبُ، وَتُؤَدِّي الْعَجَمُ إِلَيْكُمْ بِهَا الْجِزْيَةَ». قالوا: ما هي؟ قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» [حسن: أحمد: ٢٠٠٨، والترمذي: ٣٢٣٠].

فصل

ولما كان في مرجعه من تبوك، أخذت خيَلُهُ أُخْبِرَ دُومَةً، فصالحه على الجزية، وحقق له دمه [مسلم: ٢٥٢١].

(صلحه ﷺ مع أهل نجران)

وصالح أهل نجران من النصارى على ألفي حُلَّةٍ. النُصْفُ في صفر، والبقية في رجب، يؤدونها إلى المسلمين، وعارية ثلاثين درعاً، وثلاثين فرساً، وثلاثين بعيراً، وثلاثين من كُلِّ صِنْفٍ من أصناف

السلح، يغزُونَ بها، والمسلمون ضامنون لها حتى يردوها عليهم إن كان باليمن كَيْدٌ أو عَذْرَةٌ، على ألا تُهدم لهم بيعة، ولا يُخرج لهم قسٌّ، ولا يُقتلوا عن دينهم ما لم يُخدثوا حَدَثًا أو يَأْكُلُوا الرِّبَا [أبو داود: ٣٠٤١، وفي سنده ضعف].

وفي هذا دليل على انتقاض عهد الذمة بإحداث الحدث، وأكل الرِّبَا إذا كان مشروطاً عليهم.

ولما وجه معاذاً إلى اليمن، «أَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ كُلِّ مُحْتَلَمٍ دِينَارًا أَوْ قِيمَتَهُ مِنَ الْمَعَاوِرِيِّ»، وهي ثياب تكون باليمن [أحمد: ٢٢٠١٣، وأبو داود: ٣٠٣٨، والترمذي: ٦٢٣، والنسائي (٢٥/٥)، وابن ماجه: ١٨٠٣، ورجاله ثقات].

(الجزية تقدر بحسب حاجة المسلمين)

وفي هذا دليل على أن الجزية غير مقدرة الجنس، ولا القدر، بل يجوز أن تكون ثياباً وذهباً وحُللاً، وتزِيدُ وتَنْقُصُ بحسب حاجة المسلمين، واحتمال من تؤخذ منه، وحاله في الميسرة، وما عنده من المال.

(تؤخذ الجزية من العرب والعجم بغير اعتبار لقبائهم)

ولم يفرّق رسول الله ﷺ، ولا خلفاؤه في الجزية بين العرب والعجم، بل أخذها رسول الله ﷺ من نصارى العرب، وأخذها من مجوس هجر، وكانوا عرباً، فإن العرب أمة ليس لها في الأصل كتاب، وكانت كل طائفة منهم تدين بدين من جاورها من الأمم، فكانت عرب البحرين مجوساً لمجاورتها فارس، وتَنُوحُ، وبُهِرَّة، وبنو تغلب نصارى لمجاورتهم للروم، وكانت قبائل من اليمن يهود لمجاورتهم لليهود اليمن، فأجرى رسول الله ﷺ أحكامَ الجزية، ولم يعتبر آباءهم، ولا متى دخلوا في دين أهل الكتاب: هل كان دخولهم قبل النسخ والتبديل أو بعده، ومن أين يعرفون ذلك، وكيف ينضبط وما الذي دلّ عليه؟ وقد ثبت في السير والمغازي، أن من الانصار من يهود أبائهم بعد النسخ بشريعة عيسى، وأراد آبائهم إكراههم على الإسلام، فانزل الله تعالى: «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ» [البقرة: ٢٥٦] وفي قوله لمعاذ: «خُذْ مِنْ كُلِّ حَالِمٍ دِينَارًا» دليل على أنها لا تؤخذ من صبي ولا امرأة.

فإن قيل: فكيف تصنعون بالحديث الذي رواه

عبد الرزاق في «مصنفه» وأبو عبيد في «الأموال» أن النبي ﷺ أمر معاذ بن جبل: أن يأخذ من اليمن الجزية من كل حالم أو حاملة، زاد أبو عبيد: عبداً أو أمة، ديناراً أو قيمته من المعافري» فهذا فيه أخذها من الرجل والمرأة، والحر والرقيق؟ قيل: هذا لا يصح وصله، وهو منقطع، وهذه الزيادة مختلف فيها، لم يذكرها سائر الرواة، ولعلها من تفسير بعض الرواة.

وقد روى الإمام أحمد، وأبو داود والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وغيرهم هذا الحديث، فاقصروا على قوله: أمره «أن يأخذ من حالم ديناراً» ولم يذكروا هذه الزيادة، وأكر من أخذ منهم النبي ﷺ الجزية العرب من النصارى واليهود، والمجوس، ولم يكشف عن أحد منهم متى دخل في دينه، وكان يعتبرهم بأديانهم لا بأبائهم.

فصل

في ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين،

من حين بعث إلى حين

لقي الله عز وجل

أول ما أوحى إليه ربّه تبارك وتعالى: أن يقرأ باسم ربّه الذي خلق، وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ، ثم أنزل عليه ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المذثر: ١، ٢] فنبأه بقوله: (اقرأ)، وأرسله بـ (يا أيُّها المُدَّثِّرُ) ثم أمره أن يُنذِرَ عَشِيرَتَهُ الْأَقْرَبِينَ، ثم أنذر قومه، ثم أنذر مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ، ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين، فأقام بضْعَ عشرة سنة بعد نبوته يُنذِرُ بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح.

ثم أُذِنَ له في الهجرة، وأُذِنَ له في القتال، ثم أمره أن يُقاتِلَ من قاتله، ويَكُفَّ عمن اعتزله ولم يُقاتله، ثم أمره بِقَاتِلِ الْمُشْرِكِينَ حتى يكون الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ، ثم كان الكفارُ معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: أهلُ صلح وُعدنة، وأهلُ حرب، وأهلُ ذمة، فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يُوفي لهم به ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة، نبذ إليهم عهدهم، ولم يُقاتِلْهم حتى يُغْلِبَهُمْ بِنَقْضِ العهد، وأمر أن يُقاتِلَ من نقض

عهده. ولما نزلت (سورة براءة) نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها، فأمره فيها أن يُقاتلَ عدوّه من أهل الكتاب حتى يُعطوا الجزية، أو يدخلوا في الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكُفار والمنافقين والغلبة عليهم، فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحُجة واللسان.

(الفرق بين أشهر التسيير الحرم وبين أشهر الحرم)

وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار، ونبد عهودهم إليهم، وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام: قسماً أمره بقتالهم، وهم الذين نقضوا عهده، ولم يستقيموا له، فحاربهم وظهر عليهم. وقسماً لهم عهد مؤقت لم ينقضوه، ولم يظاهروا عليه، فأمره أن يقيم لهم عهدهم إلى مدتهم. وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه، أو كان لهم عهد مطلق، فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر، فإذا انسلخت قاتلهم، وهي الأشهر الأربعة المذكورة في قوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢]، وهي الحرم المذكورة في قوله: ﴿فَإِذَا انْشَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحَرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]. فالحرم هاهنا: هي أشهر التسيير، أولها يوم الأذان وهو اليوم العاشر من ذي الحجة، وهو يوم الحج الأكبر الذي وقع فيه التأذين بذلك، وأخيرها العاشر من ربيع الآخر، وليست هي الأربعة المذكورة في قوله: ﴿لَا عِدَّةَ لِكُتُوبٍ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦] فإن تلك واحد فرد، وثلاثة سرد: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم. ولم يسير المشركين في هذه الأربعة، فإن هذا لا يمكن، لأنها غير متوالية، وهو إنما أجلهم أربعة أشهر، ثم أمره بعد انسلاخها أن يُقاتلهم، فقتل الناقض لعهد، وأجل من لا عهد له، أو له عهد مطلق أربعة أشهر، وأمره أن يقيم للموفي بعهده عهده إلى مدته، فأسلم هؤلاء كلهم، ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم، وضرب على أهل الذمة الجزية.

فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة، ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام، فصاروا معه قسمين: محاربين، وأهل ذمة، والمحاربون له

خائفون منه، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به، ومسلم له آمن، وخائف محارب.

وأما سيرته في المنافقين، فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم، ويكبل سرايرهم إلى الله، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة، وأمره أن يعرض عنهم، ويغلف عليهم، وأن يتلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم، ونهاه أن يصلي عليهم، وأن يقوم على قبورهم، وأخبر أنه إن استغفر لهم، فلن يغفر الله لهم، فهذه سيرته في أعدائه من الكفار والمنافقين.

فصل

(سيرته ﷺ في أوليائه وحزبه)

وأما سيرته في أوليائه وحزبه، فأمره أن يصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، وألا تعدو عيناك عنهم، وأمره أن يعفو عنهم، ويستغفر لهم، ويشارهم في الأمر، وأن يصلي عليهم.

وأمره بهجر من عصاه، وتخلف عنه، حتى يتوب، ويراجع طاعته، كما هجر الثلاثة الذين خُلّفوا.

وأمره أن يقيم الحدود على من أتى موجباتها منهم، وأن يكونوا عنده في ذلك سواء شريفهم ودينهم.

وأمره في دفع عدوّه من شياطين الإنس، بأن يدفع بالتي هي أحسن، فيقابل إساءة من أساء إليه بالإحسان، وجهله بالعلم، وظلمه بالعفو، وقطعته بالصلة، وأخبره أنه إن فعل ذلك، عاد عدوّه كأنه ولي حميم.

(معنى «خذ العفو وأمر بالعرف...»)

وأمره في دفعه عدوه من شياطين الجن بالاستعاذة بالله منهم، وجمع له هذين الأمرين في ثلاثة مواضع من القرآن: في (سورة الأعراف) و(المؤمنين) و(سورة حم فصلت) فقال في سورة الأعراف: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [٢٠٠] وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ تَزَعٌ فَأَسْئِزْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [الأعراف: ٢٠٠، ١٩٩]. فأمره باتقاء شر الجاهلين بالإعراض عنهم، وباتقاء شر الشيطان بالاستعاذة منه، وجمع له في هذه الآية مكارم الأخلاق والشم لكلها، فإن ولي الأمر له مع الرعية ثلاثة أحوال: فإنه

وهؤلاء، حتى حَجَزَ بينهم ولم يقتتلوا [ابن هشام
 .[(٣٤٣).

فصل

(سرية عبدة بن الحارث بن المطلب

وسعد هو أول من رمى بسهم في سبيل الله)

ثم بعث عُيَيْدَةَ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ الْمُطَّلِبِ فِي سِرَّةٍ إِلَى بَطْنِ رَابِعٍ فِي شَوَالٍ عَلَى رَأْسِ ثَمَانِيَةِ أَشْهُرٍ مِنَ الْهَجْرَةِ، وَعَقَدَ لَهُ لَوَاءً أَيْضًا، وَحَمَلَهُ مِسْطَاحُ بْنُ أُنَافَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَكَانُوا فِي سِتِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَيْسَ فِيهِمْ أَضْصَارِي، فَلَقِيَ أَبَا سَفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ، وَهُوَ فِي مَاتَيْنِ عَلَى بَطْنِ رَابِعٍ، عَلَى عَشْرَةِ أَمْيَالٍ مِنَ الْجُحْفَةِ، وَكَانَ بَيْنَهُمُ الرَّمْيُ، وَلَمْ يَسْلُوا السِّيفَ، وَلَمْ يَصْطَفُوا لِلْقِتَالِ، وَإِنَّمَا كَانَتْ مَنَاوِشَةً، وَكَانَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ فِيهِمْ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ رَمَى بِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ الْفَرِيقَانِ عَلَى حَامِيَتِهِمْ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ عَلَى الْقَوْمِ عِكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَقَدِمَ سِرَّةَ عُيَيْدَةَ عَلَى سِرَّةِ حِمْزَةَ [ابْنِ هِشَامٍ (٢٤٠)].

فصل

(سرية سعد إلى بطن رابع)

ثُمَّ بَعَثَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ إِلَى الْخُرَّارِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ عَلَى رَأْسِ تِسْعَةِ أَشْهُرٍ، وَعَقْدُ لَهُ لَوَاءٌ أَيْضًا، وَحَمَلَهُ الْمُقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو، وَكَانُوا عِشْرِينَ رَاكِبًا يَعْتَرِضُونَ عِبرًا لَقْرِيشَ، وَعَهْدُ أَنْ لَا يُجَاوِزَ الْخُرَّارَ، فَخَرَجُوا عَلَى أَقْدَامِهِمْ، فَكَانُوا يَكْمُتُونَ بِالنَّهَارِ، وَيَسِيرُونَ بِاللَّيْلِ، حَتَّى صَبَحُوا الْمَكَانَ صَبِيحَةً خَمْسَ، فَوَجَدُوا الْعِبرَ قَدْ مَرَّتْ بِالْأَمْسِ [ابن هشام: (٣٤٦)].

فصل

(غزوة البواء وهي أول غزوة غزاها بنفسه ﷺ)

ثم غزا بنفسه غزوة الأبواء، ويقال لها: وَدَّان، وهي أولُ غزوة غزاها بنفسه، وكانت في صَفَرٍ على رأسِ اثني عشر شهراً من مُهاجِرِهِ، وحمل لواءه حمزةُ بنُ عبد المطلب، وكان أبيض، واستخلف على المدينة سعدُ بن عباد، وخرج في المهاجرين خاصة يعترض عيراً لقريش، فلم يلق كيداً، وفي هذه الغزوة

لا بدَّ له من حقِّ عليهم يلزمهم القيامُ به، وأمرُ
بأمرهم به، ولا بدُّ من تفریط وعُدوان يقع منهم في
حقه، فأمرٌ بأن يأخذ من الحق الذي عليهم ما
طَوَّعَتْ به أنفسهم وسمحت به، وسَهَّلَ عليهم، ولم
يَشُقْ، وهو العفو الذي لا يلحقهم ببذله ضررٌ ولا
مشقة، وأمر أن يأمرهم بالعرف، وهو المعروف
الذي تعرفه العقولُ السليمة، والفطرُ المستقيمة،
وتُقر بحسنه ونفعه، وإذا أمر به يأمر بالمعروف أيضاً
لا بالعنف والغلظة. وأمره أن يُقَابِلَ جهلَ الجاهلين
منهم بالإعراض عنه، دون أن يُقَابِلَه بمثله، فيذلك
يكتفي شره.

وقال تعالى في سورة المؤمنين: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا يُرْسِي مَا يُوعَدُونَ﴾ (١٧) ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الْفَٰلِطِينَ﴾ (١٨) ﴿وَأَنَا عَلِيمٌ أَنْ تُبَلِّغُوا مَا يُوعَدُونَ لَقَدْ رَأَيْتُمْ أَزْوَاجًا لَّيْسَ بَيْنَهُنَّ اَلْفَسَادُ﴾ (١٩) ﴿وَأَدْفَعُ يَدِي إِلَىٰ السَّعِيرِ﴾ (٢٠) ﴿الَّتِي لَا تَنُورُ﴾ (٢١) ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَٰزِلِ السَّيِّطِينَ﴾ (٢٢) ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَبْصُرُونِي﴾ (٢٣) [المؤمنون: ٩٣ - ٩٨].

وقال تعالى في سورة حم فصلت: ﴿وَلَا تَسْتَوِ
للسَّعَةِ وَلَا الْبَيْتَةِ أَدْفَعُ بِأَلْيِ مَنْ أَحْسَنُ فَإِذَا إِلَىٰ يَدَيْكَ
وَبَيْنَهُمْ عَادَةُ كُلَّمْ وَلَّىٰ حَيْثُ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الْإِن
صِرَافُ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حِظْلٍ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّا يَدْرَعُكَ مِنَ
السَّجَلِ نَنفُخُ فَنَسُودُ بِاللَّوِ إِنْهُ هُوَ السَّيِّعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾
[فُصِّلَتْ: ٣٤ - ٣٦]، فهذه سيرته مع أهل الأرض
إنسهم، وجنهم، مؤمنهم، وكافرهم.

فصل

فی سباق مغازیہ وبعوثہ

على وجه الاختصار

(سرية حمزة إلى سيف البحر)

وكان أول لواء عقده رسول الله ﷺ لحزمة بن عبد المطلب في شهر رمضان، على رأس سبعة أشهر من مهاجره، وكان لواء أيضاً، وكان حايله أبو مرثد كَنَاز بن الحُصَيْن القَنَوِي حليف حمزة، وبعثه في ثلاثين رجلاً من المهاجرين خاصة، يعترض عيراً لقريش جاءت من الشام، وفيها أبو جهل بن هشام في ثلاثمائة رجل. فبلغوا سيف البحر من ناحية العيص، فالتقوا واصطفوا للقتال، فمضى مجدي بن عمرو الجهني، وكان حليفاً للفرقيين جميعاً، بين هؤلاء

وإدع مخشي بن عمرو الضمري وكان سيّد بني ضمرة في زمانه على ألا يغزو بني ضمرة، ولا يغزوه، ولا أن يكثروا عليه جمعاً، ولا يُعينوا عليه عدواً، وكتب بينه وبينهم كتاباً، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة^(١).

فصل

(غزوة بواط)

ثم غزا رسول الله ﷺ بواط في شهر ربيع الأول، على رأس ثلاثة عشر شهراً من مهاجره، وحمل لواءه سعد بن أبي وقاص، وكان أبيض، واستخلف على المدينة سعد بن معاذ، وخرج في مائتين من أصحابه يعترض عيراً لقريش، فيها أمية بن خلف الجمحي، ومئة رجل من قريش، وألفان وخمسمئة بعير، فبلغ بواطاً، وهما جبلان فرعان، أصلهما واحد من جبال جهينة، مما يلي طريق الشام، وبين بواط والمدينة نحو أربعة برد، فلم يلق كيداً فرجع [ابن هشام (٣٤٥)].

فصل

(خروجه في طلب مركز الفهري)

ثم خرج على رأس ثلاثة عشر شهراً من مهاجره يطلب كُرْز بن جابر الفهري، وحمل لواءه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان أبيض، واستخلف على المدينة زيد بن حارثة، وكان كُرْز قد أغار على سرح المدينة، فاستاقه، وكان يرعى بالجمي، فطلبه رسول الله ﷺ حتى بلغ وادياً يقال له: سَفْوَان من ناحية بدر، وفاته كُرْز ولم يلحقه، فرجع إلى المدينة [ابن سعد (٩/٢)].

فصل

(غزوة العشرة)

ثم خرج رسول الله ﷺ في جمادى الآخرة على رأس ستة عشر شهراً، وحمل لواء حمزة بن عبد المطلب، وكان أبيض، واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وخرج في خمسين ومئة، ويقال: في مائتين من المهاجرين، ولم يُكره أحدًا على الخروج، وخرجوا على ثلاثين

بعيراً يَتَقَبَّوْنَهَا يَفْتَرِضُونَ عِيراً لقريش ذاهبة إلى الشام، وقد كان جاءه الخبر بفصولها من مكة فيها أموال لقريش، فبلغ ذا العشرة، وقيل: العشيء بالمد. وقيل: العسيرة بالمهملة، وهي بناحية ينبع، وبين ينبع والمدينة تسعة برد، فوجد العير قد فاتته بأيام، وهذه هي العير التي خرج في طلبها حين رجعت من الشام، وهي التي وعده الله إياها، أو المقاتلة، وذات الشوكة، ووُفِّي له بوعده [ابن هشام (٣٤٥)].

وفي هذه الغزوة، وإدع بني مُذَلِّج وخلفاءهم من بني ضمرة.

قال عبد المؤمن بن خلف الحافظ: وفي هذه الغزوة كنى رسول الله ﷺ علياً أبا تراب، وليس كما قال، فإن النبي ﷺ إنما كناه أبا تراب بعد نكاحه فاطمة، وكان نكاحها بعد بدر، فإنه لما دخل عليها وقال: «أَيْنَ ابْنُ عَمَلِك؟» قالت: خَرَجَ مُغَاضِباً، فجاء إلى المسجد، فوجده مضطجعاً فيه، وقد لصق به التراب، فجعل ينفضه عنه ويقول: «اجْلِسْ أبا تراب» [البخاري: ٤٤١، ومسلم: ٦٢٢٩] وهو أول يوم كُني فيه أبا تراب.

فصل

(سرية نخلة وأول خمس وأول قتل وأول أسيرين في الإسلام والقتال في أشهر الحرم ومعنى «الفتنة أكبر من القتل»)
ثم بعث عبد الله بن جحش الأسدي إلى نخلة في رجب، على رأس سبعة عشر شهراً من الهجرة، في اثني عشر رجلاً من المهاجرين، كُلُّ اثْنَيْنِ يعتقبان على بعير، فوصلوا إلى بطن نخلة يرضدون عيراً لقريش، وفي هذه السرية سَمِيَ عبد الله بن جحش أمير المؤمنين، وكان رسول الله ﷺ كتب له كتاباً، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه، ولما فتح الكتاب، وجد فيه: «إِذَا نَظَرْتَ فِي كِتَابِي هَذَا، فَاْمْضِ حَتَّى تَنْزِلَ نَخْلَةَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، فَتَرْصِدَ بِهَا قَرْشاً، وَتَعْلَمَ لَنَا مِنْ أَخْبَارِهِمْ» فقال: سمعاً وطاعةً، وأخبر أصحابه بذلك، وبأنه لا

(١) الأبواب: قرية من عمل الفرع بينها وبين الجحفة ثلاثة وعشرون ميلاً، قال البخاري قبل الحديث (٣٩٤٩): قال ابن إسحاق: أول ما غزا رسول الله ﷺ الأبواب ثم بواط، ثم العشرة.

لهم وقت عذابهم بالنار وفتنتهم بها: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ قال ابن عباس: تكذيبكم. وحقيقته: ذوقوا نهاية فتنكم، وغايتها، ومصير أمرها، كقوله: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الزمر: ٢٤]، وكما فتنوا عباده على الشرك، فُتِنُوا على النار، وقيل لهم: ذوقوا فتنكم، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ فَمَا لَمْ يَنُوحُوا﴾ [البُورج: ١٠]، فسرت الفتنة هاهنا بتعذيبهم المؤمنين، وإحراقهم إياهم بالنار، واللفظ أعم من ذلك، وحقيقته: عذبوا المؤمنين ليفتنوا عن دينهم، فهذه الفتنة المضافة إلى المشركين.

وأما الفتنة التي يضيفها الله سبحانه إلى نفسه أو يضيفها رسوله إليه، كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ وقول موسى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، فتلك بمعنى آخر، وهي بمعنى الامتحان، والاختبار، والابتلاء من الله لعباده بالخير والشر، بالنعم والمصائب، فهذه لون، وفتنة المشركين لون، وفتنة المؤمن في ماله وولده وجاره لون آخر، والفتنة التي يوقعها بين أهل الإسلام، كالفتنة التي أوقعها بين أصحاب علي ومعاوية، وبين أهل الجمل وصفين، وبين المسلمين، حتى يقتتلوا ويتهاجروا لون آخر، وهي الفتنة التي قال فيها النبي ﷺ: «مَسْكُونٌ فِتْنَةٌ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي» [البخاري: ٧٠٨١، ومسلم: ٧٢٤٧]، وأحاديث الفتنة التي أمر رسول الله ﷺ فيها باعتزال الطائفتين، هي هذه الفتنة.

وقد تأتي الفتنة مراداً بها المعصية كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكْفُرُ أَشَدَّنْ لِي وَلَا تَقِيحُ﴾ [التوبة: ٤٩]، يقوله الجدُّ بن قيس، لما ندبه رسول الله ﷺ إلى تبوك، يقول: ائذن لي في الفُعود، ولا فتني بتعرضي لبنات بني الأصفر، فإني لا أصبرُ عنهن، قال تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾^(١) [التوبة: ٤٩]، أي: وقعوا في فتنة النفاق، وفروا إليها من فتنة بنات الأصفر.

والمقصود: أن الله سبحانه حكم بين أوليائه

يستكرههم، فمن أحب الشهادة، فلينهض، ومن كره الموت، فليرجع، وأما أنا فناهض، فَمَضُوا كُلَّهُمْ، فلما كان في أثناء الطريق، أضل سعد بن أبي وقاص، وعُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ بعيراً لهما كانا يَتَعَبَّاهُ، فتخلفا في طلبه، ويَتَدَّ عبد الله بن جحش حتى نزل ينخله، فمرّت به عَيْرٌ لقريش تُحْمِلُ زَيْباً وأدماً وتجارة فيها عمرو بن الحضرمي، وعثمان، ونوفل: ابنا عبد الله بن المغيرة، والحكم بن كيسان مولى بني المغيرة، فتشاور المسلمون وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب الشهر الحرام، فإن قاتلناهم، انتهكنا الشهر الحرام، وإن تركناهم الليلة، دخلوا الحرم، ثم أجمعوا على مُلاقاتهم، فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي فقتله، وأسروا عثمان والحكم، وأفلت نوفل، ثم قَدِمُوا بالبعير والأسيرين، وقد عزلوا من ذلك الخمس، وهو أول خمس كان في الإسلام، وأول قتل في الإسلام، وأول أسيرين في الإسلام، وأنكر رسول الله ﷺ عليهم ما فعلوه [البهي (١٢/٩)] واشتدّ تعنت قريش وإنكارهم ذلك، وزعموا أنهم قد وجدوا مقالاً، فقالوا: قد أحل محمد الشهر الحرام، واشتد على المسلمين ذلك [ابن هشام (٣٤٨)]، حتى أنزل الله تعالى: ﴿يَتَقَوَّكَ عَنِ الْكَافِرِ إِذَا وَقَعَ فِيهِ قِتْلٌ قِتَالٌ فِيهِ كِبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْأَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْثَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. يقول سبحانه: هذا الذي أنكرتموه عليهم، وإن كان كبيراً، فما ارتكبتموه أنتم من الكفر بالله، والصد عن سبيله، وعن بيته، وإخراج المسلمين الذين هم أهله منه، والشرك الذي أنتم عليه، والفتنة التي حصلت منكم به أكبر عند الله من قتالهم في الشهر الحرام، وأكثر السلف فسروا الفتنة ها هنا بالشرك، كقوله تعالى: ﴿وَيَقِيلُونَ مَن لَّا تَكُونُ فِتْنَةً﴾ [البقرة: ١٩٣]. ويدل عليه قوله: ﴿فَدَّرَ لَرَّ تَكُنْ فِتْنَتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا شَكَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] أي: لم يكن مأل شركهم، وعاقبته وآخر أمرهم، إِلَّا أَنْ تَبَرَّوْا منه وأنكروه.

وحقيقتها: أنها الشرك الذي يدعو صاحبه إليه، ويُقَاتِلُ عليه، ويُعَاقِبُ من لم يَقْتَتِ به، ولهذا يُقَالُ

(١) [الإصابة] ترجمة الجد بن قيس (١١١٠).

وأعداته بالعدل والإنصاف، ولم يُرى أولياءه من ارتكاب الإثم بالقتال في الشهر الحرام، بل أخبر أنه كبير، وأن ما عليه أعداؤه المشركون أكبر وأعظم من مجرد القتال في الشهر الحرام، فهم أحق بالذم والعيب والثقوبة، لا سيما وأولياؤه كانوا متأولين في قتالهم ذلك، أو مقصّرين نوع تقصير يغفره الله لهم في جنب ما فعلوه من التوحيد والطاعات، والهجرة مع رسوله، وإثارة ما عند الله، فهم كما قيل:

وَإِذَا الْحَبِيبُ أَتَى يَذْنِبُ وَاحٍ

جَاءَتْ مَحَابِسُهُ بِأَلْفِ شَفِ
فكيف يُقاس بغير عُدو جاء بكلّ قبيح، ولم يأت بشنيع واحد من المحاسن.

فصل

(تحويل القبلة)

ولما كان في شعبان من هذه السنة، حُوِّلَت القبلة، وقد تقدم ذكر ذلك.

فصل

في غزوة بدر الكبرى

فلما كان في رمضان من هذه السنة، بلغ رسول الله ﷺ خبر البعير المقبلة من الشام لقرش ضحية أبي سفيان، وهي البعير التي خرجوا في طلبها لما خرجت من مكة، وكانوا نحو أربعين رجلاً، وفيها أموال عظيمة لقرش، فندب رسول الله ﷺ الناس للخروج إليها، وأمر من كان ظهره حاضراً بالنهوض، ولم يَحْتَمِلْ لها احتفالاً بليغاً، لأنه خرج مُسْرِعاً في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، ولم يكن معهم من الخيل إلا فرسان: فرس للزبير بن العوام، وفرس للمقداد بن الأسود الكندي، وكان معهم سبعون بعيراً يَحْتَمِلُ الرجلان والثلاثة على البعير الواحد، فكان رسول الله ﷺ، وعلي، ومزند بن أبي مَرْزَدِ القنوي، يعقبون بعيراً^(١)، وزيد بن حارثة، وابنه وكبشة موالى

رسول الله ﷺ، يعقبون بعيراً وأبو بكر، وعمر، وعبد الرحمن بن عوف، يعقبون بعيراً، واستخلف على المدينة وعلى الصلاة ابن أم مكتوم، فلما كان بالروحاء^(٢) رد أبا ثابة بن عبد المنذر، واستعمله على المدينة، ودفع اللواء إلى مُصعب بن عمير، والراية الواحدة إلى علي بن أبي طالب، والأخرى التي للأنصار إلى سعد بن معاذ، وجعل على الساقة قيس بن أبي صغصعة، وسار، فلما قَرُبَ مِنَ الصُّقْرَاء، بعث بِسَبَسَ بن عمرو الجهني، وعدي بن أبي الزغباء إلى بدر يتجسّسان أخبار العير. وأما أبو سفيان، فإنه بلغه مخرج رسول الله ﷺ وقصده إياه، فاستأجر ضَمَضَمَ بن عمرو الغفاري إلى مكة، مُسْتَضْرخاً لقرش بالتَّغْيِيرِ إلى عيرهم، ليمنعوه من محمد وأصحابه، وبلغ الصريخ أهل مكة، فنهضوا مُسْرِعِينَ، وأوعبوا^(٣) في الخروج، فلم يتخلف من أشرافهم أحد سوى أبي لهب، فإنه عَوَّضَ عنه رجلاً كان له عليه دين، وحشدوا فيمن حولهم من قبائل العرب، ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بني عدي، فلم يخرج معهم منهم أحد، وخرجوا من ديارهم كما قال تعالى: ﴿بَطَرًا وَرِيقًا أَنَّنَا بَدَلُكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٧]، وأقبلوا كما قال رسول الله ﷺ: «يَحْدِثُهُمْ وَحْدِيهِمْ، تُحَادُّهُ وَتُحَادُّ رُسُولَهُ»^(٤)، وجاؤوا على حَرَدٍ قَادِرِينَ، وعلى حمية، وغضب، وحنق على رسول الله ﷺ وأصحابه، لما يُريدون من أخذ عيرهم، وقتل من فيها، وقد أصابوا بالأمس عمرو بن الحضرمي، والبعير التي كانت معه، فجمعهم الله على غير ميعاد كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاجْتِمَاعٍ فِي الْيَمِينِ وَلَكِنَّ لَيْقِظَى اللَّهُ أَمْرًا كَذَبْتُمْ مَقُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢].

ولما بلغ رسول الله ﷺ خروج قريش، استشار أصحابه، فتكلم المهاجرون فأحسنوا، ثم استشارهم ثانياً، فتكلم المهاجرون فأحسنوا، ثم استشارهم

(١) هذا قول ابن إسحاق كما في السيرة (١/٦١٣) و(١/٤١١)، وينظر «مسند أحمد» (٣٩٠١) و(٣٩٦٥).

(٢) بفتح الراء وسكون الواو: قرية على نحو أربعين ميلاً من المدينة.

(٣) يقال: أوعب القوم: إذا خرجوا كلهم إلى الغزو.

(٤) في السيرة (٣٦٠) عن ابن إسحاق.

ثالثاً، ففهمت الأنصارُ أنه يعينهم، فبادر سعدُ بنُ معاذ، فقال: يا رسول الله! كأنك تعرّضُ بنا؟ وكان إنما يعينهم، لأنهم بايعوه على أن يمنعوه من الأحمر والأسود في ديارهم، فلما عزم على الخروج، استشارهم ليعلم ما عندهم، فقال له سعد: لعلك تخشى أن تكون الأنصارُ ترى حقاً عليها أن لا ينصروك إلا في ديارها، وإني أقول عن الأنصار، وأجيب عنهم: فاطعنَ حيثُ شئت، وصلَّ حبلَ من شئت، واقطعَ حبلَ من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطينا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمرٍ فأمرنا تبع لأمرِكَ، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان، لنسيرن معك، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك. وقال له العُقْدَاذُ: لا تقول لك كما قال قومُ موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكنا نقاتل عن يمينك، وعن شمالك، ومن بين يديك. ومن خلفك. فأشرق وجهُ رسولِ الله ﷺ، وسرَّ بما سمع من أصحابه، وقال: «يسيروا وأبسروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، وإني قد رأيت مصارعَ القوم» [ابن كثير ٢/ ٣٩٥، وبنحوه البخاري: ٣٩٥٢، ومسلم: ٤٦٢١].

(لم يشهد بدرًا زهري)

فسار رسولُ الله ﷺ إلى بدر، وخَفَضَ أبو سفيان فَلَجَّ بِسَاحِلِ الْبَحْرِ، ولما رأى أنه قد نجا، وأحرز العير، كتب إلى قريش: أن ارجعوا، فإنكم إنما خرجتم لتُخْرِزُوا عيركم، فأتاهم الخبرُ، وهم بالجُحْفَةِ، فهموا بالرجوع، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نَقْدَمَ بَدْرًا، فنقيم بها، ونطعم من حضرنا من العرب، وتخافتنا العربُ بعد ذلك، فأشار الأحنس بن شريق عليهم بالرجوع، فَعَصَوْهُ، فرجع هو وبنو زهرة، فلم يشهد بدرًا زهري، فاغتنبت بنو زهرة بعدُ برأي الأحنس، فلم يزل فيهم مطاعاً معظماً، وأرادت بنو هاشم الرجوع، فاشتد عليهم أبو جهل، وقال: لا تُقَارِقُنَا هذه العصابة حتى نرجع فساروا، وسار رسولُ الله ﷺ حتى نزل عشياً أدنى ماء من مِياه بدر، فقال: «أسيروا عليَّ في المنزل». فقال الحَبَابُ بنُ المنذر: يا رسول الله! أنا عالم بها

ويقلُّها، إن رأيت أن نسيرَ إلى قلبٍ قد عرفناها، فهي كثيرة الماء، عذبة، فنزلَ عليها ونسبى القوم إليها ونُغَوِّرُ ما سواها من المياه [الحاكم ٤٢٦/٣]، وابن كثير في «البدایة» (١٦٧/٣).

وسار المشركون سِراعاً يريدون الماء، وبعث علياً وسعداً والزبير إلى بدر يلتبسُون الخبر، فَقَدِمُوا بَعْدِينَ لِقْرِيش، ورسولُ الله ﷺ قائم يُصلي، فسألهما أصحابه: مَنْ أنتما؟ قالا: نحن سُقَاةُ لِقْرِيش، فكره ذلك أصحابه، وودُّوا لو كانا لِعِيرِ أَبِي سَفِيان، فلما سلَّم رسولُ الله ﷺ قال لهما: أخيراني أَيْنَ قُرَيْش؟ قالا: قالا: وراء هذا الكثيب. فقال: كم القوم؟ فقالا: لا علم لنا، فقال: كم ينحرون كل يوم؟ فقالا: يوماً عشراً، ويوماً تسعاً، فقال رسولُ الله ﷺ: القوم ما بين تسعمئة إلى الألف، فأنزل الله عزَّ وجلَّ في تلك الليلة مطراً واحداً، فكان على المشركين وابلًا شديدًا منعهم من التقدم، وكان على المسلمين طَلًّا طهرهم به، وأذهب عنهم رَجَسَ الشيطان، ووطأ به الأرض، وصلب به الرمل، وثبت الأقدام، ومهدَّ به المنزل، وربط به على قلوبهم، فسبق رسولُ الله ﷺ وأصحابه إلى الماء، فنزلوا عليه شطرَ الليل، وصنعوا الحياض، ثم غَوَّروا ما عداها من المياه، ونزل رسولُ الله ﷺ وأصحابه على الحياض. وبنى لرسولِ الله ﷺ عريش يكون فيها على تلٍ يُشْرِفُ على المعركة، ومشى في موضع المعركة، وجعل يُشير بيده، هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان إن شاء الله، فما تعدى أحد منهم موضع إشارته [مسلم: ٤٦٢١].

فلما طلع المشركون، وتراءى الجمعان، قال رسولُ الله ﷺ: «اللَّهُمَّ هذه قُرَيْشُ جَاءَتْ بِخِيَلِهَا وَفَخَرِهَا، جَاءَتْ تُحَادِّثُكَ، وَتَكْذِبُ رُسُولَكَ»، وقام، ورفع يديه، واستنصر ربَّه وقال: «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنِّي أُنْشِدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، فالتزمه الصديق من ورائه، وقال: يا رسول الله! أبشر، فوالذي نفسي بيده، لَيَنْجِزَنَّ اللَّهُ لَكَ مَا وَعَدَكَ [مسلم: ٤٥٨٨].

(معنى مرهقين)

واستنصر المسلمون الله، واستغاثوه، وأخلصوا

له، وتضرعوا إليه، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى مَلَائِكَتِهِ: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَنِيئُوا إِلَيْهِ مَانُوا سَأَلْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَرَأَيْتُمْ﴾ [الأنفال: ١٢]، وأوحى الله إلى رسوله ﷺ: ﴿أَنِّي مُبْدِكُمْ بِالْفِ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَوِّفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]، قرء بكسر الدال وفتحها^(١)، فقليل: المعنى إنهم رَدَفَ لكم. وقيل: يُرَدِّفُ بعضهم بعضاً أرسالاً لم يأتوا دفعة واحدة.

فإن قيل: ما هنا ذكر أنه أمدهم بالف، وفي (سورة آل عمران) قال: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبْدِكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آيَاتٍ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ مُتَزَلِينَ﴾ ﷻ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يَتَذَكَّرْكُمْ رَبُّكُمْ بِحَسَنَةِ آيَاتِهِ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﷻ﴾ [آل عمران: ١٢٤ - ١٢٥]، فكيف الجمع بينهما؟

(الاختلاف في إمداد الله لهم)

قيل: قد اختلف في هذا الإمداد الذي بثلاثة آلاف، والذي بالخمسة على قولين:

أحدهما: أنه كان يوم أحد، وكان إمداداً معلقاً على شرط، فلما فات شرطه، فات الإمداد، وهذا قول الضحاك ومقاتل، وإحدى الروایتين عن عكرمة.

والثاني: أنه كان يوم بدر، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. والرواية الأخرى عن عكرمة، اختاره جماعة من المفسرين. وحجة هؤلاء أن السياق يدل على ذلك، فإنه سبحانه قال: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبْدِكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آيَاتٍ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ مُتَزَلِينَ﴾ ﷻ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٢٤ - ١٢٥] إلى أن قال: ﴿وَمَا جَمَلَهُ اللَّهُ﴾ أي: هذا الإمداد ﴿إِلَّا بُشْرًا لَكُمْ وَلَقَدْ كُذِّبَتْكُمْ بِهُ﴾. قال هؤلاء: فلما استغاثوا، أمدهم بتمام ثلاثة آلاف، ثم أمدهم بتمام خمسة آلاف لما صبروا واتقوا، فكان هذا التدرج، ومتابعة الإمداد، أحسن موقفاً وأقوى لنفوسهم، وأسر لها من أن يأتي به مرة واحدة، وهو بمنزلة متابعة الوحي ونزوله مرة بعد مرة.

وقالت الفرقة الأولى: القصة في سياق أحد، وإنما أدخل ذكر بدر اعتراضاً في اثباتها، فإنه سبحانه

قال: ﴿وَإِذْ عَدَّتْ مِنْ أَمْلِكِ ثُبُوتِ الْمُؤْمِنِينَ مَقْلَعِدَ لِقَاتِ اللَّهِ سَمِيعٌ عَلَيْهِمُ﴾ ﷻ إِذْ مَتَّ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى آفَ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]، ثم قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْكَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، فذكرهم نعمته عليهم لما نصرهم ببدر، وهم أذلة، ثم عاد إلى قصة أحد، وأخبر عن قول رسوله لهم: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبْدِكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آيَاتٍ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ مُتَزَلِينَ﴾، ثم وعدهم أنهم إن صبروا واتقوا، أمدهم بخمسة آلاف، فهذا من قول رسوله، والإمداد الذي ببدر من قوله تعالى، وهذا بخمسة آلاف، وإمداد بدر بالف، وهذا معلق على شرط، وذلك مطلق، والقصة في (سورة آل عمران) هي قصة أحد مستوفاة مطولة، وبدر ذكرت فيها اعتراضاً، والقصة في سورة الأنفال قصة بدر مستوفاة مطولة، فالسياق في (آل عمران) غير السياق في الأنفال.

يوضح هذا أن قوله: ﴿وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا﴾ [آل عمران: ١٢٥]، قد قال مجاهد: إنه يوم أحد، وهذا يستلزم أن يكون الإمداد المذكور فيه، فلا يصح قوله: إن الإمداد بهذا العدد كان يوم بدر، وإثباتهم من فورهم هذا يوم أحد. والله أعلم.

فصل

وبات رسول الله ﷺ يصلي إلى جذع شجرة هناك، وكانت ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان في السنة الثانية، فلما أصبحوا، أقبلت قريش في كتابها، واصطف الفريقان، فمضى حكيم بن حزام، وعتبة بن ربيعة في قريش، أن يرجعوا ولا يقاتلوا، فأبى ذلك أبو جهل، وجرى بينه وبين عتبة كلام أخفطه، وأمر أبو جهل أخا عمرو بن الحضرمي أن يطلب دم أخيه عمرو، فكشف عن أسنانه، وصرخ: واغمراء، فحمي القوم، ونشبت الحرب، وعدل رسول الله ﷺ الصفوف، ثم رجع إلى العريش هو وأبو بكر خاصة، وقام سعد بن معاذ في قوم من الأنصار على باب العريش، يحمون رسول الله ﷺ.

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي «مردين» بكسر الدال، وقرأ نافع وأبو بكر عن عاصم «مردين» بفتح الدال.

(طلب المبارزة)

وخرج عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، يطلبون المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار: عبد الله بن رواحة، وعوف، ومعوذ ابنا عفراء، فقالوا لهم: من أنتم؟ فقالوا: من الأنصار. قالوا: أكفأ كرام، وإننا نريد بني عمنا، فبرز إليهم علي وعبيدة بن الحارث وحمزة، فقتل علي قرنه الوليد، وقتل حمزة قرنه عتبة، وقيل: شيبة، واختلف عبيدة وقرنه ضربتين، ففكر علي وحمزة على قرن عبيدة، فقتلاه واحتملا عبيدة [صحیح: احمد: ٦٢٦ - ٧٣٥، وابو داود: ٢٦٦٥] وقد قطعت رجله، فلم يزل ضميماً^(١) حتى مات بالصُّفراء [الحاكم (١٨٧/٣) - ١٨٨].

وكان علي يُقْسِمُ بالله: لنزلت هذه الآية فيهم: ﴿هَذَانِ حَصْنَانِ أَتَّخَصَّصُوا فِي رِبِّهِمْ﴾ الآية [الحج: ١٩] [البخاري: ٣٩٦٩].

(اشتد القتال)

ثم حمي الوطيس، واستدارت رحي الحرب، واشتد القتال، وأخذ رسول الله ﷺ في الدعاء والابتهاال، ومناشدة ربّه عز وجل، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فردّه عليه الصديق، وقال: بغض مُنَاشِدَتِكَ رَبِّكَ، فإنه منجز لك ما وعدك.

فأغفى رسول الله ﷺ إغفاءة واحدة، وأخذ القوم الناس في حال الحرب، ثم رفع رسول الله ﷺ رأسه فقال: «أُبَشِّرُ يَا أَبَا بَكْرُ! هذا جِبْرِيلُ عَلَى نَتَائِيه النَّفْعِ» [أخرجه الأموي كما في «ابن كثير» (٤٣٤/٢)، وسنده حسن، وينحوه البخاري: ٣٩٩٥].

(النصر)

وجاء النصر، وأنزل الله جنده، وأيد رسوله والمؤمنين، ومنهم أكتاف المشركين أسراً وقتلاً، فقتلوا منهم سبعين، وأسرُوا سبعين.

فصل

(ظهور إبليس في صورة سراقة الحناني ووسوسته لغريش)
ولما عزموا على الخروج، ذكروا ما بينهم وبين

بني كنانة من الحرب، فتبدى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك المذلجي، وكان من أشراف بني كنانة، فقال لهم: لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جار لكم من أن تأنيكم كنانة بشيء تكرهونه، فخرجوا والشيطان جار لهم لا يفارقهم، فلما تعبوا للقتال، ورأى عدو الله جند الله قد نزلت من السماء، فرّ، ونكص على عقبيه، فقالوا: إلى أين يا سراقة؟ ألم تكن قلت: إنك جار لنا لا تفارقنا؟ فقال: إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله، والله شديد العقاب [ابن كثير (٤٣٢/٢) - ٤٣٣]، وشرح المواهب (١/ ٤٢٣) [[وصدق في قوله: إني أرى ما لا ترون، وكذب في قوله: إني أخاف الله، وقيل: كان خوفه على نفسه أن يهلك معهم، وهذا أظهر.

ولما رأى المنافقون ومن في قلبه مرض قلّة حزب الله وكثرة أعدائه، ظنوا أن الغلبة إنما هي بالكثرة، وقالوا: ﴿عَرَّ هَؤُلَاءِ يَتِيمًا﴾ [الأنفال: ٤٩]، فأخبر سبحانه أن النصر بالترك على لا بالكثرة، ولا بالعدد، والله عزيز لا يغالب، حكيم ينصر من يستحق النصر، وإن كان ضعيفاً، فعزّته وحكمته أوجبت نصر الفئة المتوكلة عليه.

(استشهد عمير بن الحمام)

ولما دنا العدو وتواجه القوم، قام رسول الله ﷺ في الناس، فوعظهم، وذكرهم بما لهم في الصبر والثبات من النصر، والظفر العاجل، وثواب الله الآجل، وأخبرهم أن الله قد أوجب الجنة لمن استشهد في سبيله، فقام عمير بن الحمام، فقال: يا رسول الله، جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: «نعم». قال: يخ يا رسول الله، قال: ما يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخْ بَخْ؟ قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: «فإنك من أهلها» قال: فأخرج تمرات من قرنيه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن حييت حتى أكل تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتل حتى قُتِلَ [اسلم: ٤٩١٥]. فكان أول قتيل.

(١) الضمن: هو المريض الذي به ضمانه في جسده من زمانة أو بلاء أو كسر وغيره، قال الشاعر:

أَشْكُو إِلَيْكُمْ حُمُوءَ الْأَلَمِ

مَا خِلْتَنِي زُلْتُ بِغَدُوكُمْ ضَمِنًا

(شان «وما رميت إذ رميت.»)

وأخذ رسول الله ﷺ مِلءَ كَفِّهِ مِنَ الْحَصْبَاءِ، فَرَمَى بِهَا وَجْهَ الْعَدُوِّ، فَلَمْ تَرَكَ رَجُلًا مِنْهُمْ إِلَّا مَلَأَتْ عَيْنُهُ، وَشَغِلُوا بِالْتَرَابِ فِي أَعْيُنِهِمْ، وَشَغِلَ الْمُسْلِمُونَ بِقَتْلِهِمْ [ذكره الهيثمي في «المجمع» (٨٤/٦)] وقال: رواه الطبراني وإسناده حسن، فأنزل الله في شأن هذه الرمية على رسوله. ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧].

وقد ظن طائفة أن الآية دللت على نفي الفعل عن العبد، وإثباته لله، وأنه هو الفاعل حقيقة، وهذا غلط منهم من وجوه عديدة مذكورة في غير هذا الموضع. ومعنى الآية: أن الله سبحانه أثبت لرسوله ابتداء الرمي، ونفى عنه الإيصال الذي لم يحصل برميته فالرمي يُرادُ به الحذف والإيصال، فأثبت لنبيه الحذف، ونفى عنه الإيصال.

(مشاركة الملائكة)

وكانت الملائكة يومئذ تُبادِرُ المسلمين إلى قتل أعدائهم، قال ابن عباس: «يَتِمُّ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إِذْ سَمِعَ ضَرْبَهُ بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ، وَصَوْتُ الْفَارِسِ فَوْقَهُ يَقُولُ: أَقْدِمُ حَيْزُومَ، إِذْ نَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ مُسْتَلْقِيًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشَقَّ وَجْهُهُ، كَضَرْبَةِ السَّوْطِ، فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ، فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ، فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «صَدَقْتُ ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ» [مسلم: ٤٥٨٨].

وقال أبو داود المازني: «إِنِّي لَأَتَّبِعُ رَجُلًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ لِأَضْرِبَهُ، إِذْ وَقَعَ رَأْسُهُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ سَيْفِي، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ قَتَلَهُ غَيْرِي» [حسن: أحمد: ٣٧٧٨].

وجاء رجلٌ من الأنصار بالعباس بن عبد المطلب أسيراً، فقال العباس: إِنَّ هَذَا وَاللَّهِ مَا أَسْرَنِي، لَقَدْ أَسْرَنِي رَجُلٌ أَجْلَحَ، مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهًا، عَلَى فَرَسٍ أَبْلَقَ مَا أَرَاهُ فِي الْقَوْمِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: أَنَا أَسْرَتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: «أَسْكُتْ فَقَدْ آيَدَكَ اللَّهُ بِمَلِكٍ كَرِيمٍ». وأسر من بني عبد المطلب ثلاثة: العباس، وعقيل، ونوفل بن الحارث [صحيح: أحمد: ٩٤٨].

(قصة إبليس مع أبي جهل)

وذكر الطبراني في «معجمه الكبير» عن رفاة بن

رافع، قال: لما رأى إبليس ما تفعل الملائكة بالمشرِكِينَ يَوْمَ بدر، أشفق أن يخلصَ القتلُ إليه، فَتَشَبَّثَ بِهِ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ، وَهُوَ يَظُنُّهُ سُرَاقَةً بَنَ مَالِكٍ، فَوَكَزَ فِي صَدْرِ الْحَارِثِ فَأَلْقَاهُ، ثُمَّ خَرَجَ هَارِبًا حَتَّى أَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْبَحْرِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ نَظَرَتَكَ إِنِّي، وَخَافَ أَنْ يَخْلَصَ إِلَيْهِ الْقَتْلُ، فَأَقْبَلَ أَبُو جَهْلُ بْنُ هِشَامٍ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ النَّاسِ! لَا يَهْزِمُكُمْ خِذْلَانُ سُرَاقَةٍ إِنِّي أَكُمُ، فَإِنَّهُ كَانَ عَلَى مِيعَادٍ مِنْ مُحَمَّدٍ، وَلَا يَهْوِلُكُمْ قَتْلُ غَتَبَةٍ وَشَيْبَةٍ وَالْوَلِيدِ، فَإِنَّهُمْ قَدْ عَجَلُوا، فَوَاللَّاتِ وَالْعُزَّى، لَا نَرْجِعُ حَتَّى تَقْرَنَهُمُ بِالْجِبَالِ، وَلَا أَلْفِيَنَّ رَجُلًا مِنْكُمْ قَتَلَ رَجُلًا مِنْهُمْ، وَلَكِنْ نَحْذُوهُمْ أَخَذًا حَتَّى نُعَرِّقَهُمْ سَوْءَ صَنِيعِهِمْ [الهيثمي في «المجمع» (٧٧/٦)].

(دعاء أبي جهل لربه)

واستفتح أبو جهل في ذلك اليوم، فقال: اللَّهُمَّ أَقْطِعْنَا لِلرَّحِمِ، وَأَتَانَا بِمَا لَا نَعْرِفُهُ فَأَجِئْنَا الْغَدَاةَ، اللَّهُمَّ إِنَّا كَانَ أَحَبُّ إِلَيْكَ، وَأَرْضَى عِنْدَكَ، فَاَنْصِرْهُ الْيَوْمَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنْ كَسْتُمْ تُحِبُّونَ فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ كُنْتُمْ لَا تُحِبُّونَ فَهَذَا خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَدُّوْا نَعْدَ وَلَوْ تَفْقَى عَنَّا وَتَحْتَكَ سَيْفًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩].

(كراهة سعد بن معاذ لغير المسلمين)

ولما وضع المسلمون أيديهم في العدو يقتلون ويأسرون، وسعد بن معاذ واقفٌ على باب الخيمة التي فيها رسولُ الله ﷺ وهي العريش متوشحاً بالسيف في ناسٍ من الأنصار، رأى رسولُ الله ﷺ في وجوه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس، فقال رسولُ الله ﷺ: «كَأَنَّكَ تَكْرَهُ مَا يَصْنَعُ النَّاسُ؟» قال: أَجَلُ وَاللَّهِ كَانَتْ أَوَّلَ وَقْعَةٍ أَوْقَعَهَا اللَّهُ بِالْمُشْرِكِينَ، وَكَانَ الْإِثْخَانُ فِي الْقَتْلِ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ اسْتِيقَاءِ الرِّجَالِ [ابن هشام: ٣٦٤].

(إجهاز ابن مسعود على أبي جهل)

ولما بردت الحرب، وولَّى القومُ منهنَّ، قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ يَنْظُرُ لَنَا مَا صَنَعَ أَبُو جَهْلٍ؟» فانطلق ابنُ مسعود، فوجدَهُ قَدْ ضَرَبَهُ ابْنَا عَفْرَاءَ حَتَّى بَرَدَ، وَأَخَذَ بِلَحْيَتَيْهِ فَقَالَ: أَنْتَ أَبُو جَهْلٍ؟ فَقَالَ: لِمَنْ الدَّائِرَةُ الْيَوْمَ؟ فَقَالَ: لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، وَهَلْ أَخْرَكَ اللَّهُ يَا

عَدُوُّ اللَّهِ؟ فقال: وَهَلْ فَوْقَ رَجُلٍ قَتَلَهُ قَوْمُهُ؟ فَقَتَلَهُ عَبْدُ اللَّهِ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فقال: قَتَلْتُهُ، فقال: «اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» فَرَدَّدَهَا ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَّقَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، انْطَلَقَ أَرْنَبُهُ فَاَنْطَلَقْنَا فَارْتَبَتْ إِيَّاهُ، فقال: «هَذَا فِرْعَوْنُ هَذِهِ الْأُمَمَةُ» [البخاري: ٣٩٦١، ومسلم: ٤٦٢٢].

(قتل أمية بن خلف وابنه)

وَأَسَرَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ أُمَيَّةَ بْنَ خَلْفٍ، وَابْنَهُ عَلِيًّا، فَأَبْصَرَهُ بِلَالًا، وَكَانَ أُمَيَّةٌ يُعَذِّبُهُ بِمَكَّةَ، فَقَالَ: رَأْسُ الْكُفْرِ أُمَيَّةُ بْنُ خَلْفٍ، لَا نَجُوثُ إِلَّا نَجَا، ثُمَّ اسْتَوْخَى^(١) جَمَاعَةً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَاشْتَدَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بِهِمَا يُحَرِّزُهُمَا مِنْهُمْ، فَأَدْرَكُوهُمْ، فَشَغَلَهُمْ عَنْ أُمَيَّةَ بَابِنِهِ، فَفَرَّغُوا مِنْهُ، ثُمَّ لَحِقُوهُمَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: ابْرُكْ، فَبَرَكَ فَأَلْقَى نَفْسَهُ عَلَيْهِ، فَضَرَبُوهُ بِالسُّيُوفِ مِنْ تَحْتِهِ حَتَّى قَتَلُوهُ، وَأَصَابَ بَعْضُ السُّيُوفِ رَجُلَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، قَالَ لَهُ أُمَيَّةُ قَبْلَ ذَلِكَ: مَنْ الرَّجُلُ الْمُعَلَّمُ فِي صَدْرِهِ بَرِيضَةٌ نَعَامَةً؟ فَقَالَ: ذَلِكَ حِمَزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ. فَقَالَ: ذَاكَ الَّذِي قَتَلَ بَنِي الْأَفَاعِيلِ، وَكَانَ مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَدْرَاعٌ قَدْ اسْتَلْبَاهَا، فَلَمَّا رَأَاهُ أُمَيَّةٌ قَالَ لَهُ: أَنَا خَيْرُكَ مِنْ هَذِهِ الْأَدْرَاعِ، فَأَلْقَاهَا وَأَخَذَهُ، فَلَمَّا قَتَلَهُ الْأَنْصَارُ، كَانَ يَقُولُ: يَرْحَمُ اللَّهُ بِلَالًا، فَجَعَلَنِي بِأَفْزَاعِي وَبِأَسِيرِي [البخاري: ٢٣٠١].

(انقطاع سيف عكاشة)

وَانْقَطَعَ يَوْمَئِذٍ سَيْفُ عُكَّاشَةَ بْنِ بَعْصَنٍ، فَأَعْطَاهُ النَّبِيُّ ﷺ جِذْلًا مِنْ حَطَبٍ، فَقَالَ: «ذُوْنِكَ هَذَا»، فَلَمَّا أَخَذَهُ عُكَّاشَةُ وَهَزَّهُ، حَادَ فِي يَدِهِ سَيْفًا طَوِيلًا شَدِيدًا أَيْبَضُ، فَلَمْ يَزَلْ عِنْدَهُ يَقَاتِلُ بِهِ حَتَّى قُتِلَ فِي الرُّدَّةِ أَيَّامَ أَبِي بَكْرٍ [ابن هشام: ٣٦٩].

(قتل الزبير عبيدة بحريته وما كان من امر هذه الحربة)

وَلَقِيَ الزَّبِيرُ عُبَيْدَةَ بْنَ سَعِيدٍ بْنِ الْعَاصِ، وَهُوَ مُدْجَجٌ فِي السِّلَاحِ لَا يُرَى مِنْهُ إِلَّا الْحَنْقُ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ

الزَّبِيرُ بِحَرِيْتِهِ، فَطَعَنَهُ فِي عَيْنِهِ، فَمَاتَ، فَوَضَعَ رِجْلَهُ عَلَى الْحَرِيَةِ، ثُمَّ تَمَطَّى، فَكَانَ الْجَهْدُ أَنْ نَزَعَهَا، وَقَدْ انْتَنَى طَرَفَاهَا، قَالَ عُرْوَةُ: فَسَأَلَهُ إِيَّاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَعْطَاهَا إِيَّاهَا، فَلَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، أَخَذَهَا، ثُمَّ طَلَبَهَا أَبُو بَكْرٍ، فَأَعْطَاهَا إِيَّاهَا، فَلَمَّا قُبِضَ أَبُو بَكْرٍ، سَأَلَهُ إِيَّاهَا عُمَرُ، فَأَعْطَاهَا إِيَّاهَا، فَلَمَّا قُبِضَ عُمَرُ، أَخَذَهَا، ثُمَّ طَلَبَهَا عُثْمَانُ فَأَعْطَاهَا إِيَّاهَا، فَلَمَّا قُبِضَ عُثْمَانُ، وَقَعَتْ عِنْدَ آلِ عَلِيٍّ، فَطَلَبَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّبِيرِ، وَكَانَتْ عِنْدَهُ حَتَّى قُتِلَ [البخاري: ٣٩٩٨].

(فقهاء عمن رفاعه بن رافع)

وَقَالَ رِفَاعَةُ بْنُ رَافِعٍ: رُؤِيتُ بِسَهْمٍ يَوْمَ بَدْرٍ، فَقُتِلْتُ عَيْنِي، قَبِضَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَدَعَا لِي، فَمَا أَذَانِي مِنْهَا شَيْءٌ [البيهقي في الدلائل: ١].

(وقوفه ﷺ على القتلى)

وَلَمَّا انْقَضَتْ الْحَرْبُ، أَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى وَقَفَ عَلَى الْقَتْلَى فَقَالَ: «يَسَّ عَشِيرَةُ النَّبِيِّ كُنْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ، كَذَبْتُمُونِي، وَصَدَقْتَنِي النَّاسُ، وَخَذَلْتُمُونِي وَنَصَرْتَنِي النَّاسُ، وَأَخْرَجْتُمُونِي وَأَوَانِي النَّاسُ» [سننه منقطع: أحمد: ٢٥٣٧٢، ورجاله ثقات].

ثُمَّ أَمَرَ بِهِمْ، فَسُجِبُوا إِلَى قَلْبٍ مِنْ قَلْبِ بَدْرٍ، فَطَرَحُوا فِيهِ، ثُمَّ وَقَفَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: «يَا عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَيَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَيَا فُلَانًا، وَيَا فُلَانًا، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدْتُمْ رَبِّكُمْ حَقًّا، فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا»، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا تُخَاطِبُ مِنْ أَقْوَامٍ قَدْ جَافَوْا؟ فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْجَوَابَ» [البخاري: ٣٩٧٦]، ثُمَّ أَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْعُرْصَةِ ثَلَاثًا، وَكَانَ إِذَا ظَهَرَ عَلَى قَوْمٍ أَقَامَ يَعْزِضُهُمْ ثَلَاثًا^(٢) [البخاري: ٣٩٧٦].

(رجوعه ﷺ من بدر)

ثُمَّ ارْتَحَلَ مُؤَيَّدًا مَنْصُورًا، قَرِيرَ الْعَيْنِ بِنَصْرِ اللَّهِ لَهُ، وَمَعَهُ الْأَسَارَى وَالْمَغَانِمُ، فَلَمَّا كَانَ بِالصُّفْرَاءِ، قَسَمَ الْغَنَائِمَ، وَضَرَبَ عُنُقَ النَّصْرِ بَيْنَ الْحَارِثِ بْنِ

(١) استنصر.

(٢) والعُرصة بفتح العين والصاد وسكون الراء: البقعة الواسعة بغير بناء من دار وغيرها.

كلدة، ثُمَّ لما نَزَلَ بِعِزْرِ الطَّيِّبَةِ، ضَرَبَ عُنُقَ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ.

ودخل النبي ﷺ المدينة مؤيداً مظفراً منصوراً قد خافه كُلُّ عَدُوِّ له المدينة وحولها، فأسلم بشر كثير من أهل المدينة، وحيث دخل عبد الله بن أبي المنافق وأصحابه في الإسلام ظاهراً.

(جملة من حضر بدر)

وجملة من حضر بدرًا من المسلمين ثلاثمئة وبضعة عشر رجلاً، من المهاجرين ستة وثمانون، ومن الأوس أحد وستون، ومن الخزرج مئة وسبعون، وإنما قُلَّ عدد الأوس عن الخزرج، وإن كانوا أشدَّ منهم، وأقوى شوكةً، وأصبر عند اللقاء، لأن منازلهم كانت في عوالي المدينة، وجاء النفي بغتةً، وقال النبي ﷺ: «لَا يَتَّبِعُنَا إِلَّا مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا»، فاستأذنه رجالٌ ظهروهم في غلو المدينة أن يستأني بهم حتى يذهبوا إلى ظهورهم، فأبى [سلم: ٤٩١٥] ولم يكن عَزْمُهُمْ عَلَى اللِّقَاءِ، ولا أعدوا له عدته، ولا تأهبوا له أهبته، ولكن جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد.

(شهداء المسلمين)

واستشهد من المسلمين يومئذ أربعة عشر رجلاً: ستة من المهاجرين، وستة من الخزرج، واثنا من الأوس، وفرغ رسول الله ﷺ من شأن بدر والأسارى في شوال [ابن سعد (١١/٢)، والطبري (٢٦٥/٢)].

فصل

(غزو بني سليم)

ثم نهض بنفسه صلوات الله وسلامه عليه بعد فراغه بسعة أيام إلى غزو بني سليم، واستعمل على المدينة سباع بن عُرْفَةَ، وقيل: ابن أم مكتوم، فبلغ ماء يقال له: الكُدُرُ، فأقام عليه ثلاثاً، ثم انصرف، ولم يلق كيداً [ابن سعد (٣٥/٢)، وابن كثير (٥٣٩/٢)].

فصل

(غزوة السويق)

ولما رجع قُلُ المشركين إلى مكة موثورين،

محزونين، نَذَرَ أبو سفيان أن لا يَمَسَّ رأسه ماءً حتى يغزو رسول الله ﷺ، فخرج في مأتي راكب، حتى أتى الثَرِيضَ في طرفِ المدينة، وبات ليلةً واحدة عند سلام بن سُكَّم اليهودي، فسقاه الخمر، وبَطَنَ له من خبر الناس، فلما أصبح، قطع أضواراً^(١) من النخل، وقتل رجلاً من الأنصار وحليفاً له، ثم كرَّ راجعاً، ونَذَرَ به رسول الله ﷺ، فخرج في طلبه، فبلغ قَرْقَرَةَ الكُدُرِ، وفاته أبو سفيان، وطرح الكفار سوقاً كثيراً من أزوادهم يتخفقون به، فأخذها المسلمون، فسميت غزوة السويق، وكان ذلك بعد بدر شهرين [ابن سعد (٣٠/٢)، وابن كثير (٥٢٠/٢)].

فأقام رسول الله ﷺ بالمدينة بَقَّةً ذِي الجَحَّةِ، ثم غزا نجداً يُريدُ غطفان، واستعمل على المدينة عثمان بن عفان رضي الله عنه، فأقام هناك صَفْراً كُلَّهُ من السنة الثالثة، ثم انصرف، ولم يلق حرباً [ابن سعد (٣٤/٢)، وابن كثير (٣/٣)].

فصل

(غزوة الفُرع)

فأقام بالمدينة ربيعاً الأول، ثم خرج يُريدُ قريشاً، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، فبلغ بُحْران مَعْدِنًا بِالْحِجَازِ من ناحية الفُرع، ولم يَلْقَ حرباً، فأقام هُنَاكَ ربيعاً الآخر، وجمادى الأولى، ثم انصرف إلى المدينة [ابن سعد (٣٥/٢)، وابن كثير (٥٠٤/٣)].

فصل

(غزوة بني قينقاع)

ثم غزا بني قَيْنِقَاعَ، وكانوا من يهود المدينة، فنقضوا عهده، فحاصروهم خمسة عشر ليلةً حتى نزلوا على حكمه، فَشَقَّ فيهم عبد الله بن أبي، وألح عليه، فأطلقهم له، وهم قوم عبد الله بن سلام، وكانوا سبعمئة مقاتل، وكانوا صاغةً وتجاراً [ابن سعد (٢٨/٢)، وابن كثير (٥/٣)].

فصل

في قتل كعب بن الأشرف

وكان رجلاً من اليهود، وأمه من بني النضير،

(١) أضوار جمع صور، والصور جمع لا واحد له من لفظه، وهو النخل الصغار، أو جماع النخل.

وكان شديد الأذى لرسول الله ﷺ، وكان يُسَبَّب في أشعاره بنساء الصحابة، فلما كانت وقعة بدر، ذهب إلى مكة، وجعل يُؤَلَّب على رسول الله ﷺ، وعلى المؤمنين، ثم رجع إلى المدينة على تلك الحال، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ»، فانتدب له محمد بن مسلمة، وعَبَّادُ بْنُ بَشْرٍ، وأبو نائلة واسمه سِلْكَانُ بْنُ سَلَامَةَ، وهو أخو كعب من الرضاع والحارث بن أرس، وأبو عَيسَى بْنُ جَبْرِ، وأذن لهم رسول الله ﷺ أن يقولوا ما شاؤوا مِنْ كلام يخدعون به، فذهبوا إليه في ليلة مُقَرَّمَةٍ، وشيَّعهم رسول الله ﷺ إلى بَقِيعِ الرَّقَدِ، فلما انتهوا إليه، قدَّموا سِلْكَانَ بْنَ سَلَامَةَ إليه، فأظهر له موافقته على الانحراف عن رسول الله ﷺ، وشكَّا إليه ضيق حاله، فكلَّمَهُ في أن يبيعه وأصحابه طعاماً، ويَرْهَنُونَهُ سِلَاحَهُمْ، فأجابهم إلى ذلك.

وَرَجَعَ سِلْكَانُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَأَخْبَرَهُمْ، فَأَنْزَهُ، فخرج إليهم مِنْ حِصْنِهِ، فَمَتَّاشُوا، فَوْضَعُوا عَلَيْهِ سُيُوفَهُمْ، ووضع محمد بن مسلمة مغولاً^(١) كان معه في ثَنِيَّتِهِ، فقتله، وصاح عدو الله صيحة شديدة أفزعت مَنْ حوله. وأوقدوا النيران، وجاء الوفد حتى قدَّموا على رسول الله ﷺ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، وهو قائم يُصَلِّي، وَجَرَحَ الْحَارِثُ بْنُ أَوْسٍ بَعْضَ سُيُوفِ أَصْحَابِهِ، فقتل عليه رسول الله ﷺ، فبرىء، فَأَذِنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي قَتْلِ مَنْ وَجَدَ مِنَ الْيَهُودِ لِنَقْضِهِمْ عَهْدَهُ وَمَحَارِبَتِهِمْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ [البخاري: ٤٠٣٧، ومسلم: ٤٦٦٤].

فصل

في غزوة أحد

(مشورته ﷺ أصحابه في الخروج)

ولما قتل الله ﷺ أشرف قريش بدر، وأصيبوا بمصيبة لم يُصابوا بمثلاً، ورأس فيهم أبو سفيان بن حرب لذهاب أكابرهم، وجاء كما ذكرنا إلى أطراف المدينة

(رواه)

فخرج رسول الله ﷺ في ألف من الصحابة، واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بمن بقي في المدينة، وكان رسول الله ﷺ رأى رؤيا، وهو بالمدينة، رأى أن في سيفه ثلثة، ورأى أن يقرأ تذييع، وأنه أدخل يده في درع حصينة، فتأول الثلثة في سيفه برجل يُصاب من أهل بيته، وتأول القرَّ بقر من أصحابه يُقتلون، وتأول الذرع بالمدينة^(٣).

(انخزل ابن أبي بنحو ذلك العسكر)

فخرج يوم الجمعة، فلما صار بالشُّوط بين المدينة

(١) هو شبه سيف قصير يشتمل به الرجل تحت الثياب.

(٢) الأحابيش: أحياء من القارة، انضموا إلى بني ليث في الحرب التي وقعت بينهم وبين قريش قبل الإسلام.

(٣) هو قطعة من حديث جابر المتقدم آنفاً.

وأُخذ، انخزل عبدُ الله بن أبي بنحو ثلثِ العسكر، وقال: تُخالفني وتسمعُ من غيري، فتبهم عبدُ الله بن عمرو بن حرام، والد جابر بن عبد الله يُوبِخهم ويحضُّهم على الرجوع، ويقول: تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ ادْفَعُوا. قالوا: لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكُمْ تُقَاتِلُونَ، لَمْ نَرْجِعْ، فَارْجِعْ عَنْهُمْ، وَسَبِّهِمْ، وَسَلِّهِ قَوْمَ مِنَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَسْتَعِينُوا بِخُلَفَائِهِمْ مِنْ يَهُودٍ، فَأَبَى، وَسَلَكَ حَرَّةَ بَنِي حَارِثَةَ، وَقَالَ: «مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ بِنَا عَلَى الْقَوْمِ مِنْ كَيْفٍ؟»، فَخَرَجَ بِهِ بَعْضُ الْأَنْصَارِ حَتَّى سَلَكَ فِي حَانِطٍ لِبَعْضِ الْمُنَافِقِينَ، وَكَانَ أَعْمَى، فَقَامَ يَحْتُو التُّرَابَ فِي وَجْهِهِ الْمُسْلِمِينَ وَيَقُولُ: لَا أَجِلُّ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ فِي حَانِطِي إِنْ كُنْتَ رَسُولَ اللَّهِ، فَأَبْتَدَرَهُ الْقَوْمُ لِيَقْتُلُوهُ، فَقَالَ: «لَا تَقْتُلُوهُ هَذَا أَعْمَى الْقَلْبِ أَعْمَى الْبَصَرِ».

ونفذ رسولُ الله ﷺ حتى نَزَلَ الشَّعْبَ مِنْ أُحُدٍ فِي عُذْوَةِ الْوَادِي، وَجَعَلَ ظَهْرَهُ إِلَى أُحُدٍ، وَنَهَى النَّاسَ عَنِ الْقِتَالِ حَتَّى يَأْمُرَهُمْ، فَلَمَّا أَصْبَحَ يَوْمَ السَّبْتِ، تَعَيَّى لِلْقِتَالِ، وَهُوَ فِي سَبْعِمِائَةٍ، فِيهِمْ خَمْسُونَ فَارِسًا، وَاسْتَعْمَلَ عَلَى الرُّمَاءِ - وَكَانُوا خَمْسِينَ - عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ، وَأَمَرَهُ وَأَصْحَابَهُ أَنْ يَلْزُمُوا مَرْكَزَهُمْ، وَلَا يُفَارِقُوهُ، وَلَوْ رَأَى الطَّيْرُ تَخَطَّفَ الْعَسْكَرَ، وَكَانُوا خَلْفَ الْجَيْشِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَنْصَحُوا الْمُشْرِكِينَ بِالنَّبْلِ، لِئَلَّا يَأْتُوا الْمُسْلِمِينَ مِنْ وَرَائِهِمْ [البخاري: بنحوه: ٤٠٤٣].

(مشاركة الشباب)

فظاهر رسولُ الله ﷺ بَيْنَ دِرْعَيْنِ يَوْمِئِذٍ، وَأَعْطَى اللِّوَاءَ مُضَضَّبَ بَنِ عُمَيْرٍ، وَجَعَلَ عَلَى إِحْدَى الْمَجْبُتَيْنِ الزَّيْبَ بَنِ الْعَوَامِ، وَعَلَى الْأُخْرَى الْمُنْذَرُ بَنِ عَمْرٍو، وَاسْتَعْرَضَ الشَّبَابَ يَوْمِئِذٍ، فَرَدَّ مَنْ اسْتَصْفَرَهُ عَنِ الْقِتَالِ، وَكَانَ مِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، وَأَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، وَأَسِيدُ بْنُ ظَهْرٍ، وَالْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ، وَزَيْدُ بْنُ أَرْقَمٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَعَرَابَةُ بْنُ أَوْسٍ، وَعَمْرُو بْنُ حَزَمٍ، وَأَجَازُ بْنُ رَأَةَ مُطِيقًا، وَكَانَ مِنْهُمْ سُمُرَةُ بْنُ جُنْدَبٍ،

ورافعُ بن خديج، ولهما خمسُ عشرة سنة. ف قيل: أجاز من أجاز لبلوغه بالسَّنِ خمس عشرة سنة، وردَّ مَنْ رَدَّ لِصُغَرِهِ عَنِ سِنِّ الْبُلُوغِ، وَقَالَتْ طَاقِفَةُ: إِنَّمَا أَجَازَ مَنْ أَجَازَ لِطَاقِفَتِهِ، وَرَدَّ مَنْ رَدَّ لِإِدْمِاطِقَتِهِ، وَلَا تَأْثِيرَ لِلْبُلُوغِ وَعَدَمِهِ فِي ذَلِكَ قَالُوا: وَفِي بَعْضِ أَلْفَاظِ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ: «فَلَمَّا رَأَيْتُ مُطِيقًا، أَجَازَنِي»^(١).

وَتَعَبَتْ قَرِيشٌ لِلْقِتَالِ، وَهُمْ فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ، وَفِيهِمْ مَاتَا فَارِسٍ، فَجَعَلُوا عَلَى مِيمَتِهِمْ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ، وَعَلَى الْمِيسِرَةِ عِكْرَمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ، وَدَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَيْفَهُ إِلَى أَبِي دُجَانَةَ سِمَاكِ بْنِ خَرْشَةَ، وَكَانَ شُجَاعًا بَطْلًا يَخْتَلُ عِنْدَ الْحَرْبِ.

(خبر أبي عامر الفاسق)

وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ بَدَرَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَبُو عَامِرٍ الْفَاسِقُ، وَاسْمُهُ عَبْدُ عَمْرِو بْنِ صَنِيْقٍ، وَكَانَ يُسَمَّى: الرَّاهِبَ، فَسَمَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْفَاسِقُ، وَكَانَ رَأْسَ الْأَوْسِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ، شَرَقَ بِهِ، وَجَاهَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْعَدَاوَةِ، فَخَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَذَهَبَ إِلَى قُرَيْشٍ يُؤَلِّبُهُمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَحْضُهُمْ عَلَى قِتَالِهِ، وَوَعَدَهُمْ بِأَنْ قَوْمَهُ إِذَا رَأَوْهُ أَطَاعُوهُ، وَمَالُوا مَعَهُ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ لَقِيَ الْمُسْلِمِينَ، فَنَادَى قَوْمَهُ، وَتَعَرَّفَ إِلَيْهِمْ، فَقَالُوا لَهُ: لَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِكَ عَيْنًا يَا فَاسِقُ. فَقَالَ: لَقَدْ أَصَابَ قَوْمِي بِعَدِي شَرًّا، ثُمَّ قَاتَلَ الْمُسْلِمِينَ قِتَالًا شَدِيدًا، وَكَانَ شِعَارُ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ، أَمْتُ [حسن: أحمد: ١٦٤٩٨، وأبو داود: ٢٥٩٦].

وأبلى يومئذ أبو دُجَانَةُ الْأَنْصَارِيُّ، وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَأَسَدُ اللَّهِ وَأَسَدُ رَسُولِهِ حِمَزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَأَنَسُ بْنُ النَّضْرِ، وَسَعْدُ بْنُ الرَّيْعِ.

(عصيان الرماة لأمره ﷺ وانتهاز)

(المشركين هذه الفرصة وما أصيب به ﷺ)

وَكَانَتْ الدَّوْلَةُ أَوَّلَ النَّهَارِ لِلْمُسْلِمِينَ عَلَى الْكِفَّارِ، فَانْهَزَمَ عَدُوُّ اللَّهِ، وَوَلَّوْا مُذْبِرِينَ حَتَّى انْتَهَزُوا إِلَى نِسَائِهِمْ، فَلَمَّا رَأَى الرُّمَاءُ هَزِيمَتَهُمْ، تَرَكُوا مَرْكَزَهُمُ الَّذِي أَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِهِ، وَقَالُوا: يَا قَوْمُ

(١) الذي في الصحيح خلاف هذا، فقد روى البخاري (٤٠٩٧) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ عرضني يوم أُحُدٍ، وأنا ابن أربع عشرة سنة، فلم يُجزني، وعرضني يوم الخندق، وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني.

ولقي سعد بن معاذ فقال: يَا سَعْدُ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ الْجَنَّةِ مِنْ دُونِ أَحَدٍ، فقاتل حتى قُتِلَ، وَوُجِدَ بِهِ سَبْعُونَ ضَرْبَةً [البخاري: ٤٠٤٨، ومسلم: ٤٩١٨]، وَجُرِحَ يَوْمَئِذٍ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ نَحْوًا مِنْ عَشْرِينَ جِرَاحَةً.

(قتله ﷺ أبي بن خلف)

وأقبل رسولُ اللَّهِ ﷺ نحوَ المسلمين، وكان أوَّلَ من عرفه تحتَ المِغْفَرِ كعبُ بن مالك، فصاح بأعلى صوته: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أَبَشِّرُوا هَذَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأشار إليه أن اسْكُتْ، واجتمع إليه المسلمون ونهضوا معه إلى الشعب الذي نزل فيه، وفيهم أبو بكر، وعمر، وعلي، والحارث بنُ الصَّمَّةِ الأنصاري وغيرهم، فلما استندوا إلى الجبل، أدرك رسولُ اللَّهِ ﷺ أبا بَرْزَةَ بْنُ خَلْفٍ عَلَى جِوَادٍ لَهُ يُقَالُ لَهُ: الْعَوْدُ، زَعَمَ عَدُوُّ اللَّهِ أَنَّهُ يَقْتُلُ عَلَيْهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فلما اقترب منه، تناول رسولُ اللَّهِ ﷺ الحربةَ من الحارث بن الصَّمَّةِ، فطعته بها فجاءت في تَرْفُوتِهِ، فكَرَّ عَدُوُّ اللَّهِ مِنْهُزِمًا، فقال له المشركون: وَاللَّهِ مَا بَكَ مِنْ بَاسٍ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَوْ كَانَ مَا بِي بِأَهْلٍ ذِي الْمَجَازِ، لَمَاتُوا أَجْمَعُونَ، وَكَانَ يَغْلِفُ فَرْسَهُ بِمَكَّةَ وَيَقُولُ: أَقْتُلْ عَلَيْهِ مُحَمَّدًا، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فقال: «بَلْ أَنَا أَقْتُلُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى» فلما طعنه تَذَكَّرَ عَدُوُّ اللَّهِ قَوْلَهُ: أَنَا قَاتِلُهُ، فَأَبْقَى أَنَّهُ مَقْتُولٌ مِنْ ذَلِكَ الْجِرَاحِ، فمات منه في طريقه بِسَرَفٍ مَرَجَعًا إِلَى مَكَّةَ [ابن كثير (٢/٦٣)].

وجاء علي إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ بماء ليشرب منه، فوجده أجثًا، فرده، وغسل عن وجهه الدم، وصَبَّ عَلَى رَأْسِهِ. فَأَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَعْلُوَ صَخْرَةً هُنَالِكَ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ لِمَا بِهِ، فَجَلَسَ طَلْحَةُ تَحْتَهُ حَتَّى صَبَحَ، وَحَانَتِ الصَّلَاةُ، فَصَلَّى بِهِمْ جَالِسًا، وَصَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ تَحْتَ لُؤَاءِ الْأَنْصَارِ.

(حظلة غسل الملائكة)

وَشَدَّ حَنْظَلَةُ الْغَسِيلِ - وَهُوَ حَنْظَلَةُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ - عَلَى أَبِي سَفْيَانَ، فَلَمَّا تَمَكَّنَ مِنْهُ، حَمَلَ عَلَى حَنْظَلَةَ شَدَّادُ بْنُ الْأَسود فقتله، وَكَانَ جُنْبًا، فَإِنَّهُ سَمِعَ الصَّيْحَةَ، وَهُوَ عَلَى أَمْرَاتِهِ، فَقَامَ مِنْ قَوْرِهِ إِلَى الْجِهَادِ، فَأَخْبَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَضْحَابَهُ «أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَغْسِلُهُ» ثُمَّ قَالَ: «سَلُّوا أَهْلَهُ؟ مَا شَأْنُهُ؟» فَسَأَلُوا أَمْرَاتِهِ، فَأَخْبَرَتْهُنَّ الْحَبْرُ [الحاكم (٣/٢٠٤-٢٠٥)]، وَابْيَهَى

الْغَنِيمَةَ فَذَكَرَهُمْ أَمِيرُهُمْ عَهْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمْ يَسْمَعُوا، وَظَنُّوا أَنْ لَيْسَ لِلْمُشْرِكِينَ رَجْعَةٌ، فَذَهَبُوا فِي طَلَبِ الْغَنِيمَةِ، وَأَخْلَوْ الثُّغَرَ، وَكُرَّ فُرْسَانُ الْمُشْرِكِينَ، فَوَجَدُوا الثُّغَرَ خَالِيًا، قَدْ خَلَا مِنَ الرُّمَاءِ، فَجَازَوْا مِنْهُ، وَتَمَكَّنُوا حَتَّى أَقْبَلَ آخِرُهُمْ، فَأَحَاطُوا بِالْمُسْلِمِينَ، فَأَكْرَمَ اللَّهُ مَنْ أَكْرَمَ مِنْهُمْ بِالشَّهَادَةِ، وَهُمْ سَبْعُونَ، وَتَوَلَّى الصَّحَابَةَ، وَخَلَصَ الْمُشْرِكُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَرَحُوا وَجْهَهُ، وَكَسَرُوا رِجْلَيْهِ الْيُمْنَى، وَكَانَتِ السُّفْلَى، وَهَشَمُوا الْبَيْضَةَ عَلَى رَأْسِهِ [البخاري: ٤٠٧٥، ومسلم: ٤٦٤٢] وَرَمَوْهُ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى وَقَعَ لِشَقِهِ، وَسَقَطَ فِي حُفْرَةٍ مِنَ الْحُفَرِ الَّتِي كَانَ أَبُو عَامِرٍ الْفَارِيقُ يَكِيدُ بِهَا الْمُسْلِمِينَ، فَأَخَذَ عَلِيٌّ يَدَهُ، وَاحْتَضَنَهُ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى أَذَاهُ ﷺ عَمْرُو بْنُ قَمَيْتَةَ، وَعُتْبَةُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ، وَقِيلَ: إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ شَهَابٍ الزَّهْرِيَّ، عَمَّ مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ بْنِ شَهَابِ الزَّهْرِيَّ، هُوَ الَّذِي شَجَّهَ.

(قتل مصعب بن عمير وشان مالك بن سنان)

وَقُتِلَ مُصْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَدَفَعَ اللَّوَاءُ إِلَى عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَنَشِبَتْ خَلْقَتَانِ مِنْ حُلُقِ الْمِغْفَرِ فِي وَجْهِهِ، فَانْتَزَعَهُمَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ، وَعَضَّ عَلَيْهِمَا حَتَّى سَقَطَتْ نَتِيتَاهُ مِنْ شِدَّةِ غَوَصِهِمَا فِي وَجْهِهِ، وَامْتَصَّ مَالِكُ بْنُ سَنَانٍ وَالِدُ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ الدَّمَ مِنْ وَجْتِهِ، وَأَدْرَكَهُ الْمُشْرِكُونَ يُرِيدُونَ مَا اللَّهُ حَاطِلٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، فَحَالَ دُونَهُ نَفَرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ نَحْوُ عَشْرَةٍ حَتَّى قُتِلُوا، ثُمَّ جَالَدَهُمْ طَلْحَةُ حَتَّى أَجْهَضَهُمْ عَنْهُ، وَتَرَسَّ أَبُو دُجَانَةَ عَلَيْهِ بَظْهَرُهُ، وَالنَّبْلُ يَقَعُ فِيهِ، وَهُوَ لَا يَتَحَرَّكُ، وَأَصَابَتْ يَوْمَئِذٍ قَتَادَةُ ابْنُ النَّعْمَانِ، فَاتَى بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَردَّهَا عَلَيْهِ يَدَهُ، وَكَانَتْ أَصَحَّ عَيْنَيْهِ وَأَحْسَنَهُمَا [اليهقي في «الدلائل» فيما ذكره ابن كثير (٢/٤٤٧)]، وَصَرَخَ الشَّيْطَانُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، وَوَقَعَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَفَرَّ أَكْثَرُهُمْ، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا.

(قول انس بن النضر وجرح عبد الرحمن بن عوف)

وَمَرَّ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ بِقَوْمٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ أَلْقَوْا بِأَيْدِيهِمْ، فَقَالَ: مَا تَنْتَظِرُونَ؟ فَقَالُوا: قُتِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: مَا تَتَضَمَّنُونَ فِي الْحَيَاةِ بَعْدَهُ؟ قَوْمُوا فَمَوْتُوا عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ النَّاسَ،

(١٥/٤). وجعل الفقهاء هذا حجة، أن الشهيد إذا قُتل جُنْباً، يغسل اقتداءً بالملائكة^(١).

(١١ عمارة)

وقتل المسلمون حامِلَ لواءِ المشركين، فرقتهم لهم عُمَرَةُ بنتُ علقمة الحارثية، حتى اجتمعوا إليه، وقاتلت أُمَّ عُمارة، وهي نسيبة بنتُ كعب المازنية قتالاً شديداً، وضربت عمرو بن قُمَيْة بالسيف ضربات فوّقته درعاناً كانتا عليه، وضربها عمرو بالسيف، فجرحها جرحاً شديداً على عاتقها.

(شهادة الأَصِيرِم مع انه لم يصل صلاة قط)

وكان عمرو بن ثابت المعروف بالأَصِيرِم من بني عبد الأشهل بأبي الإسلام، فلما كان يومَ أُحُد، قذف الله الإسلامَ في قلبه للْحُسْنَى التي سبقت له منه، فأسلم وأخذ سيفه، ولحقَ بالنبي ﷺ، فقاتل فأُتيت بالجراح، ولم يعلم أحدٌ بأمره، فلما انجلت الحرب، طاف بنو عبد الأشهل في القتلَى، يلتَمِسُون قتلاهم، فوجدوا الأَصِيرِم ويهزّون رَمَقَ يسير، فقالوا: والله إن هذا الأَصِيرِم، ما جاء به لقد تركناه وإنه لَمُنْكَرٌ لهذا الأمر، ثم سألوه ما الذي جاء بك؟ أَعَدَبَ عَلَى قَوْمِكَ، أم رغبة في الإسلام؟ فقال: بل رغبة في الإسلام، آمَنْتُ بالله ورسوله، ثم قاتلتُ مع رسول الله ﷺ حتى أصابني ما تَرَوْنَ، ومات من وقته، فذكروه لرسول الله ﷺ، فقال: «هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ». قال أبو هريرة: ولم يُصَلِّ لِلَّهِ صَلَاةً قَطُّ [صحيح: أحمد: ٢٣١٣٣].

(مناداة أبي سفيان للمسلمين)

ولما انقضت الحرب، أشرف أبو سفيان على الجبل، فنادى: أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه، فقال: أفيكم ابنُ أبي قُحافة؟ فلم يجيبوه. قال: أفيكم عُمَرُ بنُ الخطاب؟ فلم يجيبوه، ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة ليعلمه وعلم قومه أن قِيَامَ الإسلام بهم، فقال: أما هؤلاء، فقد كُفيتُمهم، فلم يَمْلِكْ عُمَرُ نفسه أن قال: يَا عَدُوَّ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ ذَكَرْتُمُ أَحْيَاءَ، وقد أبقي الله لك ما يسوءُكَ، فقال: قد كان في القوم مثلةٌ لم أمرُ بها، ولم

تسؤني، ثم قال: أعلُ هُبْلُ، فقال النبي ﷺ: «ألا تُجيبُونَهُ؟» فقالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجل»، ثم قال: لَنَا الْعَزْزُ وَلَا عَزْزُ لَكُمْ. قال: «ألا تُجيبُونَهُ؟» قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ» [البخاري: ٤٠٤٣].

فأمرهم بجوابه عند افتخاره بآلِهِ، وبشركه تعظيماً للتوحيد، وإعلاماً بعزة مَنْ عبده المسلمون، وقوة جانبه، وأنه لا يُغلب، ونحن حزبه وجُنْدُه، ولم يأمرهم بإجابه حين قال: أفيكم محمد؟ أفيكم ابنُ أبي قُحافة؟ أفيكم عمرو؟ بل قد روي أنه نهاهم عن إجابه، وقال: لا تُجيبوه، لأن كَلِمَتَهُمْ لم يكن يردُّ بَعْدُ في طلب القوم، ونارُ غيظهم بعد متوقدة، فلما قال لأصحابه: أما هؤلاء فقد كُفيتُمهم، حمي عمر بن الخطاب، واشتد غضبه وقال: كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، فكان في هذا الإعلام من الإذلال، والشجاعة، وعدم الجبن، والتعرف إلى العدو في تلك الحال ما يُؤذِنُهُمْ بقوة القوم ويسالَتُهُمْ، وأنهم لم يَهْنُوا ولم يَضَعُفُوا، وأنه وقومه جديرون بعدم الخوف منهم، وقد أبقي الله لهم ما يسوؤُهُم منهم، وكان في الإعلام بقاء هؤلاء الثلاثة وهلة بعد ظنه وظن قومه أنهم قد أصيبوا من المصلحة، وغيظ العدو وجزيه، والفت في عَصِيهِ ما ليس في جوابه حين سأل عنهم واحداً واحداً، فكان سؤاله عنهم، ونعيمهم لقومه آخر سهام العدو وكيد، فصر له النبي ﷺ حتى استوفى كيد، ثم انتدب له عُمَرُ، فرد سِهَامَ كِيدِهِ عليه، وكان ترك الجواب أولاً عليه أحسن، وذكره ثانياً أحسن، وأيضاً فإن في ترك إجابه حين سأل عنهم إهانة له، وتصغيراً لشأنه، فلما مثته نفسه موتهم، وظن أنهم قد قُتِلُوا، وحصل له بذلك من الكبر والأشر ما حصل، كان في جوابه إهانة له، وتحقير، وإذلال، ولم يكن هذا مخالفاً، لقول النبي ﷺ: «لا تُجيبوه» فإنه إنما نهى عن إجابه حين سأل: أفيكم محمد؟ أفيكم فلان؟ أفيكم فلان؟ ولم ينه عن إجابه حين قال: أما هؤلاء، فقد قُتِلُوا، وبكل حال، فلا أحسن من ترك إجابه أولاً، ولا أحسن من إجابه ثانياً.

(١) هذا قول أحمد وأبي حنيفة، وقال مالك والشافعي وأبو يوسف ومحمد: إنه لا يغسل لمعوم الدليل، وقال الشوكاني: وهو الحق. انظر: المنهني (٢/ ٥٣٠، ٥٣١).

ثُمَّ قَالَ أَبُو سَفِيَانَ: يَوْمَ يَوْمٍ بَذِرَ، وَالْحَرْبُ سِجَالٌ، فَأَجَابَهُ عُمَرُ، فَقَالَ: لَا سَوَاءَ، قَتَلْنَا فِي الْجَنَّةِ، وَقَتَلَكُمُ فِي النَّارِ الْبَخَارِي: [٤٠٤٣].

(نصر الله رسوله يوم أحد)

وقال ابن عباس: ما نُصِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَوْطِنٍ نَصْرَهُ يَوْمَ أُحُدٍ، فَأُنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: بَيْنِي وَبَيْنَ مَنْ يُنْكَرُ كِتَابُ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ آلَهُ وِعَادَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَالْحَسْرُ: الْقَتْلُ، وَلَقَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَاصْحَابِهِ أَوَّلُ النَّهَارِ حَتَّى قُتِلَ مِنْ أَصْحَابِ الْمَشْرِكِينَ سَبْعَةٌ أَوْ تِسْعَةٌ [حسن: أحمد: ٢٦٠٩]. وذكر الحديث.

(النعاس في أحد)

وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّعَاسَ أَمَةً مِنْهُ فِي غَزَاةٍ بِدْرِ وَأَحَدٍ، وَالنَّعَاسُ فِي الْحَرْبِ وَعِنْدَ الْخَوْفِ دَلِيلٌ عَلَى الْأَمَنِ، وَهُوَ مِنَ اللَّهِ، وَفِي الصَّلَاةِ وَمَجَالِسِ الذِّكْرِ وَالْعِلْمِ مِنَ الشَّيْطَانِ.

(دفاع ملكين عنه ﷺ)

وَقَاتَلَتِ الْمَلَائِكَةُ يَوْمَ أُحُدٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فِي «الصَّحِيحِينَ»: عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، قَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ وَمَعَهُ رَجُلَانِ يَمَانِلَانِ عَنْهُ، عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بَيْضُ كَأَشَدِّ الْغَيَالِ، مَا رَأَيْتُهُمَا قَبْلُ وَلَا بَعْدُ» [البخاري: ٤٠٥٤، ومسلم: ٦٠٠٤].

(دفاع سبعة من الأنصار عنه ﷺ)

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»: أَنَّهُ ﷺ، أَفْرَدَ يَوْمَ أُحُدٍ فِي سَبْعَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا رَهَقُوهُ، قَالَ: «مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا، وَلَهُ الْجَنَّةُ، أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ» فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ رَهَقُوهُ، فَقَالَ: «مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا، وَلَهُ الْجَنَّةُ، أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ» فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى قُتِلَ السَّبْعَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا» [مسلم: ٤٦٤١] وَهَذَا يُرَوَّى عَلَى وَجْهَيْنِ: بِسُكُونِ الْفَاءِ وَنَصْبِ «أَصْحَابِنَا» عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ، وَفَتْحِ الْفَاءِ رَفْعِ «أَصْحَابِنَا» عَلَى الْفَاعِلِيَّةِ.

وَوَجْهَ النَّصَبِ: أَنَّ الْأَنْصَارَ لَمَّا خَرَجُوا لِلْقِتَالِ

وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ حَتَّى قُتِلُوا، وَلَمْ يَخْرُجِ الْقُرَشِيُّانَ، قَالَ ذَلِكَ، أَي: مَا أَنْصَفَتْ قُرَيْشُ الْأَنْصَارَ.

وَوَجْهَ الرَّفْعِ: أَنَّ يَكُونُ الْمَرَادُ بِالْأَصْحَابِ، الَّذِينَ فَرَّوْا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَفْرَدَ فِي الْغَرِّ الْقَلِيلَ، فَقَتَلُوا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، فَلَمْ يُنْصِفُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَنْ ثَبِتَ مَعَهُ.

(دفاع طلحة عنه ﷺ ونزع)

(إبي عبدة حلقة المفقر من جبينه ﷺ)

وَفِي «صَحِيحِ ابْنِ حِبَانَ» عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ، انْصَرَفَ النَّاسُ كُلُّهُمْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَرَأَيْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ رَجُلًا يَمَانِلُ عَنْهُ وَيَحْيِيهِ، قُلْتُ: كُنْ طَلْحَةُ فَذَاكَ أَبِي وَأُمِّي، كُنْ طَلْحَةُ فَذَاكَ أَبِي وَأُمِّي. فَلَمْ أَتُسَبِّ، أَنْ أَدْرَكَنِي أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ، وَإِذَا هُوَ يَشْتَدُّ كَأَنَّهُ طَيْرٌ حَتَّى لَحَقَنِي، فَدَفَعْنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَإِذَا طَلْحَةُ بَيْنَ يَدَيْهِ صَرِيحًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دُونَكُمْ أَحَاكُم فَقَدْ أَوْجَبَ»، وَقَدْ رُبِّيَ النَّبِيُّ ﷺ فِي جَبِينِهِ، وَرَوَى: فِي وَجْهِهِ حَتَّى غَابَتْ حَلَقَةٌ مِنْ حَلَقِ الْمَفْقَرِ فِي وَجْهِهِ، فَذَعَبْتُ لِأَنْزَعَهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: نَشَدْتُكَ بِاللَّهِ يَا أَبَا بَكْرٍ إِلَّا تَرَكْتَنِي؟ قَالَ: فَأَخَذَ أَبُو عُبَيْدَةَ السَّهْمَ فِيهِ، فَجَعَلَ يُضَيِّضُهُ كَرَاهَةً أَنْ يُؤْذِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ اسْتَلَّ السَّهْمَ فِيهِ، فَتَذَرَتْ ثِيَابُ أَبِي عُبَيْدَةَ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: ثُمَّ ذَعَبْتُ لِأَخَذِ الْآخَرَ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: نَشَدْتُكَ بِاللَّهِ يَا أَبَا بَكْرٍ، إِلَّا تَرَكْتَنِي؟ قَالَ: فَأَخَذَهُ، فَجَعَلَ يُضَيِّضُهُ حَتَّى اسْتَلَّهُ، فَتَذَرَتْ ثِيَابُ أَبِي عُبَيْدَةَ الْآخَرَى، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «دُونَكُمْ أَحَاكُم فَقَدْ أَوْجَبَ»، قَالَ: فَأَقْبَلْنَا عَلَى طَلْحَةَ نُعَالِجُهُ، وَقَدْ أَصَابَتْهُ بِضْعَةُ عَشْرٍ ضَرِبَةً لِابْنِ حِبَانَ: ٢٢١٣، وَالطَّيَالِسِيُّ (٢/٩٩)، وَفِي إِسْنَادِهِ ضَعِيفٌ.

(سهم سعد)

وَفِي «مَغَازِي الْأُمِيِّ»: أَنَّ الْمَشْرِكِينَ صَعِدُوا عَلَى الْجَبَلِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِسَعْدٍ: «اجْنِبْهُمْ» يَقُولُ: ارْدُدْهُمْ. فَقَالَ: كَيْفَ أَجْنِبُهُمْ وَحَدِي؟ فَقَالَ: ذَلِكَ ثَلَاثًا، فَأَخَذَ سَعْدٌ سَهْمًا مِنْ كِبَانَتِهِ، فَرَمَى بِهِ رَجُلًا فَقَتَلَهُ، قَالَ: ثُمَّ أَخَذْتُ سَهْمِي أَغْرُقُهُ، فَرَمَيْتُ بِهِ آخَرَ فَقَتَلْتُهُ، ثُمَّ أَخَذْتُهُ أَغْرُقُهُ، فَرَمَيْتُ بِهِ آخَرَ فَقَتَلْتُهُ، فَهَبَطُوا مِنْ مَكَانِهِمْ، فَقُلْتُ: هَذَا سَهْمٌ مُبَارَكٌ، فَجَعَلْتُهُ

في كيناتي، فكان عند سعد حتى مات، ثم كان عند بنيه.

(غسل علي وفاطمة جرح النبي ﷺ)

وفي «الصحاحين» عن أبي حازم، أنه سئل عن جرح رسول الله ﷺ، فقال: «والله إني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ، ومن كان يسكب الماء، وبما دوي، كانت فاطمة ابنته تغسله، وعلي بن أبي طالب يسكب الماء باليمين، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة، أخذت قطعة من حصير، فأخرجتها، فألصقتها فاستمسك الدم [البخاري: ٤٠٧٥، ومسلم: ٤٦٤٢].

(نزل قوله تعالى: «ليس لك من الأمر شيء» ٤٠٠)

وفي «الصحاح»: أنه كسرت رباعيته، وشج في رأسه، فجعل يسلك الدم عنه، ويقول: «كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم فأنزل الله عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابُكَ﴾ [البخاري: ٤٠٧٠، ومسلم: ٤٦٤٥] [آل عمران: ١٢٨].

(عدم انهزام أنس بن النضر عندما انهزم الناس)

ولما انهزم الناس، لم ينهزم أنس بن النضر. وقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني المسلمين، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، يعني المشركين، ثم تقدم، فلقية سعد بن معاذ، فقال: أين يا أبا عمر؟ فقال أنس: وإها لريح الجنة يا سعد، إني أجده دون أحد، ثم مضى، فقاتل القوم حتى قتل، فما عرف حتى عرفته أخته بئانه، وبه بضع وثمانون، ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم [البخاري: ٤٠٤٨، ومسلم: ٤٩١٨].

وانهزم المشركون أول النهار كما تقدم، فصرخ فيهم إبليس! أي عباد الله، أخزاكم الله، فارجعوا من الهزيمة، فاجتلدوا.

(قتل المسلمين والد حذيفة وهم بظفونه مشركاً)

ونظر حذيفة إلى أبيه، والمسلمون يريدون قتله، وهم يظنونهم من المشركين، فقال: أي عباد الله! أبي، فلم ينهزموا قوله حتى قتلوه، فقال: يغفر الله

لكم، فأراد رسول الله ﷺ أن يديه، فقال: قد تصدقت بديته على المسلمين، فإذ ذلك حذيفة خيراً عند النبي ﷺ [البخاري: ٦٨٨٣].

(القرآن السلام لسعد بن الربيع وهو بين القتلى)

وقال زيد بن ثابت: بعثني رسول الله ﷺ يوم أُحُدِ اطلب سعد بن الربيع، فقال لي: «إن رأيته فأقره مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تجدك؟ قال: فجعلت أطوف بين القتلى، فأنيته، وهو بأخر رمق، وفيه سبعون ضربة، ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم، فقلت: يا سعد، إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام، ويقول لك: أخبرني كيف تجدك؟ فقال: وعلى رسول الله ﷺ السلام، قل له: يا رسول الله، أجد ریح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خُلص إلى رسول الله ﷺ، وفيكم عين تطرف، وفاضت نفسه من وقته [مالك (٢/٤٦٥-٤٦٦)].

(نزل قوله تعالى: «وما محمد إلا رسول» ٤٠)

ومر رجل من المهاجرين برجل من الأنصار، وهو يتشخط في دمه، فقال: يا فلان! أشعرت أن محمداً قد قتل؟ فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قتل، فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم، فنزل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ الآية [آل عمران: ١٤٤] [ابن كثير (١/٤٠٩)].

(تعبيره ﷺ رؤيا والد جابر بالشهادة)

وقال عبد الله بن عمرو بن حرام: رأيت في النوم قبل أحد، مبشر بن عبد المنذر يقول لي: أنت قادم علينا في أيام، فقلت: وأين أنت؟ فقال: في الجنة نسرخ فيها كيف نشاء. قلت له: ألم تقتل يوم بدر؟ قال: بلى، ثم أحييت، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «هذه الشهادة يا أبا جابر».

(معاذه ﷺ لخيمة بالشهادة)

وقال خيصة أبو سعد، وكان ابنه استشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر: لقد أخطأتني وقعة بدر، وكنت والله عليها حريصاً، حتى ساعدت ابني في الخروج، فخرج سهمه، فرزق الشهادة، وقد رأيت البارحة ابني في النوم في أحسن صورة يسرخ في ثمار

الحديد، يقول: لا نجوت إن نجا محمد، وكان حلفت بمكة أن يقتل رسول الله ﷺ، فاستقبله مُضْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ، فَقَتَلَ مُضْعَبَ، وَأَبْصَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَرْقُوةَ أَبِي بِنِ حَلْفٍ مِنْ فُرْجَةِ بَيْنِ سَابِغَةِ الذَّرْعِ وَالْيَيْضَةِ، فطعته بِحَرْيَتِهِ، فَوَقَعَ عَنْ فَرْسِهِ، فَاحْتَمَلَهُ أَصْحَابُهُ، وَهُوَ يَخُورُ خُورَ الثَّوْرِ، فَقَالُوا: مَا أَجْزَعَكَ؟ إِنَّمَا هُوَ خَذَشٌ، فَذَكَرَ لَهُمْ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ «بَلِ أَنَا أَقْتَلُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى» فَمَاتَ بَرَابِغُ [ابن هشام (٤٦٩)].

(رواية ابن عمر أبي بن خلف)

قال ابن عمر: إني لأسير بيطن رابع بعد هوي من الليل، إذا نازت أجج لي، فيمتمها، وإذا رجل يخرج منها في سلسلة يجذبها يصيح العطش، وإذا رجل يقول: لا تسفه هذا قتيل رسول الله ﷺ، هذا أبي بن خلف [ابن كثير في «تفسيره» (٤٦٩/١) وهو ضعيف جداً].

(صرف الله نظر عبد الله بن شهاب الزهري عن النبي ﷺ) وقال نافع بن جبير: سمعت رجلاً من المهاجرين يقول: شهدت أهدأ، فنظرت إلى النبل يأتي من كل ناحية، ورسول الله ﷺ وسطها، كل ذلك يصرف عنه، ولقد رايت عبد الله بن شهاب الزهري يقول يومئذ: دلوني على محمد، لا نجوت إن نجا، ورسول الله ﷺ إلى جنبه ما معه أحد، ثم جاوزه، فعاتبه في ذلك صفوان، فقال: والله ما رايت، أخلفت باللو، إنه ميتا ممنوع، فخرجنا أربعة، فتعاهدنا، وتعاهدنا على قتله، فلم نخلص إلى ذلك.

(مص مالك والد أبي سعيد الخدري جرح النبي ﷺ)

ولما مضى مالك أبو أبي سعيد الخدري جرح رسول الله ﷺ حتى أنقاه، قال له: «مُجْهٌ» قال: والله لا أُمُجْهٌ أبداً ثم أدير. فقال النبي ﷺ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا» [ابن حجر في «الإصابة»: ٧٦٣٧، وهو منقطع].

(يوم أحد يوم تمحيص)

قال الزُّهْرِيُّ، وعاصم بن عمر، ومحمد بن يحيى بن حبان وغيرهم: كان يوم أحد يوم بلاء وتمحيص، اختبر الله عز وجل به المؤمنين، وأظهر

الْجَنَّةَ وَأَنْهَارَهَا، وَيَقُولُ: الْحَقُّ بِنَا تَرَأَفْنَا فِي الْجَنَّةِ، فَقَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا، وَقَدْ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَصْبَحْتُ مُشْتَاقًا إِلَى مُرَافَقَتِهِ فِي الْجَنَّةِ، وَقَدْ كَبُرَتْ سِنِّي، وَرَقِيَ عَظْمِي، وَأَحْبَبْتُ لِقَاءَ رَبِّي، فَادْعُ اللَّهَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ يَرْزُقَنِي الشَّهَادَةَ، وَمُرَافَقَةَ سَعْدٍ فِي الْجَنَّةِ، فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ، فَقَتَلَ بِأَحَدٍ شَهِيدًا.

(دعاء عبد الله بن جحش لنفسه بالشهادة)

وقال عبد الله بن جحش في ذلك اليوم: اللَّهُمَّ إِنِّي أَقْسِمُ عَلَيْكَ أَنْ أَلْقَى الْعَدُوَّ عَدًّا، فَيَقْتُلُونِي، ثُمَّ يَقْرَءُوا بَظَنِّي، وَيَجِدَعُوا أَنْفِي، وَأَذْنِي، ثُمَّ تَسْأَلُنِي: فِيمَ ذُكِّ قَاتِلُ فَيْكَ [الحاكم (١٩٩/٣)].

(استشهاد عمرو بن الجموح)

وَكَانَ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ أَعْرَجَ شَدِيدَ الْعَرَجِ، وَكَانَ لَهُ أَرْبَعَةُ بَنِينَ شَبَابٍ، يَغْرُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا عَزَا، فَلَمَّا تَوَجَّهَ إِلَى أَحَدٍ، أَرَادَ أَنْ يَتَوَجَّهَ مَعَهُ، فَقَالَ لَهُ بَنُوهُ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَ لَكَ رَحْصَةً، فَلَوْ قَعَدْتَ وَنَحْنُ نَكْفِيكَ، وَقَدْ وَضَعَ اللَّهُ عَنْكَ الْجِهَادَ. فَأَتَى عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنْ بَنِي هَؤُلَاءِ يَمْنَعُونِي أَنْ أَخْرُجَ مَعَكَ، وَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَسْتَشْهَدَ فَاطِمًا بِعَرَجَتِي هَذِهِ فِي الْجَنَّةِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا أَنْتَ، فَقَدْ وَضَعَ اللَّهُ عَنْكَ الْجِهَادَ» وَقَالَ لِبَنِيهِ: «وَمَا عَلَيْكُمْ أَنْ تَدْعُوهُ، لَعَلَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَرْزُقَهُ الشَّهَادَةَ» [حسن: أحمد: ٢٧٢٥٥٣، فخرج مع رسول الله ﷺ، فَقَتَلَ يَوْمَ أَحَدٍ شَهِيدًا].

(انس بن النضر وقتاله)

وانتهى أنس بن النضر إلى عَمْرٍو بْنِ الْخَطَّابِ، وَطَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ فِي رِجَالٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَقَدْ أَلْقَا بِأَيْدِيهِمْ، فَقَالَ: مَا يُجْلِسُكُمْ؟ فَقَالُوا: قَتَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: فَمَا تَضُنُّونَ بِالْحَيَاةِ بَعْدَهُ؟ فَقَوْمُوا قَمُوتُوا عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ الْقَوْمَ، فَقَاتَلَ حَتَّى قَتَلَ [ابن هشام (٤٦٩)].

(طعنه ﷺ أبي بن خلف بحربة)

وأقبل أبي بن خلف عدو الله، وهو ممتنع في

في هذه الغزوة، واستمرت على ذلك سنته إلى حين وفاته^(١).

(جواز دعاء الرجل أن يقتل في سبيل الله)

ومنها: جواز دعاء الرجل أن يقتل في سبيل الله، وتمنيه ذلك، وليس هذا من تمنى الموت المنهي عنه، كما قال عبد الله بن جحش: اللهم لقني من المشركين رجلاً عظيماً كفره، شديداً حره، فأقاتله، فيقتلني فيك، ويسلبي، ثم يجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتكَ، فقلت: يا عبد الله بن جحش، فيم جُدِغت؟ قلت: فيك يا ربّ.

(المنتحر من أهل النار)

ومنها: أن المسلم إذا قتل نفسه، فهو من أهل النار، لقوله ﷺ في قُزَّمان الذي أبلى يوم أُحُدٍ بلاءً شديداً، فلما اشتدَّت به الجراح، تحرَّ نفسه، فقال ﷺ: «هُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ» [البخاري: ٤٢٠٣، ومسلم: ٤٣٠٦].

(لا يغسل الشهيد ولا يكفن ولا يصلى عليه)

ومنها: أن السنة في الشهيد أنه لا يُغسَل، ولا يُصلى عليه، ولا يُكفن في غير ثيابه، بل يُدفن فيها بدمه وكُلومه، إلّا أن يُسلِّبها، فيكفن في غيرها. ومنها: أنه إذا كان جنباً، غُسل كما غُسلت الملائكة حنظلة بن أبي عامر.

(يدفن الشهداء في مصارعهم)

ومنها: أن السنة في الشهداء أن يُدفنوا في مصارعهم، ولا يُنقلوا إلى مكان آخر، فإن قوماً من الصحابة نقلوا قتلاهم إلى المدينة، فتنادى منادي رسول الله ﷺ بالأمر برّد القتلى إلى مصارعهم، قال جابر: بينا أنا في النُّظَّارة، إذ جاءت عَمَّتِي بَأَبِي وخالي عَادَلْتُهُمَا على ناضح، فدخلت بهما المدينة، لَنَدَفْنَهُمَا في مقابرنا، وجاء رجل يُنادي: ألا إنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَرْجِعُوا بِالْقَتْلَى، فَتَدْفِنُوها في مَصَارِعِها حَيْثُ قُتِلَتْ. قال: فرجعنا بِهِمَا،

به المنافقين ممن كان يُظهِرُ الإسلام بلسانه، وهو مُستخف بالكُفر، فأكْرَمَ اللَّهُ فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته، فكان مما نزل من القرآن في يوم أحد ستون آية من آل عمران، أولها: ﴿وَإِذْ عَدَوْتُ مِنْ أَمَّاكَ بُنَيَّ الْمُؤْمِنِينَ مَقْبُوحٌ لِقَاتٍ وَأَنَّ تَوْبِعَ عَلَيْهِمُ﴾ [آل عمران: ١٢١] إلى آخر القصة.

فصل

فيما اشتملت عليه هذه الغزاة

من الأحكام والفيقه

(الجهاد يلزم بالشروع فيه)

منها: أن الجهاد يلزم بالشروع فيه، حتى إن مَنْ لَيْسَ لَأَمَّتِهِ وَشَرَعٌ فِي أَسْبَابِهِ، وتأَمَّبَ للخروج، ليس له أن يَرْجِعَ عن الخروج حتى يقاتل عدوّه.

ومنها: أنه لا يَجِبُ على المسلمين إذا طَرَفَهُمْ عدوهم في ديارهم الخروجُ إليه، بل يجوز لهم أن يلزموا ديارهم، ويُقاتلوه فيها إذا كان ذلك أنصر لهم على عدوهم، كما أشار به رسول الله ﷺ عليهم يوم أحد.

ومنها: جوازُ سُلُوكِ الإمام بالعسكر في بعض أملاك رعيته إذا صادف ذلك طريقه، وإن لم يرض المالك.

ومنها: أنه لا يأذن لمن لا يطيق القتال من الصبيان غير البالغين، بل يردهم إذا خرجوا، كما ردَّ رسول الله ﷺ ابنَ عمر ومن معه.

ومنها: جوازُ الغزو بالنساء، والاستعانة بهنَّ في الجهاد.

ومنها: جوازُ الانغماس في العدو، كما انغمس أنس بن النضر وغيره.

ومنها: أن الإمام إذا أصابته جراحة صُلِّيَ بهم قاعداً، وصلوا وراءه قعوداً، كما قَعَلَ رسول الله ﷺ

(١) وهو مذهب أسيد بن حضير، وجابر بن عبد الله، وقيس بن قهد، وأبي هريرة، وبه قال الأوزاعي وأحمد وحمايد بن زيد، وإسحاق وابن المنذر، وقال مالك في إحدى روايته: لا تصح صلاة القادر على القيام خلف القاعد، وهو قول محمد بن الحسن، وقال الثوري والشافعي وأصحاب الرأي: يصلون خلفه قياماً. انظر: «المغني» (٢/ ٢٢٠، ٢٢١) لابن قدامة.

فدفنهما في القتلَى حيثُ قُتِلَا، فبينَا أَنَا فِي خِلَافَةٍ مَعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ، إِذْ جَاءَنِي رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا جَابِرُ! وَاللَّهِ لَقَدْ أَثَارَ أَبَاكَ عُمَاؤُ مَعَاوِيَةَ فِدَا، فَخَرَجَ طَائِفَةٌ مِنْهُ، قَالَ: فَأَتَيْتُهُ، فَوَجَدْتُهُ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي تَرَكْتُهُ لَمْ يَتَغَيَّرْ مِنْهُ شَيْءٌ. قَالَ: فَوَارَيْتُهُ، فَصَارَتْ سَنَةٌ فِي الشَّهَادَةِ أَنْ يُدْفَنُوا فِي مَصَارِعِهِمْ [صحيح: أحمد: ١٤٣٠٥].

والأولوية، أو على وجه الوجوب؟ على قولين: الثاني: أظهرهما وهو المعروف عن أبي حنيفة، والأول: هو المعروف عن أصحاب الشافعي وأحمد، فإن قيل: فقد روى يعقوب بن شيبه وغيره بإسناد جيد، أن صفية أرسلت إلى النبي ﷺ توثيقاً ليكن فيهما حمزة، فكفنه في أحدهما، وكفن في الآخر رجلاً آخر [حسن: أحمد: ١٤١٨]. قيل: حمزة، كان الكفار قد سلبوه، ومثلوا به، ويقروا عن بطينه، واستخرجوا كبده، فلذلك كفن في كفن آخر. وهذا القول في الضعف نظير قول من قال: يُغسل الشهيد، وسنة رسول الله ﷺ أولى بالاتباع.

(شهد المعركة لا يصلى عليه)

ومنها: أن شهيد المعركة لا يصلى عليه، لأن رسول الله ﷺ لم يصل على شهداء أحد، ولم يعرف عنه أنه صلى على أحد ممن استشهد معه في مغازيه، وكذلك خلفاؤه الراشدون، ونوابهم من بعدهم.

فإن قيل: فقد ثبت في «الصحيحين» من حديث عتبة بن عامر، أن النبي ﷺ خرج يوماً، فصلّى على أهل أحد صلّاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر [البخاري: ١٣٤٤، ومسلم: ٥٩٧٦].

وقال ابن عباس: «صلى رسول الله ﷺ على قتلى أحد» [الدارقطني (٤٧٤)، والحاكم (١٩٨/٣)، وابن ماجه: ١٥١٣].

قيل: أما صلّاته عليهم، فكانت بعد ثمان سنين من قتلهم قُرْبَ موته، كالمودع لهم، ويُسبى هذا خروجه إلى البقيع قبل موته، يستغفر لهم كالمودع للأحياء والأموات، فهذه كانت توديعاً منه لهم، لا أنها سنة الصلاة على الميت، ولو كان ذلك كذلك، لم يؤخرها ثمان سنين، لا سيما عند مَنْ يقول: لا يصلى على القبر، أو يصلى عليه إلى شهر.

ومنها: أن من عذره الله في التخلف عن الجهاد

فدفنهما في القتلَى حيثُ قُتِلَا، فبينَا أَنَا فِي خِلَافَةٍ مَعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ، إِذْ جَاءَنِي رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا جَابِرُ! وَاللَّهِ لَقَدْ أَثَارَ أَبَاكَ عُمَاؤُ مَعَاوِيَةَ فِدَا، فَخَرَجَ طَائِفَةٌ مِنْهُ، قَالَ: فَأَتَيْتُهُ، فَوَجَدْتُهُ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي تَرَكْتُهُ لَمْ يَتَغَيَّرْ مِنْهُ شَيْءٌ. قَالَ: فَوَارَيْتُهُ، فَصَارَتْ سَنَةٌ فِي الشَّهَادَةِ أَنْ يُدْفَنُوا فِي مَصَارِعِهِمْ [صحيح: أحمد: ١٤٣٠٥].

(يجوز دفن الثلاثة في القبر الواحد)

ومنها: جواز دفن الرجلين أو الثلاثة في القبر الواحد، فإن رسول الله ﷺ كَانَ يَدْفِنُ الرَّجُلَيْنِ وَالثَّلَاثَةَ فِي الْقَبْرِ، ويقول: «أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخَذَ لِلْقُرْآنِ، فَإِذَا أَشَارُوا إِلَى رَجُلٍ، قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ» [البخاري: ٤٠٧٩].

(حفر قبر والد جابر بعد ست وأربعين سنة)

ودفن عبد الله بن عمرو بن حرام، وعمرو بن الجموح في قبر واحد، لِمَا كَانَ بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَحَبَةِ فَقَالَ: «ادْفِنُونَا هَذَيْنِ الْمُتَحَابَّيْنِ فِي الدُّنْيَا فِي قَبْرِ وَاحِدٍ»^(١)، ثُمَّ حُفِرَ عَنْهُمَا بَعْدَ زَمَنِ طَوِيلٍ، وَبَدَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ حَرَامٍ عَلَى جَرَحِهِ كَمَا وَضَعَهَا حِينَ جُرِّحَ، فَأَمِيطَتْ يَدُهُ عَنْ جَرَحِهِ، فَانْبَعَثَ الدَّمُ، فَزُدَّتْ إِلَى مَكَانِهَا، فَسَكَنَ الدَّمُ.

وقال جابر: رَأَيْتُ أَبِي فِي حُفْرَتِهِ حِينَ حُفِرَ عَلَيْهِ، كَأَنَّهُ نَائِمٌ، وَمَا تَغَيَّرَ مِنْ حَالِهِ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ. وَقِيلَ لَهُ: أَفَرَأَيْتَ أَكْفَانَهُ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا دُفِنَ فِي نَمْرَةٍ حُمْرَ وَجْهِهِ، وَعَلَى رِجْلَيْهِ الْحَرَمَلُ^(٢)، فَوَجَدْنَا النَّمْرَةَ كَمَا هِيَ، وَالْحَرَمَلُ عَلَى رِجْلَيْهِ عَلَى هَيْئَتِهِ، وَبَيْنَ ذَلِكَ سِتُّ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً [صحيح: ابن سعد (٥٦٢/٣) - ٥٦٣، ومالك (٤٧٠/٢)].

(هل دفن الشهداء في ثيابهم على الوجوب؟)

وقد اختلف الفقهاء في أمر النبي ﷺ أَنْ يُدْفَنَ شَهَدَاءُ أَحَدٍ فِي ثِيَابِهِمْ، هل هو على وجه الاستحباب

(١) أخرج أحمد (٢٢٥٥٣) قالت في سبيل الله حتى أقتل أمشي برجلي هذه صحيحة في الجنة، وكانت رجله عرجاء، فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فقتلوا يوم أحد هو وابن أخيه ومولى لهم، فمر عليه رسول الله ﷺ، فقال: «كأنني أنظر إليك تمشي برجليك هذه صحيحة في الجنة» فأمر رسول الله ﷺ بهما ويمولاهما، فجعلوا في قبر واحد، وقوله: هو وابن أخيه، قال ابن عبد البر في «التمهيد» ليس هو ابن أخيه، وإنما هو ابن عمه، وهو كما قال، فلعله كان أسن منه.

(٢) قال في «اللسان»: هو نبات ورقه كورق الخلاف ونوره كنور الياسمين.

لمرض أو عرج، يجوز له الخروج إليه، وإن لم يجب عليه، كما خرج عمرو بن الجموح، وهو أعرج.

(من قتل في الجهاد مظنوناً كفره فعلى بيت المال دية)

ومنها: أن المسلمين إذا قتلوا واحداً منهم في الجهاد يظنونونه كافراً، فعلى الإمام دية من بيت المال، لأن رسول الله ﷺ أراد أن يديي اليمان أبا حذيفة، فاستنع حذيفة من أخذ الدية، وتصدق بها على المسلمين.

فصل

في ذكر بعض الحكم والغايات المحموده

التي كانت في وقعة أحد

وقد أشار الله - سبحانه وتعالى - إلى أهماتها وأصولها في سورة (آل عمران) حيث افتتح القصة بقوله: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١]، إلى تمام ستين آية.

(تعريفهم سوء عاقبة المعصية)

فمنها: تعريفهم سوء عاقبة المعصية، والفشل، والتنازع، وأن الذي أصابهم إنما هو بشؤم ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ آلَهُ بَعْثَةً إِذْ تُحِشُّونَهُمْ فِي إِذْيِهِمْ حَقًّا إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَصَصْنَاهُمْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ مَا تَحْشَوْنَ مِنْ كُفْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَبَنِينَ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ مَرَكْنَا عَنْهُمْ لِيَنبَلِكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول، وتنازعهم، وفشلهم، كانوا بعد ذلك أشد حذراً وبقله، وتحزراً من أسباب الخذلان.

(دولك الغيام نداولها بين الناس)

ومنها: أن حكمة الله وسنته في رسله، وأتباعهم، جرت بأن يُدَالوا مرةً، ويُدَال عليهم أخرى، لكن تكون لهم العاقبة، فإنهم لو انتصروا دائماً، دخل معهم المؤمنون وغيرهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انتصر عليهم دائماً، لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة، فاقتضت حكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين ليميز من يتبعهم ويطيعهم للحق، وما جاؤا به ممن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة.

(الرسول نبأى هم تكون لهم العاقبة)

ومنها: أن هذا من أعلام الرسل، كما قال هرقل لأبي سفيان: هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قال: نعم. قَالَ: كَيْفَ الْحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ؟ قَالَ: سِجَال، يُدَال علينا المرة، ونُدَال عليه الأخرى. قال: كَذَلِكَ الرُّسُلُ تَبْتَلَى، ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ [البخاري: ٦٢٦٠].

(تمييز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب)

ومنها: أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر، وطار لهم الصيث، دخل معهم في الإسلام ظاهراً مَنْ ليس معهم فيه باطناً، فاقتضت حكمة الله عز وجل أن سبب لعباده ومحنة ميّزت بين المؤمن والمنافق، فأطلق المنافقون رؤوسهم في هذه الغزوة، وتكلموا بما كانوا يكتُمونه، وظهرت مخبّاتهم، وعاد تلويحهم تصريحاً، وانقسم الناس إلى كافر، ومؤمن، ومنافق، انقساماً ظاهراً، وعرف المؤمنون أن لهم عدواً في نفس دُورهم، وهم معهم لا يُفارقونهم، فاستعدوا لهم، وتحزروا منهم. قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُخْلِقَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمِيزُ مَن يُشَاءُ مِنْ رُسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. أي: ما كان الله ليترككم على ما أنتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين، حتى يميز أهل الإيمان من أهل النفاق، كما ميّزهم بالمحنة يوم أحد، وما كان الله ليطلعكم على الغيب الذي يميز به بين هؤلاء وهؤلاء، فإنهم متميزون في غيبه وعلمه، وهو سبحانه يريد أن يميزهم تمييزاً مشهوداً، فيقع معلومه الذي هو غيب شهادة. وقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمِيزُ مَن يُشَاءُ مِنْ رُسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩] استدراك لما نفاه من اطلاع خلقه على الغيب، سوى الرسل، فإنه يُطلعهم على ما يشاء من غيبه، كما قال: ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [آل عمران: ٢٦] فحظكم أنتم وسعادتكم في الإيمان بالغيب الذي يُطلع عليه رسله، فإن آمنتم به وأيقنتم، فلکم أعظم الأجر والكرامة.

(استخراج عبودية أوليائه في السراء والضراء)

ومنها: استخراج عبودية أوليائه وحزبه في السراء والضراء، وفيما يُحبون وما يكرهون، وفي حال

الكره، ويقطع منه العروق المؤلمة لاستخراج الأدوية منه، ولو تركه، لَعَلَّتهُ الأدوية حتى يكون فيها هلاكه.

(الشهادة)

ومنها: أن الشهادة عنده من أعلى مراتب أوليائه، والشهداء هم خواصه والمقربون من عبادته، وليس بعد درجة الصديقية إلا الشهادة، وهو سبحانه يحب أن يتخذ من عبادته شهداء، تراقب دماؤهم في محبته ومرضاته، ويؤثرون رضاه ومحابه على نفوسهم، ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو.

(إهلاك الأعداء بعد ازدياد)

بغيرهم وبسط الآيات «ولا تهنوا ولا تحزنوا»

ومنها: أن الله سبحانه إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم، فيؤسف لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم، ومن أعظمها بعد كفرهم بغيرهم، وطغيانهم، ومباغتهم في أذى أوليائه، ومحاربتهم، وقتالهم، والتسلط عليهم، فيتمحص بذلك أوليائه من ذنوبهم وعيوبهم، ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقهم وهلاكهم، وقد ذكر سبحانه وتعالى ذلك في قوله: «وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤١﴾ إِنْ يَسْكُفْكُمْ فَخُفَّ عَنْ الْقَوْمِ فَخْرٌ وَإِسْلَامٌ ﴿١٤٢﴾ وَاللَّهُ الْأَبْنَامُ تُدَاوِلُهَا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُرَكَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَافِلِينَ ﴿١٤٣﴾ وَلَيَسْجَعَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَسْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩ - ١٤١]، فجمع لهم في هذا الخطاب بين تشجيعهم وتقوية نفوسهم، وإحياء عزائمهم وهممهم، وبين حسن التسلية، وذكر الحكم الباهرة التي اقتضت إدالة الكفار عليهم فقال: «إِنْ يَسْكُفْكُمْ فَخُفَّ عَنْ الْقَوْمِ فَخْرٌ وَإِسْلَامٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فقد استويتم في القرح والألم، وتبايتم في الرجاء والثواب، كما قال: «إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَلَيْتَكُمْ تَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَكُونُونَ مِنْ أَلْفٍ مَا لَا يَجُوزُ﴾ [النساء: ١٠٤]، فما بالكم تهنئون وتضعفون عند القرح والألم، فقد أصابهم ذلك في سبيل الشيطان، وأنتم أصبتم في سبيلي وابتغاء مرضاتي.

ظفرهم وظفر أعضائهم بهم، فإذا ثبتوا على الطاعة والعبودية فيما يحبون وما يكرهون، فهم عبيده حقاً، وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد من السراء والنعمة والعافية.

(حكمة تبدل الأحوال)

ومنها: أنه سبحانه لو نصرهم دائماً، وأظفرهم بعدوهم في كل موطن، وجعل لهم التمكن والقهر لأعدائهم أبداً، لطغت نفوسهم، وشمخت وارتفعت، فلو بسط لهم النصر والظفر، لكانوا في الحال التي يكونون فيها لو بسط لهم الرزق، فلا يضلح عبادته إلا السراء والضراء، والشدة والرخاء، والقبض والبسط، فهو المدبر لأمر عبادته كما يليق بحكمته، إنه بهم خير بصير.

(الخشوع لغيروته تعالى)

ومنها: أنه إذا امتحنهم بالغلبة والكسرة، والهزيمة، ذلوا وانكسروا، وخضعوا، فاستوجبوا منه العز والنصر، فإن خلعة النصر إنما تكون مع ولاية الذل والانكسار، قال تعالى: «وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ أُحَافَةَ أَذَى» [آل عمران: ١٢٣]. وقال: «وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَرْهَتْكُمْ لَمْ تَغْنِي عَنْكُمْ شَيْئاً» [التوبة: ٢٥]، فهو - سبحانه - إذا أراد أن يعز عبده، ويجبره، وينصره، كسره أولاً، ويكون جبره له، ونصره على مقدار ذلّه وانكساره.

(رفع منازلهم)

ومنها: أنه سبحانه هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته، لم تبلغها أعمالهم، ولم يكونوا بالغياها إلا بالبلاء والمحنة، فقيض لهم الأسباب التي توصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه، كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها.

(تعزيزهم على الجد في العبودية لله)

ومنها: أن النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى طغياناً وركوناً إلى العاجلة، وذلك مرض يوقها عن جدّها في سيرها إلى الله والدار الآخرة، فإذا أراد بها ربها ومالكها وراجحها كرامته، فيؤسف لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العاتق عن السير الحثيث إليه، فيكون ذلك البلاء والمحنة بمنزلة الطبيب يسقي العليل الدواء

(«وذلك الأيام ندولها بين الناس»)

ثم أخبر أنه يُدَوَّلُ أيام هذه الحياة الدنيا بين الناس، وأنها عَرَضٌ حاضِرٌ، يقسمها دَوَّلًا بين أوليائه وأعدائه بخلاف الآخرة، فإن عَزَّها ونصرها ورجاءها خالصٌ للذين آمنوا.

(«وليعلم الله الذين آمنوا»)

ثم ذكر حكمة أخرى، وهي أن يَمَيَّزَ المؤمنون من المنافقين، فيعلمهم عِلْمٌ رؤيَّة ومُشاهدة بعد أن كانوا معلومين في غيبه، وذلك العلم الغيبي لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، وإنما يترتب الثواب والعقاب على المعلوم إذا صار مشاهدًا واقعًا في الحس.

(«حب الله للشهادة»)

ثم ذكر حكمة أخرى، وهي اتخاذُه سبحانه منهم شهداء، فإنه يُحِبُّ الشهداء من عباده، وقد أعدَّ لهم أعلى المنازل وأفضلها، وقد اتخذهم لنفسه، فلا بدَّ أن يُبَيِّلَهُمْ درجة الشهادة. وقوله: «وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَاذِبِينَ» [آل عمران: ١٤٠]، تنبيه لطيف الموقع جدًّا على كراهته وبغضه للمنافقين الذين انخدَلُوا عن نبيه يومَ أحد، فلم يشهدوه، ولم يُتَّخَذْ منهم شهداء، لأنه لم يُحِبَّهُمْ، فأَرْكَسَهُمْ وَرَدَّهُمْ لِخَرِمَتِهِمْ ما خص به المؤمنين في ذلك اليوم، وما أعطاه من استشهد منهم، فثبط هؤلاء الظالمين عن الأسباب التي وفق لها أوليائه وحزبه.

(«وليمحس الله الذين آمنوا»)

ثم ذكر حكمة أخرى فيما أصابهم ذلك اليوم، وهو تمحيص الذين آمنوا، وهو تفتيُّهم وتخليصهم من الذنوب، ومن آفات النفوس، وأيضًا فإنه خلَّصهم ومحصهم من المنافقين، فَمَيَّزُوا منهم، فحصل لهم تمحيصان: تمحيص من نفوسهم، وتمحيص ممن كان يُظْهَرُ أنه منهم، وهو عدوهم.

(«ويمحق الكافرين» و«وهم حسبتم ان»)

تدخلوا الجنة ولما «ولقد كنتم تمنون الموت»)

ثم ذكر حكمة أخرى، وهي محقُّ الكافرين بطغيانهم، وبغيهم، وعُدوانهم، ثم أنكر عليهم حُسيانهم، وظنَّهم أن يدخلوا الجنة بدون الجهاد في سبيله، والصبر على أذى أعدائه، وإن هذا ممتنع

بحيث يُنْكِرُ على مَنْ ظنَّه وحسبه. فقال: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَاهِرِينَ» [آل عمران: ١٤٢]، أي: ولما يقع ذلك منكم، فيعلمه، فإنه لو وقع، لعلمه، فجازاكم عليه بالجنة، فيكون الجزاء على الواقع المعلوم، لا على مجرد العلم، فإن الله لا يجزي العبد على مجرد علمه فيه دون أن يقع معلومه، ثم ويخهم على هزيمتهم من أمر كانوا يتمنونونه ويودون لقاءه. فقال: «وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْوَيْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ» [آل عمران: ١٤٣].

قال ابن عباس: ولما أخبرهم الله تعالى على لسان نبيه بما فعل بشهداء بدر من الكرامة، رغبوا في الشهادة، فتمنوا قتالًا يستشهدون فيه، فيلحقون إخوانهم، فأراهم الله ذلك يوم أحد، وسببه لهم، فلم يلبثوا أن انهزموا إلا من شاء الله منهم، فأمر الله تعالى: «وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْوَيْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ» [آل عمران: ١٤٣].

(«وما محمد إلا رسول .. إنا ان»)

مات، «وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله»)

ومنها: أن وقعةً أحد كانت مُقَدِّمَةً وإرهاصاً بين يدي موت رسول الله ﷺ، فثبتهم، وويخهم على انقلابهم على أعقابهم أن مات رسول الله ﷺ، أو قُتِلَ، بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه وتوحيده ويموتوا عليه، أو يقتلوا، فإنهم إنما يعبدون ربَّ محمد، وهو حي لا يموت، فلو مات محمد أو قُتِلَ، لا ينبغي لهم أن يضرَّهم ذلك عن دينه، وما جاء به، فكل نفس ذائقة الموت، وما يُعَيِّتُ محمد ﷺ ليخلد لا هو ولا هم، بل ليموتوا على الإسلام والتوحيد، فإن الموت لا بُدَّ منه، سواء مات رسول الله ﷺ أو بقي، ولهذا ويخهم على رجوع من رجع منهم عن دينه لما صرخ الشيطان: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فقال: «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ» [آل عمران: ١٤٤]، والشاكرون: هم الذين عرفوا قدر النعمة، فثبتوا عليها حتى ماتوا أو قُتِلُوا، فظهر أثر هذا العتاب، وحكم هذا الخطاب يومَ مات رسول الله ﷺ، وارتدَّ

(سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب)

ثم أخبرهم أنه سيلقي في قلوب أعدائهم الرعب الذي يمنهم من الهُجُوم عليهم، والإقدام على حربهم، وأنه يؤيد حزيه بجند من الرعب يتصرفون به على أعدائهم، وذلك الرعب بسبب ما في قلوبهم من الشرك بالله، وعلى قدر الشرك يكون الرعب، فالمشرك بالله أشد شيء خوفاً ورعباً، والذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانهم بالشرك، لهم الأمن والهدى والفلاح، والمشرك له الخوف والضلال والشقاء.

(ولقد صدقكم الله وعده)

ثم أخبرهم أنه صدقهم وعده في نصرتهم على عدوهم، وهو الصادق الوعد، وأنهم لو استمروا على الطاعة، ولزوم أمر الرسول لاستمرت نصرتهم، ولكن انخلعوا عن الطاعة، وفارقوا مركزهم، فانخلعوا عن عصمة الطاعة، ففارقتهم النصرة، فنصرهم عن عدوهم عقوبةً وابتلاء، وتعريفاً لهم بسوء عواقب المعصية، وحسن عاقبة الطاعة.

ثم أخبر أنه عفا عنهم بعد ذلك كله، وأنه ذو فضل على عباده المؤمنين. قيل للحسن: كيف يعفو عنهم، وقد سلط عليهم أعداءهم حتى قتلوا منهم من قتلوا، ومثلوا بهم، ونالوا منهم ما نالوه؟ فقال: لولا عفوهم عنهم، لاستأصلهم، ولكن يعفو عنهم دفع عنهم عدوهم بعد أن كانوا مجمعين على استئصالهم.

(ولا تصعدون ولا تلوون على أحد)

شرح ﴿فانابكم غماً بغير﴾

ثم ذكّرهم بحالهم وقت الفرار مُصْعِدِينَ، أي: جادّين في الهرب والذهاب في الأرض، أو صاعدين في الجبل لا يَلْبُون على أحد من نبيهم ولا أصحابهم، والرسول يدعوهم في أхраهم: إني عباد الله، أنا رسول الله، فأنابهم بهذا الهرب والفرار، غمّاً بعد غمٍّ: غمّ الهزيمة والكسرة، وغمّ صرخة الشيطان فيهم بأن محمداً قد قتل.

وقيل: جازاكم غماً بما غمتم رسولكم بفراركم عنه، وأسلمتموه إلى عدوّه، فالغمّ الذي حصل لكم جزاءً على الغمّ الذي أوقتموه بنبيّه، والقول الأول أظهر لوجوه:

من ارتدّ على عقبيه، وثبت الشاكرون على دينهم، فنصرهم الله وأعزهم وظفرهم بأعدائهم، وجعل العاقبة لهم، ثم أخبر سبحانه أنه جعل لكل نفس أجلاً لا بُدّ أن تستوفيه، ثم تلحق به، فَيَرُدُّ النَّاسُ كُلَّهُمْ حَوْضَ الْمَنَآيَا مَوْزِعاً وَاحِداً، وإن تَوَعَّتْ أسبابه، ويصدرون عن موقف القيامة مصائر شتى، فريق في الجنة وفريق في السعير، ثم أخبر سبحانه أن جماعة كثيرة من أنبيائه قُتِلُوا وقُتِلَ معهم أتباع لهم كثيرون، فما وَهَنَ مَنْ بَقِيَ منهم لما أصابهم في سبيله، وما ضَعُفُوا، وما استكانوا، وما وَهَنُوا عند القتل، ولا ضَعُفُوا، ولا استكانوا، بل تَلَقَّوْا الشَّهَادَةَ بِالْقُوَّةِ، والعزيمة، والإقدام، فلم يُسْتَشْهِدُوا مُدْبِرِينَ مستكنين أذلةً، بل اسْتَشْهِدُوا أَعَزَّةً كراماً مقبلين غير مدبرين، والصحيح: أن الآية تتناول الفريقين كليهما.

ثم أخبر سبحانه عما استنصرت به الأنبياء وأمهم على قومهم من اعترافهم وتوبتهم واستغفارهم وسؤالهم ربهم، أن يثبت أقدامهم، وأن ينصرهم على أعدائهم، فقال: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿فَكَانَهُمْ اللَّهُ تَوَابًا دُونَ تَوَابٍ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْجَزَاءَ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْحَسَنِينَ﴾ ﴿لَا إِكْرَهَ عَلَيْكَ﴾ [آل عمران: ١٤٧، ١٤٨]. لما علم القوم أن العدو إنما يَدَالُ عليهم بذنوبهم، وأن الشيطان إنما يَسْتَرْلَهُمْ ويَهْزِمُهُمْ بها، وأنها نوعان: تقصير في حق أو تجاوز لحد، وأن النصرة منوطة بالطاعة، قالوا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا، ثم علموا أن ربهم تبارك وتعالى إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم، لم يَقْدِرُوا هُـم على تثبيت أقدام أنفسهم، ونصرها على أعدائهم، فسألوه ما يعلمون أنه بيده ذنوبهم، وأنه إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم لم يثبتوا ولم يتصرفوا، فَوَقَّوْا الْمُقَامَيْنِ حَقَّهُما: مقام المقتضي، وهو التوحيد والالتجاء إليه سبحانه، ومقام إزالة المانع من النصرة، وهو الذنوب والإسراف، ثم حذرهم سبحانه من طاعة عدوهم، وأخبر أنهم إن أطاعوهم خسرُوا الدنيا والآخرة، وفي ذلك تعريض بالمنافقين الذين أطاعوا المشركين لما انتصروا وظفروا يوم أحد.

ثم أخبر سبحانه أنه مولى المؤمنين، وهو خير الناصرين، فمن والاه فهو المنصور.

أحدها: أن قوله: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ تبيين على حكمة هذا الغم بعد الغم، وهو أن يُسيِّم الحزن على ما فاتهم من الظفر، وعلى ما أصابهم من الهزيمة والجراح، فنشوا بذلك السبب، وهذا إنما يحصل بالغم الذي يعقبه غم آخر.

الثاني: أنه مطابق للواقع، فإنه حصلَ لهم غم فوات الغنمة، ثم أعقبه غم الهزيمة، ثم غم الجراح التي أصابتهم، ثم غم القتل، ثم غم سماعهم أن رسول الله ﷺ قد قُتل، ثم غم ظهور أعدائهم على الجبل فوقهم، وليس المراد غمَّين اثنين خاصة، بل غماً متتابعاً لتمام الابتلاء والامتحان.

الثالث: أن قوله: «بغم»، من تمام الثواب، لا أنه سبب جزاء الثواب، والمعنى: أثابكم غماً متصلاً بغم، جزاءً على ما وقع منهم من الهروب وإسلامهم نبيهم ﷺ وأصحابه، وترك استجابتهم له وهو يدعوهم، ومخالفتهم له في لزوم مركزهم، وتنازعهم في الأمر، وفشلهم، وكل واحد من هذه الأمور يُوجب غماً يخصه، فترادفت عليهم الغموم كما ترادفت منهم أسباؤها وموجباتها، ولولا أن تداركهم بغوه، لكان أمراً آخر، ومن لطفه بهم، ورأفته، ورحمته، أن هذه الأمور التي صدرت منهم، كانت من موجبات الطباع، وهي من بقايا النفوس التي تمنع من النصر المستقرة، فقُصِّصَ لهم بلطفه أسباباً أخرجاها من القوة إلى الفعل، فترتب عليها آثارها المكروهة، فعلموا حينئذ أن التوبة منها والاحتراز من أمثالها، ودفعها بأضدادها أمر متعين، لا يتم لهم الفلاح والنصرة الدائمة المستقرة إلّا به، فكانوا أشد حذراً بعدها، ومعرفة بالأبواب التي دخل عليها منها.

..... وَرَبَّمَا صَحَّتِ الْأَجْسَامُ بِالْعَلَلِ (١)

(ثم انزل عليكم)

من بعد الغم أمانة نعاماً.. ومعنى «ظن الجاهلية»

ثم إنه تداركهم سبحانه برحمته، وخفف عنهم ذلك الغم، وغيب عنهم بالنعاس الذي أنزله عليهم

أماناً منه ورحمة، والنعاس في الحرب علامة النصر والأمن، كما أنزله عليهم يوم بدر، وأخبر أن من لم يُصِبْه ذلك النعاس، فهو ممن أهمله نفسه لا دينه ولا نبيه ولا أصحابه، وأنهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، وقد فُسِّرَ هذا الظن الذي لا يليق بالله، بأنه سبحانه لا ينصرُ رسوله، وأن أمره سيضمحل، وأنه يُسلِّمُه للقتل، وقد فُسِّرَ بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضائه وقدره، ولا حكمة له فيه، ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله ويُظهِرَه على الدين كله، وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون به سبحانه وتعالى في (سورة الفتح) حيث يقول: ﴿وَمَذَّبَ الْمُتَفِيفِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالتَّشْرِكِينَ وَالظَّالِمِينَ أَلَّا يَدْرَأُوا أَنَّ السَّوْءَ عَلَى اللَّهِ وَالْخَيْرُ عَلَى اللَّهِ وَاعَدَ كَثَرٌ مِنْهُمْ أَجْلاً قَلِيلاً وَكَانَ هَذَا ظَنُّ السَّوْءِ، وَظَنُّ الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل، وظن غير الحق، لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وذاته المبرأة من كل عيب وسوء، بخلاف ما يليق بحكمته وحمديه، وتفرُّدِهِ بالربوبية والإلهية، وما يليق بوعده الصادق الذي لا يُخْلَفُه، وبكلمته التي سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذلهم، ولجندِه بأنهم هم الغالبون، فمن ظن بأنه لا ينصرُ رسوله، ولا يتم أمره، ولا يؤيده، ويؤيد حربه، ويُعليهم، ويُظفرهم بأعدائه، ويُظفرهم عليهم، وأنه لا ينصرُ دينه وكتابه، وأنه يُدِيلُ الشرك على التوحيد، والباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالاً لا يقوم بعده أبداً، فقد ظن بالله ظن السوء، ونسبه إلى خلاف ما يليق بكماله وجلاله، وصفاته ونعوته، فإن حمده وعزته، وحكمته وإلهيته تأبى ذلك، وتأبى أن يذلل حربه وجنده، وأن تكون النصرَةُ المستقرة، والظفر الدائم لأعدائه المشركين به، العادلين به، فمن ظن به ذلك، فما عرفه، ولا عرف أسمائه، ولا عرف صفاته وكماله، وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره، فما

(١) عجزيت للمتنبي، وصدرة:

لَعَلَّ عَيْبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ

عرفه، ولا عرف ربوبيته، وملكه وعظمته، وكذلك من أنكر أن يكون قَدْر ما قَدَره من ذلك وغيره لحكمة بالغة، وغاية محمودة يستحق الحمد عليها، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة عن حكمة، وغاية مطلوبة هي أحب إليه من فوتها، وأن تلك الأسباب المكروهة المفضية إليها لا يخرج تقديرها عن الحكمة لإفضائها إلى ما يُحب، وإن كانت مكروهة له، فما قَدَرها سُدى، ولا أنشأها عبثاً، ولا خلقها باطلاً، ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧] وأكثر النَّاسِ يظنون بالله غير الحقِّ ظَنُّ السَّوءِ فيما يختصُّ بهم وفيما يفعلُه بغيرهم، ولا يسلَّم عن ذلك إلا من عرف الله، وعرف أسماءَ وصفاته، وعرف موجبَ حمده وحكمته، فمن قَط من رحمته، وأيس من رَوْحه، فقد ظن به ظَنُّ السَّوءِ.

ومن جوَّز عليه أن يعدَّب أوليائه مع إحسانهم وإخلاصهم، ويسوي بينهم وبين أعدائه، فقد ظنَّ به ظَنُّ السَّوءِ.

ومن ظنَّ به أن يترك خلقه سُدى، معطلين عن الأمر والنهي، ولا يُرسل إليهم رسله، ولا ينزل عليهم كتبه، بل يتركهم قَمَلاً كالأنعام، فقد ظنَّ به ظَنُّ السَّوءِ.

ومن ظن أنه لن يجمع عيَّده بعد موتهم للثواب والعقاب في دار يُجازي المحسن فيها بإحسانه، والمسيء بإساءته، ويبين لخلق حقيقته ما اختلفوا فيه، ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله، وأن أعداء كانوا هم الكاذبين، فقد ظنَّ به ظن السوء.

ومن ظنَّ أنه يُضَيِّع عليه عمله الصالح الذي عمله خالصاً لوجه الكريم على امتثال أمره، ويُبطله عليه بلا سبب من العبد، أو أنه يُعاقبه بما لا ضنع فيه، ولا اختيار له، ولا قدرة، ولا إرادة في حصوله، بل يُعاقبه على فعله هو سبحانه به، أو ظنَّ به أنه يجوزُ عليه أن يؤيِّد أعداءه الكاذبين عليه بالمعجزات التي يؤيِّد بها أنبياءه ورسله، ويُجرِّبها على أيديهم يُضِلُّون

بها عبادَه، وأنه يحسن منه كُلُّ شيء حتى تعذيب من أفنى عمره في طاعته، فيخلِّدُه في الجحيم أسفل السافلين، ويُعَيِّم من استنفد عُمرَه في عداوته وعداوة رسله ودينه، فيرفعه إلى أعلى عِلِّين، وكلا الأمرين عنده في الحسن سواء، ولا يعرف امتناع أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر صادق وإلا فالعقل لا يقضي بقبُّح أحدهما وحسن الآخر، فقد ظنَّ به ظَنُّ السَّوءِ.

ومن ظن به أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل، وتشبيه، وتمثيل، وترك الحق، لم يُخبر به، وإنما رَمَزَ إليه رموزاً بعيدة، وأشار إليه إشارات مُلغِزة لم يُصرح به، وصرَّح دائماً بالتشبيه والتمثيل والباطل، وأراد من خلقه أن يُتَعَيَّوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم في تحريف كلامه عن مواضعه، وتأويله على غير تأويله، ويتطلَّبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهه، والتأويلات التي هي بالأنغاز والأحاجي أشبه منها بالكشف والبيان، وأحالهم في معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم، لا على كتابه، بل أراد منهم أن لا يحيلوا كلامه على ما يعرفون من خطابهم ولغتهم، مع قدرته على أن يُصرِّح لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به، ويُريحهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل، فلم يفعل، بل سلك بهم خلافتَ طريق الهدى والبيان، فقد ظنَّ به ظَنُّ السَّوءِ، فإنه إن قال: إنه غير قادر على التعبير عن الحقِّ باللفظ الصريح الذي عبَّرَ به هو وسلَفُه، فقد ظنَّ بقدرته العجز، وإن قال: إنه قادر ولم يُبين، وعدَّل عن البيان، وعن التصريح بالحقِّ إلى ما يُوهم، بل يُوقِع في الباطل المحال، والاعتقاد الفاسد، فقد ظنَّ بحكمته ورحمته ظَنُّ السَّوءِ، وظنَّ أنه، هو وسلَفُه عبَّروا عن الحقِّ بصريحه دونَ الله ورسوله، وأن الهدى والحقَّ في كلامهم وعباراتهم، وأما كلام الله، فإنما يؤخذ من ظاهره التشبيه، والتمثيل، والضلال، وظاهر كلام المتهوِّكين^(١) الحيارى، هو

(١) التهوُّك: كالتهور، وهو الوقوع في الأمر بغير روية، والمتهوِّك: الذي يقع في كل أمر، وقيل: هو التحير، وفي حديث جابر الذي أخرجه أحمد في «المسند» (١٥١٥٦) أن عمر أتى النبي ﷺ، فقال: إنَّا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا أفتري أن نكتب بعضها؟ فقال: «أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى؟ لقد جنتكم بها بضاعة نقية، ولو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي».

الهُدَى والحق، وهذا من أسوأ الظن بالله، فَكُلُّ هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء، ومن الظانين به غير الحق ظن الجاهلية.

ومن ظن به أن يكون في ملكه ما لا يشاء ولا يَقْدِرُ على إيجادهِ وتكوينه، فقد ظنَّ به ظنَّ السوء.

ومن ظنَّ به أنه كان مُعْظَلاً مِنَ الْأَزَلِ إِلَى الْأَبَدِ عَنْ أَنْ يَفْعَلَ، وَلَا يُوصَفَ حِينَئِذٍ بِالْقُدْرَةِ عَلَى الْفِعْلِ، ثُمَّ صَارَ قَادِراً عَلَيْهِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ قَادِراً، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوِّءِ.

ومن ظنَّ به أنه لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ، وَلَا يَعْلَمُ الْمَوْجُودَاتِ، وَلَا عَدَدَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَا النُّجُومِ، وَلَا بَنِي آدَمَ وَحَرَكَاتِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، وَلَا يَعْلَمُ شَيْئاً مِنَ الْمَوْجُودَاتِ فِي الْأَعْيَانِ، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوِّءِ.

ومن ظنَّ به أنه فوقَ سَمَاوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ بَاطِئاً مِنْ خَلْقِهِ، وَأَنْ نِسْبَةَ ذَاتِهِ تَعَالَى إِلَى عَرْشِهِ كَنِسْبَتِهَا إِلَى أَسْفَلِ السَّافِلِينَ، وَإِلَى الْأَمَكْنَةِ الَّتِي يُرْغَبُ عَنْ ذِكْرِهَا، وَأَنَّهُ أَسْفَلُ، كَمَا أَنَّهُ أَعْلَى، فقد ظنَّ به أَقْبَحُ الظَّنِّ وَأَسْوَأُهُ.

ومن ظنَّ به أنه يُحِبُّ الْكُفْرَ، وَالْفُسُوقَ، وَالْعِصْيَانَ، وَيُحِبُّ الْفَسَادَ كَمَا يُحِبُّ الْإِيمَانَ، وَالْبِرَّ، وَالطَّاعَةَ، وَالْإِصْلَاحَ، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوِّءِ.

ومن ظنَّ به أنه لَا يُحِبُّ وَلَا يَرْضَى، وَلَا يَغْضَبُ وَلَا يَسْخَطُ، وَلَا يُؤَالِي وَلَا يُعَادِي، وَلَا يَقْرُبُ مِنْ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَلَا يَقْرُبُ مِنْهُ أَحَدٌ، وَأَنْ ذَوَاتِ الشَّيَاطِينِ فِي الْقُرْبِ مِنْ ذَاتِهِ كَذَوَاتِ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ وَأَوْلِيَائِهِ الْمُفْلَحِينَ، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوِّءِ.

ومن ظنَّ أنه يُسَوِّي بَيْنَ الْمُتَضَادِّينَ، أَوْ يَفَرِّقُ بَيْنَ الْمُتَسَاوِينَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، أَوْ يُخَيِّطُ طَاعَاتِ الْعَمْرِ الْمَدِيدِ الْخَالِصَةِ الصَّوَابِ بِكَبِيرَةٍ وَاحِدَةٍ تَكُونُ بَعْدَهَا فَيَخْلُدُ فَاعِلُ تِلْكَ الطَّاعَاتِ فِي النَّارِ أَبَدَ الْأَبَدِينَ بِتِلْكَ الْكَبِيرَةِ، وَيُحَيِّطُ بِهَا جَمِيعَ طَاعَاتِهِ وَيُخْلِدُهُ فِي الْعَذَابِ، كَمَا يَخْلُدُ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِطَرَفَةِ عَيْنٍ، وَقَدْ اسْتَنْفَدَ سَاعَاتِ عَمْرِهِ فِي مَسَاخِطِهِ وَمَعَادَاةِ رُسُلِهِ وَدِينِهِ، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوِّءِ.

وبالجملة فَمَنْ ظنَّ به خِلَافَ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رُسُلُهُ، أَوْ عَطَّلَ حَقَائِقَ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ،

ووصفته به رُسُلُهُ، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوِّءِ.

وَمَنْ ظنَّ أَنْ لَهُ وَلِداً، أَوْ شَرِيكاً أَوْ أَنْ أَحَدًا يَشْفَعُ عِنْدَهُ بِدُونِ إِذْنِهِ، أَوْ أَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ وَسَائِطَ يَرْفَعُونَ حَوَائِجَهُمْ إِلَيْهِ، أَوْ أَنَّهُ تَصَبَّبَ لِعِبَادِهِ أَوْلِيَاءٌ مِنْ دُونِهِ يَتَقَرَّبُونَ بِهِمْ إِلَيْهِ، وَيَتَوَسَّلُونَ بِهِمْ إِلَيْهِ، وَيَجْعَلُونَهُمْ وَسَائِطَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، فَيَدْعُونَهُمْ، وَيَحْبُونَهُمْ كَحَبِّهِ، وَيَخَافُونَهُمْ وَيَرْجُونَهُمْ، فقد ظنَّ به أَقْبَحُ الظَّنِّ وَأَسْوَأُهُ.

وَمَنْ ظنَّ به أنه يَنَالُ مَا عِنْدَهُ بِمَعْصِيَتِهِ وَمُخَالَفَتِهِ، كَمَا يَنَالُهُ بِطَاعَتِهِ وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ، فقد ظنَّ به خِلَافَ حِكْمَتِهِ وَخِلَافَ مُوجِبِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَهُوَ مِنْ ظَنِّ السَّوِّءِ.

وَمَنْ ظنَّ به أنه يَنَالُ مَا عِنْدَهُ بِمَعْصِيَتِهِ وَمُخَالَفَتِهِ، كَمَا يَنَالُهُ بِطَاعَتِهِ وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ، فقد ظنَّ به خِلَافَ حِكْمَتِهِ وَخِلَافَ مُوجِبِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَهُوَ مِنْ ظَنِّ السَّوِّءِ.

وَمَنْ ظنَّ به أنه إِذَا تَرَكَ لِأَجَلِهِ شَيْئاً لَمْ يُعْوَضْ خَيْراً مِنْهُ، أَوْ مِنْ فِعْلٍ لِأَجَلِهِ شَيْئاً لَمْ يُعْطَ أَفْضَلَ مِنْهُ، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوِّءِ.

وَمَنْ ظنَّ به أنه يَغْضَبُ عَلَى عِبْدِهِ، وَيُعَاقِبُهُ وَيَحْرِمُهُ بِغَيْرِ جُرْمٍ، وَلَا سَبَبٍ مِنَ الْعَبْدِ إِلَّا بِمَجْرَدِ الْمَشِيشَةِ، وَمَحْضِ الْإِرَادَةِ، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوِّءِ.

وَمَنْ ظنَّ به أنه إِذَا صَدَقَهُ فِي الرِّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ، وَتَضَرَّعَ إِلَيْهِ، وَسَأَلَهُ، وَاسْتَعَانَ بِهِ، وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ أَنَّهُ يُخَيِّبُهُ وَلَا يُعْطِيهِ مَا سَأَلَهُ، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوِّءِ، وَظنَّ به خِلَافَ مَا هُوَ أَهْلُهُ.

وَمَنْ ظنَّ به أنه يُثَبِّتُهُ إِذَا عَصَاهُ بِمَا يُثَبِّتُهُ بِهِ إِذَا أَطَاعَهُ، وَسَأَلَهُ ذَلِكَ فِي دَعَائِهِ، فقد ظنَّ به خِلَافَ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ وَحَمْدُهُ، وَخِلَافَ مَا هُوَ أَهْلُهُ وَمَا لَا يَفْعَلُهُ.

وَمَنْ ظنَّ به أنه إِذَا أَغْضَبَهُ، وَأَسْخَطَهُ، وَأَوْضَعَ فِي مَعَاصِيهِ، ثُمَّ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ وَلِيّاً، وَدَعَا مِنْ دُونِهِ مَلَكاً أَوْ بَشِراً حَيّاً، أَوْ مِثْلًا يَرْجُو بِذَلِكَ أَنْ يَنْفَعَهُ عِنْدَ رَبِّهِ، وَيُخَلِّصَهُ مِنْ عَذَابِهِ، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوِّءِ، وَذَلِكَ زِيَادَةٌ فِي بَعْدِهِ مِنَ اللَّهِ، وَفِي عَذَابِهِ.

وَمَنْ ظنَّ به أنه يُسَلِّطُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَعْدَاءَهُ تَسْلِيْطاً مُسْتَعْتِراً دَائِماً فِي حَيَاتِهِ وَفِي مَمَاتِهِ، وَابْتِلَاءً بِهِمْ

لا يُفارقونه، فلما مات استبدُّوا بالأمر دون وصية، وظلموا أهل بيته، وسلَّبواهم حقَّهم، وأذلَّوهم، وكانت العزَّة والغلبة والقهر لأعدائه وأعدائهم دائماً من غير جرم ولا ذنب لأوليائه، وأهل الحق، وهو يرى قهرهم لهم، وغصبهم إياهم حقَّهم، وتبديلهم ذينَّ بينهم، وهو يقدر على نصرة أوليائه وحزبه وجنده، ولا ينصرهم ولا يُدِيلهم، بل يُدِيل أعداءهم عليهم أبداً، أو أنه لا يقدرُ على ذلك، بل حصل هذا بغير قدرته ولا مشيئته، ثم جعل المبدلين لدينه مضاجعيه في حفرته، تُسَلَّم أمته عليه وعليهم كل وقت كما تظنه الرافضة، فقد ظنَّ به أقبح الظنِّ وأسوأ، سواء قالوا: إنه قادرٌ على أن ينصرهم، ويجعل لهم الدولة والظفر، أو أنه غير قادر على ذلك، فهم قاذحون في قدرته، أو في حكيمته وحمده، وذلك من ظنِّ السوء به، ولا ريب أن الربَّ الذي فعل هذا بغِيضٍ إلى من ظنَّ به ذلك غير محمود عندهم، وكان الواجب أن يفعل خلاف ذلك، لكن رَفَوْا هذا الظنَّ الفاسدَ بخرق أعظم منه، واستجاروا من الرَّمضاء بالنار، فقالوا: لم يكن هذا بمشيئة الله، ولا له قدرة على دفعه ونصر أوليائه، فإنه لا يُقدِّر على أفعال عباده، ولا هي داخلةٌ تحت قدرته، فظنُّوا به ظنٌّ إخوانهم المجوس والثنوية بربهم، وكل مبطل، وكافر، ومبتدع مقهور مستذل، فهو يظن بربه هذا الظن، وأنه أولى بالنصر والظفر، والعلو من خصومه، فأكثر الخلق، بل كلهم إلّا من شاء الله يظنون بالله غير الحقِّ ظنَّ السوء، فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوسُ الحق، ناقصُ الحظ وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله، ولسان حاله يقول: ظلمني ربِّي، ومعني ما استحقَّه، ونفسه تشهدُ عليه بذلك، وهو بلسانه يُنكره ولا يتجاسرُ على التصريح به، ومن فُتِس نفسه، وتغلغل في معرفة دفاينها وطواياها، رأى ذلك فيها كامناً كُمون النار في الزناد، فاقدر زناداً من شت يُنبئك شرَّارُه عما في زِناده، ولو فُتِسَتْ من فتشته، لرأيت عنده تعبُّاً على القدر وملازمة له، واقتراحاً عليه خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقِلٌّ ومستكثرٌ، وفُتِسَ نفسك هل أنت سالم من ذلك؟

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ
وَلَا فِرَاقِي لَا إِخَالِكَ نَاجِيًا
فليعتني الليبُّ الناصح لنفسه بهذا الموضع، وليتَّب إلى الله تعالى وليستغفره كلَّ وقت من ظنه بربه ظن السوء، وليظنَّ السوء بنفسه التي هي مأوى كل سوء، ومنعُ كل شر، المركبة على الجهل والظلم، فهي أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وأرحم الراحمين، الغنيِّ الحميد، الذي له الغنى التام، والحمد التام، والحكمة التامة، المنزَّهة عن كل سوء في ذاته وصفاته، وأفعاله وأسمائه، فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه، وصفاته كذلك، وأفعاله كذلك، كُلُّها حكمة ومصلحة، ورحمة وعدل، وأسماءها كُلُّها حسنى.

فَلَا تَظُنُّنَّ بِرَبِّكَ ظَنًّا سَوِيًّا
فَإِنَّ اللَّهَ أَوْلَى بِالْجَبِيلِ
وَلَا تَظُنُّنَّ بِنَفْسِكَ قَطُّ خَيْرًا
وَكَيْفَ يَظَالِمُ جَانِبَ جَهْلُولٍ
وَقُلْ يَا نَفْسُ مَا أَوْى كُلُّ سُوءٍ
أُجِرَ جِي الْخَيْرِ مِنْ مَنِيَّتِ بَخِيلٍ
وَقُلْ بِنَفْسِكَ السُّوَى تَجِدُهَا
كَذَاكَ وَخَيْرُهَا كَالْمُسْتَحِيلِ
وَمَا بِكَ مِنْ ثَمَرٍ فِيهَا وَخَيْرٍ
فَتِلْكَ مَوَاقِبُ الرَّبِّ الْجَبِيلِ
وَلَيْسَ بِهَا وَلَا مِنْهَا وَلَكِنْ
مِنَ الرَّحْمَنِ فَاشْكُرْ لِلذَّلِيلِ
والمقصود ما ساقنا إلى هذا الكلام من قوله: ﴿وَمَا يَكُنْ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهٌ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيُخَوِّفُ مَا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: 104]، ثم أخبر عن الكلام الذي صدر عن ظنهم الباطل، وهو قولهم: ﴿هَلْ لَنَا مِنْ الْآمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [آل عمران: 104]، وقولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْآمْرِ شَيْءٌ مَا قُلْنَا هُنَا﴾ [آل عمران: 104]، فليس مقصودهم بالكلمة الأولى والثانية إثبات القدر، ورد الأمر كُلُّه إلى الله، ولو كان ذلك مقصودهم بالكلمة الأولى، لما ذمُّوا عليه، ولما حَسَّنَ الرُّدَّ عليه بقوله: ﴿قُلْ لَنْ الْآمْرِ كُلِّهِ﴾ [آل عمران: 104]، ولا كان مصدرُ هذا الكلام ظنَّ الجاهلية، ولهذا قال غير واحد من المفسرين: إن ظنَّهم الباطل ههنا هو التَكْذِيبُ بالقدر، وظنهم أن الأمر لو كان إليهم،

وكان رسول الله ﷺ وأصحابه تبعاً لهم يسمعون منهم، لما أصابهم القتل، ولكان النصر والظفر لهم، فأكذبهم الله عز وجل في هذا الظن الباطل الذي هو ظن الجاهلية، وهو الظن المنسوب إلى أهل الجهل الذين يزعمون بعد نفاذ القضاء والقدر الذي لم يكن بُدَّ من نفاذه أنهم كانوا قادرين على دفعه، وأن الأمر لو كان إليهم، لما نفذ القضاء، فأكذبهم الله بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾، فلا يكون إلا ما سبق به قضاؤه وقدره، وجرى به علمه وكتابه السابق، وما شاء الله كان ولا بُدَّ، شاء الناس أم أبوا، وما لم يشأ لم يكن، شاء الناس أم لم يشأوه، وما جرى عليهم من الهزيمة والقتل، فبأمره الكوني الذي لا سبيل إلى دفعه، سواء كان لكم من الأمر شيء، أولم يكن لكم، وأنكم لو كنتم في بيوتكم، وقد كُتِبَ القتل على بعضكم لخرج الذين كتب عليهم القتل من بيوتهم إلى مضاجعهم ولا بُدَّ، سواء كان لهم من الأمر شيء، أو لم يكن، وهذا من أظهر الأشياء إبطالاً لقول القدرية النفاة، الذين يجوزون أن يقع ما لا يشأه الله، وأن يشاء ما لا يقع.

فصل

(«وليهبتي الله ما هي صدوركم»)

ثم أخبر سبحانه عن حكمة أخرى في هذا التقدير، هي ابتلاء ما في صدورهم، وهو اختبار ما فيها من الإيمان والنفاق، فالموثَّق لا يزداد بذلك إلا إيماناً وتسليماً، والمنافق ومن في قلبه مرض، لا بد أن يظهر ما في قلبه على جوارحه ولسانه.

(«وليمحص ما في قلوبكم»)

ثم ذكر حكمة أخرى: وهو تمحيص ما في قلوب المؤمنين، وهو تخليصه وتنقيته وتهذيبه، فإن القلوب يُخالطها بغليات الطباع، وميل النفوس، وحكم العادة، وتزيين الشيطان، واستيلاء الغفلة ما يُضاد ما أودع فيها من الإيمان والإسلام والبر والتقوى، فلو تركت في عافية دائمة مستمرة، لم تتخلص من هذه المخالطة، ولم تتمحص منه، فافتضت حكمة العزيز أن قيض لها من الميكن والبلايا ما يكون كالدواء الكريه لمن عرض له داء إن لم يتداركه طبيبه بإزالته وتنقيته من جسده، وإلا خيف عليه منه الفساد

والهلاك، فكانت نعمته سبحانه عليهم بهذه الكسرة والهزيمة، وقتل من قتل منهم، تُعادل نعمته عليهم بنصرهم وتأبيدهم وظفرهم بعدوهم، فله عليهم النعمة التامة في هذا وهذا.

(«إن الذين تولوا منكم»)

ثم أخبر سبحانه وتعالى عن تولي من تولي من المؤمنين الصادقين في ذلك اليوم، وأنه بسبب كسبهم وذنوبهم، فاستزله الشيطان بتلك الأعمال حتى تولوا، فكانت أعمالهم جنداً عليهم، ازداد بها عدوهم قوة، فإن الأعمال جند للعبد وجند عليه، ولا بُدَّ فللعبد كل وقت سرية من نفسه تهزئه، أو تنصره، فهو يمدُّ عدوه بأعماله من حيث يظن أنه يقاها بها، ويبعث إليه سرية تغزوه مع عدوه من حيث يظن أنه يغزو عدوه فأعمال العبد تسوقه قسراً إلى مقتضاها من الخير والشر، والعبد لا يشعر أو يشعر ويتعالم، ففراغ الإنسان من عدوه، وهو يطيقه إنما هو بجند من عمله، بعثه له الشيطان واستزله به.

(«ولقد عفا الله عنهم»)

(«وإما أصابتكم مصيبة» إثبات القدر والسبب)

ثم أخبر سبحانه: أنه عفا عنهم، لأن هذا الفراغ لم يكن عن نفاق ولا شك، وإنما كان عارضاً، عفا الله عنه، فعادت شجاعة الإيمان وثباته إلى مركزها ونصابها، ثم كرر عليهم سبحانه: أن هذا الذي أصابهم إنما أتوا فيه من قبل أنفسهم، وبسبب أعمالهم، فقال: ﴿أَوَلَمْ أَصْغِبْكُمْ مِصْبَةً قَدْ أَصْغَبْتُمْ يَتْلُوا فَرَقًا ثُمَّ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وذكر هذا بعينه فيما هو أعم من ذلك في السور المكية، فقال: ﴿وَمَا أَصْغَبْكُمْ مِنْ مِصْبَةٍ فَمَا كُنْتُمْ بِبَيِّنَةٍ وَمِنْكُمْ عَنْ كَبِيرٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، وقال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ حَسْرَةٍ فَبِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [النساء: ٧٩]، فالحسنة والسنة ههنا: النعمة والمصيبة، فالنعمة من الله من بها عليك، والمصيبة إنما نشأت من قبل نفسك وعملك، فالأول فضله، والثاني عدله، والعبد يتقلب بين فضله وعدله، جارٍ عليه فضله، ماضٍ فيه حكمه، عدلٌ فيه قضاؤه، وختم الآية الأولى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، بعد قوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ

أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]؛ إعلاماً لهم بعموم قدرته مع عدله، وأنه عادلٌ قادر، وفي ذلك إثباتُ القدرِ والسبب، فذكر السبب، وأضافه إلى نفوسهم، وذكر عمومَ القدرة وأضافها إلى نفسه، فالأول ينفي الجبر، والثاني ينفي القول بإبطال القدر، فهو يشاكل قوله: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَوِي﴾ ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

(وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله)

(ووليعلم الذين نافقوا)

وفي ذكر قدرته ههنا نكتة لطيفة، وهي أن هذا الأمر بيده وتحت قدرته، وأنه هو الذي لو شاء لصرفه عنكم، فلا تطلبوا كشف أمثاله من غيره، ولا تتكلموا على سواه، وكشف هذا المعنى وأوضحه كل الإيضاح بقوله: ﴿وَمَا أَصْبَحْتُمْ بِمِيقَاتِ الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٦]، وهو الإذن الكوني القدري، لا الشرعي الديني، كقوله في السحر: ﴿وَمَا هُمْ بِمَكْسُورِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ثم أخبر عن حكمة هذا التقدير، وهي أن يعلم المؤمنين من المنافقين علم غيان وروية يتميز فيه أحد الفريقين من الآخر تمييزاً ظاهراً، وكان من حكمة هذا التقدير تكلم المنافقين بما في نفوسهم، فسمعه المؤمنون، وسمعا رد الله عليهم وجوابه لهم، وعرفوا مؤدى النفاق وما يؤول إليه، وكيف يحرم صاحبه سعادة الدنيا والآخرة، فيعود عليه بفساد الدنيا والآخرة، فللؤكم من حكمة في ضمن هذه القصة بالغة، ونعمة على المؤمنين سابعة، وكم فيها من تحذير وتخويف وإرشاد وتنبية، وتعريف بأسباب الخير والشر وما لهما وعاقبتهما.

(ولا تحسبن الذين قتلوا) ويستبشرون بنعمة من الله

(ولقد من الله على المؤمنين)

ثم عرّى نبيه وأوليائه عن قتل منهم في سبيله أحسن تعزية، والطفها وأدعاهما إلى الرضى بما قضاه لها، فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَدُّونَ﴾ ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسْتَشِيرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠]، فجمع لهم إلى الحياة الدائمة منزلة القرب منه، وأنهم عنده وجريان الرزق المستمر عليهم، وفرحهم بما

آتاهم من فضله، وهو فوق الرضى، بل هو كمال الرضى، واستبشارهم بإخوانهم الذين باجتماعهم بهم يتم سرورهم ونعيمهم، واستبشارهم بما يجدد لهم كل وقت من نعمته وكرامته، وذكرهم سبحانه في أثناء هذه المحنة بما هو من أعظم منته ونعمه عليهم التي إن قابلوا بها كل محنة تنالهم وبلية، تلاشت في جنب هذه المنة والنعمة، ولم يبق لها أثر البتة، وهي ميتة عليهم بإرسال رسول من أنفسهم إليهم، يتلو عليهم آياته، ويُرَكِّبهم، ويُعلمهم الكتاب والحكمة، ويُنقذهم من الضلال الذي كانوا فيه قبل إرساله إلى الهدى، ومن الشقاء إلى الفلاح، ومن الظلمة إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، فكل بلية ومحنة تنال العبد بعد حصول هذا الخير العظيم له أمر يسير جداً في جنب الخير الكثير، كما ينال الناس بأذى المطر في جنب ما يحصل لهم به من الخير، فأعلمهم أن سبب المضحية من عند أنفسهم ليحذروا، وأنها بقضائه وقدره ليؤخذوا ويتكلموا، ولا يخافوا غيره، وأخبرهم بما لهم فيها من الحكم لتلا يتموه في قضائه وقدره، وليعترف إليهم بأنواع أسمائه وصفاته، وسلاهم بما أعطاهم مما هو أجل قدراً، وأعظم خطراً مما فاتهم من النصر والغنيمة، وعزاهم عن قتالهم بما نالوه من ثوابه وكرامته، لينافسوه فيه، ولا يحزنوا عليهم، فله الحمد كما هو أهله، وكما ينبغي لكرم وجهه، وعز جلاله.

فصل

(خروج علي في آثار المشركين)

ولما انقضت الحرب، انكفأ المشركون، فظن المسلمون أنهم قصدوا المدينة لإحراز الذراري والأموال، فسق ذلك عليهم، فقال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون، فإن هم جئوا الخيل وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة فالذي نفسي بيده لئن أراؤوها، لأسيرن إليهم، ثم لاناجزنهم فيها». قال علي: فخرجت في آثارهم، أنظر ماذا يصنعون، فجئوا الخيل، وامتطوا الإبل، ووجهوا إلى مكة، ولما عزموا على الرجوع إلى مكة، أشرف على

يُخَمِّمُ مِنَ اللَّهِ وَفَضَّلَ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ وَأَكْبَحُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ
ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤] [«الدر المنثور» (٢/
١٠١-١٠٣)، وابن كثير في «التفسير» (١/٤٢٨-٤٢٩)].

فصل

(سيرة أبي سلمة إلى بني اسد)

وكانت وقعة أحد يوم السبت في سابع شوال سنة
ثلاث كما تقدّم، فرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة،
فأقام بها بقية شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم،
فلما استهلّ هلال المحرم، بلغه أن طلحة وسلمة ابني
خويلد قد سارا في قومهما ومن أطاعهما يدعوان بني
أسد بن خزيمة إلى حرب رسول الله ﷺ، فبعث أبا
سلمة، وعقد له لواء، وبعث معه مئة وخمسين رجلاً
من الأنصار والمهاجرين، فأصابوا إبلاً، وشاء، ولم
يَلْقُوا كَيْدًا، فأنحدر أبو سلمة بذلك كله إلى المدينة.

فصل

(بعثه عبد الله بن أنس لقتل ابن نبيح الهذلي)

فلما كان خامس المحرم، بلغه أن خالد بن
سفيان بن نبيح الهذلي قد جمع له الجموع، فبعث إليه
عبد الله بن أنس فقتله، قال عبد المؤمن بن
خلف^(٢): وجاءه برأسه، فوضعه بين يديه، فأعطاه
عصاً، فقال: «هَذِهِ آيَةُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، فلما
حضرته الوفاة أوصى أن تُجعل معه في أكفانه،
وكانت غيبته ثمانية عشرة ليلة، وقُدِمَ يوم السبت لسبع
يَقِينِ مِنَ الْمُحَرَّمِ [أحمد: ١٦٠٤٨].

(يوم الرجيع وسنة صلاة القتل)

فلما كان صفر، قُدِمَ عليه قَوْمٌ مِنْ عَضَلٍ
وَالْقَارَةِ^(٣)، وذكروا أن فيهم إسلاماً، وسألوه أن
يُبْعَثَ معهم من يُعَلِّمُهُمُ الدِّينَ، ويُقَرِّئَهُمُ الْقُرْآنَ،
فبعث معهم سِتَّةَ نَفَرٍ فِي قول ابن إسحاق، وقال
البخاري: كانوا عشرة، وأمر عليهم مَرْثَدُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ
الْقَتَوِيِّ^(٤)، وفيهم خبيب بن عدي، فذهبوا معهم،

المسلمين أبو سفيان، ثم ناداهم: مَوْعِدُكُمْ الْمَوْمِئُ
يَبْدُرُ، فقال النبي ﷺ: «قولوا: نَعَمْ قَدْ قَعَلْنَا»، قال
أبو سفيان: «فَقَدْ لَكُمْ الْمَوْعِدُ»، ثم انصرف هو
وأصحابه، فلما كان في بعض الطريق، تلاوموا فيما
بينهم، وقال بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئاً، أصبتم
شوكتكم وحدكم، ثم تركتموه، وقد بقي منهم
رؤوس يجمعون لكم، فارجعوا حتى نستأصل
شأقتهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فنادى في
الناس، وندبهم إلى المسير إلى لقاء عدوهم، وقال:
«لَا يَخْرُجُ مَعَنَا إِلَّا مَنْ شَهِدَ الْقِتَالَ»، فقال له
عبد الله بن أبي: أركب معك؟ قال: «لا»، فاستجاب
له المسلمون على ما بهم من القرح الشديد والخوف،
وقالوا: سمعاً وطاعة، واستأذنه جابر بن عبد الله،
وقال: يا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي أَحِبُّ أَلَا تَشْهَدُ شَهِدًا إِلَّا
كُنْتُ مَعَكَ، وإنما خلّفني أبي على بنيته، فأئذن لي
أسير معك، فأذن له، فسار رسول الله ﷺ والمسلمون
معه حتى بَلَّغُوا حِمَاءَ الْأَسَدِ^(١)، وأقبل معبد بن أبي
معبد الخزاعي إلى رسول الله ﷺ، فأسلم، فأمره أن
يلحق بأبي سفيان، فيخذه، فلحقه بالروحاء، ولم
يعلم بإسلامه، فقال: ما وراءك يا معبد؟ فقال:
محمد وأصحابه، قد تحرّقوا عليكم، وخرجوا في
جمع لم يخرجوا في مثله، وقد ندم من كان تخلّف
عنهم من أصحابهم، فقال: ما تقول؟ فقال: ما أرى
أن تَرْتَجِلَ حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه
الأكمة، فقال أبو سفيان: والله لقد أجمعنا الكثرة
عليهم لنستأصلهم، قال: فلا تفعل، فإني لك ناصح،
فرجعوا على أعقابهم إلى مكة، ولقي أبو سفيان بعض
المشركين يريد المدينة، فقال: هل لك أن تُبَلِّغَ
محمدًا رسالة، وأوقِرَ لك راحلتك زيبًا إذا آتيت إلى
مكة؟ قال: نعم، قال: أبلغ محمدًا أنّا قد أجمعنا
الكثرة لنستأصله ونستأصل أصحابه، فلما بلغهم
قوله، قالوا: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» ۝ فَانْقَلَبُوا

(١) موضع على ثمانية أميال من المدينة عن يسار الطريق إذا أردت ذا الحليفة.

(٢) هو العلامة شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدماطي الحافظ الكبير النسابة الأخباري.

(٣) عضل: بطن من بني الهون، وأما القارة فتخفيف الراء: بطن من بطون الهون.

(٤) كذا في «السيرة» لابن إسحاق، وفي الصحيح عن أبي هريرة وأمر عليهم عاصم بن ثابت، وما في الصحيح أصح.

فلما كانوا بالرَّجِيعِ، وهو ماءٌ لَهْدَنِيلَ بِناحيةِ الحِجازِ
غَدَرُوا بِهِمْ، واستَصْرَحُوا عَلَيْهِمْ هُدَيْلًا، فجاؤوا حتَّى
أَحاطُوا بِهِمْ، فقتَلُوا عَائِثَهُمْ، واستَأْشَرُوا خُيَّيْبَ بْنَ
عَدِيٍّ، وَزَيْدَ بْنَ الدُّثَنَةِ، فذهبوا بهما، وباعوهما
بمَكَّةَ، وكانا قتلا من رؤوسهم يَوْمَ بدرٍ، فأما خُيَّيبُ،
فمكثَ عندهم مسجوناً، ثم أجمَعُوا قتله، فخرجوا به
من الحَرَمِ إلى التَّعِيمِ، فلما أجمَعُوا على صُلْبِهِ،
قال: دَعُونِي حتَّى أَرْكَعَ رَعَتَيْنِ، فتركَوه فصالهما،
فلَمَّا سَلِمَ قال: واللَّهِ، لَوْلا أَن تَقُولُوا إِنَّ ما بِي جَزَعٌ،
لَرَدَدْتُ، ثُمَّ قال: «اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا وَاقتُلْهُمْ
بِدَدًا»^(١)، ولا يُتَبَقِ مِنْهُمْ أَحَدًا، ثم قال:
لَقَدْ أَجْمَعَ الْأَخْزَابُ حَوْلِي، وَأَلْبُوا
قَبائِلَهُمْ واستَجَمَعُوا كُلُّ مَجْمَعٍ
وكلُّهُمْ مَبْدِي العداوةِ جَاهِدُ
عَلَيَّ لَأَنِّي فِي وِثاقٍ بِمَضِيعٍ
وَقَدْ قَرَّبُوا أَبْناءَهُمْ ونِساءَهُمْ
وَقَرَّبْتُ مِنْ جِذْعٍ طَوِيلٍ مُنْعَجٍ
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو غُرْبَتِي بَعْدَ مُرَّتَبَتِي
وَمَا أَرْصَدُ الْأَخْزَابُ لِي عِنْدَ مَضْرَجِي
فَذا العَرَشِ صَبَرَنِي عَلَى ما يُرَادُ بِي
فَقَدْ بَصَّعُوا لَحْمِي وَقَدْ يَأْسُ^(٢) مَظْلَمِي
وَقَدْ خَيَّرُونِي الْكُفْرَ، وَالْمَوْتَ دُونَهُ
فَقَدْ ذَرَفَتْ عَيْنَايَ مِنْ غَيْرِ مَجْرَعٍ
وَمَا بِي جِذَارُ الْمَوْتِ إِنِّي لَمَيِّتٌ
وَإِنَّ بِي إِلَى رَبِّي إِنَائِي وَمَرْجِي
وَلَسْتُ أَبَالِي حِينَ أَقْتُلُ مُسْلِمًا
عَلَى أَيِّ شِقِّ كَادَ فِي اللَّهِ مَضْجَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ
يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شُلُوِّ مُمَرِّعٍ
فَلَسْتُ بِمُبْدٍ لِلْعَدُوِّ تَخَشُّعًا
ولا جَزَعًا، إِنِّي إِلَى اللَّهِ مَرْجِي
فقال له أَبُو سَفْيَانَ: أيسرُكَ أَنَّ مُحَمَّدًا عِنْدَنَا
تَضْرِبُ عَقَّهُ وَإِنَّكَ فِي أَهْلِكَ، فقال: لا واللَّهِ، ما

يسرُّني أَنِّي فِي أَهْلِي، وَأَنَّ مُحَمَّدًا فِي مَكَانِهِ الَّذِي هُوَ
فِيهِ تُصَيِّبُهُ شَوْكَةُ تُوْذِيهِ.

وفي «الصحيح»: أَنَّ خُيَّيْبًا أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الرُّكْعَتَيْنِ
عِنْدَ القَتْلِ، وقد نقل أبو عمر بن عبد البر، عن
الليث بن سعد، أَنه بلغه عن زيد بن حارثة، أَنه
صلاهما في قصَّةٍ ذَكَرَها، وكذلك صلاهما جَجْرُ بْنُ
عَدِيٍّ حينَ أَمَرَ معاويةُ بقتله بأَرْضِ عَذْرَاءٍ مِنْ أَعْمَالِ
دِمَشقَ [الإصابة: ١٦٢٩].

ثم صَلَبُوا خُيَّيْبًا، ووَكَّلُوا به مَنْ يَخْرُسُ جُثَّتَهُ، فجاء
عمرو بْنُ أُمَيَّةِ الضَّمْرِيِّ، فاحتمله بجذعه لَيْلًا، فذهب
به، فدفنه [أحمد: ١٧٢٥٢، وفي سنده ضعف].

ورثني خُيَّيبٌ وهو أَسِيرٌ يَأْكُلُ قِظْفًا مِنَ الْعِنَبِ، وما
بِمَكَّةَ تَمَرَّةً، وأما زَيْدُ بْنُ الدُّثَنَةِ، فابْتاعَهُ صَفْوَانُ بْنُ
أُمَيَّةَ، فقتله بأبيه.

وأما موسى بن عقبة، فذكر سبب هذه الواقعة، أَنَّ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بعث هؤلاء الرهطَ يَتَحَسَّسُونَ له أَخْبَارَ
قُرَيْشٍ، فاعترضهم بَنُو لَحْيَانَ [البخاري: ٤٠٨٦].

فصل

(بنو معاوية)

وفي هذا الشهر بعينه، وهو صفر من السنة
الرابعة، كانت وقعة بئر مَعُونَةَ، وملخصُها أَنَّ أَبَا بَرَاءَ
عَامِرَ بْنَ مالِكِ المدعو مَلْعَبَ الْأَسِنَّةِ، قَدِمَ على
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ المدينةَ، فدعاه إلى الإسلام، فلم
يُسَلِّمْ، ولم يبعده، فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ، لو بعثتُ
أَصْحَابَكَ إلى أَهْلِ نَجْدٍ يدعونهم إلى دينك، لرجوتُ
أَن يُجِيبُوهم، فقال: «إِنِّي أَخَافُ عَلَيْهِمْ أَهْلَ نَجْدٍ»،
فقال أبو بَرَاءَ: أَنَا جَارٌ لَهُمْ، فبعث معه أَرْبَعِينَ رَجُلًا
في قول ابن إِسْحاقَ، وفي الصحيح: «أَنَّهُمْ كَانُوا
سَبْعِينَ»، والذي في الصحيح: هو الصحيح، وأمر
عليهم المنذر بن عمرو - أحد بني ساعدة الملقب
بالمُعْنِقِي ليموت - وكانوا من خِيَارِ الْمُسْلِمِينَ،
وَفُضِّلَانِهِمْ، وساداتِهِمْ، وقُرَائِهِمْ، فساروا حتَّى نزلوا

(١) قال ابن الأثير: يروى بكسر الباء جمع بدة وهي الحصة والنصيب، أي: اقتلهم حصصاً مقسمة لكل واحد حصته ونصيبه، ويروى بالفتح، أي: متخفين في القتل واحداً بعد واحد من التبديد.

(٢) يأس: لغة في يش.

واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وذلك في ربيع الأول.

(تحريم الخمر)

قال ابن حزم: وحينئذ حُرِّمَت الخمر، ونزلوا على أن لهم ما حملت إيلهم غير السلاح، ويرحلون من ديارهم، فرحل أكابورهم كحَيٍّ بن أَطْبَج، وسلام بن أبي الحَقِيق إلى خيبر، وذهبت طائفة منهم إلى الشام، وأسلم منهم رجلاً فقط، يامين بن عمرو، وأبو سعد بن وهب، فأحرزا أموالهما، وقسم رسول الله ﷺ أموال بني النضير بين المهاجرين الأولين خاصة، لأنها كانت مما لم يُوجِب المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، إلا أنه أعطى أبا دُجَانَةَ، وسَهْلَ بن حَنْفٍ الأنصارين لفقهما [ابن سعد (٥٧/٢)]، وابن كثير (١٤٥/٣).

(نزل سورة الحشر)

وفي هذه الغزوة، نزلت سورة الحشر، هذا الذي ذكرناه، هو الصحيح عند أهل المغازي والسير [البخاري: ٤٨٨٢].

(غزواته ﷺ مع اليهود)

وزعم محمد بن شهاب الزهري، أن غزوة بني النضير كانت بعد بدر بستة أشهر، وهذا وهم منه أو غلط عليه، بل الذي لا شك فيه أنها كانت بعد أحد، والتي كان بعد بدر بستة أشهر: هي غزوة بني قَيْنَقَاع، وقُرَيْظَةَ بعد الخندق، وخيبر بعد الحُدَيْبِيَّة، وكان له مع اليهود أربع غزوات، أولها: غزوة بني قَيْنَقَاع بعد بدر، والثانية: بني النضير بعد أحد، والثالثة: قُرَيْظَةَ بعد الخندق، والرابعة: خيبر بعد الحُدَيْبِيَّة.

فصل

(القنوت)

وقنت رسول الله ﷺ شَهْرًا يَدْعُو عَلَى الَّذِينَ قَتَلُوا الْقُرَّاءَ أَصْحَابَ بَيْتِ مَعُونَةَ بَعْدَ الرُّكُوعِ، ثم تَرَكَهُ لَمَّا جَاءُوا تَائِبِينَ مُسْلِمِينَ [البخاري: ٤٠٩٠، ومسلم: ١٠٥٤].

بَيْتِ مَعُونَةَ، وهي بين أرض بني عامر، وحرّة بني سليم، فنزلوا هناك، ثم بعثوا حَرَامَ بنَ ملحان أَخَا أمِّ سليم بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل، فلم ينظر فيه، وأمر رجلاً، فطعنه بالحربة من خلفه، فلما أنفذها فيه، ورأى الدَّم، قال: «قُتِلْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ» [البخاري: ٤٠٩١]، ثم استنفر عدو الله لغوره بني عامر إلى قتال الباقيين، فلم يُجِيبُوهُ لأجل جوار أبي براء، فاستنفر بني سليم، فأجابته عُصَيْيَةُ وَرِغْلٌ وَدُكْوَانٌ، فجاءوا حتى أحاطوا بأصحاب رسول الله ﷺ، فقاتلوا حتى قُتِلُوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد بن النجار، فإنه ارتدَّ^(١) بين القتلى، فعاش حتى قُتِلَ يَوْمَ الخندق، وكان عمرو بن أمية الضمري، والمنذر بن عقبة بن عامر في سَرَحِ المسلمين، فرأيا الطير تحوم على موضع الوقعة، فنزل المنذر بن محمد، فقاتل المشركين حتى قُتِلَ مَعَ أصحابه، وأسير عمرو بن أمية الضمري، فلما أخبر أنه من مضر، جرَّ عامر ناصيته، وأعتقه عن رقية كانت على أمه، ورجع عمرو بن أمية، فلما كان بالقرقرة من صدر قناة^(٢) نزل في ظل شجرة، وجاء رجلاً من بني كلاب، فنزلا معه، فلما ناما، فتك بهما عمرو، وهو يرى أنه قد أصاب ثاراً من أصحابه، وإذا معهما عهد من رسول الله ﷺ لم يشعر به، فلما قِيمَ، أخبر رسول الله ﷺ بما فعل، فقال: «لَقَدْ قَتَلْتَ قَتِيلَيْنِ لِأَدِيَّتِهِمَا» [ابن كثير (١٣٩/٣)، والطبري (٣٣/٣)].

(غزوة بني النضير)

فكان هذا سبب غزوة بني النضير، فإنه خرج إليهم ليعينوه في دينهما لما بينه وبينهم من الحلف، فقالوا: نعم، وجلس هو وأبو بكر وعمر وعلي، وطائفة من أصحابه، فاجتمع اليهود وتشاوروا، وقالوا: مَنْ رجل يُلْقِي على محمَّدٍ هذه الرُّحَى فيقتله؟ فانبعث أشقاها عمرو بن جحاش لعنه الله، ونزل جبريل من عند رب العالمين على رسوله يعلمه بما هموا به، فنهض رسول الله ﷺ من وقته راجعاً إلى المدينة، ثم تجهَّز، وخرج بنفسه ليحربهم، فحاصرهم سِتَّ ليالٍ،

(١) أي: رفع يده جراح.

(٢) هي قرقرة الكدر: موضع بناحية المعدن قريب من الأرحضية، بينه وبين المدينة ثمانية برد، وقناة: وادٍ يأتي من الطائف، ويصب في الأرحضية وقرقرة الكدر.

فصل

(غزوة ذات الرقاع ومتى شرعت صلاة الخوف)

المُشْرِكُونَ: إِنَّ لَهُوْلَاءَ صَلَاةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ أُنْبَاءِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، أَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ، ثُمَّ مِيلُوا عَلَيْهِمْ مِثْلَةَ وَاحِدَةٍ، فَجَاءَ جَبْرِيلُ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَقْسِمَ أَصْحَابَهُ نِصْفَيْنِ... وذكر الحديث، قال الترمذي: حديث حسن صحيح [أحمد: ١٠٧٦٥، والترمذي: ٣٠٣٨].

ولا خِلَافَ بينهم أن غزوة عُصْفَانَ كانت بعد الخندق، وقد صَحَّ عنه أنه صَلَّى صلاة الخوف بِذَاتِ الرِّقَاعِ، فَعَلِمَ أنها بعد الخندق وبعد عُصْفَانَ، وَيُؤَيِّدُ هذا أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، وَأَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ شَهِدَا ذَاتَ الرِّقَاعِ، كما في «الصحيحين» عن أَبِي مُوسَى، أنه شهد غزوة ذات الرقاع، وأنَّهُمْ كَانُوا يَلْفُونَ عَلَى أَرْجُلِهِمُ الْخِرْقَ لَمَّا نَقَبَتْ [البخاري: ٤١٢٨، ومسلم: ٤٦٩٩].

وَأَمَّا أَبُو هُرَيْرَةَ، ففي «المسند» و«السنن» أَنَّ مِرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ سَأَلَهُ: هَلْ صَلَّيْتَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الْخَوْفِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مَتَى؟ قَالَ: عَامَ غَزْوَةِ نَجْدٍ [صحيح: أحمد: ٨٢٦٠، والنسائي: (١٧٢/٣)].

(ترجيح المصنف أن ذات الرقاع كانت بعد خيبر)

وهذا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ غَزْوَةَ ذَاتِ الرِّقَاعِ بعد خيبر (٢)، وَأَنَّ مِنْ جَعَلَهَا قبل الخندق، فَقَدْ وَهَمَ وَهَمًا ظَاهِرًا، وَلَمَّا لَمْ يَقْنَنَ بَعْضُهُمْ لهذا، ادَّعَى أَنَّ غَزْوَةَ ذَاتِ الرِّقَاعِ كانت مَرَّتَيْنِ، فَمَرَّةً قبل الخندق، ومَرَّةً بعدها عَلَى عَادَتِهِمْ فِي تَعْدِيدِ الْوَقَائِعِ إِذَا اخْتَلَفَتْ الْأَنَظَارُ أَوْ تَارِيخُهَا وَلَوْ صَحَّ لهذا الْقَائِلُ مَا ذَكَرَهُ، وَلَا يَصِحُّ، لَمْ يُمْكِنْ أَنْ يَكُونَ قَدْ صَلَّى بِهِمْ صَلَاةَ الْخَوْفِ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى لَمَّا تَقَدَّمَ مِنْ قِصَّةِ عُصْفَانَ، وَكَوْنِهَا بعد الخندق، وَلَهُمْ أَنْ يُجِيبُوا عَنْ هَذَا بِأَن تَأْخِيرَ يَوْمِ الْخَنْدَقِ جَائِزٌ غَيْرُ مَنْسُوخٍ، وَأَنَّ فِي حَالِ الْمَسَافَةِ يَجُوزُ تَأْخِيرُ الصَّلَاةِ إِلَى أَنْ يَتِمَّكَ مِنْ فَعْلِهَا، وَهَذَا أَحَدُ الْقَوْلَيْنِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَغَيْرِهِ، لَكِنْ لَا حِيلَةَ لَهُمْ فِي قِصَّةِ عُصْفَانَ أَنَّ أَوَّلَ صَلَاةٍ صَلَّاهَا لِلْخَوْفِ بِهَا، وَأَنَّهَا بعد الخندق.

ثُمَّ غَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِنَفْسِهِ غَزْوَةَ ذَاتِ الرِّقَاعِ، وَهِيَ غَزْوَةُ نَجْدٍ، فَخَرَجَ فِي جُمَادَى الْأُولَى مِنَ السَّنَةِ الرَّابِعَةِ، وَقِيلَ: فِي الْمَحْرَمِ، يُرِيدُ مُحَارِبَ، وَبَنِي ثَعْلَبَةَ بْنِ سَعْدِ بْنِ عَطْفَانَ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَى الْمَدِينَةِ أَبَا ذَرٍّ الْغِفَارِيَّ، وَقِيلَ: عُثْمَانُ بْنُ عَفَانَ، وَخَرَجَ فِي أَرْبَعِمِئَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَقِيلَ: سَبْعِمِئَةٍ، فَلَقِيَ جَمْعًا مِنْ عَطْفَانَ، فَتَوَاقَفُوا، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ، إِلَّا أَنَّهُ صَلَّى بِهِمْ يَوْمَئِذٍ صَلَاةَ الْخَوْفِ (١)، هَكَذَا قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ، وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ السَّيْرِ وَالْمَغَازِي فِي تَارِيخِ هَذِهِ الْغَزَاةِ، وَصَلَاةَ الْخَوْفِ بِهَا، وَتَلَقَّاهُ النَّاسُ عَنْهُمْ، وَهُوَ مُشْكِلٌ جَدًّا، فَإِنَّهُ قَدْ صَحَّ أَنَّ الْمَشْرِكِينَ حَبَسُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْخَنْدَقِ عَنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ [البخاري: ٤١١١، ومسلم: ١٦٢٢].

وَفِي «السنن» و«مسند أحمد»، وَالشَّافِعِيُّ رَحِمَهُمَا اللَّهُ، أَنَّهُمْ حَبَسُوهُ عَنْ صَلَاةِ الظُّهْرِ، وَالْعَصْرِ، وَالْمَغْرِبِ، وَالْعِشَاءِ، فَصَلَّاهُمْ جَمِيعًا [صحيح: أحمد: ١١١٩٨، والنسائي: (١٧/٢)]، وَذَلِكَ قَبْلَ نَزُولِ صَلَاةِ الْخَوْفِ، وَالْخَنْدَقُ بعد ذَاتِ الرِّقَاعِ سَنَةً خَمْسًا.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَوَّلَ صَلَاةٍ صَلَّاهَا لِلْخَوْفِ بِعُصْفَانَ، كَمَا قَالَ أَبُو عِيَّاشٍ الزُّرَقِيُّ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِعُصْفَانَ، فَصَلَّى بِنَا الظُّهْرَ، وَعَلَى الْمَشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، فَقَالُوا: لَقَدْ أَصَبْنَا مِنْهُمْ عَقْلَةً، ثُمَّ قَالُوا: إِنَّ لَهُمْ صَلَاةً بعدَ هَذِهِ هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَأُنْبَاءِهِمْ، فَتَرَكْتُ صَلَاةَ الْخَوْفِ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ، فَصَلَّى بِنَا الْعَصْرَ، فَفَرَقْنَا فِرْقَتَيْنِ... وَذَكَرَ الْحَدِيثَ، رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السَّنَنِ [صحيح: أحمد: ١٦٥٨٠].

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَازِلًا بَيْنَ ضَجَبَتَانِ وَعُصْفَانَ مُحَاصِرًا لِلْمَشْرِكِينَ، فَقَالَ

(١) البخاري (٤١٢٥) وإنما سميت هذه الغزوة «ذات الرقاع»، لأن أقدامهم رضي الله عنهم نقبت (رقت جلودها وتنفطت من المشي) وكانوا يلفون عليها الخرق، وهي غزوة محارب وغزوة بني ثعلبة، وغزوة بني أنمار، وغزوة صلاة الخوف لوقوعها فيها، وغزوة الأعاجيب لما وقع فيها من الأمور المعجبية.

(٢) ومن ذهب إلى أن غزوة ذات الرقاع كانت بعد خيبر: البخاري في صحيحه (٤١٢٥)، وابن كثير في سيرته (١٦١/٣)، وابن حجر في «الفتح».

ولقد أبعَدَ جِدًّا إذ جَوَّزَ أن تكون قَبْلَ بدرٍ، وهذا ظاهرُ الإحالة، ولا قَبْلَ أُحُدٍ، ولا قَبْلَ الخندق كما تقدم بيانه.

فصل

(غزوة بدر الآخرة)

وقد تقدَّم أن أبا سفيان قال عند انصرافه من أُحُد: مَوْعِدُكُمْ وَإِنَّا الْعَامَ الْقَابِلُ بِيَدْرِ، فلما كان شعبانُ، وقيل: ذو القعدة من العام القابل، خرج رسولُ الله ﷺ لِمَوْعِدِهِ فِي الْفَيْ وَخَمْسَمِئَةٍ، وَكَانَتْ الْخَيْلُ عَشْرَةَ أَفْرَاسٍ، وَحَمَلَ لِيَوَاءَهُ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَاسْتَخَلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَانْتَهَى إِلَى بَدْرِ، فَأَقَامَ بِهَا ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ يَنْتَظِرُ الْمُشْرِكِينَ، وَخَرَجَ أَبُو سَفْيَانَ بِالْمُشْرِكِينَ مِنْ مَكَّةَ، وَهُمْ أَلْفَانِ، وَمَعَهُمْ خَمْسُونَ فَرَسًا، فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَى مَرِّ الظُّهْرَانِ - عَلَى مَرَحَلَةٍ مِنْ مَكَّةَ - قَالَ لَهُمْ أَبُو سَفْيَانَ: إِنَّ الْعَامَ عَامُ جَذْبٍ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنِّي أَرْجِعُ بِكُمْ، فَانْصَرَفُوا رَاجِعِينَ، وَأَخْلَفُوا الْمَوْعِدَ، فَسُمِّيَتْ هَذِهِ بَدْرُ الْمَوْعِدِ، وَتُسَمَّى بَدْرُ الثَّانِيَةِ [ابن سعد (٥٩/٢)، والطبري (٤١/٣)].

فصل

في غزوة دُومَةَ الْجَنْدَلِ

وهي بضم الدال، وأما دُومة بالفتح، فمكان آخر. خرج إليها رسولُ الله ﷺ فِي ربيع الأول سنة خمس، وذلك أنه بلغه أن بها جمعاً كثيراً يُريدون أن يَذْنُبُوا مِنَ الْمَدِينَةِ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ خَمْسُ عَشْرَةَ لَيْلَةً، وَهِيَ مِنْ دَمَشَقٍ عَلَى خَمْسِ لَيَالٍ، فَاسْتَعْمَلَ عَلَى الْمَدِينَةِ سِبَاعَ بْنَ عُرْقُطَةَ الْغِفَارِي، وَخَرَجَ فِي الْفَيْ مِنْ الْمُسْلِمِينَ، وَمَعَهُ دَلِيلٌ مِنْ بَنِي عُذْرَةَ، يُقَالُ لَهُ: مَذْكُورٌ، فَلَمَّا دَنَا مِنْهُمْ، إِذَا هُمْ مُغْرِبُونَ، وَإِذَا آثَارُ النِّعَمِ وَالشَّاءِ فَهَجَمَ عَلَى مَا شِيتَهُمْ وَرَعَاتِهِمْ، فَأَصَابَ مِنْ أَصَابٍ، وَهَرَبَ مَنْ هَرَبَ، وَجَاءَ الْخَبَرُ أَهْلَ دُومَةِ الْجَنْدَلِ، فَتَرَفَّقُوا، وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِسَاحَتِهِمْ، فَلَمْ يَجِدْ فِيهَا أَحَدًا، فَأَقَامَ بِهَا أَيَّامًا، وَبَثَّ السَّرَايَا، وَفَرَّقَ الْجِيُوشَ، فَلَمْ يَصِبْ مِنْهُمْ أَحَدًا، فَرَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَوَادَعَ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ عُيَيْنَةَ بْنَ حِصْنٍ [ابن سعد (٦٢/٢)، والطبري (٤٣/٣)].

فَالصُّوَابُ تَحْوِيلُ غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ مِنْ هَذَا الْمَوْضِعِ إِلَى مَا بَعْدَ الْخَنْدَقِ، بَلْ بَعْدَ خَيْبَرَ، وَإِنَّمَا ذَكَرْنَاهَا ههنا تَقْلِيدًا لِأَهْلِ الْمَغَازِي وَالسِّيَرِ، ثُمَّ تَبَيَّنَ لَنَا وَهُمْهُمْ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

ومما يدلُّ على أن غزوة ذَاتِ الرِّقَاعِ بَعْدَ الْخَنْدَقِ، مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» عَنْ جَابِرٍ قَالَ: أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِذَاتِ الرِّقَاعِ، قَالَ: كُنَّا إِذَا أَتَيْنَا عَلَى شَجَرَةٍ ظَلِيلَةٍ، تَرَكْنَاهَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَسِيفُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُعْلَقٌ بِالشَّجَرَةِ فَأَخَذَ السَّيْفَ، فَاخْتَرَطَهُ، فَذَكَرَ الْقِصَّةَ، وَقَالَ: فَنُودِيَ بِالصَّلَاةِ، فَصَلَّى بِطَائِفَةٍ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ تَأَخَّرُوا، وَصَلَّى بِطَائِفَةٍ أُخْرَى رَكْعَتَيْنِ، فَكَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَرْبَعُ رَكْعَاتٍ، وَلِلْقَوْمِ رَكْعَتَانِ [البخاري (٤١٣٦)، ومسلم (١٩٤٩)].

وصلاة الخوف، إِنَّمَا شُرِعَتْ بَعْدَ الْخَنْدَقِ، بَلْ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا بَعْدَ عُسْفَانَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(قصة بيع جابر جملة منه ﷺ)

وقد ذكروا أن قصة بَيْعِ جَابِرٍ جَمْلَةً مِنَ النَّبِيِّ ﷺ كَانَتْ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ [ابن هشام (٥٤٨)]، وَقِيلَ: فِي مَرْجِعِهِ مِنْ تَبُوكَ، وَلَكِنْ فِي إِخْبَارِهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي تِلْكَ الْقِصَّةِ، أَنَّهُ تَزَوَّجَ امْرَأَةً ثَيِّبًا تَقُومُ عَلَى أُخَوَاتِهِ، وَتَكْفُلُهُنَّ إِشْعَارًا بِأَنَّهُ بَادِرٌ إِلَى ذَلِكَ بَعْدَ مَقْتَلِ أَبِيهِ، وَلَمْ يُؤَخَّرْ إِلَى عَامِ تَبُوكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(حرص الصحابة على إتمام الصلاة)

وَفِي مَرْجِعِهِمْ مِنْ غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ، سَبَّوْا امْرَأَةً مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَتَذَرَّ زَوْجَهَا أَلَّا يَرْجِعَ حَتَّى يُهْرِيقَ دَمًا فِي أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَجَاءَ لَيْلًا، وَقَدْ أَرَصَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلَيْنِ رِيئَةً لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ الْعَدُوِّ، وَهُمَا عِبَادُ بَنِي بَشَرَ، وَعَمَارُ بْنُ يَاسِرٍ، فَضْرَبَ عِبَادًا، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي بِسَهْمٍ، فَتَزَعَهُ، وَلَمْ يُبْطِلْ صَلَاتَهُ، حَتَّى رَشَقَهُ بِثَلَاثَةِ أَسْهُمٍ، فَلَمْ يَنْصَرِفْ مِنْهَا حَتَّى سَلِمَ، فَأَيْقَظَ صَاحِبَهُ فَقَالَ: سَبَحَانَ اللَّهِ، هَلَّا أَنْبَهْتَنِي؟ فَقَالَ: إِنِّي كُنْتُ فِي سُورَةٍ، فَكِرِهْتُ أَنْ أَقْطَعَهَا [أحمد: ١٤٧٠٤، ورجاله ثقات].

(الرد على موسى بن عقبة)

وقال موسى بن عقبة في «مغازيه»: «ولا يُدرى متى كانت هذه الغزوة قَبْلَ بَدْرِ، أَوْ بَعْدَهَا، أَوْ فِيمَا بَيْنَ بَدْرِ وَأَحُدٍ أَوْ بَعْدَ أَحُدٍ».

فصل

في غزوة المُرَيْسِيع^(١)

(غزوة بني المصطلق)

وكانت في شعبان سنة خمس^(٢)، وسببها: أنه لما بلغه ﷺ أن الحارث بن أبي ضرار سيّد بن المُصْطَلِق سار في قومه ومن قَدَرَ عليه من العرب، يُريدون حرب رسول الله ﷺ، فبعث بُرَيْدَةَ بْنَ الْحُصَيْبِ الْأَسْلَمِيَّ يَغْلُمُ لَهُ ذَلِكَ فَأَتَاهُمْ، ولقي الحارث بن أبي ضرار، وكلمه، ورجّع إلى رسول الله ﷺ، فأخبره خبرهم، فندب رسول الله ﷺ النَّاسَ فَاسْرِعُوا فِي الْخُرُوجِ، وخرج معهم جماعة من المنافقين، لم يخرجوا في غَزَاوَةٍ قَبْلَهَا، واستعمل على المدينة زيد بن حارثة، وقيل: أبا ذر، وقيل: ثُمَيْلَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ اللَّيْثِيُّ، وخرج يوم الإثنين لليلتين خلتا من شعبان، وبلغ الحارث بن أبي ضرار ومن معه مسير رسول الله ﷺ، وقتلته عينه الذي كان وجهه ليأتيه بخبره وخبر المسلمين، فخافوا خوفاً شديداً، وتفرّق عنهم مَنْ كان معهم من العرب، وانتهى رسول الله ﷺ إلى المُرَيْسِيعِ، وهو مكان الماء، فضرب عليه قَبْطُهُ، ومعه عائشة وأم سلمة، فتهيّؤوا لِلْقِتَالِ، وصَفَّ رسول الله ﷺ أصحابه، ورأى المهاجرين مع أبي بكر الصّدِّيق، ورأى الأنصار مع سعد بن عبادة، فترامَوْا بِالْبَيْلِ سَاعَةً، ثم أمر رسول الله ﷺ أصحابه، فحملوا حملة رجل واحد، فكانت النّصْرَةُ، وانهزم المشركون، وَقُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ، وَسَبَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النِّسَاءَ وَالذَّرَارِيَّ، وَالنَّعَمَ وَالشَّاءَ، وَلَمْ يَقْتُلْ مِنْ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا، هَكَذَا قَالَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بْنُ خُلْفٍ فِي «سِيرَتِهِ» وَغَيْرُهُ، وَهُوَ وَهْمٌ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ، وَإِنَّمَا أَغَارَ عَلَيْهِمْ عَلَى الْمَاءِ، فَسَبَى ذَرَائِبَهُمْ، وَأَمْوَالَهُمْ، كَمَا فِي «الصَّحِيحِ»: أَغَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ، وَهُمْ غَارُونَ، وذكر الحديث... [البخاري: ٢٥٤١].

(زواجه ﷺ من جويرية بنت الحارث)

وكان من جملة السبي جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ سَيِّدِ الْقَوْمِ، وقعت في سَهْمٍ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ، فكاتبها، فأدّى عنها رسول الله ﷺ، وتزوَّجها، فاعتقَ المسلمون بسبب هذا التزويج مئة أهل بيت من بني المُصْطَلِقِ قد أسلموا، وقالوا: أصهارُ رسول الله ﷺ [صحيح: أحمد: (٢٧٧/٦)].

(فقد عائشة العقد وما تلاه من أمور)

قال ابن سعد: وفي هذه الغزوة سقط عقد لعائشة، فاحتسبوا على طَلَبِهِ، فنزلت آية التيمم.

وذكر الطبراني في «معجمه» من حديث محمد بن إسحاق عن يحيى بن عبّاد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن عائشة قالت: «وَلَمَّا كَانَ مِنْ أَمْرِ عَقْدِي مَا كَانَ، قَالَ أَهْلُ الْإِفْكِ مَا قَالُوا، فخرجت مع النبي ﷺ فِي غَزَاوَةٍ أُخْرَى، فسقط أيضاً عقدي حتّى حَسَسَ التَّمَاسُ النَّاسَ، ولقيت من أبي بكر ما شاء الله، وقال لي: يَا بُيْتِي فِي كُلِّ سَفَرٍ تَكُونِينَ عَنَاءً وَبَلَاءً، وليس مع الناس ماء، فأنزل الله الرُّخْصَةَ فِي التَّيْمُمِ [البخاري: ٣٣٤، ومسلم: ١٧٠٢]. وهذا يدل على أن قصة العقد التي نزل التيمم لأجلها بعد هذه الغزوة، وهو الظاهر، ولكن فيها كانت قصة الإفك بسبب فقد العقد والتماسه، فالتبس على بعضهم إحدى القصتين بالأخرى، ونحن نشير إلى قصة الإفك.

(حادثة الإفك واستشارته ﷺ أصحابه هي هراها)

وذلك أن عائشة رضي الله عنها كانت قد خرّج بها رسول الله ﷺ معه في هذه الغزوة بقرعة أصابتها، وكانت تلك عادته مع نسائه، فلما رجعوا من الغزوة، نزلوا في بعض المنازل، فخرجت عائشة لحاجتها، ثم رجعت، ففقدت عقداً لأختها كانت أعارتها إياه، فخرجت تلتزمه في الموضع الذي فقدته فيه، فجاء الثَّقَفُ الَّذِينَ كَانُوا يَرْحَلُونَ هَوْدَجَهَا، فظنّوها فيه، فحملوا اليهودج، ولا يُنكرون خفته، لأنها رضي الله عنها كانت قِيَّةَ السِّنِّ، لم يغشها اللّحم الذي كان

(١) هو ماء لبني خزاعة بينه وبين القرع (موضع من ناحية المدينة) مسيرة يوم.

(٢) البخاري باب غزوة بني المصطلق عن موسى بن عقبة أنها سنة أربع، قال الحافظ: كذا ذكره البخاري وكأنه سبق قلم أراد أن يكتب سنة خمس، فكتب سنة أربع، في «الدلائل» وغيرهم سنة خمس.

الصَّدِيقَةُ حَبِيبَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَكْرَمُ عَلَى رِبِّهَا مِنْ أَنْ يَتَّبِلِيَهَا بِالْفَاحِشَةِ، وَهِيَ تَحْتَ رَسُولِهِ، وَمَنْ قَوِيَتْ مَعْرِفَتُهُ لِلَّهِ وَمَعْرِفَتُهُ لِرَسُولِهِ وَقَدَرَهُ عِنْدَ اللَّهِ فِي قَلْبِهِ، قَالَ كَمَا قَالَ أَبُو أَيُّوبَ وَغَيْرُهُ مِنْ سَادَاتِ الصَّحَابَةِ، لَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ [التَّوْر: ١٦] [البخاري: ٤١٤١].

وتأمل ما في تسميتهم لله، وتزويجهم له في هذا المقام من المعرفة به، وتزويجه عما لا يليق به، أن يجعل لرسوله وخليله وأكرم الخلق عليه امرأة خبيثة بغيًا، فمن ظن به سبحانه هذا الظن، فقد ظن به ظن السوء، وعرف أهل المعرفة بالله ورسوله أن المرأة الخبيثة لا تليق إلا بمثلها، كما قال تعالى: ﴿لَكَيْتَ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لِفِتْنَتُهُمْ لِيَرْثِ الرَّبُّ كُلَّ شَيْءٍ مِمَّا يَسْجُدُونَ لَهُ﴾ [التَّوْر: ٢٦]، فقطعوا قطعاً لا يشكون فيه أن هذا بُهْتَانٌ عظيم، وفريّة ظاهرة.

(الحكم من توفقه ﷺ في امرها)

فإن قيل: فما بال رسول الله ﷺ توقّف في امرها، وسأل عنها، وبخّ، واستشار، وهو أعرف بالله، وبمنازلته عنده، وبما يليق به، وهَلَا قَالَ: سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عظيم، كما قاله فضلاء الصحابة؟

(الامتحان له ﷺ)

فالجواب أن هذا من تمام الحكيم الباهرة التي جعل الله هذه القصة سبباً لها، وامتحاناً وابتلاءً لرسوله ﷺ، ولجميع الأمة إلى يوم القيامة، ليرفع بهذه القصة أقواماً، ويضع بها آخرين، ويزيد الله الذين اعتدوا هُدًى وإيماناً، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً، واقتضى تمام الامتحان والابتلاء أن يحس عن رسول الله ﷺ الوحي شهراً في شأنها، لا يوحى إليه في ذلك شيء لستم حكمته التي قدرها وقضاها، وتظهر على أكمل الوجوه، ويزداد المؤمنون الصادقون إيماناً وثباتاً على العدل والصدق، وحسن الظن بالله ورسوله، وأهل بيته، والصديقين من عباده، ويزداد المنافقون إفكاً ونفاقاً، ويظهر لرسوله وللمؤمنين سرائرهم، ولتتم العبودية المرادة من الصديقة وأبويها، وتتم نعمة الله عليهم، ولتشتد الفاقة والرغبة منها وأبويها، والافتقار إلى الله والذل له، وحسن الظن به، والرجاء له، ولينقطع

يُفْقَلُهَا، وأيضاً، فإن النفر لما تساعدوا على حمل اليهودج، لم يُنْكِرُوا خِفَّتَهُ، ولو كان الذي حمّله واحداً أو اثنين، لم يَخَفْ عليهما الحال، فرجعت عائشة إلى منازلهم، وقد أصابت العقد، فإذا ليس بها داع ولا مُجِيب، فقعدت في المنزل، وظنّت أنهم سيفقدونها، فيرجعون في طلبها، والله غاليب على أمره، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ قَوْفَ عَرْشِهِ كَمَا يَشَاءُ، فغلبتها عيناها، فنامت، فلم تستيقظ إلا بقول صفوان بن المُعْطَل: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، زوجة رسول الله ﷺ. وكان صفوان قد عرس في أخريات الجيش، لأنه كان كثير النوم، كما جاء عنه في «صحيح أبي حاتم» وفي «السنن»: فلما رآها عرفها، وكان يراها قبل نزول الحجاب، فاسترجع، وأناخ راحلته، فقرّبها إليها، فركبتها، وما كلمها كلمة واحدة، ولم تسمع منه إلا استرجاعه، ثم سار بها يَقُودُهَا حَتَّى قَدِمَ بِهَا، وقد نزل الجيش في نحر الظهيرة، فلما رأى ذلك الناس، تكلم كل منهم بشاكرته، وما يليق به، ووجد الخبيث عدو الله ابن أبي منقّس، فتنفس من كرب النفاق والحسد الذي بين ضلوعه، فجعل يستحكي الإفك، ويستوشيه، ويُشِيعه، ويُدِيعه، ويجمعه، ويُفَرِّقه، وكان أصحابه يتقرّبون به إليه، فلما قَدِمُوا المدينة، أفاض أهل الإفك في الحديث، ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم، ثم استشار أصحابه في فراقها، فأشار عليه علي رضي الله عنه أن يفارقها، ويأخذ غيرها تلويحاً لا تصريحاً، وأشار عليه أسامة وغيره بإمسكها، وألا يلتفت إلى كلام الأعداء، فعلي لما رأى أن ما قيل مشكوك فيه، أشار بترك الشك والرّيب إلى اليقين ليتخلص رسول الله ﷺ من الهم والغم الذي لحقه من كلام الناس، فأشار بحسم الداء، وأسامة لما علم حب رسول الله ﷺ لها ولأبيها، وعلم من عفتها وبرائها، وخصانتها وديانتها ما هي فوق ذلك، وأعظم منه، وعرف من كرامة رسول الله ﷺ على ربه ومنزلته عنده، ودفاعه عنه، أنه لا يجعل ربة بيته وحييته من النساء، وبنت صديقه بالمزلة التي أنزلها به أرباب الإفك، وأن رسول الله ﷺ أَكْرَمُ عَلَى رَبِّهِ، وأعز عليه من أن يجعل تحته امرأة بغيًا، وعلم أن

رجاؤها من المخلوقين، وتيسر من حصول النصرة والفرج على يد أحد من الخلق، ولهذا وقت هذا المقام حقّه، لما قال لها أبواها: قومي إليه، وقد أنزل الله عليه براءتها، فقالت: والله لا أقوم إليّه، ولا أحمّد إلا الله، هو الذي أنزل براءتي.

(حبس الوحي لتمحيص القضية وإزدياد حاجته ﷺ له)

وأيضاً فكان من حكمه حبس الوحي شهراً، أن القضية مُحَصَّتْ وتمَحَصَّتْ، واستشرقت قلوب المؤمنين أعظم استشراف إلى ما يُوحيه الله إلى رسوله فيها، وتطلعت إلى ذلك غاية التطلع، فوافي الوحي أحوج ما كان إليه رسول الله ﷺ، وأهل بيته، والصديق وأهله، وأصحابه والمؤمنون، فورد عليهم ورود الغيث على الأرض أحوج ما كانت إليه، فوق منهم أعظم موقع وألطفه، وسروا به أنتم السرور، وحصل لهم به غاية الهناء، فلو أطلع الله رسوله على حقيقة الحال من أول وهلة، وأنزل الوحي على الفور بذلك، لفاتت هذه الحكم وأضعافها، بل أضعاف أضعافها.

(إظهار الله منزلته ﷺ وأهل بيته عنده)

وأيضاً فإن الله سبحانه أحب أن يظهر منزلة رسوله وأهل بيته عنده، وكرامتهم عليه، وأن يخرج رسوله عن هذه القضية، ويتولى هو بنفسه الدفاع والمنافعة عنه، والرد على أعدائه، وذمهم وعييبهم بأمر لا يكون له فيه عمل، ولا يُنسب إليه، بل يكون هو وحده المتولي لذلك، الثائر لرسوله وأهل بيته.

(ثبوت براءة عائشة الصديقة)

وأيضاً فإن رسول الله ﷺ كان هو المقصود بالأذى، والتي ربيّت زوجته، فلم يكن يليق به أن يشهد ببراءتها مع علمه، أو ظنه الظنّ المقارب للعلم ببراءتها، ولم يظنّ بها سوءاً قط، وحاشاه، وحاشاها، ولذلك لما استعذر من أهل الإفك، قال: «مَنْ يَغْذِرُنِي^(١) فِي رَجُلٍ يَلْقَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِيَ»، فكان عنده من القرائن التي تشهد ببراءة

الصديقة أكثر مما عند المؤمنين، ولكن لإكمال صبره وثباته، ورفقه، وحسن ظنه بربه، وثقته به، وفي مقام الصبر والثبات، وحسن الظن بالله حقّه، حتى جاءه الوحي بما أقر عينه، وسر قلبه، وعظم قدره، وظهر لأئمة احتفال ربه به، واعتناؤه بشأنه.

(حد القذف والسب في عدم حد ابن أبي)

ولما جاء الوحي ببراءتها، أمر رسول الله ﷺ بمن صرح بالإفك، فحدوا ثمانين ثمانين، ولم يحدّ الخيث عبد الله بن أبي، مع أنه رأس أهل الإفك، فقليل: لأن الحدود تخفيف عن أهلها وكفارة، والخيث ليس أهلاً لذلك، وقد وعدّه الله بالعذاب العظيم في الآخرة، فيكفيه ذلك عن الحد، وقيل: بل كان يستوشي الحديث ويجمعه ويحكيه، ويُخرجه في قوالب من لا يُنسب إليه، وقيل: الحد لا يثبت إلا بالإقرار، أو بيّنة، وهو لم يقر بالقذف، ولا شهد به عليه أحد، فإنه إنما كان يذكره بين أصحابه، ولم يشهدوا عليه، ولم يكن يذكره بين المؤمنين.

وقيل: حد القذف حقّ الآدمي، لا يُستوفى إلا بمطالبتة، وإن قيل: إنه حقّ الله، فلا بُدّ من مطالبة المقدوف، وعائشة لم تطالب به ابن أبي.

وقيل: بل ترك حدّه لمصلحة هي أعظم من إقامته، كما ترك قتله مع ظهور نفاقه، وتكليمه بما يُوجب قتله مراراً، وهي تأليف قومه، وعدم تنفيرهم عن الإسلام، فإنه كان مطاعاً فيهم، رئيساً عليهم، فلم تؤمن إثارة الفتنة في حدّه، ولعله ترك لهذِهِ الوجوه كلّها.

(من حد في حادثة الإفك)

فجلد مسطح بن أثانة، وحسان بن ثابت، وحنّة بنت جحش، وهؤلاء من المؤمنين الصادقين تطهيراً لهم وتكفيراً، وترك عبد الله بن أبي إذاً، فليس هو من أهل ذلك.

فصل

(قوة إيمان عائشة)

ومن تأمل قول الصديق وقد نزلت براءتها، فقال

(١) أي: من يقوم بعذري إن كافأته على سوء صنيعه فلا يلومني.

إسحاق: اختلفوا في ذلك، والأولى أن تكون المريسيع قبل الخندق، وعلى هذا، فلا إشكال، ولكن الناس على خلافه، وفي حديث الإفك، ما يدل على خلاف ذلك أيضاً، لأن عائشة قالت: إن القضية، كانت بعدما أنزل الحجاب^(١)، وآية الحجاب نزلت في شأن زينب بنت جحش، وزينب إذ ذاك كانت تحتة، فإنه ﷺ سألها عن عائشة، فقالت: «أحبي سَمْعِي وَبَصْرِي» قالت عائشة: وهي التي كانت تُساميني من أزواج النبي ﷺ.

وقد ذكر أربابُ التواريخ أن تزويجه زينب كان في ذي القعدة سنة خمس، وعلى هذا فلا يصح قول موسى بن عقبة، وقال محمد بن إسحاق: إن غزوة بني المُصطلق كانت في سنة ست بعد الخندق، وذكر فيها حديث الإفك، إلا أنه قال عن الزهري، عن عُبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن عائشة، فذكر الحديث، فقال: فقام أسيدُ بن الحضير، فقال: أنا أعزُّكَ منه، فردَّ عليه سعدُ بن عباد، ولم يذكر سعد بن معاذ. قال أبو محمد بنُ حزم: وهذا هو الصحيح الذي لا شك فيه، وذكر سعد بن معاذ وهم، لأنَّ سعد بن معاذ مات إثر فتح بني قريظة بلا شك، وكانت في آخرِ ذي القعدة من السنة الرابعة، وغزوة بني المُصطلق في شعبان من السنة السادسة بعد سنة وثمانية أشهر من موت سعد، وكانت المقالة بين الرجلين المذكورين بعد الرجوع من غزوة بني المُصطلق بأزيد من خمسين ليلة^(٢).

قلت: الصحيح: أن الخندق كان في سنة خمس كما سيأتي.

فصل

(مسروق سمع من أم رومان وماتت بعد النبي ﷺ)

ومما وقع في حديث الإفك، أن في بعض طرق البخاري، عن أبي وائل عن مسروق، قال: سألت أم رومان عن حديث الإفك، فحدَّثتني [البخاري: ٢٣٨٨]، قال غير واحد: وهذا غلط ظاهر، فإن أم رومان ماتت على عهد رسول الله ﷺ، ونزل رسول الله ﷺ

لها أبوها: فُومي إلى رسول الله ﷺ، فقالت: «والله لا أقومُ إليَّ، ولا أخمدُ إلا الله»، علم معرفتها، وقوة إيمانها، وتوليها النعمة لرَبِّها، وإفراذه بالحمد في ذلك المقام، وتجريدُها التوحيد، وقوة جأشها، وإدلالها ببراءة ساحتها، وأنها لم تفعل ما يُوجب قيامها في مقام الراغب في الصلح، الطالب له، وثقتها بمحبة رسول الله ﷺ لها قالت ما قالت، إدلالاً للحبيب على حبيبه، ولا سيما في مثل هذا المقام الذي هو أحسنُ مقامات الإدلال، فوضعت موضعه، ولله ما كان أحبَّها إليه حين قالت: لا أحمدُ إلا الله، فإنه هو الذي أنزل براءتي، والله ذلك الثبات والرزائفة منها، وهو أحبُّ شيء إليها، ولا صبرَ لها عنه، وقد تنكر قلبُ حبيبها لها شهراً، ثم صادفت الرضى منه والإقبال، فلم تُباوِز إلى القيام إليه، والسرور برضاه وقربه مع شدة محبتها له، وهذا غاية الثبات والقوة.

فصل

(الاختلاف فيما أجاب طلبه ﷺ بعذره)

في رجل بلغه أنه في أهل بيته وكذا في متى

كانت غزوة بني المُصطلق ونزول الحجاب)

وفي هذه القضية أنَّ النبي ﷺ لما قال: «مَنْ يَغْدِرْني في رَجُلٍ بَلَّغْني أَدَاهُ في أَهْلِي؟» قام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل، فقال: أنا أعزُّكَ مِنهُ يا رسول الله، وقد أشكل هذا على كثير من أهل العلم، فإنَّ سعد بن معاذ لا يختلِف أحدٌ من أهل العلم، أنه توفي عقيبَ حكمه في بني قريظة عقيبَ الخندق، وذلك سنة خمس على الصحيح، وحديث الإفك لا شك أنه في غزوة بني المُصطلق هذه، وهي غزوة المريسيع، والجمهورُ عندهم أنها كانت بعد الخندق سنة ست، فاختلِف طرقُ الناس في الجواب عن هذا الإشكال، فقال موسى بن عقبة: غزوة المريسيع كانت سنة أربع قبلَ الخندق، حكاه عنه البخاري، وقال الواقدي: كانت سنة خمس، قال: وكانت قريظة والخندق بعدها، وقال القاضي إسماعيل بن

(١) قال الحافظ في «الفتح» (٧/٢٣٢) والحجاب كان في ذي القعدة سنة أربع عند جماعة.

(٢) «فتح الباري» باب غزوة بني المُصطلق.

الفتح، ولهذا قال له النبي ﷺ، وقد شَفَعَ إلى بَريرة: أن تُراجِعَ زوجها، فأبت أن تُراجِعَهُ: «يا عَبَّاسُ! أَلَا تَعَجَّبُ مِنْ بَغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا وَحُبِّ لَهَا» [البخاري: ٥٢٨٣].

ففي قصة الإفك، لم تكن بَريرة عند عائشة، وهذا الذي ذكره، إن كان لازماً فيكون الوهم من تسميته الجارية بَريرة، ولم يُقَلْ له علي: سَلْ بَريرة، وإنما قال: فسَلِ الجارية تصدُك، فظن. بعض الرواة أنها بَريرة، فسمّاها بذلك، وإن لم يلزم بأن يكون طلب مغِيث لها استمر إلى بعد الفتح، ولم يَأْس منها، زال الإشكال^(١)، والله أعلم.

فصل

(قول ابن أبي)

لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعر منهن الأذل

وفي مرجعهم من هذه الغزوة، قال رأس المنافقين ابنُ أبي: لئن رجعنا إلى المدينة، ليُخْرِجَنَّ الأعرُ منها الأذلَّ، فبلغها زيدُ بن أرقم رسولُ الله ﷺ، وجاء ابنُ أبي يعتلِزُ ويحلفُ ما قال، فَسَكَتَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَ زَيْدٍ فِي سُورَةِ الْمَنَافِقِينَ، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ بِأَذَنِهِ، فَقَالَ: أَتُبَشِّرُ فَقَدْ صَدَّقَكَ اللَّهُ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا الَّذِي وَفَى لِلَّهِ بِأَذَنِهِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَرَّ عِبَادُ بَنِ بَشَرٍ، فَلْيَضْرِبْ عُنُقَهُ، فَقَالَ: «فَكَيْفَ إِذَا تَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يُقْتَلُ أَصْحَابَهُ» [البخاري: ٤٩٠٥، ومسلم: ٦٥٨٢].

فصل

في غزوة الخندق

وكانت في سنة خمس من الهجرة في شوال أصحَّ القولين، إذ لا خلاف أن أحدًا كانت في شوال سنة ثلاث، وواعد المشركون رسولَ الله ﷺ في العام المُقْبِلِ، وهو سنة أربع، ثم أخلفوه لأجل جَذْبِ تلك السنة، فرجعوا، فلما كانت سنة خمس، جاؤوا لِحَرْبِهِ، هذا قولُ أهلِ السَّيَرِ والمغازي. وخالفهم موسى بنُ عقبة وقال: بل كانت سنة

في قبرها، وقال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى امْرَأَةٍ مِنْ الْحَوَرِ الْعَيْنِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذِهِ» [ابن سعد (٢٧٧/٨)] قالوا: ولو كان مسروق قَدِمَ المدينة في حياتها وسألها، للقي رسولُ الله ﷺ وسمع منه، ومسروق إنما قَدِمَ المدينة بعد موتِ رسولِ الله ﷺ، قالوا: وقد روى مسروق، عن أمِّ رومان حديثاً غير هذا، فأرسل الرواية عنها، فظنَّ بعضُ الرواة، أنه سمع منها، فحمل هذا الحديث على السماع، قالوا: ولعل مسروقاً قال: سئلت أم رومان فتصحفت على بعضهم: سألت، لأن من الناس من يكتب الهمزة بالالف على كل حال، وقال آخرون: كل هذا لا يُرَدُّ الرواية الصحيحة التي أدخلها البخاري في «صحيحه» وقد قال إبراهيم الحربي وغيره: إن مسروقاً سألها، وله خمس عشرة سنة، ومات وله ثمان وسبعون سنة، وأمُّ رومان أقدمُ مَنْ حَدَّثَ عَنْهُ، قالوا: وأما حديث موتها في حياة رسولِ الله ﷺ، ونزوله في قبرها، فحديث لا يَصِحُّ، وفيه علتان تمنعان صحته، إحداهما: رواية علي بن زيد بن جدعان له، وهو ضعيف الحديث لا يحتج بحديثه، والثانية: أنه رواه عن القاسم بن محمد، عن النبي ﷺ، والقاسم لم يُدْرِكْ زَمَنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فكيف يقدم هذا على حديث إسناده كالشمس يرويه البخاري في «صحيحه» ويقول فيه مسروق: سألت أم رومان، فحدثني، وهذا يرد أن يكون اللفظ: سئلت، وقد قال أبو نعيم في كتاب «معركة الصحابة»: قد قيل: إن أم رومان توفيت في عهد رسولِ الله ﷺ، وهو وهم.

فصل

(هل الجارية الشاهدة على عائشة هي بَريرة؟)

ومما وقع في حديث الإفك أن في بعض طرقه: أن علياً قال للنبي ﷺ لما استشاره: سَلِ الْجَارِيَةَ تصدُك، فدعا بَريرة، فسألها، فقالت: ما عَلِمْتُ عليها إلا ما يَعلَمُ الصائغُ على النَّبْرِ، أو كما قالت، وقد استشكل هذا، فإن بَريرة إنما كانت وعَتَتْ بعد هذا بمدة طويلة، وكان العباسُ عمُّ رسولِ الله ﷺ إذ ذاك في المدينة، والعباسُ إنما قَدِمَ المدينة بعد

(١) وقد أجاب غيره بأنه كانت تخدم عائشة بالأجرة، وهي في رق موالها قبل وقوع قصتها في المكاتب.

أربع، قال أبو محمد بن حزم: وهذا هو الصحيح الذي لا شك فيه، واحتج عليه بحديث ابن عمر في «الصحيحين» أنه عُرِضَ على النبي ﷺ يوم أُحُد، وهو ابن أربع عشرة سنة، فلم يُجْزَء، ثم عُرِضَ عليه يوم الخندق، وهو ابن خمس عشرة سنة، فأجازه [البخاري: ٤٠٩٧، ومسلم: ٤٨٣٧].

قال: فصَحَّ أنه لم يكن بينهما إلا سنة واحدة^(١).

وأجيب عن هذا بجوابين، أحدهما: أن ابن عمر أخبر أن النبي ﷺ، ردَّه لما استصفره عن القتال، وأجازه لما وصل إلى السن التي رآه فيها مطيقاً، وليس في هذا ما يفي بتجاوزها بسنة أو نحوها. الثاني: أنه لعلَّه كان يوم أُحُد في أول الرابعة عشرة ويوم الخندق في آخر الخامسة عشرة.

فصل

وكان سبب غزوة الخندق أن اليهود لما رأوا انتصار المشركين على المسلمين يوم أُحُد، وعلموا بمعاودة أبي سفيان لغزو المسلمين، فخرج لذلك، ثم رجع للعام المقبل، خرج أشراقتهم، كسلام بن أبي الحقيق، وسلام بن مشكم، وكنانة بن الربيع وغيرهم إلى قريش بمكة يحرضونهم على غزو رسول الله ﷺ، ويؤيئونهم عليه، ووعدهم من أنفسهم بالنصر لهم، فأجابتهم قريش، ثم خرجوا إلى عطفان فدعَّوهم، فاستجابوا لهم، ثم طافوا في قبائل العرب، يدعونهم إلى ذلك، فاستجاب لهم من استجاب، فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان في أربعة آلاف، ووافقتهم بنو سليم بمر الظهران، وخرجت بنو أسد، وقزارة، وأشجع، وبنو مرة، وجاءت عطفان وقائدهم غيبة بن حصين، وكان من وافى الخندق من الكفار عشرة آلاف.

(رأي سلمان بحفر الخندق)

فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم إليه، استشار الصحابة، فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر خندق

يحول بين العدو وبين المدينة، فأمر به رسول الله ﷺ، فبادر إليه المسلمون، وعمل بنفسه فيه، وبادروا هجوم الكفار عليهم، وكان في حفره من آيات ثبوته، وأعلام رسالته ما قد تواتر الخبر به، وكان حفر الخندق أمام سلع، وسلخ: جبل خلف ظهور المسلمين، والخندق بينهم وبين الكفار.

وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين، فتحصن بالجبل من خلفه، وبالخندق أمامهم.

وقال ابن إسحاق: خرج في سبعمئة، وهذا غلط من خروجه يوم أُحُد.

وأمر النبي ﷺ بالنساء والذراري، فجعلوا في أطام المدينة، واستخلف عليها ابن أم مكتوم.

(نقض بني قريظة العهد بتحريض من حبي بن اخطب)

وانطلق حبي بن أخطب إلى بني قريظة، فدنا من حصنهم، فأبى كعب بن أسد أن يفتح له، فلم يزل يكلمه حتى فتح له، فلما دخل عليه، قال: لقد جئتكم بعز الدهر، جئتكم بقريش وعطفان وأسد على قادتها لحرب محمد، قال كعب: جئتنا والله بذلك الدهر، وبجهاهم^(٢) قد هراق مأو، فهو يزعد ويترق ليس فيه شيء، فلم يزل به حتى نقض العهد الذي بينه وبين رسول الله ﷺ، ودخل مع المشركين في محاربتهم، فسر بذلك المشركون، وشرط كعب على حبي أنه إن لم يظفروا بمحمد أن يجيء حتى يدخل معه في حصنه، فيصيبه ما أصابه، فأجابه إلى ذلك، ووفى له به.

وبلغ رسول الله ﷺ خبر بني قريظة ونقضهم للعهد، فبعث إليهم السعديين، وخوات بن جبير، وعبد الله بن رواحة ليعرفوا: هل هم على عهدهم، أو قد نقضوه؟ فلما دنوا منهم، فوجدوهم على أخبث ما يكون، وجاهروهم بالسب والعداوة، ونالوا من رسول الله ﷺ، فانصرفوا عنهم، ولحقوا إلى رسول الله ﷺ لحنأ يخبرونه أنهم قد نقضوا العهد،

(١) «جوامع السيرة» ص (١٥٨)، ونقل ابن كثير في كتاب «الفصول» (٥٦) قول ابن حزم هذا واحتجاه بحديث ابن عمر، وعلق عليه بقوله: هذا الحديث مخرج في «الصحيحين» وليس يدل على ما ادعاه ابن حزم، لأن مناط إجازة الحرب كانت عنده ﷺ خمس عشرة سنة.

(٢) هو السحاب الرقيق الذي لا ماء فيه.

وغدروا، فعظم ذلك على المسلمين، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «اللَّهُ أَكْبَرُ أَبْيَرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ»، واشتدَّ البلاءُ، ونَجَمَ النَّفَاقُ، واستأذن بعض بني حارثة رسول الله ﷺ في الذهاب إلى المدينة وقالوا: «لَا يُونَا عَوْدٌ وَمَا هِيَ بِمَوَدَّةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا» [الأحزاب: ١٣] وهم بنو سلمة بالفشل، ثم ثبت الله الطائفتين.

وأقام المشركون محاصرين رسول الله ﷺ شهراً، ولم يكن بينهم قتال لأجل ما حال الله به من الخندق بينهم وبين المسلمين، إلا أن قوارس من قريش، منهم عمرو بن عبد ود وجماعة معه أقبلوا نحو الخندق، فلما وقفوا عليه، قالوا: إن هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها، ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق، فافتحموه، وجالت بهم خيلهم في السبحة بين الخندق وسلع، ودعوا إلى البراز، فانتدب لعمرو علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فبارزه، فقتله الله على يديه، وكان من شجعان المشركين وأبطالهم، وانهزم الباقيون إلى أصحابهم، وكان شيعار المسلمين يومئذ حتم لا ينصرون [حسن: أحمد: ١٨٥٤٩، وأبو داود: ٢٥٩٧، والترمذي: ١٦٨٢].

(همه ﷺ يصلح غطفان على ذلك ثمار المدينة)

ولما طالت هذه الحال على المسلمين، أراد رسول الله ﷺ أن يصلح عيينة بن حصن، والحارث بن عوف رئيسي غطفان، على ثلث ثمار المدينة، وينصرفا بقومهما، وجرت المرافضة على ذلك، فاستشار السعدين في ذلك، فقالا: يا رسول الله! إن كان الله أمرك بهذا، فسمعاً وطاعة، وإن كان شيئاً تصنعه لنا، فلا حاجة لنا فيه، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرئ أو بيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك، نعطيهما أموالنا؟ والله لا نعطيهما إلا السيف، فصوب رأيهما، وقال: «إِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ أَصْنَعُهُ لَكُمْ لَمَّا رَأَيْتُمُ الْعَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْمٍ وَاحِدَةٍ».

(خدعة نعيم بن مسعود)

للمشركين ويهود ونصر الله للمسلمين)

ثم إن الله عز وجل - وله الحمد - صنع أمراً من

عنده، خذل به العدو، وهزم جموعهم، وقلَّ حُدُومُ، فكان مما هيا من ذلك، أن رجلاً من غطفان يقال له: نعيم بن مسعود بن عامر رضي الله عنه، جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! إني قد أسلمت، فمُرني بما شئت، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا أَنْتَ رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذَلْ عَنَّا مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّ الْحَرْبَ خَدْعَةٌ»، فذهب من فوره ذلك إلى بني قريظة، وكانت عشيراً لهم في الجاهلية، فدخل عليهم، وهم لا يعلمون بإسلامه، فقال: يا بني قريظة، إنكم قد حاربتم محمداً، وإن قريشاً إن أصابوا فرصة انتهبوها، وإلا انشسروا إلى بلادهم راجعين، وتركوكم ومحمداً، فانتقم منكم، قالوا: فما العمل يا نعيم؟ قال: لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهاين، قالوا: لقد أشرت بالراي، ثم مضى على وجهه إلى قريش، فقال لهم: تعلمون وُدِّي لكم، ونصحي لكم، قالوا: نعم. قال: إن يهود قد تدبروا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه، وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهاين يدفعونها إليه، ثم يمالئونكم عليكم، فإن سألوكم رهاين، فلا تعطوهم، ثم ذهب إلى غطفان، فقال لهم مثل ذلك، فلما كان ليلة السبت من شوال، بعثوا إلى اليهود: إنا لسنّا بأرض مقام، وقد هلك الكراع والخف، فانهضوا بنا حتى نناجز محمداً، فأرسل إليهم اليهود: إن اليوم يوم السبت، وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أخذنا فيه، ومع هذا فإننا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهاين، فلما جاءتهم رسلهم بذلك، قالت قريش: صدقكم والله نعيم، فبعثوا إلى يهود: إنا والله لا نُرسل إليكم أحداً، فاخرجوا معنا حتى نناجز محمداً، فقالت قريظة: صدقكم والله نعيم، فتخاذل الفريقان، وأرسل الله على المشركين جنداً من الريح، فجعلت تَفُوضُ خيامهم، ولا تدع لهم قدراً إلا كُفَّانها، ولا طَبْناً، إلا قَلَعَتْ، ولا يَبْقَرُ لهم قرار، وجند الله من الملائكة يزلزلونهم، ويلقون في قلوبهم الرُّعْبَ والخوفَ، وأرسل رسول الله ﷺ خديفة بن اليمان يأتيه بخبرهم، فوجدهم على هذه الحال، وقد نهضوا للرحيل، فرجع إلى رسول الله ﷺ، فأخبره برحيل القوم، فأصبح رسول الله ﷺ، وقد ردَّ الله

غُرَان^(١) وادٍ من أودية بلادهم، وهُوَ بين أَمَج وعُسفان حيث كان مُصَابُ أصحابه، فترَحَّم عليهم ودعا لهم، وَسَمِعَتْ بنو لحيان، فهِرَبُوا فِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ، فلم يقدر مِنْهُمْ عَلَى أَحَدٍ، فَأَقَامَ يَوْمِينَ بِأَرْضِهِمْ، وَبِعَثَ السَّرَايَا، فلم يَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ، فَسَارَ إِلَى عُسفان، فَبِعَثَ عَشْرَةَ فَوَارِسَ إِلَى كُرَاعِ الْعَوِيمِ لِيَسْمَعَ بِهِ قُرَيْشٌ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَكَانَتْ غِيَبَتُهُ عَنْهَا أَرْبَعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً [ابن سعد (٧٨/٢)، والطبري (٥٩/٣)].

فصل

في سرية نجد

(إسلام ثمانية من أئال)

ثُمَّ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْلًا قِتَلَ نَجْدًا، فَجَاءَتْ بَثْمَامَةُ بْنُ أَثَالِ الْحَنَفِيِّ سَيِّدَ بَنِي حَنِيفَةَ، فَرِيضَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، وَمَرَّ بِهِ، فَقَالَ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثَمَامَةُ؟» فَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ! إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تَنْعِمَ تَنْعِمَ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ، فَكُنْ تُعْطِ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَتَرَكَهُ، ثُمَّ مَرَّ بِهِ مَرَّةً أُخْرَى، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَرَدَّ عَلَيْهِ كَمَا رَدَّ عَلَيْهِ أَوَّلًا، ثُمَّ مَرَّ مَرَّةً ثَلَاثَةً، فَقَالَ: «أَطْلِقُوا ثَمَامَةَ» فَأَطْلَقُوهُ، فَذَهَبَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَغَسَلَ، ثُمَّ جَاءَهُ، فَاسْلَمَ وَقَالَ: وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ دِينَ أَبْغَضَ عَلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الْأَدْيَانِ إِلَيَّ، وَإِنْ خِيلَكَ أَخَذْتَنِي، وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمَرَةَ، فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَعتَمِرَ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى قُرَيْشٍ، قَالُوا: صَبَوْتَ يَا ثَمَامَةُ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ، وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَا وَاللَّهِ لَا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةٌ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [البخاري: ٤٣٧٢]، وَكَانَتِ الْيَمَامَةُ رِيفَ مَكَّةَ، فَانْصَرَفَ إِلَى بِلَادِهِ، وَمَنَعَ الْحَمْلَ إِلَى مَكَّةَ حَتَّى جَهِدَتْ قُرَيْشٌ، فَكَتَبُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَسْأَلُونَهُ بِأَرْحَامِهِمْ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى ثَمَامَةَ يُخَلِّيَ إِلَيْهِمْ حَمْلَ الطَّعَامِ، فَفَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

عَدُوَّهُ بِغِيظِهِ، لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا، وَكَفَاهُ اللَّهُ قِتَالَهُمْ، فَصَدَقَ وَعْدَهُ، وَأَعَزَّ جَنْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، فَدَخَلَ الْمَدِينَةَ وَوَضَعَ السَّلَاحَ، فَجَاءَهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ يَغْتَسِلُ فِي بَيْتِ أُمِّ سَلَمَةَ، فَقَالَ: أَوْضَعْتُمُ السَّلَاحَ، إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَمْ تَضَعْ بَعْدَ أَسْلِحَتِهَا، انْهَضْ إِلَيَّ غَزْوَةً هَؤُلَاءِ، يَغْنِي بَنِي قُرَيْظَةَ، فَتَنَادَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كَانَ سَامِعًا مُطِيعًا، فَلَا يُصَلِّينَ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ» [البخاري: ٤١١٩، ومسلم: ٤٦٠٢]، فَخَرَجَ الْمُسْلِمُونَ سِرَاعًا، وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمَرَ بَنِي قُرَيْظَةَ مَا قَدِمْنَاهُ، وَاسْتَشْهَدَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَيَوْمَ قُرَيْظَةَ نَحْوَ عَشْرَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ [ابن سعد (٦٥/٢)، والطبري (٤٣/٣)].

فصل

(اغتيال عبد الله بن أبي نسيه أبا رافع)

وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ أَبَا رَافِعٍ كَانَ مِمَّنْ أَلْبَسَ الْأَحْزَابَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَمْ يَقْتُلْ مَعَ بَنِي قُرَيْظَةَ كَمَا قُتِلَ صَاحِبُهُ حُبَيْبٌ بْنُ أَخْطَبٍ، وَرَغِبَ الْخَزْرَجُ فِي قَتْلِهِ مَسَاوَاةً لِلأَوْسِ فِي قَتْلِ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، وَكَانَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - قَدْ جَعَلَ هَذَيْنِ الْحَيِّينِ يَتَصَاوِلَانِ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْخَيْرَاتِ، فَاسْتَأْذَنُوهُ فِي قَتْلِهِ، فَأَذِنَ لَهُمْ، فَانْتَدَبَ لَهُ رَجُلًا كُلُّهُمْ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ، وَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَتِيكٍ، وَهُوَ أَمِيرُ الْقَوْمِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَنَسٍ، وَأَبُو قَتَادَةَ، الْحَارِثُ بْنُ رَبِيعٍ، وَمَسْعُودُ بْنُ سَنَانَ، وَخُزَاعِيٌّ بْنُ أَسُودٍ، فَسَارُوا حَتَّى أَتَوْهُ فِي خَيْرٍ فِي دَارِهِ، فَزَلُّوا عَلَيْهِ لَيْلًا، فَقَتَلُوهُ، وَرَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكُلُّهُمْ ادَّعَى قَتْلَهُ، فَقَالَ: «أُرُونِي أَشْيَاقَكُمْ» فَلَمَّا أَرَوْهُ إِيَّاهَا، قَالَ لِسَيْفِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَنَسٍ، «هَذَا الَّذِي قَتَلَهُ أَرَى فِيهِ أَثَرَ الطَّعَامِ» [البخاري: ٤٠٤٠].

فصل

(غزوة بني لحيان)

ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى بَنِي لَحِيَانَ بَعْدَ قُرَيْظَةَ بِسِتَّةِ أَشْهُرٍ لِيَغْزُوهُمْ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَتْنِي رَجُلٍ، وَأَظْهَرَ أَنَّهُ يُرِيدُ الشَّامَ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، ثُمَّ أَسْرَعَ السَّيْرَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى بَطْنِ

(١) بضم الغين والتخفيف: اسم وادي الأزرق خلف أَمَج، وقال المجد: علم مرتجل لواء ضخم وراء وادي ساية (من أعمال المدينة) وفيه كانت منازل بني لحيان.

فصل

في غزوة الغابة

«صحيحه» عن سلمة: «حتى ما خلق الله من شيء من لقاح رسول الله ﷺ إلا خلّفه وراء ظهري، واستلبت منهم ثلاثين بُردة» [البخاري: ٤١٩٤، ومسلم: ٤٦٧٧].

فصل

(كانت هذه الغزوة بعد

الحنبيبة وتوهم من قال بخلاف ذلك)

وهذه الغزوة كانت بعد الحُدَيْبِيَّةِ، وقد وَهَمَ فيها جماعةٌ من أهل المغازي والسِّيرِ، فذكروا أنها كانت قَبْلَ الحُدَيْبِيَّةِ، والدليلُ على صِحِّهِ ما قلناه: ما رواه الإمام أحمد، والحسن بن سفيان، عن أبي بكر بن أبي شيبة، قال: حدثنا هاشم بن القاسم، قال: حدثنا عكرمة بن عمار، قال: حدثني إياس بن سلمة، عن أبيه، قال: قَدِمْتُ المَدِينَةَ زَمَنَ الحُدَيْبِيَّةِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قال: «خَرَجْتُ أَنَا وَرَبَاحُ بَغْرَسَ لَطْلَحَةَ أَنْذِيوْهُمُ الْإِبِلَ، فَلَمَّا كَانَ بِغَلَسَ، أَغَارَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَيْنَةَ عَلَى إِبِلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَفَقَلَ رَاعِيَهَا» وساق القصة، رواها مسلم في «صحيحه» [٤٦٧٨] بطولها.

ووهم عبد المؤمن بن خلف في «سيرته» في ذلك وهماً يَبِينُ، فذكر غزاة بني لحيان بعد قريظة بسة أشهر، ثم قال: لما قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ المَدِينَةَ، لم يَمَكْتُ إِلَّا لِيَالِي حَتَّى أَغَارَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَيْنَةَ وَذَكَرَ القِصَّةَ، والذي أَغَارَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، وقيل: أبوه عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حَذِيفَةَ بْنِ بَدْرٍ، فَأَيْنَ هَذَا مِنْ قَوْلِ سلمة: قَدِمْتُ المَدِينَةَ زَمَنَ الحُدَيْبِيَّةِ؟ [ابن سعد (٢/٨٠)، وابن كثير (٣/٢٨٦)].

(سرايا سنة ست وسرية عكاشة بن محصن إلى الفجر)

وقد ذكر الواقدي عدة سرايا في سنة ست من الهجرة قبل الحُدَيْبِيَّةِ، فقال: بعث رسول الله ﷺ في ربيع الأول - أو قال: الآخر - سنة ست من قدومه المَدِينَةَ عُكَّاشَةَ بْنَ مَحْصَنٍ الْأَسَدِيَّ فِي أَرْبَعِينَ رَجُلًا إِلَى الْقَمَرِ، وفيهم ثابت بن أقرم، وسبّاع بن وهب،

ثم أَغَارَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ الْفَزَارِيِّ فِي بَنِي عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عَطْفَانَ عَلَى لِقَاحِ النَّبِيِّ ﷺ الَّتِي بِالْغَابَةِ^(١)، فَاسْتَأْفَقَهَا، وَقَتَلَ رَاعِيَهَا وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ عُسْفَانَ، وَاحْتَمَلُوا أَمْرَاتِهِ، قَالَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بْنِ خَلْفٍ: وَهُوَ ابْنُ أَبِي ذَرٍّ، وَهُوَ غَرِيبٌ جَدًّا، فَجَاءَ الصَّرِيحُ، وَنُودِيَ: يَا خَيْلَ اللَّهِ ارْكَعِي، وَكَانَ أَوَّلُ مَا نُودِيَ بِهَا، وَرَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُقْتَعًا فِي الْحَدِيدِ، فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ قَدِمَ إِلَيْهِ الْمُقَدَّادُ بْنُ عَمْرٍو فِي الدَّرْعِ وَالْمَغْفَرِ، فَعَقَّدَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اللِّوَاءَ فِي رُوحِهِ، وَقَالَ: «امْضِ حَتَّى تَلْحَقَكَ الْخَيْوَلُ، إِنَّا عَلَى أَثَرِكَ»، وَاسْتَخَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ، وَأَدْرَكَ سَلْمَةَ ابْنَ الْأَكْوَعِ الْقَوْمِ، وَهُوَ عَلَى رَجْلَيْهِ، فَجَعَلَ يَرْمِيهِمُ بِالنَّبْلِ وَيَقُولُ:

خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ الْأَكْوَعِ

وَالْيَوْمُ يَوْمُ الرُّضْعِ^(٢)

حتى انتهى إلى ذي قَرْدٍ وقد استنقذ منهم جميع اللِّقَاحِ وَثَلَاثِينَ بُرْدَةً، قَالَ سلمة: فَلَحِقْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَالْخَيْلُ عِشَاءً، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنْ الْقَوْمُ عِطَاشٌ، فَلَوْ بَعَثْتَنِي فِي مِثْرَةٍ رَجُلٍ اسْتَنْقَذْتُ مَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ السَّرْحِ، وَأَخَذْتُ بِأَعْنَاقِ الْقَوْمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَلَكْتُ فَاسْجِخْ^(٣)، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّهُمْ الْآنَ لَيَقْرُونَ فِي عَطْفَانَ».

وذهب الصريحُ بالمدينة إلى بني عمرو بن عوف، فجاءت الأمدادُ ولم تزل الخيلُ تأتي، والرجالُ على أقدامهم وعلى الإبل، حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ بِذِي قَرْدٍ.

قال عبد المؤمن بن خلف: فاستنقذوا عَشْرَ لِقَاحٍ، وَأَفْلَتَ الْقَوْمُ بِمَا بَقِيَ، وَهُوَ عَشْرٌ.

قلت: وهذا غلطٌ بَيِّنٌ، وَبِذَلِكَ فِي «الصحيحين»: أَنَّهُمْ اسْتَنْقَذُوا اللَّقَاحَ كُلَّهُ، وَلَفْظُ مُسْلِمٍ فِي

(١) موضع قرب المدينة من ناحية الشام، فيه أموال لأهل المدينة.

(٢) يعني يوم هلاك اللثام.

(٣) بهززة قطع وجيم مكسورة: أي: فارق وأحسن، والسجاجة: السيرة، أي: لا تأخذ بالشدّة بل ارفق، وأحسن العفو، فقد تحققت النكاية في العدو.

فأَجَدَ السَّيْرَ، وَنَزَرَ الْقَوْمَ بِهِمْ، فَهَرَبُوا، فَنَزَلَ عَلَى مِيَاهِهِمْ، وَبَعَثَ الطَّلَاحَ فَأَصَابُوا مَنْ دَلَّهْمُ عَلَى بَعْضِ مَا شِئْتُمْ، فَوَجَدُوا مَتًى بَعِيرَ، فَسَاقَوْهَا إِلَى الْمَدِينَةِ [ابن سعد (٨٤/٢)].

(سرية أبي عبيدة إلى ذي القصة)

وبعث سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى ذي القصة^(١)، فساروا ليلتهم مشاةً، ووافوها مع الصُّبح، فأغاروا عليهم، فأعجزوهم هرباً في الجبال، وأصابوا رجلاً واحداً فأسلم.

(سرية محمد بن مسلمة)

وبعث محمد بن مسلمة في ربيع الأول في عشرة نفر سريةً، فكَتَمَ الْقَوْمَ لَهُمْ حَتَّى نَامُوا، فَمَا شَعَرُوا إِلَّا بِالْقَوْمِ، فَقَتَلَ أَصْحَابُ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمَةَ، وَأَفْلَتَ مُحَمَّدٌ جَرِيحاً [ابن سعد (٨٥/٢)].

(سرية زيد إلى الجموم)

وفي هذه السنة - وهي سنة ست - كانت سرية زيد بن حارثة بالجموم، فأصاب امرأةً من مُزينة يقال لها: حليلة، فدلَّتهم على محلَّة من محالِّ بني سُليم، فأصابوا نَعَمًا وشاةً وأسرى، وكان في الأسرى زوجٌ حليلة، فلما قَتَلَ زيد بن حارثة بما أصاب، وَقَبَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْمُزِينَةِ نَفْسَهَا وَزَوْجَهَا [ابن سعد (٨٦/٢)].

(سرية زيد إلى الطرف)

وفيها - يعني: سنة ست - كانت سرية زيد بن حارثة إلى الطَّرفِ^(٢) في جُمَادَى الْأُولَى إلى بني ثعلبة في خمسة عشر رجلاً، فهربت الأعرابُ، وخافوا أن يكونَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَارَ إِلَيْهِمْ، فَأَصَابَ مِنْ نَعِيمِهِمْ عِشْرِينَ بَعِيرًا، وَغَابَ أَرْبَعَ لَيَالٍ.

(سرية زيد إلى العيص)

وإجارة زينب بنت النبي ﷺ أبا العاص وهو على شركه) وفيها كانت سرية زيد بن حارثة إلى العيص^(٣) في جُمَادَى الْأُولَى، وفيها: أُخِذَتِ الْأَمْوَالُ الَّتِي كَانَتْ مَعَ أَبِي الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ زَوْجِ زَيْنَبَ مَرْجَعَهُ مِنْ

الشَّامِ، وَكَانَتْ أَمْوَالُ قُرَيْشٍ، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ حَزْمٍ، قَالَ: خَرَجَ أَبُو الْعَاصِ بْنُ الرَّبِيعِ تَاجِرًا إِلَى الشَّامِ، وَكَانَ رَجُلًا مَأْمُونًا، وَكَانَتْ مَعَهُ بَضَائِعُ لِقْرِيشَ، فَأَقْبَلَ قَافِلًا فَلَقِيَتْهُ سَرِيَّةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَأْفَوْا عِيْرَهُ، وَأُفْلِتَ، وَقَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا أَصَابُوا، فَقَسَمَهُ بَيْنَهُمْ، وَاتَى أَبُو الْعَاصِ الْمَدِينَةَ، فَدَخَلَ عَلَى زَيْنَبَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَجَارَ بِهَا، وَسَأَلَهَا أَنْ تَطْلُبَ لَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَدَّ مَالِهِ عَلَيْهِ، وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ السَّرِيَّةَ، فَقَالَ: «إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ مَنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ، وَقَدْ أَصَبْتُمْ لَهُ مَالًا وَلَغَيْرِهِ، وَهُوَ فِي اللَّهِ الَّذِي أَفَاءَ عَلَيْكُمْ، فَإِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تَرُدُّوهُ عَلَيْهِ، فَافْعَلُوا، وَإِنْ كَرِهْتُمْ، فَأَنْتُمْ وَحَقُّكُمْ»، فَقَالُوا: بَلْ نَرُدُّهُ عَلَيْهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَرَدُّوا عَلَيْهِ مَا أَصَابُوا، حَتَّى إِنْ الرَّجُلَ لِيَأْتِيَ بِالشَّنِّ، وَالرَّجُلَ بِالْإِدَاوَةِ، وَالرَّجُلَ بِالْحَبْلِ، فَمَا تَرَكُوا قَلِيلًا أَصَابُوهُ وَلَا كَثِيرًا إِلَّا رَدُّوهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ، فَأَدَّى إِلَى النَّاسِ بِضَائِعَهُمْ، حَتَّى إِذَا فَرَغَ، قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! هَلْ بَقِيَ لَأَحَدٍ مِنْكُمْ مَعِيَ مَالٌ لَمْ أَرُدِّهِ عَلَيْهِ؟ قَالُوا: لَا، فَجَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، قَدْ وَجَدْنَاكَ وَفِيًّا كَرِيمًا، فَقَالَ: أَمَا وَاللَّهِ مَا مَنَعَنِي أَنْ أُسَلِّمَ قَبْلَ أَنْ أَقْدِمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا تَخَوُّفًا أَنْ تَظُنُّوا أَنِّي إِنَّمَا أَسْلَمْتُ لِأَذْهَبَ بِأَمْوَالِكُمْ، فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

(رواية موسى بن عقبة لقصة أبي العاص)

وهذا القول من الواقدي وابن إسحاق يدل على أن قصة أبي العاص كانت قَبْلَ الْحُدُوبِ، وَإِلَّا فَبَعْدَ الْهُدْنَةِ لَمْ تَتَعَرَّضْ سَرَايَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِقُرَيْشٍ، وَلَكِنْ زَعَمَ مُوسَى بْنُ عَقِبَةَ، أَنَّ قِصَّةَ أَبِي الْعَاصِ كَانَتْ بَعْدَ الْهُدْنَةِ، وَأَنَّ الَّذِي أَخَذَ الْأَمْوَالَ أَبُو بَصِيرٍ وَأَصْحَابُهُ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُنَحَازِينَ بِسَيْفِ الْبَحْرِ، وَكَانَتْ لَا تَمُرُّ بِهِمْ عِيرٌ لِقْرِيشَ إِلَّا أَخَذُوهَا، هَذَا قَوْلُ الزَّهْرِيِّ.

(١) موضع بينه وبين المدينة عشرون ميلاً من طريق الريلة، ابن سعد (٨٦/٢).

(٢) بفتح الطاء وكسر الراء: ماء على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة، ابن سعد (٨٧/٢).

(٣) موضع على أربع ليالٍ من المدينة، ابن سعد (٨٧/٢).

الشام زَمَن الهُدنة، وسياقُ الزهري للقصة يَبينُ ظاهر أنها كانت في زمن الهُدنة.

(سرية زيد إلى حسمى وهي بعد الحديبية)

قال الواقدي: وفيها أقبل دِخْيَةُ بن خليفة الكلبي من عند قيصر، وقد أجازته بمالٍ وكسوة، فلما كان بِحِصْمِي^(١)، لقيه ناسٌ من جُذَام، ففقطعوا عليه الطريق، فلم يتركوا معه شيئاً، فجاء رسولُ الله ﷺ قبل أن يدخلَ بيته فأخبره، فبعثَ رسولُ الله ﷺ زيد بن حارثة إلى حسمى، قلت: وهذا بعد الحديبية بلا شك.

(سرية علي إلى هذك)

قال الواقدي: وخرج علي في مئة رجل إلى فَذَك إلى حَيٍّ من بني سعد بن بكر، وذلك أنه بَلَغَ رسولُ الله ﷺ أن بها جمعاً يُريدون أن يَمُدُّوا يهودَ خيبر، فسار إليهم، يسيرُ الليل، ويَكْمُنُ النهار، فأصاب عيناً لهم، فأقرَّ له أنهم بعثوه إلى خيبر، فعرَضُوا عليهم نصرتهم على أن يجعلوا لهم ثَمَرَ خيبر^(٢).

(سرية ابن عوف إلى دومة الجندل)

قال: وفيها سريةُ عبد الرحمن بن عوف إلى دُومة الجندل في شعبان، فقال له رسولُ الله ﷺ: «إن أطاعوك، فتزَوَّج ابنةَ ملكهم» فأسلم القوم، وتزوَّج عبد الرحمن ثَمَاضِرَ بنتَ الأَضْبَغ، وهي أم أبي سلمة^(٣)، وكان أبوها رأسهم وملكهم.

(سرية كرز إلى المرتنين وكانت قبل الحديبية)

قال: وكانت سريةُ كُرَز بن جابر الفهري إلى العَرَيْنَيْنِ الذين قَتَلُوا راعيَ رسولِ الله ﷺ، واستأقوا الإبلَ في شوال سنةِ بَيْت، وكانت السريةُ عشرين فارساً [ابن سعد (١/٩٣)].

قلت: وهذا يُدلُّ على أنها كانت قبلَ الحديبية كانت في ذِي القَعْدَةِ كما سيأتي، وقصة العَرَيْنَيْنِ في

قال موسى بن عقبة عن ابن شهاب في قصة أبي بصير: ولم يزل أبو جندل، وأبو بصير وأصحابُهما الذين اجتمعوا إليهما هنالك، حتَّى مرَّ بهم أبو العاص بن الربيع، وكانت تحتَه زينبُ بنتُ رسولِ الله ﷺ في نفر من قريش، فأخذوهم وما معهم، وأسروهم، ولم يقتلوا منهم أحداً ليصهر رسولُ الله ﷺ من أبي العاص، وأبو العاص يومئذ مشركٌ، وهو ابنُ أخت خديجة بنت خويلد لأبيها وأُمها، وخَلَّوْا سبيلَ أبي العاص، فَقَدِمَ المدينة على امرأته زينب، فكلما أبو العاص في أصحابه الذين أسرهم أبو جندل وأبو بصير، وما أخذوا لهم، فكلَّمَت زينبُ رسولَ الله ﷺ في ذلك، فزعموا أنَّ رسولَ الله ﷺ قام، فخطب الناسَ، فقال: «إِنَّا صَاحَرْنَا أَنَاساً، وَصَاحَرْنَا أبا العاص، فَنِعْمَ الصَّهْرُ وَجَدْنَاهُ، وَإِنَّهُ أَقْبَلَ مِنَ الشَّامِ فِي أَصْحَابٍ لَهُ مِنْ قُرَيْشٍ، فَأَخَذَهُمْ أَبُو جَنْدَلٍ وَأَبُو بَصِيرٍ، وَأَخَذُوا مَا كَانَ مَعَهُمْ، وَلَمْ يَقْتُلُوا مِنْهُمْ أَحَداً، وَإِنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ سَأَلَتْنِي أَنْ أُجِيرَهُمْ، فَهَلْ أَنتُمْ مُجِيرُونَ؟» أبا العاص وأصحابه؟ فقال الناسُ: نعم، فلما بلغَ أبا جندل وأصحابه قولُ رسولِ الله ﷺ في أبي العاص وأصحابه الذين كانوا عنده مِنَ الأسرى، ردَّ إليهم كُلَّ شيءٍ أخذ منهم، حتَّى العقال، وكتب رسولُ الله ﷺ إلى أبي جندل وأبي بصير، يأمرهم أن يَمُدُّوا عليه، ويأمرُ مَنْ معهما مِنَ المسلمين أن يَزْجِعُوا إلى بلادهم وأهليهم، وألا يتعرَّضُوا لأحدٍ من قريش وعيرها، فَقَدِمَ كتابُ رسولِ الله ﷺ على أبي بصير، وهو في الموت، فمات وهو على صدره، ودفنه أبو جندل مكانه، وأقبل أبو جندل على رسولِ الله ﷺ، وأومَتْ عيرُ قريش، وذكر باقي الحديث.

(ترجيح المصنف لرواية ابن عقبة)

وقول موسى بن عقبة أصوب، وأبو العاص إنما أسلم زمنَ الهُدنة، وقُريش إنما انبسطت عيرُها إلى

(١) هي وراء وادي القرى، ابن سعد (٢/٨٨).

(٢) ابن سعد (٢/٨٩، ٩٠)، وفذك: على يومين من المدينة.

(٣) قيل: اسمه كتيبة، وقيل: عبد الله، وقيل: إسماعيل التابعي الكبير الحافظ الثقة مات سنة (٩٤هـ)، وأخرج حديثه الجماعة، وانظر خبر هذه السرية في ابن سعد (٢/٨٩) وشرح المواهب (٢/١٦٠، ١٦٢).

«الصحيحين» من حديث أنس، أن رهطاً من عُكْلٍ وَعُرَيْنَةَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّا أَهْلُ ضَرْعٍ، وَلَمْ نَكُنْ أَهْلَ رِفٍّ، فَاسْتَوْخَمْنَا الْمَدِينَةَ، فَأَمَرَ لَهُمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذَوْدٍ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا فِيهَا، فَيَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا، فَلَمَّا صَحُّوا، قَتَلُوا رَاعِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَاسْتَأْفَوْا الذَّوْدَ، وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ.

وفي لفظ لمسلم: سَمَلُوا عَيْنَ الرَّاعِي، فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي طَلَبِهِمْ، فَأَمَرَ بِهِمْ، فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَتَرَكَهُمْ فِي نَاحِيَةِ الْحَرَّةِ حَتَّى مَاتُوا [البخاري: ٤١٩٢، ومسلم: ٤٣٥٣].

وفي حديث أبي الزُّبَيْر، عن جابر، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ عَمَّ عَلَيْهِمُ الطَّرِيقَ، وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ أَضْيَقَ مِنْ مَسْكِ جَمَلٍ»، فَعَمَّى اللَّهُ عَلَيْهِمُ السَّبِيلَ، فَأَذْرَكُوا، وَذَكَرَ الْقِصَّةَ.

(الفقه المستنبط من حديث العرنين)

وفيها من الفقه جوازُ شُرْبِ أَبْوَالِ الْإِبِلِ، وَطَهَارَةُ بَوْلِ مَأْكُولِ اللَّحْمِ، وَالْجَمْعُ لِلْمَحَارِبِ إِذَا أَخَذَ الْمَالُ وَقَتْلَ بَيْنَ قُطْعِ يَدَيْهِ وَرَجْلَيْهِ وَقَتْلَهُ، وَأَنَّهُ يَفْعَلُ بِالْجَانِي كَمَا فَعَلَ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا سَمَلُوا عَيْنَ الرَّاعِي، سَمَلُوا أَعْيُنَهُمْ، وَقَدْ ظَهَرَ بِهَذَا أَنَّ الْقِصَّةَ مُحْكَمَةٌ لَيْسَتْ مَنْسُوخَةٌ، وَإِنْ كَانَتْ قَبْلَ أَنْ تَنْزَلَ الْحُدُودُ، وَالْحُدُودُ نَزَلَتْ بِتَقْرِيرِهَا لَا بِإِبْطَالِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فصل

في قصة الحديبية^(١)

(متى حدثت)

قال نافع: كانت سنةً سيِّئَةً في ذي القعدة، وهذا هو الصحيح، وهو قولُ الزهري، وقتادة، وموسى بن عتبة، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم.

وقال هشام بن عروة، عن أبيه: خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية في رمضان، وكانت في شوال، وهذا وهم، وإنما كانت غزاة الفتح في رمضان، وقد قال أبو الأسود عن عروة: إنها كانت في ذي القعدة على الصواب.

(كم اعتمر ﷺ في حياته)

وفي «الصحيحين» عن أنس، أن النبي ﷺ اعتمر أربعَ عُمَرٍ، كُلُّهُنَّ فِي ذِي الْقَعْدَةِ، فَذَكَرَ مِنْهَا عُمَرَةُ الْحَدِيبِيَّةَ [البخاري: ١٧٧٨].

(كم كان معه ﷺ)

وكان معه ألفٌ وخمسمئة، هكذا في «الصحيحين» [البخاري: ٤٨٤٠، ومسلم: ٤٨١٢] عن جابر، وعنه فيهما: «كانوا ألفاً وأربعمئة» [البخاري: ٤١٥٤، ومسلم: ٤٨٠٧] وفيهما: عن عبد الله بن أبي أوفى: «كُنَّا أَلْفًا وَثَلَاثُمِئَةً» [البخاري: ٤١٥٥، ومسلم: ٤٨١٥]، قال قتادة: قُلْتُ لِسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ: كَمْ كَانَ الَّذِينَ شَهِدُوا بَيْعَةَ الرُّضْوَانِ؟ قَالَ: خَمْسَ عَشْرَةَ مِئَةً. قَالَ: قُلْتُ: فَإِنْ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: كَانُوا أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِئَةً، قَالَ: يَرَحِمُهُمُ اللَّهُ أَوْهَمَ هُوَ، حَدَّثَنِي أَنَّهُمْ كَانُوا خَمْسَ عَشْرَةَ مِئَةً^(٢). قُلْتُ: وَقَدْ صَحَّ عَنْ جَابِرِ الْقَوْلَانِ، وَصَحَّ عَنْهُ أَنَّهُمْ نَحَرُوا عَامَ الْحَدِيبِيَّةِ سَبْعِينَ بَلَدَةً، الْبَدَنَةُ عَنْ سَبْعَةٍ، فَقِيلَ لَهُ: كَمْ كُنْتُمْ؟ قَالَ: أَلْفًا وَأَرْبَعُمِئَةً بِخَيْلِنَا^(٣) وَرَجُلِنَا، يَعْنِي قَارِسَهُمْ وَرَاجِلَهُمْ، وَالْقَلْبُ إِلَى هَذَا أَطْلَى، وَهُوَ قَوْلُ الْإِمَامِ بْنِ طَارِبٍ، وَسَخَّلَ بَنِي يَسَارٍ، وَسُلَمَةُ بْنُ الْأَكُوْعِ فِي أَصْحَابِ الرُّوَاتَيْنِ، وَقَوْلُ الْمُسَيَّبِ بْنِ حَزْنٍ، قَالَ شُعْبَةُ: عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ الشَّجَرَةِ أَلْفًا وَأَرْبَعُمِئَةً.

وغلط غلطاً يَبِيْناً مَنْ قَالَ: كَانُوا سَبْعِمِئَةً^(٤)، وَغَلْظُهُ أَنَّهُمْ نَحَرُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ بَلَدَةً، وَالْبَدَنَةُ قَدْ جَاءَ

(١) بضم الحاء وفتح الدال، ويتخفيف الياء: قرية متوسطة ليست بالكبيرة، سميت بئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله ﷺ تحتها، وهي على تسعة أميال من مكة، وانظر خبرها، البخاري (٤١٦٣).

(٢) الإسماعيلي فيما ذكره الحافظ في «الفتح» (٣٤١/٧)، البخاري (٤١٥٢).

(٣) أحمد (١٥٢٥٩)، وابن سعد (١٠٠/٢)، ومسلم (٣١٨٥)، ومالك (٤٨٦/٢) عن جابر بن عبد الله قال: نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية البلدة عن سبعة، والبقرة عن سبعة.

(٤) وهو قول ابن إسحاق، ولم يوافقه أحد عليه.

إجراؤها عن سبعة وعن عشرة، وهذا لا يدل على ما قاله هذا القائل، فإنه قد صرح بأن البدنة كانت في هذه العمرة عن سبعة، فلو كانت السبعون عن جميعهم، لكانوا أربعمئة وتسعين رجلاً، وقد قال في تمام الحديث بعينه: إنهم كانوا ألفاً وأربعمئة.

فصل

(تقليده رحمه الله الهدي بذى الحليفة وبعثه عيناً له ابن خزاعة إلى قريش واستشارته رحمه الله أصحابه فيما يفعله ورؤيتهم لخالد بن الوليد وفراره منهم وبروك القصواء ونزولهم بالحليبية)

فلما كانوا بذى الحليفة، قلّد رسول الله ﷺ الهدي وأشعره، وأحرم بالعمرة، وبعث بين يديه عيناً له من خزاعة يُخبره عن قريش، حتى إذا كان قريباً من عُسفان، أتاه عيّنُه، فقال: إني تركت كعب بن لؤي قد جمعوا لك الأحابيش^(١)، وجمعوا لك جموعاً، وهم مقاتلون وصادقون عن البيت ومانعوك، واستشار النبي ﷺ أصحابه، وقال: أترون أن نيميل إلى ذراري هؤلاء الذين أعانوهم فتصيبهم، فإن قعدوا، قعدوا مؤثرون محروبين، وإن يجيؤوا تكُنْ عُقفاً قطعها الله، أم ترون أن نؤم البيت، فمن صدنا عنه قاتلناه؟ فقال أبو بكر: الله ورسوله أعلم، إنما جئنا معتمرين، ولم نجئ لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت، قاتلناه، فقال النبي ﷺ: «قروا إذا» فراحوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغميم^(٢) في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين» فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يُهبط عليهم منها^(٣)، بركت به راحلته، فقال الناس: حُلْ حُلْ، فالتحت،

فقالوا: خلّات القصواء، خلّات القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خلّات القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرّما لله، إلا أعطيتهم إياها»، ثم زجرها، فوقبت به، فعذل حتى نزل بأقصى الحديبية على نمد قليل الماء، إنما يتبرّضه الناس تبرّضاً^(٤)، فلم يلبثه الناس أن نزحوه، فشكروا إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، قال: فوالله ما زال يحيش لهم بالرّي، حتى صدرُوا عنه [البخاري: ٢٧٣١-٢٧٣٢].

(إرسال عثمان إلى قريش)

وفرّعت قريش لنزوله عليهم، فأحب رسول الله ﷺ أن يبعث إليهم رجلاً من أصحابه، فدعا عمر بن الخطاب ليعثه إليهم، فقال: يا رسول الله! ليس لي بمكة أحد من بني كعب يفضّل لي إن أوديت، فأرسل عثمان بن عفان، فإن عشيرته بها، وإنه مبلغ ما أردت، فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان، فأرسله إلى قريش، وقال: أخبرهم أنا لم تأت لقتال، وإنما جئنا عُمّاراً، وادعهم إلى الإسلام، وأمره أن يأتي رجلاً بمكة مؤمناً، ونساء مؤمنات، فيدخل عليهن، ويشرهن بالفتح، ويخبرهن أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة، حتى لا يستخفى فيها بالإيمان، فانطلق عثمان، فمرّ على قريش ببلدح، فقالوا: أين تريد؟ فقال: بعثي رسول الله ﷺ أَدْعُوكم إلى الله وإلى الإسلام، وأخبركم أنا لم تأت لقتال، وإنما جئنا عُمّاراً، فقالوا: قد سمعنا ما تقول، فأنفذ لحاجتك، وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص، فرحب به، وأسرج فرسه، فحمل عثمان على الفرس، وأجاره، وأردفه أبان حتى جاء مكة، وقال المسلمون قبل أن

(١) جمع أحبوش: وهم بنو الهون بن خزيمه بن مدركة، وبنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وبنو المصطلق من خزاعة كانوا تحالفوا مع قريش، قيل تحت جبل يقال له: الحبش أسفل مكة، وقيل: سموا بذلك لتجشهم، أي: تجمعهم، والتجش: التجمع.

(٢) الظاهر أنه كان قريباً من الحديبية، فهو غير كراع الغميم الذي بين مكة والمدينة وأما هذا، فقد قال ابن حبيب: هو قريب من مكان بين رابع والجحفة، والطليعة مقدمة الجيش، والفترة: الغبار الأسود.

(٣) وهي ثنية الجرار: وهي طريق في الجبل تشرف على الحديبية، وقوله: حُلْ كلمة تقال للناقة إذا تركت السير، وقوله: «التحت» بفتح الهمة، وتشديد الحاء من الإلحاح يعني تبادت على عدم القيادة، وقوله: خلّات، أي: حرنت وبركت.

(٤) أي يأخذونه قليلاً قليلاً، والتبرّض: السير من العطاء.

يَرْجِعْ عُمَانُ: خَلَصَ عُمَانُ قَبْلَنَا إِلَى الْبَيْتِ وَطَافَ بِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَظْنُّهُ طَافَ بِالْبَيْتِ وَنَحْنُ مَحْضُورُونَ»، فَقَالُوا: وَمَا يَمْنَعُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ خَلَصَ؟ قَالَ: «ذَاكَ عَلَنِي بِهِ، أَلَّا يَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ حَتَّى نَطُوفَ مَعَهُ».

(بيعة الرضوان)

واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصلح، فرمى رجلٌ من أحد الفريقين رجلاً من الفريق الآخر، وكانت معركة، وتراموا بالنبل والحجارة، وصاح الفريقان كلاهما، وارتهن كل واحدٍ من الفريقين يمين فيهم، وبلغ رسولُ الله ﷺ أن عثمانَ قد قُتِلَ، فدعا إلى البيعة، فثار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة، فبايعوه على ألا يَفِرُّوا، فأخذ رسولُ الله ﷺ بيد نفسه، وقال: «هَذِهِ عَنْ عُثْمَانَ» [البخاري: ٣٦٩٨].

(رجوع عثمان)

ولما تَمَّتْ البيعة، رجع عثمان، فقال له المسلمون: اشتفت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت، فقال: بش ما ظننتم بي، والذي نفسي بيده، لو مكثت بها سنة، ورسولُ الله ﷺ مقيمٌ بالحُدَيْبِيَّةِ، ما طُفْتُ بها حتى يَطُوفَ بها رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ولقد دعيتي قريشٌ إلى الطواف بالبيت، فأبيت، فقال المسلمون: رسولُ الله ﷺ كان أعلمنا بالله، وأحسننا ظناً، وكان عمر آخذاً بيد رسول الله ﷺ للبيعة تحت الشجرة، فبايعه المسلمون كُلُّهُمْ إِلَّا الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ [مسلم: ٤٨٠٩].

وكان مَعْقِلُ بْنُ يسار آخذاً يَحْصِنُهَا يَرْفَعُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [مسلم: ٤٥١٧]، وكان أولٌ من بايعه أبو سنان الأسدي.

وبايعه سلمةُ بْنُ الْأَكْوَعِ ثلاثَ مرات، في أول الناس، وأوسطهم، وآخرهم [مسلم: ٤٦٧٨].

(بديل بن ورقاء)

فبينما هم كذلك، إذ جاء بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخُزَاعِي فِي نَفَرٍ مِنْ خُزَاعَةٍ، وَكَانُوا عِيَّةً نَصَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ تِهَامَةٍ، فَقَالَ: إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ، وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الْحُدَيْبِيَّةِ مَعَهُمُ الْعُدُو

الْمَطَافِيلُ، وَهُمْ مَقَاتِلُوكُ، وَصَادُوكُ عَنِ الْبَيْتِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّا لَمْ نَجِءْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنْ جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنْ قُرَيْشًا قَدْ نَهَكْتَهُمُ الْحَرْبُ، وَأَصْرَتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا مَا دَدْتُهُمْ، وَيُحْلُوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، وَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ، فَعَلُوا وَإِلَّا فَقَدْ جَمَعُوا، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا إِلَّا الْقِتَالَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرُوا سَالِفَتِي، أَوْ لَيَنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ».

(إرسال عروة الثقفي إليه ﷺ)

قال بُدَيْلُ: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قُرَيْشًا، فقال: إني قد جئتكم من عند هذا الرجل، وقد سمعته يقول قولاً، فإن شتمت عرضته عليكم، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن نُحَدِّثَنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته، قال: سمعته يقول: كذا وكذا، فحدثهم بما قال النبي ﷺ، فقال عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ: إِنْ هَذَا قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ حُطَّةً رُشِدَ، فاقبلوها، ودعوني آتِ، فقالوا: اتته، فأتاه، فجعل يُكَلِّمُهُ، فقال له النبي ﷺ: نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ لِبُدَيْلٍ، فقال له عُرْوَةُ عند ذلك: أَيُّ مُحَمَّدٍ، أَرَأَيْتَ لَوْ اسْتَأَصَلْتَ قَوْمَكَ هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ اجْتَنَحَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ؟ وَإِنْ تَكُنِ الْآخِرَى، فوالله إني لأرى وجوهاً، وأرى أوشاباً مِنَ النَّاسِ خَلِيقاً أَنْ يَفِرُّوا وَيَدْعُوكَ، فقال له أبو بكر: امْضُضْ بَغْرَ اللَّأْبِ، أَنْحَنُ نَفْرُ عَنْهُ وَنَدْعُهُ، قال: من ذا؟ قالوا: أَبُو بَكْرٍ، قال: أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَا يَدٌ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا، لِأَجْبَتِكَ، وجعل يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، وكلما كُلِّمَهُ أَخَذَ بِلَحِيَّتِهِ، وَالْمَغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ عِنْدَ رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَعَهُ السِّيفُ، وَعَلِيهِ الْمِغْفَرُ، فَكَلِمَا أَهْوَى عُرْوَةُ إِلَى لَحِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ، ضَرَبَ يَدَهُ بِنَعْلِ السِّيفِ، وَقَالَ: أَخْرَيْتَكَ عَنْ لَحِيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَرَفَعَ عُرْوَةَ رَأْسَهُ، وَقَالَ: مِنْ ذَا؟ قالوا: الْمَغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، فقال: أَيُّ عُذْرٍ، أَوْ لَسْتُ أَسْعَى فِي عُذْرَتِكَ؟ وَكَانَ الْمَغِيرَةُ صَحْبَ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَفَتَلَهُمْ وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ، ثُمَّ جَاءَ فَاسْلَمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا الْإِسْلَامُ فَأَقْبَلْ، وَأَمَّا الْمَالُ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ».

(إرسال مكحول إليه ﷺ ورد أبي جندل إلى المشركين)

ثم إن عروة جعل يَزِمُّقُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

بعينه، فوالله ما تتختم النبي ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها جلده ووجهه، وإذا أمرهم ابندروا أمره، وإذا توضع، كأدوا يقتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدّثون إليه النظر تعظيماً له، فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، على كسرى، وقيصر، والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً يُعظمه أصحابه ما يُعظم أصحاب محمدٍ محمداً، والله إن تتختم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابندروا أمره، وإذا توضع، كأدوا يقتلون على وضوئه، وإذا تكلم، خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدّثون إليه النظر تعظيماً له، وقد عرض عليكم خطبة رُشد، فاقبلوها، فقال رجل من بني كنانة: دعوني آتيه، فقالوا: ائتيه، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه، قال رسول الله ﷺ: «هذا فلان»، وهو من قوم يُعظمون البدن، فابعثوها له، فبعثوها له، واستقبله القوم يُكبّون، فلما رأى ذلك قال: «سُبْحَانَ اللَّهِ مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلَاءِ أَنْ يَصُدُّوا عَنِ الْبَيْتِ»، فرجع إلى أصحابه، فقال: رأيت البدن قد قلّدت وأشعرت، وما أرى أن يَصُدُّوا عن البيت، فقام يكرّز بن حَفْص، فقال: دعوني آتته، فقالوا: ائتيه، فلما أشرف عليهم، قال النبي ﷺ: «هذا يكرّز بن حَفْص، وهو رجل فاجر، فجعل يُكَلِّم رسول الله ﷺ، فبينما هو يكلمه، إذ جاء سهيل بن عمرو، فقال النبي ﷺ: «قَدْ سَهَّلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ»، فقال: هات، اكتب بيننا وبينكم كتاباً، فدعا الكاتب، فقال: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: أما الرحمن، فوالله ما ندرى ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللهم كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك اللهم»، ثم قال: اكتب هذا ما قاضى عليه مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، فقال سهيل: فوالله لو كنّا نعلم أنك رسول الله، ما صدناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال النبي ﷺ: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ

وإن كذبتموني، اكتب: مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ»، فقال النبي ﷺ: على أن تحلوا بيننا وبين البيت، فتطوف به، فقال سهيل: والله لا تتحدّث العرب أنا أخذنا صُغْلَةً، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: على أن لا يأتيك منّا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، فقال المسلمون: سُبْحَانَ اللَّهِ، كيف يُردُّ إلى المشركين، وقد جاء مسلماً، بينا هم كذلك، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرُسِفُ في قيوده قد خرّج من أسفل مكة حتى رَمَى نفسه بين ظُهور المسلمين، فقال سهيل: هذا يا مُحَمَّدُ أول ما أقاضيك عليه أن تُردّه إلي، فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد»، فقال: فوالله إذا لا أصالحك على شيء أبداً، فقال النبي ﷺ: «فَأَجِزْ لِي»، قال: ما أنا بمجيزه لك، قال: «بلى فافعل»، قال: ما أنا بفاعل، قال يكرّز: بلى قد أجزناه، فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين أرّدوا إلى المشركين، وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما لقيت، وكان قد عذّب في الله عذاباً شديداً، قال عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ، فأتيت النبي ﷺ فقلت يا رسول الله: ألسن نبي الله حقاً؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. فقلت: علام تُعطي الدنيا في ديننا إذا، ونزج ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا؟ فقال: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَهُوَ نَاصِرِي، وَلَسْتُ أَغْصِيهِ»، قلت: أولست كنت تُحدّثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، فَأَخْبِرْكَ أَتَيْتُ النَّبِيَّ الْعَامَ؟»، قلت: لا، قال: «فَإِنَّكَ أَتَيْتَ وَمَطُوفٌ بِهِ»، قال: فأتيت أبا بكر، فقلت له كما قلت لرسول الله ﷺ، وردّ عليّ أبو بكر كما ردّ عليّ رسول الله ﷺ سواء، وزاد: فاستميت بغيره حتى تموت، فوالله إنه لعلّى الحق، قال عمر: فعملت لذلك أعمالا^(١).

(النحر)

فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ: «قَوْمُوا فَاَنْحَرُوا»، ثم اخلقوا، فوالله ما قام منهم رجل واحد حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم

(١) أي: أعمالاً صالحة ليكفر عنه ما حضر من التوقف في الامتثال ابتداء.

منهم، فقال النبي ﷺ: «وَيْلٌ» (١) أمو يسر حَرْبٍ، لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ، فلما سمع ذلك، عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سَيْفَ الْبَحْرِ، وبنفث منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله لا يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوه، وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تُشَايِدُهُ الله والرحم لما أرسل إليهم، فمن أتاه منهم، فهو آمن، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَلْفَى مِنْكُمْ بَيْتًا مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْهِمْ﴾ عَنكُمْ وَأَيُّكُمْ عَنْهُمْ بِبَيْتٍ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْهِمْ﴾ حتى بلغ (حِجَّةَ الْبَيْتِ) [الفتح: ٢٦]، وكانت حيثهم أنهم لم يقرؤا أنه نبي الله، ولم يقرؤا يسلم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت [البخاري: ٢٧٣١].

(فور بشر الحديبية بالماء ببركته ﷺ)

قلتُ: في «الصحيح»: أن النبي ﷺ «توضاً» ومج في بئر الحديبية من فمه، فجاشت بالماء، كذلك قال البراء بن عازب، وسلمه بن الأكوع في «الصحيحين» [البخاري: ٤١٥٠، ومسلم: ٤٦٧٨].

وقال عروة: عن مروان بن الحكم، والمِسُور بن مَخْرَمَةَ، أنه غرز فيها سهماً من كنانته، وهو في «الصحيحين» أيضاً [البخاري: ٢٧٣١].

وفي مخازي أبي الأسود عن عروة: توضاً في الدَّلْوِ، ومضمض فاه، ثم مَجَّ فيه، وأمر أن يُصَبَّ في البئر، ونزع سهماً من كنانته، وألقاه في البئر، ودعا الله تعالى، فَقَارَتْ بالماء حتى جعلوا يغترفون بأيديهم منها، وهم جلوس على شَقِّهَا، فجمع بين الأمرين، وهذا أشبه والله أعلم.

(فور الماء من بين أصابعه ﷺ)

وفي «صحيح البخاري»: عن جابر، قال: عَطَشَ النَّاسُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ، ورسول الله ﷺ بين يديه رَكْوَةٌ يتوضأ منها، إذ جَهِشَ النَّاسُ نَحْوَهُ، فقال: ما لكم؟

أحد، قام فدخل على أم سلمة، فذكر لها مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فقالت أم سلمة: يا رسول الله: أَلْتَجِبْتُ ذَلِكَ؟ اخْرُجْ ثُمَّ لَا تَكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَخْرُجَ بِذَنِّكَ، وتدعو خَالِقَكَ فيحلفك، فقام، فخرج، فلم يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ: نَحَرَ بَدَنَهُ، ودعا خَالِقَهُ فحلفه، فلما رأى النَّاسُ ذَلِكَ، قَامُوا فَنَحَرُوا، وجعل بعضهم يَخْلُقُ بعضاً، حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بعضاً غَمًّا، ثُمَّ جَاءَهُ نِسَاءُ مُؤْمِنَاتٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاصْجُرُوهُنَّ﴾ [الْمُتَحَنِّنَةُ: ١٠]، حَتَّى بَلَغَ: ﴿يَصِمُ الْكَافِرُ﴾ [الْمُتَحَنِّنَةُ: ١٠] فطُلِقَ عُمَرُ يَوْمَئِذٍ امْرَأَتَيْنِ كَانَتَا لَهُ فِي الشَّرْكِ، فَتَزَوَّجَ إِحْدَاهُمَا مَعَاوِيَةَ، وَالْأُخْرَى صَفْوَانَ بْنِ أُمِيَّةٍ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَفِي مَرْجِعِهِ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ: ﴿إِنَّا نَحْنُ لَكَ قَتْلًا مُبِينًا﴾ ﴿يَقْتَرِ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيَسِّرْ لَكَ سَبِيلَكَ وَتَهْدِكَ سَبِيلًا﴾ [الْفَتْحُ: ١ - ٣]، فقال عمر: أَوْ فَتَحَ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ الصَّحَابَةُ: هِنِيئًا لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا لَنَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الْفَتْحُ: ٤].

(قصة أبي بصير)

ولما رجع إلى المدينة، جاءه أبو بصير رجل من قريش مسلماً، فأرسلوا في طلبه رجلين، وقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الْحُلَيْفَةِ، فتلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هَذَا جِيدًا، فاستلَّهُ الْآخَرُ، فقال: أَجَلٌ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَجِيدٌ، لَقَدْ جَرَيْتُ بِهِ ثُمَّ جَرَيْتُ، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه به حتى برد، وفرَّ الْآخَرُ يعدو حتى بلغ المدينة، فدخل المسجد، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لَقَدْ رَأَى هَذَا دُغْرَاءً»، فلما انتهى إلى النبي ﷺ، قال: قُتِلَ وَاللَّهِ صَاحِبِي، وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ، فجاء أبو بصير، فقال: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، قَدْ وَاللَّهِ أَوْفَى اللَّهِ يَمْتَكُ، قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ، فَأَنْجَانِي اللَّهُ

(١) بضم اللام ووصل الهمزة، وكسر الميم المشددة: وهي كلمة ذم تقولها العرب في المدح، ولا يقصدون معنى ما فيها من الذم.

قالوا: يا رَسُولَ اللَّهِ! ما عندنا ماء نشرب، ولا ما نتوضأ إلا ما بين يديك، فوضع يده في الزكوة، فجعل الماء يفرُّ من بين أصابعه أمثال العيون، فشربوا، وتوضؤوا، وكانوا خمس عشرة مئة [البخاري: ٤١٥٢]، وهذه غير قصة البئر.

(هطول المطر)

وفي هذه الغزوة أصابهم ليلة مطر، فلما صلى النبي ﷺ الصبح، قال: «أَتَذَرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ اللَّيْلَةَ؟» قالوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَم، قال: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي، كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ» [البخاري: ٤١٤٧].

فصل

(ما جرى عليه الصلح)

وجرى الصلح بين المسلمين وأهل مكة على وضع الحرب عشر سنين، وأن يأمن الناس بعضهم من بعض، وأن يرجع عنهم عامه ذلك، حتى إذا كان العام المقبل، قديمها، وخلوا بينه وبين مكة، فأقام بها ثلاثاً، وأن لا يدخلها إلا بسلاح الراكب، والسيوف في القرب، وأن من أتانا من أصحابك لم نردّه عليك، ومن أتاك من أصحابنا ردّدته علينا، وأن بيننا وبينك عيئة مكفوفة^(١)، وأنه لا إسلال ولا إغلال، فقالوا: يا رَسُولَ اللَّهِ! نعطّهم هذا؟ قال: مَنْ أَتَاهُمْ مِنْهُمَا فَبَعْدَهُ اللَّهُ، ومن أَتَانَا مِنْهُمْ فَرَدْنَاهُ إِلَيْهِمْ، جَعَلَ اللَّهُ لَهُ فَرْجاً وَمَخْرَجاً [أحمد: ١٨٩١٠، وأبو داود: ٢٧٦٦، ورجاله ثقات].

(قضية الأذى لمن حلق رأسه)

وفي قصة الحديبية، أنزل الله - عز وجل - فدية الأذى لمن حلق رأسه بالصيام، أو الصدقة، أو الشك في شأن كعب بن عُجرة.

وفيها دعا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْمُحَلِّقِينَ بِالْمَغْفِرَةِ ثلاثاً، وَلِلْمُقَصِّرِينَ مَرَّةً.

وفيها نَحَرُوا الْبَذَنَةَ عَنْ سَبْعَةٍ، وَالْبَقَرَةَ عَنْ سَبْعَةٍ.

وفيها أهدى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ في جملة هَذِهِ جَمَلاً كان لأبي جهلٍ كان في أنفه بُرَّةٌ مِنْ فِصَّةٍ لِيَغِظَ بِهِ الْمُشْرِكِينَ.

وفيها أُنْزِلَتْ سُورَةُ الْفَتْحِ، ودخلت خُزَاعَةُ فِي عَقْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وعهده، ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، وكان في الشرط أن من شاء أن يدخل في عقده ﷺ دخل، ومن شاء أن يدخل في عقد قريش دخل.

(عدم رده ﷺ أم كلثوم بنت عقبة إلى المشركين)

ولما رجع إلى المدينة جاءه نساء مؤمنات، ومنهن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، فجاء أهلها يسألونها رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بالشرط الذي كانَ بينهم، فلم يرجعها إليهم، ونهاه الله عز وجل عن ذلك، فقيل: هذا نسخ للشرط في النساء، وقيل: تخصيص للسنة بالقرآن، وهو عزيز جداً، وقيل: لم يقع الشرط إلا على الرجال خاصة، وأراد المشركون أن يُعَمِّمُوهُ فِي الصَّفَيْنِ، فأبى الله ذلك.

فصل

في بعض ما في قصة الحديبية من الفوائد الفقهية

فمنها: اعتمادُ النبي ﷺ في أشهر الحج، فإنه خرج إليها في ذي القعدة.

(الإحرام بالعمرة من الميقات أفضل)

ومنها: أن الإحرام بالعمرة من الميقات أفضل، كما أن الإحرام بالحج كذلك، فإنه أحرَمُ بهما من ذي الحليفة، وبينها وبين المدينة ميلٌ أو نحوهُ، وأما حديث «مَنْ أَحْرَمَ بِعُمْرَةٍ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ» وفي لفظ: «كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ» [أبو داود: ١٧٤١، وابن ماجه: ٣٠٠١، وابن حبان: ١٠٢١، وفي سننه مجهولان]، فحديث لا يُثبت، وقد اضطرب فيه إسناداً ومتناً اضطراباً شديداً.

ومنها: أن سَوَقَ الْهَدْيِ مَسْنُونٌ فِي الْعُمْرَةِ الْمَفْرَدَةِ، كما هو مسنون في القران.

ومنها: أن إشعارَ الهدي سنة لا مُكَلَّةٌ منهى عنها.

(١) العيبة - ههنا - : مثل، والمعنى: أن بيننا صدوراً سليمة في المحافظة على العهد الذي عقدناه بيننا.

(استحباب مفاصلة أعداء الله)

ومنها: استحباب مفاصلة أعداء الله، فإن النبي ﷺ أهدى في جملة هديه جملاً لأي جهل في أنفهِ بُرَّةٌ من فضةٍ يَغِيظُ به المشركين، وقد قال تعالى في صفة النبي ﷺ وأصحابه: ﴿وَمَثَلُ فِي الْإِيجِلِ كَرَجٍ أَخْرَجَ صَلَاحُهُ فَازِدُهُ فَاسْتَفْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سَوَاهٍ يَمُوجُ الزَّوْجُ يَغِيظُ بِهِمُ الْكُفَّارُ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال عز وجل: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَهُمْ ظُلماً وَلَا نَصَبَ وَلَا مَخَمَصَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يُلْقُونَ تَوْحِيدًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَمْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

ومنها: أن أمير الجيش ينبغي له أن يبعث العيون أمامه نحو العدو.

(الاستعانة بالمشرك)

ومنها: أن الاستعانة بالمُشْرِك المأمون في الجهاد جائزة عند الحاجة، لأن عينه الخزاعي كان كافراً إذ ذاك، وفيه من المصلحة أنه أقرب إلى اختلاطه بالعدو، وأخذ أخبارهم.

(استحباب الشورى)

ومنها: استحباب مشورة الإمام رعيته وجيشه، استخراجاً لوجه الرأي، واستطابةً لنفوسهم، وأماناً لِعَتَبِهِمْ، وتعرفاً لمصلحة يختص بعلمها بعضهم دون بعض، وامتنالاً لأمر الرب في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقد مدح سبحانه وتعالى عبادته بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

(رد الكلام الباطل ولو نسب إلى غير المكلف)

ومنها: جواز سبي ذراري المشركين إذا انفردوا عن رجالهم قبل مقاتلة الرجال.

ومنها: رد الكلام الباطل ولو نسب إلى غير مكلف، فإنهم لما قالوا: خلافت القضاة، يعني

حَرَنَتِ وَالْحَثَّ، فَلَمْ تَسِرْ، والخلاء في الإبل بكسر الخاء والمد، نظير الجران في الخيل، فلما نسبوا إلى الناقة ما ليس من خلقها وطبعها، ردّه عليهم، وقال: «ما خلأت وما ذاك لها يخلق»، ثم أخبر ﷺ عن سبب بروكها، وأن الذي حَسَسَ الفيل عن مكة حبسها للحكمة العظيمة التي ظهرت بسبب حبسها، وما جرى بعده.

ومنها: أن تسمية ما يُلبسه الرجل من مراكبه ونحوها سنة.

(استحباب الحلف على الخبر الديني الذي يرد تأكيداً)

ومنها: جواز الحلف، بل استحبابه على الخبر الديني الذي يريد تأكيداً، وقد حُفِظَ عن النبي ﷺ الحلف في أكثر من ثمانين موضعاً، وأمره الله تعالى بالحلف على تصديق ما أخبر به في ثلاثة مواضع: في (سورة يونس)، و(سبأ)، و(التغابن).^(١)

(إذا طلب المشركون وأهل البدع والفجور والبغاة والظلمة)

أمراً يعظمون فيه حرمة من حرمت الله أعينوا عليه ومنها: أن المشركين، وأهل البدع والفجور، والبغاة والظلمة، إذا طلبوا أمراً يعظمون فيه حرمة من حرمت الله تعالى، أجبوا إليه وأعطوه، وأعينوا عليه، وإن منعوا غيره، فيعاونون على ما فيه تنظيم حرمت الله تعالى، لا على كفرهم وبغيهم، ويمنعون مما سوى ذلك، فكل من التمس المعاونة على محبوب لله تعالى مُرَضٍ له، أجب إلى ذلك كائناً من كان، ما لم يترتب على إعانته على ذلك المحبوب مغيض لله أعظم منه، وهذا من أدق المواضع وأصعبها، وأشققها على النفوس، ولذلك ضاق عنه من الصحابة من ضاق، وقال عمر ما قال، حتى عول له أعمالاً بعده، والصديق تلقاه بالرضى والتسليم، حتى كان قلبه فيه على قلب رسول الله ﷺ، وأجاب عُمَرَ عما سأل عنه من ذلك بعين جواب رسول الله ﷺ، وذلك يدل على أن الصديق رضي الله عنه أفضل ﷺ.

(١) أما الآية الأولى من سورة يونس (٥٣) فهي قوله تعالى: ﴿وَسْتَظُنُّكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَنَاقٍ وَمَا أَشَدُّ يَمْتَحِنِينَ﴾

وأما الثانية من سورة سبأ الآية (٣) فهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَذَابٌ أََلِيمٌ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٥) وأما الثالثة من سورة التغابن (٧) فهي: ﴿يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَيُبْعَثُنَّ ثُمَّ لِيَأْتِيَنَّكُمْ بِمَا عَهِتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٧).

٥٢٢٩]، كما أن الفخر والخلاء في الحرب ليسا من هذا النوع المذموم في غيره، وفي بعث البذل في وجه الرسول الآخر دليل على استحباب إظهار شعار الإسلام لرسل الكفار.

(مال المشترك المعاهد معصوم)

وفي قول النبي ﷺ للمغيرة: «أَمَّا الْإِسْلَامُ فَأَقْبَلُ، وَأَمَّا الْمَالُ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ»، دليل على أن مال المشترك المعاهد معصوم، وأنه لا يملك، بل يرد عليه، فإن المغيرة كان قد صحبهم على الأمان، ثم غدر بهم، وأخذ أموالهم، فلم يتعرض النبي ﷺ لأموالهم، ولا ذُب عنها، ولا ضمنها لهم، لأن ذلك كان قبل إسلام المغيرة.

(جواز التصريح باسم العورة إذا كان فيه مصلحة)

وفي قول الصديق لعروة: امضضْ بَطَرِ اللَّاتِ، دليل على جواز التصريح باسم العورة إذا كان فيه مصلحة تقتضيها تلك الحال، كما أذن النبي ﷺ أن يُصرَّح لمن ادَّعى دعوى الجاهلية بهن أبيه، ويقال له: اعضضْ أَيْرَ أَيْبِكَ، ولا يُكْنَى له، فلكل مقام مقال.

(احتمال قلة ادب رسول الكفار)

ومنها: احتمال قلة أدب رسول الكفار، وجهله وجفوته، ولا يقابل على ذلك لما فيه من المصلحة العامة، ولم يقابل النبي ﷺ عُروَةَ على أخذه بلحيته وقت خطابه، وإن كانت تلك عادة العرب، لكن الوقار والتعظيم خلافت ذلك.

وكذلك لم يقابل رسول الله ﷺ رسولي مسيلمة حين قال: نشهد أنه رسول الله، وقال: «لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَقَتَلْتُكُمَا» [صحيح: أحمد: ١٥٩٨٩، وأبو داود: ٢٧٦١].

ومنها: طهارة التَّخَامَةِ، سواء كانت من رأس أو صدر.

ومنها: طهارة الماء المستعمل.

ومنها: استحباب التَّضَاوُلِ، وأنه ليس من القِيَرَةِ الْمُخْرُوعَةِ، لقوله لما جاء سهيل: «سَهْلُ أَمْرُكُمْ».

(يقني في المشهود)

عنه إذا عرف باسمه واسم أبيه عن ذكر الجد

ومنها: أن المشهود عليه إذا عُرف باسمه واسم

الصحابه وأكملهم، وأعرفهم بالله تعالى ورسوله ﷺ، وأعلمهم بدينه، وأقومهم بمحابه، وأشدُّهم موافقة له، ولذلك لم يسأل عمر عما عَرَضَ له إلا رسول الله ﷺ وصديقه خاصة دون سائر أصحابه.

ومنها: أن النبي ﷺ عَدَلَ ذات اليمين إلى الحُدَيْيَةِ، قال الشافعي: بعضها من الجبل، وبعضها من الحرم.

(مضاعفة الصلاة)

بمكة تتعلق بجميع الحرم لا يخص بها المسجد

وروى الإمام أحمد في هذه القصة أن النبي ﷺ كان يُصَلِّي في الحرم، وهو مضطرب في الجبل [أحمد: ١٨٩١٠، ورجاله ثقات]، وفي هذا كالدلالة على أن مضاعفة الصلاة بمكة تتعلق بجميع الحرم لا يخص بها المسجد الذي هو مكان الطواف، وأن قوله: «صَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ مِثَّةِ صَلَاةٍ فِي مَسْجِدِي» [البخاري: ١١٩٠، ومسلم: ٢٠٣٦] كقوله تعالى: ﴿فَلَا يَجْرُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ [التوبة: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿سَبَّحْتَ إِلَوهَ أَشْرَى سَبِّهِهِ. لَيْلًا يَبْتَغِي الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ [الأنعام: ١]، وكان الإسراء من بيت أم هانئ.

ومنها: أن من نزل قريباً من مكة، فإنه ينبغي له أن ينزل في الجبل، ويصلي في الحرم، وكذلك كان ابن عمر يصنع.

ومنها: جواز ابتداء الإمام بطلب صلح العدو إذا رأى المصلحة للمسلمين فيه، ولا يتوقف ذلك على أن يكون ابتداء الطلب منهم.

(سنية القيام بالسيف على رأس القائد عند قدوم رسل العدو)

وفي قيام المغيرة بن شعبة على رأس رسول الله ﷺ بالسيف، ولم يكن عادته أن يَاقُم على رأسه، وهو قاعد، سنة يُقْتَدَى بها عند قدوم رسل العدو من إظهار العز والفخر، وتعظيم الإمام، وطاعته، ووقايته بالنفوس، وهذه هي العادة الجارية عند قدوم رسل المؤمنين على الكافرين، وقدوم رسل الكافرين على المؤمنين، وليس هذا من هذا النوع الذي ذمَّه النبي ﷺ بقوله: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَمُوتَ لَهُ الرَّجُلُ قِيَامًا فَلْيَبْتَغِ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» [صحيح: أحمد (٩١/٤)، وأبو داود:

العمره التي قاضاهم عليها، فأضيفت العمره إلى مصدر فعله.

(الأمر المطلق على الفور)

ومنها: أن الأمر المطلق على الفور وإلا لم يَغْضَبَ لِتأخيرهم الامتثال عن وقت الأمر، وقد اعتذر عن تأخيرهم الامتثال بأنهم كانوا يَرْجُونَ النسخ، فَأَخْرَوْا متأولين لذلك، وهذا الاعتذار أولى أن يُعتذر عنه، وهو باطل، فإنه ﷺ لو فَهِمَ منهم ذلك، لم يشتدَّ غضبه لتأخير أمره، ويقول: «مالي لا أَغْضِبُ، وَأَنَا أَمُرُ بالأمر فلا أَتَّبِعُ»، وإنما كان تأخيرهم من السعي المغفور لا المشكور، وقد رضي الله عنهم، وغفر لهم، وأوجب لهم الجنة.

(الأصل مشاركة)

أتمته له ﷺ في الأحكام إلا ما خصه الدليل)

ومنها: أن الأصل مشاركة أُمَّتِهِ له في الأحكام، إِلَّا ما خصه الدليل، ولذلك قالت أُمُّ سلمة: «أُخْرِجْ وَلَا تُكَلِّمْ أحداً حتى تَخْلُقَ رأسك وتنحر هديك»، وعلمت أن الناس سيتابعونه.

فإن قيل: فكيف فعلوا ذلك اقتداءً بفعله، ولم يمتثلوه حين أمرهم به؟ قيل: هذا هو السبب الذي لأجله ظُنَّ من ظُنَّ أنهم أَخْرَوْا الامتثال طمعاً في النسخ، فلما فعل النبي ﷺ ذلك، عَلِمُوا حينئذ أنه حكم مُسْتَقَرٌّ غير منسوخ، وقد تقدم فساد هذا الظن، ولكن لما تَغَيَّظَ عليهم، وخرج ولم يكلمهم، وأرأهم أنه بادر إلى امتثال ما أمر به، وأنه لم يُؤَخَّرْ كتأخيرهم، وأن اتباعهم له وطاعتهم تُوجِبُ اقتداءهم به، بادروا حينئذ إلى الاقتداء به وامتثال أمره.

ومنها: جوازُ صَلَاحِ الْكُفَّارِ على ردِّ من جاء منهم إلى المسلمين، وألا يُردَّ مَنْ ذهب من المسلمين إليهم، هذا في غير النساء، وأما النساء، فلا يجوزُ اشتراطُ رَدِّهنَّ إلى الكفار، وهذا موضعُ النسخ خاصة في هذا العقد بنص القرآن، ولا سبيل إلى دعوى النسخ في غيره بغير موجب.

(خروج البضع من ملك الزوج متقوم)

ومنها: أن خُرُوجَ الْبُضْعِ من ملك الزوج متقوم، ولذلك أوجب الله سبحانه ردَّ المهر على من هاجرت

أبيه، أغنى ذلك عن ذكر الجَدِّ، لأن النبي ﷺ لم يزد على محمد بن عبد الله، وَقِنَحَ من سهل بذكر اسمه واسم أبيه خاصة، واشتراطُ ذكر الجد لا أصل له، ولما اشترى العَدَاءُ بَنُو خَالِدٍ مِنْهُ ﷺ الْغَلَامَ فكتب له: «هَذَا مَا اشْتَرَى الْعَدَاءُ بَنُو خَالِدِ بْنِ هُوْدَةَ» [صحيح: الرمزي: ١٢١٦، وابن ماجه: ٢٢٥١] فذكر جده، فهو زيادةٌ بيان تَدُلُّ على أنه جائز لا بأس به، ولا تَدُلُّ على اشتراطه، ولما لم يَكُنْ في الشهرة بحيث يُكتفى باسمه واسم أبيه ذكر جده، فُيَشْتَرَطُ ذِكْرُ الجد عند الاشتراك في الاسم واسم الأب، وعند عدم الاشتراك، اكتفي بذكر الاسم واسم الأب والله أعلم.

ومنها: أن مصالحةَ المشركين ببعض ما فيه ضَيِّمٌ على المُسْلِمِينَ جائزةٌ للمصلحة الراجحة، ودفع ما هو شر منه، ففيه دفعُ أعلى المفسدتين باحتمال أدناهما.

ومنها: أن من حَلَفَ على فَعْلٍ شيء، أو نَذَرَهُ، أو وَعَدَ غَيْرَهُ به ولم يُعَيِّنْ وقتاً، لا بلفظه، ولا بنيته، لم يكن على الفور، بل على التراخي.

ومنها: أن الحلاقَ نُسْكٌ، وأنه أفضلُ من التقصير، وأنه نُسْكٌ في العمره، كما هو نُسْكٌ في الحج، وأنه نُسْكٌ في عُمره المحصور، كما هو نسك في عُمره غيره.

(لا يجب على المحصر القضاء)

ومنها: أن الْمُحْصَرَ ينحرُ هديه حيث أُخْصِرَ من الجِلِّ أو الحرم، وأنه لا يجب عليه أن يُوَاعِدَ من ينحره في الحرم إذا لم يَصِلْ إليه، وأنه لا يتحلل حتى يصل إلى محله، بدليل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي مَعَكُمْ أَن يَصِلَ إِلَى مَحَلِّهِ﴾ [الفتح: ٢٥].

ومنها: أن الموضع الذي نحر فيه الهدى، كان من الجِلِّ لا من الحرم، لأن الحرم كُلُّه محلُّ الهدى.

ومنها: أن الْمُحْصَرَ لا يجب عليه القضاء، لأنه ﷺ أمرهم بالحلُق والنحر، ولم يأمر أحداً منهم بالقضاء، والعُمُرَةُ من العام القابل لم تكن واجبةً، ولا قضاءً عن عُمره الإحصار، فإنهم كانوا في عمره الإحصار ألفاً وأربعمئة، وكانوا في عُمره القضية دُونَ ذلك، وإنما سُمِّيَتْ عُمرَةُ القضية والقضاء، لأنها

(مقدمة للفتح)

فمنها: أنها كانت مُقَدِّمَةً بين يدي الفتح الأعظم الذي أَعَزَّ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ وَجَنَدَهُ، ودخل الناس به في دين الله أفواجاً، فكانت هذه الهُدنة باباً له، ومفتاحاً، ومؤذناً بين يديه، وهذه عادة الله سبحانه في الأمور العظام التي يقضيها قدراً وشرعاً، أن يُوطِّئَ لها بين يديها مقدمات وتوطئات، تُؤذِّنُ بها، وتُدُلُّ عليها.

(هي من اعظم الفتوح)

ومنها: أن هذه الهُدنة كانت من أعظم الفتوح، فإن الناس أَمِنَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، واختلط المسلمون بالكفار، وبأدوؤهم بالدعوة، وأسمعهم القرآن، وناظرؤهم على الإسلام جبهة آمنين، وظهر من كان مختفياً بالإسلام، ودخل فيه في مدة الهُدنة من شاء الله أن يدخل، ولهذا سماه الله فتحاً مبیناً، قال ابن قتبية: قضينا لك قضاءً عظيماً، وقال مجاهد: هو ما قضى الله له بالحُدبية.

وحقيقة الأمر: أن الفتح - في اللغة - فتح المغلق، والصلح الذي حصل مع المشركين بالحُدبية كان مسدوداً مُغْلَقاً حتى فتحه الله، وكان من أسباب فتحه صدُّ رسول الله ﷺ وأصحابه عن البيت، وكان في الصورة الظاهرة ضيقاً وضُماً للمسلمين، وفي الباطن عزاً وفتحاً ونصراً، وكان رسول الله ﷺ ينظر إلى ما وراءه من الفتح العظيم، والعز، والنصر من وراء ستر رقيق، وكان يُعطي المشركين كل ما سألوه من الشروط، التي لم يحتملها أكثر أصحابه ورؤوسهم، وهو ﷺ يعلم ما في ضمن هذا المكروه من محبوب: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وَرَبِّمَا كَانَ مَكْرُوهُ النَّفْسِ إِلَى

مَحْبُوبِهَا سَبَبًا مَا مِثْلُهُ سَبَبٌ

فكان يَدْخُلُ على تلك الشروط دخول واثق بنصر الله له وتأيده، وأن العاقبة له، وأن تلك الشروط واحتمالها هو عين النصر، وهو من أكبر الجند الذي أقامه المشركون، ونصبوه لحربهم، وهم لا يشعرون، فذلُّوا من حيث طلبوا العز، وقهروا من حيث أظهروا القدرة والفخر والغلبة، وعزُّ

امراته، وجيل بينه وبينها، وعلى من ارتدت امرأتها من المسلمين إذا استحق الكفار عليهم ردُّ مهر من هاجر إليهم من أزواجهم، وأخبر أن ذلك حُكْمُ الذي حكم به بينهم، ثم لم ينسخه شيء، وفي إيجابه ردُّ ما أعطى الأزواج من ذلك دليل على تقوُّمِه بالمسمى، لا بمهر المثل.

ومنها: أن ردُّ من جاء من الكفار إلى الإمام لا يتناول من خرج منهم مسلماً إلى غير بلد الإمام، وأنه إذا جاء إلى بلد الإمام، لا يجب عليه ردُّه بدون الطلب، فإن النبي ﷺ لم يردَّ أبا بصير حين جاءه، ولا أكرهه على الرجوع، ولكن لما جاؤوا في طلبه، مكَّنهم من أخذه ولم يكرهه على الرجوع.

ومنها أن المعاهدين إذا تسلَّموه وتمكَّنوا منه، فقتل أحداً منهم لم يضمنه بديَّة ولا قَوْدٍ، ولم يضمنه الإمام، بل يكون حكمه في ذلك حُكْمُ قتله لهم في ديارهم حيث لا حكم للإمام عليهم، فإن أبا بصير قتل أحد الرجلين المعاهدَيْن بذي الحُلَيْفَةِ، وهي من حُكْمِ المدينة، ولكن كان قد تسلَّموه، وفُصِّلَ عن يد الإمام وحكمه.

ومنها: أن المعاهدَيْن إذا عاهدوا الإمام، فخرجت منهم طائفة، فحاربتهم، وعَيَّمَتْ أموالهم، ولم يَتَحَيَّرُوا إلى الإمام، لم يجب على الإمام دفعهم عنهم، ومنَّهم منهم، وسواء دخلوا في عَقْدِ الإمام وعهده ودينه، أو لم يدخلوا، والعهد الذي كان بين النبي ﷺ وبين المشركين، لم يكن عهداً بين أبي بصير وأصحابه وبينهم، وعلى هذا فإذا كان بين بعض ملوك المسلمين وبعض أهل الذمَّة من النصارى وغيرهم عهد، جاز لملك آخر من ملوك المسلمين أن يَغْزُوهُمْ، ويغَنِّمَ أموالهم إذا لم يكن بينه وبينهم عهد، كما أفنى به شيخ الإسلام في نصارى مَلْطِيَّةَ وسبيهم، مستدلاً بقصة أبي بصير مع المشركين.

فصل

في الإشارة إلى بعض الحُكْمِ التي تَضَمَّنَتْها هذه الهدنة

وهي أكبر وأجلُّ من أن يُحيط بها إلا الله الذي أحكم أسبابها، فوقعت الغاية على الوجه الذي اقتضته حكمته وحمده.

رسول الله ﷺ وعساكر الإسلام من حيث انكسروا لله، واحتملوا الضيم له وفيه، فدار الدور، وانعكس الأمر، وانقلب المعز بالباطل ذلاً بحق، وانقلب الكسرة لله عزاً بالله، وظهرت حكمة الله وآياته، وتصديق وعده، ونصرة رسوله على أتم الوجوه وأكملها التي لا اقتراح للعقول وراءها.

(زيادة الإيمان والإذعان)

ومنها: ما سببه سبحانه للمؤمنين من زيادة الإيمان والإذعان، والانقياد على ما أحبوا وكرهوا، وما حصل لهم في ذلك من الرضى بقضاء الله، وتصديق موعوده، وانتظار ما وعدوا به، وشهود ميثه الله ونعمته عليهم بالسكينة التي أنزلها في قلوبهم، أحوج ما كانوا إليها في تلك الحال التي تزعزع لها الجبال، فأنزل الله عليهم من سكينة ما أطمأنت به قلوبهم، وقويت به نفوسهم، وازدادوا به إيماناً.

(بسط لمعنى قوله تعالى: ﴿لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾)

ومنها: أنه سبحانه جعل هذا الحكم الذي حكم به لرسوله وللمؤمنين سبباً لما ذكره من المغفرة لرسوله ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وإتمام نعمته عليه، ولهدياته الصراط المستقيم، ونصره النصر العزيز، ورضاه به، ودخوله تحته، وانشراح صدره به مع ما فيه من الضيم، وإعطاء ما سألوه، كان من الأسباب التي نال بها الرسول وأصحابه ذلك، ولهذا ذكره الله سبحانه جزاءً وغاية، وإنما يكون ذلك على فعل قام بالرسول والمؤمنين عند حكمه تعالى، وفتحه.

(هو الذي أنزل السكينة) وإن الذين يباعدونك

وتأمل كيف وصف - سبحانه - النصر بأنه عزيز في هذا الموطن، ثم ذكر إنزال السكينة في قلوب المؤمنين في هذا الموطن الذي اضطربت فيه القلوب، وقلقت أشد القلق، فهي أحوج ما كانت إلى السكينة، فازدادوا بها إيماناً إلى إيمانهم، ثم ذكر سبحانه بيعتهم لرسوله، وأكدها بكونها بيعه له سبحانه، وأن يده تعالى كانت فوق أيديهم إذ كانت يد

رسول الله ﷺ كذلك، وهو رسوله ونبيه، فالعقد معه عقد مع مربيته، وبيعه بيعته، فمن بايعه، فكأنما بايع الله، ويد الله فوق يده، وإذا كان الحجر الأسود يمين الله في الأرض^(١)، فمن صافحه وقبله، فكأنما صافح الله، وقبل يمينه، فبد رسول الله ﷺ أولى بهذا من الحجر الأسود، ثم أخبر أن ناكث هذه البيعة إنما يعود نكثه على نفسه، وأن للمؤفي بها أجراً عظيماً فكل مؤمن قد بايع الله على لسان رسوله بيعة على الإسلام وحقوقه، فناكث ومؤف.

(بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول)

ثم ذكر حال من تخلف عنه من الأعراب، وظنهم أسوأ الظن بالله: أنه يخذل رسوله وأوليائه، وجنده، ويُظفر بهم عدوهم، فلن ينقلبوا إلى أهلهم، وذلك من جهلهم بالله وأسمائه وصفاته، وما يليق به، وجهلهم برسوله وما هو أهل أن يُعامله به رؤيه ومولاه.

(لقد رضي الله)

ثم أخبر سبحانه عن رضاه عن المؤمنين بدخولهم تحت البيعة لرسوله، وأنه سبحانه علم ما في قلوبهم حينئذ من الصدق والوفاء، وكمال الانقياد والطاعة، وإيثار الله ورسوله على ما سواه، فأنزل الله السكينة والطمأنينة، والرضى في قلوبهم، وأثابهم على الرضى بحكمه، والصبر لأمره فتحاً قريباً، ومغانم كثيرة يأخذونها، وكان أول الفتح والمغانم فتح خيبر، ومغانمها، ثم استمرت الفتوح والمغانم إلى انقضاء الدهر.

(معنى ﴿فجعل لكم هذه﴾ و﴿وكف أيدي الناس عنكم﴾)

ووعدهم سبحانه مغايم كثيرة يأخذونها، وأخبرهم أنه عجل لهم هذه الغنيمة، وفيها قولان أحدهما: أنه الصلح الذي جرى بينهم وبين عدوهم، والثاني: أنها فتح خيبر وغنائمها، ثم قال: ﴿وَكَيْفَ آتَى الْكَافِرَ عَنكُمْ﴾ [الفتح: ٢٠]، قيل: أيدي أهل مكة أن يقاتلوه، وقيل: أيدي اليهود حين هموا بأن يقاتلوا من بالمدينة بعد خروج رسول الله ﷺ بمن معه من الصحابة منها،

(١) هذه الجملة متزعة من الحديث الموضوع الذي أخرجه الخطيب البغدادي في «تاريخه» (٣٢٨/٦) وغيره من طريق إسحاق بن بشر الكاهلي وابن عساكر (٢/٩٠/١٥) من طريق أخرى لا تزيد إلا وهناً، لأن فيه أبا علي الأهوازي وهو منهم بالوضع.

وقيل: هم أهل خيبر وحلفاؤهم الذين أرادوا نصرهم من أسد وغطفان، والصحيح تناول الآية للجميع.

(وَلَنْتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ) و«يُوهِدُكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا» و«وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا»

وقوله: ﴿لَنْتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٠]، قيل: هذه الفعلة التي فعلها بكم، وهي كُفُّ أيدي أعدائكم عنكم مع كثرتهم، فَإِنَّهُمْ حِينَئِذٍ كَانَ أَهْلُ مَكَّةَ وَمَنْ حَوْلَهَا، وَأَهْلُ خَيْبَرَ وَمَنْ حَوْلَهَا، وَأَسَدُ وَغَطَفَانُ، وَجَمْعُهُمْ قِبَائِلُ الْعَرَبِ أَعْدَاءُ لَهُمْ، وَهُمْ بَيْنَهُمْ كَالشَّامَةِ، فَلَمْ يَصِلُوا إِلَيْهِمْ بِسُوءٍ، فَمِنْ آيَاتِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ كُفُّ أَيْدِي أَعْدَائِهِمْ عَنْهُمْ، فَلَمْ يَصِلُوا إِلَيْهِمْ بِسُوءٍ مَعَ كَثَرَتِهِمْ، وَشِدَّةِ عِدَائِهِمْ، وَتَوَلَّى حِرَاسَتَهُمْ، وَحَفَظَهُمْ فِي مَشْهَدِهِمْ وَمَغْيِبِهِمْ، وَقِيلَ: هِيَ فَتْحُ خَيْبَرَ، جَعَلَهَا آيَةً لِعِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَلَامَةً عَلَى مَا بَعْدَهَا مِنَ الْفَتْوحِ، فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَعَدَهُمْ مَغَازِمَ كَثِيرَةً، وَفَتْوحًا عَظِيمَةً، فَعَجَّلَ لَهُمْ فَتْحَ خَيْبَرَ، وَجَعَلَهَا آيَةً لَمَّا بَعْدَهَا، وَجَزَاءَ لِيَصْبِرَهُمْ وَرَضَاهُمْ يَوْمَ الْحَدِيثِ وَشُكْرَانًا، وَلِهَذَا خَصَّ بِهَا وَبِغَنَائِمِهَا مَنْ شَهِدَ الْحَدِيثَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَيَهْدِيكُمْ سَبِيلًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢٠]، فَجَمَعَ لَهُمْ إِلَى النَّصْرِ وَالظَّفَرِ وَالْغَنَائِمِ الْهَدَايَةِ، فَجَعَلَهُمْ مَهْدِيِّينَ مَنْصُورِينَ غَانِمِينَ، ثُمَّ وَعَدَهُمْ مَغَازِمَ كَثِيرَةً وَفَتْوحًا أُخْرَى، لَمْ يَكُونُوا ذَلِكَ الْوَقْتُ قَادِرِينَ عَلَيْهَا، فَقِيلَ: هِيَ مَكَّةُ، وَقِيلَ: هِيَ فَارَسَ وَالرُّومَ، وَقِيلَ: الْفَتْوحُ الَّذِي بَعْدَ خَيْبَرَ مِنْ مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا.

(وَلَوْ لَاتَّكَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا)

ثم أخبر سبحانه أن الكفار لو قاتلوا أوليائه، لولَّى الكفارُ الأدبارَ غيرَ منصورين، وأن هذه سُنَّتُهُ فِي عِبَادَةِ قِبَلِهِمْ، وَلَا تَبْدِيلَ لِسُنَّتِهِ.

فإن قيل: فقد قاتلوه يوم أحد، وانتصروا عليهم، ولم يولُّوا الأدبارَ؟

قيل: هذا وعد معلق بشرط مذكور في غير هذا الموضع، وهو الصبر والتقوى، وفات هذا الشرط يوم أحد بِمَقْتَلِهِمُ الْمَنَافِيَ لِلصَّبْرِ، وَتَنَازُعِهِمْ، وَعَصْيَانِهِمُ الْمَنَافِيَ لِلتَّقْوَى، فَصَرَفَهُمْ عَنْ عَدُوهِمْ، وَلَمْ يَحْضَلْ الْوَعْدُ لانتفاء شرطه.

(وهو الذي كف)

ثم ذكر - سبحانه - أنه هو الذي كَفَّ أيدي بعضهم عن بعض من بعد أن أظهر المؤمنين بهم، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحُكْمِ الْبَالِغَةِ الَّتِي مِنْهَا: أَنَّهُ كَانَ فِيهِمْ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ قَدْ آمَنُوا، وَهُمْ يَكْتُمُونَ إِيْمَانَهُمْ، لَمْ يَعْلَمْ بِهِمُ الْمُسْلِمُونَ، فَلَوْ سَلَطَكُمْ عَلَيْهِمْ، لَأَصَبْتُمْ أُولَئِكَ بِمَعْرِةِ الْجَيْشِ، وَكَانَ يُصِيبُكُمْ مِنْهُمْ مَعْرِةُ الْعُدُوِّ وَالْإِيْقَاعِ يَمْنٌ لَا يَسْتَحَقُّ الْإِيْقَاعَ بِهِ، وَذَكَرَ سَبْحَانَهُ حَصُولَ الْمَعْرِةِ بِهِمْ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُسْتَضْعَفِينَ الْمُسْتَخْفِينَ بِهِمْ، لِأَنَّهَا مَوْجِبُ الْمَعْرِةِ الْوَاقِعَةِ مِنْهُمْ بِهِمْ، وَأَخْبَرَ سَبْحَانَهُ أَنَّهُمْ لَوْ زَالَوْهُمْ وَتَمَيَّزُوا مِنْهُمْ لَعَذَّبَ أَعْدَاءَهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا، إِمَّا بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ، وَإِمَّا بِغَيْرِهِ، وَلَكِنْ دَفَعَ عَنْهُمْ هَذَا الْعَذَابَ؛ لَوْجُودِ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ بَيِّنَ أَظْهَرِهِمْ، كَمَا كَانَ يَدْفَعُ عَنْهُمْ عَذَابَ الْإِسْتِصَالِ، وَرَسُولُهُ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ.

(لَا جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ)

ثم أخبر سبحانه عما جعله الكفارُ في قُلُوبِهِمْ مِنْ حَمِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ الَّتِي مَصْدَرُهَا الْجَهْلُ وَالظُّلْمُ، الَّتِي لَا جِلْمَ صَدُّوا رَسُولَهُ وَعِبَادَةَ عَنْ بَيْتِهِ، وَلَمْ يَقْرَأُوا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَلَمْ يَقْرَأُوا لِمُحَمَّدٍ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ مَعَ تَحَقُّقِهِمْ صَدَقَهُ، وَتَبَيَّنَتْهُمُ صَحَّةُ رِسَالَتِهِ بِالْبَرَاهِينِ الَّتِي شَاهَدُوهَا وَسَمِعُوا بِهَا فِي مَدَّةِ عَشْرِينَ سَنَةً، وَأَضَافَ هَذَا الْجَعْلَ إِلَيْهِمْ وَإِنْ كَانَ بِقَضَائِهِ وَقْدَرُهُ، كَمَا يُضَافُ إِلَيْهِمْ سَائِرُ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي هِيَ بِقُدْرَتِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ.

(فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ)

ثم أخبر - سبحانه - أنه أنزل في قلبِ رسولِهِ وأوليائِهِ مِنَ السَّكِينَةِ مَا هُوَ مُقَابِلٌ لِمَا فِي قُلُوبِ أَعْدَائِهِ مِنَ حَمِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَكَانَتِ السَّكِينَةُ حَقًّا رَسُولُهُ وَجَزِيَّةً، وَحَمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ حَقًّا الْمَشْرِكِينَ وَجَنْدَهُمْ، ثُمَّ أَلْزَمَ عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ كَلِمَةَ التَّقْوَى، وَهِيَ جَنْسُ يَتَمُّ كُلِّ كَلِمَةٍ يُتَمَّى اللَّهُ بِهَا، وَأَعْلَى نَوْعِهَا كَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ، وَقَدْ قُسِّرَتْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَهِيَ الْكَلِمَةُ الَّتِي أَبَتْ قَرِيشُ أَنْ تَلْتَزِمَهَا، فَأَلْزَمَهَا اللَّهُ أَوْلِيَائَهُ وَحَزْبَهُ، وَإِنَّمَا حَرَمَهَا أَعْدَاءُ صِيَانَتِهَا لَهَا عَنْ غَيْرِ كَفْتِهَا، وَأَلْزَمَهَا مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِهَا وَأَهْلُهَا، فَوَضَعَهَا فِي مَوْضِعِهَا، وَلَمْ يُضَيِّعْهَا بِوَضْعِهَا فِي غَيْرِ أَهْلِهَا، وَهُوَ

العليم بمحالٍ تخصيصه ومواضعه .

(لقد صدق الله رسوله الرؤيا)

ثم أخبر سبحانه، أنه صدَّقَ رُسُولَهُ رؤياه في دخولهم المسجد آمنين، وأنه سيكون ولا بُدَّ، ولكن لم يكن قد آن وقت ذلك في هذا العام، والله سبحانه عَلِمَ من مصلحة تأخيره إلى وقته ما لم تعلموا أنتم، فأنتم أحببتم استعجال ذلك، والربُّ تعالى يعلم من مصلحة التأخير وحكمته ما لم تعلموه، فقدم بين يدي ذلك فتحاً قريباً، توطئة له وتمهيداً .

(هو الذي أرسل رسوله بالهدى)

ثم أخبرهم بأنه هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، فقد تكفل الله لهذا الأمر بالتتمام والإظهار على جميع أديان أهل الأرض، ففي هذا تقوية لقلوبهم، وإشارة لهم وتثبيت، وأن يكونوا على ثقة من هذا الوعد الذي لا بُدَّ أن ينجزه، فلا تظنوا أن ما وقع من الإغماض والقهر يوم الحُدَيْبِيَّة نصره لعدوه، ولا تخلياً عن رسوله ودينه، كيف وقد أرسله بدينه الحق، ووعده أن يُظهِرَهُ على كل دين سواه .

(محمد رسول الله والذين معه أشد على الكفار)

ثم ذكر - سبحانه - رسوله وحزبه الذين اختارهم له، ومدحهم بأحسن المدح، وذكر صفاتهم في التوراة والإنجيل فكان في هذا أعظم البراهين على صدق من جاء بالتوراة والإنجيل، والقرآن، وأن هؤلاء هم المذكورون في الكتب المتقدمة بهذه الصفات المشهورة فيهم، لا كما يقول الكفار عنهم: إنهم متغلبون طالبو ملك ودنيا، ولهذا لما رآهم نصارى الشام، وشاهدوا هديهم وسيرتهم، وعدلهم وعلمهم، ورحمتهم وزهدهم في الدنيا، ورغبتهم في الآخرة، قالوا: ما الذين صَحِبُوا المسيحَ بأفضل من هؤلاء، وكان هؤلاء النصارى أعرف بالصحابة وفضلهم من الرافضة أعدائهم، والرافضة تصفهم

بضد ما وصفهم الله به في هذه الآية وغيرها و: ﴿مَنْ يَبْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًا مُرْتَدًّا﴾ [الكهف: ١٧] .

فصل

في غزوة خيبر

(تاريخها)

قال موسى بن عتبة: ولما قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينة من الحُدَيْبِيَّة، مَكَثَ بها عشرين ليلةً أو قريباً منها، ثم خرج غازياً إلى خيبر، وكان الله عزَّ وجلَّ وعده إياها، وهو بالحُدَيْبِيَّة .

وقال مالك: كان فتحُ خيبر في السنة السادسة، والجمهور: على أنها في السابعة. وقطع أبو محمد بن حزم: بأنها كانت في السادسة بلا شك، ولعل الخلاف مبني على أول التاريخ، هل هو شهر ربيع الأول شهر مقدِّمه المدينة، أو من المحرم في أول السنة؟ وللناس في هذا طريقان: فالجمهور على أن التاريخ وقع من المحرم، وأبو محمد بن حزم: يرى أنه من شهر ربيع الأول حين قَدِمَ، وكان أول من أُرِخَ بالهجرة يُعَلَى بنُ أمية باليمن، كما رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح^(١)، وقيل: عمر بن الخطاب رضي الله عنه، سنة ست عشرة من الهجرة .

وقال ابنُ إسحاق: حدثني الزُّهري، عن عُروة، عن مروان بن الحكم والمِسْوَر بن مَخْرَمَةَ، أنهما حدثاه جميعاً، قالوا: انصرفت رسولُ الله ﷺ عام الحُدَيْبِيَّة، فنزلت عليه سورة الفتح فيما بين مكة والمدينة، فأعطاه الله عزَّ وجلَّ فيها خيبر: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَقَاتِلَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ [الفتح: ٢٠] خيبر، فقَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينة في ذي الحجة، فأقام بها حتى سار إلى خيبر في المحرم، فنزل رسولُ الله ﷺ بالرُّجِيع: وإد بين خيبر وعُظْلَفَان، فتخوَّف أن تدمع عُظْلَفَان، فبات به حتى أصبح، فغدا إليهم^(٢)، انتهى .

(١) الحافظ في «الفتح» (٧/٢٠٩)، وقال: أخرجه أحمد بإسناد صحيح، لكن فيه انقطاع بين عمرو بن دينار ويعلى .

(٢) رجاله ثقات .

(قدوم أبي هريرة)

واستخلف على المدينة سباع بن عُرْفُطَةَ، وقَدِمَ أبو هريرة حينئذ المدينة، فوافى سباع بن عُرْفُطَةَ في صلاة الصُّبح، فسمعه يقرأ في الركعة الأولى: ﴿كَهَيِّضَ ۝﴾ [مریم: ١]، وفي الثانية ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّينَ ۝﴾ [المطففين: ١]، فقال في نفسه: ويل لأبي فلان، له ميكالان، إذا اكتال اكتال بالوافي، وإذا كال كال بالناقص، فلما فرغ من صلاته، أتى سباعاً، فزوده حتى قَدِمَ على رسول الله ﷺ وكلم المسلمين، فأشركوه وأصحابه في سهمانهم [صحيح: أحمد: ٨٥٥٢].

(قصة عامر بن الأكوع)

وقال سلمة بن الأكوع: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر، فبينا ليلة، فقال رجل من القوم ليعامر بن الأكوع: ألا تسمعنا من هُتَيْهَاتِكَ، وكان عامر رجلاً شاعراً؟ فنزل يحذو بالقوم يقول:

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا

وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَاغْفِرْ فِدَاءَ لَكَ مَا اقْتَتَيْنَا

وَوَبَّيْتَ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

وَأَنْزَلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا

إِنَّا إِذَا صَبَحَ بِنَا أَتَيْنَا

وَبِالصَّبَاحِ عَوَّلُوا عَلَيْنَا

وإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ هَذَا السَّائِقُ؟» قالوا:

عامر، فقال: «رَحِمَهُ اللَّهُ»: فقال رجل من القوم:

وجبت يا رسول الله لولا أمتعتنا به، قال: فأتينا

خيبر، فحاصرناهم حتى أصابتنا مخمصة شديدة، ثم

إنَّ الله تعالى فتح عليهم، فلما أَمْسَوْا، أوقدوا نيراناً

كثيرة، فقال رسول الله ﷺ: «مَا هَذِهِ النَّيْرَانِ، عَلَى

أَيِّ شَيْءٍ تَوَقَّدُونَ؟» قالوا: على لحم، قال: «عَلَى أَيِّ

لَحْمٍ؟» قالوا: على لحم حمر أنسية، فقال رسول الله

ﷺ: «أَهْرِيقُوهَا وَأَحْسِرُوهَا»، فقال رجل: يا

رسول الله أو نُهْرِيقُهَا وَنَغْسِلُهَا؟ فقال: «أَوْ ذَاكَ»،

فلما تصافت القوم، خرج مَرْحَبٌ يخطر بسيفه وهو

يقول:

قَدْ عَلِمْتُ خَيْبَرُ أَنِّي مَرْحَبٌ

شَاكِي السَّلَاحِ بَطْلٌ مُجْرَبٌ

إِذَا الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ

فنزل إليه عامر وهو يقول:

قَدْ عَلِمْتُ خَيْبَرُ أَنِّي عَامِرٌ

شَاكِي السَّلَاحِ بَطْلٌ مُعَامِرٌ

فاختلفا ضربتين، فوقع سيف مَرْحَبٍ في ترس

عامر، فذهب عامر يَسْقُلُ له، وكان سيفُ عامر فيه

قصر، فرجع عليه ذباب سيفه، فأصاب عين ركبته،

فمات منه، فقال سلمة للنبي ﷺ: زعموا أن عامراً

حَيَّطَ عمله، فقال: «كَذَّبَ مَنْ قَالَهُ، إِنَّ لَهُ أَجْرَيْنِ»،

وجمع بين أصبعيه أنه لَجَاهِدٌ مُجَاهِدٌ، قلَّ عريي مشى

بها مثله [البخاري: ٤١٩٦، ومسلم: ٤٦٦٨].

فصل

(القدوم إلى خيبر)

ولما قَدِمَ رسول الله ﷺ خيبر، صلى بها الصُّبح،

وركب المسلمون، فخرج أهل خيبر بمساجيهم

ومكائيلهم، ولا يَشْعُرُونَ، بل خرجوا لأرضهم، فلما

رأوا الجيش، قالوا: مُحَمَّدٌ وَاللَّهِ، مُحَمَّدٌ

وَالْخَمِيسُ، ثم رجعوا هارين إلى حصونهم، فقال

النبي ﷺ: «اللَّهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ

خَيْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ، فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُتَنَذِرِينَ»

[البخاري: ٤١٩٨، ومسلم: ٣٣٢١ (١)].

ولما دنا النبي ﷺ وأشرف عليها، قال: «قفوا»

فوقف الجيش، فقال: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ

وَمَا أَظْلَلْنَ، وَرَبَّ الْأَرْضِينَ السَّبْعِ وَمَا أَقْلَلْنَ، وَرَبَّ

الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضْلَلْنَ، فَإِنَّا نَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ

وَخَيْرَ أَهْلِهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ

الْقَرْيَةِ وَشَرِّ أَهْلِهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا، أَقْدِمُوا بِسْمِ اللَّهِ» [ابن

كثير في «البداية» (٤/ ١٨٣)].

(إعطاء الراية لعلي)

ولما كانت ليلة الدخول، قال: «لَا غَطِيَّتَ هَذِهِ

الرَّايَةَ عَدَا رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُجِبُّهُ اللَّهُ

وَرَسُولُهُ، يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ»، فبات الناس يدوكون

(١) وهذا الحديث أصل في جواز التمثل والاستشهاد بالقرآن، والالتباس.

أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فلما أصبح الناسُ، عَدَدُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: «أَيُّنَ عَلَيَّ بَنُ أَبِي طَالِبٍ؟» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، قَالَ: «فَارْسِلُوا إِلَيْهِ»، فَأَتَى بِهِ، فَبَصُقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ حَتَّى كَانَ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَقَاتِلْهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ قَالَ: انْفُذْ عَلَى رِشْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ اذْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ [البخاري: ٤٢١٠، ومسلم: ٤٦٧٨].

(من قتل مرحب اليهودي؟)

فخرج مَرْحَبٌ وهو يقول:
أَنَا الَّذِي سَمَّيْنِي أُمِّي مَرْحَبٌ
شَاكِي السَّلَاحِ بَطْلٌ مُجْرَبٌ

إِذَا الْخُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ
فبرز إليه عليٌّ وهو يقول:
أَنَا الَّذِي سَمَّيْنِي أُمِّي حَيْدَرَةٌ
كَلِمَتِ غَايَاتِ كَرِيمِ الْمَنْظَرَةِ
أَوْفِيهِمْ بِالضَّاعِ كَيْلُ السَّنْدَرَةِ
فَضْرِبَ مَرْحَبًا، فَفَلَقَ هَامَتَهُ، وَكَانَ الْفَتْحُ [مسلم: ٤٦٨٨].

ولما دنا علي رضي الله عنه من حصونهم، اطلع يهودي من رأس الحصن، فقال: مَنْ أَنْتَ؟ فقال: أَنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فقال اليهودي: علوثكم وما أنزل على موسى.

هكذا في «صحيح مسلم» أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو الذي قتل مَرْحَبًا^(١).

وقال موسى بن عُقْبَةَ: عن الزهري وأبي الأسود، عن عروة ويونس بن بكير، عن ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن سهل، أحد بني حارثة، عن جابر بن عبد الله، أن مُحَمَّدَ بْنَ مُسْلِمَةَ هو الذي قتله، قال جابر في حديثه: خرج مَرْحَبُ الْيَهُودِيِّ مِنْ حِصْنٍ خَيْرٍ قَدْ جَمَعَ سِلَاحَهُ، وَهُوَ يَرْتَجِزُ وَيَقُولُ: مَنْ

يُبَارِزُ؟ فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ لِهَذَا؟» فقال مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمَةَ: أَنَا لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا وَاللَّهِ الْمَوْتُورُ النَّائِرُ، قَتَلُوا أَخِي بِالْأَمْسِ، يَعْنِي مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمَةَ، وَكَانَ قُتِلَ بِخَيْرٍ، فَقَالَ: «قُمْ إِلَيَّ اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِ»، فلما دنا أحدهما من صاحبه، دخلت بينهما شجرة، فجعل كل واحد منهما يلوذُ بها من صاحبه، كلما لاذ بها منه اقتطع صاحبه بسيفه ما دونه منها، حتى برز كل واحد منهما لصاحبه، وصارت بينهما كالرجل القائم، ما فيها قَنَنٌ، ثُمَّ حَمَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ فَضْرِبَهُ، فَاتَقَاهُ بِالْدَّرَقَةِ، فَوَقَعَ سَيْفُهُ فِيهَا، فَفَعَّصَتْ بِهِ، فَأَمْسَكَتُهُ، وَضْرِبَهُ مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمَةَ فَقَتَلَهُ [صحيح: أحمد: ١٥١٣٤]، وكذلك قال سلمة بن سلامة، ومجمع بن حارثة: إن محمد بن مسلمة قتل مرحباً.

قال الواقدي: وقيل: إن مُحَمَّدَ بْنَ مُسْلِمَةَ ضَرَبَ سَاقِي مَرْحَبٍ فَقَطَعَهُمَا، فَقَالَ مَرْحَبٌ: أَجْهَزَ عَلَيَّ يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ مُحَمَّدٌ: دُقِيَ الْمَوْتُ كَمَا ذَاقَهُ أَخِي مُحَمَّدُ، وَجَاوَزَهُ، وَمَرَّ بِهِ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَأَخَذَ سِلْبَهُ، فَاخْتَصَمَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَلْبِهِ، فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا قَطَعْتُ رَجْلِي ثُمَّ تَرَكْتُهُ إِلَّا لِيَذُوقَ الْمَوْتَ، وَكُنْتُ قَادِرًا أَنْ أَجْهَزَ عَلَيْهِ، فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: صَدَقَ، ضَرَبْتُ عُنُقَهُ بَعْدَ أَنْ قَطَعَ رَجْلِي، فَأَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمَةَ سَيْفَهُ وَرَمَحَهُ، وَمِغْفَرَهُ وَبَيْضَتَهُ، وَكَانَ عِنْدَ آلِ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمَةَ سَيْفُهُ فِيهِ كِتَابٌ لَا يُدْرَى مَا فِيهِ، حَتَّى قَرَأَهُ يَهُودِي، فَإِذَا فِيهِ:

هَذَا سَيْفُ مَرْحَبٍ مَنْ يَذْفُقُهُ يَغْطِبُ

(قتل الزبير أخا مرحب)

ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر، فبرز إليه الزبير، فقالت صفية أمه: يَا رَسُولَ اللَّهِ! يَقْتُلْ ابْنِي؟ قَالَ: «بَلْ ابْنُكَ يَقْتُلُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»، فَقَتَلَهُ الزَّبِيرُ.

(حصار حصن القموص وفيه النهي عن أكل اللحم الأهلية)

وقصة العبد الذي أسلم ثم استشهد ولم يصل سجدة قط)

قال موسى بن عقبة: ثم دخل اليهود حصناً لهم

(١) وقال الحاكم في «المستدرک» (٣/٤٣٧): إن الأخبار متواترة بأسانيد كثيرة أن قاتل مرحب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

منيعاً يقال له: القُمُوص، فحاصرهم رسول الله ﷺ قريباً من عشرين ليلة، وكانت أرضاً وَخْمةً شديدة الحر، فجهَد المسلمون جهداً شديداً، فذبحوا الحُمُرَ ففهامهم رسول الله ﷺ عن أكلها، وجاء عبد أسود حبشي من أهل خيبر، كان في غنم لسيده، فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السلاح، سألهم ما تُريدون؟ قالوا: نُقاتل هذا الذي يزعم أنه نبي، فوقع في نفسه ذكر النبي ﷺ، فأقبل بغنمه إلى رسول الله ﷺ، فقال: ماذا تقول وما تدعو إليه؟ قال: «أدْعُو إلى الإسلام، وَأَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنْ لَا تَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ»، قال العبد: فما لي إن شهدت وأمنت بالله عز وجل؟ قال: «لَكَ الْجَنَّةُ إِنْ مِتَّ عَلَى ذَلِكَ»، فأسلم، ثم قال: يا نبي الله! إن هذه الغنم عندي أمانة، فقال له رسول الله ﷺ: «أَخْرِجْهَا مِنْ عِنْدِكَ وَارْزُقْهَا بِالْحَضْبَاءِ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيُؤَدِّي عَنْكَ أَمَانَتَكَ»، ففعل، فرجعت الغنم إلى سيدها، فعلم اليهودي أن غلامه قد أسلم، فقام رسول الله ﷺ في الناس، فَوَعَّظَهُمْ، وَحَضَّاهُمْ عَلَى الْجِهَادِ، فلما التقى المسلمون واليهود، قُتِلَ فيمن قُتِلَ العبد الأسود، فاحتمله المسلمون إلى معسكرهم، فأدخل في الفُسطاط، فزعموا أن رسول الله ﷺ اطلع في الفُسطاط، ثم أقبل على أصحابه وقال: «لَقَدْ أَكْرَمَ اللَّهُ هَذَا الْعَبْدَ، وَسَاقَهُ إِلَى خَيْرٍ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ عِنْدَ رَأْيِهِ اثْنَتَيْنِ مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ، وَلَمْ يَصِلْ لِلَّهِ سَجْدَةً قَطُّ».

(قصة استشهاد رجل)

قال حماد بن سلمة: عن ثابت، عن أنس، أتى رسول الله ﷺ رجلٌ فقال: يا رسول الله! إني رجل أسود اللون، قبيح الوجه، مُتَّيْنُ الرِّيحِ، لا مال لي، فإن قاتلتُ هؤلاء حتى أقتل، أَدْخُلُ الْجَنَّةَ؟ قال: نعم، فتقدم، فقاتل حتى قُتِلَ، فأتى عليه النبي ﷺ وهو مقتول، فقال: «لَقَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ وَجْهَكَ، وَطَيَّبَ رِيحَكَ، وَكَثَّرَ مَالَكَ»، ثم قال: «لَقَدْ رَأَيْتُ رَوْحَتِي مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ يَنْزِعَانِ جَبَّتَهُ عَنْهُ، يَدْخُلَانِ فِيمَا بَيْنَ جَلْدِهِ وَجَبَّتِهِ».

(قصة اعرابي استشهد)

وقال شداد بن الهاد: جاء رجل من الأعراب إلى

النبي ﷺ، فَأَمَّنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ، فَقَالَ: أَهَاجِرُ مَعَكَ، فَأَوْصَى بِهِ بَعْضُ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا كَانَتْ غَزْوَةُ خَيْبَرِ، غَيَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئاً، فَقَسَمَهُ، وَقَسَمَ لِلْأَعْرَابِيِّ، فَأَعْطَى أَصْحَابَهُ مَا قَسَمَهُ لَهُ، وَكَانَ يَرْعَى ظَهْرَهُمْ، فَلَمَّا جَاءَ، دَفَعُوهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: قَسَمَ قَسَمَهُ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَخَذَهُ، فَجَاءَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: مَا هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «قَسَمْتُ قَسَمَتَهُ لَكَ»، قَالَ: مَا عَلَى هَذَا اتَّبَعْتُكَ، وَلَكِنْ اتَّبَعْتُكَ عَلَى أَنْ أُرْمَى ههنا، وَأُشَارَ إِلَى خَلْفِي بِهِمْ، فَأَمُوتَ فَأَدْخُلُ الْجَنَّةَ، فَقَالَ: «إِنْ تَصَدَّقَ اللَّهُ بِصَدَقَتِكَ»، ثُمَّ نَهَضَ إِلَى قِتَالِ الْعَدُوِّ، فَأَتَى بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ مُقْتُولٌ، فَقَالَ: «أَهُوَ هُوَ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «صَدَّقَ اللَّهُ قَصْدَهُ، فَكَفَتُهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي جَبَّتِهِ، ثُمَّ قَدَّمَهُ، فَصَلَّى عَلَيْهِ، وَكَانَ مِنْ دَعَائِهِ لَهُ: «اللَّهُمَّ هَذَا عَبْدُكَ خَرَجَ مُهَاجِراً فِي سَبِيلِكَ، قُتِلَ شَهِيداً، وَأَنَا عَلَيْهِ شَهِيدٌ» (صحيح: النسائي (٦٠/٤)، والحاكم (٥٩٥/٢)).

(فتح قلعة الزبير والصلح مع من كان في حصن ابن أبي)

الحقيق دم نكثهم العهد بتفبيب مسك حبي بن اخطب)

قال الواقدي: وتحوّلت اليهود إلى قلعة الزبير: حصن منيع في رأس قَلْبَةٍ، فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ يُقَالُ لَهُ: عَزَال، فَقَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ! إِنَّكَ لَوْ أَقَمْتَ شَهراً مَا بَالُوا، إِنْ لَهُمْ شِراً بِاً وَغِيوَناً، تَحْتَ الْأَرْضِ، يَخْرُجُونَ بِاللَّيْلِ، فَيَشْرُونَ مِنْهَا، ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَى قَلْعَتِهِمْ، فَيَمْتَنِعُونَ مِنْكَ، فَإِنْ قَطَعْتَ مَشْرِئَهُمْ عَلَيْهِمْ أَصْحَرُوا لَكَ، فَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى مَائِهِمْ، فَقَطَعَهُ عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا قَطَعَ عَلَيْهِمْ، خَرَجُوا، فَقَاتَلُوا أَشَدَّ الْقِتَالِ، وَقُتِلَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ نَفَرٌ، وَأَصِيبَ نَحْوِ الْعِشْرَةِ مِنَ الْيَهُودِ، وَافْتَتَحَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ تَحَوَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَهْلِ الْكُتَيْبَةِ وَالْوُطَيْحِ وَالسَّلَامِ حَصْنِ ابْنِ أَبِي الْحَقِيقِ، فَتَحَصَّنَ أَهْلُهُ أَشَدَّ التَّحَصُّنِ، وَجَاءَهُمْ كُلُّ قَلٍّ كَانَ انْهَزَمَ مِنَ الشُّقَّةِ وَالشَّقِّ، فَإِنْ خَيْرٌ كَانَتْ جَانِبَيْنِ: الْأَوَّلُ: الشُّقَّةُ وَالنُّطَاةُ، وَهُوَ الَّذِي افْتَتَحَهُ أَوَّلاً، وَالْجَانِبُ الثَّانِي: الْكُتَيْبَةُ وَالْوُطَيْحِ وَالسَّلَامِ، فَفَعَلُوا لَا يَخْرُجُونَ مِنْ حُصُونِهِمْ حَتَّى هَمَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَنْصَبَ عَلَيْهِمُ الْمَنْجَنِيْقَ، فَلَمَّا أَيقَنُوا بِالْهَلَكَةِ، وَقَدْ حَصَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَرْبَعَةَ عَشَرَ يَوْماً، سَأَلُوا

رسول الله ﷺ الصلح، وأرسل ابن أبي الحقيق إلى رسول الله ﷺ: أنزل فأكلتمك؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فنزل ابن أبي الحقيق، فصالح رسول الله ﷺ على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة وترك الذرية لهم، ويخرجون من خير وأرضها بذرايرهم، ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال وأرض، وعلى الصفراء والبيضاء، والكراع والحلقة ألا ثوباً على ظهر إنسان، فقال رسول الله ﷺ: «وَبَرَكْتَ مِنْكُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ إِنْ كَتَمْتُمُونِي شَيْئاً»، فصالحوه على ذلك.

يخرصه عليهم كما تقدم. ولم يقتل رسول الله ﷺ بعد الصلح إلا ابني أبي الحقيق للثك الذي نكثوا، فإنهم شرطوا إن غيوا، أو كتموا، فقد برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله، فغيوا، فقال لهم: أين المال الذي خرجتم به من المدينة حين أجليناكم؟ قالوا: ذهب، فحلفوا على ذلك، فاعترف ابن عم كنانة عليهما بالمال حين دفعه رسول الله ﷺ إلى الزبير يُعذبه، فدفع رسول الله ﷺ كنانة إلى محمد بن مسلمة فقتله، ويقال: إن كنانة هو كان قتل أخاه محمود بن مسلمة.

(زواجه ﷺ بصفية)

وسى رسول الله ﷺ صفيّة بنت حيي بن أخطب، وابنة عمتها، وكانت صفيّة تحت كنانة بن أبي الحقيق، وكانت عروساً حديثة عهد بالدخول، فأمر بلالاً أن يذهب بها إلى رحله، فمر بها بلال وسط القتلى، فكره ذلك رسول الله ﷺ، وقال: «أَذْهَبَتِ الرَّحْمَةُ مِنْكَ يَا بِلَالُ»^(١).

وعرض عليها رسول الله ﷺ الإسلام، فأسلمت، فاصطفاها لنفسه، وأعتقها، وجعل عتقها صدقاً لها [البخاري: ٤٢٠٠، ومسلم: ٣٣٢١]، وبنى بها في الطريق، وأولم عليها، ورأى بوجهها خضرة، فقال: «ما هذا؟» قالت: يا رسول الله! أرايت قبل قدومك علينا، كأن القمر زال من مكانه، فسقط في حجرى، ولا والله ما أذكر من شأنك شيئاً، فقصصتها على زوجي، فلطم وجهي، وقال: تمنين هذا الملك الذي بالمدينة [البيهقي (٢٥١/٩)].

وشك الصحابة: هل اتخذها سرية أو زوجة؟ فقالوا: انظروا إن حجبتها، فهي إحدى نساءه، وإلا فهي مما ملكت يمينه، فلما ركب، جعل ثوبه الذي ارتدى به على ظهرها ووجهها، ثم شد طرفه تحته، فتأخروا عنه في المسير، وعلموا أنها إحدى نساءه، ولما قدم ليحملها على الرحل أجلت أن تضع قدمها على فخذه، فوضعت ركبته على فخذه ثم ركبت [البخاري: ٤٢١١، ومسلم: ٣٥٠٠].

ولما بنى بها، بات أبو أيوب ليلته قائماً قريباً من قُبته، أخذاً بقائم السيف حتى أصبح، فلما رأى

قال حماد بن سلمة: أنبأنا عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلى قصرهم، فغلب على الزرع والنخل والأرض، فصالحوه على أن يُجلوا منها، ولهم ما حملت ركائبهم ولبسوا الصفراء والبيضاء، واشترط عليهم أن لا يكتموا ولا يُغيّبوا شيئاً، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد، فغيّبوا مسكاً فيه مال وحلي لحبي بن أخطب، كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير، فقال رسول الله ﷺ لعم حيي بن أخطب: «ما فعل مسك حيي الذي جاء به من النضير؟». قال: أذهبه التفقات والحروب، فقال: «العهد قريب، والمال أكثر من ذلك»، فدفعه رسول الله ﷺ إلى الزبير، فمسه بعداب، وقد كان قبل ذلك دخل خربة، فقال: «قد رأيتُ حيّاً، يطوف في خربة هنا، فذهبوا، فطافوا، فوجدوا المسك في الخربة، فقتل رسول الله ﷺ ابني أبي الحقيق، وأحدهما زوج صفيّة بنت حيي بن أخطب، وسى رسول الله ﷺ نساءهم وذرايرهم، وقسم أموالهم بالثك الذي نكثوا، وأراد أن يُجليهم منها، فقالوا: يا محمد! دعنا نكون في هذه الأرض نُصلحها ونقوم عليها، فنحن أعلم بها منكم، ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها، وكانوا لا يفرعون يقومون عليها، فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع وكل ثمر ما بدا لرسول الله ﷺ أن يقرهم [ابو داود: ٣٠٠٦]، وكان عبد الله بن رواحة

(١) ابن إسحاق في رواية يونس بن بكير عنه حدثني والذي إسحاق بن يسار قال: لما افتتح رسول الله الغموص...

رسول الله ﷺ، كَبُرَ أبو أيوب حين رآه قد خرج، فسأله رسول الله ﷺ: ما لك يا أبا أيوب؟ فقال له: أَرَقْتُ ليلتي هذيو يا رسول الله لما دخلت بهذه المرأة، ذكرتُ أنك قتلْتَ أباهَا وأخاهَا، وزوجَهَا وعامةَ عشيرَتِهَا، فخِفْتُ أن تغتالِكَ، فضجِكَ رسول الله ﷺ وقال له معروفاً [ابن مناصم (٦٢٢)].

فصل

(قسم خيبر على المسلمين)

وهل فتحت خيبر صلحاً أم غنوة؟

وقسم رسول الله ﷺ خيبرَ على ستة وثلاثين سهماً، جمع كلُّ سهم مئة سهم، فكانت ثلاثة آلاف وستمئة سهم، فكان لرسول الله ﷺ وللمسلمين النصفُ من ذلك، وهو ألف وثمانمئة سهم، لرسول الله ﷺ سهمٌ كسهم أحد المسلمين، وعَزَلَ النصف الآخر، وهو ألف وثمانمئة سهم لنوابه وما ينزُلُ به من أمور المسلمين [حسن: أبو داود: ٣٠١٠ - ٣٠١٢]، قال البيهقي: وهذا لأن خيبر فُتِحَ شَطْرُهَا غَنَوَةٌ، وشَطْرُهَا صَلْحًا، فقسم ما فتح غَنَوَةٌ بين أهل الخمس والغنائم، وعزل ما فتح صلحاً لنوابه وما يحتاجُ إليه من أمور المسلمين.

قلت: وهذا بناء منه على أصل الشافعي رحمه الله، أنه يجب قسم الأرض المفتوحة غنوةً كما تقسم سائر المغانم، فلما لم يجده قسم النصف من خيبر، قال: إنه فتح صلحاً، ومن تأمل السير والمغازي حقَّ التأمل، تبين له أن خيبر إنما فُتحت غَنَوَةٌ، وأن رسول الله ﷺ استولى على أرضها كُلَّهَا بالسيف غَنَوَةٌ، ولو فُتحت شيء منها صلحاً، لَم يُجلبهم رسول الله ﷺ منها، فإنه لما عزم على إخراجهم منها، قالوا: نحن أعلمُ بالأرض منكم، دعونا نكون فيها، ونعمرُها لكم بشرط ما يخرج منها، وهذا صريح جداً في أنها إنما فُتحت غَنَوَةٌ، وقد حصل بين اليهود والمسلمين بها من الحراب والمبارزة والقتل من الفريقين ما هو معلوم، ولكن لما أُلجئوا إلى حصنهم، نزلوا على الصلح الذي بذلوه، أن لرسول الله ﷺ الصفراء والبيضاء، والحلقة

والسلاح، ولهم رِقَابُهُمْ وَثَرَّتُهُمْ، وجعلوا من الأرض، فهذا كان الصلح، ولم يقع بينهم صلح أين شيئاً من أرض خيبر لليهود، ولا جرى ذلك البتة، ولو كان كذلك، لم يَقُلْ: تُقَرِّكُم ما شئنا، فكيف يُقَرِّمهم في أرضهم ما شاء؟ ولما كان عمرُ أجلاهم كُلِّهم من الأرض، ولم يُصالحهم أيضاً على أن الأرض للمسلمين، وعليها خراجٌ يؤخذ منهم، هذا لم يقع، فإنه لم يضرب على خيبر خراجاً البتة.

(ترجيح المصنف فتحها)

غنوة وبیان حکم الأرض المفتوحة غنوة)

فالصواب الذي لا شك فيه: أنها فتحت غَنَوَةٌ، والإمام مخير في أرض الغنوة بين قسَمها ووقفها، أو قَسَم بعضها ووقف البعض، وقد فعل رسول الله ﷺ الأنواع الثلاثة، فقسم قُرَيْظَةَ والنضير، ولم يَقْسِم مكة، وقسم شَطْرَ خيبر، وترك شَطْرَهَا، وقد تقدم تقرير كون مكة فتحت غَنَوَةٌ بما لا مدفع له.

(لم يغب عن خيبر من أهل الحديبية إلا جابر)

وإنما قُسِمَتْ على ألف وثمانمئة سهم، لأنها كانت طُعمَةً من الله لأهل الحديبية من شهد منهم، ومن غاب، وكانوا ألفاً وأربعمئة، وكان معهم متا فرس، لكل فرس سهمان، فُقْسِمَتْ على ألف وثمانمئة سهم، ولم يغب عن خيبر من أهل الحديبية إلا جابر بن عبد الله، فقسم له رسول الله ﷺ كسهم من حضرها.

(الاختلاف في سهم الرجل والفارس)

وقسم للفارس ثلاثة أسهم، وللراجل سهماً، وكانوا ألفاً وأربعمئة وفيهم متا فارس، هذا هو الصحيح الذي لا ريب فيه.

وروى عبد الله العمري، عن نافع، عن ابن عمر، أنه أعطى الفارس سهمين والراجل سهماً [الدارقطني (٤٧٠)]، وسنده ضعيف.

قال الشافعي رحمه الله: كأنه سمع نافعاً يقول: للفارس سهمين، وللراجل سهماً، فقال: للفارس، وليس يُشكُّ أحد من أهل العلم في تقدُّم عبيد الله بن عمر على أخيه في الحفظ، وقد أنبأنا الثقة^(١) من

(١) قال أبو العباس الأصم في روايته لمسند الشافعي: سمعت الربيع بن سليمان يقول: كان الشافعي رضي الله عنه إذا كان قال: أخبرني مَنْ لا أنهم، يريد به إبراهيم بن أبي يحيى، وإذا قال: أخبرني الثقة يريد به يحيى بن حسان.

المسعودي، وفيه ضعف، وقد رُوي الحديث عنه على وجه آخر، فقال: أتينا رسول الله ﷺ ثلاثة نفر، معنا فرس، فكان للفرس بسهمين، وذكره أبو داود أيضاً [أبو داود: ٢٧٣٥، وفي سنده مجهول].

فصل

(قدوم جعفر بن أبي طالب والأشعرين)

وفي هذه الغزوة، قدم عليه ﷺ ابن عمه جعفر بن أبي طالب وأصحابه، ومعهم الأشعرين، عبد الله بن قيس أبو موسى، وأصحابه، وكان فيمن قَدِمَ معهم أسماء بنت عيسى. قال أبو موسى: بلغنا مَخْرَجُ النبي ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين أنا وأخوان لي، أنا أصغرهما، أحدهما أبو زهم، والآخر أبو بردة، في بضع وخمسين رجلاً من قومي، فركبنا سفينة، فآلقنا سفينتنا إلى النجاشي بالحيشة، فوافقنا جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وأصحابه عنده، فقال جعفر: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بعثنا، وأمرنا بالإقامة، فأقيموا معنا، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً، فوافقنا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ افْتَتَحَ خَيْبَرَ، فأسهم لنا، وما قسم لأحدٍ غَابَ عن فتح خيبر شيئاً إلا لمن شهد معه، إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه، قسم لهم معهم، وكان ناس يقولون لنا: سبقناكم بالهجرة، قال: ودخلت أسماء بنت عيسى على حفصة، فدخل عليها عمر، فقال: مَنْ هِذِهِ؟ قالت: أسماء، فقال عمر: سبقناكم بالهجرة، نحن أحقُّ برسول الله ﷺ منكم، فَعَفِيتُ، وقالت: يا عمر! كلا والله، لقد كنتم مع رسول الله ﷺ، يُطْعِمُ جائعكم، وَيَعْطِي جاهِلَكُم، وكنا في أرض البُعداء البُغضاء، وذلك في الله، وفي رسوله، وإيَّم الله، لا أطمع طعاماً، ولا أشربُ شرباً حتى أذكر ما قلتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ونحن كنا نُؤْذِي ونخاف، وسأذكر ذلك لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد على ذلك، فلما جاء النبي ﷺ، قالت: يا رسول الله! إن عمر قال كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: ما قلتُ له؟ قالت: قلتُ له: كذا وكذا، فقال: «لَيْسَ بِأَحَقَّ بِي مِنْكُمْ، وَلَهُ وَأَصْحَابُهُ هِجْرَةٌ وَاجِدَةٌ، وَلَكُمْ أَنْتُمْ أَهْلُ السُّفِينَةِ هِجْرَتَانِ»، وكان أبو موسى وأصحاب السفينة يأتون أسماء أرسالاً يسألونها عن

أصحابنا، عن إسحاق الأزرق الواسطي، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ ضرب للفرس بسهمين، وللفرس بسهم [الشافعي (١١٢/٢)].

ثم روى من حديث أبي معاوية، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ أسهم للفرس ثلاثة أسهم: سهم له، وسهمان لفرسه، وهو في «الصحاحين» [البخاري: ٢٨٦٣، ومسلم: ٤٥٨٦]، وكذلك رواه الثوري، وأبو أسامة عن عبيد الله.

قال الشافعي رحمه الله: وروى مجمع بن جارية أن النبي ﷺ قسم سهام خيبر على ثمانية عشر سهماً، وكان الجيش ألفاً وخمسمئة، منهم ثلاثمئة فارس، فأعطى الفارس سهمين، والراجل سهماً [أبو داود: ٢٧٣٦، وفي إسناده ضعف].

قال الشافعي رحمه الله: ومجمع بن يعقوب، يعني راوي هذا الحديث، عن أبيه، عن عمه عبد الرحمن بن يزيد، عن عمه مجمع بن جارية، شيخ لا يعرف، فأخذنا في ذلك بحديث عبيد الله، ولم نر له مثله خيراً يُعارضه، ولا يجوز ردُّ خبر إلا بخبر مثله.

قال البيهقي: والذي رواه مجمع بن يعقوب بإسناده في عدد الجيش وعدد الفرسان، قد خُوِّلَتْ فيه، ففي رواية جابر، وأهل المغازي: أنهم كانوا ألفاً وأربعمئة، وهم أهل الحُدَيْبِيَّة، وفي رواية ابن عباس، وصالح بن كيسان، ويشير بن يسار، وأهل المغازي: أن الخيل كانت مِئَتَيْ فَرَس، وكان للفرس سهمان، ولصاحبه سهم، ولكل راجل سهم.

وقال أبو داود: حديث أبي معاوية أصحُّ، والعمل عليه، وأرى الوهم في حديث مجمع أنه قال ثلاثمئة فارس، وإنما كانوا مِئَتَيْ فَرَس.

وقد روى أبو داود أيضاً من حديث أبي عمرة، عن أبيه، قال: «أتينا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أربعة نفر، ومعنا فرس، فأعطى كل إنسان منا سهماً، وأعطى الفرس سهمين» [أحمد: ١٧٢٣٩، وأبو داود: ٢٧٣٤، وفي سنده ضعيف]، وهذا الحديث في إسناده عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة بن عبد الله بن مسعود، وهو

هذا الحديث، ما من الدنيا شيء، هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم رسول الله ﷺ [البخاري: ٣١٣٦، ومسلم: ٦٤١٠].

ولما قَدِمَ جَعْفَرُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، تَلَقَاهُ وَقَبَّلَ جَبْهَتَهُ، وَقَالَ: «وَاللَّهِ مَا أَدْرِي بِأَيِّهِمَا أَفْرَحُ، بِفَتْحِ خَيْرٍ أَمْ بِقُدُومِ جَعْفَرٍ؟» [الطبراني في الأوسط، والصغير، ص (٧-٨)، وسنده ضعيف].

(ضعف قصة حجلان)

جعفر إعظاماً له ﷺ وبطلان جعلها مستنداً للرخص)

وأما ما رُوي في هذه القصة، أن جعفرأ لما نظر إلى النبي ﷺ، حجل يعني: مشى على رجل واحدة إعظاماً لرسول الله ﷺ، وجعله أشباه الدُّبَابِ الرَّقَاصُونَ أصلاً لهم في الرقص، فقال البيهقي وقد رواه من طريق الثوري عن أبي الزبير، عن جابر: وفي إسنادِهِ إلى الثوري من لا يعرف.

قلت: ولو صح، لم يكن في هذا حُجَّةٌ على جواز التشبُّه بالدُّبَابِ، والتكسر، والتخنُّث في المشي المنافي لهدى رسول الله ﷺ، فإن هذا لعله كان من عادة الحبشة تعظيماً لكبرائها، كضرب الجُوك عند الترك ونحو ذلك، فجري جعفر على تلك العادة وفعلها مرة، ثم تركها لسنة الإسلام، فأين هذا من القفز والتكسر، والتثني والتخنُّث وبالله التوفيق.

(عدم إعانة بني فزارة أهل خيبر اتفاقاً معه ﷺ)

قال موسى بن عقبة: كانت بنو فزارة ممن قدم على أهل خيبر ليعينوهم، فراسلهم رسول الله ﷺ ألا يعينوهم، وأن يخرجوا عنهم، ولكم من خيبر كذا وكذا، فأبوا عليه، فلما فتح الله عليه خيبر، أتاه من كان ثم من بني فزارة، فقالوا: وعدك الذي وعدتنا، فقال: لكم ذو الرقيبة جبل من جبال خيبر، فقالوا: إذا قاتلك، فقال: مؤعِدكم كذا، فلما سمِعُوا ذلك من رسول الله ﷺ، خرجوا هاربين.

(قصة عبيدة بن حصن)

وقال الواقدي: قال أبو شَيْمٍ المزني - وكان قد أسلم فحسن إسلامه -: لما نفرنا إلى أهلنا مع عبيدة ابن حصن، رجع بنا عُيَيْنَةُ، فلما كان دون خيبر، عرَّسنا من الليل، ففرعنا، فقال عُيَيْنَةُ:

أبشروا، إني أرى الليلة في النوم أنني أعطيت ذا الرقيبة جبلاً بخيبر قد والله أخذت بركة محمد، فلما قدمنا خيبر، قدم عُيَيْنَةُ، فوجد رسول الله ﷺ قد فتح خيبر، فقال: يا محمد! أعطني ما غنمت من حُلْفائي، فإني انصرفت عنك، وقد فرغنا لك، فقال رسول الله ﷺ: «كَذَبْتَ وَلَكِنَّ الصَّبَاحَ الَّذِي سَمِعْتَ نَفَرَكَ إِلَى أَهْلِكَ»، قال: أجزي: يا محمد؟ قال: «لك ذو الرقيبة»، قال: وما ذو الرقيبة؟ قال: «الجبل الذي رأيت في النوم أنك أخذته»، فانصرف عُيَيْنَةُ، فلما رجع إلى أهله، جاءه الحارث بن عوف، فقال: ألم أقل لك: إنك تُوضِع في غير شيء، والله لَيُظْهَرَكَ محمد على ما بين المشرق والمغرب، يهود كانوا يُخبروننا بهذا، أشهد لسيِّئَتِ أبا رافع سلام بن أبي الحقيق يقول: إنا نحسدُ محمداً على النبوة حيث خرجت من بني هارون، وهو نبي مرسل، ويهود لا تطاوعني على هذا، ولنا منه ذبحان، واحد يثرب وآخر بخيبر، قال الحارث: قلت لسلام: يملك الأرض جميعاً؟ قال: نعم والتوراة التي أنزلت على موسى، وما أُحِبُّ أن تعلم يهود بقولي فيه.

فصل

(قصة سم يهودية النبي ﷺ)

وفي هذه الغزاة، سَمَّ رسول الله ﷺ، أهدت له زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلام بن مشكم شاة مشوية قد سَمَّتْها، وسألت: أي اللحم أحبُّ إليه؟ فقالوا: الذراع، فأكثر من السَّمِّ في الذراع، فلما انتهش من فِزَاعِها، أخبره الذراع بأنه مسموم، فلفظ الأكلة، ثم قال: «اجْمَعُوا لِي مَنْ ههنا من الْيَهُودِ»، فجمعوا له، فقال لهم: «إني سَأَلْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي فِيهِ؟» قالوا: نَعَمْ، يا أبا القاسم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «مَنْ أَبُوكُمْ؟» قالوا: أبونا فلان، قال: «كَذَبْتُمْ أَبُوكُمْ فُلان»، قالوا: صدقت وبررت، قال: «هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟» قالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كَذَبْنَاكَ، عرفت كذبنا كما عرفته في أيينا! فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟» فقالوا: نكون فيها سبيراً، ثم تَخَلَّفُونَا فيها، فقال لهم رسول الله ﷺ:

«خَسَوْا فِيهَا، قَوْلَهُ لَا نَخْلُقُكُمْ فِيهَا أَبَدًا»، ثم قال: «هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟» قالوا: نعم، قال: «أَجَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُتًا؟» قالوا: نعم، قال: «فَمَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟» قالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرَّك [البخاري: ٥٧٧٧].

(قتل اليهودية لما مات بشر بن البراء)

وجيء بالمرأة إلى رسول الله ﷺ، فقالت: أردتُ قتلكَ، فقال: «ما كان الله لِيُسَلِّطَكَ عَلَيَّ»، قالوا: ألا نقتلها؟ قال: لا، ولم يتعرض لها، ولم يُعاقبها [البخاري: ٢٦١٧، ومسلم: ٥٧٠٥]، واحتجم على الكاهلي، وأمر من أكل منها فاحتجم، فمات بعضهم، واختلف في قتل المرأة، فقال الزهري: أسلمت، فتركها ذكره عبد الرزاق، عن معمر، عنه، ثم قال معمر: والناس يقولون: قتلها النبي ﷺ.

قال أبو داود: حدثنا وهب بن بقية، قال: حدثنا خالد، عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة، أن رسول الله ﷺ أهدت له يهودية بخير شاة مضيئة وذكر القصة، وقال: فمات بشر بن البراء بن معمر، فأرسل إلى اليهودية: ما حملك على الذي صنعت؟ قال جابر: فأمر بها رسول الله ﷺ فقتلت [أبو داود: ٤٥١١].

قلت: كلاهما مرسل، ورواه حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة متصلاً، «أنه قتلها لما مات بشر بن البراء»^(١). وقد وُفِّق بين الروایتين، بأنه لم يقتلها أولاً، فلما مات بشر، قتلها.

وقد اختلف: هل أكل النبي ﷺ منها أو لم يأكل؟ وأكثر الروايات، أنه أكل منها، وبقي بعد ذلك ثلاث سنين حتى قال في وجعه الذي مات فيه: «مَا زِلْتُ أَجِدُ مِنَ الْأَكْلَةِ الَّتِي أَكَلْتُ مِنَ الشَّاةِ يَوْمَ خَيْبَرٍ، فَهَذَا أَوَانُ انْقِطَاعِ الْأَبَرِ مِنِّي»^(٢).

قال الزهري: فتوفي رسول الله ﷺ شهيداً.

(التراهن بين قريش فبعض ينتصر في خيبر)

قال موسى بن عقبة وغيره: وكان بين قريش حين

سمعوا بخروج رسول الله ﷺ إلى خيبر تَرَاهُنَ عَظِيمَ، وتبايع، فمنهم من يقول: يظهر محمد وأصحابه، ومنهم يقول: يظهر الحليفان ويهود خيبر، وكان الحجاج بن علاط السلمي قد أسلم وشهد فتح خيبر، وكانت تحته أُم شيبه أخت بني عبد الدار بن قصي، وكان الحجاج مُكثِراً من المال، كانت له معادن بأرض بني سليم، فلما ظهر النبي ﷺ على خيبر، قال الحجاج بن علاط: إن لي ذهباً عند امرأتي، وإن تعلم هي وأهلها بإسلامي، فلا مال لي، فأذن لي، فلأسرع السير وأسبق الخبر، ولأخبرن أخباراً إذا قدمت أدراً بها عن مالي ونفسي، فأذن له رسول الله ﷺ، فلما قَدِمَ مكة، قال لأمراته: أخفي علي واجمعي ما كان لي عندك من مال، فإني أريد أن أشتري من غنائم محمد وأصحابه، فإنهم قد استبيحوا، وأصبحت أموالهم، وإن محمداً قد أسير، وتفرق عنه أصحابه، وإن اليهود قد أقسموا: لَنَتَّبَعَنَّ بِهِ إِلَى مَكَّةَ ثُمَّ لَنَقْتُلَنَّه بِقِتْلَاهُمْ بِالْمَدِينَةِ، وفشا ذلك بمكة، واشتد على المسلمين، وبلغ منهم، وأظهر المشركون الفرح والسرور، فبلغ العباس عم رسول الله ﷺ رَجَلَةً النَّاسِ وَجَلَبَتَهُمْ وَإِظْهَارَهُمُ السُّرُورَ، فأراد أن يقوم ويخرج، فانخزل ظهره، فلم يقدر على القيام، فدعا ابناً له يقال له: قُتْمٌ، وكان يُشبه رسول الله ﷺ، فجعل العباس يرتجز، ويرفع صوته لئلا يشمت به أعداء الله:

جِيءَ قُتْمٌ جِيءَ قُتْمٌ شَيْبَةُ ذِي الْأَنْفِ الْأَشْمِ
نَبِيُّ رَبِّي ذِي النُّعْمِ بَرَّغَمِ أَنْفٍ مِّنْ رَّعَمِ

وحشر إلى باب داره رجالٌ كثيرون من المسلمين والمشركين، منهم المظهر للفرح، والسرور، ومنهم الشامت المغري، ومنهم من به مثل الموت من الحزن والبلاء، فلما سمع المسلمون رجز العباس وتجلده، طابت نفوسهم، وظن المشركون أنه قد أتاه ما لم يأتهم، ثم أرسل العباس غلاماً له إلى الحجاج، وقال له: اخلُ به، وقل له: ويلك ما جئت به، وما تقول، فالذي وعد الله خير مما جئت به؟ فلما كلمه الغلام قال له: اقرأ على أبي الفضل السلام، وقل له:

(١) هذه الرواية الموصولة سندها حسن، أخرجه الحاكم والبيهقي في السنن وما بعده من التوفيق بين الروایتين له.

(٢) البخاري (٤٤٢٨) تعليقاً ووصله البزار والحاكم والإسماعيلي من طريق عنبسة بن خالد.

فَلْيُخْلُ بِي فِي بَعْضِ بَيْوتِهِ حَتَّى آتِيَهُ، فَإِنَّ الْخَيْرَ عَلَى مَا يَسُرُّهُ، فَلَمَّا بَلَغَ الْعَبْدُ بَابَ الدَّارِ، قَالَ: أَبْشِرْ يَا أَبَا الْفَضْلِ، فَوُثِبَ الْعَبَّاسُ فَرَحًا كَأَنَّهُ لَمْ يُصِبْهُ بَلَاءٌ قَطُّ، حَتَّى جَاءَهُ وَقِيلَ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَأَخْبِرْهُ بِقَوْلِ الْحِجَّاجِ، فَأَعْتَقَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَخْبِرْنِي، قَالَ: يَقُولُ لَكَ الْحِجَّاجُ: أَخْلُ بِهٖ فِي بَعْضِ بَيْوتِكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ ظَهْرًا، فَلَمَّا جَاءَهُ الْحِجَّاجُ، وَخَلَا بِهِ، أَخَذَ عَلَيْهِ لَتَكَمَّنَ خَبْرِي، فَوَافَقَهُ عَبَّاسٌ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ الْحِجَّاجُ: جِئْتُ وَقَدْ افْتَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْبَرَ، وَغَنِمَ أَمْوَالَهُمْ، وَجَرَتْ فِيهَا سَهَامُ اللَّهِ، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ اصْطَفَى صَفِيَّةَ بِنْتَ حُحْيٍ لِنَفْسِهِ، وَأَعْرَسَ بِهَا، وَلَكِنْ جِئْتُ لِمَالِي، أَرَدْتُ أَنْ أَجْمَعَهُ وَأَذْهَبَ بِهِ، وَإِنِّي اسْتَأْذَنْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَقُولَ، فَأَذِنَ لِي، أَنْ أَقُولَ مَا شِئْتُ فَأَخْفِ عَلَيَّ ثَلَاثًا، ثُمَّ أَذْكَرُ مَا شِئْتُ، قَالَ: فَجَمَعْتُ لَهُ أَمْرَانَهُ مَتَاعَهُ، ثُمَّ انْشَمِرَ رَاجِعًا، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ثَلَاثٍ، أَتَى الْعَبَّاسُ امْرَأَةَ الْحِجَّاجِ، فَقَالَ: مَا فَعَلَ زَوْجُكَ؟ قَالَتْ: ذَهَبَ، وَقَالَتْ: لَا يَخْزُنُكَ اللَّهُ يَا أَبَا الْفَضْلِ، لَقَدْ شَقَّ عَلَيْنَا الَّذِي بَلَغْتَ، فَقَالَ: أَجَلٌ، لَا يَخْزُنُنِي اللَّهُ، وَلَمْ يَكُنْ بِحَمْدِ اللَّهِ إِلَّا مَا أَجِبْتُ، فَتَحَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ خَيْبَرَ، وَجَرَتْ فِيهَا سَهَامُ اللَّهِ، وَاصْطَفَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَفِيَّةَ لِنَفْسِهِ، فَإِنْ كَانَ لَكَ فِي زَوْجِكَ حَاجَةٌ، فَالْحَقِّي بِهِ، قَالَتْ: أَطْنُكَ وَاللَّهِ صَادِقًا، قَالَ: فَإِنِّي وَاللَّهِ صَادِقٌ، وَالْأَمْرُ عَلَى مَا أَقُولُ لَكَ، قَالَتْ: فَمَنْ أَخْبِرُكَ بِهِذَا؟ قَالَ: الَّذِي أَخْبِرُكَ بِمَا أَخْبِرُكَ، ثُمَّ ذَهَبَ حَتَّى أَتَى مَجَالِسَ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا رَأَوْهُ، قَالُوا: هَذَا وَاللَّهِ التَّجَلُّدُ يَا أَبَا الْفَضْلِ، وَلَا بِصَبِيكَ إِلَّا خَيْرٌ، قَالَ: أَجَلٌ لَمْ يُصِبْنِي إِلَّا خَيْرٌ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، أَخْبِرْنِي الْحِجَّاجُ بِكَذَا وَكَذَا، وَقَدْ سَأَلْتَنِي أَنْ أَكْتُمَ عَلَيْهِ ثَلَاثًا لِحَاجَةٍ، فَرَدَّ اللَّهُ مَا كَانَ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ كَاتِبَةٍ وَجَزَعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، وَخَرَجَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ مَوَاضِعِهِمْ حَتَّى دَخَلُوا عَلَى الْعَبَّاسِ، فَأَخْبِرَهُمُ الْخَيْرَ، فَأَشْرَقَتْ وَجْوهُ الْمُسْلِمِينَ [صحيح: أحمد: ١٢٤٠٩].

فصل

فِيمَا كَانَ فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ

مِنَ الْأَحْكَامِ الْفَقْهِيَّةِ

(جَوَازُ الْقِتَالِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَمِ)

فَمِنْهَا مُحَارَبَةُ الْكُفَّارِ وَمَقَاتِلَتُهُمْ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ،

وَذَهَبَ عَطَاءٌ وَغَيْرُهُ إِلَى أَنَّهُ ثَابِتٌ غَيْرُ مَنْسُوخٍ، وَكَانَ عَطَاءٌ يَحْلِفُ بِاللَّهِ: مَا يَحِلُّ الْقِتَالُ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، وَلَا تَنْسَخُ تَحْرِيمُهُ شَيْئًا.

وَأَقْوَى مِنْ هَٰذَيْنِ الْإِسْتِدْلَالَيْنِ الْإِسْتِدْلَالُ بِحِصَارِ النَّبِيِّ ﷺ لِلطَّائِفِ، فَإِنَّهُ خَرَجَ إِلَيْهَا فِي أَوَّلِ شَوَالٍ، فَحَاصَرَهُمْ بَعْضًا وَعَشْرِينَ لَيْلَةً، فَبَعْضُهَا كَانَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ، فَإِنَّهُ فَتَحَ مَكَّةَ لِعَشْرِ بَقِيَّةٍ مِنْ رَمَضَانَ، وَأَقَامَ بِهَا بَعْدَ الْفَتْحِ تِسْعَ عَشْرَةٍ يَقْصُرُ الصَّلَاةَ [البخاري: ٤٢٩٩]، فَخَرَجَ إِلَى هَوَازِنَ وَقَدْ بَقِيَ مِنْ شَوَالٍ عَشْرُونَ يَوْمًا، فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ هَوَازِنَ، وَقَسَمَ غَنَائِمَهَا، ثُمَّ ذَهَبَ مِنْهَا إِلَى الطَّائِفِ، فَحَاصَرَهَا بَعْضًا وَعَشْرِينَ لَيْلَةً، وَهَٰذَا يَقْتَضِي أَنَّ بَعْضَهَا فِي ذِي الْقَعْدَةِ بَلَا شَكٍّ.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّمَا حَاصَرَهُمْ بَضْعَ عَشْرَةِ لَيْلَةٍ، قَالَ ابْنُ حَزْمٍ: وَهُوَ الصَّحِيحُ بَلَا شَكٍّ، وَهَٰذَا عَجِيبٌ مِنْهُ، فَمَنْ أَتَى لَهُ هَٰذَا التَّصْحِيحُ وَالْجَزْمُ بِهِ؟ وَفِي «الصَّحِيحِينَ» عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ فِي قِصَّةِ الطَّائِفِ، قَالَ: «فَحَاصَرْنَا هُمْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، فَاسْتَعَصَوْا وَتَمَنَعُوا»، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ [البخاري: ٤٣٢٥]، وَمُسْلِمٌ: [٢٤٣٦] فَهَٰذَا الْحِصَارُ وَقَعَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ بَلَا رَيْبٍ، وَمَعَ هَٰذَا فَلَا دَلِيلَ فِي الْقِصَّةِ، لِأَنَّ غَزْوَةَ الطَّائِفِ كَانَ مِنْ تَمَامِ غَزْوَةِ هَوَازِنَ، وَهُمْ يَدُودُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

بالقتال، ولما انهزموا، دخل ملكهم، وهو مالك بن عوف النَّضري مع ثقيف في حصن الطائف محاربين رسول الله ﷺ، فكان غزوهم من تمام الغزوة التي شرع فيها، والله أعلم.

(ليس في سورة المائدة منسوخ)

وقال الله تعالى في (سورة المائدة) وهي من آخر القرآن نزولاً، وليس فيها منسوخ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا سِمَةَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَلَا الْكَلْبَةِ﴾ [المائدة: ٢].

وقال في سورة البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ فِيهِ كِبِيرٌ وَمَدَدٌ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، فهاتان آيتان مدينتان، بينهما في النزول نحو ثمانية أعوام، وليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ناسخ لحكمهما، ولا أجمعيت الأمة على نسخه، ومن استدل على نسخه بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، ونحوها من العمومات، فقد استدل على النسخ بما لا يدل عليه، ومن استدل عليه بأن النبي ﷺ بعث أبا عامر في سرية إلى أوطاس في ذي القعدة، فقد استدل بغير دليل، لأن ذلك كان من تمام الغزوة التي بدأ فيها المشركون بالقتال، ولم يكن ابتداء منه لقتالهم في الشهر الحرام.

فصل

ومنها: قسمة الغنائم، للفراس ثلاثة أسهم، وللراجل سهم، وقد تقدم تقريره.

ومنها: أنه يجوز لأحد الجيش إذا وجد طعاماً أن يأكله ولا يخمس، كما أخذ عبد الله بن المغفل جراب السهم الذي ذلّي يوم خيبر، واختص به بمحضر النبي ﷺ [البخاري: ٤٢١٤، ومسلم: ٤٦٠٦].

ومنها: أنه إذا لحق مدد بالجيش بعد تقضي الحرب، فلا سهم له إلا بإذن الجيش ورضاهم، فإن النبي ﷺ كلم أصحابه في أهل السفينة حين قديموا عليه بخيبر - جعفر وأصحابه - أن يسهم لهم، فأسهم لهم.

فصل

(تحريم لحوم الحمر الإنسية)

ومنها تحريم لحوم الحمر الإنسية، صبح عنه

تحريمها يوم خيبر، وصح عنه تعليل التحريم بأنها رجس، وهذا مقدم على قول من قال من الصحابة: إنما حرمها، لأنها كانت ظهر القوم وحملتهم، فلما قيل له: فني الظهر وأكلت الحمر، حرمها، وعلى قول من قال: إنما حرمها، لأنها لم تخمس، وعلى قول من قال: إنما حرمها؛ لأنها كانت حول القرية، وكانت تأكل العذرة، وكل هذا في «الصحيح» [البخاري: ٤١٩٩]، لكن قول رسول الله ﷺ: «إنها رجس» مقدم على هذا كله، لأنه من ظن الراوي، وقوله بخلاف التعليل بكونها رجساً.

ولا تعارض بين هذا التحريم وبين قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا آئِدٌ فِي مَا أَوْحَى إِلَيَّ مَحْرَمًا عَلَى طَائِعِي يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَازِرٍ فَإِنَّهُمْ رَجَسٌ أَوْ يَسَقًا أَوْ لَحْمَ لَيْقَرٍ أَوْ يَدِيٍّ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، فإنه لم يكن قد حرم حين نزول هذه الآية من المطاعم إلا هذه الأربعة، والتحريم كان يتجدد شيئاً فشيئاً، فتحريم الحمر بعد ذلك تحريم مبتدأ لما سكنت عنه النص، لا أنه رافع لما أباحه القرآن، ولا مخصص لعمومه، فضلاً عن أن يكون ناسخاً، والله أعلم.

فصل

(ترجيح المصنف تحريم المتعة عام الفتح)

ولم تحرم المتعة يوم خيبر، وإنما كان تحريمها عام الفتح [مسلم: ٣٤٢٢] هذا هو الصواب، وقد ظن طائفة من أهل العلم أنه حرمها يوم خيبر، واحتجوا بما في «الصحيحين» من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحمر الإنسية» [البخاري: ٤٢١٦].

وفي «الصحيحين» أيضاً: أن علياً رضي الله عنه، سمع ابن عباس يُلَيِّن في متعة النساء، فقال: مهلاً يا ابن عباس، فإن رسول الله ﷺ نهى عنها يوم خيبر، وعن لحوم الحمر الإنسية، وفي لفظ للبخاري عنه، أن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحمر الإنسية.

ولما رأى هؤلاء أن رسول الله ﷺ أباحها عام الفتح، ثم حرمها، قالوا: حرمت، ثم أبيحت، ثم حرمت.

يُنسخ البتة، واستمر عمل خلفائه الراشدين عليه، وليس هذا من باب المؤاجرة في شيء، بل من باب المشاركة، وهو نظير المضاربة سواء، فمن أباح المضاربة، وحرم ذلك، فقد فرق بين متماثلين.

فصل

(عدم اشتراط كون البذر من رب الأرض)

ومنها أنه دفع إليهم الأرض على أن يعملوها من أموالهم، ولم يدفع إليهم البذر، ولا كان يحول إليهم البذر من المدينة قطعاً، فدل على أن هديته عدم اشتراط كون البذر من رب الأرض، وأنه يجوز أن يكون من العامل، وهذا كان هدي خلفائه الراشدين من بعده، وكما أنه هو المنقول، فهو الموافق للقياس، فإن الأرض بمنزلة رأس المال في القراض، والبذر يجري مجرى سقي الماء، ولهذا يموت في الأرض، ولا يرجع إلى صاحبه، ولو كان بمنزلة رأس مال المضاربة لاشتراط عودته إلى صاحبه، وهذا يُفسد المزارعة، فعلم أن القياس الصحيح هو الموافق لهدي رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين في ذلك، والله أعلم.

فصل

ومنها: خرص الثمار على رؤوس النخل وقسمتها كذلك، وأن القسمة ليست بيعاً.

ومنها: الاكتفاء بخارص واحد، وقاسم واحد.

ومنها: جواز عقد، المهادنة عقداً جائزاً للإمام فسخه متى شاء.

ومنها: جواز تعليق عقد الصلح والأمان بالشرط، كما عقد لهم رسول الله ﷺ بشرط أن لا يُغيّبوا ولا يكتُموا.

ومنها: جواز تقرير أرباب الثُّم بالعمُوبة، وأن ذلك من الشريعة العادلة لا من السياسة الظالمة.

(جواز نسخ الأمر قبل فعله)

ومنها: الأخذ في الأحكام بالقرائن والأمارات، كما قال النبي ﷺ لِكنانة: «المال كثير، والمهْد قريب»، فاستدل بهذا على كذبه في قوله: أذهبته الحروب والنفقة.

قال الشافعي: لا أعلم شيئاً حُرِّم، ثم أبيع، ثم حُرِّم إلا المتعة، قالوا: نُسخَتْ مرتين، وخالفهم في ذلك آخرون، وقالوا: لم تُحرم إلا عام الفتح، وقبل ذلك كانت مباحة، قالوا: وإنما جمع علي بن أبي طالب رضي الله عنه بين الإخبار بتحريمها، وتحريم الحُرِّم الأهلية، لأن ابن عباس كان يُبيحهما، فروى له علي تحريمهما عن النبي ﷺ رداً عليه، وكان تحريم الحُرِّم يومَ خيبر بلا شك، وقد ذكر يومَ خيبر ظرفاً لتحريم الحُرِّم، وأطلق تحريم المتعة، ولم يقيده بزمان، كما جاء ذلك في «مسند الإمام أحمد» بإسناد صحيح، أن رسول الله ﷺ «حرم لحوم الحُرِّم الأهلية يومَ خيبر، وحرم مُتعة النساء» وفي لفظ: حرم متعة النساء، وحرم لحوم الحُرِّم الأهلية يومَ خيبر، هكذا رواه سفيان بن عيينة مفصلاً مميّزاً، فظن بعض الرواة أن يومَ خيبر زمنٌ للتحريمين، فقيدهما به، ثم جاء بعضهم، فاقصر على أحد المحرمين وهو تحريم الحمر، وقيد بالظرف، فمن ههنا نشأ الوهم.

وقصة خيبر لم يكن فيها الصحابة يتمتعون باليهوديات، ولا استأذنوا في ذلك رسول الله ﷺ، ولا نقله أحد قط في هذه الغزوة، ولا كان للمتعة فيها ذكر البتة، لا فعلاً ولا تحريماً، بخلاف غزاة الفتح، فإن قصة المتعة كانت فيها فعلاً وتحريماً مشهورة، وهذه الطريقة أصحُّ الطريقتين.

وفيها طريقة ثالثة: وهي أن رسول الله ﷺ لم يُحرّمها تحريماً عاماً البتة، بل حرّمها عند الاستغناء عنها، وأباحها عند الحاجة إليها، وهذه كانت طريقة ابن عباس حتى كان يُفتي بها، ويقول: هي كالهيئة والدم ولحم الخنزير، تُباح عند الضرورة وخشية العنت، فلم يفهم عنه أكثر الناس ذلك، وظنوا أنه أباحها إباحة مطلقة، وشبّوا في ذلك بالأشعار، فلما رأى ابن عباس ذلك، رجع إلى القول بالتحريم.

فصل

(جواز المساقاة والمزارعة بجزء مما يخرج من الأرض)

ومنها: جواز المساقاة والمزارعة بجزء مما يُخرج من الأرض من ثمر أو زرع، كما عامل رسول الله ﷺ أهلَ خيبر على ذلك، واستمر ذلك إلى حين وفاته لم

ومنها: أن من كان القولُ قوله إذا قامت قرينةٌ على كذبه، لم يُلْتَفَت إلى قوله، ونُزِّل منزلة الخائن.

(إذا خالف أهل الذمة شيئاً)

مما شرط عليهم لم يبق لهم ذمة)

ومنها: أن أهل الذمة إذا خالفوا شيئاً مما شرط عليهم، لم يبق لهم ذمة، وحلَّت دماؤهم وأموالهم، لأن رسول الله ﷺ عقد لهؤلاء الهدنة، وشرط عليهم أن لا يُغيَّبوا ولا يكتُموا، فإن فعلوا حلَّت دماؤهم وأموالهم، فلما لم يفُوا بالشرط، استباح دماءهم وأموالهم، وبهذا اقتدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في الشروط التي اشترطها على أهل الذمة، فشرط عليهم أنهم متى خالفوا شيئاً منها، فقد حلَّ له منهم ما يحلُّ من أهل الشقاق والعداوة.

(جواز الأخذ في الأحكام بالقرائن)

ومنها: جواز نسخ الأمر قبل فعله، فإن النبي ﷺ أمرهم بكسر القُدور، ثم نسخه عنهم بالأمر بِغَسْلِهَا. ومنها: أن ما لا يُؤكل لحمه لا يَظْهَر بالذكاة لا جِلْدُه ولا لحمه، وأن ذبيحته بمنزلة موته، وأن الذكاة إنما تعمل في مأكول اللحم.

(الغلول قبل القسم لا يملك وإن كان دون الحق)

ومنها: أن من أخذ من الغنيمة شيئاً قبل قسمتها لم يملكه، وإن كان دون حقه، وأنه إنما يملكه بالقسمة، ولهذا قال في صاحب السُّمْلَةِ التي غلها: «إِنهَا تَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَارًا»، وقال لصاحب الشُّرَاك الذي غله: «شِرَاكٌ مِنْ نَارٍ» [البخاري: ٤٢٣٤، ومسلم: ٣١٠].

ومنها: أن الإمام مخيرٌ في أرض العنوة بين قسمتها وتركها، وقَسَم بعضها، وترك بعضها.

(استحياب التفاوض)

ومنها: جواز التفاوض بل استحبابه بما يراه أو يسمعه مما هو من أسباب ظهور الإسلام وإعلامه، كما تفاعل النبي ﷺ بروية المَسَاحِي والمُفُوس والمكائِل مع أهل خيبر، فإن ذلك فائٌ في خرابها.

(جواز إجلاء أهل الذمة من دار الإسلام إذا استغني عنهم)

ومنها: جواز إجلاء أهل الذمة من دار الإسلام إذا استغني عنهم، كما قال النبي ﷺ: «نُقِرُّكُمْ مَا أَقَرُّكُمْ اللَّهُ»، وقال لكبيرهم: «كَيْفَ بَكَ إِذَا رَقَصْتَ بِكَ

رَاجَلُكَ نَحْوُ الشَّامِ يَوْمًا ثُمَّ يَوْمًا»، وأجلاهم عمرٌ بعد موته ﷺ، وهذا مذهبُ محمد بن جرير الطبري، وهو قولٌ قوي يسوغُ العملُ به إذا رأى الإمامُ فيه المصلحة.

ولا يُقال: أهل خيبر لم تكن لهم ذمة، بل كانوا أهلَ هُدنة، فهذا كلام لا حاصلٌ تحته، فإنهم كانوا أهلَ ذمة، قد أمِنوا بها على دمائهم وأموالهم أماناً مستمراً، نعم لم تكن الجزية قد شُرِعت، ونزل فرضُها، وكانوا أهلَ ذمة بغير جزية، فلما نزل فرضُ الجزية، استؤنفت ضربُها على من يُعقد له الذمة من أهل الكتاب والمجوس، فلم يكن عدمُ أخذ الجزية منهم، لكونهم ليسوا أهلَ ذمة، بل لأنها لم تكن نزل فرضُها بعد.

وأما كونُ العقد غير مؤبَّد، فذاك لمدة إقرارهم في أرض خيبر، لا لمدة حقن دمائهم، ثم يستريحها الإمام متى شاء، فلهاذا قال: «نُقِرُّكُمْ مَا أَقَرُّكُمْ اللَّهُ أَوْ مَا شِئْنَا»، ولم يقل: نحقن دماءكم ما شئنا، وهكذا كان عقدُ الذمة لقريظة والتَّضْيِير عقداً مشروطاً، بأن لا يُحاربوه، ولا يُظاهروا عليه، ومتى فعلوا، فلا ذمة لهم، وكانوا أهلَ ذمة بلا جزية، إذ لم يكن نزل فرضُها إذ ذاك، واستباح رسول الله ﷺ سبي نساءهم وذريابهم، وجعل نقض العهد سارياً في حق النساء والذرية، وجعل حكم الساکت والمقر حُكْم الناقِض والمحارب، وهذا موجبٌ هديه ﷺ في أهل الذمة بعد الجزية أيضاً، أن يسري نقض العهد في ذريتهم ونسائهم، ولكن هذا إذا كان الناقِضون طائفةً لهم شوكة ومَنعة، أما إذا كان الناقِض واحداً من طائفة لم يُرافقه بقيتهم، فهذا لا يسري النقض إلى زوجته وأولاده، كما أن من أهدر النبي ﷺ دماءهم ممن كان يسبه، لم يَسب نساءهم وذريتهم، فهذا هديه في هذا، وهو الذي لا محيدَ عنه وبالله التوفيق.

(جواز جعل عتق الرجل)

امته صداقاً لها بغير إذنِها وبلا شهود ولا ولي غيره)

ومنها: جوازُ عتق الرجل امته، وجعل عتقها صداقاً لها، ويجعلها زوجته بغير إذنِها، ولا شهود، ولا ولي غيره، ولا لفظ إنكاح ولا تزويج، كما فعل ﷺ بصفيته، ولم يقل قط: هذا خاصٌ بي، ولا

بمكة من المسلمين من الأذى والحزن، فمفسدة يسيرة في جنب المصلحة التي حصلت بالكذب، ولا سيما تكميل الفرج والسرور، وزيادة الإيمان الذي حصل بالخبر الصادق بعد هذا الكذب، فكان الكذب سبباً في حصول هذه المصلحة الراجحة، ونظير هذا الإمام والحاكم يومهم الخصم خلاف الحق ليتوصل بذلك إلى استعلاء الحق، كما أوهم سليمان بن داود إحدى المرأتين بشق الولد نصفين حتى توصل بذلك إلى معرفة عين الأم [البخاري: ٣٤٢٧، ومسلم: ٤٤٩٥].

ومنها: جواز بناء الرجل بامرأته في السفر، وركوبها معه على دابة بين الجيش.

ومنها: أن من قتل غيره بسهم يقتل مثله، قيل يو قصاصاً، كما قُتِلَت اليهودية بيش بن البراء.

ومنها: جواز الأكل من ذبائح أهل الكتاب، وجل طعماهم.

(الاختلاف في موجب قتل اليهودية)

ومنها: قبول هدية الكافر، فإن قيل: فلعل المرأة قُتِلَت لنقض العهد لجراهاها بالسُّم لا قصاصاً، قيل: لو كان قتلها لنقض العهد، لُقُتِلَت من حين أقرت أنها سمت الشاة، ولم يتوقف قتلها على موت الأكل منها.

فإن قيل: فهلاً قُتِلَت بنقض العهد؟ قيل: هذا حجة من قال: إن الإمام مخير في ناقض العهد، كالأسير.

فإن قيل: فأنتم توجبون قتله حتماً كما هو منصوص أحمد، وإنما القاضي أبو يعلى ومن تبعه قالوا: يُخَيَّرُ الإمام فيه، قيل: إن كانت قصة الشاة قبل الصلح، فلا حجة فيها، وإن كانت بعد الصلح، فقد اختلفت في نقض العهد بقتل المسلم على قولين، فمن لم ير النقض به، فظاهر، ومن رأى النقض به، فهل يتحتّم قتله، أو يُخَيَّرُ فيه، أو يفصل بين بعض الأسباب الناقضة وبعضها، فيتحتّم قتله بسبب السبب، ويُخَيَّرُ فيه إذا نقضه بحراجه، ولحوقه بدار الحرب، وإن نقضه بسواهما كالقتل، والزنى بالمسلمة، والتجسس على المسلمين، وإطلاع العدو على عوراتهم؟ فالمنصوص: تعين القتل، وعلى هذا فهذه المرأة لما سمّت الشاة، صارت بذلك محاربة، وكان قتلها مخيراً فيه، فلما مات بعض المسلمين من

أشار إلى ذلك، مع علمه باقتداء أمته به، ولم يقل أحد من الصحابة: إن هذا لا يصلح لغيره، بل رَوَوْا القصة ونقلوها إلى الأمة، ولم يمنعوهم، ولا رسول الله ﷺ من الاقتداء به في ذلك، والله سبحانه لما خصّه في النكاح بالموهوبة قال: ﴿خَالِصَةً لِّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، فلو كانت هذه خالصة له من دون أمته، لكان هذا التخصيص أولى بالذكر لكثرة ذلك من السادات مع إمامهم، بخلاف المرأة التي تهب نفسها للرجل لندرته، وقلته، أو مثله في الحاجة إلى البيان، ولا سيما والأصل مشاركة الأمة له، واقتداؤها به، فكيف يسكت عن منع الاقتداء به في ذلك الموضع الذي لا يجوز مع قيام مقتضى الجواز، هذا شبه المحال، ولم تجتمع الأمة على عدم الاقتداء به في ذلك، فيجب المصير إلى إجماعهم وبالله التوفيق.

والقياس الصحيح: يقتضي جواز ذلك، فإنه يملك رقبته، ومنفعة وطنها، وخدمتها، فله أن يسقط حقه من ملك الرقية، ويستبقى ملك المنفعة، أو نوعاً منها، كما لو أعتق عبده، وشرط عليه أن يخدمه ما عاش، فإذا أخرج المالك رقبة ملكه، واستثنى نوعاً من منفعة، لم يمنع من ذلك في عقد البيع، فكيف يُمنع منه في عقد النكاح، ولما كانت منفعة البضع لا تستباح إلا بعقد نكاح أو ملك يمين، وكان إعتاقها يُزيل ملك اليمين عنها، كان من ضرورة استباحة هذه المنفعة، جعلها زوجة، وسيدها كان يلي نكاحها، ويبيعها ممن شاء بغير رضاها، فاستثنى لنفسه ما كان يملكه منها، ولما كان من ضرورته عقد النكاح ملكه، لأن بقاء ملكه المستثنى لا يُمِّمُ إلا به، فهذا محض القياس الصحيح الموافق للسنة الصحيحة، والله أعلم.

(جواز كذب الإنسان على نفسه وعلى غيره إذا كان

يتوصل بالكذب إلى حقه ما لم يتضمن ضرر ذلك الغير)

ومنها: جواز كذب الإنسان على نفسه وعلى غيره، إذا لم يتضمن ضرر ذلك الغير إذا كان يتوصل بالكذب إلى حقه، كما كذب الحجاج بن علاط على المسلمين، حتى أخذ ماله من مكة من غير مضرة لحقت المسلمين من ذلك الكذب، وأما ما نال من

الشَّم، قُتِلَتْ حَتْمًا إِمَّا قِصَاصًا، وَإِمَّا لِنَقْضِ الْعَهْدِ بِقَتْلِهَا الْمُسْلِمَ، فَهَذَا مُحْتَمَلٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(هل فتحت خيبر عنوة)

ام صلحاً؟ والأحكام المترتبة على ذلك)

واختُلف في فتح خيبر: هل كان عنوةً، أو كان بعضها صلحاً، وبعضها عنوةً؟

فروى أبو داود من حديث أنس: «أن رسول الله ﷺ غزا خيبر، فأصبناها عنوةً فجميع السبي» [البخاري: ٣٧١، ومسلم: ٣٢٢١].

وقال ابنُ إسحاق: سألت ابنَ شهاب، فأخبرني أن رسول الله ﷺ افتتح خيبرَ عنوةً بعد القتال.

وذكر أبو داود، عن ابن شهاب: بلغني أن رسول الله ﷺ افتتح خيبرَ عنوةً بعد القتال، ونزل من نزل من أهلها على الجلاء بعد القتال» [أبو داود: ٣٠١٨].

قال ابنُ عيْد البر: هذا هو الصحيح في أرض خيبر، أنها كانت عنوةً كُلُّهَا مَغْلُوبًا عَلَيْهَا، بِخِلَافِ ذَلِكَ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَسَمَ جَمِيعَ أَرْضِهَا عَلَى الْغَنَامِينَ لَهَا، الْمُؤَجَّضِينَ عَلَيْهَا بِالْخَيْلِ وَالرُّكَّابِ، وَهُمْ أَهْلُ الْحُدُوبِ، وَلَمْ يَخْتَلَفِ الْعُلَمَاءُ أَنَّ أَرْضَ خَيْبَرٍ مَقْسُومَةٌ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا: هَلْ تُقَسَّمُ الْأَرْضُ إِذَا غَنِمَتِ الْبِلَادُ أَوْ تَوْقُفَتْ؟

فقال الكوفيون: الإمام مخير بين قسمتها كما فعل رسول الله ﷺ بأرض خيبر، ومن إيقافها كما فعل عُمرُ بسواد العراق.

وقال الشافعي: تُقَسَّمُ الْأَرْضُ كُلُّهَا كَمَا قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْبَرَ، لِأَنَّ الْأَرْضَ غَنِيمَةً كَسَائِرِ أَمْوَالِ الْكُفَّارِ.

وذهب مالك إلى إيقافها اتباعاً لعمر، لأن الأرض مخصوصة من سائر الغنمة بما فعل عمر في جماعة من الصحابة من إيقافها لمن يأتي بعده من المسلمين، وروى مالك، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، قال: سمعتُ عمر يقول: «لَوْلَا أَنْ يَتْرَكَ آخِرُ النَّاسِ لَا شَيْءَ لَهُمْ مَا افْتَتَحَ الْمُسْلِمُونَ قَرْيَةً إِلَّا قَسَمْتُهَا سُهْمَانًا كَمَا قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْبَرَ سُهْمَانًا» [البخاري: ٢٣٢٤].

وهذا يدل على أن أرض خيبر قُسمت كُلُّهَا سُهْمَانًا

كما قال ابنُ إسحاق.

وأما من قال: إن خيبر كان بعضها صلحاً، وبعضها عنوةً، فقد وهم وَعَلِيطٌ، وَإِنَّمَا دَخَلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّبُهَةُ بِالْجَنْصِينَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا أَهْلُهُمَا فِي حَقِّ دِمَائِهِمْ، فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ أَهْلُ ذِيكَ الْجَنْصِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالذَّرِيَّةِ مَغْنُومِينَ، ظَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ لِصُلْحٍ، وَلِعَمْرِي إِنَّ ذَلِكَ فِي الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالذَّرِيَّةِ، كَضَرْبٍ مِنَ الصَّلْحِ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَتْرَكُوا أَرْضَهُمْ إِلَّا بِالْحَصَارِ وَالْقِتَالِ، فَكَانَ حُكْمُ أَرْضِهَا حُكْمَ سَائِرِ أَرْضِ خَيْبَرٍ كُلِّهَا عَنْوةً غَنِيمَةً مَقْسُومَةً بَيْنَ أَهْلِهَا.

وربما شُبِّهَ علي من قال: إن نصفت خيبر صلحاً، ونصفها عنوةً، بحديث يحيى بن سعيد، عن بشير بن يسار: أن رسول الله ﷺ قَسَمَ خَيْبَرَ نِصْفَيْنِ: نِصْفًا لَهُ، وَنِصْفًا لِلْمُسْلِمِينَ» [أبو داود: ٣٠١٠، وسنده قوي].

قال أبو عمر: ولو صح هذا، لكان معناه أَنَّ النِّصْفَ لَهُ مَعَ سَائِرِ مَنْ وَقَعَ فِي ذَلِكَ النِّصْفِ مَعَهُ، لِأَنَّهَا قُسمتْ عَلَى سِتَّةِ وَثَلَاثِينَ سَهْمًا، فَوَقَعَ السَّهْمُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَطَائِفَةٍ مَعَهُ فِي ثَمَانِيَةِ عَشْرٍ سَهْمًا، وَوَقَعَ سَائِرُ النَّاسِ فِي بَاقِيهَا، وَكُلُّهُمْ مِمَّنْ شَهِدَ الْحُدُوبِ ثُمَّ خَيْبَرَ، وَلَيْسَتْ الْحَصُونُ الَّتِي أَسْلَمَهَا أَهْلُهَا بَعْدَ الْحَصَارِ وَالْقِتَالِ صُلْحًا، وَلَوْ كَانَتْ صُلْحًا لَمَلَكَهَا أَهْلُهَا كَمَا يَمْلِكُ أَهْلُ الصُّلْحِ أَرْضَهُمْ وَسَائِرِ أَمْوَالِهِمْ، فَالْحَقُّ فِي هَذَا مَا قَالَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ دُونَ مَا قَالَهُ مُوسَى بْنُ عَقِبَةَ وَغَيْرِهِ عَنْ ابْنِ شَهَابٍ، هَذَا آخِرُ كَلَامِ أَبِي عَمْرٍ.

قلت: ذكر مالك، عن ابن شهاب، أن خيبر كان بعضها عنوةً، وبعضها صلحاً، والكثيرة أكثرها عنوةً وفيها صلح، قال مالك: والكثيرة أرض خيبر، وهو أربعون ألف عَليق [أبو داود: ٣٠١٠، وسنده قوي].

وقال مالك: عن الزهري، عن ابن المسيب: أن رسول الله ﷺ افتتح بعض خيبر عنوةً [أبو داود: ٣٠١٧].

فصل

(الانصراف إلى وادي القرى)

وقتل مدغم عبد النبي ﷺ وبينان أنه كان غلاً)

ثم انصرف رسول الله ﷺ من خيبر إلى وادي

لأنهما داخلتان في أرض الشام، ويرى أن ما دون وادي القرى إلى المدينة حجاز، وأن ما وراء ذلك من الشام [الطبري (٩١/٣)، وابن كثير (٤١٧/٣)] وانصرف رسول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة.

(نوم المسلمين عن الفجر)

فلما كَانَ ببعض الطريق، سار ليلَهُ حتَّى إذا كان ببعض الطريق أدركهم الكرى، عرس، وقال لبلال: «اَكْلًا لَنَا اللَّيْلُ»، فصَلَّى بلالٌ ما قُدِّرَ له، ونَامَ رسولُ اللَّهِ ﷺ وأصحابه فلما تقاربَ الفجرُ استند بلال إلى راحلته مُواجه الفجر، فغلبت بلالاً عيناه، وهو مستند إلى راحلته، فلم يستيقظ النبي ﷺ ولا بلالٌ، ولا أَحَدٌ من أصحابه حتَّى ضربتهم الشمسُ، فكان رسولُ اللَّهِ ﷺ أَوَّلُهُم استيقاظاً، فَنَزَعَ رسولُ اللَّهِ ﷺ، فقال: «أَيُّ بِلَالٍ؟» قال: أَخَذَ بِنَفْسِي الَّذِي أَخَذَ بِنَفْسِكَ، يَا بِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فاقْتادُوا رَوَاجِلَهُمْ شَيْئاً حتَّى خَرَجُوا مِنْ ذَلِكَ الْوَادِي، ثم قال: «هَذَا وَادِيهِ شَيْطَانٌ»، فلما جاوزوه، أمرهم أَنْ يَنْزِلُوا وَأَنْ يَتَوَضَّعُوا، ثم صَلَّى سنة الفجر، ثم أمر بلالاً، فأقام الصلاة، وصَلَّى بالناس، ثم انصرف إليهم وقد رأى من فرعهم، وقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَبَضَ أَرْوَاحَنَا، وَلَوْ شَاءَ لَرَدَّهَا إِلَيْنَا فِي حِينٍ غَيْرِ هَذَا، فَإِذَا رَقَدَ أَحَدُكُمْ عَنِ الصَّلَاةِ أَوْ نَسِيَهَا، ثُمَّ فَرَعَ إِلَيْهَا فَلْيُصَلِّهَا كَمَا كَانَ يُصَلِّيهَا فِي وَقْتِهَا»، ثم التفت رسولُ اللَّهِ ﷺ إلى أبي بكر، فقال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ اتَى بِلَالاً، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فَأَضَاعَهُ فَلَمْ يَزَلْ يَهْدُثُهُ كَمَا يَهْدُثُ النَّبِيَّ حَتَّى نَامَ»، ثم دعا رسولُ اللَّهِ ﷺ بلالاً، فأخبره بمثل ما أخبر به أبا بكر^(١).

(الاختلاف في زمن هذه القصة)

وقد رُوي أن هذه القصة كانت في مرجعهم من الحُدَيْيَةِ، ورُوي أنها كانت في مرجعهم من غزوة تبوك، وقد روى قصة النوم عن صلاة الصبح عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ، ولم يُؤكِّدْ مَدَنَتَهَا [البخاري: ٣٥٧١، ومسلم: ١٥٦٣]، ولا ذكر في أي غزوة كانت، وكذلك رواها أبو قتادة كلاهما في قصة طويلة محفوظة [البخاري: ٥٥٩٥، ومسلم: ١٥٦٢].

القرى، وكان بها جماعة من اليهود، وقد انضاف إليهم جماعة من العرب، فلما نزلوا استقبلهم يهود بالرمي، وهم على غير تعبئة، فقتلَ مِدْعَمَ عَبْدَ رسولِ اللَّهِ ﷺ، فقال النَّاسُ: هِنِيئاً لَهُ الْجَنَّةُ، فقال النَّبِيُّ ﷺ: «كَلَّا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ الشُّمْلَةَ الَّتِي أَخَذَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ الْمَغَانِمِ، لَمْ تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ لَتَشْتَعِلْ عَلَيْهِ نَاراً»، فلما سمع بذلك الناس، جاء رجل إلى النبي ﷺ يشيرُكَ أو شِرَاكِينَ، فقال النَّبِيُّ ﷺ: «شِرَاكٌ مِنْ نَارٍ أَوْ شِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ» [البخاري: ٦٧٠٧، ومسلم: ٣١٠].

(فتح وادي القرى ومصالحة يهود تيماء النبي ﷺ وإخراج عمر يهود خيبر وفكك من جزيرة العرب والرجوع إلى المدينة)

فبعثاً رسولُ اللَّهِ ﷺ أصحابه لِلْقِتَالِ، وصفَّهم، ودفع لواءه إلى سعدِ بْنِ عُبَادَةَ، ورايةً إلى الحُجَابِ بْنِ الْمُنْذَرِ، ورايةً إلى سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، ورايةً إلى عُبَادِ بْنِ بَشْرٍ، ثم دعاهم إلى الإسلام، وأخبرهم أنهم إن أسلموا، أحرزوا أموالهم، وحقنوا دماءهم وحسابهم على اللَّهِ، فبرز رجل منهم، فبرز إليه الزبيرُ بْنُ الْعَوَّامِ، فقتله، ثم برز آخر، فقتله، ثم برز آخر، فبرز إليه علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه فقتله، حتَّى قتل منهم أحد عشر رجلاً، كلما قُتِلَ منهم رجلٌ، دعا من بقي إلى الإسلام، وكانت الصلاة تحضر ذلك اليوم، فبُصِّلِي بِأَصْحَابِهِ، ثم يعودُ فيدعوهم إلى الإسلام وإلى اللَّهِ ورسوله، فقاتلهم حتَّى أَمْسَوْا، وغدا عليهم، فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتَّى أعطَوْا ما بأيديهم، وفتحها غنوةً، وغنمه اللَّهُ أموالهم، وأصابوا أثماناً ومتاعاً كثيراً، وأقام رسولُ اللَّهِ ﷺ بوادي القرى أربعة أيام، وقسم ما أصاب على أصحابه بوادي القرى، وترك الأرض والنخل بأيدي اليهود، وعاملهم عليها، فلما بلغ يهود تيماء ما واطأ عليه رسولُ اللَّهِ ﷺ أهلَ خيبر وفكَّ ووادي القرى، صالحوا رسولَ اللَّهِ ﷺ، وأقاموا بأموالهم، فلما كَانَ زمنُ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رضي اللَّه عنه، أخرج يهود خيبر وفكَّ، ولم يُخرج أهلَ تيماء ووادي القرى،

(١) هذا الحديث ملفَّق من رواية أبي هريرة المسندة، ومن رواية زيد بن أسلم المرسلة، فحديث أبي هريرة أخرجه مسلم (١٥٦٠).

منه، وذلك لا يُفَوِّتُ المبادرة إلى القضاء، فإنهم في شغل الصلاة وشأنها.

(اجتناب الصلاة في امكنة الشيطان)

وفيها: تنبيه على اجتناب الصلاة في أمكنة الشيطان، كالحمام، والحُشُّ بطريق الأولى، فإن هذه منازلُه التي يأوي إليها ويسكنها، فإذا كان النبي ﷺ، ترك المبادرة إلى الصلاة في ذلك الوادي، وقال: إن به شيطاناً، فما الظن بماوى الشيطان وببيته.

فصل

(رد المهاجرين منافع الانصار)

ولما رجع رسولُ الله ﷺ إلى المدينة، ردَّ المهاجرون إلى الانصار منافعهم التي كانوا منحوهم إياها من النخيل حين صار لهم بخير مائٍ ونخيلٍ، فكانت أمُّ سليم - وهي أم أنس بن مالك - أعطت رسولَ الله ﷺ عِذاقاً، فأعطاها أمَّ أيمن مولاته، وهي أم أسامة بن زيد، فرد رسولُ الله ﷺ على أم سليم عِذاقها، وأعطى أم أيمن مكانهن من حائطه مكان كل عِدَق عشرة [البخاري: ٢٦٣٠، ومسلم: ٤٦٠٣].

فصل

(السرايا بين مقدمه من خيبر إلى شوال)

وأقام رسولُ الله ﷺ في المدينة بعد مقدمه من خيبر إلى شوال، وبعث في خلال ذلك السرايا.

(سرية الصديق إلى بني فزارة)

فمنها: «سرية أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى نجد قِبَلَ بني فزارة، ومعه سلمة بن الأكوع، فوقع في سهمه جارية حسناء، فاستوهبها منه رسولُ الله ﷺ، وفادى بها أسرى من المسلمين كانوا بمكة» [مسلم: ٤٥٧٣].

(سرية عمر نحو هوازن)

ومنها: سرية عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ثلاثين راكباً نحو هوازن، فجاءهم الخبر، فهربوا وجاؤوا محالهم، فلم يَلْقَ منهم أحداً، فانصرف راجعاً إلى المدينة، فقال له الدليل: هل لك في جمع من حَتَمَ جاؤوا سائرين، وقد أجذبت بلادهم؟ فقال عمر: لم يأمرني رسولُ الله ﷺ بهم، ولم يَفْرِضْ لهم [شرح المواهب (٢/٢٤٩)].

وروى مالك، عن زيد بن أسلم، أن ذلك كان بطريق مكة، وهذا مرسل [مالك (١٤/١) - (١٥)].

وقد روى شعبة، عن جامع بن شداد، قال: سمعتُ عبد الرحمن بن أبي علقمة، قال: سمعت عبد الله بن مسعود، قال: أقبلنا مع رسولِ الله ﷺ زمن الحُدَيْبية، فقال النبي ﷺ: «مَنْ يَكْلُونَا؟» فقال بلال: أنا، فذكر القصة [احمد: ٣٧١٠، وأبو داود: ٤٤٧، ورجاله ثقات].

لكن قد اضطربت الرواة في هذه القصة، فقال عبد الرحمن بن مهدي عن شعبة، عن جامع: إن الحارس فيها كان ابنَ مسعود، وقال عُثْمَرُ عنه: إن الحارس كان بلالاً، واضطربت الرواية في تاريخها، فقال المعتمر بن سليمان: عن شعبة عنه: إنها كانت في غزوة تبوك، وقال غيره عنه: إنها كانت في مرجعهم من الحُدَيْبية، فدلَّ على وهم وقع فيها، ورواية الزهري عن سعيد سالمة من ذلك، وبالله التوفيق.

فصل

في فقه هذه القصة

فيها: أن من نام عن صلاة أو نسيها، فوقتها حين يستيقظ أو يذكرها.

(السنن الرواتب تقضى)

وفيها: أن السنن الرواتب تُقضى، كما تُقضى الفرائض، وقد قضى رسولُ الله ﷺ سنة الفجر معها، وقضى سنة الظهر وحدها، وكان هديُّه ﷺ قضاء السنن الرواتب مع الفرائض.

(الفائتة يؤذن لها ويقام)

وفيها: أن الفائتة يُؤذَّن لها ويقام، فإن في بعض طرق هذه القصة، أنه أمر بلالاً نادى، فننادى بالصلاة، وفي بعضها فأمر بلالاً، فأذن وأقام، ذكره أبو داود.

وفيها: قضاء الفائتة جماعةً.

(القضاء على الفور)

وفيها: قضاؤها على الفور لقوله: «فليصلها إذا ذكرها»، وإنما آخرها عن مكان مُعْرِسهم قليلاً، لكونه مكاناً فيه شيطان، فارتحل منه إلى مكان خير

(سرية ابن رواحة إلى يسير بن رزام اليهودي)

قام فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أوصيكم بتقوى الله وخذ له شريكاً له، وأن تطيعوني، ولا تعصوني، ولا تُغالقوا أمري، فإنه لا رأي لمن لا يُطاع، ثم رتبهم وقال: يا فلان! أنت وفلان، ويا فلان أنت وفلان، لا يُفارق كلٌ منكما صاحبه وزميله، وإياكم أن يَزج أحد منكم، فأقول: أين صاحبك؟ فيقول: لا أدري، فإذا كَبُرْتُ، فكَبُرُوا، وجردوا السيوف، ثم جَبُرُوا، وحملوا حملةً واحدةً، وأحاطوا بالقوم، وأخذتهم سيوفُ الله، فهم يضعونها منهم حيث شاؤوا، وشعارهم: أَمِيتْ. وخرج أسامة في أثر رجل منهم يقال له: يرداسُ بن نهيك، فلما دنا منه، وَلَحَمَهُ بالسيف، قال: لا إله إلا الله، فقتله، ثم استاقوا الشاءَ والنعمَ والذُرَّةَ، وكانت سُهْمَانُهُمْ عشرةً أبغرة لكل رجلٍ أو عِدْلُهُ من النعم، فلما قَدِمُوا على رسول الله ﷺ، أخبر بما صنع أسامة، فكَبُرَ ذلك عليه، وقال: أَقْتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ فقال: إنما قالها متعوذاً، قال: «فَهَلَا شَقِقتَ عن قلبه»، ثم قال: «مَنْ لَكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، فما زال يُكرِّر ذلك عليه حتى تَمَتَّى أن يكون أسلمَ يومئذٍ [بخاري: ٤٢٦٩، ومسلم: ٢٧٧٧]، وقال: يا رسول الله! أعطني الله عهداً ألا أقتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: «بعدي»، فقال أسامة: بعذك.

فصل

(سرية غالب الكلبي إلى بني الملوخ)

وبعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الكلبي إلى بني المَلُوخ بالكديد، وأمره أن يُغيِّر عليهم.

قال ابن إسحاق: فحدثني يعقوب بن عتبة، عن مسلم بن عبد الله الجهني، عن جندب بن مكيث الجهني، قال: كنتُ في سريته، فمضينا حتى إذا كنا بِقَيْدِ لَقِيْنَا به الحارث بن مالك بن البرصاء الليثي، فأخذناه، فقال: إنما جئتُ لأسلم، فقال له غالب بن عبد الله: إن كنتَ إنما جئتُ لِتَسلم، فلا يضرُّك رباطُ

ومنها: سرية عبد الله بن رواحة في ثلاثين راكباً، فيهم عبد الله بن أنيس إلى يسير بن رزام اليهودي، فإنه بلغ رسول الله ﷺ أنه يجمع غطفان ليغزوه بهم، فأتوه بخبير فقالوا: أرسلنا إليك رسولُ الله ﷺ ليستعملك على خير، فلم يزالوا - حتى تَبِعَهُمْ في ثلاثين رجلاً مع كُلِّ رجلٍ منهم رديفٌ من المسلمين، فلما بلغوا قَرْقَرَةَ نِيار - وهي من خيرٍ على ستة أميال - ندم يسير، فأهوى يده إلى سيف عبد الله بن أنيس، ففطن له عبد الله بن أنيس، فزجر بعيره، ثم اقتحم عن البعير يسوقُ القوم حتى إذا استمكن من يسير، ضرب رجله فقطعها، واقتحم يسير وفي يده مِخْرَش من شوحط^(١)، فضرب به وجه عبد الله فشجّه مأمومةً، فأنكفأ كُلُّ رجلٍ من المسلمين على رديفه، فقتله غيرَ رجلٍ من اليهود أعجزهم شداً، ولم يُصَبِّ من المسلمين أحدٌ، وقدموا على رسول الله ﷺ، فبصق في شجة عبد الله بن أنيس، فلم تَقِحْ، ولم تُؤْذِه حتى مات [ابن سعد (٩٢/٢)].

(سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى بني مرة بفدك)

وسرية أسامة إلى الحرقة من جهينة

وقتل أسامة رجلاً قال: لا إله إلا الله عندما لحمه بالسيف

ومنها: سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى بني مرة بفدك في ثلاثين رجلاً، فخرج إليهم، فلقي رعاء الشاء، فاستاق الشاءَ والنعم، ورجع إلى المدينة، فأدركه الطلبُ عند الليل، فباتوا يرمونهم بالنبل حتى فني نَبْلُ بشير وأصحابه، فوَلَّى منهم مَنْ وُلَّى، وأصيب منهم مَنْ أُصِيب، وقاتل بشير قتالاً شديداً، ورجع القومُ بنعمهم وشائهم، وتحامل بشير حتى انتهى إلى فدك، فأقام عند يهود حتى برئت جراحه، فرجع إلى المدينة، ثم بعث رسول الله ﷺ سرية إلى الحرقة^(٢) من جهينة، وفيهم أسامة بن زيد، فلما دنا منهم، بعث الأميرُ الطلائع، فلما رجعوا بخبرهم، أقبل حتى إذا دنا منهم ليلاً، وقد احتلبوا وهدؤوا،

(١) المخرش والمخراش: عصاً معوجة الرأس كالصولجان، والشوحط: ضرب من شجر الجبال تتخذ منه القسي.

(٢) بنضم الحاء وفتح الراء نسبة إلى الحرقة وهو جهيش بن عامر من جهينة، سمي الحرقة، لأنه أحرق قوماً بالقتل فبالغ في ذلك.

يوم ليلة، وإن كنت على غير ذلك، استوتقنا منك، فأوثقه رباطاً وخلف عليه رويجلاً أمود، وقال له: امكث معي حتى نمر عليك، فإذا عازك، فاحتر رأيتك، فمضينا حتى أتينا بطن الكويد، فنزلنا عشيةً بعد العصر، فبعثني أصحابي إليه، فعمدْتُ إلى تل يطلّ عليّ علي الحاضر، فانبطحت عليه، وذلك قبل غروب الشمس، فخرج رجل منهم، فنظر فرآني منبطحاً على التل، فقال لامراته: إني لأرى سواداً على هذا التل ما رأيته في أول النهار، فانظري لا تكون الكلاب اجترت بعض أوعيتك، فنظرْتُ، فقالت: لا والله لا أفقد شيئاً، قال: فتأوليني قوسي وسهمين من نبلي، فتأولته، فرماني بسهم، فوضعه في جني، فنزعته فوضعه ولم أتحرك، ثم رماني بالآخر، فوضعه في رأس منكمي، فنزعته فوضعه ولم أتحرك، فقال لامراته: أما والله، لقد خالطه سهامي، ولو كان ربيته لتحرك، فإذا أصبحت، فابتغي سهمي فخذيهما لا تمضيهما الكلاب عليّ، قال: فأملهناهم حتى إذا راحت روائحهم، واحتلبوا وسكنوا، وذهبت عتمة الليل، شئنا عليهم الغارة، فقتلنا من قتلنا، واستقنا النعم، فوجهنا قافلين به، وخرج صريخهم إلى قومهم، وخرجنا سراعاً حتى نمر بالحارث بن مالك وصاحبه، فانطلقنا به معنا، وأتانا صريخ الناس، فجاءنا ما لا يقبل لنا به، حتى إذا لم يكن بيننا وبينهم إلا بطن الوادي من قنْدِيد، أرسل الله عز وجل من حيث شاء سَيْلاً، لا والله ما رأينا قبل ذلك مطراً، فجاء بما لا يقدر أحد يقدّم عليّ، فلقد رأيتهم وقوفاً ينظرون إلينا ما يقدّر أحد منهم أن يقدّم عليه، ونحن نخلدوها، فذهبنا سراعاً حتى أسندناها في المشلل، ثم حذرناها عنه، فأعجزنا القوم بما في أيدينا [أحمد: ١٥٨٤٤، ورجاله ثقات].

وقد قيل: إن هذه السرية هي السرية التي قبلها، والله أعلم.

فصل

(سرية بشير بن سعد إلى جمع يمن وغطفان وحيان)

ثم قدم حُصَيْل بن نُؤيرة، وكان دليل النبي ﷺ إلى خيبر، فقال له النبي ﷺ: «ما وراءك؟» قال: تركتُ جمعاً من يَمَنٍ وغُطَفَانٍ وحيان، وقد بعث إليهم

عُيَيْنَة، إما أن تسيروا إلينا، وإما أن نسير إليكم، فأرسلوا إليه أن يزل إلينا، وهم يُريدونك، أو بعض أطرافك، فدعا رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر، فذكر لهما ذلك، فقالا جميعاً: ابعث بشير بن سعد، فعقد له لواء، وبعث معه ثلاثمائة رجل، وأمرهم أن يسيروا الليل، ويكمنوا النهار، وخرج معهم حُصَيْل دليلاً، فساروا الليل وكمنوا النهار، حتى أتوا أسفل خيبر، حتى دنوا من القوم، فأغاروا على سرحهم وبلغ الخيبر جمعهم ففترقوا، فخرج بشير في أصحابه حتى أتى محالهم، فيجدُها ليس بها أحد، فرجع بالنعم، فلما كانوا بسلام، لقوا عينا لُثَيْنَة، فقتلوه، ثم لقوا جمع عُيَيْنَة وعُيَيْنَة لا يشعر بهم، فناوشوهم، ثم انكشف جمع عُيَيْنَة، وتبعهم أصحاب رسول الله ﷺ، فأصابوا منهم رجلين، ففدّموهما على النبي ﷺ، فأسلما فأرسلهما [ابن سعد (٢/١٢٠)].

وقال الحارث بن عوف لعينة وقد لقيه منهزماً تعبد به فرسه: قف، قال: لا أقبلُ خلفي الطلب، فقال له الحارث: أما آن لك أن تُبصر بعض ما أنت عليه، وإن محمداً قد وطأ البلاد، وأنت توضع في غير شيء؟ قال الحارث: فأقيمت بين حين زالت الشمس إلى الليل وما أرى أحداً، ولا طلبوه إلا الرعب الذي دخله.

فصل

(سرية ابن أبي حنْدَر)

وبعث رسول الله ﷺ ابن أبي حنْدَر الأسلمي في سريته، وكان من قصته ما ذكر ابن إسحاق، أن رجلاً من جُشم بن معاوية، يقال له: قيس بن رفاعه، أو رفاعه بن قيس، أقبل في عدد كثير حتى نزلوا بالغابة يُريد أن يجمع قيساً على محاربة رسول الله ﷺ، وكان ذا اسم وشرف في جُشم، قال: فدعاني رسول الله ﷺ ورجلين من المسلمين، فقال: «اخرجوا إلى هذا الرجل حتى تأتوا منه بخبر وعلم» فقدم إلينا شارباً عَجْفاءً، فحول عليها أحذنا، فوالله ما قامت به ضعفاً حتى دعمها الرجلان من خلفها بأيديهم حتى استقلت وما كادت، وقال: «تبَلَّغُوا عَلَيَّ هَذِهِ» فخرجنا ومعنا سلاحنا من النبل والسيوف، حتى إذا جئنا قريباً من الحاضر مع غروب الشمس،

فَكُنْتُ فِي نَاحِيَةٍ، وَأَمَرْتُ صَاحِبِي، فَكُنَّا فِي نَاحِيَةٍ أُخْرَى مِنْ حَاضِرِ الْقَوْمِ، قُلْتُ لَهُمَا: إِذَا سَمِعْتُمَانِي قَدْ كَبُرْتُ وَشَدِدْتُ فِي نَاحِيَةِ الْعَسْكَرِ، فَكَبِّرَا وَشَدِّدَا مَعِي، فَوَاللَّهِ إِنَّا كَذَلِكَ نَنْتَظِرُ أَنْ نَرَى غِرَةً أَوْ نَرَى شَيْئًا، وَقَدْ غَشِيَنَا اللَّيْلُ حَتَّى ذَهَبَتْ نَجْمَةُ الْعِشَاءِ، وَقَدْ كَانَ لَهُمْ رَاعٌ قَدْ سَرَحَ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ، فَأَبْطَأَ عَلَيْهِمْ، حَتَّى تَخَوَّفُوا عَلَيْهِ، فَقَامَ صَاحِبُهُمْ رِفَاعَةُ بْنُ قَيْسٍ، فَأَخَذَ سَيْفَهُ، فَجَعَلَهُ فِي عَقْفِهِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا تَبْعَنَ أَثَرُ رَاعِيْنَا هَذَا، وَاللَّهِ لَقَدْ أَصَابَهُ شَرٌّ، فَقَالَ نَفَرٌ مَعَهُ: وَاللَّهِ لَا تَذْهَبُ نَحْنُ نَكْفِيكَ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يَذْهَبُ إِلَّا أَنَا، قَالُوا: فَتَحْنُ مَعَكَ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يَتْبَعُنِي مِنْكُمْ أَحَدٌ، وَخَرَجَ حَتَّى يَمُرَّ بِي، فَلَمَّا أَمَكَّنْتِي، نَفَحْتُهُ بِسَهْمٍ فَوَضَعْتُهُ فِي فُؤَادِهِ، فَوَاللَّهِ مَا تَكَلَّمُ، فَوُثِبْتُ إِلَيْهِ فَاحْتَزَزْتُ رَأْسَهُ، ثُمَّ شَدِدْتُ فِي نَاحِيَةِ الْعَسْكَرِ، وَكَبُرْتُ، وَشَدَّ صَاحِبَايَ فَكَبَّرَا، فَوَاللَّهِ مَا كَانَ إِلَّا النِّجَاءُ مَنْ كَانَ فِيهِ: عِنْدَكَ عِنْدَكَ بِكُلِّ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ مِنْ نَسَائِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ، وَمَا خَفْتُ مَعَهُمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَاسْتَقْنَا إِلَيَّ عَظِيمَةً، وَغَنَمًا كَثِيرَةً، فَجِئْنَا بِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَجِئْتُ بِرَأْسِهِ أَحْمَلُهُ مَعِي، فَأَعْطَانِي مِنْ تِلْكَ الْإِبِلِ ثَلَاثَةَ عَشْرِ بَعِيرًا فِي صِدَاقِي، فَجَمَعْتُ إِلَيَّ أَهْلِي، وَكُنْتُ قَدْ تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنْ قَوْمِي، فَأَصْدَقْتُهَا مِائَتِي دِرْهَمٍ، فَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَسْتَعِينَهُ عَلَى نِكَاحِي، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا عِنْدِي مَا عَيْنِكَ، فَلَبِثْتُ أَيَّامًا، ثُمَّ ذَكَرَ هَذِهِ السَّرِيَّةَ^(١).

فصل

(سرية إلى إضم وقتل عامر بن الأضبط الأشجعي من قبل

محلم بن جثامة بعد سلامه عليهم بتحية الإسلام)

وَبِعْتُ سَرِيَّةً إِلَى إِضْمٍ، وَكَانَ فِيهِمْ أَبُو قَتَادَةَ، وَمُحَلِّمٌ بْنُ جَثَامَةَ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَمَرَّ بِهِمْ عَامِرُ بْنُ الْأَضْبَطِ الْأَشْجَعِيُّ عَلَى قَعُودِهِ مَعَهُ مَتَبِعٌ لَهُ، وَوَلَّيْتُ مِنْ لَبَنٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ، فَأَمْسَكُوا عَنْهُ، وَحَمَلُ عَلَيْهِ مُحَلِّمٌ بْنُ جَثَامَةَ فَقَتَلَهُ لَشْيَءٍ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَأَخَذَ بَعِيرَهُ وَمَتَبِعَهُ، فَلَمَّا قَلِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ، فَنَزَلَ فِيهِمْ الْقُرْآنُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا صَرَّفْنَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

وَلَمَّا كَانَ عَامٌ خَيْرٍ، جَاءَ عُيَيْنَةُ بْنُ بَدْرِ يَطْلُبُ بَدْمَ عَامِرِ بْنِ الْأَضْبَطِ الْأَشْجَعِيِّ وَهُوَ سَيِّدُ قَيْسٍ، وَكَانَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ يُرِيدُ عَنْ مُحَلِّمٍ، وَهُوَ سَيِّدُ خَنْدِفٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِقَوْمِ عَامِرٍ: «هَلْ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا الْآنَ مِنَّا خَمْسِينَ بَعِيرًا وَخَمْسِينَ إِذَا رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ؟» فَقَالَ عُيَيْنَةُ بْنُ بَدْرِ: «وَاللَّهِ لَا أَدْعُهُ حَتَّى أَذِيقَ نِسَاءَهُ مِنَ الْحُرَّةِ مِثْلَ مَا أَذِيقُ نِسَائِي، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى رَضُوا بِالْأَدْيَةِ، فَجَاؤُوا بِمُحَلِّمٍ حَتَّى يَسْتَغْفِرَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا قَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ، قَالَ: اللَّهُمَّ لَا تَغْفِرْ لِمُحَلِّمٍ وَقَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَامَ وَإِنَّهُ لَيَتَلَقَّى دُمُوعَهُ بِطَرْفِ ثَوْبِهِ [أحمد: ٢١٠٨١، وأبو داود: ٤٥٠٣، وابن ماجه: ٢٦٢٥].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَزَعَمَ قَوْمُهُ أَنَّهُ اسْتَغْفَرَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي سَالِمُ أَبُو النَّضْرِ، قَالَ: لَمْ يَقْبَلُوا الدِّيَةَ حَتَّى قَامَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ، فَخَلَا بِهِمْ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قَيْسٍ! سَأَلَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قِتْلًا تَرْكُونَهُ لِيُصْلَحَ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ، فَمَنْعْتُمُوهُ لِيَاءَهُ، أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَغْضَبَ عَلَيْكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَيَغْضَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُغْضِبَهُ، أَوْ يَلْعَنَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَيَلْعَنُكُمْ اللَّهُ بِلَعْنَتِهِ، وَاللَّهِ لَتُسَلِّمُنَّ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، أَوْ لَا تَبْنِيَنَّ بِخَمْسِينَ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ كُلُّهُمْ يَشْهَدُونَ أَنَّ الْقَتِيلَ مَا صَلَّى قَطُّ فَلَا طَلْنَ دَمَهُ، فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ: أَخَذُوا الدِّيَةَ [ابن هشام (٧٨٩)].

فصل

في سرية عبد الله بن خُذافة السهمي

ثَبِتَ فِي «الصَّحِيحِينَ» مِنْ حَدِيثِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَسُولَ اللَّهِ وَتَوَلَّوْا أَمْرَ

(١) وقوله: عِنْدَكَ عِنْدَكَ: كلمتان بمعنى الإغراء، والشارف: الناقة المستنة، والعجفاء: الهزيلة.

يُنْكَرُ [النساء: ٥٩]، في عيد الله بن حذافة السهمي بعثه رسول الله ﷺ في سَرِيَّةٍ [البخاري: ٤٥٨٤، ومسلم: ٤٧٤٦].

(امر ابن حذافة من معه دخول النار)

وثبت في «الصحيحين» أيضاً من حديث الأعمش، عن سعيد بن عُبَيْدة، عن أبي عبد الرحمن السُّلَمي، عن عليّ رضي الله عنه، قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلاً مِنَ الْأَنْصَارِ عَلَى سَرِيَّةٍ، بَعَثَهُمْ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْمَعُوا لَهُ وَيُطِيعُوا، قَالَ: فَأَغْضَبُوهُ فِي شَيْءٍ، فَقَالَ: اجْمَعُوا لِي حَطَبًا، فَجَمَعُوا، فَقَالَ: أَوْقِدُوا نَارًا، فَأَوْقَدُوا، ثُمَّ قَالَ: أَلَمْ يَأْمُرْكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تَسْمَعُوا لِي وَتُطِيعُوا؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَادْخُلُوهَا، قَالَ: فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَقَالُوا: إِنَّمَا قَرَرْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ النَّارِ، فَسَكَنَ غَضَبُهُ، وَطَفِئَتِ النَّارُ، فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ» [البخاري: ٤٣٤٠، ومسلم: ٤٧٦٥]، وهذا هو عبد الله بن حذافة السهمي^(١).

(معنى قوله ﷺ: «لو دخلوها ما خرجوا منها»)

فإن قيل: فلو دخلوها دخلوها طاعة لله ورسوله في ظنهم، فكانوا متولين مخطئين، فكيف يُحْلَدُونَ فيها؟ قيل: لما كان إلقاء نفوسهم في النار معصية يكونون بها قاتلي أنفسهم، فهتوا بالمبادرة إليها من غير اجتهاد منهم: هل هو طاعة وقربة، أو معصية؟ كانوا مُقْلِمِينَ عَلَى مَا هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِمْ، وَلَا تَسَوُّغٌ طَاعَةً وَلِيٍّ الْأَمْرَ فِيهِ، لِأَنَّهُ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ، فَكَانَتْ طَاعَةً مِنْ أَمْرِهِمْ بِدُخُولِ النَّارِ مَعْصِيَةً لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، فَكَانَتْ هَذِهِ الطَّاعَةُ هِيَ سَبَبُ الْعُقُوبَةِ، لِأَنَّهَا نَفْسُ الْمَعْصِيَةِ، فَلَوْ دَخَلُوهَا، لَكَانُوا عُصَاةً لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَإِنْ كَانُوا مُطِيعِينَ لَوْلِي الْأَمْرِ، فَلَمْ تَدْفَعْ طَاعَتُهُمْ لَوْلِي الْأَمْرِ مَعْصِيَتَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، لِأَنَّهُمْ قَدْ عَلِمُوا أَنَّ مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ مُسْتَحِقٌّ لِلْعُقُوبَةِ، وَاللَّهُ قَدْ نَهَاكَ عَنْ قَتْلِ أَنْفُسِهِمْ، فَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يُقْلِمُوا عَلَى هَذَا النَّهْيِ طَاعَةَ لِمَنْ لَا تَحِبُّ طَاعَتَهُ إِلَّا فِي الْمَعْرُوفِ.

فإذا كان هذا حُكْمٌ مَنْ عَذَّبَ نَفْسَهُ طَاعَةً لَوْلِي الْأَمْرِ، فَكَيْفَ مِنْ عَذَّبَ مُسْلِمًا لَا يَجُوزُ تَعْلِيْقُهُ طَاعَةً لَوْلِي الْأَمْرِ.

وأيضاً فإذا كان الصحابة المذكورون لو دخلوها لما خرجوا منها مع قصدهم طاعة الله ورسوله بذلك الدخول، فكيف بمن حمله على ما لا يجوز من الطاعة الرغبة والرغبة الدنيوية.

وإذا كان هؤلاء لو دخلوها، لما خرجوا منها مع كونهم قصدوا طاعة الأمير، وظنوا أن ذلك طاعة الله ورسوله، فكيف بمن دخلها من هؤلاء المُكْبِسِينَ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ، وَأَوْهَمُوا الْجُهَّالَ أَنَّ ذَلِكَ مِيرَاثٌ مِنْ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، وَأَنَّ النَّارَ قَدْ تَصَيَّرَ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلَامًا، كَمَا صَارَتْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَخِيَارٌ هَؤُلَاءِ مَلْبُوسٌ عَلَيْهِ يَظُنُّ أَنَّهُ دَخَلَهَا بِحَالِ رَحْمَانِي، وَإِنَّمَا دَخَلَهَا بِحَالِ شَيْطَانِي، فَإِذَا كَانَ لَا يَعْلَمُ بِذَلِكَ، فَهُوَ مَلْبُوسٌ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ يَعْلَمُ بِهِ، فَهُوَ مُلْبَسٌ عَلَى النَّاسِ يُوْهِمُهُمْ أَنَّهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ، وَهُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ، وَأَكْثَرُهُمْ يَدْخُلُهَا بِحَالِ بُهْتَانِي وَتَحِيلِ إِنْسَانِي، فَهَمَّ فِي دُخُولِهَا فِي الدُّنْيَا ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ: مَلْبُوسٌ عَلَيْهِ، وَمَلْبَسٌ، وَتَحِيلٌ، وَنَارُ الْآخِرَةِ أَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَى.

فصل

في عمرة القضية

قال نافع: كانت في ذي القعدة سنة سبع، وقال سليمان التيمي: لما رجع رسول الله ﷺ من خيبر، بعث السرايا، وأقام بالمدينة حتى استهل ذو القعدة، ثم نادى في الناس بالخروج.

قال موسى بن عقبة: ثم خرج رسول الله ﷺ من العام المقبل من عام الحُدَيْبِيَّةِ معتمراً في ذي القعدة سنة سبع، وهو الشهر الذي صَدَّه فِيهِ الْمُشْرِكُونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ يَأْجُجَ^(٢)، وَضَعِ الْأَدَاةَ كُلَّهَا الْحَجَّافَ وَالْمِجَانُ، وَالنَّبْلَ وَالرَّمَاخَ، وَدَخَلُوا بِسِلَاحِ الرَّكَابِ السِّيَوفِ، وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَى مَيْمُونَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ بْنِ حَزْنِ الْعَامِرِيَّةِ، فَخَطَبَهَا إِلَيْهِ، فَجَعَلَتْ

(١) وقد صرح به في رواية أحمد (١١٦٣٩)، وابن ماجه (٢٨٦٣).

(٢) كَيْسَمٌ وَيَنْصُرُ وَيَضْرِبُ: مَوْضِعٌ قَرِيبٌ مَكَّةَ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَمْيَالٍ مِنْهَا، وَالْحَجَّافُ: ضَرْبٌ مِنَ التَّرَاسِ، وَاحِدَتُهَا: حَجَفَةٌ.

سَرَفَ، فأقام بها، وخَلَفَ أبا رافع ليَحْمِلَ ميمونةَ إليه حين يُمسي، فأقام حتى قَدِمَتْ ميمونةَ وَمَنْ معها، وقد لقوا أذى وَعَنَاءَ مِنْ سُفْهَاءِ الْمُشْرِكِينَ وَصِيبَانِهِمْ، فَبَنَى بِهَا بِسَرَفَ [ابن سعد (٢/١٢٠)، وشرح المواهب، (٢/٢٥٢)]، ثُمَّ أَدْلَجَ وَسَارَ حَتَّى قَدِمَ الْمَدِينَةَ، وَقَدَّرَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ قَبْرَ ميمونةَ بِسَرَفَ حَيْثُ بَنَى بِهَا.

فصل

(بها خطا من قال: تزوج النبي ﷺ ميمونة وهو محرم) وأما قول ابن عباس: «إن رسول الله ﷺ تزوج ميمونة، وهو مُحْرِمٌ، وَبَنَى بِهَا وَهُوَ حَلَالٌ» [البخاري: ٤٢٥٨، ومسلم: ٣٤٥١] فَمَا اسْتَدْرَكَ عَلَيْهِ، وَعُدَّ مِنْ وَهْمِهِ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: وَوَهُم ابْنُ عَبَّاسٍ وَإِنْ كَانَتْ خَالَتُهُ، مَا تَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَّا بَعْدَ مَا حَلَّ، ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ^(١).

وقال يزيد بن الأصم عن ميمونة: «تزوجني رسول الله ﷺ وَنَحْنُ حَلَالَانِ بِسَرَفَ» رواه مسلم [٣٤٥٣].

وقال أبو رافع: «تزوج رسول الله ﷺ ميمونة، وهو حلال، وَبَنَى بِهَا وَهُوَ حَلَالٌ، وَكُنْتُ الرَّسُولَ بَيْنَهُمَا» صَحَّ ذَلِكَ عَنْ [أحمد: ٢٧١٩٧، والترمذي: ٨٤١].

وقال سعيد بن المسيب: هذا عبد الله بن عباس يزعم أن رسول الله ﷺ نكح ميمونة، وهو مُحْرِمٌ، وَإِنَّمَا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَّةَ، وَكَانَ الْحِلُّ وَالنَّكَاحُ جَمِيعاً، فَشَبَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ.

وقد قيل: إنه تزوجها قبل أن يُحْرَمَ، وَفِي هَذَا نَظَرٌ إِلَّا أَنْ يَكُونَ وَكُلٌّ فِي الْعَقْدِ عَلَيْهَا قَبْلَ إِحْرَامِهِ، وَأَعْلَنُ الشَّافِعِيُّ ذَكَرَ ذَلِكَ قَوْلًا، فَلَا قَوْلَ ثَلَاثَةٍ.

أحدنا: أنه تزوجها بعد حله من المفرة، وهو قول ميمونة نفسها، وقول السفير بينها وبين رسول الله ﷺ وهو أبو رافع، وقول سعيد بن المسيب، وجمهور أهل النقل.

والثاني: أنه تزوجها وهو مُحْرِمٌ، وهو قول ابن عباس^(٢)، وأهل الكوفة وجماعة.

أمرها إلى العباس بن عبد المطلب، وكانت أختها أم الفضل تحتها، فزَوَّجَهَا الْعَبَّاسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، أَمَرَ أَصْحَابَهُ فَقَالَ: «اكْشِفُوا عَنِ الْمَنَاقِبِ، وَاسْعَوْا فِي الطَّوَافِ»، لِيَرَى الْمُشْرِكُونَ جَلَدَهُمْ وَقُوَّتَهُمْ [البخاري: ٤٢٥٦، ومسلم: ٣٠٥٩]، وَكَانَ يُكَادُهُمْ بِكُلِّ مَا اسْتَطَاعَ، فَوَقَفَ أَهْلُ مَكَّةَ: الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ، يَنْظُرُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ وَهُمْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ، وَعَبَدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَرْتَجِزُ مَتَوَشِّحاً بِالسِّيفِ يَقُولُ:

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ
قَدْ أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ فِي تَنْزِيلِهِ
فِي صُخْفٍ تَتَلَّى عَلَى رَسُولِهِ
يَا رَبِّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقِيلِهِ
إِنِّي رَأَيْتُ الْحَقَّ فِي قُبُولِهِ
الْيَوْمَ نَفْسِيْنَكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ
ضَرْبًا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ قَبِيلِهِ
وَيُذِلُّ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

[رواه عبد الرزاق كما قال الحافظ في «الفتح» (٧/٣٨٤)]

(بناؤه ﷺ بميمونة بسرف)

وتغيَّب رجال من المشركين كراهية أن ينظروا إلى رسول الله ﷺ حَتْفًا وَغِيظًا، فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ ثَلَاثًا، فَلَمَّا أَصْبَحَ مِنَ الْيَوْمِ الرَّابِعِ، أَنَاهُ سَهْلُ بْنُ عَمْرٍو، وَخُوَيْطُ بْنُ عَبْدِ الْعَزْزِيِّ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَجْلِسِ الْأَنْصَارِ يَتَحَدَّثُ مَعَ سَعِيدِ بْنِ عُبَادَةَ، فَصَاحَ خُوَيْطُ بْنُ عَبْدِ الْعَزْزِيِّ: تَنَاشَدُكَ اللَّهُ وَالْعَقْدُ لَمَّا خَرَجْتَ مِنْ أَرْضِنَا، فَقَدْ مَضَتْ الثَّلَاثُ، فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ عُبَادَةَ: كَذِبَتْ لَا أُمَّ لَكَ، لَيْسَتْ بِأَرْضِكَ وَلَا أَرْضِ آبَائِكَ، وَاللَّهِ لَا نَخْرُجُ، ثُمَّ نَادَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خُوَيْطًا أَوْ سَهْلًا، فَقَالَ: «إِنِّي قَدْ نَكَحْتُ مِنْكُمْ امْرَأَةً فَمَا يَصْرُكُمُ أَنْ أَمُتْكُمْ حَتَّى أَذْخَلَ بِهَا، وَنَضَعَ الطَّعَامَ، فَتَأْكُلُ، وَتَأْكُلُونَ مَعَنَا»، فَقَالُوا: تَنَاشَدُكَ اللَّهُ وَالْعَقْدُ إِلَّا خَرَجْتَ عَنَا، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا رَافِعَ، فَأَذَّنَ بِالرَّحِيلِ، وَرَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى نَزَلَ بَطْنَ

(١) أثر سعيد بن المسيب ليس في البخاري، وإنما هو عند أبي داود (١٨٤٥) والبيهقي.

(٢) انظر: «الفتح» (٩/١٤٣).

والثالث: أنه تزوجها قبل أن يُحرم.

وقد حُجِّلَ قولُ ابنِ عباس أنه تزوجها، وهو مُحْرَمٌ على أنه تزوجها في الشهر الحرام، لا في حال الإحرام، قالوا: ويُقال: أحرَمَ الرجلُ: إذا عقد الإحرام، وأحرَم: إذا دخل في الشهر الحرام، وإن كان حلالاً بدليل قول الشاعر:

قَتَلُوا ابْنَ عَقَانَ الْخَلِيفَةَ مُحْرَمًا

وَرِعًا فَلَمْ أَرِ مِثْلَهُ مَقْتُولًا

وإنما قتلوه في المدينة حلالاً في الشهر الحرام^(١).

وقد روى مسلم في «صحيحه» من حديث عُثْمَانَ ابنِ عَفَّان رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لَا يَنْكِحُ الْمُحْرِمُ وَلَا يَنْكِحُ، وَلَا يَخْطُبُ» [مسلم: ٣٤٤٦]. ولو قُلُرَ تعارضُ القولِ والفعل ههنا، لوجب تقديم القولِ، لأن الفعلَ موافق للبراءة الأصلية، والقولُ ناقل عنها، فيكون رافعاً لحكم البراءة الأصلية، وهذا موافق لقاعدة الأحكام، ولو قُدِّمَ الفعلُ، لكان رافعاً لموجب القول، والقولُ رافع لموجب البراءة الأصلية، فيلزم تغيير الحكم مرتين، وهو خلاف قاعدة الأحكام، والله أعلم.

فصل

(اختلاف علي وزيد وجعفر في حضنة بنت حمزة)

ولما أراد النبي ﷺ الخروجَ من مكة، تبعته ابنة حمزة تُنادي: يَا عَمُّ يَا عَمُّ، فتنالها عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه، فأخذ بيدها، وقال لِفاطمة: دونكِ ابنةَ عَمِّكِ، فحملتها، فاخصم فيها عليُّ وزيد وجعفر، فقال علي: أنا أخذتها، وهي ابنةُ عمي، وقال جعفر: ابنةُ عمي وأخالتُها تحتي، وقال زيد: ابنةُ أخي، ففضى بها رسولُ الله ﷺ لِخالَتها، وقال: «الْحَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ»، وقال لعلي: «أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ»، وقال لجعفر: «أَشْبَهْتَ خَلْفِي وَخُلْفِي»، وقال لزيد: «أَنْتَ أَخُوْنَا وَمَوْلَانَا»، متفق على صحته [البخاري: ٤٢٥١].

(الفقه المستنبط من هذه القصة الخالة مقدمة في الحضنة)

وفي هذه القصة مِنَ الفقه: أن الخالةَ مقدَّمة في الحضنة على سائر الأقارب بعد الأبوين.

(تزوج الحاضنة بقريب من الطفل لا يسقط

حضانتها والاختلاف في سقوط الحضنة بالنكاح)

وأن تزوج الحاضنة بقريب من الطفل لا يسقط حضانتها، نص أحمد رحمه الله تعالى في رواية عنه على أن تزويجها لا يسقط حضانتها في الجارية خاصة، واحتج بقصة بنت حمزة هذه، ولما كان ابنُ العم ليس مُحْرَمًا لم يَفْرُق بينه وبين الأجنبي في ذلك، وقال: تزوج الحاضنة لا يسقط حضانتها للجارية، وقال الحسن البصري: لا يكون تزويجها مُسْقِطاً لحضانتها بحال ذكر أو ولد أو أنثى، وقد اختلف في سقوط الحضنة بالنكاح على أربعة أقوال.

أحدها: تسقط به ذكر أو أنثى، وهو قول مالك، والشافعي، وأبي حنيفة، وأحمد في إحدى الروايات عنه.

والثاني: لا تسقط بحال، وهو قول الحسن، وابن حزم.

والثالث: إن كان الطفل بنتاً، لم تسقط الحضنة، وإن كان ذكراً سقطت، وهذه رواية عن أحمد رحمه الله تعالى، وقال في رواية منها: إذا تزوجت الأم وابنتها صغير، أخذ منها، قيل له: والجارية وبنتُ الصبي؟ قال: لا، الجارية تكون معها إلى سبع سنين، وحكى ابنُ أبي موسى روايةً أخرى عنه: أنها أحق بالبت وإن تزوجت إلى أن تبلغ.

والرابع: أنها إذا تزوجت بنسب من الطفل، لم تسقط حضانتها، وإن تزوجت بأجنبي، سقطت، ثم اختلف أصحاب هذا القول على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه يكفي كونه نسيباً فقط، مُحْرَمًا كان أو غير مُحْرَم، وهذا ظاهرُ كلام أصحاب أحمد وإطلاقهم.

الثاني: أنه يُشترط كونه مع ذلك ذا رحم مُحْرَم، وهو قول الحنفية.

(١) وإلى هذا التأويل جنح ابن حبان، فجزم به في «صحيحه».

الثالث: أنه يُشترط مع ذلك أن يكون بينه وبين الطفل ولادة، بأن يكون جداً للطفل، وهذا قولٌ ببعض أصحاب أحمد، ومالك، والشافعي.

(الاختلاف في تقديم الخالة على العمّة)

وفي القصة حُجة لمن قدّم الخالة على العمّة، وقراءة الأم على قرابة الأب، فإنه قضى بها لخالتها، وقد كانت صفيّة عمتها موجودة إذ ذاك، وهذا قولُ الشافعي، ومالك، وأبي حنيفة، وأحمد في إحدى الروايتين عنه،

(حجة من قدم العمّة على الخالة)

وعنه رواية ثانية: أن العمّة مقدّمة على الخالة - وهي اختيارُ شيخنا - وكذلك نساء الأب يُقدّمْنَ على نساء الأم، لأنّ الولاية على الطفل في الأصل للأب، وإنما قُدِّمَتْ عليه الأمُّ لمصلحة الطفل وكمال تربيته، وشفتها وحنوها، والإناثُ أقومُ بذلك من الرجال، فإذا صار الأمر إلى النساء فقط، أو الرجال فقط، كانت قرابةُ الأب أولى من قرابة الأم، كما يكون الأب أولى من كل ذكر سواه، وهذا قوي جداً.

ويجاء عن تقديم خالة ابنة حمزة على عمتها بأن العمّة لم تطلب الحضانة، والحضانة حق لها يقضى لها به بطلبه، بخلاف الخالة، فإن جعفرًا كان نائباً عنها في طلب الحضانة، ولهذا قضى بها النبي ﷺ لها في غيبتها.

وأيضاً فكما أن لقرابة الطفل أن يمنع الحاضنة من حضانة الطفل إذا تزوجت، فللزواج أن يمنعها من أخذه وتفرغها له، فإذا رضي الزوج بأخذه حيث لا تسقط حضانتها لقرابته، أو لكون الطفل أنثى على رواية، مُكِّنَتْ من أخذه وإن لم يرض، فالحقُّ له، والزواج ههنا قد رضي وخاصم في القصة، وصفيّة لم يكن منها طلب.

وأيضاً فإنّ العم له حضانة الجارية التي لا تُشْتَهَى في أحد الوجهين، بل وإن كانت تُشْتَهَى، فله حضانتها أيضاً، وتُسَلَّم إلى امرأة ثقة يختارها هو، أو إلى محرمه، وهذا هو المختار؛ لأنه قريب من عصبانها، وهو أولى من الأجانب والحاكم، وهذه إن كانت طفلة فلا إشكال، وإن كانت ممن يُشْتَهَى، فقد سُلِّمَتْ إلى خالتها، فهي وزوجها من أهل الحضانة، واللّه أعلم.

(معنى قول زيد: ابنة أخي وبها أنه ﷺ وأخى بين

المهاجرين من قبل الهجرة مرة وبينهم وبين الأنصار في

المرّة الثانية)

وقول زيد: ابنة أخي، يُريد الإخاء الذي عقده رسولُ الله ﷺ بينه وبين حمزة لما وأخى بين المهاجرين، فإنه وأخى بين أصحابه مرتين، فوأخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض قبل الهجرة على الحقِّ والمواساة، وأخى بين أبي بكر وعمر، وبين حمزة وزيد بن حارثة، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف، وبين الزبير وابن مسعود، وبين عبيدة بن الحارث وبلال، وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبي وقاص، وبين أبي عبيدة وسالم مولى أبي حذيفة، وبين سعيد بن زيد، وطلحة بن عبيد الله، والمرّة الثانية: أخى بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك بعد مقدمه المدينة.

فصل

(الاختلاف في تسميتها بعمرة)

القضاء هل من القضاء أو من المقاضاة؟

واختُلف في تسمية هذه العمرة بعمرة القضاء، هل هو لكونها قضاءً للعمرة التي صُدُّوا عنها، أو من المقاضاة؟ على قولين تقدما، قال الواقي: حدثني عبد الله بن نافع، عن أبيه، عن ابن عمر، قال: لم تكن هذه العمرة قضاءً، ولكن كان شرطاً على المسلمين أن يعتَمِرُوا في الشهر الذي حاصرهم فيه المشركون.

(اختلاف الفقهاء فيما

يترتب على من أحصر عن العمرة وبها حججه)

واختلف الفقهاء في ذلك على أربعة أقوال:

أحدها: أن من أحصر عن العمرة يلزمه الهدي والقضاء، وهذا إحدى الروايات عن أحمد، بل أشهرها عنه.

والثاني: لا قضاء عليه، وعليه الهدي، وهو قول الشافعي، ومالك في ظاهر مذهبه، ورواية أبي طالب عن أحمد.

والثالث: يلزمه القضاء، ولا هدي عليه، وهو قول أبي حنيفة.

والرابع: لا قضاء عليه، ولا هدي، وهو إحدى الروايات عن أحمد.

فمن أوجب عليه القضاء والهدي، احتج بأن النبي ﷺ وأصحابه نحرُوا الهدي حين صُدُّوا عن البيت، ثم قَصَّوْا مِنْ قَابِلٍ، قالوا: والعمرة تلزم بالشروع فيها، ولا يسقط الوجوبُ إلَّا بفعلها، ونحر الهدي لأجل التحلل قبل تمامها، وقالوا: وظاهر الآية يُوجب الهدي، لقوله تعالى: ﴿إِنْ أُخِرْتُمْ فَاَسْتَيْسِرَ مِنَ الْكُنُفِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

ومن لم يُوجبهما قالوا: لم يأمر النبي ﷺ الذين أحصروا معه بالقضاء ولا أحداً منهم، ولا وقف الحلُّ على نحرهم الهدي، بل أمرهم أن يَحْلِقُوا رؤوسهم، وأمر من كان معه هدي أن ينحر هديه. ومن أوجب الهدي دون القضاء احتج بقوله: ﴿إِنْ أُخِرْتُمْ فَاَسْتَيْسِرَ مِنَ الْكُنُفِ﴾.

ومن أوجب القضاء دون الهدي، احتج بأن العمرة تلزم بالشروع، فإذا أُخْصِرَ، جاز له تأخيرها لعذر الإحصار، فإذا زال الإحصار، أتى بها بالوجوب السابق، ولا يُوجب تخلل التحلل بين الإحرام بها أولاً، وبين فعلها في وقت الإمكان شيئاً، وظاهر القرآن يردُّ هذا القول، ويوجب الهدي دون القضاء، لأنه جعل الهدي هو جميع ما على المُحَصِّر، فدلَّ على أنه يكفي به منه، والله أعلم.

فصل

(الاختلاف في وقت النحر للمحصر)

وفي نحره ﷺ لما أحصر بالحديبية، دليلٌ على أن المحصر ينحر هديه وقت حصره، وهذا لا خلاف فيه إذا كان محرماً بعمرة، وإن كان مفرداً أو قارناً، فقيه قولان:

أحدهما: أن الأمر كذلك، وهو الصحيح؛ لأنه أحد النسكين، فجاز الحل منه، ونحر هديه وقت حصره، كالعمرة، لأن العمرة لا تفوت، وجميع الزمان وقت لها، فإذا جاز الحلُّ منها ونحر هديها من غير خشية فواتها، فالجُّ الذي يُخشى فواته أولى، وقد قال أحمد في رواية حنبل: إنه لا يحلُّ، ولا ينحر الهدي إلى يوم النحر، ووجه هذا أن للهدي محلٌّ زمانٍ ومحلٌّ مكانٍ، فإذا عجز عن محل المكان لم

يسقط عنه محلُّ الزمان لتمكنه من الإتيان بالواجب في محله الزماني، وعلى هذا القول لا يجوزُ له التحلل قبل يوم النحر، لقوله: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْكُنُفُ عِلَّتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦].

فصل

(هل يتحلل المحصر بعمرة)

وفي نحره ﷺ وجله، دليلٌ على أن المحصر بالعمرة يتحلل، وهذا قول الجمهور، وقد روي عن مالك رحمه الله، أن المعتمر لا يتحلل، لأنه لا يخاف الفتور، وهذا تبعدُ صحته عن مالك رحمه الله، لأن الآية إنما نزلت في الحديبية، وكان النبي ﷺ وأصحابه كُلُّهم مُحْرَمِينَ بعمرة، وحلُّوا كُلُّهم، وهذا مما لا يَشْكُ فيه أحد من أهل العلم.

فصل

(هل ينحر المحصر هديه حيث أحصر من حل أو حرم؟) وفي ذبحه ﷺ بالحديبية وهي من الحل بالاتفاق، دليلٌ على أن المحصر ينحر هديه حيث أُخْصِرَ من حل أو حرم، وهذا قول الجمهور وأحمد، ومالك، والشافعي، وعن أحمد رحمه الله رواية أخرى، أنه ليس له نحر هديه إلَّا في الحرم، فيعته إلى الحرم، ويواطئ رجلاً على أن ينحره في وقت يتحلل فيه، وهذا يروى عن ابن مسعود رضي الله عنه، وجماعة من التابعين، وهو قول أبي حنيفة.

وهذا إن صح عنهم فينبغي حملُه على الحصر الخاص، وهو أن يتعرضَ ظالمٌ لجماعة أو لواحد، وأما الحصر العام، فالسنة الثابتة عن رسول الله ﷺ تدلُّ على خلافه، والحديبية من الحل ياتهاق الناس، وقد قال الشافعي: بعثها من الحل، وبعثها من الحرم، قلت: ومراده أن أطرافها من الحرم وإلا فهي من الحل ياتهاقهم.

وقد اختلف أصحاب أحمد رحمه الله في المحصر إذا قدر على أطراف الحرم، هل يلزمه أن ينحر فيه؟ فيه وجهان لهم.

والصحيح: أنه لا يلزمه، لأن النبي ﷺ نحر هديه في موضعه مع قدرته على أطراف الحرم، وقد أخبر الله سبحانه أن الهدي كان محبوساً عن بلوغ محلِّه،

ونصب الهدي بوقوع فعل الصّد عليه، أي: صدّوكم عن المسجد الحرام، وصدّوا الهدي عن بلوغ محله، ومعلوم أن صدّهم وصدّ الهدي استمر ذلك العام ولم يزل، فلم يصلّوا فيه إلى محل إحرامهم، ولم يصلّ الهدي إلى محل نحره، والله أعلم.

فصل

في غزوة مؤتة

وهي بأدنى البلقاء من أرض الشام، وكانت في جمادى الأولى سنة ثمان، وكان سببها أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدي أحد بني لُهب بكتابه إلى الشام إلى ملك الروم أو بصرى، فعرض له شرحبيل بن عمرو الفساني، فأوثقه رباطاً، ثم قدّمه فضرب عنقه، ولم يُقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره، فاشتد ذلك عليه حين بلغه الخبر، فبعث البعوث، واستعمل عليهم زيد بن حارثة، وقال: «إِنْ أَصِيبَ فَجَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَى النَّاسِ، فَإِنْ أَصِيبَ جَعْفَرُ، فَقَبِيذُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ» [البخاري: ٤٢٦١].

فجهز الناس ومهم ثلاثة آلاف، فلما حضر خروجهم، ودّع الناس أمراء رسول الله ﷺ، وسلّموا عليهم، فبكى عبد الله بن رواحة، فقالوا: ما يُبكيك؟ فقال: أما والله ما بي حُب الدنيا ولا صِابة بكم، ولكني سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار ﴿وَلَا يَنْكُرُ إِلَّا أَزْوَاجًا كَانَ عَلَىٰ رُءُوفٍ حَتَّىٰ مَقْبُورًا﴾ [مریم: ٧١]، فلست أدري كيف لي بالصّد بَعْدَ الْوُرُودِ؟ فقال المسلمون: صحبكم الله بالسلامة، ودفع عنكم، وردّكم إلينا صالحين، فقال عبد الله بن رواحة:

لَكِنِّي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً

وَصَرِيَّةَ ذَاتِ فَرْخٍ تَقْذِفُ الرَّبْدَا

أَوْ حَلَقَةً بِيَدِي حَرَّانٍ مُّجَهِّزَةً

بِحَرِيَّةٍ تُنْفِذُ الْأَخْشَلَةَ وَالْكَبْدَا

حَتَّى يُقَالَ إِذَا مَرُّوا عَلَىٰ جَدْنِي

يَا أَرْشَدَ اللَّهُ مِنْ غَايٍ وَقَدْ رَشَدَا

[ابن هشام (٦٤٤)].

بلغ ذلك المسلمين، أقاموا على معان ليلتين ينظرون في أمرهم وقالوا: نكتبُ إلى رسول الله ﷺ، فنخبره بعدد عدونا، فلما أن يُمدّنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره، فنمضي له، فشجع الناس عبد الله بن رواحة، فقال: يا قوم: والله إن الذي تكرهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما تُقاتلُ الناس بعدد ولا قوّة ولا كثرة، ما تُقاتلهم إلّا بهذا الدين الذي أكرمنا به الله، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحُسنيين، إما ظفّر وإما شَهادَة.

فمضى الناس حتّى إذا كانوا بثُحوم البلقاء، لقيتهم الجموعُ بقرية يقال لها: مَشَارِف، فدنا العدو، وانحاز المسلمون إلى مؤتة، فالتقى الناس عندها، فتمعى المسلمون، ثم اقتتلوا والراية في يد زيد بن حارثة، فلم يزل يُقاتل بها حتّى شَاطَفَ في رماح القوم وخَرَّ صريعاً، وأخذها جعفر، فقاتل بها حتّى إذا أَرَهَقَهُ الْقِتَالُ، اقتحم عن فرسه، ففقرها، ثم قاتل حتّى قُتِلَ، فكان جعفر أوّل من عَقَرَ فَرَسَهُ فِي الْإِسْلَامِ عند القتال، فَقَطَعَتْ يَمِينُهُ، فأخذ الراية بيساره، فَقَطَعَتْ يَسَارُهُ، فاحتضن الراية حتّى قُتِلَ وله ثلاث وثلاثون سنة، ثم أخذها عبد الله بن رواحة، وتقدّم بها وهو على فرسه، فجعل يستنزّل نفسه ويتردد بعض التردد، ثم نزل، فاتاه ابنُ عم له، بقرق من لحم فقال: شُدَّ بِهَا صُلْبُكَ، فإنك قد لقيت في أَيَّامِكَ هَذِهِ مَا لَقِيتَ، فأخذها من يده، فانتهس منها نَهْسة، ثم سمع الحَطْمَةَ في ناحية الناس، فقال: وأنت في الدنيا، ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه وتقدّم، فقاتل حتّى قُتِلَ، ثم أخذ الراية ثابتٌ بن أقرم أخو بني عجلان، فقال: يا معشر المسلمين لا اصطَلَحُوا عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعلٍ، فاصطَلَحَ النَّاسُ عَلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، فلما أخذ الراية، دافع القوم، وحاش بهم، ثم انحاز بالمسلمين، وانصرف بالناس.

(من المنتصر)

وقد ذكر ابن سعد أن الهزيمة كانت على المسلمين، والذي في «صحيح البخاري»، أن

ثم مضوا حتى نزلوا معان، فبلغ الناس أن هرقل باللقاء في مئة ألف من الروم، وانضم إليهم من لخم، ومجذام، وبلقين وبهراء، ويلي، مئة ألف، فلما

الهزيمة كانت على الروم [البخاري: ٤٢٦٢].

والصحيح ما ذكره ابن إسحاق أن كل فئة انحازت عن الأخرى [ابن سعد (١٢٨/٢)، والطبري (١٠٧/٣)، والهيتمي (١٥٦/٦)].

[إطلاع الله رسوله ﷺ بخبر]

أصحابه وإخباره ﷺ عن دخول الأمراء الثلاثة الجنة)

وأطلع الله سبحانه على ذلك رسوله ﷺ من يومهم ذلك، فأخبر به أصحابه، وقال: «لَقَدْ رَفَعُوا إِلَيَّ فِي الْجَنَّةِ فِيمَا بَرَى النَّائِمُ عَلَى سُرُرٍ مِنْ ذَهَبٍ فَرَأَيْتُ فِي سُرِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ أَوْزَاراً عَنْ سُرِيرِ صَاحِبَيْهِ»، فقلت: «عَمَّ هَذَا؟» فقبل لي: مَضِيًّا، وَتَرَدَّدَ عَبْدُ اللَّهِ بَعْضُ التَّرَدُّدِ ثُمَّ مَضَى [ابن هشام (٦٤٧)].

وذكر عبد الرزاق عن ابن عينة، عن ابن جدهان، عن ابن المسيب، قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ لِي جَعْفَرُ وَزَيْدٌ وَابْنُ رَوَاحَةَ فِي خِيَمَةٍ مِنْ دُرٍّ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى سُرِيرٍ، فَرَأَيْتُ زَيْدًا وَابْنَ رَوَاحَةَ فِي أَغْنَقَاهُمَا صُدُودٌ، وَرَأَيْتُ جَعْفَرًا مُسْتَقِيمًا لَيْسَ فِيهِ صُدُودٌ قَالَ: فَسَأَلْتُ أَوْ قِيلَ لِي: إِنَّهُمَا حِينَ عَشِيَّتَهُمَا الْمَوْتُ أَعْرَضَا أَوْ كَانَهُمَا صَدًا بَوْجُوهِمَا، وَأَنَا جَعْفَرٌ فَإِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ» [ضعيف: عبد الرزاق: ٩٥٦٢].

وقال رسول الله ﷺ في جعفر: «إِنَّ اللَّهَ أَبْدَلَهُ يَدَيْهِ جَنَاحَيْنِ يَطِيرُ بِهِمَا فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَ» [الهيتمي (٩/ ٢٧٢)، وقال: رواه الطبراني بإسنادين أحدهما حسن].

[جراحات جعفر]

قال أبو عمر: وروينا عن ابن عمر أنه قال: «وجدنا ما بين صديق جعفر ومنكبيه وما أقبل منه، تسعين جراحة ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح».

[إخباره ﷺ رسول مؤتة عما حدث فيها]

وقال موسى بن عقبة: قدم يعلى بن منية على رسول الله ﷺ يخبر أهل مؤتة، فقال له رسول الله ﷺ: «إِنْ شِئْتَ فَأَخْبِرْنِي، وَإِنْ شِئْتَ أَخْبِرْتُكَ»، قال: أخبرني يا رسول الله، فأخبره ﷺ خبرهم كلُّهُ، ووصفهم له، فقال: وَالَّذِي بَعَثَكَ

بالحق، ما تركت من حديثهم حرفاً واحداً لم تذكره، وإن أمرهم لكما ذكرت، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ رَفَعَ لِي الْأَرْضَ حَتَّى رَأَيْتُ مُعْتَرَكَهُمْ».

[شهداء مؤتة]

واستشهد يومئذ: جعفر، وزيد بن حارثة، وعبد الله بن رواحة، ومسيود بن الأوس، ووهب بن سعد بن أبي سرح، وعبد بن قيس، وجارثة بن النعمان، وسراق بن عمرو بن عطية، وأبو كليب، وجابر ابن عمرو بن زيد، وعامر، وعمرو ابن سعيد ابن الحارث وغيرهم.

[إنشاد ابن رواحة]

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي بكر أنه حَدَّثَ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ قَالَ: كُنْتُ يَتِيماً لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ فِي حَجَرِهِ فَخَرَجَ بِي فِي سَفَرِهِ ذَلِكَ مُرْدَفِي عَلَى حَقِيَّةِ رَحْلِهِ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ لَيْسَ لِي لَيْلَةٌ إِذْ سَمِعْتُهُ وَهُوَ يُنْشِدُ:

إِذَا أَذْنِيَنِي وَحَمَلَتِ رَحْلِي
مَسِيرَةَ أَرْبَعِ بَعْدَ الْجِسَاءِ
فَسَأَلْتُكَ فَانْعَمِي وَخَلَاكِ ثُمَّ
وَلَا أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي وَرَائِي
وَجَاءَ الْمُسْلِمُونَ وَعَادَرُونِي
بِأَرْضِ الشَّامِ مُسْتَنْهَى الثَّوَاءِ^(١)

فصل

[وهم في الترمذي بإنشاد ابن رواحة يوم الفتح]

وقد وقع في الترمذي وغيره أن رسول الله ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعبد الله بن رواحة بين يديه ينشد.

خَلُّوا بَنِي الْكَفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ... الأبيات [الترمذي: ٢٨٥١، والنسائي (٢٠٢/٥)].

وهذا وهم، فإن ابن رواحة قتل في هذه الغزوة، وهي قبل الفتح بأربعة أشهر، وإنما كان يُنشد بين يديه شعر ابن رواحة، وهذا مما لا خلاف فيه بين أهل النقل.

(١) ابن هشام (٦٤٦)، وقوله: بعد الحساء، الحساء جمع حسي: وهو ماء يخور في الرمل حتى يجد صخوراً، فإذا بحث عنه وجد، يريد مكانه في الحساء وقوله «مستنهي» قال السهيلي: مستغل من النهاية، أي: حيث انتهى مثواه.

فصل

في غزوة ذات السلاسل

فلان قد اتبع أمر القوم، فليس لك معه أمر، فقال أبو عبيدة: إن رسول الله ﷺ أمرنا أن نتطاول، فانا أطيع رسول الله ﷺ وإن عصاه عمرو [أحمد: ١٦٩٨، وفي انقطاع].

فصل

(قصة تيمم ابن العاص من الجنبات)

وفي هذه الغزوة احتلم أمير الجيش عمرو بن العاص، وكانت ليلة باردة، فخاف على نفسه من الماء، فتيمم وصلى بأصحابه الصبح، فذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: «يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب؟»، فأخبره بالذي منعه من الاغتسال، وقال: «إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾» [النساء: ٢٩]، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً [أبو داود: ٣٣٤، وعلقه البخاري بعد الحديث: ٣٣٤] وقد احتج بهذه القصة من قال: إن التيمم لا يرفع الحدث، لأن النبي ﷺ سماه جنباً بعد تيممه، وأجاب من نازعهم في ذلك بثلاثة أجوبة:

أحدها: أن الصحابة لما شكروه قالوا: صلى بنا الصبح، وهو جنب، فسأله النبي ﷺ عن ذلك وقال: «صليت بأصحابك وأنت جنب؟»، استفهما واستعلما، فلما أخبره بعنونه، وأنه تيمم للحاجة، أقره على ذلك.

الثاني: أن الرواية اختلفت عنه، فروي عنه فيها أنه غسل مغابته وتوضأ وضوءه للصلاة، ثم صلى بهم، ولم يذكر التيمم، وكان هذه الرواية أقوى من رواية التيمم، قال عبد الحق وقد ذكرها وذكر رواية التيمم قبلها، ثم قال: وهذا أوصل من الأول، لأنه عن عبد الرحمن بن جبير المصري، عن أبي القيس مولى عمرو، عن عمرو [أبو داود: ٣٣٥]، والأولى التي فيها التيمم، من رواية عبد الرحمن بن جبير، عن عمرو بن العاص، لم يذكر بينهما أبا قيس.

الثالث: أن النبي ﷺ أراد أن يستعلم فقه عمرو في تركه الاغتسال، فقال له: «صليت بأصحابك وأنت جنب؟»، فلما أخبره أنه تيمم للحاجة علم فقهه، فلم ينكر عليه، ويدل عليه أن ما فعله عمرو من التيمم - والله أعلم - خشية الهلاك بالبرد، كما أخبر به، والصلاة بالتيمم في هذه الحال جائزة غير منكرة علي فاعلمها، فعلم أنه أراد استعلام فقهه وعلمه، والله أعلم.

وهي وراء وادي القرى بضم السين الأولى وفتحها لغتان، وبينها وبين المدينة عشرة أيام، وكانت في جمادى الآخرة سنة ثمان.

قال ابن سعد: بلغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من قضاة قد تجمعوا يريدون أن يذنبوا إلى أطراف المدينة، فدعا رسول الله ﷺ عمرو بن العاص، فعقد له لواء أبيض، وجعل معه راية سوداء، وبعثه في ثلاثمائة من سرّاة المهاجرين والأنصار، ومعهم ثلاثون فرساً، وأمره أن يستعين بمن مرّ به من بلقي، وغزرة، وبلقين، فسار الليل، وكمن النهار، فلما قرب من القوم، بلغه أن لهم جمعاً كثيراً، فبعث رافع بن مكيث الجهني إلى رسول الله ﷺ يستمده، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في ميتين، وعقد له لواء، وبعث له سرّاة المهاجرين والأنصار، وفيهم أبو بكر، وعمرو، وأمره أن يلحق بعمرو، وأن يكونا جميعاً ولا يختلفا، فلما لحق به، أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس، فقال عمرو: إنما قُبلت علي مدداً وأنا الأمير، فأطاعه أبو عبيدة، فكان عمرو يصلي بالناس، وسار حتى وطئ بلاد قضاة، فدوخها حتى أتى إلى أقصى بلادهم، ولقي في آخر ذلك جمعاً، فحمل عليهم المسلمون فهربوا في البلاد، وتفرقوا، وبعث عوف بن مالك الأشجعي يريد إلى رسول الله ﷺ فأخبره بقولهم وسلامتهم وما كان في غزاتهم [ابن سعد (٢/١٣١)].

وذكر ابن إسحاق نزولهم على ماء لجذام يقال له: السلسل، قال: وبذلك سميت ذات السلاسل.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن داود، عن عامر قال: بعث رسول الله ﷺ جيش ذات السلاسل، فاستعمل أبا عبيدة على المهاجرين، واستعمل عمرو بن العاص على الأعراب، وقال لهما: «تطاولا» قال: وكانوا أمروا أن يغيروا على بكر، فانطلق عمرو، وأغار على قضاة لأن بكرأ أخواله، قال: فانطلق المغيرة بن شعبة إلى أبي عبيدة فقال: إن رسول الله ﷺ استملك علينا، وإن ابن

فصل

في سرية الحَبْط

زمنَ آمِنٍ وهُدنة إلى حين الفتح، ويبيدُ أن تكون سرية الحَبْط على هذا الوجه مرتين: مرة قبل الصُّلح، ومرة بعده، والله أعلم.

فصل

في فقه هذه القصة

(لم يحفظ عنه ﷺ أنه

غزا في الشهر الحرام ولا أغار فيه ولا بعث سرية)

ففيها جوازُ القتال في الشهر الحرام إن كان ذكراً التاريخ فيها برجب محفوظاً، والظاهر - والله أعلم - أنه وهم غير محفوظ، إذ لم يُحفظ عن النبي ﷺ أنه غزا في الشهر الحرام، ولا أغار فيه، ولا بعث فيه سرية، وقد عيّر المشركون المسلمين بقتالهم^(١) في أول رجب في قصة العلاء بن الحضرمي، فقالوا: استحل محمدُ الشهر الحرام، وأنزل الله في ذلك: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ يَفْتَالِي فِيهِ الْقَاتِلُ فِيهِ كَثِيرٌ﴾ الآية [البقرة: ٢١٧]، ولم يثبت نسخُ هذا بنصٍ يجب المصيرُ إليه، ولا أجمعت الأمة على نسخه، وقد استدلل على تحريم القتال في الأشهر الحرم بقوله تعالى: ﴿إِذَا نَسَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، ولا حجة في هذا، لأن الأشهر الحرم هانئا هي أشهر التسيير الأربعة التي سِير الله فيها المشركين في الأرض يأمنون فيها، وكان أولها يوم الحج الأكبر عاشر ذي الحجة، وآخرها عاشر ربيع الآخر، هذا هو الصحيح في الآية لوجه عديده، ليس هذا موضعها.

وفيها: جوازُ أكل ورق الشجر عند المخمصة، وكذلك عُشب الأرض.

وفيها: جواز نهي الإمام وأمير الجيش للغزاة عن نحر ظهورهم وإن احتاجوا إليه خشية أن يحتاجوا إلى ظهورهم عند لقاء عدوهم، ويجب عليهم الطاعة إذا نهاهم.

(جواز اكل ميتة البحر)

وفيها: جوازُ أكل ميتة البحر، وأنها لم تدخل في

وكان أميرها أبا عُبَيْدة بن الجراح، وكانت في رَجَب سنة ثمانٍ فيما أنبأنا به الحافظ أبو الفتح محمد بن سيّد الناس في كتاب «عيون الأثر» له، وهو عندي وهم، كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

قالوا: بعث رسولُ الله ﷺ أبا عُبَيْدة بن الجراح في ثلاثمئة رجل من المهاجرين والأنصار، وفيهم عمرُ بن الخطاب إلى حيٍّ من جُهينة بالقبيلة مما يلي ساحلَ البحر، وبينها وبين المدينة خمسُ ليالٍ، فأصابهم في الطريق جوعٌ شديد، فأكلوا الحَبْط، وألقى إليهم البحرُ حوتاً عظيماً، فأكلوا منه، ثم انصرفوا، ولم يلقوا كَيْدًا، وفي هذا نظر، فإن في «الصحيحين» من حديث جابر قال: «بعثنا رسولُ الله ﷺ في ثلاثمئة راكب، أميرنا أبو عبيدة بن الجراح نَزْدُ عيراً لقريش، فأصابنا جوعٌ شديد حتى أكلنا الحَبْط، فسمي جيشُ الحَبْط، فنحر رجلٌ ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم إن أبا عُبَيْدة نهاء، فألقى إلينا البحرُ دابةً يقال لها: العنبر، فأكلنا منها نصف شهر، وادعنا من ودكها حتى ثابت إلينا أجسامنا، وصلحت، وأخذ أبو عُبَيْدة ضلعاً من أضلاعه، فنظر إلى أطول رجلٍ في الجيش، وأطول جمل، فحوّل عليه ومر تحته، وتزودنا من لحمه وشائق، فلما قدمنا المدينة، أتينا رسولَ الله ﷺ، فذكرنا له ذلك، فقال: «هُوَ رِزْقٌ أَخْرَجَهُ اللَّهُ لَكُمْ فَهَلْ مَعَكُمْ مِنْ لَحْمِهِ شَيْءٍ تَطْعَمُونَا؟»، فأرسلنا إلى رسولِ الله ﷺ منه فأكل^(١) [البخاري: ٤٣٦٢].

(ترجيح المصنف أنها)

قبل عمرة الحديبية وليست سنة ثمان)

قلت: وهذا السياق يدل على أن هذه الغزوة كانت قبل الهدنة، وقبل عمرة الحديبية، فإنه من حين صالح أهل مكة بالحديبية لم يكن يرصدُ لهم عيراً، بل كان

(١) والحَبْط: ورق السلم، والدك: الشحم، والشائق: هو اللحم يؤخذ فيغلى إغلاء ولا ينضج ويحمل في الأسفار، والوشيقة: الواحدة منه.

(٢) وكذا في الأصل، والصواب: آخر.

قوله عز وجل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَلْدَمُهُمْ﴾ [المائدة: ٣] وقد قال تعالى: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ صَيِّدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَّعًا لَّكُمْ﴾ [المائدة: ٩٦]، وقد صح عن أبي بكر الصديق، وعبد الله بن عباس، وجماعة من الصحابة، أن صيد البحر ما صيد منه، وطعامه ما مات فيه^(١)، وفي السنن: عن ابن عمر مرفوعاً وموقوفاً: «أَجَلْتُ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ، فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ: فَالسَّمَكُ وَالْجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ: فَالْكَبِدُ وَالطَّلَحَالُ» [الشافعي (٢/٤٢٥)، واحد: ٥٧٢٣، وابن ماجه: ٣٣١٤]، حديث حسن. وهذا الموقوف في حكم المرفوع، لأن قول الصحابي «أَجَلْتُ لَنَا كَذَا، وَحُرِّمَ عَلَيْنَا يَنْصَرِفُ إِلَى إِحْلَالِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَحْرِيمِهِ.

فإن قيل: فالصحابه في هذه الواقعة كانوا مضطرين، ولهذا لما هموا بأكلها قالوا: إنها ميتة، وقالوا: نحن رسل رسول الله ﷺ ونحن مضطرون، فأكلوا، وهذا دليل على أنهم لو كانوا مستغنيين عنها، لما أكلوا منها. قيل: لا ريب أنهم كانوا مضطرين، ولكن هيا الله لهم من الرزق أطيبه وأحله، وقد قال النبي ﷺ لهم بعد أن قديموا: «هَلْ بَقِيَ مَعَكُمْ مِنْ لَحْمِهِ شَيْءٌ؟» قالوا: نعم، فأكل منه النبي ﷺ، وقال: «إِنَّمَا هُوَ رِزْقٌ سَاقَهُ اللَّهُ لَكُمْ»، ولو كان هذا رزق مضطر لم يأكل منه رسول الله ﷺ في حال الاختيار، ثم لو كان أكلهم منها للضرورة، فكيف ساء لهم أن يدهنوا من وذكها ويُنَجِّسوا به ثيابهم وأبدانهم، وأيضاً فكثير من الفقهاء لا يُجوز الشيع من الميتة، إنما يجوزون منها سد الرمق، والسريّة أكلت منها حتى ثابت إليهم أجسامهم وسميوا، وتزودوا منها.

فإن قيل: إنما يتم لكم الاستدلال بهذه القصة إذا كانت تلك الدابة قد ماتت في البحر، ثم ألقاها ميتة، ومن المعلوم، أنه كما يُحْتَمَلُ ذلك يُحْتَمَلُ أن يكون البحر قد جَزَرَ عنها، وهي حية، فماتت بمفارقة الماء، وذلك ذكاتها وذكاة حيوان البحر، ولا سبيل إلى دفع هذا الاحتمال، كيف وفي بعض طرق الحديث «فَجَزَرَ الْبَحْرُ عَنْ حَوْبِ كَالظَّرِبِ» قيل: هذا الاحتمال مع بعده جداً، فإنه يكاد يكون عرقاً للعادة،

فإن مثل هذه الدابة إذا كانت حية إنما تكون في لُجَّة البحر وتَجِدُّ دون ساحله، وما رُق منه ودنا من البر، وأيضاً فإنه لا يكفي ذلك في الحل، لأنه إذا شك في السبب الذي مات به الحيوان، هل هو سبب مبيع له أو غير مبيع؟ لم يَحُلْ الحيوان، كما قال النبي ﷺ في الصيد يرمى بالسهم، ثم يُوجد في الماء: «وَأَنْ وَجَدْتَهُ غَرِيقاً فِي الْمَاءِ، فَلَا تَأْكُلْهُ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي الْمَاءُ قَتَلَهُ أَوْ سَهَمَكَ» فلو كان الحيوان البحري حراماً إذا مات في البحر، لم يَبَحَّ. وهذا مما لا يعلم فيه خلاف بين الأئمة.

وأيضاً فلو لم تكن هذه النصوص مع المبيحين، لكان القياس الصحيح معهم، فإن الميتة إنما حُرِّمَتْ لاحتقان الرطوبات والفضلات والدم الخيث فيها، والذكاة لما كانت تُزِيل ذلك الدم والفضلات، كانت سبب الحل، وإلا فالموت لا يقتضي التحريم، فإنه حاصل بالذكاة كما يحصل بغيرها، وإذا لم يكن في الحيوان دم وفضلات تُزِيلها الذكاة، لم يَحْرُمَ بالموت، ولم يُشترط لحله ذكاة كالجراد، ولهذا لا يَنْجَسُ بالموت ما لا نفس له سائلة، كالدباب والنحلة، ونحوهما، والسَّمَكُ من هذا الضرب، فإنه لو كان له دم وفضلات تحتين بموته، لم يَحُلْ لموته بغير ذكاة، ولم يكن فرق بين موته في الماء وموته خارجه، إذ من المعلوم أن موته في البر لا يُذْهِبُ تلك الفضلات التي تُحَرِّمُهُ عند المحرمين إذا مات في البحر، ولو لم يكن في المسألة نصوص، لكان هذا القياس كافياً والله أعلم.

فصل

(جواز الاجتهاد في الوقائع في حياته ﷺ)

وفيها دليل على جواز الاجتهاد في الوقائع في حياة النبي ﷺ، وإقراره على ذلك، لكن هذا كان في حال الحاجة إلى الاجتهاد، وعدم تمكنهم من مراجعة النص، وقد اجتهد أبو بكر، وعمر رضي الله عنهما بين يدي رسول الله ﷺ في عدة من الوقائع، وأقرهما على ذلك، لكن في قضايا جزئية معينة، لا

(١) «فتح الباري» باب «أجل لكم صيد البحر».

في أحكام عامة وشرائع كلية، فإن هذا لم يَقَعْ من أحد من الصحابة في حضوره ﷺ البتة .

فصل

في الفتح الأعظم

الذي أعزَّ الله به دينه، ورسوله، وجنده، وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هُدًى للعالمين من أيدي الكفار والمشركين، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عزه على مناكيب الجوزاء، ودخل الناس به في دين الله أفواجا، وأشرق به وجه الأرض ضياءً وابتهاجا، خرج له رسول الله ﷺ بكتائب الإسلام، وجنود الرحمن سنة ثمانٍ لعشر مَضِيٍّ من رمضان، واستعمل على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين القفاري. وقال ابن سعد: بل استعمل عبد الله بن أم مكتوم.

(سببه هو إعانة قريش بني بكر على خزاعة الدخلة في

عهد ﷺ وخروج عمرو الخزاعي لطلب النصرة منه ﷺ)

وكان السبب الذي جرَّ إليه، وحدا إليه فيما ذكر إمام أهل السير والمغازي والأخبار محمد بن إسحاق بن يسار، أن بني بكر بن عبد مناة ابن كنانة عَدَّتْ على خُزاعة، وهُم على ماء يُقال له: الوثير: فبيّتهم وقتلوا منهم، وكان الذي هاج ذلك أن رجلاً من بني الحفصمي يقال له: مالك بن عبّاد خرج تاجراً، فلما توسّط أرض خُزاعة، عَدّوا عليه فقتلوه، وأخذوا ماله، فعدت بثو بكر على رجل من بني خُزاعة فقتلوه، فعدت خُزاعة على بني الأسود، وهم سلمى وكلثوم وذؤيب، فقتلوهم بعرقة عند أنصاب الحرم^(١)، هذا كُلُّهُ قَبْلَ المبعث، فلما بُعِثَ رسول الله ﷺ وجاء الإسلام، حجز بينهم، وتشاغل الناس بشأنه، فلما كان صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وبين قريش، وقع الشرط: أنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده، فَعَلَ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم، فعل، فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خُزاعة في عقد رسول الله ﷺ وعهده، فلما استمرت

الهدنة، اغتتمها بنو بكر من خُزاعة، وأرادوا أن يُصَيِّبُوا منهم النَّارَ القديم، فخرج نوفل بن معاوية الدِّبْلِي في جماعة من بني بكر، فبيّت خُزاعة وهم على الوثير، فأصابوا منهم رجلاً، وتناوشوا واقتتلوا، وأعانت قريش بني بكر بالسلاح، وقاتل معهم من قريش من قاتل مستخفياً ليلاً، ذكر ابن سعد منهم: صفوان بن أمية، وحويطب بن عبد العزى، ويكرز بن حفص، حتى حازوا خُزاعة إلى الحرم، فلما انتهوا إليه، قالت بنو بكر: يا نوفل! إنا قد دخلنا الحرم إلهك إلهك. فقال كلمة عظيمة: لا إله له اليوم، يا بني بكر أصيبوا ثاركم، فلمعري إنكم لتسرقون في الحرم أفلا تُصَيَّبُونَ ثاركم فيه؟! فلما دَخَلَتْ خُزاعة مكة، لجؤوا إلى دار بُدَيْل بن ورقاء الخزاعي ودار مولى لهم يقال له: رافع، ويخرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قَدِمَ على رسول الله ﷺ المدينة، فوقف عليه، وهو جالس في المسجد بين ظهراي أصحابه فقال:

يا ربِّ إِنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّدًا

جَلَفَ أَبِينَا وَأَبِيهِ الْأَنْدَا

قَدْ كُنْتُمْ وُلْدًا وَكُنَّا وَالِدَا

تُمَتَّ أَسْلَمْنَا وَلَمْ نَنْزِعْ يَدَا

فَانْصُرْ هَذَاكَ اللَّهُ نَصْرًا أَبَدَا

وَادْعُ عِبَادَ اللَّهِ بِأَثْوَا مَدَدَا

فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّدَا

أَبْيَضَ وَثَلَّ الْبَدْرَ يَسْمُو صُغْدَا

إِنْ سِيَمَ حَسَنًا وَجْهَهُ تَرَبَّدَا

فِي قَيْلَى كَالْبَحْرِ يَجْرِي مُزِيدَا

إِنْ قُرَيْشًا أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا

وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا

وَجَعَلُوا لِي فِي كَدَاوٍ رَصَدَا

وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتُ تَدْعُو أَخَدَا

وَهُمْ أَذَلُّ وَأَقْلُّ عَدَدَا

مَنْ بَيَّتُونَا بِالْوَيْثِرِ مُجَدَا

وَقَتَلُونَا رُغْمًا وَسُجْدَا

يقول: قُتِلْنَا وَقَدْ أَسْلَمْنَا، فقال رسول الله ﷺ:

«نُصِرْتُ يَا عَمْرُو بْنُ سَالِمٍ» [الطبراني في «الصغير» (٢٢٢)،

ثم عرضت سحابة لرسول الله ﷺ فقال: «إِنَّ هَذِهِ السَّحَابَةُ لَتَسْهَلُ بِنَصْرِ بَنِي كَعْبٍ»، ثم خرج بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ فِي نَفَرٍ مِنْ خُزَاعَةَ، حَتَّى قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْبَرُوهُ بِمَا أَصِيبَ مِنْهُمْ، وَبِمُظَاهَرَةِ قُرَيْشِ بَنِي بَكْرٍ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى مَكَّةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلنَّاسِ: «كَأَنَّكُمْ بِأَيِّ سُفْيَانٍ، وَقَدْ جَاءَ لِيَشُدَّ الْعَقْدَ وَيَزِيدَ فِي الْمُدَّةِ».

ومضى بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ فِي أَصْحَابِهِ حَتَّى لَقُوا أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ بَعْسَفَانَ وَقَدْ بَعَثَهُ قُرَيْشٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَشُدَّ الْعَقْدَ، وَيَزِيدَ فِي الْمُدَّةِ، وَقَدْ رَهَبُوا الَّذِي صَنَعُوا، فَلَمَّا لَقِيَ أَبُو سُفْيَانٍ بُدَيْلَ بْنَ وَرْقَاءَ، قَالَ: مَنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ يَا بُدَيْلُ؟ فَظَنَّ أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: سِرْتُ فِي خُزَاعَةَ فِي هَذَا السَّاحِلِ، وَفِي بَطْنِ هَذَا الْوَادِي، قَالَ: أَوْ مَا جِئْتَ مُحَمَّدًا؟ قَالَ: لَا، فَلَمَّا رَاحَ بُدَيْلٌ إِلَى مَكَّةَ، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لَنْ كَانَ جَاءَ الْمَدِينَةَ، لَقَدْ عَلَفَ بِهَا النَّوَى، فَأَتَى مَبْرَكَ رَاجِلَتِهِ، فَأَخَذَ مِنْ بَعْرَهَا، فَفَتَّهَ، فَرَأَى فِيهَا النَّوَى، فَقَالَ: أَحْلَفْتُ بِاللَّهِ لَقَدْ جَاءَ بُدَيْلٌ مُحَمَّدًا.

(خروج أبي سفيان إلى

المدينة ليهبث العقد ورجوعه بالخبيبة)

ثم خرج أبو سفيان حتى قَدِمَ الْمَدِينَةَ، فَدَخَلَ عَلَى ابْنَتِهِ أُمِّ حَبِيبَةَ، فَلَمَّا ذَهَبَ لِيَجْلِسَ عَلَى فِرَاشِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، طَوَّئَتْهُ عَنْهُ، فَقَالَ: يَا بَنِيَّةُ مَا أَدْرِي أَرُغِبْتُ بِي عَنْ هَذَا الْفِرَاشِ، أَمْ رَغِبْتُ بِهِ عَنِّي؟ قَالَتْ: بَلْ هُوَ فِرَاشُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنْتَ مُشْرِكٌ نَجَسٌ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ أَصَابَكَ بَعْدِي شَرٌ.

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ، فَكَلَّمَهُ، فَلَمْ يَرِدْ عَلَيْهِ شَيْئًا، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَكَلَّمَهُ أَنْ يَكَلِّمَ لَهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، ثُمَّ أَتَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَكَلَّمَهُ، فَقَالَ: أَنَا أَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَوَاللَّهِ لَوْ لَمْ أَجِدْ إِلَّا الدَّرَجَ لَجَاهَدْتُكُمْ بِهِ، ثُمَّ جَاءَ فَدَخَلَ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَعِنْدَهُ فَاطِمَةُ، وَحَسَنٌ غُلَامٌ يَدِيبُ بَيْنَ يَدَيْهِمَا، فَقَالَ: يَا عَلِيُّ إِنَّكَ أَمْسُ الْقَوْمِ بِي رَحِمًا، وَإِنِّي قَدْ جِئْتُ فِي حَاجَةٍ، فَلَا أَرْجِعُ كَمَا جِئْتُ خَائِبًا، أَشْفَعُ لِي إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقَالَ: وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ، وَاللَّهِ لَقَدْ عَزَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَمْرِ مَا

نَسْتَطِيعُ أَنْ نُكَلِّمَهُ فِيهِ، فَالْتَفَتَ إِلَى فَاطِمَةَ فَقَالَ: هَلْ لَكَ أَنْ تَأْمُرِي ابْنَتَكَ هَذَا، فَيَجِيرَ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَكُونَ سَيِّدَ الْعَرَبِ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ؟ قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا يَبْلُغُ ابْنِي ذَلِكَ أَنْ يَجِيرَ بَيْنَ النَّاسِ، وَمَا يَجِيرُ أَحَدٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: يَا أَبَا الْحَسَنِ إِنِّي أَرَى الْأُمُورَ قَدْ اشْتَدَّتْ عَلَيَّ، فَانصَحْنِي، قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ لَكَ شَيْئًا يَغْنِي عَنْكَ، وَلَكِنَّكَ سَيِّدُ بَنِي كِنَانَةَ، فَكَمْ فَاجِرٌ بَيْنَ النَّاسِ، ثُمَّ الْحَقُّ بِأَرْضِكَ، قَالَ: أَوْ تَرَى ذَلِكَ مَغْنِيًا عَنِّي شَيْئًا، قَالَ: لَا وَاللَّهِ مَا أَظُنُّهُ، وَلَكِنِّي مَا أَجِدُ لَكَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ! إِنِّي قَدْ أَجَرْتُ بَيْنَ النَّاسِ، ثُمَّ رَكِبَ بَعِيرَهُ، فَانْطَلَقَ فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى قُرَيْشٍ، قَالُوا: مَا وَرَاءَكَ؟ قَالَ: جِئْتُ مُحَمَّدًا فَكَلَّمْتُهُ، فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ شَيْئًا، ثُمَّ جِئْتُ ابْنَ أَبِي قُحَافَةَ، فَلَمْ أَجِدْ فِيهِ خَيْرًا، ثُمَّ جِئْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، فَوَجَدْتُهُ أَعْدَى الْعَدُوِّ، ثُمَّ جِئْتُ عَلِيًّا فَوَجَدْتُهُ أَلَيْنَ الْقَوْمِ، قَدْ أَشَارَ عَلَيَّ بِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ، فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي، هَلْ يَغْنِي عَنِّي شَيْئًا، أَمْ لَا؟ قَالُوا: وَبِمِ أَمْرِكَ؟ قَالَ: أَمْرُنِي أَنْ أَجِيرَ بَيْنَ النَّاسِ، فَفَعَلْتُ، فَقَالُوا: فَهَلْ أَجَازَ ذَلِكَ مُحَمَّدًا؟ قَالَ: لَا. قَالُوا: وَلَيْكَ وَاللَّهِ إِنْ زَادَ الرَّجُلُ عَلَى أَنْ لَعِبَ بِكَ، قَالَ: لَا وَاللَّهِ مَا وَجَدْتُ غَيْرَ ذَلِكَ.

(تجهيز الحبش)

وأمر رسول الله ﷺ الناس بِالْجَهَازِ، وَأَمَرَ أَهْلَهُ أَنْ يُجَهِّزُوهُ، فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى ابْنَتِهِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَهِيَ تُحَرِّكُ بَعْضَ جِهَازِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: أَيُّ بَنِيَّةٍ، أَمْرُكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِتَجْهِيزِهِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، فَتَجْهِزْ، قَالَ: فَأَيْنَ تَرِيتُهُ يُرِيدُ، قَالَتْ: لَا وَاللَّهِ مَا أَدْرِي.

ثم إن رسول الله ﷺ أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، فأمرهم بالجد والتجهيز، وقال: «اللَّهُمَّ خُذِ الْغُيُوثَ وَالْأَخْبَارَ عَنْ قُرَيْشٍ حَتَّى تَبْتَلَهَا فِي بِلَادِهَا» فَتَجْهِزِ النَّاسَ [ابن هشام (٦٥٧)].

(مكتابة حاطب بن أبي بلتعة)

إلى قريش بمسيره ﷺ إليهم وإخبار الوحي له ﷺ بذلك
فكتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش كتاباً يخبرهم
بمسير رسول الله ﷺ إليهم، ثم أعطاه امرأة، وجعل

(لغاهه ﷺ العباس وأبا سفيان بن الحارث)

ابن عمه وعبد الله بن أبي أمية ابن عمته)

ثم مضى حتى نزل مَرَّ الظُّهْرَانِ، وهو بطن مَرَّ، ومعه عشرة آلاف، وعمى الله الأخبارَ عن قريش، فهم على وَجَلٍ وارتقاب، وكان أبو سفيان يخرج يتحسَّسُ الأخبارَ، فخرج هو وحكيم بنُ حزام، وبُذَيْلُ بْنُ وَرْقَاءٍ يتحسَّسونَ الأخبارَ، وكان العباسُ قد خرج قبل ذلك بأهله وعياله مسلماً مهاجراً، فلقي رسول الله ﷺ بالجُحْفَةِ، وقيل: فوق ذلك، وكان ميم لقيه في الطريق ابنُ عمه أبو سفيان بن الحارث، وعبد الله بنُ أبي أمية لقيه بالأبواء، وهما ابنُ عمه وابنُ عمته، فأعرض عنهما لما كان يلقاهُ مِنهما من شِدَّةِ الأذى والهجو، فقالت له أُم سلمة لا يَكُنْ ابْنُ عَمِّكَ وابنُ عمتك أشقى الناس بك، وقال علي لأبي سفيان فيما حكاه أبو عمر: اتب رسول الله ﷺ مِنْ قَبْلِ وجهه، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف ﴿نَأْتِيكَ لَقَدْ ءَاتَاكَ اللَّهُ عَنكَ وَإِنْ كُنَّا لَخٰطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١]. فإنه لا يرضى أن يكون أحدٌ أحسنَ منه قولاً، ففعل ذلك أبو سفيان، فقال له رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَقْرِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَتَوَكَّرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]، فأنشده أبو سفيان آياتاً منها:

لَعَمْرُكَ إِنِّي حِينَ أَحْمِلُ رَابِعاً
لَتَنْفَلِبَ خَيْلُ اللَّاتِ خَيْلَ مُحَمَّدٍ
لِكَالْمُلْبِجِ الْحَيْرَانِ أَظْلَمَ لَيْلُهُ
فَهَذَا أَوَانِي حِينَ أَهْدَى فَأَهْتَدِي
هَذَا نِي هَادٍ غَيْرُ نَفْسِي وَدَلْنِي
على الله مَنْ طَرَدْتَ كُلَّ مُطَرِّدٍ

فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال: «أَنْتَ طَرَدْتَنِي كُلَّ مُطَرِّدٍ» [الحاكم (٤/٢٣)] وحسن إسلامه بعد ذلك.

ويقال: إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ منذ أسلم حياة منه، وكان رسول الله ﷺ يُحِبُّه، وشهد له بالجنة^(١)، وقال: «أَرْجُو أَنْ يَكُونَ خَلْفًا مِنْ حَمَرَةٍ»، ولما حضرته الوفاة، قال: لا تَبْكُوا عَلَيَّ، فوالله ما نطقت بخبطة منذ أسلمتُ.

لها جعلاً على أن تُبلغه قريشاً، فجعلته في قُرونٍ في رأسها، ثم خرجت به، وأتى رسول الله ﷺ الخبرُ من السماء بما صنع حاطب، فبعث علياً والزبير. وغير ابن إسحاق يقول: بعث علياً والمقداد والزبير، فقال: انطلقا حتى تأتيا رُوضةَ خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب إلى قُريش، فانطلقا فعادى بهما خيلهما، حتى وجدا المرأةَ بذلك المكان، فاستنزلاها، وقالوا: معك كتاب؟ فقالت: ما معي كتاب، ففتشا رَحْلَهَا، فلم يجدا شيئاً، فقال لها علي - رضي الله عنه -: أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا، والله لَتُخْرِجَنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُجَرِّدَنَّكَ، فلما رأت الجَدَّ منه، قالت: أغرض، فأعرض، فحلَّت قُرونُ رأسها، فاستخرجت الكتابَ منها، فدفعته إليهما، فأتيا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، فدعا رسول الله ﷺ حاطباً، فقال: ما هذا يا حاطب؟ فقال: لا تَجْعَلْ عَلَيَّ يا رسول الله، والله إني لمؤمن بالله ورسوله، وما ارتددت، ولا بدُّ لك، ولكني كُنتُ امرءاً ملصقاً في قريش لست من أنفسهم، ولي فيهم أهل وعشيرة وولد، وليس لي فيهم قرابة، يحمونهم، وكان من معك لهم قرابات يحمونهم، فأحييت إذ فاتني ذلك أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي، فقال عمرُ بنُ الخطاب: دعني يا رسول الله أضرب عُنُقَهُ، فإنه قد خان الله ورسوله، وقد نافق، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وما يُدْرِيكَ يَا عُمَرُ، لَعَلَّ اللَّهَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» فَذَرَفَتْ عَيْنَا عُمَرَ وقال: الله ورسوله أعلم [البخاري: ٣٩٨٣، ومسلم: ٦٤٠١].

ثم مضى رسول الله ﷺ وهو صائم، والناس صيام، حتى إذا كانوا بالكُذَيْدِ - وهو الذي تسميه النَّاسُ اليومَ قُدَيْدًا - أَفْطَرُوا وَأَفْطَرَ النَّاسُ معه [البخاري:

٤٢٧٦، ومسلم: ٢٦٠٤].

(١) الحاكم فيما ذكره الحافظ في «الإصابة» (٥٣٧) من حديث حماد بن سلمة عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أبو سفيان بن الحارث سيد ثقيان أهل الجنة» ورجاله ثقات، لكنه مرسل.

من إنسلام الحطاب لَوْ أَسْلَمَ، وَمَا بِي إِلَّا أَنِّي قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ إِسْلَامَكَ كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ إِسْلَامِ الْخَطَّابِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَذْهَبَ بِوَإِي عَبَّاسٌ إِلَى رَحْلِكَ، فَإِذَا أَصْبَحْتَ فَأَتِنِي بِهِ» فَذَهَبَتْ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ، غَدَوْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ، أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟» قَالَ: بَأَيِّ أَنْتَ وَأُمِّي، مَا أَحْلَمَكَ، وَأَكْرَمَكَ، وَأَوْصَلَكَ، لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنْ لَوْ كَانَ مَعَ اللَّهِ إِلَهٌ غَيْرُهُ، لَقَدْ اغْنَى شَيْئًا بَعْدَ، قَالَ: «وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ، أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟» قَالَ: بَأَيِّ أَنْتَ وَأُمِّي، مَا أَحْلَمَكَ وَأَكْرَمَكَ وَأَوْصَلَكَ، أَمَا هَذِهِ، فَإِنَّ فِي النَّفْسِ حَتَّى الْآنَ مِنْهَا شَيْئًا، فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ: وَيْحَكَ أَسْلَمَ، وَاشْهَدْ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ قَبْلَ أَنْ تُضْرَبَ عُنُقُكَ، فَاسْلَمْ وَشَهِدَ شَهَادَةَ الْحَقِّ، فَقَالَ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنْ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ يُحِبُّ الْفَخْرَ، فَاجْعَلْ لَهُ شَيْئًا، قَالَ: «تَعَمَّ مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ، فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَعْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ، فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، فَهُوَ آمِنٌ».

وأمر العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيقي الوادي عند حطيم الجبل حتى تمرُّ به جنودُ الله، فيراها، ففعل، فمرَّت القبايلُ على راياتها، كلما مرَّت به قبيلةٌ قال: يا عباسُ، مَنْ هَذَا؟ فَأَقُولُ: سُلَيْم، قَالَ: فيقول: ما لي وسُلَيْم، ثم تمرُّ به القبيلة، فيقول: يا عباسُ! مَنْ هَؤُلَاءُ؟ فَأَقُولُ: مُزَيْنَةُ، فيقول: ما لي ولمزينة، حتى تَفْدَتِ القبايلُ، ما تمرُّ به قبيلةٌ إِلَّا سألني عنها، فإذا أخبرته بهم قال: ما لي ولبني فلان حتى مرَّ به رسولُ الله ﷺ في كتيبه الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إِلَّا الْحَدَقَ مِنَ الْحديد قال: سبحان الله يا عباس، من هَؤُلَاءِ؟ قال: قلتُ: هذا رسولُ الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ وَلَا طَاقَةٌ، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ يَا أَبَا الْفَضْلِ! لَقَدْ أَصْبَحَ مُلْكُ ابْنِ أَخِيكَ الْيَوْمَ عَظِيمًا، قَالَ: قلتُ يا أَبَا سُفْيَانَ: إِنِّهَا الثُّبُوءُ، قَالَ: فَنَعَمْ إِذَا، قَالَ: قلتُ: التَّجَاءُ إِلَى قَوْمِكَ.

وكانت رايةُ الأنصار مع سعد بن عُبادة، فلما مرَّ بأبي سفيان، قال له: الْيَوْمَ يَوْمُ الْمَلْحَمَةِ، الْيَوْمَ

فلما نزل رسولُ الله ﷺ مرَّ الظهران، نزله عشاءً، فأمر الجيشَ، فأوقدوا النيرانَ، فأوقدت عشرةُ آلاف نارَ، وجعل رسولُ الله ﷺ على الحَرَسِ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، وركب العباسُ بغلةً رسولُ الله ﷺ البيضاء، وخرج يلتصقُ لعله يجد بعضَ الحطَّابة، أو أحداً يخبر قريشاً ليخرجوا يستأمنون رسولَ الله ﷺ قبل أن يدخلها عَنُوةً، قَالَ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسِيرُ عَلَيْهَا إِذْ سَمِعْتُ كَلَامَ أَبِي سُفْيَانَ، وَيُدِيلُ بْنُ وَرْقَاءَ وَهُمَا يَتَرَاكِعَانِ، وَأَبُو سُفْيَانَ يَقُولُ: مَا رَأَيْتُ كَاللَّيْلَةِ نِيرَانًا قَطُّ وَلَا عَسْكَرًا، قَالَ: يَقُولُ بِدِيلٍ: هَذِهِ وَاللَّهِ خِزَاعَةٌ حَمَشَتْهَا الْحَرْبُ، فيقول أبو سُفْيَانَ: خِزَاعَةٌ أَقْلٌ وَأَذَلُّ مِنْ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ نِيرَانَهَا وَعَسْكَرَهَا، قَالَ: فَعَرَفْتُ صَوْتَهُ، فَقُلْتُ: أَبَا حَنْظَلَةَ! فَعَرَفَ صَوْتِي، فَقَالَ: أَبَا الْفَضْلِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: مَا لَكَ فِذَاكَ أَبِي وَأُمِّي؟ قَالَ: قُلْتُ: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي النَّاسِ وَأَصْبَاحُ قُرَيْشٍ وَاللَّهِ قَالَ: فَمَا الْحِيلَةُ فِذَاكَ أَبِي وَأُمِّي؟ قُلْتُ: وَاللَّهِ لَنْ يَفْقَرَ بِكَ لِيَضْرِبَنَّ عُنُقُكَ، فَارْكَبْ فِي عَجْرِ هَذِهِ الْبَغْلَةِ حَتَّى آتِي بِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَأْمَنَهُ لَكَ. فَركبَ حَلْفِي وَرَجَعَ صَاحِبَاهُ، قَالَ: فَجِئْتُ بِهِ، فَكَلِمًا مَرَرْتُ بِهِ عَلَى نَارِ مِنْ نِيرَانِ الْمُسْلِمِينَ، قَالُوا: مَنْ هَذَا؟ فَإِذَا رَأَوْا بَغْلَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا عَلَيْهَا، قَالُوا: عَمَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى بَغْلَتِهِ، حَتَّى مَرَرْتُ بِنَارِ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ وَقَامَ إِلَيَّ، فَلَمَّا رَأَى أَبَا سُفْيَانَ عَلَى عَجْرِ الدَّابَّةِ، قَالَ: أَبُو سُفْيَانَ عَلِمُوا اللَّهُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَمَكَّنَ مِنْكَ بِغَيْرِ عَقْدٍ وَلَا عَهْدٍ، ثُمَّ خَرَجَ يَشْتَدُّ نَحْوَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَرَكَضْتُ الْبَغْلَةَ، فَسَبَقْتُ، فَاقْتَحَمْتُ عَنِ الْبَغْلَةِ، فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَدَخَلَ عَلَيْهِ عُمَرُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَذَا أَبُو سُفْيَانَ، فَدَعَانِي أَضْرِبَ عُنُقَهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِنِّي قَدْ أَجْرَتُهُ، ثُمَّ جَلَسْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاخْذَعْتُ بِرَأْسِهِ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا يُتَاجِهِي اللَّيْلَةُ أَحَدٌ دُونِي، فَلَمَّا أَكْثَرَ عُمَرُ فِي شَأْنِهِ، قُلْتُ: مَهْلًا يَا عَمْرُ، فَوَاللَّهِ لَوْ كَانَ مِنْ رِجَالِ بَنِي عَدِي بْنِ كَعْبٍ مَا قُلْتُ مِثْلَ هَذَا، قَالَ: مَهْلًا يَا عَبَّاسُ، فَوَاللَّهِ لِإِسْلَامِكَ كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ

تُسْتَعْلُ الْحُرْمَةُ، الْيَوْمَ أَذَلَّ اللَّهُ قُرَيْشًا.

فلما حاذى رسول الله ﷺ أبا سفيان، قال: يا رسول الله، ألم تستع ما قال سعد؟ قال: وما قال، فقال: كذا وكذا، فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف: يا رسول الله! ما نأمن أن يكون له في قریش صولة، فقال رسول الله ﷺ: «بَلَى الْيَوْمَ يَوْمٌ تُعْظَمُ فِيهِ الْكَعْبَةُ، الْيَوْمَ يَوْمَ أَعَزَّ اللَّهُ فِيهِ قُرَيْشًا» [البخاري: 4498]. ثم أرسل رسول الله ﷺ إلى سعد، فنزع منه اللواء، ودفعه إلى قيس ابنه، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد إذ صار إلى ابنه، قال أبو عمر: وروى أن النبي ﷺ لما نزع منه الراية، دَفَعَهَا إِلَى الزبير.

(رجوع أبي سفيان إلى قریش ودخوله مكة)

مكة ومقاتلة المسلمين بعض سفهاء قریش)

ومضى أبو سفيان حتى إذا جاء قریشاً، صرخ بأعلى صوته: يا معشر قریش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان، فهو آمن، فقامت إليه هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه، فقالت: اقْتُلُوا الْحَمِيتَ^(١) الدسم، الأحمش الساقين، قُبِحَ مِنْ طَلِيقَةِ قَوْمٍ، قال: ويلكم لا تغرركم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، من دخل دار أبي سفيان، فهو آمن، ومن دخل المسجد، فهو آمن، قالوا: قاتلك الله، وما تغني عنا دارك، قال: ومن أغلق عليه بابه، فهو آمن، ومن دخل المسجد، فهو آمن، ففترق الناس إلى دورهم وإلى المسجد، وسار رسول الله ﷺ، فدخل مكة من أعلاها، وضربت له هنالك قبة، وأمر رسول الله ﷺ خالد بن الوليد أن يدخلها من أسفلها، وكان على الْمُجَنَّبَةِ الْيَمْنَى، وفيها أسلم، وسليم، وغفار، ومزينة، وجُهينة، وقبائل من قبائل العرب، وكان أبو عبيدة على الرجالة والحُسُرِ، وهم الذين لا سلاح معهم، وقال لخالد ومن معه: إن عرض لكم أحد من قریش، فاحصدهم حصداً حتى ثوافوني على الصفا، فما عرض لهم أحد إلا أناموه، وتجمع سفهاء قریش وأخفاؤها مع عكرمة بن أبي جهل،

وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو بالخندمة ليقاتلوا المسلمين، وكان جساس بن قيس بن خالد أخو بني بكر يُعِدُّ سلاحاً قبل دخول رسول الله ﷺ، فقالت له امرأته: لما ذا تُعِدُّ ما أرى؟ قال: لمحمد وأصحابه، قالت: والله ما يقوم لمحمد وأصحابه شيء، قال: إني والله لأرجو أن أخدمك بعضهم، ثم قال:

إِنْ يُقْبِلُوا الْيَوْمَ فَمَالِي عِلَّهُ

هَذَا سِلَاحٌ كَامِلٌ وَاللَّهِ

وَدُوْ غِرَارَيْنِ سَرِيحِ السَّلَةِ^(٢)

ثم شهد الخندمة مع صفوان وعكرمة وسهيل بن عمرو، فلما لَقِيَهُمُ المسلمون ناوشوهم شيئاً من قال، قتل كُرْز بن جابر القهري، وخُضَيْس بن خالد بن ربيعة من المسلمين، وكانا في خيل خالد بن الوليد، فشدوا عنه، فسلكا طريقاً غير طريقه، فقتلا جميعاً، وأصيب من المشركين نحو اثني عشر رجلاً، ثم انهزموا، وانهزم جساس صاحب السلاح حتى دخل بيته، فقال لامرأته: أغلقي عليّ بابي، فقالت: وأين ما كنت تقول؟ فقال:

إِنَّكَ لَوْ شِهِدْتَ يَوْمَ الْخَنْدَمَةِ

إِذْ قَرَّ صَفْوَانٌ وَقَرَّ عَكْرِمَةُ

وَاسْتَقْبَلْتَنَا بِالسُّيُوفِ الْمُسْلِمَةِ

يَقْطَعْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وَجُمْجُمَةٍ

ضَرْباً فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا عَمَمَةً

لَهُمْ نَهَيْتُ حَوْلَنَا وَهَمَمَهُ

لَمْ تَنْطِقِي فِي اللَّوْمِ أَذْنَى كَلِمَةٍ

وقال أبو هريرة: أقبل رسول الله ﷺ، فدخل مكة، فبعث الزبير على إحدى المجنبتين، وبعث خالد بن الوليد على المجنبة الأخرى، وبعث أبا عبيدة بن الجراح على الحُسُرِ، وأخذوا بطن الوادي ورسول الله ﷺ في كتيبه، قال: وقد وُثِّت قریش أوباشاً لها، فقالوا: نُقَدِّمُ هؤلاء، فإن كان لقریش شيء كنا معهم، وإن أصيبوا أعطينا الذي سئلنا، فقال رسول الله ﷺ: «يَا أبا هريرة قُلْتُ: لِيكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدِيكَ، فَقَالَ: «أَغْفِي لِي بِالْأَنْصَارِ، وَلَا يَأْتِينِي

(١) الحميت: زق السمن، تثير أبا سفيان استعظماً لقوله حيث واجهها بذلك.

(٢) الآلة: الحربة لها سنان طويل، ودو غرارين: سيف ذو حدين.

إِلَّا أَنْصَارِي»، فهتف بهم، فجاءوا، فأطافوا برسول الله ﷺ، فقال: «أَتُرُونَ إِلَى أُوْبَاشِي قُرَيْشٍ وَأَتَبَاعِهِمْ» ثُمَّ قَالَ بِيَدِيهِ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى: «أَخْضُدُوهُمْ خَضْدًا حَتَّى تَوَافُونِي بِالصَّفَا» فَانْطَلَقْنَا، فَمَا يَشَاءُ أَحَدُ مَا أَنْ يَقْتُلَ مِنْهُمْ إِلَّا شَاءَ، وَمَا أَحَدٌ مِنْهُمْ وَجَّهٌ إِلَيْنَا شَيْئًا [مسلم: ٤٦٧٢].

وَرُكِّزَتْ رَأْيَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْحَجُّونِ عِنْدَ مَسْجِدِ الْفَتْحِ.

(دخول المسجد)

ثم نهض رسول الله ﷺ والمهاجرون والأنصار بين يديه، وخلفه وحواله، حتى دخل المسجد، فأقبل إلى الحجر الأسود، فاستلمه، ثم طاف بالبيت، وفي يده قوس، وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يقطعنها بالقوس ويقول: «جَاءَ الْحَقُّ وَزَفَقَ الْبَيْطِلُ إِنَّ الْبَيْطِلَ كَانَ زَهُوًّا» [الاسراء: ٨١]، «جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَيْطِلُ وَمَا يُبِيدُ» [سبا: ٤٩]، والأصنام تتساقط على وجوهها [البخاري: ٤٢٨٧، ومسلم: ٤٦٧٥].

(دخوله الكعبة)

وكان طوافه على راحلته، ولم يكن محرماً يومئذٍ، فاقصر على الطواف، فلما أكمله، دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، فأمر بها ففتحت، فدخلها فرأى فيها الصُّوَر، ورأى فيها صورة إبراهيم وإسماعيل يستقسمان بالأزلام، فقال: «قَاتَلَهُمُ اللَّهُ، وَاللَّهِ إِنْ اسْتَقْسَمَا بِهَا قَطْعًا» [البخاري: ٤٢٨٨].

ورأى في الكعبة حمامة من عيدان، فكسرها بيده، وأمر بالصُّوَر فمُحِيت.

ثم أغلق عليه الباب، وعلى أسامة وبلال، فاستقبل الجدار الذي يُقابل الباب، حتى إذا كان بينه وبينه قدر ثلاثة أذرع، وقف وصلى هناك، ثم دار في البيت، وكبر في نواحيه، ووحد الله، ثم فتح الباب، وقريش قد ملأت المسجد صفوفاً ينتظرون ماذا يصنع، فأخذ بعضادتي الباب، وهم تحته، فقال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، صَدَقَ وَعْدُهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، أَلَا كُلُّ مَأْثَرَةٍ أَوْ مَالٍ

أَوْ دَمٍ، فَهُوَ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ إِلَّا سِدَانَةَ الْبَيْتِ وَسِقَايَةَ الْحَاجِّ، أَلَا وَقَتْلُ الْخَطَا شِبْهُ الْعَمْدِ السَّوْطِ وَالْعَصَا، فَبِهِ الدِّيَةُ مُقْلَظَةٌ مَتَى مِنَ الْإِبِلِ، أَرْبَعُونَ مِنْهَا فِي بَطُونِهَا أَوْ لَادُهَا، يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ نَحْوَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَنَعَطُهَا بِالْآبَاءِ، النَّاسُ مِنْ آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ»، ثم تلا هذه الآية: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» [الحجرات: ١٣]، ثم قال: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟» قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «فإني أقول لكم كما قال يونس لإخوته: لَا تَتْرِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ، أَذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الْطُّلُقَاءُ» [ابن هشام (٦٦٧)].

(إبقاء مفتاح الكعبة في آل عثمان بن طلحة)

ثم جلس في المسجد، فقام إليه علي رضي الله عنه، ومفتاح الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله! اجتمع لنا الجحابة مع السقاية صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ عُثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ»^(١) فدعي له، فقال له: «هَذَا مِفْتَاحُكَ يَا عُثْمَانُ، الْيَوْمَ يَوْمَ بَرَّ وَوَفَاءً» [ابن هشام (٦٦٧)].

وذكر ابن سعد في «الطبقات» عن عثمان بن طلحة، قال: كنا نفتح الكعبة في الجاهلية يوم الاثنين، والخميس، فأقبل رسول الله ﷺ يوماً يريد أن يدخل الكعبة مع الناس، فأغلظت له، ونلت منه، فحلتم عني، ثم قال: «يا عثمان لعنك ستري هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت» فقلت: لقد هلك قريش يومئذٍ وذلت، فقال: «بل عمرت وهزت يومئذٍ، ودخل الكعبة، فوقعت كلمته مني موقعاً ظننت يومئذٍ أن الأمر سيصير إلى ما قال، فلما كان يوم الفتح، قال: يا عثمان اتني بالمفتاح، فأتيته به، فأخذه مني، ثم دفعه إلي وقال: «خُذْهَا خَالِدَةً تَالِدَةً لَا يَنْزِعُهَا مِنْكُمْ إِلَّا ظَالِمٌ، يَا عُثْمَانُ إِنَّ اللَّهَ اسْتَأْثَمَكُمْ عَلَى بَيْتِهِ، فَكُلُّوا مِمَّا يَصِلُ إِلَيْكُمْ مِنْ هَذَا الْبَيْتِ بِالْمَعْرُوفِ»، قال: فلما وليت، ناداني، فرجعت إليه فقال: «أَلَمْ يَكُنِ الَّذِي قُلْتُ لَكَ؟» قال:

(١) هو عثمان بن طلحة بن أبي طلحة وأبي طلحة حاجب الكعبة المعظمة.

فذكرت قوله لي بمكة قبل الهجرة: لعلك ستري هذا المفتاح بيدي أضعه حيث شئت، فقلت: بلى أشهد أنك رسول الله [ابن سعد (١٣٦/٢)].

وذكر سعيد بن المسيب أن العباس تناول يومئذ لأخذ المفتاح في رجال من بني هاشم، فردّه رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة.

(الان بلال على الكعبة)

وأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يصعد فيؤذّن على الكعبة، وأبو سفيان بن حرب، وعُتّاب بن أسيد، والحارث بن هشام، وأشراف قريش جلوساً بفناء الكعبة، فقال عُتّاب: لقد أكرم الله أسيداً ألا يكون سميعٌ هذا، فيسمع منه ما يُغيظه، فقال الحارث: أما والله لو أعلم أنه حقٌ لاتبعته، فقال أبو سفيان: أما والله لا أقول شيئاً، لو تكلمت، لأخبرت عني هذه الحصباء، فخرج عليهم النبي ﷺ فقال لهم: «قَدْ عَلِمْتُ الَّذِي قُلْتُمْ» ثم ذكر ذلك لهم، فقال الحارث وعُتّاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا، فنقول: أخبرك [ابن منام (٦٦٨)].

فصل

(صلاة الفتح)

ثم دخل رسول الله ﷺ دار أم هانئ بنت أبي طالب، فاغتسل، وصلى ثمان ركعات في بيتها، وكانت ضحى [البخاري: ١١٠٣، ومسلم: ٩٣٥]، فظنها من ظنها صلاة الضحى، وإنما هذه صلاة الفتح، وكان أمراء الإسلام إذا فتحوا حصناً أو بلدًا، صلّوا غريب الفتح هذه الصلاة اقتداء برسول الله ﷺ، وفي القصة ما يدل على أنها بسبب الفتح شكراً لله عليه، فإنها قالت: ما رأيته صلاها قبلاً ولا بعدها.

(إجارة أم هانئ حمويين لها)

وأجارت أم هانئ حمويين لها، فقال لها رسول الله ﷺ: «قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتَ يَا أُمُّ هَانِءَ» [البخاري: ٣١٧١، ومسلم: ١٦٦٩].

فصل

(من امر ﷺ بقتلهم)

ولما استقر الفتح، أمر رسول الله ﷺ الناس كلهم

إلا تسعة نفر، فإنه أمر بقتلهم، وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، وهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، وعبد العزى بن خطل، والحارث بن نُفيل بن وهب، ومقيس بن ضبابة، وهبار بن الأسود، وقينتان لابن خطل، كانتا تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ، وسارة مولاة لبعض بني عبد المطلب.

(ابن أبي السرح)

فأما ابن أبي سرح فأسلم، فجاء به عثمان بن عفان، فاستأمن له رسول الله ﷺ، فقبل منه بعد أن أمسك عنه رجاء أن يقوم إليه بعض الصحابة فيقتله، وكان قد أسلم قبل ذلك، وهاجر، ثم ارتد، ورجع إلى مكة.

وأما عكرمة بن أبي جهل، فاستأمنت له امرأته بعد أن فر، فأمنه النبي ﷺ، فقدم وأسلم وحسن إسلامه.

(عكرمة بن أبي جهل)

وأما ابن خطل، والحارث، ومقيس، وإحدى القيتين، فقتلوا، وكان مقيس، قد أسلم، ثم ارتد وقاتل، ولحق بالمشركين، وأما هبار بن الأسود، فهو الذي عرض لزينب بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت، فنحس بها حتى سقطت على صخرة، وأسقطت جنينها، ففر، ثم أسلم وحسن إسلامه.

واستؤمن رسول الله ﷺ لسارة وإحدى القيتين، فأمنتهما فأسلمتا.

(خطبة الفتح)

فلما كان الغد من يوم الفتح، قام رسول الله ﷺ في الناس خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ومجده بما موهبه له، ثم قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهِيَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلَا يَجِلُّ لِمَرِيءٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ فِيهَا دَمًا أَوْ يَغْضُدَ بِهَا شَجَرَةً، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَحَّصَ لِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُولُوا: إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ، وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا حَلَّتْ لِي سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا يَوْمَ كُحِرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ، فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ» [البخاري: ٤٢٩٥، ومسلم: ٣٣٠٤].

(إبشاره ﷺ المدينة على مكة)

(إسلام زوجة عكرمة)

ولما فتح الله مكة على رسوله، وهي بلدته، ووطنه، ومولده، قال الأنصار فيما بينهم: أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم بها، وهو يدعو على الصفا رافعاً يديه؟ فلما فرغ من دُعائه، قال: «ماذا قلتم؟» قالوا: لا شيء يا رسول الله، فلم يزل بهم حتى أخبروه، فقال رسول الله ﷺ: «مَعَاذَ اللَّهِ، الْمُخَيَّا مَحْيَاكُمْ، وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ» [مسلم: ٤٦٢٧].

ثم أمر رسول الله ﷺ تميم بن أسيد الخزاعي فجدد أنصاب الحرم^(١).

(كسر الخوئان)

وبث رسول الله ﷺ سراياه إلى الأوثان التي كانت حول الكعبة، فكسرت كلها منها اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، ونادى مناديوهمكة: مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلَا يَدْعُ فِي بَيْتِهِ صَنَمًا إِلَّا كَسَرَهُ.

(هدم خالد للعزى)

فبعث خالد بن الوليد إلى العزى لخمس ليال بقين من شهر رمضان ليهدها، فخرج إليها في ثلاثين فارساً من أصحابه حتى انتهوا إليها، فهدها ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «هَلْ رَأَيْتَ شَيْئًا؟» قال: لا، قال: «فَإِنَّكَ لَمْ تَهْدِمَهَا فَارْجِعْ إِلَيْهَا فَاهْدِمَهَا» فرجع خالد وهو متغيظ فجرد سيفه، فخرجت إليه امرأة عجوز غريانة سوداء ناشرة الرأس، فجعل الساؤون يصيح بها، فضر بها خالد فجزلها بانتين، ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «نَعَمْ تِلْكَ الْعَزَى، وَقَدْ أَهَيْتَ أَنْ تُعْبَدَ فِي بِلَادِكُمْ أَبَدًا» وكانت بنخلة^(٢)، وكانت لقريش وجميع بني كنانة، وكانت أعظم أصنامهم، وكان سدنتها بني شيان [ابن سعد (٢/١٤٥)].

(هدم ابن العاص لسواع)

ثم بعث عمرو بن العاص إلى سواع، وهو صنم لهذيل ليهده، قال عمرو: فانتهيت إليه وعنده الساؤون، فقال: ما تريد؟ قلت: أمرني رسول الله ﷺ أن أهديه، فقال: لا تقدر على ذلك، قلت: لم؟ قال: تمنع. قلت: حتى الآن أنت علي الباطل، ويحك فهل تسمع أو تبصر؟ قال: فدنوت منه فكسرتُه، وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزائنه فلم

(من هم بقتل النبي ﷺ)

وهم فضالة بن عُمير بن الملوح أن يقتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت، فلما دنا منه، قال له رسول الله ﷺ: «أَفْضَالَةُ؟» قال: نعم فضالة يا رسول الله، قال: «مَاذَا كُنْتَ تُحَدِّثُ بِهِ نَفْسَكَ؟» قال: لا شيء كنت أذكر الله، فَصَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ ثم قال: «اسْتَغْفِرِ اللَّهَ»، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، وكان فضالة يقول: والله ما رَفَعَ يَدَهُ عَنْ صَدْرِي حَتَّى مَا خَلَقَ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْهُ، قال فضالة: فرجعت إلى أهلي، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها، فقالت: هَلُمَّ إِلَى الْحَدِيثِ، فقلت: لا، وانبعث فضالة يقول:

قَالَتْ هَلُمَّ إِلَى الْحَدِيثِ فَقُلْتُ لَا

يَأْبَى عَلَيْكَ اللَّهُ وَالْإِسْلَامُ
لَوْ قَدْ رَأَيْتَ مُحَمَّدًا وَقَبِيلَهُ
بِالْفَتْحِ يَوْمَ تُكْسَرُ الْأَضْنَامُ
لَرَأَيْتَ دِينَ اللَّهِ أَضْحَى بَيْنًا
وَالشَّرْكَ يَغْشَى وَجْهَهُ الْإِظْلَامُ

[ابن هشام (٦٦٨)]

(فرار صفوان وعكرمة)

وقر يومئذ صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، فأما صفوان، فاستأمن له عُمير بن وهب الجُمَحي رسول الله ﷺ، فأمنه وأعطاه عِمَامَتَهُ التي دخل بها مكة، فلحقه عُمير وهو يريد أن يركب البحر فردّه، فقال: اجعلني فيه بالخيار شهرين، فقال: أنت بالخيار فيه أربعة أشهر [ابن هشام (٦٦٩)].

(٢) على يوم من مكة.

(١) حجارة تجعل علامات بين الحل والحرم.

نجد فيه شيئاً، ثم قلتُ للسَّادِن: كيف رأيت؟ قال: أسلمتُ الله (ابن سعد ١٤٦/٢).

(هدم سعد بن زيد الأشهلي لمناة)

ثم بعث سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة، وكانت بالمشلل عند قديد للأوس والخزرج وغسان وغيرهم، فخرج في عشرين فارساً حتى انتهى إليها وعندها سادن، فقال السَّادِن: ما تريد؟ قلتُ: هَذَمَ مناة، قال: أنت وذاك، فأقبل سعد يمشي إليها، وتخرج إليه امرأة عريانة سوداء، ثائرة الرأس، تدعو بالويل، وتضرب صدرها، فقال لها السَّادِن: مناة دونك بعض عَصاتك، فضربها سعد فقتلها، وأقبل إلى الصنم، ومعه أصحابه فهدمه، وكسروه، ولم يجدوا في خزانته شيئاً (ابن سعد ١٤٦/٢).

ذكر سرية خالد بن الوليد إلى بني جذيمة

قال ابنُ سعد: ولما رجع خالد بن الوليد من هَدم العُزَي، ورسول الله ﷺ مقيم بمكة، بعثه إلى بني جذيمة داعياً إلى الإسلام، ولم يبعثه مقاتلاً، فخرج في ثلاثمائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار وبني سليم، فأنتهى إليهم، فقال: ما أنتم؟ قالوا: مسلمون قد صلينا وصدقنا بمحمد وبيننا المساجد في ساحتنا، وأذننا فيها، قال: فما بال السلاح عليكم؟ قالوا: إن بيننا وبين قوم من العرب عداوة، فحُفنا أن نكونوا هم، وقد قيل: إنهم قالوا صباناً، ولم يُحسِنوا أن يقولوا: أسلمنا، قال: فضعوا السلاح، فوضعوه، فقال لهم: استأثروا، فاستأثر القوم، فأمر بعضهم فكفف بعضاً، وفرَّقهم في أصحابه، فلما كان في السحر، نادى خالد بن الوليد: من كان معه أسير، فليضرب عنقه، فأما بنو سليم، فقتلوا من كان في

أيديهم، وأما المهاجرون والأنصار، فأرسلوا أسراهم، فبلغ النبي ﷺ ما صنع خالد، فقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد»، وبعث علياً يُودي لهم قتلاهم وما ذهب منهم (البخاري: ٤٣٣٩).

وكان بين خالد وعبد الرحمن بن عوف كلامٌ وشرٌ في ذلك، فبلغ النبي ﷺ، فقال: «مَهْلًا يَا خَالِدُ دَخَ عَنْكَ أَصْحَابِي قَوْلَالِ لَوْ كَانَ لَكَ أَحَدٌ ذَهَبًا ثُمَّ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا أَذْرَكْتَ عَذْوَةَ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِي وَلَا رَوْحَتَهُ» (مسلم: ٦٤٤٨).

فصل

(إنشاد حسان في عمرة الحديبية)

وكان حسان بن ثابت رضي الله عنه قد قال في عمرة الحديبية:

عَفَّتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجَوَاءُ
إِلَى عَذْرَاءَ مَنَزَلِهَا حَلَاءُ^(١)
يَبَارُ مِنْ بَنِي الْحَسْحَاسِ قَفَرٌ
تُعَفِّيهِ الرُّوَامِسُ وَالسَّمَاءُ^(٢)
وَكَاثَتْ لَا يَزَالُ بِهَا أُنَيْسٌ
خِلَالُ مُرُوجِهَا نَعَمَ وَشَاءُ
فَدَعُ هَذَا وَلَكِنْ مَنَ لَطِيفٍ
مُؤَرِّقُنِي إِذَا ذَهَبَ السَّمَاءُ
لَشَعِشَاءِ الَّتِي قَدْ تَبَيَّنَتْ
فَلَيْسَ لِقَلْبِي مِنْهَا شِفَاءُ^(٣)
كَأَنَّ خَبِيئَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسِي
يَكُونُ مِرَاجِهَا حَسَلٌ وَمَاءُ^(٤)
إِذَا مَا الْأَشْرِيَاثُ ذُكِرَتْ يَوْمًا
فَهُنَّ لَطِيبِ الرِّيحِ الْفِدَاءُ
نُؤْلِيهَا الْمَلَامَةَ إِنْ أَلَمْنَا
إِذَا مَا كَانَ مَغْثٌ أَوْ لِحَاءُ^(٥)

(١) الأبيات في «ديوان حسان» (١٧/١، ١٨) والجواء: موضع بالشام، وهو منزل الحارث بن أبي شير، وعذراء: على بريد من دمشق إلى الشمال الشرقي منها.

(٢) الروامس: الرياح التي ترمس الآثار وتغطيها.

(٣) شعناء، هذه التي شيب بها حسان: هي ابنة سلام بن مشكم اليهودي.

(٤) الخبيئة: الخمر المصونة المفضون بها، وبيت رأس: حصن بالأردن سمي بذلك لأنه في رأس جبل وهي على بعد نحو أربعة أميال شمال إربد.

(٥) المغث: القتال، واللحاء: السحاب.

وَنَشَرُّهَا فَتَشْرُكُنَا مُلُوكًا
وَأُسْدًا مَا يُنْهِنُهَا اللَّقَاءُ
عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا
ثُبِيرُ النَّفْعِ مَوْعِدًا كَدَاءُ^(١)
يُنَازِعُنَ الْأَعِنَّةَ مُضْعِدَاتٍ
عَلَى أَكْتَافِهَا الْأَسْلُ الْظَمَاءُ^(٢)
تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٍ
تُلَطِّمُهُنَّ بِالْحُمْرِ النَّسَاءُ^(٣)
فَلَمَّا تُغْرِضُوا عَنَّا اغْتَمَرْنَا
وَكَانَ الْفَتْحُ وَانْكَشَفَ الْغِطَاءُ
وَلَوْلَا قَاضِرُوا لِحِلَادِ يَوْمٍ
يُعِزُّ اللَّهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ
وَجِبْرِيلُ رَسُولُ اللَّهِ فِيْنَا
وَرُوحُ الْقُدُسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ
وَقَالَ اللَّهُ قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدًا
يَقُولُ الْحَقُّ إِنْ نَفَعَ الْبَلَاءُ
شَهِدْتُ بِهِ فَقُومُوا صِدْقُهُ
فَقُلْتُمْ لَا نَقُومُ وَلَا نَشَاءُ
وَقَالَ اللَّهُ قَدْ سَيَّرْتُ جُنْدًا
هُمْ الْأَنْصَارُ غُرَضَتْهَا اللَّقَاءُ
لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍ
سَبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءُ
فَنُخِكِمُ بِالْقَوَائِي مَنْ هَجَانَا
وَنَضْرِبُ جِيبَ تَحْتَلِطُ الدَّمَاءُ
أَلَا أُبْلِغُ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي
مُغْلَعَلَةً فَقَدْ بَرَحَ الْحَفَاءُ^(٤)
يَأْنِ سَيُوفُنَا تَرَكَتْكَ عَبْدًا
وَعَبْدُ الدَّارِ سَادَتْهَا الْإِمَاءُ

في الإشارة إلى ما في الغزوة

من الفقه واللطائف

(من شأنه سبحانه تقديم مقدمات بين يدي الأمور

العظيمة تكون كالمدخل إليها المنبهة لها كقصّة

المسيح ونسخ القبلة وغيرها)

كانت صلح الحديبية مقدّمة وتوطئة بين يدي هذا
الفتح العظيم، أمّن الناس به، وكلّم بعضهم بعضاً
وناظره في الإسلام، وتمكّن من اختفى من المسلمين
بمكة من إظهار دينه، والدعوة إليه، والمناظرة عليه،
ودخل بسببه بشر كثير في الإسلام، ولهذا سماه الله
فتحاً في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١]، نزلت
في شأن الحديبية، فقال عمر: يا رسول الله! أو فتح
هو؟ قال: «نعم» [ابو داود: ٢٧٣٦]. وأعاد سبحانه

(١) النقع: الغبار، وكداء: الشية التي في أصلها مقبرة مكة.

(٢) رواية الديوان:

يُبَارِيَنَّ الْأَسِنَّةَ مُضْعِدَاتٍ

ومباراتها الأسنة: هو أن يضعج الرجل رمحه، فكان الفرس يركض ليسبق السنان، والمصفيات: المواثل المنحرفات
للطنين، والأسل: الرماح.

(٣) متطورات: خارجات من جمهور الخيل من سرعتها، وتلطمن: تضرب النساء وجوههن لتردهن، والحمرة: جمع
خمار: وهو ما تغطي به المرأة رأسها.

(٤) يعني أبا سفيان بن الحارث، والآيات قلت في هجائه.

(٥) الهزمة للاستفهام الإنكاري، أي لا يستوي من هجاء منكم ومن مدحه منا، فكيف تهجوه وتجعل نفسك نظيراً له.

وتعالى ذكر كونه فتحاً، فقال: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ
الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ [الفَتْح: ٢٧] إلى قوله: ﴿فَلَيْمَ مَا لَمْ تَمْلِكُوا
فَجَمَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَنًا قُرَيْبًا﴾ [الفَتْح: ٢٧] وهذا
شأنه - سبحانه - أن يُقدِّم بين يدي الأمور العظيمة
مَقْدَمَاتٍ تكون كالمدخل إليها، المنبهة عليها، كما
قدَّم بين يدي قصة المسيح وخلقه من غير أب، قصة
زكريا، وخلق الولد له مع كونه كبيراً لا يُولد لمثله،
وكما قدَّم بين يدي نسخ القبلة قصة البيت وبنائه
وتعظيمه، والتنويه به، وذكر بانيه، وتعظيمه،
ومدحه، ووطأ قبل ذلك كُلُّه بذكر النسخ، وحكمته
المقتضية له، وقدرته الشاملة له، وهكذا ما قدَّم بين
يدي مبعث رسوله ﷺ، من قصة الفيل، وإشارات
الكهَّان به، وغير ذلك، وكذلك الرؤيا الصالحة
لرسول الله ﷺ كانت مقدِّمةً بين يدي الوحي في
اليقظة، وكذلك الهجرة كانت مقدِّمةً بين يدي الأمر
بالجهاد، ومن تأمل أسرار الشرع والقدر، رأى من
ذلك ما تَبَهَّرُ حِكْمَتُهُ الألباب.

فصل

وفيها: أن أهل العهد إذا حاربوا مَنْ هم في ذمة
الإمام وجواره وعهده، صاروا حرباً له بذلك، ولم
يبق بينهم وبينه عهدٌ، فله أن يُبَيِّتَهُمْ في ديارهم، ولا
يحتاج أن يُعْلِمَهُمْ على سواء، وإنما يكون الإعلام إذا
خاف منهم الخيانة، فإذا تحقَّقها، صاروا نابذين
لعهده.

فصل

(انتقاض عهد الردء والمباشرين إذا رضوا بذلك)

وفيها: انتقاضُ عهد جميعهم بذلك، ردُّهم
ومُباشرتهم إذا رضوا بذلك، وأقرُّوا عليه ولم
يُنْكروه، فإن الذين أعانوا بني بكر من قُرَيْشٍ بعضهم،
لم يُقَاتِلُوا كُلَّهُمْ معهم، ومع هذا فغزاهم رسول الله
ﷺ كُلَّهُمْ، وهذا كما أنهم دخلوا في عقد الصلح
تبعاً، ولم ينفِرْ كُلُّ واحد منهم بصلح، إذ قد رَضُوا به
وأقرُّوا عليه، فكذلك حُكْمُ نقضهم للعهد، هذا هدي
رسول الله ﷺ الذي لا شك فيه كما ترى.

وطرُد هذا جريانُ هذا الحُكْمِ على ناقضي العهد

من أهل الذمة إذا رضي جماعتهم به، وإن لم يُباشر
كُلُّ واحد منهم ما يُنْقِضُ عهده، كما أجلى عُمَرُ يهود
خيبر لما عدا بعضهم على ابنه، ورَمَوْه من ظهر دار
فَقَدَعُوا يده، بل قد قتل رسول الله ﷺ جميع مقاتلة
بني قُرَيْظَةَ، ولم يسأل عن كل رجل منهم: هل نقض
العهد أم لا؟ وكذلك أجلى بني النضير كُلَّهُمْ، وإنما
كان الذي هَمَّ بالقتل رجلاً، وكذلك فعلَ بِنِي قَيْنُقَاعٍ
حتى استوهمهم منه عبد الله بن أبي، فهذه سيرته
وهديُّه الذي لا شك فيه، وقد أجمع المسلمون على
أن حكم الردء حُكْمُ المباشرين في الجهاد، ولا يُشْتَرَطُ
في قسمة الغنيمة، ولا في الثواب مباشرة كل واحد
واحد القتال.

وهذا حُكْمُ قطاع الطريق، حُكْمُ ردِّهم حُكْمُ
مباشرهم، لأن المباشرين إنما باشر الإفساد بقوة
الباقيين؛ ولولا هم ما وصل إلى ما وصل إليه، وهذا
هو الصواب الذي لا شك فيه، وهو مذهب أحمد،
ومالك، وأبي حنيفة، وغيرهم.

فصل

وفيها: جوازُ صلح أهل الحرب على وضع القتال
عشر سنين، وهل يجوزُ فوق ذلك؟ الصواب: أنه
يجوزُ للحاجة والمصلحة الرَّاجِحَة، كما إذا كان
بالمسلمين ضعفٌ وعدُوُّهم أقوى منهم، وفي العقد
لِما زاد عن العشر مصلحةٌ للإسلام.

فصل

وفيها: أن الإمام وغيره إذا سُئِلَ ما لا يجوزُ بذله،
أو لا يجبُ، فسكت عن بذله، لم يكن سكوتُه بذلاً
له، فإن أبا سفيان سأل رسول الله ﷺ تجديدَ العهد،
فسكت رسول الله ﷺ، ولم يجبه بشيء، ولم يكن
بهذا السكوتُ معاهداً له.

فصل

(رسول الكفار لا يقتل)

وفيها: أن رسول الكفار لا يُقتل، فإن أبا سفيان
كان ممن جَرَى عليه حُكْمُ انتقاضِ العهد، ولم يُقتلْ
رسول الله ﷺ إذ كان رسول قومه إليه.

فصل

فإنهم يُكفرون ويُدْعُونَ لمخالفة أهوائهم ونحلهم، وهم أولى بذلك ممن كفروه وبدّعوه.

فصل

(الكبيرة العظيمة مما

دون الشرك قد تكفر بالحسنة الكبيرة الماحية)

وفيها: أن الكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تُكفّر بالحسنة الكبيرة الماحية، كما وقع الجسّ من حاطب مكفراً بشهوده بداراً، فإن ما اشتملت عليه هذه الحسنة العظيمة من المصلحة، وتضمنته من محبة الله لها ورضاه بها، وفرجها بها، ومباهاة للملائكة بفاعلها، أعظم مما اشتملت عليه سيئة الجسّ من المفسدة، وتضمنته من بغض الله لها، فغلب الأقوى على الأضعف، فأزاله، وأبطل مقتضاه، وهذه حكمة الله في الصحة والمرض الناشئين من الحسنات والسيئات، الموجبين لصحة القلب ومرضه، وهي نظير حكمته تعالى في الصحة والمرض اللاجقين للبدن، فإن الأقوى منهما يفهم المغلوب، ويصير الحكم له حتى يذهب أثر الأضعف، فهذه حكمته في خلقه وقضائه، وتلك حكمته في شرعه وأمره.

وهذا كما أنه ثابت في محو السيئات بالحسنات، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ الشَّرَّاتِ﴾ (هود: ١١٤)، وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، وقوله ﷺ: «وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا» [صحيح: أحمد: ٢١٣٥٤]

فهو ثابت في عكسه لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُلَاقُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]. وقول عائشة، عن زيد بن أرقم أنه لما باع بالعين: إِنَّهُ قَدْ أَبْطَلَ جِهَادَهُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا أَنْ يَتُوبَ [الدارقطني (٣١١/٢)]، واليهي (٣٣٠/٥)، وكقوله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري في «صحيحه»: «مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ حَبِطَ عَمَلُهُ» [بخاري: ٥٥٣]، إلى غير ذلك من النصوص والآثار الدالة على تدافع الحسنات والسيئات،

وفيها: جوازُ تبييت الكفار، ومُغَافَضَتِهِمْ^(١) في ديارهم إذا كانت قد بلغتهم الدعوة، وقد كانت سرايا رسول الله ﷺ يُبَيِّتُونَ الْكُفَّارَ، وَيُغَيِّرُونَ عَلَيْهِمْ بِأَذْنِهِ بعد أن بلغتهم دعوته.

فصل

(جواز قتل الجاسوس وإن كان مسلماً)

وفيها: جوازُ قتل الجاسوس وإن كان مسلماً لأن عمر رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ قتل حاطب بن أبي بلتعة لما بعث يُخبر أهل مكة بالخبر، ولم يقل رسول الله ﷺ: لَا يَحِلُّ قَتْلُهُ إِنَّهُ مُسْلِمٌ، بل قال: «وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ قَدْ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ، فَقَالَ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ» فأجاب بأن فيه مانعاً من قتله، وهو شهوه بداراً، وفي الجواب بهذا كالتنبيه على جواز قتل جاسوس ليس له مثلُ هذا المانع، وهذا مذهب مالك، وأحد الوجهين في مذهب أحمد، وقال الشافعي وأبو حنيفة: لَا يُقْتَلُ، وهو ظاهر مذهب أحمد، والفريقان يحتجون بقصة حاطب، والصحيح: أن قتله راجع إلى رأي الإمام، فإن رأى في قتله مصلحة للمسلمين، قتله، وإن كان استبقاؤه أصلح، استبقاه. والله أعلم.

فصل

(جواز تجريد المرأة للمصلحة العامة)

وفيها: جوازُ تجريد المرأة كُلِّهَا وتكثيفها للحاجة والمصلحة العامة، فإن علياً والمقداد قالوا للظعينة: لَتُخْرِجَنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُكْشِفَنَّكَ، وإذا جاز تجريدها لحاجتها إلى ذلك حيث تدعو إليها، فتجريدُها لمصلحة الإسلام والمسلمين أولى.

فصل

وفيها: أن الرجل إذا نَسَبَ المسلم إلى النفاق والكُفْرِ متأولاً وغضباً الله ورسوله ودينه لا لهواه وحظه، فإنه لا يكفر بذلك، بل لا يائمه به، بل يُثَابَ على نيته وقصده، وهذا بخلاف أهل الأهواء والبدع،

(١) أي: أخذهم على غرة.

وإبطال بعضها بعضاً، وذهاب أثر القوي منها بما دونه، وعلى هذا مبنى الموازنة والإحباط.

وبالجملة ففوة الإحسان ومرض العصيان متصاولان ومتحاربان، ولهذا المرض مع هذه القوة حالة تزايد وترام إلى الهلاك، وحالة انحطاط وتناقص، وهي خير حالات المريض، وحالة وقوف وتقابل إلى أن يقهر أحدهما الآخر، وإذا دخل وقت البحران^(١) وهو ساعة المناجزة، فحفظ القلب أخذ الخطتين: إما السلامة وإما العطب، وهذا البحران يكون وقت فعل الواجبات التي توجب رضى الرب تعالى ومغفرته، أو توجب سُخطه وعقوبته، وفي الدعاء النبوي: «أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ» [الترمذي: ٤٧٩١، وابن ماجه: ١٣٨٤، وفي سننه ضعيف]، وقال عن طلحة يومئذ: «أَوْجِبَ طَلْحَةُ» [صحيح: أحمد: ١٤١٧، والترمذي: ٣٧٣٩] ورفع إلى النبي ﷺ رجل وقالوا: يا رسول الله إنه قد أوجب، فقال: «أَعْتَقُوا عَتَهُ» [ابو داود: ٣٩٦٤]. وفي الحديث الصحيح: «أَنْذَرُونَ مَا الْمُوجِبَاتُ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ» [مسلم: ٢٦٩]، يريد أن التوحيد والشرك رأس الموجبات وأصلها، فهما بمنزلة السم القاتل قطعاً، والترياق المنجي قطعاً.

وكما أن البدن قد تعرض له أسباب رديئة لازمة توهن قوته وتضعفها، فلا ينتفع معها بالأسباب الصالحة والأغذية النافعة، بل تحيلها تلك المواد الفاسدة إلى طبيعتها وقوتها، فلا يزداد بها إلا مرضاً، وقد تقوم به مواد صالحة وأسباب موافقة توجب قوته، وتمكنه من الصحة وأسبابها، فلا تكاد تضره الأسباب الفاسدة، بل تحيلها تلك المواد الفاضلة إلى طبيعتها، فهكذا مواد صحة القلب وفساده.

(قوة إيمان حاطب في شهود بدر محت ما صنع)

فتأمل قوة إيمان حاطب التي حملته على شهود بدر، وبذله نفسه مع رسول الله ﷺ، وإيثاره الله ورسوله على قومه وعشيرته وقرايته وهم بين ظهرائي العدو، وفي بلدهم، ولم يثن ذلك عتانه عزومه، ولا

فل من حد إيمانه ومواجهته للقتال لمن أهله وعشيرته وأقاربه عندهم، فلما جاء مرض الجسد، برزت إليه هذه القوة، وكان البحران صالحاً فاندفع المرض، وقام المريض، كان لم يكن به قلباً ولما رأى الطيب قوة إيمانه قد استعلت على مرض جسده وقهرته، قال لمن أراد فصده: لا يحتاج هذا العارض إلى فساد، «وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اغْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» وعكس هذا ذو الخويصرة التميمي وأضرابه من الخوارج الذين بلغ اجتهاؤهم في الصلاة والصيام والقراءة إلى حد يخفروا أحد الصحابة عمله معه كيف قال فيهم: «لَيْنٌ أَذْرَكْتُهُمْ لَا قَتْلَهُمْ قَتْلَ عَادٍ»، وقال: «اقْتُلُوهُمْ فَإِنْ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا عِنْدَ اللَّهِ لِمَنْ قَتَلَهُمْ». وقال: «مَنْ قَتَلَ تَحْتَ أَوْدِيَةِ السَّمَاءِ» [مسلم: ٢٤٥١] فلم يتفهموا بتلك الأعمال العظيمة مع تلك المواد الفاسدة المهلكة واستحالت فاسدة.

وتأمل في حال إبليس لما كانت المادة المهلكة كامنة في نفسه، لم ينتفع معها بما سلف من طاعاته، ورجع إلى شاكلته وما هو أولى به، وكذلك الذي آتاه الله آياته، فانسلك منها، فاتبعت الشيطان، فكان من الغاوين وأضرابه وأشكاله، فالمعول على السرائر والمقاصد والنيات والهمم، فهي الإكسير الذي يقلب نحاس الأعمال ذهباً، أو يردها خبثاً، وبالله التوفيق.

ومن له لب وعقل، يعلم قدر هذه المسألة وشدة حاجته إليها، وانقذها بها، ويطلع منها على باب عظيم من أبواب معرفة الله سبحانه وحكمته في خلقه، وأمره، وثوابه، وعقابه، وأحكام الموازنة، وإيصالي اللذة والألم إلى الروح والبدن في المعاش والمعاد، وتفاوت المراتب في ذلك بأسباب مقتضية بالغة ممن هو قائم على كل نفس بما كسبت.

فصل

(جواز مباغرة المعاهدين إذا نقضوا العهد)

وفي هذه القصة جواز مباغرة المعاهدين إذا نقضوا العهد، والإغارة عليهم، وألا يعلمهم بمسيره إليهم، وأما ما داموا قائمين بالوفاء بالعهد، فلا يجوز ذلك حتى يئذ إليهم على سواء.

(١) قال في «اللسان»: والأطباء يسمون التغير الذي يحدث للعليل دفعة واحدة في الأمراض الحادة بـ«حراناً».

فصل

ذهب إليه جمهور أهل العلم، ولا يُعرف في ذلك خلاف إلا عن الشافعي وأحمد في أحد قوليه، وسياق القصة أوضح شاهد لمن تأمله لقول الجمهور، ولما استهجن أبو حامد الغزالي القول بأنها فُتِحَتْ صلحاً، حكى قول الشافعي أنها فُتِحَتْ غنوة في «وسيطه»، وقال: هذا مذهبه.

قال أصحاب الصلح: لو فتحت غنوة، لقسمها رسول الله ﷺ بين الغانمين كما قسم خير، وكما قسم سائر الغنائم من المتقولات، فكان يُخمسها ويُقسِمُها، قالوا: ولما استأمن أبو سفيان لأهل مكة لما أسلم، فأمّنهم، كان هذا عقد صلح معهم، قالوا: ولو فُتِحَتْ غنوة، لملك الغانمون رباعها ودورها، وكانوا أحقّ بها من أهلها، وجاز إخراجهم منها، فحيث لم يحكم رسول الله ﷺ فيها بهذا الحكم، بل لم يردّ على المهاجرين دورهم التي أُخْرِجُوا منها، وهي بأيدي الذين أخرجوهم، وأقرهم على بيع الدور وشرائها وإجارتها وسكنائها، والانتفاع بها، وهذا مناف لأحكام فتوح الغنوة، وقد صرح بإضافة الدور إلى أهلها، فقال: «مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ، فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ دَارَهُ، فَهُوَ آمِنٌ».

قال أرباب الغنوة: لو كان قد صالحهم لم يكن لأمانه المقيّد بدخول كُلِّ واحد داره، وإغلاقه بابه، وإلقائه سلاحه فائدة، ولم يُقاتلهم خالد بن الوليد حتى قتل منهم جماعة، ولم يُنكر عليه، ولَمَّا قَتَلَ مَقِيسَ بن صُبابة وعبد الله بن حَظَلٍ ومن ذُكِرَ معهم، فإن عقد الصلح لو كان قد وقع، لاستثنى فيه هؤلاء قطعاً، ولنقل هذا وهذا، ولو فُتِحَتْ صلحاً، لم يُقاتلهم، وقد قال: «فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُولُوا: إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ»، ومعلوم أن هذا الإذن المختص برسول الله ﷺ، إنما هو الإذن في القتال لا في الصلح، فإن الإذن في الصلح عام.

وأيضاً فلو كان فتحها صلحاً، لم يقل: إن الله قد أحلها له ساعة من نهار، فإنها إذا فُتِحَتْ صلحاً

(استحباب كثرة المسلمين لرسول العدو إذا جاؤوا إلى الإمام) وفيها: جواز بل استحباب كثرة المسلمين وقوتهم وشوكتهم وهيبتهم لرسول العدو إذا جاؤوا إلى الإمام كما يفعل ملوك الإسلام، كما أمر النبي ﷺ بإيقاد النيران ليلة الدخول إلى مكة، وأمر العباس أن يحبس أبا سفيان عند خطم الجبل، وهو ما تضايق منه حتى عرضت عليه عساكر الإسلام، وعصابة التوحيد وجند الله، وعرضت عليه خاصية^(١) رسول الله ﷺ وهم في السلاح منهم إلا الحدق، ثم أرسله، فأخبر قريشاً بما رأى.

فصل

(جواز دخول مكة للفتا المباح بغير إحرام)

وفيها: جواز دخول مكة للقتال المباح بغير إحرام، كما دخل رسول الله ﷺ والمسلمون، وهذا لا خلاف فيه، ولا خلاف أنه لا يدخلها من أراد الحج أو العمرة إلا بإحرام، واختلّف فيما سوى ذلك إذا لم يكن الدخول لحاجة متكررة، كالحشّاش والحطّاب، على ثلاثة أقوال:

(هل يجوز دخول مكة بغير إحرام لمن لم يرد الحج والعمرة)

أحدها: لا يجوز دخولها إلا بإحرام، وهذا مذهب ابن عباس رضي الله عنه، وأحمد في ظاهر مذهبه، والشافعي في أحد قوليه.

والثاني: أنه كالحشّاش والحطّاب، فيدخلها بغير إحرام، وهذا القول الآخر للشافعي، ورواية عن أحمد.

والثالث: أنه إن كان داخل المواقيت، جاز دخوله بغير إحرام، وإن كان خارج المواقيت، لم يدخل إلا بإحرام، وهذا مذهب أبي حنيفة وهدى رسول الله ﷺ معلوم في المجاهد، ومريد التمسك، وأما مَنْ عداهما فلا واجب إلا ما أوجبه الله ورسوله، أو أجمعت عليه الأمة.

فصل

(فتحت مكة غنوة والخلاف في قسم الغنائم)

وفيها البيان الصريح بأن مكة فُتِحَتْ غنوة كما

(١) هم الجند الخاص بحراسة الأمير.

كانت باقية على حرمتها، ولم تخرج بالصلح عن الحرمه، وقد أخبر بأنها في تلك الساعة لم تكن حراماً، وأنها بعد انقضاء ساعة الحرب عادت إلى حرمتها الأولى.

وأيضاً فإنها لو فُتِحَتْ صلحاً لم يعبى جيشه، خيالتهم ورجالتهم ميمنة وميسرة، ومعهم السلاح، وقال لأبي هريرة: «هتفت لي بالأنصار»، فهتفت بهم، فجاءوا، فاطافوا برسول الله ﷺ، فقال: «أتزورون إلى أوتياش قرينش وأتباعهم»، ثم قال يديه إحداهما على الأخرى: «اخضدوهم خضداً حتى توافوني على الصنفا»، حتى قال أبو سفيان: يا رسول الله: أبيع خضراء قرينش، لا قرينش بعد اليوم. فقال رسول الله ﷺ: «من أغلق باباً، فهو آمين». وهذا محال أن يكون مع الصلح، فإن كان قد تقدم صلح - وكلاً - فإنه ينتقض بدون هذا.

وأيضاً فكيف يكون صلحاً، وإنما فتحت بإيجاف الخيل والركاب، ولم يحبس الله خيل رسوله وركابه عنها، كما حبسها يوم صلح الحديبية، فإن ذلك اليوم كان يوم الصلح حقاً، فإن القصواء لما بركت به، قالوا: خلأت القصواء، قال: «ما خلأت وما ذاك لها يخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والله لا يسألوني خطئة يعظمون فيها حرمة من حرّمات الله إلا أعطينهموها».

وكذلك جرى عقد الصلح بالكتاب والشهود، ومحضر ملا من المسلمين والمشرّكين، والمسلمون يومئذ ألف وأربعمئة، فجرى مثل هذا الصلح في يوم الفتح، ولا يكتب ولا يشهد عليه، ولا يحضره أحد، ولا ينقل كيفيته والشروط فيه، هذا من الممتنع الثّبت امتناعه، وتأمل قوله: «إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين»، كيف يفهم منه أن قهر رسوله وجنده الغالبين لأهلها أعظم من قهر الفيل الذي كان يدخلها عليهم عنوة، فحبسه عنهم، وسلط رسوله والمؤمنين عليهم حتى فتحوها عنوة بعد القهر، وسلطان العنوة، وإذلال الكفر وأهله، وكان ذلك أجلاً قدراً، وأعظم خطراً، وأظهر آية، وأنتم نصرة، وأعلى كلمة من أن يدخلهم تحت ريق الصلح، واقتراح العدو وشروطهم،

ويمنعهم سلطان العنوة وعجزها وظفرها في أعظم فتح فتحه على رسوله، وأعز به دينه، وجعله آية للعالمين.

قالوا: وأما قولكم: إنها لو فُتِحَتْ عنوة، لقُسمت بين الغانمين، فهذا مبني على أن الأرض داخلة في الغنائم التي قسمها الله سبحانه بين الغانمين بعد تخميسها، وجمهور الصحابة والأئمة بعدهم على خلاف ذلك، وأن الأرض ليست داخلة في الغنائم التي تجب قسمتها، وهذه كانت سيرة الخلفاء الراشدين، فإن بلالاً وأصحابه لما طلبوا من عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يقسم بينهم الأرض التي افتتحوها عنوة وهي الشام وما حولها، وقالوا له: خذ حُمسها واقسمها، فقال عمر: هذا غير المال، ولكن أحبسها فينا يجري عليكم وعلى المسلمين، فقال بلال، وأصحابه رضي الله عنهم: اقسّمها بيننا، فقال عمر: «اللهم اكفني بلالاً وذويهِ»، فما حال الحوّل ومنهم عين تطرف، ثم وافق سائر الصحابة - رضي الله عنهم - عمر - رضي الله عنه - على ذلك، وكذلك جرى في فتوح مصر والعراق، وأرض فارس، وسائر البلاد التي فُتِحَتْ عنوة لم يقسم منها الخلفاء الراشدون قرية واحدة.

ولا يصح أن يقال: إنه استطاب نفوسهم، ووقفها برضاهم، فإنهم قد نازعوه في ذلك، وهو يأبى عليهم، ودعا على بلال وأصحابه - رضي الله عنهم - وكان الذي رآه وفعله عين الصواب ومحض التوفيق، إذ لو قُسمت، لتوارثها ورثة أولئك وأقاربهم، فكانت القرية والبلد تصيب إلى امرأة واحدة، أو صبي صغير، والمقاتلة لا شيء بأيديهم، فكان في ذلك أعظم الفساد وأكبره، وهذا هو الذي خاف عمر رضي الله عنه منه، فوقّه الله سبحانه لترك قسمة الأرض، وجعلها وقفاً على المقاتلة تجري عليهم فينا حتى يغزو منها آخر المسلمين، وظهرت بركة رأيه ويمنه على الإسلام وأهله، وواقفه جمهور الأئمة.

واختلفوا في كيفية إبقائها بلا قسمة، فظاهر مذهب الإمام أحمد وأكثر نصوصه، على أن الإمام مخير فيها تخيير مصلحة لا تخيير شهوة، فإن كان

فصل

(يمنع قسمة مكة لأنها دار نساك)

وأما مكة، فإن فيها شيئاً آخر يمنع من قسمتها ولو وجبت قسمة ما عداها من القرى، وهي أنها لا تُملك، فإنها دارُ النساك، ومتعبّد الخلق، وحرّم الربّ تعالى الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد، فهي وقف من الله على العالمين، وهم فيها سواء ومِنِّي مَنَاحٌ مَّن سَبَقَ، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يَرِدْ فِيهِ بِالْهَكَامِ يُظْلَمْ ظُفْمًا مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، والمسجد الحرام هنا، المراد به الحرم كلّهُ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَءُوا الْمُسَجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَائِمِهِمْ هَكَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، فهذا المراد به الحرم كلّهُ، وقوله سبحانه: ﴿مُبَاحٌ لِلَّذِي أَسْرَى بِمَنْ يَدِيهِ لِيَآلِيَ مَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الأنعام: ١]، وفي الصحيح^(١): إنه أسريّ به من بيت أم هانئ. وقال تعالى: ﴿فَلَيْكَ لَئِنْ لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَافِظِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وليس المراد به حضور نفس موضع الصلاة اتفاقاً، وإنما هو حضور الحرم والقرب منه، وسياق آية الحج تدلّ على ذلك، فإنه قال: ﴿وَمَن يَرِدْ فِيهِ بِالْهَكَامِ يُظْلَمْ ظُفْمًا مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، وهذا لا يختصّ بمقام الصلاة قطعاً، بل المراد به الحرم كلّهُ، فالذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد، هو الذي توعّد من صدّ عنه، ومن أراد الإلحاد بالظلم فيه، فالحرّم ومشاعره كالصفاء والمرودة، والمسعى ومِنِّي، وعرفّة، ومزدلفة، لا يختصّ بها أحدٌ دون أحد، بل هي مشتركة بين الناس، إذ هي محلّ نسكهم ومتعبد لهم، فهي مسجد من الله، وقفه ووضعه لخلقه، ولهذا امتنع النبي ﷺ أن يُبنى له بيت بمعنى يُظلمه من الحر، وقال: ﴿مِنِّي مَنَاحٌ مِّن سَبَقٍ﴾.

الأصلح للمسلمين قسمتها، قسمها، وإن كان الأصلح أن يبقها على جماعتهم، وقفها، وإن كان الأصلح قسمة البعض ووقف البعض، فعله، فإن رسول الله ﷺ فعل الأقسام الثلاثة، فإنه قسّم أرض قريظة والنضير، وترك قسمة مكة، وقسّم بعض خير، وترك بعضها لما يؤتبه من مصالح المسلمين.

وعن أحمد رواية ثانية: أنها تصوير وفقاً بنفس الظهور والاستيلاء عليها من غير أن يُنشئ الإمام وقفها، وهي مذهب مالك.

وعنه رواية ثالثة: أنه يقسمها بين الغانمين، كما يقسم بينهم المنقول، إلّا أن يتركوا حقوقهم منها، وهي مذهب الشافعي.

وقال أبو حنيفة: الإمام مخير بين القسمة، وبين أن يبرأ أربابها فيها بالخراج، وبين أن يُجلبهم عنها وينفذ إليها قوماً آخرين يضرب عليهم الخراج.

وليس هذا الذي فعل عمر - رضي الله عنه - بمخالف للقرآن، فإن الأرض ليست داخلّة في الغنائم التي أمر الله بتخييسها وقسمتها، ولهذا قال عمر: إنها غير المال، ويدل عليه أن إباحة الغنائم لم تكن لغير هذه الأمة، بل هو من خصائصها، كما قال ﷺ في الحديث المتفق على صحته: «وَأَجَلْتُ لِي الْغَنَائِمَ، وَلَمْ تَجُلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي» وقد أحلّ الله سبحانه الأرض التي كانت بأيدي الكفار لمن قبلنا من أتباع الرسل إذا استولوا عليها عنوة، كما أحلّها لقوم موسى، فلماذا قال موسى لقومه: ﴿يَقْتُولُوا أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَى أَفْئِدَتِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ [الأنعام: ٢١] فموسى وقومه قاتلوا الكفار، واستولوا على ديارهم وأموالهم، فجمعوا الغنائم، ثم نزلت النار من السماء فأكلتها، وسكنوا الأرض والديار، ولم تُحرّم عليهم، فعلم أنها ليست من الغنائم، وأنها لله يورثها من يشاء.

(١) ليس في الصحيحين وإنما هو عند ابن هشام (٢٢٥) من طريق ابن إسحاق، وعند الطبراني، وفي سننه عبد الأعلى بن أبي المساور وهو متروك، وعند أبي يعلى، وفي سننه أبو صالح بإذام وهو ضعيف. وانظر: «الفتح» ٧/ ١٥٥ و«مجمع الزوائد» (٧٦/١).

(جمهور التهمة على عدم

جواز بيع أراضي مكة ولا إجارة بيوتها)

ولهذا ذهب جمهور الأئمة من السلف والخلف، إلى أنه لا يجوز بيع أراضي مكة، ولا إجارة بيوتها، هذا مذهب مجاهد وعطاء في أهل مكة، ومالك في أهل المدينة، وأبي حنيفة في أهل العراق، وسفيان الثوري، والإمام أحمد ابن حنبل، وإسحاق بن راهويه.

وروى الإمام أحمد رحمه الله، عن علقمة بن نضلة، قال: كانت رِبَاعُ مكة تُدعى السَّوَابِ على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، من احتاج سكن، ومن استغنى أسكن.

وروى أيضاً عن عبد الله بن عمر: «مَنْ أَكَلَ أَجُورَ بيوتِ مكة، فإنما يأْكُلُ في بطنه نار جهنم» رواه الدارقطني مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وفيه: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ، فَحَرَامٌ يَبِيعُ رِبَاعَهَا وَأَكُلُ ثَمَرِهَا».

وقال الإمام أحمد: حدثنا معمر، عن ليث، عن عطاء، وطاوس ومجاهد، أنهم قالوا: يُكره أن تُباع رِبَاعُ مَكَّةَ أو تُكرى بيوتها.

وذكر الإمام أحمد، عن القاسم بن عبد الرحمن، قال: من أكل من كِراءِ بيوتِ مكة، فإنما يأْكُلُ في بطنه ناراً.

وقال أحمد: حدثنا هُشَيْم، حدثنا حُجَّاج، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمر، قال: نَهَى عَنْ إِجَارَةِ بِيُوتِ مَكَّةَ وَعَنْ يَبِيعِ رِبَاعِهَا. وذكر عن عطاء، قال: نهى عن إجارة بيوت مكة.

وقال أحمد: حدثنا إسحاق بن يوسف قال: حدثنا عبد الملك، قال: كتب عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى أَمِيرِ أَهْلِ مَكَّةَ يَنْهَاهُمْ عَنْ إِجَارَةِ بِيُوتِ مَكَّةَ، وَقَالَ: إِنَّهُ حَرَامٌ. وَحَكَى أَحْمَدُ عَنْ عُمَرَ، أَنَّهُ نَهَى أَنْ يَتَّخِذَ أَهْلُ مَكَّةَ لِلدُّورِ أَبْوَاباً، لِيَنْزِلَ الْبَادِي حَيْثُ شَاءَ. وَحَكَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ نَهَى أَنْ تُغْلَقَ أَبْوَابُ دُورِ مَكَّةَ، فَنَهَى مِنْ لَا بَابَ لِدَارِهِ أَنْ يَتَّخِذَ لَهَا بَاباً، وَمَنْ لِدَارِهِ بَابٌ أَنْ يُغْلِقَهُ، وَهَذَا فِي أَيَّامِ الْقَوْسِ.

قال المجوزون للبيع والإجارة: الدليل على جواز ذلك، كتابُ الله وسنةُ رسوله، وعملُ أصحابه وخلفائه الراشدين. قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُمْرُهُمْ﴾ [الحشر: ٨]، وقال: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ دِيَارٌ﴾ [الممتحنة: ٩] فأضاف الدور إليهم، وهذه إضافة تمليك، وقال النبي ﷺ، وقد قيل له: أين تنزل غداً بدارك بمكة؟ فقال: «وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ رِبَاعٍ؟» [البخاري: ١٥٨٨]، ولم يقل: إنه لا دار لي، بل أقرهم على الإضافة، وأخبر أن عقيلاً استولى عليها ولم ينزعها من يده، وإضافة دورهم إليهم في الأحاديث أكثر من أن تذكر، كدار أم هانئ، ودار خديجة، ودار أبي أحمد بن جحش وغيرها، وكانوا يتوارثونها كما يتوارثون المنقول، ولهذا قال النبي ﷺ: «وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ مَنْزِلٍ»، وكان عقيل هو ورث دور أبي طالب، فإنه كان كافراً، ولم يرثه علي رضي الله عنه، لاختلاف الدين بينهما، فاستولى عقيل على الدور. ولم يزلوا قبل الهجرة وبعدها، بل قبل المبعث وبعده، من مات، ورث داره إلى الآن، وقد باع صفوان بن أمية داراً لعمر بن الخطاب. رضي الله عنه - بأربعة آلاف درهم، فاتخذها سجنًا، وإذا جاز البيع، والميراث، فالإجارة أجوز وأجوز، فهذا موقف أقدام الفريقين كما ترى، وحججهم في القوة والظهور لا تدفع، وحجج الله وبيئاته لا يُبطل بعضها بعضاً بل يُصَدِّق بعضها بعضاً، ويجب العمل بموجبها كلها، والواجب اتباع الحق أين كان.

(ترجيح المصنف منع الإجارة وجواز البيع)

فالصواب القول بموجب الأدلة من الجانبين، وأن الدور تملك، وتوهب، وتورث، وتباع، ويكون نقل الملك في البناء لا في الأرض والعروة، فلو زال بناؤه، لم يكن له أن يبيع الأرض، وله أن يبيها ويبيدها كما كانت، وهو أحقُّ بها يسكنها ويُسَكِّنُ فيها من شاء، وليس له أن يعارض على منفعة السكنى بعقد الإجارة، فإن هذه المنفعة إنما يستحق أن يقدم فيها على غيره، ويختصُّ بها لسبقه وحاجته، فإذا

استغنى عنها، لم يكن له أن يُعاض عنها، كالجلوس في الرَّحَاب، والطريق الواسعة، والإقامة على المعادن وغيرها من المنافع والأعيان المشتركة التي من سبق إليها، فهو أحق بها ما دام يتنفع، فإذا استغنى، لم يكن له أن يُعارض، وقد صرح أرباب هذا القول بأن البيع ونقل الملك في رباها إنما يقع على البناء لا على الأرض، ذكره أصحاب أبي حنيفة.

(نظائر هي الشريعة لمنع الإجارة وجواز البيع)

فإن قيل: فقد منعتم الإجارة، وجوزتم البيع، فهل لهذا نظير في الشريعة، والمعهود في الشريعة أن الإجارة أوسع من البيع، فقد يمتنع البيع، وتجوز الإجارة، كالوقف والحر، فأما العكس فلا عهد لنا به؟ قيل: كُلُّ واحد من البيع والإجارة عقد مستقل غير مستلزم للآخر في جوازه وامتناعه، وموردهما مختلف، وأحكامهما مختلفة، وإنما جاز البيع، لأنه وارد على المحل الذي كان البائع أخص به من غيره، وهو البناء، وأما الإجارة فإنما ترد على المنفعة، وهي مشتركة، وللسابق إليها حق التقدم دون المعاوضة، فلهذا أجزنا البيع دون الإجارة، فإن أبيت إلا النظر، قيل: هذا المكاتب يجوز لسيده بيعه، ويصير مكاتباً عند مشتريه، ولا يجوز له إجارته إذ فيها إبطال منافعه وأكسابه التي ملكها بعقد الكتابة والله أعلم. على أنه لا يمتنع البيع، وإن كانت منافع أرضها ورباعها مشتركة بين المسلمين، فإنها تكون عند المشتري كذلك مشتركة المنفعة، إن احتاج سكن، وإن استغنى، أسكن كما كانت عند البائع، فليس في بيعها إبطالاً لاشتراك المسلمين في هذه المنفعة، كما أنه ليس في بيع المكاتب إبطالاً ملكه لمنافعه التي ملكها بعقد المكاتب، ونظير هذا جواز بيع أرض الخراج التي وقفها عمر رضي الله عنه على الصحيح الذي استمر الحال عليه من عمل الأمة قديماً وحديثاً، فإنها تنتقل إلى المشتري خراجية، كما كانت عند البائع، وحق المقاومة إنما هو في خراجها، وهو لا يَبْطُلُ بالبيع، وقد اتفقت الأمة على أنها تُورث، فإن

كان بطلان بيعها لكونها وقفاً، فكذلك ينبغي أن تكون وقفيتها مبطلة لميراثها، وقد نص أحمد على جواز جعلها صداقاً في النكاح، فإذا جاز نقل الملك فيها بالصدق والميراث والهبة، جاز البيع فيها قياساً وعملاً، وفتحاً. والله أعلم.

فصل

(هل يضرب الخراج على مزارع مكة مكاتب أرض العنوة؟)

فإذا كانت مكة قد فُتِحَتْ عنوة، فهل يُضرب الخراج على مزارعها مكاتب أرض العنوة، وهل يجوز لكم أن تفعلوا ذلك أم لا؟ قيل: في هذه المسألة قولان لأصحاب العنوة:

أحدهما: المنصوص المنصور الذي لا يجوز القول بغيره، أنه لا خراج على مزارعها وإن فتحت عنوة، فإنها أجل وأعظم من أن يُضرب عليها الخراج، لا سيما والخراج هو جزية الأرض، وهو على الأرض كالجزية على الرؤوس، وحرَّم الربُّ أجلَ قدرأ وأكبر من أن تضرب عليه جزية، ومكة بفتحها عادت إلى ما وضعها الله عليه من كونها حرماً آمناً يشترك فيه أهل الإسلام، إذ هو موضع مناسكهم ومتعبد لهم وقبلة أهل الأرض.

والثاني - وهو قول بعض أصحاب أحمد - أن على مزارعها الخراج، كما هو على مزارع غيرها من أرض العنوة، وهذا فاسد مخالف لنص أحمد رحمه الله ومذهبه، ولفعل رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين من بعده رضي الله عنهم، فلا التفات إليه، والله أعلم.

وقد بنى بعض الأصحاب تحريم بيع رِباع مكة على كونها فُتِحَتْ عنوة، وهذا بناء غير صحيح، فإن مساكن أرض العنوة تُباع قولاً واحداً، فظهر بطلان هذا البناء والله أعلم.

(تعيين قتل السَّابِّ له ﷺ)

وفيها: تعيين قتل السَّابِّ لرسول الله ﷺ، وأن قتله حد لا بُدَّ من استيفائه، فإن النبي ﷺ لم يؤمن مقيس بن صُبابة، وابن خطل، والجاريين اللتين كانتا تُغْتَابان بهجاءه، مع أن نساء أهل الحرب لا يُقتلن كما لا تُقتل الذرية، وقد أمر بقتل هاتين

الجاريتين، وأهدر دم أم ولد الأعمى لما قتلها سيدها لأجل سبها النبي ﷺ [صحيح: أبو داود: ٤٣٦١، والنسائي (١٠٧/٧ - ١٠٨)]، وقتل كعب بن الأشرف اليهودي، وقال: «مَنْ لِكُغَبٍ فَإِنَّهُ قَدْ أَدَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ» [البخاري: ٤٠٣٧، ومسلم: ٤٦٦٤]، وكان بسبه، وهذا إجماع من الخلفاء الراشدين، ولا يُعلم لهم في الصحابة مخالفت، فإن الصديق - رضي الله عنه - قال لأبي بركة الأسلمي وقد هم بقتل من سبه: لم يكن هذا لأحد غير رسول الله ﷺ، ومَرَّ عمر - رضي الله عنه - براهب، فقيل له: هذا يسب رسول الله ﷺ. فقال: لو سمعته لقتلته، إنا لم نعظم الذمة على أن يسبوا نبينا ﷺ.

ولا ريب أن المحاربة بسب نبينا أعظم أذية ونكايه لنا من المحاربة باليد، ومنع دينار جزية في السنة، فكيف يُنقض عهده ويُقتل بذلك دون السب، وأي نسبة لمفسدة منعه ديناراً في السنة إلى مفسدة منع مجاهرته بسب نبينا أُنْبِخ سب على رؤوس الأشهاد، بل لا نسبة لمفسدة محاربته باليد إلى مفسدة محاربته بالسب، فأولى ما انتقض به عهده وأمانه سب رسول الله ﷺ، ولا ينتقض عهده بشيء أعظم منه إلا سبه الخالق سبحانه، فهذا محض القياس، ومقتضى النصوص، وإجماع الخلفاء الراشدين - رضي الله عنهم - وعلى هذه المسألة أكثر من أربعين دليلاً.

(له ﷺ الخبر في حياته لقتل من سبه)

فإن قيل: فالنبي ﷺ لم يقتل عبد الله بن أبي وقد قال لئن رجعنا إلى المدينة لُيُخْرِجَنَّ الأعرُ منها الأذل، ولم يقتل ذا الحُويصرة التميمي وقد قال له: اغدِل، فإنك لم تغدِل، ولم يقتل من قال له: يقولون: إنك تنهى عن الغي وتستخلي به [حسن: أحمد: ٢٠١٧] ولم يقتل القاتل له: إِنَّ هَذِهِ الْقِسْمَةُ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ، ولم يقتل من قال له لما حكم للزبير بتقديمه في السقي: أن كان ابن عمك، وغير هؤلاء ممن كان يبلغه عنهم أدى له وتَنَقَّصَ.

(من اسباب عدم قتله ﷺ من

سبه تاليف الناس وعدم بلوغهم أنه يقتل أصحابه)

قيل: الحق كان له فله أن يستوفيه، وله أن يُسقطه، وليس لمن بعده أن يُسقط حقه، كما أن الرب تعالى له

أن يستوفي حقه، وله أن يُسقط، وليس لأحد أن يُسقط حقه تعالى بعد وجوبه، كيف وقد كان في ترك قتل من ذكركم وغيرهم مصالح عظيمة في حياته زالت بعد موته من تأليف الناس، وعدم تنفيرهم عنه، فإنه لو بلغهم أنه يقتل أصحابه، لنفروا، وقد أشار إلى هذا بعينه، وقال لعمر لما أشار عليه بقتل عبد الله بن أبي: «لَا يَتَلَعُ النَّاسَ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ» [البخاري: ٤٩٠٥، ومسلم: ٦٥٨٢].

ولا ريب أن مصلحة هذا التأليف، وجمع القلوب عليه كانت أعظم عنده وأحب إليه من المصلحة الحاصلة بقتل من سبه وآذاه، ولهذا لما ظهرت مصلحة القتل، وترجحت جداً، قتل الساب، كما فعل بكعب بن الأشرف، فإنه جاهر بالعداوة والسب فكان قتله أرجح من إيقائه، وكذلك قتل ابن خطل، ومقيس، والجاريتين، وأم ولد الأعمى، فقتل للمصلحة الراجحة، وكف للمصلحة الراجحة، فإذا صار الأمر إلى نوابه، وخلفائه، لم يكن لهم أن يسقطوا حقه.

فصل

فيما في خطبته العظيمة ثاني يوم الفتح من أنواع العلم

(تحريم الله لمكة)

فمنها قوله: «إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ» [البخاري: ١٠٤، ومسلم: ٢٣٠٤]، فهذا تحريم شرعي قدري سبق به قدره يوم خلق هذا العالم، ثم ظهر به على لسان خليله إبراهيم، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما كما في «الصحيح» عنه، أنه ﷺ قال: «اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَكَ حَرَّمَ مَكَّةَ، وَإِنِّي أَحَرُّمُ الْمَدِينَةَ» [مسلم: ٢٣٣٦]، فهذا إخبار عن ظهور التحريم السابق يوم خلق السماوات والأرض على لسان إبراهيم، ولهذا لم يُنازع أحد من أهل الإسلام في تحريمها، وإن تنازعوا في تحريم المدينة، والصواب المقطوع به تحريمها، إذ قد صح في بضعة وعشرون حديثاً عن رسول الله ﷺ لا مطعن فيها بوجه [البخاري: ٧٣٣٣، ومسلم: ٢٣١٣].

(تحريم سفك الدم فيها)

[٣٣٠٤]، وعلى هذا فَمَنْ أتى حداً أو قصاصاً خارج الحرم يُوجبُ القتل، ثم لجأ إليه، لم يُجزَ إقامته عليه فيه. وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لو وجدتُ فيه قاتِلَ الخطاب ما مَسَسْتُه حتى يخرجَ منه [عبد الرزاق: ٩٢٢٨] وذكر عن عبد الله بن عمر أنه قال: لو لقيتُ فيه قاتِلَ عمر ما نَدَّهْتُه^(٢) [عبد الرزاق: ٩٢٢٩]، وعن ابن عباس، أنه قال: لو لقيتُ قاتِلَ أبي في الحرم ما هَجَّتهُ حتى يخرجَ منه، وهذا قولُ جمهورِ التابعين ومن بعدهم، بل لا يُحفظ عن تابعي ولا صحابي خلافة، وإليه ذهب أبو حنيفة ومن وافقه من أهل العراق، والإمام أحمد ومن وافقه من أهل الحديث.

وذهب مالك والشافعي إلى أنه يُستوفى منه في الحرم، كما يُستوفى منه في الجبل، وهو اختيار ابن المنذر، واحتج لهذا القول بعموم النصوص الدالة على استيفاء الحدود والقصاص في كل مكان وزمان، وبأن النبي ﷺ قتل ابن خطل، وهو متعلق بأستار الكعبة. وبما يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الْحَرَّمَ لَا يُعِيدُ عَاصِيًا وَلَا فَارًا بِدَمٍ وَلَا بِخَرْبَةٍ»^(٣)، وبأنه لو كان الحدود والقصاص فيما دون النفس، لم يُعْذَرُ الحرم، ولم يمنع عن إقامته عليه، وبأنه لو أتى فيه بما يُوجب حداً أو قصاصاً، لم يعذره الحرم، ولم يمنع من إقامته عليه، فكذلك إذا أتاه خارجه، ثم لجأ إليه، إذ كونه حراماً بالنسبة إلى عصمته، لا يخلُف بين الأمرين، وبأنه حيوان أبيع قتله لفساده، فلم يفترق الحال بين قتله لاجئاً إلى الحرم، وبين كونه قد أوجب ما أبيع قتله فيه، كالحية، والجداو، والكلب العقور، ولأن النبي ﷺ قال: «خَمْسُ قَوَاسِقُ يُقْتَلْنَ فِي الْجَلِّ وَالْحَرَمِ» [البخاري: ٣٣١٤، ومسلم: ٤٢٨٦]، فبه يقتلن في الحل والحرم على العلة، وهي فسقهن، ولم يجعل التجاءهن إلى الحرم مانعاً من قتلهن، وكذلك فاسق بني آدم الذي قد استوجب القتل.

قال الأولون: ليس في هذا ما يُعارض ما ذكرنا من

ومنها: قوله: «فَلَا يَحِلُّ لَأَحَدٍ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا»، هذا التحريم لسفك الدم المختص بها، وهو الذي يُباح في غيرها، ويُحرم فيها لكونها حراماً، كما أن تحريم عضد الشجر بها، واختلاء خلانها، والتقاط لُقطتها، هو أمر مختص بها، وهو مباح في غيرها، إذ الجميع في كلام واحد، ونظام واحد، وإلا بطلت فائدة التخصيص، وهذا أنواع:

(لا تغافل الطائفة الممتنعة بها من مبايعة الإمام)

أحدها - وهو الذي ساقه أبو شريح العدوي لأجله -: أن الطائفة الممتنعة بها من مبايعة الإمام لا تُقاتل، لا سيما إن كان لها تأويل، كما امتنع أهل مكة من مبايعة يزيد، وبايئوا ابن الزبير، فلم يكن قتالهم، ونصب المنجنيق عليهم، وإحلال حرم الله جائزاً بالنص والإجماع، وإنما خالف في ذلك عمرو بن سعيد الفاسق^(١) وشيعته، وعارض نص رسول الله ﷺ برأيه وهواه، فقال: إِنَّ الْحَرَّمَ لَا يُعِيدُ عَاصِيًا، فيقال له: هو لا يُعِيدُ عَاصِيًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، ولو لم يُعْذَرُ من سفك دمه، لم يكن جرماً بالنسبة إلى الأدميين، وكان حراماً بالنسبة إلى الطير والحيوان البهيم، وهو لم يزل يُعِيدُ العصاة من عهد إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه، وقام الإسلام على ذلك، وإنما لم يُعْذَرُ مقيس بن ضبابة، وابن خطل، ومن سمي معهما، لأنه في تلك الساعة لم يكن حراماً، بل جلاً، فلما انقضت ساعة الحرب، عاد إلى ما وضع عليه يوم خلق الله السماوات والأرض. وكانت العرب في جاهليتها يرى الرجل قاتِلَ أبيه، أو ابنه في الحرم، فلا يهيج، وكان ذلك بينهم خاصية الحرم التي صار بها حراماً، ثم جاء الإسلام، فأكد ذلك وقواه، وعلم النبي ﷺ أن من الأمة من يتأسى به في إحلاله بالقتال والقتل، فقطع الإلحاق، وقال لأصحابه: «فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقَاتِلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُولُوا: «إِنَّ اللَّهَ أَوْزَنَ لِرَسُولِهِ، وَلَمْ يَأْذَنْ لَكَ» [البخاري: ٤٢٩٥، ومسلم:

(١) هو عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية القرشي الأموي.

(٢) وقوله: ما ندته، أي: ما زجرته.

(٣) هو من قول عمرو بن سعيد الأشدق، وليس من قول النبي ﷺ كما في البخاري (٤٢٩٥)، ومسلم (٣٣٠٤).

الأدلة ولا سيما قوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَ كَانَ مَآبِقًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وهذا إما خبر بمعنى الأمر لاستحالة الخلف في خبره تعالى، وإما خبر عن شرعه ودينه الذي شرعه في حرمه، وإما إخبار عن الأمر المعهود المستمير في حرمه في الجاهلية والإسلام، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَّا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ مَخْلُوفًا فَلَنْ نَكُفَّ عَنْهُ أَبَدًا﴾ [النكيت: ٦٧] وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنَّا نَتَّبِعُ الْهُدَىٰ مَكَآ تَنُكَلِّفُ مِنَّا أَتُؤْتُمُونَهُمْ حَرَمًا مَّا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ﴾ [النكيت: ٥٧] وما عدا هذا من الأقوال الباطلة، فلا يلتفت إليه، كقول بعضهم: ومن دخله كان آمناً من النار، وقول بعضهم: كان آمناً من الموت على غير الإسلام، ونحو ذلك، فكم ممن دخله، وهو في قعر الجحيم.

وأما العمومات الدالة على استيفاء الحدود والقصاص في كل زمان ومكان، فيقال أولاً: لا تعرض في تلك العمومات لزمان الاستيفاء، ولا مكانه، كما لا تعرض فيها لشروطه وعدم موانعه، فإن اللفظ لا يدل عليها بوضعه ولا بتضمنه، فهو مطلق بالنسبة إليها، ولهذا إذا كان للحكم شرط أو مانع، لم يقل: إن توقف الحكم عليه تخصيص لذلك العام فلا يقول محصل: إن قوله تعالى: ﴿وَأَجَلٌ لَّكُمْ مَا وَزَّاءَ إِلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] مخصص بالمنكوحه في عدتها، أو بغير إذن وليها، أو بغير شهود، فهكذا النصوص العامة في استيفاء الحدود والقصاص لا تعرض فيها لزمنه، ولا مكانه، ولا شرطه، ولا مانعه، ولو قدر تناول اللفظ لذلك، لوجب تخصيصه بالأدلة الدالة على المنع، لثلا يظل موجهها، ووجب حمل اللفظ العام على ما عداها كسائر نظائره، وإذا خصصتم تلك العمومات بالحامل، والمرضي، والمريض الذي يرجى برؤه، والحال المحرمه للاستيفاء، كشيء المرض، أو البرد، أو الحر، فما المانع من تخصيصها بهذه الأدلة؟ وإن قلتم: ليس ذلك تخصيصاً، بل تقييداً لمطلقها، كلنا لكم بهذا الصاع سواء بسواء.

وأما قتل ابن خطل، فقد تقدم أنه كان في وقت الجل، والنبي ﷺ قطع الإلحاق، ونص على أن ذلك من خصائصه، وقوله ﷺ: «وإنما أجلت لي ساعة من

نهار» صريح في أنه إنما أجل له سفك دم حلال في غير الحرم في تلك الساعة خاصة، إذ لو كان حلالاً في كل وقت، لم يختص بتلك الساعة، وهذا صريح في أن الدم الحلال في غيرها حرام فيها، فيما عدا تلك الساعة، وأما قوله: «الحرم لا يُعَذَّبُ عَاصِيًا» فهو من كلام الفاسق عمرو بن سعيد الأشدق، يرد به حديث رسول الله ﷺ حين روى له أبو شريح الكعبي هذا الحديث، كما جاء مبنياً في «الصحيح» فكيف يُقَدَّم على قول رسول الله ﷺ.

وأما قولكم: لو كان الحد والقصاص فيما دون النفس، لم يُعَذَّبُ الحرم منه، فهذه المسألة فيها قولان للعلماء، وهما روايتان منصوصتان عن الإمام أحمد، فمن منع الاستيفاء نظر إلى عموم الأدلة العاصمة بالنسبة إلى النفس وما دونها، ومن فرق، قال: سفك الدم إنما ينصرف إلى القتل، ولا يلزم من تحريمه في الحرم تحريم ما دونه، لأن حرمة النفس أعظم، والانتهاك بالقتل أشد، قالوا: ولأن الحد بالجلد أو القطع يجري مجرى التأديب، فلم يمنع منه كتأديب السيّد عبده، وظاهر هذا المذهب أنه لا فرق بين النفس وما دونها في ذلك، قال أبو بكر: هذه مسألة وجدتها لحبل عن عمه، أن الحدود كلها تُقام في الحرم إلا القتل، قال: والعمل على أن كل جان دخل الحرم لم يقم عليه الحد حتى يخرج منه، قالوا: وحينئذ فنحييكم بالجواب المركّب، وهو أنه إن كان بين النفس وما دونها في ذلك فرق مؤثر، بطل الإلزام، وإن لم يكن بينهما فرق مؤثر، سؤنا بينهما في الحكم، وبطل الاعتراض، فتحقق بطلانه على التقديرين.

قالوا: وأما قولكم: إن الحرم لا يُعَذَّبُ من انتهك فيه الحرمة إذ أتى فيه ما يُوجب الحد، فكذلك اللاجئ إليه، فهو جمع بين ما فرق الله ورَسُولُهُ والصحابه بينهما، فروى الإمام أحمد، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: مَنْ سَرَقَ أَوْ قَتَلَ فِي الْجِلِّ ثُمَّ دَخَلَ الْحَرَمَ، فَإِنَّهُ لَا يُجَالَسُ وَلَا يُكَلِّمُ، وَلَا يُؤْوَى، وَلَكِنَّهُ يُنَاشَدُ حَتَّى يَخْرُجَ، فَيُؤَاخَذَ، فَيُقَامَ عَلَيْهِ الْحَدُّ، وَإِنْ سَرَقَ أَوْ قَتَلَ فِي الْحَرَمِ، أَيْمَ عَلَيْهِ فِي الْحَرَمِ [عبد

العقور، والحية، والجذاة كحاجة أهل الجبل سواء، فلو أعادها الحرم لعظم عليهم الضرر بها.

فصل

(هل يجوز قلع شجر مكة الذي أنبتته القديمي؟)

ومنها: قوله ﷺ: «ولا يُغضدُ بِهَا شَجَرٌ»، وفي اللفظ الآخر: «ولا يُغضدُ شَوْكُهَا» [البخاري: ١٥٨٧،

ومسلم: ٣١٥١]، وفي لفظ في «صحيح مسلم»: «ولا يُحْبَطُ شَوْكُهَا» [مسلم: ٣٣٠٥] لا خلاف بينهم أن الشجر البري الذي لم يَنْبُتْه الأدمي على اختلاف أنواعه مراد من هذا اللفظ، واختلفوا فيما أنبت الأدمي من الشجر في الحرم على ثلاثة أقوال، وهي في مذهب أحمد:

أحدها: أن له قلعه، ولا ضمان عليه، وهذا اختيار ابن عقيل، وأبي الخطاب، وغيرهما.

والثاني: أنه ليس له قلعه، وإن فعل، ففيه الجزاء بكل حال، وهو قول الشافعي، وهو الذي ذكره ابن البناء في «خصاله».

الثالث: الفرق بين ما أنبت في الجبل، ثم غرسه في الحرم، وبين ما أنبت في الحرم أولاً، فالأول: لا جزاء فيه، والثاني: لا يُلْعَقُ وفيه الجزاء بكل حال، وهذا قول القاضي.

وفيه قول رابع: وهو الفرق بين ما ينبت الأدمي جنسه كاللوز والجوز، والنخل، ونحوه، وما لا ينبت الأدمي جنسه، كالذُّوح، والسَّلم، ونحوه، فالأول يجوز قلعه ولا جزاء فيه، والثاني: لا يجوز، وفيه الجزاء.

قال صاحب «المغني»: والأولى الأخذ بعموم الحديث في تحريم الشجر كله، إلا ما أنبت الأدمي من جنس شجرهم بالقياس على ما أنبتوه من الزرع، والأهلي من الحيوان، فلأنما أخرجنا من الصيد ما كان أصله إنسياً دون ما تأتس من الوحشي، كذا ها هنا، وهذا تصريح منه باختيار هذا القول الرابع، فصار في مذهب أحمد أربعة أقوال.

والحديث ظاهر جداً في تحريم قطع الشوك والعَوسج، وقال الشافعي: لا يحرم قطعه، لأنه يؤذي الناس بطبعه، فأشبه السباع، وهذا اختيار أبي الخطاب، وابن عقيل، وهو مروى عن عطاء ومجاهد وغيرهما.

الزقاق: ٩٢٢٦، وإسناده صحيح]. وذكر الأثرم، عن ابن عباس أيضاً: من أحدث حدثاً في الحرم، أقيم عليه ما أخذت فيه من شيء. وقد أمر الله سبحانه بقتل من قاتل في الحرم، فقال: «وَلَا تُقْتَلُومُ عِنْدَ السَّيِّدِ لِمَزَارٍ حَتَّى يُقْتَلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ قَاتِلُوكُمْ» [البقرة: ١٩١].

والفرق بين اللاجئ والمنهك فيه من وجوه:

(الفرق بين اللاجئ والمنهك)

أحدها: أن الجاني فيه هاتك لحرمته بإقدامه على الجنابة فيه، بخلاف من جنى خارجة ثم لجأ إليه، فإنه معظم لحرمته مستشعراً بها بالتجائه إليه، فقياس أحدهما على الآخر باطل.

الثاني: أن الجاني فيه بمنزلة المفسد الجاني على بساط الملك في داره وحرمة، ومن جنى خارجة، ثم لجأ إليه، فإنه بمنزلة من جنى خارجة بساط السلطان وحرمة، ثم دخل إلى حرمة مستجيراً.

الثالث: أن الجاني في الحرم قد انتهك حرمة الله سبحانه، وحرمة بيته وحرمة، فهو هاتك لحرمتين بخلاف غيره.

الرابع: أنه لو لم يُمَ الحُدُ على الجنابة في الحرم، لعَمَ الفساد، وعظم الشر في حرم الله، فإن أهل الحرم كثيرهم في الحاجة إلى صيانة نفوسهم، وأموالهم، وأعراضهم، ولو لم يُشرع الحد في حق من ارتكب الجرائم في الحرم، لتعطلت حدود الله، وعم الضرر للحرم وأهله.

والخامس: أن اللاجئ إلى الحرم بمنزلة النائب المتنصل، اللاجئ إلى بيت الرب تعالى، المتعلق بأستاره فلا يُناسب حاله ولا حال بيته وحرمة أن يُهاج، بخلاف المُقَدِّم على انتهاك حرمة، فظهر بيز الفرق، وتبين أن ما قاله ابن عباس هو محض الفقه.

وأما قولكم: إنه حيوان مفسد، فأبيح قتله في الحل والحرم كالكلب العقور، فلا يصح القياس، فإن الكلب العقور طبعه الأذى، فلم يُحرمة الحرم ليدفع أذاه عن أهله، وأما الأدمي فالأصل فيه الحرمة، وحرمة عظيمة، وإنما أبيح لعارض، فأشبه الصائغ من الحيوانات المباحة من المأكولات، فإن الحرم يُعصمها.

وأيضاً فإن حاجة أهل الحرم إلى قتل الكلب

وقوله ﷺ: «لَا يُغْضَدُ شَوْكُهَا»، وفي اللفظ الآخر: «لَا يُخْتَلَى شَوْكُهَا» صريح في المنع، ولا يَصِحُّ قياسه على السباع العادية، فإن تلك تَقْصِدُ بطبعها الأذى، وهذا لا يؤذي من لم يَذَنْ منه.

والحديث لم يفرق بين الأخضر واليابس، ولكن قد جَوَّزُوا قَطْعَ اليابس، قالوا: لأنه بمنزلة الميت، ولا يُعرف فيه خلاف، وعلى هذا فسيأق الحديث يدل على أنه إنما أراد الأخضر، فإنه جعله بمنزلة تنفير الصيد، وليس في أخذ اليابس انتهاك حرمة الشجرة الخضراء التي تُسَجَّحُ بحمد ربها، ولهذا غرس النبي ﷺ على القبرين عُصْنَيْنِ أخضرين، وقال: «لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَبْسُ» [البخاري: ٣٦١، ومسلم: ١٧٧٧].

(هل يجوز الانتفاع بما انقلع بنفسه أو بقلع قانع؟)

وفي الحديث دليل على أنه إذا انقلعت الشجرة بنفسها، أو انكسر العُصْنُ، جاز الانتفاع به، لأنه لم يَغْضُدْهُ هو، وهذا لا نزاع فيه.

فإن قيل: فما تقولون فيما إذا قلعها قانع، ثم تركها، فهل يجوز له أو لغيره أن ينتفع بها؟ قيل: قد سئل الإمام أحمد عن هذه المسألة، فقال: من شبهه بالصيد، لم ينتفع بحطبها، وقال: لم أسمع إذا قطعته ينتفع به. وفيه وجه آخر، أنه يجوز لغير القاطع الانتفاع به، لأنه قطع بغير فعله، فأبيح له الانتفاع به كما لو قلعت الرية، وهذا بخلاف الصيد إذا قتله محرم حيث يَحْرُمُ على غيره، فإن قُتِلَ المحرم له جعله ميتة. وقوله في اللفظ الآخر: «لَا يُخْبَطُ شَوْكُهَا» صريح، أو كالصريح في تحريم قطع الورق، وهذا مذهب أحمد - رحمه الله - وقال الشافعي: له أخذه، ويُروى عن عطاء، والأول أصح لظاهر النص والقياس، فإن منزلته من الشجرة منزلة ريش الطائر منه، وأيضاً فإن أخذ الورق ذريعة إلى ببس الأغصان، فإنه لباسها ووقايتها.

فصل

(لا يقطع حشيش مكة ما دام رطباً)

وقوله ﷺ: «لَا يُخْتَلَى خُلاهَا» لا خلاف أن

فصل

(لا ينفر صيدها)

وقوله ﷺ: «لَا يَنْفَرُ صَيْدُهَا» صريح في تحريم

المراد من ذلك ما يَنْبُتُ بنفسه دون ما أنبت الأدميون، ولا يدخل اليابس في الحديث، بل هو للرطب خاصة، فإن الخلى بالقصر: الحشيش الرطب ما دام رطباً، فإذا يبس، فهو حشيش، وأخلى الأرض، كثر خلها، واختلاء الخلى: قطعه، ومنه الحديث: كان ابن عمر يَخْتَلِي لفرسه، أي: يقطع لها الخلى، ومنه سميت المِخْلَاة: وهي وعاء الخلى، والإذخر: مستثنى بالنص، وفي تخصيصه بالاستثناء دليل على إرادة العموم فيما سواه.

فإن قيل: فهل يتناول الحديث الرعي أم لا؟ قيل: هذا فيه قولان، أحدهما: لا يتناول، فيجوز الرعي، وهذا قول الشافعي. والثاني: يتناول بمعناه، وإن لم يتناول بلفظه، فلا يجوز الرعي، وهو مذهب أبي حنيفة، والقولان لأصحاب أحمد.

قال المحرمون: وأي فرق بين اختلائه وتقديمه للذابة، وبين إرسال الذابة عليه ترعاه؟

قال المبيحون: لما كانت عادة الهدايا أن تدخل الحرم، وتكثر فيه، ولم يُنقل قط أنها كانت تُسَدُّ أفواهاها، دل على جواز الرعي.

قال المحرمون: الفرق بين أن يُرسلها ترعى، ويُسلطها على ذلك، وبين أن ترعى بطبعها من غير أن يُسلطها صاحبها، وهو لا يجب عليه أن يسد أفواهاها، كما لا يجب عليه أن يسد أنفه في الإحرام عن شم الطيب، وإن لم يجر له أن يتعمد شمه، وكذلك لا يجب عليه أن يمتنع من السير خشية أن يوطئ صيداً في طريقه، وإن لم يجر له أن يقصد ذلك، وكذلك نظائره. فإن قيل: فهل يدخل في الحديث أخذ الكماء والفقع، وما كان مغيباً في الأرض؟ قيل: لا يدخل فيه، لأنه بمنزلة الثمرة، وقد قال أحمد: يؤكل من شجر الحرم الضغابيس والعشوق^(١).

(١) الضغابيس: صغار القثاء، واحدها ضغبوس، والعشوق: قال أبو حنيفة الدينوري: شجر ينفرش على الأرض عريض الورق وليس له شوك، ولا يكاد يأكله شيء إلا أن يصيب المعزى منه شيئاً قليلاً.

التسبب إلى قتل الصيد واصطياد به بكل سبب، حتى إنه لا يُنفَره عن مكانه، لأنه حيوان محترم في هذا المكان، قد سبق إلى مكان، فهو أحقُّ به، ففي هذا أن الحيوان المحترم إذا سبق إلى مكان، لم يُزعج عنه.

فصل

(لا تملك لفظة الحرم)

وقوله ﷺ: «وَلَا يَلْتَقِطُ سَاقِطَتَهَا إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا». وفي لفظ: «وَلَا تَجْلُ سَاقِطَتَهَا إِلَّا لِمُنْشِدٍ»، فيه دليل على أن لفظة الحرم لا تملك بحال، وأنها لا تلتقط إلا للتعريف لا للتمليك، وإلا لم يكن لتخصيص مكة بذلك فائدة أصلاً، وقد اختلف في ذلك، فقال مالك وأبو حنيفة: لفظة الحل والحرم سواء، وهذا إحدى الروايتين عن أحمد، وأحد قولي الشافعي، ويروى عن ابن عمر، وابن عباس، وعائشة رضي الله عنهم، وقال أحمد في الرواية الأخرى، والشافعي في القول الآخر: لا يجوز التقاطها للتمليك، وإنما يجوز لحفظها لصاحبها، فإن التقطها، عرفها أبداً حتى يأتي صاحبها، وهذا قول عبد الرحمن بن مهدي، وأبي عبيد، وهذا هو الصحيح، والحديث صريح فيه، والمُنشِدُ: المعروف، والناشد: الطالب، ومنه قوله: إصَاخَةُ النَّاشِدِ لِلْمُنْشِدِ.

وقد روى أبو داود في «سننه»: أن النبي ﷺ «نَهَى عَنْ لُقْطَةِ الْحَاجِّ»، وقال ابن وهب: يعني يتركها حتى يجدها صاحبها [أبو داود: ١٧١٩، بتمامه، وأخرجه مسلم: ٤٥٠٩، دون قول ابن وهب].

قال شيخنا: وهذا من خصائص مكة، والفرق بينها وبين سائر الآفاق في ذلك، أن الناس يتفرقون عنها إلى الأقطار المختلفة، فلا يتمكن صاحب الضالة من طلبها والسؤال عنها، بخلاف غيرها من البلاد.

فصل

(لا يتعين في قتل العمد القصاص)

وقوله ﷺ في الخطبة: «وَمَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ، فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ، إِمَّا أَنْ يَكْتُلَ، وَإِمَّا أَنْ يَأْخُذَ الدِّيَةَ»، فيه دليل على أن الواجب بقتل العمد لا يتعين في

القصاص، بل هو أحد شيئين: إما القصاص، وإما الدية.

وفي ذلك ثلاثة أقوال، وهي روايات عن الإمام أحمد.

أحدها: أن الواجب أحد شيئين، إما القصاص، وإما الدية، والخيرة في ذلك إلى الولي بين أربعة أشياء: العفو مجاناً، والعفو إلى الدية، والقصاص، ولا خلاف في تخييره بين هذه الثلاثة. والرابع: المصالحة على أكثر من الدية، فيه وجهان. أشهرهما مذهباً: جوازه. والثاني: ليس له العفو على مال إلا الدية أو دونها، وهذا أرجح دليلاً، فإن اختار الدية، سقط القود، ولم يملك طلبه بعد، وهذا مذهب الشافعي، وإحدى الروايتين عن مالك.

والقول الثاني: أن موجب القود عيناً، وأنه ليس له أن يعفو إلى الدية إلا برضى الجاني، فإن عدل إلى الدية ولم يرض الجاني، فقوده بحاله، وهذا مذهب مالك في الرواية الأخرى وأبي حنيفة.

والقول الثالث: أن موجب القود عيناً مع التخيير بينه وبين الدية، وإن لم يرض الجاني، فإذا عفا عن القصاص إلى الدية، فرضي الجاني، فلا إشكال، وإن لم يرض، فله العود إلى القصاص عيناً، فإن عفا عن القود مطلقاً، فإن قلنا: الواجب أحد الشين، فله الدية، وإن قلنا: الواجب القصاص عيناً، سقط حقه منها.

فإن قيل: فما تقولون فيما لو مات القاتل؟ قلنا: في ذلك قولان: أحدهما: تسقط الدية، وهو مذهب أبي حنيفة، لأن الواجب عندهم القصاص عيناً، وقد زال محل استيفائه بفعل الله تعالى، فأشبه ما لو مات العبد الجاني، فإن أَرْضَ الجناية لا ينتقل إلى ذمة السيد، وهذا بخلاف تلف الرهن وموت الضامن، حيث لا يسقط الحق لثبوته في ذمة الراهن والمضمون عنه، فلم يسقط بتلف الوثيقة.

وقال الشافعي وأحمد: تتعين الدية في تركته، لأنه تعذر استيفاء القصاص من غير إسقاط، فوجب الدية لثلا يذهب الورثة من الدم والدية مجاناً. فإن قيل: فما تقولون لو اختار القصاص، ثم اختار بعده العفو إلى الدية، هل له ذلك؟ قلنا: هذا فيه وجهان،

أحدهما: أن له ذلك، لأن القصاص أعلى، فكان له الانتقال إلى الأدنى. والثاني: ليس له ذلك، لأنه لما اختار القصاص، فقد أسقط الدية باختياره له، فليس له أن يعود إليها بعد إسقاطها.

فإن قيل: فكيف تجمعون بين هذا الحديث، وبين قوله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ عَمْدًا، فَهُوَ قَوْدٌ» [ابو داود: ٤٥٣٩، والنسائي (٣٩/٨)، وابن ماجه: ٢٦٣٥].

قيل: لا تعارض بينهما بوجه، فإن هذا يدل على وجوب القود بقتل العمد، وقوله: «فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ» يدل على تخيره بين استيفاء هذا الواجب له وبين أخذ بدله، وهو الدية، فأى تعارض! وهذا الحديث نظير قوله تعالى: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ» [البقرة: ١٧٨]، وهذا لا ينفي تخيير المستحق له بين ما كُتِبَ له، وبين بدله. والله أعلم.

فصل

(إباحة قطع الإذخر)

وقوله ﷺ في الخطبة: «إِلَّا الإِذْخِرَ»، بعد قول العباس له: «إِلَّا الإِذْخِرَ، يدل على مسألتين: إحداهما: إباحة قطع الإذخر.

(لا يشترط في الاستثناء نيته

من أول الكلام ولا قبل فراغه)

والثانية: أنه لا يشترط في الاستثناء أن ينويه من أول الكلام، ولا قبل فراغه، لأن النبي ﷺ لو كان ناوياً لاستثناء الإذخر من أول كلامه، أو قبل تمامه، لم يتوقف استثناءه له على سؤال العباس له ذلك، وإعلامه أنهم لا بد لهم منه لِقَيْنِهِمْ وبيوتهم، ونظير هذا استثناءه ﷺ، لسهيل بن بيضاء من أسارى بدر بعد أن ذكره به ابن مسعود، فقال: «لَا يَفْقَلَنَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا بِفِدَاءٍ أَوْ ضَرِيٍّ عُنِّيَ» فقال ابن مسعود: «إِلَّا سَهِيلَ بْنَ بِيْضَاءَ»، فإني سمعته يذكر الإسلام، فقال: «إِلَّا سَهِيلَ بْنَ بِيْضَاءَ» [أحمد: ٣٦٣٢، ورجاله ثقات] ومن المعلوم أنه لم يكن قد نوى الاستثناء في الصورتين من أول كلامه.

ونظيره أيضاً قول المَلِكِ لِسُلَيْمَانَ لما قال: «لَأُطَوِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى مِثْقَلِ امْرَأَةٍ تَلِدُ كُلُّ امْرَأَةٍ غُلَامًا يَمَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»، فقال له المَلِكُ: قُلْ: «إِنْ شَاءَ

اللَّهُ تَعَالَى، فَلَمْ يَقُلْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، لَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَجْمَعُونَ» وفي لفظ «لَكَانَ دَرْكَاً لِحَاجَتِهِ» [البخاري: ٦٧٢٠، ومسلم: ٤٢٨٥] فأخبر أن هذا الاستثناء لو وقع منه في هذه الحالة لنفعه، ومن يشترط النية يقول: لا ينفعه.

ونظير هذا قوله ﷺ: «وَاللَّهُ لَأَغْزُونَ قُرَيْشًا، وَاللَّهُ لَأَغْزُونَ قُرَيْشًا» ثلاثاً، ثم سكت، ثم قال: «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» [ابو داود: ٣٢٨٥]، فهذا استثناء بعد سكوت، وهو يتضمن إنشاء الاستثناء بعد الفراغ من الكلام والسكوت عليه، وقد نص أحمد على جوازه، وهو الصواب بلا ريب، والمصير إلى موجب هذه الأحاديث الصحيحة الصريحة أولى. وبالله التوفيق.

فصل

(الدليل على كتابة العلم)

وفي القصة: أن رجلاً من الصحابة يقال له: أبو شاه، قام، فقال: اكتبوا لي، فقال النبي ﷺ: «اُكْتُبُوا لِأَبِي شَاهٍ» [البخاري: ٢٤٣٤]، يُريدُ خطبته، ففيه دليل على كتابة العلم، ونسخ النبي عن كتابة الحديث، فإن النبي ﷺ قال: «مَنْ كَتَبَ عَنِّي شَيْئًا غَيْرَ الْقُرْآنِ، فَلَيْمُحُهُ» [مسلم: ٧٥١٠] وهذا كان في أول الإسلام خشية أن يختلط الوحي الذي يُتلى بالوحي الذي لا يُتلى، ثم أذن في الكتابة لحديثه.

وصح عن عبد الله بن عمرو أنه كان يكتب حديثه [البخاري: ١١٣]، وكان مما كتبه صحيفة تُسمى الصادقة، وهي التي رواها حفيده عمرو بن شعيب، عن أبيه عنه، وهي من أصح الأحاديث، وكان بعض أئمة أهل الحديث يجعلها في درجة أيوب عن نافع عن ابن عمر، والأئمة الأربعة وغيرهم احتجوا بها.

فصل

(الصلاة في المكان المصور)

أنشد كراهة من الصلاة في الحمام)

وفي القصة: أن النبي ﷺ دخل البيت، وصلى فيه، ولم يدخله حتى مُحِيتِ الصورُ منه. ففيه دليل على كراهة الصلاة في المكان المصور، وهذا أحقُّ بالكراهة من الصلاة في الحمام، لأن كراهة الصلاة في الحمام، إما لكونه مَقْلَعَةُ النجاسة، وإما لكونه يَبَتُّ

الشیطان، وهو الصحيح، وأما محلُّ الصور، فَمَقْطَعَةُ الشَّرْكِ، غالبُ شرك الأمم كان من جهة الصور والقبور.

فصل

(جواز لبس السواد)

وفي القصة: أنه دخل مكة، وعليه عمامة سوداء، ففيه دليل على جواز لبس السواد أحياناً، ومن ثم جعل خلفاء بني العباس لبس السواد شعاراً لهم، ولولا أنهم، وقضاتهم، وخطبائهم، والنبي ﷺ لم يلبسه لباساً راتباً، ولا كان شعاره في الأعياد، والجمع، والمجامع العظام البتة، وإنما اتفق له لبسُ العمامة السوداء يومَ الفتح دون سائر الصحابة، ولم يكن سائراً لباسه يومئذ السواد، بل كان لواؤه أبيض.

فصل

(متى حُرمت متعة النساء؟)

ومما وقع في هذه الغزوة، إباحةُ متعة النساء، ثم حُرْمُها قبلَ خروجه من مكة، واخْتَلَفَ في الوقت الذي حُرمت فيه المتعة، على أربعة أقوال:

أحدها: أنه يوم خيبر، وهذا قول طائفة من العلماء. منهم: الشافعي وغيره.

والثاني: أنه عام فتح مكة، وهذا قول ابن عيينة، وطائفة.

والثالث: أنه عام حنين، وهذا في الحقيقة هو القول الثاني، لاتصال غزاة حنين بالفتح.

والرابع: أنه عام حجة الوداع، وهو وهم من بعض الرواة، سافر فيه وهمه من فتح مكة إلى حَجَّةِ الوداع، كما سافر وهم معاوية من عمرة الجعرانة إلى حَجَّةِ الوداع حيث قال: قصرت عن رسول الله ﷺ بمشقص على المروة في حجته، وقد تقدم في الحج، وسفرُ الوهم من زمان إلى زمان، ومن مكان إلى مكان، ومن واقعة إلى واقعة، كثيراً ما يعرض للحفاظ فمن دونهم.

(درجج المصنف تحريم المتعة عام الفتح)

والصحيح: أن المتعة إنما حُرمت عام الفتح، لأنه قد ثبت في «صحيح مسلم» [٣٤٢٢] أنهم استمتعوا عامَ الفتح مع النبي ﷺ بإذنه، ولو كان التحريمُ زمنَ

خيبر، لزم النسخُ مرتين، وهذا لا عهد بمثله في الشريعة البتة، ولا يقع مثله فيها، وأيضاً: فإن خيبر لم يكن فيها مسلمات، وإنما كُنَّ يهوديات، وإباحة نساء أهل الكتاب لم تكن ثبتت بعد، إنما أُيْحِنَ بعد ذلك في سورة المائدة بقوله: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الْفَوَاحِشُ وَمَتَاعُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَّ لَكُمْ وَمَتَاعُهُمْ حَلَّ لَكُمْ وَالَّذِينَ هُمْ مِنَ الْكُفَرِ الْأَعْيُنِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْكُفَرِ الْأَعْيُنِ أُولَئِكَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥]، وهذا متصل بقوله: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، ويقول: ﴿الْيَوْمَ يَسَّرَ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وهذا كان في آخر الأمر بعد حجة الوداع، أو فيها، فلم تكن إباحة نساء أهل الكتاب ثابتة زمنَ خيبر، ولا كان للمسلمين رغبة في الاستمتاع بنساء عدوهم قبل الفتح، وبعد الفتح استترق من استترق منهم، وصِرْنَ إماء للمسلمين.

فإن قيل: فما تصنعون بما ثبت في «الصحيحين» من حديث علي بن أبي طالب: أن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحُمُرِ الإنسية [البخاري: ٤٢١٦، ومسلم: ٣٤٣١]، وهذا صحيح صريح؟

قيل: هذا الحديث قد صَحَّتْ روايته بلفظين: هذا أحدهما. والثاني: الاقتصار على نهى النبي ﷺ عن نِكَاحِ الْمُتَمَتَّةِ، وعن لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَةِ يَوْمَ خَيْبَرٍ، هذه رواية ابن عُيَيْنَةَ عن الزهري. قال قاسم بن أصبغ: قال سفيان بن عيينة: يعني أنه نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمنَ خيبر، لا عن نِكَاحِ الْمُتَمَتَّةِ، ذكره أبو عمر. وفي «التمهيد»: ثم قال: على هذا أكثرُ الناس، انتهى، فتوهم بعضُ الرواة أن يومَ خيبر ظُرِفَ لتحريرهم فرواه: حرم رسول الله ﷺ المتعة زمنَ خيبر، والحُمُرُ الْأَهْلِيَةِ، واقتصر بعضهم على رواية بعض الحديث، فقال: حرم رسول الله ﷺ المتعة زمنَ خيبر، فجاء بالغلط اللين.

فإن قيل: فأَيُّ فائِدة في الجمع بين التحريمين، إذا لم يكونا قد وقعا في وقت واحد، وأين المتعة من تحريم الحُمُرِ؟ قيل: هذا الحديث رواه علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - محتجاً به على ابن عمه عبد الله بن عباس في المسألتين، فإنه كان يُبيح المتعة ولحوم الحُمُرِ، فناظره علي بن أبي طالب في

المسألين، وروى له التحريمين، وقيد تحريم الحمر بزمان خبير، وأطلق تحريم المُنعة وقال: إنك امرؤ تائه، إن رسول الله ﷺ حرم المُنعة، وحرم لحوم الحمر الأهلية يوم خبير كما قاله سفيان بن عُيينة، وعليه أكثر الناس، فروى الأمرين محتجاً عليه بهما، لا مقيداً لهما بيوم خبير والله الموفق.

ولكن هاهنا نظر آخر، وهو أنه: هل حرمها تحريم الفواحش التي لا تباح بحال، أو حرمها عند الاستثناء عنها، وأباحها للمضطر؟ هذا هو الذي نظر فيه ابن عباس وقال: أنا أبحتُها للمضطر كالهيئة والدم، فلما توسع فيها مَنْ توسع، ولم يقف عند الضرورة، أمسك ابن عباس عن الإفتاء بحلها، ورجع عنه. وقد كان ابن مسعود يرى إباحتها ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرُّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧]، ففسي «الصحيحين» عنه قال: كنّا نغزو مع رسول الله ﷺ وليس لنا نساء، فقلنا: ألا نختصمي؟ فنهانا، ثم رخص لنا أن نكح المرأة بالثوب إلى أجل، ثم قرأ عبد الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرُّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَسْتَبْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُتَبَدِّلِينَ﴾ [المائدة: ٨٧] [البخاري: ٥٠٧٥، ومسلم: ٣٤١٠].

وقراءة عبد الله هذه الآية عقيب هذا الحديث يحتمل أمرين أحدهما: الرد على من يحرّمها، وأنها لو لم تكن من الطيبات لما أباحها رسول الله ﷺ.

والثاني: أن يكون أراد آخر هذه الآية، وهو الرد على من أباحها مطلقاً، وأنه معتد، فإن رسول الله ﷺ إنما رخص فيها للضرورة، وعند الحاجة في الغزو، وعند عدم النساء، وشدة الحاجة إلى المرأة. فمن رخص فيها في الحضر مع كثرة النساء، وإمكان النكاح المعتاد، فقد اعتدى، والله لا يحب المعتدين.

فإن قيل: فيكيف تصنعون بما روى مسلم في «صحيحه» من حديث جابر، وسلمة بن الأكوع، قالوا: خرج علينا منادي رسول الله ﷺ فقال: إن رسول الله ﷺ قد أذن لكم أن تستمتعوا، يعني: متعة النساء [مسلم: ٣٤١٣]، قيل: هذا كان زمن الفتح قبل التحريم، ثم حرمها بعد ذلك بدليل ما رواه مسلم في «صحيحه»، عن سلمة بن الأكوع قال: رخص لنا

رسول الله ﷺ عام أوطاس في المُنعة ثلاثاً، ثم نهى عنها [مسلم: ٣٤١٨]. وعام أوطاس: هو عام الفتح، لأن غزاة أوطاس متصلة بفتح مكة.

فإن قيل: فما تصنعون بما رواه مسلم في «صحيحه»، عن جابر بن عبد الله، قال: كنّا نستمتع بالقَبْضَةِ مِنَ التمر والدقيق الأيام على عهد رسول الله ﷺ، وأبي بكر حتى نهى عنها عمر في شأن عمرو بن حريث [مسلم: ٣٤١٦]. وفيما ثبت عن عمر أنه قال: مُتَعَتَانِ كَانَتَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أنا أنهى عنهما: متعة النساء ومتعة الحج [مسلم: ٢٩٤٧].

قيل: الناس في هذا طائفتان: طائفة تقول: إن عمر هو الذي حرّمها ونهى عنا، وقد أمر رسول الله ﷺ باتباع ما سنّه الخلفاء الراشدون، ولم تر هذه الطائفة تصحيح حديث سبرة بن معبد في تحريم المتعة عام الفتح، فإنه من رواية عبد الملك بن الربيع بن سبرة عن أبيه، عن جده، وقد تكلم فيه ابن معين، ولم ير البخاري إخراج حديث في «صحيحه» مع شدة الحاجة إليه، وكونه أصلاً من أصول الإسلام، ولو صح عنده، لم يصبر عن إخراجها والاحتجاج به، قالوا: ولو صح حديث سبرة، لم يخف على ابن مسعود حتى يروي أنهم فعلوها، ويحتج بالآية، وأيضاً ولو صح، لم يقل عمر: إنها كانت على عهد رسول الله ﷺ وأنا أنهى عنها، وأعاقب عليها، بل كان يقول: إنه ﷺ حرّمها ونهى عنها. قالوا: ولو صح، لم تفعل على عهد الصديق وهو عهد خلافة النبوة حقاً.

والطائفة الثانية: رأت صحة حديث سبرة، ولو لم يصح، فقد صحّ حديث علي - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ حرم متعة النساء، فوجب حمل حديث جابر على أن الذي أخبر عنها بفعلها لم يبلغه التحريم، ولم يكن قد اشتهر حتى كان زمن عمر رضي الله عنه، فلما وقع فيها النزاع، ظهر تحريمها واشتهر، وبهذا تألّف الأحاديث الواردة فيها. وبالله التوفيق.

فصل

(جواز إجارة المرأة وأمانها للرجلين)

وفي قصة الفتح من الفقه: جوازُ إجارة المرأة وأمانها للرجل والرجلين، كما أجاز النبي ﷺ أمان أم هانئ لِحَمَوْنِها.

(جواز قتل المرتد الذي تغلظت رفته من غير استتابة)

وفيها من الفقه جوازُ قتل المرتد الذي تغلظت رفته من غير استتابة، فإن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان قد أسلم وهاجر، وكان يكذب الوحي لرسول الله ﷺ، ثم ارتد، ولحق بمكة، فلما كان يوم الفتح، أتى به عثمان بن عفان رسول الله ﷺ لبايعه، فأمسك عنه طويلاً، ثم بايعه، وقال: إنما أمسكت عنه ليقوم إليه بعضكم، فيضرب عنقه، فقال له رجل: هلاً أومات إلي يا رسول الله؟ فقال: «مَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَائِنَةً الْأَعْيُنُ» [ابو داود: ٢٦٨٣، والنسائي (١٠٥/٧)] فهذا كان قد تغلظ كفره برده بعد إيمانه، وهجرته، وكتابة الوحي، ثم ارتد ولحق بالمشركين يطعن على الإسلام ويعيبه، وكان رسول الله ﷺ يريد قتله، فلما جاء به عثمان بن عفان وكان أخاه من الرضاة، لم يأمر النبي ﷺ بقتله حياة من عثمان، ولم يبايعه ليقوم إليه بعض أصحابه فيقتله، فهابوا رسول الله ﷺ أن يقتلوه على قتله بغير إذنه، واستحى رسول الله ﷺ من عثمان، وساعد القدر السابق لما يريد الله سبحانه بعبد الله مما ظهر منه بعد ذلك من الفتوح وبايعه، وكان ممن استثنى الله بقوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ١٥ أَوْلَيْكَ جَزَاءَهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَقَسَةُ اللَّهِ وَالْمَلَكَةُ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ١٦ خَلِيلِينَ فِيهَا لَا يُنْفَعُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ١٧ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (آل عمران: ٨٦ - ٨٩)، وقوله ﷺ: «مَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَائِنَةً الْأَعْيُنِ»، أي: أن النبي ﷺ لا يخالف ظاهره باطنه، ولا سيره علانيته،

وإذا نفذ حكم الله وأمره، لم يؤم به، بل صرخ به، وأعلنه، وأظهره.

فصل

في غزوة حنين وتسمى غزوة أوطاس

وهما موضعان بين مكة والطائف، فسُميت الغزوة باسم مكانها، وتسمى غزوة هوازن، لأنهم الذين أتوا لقتال رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق: ولما سمعت هوازن برسول الله ﷺ، وما فتح الله عليه من مكة، جمعها مالك بن عوف النَّصْرِي^(١)، واجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها، واجتمعت إليه مَضَرُّ وجشم كلها، وسعد بن بكر، وناس من بني هلال، وهم قليل، ولم يشهدا من قيس عيلان إلا هؤلاء، ولم يحضرهما من هوازن كعب، ولا كلاب، وفي جشم دريد بن الصمة شيخ كبير ليس فيه إلا رأيُه ومعرفة بالحرب، وكان شجاعاً مجرباً، وفي ثقيف سَيِّدَانِ لهم، وفي الأخلاف قارب بن الأسود، وفي بني مالك شبيب بن الحارث وأخوه أحمر بن الحارث، وجماع أمر الناس إلى مالك بن عوف النَّصْرِي، فلما أجمع السير إلى رسول الله ﷺ، ساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، فلما نزل بأوطاس، اجتمع إليه الناس وفيهم دُرَيْدُ بن الصمة، فلما نزل قال: بأي واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس. قال: نِعْمَ مَجَالُ الْخَيْلِ، لَا حَزَنٌ ضِرْسُ، وَلَا سَهْلٌ دَفَسُ^(٢)، مالي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصبي، ويعار الشاء؟ قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس نساءهم وأموالهم وأبناءهم. قال: أين مالك؟ قيل: هذا مالك، ودعي له. قال: يا مالك إنك قد أصبحت رئيس قومك، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام، مالي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، ويعار الشاء؟! قال: سقت مع الناس أبناءهم، ونساءهم، وأموالهم. قال: ولم؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم. فقال: راعي

(١) بالصاد المهملة نسبة إلى جده الأعلى نصر بن معاوية، أسلم بعد غزوة الطائف، وصحب وشهد القادسية وفتح دمشق.

(٢) الحزن: ما ارتفع من الأرض، والضرس: الذي فيه حجارة محددة، والدفس: ما سهل ولان من الأرض، ولم يبلغ أن يكون رملاً.

واللَّهُ ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى، فواللَّهُ ما رَدَّ ذلك عن وجهه أن مَضَى على ما يُريدُ.

ولما سَمِعَ بهم نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ، بعث إليهم عبد الله ابن أبي حَذَرْدٍ الأسلمي، وأمره أن يدخل في الناس، فيُقيم فيهم حتى يَعْلَمَ علمهم، ثم يأتيه بخبرهم، فانطلق ابن أبي حذر، فدخل فيهم حتى سَمِعَ وعلم ما قد جمعوا له من حرب رسول الله ﷺ، وسَمِعَ مِنْ مالك وأمر هوازن ما هُم عليه، ثم أقبل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر.

فلما أجمع رسول الله ﷺ السير إلى هوازن، ذُكِرَ له أن عند صفوان ابن أمية أدراعاً وسلاحاً، فأرسل إليه، وهو يومئذ مشرك، فقال: يا أبا أمية! أعزنا سلاحك هذا نلقى فيه عدونا غداً، فقال صفوان: أغضباً يا محمد؟ قال: «بَلْ عَارِيَّةٌ مَضْمُونَةٌ حَتَّى نُؤَدِّيَهَا إِلَيْكَ» [صحيح: أحمد: ١٥٣٠٢، والحاكم (٤٨/٣)، والبيهقي (٨٩/٦)]، فقال: ليس بهذا بأس، فأعطاه مئة درع بما يكفيها من السلاح، فزعمو أن رسول الله ﷺ سألَه أن يكفيهم حملها، ففعل.

ثم خرج رسول الله ﷺ معه ألفان من أهل مكة، مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه، ففتح الله بهم مكة، وكانوا اثني عشر ألفاً، واستعمل عتَّاب بن أسيد على مكة أميراً، ثم مضى يُريد لقاء هوازن.

قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبد الرحمن بن جابر، عن أبيه جابر بن عبد الله، قال: لما استقبلنا وادي حنين، انحدرنا في وادٍ من أودية تهامة أجوف حَطُوط^(٦)، إنما ننحدر فيه

ضأن^(١) واللَّهُ، وهل يرُدُّ المهزَمُ شيء، إنها إن كانت لك لم يَنْفَعْكَ إلَّا رجلٌ بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك، نُفِصَحَتْ في أهلك ومالك، ثم قال: ما فعلت كعبٌ وكلاب؟ قالوا: لم يشهدا أحداً منهم. قال: غاب الحَدُّ^(٢) والجِدُّ، لو كان يوم علاء ورفعة، لم تَغِبَ عنه كعبٌ ولا كلاب، ولَوِذِدْتَ أنكم فعلتم ما فعلت كعبٌ وكلات، فمن شهدا منكم؟ قالوا: عمرو بن عامر، وعوف بن عامر، قال: ذَانِكَ الْجَدَّاعَانِ^(٣) من عامر، لا يَنْفَعَان ولا يضران. يا مالك! إنك لم تصنع بتقديم البيضة البيضاء هوازن إلى نحور الخيل شيئاً، أرفعهم إلى مُتَمَنِّعٍ بلادهم وغلبا قومهم، ثم التى الصُّبَاةُ^(٤) على متون الخيل، فإن كانت لك، لحَقَّ بك مَنْ وراءك، إن كانت عليك، أَلْفَاكَ ذلك، وقد أحرزت أهلك ومالك. قال: واللَّهُ لا أفعل، إنك قد كَبِرْتَ وكَبِرَ عقلُك، واللَّهُ لَتُطِيعُنِي يا معشر هوازن، أو لَا تُكَبِّرَنَّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهري، وكره أن يكون لِدُرَيْدٍ فيها ذِكر ورأي، فقالوا: أطعناك، فقال دُرَيْد: هذا يوم لم أشهده ولم يَفْتَنِي.

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعٌ
أُحِبُّ فِيهَا وَأَصْنَعُ
أَقُودُ وَطَفَاءَ الزَّمَنِ
كَأَنَّهَا شَاءَ صَدَعٌ^(٥)

ثم قال مالك للناس: إذا رأيتُهم فاكسروا جُفون سيوفكم، ثم شُدُّوا شدة رجل واحد، وبعث عيوناً من رجاله، فَأَتَوْهُ وقد تَفَرَّقَتْ أوصالُهم، قال: ويلكم ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجالاً بيضاً على خيل بُلُقٍ،

(١) يحمله بذلك ما قال الشاعر:

أصبحت هزءاً لراعي الضأن أعجبه

ماذا يريبك مني راعي الضأن

(٢) الحد: النشاط والسرعة والمضاء في الأمور.

(٣) يريد: أنها ضعيفان في الحرب بمنزلة الجذع في سته.

(٤) جمع صابي غير مهموز كقاض وقضاة، وهم المسلمون عندهم، كانوا يسمونهم بهذا الاسم، لأنهم صبَّؤوا من دينهم، أي: خرجوا من دين الجاهلية إلى الإسلام.

(٥) الجذع: الشاب، وأب وأضع: ضربان من السير، والوطفاء: طويلة الشعر، والزمع: الشعر فوق مرتبط قيد الدابة يريد فرساً صفتها هكذا، والشاة هنا: الوعل، وصدع أي: وعلى بين وعلى ليس بالمعظم ولا بالحقير.

(٦) تهامة: ما انخفض من أرض الحجاز، وأجوف: متسع، وحطوط: منحدر.

انحداراً. قال: وفي عَمَاة الصبح، وكان القوم سبقونا إلى الوادي، فَكَمَنُوا لَنَا فِي شِعَابِهِ وَأَخْنَانِهِ وَمُضَايِقِهِ، قَدْ أَجْمَعُوا، وَتَهَيَّؤُوا، وَأَعَدُوا فَوَاللَّهِ مَا رَاعَنَا - وَنَحْنُ مَنْحَطُونَ - إِلَّا الْكَتَاتِبُ، قَدْ شَدُّوا عَلَيْنَا شَدَّةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، وَانْتَشَرُوا النَّاسُ رَاجِعِينَ لَا يَلُوي أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى أَحَدٍ، وَانْحَازَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ الْيَمِينِ، ثُمَّ قَالَ: «إِلَى أَيْنَ أَيُّهَا النَّاسُ؟ هَلُمَّ إِلَيَّ أَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ»، وَبَقِيَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَفَرٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ، وَفِيهِمْ ثَبَتَ مَعَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ عَلِيٌّ وَالْعَبَّاسُ وَأَبُو سَفْيَانَ بْنِ الْحَارِثِ وَابْنُهُ، وَالْفَضْلُ بْنُ الْعَبَّاسِ، وَرَبِيعَةُ بْنُ الْحَارِثِ، وَأَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، وَأَيُّمَنُ بْنُ أُمِّ أَيْمَنٍ، وَقُتَيْلُ يَوْمُئِذٍ. قَالَ: وَرَجُلٌ مِنْ هَوَازَنٍ عَلَى جَمَلٍ لَهُ أَحْمَرُ بِيَدِهِ رَايَةَ سُودَاءٍ فِي رَأْسِ رُمْحٍ طَوِيلٍ أَمَامَ هَوَازَنٍ، وَهَوَازَنُ خَلْفَهُ، إِذَا أَدْرَكَ، طَعَنَ بِرُمَحِهِ، وَإِذَا فَاتَهُ النَّاسُ، رَفَعَ رُمَحَهُ لِمَنْ وَرَاءَهُ فَاتَبَعُوهُ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَهْوَى عَلَيْهِ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُرِيدَانَهُ، قَالَ: فَاتَى عَلِيٌّ مِنْ خَلْفِهِ، فَضْرَبَ عِرْقَ وَجْهِ الْجَمَلِ، فَوَقَعَ عَلَى عَجْزِهِ، وَوَثَبَ الْأَنْصَارِيُّ عَلَى الرَّجُلِ، فَضْرَبَهُ ضَرْبَةً أَطْلَنَ قَدَمَهُ بِنِصْفِ سَاقِهِ، فَانْجَعَفَ عَنْ رَحْلِهِ، قَالَ: فَاجْتَلَدَ النَّاسُ. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا رَجَعْتُ رَاجِعَةً النَّاسُ مِنْ هَزِيمَتِهِمْ حَتَّى وَجَدُوا الْأَسَارَى عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [ابن هشام (٦٨٤) وسنده صحيح].

قال ابن إسحاق: ولما انهزم المسلمون، ورأى مَنْ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ جُفَاةِ أَهْلِ مَكَّةِ الْهَزِيمَةَ، تَكَلَّمَ رِجَالٌ مِنْهُمْ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الضُّغْنِ، فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ: لَا تَنْتَهِي هَزِيمَتُهُمْ دُونَ الْبَحْرِ، وَإِنْ الْأَزْلَامَ لَمَعَهُ فِي كَيْفَانَتِهِ، وَصَرَخَ جَبَلَةُ بْنُ الْحَنْبَلِ - وَقَالَ ابْنُ هِشَامٍ: صَوَابُهُ كَلْدَةُ - : أَلَا بَطَلَ السُّخْرُ الْيَوْمَ، فَقَالَ لَهُ صَفْوَانُ أَخُوهُ لِأَمَةٍ وَكَانَ بَعْدَ مُشْرَكَاتٍ: اسْكُتْ، فَضَلَّ اللَّهُ فَاكْ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَرُبَّنِي رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَرُبَّنِي رَجُلٌ مِنْ هَوَازَنٍ [ابن هشام (٦٨٤)].

وانحداراً. قال: وفي عَمَاة الصبح، وكان القوم سبقونا إلى الوادي، فَكَمَنُوا لَنَا فِي شِعَابِهِ وَأَخْنَانِهِ وَمُضَايِقِهِ، قَدْ أَجْمَعُوا، وَتَهَيَّؤُوا، وَأَعَدُوا فَوَاللَّهِ مَا رَاعَنَا - وَنَحْنُ مَنْحَطُونَ - إِلَّا الْكَتَاتِبُ، قَدْ شَدُّوا عَلَيْنَا شَدَّةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، وَانْتَشَرُوا النَّاسُ رَاجِعِينَ لَا يَلُوي أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى أَحَدٍ، وَانْحَازَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ الْيَمِينِ، ثُمَّ قَالَ: «إِلَى أَيْنَ أَيُّهَا النَّاسُ؟ هَلُمَّ إِلَيَّ أَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ»، وَبَقِيَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَفَرٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ، وَفِيهِمْ ثَبَتَ مَعَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ عَلِيٌّ وَالْعَبَّاسُ وَأَبُو سَفْيَانَ بْنِ الْحَارِثِ وَابْنُهُ، وَالْفَضْلُ بْنُ الْعَبَّاسِ، وَرَبِيعَةُ بْنُ الْحَارِثِ، وَأَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، وَأَيُّمَنُ بْنُ أُمِّ أَيْمَنٍ، وَقُتَيْلُ يَوْمُئِذٍ. قَالَ: وَرَجُلٌ مِنْ هَوَازَنٍ عَلَى جَمَلٍ لَهُ أَحْمَرُ بِيَدِهِ رَايَةَ سُودَاءٍ فِي رَأْسِ رُمْحٍ طَوِيلٍ أَمَامَ هَوَازَنٍ، وَهَوَازَنُ خَلْفَهُ، إِذَا أَدْرَكَ، طَعَنَ بِرُمَحِهِ، وَإِذَا فَاتَهُ النَّاسُ، رَفَعَ رُمَحَهُ لِمَنْ وَرَاءَهُ فَاتَبَعُوهُ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَهْوَى عَلَيْهِ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُرِيدَانَهُ، قَالَ: فَاتَى عَلِيٌّ مِنْ خَلْفِهِ، فَضْرَبَ عِرْقَ وَجْهِ الْجَمَلِ، فَوَقَعَ عَلَى عَجْزِهِ، وَوَثَبَ الْأَنْصَارِيُّ عَلَى الرَّجُلِ، فَضْرَبَهُ ضَرْبَةً أَطْلَنَ قَدَمَهُ بِنِصْفِ سَاقِهِ، فَانْجَعَفَ عَنْ رَحْلِهِ، قَالَ: فَاجْتَلَدَ النَّاسُ. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا رَجَعْتُ رَاجِعَةً النَّاسُ مِنْ هَزِيمَتِهِمْ حَتَّى وَجَدُوا الْأَسَارَى عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [ابن هشام (٦٨٤) وسنده صحيح].

قال ابن إسحاق: ولما انهزم المسلمون، ورأى مَنْ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ جُفَاةِ أَهْلِ مَكَّةِ الْهَزِيمَةَ، تَكَلَّمَ رِجَالٌ مِنْهُمْ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الضُّغْنِ، فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ: لَا تَنْتَهِي هَزِيمَتُهُمْ دُونَ الْبَحْرِ، وَإِنْ الْأَزْلَامَ لَمَعَهُ فِي كَيْفَانَتِهِ، وَصَرَخَ جَبَلَةُ بْنُ الْحَنْبَلِ - وَقَالَ ابْنُ هِشَامٍ: صَوَابُهُ كَلْدَةُ - : أَلَا بَطَلَ السُّخْرُ الْيَوْمَ، فَقَالَ لَهُ صَفْوَانُ أَخُوهُ لِأَمَةٍ وَكَانَ بَعْدَ مُشْرَكَاتٍ: اسْكُتْ، فَضَلَّ اللَّهُ فَاكْ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَرُبَّنِي رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَرُبَّنِي رَجُلٌ مِنْ هَوَازَنٍ [ابن هشام (٦٨٤)].

وذكر ابن سعد عن شيبَةَ بْنِ عُثْمَانَ الْحَجَبِيِّ، قَالَ: لَمَّا كَانَ عَامُ الْفَتْحِ، دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَّةَ عَنَوةً، قُلْتُ: أَسِيرٌ مَعَ قُرَيْشٍ إِلَى هَوَازَنٍ بِحُنَيْنٍ، فَعَسَى إِنْ

وقال ابن إسحاق: وحدثني الزهري، عن كثير بن العباس، عن أبيه العباس بن عبد المطلب، قال: إني لمع رسول الله ﷺ أخذ يحكمه بغلته البيضاء، قد شجرتها بها، وكنت امرأةً جسيماً شديد الصوت، قال: رسول الله ﷺ يقول حين رأى ما رأى من الناس: «إِلَى أَيْنَ أَيُّهَا النَّاسُ؟» قال: فلم أرَ الناسَ يَلُوْنَ عَلَى شَيْءٍ، فقال: «يَا عَبَّاسُ اضْرُخْ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، يَا مَعْشَرَ أَصْحَابِ السُّمُرَةِ»، فَأَجَابُوا: لَيْكَ لَيْكَ. قال: فيذهب الرجلُ ليشي بعيره، فلا يقدرُ على ذلك، فيأخذ دِرْعَهُ فيَقْذِفُهَا فِي عُتْقِهِ، وَيَأْخُذُ

سيفه وقوسه وثورسه، ويقتحم عن بعيره، ويخلي سبيله، ويؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ، حتى إذا اجتمع إليه منهم مئة، استقبلوا الناس، فاقتلوا فكانت الدعوة أول ما كانت: يا للانصار، ثم خلصت آخراً: يا للخزرج، وكانوا ضيقاً عند الحرب، فأشرف رسول الله ﷺ في ركابه، فنظر إلى مُجْتَلِدِ القوم، وهم يَجْتَلِدُونَ، فقال: «الآن حِمِي الوطيس»^(١) وزاد غيره.

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ

وفي «صحيح مسلم»: ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات، فرمى بها. في وجه الكفار، ثم قال: «انتهزوا وربّ محمّد»، فما هو إلا أن رماهم، فما زلت أرى خدّهم قليلاً، وأمرهم مذبراً [مسلم: ٤٦١٢].

وفي لفظ له: إنه نزل عن البغلة، ثم قبض قبضة من تراب الأرض، ثم استقبل بها وجوههم، وقال: «شأهت الوجوه»، فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينه تراباً تلك القبضة، فولوا مديرين [مسلم: ٤٦١٩].

وذكر ابن إسحاق عن جبير بن مطعم، قال: رأيت - قبل هزيمة القوم، والناس يقتلون يوم حنين - مثل البجاد الأسود، أقبل من السماء حتى سقط بيننا بين القوم، فنطرت فإذا نمل أسود ميثوث قد ملأ الوادي، فلم يكن إلا هزيمة القوم، فلم أشك أنها الملائكة.

قال ابن إسحاق: ولما انهزم المشركون، أتوا الطائف، ومعهم مالك بن عوف، وعسكر بعضهم بأوطاس، وتوجه بعضهم نحو نخلة، وبعث رسول الله ﷺ في آثار من توجه قبل أوطاس أبا عامر الأشعري، فأدرك من الناس بعض من انهزم، فناوشوه القتال، فُرِّي بسهم فقتل، فأخذ الراية أبو موسى الأشعري، وهو ابن أخيه فقاتلهم، ففتح الله عليه، فهزمهم الله، وقتل قاتل أبي عامر، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اغفر لعبيد أبي عامر وأهله، واجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك» واستغفر لأبي موسى [البخاري: ٢٨٨٤، ومسلم: ٦٤٠٦].

ومضى مالك بن عوف حتى تحصن بحصن ثقيف، وأمر رسول الله ﷺ بالسبي والغنائم أن تُجمَعَ فجمع ذلك كله، ووجهه إلى الجعرانة، وكان السبي ستة آلاف رأس، والإبل أربعة وعشرين ألفاً، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة، فاستأنى بهم رسول الله ﷺ أن يقدموا عليه مسلمين بضع عشرة ليلة.

(أعطى المؤلف قلوبهم)

أول الناس منهم أبو سفيان وحكيم بن حزام

ثم بدأ بالأموال قسمها، وأعطى المؤلف قلوبهم أول الناس، فأعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية، ومئة من الإبل، فقال: ابني يزيد؟ فقال: «أعطوه أربعين أوقية ومئة من الإبل»، فقال: ابني معاوية؟ قال: «أعطوه أربعين أوقية، ومائة من الإبل»، وأعطى حكيم بن حزام مئة من الإبل، ثم سأله مئة أخرى فأعطاه، وأعطى النضر بن الحارث ابن كلفة مئة من الإبل، وأعطى العلاء بن حارثة الثقفي خمسين، وذكر أصحاب المئة - وأصحاب الخمسين - وأعطى العباس بن مرداس أربعين، فقال في ذلك شعراً، فكمل له المئة.

ثم أمر زيد بن ثابت بإحصاء الغنائم والناس، ثم فضها على الناس، فكانت سهامهم لكل رجل أربعاً من الإبل وأربعين شاة. فإن كان فارساً أخذ اثني عشر بغيراً وعشرين ومئة شاة.

(إرضاه المؤلف الانصار)

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن أبي سعيد الخدري قال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش، وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت فيهم القالة، حتى قال قائلهم: لقي والله رسول الله ﷺ قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة، فقال: يا رسول الله! إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في

(١) ابن هشام (٦٨٤) والشعر في البخاري باب قول الله تعالى: «لَقَدْ صَرَّفَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاقِلَ كَثِيرَةٍ وَرِيمَ حَسِينٍ إِذْ اقْبَلَتُمُ

كُرْبَتَكُمْ ثُمَّ ثَقَنَ عَنْكُمْ سَبِيحًا وَمَضَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحَّبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ» [مسلم (٤٦١٥)].

وأجلسها عليه وخيرها، فقال: «إِنْ أَحْبَبْتَ الْإِقَامَةَ فَعِنْدِي مُحَبَّةٌ مُكْرَمَةٌ، وَإِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ أَمْتَعَكَ فَتَرْجِعِي إِلَى قَوْمِكَ؟» قالت: بل تَمَتَّعْنِي وترُدَّنِي إلى قومي، ففعل، فزعمت بنو سعد أنه أعطاها غلاماً يقال له: مكحول وجارية، فزوجت إحداهما من الآخر، فلم يزل فيهم من نسلهما بقية. وقال أبو عمر: فأسلمت، فأعطاها رسول الله ﷺ ثلاثة أعبد وجارية، ونعماً، وشاء، وسماها حذافة. وقال: والشيماء لقب [اسد الغابة: ٧٠٤٩، والإصابة: ٤/ ٢٣٥].

فصل

(قدم وفد هوازن)

وقدم وفد هوازن على رسول الله ﷺ، وهم أربعة عشر رجلاً، ورأسهم زهير بن صرد، وفيهم أبو برقان عم رسول الله ﷺ من الرضاعة، فسألوه أن يَمُنَّ عليهم بالسني والاموال، فقال: «إِنْ مَعِيَ مَنْ تَرُدُّنَ، وَإِنْ أَحَبَّ الْحَدِيثَ إِلَيَّ أَضَدَّقُهُ، فَأَبْنَاؤُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ أَمْ أَمْوَالُكُمْ؟» قالوا: ما كنا نعيد بالأحساب شيئاً. فقال: «إِذَا صَلَّيْتُ الْغَدَاةَ فَقُومُوا فَقُولُوا: إِنَّا نَسْتَغْفِرُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَنَسْتَغْفِرُ بِالْمُؤْمِنِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَرُدُّوا عَلَيْنَا سَيِّئَنَا»، فلما صلى الغداة، قاموا فقالوا ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَهُوَ لَكُمْ، وَسَأَسْأَلُ لَكُمْ النَّاسَ»، فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، فقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم، فلا. وقال عبيدة بن حصن: أما أنا وبنو قزارة فلا. وقال العباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم، فلا. فقالت بنو سليم: ما كان لنا، فهو لرسول الله ﷺ. فقال العباس بن مرداس: وهتتموني، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ قَدْ جَاءُوا مُسْلِمِينَ، وَقَدْ كُنْتُ اسْتَأْنَيْتُ سَيِّئَهُمْ، وَقَدْ خَيْرْتُهُمْ، فَلَمْ يَعْدِلُوا بِالْأَبْنَاءِ وَالنِّسَاءِ شَيْئاً، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْهُنَّ شَيْءٌ، فَطَابَتْ نَفْسُهُ بَأْنِ يَرُدَّهُ، فَسِيْلُ ذَلِكَ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَسْتَمْسِكَ بِحَقِّهِ، فَلْيَرُدَّ عَلَيْهِمْ، وَلَهُ بِكُلِّ قَرِيضَةٍ سِتُّ فَرَاضٍ مِنْ أَوَّلِ مَا يَفِيءُ اللَّهُ عَلَيْنَا»، فقال الناس: قد طينا لرسول الله ﷺ. فقال: «إِنَّا لَا نَعْرِفُ مَنْ رَضِيَ مِنْكُمْ مِمَّنْ لَمْ يَرْضَ، فَارْجِعُوا حَتَّى يَرْفَعَ إِلَيْنَا عِرْفَاؤُكُمْ

هذا الفيء الذي أصبَتْ، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء». قال: «فَأَيُّنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟» قال: يا رسول الله! ما أنا إلا من قومي. قال: فاجتمع لي قَوْمُكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ؟ قال: فجاء رجال من المهاجرين، فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا، أتى سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَنَّى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ مَا قَالَهُ بَلَعْتَنِي عَنْكُمْ، وَجِدَّةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ، أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَالاً فَهَذَا كُمْ اللَّهُ بِي، وَغَالَةً فَأَعْنَاكُمُ اللَّهُ بِي، وَأَعْدَاءَةً فَأَلَفْتُ اللَّهَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟» قالوا: الله ورسوله أمرنا وأفضل. ثم قال: «أَلَا تُحِبُّونِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟» قالوا: بماذا نحبُّكَ يا رسول الله، إِلَهُ وَلِرَسُولِهِ الْمُنُّ وَالْفَضْلُ. قال: «أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ، لَقُلْتُمْ، فَلَصَدَقْتُمْ وَلَصُدِّقْتُمْ: أَتَيْنَا مُكْذِباً فَصَدَّقْتَنَا، وَمَخْذُولاً فَتَصَرَّنَا، وَظَرِيداً فَأَوَّيَّنَا، وَعَائِلاً فَأَسَيْنَا، أَوْجَدْتُمْ عَلَيَّ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِكُمْ فِي لَعَاةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْماً لِيُسَلِّمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ، أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالنِّسَاءِ وَالتَّبَعِ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى رِحَالِكُمْ، قَوْلِي نَفْسٌ مُحَبَّةٌ بِيَدِهِ لَمَّا تَقْبَلُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ، وَلَوْ لَا الْهَجْرَةُ، لَكُنْتُ أَمْرَةً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْباً وَوَادِياً، وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْباً وَوَادِياً لَسَلَكَتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ وَوَادِيَهَا، الْأَنْصَارُ شِعَارٌ، وَالنَّاسُ دِتَارٌ، اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، قَالَ: فبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَسَمًا وَحِظًا، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَفَرَّقُوا [صحيح: احمد: ١١٧٣٠].

(قدم اخته ﷺ من الرضاعة)

وقدمت الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة، فقالت: يا رسول الله! إني أحتك من الرضاعة، قال: وما علامة ذلك؟ قالت: عَصَةٌ عَضَضْتُهَا فِي ظَهْرِي، وَأَنَا مَتَوَرِّكُكَ. قال: فعرف رسول الله ﷺ العلامة، فبسط لها رداءه،

أَمَرَكُمْ، فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم [ابن هشام (٧٠٩)، وينحو البخاري: ٤٣١٨-٤٣١٩].

ولم يتخلف منهم أحد غير عيينة بن حصن، فإنه أبى أن يرد عجزاً صارت في يديه، ثم ردها بعد ذلك، وكسا رسول الله ﷺ السبي قبطية قبطية.

فصل

في الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة

من المسائل الفقهية والتكت الحكيمية

(تسببت حرب هوازن له ﷺ هي إظهار أمر الله)

كان الله عز وجل قد وعد رسوله، وهو صادق الوعد، أنه إذا فتح مكة، دخل الناس في دينه أفواجا، ودانت له العرب بأسرها، فلما تم له الفتح المبين، اقتضت حكمته تعالى أن أمسك قلوب هوازن ومن تبعها عن الإسلام، وأن يجمعوا ويتألبوا لحرب رسول الله ﷺ والمسلمين، ليظهر أمر الله، وتمايم إعزازه لرسوله، ونصره لدينه، ولتكون غنائمهم شكرانا لأهل الفتح، وليظهر الله - سبحانه - رسوله وعباده، وقهره لهذه الشوكة العظيمة التي لم يلقي المسلمون مثلها، فلا يقاومهم بعد أحد من العرب، ولغير ذلك من الحكم الباهرة التي تلوح للمتأملين، وتبدو للمتوسمين.

(كانت هزيمة المسلمين في)

أول المعركة لتعليمهم عدم الاعتزاز بقوتهم)

واقتضت حكمته سبحانه أن أذاق المسلمين أولاً مرارة الهزيمة والكسرة مع كثرة عددهم، وعددهم، وقوة شوكتهم ليُطامِنَ رؤوساً رُفِعَت بالفتح، ولم تدخل بلده وحرمة كما دخله رسول الله ﷺ واضعاً رأسه متحنياً على فرسه، حتى إن ذقته تكاد تَمَسُّ سرجه تواضعاً لربه، وخضوعاً لعظمته، واستكانة لعزته، أن أحل له حَرَمُهُ وبلده، ولم يَجَلْ لأحد قبله ولا لأحد بعده، وليبين سبحانه لمن قال: «لَنْ تُغْلِبَ الْيَوْمَ عَنْ قَلْبِهِ» أن النصر إنما هو من عنده، وأنه من ينصره، فلا غالب له، ومن يخذله، فلا ناصر له غيره، وأنه سبحانه هو الذي تولى نصر رسوله ودينه، لا كثرتمكم التي أعجبتكم، فإنها لم تُغن عنكم شيئاً، فوليتُم مدبرين، فلما انكسرت قلوبهم، أرسلت إليها

خِلْعَ الجبر مع برّيد النصر، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنوداً لم تروها، وقد اقتضت حكمته أن خِلْعَ النصر وجوازه إنما تفيض على أهل الانكسار، ﴿وَرُبِّدْ أَنْ تَكُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَفْهِقُوا فِي الْأَرْضِ وَجَمَلَهُمْ آمِنَةً وَجَمَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ وتبين لهم في الأرض وتري فرعون وتكمن ويخودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾ (القصص: ٥-٦).

(الإكرام بالغنائم الكثيرة بعد أن منعوا غنائم مكة)

ومنها: إن الله سبحانه لما منع الجيش غنائم مكة، فلم يغنموا منها ذهباً، ولا فضة، ولا متاعاً، ولا سبيّاً، ولا أرضاً كما روى أبو داود، عن وهب بن منبه، قال: سألت جابراً: هل غنموا يوم الفتح شيئاً؟ قال: لا [أبو داود: ٤٣٠٢٣]. وكانوا قد فتحوها بإيجاف الخيل والركاب، وهم عشرة آلاف، وفيهم حاجة إلى ما يحتاج إليه الجيش من أسباب القوة، فحرك سبحانه قلوب المشركين لغزوهم، وقذف في قلوبهم إخراج أموالهم، ونعيمهم، وشأنهم، وسبيهم معهم تزيلاً، وضيافة، وكرامة، لحزبه وجنده، وتتم تقديره سبحانه بأن أطمعهم في الظفر، والاح لهم مبادئ النصر، ليقتضي الله أمراً كان مفعولاً، فلما أنزل الله نصره على رسوله وأوليائه، وبرد الغنائم لأهلها، وجرت فيها سهام الله ورسوله، قيل: لا حاجة لنا في دمائكم، ولا في نسائكم وذرائكم، فأوحى الله سبحانه إلى قلوبهم التوبة والإنابة، فجاؤوا مسلمين. فقيل: إن من شكر إسلامكم وإتيانكم، أن نرد عليكم نساءكم وأبناءكم وسبيكم ﴿إِنْ يَسْكُنَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرٌ فَوْقَكُمْ خَيْرٌ مِمَّا آخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنفال: ٧٠).

(اشتراك الملائكة في غزوتي بدر وحنين)

ومنها: أن الله سبحانه افتتح غزو العرب بغزوة بدر، وختم غزوهم بغزوة حنين، ولهذا يقرن بين هاتين الغزوتين بالذكر، فيقال: بدر وحنين، وإن كان بينهما سبع سنين، والملائكة قاتلت بأنفسها مع المسلمين في هاتين الغزوتين، والنبي ﷺ رمى في وجوه المشركين بالحصباء فيهما، وبهاتين الغزوتين طُفِئَت جمرَةُ العرب لغزو رسول الله ﷺ والمسلمين،

فالأولى: خوفتهم وكسرت من حُدِّهم، والثانية: استفرغت قواهم، واستنفدت سهامهم، وأذلت جمعهم حتى لم يجدوا بُدًّا من الدخول في دين الله.

ومنها: أن الله سبحانه جَبَّرَ بها أهل مكة، وفرَّحهم بما نالوه من النصر والمغنم، فكانت كالدواء لما نالهم من كسرهم، وإن كان عين جبرهم، وعرفهم تمام نعمته عليهم بما صرف عنهم من شر هوازن، فإنه لم يكن لهم بهم طاقة، وإنما نُصِرُوا عليهم بالمسلمين، ولو أفردوا عنهم، لأكلهم عدوهم، إلى غير ذلك من الحكم التي لا يُحيط بها إلا الله تعالى.

فصل

(إيجاب بعث العيون والسير إلى العدو إذا سمع بقصدته له)

وفيها: من الفقه أن الإمام ينبغي له أن يبعث العيونَ ومن يدخل بين عدوه ليأتيه بخبرهم، وأن الإمام إذا سمع بقصد عدوه له، وفي جيشه قوة ومنعة لا يقعد ينتظرهم، بل يسير إليهم، كما سار رسول الله ﷺ إلى هوازن حتى لقيهم بئنين.

(جواز استعارة سلاح المشركين)

ومنها: أن الإمام له أن يستعير سلاح المشركين وعُدَّتْهم لِقِتال عدوه، كما استعار رسول الله ﷺ أدرع صفوان، وهو يومئذ مشرك.

(من تمام التوكل استعمال الأسباب)

ومنها: أن من تمام التوكل استعمال الأسباب التي نصبها الله لمسيباتها قدراً وشرعاً، فإن رسول الله ﷺ وأصحابه أكمل الخلق توكلًا، وإنما كانوا يَلْقَوْنَ عدوهم، وهم متحصنون بأنواع السلاح، ودخل رسول الله ﷺ مكة، واليَئِزَّة على رأسه، وقد أنزل الله عليه: ﴿وَاللَّهُ يَمْشِيكَ بَيْنَ الْكَاثِبِينَ﴾ [الفائدة: ٦٧].

وكثير ممن لا تحقيق عنده، ولا رسوخ في العلم يستشكل هذا، ويتكاسى في الجواب تارة بأن هذا فعله تعليمًا للأمة، وتارة بأن هذا كان قبل نزول الآية. ووقعت في مصر مسألة سأل عنها بعض الأمراء، وقد ذُكِرَ له حديث ذكره أبو القاسم بن عساكر في تاريخه الكبير أن رسول الله ﷺ كان بعد أن أهدت له اليهودية الشاة المسمومة لا يأكل طعاماً قُدِّمَ له حتى يأكل منه من قُدِّمه.

قالوا: وفي هذا أسوة للملوك في ذلك. فقال قائل: كيف يُجمع بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَمْشِيكَ بَيْنَ الْكَاثِبِينَ﴾ فإذا كان الله سبحانه قد ضمن له العِصْمَةَ، فهو يعلم أنه لا سبيل لبشر إليه.

وأجاب بعضهم بأن هذا يدل على ضعف الحديث، وبعضهم بأن هذا كان قبل نزول الآية، فلما نزلت لم يكن ليفعل ذلك بعدها. ولو تأمل هؤلاء أن ضمان الله له العِصْمَةُ، لا يُنافي تعاطيه لأسبابها، لأغناهم عن هذا التكلف، فإن هذا الضمان له من ربه تبارك وتعالى لا يُناقض احتراسه من الناس، ولا يُنافي، كما أن إخبار الله سبحانه له بأنه يظهر دينه على الدين كله، ويُعليه، لا يُناقض أمره بالقتال، وإعداد العُدَّة، والقوة، وريباط الخيل، والأخذ بالجد، والحدز، والاحتراس من عدوه، ومحاربه بأنواع الحرب، والتورية، فكان إذا أراد الغزوة، ورى غيرها، وذلك لأن هذا إخبار من الله سبحانه عن عاقبة حاله ومآله بما يتعاطاه من الأسباب التي جعلها الله مُقْضِيَةً إلى ذلك، مُقْضِيَةً له، وهو ﷺ أعلم بربه، وأتبع لأمره من أن يعطل الأسباب التي جعلها الله له بحكمته موجبة لما وعده به من النصر والظفر، إظهار دينه، وغلبيته لعدوه، وهذا كما أنه سبحانه ضمن له حياته حتى يبلغ رسالاته، ويظهر دينه، وهو يتعاطى أسباب الحياة من المأكَل والمشرب، والملبس والسكن، وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس، حتى آل ذلك ببعضهم إلى أن ترك الدعاء، وزعم أنه لا فائدة فيه، لأن المسؤول إن كان قد قُدِّرَ، ناله ولا بد، وإن لم يُقَدَّرْ، لم ينله، فأبي فائدة في الاشتغال بالدعاء؟ ثم تكاسى في الجواب، بأن قال: الدعاء عبادة، فيقال لهذا الغلط: بقي عليك قسم آخر - وهو الحق - أنه قد قُدِّرَ له مطلوبه بسبب إن تعاطاه، حصل له المطلوب، وإن عطل السبب، فاته المطلوب، والدعاء من أعظم الأسباب في حصول المطلوب، وما مثل هذا الغلط إلا مثل من يقول: وإن كان الله قد قُدِّرَ لي الشيع، فانا أشيع، أكلتُ أو لم أكل، إن لم يقدر لي الشيع، لم أشيع أكلتُ أو لم أكل، فما فائدة الأكل؟ وأمثال هذه

الترهات الباطلة المنافية لحكمة الله تعالى وشرعه، وبالله التوفيق.

فصل

(هل العارية مضمونة؟)

وفيها: أن النبي ﷺ شرط لصفوان في العارية الضمان، فقال: «بَلْ عَارِيَّةٌ مَّضْمُونَةٌ» فهل هذا إخبار عن شرعه في العارية، ووصف لها بوصف شرعه الله فيها، وأن حكمها الضمان كما يُضمن المغصوب، أو إخبار عن ضمانها بالأداء بعينها، ومعناه: أني ضامن لك تأديتها، وأنها لا تذهب، بل أردما إليك بعينها؟ هذا مما اختلف فيه الفقهاء.

فقال الشافعي وأحمد بالأول، وأنها مضمونة بالتلف. وقال أبو حنيفة ومالك بالثاني، وأنها مضمونة بالرد على تفصيل في مذهب مالك، وهو أن العين إن كانت مما لا يُغاب عليه، كالحيوان والعقار، لم تضمن بالتلف إلا أن يظهر كذبه، وإن كانت مما يغاب عليه كالحلي ونحوه، ضمنت بالتلف إلا أن يأتي بينة تشهد على التلف، وسر مذهبه أن العارية أمانة غير مضمونة كما قال أبو حنيفة، إلا أنه لا يقبل قوله فيما يخالف الظاهر، فلذلك فرق بين ما يُغاب عليه، وما لا يغاب عليه.

وماخذ المسألة أن قوله ﷺ لصفوان: «بَلْ عَارِيَّةٌ مَّضْمُونَةٌ»، هل أراد به أنها مضمونة بالرد أو بالتلف؟ أي: أضمنها إن تلفت، أو أضمن لك ردّها، وهو يحتمل الأمرين، وهو في ضمان الرد أظهر لثلاثة أوجه:

أحدها: أن في اللفظ الآخر: «بَلْ عَارِيَّةٌ مُّؤَدَّاةٌ»، فهذا يبيّن أن قوله: «مضمونة»، المراد به: المضمونة بالأداء.

الثاني: أنه لم يسأله عن تلفها، وإنما سأله هل تأخذها مني أخذ غصب تحولّ بيني وبينها؟ فقال: «لا بل أخذ عارية أوديتها إليك». ولو كان سأله عن تلفها وقال: أخاف أن تذهب، لناسب أن يقول: أنا ضامن لها إن تلفت.

الثالث: أنه جعل الضمان صفة لها نفسها، ولو كان ضمان تلف، لكان الضمان ليبدلها، فلما وقع

الضمان على ذاتها، دل على أنه ضمان أداء.

فإن قيل: ففي القصة أن بعض الدروع ضاع، فعرض عليه النبي ﷺ أن يضمنها، فقال: أنا اليوم في الإسلام أرغب، قيل: هل عرض عليه أمراً واجباً أو أمراً جائزاً مستحباً الأولى فعله، وهو من مكارم الأخلاق والشم، ومن محاسن الشريعة؟ وقد يترجح الثاني بأنه عرض عليه الضمان، ولو كان الضمان واجباً، لم يعرضه عليه، بل كان يفي له به، ويقول: هذا حقك، كما لو كان الذاهب بعينه موجوداً، فإنه لم يكن ليعرض عليه رده فتأمله.

فصل

(جواز عقر مركوب العدو إذا كان عوناً على قتله)

وفيها: جواز عقر فرسي العدو ومركوبه إذا كان ذلك عوناً على قتله، كما عقر علي - رضي الله عنه - جمل حامل راية الكفار، وليس هذا من تعذيب الحيوان المنهي عنه.

(عقوه ﷺ عن هم بقتله)

وفيها: عقو رسول الله ﷺ عن هم بقتله، ولم يُعاجله، بل دعا له ومسح صدره حتى عاد، كأنه ولي حميم.

(إخباره ﷺ بشبهة بما أضمر)

في نفسه ونياته وقد تولى عنه الناس)

ومنها: ما ظهر في هذه الغزاة من معجزات النبوة وآيات الرسالة، من إخباره لشبهة بما أضمر في نفسه، ومن ثباته، وقد تولى عنه الناس، وهو يقول:

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ
وقد استقبلته كتائب المشركين.

ومنها: إيصال الله قبضته التي رمى بها إلى عيون أعدائه على البعد منه، وبركته في تلك القبضة، حتى ملأت أعين القوم، إلى غير ذلك من معجزاته فيها، كنزول الملائكة للقتال معه، حتى رآهم العدو جهرة، ورآهم بعض المسلمين.

(جواز انتظار إسلام الكفار)

حتى ترد عليهم أموالهم قبل قسمها)

ومنها: جواز انتظار الإمام بقسم الغنائم إسلام

الكفار ودخولهم في الطاعة، فإرد عليهم غنائمهم وسيبهم، وفي هذا دليل لمن يقول: إن الغنيمة إنما تُملك بالقسمة، لا بمجرد الاستيلاء عليها، إذ لو ملكها المسلمون بمجرد الاستيلاء، لم يستأن بهم النبي ﷺ ليردها عليهم، وعلى هذا فلو مات أحد من الغانمين قبل القسمة، أو إحرازها بدار الإسلام، رُدَّ نصيبه على بقية الغانمين دون ورثته، وهذا مذهب أبي حنيفة، لو مات قبل الاستيلاء لم يكن لورثته شيء، ولو مات بعد القسمة، فسهمة لورثته.

فصل

(هل العطاء الذي أعطاه ﷺ لقريش والمؤلفة قلوبهم من

أصل الغنيمة أو من الخمس أو من خمس الخمس؟)

وهذا العطاء الذي أعطاه النبي ﷺ لقريش، والمؤلفة قلوبهم، هل هو من أصل الغنيمة أو من الخمس، أو من خمس الخمس؟ فقال الشافعي ومالك: هو من خمس الخمس، وهو سهمه ﷺ الذي جعله الله له من الخمس، وهو غير الصفّي وغير ما يُصيبه من المغنم، لأن النبي ﷺ لم يستأذن الغانمين في تلك العطية. ولو كان العطاء من أصل الغنيمة، لاستأذَنهم لأنهم ملكوها بحوزها والاستيلاء عليها، وليس من أصل الخمس، لأنه مقسوم على خمسة، فهو إذاً من خمس الخمس. وقد نص الإمام أحمد على أن النفل يكون من أربعة أخماس الغنيمة، وهذا العطاء هو من النفل، نَقَلَ النبي ﷺ به رؤوس القبائل والعشائر ليتألفهم به وقومهم على الإسلام، فهو أولى بالجواز من تنفيل الثلث بعد الخمس، والرّبع بعده، لما فيه من تقوية الإسلام وشوكة وأهله، واستجلاب عدوه إليه، هكذا وقع سواء كما قال بعض هؤلاء الذي نقلهم: لقد أعطاني رسول الله ﷺ وإنه لأبغض الخلق إليّ، فما زال يُعطيني حتى إنه لأحب الخلق إليّ، فما ظنك بعطاءٍ قوَى الإسلام وأهله، وأذلّ الكفر وجزيه، واستجلب به قلوب رؤوس القبائل والعشائر الذين إذا غضبوا، غَضِبَ لغضبهم أتباعهم، وإذا رَضُوا رَضُوا لرضاهم. فإذا أسلم هؤلاء، لم يتخلف عنهم أحدٌ من قومهم، فإلّا ما أعظم موقع هذا العطاء، وما أجده وأنفعه للإسلام وأهله.

ومعلوم: أن الأنفال لله ولرسوله يقسمها رسوله حيث أمره لا يتعدى الأمر، فلو وضع الغنائم بأسرها في هؤلاء لمصلحة الإسلام العامة، لما خرج عن الحكمة والمصلحة والعدل، ولما عَمِيَتْ أبقارُ ذي الخويصرة التميمي وأضرابه عن هذه المصلحة والحكمة. قال له قائلهم: اغدِلْ فإنك لم تعدل. وقال مشبهه: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله، ولعمر الله إن هؤلاء من أجهل الخلق برسوله، ومعرفة بربه، وطاعته له، وتما عده، وإعطائه الله، ومنعه الله، والله - سبحانه - أن يقسم الغنائم كما يحب، وله أن يمنعه الغانمين جملة كما منعهم غنائم مكة، وقد أوجفوا عليها بخيلهم وركابهم، وله أن يُسلط عليها ناراً من السماء تأكلها، وهو في ذلك كله عدلٌ العادلين، وأحكمُ الحاكمين، وما فعل ما فعله من ذلك عبثاً، ولا قُدْرَةُ سُدَى، بل هو عين المصلحة والحكمة والعدل والرحمة، مصدره كمال علمه، وعزته، وحكمته، ورحمته، ولقد أتم نعمته على قوم ردهم إلى منازلهم برسوله ﷺ يقودونه إلى ديارهم، وأرضى من لم يعرف قدر هذه النعمة بالشاة والبعر، كما يعطي الصغير ما يناسب عقله ومعرفة، ويعطي العاقل اللبيب ما يناسبه، وهذا فضله، وليس هو سبحانه تحت حجر أحد من خلقه، فيوجبون عليه بعقولهم، ويُحرمون، ورسوله منفذٌ لأمره.

فإن قيل: فلو دعت حاجة الإمام في وقت من الأوقات إلى مثل هذا مع عدوه، هل يسوغ له ذلك؟

قيل: الإمام نائب عن المسلمين يتصرف لمصالحهم، وقيام الدين. فإن تعيّن ذلك للدفع عن الإسلام، والذب عن حوزته، واستجلاب رؤوس أعدائه إليه ليأمن المسلمون شرهم، ساء له ذلك، بل تمين عليه، وهل تجوز الشريعة غير هذا، فإنه وإن كان في الحرمان مفسدة، فالمفسدة المتوقّعة من فوات تأليف هذا العدو أعظم، ومبنى الشريعة على دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناهما، وتحصيل أكمل المصلحتين بتفويت أدناهما، بل بناء مصالح الدنيا والدين على هذين الأصلين. وبالله التوفيق.

فصل

وفيها: أن النبي ﷺ قال: «من لم يُطَيّب نفسه، قلّه

بِكُلِّ فَرِيضَةٍ سِتُّ فَرَائِضٍ مِنْ أَوَّلِ مَا يَفِيءُ اللَّهُ عَلَيْنَا».

(جواز بيع الرقيق والحيوان ببعضه ببعض نسيئة ومتفاضلاً)
ففي هذا دليل على جواز بيع الرقيق، بل الحيوان
بعضه ببعض نسيئة ومتفاضلاً.

وفي «السنن» من حديث عبد الله بن عمرو، أن
رسول الله ﷺ أمره أن يجهز جيشاً، فنفتت الإبل،
فأمره أن يأخذ على قلائص الصدقة، وكان يأخذ
البعير بالبعيرين إلى إبل الصدقة [صحيح: أحمد: ٧٠٢٥،
والدارقطني (٣١٨)].

وفي «السنن» عن ابن عمر، عنه ﷺ أنه نهى عن
بَيْعِ الْحَيَوَانِ بِالْحَيَوَانِ نَسِيئَةً. ورواه الترمذي من
حديث الحسن عن سمرة، وصححه^(١).

وفي الترمذي من حديث الحجاج ابن أرطاة، عن
أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ:
«الْحَيَوَانُ اثْنَانِ بِوَاحِدٍ لَا يَصْلُحُ نَسِيئَةً، وَلَا بَأْسَ بِهِ يَدَا
بَيْدٍ» قال الترمذي: حديث حسن [الترمذي: ١٢٣٨، وابن
ماجه: ٢٢٧١].

فاختلف الناس في هذه الأحاديث، على أربعة
أقوال، وهي روايات عن أحمد.

أحدها: جواز ذلك متفاضلاً، ومتساوياً نسيئة،
ويداً بيد، وهو مذهب أبي حنيفة، والشافعي.

والثاني: لا يجوز ذلك نسيئة، ولا متفاضلاً.

والثالث: يحرم الجمع بين النساء والتفاضل،
ويجوز البيع مع أحدهما، وهو قول مالك -
رحمه الله -.

والرابع: إن اتحد الجنس، جاز التفاضل، وحرم
النساء، وإن اختلف الجنس، جاز التفاضل والنساء.

وللناس في هذه الأحاديث والتأليف بينها ثلاثة
مسالك:

أحدها: تضعيف حديث الحسن عن سمرة، لأنه
لم يسمع منه سوى حديثين ليس هذا منهما، وتضعيف
حديث الحجاج بن أرطاة.

والمسلك الثاني: دعوى النسخ، وإن لم يتبين
المتأخر منها من المتقدم، ولذلك وقع الاختلاف.

والمسلك الثالث: حملها على أحوال مختلفة،
وهو أن النهي عن بيع الحيوان بالحيوان نسيئة، إنما
كان لأنه ذريعة إلى النسيئة في الربويات، فإن البائع
إذا رأى ما في هذا البيع من الربح لم تقتصر نفسه
عليه، بل تجره إلى بيع الربوي كذلك، فسد عليهم
الذريعة، وأباحه يداً بيد، ومنع من النساء فيه، وما
حرم للذريعة يُباح للمصلحة الراجحة، كما أباح من
المُزَانَةِ العرايا للمصلحة الراجحة، وأباح ما تدعو
إليه الحاجة منها، وكذلك بيع الحيوان بالحيوان نسيئة
متفاضلاً في هذه القصة، وفي حديث ابن عمر إنما
وقع في الجهاد، وحاجة المسلمين إلى تجهيز
الجيش، ومعلوم أن مصلحة تجهيزه أرجح من
المفسدة في بيع الحيوان بالحيوان نسيئة، والشرعة لا
تُعطلُّ المصلحة الراجحة لأجل المرجوحة، ونظير
هذا جواز لبس الحرير في الحرب، وجواز الخلاء
فيها، إذ مصلحة ذلك أرجح من مفسدة لبسه، ونظير
ذلك لباسه القباء الحرير الذي أهده له ملك أيلة
ساعة، ثم نزع للمصلحة الراجحة في تأليفه وجبره،
وكان هذا بعد النهي عن لباس الحرير، كما بيناه
مستوفى في كتاب «التخيير فيما يحل ويحرم من لباس
الحرير» وبيّنا أن هذا كان عام الوفود سنة تسع، وأن
النهي عن لباس الحرير كان قبل ذلك، بدليل أنه نهى
عمر عن لبس الحلة الحرير التي أعطاه إياها، فكساها
عمر أخاً له مشركاً بمكة، وهذا كان قبل الفتح،
ولباسه ﷺ هدية ملك أيلة كان بعد ذلك، ونظير هذا
نهيه ﷺ عن الصلاة قبل طلوع الشمس، وبعد
العصر، سداً للذريعة التشبه بالكفار، وأباح ما فيه
مصلحة راجحة من قضاء الفوائت، وقضاء السنن،
وصلاة الجنازة، وتحية المسجد، لأن مصلحة فعلها
أرجح من مفسدة النهي. والله أعلم.

وفي القصة دليل على أن المتعاقدين إذا جعلوا
بينهما أجلاً غير محدود، جاز إذا اتفقا عليه ورضيا

(١) حديث ابن عمر لم يخرج له أحد من أهل السنن، إنما قال الترمذي: وفي الباب عن ابن عمر... وقد رواه الطحاوي في
شرح «معاني الآثار» (٢/٢٢٩) وسنده حسن في الشواهد، وحديث الحسن عن سمرة أخرجه أبو داود (٣٣٥٦)،
والنسائي (٧/٢٩٢)، وابن ماجه (٢٢٧٠).

به، وقد نص أحمد على جوازه في رواية عنه في الخيار مدة غير محدودة، أنه يكون جائزاً حتى يقطعاه، وهذا هو الراجح، إذ لا محذور في ذلك، ولا عذر، وكل منهما قد دخل على بصيرة ورضى بموجب العقد، فكلاهما في العلم به سواء، فليس لأحدهما مزية على الآخر، فلا يكون ذلك ظلماً.

فصل

(هل السلب مستحق بالشرع أو بالشرط؟)

وفي هذه الغزوة أنه قال: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا، لَهُ عَلَيْهِ يَتَنَةٌ، فَلَهُ سَلْبُهُ» [البخاري: ٣١٤٢، ومسلم: ٤٥٦٦] وقاله في غزوة أخرى قبلها، فاختلف الفقهاء، هل هذا السلب مستحق بالشرع أو بالشرط؟ على قولين، هما روايتان عن أحمد.

أحدهما: أنه له بالشرع، شرطه الإمام أو لم يشرطه، وهو قول الشافعي.

والثاني: أنه لا يستحق إلا بشرط الإمام، وهو قول أبي حنيفة. وقال مالك رحمه الله: لا يستحق إلا بشرط الإمام بعد القتال. فلو نص قبله، لم يجز. قال مالك: ولم يبلغني أن النبي ﷺ قال ذلك إلا يوم حنين، وإنما نقل النبي ﷺ بعد أن برد القتال.

وما أخذ النزاع أن النبي ﷺ كان هو الإمام، والحاكم، والمفتي، وهو الرسول، فقد يقول الحكم بمنصب الرسالة، فيكون شرعاً عاماً إلى يوم القيامة كقوله: «مَنْ أَخَذَتْ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ» [البخاري: ٢٦٩٧، ومسلم: ٤٤٩٢]. وقوله: «مَنْ زَرَعَ فِي أَرْضِ قَوْمٍ يَغْيِرُ إِذْنَهُمْ فَلَيْسَ لَهُ مِنَ الزَّرْعِ شَيْءٌ، وَلَهُ نَفَقَتُهُ» [أحمد: ١٥٨٢١، وأبو داود: ٣٤٠٣، وابن ماجه: ٢٤٦٦، وفي سننه شريك وهو سَيِّئُ الحفظ] وكحكمه «بالشاهد، واليمين» [مسلم: ٤٤٧٢] «وبالشفعة فيما لم يُقَسِّمَ» [البخاري: ٢٢٥٧].

وقد يقول بمنصب الفتوى، كقوله لهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان، وقد شَكَتْ إليه شُحَّ زوجها، وأنه لا يُعْطِيها ما يكفيها: «خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكَ بِالنَّمْرُوفِ» [البخاري: ٥٣٦٤، ومسلم: ٤٤٧٧] فهذه فتيا لا حكم، إذ لم يدع بأبي سفيان، ولم يسأله عن جواب الدعوى، ولا سألها البيعة.

وقد يقوله بمنصب الإمامة، فيكون مصلحة للأمة في ذلك الوقت، وذلك المكان، وعلى تلك الحال، فيلزم من بعده من الأئمة مراعاة ذلك على حسب المصلحة التي راعاها النبي ﷺ زماناً ومكاناً وحالاً، ومن ها هنا تختلف الأئمة في كثير من المواضع التي فيها أثر عنه ﷺ، كقوله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ»، هل قاله بمنصب الإمامة، فيكون حكمه متعلقاً بالأئمة، أو بمنصب الرسالة والنبوة، فيكون شرعاً عاماً؟ وكذلك قوله: «مَنْ أَخْبَأَ أَرْضاً مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ» [البخاري: ٢٣٣٥] هل هو شرع عام لكل أحد، أذن فيه الإمام، أو لم ياذن، أو هو راجع إلى الأئمة، فلا يملك بالإحياء إلا بإذن الإمام؟ على القولين، فالأول: للشافعي وأحمد في ظاهر مذهبهما.

والثاني: لأبي حنيفة وفرق مالك بين الفلوات الواسعة، وما لا يتشاح فيه الناس، وبين ما يقع فيه التشاح، فاعتبر إذن الإمام في الثاني دون الأول.

فصل

(الاكتفاء في السلب بشاهد واحد من غير يمين)

وقوله ﷺ: «لَهُ عَلَيْهِ يَتَنَةٌ» دليل على مسألتين. إحداهما: أن دعوى القاتل أنه قتل هذا الكافر، لا تقبل في استحقاق سلبه.

الثانية: الاكتفاء في ثبوت هذه الدعوى بشاهد واحد من غير يمين، لما ثبت في الصحيح عن أبي قتادة قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حنين، فلما التقينا، كانت للمسلمين جولة، فرأيت رجلاً من المشركين قد علا رجلاً من المسلمين، فاستدرت إليه حتى أتته من ورائه، ففرضته على جبل عاتقه، وأقبل عليّ، فضممني ضمة، وجددتُ منها ريح الموت، ثم أدركه الموت، فأرسلني، فلحقني عمر بن الخطاب فقال: ما للناس؟ فقلت: أمر الله، ثم إن الناس رجعوا، وجلس رسول الله ﷺ فقال: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ يَتَنَةٌ، فَلَهُ سَلْبُهُ»، قال: فقمْتُ فقلت: من يشهد لي؟ ثم جلست، ثم قال مثل ذلك قال: فقمْتُ فقلت: من يشهد لي؟ ثم قال ذلك الثالثة، فقمْتُ، فقال رسول الله ﷺ: «مَا لَكَ يَا أَبَا قَتَادَةَ؟» فقصصْتُ عليه القِصَّةَ، فقال رجل من القوم: صدق يا رسول الله، وسلبُ ذلك القاتل عندي، فأرضه من حقه، فقال أبو

بكر الصديق: لَهَا اللَّهُ إِذَا لَا يَغْدُ إِلَى أَسَدٍ مِنْ أَسَدِ اللَّهِ يُقَاتِلُ عَنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَيُعْطِيكَ سَلْبَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَدَقَ فَأَعْطِيهِ إِثَّاءً»، فَأَعْطَانِي، فَبَعَثَ الدَّرْعَ، فَابْتَعْتُ بِهِ مَخْرَفًا فِي بَنِي سُلَيْمَةَ، فَإِنَّهُ لِأَوَّلِ مَالٍ تَأْتَلُهُ فِي الْإِسْلَامِ [البخاري: ٣١٤٢، ومسلم: ٤٥٦٦].

وفي المسألة ثلاثة أقوال، هذا أحدها، وهو وجه في مذهب أحمد. والثاني: أنه لا بد من شاهد ويمين، كإحدى الروایتين عن أحمد. والثالث: - وهو منصوص الإمام أحمد - أنه لا بُدَّ من شاهدين، لأنها دعوى قتل، فلا تقبل إلا بشاهدين.

(لا يشترط في الشهادة التلفظ بلفظ أشهد)

وفي القصة دليل على مسألة أخرى، وهي أنه لا يشترط في الشهادة التلفظ بلفظ «أشهد» وهذا أصح الروايات عن أحمد في الدليل، وإن كان الأشهر عند أصحابه الاشتراط، وهي مذهب مالك. قال شيخنا: ولا يُعرف عن أحد من الصحابة والتابعين اشتراط لفظ الشهادة، وقد قال ابن عباس: شهد عندي رجال مرضيون، وأرضاهم عندي عمر، أن رسول الله ﷺ نهى عن الصلاة بعد العصر، وبعد الصبح. ومعلوم: أنهم لم يتلفظوا له بلفظ أشهد، إنما كان مجرد إخبار. وفي حديث ماعز فلما شهد على نفسه أربع شهادات رجَّحه، وإنما كان منه مجرد إخبار عن نفسه، وهو إقرار، وكذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا عَنْ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقوله: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ لَكِبْرًا دُونِهَا وَكُفُّوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وقوله: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَنْشُدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِحُكْمِهِ وَاللَّهُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِأَلْفٍ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا أَخَذْنَاهُمْ مِنْ دِينِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَفَرَأَيْنَا قَالَ نَاشِدُونَا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، وقوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَاللَّهُ يَشْهَدُ وَأُولُوا الْكِتَابِ قَالُوا وَاللَّهُ يَشْهَدُ﴾ [آل عمران: ١٨]، إلى أضعاف ذلك مما ورد في القرآن والسنة من إطلاق لفظ الشهادة على الخبر المجرد عن لفظ أشهد.

وقد تنازع الإمام أحمد وعلي بن المديني في الشهادة للعشرة بالجنة، فقال علي: أقول: هم في

الجنة، ولا أقول: أشهد أنهم في الجنة. فقال الإمام أحمد: متى قلت: هم في الجنة، فقد شهدت. وهذا تصريح منه بأنه لا يشترط في الشهادة لفظ أشهد. وحديث أبي قتادة من أبين الحجج في ذلك.

فإن قيل: إخبار من كان عنده السلب إنما كان إقراراً بقوله: هو عندي، وليس ذلك من الشهادة شيء. قيل: تضمن كلامه شهادة وإقراراً بقوله: صدق، شهادة له بأنه قتله، وقوله: هو عندي: إقرار منه بأنه عنده، والنبي ﷺ إنما قضى بالسلب بعد البيعة، وكان تصديق هذا هو البيعة.

فصل

(جميع السلب للقاتل ولا يخمس)

وقوله ﷺ: «فله سلبه»، دليل على أن له سلبه كله غير مخمس، وقد صرح بهذا في قوله لسلمة بن الأكوع لما قتل قتيلاً: «لَهُ سَلْبُهُ أَجْمَعُ». وفي المسألة ثلاثة مذاهب، هذا أحدها.

والثاني: أنه يُخمس كالغنيمة، وهذا قول الأوزاعي وأهل الشام، وهو مذهب ابن عباس لدخوله في آية الغنيمة.

والثالث: أن الإمام إن استكثره خمسه، وإن استقله لم يخمسه وهو قول إسحاق، وفعله عمر بن الخطاب، فروى سعيد في «سننه» عن ابن سيرين، أن البراء بن مالك بارز مرزبان المرازبة بالبحرين، فطعته، فذُقَّ ضَلْبُهُ، وأخذ سِوَارِيَهُ وسلبه، فلما صلى عمر الظهر، أتى البراء في داره فقال: إنا كنا لا نُخَمِّسُ السَّلْبَ، وإن سلب البراء قد بلغ مالا، وأنا خائسه، فكان أول سلب خمس في الإسلام سلب البراء، وبلغ ثلاثين ألفاً. والأول: أصح، فإن رسول الله ﷺ لم يُخَمِّسِ السلب وقال: هو له أجمع، ومضت على ذلك سنته وسنة الصديق بعده، وما رآه عمر اجتهد منه أداه إليه رأيه.

والحديث يدل على أنه من أصل الغنيمة، فإن النبي ﷺ قضى به للقاتل، ولم ينظر في قيمته، وقدره، واعتبار خروجه من خمس الخمس، وقال مالك: هو من خمس الخمس، ويدل على أنه يستحقه من يسهم له، ومن لا يسهم له من صبي وامرأة، وعبد

وأغلقوه عليهم، وتهيؤوا للقتال، وسار رسول الله ﷺ، فنزل قريباً من حصن الطائف، وعسكر هناك، فرموا المسلمين بالنبل رمية شديداً، كأنه رجلٌ جرّادٍ حتى أصيب ناسٌ من المسلمين بجراحة، وقُتلَ منهم اثنا عشر رجلاً، فارتفع رسول الله ﷺ إلى موضع مسجد الطائف اليوم، وكان معه من نسائه أم سلمة وزينب، فضرب لهما قُتَيْن، وكان يُصلي بين القبتين مدة حصار الطائف، فحاصروهم ثمانية عشر يوماً [ابن سعد (١٥٨/٢)]، وقال ابن إسحاق: بضعاً وعشرين ليلة.

(أول منجنيف رمي به في الإسلام)

ونصب عليهم المنجنيق، وهو أول ما رمي به في الإسلام.

وقال ابن سعد: حدثنا قيسة، حدثنا سفيان، عن ثور بن يزيد، عن مكحول أن النبي ﷺ نصب المنجنيق على أهل الطائف أربعين يوماً^(٢).

(قطع اعناب ضيف)

قال ابن إسحاق: حتى إذا كان يوم الشذخة عند جدار الطائف، دخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ تحت دبابه، ثم دخلوا بها إلى جدار الطائف ليحرقوه، فأرسلت عليهم ثقيف سيكك الحديد مُحماة بالنار، فخرجوا من تحتها، فرمتهم ثقيف بالنبل، فقتلوا منهم رجلاً، فأمر رسول الله ﷺ بقطع اعناب ثقيف، فوقع الناس فيها يقطعون.

قال ابن سعد: فسأله أن يدعها لله وللرحم، فقال رسول الله ﷺ: «فإني أدعها لله وللرحم» فنّادى منادي رسول الله ﷺ: أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر، فخرج منهم بضعة عشر رجلاً، منهم أبو بكر، فاعتقهم رسول الله ﷺ ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة.

ومشرك، وقال الشافعي في أحد قولي: لا يستحق السلب إلا من يستحق السهم، لأن السهم المجمع عليه إذا لم يستحقه العبد والصبي، والمرأة والمشرک، فالسلب أولى، والأول أصح للعموم، ولأنه جار مجرى قول الإمام: من فعل كذا وكذا، أو دل على حصن، أو جاء برأس، فله كذا مما فيه تحريض على الجهاد والسهم مستحق بالحضور، وإن لم يكن منه فعل، والسلب مستحق بالفعل، فجرى مجرى الجمالة.

فصل

(يستحق القاتل سلب جميع من قتله وإن كثروا)

وفيه دلالة على أنه يستحق سلب جميع من قتله، وإن كثروا. وقد ذكر أبو داود أن أبا طلحة قتل يوم حنين عشرين رجلاً، فأخذ أسلابهم [أبو داود: ٢٧١٨].

فصل

في غزوة الطائف

في شوال سنة ثمان، قال ابن سعد: قالوا: ولما أراد رسول الله ﷺ المسير إلى الطائف، بعث الطفيل بن عمرو إلى ذي الكفّين: صنم عمرو بن حُصمة الدوسي، يهيمه، وأمره أن يستمد قومه، ويؤافيه بالطائف، فخرج سريعاً إلى قومه، فهدم ذا الكفّين، وجعل يحش النار في وجهه ويحرقه ويقول: يَا ذَا الْكَفّينِ لَسْتُ مِنْ عُبَادِكَ

مِيلَادُنَا أَقْدَمَ مِنْ مِيلَادِكَ
إِنِّي حَشَشْتُ النَّارَ فِي فُؤَادِكَ
وانحدر معه من قومه أربعمئة سراعاً، فوافوا النبي ﷺ بالطائف بعد مقدمه بأربعة أيام، وقدم بدبابة ومنجنيق^(١).

قال ابن سعد: ولما خرج رسول الله ﷺ من حنين يُريد الطائف، قدّم خالد بن الوليد على مقدمته، وكانت ثقيف قد رُموا حصنهم، وأدخلوا فيه ما يصلح لهم لسنة، فلما انهزموا من أوطاس، دخلوا حصنهم

(١) الدبابة: آلة من آلات الحرب تصنع من خشب، وتغشى بجلود، ويدخل فيها الرجال، فيدبونها إلى الأسوار لينقبوها، والمنجنيق: لفظة معربة وهي آلة ترى بها الحجارة الثقيلة.

(٢) ابن سعد (١٥٩/٢)، مرسل، وفي مسلم (٢٤٤٢) من حديث أنس بن مالك... ثم انطلقنا إلى الطائف فحاصروهم أربعين ليلة...

(رحيله ﷺ من الطائف دون فتحها)

ولم يؤذن لرسول الله ﷺ في فتح الطائف، واستشار رسول الله ﷺ نوقل بن معاوية الديلي، فقال: ما ترى؟ فقال: تغلب في جحر، إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك. فأمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب، فأذن في الناس بالرحيل، فضج الناس من ذلك، وقالوا: نرحل ولم يفتح علينا الطائف؟ فقال رسول الله ﷺ: «فاغذوا على القتال» فغذوا فأصابت المسلمين جراحات، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّا قَاتِلُونَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ»، فسروا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرحلون، ورسول الله ﷺ يضحك، فلما ارتحلوا واستقلوا، قال: قولوا: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ، عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ»، وقيل: يا رسول الله! ادع الله على ثقيف. فقال: «اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا وَابْتَهِمُ» [البخاري: ٤٢٢٥، ومسلم: ٤٦٢٠].

(عمرة الجعرانة)

واستشهد مع رسول الله ﷺ بالطائف جماعة، ثم خرج رسول الله ﷺ من الطائف إلى الجعرانة، ثم دخل منها محرماً بعمرة، فقصى عمرته، ثم رجع إلى المدينة.

فصل

(وفد ثقيف)

قال ابن إسحاق: وقدم رسول الله ﷺ المدينة من تبوك في رمضان، وقدم عليه في ذلك الشهر وفد ثقيف، وكان من حديثهم: أن رسول الله ﷺ لما انصرف عنهم أتبع أثره عروة بن مسعود حتى أدركه قبل أن يدخل المدينة، فأسلم وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام، فقال له رسول الله ﷺ: كما يتحدث قومك أنهم قاتلونك، وعرف رسول الله ﷺ أن فيهم نخوة الامتناع الذي كان منهم، فقال عروة: يا رسول الله؟ أنا أحب إليهم من أبكارهم، وكان فيهم كذلك محبباً مطاعاً، فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء ألا يخالفوه لمنزلته فيهم، فلما أشرف لهم على عليته له، وقد دعاهم إلى الإسلام، وأظهر لهم دينه، رموه بالنبل من كل وجه، فأصابه سهم فقتله، فقيل لعروة: ما ترى في دمك؟ قال: كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إلي، فليس في إلا ما في

الشهداء الذين قُتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم، فادفوني معهم، فدفنوه معهم، فزعموا أن رسول الله ﷺ قال فيه: «إِنَّ مَثَلَهُ فِي قَوْمِي، كَمَثَلِ صَاحِبِ يَسَ فِي قَوْمِهِ».

ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة شهراً، ثم إنهم ائتمروا بينهم، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب، وقد بايعوا وأسلموا، فأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ رجلاً، كما أرسلوا عروة، فكلّموا عبد ياليل بن عمرو بن عُمير، وكان في سن عروة بن مسعود، وعرضوا عليه ذلك، فأبى أن يفعل وخشي أن يصنع به كما صنع بعروة، فقال: لست بفاعل حتى ترسلوا معي رجلاً، فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف، وثلاثة من بني مالك، فيكونون ستة، فبعثوا معه الحكم بن عمرو بن وهب، وشرحيل بن غيلان، ومن بني مالك عثمان بن أبي العاص، وأوس بن عوف، ونمير بن خَرْشَة، فخرج بهم، فلما دنّوا من المدينة، ونزلوا قنّة لَقُوا بها المغيرة بن شعبة، فاشتدّ لبشر رسول الله ﷺ بقدومهم عليه، فلقيه أبو بكر فقال: أقسمت عليك بالله لا تسبقني إلى رسول الله ﷺ حتى أكون أنا أحدثه ففعل، فدخل أبو بكر على رسول الله ﷺ فأخبره بقدومهم عليه، ثم خرج المغيرة إلى أصحابه، فرَوّح الظهر معهم، وأعلمهم كيف يُحيون رسول الله ﷺ، فلم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية، فلما قدّموا على رسول الله ﷺ، ضرب عليهم قبة في ناحية مسجده كما يزعمون.

وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم، وبين رسول الله ﷺ حتى اكتتبوا كتابهم، وكان خالد هو الذي كتبه، وكانوا لا يأكلون طعاماً يأتيهم من عند رسول الله ﷺ حتى يأكل منه خالد، حتى أسلموا.

(بعث المغيرة وأبى سفيان لهدم اللات)

وقد كان فيما سألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم الطاغية، وهي اللات لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى رسول الله ﷺ عليهم، فما برحوا يسألونه سنة سنة، ويأبى عليهم، حتى سألوه شهراً واحداً بعد قدومهم، فأبى عليهم أن يدعها شيئاً مسمّى، وإنما يريدون

رسول الله ﷺ أن يقضي عن أبيه عروة ديناً كان عليه من مال الطاغية، فقال له رسول الله ﷺ: نعم، فقال له قارب بن الأسود: وعن الأسود يا رسول الله ﷺ فاقضيه - وعروة والأسود أخوان لأب وأم - فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْأَسْوَدَ مَاتَ مُشْرِكاً» فقال قارب بن الأسود: يا رسول الله! لكن تصِلُ مسلماً ذا قرابة، يعني نفسه، وإنما الذئب علي، وأنا الذي أطلبُ به، فأمر النبي ﷺ أبا سفيان أن يقضي دينَ عروة والأسود من مال الطاغية، ففعل.

وكان كتابُ رسول الله ﷺ الذي كتب لهم: «بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد النبي رسول الله إلى المؤمنين، إن عَصَاءَ وَجْ وصيده حرام، لا يُعَصَد، من وَجْدٍ يصنع شيئاً من ذلك، فإنه يُجلد، وتترع ثيابه، فإن تعدى ذلك، فإنه يؤخذ، فيبلغ به إلى النبي محمد، وإن هذا أمرُ النبي محمد رسول الله ﷺ».

فكتب خالد بن سعيد بأمر الرسول محمد بن عبد الله، فلا يتعداه أحد، فيظلم نفسه فيما أمر به محمد رسول الله [الطبري (١٤٠/٣)، وابن كثير (٦٥٢/٣)]. فهذه قصة ثقيف من أولها إلى آخرها، سقناها كما هي، وإن تخلل بين غزوها وإسلامها غزاةُ تبوك وغيرها، لكن أثّرنا أن لا نقطع قصتهم، وأن يتنظّم أولُها بآخرها ليقع الكلام على فقه هذه القصة وأحكامها في موضع واحد.

(جواز القتال في الأشهر الحرم)

فنقول: فيها من الفقه: جوازُ القتال في الأشهر الحرم، ونسخُ تحريم ذلك، فإن رسول الله ﷺ خرج من المدينة إلى مكة في أواخر شهر رمضان بعد مضي ثمان عشرة ليلة منه، والدليل عليه ما رواه أحمد في «مسنده» حدثنا إسماعيل عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أبي الأشعث، عن شدا بن أوس، أنه مر مع رسول الله ﷺ زَمَنَ الفتح على رجل يحتجُم بالبيع لثمان عشرة ليلة خلت من رمضان، وهو أخذ بيدي، فقال: «أَفْطَرَ الْحَاجِمُ وَالْمُحْجُومُ» (صحيح: أحمد: ١٧١١٢، وأبو داود: ٢٣٦٨)، وهذا أصح من قول

بذلك فيما يُظهرون أن يَسْلَمُوا بتركها من سفاهتهم ونسائهم وذرايرهم، ويكرهون أن يُرَوِّعُوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام، فأبى رسول الله ﷺ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة يهدمانها، وقد كانوا يسألونه مع ترك الطاغية أن يُعفيهم من الصلاة، وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم. فقال رسول الله ﷺ: «أما كسرُ أوثانكم بأيديكم، فسُتْعِيكم منه، وأما الصلاة، فلا خير في دين لا صلاة فيه». فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً، أمر عليهم عثمان بن أبي العاص، وكان من أحدثهم سناً، وذلك أنه كان من أحرصهم على التفقه في الإسلام، وتعلّم القرآن^(١).

فلما فرغوا من أمرهم وتوجهوا إلى بلادهم راجعين، بعث رسول الله ﷺ معهم أبا سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة في هدم الطاغية، فخرجوا مع القوم، حتى إذا قدموا الطائف، أراد المغيرة بن شعبة أن يُقدِّمَ أبا سفيان، فأبى ذلك عليه أبو سفيان، فقال: ادخل أنت على قومك، وأقام أبو سفيان بماله بذئ الهذم، فلما دخل المغيرة بن شعبة، علاها يضربها بالمعول، وقام دونه بنو مُعْتَبٍ خشية أن يرمى أو يصاب كما أصيب عروة، وخرج نساء ثقيف حُسراً يبيكين عليها، ويقول أبو سفيان - والمغيرة يضربها بالفأس -: «واها لك واهأ لك» فلما هدمها المغيرة، وأخذ مالها وحليها، أرسل إلى أبي سفيان مجموعَ مالها من الذهب والفضة والجَزَع.

(هدوم رجلين من ثقيف وقضاء الدين عنهما)

وقد كان أبو مليح بن عروة وقارب بن الأسود قدما على رسول الله ﷺ قبل وقد ثقيف حين قُتِلَ عروة يريدان فراق ثقيف، وأن لا يُجامعاهم على شيء أبداً، فأسلما، فقال لهما رسول الله ﷺ: «تَوَلَّيَا مَنْ شِئْتُمَا» قالا: نتولَّى الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: «وَحَالَكُمَا أبا سُفْيَانَ بَنَ حَرْبٍ» فقالا: وخالنا أبا سفيان.

فلما أسلم أهل الطائف، سأل أبو مليح

(١) وهو الذي قال للنبي ﷺ: اجعلني إمام قومي، فقال له رسول الله ﷺ: «أنت إمامهم، واقتد بأضعفهم، واتخذ مؤذناً لا يأخذ على أذانه أجراً» أخرجه أحمد (١٧٩٠٦)، وأبو داود (٥٣١)، والنسائي (٢٣/٢)، إسناده صحيح.

أَنْ يَرُدَّهُ عَلَيْنَا، فَقَالَ: «هُوَ طَلِيقُ اللَّهِ، ثُمَّ طَلِيقُ رَسُولِهِ» [أحمد: ١٧٥٣٠، ورجاء ثقات] فلم يرده علينا.
قال ابن المنذر: وهذا قول كل من يُحفظ عنه من أهل العلم.

فصل

ومنها: أن الإمام إذا حاصر حصناً، ولم يُفتح عليه، ورأى مصلحة المسلمين في الرحيل عنه، لم يلزمه مصابرتُه، وجاز له ترك مصابرتِه، وإنما تلزم المصابرة إذا كان فيها مصلحة راجحة على مفسدتِها.

فصل

ومنها: أنه أحرم من الجِفرانةِ بعمره، وكان داخلياً إلى مكة، وهذه هي السنة لمن دخلها من طريق الطائف وما يليه، وأما ما يفعله كثير ممن لا علم عندهم من الخروج من مكة إلى الجِفرانة ليحرم منها بعمره، ثم يرجع إليها، فهذا لم يفعله رسولُ الله ﷺ، ولا أحدٌ من أصحابه البتة، ولا استحبه أحدٌ من أهل العلم، وإنما يفعله عوام الناس، زعموا أنه اقتداء بالنبي ﷺ وغلطوا، فإنه إنما أحرم منها داخلياً إلى مكة، ولم يخرج منها إلى الجِفرانة ليحرم منها، فهذا لون، وستته لون، وبالله التوفيق.

فصل

(استجابة دعائه ﷺ بإسلام ثقيف)

ومنها: استجابةُ الله ﷻ لرسوله ﷺ دعاءه لثقيف أن يهديهم، ويأتي بهم، وقد حاربوه وقتلوه، وقتلوا جماعةً من أصحابه، وقتلوا رسولَ الله الذي أرسله إليهم يدعوهم إلى الله، ومع هذا كُلُّه فدعاهم، ولم يدع عليهم، وهذا من كمال رأفته، ورحمته، ونصيحته صلوات الله وسلامه عليه.

فصل

(كمال محبة الصديق له ﷺ)

ومنها: كمالُ محبة الصديق له، وقصدُه التقرب إليه، والتحبب بكل ما يمكنه، ولهذا ناشد المغيرة أن يدهه هو يُبشِّر النبي ﷺ بقدوم وفد الطائف، ليكون

من قال: إنه خرج لعشر خلون من رمضان، وهذا الإسناد على شرط مسلم، فقد رَوَى به بعينه: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ».

وأقام بمكة تسع عشرة ليلة يقصر الصلاة، ثم خرج إلى هوازن، فقاتلهم، وفرغ منهم، ثم قصد الطائف، فحاصرهم بضعاً وعشرين ليلة في قول ابن إسحاق وثمان عشرة ليلة في قول ابن سعد، وأربعين ليلة في قول مكحول^(١). فإذا تأملت ذلك، علمت أن بعض مدة الحصار في ذي القعدة، ولا بُد، ولكن قد يُقال: لم يبتدئ القتال إلا في شوال، فلما شرع فيه، لم يقطعه للشهر الحرام، ولكن من أين لكم أنه ﷺ ابتداء قتالاً في شهر حرام، وفرق بين الابتداء والاستدامة.

فصل

ومنها: جوازُ غزو الرجل وأهله معه، فإن النبي ﷺ كان معه في هذه الغزوة أم سلمة وزينب.
ومنها: جوازُ نصب المنجنيق على الكفار، ورميهم به وإن أفضى إلى قتل من لم يُقاتل من النساء والذرية.

ومنها: جوازُ قطع شجر الكُفار إذا كان ذلك يُضعفهم ويُغيظهم، وهو أنكى فيهم.

(إذا أبى العبد من مشرك ولحق بالمسلمين صار حراً؟)

ومنها: أن العبد إذا أبى من المشركين ولحق بالمسلمين، صار حراً. قال سعيد بن منصور: حدثنا يزيد بن هارون، عن الحجاج، عن مِقْسَم، عن ابن عباس، قال: كان رسولُ الله ﷺ يعتقُ العبيد إذا جاؤوا قَبْلَ مواليهم^(٢).

وروى سعيد بن منصور أيضاً، قال: قضى رسولُ الله ﷺ في العبد وسيدَه قضيتين: قضى أن العبد إذا خرج من دار الحرب قبل سيده أنه حر، فإن خرج سيده بعده لم يُرد عليه، وقضى أن السيد إذا خرج قبل العبد، ثم خرج العبد، رُدَّ على سيده.

وعن الشعبي، عن رجل من ثقيف، قال: سألنا رسولَ الله ﷺ أن يرُدَّ علينا أبا بكره، وكان عبداً لنا أتى رسول الله ﷺ وهو محاصر ثقيفاً، فأسلم، فأبى

(١) وهو في قول أنس أيضاً رواه عنه مسلم (٢٤٣٦).

(٢) الحجاج: هو ابن أوطاة، وهو مدلس، وقد عنعن، وباقي رجاله ثقات.

هو الذي بشره وفرّحه بذلك، وهذا يدل على أنه يجوز للرجل أن يسأل أخاه أن يؤثره بقربة من القرب، وأنه يجوز للرجل أن يؤثر بها أخاه، وقول من قال من الفقهاء: لا يجوز الإيثار بالقرب، لا يصح. وقد آثرت عائشة عمر بن الخطاب بدفنه في بيتها جوار النبي ﷺ، وسألها عمر ذلك، فلم تكره له السؤال، ولا لها البذل، وعلى هذا، فإذا سأل الرجل غيره أن يؤثره بمقامه في الصف الأول، لم يكره له السؤال، ولا لذلك البذل، ونظائره. ومن تأمل سيرة الصحابة، وجدهم غير كارهين لذلك، ولا ممتنعين منه، وهل هذا إلا كرمٌ وسخاء، وإيثارٌ على النفس بما هو أعظمُ محبوباتها تفريحاً لأخيه المسلم، وتعظيماً لقدره، وإجابة له إلى ما سأل، وترغيباً له في الخير، وقد يكون ثواب كل واحد من هذه الخصال راجحاً على ثواب تلك القربة، فيكون المؤثر بها ممن تاجر، فبذل قربة، وأخذ أضعافها، وعلى هذا فلا يمتنع أن يؤثر صاحب الماء بمائه أن يتوضأ به ويتمم هو إذا كان لا بُد من تيمم أحدهما، فأثر أخاه، وحاز فضيلة الإيثار، وفضيلة الطهر بالتراب، ولا يمنع هذا كتاب ولا سنة، ولا مكارم أخلاق، وعلى هذا فإذا اشتد العطش بجماعة، وعانوا التلف ومع بعضهم ماء، فأثر على نفسه، واستسلم للموت، كان ذلك جائزاً، ولم يقل: إنه قاتل لنفسه، ولا أنه فعل محرماً، بل هذا غاية الجود والسخاء كما قال تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، وقد جرى هذا بعينه لجماعة من الصحابة في فتوح الشام، وعد ذلك من مناقبهم وفضائلهم، وهل إهداء القرب المجمع عليها والمتنازع فيها إلى الميت إلا إيثارٌ بثوابها، وهو عين الإيثار بالقرب، فأي فرق بين أن يؤثره بفعلها ليحضر ثوابها، وبين أن يعمل، ثم يؤثره بثوابها، وبالله التوفيق.

فصل

(لا يجوز إبقاء مواضع الشرك بعد القدرة على هدمها)

ومنها: أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً، فإنها شعائر الكفر والشرك، وهي أعظم المنكرات، فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة،

وهذا حكمُ المشاهد التي بُنيت على القبور التي اتخذت أوثاناً وطواغيت تعبد من دون الله، والأحجار التي تُقصد للتعظيم والتبرك، والتندر والتقبيل، لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالته، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، أو أعظم شركاً عندها، وبها، والله المستعان.

ولم يكن أحد من أرباب هذه الطواغيت يعتقد أنها تخلق وترزق، وتميت وتحيي، وإنما كانوا يفعلون عندها وبها ما يفعله إخوانهم من المشركين اليوم عند طواغيتهم، فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم، وسلخوا سيلهم حذو القذة بالقذة، وأخذوا ماخذهم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، وغلب الشرك على أكثر النفوس لظهور الجهل وخفاء العلم، فصار المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والسنة بدعة، والبدعة سنة، ونشأ في ذلك الصغير، وهرم عليه الكبير، وطمست الأعلام، واشتدت غربة الإسلام، وقلَّ العلماء، وغلب السفهاء، وتفاقم الأمر، واشتد البأس، وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ولكن لا تزال طائفة من العصابة المحمدية بالحق قائمين، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين إلى أن يرث الله سبحانه الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

فصل

(جواز صرف الأموال التي

في مواضع الشرك في مصالح المسلمين)

ومنها: جواز صرف الإمام الأموال التي تصير إلى هذه المشاهد والطواغيت في الجهاد ومصالح المسلمين، فيجوز للإمام، بل يجب عليه أن يأخذ أموال هذه الطواغيت التي تُساق إليها كلها، ويصرفها على الجند والمقاتلة، ومصالح الإسلام، كما أخذ النبي ﷺ أموال اللات، وأعطاهما لأبي سفيان يتألفه بها، وقضى منها دين عروة والأسود، وكذلك يجب عليه أن يهدم هذه المشاهد التي بُنيت على القبور التي اتخذت أوثاناً، وله أن يقطعها للمقاتلة، أو يبيعها ويستعين بأثمانها على مصالح المسلمين، وكذلك

الحكم في أوقافها، فإن وقفها، فالوقف عليها باطل، وهو مال ضائع، فيُصرف في مصالح المسلمين، فإن الوقف لا يصح إلا في قربة وطاعة الله ورسوله، فلا يصح الوقف على مشهد، ولا قبر يُسرج عليه ويُعظم، ويُتذّر له، ويحج إليه، ويُعبد من دون الله، ويتخذ وثناً من دونه، وهذا مما لا يخالف فيه أحد من أئمة الإسلام، ومن اتبع سبيلهم.

فصل

(وادي وَّج حرم)

ومنها: أن وادي وَّج - وهو واد بالطائف - حرم يحرم صيدُه، وقطعُ شجره، وقد اختلف الفقهاء في ذلك، والجمهور قالوا: ليس في البقاع حرم إلا مكة والمدينة، وأبو حنيفة خالفهم في حرم المدينة، وقال الشافعي - رحمه الله - في أحد قوليه: وَّج حرم يحرم صيده وشجره، واحتج لهذا القول بحديثين أحدهما هذا الذي تقدم، والثاني: حديث عروة بن الزبير، عن أبيه الزبير، أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ صَيْدَ وَجٍّ وَعِضَاهُ حَرَمٌ مُحَرَّمٌ لِلَّهِ» رواه الإمام أحمد وأبو داود [استد ضيف: أحمد: ١٤١٦، وأبو داود: ٢٠٣٢]. وهذا الحديث يعرف بمحمد بن عبد الله بن إنسان عن أبيه عن عروة. قال البخاري في «تاريخه»: لا يتابع عليه.

قلت: وفي سماع عروة من أبيه نظر، وإن كان قد رآه والله أعلم.

فصل

(بعث المصدقين لجلب الصدقات)

ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ودخلت سنة تسع، بعث المصدقين يأخذون الصدقات من الأعراب. قال ابن سعد: ثم بعث رسول الله ﷺ المصدقين، قالوا: لما رأى رسول الله ﷺ هلال المحرم سنة تسع، بعث المصدقين يصدقون العرب، فبعث عُيينة بن حصن إلى بني تميم، وبعث يزيد بن الحُصين إلى أسلم وغفار، وبعث عباد بن بشر الأشهلي إلى سليم ومُزينة، وبعث رافع بن مكيت إلى جُهينة، وبعث عمرو بن العاص إلى بني فزارة، وبعث

الضحاك بن سفيان إلى بني كلاب، وبعث بشر بن سفيان إلى بني كعب، وبعث ابن اللثية الأزدي إلى بني ذبيان، وأمر رسول الله ﷺ المصدقين أن يأخذوا العفو منهم، ويتوقوا كرائم أموالهم [ابن سعد (٢/ ١٦٠)]. قيل: ولما قدم ابن اللثية حاسبه [البخاري: ١٥٠٠، ومسلم: ٤٧٣٨]. وكان في هذا حجة على محاسبة العمال والأمناء، فإن ظهرت خيانتهم عزلهم، وولّى أميناً.

قال ابن إسحاق: وبعث المهاجر بن أبي أمية إلى صنعاء، فخرج عليه العنسي وهو بها، وبعث زياد بن لبيد إلى حضرموت، وبعث عدي بن حاتم إلى طيء وبني أسد، وبعث مالك بن نويرة على صدقات بني حنظلة، وفرق صدقات بني سعد على رجلين، فبعث الزبيرقان بن بدر على ناحية، وقيس بن عاصم على ناحية، وبعث العلاء بن الحضرمي على البحرين، وبعث علياً - رضوان الله عليه - إلى نجران ليجمع صدقاتهم، ويقدم عليه بجزيته [ابن هشام (٧٧٣)].

فصل

في السرايا والبعوث في سنة تسع

(سرية عبيدة بن حصن)

(الفزاري إلى بني تميم و وفد بني تميم)

ذكر سرية عُيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم، وذلك في المحرم من هذه السنة، بعث إليهم في سرية ليغزوهم في خمسين فارساً ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري، فكان يسير الليل ويكمن النهار، فهاجم عليهم في صحراء، وقد سرحوا مواشيهم، فلما رأوا الجمع ولّوا، فأخذ منهم أحد عشر رجلاً وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبيّاً، فساقهم إلى المدينة، فأنزلوا في دار رملة بنت الحارث فقدم فيهم عدة من رؤسائهم عطاردة بن حاجب، والزبيرقان بن بدو، وقيس بن عاصم، والأقرع بن حابس، وقيس بن الحارث، ونعيم بن سعد، وعمرو بن الأهتم، ورباح بن الحارث، فلما رأوا نساءهم وفراشهم،

(١) والعضاء من الشجر: ما لا شوك له، مفرداً عضه.

بكوا إليهم، فَمَجَلُّوا، فجاؤوا إلى باب النبي ﷺ،
فنادوا: يا محمد اخرج إلينا، فخرج رسول الله ﷺ،
وأقام بلاء الصلاة، وتعلقوا برسول الله ﷺ يكلمونه،
فوقف معهم، ثم مضى فصلى الظهر، ثم جلس في
صحن المسجد، فقدموا عطارداً بن حاجب، فتكلم
وخطب، فأمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس بن
شماس، فأجابهم، وأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ
يُنَادُونَكَ مِنَ الَّذِينَ الْمُجْرِمِينَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ١ وَلَوْ أَنَّهُمْ
صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢﴾
[الحجرات: ٤، ٥]، فرد عليهم رسول الله ﷺ الأسرى
والسبي، فقام الزبيرقان شاعر بني تميم فأنشد مفاخرأ:
نحن الكرام فلا حَيَّ يُعَادِلُنَا
مِنَّا الْمُلُوكُ، وفينا تَنْصَبُ الْبَيْعُ
وكم قَسَرْنَا مِنَ الْأَخْيَاءِ كُلِّهِمْ
عند النَّهَابِ وَقَضَلُ الْعِزِّ يَتَّبِعُ
وَنَحْنُ يَطْلُعُ عِنْدَ الْقَحْطِ مُظْلِمُنَا
من الشَّوَاءِ إِذَا لَمْ يُؤَسَّ الْقَرْعُ ١
بِمَا تَرَى النَّاسَ تَأْتِيْنَا سَرَائِهِمْ
مِنْ كُلِّ أَرْضٍ هَوِيًّا ثُمَّ نَضْطَلِعُ ٢
فَتَنْخَرُ الْكُومُ غُبَطًا فِي أَرْوَمَتِنَا ٣
للنازلين إِذَا مَا أُنْزِلُوا شَيْعُوا ٣
فلا ترانا إلى حَيِّ تُفَاجِرُهُمْ
إِلَّا اسْتَفَادُوا فَكَانُوا الرُّؤَسَ يَنْتَطِعُ
فَمَنْ يُفَاجِرُنَا فِي ذَلِكَ نَعْرِفُهُ
فَيَرْجِعُ الْقَوْمُ وَالْأَخْبَارُ تُسْتَمَعُ
إِنَّا أَبِينَا وَلَا يَأْبَى لَنَا أَحَدٌ
إِنَّا كَذَلِكَ عِنْدَ الْفَخْرِ نَرْتَفِعُ
فقام شاعر الإسلام حسان بن ثابت، فأجابه على
البدية:

إِنَّ الدَّوَائِبَ مِنْ فَهْرٍ وَإِخْوَتَهُمْ
قَدْ بَيَّنُّوا سُنَّةَ لِلنَّاسِ تُتَّبَعُ
يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ سِرِيرَتُهُ
تَقْوَى إِلَهَهُ وَكُلُّ الْخَيْرِ مُضْطَنَعُ
قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمْ
أَوْ حَارَلُوا النَّفْعَ فِي أَشْيَائِهِمْ نَفَعُوا
سَجِيَّةَ تِلْكَ فِيهِمْ غَيْرُ مُحَدَّثَةٍ
إِنَّ الْخَلَائِقَ فَاغْلَمَ شَرُّهَا الْبِدْعُ
إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَاقُونَ بِغَدُّهُمْ
فَكُلُّ سَبَقٍ لَأَذْنَى سَبَقِهِمْ تَبِعُ
لَا يَرْفَعُ النَّاسُ مَا أَوْهَتْ أَكْفُهُمْ
عِنْدَ الدَّفَاعِ وَلَا يُوْهُونَ مَا رَفَعُوا
إِنْ سَابَقُوا النَّاسَ يَوْمًا فَارَ سَبَقَهُمْ
أَوْ وَزَّانُوا أَهْلَ مَجْدٍ بِالْبُدَى مَتَعُوا ٤
أَعِقَّةَ ذِكْرَتٍ فِي الْوَحْيِ عَقَّتُهُمْ
لَا يَطْبَعُونَ وَلَا يُرِيدُهُمُ الطَّمَعُ ٥
لَا يَبْخُلُونَ عَلَى جَارٍ بِفَضْلِهِمْ
وَلَا يَمْسُهُمْ مِنْ مَقْطَعٍ طَبْعُ ٦
إِذَا نَصَبْنَا لِحَيٍّ لَمْ نَدِبْ لَهُمْ
كَمَا يَدْبُ إِلَى الْوَحْشِيَّةِ الدُّرْعُ ٧
نَسْمُوا إِذَا الْحَرْبُ نَالَتْهَا مَحَالِيهَا
إِذَا الرُّعَانُفُ مِنْ أَظْفَارِهَا خَشَعُوا
لَا يَفْخَرُونَ إِذَا نَالُوا عَدُوَّهُمْ
وَأَنْ أُصِيبُوا فَلَا جَوْرَ وَلَا هَلْعُ
كَانَتْهُمْ فِي الْوَعَى وَالْمَوْتُ مُكْتَنِعُ
أَسَدٌ بِحَلِيَةٍ فِي أَرْسَاعِهَا قَدَعُ ٨
تُحَذُّ مِنْهُمْ مَا أَتَوْا عَفْوَاً إِذَا غَضِبُوا
وَلَا يَكُنْ هُمُكَ الْأَمْرُ الَّذِي مَتَعُوا

(١) القَرْع: السحاب الرقيق، يريد إذا لم تمطرهم السماء، وأجذبت أرضهم.

(٢) هَوِيًّا: سراعاً.

(٣) الكوم جمع كوما: وهي العظيمة السنام من النوق، وعبطاً، أي: من غير علة، وفي أرومتنا، أي: هذا الكرم مستأصل فينا.

(٤) متعوا: زادوا، يقال: متع النهار إذا ارتفعت شمس.

(٥) لا يطعمون: لا يتدنسون.

(٦) الطبع: الدنس.

(٧) نصبتنا: أظهرنا العداوة ولم نسرهما، والذرع: ولد البقرة الوحشية.

(٨) مكتنع: وان، وحلية: مأسدة باليمن، والأساغ جمع رسف، وهو موضع القيد من الرجل، وفدع: اعوجاج إلى ناحية.

فَإِنْ فِي حَرْبِهِمْ فَأَتَزَكُّ عَذَاوَتَهُمْ
شَرًّا يُخَاضُّ عَلَيْهِ السُّمُّ وَالسَّلْعُ^(١)
أَكْرَمَ يَقُومُ رَسُولُ اللَّهِ شَيْعَتَهُمْ
إِذَا تَفَاوَتَتِ الْأَهْوَاءُ وَالشَّيْعُ
أَهْدَى لَهُمْ وَدَحَّتِي قَلْبٌ يُوَازِرُهُ
فِيمَا أَحَبَّ لِسَانَ حَائِكَ صَنَعَ
فَإِنَّهُمْ أَفْضَلُ الْأَخْيَاءِ كُلِّهِمْ
إِنْ جَدَّ بِالنَّاسِ جِدُّ الْقَوْلِ أَوْ شَمِعُوا^(٢)
فلما فرغ حسان، قال الأقرع بن حابس: إن هذا
الرجل لَمْؤُتِي^(٣) له، لخطيئه أخطب من خطيئنا،
ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من
أصواتنا، ثم أسلموا، فأجازهم رسول الله ﷺ
فأحسن جوائزهم.

فصل

(رواية ابن إسحاق لوفد بني تميم)

قال ابن إسحاق: فلما قدم وفد بني تميم،
دخلوا المسجد، ونادوا رسول الله ﷺ أن اخرج
إلينا يا محمد، فأدى ذلك رسول الله ﷺ من
صياحهم، فخرج إليهم، فقالوا: جئنا لينفاخرك،
فأذن لشاعرنا وخطيبنا قال: «نعم قد أذنتُ
لخطيبكم فليقم»، فقام عطار بن حاجب، فقال:
الحمد لله الذي جعلنا ملوكاً، الذي له الفضل
علينا، والذي وهب لنا أموالاً عظيماً نفعل فيها
المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثره عدداً،
وأيسره غدة، فمن مثلاً في الناس؟ ألسنا رؤوس
الناس، وأولي فضلهم، فمن فاخرنا، فليعد مثل ما
عَدَدْنَا، فلو شئنا لأكثرنا من الكلام، ولكن نستحي
من الإكثار لما أعطانا، أقول هذا لأن تأتوا بمثل
قولنا، أو أمر أفضل من أمرنا، ثم جلس، فقال
رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس: «قُمْ
فَأَجِبْ»، فقام فقال: الحمد لله الذي السماوات
والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه
علمه، ولم يكن شيء قط إلا من فضله، ثم كان

من فضله أن جعلنا ملوكاً، واصطفى من خير خلقه
رسولاً، أكرمته نسباً، وأصدقته حديثاً، وأفضله
حسباً، فأنزل عليه كتاباً، واتمته على خلقه، وكان
خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان
بالله، فأمن به المهاجرون من قومه ذوي رحمه،
أكرم الناس أحساباً، وأحسنهم وجوهاً، وخير
الناس فعلاً، ثم كان أول الخلق إجابة واستجابة
للله حين دعاه رسول الله ﷺ، فنحن أنصار
الله، ووزراء رسول الله ﷺ، نُقَاتِلُ النَّاسَ حَتَّى
يُؤْمِنُوا، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومن
نكث جاهدناه في الله أبداً، وكان قتلنا يسيراً،
أقول هذا، وأستغفر الله العظيم للمؤمنين
والمؤمنات، والسلام عليكم.

ثم ذكر قيام الزبرقان وإنشاده، وجواب حسان له
بالآيات المتقدمة، فلما فرغ حسان من قوله، قال
الأقرع بن حابس: إن هذا الرجل خطيئه أخطب من
خطيئنا، وشاعره أشعر من شاعرنا، وأقوالهم أعلى
من أقوالنا، ثم أجازهم رسول الله ﷺ فأحسن
جوائزهم [ابن هشام (٧٥٠)].

فصل

في ذكر سرية قطبة بن عامر بن حديدة

إلى خثعم

وكانت في صفر سنة تسع. قال ابن سعد: قالوا:
بعث رسول الله ﷺ قطبة بن عامر في عشرين رجلاً إلى
حِمْيَ من خثعم بناحية بَكَاة، وأمره أن يَشُنَّ الغارة،
فخرجوا على عشرة أبجرة يعتقبونها، فأخذوا رجلاً،
فسألوه، فاستعجم عليهم، فجعل يصيح بالحاضرة
ويحذرهم، فضربوا عنقه، ثم أقاموا حتى نام
الحاضرة، فشئوا عليهم الغارة، فاقتلوا قتالاً شديداً
حتى كثر الجرحى في الفريقين جميعاً، وقتل قطبة بن
عامر من قتل، وساقوا النعم والنساء والشاة إلى
المدينة، وفي القصة: أنه اجتمع القوم وركبوا في
آثارهم، فأرسل الله سبحانه عليهم سيلاً عظيماً حال

(١) السلع: نبات مسموم.

(٢) شمعوا: هزلوا.

(٣) أي: موفق.

بينهم وبين المسلمين، فسأفوا النعم والشاء والسبي، وهم ينظرون لا يستطيعون أن يعبروا إليهم حتى غابوا عنهم [ابن سعد (١٦٧/٢)].

فصل

ذكر سرية الضحاك بن سفيان الكلبي إلى بني كلاب في ربيع الأول سنة تسع

قالوا: بعث رسول الله ﷺ جيشاً إلى بني كلاب، وعليهم الضحاك بن سفيان بن عوف الطائي، ومعه الأضيّد بن سلمة، فلقوهم بالزّج زُج لاوة، فدعّوهم إلى الإسلام، فأبّوا، فقاتلوهم، فهزموهم، فلحق الأصيد أباه سلمة، وسلمة على فرس له في غدير بالزّج، فدعاه إلى الإسلام، وأعطاه الأمان، فسيه وسبّ دينه، فغضب الأصيد عرقوبي فرس أبيه، فلما وقع الفرس على عرقوبه، ارتكز سلمة على الرمح في الماء، ثم استمسك حتى جاء أحدُهم فقتله، ولم يقتله ابنه [ابن سعد (١٦٧/٢)].

فصل

ذكر سرية علقمة بن مجرز المدلجي إلى الحبشة سنة تسع في شهر ربيع الآخر

قالوا: فلما بلغ رسول الله ﷺ أن ناساً من الحبشة تراياهم أهل جدة، فبعث إليهم علقمة بن مجرز في ثلاثمائة، فأنتهى إلى جزيرة في البحر، وقد خاض إليهم البحر، فهربوا منه، فلما رجع تمجّل بعض القوم إلى أهلهم، فأذن لهم، فتعجّل عبد الله بن جذافة السهمي، فأمره على من تعجّل، وكانت فيه دُعاة، فنزلوا ببعض الطريق، وأوقدوا ناراً يصطلّون عليها، فقال: عزمْتُ عليكم إلا توائمتُم في هذه النار، فقام بعضُ القوم، فتجهّزوا حتى ظن أنهم واثبون فيها، فقال: اجلسوا إنما كُنْتُ أضحكُ معكم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «مَنْ أَمَرَكُمْ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا تُطِيعُوهُ» [البخاري: ٧١٤٥].

قلت: في «الصحيحين» عن علي بن أبي طالب قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يسمعو له ويطيعوا، فأغضبوه، فقال: اجمعوا لي خطباً، فجمعوا، فقال: أوقدوا ناراً، ثم قال: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن

تسمعوا لي؟ قالوا: بلى. قال: فادخلوها، فنظر بعضهم إلى بعض، وقالوا: إنما قررنا إلى رسول الله ﷺ من النار، فكانوا كذلك حتى سكن غضبه، وطفئت النار، فلما رجعوا، ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا» وَقَالَ: «لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ» [البخاري: ٧١٤٤، ومسلم: ٤٧٦٥].

فهذا فيه أن الأمير كان من الأنصار، وأن رسول الله ﷺ هو الذي أمره، وأن الغضب حمله على ذلك.

وقد روى الإمام أحمد في «مسنده» عن ابن عباس، في قوله تعالى: «أَلْبِسُوا اللَّهَ وَأَلْبِسُوا الرَّسُولَ وَأَلْبِسُوا الْأَمْرَ وَنَكْرَهُ» [النساء: ٥٩]، قال: نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي، بعثه رسول الله ﷺ في سرية [البخاري: ٧١٤٥، ومسلم: ٤٧٦٦]، فلما أن يكونا واقعيتين، أو يكون حديث علي هو المحفوظ والله أعلم.

فصل

في ذكر سرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى صنم طيء ليهدمه في هذه السنة

(قصة عدي بن حاتم الطائي)

قالوا: وبعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب في مئة وخمسين رجلاً من الأنصار على مئة بعير، وخمسين فرساً، ومعه راية سوداء، لواء أبيض إلى الفُلس، وهو صنم طيء ليهدمه، فشوا الغارة على محلة آل حاتم مع الفجر، فهدموه، وملؤوا أيديهم من السبي والنعم والشاء، وفي السبي أخذت عدي بن حاتم، وهرب عدي إلى الشام، ووجدوا في خزانته ثلاثة أسياف، وثلاثة أدرع، فاستعمل على السبي أبو قتادة، وعلى الماشية والرثّة عبد الله بن عتيك، وقسم الغنائم في الطريق، وعزل الصنم لرسول الله ﷺ، ولم يقسم على آل حاتم حتى قَدِمَ بهم المدينة [ابن سعد (١٦٤/٢)].

قال ابن إسحاق: قال عدي بن حاتم: ما كان رجل من العرب أشدّ كراهية لرسول الله ﷺ مني حين

الله أكبر، وهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ قال: قلت: لا. قال: «فإن اليهود مغضوبٌ عليهم، وإن النصارى ضالون». قال: فقلت: إني خائف مسلم. قال: فرأيت وجهه يتبسّط فرحاً. قال: ثم أمرني فأتزلت عند رجل من الأنصار، وجعلت أغشاء، أتبه طرفي النهار، قال: فيينا أنا عنده، إذ جاء قوم في ثياب من الصوف من هذه النمار، قال: فصلي وقام، فحث عليهم، ثم قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْضَخُوا مِنَ الْفُضْلِ وَلَوْ بِضَاعٍ، وَلَوْ بِنُضْفِ ضَاعٍ، وَلَوْ بِقَبْضَةٍ، وَلَوْ بِبَيْضِ قَبْضَةٍ، يَمِي أَحَدُكُمْ وَجْهَهُ حَرَّ جَهَنَّمَ أَوْ النَّارَ وَلَوْ بِتَمْرَةٍ، وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِكَلِمَةً طَيِّبَةً، فَإِنْ أَحَدُكُمْ لَاقِيَ اللَّهَ، وَقَاضَى لَهُ مَا أَقُولُ لَكُمْ: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكُمْ مَالاً وَوَلَدًا؟» فيقول: بلى، فيقول: أَيْنَ مَا قَدَّمْتَ لِنَفْسِكَ، فَيَنْظُرُ قُدَّامَهُ وَيَعْدُهُ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ لَا يَجِدُ شَيْئاً يَمِي بِهِ وَجْهَهُ حَرَّ جَهَنَّمَ، لِيَمِي أَحَدُكُمْ وَجْهَهُ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فِكَلِمَةً طَيِّبَةً، فَإِنِّي لَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الْعَاقَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُكُمْ وَمُنْعِطِكُمْ حَتَّى تَسِيرَ الظُّلُمَةُ مَا بَيْنَ يَتْرَبِ وَالْحَيَرَةِ، وَأَكْثَرُ مَا يُخَافُ عَلَى سَطِيئَتِهَا الشَّرْقُ» [احمد: ١٩٣٨١، والترمذي: ٢٩٥٦] قال: فجعلت أقول في نفسي: فأين لصوص طيىء.

فصل

ذكر قصة كعب بن زهير مع النبي ﷺ

وكانت فيما بين رجوعه من الطائف، وغزوة تبوك.

قال ابن إسحاق [ابن هشام (٧١٧)]: ولما قدم رسول الله ﷺ من الطائف، كتب بُجَيْرُ بْنُ زُهَيْرٍ إِلَى أَخِيهِ كَعْبٍ يُخْبِرُهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَتَلَ رَجُلًا بِمَكَّةَ مِمَّنْ كَانَ يَهْجُوهُ وَيُذِيهِ، وَأَنَّ مِنْ بَقِيٍّ مِنْ شَعْرَاءِ قُرَيْشٍ ابْنَ الزُّبَيْرِ، وَهُبِيرَةَ ابْنِ أَبِي وَهْبٍ قَدْ هَرَبُوا فِي كُلِّ وَجْهٍ، فَإِنْ كَانَتْ لَكَ فِي نَفْسِكَ حَاجَةٌ، فَيُطْرَقُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِنَّهُ لَا يَقْتُلُ أَحَدًا جَاءَهُ تَائِبًا مُسْلِمًا، وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ، فَانْجِ إِلَى نَجَاتِكَ، وَكَانَ كَعْبٌ قَدْ قَالَ:

أَلَا أَبْلِغُكُمْ حَسَنِي بُجَيْرًا وَمَسَالَةً

فَهَلْ لَكَ فِيمَا قُلْتَ وَنَحَكَ هَلْ لَنَا

سمعتُ به ﷺ وكنت امرأةً شريفاً، وكنت نصرانياً، وكنت أسير في قومي بالمرباع، وكنت في نفسي على دين، وكنت ملكاً في قومي، فلما سمعتُ برسول الله ﷺ، كرهته، فقلت لغلام عربي كان لي، وكان راعياً لإبلي: لا أبالك أعدد لي من إبلي أجماً ذلاً سماناً فاحبسها قريباً مني، فإذا سمعتُ بجيش لمحمد قد وطىء هذه البلاد فأذني، ففعل، ثم إنه أتاني ذات غداة، فقال: يا عدي: ما كنت صانعاً إذا غشيتك خيلٌ محمد، فاصنعه الآن، فلني قد رأيت رايات، فسألت عنها فقالوا: هذه جيوشُ محمد قال: فقلت: فاقرب إلي أجمالي، فاقربها، فاحتملتُ بأهلي وولدي، ثم قلت: الحق بأهل ديني من النصارى بالشام، وخطفتُ بتألمحهم في الحاضرة، فلما قدمت الشام، أقمت بها، وتحالفني خيلُ رسول الله ﷺ، فتصيبُ ابنة حاتم فميم أصابت، فقدم بها على رسول الله ﷺ في سبایا من طيىء، وقد بلغ رسول الله ﷺ هربي إلى الشام، فمر بها رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، غاب الوافد، وانقطع الوالد، وأنا حوز كبيرة، ما بي من خدعة، فمر علي، من الله عليك، قال: «من وافدك؟» قالت: عدي بن حاتم. قال: «الذي فر من الله ورسوله؟» قالت: فمر علي. قال: فلما رجع ورجل إلى جنبه يرى أنه علي، قال: سليه الحملان، قالت: فسأته، فأمر لها به. قال عدي: فأتنتي أختي، فقالت: لقد فعل فعله ما كان أبوك يفعلها، اتته راغباً أو راهباً، فقد أتاه فلان، فأصاب منه، وأتاه فلان فأصاب منه. قال عدي: فأتيتُه وهو جالس في المسجد، فقال القوم: هذا عدي بن حاتم، وجئتُ بغير أمان ولا كتاب، فلما دُفِعْتُ إِلَيْهِ، أخذ بيدي، وقد كان قبل ذلك قال: «إني أرجو أن يجعل الله يده في يدي»، قال: فقام لي، فلقيتُ امرأة، ومعها صبي، فقالا: إن لنا إليك حاجة، فقام معهما حتى قضى حاجتهما، ثم أخذ بيدي حتى أتى داره، فألقت له الوليدة وسادة، فجلس عليها، وجلس بين يديه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «مَا يُبْرِكُ أُبْرِكُ أَنْ تَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَهَلْ تَعْلَمُ مِنْ إِلَهٍ سِوَى اللَّهِ؟» قال: قلت: لا. قال: ثم تكلم ساعة، ثم قال: «إِنَّمَا تُقَرُّ أَنْ يَقَالَ:

فَبَيَّنَ لَنَا إِنْ كُنْتَ لَسْتَ بِفَاعِلٍ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ غَيْرِ ذَلِكَ ذَلِكَ عَلَى خُلُقٍ لَمْ تُلَفْ أُمًّا وَلَا أَبًا عَلَيْهِ وَلَمْ تُذِرْكَ عَلَيْهِ أَخًا لَكَ فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَلَسْتُ بِأَبٍ وَلَا قَائِلٍ إِذَا عَثَرْتَ لَعَا لَكَ^(١) سَقَاكَ بِهَا الْمَأْمُونُ رَوِيَهُ

فَأَنْهَلَكَ الْمَأْمُونُ مِنْهَا وَعَلَّكَ^(٢) قال: وبعث بها إلى بجير، فلما أتت بجيراً، كره أن يكتمها رسول الله ﷺ، فأنشده إياها، فقال رسول الله ﷺ: «سَقَاكَ الْمَأْمُونُ، صَدَقَ وَإِنَّهُ لَكَذُوبٌ، أَنَا الْمَأْمُونُ» ولما سمع: على خلق لم تلف أمًّا ولا أبًا عليه، فقال: أجل. قال: لم يلف عليه أباه ولا أمه، ثم قال بجير لكعب:

مَنْ مُبْلَغٌ كَغَبَا فَهَلْ لَكَ فِي النَّهْيِ تَلُومٌ عَلَيْهَا بِإِطْلَافٍ وَهِيَ أَحْزَمُ إِلَى اللَّهِ لَا الْعَزَى وَلَا اللَّاتُ وَخَذَهُ فَنَجَّوْهُ إِذَا كَانَ النَّجَاءُ وَتَسَلَّمَ لَدَى يَوْمٍ لَا يَنْجُو وَلَيْسَ بِمُقْبِلٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا ظَاهِرُ الْقَلْبِ مُسْلِمٌ قَدِيرٌ زُهَيْرٌ وَهُوَ لَا شَيْءَ دِينُهُ

ودين أبي سلمى عليّ مُحَرَّمٌ فلما بلغ كعباً الكتاب، ضاقت به الأرض، وأشفق على نفسه، وأرجف به من كان في حاضره من عدوه، فقال: هو مقتول، فلما لم يجد من شيء بدأ، قال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله ﷺ، وذكر خوفه وإرجاف الوشاة به من عدوه، ثم خرج حتى قدم المدينة، فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جهة، كما ذكر لي، فعدا به إلى رسول الله ﷺ حين صلى الصبح، فصلى مع رسول الله ﷺ، ثم أشار إلى

قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، أنه وثب عليه رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله، دعني وعدو الله أضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ: «دعه عنك»، فقد جاء تائباً نازعاً عما كان عليه. قال: فغضب كعب على هذا الحي من الأنصار لما صنع به صاحبهم، وذلك أنه لم يتكلم فيه رجل من المهاجرين إلا بخير، فقال قصيدته اللامية التي يصف فيها محبوبته وناقته التي أولها:

بَآنَتْ سَعَادُ فَعَلِيَّ الْيَوْمَ مَتَبُولٌ مَتَبُولٌ إِنْزَعَا لَمْ يُغْدِ مَكْبُولٌ^(٣) يَسْعَى الْغَوَاةُ جَنَابَيْهَا وَقَوْلُهُمْ إِنَّكَ يَا ابْنَ أَبِي سَلَمَى لَمَقْتُولٌ^(٤) وَقَالَ كُلُّ صَدِيقٍ كُنْتُ أَمْلُهُ لَا إِلَهَيْكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْمُولٌ^(٥) قُلْتُ خَلُّوا طَرِيقِي لَا أَبَا لَكُمْ فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولٌ كُلُّ ابْنِ أُنْتَى وَإِنْ طَلَّاتِ سَلَامَتُهُ يَوْمًا عَلَى آلِهِ حَذَبَاءُ مَحْمُولٌ^(٦) نُبِّئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولٌ مَهْلًا هَذَا الَّذِي أَغْطَاكَ نَافِلَةً الـ فَرَّانِ فِيهَا مَوَاعِيظُ وَتَفْصِيلٌ^(٧)

- (١) لعاً لك: كلمة يقال للعائر، وهي دهاء له للإفالة من عثرته.
- (٢) كاسأ رويته، أي مروية: والنهال: الشرب الأول، والعلل: الشرب الثاني، والمأمون: يعني النبي ﷺ كانت قریش تسميه به.
- (٣) متبول: سقمه الحب أضناه، ومتيم: ذليل مستعبد، ولم يهْدَ: لم يخلص من الأسر، ومكبول: مقيد.
- (٤) الغواة: المفسدون. جنابها: حوالها. ومقتول: مترعد بالقتل.
- (٥) أمله: أومل خيره، وأترجى إهائه في الملمات، وألهينك: أشغلنك، و«لا» فيها نافية، والتوكيد قليل مع النفي.
- (٦) الآلة الحذباء: النعش الذي يحمل عليه الميت.
- (٧) النافلة: الزيادة. وسمي القرآن نافلة، لأنه عطية زائدة على النبوة.

- لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ أَذْنِبْ وَلَوْ كَثُرَتْ فِي الْأَقَاوِيلِ لَقَدْ أَقْرَمَ مَقَامًا لَوْ يَقُومُ بِهِ أَرَى وَأَسْمَعُ مَا لَوْ يَسْمَعُ الْفِيلُ لَقَلَّ تَرَعْدُ مِنْ خَوْفِ بَوَادِرِهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ تَتَوِيلُ^(١) حَتَّى وَضَعْتُ يَمِينِي مَا أَنَا زَعُهَا فِي كَفِّ ذِي نِقَمَاتٍ قَوْلُهُ الْقِيلُ^(٢) فَلَهُوَ أَخَوْفٌ عِنْدِي إِذْ أَكَلَّمَهُ وَقِيلَ إِنَّكَ مَنسُوبٌ وَمَسْؤُولٌ^(٣) مِنْ ضَيْقِمْ بِضَرَاءِ الْأَرْضِ مُخَدَّرُهُ فِي بَطْنِ عَثْرٍ غِيلٌ دُونَهُ غِيلٌ^(٤) يَغْدُو فَيَلْجِمُ ضِرْعَامَتَيْنِ عَيْشُهُمَا لَحْمٌ مِنَ النَّاسِ، مَغْفُورٌ خَرَابِيلُ^(٥) إِذَا يُسَاوِرُ قِرْنَآ لَا يَجِلُّ لَهُ أَنْ يَتَرَكَ الْقِرْنَ إِلَّا وَهُوَ مَقْلُولٌ^(٦)
- مِنْهُ تَقْلُ سِبَاعُ الْحِجْوِ نَافِرَةٌ وَلَا تَمْنَى بِوَادِيهِ الْأَرَاجِيلِ^(٧) وَلَا يَزَالُ بِوَادِيهِ أَخُو ثِقَةٍ مَضْرُجُ الْبُرِّ وَالذُّرْسَانِ مَأْكُولٌ^(٨) إِنَّ الرُّسُولَ لَتَوَرَّ يُسْتَضَاءُ بِهِ مُهْتَدٌ مِنْ شُيُوفِ اللَّوِّ مَسْلُوكٌ فِي عُضْبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَاتِلُهُمْ يَبْظَنُ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُولُوا^(٩) زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ وَلَا كُشْفٌ عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا يَمِيلُ مَعَاذِيلُ^(١٠) يَمْشُونَ مَشْيَ الْجَمَالِ الزُّهْرِ يَغْصِمُهُمْ ضَرْبٌ إِذَا عَرَدَ السُّودُ التَّنَائِيلُ^(١١) شُمُ الْعَرَاذِينِ أَبْطَالٌ لَبُوسُهُمْ مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سَرَابِيلُ^(١٢) يَبِضُّ سَوَابِغٌ قَدْ شُكَّتْ لَهَا حَلَقٌ كَانَهَا حَلَقُ الْقَفْعَاءِ مَجْدُولُ^(١٣)

- (١) التتويل: التأمين.
(٢) النقمات: بفتح فكسر، جمع نعمة، والمراد به النبي ﷺ لأنه كان ينتقم من الكفار، وقوله القيل: المراد أن قوله معتد به لكونه نافذاً ماضياً.
(٣) منسوب: أي إلى أمور صدرت منك، ومسؤول، أي: عن سببها.
(٤) الضيغم: الأسد. وضراء الأرض: الأرض التي فيها شجر. والمخدر: غابة الأسد، وعثر: مكان مشهور بكثرة السباع. والغيل: الشجر الكثير الملتف. وغيل دونه غيل: أي أجمة تقربها أجمة أخرى، فتكون أسدها أشد توحشاً وأقوى ضراوة.
(٥) يغدو: يخرج في أول النهار يطلب صيداً لشبليه. ويلجم: يطعمها اللحم. والضرغام: الأسد، مغفور: ملقى في الغفر وهو التراب، وخراديل: قطع صفار.
(٦) يساور: يواثق، القرن: المقاوم في الشجاعة، والمقلول: المكسور المهزوم.
(٧) الحجو: اسم موضع. ونافرة بعيدة، والأراجيل: الجماعات من الرجال وهو جمع الجمع.
(٨) البر: السلاح، الدرسان: أخلاق الثياب. ومأكول، أي طعام لذلك الأسد.
(٩) زولوا: أي تحولوا وانتقلوا من مكة إلى المدينة.
(١٠) الأنكاس: جمع نكس، وهو الرجل الضعيف، والكشف يضم فسكون وحرك للوزن جمع أكشف، وهو الذي لا ترس معه، والميل جمع أميل، وهو الذي لا سيف له أو هو الذي لا يحسن الركوب فيميل عن السرج، والمعازيل: الذين لا سلاح معهم واحدهم: مقرال.
(١١) الزهر: البيض، يصفهم بامتداد القامة وعظم الخلق والرفق في المشي وبياض البشرة، وذلك دليل على الوقار والسؤدد. ويغصمهم: يمنهم. وعرد: قر، وأعرض عن قرنه وهرب عنه، والتنايل: جمع تنبال، وهو القصير.
(١٢) شم، جمع أشم: وهو الذي في قبة أنفه علو مع استواء أعلاه، والعراين: جمع عرين، وهو الأنف، واللبوس: ما يلبس من السلاح، ونسج داود: هي الدروع. والسرابيل: جمع سربال، وهو القميص أو الدرع.
(١٣) يبض: مجلولة صافية مصقولة. السوابغ: الطوال. وشكت: أدخل بعضها في بعض، والقفعاء: ضرب من الحسك، وهو نبات له شوك ومجدول: محكم الصنعة.

لَوْ كُنْتُ أَعْجَبُ مِنْ شَيْءٍ لَأَعَجَبَنِي
سَعَى الْفَتَى وَهُوَ مُحْبُوتٌ لَهُ الْقَدْرُ
يَسْعَى الْفَتَى لِأُمُورٍ لَيْسَ يُدْرِكُهَا
فَالنَّفْسُ وَاجِدَةٌ وَالْهَمُّ مُنْتَشِرٌ
وَالْمَرْءُ مَا عَاشَ مَمْدُودٌ لَهُ أَمَلٌ
لَا تَنْتَهِي الْعَيْنُ حَتَّى يَنْتَهِيَ الْأَمْرُ
ومما يستحسن له أيضاً قوله في النبي ﷺ:
تُعْدَى بِهِ النَّاقَةُ الْأَذْمَاءُ مُعْتَجِرًا
لِلْمَرْءِ كَالْبَدْرِ جَلِيًّا لَيْلَةَ الظُّلُمِ
فَفِي عِطَاقِهِ أَوْ أَثْنَاءَ بُرْدَتِهِ
مَا يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْنِ كَرَمٍ

فصل

في غزوة تبوك

[انظر: «طبقات ابن سعد» (٢/١٦٥) و«الطبري» (٣/١٤٢)]

وكانت في شهر رجب سنة تسع، قال ابن
إسحاق: وكانت في زمن عُسْرَةٍ مِنَ النَّاسِ، وَجَدِبٍ
مِنَ الْبِلَادِ، وَحِينَ طَابَتِ الثَّمَارُ، وَالنَّاسُ يُحِبُّونَ
الْمُقَامَ فِي ثَمَارِهِمْ وَظِلَالِهِمْ، وَيَكْرَهُونَ شُخُوصَهُمْ
عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَلَمًا يَخْرُجُ
فِي غَزْوَةٍ إِلَّا كَتَبَ عَنْهَا، وَوَرَى بِغَيْرِهَا، إِلَّا مَا كَانَ
مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، لِبَعْدِ الشُّقَّةِ، وَشِدَّةِ الزَّمَانِ.

فقال رسول الله ﷺ ذات يوم، وهو في جَهَازِهِ
لِلْحَدِّ بْنِ قَيْسٍ أَحَدِ بَنِي سُلَيْمَةَ: «يَا جَدُّ! هَلْ لَكَ الْعَامَ
فِي جِلَادِ بَنِي الْأَصْفَرِ؟» فقال: يا رسول الله أو تَأْذَنُ
لِي وَلَا تَقْتَتِي؟ فوالله لقد عرفت قومي أنه ما مِنْ رَجُلٍ
بِأَشَدَّ عَجَبًا بِالنِّسَاءِ مِنِّي، وَإِنِّي أَخْشَى إِنْ رَأَيْتُ نِسَاءً
بَنِي الْأَصْفَرِ أَنْ لَا أَصْبِرَ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

لَيْسُوا مَقَارِيعَ إِنْ نَالَتْ رِمَاحُهُمْ
قَوْمًا وَلَيْشُوا مَجَازِيعًا إِذَا نِيلُوا
لَا يَقَعُ الظُّلْمُ إِلَّا فِي تُحُورِهِمْ
وَمَا لَهُمْ عَنْ جِيَاظِ الْمَوْتِ تَهْلِيلٌ^(١)
قال ابن إسحاق: قال عاصم بن عمر بن قتادة:
فلما قال كعب: «إذا عرد السود التنايل» وإنما عني
معشر الأنصار لما كان صاحبنا صنع به ما صنع،
وخص المهاجرين بمدحته، غضبت عليه الأنصار،
فقال بعد أن أسلم يمدح الأنصار في قصيدته التي
يقول فيها:
مَنْ سَرَّهُ كَرَمُ الْحَيَاءِ فَلَا يَزَلْ

فِي مَقْتَبٍ مِنْ صَالِحِي الْأَنْصَارِ^(٢)
وَرَبُّنَا الْمَكَارِمِ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ
إِنَّ الْخِيَارَ هُمْ بَنُو الْأَخْيَارِ
الْبَاقِلِينَ نُفُوسَهُمْ لِنَبِيِّهِمْ
يَوْمَ الْهِجَاجِ وَسَطْوَةِ الْجَبَّارِ
وَالذَّائِبِينَ النَّاسَ عَنْ أَذْيَانِهِمْ
بِالْمُشْرِفِي وَبِالْقَنَا الْخَطَّارِ^(٣)
وَالْبَائِيِينَ نُفُوسَهُمْ لِنَبِيِّهِمْ
لِلْمَمُوتِ يَوْمَ تَعَانِي وَكَرَارِ
يَنْظَهُرُونَ يَرَوْنَهُ نُسْكًَا لَهُمْ
بِدِمَاءٍ مَنْ عَلِقُوا مِنَ الْكُفَّارِ
وَإِذَا حَلَلْتَ لِيَمْنَعُوكَ إِلَيْهِمْ
أَضْبَحْتَ عِنْدَ مَعَاظِلِ الْأَعْفَارِ^(٤)
قَوْمٌ إِذَا حَوَّتِ الشُّجُومُ قَائِلُهُمْ
لِلطَّارِقِينَ النَّازِلِينَ مَقَارِي^(٥)
وكعب بن زهير من فحول الشعراء، هو وأبوه،
وابنه عقبة، وابن ابنه العوام بن عقبة، ومما يُستحسن
لكعب قوله:

- (١) وقوع الطعن في نحورهم: دليل على أنهم لا ينهزمون حتى يقع الطعن في ظهورهم، وحياض الموت: موارد الحنف، يريد بها ساحات القتال، وتهليل: تأخر.
- (٢) المقتب: الجماعة من الخيل، يريد به القوم على ظهور جيادهم.
- (٣) الخطار: المهتز.
- (٤) المعازل: جمع معقل، وهو الموضع الممتنع، والأعفار، جمع عَفَرٍ وهو ولد الوعل، ويضرب المثل بامتناع أولاد الوعل في قُلل الجبال.
- (٥) خوت النجوم: أي سقطت، ولم تمطر في نوتها، والطارقون الذين يأتون بالليل والمقاري: جمع مقراة، وهي الجفنة التي يصنع فيها الطعام للأضياف.

وقال: «قَدْ أَذْنْتُ لَكَ»، ففيه نزلت الآية: «وَمَنْهُمْ مَنْ يَكْفُرُ أَكْذَنَ لِي وَلَا تَنْجِي» [التوبة: ٤٩].

وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحر، فأنزل الله فيهم: «وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ» [التوبة: ٨١].

ثم إن رسول الله ﷺ جَدَّ في سفره، وأمر الناس بالجهَّاز، وحضَّ أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله، فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا، وأنفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة لم يُنفق أحدٌ مثلاً.

قلت: كانت ثلاثمة بعير بأخلاسها وأقتابها وعُدَّتْها، وألف دينار عِيناً [حسن: أحمد: ٢٠٦٣، والترمذي: ٣٧٠٢].

(استعمال البكائين النبي ﷺ)

وذكر ابن سعد قال: بلغ رسول الله ﷺ، أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأن هرقل قد رَزَق أصحابه لسنه، وأجلبت معه لَحْمٌ، وجُدام، وعَاميَّة، وغسان، وقَدَّمُوا مُقَلِّمَاتِهِمْ إلى البلقاء، وجاء البكَّاءون وهم سبعة يستحيلون رسول الله ﷺ، فقال: لا أجد ما أحملكم عَلَيْهِ فتولَّوا وأصْبَهُمْ تَمِيضُ من الدمع حزناً أن لا يجدوا ما يُنفِقُونَ. وهم سالم بن عُمير، وَعُلبَةُ بن زيد، وأبو ليلى المازني، وعمرو بن عَتَمَةَ، وسلمة بن صخر، والجرياض بن سارية. وفي بعض الروايات: وعبد الله بن مُعْقِلٌ ومُعْقِلُ بن يسار، وبعضهم يقول: البكَّاءون بنو مُقَرَّن السبعة، وهم من مُزينة [ابن سعد (١٦٥/٢)]. وابن إسحاق: يعدُّ فيهم عمرو بن الحُمام بن الجَمُوح.

وأرسل أبا موسى أصحابه إلى رسول الله ﷺ ليحملهم، فوافاه غضبان، فقال: «والله لا أحملكم، ولا أجد ما أحملكم عليه»، ثم أتاه إيل، فأرسل إليهم، ثم قال: «مَا أَنَا حَمَلْتُكُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ حَمَلَكُمْ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أَخْلِفُ عَلَى يَمِينٍ، فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا كَفَرْتُ عَنْ يَمِينِي وَأَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ» [البخاري: ٤٤١٥، ومسلم: ٤٢٣٣].

فصل

(قصة علبه بن زيد)

وقام علبه بن زيد فصلى من الليل ويكي، وقال: اللهم إنك قد أمرت بالجهاد، ورغبت فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به مع رسولك، ولم تجعل في يد رسولك ما يحولني عليه، وإني أتصلق على كل مسلم بكل مَظْلَمَةٍ أصابني فيها من مال، أو جسد، أو عرض، ثم أصبح مع الناس، فقال النبي ﷺ: «أَيُّنَ الْمُتَصَلِّقُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ؟» فلم يبق إليه أحد، ثم قال: «أَيُّنَ الْمُتَصَلِّقُ؟» فَلْيَقُمْ فَقَامَ إِلَيْهِ، فأخبره، فقال النبي ﷺ: «أَبَشِرْ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَقَدْ كَتَبَتْ فِي الرِّكَازِ الْمُتَقَبَّلَةَ»^(١).

(المعذرون من العُرب)

وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم، فلم يَخْلِفْهم. قال ابن سعد: وهم اثنان وثمانون رجلاً، وكان عبد الله بن أبي سلول قد عسكر على ثنية الوداع في حلفائه من اليهود والمنافقين، فكان يقال: ليس عسكره بأقلَّ العسكرين. واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري. وقال ابن هشام: سباع بن عُرقطة، والأول أثبت.

(تخلف جمع ابن أبي وبعض الصحابة)

فلما سار رسول الله ﷺ، تخلف عبد الله بن أبي ومَنْ كان معه، وتخلف نفر من المسلمين من غير شك ولا ارتياب، منهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومِزَابَةُ بن الربيع، وأبو خَيْثَمَةَ السَّالَمِي، وأبو ذر، ثم لحقه أبو خَيْثَمَةَ، وأبو ذر، وشهدا رسول الله ﷺ في ثلاثين ألفاً من الناس، والخيْلُ عشرة آلاف فرس، وأقام بها عشرين ليلة يقصر الصلاة، وهرقل يومئذ يحمص.

(استخلاف علي على المدينة)

قال ابن إسحاق: ولما أراد رسول الله ﷺ الخروج، خلف علي بن أبي طالب على أهله، فأَرْجَفَ به المنافقون، وقالوا: ما خلفه إلا استحقاقاً

(١) حديث صحيح ورد مستنداً موصولاً كما قال الحافظ في «الإصابة» (٢/٤٩٣).

(المرور بديار ثمود)

والنهي عن شرب مائه واستعماله للوضوء والاحتكاك)

وقد كان رسول الله ﷺ حين مرَّ بالجعر بديار ثمود، قال: «لَا تَشْرَبُوا مِنْ مَائِهَا شَيْئًا، وَلَا تَتَوَضَّؤُوا مِنْهُ لِلصَّلَاةِ، وَمَا كَانَ مِنْ عَجَبٍ عَجَبْتُمُوهُ فَأَغْلِقُوهُ الْإِبِلَ، وَلَا تَأْكُلُوا مِنْهُ شَيْئًا، وَلَا يَخْرُجَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَّا وَمَعَهُ صَاحِبٌ لَهُ»، ففعل الناسُ، إلا أن رجلين من بني ساعدة خرج أحدهما لحاجته، وخرج الآخر في طلب بعيده، فأما الذي خرج لحاجته، فإنه حَقَّقَ على مذهبه، وأما الذي خرج في طلب بعيده، فاحتملته الريحُ حتى طرحته بجبلٍ طيبٍ، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ، فقال: «الَمْ أَنْهَكُمُ أَنْ لَا يَخْرُجَ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَّا وَمَعَهُ صَاحِبُهُ»، ثم دعا للذي حَقَّقَ على مذهبه فشفي، وأما الآخر، فأهدته طيباً لرسول الله ﷺ حين قدم المدينة^(٣).

قلت: والذي في «صحيح مسلم»، من حديث أبي حميد: انطلقنا حتى قَدِمْنَا تَبُوكَ، فقال رسول الله ﷺ: «سَتَهُبُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَةُ رِيحٌ شَدِيدَةٌ، فَلَا يَقُمْ مِنْكُمْ أَحَدٌ، فَمَنْ كَانَ لَهُ بَعِيرٌ فَلْيَشُدَّ عِقَالَهُ، فَهَبْتَ رِيحٌ شَدِيدَةٌ، فَقَامَ رَجُلٌ فَحَمَلَتْهُ الرِّيحُ حَتَّى أَلْقَتْهُ بِجَبَلٍ طَيْبٍ» [مسلم: ٣٣٧١].

قال ابن هشام: بلغني عن الزهري أنه قال: لما مرَّ رسول الله ﷺ بالحجر، سَجَى ثوبه على وجهه، واستحَّت راحلته، ثم قال: «لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا وَأَنْتُمْ بِأَكْوَنَ خَوْفًا أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ» [أحمد: ٥٢٢٤].

قلت: في «الصحيحين» من حديث ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْمُعْتَلِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ لَا يُصِيبُكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ» [البخاري: ٤٧٠٣، ومسلم: ٧٤٦٤].

وفي «صحيح البخاري»: أنه أمرهم باللقاء المعجيز وطرحه [البخاري: ٣٣٧٨].

وتخففاً منه، فأخذ علي رضي الله عنه سلاحه، ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ وهو نازل بالجعر^(١)، فقال: يَا نَبِيَّ اللَّهِ زَعِمَ الْمَنَافِقُونَ أَنَّكَ إِنَّمَا خَلَفْتَنِي لِأَنَّكَ اسْتَمَلْتَنِي وَتَخَفْتَنِي مِنِّي، فَقَالَ: «كَذَبُوا وَلَكِنِّي خَلَفْتُكَ لِمَا تَرَكْتُ وَرَاقِي، فَارْجِعْ فَأَخْلِفْنِي فِي أَهْلِي وَأَهْلِكَ، أَفَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى؟ إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي» [البخاري: ٤٤١٦، ومسلم: ٦٢١٨] فرجع علي إلى المدينة.

(الحاق أبي خيثمة به ﷺ)

ثُمَّ إِنَّ أَبَا خَيْثَمَةَ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ سَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَيَّاماً إِلَى أَهْلِهِ فِي يَوْمٍ حَارٍّ، فَوَجَدَ امْرَأَتَيْنِ لَهُ فِي عَرِشَيْنِ لَهَا فِي حَانِطِهِ، قَدْ رَشَّتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا عَرِشَهَا، وَبَرَدَتْ لَهُ مَاءٌ، وَهَيَاتَ لَهُ فِيهِ طَعَاماً، فَلَمَّا دَخَلَ، قَامَ عَلَى بَابِ الْعَرِشِ، فَظَنَرَ إِلَى امْرَأَتِهِ وَمَا صَنَعَتْ لَهُ، فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الضَّحَى^(٢) وَالرَّيْحِ، وَالْحَرِّ، وَأَبُو خَيْثَمَةَ فِي ظِلِّ بَارِدٍ، وَطَعَامٍ مَهِيأً، وَامْرَأَةً حَسَنَاءَ، فِي مَالِهِ مَقِيمٌ؟ مَا هَذَا بِالنَّصَفِ، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ لَا أَدْخُلُ عَرِشَ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا حَتَّى أَلْحَقَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَهَيَّا لِي زَاداً، فَفَعَلْنَا، ثُمَّ قَدَّمَ نَاضِجَهُ، فَارْتَحَلَهُ، ثُمَّ خَرَجَ فِي طَلَبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَدْرَكَهُ حِينَ نَزَلَ تَبُوكَ، وَقَدْ كَانَ أَدْرَكَ أَبَا خَيْثَمَةَ عُمَيْرُ بْنُ وَهَبٍ الْجَمْعِيُّ فِي الطَّرِيقِ يَطْلُبُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَتَرَاقَا حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْ تَبُوكَ، قَالَ أَبُو خَيْثَمَةَ لِعُمَيْرِ بْنِ وَهَبٍ: إِنَّ لِي ذَنْباً، فَلَا عَلَيْكَ أَنْ تَتَخَلَّفَ عَنِّي حَتَّى آتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَفَعَلَ حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ نَازِلٌ بِتَبُوكَ، قَالَ النَّاسُ: هَذَا رَاكِبٌ عَلَى الطَّرِيقِ مُقْبِلٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ» قَالُوا: يَارَسُولَ اللَّهِ! هُوَ وَاللَّهِ أَبُو خَيْثَمَةَ. فَلَمَّا أَنَاخَ أَقْبَلَ، فَسَلَّمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوَّلَى لَكَ يَا أَبَا خَيْثَمَةَ»، فَأَخْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبْرَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْراً وَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ [البخاري: ٧٧٥٧، ومسلم: ٧٠١٦].

(١) الجعر: موضع على ثلاثة أميال من المدينة.

(٢) الضح: الشمس.

(٣) وقوله: خنق على مذهبه معناه: صرع في الوضع الذي يتفوط فيه.

(إبطاء بعير أبي ذر)

وتلوّم على أبي ذر بعيره، فلما أبطأ عليه، أخذ متاعه على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً، ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازلهم، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله، إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله ﷺ: «كُنْ أَبَا ذَرٍّ»، فلما تأمله القوم، قالوا: يا رسول الله! والله هو أبو ذر. فقال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ أَبَا ذَرٍّ يَمْشِي وَحْدَهُ، وَيَمُوتُ وَحْدَهُ، وَيَبْعَثُ وَحْدَهُ» [الحاكم (٣/ ٥٠ - ٥١)، وابن كثير (١٤/ ٤)، وفيه إرسال].

(موت أبي ذر وحده)

قال ابن إسحاق: فحدثني بريدة بن سفيان الأسلمي، عن محمد بن كعب القرظي، عن عبد الله بن مسعود قال: لما نفى عثمان أبا ذر إلى الرَبَذَةِ، وأصابه بها قدرته، لم يكن معه أحد إلا امرأته وغلأمه، فأوصاهما: أن غسلاني وكفّاني، ثم ضعاني على قارعة الطريق، فأول ركب يمرّ بكم فقولوا: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ، فأعينونا على دفنه، فلما مات، فعلا ذلك به، ثم وضعاه على قارعة الطريق، وأقبل عبد الله بن مسعود في رمل مع من أهل العراق عُثَارًا فلم يرْغُمُ إِلَّا بالجنّازة على ظهر الطريق قد كادت الإبل تَطْلُها، وقام إليهم الغلام، فقال: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه، قال: فاستهلّ عبد الله بيبكي ويقول: صدق رسول الله ﷺ «تَمْشِي وَحْدَكَ، وَتَمُوتُ وَحْدَكَ، وَتُبْعَثُ وَحْدَكَ» ثم نزل هو وأصحابه، فوارزوه، ثم حدّثهم عبد الله بن مسعود حديثه، وما قال له رسول الله ﷺ في مسيره إلى تبوك [ابن هشام (٧٧٧)].

قلت: وفي هذه القصة نظر، فقد ذكر أبو حاتم بن حبان في «صحيحه» وغيره في قصة وفاته، عن مجاهد، عن إبراهيم بن الأشتر، عن أبيه، عن أم ذر، قالت: لما حضرت أبا ذر الوفاة، بكيتُ، فقال: ما يُكيك؟ فقلت: ما لي لا أبكي، وأنت تموتُ بفلاة من الأرض، وليس عندي ثوب يسعك كفناً، ولا يدان لي في تقييك؟ قال: أبشري ولا تبكي، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول لنفري أنا فيهم: «لَيَمُوتَنَّ

وفي «صحيح مسلم»: أنه أمرهم أن يغلفوا الإبل العَجِينَ، وأن يُهْرِقُوا الماء، ويستقوا من البئر التي كانت تَرِدُها الناقة [مسلم: ٧٤٦٦]، وقد رواه البخاري أيضاً، وقد حفظ راويه ما لم يحفظه مَنْ روى الطرح.

وذكر البيهقي أنه نادى فيهم: الصلاة جامعة، فلما اجتمعوا، قال: «عَلَامَ تَدْخُلُونَ على قوم غَضِبَ اللَّهُ عليهم» فناداه رجل فقال: نَعَجِبُ مِنْهُمْ يا رسول الله! فقال: «أَلَا أُنبِئُكُمْ بِمَا هُوَ أَغْجَبُ مِنْ ذَلِكَ؟ رَجُلٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ يَبْكُكُمْ بِمَا كَانَ قَبْلَكُمْ وَمَا هُوَ كَائِنْ بَعْدَكُمْ، اسْتَقِيمُوا وَسَدُّوا، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَبْقَى بَعْدَائِكُمْ شَيْئًا، وَسَيَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ لَا يَذْفَعُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ شَيْئًا» [احمد: ١٨٠٢٩].

فصل

(استسفاؤه ﷺ)

قال ابن إسحاق: وأصبح الناس ولا ماء معهم، فَشَكَّرُوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ، فأرسل الله سبحانه صحابه، فأمطرت حتى ارتوى الناس، واحتملوا حاجتهم من الماء [البيهقي (١٩٤/٦)].

(أخبار الله نبيه ﷺ بمكان ناقته)

ثم إن رسول الله ﷺ سار حتى إذا كان ببعض الطريق، ضلّت ناقته، فقال زيد بن اللّصين وكان منافقاً: أليس يزعم أنه نبي، ويُخبركم عن خير السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ رَجُلًا يَقُولُ، وَذَكَرَ مَقَالَتَهُ وَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أَعْلَمُ إِلَّا مَا عَلَّمَنِي اللَّهُ، وَقَدْ دَلَّنِي اللَّهُ عَلَيْهَا، وَهِيَ فِي الْوَادِي فِي شَيْبٍ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ حَبَسْتُهَا شَجَرَةً بِزَمَائِمِهَا، فَانْظُرُوا حَتَّى تَأْتُونِي بِهَا». فذهبوا فأتوه بها [ابن هشام (٧٢٦)، ورجالته].

وفي طريقه تلك خرّصَ حديقة المرأة بعشرة أوسق [البخاري: ١٤٨١، ومسلم: ٣٣٧١].

(تخلف بعضهم في الطريق)

ثم مضى رسول الله ﷺ، فجعل يتخلف عنه الرجل فيقولون: تخلف فلان. فيقول: «دَعُوهُ فَإِنَّ يَكُ فِيهِ خَيْرٌ، فَسَيُلْحِقُهُ اللَّهُ بِكُمْ، وَإِنْ يَكُ غَيْرَ ذَلِكَ، فَقَدْ أَرَأَحْتُمْ اللَّهُ بِنْتَهُ».

رَجُلٌ مِنْكُمْ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ يَشْهَدُهُ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ». وليس أحدٌ من أولئك النَّفَرِ إِلَّا وقد مات في قريةٍ وجماعةٍ، فانا ذَلِكَ الرَّجُلُ، فواللَّهِ ما كَذَبْتُ ولا كُذِّبْتُ، فأبصرني الطريق. قُلْتُ: أئني وقد ذهب الحاجُّ، وتقطعت الطُّرُقُ؟ فقال: اذهبي فتبصري. قالت: فكنتُ أُسَيِّدُ إلى الكَثِيبِ أَنْبَصِرُ، ثم أرجع فأمرُضهُ، فبينما أنا وهو كذلك، إذ أنا برجالٍ على رحالهم كأنهم الرِّخْمُ تُحْبُ بهم رواجلهم، قالت: فأشَرْتُ إليهم، فأسرعوا إليَّ حتَّى وقفوا عليَّ فقالوا: يا أمةَ اللهِ! مالك؟ قلت: امرؤ من المسلمين يَمُوتُ تكفونهُ، قالوا: ومن هو؟ قلت: أبو ذر. قالوا: صاحبُ رسولِ اللهِ ﷺ؟ قلت: نعم، ففدَّوه بأبائهم وأمهاتهم، وأسرعوا إليه حتَّى دخلوا عليه، فقال لهم: أبشروا فإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول لنفَرِ أنا فيهم: «لَيَمُوتَنَّ رَجُلٌ مِنْكُمْ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ يَشْهَدُهُ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» وَلَيْسَ مِنْ أَوْلِيكَ النَّفَرِ رَجُلٌ إِلَّا وقد هَلَكَ في جَمَاعَةٍ. واللَّهِ ما كَذَبْتُ ولا كُذِّبْتُ، إنه لو كان عندي ثوبٌ يسْمُنِي كَفَنًا لي أو لامرأتي، لم أَكْفَنُ إِلَّا في ثوبٍ هو لي أو لها، فإنِّي أنشدُكم اللهُ أن لا يكفَّنني رجلٌ منكم كان أميراً، أو عريفاً، أو بريداً، أو نقياً، وليس من أولئك النَّفَرِ أحدٌ إِلَّا وقد قارفت بعضُ ما قال إِلَّا فتى من الأنصار قال: أنا يا عمُّ، أَكْفَنُكَ في رِدائي هذا، وفي ثوبين من عييتي من غزل أُمي. قال: أَنْتَ فكفَّنني، فكفَّته الأنصاري، وقاموا عليه، ودفنوه في نَفَرٍ كُلُّهم يمان لحسن: ابن حبان: ٢٢٦٠.

(قصة رهط من المنافقين)

رجعنا إلى قصة تبوك، وقد كان رهطٌ من المنافقين، منهم: وداعة بن ثابت أخو بني عمرو بن عوف، ومنهم رجلٌ من أشجع حليف لبني سلمة يقال له: مَخْشِي بن حُمَيْرٍ، قال بعضهم لبعض: أنحسبون جلاذ بني الأصفر، كقتال العرب بعضهم لبعض؟ واللَّهِ لكانا يكم غداً مقرَّنين في الجبال إرجافاً وترهيباً للمؤمنين. فقال مَخْشِي بن حُمَيْرٍ: واللَّهِ لو وجدت أُنِي أقاضى على أن يُضرب كُلُّ منا مئةَ جَلْدَةٍ، وإنَّا ننفِلُ أن ينزل فينا قرآنٌ لمقاتلكم هذه.

وقال رسولُ اللهِ ﷺ لعمار بن ياسر: «أذكرك

الْقَوْمَ، فإنهم قد اخْتَرَقُوا فَسَلَهُمْ عَمَّا قالوا؟ فإن أنكروا، قُلْ: بل قُلْتُم: كذا وكذا». فانطلق إليهم عمار، فقال لهم ذلك، فأتوا رسولَ اللهِ ﷺ يعتزِّزون إليه، فقال وداعة بن ثابت: كنا نخوض ونلعب، فأنزل اللهُ فيهم ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَعْمُوسُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥] فقال مخشي بن حُمَيْرٍ: يا رسولَ اللهِ! قد بي اسمي واسمُ أبي، فكان الذي عُفِيَ عنه في هذه الآية، وتسمَّى عبد الرحمن، وسأل اللهُ أن يُقتل شهيداً لا يُعلم بمكانه، فقتل يومَ اليمامة، فلم يوجد له أثر.

وذكر ابن عائد في «مغازيه»، أن رسولَ اللهِ ﷺ نزل تبوك في زمان قلَّ ماؤها فيه، فاعترف رسولُ اللهِ ﷺ غُرْفَةً بيده من ماء، فمضمض بها فاه، ثم بصقه فيها، فقارت عيُّها حتَّى امتلأت، فهي كذلك حتَّى الساعة.

(نبيه ﷺ عن مس عن تبوك حتى باتي)

قلت: في «صحيح مسلم» أنه قال قبل وصوله إليها: «إِنَّكُمْ سَتَأْتُونَ غداً إن شاء اللهُ تَعَالَى عَيْنَ تَبُوكَ، وَإِنَّكُمْ لَنْ تَأْتُوهَا حَتَّى يَصْجِيَ النَّهَارُ، فَمَنْ جَاءَهَا فلا يَمَسَّ مِنْ مائها شيئاً حتَّى آتِي». قال: فجتناها وقد سَبَقَ إليها رَجُلانِ، والعين مثلُ الشَّراكِ تَبْضُ يشيء من ماء، فسألهما رسولُ اللهِ ﷺ، هل مَسَسْتُمَا مِنْ مائها شيئاً؟ قالوا: نَعَمْ، فسبَّهَما النبي ﷺ، وقال لهما ما شاء اللهُ أن يقول، ثُمَّ غَرَفُوا مِنَ الْعَيْنِ قَلِيلاً قَلِيلاً حتَّى اجتمع في شيء، وغسل رسولُ اللهِ ﷺ فيه وجهه ويَدَيْه، ثم أعاده فيها، فجرت العين بماءٍ مُنْهَبِرٍ، حتَّى استقى النَّاسُ، ثم قال رسولُ اللهِ ﷺ: «يُوشِكُ يا مُعَاذُ إن طالت بك حياةُ أن ترى ما ههنا قد ملئى جَنَاناً» [مسلم: ١٦٣١].

فصل

(الصلح مع صاحبِ لُبلة)

ولما انتهى رسولُ اللهِ ﷺ إلى تبوك، أتاه صاحبُ أَيْلَةٍ، فصالحه وأعطاه الجزية، وأتاه أهلُ جَزْيَا، وأذرح، فأعطوه الجزية، وكتب لهم رسولُ اللهِ ﷺ كتاباً، فهو عندهم، وكتب لصاحبِ أيلة: بِسْمِ اللهِ الرحمن الرحيم، هذا أَمَنَةٌ مِنَ اللهِ، ومحمد النبي رسولُ اللهِ ﷺ لِيُحَنِّتَ بن رُوَيْبَةَ، وأهلِ أَيْلَةٍ، مُفَنِّمِ،

وسيارتهم في البر والبحر، لهم ذمة الله، ومحمد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام، وأهل اليمن، وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً، فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يمتنوا ماء يردونه، ولا طريقاً يردونه من بحر أو بر [ابن هشام (٧٢٨)].

فصل

في بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد

إلى أكيدر دومة

قال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة، وهو أكيدر بن عبد الملك، رجل من كندة، وكان نصرانياً، وكان ملكاً عليها، فقال رسول الله ﷺ لخالد: «إنك ستجده يصيد البقر»، فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين، وفي ليلة مقمرة صافية، وهو على سطح له، ومعه امرأته، فبانت البقر تحك بقرونها باب القصر، فقالت له امرأته: هل رأيت مثل هذا قط؟ قال: لا والله. قالت: فمن يترك هذه؟ قال: لا أحد، فنزل، فأمر بفرسه، فأسرج له، وركب معه نفر من أهل بيته فيهم أخ له يقال له: حسان، فركب وخرجوا معه بمطاردهم، فلما خرجوا، تلقتهم خيل رسول الله ﷺ، فأخذته، وقطلوا أخاه، وقد كان عليه قباء من ديباج مخوص بالذهب، فاستلبه خالد، فبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه عليه، ثم إن خالداً قدم بأكيدر على رسول الله ﷺ، فحقن له دمه، وصالحه على الجزية، ثم غلّى سبيله، فرجع إلى قريته [ابن هشام (٧٢٨)، وابن كثير (٣٠٠/٤)].

وقال ابن سعد: بعث رسول الله ﷺ خالداً في أربعمئة وعشرين فارساً، فذكر نحو ما تقدم. قال: وأجار خالد أكيدر من القتل حتى يأتني به رسول الله ﷺ، على أن يتخلى له دومة الجندل، ففعل وصالحه على ألفي بعير، وثمانمئة رأس، وأربعمئة درع، وأربعمئة رمح، فعزل للنبي ﷺ صويته خالصاً، ثم قسم الغنيمة، فأخرج الخمس، فكان للنبي ﷺ، ثم قسم ما بقي في أصحابه، فصار لكل واحد منهم خمس فرائض.

وذكر ابن عائد في هذا الخبر، أن أكيدر قال عن البقر: والله ما رأيته قط أتتنا إلا الباردة، ولقد كنت أضير لها اليومين والثلاثة، ولكن قدر الله.

قال موسى بن عتبة: واجتمع أكيدر، ويحنة عند رسول الله ﷺ، فدعاهما إلى الإسلام، فأبيا، وأقرا بالجزية، ففاضاهما رسول الله ﷺ على قضية دومة، وعلى تبوك، وعلى أيلة، وعلى تيماء، وكتب لهما كتاباً.

(الرجوع من تبوك وهل قصة النهي عن

الشرب من وادي المشقق وعين تبوك قصة واحدة)

رجعنا إلى قصة تبوك: قال ابن إسحاق: فأقام رسول الله ﷺ بتبوك بضعة عشرة ليلة لم يجاوزها، ثم انصرف قافلاً إلى المدينة، وكان في الطريق ماء يخرج من وشلي يروي الراكب والراكبين والثلاثة، بوادٍ يقال له: وادي المشقق، فقال رسول الله ﷺ: «من سبقتنا إلى ذلك الماء، فلا يستقي منه شيئاً حتى نأتيه» قال: فسبقه إليه نفر من المنافقين، فاستقوا، فلم ير فيه شيئاً، فقال: «من سبقتنا إلى هذا الماء؟» فقيل له: يا رسول الله! فلان وفلان. فقال: «أو لم أنهم أن يستقوا منه شيئاً حتى أتيتهم، ثم لغتهم رسول الله ﷺ، ودعا عليهم، ثم نزل فوضع يده تحت الوشل، فجعل يصب في يده ما شاء الله أن يصب، ثم نفضه به، ومسحه بيده، ودعا رسول الله ﷺ بما شاء الله أن يدعو به، فانخرق من الماء - كما يقول من سمحه - ما إن له حبساً كحبس الصواعق، فشرب الناس، واستقوا حاجتهم منه، فقال رسول الله ﷺ: «لئن بقيتم أو من بقي منكم ليمسعن بهذا الوادي، وهو أخصب ما بين يدي وما خلفه».

قلت: ثبت في «صحيح مسلم» أن رسول الله ﷺ قال لهم: «إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئاً» الحديث، وقد تقدم.

فإن كانت القصة واحدة، فالمحفوظ حديث مسلم، وإن كانت قصتين، فهو ممكن.

(قصة ذي البجادين)

قال: وحدثنني محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي، أن عبد الله بن مسعود كان يحدث، قال:

قُتِمَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، وَأَنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، فَرَأَيْتُ شُعْلَةً مِنْ نَارٍ فِي نَاحِيَةِ الْعَسْكَرِ، فَاتَّبَعْتُهَا أَنْظُرُ إِلَيْهَا، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَإِذَا عَبْدُ اللَّهِ ذُو الْجَدَارَيْنِ الْمَزْنِي قَدْ مَاتَ، وَإِذَا هُمْ قَدْ حَفَرُوا لَهُ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حُفْرَتِهِ، وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ يُدْلِيَانِهِ إِلَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: «أَدْنِيَا إِلَيَّ أَحَاكِمَا»، فَدَلِيَاهُ إِلَيْهِ، فَلَمَّا هَيَّأَ لَشَقِهِ، قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ أَمْسَيْتُ رَاضِيًا عَنْهُ، فَارْضُ عَنْهُ» قَالَ يَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ صَاحِبَ الْحُفْرَةِ^(١).

(توب من حبسهم العذر)

وقال رسول الله ﷺ مزجعه من غزوة تبوك: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَأَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ»، قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قَالَ: «نَعَمْ حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ» [البخاري: ٢٨٣٩، ومسلم: ٤٩٣٢].

فصل

في خطبته ﷺ بتبوك وصلاته

ذكر البيهقي في «الدلائل»، والحاكم من حديث عقبة بن عامر، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فاسترقد رسول الله ﷺ ليلة لما كان منها على ليلة، فلم يستيقظ فيها حتى كانت الشمس قيد رُمح قال: «أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ يَا بِلَالُ اغْلَا لَنَا الْفَجْرَ»، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ! ذهب بي من النوم الذي ذهب بك، فانتقل رسول الله ﷺ من ذلك المنزل غير بعيد، ثم صلى، ثم ذهب ببقية يومه وليلته، فأصبح بتبوك، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَأَوْثَقُ الْعُرَى كَلِمَةُ التَّقْوَى، وَخَيْرُ الْجَلَلِ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ، وَخَيْرُ السُّنَنِ سُنَّةُ مُحَمَّدٍ، وَأَشْرَفُ الْحَدِيثِ ذِكْرُ اللَّهِ، وَأَحْسَنُ الْقَصَصِ هَذَا الْقُرْآنُ، وَخَيْرُ الْأُمُورِ عَوَازِمُهَا، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُخَدَّاتُهَا، وَأَحْسَنُ الْهَدْيِ هَدْيُ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَشْرَفُ الْمَوْتِ قَتْلُ الشَّهَدَاءِ، وَأَعْمَى الْعَمَى الضَّلَالَةُ بَعْدَ الْهُدَى، وَخَيْرُ الْأَعْمَالِ

مَا نَفَعَ، وَخَيْرُ الْهُدَى مَا اتَّبَعَ، وَشَرُّ الْعَمَى عَمَى الْقَلْبِ، وَالْبِدُّ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَمَا قُلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَالْهَيَّ، وَشَرُّ الْمَغْلِزَةِ حِينَ يَحْضُرُ الْمَوْتُ، وَشَرُّ النَّدَامَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ لَا يَأْتِي الْجُمُعَةَ إِلَّا دُبْرًا، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَذْكُرُ اللَّهَ إِلَّا هُجْرًا، وَمَنْ أَغْظَمَ الْخَطَايَا اللِّسَانُ الْكَذَابَ، وَخَيْرُ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ، وَخَيْرُ الرِّادِ التَّقْوَى، وَرَأْسُ الْحُكْمِ مَخَافَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَخَيْرُ مَا وَقَرَّ فِي الْقُلُوبِ الْيَقِينُ، وَالْأَزْيَابُ مِنَ الْكُفْرِ، وَالنِّيَاحَةُ مِنَ عَمَلِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَالْغُلُولُ مِنْ جُنَا جَهَنَّمَ، وَالشُّكْرُ كَيْ مِنْ النَّارِ، وَالشُّعْرُ مِنْ إِبْلِيسَ، وَالْخَمْرُ جَمَاعُ الْأَنْهَمِ، وَشَرُّ الْمَأْكَلِ مَالُ الْيَتِيمِ، وَالسَّيِّدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ، وَالشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَإِنَّمَا يَصِيرُ أَحَدُكُمْ إِلَى مَوْضِعٍ أَرْبَعَةَ أَفْرُجَ، وَالْأَمْرُ إِلَى الْآخِرَةِ، وَمَلَاكُ الْعَمَلِ خَوَاتِمُهُ، وَشَرُّ الرُّوَايَا رَوَايَا الْكَذِبِ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ، وَسِيَابُ الْمُؤْمِنِ فَسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ، وَأَكْلُ لَحْمِهِ مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَحُرْمَةُ مَالِهِ كَحُرْمَةِ دَمِهِ، وَمَنْ يَنَالْ عَلَى اللَّهِ يَكْذِبْ، وَمَنْ يَغْفِرْ يَغْفَرْ لَهُ، وَمَنْ يَغْفُ يَغْفُ اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ يَكْظِمِ الْغَيْظَ يَأْجُرْهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَصْبِرْ عَلَى الرِّزْيَةِ يُعَوِّضْهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَبْتَغِ الشُّمْعَةَ يَسْمِعْ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُضْعِفْ اللَّهُ لَهُ، وَمَنْ يَغْصِصْ اللَّهُ يُعَلِّبْهُ اللَّهُ» ثم استغفر ثلاثاً^(٢).

(قصة رجل مر بهن بنه ﷺ وهو يصلي فندعا بقطع اشره)
وذكر أبو داود في «سننه» من حديث ابن وهب: أخبرني معاوية، عن سعيد بن عروان، عن أبيه أنه نزل بتبوك، وهو حاج، فإذا رجل مقعد، فسأله عن أمره، قال: سأحدثك حديثاً، فلا تحدث به ما سمعت أنني حي: إن رسول الله ﷺ نزل بتبوك إلى نخلة، فقال: «هَذِهِ قِبْلَتُنَا»، ثم صلى إليها، قال: فأقبلت وأنا غلام أسعى، حتى مررت بينه وبينها، فقال: قطع صلاتنا، قطع الله أثره، قال: فما قمْتُ عليهما إلى يومي هذا [أبو داود: ٧٠٧].

(١) ابن هشام (٧٣٠) ورجاله ثقات إلا أن محمد بن إبراهيم لم يسمع من ابن مسعود ونسبه الحافظ في «الإصابة» (٢/ ٣٣٠) إلى البيهقي وأعله بالانقطاع.

(٢) البيهقي من طريق يعقوب بن محمد الزهري، عن عبد العزيز بن همران، حدثنا مصعب بن عبد الله عن منظور بن سيار، أخبرني أبي، سمعت عقبة بن عامر الجهني... وهذا إسناد ضعيف جداً.

جمع بين الظهر والعصر، وفي المغرب مثل ذلك: إن غابت الشمس قبل أن يرتجل، جمع بين المغرب والعشاء، وإن ارتحل قبل أن تغيب الشمس، أخر المغرب حتى ينزل للعشاء، ثم يجمع بينهما [أبو داود: ١٢٠٨].

وهشام بن سعد: ضعيف عندهم، ضعفه الإمام أحمد، وابن معين، وأبو حاتم، وأبو زرعة، ويحيى بن سعيد، وكان لا يحدث عنه، وضعفه النسائي أيضاً، وقال أبو بكر البزار: لم أر أحداً توقف عن حديث هشام بن سعد، ولا اعتل عليه بعله، ثوجب التوقف عنه. وقال أبو داود: حديث المفضل والليث حديث منكر.

فصل

في رجوع النبي ﷺ من تبوك وما هم المنافقون به من الكيد به وعصمة الله إياه

ذكر أبو الأسود في "مغازيه" عن عروة قال: ورجع رسول الله ﷺ قافلاً من تبوك إلى المدينة، حتى إذا كان ببعض الطريق، مكر برسول الله ﷺ ناس من المنافقين، فتأمروا أن يطرحوه من رأس عقبة في الطريق، فلما بلغوا العقبة، أرادوا أن يسلكوها معه، فلما خشيهم رسول الله ﷺ، أخبر خبرهم، فقال: مَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَأْخُذَ بِظَنْنِ الْوَادِي، فَإِنَّهُ أَوْسَعُ لَكُمْ، وأخذ رسول الله ﷺ العقبة، وأخذ الناس ببطن الوادي إلا نفر الذين هموا بالمكر برسول الله ﷺ، لما سمعوا بذلك، استمئثوا وتلثموا، وقد هموا بأمر عظيم، وأمر رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان، وعمار بن ياسر، فمشوا معه، وأمر عماراً أن يأخذ بزمام الناقة، وأمر حذيفة أن يسوقها فيينا هم يسرون، إذ سمعوا وكزة القوم من وراءهم قد غشوه، فنصب رسول الله ﷺ، وأمر حذيفة أن يردهم، وأبصر حذيفة غضب رسول الله ﷺ، فرجع ومعه يحجن، واستقبل وجوه راحلهم، فصرها صرياً بالمحجن، وأبصر القوم، وهم مكتفون، ولا يشعر إلا أن ذلك فعل المسافر، فأرعبهم الله سبحانه حين أبصروا حذيفة، وظنوا أن مكرهم قد ظهر عليه، فأسرعوا حتى خالطوا الناس، وأقبل حذيفة حتى

ثم ساقه أبو داود من طريق وكيع، عن سعيد بن عبد العزيز، عن مولى ليزيد بن نمران، عن يزيد بن نمران، قال: رأيت رجلاً يتبوك مقعداً، فقال: مررت بين يدي رسول الله ﷺ على حمار وهو يصلي، فقال: «اللَّهُمَّ اقْطَعْ أَرْؤُهُ»، فما مشيت عليهما بعد [سند ضعيف: أحمد: ١٦٦٠٨، وأبو داود: ٧٠٥]. وفي هذا الإسناد والذي قبله ضعف.

فصل

في جمعه بين الصلاتين في غزوة تبوك

قال أبو داود: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا الليث، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الطفيل، عن عامر بن واثلة، عن معاذ بن جبل: أن النبي ﷺ كان في غزوة تبوك إذا ارتحل قبل أن ترفع الشمس، أخر الظهر حتى يجمعها إلى العصر، فيصليهما جميعاً، وإذا ارتحل قبل المغرب، أخر المغرب حتى يصليها مع العشاء، وإذا ارتحل بعد المغرب، عجل العشاء فصلاها مع المغرب.

وقال الترمذي: إذا ارتحل بعد زيف الشمس، عجل العشاء إلى الظهر وصلى الظهر والعصر جميعاً [أبو داود: ١٢٢٠، والترمذي: ١٥٥٣] وقال: حديث حسن غريب. وقال أبو داود: هذا حديث منكر، وليس في تقديم الوقت حديث قائم.

وقال أبو محمد بن حزم: لا يعلم أحد من أصحاب الحديث ليزيد بن أبي حبيب سمعاً من أبي الطفيل.

وقال الحاكم في حديث أبي الطفيل هذا: هو حديث رواه أئمة ثقات، وهو شاذ الإسناد والمتن، لا نعرف له علة نعلمه بها، فنظرنا فإذا الحديث موضوع، وذكر عن البخاري: قلت لقتيبة بن سعيد: مع من كتبت عن الليث حديث يزيد بن أبي حبيب عن أبي الطفيل؟ قال: كتبه مع خالد المدائني، وكان خالد المدائني يدخل الأحاديث على الشيوخ. ورواه أبو داود أيضاً: حدثنا يزيد بن خالد بن يزيد بن عبد الله بن موهب الرملي، حدثنا مفضل بن فضالة، والليث بن سعد عن هشام بن سعد، عن أبي الزبير، عن أبي الطفيل، عن معاذ بن جبل، أن رسول الله ﷺ كان في غزوة تبوك إذا زاحت الشمس قبل أن يرتجل

أدرك رسول الله ﷺ، فلما أدركه، قال: «اضرب
الراحلة يا حذيفة، وامشي أنت يا عمار». فأسرعوا
حتى استووا بأغلاها، فخرجوا من العقبة ينتظرون
الناس، فقال النبي ﷺ لحذيفة: «هل عرفت من
هؤلاء الرُّهُوط أو الرُّجَبِ أحدًا؟» قال حذيفة: «عرفت
راحلة فلان وفلان، وقال: كانت ظلمة الليل،
وعشيتهم، وهم متلثمون، فقال رسول الله ﷺ: «هل
علمتم ما كان شأن الرُّجَبِ وما أرادوا؟» قالوا: لا
والله يا رسول الله! قال: «فإنهم مَكْرُوا لِيَسِيرُوا
مَعِي، حَتَّى إِذَا أَظْلَعْتُ فِي الْعَقْبَةِ طَرَحُونِي مِنْهَا»،
قالوا: «أولا تأمرُ بهم يا رسول الله إذا، فنضرب
أعناقهم، قال: «أكره أن يتحدث الناس ويقولوا: إن
محمدًا قد وضع يده في أصحابه، فسماهم لهما،
وقال: اكتماهم» [أحمد: ٢٣٧٩٧، ورجاله ثقات].

وقال ابن إسحاق في هذه القصة: إن الله قد
أخبرني بأسمائهم، وأسماء آبائهم، وسأخبرك بهم إن
شاء الله غداً عند وجه الصبح، فانطلق حتى إذا
أصبحت، فاجمعهم، فلما أصبح قال: ادع
عبد الله بن أبي، وسعد بن أبي سرح، وأبا خاطر
الأعرابي، وعامراً، وأبا عامر، والجلاس بن
سويد بن الصامت، وهو الذي قال: لا تنتهي حتى
نرمي محمدًا من العقبة الليلة، وإن كان محمد
وأصحابه خيراً منا، إنا إذا لنم من وهو الراعي ولا عقل
لنا، وهو العاقل، وأمره أن يدعو مجمع بن حارثة،
ومليحاً القيمي، وهو الذي سرق طيب الكعبة، وارتد
عن الإسلام، وانطلق هارباً في الأرض، فلا يُدرى
أين ذهب، وأمره أن يدعو حصن بن نمير الذي أغار
على تمر الصدقة فسرقه، وقال له رسول الله ﷺ:
«وَيْحَكَ مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ هَذَا؟» فقال: حملني عليه أنني
ظننت أن الله لا يُطْلَعك عليه، فأما إذا أطلعك الله
عليه، وعلمته، فانا أشهد اليوم أنك رسول الله، وإني
لم أؤمن بك قط قبل هذه الساعة، فأقال رسول الله
ﷺ عشرته، وعفا عنه، وأمره أن يدعو طعيمة بن
أبيرق، وعبد الله بن عيينة، وهو الذي قال لأصحابه:
اسهروا هذه الليلة تسلموا الدهر كله، فوالله ما لكم

فصل
قلت: وفي سياق ما ذكره ابن إسحاق وهم من
وجوه:

(بيان وهم ابن إسحاق في روايته هذه)
أحدها: أن النبي ﷺ أسر إلى حذيفة أسماء أولئك
المنافيين، ولم يُطلع عليهم أحداً غيره، وبذلك كان
يُقال لحذيفة: إنه صاحب السر الذي لا يعلمه
غيره^(١)، ولم يكن عمر، ولا غيره يعلم أسماءهم،
وكان إذا مات الرجل وشكوا فيه، يقول عمر:
انظروا، فإن صلى عليه حذيفة، وإلا فهو منافق
منهم.

الثاني: ما ذكرناه من قوله: فيهم عبد الله بن أبي،
وهو وهم ظاهر، وقد ذكر ابن إسحاق نفسه، أن
عبد الله بن أبي تخلف في غزوة تبوك.

وقال ابن إسحاق في هذه القصة: إن الله قد
أخبرني بأسمائهم، وأسماء آبائهم، وسأخبرك بهم إن
شاء الله غداً عند وجه الصبح، فانطلق حتى إذا
أصبحت، فاجمعهم، فلما أصبح قال: ادع
عبد الله بن أبي، وسعد بن أبي سرح، وأبا خاطر
الأعرابي، وعامراً، وأبا عامر، والجلاس بن
سويد بن الصامت، وهو الذي قال: لا تنتهي حتى
نرمي محمدًا من العقبة الليلة، وإن كان محمد
وأصحابه خيراً منا، إنا إذا لنم من وهو الراعي ولا عقل
لنا، وهو العاقل، وأمره أن يدعو مجمع بن حارثة،
ومليحاً القيمي، وهو الذي سرق طيب الكعبة، وارتد
عن الإسلام، وانطلق هارباً في الأرض، فلا يُدرى
أين ذهب، وأمره أن يدعو حصن بن نمير الذي أغار
على تمر الصدقة فسرقه، وقال له رسول الله ﷺ:
«وَيْحَكَ مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ هَذَا؟» فقال: حملني عليه أنني
ظننت أن الله لا يُطْلَعك عليه، فأما إذا أطلعك الله
عليه، وعلمته، فانا أشهد اليوم أنك رسول الله، وإني
لم أؤمن بك قط قبل هذه الساعة، فأقال رسول الله
ﷺ عشرته، وعفا عنه، وأمره أن يدعو طعيمة بن
أبيرق، وعبد الله بن عيينة، وهو الذي قال لأصحابه:
اسهروا هذه الليلة تسلموا الدهر كله، فوالله ما لكم

(١) أخرج البخاري (٣٧٤٢) أن أبا الدرداء قال لعقمة: أليس فيكم صاحب السر الذي لا يعلمه غيره، يعني حذيفة.

فأنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَافًا وَتَقْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٠٧]، إلى آخر القصة [ابن هشام (٧٣١)].

وذكر ابن إسحاق الذين بنوه، وهم اثنا عشر رجلاً، منهم: ثعلبة بن حاطب.

وذكر عثمان بن سعيد الدارمي، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَافًا وَتَقْرِيقًا﴾ [التوبة: ١٠٧]، هم أناس من الأنصار ابْتَنَوْا مسجداً فقال لهم أبو عامر: ابْنُوا مسجدكم، واستمِدُّوا ما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فأتي بجند من الروم، فأخرج محمداً وأصحابه، فلما فرغوا من بناء مسجدهم، أتوا النبي ﷺ فقالوا: إنا قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلي فيه، وتدعو بالبركة، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا تَقْعُدُوا بِيْتَكُمْ الْمَسْجِدَ﴾ [التوبة: ١٠٨] يعني مسجد قباء، ﴿أَمْ أَنْتُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩] يعني قواعده، ﴿لَا يَزَالُ يُبْعِثُ فِيكُمْ رَسُولًا﴾ [التوبة: ١١٠] يعني: الشك، ﴿وَلَا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٠] يعني بالموت^(١).

فصل

(استقبال الناس له ﷺ)

فلما دنا رسول الله ﷺ من المدينة، خرج الناس لتلقيه، وخرج النساء والصبيان والموالاد يقلن:

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثِيَابِ الْوَدَاعِ
وَجَبَّ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا لِلَّهِ دَاعِي

(موضوع ثياب الوداع وغلط)

من قال ان الشعر انشد عند قدمه من مكة)

وبعض الرواة يهملون في هذا ويقولون: إنما كان ذلك عند مقدمه إلى المدينة من مكة، وهو وهم ظاهر، لأن ثياب الوداع إنما هي من ناحية الشام، لا يراها القادم من مكة إلى المدينة، ولا يمر بها إلا إذا توجه إلى الشام، فلما أشرف على المدينة، قال: «هذه

الثالث: أن قوله: وسعد بن أبي سرح وهم أيضاً، وخطأ ظاهر، فإن سعد بن أبي سرح لم يعرف له إسلام البتة، وإنما ابنه عبد الله كان قد أسلم وهاجر، ثم ارتدَّ ولحق بمكة، حتى استأمن له عثمان النبي ﷺ عام الفتح، فأمنه وأسلم، فَحَسُنَ إسلامه، ولم يظهر منه بعد ذلك شيء يُنكر عليه، ولم يكن مع هؤلاء الاثني عشر البتة، فما أدري ما هذا الخطأ الفاحش.

الرابع: قوله: وكان أبو عامر رأسهم، وهذا وهم ظاهر لا يخفى على مَنْ دُونَ ابن إسحاق، بل هو نفسه قد ذكر قصة أبي عامر هذا في قصة الهجرة، عن عاصم بن عمر بن قتادة، أن أبا عامر لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، خرج إلى مكة بِضْعَةِ عَشْرَ رجلاً، فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة، خرج إلى الطائف، فلما أسلم أهل الطائف، خرج إلى الشام، فمات بها طريداً وحيداً غريباً، فأين كان الفاسق وغزوة تبوك ذهاباً وإياباً.

فصل

في أمر مسجد الضرار الذي نهى الله رسول الله ﷺ أن يقوم فيه، فهدمه ﷺ

وأقبل رسول الله ﷺ مِنْ تَبُوكَ، حتى نزل بذي أَوَانَ، وبينها وبين المدينة ساعة، وكان أصحاب مسجد الضرار أوتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله! إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة، والليلة المطيرة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فقال: «إني على جناح سفر، وحال شغل، ولَوْ قُلِينَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَا يَتَيْنَاكُمْ فَصَلُّوا لَكُمْ فِيهِ»، فلما نزل بذي أَوَانَ جاءه خير المسجد من السماء، فدعا مالك بن الدُخْشُم أخا بني سلمة بن عوف، ومَعْنُ بن عدي العجلاني، فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدياه، وحرِّقاه، فخرجا مُسْرِعَيْنِ، حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدُخْشُم، فقال مالك لمعن: أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي، ودخل إلى أهله، فأخذ سعفاً من النخل، فأشعل فيه ناراً، ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه - وفيه أهله - فحرقاه وهدماه، ففترقوا عنه،

(١) عبد الله بن صالح: هو كاتب الليث ضعيف، وعلي ابن أبي طلحة لم يدرك ابن عباس.

طَابَهُ، وَهَذَا أَحَدُ جَبَلٍ يُجَبُّنَا وَنُجَبُّهُ [البخاري: ٤٤٢٧،
ومسلم: ٣٣٧١].

(سماعه رحمه مدح العباس له)

فلما دَخَلَ قال العباسُ: يا رسول الله! ائذن لي
أمتدحك، فقال رسول الله ﷺ: «قل: لا يَفْضُضُ الله
فَاكَ» فقال:

مِنْ قَبْلِهَا طَبْتُ فِي الظَّلَالِ وَفِي
مُسْتَوْذَعٍ حَيْثُ يُخْصَفُ الْوَرَقُ^(١)
ثُمَّ مَبْطَلَتِ الْبِلَادَ لَا بَشَرَ
أَنْتَ وَلَا مُضَعَّةَ وَلَا عَلَقُ
بَلْ نُطْفَةٌ تَرَكَّبَ السَّيْفَيْنِ وَقَدْ
الْجَمَ نَسْرًا وَأَهْلَهُ الْغَرَقُ^(٢)
تُنْقَلُ مِنْ صَالِبٍ إِلَى رَجِمٍ
إِذَا مَضَى عَالَمٌ بَدَا طَبَقُ^(٣)
حَتَّى اخْتَوَى بَيْتَكَ الْمُهَيَّيْنِ مِنْ
خِنْدِفٍ عَلَيَا تَحْتَهَا النُّطُقُ^(٤)
وَأَنْتَ لَمَّا وَلِدْتَ أَشْرَقْتَ الـ
أَرْضَ وَضَاعَتْ بِنُورِكَ الْأَفُقُ
فَتَحَرُّ فِي ذَلِكَ الضِيَاءِ وَفِي النَّ
سُورِ وَسُبُلِ الرُّشَادِ نَحْتَرِقُ

[الحاكم (٢/٣٢٧)]

فصل

(اعتذر المخلفين واعتذر كعب بن مالك ورفيقه)

ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة، بدأ بالمسجد
فصلَّى فيه ركعتين، ثم جلس للنَّاسِ، فجاءه
المخلفون، فطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ، وَيَحْلِفُونَ لَهُ،
وَكَانُوا بَضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا، فقبل منهم رسول الله
ﷺ علانيتهم، وبإيعامهم، واستغفر لهم، وَوَكَّلَ
سَرَارِيَهُمْ إِلَى اللَّهِ، وجاءه كعب بن مالك، فلما سلَّم
عليه، تبسم تبسمَ الْمُغْضَبِ، ثم قال له: تعال، قال:

فجئت أمشي حتى جلستُ بين يديه، فقال لي: «مَا
خَلَّفَكَ، أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَدَعْتَ ظَهْرَكَ؟» فقلتُ: بلى إني
والله لو جلستُ عندَ غيرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، لرَأَيْتُ أَنْ
أُخْرِجَ مِنْ سَخَطِهِ بِعَذْرِ، ولقد أُعْطِيتُ جَدَلًا، ولكني
والله لقد عَلِمْتُ إِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذَبٍ تَرَضَى
بِهِ عَلَيَّ، لِيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسَخِّطَكَ عَلَيَّ، ولئن
حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ، تَجَدَّ عَلَيَّ فِيهِ، إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ
عَفْرَ اللَّهِ عَنِّي، والله ما كان لي مِنْ عَذْرِ، والله ما
كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرُ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ، فقال
رسول الله ﷺ: «أما هذا فَقَدْ صَدَّقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ
اللَّهُ فَيْكَ»، فقمْتُ وثارَ رَجُلَانِ مِنْ بَنِي سُلَيْمَةَ، فَاتَّبَعُونِي
يُؤَيَّبُونِي، فقالوا لي: والله ما علمناكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا
قَبْلَ هَذَا، وَلقد عَجَزْتَ أَلَّا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى
رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلفون، فقد كان
كَافِيكَ ذَنْبَكَ اسْتَغْفَارَ رسول الله ﷺ لَكَ، قال: فوالله
ما زالوا يُؤَيَّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ، فَأَكْذِبَ
نَفْسِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هل لقي هذا معي أَحَدًا؟ قالوا:
نعم رَجُلَانِ قَالَا بِمِثْلِ مَا قُلْتَ، فَقِيلَ لهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ
لَكَ، فقلتُ: من هُمَا؟ قالوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ
العامري، وهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةِ الْوَاقِفِي، فذكروا لي رجلين
صَالِحِينَ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أَسُوءُ، فمَضَيْتُ حِينَ
ذَكَرُوهُمَا لِي.

ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أَيْهَا
الثَلَاثَةُ^(٥) مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتَنَبْنَا النَّاسَ،
وَتَغَيَّرُوا لَنَا، حَتَّى تَنَكَّرْتُ لِي الْأَرْضُ، فَمَا هِيَ بَالْتِي
أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ،
فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي يَبُوتَهُمَا يَكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ
أَشْبَ الْقَوْمِ وَأَجْلَلَهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرَجَ، فَاشْهَدُ الصَّلَاةَ
مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يُكَلِّمُنِي
أَحَدٌ، وَآتَى رسول الله ﷺ، فَاسْلَمَ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي

- (١) قال ابن الأثير: أي: في الجنة حيث خصف آدم وحواء عليهما من ورق الجنة، ومن قبلها أي: من قبل النزول إلى الأرض، والخصف: الضم والجمع.
- (٢) نسر: أحد الأصنام التي يعبدونها قوم نوح.
- (٣) الصالب: الصلب، وقوله: إذا مضى عالم بدا طبق، أي: إذا مضى قرن بدا قرن، وقيل للقرن طبق، لأنهم طبق للأرض، ثم يفرضون ويأتي طبق آخر.
- (٤) النطق: جمع نطق، وهي أعراس من جبال بعضها فوق بعض.
- (٥) هو مبني على الضم في محل نصب على الاختصاص، أي: متخصصين بذلك دون بقية الناس.

مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه، فأما رقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي، أقبل إليّ، وإذا التفّ نحوه، أعرض عني، حتى إذا طأ عليّ ذلك من جفوة المسلمين، مشيت حتى تسوّرت^(١) جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي، وأحب الناس إليّ، فسلمت عليه، فوالله ما ردّ عليّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة! أنشدك بالله، هل تعلمني أحب الله ورسوله ﷺ فسكت، فعُدت، فناشدته، فسكت، فعُدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيني، وتولّيت حتى تسوّرت الجدار.

فبينما أنا أمشي بسوق المدينة، إذا نبطي^(٢) من أنباط الشام ممن قديم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: مَنْ يَدُلُّ على كعب بن مالك، فطُفِقَ الناس يُشيرون له حتى إذا جاءني، دفع إليّ كتاباً من ملك غسان، فإذا فيه:

أما بعد: فإنه بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان، ولا مضبعة، فالحق بنا نؤايبك، فقلّت لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء، فتيممت بها التور، فسجرتها حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرُك أن تعتزل امرأتك، فقلّت: أطلقها أم ماذا؟ قال: لا ولكن اعتزلها ولا تقرنها، وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك، فقلّت لا امرأتي: الحق بأهلك، فكوني عندهم حتى يَقْضِيَ الله في هذا الأمر، فجاءت امرأة هلال بن أمية، فقالت: يا رسول الله! إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدّمه؟ قال: لا ولكن لا يقرّبك، قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، قال كعب: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، فقلّت: والله لا استأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يُدْريني ما يقول رسول الله ﷺ.

إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب، ولبت بعد ذلك عشر ليالٍ حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليت صلاة الفجر صُبحَ خمسين ليلة على سطح بيت من بيوتنا، بينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى، قد ضاقت عليّ نفسي، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلّم بأعلى صوت: يا كعب بن مالك! أبشر، فخررت ساجداً، فعرفت أن قد جاء فرج من الله، وأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يُشيروننا، وذهب قِبَلِ صاحبي مبشرون، وركض إليّ رجل فرساً، وسعى ساع من أسلم، فأوفى على فزوة الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعتُ صوته يبشرني، نزعَ له ثوب فكسوته إياهما يبشراه، والله ما أملك غيرهما، واستعرت ثوبين، فلبستهما، فانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهتفون بالتوبة يقولون: لِيَهْنِكَ توبة الله عليك، قال كعب: حتى دخلت يهروا حتى صافحني وهنائي، والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره، ولست أنساها لطلحة، فلما سلمت على رسول الله ﷺ، قال وهو يبرق وجهه من السرور: «أَبَشِّرْ بِخَيْرٍ يَوْمَ مَرَّ عَلَيْكَ مِنْهُ وَلَدَنَّاكَ أُنْكَ». قال: قلت: آمين عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟ قال: «لَا بَلَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ»، وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلس بين يديه، قلت: يا رسول الله! إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله، وإلى رسوله، فقال: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَقِيَّتَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»، قلت: فإني أُمسِكُ سهمي الذي بخير. فقلّت: يا رسول الله! إن الله إنما نجاني بالصديق، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا ما أبلاني، والله ما تعمدت بعد ذلك إلى يومي هذا كذباً، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت،

(١) أي: حلوت سور بستانه.

(٢) النبطي: اللّاح سمي به، لأنه يستقطب الماء، أي: يستخرجه.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى الَّذِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧] إلى قوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] فوالله ما أنعم الله عليّ نعمة قط بعد أن هداني للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ، أن لا أكون كذبه فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد قال: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمُ إِذَا لَقِيتُمْ فِي تَرَابِهِ﴾ [التوبة: ٩٥] إلى قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ اللَّهِ لَا يَرْحَمُهُ عَنِ الْقَوِيمِ﴾ [التوبة: ٩٦].

قال كعب: وكان تخلّفنا أيها الثلاثة من أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم، واستغفر لهم، وأرجأ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله: ﴿وَلَقَدْ أَقَلْنَا إِلَيْكَ الْخُلُوفَ﴾ [التوبة: ١١٨]، وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيّانا، وإرجاء أمرنا عن حلف له، واعتذر إليه فقبل منه [بخاري: ٤٤١٨].

(رواية أخرى)

وقال عثمان بن سعيد الدارمي: حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَأَخْرَجُوا بِدُورِهِمْ خُلُوفًا عَلَاَ صِلَابًا وَمَاخَرُ سَيْحًا﴾ [التوبة: ١٠٢] قال: كانوا عشرة رهنط تخلّفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فلما حضر رسول الله ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد، وكان يمرّ النبي ﷺ إذا رجع في المسجد عليهم، فلما رآهم قال: «مَنْ هَؤُلَاءِ الْمُوثِقُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالسَّوَارِي؟» قالوا: هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلّفوا عنك يا رسول الله ﷺ أوثقوا أنفسهم حتى يطلقهم النبي ﷺ ويعذرهم. قال: «وَأَنَا أَقْسِمُ بِاللَّهِ لَا أَطْلِقُهُمْ وَلَا أَغْدِرُهُمْ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يُطْلِقُهُمْ، رَغِبُوا عَنِّي وَتَخَلَّفُوا عَنِ الْغَزْوِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ»، فلما بلغهم ذلك، قالوا: ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يطلقنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَأَخْرَجُوا بِدُورِهِمْ خُلُوفًا عَلَاَ صِلَابًا وَمَاخَرُ سَيْحًا عَنِ اللَّهِ أَنْ يَنْوِبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢] وعسى من

الله واجب ﴿إِنَّهُ هُوَ الْوَأْبُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]. فلما نزلت، أرسل إليهم النبي ﷺ، فاطلقهم، وعذرهم، فجاؤوا بأموالهم، فقالوا: يا رسول الله! هذه أموالنا، فتصدّق بها عنا، واستغفر لنا، قال: «ما أُمِرْتُ أَنْ أَخَذَ أَمْوَالَكُمْ»، فأنزل الله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، يقول: استغفر لهم، ﴿إِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ لَكُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] فأخذ منهم الصدقة، واستغفر لهم، وكان ثلاثة نفر لم يؤثروا أنفسهم بالسواري، فأرجئوا لا يدرون أيعذبون أم يُتاب عليهم؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى الَّذِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧] إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ أَقَلْنَا إِلَيْكَ الْخُلُوفَ﴾ [التوبة: ١١٨]، قالوا: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْوَأْبُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧] تابه عطية بن سعد^(١).

فصل

في الإشارة إلى بعض ما تضمنته
هذه الغزوة من الفقه والفوائد

(جواز القتال في الشهر الحرام)

فمنها: جواز القتال في الشهر الحرام إن كان خروجُه في رجب محفوظاً على ما قاله ابن إسحاق ولكن ههنا أمر آخر، وهو أن أهل الكتاب لم يكونوا يُحرّمون الشهر الحرام، بخلاف العرب، فإنها كانت تُحرّمه، وقد تقدم أن في نسخ تحريم القتال فيه قولين، وذكرنا حجج الفريقين.

(إذا استنفر الإمام الجيش لزمهم النفير)

ومنها: تصريح الإمام للرعية، وإعلامهم بالأمر الذي يضرهم ستره وإخفاؤه، ليتأهبوا له، ويعُدُّوا له عُدته، وجواز ستر غيره عنهم والكتابة عنه للمصلحة.

ومنها: أن الإمام إذا استنفر الجيش، لزمهم النفير، ولم يجز لأحد التخلّف إلا بإذنه، ولا يشترط في وجوب النفير تعيين كل واحد منهم بعينه، بل متى استنفر الجيش، لزم كل واحد منهم الخروج معه، وهذا أحد المواضع الثلاثة التي يصير فيها الجهاد فرض عين. والثاني: إذا حضر العدو البلد. والثالث: إذا حضر بين الصنفين.

(١) إسناده ضعيف لضعف عبد الله بن صالح، وعلي بن أبي طلحة روايته عن ابن عباس مرسله.

(وجوب الجهاد بالمال)

العون لهم. وكان رسول الله ﷺ يستخلف ابن أم مكتوم، فاستخلفه بضع عشرة مرة، وأما في غزوة تبوك، فالمعروف عند أهل الأثر أنه استخلف علي بن أبي طالب، كما في «الصحيحين» عن سعد بن أبي وقاص، قال: «خَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيًّا رضي الله عنه في غزوة تبوك، فقال: يا رسول الله! تُخَلِّفُنِي مَعَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ، قَالَ: «أَمَّا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ بَيْنِي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى غَيْرَ أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي» [البخاري: ٣٧٠٦، ومسلم: ٩٢١٧]، ولكن هذه كانت خلافة خاصة على أهله ﷺ، وأما الاستخلاف العام، فكان لمحمد بن مسلمة الأنصاري، ويدل على هذا أن المناقذين لما أرجفوا به، وقالوا: خلفه استخلاً، أخذ سلاحه ثم لحق بالنبي ﷺ، فأخبره، فقال: «كُذِّبُوا وَلَكِنْ خَلَفْتُكَ لِمَا تَرَكْتُ وَرَائِي، فَارْجِعْ فَأَخْلُقْنِي فِي أَهْلِي وَأَهْلِكَ».

(جواز الخرس للرطب على رؤوس النخل)

ومنها: جواز الخرس للرطب على رؤوس النخل، وأنه من الشرع، والعمل بقول الخارص، وقد تقدم في غزاة خيبر، وأن الإمام يجوز أن يخرص بنفسه، كما خرص رسول الله ﷺ حديقة المرأة.

(لا يجوز الشرب ولا

الطبخ ولا العجن ولا الطهارة من تبار ثمود)

ومنها: أن الماء الذي بآبار ثمود، لا يجوز شربه، ولا الطبخ منه، ولا العجن به، ولا الطهارة به، ويجوز أن يسقى البهائم إلا ما كان من بئر الناقة. وكانت معلومة باقية إلى زمن رسول الله ﷺ، ثم استمر علم الناس بها قرناً بعد قرن إلى وقتنا هذا، فلا يرد الركوب بئراً غيرها، وهي مطوئة محكمة البناء، واسعة الأرجاء، آثار العتق عليها بادية، لا تشبه بغيرها.

(الإسراع والبكاء حين المرور بدمار المغضوب عليهم)

ومنها: أن من مرّ بديار المغضوب عليهم والمعدنين، لم ينبغ له أن يدخلها، ولا يقيم بها، بل يسرع السير، ويتنقّب بثوبه حتى يجاوزها، ولا يدخل عليهم إلا باكية معتبراً.

ومنها: وجوب الجهاد بالمال، كما يجب بالنفس، وهذا إحدى الروايتين عن أحمد، وهي الصواب الذي لا ريب فيه، فإن الأمر بالجهاد بالمال شقيق الأمر بالجهاد بالنفس في القرآن وقرينه، بل جاء مقدماً على الجهاد بالنفس في كل موضع، إلا موضعاً واحداً، وهذا يدل على أن الجهاد به أهم وأكد من الجهاد بالنفس، ولا ريب أنه أحد الجهادين، كما قال النبي ﷺ: «مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فَقَدْ غَزَا» [البخاري: ٢٨٤٣، ومسلم: ٤٩٠٢]، فيجب على القادر عليه، كما يجب على القادر بالبدن، ولا يتم الجهاد بالبدن إلا ببذله، ولا ينتصر إلا بالعدد والعدد، فإن لم يقدر أن يكثر العدد، وجب عليه أن يمد بالمال والمعدة، وإذا وجب الحج بالمال على العاجز بالبدن، فوجوب الجهاد بالمال أولى وأحرى.

(نفقة عثمان العظيمة)

ومنها: ما برز به عثمان بن عفان من النفقة العظيمة في هذه الغزوة، وسبق به الناس، فقال النبي ﷺ: «غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا عُثْمَانُ مَا أَسْرَزْتَ، وَمَا أَعْلَنْتَ، وَمَا أَخْفَيْتَ، وَمَا أَبْدَيْتَ». ثم قال: «مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا قَلَّ بَعْدَ الْيَوْمِ»، وكان قد أنفق ألف دينار، وثلاثمائة بعير بمُدَّتْهَا وَأَحْلَسَهَا وَأَقْتَابَهَا.

(لا يعذر العاجز بماله حتى يبذل جهده)

ومنها: أن العاجز بماله لا يعذر حتى يبذل جهده، ويتحقق عجزه، فإن الله سبحانه إنما نفى الحرج عن هؤلاء العاجزين بعد أن أتوا رسول الله ﷺ ليحملهم، فقال: «لَا أَجِدُ مَا أَجْعَلُكُمْ عَلَيْهِ» [التوبة: ٩٢]، فرجعوا ليكون لما فاتهم من الجهاد، فهذا العاجز الذي لا حرج عليه.

(استخلاف الإمام إذا سافر رجلاً من الرعية على

من بقي، وقد خلف النبي ﷺ علياً على أهله خاصة

ومحمد بن مسلمة الأنصاري على المدينة)

ومنها: استخلاف الإمام - إذا سافر - رجلاً من الرعية على الضعفاء والمعدورين، والنساء والذرية، ويكون نائبه من المجاهدين، لأنه من أكبر

ومن هذا إسراع النبي ﷺ السير في وادي مُحَسَّر بين مِني وعُرفة، فإنه المكان الذي أهلك الله فيه الفيل وأصحابه.

(جواز الجمع بين الصلاتين في السفر)

ومنها: أن النبي ﷺ كان يجمع بين الصلاتين في السفر، وقد جاء جمع التقديم في هذه القصة في حديث معاذ، كما تقدّم، وذكرنا علة الحديث.

ومن أنكره، ولم يجر جمع التقديم عنه في سفر إلا هذا، وصح عنه جمع التقديم بعُرفة قبل دخوله إلى عرفة، فإنه جَمَعَ بين الظهر والعصر في وقت الظهر، فقيل: ذلك لأجل التسك، كما قال أبو حنيفة. وقيل: لأجل السفر الطويل، كما قاله الشافعي وأحمد. وقيل: لأجل الشغل، وهو اشتغاله بالوقوف، واتصاله إلى غروب الشمس. قال أحمد: يجمع للشغل، وهو قول جماعة من السلف والخلف، وقد تقدّم.

(جواز التيمم بالرمل)

ومنها: جواز التيمم بالرمل، فإن النبي ﷺ وأصحابه، قطعوا الرمال التي بين المدينة وتبوك، ولم يحملوا معهم تراباً بلا شك، وتلك مفاوز مُعْطِشَة شكوا فيها العطش إلى رسول ﷺ، وقطعاً كانوا يتيممون بالأرض التي هم فيها نازلون، هذا كُلُّهُ مما لا شك فيه مع قوله ﷺ: «فَحَيْثُمَا أَذْرَكْتَ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي الصَّلَاةَ، فَعِنْدَهُ مَسْجِدُهُ وَطَهُوْرُهُ» [حسن: أحمد: ٢٢١٣٧].

(ترجيح المصنف لعصر

الصلاة في السفر دون تحديد مدة الإقامة)

ومنها: أنه ﷺ أقام بتبوك عشرين يوماً يُقْصِر الصلاة، ولم يقل للأمة: لا يقصر الرجل الصلاة إذا أقام أكثر من ذلك، ولكن اتفقت إقامته هذه المدة، وهذه الإقامة في حال السفر لا تخرج عن حكم السفر، سواء طال أو قصرت إذا كان غير مستوطن، ولا حازم على الإقامة بذلك الموضع.

وقد اختلف السلف والخلف في ذلك اختلافاً كثيراً، ففي «صحيح البخاري» عن ابن عباس، قال: أقام رسول الله ﷺ في بعض أسفاره تسع عشرة يصلي ركعتين، فنحن إذا أقمنا تسع عشرة نصلي ركعتين، وإن زدنا على ذلك أنمنا [البخاري: ١٠٨٠]، وظاهر كلام أحمد أن ابن عباس أراد مدة مقامه بمكة زمن الفتح، فإنه قال: أقام رسول الله ﷺ بمكة ثمان عشرة زمن الفتح، لأنه أراد حُثِيناً، ولم يكن ثمّ أجمع المَقَام، وهذه إقامته التي رواها ابن عباس. وقال غيره: بل أراد ابن عباس مقامه بتبوك، كما قال جابر بن عبد الله: أقام النبي ﷺ بتبوك عشرين يوماً يقصر الصلاة، رواه الإمام أحمد في «مسنده» [١٤١٣٩].

وقال عبد الرحمن بن المصور بن مَخْرَمَة: أقمنا مع سعد ببعض قرى الشام أربعين ليلة يقصرها سعد ويُتِمُّها [عبد الرزاق: ٤٣٥٠].

وقال نافع: أقام ابن عمر بأدريجان ستة أشهر يصلي ركعتين^(١)، وقد حال الثلج بينه وبين الدخول. وقال حفص بن غنيد الله: أقام أنس بن مالك بالشام سنتين يصلي صلاة المسافر^(٢).

وقال أنس: أقام أصحاب رسول الله ﷺ بِرَامَهُمْ مَرَّةً سبعة أشهر يقصرون الصلاة [اليهقي (١٥٢/٣)].

وقال الحسن: أقمت مع عبد الرحمن بن سمرة بكابل سنتين يقصر الصلاة ولا يجمع [عبد الرزاق: ٤٣٥٢].

وقال إبراهيم: كانوا يقيمون بالري السنة، وأكثر من ذلك، وسجستان السنتين.

فهذا هدي رسول الله ﷺ وأصحابه كما ترى، وهو الصواب.

(منهجه الناس في مدة الإقامة التي يجوز فيها القصر)

وأما مذاهب الناس، فقال الإمام أحمد: إذا نوى إقامة أربعة أيام، أتم، وإن نوى دونها، قصر، وحمل هذه الآثار على أن رسول الله ﷺ وأصحابه لم يجمعوا الإقامة البتة، بل كانوا يقولون: اليوم نخرج،

(١) عبد الرزاق (٤٣٣٩) أن ابن عمر أقام بأدريجان ستة أشهر يقصر الصلاة، قال: وكان يقول: إذا أزمعت إقامة، فأنم.

(٢) عبد الرزاق (٤٣٥٤) أن أنس بن مالك أقام بالشام شهرين مع عبد الملك بن مروان يصلي ركعتين ركعتين.

وقال علي بن أبي طالب: إن أقامَ عشرًا، أتم، وهو رواية عن ابن عباس.

وقال الحسن: يقصر ما لم يقدم مصرًا.

وقالت عائشة: يقصر ما لم يضع الزاد والمزاد.

والأئمة الأربعة متفقون على أنه إذا أقام حاجة ينتظر قضاءها يقول: اليوم أخرج، غداً أخرج، فإنه يقصر أبداً، إلا الشافعي في أحد قولي، فإنه يقصر عنده إلى سبعة عشر، أو ثمانية عشر يوماً، ولا يقصر بعدها، وقد قال ابن المنذر في «إشرافه»: أجمع أهل العلم أن للمسافر أن يقصر ما لم يجمع إقامة وإن أتى عليه سنون.

فصل

(استحباب حنث الحالف في يمينه إذا رأى غيرها خيراً منها)
ومنها: جواز، بل استحباب حنث الحالف في يمينه إذا رأى غيرها خيراً منها، فكفر عن يمينه؛ ويفعل الذي هو خير، وإن شاء قدم الكفارة على الحنث، وإن شاء أخرها. وقد روي حديث أبي موسى هذا «إِلَّا أَتَيْتَ الَّذِي هُوَ أَحْيَرُ، وَتَحَلَّلْتَهَا» وفي لفظ: «إِلَّا كَفَرْتَ عَنْ يَمِينِي وَأَتَيْتَ الَّذِي هُوَ أَحْيَرُ» وفي لفظ: «إِلَّا أَتَيْتَ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَكَفَرْتَ عَنْ يَمِينِي» وكل هذه الألفاظ في «الصحيحين» [البخاري: ٦٦٤٩، ومسلم: ٤٢٦٣]، وهي تقتضي عدم الترتيب.

(هل يجوز تقديم الكفارة على الحنث)

وفي السنن من حديث عبد الرحمن بن سمرة، عن النبي ﷺ «إِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ، فَأَتَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَكَفَرْتَ عَنْ يَمِينِكَ، ثُمَّ أَتَيْتَ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ» [البخاري: ٦٦٤٩، ومسلم: ٤٢٨١]. وأصله في «الصحيحين»، فذهب أحمد، ومالك، والشافعي إلى جواز تقديم الكفارة على الحنث، واستثنى الشافعي التكفير بالصوم، فقال: لا يجوز التقديم، ومنع أبو حنيفة تقديم الكفارة مطلقاً.

فصل

(انعقاد اليمين في حال الغضب إلا حين الإغلاق)

ومنها: انعقاد اليمين في حال الغضب إذا لم يخرج بصاحبه إلى حد لا يعلم معه ما يقول، وكذلك ينفذ حكمه، وتصح عقوبته، فلو بلغ به الغضب إلى حد

غداً نخرج. وفي هذا نظر لا يخفى، فإن رسول الله ﷺ فتح مكة، وهي ما هي، وأقام فيها يؤسس قواعد الإسلام، ويهدم قواعد الشرك، ويُمهد أمر ما حولها من العرب، ومعلوم قطعاً أن هذا يحتاج إلى إقامة أيام لا يتأتى في يوم واحد، ولا يومين، وكذلك إقامته بتبوك، فإنه أقام ينتظر العدو، ومن المعلوم قطعاً، أنه كان بينه وبينهم عدة مراحل يحتاج قطعها إلى أيام، وهو يعلم أنهم لا يوافون في أربعة أيام، وكذلك إقامة ابن عمر بأذربيجان ستة أشهر يقصر الصلاة من أجل الثلج، ومن المعلوم أن مثل هذا الثلج لا يتحلل ويذوب في أربعة أيام، بحيث تنفتح الطرقات، وكذلك إقامة أنس بالشام سنتين يقصر، وإقامة الصحابة بramerمزم سبعة أشهر يقصرون، ومن المعلوم أن مثل هذا الحصار والجهاد يُعلم أنه لا يتقضي في أربعة أيام. وقد قال أصحاب أحمد: إنه لو أقام لجهاد عدو، أو حبس سلطان، أو مرض، قصر، سواء غلب على ظنه انقضاء الحاجة في مدة يسيرة أو طويلة، وهذا هو الصواب، لكن شرطوا فيه شرطاً لا دليل عليه من كتاب، ولا سنة، ولا إجماع، ولا عمل الصحابة. فقالوا: شرط ذلك احتمال انقضاء حاجته في المدة التي لا تقطع حكم السفر، وهي ما دون الأربعة الأيام، فيقال: من أين لكم هذا الشرط، والنبي لما أقام زيادة على أربعة أيام يقصر الصلاة بمكة وتبوك لم يقل لهم شيئاً، ولم يبين لهم أنه لم يعزم على إقامة أكثر من أربعة أيام، وهو يعلم أنهم يقتدون به في صلاته، ويتأسون به في قصرها في مدة إقامته، فلم يقل لهم حرفاً واحداً: لا تقصروا فوق إقامة أربع ليال، ويبان هذا من أهم المهمات، وكذلك اقتداء الصحابة به بعده، ولم يقولوا لمن صلى معهم شيئاً من ذلك.

وقال مالك والشافعي: إن نوى إقامة أكثر من أربعة أيام أتم، وإن نوى دونها قصر.

وقال أبو حنيفة: إن نوى إقامة خمسة عشر يوماً أتم، وإن نوى دونها قصر، وهو مذهب الليث بن سعد، ورؤي عن ثلاثة من الصحابة: عمر، وابنه، وابن عباس. وقال سعيد بن المسيب: إذا أقمت أربعاً فصل أربعاً، وعنه، كقول أبي حنيفة.

الإغلاق، لم تتعقد يمينه ولا طلاقه، قال أحمد في رواية حنبل في حديث عائشة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا طلاق ولا عتاق في إغلاقي» [أحمد: ٢١٣٦٠، وأبو داود: ٢١٩٣ وفي سنده ضعف] يريد الغضب^(١).

فصل

(لا متعلق للجبرية بقوله ﷺ)

«ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم»

ومنها: قوله ﷺ: «ما أنا حملتكم، ولكن الله حملكم»، قد يتعلق به الجبري، ولا متعلق له به، وإنما هذا مثل قوله: «والله لا أعطي أحدًا شيئاً، ولا أمتنع، وإنما أنا قاسم، أضع حيث أمرت» [البخاري: ٣١١٧]، فإنه عبد الله ورسوله، إنما يتصرف بالأمر، فإذا أمره ربه بشيء، نفذ، فالله هو المعطي، والمانع، والحامل، والرسول منفذ لما أمر به. وأما قوله تعالى: «وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى» [الأنفال: ١٧]، فالمراد به القبض من الحصباء التي رمى بها وجوه المشركين، فوصلت إلى عيون جميعهم، فثبت الله سبحانه له الرمي باعتبار النبذ والإلقاء، فإنه فعله، ونفاه عنه باعتبار الإيصال إلى جميع المشركين، وهذا فعل الرب تعالى لا تصل إليه قدرة العبد، والرمي يطلق على الخذف وهو مبدؤه، وعلى الإيصال، وهو نهايته.

فصل

(تركه قتل المنافقين)

ومنها: تركه قتل المنافقين، وقد بلغه عنهم الكفر الصريح، فاحتج به من قال: لا يقتل الزنديق إذا أظهر التوبة، لأنهم حلفوا لرسول الله ﷺ أنهم ما قالوا، وهذا إذا لم يكن إنكاراً، فهو توبة وإقلاع، وقد قال أصحابنا وغيرهم: ومن شهد عليه بالردة، فشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، لم يكشف عن شيء عنه بعد، وقال بعض الفقهاء، إذا جحد الردة، كفاه جحدها. ومن لم يقبل توبة الزنديق، قال: هؤلاء لم تقم عليهم بيعة، ورسول الله ﷺ لا يحكم عليهم بعلمه، والذي بلغ

رسول الله ﷺ عنهم قولهم لم يبلغهم إياه نصاب البيعة، بل شهد به عليهم واحد فقط، كما شهد زيد بن أرقم وحده على عبد الله بن أبي، وكذلك غيره أيضاً، إنما شهد عليه واحد.

وفي هذا الجواب نظر، فإن نفاق عبد الله بن أبي، وأقواله في النفاق كانت كثيرة جداً، كالتواتر عند النبي ﷺ وأصحابه، وبعضهم أقر بلسانه، وقال: «إنما كنا نخوض ونلعب» وقد واجهه بعض الخوارج في وجهه بقوله: إنك لم تعدل. والنبي ﷺ لما قيل له: ألا تقتلهم؟ لم يقل ما قامت عليهم بيعة، بل قال: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه».

(تركه قتل المنافقين لتأليف القلوب)

فالجواب الصحيح إذن أنه كان في ترك قتلهم في حياة النبي ﷺ مصلحة تضمن تأليف القلوب على رسول الله ﷺ، وجمع كلمة الناس عليه، وكان في قتلهم تنفير، والإسلام بعد في غربة، ورسول الله ﷺ أحرص شيء على تأليف الناس، وأترك شيء لما يفرهم عن الدخول في طاعته، وهذا أمر كان يختص بحال حياته ﷺ، وكذلك ترك قتل من طعن عليه في حكمه بقوله في قصة الزير وخصمه: «أَنْ كَانَ ابْنُ عَمَّتِكَ» [البخاري: ٤٥٨٥، ومسلم: ٦١١٧].

وفي قسمه بقوله: «إِنَّ هَذِهِ لِقَسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ». وقول الآخر له: إنك لم تعدل، فإن هذا محض حقه، له أن يستوفيه، وله أن يتركه، وليس للأمة بعده ترك استيفاء حقه، بل يتعين عليهم استيفاؤه، ولا بد ولتقرير هذه المسائل موضع آخر، والغرض التنبيه والإشارة.

فصل

(إذا أحدث أحد من

أهل الذمة حديثاً فيه ضرر على المسلمين انتقض عهده)

ومنها: أن أهل العهد والذمة إذا أحدث أحد منهم حديثاً فيه ضرر على الإسلام، انتقض عهده في ماله ونفسه، وأنه إذا لم يقدر عليه الإمام، فدمه وماله هدر، وهو لمن أخذه، كما قال في صلح أهل أيلة:

(١) وقال صاحب «التقيح»: والصواب أنه يعم الإكراه والغضب والجنون، وكل أمر انفلق على صاحبه عله وقصده مأخوذ من غلق الباب.

فمن أحدث منهم حدثاً، فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وهو لمن أخذه من الناس، وهذا لأنه بالأحداث صار محارباً، حكمه حكم أهل الحرب.

فصل

(جواز الدفن ليلاً)

ومنها: جواز الدفن بالليل، كما دفن رسول الله ﷺ ذا البجادين ليلاً. وقد سئل أحمد عنه، فقال: وما بأسٌ بذلك^(١). وقال أبو بكر: دُفِنَ ليلاً، وعلي دفن فاطمة ليلاً. وقالت عائشة: سمعنا صوت المساحي من آخر الليل في دفن النبي ﷺ انتهى. ودفن عثمان، وعائشة، وابن مسعود ليلاً.

وفي الترمذي عن ابن عباس، أن النبي ﷺ دخل قبراً ليلاً، فأُسرَجَ له سراج، فأخذه من قبل القبلة، وقال: «رحمك الله إن كنتَ لأَوعاً تَلَاءَ لِلْقُرْآنِ» [الترمذي: ١٠٥٧، وابن ماجه: ١٥٢٠]. قال الترمذي: حديث حسن.

وفي البخاري: أن رسول الله ﷺ سأل عن رجل فقال: «مَنْ هَذَا؟» قَالُوا: «فُلَانٌ دُفِنَ الْبَارِحَةَ فَصَلَّى عَلَيْهِ [البخاري: ١٣٤٠].

فإن قيل: فما تصنعون بما رواه مسلم في «صحيحه» أن النبي ﷺ خطب يوماً، فذكر رجلاً من أصحابه قُبِضَ قُبْضٌ فِي كَفِّ غَيْرِ طَائِلٍ، وَقُبِرَ لَيْلًا، فزَجَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَقْبَرَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يُضْطَرَّ إِنْسَانٌ إِلَى ذَلِكَ؟ [مسلم: ٢١٨٥] قال الإمام أحمد: إليه أذهب.

قيل: نقول بالحديثين بحمد الله، ولا نردُّ أحدهما بالآخر، فنكره الدفن بالليل، بل نزجر عنه إلا لضرورة أو مصلحة راجعة، كميت مات مع المسافرين بالليل، ويتضررون بالإقامة به إلى النهار، وكما إذا خيف على الميت الانفجار، ونحو ذلك من الأسباب المرجحة للدفن ليلاً. وبالله التوفيق.

فصل

(إذا بعث الإمام سرية)

ففغمت مكان ما حصل من ذلك لها بعد تخميسه) ومنها: أن الإمام إذا بعث سرية، فغنِمت غنيمة،

أو أسرت أسيراً، أو فتحت حصناً، كان ما حصل من ذلك لها بعد تخميسه، فإن النبي ﷺ قسم ما صالح عليه أَكْثَرُ من فتح دومة الجندل بين السرية الذين بعثهم مع خالد، وكانوا أربعمئة وعشرين فارساً، وكانت غنائمهم التي بغير وثمانمئة رأس، فأصاب كُلُّ رجلٍ منهم خمسَ فرائض، وهذا يخلاف ما إذا أخرجت السرية من الجيش في حال الغزو، فأصاب ذلك بقوة الجيش، فإن ما أصابوا يكون غنيمة للجميع بعد الخمس والنفل، وهذا كان هديه ﷺ.

فصل

(توب من حبسه العذر)

ومنها: قوله ﷺ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَاماً مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَاذِيًّا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ»، فهذه المعية هي بقلوبهم وهمهم، لا كما يقفه طائفة من الجهال أنهم معهم بأبدانهم، فهذا محال، لأنهم قالوا له: وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ»، وكانوا معه بأرواحهم، ويدار الهجرة بأشباحهم، وهذا من الجهاد بالقلب، وهو أحد مراتبه الأربع، وهي القلب، واللسان، والمال، والبدن، وفي الحديث: «جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَقُلُوبِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ» [صحيح: أحمد: ١٢٢٤، وأبو داود: ٢٥٠٤، والنسائي (٧/٦)].

فصل

(تحريق امكنة المعصية وهدمها)

ومنها: تحريق امكنة المعصية التي يعصى الله ورسوله فيها وهدمها، كما حرق رسول الله ﷺ مسجد الضرار، وأمر بهدمه، وهو مسجد يصلي فيه، ويذكر اسم الله فيه، لما كان بناؤه ضياعاً وتفريقاً بين المؤمنين، ومأوى للمنافقين، وكل مكان هذا شأنه، فواجب على الإمام تعطيله، إما بهدم وتحريق، وإما بتغيير صورته وإخراجه عما وُضِعَ له. وإذا كان هذا شأن مسجد الضرار، فمما هُدم الشوك التي تدعو سدنتها إلى اتخاذ مَنْ فيها أنداداً من دون الله أحقُّ بالهدم وأوجب، وكذلك محال المعاصي

(١) جاء في «الإنصاف في مسائل الخلاف» للمرداوي (٥٤٧/٢) عن أحمد: لا يفعله إلا لضرورة، وفي أخرى عنه: يكره.

والفسوق، كالحانات، ويؤت الخمارين، وأرباب المنكرات. وقد حرق عمر بن الخطاب قرية بكما لها يُباع فيها الخمر، وحرق حانوت رُوَيْشِد الثَّقَفِي وسماء فويسقاً، وحرق قصر سعد عليه لما احتجب فيه عن الرعية، وهم رسول الله ﷺ بتحريق بيوت تاركِي حضور الجماعة والجمعة^(١) [البخاري: ٦٤٤، ومسلم: ١٤٨١]، وإنما منعه مَنْ فيها من النساء والذرية الذين لا تجب عليهم كما أخبر هو عن ذلك.

(الوقف لا يصح على غير

بر ولا قرية ومنها هدم المساجد المبنية على القبور)

ومنها: أن الوقف لا يصح على غير بر ولا قرية، كما لم يصح وقف هذا المسجد، وعلى هذا: فيهدم المسجد إذا بني على قبر، كما يُنْشِئ الميث إذا دُفِنَ في المسجد، نص على ذلك الإمام أحمد وغيره، فلا يجتمع في دين الإسلام مسجد وقبر، بل أُتِيهما طراً على الآخر، منع منه، وكان الحكم للسابق، فلو وضعاً معاً، لم يجز، ولا يصح هذا الوقف ولا يجوز، ولا تصح الصلاة في هذا المسجد لنهي رسول الله ﷺ عن ذلك، ولعنه من اتخذ القبر مسجداً أو أوقد عليه سراجاً، فهذا دين الإسلام الذي بعث الله به رسوله ونبيه، وغرته بين الناس كما ترى.

فصل

(جواز إنشاد الشعر للقدام فرحاً به)

ومنها: جواز إنشاد الشعر للقدام فرحاً وسروراً به ما لم يكن معه محرم من لهو، كزمار، وشبابة، وعود، ولم يكن غناءً يتضمن رقية الفواحش، وما حرم الله، فهذا لا يُحرّمه أحد، وتعلّق أرباب السماع النُسقي به كتعلّق من يستحلّ شرب الخمر المسكر قياساً على أكل العنب، وشرب العصير الذي لا يُسكر، ونحو هذا من القياسات التي تشبه قياس الذين قالوا: إنما البيع مثل الربا.

(استماعه مدح المادحين له)

ومنها: استماع النبي ﷺ مدح المادحين له،

(الفوائد المستنبطة من قصة المتخلفين الثلاثة)

ومنها: ما اشتملت عليه قصّة الثلاثة الذين خَلَفُوا من الحكم والفوائد الجمّة، فنشيرُ إلى بعضها:

(جواز إخبار الرجل عن تفريطه)

فمنها: جواز إخبار الرجل عن تفريطه وتقصيره في طاعة الله ورسوله، وعن سبب ذلك، وما آل إليه أمره، وفي ذلك من التحذير والنصيحة، وبيان طرق الخير والشر، وما يترتب عليها ما هو من أهم الأمور.

(جواز مدح الرجل نفسه)

ومنها: جواز مدح الإنسان نفسه بما فيه من الخير إذا لم يكن على سبيل الفخر والترفع.

ومنها: تسليّة الإنسان نفسه عما لم يُقدّر له من الخير بما قدر له من نظيره أو خير منه.

(بهمة العقبة من أفضل مشاهد الصحابة)

ومنها: أن يبعه العقبة كانت من أفضل مشاهد الصحابة، حتى إن كعباً كان لا يراها دون مشهد بدر.

(لم يكن ديوان للجيش)

ومنها: أن الإمام إذا رأى المصلحة في أن يستر عن رعيته بعض ما يهم به ويقصده من العدو، ويؤرّي به عنه، استجب له ذلك، أو يتعين بحسب المصلحة.

(المبادرة إلى انتهاز فرصة الطاعة)

ومنها: أن السّرّ والكتّان إذا تضمن مفسدة، لم يجز.

ومنها: أن الجيش في حياة النبي ﷺ لم يكن لهم ديوان، وأول من دَوّن الديوان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهذا من سته التي أمر النبي ﷺ

(١) وقوله: «وإنما منعه من فيها من النساء والذرية الذين لا تجب عليهم كما أخبر هو عن ذلك» لم يرد «الصحيحين» وإنما هو عند أحمد (٨٧٩٦) وفي سننه أبو معشر المدني، واسمه نجيع بن عبد الرحمن هو ضعيف.

باتباعها، وظهرت مصلحتها، وحاجة المسلمين إليها.

ومنها: أن الرجل إذا حضرت له فرصة القربة والطاعة، فالحزم كُلُّ الحزم في انتهازها، والمبادرة إليها، والمعجز في تأخيرها، والتسوية بها، ولا سيما إذا لم يثق بقدرته وتمكنه من أسباب تحصيلها، فإن العزائم والهمم سريعة الانتقاض فلما ثبتت، والله سبحانه يُعاقب مَنْ فتح له باباً من الخير فلم ينتهزه، بأن يحول بين قلبه وإرادته، فلا يُمكنه بعد من إرادته عقوبة له، فمن لم يستجب لله ورسوله إذا دعاه، حال بينه وبين قلبه وإرادته، فلا يمكنه الاستجابة بعد ذلك. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرَّةِ وَكَالِيَةٍ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقد صرح الله سبحانه بهذا في قوله: ﴿وَقُلُوبٌ أَتَتْهُمْ وَأَعْبَتْهُمْ كَمَا تَرَى يُؤْمِنُوا يَوْمَ أُكِّلَ مِنْهُمُ الشَّجَرُ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. وقال: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلْفٌ يَخْلُصُ قَوْمًا بِهَذَا إِذْ هَدَيْتُمْ حَتَّى يَبَيَّتَ لَهُمْ مَا بَيَّنَّوْا﴾ [التوبة: ١١٥] وهو كثير في القرآن.

(لم يكن يتخلف عنه ﷺ)

(إلا منافق أو معذور أو من خلفه النبي ﷺ)

ومنها: أنه لم يكن يتخلف عن رسول الله ﷺ إلا أحد رجال ثلاثة، إما مغموص عليه في النفاق، أو رجل من أهل الأعداء، أو من خلفه رسول الله ﷺ واستعمله على المدينة، أو خلفه لمصلحة.

ومنها: أن الإمام والمطاع لا ينبغي أن يهول مَنْ تخلف عنه في بعض الأمور، بل يذكره ليراجع الطاعة ويتوب، فإن النبي ﷺ قال بتوبك: «مَا قَعَلَ كَعْبُ؟» ولم يذكر سواه من المخلفين استصلاحاً له، ومُراعاة وإعمالاً للقوم المنافقين.

(لتكبير الإمام والمطاع المتخلفين بالتوبة)

ومنها: جواز الطعن في الرجل بما يغلب على اجتهاد الطاعن حمية، أو ذباً عن الله ورسوله، ومن هذا طعن أهل الحديث فيمن طعنوا فيه من الرواة،

ومن هذا طعن ورثة الأنبياء وأهل السنة في أهل الأهواء والبدع لله لا لحظوظهم وأغراضهم.

(جواز الطعن اجتهداً)

ومنها: جواز الرد على الطاعن إذا غلب على ظن الراي أنه وهم وغلط، كما قال معاذ للذي طعن في كعب: بش ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً، ولم يُنكر رسول الله ﷺ على واحد منهما.

ومنها: أن السنة للقادم من السفر أن يدخل البلد على وضوء، وأن يبدأ ببيت الله قبل بيته، فيُصلي فيه ركعتين، ثم يجلس للمسلمين عليه، ثم ينصرف إلى أهله.

(الحكم بالظاهر)

ومنها: أن رسول الله ﷺ كان يقبل علانية من أظهر الإسلام من المنافقين، ويكل سريره إلى الله، ويُجري عليه حكم الظاهر، ولا يُعاقبه بما لم يعلم من سره.

(ترك رد السلام على من أحدث حدثاً)

ومنها: ترك الإمام والحاكم رد السلام على من أحدث حدثاً تأديباً له، وزجراً لغيره، فإنه ﷺ لم ينقل أنه رد على كعب، بل قابل سلامه بتبسم المُغضب.

(تبسم الغضب)

ومنها: أن التبسم قد يكون عن الغضب، كما يكون عن التعجب والسرور، فإن كلا منهما يُوجب انبساط دم القلب وثورانه، ولهذا تظهر حمرة الوجه لسرعة ثوران الدم فيه، فينشأ عن ذلك السرور، والغضب تعجب يتبعه ضحك وتبسم، فلا يفتخر المغتر بضحك القادر عليه في وجهه، ولا سيما عند المعية كما قيل:

إذا رأيت ثوبَ الليث بارزة

فلا تظن أن الليث مُتبسم^(١)

(جواز معاتبة الإمام والمطاع أصحابه)

ومنها: معاتبة الإمام والمطاع أصحابه، ومن يمز عليه، ويكرّم عليه، فإنه عاتب الثلاثة دون سائر من

(١) هو للمتنبّي من قصيدة يعاتب بها سيف الدولة. انظر: «ديوان» (٨٥/٤).

تخلف عنه، وقد أكثر الناس من مدح عتاب الأحبة، واستلذاذه، والسرور به، فكيف بعتاب أحب الخلق على الإطلاق إلى المعتوب عليه، والله ما كان أحلى ذلك العتاب، وما أعظم ثمرته، وأجل فائدته، والله ما نال به الثلاثة من أنواع المسرات، وحلاوة الرضى، وجليع القبول.

(توفيق الله لكعب وصاحبيه)

ومنها: توفيق الله لكعب وصاحبيه فيما جاؤوا به من الصدق، ولم يخذلهم حتى كذبوا واعتلروا بغير الحق، فصلحت عاجلتهم، وفسدت عاقبتهم كل الفساد، والصادقون تبعوا في العاجلة بعض التعب، فأعقبهم صلاح العاقبة، والفلاح كل الفلاح، وعلى هذا قامت الدنيا والآخرة، فمرارات المبادي حلالات في العواقب، وحلالات المبادي مرارات في العواقب. وقول النبي ﷺ لكعب: «أما هذا، فقد صدق»، دليل ظاهر في التمسك بمفهوم القلب عند قيام قرينة تقتضي تخصيص المذكور بالحكم، كقوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْخُرُوجِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِمُكَيْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ ٧٨ ففهمتها سليمان: [الأنبياء: ٧٨، ٧٩]، وقوله ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وتربتها طهوراً» وقوله في هذا الحديث: «أما هذا فقد صدق»، وهذا مما لا يشك السامع أن المتكلم قصد تخصيصه بالحكم.

(ينبغي للرجل أن يرد حر المصيبة بروح الناسي بمن لقي

مثل ما لقي، والإشارة إلى وهم الزهري في جملة صاحبي

كعب ممن شهد بدماء ولم يفلط إلا في هذا الموضع)

وقول كعب: هل لقي هذا معي أحداً فقالوا: نعم، مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، فيه أن الرجل ينبغي له أن يرد حر المصيبة بروح الناسي بمن لقي مثل ما لقي، وقد أرشد سبحانه إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي آيَاتِ الْقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ تَأْمِنُونَ فَلْيَهِنُوا بِأَلْسِنَتِكُمْ كَمَا تَأْمِنُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ آلِهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، وهذا هو الروح الذي منعه الله سبحانه أهل النار فيها بقوله: ﴿وَلَنْ يَغْنَصَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَكْثَرُ فِي الْمَكَايِبِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩].

وقوله: «فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدماء لي فيهما أسوة» هذا الموضع مما عُدَّ من أوام الزهري،

فإنه لا يحفظ عن أحد من أهل المغازي والسير البتة ذكر هذين الرجلين في أهل بدر، لا ابن إسحاق ولا موسى بن عقبة، ولا الأموي، ولا الواقدي، ولا أحد ممن عدَّ أهل بدر، وكذلك ينبغي ألا يكونا من أهل بدر، فإن النبي ﷺ لم يهجر حاطباً، ولا عاقبه وقد جس عليه، وقال لعمر لما هم بقتله: «وما يُدريك أن الله أطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، وأين ذنب التخلف من ذنب الجس.

قال أبو الفرج بن الجوزي: ولم أزل حريصاً على كشف ذلك وتحقيقه حتى رأيت أبا بكر الأثرم قد ذكر الزهري، وذكر فضله وحفظه وإتقانه، وأنه لا يكاد يحفظ عليه غلط إلا في هذا الموضع، فإنه قال: إن مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية شهدا بدماء، وهذا لم يقله أحد غيره، والغلط لا يعصم منه إنسان.

فصل

(نهي ﷺ عن كلام

هؤلاء الثلاثة لتأنيبهم دليل على صنفهم)

وفي نهى النبي ﷺ عن كلام هؤلاء الثلاثة من بين سائر من تخلف عنه دليل على صدقهم وكذب الباقيين، فأراد هجر الصادقين وتأديبهم على هذا الذنب، وأما المناقون، فجرهم أعظم من أن يقابل بالهجر، فدواء هذا المرض لا يعمل في مرض النفاق، ولا فائدة فيه، وهكذا يفعل الرب سبحانه بعباده في عقوبات جرائمهم، فيؤدب عبده المؤمن الذي يحبه وهو كريم عنده بأدنى زلة وهفوة، فلا يزال مستقيماً خليراً، وأما من سقط من عينه وهان عليه، فإنه يخلي بينه وبين معاصيه، وكلما أحدث فنبأ أحدث له نعمة، والمغرور يظن أن ذلك من كرامته عليه، ولا يعلم أن ذلك عين الإهانة، وأنه يُريد به العذاب الشديد، والعقوبة التي لا عاقبة معها، كما في الحديث المشهور: «إذا أراد الله بعبده خيراً عجل له عقوبته في الدنيا، وإذا أراد بعبده شراً، أمسك عنه عقوبته في الدنيا، فبرؤ يوم القيامة بنؤيه» (الترمذي: ٢٣٩٨).

(جواز الهجر للتأديب)

وفيه دليل أيضاً على هجران الإمام، والعالم،

والمطاع لمن فعل ما يستوجبُ العتب، ويكون هجرانه دواء له بحيث لا يضعف عن حصول الشفاء به، ولا يزيدُ في الكمية والكيفية عليه فيهلكه، إذ المرادُ تأديبه لا إهلاكه.

(التنكر والوحشة دليل على حياة القلب)

وقوله: «حتى تنكرت لي الأرض، فما هيّ بالتي أعرف» هذا التنكر يجده الخائف والحزين والمهموم في الأرض، وفي الشجر، والنبات حتى يجده فيمن لا يعلم حاله من الناس، ويجده أيضاً المذنب العاصي بحسب جرمه حتى في خلقي زوجته وولده، وخادمه ودابته، ويجده في نفسه أيضاً، فتتكر له نفسه حتى ما كأنه هو، ولا كأن أهله وأصحابه، ومن يُشفق عليه بالذنين يعرفهم، وهذا سر من الله لا يخفى إلا على من هو ميت القلب، وعلى حسب حياة القلب، يكون إدراك هذا التنكر والوحشة.

وما لجرح ببيت لإلام

ومن المعلوم، أن هذا التنكر والوحشة كانا لأهل النفاق أعظم، ولكن لموت قلوبهم لم يكونوا يشعرون به، وهكذا القلب إذا استحكم مرضه، واشتد ألمه بالذنوب والإجرام، لم يجد هذه الوحشة والتنكر، ولم يحس بها، وهذه علامة الشقاوة، وأنه قد آيس من عافية هذا المرض، وأعيى الأطباء شفاؤه، والخوف والهَمُّ مع الريبة، والأمنُ والسُرورُ مع البراءة من الذنب.

فَمَا فِي الْأَرْضِ أَشْجَعُ مِنْ بَرِيءٍ

ولا في الأرضِ أخوف من مُريبٍ وهذا القدرُ قد ينتفع به المؤمنُ البصيرُ إذا ابتلي به ثم راجع، فإنه ينتفع به نفعاً عظيماً من وجوه عديدة تفوت الحصر، ولو لم يكن منه إلا استثماره من ذلك أعلام النبوة، وذوقه نفس ما أخبر به الرسولُ فيصير تصديقه ضرورياً عنده، ويصير ما ناله من الشر بمعاصيه، ومن الخير بطاعته من أدلة صدق النبوة الذوقية التي لا تطرق إليها الاحتمالات، وهذا كمن أخبرك أن في هذه الطريق من المعاطب والمخاوف كيت وكيت على التفصيل، فخالفته وسلكتها، فرأيت عين ما أخبرك به، فإنك تشهدُ صدقه في نفس خلافتك له، وأما إذا سلكت طريق الأمن وحدها، ولم تجد

من تلك المخاوف شيئاً، فإنه وإن شهد صدق المخبر بما ناله من الخير والظفر مفصلاً، فإن علمه بتلك يكون مجملًا.

فصل

(علة تخلف صديقي كعب عن صلاة الجماعة)

ومنها: أن هلال بن أمية ومراة قعدا في بيوتهما، وكانا يُصليان في بيوتهما، ولا يحضُران الجماعة، وهذا يدل على أن هجران المسلمين للرجل عذر يُبيح له التخلف عن الجماعة، أو يقال: من تمام هجرانه أن لا يحضر جماعة المسلمين، لكن يقال: فكعب كان يحضر الجماعة ولم يمنعه النبي ﷺ، ولا عتب عليهما على التخلف، وعلى هذا فيقال: لما أمر المسلمون بهجرهم تركوا: لم يؤمروا، ولم يُنهوا، ولم يكلموا، فكان من حضر منهم الجماعة لم يمنع، ومن تركها لم يكلم، أو يقال: لعلهما ضَعُفًا وَعَجْزًا عن الخروج، ولهذا قال كعب: وكنت أنا أجلد القوم وأشبهم، فكنتُ أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين.

(رد السلام على من يستحق الهجر غير واجب)

وقوله: «وَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَسْلَمَ عَلَيْهِ، وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَأَقُولُ: هَلْ حَرَكَ شَفْتَيْهِ بَرْدَ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا؟» فيه دليل على أن الرد على من يستحق الهجر غير واجب، إذ لو وجب الرد لم يكن يد من إسماعه.

(دخول دار الصاحب من غير إذن)

وقوله: حتى إذا طال ذلك علي، تسورتُ جدار حائط أبي قتادة، فيه دليل على دخول الإنسان دار صاحبه وجاره إذا علم رضاه بذلك، وإن لم يستأفنه.

(قول الله ورسوله أعلم ليس بخطاب)

وفي قول أبي قتادة له: الله ورسوله أعلم، دليل على أن هذا ليس بخطاب ولا كلام له، فلو حلف لا يكلمه، فقال مثل هذا الكلام جواباً له لم يحث، ولا سيما إذا لم ينو به مكالته، وهو الظاهر من حال أبي قتادة.

(إشارة الناس إلى التبطي على

كعب دون نطقهم بتحقيق لمقصود الهجران)

وفي إشارة الناس إلى التبطي الذي كان يقول: من

يدل على كعب بن مالك دون نطقهم له تحقيق لمقصود الهجر، وإلا فلو قالوا له صريحاً: ذاك كعب بن مالك، لم يكن ذلك كلاماً له، فلا يكونون به مخالفين للنهي، ولكن لفرط تحرّيمهم وتمسكهم بالأمر، لم يذكروه له بصريح اسمه. وقد يقال: إن في الحديث عنه بحضرته وهو يسمع نوع مكاملة له، ولا سيما إذا جعل ذلك ذريعة إلى المقصود بكلامه، وهي ذريعة قريبة، فالمنع من ذلك من باب منع الحيل وسد الذرائع، وهذا أفقه وأحسن.

(ابتلاء الله لكعب بمكاتبه ملك غسان له)

وفي مكاتبه ملك غسان له بالمصير إليه ابتلاء من الله تعالى، وامتحان لإيمانه ومحبه الله ورسوله، وإظهار للصحابه أنه ليس ممن ضعف إيمانه بهجر النبي ﷺ والمسلمين له، ولا هو ممن تحمله الرغبة في الجاه والملك مع هجران الرسول والمؤمنين له على مفارقة دينه، فهذا فيه من تبرة الله له من النفاق، وإظهار قوة إيمانه، وصدقه لرسوله وللمسلمين ما هو من تمام نعمة الله عليه، ولطفه به، وجبره لكسره، وهذا البلاء يظهر لب الرجل وسره، وما ينطوي عليه، فهو كالكير الذي يخرج الخبيث من الطيب.

(إتلاف ما يخشى منه المضرة في الدين)

وقوله: فقيمت بالصحيفة التنورة، فيه المبادرة إلى إتلاف ما يخشى منه الفساد والمضرة في الدين، وأن الحازم لا ينتظر به ولا يؤخره، وهذا كالعصير إذا تخمر، وكالكتاب الذي يخشى منه الضرر والشر، فالحزم المبادرة إلى إتلافه وإعدامه.

(عداوة غسان لرسول الله ﷺ وكتابه ﷻ لهم)

وكانت غسان إذ ذاك - وهم ملوك عرب الشام - حرباً لرسول الله ﷺ، وكانوا ينعلون خيولهم لمحاربتهم، وكان هذا لما بعث شجاع بن وهب الأسدي إلى ملكهم الحارث بن أبي شمر الغساني يدعوهم إلى الإسلام، وكتب معه إليه، قال شجاع: فأنتهيت إليه وهو في غوطة دمشق، وهو مشغول بتهية الأنزال والألطاف لقيصر، وهو جاء من حمص إلى إيلياء، فأقمْتُ على بابهِ يومين أو ثلاثة، فقلتُ لحاجبه: إني رسول رسول الله ﷺ إليه، فقال: لا تصلُ إليه حتى يخرجَ يومَ كذا وكذا، وجعل حاجبه

- وكان رومياً اسمه مري - يسأئني عن رسول الله ﷺ، وكنتُ أحذنه عن رسول الله ﷺ وما يدعو إليه، فيرقُ حتى يغلبَ عليه البكاء، ويقول: إني قرأتُ الإنجيل، فأجدُ صفة هذا النبي بعينه، فأنأؤمن به وأصدقُه، فأخافُ من الحارث أن يقتلني وكان يُكرمني، ويُحسن ضيافتي. وخرج الحارث يوماً فجلس، فوضع التاج على رأسه، فأذن لي عليه، فدفعْتُ إليه كتابَ رسول الله ﷺ، فقراه، ثم رمى به، قال: من يتترعُ مِنِّي ملكي، وقال: أنا سائرُ إليه، ولو كان باليمن جنته، عليَّ بالناس، فلم تزل تُعرض حتى قام، وأمر بالخيول تُنعل، ثم قال: أخبر صاحبك بما ترى، وكتب إلى قيصر يخبره خبري، وما عزم عليه، فكتب إليه قيصر: أن لا تيسر، ولا تغبرُ إليه، والهُ عنه، ووافني بإيلياء، فلما جاءه جوابُ كتابه، دعاني فقال: متى تريدُ أن تخرجَ إلى صاحبك؟ فقلت: غداً، فأمر لي بمنّةٍ مثقالِ ذهباً، ووصلني حاجبه بنفقة وكسوة، وقال: اقرأ على رسول الله ﷺ مني السلام، فقدمْتُ على رسول الله ﷺ، فأخبرته، فقال: «بأَد مُلْكُهُ»، وأقرأته من حاجبه السلام، وأخبرته بما قال، فقال رسول الله ﷺ: «صدق»، ومات الحارث بن أبي شمر عام الفتح، ففي هذه المدة أرسل ملكُ غسان يدعو كعباً إلى اللحاق به، فأبت له سابقة الحسنَى أن يرغب عن رسول الله ﷺ ودينه.

فصل

(أمره ■ لهؤلاء الثلاثة باعتزال نساءهم)

كالبشارة بمقدمات الفرج من حيث

إرساله لهم بذلك والجد في العبادة باعتزال النساء)

في أمر رسول الله ﷺ لهؤلاء الثلاثة أن يعتزلوا نساءهم لما مضى لهم أربعون ليلة، كالبشارة بمقدمات الفرج والفتح من وجهين:

أحدهما: كلامه لهم، وإرساله إليهم بعد أن كان لا يكلمهم بنفسه ولا برسوله.

الثاني: من خصوصية أمرهم باعتزال النساء، وفيه تنبيه وإرشاد لهم إلى الجد والاجتهاد في العبادة، وشد المئزر، واعتزال محل اللهو واللذة، والتعوض عنه بالإقبال على العبادة، وفي هذا إيذان بقرب

الفرج، وأنه قد بقي من العتب أمر يسير.

وفقه هذه القصة، أن زمن العبادات ينبغي فيه تجنب النساء، كزمن الإحرام، وزمن الاعتكاف؛ وزمن الصيام، فأراد النبي ﷺ أن يكون آخر هذه المدة في حق هؤلاء بمنزلة أيام الإحرام والصيام في توفرها على العبادة، ولم يأمرهم بذلك من أول المدة رحمة بهم، وشفقة عليهم، إذ لعلهم يضعف صبرهم عن نسايتهم في جميعها، فكان من اللطف بهم والرحمة، أن أمروا بذلك في آخر المدة، كما يؤمر به الحاج من حين يحرم، لا من حين يعزم على الحج.

(لفظ الطلاق والعتاق لا يقع إذا لم يرده)

وقول كعب لامراته: الحق بأهلك، دليل على أنه لم يقطع بهذه اللفظة وأمثالها طلاق ما لم ينوه. والصحيح: إن لفظ الطلاق والعتاق والحرية كذلك إذا أراد به غير تسيب الزوجة، وإخراج الرقيق عن ملكه، لا يقع به طلاق ولا عتاق، هذا هو الصواب الذي ندين الله به، ولا نرتاب فيه ألبته. فإذا قيل له: إن غلامك فاجر أو جاريتك تزني، فقال: ليس كذلك، بل هو غلام عفيف حر، وجارية عفيفة حرة، ولم يرد بذلك حرية العتق، وإنما أراد حرية العفة، فإن جاريتهم وعبداه لا يعتقان بهذا أبداً، وكذا إذا قيل له: كم لغلامك عندك سنة؟ فقال: هو عتيق عندي، وأراد قدم ملكه له، لم يعتق بذلك، وكذلك إذا ضرب امرأته الطلق، فسل عنها، فقال: هي طالق، ولم يخطر بقله إيقاع الطلاق وإنما أراد أنها في طلق الولادة، لم تطلق بهذا، وليست هذه الألفاظ مع هذه القرائن صريحة إلا فيما أريد بها، ودل السياق عليها، فدعوى أنها صريحة في العتاق والطلاق مع هذه القرائن مكابرة، ودعوى باطلة قطعاً.

فصل

(مكان سجود الشكر من عادة الصحابة)

وفي سجود كعب حين سمع صوت المبشر دليل ظاهر أن تلك كانت عادة الصحابة، وهي سجود الشكر عند النعم المتجددة، والنعم المنفذة، وقد سجد أبو بكر الصديق لما جاءه قتل مسيلمة الكذاب [اليهقي (١/٣٧١)]، وسجد علي بن طالب لما وجد ذا الثدية مقتولاً في الخوارج [حسن: أحمد: ٨٤٨-١٢٥٤]،

وسجد رسول الله ﷺ حين بشره جبريل أنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشراً، وسجد حين شفع لأمته، فشفعه الله فيهم ثلاث مرات، وأتاه بشير فبشره بظفر جند له على عدوهم ورأسه في حجر عائشة، فقام فخر ساجداً، وقال أبو بكر: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه أمر يسره خر لله ساجداً [أبو داود: ٢٧٧٤، والترمذي: ١٥٧٨، وابن ماجه: ١٣٩٤]، وهي آثار صحيحة لا مطعن فيها.

(حرص الصحابة على الخير)

وفي استباق صاحب الفرس والراقي على سلع ليشرأ كعباً دليل على حرص القوم على الخير، واستباقهم إليه، وتنافسهم في مسرة بعضهم بعضاً.

(إعطاء البشر من مكارم الأخلاق)

وفي نزع كعب ثوبيه وإعطائهما للبشير، دليل على أن إعطاء المبشرين من مكارم الأخلاق والشيم، وعادة الأشراف، وقد أعتق العباس غلامه لما بشره أن عند الحجاج بن علاط من الخبر عن رسول الله ﷺ ما يسره.

وفيه دليل على جواز إعطاء البشير جميع ثيابه.

(استحباب هفئة من تجللت له نعمة دينية)

وفيه دليل على استحباب تهتة من تجلّت له نعمة دينية، والقيام إليه إذا أقبل، ومصافحته، فهذه سنة مستحبة، وهو جائر لمن تجلّت له نعمة دنيوية، وأن الأولى أن يقال له: ليهنك ما أعطاك الله، وما من الله به عليك، ونحو هذا الكلام، فإن فيه تولية النعمة ربها، والدعاء لمن نالها بالتهني بها.

(يوم توبة المسلم خير الأيام)

وفيه دليل على أن خير أيام العبد على الإطلاق وأفضلها يوم توبته إلى الله، وقبول الله توبته، لقول النبي ﷺ: «أَبَشِّرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدْتِكَ أُمَّكَ».

فإن قيل: فكيف يكون هذا اليوم خيراً من يوم إسلامه؟ قيل: هو مكمل ليوم إسلامه، ومن تمامه، فيوم إسلامه بداية سعادته، ويوم توبته كمالها وتامها، والله المستعان.

(سروره ﷺ بتوبة الله)

على المخلفين دليل على شففته على أمته)

الذي بخير. رواه أبو داود [٣٣٧١]. وفي ثبوت هذا ما فيه، فإن الصحيح في قصة كعب هذه ما رواه أصحاب الصحيح من حديث الزهري، عن ولد كعب بن مالك عنه أنه قال: «أَمْسِكَ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ» من غير تعيين لقدره، وهم أعلم بالقصة من غيرهم، فإنهم ولده، وعنه نقلوها.

(من نذر صدقة وعليه دين)

فإن قيل: فما تقولون فيما رواه الإمام أحمد في «مسنده» أن أبا لُبَابَةَ بن عبد المنذر لما تَابَ اللَّهُ عليه، قال: يا رسول الله! إِنْ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَهْجَرَ دَارَ قَوْمِي وَأَسَاكِنَكَ، وَأَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُجْزِيءُ عَنْكَ الثَّلْثُ» [صحیح: أحمد: ١٥٧٥٠، وأبو داود: ٣٣١٩]. قيل: هذا هو الذي احتج به أحمد، لا بحديث كعب، فإنه قال في رواية ابنه عبد الله: إذا نذر أن يتصدق بماله كله أو ببعضه، وعليه دين أكثر مما يملكه، فالذي أذهب إليه أنه يجزئه من ذلك الثلث، لأن النبي ﷺ أمر أبا لُبَابَةَ بالثلث، وأحمد أعلم بالحديث أن يحتج بحديث كعب هذا الذي فيه ذكر الثلث، إذ المحفوظ في هذا الحديث «أمسك عليك بعض مالك» وكأن أحمد رأى تقييد إطلاق حديث كعب هذا بحديث أبي لُبَابَةَ.

وقوله فيمن نذر أن يتصدق بماله كله أو ببعضه وعليه دين يستغفره: إنه يجزئه من ذلك الثلث، دليل على انعقاده نذره، وعليه دين يستغفر ماله، ثم إذا قضى الدين، أخرج مقدار ثلث ماله يوم النذر، وهكذا قال في رواية ابنه عبد الله: إذا وهب ماله، وقضى دينه، واستفاد غيره، فإنما يجب عليه إخراج ثلث ماله يوم حثه، يريد يوم حثه يوم نذره، فينظر قدر الثلث ذلك اليوم، فيخرجه بعد قضاء دينه.

وقوله: أو ببعضه. يُريد أنه إذا نذر الصدقة بمعين من ماله، أو بمقدار كالتلف ونحوها، فيجزئه ثلثه كنذر الصدقة بجميع ماله، والصحيح من مذهبه لزوم الصدقة بجميع المعين. وفيه رواية أخرى، أن المعين إن كان ثلث ماله فما دونه، لزمه الصدقة بجميعه، وإن

وفي سرور رسول الله ﷺ بذلك وفرحه به واستنارة وجهه دليل على ما جعل الله فيه من كمال الشفقة على الأمة، والرحمة بهم والرافة، حتى لعل فرحه كان أعظم من فرح كعب وصاحبيه.

(استحباب الصدقة عند التوبة)

وقول كعب: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي. دليل على استحباب الصدقة عند التوبة بما قدر عليه من المال.

(من نذر الصدقة بكل ماله لم يلزمه إخراج جميعه)

وقول رسول الله ﷺ: «أَمْسِكَ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»، دليل على أن من نذر الصدقة بكل ماله، لم يلزمه إخراج جميعه، بل يجوز له أن يبيع له منه بقية، وقد اختلفت الرواية في ذلك، ففي «الصحيحين» أن النبي ﷺ قال له: «أَمْسِكَ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ» ولم يعين له قدرًا، بل أطلق ووكله إلى اجتهاده في قدر الكفاية، وهذا هو الصحيح، فإن ما نقص عن كفايته وكفاية أهله لا يجوز له التصديق به، فنذره لا يكون طاعة، فلا يجب الوفاء به، وما زاد على قدر كفايته وحاجته، فأخراجه والصدقة به أفضل، فيجب إخراجُه إذا نذره، هذا قياسُ المذهب، ومقتضى قواعد الشريعة، ولهذا تقدم كفاية الرجل، وكفاية أهله على أداء الواجبات المالية، سواء كانت حقًا لله كالكفارات والحج، أو حقًا للآدميين كأداء الديون، فإنما ترك للمفلس ما لا يُدَّ منه من مسكن، وخادم، وكسوة، وآلة جرفة، أو ما يتجر به لمؤنته إن فقدت الحرفة، ويكون حق الغرماء فيما بقي. وقد نص الإمام أحمد على أن من نذر الصدقة بماله كله، أجزاء ثلثه، واحتج له أصحابه بما روي في قصة كعب هذه، أنه قال: يا رسول الله! إن من توبتي إلى الله ورسوله أن أخرج من مالي كله إلى الله ورسوله صدقة، قال: «لا» قلت: فنصفه؟ قال: «لا» قلت: فثلثه قال: «نعم» قلت: فإني أمسك سهمي

زاد على الثلث، لزمه منه بقدر الثلث، وهي أصح عند أبي البركات^(١).

وبعد: فإن الحديث ليس فيه دليل على أن كعباً وأباً لبابة نذرا نذراً منجزاً، وإنما قالوا: إن من توبتنا أن ننخلع من أموالنا، وهذا ليس بصريح في النذر، وإنما فيه العزم على الصدقة بأموالهما شكراً لله على قبول توبتهما، فأخبر النبي ﷺ أن بعض المال يُجزىء من ذلك، ولا يحتاجان إلى إخراجها كله، وهذا كما قال لسعد وقد استأذنه أن يُوصي بماله كله، فأذن له في قدر الثلث.

فإن قيل: هذا يدفعه أمران. أحدهما: قوله: «يُجزئك»، والإجزاء إنما يستعمل في الواجب، والثاني: أن منعه من الصدقة بما زاد على الثلث دليل على أنه ليس بقرية، إذ الشارع لا يمنع من القرب، ونذر ما ليس بقرية لا يلزم الوفاء به.

قيل: أما قوله: «يُجزئك»، فهو بمعنى يكفيك، فهو من الرباعي، وليس من «جزى عنه» إذا قضى عنه، يقال: أجزاني: إذا كفاني، وجزى عني: إذا قضى عني، وهذا هو الذي يستعمل في الواجب، ومنه قوله ﷺ «لا يبرء في الأضحية: تَجْزِي عَنْكَ وَلَنْ تَجْزِي عَنْ أَحَدٍ بِعَدِّكَ» [البخاري: ٥٥٥٦، ومسلم: ٥٠٦٩] والكفاية تُستعمل في الواجب والمستحب.

وأما منعه من الصدقة بما زاد على الثلث، فهو إشارة منه عليه بالأرقق به، وما يحصل له به منفعة دينه ودنياه، فإنه لو مكّنه من إخراج ماله كله لم يصبر على الفقر والعدم، كما فعل بالذي جاءه بالصبرة ليتصدق بها، فضربه بها [ابو داود: ١٦٧٣]، ولم يقبلها منه خوفاً عليه من الفقر، وعدم الصبر. وقد يقال - وهو أرجح إن شاء الله تعالى - : إن النبي ﷺ عامل كل واحد ممن أراد الصدقة بماله بما يعلم من حاله، فمكّن أبا بكر الصديق من إخراج ماله كله، وقال: «ما أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟» فقال: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولَهُ

[ابو داود: ١٦٧٨، والترمذي: ٣٦٧٦]، فلم يُنكر عليه، وأقرّ عمر على الصدقة بِشَطْرِ مَالِهِ، ومنع صاحب الصبرة من التصدق بها، وقال لكعب: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ»، وهذا ليس فيه تعيين المخرج بأنه الثلث، ويبيّن جداً بأن يكون الممسك ضِعْفِي المخرج في هذا اللفظ، وقال لأبي لبابة: يُجزئك الثلث، ولا تناقض بين هذه الأخبار، وعلى هذا، فمن نذر الصدقة بماله كله، أمسك منه ما يحتاج إليه هو وأهله، ولا يحتاجون معه إلى سؤال الناس مدة حياتهم من رأس مال أو عقار، أو أرض يقوم مغلّها بكفائتهم، وتصدّق بالباقي. والله أعلم.

وقال ربيعة بن أبي عبد الرحمن: يتصدّق منه بقدر الزكاة، ويُسك الباقي. وقال جابر بن زيد: إن كان ألفين فأكثر، أخرج عُشْرَهُ، وإن كان ألفاً، فما دون فُسْبَعُهُ، وإن كان خمسمئة فما دون فُخْمُسُهُ. وقال أبو حنيفة رحمه الله: يتصدّق بكلّ ماله الذي تجبّ فيه الزكاة، وما لا تجب فيه الزكاة، ففيه روايتان: أحدهما: يُخرجه والثانية: لا يلزمه منه شيء.

وقال الشافعي: تلزمه الصدقة بماله كله، وقال مالك، والزهري، وأحمد: يتصدّق بثلثه، وقالت طائفة: يلزمه كفارة يمين فقط.

فصل

(عظمة الصدق)

ومنها: عظم مقدار الصدق، وتعلّق سعادة الدنيا والآخرة، والنجاة من شرهما به، فما أنجى الله من أنجاه إلا بالصدق، ولا أهلك من أهلك إلا بالكذب، وقد أمر الله سبحانه عباده المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقد قسم سبحانه الخلق إلى قسمين: سعداء وأشقياء، فجعل السعداء هم أهل الصدق، والأشقياء هم أهل الكذب والتكذيب،

(١) هو الشيخ العلامة عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الحراني المعروف بابن تيمية، وهو جد شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، كان عجباً في حفظ الأحاديث وسردها، وحفظ مذاهب الناس بلا كلفة، ونقل الذهبي عن ابن مالك النحوي قوله: لين للشيخ المجد الفقه كما ألين لداود الحديد، توفي سنة (٦٥٢هـ) من مؤلفاته «المتقى» في أحاديث الأحكام، وهو مطبوع مفرداً، وشرح العلامة الشوكاني «المحرر» في الفقه، وانظر: «شذرات الذهب» (٥/٢٥٧).

وهو تقسيم حاصر مطرد، منعكس، فالسعادة دائرة مع الصدق والتصديق، والشقاوة دائرة مع الكذب والتكذيب.

وأخبر سبحانه وتعالى: أنه لا ينفع العباد يوم القيامة إلا صدقهم، وجعل علم المتأفقين الذي تميزوا به هو الكذب في أقوالهم وأفعالهم، فجميع ما نعاه عليهم أصله الكذب في القول والفعل، فالصدق بريد الإيمان، ودليله، ومركبه، وسائقه، وقائده، وجليته، ولباسه، بل هو لبه وروحه. والكذب: بريد الكفر والنفاق، ودليله، ومركبه، وسائقه، وقائده، وجليته، ولباسه، ولبه، فمضادة الكذب للإيمان كمضادة الشرك للتوحيد، فلا يجتمع الكذب والإيمان إلا ويطرأ أحدهما صاحبه، ويستقر موضعه، والله سبحانه أنجى الثلاثة بصدقهم، وأهلك غيرهم من المخلفين بكذبهم، فما أنعم الله على عبد بعد الإسلام بنعمة أفضل من الصدق الذي هو غذاء الإسلام وحياته، ولا ابتلاء ببلية أعظم من الكذب الذي هو مرض الإسلام وفساده، والله المستعان.

(فضل التوبة)

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمَسْجِدِ مِنْ بَيْتِ مَا كَادَ يَرْجِعُ قُلُوبُ قَوْمٍ مِنْهُمْ إِذْ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِهِمْ رُدُّوا رَجِيعٌ ۝﴾ [التوبة: ١١٧]، هذا من أعظم ما يعرف العبد قدر التوبة وفضلها عند الله، وأنها غاية كمال المؤمن، فإنه سبحانه أعطاهم هذا الكمال بعد آخر الغزوات بعد أن قصوا نحبهم، وبذلوا نفوسهم، وأموالهم، وديارهم لله، وكان غاية أمرهم أن تاب عليهم، ولهذا جعل النبي ﷺ يوم توبة كعب خير يوم مر عليه منذ ولدته أمه، إلى ذلك اليوم، ولا يعرف هذا حق معرفته إلا من عرف الله، وعرف حقوقه عليه، وعرف ما ينبغي له من عبوديته، وعرف نفسه وصفاتها وأفعالها، وأن الذي قام به من العبودية بالنسبة إلى حق ربه عليه، كقطرة في بحر، هذا إذا سلم من الآفات الظاهرة والباطنة، فسيحان من لا يسع عباده غير عفوه ومغفرته، وتغمده لهم بمغفرته ورحمته، وليس إلا

ذلك أو الهلاك، فإن وضع عليهم عدله، فعذب أهل سماواته وأرضه عذبهم، وهو غير ظالم لهم، وإن رحمهم، فرحمته خير لهم من أعمالهم، ولا يُنجي أحداً منهم عمله.

فصل

(معنى تكرير الله للفظ التوبة في الآية)

وتأمل تكريره سبحانه توبته عليهم مرتين في أول الآية وآخرها، فإنه تاب عليهم أولاً بتوفيقهم للتوبة، فلما تابوا، تاب عليهم ثانياً بقبولها منهم، وهو الذي وفقهم لفعلها، وتفضل عليهم بقبولها، فالخير كله منه وبه، وله وفي يديه، يعطيه من يشاء إحساناً وفضلاً، ويحرمه من يشاء حكمة وعدلاً.

فصل

(معنى كلمة خلفوا في الآية)

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْآيَاتِ خُلُفًا﴾ [التوبة: ١١٨]، قد فسرنا كعباً بالصواب، وهو أنهم خُلُفُوا من بين حلف لرسول الله ﷺ، واعتذر من المتخلفين، فخلف هؤلاء الثلاثة عنهم، وأرجأ أمرهم دونهم، وليس ذلك تخلفهم عن الغزو، لأنه لو أراد ذلك، لقال: تخلفوا، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠]، وذلك لأنهم تخلفوا بأنفسهم بخلاف تخليفهم عن أمر المتخلفين سواهم، فإن الله سبحانه هو الذي خلفهم عنهم، ولم يتخلفوا عنه بأنفسهم. والله أعلم.

فصل

في حجة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

سنة تسع بعد مقدمه من تبوك [ابن هشام (٧٣٩)]

قال ابن إسحاق: ثم أقام رسول الله ﷺ من تبوك بقية رمضان وشوالاً وذا القعدة، ثم بعث أبا بكر أميراً على الحج سنة تسع ليعيم للمسلمين حجهم، والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم، فخرج أبو بكر والمؤمنون.

قال ابن سعد: فخرج في ثلاثمئة رجل من المدينة، وبعث معه رسول الله ﷺ بعشرين بدنة،

قَلَدَهَا وَأَشْعَرَهَا بِيَدِهِ، عَلَيْهَا نَاجِيَةٌ بِنُجْنَدِبِ الْأَسْلَمِيِّ، وَسَاقَ أَبُو بَكْرٍ خَمْسَ بَدَنَاتٍ.

قال ابن إسحاق: فَنَزَلَتْ بَرَاءَةٌ فِي تَقْضِي مَا بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْعَهْدِ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ، فَنُخْرِجَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى نَاقَةٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْعُضْبَاءَ.

قال ابن سعد: فَلَمَّا كَانَ بِالْعَرْجِ - وَابْنُ عَائِثٍ يَقُولُ: بِضَيْحَانَ - لَحِقَهُ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الْعُضْبَاءِ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَبُو بَكْرٍ قَالَ: أَمِيرٌ أَوْ مَأْمُورٌ قَالَ: لَا بَلْ مَأْمُورٌ، ثُمَّ مَضَى.

وقال ابن سعد: فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ: اسْتَغْمَلْكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْحَجِّ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي أَقْرَأَ بَرَاءَةً عَلَى النَّاسِ، وَأَنْبَذَ إِلَى كُلِّ ذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ، فَأَقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ حَجَّجَهُمْ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ النَّحْرِ، قَامَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَأَذَّنَ فِي النَّاسِ عِنْدَ الْجُمُعَةِ بِالَّذِي أَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَبَنَدَ إِلَى كُلِّ ذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ، وَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ! لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ كَافِرٌ، وَلَا يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ، وَمَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَهُوَ إِلَى مُدَّتِهِ.

وقال الحميدي: حَدَّثَنَا سَفِيَانٌ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو إِسْحَاقَ الْهَمْدَانِيُّ، عَنْ زَيْدِ بْنِ يَثِيعٍ، قَالَ: سَأَلْنَا عَلِيًّا، بِأَيِّ شَيْءٍ بُعِثْتُ فِي الْحَجَّةِ؟ قَالَ: بُعِثْتُ بِأَرْبَعٍ: لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ، وَلَا يَجْتَمِعُ مُسْلِمٌ وَكَافِرٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بَعْدَ عَامِهِ هَذَا، وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ عَهْدٌ، فَعَهْدُهُ إِلَى مُدَّتِهِ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَهْدٌ، فَاجْلُهُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ [صحيح: أحمد: ٥٩٤، والترمذي: ٣٠٩١].

وفي «الصحيحين»: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ فِي تِلْكَ الْحَجَّةِ فِي مُؤَدِّيْنِ بَعَثَهُمْ يَوْمَ النَّحْرِ يُؤَذِّنُونَ بَيْنِي: أَلَّا يَحُجَّ بَعْدَ هَذَا الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ، ثُمَّ أَرَدَفَ النَّبِيُّ ﷺ أَبَا بَكْرٍ بِعَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَذِّنَ بِبَرَاءَةٍ، قَالَ: فَأَذَّنَ مَعَنَا عَلِيٌّ فِي أَهْلِ مِثْنَى يَوْمِ النَّحْرِ بِبَرَاءَةٍ، وَأَلَّا يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ [البخاري: ٣٦٩، ومسلم: ٣٢٨٧].

(هل كانت حجة الصديق قبل فرضية الحج والغاء النسب؟)

وفي هذه القصة دليل على أن يوم الحج الأكبر يوم النحر، واختلف في حجة الصديق هذه، هل هي التي أسقطت الفرض، أو المسقطه هي حجة الوداع مع النبي ﷺ؟ على قولين: أحدهما: الثاني، والقولان مبنيان على أصليين، أحدهما: هل كان الحج فرض قبل عام حجة الوداع أو لا؟ والثاني: هل كانت حجة الصديق رضي الله عنه في ذي الحجة، أو وقعت في ذي القعدة من أجل النسب الذي كان الجاهليّة يؤخرون له الأشهر ويُقدّمونها؟ على قولين. والثاني: قول مجاهد وغيره. وعلى هذا، فلم يؤخر النبي ﷺ الحج بعد فرضه عاماً واحداً، بل بادر إلى الامتثال في العام الذي فرض فيه، وهذا هو اللائق بهديه وحاله ﷺ، وليس يبيد من ادعى تقدّم فرض الحج سنة ست أو سبع أو ثمانٍ أو تسع دليل واحد. وغاية ما احتج به من قال: فرض سنة ست قوله تعالى: ﴿وَأَيُّهَا النَّاسُ! لَكُمْ وَالْمَعْرَةُ يَوْمَ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وهي قد نزلت بالحديبية سنة ست، وهذا ليس فيه ابتداء فرض الحج، وإنما فيه الأمر بإتمامه إذا شرع فيه، فأين هذا من وجوب ابتدائه، وأية فرض الحج وهي قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، نزلت عام الوفود وأواخر سنة تسع.

فصل

في قدوم وفود العرب وغيرهم

على النبي ﷺ

(وفد قتيب)

فَقَدِمَ عَلَيْهِ وَفْدٌ ثَقِيفٌ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعَ سِيَاقِ غَزْوَةِ الطَّائِفِ.

قال موسى بن عقبة: وَأَقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ حَجَّجَهُمْ، وَقَدِمَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الشَّقْفِيُّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَأْذَنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِيَرْجِعَ إِلَى قَوْمِهِ، فَذَكَرَ نَحْوَ مَا تَقَدَّمَ، وَقَالَ: فَقَدِمْتُ وَفَدَهُمْ، وَفِيهِمْ: كِنَانَةُ بْنُ عَبْدِ يَالِيلٍ، وَهُوَ رَأْسُهُمْ يَوْمَئِذٍ، وَفِيهِمْ: عُثْمَانُ بْنُ أَبِي الْعَاصِ، وَهُوَ أَصْغَرُ الْوَفْدِ،

فقال المغيرة بن شعبة: يا رسول الله ﷺ أنزل قومي علي فأكرمهم، فإني حديث الجرح فيهم، فقال رسول الله ﷺ: «لا أمتك أن تكرم قومك، ولكن أنزلهم حيث يسمعون القرآن»، وكان من جرح المغيرة في قومه أنه كان أجيراً لثقيف، وأنهم أقبلوا من مضَرَّ حتى إذا كانوا ببعض الطريق، عدا عليهم وهم نيام، فقتلهم، ثم أقبل بأموالهم حتى أتى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أما الإسلام فقبُل، وأما المال فلا، فإننا لا نغير»، وأبى أن يُخمس ما معه، وأنزل رسول الله ﷺ وقد ثقيف في المسجد، وبنى لهم خياماً لكي يسموا القرآن، ويروا الناس إذا صلُّوا، وكان رسول الله ﷺ إذا خطب لا يذكر نفسه، فلما سمعه وقد ثقيف، قالوا: يا أمراً أن نشهد أنه رسول الله، ولا يشهد به في خطبته، فلما بلغه قولهم، قال: فإني أول من شهد أني رسول الله. وكانوا يغذون إلى رسول الله ﷺ كل يوم، ويخلفون عثمان بن أبي العاص على رحالهم، لأنه أصغرهم، فكان عثمان كلما رجع الوفد إليه وقالوا بالهاجرة، عمد إلى رسول الله ﷺ، فسأله عن الدين، واستقرأ القرآن، فاختلف إليه عثمان مراراً حتى فقه في الدين وعلم، وكان إذا وجد رسول الله ﷺ نائماً، عمد إلى أبي بكر، وكان يكتم ذلك من أصحابه، فأعجب ذلك رسول الله ﷺ وأحبه، فمكث الوفد يخلفون إلى رسول الله ﷺ وهو يدعوهم إلى الإسلام، فأسلموا، فقال كنانة بن عبد ياليل: هل أنت مقاضينا حتى نرجع إلى قومنا؟ قال: «نعم، إن أنتم أقررتم بالإسلام أقاضيك، وإلا فلا قضية، ولا صلح بيني وبينكم». قال: أفرأيت الزنى، فإننا قوم نغترب، ولا بد لنا منه؟ قال: «هو عليكم حرام فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَجْشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، قالوا: أفرأيت الربا فإنه أموالنا كلها؟ قال: «لكنم رؤوس أموالكم إن الله تعالى يقول: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ عَاتُوا اللَّهَ وَذَرُّوا مَا بَيْنَ يَدَيْهِمْ﴾ [البقرة: ٢٧٨]». قالوا: أفرأيت الخمر، فإنه عصير أرضنا لا بد لنا منها؟ قال: «إن الله قد حرمها، وقرأ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ

عَاتُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْيَبِيسُ وَالْأَصَابُ وَالْأَكْلَامُ يَمُوتُ مِنْ عَمَلِ الْفَيْحَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَكُمْ تُبَلِّغُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المائدة: ٩٠]، فارتفع القوم، فخلا بعضهم ببعض، فقالوا: ويحكم إننا نخاف إن خالفناه يوماً كيوم مكة، انطلقوا نكاتبه على ما سألناه، فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: نعم لك ما سألت، أرايت الرِّبَّةَ ماذا نصنع فيها؟ قال: «اهيئوها». قالوا: هيهات لو تعلم الرِّبَّةُ أنك تريد هدمها، لقتل أهلها، فقال عمر بن الخطاب: ويحك يا ابن عبد ياليل، ما أجهلك، إنما الرِّبَّةُ حجر. فقالوا: إنا لم نأتك يا ابن الخطاب، وقالوا لرسول الله ﷺ: تَوَلَّ أنت هدمها، فأما نحن، فإننا لا نهديها أبداً. قال: «فَسَابَتْ إِلَيْكُمْ مَنْ يَكْفِيكُمْ هَذِمَهَا» فكتبوه، فقال كنانة بن عبد ياليل: ائذن لنا قبل رسولك، ثم ابعث في آثارنا، فإننا أعلم بقومنا، فأذن لهم رسول الله ﷺ، وأكرمهم وحباهم، وقالوا: يا رسول الله! أمر علينا رجلاً يؤمننا من قومنا، فأمر عليهم عثمان بن أبي العاص لما رأى من حرصه على الإسلام، وكان قد تعلم سوراً من القرآن قبل أن يخرج، فقال كنانة بن عبد ياليل: أنا أعلم الناس بشقيف، فاکتموهم القضية، وخوفوهم بالحرب والقتال، وأخبروهم أن محمداً سألنا أموراً آييناها عليه، سألنا أن نهديم اللات والعزى، وأن نُحرِّم الخمر والزنى، وأن نُبَيِّلَ أموالنا في الربا، فخرجت ثقيف حين دنا منهم الوفد يتلقونهم، فلما رأوهم قد ساروا العتق، وقطروا الإبل، وتغشوا ثيابهم كهية القوم قد حزنوا وكربوا، ولم يرجعوا بخير، فقال بعضهم لبعض: ما جاء وفدكم بخير، ولا رجعوا به، وترجل الوفد، وقصدوا اللات، ونزلوا عندها - واللات وثن كان بين ظهراني الطائف، يُستر ويهدى له الهدى كما يهدى لبيت الله الحرام - فقال ناس من ثقيف حين نزل الوفد إليها: إنهم لا عهد لهم برويتنا، ثم رجع كل رجل منهم إلى أهله، وجاء كلاً منهم خاصته من ثقيف، فسألوهم ماذا جئتم به وماذا رجعت به؟ قالوا: آتيناً رجلاً فظاً غليظاً يأخذ من أمره ما يشاء، قد ظهر بالسيف، وداخ له العرب، ودان له الناس، فعرض علينا أموراً

الأساس، فليُخَيَّفَنَ بهم، فلما سمع ذلك المغيرة، قال لإخالد: دعني أحفر أساسها، فحفره حتى أخرجوا تُرابها، وانتزعوا حُلِيَّها ولباسها، فُبِهَتْ ثَقِيف، فقالت عجوز منهم: أسلمها الرُّضَاعُ، وتركوا المِصَاعَ^(١).

وأقبل الوفد حتى دخلوا على رسول الله ﷺ بحُلِيَّها وكِسوتها، فقسمه رسول الله ﷺ من يومه، وحمد الله على نصرة نبيه وإعزاز دينه، وقد تقدّم أنه أعطاه لأبي سفيان بن حرب، هذا لفظ موسى بن عقبة.

وزعم ابن إسحاق أن النبي ﷺ قدم من تبوك في رمضان، وقدم عليه في ذلك الشهر وفد ثَقِيف.

وروي في «سنن أبي داود» عن جابر قال: اشتركت ثَقِيفُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَلَا صَدَقَةٌ عَلَيْهَا وَلَا جِهَادَ، فقال النبي ﷺ: بَعْدَ ذَلِكَ: سَيَتَصَدَّقُونَ وَيُجَاهِدُونَ إِذَا أَسْلَمُوا [حسن: أحمد: ١٤٦٧٣، وأبو داود: ٣٠٢٥].

وروي في «سنن أبي داود الطيالسي»، عن عثمان بن أبي العاص، أن النبي ﷺ، أمره أن يجعل مَسْجِدَ الطائِفِ حيث كانت طائِفَتُهُمْ.

وفي «المغازي» لمعتير بن سليمان قال: سمعتُ عبد الله بن عبد الرحمن الطائفي يُحَدِّثُ عن عثمان ابن عبد الله، عن عمه عمرو بن أوس، عن عثمان بن أبي العاص، قال: استعملني رسول الله ﷺ وأنا أصغرُ السَّنة الذين وفدوا عليه من ثَقِيف، وذلك أني كنتُ قرأتُ سورة البقرة، فقلت: يا رسول الله! إن القرآن يتلّئُ مِنِّي، فوضع يده على صدري وقال: «يا شَيْطَانُ اخْرُجْ مِنْ صَدْرِ عُثْمَانَ» فما نسيْتُ شيئاً بعده أريد حفظه^(٢).

وفي «صحيح مسلم» عن عثمان بن أبي العاص، قلتُ: يا رسول الله! إن الشَّيْطَانَ قد حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلَاتِي وقراءتي قال: «ذَاكَ شَيْطَانٌ يَقَالُ لَهُ: خَنْزَبٌ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ، فَتَمَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْهُ، وَاتَّقِلْ عَنْ يَسَارِكَ ثَلَاثًا» [مسلم: ٥٧٣٨]، ففعلتُ، فأذهبَ اللهُ عَنِّي.

شداداً: هدمَ اللات والعزى، وتركَ الأموال في الربا إلّا رؤوس أموالكم، وحرم الخمر والزنى، فقالت ثَقِيف: والله لا نقبل هذا أبداً. فقال الوفد: أصلحوا السلاح، وتهيؤوا للقتال، وتعبؤوا له، ورُمُوا جِصْنَكُمْ، فمكثت ثَقِيف بذلك يومين أو ثلاثة يُريدون القتال، ثم ألقى الله عز وجل في قلوبهم الرعب، وقالوا: والله ما لنا به طاقة، وقد داخ له العرب كُلُّها، فارجعُوا إليه، فأعطوه ما سأل، وصالحُوهُ عليه، فلما رأى الوفد أنهم قد رغبوا، واختاروا الأمان على الخوف والحرب، قال الوفد: فإنا قد قاضينا، وأعطيناه ما أحببنا، وشرطنا ما أردنا، ووجدناه اتقى الناس، وأوفاهم، وأرحمهم، وأصدقهم، وقد بورك لنا ولكم في مسيرنا إليه، وفيما قاضينا عليه، فاقبلوا عافية الله، فقالت ثَقِيف: فلمَ كتمتُمونا هذا الحديث، وغممتُمونا أشدَّ الغم؟ قالوا: أردنا أن ينزعَ الله من قلوبكم نخوة الشيطان، فأسلموا مكانهم، ومكثوا أياماً، ثم قدم عليهم رُسُلُ رسول الله ﷺ قد أمر عليهم خالد بن الوليد، وفيهم المغيرة بن شعبة، فلما قَدِمُوا، عَمَدُوا إلى اللات ليهدموها، واستكثت ثَقِيف كُلُّها، الرِّجَالُ والنساء والصبيان، حتى خرج العوائق من الحِجَال لا ترى عامة ثَقِيف أنها مهدومة يظنون أنها ممتعة، فقام المغيرة بن شعبة، فأخذ الكُرْزِينَ^(٣)، وقال لأصحابه: والله لأضحكنكم من ثَقِيف، ف ضرب بالكُرْزِينَ، ثم سقط يركض، فارتجَّ أهلُ الطائف بضجٍّ واحدة، وقالوا: أبعد الله المغيرة، قتلته الرُّبَّة، وفرحوا حين رأوه ساقطاً، وقالوا: من شاء منكم، فليقرب، وليجتهد، على هدمها، فوالله لا تُسْتَطَاع، فوثب المغيرة بن شعبة، فقال: تَبَحُّمَ اللهُ يا معشر ثَقِيف، إنما هي لَكَاعِ جِبَارَةٌ وَمَكْرٌ، فاقبلوا عافية الله واعبدوه، ثم ضرب الباب فكسره، ثم علا سورها، وعلا الرجال معه، فما زالوا يهدمونها حجراً حجراً حتى سوَّوها بالأرض، وجعل صاحب المفتاح يقول: ليغضبن

(١) الكُرْزِينَ: الفأس لها حد.

(٢) الرضاع: اللثام، والمصاع: الجلاذ والمضاربة بالسيف.

(٣) عبد الله بن عبد الرحمن ضعفه غير واحد، وباقي رجاله ثقات.

فصل

(لما قدم الحربي مسلماً)

لا يضمن ما أخذه أو فعله قبل إسلامه)

وفي قصة هذا الوفد من الفقه، أن الرجل من أهل الحرب إذا غدر بقومه، وأخذ أموالهم، ثم قدم مسلماً، لم يتعرض له الإمام، ولا لما أخذه من المال، ولا يضمن ما أتلغه قبل مجيئه من نفس ولا مال، كما لم يتعرض النبي ﷺ لما أخذه المغيرة من أموال الثقفين، ولا ضمن ما أتلغه عليهم، وقال: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال، فلست منه في شيء».

(جواز إنزال المشرك في المسجد)

ومنها: جواز إنزال المشرك في المسجد، ولا سيما إذا كان يرجو إسلامه، وتمكينه من سماع القرآن، ومشاهدة أهل الإسلام، وعبادتهم.

(حسن سياسته الوفد)

ومنها: حسن سياسة الوفد، وتلطفهم حتى تمكنوا من إبلاغ ثقيف ما قدموا به فتصوّروا لهم بصورة المنكر لما يكرهونه، الموافق لهم فيما يهوّونه حتى ركنوا إليهم، واطمأنوا، فلما علموا أنه ليس لهم بُد من الدخول في دعوة الإسلام أذعنوا، فأعلمهم الوفد أنهم بذلك قد جاؤوهم، ولو جاؤوهم به من أول وهلة لما أقرّوا به، ولا أذعنوا، وهذا من أحسن الدعوة، وتمام التبليغ، ولا يتأتى مع الباء الناس وعقلاهم.

ومنها: أن المستحق لإمرة القوم وإمامتهم أفضلهم وأعلمهم بكتاب الله، وأفقههم في دينه.

(هدم مواضع الشرك)

ومنها: هدم مواضع الشرك التي تتخذ بيوتاً للطواغيت، وهدمها أحب إلى الله ورسوله، وأنفع للإسلام والمسلمين من هدم الحانات والمواخير، وهذا حال المشاهد المبنية على القبور التي تُعبد من دون الله، ويُشرك بأربابها مع الله، لا يجلُّ إبقاؤها في الإسلام، ويجب هدمها، ولا يصح وقفها، ولا الوقف عليها، وللإمام أن يقطّعها وأوقافها لجند الإسلام، ويستعين بها على مصالح المسلمين،

وكذلك ما فيها من الآلات، والمتاع، والنذور التي تُساق إليها، يُصافى بها الهدايا التي تُساق إلى البيت الحرام، للإمام أخذها كلها، وصرفها في مصالح المسلمين، كما أخذ النبي ﷺ أموال بيوت هذه الطواغيت، وصرفها في مصالح الإسلام، وكان يفعل عندها ما يفعل عند هذه المشاهد، سواء من النذور لها، والتبرك بها، والتمسح بها، وتقبيلها، واستلامها، هذا كان شرك القوم بها، ولم يكونوا يعتقدون أنها خلقت السماوات والأرض، بل كان شركهم بها كشرك أهل الشرك من أرباب المشاهد بعينه.

(استحباب اتخاذ المساجد مكان بيوت الطواغيت)

ومنها: استحباب اتخاذ المساجد مكان بيوت الطواغيت، فيُبعد الله وحده، لا يشرك به شيئاً في الأمكنة التي كان يُشرك به فيها، وهكذا الواجب في مثل هذه المشاهد أن تُهدم، وتُجعل مساجد إن احتاج إليها المسلمون، وإلا أقطعها الإمام هي وأوقافها للمقاتلة وغيرهم.

(التعوذ من الشيطان)

ومنها: أن العبد إذا تعوّد بالله من الشيطان الرجيم، وتقلّ عن يساره، لم يضره ذلك، ولا يقطع صلاته، بل هذا من تمامها وكمالها، والله أعلم.

فصل

(الوفود)

قال ابن إسحاق: ولما افتتح رسول الله ﷺ مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، صرّحت إليه وفود العرب من كل وجه، فدخلوا في دين الله أفواجاً يضرّبون إليه من كل وجه.

فصل

وقد تقدّم ذكر وفد بني تميم ووفد طيء.

(وفد بني عامر)

ذكر وفد بني عامر، ودعاء النبي ﷺ على عامر بن الطفيل، وكفاية الله شره وشر أزيد بن قيس بعد أن عصم منهما نبيه.

روينا في كتاب «الدلائل» للبيهقي، عن يزيد بن

عبد الله أبي العلاء، قال: وفد أبي في وفد بني عامر إلى النبي ﷺ، فقالوا: أنت سيدنا، ودُّو الطُّول علينا، فقال: «مَهْ مَهْ، قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجِرِّيَكُمُ الشَّيْطَانُ، السَّيِّدُ اللَّهُ» [صحيح: أحمد: (١٦٣١)].

روينا عن ابن إسحاق، قال: لما قَدِمَ على رسول الله ﷺ وفد بني عامر فيهم عامر بن الطفيل، وأزبد بن قيس بن جزء بن خالد بن جعفر، وجبار بن سلمى بن مالك بن جعفر، وكان هؤلاء النصر رؤساء القوم وشياطينهم، فقدم عدو الله عامر بن الطفيل على رسول الله ﷺ وهو يريد الغدَر به، فقال له قومه: يا عامر! إن الناس قد أسلموا، فقال: والله لقد كنتُ كَيْتٌ أَلَا أَنْتَهِيَ حَتَّى تَتَّبِعَ الْعَرَبَ عَقِي، وَأَنَا أَتْبَعُ عَقِي هَذَا الْفَتَى مِنْ قَرِيضٍ! ثُمَّ قَالَ لِأَزْبَدٍ: إِذَا قَدِمْنَا عَلَى الرَّجُلِ، فَإِنِّي شَاغِلٌ عَنْكَ وَجْهِي، فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ، فَاعْلُهُ بِالسَّيْفِ. فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ عَامِرٌ: يَا مُحَمَّدُ! خَالَتِي^(١). قَالَ: «لَا وَاللَّهِ حَتَّى تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَحْدَهُ». قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! خَالَتِي. قَالَ: «حَتَّى تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»، فَلَمَّا أَمَى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ لَهُ: أَمَا وَاللَّهِ لَا مَلَأْنَاهَا عَلَيْكَ خِيلاً وَرِجَالاً. فَلَمَّا وَلَّى، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ اكْفِنِي عَامِرَ بْنَ الطُّفَيْلِ»، فَلَمَّا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ عَامِرٌ لِأَزْبَدٍ: وَيْحَكَ يَا أَرِيدُ، أَيْنَ مَا كُنْتُ أَمْرُتُكَ بِهِ؟ وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَخَوْفٌ عِنْدِي عَلَى نَفْسِي مِنْكَ، وَإِيْمُ اللَّهِ لَا أَخَافُكَ بَعْدَ الْيَوْمِ أَبَدًا. قَالَ: لَا أَبَالُكَ، لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ، فَوَاللَّهِ مَا هَمَمْتُ بِالَّذِي أَمَرْتَنِي بِهِ، إِلَّا دَخَلْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ الرَّجُلِ، أَفَاضْرِبُكَ بِالسَّيْفِ؟

ثم خرجوا راجعين إلى بلادهم، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، بعث الله على عامر بن الطفيل الطاعون في عنقه، فقتله الله في بيت امرأة من بني سلول، ثم خرج أصحابه حين رأوه حتى قَدِمُوا أرض بني عامر، أَنَاهُمْ قَوْمُهُمْ فَقَالُوا: مَا وَرَاءَكَ يَا أَرِيدُ؟ فَقَالَ: لَقَدْ دَعَانِي إِلَى عِبَادَةِ شَيْءٍ لَوَدِدْتُ أَنَّهُ عِنْدِي

فَارِمِيهِ بِنَبْلِي هَذِهِ حَتَّى أَقْتُلَهُ، فَخَرَجَ بَعْدَ مَقَالَتِهِ يَوْمَ أَوْ يَوْمَيْنِ مَعَهُ جَمَلٌ يَتَّبِعُهُ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى جَمَلِهِ صَاعِقَةً فَاحْرَقَتْهُمَا، وَكَانَ أَرِيدُ أَخَا لَبِيدَ بْنِ رَبِيعَةَ لَأَمَهُ، فَبَكَى وَرَثَاهُ لَابِنِ هِشَامٍ (٧٥٤)].

وفي «صحيح البخاري» أن عامرَ بْنَ الطُّفَيْلِ أتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: أَخِيرَكَ بَيْنَ ثَلَاثِ خِصَالٍ: يَكُونُ لَكَ أَهْلُ السَّهْلِ، وَلِي أَهْلُ الْمَدَرِ، أَوْ أَكُونُ خَلِيفَتَكَ مِنْ بَعْدِكَ، أَوْ أَغْزُوكَ بِطَقَّانٍ بِأَلْفِ أَشْقَرٍ، وَأَلْفِ شَقْرَاءَ، فَطَمَعَنَ فِي بَيْتِ امْرَأَةٍ فَقَالَ: أَغْدُو كَعْدُوَ الْبَكْرِ فِي بَيْتِ امْرَأَةٍ مِنْ بَنِي فَلَانِ اثْنَوْنِي بِفَرَسِي، فَرَكِبَ، فَمَاتَ عَلَى ظَهْرِ فَرَسِهِ [البخاري: (٤٠٩١)].

فصل

في قدوم وفد عبد القيس

في «الصحيحين» من حديث ابن عباس: أن وفد عبد القيس قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «يَمُنُّ الْقَوْمُ؟» فَقَالُوا: مِنْ رَبِيعَةَ. فَقَالَ: «مَرْحَبًا بِالْوَفْدِ غَيْرِ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنْ بَيْنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ كَفَارٍ مُضَرٍّ، وَإِنَّا لَا نَصِلُ إِلَيْكَ إِلَّا فِي شَهْرِ حَرَامٍ، فَمَرْنَا بِأَمْرِ فَضْلٍ نَأْخُذُ بِهِ وَنَأْمُرُ بِهِ مِنْ وَرَاءِنَا، وَنَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ، فَقَالَ: «أَمْرُكُمْ بِأَرْبَعٍ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: أَمْرُكُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ، أَنْتَذِرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ؟ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيْتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا الْخُمْسَ مِنَ الْمَغْنَمِ. وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ الذُّبَابِ، وَالْحَتَمِ، وَالنَّقِيرِ، وَالْمَرْقَتِ، فَاحْفَظُوهُنَّ وَادْعُوا إِلَيْهِنَّ مِنْ وَرَاءِكُمْ» [البخاري: ٥٣، ومسلم: ٢٢٦٠]. زَادَ مُسْلِمٌ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا عَلِمْتُكَ بِالنَّقِيرِ؟ قَالَ: بَلَى جَذَعُ تَنْقُرُونَهُ، ثُمَّ تُلْقَوْنَ فِيهِ مِنَ الثَّنَرِ، ثُمَّ تَصُبُّونَ عَلَيْهِ الْمَاءَ حَتَّى يَغْلِي، فَإِذَا سَكَنَ، شَرِبْتُمُوهُ، فَعَسَى أَحَدُكُمْ أَنْ يَضْرِبَ ابْنَ عَمِّهِ بِالسَّيْفِ، وَفِي الْقَوْمِ رَجُلٌ بِهِ ضَرْبَةٌ كَذَلِكَ. قَالَ: وَكَنتُ أَخْبَرُهَا حَيًّا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالُوا: فَفِيمَ نَشَرَبُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «اشْرَبُوا فِي أَسْقِيَةِ الْأَدَمِ الَّتِي يَلَاثُ عَلَى أَقْوَاهَا». قَالُوا: يَا

(١) خالتي بالتخفيف: تفرد لي خالياً حتى أتحدث معك، ويتشديد اللام: اتخذني خليلاً وصاحباً من المخالفة وهي الصداقة.

وفيها: وجوب أداء الخمس من الغنيمة، وأنه من الإيمان.

(النهي عن الانتباه في)

الوعية المذكورة وبيان الاختلاف في ذلك)

وفيها: النهي عن الانتباه في هذه الأوعية، وهل تحريمه باقي أو منسوخ؟ على قولين، وهما روايتان عن أحمد. والأكثرون على نسخه بحديث بريدة الذي رواه مسلم وقال فيه: «وَكُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنِ الْأَوْعِيَةِ فَانْتَبِذُوا فِيمَا بَدَا لَكُمْ، وَلَا تَشْرَبُوا مُسْكِرًا». ومن قال: بإحكام أحاديث النهي، وأنها غير منسوخة، قال: هي أحاديث تكاد تبلغ التواتر في تعددها وكثرة طرقها، وحديث الإباحة فرد، فلا يبلغ مقاومتها، وسر المسألة أن النهي عن الأوعية المذكورة من باب سد الذرائع، إذ الشراب يُسرّع إليه الإسكار فيها. وقيل: بل النهي عنها لصلابتها، وأن الشراب يُسكر فيها، ولا يُعلم به بخلاف الظروف غير المزفة، فإن الشراب متى غلا فيها وأسكر، انشقت، فيُعلم، بأنه مسكر، فعلى هذه العلة يكون الانتباه في الحجارة، والصُّفْر أولى بالتحريم، وعلى الأول لا يحرم، إذ لا يُسرّع الإسكار إليه فيها، كإسراعه في الأربعة المذكورة، وعلى كلا العلتين، فهو من باب سد الذريعة، كالنهي أولاً عن زيارة القبور سداً للذريعة الشريك، فلما استقر التوحيد في نفوسهم، وقوي عندهم، أُذن في زيارتها، غير أن لا يقولوا هُجراً. وهكذا قد يقال في الانتباه في هذه الأوعية إنه فطمهم عن المسكر وأوعيته، وسد الذريعة إليه إذ كانوا حديثي عهد بشربه، فلما استقر تحريمه عندهم، واطمأننت إليه نفوسهم، أباح لهم الأوعية كلها غير أن لا يشربوا مسكراً، فهذا فقه المسألة ومبرها.

(مدح الحلم والأناة)

وفيها: مدح صفتي الحلم والأناة، وأن الله يحبهما، ويضدهما الطيش والعجلة، وهما خُلُقَان مدمومان مفسدان للأخلاق والأعمال.

(قد يحصل الخلق بالتخلق)

وفيه دليل على أن الله يُحب من عبده ما جيله عليه من خصال الخير، كالذكاء، والشجاعة، والحلم.

رسول الله! إن أرضنا كثيرة الجرذان لا تبقى فيها أسقية الأدم، قال: «وإن أكلها الجرذان» مرتين أو ثلاثاً، ثم قال رسول الله ﷺ لأشج عبد القيس: «إن فيك خصلتين يُحبهما الله: الحلم والأناة».

قال ابن إسحاق: قَدِمَ على رسول الله ﷺ الجارود بن بشر بن المعلّى وكان نصرانياً، فجاء رسول الله ﷺ في وفد عبد القيس، فقال: يا رسول الله، إني على دين، وإني تارك ديني لدينك، فتضمن لي بما فيه؟ قال: «نعم أنا ضامنٌ لذلك، إن الذي أذعوك إليه خيرٌ من الذي كنتَ عليه»، فأسلم وأسلم أصحابه، ثم قال: يا رسول الله! احملنا. فقال: «والله ما عندي ما أخيلكمُ عليه» فقال: يا رسول الله! إن بيننا وبين بلادنا ضوالٌّ من ضوال الناس، أفتبلى عليها؟ قال: «لا، تلك حرق النار» [صحيح: أحمد: ٢٠٧٥٤، والترمذي: ١٨٨٢].

فصل

(الإيمان بالله يتضمن خصلاً أخرى من قول وفعل)

ففي هذه القصة: أن الإيمان بالله هو مجموع هذه الخصال من القول والعمل، كما على ذلك أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون، وتابعوهم كلهم، ذكره الشافعي في «المبسوط»، وعلى ذلك ما يُقارب مئة دليل من الكتاب والسنة.

(عدم عد الحج في هذه)

الخصال دليل على عدم فرضيته في ذلك الوقت)

وفيها: أنه لم يعدّ الحجّ في هذه الخصال، وكان قدومهم في سنة تسع، وهذا أحد ما يُحتج به على أن الحج لم يكن فرضاً بعد، وأنه إنما فرض في العاشرة، ولو كان فرضاً لعدّه من الإيمان، كما عدّ الصوم والصلاة والزكاة.

(لا يكره قول: رمضان للشهر)

وفيها: أنه لا يكره أن يُقال: رمضان للشهر خلافاً لمن كره ذلك، وقال: لا يُقال: إلّا شهر رمضان.

وفي «الصحيحين»: مَنْ صَامَ رمضانَ إيماناً واحتساباً، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ [البخاري: ٣٨، ومسلم: ١٧٨١].

في قدوم وفد بني حنيفة

قال ابن إسحاق: قَدِمَ على رسول الله ﷺ وفد بني حنيفة، فيهم مسيلمة الكذاب، وكان منزلهم في دار امرأة من الأنصار من بني النجار، فأتوا بمسيلمة إلى رسول الله ﷺ يُسْتَرُّ بالثياب، ورسول الله ﷺ جالس مع أصحابه، في يده عَصِيْبٌ من سَعَفِ النخل، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ وهم يسترونه بالثياب، كلمه وسأله، فقال له رسول الله ﷺ: «لَوْ سَأَلْتَنِي هَذَا الْعَصِيْبَ الَّذِي فِي يَدِي مَا أَعْطَيْتُكَ».

قال ابن إسحاق: فقال لي شيخ من أهل اليمامة من بني حنيفة: إن حديثه كان على غير هذا، زعم أن وفد بني حنيفة أتوا رسول الله ﷺ، وخَلَفُوا مسيلمة في رحالهم، فلما أسلموا، ذكروا له مكانه، فقالوا: يا رسول الله! إنا قد خلفنا صاحباً لنا في رحالنا وركابنا يحفظها لنا، فأمر له رسول الله ﷺ بما أمر به للقوم، وقال: أما إنه ليس بِشِرْكُم مَكَاناً، يعني حِفْظَهُ ضَيْعَةَ أَصْحَابِهِ، وذلك الذي يريد رسول الله ﷺ.

ثم انصرفوا وجاؤوه بالذي أعطاه، فلما قدموا اليمامة، ارتدَّ عدُوُّ اللّهِ وتبَّأ، وقال: إني أَشْرَكْتُ في الأمر معه، ألم يَقُلْ لَكُمْ حين ذُكِرْتُمُونِي له: أما إنه ليس بِشِرْكُم مَكَاناً، وما ذاك إِلَّا لما كان يعلم أنني قد أَشْرَكْتُ في الأمر معه، ثم جعل يسجع السجعات، فيقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن: لقد أنعم الله على الحُبلى، أخرج منها نسمة تسعى، ومن بين صِفَاقٍ وَحْشاً. ووضع عنهم الصلاة، وأحل لهم الخمر والزنى، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله ﷺ أنه نبي، فأصفت معه بنو حنيفة على ذلك^(١) [ابن سعد (١/٣١٦)].

قال ابن إسحاق: وقد كان كتب لرسول الله ﷺ: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، أما بعد: فلاني أَشْرَكْتُ في الأمر معك، وإن لنا نِصْفَ الأمر، ولقرشي نصف الأمر، وليس قرشي قوماً

وفيه دليل على أن الخُلُقَ قد يحصل بالتخلُّق والتكلف، لقوله في هذا الحديث: «خُلُقَيْنِ تَخَلَّفَتْ بِهِمَا، أَوْ جَبَلْنِي اللّهُ عَلَيْهِمَا؟»، فقال: «بَلْ جَلِئَتْ عَلَيْهِمَا» [صحيح: أحمد: ١٧٨٢٨، والبخاري في الأدب المفرد: ٥٨٤].

(إثبات الجبل لله والفرق بينه وبين الجبر)

وفيه دليل على أنه سبحانه خالقُ أفعالِ العباد وأخلاقهم، كما هو خالقُ ذَوَاتِهِمْ وصفاتهم، فالعبدُ كُلُّه مخلوق ذاته وصفاته وأفعاله، ومن أخرج أفعاله عن خلق الله، فقد جعل فيه خالقاً مع الله، ولهذا شبه السَّلَفُ القَدَرِيَّةَ النِّفَاةَ بالمجوس، وقالوا: هم مجوسُ هذه الأمة، صح ذلك عن ابن عباس.

وفيه إثباتُ الجَبَلِ لا الجَبْرِ لِلّهِ تعالى، وأنه يَجْبِلُ عبده على ما يريد، كما جبل الأشجَّ على الجلم والأناة، وهما فِعْلَان ناشتان عن خُلُقَيْنِ في النفس، فهو سبحانه الذي جبل العبدَ على أخلاقه وأفعاله، ولهذا قال الأوزاعي، وغيره من أئمة السلف: نقول: إن الله جبلَ العبادَ على أعمالهم، ولا نقول: جَبَرَهُمْ عليها. وهذا من كمال علم الأئمة، ودقيق نظرهم، فإن الجبر أن يُخَمَلَ العبد على خلاف مراده، كجبر البكر الصغيرة على النكاح، وجبر الحاكم من عليه الحق على أذاته، والله سبحانه أقدر من أن يجبر عبده بهذا المعنى، ولكنه يجبله على أن يفعل ما يشاء الرب بإرادة عبده واختياره ومشيتته، فهذا لون، والجبر لون.

(لا يجوز للرجل أن ينتفع بالضالة التي لا يجوز التقاطها)

وفيها: أن الرجلَ لا يجوزُ له أن ينتفع بالضالة التي لا يجوز التقاطها، كالإبل، فإن النبي ﷺ لم يَجُوزْ للجارود ركوب الإبل الضالة، وقال: «ضَالَّةُ المُسْلِمِ حَرَقُ النَّارِ»، وذلك لأنه إنما أمر بتركها، وأن لا يلتقطها حفظاً على ربِّها حتى يَجِدَهَا إذا طلبها، فلو جُوزَ له ركوبها والانتفاع بها، لأفضى إلى أن لا يقدر عليها ربُّها، وأيضاً تطمع فيها النفوس، وتتملكها، فمنع الشارع من ذلك.

(١) والصفاق: ما رُقَّ من البطن، وقوله: فأصفت أي: اجتمعت.

يَعْدِلُونَ قَدِيمَ عَلَيْهِ رَسُولُهُ بِهَذَا الْكِتَابِ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ، إِلَى مُسَيِّلِمَةَ الْكَذَابِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى. أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» وَكَانَ ذَلِكَ فِي آخِرِ سَنَةِ عَشْرٍ.

قال ابن إسحاق: فحدثني سعد بن طارق، عن سلمة بن نعيم بن مسعود، عن أبيه، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ حين جاءه رَسُولُا مُسَيِّلِمَةَ الْكَذَابِ بكتابه يقولُ لهما: «وَأَتَيْنَا نَقُولُ لَنْ يَبْعَثَ مَا يَقُولُ؟» قالَا: نعم. فقال: «أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ لَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ، لَضَرَبْتُ أَغْنَاكُمَا» [صحيح: احمد: ١٥٩٨٩، وابو داود: ٢٧٦١].

ورويَا في «مسند أبي داود الطيالسي» عن أبي وائل، عن عبد الله، قال: جاء ابنُ التَّوَّاحَةِ وابنُ أَثَالِ رَسُولِينَ لِمُسَيِّلِمَةَ الْكَذَابِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فقال لهما رسولُ اللَّهِ ﷺ: «تَشْهَدَانِ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟» فقالَا: نَشْهَدُ أَنَّ مُسَيِّلِمَةَ رَسُولَ اللَّهِ. فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَنْتُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَوْ كُنْتُ قَاتِلًا رَسُولًا لَقَتَلْتُكُمَا». قال عبد الله: فَمَضَتْ السَّنَةُ بِأَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ [الطيالسي (٢٣٨/١)، وابو داود: ٢٧٧٢].

وفي «صحيح البخاري» عن أبي رجاء العطاردي، قال: لما بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ، فَسَمِعْنَا بِهِ، لَحِقْنَا بِمُسَيِّلِمَةَ الْكَذَابِ، فَلَحِقْنَا بِالنَّارِ، وَكُنَّا نَعْبُدُ الْحَجَرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِذَا وَجَدْنَا حَجَرًا هُوَ أَحْسَنُ مِنْهُ، أَقْبَيْنَا ذَلِكَ وَأَخَذْنَاهُ، فَإِذَا لَمْ نَجِدْ حَجَرًا، جَمَعْنَا جُثُوءَ مِنْ تَرَابٍ، ثُمَّ جِئْنَا بِالشَّاةِ فَحَلَبْنَاهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ طَفْنَا بِهِ، وَكُنَّا إِذَا دَخَلَ رَجَبٌ، قَلْنَا: جَاءَ مُنْصِلُ الْأَسَنَةِ، فَلَا نَدْعُ رُحْمًا فِيهِ حَدِيدَةً، وَلَا سَهْمًا فِيهِ حَدِيدَةٌ إِلَّا نَزَعْنَاهَا وَأَقْبَيْنَاهَا [البخاري: ٤٣٧٦].

قلت: وفي «الصحيحين» من حديث نافع بن جبير، عن ابن عباس، قال: قَدِيمَ مُسَيِّلِمَةَ الْكَذَابِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: إِنْ جَعَلَ لِي مُحَمَّدٌ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ، تَبِعْتُهُ، وَقِيمَهَا فِي بَشَرٍ كَثِيرٍ مِنْ قَوْمِهِ، فَأَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ وَمَعَهُ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، وَفِي يَدِ النَّبِيِّ ﷺ قِطْعَةُ جَرِيدٍ

حَتَّى وَقَفَ عَلَى مُسَيِّلِمَةَ فِي أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: «إِنْ سَأَلْتَنِي هَذِهِ الْقِطْعَةَ مَا أُعْطَيْتُكَهَا، وَلَنْ تَعْدُوَ أَمْرَ اللَّهِ فِيكَ، وَلَنْ أَذْبَرْتَ، لِيَعْرِزَنَّكَ اللَّهُ، وَإِنِّي أَرَاكَ الَّذِي أُرَيْتُ فِيهِ مَا أُرَيْتُ، وَهَذَا ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ يُجْبِيكَ عَنِّي» ثُمَّ انصرفت. قال ابنُ عَبَّاسٍ: فَسَأَلْتُ عَنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّكَ الَّذِي أُرَيْتُ فِيهِ مَا أُرَيْتُ» فَأَخْبَرَنِي أَبُو هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَبْنَأُ أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ فِي يَدَيَّ سِوَارَيْنِ مِنْ دَقَبٍ، فَأَهَمَّنِي شَأْنُهُمَا، فَأَوْحَى إِلَيَّ فِي الْمَنَامِ أَنْ انْفُخْهُمَا فَفَنَفَخْتُهُمَا فَطَارَا، فَأَوَّلْتُهُمَا كَذَابَيْنِ يَخْرُجَانِ مِنْ بَغْدِي، فَهَذَانِ هُمَا، أَحَدُهُمَا الْعَنَسِيُّ صَاحِبُ صَنْعَاءَ، وَالْآخَرُ مُسَيِّلِمَةُ الْكَذَابِ صَاحِبُ الْيَمَامَةِ [البخاري: ٤٣٧٣، ومسلم: ٥٩٣٥]. وَهَذَا أَصَحُّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ إِسْحَاقَ الْمَقْدَمِ.

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يَبْنَأُ أَنَا نَائِمٌ إِذَا أَتَيْتُ بِخَرَّائِنِ الْأَرْضِ، فَوَضِعَ فِي يَدَيَّ سِوَارَيْنِ مِنْ دَقَبٍ فَكَبَّرَا عَلَيَّ وَأَهَمَّانِي، فَأَوْحَى إِلَيَّ أَنْ انْفُخْهُمَا، فَفَنَفَخْتُهُمَا فَذَهَبَا، فَأَوَّلْتُهُمَا الْكَذَابَيْنِ اللَّذَيْنِ أَنَا يَبْنَئُهُمَا، صَاحِبُ صَنْعَاءَ وَصَاحِبُ الْيَمَامَةِ» [البخاري: ٤٣١٥، ومسلم: ٥٩٣٥].

فصل

في فقه هذه القصة

فيها: جَوَازُ مَكَاتِبَةِ الْإِمَامِ لِأَهْلِ الرَّدَةِ إِذَا كَانَ لَهُمْ شُكُّوهُ، وَيَكُتَبُ لَهُمْ وَالْإِخْوَانُهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ: سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى.

ومنها: أَنَّ الرُّسُلَ لَا يُقْتَلُ وَلَوْ كَانَ مُرْتَدًّا، هَذِهِ السَّنَةُ.

ومنها: إِنْ لِلْإِمَامِ أَنْ يَأْتِيَ بِنَفْسِهِ إِلَى مَنْ قَدِمَ يُرِيدُ لِقَاءَهُ مِنَ الْكُفَّارِ.

ومنها: إِنْ الْإِمَامُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَسْتَعِينَ بِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ يُجِيبُ عَنْهُ أَهْلَ الْإِعْتِرَاضِ وَالْإِنَادِ.

ومنها: تَوْكِيلُ الْعَالَمِ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ أَنْ يَتَكَلَّمَ عَنْهُ، وَيُجِيبُ عَنْهُ.

(تاويل رؤيا للنبي ﷺ بأن الصديق يحبط امر مسيلمه)

ومنها: إِنْ هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ أَكْبَرِ فَضَائِلِ الصَّدِيقِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَفَخَ السُّوَارَيْنِ بِرُوحِهِ فَطَارَا، وَكَانَ

الصديق هو ذلك الروح الذي نفخ مسيلمة وأطاره.

قال الشاعر:

فَقُلْتُ لَهُ أَزْفَعَهَا إِلَيْكَ فَأَخْبَهَا

بِرُوحِكَ وَاقْتَنَهُ لَهَا قَيْتَةً قَدْرًا^(١)

(تاويل رؤيا لباس الحلي)

للرجل وذكر قصص عبرها الشهاب العابر شيخ المصنف ومن ههنا دلّ لباس الحلي للرجل على تكذيب يلحقه وهم يناله، وأنبأني أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن عبد المنعم بن نعمة بن سرور المقدسي المعروف بالشهاب العابر^(٢). قال: قال لي رجل: رأيت في رجلي خلخالاً، فقلت له: تتخلخل رجلك بآلم، وكان كذلك.

وقال لي آخر: رأيت كأن في أنفي حلقة ذهب، وفيها حب مليح أحمر، فقلت له: يقع بك رعاف شديد، فجرى كذلك.

وقال آخر: رأيت كلاباً معلقاً في شفتي، قلت: يقع بك ألم يحتاج إلى الفصد في شفتك، فجرى كذلك.

وقال لي آخر: رأيت في يدي سواراً والناس يُبصرونه، فقلت له: سوء يُبصره الناس في يدك، فعن قليل طلع في يده طلوع. ورأى ذلك آخر لم يكن يُبصره الناس، فقلت له: تتزوج امرأة حسنة، وتكون رقيقة. قلت: عبر له السوار بالمرأة لما أخفاه، ومستره عن الناس، ووصفها بالحسن لحسن منظر الذهب وبهجته، وبالرقة لشكل السوار.

والحلية للرجل تنصرف على وجهه، فربما دلّت على تزويج المُزَاب لكونها من آلات التزويج، وربما دلّت على الإماء والسراي، وعلى الغناء، وعلى البنات، وعلى الخدم، وعلى الجهاز، وذلك بحسب حال الرائي وما يليق به.

قال أبو العباس العابر: وقال لي رجل: رأيت كأن في يدي سواراً متفوحاً لا يراه الناس، فقلت

له: عندك امرأة بها مرض الاستسقاء، فتأمل كيف عبر له السوار بالمرأة، ثم حكم عليها بالمرض لضفرة السوار، وأنه مرض الاستسقاء الذي يتنفخ معه البطن.

(تعريف بالشهاب العابر)

قال: وقال لي آخر: رأيت في يدي خلخالاً وقد أمسكه آخر، وأنا ممسك له، وأصيح عليه وأقول: اترك خلخالتي، فتركه، فقلت له: فكان الخلخال في يدك أمليس؟ فقال: بل كان خشناً تألمت منه مرة بعد مرة، وفيه شراريف، فقلته له: أمك وخالك شريفان، ولست بشريف، واسمك عبد القاهر، وخالك لسانه نجس رديء يتكلم في عرضك، ويأخذ مما في يدك، قال: نعم، قلت: ثم إنه يقع في يد ظالم متعد، ويحتمي بك، فتشدد منه، وتقول: خلّ خالي، فجرى ذلك عن قليل. قلت: تأمل أخذ الخال من لفظ «الخلخال»، ثم عاد إلى اللفظ بتمامه حتى أخذ منه، خلّ خالي، وأخذ شرفه من شراريف الخلخال، ودلّ على شرف أمه، إذ هي شقيقة خاله، وحكم عليه بأنه ليس بشريف، إذ شرفات الخال الدالة على الشرف اشتقاقاً هي في أمر خارج عن ذاته، واستدل على أن لسان خاله لسان رديء يتكلم في عرضه بالألم الذي حصل له بخشونة الخلخال مرة بعد مرة، فهي خشونة لسان خاله في حقه، واستدل على أخذ خاله ما في يديه بتأذيه به، وبأخذه من يديه في النوم بخشونته، واستدل بإمسك الأجنبية للخلخال، ومجاذبة الرائي على وقوع الخال في يد ظالم متعد يطلب منه ما ليس له، واستدل بصياحه على المجاذب له، وقوله: خلّ خالي على أنه يعين خاله على ظالمه، ويشد منه، واستدل على قهره لذلك المجاذب له، وأنه القاهر، يده عليه على أنه اسمه عبد القاهر، وهذه كانت حال شيخنا هذا، وروسوخه في علم التعبير، وسمعت عليه عدة أجزاء، ولم يتفق لي قراءة هذا العلم عليه لصغر السن واخترام المنية له رحمه الله تعالى.

(١) البيت لذي الرمة في «ديوانه» (٣/١٤٢٩، ١٤٣٠).

(٢) ولد في ١٣ شعبان بنابلس سنة (٦٢٨هـ)، في ١٩ ذي القعدة سنة (٦٩٧هـ) في دمشق، وهو مترجم في «شذرات الذهب» (٤٣٧/٥)، و«البداية» (١٣/٣٥٣).

فصل

في قدوم وفد طيء على النبي ﷺ

ستين راكباً من كِنْدَةَ، فدخلوا عليه ﷺ مسجده قد رَجَلُوا جُمُعَتَهُمْ، وتسلَّحُوا، ولبسوا جِبَابَ الْجَبَرَاتِ مَكْفُفَةً بالحريز، فلما دخلوا، قال رسول الله ﷺ: «أَوَلَمْ تُسَلِّمُوا؟» قالوا: بلى. قال: «فَمَا بَالُ هَذَا الْحَرِيرِ فِي أَغْنَاكُمْ؟». فشَقُّوهُ، ونزَعُوهُ، والقَوْه، ثم قال الأشعث: يا رسول الله! نحنُ بنو أَكَلِ المَرَارِ، وأنت ابنُ أَكَلِ المَرَارِ، فضحك رسولُ الله ﷺ، ثم قال: «نَاسِبُوا بِهَذَا النَّسَبِ رِبِيعَةَ بنِ الحَارِثِ، والعَبَّاسِ بنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ».

قال الزهري وابن إسحاق: كانا تاجرِين، وكانا إذا سارا في أرض العرب، فسئلا من أنتما؟ قالَا: نحنُ بنو أَكَلِ المَرَارِ، يتعزَّزون بذلك في العرب، ويدفعون به عن أنفسهم، لأن بني أَكَلِ المَرَارِ من كِنْدَةَ كانوا ملوكاً، قال رسول الله ﷺ: «نَحْنُ بَنُو النَّضْرِ بنِ كِنَانَةَ لَا نَقْفُو أُمَّنَا، وَلَا نَنْتَهِي مِنْ أَيْبِنَا».

وفي «المسند» من حديث حماد بن سلمة، عن عقيل بن طلحة، عن مسلم بن هيصم، عن الأشعث ابن قيس، قال: قلنا على رسول الله ﷺ وَقَدْ كِنْدَةَ، وَلَا يَرُونَ إِلَّا أَنِّي أَفْضَلُهُمْ، قُلْتُ: يا رسول الله! السُّمُّ منَّا؟ قال: «لَا، نَحْنُ بَنُو النَّضْرِ بنِ كِنَانَةَ، لَا نَقْفُو أُمَّنَا وَلَا نَنْتَهِي مِنْ أَيْبِنَا»، وكان الأشعث يقول: لَا أَوْتِي بِرَجُلٍ نَفَى رَجُلًا مِنْ قُرَيْشٍ مِنَ النَّضْرِ بنِ كِنَانَةَ إِلَّا جَلَدْتُهُ الْحَدَّ [صحيح: أحمد: ٢١٨٣٩].

(ولد النضر من قريش)

وفي هذا من الفقه، أن من كان من ولد النَّضْرِ بنِ كِنَانَةَ، فهو من قريش.

(جواز إتلاف المال المحرم استعماله)

وفيه: جوازُ إتلاف المالِ المحرَّمِ استعماله، ككتاب الحرير على الرجال، وأن ذلك ليس بإضاعة.

قال ابن إسحاق: وقدم على رسول الله ﷺ وفد طيء، وفيهم زيد الخيل، وهو سيدهم، فلما انتهوا إليه، كلمهم، وعرض عليهم الإسلام، فأسلموا وحسن إسلامهم، وقال رسول الله ﷺ: «مَا ذُكِرَ لِي رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ بِفَضْلٍ ثُمَّ جَاءَنِي إِلَّا رَأَيْتُهُ دُونَ مَا يُقَالُ فِيهِ إِلَّا زَيْدُ الْخَيْلِ: فَإِنَّهُ لَمْ يَتَلَخَّ كُلُّ مَا فِيهِ»، ثم سماه: زيد الخير، وقطع له فيداً^(١) وأرضين معه، وكتب له بذلك، فخرج من عند رسول الله ﷺ راجعاً إلى قومه، فقال رسول الله ﷺ: «إِنْ يُنَجِّ زَيْدٌ مِنْ حُمَى الْمَدِينَةِ»^(٢)، فإنه قال: وقد سماها رسول الله ﷺ باسم غير الحمى وغير أمِّ مَلَدَم، فلم يثبت^(٣)، فلما انتهى إلى ماء من مياه نجد يقال له: قَرْذَة، أصابته الحمى بها، فمات، فلما أحس بالموت أنشد:

أُمُرْتُ لِحَلِّ قَوْمِي الْمَشَارِقِ غُدْوَةً
وَأَتْرَكْتُ فِي بَيْتٍ بِقَرْذَةِ مُنْجِدٍ
أَلَا رَبُّ يَوْمٍ لَوْ مَرِضْتُ لَعَادَنِي
عَوَائِدُ مَنْ لَمْ يَبْرَ مِنْهُمْ بِجَهْدٍ^(٤)

[ابن سعد (١/٣٢١)]

قال ابن عبد البر: وقيل: مات في آخر خلافة عمر رضي الله عنه، وله ابنان: مُكَيْفٌ، وحُرَيْثٌ، أسلما، وصحبا رسول الله ﷺ، وشهدا قتال أهل الردة مع خالد بن الوليد.

فصل

في قدوم وفد كندة على رسول الله ﷺ

[ابن سعد (١/٣٢٨)]

قال ابن إسحاق: حدَّثني الزهري، قال: قدم الأشعثُ بنُ قيس على رسول الله ﷺ في ثمانين أو

(١) فید: اسم مکان بشرقی سلمی أحد جبال طيء، وهو الذي ينسب إليه حمى فید.

(٢) حوب «إن» محذوف تقديره فإنه لا يعاب بسوء.

(٣) قال السهيلي: الاسم الذي ذهب عن الراوي من أسماء الحمى هو أم كلبه، ذكر لي أن أبا عبيدة ذكره في «مقاتل الفرسان» ولم أره.

(٤) ومنجد، أي: بنجد، ويبرى، أي: يبره السفر ويجهده.

(من أكل المرار؟)

والمرار: هو شجر من شجر البوادي، وأكل المرار: هو الحارث بن عمرو بن حجر بن عمرو بن معاوية بن كندة، وللنبي ﷺ جدة من كندة مذكورة، وهي أم كلاب بن مرة، ولهاها أراد الأشعث.

وفيه: أن من انتسب إلى غير أبيه، فقد انتفى من أبيه، وقضى أمه، أي: رماها بالفجور.

وفيه: أن كندة ليسوا من ولد النضر بن كنانة.

وفيه: أن من أخرج رجلاً عن نسه المعروف، جُلِدَ حَدَّ الْقَذْفِ.

فصل

في قدوم وفد الأشعرين وأهل اليمن

روى يزيد بن هارون، عن حميد، عن أنس، أن النبي ﷺ قال: «يَقْدَمُ قَوْمٌ هُمْ أَرْقُ مِنْكُمْ قُلُوبًا»، فقدم الأشعريون، فجعلوا يرتجزون:

عَدَا نَلْقَى الْأَجِبَةَ مُحَمَّدًا وَجِزَتِهِ

[صحيح: أحمد: ١٧٠٢٦]

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «جَاءَ أَهْلُ الْيَمَنِ، هُمْ أَرْقُ أَقْبَدَةً وَأَضْعَفُ قُلُوبًا، وَالْإِيمَانُ يَمَانِي، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَّةٌ، وَالسَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ، وَالْفَخْرُ وَالْحِيَلَاءُ فِي الْقُدَّادِينَ مِنْ أَهْلِ الْوَبَرِ قَبْلَ مَطْلَعِ الشَّمْسِ»^(١) [مسلم: ١٨٢].

وروي عن يزيد بن هارون، أنبأنا ابن أبي ذئب، عن الحارث بن عبد الرحمن، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فقال: «أَتَأْتِكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ كَأَنَّهُمْ السَّحَابُ هُمْ خِيَارُ مَنْ فِي الْأَرْضِ»، فقال رجل من الأنصار: إلَّا نحنُ يا رسول الله، فسكت، ثم قال: إلَّا نحنُ يا رسول الله، فسكت، ثم قال: «إِلَّا أَنْتُمْ» كَلِمَةً ضَعِيفَةً [صحيح: أحمد: ١٦٧٧٩].

وفي «صحيح البخاري»: أن نفرًا من بني تميم، جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، فقال: «أُبَشِّرُوكُمْ يَا بَنِي

تَمِيمٍ»، فقالوا: بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا، فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وجاء نفرٌ من أهل اليمن، فقال: «اقْبَلُوا الْبُشْرَى إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ»، قالوا: قد قَبَلْنَا، ثم قالوا: يا رسول الله، جئنا لتسقي في الدين، ونسألك عن أول هذا الأمر، فقال: «كَانَ اللَّهُ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ» [البخاري: ٣١٩١].

فصل

في قدوم وفد الأزدي على رسول الله ﷺ

[ابن سعد (١/٣٣٧)]

قال ابن إسحاق: وقدم على رسول الله ﷺ صُرْدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْأَزْدِي، فأسلم وحسن إسلامه في وفد من الأزدي، فأمره رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن، فخرج صُرْدُ يَسِيرُ بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حتى نزل بِجُرَشَ^(٢)، وهي يومئذ مدينة مغلقة، وبها قبائل من قبائل اليمن، وقد ضوت إليهم^(٣) حَتَمُ، فدخلوها معهم حين سمعوا بمسير المسلمين إليهم، فحاصروهم فيها قريبا من شهر، وامتنعوا فيها، فرجع عنهم قافلاً، حتى إذا كان في جبل لهم يقال له: شُكْرَ، ظن أهل جُرَشَ أنه إنما ولي عنهم منهزماً، فخرجوا في طلبه حتى إذا أدركوه، عطف عليهم، فقاتلهم، فقتلهم قتلاً شديداً، وقد كان أهل جُرَشَ يبعثوا إلى رسول الله ﷺ رجلين منهم يرتادان وينظران، فبينما هما عند رسول الله ﷺ عشيّة بعد العصر، إذ قال رسول الله ﷺ: «بَأَيِّ بِلَادِ اللَّهِ شُكْرُ؟» فقام الجُرَشِيَانِ، فقالا: يا رسول الله! ببلادنا جبل يُقَالُ له: كُشْرُ، وكذلك تُسميه أهل جُرَشَ، فقال: «إِنَّهُ لَيْسَ بِكُشْرٍ، وَلَكِنَّهُ شُكْرُ»، قال: فما شأنه يا رسول الله؟ قال: فقال: «إِنْ بَدَأَ اللَّهُ لِنُشْخَرُ عَنْهُ الْآنَ»، قال: فجلس الرجلان إلى أبي بكر، وإلى عثمان، فقالا لهما: ويحكمنا، إن رسول الله ﷺ لَيَسْعَى لَكُمْ قَوْمَكُمْ، فقوموا إليه، فأسألاه أن يدعو الله

(١) والفديد: الصوت الشديد.

(٢) جُرَشُ: مخلاف من مخاليف اليمن.

(٣) ضوت إليهم: أوت إليهم.

أَنْ يَرْفَعَ عَنْ قَوْمِكُمْ، فَمَا إِلَيْهِ، فَسَأَلَاهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ ارْزُقْ عَنْهُمْ»، فَخَرَجَا مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَاجِعِينَ إِلَى قَوْمِهِمَا، فَوَجَدَا قَوْمَهُمَا أَصِيبُوا فِي الْيَوْمِ الَّذِي قَالَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ، وَفِي السَّاعَةِ الَّتِي ذَكَرَ فِيهَا مَا ذَكَرَ، فَخَرَجَ وَفَدَّ جُرُشَ حَتَّى قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَسْلَمُوا، وَحَمَى لَهُمْ جَمِى حَوْلَ قَرِينَتِهِمْ.

فصل

في قدوم وفد بني الحارث بن كعب
على رسول الله ﷺ

[ابن سعد (١/٣٣٩)]

قال ابن إسحاق: ثم بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر، أو جُمَادَى الأولى سنة عشر إلى بني الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يُقاتلهم ثلاثاً، فإن استجابوا، فأقبل منهم، وإن لم يفعلوا، فقاتلهم، فخرج خالد حتى قَدِمَ عليهم، فبعث الرُّكبان يَضْرِبُونَ فِي كُلِّ وَجْهٍ، ويدْعُونَ إِلَى الْإِسْلَامِ، ويقولون: أَيُّهَا النَّاسُ اسْلَمُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فأسلم الناس، ودخلوا فيما دَعَا إِلَيْهِ، فَأَقَامَ فِيهِمْ خَالِدٌ يُعَلِّمُهُمُ الْإِسْلَامَ، وَكُتِبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ، فَكُتِبَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَقْبَلَ وَيُقْبَلَ مَعَهُ وَفْدَهُمْ، فَأَقْبَلَ وَأَقْبَلَ مَعَهُ وَفْدَهُمْ، فِيهِمْ: قَيْسُ بْنُ الْحَصِينِ ذِي الْقَعَصَةِ، وَيزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَدَانِ، وَيزِيدُ بْنُ الْمُحَجَّلِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ فَرَادٍ، وَشَدَادُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَمْ كُنتُمْ تَغْلِبُونَ مَنْ قَاتَلَكُمُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟» قَالُوا: لَمْ نَكُنْ نَغْلِبُ أَحَدًا. قَالَ: «بَلَى». قَالُوا: كُنَّا نَجْتَمِعُ وَلَا نَتَفَرَّقُ، وَلَا نَبْدَأُ أَحَدًا بِظُلْمٍ. قَالَ: «صَدَقْتُمْ»، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ قَيْسُ بْنُ الْحَصِينِ، فَرَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فِي بَقِيَّةِ مِنْ شَوَالٍ، أَوْ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ، فَلَمْ يَمُكِّنُوا إِلَّا أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ حَتَّى تَوَفَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

فصل

في قدوم وفد همدان عليه ﷺ

وقَدِمَ عَلَيْهِ وَفَدَّ هَمْدَانُ، مِنْهُمْ: مَالِكُ بْنُ النَّمَطِ، وَمَالِكُ بْنُ أَبِيغٍ، وَضِمَامُ بْنُ مَالِكٍ، وَعِمْرُو بْنُ مَالِكٍ، فَلَقُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرِجَمَةَ مِنْ تَبُوكَ، وَعَلَيْهِمْ

مُقَطَّعَاتُ الْجَبَرَاتِ وَالْعِمَائِمُ الْعَدْنِيَّةُ عَلَى الرُّوَاهِلِ الْمَهْرِيَّةِ وَالْأَرْحَبِيَّةِ، وَمَالِكُ بْنُ النَّمَطِ يَرْتَجِزُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَقُولُ:

إِلَيْكَ جَاوَزَنَ سَوَادُ الرَّيْفِ

فِي هَبَوَاتِ الصَّبَافِ وَالْحَرِيفِ
مُخَطَّمَاتٍ بِحَبَالِ اللَّيْفِ

وَذَكَرُوا لَهُ كَلَامًا حَسَنًا فَصِيحًا، فَكُتِبَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كِتَابًا أَقْطَعَهُمْ فِيهِ مَا سَأَلُوهُ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ مَالِكُ بْنُ النَّمَطِ، وَاسْتَعْمَلَهُ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنْ قَوْمِهِ، وَأَمَرَهُ بِقِتَالِ ثَقِيفٍ، وَكَانَ لَا يَخْرُجُ لَهُمْ سِرْحَ إِلَّا أَغَارُوا عَلَيْهِ.

وقد روى البيهقي بإسناد صحيح، من حديث أبي إسحاق، عن البراء، أن النبي ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام، قال البراء: فَكُنْتُ فِيمَنْ خَرَجَ مَعَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، فَأَقَمْنَا سِتَّةَ أَشْهُرٍ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَلَمْ يُجِيبُوهُ، ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَقْبَلَ خَالِدًا إِلَّا رَجُلًا مِمَّنْ كَانَ مَعَ خَالِدٍ أَحَبَّ أَنْ يُعَقَّبَ مَعَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَلِيُعَقَّبَ مَعَهُ، قَالَ الْبَرَاءُ: فَكُنْتُ فِيمَنْ عَقَبَ مَعَ عَلِيٍّ، فَلَمَّا دَنَوْنَا مِنَ الْقَوْمِ، خَرَجُوا إِلَيْنَا، فَصَلَّى بِنَا عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثُمَّ صَفَّنَا صَفًّا وَاحِدًا، ثُمَّ تَقَدَّمَ بَيْنَ أَيْدِينَا، وَقَرَأَ عَلَيْهِمْ كِتَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَسْلَمْتُ هَمْدَانُ جَمِيعًا، فَكُتِبَ عَلَيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِإِسْلَامِهِمْ، فَلَمَّا قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْكِتَابَ، خَرَّ سَاجِدًا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «السَّلَامُ عَلَى هَمْدَانِ، السَّلَامُ عَلَى هَمْدَانِ» [البيهقي (٧/٣٦٩)]. وَأَصْلُ الْحَدِيثِ فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» [٤٣٤٩].

وهذا أصح مما تقدم، ولم تكن همدان أن تقاتل ثقيفاً، ولا تُغِيرَ عَلَى سَرَحِهِمْ، فَإِنَّ هَمْدَانَ بِالْيَمَنِ، وَثَقِيفًا بِالطَّائِفِ.

فصل

في قدوم وفد مُزينة على رسول الله ﷺ

روينا من طريق البيهقي، عن الثُّمَّانِ بْنِ مُقَرَّنٍ، قَالَ: قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَرْبَعِمِئَةِ رَجُلٍ مِنْ مُزِينَةٍ، فَلَمَّا أَرَدْنَا أَنْ نَتَصَرَّفَ، قَالَ: «يَا حُمْرُ! زُودُوا الْقَوْمَ» فَقَالَ: مَا عِنْدِي إِلَّا شَيْءٌ مِنْ تَمْرٍ، مَا أَظُنُّ يَقَعُ

من القوم موقعاً قال: «انطلق فَرَوْدُهُمْ» قال: فانطلق بهم عمر، فأدخلهم منزله، ثم أصدعهم إلى عليّ، فلما دخلنا، إذا فيها من التمر مثلُ الجَمَلِ الأَوْزَقِ، فأخذ القومُ منه حاجَتَهُمْ، قال النعمان: فكننت في آخر من خرج، فنظرتُ فما أفقد موضعَ ثمرة من مكانها [حسن: أحمد: ٢٣٤٧٦].

فصل

في قدوم وفد دوس على رسول الله ﷺ قبل ذلك بخير

[البخاري: ٤٣٩٢]

قال ابن إسحاق: كان الطفيل بن عمرو الدوسي يُحدِّث أنه قَدِمَ مكة، ورسولُ الله ﷺ بها، فمشى إليه رجال من قريش، وكان الطفيلُ رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً، قالوا له: إنك قَيمَتُ بلادنا، وإن هذا الرجل - وهو الذي بين أظهرنا - فَرَّقَ جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يُفَرِّقُ بين المرء وإبنه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وإنما نخشى عليك وعلى قومك ما قد حلَّ علينا، فلا تُكَلِّمهُ، ولا تَسْمَعْ منه، قال: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعتُ أن لا أسمعَ منه شيئاً، ولا أَكَلِمَهُ حتى حشوتُ في أذني حين غدوتُ إلى المسجد كُرْسُفاً فَرَقاً من أن يَتَلَفَّنِي شيءٌ من قوله. قال: فغدوتُ إلى المسجد، فإذا رسولُ الله ﷺ قائمٌ يصلي عند الكعبة، فقمْتُ قريباً منه، فأبى الله إلا أن يُسَمِعَنِي بعضَ قوله، فسمعتُ كلاماً حسناً، فقلتُ في نفسي: وائكل أُمَيَّاه، والله إني لرجل لبيب شاعر، ما يُخْفِي عليَّ الحسنُ من القبيح، فما يَمْنَعُنِي أن أسمعَ من هذا الرجل ما يقول؟ فإن كان ما يقولُ حسناً، قبلتُ، وإن كان قبيحاً، تركتُ، قال: فمكثتُ حتى انصرف رسولُ الله ﷺ إلى بيته، فتبعته حتى إذا دخل بيته دخلتُ عليه، فقلتُ: يا محمداً إن قومك قد قالوا لي: كذا وكذا، فوالله ما يَرْحُوا يُخوفوني أمرُك حتى سددتُ أذني بِكُرْسُفٍ لثلاً أسمعُ قولك، ثم أبى الله إلا أن يُسَمِعَنِي، فسمعتُ قولاً حسناً، فاعرض عليَّ أمرُك، فعرض عليَّ رسولُ الله ﷺ الإسلامَ، وتلا عليَّ القرآن، فلا والله ما سمعتُ قولاً قطُّ أحسنَ منه، ولا أمراً أعدلَ منه، فأسلمتُ، وشهدتُ شهادةَ الحق،

وقلتُ: يا نبي الله، إني امرؤ مُطاع في قومي، وإني راجع إليهم، فداعبهم إلى الإسلام، فادَّعَى الله لي أن يجعل لي آية تكون عوناً لي عليهم فيما أدعوهم إليه، فقال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ لَهُ آيَةً» قال: فخرجتُ إلى قومي حتَّى إذا كنتُ بثنية تطلُّعني على الحاضر، وقع نورٌ بين عيني مثلَ المصباح، قلتُ: اللهم في غير وجهي إني أخشى أن يظنوا أنها مثلة وقعت في وجهي لفرأني دينهم، قال: فتحول، فوقع في رأس سوطي كالقنديل المعلق، وأنا أنهبط إليهم من الثنية حتى جثتُهم، وأصبحتُ فيهم، فلما نزلتُ، أتاني أبي، وكان شيخاً كبيراً، فقلتُ: إليك عني يا أبت، فلستُ مني ولستُ منك، قال: لِمَ يا بني؟ قلتُ: قد أسلمتُ، وتابعتُ دينَ محمد. قال: يا بني فديني دينك. قال: فقلتُ: اذهب فاغتسل، وطهِّر ثيابك، ثم تعالَ حتى أعلمك ما عَلِمْتُ. قال: فذهب فاغتسل، وطهر ثيابه، ثم جاء فعرضتُ عليه الإسلامَ فأسلم، ثم أنتني صاحبتي، فقلتُ لها: إليك عني، فلستُ منك ولستُ مني. قالت: لم بأبي أنت وأمي؟! قلتُ: فرق الإسلامُ بيني وبينك، أسلمتُ وتابعتُ دينَ محمد. قالت: فديني دينك. قال: قلتُ: فاذهي فاغتسلي، ففعلت، ثم جاءت، فعرضتُ عليها الإسلامَ فأسلمت، ثم دعوتُ دوساً إلى الإسلام فابطؤوا علي، فجئتُ رسولَ الله ﷺ، فقلتُ: يا رسول الله! إنه قد غلبني على دوس الزنى، فادَّعَى الله عليهم، فقال: «اللَّهُمَّ اهْدِ دوساً»، ثم قال: «ارجع إلى قومك فادعهم إلى الله، وارفق بهم» فرجعْتُ إليهم، فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الله، ثم قدمتُ على رسول الله ﷺ ورسولُ الله ﷺ بخير، فنزلتُ المدينة بسبعين أو ثمانين بيتاً مِن دوس، ثم لحقنا برسولِ الله ﷺ بخير، فأسهم لنا مع المسلمين.

قال ابن إسحاق: فلما قُبِضَ رسولُ الله ﷺ وارتدت العربُ، خرج الطفيلُ مع المسلمين حتى فرغوا مِن طليحة، ثم سار مع المسلمين إلى اليمامة، ومعه ابنه عمرو بن الطفيل، فقال لأصحابه: إني قد رأيتُ رؤيا فاعبروها لي: رأيتُ أن رأسي قد حُلِقَ، وأنه قد خرج مِن فمي طائر، وأن امرأةً لقيتني، فادخلتني في فرجها، ورأيتُ أن ابني يطلُبني طلباً

فإنه دال على خلاص من هم، أو مرض، أو شدة لمن يليق به ذلك، وعلى فقر ونكد، وزوالِ رياسة وجاه لمن لا يليق به ذلك، ولكن في منام الطفيل قرائن اقتضت أنه وضع رأسه، منها أنه كان في الجهاد، ومقاتلة العدو ذي الشوكة والبأس.

(بيان تاويل الطفيل لرؤياه)

ومنها: أنه دخل في بطن المرأة التي رآها، وهي الأرض التي هي بمنزلة أمه، ورأى أنه قد دخل في الموضع الذي خرج منه، وهذا هو إعادته إلى الأرض، كما قال تعالى: ﴿مِنَّا خَلَقْتُمْ وَمِنَّا يُعِيدُكُمْ وَمِنَّا نُخْرِجُكُمْ﴾ [طه: ٥٥]، فأول المرأة بالأرض إذ كلاهما محل الوطء، وأول الطائر الذي خرج من فيه بروحه، خلِقَ منها، وأول الطائر الذي خرج من فيه بروحه، فإنها كالطائر المحبوس في البدن، فإذا خرجت منه كانت كالطائر الذي فارق جسده، فذهب حيث شاء، ولهذا أخبر النبي ﷺ: «أَنَّ نَسَمَةَ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَخْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ» [صحيح: أحمد: ١٥٧٧٦، والنسائي ٤/ ١٠٨]، ومالك (٢٤٠/١)، وهذا هو الطائر الذي رؤي داخلًا في قبر ابن عباس لما دُفِنَ، وسُمِعَ قاريء يقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ ۖ آتِينَ إِلَىٰ رَبِّكَ رَأِيَةً مُّبِينَةً﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨]. وعلى حسب بياض هذا الطائر وسواده وحسبه وقبحه، تكون الروح، ولهذا كانت أرواح آل فرعون في صورة طيور سود تَرِدُ النارَ بكرة وعشية، وأول طلب ابنه له بجثته في أن يلحق به في الشهادة، وحسبه عنه هو مدة حياته بين وقعة اليمامة واليرموك. والله أعلم.

فصل

في قدوم وفد نجران عليه ﷺ

[ابن سعد (١/٣٥٧)]

قال ابن إسحاق: وفد على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران بالمدينة، فحدثني محمد بن جعفر بن الزبير، قال: لما قَدِمَ وفد نجران على رسول الله ﷺ، دخلوا عليه مسجده بعد صلاة العصر، فعانت صلاتهم، فقاموا يُصَلُّونَ في مسجده، فأراد الناس

حيثاً، ثم رأيته حَسِبَ عني. قالوا: خيراً رأيته. قال: أما والله إني قد أولتها. قالوا: وما أولتها؟ قال: أما حلق رأسي، فوضعه، وأما الطائر الذي خرج من فمي، فروحي، وأما المرأة التي أدخلتني في فرجها، فالأرض تحفر، فأغيب فيها، وأما طلب ابني إياي وجسبه عني، فإني أراه سيجهد لأن يصيبه من الشهادة ما أصابني، فقتل الطفيل شهيداً باليمامة، وجرح ابنه عمرو جرحاً شديداً، ثم قتل عام اليرموك شهيداً في زمن عمر رضي الله عنه.

فصل

في فقه هذه القصة

(غسل الدخول في الإسلام)

فيها: أن عادة المسلمين كانت غسل الإسلام قبل دخولهم فيه، وقد صح أمر النبي ﷺ به^(١)، وأصح الأقوال: وجوبه على من أجنب في حال كفره ومن لم يُجَنَّب.

(لا ينبغي للعاقل أن يغلد الناس في المدح والذم)

وفيها: أنه لا ينبغي للعاقل أن يُغلد الناس في المدح والذم، ولا سيما تقليد من يمدح بهوى ويدم بهوى، فكم حال هذا التقليد بين القلوب وبين الهدى، ولم ينج منه إلا من سبق له من الله الحسن.

ومنها: أن المدد إذا لحق بالجيش قبل انقضاء الحرب، أسهم لهم.

(وقوع كرامات الأولياء)

ومنها: وقوع كرامات الأولياء، وأنها إنما تكون لحاجة في الدين، أو لمنفعة للإسلام والمسلمين، فهذه هي الأحوال الرحمانية، سببها متابعة الرسول، ونتيجتها إظهار الحق، وكسر الباطل، والأحوال الشيطانية ضدها سبباً ونتيجة.

(التاني والصبر في الدعوة إلى الله)

ومنها: التاني والصبر في الدعوة إلى الله، وأن لا يُعجل بالعقوبة والدعاء على العصاة، وأما تعبيره حلق رأسه بوضعه، فهذا لأن حلق الرأس وضع شعره على الأرض، وهو لا يدل بمجرده على وضع رأسه،

(١) أبو داود (٣٥٥)، والنسائي (١/١٠٩)، وأحمد (٢٠٦١١) عن قيس بن عاصم قال: أتيت النبي ﷺ أريد الإسلام،

فأمرني أن أغتسل بماء وسدر.

وجبار بن فيض الحارثي، فيأتوهم بخبر رسول الله ﷺ .

(المباهلة في شان عيسى)

فانطلق الوفد حتى إذا كانوا بالمدينة، وضعوا ثياب السفر عنهم، ولبسوا خللاً لهم يجرؤونها من الجبيرة، وخواتيم الذهب، ثم انطلقوا حتى أتوا رسول الله ﷺ، فسلموا عليه، فلم يرؤ عليهم السلام، وتصدوا لِكلامه نهاراً طويلاً، فلم يكلمهم، وعليهم تلك الحُلل والخواتيم الذهب، فانطلقوا يتبعون عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وكانا معرفة لهم، كانا يُخرجان العير في الجاهلية إلى نجران، فبُشِرتي لهما من بُرْها وثمرها وذرتها، فوجدوهما في ناس من الأنصار والمهاجرين في مجلس، فقالوا: يا عثمان، ويا عبد الرحمن، إن نبيكم كتب إلينا بكتاب، فأقبلنا مجيين له، فأتيناه فسلمنا عليه، فلم يرؤ علينا سلامنا، وتصدّينا لِكلامه نهاراً طويلاً، فأعيانا أن يكلمنا، فما الرأي منكما، أنعود؟ فقالا لعلي بن أبي طالب وهو في القوم: ما ترى يا أبا الحسن في هؤلاء القوم؟ فقال علي لعثمان وعبد الرحمن رضي الله عنهما: أرى أن يضعوا حللهم هذه وخواتيمهم، ولبسوا ثياب سفرهم، ثم يأتوا إليه، ففعل الوفد ذلك، فوضعوا حللهم وخواتيمهم، ثم عادوا إلى رسول الله ﷺ، فسلموا عليه، فردّ سلامهم، ثم سألهم وسألوه، فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا له: ما تقول في عيسى عليه السلام؟ فإنا نرجع إلى قومنا، ونحن نصارى، فيُشرنا إن كنت نبياً أن نعلم ما تقول فيه؟ فقال رسول الله ﷺ: «مَا عِنْدِي فِيهِ شَيْءٌ يُؤْمِي هَذَا، فَأَقِيمُوا حَتَّى أَخْبِرَكُمْ بِمَا يُقَالُ لِي فِي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ»، فأصبح الغد وقد أنزل الله عز وجل: ﴿لَا تَكُنْ مِثْلَ نَبَاتٍ طَوَّاهُ وَرَفَعَ لَّهُ وَلَئِنْ مَسَّتْهُ أُفٌّ لَمْ يُعْوِدْ كَلِمَةً مِنْ دُونِ أُولَئِكَ أَنْ يَقُولَ وَرَبِّهِمْ أَذْهَبَ الْفُلُ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ٥٩﴾ ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَدُوِّ مَا جَاءَكَ مِنْ آلِ الْوَيْلِ فَقُلْ تَقَالُوا نَبْعُ آبَائِكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَنِسَاءُكُمْ وَأَنْفُسُكُمْ ثُمَّ تَبْتَلِ فَتَجْعَلْ لَنْفَتِ الْوَيْلِ عَلَى الْكَافِرِينَ ٦٠﴾ [آل عمران: ٥٩ - ٦١] فأبوا أن يُقرّوا بذلك، فلما أصبح رسول الله ﷺ الغد بعدما أخبرهم الخبر، أقبل مشتملاً على الحسن

سلمة بن عبد يسوع، عن أبيه، عن جده - قال يونس وكان نصرانياً فأسلم - : إن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل نجران باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ، وَأَدْعُوكُمْ إِلَى وَلَايَةِ اللَّهِ مِنْ وَلَايَةِ الْعِبَادِ، فَإِنْ أُبَيِّنْتُمْ قَالِجِيَّةً، فَإِنْ أُبَيِّنْتُمْ، فَقَدْ أَذْنَنْتُكُمْ بِحَرْبٍ، وَالسَّلَامُ!» فلما أتى الأسقف الكتاب فقراه، فطُغ به، وذعر به ذعراً شديداً، فبعث إلى رجل من أهل نجران يُقال له: شُرْحِيل بن وداعة، وكان من همدان، ولم يكن أحد يُدعى إذا نزل مُعْضِلَة قبله، لا الأيهم، ولا السيّد، ولا العاقِب، فدفع الأسقف كتاب رسول الله ﷺ إليه، فقراه، فقال الأسقف: يا أبا مريم! ما رأيك؟ فقال شُرْحِيل: قد علمت ما وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة، فما يؤمن أن يكون هذا هو ذلك الرجل، ليس لي في النبوة رأي، لو كان من أهل نجران يقال له: عبد الله بن شُرْحِيل، وهو من ذي أصبح من جَمِير، فاجلس، فتنحى شُرْحِيل، فجلس ناحية، فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران يقال له: عبد الله ابن شُرْحِيل، وهو من ذي أصبح من جَمِير، فأقرأه الكتاب، وسأله عن الرأي فيه، فقال له مثل قول شُرْحِيل. فقال له الأسقف: تنح فاجلس، فتنحى، فجلس ناحية، فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران يقال له: جبار بن فيض من بني الحارث بن كعب، فأقرأه الكتاب، وسأله عن الرأي فيه، فقال له مثل قول شُرْحِيل وعبد الله، فأمره الأسقف فتنحى. فلما اجتمع الرأي منهم على تلك المقالة جميعاً، أمر الأسقف بالناقوس، ففُضِرَب به، ورفُعتِ المسوح في الصوامع، وكذلك كانوا يفعلون إذا فَرِغُوا بالنهار، وإذا كان فَرَعُهُم بالليل ضرب الناقوس، ورفعت النيران في الصوامع، فاجتمع - حين ضرب بالناقوس، ورفعت المسوح - أهل الوادي أعلاه وأسفله، وطول الوادي مسيرة يوم للراكب السريع، وفيه ثلاث وسبعون قرية، وعشرون ومئة ألف مقاتل، فقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ، وسألهم عن الرأي فيه، فاجتمع رأي أهل الوادي منهم على أن يبعثوا شُرْحِيل بن وداعة الهمداني، وعبد الله بن شُرْحِيل،

والحسين رضي الله عنهما في خميل له، وفاطمة رضي الله عنها تمشي عند ظهره للمباهلة، وله يومئذ عدة نسوة، فقال شرحبيل لصاحبه: يا عبد الله بن شرحبيل، ويا جبار بن فيض، قد علمتما أن الوادي إذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يردوا، ولم يصعدوا إلا عن رأيي، وإنني والله أرى أمراً مقبلاً، وأرى والله إن كان هذا الرجل ملكاً مبعوثاً، فكنا أول العرب طعن في عينه، ورد عليه أمره لا يذهب لنا من صدره، ولا من صدور قومه حتى يُصيبونا بجائحة، وإننا أدنى العرب منهم جواراً، وإن كان هذا الرجل نبياً مرسلًا، فلا عتاه، فلا يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر إلا هلك، فقال له صاحبه: فما الرأي فقد وضعتك الأمور على ذراع، فهات رأيك؟ فقال: رأيي أن أحكمه، فإني أرى رجلاً لا يحكم شططاً أبداً. فقالا له: أنت وذاك.

فلقي شرحبيل رسول الله ﷺ، فقال: إني قد رأيت خيراً من ملاءعتك، فقال: وما هو؟ قال شرحبيل: حُكمتك اليوم إلى الليل وليلتك إلى الصُّباح، فمهما حكمت فينا، فهو جائز.

فقال رسول الله ﷺ: «لَعَلَّ وَرَأَاكَ أَحَدًا يُتَرَبَّ عَلَيَّكَ»، فقال له شرحبيل: سل صاحبي، فسألها، فقالا: ما يرد الوادي، ولا يصعد إلا عن رأيي شرحبيل. فقال رسول الله ﷺ: «كافراً»، أو قال: «جاحد مؤفّق».

(كتابه ﷺ لهم)

فرجع رسول الله ﷺ ولم يلاعنهم، حتى إذا كان من الغد أتوه، فكتب لهم في الكتاب:

(رجوعهم إلى نجران)

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما كتب محمد النبي رسول الله لنجران إذ كان عليهم حكمه في كل ثمرة، وفي كل صفراء، وبيضاء، وسوداء، ورقيق، فأفضل عليهم، وترك ذلك كله على النبي حلة، في كل رجب ألف حلة، وفي كل صفر ألف حلة، وكل حلة أوقية، ما زادت على الخراج أو نقصت على

الأواقي، فبحساب، وما قَضَوْا من دروع، أو خيل، أو ركاب، أو عَرَضٍ، أُخِذَ منهم بحساب، وعلى نجران مائة رسل، ومتعتهم بها عشرين فدونه، ولا يُحبس رسول فوق شهر، وعليهم عارية ثلاثين درعاً، وثلاثين فرساً، وثلاثين بعيراً إذا كان كيداً باليمن ومقدرة، وما هلك مما أعاروا رسولي من دروع، أو خيل، أو ركاب، فهو ضمانٌ علي رسولي حتى يؤدّيه إليهم، ولنجران وحسبها جوار الله وذمة محمد النبي على أنفسهم، ومِلَّتْهم، وأَرْضِيهم، وأموالهم، وغايِيهم، وشاهِدْهم، وعشيرتْهم، وتبعْهم، وأن لا يُغيروا مما كانوا عليه، ولا يُغيّر حق من حقوقهم ولا ملتْهم، ولا يُغيّر أسقف من أسقفيتْهم، ولا راهب من رهبانيتْهم، ولا واهب من واهبيتْهم^(١) وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، وليس عليهم رية ولا دم جاهلية، ولا يُحشرون، ولا يُعشرون، ولا يبطأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم حقاً فينبههم التَّصَفُّ غير ظالمين ولا مظلومين، ومن أكل ربا من ذي قبل، فذمتي منه بريئة، ولا يُؤخذ رجل منهم بظلم آخر، وعلى ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله حتى يأتي الله بأمره ما نصَحُوا وأصلَحُوا فيما عليهم غير منقلبين بظلم» شهد أبو سفيان بن حرب، وغيلان بن عمرو، ومالك بن عوف، والأقرع بن حابس الحنظلي، والمغيرة بن شعبة، وكتب: حتى إذا قبضوا كتابهم، انصرفوا إلى نجران، فتلقاهم الأسقف ووجوه نجران على مسيرة ليلة، ومع الأسقف أخ له من أمه، وهو ابن عمه من النسب، يقال له: بشر بن معاوية، وكنيته أبو علقمة، فدفع الوفد كتاب رسول الله ﷺ إلى الأسقف، فبينما هو يقرؤه، وأبو علقمة معه وهما يسيران إذ كَبَتْ بِشْر ناقته، فَتَنَسَّ بِشْرٌ، غير أنه لا يكتي عن رسول الله ﷺ، فقال له الأسقف عند ذلك: قد تَنَسَّتَ والله نبياً مرسلًا، فقال بشر: لا جرم والله لا أحلُّ عنها عقداً حتى آتية، فضرب وجه ناقته نحو المدينة، وثنى الأسقف ناقته عليه، فقال له: افهم عني إنما قلتُ هذا لتبلغ عني العرب مخافة أن يقولوا: إنا أَخِذْنَا حُمَقة أو

(١) في «النهاية» الوافه: القيم على البيت الذي فيه صليب النصراني بلغه أهل الجزيرة، وبعضهم يرويه بالقاف، والصواب الفاء.

نخعتا لهذا الرجل بما لم تتخَّع به العرب، ونحن أعزهم وأجمعهم داراً، فقال له بشر: لا والله لا أقيلك ما خرج من رأسك أبداً، فضرب بشر ناقته، وهو مؤل ظهره للأسقف وهو يقول:

إِلَيْكَ تَعُدُّو قَلِيقاً وَضِيئُهَا

مُعْتَرِضاً فِي بَطْنِهَا جَنِينُهَا

مُخَالَفاً دِينَ الثَّصَارَى دِينُهَا

حتى أتى النبي ﷺ ولم يزل مع النبي ﷺ حتى استشهد أبو علقمة بعد ذلك.

ودخل الوفد نجران، فأتى الراهب ابن أبي شمر الزبيدي، وهو في رأس صومعة له، فقال له: إن نبياً قد بعث بتهامة، وإنه كتب إلى الأسقف، فأجمع أهل الوادي أن يُسَيِّرُوا إليه شُرْحِيلَ بن وداعة، وعبد الله ابن شُرْحِيل، وجبار بن فيض، فيأتونهم بخيره، فساروا حتى أتوه، فدعاهم إلى المباحلة، فكرهوا ملاعته، وحكمه شُرْحِيل فحكم عليهم حكماً، وكتب لهم كتاباً، ثم أقبل الوفد بالكتاب حتى دفعوه إلى الأسقف، فبينما الأسقف يقرؤه وبشر معه حتى كبت ببشر ناقته فتعسَّه، فشهد الأسقف أنه نبي مرسل، فانصرف أبو علقمة نحوه يُريد الإسلام، فقال الراهب: أنزلوني وإلا رميت بنفسي من هذه الصومعة، فانزلوه، فانطلق الراهب يهْدِيهِ إلى رسول الله ﷺ، منها هذا الرُّدُّ الذي يَلْبِسُهُ الخلفاء والقعب والعصا، وأقام الراهب بعد ذلك يسمع كيف ينزل الوحي، والسنن، والفرائض، والحدود، وأبى الله للراهب الإسلام، فلم يُسلم، واستأذن رسول الله ﷺ في الرجعة إلى قومه، وقال: إن لي حاجةً ومعاداً إن شاء الله تعالى، فرجع إلى قومه، فلم يعد حتى قبض رسول الله ﷺ.

وإن الأسقف أبا الحارث أتى رسول الله ﷺ ومعه السيد والعاقب ووجوه قومه، وأقاموا عنده يستمعون ما ينزل الله عليه، فكتب للأسقف هذا الكتاب وللأساقفة بنجران بعده: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ إِلَى الْأَسْقَفِ أَبِي الْحَارِثِ وَأَسَاقِفَةِ نَجْرَانَ وَكَهَنَتِهِمْ، وَرُقَبَائِهِمْ، وَأَهْلِ بَيْعِهِمْ، وَرَقِيقِهِمْ،

وَمِلَّتِهِمْ، وَسَوْقَتِهِمْ، وَعَلَى كُلِّ مَا تَخَتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ، جَوَارُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، لَا يُعَيَّرُ أَسْقَفٌ مِنْ أَسْقَفِيهِ وَلَا رَاهِبٌ مِنْ رَهْبَانِيَّتِهِ، وَلَا كَاهِنٌ مِنْ كَهَانَتِهِ، وَلَا يُعَيَّرُ حَقٌّ مِنْ حُقُوقِهِمْ، وَلَا سُلْطَانُهُمْ، وَلَا مِمَّا كَانُوا عَلَيْهِ عَلَى ذَلِكَ جَوَارُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَبَداً مَا نَصَحُوا وَأَصْلَحُوا عَلَيْهِمْ، غَيْرَ مُنْقَلِبِينَ بِظَالِمٍ، وَلَا ظَالِمِينَ». وكتب المغيرة بن شعبة، فلماً قبض الأسقف الكتاب، استأذن في الانصراف إلى قومه ومن معه، فأذن لهم، فانصرفوا^(١).

وروى البيهقي بإسناد صحيح إلى ابن مسعود، أن السيد والعاقب أتيا رسول الله ﷺ، فأراد أن يُلاعِنهما، فقال أحدهما لصاحبه: لا تُلاعِنه، فوالله إن كان نبياً فلاعته لا تُفْلِحُ نحن، ولا عَقِبُنَا مِنْ بَعْدِنَا، قالوا له: نُعْطِيكَ مَا سَأَلْتَ، فابعت معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً، فقال رسول الله ﷺ: «لَأُبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ»، فاستشرف لها أصحابه، فقال: «قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ» فلماً قَامَ، قال: «هَذَا أَمِينٌ هَذِهِ الْأَمَةُ».

ورواه البخاري في «صحيحه» من حديث حذيفة بنحوه [البخاري: ٣٧٤٥، ومسلم: ٦٢٥٤].

وفي «صحيح مسلم» من حديث المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران، فقالوا فيما قالوا: أَرَأَيْتَ مَا يَقْرَءُونَ (يا أخت هارون)، وقد كان بَيْنَ عَيْسَى وَمُوسَى مَا قَدْ عَلِمْتُمْ، قال: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَخْبَرْتُهُ، قال: «أَفَلَا أَخْبَرْتَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ - بِأَسْمَاءِ أَنْبِيَائِهِمْ وَالصَّالِحِينَ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَهُمْ» [مسلم: ٥٥٩٨].

وروي عن يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، قال: وبعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب إلى أهل نجران ليجمع صدقاتهم، ويُقدِّمَ عليه بجزيتهم.

فصل

في فقه هذه القصة

ففيها: جواز دخول أهل الكتاب مساجد المسلمين.

(تمكين أهل الكتاب من صلاتهم بحضرة المسلمين)

وفيها: تمكين أهل الكتاب من صلاتهم بحضرة المسلمين وفي مساجدهم أيضاً إذا كان ذلك عارضاً، ولا يُمكنون من اعتياد ذلك.

(القرار الكاهن الكتابي له ﷺ بأنه نبي لا بدخله هي

الإسلام ما لم يلتزم طاعته واختلاف الناس في ذلك)

وفيها: أن إقرار الكاهن الكتابي لرسول الله ﷺ بأنه نبي لا يُدخله في الإسلام ما لم يلتزم طاعته ومتابعته، فإذا تمسك بدينه بعد هذا الإقرار لا يكون ردة منه، ونظير هذا قول الحريين له، وقد سألاه عن ثلاث مسائل، فلما أجابهما، قال: نشهد أنك نبي، قال: «فما يمنعكما من اتباعي؟» قال: نخاف أن تقتلنا اليهود، ولم يلتزمهما بذلك الإسلام. ونظير ذلك شهادة عمه أبي طالب له بأنه صادق، وأن دينه من خير أديان البرية ديناً ولم تُدخله هذه الشهادة في الإسلام.

ومن تأمل ما في السير والأخبار الثابتة من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له ﷺ بالرسالة، وأنه صادق، فلم تدخلهم هذه الشهادة في الإسلام، علم أن الإسلام أمر وراء ذلك، وأنه ليس هو المعرفة فقط، ولا المعرفة والإقرار فقط، بل المعرفة والإقرار، والالتزام طاعته ودينه ظاهراً وباطناً.

وقد اختلف أئمة الإسلام في الكافر إذا قال: أشهد أن محمداً رسول الله ولم يَزِدْ، هل يُحكم بإسلامه بذلك؟ على ثلاثة أقوال، وهي ثلاث روايات عن الإمام أحمد، إحداها: يُحكم بإسلامه بذلك. والثانية: لا يُحكم بإسلامه حتى يأتي بشهادة أن لا إله إلا الله. والثالثة: أنه إذا كان مقرأً بالتوحيد، حُكم بإسلامه، وإن لم يكن مقرأً، لم يُحكم بإسلامه حتى يأتي به، وليس هذا موضع استيفاء هذه المسألة، وإنما أشرنا إليه إشارة، وأهل الكتابين مجتمعون على أن نبياً يخرج في آخر الزمان، وهم ينتظرونه، ولا يَشْكُ علماءهم في أنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، وإنما يمنعونهم من الدخول في الإسلام رئاستهم على قومهم، وخضوعهم لهم، وما ينالونه منهم من المال والجاه.

(جواز مجادلة أهل الكتاب)

ومنها: جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم، بل استحباب ذلك، بل وجوبه إذا ظهرت مصلحته من إسلام من يُرجى إسلامه منهم، وإقامة الحجة عليهم، ولا يهرب من مجادلتهم إلا عاجز عن إقامة الحجة، فليؤل ذلك إلى أهله، وليُحلَّ بينَ المطيِّ وحاديها، والقوسِ وباريها، ولولا خشية الإطالة لذكرنا من الحجج التي تلزم أهل الكتابين الإقرار بأنه رسول الله بما في كتبهم، وبما يعتقدونه بما لا يمكنهم دفعه ما يزيد على مئة طريق، ونرجو من الله سبحانه إفرادها بمصنف مستقل.

(مناظرة المصنف لأحد علماء أهل الكتاب في نبوته ﷺ)

ودار بيني وبين بعض علمائهم مناظرة في ذلك، فقلت له في أثناء الكلام: ولا يتم لكم القدح في نبوة نبينا ﷺ إلا بالظن في الرب تعالى والقدح فيه، ونسبته إلى أعظم الظلم والسفه والفساد، تعالى الله عن ذلك، فقال: كيف يلزمنا ذلك؟ قلت: بل أبلغ من ذلك، لا يتم لكم ذلك إلا ببحوده وإنكار وجوده تعالى، وبيان ذلك أنه إذا كان محمد عندكم ليس بنبي صادق، وهو بزعمكم ملك ظالم، فقد تهيأ له أن يفترى على الله، ويتقول عليه ما لم يقله، ثم يتم له ذلك، ويستمر حتى يُحلل، ويُحرَّم، ويفرض الفرائض، ويشرع الشرائع، وينسخ المثل، ويضرب الرقاب، ويقتل أتباع الرسل، وهم أهل الحق، ويسبي نساءهم وأولادهم، ويغنم أموالهم وديارهم، ويتم له ذلك حتى يفتح الأرض، وينسب ذلك كله إلى أمر الله تعالى له به ومحبه له، والرب تعالى يشاهده، وما يفعل بأهل الحق وأتباع الرسل، وهو مستمر في الافتراء عليه ثلاثاً وعشرين سنة، وهو مع ذلك كله يؤيده وينصره، ويُعلي أمره، ويُمكن له من أسباب النصر الخارجة عن عادة البشر، وأعجب من ذلك أنه يُجيب دعواته، ويُهلك أعداءه من غير فعل منه نفسه ولا سبب، بل تارة بدعائه، وتارة يستأصلهم سبحانه من غير دعاء منه ﷺ، ومع ذلك يقضي له كل حاجة سألها إياها، ويعده كل وعد جميل، ثم ينجز له وعده على أنتم الوجوه، وأهنتها، وأكملها، هذا وهو

عندكم في غاية الكذب والافتراء والظلم، فإنه لا أكذب ممن كذب على الله، واستمر على ذلك، ولا أظلم ممن أبطل شرائع أنبيائه ورساله، وسعى في رفعها من الأرض، وتبديلها بما يريد هو، وقتل أوليائه وحزبه وأتباع رسله، واستمرت نصرته عليهم دائماً، والله تعالى في ذلك كله يقره، ولا يأخذ منه باليمين، ولا يقطع منه الوتين، وهو يخبر عن ربه أنه أوحى إليه أنه لا ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١٣] فيلزمكم معاشير من كذبه أحد أمرين لا بد لكم منهما:

إما أن تقولوا: لا صانع للعالم، ولا مدبّر، ولو كان للعالم صانع مدبّر قدير حكيم، لأخذ على يديه، ولقابله أعظم مقابلة، وجعله نكالا للظالمين إذ لا يليق بالملوك غير هذا، فكيف بملك السماوات والأرض، وأحكم الحاكمين؟

الثاني: نسبة الرب إلى ما لا يليق به من الجور، والسفه، والظلم، وإضلال الخلق دائماً أبداً الآباد، لا بل نصرته الكاذب، والتمكين له من الأرض، وإجابة دعواته، وقيام أمره من بعده، وإعلاء كلماته دائماً، وإظهار دعوته، والشهادة له بالنبوة قرناً بعد قرن على رؤوس الأشهاد في كل مجمع وناد، فأين هذا من فعل أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، فلقد قدحتم في رب العالمين أعظم قدح، وطعتم فيه أشد طعن، وأنكرتموه بالكلية، ونحن لا ننكر أن كثيراً من الكذابين قام في الوجود، وظهرت له شوكة، ولكن لم يتم له أمره، ولم تطل مدته، بل سلط عليه رسله وأتباعهم، فمحقوا أثره، وقطعوا دابره، واستأصلوا شأفته. هذه سنته في عبادته منذ قامت الدنيا، وإلى أن يرث الأرض ومن عليها. فلما سمع مني هذا الكلام، قال: معاذ الله أن نقول: إنه ظالم أو كاذب، بل كل منصف من أهل الكتاب يقر بأن من سلك طريقه، واقتنى أثره، فهو من أهل النجاة والسعادة في الأخرى. قلت له: فكيف يكون سالك طريق الكذاب، ومقتني أثره بزعمكم من أهل النجاة والسعادة؟ فلم يجد بداً من الاعتراف برسالته، ولكن

لم يرسل إليهم. قلت: فقد لزمك تصديقك، ولا بد وهو قد تواترت عنه الأخبار بأنه رسول رب العالمين إلى الناس أجمعين، كتابيهم وأمّيتهم، ودعا أهل الكتاب إلى دينه، وقاتل من لم يدخل في دينه منهم حتى أقروا بالصغار والجزية، قُبِيت الكافر، ونهض من فوره.

والمقصود: أن رسول الله ﷺ لم يزل في جدال الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم إلى أن توفي، وكذلك أصحابه من بعده، وقد أمره الله سبحانه بجدالهم بالتي هي أحسن في السورة المكية والمدنية، وأمره أن يدعوهم بعد ظهور الحجة إلى المباحلة، وبهذا قام الدين، وإنما جعل السيوف ناصراً للحجة، وأعدل السيوف سيف ينضّر حُجَجَ الله وبيئاته، وهو سيف رسوله وأمته.

فصل

(من عظم مخلوقاً)

بحيث أخرجه عن منزلة العبودية المحضة فقد اشرك

ومنها: أن من عظم مخلوقاً فوق منزلته التي يستحقها، بحيث أخرجه عن منزلة العبودية المحضة، فقد أشرك بالله، وعبد مع الله غيره، وذلك مخالفت لجميع دعوة الرسل. وأما قوله: إنه ﷺ كتب إلى نجران باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فلا أظن ذلك محفوظاً، وقد كتب إلى هرقل: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» وهذه كانت سنته في كتبه إلى الملوك، كما سيأتي إن شاء الله تعالى، وقد وقع في هذه الرواية هذا، وقال ذلك قبل أن ينزل عليه: «طس» يَلَاكُ مَا يَنْتَ الْفَرَزْدَاقُ وَمَكْتُابُ ثِيَابِي ﴿١﴾ [الثلث: ١] وذلك غلط على غلط، فإن هذه السورة مكية باتفاق، وكتابتها إلى نجران بعد مرجعه من تبوك.

(جواز إهانة رسل الكفار)

وفيها: جواز إهانة رسل الكفار، وترك كلامهم إذا ظهر منهم التعاضم والتكبر، فإن رسول الله ﷺ لم يكلم الرسل، ولم يرُد السلام عليهم حتى لبسوا ثياب سفرهم، وألقوا خللهم وخلاهم.

(المباهلة سنة فيمن أصر على العناد من أهل الباطل)

ومنها: أن السنة في مجادلة أهل الباطل إذا قامت عليهم حجة الله، ولم يرجعوا، بل أصرُّوا على العناد أن يدعَوْهم إلى المباهلة، وقد أمر الله سبحانه بذلك رسوله، ولم يقل: إنَّ ذلك ليس لأمّتك من بعدك، ودعا إليه ابنُ عمِّه عبدُ الله بن عباس لمن أنكر عليه بعض مسائل الفروع، ولم يُنكر عليه الصحابة، ودعا إليه الأوزاعي سفيان الثوري في مسألة رفع اليدين، ولم ينكر عليه ذلك، وهذا من تمام الحجة.

(جواز صلح أهل الكتاب)

على ما يريد الإمام من الأموال والثياب وغيرها)

ومنها: جواز صلح أهل الكتاب على ما يريد الإمام من الأموال ومن الثياب وغيرها، ويجري ذلك مجرى ضرب الجزية عليهم، فلا يحتاج إلى أن يُفرد كل واحد منهم بجزية، بل يكون ذلك المال جزيةً عليهم يقتسمونها كما أحبوا، ولما بعث معاذاً إلى اليمن أمره أن يأخذ من كل حالم ديناراً، أو عدله معافياً. والفرق بين الموضعين أن أهل نجران لم يكن فيهم مسلم، وكانوا أهل صلح، وأما اليمن فكانت دار الإسلام، وكان فيهم يهود، فأمره أن يضرب الجزية على كل واحد منهم، والفقهاء يخصون الجزية بهذا القسم دون الأول، وكلاهما جزية، فإنه مال مأخوذ من الكفار على وجه الصغار في كل عام.

(جواز ثبوت الحلل في الذمة)

ومنها: جواز ثبوت الحلل في الذمة، كما تثبت في الدية أيضاً، وعلى هذا يجوز ثبوتها في الذمة بعقد السلم وبالصَّمان وبالتَّلف، كما تثبت فيها بعقد الصداق والخلع.

ومنها: أنه يجوز معاوضتهم على ما صالحوا عليه من المال بغيره من أموالهم بحسابه.

ومنها: اشتراط الإمام على الكفار أن يؤووا رُسُلَه ويكرمُوهم، ويُضيفوهم أياماً معدودة.

(جواز اشتراط الإمام)

على الكفار عارية ما يحتاج المسلمون إليه)

ومنها: جواز اشتراطه عليهم عارية ما يحتاج المسلمون إليه من سلاح، أو متاع، أو حيوان، وأن تلك العارية مضمونة، لكن هل هي مضمونة بالشرط أو بالشرع؟ هذا محتمل، وقد تقدم الكلام عليه في غزوة حنين، وقد صرح ههنا بأنها مضمونة بالرد، ولم يتعرض لضمان التلف.

(لا يقر أهل الكتاب على الربا والسكر وغيرها)

ومنها: أن الإمام لا يُقرُّ أهل الكتاب على المعاملات الربوية، لأنها حرام في دينهم، وهذا كما لا يُقرُّهم على السكر، ولا على اللواط والزنى، بل يحذِّهم على ذلك.

ومنها: أنه لا يجوز أن يُؤخذ رجلٌ من الكفار بظلم آخر، كما لا يجوز ذلك في حق المسلمين، وكلاهما ظلم.

(لا عهد لهم ولا ذمة إذا غشوا المسلمين وأفسدوا في دينهم)

ومنها: أن عقد العهد والذمة مشروط بنصح أهل العهد والذمة وإصلاحهم، فإذا غشوا المسلمين وأفسدوا في دينهم، فلا عهد لهم ولا ذمة، وبهذا أفتينا نحن وغيرنا في انتقاض عهدهم لما حرقوا الحريق العظيم في دمشق حتى سرى إلى الجامع، وبانتقاض عهد من أطاعهم وأعانهم بوجه ما، بل ومن علم ذلك، ولم يرفعه إلى ولي الأمر، فإن هذا من أعظم الغش والضرر بالإسلام والمسلمين..

(بعث الإمام الرجل الأمين)

العالم إلى أهل الهند في مصلحة الإسلام)

ومنها: بعث الإمام الرجل إلى أهل الهند في مصلحة الإسلام، وأنه ينبغي أن يكون أميناً، وهو الذي لا غرض له ولا هوى، وإنما مراده مجرد مرضاة الله ورسوله، لا يشوبها بغيرها، فهذا هو الأمين حق الأمين، كحال أبي عبيدة بن الجراح.

ومنها: مناظرة أهل الكتاب وجوابهم عما سألوه عنه، فإن أشكل على المسؤول، سأل أهل العلم.

(يحمل الكلام عند الإطلاق على ظاهره)

«صدقتم»، وأمر عليهم قيس بن الحصين، وهؤلاء هم بنو الحارث بن كعب. فقلوه: بعث علياً إلى أهل نجران ليأتيه بصدقاتهم أو جزيتهم، أراد به الطائفتين من أهل نجران، صدقات من أسلم منهم، وجزية النصارى.

فصل

في قدوم رسول قزوة بن عمرو الجذامي ملك عرب الروم

قال ابن إسحاق: وبعث فروة بن عمرو الجذامي إلى رسول الله ﷺ رسولاً بإسلامه، وأهدى له بغلة بيضاء، وكان فروة عاملاً للروم على من يليهم من العرب، وكان منزله معان وما حوله من أرض الشام، فلما بلغ الروم ذلك من إسلامه، طلبوه حتى أخذوه، فحبسوه عندهم، فلما اجتمعت الروم لصلبه على ماء لهم يقال له: عفرأ، بفلسطين، قال:

أَلَا هَلْ أَتَى سَلْمَى بِأَنْ حَلِيلَهَا

عَلَى مَاءِ عَفْرَأَ قَوْزٍ إِخْدَى الرُّوَّاحِلِ^(١)
عَلَى نَاقَةٍ لَمْ يَضْرِبِ الْفَخْلُ أَثْمَهَا
مُسْتَذْبَةً أَظْرَافُهَا بِالْمَنَاجِلِ
قال ابن إسحاق: وزعم الزهري أنهم لما قدموه، ليقتلوه قال:

بَلَّغْ سَرَاةَ الْمُسْلِمِينَ بِأَنْثِي

سِلْمَ لِرَبِّي أَعْظَمِي وَمَقَامِي

ثم ضربوا عنقه، وصلبوه على ذلك الماء يرحمه الله تعالى [ابن هشام (٧٦٨)].

فصل

في قدوم وفد بني سعد بن بكر على رسول الله ﷺ

قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن الوليد بن نوفع عن كريب مولى ابن عباس، عن ابن عباس، قال: بعث بنو سعد بن بكر ضمام بن ثعلبة وافداً إلى رسول الله ﷺ، فقدم عليه، فأنافخ بعيره على باب المسجد، فعقله، ثم دخل على رسول الله ﷺ وهو في المسجد جالس في أصحابه، فقال: أَيْكُمْ ابْنُ عَبْدِ

ومنها: أن الكلام عند الإطلاق يُحمل على ظاهره حتى يقوم دليل على خلافه، وإلا لم يُشكل على المغيرة قوله تعالى: (يا أخت هَارُونَ)، هذا وليس في الآية ما يدل على أنه هارون بن عمران حتى يلزم الإشكال، بل المورد ضم إلى هذا أنه هارون بن عمران، ولم يكتف بذلك حتى ضم إليه أنه أخو موسى بن عمران، ومعلوم أنه لا يدل اللفظ على شيء من ذلك، فإيراده إيراد فاسد، وهو إما من سوء الفهم، أو فساد القصد.

(بيان أن أهل نجران)

صنفان نصارى واميون وقصة بعث خالد إليهم)

وأما قول ابن إسحاق: إن النبي ﷺ بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى أهل نجران ليجمع صدقاتهم، ويقدم عليه بجزيتهم، فقد يظن أنه كلام متناقض، لأن الصدقة والجزية لا تجتمعان، وأشكل منه ما ذكره هو وغيره أن النبي ﷺ بعث خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر، أو جمادى الأولى سنة عشر إلى بني الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يُقاتلهم ثلاثاً، فإن استجابوا فاقبل منهم، وإن لم يفعلوا فقاتلهم، فخرج خالد حتى قدم عليهم، فبعث الركاب يضربون في كل وجه، ويدعون إلى الإسلام، فأسلم الناس، ودخلوا فيما دعوا إليه؛ فأقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام، وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ، فكتب إليه رسول الله ﷺ أن يقبل، ويقبل إليه بوفدهم، وقد تقدم أنهم وفدوا على رسول الله ﷺ، فصالحهم على ألفي حلة، وكتب لهم كتاب أمن وأن لا يغيروا عن دينهم، ولا يحشروا، ولا يُعشروا. وجواب هذا: أن أهل نجران كانوا صنفين: نصارى وأمينين، فصالح النصارى على ما تقدم، وأما الأميون منهم، فبعث إليهم خالد بن الوليد، فأسلموا وقدم وفد على النبي ﷺ وهم الذي قال لهم رسول الله ﷺ: «يَمُ كُتُمُ تَغْلِيُونُ مَنْ قَاتَلَكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟»، قالوا: كنا نجتمع ولا نتفرق، ولا نبداً أحداً بظلم. قال:

(١) الحليل: الزوج، والرواحل في الأصل: الإبل، ويريد بإحدى الرواحل: الخشبة التي صلبوه عليها.

هذه اللفظة مدرجة من كلام بعض الرواة^(١) والله أعلم.

فصل

في قدوم طارق بن عبد الله وقومه على رسول الله ﷺ

روينا في ذلك لأبي بكر البيهقي، عن جامع بن شداد، قال: حدثني رجل يُقال له: طارق بن عبد الله. قال: إني لقاتم بسوق المجاز، إذ أقبل رجل عليه جبة له وهو يقول: يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تُقْلِحُوا، ورجل يتبعه يرميه بالحجارة يقول: يا أيها الناس! لا تُصدِّقوه فإنه كذاب، فقلت: مَنْ هَذَا؟ فقالوا: هذا غلام من بني هاشم الذي يزعم أنه رسول الله، قال: قلت: من هذا الذي يفعل به هذا؟ قالوا: هذا عمُّ عبد الغزَّى، قال: فلما أسلم الناس، وهاجروا، خرجنا من الرَبْدَةِ نريدُ المدينة نمتارُ من تمرها، فلما دنونا من حيطانها ونخلها، قلنا: لو نزلنا فلبسنا ثياباً غيرَ هذه، فإذا رجل في طمرين له، فسلم وقال: من أين أقبلَ القومُ؟ قلنا: من الرَبْدَةِ. قال: وأين تُريدون؟ قلنا: نريدُ هذه المدينة، قال: ما حاجتكم فيها؟ قلنا: نمتارُ من تمرها. قال: ومعنا ظعينة لنا، ومعنا جمل أحمر مخطوم، فقال: أتبيعون جملكم هذا؟ قالوا: نعم بكذا وكذا صاعاً من تمر، قال: فما استوضعتا مما قلنا شيئاً، فأخذ بِخِطَامِ الجمل، فانطلق، فلما تَوَارَى عَنَّا بِحِيطَانِ المدينة ونخلها، قلنا: ما صنعنا، والله ما يَبعنا جملنا ممن نعرف، ولا أخذنا له ثمناً، قال: تقولُ المرأةُ التي معنا: والله لقد رأيتُ رجلاً كان وجهه شِقَّةَ القمر ليلةَ البدر أنا ضامنة لثمن جملكم.

وفي رواية ابن إسحاق قالت الظعينة: فلا تَلاموا، فلقد رأيتُ وجه رجل لا يَغْدِرُ بكم، ما رأيتُ شيئاً أشَبَّ بالقمر ليلةَ البدر من وجهه، فبينما هم كذلك إذ أقبل رجلٌ فقال: أنا رسولُ رسولِ الله ﷺ إليكم، هذا تمرُكم، فكلوا، واشبعوا، واكتالوا،

المُطَلِّب؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «أنا ابنُ عبدِ المُطَلِّب»، فقال: محمد؟ فقال: «نعم»، فقال: يا ابنَ عبدِ المطلب! إني سائلكَ ومُغْلِظُ عليك في المسألة، فلا تَجِدَنَّ في نفسك. فقال: «لَا أَجِدُ في نَفْسِي قَسَلٌ عَمَّا بَدَا لَكَ»، فقال: أَنْشُدَكَ اللهَ إلهَكَ وإلهَ أَهْلِكَ، وإلهَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ، وإلهَ مَنْ هُوَ كائِنْ بَعْدَكَ، أَللهُ بَعَثَكَ إلَيْنَا رسولاً؟ قال: «اللَّهُمَّ نعم»، قال: فَأَنْشُدَكَ اللهَ إلهَكَ، وإلهَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ، وإلهَ مَنْ هُوَ كائِنْ بَعْدَكَ، أَللهُ أَمَرَكَ أَنْ تَعْبُدَهُ لَا تُشْرِكُ بِهِ شيئاً، وَأَنْ نَخْلَعَ هذه الأندَادَ التي كان آبَاؤُنَا يَعْبُدُونَ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «اللَّهُمَّ نعم»، ثم جعل يَذْكُرُ فرائضَ الإسلامِ فريضةً فريضةً: الصلاةَ، والزكاةَ، والصيامَ، والحجَّ، وفرائضَ الإسلامِ كُلِّهَا، يَشْهَدُ عِنْدَ كُلِّ فريضةٍ كما نَشَدَهُ في التي قَبْلَهَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ قَالَ: فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وسأؤدي هذه الفرائضَ، وأَجْتَنِبُ ما نَهَيْتَنِي عَنْهُ، لَا أَزِيدُ وَلَا أَنْقُصُ، ثم انصرف راجعاً إلى بَعِيرِهِ، فقال رسولُ الله ﷺ حينَ وَلَّى: «إِنْ يَصْدُقْ دُورُ الْعَقِيبَتَيْنِ، يَدْخُلِ الْجَنَّةَ» وكان ضِمَامَ رجلاً جلدأ أشعرَ ذا غديرتين، ثم أتى بَعِيرَهُ، فاطلقَ عِقَالَهُ، ثم خَرَجَ حَتَّى قَدِمَ عَلَى قَوْمِهِ، فَاجْتَمَعُوا عَلَيْهِ، وَكَانَ أَوَّلُ مَا تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ، فَقَالُوا: مَهْ يَا ضِمَامُ، اتقِ البرصَ، والجُنُونَ، والجَذَامَ. قال: ويلَكم، إنهما ما يَصْران ولا يَنْفَعان، إِنْ اللهُ قَدْ بَعَثَ رسولاً، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَاباً اسْتَفْذَكُمْ بِهِ مِمَّا كُنْتُمْ فِيهِ، وَإِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِهِ بِمَا أَمَرَكُم بِهِ وَنَهَاكُم عَنْهُ، فَوَاللَّهِ مَا أَمْسَى مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ فِي حَاضِرَتِهِ رَجُلٌ وَلَا امْرَأَةٌ إِلَّا مُسْلِمًا.

قال ابن إسحاق: فما سمعنا بوافد قوم أفضل من ضِمَامِ بْنِ ثَعْلَبَةَ [صحيح: أحمد: ٣٣٨٢، وأبو داود: ٤٨٧]، والقصة في «الصحيحين» من حديث أنس بنحو هذه [البخاري: ٦٣، ومسلم: ١٠٢].

وذكر الحج في هذه القصة يدل على أن قدوم ضمام كان بعد فرض الحج، وهذا بعيد، فالظاهر أن

(١) ويرى الحافظ في «الفتح» (١/١٤٠) أن هذه اللفظة ثابتة، وليست مدرجة فواجهه.

واستوفوا، فأكلنا حتى شبعنا، واكلنا واستوفينا، ثم دخلنا المدينة، فدخلنا المسجد، فإذا هو قائم على المنبر يخطب الناس، فأدركتنا من خطبته وهو يقول: «تَصَدَّقُوا فَإِنَّ الصَّدَقَةَ خَيْرٌ لَكُمْ، الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، أَمْكُ وَأَبَاكَ وَأَخْتُكَ وَأَخَاكَ وَأُذُنَاكَ أَذُنَاكَ» إذ أقبل رجل من بني يربوع، أو قال: من الأنصار، فقال: يا رسول الله! لنا في هؤلاء دماء في الجاهلية، فقال: «إِنَّ أَمَّا لَا تُجْنِي عَلَى وَلَدٍ ثَلَاثَ مَرَاتٍ [الحاكم (٢/٦١١)، وسنده قابل للتحسين].»

فصل

في قدوم وفد نجيب^(١)

وَقَدِمَ عَلَيْهِ ﷺ وَفَدٌ نَجِيبٌ، وَهُمْ مِنَ السُّكُونِ^(٢) ثَلَاثَةُ عَشَرَ رَجُلًا قَدْ سَاقُوا مَعَهُمْ صَدَقَاتِ أَمْوَالِهِمُ الَّتِي فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَسَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِهِمْ، وَأَكْرَمَ مَنْزِلَهُمْ، وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! سَقْنَا إِلَيْكَ حَقَّ اللَّهِ فِي أَمْوَالِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رُدُّوْهَا فَأَقْبِسُوهَا عَلَى قُرَآئِكُمْ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا قَدِمْنَا عَلَيْكَ إِلَّا بِمَا فَضَّلَ عَنْ قُرَرَاتِنَا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا وَقَدَ مِنَ الْعَرَبِ بِمِثْلِ مَا وَفَدَ بِهِ هَذَا الْحَيِّ مِنْ نَجِيبٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْهُدَى يَدُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَمَنْ أَرَادَ بِهِ خَيْرًا شَرَحَ صَدْرَهُ لِلْإِيمَانِ»، وَسَلَّأُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَشْيَاءَ فَكَتَبَ لَهُمْ بِهَا، وَجَعَلُوا يَسْأَلُونَهُ عَنِ الْقُرْآنِ وَالسَّنَنِ، فَازْدَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِهِمْ رَغْبَةً، وَأَمَرَ بِلَالًا أَنْ يُحَسِّنَ ضِيَابَتَهُمْ، فَأَقَامُوا أَيَّامًا، وَلَمْ يُطِيلُوا اللَّبْثَ، فَقِيلَ لَهُمْ: مَا يُعْجِبُكُمْ؟ فَقَالُوا: نَرْجِعُ إِلَى مَنْ وَرَاءَنَا فَخَيْرُهُمْ يَرْوِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَلَامُنَا لِيَاهِ، وَمَا رَدَّ عَلَيْنَا، ثُمَّ جَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُودِعُونَهُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ بِلَالًا، فَأَجَازَهُمْ بِأَرْغَمٍ مَا كَانَ يُجِيزُ بِهِ الْوَفْدَ. قَالَ: «هَلْ بَقِيَ مِنْكُمْ أَحَدٌ؟» قَالُوا: نَعَمْ. غَلَامٌ خَلْفَانَهُ عَلَى رِحَالِنَا هُوَ أَحَدُنَا سَنًا، قَالَ: «أَرْسَلُوهُ إِلَيْنَا»، فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى رِحَالِهِمْ، قَالُوا لِلْغَلَامِ: انْطَلِقْ إِلَى

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاقْضِ حَاجَتَكَ مِنْهُ، فَإِنَّا قَدْ قَضَيْنَا حَوَاجَتَنَا مِنْهُ وَوَدَعْنَاهُ، فَأَقْبَلَ الْغَلَامُ حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي أَمْرٌ مِنْ بَنِي أَبْدَى، يَقُولُ: مِنَ الرَّهْطِ الَّذِينَ أَتَوْكَ أَتْفَاءً، فَقَضَيْتَ حَوَاجَتَهُمْ، فَاقْضِ حَاجَتِي يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «وَمَا حَاجَتُكَ؟» قَالَ: إِنَّ حَاجَتِي لَيْسَتْ كَحَاجَةِ أَصْحَابِي، وَإِنْ كَانُوا قَدِمُوا رَاغِبِينَ فِي الْإِسْلَامِ، وَسَاقُوا مَا سَاقُوا مِنْ صَدَقَاتِهِمْ، وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَعْمَلُنِي مِنْ بِلَادِي إِلَّا أَنْ تَسْأَلَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَغْفِرَ لِي وَيَرْحَمَنِي، وَأَنْ يَجْعَلَ غِنَايَ فِي قَلْبِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَقْبَلَ إِلَى الْغَلَامِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، وَارْحَمْهُ، وَاجْعَلْ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ»، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِمِثْلِ مَا أَمَرَ بِهِ لِرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَانْطَلَقُوا رَاجِعِينَ إِلَى أَهْلِيهِمْ، ثُمَّ وَاقُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَوْسَمِ بَيْنَى سَنَةِ عَشْرٍ، فَقَالُوا: نَحْنُ بَنُو أَبْدَى، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا قَعَلَ الْغَلَامُ الَّذِي أَنَاتَنِي مَعَكُمْ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا رَأَيْنَا مِثْلَهُ قَطُّ، وَلَا حُدُنًا بِأَقْنَعٍ مِنْهُ بِمَا رَزَقَهُ اللَّهُ، لَوْ أَنَّ النَّاسَ اقْتَسَمُوا الدُّنْيَا مَا نَظَرَ نَحْوَهَا وَلَا التَمَّتْ إِلَيْهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَمُوتَ جَمِيعًا»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: أَوْ لَيْسَ يَمُوتُ الرَّجُلُ جَمِيعًا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَشَعَّبَ أَهْوَاؤُهُ وَمَقُومُهُ فِي أَوْدِيَةِ الدُّنْيَا، فَلَعَلَّ أَجَلَهُ أَنْ يُذْرِكَهُ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْأَوْدِيَةِ فَلَا يُيَالِي اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَيِّهَا هَلَكَ»، قَالُوا: فَعَاشَ ذَلِكَ الْغَلَامُ فِينَا عَلَى أَفْضَلِ حَالٍ، وَازْدَهَدَ فِي الدُّنْيَا، وَأَقْنَعَهُ بِمَا رَزَقَ، فَلَمَّا تَوَفَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَرَجَعَ مَنْ رَجَعَ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ عَنِ الْإِسْلَامِ، قَامَ فِي قَوْمِهِ، فَذَكَرَهُمُ اللَّهَ وَالْإِسْلَامَ، فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ يَذْكُرُهُ وَيَسْأَلُ عَنْهُ حَتَّى بَلَغَهُ حَالُهُ، وَمَا قَامَ بِهِ، فَكَتَبَ إِلَى زِيَادِ بْنِ لَيْدٍ يوصيه به خيرا^(٣).

(١) بضم التاء وفتحها: بطن من كنده.

(٢) والسكون - بفتح السين وضم الكاف - بطن من كنده باليمن.

(٣) انظر: «شرح المواهب» (٤/٥٠، ٥١).

فصل

في قدوم وفد بني سعد هُذَيمٍ مِن قُضَاعَةَ

قال الواقدي، عن أبي النعمان، عن أبيه من بني سعد هُذَيم: قدمت على رسول الله ﷺ وأدنا في نفر من قومي، وقد أوطأ رسول الله ﷺ البلاد غلبةً، وأدناخ العرب، والناس صِنْفَانِ: إما داخل في الإسلام راغب فيه، وإما خائف من السيف، فنزلنا ناحية من المدينة، ثم خرجنا نؤم المسجد حتى انتهينا إلى بابه، فنجد رسول الله ﷺ يصلي على جنازة في المسجد، فقمنا ناحية، ولم ندخل مع الناس في صلاتهم حتى تلقى رسول الله ﷺ ونبأه، ثم انصرف رسول الله ﷺ، فنظر إلينا، فدعانا، فقال: «مَنْ أَنْتُمْ؟» فقلنا: من بني سعد هُذَيم، فقال: «أَمْسِلُكُمْ أَنْتُمْ؟» قلنا: نعم. قال: «فَهَلَّا صَلَّيْتُمْ عَلَى أَخِيكُمْ؟» قلنا: يا رسول الله! علنا أن ذلك لا يجوز لنا حتى نبأه، فقال رسول الله ﷺ: «أَبَيْتُمْ أَسْلَمْتُمْ فَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ»، قالوا: فأسلمنا وبأهنا رسول الله ﷺ على الإسلام، ثم انصرفنا إلى رحالنا قد خلفنا عليها أصفرنا، فبعث رسول الله ﷺ في طلبنا، فأتي بنا إليه، فتقدم صاحبنا إليه، فبايعه على الإسلام، فقلنا: يا رسول الله! إنه أصفرنا وإنه خادمنا، فقال: «أَصْغَرُ الْقَوْمِ خَادِمُهُمْ، بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْهِ»، قال: فكان والله خيرنا، وأقرأنا للقرآن لدعاء رسول الله ﷺ له، ثم أمره رسول الله ﷺ علينا، فكان يؤمنا، ولما أردنا الانصراف، أمر بلالاً فأجازنا بأواقي من فضة لكل رجل منا، فرجعنا إلى قومنا، فزرعهم الله الإسلام^(١).

فصل

في قدوم وفد بني فزارة

قال أبو الربيع بن سالم^(٢) في كتاب «الاكتفاء»: ولما رجع رسول الله ﷺ من تبوك، قدم عليه وفد بني فزارة بضعة عشر رجلاً، فيهم خارجة بن حصن، والحُر بن قيس ابن أخي عيينة بن حصن، وهو أصغرهم، فنزلوا في دار ملة بنت الحارث، وجاؤوا رسول الله ﷺ مقرين بالإسلام وهم مُسْتَتُونَ على ركاب عجاف^(٣)، فسألهم رسول الله ﷺ عن بلادهم، فقال أحدهم: يا رسول الله! أسنت بلادنا، وهلك مواشينا، وأجذب جنابنا، وعرت^(٤) عيالنا، فادع لنا ربك يُغيثنا، واشفع لنا إلى ربك، وليشفع لنا ربك إليك، فقال رسول الله ﷺ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِكَ هَذَا إِنَّمَا شَفَعْتُ إِلَى رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، فَمَنْ الَّذِي يَشْفَعُ رَبُّنَا إِلَيْهِ؟ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَظِيمُ، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَمَنْ يَتَّقُ مِنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ كَمَا يَتَّقُ الرَّحْلُ الْجَدِيدَ» وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لِيَضْحَكُ مِنْ شَفَافِكُمْ وَأَزْلِكُمْ، وَقُرْبُ غِيَاثِكُمْ»، فقال الأعرابي: يا رسول الله! ويضحك ربنا عز وجل؟ قال: «نعم»، فقال الأعرابي: لئن نَعَدَمَ مِنْ رَبِّ يَضْحَكُ خيراً، فضحك النبي ﷺ من قوله، وضعد المنبر، فتكلم بكلمات، وكان لا يرفع يديه في شيء من الدعاء إلا رفع الاستسقاء، فرفع يديه حتى روي يابضاً بطيه، وكان مما حُفِظَ من دعائه «اللَّهُمَّ اسْقِ بِلَادَكَ وَبَهَائِمَكَ، وَأَنْشُرْ رَحْمَتَكَ، وَاحْيِ بَلَدَكَ الْمَيِّتَ، اللَّهُمَّ اسْقِنَا غَيْثاً مُغِيثاً مَرِيئاً مَرِيئاً طَبَقاً وَاسِعاً عَاجِلاً غَيْرَ آجِلٍ نَافِعاً غَيْرَ ضَارٍّ، اللَّهُمَّ سَقِيَا رَحْمَةً لَا سَقِيَا عَذَابٍ، وَلَا هَذَمَ، وَلَا عَرَقٍ، وَلَا مَخَقَ، اللَّهُمَّ اسْقِنَا الْغَيْثَ وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْأَعْدَاءِ»^(٥).

(١) انظر: «شرح المواهب» (٥١/٤).

(٢) هو الأديب المؤرخ محدث الأندلس أبو الربيع سليمان بن موسى الحميري الكلاعي البلسي ولد سنة (٥٦٥هـ) وتوفي سنة (٦٣٤هـ) شهيداً، وكتابه «الاكتفاء».

(٣) مستنون: مجعديون، وعجاف: بالغة في الهزال، مع أعجف على غير قياس حملاً على نظيره، وهو «ضعاف» أو على ضده، وهو «سمان» والقياس: عجف كأحمر وحمير.

(٤) عرت: جاع.

(٥) ابن سيد الناس (٢/٢٤٩، ٢٥٠) وقوله: «تتطع»، أي: تصوت، وقوله: «من شغفكم» بفتح الشين والفاء: اسم من الإشغاف، والمراد به أقصر ما وجدوه من الضيق.

فصل

في قدوم وفد بني أسد

«ضُبَاعَةٌ أَرْسَلَتْ بِهِذَا؟» قالت سُدرة: نعم يا رسول الله، قال: «ضُعِي» ثم قال: «ما فعل ضيف أبي معيد؟» قلت: عندنا، قالت: فأصاب منها رسول الله ﷺ أكلاً هو ومن معه في البيت حتى نهلوا، وأكلت معهم سِدْرَةً، ثم قال: «اذْهَبِي بِمَا بَقِيَ إِلَى ضَيْفِكُمْ»، قالت سُدرة: فرجعت بما بقي في القصعة إلى مولاتي، قالت: فأكل منها الضيف ما أقاموا، نرددها عليهم، وما تغيض حتى جعل القوم، يقولون: يا أبا معيد! إنك لتنهلنا من أحب الطعام إلينا ما كنا نقدر على مثل هذا إلا في الحين، وقد ذكر لنا أن الطعام ببلادكم، إنما هو العَلَقَةُ أو نحوه، ونحن عندك في الشَّيْخ، فأخبرهم أبو معيد بخبر رسول الله ﷺ أنه أكل منها أكلاً، وردّها، فهذه بركة أصابع رسول الله ﷺ، فجعل القوم يقولون: نشهد أنه رسول الله، وازدادوا يقيناً، وذلك الذي أراد رسول الله ﷺ، فتعلّموا الفرائض، وأقاموا أياماً، ثم جاؤوا رسول الله ﷺ يودّعون، وأمر لهم بجواترهم، وانصرفوا إلى أهلهم^(١) [ابن سيد الناس (٢/٢٥١)].

فصل

في قدوم وفد عُذرة

وقدّم على رسول الله ﷺ وفد عُذرة في صفر سنة تسع اثنا عشر رجلاً، فيهم جمره بن النعمان، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ الْقَوْمُ؟» فقال متكلمهم: من لا تُكرّه، نحن بنو عُذرة إخوة قُصَيٍّ لأمه، نحن الذين عضدوا قُصَيّاً، وأزاحوا من بطن مكة خُزاعة وبني بكر، ولنا قرابات وأرحام، قال رسول الله ﷺ: مرحباً بكم وأهلاً، ما أعرّفتي بكم، فأهلموا، وبشّروهم رسول الله ﷺ بفتح الشام، وهرب هرقل إلى ممتنع من بلاده، ونهاهم رسول الله ﷺ عن سؤال الكاهنة، وعن الذبائح التي كانوا يذبحونها،

وقدّم عليه ﷺ وفد بني أسد عشرة رهط، فيهم وابصة بن معبد، وطلحة بن خويلد ورسول الله ﷺ جالس مع أصحابه في المسجد، فتكلّموا، فقال متكلمهم: يا رسول الله! إنا شهدنا أن الله وحده لا شريك له، وأنت عبده ورسوله، وجنتك يا رسول الله، ولم تبتع إلينا بعثاً، ونحن لمن وراءنا. قال محمد بن كعب القرظي: فأنزل الله على رسوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِلَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧] وكان مما سألوا رسول الله ﷺ عنه يومئذ العيافة والكهانة وضرب الحصى، فنهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك كله، فقالوا: يا رسول الله! إن هذه أمور كنا نفعلها في الجاهلية، أرايت خصلة بقيت؟ قال: «وما هي؟» قالوا: الخط. قال: «علّمه نبي من الأنبياء، فمن صادف مثل علمه علم»^(١).

فصل

في قدوم وفد بهراء^(٢)

ذكر الراقي عن كريمة بنت المقداد قالت: سمعت أمي ضُبَاعَةَ بنت الزبير بن عبد المطلب تقول: قدّم وفد بهراء من اليمن على رسول الله ﷺ وهم ثلاثة عشر رجلاً، فأقبلوا يقودون رواحلهم حتى انتهوا إلى باب المقداد، ونحن في منازلنا ببني حذيلة، فخرج إليهم المقداد، فرحب بهم، فأنزلهم، وجاءهم بجفّة من حيس قد كُتّا هيأناها قبل أن يجلوا لنجلس عليها، فحملها المقداد، وكان كريماً على الطعام، فأكلوا منها حتى نهلوا، وردّت إلينا القصعة، وفيها أكل، فجمعنا تلك الأكل في قصعة صغيرة، ثم بعثنا بها إلى رسول الله ﷺ مع سُدرة مولاتي، فوجدته في بيت أم سلمة، فقال رسول الله ﷺ:

(١) ابن سيد الناس (٢/٢٥٠) والعيافة: زجر الطير، والتأول بأسمائها وأصواتها ومعرها، والكهانة: تعاويذ خبير الكائنات في المستقبل، والخط: خط الرمل، مسلم (١١٩٩).

(٢) بفتح الباء وإسكان الهاء: قبيلة من قضاة، والنسبة إليها بهراني على غير قياس.

(٣) وكل ما يتلغ به من العيش، فهو عُلقة.

وأخبرهم أن ليس عليهم إلا الأضحية، فأقاموا أياماً بدار رملة، ثم انصرفوا وقد أجزوا [ابن سيد الناس (٢/ ٢٥١)].

فصل

في قدوم وفد بلي^(١)

وقدِمَ عليه وفد بليّ في ربيع الأول من سنة تسع، فأنزلهم رُوَيْفِعُ بْنُ ثَابِتِ الْبَلَوِيّ عنده، وقدِمَ بهم على رسول الله ﷺ، وقال: هؤلاء قومي، فقال له رسول الله ﷺ: «مَرْحَباً بِكَ وَبِقَوْمِكَ»، فأسلموا، وقال لهم رسول الله ﷺ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَاكُمْ لِلْإِسْلَامِ، فَكُلُّ مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ الْإِسْلَامِ، فَهُوَ فِي النَّارِ»، فقال له أَبُو الصُّبَيْبِ شَيْخُ الْوَفْدِ: يا رسول الله! إن لي رغبة في الضيافة، فهل لي في ذلك أجر؟ قال: «نَعَمْ، وَكُلُّ مَعْرُوفٍ صَنَعْتَهُ إِلَى غَنِيٍّ أَوْ فَقِيرٍ، فَهُوَ صَدَقَةٌ»، قال: يا رسول الله! ما وقتُ الضيافة؟ قال: «ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ، وَلَا يَحِلُّ لِلضَّيْفِ أَنْ يُقِيمَ عِنْدَكَ يُخْرِجَكَ»، قال: يا رسول الله أرايت الضَّالَّةَ مِنَ الْغَنَمِ أَجْدها في الفلاة من الأرض؟ قال: «هِيَ لَكَ أَوْ لِأَخِيكَ أَوْ لِلذَّنْبِ»، قال: فالبعير؟ قال: «مَالِكَ وَلَهُ، دَعَهُ حَتَّى يَجِدَهُ صَاحِبَهُ»، قال رُوَيْفِعُ: ثم قاموا فرجعوا إلى منزلي، فإذا رسول الله ﷺ يأتي منزلي يحمل تمراً، فقال: «اسْتَمِعِينَ هَذَا التَّمَرُ»، وكانوا يأكلون منه ومن غيره، فأقاموا ثلاثاً، ثم ودّعوا رسول الله ﷺ، وأجازهم، ورجعوا إلى بلادهم.

فصل

(حق الضيف)

في هذه القصة من الفقه: إن للضيف حقاً على مَنْ نزل به، وهو ثلاث مراتب: حق واجب، وتمام مستحب، وصدقة من الصدقات. فالحق الواجب يوم ليلة، وقد ذكر النبي ﷺ المراتب الثلاثة في الحديث المتفق على صحته من حديث أبي شريح الخزازي، أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ»، قالوا: وما جَائِزَتُهُ يا رسول الله؟ قال: «يَوْمُهُ وَلَيْلَتُهُ، وَالضَّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ، فَهُوَ صَدَقَةٌ، وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يُتَوَيَّرَ عِنْدَهُ حَتَّى يُخْرِجَهُ» [البخاري: ٦١٣٥، ومسلم: ١٧٦].

(جواز التقاط الغنم)

وفيه: جوازُ التقاط الغنم، وأن الشاة إذا لم يأت صاحبها، فهي ملك الملتقط، واستدل بهذا بعض أصحابنا على أن الشاة ونحوها مما يجوزُ التقاطه يُخَيَّرُ الملتقط بين أكله في الحال، وعليه قيمته، وبين بيعه وحفظ ثمنه، وبين تركه والإنفاق عليه من ماله، وهل يرجعُ به؟ على وجهين، لأنه ﷺ جعلها له، إلا أن يظهر صاحبها، وإذا كانت له، خُيِّرَ بين هذه الثلاثة، فإذا ظهر صاحبها، دفعها إليه أو قيمتها، وأما متقدمو أصحاب أحمد، فعلى خلاف هذا. قال أبو الحسين: لا يتصرف فيها قبل الحول رواية واحدة، قال: وإن قلنا: يأخذ ما لا يستقل بنفسه كالغنم، فإنه لا يتصرف بأكل ولا غيره رواية واحدة، وكذلك قال ابن عقيل. ونص أحمد في رواية أبي طالب في الشاة: يُعْرِفُها سنة، فإن جاء صاحبها ردها إليه، وكذلك قال الشريهان: لا يملك الشاة قبل الحول رواية واحدة. وقال أبو بكر: وضالة الغنم إذا أخذها يُعْرِفُها سنة، وهو الواجب، فإذا مضت السنة ولم يُعْرِفْ صاحبها، كانت له، والأول أفقه وأقرب إلى مصلحة الملتقط والمالك، إذ قد يكون تعريضها سنة مستلزماً لتغريم مالكةا أضعاف قيمتها إن قلنا: يرجع عليه بنفقتها، وإن قلنا: لا يرجع، استلزم تغريم الملتقط ذلك، وإن قيل: يدعها ولا يلتقطها، كانت للذئب وتلفت، والشارع لا يأمر بضياغ المال.

فإن قيل: فهذا الذي رجحتوه مخالف لنصوص أحمد وأقوال أصحابه، وللدليل أيضاً.

أما مخالفة نصوص أحمد، فمما تقدم حكايته في رواية أبي طالب، ونص أيضاً في روايته في مضطر وجد شاة مذبوحة وشاة ميتة، قال: يأكل من الميتة، ولا يأكل من المذبوحة، الميتة أُحِلَّتْ، والمذبوحة

(١) بفتح الباء وكسر اللام وياء مشددة، والنسبة إليها: بلوي نسبة إلى بلي بن عمر بن الحاف بن قضاة، وانظر: «شرح المواهب» (٤/ ٥٧)، وابن سيد الناس (٢/ ٢٥٢)، وابن سعد (١/ ٣٣٠).

والحديث يقتضيه بفحواه وقوته، وهذا ظاهر، وبالله التوفيق.

(لا يجوز التقاط البعير إلا أن يكون قلوأ صغيراً)

ومنها: أن البعير لا يجوز التقاطه، اللهم إلا أن يكون قلوأ صغيراً لا يمتنع من الذئب ونحوه، فحكمه حكم الشاة بتنبه النص ودلالته.

فصل

في قدوم وفد ذي مرة

[ابن سعد (١/٢٩٧)]

وقدِمَ على رسول الله ﷺ وفد ذي مرة ثلاثة عشر رجلاً رأسهم الحارث بن عوف، فقالوا: يا رسول الله! إنا قومك وعشيرتك، نحن قوم من بني لؤي بن غالب، فتبسم رسول الله ﷺ، وقال للحارث: أين تركت أهلَكَ؟ قال: بِسَلاح وما والاها. قال: وكيف البلاد؟ قال: واللّه إنا لمُستَبِتون، ما في المال مخ، فادعُ الله لنا. فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ اسْقِهِمُ الْغَيْثَ» فأقاموا أياماً، ثم أرادوا الانصراف إلى بلادهم، فجاؤوا رسول الله ﷺ مُودِّعين له، فأمر بلالاً أن يُجيزهم، فأجازهم بمشر أواق فضة، وفضل الحارث بن عوف أعطاه اثنتي عشرة أوقية، ورجعوا إلى بلادهم، فوجدوا البلاد مطيرة، فسألوا: متى مُطِرْتُمْ؟ فإذا هو ذلك اليوم الذي دعا رسول الله ﷺ فيه، وأخصبت بعد ذلك بلادهم.

فصل

في قدوم وفد خولان

وقدِمَ عليه ﷺ في شهر شعبان سنة عشر وفد خولان، وهم عشرة، فقالوا: يا رسول الله! نحن على مَنْ وَرَاءَنَا مِن قَوْمِنَا، ونحن مؤمنون بالله عز وجل، ومصدقون برسوله، وقد ضربنا إليك آباط الإبل، وركبنا حُرُونِ الْأَرْضِ وسهولها، والمنة الله ولسوله علينا، وقدمنا زائرين لك، فقال رسول الله ﷺ: «أَمَّا مَا دَعَرْتُمْ مِنْ مَسِيرِكُمْ إِلَيَّ فَإِنَّ لَكُمْ بِكُلِّ خَطْوَةٍ خَطَاةَا يُعِيرُ أَخَذَكُمْ حَسَنَةً، وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: زَائِرِينَ لَكَ، فَإِنَّهُ مَنْ زَارَنِي بِالْمَدِينَةِ، كَانَ فِي جَوَارِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هذا السفرُ

لها صاحب قد ذبحها، يُريد أن يعرفها، ويطلب صاحبها، فإذا أوجب إبقاء المذبوحة على حالها، فإبقاء الشاة الحية بطريق الأولى، وأما مخالفة كلام الأصحاب فقد تقدم، وأما مخالفة الدليل، ففي حديث عبد الله بن عمرو: يا رسول الله! كيف ترى في ضالة الغنم؟ فقال: «هِيَ لَكَ أَوْ لِأَخِيكَ، أَوْ لِلذَّئْبِ أَخْبِسْ عَلَى أَخِيكَ ضَالَّتُهُ». وفي لفظ: «رُدُّ عَلَى أَخِيكَ ضَالَّتُهُ» [أخرج بمعناه أحمد: ٦٦٨٣، وأبو داود: ١٧١٣، وسنده حسن]، وهذا يمنع البيع والذبح.

قيل: ليس في نص أحمد أكثر من التعريف، ومن يقول: إنه مخير بين أكلها وبيعها وحفظها، لا يقول بسقوط التعريف، بل يُعرفها مع ذلك، وقد عرف شيئها وعلامتها، فإن ظهر صاحبها أعطاه القيمة. فقول أحمد: يعرفها أعم من تعريفها وهي باقية، أو تعريفها وهي مضمونة في الذمة لمصلحة صاحبها وملتقطها، ولا سيما إذا التقطها في السفر، فإن في إيجاب تعريفها سنة من الحرج والمشقة ما لا يرضى به الشارع، وفي تركها من تعريضها للإضاعة والهلاك ما يُنافي أمره بأخذها، وإخباره أنه إن لم يأخذها كانت للذئب، فيتعين ولا بد: إما بيعها وحفظ ثمنها، وإما أكلها وضمان قيمتها أو مثلها.

وأما مخالفة الأصحاب، فالذي اختار التخيير من أكبر أئمة الأصحاب، ومن يتأس بشيوخ المذهب الكبار الأجلاء، وهو أبو محمد المقدسي قدس الله روحه، ولقد أحسن في اختياره التخيير كُلُّ الإحسان.

وأما مخالفة الدليل، فأين في الدليل الشرعي المنع من التصرف في الشاة الملتقطة في المفازة وفي السفر بالبيع والأكل، وإيجاب تعريفها والإنفاق عليها سنة مع الرجوع بالإنفاق، أو مع عدمه؟ هذا ما لا تأتي به شريعة فضلاً أن يقوم عليه دليل، وقوله ﷺ: «أَخْبِسْ عَلَى أَخِيكَ ضَالَّتُهُ» صريح في أن المراد به أن لا يستأثر بها دونه، ويُزيل حقه، فإذا كان بيعها وحفظ ثمنها خيراً له من تعريفها سنة، والإنفاق عليها، وتغريم صاحبها أضعاف قيمتها، كان حبسها وردّها عليه هو بالتخيير الذي يكون له فيه الحظ،

الذي لا تَوَى عَلَيْهِ، ثم قال رسول الله ﷺ: «مَا فَعَلَ عَمِ أَنَسٍ»^(١). - وهو صنم خولان الذي كانوا يعبدونه - قالوا: أَيْبُزْ، بَدَلْنَا اللَّهُ بِهِ مَا جِئْتَ بِهِ، وَقَدْ بَقِيتْ مِنَّا بَقَايَا - مِنْ شَيْخٍ كَبِيرٍ وَعَجُوزٍ كَبِيرَةٍ - مَتَمَسِّكُونَ بِهِ، وَلَوْ قَدَعْنَا عَلَيْهِ، لَهْلَعْنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَقَدْ كُنَّا مِنْهُ فِي غُرُورٍ وَفِتْنَةٍ. فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا أَغْظَمَ مَا رَأَيْتُمْ مِنْ فِتْنَتِهِ؟» قَالُوا: لَقَدْ رَأَيْتُنَا أَسْتَنَّا حَتَّى أَكَلْنَا الرُّمَةَ، فَجَمَعْنَا مَا قَدَرْنَا عَلَيْهِ، وَابْتَعْنَا بِهِ مِثْقَالَ ثَوْرٍ، وَنَحْرَنَاهَا «لَعَمِ أَنَسٍ» قُرْبَانًا فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ، وَتَرَكْنَاهَا تَرَدُّهَا السَّبَاعُ، وَنَحْنُ أَحْوَجُ إِلَيْهَا مِنَ السَّبَاعِ، فَجَاءَنَا الْغَيْثُ مِنْ سَاعَتِنَا، وَلَقَدْ رَأَيْنَا الْغُثْبَ يُوَارِي الرِّجَالَ، وَيَقُولُ قَائِلُنَا: أَنْعَمَ عَلَيْنَا «عَمِ أَنَسٍ» وَذَكَرُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا كَانُوا يَتَّقِيْمُونَ لَصْنَمِهِمْ هَذَا مِنْ أَنْعَامِهِمْ وَخُرُوثِهِمْ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا يَجْعَلُونَ مِنْ ذَلِكَ جِزَاءً لَهُ، وَجِزَاءَ اللَّهِ بِزَعْمِهِمْ، قَالُوا: كُنَّا نَزْرِعُ الزَّرْعَ، فَتَجْعَلُ لَهُ وَسْطَهُ، فَنَسْمِيهِ لَهُ، وَنَسْمِي زَرْعًا آخَرَ حَجْرَةً لِلَّهِ، فَإِذَا مَالَتِ الرِّيحُ فَالَّذِي سَمِينَاهُ لِلَّهِ جَعَلْنَاهُ لَعَمِ أَنَسٍ، وَإِذَا مَالَتِ الرِّيحُ، فَالَّذِي جَعَلْنَاهُ لَعَمِ أَنَسٍ، لَمْ نَجْعَلْهُ لِلَّهِ، فَذَكَرَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ عَلَيَّ فِي ذَلِكَ: «وَجَعَلُوا إِلَهًا مِثْلًا ذَرَأًا مِنْ أَلْحَرِثِ وَالْأَنْكَبِ نَصِيْبًا» [الأنعام: ١٣٦] قَالُوا: وَكُنَّا نَتَحَاكَمُ إِلَيْهِ فَنَتَكَلَّمُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تِلْكَ الشَّيَاطِينُ تُكَلِّمُكُمْ»، وَسَلَّاهُ عَنْ فَرَائِضِ الدِّينِ، فَأَخْبَرَهُمْ، وَأَمَرَهُمْ بِالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَحُسْنِ الْجَوَارِ لِمَنْ جَاوَرُوا، وَأَنْ لَا يَظْلُمُوا أَحَدًا. قَالَ: «فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، ثُمَّ دَعَا بَعْدَ أَيَّامٍ، وَأَجَازَهُمْ، فَجَعَلُوا إِلَى قَوْمِهِمْ، فَلَمْ يَخْلُوا عَقْدَةً حَتَّى هَدَمُوا «عَمِ أَنَسٍ» [ابن سيد الناس (٢٥٤-٢٥٣/٢)].

فصل

في قدوم وفد محارب

وَقَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفْدٌ مُحَارِبٌ عَامَ حُجَّةٍ الْوَدَاعِ، وَهُمْ كَانُوا أَغْلَظَ الْعَرَبِ، وَأَفْظَلَهُمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي تِلْكَ الْمَوَاسِمِ أَيَّامَ غَرْضِهِ نَفْسَهُ عَلَى الْقِبَالِ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ، فَجَاءَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْهُمْ

عَشْرَةَ نَاصِيئِينَ عَمِنَ وَرَاءَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ، فَأَسْلَمُوا، وَكَانَ بِلَالٌ يَأْتِيهِمْ بِقِدَاءٍ وَعِشَاءٍ إِلَى أَنْ جَلَسُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا مِنَ الظُّهْرِ إِلَى الْعَصْرِ، فَعَرَفَ رَجُلًا مِنْهُمْ، فَأَمَدَّهُ النَّظَرَ، فَلَمَّا رَأَى الْمُحَارِبِيَّ يُدِيمُ النَّظَرَ إِلَيْهِ، قَالَ: كَأَنَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ تُوْهِمُنِي؟ قَالَ: «لَقَدْ رَأَيْتُكَ»، قَالَ الْمُحَارِبِيُّ: أَيُّ وَاللَّهِ، لَقَدْ رَأَيْتَنِي وَكَلِمَتَنِي، وَكَلِمَتُكَ بِأَقْبَحِ الْكَلَامِ، وَرَدَدْتُكَ بِأَقْبَحِ الرَّدِّ بِعُكَاظٍ، وَأَنْتَ تَطْلُوفُ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ»، ثُمَّ قَالَ الْمُحَارِبِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا كَانَ فِي أَصْحَابِي أَشَدَّ عَلَيْكَ يَوْمَئِذٍ، وَلَا أَبْعَدُ عَنِ الْإِسْلَامِ مِنِّي، فَأَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِي أَبْقَانِي حَتَّى صَدَقْتُ بِكَ، وَلَقَدْ مَاتَ أَوْلَتُكَ النَّفْرُ الَّذِينَ كَانُوا مَعِيَ عَلَى دِينِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ بَيِّدَ اللَّوْ عَزَّ وَجَلَّ» فَقَالَ الْمُحَارِبِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! اسْتَغْفِرْ لِي مِنْ مَرَاஜِعَتِي إِلَيْكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْإِسْلَامَ يَجِبُ مَا كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الْكُفْرِ»، ثُمَّ انْصَرَفُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ [ابن سيد الناس (٢٥٤/٢)].

فصل

في قدوم وفد صُدَاءٍ فِي سَنَةِ ثَمَانَ

وَقَدِمَ عَلَيْهِ ﷺ وَفْدٌ صُدَاءٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا انْصَرَفَ مِنَ الْجِعْفَرَانَةِ، بَعَثَ بَعُوثًا، وَهِيَ بَعُثَاءُ، اسْتَعْمَلَ عَلَيْهِ قَيْسَ بْنَ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، وَعَقَدَ لَهُ لَوَاءً أَيْضًا، وَدَفَعَ إِلَيْهِ رَايَةً سُودَاءَ، وَعَسْكَرَ بِنَاحِيَةِ قَنَاءَ فِي أَرْبَعِمِئَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَطْلُبَ نَاحِيَةَ مِنَ الْيَمَنِ كَانَ فِيهَا صُدَاءُ، فَقَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ مِنْهُمْ، وَعَلِمَ بِالْجَيْشِ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! جِئْتُكَ وَافِدًا عَلَى مَنْ رَوَانِي فَارْدُو الْجَيْشَ، وَأَنَا لَكَ بِقَوْمِي، فَرَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَيْسَ بْنَ سَعْدٍ مِنْ صَدْرِ قَنَاءَ، وَخَرَجَ الصُّدَائِيُّ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَمْسَةَ عَشَرَ رَجُلًا مِنْهُمْ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! دَعِهِمْ يَنْزِلُوا عَلَيَّ، فَتَزَلُّوا عَلَيْهِ، فَحِيَاهُمْ وَأَكْرَمُهُمْ، وَكَسَاهُمْ، ثُمَّ رَاحَ بِهِمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَبَايَعُوهُ

(١) فِي كِتَابِ «الْأَصْنَافِ» عَمِيَانَسُ بِكَسْرِ الْعَيْنِ وَضَمِّ النُّونِ.

رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ يَسْتَهْزِئُ بِكَ إِلَى مَلَكٍ مُّقْرَّبٍ، وَلَا نَبِيٍّ مُّرْسَلٍ، حَتَّى جَزَّأَهَا ثَمَانِيَةَ أَجْزَاءٍ، فَإِنْ كُنْتَ جُزْأً مِنْهَا أَعْطَيْتُكَ، وَإِنْ كُنْتَ غَيْرَ غَيْرِهَا، فَإِنَّمَا هِيَ صُدَاعٌ فِي الرَّأْسِ، وَدَاءٌ فِي الْبَطْنِ»، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: هَاتَانِ خَصْلَتَانِ حِينَ سَأَلْتُ الْإِمَارَةَ، وَأَنَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ، وَسَأَلْتُهُ مِنَ الصَّدَقَةِ، وَأَنَا غَنِيٌّ عَنْهَا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَذَانِ كِتَابَاكَ فَاقْبَلْهُمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَلَمْ؟» فَقُلْتُ: إِنِّي سَمِعْتُكَ تَقُولُ: «لَا خَيْرَ فِي الْإِمَارَةِ لِرَجُلٍ مُسْلِمٍ»، وَأَنَا مُسْلِمٌ، وَسَمِعْتُكَ تَقُولُ: «مَنْ سَأَلَ مِنْ الصَّدَقَةِ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهَا، فَإِنَّمَا هِيَ صُدَاعٌ فِي الرَّأْسِ، وَدَاءٌ فِي الْبَطْنِ» وَأَنَا غَنِيٌّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا إِنَّ الَّذِي قُلْتَ كَمَا قُلْتَ»، فَقَبِلَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ لِي: «دُلَّنِي عَلَى رَجُلٍ مِنْ قَوْمِكَ أَسْتَعْمِلُهُ»، فَدَلَلْتُهُ عَلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَاسْتَعْمَلَهُ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنْ لَنَا بَرٌّ إِذَا كَانَ الشِّتَاءُ، كَفَانَا مَاوَاهَا، وَإِذَا كَانَ الصَّيْفُ، قُلَّ عَلَيْنَا، فَتَفَرَّقْنَا عَلَى الْمِيَاهِ، وَالْإِسْلَامُ الْيَوْمَ فِينَا قَلِيلٌ، وَنَحْنُ نَخَافُ، فَادْعُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَنَا فِي بَثْرِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَاوِلْنِي سَبْعَ حَصِيَّاتٍ» فَنَاوَلْتُهُ، فَعَرَّكَهِنَّ بِيَدِهِ، ثُمَّ دَفَعْنَهُنَّ إِلَيَّ وَقَالَ: إِذَا انْتَهَيْتَ إِلَيْهَا، فَأَلْقِ فِيهَا حَصَاةَ حَصَاةٍ، وَسَمِّ اللَّهَ» قَالَ: فَفَعَلْتُ، فَمَا أَدْرَكْنَا لَهَا قَعْرًا حَتَّى السَّاعَةِ^(١).

فصل

في فقه هذه القصة

ففيها: استحباب عقد الألوية والرايات للجيش، واستحباب كون اللواء أبيض، وجواز كون الراية سوداء من غير كراهة.

وفيهما: قبول خبر الواحد، فإن النَّبِيَّ ﷺ رَدَّ الجيش من أجل خبر الشُّدَّائِيِّ وحده.

وفيهما: جواز سير الليل كُلَّهُ في السفر إلى الأذان، فإن قوله: «اعتشى» أي: سار عشية، ولا يُقال لما بعد نصف الليل.

على الإسلام، فقالوا: نحنُ لك على مَنْ ورائنا من قوما، فرجعوا إلى قومهم، ففشا فيهم الإسلام، فوافى رسولُ الله ﷺ منهم مئة رجل في حجة الوداع، ذكر هذا الواقدي عن بعض بني المُصْطَلِقِ، وذكر من حديث زياد بن الحارث الشُّدَّائِيِّ، أنه الذي قَدِمَ على رسول الله ﷺ، فقال له: ارْدُدِ الْجَيْشَ وَأَنَا لَكَ بِقَوْمِي، فَرَدَّهُمْ، قَالَ: وَقَدِمَ وَفَدَّ قَوْمِي عَلَيْهِ، فَقَالَ لِي: «يَا أَخَا صُدَاءٍ، إِنَّكَ لَمَطَّاعٌ فِي قَوْمِكَ؟» قَالَ: قُلْتُ: بَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمِنْ رَسُولِهِ، وَكَانَ زِيَادٌ هَذَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، قَالَ: فَاعْتَشَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَيَّ سَارٍ لَيْلًا، وَاعْتَشَيْنَا مَعَهُ، وَكُنْتُ رَجُلًا قَوِيًّا، قَالَ: فَجَعَلَ أَصْحَابُهُ يَتَفَرَّقُونَ عَنْهُ، وَلَزِمْتُ غَرْزَهُ، فَلَمَّا كَانَ فِي السَّحَرِ، قَالَ: «أَذِّنْ يَا أَخَا صُدَاءٍ» فَأَذَّنْتُ عَلَى رَاحِلَتِي، ثُمَّ سَرْنَا حَتَّى ذَهَبْنَا، فَتَزَلَّ لِحَاجَتِهِ، ثُمَّ رَجَعْتُ، فَقَالَ: «يَا أَخَا صُدَاءٍ، هَلْ مَعَكَ مَاءٌ؟» قُلْتُ: مَعِيَ شَيْءٌ فِي إِدَاوَتِي، فَقَالَ: «هَاتِهِ» فَجِئْتُ بِهِ، فَقَالَ: «صُبِّ» فَصَبَبْتُ مَا فِي الْإِدَاوَةِ فِي الْقَعْبِ، فَجَعَلَ أَصْحَابُهُ يَتَلَحَّقُونَ، ثُمَّ وَضَعَ كَفَّهُ عَلَى الْإِنَاءِ، فَارْتَبَتْ بَيْنَ كُلِّ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِهِ عَيْنًا تَفُورُ، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَخَا صُدَاءٍ، لَوْ لَا أَنِّي اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، لَسَقَيْنَا وَاسْتَقَيْنَا» ثُمَّ تَوَضَّأَ وَقَالَ: «أَذِّنْ فِي أَصْحَابِي، مَنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ بِالْوَضُوءِ فَلْيَرِدْ» قَالَ: فَوَرَدُوا مِنْ آخِرِهِمْ، ثُمَّ جَاءَ بِلَالٌ يُقِيمُ، فَقَالَ: «إِنَّ أَخَا صُدَاءٍ أَذَّنَ، وَمَنْ أَذَّنَ، فَهُوَ يَتِيمٌ» فَاقَمْتُ، ثُمَّ تَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَصَلَّى بِنَا، وَكُنْتُ سَأَلْتُهُ قَبْلُ أَنْ يُؤَمِّرَنِي عَلَى قَوْمِي، وَيَكْتُبَ لِي بِذَلِكَ كِتَابًا، فَفَعَلَ، فَلَمَّا فَرِغَ مِنْ صَلَاتِهِ، قَامَ رَجُلٌ يَتَشَكَّى مِنْ عَامَلِهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّهُ أَخَذَنَا بِذُحُولٍ كَانَتْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا خَيْرَ فِي الْإِمَارَةِ لِرَجُلٍ مُسْلِمٍ»، ثُمَّ قَامَ آخَرُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَعْطِنِي مِنَ الصَّدَقَةِ، فَقَالَ

(١) ابن سيد الناس (٢/٢٥٥، ٢٥٦)، وحديث «من أذن فهو يقيم» أحمد (١٧٥٣٧)، وفي سننه عبد الرحمن ابن زياد

وفيها: جوازُ الأذان على الراحلة.

وفيها: طلبُ الإمام الماء من أحد رعيته للوضوء، وليس ذلك من السؤال.

وفيها: أنه لا يتيمَّم حتى يطلُب الماء فيُغَوِّزه.

(فوران الماء من بين أصابعه ﷺ لا من خلال اللحم والدم)

وفيها: المعجزةُ الظاهرة بفوران الماء من بين أصابعه، لما وضعها فيه، أمَّه الله به وكثره، حتى جعل يفور من خلال الأصابع الكريمة، والجهال تُظَنُّ أنه كان يشقُّ الأصابع، ويخرج من خلال اللحم والدم، وليس كذلك، وإنما بوضعه أصابعه فيه حلَّت فيه البركة من الله والمدد، فجعل يفور حتى خرج من بين الأصابع، وقد جرى له هذا مراراً عديدة بمشهد أصحابه.

(سنية الإقامة لمن اذن)

وفيها: أن السنة أن يتولى الإقامة من تولى الأذان، ويجوزُ أن يؤذن واحد، ويقيم آخر، كما ثبتت في قصة عبد الله بن زيد أنه لما رأى الأذان، وأخبر به النبي ﷺ قال: «أَلْقِهْ عَلَى بِلَالٍ»، فألقاه عليه، ثم أراد بلال أن يقيم، فقال عبد الله بن زيد: يا رسول الله! أنا رأيتُ، أريد أن أقيم، قال: «فأقم»، فأقام هو، وأذن بلال، ذكره الإمام أحمد رحمه الله [أحمد: ١٦٤٧٦، وأبو داود: ٥١٢، وفي سننه ضعيف].

(جواز تأمير الإمام وتوليته لمن سألَه ذلك إذا رآه كفناً)

وفيها: جوازُ تأمير الإمام وتوليته لمن سألَه ذلك إذا رآه كفناً، ولا يكون سؤاله مانعاً من توليته، ولا يُناقض هذا قوله في الحديث الآخر: «إِنَّا لَنُؤَلِّي عَلَى عَمَلِنَا مَنْ أَرَادَهُ» [البخاري: ٧١٤٩، ومسلم: ١٠٧]، فإن الصَّدَاقِي إنما سألَه أن يؤمِّره على قومه خاصة، وكان مطاعاً فيهم، محبباً إليهم، وكان مقصوده إصلاحهم، ودُعاهم إلى الإسلام، فرأى النبي ﷺ أن مصلحة قومه في توليته، فأجابَه إليها، ورأى أن ذلك السائل إنما سألَه الولاية لحظ نفسه ومصلحته هو، فمنعَه منها، فوَلَّى للمصلحة، ومنع للمصلحة، فكانت توليته لله، ومنعَه لله.

وفيها: جوازُ شيكَاية العمال الظلمة، ورفعهم إلى الإمام، والقدح فيهم بظلمهم، وأن ترك الولاية خيرٌ

للمسلم من الدخول فيها، وأن الرجل إذا ذكر أنه من أهل الصدقة، أعطي منها بقوله ما لم يظهر منه خلافه.

ومنها: أن الشخص الواحد يجوز أن يكون وحده صنفاً من الأصناف لقوله: «إِنَّ اللَّهَ جَزَأَهَا ثَمَانِيَةَ أَجْزَاءٍ، فَإِنْ كُنْتَ جُزْءاً مِنْهَا أُعْطَيْتَكَ».

ومنها: جوازُ إقالة الإمام لولاية من ولَّاه إذا سألَه ذلك.

ومنها: استشارة الإمام للذي الرأي من أصحابه فيمن يُؤْلِيه.

(جواز الوضوء بالماء المبارك)

ومنها: جوازُ الوضوء بالماء المبارك، وأن بركته لا تُوجب كراهة الوضوء منه، وعلى هذا فلا يُكره الوضوء من ماء زمزم، ولا من الماء الذي يجري على ظهر الكعبة. والله أعلم.

فصل

في قدوم وفد غسان

وقدموا في شهر رمضان سنة عشر، وهم ثلاثة نفر، فأسلموا وقالوا: لا ندري أيتُّعنا قومنا أم لا؟ وهم يُحْيُونَ بقاءَ ملكهم، وقربَ قيصر، فأجازهم رسولُ الله ﷺ بجواز، وانصرفوا راجعين، فقدموا على قومهم، فلم يستجيبوا لهم، وكنتمو إسلامهم حتى مات منهم رجلان على الإسلام، وأدرك الثالث منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه عام اليرموك، فلقى أبا عبيدة، فأخبره بإسلامه، فكان يُكرمه [ابن سيد الناس (٢٥٦/٢)].

فصل

في قدوم وفد سلامان

وقَدِمَ عليه ﷺ وفد سلامان سبعة نفر، فيهم حبيب بن عمرو، فأسلموا. قال حبيب: فقلت: أي رسول الله! ما أفضل الأعمال؟ قال: «الصَّلَاةُ فِي وَفَّيْهَا»، ثم ذكر حديثاً طويلاً، وصلوا معه يومئذ الظهر والعصر، أخفَّ من القيام في الظهر، ثم شَكُّوا إليه جَذْبَ يَدِهِم، فقال رسولُ الله ﷺ بيده: «اللَّهُمَّ اسْقِهِمُ الْعَيْثَ فِي دَارِهِم»، فقلت: يا

مَتَاعِكُمْ حَتَّى آتَى آتٍ فَأَخَذَ عِيَّةَ أَحَدِكُمْ»، فقال أحدُ القوم: يا رسول الله! ما لأحد من القوم عِيَّةٌ غيري، فقال رسول الله ﷺ: «فَقَدْ أَخَذْتُ وَرُدْتُ إِلَى مَوْضِعِهَا»، فخرج القوم سِرَاعاً حتى أتوا رحلهم، فوجدوا صاحبهم، فسألوه عما أَخْبَرَهُمْ رسولُ الله ﷺ، قال: فرُغْتُ مِنْ نومي، ففقدتُ العِيَّةَ، فقمْتُ في طلبها، فإذا رجل قد كان قاعداً، فلما رأيته، فثار يعدو مني، فانتَهيتُ إِلَى حَيْثُ انْتَهَى، فإذا أثر حفرة، وإذا هو قد غيب العِيَّةَ، فاستخرجتها، فقالوا: نشهد أنه رسول الله، فإنه قد أَخْبَرَنَا بِأَخْذِهَا، وَأَنَّهُ قَدْ رُدَّتْ، فرجعوا إِلَى النبي ﷺ، فَأَخْبَرُوهُ، وجاء الغلامُ الَّذِي خَلَّفُوهُ، فَاسْلَمَ، وأمر النبي ﷺ أُمِّيَّ بْنَ كَعْبٍ، فعلمهم قرآنًا، وأجازهم كما كان يجيز الوفود وانصرفوا^(١) [ابن سيد الناس (٢٥٧/٢)].

فصل

في قدوم وفد الأزدي على رسول الله ﷺ

ذكر أبو نعيم في كتاب «معرفة الصحابة»، والحافظ أبو موسى المديني، من حديث أحمد بن أبي الحواري، قال: سمعت أبا سليمان الداراني قال: حَدَّثَنِي علقمة بن يزيد بن سويد الأزدي، قال: حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ جَدِّي سويد بن الحارث قال: وفدت سابعَ سبعةٍ مِنْ قَوْمِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فلما دخلنا عليه، وكلمناه، أعجبهُ مَا رَأَى مِنْ سَمْتِنَا وَزِينَتِنَا، فقال: «مَا أَنْتُمْ؟» قلنا: مؤمنون، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «إِنْ لِكُلِّ قَوْلٍ حَقِيقَةٌ، فَمَا حَقِيقَةُ قَوْلِكُمْ وَلِيَامَانِكُمْ؟» قلنا: خمس عشرة خصلة، خمس منها أمرتنا بها رُسُلُكَ أَنْ نُؤْمِنَ بِهَا، وخمس أمرتنا أَنْ نَعْمَلَ بِهَا، وَخمس تخلقنا بها فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فنحن عليها الآن، إِلَّا أَنْ تَكْرَهُ مِنْهَا شَيْئاً، فقال رسول الله ﷺ: «وَمَا الْخَمْسُ الَّتِي أَمَرْتُكُمْ بِهَا رُسُلِي أَنْ تُؤْمِنُوا بِهَا؟» قلنا: أمرتنا أَنْ نُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت. قال: «وَمَا الْخَمْسُ الَّتِي أَمَرْتُكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهَا؟» قلنا: أمرتنا أَنْ نَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَنُقِيمَ الصَّلَاةَ،

رسول الله! ارفع يديك، فَإِنَّهُ أَكْثَرُ وَأَطْيَبُ، فتبسم رسول الله ﷺ، ورفع يديه حتى رَأَيْتُ بِيَاضَ إِبْطِيهِ، ثم قام وَقُمْنَا عَنْهُ، فَأَقَمْنَا ثَلَاثًا، وَضِيَّافَتُهُ تَجْرِي عَلَيْنَا، ثم ودعنا، وأمرنا بجوازئ، فأعطينا خمسَ أواقٍ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْنا، واعتذر إلينا بلال، وقال: ليس عندنا اليوم مال، فقلنا: مَا أَكْثَرَ هَذَا وَأَطْيَبَهُ، ثم رحلنا إِلَى بِلَادِنَا، فوجدناها قد مُطِرَتْ فِي الْيَوْمِ الَّذِي دَعَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ. قال الواقدي: وكان مقدمهم في شوال سنة عشر لابن سيد الناس (٢٥٧/٢).

فصل

في قدوم وفد بني عَيسٍ

وقَدِمَ عَلَيْهِ وَفْدُ بَنِي عَيسٍ، فقالوا: يا رسول الله! قَدِمَ عَلَيْنَا قُرَاؤُنَا، فَأَخْبَرُونَا أَنَّهُ لَا إِسْلَامَ لِمَنْ لَا هِجْرَةَ لَهُ، وَلَنَا أَمْوَالٌ وَمَوَاشٍ، وَهِيَ مَعَايِشُنَا، فَإِنْ كَانَ لَا إِسْلَامَ لِمَنْ لَا هِجْرَةَ لَهُ، فَلَا خَيْرَ فِي أَمْوَالِنَا، بَعْنَاهَا وَهَاجَرْنَا مِنْ آخِرِنَا، فقال رسول الله ﷺ: «اتَّقُوا اللَّهَ حَيْثُ كُنْتُمْ، فَلَنْ يَلْتَكُمُ اللَّهُ مِنْ أَغْمَالِكُمْ شَيْئاً» وسألهم رسول الله ﷺ عَنْ خَالِدِ بْنِ سِنَانٍ، هَلْ لَهُ عَقِيبٌ؟ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُ لَا عَقِيبَ لَهُ، كَانَتْ لَهُ ابْنَةٌ فَانْقَرَضَتْ، وَأَنْشَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَحْدُثُ أَصْحَابَهُ عَنْ خَالِدِ بْنِ سِنَانٍ، فقال: «لَنِي ضَيْعَةُ قَوْمِهِ» [حديث منكر لا يصح، وانظر ابن سيد الناس (٢٥٧/٢)].

فصل

في قدوم وفد غامد

قال الواقدي: قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفْدُ غَامِدٍ سَنَةِ عَشْرٍ، وَهُمْ عَشْرَةٌ، فَزَلُّوا بِبَيْعِ الْعَرْقَدِ، وَهُوَ يَوْمُئِذٍ أَثَلٌ وَطَرَفَاءُ، ثُمَّ انْطَلَقُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَخَلَّفُوا عِنْدَ رَحْلِهِمْ أَحَدَهُمْ سِتًّا، فَنَامَ عَنْهُ، وَأَتَى سَارِقٌ، فَسَرَقَ عِيَّةً لِأَحَدِهِمْ فِيهَا أَثَوَابٌ لَهُ، وَانْتَهَى الْقَوْمُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ، وَأَقْرَبُوا لَهُ بِالْإِسْلَامِ، وَكَتَبَ لَهُمْ كِتَاباً فِيهِ شَرَائِعُ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، وَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ خَلَّفْتُمْ فِي رَحَالِكُمْ؟» فقالوا: أَحَدُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَإِنَّهُ قَدْ نَامَ عَنْ

(١) والأثل والطرفاء: نوعان من الشجر متشابهان، والعِيَّة: مستودع الثياب.

ونزوتي الزكاة، ونصوم رمضان، ونحج البيت الحرام من استطاع إليه سبيلاً، فقال: «وَمَا الْحَمْسُ الَّتِي تَخْلَقْتُمْ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟» قالوا: الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، والرضى بمُرِّ القضاء، والصدق في مواطن اللقاء، وترك الشماتة بالأعداء. فقال رسول الله ﷺ: «حُكَمَاءُ عُلَمَاءُ كَادُوا مِنْ فِقْهِهِمْ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ»، ثم قال: وَأَنَا أَزِيدُكُمْ خَمْسًا، فَتَيْمٌ لَكُمْ عَشْرُونَ خَصْلَةً إِنْ كُنْتُمْ كَمَا تَقُولُونَ، فَلَا تَجْمَعُوا مَا لَا تَأْكُلُونَ، وَلَا تَبْنُوا مَا لَا تَسْكُنُونَ، وَلَا تُنَافِسُوا فِي شَيْءٍ أَنْتُمْ عَنْهُ عَدَاؤُكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَعَلَيْهِ تُعْرَضُونَ، وَارْغَبُوا فِيمَا عَلَيْهِ تَقْدُمُونَ، وَفِيهِ تَخْلُدُونَ، فانصرف القوم من عند رسول الله ﷺ، وحفظوا وصيته، وعملوا بها^(١).

فصل

في قدوم وفد بني المُتَنَفِّقِ على رسول الله ﷺ

روينا عن عبد الله بن الإمام أحمد ابن حنبل في مسند أبيه، قال: كتب إلي إبراهيم بن حمزة بن محمد بن حمزة بن مُصعب بن الزبير الزبيري: كتبت إليك بهذا الحديث، وقد عرضته وسمعته على ما كتبت به إليك، فحدثت بذلك عني، قال: حدثني عبد الرحمن بن المغيرة الجزامي، قال: حدثنا عبد الرحمن بن عياش السَّمْعِي الأنصاري، عن دُلْهم بن الأسود بن عبد الله بن حاجب بن عامر بن المُتَنَفِّقِ العقيلي، عن أبيه، عن عمه لقيط بن عامر، قال دُلْهم: وحدثني أيضاً، أبي الأسود بن عبد الله، عن عاصم بن لقيط، أن لقيط بن عامر، خرج وإفداً إلى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ومعه صَاحِبٌ له يقال له: نهيك بن عاصم بن مالك بن المُتَنَفِّقِ، قال لقيط: فخرجت أنا وصاحبي حَتَّى قَدِمْنَا على رسول الله ﷺ، فوافيناه حين انصرف من صلاة الغداة، فقام في الناس خطيباً، فقال: «إِنَّمَا النَّاسُ إِلَّا أَنِّي قَدْ خَبَأْتُ لَكُمْ صَوْتِي مُنْذُ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ، أَلَا لَيْسَمَعُوا الْيَوْمَ، أَلَا قَهْلٌ مِنْ أَمْرِي بِعَثَّةٍ قَوْمُهُ؟» فقالوا له: اغْلَمْ لَنَا مَا يَقُولُ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، «أَلَا تَمْ رَجُلٌ لَعَلَّهُ يُلْهِمُهُ حَدِيثُ نَفْسِهِ، أَوْ حَدِيثُ صَاحِبِهِ، أَوْ يُلْهِمُهُ ضَالٌّ إِلَّا إِنِّي مُسْئِلٌ، هَلْ بَلَّغْتُ، أَلَا اسْمَعُوا تَعِيشُوا، أَلَا اجْلِسُوا»، فجلس الناس، وقمت أنا وصاحبي حتى إذا فرغ لنا فؤاده ونظره، قلت: يا رسول الله، ما عندك من علم الغيب؟ فضحك: لَعَمْرُ اللَّهِ. عَلِمَ أَنِّي أَبْتَغِي السَّقَطَةَ، فقال: «صَنَ رَبُّكَ بِمَقَاتِلِ خَمْسٍ مِنَ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ»، وأشار بيده، فقلت: ما هن يا رسول الله؟ قال: «عِلْمُ الْمَيِّتَةِ، قَدْ عَلِمَ مَتَى مَيِّتُهُ أَحَدُكُمْ وَلَا تَعْلَمُونَهُ، وَعِلْمُ الْمَتَّى حِينَ يَكُونُ فِي الرَّجْمِ قَدْ عَلِمَهُ وَمَا تَعْلَمُونَهُ، وَعِلْمُ مَا فِي عَدِي قَدْ عَلِمَ مَا أَنْتَ طَاعِمٌ وَلَا تَعْلَمُهُ، وَعِلْمُ يَوْمِ الْغَيْثِ يُشْرَفُ عَلَيْكُمْ أَزْلِينَ مُشْفِقِينَ فَيُظَلُّ بِضَحْكَ قَدْ عَلِمَ أَنَّ عَوْنَكُمْ إِلَى قَرِيبٍ».

قال لقيط: فقلت: لن نَعْدَمَ مِنْ رَبِّ بَضْحَكَ خيراً يا رَسُولَ اللَّهِ، قال: «وَعِلْمُ يَوْمِ السَّاعَةِ»، قلنا: يا رَسُولَ اللَّهِ! علمنا مما تَعْلَمُ النَّاسُ وتعلم، فإننا من قبيل لا يُصَدِّقُونَ تصديقنا أحداً من مُذْهَجِ التي تربو علينا، وختمت التي ثوابنا وعشيرتنا التي نحن منها، قال: «تَلْبِثُونَ مَا لَيْسَ بَكُمْ، ثُمَّ يَتَوَفَّى نَبِيَّكُمْ، ثُمَّ تَلْبِثُونَ مَا لَيْسَ بَكُمْ، ثُمَّ تَبْعُثُ الصَّائِحَةَ، فَلَعَمْرُ إِلَهِكَ مَا تَدْعُ عَلَى ظَهْرِهَا شَيْئاً إِلَّا مَاتَ، وَالْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ مَعَ رَبِّكَ، فَأَصْبَحَ رَبُّكَ عَرّاً وَجَلَّ يَطُوفُ فِي الْأَرْضِ، وَخَلَّتْ عَلَيْهِ الْبِلَادُ، فَأَرْسَلَ رَبُّكَ السَّمَاءَ تَهْبِطُ مِنْ عِنْدِ الْعَرْشِ، فَلَعَمْرُ إِلَهِكَ مَا تَدْعُ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ مَضْرَعٍ قَتِيلٍ، وَلَا مَذْفَنٍ مَيِّتٍ إِلَّا شَقَّتِ الْقَبْرَ عَنْهُ حَتَّى تَخْلُقَهُ مِنْ عِنْدِ رَأْسِهِ فَيَسْتَوِي جَالِيساً، فَيَقُولُ رَبُّكَ: مَهَيْمَ، لِمَا كَانَ فِيهِ يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَمْسَ، الْيَوْمَ، لِعَهْدِهِ بِالْحَيَاةِ، يَحْسِبُهُ حَدِيثاً بِأَهْلِهِ»، فقلت: يا رَسُولَ اللَّهِ! فكيف يجمعنا بعد ما تَمَرَّقْنَا الرِّيحَ والبلَى والسباع؟ قال: «أَنْبُتَكَ بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي آيَةِ اللَّهِ: الْأَرْضُ أَشْرَفَتْ عَلَيْهَا وَهِيَ فِي مَدْرَةٍ بَالِيَةٍ»، فقلت: لا تحيى أبداً. ثم أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهَا السَّمَاءَ، فَلَمْ تَلْبَثْ عَلَيْكَ إِلَّا أَيَّاماً حَتَّى أَشْرَفَتْ عَلَيْهَا وَهِيَ شَرِبَةٌ وَاحِدَةٌ، وَلَعَمْرُ إِلَهِكَ لَهْوٌ أَقْدَرُ عَلَى أَنْ يَجْمَعَكُمْ مِنَ الْمَاءِ عَلَى أَنْ يَجْمَعَ نَبَاتِ الْأَرْضِ فَتَخْرُجُونَ مِنَ الْأَضْوَاءِ، وَمِنْ

(١) سننه ضعيف، لأن عقلمة بن يزيد بن سويد، قال الذهبي في «الميزان»: لا يعرف، وأتى بخبر منكرو، فلا يحتج به.

مَصَارِعَكُمْ، فَنَنْظُرُونَ إِلَيْهِ وَنَنْظُرُ إِلَيْكُمْ»، قال: قلت: يا رسول الله! كيف ونحن ملء الأرض وهو شخص واحد ينظر إلينا وننظر إليه؟ قال: «أنتك بمثل هذا في آلاء الله: الشمس والقمر آية منه صغيرة تَرَوْنَهُمَا وَيَرِيَانِكُمْ سَاعَةً وَاحِدَةً ولا تُصَارُونَ في رؤيتهما، ولعمرك إلهك لهو أقدر على أن يراكم وترويه من أن تروا نورهما ويريانكم لا تضارون في رؤيتهما. قلت: يا رسول الله! فما يفعل بنا ربنا إذا لقيناه؟ قال: «تَعْرَضُونَ عليه بآية له صَفَحَاتِكُمْ لا يَخْفَى عليه منكم خافية، فيأخذ ربك عز وجل بيديه عُرفَةً من ماء، فيَنْضَحُ بها قبلكم، فَلَغَمَرُ إلهك ما يخطيء وجه أحد منكم منها قطرة، فأما المسلم فتَدَحَّ وجهه مثل الرِيْطَةِ البيضاء، وأما الكافر فتَنْضَحُهُ، أو قال: فتخطئه بمثل الحُمِّ الأسود إلا ثم يَنْصَرِفُ نَبِيَّكُمْ ويفترق على أثره الصَّالِحُونَ فَيَسْلُكُونَ جَسْرًا مِنَ النَّارِ يَطَأُ أَحَدُكُمْ الْجَمْرَةَ يقول: جس، يقول ربك عز وجل، أو أنه؛ ألا قَتْلَمُونَ على حَوْضِ نَبِيِّكُمْ على أَظْمَاءٍ - والله - نَاهِلَةً عليها قَطْرَ رَأْيَتِهَا، فَلَغَمَرُ إلهك ما يَسْطُ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَدَهُ إِلَّا وَقَعَ عليها قَدَحٌ يُظْهِرُهُ مِنَ الظُّلُمِ والبُؤْسِ والأذى، وتُخَسُّ الشمس والقمر فلا تَرَوْنَ منهما واحداً. قال: قلت: يا رسول الله! فيم نصبر؟ قال: «بِمِثْلِ بَصْرِكَ سَاعَتِكَ هَذِهِ، وذلك قبل طُلُوعِ الشمس في يَوْمٍ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ وَوَاجَهَتْ بِهِ الْجِبَالُ»، قال: قلت: يا رسول الله! فيم نُجْزَى من سَيِّئَاتِنَا وَحَسَنَاتِنَا؟ قال ﷺ: «الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا إِلَّا أَنْ يَغْفُو»، قال قلت: يا رسول الله! ما الجنة وما النار؟ قال: «لَغَمَرُ إلهك إِنَّ النَّارَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ مَا مِنْهَا بَابٌ إِلَّا يَسِيرُ الرَّائِبُ بَيْنَهُمَا سَبْعِينَ عَامًا، وَإِنَّ الْجَنَّةَ لَهَا ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ مَا مِنْهَا بَابٌ إِلَّا يَسِيرُ الرَّائِبُ بَيْنَهُمَا سَبْعِينَ عَامًا»، قلت: يا رسول الله! فعلام نطلع من الجنة؟ قال: «على أَنْهَارٍ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى، وَأَنْهَارٍ مِنْ خَمَرٍ مَا يَبْهَأُ صَدَاعٌ وَلَا نَدَامَةٌ، وَأَنْهَارٍ مِنْ لَبَنٍ مَا يَتَغَيَّرُ طَعْمُهُ، وَمَاءٌ غَيْرُ آسِنٍ، وَفَاكِهَةٌ، وَلَغَمَرُ إلهك مَا تَعْلَمُونَ وَخَيْرٌ مِنْ مِثْلِهِ مَعَهُ وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ. قلت: يا رسول الله! أولنا فيها أزواج أو منهم مصلحات؟ قال: الْمُصْلِحَاتُ لِلصَّالِحِينَ، وفي لفظ: الصَّالِحَاتُ لِلصَّالِحِينَ

تَلَذُّونَهُنَّ وَيَلَذُّونَكُمْ مِثْلَ لَذْنِكُمْ فِي الدُّنْيَا غَيْرَ أَنْ لَا تَوَالِدَ»، قال لقيط: فقلت: يا رسول الله! أقصى ما نحن بالغون ومتهمون إليه؟ فلم يُجِبْه النبي ﷺ، قال: قلت: يا رسول الله! علام أبايك؟ فبسط النبي ﷺ يده، وقال: «على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وزِيَالِ الْمُشْرِكِ، وَأَنْ لَا تُشْرِكَ بِاللَّهِ إِلَهًا غَيْرُهُ» قال: قلت: يا رسول الله! وإن لنا ما بين المشرق والمغرب، فقبض رسول الله ﷺ يده، وظن أني مشروط ما لا يعطيني، قال: قلت: نحل منها حيث شئنا، ولا يجني امرؤ إلا على نفسه، فبسط يده، وقال: «لك ذلك نَحْلٌ حَيْثُ شِئْتَ، وَلَا يَجْنِي عَلَيْكَ إِلَّا نَفْسُكَ»، قال: فانصرفنا عنه، ثم قال: «ها إنَّ ذَيْنِ، هَا إِنَّ ذَيْنِ - مَرَّتَيْنِ - لَعَمْرُ إلهك من أتقى الناس في الأولى والآخرة»، فقال له كعب بن الخديرة أحد بني بكر بن كلاب: مَنْ هُمَ يا رسول الله؟ قال: «بنو المستوفى، بنو المستوفى، بنو المستوفى، أهل ذلك منهم»، قال: فانصرفنا، وأقبلت عليه، فقلت: يا رسول الله! هل لأحد من مضى من خير في جاهليتهم؟ فقال رجل من غرض قريش: والله إن أباك المستوفى لفي النار، قال: فكأنه وقع حرٌّ بين جلد وجهي ولحمه مما قال لأبي على رؤوس الناس، فهممت أن أقول: وأبوك يا رسول الله؟ ثم إذا الأخرى أجمل، فقلت: يا رسول الله! وأهلك؟ قال: «وأهلي لَعَمْرُ اللَّهِ، حَيْثُ مَا آتَيْتَ على قَبْرِ عَامِرٍ، أو قُرْشِي من مشرك قُلْ: أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ مُحَمَّدٌ، فَأَبَشْرُكَ بِمَا يَسُوءُكَ، تُجَرُّ عَلَى وَجْهِكَ وَيَطْنِيكَ فِي النَّارِ»، قال: قلت: يا رسول الله! وما فعل بهم ذلك، وقد كانوا على عمل لا يحسنون إلا إياه، وكانوا يحسبون أنهم مصلحون؟ قال ﷺ: «ذلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ بَعَثَ فِي آخِرِ كُلِّ سَبْعٍ أَمَمَ نَبِيًّا، فَمَنْ عَصَى نَبِيَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَمَنْ أَطَاعَ نَبِيَّهُ كَانَ مِنَ الْمُهْتَدِينَ» [عبد الله بن الإمام أحمد في نزول المستند: ١٦٢٠٦، وسنده ضعيف].

هذا حديث كبير جليل، تُنادي جلالته وفخامته وعظمته على أنه قد خرج من مشكاة النبوة، لا يُعرف إلا من حديث عبد الرحمن بن المغيرة بن عبد الرحمن المدني، رواه عنه إبراهيم بن حمزة الزيري، وهما من كبار علماء المدينة، فثقتان محتج بهما في الصحيح، احتج بهما إمام أهل الحديث

محمد بن إسماعيل البخاري، ورواه أئمة أهل السنة في كتبهم، وتلقَّوه بالقبول، وقابلوه بالتسليم والانقياد، ولم يطعن أحد منهم فيه، ولا في أحد من رواته.

(بَيَانٌ مِنْ أَخْرَجِهِ)

فَمَنْ رَوَاهُ: الإمام ابن الإمام، أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل في مسند أبيه، وفي كتاب «السنة» وقال: كتب إلي إبراهيم بن حمزة بن محمد ابن حمزة بن مصعب بن الزبير الزبيري: كتبت إليك بهذا الحديث، وقد عرضته، وسمعتُه على ما كتبتُ إليك، فحدث به عني.

ومَنهم: الحافظ الجليل أبو بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم النبيل في كتاب «السنة» له.

ومَنهم: الحافظ أبو أحمد محمد بن أحمد بن إبراهيم بن سليمان العسال في كتاب «المعرفة».

ومَنهم: حافظ زمانه، ومحدث أوانه، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني في كثير من كتبه.

ومَنهم: الحافظ أبو محمد عبد الله بن محمد بن حيَّان أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب «السنة».

ومَنهم: الحافظ بن الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن مندة، حافظ أصبهان.

ومَنهم: الحافظ أبو بكر أحمد بن موسى بن مردويه.

ومَنهم: حافظ عصره، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن إسحاق الأصبهاني، وجماعة من الحفاظ سواهم يطول ذكرهم.

وقال ابن مندة: روى هذا الحديث محمد بن إسحاق الصنعاني، وعبد الله بن أحمد بن حنبل وغيرهما، وقد رواه بالعراق بجميع العلماء وأهل الدين جماعة من الأئمة منهم أبو زرعة الرازي، وأبو حاتم، وأبو عبد الله محمد بن إسماعيل، ولم يُنكره أحد، ولم يتكلم في إسناده، بل رَوَّه على سبيل القبول والتسليم، ولا يُنكر هذا الحديث إلا جاحِدٌ، أو جاهل، أو مخالف للكتاب والسنة، هذا كلام أبي عبد الله بن مندة.

وقوله: تَهْضِبُ: أي تُمَطِّر. والأصواء: القبور.

والشربة - بفتح الراء - الحوض الذي يجتمع فيه الماء، وبالسكون والياء: الحنظلة، يُريد أن الماء قد كثر، فمن حيث شئت تشرب. وعلى رواية السكون والياء: يكون قد شبه الأرض بخضرتها بالنبات بخضرة الحنظلة واستوائها^(١).

وقوله: حسن: كلمة يقولها الإنسان إذا أصابه على غفلة ما يحرقه أو يؤلمه، قال الأصمعي: وهي مثل أوه. وقوله: يقول ربك عز وجل: «أو أنه». قال ابن قتيبة: فيه قولان: أحدهما: أن يكون «أنه» بمعنى «نعم». والآخر: أن يكون الخبر محذوفاً كأنه قال:

أنتم كذلك، أو أنه على ما يقول. والطف: الغائط. وفي الحديث: لا يُصَلِّ أَحَدُكُمْ، وهو يُدْفِعُ الطُّوفَ والبَوْلَ والجسر: الصراط. وقوله: «فيقول ربك مهيم»: أي: ما شأنك وما أمرك، وفيه كنت.

وقوله: «يشرف عليكم أزلين»: الأزل - بسكون الزاي - الشدة، والأزل على وزن كَيْف: هو الذي قد أصابه الأزل، واشتد به حتى كاد يقط.

(الضحك من صفات الله الفعلية وكذلك النزول وغيرهما)
وقوله: «فَيُظِلُّ يَضْحَكُ» هو من صفات أفعاله سبحانه وتعالى التي لا يُشَبِّهه فيها شيء من مخلوقاته، كصفات ذاته، وقد وردت هذه الصفة في أحاديث كثيرة لا سبيلَ إلى ردها، كما لا سبيلَ إلى تشبيهها وتحريفها، وكذلك «فَأَصْبَحَ رَبُّكَ يَطُوفُ فِي الْأَرْضِ»، هو من صفات فعله، كقوله «وَيَا رَبُّكَ الْمَلَكُ» [الفجر: ٢٢] «فَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ» [الأنعام: ١٥٨]، «وَيَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا»، «وَيَلْبَسُونَ عَشِيَّةً عَرَفَةً»، «فَيَأْتِيهِ بِأَهْلِ الْمَوْقِفِ الْمَلَائِكَةُ»، والكلام في الجميع صراط واحد مستقيم، إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تحريف ولا تعطيل.

(موت الملائكة)

وقوله: «والملائكة الذين عند ربك»: لا أعلم موت الملائكة جاء في حديث صريح إلا هذا، وحديث إسماعيل بن رافع الطويل، وهو حديث

(١) في النهاية: «ثم أشرفت عليها وهي شربة واحدة» هكذا رواه بعضهم: أراد أن الأرض اخضرت بالنبات فكانها حنظلة واحدة، والرواية: شربة بالباء الموحدة.

الصور، وقد يستدل عليه بقوله تعالى: ﴿وَتُفَيْحُ فِي الْأَشْيَاءِ فَصَوْغٌ مِّنَ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الرَّؤْم: ٦٨].

(جواز الإقسام بصفات الله)

وقوله: فلعمري إلهك. هو قسم بحياة الرب جل جلاله، وفيه دليل على جواز الإقسام بصفاته، وانعقاد اليمين بها، وأنها قديمة، وأنه يطلق عليه منها أسماء المصادر، ويوصف بها، وذلك قدر زائد على مجرد الأسماء، وأن الأسماء الحسنى مشتقة من هذه المصادر دالة عليها.

وقوله: ثم تجيء الصائحة: هي صيحة البعث ونفخته.

وقوله: «حتى يخلفه من عند رأسه»: هو من أخلف الزرع: إذا نبت بعد حصاده، شبه النشأة الآخرة بعد الموت بإخلاف الزرع بعد ما حصد، وتلك الخلفة من عند رأسه كما ينبت الزرع.

وقوله: «فيستوي جالساً»: هذا عند تمام خلقته وكمال حياته، ثم يقوم بعد جلوسه قائماً، ثم يساق إلى موقف القيامة إما راكباً وإما ماشياً.

وقوله: «يقول: يا رب أمس، اليوم»، استقلال لمدة لبث في الأرض، كأنه لبث فيها يوماً، فقال: أمس، أو بعض يوم، فقال: اليوم، يحسب أنه حديث عهد بأهله، وأنه إنما فارقهم أمس أو اليوم.

(كان الصحابة يخوضون في دقائق المسائل)

وقوله: «كيف يجمعنا بعد ما تمزقنا الرياح والبلى والسباع؟» وإقرار رسول الله ﷺ له على هذا السؤال، رد على من زعم أن القوم لم يكونوا يخوضون في دقائق المسائل، ولم يكونوا يفهمون دقائق الإيمان، بل كانوا مشغولين بالعلميات، وأن أفرار الصحابة والمجوس من الجهمية والمعتزلة والفلسفة أهرق منهم بالعلميات.

(كان الصحابة يوردون عليه ﷺ)

ما يشكل عليهم من الأسئلة والشبهات)

وفيه دليل على أنه كانوا يوردون على رسول الله ﷺ ما يُشكل عليهم من الأسئلة والشبهات، فيجيبهم عنها بما يُبَلِّغ صدورهم، وقد أورد عليه ﷺ الأسئلة

أعداؤه وأصحابه، أعداؤه: للتعنت والمغالبة، وأصحابه: للفهم والبيان وزيادة الإيمان، وهو يُجيب كلاً عن سؤاله إلا ما لا جواب عنه، كسؤاله عن وقت الساعة، وفي هذا السؤال دليل على أنه سبحانه يجمع أجزاء العبد بعدما فرَّقها، وينشئها نشأة أخرى، ويخلق خلقاً جديداً كما سماء في كتابه، كذلك في موضعين منه. وقوله: «أثبتك بمثل ذلك في آلاء الله»، الآلاء: نعمه وآياته التي تعرف بها إلى عباده. وفيه: إثبات القياس في أدلة التوحيد والمعاد، والقرآن مملوء منه.

(حكم الشيء حكم نظيره)

وفيه: أن حكم الشيء حكم نظيره، وأنه سبحانه إذا كان قادراً على شيء، فكيف تعجز قدرته عن نظيره ومثله؟ فقد قرر الله سبحانه أدلة المعاد في كتابه أحسن تقرير وأبينه وأبلغه، وأوصله إلى العقول والفطر، فأبى أعداؤه الجاحدون إلا تكذيباً له، وتعجزاً له، وطعناً في حكمته، تعالى عما يقولون علواً كبيراً.

وقوله في الأرض: «أشرفت عليها، وهي مدرة بالية». هو كقوله تعالى: ﴿وَبَهِ الْأَرْضِ بَدَّ مَوْتَهَا﴾ [الرُّوم: ١٩]. وقوله: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ كَالْيَدِ فَلَمَّا أَزَلْنَا عَنْهَا آلَمَةَ أَغْرَقَتْ وَبَثَّتْ وَأَلْبَثَتْ مِنْ سَكَلٍ رَجَعَ بَهْجِ﴾ [الصَّح: ٥]، ونظائره في القرآن كثيرة.

وقوله: «فتنترون إليه وينظر إليكم»، فيه إثبات صفة النظر لله عز وجل، وإثبات رفته في الآخرة.

وقوله: «كيف ونحن ملء الأرض وهو شخص واحد»، قد جاء هذا في هذا الحديث. وفي قوله في حديث آخر: «لا شخص أخير من الله» [مسلم: ٣٧١٤] والمخاطبون بهذا قوم حرب يعلمون المراد منه، ولا يقع في قلوبهم تشبيه سبحانه بالأشخاص، بل هم أشرف عقولاً، وأصح أذهاناً، وأسلم قلوباً من ذلك، وحقق ﷺ وقرع الرؤية عياناً برؤية الشمس والقمر تحقيقاً لها، ونفياً لتوهم المجاز الذي يظنه المعطلون.

(إثبات صفة اليد لله)

وقوله: «فياخذ ربك بيده غرفة من الماء فينضح بها قبلكم»، فيه إثبات صفة اليد له سبحانه بقوله، وإثبات

الفعل الذي هو النضجُ. والريطة: الملاعة. والحمم: جمع حممة، وهي الفحمة.

وقوله: «ثم ينصرفُ نبيكم»، هذا انصراف من موقف القيامة إلى الجنة.

وقوله: «وَيَفْرُقُ على أثره الصالحون»: أي يفزعون ويمضون على أثره.

(هل الحوض قبل الصراط؟)

وقوله: «فتطلعون على حوض نبيكم»: ظاهر هذا أن الحوض من وراء الجسر، فكانهم لا يصلون إليه حتى يقطعوا الجسر، وللسلف في ذلك قولان حكاهما القرطبي في «تذكرته»، والغزالي، وغلطا من قال: إنه بعد الجسر، وقد روى البخاري: عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «بَيْنَا أَنَا قَائِمٌ عَلَى الْحَوْضِ إِذَا زُمُرَةٌ حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ، فَقَالَ لَهُمْ: هَلُمَّ، فَقُلْتُ: إِلَى أَيْنَ؟ فَقَالَ: إِلَى النَّارِ وَاللَّهِ، قُلْتُ: مَا شَأْنُهُمْ؟ قَالَ: إِنَّهُمْ ارْتَدَّوْا عَلَى أَذْبَارِهِمْ، فَلَا أَرَاهُ يَخْلُصُ مِنْهُمْ إِلَّا مِثْلُ هَمَلٍ النَّعْمِ» [البخاري: ٦٥٨٥]. قال: فهذا الحديث مع صحته أدل دليل على أن الحوض يكون في الموقف قبل الصراط، لأن الصراط إنما هو جسر ممدود على جهنم، فمن جازه سلم من النار.

قلت: وليس بين أحاديث رسول الله ﷺ تعارض ولا تناقض ولا اختلاف، وحديثه كله يصدق بعضه بعضاً، وأصحابُ هذا القول إن أرادوا أن الحوض لا يرى ولا يوصل إليه إلا بعد قطع الصراط، فحديث أبي هريرة هذا وغيره يردُّ قولهم، وإن أرادوا أن المؤمنين إذا جازوا الصراط وقطعوه بدا لهم الحوض فشرّبوا منه، فهذا يدل عليه حديث لقيط هذا، وهو لا يتناقض كونه قبل الصراط، فإن قوله: طوله شهر، وعرضه شهر، فإذا كان بهذا الطول والسعة، فما الذي يُحيل امتداده إلى وراء الجسر، فيرده المؤمنون قبل الصراط ويعدّه، فهذا في حيز الإمكان، ووقوعه

موقوفٌ على خبر الصادق، والله أعلم.

وقوله: «والله على أظلماً تاهلة قط»: التاهلة: العطاش الواردون الماء، أي: يردونه أظلماً ما هم إليه، وهذا يُناسب أن يكون بعد الصراط، فإنه جسرُ النار، وقد وردوها كُلُّهم، فلما قطعوه، اشتد ظمؤهم إلى الماء، فوردوا حوضه ﷺ، كما وردوه في موقف القيامة.

وقوله: «تخس الشمس والقمر»: أي: تختفيان فتحتبسان، ولا يُريان. والاختناس: التواري والاختفاء. ومنه: قول أبي هريرة: فاختنست منه.

(معنى ما بين البابين مسيرة سبعين عاماً)

وقوله: «ما بين البابين مسيرة سبعين عاماً»، يحتمل أن يُريد به أن ما بين الباب والباب هذا المقدار، ويحتمل أن يريد بالبابين المصراعين، ولا يُناقض هذا ما جاء من تقديره بأربعين عاماً لوجهين: أحدهما: إنه لم يُصرِّح فيه راويه بالرفع، بل قال: ولقد ذُكر لنا أن ما بين المصراعين مسيرة أربعين عاماً. والثاني: إن المسافة تختلف باختلاف سرعة السير فيها وبطئه والله أعلم.

(صفة خمر الجنة)

وقوله: «في خمر الجنة أنه ما بها صداع ولا ندامة»، تعريض بخمر الدنيا وما يلحقها من صداع الرأس، والندامة على ذهاب العقل والمال، وحصول الشر الذي يُوجبه زوال العقل. والماء غير الآسن: هو الذي لم يتغير بطول مكثه.

(هل تلد نساء أهل الجنة)

وقوله في نساء أهل الجنة: «غير أن لا توالد»: قد اختلف الناس، هل تلد نساء أهل الجنة؟ على قولين، فقالت طائفة: لا يكون فيها جبل ولا ولادة، واحتجت هذه الطائفة بهذا الحديث، وبحديث آخر أظنه في «المسند» وفيه: «غير أن لا مني ولا منية»^(١).

(١) الطبراني من حديث أبي أمامة فيما ذكره المؤلف في «حادي الأرواح» ص (١٧٩) أن رسول الله ﷺ، سئل: أيجامع أهل الجنة؟ قال: دحاً دحاً، لكن لا مني ولا منية. وفي سننه خالد بن يزيد بن عبد الرحمن بن أبي مالك، ضعيف، وقد اتهمه ابن معين.

وأثبتت طائفة من السلف، الولادة في الجنة، واحتجت بما رواه الترمذي في «جامعه» من حديث أبي الصديق الناجي، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ إِذَا اشْتَهَى الْوَلَدَ فِي الْجَنَّةِ كَانَ حَمْلُهُ وَوَضْعُهُ وَسَيْتُهُ فِي سَاعَةٍ كَمَا يَشْتَهِي». قال الترمذي: حسن غريب، ورواه ابن ماجه [الترمذي: ٢٥٦٦، وابن ماجه: ٤٣٣٨].

قالت الطائفة الأولى: هذا لا يدل على وقوع الولادة في الجنة، فإنه علقه بالشرط، فقال: إذا اشتهى، ولكنه لا يشتهي، وهذا تأويل إسحاق بن راهويه، حكاه البخاري عنه. قالوا: والجنة دارُ جزاء على الأعمال، وهؤلاء ليسوا من أهل الجزاء، قالوا: والجنة دارُ خلود لا موت فيها، فلو توالد فيها أهلها على الدوام والأبد، لما وسعتهم، وإنما وسعتهم الدنيا بالموت.

وأجابت الطائفة الأخرى عن ذلك كله وقالت: «إذا» إنما تكون لمحقق الوقوع، لا المشكوك فيه، وقد صح أنه سبحانه ينشئ للجنة خلقاً يسكنهم إياها بلا عمل منهم، قالوا: وأطفال المسلمين أيضاً فيها بغير عمل. وأما حديث سعتها: فلو رزق كل واحد منهم عشرة آلاف من الولد وسعتهم، فإن أدناهم من ينظر في ملكه مسيرة ألفي عام.

وقوله: «يا رسول الله! أقصى ما نحن بالغون ومتنهون إليه»، لا جواب لهذه المسألة، لأنه إن أراد أقصى مدة الدنيا وانتهائها، فلا يعلمه إلا الله، وإن أراد: أقصى ما نحن متنهون إليه بعد دخول الجنة والنار، فلا تعلم نفس أقصى ما ينتهي إليه من ذلك، وإن كان الانتهاء نعيم وجحيم، ولهذا لم يُجبه النبي ﷺ.

وقوله في عقد البيعة: «وزيال المشرك»: أي: مفارقه ومعاداته، فلا يُجاوزه ولا يُواليه كما جاء في الحديث الذي في السنن: «لا تراءى ناراهما» [حسن: ابو داود: ٢٦٤٥، والترمذي: ١٦٠٤، والنسائي (٣٦/٨)]، يعني المسلمين والمشركين.

(من مات مشركاً قبل البعثة فهو في النار)

وقوله: «حيثما مرتت بقبر كافر فقل: أرسلني إليك محمد»: هذا إرسال تقييع وتوبيخ، لا تبليغ أمر ونهي، وفيه دليل على سماع أصحاب أهل القبور كلام الأحياء وخطابهم لهم، ودليل على أن من مات مشركاً فهو في النار، وإن مات قبل البعثة لأن المشركين كانوا قد غيروا الحنيفية دين إبراهيم، واستبدلوا بها الشرك، وارتكبهوا، وليس معهم حجة من الله به، وقبحه والوعيد عليه بالنار لم يزل معلوماً من دين الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم، وأخبار عقوبات الله لأهله متداولة بين الأمم قرناً بعد قرن، فله الحجة البالغة على المشركين في كل وقت، ولو لم يكن إلا ما فطر عباده عليه من توحيد ربوبيته المستلزم لتوحيد إلهيته، وأنه يستحيل في كل فطرة وعقل أن يكون معه إله آخر، وإن كان سبحانه لا يُعذب بمقتضى هذه الفطرة وحدها، فلم تزل دعوة الرسل إلى التوحيد في الأرض معلومة لأهلها، فالمشرك يستحق العذاب بمخالفته دعوة الرسل، والله أعلم.

فصل

في قدوم وفد النخع على رسول الله ﷺ

وقدِمَ عليه وفد النخع، وهم آخر الوفود قدوماً عليه في نصف المحرم سنة إحدى عشرة في مئة رجل، فنزلوا دار الأضياف، ثم جاؤوا رسول الله ﷺ مقرين بالإسلام، وقد كانوا بايعوا معاذ بن جبل، فقال رجل منهم، يقال له: زُرارة بن عمرو: يا رسول الله! إني رأيتُ في سفري هذا عجباً، قال: «وما رأيتُ؟» قال: رأيتُ أنا أن تركتُها في الحيّ كأنها ولدت جدياً أسفح^(١) أحوى، فقال له رسول الله ﷺ: «هَلْ تَرَكَتُ أُمَّةً لَكَ مُصِيرةً عَلَى حَمَلٍ؟» قال: نعم، قال: «فإنها قد ولدت غلاماً وهو أبوك»، قال: يا رسول الله! فما باله أسفح أحوى؟ فقال: «أذن مِنِّي»، فدنا منه، فقال: «هَلْ بِكَ مِنْ بَرَصٍ تَكْتُمُهُ؟»، قال: والذي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عَلِمَ بِهِ أَحَدٌ، وَلَا أَطَّلَعَ عَلَيْهِ غَيْرُكَ،

(١) الأسفح بوزن أحمر: الأسود المشرب بحمرة، والأحوى كالتأكيد للأسفح، إذ الحوة سواد إلى خضرة، أو حمرة إلى سواد، وقوله مصرة: اسم فاعل من أصر على الشيء: أقام عليه، والمراد حملها محقق ثابت.

قال: «فَهُوَ ذَلِكَ»، قال: يا رسول الله! ورايتُ النعمان بن المنذر عليه قُرطان مُدْمَلجانٍ ومَسَكِتان، قال: «ذلِكَ مَلِكُ الْعَرَبِ، رَجَعَ إِلَى أَحْسَنَ زَيْهِ وَبَهَجَتِهِ»، قال: يا رسول الله! ورايتُ عَجوزاً شَمِطاء قد خرجت من الأرض، قال: «تِلْكَ بَيْتَةُ الدُّنْيَا»، قال: ورايتُ ناراً خرجت من الأرض، فحالت بيني وبين ابنِ لي يُقال له: عمرو وهي تقول: لَقَى لَقَى بصير، وأعمى، أطعموني أَكَلْكُمْ أَهْلَكُمْ ومالَكُمْ. قال رسول الله ﷺ: «تِلْكَ فِتْنَةٌ تَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ» قال: يا رسول الله! وما الفِتْنَةُ؟ قال: «يَقْتُلُ النَّاسُ إِمَانَهُمْ، وَيَشْتَجِرُونَ اشْتِجَارَ أَطْبَاقِ الرَّأْسِ»^(١)، وخالف رسول الله ﷺ بين أصابعه - يَحْسِبُ الْمَسِيءُ فيها أنه محسن - «وَيَكُونُ ذَمُّ الْمُؤْمِنِ عِنْدَ الْمُؤْمِنِ فِيهَا أَخْلَى مِنْ شُرْبِ الْمَاءِ، إِنْ مَاتَ ابْنُكَ أَذْرَكَتِ الْفِتْنَةُ، وَإِنْ مِيتَ أَنْتَ أَذْرَكَهَا ابْنُكَ» فقال: يا رسول الله! ادْعُ اللَّهَ أَنْ لَا أَذْرَكَهَا، فقال له رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ لَا يُذْرِكُهَا»، فمات وبقي ابنه، وكان ممن خلَعَ عثمان [ابن سيد الناس (٢/٢٥٨-٢٥٩)].

فصل

ذكر هديه ﷺ في مكاتباته إلى الملوك وغيرهم

(الكتاب إلى هرقل)

ثبت في «الصحيحين» عنه ﷺ، أنه كتب إلى هرقل: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ، إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَذْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمَ تَسْلَمَ، يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ، فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ، وَبِأَهْلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ، وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ»^(٢) [البخاري: ٢٩٤١، ومسلم: ٤٦٠٧].

(الكتاب إلى كسرى)

وكتبَ إلى كسرى: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ

مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ، إِلَى كِسْرَى عَظِيمِ قَارِسَ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى وَأَمَّنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَذْعُوكَ بِدَعَايَةِ اللَّهِ، فَإِنِّي أَنَا رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَجْعَلَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ، أَسْلِمَ تَسْلَمَ، فَإِنْ أَبَيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْمَجُوسِ»، فلما قُرِئَ عليه الكتابُ، مَرَّه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «مَرَّقَ اللَّهُ مُلْكَهُ» [ابن سيد الناس (٢/٢٦٢-٢٦٤)، وبنحوه البخاري: ٢٩٣٩].

(الكتاب إلى النجاشي)

وكتبَ إلى النجاشي: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحِمْيَرِ، أَسْلِمَ أَنْتَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهْنِمُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ الْفَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ابْنَتِ الطَّيِّبَةِ الْحَصِينَةِ، فَحَمَلَتْ بِعِيسَى، فَخَلَقَهُ اللَّهُ مِنْ رُوحِهِ وَنَفَخَهُ، كَمَا خَلَقَ آدَمَ بِيدِهِ، وَإِنِّي أَذْعُوكَ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالْمُؤَالَاةَ عَلَى طَاعَتِهِ، وَأَنْ تَتَّبِعَنِي، وَتُؤْمِنَ بِالَّذِي جَاءَنِي، فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَإِنِّي أَذْعُوكَ وَجُودَكَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَدْ بَلَّغْتُ وَنَصَحْتُ، فَأَقْبِلُوا نَصِيحَتِي، وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى»، وبعث بالكتاب مع عمرو بن أمية الضمير، فقال ابن إسحاق: إن عمرواً قال له: يا أوصحمة! إن عليَّ القولَ عليك الاستمَاعَ، إنَّكَ كَأَنَّكَ فِي الرَّقَّةِ عَلَيْنَا، وَكَأَنَّكَ فِي الثَّقَةِ بِكَ مِنْكَ، لَأَنَا لَمْ نَقُلْ بِكَ خَيْراً فَكُلَّ إِلَّا نِلْنَاهُ، وَلَمْ نَخَفْكَ عَلَى شَيْءٍ فَكُلَّ إِلَّا آمِنَاهُ، وَقَدْ أَخَذْنَا الْحُجَّةَ عَلَيْكَ مِنْ فَيْكِ، الْإِنْجِيلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ شَاهِدٌ لَا يُرَدُّ، وَقَاضٍ لَا يُجَوَّرُ، وَفِي ذَلِكَ مَوْقِعِ الْحَزِّ وَإِصَابَةِ الْمَفْصِلِ، وَإِلَّا فَأَنْتَ فِي هَذَا النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ كَالْيَهُودِ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَقَدْ فَرَّقَ النَّبِيُّ ﷺ رُسُلَهُ إِلَى النَّاسِ، فَرَجَاكَ لِمَا لَمْ يَرْجُهِمْ لَهُ، وَأَتَمَّنَّاكَ عَلَى مَا خَافَهُمْ عَلَيْهِ بِخَيْرِ سَالِفٍ وَأَجَرِ

(١) الاشتجار: الاشتباك والاختلاف، وأطباق الرأس: عظامه.

(٢) والأريسيون: الأكارون، أي: الفلاحون، قال أبو عبيد: المراد بالفلاحين أهل مملكته.

يُنْتَظَرُ. فقال النجاشي: أشهد بالله أنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب، وأن بشاره موسى براكب الجمار، كبشارة عيسى براكب الجمل، وأن العيان ليس بأشقى من الغير، ثم كتب النجاشي جواب كتاب النبي ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول الله، من النجاشي أصحمة، سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته، الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض، إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت ففروفاً إنه كما ذكرت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قرينا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصداقاً، وقد بايعتكم، وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه الله رب العالمين». والفرق: علاقة ما بين النواة والقشر^(١).

وتوفي النجاشي سنة تسع، وأخبر رسول الله ﷺ بموته ذلك اليوم، فخرج بالناس إلى المصلى، فصلّى عليه وكبر أربعاً.

(النجاشي الذي صلى عليه ﷺ)

ليس بالنجاشي الذي كتب إليه يدعو

قلت: وهذا وهم - والله أعلم - وقد خلط راويه، ولم يميز بين النجاشي الذي صلى عليه، وهو الذي آمن به وأكرم أصحابه، وبين النجاشي الذي كتب إليه يدعو، فهما اثنان، وقد جاء ذلك ميّناً في «صحيح مسلم» أن رسول الله ﷺ كتب إلى النجاشي، وليس بالذي صلى عليه [سلم: ٤٦٠٩].

فصل

(الكتاب إلى المقوقس)

وكتب إلى المقوقس ملك مصر والإسكندرية: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله، إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية

الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يوتك الله أجرك مرتين، فإن توليت، فإن عليك إثم القبط» (يكتفد الكتب صالوا إلى كليمه سلم بيننا وبينكم ألا قبيد إلا الله ولا تشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا أنبياً من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بلنا سليلوت ﴿٥٥﴾ [آل عمران: ٦٤]، وبعث به مع حاطب بن أبي بلتعة، فلما دخل عليه، قال له: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى، فاخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به، ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يعتبر غيرك بك. فقال: إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما هو خير منه، فقال حاطب: ندعوك إلى دين الله، وهو الإسلام الكافي به الله فقد ما سواه، إن هذا النبي دعا الناس، فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشاره موسى بعيسى إلا بشاره عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إليك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل نبي أدرك قوماً فهم من أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، وأنت ممن أدركه هذا النبي، ولنا ننهاك عن دين المسيح، ولكننا نأمرك به. فقال المقوقس: إني قد نظرت في أمر هذا النبي، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخب^(٢)، والإخبار بالنجوى، وسأنظر، وأخذ كتاب النبي ﷺ، فجعله في حُق من عاج، وختم عليه، ودفعه إلى جارية له، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية، فكتب إلى رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم، لمحمد بن عبد الله، من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد: فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، ويكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها، والسلام عليك. ولم

(١) وفي «القاموس» إنه قمع التمر، أو ما يلتقي به قمعها ونحوه في «الصحيح».

(٢) الخب: هو الغائب المستور، يشير إلى إخباره بالمغيبات التي أطلعه الله تعالى عليها.

يزد على هذا، ولم يُسلم، والجاريثان: مارية وسيرين، والبلغلة: دُلْدُل، بقيت إلى زمن معاوية [ابن سيد الناس (٢/ ٢٦٥ - ٢٦٦)].

فصل

(الكتاب إلى المنذر بن ساوى عامل البحرين)

وكتب إلى المنذر بن ساوى، فذكر الواقدي بإسناده، عن عكرمة قال: وجدت هذا الكتاب في كتب ابن عباس بعد موته، فنسخته، فإذا فيه: بعث رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى، وكتب إليه كتاباً يدعو فيه إلى الإسلام، فكتب المنذر إلى رسول الله ﷺ: أما بعد: يا رسول الله فإني قرأت كتابك على أهل البحرين، فينهم من أحب الإسلام وأعجبه، ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي مجوس ويهود، فأخيت إلي في ذلك أمرك، فكتب إليه رسول الله ﷺ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى، سلاماً عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد، فإني أذكرك الله عز وجل، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطع رُسلي، ويتبع أمرهم، فقد أطاعني، ومن نصح لهم، فقد نصح لي، وإن رُسلي قد أتوا عليك خيراً، وإني قد شفعتك في قومك، فاثرك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح، فلن نغزلك عن عملك، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية» [ابن سيد الناس (٢/ ٢٦٦ - ٢٦٧)].

فصل

(الكتاب إلى ملك عمان)

وكتب إلى ملك عُمان كتاباً، وبعثه مع عمرو بن العاص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، من محمد بن عبد الله، إلى جعفر، وعبد ابني الجَلَنْدي، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوكم بديعة الإسلام، أسليماً تسليماً، فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر

من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتكما أن تقرّا بالإسلام، فإن ملككما زائل عنكما، وخيلي تحل بساحتكما، وتظهر نبوتي على ملككما. وكتب أبي بن كعب، وختم الكتاب.

قال عمرو: فخرجت حتى انتهيت إلى عمان، فلما قدمتها، عمدت إلى عبد، وكان أحلم الرجلين وأسهلها خلقاً، فقلت: إني رسول رسول الله ﷺ إليك، وإلى أخيك، فقال: أخي المقدم علي بالسُّر والمُلْك، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك، ثم قال: وما تدعو إليه؟ قلت: أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وتخلع ما عُبِدَ من دونه، وتشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال: يا عمرو إنك ابن سيد قومك، فكيف صنع أبوك، فإن لنا فيه قدوة؟ قلت: مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ، ووددت أنه كان أسلم وصدق به، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام، قال: فمتى تبعته؟ قلت: قريباً فسألني أين كان إسلامك؟ قلت: عند النجاشي، وأخبرته أن النجاشي قد أسلم، قال: فكيف صنع قومه بملكه؟ فقلت: أفروه واتبعوه، قال: والأساقفة والرهبان تبعوه؟ قلت: نعم. قال: انظر يا عمرو ما تقول، إنه ليس من خصلة في رجل أفصح له من الكذب، قلته: ما كذبت، وما نستجله في ديننا، ثم قال: ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي، قلت: بلى. قال: بأي شيء علمت ذلك؟ قلت: كان النجاشي يُخرج له خرجاً، فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ، قال: لا والله، لو سألتني درهماً واحداً ما أعطيته، فبلغ هرقل قوله، فقال له يثاق أخوه: أتعبد عبدك لا يخرج لك خرجاً، ويدين ديناً محدثاً؟ قال هرقل: رجل رغب في دين فاختره لنفسه ما أصنع به، والله لولا الضرب لملك لي لصنعت كما صنع، قال: انظر ما تقول يا عمرو، قلت: والله صدقتك. قال عبد: فأخبرني ما الذي يأمر به، وينهى عنه؟ قلت: يأمر بطاعة الله عز وجل، وينهى عن معصيته، ويأمر بالبر وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والمُدُون، وعن الزنى، وعن الخمر، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب. قال: ما أحسن هذا

الذي يدعو إليه، لو كان أخي يُتابعني عليه، لركبنا حتى نؤمن بمحمد، ونصدق به، ولكن أخي أضُرَّ بملكه من أن يدعَه ويصير ذنباً، قلت: إنه إن أسلم، ملكه رسول الله ﷺ على قومه، فأخذ الصدقة من غنيهم، فردّها على فقيرهم. قال: إن هذا لخلق حسن، وما الصدقة؟ فأخبره بما فرض رسول الله ﷺ من الصدقات في الأموال حتى انتهت إلى الإبل.

فصل

(الكتاب إلى صاحب اليمامة)

وكتب النبي ﷺ إلى صاحب اليمامة هُوذة بن علي، وأرسل به مع سَليط بن عمرو العامري: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هُوذة بن علي، سَلامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، وَاعْلَمْ أَنَّ دِينِي سَيَظْهَرُ إِلَى مُنْتَهَى الْحَقِّ وَالْحَقِيرِ، فَاسْلِمْ تَسْلِمًا، وَأَجْعَلْ لَكَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ سَليط بكتاب رسول الله ﷺ مختوماً، أنزله وحيّاه، واقرأ عليه الكتاب، فردّ رداً دون رد، وكتب إلى النبي ﷺ ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، والعربُ تهابُ مكاني، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك، وأجاز سَليطاً بجائزة، وكساه أثواباً من نسج هَجَرَ، فَقَدِمَ بِذَلِكَ كُلَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ، وَقَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ كِتَابَهُ، فَقَالَ: لَوْ سَأَلَنِي سَيَابَةُ^(١) مِنَ الْأَرْضِ مَا فَعَلْتُ، بَادِ بِمَا فِي يَدَيْهِ. فَلَمَّا انصرفت رسول الله ﷺ من الفتح، جاءه جبريل عليه السلام، بأن هُوذة قد مات، فقال النبي ﷺ: «أَنَا إِنْ الْيَمَامَةُ سَيَخْرُجُ بِهَا كَذَابٌ يَنْتَبِأُ، يَقْتُلُ بَعْدِي» فقال قائل: يا رسول الله من يقتله؟ فقال له رسول الله ﷺ: «أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ» فكان كذلك.

وذكر الواقدي: أن أركون دمشق عظيم من عظماء النصارى، كان عند هُوذة، فسأله عن النبي ﷺ، فقال: جاءني كتابه يدعوني إلى الإسلام، فلم أجبه، قال الأركون: لِمَ لَا تُجِيبُهُ؟ قال: ضننت بديني وأنا ملك قومي، وإن تبعته لم أملك، قال: بلى والله، لئن تبعته لِيَمْلِكَنَّكَ، فإن الخيرة لك في اتباعه، وإنه للنبي العربي الذي بشر به عيسى ابن مريم، وإنه لمكتوب عندنا في الإنجيل: محمد رسول الله [ابن سيد الناس (٢/٢٦٩-٢٧٠)].

قال: يا عمرو! وتؤخذ من سوائهم مواثينا التي ترعى الشجر، وترد المياه؟ فقلت: نعم. فقال: واللّه ما أرى قومي في بُعد دارهم، وكثرة عددهم يُطيعون بهذا، قال: فمكثت ببابه أياماً، وهو يصل إلى أخيه، فيُخبره كُلُّ خبري، ثم إنه دعاني يوماً، فدخلت عليه، فأخذ أوعاؤه بضبعي، فقال: دعوه، فأرسلت فذهبت لأجلس، فأبوا أن يدعوني أجلس، فنظرت إليه، فقال: تكلم بحاجتك، فدفعت إليه الكتاب مختوماً، ففرض خاتمته، وقرأ حتى انتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه، فقرأه مثل قراءته، إلّا أنني رأيت أخاه أرق منه، قال: ألا تُخبرني عن قريش كيف صنعت؟ فقلت: تبعوه إما راغب في الدين، وإما مقهور بالسيف. قال: ومن معه؟ قلت: الناس قد رغبوا في الإسلام، واختاروه على غيره، وعرفوا بعقولهم مع هُذَي الله إياهم أنهم كانوا في ضلال، فما أعلم أحداً بقي غيرك في هذه الحرجة، وأنت إن لم تسلم اليوم وتتيهه، يُوطئك الخيل، ويبيد خَصْرَاءَكَ، فأسلم تَسْلِمًا، وَتَسْتَعْمِلُكَ عَلَى قَوْمِكَ، وَلَا تَدْخُلَ عَلَيْكَ الْخَيْلُ وَالرَّجَالُ. قَالَ: دعني يومي هذا، وارجع إليّ غداً، فرجعتُ إلى أخيه، فقال: يا عمرو! إني لأرجو أن يُسَلِّمَ إن لم يَقِمْ بِمُلْكِهِ، حتى إذا كان الغد، أتيتُ إليه، فأبى أن يآذن لي، فانصرفتُ إلى أخيه، فأخبرته أنني لم أصل إليه، فأوصلني إليه، فقال: إني فكرتُ فيما دعوتني إليه، فإذا أنا أضعفُ العرب إن ملكتُ رجلاً ما في يدي، وهو لا تبلغ خيله هاهنا، وإن بلغت خيله أَلَفْتُ قتالاً ليس كقتال من لاقي. قلت: وأنا خارج غداً، فلما أيقن بمخرجي،

(١) في «اللسان»: السَّيَاب مثل السحاب: البلع، قال الديوري: هو البسر الأخضر، واحدته سَيَابَة. والتقدير لو سألتني قدر بلعة أو بسرة من الأرض.

وقد نبه سبحانه باستفراغ أذناها، وهو البخار المحترق في الرأس على استفراغ ما هو أصعب منه، كما هي طريقة القرآن التنبيه بالأدنى على الأعلى.

(الحمية)

وأما الحمية: فقال تعالى في آية الرضوء: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَوْ عَنِ سَفَرٍ أَوْ حَكَّةَ أَحَدٍ مِنْكُمْ مِنَ الْقَلْبِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣]، فأباح للمريض العدول عن الماء إلى التراب حمية له أن يصيب جسده ما يؤذيه، وهذا تنبيه على الحمية عن كل مؤذله من داخل أو خارج، فقد أرشد - سبحانه - عباده إلى أصول الطب ومجامع قواعده، ونحن نذكر هدي رسول الله ﷺ في ذلك، ونبين أن هديه فيه أكمل هدي.

(طب القلوب)

فأما طب القلوب، فمسلم إلى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، ولا سبيل إلى حصوله إلا من جهتهم وعلى أيديهم، فإن صلاح القلوب أن تكون عارفة بربها، وفاطرها، وبأسمانه، وصفاته، وأفعاله، وأحكامه، وأن تكون مؤثرة لمرضاته ومحابه، متجنبة لمناهيه ومساخطه، ولا صحة لها ولا حياة البتة إلا بذلك، ولا سبيل إلى تلقيه إلا من جهة الرسل، وما يُظن من حصول صحة القلب بدون أتباعهم، فغلط ممن يظن ذلك، وإنما ذلك حياة نفسه البهيمية الشهوانية، وصحتها وقوتها، وحياة قلبه وصحته، وقوته عن ذلك بمعزل، ومن لم يميز بين هذا وهذا، فليكن على حياة قلبه، فإنه من الأموات، وعلى نوره، فإنه منغمس في بحار الظلمات.

فصل

(طب البدن)

وأما طب الأبدان: فإنه نوعان:

نوع قد فطر الله عليه الحيوان ناطقه وبهيمة، فهذا لا يحتاج فيه إلى معالجة طيب، كطب الجوع، والعطش، والبرد، والتعب بأضدادها وما يُزيلها.

والثاني: ما يحتاج إلى فكر وتأمل، كدفع الأمراض المتشابهة الحادثة في المزاج، بحيث يخرج بها عن الاعتدال، إما إلى حرارة، أو برودة، أو يبوسة، أو

رطوبة، أو ما يتركب من اثنين منها، وهي نوعان: إما مادية، وإما كيفية، أعني إما أن يكون بانصباب مادة، أو بحدوث كيفية، والفرق بينهما أن أمراض الكيفية تكون بعد زوال المواد التي أوجبتها، فتزول موادها، ويبقى أثرها كيفية في المزاج.

وأمرض المادة أسبابها معها تمدها، وإذا كان سبب المرض معه، فالنظر في السبب ينبغي أن يقع أولاً، ثم في المرض ثانياً، ثم في الدواء ثالثاً. أو الأمراض الآلية وهي التي تُخرج العضو عن هيئته، إما في شكل، أو تجويف، أو مجرى، أو خشونة، أو ملاس، أو عدد، أو عظم، أو وضع، فإن هذه الأعضاء إذا تألفت وكان منها البدن سمي تألفها اتصالاً، والخروج عن الاعتدال فيه يسمى تفرق الاتصال، أو الأمراض العامة التي تعم المتشابهة والآلية.

والأمراض المتشابهة: هي التي يخرج بها المزاج عن الاعتدال، وهذا الخروج يسمى مرضاً بعد أن يضر بالفعل إضراراً محسوساً.

وهي على ثمانية أضرب: أربعة بسيطة، وأربعة مركبة، فالبسيطة: البارد، والحرار، والرطب، واليابس، والمركبة: الحار الرطب، والبارد اليابس، والبارد الرطب، والبارد اليابس، وهي إما أن تكون بانصباب مادة، أو بغير انصباب مادة، وإن لم يضر المرض بالفعل يسمى خروجاً عن الاعتدال صحة.

(أحوال البدن)

وللبدن ثلاثة أحوال: حال طبيعية، وحال خارجة عن الطبيعية، وحال متوسطة بين الأمرين. فالأولى: بها يكون البدن صحيحاً، والثانية: بها يكون مريضاً. والحال الثالثة: هي متوسطة بين الحالتين، فإن الضد لا يتقل إلى ضده إلا بمتوسط، وسبب خروج البدن عن طبيعته، إما من داخله، لأنه مركب من الحار والبارد، والرطب واليابس، وإما من خارج، فلأن ما يلقاه قد يكون موافقاً، وقد يكون غير موافق، والضرر الذي يلحق الإنسان قد يكون من سوء المزاج بخروجه عن الاعتدال، وقد يكون من فساد في العضو، وقد يكون من ضعف في القوى، أو الأرواح

التجارب من الأطباء طِبُّهم بالمفردات غالباً، وهم أحد فرق الطب الثلاث.

والتحقيق في ذلك أن الأدوية من جنس الأغذية، فالأمة والطائفة التي غالبُ أغذيتها المفردات، أمراضها قليلة جداً، وطبها بالمفردات، وأهل المدن الذين غلبت عليهم الأغذية المركبة يحتاجون إلى الأدوية المركبة، وسبب ذلك أن أمراضهم في الغالب مركبة، فالأدوية المركبة أنفعُ لها، وأمراض أهل البوادي والصحاري مفردة، فيكفي في مداواتها الأدوية المفردة، فهذا برهانٌ بحسب الصناعة الطبية.

(فضل طَبِّه ﷺ على طب الأطباء)

ونحن نقول: إن ههنا أمراً آخر، نسبة طب الأطباء إليه كنسبة طب الطرية والعجائز إلى طبهم، وقد اعترف به حُذَّاقُهم وأئمتُّهم، فإن ما عندهم من العلم بالطب منهم من يقول: هو قياس. ومنهم من يقول: هو تجربة. ومنهم من يقول: هو إلهامات، ومنامات، وحُذْسُ صائب. ومنهم من يقول: أخذ كثير منه من الحيوانات البهيمية، كما نشاهد السنائر إذا أكلت ذوات السموم تعتمد إلى السراج، فَكَلَعُ في الزيت تتداوى به، وكما رؤيت الحيات إذا خرجت من بطون الأرض، وقد عشت أبصارها تأتي إلى ورق الرازيانج، فتُورُّ عيونها عليها. وكما عُهد من الطير الذي يحتقن بماء البحر عند انجباس طبعه، وأمثال ذلك مما ذكر في مبادئ الطب.

وأين يقع هذا وأمثاله من الوحي الذي يُوحيه الله إلى رسوله بما ينفعه ويضره، فنسبة ما عندهم من الطب إلى هذا الوحي كنسبة ما عندهم من العلوم إلى ما جاءت به الأنبياء، بل هاهنا من الأدوية التي تشفي من الأمراض ما لم يهتد إليها عقولُ أكابر الأطباء، ولم تصل إليها علوُّهم وتجاربهم، وأقيستهم من الأدوية القلبية، والروحانية، وقوة القلب، واعتماده على الله، والتوكل عليه، والالتجاء إليه، والانطراح والانكسار بين يديه، والتذلُّل له، والصدقة، والدعاء، والتوبة، والاستغفار، والإحسان إلى الخلق، وإغاثة الملهوف، والتفريج عن المكروب،

الحاملة لها، ويرجع ذلك إلى زيادة ما الاعتدالُ في عدم زيادته، أو نقصانُ ما الاعتدال في عدم نقصانه، أو تفرق ما الاعتدال في اتصاله، أو اتصال ما الاعتدال في تفرقه، أو امتداد ما الاعتدال في انقباضه، أو خروج ذي وضع وشكل عن وضعه وشكله بحيث يُخرجه عن اعتداله.

(وظيفة الطبيب)

فالتبيب: هو الذي يفرق ما يضرُ بالإنسان جمعه، أو يجمع فيه ما يضره تفرقه، أو ينقُصُ منه ما يضره زيادته، أو يزيدُ فيه ما يضره نقصه، فيجلب الصحة المفقودة، أو يحفظها بالشكل والشبه، ويدفع العلة الموجودة بالضد والنقيض، ويخرجها، أو يدفعها بما يمنع من حصولها بالحمية، وسترى هذا كله في هدي رسول الله ﷺ شافياً كافياً بحول الله وقوته، وفضله ومعونته.

فصل

(التدوي)

فكان من هديه ﷺ فعلُ التدوي في نفسه، والأمر به لمن أصابه مرض من أهله وأصحابه، ولكن لم يكن من هديه ولا هدي أصحابه استعمالُ هذه الأدوية المركبة التي تسمى أقرباذين، بل كان غالب أدويتهم بالمفردات، وربما أضافوا إلى المفرد ما يُعاون، أو يُكسِّر مَزَوتَه، وهذا غالبُ طبِّ الأمم على اختلاف أجناسها من العرب والتُّرك، وأهل البوادي قاطبةً، وإنما عُني بالمركبات الروم واليونانيون، وأكثرُ طبِّ الهند بالمفردات.

وقد اتفق الأطباء على أنه متى أمكن التدوي بالغذاء لا يُعدل عنه إلى الدواء، ومتى أمكن بالبسيط لا يُعدل عنه إلى المركب.

قالوا: وكل داء قدر على دفعه بالأغذية والحمية، لم يُحاول دفعه بالأدوية.

قالوا: ولا ينبغي للطبيب أن يولِّع بسقي الأدوية، فإن الدواء إذا لم يجد في البدن داءً يُحلِّله، أو وجد داءً لا يُوافقه، أو وجد ما يُوافقه فزادت كميته عليه، أو كفيته، تشبَّث بالصحة، وعث بها. وأربابُ

فإن هذه الأدوية قد جَرَّبَتْهَا الْأُمَمُ عَلَى اخْتِلَافِ أَدْيَانِهَا
وَمِلَلِهَا، فوجدوا لها من التأثير في الشفاء ما لا يصل
إليه علم الأطباء، ولا تجربته، ولا قياسه.

وقد جَرَّبْنَا نحن وغيرنا من هذا أموراً كثيرة،
ورأيناها تفعل ما لا تفعل الأدوية الحسية، بل تصيرُ
الأدوية الحسية عندها بمنزلة أدوية الطرقية عند
الأطباء، وهذا جارٍ على قانون الحكمة الإلهية ليس
خارجاً عنها، ولكن الأسباب متنوعة فإن القلب متى
اتصل برب العالمين، وخالق الداء والدواء، ومدبرُ
الطبيعة ومصرفها على ما يشاء كانت له أدوية أخرى
غير الأدوية التي يعانيتها القلب البعيد منه المعرضُ
عنه، وقد علم أن الأرواح متى قويت، وقويت النفسُ
والطبيعة تعاونوا على دفع الداء وقهره، فكيف يُنكر
لمن قويت طبيعته ونفسه، وفرحت بقرىها من بارئها،
وأنسها به، وحُبها له، وتنعمها بذكره، وانصراف
قواها كُلِّها إليه، وجموعها عليه، واستعانيتها به،
وتوكلها عليه، أن يكون ذلك لها من أكبر الأدوية،
وأن توجب لها هذه القوة دفع الألم بالكلية، ولا يُنكر
هذا إلا أجهلُ الناس، وأغلظهم حجاباً، وأكثفهم
نفساً، وأبعدهم عن الله وعن حقيقة الإنسانية،
وسنذكر إن شاء الله السبب الذي به أزالنا قراءةُ
الفاتحة داء اللدغة عن اللدغ التي رُمي بها، فقام حتى
كَانَ مَا بِهِ قَلْبُهُ^(١).

فهذان نوعان من الطب النبوي، نحن بحولِ الله
نتكلم عليهما بحسب الجهد والطاقة، ومبلغ علومنا
القاصرة، ومعارفنا المتلاشية جداً، وبضاعتنا
المزجاة، ولكننا نستوهبُ مَنْ يبدو الخيرُ كُلُّهُ، ونستمد
من فضله، فإنه العزيز الوهاب.

فصل

(الحث على التداوي وربط الأسباب بالمسببات)

روى مسلم في «صحيحه»: من حديث أبي الزبير،
عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ، أنه قال: «لِكُلِّ

دَاءٍ دَوَاءٌ، فَإِذَا أَصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ، بَرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ» [مسلم: ٥٧٤١].

وفي «الصحيحين»: عن عطاء، عن أبي هريرة
قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ دَاءٍ إِلَّا
أُنْزِلَ لَهُ شِفَاءٌ» [البخاري: ٥٦٧٨، ومولس في مسلم].

وفي «مسند الإمام أحمد»: من حديث زياد بن
عِلَاقَةَ، عن أسامة بن شَرِيك، قال: كُنْتُ عِنْدَ
النَّبِيِّ ﷺ، وجاءت الأعرابُ، فقالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ!
أَتَدَاوِي؟ فقال: «نَعَمْ يَا عِبَادَ اللَّهِ تَدَاوُوا، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ
وَجَلَّ لَمْ يَصْخِرْ دَاءٌ إِلَّا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً غَيْرَ دَاءٍ وَاحِدٍ»،
قالوا: ما هو؟ قال: «الْهَرَمُ» [صحيح: أحمد: ١٨٤٥٤،
وابن ماجه: ٣٤٣٦].

وفي لفظ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُنْزِلْ دَاءً إِلَّا أُنْزِلَ لَهُ شِفَاءٌ،
عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ وَجْهَهُ مَنْ جَهِلَهُ» [أحمد: ١٨٤٥٦].

وفي «المسند»: من حديث ابن مسعود يرفعه: «إِنَّ
اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُنْزِلْ دَاءً إِلَّا أُنْزِلَ لَهُ شِفَاءٌ، عَلِمَهُ مَنْ
عَلِمَهُ، وَجْهَهُ مَنْ جَهِلَهُ» [صحيح: أحمد: ٣٥٧٨-٣٩٢٢،
وابن ماجه: ٣٤٣٨].

وفي «المسند» و «السنن»: عن أبي خزيمة، قال:
قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَرَأَيْتَ رُقِيَ نَسْرَتُهَا، ودواءُ تَدَاوَى
بِهِ، وَثِقَاتُ نَفْسِهَا، هل تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ شَيْئاً؟ فقال: «هِيَ مِنْ
قَدَرِ اللَّهِ» [أحمد: ١٥٤٧٣، والترمذي: ٢٠٦٦].

(معنى لكل داء دواء)

فقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب
والمسببات، وإبطال قول من أنكرها، ويجوز أن
يكون قوله: «لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ»، على عمومته حتى يتناول
الأدواء القاتلة، والأدواء التي لا يمكن لطبيب أن
يُبرئها، ويكون الله عز وجل قد جعل لها أدويةً
تُبرئها، ولكن طوى علمها عن البشر، ولم يجعل لهم
إليه سبيلاً، لأنه لا علم للمخلوق إلا ما علمهم الله،
ولهذا علق النبي ﷺ الشفاء على مصادفة الدواء
للداء، فإنه لا شيء من المخلوقات إلا له ضد، وكلُّ
داء له ضد من الدواء يعالج بضده، فعلق النبي ﷺ
البرء بموافقة الداء للدواء، وهذا قدرٌ زائد على مجرد

(١) يقال: ما بالليل قلبه، أي: ما به شيء، ولا يستعمل إلا في النفي، والقلبة: داء أو ألم يتقلب منه صاحبه.

وجوده، فإن الدواء متى جاوز درجة الداء في الكيفية، أو زاد في الكمية على ما ينبغي، نَقَلَ إلى داء آخر، ومتى قصر عنها لم يَفِّ بمقاومته، وكان العلاج قاصراً، ومتى لم يقع المُداوي على الدواء، أو لم يقع الدواء على الداء، لم يحصل الشفاء، ومتى لم يكن الزمان صالحاً لذلك الدواء، لم ينفع، ومتى كان البدن غير قابل له، أو القوة عاجزة عن حمله، أو تَمَّ مانع يمنع من تأثيره، لم يحصل البرء لعدم المصادفة، ومتى تمت المصادفة حصل البرء بإذن الله ولا بد، وهذا أحسن المحملين في الحديث.

(التدوي والشفاء مقدر والرد على الجبرية)

وفيها رد على من أنكر التدوي، وقال: إن كان الشفاء قد قُدِّرَ، فالتدوي لا يفيد، وإن لم يكن قد قُدِّرَ، فكذلك. وأيضاً، فإن المرض حصل بقدر الله، وقَدَّرَ الله لا يُدفع ولا يُرد، وهذا السؤال هو الذي أورده الأعراب على رسول الله ﷺ. وأما أفاضل الصحابة، فأعلم بالله وحكمته وصفاته من أن يُوردوا مثل هذا، وقد أجابهم النبي ﷺ بما شفى وكفى، فقال: هذه الأدوية والرقي والثقي هي من قدر الله، فما خرج شيء عن قدره، بل يُرَدُّ قدره بقدره، وهذا الرُّدُّ من قدره، فلا سبيل إلى الخروج عن قدره بوجه ما، وهذا كرد قَدَّرَ الجوع، والعطش والحر، والبرد بأضدادها، وكرد قدر العدو بالجهاد وكلٌّ من قدر الله: الدافع، والمدفوع، والدفع.

ويقال لمُورد هذا السؤال: هذا يُوجب عليك أن لا تُباشر سبباً من الأسباب التي تجلب بها منفعة، أو تدفع بها مضرة، لأن المنفعة والمضرة إن قُدِّرَتَا، لم يكن من وقوعهما، وإن لم تُقدَّرَا لم يكن سبيل إلى وقوعهما، وفي ذلك خراب الدين والدنيا، وفساد العالم، وهذا لا يقوله إلا دافع للحق، معانِذ له، فيذكر القَدَّرَ ليدفع حُجَّةَ المحق عليه، كالمشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْرَكْنَا وَلَا مَبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، و﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا بَعَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا مَبَاؤُنَا﴾ [التحل: ٣٥]، فهذا قالوه دفعاً لحجة الله عليهم بالرسول.

وجواب هذا السائل أن يقال: بقي قسم ثالث لم تذكره، وهو أن الله قَدَّرَ كذا وكذا بهذا السبب، فإن أتيت بالسبب حصل السبب، وإلا فلا، فإن قال: إن كان قَدَّرَ لي السبب، فعلته، وإن لم يُقدِّره لي لم أتمكن من فعله.

قيل: فهل تقبل هذا الاحتجاج من عبدك، ووليك، وأجيرك إذا احتج به عليك فيما أمرته به،

والثاني: أن يكون من العام المراد به الخاص، لا سيما والداخل في اللفظ أضعاف أضعاف الخارج منه، وهذا يستعمل في كل لسان، ويكون المراد أن الله لم يضع داءً يقبل الدواء إلا وضع له دواء، فلا يدخل في هذا الأدوية التي لا تقبل الدواء، وهذا كقوله تعالى في الريح التي سلطها على قوم عاد: ﴿تَذِيرٌ لَّكُم مِّمَّنْ بِأَمْرِ رَبِّهِنَّ﴾ [الحقاف: ٢٥] أي كل شيء يقبل التدبير، ومن شأن الريح أن تدنسه، ونظائره كثيرة.

ومن تأمل خلق الأضداد في هذا العالم، ومقاومة بعضها لبعض، ودفع بعضها ببعض، وتسليط بعضها على بعض، تبين له كمال قدرة الرب تعالى، وحكمته، وإتقانه ما صنعه، وتفردّه بالربوبية، والوحدانية، والقهر، وأن كل ما سواه فله ما يضاده ويُمانعه، كما أنه الغني بذاته، وكل ما سواه محتاج بذاته.

(الأمر بالتدوي وبأنه لا ينافي التوكل)

وفي الأحاديث الصحيحة الأمر بالتدوي، وأنه لا يُنافي التوكل، كما لا يُنافيه دفع داء الجوع، والعطش، والحر، والبرد بأضدادها، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدراً وشرعاً، وأن تعطيلها يقدر في نفس التوكل، كما يقدر في الأمر والحكمة، ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى في التوكل، فإن تركها عجزاً يُنافي التوكل الذي حقيقة اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه، ولا بد مع

البدن قبل هضم الأول، والزيادة في القدر الذي يحتاج إليه البدن، وتناول الأغذية القليلة النفع، البطيئة الهضم، والإكثار من الأغذية المختلفة التراكيب المتنوعة، فإذا ملا آدمي بطنه من هذه الأغذية، واعتاد ذلك، أورثته أمراضاً متنوعة، منها بطيء الزوال وسريعه، فإذا توسط في الغذاء، وتناول منه قدر الحاجة، وكان معتدلاً في كميته وكيفيته، كان انتفاع البدن به أكثر من انتفاعه بالغذاء الكثير.

(مراتب الغذاء)

ومراتب الغذاء ثلاثة: أحدها: مرتبة الحاجة. والثانية: مرتبة الكفاية. والثالثة: مرتبة الفضلة. فأخبر النبي ﷺ: أنه يكفيه لقيمات يَمْن صلبه، فلا تسقط قوته، ولا تضعف معها، فإن تجاوزها، فليأكل في ثلث بطنه، ويدع الثلث الآخر للماء، والثالث للنفس، وهذا من أنفع ما للبدن والقلب، فإن البطن إذا امتلأ من الطعام ضاق عن الشراب، فإذا ورد عليه الشراب ضاق عن النفس، وعرض له الكرب والتعب بحمله بمنزلة حامل الحمل الثقيل، هذا إلى ما يلزم ذلك من فساد القلب، وكسل الجوارح عن الطاعات، وتحركها في الشهوات التي يستلزمها الشَّيْعُ. فامتلاء البطن من الطعام مضر للقلب والبدن. هذا إذا كان دائماً أو أكثرياً. وأما إذا كان في الأحيان، فلا بأس به، فقد شرب أبو هريرة بحضرة النبي ﷺ من اللبن، حتى قال: والذي بعثك بالحق، لا أجد له مسلماً [البخاري: ٦٤٥٢]. وأكل الصحابة بحضرته مراراً حتى شبعوا.

والشبع المفرط يُضعف القوى والبدن، وإن أخصبه، وإنما يَفْقَى البَدَنُ بحسب ما يَقْبَلُ من الغذاء، لا بِحَسَبِ كثرتِه.

ولما كان في الإنسان جزء أرضي، وجزء هوائي، وجزء مائي، قسم النبي ﷺ طعامه وشرابه ونفسه على الأجزاء الثلاثة.

(هل في البدن جزء ناري؟)

فإن قيل: فأين حظ الجزء الناري؟

قيل: هذه مسألة تكلم فيها الأطباء، وقالوا: إن

ونهيته عنه فخالفك؟ فإن قبلته، فلا تَلَمَّ مَنْ عصاك، وأخذ مالك، وَقَدَّتْ عرضك، وضُيْعَ حقوقك، وإن لم تقبله، فكيف يكون مقبولاً منك في دفع حقوق الله عليك. وقد روي في أثر إسرائيلي: أن إبراهيم الخليل قال: يا رَبِّ يَمْنُ الدَّاءُ؟ قال: «مَنِي». قال: قَيَمْنُ الدَّواءِ؟ قال: «مَنِي». قال: فَمَا بَالُ الطَّيِّبِ؟ قال: «رَجُلٌ أُرْسِلَ الدَّواءُ عَلَى يَدَيْهِ».

وفي قوله ﷺ: «الكل داء دواء»، تقوية لنفس المريض والطبيب، وحث على طلب ذلك الدواء والتفتيش عليه، فإن المريض إذا استشعرت نفسه أن لِدائه دواءً يُزيله، تعلَّق قلبه بروح الرجاء، وبردت عنده حرارة اليأس، وانفتح له باب الرجاء، ومتى قويت نفسه انبعثت حرارته الغريزية، وكان ذلك سبباً لقوة الأرواح الحيوانية والنفسانية والطبيعية، ومتى قويت هذه الأرواح، قويت القوى التي هي حاملة لها، فقهرت المرض ودفعته.

وكذلك الطيب إذا علم أن لهذا الداء دواء أمكنه طلبه والتفتيش عليه. وأمراض الأبدان على وزان أمراض القلوب، وما جعل الله للقلب مرضاً إلا جعل له شفاء بضده، فإن علمه صاحب الداء واستعمله، وصادف داء قلبه، أبرأه بإذن الله تعالى.

فصل

في هديه ﷺ في الاحتماء من التخم، والزيادة في الأكل على قدر الحاجة،

والقانون الذي ينبغي مراعاته في الأكل والشرب

في «المسند» وغيره: عنه ﷺ أنه قال: «مَا مَلَأَ آدَمِي وَعَاءَ شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسَبِ ابْنِ آدَمَ لَقِيَمَاتٍ يَمْنُ صُلْبِهِ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَأَعْلَأَ، فَثَلَّثَ لَطْعَانِيهِ، وَثَلَّثَ لَشْرَابِهِ، وَثَلَّثَ لِنَفْسِهِ» [صحيح: احمد: ١٧١٨٦، والترمذي: ١٣٨١].

(سبب الأمراض المادية)

الأمراض نوعان: أمراض مادية تكون عن زيادة مادة أفرطت في البدن حتى أضرت بأفعاله الطبيعية، وهي الأمراض الأكثرية، وسببها إدخال الطعام على

في البدن جزءاً نارياً بالفعل، وهو أحد أركانه واسطُفساته^(١).

ونازعهم في ذلك آخرون من العقلاء من الأطباء وغيرهم، وقالوا: ليس في البدن جزء نارٍ بالفعل، واستدلوا بوجوه:

أحدها: أن ذلك الجزء الناري إما أن يدعى أنه نزل عن الأثير، واختلط بهذه الأجزاء المائية والأرضية، أو يقال: إنه تولد فيها وتكوّن، والأول مستبعد لوجهين، أحدهما: أن النار بالطبع صاعدة، فلو نزلت، لكانت بقاير من مركزها إلى هذا العالم. الثاني: أن تلك الأجزاء النارية لا بُدَّ في نزولها أن تعبرَ على كُرّة الزمهرير التي هي في غاية البرد، ونحن نشاهد في هذا العالم أن النار العظيمة تنطفئ بالماء القليل، فتلك الأجزاء الصغيرة عند مرورها بكُرّة الزمهرير التي هي في غاية البرد، ونهاية العظم أولى بالانطفاء.

وأما الثاني: - وهو أن يقال: إنها تكونت ههنا - فهو أبعد وأبعد، لأن الجسم الذي صار ناراً بعد أن لم يكن كذلك، قد كان قبلاً صيرورته إما أرضاً، وإما ماءً، وإما هواءً لانحصار الأركان في هذه الأربعة، وهذا الذي قد صار ناراً أولاً، كان مختلطاً بأحد هذه الأجسام، ومتصلاً بها، والجسم الذي لا يكون ناراً إذا اختلط بأجسام عظيمة ليست بنار ولا واحد منها، لا يَكُونُ مستعداً لأن يتقلب ناراً لأنه في نفسه ليس بنار، والأجسام المختلطة باردة، فكيف يكون مستعداً لانقلابه ناراً؟

فإن قلتم: لم لا تكون هناك أجزاء نارية تقلب هذه الأجسام، وتجعلها ناراً بسبب مخالطتها إياها؟

قلنا: الكلام في حصول تلك الأجزاء النارية كالكلام في الأول، فإن قلتم: إنا نرى من رش الماء على الثّورة^(٢) المطفأة تفصيل منها نار، وإذا وقع شعاعُ الشمس على البلّورة، ظهرت النار منها، وإذا ضربنا الحجر على الحديد، ظهرت النار، ولك هذه النارية حدثت عند الاختلاط، وذلك يبطّل ما قررتموه

في القسم الأول أيضاً.

قال المنكرون: نحن لا نُنْكِرُ أن تكون المُصائّة^(٣)

الشديدة محدثة للنار، كما في ضرب الحجارة على الحديد، أو تكون قوة تسخين الشمس محدثة للنار، كما في البلّورة، لكننا نستبعد ذلك جداً في أجرام النبات والحيوان، إذ ليس في أجرامها من اصطكاك ما يُوجب حدوث النار، ولا فيها من الصفاء والصفال ما يبلغ إلى حدّ البلّورة، كيف وشعاعُ الشمس يقع على ظاهرها، فلا تتولد النار البتة، فالشعاع الذي يصل إلى باطنها كيف يولد النار؟

الوجه الثاني: في أصل المسألة: أن الأطباء مجمعون على أن الشراب العتيق في غاية السخونة بالطبع، فلو كانت تلك السخونة بسبب الأجزاء النارية، لكانت محالاً إذ تلك الأجزاء النارية مع حقارتها كيف يُعقل بقاؤها في الأجزاء المائية الغالب دهرًا طويلاً، بحيث لا تنطفئ مع أننا نرى النار العظيمة تنطفئ بالماء القليل.

الوجه الثالث: أنه لو كان في الحيوان والنبات جزء نارٍ بالفعل، لكان مغلوباً بالجزء المائي الذي فيه، وكان الجزء الناري مقهوراً به، وغلبة بعض الطبائع والعناصر على بعض يقتضي انقلاب طبيعة المغلوب إلى طبيعة الغالب، فكان يلزم بالضرورة انقلاب تلك الأجزاء النارية القليلة جداً إلى طبيعة الماء الذي هو ضد النار.

الوجه الرابع: أن الله سبحانه وتعالى ذكر خلق الإنسان في كتابه في مواضع متعددة، يُخبر في بعضها أنه خلقه من ماء، وفي بعضها أنه خلقه من تراب، وفي بعضها أنه خلقه من المركب منهما وهو الطين، وفي بعضها أنه خلّقه من صلصال كالنفخار، وهو الطين الذي ضربته الشمس والريح حتى صار صلصالاً كالنفخار، ولم يخبر في موضع واحد أنه خلقه من نار، بل جعل ذلك خاصة إبليس. وثبت في «صحيح مسلم»: عن النبي ﷺ قال: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ

(١) أي أصوله جمع «اسطفس» وهو لفظ يوناني بمعنى الأصل، وسموا العناصر الأربع التي هي الماء والأرض والهواء والنار اسطفسات، لأنها أصول المركبات التي هي الحيوانات والنباتات والمعادن عندهم.

(٢) هي حجر الكلس، أي: الجير، ثم غلب على أخلط تصاف إلى الكلس من زرنخ وغيره.

(٣) مفاعلة من الصك وهي المصادمة.

الْحَاجُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ^١ لمسلم: ١٧٤٩٥، وهذا صريح في أنه خلق مما وصفه الله في كتابه فقط، ولم يصف لنا سبحانه أنه خلقه من نار، ولا أن في مادته شيئاً من النار.

الوجه الخامس: أن غاية ما يستدلون به ما يشاهدون من الحرارة في أبدان الحيوان، وهي دليل على الأجزاء النارية، وهذا لا يدل، فإن أسباب الحرارة أعم من النار، فإنها تكون عن النار تارة، وعن الحركة أخرى، وعن انعكاس الأشعة، وعن سخونة الهواء، وعن مجاورة النار، وذلك بواسطة سخونة الهواء أيضاً، وتكون عن أسباب آخر، فلا يلزم من الحرارة النار.

(حجج من ادعى وجود النار في البدن)

قال أصحاب النار: من المعلوم أن التراب والماء إذا اختلطا فلا بد لهما من حرارة تقتضي طبخهما وامتزاجهما، وإلا كان كُلُّ منهما غير ممتزج للآخر، ولا متحداً به، وكذلك إذا ألقينا البذر في الطين بحيث لا يصل إليه الهواء ولا الشمس فسد، فلا يخلو، إما أن يحصل في المركب جسم منضج طابخ بالطبع أو لا، فإن حصل، فهو الجزء الناري، وإن لم يحصل، لم يكن المرگب مسخنًا بطبعه، بل إن سخن كان التسخين عرضياً، فإذا زال التسخين العرضي، لم يكن الشيء حاراً في طبعه، ولا في كيفيته، وكان بارداً مطلقاً، لكن من الأغذية والأدوية ما يكون حاراً بالطبع، فعلمنا أن حرارتها إنما كانت، لأن فيها جوهرًا نارياً.

وأيضاً فلو لم يكن في البدن جزء مسخن لوجب أن يكون في نهاية البرد، لأن الطبيعة إذا كانت مقتضية للبرد، وكانت خالية عن المعاون والمعارض، وجب انتهاء البرد إلى أقصى الغاية، ولو كان كذلك لما حصل لها الإحساس بالبرد، لأن البرد الواصل إليه إذا كان في الغاية كان مثله، والشيء لا ينفعل عن مثله، وإذا لم ينفعل عنه لم يُحسَّ به، وإذا لم يحس به

لم يتألم عنه، وإن كان دونه فعدم الانفعال يكون أولى، فلو لم يكن في البدن جزء مسخن بالطبع لما انفعل عن البرد، ولا تألم به. قالوا: وأدلتكم إنما تُبطلُ قولَ من يقول: الأجزاء النارية باقية في هذه المركبات على حالها، وطبيعتها النارية، ونحن لا نقول بذلك، بل نقول: إن صورتها النوعية تفسد عند الامتزاج.

(الرد على حجج المثبتين)

قال الآخرون: لم لا يجوز أن يقال: إن الأرض والماء والهواء إذا اختلطت، فالحرارة المتضجرة الطابخة لها هي حرارة الشمس وسائر الكواكب، ثم ذلك المرگب عند كمال نضجه مستعد لقبول الهيئة التركيبية بواسطة السخونة نباتاً كان أو حيواناً أو معدناً، وما المانع أن تلك السخونة والحرارة التي في المركبات هي بسبب خواص وقوى يُحدثها الله تعالى عند ذلك الامتزاج لا من أجزاء نارية بالفعل؟ ولا سبيل لكم إلى إبطال هذا الإمكان البتة، وقد اعترف جماعة من فضلاء الأطباء بذلك.

وأما حديث إحساس البدن بالبرد، فنقول: هذا يدل على أن في البدن حرارة وتسخيناً، ومن ينكر ذلك؟ لكن ما الدليل على انحصار المسخن في النار، فإنه وإن كان كل نار مسخنًا، فإن هذه القضية لا تنعكس كلية، بل عكسها الصادق بعض المسخن نار.

وأما قولكم بفساد صورة النار النوعية، فأكثر الأطباء على بقاء صورتها النوعية، والقول بفسادها قول فاسد قد اعترف بفساده أفضل متأخريكم في كتابه المسمى بالشفاء^(١)، وبرهن على بقاء الأركان أجمع على طبائعها في المركبات. وبالله التوفيق.

(١) هو للشيخ الرئيس أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا يعد في الفلاسفة الأذكاء الكثيرين من التصنيف، وله انحرافات وشطحات نأى بها عن صراط الإسلام السوي لا يرضى عنها أهل الاستقامة من العلماء ومنهم المؤلف، ولذا عرض به بقوله: «متأخريكم» وللمؤلف وشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية نقداً لاذعة لانحرافاته، نثرها في مؤلفاتها الكثيرة. توفي سنة (٤٢٨هـ).

فصل

(أنواع علاجه ﷺ)

وكان علاجه ﷺ للمرض ثلاثة أنواع:

أحدها: بالأدوية الطبيعية.

والثاني: بالأدوية الإلهية.

والثالث: بالمركب من الأمرين.

ونحن نذكر الأنواع الثلاثة من هدية ﷺ، فنبدأ بذكر الأدوية الطبيعية التي وصفها واستعملها، ثم نذكر الأدوية الإلهية، ثم المركبة.

وهذا إنما نُشير إليه إشارة، فإن رسول الله ﷺ إنما بُعث هادياً، وداعياً إلى الله، وإلى جنته، ومعرفاً بالله، ومبيناً للامة مواقع رضاه وأمرأ لهم بها، ومواقع سخطه ونهاياً لهم عنها، ومخبرهم أخبار الأنبياء والرسل وأحوالهم مع أممهم، وأخبار تخليق العالم، وأمر المبدأ والمعاد، وكيفية شقاوة النفوس وسعادتها، وأسباب ذلك.

وأما طب الأبدان: فجاء من تكميل شريعته، ومقصوداً لغيره، بحيث إنما يُستعمل عند الحاجة إليه، فإذا قدر على الاستغناء عنه، كان صرفُ الهمم والقوى إلى علاج القلوب والأرواح، وحفظ صحتها، ودفع أسقامها، وجميتها مما يُفسدُها هو المقصودُ بالقصد الأول، وإصلاحُ البدن بدون إصلاح القلب لا ينفع، وفساد البدن مع إصلاح القلب مضرته يسيرة جداً، وهي مضرة زائلة تعقبها المنفعة الدائمة التامة، وبالله التوفيق.

ذكر القسم الأول

وهو العلاج بالأدوية الطبيعية

فصل

في هديه في علاج الحمى

ثبت في «الصحيحين»: عن نافع، عن ابن عمر، أن النبي ﷺ قال: «إنما الحمى أو شدة الحمى من قُتِحَ جهنم، فأبرئوها بالماء» [البخاري: ٥٧٢٥، ومسلم: ٥٧٥١].

(خطابه ﷺ نوعان عام لأهل الأرض وخاص ببعضهم)

وقد أشكل هذا الحديث على كثير من جهلة

الاطباء، ورأوه منافياً لدواء الحمى وعلاجها، ونحن نبين بحول الله وقوته وجهه وفقهه، فنقول: خطاب النبي ﷺ نوعان: عام لأهل الأرض، وخاص ببعضهم، فالأول: كعامة خطابه، والثاني: كقوله: «لا تَسْتَقْبِلُوا الْقِتْلَةَ بَعَاطٍ، وَلَا بَوْلٍ، وَلَا تَسْتَدْبِرُوهَا، وَلَكِنْ شَرُّقُوا، أَوْ غَرَّبُوا» [البخاري: ٣٩٤، ومسلم: ٦٠٩] فهذا ليس بخطاب لأهل المشرق والمغرب ولا العراق، ولكن لأهل المدينة وما على سمتها، كالشام وغيرها. وكذلك قوله: «مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قِتْلَةٌ» [الترمذي: ٣٤٤، وابن ماجه: ١٠١١].

(حديث الحمى خاص بأهل الحجاز وأسباب الحمى)

وإذا عُرِفَ هذا، فخطابه في هذا الحديث خاص بأهل الحجاز، وما والاها، إذ كان أكثر الحميات التي تعرض لهم من نوع الحمى اليومية العرضية الحادثة عن شدة حرارة الشمس، وهذه ينفعها الماء البارد شرباً واغتسالاً، فإن الحمى حرارة غريبة تشتعل في القلب، وتثبت منه بتوسط الروح والدم في الشرايين والعروق إلى جميع البدن، فتشتعل فيه اشتعالاً يضر بالأفعال الطبيعية، وهي تنقسم إلى قسمين: عرضية: وهي الحادثة إما عن الورم، أو الحركة، أو إصابة حرارة الشمس، أو القيظ الشديد ونحو ذلك.

ومرضية: وهي ثلاثة أنواع، وهي لا تكون إلا في مادة أولى، ثم منها يسخن جميع البدن. فإن كان مبدأ تعلقها بالروح سميت حمى يوم، لأنها في الغالب تزول في يوم، ونهايتها ثلاثة أيام، وإن كان مبدأ تعلقها بالأخلاط سميت عفنية، وهي أربعة أصناف: صفراوية، وسوداوية، وبلغمية، ودموية. وإن كان مبدأ تعلقها بالأعضاء الصلبة الأصلية، سميت حمى دقي، وتحت هذه الأنواع أصناف كثيرة.

وقد ينتفع البدن بالحمى انتفاعاً عظيماً لا يبلغه الدواء، وكثيراً ما يكون حمى يوم، وحمى العفن سبباً لانضاج مواد غليظة لم تكن تتضج بدونها، وسبباً لتفتح سدِّد لم يكن تصل إليها الأدوية المفتحة.

(تبرئ الحمى كثيراً من الأمراض)

وأما الرمء الحديث والمتقادم، فإنها تُبرئ أكثر أنواعه بُرءاً عجيبيّاً سريعاً، وتنفع من الفالج،

وَاللَّفْوةُ^(١)، والتشنُّج الامتلائي، وكثيراً من الأمراض الحادثة عن الفضول الغليظة.

(تأكيد هذا القول للمصنف من قبل بعض الأطباء)

وقال لي بعض فضلاء الأطباء: إن كثيراً من الأمراض نستبشر فيها بالحمى، كما يستبشر المريض بالعافية، فتكون الحمى فيه أنفع من شرب الدواء بكثير، فإنها تُنضج من الأخلاط والمواد الفاسدة ما يضرُّ بالبدن، فإذا أنضجتها صادفها الدواء متهيئة للخروج بنضاجها، فأخرجها، فكانت سبباً للشفاء.

وإذا عرف هذا، فيجوز أن يكون مرادُ الحديث من أقسام الحُمَيَّات العرضية، فإنها تسكن على المكان بالانغماس في الماء البارد، وسقي الماء البارد المثلوج، ولا يحتاج صاحبها مع ذلك إلى علاج آخر، فإنها مجردُ كيفية حارة متعلقة بالروح، فيكفي في زوالها مجردُ وصول كيفية باردة تسكنها، وتخمد لهبها من غير حاجة إلى استفراغ مادة، أو انتظار نضج.

(اعتراف جالينوس بأن الماء البارد ينفع في الحمى)

ويجوز أن يُراد به جميع أنواع الحميات، وقد اعترف فاضل الأطباء جالينوس^(٢): بأن الماء البارد ينفع فيها، قال في المقالة العاشرة من كتاب «حيلة البرء»: ولو أن رجلاً شاباً حسن اللحم، خصب البدن في وقت القيظ، وفي وقت منتهى الحمى، وليس في أحشائه ورم، استحم بماء بارد أو سبغ فيه، لانتفع بذلك. قال: ونحن نأمر بذلك لا توقف.

(قول الرازي)

وقال الرازي^(٣) في كتابه الكبير: إذا كانت القوة قوية، والحمى حادة جداً، والنضج بين ولا ورم في الجوف، ولا فتق، ينفع الماء البارد شرباً، وإن كان العليل خصب البدن والزمان حاراً، وكان معتاداً لاستعمال الماء البارد من خارج، فليؤذن فيه.

(معنى: «الحمى من فيح جهنم»)

وقوله: «الحمى من فيح جهنم»، هو شدة لهبها، وانتشارها، ونظيره: قوله: «شدة الحر من فيح جهنم»، وفيه وجهان.

أحدهما: أن ذلك أنموذج ورقيقة اشتقت من جهنم ليستدل بها العبادُ عليها، ويعتبروا بها، ثم إن الله سبحانه قدّر ظهورها بأسباب تقتضيها، كما أن الروح والفرح والسرور واللذة من نعيم الجنة أظهرها الله في هذه الدار عبرة ودلالة، وقدّر ظهورها بأسباب توجبها.

والثاني: أن يكون المراد التشبيه، فنسب شدة الحمى ولهبها بفيح جهنم، وشبه شدة الحر به أيضاً تنبيهاً للنفوس على شدة عذاب النار، وأن هذه الحرارة العظيمة مشبهة بفيحها، وهو ما يصيب من قرب منها من حرها.

(معنى: «فأبردوها»)

وقوله: «فأبردوها»، روي بوجهين: بقطع الهمزة وفتحها، رباعي: من أبرد الشيء: إذا صيره بارداً، مثل أسخنه: إذا صيره ساخناً.

والثاني: بهمزة الوصل مضمومة من برد الشيء يبرده، وهو أفصح لغة واستعمالاً، والرباعي لغة رديئة عندهم قال:

إِذَا وَجَدْتُ لَهَبَ الْحُبِّ فِي كَيْدِي

أَقْبَلْتُ نَحْوَ سِقَاءِ الْقَوْمِ أَتَرَدُّ
فَبَنِي بَرْدُثُ بَبَرْدِ الْمَاءِ ظَاهِرَه

فَمَنْ لِنَارٍ عَلَى الْأَحْشَاءِ تَتَّقِدُ^(٤)

(معنى: «بالماء»)

وقوله: «بالماء»، فيه قولان. أحدهما: أنه كل ماء وهو الصحيح. والثاني: أنه ماء زمزم، واحتج أصحابُ هذا القول بما رواه البخاري في «صحيحه» عن أبي جمره نضر بن عمران الضبي، قال: كنتُ

(١) اللقوة: داء يكون في الوجه يعوج منه الشدق.

(٢) طيب يوناني له اكتشافات رائعة في التشريح، وهو من أكبر مراجع أطباء العرب توفي سنة (٢٠١م).

(٣) هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي من أشهر أطباء العرب، ولد في الري، ولقب جالينوس العرب، وطبيب المسلمين له مؤلفات كثيرة منها الحاوي في صناعة الطب، والجدري والحصبه توفي سنة (٣١١هـ).

(٤) البتان لعروة بن أذينة.

الكبر التي تُصَفِّي جوهر الحديد، وهذا القدر هو
المعلوم عند أطباء الأبدان.

(الحصى تنفع البدن والقلب)

وأما تصفيتها القلب من وسخه ودرنه، وإخراجها
خباثته، فأمر يعلمه أطباء القلوب، ويجدونه كما
أخبرهم به نبيهم رسول الله ﷺ، ولكن مرض القلب
إذا صار مايوساً من برئه، لم ينفع فيه هذا العلاج.

فالحصى تنفع البدن والقلب، وما كان بهذه المثابة
فسبه ظلم وغدوان، وذكرت مرة وأنا محمومٌ قول
بعض الشعراء يسبها:

زَارَتْ مُكْفَرَةُ الذُّنُوبِ وَوَدَّعَتْ

تَبَا لَهَا مِنْ زَائِرٍ وَمُودَعٍ
قَالَتْ وَقَدْ عَزَمَتْ عَلَى تَرْحَالِهَا

مَاذَا تُرِيدُ فَقُلْتُ أَنْ لَا تَرْجِعِي
فَقُلْتُ: تَبَا لَهُ إِذْ سَبَّ مَا نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ
سِبِّهِ، وَلَوْ قَالَ:

زَارَتْ مُكْفَرَةُ الذُّنُوبِ لِيَصِبْهَا

أَفْلا بِهَا مِنْ زَائِرٍ وَمُودَعٍ
قَالَتْ وَقَدْ عَزَمَتْ عَلَى تَرْحَالِهَا

مَاذَا تُرِيدُ فَقُلْتُ: أَنْ لَا تُفْلِمِي
لَكَانَ أَوْلَى بِهِ، وَلَا تُلْعَتَ عَنْهُ، فَأُلْعَتَ عَنِّي

سريعاً. وقد روي في أثر لا أعرف حاله (حصى يؤم
كفارة سنة^(١))، وفيه قولان أحدهما: أَنَّ الحصى
تدخل في كل الأعضاء والمفاصل، وعدتها ثلاثمئة
وستون مفصلاً، فتكفر عنه - بعدد كل مفصل - ذنوب

يوم. والثاني: أنها تؤثر في البدن تأثيراً لا يزول
بالكلية إلى سنة، كما قيل في قوله ﷺ: «مَنْ شَرِبَ
الْخَمْرَ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةُ أَرْبَعِينَ يَوْماً» [صحيح: أحمد: ٦٧٣٣، وابن ماجه: ٣٣٧٧]. إن أثر الخمر يبقى في جوف
العبد، وعروقه، وأعضائه أربعين يوماً والله أعلم.

قال أبو هريرة: ما من مرض يُصِيبُنِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ
الْحَصَى، لأنها تدخل في كل عضو مني، وإن الله
سبحانه يُعْطِي كل عضو حظه من الأجر.

وقد روى الترمذي في «جامعه» من حديث رافع بن

أجاس ابن عباس بمكة، فأخذتني الحصى، فقال:
أبردها عنك بماء زمزم، فإن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ
الْحَصَى مِنْ فَتْحِ جَهَنَّمَ فَأَبْرِدُوهَا بِالْمَاءِ، أَوْ قَالَ: بِمَاءِ
زَمْزَمَ» [البخاري: ٣٢٦١]. وراوي هذا قد شك فيه، ولو
جزم به لكان أمراً لأهل مكة بماء زمزم، إذ هو متيسر
عندهم، ولغيرهم بما عندهم من الماء.

ثم اختلف من قال: إنه على عمومته، هل المراد به
الصدقة بالماء، أو استعماله؟ على قولين. والصحيح
أنه استعمال، وأطن أن الذي حمل من قال: المراد
الصدقة به أنه أشكل عليه استعمال الماء البارد في
الحصى، ولم يفهم وجهه مع أن لقوله وجهاً حسناً،
وهو أن الجزء من جنس العمل، فكما أحمده لهيب
العطش عن الظمان بالماء البارد، أحمده الله لهيب
الحصى عنه جزاءً وفاقاً، ولكن هذا يؤخذ من فقه
الحديث وإشارته، وأما المراد به فاستعماله.

وقد ذكر أبو نعيم وغيره من حديث أنس يرفعه:
«إِذَا حُمِّ أَحَدُكُمْ، فَلْيُرْسُ عَلَيْهِ الْمَاءُ الْبَارِدَ ثَلَاثَ لَيَالٍ
مِنَ السَّحَرِ» [صحيح: الحاكم (٤/٢٠٠)].

وفي «سنن ابن ماجه» عن أبي هريرة يرفعه:
«الْحَصَى كَبِيرٌ مِنْ كَبِيرِ جَهَنَّمَ، فَتَنَحَّوْهَا عَنْكُمْ بِالْمَاءِ
الْبَارِدِ» [ابن ماجه: ٣٤٧٥].

وفي «المسند» وغيره، من حديث الحسن، عن
سمرة يرفعه: «الْحَصَى قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ، فَأَبْرِدُوهَا عَنْكُمْ
بِالْمَاءِ الْبَارِدِ»، وكان رسول الله ﷺ إذا حُمِّ دعا بقرية
من ماء، فأفرغها على رأسه فاغتسل^(١).

وفي «السنن»: من حديث أبي هريرة قال: ذُكِرَتْ
الْحَصَى عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فسبها رجل، فقال
رسول الله ﷺ: «لَا تَسْبُهَا فَإِنَّهَا تَنْفِي الذُّنُوبَ، كَمَا
تَنْفِي النَّارُ حَبْتَ الْحَدِيدِ» [ابن ماجه: ٣٤٦٩].

لما كانت الحصى يتبعها حمية عن الأغذية الرديئة،
وتناول الأغذية والأدوية النافعة، وفي ذلك إعانة على
تقية البدن، وفي أخبائه وفضوله، وتصفيته من مواده
الرديئة، وتفعل فيه كما تفعل النار في الحديد في نفي
خبثه، وتصفية جوهره، وكانت أشبه الأشياء بنار

(١) ليس في المسند، الهيثمي في «المجمع» (٥/٩٤).

(٢) القضاعي في «مسنده» عن ابن مسعود مرفوعاً.

خديج يرفعه: «إِذَا أَصَابَتْ أَحَدَكُمْ الْحُمَّى - وَإِنْ الْحُمَّى قِطْعَةً مِنَ النَّارِ - فَلْيُطْفِئْهَا بِالْمَاءِ الْبَارِدِ وَيَسْتَقْبِلْ نَهْرًا جَارِيًا، فَلْيَسْتَقْبِلْ جَرِيَةَ الْمَاءِ بَعْدَ الْفَجْرِ وَقَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَلْيَقُلْ: بِسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ اشْفِ عَبْدَكَ، وَصَدِّقْ رَسُولَكَ، وَبِغَيْسِ فِيهِ ثَلَاثَ غَمَسَاتٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنْ بَرِيءَ، وَالْإِفْقِي خَمْسَ، فَإِنْ لَمْ يَبْرِأْ فِي خَمْسَ، فَسَبِّحْ، فَإِنْ لَمْ يَبْرِأْ فِي سَبْعِ فَتَسَبَّحْ، فَإِنَّهَا لَا تَكَادُ تُجَاوِزُ تِسْعًا بِإِذْنِ اللَّهِ» [أحمد: ٢٢٤٢٥، والترمذي: ٢٠٨٥، ومن حديث ثوبان ولبس من حديث رافع، وفي سنده مجهول].

قلت: وهو ينفع فعله في فصل الصيف في البلاد الحارة على الشرائط التي تقدّمت، فإن الماء في ذلك الوقت أبرد ما يكون لبعده عن ملاقاته الشمس، ووفور القوى في ذلك الوقت لما أفادها النوم، والسكون، وبرد الهواء، فتجتمع فيه قوة القوى، وقوة الدواء، وهو الماء البارد على حرارة الحمى العرضية، أو الغيب الخالصة، أعني التي لا ورم معها، ولا شيء من الأعراض الرديئة والمواد الفاسدة، فيطفئها بإذن الله، لا سيما في أحد الأيام المذكورة في الحديث، وهي الأيام التي يقع فيها بخران الأمراض الحادة كثيراً، سيما في البلاد المذكورة لرقّة أخلاط سكانها، وسُرعة أفعالهم عن الدواء النافع.

فصل

في هديه في علاج استطلاق البطن

(علاجه بالعسل)

في «الصحيحين»: من حديث أبي المتوكل، عن أبي سعيد الخدري، أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فقال: إن أخي يشكّني بطنه. وفي رواية: استطلق بطنه، فقال: «اسْقِهِ عَسَلًا»، فذهب ثم رجع، فقال: قد سقيته، فلم يُغْنِ عنه شيئاً. وفي لفظ: فلم يَزِدْهُ إِلَّا استطلاقاً مرتين أو ثلاثاً، كل ذلك يقول له: «اسْقِهِ عَسَلًا»، فقال له في الثالثة أو الرابعة: صَدَّقَ اللَّهُ، وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ» [البخاري: ٥٦٨٤، ومسلم: ٥٧٧٠].

وفي «صحيح مسلم» في لفظ له: «إِنْ أَخِي عَرَبٌ

بطنه»، أي فسد هضمه، واعتلت معدته، واسم العرب بفتح الراء، والدَّزَبَ أيضاً.

(منافع العسل)

والعسل فيه منافع عظيمة، فإنه جلاء للأوساخ التي في العروق والأمعاء وغيرها، محلل للرطوبات أكلاً وطلاء، نافع للمشايخ وأصحاب البلغم، ومن كان مزاجه بارداً رطباً، وهو مُغْذٍ ملين للطبيعة، حافظ لقوى المعاجين ولما استودع فيه، مذهب لكيفيات الأدوية الكريهة، منقّ للكبد والصدر، مُدِيرٌ للبول، موافقٌ للسعال الكائن عن البلغم، وإذا شُرِبَ حاراً بدّهن الورد، نفع من نهش الهوام وشرب الأفيون، وإن شُرِبَ وحده معزجاً بماء نفع من عضه الكلب الكلب، وأكل الفطير^(١) القتال، وإذا جُعِلَ فيه اللحم الطري، حفظ طراوته ثلاثة أشهر، وكذلك إن جُعِلَ فيه القثاء، والخيار، والقرع، والبانجان، ويحفظ كثيراً من الفاكهة ستة أشهر، ويحفظ جثة الموتى، ويُسمى الحافظ الأمين. وإذا لطخ به البدن المقلع والشعر، قتل قمله وصيبانه، وطول الشعر، وحسنه، ونعّمه، وإن اكتحل به، جلا ظلمة البصر، وإن استنّ به، يُنَضِّسُ الأسنان وصقلها، وحفظ صحتها، وصحة اللثة، ويفتح أفواه الثوروق، ويُدِيرُ القلث، ولعقه على الريق يُذهب البلغم، ويُغَيِّلُ خَمَلُ المعدة، ويدفع الفضلات عنها، ويسخنها تسخيناً معتدلاً، ويفتح سُدَّهَا، ويفعل ذلك بالكبد والكلى والمثانة، وهو أقلُّ ضرراً لسُدِّ الكبد والطحال من كل حلو.

وهو مع هذا كله مأمونُ الغائلة، قليلُ المضار، مُضَيِّرٌ بالعرض للصفاوين، ودفعها بالخل ونحوه، فيعودُ حيثُذاً نافعاً له جداً.

وهو غذاء مع الأغذية، ودواء مع الأدوية، وشراب مع الأشربة، وحلو مع الحلو، وطلاء مع الاطلية، ومُفَرِّجٌ مع المفرحات، فما خُلِقَ لنا شيء في معناه أفضل منه، ولا مثله، ولا قريباً منه، ولم يكن معوّلاً القدماء إلا عليه، وأكثرُ كتب القدماء لا ذكراً فيها للسكر البتة، ولا يعرفونه، فإنه حديث العهد حدث قريباً، وكان النبي ﷺ يشربه بالماء على الريق،

(١) الفطر بضمين: نوع من الكماء قتال.

وكثرة المادة الفاسدة فيه، فأمره بتكرار الدواء لكثرة المادة.

وليس طِبُّهُ ﷺ كَطِبِّ الأطباء، فإن طب ﷺ متيقن قطعي إلهي، صادر عن الوحي، ومشكاة النبوة، وكمال العقل. وطب غيره، أكثره خدس وظنون، وتجارب، ولا يُتَكَّرُ عدم انتفاع كثير من المرضى بطب النبوة، فإنه إنما يتنفع به من تلقاه بالقبول، واعتقاد الشفاء به، وكال التلقي له بالإيمان والإذعان، فهذا القرآن الذي هو شفاء لما في الصدور - إن لم يتلق هذا التلقي - لم يحصل به شفاء الصدور من أدوائها، بل لا يزيد المنافقين إلا رجساً إلى رجسهم، ومرضاً إلى مرضهم، وأين يقع طب الأبدان منه، فطب النبوة لا يُناسب إلا الأبدان الطيبة، كما أن شفاء القرآن لا يُناسب إلا الأرواح الطيبة والقلوب الحية، فأعراض الناس عن طب النبوة كإعراضهم عن الاستشفاء بالقرآن الذي هو الشفاء النافع، وليس ذلك لقصور في الدواء، ولكن لحُبث الطبيعة، وفساد المحل، وعدم قبوله، والله الموفق.

فصل

(بيان أن العسل فيه شفاء للناس)

وقد اختلف الناس في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩]، هل الضمير في «فيه» راجع إلى الشراب، أو راجع إلى القرآن؟ على قولين: الصحيح: رجوعه إلى الشراب وهو قول ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، وقتادة، والأكثرين، فإنه هو المذكور، والكلام يبيح لأجله، ولا ذكر للقرآن في الآية، وهذا الحديث الصحيح وهو قوله: «صَدَقَ اللَّهُ» كالصريح فيه، والله تعالى أعلم.

فصل

في هديه في الطاعون، وعلاجه،

والاحتراز منه

في «الصحيحين» عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه، أنه سمعه يسأل أسامة بن زيد: ماذا سمعت من رسول الله ﷺ في الطاعون؟ فقال أسامة: قال رسول الله ﷺ: «الطَّاعُونُ رَجَزٌ أُرْسِلَ عَلَى طَائِفَةٍ

وفي ذلك سرٌ بديع في حفظ الصحة لا يُدرکه إلا الفطن الفاضل، وسنذكر ذلك إن شاء الله عند ذكر هديه في حفظ الصحة.

وفي «سنن ابن ماجه» مرفوعاً من حديث أبي هريرة «مَنْ لَعِقَ الْعَسْلَ ثَلَاثَ غَدَوَاتٍ كُلَّ شَهْرٍ، لَمْ يُصِبْهُ عَظِيمٌ مِنَ الْبَلَاءِ» [ابن ماجه: ٣٤٥٠، وسنده ضعيف]، وفي أثر آخر: «عَلَيْكُمْ بِالشَّفَاءَيْنِ: الْعَسَلِ وَالْقُرْآنِ» [ابن ماجه: ٣٤٥٢] فجمع بين الطب البشري والإلهي، وبين طب الأبدان، وطب الأرواح، وبين الدواء الأرضي والدواء السمائي.

إذا عُرِفَ هذا، فهذا الذي وصف له النبي ﷺ العسل، كان استطلاق بطنه عن ثَخَمَةِ أصابته عن امتلاء، فأمره بشرب العسل لدفع الفضول المجتمعة في نواحي المَعِدَةِ والأمعاء، فإن العسل فيه جلاء، ودفع للفضول، وكان قد أصاب المعدة أخلاط لَزِجَةٌ، تمنع استقرار الغذاء فيها للزوجة، فإن المعدة لها خَمَلٌ كخمل القطيفة، فإذا علقت بها الأخلاط اللزجة، أفسدتها وأفسدت الغذاء، فدواؤها بما يجلوها من تلك الأخلاط، والعسل جلاء، والعسل من أحسن ما عُولِج به هذا الداء، لا سيما إن مزج بالماء الحار.

(فائدة تكرار سقي العسل)

وفي تكرار سقيه العسل معنى طبي بديع، وهو أن الدواء يجب أن يكون له مقدار، وكمية بحسب حال الداء، إن قصر عنه، لم يؤله بالكلية، وإن جاوزه. أوهى القوى، فأحدث ضرراً آخر، فلما أمره أن يسقيه العسل، سقاه مقداراً لا يفي بمقاومة الداء، ولا يبلغ الغرض، فلما أخبره، علم أن الذي سقاه لا يبلغ مقدار الحاجة، فلما تكرر ترداده إلى النبي ﷺ، أكد عليه المعاودة ليصل إلى المقدار المقاوم للداء، فلما تكررت الشربيات بحسب مادة الداء، برأ، بإذن الله، واعتبار مقادير الأدوية، وكيفياتها، ومقدار قوة المرض من أكبر قواعد الطب.

(معنى: «صدق الله وكذب بطن أخيك»)

وفي قوله ﷺ: «صَدَقَ اللَّهُ وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ»، إشارة إلى تحقيق نفع هذا الدواء، وأن بقاء الداء ليس لقصور الدواء في نفسه، ولكن لكذب البطن،

مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَعَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ يَأْزِضُ، فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ يَأْزِضُ وَأَنْتُمْ بِهَا، فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا فِرَاراً مِنْهُ» [البخاري: ٣٤٧٣، ومسلم: ٥٧٧٢].

وفي «الصحيحين» أيضاً: عن حفصة بنت سيرين، قالت: قال أنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «الطَّاعُونَ شَهَادَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ» [البخاري: ٢٨٣٠، ومسلم: ٥١٦٤].

(ما هو الطاعون؟)

الطاعون - من حيث اللغة - : نوع من الوباء، قاله صاحب «الصحاح»، وهو عند أهل الطب: ورم رديء قتال يخرج معه تلهب شديد مؤلم جداً يتجاوز المقدار في ذلك، ويصير ما حوله في الأكثر أسود أو أخضر، أو أكمد، ويؤول أمره إلى التقرح سريعاً. وفي الأكثر، يحدث في ثلاثة مواضع: في الإبط، وخلف الأذن، والأرنبة، وفي اللحوم الرخوة.

وفي أثر عن عائشة أنها قالت للنبي ﷺ: الطعن قد عرفناه، فما الطاعون؟ قال: «غَدَّةٌ كَغَدَّةِ الْبَعِيرِ يَخْرُجُ فِي الْمَرَأَقِ وَالْإِبْطِ» [حسن: أحمد: ٢٥١١٨].

قال الأطباء: إذا وقع الخراج في اللحوم الرخوة، والمغابن، وخلف الأذن والأرنبة، وكان من جنس فاسد، سُمِّي طاعوناً، وسببه دم رديء مائل إلى العفونة والفساد، مستحيل إلى جوهر سُعْيٍ، يفيد العضو ويُغَيِّرُ ما يليه، وربما رَشَحَ دماً وصديداً ويؤدي إلى القلب كيفية رديئة، فيحدث القيء والخفقان والغشي، وهذا الاسم وإن كان يَعُمُّ كُلَّ ورم يؤدي إلى القلب كيفية رديئة حتى يصير لذلك قتالاً، فإنه يختص به الحادث في اللحم الغُددي، لأنه لرداءته لا يقبله من الأعضاء إلا ما كان أضعف بالطبع، وأردؤه ما حدث في الإبط وخلف الأذن لقربيهما من الأعضاء التي هي أراس، وأسلمه الأحمر، ثم الأصفر، والذي إلى السواد، فلا يفلت منه أحد.

ولما كان الطاعون يكثر في الوباء، وفي البلاد الويئة، عبر عنه بالوباء، كما قال الخليل: الوباء: الطاعون. وقيل: هو كل مرض يعم، والتحقيق أن بين الوباء والطاعون عموماً وخصوصاً، فكل طاعون وباء، وليس كل وباء طاعوناً، وكذلك الأمراض

العامّة أعم من الطاعون، فإنه واحد منها، والطواعين خراجات وقروح وأورام رديئة حادثة في المواضع المتقدم ذكرها.

(آثار الطاعون)

قلت: هذه القروح، والأورام، والجراحات، هي آثار الطاعون، وليست نفسه، ولكن الأطباء لما لم تُدرَك منه إلا الأثر الظاهر، جعلوه نفس الطاعون. والطاعون يعبر عن ثلاثة أمور:

أحدها: هذا الأثر الظاهر، وهو الذي ذكره الأطباء.

والثاني: الموت الحادث عنه، وهو المراد بالحديث الصحيح في قوله: «الطَّاعُونَ شَهَادَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ».

والثالث: السبب الفاعل لهذا الداء، وقد ورد في الحديث الصحيح: «أنه بقية رجز أرسل على بني إسرائيل» [البخاري: ٣٤٧٣، ومسلم: ٥٧٧٢]، وورد فيه «أنه وخز الجِن» [صحيح: أحمد: ١٩٥٢٨]، وجاء أنه دعوة نبي.

(بيان ما للجن من تأثير في الطاعون - وكيفية دفعه)

وهذه العلل والأسباب ليس عند الأطباء ما يدفعها، كما ليس عندهم ما يدل عليها، والرسول تخير بالأمور الغائبة، وهذه الآثار التي أدركوها من أمر الطاعون ليس معهم ما ينفي أن تكون بتوسط الأرواح، فإن تأثير الأرواح في الطبيعة وأمراضها وهلاكها أمر لا ينكره إلا من هو أجهل الناس بالأرواح وتأثيراتها، وانفعال الأجسام وطبائعها عنها، والله سبحانه قد يجعل لهذه الأرواح تصرفاً في أجسام بني آدم عند حدوث الوباء، وفساد الهواء، كما يجعل لها تصرفاً عند بعض المواد الرديئة التي تحدث للنفوس هيئة رديئة، ولا سيما عند هيجان الدم، والميرة السوداء، وعند هيجان المني، فإن الأرواح الشيطانية تتمكن من فعلها بصاحب هذه العوارض ما لا تتمكن من غيره، ما لم يدفعها دافع أقوى من هذه الأسباب من الذكر، والدعاء، والابتهاال والتضرع، والصدقة، وقراءة القرآن، فإنه يستنزل بذلك من الأرواح الملكية ما يقهر هذه الأرواح الخيئة، ويبطل شرها ويدفع تأثيرها، وقد جربنا نحن وغيرنا هذا مراراً لا يحصيها إلا الله،

ورأينا لاستئزال هذه الأرواح الطيبة واستجلاب قُربها تأثيراً عظيماً في تقوية الطبيعة، ودفع المواد الرديئة، وهذا يكون قبل استحكامها وتمكنها، ولا يكاد ينخرم، فمن وفقه الله، بادر عند إحساسه بأسباب الشر إلى هذه الأسباب التي تدفعها عنه، وهي له من أنفع الدواء، وإذا أراد الله عز وجل إنفاذ قضائه وقدره، أغفل قلب العبد عن معرفتها وتصويرها وإرادتها، فلا يشعر بها، ولا يريد بها، ليقضي الله فيه أمراً كان مفعولاً.

وسنزيد هذا المعنى إن شاء الله تعالى إيضاحاً وبياناً عند الكلام على التداوي بالرقى، والعود النبوية، والأذكار، والدعوات، وفعل الخيرات، ونبين أن نسبة طب الأطباء إلى هذا الطب النبوي، كنسبة طب الطرية والمعجائز إلى طبهم، كما اعترف به حذاقهم وأئمتهم، ونبين أن الطبيعة الإنسانية أشد شيء انفعالاً عن الأرواح، وأن قوى العود، والرقى، والدعوات، فوق قوى الأدوية، حتى إنها تُبطل قوى السموم القاتلة.

(فساد الهواء جزء من)

أسباب الطاعون وببأن حاله في الفصول)

والمقصود: أن فساد الهواء جزء من أجزاء السبب التام، والعلّة الفاعلة للطاعون، فإن فساد جوهر الهواء الموجب لحدوث البوائ وفساده، يكون لاستحالة جوهره إلى الرداءة، لغلبة إحدى الكيفيات الرديئة عليه، كالعفونة، والتّن والسّمية في أي وقت كان من أوقات السنة، وإن كان أكثر حدوثه في أواخر الصيف، وفي الخريف غالباً لكثرة اجتماع الفضلات المرارية الحادة وغيرها في فصل الصيف، وعدم تحليلها في آخره، وفي الخريف لبرد الجو، وردغة الأبخرة والفضلات التي كانت تتحلل في زمن الصيف. فتتجمّع، فتسخن، وتتعفن، فتحدث الأمراض العفنة، ولا سيما إذا صادفت البدن

مستعداً، قابلاً رهلاً، قليل الحركة، كثير المواد، فهذا لا يكاد يُقَلَّت من المعطب.

وأصحّ الفصول فيه فصلُ الربيع. قال بقراط^(١): إن في الخريف أشد ما تكون من الأمراض، وأقْتل، وأما الربيع، فأصحّ الأوقات كلها وأقلّها موتاً، وقد جرت عادة الصيادلة، ومجهزي الموتى أنهم يستدبّون، ويستلّفون في الربيع والصيف على فصل الخريف، فهو ربيعهم، وفهم أشوق شيء إليه، وأفرح بقدمه، وقد روي في حديث: «إِذَا طَلَعَ النُّجْمُ ارْتَفَعَتِ الْعَامَةُ عَنْ كُلِّ بَلَدٍ»^(٢). وفسر بطولوع الثريا، وفسر بطولوع النبات زمن الربيع، ومنه «وَالنُّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجَدَانِ» [الرحمن: ٦]، فإن كمال طولوعه وتماّمه يكون في فصل الربيع، وهو الفصل الذي ترتفع فيه الآفات.

1 وأما الثريا، فالأمراض تكثر وقت طولوعها مع الفجر وسقوطها.

قال التميمي في كتاب «مادة البقاء»: أشد أوقات السنة فساداً، وأعظمها بلية على الأجساد وقتان، أحدهما: وقت سقوط الثريا للمغيب عند طلوع الفجر. والثاني: وقت طولوعها من المشرق قبل طلوع الشمس على العالم، بمنزلة من منازل القمر، وهو وقت تصرّم فصل الربيع وانقضائه، غير أن الفساد الكائن عند طولوعها أقلّ ضرراً من الفساد الكائن عند سقوطها.

وقال أبو محمد بن قتيبة: يُقال: ما طلعت الثريا، ولا نأت إلا بعمامة في النَّاس والإبل، وغروبها أحوه^(٣) من طولوعها.

وفي الحديث قول ثالث - ولعله أولى الأقوال به - أن المراد بالنجم: الثريا، وبالعمامة: الآفة التي تلحق الزروع والثمار في فصل الشتاء وصدر فصل الربيع، فعصل الأمن عليها عند طولوع الثريا في الوقت

(١) هو من أشهر أطباء اليونان القدماء جعل للأمراض مصدرين: الهواء والغذاء وقد ترجمت بعض مصنفاته إلى العربية منها «تقدمة المعرفة» و«طبيعة الإنسان» توفي سنة (٣٧٧) قبل الميلاد.

(٢) محمد بن الحسن في الآثار ص(١٥١)، والطبراني في «الصغير» ص(٢٠)، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (١/١٢١).

(٣) أحوه أشدّ عاهة وإصابة من: عاه الشيء: إذا أصابه عاهة.

المذكور، ولذلك نهى ﷺ عن بيع الثمرة وشرائها قبل أن يبدؤ صلاحها. والمقصود: الكلام على هديه ﷺ عند وقوع الطاعون.

فصل

(النهى عن الدخول إلى أرض الطاعون والخروج منها)

وقد جمع النبي ﷺ للأمة في نهيه عن الدخول إلى الأرض التي هو بها، ونهيه عن الخروج منها بعد وقوعه كمال التحرز منه، فإن في الدخول في الأرض التي هو بها تعرضاً للبلاء، وموافاةً له في محل سلطانه، وإعانةً للإنسان على نفسه، وهذا مخالف للشرع والعقل، بل تجنب الدخول إلى أرضه من باب الحمية التي أرشد الله سبحانه إليها، وهي حمية عن الأمكنة، والأهوية المؤذية.

(معنى النهى عن الخروج من البلد)

وأما نهيه عن الخروج من بلده، ففيه معنيان:

أحدهما: حمل النفوس على الثقة بالله، والتوكل عليه، والصبر على أقضيته، والرضى بها.

(يجب على المصلون السكون والدعة وهو منافع للسفر)

والثاني: ما قاله أئمة الطب: أنه يجب على كل محترز من الوباء أن يُخْرِجَ عن بدنه الرطوبات الفضلية، ويُقِلَّ الغذاء، ويميل إلى التدبير المجفف من كل وجه إلا الرياضة والحمام، فإنهما مما يجب أن يُحذرا، لأن البدن لا يخلو غالباً من فضل رديء كامن فيه، فتثيره الرياضة والحمام، ويخلطانه بالكيموس^(١) الجيد، وذلك يجلب علة عظيمة، بل يجب عند وقوع الطاعون السكون والدعة، وتسكين هيجان الأخلاط، ولا يمكن الخروج من أرض الوباء والسفر منها إلا بحركة شديدة، وهي مضرة جداً، هذا كلام أفضل الأطباء المتأخرين، فظهر المعنى الطبي من الحديث النبوي، وما فيه من علاج القلب والبدن وصلحهما^(٢).

فإن قيل: ففي قول النبي ﷺ: «لا تخرجوا فراراً منه»، ما يُبطل أن يكون أراد هذا المعنى الذي ذكرتموه، وأنه لا يمنع الخروج لعارض، ولا يحبس

مسافراً عن سفره؟ قيل: لم يقل أحد طيب ولا غيره، إن الناس يتركون حركاتهم عند الطواعين، ويصيرون بمنزلة الجمادات، وإنما ينبغي فيه التقليل من الحركة بحسب الإمكان، والفرار منه لا موجب لحركته إلا مجرد الفرار منه، ودعته وسكوته أنفع لقلبه وبدنه، وأقرب إلى توكله على الله تعالى، واستسلامه لقضائه. وأما من لا يستغني عن الحركة، كالصناع، والأجراء، والمسافرين، والبُزْد، وغيرهم، فلا يقال لهم: اتركوا حركاتكم جملة، وإن أمروا أن يتركوا منها ما لا حاجة لهم إليه، كحركة المسافر فاراً منه والله تعالى أعلم.

(حكم المنع من الدخول)

وفي المنع من الدخول إلى الأرض التي قد وقع بها عدة حكم:

أحدها: تجنب الأسباب المؤذية، والبعد منها.

الثاني: الأخذ بالعافية التي هي مادة المعاش والمعاد.

الثالث: أن لا يستنشقوا الهواء الذي قد غفِنَ وسَدَّ فيمضون.

الرابع: أن لا يُجاوروا المرضى الذين قد مَرَضُوا بذلك، فيحصل لهم بمجاورتهم من جنس أمراضهم.

وفي «سنن أبي داود» مرفوعاً: «إن من القرف التلَفَ» [أحمد: ١٥٧٤٢، وأبو داود: ٣٩٢٣، وفي سننه جهالة].

قال ابن قتيبة: القرف مدانة الوباء، ومدانة المرضى.

(حمية النفوس عن العدوى والبطرية)

الخامس: حمية النفوس عن الطيرة والعدوى، فإنها تتأثر بهما، فإن الطيرة على من تطير بها، وبالجملة ففي النهي عن الدخول في أرضه الأمر بالحوذر والحمية، والنهي عن التعرض لأسباب التلف. وفي النهي عن الفرار منه الأمر بالتوكل، والتسليم، والتفويض، فالأول: تأديب وتعليم، والثاني: تفويض وتسليم.

(١) الكيموس: الخلط أو الحالة التي يكون عليها الطعام بعد فعل المعدة، والكلمة يونانية.

(٢) وفيه معنى آخر: وهو التحرز من نقل عدوى المرض الوباء.

لقصة عمر في

امتناعه عن دخول الشام لوقوع الطاعون بها

وفي الصحيح: أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام، حتى إذا كان يَسْرَعُ، لقيه أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام، فاختلفوا، فقال لابن عباس: ادْعُ لي المهاجرين الأولين، قال: فدعوتهم، فاستشارهم، وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام، فاختلفوا، فقال له بعضهم: خرجت لأمر، فلا نرى أن تَرْجِعَ عنه. وقال آخرون: معك بقية الناس، وأصحابُ رسول الله ﷺ، فلا نرى أن تُقَدِّمَهُمْ على هذا الوباء، فقال عمر: ارتفعوا عني، ثم قال: ادْعُ لي الأنصار، فدعوتهم له، فاستشارهم، فسلَّكوا سبيلَ المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي من ههنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم له، فلم يختلف عليه منهم رجلان، قالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تُقَدِّمَهُمْ على هذا الوباء، فأذن عمر في الناس إني مصبح على ظَهْرِ، فأصبحوا عليه، فقال أبو عبيدة بن الجراح: يا أمير المؤمنين! أفراراً من قدر الله تعالى؟ قال: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نَفَرُ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ تعالى إلى قَدَرِ اللَّهِ تعالى، أرايت لو كان لك إبلٌ فهبطت وادياً له عُذْوَتَانِ، إحداهما: خِصْبَةٌ، والأخرى، جَذْبَةٌ، ألسنت إن رعيتهما الخِصْبَةُ رعيتهما بقدر الله تعالى، وإن رعيتهما الجذبة رعيتهما بقدر الله تعالى؟ قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيياً في بعض حاجاته، فقال: إن عندي في هذا علماً، سمعتُ من رسول الله ﷺ يقول: «إِذَا كَانَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا، فَلَا تَخْرُجُوا فِرَاراً مِنْهُ، وَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ، فَلَا تُقَدِّمُوا عَلَيْهِ»^(١) [البخاري: ٣٤٧٣، وسلم: ٥٧٨٤].

فصل

في هديه في داء الاستسقاء وعِلاجه

في «الصحيحين»: من حديث أنس بن مالك، قال: «قَدِمَ رَهْطٌ مِنْ عُرَيْنَةَ وَعُكْلٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ،

فاجْتَوَوْا المدينة، فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال: «لو خرجتُم إلى إبل الصدقة فشربتم من أبوالها وألبانها، ففعلوا، فلما صَحُّوا، عمدوا إلى الرِّعَاةِ فقتلُوهم، واستاقوا الإبل، وحاربوا الله ورسوله، فبعث رسولُ الله ﷺ في آثارهم، فأخذوا، فَفَقَّعَ أَيْدِيَهُمْ، وَأَرْجُلَهُمْ، وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ، وألقاهم في الشمس حتى ماتوا» [البخاري: ٢٣٣، وسلم: ٤٣٥٣].

والدليل على أن هذا المرض كان الاستسقاء، ما رواه مسلم في «صحيحه» في هذا الحديث أنهم قالوا: إنا اجتوينا المدينة، فعظمت بطوننا، وارتهشت أعضاؤنا، وذكر تمام الحديث...

والجوى: داء من أدواء الجوف، والاستسقاء: مرض مادي سببه مادة غريبة باردة تتخلل الأعضاء فتربو لها إما الأعضاء الظاهرة كلها، وإما المواضع الخالية من النواحي التي فيها تدبير الغذاء والأخلاط، وأقسامه ثلاثة: لحمي، وهو أصعبها. وزقي، وطبلي.

(علة الاستسقاء بابوال الإبل وألبانها)

ولما كانت الأدوية المحتاج إليها في علاجه هي الأدوية الجالبة التي فيها إطلاق معتدل، وإدراج بحسب الحاجة، وهذه الأمور موجودة في أبوال الإبل وألبانها، أمرهم النبي ﷺ بشربها، فإن في لبن اللقاح جلاءً وتلييناً، وإدراجاً وتلطيفاً، وتفتيحاً للسدد، إذ كان أكثر رعيها الشيخ، والقيصوم، والبابونج، والأقحوان، والإذخير، وغير ذلك من الأدوية النافعة للاستسقاء.

وهذا المرض لا يكون إلا مع آفة في الكبد خاصة، أو مع مشاركة، وأكثرها عن السدد فيها، ولبن اللقاح العربية نافع من السدد، لما فيه من التفتيح، والمنافع المذكورة.

قال الرازي: لبن اللقاح يشفي أوجاع الكبد، وفساد المزاج، وقال الإسرائيلي: لبن اللقاح أرقُّ الألبان، وأكثرها مائة وجدةً، وأقلها غذاءً، فلذلك صار أقواها على تلطيف الفضول، وإطلاق البطن،

(١) وسرع: قرية في طرف الشام مما يلي الحجاز.

وتفتيح السدد، ويدل على ذلك ملوحته اليسيرة التي فيه لإفراط حرارة حيوانية بالطبع، ولذلك صار أخضر الألبان بتطرية الكبد، وتفتيح سُددها، وتحليل صلابة الطحال إذا كان حديثاً، والنفع من الاستسقاء خاصة إذا استعمل لحرارته التي يخرج بها من الضرع مع بول الفصيل، وهو حار كما يخرج من الحيوان، فإن ذلك مما يزيد في ملوحته، وتقطيعه الفضول، وإطلاقه البطن، فإن تَمَذَّرَ انحداؤه وإطلاقه البطن، وجب أن يُطْلَقَ بدواء سهل.

قال صاحب «القانون»^(١): ولا يلتفت إلى ما يقال: من أن طبيعة اللبن مضادة لعلاج الاستسقاء. قال: وأعلم أن لبن النوق دواء نافع لما فيه من الجلاء برفق، وما فيه من خاصية، وأن هذا اللبن شديد المنفعة، فلر أن إنساناً أقام عليه بدل الماء والطعام شُفِيَ به، وقد جُرَّبَ ذلك في قوم دفعوا إلى بلاد العرب، ففادتهم الضرورة إلى ذلك، فعُوفُوا. وأنفع الأيوال: بول الجمل الأعرابي، وهو النجيب، انتهى.

(طهارة بول مأكول اللحم)

وفي القصة: دليل على التداوي والتطبب، وعلى طهارة بول مأكول اللحم، فإن التداوي بالمحرمات غير جائز^(٢)، ولم يؤمروا مع قرب عهدهم بالإسلام بفصل أفواههم، وما أصابته ثيابهم من أبوالها للصلاة، وتأخير البيان لا يجوز عن وقت الحاجة.

(مقاتلة الجاني بمثل ما فعل)

وعلى مقاتلة الجاني بمثل ما فعل، فإن هؤلاء قتلوا الراعي، وسملوا عينيه، ثبت ذلك في «صحیح مسلم».

وعلى قتل الجماعة، وأخذ أطرافهم بالواحد.

(اجتماع الحد والقصاص)

وعلى أنه إذا اجتمع في حق الجاني حد وقصاص استوفيا معاً، فإن التَّيَّيَّ قطع أيديهم وأرجلهم

حداً لله على جُراهم، وقَتَلَهُمْ لِقَتْلِهِم الراعي.

وعلى أن المحارب إذا أخذ المال، وقتل، قُطِعَتْ يده ورجله في مقام واحد وقُتِلَ.

(إذا تعدت الجنايات تغلظت عقوباتها)

وعلى أن الجنايات إذا تعددت، تغلظت عقوباتها، فإن هؤلاء ارتدوا بعد إسلامهم، وقتلوا النفس، ومثّلوا بالمقتول، وأخذوا المال، وجأهروا بالمحاربة.

(حكم ردة المحاربين حكم مباشرهم)

وعلى أن حكم ردة المحاربين حكم مباشرهم، فإنه من المعلوم أن كُلَّ واحد منهم لم يَباشر القتل بنفسه، ولا سأل النبي ﷺ عن ذلك.

(قتل الغيلة بوجوب قتل القاتل حداً)

وعلى أن قتل الغيلة يُوجب قتل القاتل حداً، فلا يُسقطه العفو، ولا تُعتبر فيه المكافأة، وهذا مذهب أهل المدينة، وأحد الوجهين في مذهب أحمد، اختاره شيخنا^(٣)، وأفتى به.

فصل

في هديه في علاج الجرح

في «الصحيحين»: عن أبي حازم، أنه سمع سهل بن سعد يسأل عما دُوي به جرحُ رسول الله ﷺ يوم أحد، فقال: «جُرحَ وجهه، وكسرت رِباعيته، وهُشِمَت البيضة على رأسه، وكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسيل الدم، وكان علي بن أبي طالب يسكب عليها بالمِجَنِّ، فلما رأت فاطمة الدم لا يزيد إلا كثرة، أخذت قطعة حصير، فأحرقتها حتى إذا صارت رماداً ألصقته بالجرح فاستمسك الدم» [البخاري: ٤٠٧٥، ومسلم: ٤٦٤٢]، برماد الحصير المعمول من البُرْدِي^(٤)، وله فعل قوي في حبس الدم، لأن فيه تجفيفاً قوياً، وقلةً لذع، فإن الأدوية

(١) هو كتاب في الطب النظري والعملي، وفي أحكام الأدوية، ألفه ابن سينا.

(٢) هذا غير متفق عليه، ودليل المجيز أنه لا يكون حيثل حراماً.

(٣) يعني شيخ الإسلام ابن تيمية.

(٤) نبات مائي كالقصب تصنع منه الحصير، وكان القدماء يستعملون قشره للكتابة.

القوة التجهيف إذا كان فيها لذع هيَّجت الدم وجلبته، وهذا الرماد إذا نُفِّخَ وحده، أو مع الخل في أنف الراعف قطع رُعافه.

وقال صاحب «القانون»: البردي ينفع من النزف، ويمنعه، ويُدْرُ على الجراحات الطرية، فيُدْمَلُها، والقرطاس المصري، كان قديماً يُعمل منه، ومزاجه بارد يابس، ورماده نافع من أكلة الفم، ويحبس نفث الدم، ويمنع القروح الخبيثة أن يسمي.

فصل

في هديه في العلاج بشرب العسل، والحجامة، والكي

في «صحيح البخاري»: عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، قال: «الشَّفاءُ في ثلاث: شَرْبَةُ عَسَلٍ، وَشَرْطَةُ مَخِمْ، وَكَيُّ نَارٍ، وَأَنَا أَنهى أُمَّتِي عَنِ الْكَيِّ» [البخاري: ٥٦٨٠].

قال أبو عبد الله المازري: الأمراض المتلازمة: إما أن تكون دموية، أو صفراوية، أو بلغمية، أو سوداوية. فإن كانت دموية، فشفاؤها بإخراج الدم، وإن كانت من الأقسام الثلاثة الباقية، فشفاؤها بالإسهال الذي يليق بكل خلط منها، وكأنه ﷺ نبه بالعسل على المسهلات، وبالحجامة على الفصد، وقد قال بعض الناس: إن الفصد يدخل في قوله: «شرطة محجم». فإذا أعيى الدواء، فأجر الطب الكي، فذكره ﷺ في الأدوية، لأنه يستعمل عند غلبة الطباع لقوى الأدوية، وحيث لا ينفع الدواء المشروب. وقوله: «وأنا أنهى أمتي عن الكي»، وفي الحديث الآخر: «وَمَا أُجِبُّ أَنْ أَكْتُوي» [البخاري: ٥٧٠٤، ومسلم: ٥٧٤٢]، إشارة إلى أن يؤخر العلاج به حتى تدفع الضرورة إليه، ولا يجعل التداوي به لما فيه من استعجال الألم الشديد في دفع ألم قد يكون أضعف من ألم الكي، انتهى كلامه.

(الأمراض المزاجية وعلاجها)

وقال بعض الأطباء: الأمراض المزاجية: إما أن تكون بمادة، أو بغير مادة، والمادية منها: إما حارة، أو باردة، أو رطبة، أو يابسة، أو ما تركب منها، وهذه الكيفيات الأربع، منها كيفيتان فاعلتان: وهما

الحارة والبرودة، وكيفيتان منفعلتان؛ وهما الرطوبة واليبوسة، ويلزم من غلبة إحدى الكيفيتين الفاعلتين استصحاب كيفية منفعة معها، وكذلك كان لكل واحد من الأخلاط الموجودة في البدن، وسائر المركبات كيفيتان: فاعلة ومنفعة.

(العلاج بإخراج الدم)

فحصل من ذلك أن أصل الأمراض المزاجية هي التابعة لأقوى كفيات الأخلاط التي هي الحرارة والبرودة، فجاء كلام النبوة في أصل معالجة الأمراض التي هي الحارة والباردة على طريق التمثيل، فإن كان المرض حاراً، عالجنه بإخراج الدم، بالفصد كان أو بالحجامة، لأن في ذلك استفراغاً للمادة، وتبريداً للمزاج. وإن كان بارداً عالجنه بالتسخين، وذلك موجود في العسل، فإن كان يحتاج مع ذلك إلى استفراغ المادة الباردة، فالعسل أيضاً يفعل في ذلك لما فيه من الإنضاج، والتقطيع، والتلطيف، والجلاء، والتلين، فيحصل بذلك استفراغ تلك المادة برفق وأمن من نكايه المسهلات القوية.

(العلاج بالكي)

وأما الكي: فلأن كل واحد من الأمراض المادية، إما أن يكون حاداً فيكون سريع الإقضاء لأحد الطرفين، فلا يحتاج إليه فيه، وإما أن يكون مزمناً، وأفضل علاجه بعد الاستفراغ الكي في الأعضاء التي يجوز فيها الكي، لأنه لا يكون مزمناً إلا عن مادة باردة غليظة قد رسخت في العضو، وأفسدت مزاجه، وأحالت جميع ما يصل إليه إلى مشابهة جوهرها، فيشتعل في ذلك العضو، فيستخرج بالكي تلك المادة من ذلك المكان الذي هو فيه بإفناء الجزء الناري الموجود بالكي لتلك المادة.

فتعلمنا بهذا الحديث الشريف أخذ معالجة الأمراض المادية جميعها، كما استنبطنا معالجة الأمراض الساذجة من قوله ﷺ: «إِنَّ شِدَّةَ الْحُمَى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ، فَأَبْرِدُوهَا بِالْمَاءِ».

فصل

(العلاج بالحجامة)

وأما الحجامة، ففي «سنن ابن ماجه» من حديث

جبارة بن المُثَّلِّس، - وهو ضعيف - عن كثير بن سليم، قال: سمعت أنس بن مالك يقول: قال رسول الله ﷺ: «مَا مَرَزْتُ لَيْلَةً أُسْرِيَّ بِي بِمَلَأٍ إِلَّا قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ! مَرَأَتُكَ بِالْحِجَامَةِ» [صحيح بشواهده: ابن ماجه: ٣٤٧٩].

وروى الترمذي في «جامعه» من حديث ابن عباس هذا الحديث: وقال فيه: «عليك بالحِجَامَةِ يَا مُحَمَّدُ» [الترمذي: ٢٠٥٤، وفي سنده ضعف].

وفي «الصحيحين»: من حديث طاوس، عن ابن عباس، أن النبي ﷺ: «احتجم وأعطى الحِجَامَ أَجْرَهُ» [البخاري: ٥٦٩٦، ومسلم: ٥٧٣٧].

وفي «الصحيحين» أيضاً، عن حُميد الطويل، عن أنس، أن رسول الله ﷺ حجّمه أبو طيبة، فأمر له بصاعين من طعام، وكلم مواليه، فحقّقوا عنه من ضريبته، وقال: «خَيْرٌ مَا تَدَاوَيْتُمْ بِهِ الْحِجَامَةُ» [البخاري: ٥٦٩٦، ومسلم: ٤٠٣٨].

وفي «جامع الترمذي» عن عباد بن منصور، قال: سمعت عكرمة يقول: كان لابن عباس غلّمة ثلاثة حِجَامُونَ، فكان اثنان يُغَلّان عليه، وعلى أهله، وواحد لحجّمه، وحجّم أهله. قال: وقال ابنُ عباس: قال نبي الله ﷺ: «نِعْمَ الْعَبْدُ الْحِجَامُ يَذْهَبُ بِالْذَّمِّ، وَيُخَفِّضُ الصُّلْبَ، وَيَجْلُو الْبَصَرَ»، وقال: إن رسول الله ﷺ حيثُ عُرِجَ به، ما مرَّ على ملا من الملائكة إِلَّا قالوا: «عَلَيْكَ بِالْحِجَامَةِ»، وقال: إنَّ خَيْرَ مَا تَحْتَجِمُونَ فِيهِ يَوْمَ سَبْعِ عَشْرَةٍ، وَيَوْمَ تِسْعِ عَشْرَةٍ، وَيَوْمَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ، وقال: «إِنَّ خَيْرَ مَا تَدَاوَيْتُمْ بِهِ السَّعُوطُ وَاللَّدُودُ وَالْحِجَامَةُ وَالْمَشْيُ، وَإِنْ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - لَدُ فَقَالَ: «مَنْ لَدَنِي؟» فَكُلُّهُمْ أَسْكُوا، فَقَالَ: «لَا يَبْقَى أَحَدٌ فِي الْبَيْتِ إِلَّا لَدُ إِلَّا الْعَبَّاسُ». قال: هذا حديث غريب، ورواه ابن ماجه [سند ضعيف: الترمذي: ٢٠٥٤، وابن ماجه: ٣٤٧٨].

فصل

(منافع الحجامة)

وأما منافع الحجامة: فإنها تُنقي سطح البدن أكثر من الفصد، والفصد لأعماق البدن أفضل، والحجامة تستخرجُ الدم من نواحي الجلد.

قلت: والتحقيق في أمرها وأمر الفصد، أنهما يختلفان باختلاف الزمان، والمكان، والأنسان، والأمزجة، فالبلاد الحارة، والأزمنة الحارة، والأمزجة الحارة التي دُم أصحابها في غاية النضج الحجامة فيها أنفع من الفصد بكثير، فإن الدم ينضج ويرقُ ويخرج إلى سطح الجسد الداخل، فتُخرجُ الحجامة ما لا يُخرجه الفصد، ولذلك كانت أنفع للصبيان من الفصد، ولمن لا يقوى على الفصد، وقد نص الأطباء على أن البلاد الحارة الحجامة فيها أنفع وأفضل من الفصد، وتُستحب في وسط الشهر، وبعد وسطه. وبالجمل، في الربع الثالث من أرباع الشهر، لأن الدم في أول الشهر لم يكن بعد قد هاج وتبيخ، وفي آخره يكون قد سكن. وأما في وسطه وبُعَيْدَه، فيكون في نهاية التزيد.

قال صاحب «القانون»: ويُؤمر باستعمال الحجامة لا في أول الشهر، لأن الأخلاط لا تكون قد تحركت وهاجت، ولا في آخره لأنها تكون قد نقصت، بل في وسط الشهر حين تكون الأخلاط هائجة بالغة في تزايدها لتزيد النور في جُرم القمر. وقد روي عن النبي ﷺ، أنه قال: «خَيْرٌ مَا تَدَاوَيْتُمْ بِهِ الْحِجَامَةُ وَالْفَصْدُ». وفي حديث: «خَيْرُ الدَّوَاءِ الْحِجَامَةُ وَالْفَصْدُ» [البخاري: ٥٦٩٦، ومسلم: ٤٠٣٨، دون قوله: الفصد]. انتهى.

(الإشارة بالحجامة إلى)

أهل الحجاز ومواقع الفصد ونفعها)

وقوله ﷺ: «خَيْرٌ مَا تَدَاوَيْتُمْ بِهِ الْحِجَامَةُ» إشارة إلى أهل الحجاز، والبلاد الحارة، لأن دماءهم رقيقة، وهي أميلُ إلى ظاهر أبدانهم لجذب الحرارة الخارجة لها إلى سطح الجسد، واجتماعها في نواحي الجلد، ولأن مسام أبدانهم واسعة، وقواهم متخلخلة، ففي الفصد لهم خطر، والحجامة تفرّق اتصالي إرادي يتبعه استفراغ كُلّي من العروق، وخاصة العروق التي لا تُفصد كثيراً، ولِفصد كُلِّ واحد منها نفع خاص، ففصدُ الباسليق: ينفع من حرارة الكبد والطحال والأورام الكائنة فيهما من

الدم، وينفع من أورام الرئة، وينفع من الشَّوْصَة^(١) وذات الجنب وجميع الأمراض الدموية العارضة من أسفل الركبة إلى الورك.

وفسد الأكحل: ينفع من الامتلاء العارض في جميع البدن إذا كان دمويًا، وكذلك إذا كان الدم قد فسد في جميع البدن.

وفسد القيصال^(٢): ينفع من العِلل العارضة في الرأس والرقبة من كثرة الدم أو فساده.

وفسد الودجين: ينفع من وجع الطَّحال، والربو، والبَّهر، ووجع الجبين.

والحجامة على الكاهل: تنفع من وجع المَنْكِبِ والحلق.

والحجامة على الأخدعين، تنفع من أمراض الرأس، وأجزائه، كالوجه، والأسنان، والأذنين، والعينين، والأنف، والحلق إذا كان حدوث ذلك عن كثرة الدم أو فساده، أو عنهما جميعاً. قال أنس رضي الله تعالى عنه: كان رسول الله ﷺ يحتجم في الأخْدَعَيْنِ والكاهِلِ [صحيح: أحمد: ١٢١٩١، وأبو داود: ٣٨٦٠، والترمذي: ٢٠٥٢].

وفي «الصحيحين» عنه: كان رسول الله ﷺ يَحْتَجِمُ ثلاثاً: واحدة على كاهله، واثنين على الأخْدَعَيْنِ [ليس في الصحيحين وإنما أخرجه أحمد: ١٢١٩١، وأبو داود: ٣٨٦٠، والترمذي: ٢٠٥١].

وفي الصحيح: عنه، أنه احتجم وهو محرم في رأسه لِصُدَّاعٍ كان به [البخاري: ٥٦٩٨].

وفي «سنن ابن ماجه» عن علي، نزل جبريلُ على النبي ﷺ بحجامة الأخدعين والكاهل [ابن ماجه: ٣٤٨٢، وسنده ضعيف].

وفي «سنن أبي داود» من حديث جابر، أنَّ النبي ﷺ: «احتجم في وركه من ورثه كان به»^(٣) [أبو داود: ٣٨٦٤].

فصل

(اختلاف الأطباء في الحجامة على نقرة القفا)

واختلف الأطباء في الحجامة على نقرة القفا، وهي القَمَحْدُودَة.

وذكر أبو نعيم في كتاب الطب النبوي حديثاً مرفوعاً «عَلَيْكُمْ بِالْحِجَامَةِ فِي جَوْزَةِ الْقَمَحْدُودَةِ، فَإِنَّهَا تُشْفِي مِنْ خَمْسَةِ أَذْوَءٍ»، ذكر منها الجُدَامُ^(٤).

وفي حديث آخر: «عَلَيْكُمْ بِالْحِجَامَةِ فِي جَوْزَةِ الْقَمَحْدُودَةِ، فَإِنَّهَا شِفَاءٌ مِنْ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ دَاءً» [الهيتمي في «المجمع» (٩٤/٥)، وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات].

فطائفة منهم استحسنته وقالت: إنها تنفع من جَحْظِ العين، والثَّنْوِ العارض فيها، وكثير من أمراضها، ومن يَقلُ الحاجبين والجفن، وتنفع من جَرَبِهِ. وروي أن أحمد ابن حنبل احتاج إليها، فاحتجم في جانبي قفاه، ولم يحتجم في النقرة، وممن كرهها صاحب «القانون» وقال: إنها تُورث النسيان حقاً، كما قال سيدنا ومولانا وصاحب شريعتنا محمد ﷺ، فإن مؤخر الدماغ موضع الحفظ، والحجامة تذهبه، انتهى كلامه.

ورد عليه آخرون، وقالوا: الحديث لا يثبت، وإن ثبت فالحجامة إنما تُضعف مؤخر الدماغ إذا استعملت لِغَيْرِ ضرورة، فأما إذا استعملت لغلبة الدم عليه، فإنها نافعة له طبياً وشرعاً، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه احتجم في عدة أماكن من قفاه بحسب ما اقتضاه الحال في ذلك، واحتجم في غير القفا بحسب ما دعت إليه حاجته.

فصل

(تتمة الكلام على مواضع الحجامة ونفعها)

والحجامة تحت الذقن تنفع من وجع الأسنان

(١) الشوْصَة: وجع في البطن بسبب ريح تأخذ الإنسان تجول مرة هنا ومرة هناك.

(٢) القيصال: عرق في الذراع.

(٣) والوث: وجع يصيب العضو من غير كسر.

(٤) السيوطي في «الجامع الصغير»، من حديث صهيب: ورمز له بالضعف.

والوجه والحلقوم، إذا استعملت في وقتها، وتُنقى الرأس والفكين، والحجامة على ظهر القدم تنوب عن فصد الصافين، وهو عرق عظيم عند الكعب، وتنفع من قروح الفخذين والساقين، وانقطاع الطمث، والحكة العارضة في الأنثيين، والحجامة في أسفل الصدر نافعة من دمايل الفخذ، وجريه ويؤثره، ومن النقرس والبواسير، والفيل^(١) وحكة الظهر.

فصل

في هديه في أوقات الحجامة

روى الترمذي في «جامعه»: من حديث ابن عباس يرفعه: «إِنَّ خَيْرَ مَا تَحْتَجِّمُونَ فِي يَوْمِ سَابِعِ عَشْرَةِ، أَوْ تَاسِعِ عَشْرَةِ، وَيَوْمِ إِحْدَى وَعَشْرِينَ» [الترمذي: ٢٠٥٣، وسنده ضعيف].

وفيه عن أنس كان رسول الله ﷺ يحتجم في الأخدعين والكاهل، وكان يحتجم لسبعة عشر، وتسعة عشر، وفي إحدى وعشرين» [الترمذي: ٢٠٥١].

وفي «سنن ابن ماجه» عن أنس مرفوعاً: «مَنْ أَرَادَ الْحِجَامَةَ فَلْيَتَحَرَّ سَبْعَةَ عَشَرَ، أَوْ تِسْعَةَ عَشَرَ، أَوْ إِحْدَى وَعَشْرِينَ، لَا يَتَّبِعْ بِأَحَدِكُمْ الدَّمُ فَيَقْتُلَهُ» [ابن ماجه: ٣٤٨٦].

وفي «سنن أبي داود» من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «مَنْ اخْتَجَمَ لِسَبْعِ عَشْرَةِ، أَوْ تِسْعِ عَشْرَةِ، أَوْ إِحْدَى وَعَشْرِينَ، كَانَتْ شِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ» [أبو داود: ٣٨٦١]، وهذا معناه من كل داء سببه غلبة الدم.

وهذه الأحاديث موافقة لما أجمع عليه الأطباء، أن الحجامة في النصف الثاني، وما يليه من الربع الثالث من أرباعه أنفع من أوله وآخره، وإذا استعملت عند الحاجة إليها نفعت أي وقت كان من أول الشهر وآخره.

قال الخلال: أخبرني عصمة بن عصام، قال: حدثنا حنبل، قال: كان أبو عبد الله أحمد ابن حنبل يحتجم أي وقت هاج به الدم، وأي ساعة كانت.

وقال صاحب «القانون»: أوقاتها في النهار: الساعة الثانية أو الثالثة، ويجب توقيتها بعد الحمام إلا

فيمن دمه غليظ، فيجب أن يستجم، ثم يستجم ساعة، ثم يحتجم، انتهى.

(مفاسد الحجامة على الشبع)

وتكره عندهم الحجامة على الشبع، فإنها ربما أورت سُدّاً وأمراضاً رديئة، لاسيما إذا كان الغذاء رديئاً غليظاً. وفي أثر: «الحجامة على الريق دواء، وعلى الشبع داء»، وفي سبعة عشر من الشهر شفاء.

واختيار هذه الأوقات للحجامة، فيما إذا كانت على سبيل الاحتياط والتحرز من الأذى، وحفظاً للصحة. وأما في مداواة الأمراض، فحيثما وجد الاحتياج إليها وجب استعمالها. وفي قوله: «لا يتبع بأحدكم الدم فيقتله» دلالة على ذلك، يعني لئلا يتبع، فحذف حرف الجر مع (أن)، ثم حذف (أن). والتبعية: الهنج، وهو مقلوب البغي، وهو بمعناه، فإنه بغي الدم وهيجانه. وقد تقدم أن الإمام أحمد كان يحتجم أي وقت احتاج من الشهر.

فصل

(اختيار أيام الأسبوع للحجامة)

وأما اختيار أيام الأسبوع للحجامة، فقال الخلال في «جامعه»: أخبرنا حرب بن إسماعيل، قال: قلت لأحمد: تكره الحجامة في شيء من الأيام؟ قال: قد جاء في الأربعاء والسبت.

وفيه: عن الحسين بن حسان، أنه سأل أبا عبد الله عن الحجامة: أي يوم تكره؟ فقال: في يوم السبت، ويوم الأربعاء، ويقولون: يوم الجمعة.

وروى الخلال، عن أبي سلمة وأبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة مرفوعاً: «مَنْ اخْتَجَمَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ أَوْ يَوْمَ السَّبْتِ، فَصَابَهُ يَبَاضٌ أَوْ بَرَصٌ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» [الحاكم (٤٠٩/٤)، والبيهقي (٣٤٠/٩)، وفي سنده متروك].

وقال الخلال: أخبرنا محمد بن علي بن جعفر، أن يعقوب بن بختان حدثهم، قال: سئل أحمد عن الثورة والحجامة يوم السبت ويوم الأربعاء؟ فكرها. وقال: بلغني عن رجل أنه تنور، واحتجم يعني يوم

(١) داء الفيل: مرض يحدث من غلظ كثيف في القدم والساق تتخلله عجر صغيرة ناتئة.

الأربعاء، فأصابه البرص. قلت له: كأنه تهاون بالحديث؟ قال: نعم.

وفي كتاب «الأفراد» للدارقطني، من حديث نافع قال: قال لي عبد الله بن عمر: تبيخ بي الدم، فأنف لي حجماً، ولا يكن صيباً ولا شيباً كبيراً، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحجامة تزيد الحافظ حفظاً، والعاقِل عقلاً، فاحتجموا على اسم الله تعالى، ولا تختجموا خميس، والجمعة، والسبت، والأحد، واحتجموا الاثنين، وما كان من جذام ولا برص، إلا نزل يوم الأربعاء». قال الدارقطني: تفرد به زياد بن يحيى [ابن ماجه: ٣٤٨٧-٣٤٨٨، واسنيد ضعيف]، وقد رواه أيوب عن نافع، وقال فيه: «واحتجموا يوم الاثنين والثلاثاء، ولا تحتجموا يوم الأربعاء».

وقد روى أبو داود في «سننه» من حديث أبي بكر، أنه كان يكره الحجامة يوم الثلاثاء، وقال: إن رسول الله ﷺ قال: «يَوْمُ الثَّلَاثَةِ يَوْمُ الدَّمِ وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يَزَالُ فِيهَا الدَّمُ» [أبو داود: ٣٨٦٢، وفي سننه مجهولة].

فصل

(جواز احتجام الصائم والخلاف في فطره)

وفي ضمن هذه الأحاديث المتقدمة استحباب التداوي، واستحباب الحجامة، وأنها تكون في الموضع الذي يقتضيه الحال، وجواز احتجام المحرم، وإن آل إلى قطع شيء من الشعر، فإن ذلك جائز. وفي وجوب الفدية عليه نظر، ولا يقوى الوجوب، وجواز احتجام الصائم، فإن في «صحيح البخاري» أن رسول الله ﷺ: «احتجم وهو صائم» [البخاري: ١٩٣٩]. ولكن هل يفطر بذلك، أم لا؟ مسألة أخرى، الصواب: الفطر بالحجامة، لصحته عن رسول الله ﷺ من غير معارض، وأصح ما يعارض به حديث حجامة وهو صائم؛ ولكن لا يدل على عدم الفطر إلا بعد أربعة أمور. أحدها: أن الصوم كان فرضاً. الثاني: أنه كان مقيماً. الثالث: أنه لم يكن به مرض احتاج معه إلى الحجامة. الرابع: أن هذا الحديث متأخر عن قوله: «أفطر الحاجم والمحجم» [أبو داود: ٢٣٦٩، وابن ماجه: ١٦٨١].

فلذا ثبتت هذه المقدمات الأربع، أمكن الاستدلال بفعله ﷺ على بقاء الصوم مع الحجامة،

وإلا فما المانع أن يكون الصوم نفلاً يجوز الخروج منه بالحجامة وغيرها، أو من رمضان لكنه في السفر، أو من رمضان في الحضر، لكن دعت الحاجة إليها كما تدعو حاجة من به مرض إلى الفطر، أو يكون فرضاً من رمضان في الحضر من غير حاجة إليها، لكنه مبقى على الأصل. وقوله: «أفطر الحاجم والمحجم»، ناقل ومتأخر، فيتعين المصير إليه، ولا سبيل إلى إثبات واحدة من هذه المقدمات الأربع، فكيف بإثباتها كلها.

وفيها دليل على استجار الطيب وغيره من غير إجارة، بل يعطيه أجرة المثل، أو ما يرضيه.

(جواز التكسب بصناعة الحجامة)

وفيها دليل على جواز التكسب بصناعة الحجامة، وإن كان لا يطيب للحر أكل أجرته من غير تحریم عليه، فإن النبي ﷺ أعطاه أجره، ولم يمنعه من أكله، وتسميته إياه خبيثاً كتسميته للثوم والبصل خبيثين، ولم يلزم من ذلك تحريمهما.

(جواز ضرب الرجل الخراج)

على عبده كل يوم شيئاً معلوماً)

وفيها دليل على جواز ضرب الرجل الخراج على عبده كل يوم شيئاً معلوماً بقدر طاقته، وأن للعبد أن يتصرف فيما زاد على خراجه، ولو منع من التصرف، لكان كسبه كله خراجاً ولم يكن لتقديره فائدة، بل ما زاد على خراجه، فهو تملك من سيده له يتصرف فيه كما أراد، والله أعلم.

فصل

في هديه ﷺ في قطع العروق والكي

ثبت في «الصحيح» من حديث جابر بن عبد الله، أن النبي ﷺ بعث إلى أبي بن كعب طبيباً، فقطع له عرقاً وكواه عليه [مسلم: ٥٧٤٥].

ولما رُمي سعد بن معاذ في أكله حسمه النبي ﷺ ثم ورمته، فحسمه الثانية [مسلم: ٥٧٤٨]. والحسم: هو الكي.

وفي طريق آخر: أن النبي ﷺ كوى سعد بن معاذ في أكله يمشق، ثم حسمه سعد بن معاذ أو غيره من أصحابه.

وأما إذا كان الكي للتداوي الذي يجوز أن ينجع، ويجوز أن لا ينجع، فإنه إلى الكراهة أقرب. انتهى.

وثبت في «الصحيح» في حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب أنهم الذين لا يَسْتَرْقُونَ ولا يَكْتُون ولا يتَطَيرون، وعلى ربهم يتوكلون» [البخاري: ٥٧٥٢، ومسلم: ٥٢٧].

فقد تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع، أحدها: فعله؛ والثاني: عدم محبته له، والثالث: الثناء على من تركه، والرابع: النهي عنه، ولا تعارض بينها بحمد الله تعالى، فإن فعله يدل على جوازه، وعدم محبته له لا يدل على المنع منه. وأما الثناء على تاركه، فيدل على أن تركه أولى وأفضل. وأما النهي عنه، فعلى سبيل الاختيار والكراهة، أو عن النوع الذي لا يحتاج إليه، بل يفعل خوفاً من حدوث الداء، والله أعلم.

فصل

في هديه ﷺ في علاج الصرع

أخرجنا في «الصحيحين» من حديث عطاء بن أبي رباح، قال: قال ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى. قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع، وإني أتكشّف، فادع الله لي، فقال: «إِنْ شِئْتَ صَبِرْتُ وَلَكَ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ اللَّهَ لَكَ أَنْ يُعَاقِبَكَ»، فقالت: أصبر. قالت: فإني أتكشّف، فادع الله أن لا أتكشّف، فدعا لها [البخاري: ٥٦٥٢، ومسلم: ٥٩١٦].

قلت: الصرع صرعان: صرع من الأرواح الخبيثة الأرضية، وصرع من الأخلاط الرديئة. والثاني: هو الذي يتكلم فيه الأطباء في سببه وعلاجه.

(لمبات صرع الأرواح)

وأما صرع الأرواح، فألمتهم وعقلاؤهم يعترفون به، ولا يدفعونه، ويعترفون بأن علاجه بمقابلة الأرواح الشريفة الغيرة العلوية لتلك الأرواح الشريرة الخبيثة، فتدافع آثارها، وتعارض أفعالها وتبطلها، وقد نص على ذلك أبقراط في بعض كتبه، فذكر بعض علاج الصرع، وقال: هذا إنما ينفع من الصرع الذي سببه الأخلاط والمادة، وأما الصرع الذي يكون من

وفي لفظ آخر: أن رجلاً من الأنصار رُمي في أكحلِهِ بِمِشْقَصٍ، فأمر النبي ﷺ به فُكِيَ.

وقال أبو عبيد: وقد أتى النبي ﷺ برجل نُعِتَ له الكُي، فقال: «اَكْثُوهُ وَأَرْضِفُوهُ» [عبد الرزاق: ١٩٥١٧]. قال أبو عبيد: الرُضْفُ: الحجارة تُسخن، ثم يكمد بها.

وقال الفضل بن ذُكَيْن: حدثنا سفيان، عن أبي الزبير، عن جابر، أن النبي ﷺ كواه في أكحلِهِ.

وفي «صحيح البخاري» من حديث أنس، أنه كَوِيَ مِنْ ذَاتِ الْجَنْبِ وَالنَّبِيَّ ﷺ حَمِي [البخاري: ٥٧٧١].

وفي الترمذي، عن أنس، أن النبي ﷺ: «كوى أسعدَ بْنَ زُرَّارَةَ مِنَ الشُّوْكَةِ» [الترمذي: ٢٠٥١، ورجالته، وقد تقدم الحديث المتفق عليه وفيه «وما أُجِبَ أَنْ أَكْتُوِي» وفي لفظ آخر: «وَأَنَا أَنَهَى أُمَّتِي عَنِ الْكُي».

وفي «جامع الترمذي» وغيره عن عمران بن حصين، أن النبي ﷺ نهى عن الكي قال: فَأَتَيْلِنَا فَأَكْتُوِنَا فما أفلحنَا، ولا أنجحنَا. وفي لفظ: نُهِنَا عن الكي وقال: فما أَفْلَحْنَ ولا أَتَجَحْنَ [أبو داود: ٢٨٦٥، والترمذي: ٢٠٤٩، وابن ماجه: ٣٤٩٠، وسنده صحيح].

قال الخطابي: إنما كوى سعداً ليرقا الدم من جرحه، وخالف عليه أن يَنْزِفَ فِيهِنَّكَ. والكي مستعمل في هذا الباب، كما يَكْوِي مَنْ تَقَطَّعَ يَدُهُ أو رجله.

وأما النهي عن الكي، فهو أن يكتوي طلباً للشفاء، وكانوا يعتقدون أنه متى لم يكتو، هلك، فنهاهم عنه لأجل هذه النية.

وقيل: إنما نهى عنه عمران بن حصين خاصة، لأنه كان به ناصور، وكان موضعه خطراً، فنهاه عن كيّه، فيشبه أن يكون النهي منصرفاً إلى الموضع المخوف منه، والله أعلم.

وقال ابن قتيبة: الكي جنسان: كي الصحيح لثلا يعتلّ، فهذا الذي قيل فيه: لم يتوكل مَنْ اِكْتُوِي، لأنه يُريد أن يدفع القدر عن نفسه.

والثاني: كي السرح إذا نَقِلَ، والعضو إذا قُطِعَ، ففي هذا الشفاء.

الأرواح، فلا ينفع فيه هذا العلاج.

وأما جهلة الأطباء وسَقَطُهم وسَفَلَتُهُم، ومن يعتدُّ بالزندقة فضيلة، فأولئك يُنكرون صرع الأرواح، ولا يُقرّون بأنها تؤثر في بدن المصروع، وليس معهم إلا الجهل، وإلا فليس في الصناعة الطبية ما يدفع ذلك، والحسُّ والوجود شاهد به، وإحالتهم ذلك على غلبة بعض الأخلاط، هو صادق في بعض أقسامه لا في كلها.

وقدما الأطباء كانوا يُسمون هذا الصرع: المرض الإلهي، وقالوا: إنه من الأرواح، وأما جالينوس وغيره، فتأوّلوا عليهم هذه التسمية، وقالوا: إنما سموه بالمرض الإلهي لكون هذه العلة تحدث في الرأس، فتضر بالجزء الإلهي الطاهر الذي مسكنه الدماغ.

وهذا التأويل نشأ لهم من جهلهم بهذه الأرواح وأحكامها، وتأثيراتها، وجاءت زنادقة الأطباء فلم يثبتوا إلا صرع الأخلاط وحده.

ومن له عقل ومعرفة بهذه الأرواح وتأثيراتها يضحك من جهل هؤلاء وضعف عقولهم.

(العلاج من صرع الأرواح)

وعلاج هذا النوع يكون بأمرين: أمر من جهة المصروع، وأمر من جهة المعالج، فالذي من جهة المصروع يكون بقوة نفسه، وصديق توجهه إلى فاطر هذه الأرواح وبارئها، والتعوذ الصحيح الذي قد تواطأ عليه القلب واللسان، فإن هذا نوع محاربة والمخارب لا يتم له الانتصاف من عدوه بالسلاح إلا بأمرين: أن يكون السلاح صحيحاً في نفسه جيداً، وأن يكون الساعد قوياً، فمتى تخلف أحدهما لم يُغن السلاح كثير طائل، فكيف إذا عُدِمَ الأمران جميعاً؟ يكون القلب خراباً من التوحيد، والتوكل، والتقوى، والتوجه، ولا سلاح له.

والثاني: من جهة المعالج، بأن يكون فيه هذان الأمران أيضاً، حتى إن من المعالجين من يكتفي بقوله: «أخرج منه». أو يقول: «بسم الله»، أو يقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، والنتيـ ﷻ كان يقول: «أخرج عدو الله أنا رسول الله» [احمد: ١٧٥٤٩، ورجاله ثقات].

(علاج من تسمية للمصروع)

وشاهدت شيخنا يُرسل إلى المصروع من يخاطب الروح التي فيه، ويقول: قال لك الشيخ: أخرجي، فإن هذا لا يجلُّ لك، فيُتيق المصروع، وربما خاطبها بنفسه، وربما كانت الروح ماردة فيُخرجها بالضرب، فيُتيق المصروع ولا يُحسّ بالَم، وقد شاهدنا نحن وغيرنا منه ذلك مراراً.

وكان كثيراً ما يقرأ في أذن المصروع: ﴿أَفَصَبْتُمْ أَتَمَّا خَلَقْنَاكُمْ عِبْنًا وَأَكْمًا إِنَّا لَا نُرْصِنُ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وحدثني أنه قرأها مرة في أذن المصروع، فقالت الروح: نعم، ومد بها صوته. قال: فأخذت له عصا، وضربته بها في عروق عنقه حتى كَلَّتْ يداي من الضرب، ولم يَشْكُ الحاضرون أنه يموت لذلك الضرب. ففي أثناء الضرب قالت: أنا أُجِبُّ، فقلتُ لها: هو لا يحبك، قالت: أنا أريد أن أُحِبَّ به، فقلتُ لها: هو لا يريد أن يُحِبَّ معك، فقالت: أنا أدعه كرامة لك، قال: قلتُ: لا ولكن طاعة لله ولرسوله، قالت: فأنأ أخرجُ منه، قال: فقعد المصروع يلتفت يميناً وشمالاً، وقال: ما جاء بي إلى حضرة الشيخ، قالوا له: وهذا الضرب كُلُّه؟ فقال: وعلى أي شيء يضربني الشيخ ولم أذنب، ولم يشعر بأنه وقع به ضرب البتة.

وكان يعالج بأية الكرسي، وكان يأمر بكثرة قراءتها المصروع ومن يُعالجه بها، وبقراءة المعوذتين.

(الثقات المصنف إلى خراب القلوب)

وبالجملة فهذا النوع من الصرع، وعلاجه لا يُنكره إلا قليل الحظ من العلم والعقل والمعرفة، وأكثر تسلط الأرواح الخبيثة على أهله تكون من جهة قلة دينهم، وخراب قلوبهم والستهم من حقائق الذكر، والتعاويد، والتحصنات النبوية والإيمانية، فتُلْقَى الروحُ الخبيثة الرجلَ أعزَل لا سلاح معه، وربما كان غريباً فيؤثر فيه هذا.

ولو كُثِفَ الغطاء، لرأيت أكثر النفوس البشرية صرعى هذه الأرواح الخبيثة، وهي في أسرها وقبضتها تسوقها حيث شاءت، ولا يُمكنها الامتناع.

عنها ولا مخالفتها، وبها الصرعُ الأعظم الذي لا يُفِيق صاحبه إلا عند المفارقة والمعاناة، فهناك يتحقق أنه كان هو المصروعَ حقيقةً، وبالله المستعان.

وعلاج هذا الصرع باقتران العقل الصحيح إلى الإيمان بما جاءت به الرسلُ، وأن تكون الجنة والنارُ نُصِبَ عينيه وقبلة قلبه، ويستحضر أهل الدنيا، وحلول المثلثات والآفات بهم، ووقوعها خلال ديارهم كمواقع القطر، وهم صرعى لا يُفِيقون، وما أشد داءَ هذا الصرع، ولكن لما عَمَّتِ البليَّةُ بحيث لا يرى إلا مصروعاً، لم يصير مستغرباً ولا مستكراً، بل صار لكثرة المصروعين عينَ المستنكر المستغربِ خلافه.

فإذا أراد الله بعيد خيراً أفاق من هذه الصرعة، ونظر إلى أبناء الدنيا مصروعين حوله يميناً وشمالاً على اختلاف طبقاتهم، فمنهم من أطبق به الجنون، ومنهم من يُفِيق أحياناً قليلة، ويعود إلى جنونه، ومنهم من يُفِيق مرةً، ويُجن أخرى، فإذا أفاق عمل عمل الإفاقة والعقل، ثم يُعاوده الصرع فيقع في التخبُّط.

فصل

(صرع الأخلاط)

وأما صرع الأخلاط، فهو علة تمنع الأعضاء النفسية عن الأفعال والحركة والانتصاب منعاً غير تام، وسببه خلط غليظ لزج يسد منافذ بطون الدماغ سدة غير تامة، فيمتنع نفوذ الحس والحركة فيه وفي الأعضاء نفوذاً تاماً من غير انقطاع بالكلية، وقد تكون لأسباب آخر كريح غليظ يحتبس في منافذ الروح، أو بُخار ردي يرتفع إليه من بعض الأعضاء، أو كيفية لاذعة، فينبض الدماغ لدفع المؤذي، فيتبعه تشنُّج في جميع الأعضاء، ولا يُمكن أن يبقى الإنسان معه منتصباً، بل يسقط، ويظهر في فيه الزبد غالباً.

وهذه العلة تُعد من جملة الأمراض الحادة باعتبار وقت وجوده المؤلم خاصة، وقد تُعد من جملة الأمراض المزمنة باعتبار طول مكثها، وحُسْر بُرئها، لا سيما إن تجاوز في السن خمساً وعشرين سنة، وهذه العلة في دماغه، وخاصة في جوهه، فإن صرع هؤلاء يكون لازماً. قال أبقراط: إن الصرع يبقى في هؤلاء حتى يموتوا.

(لعل صرع المرأة التي

ورفت في الحديث كان صرعها من صرع الأخلاط)

إذا عرف هذا، فهذه المرأة التي جاء الحديث أنها كانت تُصرع وتُكشَفُ، يجوز أن يكون صرعها من هذا النوع، فوعدها النبي ﷺ الجنة بصبرها على هذا المرض، ودعا لها أن لا تُكشَفُ، وخيرها بين الصبر والجنة، وبين الدعاء لها بالشفاء من غير ضمان، فاخترت الصبر والجنة.

(جواز ترك التدوي وان علاج

الأرواح بالتوجه إلى الله بفعل ما لا يناله علاج الأطباء)

وفي ذلك دليل على جواز ترك المعالجة والتداوي، وأن علاج الأرواح بالدعوات والتوجه إلى الله بفعل ما لا يناله علاج الأطباء، وأن تأثيره وفعله، وتأثير الطبيعة عنه وانفعالها أعظم من تأثير الأدوية البدنية، وانفعال الطبيعة عنها، وقد جربنا هذا مراراً نحن وغيرنا، وعقلاء الأطباء معترفون بأن لفعل القوى النفسية، وانفعالاتها في شفاء الأمراض عجائب، وما على الصناعة الطبية أضرب من زنادقة القوم، وسفلةهم، وجهالهم. والظاهر: أن صرع هذه المرأة كان من هذا النوع، ويجوز أن يكون من جهة الأرواح، ويكون رسول الله ﷺ قد خيرها بين الصبر على ذلك مع الجنة، وبين الدعاء لها بالشفاء، فاخترت الصبر والستر، والله أعلم.

فصل

في هديه ﷺ في علاج عرق النسا

روى ابن ماجه في «سننه» من حديث محمد بن سيرين، عن أنس بن مالك، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «قَوَاءُ عِرْقِ النِّسَاءِ إِلَيَّ شَأْءُ أَغْرَابِيَّةٍ تُذَابُ، ثُمَّ تُجَزَّى ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ، ثُمَّ يُشْرَبُ عَلَى الرِّيقِ فِي كُلِّ يَوْمٍ جُزْءٌ» [ابن ماجه: ٢٤١٣].

عرق النساء: وجع يبتدىء من مفصل الورك، وينزل من خلف على الفخذ، وربما على الكعب، وكلما طالت مدته، زاد نزوله، وتهزل معه الرجل والفخذ، وهذا الحديث فيه معنى لغوي، ومعنى طبي، فأما المعنى اللغوي، فدليل على جواز تسمية هذا المرض بعرق النساء خلافاً لمن منع هذه التسمية،

متفقون كُلُّهم على أن من مهارة الطبيب أن يداوي بالإنشاء، فإن عجزَ قبالْمُقرَد، فإن عجزَ، فيما كان أقلَّ تركياً.

وقد تقدم أن غالب عادات العرب وأهل البوادي الأمراض البسيطة، فالأدوية البسيطة تناسبها، وهذه لبساطة أغذيتهم في الغالب. وأما الأمراض المركبة، فغالباً ما تحدث عن تركيب الأغذية وتنوعها واختلافها، فاخترت لها الأدوية المركبة، والله تعالى أعلم.

فصل

في هديه ﷺ في علاج يبس الطبع،

واحتياجه إلى ما يُمشيه ويُلين

روى الترمذي في «جامعه» وابن ماجه في «سننه» من حديث أسماء بنت عميس، قالت: قال رسول الله ﷺ: «بِمَاذَا كُنْتَ تَسْتَمِشِينَ؟» قالت: بالشَّبر، قال: «حَارٌّ جَارٌّ»، قالت: ثم استمشتُ بالسَّنا، فقال: «لَوْ كَانَ شَيْءٌ يَنْفِي مِنَ الْمَوْتِ لَكَانَ السَّنا» [أحمد: ٢٧٠٨٠، والترمذي: ٢٠٨٢، وابن ماجه: ٣٤٦١، وهو يتقوى بغيره].

وفي «سنن ابن ماجه» عن إبراهيم بن أبي عبلة، قال: سمعت عبد الله بن أم حوام، وكان قد صلى مع رسول الله ﷺ القبليتين يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «عَلَيْكُمْ بالسَّنا والسُّنوت، فإنَّ فيهما شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلَّا السَّامَ»، قيل: يا رسول الله! وما السَّام؟ قال: «الْمَوْتُ» [ابن ماجه: ٣٤٥٧، والحاكم (٢٠١/٤)، وهو يتقوى بالحديث السابق].

(العلاج بالشبر)

قوله: «بِمَاذَا كُنْتَ تَسْتَمِشِينَ؟ أي: تلينين الطبع حتى يمشي ولا يصير بمنزلة الواقف، فيؤذي باحتباس النجو، ولهذا سمي الدواء المسهل مَشِيَّةً على وزن فعيل. وقيل: لأن المسهل يكثر المشي والاختلاف للحاجة وقد روي: «بِمَاذَا تَسْتَشْفِينَ؟» فقالت: بالشبر، وهو من جملة الأدوية اليتوية^(٢)،

وقال: النسا هو العرق نفسه، فيكون من باب إضافة الشيء إلى نفسه، وهو ممتنع وجواب هذا القائل من وجهين. أحدهما: أن العرق أعم من النسا، فهو من باب إضافة العام إلى الخاص نحو: كل الدراهم أو بعضها.

الثاني: أن النسا هو المرض الحال بالعرق، والإضافة فيه من باب إضافة الشيء إلى محلِّه وموضعه. قيل: وسمي بذلك لأن ألمه يُنسي ما سواه، وهذا العرق ممتد من مَفْصِلِ الْوَرَك، وينتهي إلى آخر القدم وراء الكعب من الجانب الوحشي فيما بين عظم الساق والوتر.

وأما المعنى الطبي: فقد تقدم أن كلام رسول الله ﷺ نوعان: أحدهما: عام بحسب الأزمان، والأماكن، والأشخاص، والأحوال.

والثاني: خاص بحسب هذه الأمور أو بعضها، وهذا من هذا القسم، فإن هذا خطاب للعرب، وأهل الحجاز، ومن جاورهم، ولا سيما أعراب البوادي، فإن هذا العلاج من أنفع العلاج لهم، فإن هذا المرض يحدث من يس، وقد يحدث من مادة غليظة لَزْجَة، فعلاجُها بالإسهال والأليَّة فيها الخاصيتان: الإنضاج، والتلين، ففيها الإنضاج، والإخراج. وهذا المرض يحتاج علاجُه إلى هذين الأمرين، وفي تعيين الشاة الأعراية لِقلة فضولها، وصغر مقدارها، ولُطف جوهرها، وخاصة مرعاها لأنها ترعى أعشاب البر الحارة، كالشَّيح، والقَيْضُوم، ونحوهما، وهذه النباتات إذا تغذى بها الحيوان، صار في لحمه من طبعها بعد أن يُلْطَفها تغذيه بها، ويكسبها مزاجاً لُطِفَ منها، ولا سيما الأليَّة، وظهور فعل هذه النباتات في اللبن أقوى منه في اللحم، ولكن الخاصية التي في الأليَّة من الإنضاج والتلين لا تُوجد في اللبن^(١)، وهذا كما تقدم أن أدوية غالب الأمم والبوادي هي الأدوية المفردة، وعليه أطباء الهند.

وأما الروم واليونان، فيعتنون بالمرَّجبة، وهم

(١) عرق النسا: هو مرض يصيب النساء والرجال على السواء.

(٢) اليتوع: كصبور أو تنور: كل نبات له لبن دار مُسهل مُحَرِّق مُقَطَّع، والمشهور منه سبعة: الشبرم...

قال الرازي: السناء والشاهترج^(١) يسهلان الأخلاط المحترقة، وينفعان من الجرب والحكة، والشربة من واحد منهما من أربعة دراهم إلى سبعة دراهم.

(ما هو السنوت)

وأما السنوت ففيه ثمانية أقوال؛ أحدها: أنه العسل. والثاني: أنه رُبُّ عُكَّة السمن يخرجُ خططاً سوداء على السمن، حكاها عمرو بن بكر السكسكي. الثالث: أنه حَبٌّ يشبه الكمون وليس به، قاله ابن الأعرابي. الرابع: أنه الكُمون الكرمانى. الخامس: أنه الرازيانج. حكاها أبو حنيفة الدُّينوري عن بعض الأعراب. السادس: أنه الشَّيْتُ. السابع: أنه التمر حكاها أبو بكر بن الشَّيْ الحافظ. الثامن: أنه العسل الذي يكون في زِقاق السمن، حكاها عبد اللطيف البغدادى. قال بعض الأطباء: وهذا أجدر بالمعنى، وأقرب إلى الصواب، أي: يخلط السناء مدقوقاً بالعسل المخالط للسمن، ثم يلعق فيكون أصلح من استعماله مفرداً لما في العسل والسمن من إصلاح السنا، وإعائته له على الإسهال. والله أعلم.

وقد روى الترمذى وغيره من حديث ابن عباس يرفعه: «إِنْ خَيْرَ مَا تَدَاوَيْتُمْ بِهِ السُّعُوطُ وَاللَّدُودُ وَالْحِجَامَةُ وَالْمَشْيُ» [الترمذى: ٢٠٤٨، وفي سننه ضعيف] وَالْمَشْيُ: هو الذي يمشي الطبع وَيُكَيِّتُهُ وَيُسَهِّلُ خُرُوجَ الْخَارِجِ.

فصل

في هديه ﷺ في علاج حكة الجسم

وما يولد القمل

في «الصحيحين» من حديث قتادة، عن أنس بن مالك قال: رخص رسول الله ﷺ لعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام رضي الله تعالى عنهما في لبس الحرير لحكة كانت بهما.

وفي رواية: أن عبد الرحمن بن عوف، والزبير ابن العوام رضي الله تعالى عنهما، شَكَّوْا الْقَمْلَ إِلَى

وهو قشر عرق شجرة، وهو حارٌّ يابس في الدرجة الرابعة، وأجوده المائل إلى الحمرة، الخفيف الرقيق الذي يشبه الجلد الملفوف، وبالجملة فهو من الأدوية التي أوصى الأطباء بترك استعمالها لخطورها، وفطر إسهالها.

وقوله ﷺ: «حَارٌّ جَارٌّ» ويروى: حارٌّ يارٌّ، قال أبو عبيد: وأكثر كلامهم بالياء. قلت: وفيه قولان، أحدهما: أن الحار الجار بالميم: الشديد الإسهال، فوصفه بالحرارة، وشدة الإسهال وكذلك هو، قاله أبو حنيفة الدُّينوري.

(ما المقصود بالإتباع)

والثاني - وهو الصواب - أن هذا من الإتياع الذي يقصد به تأكيد الأول، ويكون بين التأكيد اللفظي والمعنوي، ولهذا يُراعون فيه إتياعه في أكثر حروفه، كقولهم: حَسَنٌ بَسَنٌ، أي: كامل الحسن، وقولهم: حَسَنٌ قَسَنٌ بالقاف، ومنه شيطان لَيْطَانٌ، وحار جَارٌ، مع أن في الجار معنى آخر، وهو الذي يجر الشيء الذي يُصَيِّبه من شدة حرارته وجذبه له، كأنه ينزعه ويسلخه. وبار: إما لغة في جار، كقولهم: صهري وصهريج، والصهاري والصهاريج، وإما إتياع مستقل.

(نبات السنا)

وأما السنا، ففيه لفتان: المد والقصر، وهو نبت حجازي أفضله المكي، وهو دواء شريف مأمون الغائلة، قريب من الاعتدال، حارٌّ يابس في الدرجة الأولى، يُسهِّلُ الصفراء والسوداء، ويقوي جِزَمَ القلب، وهذه فضيلة شريفة فيه، وخاصيته النفع من الوسواس السوداوي، ومن الشقاق العارض في البدن، ويفتح العضل وينفع من انتشار الشعر، ومن القمل والصُّدَاعِ العتيق، والجرب، والبثور، والحكة، والصَّرع، وشرب مائه مطبوخاً أصلح من شربه مدقوقاً، ومقدار الشربة منه ثلاثة دراهم، ومن مائه خمسة دراهم، وإن طبخ معه شيء من زهر البنفسج والزبيب الأحمر المنزوع القجم، كان أصلح.

(١) هو ملك البقول، ويسمى كزبرة الحمار.

النبي ﷺ في غزاة لهما، فرخص لهما في قميص الحرير، ورأيتُهُ عليهما» [البغاري: ٢٩١٩، ومسلم: ٥٤٢٩].

هذا الحديث يتعلق به أمران: أحدهما: فقهي، والآخر: طبي.

(حكم لبس الحرير)

فأما الفقهي: فالذي استقرت عليه سنة ﷺ بإباحة الحرير للنساء مطلقاً، وتحريمه على الرجال إلا لحاجة ومصلحة راجحة، فالحاجة إما من شدة البرد، ولا يجد غيره، أو لا يجد ستره سواء. ومنها: لباسه للجرى، والمرض، والحكة، وكثرة القمل كما دل عليه حديث أنس هذا الصحيح.

والجواز: أصح الروايتين عن الإمام أحمد، وأصح قولي الشافعي، إذ الأصل عدم التخصيص، والرخصة إذا ثبتت في حق بعض الأمة لمعنى تعدت إلى كل من وجد فيه ذلك المعنى، إذ الحكم يعم بعموم سببه.

ومن منع منه، قال: أحاديث التحريم عامة، وأحاديث الرخصة يحتمل اختصاصها بعد الرحمن بن عوف والزيبر، ويحتمل تعديها إلى غيرهما. وإذا احتول الأمران، كان الأخذ بالعموم أولى، ولهذا قال بعض الرواة في هذا الحديث: فلا أدري أبلغت الرخصة من بعدهما، أم لا؟

والصحيح: عموم الرخصة، فإنه عُرف خطاب الشرع في ذلك ما لم يُصرَّح بالتخصيص، وعدم إلحاق غير من رخص له أولاً به، كقوله لأبي بردة في توضيحه بالجذعة من المَغَز: «تَجْزِيكَ وَلَنْ تَجْزِيَ عَنْ أَحَدٍ بَعْدَكَ» وكقوله تعالى لنبية ﷺ في نكاح من وهبت نفسها له: «خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ» [الأحزاب: ٥٠].

وتحريم الحرير: إنما كان سداً للزريعة، ولهذا أُبيح للنساء، وللحاجة، والمصلحة الراجحة، وهذه قاعدة ما حُرِّم لسد الذرائع، فإنه يُباح عند الحاجة

والمصلحة الراجحة، كما حُرِّم النظر سداً للزريعة الفعل، وأبيح منه ما تدعو إليه الحاجة والمصلحة الراجحة، وكما حُرِّم التنفل بالصلاة في أوقات النهي سداً للزريعة المشابهة الصورية بعباد الشمس، وأبيحت للمصلحة الراجحة، وكما حُرِّم ربا الفضل سداً للزريعة ربا النسئبة، وأبيح منه ما تدعو إليه الحاجة من العرايا^(١)، وقد أشبعنا الكلام فيما يحل ويحرم من لباس الحرير في كتاب «التحجير لما يحل ويحرم من لباس الحرير».

فصل

(فوائد الحرير)

وأما الأمر الطبي: فهو أن الحرير من الأدوية المتخذة من الحيوان، ولذلك يُعد في الأدوية الحيوانية، لأن مخرجه من الحيوان، وهو كثير المنافع، جليل الموقع، وبن خاصيته تقوية القلب، وتفريجه، والنفع من كثير من أمراضه، وبن غلبة اليرة السوداء، الأدوية الحادثة عنها؛ وهو مقو للبصر إذا اكتحل به، والخام منه - وهو المستعمل في صناعة الطب - حار يابس في الدرجة الأولى. وقيل: حار رطب فيها: وقيل: معتدل. وإذا اتَّخَذَ منه ملبوس كان معتدل الحرارة في مزاجه، مسخناً للبدن، وربما برد البدن بتسميته إياه.

قال الرازي: الإبريسم أسخن من الكتان، وأبرد من القطن، يربي اللحم، وكل لباس خشن، فإنه يُهْزِل، ويصلب البشرة وبالعكس.

(اقسام الملابس من حيث تسخين البدن)

قلت: والملابس ثلاثة أقسام: قسم يُسخن البدن ويدفئه، وقسم يُدفئه ولا يسخنه، وقسم لا يسخنه ولا يدفئه، وليس هناك ما يسخنه ولا يدفئه، إذا ما يسخنه فهو أولى بتدفئته، فملابس الأوبار والأصواف تُسخن وتُدْفِئ، وملابس الكتان والحرير والقطن تُدفِئ ولا تُسخن، ثياب الكتان باردة يابسة، وثياب الصوف حارة يابسة، وثياب القطن معتدلة الحرارة، وثياب الحرير ألين من القطن وأقل حرارة منه.

(١) العرايا: جمع عرية، وهي النخلة يعطيها صاحبها لفقر ليتضع بثمرتها إلى سنة، فتدفعه الحاجة إلى أن يأخذ بثمرتها تمرأ قبل أن يحرز ثمرتها، فلا يضر الفضل حيثئذ.

كان أصح القولين: أنه يحرم على الولي أن يلبسه الصبي لما ينشأ عليه من صفات أهل التأنيث.

وقد روى النسائي من حديث أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ أَحَلَّ لِنَاثِ أُمَّتِي الْحَرِيرَ وَالذَّهَبَ، وَحَرَّمَهُ عَلَى ذُكُورِهَا». وفي لفظ: «حَرَّمَ لِيَأْسُ الْحَرِيرِ وَالذَّهَبِ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي، وَأَجَلَ لِنَاثِهِمْ» [صحيح: الترمذي: ١٧٢٠، والنسائي: (١٦١/٨)].

وفي «صحيح البخاري» عن حذيفة قال: نهى رسول الله ﷺ عن لبس الحرير والديباج، وأن يجلس عليه، وقال: «هُوَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَلَكُمْ فِي الْآخِرَةِ» [البخاري: ٥٨٣١].

فصل

في هديه ﷺ في علاج ذات الجنب

روى الترمذي في «جامعه» من حديث زيد بن أرقم، أن النبي ﷺ قال: «تَدَاوَرَا مِنْ ذَاتِ الْجَنْبِ بِالْقُسْطِ الْبَحْرِيِّ وَالزَّيْتِ» [الترمذي: ٢٠٨٠، وفي سننه ضعيف].

وذات الجنب عند الأطباء نوعان: حقيقي وغير حقيقي. فالحقيقي: ورم حار يقرض في نواحي الجنب في الغشاء المستبطن للأضلاع. وغير الحقيقي: ألم يشبهه يقرض في نواحي الجنب عن رياح غليظة مؤذية تحتين بين الصفاقات، فتحدث وجعاً قريباً من وجع ذات الجنب الحقيقي، إلا أن الوجع في هذا القسم مدود، وفي الحقيقي ناخس.

قال صاحب «القانون»: قد يعرض في الجنب، والصفاقات، والعقل التي في الصدر، والأضلاع، ونواحيها أورام مؤذية جداً موجعة، تسمى شوصة ويرساماً، وذات الجنب. وقد تكون أيضاً أوجاعاً في هذه الأعضاء ليست من ورم، ولكن من رياح غليظة، فيظن أنها من هذه العلة، ولا تكون منها. قال: واعلم أن كل وجع في الجنب قد يسمى ذات الجنب اشتقاقاً من مكان الألم، لأن معنى ذات الجنب صاحبة الجنب، والغرض به هنا وجع الجنب، فإذا عرّض في الجنب ألم عن أي سبب كان نُسب إليه، وعليه حُويلَ كلام بقراط في قوله: إن أصحاب ذات

قال صاحب «المنهاج»: ولُبْسُهُ لَا يُسَخِّنُ كَالْقَطَنِ، بَلْ هُوَ مُعْتَدِلٌ، وَكُلُّ لِبَاسٍ أَمْلَسَ صَقِيلٌ، فَإِنَّهُ أَقْلُ إِسْحَاثًا لِلْبَدَنِ، وَأَقْلُ عَوْنًا فِي تَحْلُلِ مَا يَتَحَلَّلُ مِنْهُ، وَأُخْرَى أَنْ يَلْبَسَ فِي الصَّفِّ، وَفِي الْبِلَادِ الْحَارَةِ.

ولما كانت ثياب الحرير كذلك، وليس فيها شيء من اليبس والخشونة الكائنين في غيرها، صارت نافعة من الحكمة، إذ الحكمة لا تكون إلا عن حرارة ويبس وخشونة، فلذلك رخص رسول الله ﷺ للزبير وعبد الرحمن في لباس الحرير لمداواة الحكمة، وثياب الحرير أبعد عن تولد القمل فيها، إذ كان مزاجها مخالفاً لمزاج ما يتولد منه القمل.

(علة تحريم الحرير)

وأما القسم الذي لا يدفيء ولا يسخن، فالتخذ من الحديد والرصاص، والخشب والشراب، ونحوها، فإن قيل: فإذا كان لباس الحرير أعد للباس وأوفقه للبدن، فلماذا حرمة الشريعة الكاملة الفاضلة التي أباحت الطيبات، وحرمت الخبائث؟

قيل: هذا السؤال يجيب عنه كل طائفة من طوائف المسلمين يجواب، فنكرو الحكم والتعليل لما رُفعت قاعدة التعليل من أصلها لم يحتاجوا إلى جواب عن هذا السؤال.

ومثبو التعليل والحكم - وهم الأكثرون - منهم من يجيب عن هذا بأن الشريعة حرّمت لتصبر النفوس عنه، وتتركه لله، فتأب على ذلك لا سيما ولها عوض عنه بغيره.

ومنهم من يجيب عنه بأنه خلق في الأصل للنساء، كالحلية بالذهب، فحرم على الرجال لما فيه من مفسدة تشبه الرجال بالنساء، ومنهم من قال: حرم لما يورثه من الفخر والخيلة والعجب. ومنهم من قال: حرم لما يورثه بملامسته للبدن من الأنوثة والتخنث، وضد الشهامة والرجولة، فإن لبسه يكسب القلب صفة من صفات الإناث، ولهذا لا تكاد تجد من يلبسه في الأكثر إلا وعلى شمائله من التخنث والتأنت، والزخامة لا يخفى، حتى لو كان من أشهم الناس وأكثرهم فحولية ورجولية، فلا بد أن يتفحصه لبس الحرير منها، إن لم يندبها، ومن غلظت طباعه وكثفت عن فهم هذا، فليسلم للشارع الحكيم، ولهذا

الجنب يَتَفَعُّونَ بالحمام. قيل: المراد به كُلُّ من به وجع جنب، أو وجع رئة من سوء مزاج، أو من أخلاط غليظة، أو لذاعة من غير ورم ولا حمى.

قال بعضُ الأطباء: وأما معنى ذات الجنب في لغة اليونان، فهو ورم الجنب الحار، وكذلك ورم كل واحد من الأعضاء الباطنة، وإنما سمي ذات الجنب ورم ذلك العضو إذا كان ورماً حاراً فقط.

ويلزم ذات الجنب الحقيقي خمسة أعراض: وهي الحمى والسعال، والوجع الناجس، وضيق النفس، والنض المنشاري^(١).

والعلاج الموجود في الحديث، ليس هو لهذا القسم، لكن للقسم الثاني الكائن عن الريح الغليظة، فإن القسط البحري - وهو العود الهندي على ما جاء مفسراً في أحاديث آخر - صنف من القسط إذا دُق دقاً ناعماً، وخلط بالزيت المسخن، ودُلك به مكانُ الريح المذكور، أو لعق، كان دواءً موافقاً لذلك، نافعاً له، محللاً لمادته، مُذهِباً لها، مقوياً للأعضاء الباطنة، مفتحاً للشدد، والعود المذكور في منافعه كذلك.

قال المسيحي^(٢): العود: حار يابس، قابض يحبسُ البطن، ويقوي الأعضاء الباطنة، ويطرُد الريح، ويفتح الشدد، نافع من ذات الجنب، ويذهب فضل الرطوبة، والعود المذكور جيد للدماغ. قال: ويجوز أن ينفع القسط من ذات الجنب الحقيقية أيضاً إذا كان حدودها عن مادة بلغمية لا سيما في وقت انحطاط العلة، والله أعلم.

وذات الجنب: من الأمراض الخطرة؛ وفي الحديث الصحيح: عن أم سلمة، أنها قالت: بدأ رسول الله ﷺ بمرضه في بيت ميمونة، وكان كلما خَفَّ عليه، خرَّجَ وصلى بالناس، وكان كلما وجد ثقلاً قال: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ»، واشتد شكواه حتى غُمِرَ عليه من شدة الوجع، فاجتمع عنده نساؤه، وعُمِّه العباس، وأم الفضل بنت الحارث

وأسماء بنت عميس، فتشاوروا في لَدِّه، فلُدُّوه وهو مغمور، فلما أفاق قال: «مَنْ قَلَّ بي هذا، هذا مِنْ عَمَلِ نِسَاءٍ جِئْنَ مِنْ ههنا، وأشار بيده إلى أرض الحبشة، وكانت أم سلمة وأسماء لَدَّتاه، فقالوا: يا رسول الله! خشينا أن يكون بك ذات الجنب. قال: «فِيمَ لَدَدْتُمُونِي؟» قالوا: بالعود الهندي، وشيء من وُزْسٍ، وقطرات من زيت. فقال: «مَا كَانَ اللَّهُ لِيَقْذِفَنِي بِذَلِكَ الدَّاءِ»، ثم قال: «عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ أَنْ لَا يَتَّقَى فِي النَّيِّبِ أَحَدٌ إِلَّا لَدًّا إِلَّا عَمِّي الْعَبَّاسَ» [ابن سعد (٢٣٥/٢)، وسنده ضعيف جداً، وأخرج بنحوه عبد الرزاق: ٩٧٥٤، وإسناده صحيح].

وفي «الصحيحين» عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لددنا رسول الله ﷺ، فأشار أن لا تلُدُونِي، فقلنا: كراهية المريض للدواء، فلما أفاق قال: «أَلَمْ أَنْهَكُمُ أَنْ تَلُدُونِي، لَا يَتَّقَى مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا لَدًّا غَيْرَ عَمِّي الْعَبَّاسِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَشْهَدْكُمْ» [البخاري: ٥٧١٢، ومسلم: ٥٧٦١].

قال أبو عبيد عن الأصمعي: اللدود: ما يُسْقَى الإنسان في أحد شقي الفم، أخذ من ليدي الوادي، وهما جانباه. وأما الوجور: فهو في وسط الفم.

قلت: واللُدود - بالفتح - هو: الدواء الذي يُلَدُّ به. والسُّعوط: ما أدخل من أنفه.

(معاقبة الجاني بمثل ما فعل)

وفي هذا الحديث من الفقه معاقبة الجاني بمثل ما فعل سواء، إذا لم يكن فعله محرماً لحق الله، وهذا هو الصواب المقتطوع به لبضعة عشر دليلاً قد ذكرناها في موضع آخر، وهو منصوص أحمد، وهو ثابت عن الخلفاء الراشدين، وترجمة المسألة بالقصاص في اللطمة والضربة، وفيها عدة أحاديث لا معارض لها البتة، فيتميم القول بها.

(١) هذا الوصف ينطبق على الوجع الصدري نتيجة التهابات الرئة.

(٢) هو عيسى بن يحيى الجرجاني، أبو سهل، طبيب حكيم، توفي سنة (٣٩٠هـ) وله من العمر (٤٠) سنة، انظر ترجمته في «حيون الأبناء» (٣٢٧، ٣٢٨).

فصل

في هدية ﷺ في علاج الصداع^(١) والشقيقة

روى ابن ماجه في «سننه» حديثاً في صحته نظر: أن النبي ﷺ كان إذا صُدِعَ، غَلَفَ رأسه بالحناء، ويقول: «إِنَّهُ نَافِعٌ بِإِذْنِ اللَّهِ مِنَ الصُّدَاعِ» [احمد: ٢٧٦١٧، وابن ماجه: ٣٥٠٢، وفي سننه رجل لين الحديث].

والصداع: ألم في بعض أجزاء الرأس أو كله، فما كان منه في أحد شقي الرأس لازماً يُسمى شقيقة، وإن كان شاملاً لجميعه لازماً، يسمى بيضه وخوذة تشبيهاً ببيضة السلاح التي تشتمل على الرأس كله، وربما كان في مؤخر الرأس أو في مقدمه.

(حقيقة الصداع)

أنواعه كثيرة، وأسبابه مختلفة. وحقيقة الصداع سخونة الرأس، واحتماؤه لما دار فيه من البخار يطلب النفوذ من الرأس، فلا يجد منفذاً فيصدغه كما يصدع الوعي^(٢) إذا حمي ما فيه وطلب النفوذ، فكل شيء رطب إذا حمي، طلب مكاناً أوسع من مكانه الذي كان فيه، فإذا عرض هذا البخار في الرأس كله بحيث لا يمكنه التفتي والتحلل، وجال في الرأس، سمي السُّدْر.

(أسباب الصداع)

والصداع يكون عن أسباب عديدة:

أحدها: من غلبة واحد من الطبائع الأربعة.

والخامس: يكون من قروح تكون في المعدة، فيألم لذلك الورم لاتصال العصب المنحدر من الرأس بالمعدة.

والسادس: من ريح غليظة تكون في المعدة، فتصعد إلى الرأس فتصدعه.

والسابع: يكون من ورم في عروق المعدة، فيألم الرأس بألم المعدة للاتصال الذي بينهما.

والثامن: صداع يحصل عن امتلاء المعدة من الطعام، ثم ينحدر ويبقى بعضه نيئاً، فيصدع الرأس وينقله.

والتاسع: يعرض بعد الجماع لتخلخل الجسم، فيصل إليه من حر الهواء أكثر من قدره.

والعاشر: صداع يحصل بعد القيء والاستفراغ، إما لغلبة اليس، وإما لتصاعد الأبخرة من المعدة إليه.

والحادي عشر: صداع يعرض عن شدة الحر وسخونة الهواء.

والثاني عشر: ما يعرض عن شدة البرد، وتكاثف الأبخرة في الرأس وعدم تخللها.

والثالث عشر: ما يحدث من السهر وعدم النوم.

والرابع عشر: ما يحدث من ضغط الرأس وحمل الشيء الثقيل عليه.

والخامس عشر: ما يحدث من كثرة الكلام، فتضعف قوة الدماغ لأجله.

والسادس عشر: ما يحدث من كثرة الحركة والرياضة المفرطة.

والسابع عشر: ما يحدث من الأعراض النفسانية، كالهموم، والغموم، والأحزان، والوساوس، والأفكار الرديئة.

والثامن عشر: ما يحدث من شدة الجوع، فإن الأبخرة لا تجد ما تعمل فيه، فتكثر وتتصاعد إلى الدماغ فتؤلمه.

والتاسع عشر: ما يحدث عن ورم في صفاق الدماغ، ويجد صاحبه كأنه يضرب بالمطارق على رأسه.

والعشرون: ما يحدث بسبب الحمى لاشتعال حرارتها فيه فيتألم، والله أعلم.

فصل

(سبب صداع الشقيقة)

وتعصيب الرأس يسكن الوجع

وسبب صداع الشقيقة مادة في شرايين الرأس وحدها حاصلة فيها، أو مرتقية إليها، فيقبلها الجانب

(١) الصداع: هو ألم بأي جزء الرأس، وأسبابه عديدة جداً لا يمكن حصرها، ويتميز كل مرض بصداع معين وفي مكان معين وفي أوقات معينة، وعلاج الصداع هو علاج المسبب له.

(٢) الوعي: القيح والمدة.

الأضعف من جانبيه، وتلك المادة إما بخارية، وإما أخلاط حارة أو باردة، وعلامتها الخاصة بها ضربان الشرايين، وخاصة في الدموي. وإذا ضببط بالعصائب، ومنعت من الضربان، سكن الوجع.

وقد ذكر أبو نعيم في كتاب «الطب النبوي» له: أن هذا النوع كان يُصيب النبي ﷺ، فيمكث اليوم واليومين، ولا يخرج.

وفيه: عن ابن عباس قال: خطبنا رسول الله ﷺ، وقد غصب رأسه بعصابة.

وفي «الصحيح»، أنه قال في مرض موته: «وَأَرَأَيْتُمْ» [بخاري: ٥٦٦٦] وكان يُعصَّبُ رأسه في مرضه، وعُصِبَ الرأس ينفع في وجع الشقيقة وغيرها من أوجاع الرأس.

فصل

(علاج الصداع)

وعلاجه باختلاف أنواعه وأسبابه، فمنه ما علاجه بالاستفراغ، ومنه ما علاجه بتناول الغذاء، ومنه ما علاجه بالسكون والدعة، ومنه ما علاجه بالضّمادات، ومنه ما علاجه بالتبريد، ومنه ما علاجه بالتسخين، ومنه ما علاجه بأن يجتنب سماع الأصوات والحركات.

(العلاج بالحناء جزئي)

إذا عُرِفَ هذا، فويلج الصداع في هذا الحديث بالحناء، هو جزئي لا كلي، وهو علاج نوع من أنواعه، فإن الصداع إذا كان من حرارة ملهبة، ولم يكن من مادة يجب استفراغها، نفع فيه الحناء نفعاً ظاهراً، وإذا دُقَّ وضمّدت به الجبهة مع الخل، سكن الصداع، وفيه قوة موافقة للعصب إذا ضمد به، سكنت أوجاعه، وهذا لا يختص بوجع الرأس، بل يعمُ الأعضاء، وفيه قبض تشد به الأعضاء، وإذا ضمّد به موضع الورم الحار والملتهب، سكنه.

وقد روى البخاري في «تاريخه» وأبو داود في

«السنن» أن رسول الله ﷺ ما شكى إليه أحد وجعاً في رأسه إلا قال له: «اِخْتَجِمِ»، ولا شكى إليه وجعاً في رجليه إلا قال له: «اِخْتَضِبْ بِالْحِنَاءِ» [سننه ضعيف: أحمد: ٢٧٦١٧، وأبو داود: ٣٨٥٨].

وفي الترمذي: عن سلمى أم رافع خادمة النبي ﷺ قالت: كان لا يُصِيبُ النبي ﷺ قرحة ولا شوكة إلا وُضِعَ عليها الحناء [سننه ضعيف: الترمذي: ٢٠٥٥، وابن ماجه: ٣٥٠٢].

فصل

(منافع الحناء وخواصه)

والحناء بارد في الأولى، يابس في الثانية، وقوة شجر الحناء وأغصانها مرّبة من قوة محللة اكتسبتها من جوهر فيها مائي، حار باعتدال، ومن قوة قابضة اكتسبتها من جوهر فيها أرضي بارد.

ومن منافعه أنه محلّل نافع من حرق النار، وفيه قوة موافقة للعصب إذا ضمّد به، وينفع إذا مُضِغ، من قروح الفم والسلاق^(١) العارض فيه، ويبرئ القلاع^(٢) الحادث في أفواه الصبيان، والضّماد به ينفع من الأورام الحارة الملهبة، ويفعل في الجراحات فمل دم الأخوين^(٣). وإذا خلط نوره مع الشمع المصقّى، ودُمّن الورد، ينفع من أوجاع الجنب.

ومن خواصه أنه إذا بدأ الجُدري يخرج بصبي، فحُضِبَت أسافل رجليه بحناء، فإنه يؤمن على عينيه أن يخرج فيها شيء منه، وهذا صحيح مجرب لا شك فيه. وإذا جعل نوره بين طي ثياب الصوف طيها، ومنع السوس عنها، وإذا نَقَعَ ورقه في ماء يغمره، ثم غَصَرَ وشرب من صفوه أربعين يوماً كل يوم عشرون درهماً مع عشرة دراهم سكر، ويُغذَى عليه بلحم الضأن الصغير، فإنه ينفع من ابتداء الجذام بخاصية فيه عجيبة.

وحكي أن رجلاً تشقّت أظافير أصابع يده، وأنه بذل لمن يُبرئه مالاً، فلم يجد، فوصفت له امرأة، أن

(١) السلاق: بثر تخرج على أصل اللسان، وتقرش في أصول الأسنان.

(٢) القلاع: بثرات تكون في جلدة الفم أو اللسان.

(٣) في «التذكرة» بعد أن تردد في بيان حقيقته: والصحيح أنا لا نعرف أصله، وإنما يجلب هكذا من بلاد الهند.

يشرب عشرة أيام حِناء، فلم يُقَدِّم عليه، ثم نَقَعَه بَماءٍ وشربه، فَبَرَأَ وَرَجَعَتْ أَظْفَارُهُ إِلَى حَسَنِهَا.

والحِناء إذا أُلْزِمَتْ به الأظفار معجوناً حَسَنَها ونفعها، وإذا عُجِنَ بالسمن وَضُمَّ بِه بَقَايا الأورام الحارة التي تَرَشُّحُ ماء أَصْفَر، نفعها ونفع من الجرب المتقرَّح المزمِن مُنْفَعَةً بليغة، وهو يُنْبِتُ الشعرَ ويقويه، ويحسنه، ويُقوي الرأس، وينفع من النَّقَطَات، والبثور العارضة في الساقين والرجلين، وسائر البدن.

فصل

في هديه ﷺ في معالجة المرضى بترك إعطائهم ما يكرهونه من الطعام والشراب، وأنهم لا يكرهون على تناولهما

روى الترمذي في «جامعه»، وابن ماجه، عن عتبة بن عامر الجُهَنِي، قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُكْرِهُوا مَرْضَاءَكُمْ عَلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُطْعِمُهُمْ وَيَسْقِيهِمْ» [الترمذي: ٢٠٤١، وابن ماجه: ٢٤٤٤].

قال بعضُ فضلاء الأطباء: ما أغزَرَ فوائدَ هذه الكلمة النبوية المشتملة على حكم إلهية، لا سيما للأطباء، ولَمَن يُعالِج المرضى، وذلك أن المريض إذا عاف الطعام أو الشراب، فذلك لاشتغال الطبيعة بمجاهدة المرض، أو لسقوط شهوته، أو نقصانها لضعف الحرارة الغريزية أو خمودها، وكيفما كان، فلا يجوز حينئذ إعطاء الغذاء في هذه الحالة.

واعلم أن الجوع إنما هو طلب الأعضاء للغذاء لثُخِّلَتْ الطبيعة به عليها عِوضٌ ما يتحلل منها، فتجذب الأعضاء القسوى من الأعضاء الدنيا حتى ينتهي الجذب إلى المعدة، فيُحسُّ الإنسان بالجوع، فيطلبُ الغذاء، وإذا وُجِدَ المرض، اشتغلت الطبيعة بمادته وإنضاجها وإخراجها عن طلب الغذاء، أو

الشراب، فإذا أُكْرِهَ المريضُ على استعمال شيء من ذلك، تعطلت به الطبيعة عن فعلها، واشتغلت بهضمه وتبديره عن إنضاج مادة المرض ودفعه، فيكون ذلك سبباً لضرر المريض، ولا سيما في أوقات البُحران^(١)، أو ضعف الحار الغريزي أو خموده، فيكون ذلك زيادةً في البلية، وتعجيل النازلة المتوقعة، ولا ينبغي أن يُستعمل في هذا الوقت والحال إلا ما يحفظ عليه قوته ويقويها من غير استعمال مزيج للطبيعة البتة، وذلك يكون بما لُفَّت قوامه من الأشربة والأغذية، واعتدل مزاجه كشراب اللينوفر^(٢)، والتفاح، والورد الطري، وما أشبه ذلك، ومن الأغذية مرق القارايح المعتدلة الطيبة فقط، وإنعاش قواه بالأراييح العطرة الموافقة، والأخبار السارة، فإن الطبيب خادِمُ الطبيعة، ومعينها لا معيقها.

واعلم أن الدم الجيد هو المغذي للبدن، وأن البلغم دم فح قد نضج بعض النضج، فإذا كان المريض في بدنه بلغم كثير، وعُدِمَ الغذاء، عطفت الطبيعة عليه، وطبخته، وأنضجته، وصيرته دماً، وغذت به الأعضاء، واكتفت به عما سواه، والطبيعة هي القوة التي وكلها الله سبحانه بتبدير البدن وحفظه وصحته، وحراسته مدة حياته.

(إجبار المريض على الطعام)

واعلم أنه قد يحتاج في التُّدرة إلى إجبار المريض على الطعام والشراب، وذلك في الأمراض التي يكون معها اختلاط العقل، وعلى هذا فيكون الحديث من العام المخصوص، أو من المطلق الذي قد دل على تقيده دليل، ومعنى الحديث: أن المريض قد يعيش بلا غذاء أياً ما لا يعيش الصحيح في مثله.

(معنى: «فإن الله يطعمهم ويسقيهم»)

وفي قوله ﷺ: «فإن الله يطعمهم ويسقيهم» معنى لطيف زائد على ما ذكره الأطباء لا يعرفه إلا مَنْ له عناية بأحكام القلوب والأرواح، وتأثيرها في طبيعة

(١) بضم فسكون: التغير الذي يحدث دفعة في الأمراض الحادة.

(٢) في «التذكرة» الأشهر فيه تقديم التون، وقال فيه: فارسي معناه، ذو الأجنحة، وهو نبت مائي له أصل كالجزر، وساق أملس يطول سحبه عمق الماء فإذا ساوى سطحه، أورق وأزهر.

البدن، وانفعال الطبيعة عنها، كما تنفعل هي كثيراً عن الطبيعة، ونحن نُشير إليه إشارة، فنقول: النفس إذا حصل لها ما يشغلها من محبوب أو مكروه أو مخوف، اشتغلت به عن طلب الغذاء والشراب، فلا تُجسّ بجوع ولا عطش، بل ولا حر ولا برد، بل تشتغل به عن الإحساس المؤلم الشديد الألم، فلا تُجسّ به، وما من أحد إلا وقد وجد في نفسه ذلك أو شيئاً منه، وإذا اشتغلت النفس بما دهمها، وورد عليها، لم تُجسّ بآلم الجوع، فإن كان الوارد مفرحاً قوياً التفرّيح، قام لها مقام الغذاء، فشبت به، وانتعشت قواها، وتضاعفت، وجرت الدموية في الجسد حتى تظهر في سطحه، فيُشرق وجهه، وتظهر دميته، فإن الفرح يُوجب انبساط دم القلب، فينبعث في العروق، فتتملى به، فلا تطلب الأعضاء حفظها من الغذاء المعتاد لاشتغالها بما هو أحب إليها، وإلى الطبيعة منه، والطبيعة إذا ظفرت بما تحب، أثرته على ما هو دونه.

وإن كان الوارد مؤلماً أو محزناً أو مخوفاً، اشتغلت بمحاربه ومقاومته ومداومته عن طلب الغذاء، فهي في حال حربها في شغل عن طلب الطعام والشراب. فإن ظفرت في هذا الحرب، انتعشت قواها، وأخلقت عليها نظيراً ما فاتها من قوة الطعام والشراب وإن كانت مغلوبة مهورة، انحطت قواها بحسب ما حصل لها من ذلك، وإن كانت الحرب بينها وبين هذا العدو سجالاً، فالقوة تظهر تارة وتختفي أخرى، وبالجمله فالهرب بينهما على مثال الحرب الخارج بين العدوين المتقاتلين، والنصر للغالب، والمغلوب إما قتل، وإما جريح، وإما أسير.

وكلما قوي إيمانه وحبه لربه، وأنسه به، وفرحه به، وقوي يقينه بربه، واشتد شوقه إليه ورضاه به وعنه، وجد في نفسه من هذه ما لا يُعبّر عنه، ولا يُدرکه وصف طيب، ولا يتأله علمه.

ومن غلظ طبعه، وكثفت نفسه عن فهم هذا والتصديق به، فلينظر حال كثير من عُشّاق الصور الذين قد امتلات قلوبهم بحُب ما يعشقونه من صورة، أو جاه، أو مال، أو علم، وقد شاهد الناس من هذا عجائب في أنفسهم وفي غيرهم.

وقد ثبت في «الصحيح»: عن النبي ﷺ، أنه كان يُواصل في الصيام الأيام ذوات العدد، وينهي أصحابه عن الوصال ويقول: «لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ إِنِّي أَكُلُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي» [البخاري: ١٩٦٥ - ١٩٦٦ - ١٩٦٧، وسلم: ٢٥٦٦].

ومعلوم أن هذا الطعام والشراب ليس هو الطعام الذي يأكله الإنسان بقمه، وإلا لم يكن مواسلاً، ولم يتحقق الفرق، بل لم يكن صائماً، فإنه قال: «أَكُلُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي».

وأيضاً فإنه فرق بينه وبينهم في نفس الوصال، وأنه يَقدِر منه على ما لا يقدرون عليه، فلو كان يأكل ويشرب بقمه، لم يقل لست كهيتكم، وإنما فهم هذا من الحديث مَنْ قَلَّ نصيبه من غذاء الأرواح والقلوب، وتأثيره في القوة وإنعاشها، واعتناها به فوق تأثير الغذاء الجسماني، والله الموفق.

فصل

في هديه ﷺ في علاج العُدرة،

وفي العلاج بالسعوط

ثبت عنه في «الصحيحين» أنه قال: «خَيْرُ مَا تَدَاوَيْتُمْ بِهِ الْحِجَامَةُ، وَالْفُسْطُ الْبَحْرِي، وَلَا تَعْلَبُوا صِبْيَانَكُمْ بِالْعَمَزِ مِنَ الْعُدْرَةِ» [البخاري: ٥٦٩٦، وسلم: ٤٠٣٨].

وفي «السنن» و«المسند» عنه من حديث جابر بن عبد الله قال: دخل رسول الله ﷺ على عائشة،

فالمريض: له مدد من الله تعالى يُغذيه به زائداً على ما ذكره الأطباء من تغذيته بالدم، وهذا المدد بحسب ضعفه وانكساره وانطراحه بين يدي ربه عز وجل، فيحصل له من ذلك ما يُوجب له قرباً من ربه، فإن العبد أقرب ما يكون من ربه إذا انكسر قلبه، ورحمة ربه عندئذٍ قريبة منه، فإن كان ولياً له، حصل له من الأغذية القلبية ما تقوى به قوى طبيعته، وتتشمش به قواه أعظم من قوتها، وانتعاشها بالأغذية البدنية،

فصل

في هديه ﷺ في علاج المفزود

روى أبو داود في «سننه» من حديث مجاهد، عن سعد، قال: مرضت مرضاً، فأتاني رسول الله ﷺ يَعودني، فوضع يده بين ثديي حتى وجدتُ بردها على فؤادي، وقال لي: «إِنَّكَ رَجُلٌ مَفْزُودٌ فَأَتَيْتُ الْحَارِثَ ابْنَ كَلْدَةَ مِنْ ثَقِيفٍ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ يَنْطَبُّ، فَلْيَأْخُذْ سَنَعِ تَمْرَاتٍ مِنْ عَجْوَةِ الْمَدِينَةِ، فَلْيَجَاهُزَنَّ، بَنَوَاهُنَّ، ثُمَّ لِيْلُذْكَ بِهِنَّ» [أبو داود: ٣٨٧٥].

المفزود: الذي أصيب فؤاده، فهو يشتكيه، كالمبطون الذي يشتكي بطنه.

واللدود: ما يُسْقَاهُ الإنسان من أحد جانبي الفم.

(علاج المفزود بالتمر)

وفي التمر خاصية عجيبة لهذا الداء، ولا سيما تمر المدينة، ولا سيما العجوة منه. وفي كونها سبعا خاصية أخرى، تُذكر بالوحي، وفي «الصحيحين»: من حديث عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَصَبَّحَ بِسَنَعِ تَمْرَاتٍ مِنْ تَمَرِ الْعَالِيَةِ لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ سَمٌ وَلَا سِحْرٌ».

وفي لفظ: «مَنْ أَكَلَ سَنَعِ تَمْرَاتٍ مِمَّا يَبِينُ لَابِتِّهَا» (١) جِينٌ يُصْبِحُ، لَمْ يَضُرَّهُ سَمٌ حَتَّى يُمَيِّسَ» [البخاري: ٥٤٤٥، ومسلم: ٥٣٣٨].

(فوائد التمر)

والتَّمَرُ حَارٌّ فِي الثَّانِيَةِ، يَابِسٌ فِي الْأُولَى. وقيل: رطب فيها. وقيل: معتدل، وهو غذاء فاضل حافظ للصحة لا سيما لمن اعتاد الغذاء به، كأهل المدينة وغيرهم، وهو من أفضل الأغذية في البلاد الباردة والحارة التي حرارتها في الدرجة الثانية، وهو لهم أنفع منه لأهل البلاد الباردة، لبرودة مواطن سكانها، وحرارة مواطن سكان البلاد الباردة، ولذلك يُكثِرُ أَهْلُ الْحِجَازِ وَالْيَمَنِ وَالطَّائِفِ، وما يليهم من البلاد المشابهة لها من الأغذية الحارة ما لا يتأتى لغيرهم، كالتمر والعسل، وشاهدناهم يضعون في أطعمتهم من الفلفل والزنجبيل فوق ما يضعه غيرهم نحو عشرة

وعندما صبي يسيلُ مَنْخَرَاهُ دَمًا، فقال: «مَا هَذَا؟». فقالوا: به العُدْرَةُ، أَوْ جَعٌ فِي رَأْسِهِ، فقال: «وَلَكُنَّ لَا تَقْتُلُنَّ أَوْلَادَكُمْ، أَيُّمَا امْرَأَةٍ أَصَابَ وَلَدَهَا عُذْرَةٌ أَوْ وَجَعٌ فِي رَأْسِهِ، فَلْتَأْخُذْ قُسْطًا هِنْدِيًّا فَلْتَحْكِهِ بِمَاءٍ، ثُمَّ تُسَوِّطُهُ لِيَّاهُ» فأمرت عائشة رضي الله عنها ففُضِّعَ ذَلِكَ بِالصَّبِيِّ، فَبَرَأَ [صحيح: أحمد: ١٤٣٨٥].

قال أبو عبيد عن أبي عُبَيْدَةَ: العُدْرَةُ: تهيج في الحَلْقِ مِنَ الدَّمِ، فَإِذَا غُولَجَ مِنْهُ، قِيلَ: قَدْ غُلِيزَ بِهِ، فَهُوَ مَعْدُورٌ انْتَهَى. وقيل: العُدْرَةُ: قرحة تخرج فيما بين الأذن والحلق، وتعرض للصبيان غالباً.

(علاج العُدْرَةُ بسعوط القسط)

وأما نفع السَّعُوطِ مِنْهَا بِالْقُسْطِ الْمَحْكُوكِ، فَلَأَنَّ الْعُدْرَةَ مَادَتُهَا دَمٌ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الْبَلْغَمُ، لَكِنْ تُولَدُ فِي أَيْدَانِ الصَّبِيَّانِ أَكْثَرُ، وَفِي الْقُسْطِ تَجْفِيفٌ يُشَدُّ لِلْهَاءِ وَيَرْفَعُهَا إِلَى مَكَانِهَا، وَقَدْ يَكُونُ نَفْعُهُ فِي هَذَا الدَّاءِ بِالْخَاصِيَةِ، وَقَدْ يَنْفَعُ فِي الْأَدْوَاءِ الْحَارَةِ، وَالْأَدْوِيَةِ الْحَارَةِ بِالذَّاتِ تَارَةً، وَيَاغْرِضُ أُخْرَى.

وقد ذكر صاحب «القانون» في معالجة سقوط اللهاة: القُسطُ مع الشب اليماني، ويزر المرو. والقُسطُ البحري المذكور في الحديث: هو العود الهندي، وهو الأبيض منه، وهو حلو، وفيه منافع عديدة، وكانوا يُعالجون أولادهم بغمز اللهاة، وبالعِلاق، وهو شيء يُعلَقُونَهُ عَلَى الصَّبِيَّانِ، فَتَهَامُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى مَا هُوَ أَنْفَعُ لِلْأَطْفَالِ، وَأَسْهَلُ عَلَيْهِمْ.

وَالسَّعُوطُ: مَا يُصَبُّ فِي الْأَنْفِ، وَقَدْ يَكُونُ بِأَدْوِيَةِ مَفْرَدَةٍ وَمَرْكَبَةٍ تُدَقُّ وَتُنْخَلُ وَتُعْمَجُ وَتُجَفَّفُ، ثُمَّ تُحِلُّ عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَيُسَعَطُ بِهَا فِي أَنْفِ الْإِنْسَانِ، وَهُوَ مُسْتَلَقٌ عَلَى ظَهْرِهِ، وَبَيْنَ كَتِفَيْهِ مَا يَرْفَعُهُمَا لِتَنْخَفُضَ رَأْسُهُ، فَيَتِمَكَّنُ السَّعُوطُ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى دِمَاغِهِ، وَيُسْتَخْرَجُ مَا فِيهِ مِنَ الدَّاءِ بِالْعَطَاسِ، وَقَدْ مَدَحَ النَّبِيُّ ﷺ التَّدَاوِيَّ بِالسَّعُوطِ فِيمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِيهِ.

وذكر أبو داود في «سننه» (٣٨٦٧) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَعَطَّ.

(١) لَابِتِّهَا: ما يحيط بجانبها من الحجارة السود البركانية تثنى لابة بزنة غابة.

أضعاف أو أكثر، ويأكلون الزنجبيل كما يأكل غيرهم الحَلْوَى، ولقد شاهدتُ من يَتَنَقَّلُ به منهم كما يتنقل بالنقل^(١)، ويُوافقهم ذلك ولا يضُرُّهم لبرودة أجوافهم، وخروج الحرارة ظاهر الجسد، كما تُشاهد مياه الآبار تَبْرُدُ في الصيف، وتسخن في الشتاء، وكذلك تنضج المعدة من الأغذية الغليظة في الشتاء ما لا تنضج في الصيف.

وأما أهل المدينة، فالتمر لهم يكاد أن يكون بمنزلة الحنطة لغيرهم، وهو قوتهم ومادتهم، وتمرُّ العالية من أجود أصناف تمرهم، فإنه متميز الجسم، لذيد الطعم، صادق الحلاوة، والتمر يدخل في الأغذية والأدوية والفاكهة، وهو يُوافق أكثر الأبدان، مقو للحرار الغريزي، ولا يتولد عنه من الفضلات الرديئة ما يتولد عن غيره من الأغذية والفاكهة، بل يمنع لمن اعتاده من الأخلاط وفسادها.

(اختصاص الأدوية بالمكينة)

وهذا الحديث من الخطاب الذي أريد به الخاص، كاهل المدينة ومن جاورهم، ولا ريب أن للمكينة اختصاصاً بنفع كثير من الأدوية في ذلك المكان دون غيره، فيكون الدواء الذي قد نبت في هذا المكان نافعاً من الداء، ولا يوجد فيه ذلك النفع إذا نبت في مكان غيره لتأثير نفس التربة أو الهواء، أو هما جميعاً، فإن للأرض خواص وطبائع يُقارب اختلافها اختلاف طبائع الإنسان، وكثير من النبات يكون في بعض البلاد غذاءً مأكولاً، وفي بعضها سُماً قاتلاً، ورب أدوية لقوم أغذية لآخرين، وأدوية لقوم من أمراض هي أدوية لآخرين في أمراض سواها، وأدوية لأهل بلد لا تناسب غيرهم، ولا تنفعهم.

(خاصية عدد سبع)

وأما خاصية السبع، فإنها قد وقعت قدراً وشرعاً، فخلق الله عز وجل السموات سبعاً، والأرضين سبعاً، والأيام سبعاً، والإنسان كمل خلقه في سبعة أطوار، وشرع الله سبحانه لعباده الطواف سبعاً، والسعي بين الصفا والمروة سبعاً، ورمي الجمار سبعاً

سبعاً، وتكبيرات العيدين سبعاً في الأولى. وقال ﷺ: «مُرُّوهم بالصَّلَاةَ لسبع» [صحيح: أحمد: ٦٦٨٩، وأبو داود: ٤٩٤، والترمذي: ٤٠٧]. «وإذا صَارَ لِلْعَلَامِ سَبْعُ سِنِينَ خَيْرٌ بَيْنَ آبَوَيْهِ»^(٢) في رواية. وفي رواية أخرى: «أَبُوهُ أَحَقُّ بِهِ مِنْ أُمِّهِ» وفي ثالثة: «أُمُّهُ أَحَقُّ بِهِ» وأمر النبي ﷺ في مرضه أن يُصَبَّ عليه من سبع قرب [البخاري: ٤٤٤٢]، وسخر الله الريح على قوم عاد سبع ليال، ودعا النبي ﷺ أن يُعَيِّنَهُ الله على قومه بسبع كسج يوسف [البخاري: ١٠٠٦-٦٩٣٩]، ومثل الله سبحانه ما يُضَاعَفُ به صدقة المصدق بحبة أنبت سبع سنابل في كل سنبل مئة حبة، والسنابل التي رآها صاحب يوسف سبعاً، والسنين التي زرعوها دأباً سبعاً، وتضاعف الصدقة إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ويدخل الجنة من هذه الأمة بغير حساب سبعون ألفاً.

فلا ريب أن لهذا العدد خاصية ليست لغيره، والسبعة جمعت معاني العدد كله وخواصه، فإن العدد شفع وتر. والشفع: أول وثنان. والوتر: كذلك، فهذه أربع مراتب: شفع أول، وثنان. ووتر أول وثنان، ولا تجتمع هذه المراتب في أقل من سبعة، وهي عدد كامل جامع لمراتب العدد الأربعة، أعني الشفع والوتر، والأوائل والثواني، ونعني بالوتر الأول الثلاثة، وبالثاني الخمسة، وبالشفع الأول الاثني، وبالثاني الأربعة، وللأطباء اعتناء عظيم بالسبعة، ولا سيما في البحارين. وقد قال بقراط: كل شيء من هذا العالم، فهو مقدَّر على سبعة أجزاء، والنجوم سبعة، والأيام سبعة، وأسنان الناس سبعة، أولها طفل إلى سبع، ثم صبي إلى أربع عشرة، ثم مُراهق، ثم شاب، ثم كهل، ثم شيخ، ثم هرم إلى منتهى العمر، والله تعالى أعلم بحكمته وشرعه، وقدره في تخصيص هذا العدد، هل هو لهذا المعنى أو لغيره؟

ونفع هذا العدد من هذا التمر من هذا البلد من هذه البقعة بعينها من السم والسحر، بحيث تمنع إصابتها من الخواص التي لو قالها بقراط وجالينوس وغيرهما

(١) كالفسق والجزر والملوز والبندق.

(٢) الذي ثبت عنه ﷺ أنه خير غلاماً بين أبيه وأمه كما رواه أحمد (٧٣٤٦)، وأبو داود (٢٢٧٧)، والترمذي (١٣٥٧).

الإعراض، وتمكنت العلل والأدواء المزمنة من القلوب، وترى المرضى والأطباء على علاج بني جنسهم وما وضعه لهم شيوخهم، ومن يُعظمونه ويحسنون به ظنونهم، فعظم المصاب، واستحكم الداء، وتركت أمراض وعلل أعياء عليهم علاجها، وكلما عالجوها بتلك العلاجات الحادثة تفاقم أمرها، وقويت، ولسان الحال يُنادي عليهم:

وَمِنَ الْعَجَائِبِ وَالْعَجَائِبِ جَمَّةٌ

قُرْبُ الشَّفَاءِ وَمَا إِلَيْهِ وَصُولُ
كَالْيَسْرِ فِي السَّيِّئِ يَنْتَلِهَا الظُّمَاءُ

وَالْمَاءُ قَرِيبٌ قَرِيبٌ لَهَا مَحْمُولُ

فصل

في هديه ﷺ في دفع ضرر الأغذية
والفاكهة وإصلاحها بما يدفع ضررها،
ويقوي نفعها

ثبت في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن جعفر، قال: رأيتُ رسول الله ﷺ يأكل الرُّطَبَ بالقِثَاءِ [البخاري: ٥٤٤٠، ومسلم: ٥٣٣٠].

والرُّطَبُ: حار رطب في الثانية، يقوي المعدة الباردة، ويُوافقها، ويزيد في الباه، ولكنه سريع التعفن، معطش معكر للدم، مصدع مولد للسدد، ووجع المثانة، ومضر بالأسنان، والقثاء بارد رطب في الثانية، مسكن للعطش، منبش للقرى يشمه لما فيه من العطرية، مطفئ لحرارة المعدة الملتهية، وإذا جفف بزره، ودُق واستحلب بالماء، وشرب، سَكُن العطش، وأدر البول، ونفع من وجع المثانة. وإذا دُق ونُخل، وذلك به الأسنان، جلاها، وإذا دُق ورقه وعمل منه ضماد مع المَيْبُخْتَج^(١)، نفع من عضة الكلب الكَلْب.

وبالجملة: فهذا حار، وهذا بارد، وفي كل منهما صرح الآخر، وإزالة لأكثر ضرره، ومقاومة كل كيفية بضدها، ودفع سورتها بالأخرى، وهذا أصل العلاج كله، وهو أصل في حفظ الصحة، بل علم الطب كله يستفاد من هذا. وفي استعمال ذلك وأمثاله في الأغذية والأدوية إصلاح لها وتعديل، ودفع لما فيها

من الأطباء، لتلقاها عنهم الأطباء بالقبول والإذعان والالتقاد، مع أن القائل إنما معه الحدس والتخمين والظن، فمن كلامه كله يقين، وقطع وبرهان، ووحى أولى أن تُتلقى أقواله بالقبول والتسليم، وترك الاعتراض. وأدوية السموم تارة تكون بالكيفية، وتارة تكون بالخاصية كخواص كثير من الأحجار والجواهر واليواقيت، والله أعلم.

فصل

(من شرط انتفاع العليل بالدواء قبوله واعتقاد النفع به)

ويجوز نفعُ التمر المذكور في بعض السموم، فيكون الحديث من العام المخصوص، ويجوز نفعه لخاصية تلك البلد، وتلك التربة الخاصة من كل سم، ولكن هاهنا أمر لا بد من بيانه، وهو أن من شرط انتفاع العليل بالدواء قبوله، واعتقاد النفع به، فتقبله الطبيعة، فتستعين به على دفع العلة، حتى إن كثيراً من المعالجات ينفع بالاعتقاد، وحسن القبول، وكمال التلقي، وقد شاهد الناس من ذلك عجائب، وهذا لأن الطبيعة يشتد قبولها له، وتفرح النفس به، فتنتعش القوة، ويقوى سلطان الطبيعة، وينبعث الحار الغريزي، فيساعد على دفع المؤذي، وبالعكس يكون كثير من الأدوية نافعا لتلك العلة، فيقطع عمله سوء اعتقاد العليل فيه، وعدم أخذ الطبيعة له بالقبول، فلا يجدي عليها شيئاً. واعتبر هذا بأعظم الأدوية والأشغية، وأنفعها للقلوب والأبدان، والمعاش والمعاد، والدنيا والآخرة، وهو القرآن الذي هو شفاء من كل داء، كيف لا ينفع القلوب التي لا تعتقد فيه الشفاء والنفع، بل لا يزيدها إلا مرضاً إلى مرضها، وليس لشفاء القلوب دواء قط أنفع من القرآن، فإنه شفاؤها التام الكامل الذي لا يُغادر فيها سقماً إلا أبراه، ويحفظ عليها صحتها المطلقة، ويحميها الحمية التامة من كل مؤذ ومضر، ومع هذا فأعراض أكثر القلوب عنه، وعدم اعتقادها الجازم الذي لا ريب فيه أنه كذلك، وعدم استعماله، والعدول عنه إلى الأدوية التي ركبها بنو جنسها حال بينها وبين الشفاء به، وغلبت العوائد، واشتد

(١) كلمة فارسية معناها: مطبوخ العنب، وهو الرُّب.

من الكيفيات المضرة لِمَا يَقَابِلُهَا، وفي ذلك عون على صحة البدن، وقوته وخصبه، قالت عائشة رضي الله عنها: سَمْنُونِي بِكُلِّ شَيْءٍ، فلم أَسْمَنْ، فسمنوني بالقثاء والرطب، فسمنت.

وبالجملة: فدفع ضرر البارد بالحر، والحر بالبارد، والرطب باليابس، واليابس بالرطب، وتعديل أحدهما بالآخر من أبلغ أنواع العلاجات، وحفظ الصحة، ونظير هذا ما تقدم من أمره بالسنا والسُّنُوت، وهو العسل الذي فيه شيء من السمن يصلح به السنا، ويُعَدِّله، فصلوات الله وسلامه على من بُعِثَ بعمارة القلوب والأبدان، وبمصالح الدنيا والآخرة.

فصل

في هديه ﷺ في الحمية

الدواء كله شيان: حمية وحفظ صحة. فإذا وقع التخليط، احتيج إلى الاستفراغ الموافق، وكذلك مدار الطب كله على هذه القواعد الثلاثة. والحمية: حيتان: حمية عما يجلب المرض، وحمية عما يزيده، فيقف على حاله، فالأول: حمية الأصحاء. والثانية: حمية المرضى، فإن المريض إذا احتسى، وقف مرضه عن التزايد، وأخذت القوى في دفعه. والأصل في الحمية قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَتْ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْمَطَرِ أَوْ لَمْ تَسْمُوا الْمَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَوِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣]، فحمى المريض من استعمال الماء، لأنه يضره.

وفي «سنن ابن ماجه» وغيره عن أم المنذر بنت قيس الأنصارية، قالت: دخل علي رسول الله ﷺ ومعه علي، وعلي ناقة من مرض، ولنا دوالي معلقة، فقام رسول الله ﷺ يأكل منها، وقام علي يأكل منها، فطفق رسول الله ﷺ يقول لعلي: «إِنَّكَ نَاقَةٌ، حَتَّى كَفْتُ». قالت: وصنعت شعيراً وِسْلَقاً، فجئت به، فقال النبي ﷺ لعلي: «مِنْ هَذَا أَصِيبْ، فَإِنَّهُ أَنْفَعُ لَكَ» وفي لفظ فقال: «مِنْ هَذَا فَاصِيبْ، فَإِنَّهُ أَوْفَقُ لَكَ» [حسن: أحمد: ٢٧٠٥١، وأبو داود: ٣٨٥٦، والترمذي: ٢٠٣٨، وابن ماجه: ٣٤٤٢].

وفي «سنن ابن ماجه» أيضاً عن ضُهِيب قال: قَدِمْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَبَيْنَ يَدَيْهِ خَبْزٌ وَتَمْرٌ، فَقَالَ: «إِذْنُ فُكُلٍ»، فَأَخَذْتُ تَمْرًا فَأَكَلْتُ، فَقَالَ: «أَتَأْكُلُ تَمْرًا وَبِكَ رَمَدٌ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَمْضَغُ مِنْ النَّاحِيَةِ الْآخَرَى، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [ابن ماجه: ٣٤٤٣].

وفي حديث محفوظ عنه ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا، حَمَاهُ مِنَ الدُّنْيَا، كَمَا يَحْمِي أَحَدُكُمْ مَرِيضَهُ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ». وفي لفظ: «إِنَّ اللَّهَ يَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا» [صحيح: أحمد: ٢٣٦٢٢].

وأما الحديث الدائر على السنة كثير من الناس: «الْحِمِيَةُ رَأْسُ الدَّوَاءِ، وَالْمَعِدَةُ بَيْتُ الدَّاءِ، وَعَوْدُوا كُلُّ جَسَمٍ مَا عَتَادَ» فهذا الحديث إنما هو من كلام الحارث بن كُلَّة طبيب العرب، ولا يصح رفعه إلى النبي ﷺ، قاله غير واحد من أئمة الحديث. ويذكر عن النبي ﷺ: «أَنَّ الْمَعِدَةَ حَوْضُ الْبَدَنِ، وَالْعُرْوُ إِلَيْهَا وَارِدَةٌ، فَإِذَا صَحَّتِ الْمَعِدَةُ صَدَرَتِ الْعُرْوُ بِالصَّحَّةِ، وَإِذَا سَقَمَتِ الْمَعِدَةُ، صَدَرَتِ الْعُرْوُ بِالسَّقَمِ»^(١).

وقال الحارث: رَأْسُ الطَّبِّ الْحِمِيَةُ، وَالْحِمِيَةُ عِنْدَهُمُ لِلصَّحِيحِ فِي الْمَضَرَّةِ بِمَنْزِلَةِ التَّخْلِيطِ لِلْمَرِيضِ وَالنَّاقَةِ، وَأَنْفَعُ مَا تَكُونُ الْحِمِيَةُ لِلنَّاقَةِ مِنَ الْمَرَضِ، فَإِنَّ طَبِيعَتَهُ لَمْ تَرْجِعْ بَعْدَ إِلَى قُوَّتِهَا، وَالْقُوَّةُ الْهَاضِمَةُ ضَعِيفَةٌ، وَالطَّبِيعَةُ قَابِلَةٌ، وَالْأَعْضَاءُ مُسْتَعِدَّةٌ، فَتَخْلِيطُهُ يُوجِبُ انْتِكَاسَهَا، وَهُوَ أَصْعَبُ مِنْ ابْتِدَاءِ مَرَضِهِ.

واعلم أن في منع النبي ﷺ لعلي من الأكل من الدوالي، وهو ناقة أحسن التدبير، فإن الدوالي أَقْنَاءُ مِنَ الرُّطْبِ تُعَلِّقُ فِي الْبَيْتِ لِلأَكْلِ بِمَنْزِلَةِ عِنَاقِيدِ الْعَنْبِ، وَالْفَاكِهَةِ تُضَرُّ بِالنَّاقَةِ مِنَ الْمَرَضِ لِسُرْعَةِ اسْتِحَالَتِهَا، وَضَعْفِ الطَّبِيعَةِ عَنْ دَفْعِهَا، فَإِنَّمَا لَمْ تَتِمَّ بَعْدَ مِنْ قُوَّتِهَا، وَهِيَ مُشْغُولَةٌ بِدَفْعِ آثَارِ الْعِلَّةِ، وَإِزَالَتِهَا مِنَ الْبَدَنِ.

وفي الرُّطْبِ خاصَّة نوع ثَقُلَ عَلَى الْمَعِدَةِ، فَتَشْتَغَلُ بِمَعَالِجَتِهِ وَإِصْلَاحِهِ عَمَّا هِيَ بِصَدَدِهِ مِنْ إِزَالَةِ بَقِيَةِ الْمَرَضِ وَآثَارِهِ، فَمَا أَنْ تَقِفَ تِلْكَ الْبَقِيَّةُ، وَإِنَّمَا أَنْ

(١) في مسنده يحيى البالباني وهو ضعيف.

تزايد، لما وضع بين يديه السلق والشعير، أمره أن يُصيب منه، فإنه من أنفع الأغذية للناقة، فإن في ماء الشعير من التبريد والتغذية، والتلطيف والتلين، وتقوية الطبيعة ما هو أصلح للناقة، ولا سيما إذا طَبِّحَ بأصول السلق، فهذا من أوفق الغذاء لمن في معدته ضعف، ولا يتولد عنه من الأخلاط ما يُخاف منه.

وقال زيد بن أسلم: حَمَى عُمَرُ رضي الله عنه مريضاً له، حتى إنه من شدة ما حماه كان يَمُصُّ النوى.

وبالجملة: فالحمية من أنفع الأدوية قبل الداء، فتمنع حصوله، وإذا حصل، فتمنع تزايدَه وانتشارَه.

فصل

(لا حرج في تناول)

الإنسان ما يشتهيه عن جوع صادق وكان فيه ضرر ما) ومما ينبغي أن يُعلم أن كثيراً مما يُحصى عنه العليل والناقة والصحيح، إذا اشتدت الشهوة إليه، ومالت إليه الطبيعة، فتناول منه الشيء اليسير الذي لا تَعْجُزُ الطبيعة عن هضمه، لم يضره تناوله، بل ربما انتفع به، فإن الطبيعة والمعدة تلقيانه بالقبول والمحبة، فيُصلحان ما يُخشى من ضرره، وقد يكون أنفع من تناول ما تكرهه الطبيعة، وتدفعه من الدواء، ولهذا أقر النبي ﷺ صهيياً وهو أرمد على تناول التمرات اليسيرة، وعلم أنها لا تُضره، ومن هذا ما يروى عن علي أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو أرمد، وبين يدي النبي ﷺ تمر يأكله، فقال: يا علي! تشتهيه؟ ورمى إليه بتمر، ثم بأخرى حتى رمى إليه سبعاً، ثم قال: «حَسْبُكَ يَا عَلِيٌّ».

ومن هذا ما رواه ابن ماجه في «سننه» من حديث عكرمة، عن ابن عباس، أن النبي ﷺ عاد رجلاً، فقال له: «مَا تَشْتَهِي؟» فقال: أَشْتَهِي خُبْزَ بُرٍّ. وفي لفظ: أَشْتَهِي كَعْكَاً، فقال النبي ﷺ: «مَنْ كَانَ عِنْدَهُ خُبْزُ بُرٍّ فَلْيَبْعَثْ إِلَى أَخِيهِ»، ثم قال: «إِذَا أَشْتَهَى مَرِيضٌ أَحَدَكُمْ شَيْئاً، فَلْيَطْعِمْهُ» [ابن ماجه: ١٤٣٩، وفي سننه لين الحديث].

ففي هذا الحديث سر طبي لطيف، فإن المريض إذا تناول ما يشتهيه عن جوع صادق طبعي، وكان

فيه ضرر ما، كان أنفع وأقل ضرراً مما لا يشتهيه، وإن كان نافعاً في نفسه، فإن صدق شهوته، ومحبة الطبيعة يدفع ضرره، ويغض الطبيعة وكرامتها للنافع، قد يجلب لها منه ضرراً. وبالجملة: فاللذيق المشتته تقبل الطبيعة عليه بعناية، فتَهْضُمُه على أحمد الوجوه، سيما عند انبعاث النفس إليه بصدق الشهوة، وصحة القوة، والله أعلم.

فصل

في هديه ﷺ في علاج الرمد بالسكون، والدعة، وترك الحركة، والجمية

مما يهيج الرمد

وقد تقدّم أن النبي ﷺ حمى صهيياً من التمر، وأنكر عليه أكله، وهو أرمد، وحمى علياً من الرطب لما أصابه الرمد.

وذكر أبو نعيم في كتاب «الطب النبوي»: أنه ﷺ كان إذا رَمِدَتْ عَيْنُ امْرَأَةٍ من نسائه لم يأتها حتى تبرأ عيْنها.

(حقيقة الرمد)

الرمد: ورم حار يعرض في الطبقة الملتحمة من العين، وهو بياضها الظاهر، وسببه انصباب أحد الأخلاط الأربعة، أو ريح حارة تكثر كميتها في الرأس والبدن، فينبعث منها قسط إلى جوهر العين، أو ضربة تُصيب العين، فترسل الطبيعة إليها من الدم والروح مقداراً كثيراً تروم بذلك شفاءها مما عَرَضَ لها، ولأجل ذلك يرمُ العضو المضروب، والقياسُ يوجب ضده.

(سببه)

واعلم أنه كما يرتفع من الأرض إلى الجو بخاران، أحدهما: حار يابس، والآخر: حار رطب، فيعتقدان سحاباً متراكماً، ويمنعان أبصارنا من إدراك السماء، فكذلك يرتفع من قعر المعدة إلى متنها مثل ذلك، فيمنعان النظر، ويتولد عنهما علل شتى، فإن قويت الطبيعة على ذلك ودفعته إلى الخياشيم، أحدث الزكام، وإن دفعته إلى اللهاة والمنخرين أحدث الخناق، وإن دفعته إلى الجنب، أحدث الشوصة، وإن دفعته إلى الصدر، أحدث

البدن وقواه، وطبيعته وأخلاطه، والروح والنفس، فكل حركة فهي مثيرة للأخلاط مرققة لها تُوجب دفعها وسيلانها إلى الأعضاء الضعيفة، والعين في حال رمدها أضعف ما تكون، فأضر ما عليها حركة الجماع.

قال أبقراط في كتاب «الفصول»: وقد يدل ركوب السفن أن الحركة تُؤثر الأبدان، هذا مع أن في الرمد منافع كثيرة، منها ما يستدعيه من الرحمة والاستفراغ، وتنقية الرأس والبدن من فضلاتهما وعفوناتهما، والكث مما يؤدي النفس والبدن من الغضب، والهم والحزن، والحركات العنيفة، والأعمال الشاقة. وفي أثر سلفي: لا تكرهوا الرمد، فإنه يقطع عروق العمى.

(علاجه)

ومن أسباب علاجه ملازمة السكون والراحة، وترك مس العين والاشتغال بها، فإن أضرار ذلك يُوجب انصباب المواد إليها. وقد قال بعض السلف: مَثَلُ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مَثَلُ الْعَيْنِ، وَدَرَاءُ الْعَيْنِ تَرَكُ مَسِّهَا. وقد روي في حديث مرفوع، الله أعلم به: «علاج الرمد تقطير الماء البارد في العين» وهو من أنفع الأدوية للرمد الحار، فإن الماء دواء بارد يُستعان به على إطفاء حرارة الرمد إذا كان حاراً، ولهذا قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لامرأته زينب وقد اشتكت عينها: لو فَعَلْتِ كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَانَ خَيْراً لَكَ وَأَجْدَرَ أَنْ تُشْفِي، تَنْضِجِينَ فِي عَيْنِكَ الْمَاءَ، ثُمَّ تَقُولِينَ: «أَذْهَبِ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا بِشِفَاؤِكَ، شِفَاءٌ لَا يُنَادِرُ سَقَمًا» [ابو داود: ٣٨٨٣، وابن ماجه: ٢٣٥٣٠]. وهذا مما تقدم مراراً أنه خاص ببعض البلاد، وبعض أوجاع العين، فلا يجعل كلام النبوة الجزئي الخاص كلياً عاماً، ولا الكلي العام جزئياً خاصاً، فيقع من الخطأ، وخلاف الصواب ما يقع، والله أعلم.

النزلة، وإن انحدر إلى القلب، أحدث الحَبْطَةَ، وإن دفعته إلى العين أحدث رمداً، وإن انحدر إلى الجوف، أحدث السَّيْلَانَ، وإن دفعته إلى منازل الدماغ أحدث النسيان، وإن ترطبت أوعية الدماغ منه، وامتلات به عروقه أحدث النوم الشديد، ولذلك كان النوم رطباً، والسهر يابساً، وإن طلب البخار النفوذ من الرأس، فلم يقلب عليه، أعقبه الصداع والسهر، وإن مال البخار إلى أحد شقي الرأس، أعقبه الشقيقة، وإن ملك قمة الرأس ووسط الهامة، أعقبه داء البيضة، وإن برد منه حجاب الدماغ، أو سخن، أو ترطبت وهاجت منه أرياح، أحدث العطاس، وإن أهاج الرطوبة البلغمية فيه حتى غلب الحار الغريزي، أحدث الإغماء والسكات، وإن أهاج الجرة السوداء حتى أظلم هواء الدماغ، أحدث الوسواس، وإن فاض ذلك إلى مجاري العصب، أحدث الضرع الطبيعي، وإن ترطبت مجامع عصب الرأس وفاض ذلك في مجاريه، أعقبه الفالج، وإن كان البخار يروء صفراء ملتهبة محمية للدماغ، أحدث البرسام^(١)، فإن شرکه الصدر في ذلك، كان سراسماً^(٢)، فافهم هذا الفصل.

(علة الامتناع عن الجماع حال الرمد)

والمقصود: أن أخلاط البدن والرأس تكون متحركة هائجة في حال الرمد، والجماع مما يزيد حركتها وثورانها، فإنه حركة كلية للبدن والروح والطبيعة. فأما البدن، فيسخن بالحركة لا محالة، والنفس تشتد حركتها طلباً للذة واستكمالها، والروح تتحرك تبعاً لحركة النفس والبدن، فإن أول تعلق الروح من البدن بالقلب، ومنه ينشأ الروح، وتنبث في الأعضاء. وأما حركة الطبيعة، فلاجل أن تُرْسِلَ ما يجب إرساله من المنى على المقدار الذي يجب إرساله.

وبالجملة: فالجماع حركة كلية عامة يتحرك فيها

(١) البرسام: التهاب في الحجاب الذي بين الكبد والقلب.

(٢) السراسم: ورم في حجاب الدماغ يحدث عنه حمى واختلاط في الدهن.

فصل

في هديه ﷺ في علاج الخدران الكلي الذي يجمد معه البدن

رسول الله ﷺ قال: «أَحَدُ جَنَاحَيْ الذَّبَابِ سَمٌّ، وَالْآخَرُ شِفَاءٌ، فَإِذَا وَقَعَ فِي الطَّعَامِ، فَاثْقُلُوهُ، فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ السَّمَّ، وَيُؤَخِّرُ الشِّفَاءَ» (ابن ماجه: ٣٥٠٤).

(إذا مات الذباب هي مائع لا ينجسه)

هذا الحديث فيه أمران: أمر الفقهي، وأمر طبي، فأما الفقهي، فهو دليل ظاهر الدلالة جداً على أن الذباب إذا مات في ماء أو مائع، فإنه لا يُنجسه، وهذا قول جمهور العلماء، ولا يُعرف في السلف مخالف في ذلك، ووجه الاستدلال به أن النبي ﷺ أمر بِثَقْلِهِ، وهو غمسه في الطعام، ومعلوم أنه يموت من ذلك، ولا سيما إذا كان الطعام حاراً، فلو كان يُنجسه لكان أمراً بإفساد الطعام، وهو ﷺ إنما أمر بإصلاحه، ثم عُدِّيَ هذا الحكم إلى كل ما لانفس له سائلة، كالنحلة والزنبور، والعنكبوت وأشباه ذلك، إذ الحكم يُعمَّمُ بِمُومِ عِلته، ويتنفي لانتفاء سببه، فلما كان سبب التنجيس هو الدم المحتقن في الحيوان بموته، وكان ذلك مفقوداً فيما لا دم له سائل انتفى الحكم بالتنجيس لانتفاء عِلته.

ثم قال من لم يحكم بنجاسة عظم الميتة: إذا كان هذا ثابتاً في الحيوان الكامل مع ما فيه من الرطوبات، والفضلات، وعدم الصلابة، فثبوت في العظم الذي هو أبعد عن الرطوبات والفضلات، واحتقان الدم أولى، وهذا في غاية القوة، فالمصير إليه أولى.

وأول من حفظ عنه في الإسلام أنه تكلم بهذه اللفظة، فقال: ما لا نفس له سائلة؛ إبراهيم النخعي، وعنه تلقاها الفقهاء، والنفس في اللغة: يعبر بها عن الدم، ومنه نفست المرأة - بفتح النون - إذا حاضت، ونفست - بضمها - إذا ولدت.

(فائدة غمس الذباب)

وأما المعنى الطبي، فقال أبو عبيد: معنى امقلوه: اغمسوه ليخرج الشفاء منه، كما خرج الدواء، يقال للرجلين: هما يتماقلان، إذا تغاطا في الماء.

واعلم أن في الذباب عندهم قوة سُمِّيَّةٌ يدل عليها الورم، والحكة العارضة عن لسعه، وهي بمنزلة السَّلاح، فإذا سقط فيما يؤذيه، اتقاه بسلاحه، فأمر النبي ﷺ أن يُقَابَلَ تلك السمية بما أودعه الله سبحانه في جناحه الآخر من الشفاء، فيغمس كُلَّهُ في الماء

ذكر أبو عبيد في «غريب الحديث» من حديث أبي عثمان التَّهْدِي: أن قوماً مروا بشجرة فأكلوا منها، فكانما مرَّت بهم ريح، فأجمدتهم، فقال النبي ﷺ: «قَرُّسُوا الْمَاءَ فِي الشَّنَّانِ، وَضَبُّوا عَلَيْهِمْ فِيمَا بَيْنَ الْأَذَانَيْنِ»، ثم قال أبو عبيد: قرسوا: يعين بردوا. وقول الناس: قد قَرَسَ البردُ، إنما هو من هذا بالسَّين ليس بالصاد. والشَّنَّان: الأسقية والقرب الخلقان، يُقال للشفاء: شَنٌّ، وللقرية: شَنَّةٌ. وإنما ذكر الشَّنَّان دون الجُدِّ لأنها أشدَّ تبريداً للماء. وقوله: «بَيْنَ الْأَذَانَيْنِ»، يعني أذان الفجر والإقامة، فسمي الإقامة أذاناً، انتهى كلامه.

قال بعض الأطباء: وهذا العلاج من النبي ﷺ من أفضل علاج هذا الداء إذا كان وقوعه بالحجاز، وهي بلاد حارة يابسة، والحرار الغريزي ضعيف في بواطن سكانها، وصَبَّ الماء البارد عليهم في الوقت المذكور، - وهو أبرد أوقات اليوم - يوجب جمع الحرار الغريزي المنتشر في البدن الحامل لجميع قواه، فيقوي القوة الدافعة، ويجمع من أقطار البدن إلى باطنه الذي هو محلُّ ذاك الداء، ويستظهر بياقي أقوى على دفع المرض المذكور، فيدفعه بإذن الله عزَّ وجلَّ، ولو أن أبرقراط، أو جالينوس، أو غيرهما، وصف هذا الدواء لهذا الداء، لخضعت له الأطباء، وعَجِبُوا من كمال معرفته.

فصل

في هديه ﷺ في إصلاح الطعام الذي يقع فيه الذباب، وإرشاده إلى دفع مضرات السموم بأضدادها

في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا وَقَعَ الذَّبَابُ فِي إِنَاءٍ أَحَدِكُمْ، فَاثْقُلُوهُ، فَإِنَّ فِي أَحَدِ جَنَاحَيْهِ دَاءً، وَفِي الْآخَرِ شِفَاءٌ» [البخاري: ٥٧٨٢، وليس في مسلم].

وفي «سنن ابن ماجه» عن أبي سعيد الخدري، أن

والطعام، فيقابل المادة السمية المادة النافعة، فيزول ضررها، وهذا طب لا يهتدي إليه كبار الأطباء وأئمتهم، بل هو خارج من مشكاة النبوة، ومع هذا فالطبيب العالم العارف الموفق يخضع لهذا العلاج، ويقر لمن جاء به بأنه أكمل الخلق على الإطلاق، وأنه مؤيد بوحى إلهي خارج عن القوى البشرية.

وقد ذكر غير واحد من الأطباء أن لسع الزنبور والعقرب إذا دُكَّ موضعه بالذباب نفع منه نفعاً يئناً، وسكنه، وما ذاك إلا للمادة التي فيه من الشفاء، وإذا دُكَّ به الورم الذي يخرج في شعر العين المسمى شجرة بعد قطع رؤوس الذباب، أبراه.

فصل

في هديه ﷺ في علاج البثرة

ذكر ابن السني في كتابه عن بعض أزواج النبي ﷺ قالت: دخل علي رسول الله ﷺ وقد خرج في أصبعي بثرة، فقال: «عندك ذريرة؟ قلت: نعم. قال: «ضعيها عليهما» وقولي: اللهم مُصغِّر الكبير، ومُكَبِّر الصغير، صَغُر ما بي» [ابن السني: ٦٤٠، ووقع له في سنه وهم، وأخرجه أحمد: ٢٣١٤١، وسنده صحيح].

الذريرة: دواء هندي يُتخذ من قَصَب الذريرة، وهي حارة يابسة تنفع من أورام المعدة والكبد والاستسقاء، وتُقوي القلب لطبيعتها، وفي «الصحيحين» عن عائشة أنها قالت: طيَّب رسول الله ﷺ يدي بذريرة في حَجَّة الوداع للحلّ والإحرام [البخاري: ٥٩٣٠، ومسلم: ٢٨٢٤].

والبثرة: خراج صغير يكون عن مادة حارة تدفعها الطبيعة، فتسرق مكاناً من الجسد تخرج منه، فهي محتاجة إلى ما يُنضجها ويُخرجها، والذريرة أحد ما يفعل بها ذلك، فإن فيها إنضاجاً وإخراجاً مع طيب رائحتها، مع أن فيها تبريداً للنارية التي في تلك المادة، وكذلك قال صاحب «القانون»: إنه لا أفضل لِحرق النار من الذريرة بدهن الورد والخل.

فصل

في هديه ﷺ في علاج الأورام، والخراجات التي تبرأ بالبط والبزل

يذكر عن علي أنه قال: دخلت مع رسول الله ﷺ على رجل يعوده بظهره ورم، فقالوا: يا رسول الله! بهذه مِدة. قال: «بَطُّوا عنه»، قال علي: فما برحتُ حتى بَطْتُ، والنبي ﷺ شاهد^(١).

ويذكر عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ أمر طبيباً أن يبط بطن رجل أجوى البطن، فقيل: يا رسول الله: هل ينفع الطب؟ قال: «الذي أنزل الداء، أنزل الشفاء، فيما شاء».

الورم: مادة في حجم العضو لفضل مادة غير طبيعية تنصب إليه، ويوجد في أجناس الأمراض كلها، والمواد التي تكون عنها من الأخلاط الأربعة، والمائية، والرياح، وإذا اجتمع الورم سمي خراجاً، وكل ورم حار يؤول أمره إلى أحد ثلاثة أشياء: إما تحلل، وإما جمع مِدة، وإما استحالة إلى الصلابة. فإن كانت القوة قوية، استولت على مادة الورم وحلته، وهي أصلح الحالات التي يؤول حال الورم إليها، وإن كانت دون ذلك، أنضجت المادة، وأحالتها مِدة يضاء، وفتحت لها مكاناً أسالتها منه، وإن نقصت عن ذلك أحالت المادة مِدة غير مستحكمة النضج، وعجزت عن فتح مكان في العضو تدفعها منه، فيُخاف على العضو الفساد بطول لبثها فيه، فيحتاج إلى إعانة الطبيب بالبط، أو غيره لإخراج تلك المادة الرديئة المفسدة للعضو.

وفي البط فائدتان: إحداهما: إخراج المادة الرديئة المفسدة.

والثانية: منع اجتماع مادة أخرى إليها تقويها^(٢).

وأما قوله في الحديث الثاني: «إنه أمر طبيباً أن يبط بطن رجل أجوى البطن»، فالجوى يُقال على

(١) أبو يعلى وفي سنه أبو الريح السمان وهو ضعيف.

(٢) والخراج: هو التهاب أي جزء من أجزاء الجسم مع تكون مادة صديدية بداخله، وأهم علاج له هو فتحه بعملية جراحية، لإخراج المادة الصديدية.

معان منها : الماء المتن الذي يكون في البطن يحدث عنه الاستسقاء .

وقد اختلف الأطباء في بزله لخروج هذه المادة ، فمعتنه طائفة منهم لخطره ، وبعد السلامة معه ، وجوزته طائفة أخرى ، وقالت : لا علاج له سواء ، وهذا عندهم إنما هو في الاستسقاء الرّقي ، فإنه كما تقدم ثلاثة أنواع : ظلي ، وهو الذي يتنخ مع البطن بمادة ريفية إذا ضربت عليه سمع له صوت كصوت الطبل ، ولحمي : وهو الذي يربو معه لحم جميع البدن بمادة بلغمية تقشو مع الدم في الأعضاء ، وهو أصعب من الأول ، وزقي : وهو الذي يجتمع معه في البطن الأسفل مادة رديئة يُسمع لها عند الحركة خضخضة كخضخضة الماء في الرّق ، وهو أردأ أنواعه عند الأكثرين من الأطباء . وقالت طائفة : أردأ أنواعه للحمي لعموم الآفة به .

ومن جملة علاج الرّقي إخراج ذلك بالبزل ، ويكون ذلك بمنزلة فصد العروق لإخراج الدم الفاسد ، لكنه خطر كما تقدم ، وإن ثبت هذا الحديث ، فهو دليل على جواز بزله ، والله أعلم .

فصل

في هديه ﷺ في علاج المرضى بتطبيب نفوسهم وتقوية قلوبهم

روى ابن ماجه «في سننه» من حديث أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا دخلتم على المريض ، فتنسوا له في الأجل ، فإن ذلك لا يرد شيئاً ، وهو يطيب نفس المريض» [الترمذي : ٢٠٨٧ ، وابن ماجه : ١٤٣٨ ، وفي سننه وإسناده الحديث] .

وفي هذا الحديث نوعٌ شريف جداً من أشرف أنواع العلاج ، وهو الإرشاد إلى ما يطيب نفس العليل من الكلام الذي تقوى به الطبيعة ، وتتجشّ به القوة ، وينبعث به الحار الغريزي ، فيتساعد على دفع العلة أو تخفيفها الذي هو غاية تأثير الطبيب .

وتفريح نفس المريض ، وتطبيب قلبه ، وإدخال ما يسره عليه ، له تأثير عجب في شفاء علة وخفتها ، فإن الأرواح والقوى تقوى بذلك ، فتساعد الطبيعة على دفع المؤذي ، وقد شاهد الناس كثيراً من

المرضى تتجشّ قواه بعبادة من يحبونه ، ويُعظّمونه ، ورؤيتهم لهم ، ولطفهم بهم ، ومكالمتهم إياهم ، وهذا أحد فوائد عبادة المرضى التي تتعلق بهم ، فإن فيها أربعة أنواع من الفوائد : نوع يرجع إلى المريض ، ونوع يعود على العائد ، ونوع يعود على أهل المريض ، ونوع يعود على العامة .

وقد تقدم في هديه ﷺ أنه كان يسأل المريض عن شكواه ، وكيف يجده ويسأله عما يشتهي ، ويضع يده على جبهته ، وربما وضعها بين ثدييه ، ويدعو له ، ويصف له ما ينفعه في علة ، وربما توضعاً وصَبَّ على المريض من وُضوئه ، وربما كان يقول للمريض : «لا بأس ظهروا إن شاء الله» [البخاري : ٣٦١٦] ، وهذا من كمال اللطف ، وحسن العلاج والتدبير .

فصل

في هديه ﷺ في علاج الأبدان بما اعتادته من الأدوية والأغذية دون ما لم تعتده

هذا أصل عظيم من أصول العلاج ، وأنفع شيء فيه ، وإذا أخطأ الطبيب ، أضرَّ المريض من حيث يظن أنه ينفعه ، ولا يُعْدِلُ عنه إلى ما يجده من الأدوية في كتب الطب إلا طبيب جاهل ، فإن ملازمة الأدوية والأغذية للأبدان بحسب استعدادها وقبولها ، وهؤلاء أهل البوادي والأكارون وغيرهم لا ينجح فيهم شراب اللينوفر والورد الطري ولا المغلي ، ولا يؤثر في طباعهم شيئاً ، بل عامة أدوية أهل الحضر وأهل الرفاهية لا تجدي عليهم ، والتجربة شاهدة بذلك ، ومن تأمل ما ذكرناه من العلاج النبوي ، رآه كله موافقاً لعادة العليل وأرضه ، وما نشأ عليه . فهذا أصل عظيم من أصول العلاج يجب الاعتناء به ، وقد صرح به أفاضل أهل الطب حتى قال طبيب العرب بل أطبهم الحارث بن كَلْدَة ، وكان فيهم كأبقراط في قومه : الجمية رأس الدواء والمعدة بيت الداء ، وعَوَدُوا كُلُّ بَدَنٍ ما اعتادَ ، وفي لفظ عنه : الأزم دَوَاءٌ ، والأزم : الإمساك عن الأكل يعني به الجوع ، وهو من أكبر الأدوية في شفاء الأمراض الامتلائية كلها بحيث إنه أفضل في علاجها من المستفرغات إذا لم يخف من كثرة

الامتلاء، وهيجان الأخلاط، وجحنتها أو غليانها.

وقوله: المعدة بيت الداء. المعدة: عضو عصبي مجوف كالقَرَعَة في شكلها، مركب من ثلاث طبقات، مؤلفة من شظايا دقيقة عصبية تُسمى الليف، ويحيط بها لحم، وليفٌ إحدى الطبقات بالطول، والأخرى بالعرض، والثالثة بالورب، وفم المعدة أكثر عصباً، وقعرها أكثر لحماً، وفي باطنها خَمَلٌ، وهي محصورة في وسط البطن، وأميلُ إلى الجانب الأيمن قليلاً، خُلِقَتْ على هذه الصفة لحكمة لطيفة من الخالق الحكيم سبحانه، وهي بيت الداء، وكانت محلاً للضم الأول، وفيها يَنْضِجُ الغذاء وينحدرُ منها بعد ذلك إلى الكَبِدِ والأَمْعَاءِ، ويتخلف منه فيها فضلات قد عجزت القوة الهاضمة عن تمام هضمها، إما لكثرة الغذاء، أو لرداءته، أو لسوء ترتيب في استعماله، أو لمجموع ذلك، وهذه الأشياء بعضها مما لا يتخلص الإنسان منه غالباً، فتكون المعدة بيت الداء لذلك، وكأنه يُشير بذلك إلى الحث على تقليل الغذاء، ومنع النفس من اتباع الشهوات، والتحرُّر عن الفضلات.

وأما العادة فلأنها كالطبيعة للإنسان، ولذلك يُقال: العادة طبع ثان، وهي قوة عظيمة في البدن، حتى إن أمراً واحداً إذا قيس إلى أبدان مختلفة العادات، كان مختلف النسبة إليها، وإن كانت تلك الأبدان متفقة في الوجوه الأخرى مثال ذلك أبدان ثلاثة حارة المزاج في سن الشباب، أحدها: عَوْدٌ تناول الأشياء الحارة؛ والثاني: عَوْدٌ تناول الأشياء الباردة؛ والثالث: عَوْدٌ تناول الأشياء المتوسطة، فإن الأول متى تناول عسلاً لم يضر به، والثاني: متى تناوله، أضر به، والثالث: بضر به قليلاً، فالعادة ركن عظيم في حفظ الصحة، ومعالجة الأمراض، ولذلك جاء العلاج النبوي بإجراء كل بدن على عادته في استعمال الأغذية والأدوية وغير ذلك.

فصل

في هديه ﷺ في تغذية المريض

بألفظ ما اعتاده من الأغذية

في «الصحيحين» من حديث عروة عن عائشة، أنها كانت إذا مات الميت من أهلها، واجتمع لذلك

النساء، ثم تفرقن إلى أهلهن، أمرت بِرُزْمَةٍ من تليينة فطُبِخَتْ، وصنعت ثريداً ثم صبت التليينة عليه، ثم قالت: كلوا منها، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «التَّليينَةُ مَجَمَّةٌ لِفُؤَادِ الْمَرِيضِ تَذْهَبُ بِبَعْضِ الْحُزَنِ» [البخاري: ٥٤١٧، ومسلم: ٥٧٦٩].

وفي «السنن» من حديث عائشة أيضاً، قالت: قال رسول الله ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالْبَيْضِ النَّافِعِ التَّلِينِ»، قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا اشتكى أحد من أهله لم تزل البرمة على النار حتى ينتهي أحد طرفيه. يعني يبرأ أو يموت [أحمد: ٢٦٠٥، وابن ماجه: ٣٤٤٦، وفي سننه جهالة].

وعنها: كان رسول الله ﷺ إذا قيل له: إن فلاناً وَجِعَ لا يَطْعَمُ الطَّعَامَ، قال: عَلَيْكُمْ بِالتَّليينَةِ فَحْشُوهُ إِيَّاهَا، ويقول: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا تَغِيلُ بَظَنِّ أَحَدِكُمْ كَمَا تَغِيلُ إِحْدَاكُنَّ وَجْهَهَا مِنَ الْوَسَخِ» [أحمد: ٢٤٥٠٠، وفي سننه جهالة].

(التلين وهوانده)

التلين: هو الجساء الرقيق الذي هو في قوام اللبن، ومنه اشتق اسمه، قال الهروي: سميت تليينة لشبهها باللبن لياضها ورقتها، وهذا الغذاء هو النافع للعليل، وهو الرقيق النضيج لا الغليظ النثى، وإذا شئت أن تعرف فضل التليينة، فاعرف فضل ماء الشعير، بل هي ماء الشعير لهم، فإنها جساء متخذ من دقيق الشعير بنخالته، والفرق بينها وبين ماء الشعير أنه يُطْبَخُ صحاحاً، والتليينة تُطْبَخُ منه مطحوناً، وهي أنفع منه لخروج خاصية الشعير بالطحن، وقد تقدم أن للعادات تأثيراً في الانتفاع بالأدوية والأغذية، وكانت عادة القوم أن يتخذوا ماء الشعير منه مطحوناً لا صحاحاً، وهو أكثر تغذية، وأقوى فعلاً، وأعظمُ جلاءً، وإنما اتخذه أطباء المدن منه صحاحاً ليكون أرق والطف، فلا يثقل على طبيعة المريض، وهذا بحسب طبائع أهل المدن ورخاوتها، وثقل ماء الشعير المطحون عليها. والمقصود: أن ماء الشعير مطبوخاً صحاحاً ينفذُ سريعاً، ويجلو جلاءً ظاهراً، ويُغذي غذاءً لطيفاً، وإذا شرب حاراً كان جلاؤه أقوى، ونفوذه أسرع، وإنماؤه للحرارة الغريزية أكثر، وتلميئه لسطوح المعدة أوفق.

(علة زهاب التلبينة ببعض الحزن)

وقوله ﷺ فيها: «مجمة لفؤاد المريض» يروى بوجهين: يفتح الميم والجيم، ويضم الميم، وكسر الجيم، والاول: أشهر، ومعناه: أنها مُريحَة له، أي: تُريحه وتُسكنه من الإجمام، وهو الراحة. وقوله: «تذهب ببعض الحزن»، هذا - والله أعلم - لأن الغم والحزن يُبدان المزاج، ويُضعفان الحرارة الغريزية لميل الروح الحامل لها إلى جهة القلب الذي هو منشؤها، وهذا الحساء يقوي الحرارة الغريزية بزيادته في مادتها، فتزيل أكثر ما عرض له من الغم والحزن.

وقد يقال - وهو أقرب - : إنها تذهب ببعض الحزن بخاصية فيها من جنس خواص الأغذية المفْرِحة، فإن من الأغذية ما يفرح بالخاصية، والله أعلم.

وقد يقال: إن قُوَى الحزين تضعُفُ باستيلاء التيس على أعضائه، وعلى معدته خاصة لتقليل الغذاء، وهذا الحساء يرطبها، ويقويها، ويغذيها، ويفعل مثل ذلك بفؤاد المريض، لكن المريض كثيراً ما يجتمع في معدته خلط مراري، أو بلغمي، أو صديدي، وهذا الحساء يجلو ذلك عن المعدة ويُسروه، ويخلطه، ويُميعه، ويُعدّل كَيْفِيَّتَهُ، ويكسّر سَوَرَتَهُ، فيريحها ولا سيما لمن عادته الاغتذاء بخبز الشعير، وهي عادة أهل المدينة إذ ذاك، وكان هو غالب قوتهم، وكانت الحنطة عزيزة عندهم. والله أعلم.

فصل

في هديه ﷺ في علاج السُّمِّ الذي

أصابه بخير من اليهود

ذكر عبدُ الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك: أن امرأة يهودية

أهدت إلى النبي ﷺ شاةً مصليةً بخير، فقال: «ما هذه؟» قالت: هدية، وحذرت أن تقول: من الصدقة، فلا يأكلُ منها، فأكل النبي ﷺ، وأكل الصحابةُ، ثم قال: «أسيكوا»، ثم قال للمرأة: «هل سَمَمْتَ هذه الشاة؟» قالت: مَنْ أخبرك بهذا؟ قال: «هذا العظم لِساقِها»، وهو في يده؟ قالت: نعم. قال: «لَمْ؟» قالت: أردتُ إن كنت كاذباً أن يستريح منك النَّاسُ، وإن كنت نبياً، لم يضرَّك، قال: فاحتجم النبي ﷺ ثلاثة على الكاهل، وأمر أصحابه أن يحتجموا، فاحتجموا، فمات بعضهم (عبد الرزاق: ١٩٨١٤).

وفي طريق أخرى: واحتجم رسولُ الله ﷺ على كاهله من أجل الذي أكل من الشاة، حججه أبو هند بالقرن والشفرة، وهو مولى لبني يباضة من الأنصار، وبقي بعد ذلك ثلاث سنين حتى كان وجهه الذي تُوفي فيه، فقال: «ما زِلْتُ أجِدُ من الأكلة التي أكلتُ من الشاة يومَ خيبر حتى كان هذا أوان انقطاع الأنهر مني» فتوفي رسول الله ﷺ شهيداً، قاله موسى بن عقبة^(١).

(يعالج السم بالاستفراغات وبالادوية المبطللة لفعل السم)
معالجة السُّمِّ تكون بالاستفراغات، وبالادوية التي تُعارض فعل السم وتبطله، إما بكيفياتها، وإما بخواصها، فمن عديم الدواء، فليبادر إلى الاستفراغ الكلي^(٢) وأنفعه الحجامة، ولا سيما إذا كان البلد حاراً، والزمان حاراً، فإن القوة السمية تسري إلى الدم، فتنبعث في العروق والمجاري حتى تصل إلى القلب، فيكون الهلاك، فالدم هو المنفذ الموصل للسم إلى القلب والأعضاء، فإذا بادر المسموم، وأخرج الدم، خرجت معه تلك الكيفية السمية التي خالطته، فإن كان استفراغاً تاماً لم يضره السم، بل إما أن يذهب، وإما أن يضعف فتقوى عليه الطبيعة، فتبطل فعله أو تضعفه.

(١) ذكر الحافظ في «الفتح» (٩٩/٨) أن موسى بن عقبة أخرجه في «المغازي» عن الزهري، لكنه أرسله، وأخرجه البخاري (٤٤٢٨) تعليقاً.

(٢) التسمم الغذائي أو بالسوم أهم أعراضه القيء المتكرر، وأهم طرق علاجه هو غسيل المعدة من المادة السمية، ومن السهل القيام بذلك بتناول كميات كبيرة من الماء الدافئ المذاب به بعض ملح الطعام واستفراغه ثانياً، وهذه العملية تتكرر عدة مرات حتى يعود الماء كما هو وبذلك تكون المعدة أصبحت خالية من المادة السمية، ويعطى بعد ذلك سهلاً لإخراج ما تسرب من المادة السمية من الشرج.

(استشهاده ﷺ بالسم)

لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا، وإنّما هذا فيما يجوز طُرُوه عليه في أمر دنياء التي لم يُبعث بسببها، ولا فُضِّل مِن أجلها، وهو فيها عُرْضة للآفات كسائر البشر، فغير بعيد أنه يُخَيَّلُ إليه مِن أمورها ما لا حقيقة له، ثم ينجلي عنه كما كان.

(علاج السحر)

والمقصود: ذكر هديه في علاج هذا المرض، وقد روي عنه فيه نوعان:

(استخراج السحر وإبطاله)

أحدهما - وهو أبلغهما - : استخراجه وإبطاله، كما صحَّ عنه ﷺ أنه سأل ربه سبحانه في ذلك، فدل عليه، فاستخرجه مِن بئر، فكان في مِشْطٍ ومُشَاطة، وَجُفَّ طَلْعَةٌ ذَكَرُ^(١)، فلما استخرجه، ذهب ما به، حتى كأنما أُنْشِطَ مِن عِقَالِ^(٢)، فهذا من أبلغ ما يُعالج به المطبُوبُ، وهذا بمنزلة إزالة المادة الخبيثة وقلمها مِن الجسد بالاستفراغ.

(الاستفراغ في المحل الذي يصل إليه أذى السحر)

والنوع الثاني: الاستفراغ في المحل الذي يصل إليه أذى السحر، فإن للسحر تأثيراً في الطبيعة، وهيجان أخلاطها، وتشويش مزاجها، فإذا ظهر أثره في عضو، وأمكن استفرغ المادة الرديئة من ذلك العضو، نفع جداً.

وقد ذكر أبو عبيد في كتاب «غريب الحديث» له بإسناده، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، أن النبي ﷺ احتجم على رأسه بِقَرْنٍ حين طُبَّ^(٣). قال أبو عبيد: معنى طُبَّ: أي سحر.

وقد أشكل هذا على من قل علمه، وقال: ما للحجامة والسحر، وما الرابطة بين هذا الداء وهذا الدواء، ولو وجد هذا القاتل أبقراط، أو ابن سينا، أو غيرهما قد نص على هذا العلاج، لتلقاه بالقبول والتسليم، وقال: قد نصَّ عليه من لا يُشكُّ في معرفته وفضله.

ولما احتجم النبي ﷺ، احتجم في الكاهل، وهو أقرب المواضع التي يمكن فيها الحجامة إلى القلب، فخرجت المادة السمية مع الدم لا خروجاً كلياً، بل بقي أثرها مع ضعفه لما يُريد الله سبحانه من تكميل مراتب الفضل كُلِّها له، فلما أراد الله إكرامه بالشهادة، ظهر تأثُرُ ذلك الأثر الكامن من السم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، وظهر بَرُّ قوله تعالى لأعدائه من اليهود: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَقَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، فجاء بلفظ كذبتم بالماضي الذي قد وقع منه، وتحقق، وجاء بلفظ: «تقتلون» بالمستقبل الذي يتوقعونه ويستظرونه، والله أعلم.

فصل

في هديه ﷺ في علاج السحر الذي

سحرته اليهود به

قد أنكر هذا طائفة من الناس، وقالوا: لا يجوزُ هذا عليه، وظنوه نقصاً وعبثاً، وليس الأمر كما زعموا، بل هو مِن جنس ما كان يعتريه ﷺ من الأسقام والأوجاع، وهو مرض من الأمراض، وإصابته به كإصابته بالسُّم لا فرق بينهما، وقد ثبت في «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: سَجَّرَ رسول الله ﷺ حَتَّى إِنْ كَانَ لَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَأْتِي نِسَاءَهُ، وَلَمْ يَأْتِيَهُنَّ، وذلك أشدَّ ما يكون مِن السحر [البخاري: ٥٧٦٥، ومسلم: ٥٧٠٣].

قال القاضي عياض: والسحر مرض من الأمراض، وعارض من العلل يجوز عليه ﷺ، كأنواع الأمراض مما لا يُنكر، ولا يقدَحُ في نبوته، وأما كونه يُخَيَّلُ إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله، فليس في هذا ما يدخل عليه داخل في شيء من صدقة،

(١) هو من تمام حديث عائشة المتقدم، والمشط معروف، والمشطة: هي الشعر الذي يسقط من الرأس أو اللحية عند تسريحه، والجبف: وعاء طلع النخل، وهو الغشاء الذي يكون عليه، ويطلق على الذكر والأنثى، ولذا قيده في الحديث بقوله «طلعة ذكر».

(٢) انظر «الفتح» (٢٠٠/١٠).

(٣) لا يصح.

أدويته كالتأثيرات بالذات، فإنه من تأثيرات الأرواح الخبيثة السفلية، ودفع تأثيرها يكون بما يُعارضها ويُقاومها من الأذكار، والآيات، والدعوات التي تُبطلُ فعلها وتأثيرها، وكلما كانت أقوى وأشدّ، كانت أبلغ في النشرة^(١)، وذلك بمنزلة التقاء جيشين مع كل واحد منهما عُذته وسلاحه، فأيهما غلب الآخر، قهره، وكان الحكم له، فالقلب إذا كان ممثلًا من الله مغموراً بذكره، وله من التوجهات والدعوات والأذكار والتعوذات ورد لا يُخلُ به يُطابق فيه قلبه لسانه، كان هذا من أعظم الأسباب التي تمنع إصابة السحر له، ومن أعظم العلاجات له بعد ما يُصيّبه.

وعند السحرة: أن يسحرهم إنما يتم تأثيره في القلوب الضعيفة المنفعلة، والنفوس الشهوانية التي هي معلقة بالسُفليات، ولهذا فإن غالب ما يؤثر في النساء، والصبيان، والجهال، وأهل البوادي، ومن ضَعُف حظه من الدين والتوكل والتوحيد، ومن لا نصيب له من الأوراد الإلهية والدعوات والتعوذات النبوية.

وبالجملة: فسلطان تأثيره في القلوب الضعيفة المنفعلة التي يكون ميلها إلى السُفليات، قالوا: والمسحور هو الذي يُعين على نفسه، فإنما نجد قلبه متعلقاً بشيء كثير الالتفات إليه، فيتسلط على قلبه بما فيه من الميل والالتفات، والأرواح الخبيثة إنما تتسلط على أرواح تلقاها مستعدة لتسلطها عليها بميلها إلى ما يناسب تلك الأرواح الخبيثة، ويفرغها من القوة الإلهية، وعدم أخذها للعدة التي تُحاربها بها، فتجدها فارغة لا عدة معها، وفيها ميل إلى ما يُناسبها، فتتسلط عليها، ويتمكن تأثيرها فيها بالسحر وغيره، والله أعلم.

فصل

في هديه ﷺ في الاستفراغ بالقيء

روى الترمذي في «جامعه» عن معدان بن أبي طلحة، عن أبي الدرداء، أن النبي ﷺ قاء، فتوصاً فلقيتُ ثوبانَ في مسجد دمشق، فذكرتُ له ذلك،

فاعلم أن مادة السحر الذي أصيب به ﷺ انتهت إلى رأسه إلى إحدى قُوافٍ التي فيه بحيث كان يُخيل إليه أنه يفعل الشيء ولم يفعله، وهذا تصرف من الساحر في الطبيعة والمادة الدموية بحيث غلبت تلك المادة على البطن المقدم منه، فغيرت مزاجه عن طبيعته الأصلية.

والسحر: هو مركب من تأثيرات الأرواح الخبيثة، وانفعال القوى الطبيعية عنها، وهو أشدّ ما يكون من السحر، ولا سيما في الموضع الذي انتهى السحرُ إليه، واستعمالُ الحجامة على ذلك المكان الذي تضررت أفعاله بالسحر من أنفع المعالجة إذا استعملت على القانون الذي ينبغي.

قال أبقراط: الأشياء التي ينبغي أن تُستفَرَّغ يجب أن تُستفَرَّغ من الموضع التي هي إليها أميلُ بالأشياء التي تصلح لاستفراغها.

وقالت طائفة من الناس: إن رسولَ الله ﷺ لما أصيب بهذا الداء، وكان يُخيلُ إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله، ظنَّ أن ذلك عن مادة دموية أو غيرها مالت إلى جهة الدماغ، وغلبت على البطن المقدم منه، فأزالت مزاجه عن الحالة الطبيعية له، وكان استعمالُ الحجامة إذ ذاك من أبلغ الأدوية، وأنفع المعالجة، فاحتجم، وكان ذلك قبل أن يُرحى إليه أن ذلك من السحر، فلما جاءه الوحي من الله تعالى، وأخبره أنه قد سُحِرَ، عدل إلى العلاج الحقيقي وهو استخراجُ السحر وإبطاءه، فسأل الله سبحانه، فدلَّه على مكانه، فاستخرجه، فقام كأنما أنشيط من عقال، وكان غايةً هذا السحر فيه إنما هو في جسده، وظاهر جوارحه، لا على عقله وقلبه، ولذلك لم يكن يعتقدُ صحة ما يُخيلُ إليه من إتيان النساء، بل يعلم أنه خيال لا حقيقة له، ومثلُ هذا قد يحدثُ من بعض الأمراض، والله أعلم.

فصل

(علاج السحر بالذكار والتهبات)

ومن أنفع علاجات السحر الأدوية الإلهية، بل هي

(١) النشرة - بالضم -: ضرب من الرقية والعلاج يعالج به من كان يظن أن به مساً من الجن، سميت نشرة، لأنه ينشر بها عنه ما ضاره من الداء، أي: يكشف ويزال.

فقال: صَدَقَ، أَنَا صَبَّيْتُ لَهُ وَضُوءَهُ. قال الترمذي: وهذا أصح شيء في الباب [صحیح: أحمد: ٢٧٥٠٢، وأبو داود: ٤٣٨١، والترمذي: ٨٧].

(أصول الاستفراغ)

القيء: أحد الاستفراغات الخمسة التي هي أصول الاستفراغ، وهي الإسهال، والقيء، وإخراج الدم، وخروج الأبخرة والعرق، وقد جاءت بها السنة.

فأما الإسهال: فقد مرَّ في حديث «خير ما تداوِتم به المشي» وفي حديث «السنا».

وأما إخراج الدم، فقد تقدم في أحاديث الحجامة.

وأما استفراغ الأبخرة، فنذكره عقيب هذا الفصل إن شاء الله.

وأما الاستفراغ بالعرق، فلا يكون غالباً بالقصد، بل بدفع الطبيعة له إلى ظاهر الجسد، فيُصادف المسام مفتحة، فيخرج منها.

(أنواع القيء)

والقيء استفراغٌ من أعلا المعدة، والحُقنة من أسفلها، والدواء من أعلى وأسفلها، والقيء: نوعان: نوع بالغلبة والهيجان، ونوعٌ بالاستدعاء والطلب. فأما الأول: فلا يَسُوغُ حبسه ودفعه إلا إذا أفرط وخيف منه التلُف، فيقطع بالأشياء التي تُمسكه. وأما الثاني: فأنفعُه عند الحاجة إذا رُوعي زمانه وشروطه التي تذكر.

(أسباب القيء)

وأسباب القيء عشرة:

أحدها: غلبة البُرة الصفراء، وطُفُوها على رأس المعدة، فتطلب الصعود.

الثاني: من غلبة بلغم لزج قد تحرك في المعدة، واحتاج إلى الخروج.

الثالث: أن يكون من ضعف المعدة في ذاتها، فلا تُهضم الطعام، فتقذفه إلى جهة فوق.

الرابع: أن يخالطها خلط رديء ينصب إليها، فيسيء هضمها، ويُضعف فعلها.

الخامس: أن يكون من زيادة المأكول أو

المشروب على القدر الذي تحتمله المعدة، فتعجز عن إمساكه، فتطلب دفعه وقذفه.

السادس: أن يكون من عدم موافقة المأكول والمشروب لها، وكراهيتها له، فتطلب دفعه وقذفه.

السابع: أن يحصل فيها ما يُؤثر الطعام بكيافته وطبيعته، فتقذف به.

الثامن: القَرَف، وهو مُوجب غثيان النفس وتهوعها.

(الأعراض النفسانية من أسباب القيء)

التاسع: من الأعراض النفسانية، كالهم الشديد، والغم، والحزن، وغلبة اشتغال الطبيعة والقوى الطبيعية به، واهتمامها بوروده عن تدبير البدن، وإصلاح الغذاء، وإنضاجه، وهضمه، فتقذفه المعدة، وقد يكون لأجل تحرك الأخلاط عند تخبط النفس، فإن كل واحد من النفس والبدن ينفع عن صحابه، ويؤثر في كيافته.

العاشر: نقل الطبيعة بأن يرى من يتقيأ، فيغلبه هو القيء من غير استدعاء، فإن الطبيعة نقالة.

(إخبار أحد الأطباء)

المصنف بقصتين عن نقل العرض برؤية المريض

وأخبرني بعض حُدَّاق الأطباء، قال: كان لي ابن أخت حَلِيق في الكحل، فجلس كحلاً، فكان إذا فتح عينَ الرجل، ورأى الرمد وكحله، رَمَدَ هو، وتكرر ذلك منه، فترك الجلوس. قلتُ له: فما سبب ذلك؟ قال: نقلُ الطبيعة، فإنها نقالة، قال: وأعرِفُ آخر، كان رأى خُراجاً في موضع من جسم رجل يحكُّه، فحك هو ذلك الموضع، فخرجت فيه خُراجة. قلتُ: وكل هذا لا بد فيه من استعداد الطبيعة، وتكون المادة ساكنة فيها غير متحركة، فتتحرك لسبب من هذه الأسباب، فهذه أسباب لتحرك المادة لا أنها هي الموجبة لهذا العارض.

فصل

(انفع الأمكنة والأزمنة للقيء والإسهال)

ولما كانت الأخلاط في البلاد الحارة، والأزمنة الحارة تَرُقُّ وتنجذب إلى فوق، كان القيء فيها أنفع،

ولما كانت في الأزمنة الباردة والبلاد الباردة تغلظ، ويصعب جذبها إلى فوق، كان استفراغها، بالإسهال أنفع.

(كيفية إزالة الأخلاط ودفعها)

وإزالة الأخلاط ودفعها تكون بالجذب والاستفراغ، والجذب يكون من أبعد الطرق، والاستفراغ من أقربها، والفرق بينهما أن المادة إذا كانت عاملة في الانصباب أو الترقى لم تستقر بعد، فهي محتاجة إلى الجذب، فإن كانت متصاعدة جذبت من أسفل، وإن كانت منصبة جذبت من فوق، وأما إذا استقرت في موضعها، استفرغت من أقرب الطرق إليها، فمتى أضرت المادة بالأعضاء العليا، اجتذبت من أسفل، ومتى أضرت بالأعضاء السفلى، اجتذبت من فوق، ومتى استقرت، استفرغت من أقرب مكان إليها، ولهذا احتجم النبي ﷺ على كاهله تارة، وفي رأسه أخرى، وعلى ظهر قدمه تارة، فكان يستفرغ مادة الدم المؤذي من أقرب مكان إليه. والله أعلم.

فصل

(فوائد القهي)

والقهي يُقَيِّم المعدة وَيُزِيلُها، وَيُجِدِّدُ البصر، وَيُزِيلُ ثقل الرأس، وينفع قروح الكلى، والمثانة، والأمراض المزمنة كالجدام والاستسقاء، والفالج والرعدة، وينفع اليرقان.

(وقت القهي)

وضرر الإكثار من القهي ومن يجب عليه احتناجه

وينبغي أن يستعمله الصحيح في الشهر مرتين متواليتين من غير حفظ دور، ليتدارك الثاني ما قصر عنه الأول، وينقي الفضلات التي انصبّت بسببه، والإكثار منه يضر المعدة، ويجعلها قابلة للفضول، ويضر بالأسنان والبصر والسمع، وربما صدّع عرقاً، ويجب أن يجتنبه من به ورم في الحلق، أو ضعف في الصدر، أو دقيق الرقبة، أو مستعد لنفث الدم، أو عسر الإجابة له.

(مضار القهي بعد امتلاء المعدة)

وأما ما يفعله كثير ممن يسيء التدبير، وهو أن يمتلئ من الطعام، ثم يقدِّفه، ففيه آفات عديدة، منها: أنه يُعَجِّلُ الهرم، ويوقع في أمراض رديئة، ويجعل القهي له عادة. والقهي مع اليبوسة، وضعف الأحشاء، وهزال المَرَأَى^(١)، أو ضعف المُسْتَقِيء خطر...

(الفضل أوقاته وكيفية)

وأحمد أوقاته الصيف والربيع دون الشتاء والخريف، وينبغي عند القهي أن يُعَصَّبَ العينين، ويقمط البطن، وَيُفَسَّلَ الوجه بماء بارد عند الفراغ، وأن يشرب عقبه شراب التفاح مع يسير من مُصْطَلَكِي^(٢)، وماء الورد ينفعه نفعاً يَبِيناً.

(الفرق بين القهي والاستفراغ)

والقهي يستفرغ من أعلى المعدة، ويجذب من أسفل، والإسهال بالعكس، قال أبقراط: وينبغي أن يكون الاستفراغ في الصيف من فوق أكثر من الاستفراغ بالدواء، وفي الشتاء من أسفل.

فصل

في هديه ﷺ في الإرشاد إلى معالجة

أحذق الطبيبين

ذكر مالك في «موطئه»: عن زيد بن أسلم، أن رجلاً في زمان رسول الله ﷺ أصابه جُرْحٌ، فاحتقن الجرحُ الدَّمُ، وأن الرجلَ دعا رجلين من بني أنمار، فنظرا إليه فزعا أن رسول الله ﷺ قال لهما: «أَيُّكُمَا أطبُّ؟» فقال: أو في الطب خير يا رسول الله؟ فقال: «أنزل الدواء الذي أنزل الداء» [مالك (٤/٣٢٨)، وهو مرسل].

(ينبغي الاستعانة في)

كل علم وصناعة بأحذق من فيها فالأحذق

ففي هذا الحديث أنه ينبغي الاستعانة في كل علم وصناعة بأحذق من فيها فالأحذق، فإنه إلى الإصابة أقرب.

(١) مراق البطن: ما لان منه.

(٢) المصطلكي ويقال: المصطكاء: شجر له ثمر، يميل طعمه إلى المرارة، ويستخرج منه صمغ يملك.

وهكذا يجب على المُستفتي أن يستعين على ما نزل به بالأعلم فالأعلم، لأنه أقرب إصابة ممن هو دونه.

وكذلك من خفيت عليه القبلية، فإنه يقلد أعلم من يجده، وعلى هذا فطر الله عباده، كما أن المسافر في البر والبحر إنما سكون نفسه، وطمأنينته إلى أحيق الدليلين وأخيرهما، وله يقصِدُ، وعليه يعتَمِدُ، فقد اتفقت على هذا الشريعة والفطرة والعقل.

وقوله ﷺ: «أنزل الدواء الذي أنزل الداء»، قد جاء مثله عنه في أحاديث كثيرة، فمنها ما رواه عمرو بن دينار، عن هلال بن يساف، قال: دخل رسول الله ﷺ على مريض يعوده، فقال: «أزِيلُوا إلى طبيب»، فقال قائل: وأنت تقول ذلك يا رسول الله؟ قال: «نَعَمْ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُنْزِلْ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ دَوَاءً».

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة يرفعه: «ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء»، وقد تقدم هذا الحديث وغيره.

(معنى: «أنزل الداء والدواء»)

واختلف في معنى «أنزل الداء والدواء»، فقالت طائفة: إنزاله إعلاء العباد به، وليس بشيء، فإن النبي ﷺ أخير بعموم الإنزال لكل داء ودوائه، وأكثر الخلق لا يعملون ذلك، ولهذا قال: «عَلِمَهُ مَنْ عِلْمِهِ، وَجَهَلَهُ مَنْ جَهْلِهِ».

وقالت طائفة: إنزالهما: خلقهما ووضعهما في الأرض، كما في الحديث الآخر: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ دَوَاءً»، وهذا وإن كان أقرب من الذي قبله، فلفظة الإنزال أخص من لفظة الخلق والوضع، فلا ينبغي إسقاط خصوصية اللفظة بلا موجب.

وقالت طائفة: إنزالهما بواسطة الملائكة الموكلين بمباشرة الخلق من داء ودواء وغير ذلك، فإن الملائكة موكلة بأمر هذا العالم، وأمر النوع الإنساني من حين سقوطه في رحم أمه إلى حين موته، فإنزال الداء

والدواء مع الملائكة، وهذا أقرب من الوجهين قبله. وقالت طائفة: إن عامة الأدوية والأدوية هي بواسطة إنزال الغيث من السماء الذي تتولد به الأغذية، والأقوات، والأدوية، والأدواء، وآلات ذلك كله، وأسبابه ومكملاته، وما كان منها من المعادن العلوية، فهي تنزل من الجبال، وما كان منها من الأودية والأنهار والثمار، فداخل في اللفظ على طريق التغليب والاكتفاء عن الفعلين بفعل واحد يتضمنهما، وهو معروف من لغة العرب، بل وغيرها من الأمم، كقول الشاعر:

عَلَفْتُهَا تَبْنًا وَمَاءً بَارِدًا
حَتَّى عَدَّتْ هَمَالَةَ عَيْنَاهَا^(١)

وقول الآخر:

وَرَأَيْتُ زَوْجَكَ قَدْ عَنَدَا
مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمْحًا^(٢)

وقول الآخر:

إِذَا مَا الْغَانِيَاتِ بَرَزْنَ يَوْمًا
وَرَجَجْنَ الْخَوَاجِبَ وَالْمُعِينَا^(٣)

وهذا أحسن مما قبله من الوجوه والله أعلم.

(كما ابتلي الله عباده فإنه يبسر لهم ما يضاده)

وهذا من تمام حكمة الرب عز وجل، وتمام ربوبيته، فإنه كما ابتلي عباده بالأدواء، أعانهم عليها بما يسره لهم من الأدوية، وكما ابتلاهم بالذنوب أعانهم عليها بالتوبة، والحسنات الماحية والمصائب المكفرة، وكما ابتلاهم بالأرواح الخبيثة من الشياطين، أعانهم عليها بجند من الأرواح الطيبة، وهم الملائكة، وكما ابتلاهم بالشهوات أعانهم على قضائها بما يسره لهم شرعاً وقدرًا من المشتبهات اللذيذة النافعة، فما ابتلاهم سبحانه بشيء إلا أعطاهم ما يستعينون به على ذلك البلاء، ويدفعونه به، ويبقى التفاوت بينهم في العلم بذلك، والعلم بطريق حصوله والتوصل إليه، وبالله المستعان.

(١) هو لذي الرمة.

(٢) هو لعبد الله بن الزبير.

(٣) هو للراعي النميري في ديوانه ص (١٥٦).

فصل

في هديه ﷺ في تضمين من طب الناس،
وهو جاهل بالطب

روى أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَطَبَّى وَلَمْ يُعَلِّمْ بِهِ الطَّبَّ قَبْلَ ذَلِكَ، فَهُوَ ضَامِنٌ» [حسن: أبو داود: ٤٥٨٦، والنسائي (٥٣/٨)].

هذا الحديث يتعلق به ثلاثة أمور: أمر لغوي، وأمر فقهي، وأمر طبي.

(معنى الطب لغة)

فأما اللغوي: فالطب بكسر الطاء في لغة العرب، يقال: على معان، منها الإصلاح، يقال: طبيته: إذا أصلحته، ويقال: له طب بالأمور، أي: لطف وسياسة. قال الشاعر:

وَإِذَا تَغَيَّرَ مِنْ تَجِيبِ أَمْرُهَا

كُنْتُ الطَّبِيبَ لَهَا بِرَأْيِ ثَاقِبٍ
ومنها: الحذق. قال الجوهري: كل حاذق طبيب عند العرب، قال أبو عبيد: أصل الطب: الحذق بالأشياء والمهارة بها، يقال للرجل: طب وطبيب: إذا كان كذلك، وإن كان في غير علاج المريض. وقال غيره: رجل طبيب: أي حاذق، سمي طبيباً لحذقه وفطنته. قال علقمة:

إِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَلِأَنِّي

خَبِيرٌ بِأَذْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ
إذا شَابَ رَأْسُ الْمَرْءِ أَوْ قَلَّ مَالُهُ
فَلَيْسَ لَهُ مِنْ وَهْنٍ نَصِيبٌ^(١)

وقال عترة:

إِنْ تُعَدِّ فِي دُونِي الْقِنَاعَ فَلِأَنِّي
طَبٌّ بِأَخِذِ الْفَارِسِ الْمُسْتَلْتِمِ^(٢)
أي: إن تُرخي عني قناعك، وتستري وجهك رغبة عني، فإني خبير حاذق بأخذ الفارس الذي قد لبس لامة حربه.
ومنها: العادة، يقال: ليس ذاك بطبي، أي: عادتي، قال فروة بن مسيك^(٣):

فَمَا إِنْ طَبَّنَا جُنُبٌ وَلَكِنْ
مَنَايَانَا ودولة آخرينا

وقال أحمد بن الحسين المتنب:

وَمَا التَّيُّ طَبِّي فِيهِمْ غَيْرَ أَنِّي
بَيِّضُ إِلَى الْجَاهِلِ الْمُتَعَاوِلِ^(٤)
ومنها: السحر؛ يقال: رجل مطبوب، أي: مسحور، وفي «الصحاح» في حديث عائشة لما سحرت يهود رسول الله ﷺ، وجلس الملكان عند رأسه وعند رجله، فقال أحدهما: ما بال الرجل؟ قال الآخر: مَطْبُوبٌ. قال: مَنْ طَبَّهُ؟ قال: فلان اليهودي.

قال أبو عبيد: إنما قالوا للمسحور: مطبوب، لأنهم كنوا بالطب عن السحر، كما كنوا عن اللدغ، فقالوا: سليم تفاولاً بالسلامة، وكما كنوا بالمفازة عن القلاة المهلكة التي لا ماء فيها، فقالوا: مفازة تفاولاً بالفوز من الهلاك. ويقال: الطب لنفس الداء.

قال ابن أبي الأسلت:

أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ حَسَنًا عَنِّي
أَسْخَرُ كَانَ طَبِّكَ أَمْ جُنُونُ

(١) البيت من قصيدته المفضلية الرائعة التي قالها في مدح الحارث بن جبلة بن أبي شمر الغساني، ومطلعها.

طحايبك قلب في الحسان طروبُ بُعيد الشباب عصر حان مشيبُ

وعلقمة بن عبدة شاعر جاهلي فعل مجيد عاصر امرأ القيس الذي بينه وبين الإسلام نحو ثمانين سنة.

(٢) البيت من معلقته.

(٣) هو فروة بن مسيك بن الحارث بن سلمة المرادي القطيفي، وفد على النبي ﷺ سنة تسع أو عشر، وأسلم، ونزل على سعد بن عبادة، وتعلم القرآن، وفرائض الإسلام وشرايعه، وأجازته النبي ﷺ، واستعمله على مراد ومذبح وزيد، وقتل أهل الردة بعد وفاة النبي ﷺ، وبقي إلى خلافة عمر.

(٤) ديوانه (٢٣٧/٣) بشرح البرقوقي.

وأما قول الحماسي:

فَإِنْ كُنْتُ مَطْبُوبًا فَلَا زِلْتُ هُكَذَا

وَأِنْ كُنْتُ مَسْحُورًا فَلَا يَرَى السَّحَرُ^(١)

فإنه أراد بالمطبوب الذي قد سحر، وأراد بالمسحور: العليل بالمرض.

قال الجوهري: ويقال للعليل: مسحور. وأنشد البيت، ومعناه: إن كان هذا الذي قد عراني منك وبين حُبِّكَ أسألُ الله دوامه، ولا أريدُ زواله، سواء كان سحرًا أو مرضًا.

والطب: مثلث الطاء، فالمفتوح الطاء: هو العالم بالأمور، وكذلك الطبيب يقال له: طَب أيضاً. والَطَّبُ: بكسر الطاء: فَعَلَ الطبيب، والَطَّبَ بضم الطاء: اسم موضع، قاله ابن السِّيد، وأنشد:

فَقُلْتُ هَلْ انْتَهَلْتُمْ يَطْبَ رُكَابِكُمْ

يَجَاوِزَةُ الْمَاءِ الَّتِي طَابَ طِينُهَا
وقوله **﴿مَنْ تَطَّبَّ﴾**: ولم يقل: من طب، لأن لفظ التَّطْعَل يدل على تكلف الشيء والدخول فيه بعسر وكُلفه، وأنه ليس من أهله، كتَحَلَّمَ وتشَجَّعَ وتَصَبَّرَ ونظائرها، وكذلك بَنَوُا تَكَلَّفَ على هذا الوزن، قال الشاعر:

وَقَيْسَ عَيْلَانَ وَمَنْ تَقَيَّسَا^(٢)

(إيجاب الضمان على الطبيب الجاهل)

وأما الأمر الشرعي، فإيجابُ الضمان على الطبيب الجاهل، فإذا تعاطى عِلْمَ الطَّب وعمله، ولم يتقدم له به معرفة، فقد هجم بجَهْلِهِ على إتلافِ الأنفس، وأقدم بالتهوُّر على ما لم يعلمه، فيكون قد غَرَّرَ بالعليل، فيلزمه الضمان لذلك، وهذا إجماع من أهل العلم.

قال الخطابي: لا أعلم خلافاً في أن المعالج إذا تعدى، فتلَّفَ المريض كان ضامناً، والمتعاطي علماً أو عملاً لا يعرفه متعد، فإذا تولد من فعله التلف ضمن الدية، وسقط عنه القود، لأنه لا يستبدُّ بذلك بدون إذن المريض وجناية المتطبِّب في قول عامة الفقهاء على عاقلته.

(أقسام الأطباء من جهة إتلاف الأعضاء وذكر القسم الأول)

قلت: الأقسام خمسة: أحدها: طبيب حاذق أعطى الصنعة حقَّها ولم تجن يده، فتولَّد من فعله المأذون فيه من جهة الشارع، ومن جهة من يطبُّه تلفُ العضو أو النفس، أو ذهاب صفة، فهذا لا ضمان عليه اتفاقاً، فإنها سرية مأذون فيه، وهذا كما إذا ختن الصبي في وقت، وسبَّه قابل للختان، وأعطى الصنعة حقَّها، فتلَّفَ العضو أو الصبي، لم يضمن، وكذلك إذا بَطَّ من عاقل أو غيره ما ينبغي بطله في وقته على الوجه الذي ينبغي فتلَّفَ به، لم يضمن، وهكذا سرية كُلِّ مأذون فيه لم يتعد الفاعل في سببها، كسرية الحد بالاتفاق، وسرية القصاص عند الجمهور خلافاً لأبي حنيفة في إيجابه الضمان بها، وسرية التعزير، وضرب الرجل امرأته، والمعلم الصبي، والمستأجر الدابة، خلافاً لأبي حنيفة والشافعي في إيجابهما الضمان في ذلك، واستثنى الشافعي ضرب الدابة.

وقاعدة الباب إجماعاً ونزاعاً: أن سرية الجنابة مضمونة بالاتفاق، وسرية الواجب مُهْدَرَةٌ بالاتفاق، وما بينهما ففيه النزاع، فأبو حنيفة أوجب ضمانه مطلقاً، وأحمد ومالك أهدرا ضمانه، وفرق الشافعي بين المُقَدَّر، فأهدر ضمانه، وبين غير المقدر فأوجب ضمانه، فأبو حنيفة نظر إلى أن الإذن في الفعل إنما وقع مشروطاً بالسلامة، وأحمد ومالك نظرا إلى أن الإذن أسقط الضمان، والشافعي نظر إلى أن المقدر لا يمكن النقصان منه، فهو بمنزلة النص، وأما غير المقدر كالتعزيرات، والتأديبات، فاجتهادية، فإذا تلَّفَ بها، ضمن، لأنه في مَطْنَةِ العُدوان.

فصل

(القسم الثاني)

القسم الثاني: متطبِّب جاهل باشرت يده من يطبه، فتلَّفَ به، فهذا إن علم المعجني عليه أنه جاهل لا عِلْم له، وأذن له في طبه لم يضمن، ولا تُخالف هذه الصورة ظاهر الحديث، فإن السياق وقوة الكلام يدل

(١) البيت في «الحماسة» (١٢٦٧/٣) بشرح المرزوقي.

(٢) الرجز للعجاج.

والمجنون، لم يضمن، ويحتل أن لا يضمن مطلقاً لأنه محسن، وما على المحسنين من سبيل، وأيضاً فإنه إن كان متعدياً، فلا أثر لإذن الولي في إسقاط الضمان، وإن لم يكن متعدياً، فلا وجه لضمانه. فإن قلت: هو متعدي عند عدم الإذن، غير متعدي عند الإذن، قلت: المُدَوَّن وعدمه إنما يرجع إلى فعله هو، فلا أثر للإذن وعدمه فيه، وهذا موضع نظر.

فصل

(انقسام الأطباء المذكورة سابقاً فنقول)

الطب عملاً أو قولاً بإنساناً أو حيواناً واسم كل منهم والطبيب في هذا الحديث يتناول من يطب بوصفه وقوله، وهو الذي يُخَصُّ باسم الطَّبَّاعي، ويمزَّوِّد، وهو الكحال، ويمبَصِّعه ومراهمه وهو الجرائحي، ويمُوساه وهو الخاتين، ويريشته وهو الفاسد، ويمُحاجمه ويمشْرِطُه وهو الحجَّام، ويخْلعه ووَضله ورباطه وهو المجبِّر، ويمكواته وناره وهو الكواء، ويقرِّبه وهو الحاقن، وسواء كان طبه لحيوان بهيم، أو إنسان، فاسمُ الطبيب يطلق لغة على هؤلاء كلهم، كما تقدم، وتخصيصُ الناس له ببعض أنواع الأطباء عرف حادث، كتخصيص لفظ الدابة بما يخصُّها به كُلُّ قوم.

فصل

(ما يراعيه الطبيب الحاذق من الأمور)

والطبيب الحاذق: هو الذي يراعي في علاجه عشرين أمراً: أحدها: النظر في نوع المرض من أي الأمراض هو؟

الثاني: النظر في سببه من أي شيء حدث، والعلة الفاعلة التي كانت سبب حدوثه ما هي؟

الثالث: قوة المريض، وهل هي مقاومة للمرض، أو أضعفت منه؟ فإن كانت مقاومة للمرض، مستظهرة عليه، تركها والمريض، ولم يُحرَّك بالدواء ساكناً.

الرابع: مزاج البدن الطبيعي ما هو؟

الخامس: المزاج الحادث على غير المجري الطبيعي.

السادس: بين المريض.

على أنه غرُّ العليل، وأوهمه أنه طبيب، وليس كذلك، وإن ظنَّ المريض أنه طبيب، وأذن له في طبه لأجل معرفته، ضَمِنَ الطبيب ما جنت يده، وكذلك إن وصف له دواء يستعمله، والعليلُ يظن أنه وصفه لمعرفته وحذقه فتلف به، ضمنه، والحديث ظاهر فيه أو صريح.

فصل

(القسم الثالث)

القسم الثالث: طبيب حاذق، أذن له، وأعطى الصنعة حقها، لكنه أخطأت يده، وتعدت إلى عضو صحيح فأتلفه، مثل: أن سبقت يدُ الخاتن إلى الكَمَرَةِ، فهذا يضمن، لأنها جناية خطأ، ثم إن كانت الثلث فما زاد، فهو على عاقلته، فإن لم تكن عاقلة، فهل تكون الدية في ماله، أو في بيت المال؟ على قولين، هما روايتان عن أحمد. وقيل: إن كان الطبيب ذمياً، ففي ماله، وإن كان مسلماً، ففيه الروايتان، فإن لم يكن بيت مال، أو تعدت تحميلة، فهل تسقط الدية، أو تجب في مال الجاني؟ فيه وجهان أشهرهما: سقوطها.

فصل

(القسم الرابع)

القسم الرابع: الطبيب الحاذق الماهر بصناعته، اجتهد فوصف للمريض دواءً، فأخطأ في اجتهاده، فقتله، فهذا يُخرِّج على روايتين: إحداهما: أن دية المريض في بيت المال. والثانية: أنها على عاقلة الطبيب، وقد نص عليهما الإمام أحمد في خطأ الإمام والحاكم.

فصل

(القسم الخامس)

القسم الخامس: طبيب حاذق، أعطى الصنعة حقها، فقطع سيلعة^(١) من رجل أو صبي، أو مجنون بغير إذنه، أو إذن وليه، أو ختن صبيّاً بغير إذن وليه قَتَلَتْ، فقال أصحابنا: يضمن، لأنه تولد من فعل غير مأذون فيه، وإن أذن له البالغ، أو ولي الصبي

(١) السلعة: زيادة تحدث في البدن كالغدة تتحرك إذا حركت.

السابع: عادته.

الثامن: الوقت الحاضر من فصول السنة وما يليق به.

التاسع: بلد المريض وتربيته.

العاشر: حال الهواء في وقت المرض.

الحادي عشر: النظر في الدواء المضاد لتلك العلة.

الثاني عشر: النظر في قوة الدواء ودرجته، والموازنة بينها وبين قوة المريض.

(أن يكون قصده إزالة العلة)

على وجه يامن معه حدوث أصعب منها)

الثالث عشر: ألا يكون كل قصده إزالة تلك العلة فقط، بل إزالتها على وجه يامن معه حدوث أصعب منها، فمتى كان إزالتها لا يامن معها حدوث علة أخرى أصعب منها، أبقاها على حالها، وتلطيفها هو الواجب، وهذا كمرض أفواه العروق، فإنه متى عُولج بقطعه وحسبه خيف حدوث ما هو أصعب منه.

(أن يعالج بالأسهل فالأسهل)

الرابع عشر: أن يعالج بالأسهل فالأسهل، فلا ينتقل من العلاج بالغذاء إلى الدواء إلا عند تعذره، ولا ينتقل إلى الدواء المركب إلا عند تعذر الدواء البسيط، فمن حذق علاجه بالأغذية بدل الأدوية، وبالأدوية البسيطة بدل المركبة.

الخامس عشر: أن ينظر في العلة، هل هي مما يمكن علاجها أو لا؟ فإن لم يمكن علاجها، حفظ صناعته وحرمته، ولا يحولها الطمع على علاج لا يفيد شيئاً. وإن أمكن علاجها، نظر هل يمكن زوالها أم لا؟ فإن علم أنه لا يمكن زوالها، نظر هل يمكن تخفيفها وتقليلها أم لا؟ فإن لم يكن تقليلها، ورأى أن غاية الإمكان إيقافها وقطع زيادتها، قصد بالعلاج ذلك، وأعان القوة، وأضعف المادة.

السادس عشر: ألا يتعرض للخلط قبل نُضجه باستفراغ، بل يقصد إنضاجه، فإذا تم إلى استفراغه.

(أن يكون له خبرة باعتلال القلوب)

السابع عشر: أن يكون له خبرة باعتلال القلوب والأرواح وأدويتها، وذلك أصل عظيم في علاج الأبدان، فإن انفعال البدن وطبيعته عن النفس والقلب أمر مشهود، والطبيب إذا كان عارفاً بأمراض القلب والروح وعلاجهما، كان هو الطبيب الكامل، والذي لا خيرة له بذلك وإن كان حاذقاً في علاج الطبيعة وأحوال البدن نصف طبيب. وكل طبيب لا يداوي العليل، يتفقد قلبه وصلاحه، وتقوية روحه وقواه بالصدقة، وفعل الخير، والإحسان، والإقبال على الله والدار الآخرة، فليس بطبيب، بل متطبب قاصر. ومن أعظم علاجات المرض فعل الخير والإحسان والذكر والدعاء، والتضرع والابتهاج إلى الله، والتوبة، ولهذه الأمور تأثير في دفع العلل، وحصول الشفاء أعظم من الأدوية الطبيعية، ولكن بحسب استعداد النفس وقبولها وعقيدتها في ذلك ونفعه.

الثامن عشر: التلطف بالمريض، والرفق به، كالتلطف بالصبي.

التاسع عشر: أن يستعمل أنواع العلاجات الطبيعية والإلهية، والعلاج بالتخييل، فإن لحذاق الأطباء في التخييل أموراً عجيبة لا يصل إليها الدواء، فالطبيب الحاذق يستعين على المرض بكل معين.

العشرون: - وهو ملاك أمر الطبيب -، أن يجعل علاجه وتدبيره دائراً على ستة أركان: حفظ الصحة الموجودة، ورد الصحة المفقودة بحسب الإمكان، وإزالة العلة أو تقليلها بحسب الإمكان، واحتمال أدنى المفسدتين لإزالة أعظمهما، وتفويت أدنى المصلحتين لتحصيل أعظمهما، فعلى هذه الأصول الستة مدار العلاج، وكل طبيب لا تكون هذه أحيته^(١) التي يرجع إليها، فليس بطبيب، والله أعلم.

فصل

(مراعاة الطبيب لأحوال المرض)

ولما كان للمرض أربعة أحوال: ابتداء، وصعود،

(١) الأخية بزنة أيّة: الحرمة والذمة، وعود وعروة تشد بها الدابة مثنية في الأرض.

وانتهاء، وانحطاط، تعين على الطبيب مراعاة كل حال من أحوال المرض بما يُناسبها ويليق بها، ويستعمل في كل حال ما يجب استعماله فيها، فإذا رأى في ابتداء المرض أن الطبيعة محتاجة إلى ما يُحرك الفضلات ويستفرغها لنضجها، بادر إليه، فإن فاته تحريك الطبيعة في ابتداء المرض لعائق منع من ذلك، أو ليضعف القوة وعدم احتمالها للاستفراغ، أو لبرودة الفصل، أو لتعطيل وقع، فينبغي أن يَحذَرَ كُلَّ الحَذَرِ أن يفعل ذلك في صعود المرض، لأنه إن فعله، تحيرت الطبيعة لاشتغالها بالدواء، وتخلت عن تدبير المرض ومقاومته بالكلية، ومثاله: أن يجيء إلى فارس مشغول بمواقعة عدوه، فيشغله عنه بأمر آخر، ولكن الواجب في هذه الحال أن يعين الطبيعة على حفظ القوة ما أمكنه.

فإذا انتهى المرض ووقف وسكن، أخذ في استفراغه، واستنصال أسبابه، فإذا أخذ في الانحطاط، كان أولى بذلك. ومثال هذا مثال العدو إذا انتهت قوته، وفرغ سلاحه، كان أخذه سهلاً، فإذا ولَّى وأخذ في الهرب، كان أسهل أخذاً، وجِدته وشوكته إنما هي في ابتدائه، وحال استفراغه، وسعة قوته، فهكذا الداء، والدواء سواء.

فصل

(من خلق الطبيب التدبير بالسهل)

وَمِنْ جَدَقَ الطَّبِيبُ أَنَّهُ حَيْثُ امْكُنَ التَّدْبِيرُ بِالْأَسْهَلِ، فَلَا يَغْدِلُ إِلَى الْأَصْعَبِ، وَيَتَدَرَّجُ مِنَ الْأَضْعَفِ إِلَى الْأَقْوَى إِلَّا أَنْ يَخَافَ فَوْتَ الْقُوَّةِ حَيْثُ، فَيَجِبُ أَنْ يَتَدَيَّ بِالْأَقْوَى، وَلَا يَقِيمَ فِي الْمَعَالِجَةِ عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ فَتَأَلَّفَهَا الطَّبِيعَةُ، وَيَقِلَّ انْفِعَالُهَا عَنْهُ، وَلَا تَجَسَّرَ عَلَى الْأَدْوِيَةِ الْقَوِيَّةِ فِي الْفَصُولِ الْقَوِيَّةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ إِذَا امْكُنَ الْعِلَاجُ بِالْغِذَاءِ، فَلَا يُعَالَجُ بِالدَّوَاءِ، وَإِذَا أَشْكَلَ عَلَيْهِ الْمَرَضُ أَحَارًا هُوَ أَمُّ بَارِدٍ؟ فَلَا يَقْدَمُ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ، وَلَا يُجَرَّبُ بِمَا يَخَافُ عَاقِبَتَهُ، وَلَا بِأَسْ بَتَجَرِبَتِهِ بِمَا لَا يَضُرُّ أَثَرَهُ.

(ما يفعله الطبيب إذا اجتمعت أمراض)

وإذا اجتمعت أمراض، بدأ بما تخصه واحدة من ثلاث خصال: إحداها: أن يكون بُره الآخر موقوفاً على بُره كالورم والقرحة، فإنه يبدأ بالورم.

الثانية: أن يكون أحدهما سبباً للآخر، كالسدة والحصى العفنة، فإنه يبدأ بإزالة السبب.

الثالثة: أن يكون أحدهما أهم من الآخر، كالحاد والمزمن، فيبدأ بالحاد، ومع هذا فلا يغفل عن الآخر. وإذا اجتمع المرض والعرض، بدأ بالمرض، إلا أن يكون العرض أقوى كالقولنج^(١)، فيُسكن الوجع أولاً، ثم يُعالج السدة، وإذا أمكنه أن يعتاض عن المعالجة بالاستفراغ بالجوع أو الصوم أو النوم، لم يستفرغه، وكُلَّ صحة أراد حفظها، حفظها بالمثل أو الشبه، وإن أراد نقلها إلى ما هو أفضل منها، نقلها بالضد.

فصل

في هديه ﷺ في التحرز من الأدوية

المعدية بطبعها وإرشاده الأصحاء

إلى مجانبة أهلها

ثبت في «صحيح مسلم» من حديث جابر بن عبد الله، أنه كان في وَفْدٍ ثَقِيفٍ رَجُلٌ مَجْذُومٌ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ: «ارْجِعْ فَقَدْ بَايَعْنَاكَ» [مسلم: ٥٨٢٢].

وروى البخاري في «صحيحه» تعليقاً من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «فِرٌّ مِنَ الْمَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الْأَسَدِ» [البخاري: ٥٧٠٧].

وفي «سنن ابن ماجه» من حديث ابن عباس، أن النبي ﷺ قال: «لَا تُدْبِئُوا النَّظَرَ إِلَى الْمَجْذُومِينَ» [صحيح: أحمد: ٢٠٧٢، وابن ماجه: ٣٥٤٣].

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يُورَدَنَّ مَرِيضٌ عَلَى مُصِحٍّ» [البخاري: ٥٧٧٤، ومسلم: ٥٧٩١].

(١) القولنج: مرض معوي مؤلم يصبر معه خروج الفضل والريح.

(ما هو الجذام)

وَيُذَكَّرُ عَنْهُ ﷺ: «كَلَّمَ الْمَجْذُومَ، وَبَيَّنَّ قَيْدَ رُمُحٍ أَوْ رُمَحِينَ» [عبد الله بن الإمام أحمد: ٥٨١، وفي سننه ضعیف]. الجذام: علة رديئة تحدث من انتشار الجرّة السوداء في البدن كله، فيفسد مزاج الأعضاء وهيئتها وشكلها، وربما فسد في آخره اتصالها حتى تتأكّل الأعضاء وتسقط، ويُسمى داء الأسد^(١).

(سبب تسمية الجذام بداء الأسد)

وفي هذه التسمية ثلاثة أقوال للأطباء: أحدها: أنها لكثرة ما تعتري الأسد. والثاني: لأن هذه العلة تُجهّم وجه صاحبها وتجعله في سحنة الأسد. والثالث: أنه يفترس من يقربه، أو يذنو منه بدائه افتراس الأسد.

(علة الابتعاد عن المجذوم والمسلول)

وهذه العلة عند الأطباء من العلل المعدية المتوارثة، ومقارب المجذوم، وصاحب السل يسقم برائحته، فالنبي ﷺ لإكمال شفقتة على الأمة، ونصحه لهم نهامهم عن الأسباب التي تعرضهم لوصول العيب والفساد إلى أجسامهم وقلوبهم، ولا ريب أنه قد يكون في البدن تهوؤ واستعداد كامن لقبول هذا الداء، وقد تكون الطبيعة سريعة الانفعال قابلة للاكتساب من أبدان من تجاوره وتخالطه، فإنها نقالة، وقد يكون خوفها من ذلك وهماً من أكبر أسباب إصابة تلك العلة لها، فإن الوهم فعّال مستولٍ على القوى والطبائع، وقد تصل رائحة العليل إلى الصحيح فتسقمه، وهذا معانٍ في بعض الأمراض، والرائحة أحد أسباب العدوى، ومع هذا كله فلا بد من وجود استعداد البدن وقبوله لذلك الداء، وقد تزوّج النبي ﷺ امرأة، فلما أراد الدخول بها، وجد بكشعها بياضاً، فقال: «الحَقِّي بِأَهْلِيكَ» [أحمد: ١٦٠٣٢، وفي سننه ضعیف].

(التوفيق بين الأحاديث)

السابقة وبين نفى العدوى والأكل مع المجذوم)

وقد ظن طائفة من الناس أن هذه الأحاديث

معارضة بأحاديث آخر تُبطلها وتناقضها، فمنها: ما رواه الترمذي، من حديث جابر [أبو داود: ٣٩٢٥، والترمذي: ١٨١٨، وفي سننه ضعیف]، أن رسول الله ﷺ أخذ بيد رجل مجذوم، فأدخلها معه في القُصْعَةِ، وقال: «كُلْ بِسْمِ اللَّهِ يَتَقَّ بِاللَّهِ، وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ»، ورواه ابن ماجه.

وبما ثبت في «الصحيح»، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا عَدُوَّ وَلَا طِيْرَةَ».

ونحن نقول: لا تعارض بحمد الله بين أحاديثه الصحيحة، فإذا وقع التعارض، فلما أن يكون أحد الحديثين ليس من كلامه ﷺ وقد غلّط فيه بعض الرواة مع كونه ثقة ثبناً، فالثقة يغلط، أو يكون أحد الحديثين ناسخاً للآخر إذا كان مما يقبل النسخ، أو يكون التعارض في فهم السامع، لا في نفس كلامه ﷺ، فلا بد من وجه من هذه الوجوه الثلاثة.

وأما حديثان صحيحان صريحان متناقضان من كل وجه، ليس أحدهما ناسخاً للآخر، فهذا لا يوجد أصلاً، ومعاذ الله أن يوجد في كلام الصادق المصدق الذي لا يخرج من بين شفتيه إلا الحق، والآفة من التقصير في معرفة المنقول، والتمييز بين صحيحه ومعلوله، أو من القصور في فهم مراده ﷺ، وحمل كلامه على غير ما عناه به، أو منهما معاً، ومن ههنا وقع من الاختلاف والفساد ما وقع، وبالله التوفيق.

(التوفيق بينهما من كلام ابن قتيبة)

قال ابن قتيبة في كتاب «اختلاف الحديث» له حكاية عن أعداء الحديث وأهله، قالوا: حديثان متناقضان رويتم عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا عَدُوَّ وَلَا طِيْرَةَ». وقيل له: إن الثقبَةَ تقع بمشفر البعير، فيجرب لذلك الإبل. قال: «فما أعدى الأول» [صحيح: أحمد: ٨٣٤٣]، ثم رويتم «لَا يُورَدُ ذُو عَاهَةٍ عَلَى مُصْحٍ، وَفَرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ فَرَارُكَ مِنَ الْأَسَدِ»، وأتاه رجل مجذوم ليبياعه بيعة الإسلام، فأرسل إليه البيعة، وأمره بالانصراف، ولم يأذن له، وقال: «الشوم في المرأة

(١) قال الدكتور الأزهري: هذا المرض سمي بداء الأسد، لأنه يحول وجه المريض بما يجعله يشبه الأسد.

والدار والدابة»^(١) [البخاري: ٥٠٩٣، ومسلم: ٥٨٠٤].
قَالُوا: وهذا كُلُّهُ مُخْتَلِفٌ لَا يُشَبِّهُ بَعْضُهُ بَعْضًا.

قال أبو محمد: ونحن نقول: إنه ليس في هذا اختلاف، ولكل معنى منها وقتٌ وموضع، فإذا وضع موضعه زال الاختلاف.

والعدوى جنسان: أحدهما: عدوى الجُذام، فإن المجذوم تشتت رائحته حتى يُسَقِّمَ من أطال مجالسته ومحادثته، وكذلك المرأة تكون تحت المجذوم، فتضاجعه في شعار واحد، فيوصل إليها الأذى، وربما جُذِمَتْ، وكذلك ولدُه يَتَزَعَّجُونَ في الكبر إليه، وكذلك من كان به سِلٌّ وَدِقٌّ وَنَقَبٌ. والأطباء تأمر أن لا يجالس المسلول ولا المجذوم، ولا يُريدون بذلك معنى العدوى، وإنما يُريدون به معنى تغير الرائحة، وأنها قد تُسَقِّمُ من أطال اشتماها، والأطباء أبعدُ الناس عن الإيمان بِيَمْنٍ وَشُومٍ، وكذلك الثَّقبَةُ تكون بالبعير - وهو جَرَبٌ رطب - فإذا خالط الإبل أو حائِثُهَا، وأوى في مباركها، وصل إليها بالماء الذي يسيل منه، وبالنظف نحو ما به، فهذا هو المعنى الذي قال فيه النبي ﷺ: «لَا يَرُدُّ دُوْءُ عَاهَةٍ عَلَى مُصِحٍّ»، كره أن يُخالط المعبوه الصحيح، لئلا يناله مِنْ نَقْطَةٍ وَجِثَّتْهُ نَحْوُ مَا بِهِ.

قال: وأما الجنس الآخر من العدوى، فهو الطاعون يُنزَلُ بِلِدٍ، فيخرج منه خوف العدوى، وقد قال ﷺ: «إِذَا وَقَعَ بِبَلَدٍ، وَأَنْتُمْ بِهِ، فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهُ، وَإِذَا كَانَ بِبَلَدٍ، فَلَا تَدْخُلُوهُ». يريد بقوله: لا تخرجوا من البلد إذا كان فيه كأنكم تظنون أن الفرار من قدر الله يُنجيكم من الله، ويُريد إذا كان بِلِدٍ، فلا تدخلوه، أي: مقامكم في الموضع الذي لا طاعون فيه أسكن لقلوبكم، وأطيب لعيشكم، وبين ذلك المرأة تُعرف بالشوم أو الدار، فينال الرجل مكروه أو جائحة، فيقول: أعدتني بشومها، فهذا هو العدوى الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «لَا عَذْوَى» [تأويل مختلف الحديث] (١٠٢-١٠٤).

وقالت فرقة أخرى: بل الأمر باجتناِبِ المجذوم

والفرار منه على الاستحباب، والاختيار، والإرشاد، وأما الأكل معه، ففعله لبيان الجواز، وأن هذا ليس بحرام.

وقالت فرقة أخرى: بل الخطابُ بهذين الخطابين جزئي لا كلي، فكل واحد خاطبه النبي ﷺ بما يليق بحاله، فبعضُ الناس يكون قوي الإيمان، قوي التوكل تدفع قوة توكله قوة العدوى، كما تدفع قوة الطبيعة قوة الجلة فيطبلها، وبعضُ الناس لا يقوى على ذلك، فخاطبه بالاحتياط والأخذ بالتحفظ، وكذلك هو ﷺ فعل الحالتين معاً، لتتدبى به الأمة فيهما، فيأخذ من قوي من أمته بطريقة التوكل والقوة والثقة بالله، ويأخذ مَنْ ضعف منهم بطريقة التحفظ والاحتياط، وهما طريقتان صحيحتان، أحدهما للمؤمن القوي، والآخر للمؤمن الضعيف، فتكون لكل واحد من الطائفتين حُجة وقُدوة بحسب حالهم وما يناسبهم، وهذا كما أنه ﷺ كوى، وأثنى على تارك الكي، وقرن تركه بالتوكل، وترك الطيرة، ولهذا نظائر كثيرة، وهذه طريقة لطيفة حسنة جداً من أعطاها حقها، ورزق فقه نفسه فيها، أزالته عنه تعاضاً كثيراً يظنه بالسنة الصحيحة.

وذهبت فرقة أخرى إلى أن الأمر بالفرار منه، ومجانبته لأمر طبيعي، وهو انتقالُ الداء منه بواسطة الملامسة والمخالطة والرائحة إلى الصحيح، وهذا يكون مع تكرير المخالطة واللامسة له، وأما أكله معه مقداراً يسيراً من الزمان لمصلحة راجحة، فلا بأس به، ولا تحصل العدوى من مرّة واحدة ولحظة واحدة، فنهى سداً للذريعة، وجمامية للصحة، وخالطه مخالطة ما للحاجة والمصلحة، فلا تعارض بين الأمرين.

وقالت طائفة أخرى: يجوز أن يكون هذا المجذوم الذي أكل معه به من الجُذام أمر يسير لا يُعدي مثله، وليس الجذمي كُلُّهُم سواء، ولا العدوى حاصلة من جميعهم، بل منهم من لا تضر مخالطته، ولا يُعدي، وهو من أصابه من ذلك شيء يسير، ثم

(١) وقال عبد الرزاق في «مصنفه» عن معمر: سمعت من يفسر هذا الحديث يقول: شوم المرأة: إذا كانت غير ولود، وشوم الفرس: إذا لم يفز عليه، وشوم الدار: جار السوء، وانظر «فتح الباري» (٦/٤٥، ٤٨).

وقف واستمر على حاله، ولم يُغلب بقية جسمه، فهو أن لا يعدّي غيره أولى وأحرى.

وقالت فرقة أخرى: إن الجاهلية كانت تعتقد أن الأمراض المعدية تُعدي بطبعها من غير إضافة إلى الله سبحانه، فأبطل النبي ﷺ اعتقادهم ذلك، وأكل مع المجذوم ليبين لهم أن الله سبحانه هو الذي يُمرض ويُشفي، ونهى عن القرب منه ليتبين لهم أن هذا من الأسباب التي جعلها الله مُفضية إلى مسيبتها، ففي نهيه إثبات الأسباب، وفي فعله بيان أنها لا تستقل بشيء، بل الرب سبحانه إن شاء سلبها قواها، فلا تؤثر شيئاً، وإن شاء أبقي عليها قواها فأثرت.

وقالت فرقة أخرى: بل هذه الأحاديث فيها الناسخ والمنسوخ، فينظر في تاريخها، فإن علم المتأخر منها، حكم بأنه الناسخ، وإلا توقفت فيها.

وقالت فرقة أخرى: بل بعضها محفوظ، وبعضها غير محفوظ، وتكلمت في حديث «لا عدوى»، وقالت: قد كان أبو هريرة يرويه أولاً، ثم شك فيه فتركه، وراجعوه فيه، وقالوا: سمعناك تُحدث به، فأبى أن يُحدث به.

قال أبو سلمة: فلا أدري، أنسي أبو هريرة، أم نسخ أحد الحديثين الآخر؟

وأما حديث جابر: أن النبي ﷺ أخذ بيد مجذوم، فأدخلها معه في القصعة، فحديث لا يثبت ولا يصح، وغاية ما قال فيه الترمذي: إنه غريب، لم يصححه ولم يحسنه. وقد قال شعبة وغيره: اتقوا هذه الغرائب. قال الترمذي: ويروى هذا من فعل عمر، وهو أثبت، فهذا شأن هذين الحديثين اللذين غورض بهما أحاديث النهي، أحدهما: رجع أبو هريرة عن التحديث به وأنكره، والثاني: لا يصح عن رسول الله ﷺ، والله أعلم، وقد أشبعنا الكلام في هذه المسألة في كتاب «المفتاح»^(١) بأطول من هذا، وبالله التوفيق.

فصل

في هديه ﷺ في المنع من التداوي بالمحرمات

روى أبو داود في «سننه» من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ وَالذَّوَاءَ، وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً، فَتَدَاوُوا، وَلَا تَدَاوُوا بِالْمَحْرَمِ» [أبو داود: ٣٨٧٤].

وذكر البخاري في «صحيحه» عن ابن مسعود: إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم [البخاري: ٥٦٨٢].

وفي «السنن»: عن أبي هريرة، قال: نهى رسول الله ﷺ عَنِ الدَّوَاءِ الْحَبِيثِ [صحيح: أحمد: ٩٧٥٦، وأبو داود: ٣٨٧٠، والترمذي: ٢٠٤٦، وابن ماجه: ٣٤٥٩].

وفي «صحيح مسلم» عن طارق بن سويد الجعفي، أنه سأل النبي ﷺ عن الخمر، فنهاه، أو كرهه أن يصنعها، فقال: إنما أصنعها للدواء، فقال: «إِنَّهُ لَيْسَ بِدَوَاءٍ، وَلَكِنَّهُ دَاءٌ» [مسلم: ٥١٤١].

وفي «السنن» أنه ﷺ سئل عن الخمر يُجعل في الدواء، فقال: «إِنَّهَا دَاءٌ وَلَيْسَتْ بِالدَّوَاءِ»، رواه أبو داود، والترمذي [أبو داود: ٣٨٧٣، والترمذي: ٢٠٤٧].

وفي «صحيح مسلم» عن طارق بن سويد الحضرمي، قال: قلت: يا رسول الله! إن بأرضنا أعناباً نعصرها فنشرب منها، قال: «لَا» فراجعته، قلت: إنا نستشفى للمريض، قال: «إِنْ ذَلِكَ لَيْسَ بِشِفَاءٍ وَلَكِنَّهُ دَاءٌ» [ليس في مسلم، وإنما أخرجه أحمد: ١٨٧٨٧، وابن ماجه: ٣٥٠٠].

وفي «سنن النسائي» أن طبيباً ذكر فيدعاً في دواء عند رسول الله ﷺ، فنهاه عن قتلها [صحيح: أحمد: ١٥٧٥٧، والنسائي (٢١٠/٧)].

ويذكر عنه ﷺ أنه قال: «مَنْ تَدَاوَى بِالْحَمْرِ، فَلَا شِفَاءَ لَهُ»^(٢).

(١) أي «مفتاح دار السعادة» الجزء الثاني (٢٦٤، ٢٧٣).

(٢) أورده السيوطي في «الجامع الصغير» بلفظ «من تداوى بحرام كخمر، لم يجل الله له فيه شفاء» ونسبه إلى أبي نعيم في «الطب» من حديث أبي هريرة، ورمز له بالضعف.

(بيان فبح المعالجة بالمحرمات عقلاً)

المعالجة بالمحرمات قبيحة عقلاً وشرعاً، أما الشرع فما ذكرنا من هذه الأحاديث وغيرها، وأما العقل، فهو أن الله سبحانه إنما حرّمه لحبسه، فإنه لم يُحرّم على هذه الأمة طيباً عقوبة لها، كما حرّمه على بني إسرائيل بقوله: ﴿فَقُلْ لِلَّهِ الْكَذِبُ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ كَلْبَتُهُ أَجَلَتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]؛ وإنما حرم على هذه الأمة ما حرّم لحبسه، وتحريمه له جِمية لهم، وصيانة عن تناوله، فلا يُنابِئُ أن يطلب به الشفاء من الأسقام والعلل، فإنه وإن أثر في إزالتها، لكنه يُعَقِّبُ سَقَمًا أعظم منه في القلب بقوة الخَبْث الذي فيه، فيكون المُدَاوَى بِهِ قد سعى في إزالة سَقَمِ البدن بسَقَمِ القلب.

وأيضاً فإن تحريمه يقتضي تجنّبه والبعّد عنه بكلّ طريق، وفي اتخاذه دواء حضّ على التّرجيب فيه وملابسته، وهذا ضدّ مقصود الشارع، وأيضاً فإنه داء كما نصّ عليه صاحب الشريعة، فلا يجوز أن يتخذ دواء.

وأيضاً فإنه يُكْسِبُ الطّبيعة والروح صفة الخبث، لأن الطّبيعة تتفعل عن كيفة الدواء انفعالاً بيناً، فإذا كانت كيفة خبيثة، اكتسبت الطّبيعة منه خبثاً، فكيف إذا كان خبيثاً في ذاته، ولهذا حرّم الله سبحانه على عباده الأغذية والأشربة والملابس الخبيثة، لما تكسب النفس من هيئة الخبث وصفته.

(التدوي به ذريعة إلى تعاطيه)

وأيضاً فإن في إباحة التدوي به، ولا سيما إذا كانت النفوس تميل إليه ذريعة إلى تناوله للشهوة واللذة، لا سيما إذا عرفت النفوس أنه نافع لها مزيل لأسقامها جالب لإشفاها، فهذا أحبّ شيء إليها، والشارع سدّ الذريعة إلى تناوله بكلّ ممكن، ولا ريب أن بين سدّ الذريعة إلى تناوله، وفتح الذريعة إلى تناوله تناقضاً وتعارضاً.

وأيضاً فإن في هذا الدواء المحرم من الأدوية ما يزيد على ما يُظن فيه من الشفاء، ولنفرض الكلام في أمّ الخبائث التي ما جعل الله لنا فيها شفاءً قطّ، فإنها شديدة المضرة بالدماغ الذي هو مركز العقل عند الأطباء، وكثير من الفقهاء والمتكلمين. قال أبقراط

في أثناء كلامه في الأمراض الحادة: ضرر الخمرة بالرأس شديد، لأنه يُسرّع الارتفَاع إليه، ويرتفع بارتفاعه الأخلط التي تعلق في البدن، وهو كذلك يضر بالذهن.

وقال صاحب «الكامل»: إن خاصية الشراب الإضرار بالدماغ والعصب.

وأما غيره من الأدوية المحرمة فتوعان:

أحدهما: تعاقفه النفس ولا تنبث لمساعدته الطّبيعة على دفع المرض به كالسموم، ولحوم الأفاعي وغيرها من المستقذرات، فيبقى كلاً على الطّبيعة مثقلاً لها، فيصير حيثذاء لا دواء.

والثاني: ما لا تعاقفه النفس كالشراب الذي تستعمله الحوامل مثلاً، فهذا ضرره أكثر من نفعه، والعقل يقضي بتحريم ذلك، فالعقل والفطرة مطابق للشرع في ذلك.

وهنا سر لطيف في كون المحرمات لا يُستشفى بها، فإن شرط الشفاء بالدواء تلقّيه بالقبول، واعتقاد منفعته، وما جعل الله فيه من بركة الشفاء، فإن النافع هو المبارك، وأنفع الأشياء أبركها، والمبارك من الناس أينما كان هو الذي ينتفع به حيث حلّ، ومعلوم أن اعتقاد المسلم تحريم هذه العين يحول بينه وبين اعتقاد بركتها ومنفعتها، وبين حسن ظنه بها، وتلقي طبعه لها بالقبول، بل كلما كان العبد أعظم إيماناً، كان أكره لها وأسوأ اعتقاداً فيها، وطبعه أكره شيء لها، فإذا تناولها في هذه الحال، كانت داء له لا دواء إلا أن يزول اعتقاد الخبث فيها، وسوء الظن والكراهة لها بالمحبة، وهذا يُنافي الإيمان، فلا يتناولها المؤمن قطّ إلا على وجه داء، والله أعلم.

فصل

في هديه ﷺ في علاج القمل الذي

في الرأس وإزالته

في «الصحيحين» عن كعب بن عُجرة، قال: كان بي أذى من رأسي، فحملتُ إلى رسول الله ﷺ والقمل يتناثر على وجهي، فقال: «مَا كُنْتُ أَرَى الْجَهْدَ قَدْ بَلَغَ بِكَ مَا أَرَى»، وفي رواية: فأمره أن يخلّق رأسه، وأن يطعمَ قرعاً بينَ سِنَتَيْهِ، أو يُهدي شاة،

أَوْ يَصُومُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ [بخاري: ١٨١٤، ومسلم: ٢٨٧٧].

القمل يتولد في الرأس والبدن من شيتين: خارج عن البدن وداخل فيه، فالخارج: الوسخ والدنس المتراكم في سطح الجسد، والثاني من خلط رديء عفن تدفعه الطبيعة بين الجلد واللحم، فيتعفن بالرطوبة الدعوية في البشرة بعد خروجها من المسام، فيكون منه القمل، وأكثر ما يكون ذلك بعد العلل والأسقام، وبسبب الأوساخ، وإنما كان في رؤوس الصبيان أكثر لكثرة رطوباتهم وتعاطيهم الأسباب التي تولد القمل، ولذلك حلق النبي ﷺ رؤوس بني جعفر.

(علاجه بالحلق ثم بالطلي بالدوية)

ومن أكبر علاجه حلق الرأس لئتنفتح مسام الأبخرة، فتتصاعد الأبخرة الرديئة، فتضعف مادة الخلط، وينبغي أن يطلى الرأس بعد ذلك بالأدوية التي تقتل القمل، وتمنع تولده.

(أنواع حلق الرأس)

وحلق الرأس ثلاثة أنواع: أحدها: نسك وقربة. والثاني: بدعة وشرك، والثالث: حاجة ودواء، فالأول: الحلق في أحد التُسكين، الحج أو العمرة. والثاني: حلق الرأس لغير الله سبحانه، كما يحلقها المريدون لشيوعهم، فيقول أحدهم: أنا حلقْتُ رأسي لفلان، وأنت حلقته لفلان، وهذا بمنزلة أن يقول: سجدتُ لفلان، فإن حلق الرأس خضوعٌ وعبودية ودُل، ولهذا كان من تمام الحج، حتى إنه عند الشافعي ركن من أركانه لا يَتِمُّ إلَّا به، فإنه وضعُ النواصي بين يدي ربهَا خضوعاً لعظمته، وتذللًا لِعِزِّته، وهو من أبلغ أنواع العبودية، ولهذا كانت العرب إذا أرادت إذلالَ الأسير منهم وعِيقَه، حلقوا رأسه وأطلقوه، فجاء شيوخ الضلال، والمزاجمون للربوبية الذين أساسُ مشيختهم على الشرك والبدعة، فأرادوا من مريديهم أن يتعبّدوا لهم، فزَيَّنوا لهم حلق رؤوسهم لهم، كما زَيَّنوا لهم السجود لهم، وسمّوه

بغير اسمه، وقالوا: هو وضعُ الرأس بين يدي الشيخ، ولعمرك الله إن السجود لله هو وضعُ الرأس بين يديه سبحانه، وزَيَّنوا لهم أن يَنذَرُوا لهم، ويتوبُوا لهم، ويحلفُوا بأسمائهم، وهذا هو اتخاذهم أرباباً وآلهة مِن دُونِ الله، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يَقُولَ اللَّهُ اكْتُبْ وَآلَكُمْ وَالشَّيْءُ ثُمَّ يَقُولَ لِلشَّيْءِ كُتُبَا عِبَادًا لِي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُتُبُوا رَبِّئِنَّكُمْ مِمَّا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الْكَتَبَ وَمِمَّا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْكُفَّةِ وَالْيَتِيمَ أَتْرَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠].

(التحذير من الركوع والانحناء لغير الله)

وكذا القيام على رؤوس الأكابر وهم جلوس)

وأشرف العبودية عبودية الصلاة، وقد تقاسمها الشيوخ والمتشبهون بالعلماء والجبابرة، فأخذ الشيوخ منها أشرف ما فيها، وهو السجود، وأخذ المتشبهون بالعلماء منها الركوع، فإذا لقي بعضهم بعضاً ركع له كما يركع المصلي لربه سواء، وأخذ الجبابرة منهم القيام، فيقوم الأحرار والعبيد على رؤوسهم عبودية لهم، وهم جلوس، وقد نهى رسول الله ﷺ عن هذه الأمور الثلاثة على التفصيل، فتعاطيها مخالفة صريحة له، فنهى عن السجود لغير الله وقال: «لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ». وأنكر على معاذ لما سجد له وقال: «مه»^(١). وتحريم هذا معلوم من دينه بالضرورة، وتجوزُ مَنْ جَوَّزَ لغير الله مُرَاعَمَةً لله ورسوله، وهو من أبلغ أنواع العبودية، فإذا جَوَّزَ هذا المشرك هذا النوع للبشر، فقد جَوَّزَ العبودية لغير الله، وقد صح أنه قيل له: الرَّجُلُ يَلْقَى أَخَاهُ أَيْنَحْنِي له؟ قال: «لا». قيل: أَيْلَتَزِمُهُ وَيُقْبِلُهُ قال: «لا». قيل: أَيْصَافِحُهُ؟ قال: «نعم» [حسن: أحمد: ١٣٠٤٤، والترمذي: ٢٧٢٩، وابن ماجه: ٣٧٠٢].

(١) أحمد (١٩٤٠٣)، وابن ماجه (١٨٥٣) من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال: قدم معاذ اليمن أو قال الشام فرأى النصارى تسجد لبطارتها وأساقفتها، فرؤى في نفسه أن رسول الله ﷺ أحق أن يعظم، فلما قدم قال: يا رسول الله رأيت النصارى تسجد لبطارتها وأساقفتها، فروأت في نفسي أنك أحق أن تعظم، فقال: «لو كنت أمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» وسنده حسن، وصححه ابن حبان (١٣٩٠).

(أمره ﷺ أصحابه إذا صلى جالساً)

ان يصلوا جلوساً لئلا يقوموا على رأسه وهو جالس)

وأيضاً: فالانحناء عند التحية سجود، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرُوا آلَ بَكِّ سَجْدًا﴾ [البقرة: ٥٨] أي منحنين، وإلا فلا يمكن الدخول على الجباء، وصح عنه النهي عن القيام، وهو جالس، كما تُعظم الأعاجم بعضها بعضاً، حتى منع من ذلك في الصلاة، وأمرهم إذا صلى جالساً أن يصلوا جلوساً، وهم أصحاء لا عُذر لهم، لئلا يقوموا على رأسه وهو جالس، مع أن قيامهم لله، فكيف إذا كان القيام تعظيماً وعبودية لغيره سبحانه.

والمقصود: أن النفوس الجاهلة الضالة أسقطت عبودية الله سبحانه، وأشرت فيها من تُعظمه من المخلوق، فسجدت لغير الله، وركعت له، وقامت بين يديه قيام الصلاة، وحلفت بغيره، ونذرت لغيره، وحلفت لغيره، وذبحت لغيره، وطافت لغير بيته، وعظمت بالحب، والخوف، والرجاء، والطاعة، كما يُعظم الخالق، بل أشد، وسوّت من تعبدته من المخلوقين برّب العالمين، وهؤلاء هم المضادون لدعوة الرسل، وهم الذين يبدلون، وهم الذين يقولون - وهم في النار مع ألهتهم يختصمون - : ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [٩٨، ٩٧]. وهم الذين قال فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَلْبِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وهذا كله من الشرك، والله لا يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ به. فهذا فصل معترض في هديه في خلق الرأس، ولعله أهم مما قصد الكلام فيه، والله الموفق.

فصول

في هديه ﷺ في العلاج بالأدوية الروحانية

الإلهية المفردة، والمركبة منها،

ومن الأدوية الطبيعية

فصل

في هديه ﷺ في علاج المصاب بالعين

روى مسلم في «صحيحه» عن ابن عباس، قال:

قال رسول الله ﷺ: «الْعَيْنُ حَقٌّ وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقَ الْقَدَرِ، لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ» [مسلم: ٥٧٠٢].

وفي «صحيحه» أيضاً عن أنس، أن النبي ﷺ رَخَّصَ فِي الرُّقِيَةِ مِنَ الْحُمَةِ وَالْعَيْنِ وَالتَّمْلِئَةِ [مسلم: ٥٧٢٣].

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «الْعَيْنُ حَقٌّ» [البخاري: ٥٧٤٠، ومسلم: ٥٧٠١].

وفي «سنن أبي داود» عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان يُؤْمَرُ الْعَائِثُ فَيَتَوَضَّأُ، ثُمَّ يَفْتَسِلُ مِنْهُ الْمَعِينُ [أبو داود: ٣٨٨٠].

وفي «الصحيحين» عن عائشة قالت: أمرني النبي ﷺ، أو أمر أن نسترقّي من العين [البخاري: ٥٧٣٩، ومسلم: ٥٧٢٠].

وذكر الترمذي، من حديث سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عروة بن عامر، عن عُبَيْدَةَ بْنِ رِفَاعَةَ الزُّرْقِيِّ، أن أسماء بنت عُمَيْسٍ، قالت: يا رسول الله! إن بني جعفر تُصِيبُهُمُ الْعَيْنُ أَفَاسْتَرْقِي لَهُمْ؟ فقال: «نَعَمْ فَلَوْ كَانَ شَيْءٌ يَسْبِقُ الْقَضَاءَ لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ» قال الترمذي: حديث حسن صحيح [سنن جيد: أحمد: ٢٧٤٧٠، والترمذي: ٢٠٥٩، وابن ماجه: ٣٥١٠].

وروى مالك رحمه الله: عن ابن شهاب، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، قال: رأى عامر بن ربيعة سهل بن حنيف يفتسل، فقال: والله ما رأيت كاليوم ولا جلد مُخْبَأَةً! قال: فليط سهّل، فأتى رسول الله ﷺ عامراً، فتغيّظ عليه وقال: «عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ إِلَّا بِرَكَّتْ اغْتَسِلَ لَهُ»، ففسل له عامر وجهه ويديه، ومرفقيه وركبتيه، وأطراف رجله، وداخلة إزاره في قدح، ثم صب عليه، فراح مع الناس [مالك (٩٣٨/٢)، ورجاله ثقات].

وروى مالك رحمه الله أيضاً عن محمد بن أبي أمامة بن سهل، عن أبيه هذا الحديث، وقال فيه: «إِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ، تَوَضَّأَ لَهُ» قَتَوْضاً له [صحيح: مالك (٩٣٨/٢)، وأحمد: ١٥٩٨٠، وابن ماجه: ٣٥٠٩].

وذكر عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه مرفوعاً «الْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقَ الْقَدَرِ، لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ»، وإذا استغسل أحدكم، ولو كان

شَيْءٌ سَابِقَ الْقَدَرِ، لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وإذا اسْتُغْفِلَ أَحَدُكَ، فَلْيَغْتَسِلْ [عبد الرزاق: ١٩٧٧٠، ومسلم: ٥٧٠٢] ووصله صحيح.

قال الزهري: يُؤمر الرجل العائن بقَدَح، فَيُدْخِلُ كَفَّهُ فِيهِ، فَيَتَمَضَضُ، ثُمَّ يَمُتِّجُهُ فِي الْقَدَحِ، وَيَغْسِلُ وَجْهَهُ فِي الْقَدَحِ، ثُمَّ يُدْخِلُ يَدَهُ الْيُسْرَى، فَيَضْبُ عَلَى رُكْبَتِهِ الْيُمْنَى فِي الْقَدَحِ، ثُمَّ يُدْخِلُ يَدَهُ الْيُمْنَى، فَيَضْبُ عَلَى رُكْبَتِهِ الْيُسْرَى، ثُمَّ يَغْسِلُ دَاخِلَةَ إِزَارِهِ، وَلَا يُوضَعُ الْقَدَحُ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ يُضْبُ عَلَى رَأْسِ الرَّجُلِ الَّذِي تُصَيِّبُهُ الْعَيْنُ مِنْ خَلْفِهِ صَبَةً وَاحِدَةً [البيهقي (٣٥٢/٩)].

والعين: عينان: عين إنسية، وعين جنية، فقد صح عن أم سلمة، أن النبي ﷺ رأى في بيتها جارية في وجهها سفة، فقال: «اسْتَرْقُوا لَهَا، فَإِنَّ بِهَا النُّظْرَةَ» [البخاري: ٥٧٣٩، ومسلم: ٥٧٢٥].

(الرد على من انكر الإصابة)

بالمعين والعائد اعلم من العائن)

ولا ريب أن الله سبحانه خلق في الأجسام والأرواح قوى وطبائع مختلفة، وجعل في كثير منها خواص وكيفيات مؤثرة، ولا يمكن لعامل إنكار تأثير الأرواح في الأجسام، فإنه أمر مشاهد محسوس، وأنت ترى الوجه كيف يحمرُّ حمرة شديدة إذا نظر إليه من يحتشمه ويستحي منه، ويصفّر صفرة شديدة عند نظر من يخافه إليه، وقد شاهد الناس من يسقم من النظر وتضعف قواه، وهذا كله بواسطة تأثير الأرواح، ولشدة ارتباطها بالعين يُنسب الفعل إليها، وليست هي الفاعلة، وإنما التأثير للروح، والأرواح مختلفة في طبائعها وقواها وكيفياتها وخواصها، فروح الحاسد مؤذية للمحسود أذى بيناً، ولهذا أمر الله - سبحانه - رسوله أن يستعيذ به من شره، وتأثير الحاسد في أذى المحسود أمر لا يُنكره إلا من هو خارج عن حقيقة الإنسانية، وهو أصل الإصابة بالعين، فإن النفس الخبيثة الحاسدة تتكيف بكيفية خبيثة، وتقابل المحسود، فتؤثر فيه بتلك الخاصية، وأشباه الأشياء بهذا الأفعى، فإن السم كامن فيها بالقوة، فإذا قابلت عدوها، انبعثت منها قوة غضبية، وتكيفت بكيفية خبيثة مؤذية، فمنها ما تشتدُّ كلفتها وتقوى حتى تؤثر في إسقاط الجنين، ومنها ما تؤثر في

قال الحسين بن مسعود الفراء: وقوله: «سفة». أي نظرة، يعني: من الجن، يقول: بها عين أصابتها من نظر الجن أنفذ من أسنة الرماح^(١).

ويذكر عن جابر يرفعه: «إن العين لتدخل الرجل القبر، والجمل القدر» [ضعيف: أبو نعيم في «الحلية» (٧/٩٠)].

وعن أبي سعيد، أن النبي ﷺ كان يتعوذ من الجان، ومن عين الإنسان [الترمذي: ٢٠٥٩، والنسائي (٨/٢٧١)، وابن ماجه: ٣٥١١].

(قول من بطل الإصابة بالمعين)

فأبطلت طائفة ممن قلَّ نصيبهم من السمع والعقل أمر العين، وقالوا: إنما ذلك أوهام لا حقيقة له، وهؤلاء من أجهل الناس بالسمع والعقل، ومن أغلظهم حجاً، وأكثرهم طباعاً، وأبعدهم معرفة عن الأرواح والنفوس، وصفاتها وأفعالها وتأثيراتها، وعقلاء الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم لا تدفع أمر العين، ولا تنكره، وإن اختلفوا في سببه وجهه تأثير العين.

فقال طائفة: إن العائن إذا تكيفت نفسه بالكيفية الرديئة، انبعث من عينه قوة سمية تتصل بالمعين، فيتضرر. قالوا: ولا يستنكر هذا، كما لا يستنكر

(١) انظر «شرح السنة» (١٣/١٦٣) بتحقيقنا.

طمس البصر، كما قال النبي ﷺ في الأثر، وذي الطفتين من الحيات: «إِنَّهُمَا يَلْتَمِسَانِ الْبَصَرَ، وَيُسْقِطَانِ الْحَبْلَ» [البخاري: ٣٢٧٩، ومسلم: ٥٨٢٥].

ومنها، ما تؤثر في الإنسان كيفية بمجرد الرؤية من غير اتصال به، لشدة خُبث تلك النفس، وكيفية الخبيثة المؤثرة، والتأثير غير موقوف على الاتصالات الجسمية، كما يظنه من قل علمه ومعرفته بالطبيعة والشرعة، بل التأثير يكون تارة بالاتصال، وتارة بالمقابلة، وتارة بالرؤية، وتارة بتوجه الروح نحو من يؤثر فيه، وتارة بالأدعية والرقى والتعوذات، وتارة بالوهم والتخيل، ونفس العائن لا يتوقف تأثيرها على الرؤية، بل قد يكون أعمى، فيوصف له الشيء، فتؤثر نفسه فيه، وإن لم يره، وكثير من العائنين يؤثر في المعين بالوصف من غير رؤية، وقد قال تعالى لنبيه: ﴿وَلَا يَكْذِبُ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ آلِهِ أَنْ يَكُونَ مِنْكُمْ بِأَبْصَرِهِ لَنَا سَمِعُوا الْإِكْرَ﴾ [القمم: ٥١]. وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ أَلْفَلَقِ ۝ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝﴾ [الفلق: ١ - ٥]، فكل عائن حاسد، وليس كل حاسد عائنًا، فلما كان الحاسد أعم من العائن، كانت الاستعاذة منه استعاذة من العائن، وهي سهام تخرج من نفس الحاسد والعائن نحو المحسود والمعين نصيبه تارة وتخطئه تارة، فإن صادفته مكشوفًا لا وقاية عليه، أثرت فيه، ولا بد، وإن صادفته خفيًا شاكّي السلاح لا منفذ فيه للسهام، لم تؤثر فيه، وربما زدّت السهام على صاحبها، وهذا بمثابة الرمي الحسي سواء، فهذا من النفوس والأرواح، وذاك من الأجسام والأشباح. وأصله من إعجاب العائن بالشيء، ثم تبعه كيفية نفسه الخبيثة، ثم تستعين على تنفيذ سمها بنظرة إلى المعين، وقد يعين الرجل نفسه، وقد يعين بغير إرادته، بل بطبعه، وهذا أردأ ما يكون من النوع الإنساني، وقد قال أصحابنا وغيرهم من الفقهاء: إن من عرف بذلك، حسه الإمام، وأجرى له ما ينفق عليه إلى الموت، وهذا هو الصواب قطعاً.

فصل

(علاج المعيون بالتعوذات والرقى)

والمقصود: العلاج النبوي لهذه العلة، وهو

أنواع، وقد روى أبو داود في «سننه» عن سهل بن حنيف، قال: مررنا بسيل، فدخلت، فاغتسلت فيه، فخرجت محمومًا، فتمني ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال: «مُرُوا أَبَا تَابِتٍ يَتَعَوَّذُ»، قال: فقلت: يا سيدي! والرقى صالحة؟ فقال: «لَا رُقْيَةَ إِلَّا فِي نَفْسٍ، أَوْ حُمَةٍ أَوْ لَذَعَةٍ» [أبو داود: ٣٨٨٨].

والنفس: العين، يقال: أصابت فلانًا نفس، أي: عين. والنافس: العائن. واللذعة - بدال مهملة وغين معجمة - وهي ضربة العقرب ونحوها.

(عبارات من التعوذات النبوية)

فمن التعوذات والرقى الإكثار من قراءة المعوذتين، وفاتحة الكتاب، وآية الكرسي، ومنها التعوذات النبوية.

نحو: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق. ونحو: أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة.

ونحو: أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، من شر ما خلق وذرا وبرا، ومن شر ما يترسل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذرا في الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فنة الليل، والنهار، ومن شر طواغيت الليل إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن.

ومنها: أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه، ومن شر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون.

ومنها: اللهم أني أعوذ بوجهك الكريم، وكلماتك التامة من شر ما أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت تكشف المأثم والمغرم، اللهم إنه لا يهزم جندك، ولا يخلف وعدك، سبحانك وبحمدك.

ومنها: أعوذ بوجه الله العظيم الذي لا شيء أعظم منه، وبكلماته التامة التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، وأسماء الله الحسنى، ما علمت منها وما لم أعلم، من شر ما خلق وذرا وبرا، ومن شر كل ذي شر لا أظن شره، ومن شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته، إن ربي على صراط مستقيم.

ومنها: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، عليك

(مكتابة القيات دم شربها)

ورأى جماعة من السلف أن تكتب له الآيات من القرآن، ثم يشرّبها. قال مجاهد: لا بأس أن يكتب القرآن، ويغسله، ويسقي المريض، ومثله عن أبي قلابة. ويذكر عن ابن عباس: أنه أمر أن يكتب لامرأة تعسر عليها ولأدّها أثر من القرآن، ثم يغسل وتُسقى. وقال أيوب: رأيت أبا قلابة كتب كتاباً من القرآن، ثم غسله بماء، وسقاه رجلاً كان به وجع.

فصل

(استفسال العائن للمعين)

والرد على من أنكره من الأطباء)

ومنها: أن يؤمر العائن بغسل مَغَابِئِهِ وأطرافه وداخلية إزاره، وفيه قولان. أحدهما: أنه فرجه. والثاني: أنه طرف إزاره الداخل الذي يلي جسده من الجانب الأيمن، ثم يُصَبُّ على رأس المعين من خلفه بغتة، وهذا مما لا يناله علاج الأطباء، ولا يتنفّع به من أنكره، أو سخر منه، أو شكّ فيه، أو فعله مجرباً لا يعتقد أن ذلك ينفعه.

(حكمة الاستفسال)

وإذا كان في الطبيعة خواص لا تعرف الأطباء عللها البتة، بل هي عندهم خارجة عن قياس الطبيعة تفعل بالخاصية، فما الذي يُنكره زنادقهم وجهلتهم من الخواص الشرعية، هذا مع أن في المعالجة بهذا الاستفسال ما تشهد له العقول الصحيحة، وتقرّر لمناسبتها، فاعلم أن تزيق سَمِّ الحية في لحمها، وأن علاج تأثير الغضبية في تسكين غضبها، وإطفاء ناره بوضع يَدِكَ عليه، والمسح عليه، وتسكين غضبه، وذلك بمنزلة رجل معه شعلة من نار، وقد أراد أن يقدّفك بها، فصببت عليها الماء، وهي في يده حتى طُفئت، ولذلك أمر العائن أن يقول: «اللهم بارك عليّ» ليدفع تلك الكيفية الخبيثة بالدعاء الذي هو إحسان إلى المعين، فإن دواء الشيء بضده. ولما كانت هذه الكيفية الخبيثة تظهر في المواضع الرقيقة من الجسد، لأنها تطلب النفوذ، فلا تجد أرق من المغاين، وداخلية الإزار، ولا سيما إن كان كناية عن الفرج، فإذا غُمِلَتْ بالماء، بطل تأثيرها وعملها،

توكلت، وأنت ربّ العرش العظيم، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، لا حول ولا قوة إلا بالله، أعلم أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشركه، ومن شر كل دابة أنت أخذ بناصيتها، إن ربي على صراط مستقيم.

وإن شاء قال: تحصنت بالله الذي لا إله إلا هو، إلهي وإله كل شيء، واعتصمت بربي وربّ كل شيء، وتوكلت على الحي الذي لا يموت، واستدفعْتُ الشرّ بلا حول ولا قوة إلا بالله، حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الرب من العباد، حسبي الخالق من المخلوق، حسبي الرازق من المرزوق، حسبي الذي هو حسبي، حسبي الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو يُجِيرُ ولا يُجارُ عليه، حسبي الله وكفى، سمع الله لمن دعا، ليس وراء الله مرمى، حسبي الله لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو ربّ العرش العظيم.

ومن جرّب هذه الدعوات والعود، عَرَفَ مقدار منفعتها، وشيئة الحاجة إليها، وهي تمنع وصول أثر العائن، وتدفعه بعد وصوله بحسب قوة إيمان قائلها، وقوة نفسه، واستعداده، وقوة توكله وثبات قلبه، فإنها سلاح، والسلاح يضاربه.

فصل

(ما يقوله العائن خشية من ضرر عينه)

وإذا كان العائن يخشى ضرر عينه وإصابتها للمعين، فليدفع شرّها بقوله: «اللهم بارك عليه، كما قال النبي ﷺ لعامر بن ربيعة لما عان سهل ابن حنيف: «ألا بركت» أي: قلت: اللهم بارك عليه.

ومما يدفع به إصابة العين قول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، روى هشام بن عروة، عن أبيه، أنه كان إذا رأى شيئاً يُعجبُه، أو دخل حائطاً من حيطانه، قال: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله.

(الرقية للمعين)

ومنها رقية جبريل عليه السلام للنبي ﷺ التي رواها مسلم في «صحيحه» بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسدٍ الله يشفيك، بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ [مسلم: ٥٦٩٩].

وأيضاً فهذه المواضع للأرواح الشيطانية بها اختصاص.

فصل

(الاحتراز من الإصابة بالعين)

ستر محاسن من يخاف عليه العين)

ومن علاج ذلك أيضاً والاحتراز منه سترُ محاسن من يُخاف عليه العين بما يردُّها عنه، كما ذكر البغوي في كتاب «شرح السنة»: أن عثمان رضي الله عنه رأى صبيّاً مليحاً، فقال: دَسَمُوا نُونَتَهُ، لئلا تُصيبه العين، ثم قال في تفسيره: ومعنى: دَسَمُوا نُونَتَهُ: أي: سَوَّدُوا نُونَتَهُ، والنونة: الثُقرة التي تكون في ذقن الصبي الصغير.

وقال الخطابي في «غريب الحديث» له عن عثمان: إنه رأى صبيّاً تأخذه العين، فقال: دَسَمُوا نُونَتَهُ. فقال أبو عمرو: سألت أحمد بن يحيى عنه، فقال: أراد بالنونة: الثُقرة التي في ذقنه. والتدسيم: التوسيد. أراد: سَوَّدُوا ذلك الموضع من ذقنه، ليرد العين. قال: ومن هذا حديث عائشة أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم، وعلى رأسه عِمَامَةٌ دَسَمَاءُ^(١). أي: سوداء. أراد الاستشهاد على اللفظة، ومن هذا الشاعر قوله:

مَا كَانَ أَحْوَجَ ذَا الْكَمَالِ إِلَى

عَيْنِ يُؤَوِّبُهُ مِنَ الْعَيْنِ

فصل

(ذكر رقية ترد العين)

ومن الرُقَى التي تُرَدُّ العين ما ذكر عن أبي عبد الله الساجي، أنه كان في بعض أسفاره للحج أو الغزو على ناقه قَارِئَةً، وكان في الرفقة رجل عائن، قلَّما نظر إلى شيء إلا أثلَّفه، فقبل لأبي عبد الله: احْفَظْ نَاقَتَكَ مِنَ الْعَائِنِ، فقال: ليس له إلى ناقتي سبيل، فَأَخْبَرَ الْعَائِنُ بِقَوْلِهِ، فَتَحَيَّنَ غِيبةَ أَبِي عبد الله، فجاء إلى رحله، فنظر إلى الناقة، فاضطربت وسقطت، فجاء أبو عبد الله، فَأَخْبَرَ أَنَّ الْعَائِنَ قَدْ عَانَهَا، وهي كما ترى، فقال: دَلُونِي عَلَيْهِ، فَدَلَّ، فَوَقَفَ عَلَيْهِ، وقال: بِسْمِ اللَّهِ، حَبَسَ حَابِسٌ، وَحَجَرَ يَابِسٌ، وشهابٌ قابِسٌ، رددت عينَ العائن عليه، وعلى أحب

والمقصود: أن غسلها بالماء يُطْفِئُ تلك النارية، ويذهب بتلك السُّمية.

وفيه أمر آخر، وهو وصول أثر الغسل إلى القلب من أرقِّ المواضع وأسرعها تنفيذاً، فيُطْفِئُ تلك النارية والسُّمية بالماء، فيشفي المَعِينِ، وهذا كما أن ذوات السموم إذا قتلت بعد لسعها، خَفَّتْ أثر اللسعة عن الملسوع، ووجد راحة، فإن أنفَسَهَا تَمَدُّ أذاها بعد لسعها، وتوصله إلى الملسوع، فإذا قُتِلَتْ، خَفَّتْ الألم، وهذا مشاهد، وإن كان من أسبابه فرح الملسوع، واشتغاف نفسه بقتل عدوّه، فتقوى الطبيعة على الألم، فتدفعه.

وبالجملة: غسل العائن يُذهب تلك الكيفية التي ظهرت منه، وإنما ينفع غسله عند تَكَيُّفِ نفسه بتلك الكيفية.

(حكم صب ماء الاستفسال على المعين)

فإن قيل: فقد ظهرت مناسبة الغسل، فما مناسبة صب ذلك الماء على المعين؟ قيل: هو في غاية المناسبة، فإن ذلك الماء ماء طُفَى به تلك النارية، وأبطل تلك الكيفية الرديئة من الفاعل، فكما طُفِئَتْ به النارية القائمة بالفاعل طُفِئَتْ به، وأبطلت عن المحل المتأثر بعد ملاسته للمؤثر العائن، والماء الذي يُطْفَأُ به الحديد يدخل في أدوية عدَّة طبيعية ذكرها الأطباء، فهذا الذي طُفَى به نارية العائن، لا يُسْتَكْرَ أن يدخل في دواء يتناسب هذا الداء. وبالجملة: فطب الطبائعية وعلاجهم بالنسبة إلى العلاج النبوي، كطب الطَّرِيقَةِ بالنسبة إلى طبهم، بل أقل، فإن التفاوت الذي بينهم وبين الأنبياء أعظم، وأعظم من التفاوت الذي بينهم وبين الطَّرِيقَةِ بما لا يدرك الإنسان مقدراه، فقد ظهر لك عقد الإخاء الذي بين الحكمة والشرع، وعدم مناقضة أحدهما للآخر، والله يهدي من يشاء إلى الصواب، ويفتح لمن أدام قرع باب التوفيق منه كل باب، وله النعمة السابقة، والحمجة البالغة.

(١) ليس في مسند عائشة وإنما في البخاري (٣٧٩٩) من حديث ابن عباس.

الناس إليه، ﴿فَاتَّبِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَاهُ مِنْ قُلُوبٍ﴾ ثُمَّ اتَّبِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَائِشًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤٠٣﴾ [المُلْك: ٤، ٣] فخرجت حدقتا العائن، وقامت الناقة لا بأس بها؟

فصل

في هديه ﷺ في العلاج العام لكل شكوى بالرقية الإلهية

روى أبو داود في «سننه»: من حديث أبي الدرداء، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ اشْتَكَى مِنْكُمْ شَيْئًا، أَوْ اشْتَكَاهُ أَحَدٌ لَهُ فَلْيَقُلْ: رَبَّنَا اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَثَرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ كَمَا رَحِمْتَكَ فِي السَّمَاءِ، فَاجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الْأَرْضِ، وَاغْفِرْ لَنَا خُوبَنَا وَخَطَايَانَا أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ، وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الرَّجُلِ، فَيَبْرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ» [سننه ضعيف: أحمد: ٢٣٩٥٧، وأبو داود: ٣٨٩٢].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي سعيد الخدري، أن جبريل - عليه السلام - أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد! أشتكيت؟ فقال: «نعم»، فقال جبريل - عليه السلام -: «باسمِ اللهِ أَرْقِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَامِدٍ اللَّهُ يَشْفِيكَ بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ» [مسلم: ٥٧٠٠].

فإن قيل: فما تقولون في الحديث الذي رواه أبو داود: «لَا رُقِيَّةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ، أَوْ حُمَةٍ» والحمّة: ذوات السموم كلها.

(التوفيق بين جواز الرقية)

لحل شكوى وبين «لا رقية إلا من عين أو حمّة»

فالجواب أنه ﷺ لم يرد به نفى جواز الرقية في غيرها، بل المراد به إلا رقية أولى وأنفع منها في العين والحمّة، ويدل عليه سياق الحديث، فإن سهل بن حنيف قال له لما أصابته العين: أو في الرُقَى خير؟ فقال: «لَا رُقِيَّةَ إِلَّا فِي نَفْسٍ أَوْ حُمَةٍ» ويدل عليه سائر أحاديث الرقى العامة والخاصة، وقد روى أبو داود من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا رُقِيَّةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ أَوْ دَمٍ يَرْقَاهُ» [أبو داود: ٣٨٨٩، ونحوه مسلم: ٥٢٧].

وفي «صحيح مسلم» عنه أيضاً: رخص رسول الله ﷺ في الرُقِيَّةِ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحُمَةِ وَالنَّمْلَةِ.

فصل

في هديه ﷺ في رُقِيَّةِ اللَّيْلِ بِالْفَاتِحَةِ

أخرجنا في «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخدري، قال: انطلق نفرٌ من أصحاب النبي ﷺ في سفرة سافروها حتى نزلوا على حيٍّ من أحياء العرب، فاستضافوهم، فأبوا أن يُصَيِّقُوهم، فُلِيَغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الْحَيِّ، فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ أَتَيْتُمْ هَؤُلَاءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ نَزَلُوا لَعَلَّهُمْ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ، فَاتَوْهُمْ، فَقَالُوا: يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ! إِنْ سَيِّدُنَا لَيُغَ، وَسَعِينَا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْفَعُهُ، فَهَلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَعَمْ وَاللَّهِ إِنِّي لِأَرْقِي، وَلَكِنْ اسْتَصَفْنَاكُمْ، فَلَمْ تُصَيِّقُونَا، فَمَا أَنَا بِرَاقٍ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا، فَصَالَحُوهُمْ عَلَى قَطْعٍ مِنَ الْغَنَمِ، فَاْنْطَلَقَ يَنْقُلُ عَلَيْهِ، وَيَقْرَأُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَكَانَ مَا أَشْطَبَ مِنْ عَقَالٍ، فَاْنْطَلَقَ يَمْشِي وَمَا بِهِ قَلْبَةٌ، قَالَ: فَأَوْقَوْهُمْ جُعْلَهُمُ الَّذِي صَالَحُوهُمْ عَلَيْهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اقْتَسِمُوا، فَقَالَ الَّذِي رَقَى: لَا تَفْعَلُوا حَتَّى نَأْتِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرَ لَهُ الَّذِي كَانَ، فَتَنَظَّرَ مَا يَأْمُرُنَا، فَقَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرُوا لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: «وَمَا يُذَرِّكَ أَنَّهَا رُقِيَّةٌ؟»، ثُمَّ قَالَ: «قَدْ أَصَبْتُمْ، اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْمًا» [البخاري: ٥٧٤٩، ومسلم: ٥٧٣٣].

وقد روى ابن ماجه في «سننه» من حديث علي قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ الدَّوَاءِ الْقُرْآنُ» [ابن ماجه: ٣٥٠١، وفي سننه ضعيف].

(فائدة الرقية بالقرآن وبخاصة فاتحة الكتاب)

ومن المعلوم أن بعض الكلام له خواصٌ ومنافعٌ مجربة، فما الظن بكلام رب العالمين، الذي فضله على كل كلام كفضل الله على خلقه الذي هو الشفاء التام، والعصمة النافعة، والنور الهادي، والرحمة العامة، الذي لو أنزل على جبل لتصدع من عظمته وجلالته. قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، و«من» ههنا لبيان الجنس لا للتبعض، هذا أصح القولين، كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ

الرَّبِّ وحده، وأشرف الوسائل وهي الاستعانة به على عبادته ما ليس في غيرها، ولقد مرَّ بي وقت بمكة سَمِعْتُ فيه، فَقَدْتُ الطَّيِّبَ والدَّواءَ، فكنت أتعالج بها، أخذ شربةً من ماء زمزم، وأقروها عليها مراراً، ثم أشربه، فوجدتُ بذلك البرء التام، ثم صيرت أعتد ذلك عند كثير من الأوجاع، فأنفع بها غاية الانتفاع.

فصل

(نفس الراقي تفعل في نفس)

المرافي فتدفع عنه المرض بإذن الله

وفي تأثير الرقي بالفاتحة وغيرها في علاج ذوات السموم سر بديع، فإن ذوات السموم أثرت بكيفيات نفوسها الخبيثة، كما تقدم، ويلاحها حُماتها التي تلدُّ بها، وهي لا تلدُّ حتى تقضب، فإذا غضبت، ثار فيها السُّم، فتدفعه بآلتها، وقد جعل الله سبحانه لكل داءٍ دواءً، ولكل شيءٍ ضدًّا، ونفس الراقي تفعل في نفس المرقي، فيقع بين نفسيهما فعل وانفعال، كما يقع بين الداء والدواء، فتقوى نفس الراقي وقوته بالرقية على ذلك الداء، فيدفعه بإذن الله، ومدارُ تأثير الأدوية والأدواء على الفعل والانفعال، وهو كما يقع بين الداء والدواء الطبيعيين، يقع بين الداء والدواء الروحانيين، والروحاني والطبيعي، وفي النفث والتفل استعانة بتلك الرطوبة والهواء، والنفس المباشر للرقية، والذكر والدعاء، فإن الرقية تخرج من قلب الراقي وفمه، فإذا صاحبها شيء من أجزاء باطنه من الريق والهواء والنفس، كانت أتم تأثيراً، وأقوى فعلاً ونفوذاً، ويحصل بالازدواج بينهما كيفية مؤثرة شبيهة بالكيفية الحادثة عند تركيب الأدوية.

(النفث له تأثير في دفع المرض)

وبالجملة: فنفس الراقي تُقابل تلك النفوس الخبيثة، وتزِيدُ بكيفية نفسه، وتستعين بالرقية والنفث على إزالة ذلك الأثر، وكلما كانت كيفية نفس الراقي أقوى، كانت الرقية أتم، واستعانت به فبغته كاستعانة تلك النفوس الرديئة بلسعها.

وفي النفث سر آخر، فإنه مما تستعين به الأرواح الطيبة والخبيثة، ولهذا تفعله السحرة كما يفعله أهل

تَفَقُّرَ وَأَجْرًا عَظِيماً) [الفَتْح: ٢٩] وكلُّهُمْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وعملوا الصالحات، فما الظنُّ بفاتحة الكتاب التي لم يُنزل في القرآن، ولا في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور مثلاً، المتضمنة لجميع معاني كتب الله، المشتملة على ذكر أصول أسماء الرب - تعالى - ومجامعها، وهي الله، والرب، والرحمن، وإثبات المعاد، وذكر التوحيدين: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وذكر الافتقار إلى الرب سبحانه في طلب الإعانة وطلب الهداية، وتخصيصه سبحانه بذلك، وذكر أفضل الدعاء على الإطلاق وأنفعه وأضره، وما العبادُ أخرج شيء إليه، وهو الهداية إلى صراطه المستقيم، المتضمن كمال معرفته وتوحيده وعبادته - بفعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، والاستقامة عليه إلى الممات، ويتضمن ذكر أصناف الخلاق وانقسامهم إلى مُتَعَمِّ عليه بمعرفة الحق، والعمل به، ومحبته، وإيثاره، ومغضوب عليه بعدوله عن الحق بعد معرفته له، وضال بعدم معرفته له. وهؤلاء أقسامُ الخلقة مع تضمينها لإثبات القدر، والشرع، والأسماء، والصفات، والمعاد، والنبوات، وتزكية النفوس، وإصلاح القلوب، وذكر عدل الله وإحسانه، والرد على جميع أهل البدع والباطل، كما ذكرنا ذلك في كتابنا الكبير «مدارج السالكين» في شرحها. وحقيق بسورة هذا بعض شأنها، أن يُستشفى بها من الأدواء، ويُرقى بها اللدبغ.

وبالجملة فما تضمنته الفاتحة من إخلاص العبودية والثناء على الله، وتفويض الأمر كله إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، وسؤاله مجامع النعم كلها، وهي الهداية التي تجلب النعم، وتدفع النقم، من أعظم الأدوية الشافية الكافية.

(قراءة المصنف الفاتحة)

على ماء زمزم وذلك عند سقمه في مكة

وقد قيل: إن موضع الرقية منها: ﴿يَاكَ نَعْبُدُ وَيَاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ولا ريب أن هاتين الكلمتين من أقوى أجزاء هذا الدواء، فإن فيهما من عموم التفويض والتوكل، والالتجاء والاستعانة، والافتقار والطلب، والجمع بين أعلى الغايات، وهي عبادة

الإيمان. قال تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ أَلْفَاكٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]، وذلك لأن النفس تنكث بكيفية الغضب والمحابرة، وتربل أنفاسها سيهاماً لها، وتملأها بالنفث والتفل الذي معه شيء من الريق مصاحب لكيفية مؤثرة، والسواجر تستعين بالنفث استعانة بينة، وإن لم تتصل بجسم المسحور، بل تنفث على العقدة وتعقدها، وتكلم بالسحر، فيعمل ذلك في المسحور بتوسط الأرواح السفلية الخبيثة، فتقابلها الروح الزكية الطيبة بكيفية الدفع والتكلم بالرقية، وتستعين بالنفث، فأيهما قوي كان الحكم له، ومقابلة الأرواح بعضها لبعض، ومحاربتها وأكلتها من جنس مقابلة الأجسام، ومحاربتها وأكلتها سواء، بل الأصل في المحاربة والتقابل للأرواح والأجسام أكلتها وجندتها، ولكن من غلب عليه الجسد لا يشعر بتأثيرات الأرواح وأفعالها وانفعالاتها لاستيلاء سلطان الجسد عليه، ويُعديه من عالم الأرواح، وأحكامها، وأفعالها.

والمقصود: أن الروح إذا كانت قوية وتكثفت بمعاني الفاتحة، واستعانت بالنفث والتفل، قابلت ذلك الأثر الذي حصل من النفوس الخبيثة، فأزالته والله أعلم.

فصل

في هديه ﷺ في علاج لدغة العقرب بالرقية

روى ابن أبي شيبة في «مسنده»، من حديث عبد الله بن مسعود، قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي، إذ سجد فلدغته عقرب في أصبعه، فأنصرف رسول الله ﷺ وقال: «لَعَنَ اللَّهُ الْعَقْرَبَ مَا تَدْعُ نَبِيًّا وَلَا غَيْرَهُ»، قال: ثم دعا بإناء فيه ماء وملح، فجعل يَضَعُ موضع اللدغة في الماء والملح، ويقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، والمُعَوِّذَيْنِ حَتَّى سَكَتَ [الترمذي: ٢٩٠٥، وفي سننه ابن لهيعة سين الحفاظ].

(ما لسورة الإخلاص من الفائدة في علاج اللدغة)

ففي هذا الحديث العلاج بالدواء المركب من الأمرين: الطبيعي والإلهي، فإن في سورة الإخلاص من كمال التوحيد العلمي الاعتقادي، وإثبات

(ما للمعوذين من الفائدة في علاج اللدغة)

وفي المعوذتين الاستعاذة من كل مكروه جملة وتفصيلاً، فإن الاستعاذة من شر ما خلق تَعْمُ كُلُّ شَرٍّ يُسْتَعَاذُ مِنْهُ، سواء كان في الأجسام أو الأرواح، والاستعاذة من شر الغاسق وهو الليل، وآيته وهو القمر إذا غاب، تتضمن الاستعاذة من شر ما يتشتر فيه من الأرواح الخبيثة التي كان نور النهار يحول بينها وبين الانتشار، فلما أظلم الليل عليها وغاب القمر، انتشرت وعانت.

والاستعاذة من شر النفاثات في العقد تتضمن الاستعاذة من شر السواحر ويحجرهن.

والاستعاذة من شر الحاسد تتضمن الاستعاذة من النفوس الخبيثة المؤذية بحسدها ونظرها.

والسورة الثانية: تتضمن الاستعاذة من شر شياطين الإنس والجن، فقد جمعت السورتان الاستعاذة من كل شر، ولهما شأن عظيم في الاحتراس والتحصن من الشرور قبل وقوعها، ولهذا أوصى النبي ﷺ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ بقراءة هاتين العُقَبِ كُلِّ صَلَاةٍ، ذكره الترمذي في «جامعه» [صحيح: أحمد: ١٧٤١٨، وأبو داود: ١٥٢٣، والترمذي: ٢٩٠٥، والنسائي (٦٨/٣)] وفي هذا سر عظيم في استدفاع الشرور من الصلاة إلى الصلاة. وقال: ما تعوذ المتعوذون بمثلهما. وقد ذكر أنه ﷺ سحر في إحدى عشرة عُقْدَةً، وأن جبريل نزل عليه بهما، فجعل كلُّمَا قَرَأَ آيَةً مِنْهُمَا انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، حَتَّى انْحَلَّتِ الْعُقْدُ كُلُّهَا، وَكَأَنَّمَا أَنْشَطَ مِنْ عِقَالٍ.

(الفائدة في الملح في علاج اللدغة)

وأما العلاج الطبيعي فيه، فإن في الملح نفعاً لكثير

وكما في «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ: «مَنْ نَزَلَ مَنَزَلًا فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ الثَّامَاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنَزِلِهِ ذَلِكَ» [مسلم: ٦٨٧٨].

وكما في «سنن أبي داود» أن رسول الله ﷺ كان في السفر يقول بالليل: «يَا أَرْضُ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّكَ وَشَرِّ مَا فِيكَ، وَشَرِّ مَا يَدُبُّ عَلَيْكَ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ أَسَدٍ وَأَسُودٍ، وَمِنْ الْحَيَّةِ وَالْعَقْرَبِ، وَمِنْ سَاكِينِ الْبَلَدِ، وَمِنْ وَالِدٍ وَمَا وَلَدَ» [أحمد: ٦١٦١، وأبو داود: ٢٦٠٣].

وأما الثاني: فكما تقدّم من الرقية بالفاتحة، والرقية للعقرب وغيرها مما يأتي.

فصل

في هديه ﷺ في رقية النملة

قد تقدّم من حديث أنس الذي في «صحيح مسلم» أنه ﷺ رخص في الرقية من الحُمَةِ والعَيْنِ والنَّمْلَةِ. وفي «سنن أبي داود» عن الشَّفاء بنت عبد الله، دخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا عند حَفْصَةَ، فقال: «أَلَا تَعْلَمِينَ هَذِهِ رُقِيَةُ النَّمْلَةِ كَمَا عَلَّمْتِيهَا الْكِتَابَةَ» [صحيح: أحمد: ٢٧٠٩٥، وأبو داود: ٣٨٨٧].

النملة: قُرُوحٌ تخرج في الجنبين، وهو داء معروف، وسمي نملة، لأن صاحبَه يُحَسُّ في مكانه كأن نملة تدب عليه وتعضه، وأصنافها ثلاثة، قال ابن قتيبة وغيره: كان المجوس يزعمون أن ولد الرجل من أخته إذا حُطَّ على النملة، شفى صاحبها، ومنه قول الشاعر:

وَلَا عَيْبَ فِينَا غَيْرَ عُرْفٍ لِمُعْشَرٍ
كِرَامٍ وَأَنَا لَا نَحُطُّ عَلَى الثَّمَلِ^(١)

(جواز تعليم النساء العكاتب)

وروى الخلال: أن الشَّفاء بنت عبد الله كانت تُرقي في الجاهلية من النملة، فلما هاجرت إلى النبي ﷺ وكانت قد بايعته بمكة، قالت: يا رسول الله! إني كنت أُرقي في الجاهلية من النملة، وإني أريد أن أعْرِضَهَا عَلَيْكَ، فعرضت عليه فقالت:

من السُّموم، ولا سيما لدغة العقرب، قال صاحب «القانون»: يُضَمَّدُ بِهِ مَعَ بَزْرِ الْكَتَانِ لِلْسَّعِ الْعَقْرَبِ، وَذَكَرَهُ غَيْرُهُ أَيْضًا. وفي الملح من القوة الجاذبة المحللة ما يَجْذِبُ السُّمُومَ وَيُحْلِلُهَا، ولما كان في لسعها قُوَّةٌ نارية تحتاج إلى تبريد وجذب وإخراج جمع بين الماء المبرد لنار اللسعة، والملح الذي فيه جذب وإخراج، وهذا أتم ما يكون من العلاج وأيسره وأسهله، وفيه تنبيه علي أن علاج هذا الداء بالتبريد والجذب والإخراج والله أعلم.

وقد روى مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! ما لقيْتُ مِنْ عَقْرَبٍ لَدَغْتَنِي الْبَارِحَةَ فَقَالَ: «أَمَّا لَوْ قُلْتُ جِئْتَ أَتُسَيِّئُ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ الثَّامَاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ تَضُرَّكَ» [مسلم: ٦٨٨٠].

واعلم أن الأدوية الطبيعية الإلهية تنفع من الداء بعد حصوله، وتمنع من وقوعه، وإن وقع لم يقع وقوعاً مضراً، وإن كان مؤذياً، والأدوية الطبيعية إنما تنفع، بعد حصول الداء، فالتعوذات والأذكار، إما أن تمنع وقوع هذه الأسباب، وإما أن تحول بينها وبين كمال تأثيرها بحسب كمال التعوذ وقوته وضعفه، فالرُقَى والعُودُ تُسْتَعْمَلُ لِحِفْظِ الصَّحَةِ، ولإزالة المرض، أما الأول: فكما في «الصحيحين» من حديث عائشة كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه نَفَثَ فِي كُفَيْهِ «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» والمُعَوَّذَتَيْنِ، ثم يمسحُ بهما وجهه، وما بلغت يده من جسده [البخاري: ٥٠١٧، ومسلم: ٥٧١٤].

وكما في حديث عُوذَةَ أَبِي الدرداء المرفوع «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ عَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَأَنْتَ رَبُّ الْقَرَشِيِّ الْعَظِيمِ»، وقد تقدّم وفيه: مَنْ قَالَهَا أَوَّلَ نَهَارِهِ لَمْ تُصِبهْ مُصِيبَةٌ حَتَّى يُمَسِيَ، وَمَنْ قَالَهَا آخِرَ نَهَارِهِ لَمْ تُصِبهْ مُصِيبَةٌ حَتَّى يُصْبِحَ [ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٢٠-٢١) وإسناده ضعيف].

وكما في «الصحيحين»: «مَنْ قَرَأَ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةِ كَفَّتَاهُ» [البخاري: ٥٠٠٩، ومسلم: ١٨٨٠].

(١) رواية البيت في اللسان: نمل: ولا عيب فينا غير نمل لمعشر.

بسم الله صَلَّتْ حتى تعود من أفواهما، ولا تَصُرْ أَحَدًا، اللهم اكشف البأس رب الناس، قال: ترقى بها على عود سبع مرات، وتقصد مكاناً نظيفاً، وتلكه على حجر بخل خمير حاذق، وتطلبه على النملة. وفي الحديث دليل على جواز تعليم النساء الكتابة.

فصل

في هديه ﷺ في رقية الحية

قد تقدم قوله: «لا رقية إلا في عَيْنٍ، أو حُمَةٍ، الحمة: بضم الحاء وفتح الميم وتخفيفها. وفي سنن ابن ماجه» من حديث عائشة: رخص رسول الله ﷺ في الرقية من الحية والعقرب [ابن ماجه: ٣٥١٧]. ويُذكر عن ابن شهاب الزهري قال: لدَغ بعض أصحاب رسول الله ﷺ حية، فقال النبي ﷺ: «هَلْ مِنْ رَاقٍ؟» فقالوا: يا رسول الله! إن آل حزم كانوا يَرُقُّون رقية الحية، فلما نَهَيْتَ عن الرُقَى تركوها، فقال: «اذْعُو عُمَارَةَ بَنِ حَزْمٍ»، فدعوه، فَعَرَضَ عليه رقاها، فقال: «لَا بَأْسَ بِهَا» فأذن له فيها فرقاها^(١).

فصل

في هديه ﷺ في رقية القرحة والجرح

أخرجنا في «الصحيحين» عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا اشتكى الإنسان أو كانت به قرحة أو جرح، قال بأصبعه: هكذا ووضع سفيان سبَابَتَهُ بالأرض، ثم رفعها، وقال: «بِسْمِ اللَّهِ، تُزَبَّةُ أَرْضِنَا بِرِيقَةٍ بَغَضِنَا، يُشْفَى سَقِيمُنَا بِأَذْنِ رَبِّنَا» [البخاري: ٥٧٤٥، ومسلم: ٥٧١٩].

(علة استعمال التراب في هذه الرقية)

هذا من العلاج الميسر النافع المركَّب، وهي معالجة لطيفة يُعالج بها القروح والجراحات الطرية، لا سيما عند عدم غيرها من الأدوية إذ كانت موجودة بكل أرض، وقد عُلِمَ أن طبيعة التراب الخالص باردة يابسة مجففة لרטوبات القروح والجراحات التي تمنع

(١) مسلم (٥٧٢٧) عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ عن الرقى، فجاء آل عمرو بن حزم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله! إنه كانت عندنا رقية ترقى بها من العقرب، وإنك نهيت عن الرقى، قال: فعرضوها عليه، فقال: «ما أرى بأساً، مَنْ استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه».

مُصِيبَةً قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٢٠٠﴾ أَوَلَيْكَ عَلَيْهِمْ
مَكَالَتٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأَوَلَيْكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿البقرة: ١٥٥ - ١٥٧﴾. وفي «المسند» عنه ﷺ أنه قال: «مَا
مِنْ أَحَدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ
رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ اجْزِنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا
مِنْهَا، إِلَّا أَجَارَهُ اللَّهُ فِي مُصِيبَتِهِ، وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا
مِنْهَا» [مسلم: ٢١٢٦].

(إذا تحقق العبد بانه

لله وان مصيره إليه تسلى عن مصيبته)

وهذه الكلمة من أبلغ علاج المصائب، وأنفعة في
عاجلته وآجلته، فإنها تتضمن أصليين عظيمين إذا
تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن مصيبته.

أحدهما: أن العبد وأهله وماله ملك لله عز وجل
حقيقة، وقد جعله عند العبد عارية، فإذا أخذه منه،
فهو كالمعير يأخذ متاعه من المستعير، وأيضاً فإنه
محفوظ بِعَدَمَتَيْنِ: عدم قلبه، وعدم بعده، وملك العبد
له متعة معارة في زمن يسير، وأيضاً فإنه ليس الذي
أوجده عن عدمه، حتى يكون ملكه حقيقة، ولا هو
الذي يحفظه من الآفات بعد وجوده، ولا يُبْقِي عليه
وجوده، فليس له فيه تأثير، ولا ملك حقيقي، وأيضاً
فإنه متصرف فيه بالأمر تصرف العبد بالأمور المنهي،
لا تصرف الملاك، ولهذا لا يباح له من التصرفات فيه
إلاً ما وافق أمر ماله الحقيقي.

والثاني: أن مصير العبد ومرجه إلى الله مولا
الحق، ولا بد أن يُخْلَفَ الدنيا وراء ظهره، ويجيء
ربه فرداً كما خلقه أول مرة بلا أهل ولا مال ولا
عشيرة، ولكن بالحسنات والسيئات، فإذا كانت هذه
بداية العبد وما حُوِّلَ ونهايته، فكيف يفرح بوجوده،
أو يأسى على مفقوده، ففكره في مبدئه ومعاده من
أعظم علاج هذا الداء، ومن علاجه أن نعلم علم
اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه
لم يكن ليصيبه. قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي
الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا
إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٠١﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ
وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾
[الحديد: ٢٢، ٢٣].

آخرين شَفَوْا به أوجاعاً مزمنة كانت متمكنة في بعض
الأعضاء تمكناً شديداً، فبرأت وزهبت أصلاً. وقال
صاحب الكتاب المسيحي: قوة الطين المجلوب من
كنوس - وهي جزيرة المصطكى - قوة تجلو وتغسل،
وتُنَبِّت اللحم في القروح، وتختتم القروح. انتهى.

وإذا كان في هذه التربات، فما الظنُّ بأطيب ثربة
على وجه الأرض وأبركها، وقد خالطت ريق
رسول الله ﷺ، وقارنت رقيقته باسم ربه، وتفويض
الأمر إليه، وقد تقدم أن قوى الرقية وتأثيرها بحسب
الراقي، وانفعال المرقى عن رقيقته، وهذا أمر لا يُنْكِرُه
طبيب فاضل عاقل مسلم، فإن انتفى أحد الأوصاف،
فليقل ما شاء.

فصل

في هديه ﷺ في علاج الوجع بالرقية

(تضمنت هذه الرقية

التوسل إلى الله بتوحيده وإحسانه وربوبيته)

روى مسلم في «صحيحه» عن عثمان بن أبي
العاص، أنه شكى إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في
جسده منذ أسلم، فقال النبي ﷺ: «صَبِّحْ بِذَلِكَ عَلَى
الَّذِي تَأْلَمُ مِنْ جَسَدِكَ وَقُلْ: بِسْمِ اللَّهِ ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ
مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأَحَاطِرُهُ»
[مسلم: ٥٧٣٧] ففي هذا العلاج من ذكر الله،
والتفويض إليه، والاستعاذة بعزته وقدرته من شر
الآلم ما يذهب به، وتكراره ليكون أنجع وأبلغ،
تكرار الدواء لإخراج المادة، وفي السبع خاصية لا
توجد في غيرها، وفي «الصحيحين»: أن النبي ﷺ،
كان يُعَوِّذُ بعض أهله، يمسح بيده اليمنى، ويقول:
«اللَّهُمَّ رَبِّ النَّاسِ، أَذْهَبِ الْبَاسَ، وَاشْفِ أَنْتَ
الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءٌ لَا يُعَادِرُ سَقَمًا»
[البخاري: ٥٧٠٠، ومسلم: ٥٧٠٧]. ففي هذه الرقية توسل
إلى الله بكمال ربوبيته، وكمال رحمته بالشفاء، وأنه
وحده الشافي، وأنه لا شفاء إلا شفاؤه، فتضمنت
التوسل إليه بتوحيده وإحسانه وربوبيته.

فصل

في هديه ﷺ في علاج حرز المصيبة وحزنها

قال تعالى: ﴿وَيَسِّرْ لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الزمر: ٢٢] إذا أصابتهم

(ذكر بعض العلاجات)

منها النظر إلى ما أبقي الله عليه من النعم)

ومن علاجه أن ينظر إلى ما أصيب به، فيجد ربه قد أبقي عليه مثله، أو أفضل منه، وأدخر له - إن صبر ورضي - ما هو أعظم من فوات تلك المصيبة بأضعاف مضاعفة، وأنه لو شاء لجعلها أعظم مما هي.

(التاسي باهل المصائب وذكر قصص في ذلك)

ومن علاجه أن يُطفئ نارَ مصيبته ببرد التآسي بأهل المصائب، وليعلم أنه في كل واحد بنو سعد^(١)، ولينظر يَمَنَةً، فهل يرى إلا محنة؟ ثم ليعطف يَسَرَةً، فهل يرى إلا حسرة؟^(٢)، وأنه لو فتش العالم لم يرَ فيهم إلا مبتلى، إما بفوات محبوب، أو حصول مكروه، وأن شُرورَ الدنيا أحلامٌ نوم أو كظل زائل، إن أضحكك قليلاً، أبكت كثيراً، وإن سرت يوماً، ساءت دهرًا، وإن متعت قليلاً، منعت طويلاً، وما ملأت داراً خيرةً إلا ملأتها غيرةً، ولا سرته بيوم سرور إلا خبات له يومَ شرور، قال ابن مسعود - رضي الله عنه - : لكل فرحةٍ ترحة، وما ملئَ بيتٌ فرحاً إلا ملئَ ترحاً. وقال ابن سيرين: ما كان ضحك قط إلا كان من بعده بُكاء.

وقالت هند بنت النعمان: لقد رأيتنا ونحن من أعزِّ الناس وأشدَّهم ملكاً، ثم لم تغِبِ الشمسُ حتى رأيتنا ونحن أقلُّ الناس، وأنه حق على الله ألا يملأ داراً خيرةً إلا ملأها عبرة.

وسألها رجلٌ أن تحدثه عن أمرها، فقالت: أصبحنا ذا صباح، وما في العرب أحد إلا يرجونا، ثم أمسينا وما في العرب أحد إلا يرحمنا.

ويكث أختها حُرَّة بنت النعمان يوماً، وهي في عزها، فقيل لها: ما يُيكك، لعل أحداً أذاك؟ قالت: لا، ولكن رأيت غَضارة^(٣) في أهلي، وقلما امتلأت دارٌ إلا سروراً امتلأت حُزناً.

قال إسحاق بن طلبة: دخلتُ عليها يوماً، فقلتُ لها: كيف رأيتِ عبراتِ الملوك فقالت: ما نحنُ فيه اليومَ خيرٌ مما كنا فيه الأمس، إنا نجدُ في الكتب أنه ليس من أهل بيت يعيشون في خيرة إلا سيُعقَّبون بعدها عبرة، وأن الدهر لم يظهر لقوم بيوم يحبونه إلا بطن لهم بيوم يكرهونه، ثم قالت:

فَيَتَنَا نَسُوسُ النَّاسِ وَالْأَمْرُ أَمْرُنَا

إِذَا نَحْنُ فِيهِمْ سَوْقَةٌ تَنْتَضِفُ
فَأَتُ لِدُنْيَا لَا يَدُومُ نَعِيمُهَا
تَقْلُبُ تَارَاتٍ بِنَا وَتَصْرِفُ^(٤)

(الجزع بضاعف المرض)

ومن علاجها أن يعلم أن الجزع لا يردّها، بل يُضاعفها، وهو في الحقيقة من تزايد المرض.

(فوت ثواب الصبر اعظم من المصيبة)

ومن علاجها أن يعلم أن فوت ثواب الصبر والتسليم، وهو الصلاة والرحمة والهداية التي ضمنها الله على الصبر، والاسترجاع أعظم من المصيبة في الحقيقة.

(الجزع يشمت الأعداء)

ومن علاجها أن يعلم أن الجزع يُشمت عدوه، ويسوء صديقه، ويُغضب ربه، ويسرُّ شيطانه، ويُحبط أجره، ويُضعف نفسه، وإذا صبر واحتسب أنضى شيطانه، وردّه خاسئاً، وأرضى ربه، وسر صديقه، وساء عدوه، وحمل عن إخوانه، وعزّاهم هو قبل أن يُعزّوه، فهذا هو الثبات والكمال الأعظم، لا لطم الخدود، وشقّ الجيوب، والدعاء بالويل والثبور، والسخط على المقدور.

(لذة الصبر ومنها بهت الحمد)

ومن علاجها: أن يعلم أن ما يُعقبه الصبر والاحتساب من اللذة والمسرة أضعاف ما كان يحصل له بقاء ما أصيب به لو بقي عليه، ويكفيه من

(١) مقتبس من المثل للأصطبي بن قريع: في كل واحد بنو سعد بن زيد.

(٢) اقتباس من رسالة بديع الزمان الهمداني إلى أبي عامر الضبي يعزبه ببعض أقاربه.

(٣) الغضارة: طيب العيش، قال ابن عبد ربه صاحب «العقد»:

ألا إنما الدنيا غضارة أيكّة

إذا اخضر منها جانب جفّ جانب

(٤) البيتان في «المؤتلف والمختلف» ص (١٤٥).

ذلك بيت الحمد الذي يُبنى له في الجنة على حمده
لربه واسترجاعه، فلينظر: أيّ المصيبتين أعظم؟
مصيبة العاجلة، أو مصيبة فوات بيت الحمد في جنة
الخلد. وفي الترمذي مرفوعاً: «يَوْمَ نَأْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
أَنْ جُلُودَهُمْ كَانَتْ تُفَرَّضُ بِالْمَقَارِضِ فِي الدُّنْيَا لِمَا
يَرَوْنَ مِنْ ثَوَابِ أَهْلِ الْبَلَاءِ» [الترمذي: ٢٤٠٤، وفي سننه
ضعف].

وقال بعضُ السلف: لولا مصائب الدنيا لوردنا
القيام مقاليس.

(ترويح القلب برجاء الخلف من الله)

ومن علاجها: أن يروِّح قلبه بروح رجاء الخلف
من الله، فإنه من كل شيء عوض إلا الله، فما منه
عوض كما قيل:

مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِذَا ضَيَّعْتُهُ عَوْضٌ
وَمَا مِنَ اللَّهِ إِنْ ضَيَّعْتُهُ عَوْضٌ

(الحظ من المصيبة ما تحسنه له)

ومن علاجها: أن يعلم أن حفظه من المصيبة ما
تحدثه له، فمن رضي، فله الرضى، ومن سخط، فله
السخط، فحفظك منها ما أحدثته لك، فاختر خير
الحفظ أو شرها، فإن أحدثت له سخطاً وكفراً،
كتب في ديوان الهالكين، وإن أحدثت له جزعاً
وتفريطاً في ترك واجب، أو فعل محرم، كتب في
ديوان المفرطين، وإن أحدثت له شكاية، وعدم
صبر، كتب في ديوان المغبونين، وإن أحدثت له
اعتراضاً على الله، وقدحاً في حكمته، فقد قرع باب
الزندقة أو ولجه، وإن أحدثت له صبراً وثباتاً لله،
كتب في ديوان الصابرين، وإن أحدثت له الرضى عن
الله، كتب في ديوان الراضين، وإن أحدثت له الحمد
والشكر، كتب في ديوان الشاكرين، وكان تحت لواء
الحمد مع الحمّادين، وإن أحدثت له محبة واشتياقاً
إلى لقاء ربه، كتبت في ديوان المحبين المخلصين.

وفي «مسند الإمام أحمد» و«الترمذي»، من حديث
محمود بن لبيد يرفعه: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا
ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ
السَّخَطُ». زاد أحمد: «وَمَنْ جَزِعَ فَلَهُ الْجَزَعُ» [صحيح:
أحمد: ٢٣٦٢٣، والترمذي: ٢٣٩٨، وابن ماجه: ٤٠٣١].

(آخر أمره الجزع إلى صبر الاضطراب)

ومن علاجها: أن يعلم أنه وإن بلغ في الجزع
غايته، فأجّر أمره إلى صبر الاضطراب، وهو غير
محمود ولا مثاب، قال بعض الحكماء: العاقل يفعل
في أول يوم من المصيبة ما يفعله الجاهل بعد أيام،
ومن لم يصبر صبر الكرام، سلا سلو البهائم. وفي
«الصحيح» مرفوعاً: «الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى»
[البخاري: ١٣٠٢، وسلم: ٢١٣٩]. وقال الأشعث بن
قيس: إنك إن صبرت إيماناً واحتساباً، وإلا سلوت
سلو البهائم.

(انفع الأدوية مولفة الله فيما أحبه)

ومن علاجها: أن يعلم أن أنفع الأدوية له موافقة
ربه وإلهه فيما أحبه ورضيه له، وأن خاصية المحبة
وسيرها موافقة المحبوب، فمن ادعى محبة محبوب،
ثم سخط ما يحبه، وأحب ما يسخطه، فقد شهد على
نفسه بكذبه، وتمتت إلى محبوبه.

وقال أبو الدرداء: أن الله إذا قضى قضاء، أحب
أن يرضى به. وكان عمران بن حصين يقول في علته:
أَحَبُّ إِلَيَّ أَحَبُّ إِلَيْهِ، وكذلك قال أبو العالية.
وهذا دواء وعلاج لا يعمل إلا مع المحبين، ولا
يُمكن كُلُّ أَحَدٍ أَنْ يَتَعَاطَلَ بِهِ.

(لذة التمتع بثواب الله أعظم من لذة التمتع بما أصيب به)

ومن علاجها: أن يُوازن بين أعظم اللذتين
والتمتعين، وأدومهما: لذّة تمتعه بما أصيب به، ولذّة
تمتعه بثواب الله له، فإن ظهر له الرجحان، فآثر
الراجح، فليحمد الله على توفيقه، وإن آثر المرجوح
من كل وجه، فليعلم أن مصيبته في عقله وقلبه ودينه
أعظم من مصيبته التي أصيب بها في دنياه.

(ابتلاء الله العبد لامتحان صبره)

ومن علاجها أن يعلم أن الذي ابتلاه بها أحكم
الحاكمين، وأرحم الراحمين، وأنه سبحانه لم يرسل
إليه البلاء ليهلكه به، ولا ليعذبه به، ولا ليجتأحه،
وإنما افتقده به ليمتحن صبره ورضاه عنه وإيمانه،
وليسمع تضرّعه وابتهاله، وليراه طريحاً ببابه، لا نذراً
بجنايته، مكسوراً القلب بين يديه، رافعاً قصص
الشكوى إليه.

«حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ» [سلم: ٧١٣٠].

وفي هذا المقام تفاوتت عقولُ الخلائق، وظهرت حقائق الرجال، فأكثرهم أثرُ الحلاوة المنقطعة على الحلاوة الدائمة التي لا تزول، ولم يحتمل مرارة ساعة لحلاوة الأبد، ولا ذلَّ ساعة لعز الأبد، ولا وحنة ساعة لعافية الأبد، فإن الحاضر عنده شهادة، والمتنظر غيب، والإيمان ضعيف، وسلطان الشهوة حاكم، فتولد من ذلك إيثارُ العاجلة، ورفضُ الآخرة، وهذا حال النظر الواقع على ظواهر الأمور، وأوائلها ومبادئها، وأما النظر الثاقب الذي يخرق حجب العاجلة، ويجاوزه إلى العواقب والغايات، فله شأن آخر.

فادع نفسك إلى ما أعد الله لأولياته وأهل طاعته من النعيم المقيم، والسعادة الأبدية، والفوز الأكبر، وما أعد لأهل البطالة والإضاعة من الخزي والعقاب والحسرات الدائمة، ثم اختر أي القسمين أليق بك، وكلُّ يعمل على شاكلته، وكلُّ أحد يصبو إلى ما يُناسبه، وما هو الأولى به، ولا تستطل هذا العلاج، فشدة الحاجة إليه من الطبيب والعليل دعت إلى بسطه، وبالله التوفيق.

فصل

في هديه ﷺ في علاج الكرب

والهم والغم والحزن

أخرجنا في «الصحاحين» من حديث ابن عباس، أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ» [البخاري: ٦٣٤٥، ومسلم: ٦٩٢١].

وفي «جامع الترمذي» عن أنس، أن رسول الله ﷺ، كان إذا حزبه أمر، قال: «يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ» [الترمذي: ٣٥٢٢، وفي سننه ضعف].

وفيه: عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ، كان إذا أهَمَّهُ الأمر، رفع طرفه إلى السماء فقال: «سُبْحَانَ اللَّهِ

قال الشيخ عبد القادر: يا بُنَيَّ! إن المصيبة ما جاءت لِتُهْلِكَكَ، وإنما جاءت لِتَمْتَحِنَ صَبْرَكَ وإيمانَكَ، يا بني! الْقَدْرُ سَبْعٌ، وَالسَّبْعُ لَا يَأْكُلُ الْمَيْتَةَ.

والمقصود: أن المصيبة كير العبد الذي يُسبك به حاصله، فإذا أن يخرج ذهباً أحمر، وإما أن يخرج خبثاً كله، كما قيل:

سَبَّحْنَاهُ وَنَحْسِبُهُ لُجَيْنًا

فَأَبْدَى الْكَبِيرُ عَنْ حَبَثِ الْحَلِيدِ
فإن لم ينفعه هذا الكير في الدنيا، فبين يديه الكير الأعظم، فإذا علم العبد أن إدخاله كير الدنيا ومسيبها خيرٌ له من ذلك الكير والمسيب، وأنه لا بد من أحد الكيرين، فليعلم قدرَ نعمة الله عليه في الكير العاجل.

(المصيبة مكاسرة لئلا يكسر وقسوة القلب)

ومن علاجها: أن يعلم أنه لولا مَحَنُ الدنيا ومصائبها، لأصاب العبد - من أدواء الكبر والعجب والفرقة وقسوة القلب - ما هو سبب هلاكه عاجلاً وآجلاً، فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقد في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب، تكون جِمية له من هذه الأدوية، وحفظاً لصحة عبوديته، واستفراغاً للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة منه، فسبحانَ من يرحمُ ببلاته، ويتلي بنعمائه كما قيل:

قَدْ يُنِيمُ بِالْبَلَوِ وَإِنْ عَظُمَتْ

وَيَتَلِي اللَّهُ بَعْضَ الْقَوْمِ بِالنِّعَمِ

فلولا أنه - سبحانه - يداوي عباده بأدوية المحن والابتلاء، لطفوا، وَيَغْوُوا، وَعَتَوْا، والله - سبحانه - إذا أراد بعبد خيراً سقاه دواء من الابتلاء والامتحان على قدر حاله يستفدُ به من الأدوية المهلكة، حتى إذا هذبه ونفاه وصفاه، أهله لأشرف مراتب الدنيا، وهي عبوديته، وأرفع ثواب الآخرة، وهو رؤيته وقربه.

(مرارة الدنيا حلاوة الآخرة)

ومن علاجها: أن يعلم أن مرارة الدنيا هي بعينها حلاوة الآخرة، يقلبها الله سبحانه كذلك، وحلاوة الدنيا بعينها مرارة الآخرة، ولأن ينتقل من مرارة منقطعة إلى حلاوة دائمة خيرٌ له من عكس ذلك، فإن خفي عليك هذا، فانظر إلى قول الصادق المصدق:

العظيم، وإذا اجتهد في الدعاء قال: «يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ»
[الترمذي: ٣٤٣٢، وفي سننه متروك].

وفي «سنن أبي داود» عن أبي بكرة، أن رسول الله ﷺ قال: «دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرَفَةَ عَيْنٍ، وَأُضْلِخْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» [صحيح: أحمد: ٢٠٤٣٠، وأبو داود: ٥٠٩٠، والبخاري في «الأدب المفرد»: ٧٠١].

وفيه أيضاً عن أسماء بنت عميس قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «أَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ تَقُولُهُنَّ عِنْدَ الْكَرْبِ، أَوْ فِي الْكَرْبِ: اللَّهُ رَبِّي لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً» [أبو داود: ١٥٢٥، وابن ماجه: ٣٨٨٢]. وفي رواية أنها تقول سبع مرات (١).

وفي «مسند الإمام أحمد» عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «مَا أَصَابَ عَبْدًا هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أُمْتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَا ضَرَفْتُ حُكْمَكَ، عَذَلْتُ فِي قَضَائِكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمِعْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتُ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رَيْحَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ حُزْنَهُ وَهَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحاً» [صحيح: أحمد: ٣٧١٢].

وفي الترمذي عن سعد بن أبي وقاص، قال: قال رسول الله ﷺ: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا رَبَّهُ وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجِيبَ لَهُ» [صحيح: أحمد: ١٤٦٢، والترمذي: ٣٥٠٠].

وفي رواية «إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَا يَقُولُهَا مَكْرُوبٌ إِلَّا فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ» كَلِمَةُ أَخِي يُوسُفَ.

وفي «سنن أبي داود» عن أبي سعيد الخدري، قال: دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له: أبو أمامة، فقال: «يَا أَبَا أَمَامَةَ مَالِي أَرَاكَ فِي الْمَسْجِدِ فِي غَيْرِ وَقْتِ الصَّلَاةِ؟» فقال: «هَمُومٌ لَزِمْتَنِي، وَدِيونُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فقال:

«أَلَا أَعْلَمُكَ كَلَاماً إِذَا أَنْتَ قُلْتَهُ أَذْهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمَّكَ وَقَضَى دَيْنَكَ؟» قال: قلت: بلى يا رسول الله، قال: «قُلْ إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ»، قال: ففعلت ذلك، فأذهب الله عَزَّ وَجَلَّ همي، وقضى عني ديني [أبو داود: ١٥٥٥، وفي سننه لين الحديث].

وفي «سنن أبي داود» عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَزِمَ الْاِسْتِغْفَارَ، جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجاً، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجاً، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» [أحمد: ٢٢٣٤، وأبو داود: ١٥١٨، وابن ماجه: ٣٨١٩، وفي سننه مجهول].

وفي «المسند» أن النبي ﷺ كان إذا حَزَنَهُ أَمْرٌ، فَرَعَ إِلَى الصَّلَاةِ [أحمد: ٢٣٢٩٩]، وقد قال تعالى: «وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ» [البقرة: ٤٥].

وفي «السنن»: عَلَيْنَا بِالْجِهَادِ، فَإِنَّهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، يَدْفَعُ اللَّهُ بِهِ عَنِ النَّفْسِ الْهَمَّ وَالْغَمَّ [صحيح: أحمد: ٢٢٦٨٠، والطبراني في «الأوسط»].

ويذكر عن ابن عباس، عن النبي ﷺ: «مَنْ كَثُرَتْ هُمُومُهُ وَغُمُومُهُ، فَلْيُكْثِرْ مِنْ قَوْلِ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ».

وثبت في «الصحيحين» أنها كنز من كنوز الجنة [البخاري: ٦٤٠٩، ومسلم: ٦٨٦٢].

وفي الترمذي: «أَنَّهَا بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ» [الترمذي: ٣٥٧٦].

(ما تضمنته الأدوية السابقة من أنواع الدواء)

هذه الأدوية تتضمن خمسة عشر نوعاً من الدواء، فإن لم تقو على إذهاب داء الهم والغم والحزن، فهو داء قد استحکم، وتمكنت أسبابه، ويحتاج إلى استفرغ كلي.

الأول: توحيد الربوبية.

الثاني: توحيد الإلهية.

الثالث: التوحيد العلمي الاعتقادي.

(١) لم تقف على هذه الرواية.

الرابع: تنزيه الرب تعالى عن أن يظلم عبده، أو يأخذ به سبب من العبد يُوجب ذلك.

الخامس: اعتراف العبد بأنه هو الظالم.

السادس: التوسل إلى الرب تعالى بأحب الأشياء، وهي أسماؤه وصفاته، ومن أجمعها لمعاني الأسماء والصفات: الحي القيوم.

السابع: الاستعانة به وحده.

الثامن: إقرار العبد له بالرجاء.

التاسع: تحقيق التوكل عليه، والتفويض إليه، والاعتراف له بأن ناصيته في يده، يصرفه كيف يشاء، وأنه ماضٍ فيه حكمه، عدلٌ فيه قضاؤه.

العاشر: أن يرتع قلبه في رياض القرآن، ويجعله لقلبه كالربيع للحيوان، وأن يستضيء به في ظلمات الشبهات والشهوات، وأن يتسلى به عن كل فائت، ويتعزى به عن كل مصيبة، ويستشفى به من أدواء صدره، فيكون جلاء حزنه، وشفاء همه وغمه.

الحادي عشر: الاستغفار.

الثاني عشر: التوبة.

الثالث عشر: الجهاد.

الرابع عشر: الصلاة.

الخامس عشر: البراءة من الحول والقوة وتفويضهما إلى من هما بيده.

فصل

في بيان جهة تأثير هذه الأدوية

في هذه الأمراض

خلق الله - سبحانه - ابن آدم وأعضاءه، وجعل لكل عضو منها كمالاً إذا فقدته أحسّ بالألم، وجعل لملكها وهو القلب كمالاً، إذا فقدته، حضرتها أسقامه وآلامه من الهموم والغموم والأحزان.

فإذا فقدت العين ما خلقت له من قوة الإبصار، وفقدت الأذن ما خلقت له من قوة السمع، واللسان ما خلقت له من قوة الكلام، فقدت كمالها.

(وظيفة القلب)

والقلب: خُلِقَ لمعرفة فطره ومحبه وتوحيده والسرور به، والابتهاج بحبه، والرضى عنه، والتوكل

عليه، والحب فيه، والبغض فيه، والموالة فيه، والمعاداة فيه، ودوام ذكره، وأن يكون أحب إليه من كل ما سواه، وأرجى عنده من كل ما سواه، وأجل في قلبه من كل ما سواه، ولا نعيم له ولا سرور ولا لذة، بل ولا حياة إلا بذلك، وهذا له بمنزلة الغذاء والصحة والحياة، فإذا فقد غذاءه وصحته وحياته، فالهموم والغموم والأحزان مسارعة من كل صوب إليه، وروهن مقيم عليه.

(أمراض القلب)

ومن أعظم أدوائه: الشرك والذنوب والغفلة والاستهانة بمحابه ومراضيه، وترك التفويض إليه، وقلة الاعتماد عليه، والركون إلى ما سواه، والسخط بمقدوره، والشك في وعده ووعيده.

(علاجات امراض القلب)

وإذا تأملت أمراض القلب، وجدت هذه الأمور وأمثالها هي أسبابها لا سبب لها سواها، فدواؤه الذي لا دواء له سواه ما تضمنته هذه العلاجات النبوية من الأمور المضادة لهذه الأدواء، فإن الممرض يُزال بالضد، والصحة تُحفظ بالمثل، فصحته تحفظ بهذه الأمور النبوية، وأمراضه بأضدادها.

(فوائد التوحيد وفوائد التوبة)

فالتوحيد: يفتح للعبد باب الخير والسرور واللذة والفرح والابتهاج، والتوبة استغراغ للأخلاق والمواد الفاسدة التي هي سبب أسقامه، وجمية له من التخليط، فهي تُغلق عنه باب الشرور، فيفتح له باب السعادة والخير بالتوحيد، ويُغلق باب الشرور بالتوبة والاستغفار.

قال بعض المتقدمين من أئمة الطب: من أراد عافية الجسم، فليقلل من الطعام والشراب، ومن أراد عافية القلب، فليترك الآثام. وقال ثابت بن قرة: راحة الجسم في قلة الطعام، وراحة الروح في قلة الآثام، وراحة اللسان في قلة الكلام.

والذنوب للقلب، بمنزلة السموم، إن لم تُهلكه أضعفته، ولا بُدَّ، وإذا ضعفت قوته، لم يقدر على مقاومة الأمراض، قال طيبُ القلوب عبد الله بن المبارك.

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ
وَقَدْ يُورِثُ الذُّلَّ إِذْمَانُهَا
وَتَرَكْتُ الذُّنُوبَ حَيَاةَ الْقُلُوبِ
وَحَيْرَ لِنَفْسِكَ عِضْيَانُهَا

(الهمي اكبر امراض القلب فلا بد من مخالفته)

فالهمي أكبر أدوائها، ومخالفته أعظم أدويتها، والنفس في الأصل خُلِقَتْ جاهلة ظالمة، فهي لجهلها تظن شفاءها في اتباع هواها، وإنما فيه تلفها وعطبها، ولظلمها لا تقبل من الطيب الناصح، بل تضع الدواء موضع الدواء فتعتمده، وتضع الدواء موضع الدواء فتجتنبه، فيتولد من بين إثارها للداء، واجتنابها للدواء أنواع من الأسقام والعلل التي تعي الأطباء، ويتعذر معها الشفاء. والمصيبة العظمى، أنها تُرَكَّبُ ذلك على القدر، فتبرئ نفسها، وتلوم ربه بلسان الحال دائماً، ويقوى اللوم حتى يُصرَّح به اللسان.

(حديث ابن عباس مشتمل على)

توحيد الإلهية والربوبية وصفتي العظمة والحلم)

وإذا وصل العليل إلى هذه الحال، فلا يطعم في برئه إلا أن تتداركه رحمة من ربه، فيحييه حياة جديدة، ويرزقه طريقة حميدة، فلهذا كان حديث ابن عباس في دعاء الكرب مشتملاً على توحيد الإلهية والربوبية، ووصف الرب سبحانه بالعظمة والحلم، وهاتان الصفتان مستلزمان لكمال القدرة والرحمة، والإحسان والتجاوز، ووصفه بكمال ربوبيته للعالم العلوي والسفلي، والعرش الذي هو سقف المخلوقات وأعظمها، والربوبية التامة تستلزم توحيده، وأنه الذي لا تنبغي العبادة والحب والخوف والرجاء والإجلال والطاعة إلا له. وعظمته المطلقة تستلزم إثبات كل كمال له، وسلب كل نقص وتمثيل عنه. وجلته يستلزم كمال رحمته وإحسانه إلى خلقه.

فعلم القلب ومعرفته بذلك توجب محبته وإجلاله وتوحيده، فيحصل له من الابتهاج واللذة والسرور ما يدفع عنه ألم الكرب والهم والغم، وأنت تجد المريض إذا ورد عليه ما يسره ويُفرحه، ويقوي نفسه، كيف تقوى الطبيعة على دفع المرض الحسي، فحصول هذا الشفاء للقلب أولى وأحرى.

ثم إذا قابلت بين ضيق الكرب وسعة هذه الأوصاف التي تضمنها دعاء الكرب، وجدته في غاية المناسبة لتفريج هذا الضيق، وخروج القلب منه إلى سعة البهجة والسرور، وهذه الأمور إنما يصدق بها من أشرقت فيه أنوارها، وبأشرف قلبه حقائقها.

(هوند صفتي «حي القيوم»)

وفي تأثير قوله: «يا حي يا قيوم، برحمتك أستغيث» في دفع هذا الداء مناسبة بدعية، فإن صفة الحياة متضمنة لجميع صفات الكمال، مستلزمة لها، وصفة القيومية متضمنة لجميع صفات الأفعال، ولهذا كان اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى: هو اسم الحي القيوم، والحياة التامة تضاد جميع الأسقام والآلام، ولهذا لما كملت حياة أهل الجنة لم يلحقهم هم ولا غم ولا حزن ولا شيء من الآفات. ونقصان الحياة تضر بالأفعال، وتنافي القيومة، فكمال القيومية لكمال الحياة، فالحي المطلق التام الحياة لا تفوته صفة الكمال البتة، والقيوم لا يتعذر عليه فعل ممكن البتة، فالتوسل بصفة الحياة القيومية له تأثير في إزالة ما يضاد الحياة، ويضر بالأفعال.

(توسله ﷺ بربوبية الله لجبريل وميكائيل وإسرافيل)

ونظير هذا توسل النبي ﷺ إلى ربه بربوبيته لجبريل وميكائيل وإسرافيل أن يهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه، فإن حياة القلب بالهداية، وقد وكل الله سبحانه هؤلاء الملائكة الثلاثة بالحياة، فجبريل موكل بالوحي الذي هو حياة القلوب، وميكائيل بالقطر الذي هو حياة الأبدان والحيوان، وإسرافيل بالنفخ في الصور الذي هو سبب حياة العالم وعود الأرواح إلى أجسادها، فالتوسل إليه سبحانه بربوبية هذه الأرواح العظيمة الموكلة بالحياة، له تأثير في حصول المطلوب.

والمقصود: أن لاسم الحي القيوم تأثيراً خاصاً في إجابة الدعوات، وكشف الكربات، وفي «السنن» و«صحيح أبي حاتم» مرفوعاً: «اسمُ الله الأعظم في هاتين الآيتين (وَاللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبَرِّ وَالْبَرِّ) (وَاللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبَرِّ وَالْبَرِّ)»، وفاتحة آل عمران «آلَهُ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» [آل عمران: ٢٠١]، قال

الترمذي: حديث صحيح [حسن: أحمد: ٢٧٦١١، وابن داود: ١٤٩٦، والترمذي: ٣٤٧٢، وابن ماجه: ٣٨٥٥].

وفي «السنن» و «صحيح ابن حبان» أيضاً: من حديث أنس أن رجلاً دعا، فقال: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الحمد، لا إله إلا أنت المَنَّان، بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، فقال النبي ﷺ: «لَقَدْ دَعَا اللَّهَ بِأَسْمِهِ الْأَعْظَمَ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ» [صحيح: ابن داود: ١٤٩٥، والنسائي (٥٢/٣) وابن ماجه: ٣٨٥٨].

ولهذا كان النبي ﷺ إذا اجتهد في الدعاء قال: «يا حي يا قيوم».

(ما هي، اللهم رحمتك أرجو... والله ربي...)

وفي قوله: «اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرَفَةَ عَيْنٍ، وَأُضْلِخْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» من تحقيق الرجاء لمن الخير كُلَّهُ بيديه والاعتماد عليه وحده، وتفويض الأمر إليه، والتضرع إليه، أن يتولى إصلاح شأنه، ولا يكله إلى نفسه، والتوسل إليه بتوحيده مما له تأثير قوي في دفع هذا الداء، وكذلك قوله: «اللَّهُ ربي لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً».

(ما هي اللهم إني عبدك وابن عبدك من العبودية)

وأما حديث ابن مسعود: «اللَّهُمَّ أَنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ»، ففيه من المعارف الإلهية، وأسرار العبودية ما لا يتسع له كتاب، فإنه يتضمن الاعتراف بعبوديته وعبودية آبائه وأمهاته، وأن ناصيته بيده يُصَرِّفُهَا كيف يشاء، فلا يملك العبد دونه لنفسه نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة، ولا تُشَوَّرُ، لأن من ناصيته بيد غيره، فليس إليه شيء من أمره، بل هو عاني في قبضته، ذليل تحت سلطان قهره.

(إثبات القدر والعمل لله في «ماضي في حكمك»...)

وقوله: «مَاضٍ فِي حُكْمِكَ عَذَلٌ فِي قَضَائِكَ» متضمن لأصلين عظيمين عليهما مدار التوحيد.

أحدهما: إثبات القدر، وأن أحكام الرب تعالى نافذة في عبده ماضية فيه، لا انفكاك له عنها، ولا حيلة له في دفعها.

(اسالك بكل اسم هو لك ...)

والثاني: أنه - سبحانه - عدلٌ في هذه الأحكام،

غير ظالم لعبده، بل لا يخرج فيها عن موجب العدل والإحسان، فإن الظلم سببه حاجة الظالم، أو جهله، أو سفهه، فيستحيل صدوره ممن هو بكل شيء عليم، ومن هو غني عن كل شيء، وكل شيء فقير إليه، ومن هو أحكم الحاكمين، فلا تخرج ذرة من مقدوراته عن حِكْمَتِهِ وحملته، كما لم تخرج عن قدرته ومشيتته، فحِكْمَتُهُ نافذة حيث نفذت مشيئته وقدرته، ولهذا قال نبيُّ الله هود صلى الله على نبينا وعليه وسلم، وقد خَوْفَهُ قَوْمُهُ بِالْهَتَمِ: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَكَتَبْتُ أَنَّ بَرِيءٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ﴾ من دونك، فكيف دوني جِئاً ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكَ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦]، أي: مع كونه سبحانه آخِذاً بنواصي خلقه وتصرفهم كما يشاء، فهو على صراط مستقيم لا يتصرف فيهم إلا بالعدل والحكمة، والإحسان والرحمة. فقوله: «ماضي في حكمك»، مطابق لقوله: ﴿مَّا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٦]، وقوله: «عدل في قضاؤك» مطابق لقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، ثم توسل إلى ربه بأسمائه التي سعى بها نفسه ما عليم العباد منها وما لم يعلموا. ومنها: ما استأثره في علم الغيب عنده، فلم يُطلع عليه ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلًا، وهذه الوسيلة أعظم الوسائل، وأحبها إلى الله، وأقربها تحصيلًا للمطلوب.

(إن تجعل القرآن العظيم ربيع قلوب...)

ثم سأله أن يجعل القرآن لقلبه كالربيع الذي يرتع فيه الحيوان، وكذلك القرآن ربيع القلوب، وأن يجعله شفاء همِّه وغمِّه، فيكون له بمنزلة الدواء الذي يستأصل الداء، ويُعيد البدن إلى صحته واعتداله، وأن يجعله لحُزْنِهِ كالجلاء الذي يجلو الطُّبُوع والأصديّة، وغيرها، فأحرى بهذا العلاج إذا صدق العليل في استعماله أن يُزِيلَ عنه داءه، ويُعْقِبَهُ شفاء تاماً، وصحة وعافية، والله الموفق.

(دعوة ذي النون)

وأما دعوة ذي النون: فإن فيها من كمال التوحيد والتنزيه للرب تعالى، واعتراف العبد بظلمه وذنبيه ما هو من أبلغ أدوية الكرب والهمِّ والغمِّ، وأبلغ الوسائل إلى الله - سبحانه - في قضاء الحوائج، فإن

(الصلاة وتأثيرها في تفريح القلب)

وأما الصلاة، فشأنها في تفريح القلب وتقويته، وشرحه وابتهاجه ولذته أكبر شأن، وفيها من اتصال القلب والروح بالله، وقربه والتعم بذكره، والابتهاج بمناجاته، والوقوف بين يديه، واستعمال جميع البدن وقواه وآلاته في عبوديته، وإعطاء كل عضو حظه منها، واشتغاله عن التعلق بالخلق وملابستهم ومحاوراتهم، وانجذاب قُوى قلبه وجوارحه إلى ربه وفطره، وراحته من عدوه حالة الصلاة ما صارت به من أكبر الأدوية والمفرحات والأغذية التي لا تُلَاقَم إلا القلوب الصحيحة، وأما القلوب العليقة، فهي كالأبدان لا تناسبها إلا الأغذية الفاضلة.

فالصلاة من أكبر العون على تحصيل مصالح الدنيا والآخرة، ودفع مفساد الدنيا والآخرة، وهي منهأة عن الإثم، ودافعة لأدواء القلوب، ومُطَرِّدة للداء عن الجسد، ومُنَوِّرة للقلب، ومُيَبِّضَةٌ للوجه، ومنشطة للجوارح والنفس، وجالية للرزق، ودافعة للظلم، وناصرة للمظلوم، وقامية لأخلاق الشهوات، وحافظة للنعمة، ودافعة للنعمة، ومُنَزِّلة للرحمة، وكاشفة للغمّة، ونافعة من كثير من أوجاع البطن. وقد روى ابن ماجه في «سننه» من حديث مجاهد، عن أبي هريرة قال: رأي رسول الله ﷺ وأنا نائم أشكو من وجع بطني، فقال لي: «يا أبا هريرة أَيْكَمْتَ دَرْزًا؟» قال: قلت: نعم يا رسول الله، قال: «فَمُ فَصَلْ، فَإِنَّ فِي الصَّلَاةِ شِفَاءً» [ابن ماجه: ٣٤٥٨، وسنده ضعيف]. وقد رُوي هذا الحديث موقوفاً على أبي هريرة، وأنه هو الذي قال ذلك لمجاهد، وهو أشبه. ومعنى هذه اللفظة بالفارسي: أيوجعك بطنك؟

(الرد على الأطباء المنكرين لفائدة الصلاة في العلاج)

فإن لم ينشرح صدر زنديق الأطباء بهذا العلاج، فيُخاطب بصناعة الطب، ويقال له: الصلاة رياضة النفس والبدن جميعاً، إذ كانت تشتغل على حركات وأوضاع مختلفة من الانتصاب، والركوع، والسجود، والتورك، والانتقالات وغيرها من الأوضاع التي يتحرك معها أكثر المفاصل، وينغور

التوحيد والتنزيه يتضمنان إثبات كل كمال الله، وسلب كل نقص وعيب وتمثيل عنه. والاعتراف بالظلم يتضمن إيماناً العبد بالشرع والشواب والعقاب، ويوجب انكساره ورجوعه إلى الله، واستقالته عشرته، والاعتراف بعبوديته، وافتقاره إلى ربه، فهنا أربعة أمور قد وقع التوسل بها: التوحيد، والتنزيه، والعبودية والاعتراف.

(«اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن...»)

وأما حديث أبي أمامة: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهمِّ وَالْحَزَنِ»، فقد تضمن الاستعاذة من ثمانية أشياء، كُلُّ اثنين منها قرينان مزدوجان، فالهم والحزن أخوان، والعجز والكسل أخوان، والبخل أخوان، وَصَلَحَ الدِّينَ وَغَلَبَةُ الرِّجَالِ أَخَوَانِ، فإن المكروه المؤلم إذا ورد على القلب، فإذا أن يكون سبباً أمراً ماضياً، فيوجب له الحزن، وإن كان أمراً متوقفاً في المستقبل، أوجب الهم، وتخلّف العبد عن مصالحه وتقويتها عليه، إما أن يكون من عدم القدرة وهو العجز، أو من عدم الإرادة وهو الكسل، وحبس خيره ونفعه عن نفسه وعن بني جنسه، إما أن يكون منع نفعه ببدنه، فهو الجبن، أو بماله، فهو البخل، وقهر الناس له إما بحق، فهو ضَلَحَ الدِّينَ، أو بباطل فهو غلبة الرجال، فقد تضمن الحديث الاستعاذة من كل شر، وأما تأثير الاستغفار في دفع الهم والغم والضيق، فلما اشترك في العلم به أهل الملل وعقلاء كُلِّ أمة أن المعاصي والفساد تُوجب الهم والغم، والخوف والحزن، وضيق الصدر، وأمراض القلب، حتى إن أهلها إذا قضوا منها أوطارهم، وسمتها نفوسهم، ارتكبوا دفعا لما يجدونه في صدورهم من الضيق والهم والغم، كما قال شيخ الفسوق^(١):

وَكَاَسِ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ

وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

(التوبة والاستغفار)

وإذا كان هذا تأثير الذنوب والآثام في القلوب، فلا دواء لها إلا التوبة والاستغفار.

(١) هو الأعشى ميمون بن قيس، وهو في ديوانه ص(١٢١)

معها أكثر الأعضاء الباطنة، كالمعدة، والأمعاء، وسائر آلات النفس، والغذاء، فما يُنكر أن يكون في هذه الحركات تقوية وتحليل للمواد، ولا سيما بواسطة قوة النفس وانتسراحها في الصلاة، فتقوى الطبيعة، فيندفع الألم، ولكن داء الزندقة والإعراض عما جاءت به الرسل، والتعرض عنه بالإلحاد داء ليس له دواء إلا نَارٌ تُلْظِي لا يصلحها إلا الأشفى الَّذِي كَذَّبَ وتولَّى.

(تأثير الجهاد في دفع الهم)

وأما تأثير الجهاد في دفع الهم والغم، فأمر معلوم بالوجدان، فإن النفس متى تركت صائِلَ الباطل وصولته واستيلائه، اشتدَّ همُّها وغمُّها، وكرهها وخوفها، فإذا جاهدته لله أبدل الله ذلك الهمَّ والحزنَ فرحاً ونشاطاً وقوة، كما قال تعالى: ﴿فَنَلْتَمِسْهُمْ يُرِيدُهُمُ اللَّهُ يَأْبِيهِمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَيْفَ صُدُّوا قَوْمٌ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]، فلا شيء أذهب لجوى القلب وغمه وهمه وحزنه من الجهاد، والله المستعان.

(تأثير الحوقلة في دفع الهم)

وأما تأثيرُ لا حول ولا قوة إلا بالله في دفع هذا الداء، فلما فيها من كمال التفويض والتبري من الحول والقوة إلا به، وتسليم الأمر كله له، وعدم منازعته في شيء منه، وعموم ذكل لكلِّ تحول من حال إلى حال في العالم العلوي والسفلي، والقوة على ذلك التحول، وأن ذلك كُلُّه بالله وحده، فلا يقوم لهذه الكلمة شيء. وفي بعض الآثار: إنه ما ينزل ملك من السماء، ولا يصعد إليها إلا بلا حول ولا قوة إلا بالله، ولها تأثير عجيب في طرد الشيطان، والله المستعان.

فصل

في هديه ﷺ في علاج الفزع، والأرقِ المانع من النوم

روى الترمذي في «جامعه» عن بُريدة قال: شكا خالد إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! ما أنام الليل من الأرق، فقال النبي ﷺ: «إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ قُلْ: اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَغْلَتْ، وَرَبَّ

الْأَرْضَيْنِ، وَمَا أَقْلَتْ، وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ، وَمَا أَضَلَّتْ، كُنْ لِي جَاراً مِنْ شَرِّ خَلْقِكَ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَنْ يَفْرُطَ عَلَيَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ، أَوْ يَنْغِي عَلَيَّ، عَزَّ جَارُكَ، وَجَلَّ ثَنَاؤُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ» [الترمذي: ٣٥١٨، وفي سننه متروك].

وفيه أيضاً: عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ كان يُعَلِّمُهُمُ مِنَ الْفَزَعِ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ الثَّامَةِ مِنْ غَضَبِهِ، وَعِقَابِهِ، وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ، وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ»، قال: وكان عبد الله بن عمرو يعلمهم من عَقَلٍ من بنيه، ومن لم يَعْقِلْ كُتِبَ، فأعلقه عليه [احمد: ٦٦٩٦، وابو داود: ٣٨٩٣، والترمذي: ٣٥١٩، ورجاله ثقات]، ولا يخفى مناسبة هذه العُودَة لعلاج هذا الداء.

فصل

في هديه ﷺ في علاج داء الحريق وإطفائه

يذكر عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْحَرِيقَ فَكَبِّرُوا، فَإِنَّ التَّكْبِيرَ يُطْفِئُهُ» [ابن السني (٢٨٩-٢٩٠-٢٩١-٢٩٢) وفي سننه متروك]. لما كان الحريقُ سببُ النار، وهي مادة الشيطان التي خُلِقَ منها، وكان فيه من الفساد العام ما يُناسب الشيطان ب مادته وفعله، كان للشيطان إعانة عليه، وتنفيذ له، وكانت النارُ تَطْلُبُ بطبعها العلو والفساد، وهذان الأمران، وهما العلو في الأرض والفساد هما هدي الشيطان، وإليهما يدعو، وبهما يَهْلِكُ بني آدم، فالنار والشيطان كل منهما يُريد العلو في الأرض والفساد، وكبرياء الرب - عز وجل - تَقْضِي الشيطان وفعله.

(أثر التكبير في إخماد النار مادة الشيطان)

ولهذا كان تكبير الله - عز وجل - له أثر في إطفاء الحريق، فإن كبرياء الله - عز وجل - لا يقوم لها شيء، فإذا كَبَّرَ المسلم ربَّه، أثار تكبيره في خمود النار وخمود الشيطان التي هي مادته، فيُطْفِئ الحريق، وقد جربنا نحن وغيرنا هذا، فوجدناه كذلك، والله أعلم.

فصل

في هديه ﷺ في حفظ الصحة

(قوام البدن على الحرارة والرطوبة)

ما يستفاد من قوله ﴿وَكُلُوا وَشَرِبُوا وَلَا تَاسِفُوا﴾

لما كان اعتدال البدن وصحته ويقاؤه إنما هو بواسطة الرطوبة المقاومة للحرارة، فالرطوبة مادته، والحرارة تُنضِجُها، وتدفع فضلاتها، وتُصلحها، وتلطفها، وإلا أفسدت البدن ولم يمكن قيامه، وكذلك الرطوبة هي غذاء الحرارة، فلولا الرطوبة، لأحرقت البدن وأيسته وأفسدته، فقوام كل واحدة منهما بصاحبتها، وقوام البدن بهما جميعاً، وكل منهما مادة للأخرى، فالحرارة مادة للرطوبة تحفظها وتمنعها من الفساد والاستحالة، والرطوبة مادة للحرارة تغذوها وتحملها، ومتى مالت إحداها إلى الزيادة على الأخرى، حصل لمزاج البدن الانحراف بحسب ذلك، فالحرارة دائماً تُحلِّلُ الرطوبة، فيحتاج البدن إلى ما به يُخَلَّفُ عليه ما حللته الحرارة - لضرورة بقاءه - وهو الطعام والشراب، ومتى زاد على مقدار التحلل، ضعفت الحرارة عن تحليل فضلاته، فاستحالت مواد دينة، فعانت في البدن، وأفسدت، فحصلت الأمراض المتنوعة بحسب تنوع موادها وقبول الأعضاء واستعدادها، وهذا كله مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَكَلْبُوا وَلَا تَسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]، فأرشد عباده إلى إدخال ما يُقِيمُ البدن من الطعام والشراب عوضاً ما تحلل منه، وأن يكون بقدر ما ينتفع به البدن في الكمية والكيفية، فمتى جاوز ذلك كان إسرافاً، وكلاهما مانع من الصحة جالب للمرض، أعني عدم الأكل والشرب، أو الإسراف فيه.

فحفظ الصحة كله في هاتين الكلمتين الإلهيتين، ولا ريب أن البدن دائماً في التحلل والاستخلاف، وكلما كثر التحلل ضعفت الحرارة لفناء مادتها، فإن كثرة التحلل تُفني الرطوبة، وهي مادة الحرارة، وإذا ضعفت الحرارة، ضعفت الهضم، ولا يزال، كذلك حتى تفنى الرطوبة، وتطفئ الحرارة جملة، فيستكمل العبد الأجل الذي كتب الله له أن يعيِّلَ إليه.

(غاية علاج الإنسان الاعتدال بين الحرارة والرطوبة)

فغاية علاج الإنسان لنفسه ولغيره حراسة البدن إلى أن يصل إلى هذه الحالة، لا أنه يستلزم بقاء الحرارة والرطوبة اللتين بقاء الشباب والصحة والقوة بهما، فإن هذا مما لم يحصل لبشر في هذه الدار، وإنما غاية الطبيب أن يحمي الرطوبة عن مفسداتها من العفونة وغيره، ويحمي الحرارة عن مُضِيفَاتِها، ويعدل بينهما بالعدل في التدبير الذي به قام بدن الإنسان، كما أن به قامت السماوات والأرض وسائر المخلوقات، إنما قوامها بالعدل، ومن تأمل هدي النبي ﷺ وجده أفضل هدي يُمكن حِفْظُ الصِّحة به، فإن حفظها موقوف على حسن تدبير المطعم والمشرب، والملبس والسكن، والهواء والنوم، واليقظة والحركة، والسكون والمنكح، والاستفراغ والاحتباس، فإذا حصلت هذه على الوجه المعتدل الموافق للملائم للبدن والبلد والسنَّ والعادة، كان أقرب إلى دوام الصحة أو غلبتها إلى انقضاء الأجل.

(الصحة من أجل النعم وذكر الأخبار في ذلك)

ولما كانت الصحة والعافية من أجل نعم الله على عبده، وأجزل عطاياء، وأوفر منحه، بل العافية المطلقة أجل النعم على الإطلاق، فحقيق لمن رزق حظاً من التوفيق مراعاتها وحفظها وحمايتها عما يُضادها، وقد روى البخاري في «صحيحه» من حديث ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُوتَانِ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ» [البخاري: ٦٤١٢].

وفي الترمذي وغيره من حديث عبيد الله بن محسن الأنصاري، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مُعَافَى فِي جَسَدِهِ، آمَنَ فِي سِرِّهِ، عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمُهُ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا» [الترمذي: ٢٣٤٧، وابن ماجه: ٤١٤١].

وفي الترمذي أيضاً من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «أَوَّلُ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ النَّعِيمِ، أَنْ يَقَالَ: اللَّهُمَّ نَصَحْتُ لَكَ جِسْمَكَ، وَتَرَوُكَ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ» [الترمذي: ٣٥٥٥].

ومن ههنا قال من قال من السلف في قوله تعالى:

﴿ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]، قال: عن الصحة.

وفي «مسند الإمام أحمد» أن النبي ﷺ قال للعباس: يَا عَبَّاسُ، يَا عَمَّ رَسُولَ اللَّهِ سَلِ اللَّهَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ [أحمد: ١٧٨٣، والترمذي: ٣٥٠٩، وفي سنده ضعف].

وفيه عن أبي بكر الصديق، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سَلُوا اللَّهَ الْيَقِينَ وَالْمُعَافَاةَ، فَمَا أُوتِيَ أَحَدٌ بَعْدَ الْيَقِينِ خَيْرًا مِنَ الْعَافِيَةِ» [صحيح: أحمد: ٥ - ١٧، وابن ماجه: ٣٨٤٩]، فجمع بين عافيتي الدين والدنيا، ولا يَتِمُّ صلاح العبد في الدارين إلا باليقين والعافية، فاليقين يدفع عنه عقوبات الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا في قلبه ويدنه.

وفي «سنن النسائي» من حديث أبي هريرة يرفعه: «سَلُوا اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ وَالْمُعَافَاةَ، فَمَا أُوتِيَ أَحَدٌ بَعْدَ يَقِينٍ خَيْرًا مِنْ مُعَافَاةٍ» [النسائي في «عمل اليوم والليلة»]. وهذه الثلاثة تتضمن إزالة الشرور الماضية بالعفو، والحاضرة بالعافية، والمستقبلية بالمعافاة، فإنها تتضمن المداومة والاستمرار على العافية.

وفي الترمذي مرفوعاً: «مَا سَأَلَ اللَّهُ شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الْعَافِيَةِ» [الترمذي: ٣٥١٠].

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى: عن أبي الدرداء، قلت: يا رسول الله! لأن أعافي فأشكر أحب إلي من أن أبتلى فأصبر، فقال رسول الله ﷺ: «وَرَسُولُ اللَّهِ يُحِبُّ مَعَكَ الْعَافِيَةَ».

ويُذكر عن ابن عباس أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال له: ما أسأل الله بعد الصلوات الخمس؟ فقال: «سَلِ اللَّهَ الْعَافِيَةَ»، فأعاد عليه، فقال له في الثالثة: سَلِ اللَّهَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

(هديه ﷺ في مراعاة أمور الصحة)

وإذا كان هذا شأن العافية والصحة، فنذكر من هديه ﷺ في مراعاة هذه الأمور ما يتبين لمن نظر فيه أنه أكمل هدي على الإطلاق ينال به حفظ صحة البدن والقلب، وحياة الدنيا والآخرة، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فصل

(هديه ﷺ في المطعم والمشرب)

فأما المطعم والمشرب، فلم يكن من عادته ﷺ حبس النفس على نوع واحد من الأغذية لا يتعداه إلى ما سواه، فإن ذلك يضر بالطبيعة جداً، وقد يتعذر عليها أحياناً، فإن لم يتناول غيره، ضعف أو هلك، وإن تناول غيره، لم تقبله الطبيعة، واستضر به، فقصُرَها على نوع واحد دائماً - ولو أنه أفضل الأغذية - خطر مضر.

بل كان يأكل ما جرت عادة أهل بلده بأكله من اللحم، والفاكهة، والخُبز، والتمر، وغيره مما ذكرناه في هديه في المأكول، فعليك بمراجعته هناك.

(تعديل الطعام بضده)

وإذا كان في أحد الطعامين كيفية تحتاج إلى كسر وتعديل، كسرهما وعدلها بضدها إن أمكن، كتعديل حرارة الرطَبِ بالبطيخ، وإن لم يجد ذلك، تناوله على حاجة وداعية من النفس من غير إسراف، فلا تتضرر به الطبيعة.

(ترك ما تعافاه النفس)

وكان إذا عافت نفسه الطعام لم يأكله، ولم يحملها إياه على كُرِه، وهذا أصل عظيم في حفظ الصحة، فمتى أكل الإنسان ما تعافه نفسه، ولا يشتهي، كان تضرره به أكثر من انتفاعه. قال أبو هريرة: ما عاب رسول الله ﷺ طعاماً قط، إن اشتهاه أكله، وإلا تركه، ولم يأكل منه [البخاري: ٣٥٦٣، ومسلم: ٥٣٨٠]. ولما قُدِّمَ إليه الضَّبُّ المشوي لم يأكل منه، فقليل له: أهو حرام؟ قال: «لَا، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ بِأَرْضِ قَوْمي، فَأَجِدُنِي أَعَافُهُ» [البخاري: ٥٤٠٠، ومسلم: ٥٠٣٥]. فراعى عادته وشهوته، فلما لم يكن يعتاد أكله بأرضه، وكانت نفسه لا تشتهي، أمسك عنه، ولم يمنع من أكله من يشتهي، ومن عادته أكله.

(محبه ﷺ للذراع)

وكان يحب اللحم، وأحبَّ إليه الذراع، ومقدم الشاة، ولذلك سم فيه، وفي «الصحيحين»: أتى رسول الله ﷺ بلحم، فرفع إليه الذراع، وكانت تُعجبه [البخاري: ٣٣٤٠، ومسلم: ٤٨٠].

(أكله ﷺ للرقبة)

وذكر أبو عبيدة وغيره عن ضباعة بنت الزبير، أنها ذبحت في بيتها شاة، فأرسل إليها رسول الله ﷺ أن أطعمينا من شاتكم، فقالت للرسول: ما بقي عندنا إلا الرقبة، وإنني لأستحي أن أرسل بها إلى رسول الله ﷺ، فرجع الرسول فأخبره، فقال: «ارْجِعِ إِلَيْهَا فَقُلْ لَهَا: أَرْسِلِي بِهَا، فَإِنَّهَا هَادِيَةُ الشَّاةِ وَأَقْرَبُ إِلَى الْحَنَرِ، وَأُبْعِدُنَا مِنَ الْأَذَى» [احمد: ٢٧٠٣١، ورجاله ثقات إلا الفضل وثقه ابن حبان].

ولا ريب أن أخفَّ لحم الشاة لحم الرقبة، ولحم الذراع، والعُضد، وهو أخفُّ على المعدة، وأسرع انهماضاً، وفي هذا مراعاة الأغذية التي تجمع ثلاثة أوصاف. أحدها: كثرة نفعها وتأثيرها في القوى. الثاني: خفتها على المعدة، وعدم ثقلها عليها. الثالث: سرعة هضمها، وهذا أفضل ما يكون من الغذاء، والتغذي باليسير من هذا أنفع من الكثير من غيره.

(محبة ﷺ للمطواء والمسل)

وبيان أنهما مع اللحم أفضل التغذية)

وكان يُحب الحلواء والعسل، وهذه الثلاثة - أعني: اللحم والعسل والحلواء - من أفضل الأغذية، وأنفعها للبدن والكبد والأعضاء، وللإغتذاء بها نفع عظيم في حفظ الصحة والقوة، ولا ينفّر منها إلا من به علة وآفة.

(يؤدم ﷺ خبز الشعير)

باللحم والبطيخ والتمر والخل وهواند ذلك ومعنى (الدم)

وكان يأكلُ الخبز مَادُوماً ما وجد له إداماً، فتارة يأدمه باللحم ويقول: «هُوَ سَيِّدُ طَعَامِ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ». رواه ابن ماجه وغيره [ابن ماجه: ٣٣٠٥]. وتارة بالبطيخ، وتارة بالتمر، فإنه وضع تمره على كسرة شعير، وقال: «هَذَا إِدَامُ هَذِهِ» [أبو داود: ٣٢٥٩، ورجاله ثقات لكنه منقطع]. وفي هذا من تدبير الغذاء أن خبز الشعير بارد يابس، والتمر حار رطب على أصح القولين، فأدم خبز الشعير به من أحسن التدبير، لا سيما لمن تلك عادتهم، كأهل المدينة، وتارة بالخل، ويقول: «نِعْمَ الْإِدَامُ الْخَلُّ»، وهذا ثناء عليه

بحسب مقتضى الحال الحاضر، لا تفضيل له على غيره، كما يظن الجهال، وسبب الحديث أنه دخل على أهله يوماً، فقدّموا له خبزاً، فقال: «هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ إِدَامٍ؟» قالوا: ما عندنا إلا خل، فقال: «نِعْمَ الْإِدَامُ الْخَلُّ» [مسلم: ٥٣٥٢].

والمقصود: أن أكل الخبز مَادُوماً من أسباب حفظ الصحة، بخلاف الافتصار على أحدهما وحده. وسمي الأدم أدماً: لإصلاحه الخبز، وجعله ملائماً لحفظ الصحة. ومنه قوله في إباحته للمخاطب النظر: إنه أحرى أن يؤدّم بينهما، أي أقرب إلى الالتئام والموافقة، فإن الزوج يدخل على بصيرة، فلا يندم.

(أكله ﷺ الفاكهة)

وكان يأكل من فاكهة بلده عند مجيئها، ولا يحتمي عنها، وهذا أيضاً من أكبر أسباب حفظ الصحة، فإن الله سبحانه بحكمته جعل في كل بلدٍ من الفاكهة ما ينتفع به أهلها في وقته، فيكون تناوله من أسباب صحتهم وعافيتهم، ويغني عن كثير من الأدوية، وقلّ من احتجى عن فاكهة بلده خشية السقم إلا وهو من أسقم الناس جسماً، وأبعدهم من الصحة والقوة.

وما في تلك الفاكهة من الرطوبات، فحرارة الفصل والأرض، وحرارة المعدة تُضجّجها وتدفّع شرها إذا لم يُسوّف في تناولها، ولم يُحمّل منها الطبيعة فوق ما تحتمله، ولم يُسَدّ بها الغذاء قبل هضمه، ولا أفسدها بشرب الماء عليها، وتناول الغذاء بعد التحلي منها، فإن القولنج كثيراً ما يحدث عند ذلك، فمن أكل منها ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي، كانت له دواءً نافعاً.

فصل

في هديه ﷺ في هيئة الجلوس للأكل

(عدم الإنكاء عند الإكل)

صح عنه أنه قال: «لَا أَكُلُ مُتَكَبِّراً» [بخاري: ٥٣٩٨]، وقال: «إِنَّمَا أَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ، وَأَكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ» [أبو الشيخ من حديث عائشة، وابن سعد (١) / ٣٨١].

(عدم الأكل مع الانبطاح)

وروى ابن ماجه في «سننه» أنه نهى أن يأكل الرجلُ

وهو منبسط على وجهه [أبو داود: ٣٧٧٥، وابن ماجه: ٣٣٧٠].

(تفسير الانتكاء)

وقد فسر الانتكاء بالترُّبُّع، وفسر بالانتكاء على الشيء، وهو الاعتمادُ عليه، وفسر بالانتكاء على الجنب. والأنواع الثلاثة من الانتكاء، فنوع منها يضرُّ بالآكل، وهو الانتكاء على الجنب، فإنه يمنع مجرى الطعام الطبيعي عن هيئته، ويعوقه عن سرعة نفوذه إلى المعدة، ويضغظ المعدة، فلا يستحكم فتحها للغذاء، وأيضاً فإنها تميل ولا تبقى منتصبه، فلا يصل الغذاء إليها بسهولة.

وأما النوعان الآخران: فمن جلوس الجبابة المنافي للعبودية، ولهذا قال: «أَكَلْ كما يَأْكُلُ الْعَبْدُ» وكان يأكل وهو مُقَع [مسلم: ٥٣٣١]، ويُذكر عنه أنه كان يجلس للأكل متورِّكاً على ركبته، ويضع بطن قدمه اليسرى على ظهر قدمه اليمنى تواضعاً لربه عز وجل، وأدباً بين يديه، واحتراماً للطعام وللمؤاكل، فهذه الهيئة أنفع هيئات الأكل وأفضلها، لأن الأعضاء كلها تكون على وضعها الطبيعي الذي خلقها الله سبحانه عليه مع ما فيها من الهيئة الأدبية، وأجود ما اغتنى الإنسان إذا كانت أعضاؤه على وضعها الطبيعي، ولا يكون كذلك إلا إذا كان الإنسان منتصباً الانتصاب الطبيعي، وأردأ الجلسات للأكل الانتكاء على الجنب، لما تقدم من أن المريء، وأعضاء الازدرد تضيق عند هذه الهيئة، والمعدة لا تبقى على وضعها الطبيعي، لأنها تنعصر مما يلي البطن بالأرض، ومما يلي الظهر بالحجاب الفاصل بين آلات الغذاء، وآلات التنفس.

وإن كان المراد بالانتكاء الاعتماد على الوسائد والوطاء الذي تحت الجالس، فيكون المعنى أنني إذا أكلت لم أقدم متكئاً على الأوطية والوسائد، كفعل الجبابة، ومن يُريد الإكثار من الطعام، لكني أكل بُلغةً كما يأكل العبد.

فصل

(الشكل بالصائغ الثلاث)

وكان يأكلُ بأصابعه الثلاث، وهذا أنفع ما يكون من الأكلات، فإن الأكل بأصبع أو أصبعين لا يستلذ

به الأكل، ولا يُمره، ولا يُشبعه إلا بعد طول، ولا تفرح آلات الطعام والمعدة بما ينالها في كل أكلة، فتأخذها على إغماض، كما يأخذ الرجل حقه حبة أو حبتين أو نحو ذلك، فلا يلتذ بأخذه، ولا يُسرُّ به، والأكل بالخمس والراحة يُوجب ازدحام الطعام على آلاته، وعلى المعدة، وربما انسدت الآلات فمات، وتغصب الآلات على دفعه، والمعدة على احتماله، ولا يجد له لذة ولا استمرار، فأنفع الأكل أكله بأصابعه، وأكل من اقتدى به بالأصابع الثلاث.

فصل

(عدم الشكل أو الجمع بين بعض الأطعمة)

ومن تدبر أغذيته بأصابعه، وما كان يأكله، وجده لم يجمع قط بين لبن وسمن، ولا بين لبن وحامض، ولا بين غذاءين حارَّين، ولا باردَّين، ولا لَرَجِين، ولا قابضين، ولا مُسهلين، ولا غليظين، ولا مُرخين، ولا مستحليين إلى خلط واحد، ولا بين مختلفين كقابض ومسهل، وسريع الهضم وبطيء، ولا بين شوي وطبخ، ولا بين طري وقديد، ولا بين لبن وبيض، ولا بين لحم ولبن، ولم يكن يأكل طعاماً في وقت شدة حرارته، ولا طبعاً باتناً يُسخن له بالغد، ولا شيئاً من الأطعمة العَفِنَة والمالحة، كالكوامخ والمخللات، والملوحات، وكل هذه الأنواع ضار مولد لأنواع من الخروج عن الصحة والاعتدال.

(تعديل الطعام بضده)

وكان يصلح ضرر بعض الأغذية ببعض إذا وجد إليه سبيلاً، فيكسر حرارة هذا ببرودة هذا، وبؤسة هذا برطوبة هذا، كما فعل في القثاء والرطب، وكما كان يأكل التمر بالسمن، وهو الخيش، ويشرب قيع التمر يُلطّف به كيوسات الأغذية الشديدة.

(الأمر بالعشاء)

(عدم النوم على الشكل)

وكان يأمر بالعشاء، ولو بكف من تمر، ويقول: «تَرَكُ الْعَشَاءَ مَهْرَمَةً»، ذكره الترمذي في «جامعه»، وابن ماجه في «مسنده» [الترمذي: ١٨٥٧، وابن ماجه: ٣٣٥٥، وسنده ضعيف]. وذكر أبو نعيم عنه أنه كان ينهي

لم يعتد هذه الأشربة، ولا ألفها طبعه، فإنه إذا شربها لا تلائمه ملازمة العسل، ولا قريباً منه، والمحكم في ذلك العادة، فإنها تهدم أصولاً، وتبني أصولاً.

وأما الشراب إذا جمع وصفي الحلاوة والبرودة، فمن أنفع شيء للبدن، ومن أكبر أسباب حفظ الصحة، وللأرواح والقوى، والكبد والقلب، عشق شديد له، واستمداد منه، وإذا كان فيه الرصفان، حصلت به التغذية، وتنفيذ الطعام إلى الأعضاء، ويصله إليها أتم تنفيذ.

(منافع الماء البارد)

والماء البارد رطب يقمع الحرارة، ويحفظ على البدن رطوباته الأصلية، ويرد عليه بدل ما تحلل منها، ويرقق الغذاء ويُنفذه في العروق.

(هل الماء البارد يغذي البدن؟)

واختلف الأطباء: هل يُغذي البدن؟ على قولين: فأثبت طائفة التغذية به بناءً على ما يشاهدونه من النمو والزيادة والقوة في البدن به، ولا سيما عند شدة الحاجة إليه.

قالوا: وبينَ الحيوان والنبات قدر مشترك من وجوه عديدة منها: النمو والاعتدال والاعتدال، وفي النبات قوةً جِسْ تَناسيه، ولهذا كان غذاء النبات بالماء، فما يُنكر أن يكون للحيوان به نوعُ غذاء، وأن يكون جزءاً من غذائه التام.

قالوا: ونحن لا ننكر أن قوة الغذاء ومعظمه في الطعام، وإنما أنكرنا أن لا يكون للماء تغذية البتة. قالوا: وأيضاً الطعام إنما يغذي بما فيه من المائية، ولولاها لما حصلت به التغذية.

قالوا: ولأن الماء مادة حياة الحيوان والنبات، ولا ريب أن ما كان أقرب إلى مادة الشيء، حصلت به التغذية، فكيف إذا كانت مادته الأصلية، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، فكيف ننكر حصول التغذية بما هو مادة الحياة على الإطلاق؟

قالوا: وقد رأينا العطشان إذا حصل له الرِّيُّ بالماء البارد، تراجعت إليه قواه ونشاطه وحرته، وصبر عن الطعام، وانتفع بالقدر اليسير منه، ورأينا العطشان لا ينتفع بالقدر الكثير من الطعام، ولا يجد به القوة

عن النوم على الأكل، ويذكر أنه يُقسي القلب، ولهذا في وصايا الأطباء لمن أراد حفظ الصحة: أن يمشي بعد العشاء خطوات ولو مئة خطوة، ولا ينام عقيب، فإنه مضر جداً، وقال مسلموهم: أو يُصلي عقيبهُ ليستقر الغذاء بقر المعدة، فيسهل هضمه، ويجود بذلك.

(عدم الشرب على الطعام)

ولم يكن من هديه أن يشرب على طعامه فيفسده، ولا سيما إن كان الماء حاراً أو بارداً، فإنه رديء جداً. قال الشاعر:

لَا تَكُنْ عِنْدَ أَكْلِ سُخْنٍ وَبَرْدٍ .

وَدُخُولِ الْحَمَامِ تَشْرَبُ مَاءً
فَإِذَا مَا اجْتَنَبْتَ ذَلِكَ حَقًّا

لَمْ تَخَفْ مَا حَيَّيْتُ فِي الْجَوْفِ دَاءً
(اللوقات التي ينصح فيها بعدم الشرب)

وذكره شرب الماء عقيب الرياضة، والتعب، وعقيب الجماع، وعقيب الطعام وقبله، وعقيب أكل الفاكهة، وإن كان الشرب عقيب بعضها أسهل من بعض، وعقب الحمام، وعند الانتباه من النوم، فهذا كُلُّه منافع لحفظ الصحة، ولا اعتبار بالعوائد، فإنها طابع ثواب.

فصل

(هديه ٢٢٢ هي الشرب)

وشربه ٢٢٢ العسل الممزوج بالماء البارد وهو أنفعه)

وأما هديه في الشراب، فمن أكمل هدي يحفظ به الصحة، فإنه كان يشرب العسل الممزوج بالماء البارد، وفي هذا من حفظ الصحة ما لا يهتدي إلى معرفته إلا أفاضل الأطباء، فإن شربه ولعقه على الريق يُذيب البلغم، ويغسل حُمْلَ المعدة، ويجلو لزوجتها، ويدفع عنها الفضلات، ويُسخنها باعتدال، ويفتح سددها، ويفعل مثل ذلك بالكبد والكلى والمثانة، وهو أنفع للمعدة من كل حلو دخلها، وإنما يضر بالعرَض لصاحب الصفراء لحدته وحدة الصفراء، وربما هيَّجها، ودفع مضرته لهم بالخل، فيعود حيثن لهم نافعاً جداً، وشربه أنفع من كثير من الأشربة المتخذة من السكر أو أكثرها، ولا سيما لمن

والاغْتذاء، ونحن لا نَنْكِرُ أن الماءَ يُنْفَذُ الغذاءَ إلى أجزاءِ البدن، وإلى جميع الأعضاء، وأنه لا يتم أمر الغذاء إلا به، وإنما ننكر على من سلب قوة التغذية عنه البتة، ويكاد قوله عندنا يدخل في إنكار الأمور الوجدانية.

(من أنكر حصول التغذية بالماء البارد)

وأنكرت طائفة أخرى حصول التغذية به، واحتجت بأمور يرجع حاصلها إلى عدم الاكتفاء به، وأنه لا يقوم مقام الطعام، وأنه لا يزيد في نمو الأعضاء، ولا يخلف عليها بدل ما حللته الحرارة، ونحو ذلك مما لا ينكره أصحاب التغذية، فإنهم يجعلون تغذيته بحسب جوهره، ولطافته ورقته، وتغذية كل شيء بحسبه، وقد شوهد الهواء الرطب البارد اللين اللذيذ يُغذي بحسبه، والرائحة الطيبة تُغذي نوعاً من الغذاء، فتغذية الماء أظهر وأظهر.

والمقصود: أنه إذا كان بارداً، وخالطه ما يحليه كالعسل أو الزبيب، أو التمر أو السكر، كان من أنفع ما يدخل البدن، وحفظ عليه صحته، فلهذا كان أحب الشراب إلى رسول الله ﷺ البارد الحلو. والماء الفائر ينفخ، ويفعل ضد هذه الأشياء.

(منافع الماء البائت)

ولما كان الماء البائت أنفع من الذي يُشرب وقت استقائه، قال النبي ﷺ: وقد دخل إلى حائط أبي الهيثم بن التيهان: «هل من ماء بات في شئ؟» فأتاه به، فشرب منه، رواه البخاري ولفظه: «إن كان عندك ماء بات في شئ ولا كَرَحًا» [البخاري: ٥٦٢١].

والماء البائت بمنزلة العجين الخمير، والذي شرب لوقته بمنزلة الفطير، وأيضاً فإن الأجزاء الترابية والأرضية تُفارق إذا بات، وقد ذكر أن النبي ﷺ كان يُسْتَعَذَّبُ لَهُ الماء، ويختار البائت منه. وقالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يسقي له الماء العذب من بئر السقياء [ابن داود: ٣٧٣٥].

(الماء الذي في القرب والشنان)

الذي من الذي في آنية الفخار والأحجار وغيرها)

والماء الذي في القرب والشنان، الذي من الذي يكون في آنية الفخار والأحجار وغيرها، ولا سيما

أسقية الأدم، ولهذا التمس النبي ﷺ ماء بات في شئ دون غيرها من الأواني، وفي الماء إذا وضع في الشنان، وقرب الأدم خاصة لطيفة لما فيها من المسام المفتحة التي يرشح منها الماء، ولهذا كان الماء في الفخار الذي يرشح ألد منه، وأبرد في الذي لا يرشح، فصلاة الله وسلامه على أكمل الخلق، وأشرفهم نفساً، وأفضلهم هدياً في كل شيء، لقد دل أمته على أفضل الأمور وأنفعها لهم في القلوب والأبدان، والدنيا والآخرة.

(معنى «الحلو البارد»)

قالت عائشة: كان أحب الشراب إلى رسول الله ﷺ الحلو البارد [صحيح: أحمد: ٢٤١٠٠، والترمذي: ١٨٩٦]. وهذا يحتمل أن يريد به الماء العذب، كميائه العيون والآبار الحلوة، فإنه كان يُستعذب له الماء. ويحتمل أن يريد به الماء الممزوج بالعسل، أو الذي نُقِعَ فيه التمر أو الزبيب. وقد يقال - وهو الأظهر - : يعمهما جميعاً.

(معنى الكرع وبين الاختلاف فيه)

وقوله في الحديث الصحيح: «إن كان عندك ماء بات في شئ ولا كَرَحًا»، فيه دليل على جواز الكرع، وهو الشرب بالقم من الحوضي والبقرة ونحوها، وهذه - والله أعلم - واقعة عين دعت الحاجة فيها إلى الكرع بالقم، أو قاله مبيناً لجوازه، فإن من الناس من يكرهه، والأطباء تكاد تحرّمه، ويقولون: إنه يضر بالمعدة، وقد روي في حديث لا أدري ما حاله عن ابن عمر، أن النبي ﷺ نهانا أن نشرب على بطوننا، وهو الكرع، ونهانا أن نفتقر باليد الواحدة قوال: «لا يَلْغُ أَحَدُكُمْ كَمَا يَلْغُ الْكَلْبُ، وَلَا يَشْرَبُ بِاللَّيْلِ مِنْ إِنَاءٍ حَتَّى يَخْتَبِرَهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُحَرَّمًا» [ابن ماجه: ٣٤٣١، وسنده ضعيف].

وحديث البخاري أصح من هذا، وإن صح، فلا تعارض بينهما، إذ لعل الشرب باليد لم يكن يمكن حينئذ، فقال: «ولا كَرَحًا»، والشرب بالقم إنما يضر إذا انكب الشارب على وجهه ويطنه، كالذي يشرب من النهر والغدير، فأما إذا شرب متصبباً بقمه من حوض مرتفع ونحوه، فلا فرق بين أن يشرب بيده أو بقمه.

فصل

(بيان الاختلاف في جواز الشرب قائماً)

فاروى: أشدُّ رثاءً، وأبلغه وأنفعه، وأبرأ: أفعل من البرء، وهو الشفاء، أي يُبرى من شدة العطش ودائه لتردده على المعدة الملتهبة دفعات، فتسكن الدفعة الثانية ما عجزت الأولى عن تسكينه، والثالثة ما عجزت الثانية عنه، وأيضاً فإنه أسلمٌ لحرارة المعدة، وأبقى عليها من أن يهجم عليها الباردُ وهلة واحدة، ونهلة واحدة.

وأيضاً فإنه لا يروى لمصادفته لحرارة العطش لحظة، ثم يُقلع عنها، ولما تُكسر سورثها وجذثها، وإن انكسرت لم تبطل بالكلية بخلاف كسرها على التمهّل والتدرّج.

وأيضاً فإنه أسلم عاقبة، وآمن غائلة من تناول جميع ما يُروى دفعة واحدة، فإنه يخاف منه أن يطفئ الحرارة الغريزية بشدة برده، وكثرة كميته، أو يُضعفها فيؤدي ذلك إلى فساد مزاج المعدة والكبد، وإلى أمراض رديئة، خصوصاً في سكان البلاد الحارة، كالحجاز واليمن ونحوهما، أو في الأزمنة الحارة كشدة الصيف، فإن الشرب وهلة واحدة مخوفٌ عليهم جداً، فإن الحار الغريزي ضعيف في بواطن أهلها، وفي تلك الأزمنة الحارة.

(معنى دهره)

وقوله: «وأمرأ»: هو أفعل من مَرى الطعام والشراب في بدنه: إذا دخله، وخالطه بسهولة ولذة ونفع. ومنه: ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: ٤]، هنيئاً في عاقبته، مريئاً في مذاقه. وقيل: معناه أنه أسرع انحداً عن المريء لسهولته وخفته عليه، بخلاف الكثير، فإنه لا يسهل على المريء انحداً.

(أفادت الشرب نهلة واحدة)

ومن آفات الشرب نهلة واحدة أنه يُخاف منه الشرَق بأن ينسد مجرى الشراب لكثرة الوارد عليه، فيَحْصُ به، فإذا تنفّس رويداً، ثم شرب، أمن من ذلك.

(فوائد تكرار الشرب)

ومن فوائده: أن الشارب إذا شرب أول مرة تصاعد البخارُ الدخاني الحارُّ الذي كان على القلب والكبد لورود الماء البارد عليه، فأخرجته الطبيعة عنها، فإذا شرب مرة واحدة، اتفق نزول الماء

وكان من هديه الشربُ قاعداً، هذا كان هديه المعتاد، وصح عنه أنه نهى عن الشرب قائماً، وصح عنه أنه أمر الذي شرب قائماً أن يستقيء، وصح عنه أنه شرب قائماً.

قالت طائفة: هذا ناسخ للنهي، وقالت طائفة: بل مبين أن النهي ليس للتحريم، بل للإرشاد وترك الأولى، وقالت طائفة: لا تعارض بينهما أصلاً، فإنه إنما شرب قائماً للحاجة، فإنه جاء إلى زمزم، وهم يستقون منها، فاستقى فناولوه الدلو، فشرب وهو قائم، وهذا كان موضع حاجة.

(أفادت الشرب قائماً)

وللشرب قائماً آفات عديدة منها: أنه لا يحصل به الرِّيُّ التام، ولا يستقرُّ في المعدة حتى يَفْصِمَهُ الكبدُ على الأعضاء، وينزل بسرعة رجلة إلى المعدة، فيخشى منه أن يبرد حرارتها، ويوششها، ويُسرِعَ النفوذ إلى أسفل البدن بغير تدريج، وكل هذا يضرُّ بالشارب، وأما إذا فعله نادراً أو لحاجة، لم يضره، ولا يُعترض بالعوائد على هذا، فإن العوائد طبائع ثوان، ولها أحكام أخرى، وهي بمنزلة الخارج عن القياس عند الفقهاء.

فصل

(تنفسه ﷺ في الشرب ثلاثاً)

وفي «صحيح مسلم» من حديث أنس بن مالك، قال: كان رسولُ الله ﷺ يتنفس في الشراب ثلاثاً، ويقول: «إِنَّهُ أَرْوَى وَأَمْرَأَ وَأَبْرَأَ» [مسلم: ٥٢٨٦].

الشراب في لسان الشارع وحملة الشرع: هو الماء، ومعنى تنفسه في الشراب: إبانته القلح عن فيه، وتنفسه خارجه، ثم يعود إلى الشراب، كما جاء مصرحاً به في الحديث الآخر: «إِذَا شَرِبَ أَخَذَكُمْ فَلَا يَتَنَفَّسُ فِي الْقَدَحِ، وَلَكِنْ لِيُبَيِّنَ الْإِنَاءَ عَنْ فِيهِ» [ابن ماجه: ٣٤٢٧].

(فوائد تكرار الشرب)

وفي هذا الشرب حكم جمّة، وفوائد مهمة، وقد نبه ﷺ على مجامعها بقوله: «إِنَّهُ أَرْوَى وَأَمْرَأَ وَأَبْرَأَ»

البارد، وصعود البخار، فيتدافعان ويتعالبان، ومن ذلك يحدث الشرق والغصّة، ولا يتهنأ الشارب بالماء، ولا يُمِرّه، ولا يتم ريقه. وقد روى عبد الله ابن المبارك، والبيهقي، وغيرهما عن النبي ﷺ: «إِذَا شَرِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَمِصْ الْمَاءَ مَصًّا، وَلَا يَتُبَّ عَبًّا، فَإِنَّهُ مِنَ الْكِبَادِ»^(١).

(ورود الماء جملة واحدة على الكبد يؤلمها)

والكباد - بضم الكاف وتخفيف الباء - هو وجع الكبد، وقد علم بالتجربة أن ورود الماء جملة واحدة على الكبد يؤلمها ويضعف حرارتها، وسبب ذلك المضادة التي بين حرارتها، وبين ما ورد عليها من كيفية المبرود وكميته. ولو ورد بالتدرج شيئاً فشيئاً، لم يضاد حرارتها، ولم يضعفها، وهذا مثاله صب الماء البارد على القدر، وهي تفور، لا يضرها صبه قليلاً قليلاً. وقد روى الترمذي في «جامعه» عنه ﷺ: «لَا تَشْرَبُوا نَفْسًا وَاحِدًا كَشْرَبِ الْبَعِيرِ، وَلَكِنْ اشْرَبُوا مِثْنَى ثَلَاثَ، وَسَمُوا إِذَا أَتَمْتُمْ شَرِبْتُمْ وَاحْتَدُوا إِذَا أَتَمْتُمْ فَرَعْتُمْ» [الترمذي: ١٨٨٦، وسنده ضعيف].

(هواند التسمية)

وللتسمية في أول الطعام والشراب، وحمد الله في آخره تأثير عجيب في نفعه واستمرائه، ودفع مضرته.

(ككمال الطعام في التسمية)

والحمد وتكثير اليدي وإن يكون حلالاً

قال الإمام أحمد: إذا جمع الطعام أرباعاً، فقد كمل: إذا ذُكِرَ اسم الله في أوله، وحُيِدَ الله في آخره، وكثرت عليه الأيدي، وكان من حل.

فصل

(تقطعية الإناء وإيكاء السقاء)

وقد روى مسلم في «صحيحه»: من حديث جابر ابن عبد الله، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «عَطُّوا الْإِنَاءَ، وَأَوْكُوا السَّقَاءَ، فَإِنَّ فِي السَّقَاءِ لَيْلَةً يَنْزِلُ فِيهَا وَبَاءٌ لَا يَمُرُّ بِإِنَاءٍ لَيْسَ عَلَيْهِ غَطَاءٌ، أَوْ سِقَاءٍ لَيْسَ عَلَيْهِ وَكَاءٌ إِلَّا وَقَعَ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ الدَّاءِ» [مسلم: ٥٢٥٥]. وهذا مما لا تناله علوم الأطباء ومعارفهم، وقد عرفه

مَنْ عقلاء الناس بالتجربة. قال الليث بن سعد أحد رواة الحديث: الأعاجم عندنا يتقون تلك الليلة في السنة في كانوا الأول منها.

وصح عنه أنه أمر بتخمير الإناء ولو أن يَغْرِضَ عليه عُرْدًا [البخاري: ٥٦٢٤، ومسلم: ٥٢٤٦]. وفي عرض العود عليه من الحكمة، أنه لا ينسى تخميره، بل يعتاده حتى بالعود، وفيه: أنه ربما أراد الدبيب أن يسقط فيه، فيمر على العود، فيكون العود جسراً له يمنع من السقوط فيه.

وصح عنه: أنه أمر عند إيكاء الإناء بذكر اسم الله، فإن ذكر اسم الله عند تخمير الإناء يطرد عنه الشيطان، وإيكاه يطرد عنه الهواء، ولذلك أمر بذكر اسم الله في هذين الموضعين لهذين المعنيين.

(النهى عن الشرب من فم السقاء واللقب المترتبة عليه)

وروى البخاري في «صحيحه» من حديث ابن عباس، أن رسول الله ﷺ نهى عن الشرب من في السقاء [البخاري: ٥٦٢٩].

وفي هذا آداب عديدة، منها: أن تردد أنفاس الشارب فيه يكسبه زهومة ورائحة كريهة يُعَاف لأجلها.

ومنها: أنه ربما غلب الداخل إلى جوفه من الماء، فتضرر به.

ومنها: أنه ربما كان فيه حيوان لا يشعر به، فيؤذيه.

ومنها: أن الماء ربما كان فيه قذاة أو غيرها لا يراها عند الشرب، فتلج جوفه.

ومنها: أن الشرب كذلك يملأ البطن من الهواء، فيضيق عن أخذ حظه من الماء، أو يُزَاحمه، أو يؤذيه، ولغير ذلك من الحكم.

(ضعف حديث الشرب من فم الإداوة)

فإن قيل: فما تصنعون بما في «جامع الترمذي»: أن رسول الله ﷺ دعا بإداوة يوم أحد، فقال: «أَخْنُثْ فَمَ الْإِدَاوَةِ»، ثم شرب منها من فيها [ابو داود: ٣٧٢١، ويلفظ قريب الترمذي: ١٨٩٢؟ قلنا: نكتفي فيه بقول

(كان يتنفس هو الشراب ولا يتنفس هو الإناء)

فإن قيل: فما تصنعون بما في «الصحيحين» من حديث أنس، أن رسول الله ﷺ كان يتنفس في الإناء ثلاثاً؟ [البخاري: ٥٦٣١، ومسلم: ٥٢٨٧] قيل: يُقَابَلُهُ بِالْقَبُولِ والتسليم، ولا مُعَارَضَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَوَّلِ، فإن معناه أنه كان يتنفس في شربه ثلاثاً، وذكر الإناء لأنه آلة الشرب، وهذا كما جاء في الحديث الصحيح: أن إبراهيم بن رسول الله ﷺ مات في الثَّدي (مسلم: ٦٠٢٦)، أي: في مدة الرضاع.

فصل

(شرب اللبن خالصاً ومشوباً بالماء ومنافعهما)

وكان ﷺ يشرب اللبن خالصاً تارةً، ومشوباً بالماء أخرى. وفي شرب اللبن الحلو في تلك البلاد الحارة خالصاً ومشوباً نفعٌ عظيم في حفظ الصحة، وترطيب البدن، وريِّ الكبد، ولا سيما اللبن الذي تروى دوابُّه الشَّيْخُ وَالْقَيْصُومُ وَالْحُزَامَى وما أشبهها، فإن لبنها غذاء مع الأغذية، وشرابٌ مع الأشربة، ودواء مع الأدوية وفي «جامع الترمذي» عنه ﷺ: «إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَامًا فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَأَطْعِمْنَا خَيْرًا مِنْهُ، وَإِذَا سَقَى لَبَنًا فَلْيَقُلْ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وَزِدْنَا مِنْهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يُجْزَىءُ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَّا اللَّبَنُ». قال الترمذي: هذا حديث حسن [الترمذي: ٢٣٤٥١].

فصل

(الانتبذ هو الماء)

وثبت في «صحيح مسلم» أنه ﷺ كان يُنْبِذُ لَهُ أَوَّلَ اللَّيْلِ، ويشربه إذا أصبح يومه ذلك، والليلة التي تهيء، والقَد، والليلة الأخرى، والقَد إلى العصر، فإن بقي منه شيء سقاه الخادِم، أو أمر به فَصَبَّ [مسلم: ٥٢٢٦]. وهذا النبيذ: هو ما يُطْرَحُ فِيهِ تَمْرٌ يُحْلِيهِ، وهو يدخل في الغذاء والشراب، وله نفع عظيم في زيادة القوة، وحفظ الصحة، ولم يكن يشربه بعد ثلاث خَوْفًا مِنْ تَغْيِيرِهِ إِلَى الْإِسْكَارِ.

الترمذي: هذا حديثٌ ليس إسناده بصحيح، وعبد الله بن عمر العمري يُضَعِّفُ مِنْ قَبْلِ حِفْظِهِ، وَلَا أُدْرِي سَمِعَ مِنْ عِيْسَى أَوْ لَا انْتَهَى. يريد عيسى بن عبد الله الذي رواه عنه، عن رجل من الأنصار.

فصل

(النهي عن الشرب من ثلمة القدح وبيان مفسده)

وفي «سنن أبي داود» من حديث أبي سعيد الخُدري، قال: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ الشَّرْبِ مِنْ ثَلْمَةِ الْقَدَحِ، وَأَنْ يَنْفَخَ فِي الشَّرَابِ» [أحمد: ١١٧٦٠، وأبو داود: ٣٧٢٢، وفي سننه ضعيفاً]، وهذا من الآداب التي تيمُّ بِهَا مَصْلَحَةُ الشَّارِبِ، فإن الشَّربَ مِنْ ثَلْمَةِ الْقَدَحِ فِيهِ عِلَّةٌ مَفَاسِدُ:

أحدها: أن ما يكون على وجه الماء مِنْ قَذَى أَوْ غَيْرِهِ يَجْتَمِعُ إِلَى الثَّلْمَةِ بخلاف الجانب الصحيح.

الثاني: أنه ربما شوَّشَ عَلَى الشَّارِبِ، وَلَمْ يَتِمَّكَ مِنْ حَسَنِ الشَّرْبِ مِنَ الثَّلْمَةِ.

الثالث: أن الوسخ والزُّهْمَةُ تَجْتَمِعُ فِي الثَّلْمَةِ، وَلَا يَصِلُ إِلَيْهَا الْغَسْلُ، كَمَا يَصِلُ إِلَى الْجَانِبِ الصَّحِيحِ.

الرابع: أن الثَّلْمَةَ محلُّ العيب في القدح، وهي أَرْدَأُ مَكَانٍ فِيهِ، فَيَنْبَغِي تَجَنُّبُهُ، وَقَصْدُ الْجَانِبِ الصَّحِيحِ، فَإِنَّ الرَّدِيءَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ لَا خَيْرَ فِيهِ، وَرَأَى بَعْضُ السَّلَفِ رَجُلًا يَشْتَرِي حَاجَةً رَدِيئَةً، فَقَالَ: لَا تَفْعَلْ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ نَزَعَ الْبِرْكَهَ مِنْ كُلِّ رَدِيءٍ.

الخامس: أنه ربما كان في الثَّلْمَةِ شَقٌّ أَوْ تَحْلِيدٌ يَجْرَحُ فَمَ الشَّارِبِ، وَلِغَيْرِ هَذِهِ مِنَ الْمَفَاسِدِ.

(مفاسد النفخ في الشراب)

وأما النفخ في الشراب، فإنه يَكْسِبُهُ مِنْ فَمِ النَّافِخِ رَاحَةٌ كَرِيهَةٌ يُعَافٍ لِأَجْلِهَا، وَلَا سِيَمَا إِنْ كَانَ مَتَغَيَّرَ الْقَم. وبالجملَة: فأنفاس النَّافِخِ تُخَالِطُهُ، وَلِهَذَا جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ النَّهْيِ عَنِ التَّنَفُّسِ فِي الْإِنَاءِ وَالتَّنَفُّخِ فِيهِ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَتَنَفَّسَ فِي الْإِنَاءِ، أَوْ يَنْفَخَ فِيهِ [صحيح: أحمد: ١٩٠٧، وأبو داود: ٣٧٢٨، والترمذي: ١٨٨٩، وابن ماجه: ٣٤٢٨].

فصل

في تدبيره لأمر الملبس

وكان من أتم الهدي، وأنفعه للبدن، وأخفّه عليه، وأيسره لبساً وخلعاً، وكان أكثر لبسه الأردية والأزر، وهي أخفّ على البدن من غيرها، وكان يلبسُ القميص، بل كان أحبّ الثياب إليه. وكان هديّه في لبسه لما يلبسه أنفع شيء للبدن، فإنه لم يكن يُطيل أكمامه، ويؤمّئها، بل كانت كم قميصه إلى الرُسخ لا يُجاوز اليد، فتشق على لباسها، وتمنعه خفة الحركة والبطش، ولا تقصر عن هذه، فتبرز للحر والبرد، وكان ذيلُ قميصه وإزاره إلى أنصاف الساقين لم يتجاوز الكعمين، فيؤذي الماشي ويؤوده، ويجعله كالمقيد، ولم يقصُر عن عضلة ساقيه، فتتكشف ويتأذى بالحر والبرد، ولم تكن عمامته بالكبيرة التي تؤذي الرأس حملها، ويضعفه ويجعله عرضة للضعف والآفات، كما يشاهد من حال أصحابها، ولا بالصغيرة التي تقصر عن وقاية الرأس من الحر والبرد، بل وسطاً بين ذلك، وكان يدخلها تحت حنكبه، وفي ذلك فوائدٌ عديدة: فإنها تقي العنق الحر والبرد، وهو أثبت لها، ولا سيما عند ركوب الخيل والإبل، والكرّ والفرّ، وكثير من الناس اتخذ الكلايب عوضاً عن الحنك، ويا بُد ما بينهما في النفع والزينة، وأنت إذا تأملت هذه اللبسة وجدتها من أنفع اللبسات وأبلغها في حفظ صحة البدن وقوته، وأبعدها من التكلف والمشقة على البدن.

وكان يلبسُ الخُفاف في السفر دائماً، أو أغلب أحواله لإحاجة الرّجلين إلى ما يقيهما من الحر والبرد، وفي الحضر أحياناً.

وكان أحبّ ألوان الثياب إليه البياض، والجبّة، وهي البرود المحبّبة، ولم يكن من هديه لبس الأحمر، ولا الأسود، ولا المصبّغ، ولا المصقول. وأما الحلة الحمراء التي لبسها، فهي الرداء اليماني الذي فيه سوادٌ وحمرة وبياض، كالحلّة الخضراء، فقد لبس هذه وهذه، وقد تقدم تقريرُ ذلك، وتخليط من زعم أنه لبس الأحمر القاني بما فيه كفاية.

فصل

في تدبيره لأمر المسكن

لما علم ﷺ أنه على ظهر سيرة، وأن الدنيا مرحلةٌ مسافر ينزل فيها مُدة عمره، ثم ينتقل عنها إلى الآخرة، لم يكن من هديه وهدي أصحابه، ومن تبعه الاعتناء بالمساكن وتشبيدها، وتعليقها وزخرفتها وتوسيعها، بل كانت من أحسن منازل المسافر تقي الحر والبرد، وتستّر عن العيون، وتمنع من ولوج الدواب، ولا يُخاف سقوطها لفرط ثقلها، ولا تُعشش فيها الهوام لِسعتها ولا تعتور عليها الأهوية والرياح المؤذية لارتفاعها، وليست تحت الأرض فتؤذي ساكنها، ولا في غاية الارتفاع عليها، بل وسط، وتلك أعدل المساكن وأنفعها، وأقلها حراً وبرداً، ولا تضيق عن ساكنها، فينحصر، ولا تفضل عنه بغير منفعة ولا فائدة، فتأوي الهوام في خلوها، ولم يكن فيها كُنُف تؤذي ساكنها برائحها، بل رائحتها من أطيب الروائح لأنه كان يُحب الطيب، ولا يزال عنده، وريحه هو من أطيب الرائحة، وعَرَفَه من أطيب الطيب، ولم يكن في الدار كُنُف تظهر رائحته، ولا ريب أن هذه من أعدل المساكن وأنفعها وأوفقها للبدن، وحفظ صحته.

فصل

في تدبيره لأمر النوم واليقظة

من تدبّر نومه وبقظته ﷺ، وجدّه أعدل نوم، وأنفعه للبدن والأعضاء والقوى، فإنه كان ينام أوّل الليل، ويستيقظ في أوّل النصف الثاني، فيقوم ويستاك، ويتوضأ ويصلي ما كتّب الله له، فيأخذ البدن والأعضاء، والقوى حظّها من النوم والراحة، وحظّها من الرياضة مع وفور الأجر، وهذا غاية صلاح القلب والبدن، والدنيا والآخرة.

ولم يكن يأخذ من النوم فوق القدر المحتاج إليه، ولا يمنع نفسه من القدر المحتاج إليه منه، وكان يفعله على أكمل الوجوه، فينام إذا دعت الحاجة إلى النوم على شيقه الأيمن، ذاكر الله حتى تغلبه عيناه، غير ممتلئ البدن من الطعام والشراب، ولا مباشر بجنبه الأرض، ولا متخذ للفرش المرتفعة، بل له ضجّاج

فيكون النوم على الجانب الأيمن بُدأة نومه ونهايته، وكثرة النوم على الجانب الأيسر مضر بالقلب بسبب ميل الأعضاء إليه، فتتصبب إليه المواد.

(أردا نوعيات النوم)

وأردا النوم النوم على الظهر، ولا يضر الاستلقاء عليه للراحة من غير نوم، وأردا منه أن ينام منبطحاً على وجهه، وفي «المستند» و«سنن ابن ماجه» عن أبي أمامة قال: مر النبي ﷺ على رجل نائم في المسجد منبطح على وجهه، فصرَّه برجله، وقال: «قم أو أقعد، فإنها نومة جهنمية» [ابن ماجه: ٣٧٢٥].

قال أبقراط في كتاب «التقدمة»: وأما نوم المريض على بطنه من غير أن يكون عادته في صحته جرت بذلك، يدل على اختلاط عقل، وعلى ألم في نواحي البطن، قال الشراح لكتابه: لأنه خالف العادة الجيدة إلى هيئة رديئة ين غير سبب ظاهر ولا باطن.

(منافع النوم المعتدل)

والنوم المعتدل ممكن للقوى الطبيعية من أفعالها، مريح للقوة النفسانية، مكثر من جوهر حاملها، حتى إنه ربما عاد بإرخائه مانعاً من تحليل الأرواح.

(مفاسد نوم النهار وبخاصة آخره)

ونوم النهار رديء يورث الأمراض الرطوبية والنوازل، ويفسد اللون، ويورث الطحاح، ويُرخي العصب، ويكسل، ويُضعف الشهوة إلا في الصيف وقت الهاجرة، وأردوه نوم أول النهار، وأردا منه النوم آخره بعد العصر، ورأى عبد الله بن عباس ابناً له نائماً نومة الصُّبْحَةِ، فقال له: قم، أتنام في الساعة التي تقسم فيها الأرزاق؟

وقيل: نوم النهار ثلاثة: حُلُق، وحُرق، وحُقم. فالخلق: نومة الهاجرة، وهي خلق رسول الله ﷺ. والحُرق: نومة الضحى، تشغل عن أمر الدنيا والآخرة. والحمق: نومة العصر. قال بعض السلف: من نام بعد العصر، فاخْتَلَسَ عقله، فلا يلومن إلا نفسه. وقال الشاعر:

أَلَا إِنَّ نَوْمَاتِ الضُّحَى تُورِثُ الْفَتَى

خَبَالاً وَنَوْمَاتِ الْعَصِيرِ جُنُونُ

من أدم حشوه ليف، وكان يضطجع على الوسادة، ويضع يده تحت خده أحياناً.

ونحن نذكر فصلاً في النوم والنافع منه والضار، فنقول:

(نوعا النوم النوم الطبيعي)

النوم حالة للبدن يتبعها غور الحرارة الغريزية والقوى إلى باطن البدن لطلب الراحة، وهو نوعان: طبيعي وغير طبيعي. فالطبيعي: إمساك القوى النفسانية عن أفعالها، وهي قوى الحس والحركة الإرادية، ومتى أمسكت هذه القوى عن تحريك البدن استرخى، واجتمعت الرطوبات والأبخرة التي كانت تتحلل وتتفرق بالحركات واليقظة في الدماغ الذي هو مبدأ هذه القوى، فيتخثر ويسترخي، وذلك النوم الطبيعي.

(النوم غير الطبيعي)

وأما النوم غير الطبيعي، فيكون لعرض أو مرض، وذلك بأن تستولي الرطوبات على الدماغ استلاء لا تقلر اليقظة على تفريقها، أو تصعد أبخرة رطبة كثيرة كما يكون عقيب الامتلاء من الطعام والشراب، فتثقل الدماغ وترخيه، فيتخدر، ويقع إمساك القوى النفسانية عن أفعالها، فيكون النوم.

(فائدة النوم)

وللنوم فائدتان جليلتان، إحداهما: سكون الجوارح وراحتها مما يعرض لها من التعب، فريح الحواس من نصب اليقظة، ويُزيل الإعياء والكلال.

والثانية: هضم الغذاء، ونضج الأخلاط لأن الحرارة الغريزية في وقت النوم تغور إلى باطن البدن، فتُعين على ذلك، ولهذا يرد ظاهره ويحتاج النائم إلى فضل دثار.

(أنفع مكيفات النوم)

وأنفع النوم: أن ينام على الشق الأيمن، ليستقر الطعام بهذه الهيئة في المعدة استقراراً حسناً، فإن المعدة أميل إلى الجانب الأيسر قليلاً، ثم يتحول إلى الشق الأيسر قليلاً ليسرع الهضم بذلك لاستمالة المعدة على الكبد، ثم يستقر نومه على الجانب الأيمن، ليكون الغذاء أسرع انحذاراً عن المعدة،

(مفاسد نوم الصبحة)

ميل إلى جهة اليسار، فإذا نام على جنبه الأيمن، طلب القلب مستقره من الجانب الأيسر، وذلك يمنع من استقرار النائم واستقراره في نومه، بخلاف قراره في النوم على اليسار، فإنه مستقره، فيحصل بذلك الدعة التامة، فيستغرق الإنسان في نومه، ويستقل، فيقوته مصالح دينه ودنياه.

(هواند الدعاء قبل النوم)

ولما كان النائم بمنزلة الميت، والنوم أخو الموت - ولهذا يستحيل على الحي الذي لا يموت، وأهل الجنة لا ينامون فيها - كان النائم محتاجاً إلى من يحرس نفسه، ويحفظها مما يفرس لها من الآفات، ويحرس بدنه أيضاً من طوارق الآفات، وكان ربه وفطره تعالى هو المتولي لذلك وحده. علم النبي ﷺ النائم أن يقول كلمات التفويض والالتجاء، والرغبة والرغبة، ليستدعي بها كمال حفظ الله لها، وحراسته لنفسه وبدنه، وأرشده مع ذلك إلى أن يستذكر الإيمان، وينام عليه، ويجعل التكلم به آخر كلامه، فإنه ربما توفاه الله في منامه، فإذا كان الإيمان آخر كلامه دخل الجنة، فتضمن هذا الهدى في المنام مصالح القلب والبدن، والروح في النوم واليقظة، والدنيا والآخرة، فصلوات الله وسلامه على من نالت به أتمه كل خير.

وقوله: «أسلمت نفسي إليك»، أي: جعلتها مسلمة لك تسليم العبد المملوك نفسه إلى سيده ومالكة. وتوجيه وجهه إليه يتضمن إقباله بالكلية على ربه، وإخلاص القصد والإرادة له، وإقراره بالخضوع والذل والانتقاد، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادَكَ لَقَلِيلٌ وَجَّهْتَهُمْ لِيُحِبُّوا رَبَّهُمْ وَأَنَّهُمْ لَا يُفْرِقُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠]. وذكر الوجه إذ هو أشرف ما في الإنسان، ومجمع الحواس، وأيضاً فيه معنى التوجه والقصد من قوله: اسْتَغْفِرَ اللَّهُ ذَنْبًا لَسْتُ مُحْصِيَهُ

رَبِّ الْعِبَادِ إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ^(١)

وتفويض الأمر إليه رده إلى الله سبحانه، وذلك يوجب سكون القلب وطمأنينته، والرضى بما يقضيه

ونوم الصبحة يمنع الرزق، لأن ذلك وقت تطلب فيه الخليفة أرزاقها، وهو وقت قسمة الأرزاق، فنومه حرمان إلا لعارض أو ضرورة، وهو مضر جداً بالبدن لإرخائه البدن، وإفساده للفضلات التي ينبغي تحليلها بالرياضة، فيحدث تكسراً وعباً وضعفاً. وإن كان قبل التبرز والحركة والرياضة وإشغال المعدة بشيء، فذلك الداء العضال المولد لأنواع من الأدوية.

(مفاسد النوم في الشمس أو بعضه في الشمس)

والنوم في الشمس يغير الداء الدفين، ونوم الإنسان بعضه في الشمس، وبعضه في الظل ردي، وقد روى أبو داود في «سننه» من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ فِي الشَّمْسِ فَقَلَّصْ عَنْهُ الظِّلَّ، فَصَارَ بَعْضُهُ فِي الشَّمْسِ، وَبَعْضُهُ فِي الظِّلِّ قَلِيْقُمْ» [أبو داود: ٤٨٢١]، وسنده ضعيف.

وفي «سنن ابن ماجه» وغيره من حديث بريدة بن الحُصيب، أن رسول الله ﷺ نهى أن يقعد الرجل بين الظل والشمس، وهذا تنبيه على منع النوم بينهما.

وفي «الصحيحين» عن البراء بن عازب، أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجْهِي وَجْهِي إِلَيْكَ، وَقَوْلُكَ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنَاجَا مِنْكَ، إِلَّا إِلَيْكَ، أَمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَنَيْكَ الَّذِي أُرْسَلْتُ. وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ كَلَامِكَ، فَإِنْ مِتُّ مِنْ لَيْلَتِكَ، مِتُّ عَلَى الْفِطْرَةِ» [البخاري: ٦٣١٥، ومسلم: ٦٨٨٢].

وفي «صحيح البخاري» عن عائشة أن رسول الله ﷺ، كان إذا صلى ركعتي الفجر - يعين ستهها - اضطجع على شِقِّهِ الْأَيْمَنِ [البخاري: ١١٦٠].

(الحكمة من النوم على الجانب الأيمن)

وقد قيل: إن الحكمة في النوم على الجانب الأيمن، أن لا يستغرق النائم في نومه، لأن القلب فيه

(١) هو من آيات «الكتاب» (١٧/١)، أورده البغدادى في «خزانة الأدب» (٤٨٦/١)، وذكر أنه من آيات سيبويه الخمسين التي لا يعرف قائلها.

ويختاره له مما يحبه ويرضاه، والتفويضُ من أشرف مقامات العبودية، ولا علة فيه، وهو من مقامات الخاصة خلافاً لزاعمي خلاف ذلك.

والجاء الظهر إليه سبحانه يتضمَّن قوة الاعتماد عليه، والثقة به، والسكون إليه، والتوكل عليه، فإن من أسند ظهره إلى ركن وثيق، لم يخف السقوط.

ولما كان للقلب قوتان: قوة الطلب، وهي الرغبة، وقوة الهرب، وهي الرهبة، وكان العبد طالباً لمصالحه، هارباً من مضاره، جمع الأمرين في هذا التفويض والتوجه، فقال: رغبة ورهبة إليك، ثم أثنى على ربه، بأنه لاملجأ للعبد سواء، ولا منجأ له منه غيره، فهو الذي يلجأ إليه العبد لينجيه من نفسه، كما في الحديث الآخر: «أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ» [مسلم: ١٠٩٠]، فهو سبحانه الذي يُعِيذُ عبده ويُنجيه من بأسه الذي هو بمشيئته وقدرته، فمنه البلاء ومنه الإعانة، ومنه ما يطلب النجاة منه، وإليه الالتجاء في النجاة، فهو الذي يُلجأ إليه في أن يُنجي مما منه، ويُستعاذ به مما منه، فهو ربُّ كل شيء، ولا يكون شيء إلا بمشيئته: ﴿وَإِنْ يَسْأَلْكُمُ اللَّهُ فَمَنْ تَبِعُوا فَمَنْ أَتَى اللَّهَ بِحَرْبٍ فَمَا لَهُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٧] ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: ١٧] ثم ختم الدعاء بالإقرار بالإيمان بكتابه ورسوله الذي هو ملاك النجاة، والفوز في الدنيا والآخرة، فهذا هديه في نومه.

لَوْ لَمْ يَقُلْ إِنِّي رَسُولٌ لَنَا

نَ شَاهِدٌ فِي هَذِهِ يَنْطِقُ

فصل

(هديه ﷺ هي المفضلة)

وأما هديُّه في يقظته، فكان يستيقظ إذا صاح الصَّارُخُ وهو الديك، فيحمدُ الله تعالى ويكبره، ويهلله ويدعوه، ثم يستاك، ثم يقوم إلى وضوئه، ثم يقف للصلاة بين يدي ربه، مناجياً له بكلامه، مثنياً عليه، راجياً له، راغباً راهباً، فأبى حفظ لصحة القلب والبدن، والروح والقوى، ولنعيم الدنيا والآخرة فوق هذا.

فصل

(هديه ﷺ في الرياضة)

وأما تدبيرُ الحركة والسكون، وهو الرياضة، فنذكر منها فصلاً يعلم منه مطابقة هديه في ذلك لأكمل أنواعه وأحدها وأصوبها، فنقول:

(السبب الموجب للرياضة)

من المعلوم افتقارُ البدن في بقاءه إلى الغذاء والشراب، ولا يصير الغذاء بجملته جزءاً من البدن، بل لا بد أن يبقى منه عند كل هضم بقية ما، إذا كثرت على ممر الزمان اجتمع منها شيء له كمية وكيفية، فيضربُ بكيمته بأن يسد ويشغل البدن، ويوجب أمراضَ الاحتباس، وإن استفرغ تأذى البدن بالأدوية، لأن أكثرها سميّة، ولا تخلو من إخراج الصالح المتنتفع به، ويضر بكيفيته، بأن يسخن بنفسه، أو بالعفن، أو يبرد بنفسه، أو يضعف الحرارة الغريزية عن إنشاجه.

(هواند الرياضة)

وسدد الفضلات لا محالة ضارة تُركت، أو استفرغت، والحركة أقوى الأسباب في منع تولدها، فإنها تُسخن الأعضاء، وتُسبِل فضلاتها، فلا تجتمع على طول الزمان، وتُعَوِّد البدن الخفة والنشاط، وتجعله قابلاً للغذاء، وتُصلِّب المفاصل، وتُقوي الأوتار والرباطات، وتؤمن جميع الأمراض المادية وأكثر الأمراض المزاجية إذا استعملَ القدر المعتدل منها في وقته، وكان باقي التدبير صواباً.

(وقتها وأنواعها)

ووقت الرياضة بعد انحدار الغذاء، وكمال الهضم، والرياضة المعتدلة هي التي تحمرُّ فيها البشرة، وتربو ويتدى بها البدن، وأما التي يلزمها سيلان العرق فمفترطة، وأي عضو كثرت رياضته قوي، وخصوصاً على نوع تلك الرياضة، بل كل قوة فهذا شأنها، فإن من استكثر من الحفاظ قويت حافظته، ومن استكثر من الفكر قويت قُوته المفكرة، ولكل عضو رياضة تخصه، فللمصدر القراءة، فليبتدئ فيها من الخفية إلى الجهر بتدريج، ورياضة السمع بسمع الأصوات، والكلام بالتدريج، فينتقل

(فائدة الجهاد ورياضات أخرى)

وأما الجهاد وما فيه من الحركات الكلية التي هي من أعظم أسباب القوة، وحفظ الصحة، وصلابة القلب والبدن، ودفع فضلاتهما، وزوال الهم والغم والحزن، فأمر إنما يعرفه من له منه نصيب، وكذلك الحج، وفعل المناسك، وكذلك المسابقة على الخيل، وبالنصال، والمشي في الحوائج، وإلى الإخوان، وقضاء حقوقهم، وعيادة مرضاهم، وتشجيع جنائزهم، والمشي إلى المساجد للجمعات والجماعات، وحركة الوضوء، والغسل، وغير ذلك.

وهذا أقل ما فيه الرياضة المعينة على حفظ الصحة، ودفع الفضلات، وأما ما شرع له من التوصل به إلى خيرات الدنيا والآخرة، ودفع شرورها، فأمر وراء ذلك.

فعلمت أن هديه فوق كل هدي في طب الأبدان والقلوب، وحفظ صحتهما، ودفع أسقامهما، ولا مزيد على ذلك لمن قد أحضر رشده، وبالله التوفيق.

فصل

(هدية ﷺ في الجماع ومقاصد الجماع)

وأما الجماع والباء، فكان هديّه فيه أكمل هدي، يحفظ به الصحة، وتتم به اللذة وسرور النفس، ويحصل به مقاصده التي وضع لأجلها، فإن الجماع وضع في الأصل لثلاثة أمور هي مقاصده الأصلية:

أحدها: حفظ النسل، ودوام النوع إلى أن تتكامل العدة التي قدر الله بروتها إلى هذا العالم.

الثاني: إخراج الماء الذي يضر احتباسه واحتقانه بجملة البدن.

الثالث: قضاء الوطر، ونيل اللذة، والتمتع بالنعمة، وهذه وحدها هي الفائدة التي في الجنة، إذ لا تناسل هناك، ولا احتقان يستفرغه الإنزال.

(الجماع من أسباب الصحة)

وفضلاء الأطباء: يرون أن الجماع من أحد أسباب حفظ الصحة. قال جالينوس: الغالب على جوهر المني النار والهواء، ومزاجه حار رطب، لأن كونه من الدم الصافي الذي تفتدي به الأعضاء

من الأخف إلى الأثقل، وكذلك رياضة اللسان في الكلام، وكذلك رياضة البصر، وكذلك رياضة المشي بالتدريج شيئاً فشيئاً.

وأما ركوب الخيل، ورمي النشاب، والصراع، والمسابقة على الأقدام، فرياضة للبدن كله، وهي قالعة لأمراض مزمنة، كالجذام والاستسقاء، والقولنج.

(رياضة النفوس)

وررياضة النفوس بالتعلم والتأدب، والفرح والسرور، والصبر والثبات، والإقدام والسماحة، وفعل الخير، ونحو ذلك مما تراض به النفوس، ومن أعظم رياضتها: الصبر والحب، والشجاعة والإحسان، فلا تزال تراض بذلك شيئاً فشيئاً حتى تصير لها هذه الصفات هيات راسخة، وملكات ثابتة.

وأنت إذا تأملت هديه ﷺ في ذلك، وجدته أكمل هدي حافظ للصحة والقوى، ونافع في المعاش والمعاد.

(فائدة الصلاة)

ولا ريب أن الصلاة نفسها فيها من حفظ صحة البدن، وإذابة أخلاطه وفضلاته ما هو من أنفع شيء له سوى ما فيها من حفظ صحة الإيمان، وسعادة الدنيا والآخرة، وكذلك قيام الليل من أنفع أسباب حفظ الصحة، ومن أمنع الأمور لكثير من الأمراض المزمنة، ومن أنشط شيء للبدن والروح والقلب، كما في «الصحيحين» من النبي ﷺ، أنه قال: «يُعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ عَلَى كُلِّ عُقْدَةٍ: عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ، فَارْقُدْ، فَإِنْ هُوَ اسْتَيْقَظَ، فَذَكَرَ اللَّهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ، انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ ثَانِيَةً، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةُ كُلِّهَا، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسَلَانًا» [بخاري: ١١٤٢، ومسلم: ١٨١٩].

(فائدة الصوم)

وفي الصوم الشرعي من أسباب حفظ الصحة ورياضة البدن والنفس ما لا يدفعه صحيح الفطرة.

الأصلية، وإذا ثبت فضل المني، فاعلم أنه لا ينبغي إخراجُه إلا في طلب النسل، أو إخراجُ المحقن منه، فإنه إذا دام احتقانه، أحدث أمراضاً رديئةً، منها: الوسواسُ، والجنونُ، والصرعُ، وغير ذلك، وقد يُرى استعمالُه من هذه الأمراض كثيراً، فإنه إذا طال احتباسُه، فسد واستحال إلى كيفية سُمية تُوجب أمراضاً رديئةً كما ذكرنا، ولذلك تدفعه الطبيعة بالاحتلام إذا كثر عندها من غير جماع.

وقال بعض السلف: ينبغي للرجل أن يتعاهد من نفسه ثلاثاً: أن لا يدع المشي، فإن احتاج إليه يوماً قدر عليه، وينبغي أن لا يدع الأكل، فإن أمعاه تضيق، وينبغي أن لا يدع الجماع، فإن البثر إذا لم تتزح، ذهب ماؤها. وقال محمد بن زكريا: من ترك الجماع مدة طويلة، ضعفت قوى أعصابه، وانسدت مجاريها، وتقلص ذكره. قال: ورأيت جماعة تركوه لنوع من التقشف، فبردت أبدانهم، وعُسرت حركاتهم، ووقعت عليهم كآبة بلا سبب، وقلت شهواتهم وهضمهم، انتهى.

(منافعه ومحبه ﷺ له)

ومن منافعه: غُضُّ البصر، وكفُّ النفس، والقدرة على العفة عن الحرام، وتحصيلُ ذلك للمرأة، فهو ينفع نفسه في دنياه وآخره، وينفع المرأة، ولذلك كان ﷺ يتعاهده ويحبه، ويقول: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ: النِّسَاءُ وَالطَّيِّبُ» [حسن: أحمد: ١٢٢٩٤، والنسائي (٦١/٧)].

وفي كتاب «الزهد» للإمام أحمد في هذا الحديث زيادة لطيفة، وهي: أصبر عن الطعام والشراب، ولا أصبر عنهن.

(البحث على الزواج)

وحدث على التزويج أمته فقال: «تَزَوَّجُوا فَإِنِّي مُكَافِّرٌ بِكُمْ الْأَمَمُ» [صحيح: أبو داود: ٢٠٥٠، والنسائي (٦/٦)].

وقال ابن عباس: خيرُ هذه الأمة أكثرُها نساءً [البخاري: ٥٠٦٩].

وقال: «إِنِّي أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَأَنَا مِ وَأَقَوْمُ، وَأَصُومُ وَأَفْطِرُ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سِتِّي فَلَيْسَ مِنِّي» [البخاري: ٥٠٦٣، ومسلم: ٣٤٠٣].

وَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ! مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضَى لِلْبَصَرِ، وَأَحْفَظُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ، فَعَلَيْهِ الصَّوْمُ، فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ» [البخاري: ٥٠٦٦، ومسلم: ٣٣٩٨].

ولما تزوج جابر نكياً قال له: «هَلَّا يَكُونُ ثَلَاثِيهَا وَثُلَاثِيكَ» [البخاري: ٥٠٧٩، ومسلم: ٣٠٢].

وروى ابن ماجه في «سننه»: من حديث أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ طَاهِراً مَطْهُراً، فَلْيَتَزَوَّجِ الْحَرَّائِرَ» [ابن ماجه: ١٨٦٢، وسنده ضعيف].

وفي «سننه» أيضاً من حديث ابن عباس يرفعه، قال: «لَمْ تَرَ لِمُتَحَايَيْنِ مِثْلَ النِّكَاحِ» [ابن ماجه: ١٨٤٧، وسنده حسن].

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ» [مسلم: ٣٦٤٥].

وكان ﷺ يُحَرِّضُ أمته على نكاح الأبكار الحسان، وذوات الدين، وفي «سنن النسائي» عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ: أَيُّ النِّسَاءِ خَيْرٌ؟ قال: «الَّتِي تَسْرُهُ إِذَا نَظَرَ، وَتُطِيعُهُ إِذَا أَمَرَ، وَلَا تُخَالِفُهُ فِيمَا يَكْرَهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهَا» [حسن: أحمد: ٧٤٢١، والنسائي (٦٨/٦)].

وفي «الصحيحين» عنه، عن النبي ﷺ قال: «تُنَكِّحُ الْمَرْأَةَ لِمَالِهَا، وَلِحَسْبِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَأَغْظَرَ بِذَاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَدَاكَ» [البخاري: ٥٠٩٠، ومسلم: ٣٦٣٥].

(البحث على نكاح الولود)

وكان يحدث على نكاح الولود، ويكره المرأة التي لا تَلِدُ، كما في «سنن أبي داود» عن معقل بن يسار، أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: إِنِّي أَصَبْتُ امْرَأَةً ذَاتَ حَسَبٍ وَجَمَالٍ، وَإِنَّمَا لَا تَلِدُ، أَفَأَتَزَوَّجُهَا؟ قال: «لَا»، ثم أتاه الثانية، فنهاه، ثم أتاه الثالثة، فقال: «تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُدُودَ، فَإِنِّي مُكَافِّرٌ بِكُمْ» [أبو داود: ٢٠٥٠، والنسائي (٦٠/٦)].

وفي الترمذي عنه مرفوعاً: «أَرْبَعٌ مِنْ سِنَنِ الْمُرْسَلِينَ: النِّكَاحُ، وَالسَّوَاكُ وَالتَّعَطُّرُ، وَالْحِجَاءُ»

[أحمد: ٢٣٥٨١، والترمذي: ١٠٨٠، وفي سننه مجهول] روي في «الجماع» بالنون والياء^(١) وسمعت أبا الحجاج الحافظ يقول: الصواب: أنه الختان، وسقطت النون من الحاشية، وكذلك رواه المحاملي عن شيخ أبي عيسى الترمذي.

(أمر متعلق بما قبل الجماع)

ومما ينبغي تقديمه على الجماع ملاعبة المرأة، وتقبيلها، ومصّ لسانها، وكان رسول الله ﷺ يلاعب أهله، ويقبلها.

وروي أبو داود في «سننه» أنه ﷺ كان يقبل عائشة، ويمصّ لسانها [أحمد: ٢٤٩١٦، وأبو داود: ٢٣٨٦، وفي سننه ضعف].

ويذكر عن جابر بن عبد الله قال: نهى رسول الله ﷺ عن المواقعة قبل الملاعبة.

(الفصل من الجماع)

وكان ﷺ ربما جامع نساء كلهن بغسل واحد، وربما اغتسل عند كل واحدة منهن، فروى مسلم في «صحيحه» عن أنس، أن النبي ﷺ، كان يطوف على نسائه يغتسل واحد [مسلم: ٨٠٧].

وروي أبو داود في «سننه» عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ، أن رسول الله ﷺ طاف على نسائه في ليلة، فاغتسل عند كل امرأة منهن غسلاً، فقلت: يا رسول الله! لو اغتسلت غسلاً واحداً، فقال: «هذا أزكى وأظهر وأطيب» [أبو داود: ٢١٩، وابن ماجه: ٥٩٠، وسنده قابل للتصحيح].

وشرح للمجامع إذا أراد العود قبل الغسل الوضوء بين الجماعين، كما روى مسلم في «صحيحه» من حديث أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا آمَى أَحَدُكُمْ أَهْلَهُ، ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يَعُودَ فَلْيَتَوَضَّأْ» [مسلم: ٧٠٧].

(مناهل الغسل والوضوء بعد الوطء)

وفي الغسل والوضوء بعد الوطء من النشاط، وطيب النفس، وإخلاص بعض ما تحلل بالجماع، وكمال الطهر والنظافة، واجتماع الحار الغريزي إلى داخل البدن بعد انتشاره بالجماع، وحصول النظافة

التي يحبها الله، ويُبغض خلافها ما هو من أحسن التدبير في الجماع، وحفظ الصحة والقوى فيه.

فصل

(وقته والتدبير من جماع العجوز والصغيرة وجماع الذيب)

وأُنفع الجماع: ما حصل بعد الهضم، وعند اعتدال البدن في حرّه وبرده، ويوسته ورطوبته، وخلاته وامتلأته. وضرره عند امتلاء البدن أسهل وأقل من ضرره عند خلوه، وكذلك ضرره عند كثرة الرطوبة أقل منه عند اليبوسة، وعند حرارته أقل منه عند برودته، وإنما ينبغي أن يُجامع إذا اشتدت الشهوة، وحصل الانتشار التام الذي ليس عن تكلف ولا فكر في صورة، ولا نظر متابع، ولا ينبغي أن يستدعي شهوة الجماع ويتكلفها، ويحمل نفسه عليها، وليبادر إليه إذا حاجت به كثرة المني، واشتد شبقه، وليحذر جماع العجوز والصغيرة التي لا يوطأ مثلها، والتي لا شهوة لها، والمريضة، والقيحية المنظر، والبغيضة، فوطء هؤلاء يؤهن القوى، ويضعف الجماع بالخاصية، وغلط من قال من الأطباء: إن جماع الثيب أنفع من جماع البكر وأحفظ للصحة، وهذا من القياس الفاسد، حتى ربما حذر منه بعضهم، وهو مخالف لما عليه عقلاء الناس، ولما اتفقت عليه الطبيعة والشريعة.

(أسباب الترغيب بالبكر)

وفي جماع البكر من الخاصية وكمال التعلق بينها وبين مجامعها، وامتلاء قلبها من محبته، وعدم تقسيم هواها بينه وبين غيره، ما ليس للثيب. وقد قال النبي ﷺ لجابر: «هَلَا تَزَوَّجْتَ بِكَرٍّ»، وقد جعل الله سبحانه من كمال نساء أهل الجنة من الحور العين، أنهن لم يظلمهن أحد قبل من جعلن له من أهل الجنة. وقالت عائشة للنبي ﷺ: أرايت لو مَرَزْتَ بشجرة قد أرتع فيها، وشجرة لم يترع فيها، ففي أيهما كنت تُرتع بعيرك؟ قال: «في التي لم يترع فيها» [البخاري: ٥٠٧٧]. تريد أنه لم يأخذ بكراً غيرها.

وجماع المرأة المحبوبة في النفس يقل إضعافه للبدن مع كثرة استغراغه للمني، وجماع البغيضة يجل

وكانت قريش والأنصار تَشْرَحُ النِّسَاءَ عَلَى أَقْفَائِهِنَّ، فَعَابَتْ الْيَهُودُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّكُمْ عَنْ الْغَنَاءِ﴾ [البقرة: ٢٢٣] [أبو داود: ٢١٦٤].

وفي «الصحيحين» عن جابر، قال: كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من دبرها في قبلها، كان الولد أحول، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّكُمْ عَنْ الْغَنَاءِ﴾ [البقرة: ٢٢٣]. وفي لفظ لمسلم: «إن شاء مجيبة، وإن شاء غير مجيبة، غَيْرَ أَنْ ذَلِكَ فِي صِمَامٍ وَاجِدٍ» [البخاري: ٤٥٢٨، ومسلم: ٣٥٣٥].
والمجيبة: المنكبة على وجهها، والصمام الواحد: الفرج، وهو موضع الحرث والولد.

(تحريم الدبر)

وأما الدبر: فلم يبيح قط على لسان نبي من الأنبياء، ومن نسب إلى بعض السلف إباحة وطء الزوجة في دبرها، فقد غلط عليه، وفي «سنن أبي داود» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَلْعُونٌ مَنْ أَتَى الْمَرْأَةَ فِي دُبْرِهَا» [حسن: أحمد: ٩٧٣٣، وأبو داود: ٢١٦٢].

وفي لفظ لأحمد وابن ماجه: «لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى رَجُلٍ جَامَعَ امْرَأَتَهُ فِي دُبْرِهَا» [حسن: أحمد: ٧٦٨٤، وابن ماجه: ١٩٢٣].

وفي لفظ للترمذي وأحمد: «مَنْ أَتَى حَائِضًا أَوْ امْرَأَةً فِي دُبْرِهَا أَوْ كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ» [صحيح: أحمد: ٩٢٩٠، والترمذي: ١٣٥، وابن ماجه: ٦٣٩].

وفي لفظ للبيهقي: «مَنْ أَتَى شَيْئًا مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فِي الْأَذْبَارِ فَقَدْ كَفَرَ».

وفي «مصنف وكيع»: حدثني زععة بن صالح، عن ابن طائوس، عن أبيه، عن عمرو بن دينار، عن عبد الله بن يزيد، قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ، لَا تَأْتُوا النِّسَاءَ فِي أَعْجَازِهِنَّ» وقال مرة: «فِي أَدْبَارِهِنَّ»^(٢).

البدن، ويوهن القوى مع قلة استفرغاه، وجماع الحائض حرام طبعاً وشرعاً، فإنه مضر جداً، والأطباء قاطبة تحذر منه.

(أحسن أشكاله)

وأحسن أشكال الجماع أن يعلو الرجل المرأة، مستفرشاً لها بعد الملاعبة والقبلة، وبهذا سميت المرأة فراشاً، كما قال ﷺ: «الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ» [البخاري: ٢٧٤٥، ومسلم: ٣٦١٣، وهذا من تمام قوامية الرجل على المرأة، كما قال تعالى: ﴿الْإِنْسَانُ قَوَّامٌ عَلَى النَّسْلِ﴾ [النساء: ٣٤]، وكما قيل:

إِذَا رُمَتْهَا كَانَتْ فِرَاشًا يُقْلِنِي

وَإِنِّي فِرَاشِي خَادِمٌ يَسْتَمْلِكُنِي
وقد قال تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ يَأْسَى لَكُمْ وَأَنْتُمْ يَأْسَى لَهُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وأكمل اللباس وأسبغه على هذه الحال، فإن فراش الرجل لباس له، وكذلك لحاف المرأة لباس لها، فهذا الشكل الفاضل مأخوذ من هذه الآية، وبه يحسن موقع استعارة اللباس من كل من الزوجين للآخر. وفيه وجه آخر، وهو أنها تنعطف عليه أحياناً، فتكون عليه كاللباس، قال الشاعر^(١):

إِذَا مَا الضَّجِيجُ نَشَى جِجِدَهَا

نَشَتْ فَكَانَتْ عَلَيْهِ لِبَاسًا

(أودا أشكاله)

وأردأ أشكاله أن تعلو المرأة، ويُجَامِعُهَا عَلَى ظَهْرِهَا، وهو خلاف الشكل الطبيعي الذي طبع الله عليه الرجل والمرأة، بل نوع الذكر والأنثى، وفيه من المفاسد، أن المني يتعسر خروجه كله، فربما بقي في العضو منه فيتعفن ويفسد، فيضر، وأيضاً فربما سال إلى الذكر رطوبات من الفرج، وأيضاً، فإن الرحم لا يتمكن من الاشتمال على الماء واجتماعه فيه، وانضمامه عليه لتخليق الولد، وأيضاً فإن المرأة مفعول بها طبعاً وشرعاً، وإذا كانت فاعلة خالفت مقتضى الطبع والشرع. وكان أهل الكتاب إنما يأتون النساء على جنوبهن على حرف، ويقولون: هو أيسر للمرأة.

(١) هو النابتة الجمعدية، واليت في شعره ص (٨١).

(٢) زععة بن صالح ضعيف، وأورده المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ٢٠٠) وقال: رواه أبو يعلى بإسناد جيد.

وفي الترمذي: عن علي بن طلق، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَأْتُوا النِّسَاءَ فِي أُعْجَازِهِنَّ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ» [الترمذي: ١١٦٤، والدارمي: (٢٦٠/١)].

وفي «الكامل» لابن عدي: من حديثه عن المحاملي، عن سعيد بن يحيى الأموي، قال: حدثنا محمد بن حمزة، عن زيد بن رفيع، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود يرفعه: «لَا تَأْتُوا النِّسَاءَ فِي أُعْجَازِهِنَّ»^(١).

وروي في حديث الحسن بن علي الجوهري، عن أبي ذر مرفوعاً: «مَنْ أَتَى الرَّجَالَ أَوْ النِّسَاءَ فِي أُذْبَارِهِنَّ، فَقَدْ كَفَرَ».

وروي إسماعيل بن عياش، عن سهيل بن أبي صالح، عن محمد بن المنكدر، عن جابر يرفعه: «اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ، لَا تَأْتُوا النِّسَاءَ فِي حُشُوبِهِنَّ». ورواه الدارقطني من هذه الطريق، ولفظه: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ، لَا يَجِلُّ مَا تَأْكُ النِّسَاءُ فِي حُشُوبِهِنَّ» [الدارقطني (٢٨٨/٣)].

وقال البخاري: حدثنا هُذَيْبَةُ، حدثنا هَمَامٌ، قال: سئل قتادة عن الذي يأتي امرأته في دبرها؟ فقال: حدثني عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ قال: «تِلْكَ اللُّوْطِيَّةُ الصُّغْرَى».

وقال أحمد في «المسند»: حدثنا عبد الرحمن، قال: حدثنا همام، أخبرنا عن قتادة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، فذكره [حسن: أحمد: ٦٧٠٦-٦٩٦٧].

وفي «المسند» أيضاً: عن ابن عباس، أنزلت هذه الآية: «يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ» [البقرة: ٢٢٣] في أناسٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: «اتَّهَى عَلَى كُلِّ حَالٍ إِذَا كَانَ فِي الْفَرْجِ» [حسن لغيره: أحمد: ٢٤١٤].

وفي «المسند» أيضاً: عن ابن عباس، قال: جاء عمرُ بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، هلكت، فقال: «وَمَا الَّذِي أَهْلَكَكَ؟» قال: حولتُ رحلي البارحة، قال: فلم يَرُدُّ عليه

شيئاً، فأوحى الله إلى رسوله: «يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ فَأْتُوا حُرَّتَكُمْ أَنْ يَشْتَمَ» [البقرة: ٢٢٣] أَقْبِلْ وَأَذْبِرْ، وَأَتَى الْحَيْضَةَ وَالذُّبْرَ» [حسن: أحمد: ٢٧٠٣، والترمذي: ٢٩٨٤].

وفي الترمذي: عن ابن عباس مرفوعاً: «لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى رَجُلٍ أَوْ امْرَأَةٍ فِي الذُّبْرِ» [الترمذي: ١١٦٥].

وروي من حديث أبي علي الحسن بن الحسين بن دوما، عن البراء بن عازب يرفعه: «كَفَرُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ عَشْرَةٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ: الْقَائِلُ، وَالسَّاجِرُ، وَالذُّبُوتُ، وَنَاكِحُ الْمَرْأَةِ فِي ذُبْرِهَا، وَمَنْعُ الرِّكَازِ، وَمَنْ وَجَدَ سَعَةً فَمَاتَ وَلَمْ يَحُجَّ، وَشَارِبُ الْخَمْرِ، وَالسَّاعِي فِي الْفِتَنِ، وَتَائِبُ السَّلَاحِ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ، وَمَنْ نَكَحَ ذَاتَ مَخْرَمٍ مِنْهُ» [السيوطي في «الجامع الصغير» ورمز له بالضعف].

وقال عبد الله بن وهب: حدثنا عبد الله بن لهيعة عن مِشْرَحِ بْنِ هَاعَانَ، عن عقبة بن عامر، أن رسول الله ﷺ قال: «مَلْعُونٌ مَنْ يَأْتِي النِّسَاءَ فِي مُحَاشِهِنَّ». يعني: أَذْبَارِهِنَّ [ابن عدي في «الكامل» (١/٢١١)].

وفي «مسند الحارث بن أبي أسامة» من حديث أبي هريرة وابن عباس، قالوا: خطبنا رسول الله ﷺ قبل وفاته، وهي آخرُ خطبة خطبها بالمدينة حتى لحق بالله عز وجل، وعظنا فيها وقال: «مَنْ نَكَحَ امْرَأَةً فِي ذُبْرِهَا أَوْ رَجُلًا أَوْ صَبِيًّا، حُسِرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَتَتْهُ مِنَ الْحَيْفَةِ يَتَأَذَى بِوِجْهِ النَّاسِ حَتَّى يَدْخُلَ النَّارَ، وَأَخِيطَ اللَّهُ أَجْرَهُ، وَلَا يَقْبَلُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا، وَيَدْخُلُ فِي تَابُوتٍ مِنْ نَارٍ، وَيُسَدُّ عَلَيْهِ مَسَامِيرُ مِنْ نَارٍ» قال أبو هريرة: هنا لمن لم يتب.

وذكر أبو نعيم الأصبهاني، من حديث خزيمة بن ثابت يرفعه، «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ، لَا تَأْتُوا النِّسَاءَ فِي أُعْجَازِهِنَّ» [حلية الأولياء (٣٧٦/٨)] وسنده ضعيف.

وقال الشافعي: أخبرني عمي محمد بن علي بن شافع، قال: أخبرني عبد الله بن علي بن السائب، عن عمرو بن أحيحة بن الجلاح، عن خزيمة بن

(١) أبو عبيدة لم يسمع من أبيه.

ثابت، أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن إتيان النساء في أديارهن، فقال: «حَلَالٌ»، فلما ولى، دعاها فقال: «كَيْفَ قُلْتَ، فِي أَيِّ الْحَرْزَيْنِ، أَوْ فِي أَيِّ الْحَرْزَيْنِ، أَوْ فِي أَيِّ الْحَصَفَتَيْنِ أَمِنْ دُبُرِهَا فِي قُبُلِهَا؟ فَتَعْمَ أَمْ مِنْ دُبُرِهَا فِي دُبُرِهَا، قَلَا، إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ، لَا تَأْتُوا النِّسَاءَ فِي أَدْيَارِهِنَّ» [صحيح: ابن حبان: ١٢٩٩، والبيهقي (١٩٦/٧)].

قال الريب: فليل للشافعي: فَمَا تَقُولُ؟ فَقَالَ: عَمِي ثَقَّة، وعبد الله بن علي ثَقَّة، وقد أَثْنَى عَلَى الْأَنْصَارِيِّ خَيْرًا، يَعْنِي عَمْرُو بْنُ الْجَلَّاحِ، وَخَزِيمَةُ مِمَّنْ لَا يَشْكُ فِي ثَقَّتِهِ، فَلَسْتُ أَرْخِصُ فِيهِ، بَلْ أَنُهِى عَنْهُ.

قلت: ومن ههنا نشأ الغلط على من نقل عنه الإباحة من السلف والأئمة، فإنهم أباحوا أن يكون الدُّبُرُ طريقاً إلى الوطء في الفرج، فيطأ من الدبر لا في الدبر، فاشتبه على السامع «من» بـ «في» ولم يظن بينهما فرقاً، فهذا الذي أباحه السلف والأئمة، فغلط عليهم الغالط أقبح الغلط وأضحه.

وقد قال تعالى: ﴿فَأَتَوْهُم بِمِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢] قال مجاهد: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَتَوْهُم بِمِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾، قَالَ: تَأْتِيهَا مِنْ حَيْثُ أَمَرْتُ أَنْ تَعْتَزَّلَهَا يَعْنِي فِي الْحَيْضِ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْهُ، يَقُولُ: فِي الْفَرْجِ، وَلَا تَعُدُّهُ إِلَى غَيْرِهِ.

وقد دلت الآية على تحريم الوطء في دُبُرِهَا مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ أَبَاحَ إِيْتَانِهَا فِي الْحَرْتِ، وَهُوَ مَوْضِعُ الْوَلَدِ لَا فِي الْحُشْرِ الَّذِي هُوَ مَوْضِعُ الْأَذَى، وَمَوْضِعُ الْحَرْتِ هُوَ الْمَرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ الْآيَةُ قَالَ: ﴿فَأَتُوا حَرَّتَكُمْ أَنْ يَشْتُمَ﴾ وَإِيْتَانُهَا فِي قُبُلِهَا مِنْ دُبُرِهَا مُسْتَضَاءٌ مِنَ الْآيَةِ أَيْضاً، لِأَنَّهُ قَالَ: أَنِّي شَتَمْتُ، أَي: مِنْ أَيْنِ شَتَمْتُ مِنْ أَمَامِ أَوْ مِنْ خَلْفٍ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَأَتُوا حَرَّتَكُمْ، يَعْنِي: الْفَرْجَ.

(مفاسد إتيان الدبر)

وإذا كان الله حَرَّمَ الْوَطْءَ فِي الْفَرْجِ لِأَجْلِ الْأَذَى الْعَارِضِ، فَمَا الظَّنُّ بِالْحُشْرِ الَّذِي هُوَ مَحَلُّ الْأَذَى اللَّازِمِ مَعَ زِيَادَةِ الْمَفْسَدَةِ بِالتَّعَرُّضِ لَانْقِطَاعِ النَّسْلِ

والذريعة القريبة جداً من أدبار النساء إلى أدبار الصبيان.

وأيضاً: فللمرأة حق على الزوج في الوطء، ووطؤها في دُبُرِهَا يَقُوْتُ حَقُّهَا، وَلَا يَقْضِي وَطْءَهَا، وَلَا يُحْصَلُ مقصودها.

وأيضاً: فإن الدبر لم يتهيأ لهذا العمل، ولم يُخْلَقْ لَهُ، وإنما الذي هيئ له الفرج، فالعادلون عنه إلى الدُّبُرِ خَارِجُونَ عَنْ حِكْمَةِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ جَمِيعاً.

وأيضاً: فإن ذلك مضر بالرجل، ولهذا ينهى عنه عقلاء الأطباء من الفلاسفة وغيرهم، لأن للفرج خاصية في اجتذاب الماء المحتقن وراحة الرجل منه، والوطء في الدبر لا يعين على اجتذاب جميع الماء، ولا يخرج كل المحتقن لمخالفته للأمر الطبيعي.

وأيضاً: يضر من وجه آخر، وهو إحواجه إلى حركات متعبة جداً لمخالفته للطبيعة.

وأيضاً: فإنه محل القذر والنجس، فيستقبله الرجل بوجهه، ويلاسه.

وأيضاً: فإنه يضر بالمرأة جداً، لأنه وارد غريب بعيد عن الطباع، منافرها غاية المنافرة.

وأيضاً: فإنه يُحْدِثُ الهم والغم، والنفرة عن الفاعل والمفعول.

وأيضاً: فإنه يُسَوِّدُ الْوَجْهَ، وَيُظْلِمُ الصَّدْرَ، وَيُطِيسُ نَوْرَ الْقَلْبِ، وَيَكْسُو الْوَجْهَ وَحْشَةً تُصِيرُ عَلَيْهِ كَالسِّمَاءِ يَعْرِفُهَا مِنْ لَهْ أَدْنَى فَرَاةٍ.

وأيضاً: فإنه يُوجِبُ الثُّفْرَةَ وَالتَّبَاغُضَ الشَّدِيدَ، وَالتَّقَاطُعَ بَيْنَ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ، وَلَا بَدَ.

وأيضاً فإنه يُفْسِدُ حَالَ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ فَسَاداً لَا يَكَادُ يُرْجَى بَعْدَهُ صَلَاحٌ، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحَ.

وأيضاً: فإنه يذهب بالمحاسن منهما، ويكسوهما قُبْحاً، كَمَا يَذْهَبُ بِالْمُودَةِ بَيْنَهُمَا، وَيَبْدِلُهُمَا بِهَا تَبَاغُضاً وَتَلَاَعُناً.

وأيضاً: فإنه من أكبر أسباب زوال النعم، وحُلُولِ النقم، فإنه يوجب اللعنة والمقت من الله، وإعراضه

عن فاعله، وعدم نظره إليه، فأَيُّ خير يروجوه بعد هذا، وأَيُّ شر يأمته، وكيف حياة عبد قد حلت عليه لعنة الله ومقته، وأعرض عنه بوجهه، ولم ينظر إليه.

وأيضاً: فإنه يذهب بالحياء جملة، والحياء هو حياة القلوب، فإذا فقدما القلب، استحسن القبيح، واستقبح الحسن، وحينئذ فقد استحكم فسادُه.

وأيضاً: فإنه يحيل الطباع عما ركبها الله، ويُخرج الإنسان عن طبعه إلى طبع لم يُركب الله عليه شيئاً من الحيوان، بل هو طبع منكوس، وإذا نكس الطبع انتكس القلب، والعمل، والهدى، فيستطِبُ حينئذ الخيث من الأعمال والهيئات، ويفسد حاله وعمله وكلامه بغير اختياره.

وأيضاً: فإنه يورث من الوقاحة والجُرأة ما لا يُورثه سواه.

وأيضاً: فإنه يُورث من المهاتة والسُّفال والحقارة ما لا يورثه غيره.

وأيضاً: فإنه يكسو العبد من حلة المقت والبغضاء، وازدراء الناس له، واحتقارهم إياه، واستصغارهم له ما هو مشاهد بالجس، فصلاة الله وسلامه على من سعادة الدنيا والآخرة في هديه واتباع ما جاء به، وهلاك الدنيا والآخرة في مخالفة هديه وما جاء به.

فصل

(أنواع الجماع الضار)

والجماع الضار: نوعان: ضار شرعاً، وضار طبيعاً. فالضار شرعاً: المحرّم، وهو مراتب بعضها أشدُّ من بعض، والتحريم العارض منه أخفُّ من اللازم، كتحريم الإحرام، والصيام، والاعتكاف، وتحريم المظاهر منها قبل التكفير، وتحريم وطء الحائض ونحو ذلك، ولهذا لا حدُّ في هذا الجماع. وأما اللازم: فنوعان، نوع لا سبيل إلى جَلِّه البتة، كذوات المحارم، فهذا من أضر الجماع،

وهو يُوجب القتل حداً عند طائفة، من العلماء، كأحمد ابن حنبل رحمه الله وغيره، وفيه حديث مرفوع ثابت^(١).

والثاني: ما يمكن أن يكون حلالاً، كالأجنبية، فإن كانت ذات زوج، ففي وطنها حقان، حقٌّ لله، وحق للزوج. فإن كانت مكروهة، ففيه ثلاثة حقوق، وإن كان لها أهل وأقارب يلحقهم العارُ بذلك صار فيه أربعة حقوق، فإن كانت ذات محرم منه، صار فيه خمسة حقوق. فمضرة هذا النوع بحسب درجاته في التحريم.

وأما الضرر طبيعاً، فنوعان أيضاً: نوع ضار بكيفيته، كما تقدم، ونوع ضار بكميته كالإكثار منه، فإنه يُسقط القوة، ويضر بالعصب، ويُحدث الرعشة، والقالج، والتشنج، ويُضعف البصر وسائر القوى، ويُطفئ الحرارة الغريزية، ويُوسع المجاري، ويجعلها مستعدة للفضلات المؤذية.

ونافع أوقاته، ما كان بعد انهضام الغذاء في المعدة وفي زمان معتدل لا على جوع، فإنه يُضعف الحار الغريزي، ولا على شبع، فإنه يُوجب أمراضاً شديدة، ولا على تعب، ولا إثر حمام، ولا استغراق، ولا انفعال نفسياني كالغم والهَمُّ والحزن وشدة الفرح.

وأجود أوقاته بعد هزيع من الليل إذا صادف انهضام الطعام، ثم يفتسل أو يتوضأ، وينام عليه، وينام عقبه، فترَجَّعَ إليه قواه، وليحذر الحركة والرياضة عقبه، فإنها مضرة جداً.

فصل

في هديه ﷺ في علاج العشق

هذا مرض من أمراض القلب، مخالف لسائر الأمراض في ذاته وأسبابه وعلاجه، وإذا تمكَّن واستحكم، عُرِّ على الأطباء دواؤه، وأعمى العليل دأؤه، وإنما حكاه الله سبحانه في كتابه عن طائفتين من الناس، من النساء، وعشاق الصبيان المُردان، فحكاه عن امرأة العزيز في شأن يوسف، وحكاه عن قوم

(١) أحمد (١٨٥٧٩)، وأبو داود (٤٤٥٧)، والترمذي (١٣٦٢)، والنسائي (١٠٩/٦)، وابن ماجه (٢٦٠٧)، عن البراء بن عازب قال: لقيت خالي ومعه راية، فقلت له: أين تريد، قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى رجل نكح امرأة أبيه، فأمرني أن أضرب عنقه وأخذ ماله.

لوط، فقال تعالى إخباراً عنهم لما جاءت الملائكة لوطاً: ﴿رَبَّاهُ أَقْبَلُ الْمَدِينَةَ يَنْتَظِرُونَ﴾ ٧٥ قَالَ إِنَّ هَذِهِ نِسَاءِي فَمَا تَفْعَلُونَ ٧٦ وَاقْرَأُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنِ ٧٧ قَالُوا أَرْأَيْتَ إِنْ تَنَاهَيْتَ عَنْ الْقَتْلِ ٧٨ قَالَ هَذِهِ نِسَائِي إِنْ كُنْتُمْ فَعِيلِينَ ٧٩ لَمَسَهُنَّ لَيْلِي فَنَزَلْنَ عَلَيْهِنَّ مِنَ اللَّيْلِ حَارَّةٌ مِّنْ لَّدُنِّهِمْ فَوَسَّوْنَ لَهُنَّ أَبْجَادَهُنَّ ٨٠ فَأَخْرَجَهُنَّ إِلَى الدِّهَانِ ٨١ فَذَرَوْهُنَّ عَلَى الدِّهَانِ ٨٢ (الحجر: ٦٧ - ٧٢).

(سبب طلاق زيد لزينب)

وأما زعمه بعض من لم يقدِّر رسول الله ﷺ حقَّ قدره أنه ابتلي به في شأن زينب بنت جحش، وأنه رآها فقال: «سُبْحَانَ مُقَلَّبِ الْقُلُوبِ». وأخذت بقلبه، وجعل يقول لزيد بن حارثة: أمسكها حتى أنزل الله عليه: ﴿وَإِذْ نَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَخَشِيَ النَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يَخْشَاهُ﴾^(١) [الأحزاب: ٣٧]، فظن هذا الزاعم أن ذلك في شأن العشق، وصنّف بعضهم كتاباً في العشق، وذكر فيه عشق الأنبياء، وذكر هذه الواقعة، وهذا من جهل هذا القائل بالقرآن وبالرسل، وتحميله كلام الله ما لا يحتمله، ونسبه رسول الله ﷺ إلى ما برأه الله منه، فإن زينب بنت جحش كانت تحت زيد بن حارثة، وكان رسول الله ﷺ قد تنابها، وكان يدعى زيد بن محمد، وكانت زينب فيها شمم وترفع عليه، فشاور رسول الله ﷺ في طلاقها، فقال له رسول الله ﷺ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ» وأخفى في نفسه أن يتزوجها إن طلقها زيد، وكان يخشى من قالة الناس أنه تزوّج امرأة ابنه، لأن زيدا كان يدعى ابنه، فهذا هو الذي أخفاه في نفسه، وهذه هي الخشية من الناس التي وقعت له، ولهذا ذكر سبحانه هذه الآية يُعَدُّ فيها نعمه عليه لا يُعَاتِبُهُ فيها، وأعلمه أنه لا ينبغي له أن يخشى الناس فيما أحل الله له، وأن الله أحقُّ أن يخشاه، فلا يتحرّج ما أحله له لأجل قول الناس، ثم أخبره أنه سبحانه زوجه إياها بعد قضاء زيد وطهره منها لتقتدي أمته به في ذلك، ويتزوج الرجل بامرأة ابنه من التبنّي، لا امرأة ابنه لصلبه، ولهذا قال في آية التحريم: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ

مِنْ أُمَّتِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]. وقال في هذه السورة: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّنْ رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وقال في أولها: ﴿وَمَا جَعَلَ أَمْوَاجَكُمُ الَّتِي تَنْظُرُونَ بَيْنَ أَفْئِدَتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْبَاءَكُمُ أَيْمَانَكُمْ ذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِكُمْ بِأَفْوَيْكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤]، فتأمل هذا الذب عن رسول الله ﷺ، ودفع طعن الطاعنين عنه، وبالله التوفيق.

نعم كان رسول الله ﷺ يُحِبُّ نساءه، وكان أحبهن إليه عائشة رضي الله عنها، ولم تكن تبلغ محبته لها ولا لأحد سوى ربه نهاية الحب، بل صح أنه قال: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَأَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا» [البخاري: ٣٦٥٦]. وفي لفظ: «وَأَنْ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ» [سلم: ٦١٧٢].

فصل

(الإخلاص سبب لدفع العشق)

وعشق الصور إنما تُبتلى به القلوب الفارغة من محبة الله تعالى، المعرّضة عنه، المتعوضة بغيره عنه، فإذا امتلأ القلب من محبة الله والشوق إلى لقائه، دفع ذلك عنه مرض عشق الصور، ولهذا قال تعالى في حق يوسف: ﴿كَذَلِكَ يَصْرِفُ عَنْ شَرِّهِ وَالْفَحْشَاءِ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فدل على أن الإخلاص سبب لدفع العشق وما يترتب عليه من السوء والفحشاء التي هي ثمرته ونتيجته، فصرفت المسبب صرفت لسيئه، ولهذا قال بعض السلف: العشق حركة قلب فارغ، يعني فارغاً مما سوى معشوقه. قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَرْمُوتَ قَرِيْبًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَى بِهِ﴾ [الفصص: ١٠] أي: فارغاً من كل شيء إلا من موسى لفرط محبتها له، وتعلق قلبها به.

(علة العشق)

والعشق مركب من أمرين: استحسان للمعشوق، وطمع في الوصول إليه، فمتى انتفى أحدهما انتفى العشق، وقد أعبت جلة العشق على كثير من العقلاء،

(١) خبر باطل أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٨/١٠١، ١٠٢)، والحاكم (٤/٢٣) من طريق محمد بن عمر الواقدي وهو متروك ويضمهم اتهمه بالوضع، عن عبد الله بن عامر الأسلمي وهو ضعيف.

وتكلم فيها بعضهم بكلام يُرغب عن ذكره إلى الصواب.

نفقول: قد استقرت حكمة الله - عز وجل - في خلقه وأمره على وقوع التناسب والتكافؤ بين الأشياء، وانجذاب الشيء إلى موافقه ومجانسه بالطبع، وهروبه من مخالفه، ونفرته عنه بالطبع، فيبر التمازج والاتصال في العالم العلوي، والسفلي، إنما هو التناسب والتشاكل، والتوافق، ويمير التباين والانفصال، إنما هو بعدم التشاكل والتناسب، وعلى ذلك قام الخلق والأمر، فالمثل إلى مثله مائل، وإليه صائر، والصد عن ضده هارب وعنه نافر، وقد قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، فجعل سبحانه علة سكون الرجل إلى امرأته كونها من جنسه وجوهره، فعلة السكون المذكور - وهو الحب - كونها منه، فدل على أن العلة ليست بحسن الصورة، ولا الموافقة في القصد والإرادة، ولا في الخلق والهدي، وإن كانت هذه أيضاً من أسباب السكون والمحبة.

وقد ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «الأزواج جنود مجنّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف» [البخاري: ٣٣٣٦]. وفي «مسند الإمام أحمد» وغيره في سبب هذا الحديث: أن امرأة بمكة كانت تضحك الناس، فجاءت إلى المدينة، فنزلت على امرأة تضحك الناس، فقال النبي ﷺ: «الأزواج جنود مجنّدة» الحديث [صحيح: أحمد: ١٠٨٢٤، وأبو داود: ٤٨٣٤].

وقد استقرت شريعته سبحانه أن حكم الشيء حكم مثله، فلا تفرق شريعته بين متماثلين أبداً، ولا تجمع بين متضادين، ومن ظن خلاف ذلك، فإما لقلة علمه بالشرعية، وإما ليقصيره في معرفة التماثل والاختلاف، وإما لنسبته إلى شريعته ما لم ينزل به سلطاناً، بل يكون من آراء الرجال، فبحكمته وعدله ظهر خلقه وشرعه، وبالعادل والميزان قام الخلق والشرع، وهو التسوية بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين.

وهذا كما أنه ثابت في الدنيا، فهو كذلك يوم القيامة. قال تعالى: ﴿لَنُخْشِرَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَنَزَعَتُمْ أَعْيُنَهُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ فَإِنَّهُمْ لَكَاظِمُونَ﴾ [الصفافات: ٢٢، ٢٣].

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبعده الإمام أحمد رحمه الله: أزواجهم أشباههم ونظراؤهم.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧] أي: قرن كل صاحب عمل بشكله ونظيره، فقرن بين المتحابين في الله في الجنة، وقرن بين المتحابين في طاعة الشيطان في الجحيم، فالمرء مع من أحب شاء أو أبى، وفي «مستدرک الحاكم» وغيره عن النبي ﷺ: «لَا يُحِبُّ الْمَرْءُ قَوْماً إِلَّا خَيْرَ مَعَهُمْ» [صحيح: أحمد: ٢٥١٢١].

(النوع المحبة)

والمحبة أنواع متعددة: فأفضلها وأجلها المحبة في الله و لله، وهي تستلزم محبة ما أحب الله، وتستلزم محبة الله ورسوله.

ومنها محبة الاتفاق في طريقة، أو دين، أو مذهب، أو نحلة أو قرابة، أو صناعة، أو مراد ما.

ومنها: محبة لنيل غرض من المحبوب، إما من جاهه أو من ماله أو من تعليمه وإرشاده، أو قضاء وطر منه، وهذه هي المحبة العرضية التي تزول بزوال موجبها، فإن من ذلك لأمر، ولئى عنك عند انقضائه.

وأما محبة المشاكلة والمناسبة التي بين المحب والمحبوب، فمحبة لازمة لا تزول إلا لعارض يُزيلها، ومحبة العشق من هذا النوع، فإنها استحسان روحاني، وامتزاج نفساني، ولا يعرض في شيء من أنواع المحبة من الوسواس والنحول، وشغل البال، والتلف ما يعرض من العشق.

(سبب يكون العشق أحياناً من طرف واحد)

فإن قيل: فإذا كان سبب العشق ما ذكرتم من الاتصال والتناسب الروحاني، ما بأله لا يكون دائماً من الطرفين، بل تجده كثيراً من طرف العاشق وحده، فلو كان سببه الاتصال النفسي والامتزاج الروحاني، لكانت المحبة مشتركة بينهما.

اللَّهُ أَنْ يُخَوِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا» [النساء: ٢٨]. فذكر تخفيفه في هذا الموضع، وإخباره عن ضعف الإنسان يدل على ضعفه عن احتمال هذه الشهوة، وأنه - سبحانه - خفف عنه أمرها بما أباحه له من أطايب النساء متى وثلاث ورباع، وأباح له ما شاء مما ملكت يمينه، ثم أباح له أن يتزوج بالإماء إن احتاج إلى ذلك علاجاً لهذه الشهوة، وتخفيفاً عن هذا الخلق الضعيف، ورحمة به.

فصل

(ومن علاجه إشعار النفس

اليأس منه إن كان الوصال متعلداً قديراً وشرعاً)

وإن كان لا سبيل للعاشق إلى وصال معشوقه قديراً أو شرعاً، أو هو ممتنع عليه من الجهتين، وهو الداء الغضال، فمن علاجه إشعار نفسه اليأس منه، فإن النفس متى يشت من الشيء، استراحت منه، ولم تلتفت إليه، فإن لم يزل مرضى العشق مع اليأس، فقد انحرف الطبع انحرافاً شديداً، فينتقل إلى علاج آخر، وهو علاج عقله بأن يعلم بأن تعلق القلب بما لا مطمع في حصوله نوع من الجنون، وصاحبه بمنزلة من يعشق الشمس، وروحه متعلقة بالصعود إليها والدوران معها في فلكها، وهذا معدود عند جميع العقلاء في زمرة المجانين.

(إن كان الوصال متعلداً شرعاً

فعلاجه إنزاله منزلة المتعذر قديراً وذكر علاجات أخرى)

وإن كان الوصال متعلداً شرعاً لا قديراً، فعلاجه بأن ينزله منزلة المتعذر قديراً، إذ ما لم يأذن فيه الله، فعلاج العبد ونجائه موقوف على اجتنابه، فليشعر نفسه أنه معدوم ممتنع لا سبيل له إليه، وأنه بمنزلة سائر المحالات، فإن لم تُجبه النفس الأمانة، فليتركه لأحد أمرين: إما خشية، وإما قوابة محبوب هو أحب إليه، وأنفع له، وخير له منه، وأدوم لذة وسروراً، فإن العاقل متى وازن بين نيل محبوب سريع الزوال بفوات محبوب أعظم منه، وأدوم، وأنفع، وألذ أو بالعكس، ظهر له التفاضل، فلا تبغ لذة الأبد التي لا خطر لها بلذة ساعة تنقلب آلاماً، وحقيقتها أنها أحلام نائم، أو خيال لا ثبات له، فتذهب اللذة،

فالجواب: أن السبب قد يتخلف عنه مسببه لفوات شرط، أو لوجود مانع، وتختلف المحبة من الجانب الآخر لا بد أن يكون لأحد ثلاثة أسباب:

الأول: علة في المحبة، وأنها محبة عرضية لا ذاتية، ولا يجب الاشتراك في المحبة العرضية، بل قد يلزمها نفرة من المحبوب.

الثاني: مانع يقوم بالمحب يمنع محبة محبوبه له، إما في خلقه، أو في خلقه أو هديه أو فعله، أو هيئته أو غير ذلك.

الثالث: مانع يقوم بالمحبيب يمنع مشاركته للمحب في محبته، ولولا ذلك المانع، لقام به من المحبة لمحبه مثل ما قام بالآخر، فإذا انتفت هذه الموانع، وكانت المحبة ذاتية، فلا يكون قط إلا من الجانبين، ولولا مانع الكبير والحسد، والرياسة والمعاداة في الكفار، لكانت الرسل أحب إليهم من أنفسهم وأهلهم وأموالهم، ولما زال هذا المانع من قلوب أتباعهم، كانت محبتهم لهم فوق محبة الأنفس والأهل والمال.

فصل

(علاج العشق بالزواج بالمعشوق)

والمقصود: أن العشق لما كان مرضاً من الأمراض، كان قابلاً للعلاج، وله أنواع من العلاج، فإن كان مما للعاشق سبيل إلى وصل محبوبه شرعاً وقديراً، فهو علاجه، كما ثبت في «الصحيحين» من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصُّومِ، فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ» [البخاري: ٥٠٦٦، ومسلم: ٣٣٩٨]. فدل المحب على علاجين: أصلي، وبدلي وأمره بالأصلي، وهو العلاج الذي وضع لهذا الداء، فلا ينبغي العدول عنه إلى غيره ما وجد إليه سبيلاً.

وروي ابن ماجه في «سننه» عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «لَمْ تَرَ لِمُتَحَابِّينِ مِثْلَ النِّكَاحِ» [صحيح: ابن ماجه: ١٨٤٧]. وهذا هو المعنى الذي أشار إليه سبحانه عقيب إحلال النساء حرائرهن وإمائهن عند الحاجة بقوله: «يُرِيدُ

وتبقى التبعة، وتزول الشهوة، وتبقى الشَّقوة.

الثاني: حصولُ مكروه أشقَّ عليه من فوات هذا المحبوب، بل يجتمع له الأمران، أعني: فوات ما هو أحبُّ إليه من هذا المحبوب، وحصول ما هو أكره إليه من فوات هذا المحبوب، فإذا تيقن أن في إعطاء النفس حظها من هذا المحبوب هذين الأمرين، هان عليه تركه، ورأى أن صبره على قوته أسهل من صبره عليهما بكثير، ففعلته ودينه، ومروءته وإنسانيته، تأمره باحتمال الضرر اليسير الذي يَقلِّبُ سريعاً لذة وسروراً وفرحاً لدفع هذين الضررين العظيمين، وجهله وهواه، وظلمه وطيشه، وخفته يأمره بإيثار هذا المحبوب العاجل بما فيه جالباً عليه ما جلب، والمعصوم من عصمه الله.

فإن لم تقبل نفسه هذا الدواء، ولم تُطاوله لهذه المعالجة، فلينظر ما تجلبُ عليه هذه الشهوة من مفسد عاجلته، وما تمنعه من مصالحها، فإنها أجلبُ شيء لمفسد الدنيا، وأعظمُ شيء تعطيلاً لمصالحها، فإنها تحول بين العبد وبين رُشدِه الذي هو ملاك أمره، وقوام مصالحه.

فإن لم تقبل نفسه هذا الدواء، فليذكر قبائح المحبوب، وما يدعو إلى الثَّغرة عنه، فإنه إن طلبها وتأملها، وجدها أضعافَ محاسنِها التي تدعو إلى حبه، وليسأل جيرانه عما خفي عليه منها، فإنها المحاسن كما هي داعيةُ الحب والإرادة، فالمساوئ داعيةُ البغض والثَّغرة، فليوازن بين الداعيتين، وليحب أسبقهما وأقربهما منها باباً، ولا يكن ممن غره لونُ جمال على جسم أبرص مجلوم، وليجاوز بصره حسن الصورة إلى قبح الفعل، وليغترَّ من حسن المنظر والجسم إلى قبح المخبر والقلب.

فإن عجزت عنه هذه الأدوية كلها لم يبق له إلا صدق الملجأ إلى من يُجيب المضطر إذا دعاه، وليطرح نفسه بين يديه على بابهِ، مستغيثاً به، متضرعاً، متذللاً، مستكيناً، فمتى وثَّقَ لذلك، فقد قرع باب التوفيق، فليعِفَّ وليكثُر، ولا يُشبَّثْ بذكر

المحبوب، ولا يفضِّحه بين الناس ويُعرِّضه للأذى، فإنه يكون ظالماً معتدياً.

(بطلان حديث «من عشق ففقد...»)

ولا يفتَرَّ بالحديث الموضوع على رسول الله ﷺ الذي رواه سويد بن سعيد، عن علي بن مسهر، عن أبي يحيى القتات، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، ورواه عن أبي مسهر أيضاً، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، عن النبي ﷺ، ورواه الزبير بن بكار، عن عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون، عن عبد العزيز بن أبي حازم، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ عَشِقَ، فَقَعَتْ، فَمَاتَ فَهُوَ شَهِيدٌ» وفي رواية: «مَنْ عَشِقَ وَكُتِمَ وَعَفَّ وَصَبَرَ، غَفَرَ اللَّهُ لَهُ، وَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ» [الخطيب البغدادي في تاريخه (١٥٦/٥)، (٥٠/٦) وسنده ضعيف].

فإن هذا الحديث لا يصحُّ عن رسول الله ﷺ، ولا يجوز أن يكون من كلامه، فإن الشهادة درجة عالية عند الله، مقرونة بدرجة الصِّدِّيقية، ولها أعمال وأحوال، هي شرط في حصولها، وهي نوعان: عامة وخاصة، فالخاصة: الشهادة في سبيل الله.

والعامة خمس مذكورة في «الصحيح»^(١) ليس العشق واحداً منها.

وكيف يكون العشق الذي هو شرك في المحبة، وفراغ القلب عن الله، وتمليك القلب والروح، والحب لغيره تُنال به درجة الشهادة، هذا من المحال، فإن إفساد عشق الصور للقلب فوق كل إفساد، بل هو خمرُ الروح الذي يُسكرها، ويصدها عن ذكر الله وحبه، والتلذذ بمناجاته، والأنس به، ويُوجب عبودية القلب لغيره، فإن قلبَ العاشق متعبَّد لمعشوقه، بل العشق لب العبودية، فإنها كمال الذل، والحب والخضوع والتعظيم، فكيف يكون تعبد القلب لغير الله مما تُنال به درجة أفاضل الموحدين وساداتهم، وخواص الأولياء، فلو كان إسناد هذا

(١) البخاري (٢٨٢٩) في الجهاد: باب الشهادة سبع سوى القتل، ومسلم (٤٩٤٠) أن رسول الله ﷺ قال: «الشهداء خمسة: المطعون، والمبطون، والغرق، وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل الله».

الحديث كالشمس، كان غلطاً ووهماً، ولا يُحفظ عن رسول الله ﷺ لفظُ العشق في حديث صحيح البتة.

ثم إن العشق منه حلالٌ، ومنه حرامٌ، فكيف يُظن بالنبي ﷺ أنه يحكم على كُلِّ عاشقٍ يكتُم ويَعِفُّ بأنه شهيد، فترى من يعشق امرأةً غيره، أو يعشق المردان والبغايا، ينال بعشقه درجة الشهداء، وهل هذا إلا خلافتُ المعلوم من دينه ﷺ بالضرورة؟ كيف والعشقُ مرضٌ من الأمراض التي جعل الله سبحانه لها الأدويةَ شرعاً وقدرأً، والتداوي منه إما واجب إن كان عشقاً حراماً، وإما مستحب.

وأنت إذا تأملت الأمراض والآفات التي حكم رسول الله ﷺ لأصحابها بالشهادة، وجدتها من الأمراض التي لا علاج لها، كالملطعون والمبطون، والمجنوب^(١)، والغريق، وموت المرأة يقتلها ولدها في بطنها، فإن هذه بلايا من الله لا صُنْع للعبد فيها، ولا علاج لها، وليست أسبابها محرمة، ولا يترتب عليها من فساد القلب وتعبده لغير الله ما يترتب على العشق، فإن لم يكف هذا في إبطال نسبة هذا الحديث إلى رسول الله ﷺ، فقلْذُ أئمة الحديث العالمين به وبعلله، فإنه لا يُحفظ عن إمام واحد منهم قطُّ أنه شهد له بصحة، بل ولا بحسن، كيف وقد أنكروا على سويد هذا الحديث، ورموه لأجله بالعظام، واستحل بعضهم غزوَه لأجله. قال أبو أحمد بن عدي في «كامله»: هذا الحديث أحد ما أنكر على سويد، وكذلك قال البيهقي: إنه مما أنكر عليه، وكذلك قال ابن طاهر في «الذخيرة» وذكره الحاكم في «تاريخ نيسابور» وقال: أنا أتعجب من هذا الحديث، فإنه لم يحدث به عن غير سويد، وهو ثقة، وذكره أبو الفرج ابن الجوزي في كتاب «الموضوعات»، وكان أبو بكر الأزرق يرفعه أولاً عن سويد، ففوتب فيه، فأسقط النبي ﷺ وكان لا يُجاوز به ابن عباس رضي الله عنهما.

ومن المصائب التي لا تُحتمل جعلُ هذا الحديث من حديث هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ، ومن له أدنى إلمام

بالحديث وعلله، لا يحتملُ هذا البتة، ولا يحتملُ أن يكونَ من حديث الماجشون عن ابن أبي حازم، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً، وفي صحته موقوفاً على ابن عباس نظر، وقد رمى الناس سويد بن سعيد راوي هذا الحديث بالعظام، وأنكره عليه يحيى بن معين وقال: هو ساقط كذاب، لو كان لي فرس ورمح كنت أغزوه، وقال الإمام أحمد: متروك الحديث، وقال النسائي: ليس بثقة، وقال البخاري: كان قد عمي فيلقن ما ليس من حديثه، وقال ابن حبان: يأتي بالمعضلات عن الثقات يجبُ مجانبةُ ما روى. انتهى. وأحسن ما قيل فيه قول أبي حاتم الرازي: إنه صدوق كثير التدليس، ثم قول الدارقطني: هو ثقة غير أنه لما كَبُرَ كان ربما قُرئ عليه حديث فيه بعضُ النكارة فيجيزه انتهى. وعيب على مسلم إخراج حديثه وهذه حاله، ولكن مسلم روى من حديثه ما تابعه عليه غيره، ولم ينفرْ به، ولم يكن منكراً ولا شاذاً بخلاف هذا الحديث، والله أعلم.

فصل

في هديه ﷺ في حفظ الصحة بالطيب

لما كانت الرائحة الطيبة غذاءً للروح، والروح مطيةً للقوى، والقوى تزاد بالطيب، وهو ينفع الدماغ والقلب، وسائر الأعضاء الباطنية، ويُفَرِّج القلب، ويسرُّ النفس ويسبِّطُ الروح، وهو أصدقُ شيء للروح، وأشدُّه ملامةً لها، وبينه وبين الروح الطيبة نسبة قربة، كان أحدُ المحبوبين من الدنيا إلى أطيب الطيبين صلوات الله عليه وسلامه.

وفي «صحيح البخاري» أنه ﷺ كان لا يَرُدُّ الطَّيِّب [البخاري: ٥٩٢٩].

وفي «صحيح مسلم» عنه ﷺ: «مَنْ عَرِضَ عَلَيْهِ رِيحَانٌ، فَلَا يَرُدُّهُ فَإِنَّهُ طَيْبُ الرِّيحِ، خَفِيفُ الْمَحْوِلِ» [مسلم: ٥٨٨٣].

وفي «سنن أبي داود» و«النسائي»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «مَنْ عَرِضَ عَلَيْهِ

طِيبٌ، فَلَا يَرُدُّهُ، فَإِنَّهُ خَفِيفُ الْمَحْمُولِ طِيبُ الرَّائِحَةِ [أبو داود: ٤١٧٢، والنسائي (١٨٩/٨)].

ثلاثاً، يتبدى بها، ويختم بها، وفي اليسرى ثنتين [أبو الشيخ في «أخلاق النبي ﷺ» (١٨٣)].

وفي «مسند البزار» عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ طِيبٌ يُحِبُّ الطِّيبَ، نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ، كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَّمَ، جَوَادٌ يُحِبُّ الْجُودَ، فَتَنَظَّفُوا أَفْنَاءَكُمْ وَسَاحَاتَكُمْ، وَلَا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ يَجْمَعُونَ الْأَكْبَ فِي دُورِهِمْ» [الترمذي: ٢٨٠٠، وفي سننه متروك]. الأكب: الزبالة.

وذكر ابن أبي شيبة، أنه ﷺ كان له سُكَّةٌ يَتَطَيَّبُ منها.

وصح عنه أنه قال: «إِنَّ لِلَّهِ حَقًّا عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَغْتَسِلَ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ، وَإِنْ كَانَ لَهُ طِيبٌ أَنْ يَمَسُّ رِئْتَهُ» [البخاري: ٨٩٥]. وفي الطب من الخاصة، أن الملائكة تحبه، والشياطين تنفر عنه، وأحب شيء إلى الشياطين الرائحة الممتنة الكريهة، فالأرواح الطيبة تُحِبُّ الرائحة الطيبة، والأرواح الخبيثة تُحِبُّ الرائحة الخبيثة، وكل روح تميل إلى ما يناسبها، فالخبيثات للخبيثين، والخبيثون للخبيثات، والطيبات للطيبين، والطيبون للطيبات، وهذا وإن كان في النساء والرجال، فإنه يتناول الأعمال والأقوال، والمطاعم والمشارب، والملابس والروائح، إما بعموم لفظه، أو بعموم معناه.

فصل

في هديه ﷺ في حفظ صحة العين

(حفظ صحة العين بالاحتحال)

روى أبو داود في «سننه» عن عبد الرحمن بن النعمان بن معبد بن هُوذة الأنصاري، عن أبيه، عن جده رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ أَمَرَ بِالْإِثْمِدِ الْمُرْوَجِ عِنْدَ النَّوْمِ وقال: «لِيَتَّقِيَ الصَّائِمُ» [أبو داود: ٢٣٧٧]. قال أبو عبيد: المروج: المطيب بالمسك.

وفي «سنن ابن ماجه» وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت للنبي ﷺ مَكْحَلَةٌ يَكْتَحِلُ بِهَا ثَلَاثًا فِي كُلِّ عَيْنٍ [سننه ضيف: أحمد: ٣٣٢٠، والترمذي: ١٧٥٧، وابن ماجه: ٣٤٩٩].

وفي الترمذي: عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ إِذَا اكْتَحَلَ يَجْعَلُ فِي الْيَمْنَى

وقد روى أبو داود عنه ﷺ: «مَنْ اكْتَحَلَ فَلْيُوتِرْ» [أبو داود: ٣٥، والدارمي (١٦٩/١)، وابن ماجه: ٣٣٧، وفي سننه مجهولان]. فهل الوتر بالنسبة إلى العينين كليهما، فيكون في هذه ثلاث، وفي هذه ثنتان، واليمنى أولى بالابتداء والتفضيل، أو هو بالنسبة إلى كل عين، فيكون في هذه ثلاث، وفي هذه ثلاث، وهما قولان في مذهب أحمد وغيره.

(هوائد الكحل للعين)

وفي الكحل حفظاً لصحة العين، وتقوية للنور الباصر، وجلاء لها، وتلطيف للمادة الرديئة، واستخراج لها مع الزينة في بعض أنواعه، وله عند النوم مزيد فضل لاشتغالها على الكحل، وسكونها عقيبها عن الحركة المضرة بها، وخدمة الطبيعة لها، وللإثم من ذلك خاصة.

وفي «سنن ابن ماجه» عن سالم عن أبيه يرفعه: «عَلَيْكُمْ بِالْإِثْمِدِ، فَإِنَّهُ يَجْلُو الْبَصَرَ، وَيُنْبِتُ الشَّعْرَ» [ابن ماجه: ٣٤٩٥].

وفي كتاب أبي نعيم: «فإنه منبتة للشعر، مذهبة للقدى، مصفاة للبصر» [أبو نعيم في «الحلية» (١٧٨/٣)، والطبراني في «الكبير» (١٨٣)].

وفي «سنن ابن ماجه» أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه: «خير أحوالك الإثم، يجلو البصر، وينبت الشعر» [صحيح: أحمد: ٣٠٣٦، وأبو داود: ٣٨٧٨، وابن ماجه: ٣٤٩٧].

فصل

في ذكر شيء من الأدوية والأغذية المفردة التي جاءت على لسانه ﷺ

مرتبة على حروف المعجم

حرف الهمزة

إثم: هو حجر الكحل الأسود، يؤتى به من أصبهان، وهو أفضله ويؤتى به من جهة المغرب أيضاً، وأجوده السريع التفيت الذي لفتاته بصيص، ودخله أملس ليس فيه شيء من الأوساخ.

ومزاجه بارد يابس ينفع العين ويقويها، ويشد أعصابها، ويحفظ صحتها، ويذهب اللحم الزائد في القروح ويُدملها، وينقي أوساخها، ويجلوها، ويذهب الصداغ إذا اكتحل به مع العسل المائي الرقيق، وإذا دُقَّ وُخِلط ببعض الشحوم الطرية، ولُطخ على حرق النار، لم تعرض فيه خشكيشة، ونفع من التنفط الحادث بسببه، وهو أجود أحوال العين لا سيما للمشايخ، والذين قد ضعفت أبصارهم إذا جُعلَ معه شيء من المسك.

(منافع بزره)

وأما بزره: فله قوة محللة مجففة. وقال ابن ماسويه^(٢): خاصية حبه النفع من السموم القاتلة إذا شرب منه وزن مثقال مَقْشَرًا بماء فاتر وطلاء مطبوخ، وإن دُقَّ ووضع على موضع اللسعة نفع، وهو ملين للطبيعة، مطيب للنكهة، وأكثر هذا الفعل موجود في قشره، وقال غيره: خاصية حبه النفع من لسعات العقارب إذا شُرِبَ منه وزن مثقالين مَقْشَرًا بماء فاتر، وكذلك إذا دُقَّ ووُضِعَ على موضع اللدغة. وقال غيره: حبه يصلح للسموم كُلِّها، وهو نافع من لدغ الهوام كلها.

(لصحة عن الأترج)

وذكر أن بعض الأكاسرة غَضِبَ على قوم من الأطباء، فأمر بحبسهم، وخيّرهم أدمًا لا يزيد لهم عليه، فاختاروا الأترج، فقبل لهم: لم اخترتموه على غيره؟ فقالوا: لأنه في العاجل ريحان، ومنظره مفرح، وقشره طيب الرائحة، ولحمه فاكهة، وحمضه أدم، وحبه ترياق، وفيه دهن.

(تشبيه المؤمن به)

وحقيق بشيء هذه منافعه أن يُشبه به خلاصة الوجود، وهو المؤمن الذي يقرأ القرآن، وكان بعض السلف يُحبُّ النظر إليه في منظره من التفرّيح.

أروُ: فيه حديثان باطلان موضوعان على رسول الله ﷺ، أحدهما: أنه «لو كان رجلاً، لكان حليماً» الثاني: «كُلُّ شيء أخرجته الأرض فيه داء وشفاء إلا الأرز، فإنه شفاء لا داء فيه» ذكرناهما تنبيهاً وتحذيراً من نسبتها إليه ﷺ.

ومزاجه بارد يابس ينفع العين ويقويها، ويشد أعصابها، ويحفظ صحتها، ويذهب اللحم الزائد في القروح ويُدملها، وينقي أوساخها، ويجلوها، ويذهب الصداغ إذا اكتحل به مع العسل المائي الرقيق، وإذا دُقَّ وُخِلط ببعض الشحوم الطرية، ولُطخ على حرق النار، لم تعرض فيه خشكيشة، ونفع من التنفط الحادث بسببه، وهو أجود أحوال العين لا سيما للمشايخ، والذين قد ضعفت أبصارهم إذا جُعلَ معه شيء من المسك.

أترج: ثبت في «الصحیح»: عن النبي ﷺ أنه قال: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يقرأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرَجَةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَرِيحُهَا طَيِّبٌ» [البخاري: ٥٠٢٠].

في الأترج منافع كثيرة، وهو مركب من أربعة أشياء: قشر، ولحم، وحمض، وبزر، ولكل واحد منها مزاج يخضعه، فقشره حار يابس، ولحمه حار رطب، وحمضه بارد يابس، وبزره حار يابس.

(منافع قشره)

ومن منافع قشره: أنه إذا جعل في الثياب منع السوس، ورائحته تُضِلُّحُ فساد الهواء والوباء، ويُطِيبُ النُّكْهَةَ إذا أمسكه في الفم، ويحلل الرياح، وإذا جُعلَ في الطعام كالآبازير، أعان على الهضم. قال صاحب «القانون»: وعُصارة قشره تنفع من نهش الأفاعي شرباً، وقشره ضِماداً، وخرقة قشره طلاء جيد للبرص. انتهى.

(منافع لحمه)

وأما لحمه: فملطّف لحرارة المعدة، نافع لأصحاب الجيرة الصفراء، قاصع للبخارات الحارة. وقال الغافقي: أكل لحمه ينفع البواسير. انتهى.

(منافع حمضه)

وأما حمضه: فقابض كاسر للصفراء، ومسكن للخفقان الحار، نافع من اليرقان شرباً واكتحالاً، قاطع للقيء الصفراوي، مُشِّهٌ للطعام، عاقل للطبيعة، نافع من الإسهال الصفراوي، وعُصارة حمضه يُسْكِنُ

(١) القوباء: داء في الجسد يتقشر منه الجلد، ويعرف عند العامة بالحزاز.

(٢) هو يوحنا بن ماسويه البغدادي، طبيب سرياني، نشأ في بغداد، واتصل بهارون الرشيد، وعهد إليه بترجمة الكتب الطبية، وكان طبيب البلاط العباسي من أيام الرشيد حتى المتوكل، توفي بسامراء (٢٤٣هـ).

(الزنجيل) ونحوه، وينبغي أكله قبل الطعام، ويتبع به، وإلا غشَى وقِيًا، وقال بعض الأطباء: إنه قبل الطعام يفسل البطن غسلاً، ويذهب بالداء أصلاً.

بلح: روى النسائي وابن ماجه في «سنتهما»: عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «كُلُوا الْبَلَحَ بِالْتَمَرِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا نَظَرَ إِلَى ابْنِ آدَمَ يَأْكُلُ الْبَلَحَ بِالْتَمَرِ يَقُولُ: بَقِيَ ابْنُ آدَمَ حَتَّى أَكُلَ الْحَدِيثَ بِالْعَتِيقِ» (ابن ماجه: ٣٣٠)، وفي سننه ضيفاً. وفي رواية: «كُلُوا الْبَلَحَ بِالْتَمَرِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْزَنُ إِذَا رَأَى ابْنَ آدَمَ يَأْكُلُهُ يَقُولُ: عَاشَ ابْنُ آدَمَ حَتَّى أَكَلَ الْجَبِيدَ بِالْخَلْقِ»، رواه البزار في «مسنده» وهذا لفظه.

قلت: الباء في الحديث بمعنى: مع، أي: كلوا هذا مع هذا قال بعض أطباء الإسلام: إنما أمر النبي ﷺ يأكل البلح بالتمر، ولم يأمر بأكل البسر مع التمر، لأن البلح بارد يابس، والتمر حار رطب، ففي كل منهما إصلاح للآخر، وليس كذلك البسر مع التمر، فإن كل واحد منهما حار، وإن كانت حرارة التمر أكثر، ولا ينبغي من جهة الطَّبِّ الجمع بين حارين أو باردين، كما تقدم. وفي هذا الحديث: التنبيه على صحة أصل صناعة الطب، ومراعاة التدبير الذي يصلح في دفع كيميائيات الأغذية والأدوية بعضها ببعض، ومراعاة القانون الطبي الذي تحفظ به الصحة.

وفي البلح برودة وببوسة، وهو ينفع الفم واللثة والمعدة، وهو رديء للمصدر والرثة بالخشونة التي فيه، بطيء في المعدة يسير التغذية، وهو للنخلة كالجضم لشجرة العنب، وهما جميعاً يُؤلَّدان رياحاً، وقرافراً، ونفخاً، ولا سيما إذا شرب عليهما الماء، ودفع مضرتهما بالتمر، أو بالعسل والزبد.

بسر: ثبت في «الصحيح»: أن أبا الهيثم بن النُّهَّان، لما ضافه النبي ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما، جاءهم بعذقي - وهو من النخلة كالمُنْقَوَد من العنب - فقال له: «هَلَّا انْتَقَيْتَ لَنَا مِنْ رَطْبِهِ» فقال: «أَحْبَبْتُ أَنْ تَنْتَقُوا مِنْ بُسْرِهِ وَرَطْبِهِ» (مسلم: ٥٣١٣).

البسر: حار يابس، وبُسه أكثر من حره، يُشْفَى الرطوبة، ويَذْبَغُ المعدة، ويَحْسِنُ البطن، وينفع اللثة

وبعد فهو حار يابس، وهو أغذى الحبوب بعد الحنطة، وأحمدما خلطاً، يَشُدُّ البطن شداً يسيراً، ويقوي المعدة، ويدبغها، ويمكث فيها. وأطباء الهند تزعم: أنه أحمد الأغذية وأنفعها إذا طُبِّخَ باللبان البقر، وله تأثير في خصب البدن، وزيادة المنى، وكثرة التغذية، وتصفية اللون.

أرز: يفتح الهمزة وسكون الراء: وهو الصنوبر، ذكره النبي ﷺ في قوله: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ مَثَلُ الْحَاةِ مِنَ الزَّرْعِ، تُقْبِلُهَا الرِّيحُ، تُقْسِمُهَا عَرَّةٌ، وَتُجِيلُهَا أُخْرَى، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ مَثَلُ الْأَرْزِ لَا تَزَالُ قَائِمَةٌ عَلَى أَصْلِهَا حَتَّى يَكُونَ أَنْجِعَافُهَا مَرَّةً وَاحِدَةً» (البخاري: ٥٦٤٣، ومسلم: ٧٠٩٤)، وجه حار رطب، وفيه إفضاج وتلين، وتحليل، ولذع يذهب بنقعه في الماء، وهو عسير الهضم، وفيه تغذية كثيرة، وهو جيد للسعال، ولتنقية رطوبات الرئة، ويزيد في المنى، ويولد مغصاً، وترباؤه حب الرمان المُر.

إذخر: ثبت في «الصحيح» عنه ﷺ أنه قال في مكة: «لَا يُخْتَلَى خَلَاءَهَا»، فقال له العباس رضي الله عنه: «إِلَّا الْإِذْخِرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَيَقْنِيَهُمْ وَلِيَبْتَوَهُمْ، فَقَالَ: «إِلَّا الْإِذْخِرَ» (البخاري: ١٨٣٣، ومسلم: ٣٣٠٧).

والإذخر حار في الثانية، يابس في الأولى، لطيف مفتاح للسدد وأغواء العروق، يُلْدُّ البول والطمث، ويُنَقِّتُ الحصى، ويحلل الأورام الصلبة في المعدة والكبد والكليتين شرباً وضامداً، وأصله يقوي عمود الأسنان والمعدة، ويسكن الغثيان، ويعْقِلُ البطن.

حرف الباء

بطيخ: روى أبو داود والترمذي، عن النبي ﷺ، أنه كان يأكل البَطِيخَ بِالرُّطْبِ، يقول: «نَكْسِرُ حَرَّ هَذَا بِبَرْدِ هَذَا، وَبَرْدَ هَذَا بِحَرِّ هَذَا» (أبو داود: ٣٨٣٦، والترمذي: ١٨٤٤).

وفي البطيخ عدة أحاديث لا يصح منها شيء غير هذا الحديث الواحد، والمراد به الأخضر، وهو بارد رطب، وفيه جلاء، وهو أسرع انحذاراً عن المعدة من القثاء والخيار، وهو سريع الاستحالة إلى أي خلط كان صادفه في المعدة، وإذا كان أكله محروراً انتفع به جداً، وإن كان مبروداً دفع ضرره بيسير من

والغم، وأنفعه ما كان هشاً وحلواً، وكثرة أكله وأكل البلح يُحدث السَّدد في الأجشاء.

بيض: ذكر البيهقي في «شعب الإيمان» أثراً مرفوعاً: أن نبياً من الأنبياء شكى إلى الله سبحانه الضعف، فأمره بأكل البيض. وفي ثبوته نظر، ويُختار من البيض الحديث على العتيق، وبيض الدجاج على سائر بيض الطير، وهو معتدل يميل إلى البرودة قليلاً.

قال صاحب «القانون»: ومُحَّة^(١) حار رطب، يؤلَّد دماً صحيحاً محموداً، ويغذي غذاءً يسيراً، ويُسرِّع الانحدارَ من المعدة إذا كان رخواً. وقال غيره: مُحُّ البيض: مسكن للألم، ممسك للحلق وقصبة الرئة، نافع للحلق والسعال وقروح الرئة والكلى والمثانة، مذهبٌ للخشونة، لا سيما إذا أخذ بذهن اللوز الحلو، ومنضج لما في الصدر، ملين له، مسهل لخشونة الحلق، وبياضه إذا قطر في العين الوارمة ورماً حاراً برده، وسكن الوجع وإذا لطح به حرق النار أو ما يعرض له، لم يدعه يتنفَّط، وإذا لطح به الوجع، منع الاحتراق العارض من الشمس، وإذا خلط بالكندر، ولطح على الجبهة، نفع من التزلة.

وذكره صاحب «القانون» في الأدوية القلبية، ثم قال: وهو - وإن لم يكن من الأدوية المطلقة - فإنه مما له مدخل في تقوية القلب جداً أعني الصفرة، وهي تجمع ثلاثة معان: سرعة الاستحالة إلى الدم، وقلة الفضلة، وكون الدم المتولد منه مجانساً للدم الذي يغزو القلب خفيفاً مندفعاً إليه بسرعة، ولذلك هو أوفق ما يُتلافى به عادية الأمراض المحللة لجوهر الروح.

بصل: روى أبو داود في «سننه»: عن عائشة رضي الله عنها، أنها سُئِلَتْ عن البصل، فقالت: إن آخرَ طعام أكله رسولُ الله ﷺ كانَ فيه بَصَلٌ [أحمد: ٢٤٥٨٥، وأبو داود: ٣٨٢٩].

وثبت عنه في «الصحيحين» أنه منع أَكْلَهُ مِنْ دُخُولِ الْمَشْجِدِ [البخاري: ٥٤٥١، ومسلم: ١٧٢٥].

(منافعهم)

والبصل: حار في الثالثة، وفيه رطوبة فضلية ينفع من تغير المياه، ويدفع ريح السموم، ويقوّي الشهوة، ويقوي المعدة، ويهيج الباه، ويزيد في المني، ويحسن اللون، ويقطع البلغم، ويجلو المعدة، ويزره يذهب البهق، ويدلك به حول داء الثعلب، فينفع جداً، وهو بالملح يقلع الثآليل، وإذا شُمَّ مَنْ شرب دواءً مسهلاً منعه من القيء والغثيان، وأذهب رائحة ذلك الدواء، وإذا استعط بمائه، نقى الرأس، ويقطر في الأذن لثقل السمع والطنين والقيح، والماء الحادث في الأذنين، وينفع من الماء النازل في العينين اكتحالاً يُكتحل ببزره مع العسل لبياض العين، والمطبوخ منه كثيرُ الغذاء ينفع من اليرقان والسعال، وخشونة الصدر، ويُرِدُّ البول، ويلين الطبع، وينفع من عضه الكلب غير الكلب إذا نُظِّلَ عليها ماؤه بملح وسَدَاب، وإذا احتُمِّل، فتح أفواه البواسير.

(ضرره)

وأما ضرره: فإنه يُورث الشقيقة، ويصدع الرأس، ويُولد أرياحاً، ويظلم البصر، وكثرة أكله تُورث النسيان، ويُفسد العقل، ويُغير رائحة الغم والنكهة، ويؤذي الجليس، والملائكة، وإماتته طبخاً تذهب بهذه المضرات منه.

وفي السنن: أنه ﷺ أَمَرَ أَكْلَهُ وَآكَلَ الثُّومَ أَنْ يُمَيِّتَهُمَا طَبَخاً [مسلم: ١٢٥٨]، ويذهب رائحته مضغ ورق السداب عليه.

باذنجان: في الحديث الموضوع المختلق على رسول الله ﷺ: الباذنجان لما أَكَلَ له^(٢). وهذا الكلام مما يُستحيح نسبته إلى آحاد العقلاء، فضلاً عن الأنبياء، وبعد: فهو نوعان: أبيض وأسود، وفيه خلاف، هل هو بارد أو حار؟ والصحيح: أنه حار، وهو مولد للسوداء والبواسير، والشدد والسرطان والجذام، ويُفسد اللون ويسوده، ويضر بتنن الغم، والأبيض منه المستطيل عارٍ من ذلك.

(١) صفرة البيض.

(٢) وقد نص على بطلانه غير واحد من الحفاظ.

حرف التاء

تمر: ثبت في «الصحيح» عنه ﷺ: «مَنْ تَصَبَّحَ بِسَبْعِ تَمَرَاتٍ» وفي لفظ: «مِنْ تَمَرٍ الْعَالِيَةِ لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ سَمٌ وَلَا سِخْرٌ» [بخاري: ٥٧٦٩، ومسلم: ٥٣٣٨]. وثبت عنه أنه قال: «يَبْتَ لَا تَمَرٌ فِيهِ جِيَاعٌ أَهْلُهُ» [مسلم: ٥٣٣٦]. وثبت عنه أكل التمر بالزُّيد، وأكل التمر بالخبز، وأكله مفرداً [ابوداود: ٣٢٥٩، والترمذي: ١٥٣١]. وهو حار في الثانية، وهل هو رطب في الأولى، أو يابس فيها؟ على قولين. وهو مقو للكبد، ملين للطبع، يزيد في الباه، ولا سيما مع حبِّ الصَّنوبر، ويُبرى من خشونة الحلق، ومن لم يعتده كأهل البلاد الباردة فإنه يورث لهم السَّدَد، ويؤذي الأسنان، ويهيج الصُّدَاع، ودفع ضرره باللوز والخشخاش، وهو من أكثر الثمار تغذيةً للبدن بما فيه من الجوهر الحار الرطب، وأكله على الرقيق يقتل الدود، فإنه مع حرارته فيه قوة ترياقية، فإذا أديم استعماله على الرقيق، خَفَّفَ مادة الدود، وأضعفه وقلله، أو قتله، وهو فاكهة وغذاء، ودواء وشراب وحلوى.

تين: لما لم يكن التين بأرض الحجاز والمدينة، لم يأت له ذكر في السنة، فإن أرضه تُنافي أرض النخل، ولكن قد أقسم الله به في كتابه، لكثرة منافعه وفوائده، والصحيح: أن المُقَسَّم به: هو التين المعروف.

وهو حار، وفي رطوبته ويوسته قولان، وأجوده: الأبيض الناضج القشر، يجلو رمل الكلى والمثانة، ويؤمن من السموم، وهو أغذى من جميع الفواكه وينفع خشونة الحلق والصدر، وقصبة الرئة، ويفسل الكبد والطحال، ويُنَقِّي الحَلَطَ البلغمي من المعدة، ويغلو البدن غذاءً جيداً، إلا أنه يؤلِّد القمل إذا أكثر منه جداً.

ويابسُه يغذو وينفع العصب، وهو مع الجوز واللوز محمود، قال جالينوس: وإذا أكل مع الجوز والسُّذاب^(١) قبل أخذ السم القاتل نفع، وحَفِظَ من الضرر.

ويُذكر عن أبي الدرداء: أهدي إلي النبي ﷺ طبق من تين، فقال: «كُلُوا» وأكلَ منه، وقال: «لَوْ قُلْتُ: إِنَّ فَاكِهَةً نَزَلَتْ مِنَ الْجَنَّةِ قُلْتُ: هَذِهِ، لِأَنَّ فَاكِهَةَ الْجَنَّةِ لَا عَجَمَ، فَكُلُوا مِنْهَا فَإِنَّهَا تَقَطُّعُ الْبَوَاسِيرَ، وَتَنْفَعُ مِنَ الثَّقَرِ»^(٢). وفي ثبوت هذا نظر.

واللحم منه أجود، ويُعَطِّشُ المحرورين، ويسكن العطش الكائن عن البلغم المالح، وينفع السعال المزمن، ويُرِّدُّ البول، ويفتح سدَّ الكبد والطحال، ويوافق الكلى والمثانة، ولأكله على الرقيق منفعة عجيبة في تفتيح مجاري الغذاء وخصوصاً باللوز والجوز، وأكله مع الأغذية الغليظة رديء جداً، والتوت الأبيض قريب منه، لكنه أقل تغذية وأضر بالمعدة.

تليبية: قد تقدم إنها ماء الشعير المطحون، وذكرنا منافعها، وأنها أنفع لأهل الحجاز من ماء الشعير الصحيح.

حرف التاء

ثلج: ثبت في «الصحيح»: عن النبي ﷺ أنه قال: «اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالبَرَدِ» [مسلم: ١٣٥٤].

(الداء يدوى بضده)

وفي هذا الحديث من الفقه: أن الداء يداوى بضده، فإن في الخطايا من الحرارة والحريق ما يُضاده الثلج والبرد، والماء البارد، ولا يقال: إن الماء الحار أبلغ في إزالة الوسخ، لأن في الماء البارد من تصلب الجسم وتقويته ما ليس في الحار، والخطايا تُوجب أكثرين: التدنيس والإرخاء، فالمطلوب مداواتها بما ينظف القلب وُصْلُهُ، فذكر الماء البارد والثلج والبرد إشارة إلى هذين الأمرين.

وبعد فالثلج بارد على الأصح، وعَلِظَ من قال: حار، وشبهته تولد الحيوان فيه، وهذا لا يدل على حرارته، فإنه يتولد في الفواكه الباردة، وفي الخل، وأما تعطيشه، فلتهيجه الحرارة لا لحرارته في نفسه،

(١) عشبة خضراء زرقاء اللون تفوح منها رائحة قوية، أوراقها بيضوية الشكل مجنحة ومنطقة، تزهر في شهري تموز وآب أزهراً نجمية الشكل صفراء خضراء.

(٢) الثقرس: داء معروف يأخذ في الرجل، وورم يحدث في مفاصل الكمين وأصابع الرجلين.

ويضر المعدة والعصب، وإذا كان وجع الأسنان من حرارة مفرطة، سكنها.

ثوم: هو قريب من البصل، وفي الحديث: «مَنْ أَكَلَهُمَا فَلْيَمِيتْهُمَا طَبَّخًا» [مسلم: ١٢٥٨]. وأهدي إليه طعام فيه ثوم، فأرسل به إلى أبي أيوب الأنصاري، فقال: يا رسول الله، تكرهه وتُرْسِلُ به إليّ؟ فَقَالَ: «إِنِّي أَنَا جِي مَنْ لَا تَنَاجِي» [البخاري: ٨٥٥، ومسلم: ١٢٥٣].

ويعد فهو حار يابس في الرابعة، يُسَخِّنُ تسخيناً قوياً، وَيُجَفِّفُ تجفيفاً بالغاً، نافع للمبرودين، ولمن مزاجه بلغمي، ولمن أشرف على الوقوع في الفالج، وهو مجفف للمني، مفتاح للسدد، محلل للرياح الغليظة، هاضم للطعام، قاطع للعطش، مطلق للبطن، مُدر للبول، يقوم في لسع الهوام وجميع الأورام الباردة مقام الترياق، وإذا دُقَّ وعمل منه ضِمَاد على نهش الحيات، أو على لسع العقارب، نفعا وجذب السموم منها، وَيُسَخِّنُ البدن، ويزيد في حرارته، ويقطع البلغم، وَيُحَلِّلُ النَفخ، وَيُصَفِّي الحلق، ويحفظ صحة أكثر الأبدان، وينفع من تغير المياه، والسعال المزمن، وَيُؤْكَلُ نيئاً ومطبوخاً ومشوياً، وينفع من وجع الصدر من البرد، وَيُخْرِجُ العلق من الحلق، وإذا دُقَّ مع الخل والملح والعسل، ثم وضع على الضرس المتأكل، فَتَتَّهَ وأسقطه، وعلى الضرس الوجع، سَكَنَ وجعه، وإن دُقَّ منه مقدار درهمين، وأخذ مع ماء العسل، أخرج البلغم والدود، وإذا طُلِيَ بالعسل على البهق نفع.

(مضاره)

ومن مضاره: أنه يُصَدِّع، وَيَضُرُّ الدماغَ والعينين، وَيُضَعِّفُ البصرَ والباه، ويعطش، ويهيج الصفراء، ويجيف رائحة القم، ويذهب رائحته أن يُمَضَّغ عليه ورق السذاب.

ثريد: ثبت في «الصحيحين» عنه ﷺ أنه قال: «فَضَّلْ عَائِشَةَ عَلَى النَّسَاءِ كَفَضَّلَ الثَّرِيدَ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ» [البخاري: ٣٧٧٠، ومسلم: ٦٢٩٩].

والثريد وإن كان مركباً، فإنه مركب من خبز ولحم، فالخبز أفضل الأقوات، واللحم سيد الإدام، فإذا اجتمعا لم يكن بعدهما غاية.

«تتازع الناس في لافضلية اللحم على الخبز»

وتتازع الناس أيهما أفضل؟ والصواب أن الحاجة إلى الخبز أكثر وأعم، واللحم أجل وأفضل، وهو أشبه بجوهر البدن من كل ما عده، وهو طعام أهل الجنة، وقد قال تعالى لمن طلب البقل، والقثاء، والفوم، والعَدَسَ، والبصل: «اتَّبِعُوا آلَؤُى هُوَ أَذَنٌ بِالْأُؤِى هُوَ خَيْرٌ» [البقرة: ٦١]، وكثير من السلف على أن الفوم الحنطة، وعلى هذا فالآية نص على أن اللحم خير من الحنطة.

حرف الجيم

جَمَار: قلب النخل، ثبت في «الصحيحين»: عن عبد الله بن عمر قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ جلوس، إذ أتى بِجَمَار نخلة، فقال النبي ﷺ: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً مِثْلُ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا...» الحديث [البخاري: ٥٤٤٤، ومسلم: ٧٠٩٨]. والجَمَار: بارد يابس في الأولى، يختم القروح، وينفع من نفث الدم، واستطلاق البطن، وغلبة المرة الصفراء، وثائرة الدم وليس برديء الكَثُوسِ^(١)، ويغذو غذاء يسيراً، وهو بطيء الهضم، وشجرته كُلُّهَا منافع، ولهذا مثلها النبي ﷺ بالرجل المسلم لكثرة خيره ومنافعه.

جبن: في «السنن» عن عبد الله بن عمر قال: «أُتِيَ النبي ﷺ بِجُبْنَةٍ فِي تَبُوك، فدعا بِسِكِّين، وسمى وقطع» رواه أبو داود [٣٨١٩]، وأكله الصحابة رضي الله عنهم بالشام، والعراق، والرطب منه غير المملوح جيد للمعدة، حين السلوك في الأعضاء، يزيد في اللحم، ويُلِينُ البطن تلييناً معتدلاً، والمملوح أقلُّ غذاء من الرطب، وهو رديء للمعدة، مؤذٍ للأمعاء، والعتيق يعقل البطن، وكذا المشوي، وينفع القروح، ويمنع الإسهال.

وهو بارد رطب، فإن استعمل مشوياً، كان أصلح لمزاجه، فإن النار تُصْلِحُهُ وتعذله، وتُلَفِّطُ جوهره، وتطيب طعمه ورائحته، والعتيق المالح، حار يابس، وشيء يصلحه أيضاً بتلطيف جوهره، وكسر جرافته لما تجذبه النار منه من الأجزاء الحارة اليابسة المناسبة

(١) الكيموس في عرف الأطباء: هو الطعام إذا انهضم في المعدة أن ينصرف عنها ويتحول.

لها، والمملح منه يُهزَل، ويؤلَّد حصاة الكلَى والمثانة، وهو رديء للمعدة، وخطئه بالملطقات أردأ بسبب تنفيذهما له إلى المعدة.

حرف الحاء

حناء: قد تقدمت الأحاديث في فضله، وذكر منافعه، فأغنى عن إعادته.

حبة السوداء: ثبت في «الصحيحين»: من حديث أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «عَلَيْكُمْ بِهِذِهِ الْحَبَّةُ السَّوْدَاءُ، فَإِنَّ فِيهَا شِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلَّا السَّامَ». والسَّام: الموت [البخاري: ٥٦٨٨، ومسلم: ٥٧٦٦].

الحبة السوداء: هي الشونيز في لغة الفرس، وهي الكشون الأسود، وتسمى الكمون الهندي، قال الحريري، عن الحسن: إنها الخردل، وحكى الهروي: أنها الحبة الخضراء ثمرة البطم، وكلاهما وهم، والصواب: أنها الشونيز.

وهي كثيرة المنافع جداً، وقوله: «شفاء من كل داء»، مثل قوله تعالى: «تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا» [الأحقاف: ٢٥] أي: كل شيء يقبل التدمير ونظائره، وهي نافعة من جميع الأمراض الباردة، وتدخل في الأمراض الحارة اليابسة بالعرض، فتوصل قوى الأدوية الباردة الرطبة إليها بسرعة تنفيذهما إذا أخذ يسيرها.

وقد نص صاحب «القانون» وغيره، وعلى الزعفران في قُرس الكافور لسرعة تنفيذه وإيصاله قوته، وله نظائر يعرفها خُذَّاقُ الصَّنَاعَةِ، ولا تستبعد منفعة الحار في أمراض حارة بالخاصة، فإنك تجد ذلك في أدوية كثيرة، منها: الأَنْزَرُوت وما يُرْكَبُ معه من أدوية الرمد، كالسكر وغيره من المفردات الحارة، والرمد ورم حار بافئاق الأطباء، وكذلك نفْعُ الكبريت الحار جداً من الجرب.

والشونيز حار يابس في الثالثة، مُذِهِبٌ لِلنَّفَخِ، مخرج لحب القرع، نافع من البرص وحمى الزَّيْع^(١) والبلغمية، مفتاح للسُّدَد، ومحلِّل للرياح، مجفِّف ليلَّة المعدة ورطوبتها. وإن دُقَّ وعُجِنَ بالعسل، وشُربَ بالماء الحار، أذاب الحصاة التي تكون في الكلتيين والمثانة، ويؤدِّر البول والحِضْيَ واللبن إذا أديم شربه أياماً، وإن سُخِّقَ بالخل، وطلِّي على البطن، قتل حبَّ القرع، فإن عجن بماء الحنظل الرطب، أو المطبوخ، كان فعله في إخراج الدود أقوى، ويجلو ويقطع، ويحلل، ويشفي من الزكام البارد إذا دُقَّ وصُبِرَ في خرقة، واشتم دائماً، أذهب.

ودهنه نافع لداء الحية، ومن الثَّالِيلِ والخِيلان^(٢)، وإذا شُربَ منه يثقال بماء، نفع من البَهَرِ وضيق النَّفْسِ، والضَّمَامُ به ينفع من الصُّدَاعِ البارد، وإذا نُفِعَ منه سبعُ حبات عدداً في لبن امرأة، وسُعِطَ به صاحبُ البَرَقَانِ، نفعه نفعاً بليغاً.

وإذا طُبِّخَ بخل، وتمضمض به، نفع من وجع الأسنان عن برد، وإذا استُعِطَ به مسحوقاً، نفع من ابتداء الماء العارض في العين، وإن ضُمِدَ به مع الخل، قلع البثور والجرب المتقرح، وحلل الأورام البلغمية المزمنة، والأورام الصلبة، وينفع من اللُّقْوَةِ إذا تُسَّعَطَ بدهنه، وإذا شُربَ منه مقدار نصف مثقال إلى مثقال، نفع من لسع الرُّتِيْلَاءِ^(٣)، وإن سُحِّقَ ناعماً وُخِّلِطَ بذهن الحبة الخضراء، وقُطِرَ منه في الأذن ثلاث قطرات، نفع من البرد العارض فيها والريح والسُّدَد.

وإن قُلِيَ، ثم دُقَّ ناعماً، ثم نُفِعَ في زيت، وقطر في الأنف ثلاث قطرات أو أربع، نفع من الزكام العارض معه عطاس كثير.

وإذا أُخْرِقَ وُخِّلِطَ بشمع مذاب بذهن السُّوسَنِ، أو دهن الجناء، وطلِّي به القروح الخارجة من السابقين بعد غسلها بالخل، نفعها وأزال القروح.

وإذا سُحِّقَ بخل، وطلِّي به البرصُ والبهق

(١) حمى الربع: هي التي تنوب كل رابع يوم.

(٢) الخيلان، جمع خال، وهو شامة في البدن، أي يثرة سوداء ينبت حولها الشعر غالباً ويغلب على شامة الخد.

(٣) الرتيلاء: أنواع من الهوام كالذبابة والعنكبوت، والجمع: رتيلاوات.

الأسود، والخَزَّازُ^(١) الغليظ، نفعها وأبرأها.

وإذا سُحِقَ ناعماً، واستُفَّ منه كلُّ يوم درهمين بماء بارد مَنْ عَصَهُ كَلَبٌ كَلَبٌ قَبْلَ أَنْ يَفْرُغَ مِنَ الْمَاءِ، نَفْعُهُ نَفْعاً بَلِيغاً، وَأَمِنَ عَلَى نَفْسِهِ مِنَ الْهَلَاكِ. وَإِذَا اسْتَبْطِطَ بَذَنَهُ، نَفَعَ مِنَ الْفَالَجِ وَالْكُزَّازِ^(٢)، وَقَطَعَ مَوَادِمَهُ، وَإِذَا دَخَنَ بِهِ، طَرَدَ الْهُوَامَ.

وَإِذَا أُذِيبَ الْأَنْزَرُوثُ بِمَاءٍ، وَلَطِخَ عَلَى دَاخِلِ الْحَلَقَةِ، ثُمَّ دُرَّ عَلَيْهَا الشُّونِيزُ، كَانَ مِنَ الذَّرُورَاتِ الْجِدَّةِ الْعَجَبِيَّةِ النَّفْعَ مِنَ الْبَوَاسِيرِ، وَمَنَافَعُهُ أَضْعَافُ مَا ذَكَرْنَا، وَالشَّرْبَةُ مِنْهُ دَرَاهِمَانِ، وَزَعَمَ قَوْمٌ أَنَّ الْإِكْتَارَ مِنْهُ قَاتِلٌ.

حرير: قد تقدم أن النبي ﷺ أباحه للزبير، ولعبد الرحمن بن عوف من حِكْمَةٍ كَانَتْ بَهُمَا، وَتَقَدَّمَ مَنَافَعُهُ وَمَزَاجُهُ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى إِعَادَتِهِ.

حُزْفٌ: قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ الدِّينَوْرِيُّ: هَذَا هُوَ الْحَبُّ الَّذِي يُدَاوَى بِهِ، وَهُوَ الثَّقَاءُ الَّذِي جَاءَ فِيهِ الْخَبَرُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَنَبَاتُهُ يُقَالُ لَهُ: الْحُزْفُ، وَتُسَمِّيهِ الْعَامَّةُ: الرَّشَادَ، وَقَالَ أَبُو عُيَيْدٍ: الثَّقَاءُ هُوَ الْحُزْفُ.

قلت: والحديث الذي أشار إليه، ما رواه أبو عبيد وغيره، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَاذَا فِي الْأَمْرَيْنِ مِنَ الشَّقَاءِ؟ الضَّبِيرُ وَالثَّقَاءُ»^(٣) رواه أبو داود في المراسيل.

وقوته في الحرارة واليبوسة في الدرجة الثالثة، وهو يُسَخِّنُ، وَيَلِينُ الْبَطْنَ، وَيُخْرِجُ الدُّودَ وَحَبَّ الْقِرْعِ، وَيَحْلُلُ أَوْرَامَ الطَّحَالِ، وَيَحْرِّكُ شَهْوَةَ الْجَمَاعِ، وَيَجْلُو الْجَرَبَ الْمَتَرِّحَ وَالْقَوْبَاءَ.

وَإِذَا ضَمَّدَ بِهِ مَعَ الْعَسَلِ، حَلَّلَ وَرَمَ الطَّحَالِ، وَإِذَا طُبِّخَ مَعَ الْحَنَاءِ أَخْرَجَ الْفُضُولَ الَّتِي فِي الصَّدْرِ، وَشَرِبُهُ يَنْفَعُ مِنْ نَهَشِ الْهُوَامِ وَلَسْعَاهَا، وَإِذَا دُخِّنَ بِهِ فِي مَوْضِعٍ، طَرَدَ الْهُوَامَ عَنْهُ، وَيُمْسِكُ الشَّعْرَ الْمَتَسَاقِطَ، وَإِذَا خُلِطَ بِسَوِيقِ الشَّعِيرِ وَالْخَلِّ، وَتُقَسِّمَدُ بِهِ، نَفَعَ مِنْ عِرْقِ النِّسَاءِ، وَحَلَّلَ الْأَوْرَامَ الْحَارَةَ فِي آخِرِهَا.

وَإِذَا تُصَمَّدَ بِهِ مَعَ الْمَاءِ وَالْمَلْحِ أَنْضَجَ الدَّمَامِيلَ، وَيَنْفَعُ مِنَ الْاسْتِرْخَاءِ فِي جَمِيعِ الْأَعْضَاءِ، وَيَزِيدُ فِي الْبَاءِ، وَيَشْهِي الطَّعَامَ، وَيَنْفَعُ الرِّيْبَ، وَغُسْرَ النَّفْسِ، وَغِلْظَ الطَّحَالِ، وَيُنْقِي الرِّثَّةَ، وَيُذِيرُ الطَّمَثَ، وَيَنْفَعُ مِنَ عِرْقِ النِّسَاءِ، وَوَجَعَ حُقِّ الْوَرِكِ مِمَّا يَخْرُجُ مِنَ الْفُضُولِ، إِذَا شَرِبَ أَوْ احْتَقَنَ بِهِ، وَيَجْلُو مَا فِي الصَّدْرِ وَالرِّثَّةَ مِنَ الْبَلْغَمِ اللَّزِجِ.

وإن شرب منه بعد سحقه وزنُ خمسة دراهم بالماء الحار، أسهل الطبيعة، وحلل الرياح، ونفع من وجع القولنج البارد السبب، وإذا سُحِقَ وَشَرِبَ، نَفَعَ مِنَ الْبَرَصِ.

وإن لَطِخَ عَلَيْهِ وَعَلَى الْبَهَقِ الْأَبْيَضِ بِالْخَلِّ، نَفَعَ مِنْهُمَا، وَيَنْفَعُ مِنَ الصَّدَاعِ الْحَادِثِ مِنَ الْبَرْدِ وَالْبَلْغَمِ، وَإِنْ قُلِّيَ، وَشَرِبَ، عَقَلَ الطَّبِيعَ لَا سِيَّمَا إِذَا لَمْ يُسْحَقْ لِيَحْلُلَ لُزُوجِيَّتَهُ بِالْقَلْبِ، وَإِذَا غَبِلَ بِمَاءِ الرَّأْسِ، نَقَّاهُ مِنَ الْأَوْسَاحِ وَالرُّطُوبَاتِ اللَّزِجَةِ.

قال جالينوس: قوته مثل قوة بزر الخردل، ولذلك قد يسخن به أوجاعُ الْوَرِكِ المعروفة بالنساء، وأوجاعُ الرَّأْسِ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْعِلَلِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى التَّسْخِينِ، كَمَا يُسَخِّنُ بَزْرُ الْخَرْدَلِ، وَقَدْ يُخْلَطُ أَيْضاً فِي أَدْوِيَةِ يُسْقَاهَا أَصْحَابُ الرِّيْبِ مِنْ طَرِيقِ أَنَّ الْأَمْرَ فِيهِ مَعْلُومٌ أَنَّهُ يَقْطَعُ الْأَخْلَاطَ الْغَلِيظَةَ تَقْطِيعاً قَوِيّاً، كَمَا يَقْطَعُهَا بَزْرُ الْخَرْدَلِ، لِأَنَّهُ شَبِيهٌ بِهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ.

حُلْبَةٌ: يُذَكَّرُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ عَادَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِمَكَّةَ، فَقَالَ: ادْعُوا لَهُ طَبِيباً، فَدَعِيَ الْحَارِثُ بْنُ كَلْدَةَ^(٤)، فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: لَيْسَ عَلَيْهِ بَأْسٌ، فَاتَّخِذُوا لَهُ فَرِيْقَةً، وَهِيَ الْحُلْبَةُ مَعَ تَمْرٍ عَجْوَةٍ رَطْبٍ يُطْبَخَانِ، فَيُحْسَاكُمَا، فَفَعَلَ ذَلِكَ، فَبَرِيَ.

وقوة الحُلْبَةِ مِنَ الْحَرَارَةِ فِي الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ، وَمِنْ الْيَبُوسَةِ فِي الْأُولَى، وَإِذَا طُبِّخَتْ بِالْمَاءِ، لَيْسَتْ

(١) الخَزَّاز: يفتح الحاء: داء يظهر في الجسد فيعثر ويتسع، وهو أيضاً القشرة التي تتساقط من الرأس كالنخالة.

(٢) الكُزَّاز: كُزَّابٌ وَرُثَانٌ: داء من شدة البرد، أو الرعدة منها.

(٣) الثَّقَاءُ: هو حب الرشاد.

(٤) تقني من الطائف، عاش في الجاهلية والإسلام، ورحل إلى بلاد فارس، وأخذ الطب من أهلها.

الحلق والصدر والبطن، وتُسكن السعال والخشونة والربو، وعُسْر النفس، وتزيد في الباء، وهي جيدة للريح والبلغم واليواسير، محدرة الكيموسات المرتبكة في الأمعاء، وتُحلل البلغم اللزج من الصدر، وتنفع من الدُّبيلات وأمراض الرئة، وتُسعمل لهذه الأدوية في الأحشاء مع السمن والفانيذ.

وإذا شربت مع وزن خمسة دراهم قُوَّةٌ^(١)، أدركت الحيف، وإذا طُبخت، وغُسل بها الشعرُ جعلته، وأذهبت الحَزَازَ^(٢).

ودقيقها إذا خُلِطَ بِالطُّرُونِ^(٣) والخل، وضُمِدَ به، حَلَلَّ وَزَمَ الطَّحَال، وقد تجلَّس المرأة في الماء الذي طُبخت فيه الحُلبة، فتستفح به من وجع الرحم العارض من ورم فيه، وإذا ضُمِدَ به الأورام الصلبة القليلة الحرارة، نفعت وحللتها، وإذا شُرِبَ ماؤها، نفع من المغص العارض من الرياح، وأزلق الأمعاء.

وإذا أُكِلَتْ مطبوخةً بالتمر، أو العسل، أو التين على الريق، حللت البلغم اللزج العارض في الصدر والمعدة، ونفعت من السعال المتطاوِل منه.

وهي نافعة من الحصر، مطلقة للبطن، وإذا وُضعت على الظهر المتشنج أصلحته، ودُهنها ينفع إذا خُلِطَ بالشمع من الشَّقَاقِ العارض من البرد، ومنافعة أضعاف ما ذكرنا.

ويذكر عن القاسم بن عبد الرحمن، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اسْتَشْفُوا بِالْحُلْبَةِ»^(٤) وقال بعض الأطباء: لو علم الناسُ منافعها، لا شتروها بوزنها ذهباً.

حرف الخاء

خيز: ثبت في «الصحيحين»، عن النبي ﷺ أنه

قال: تَكُونُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُبْزَةً وَاحِدَةً يَتَكَفَّوْهَا الْجَبَّارُ بِيَدِهِ كَمَا يَكْفُو أَحَدُكُمْ خُبْزَتَهُ فِي السَّفَرِ نَزْلاً لِأَهْلِ الْجَنَّةِ [البخاري: ٦٥٢٠، ومسلم: ٧٠٥٧].

وروى أبو داود في «سننه»: من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان أحب الطعام إلى رسول الله ﷺ الثريد من الخبز، والثريد من الخيس [أبو داود: ٣٧٨٣، وقال: وهو ضيف].

وروى أبو داود في «سننه» أيضاً، من حديث ابن عمر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «وَدِدْتُ أَنْ عِنْدِي خُبْزَةً بَيْضَاءَ مِنْ بُرَّةٍ سَمَرَاءَ مُلَبَّغَةً يَسْمُنُ وَلَيْنٌ»، فقام رجل من القوم فاتخذها، فجاء به، فقال: «فِي أَيِّ شَيْءٍ كَانَ هَذَا السَّمْنُ؟» فقال: فِي عُكَّةٍ ضَبٍّ، فقال: «ارْفَعْهُ» [أبو داود: ٣٨١٨، وابن ماجه: ٣٣٤١، وفي سننه متروكاً].

وذكر البيهقي من حديث عائشة رضي الله عنها ترفعه: «أَكْرَمُوا الْخُبْزَ، وَمِنْ كَرَامَتِهِ أَنْ لَا يَنْتَظَرُ بِهِ الْإِدَامُ»^(٥) والموقوف أشبهه، فلا يثبت رفعه، ولا رفع ما قبله.

(لا يصح حديث في النهي عن قطع الخبز بالسكين)

وأما حديثُ النهي عن قطع الخبز بالسكين، فباطل لا أصل له عن رسول الله ﷺ، وإنما المروي: النهي عن قطع اللحم بالسكين، ولا يصح أيضاً.

قال مهنا: سألت أحمد عن حديث أبي معشر، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ: «لَا تَقْطَعُوا اللَّحْمَ بِالسَّكِينِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِ الْأَعَاجِمِ» [أبو داود: ٣٧٣٨، وفي سننه ضيف]. فقال: ليس بصحيح، ولا يُعرف هذا، وحديث عمرو بن أمية خلاف هذا، وحديث المغيرة - يعني بحديث عمرو بن أمية -: كان النبي ﷺ يحترق من لحم

(١) نبات من فصيلة الفويات ساقه مشعبة غليظة، له عروق دقاق طوال حمر يصبغ ويداوى بها، ويسمى عروق الصباغين.

(٢) المراد به هنا: قشرة الرأس.

(٣) هو البُورق.

(٤) انظر «الفوائد المجموعة» للشوكاني ص (١٦٤، ١٦٥) و«المصنوع» ص (١١٧) لملا علي القاري، و«المنار المنيف» للمؤلف ص (٥٤).

(٥) حديث لا يصح.

وفي «سنن ابن ماجه» عن أم سعد رضي الله عنها عن النبي ﷺ: «نِعَمَ الإِدَامُ الْخَلُّ، اللَّهُمَّ بَارِكْ فِي الْخَلِّ، فَإِنَّهُ كَانَ إِدَامَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي، وَلَمْ يَقْتَرِ بِتِّ فِيهِ الْخَلُّ» [ابن ماجه: ٣٣١٨، وسنده ضعيف].

الخل: مرَّجَب من الحرارة، والبرودة أغلب عليه، وهو يابس في الثالثة، قويُّ التجفيف، يمنع من انصباب المواد، ويُلطِّف الطبيعة، وَخَلُّ الخمر ينفع المعدة الملتبسة، ويقمِّع الصفراء، ويدفع ضَرَرُ الأدوية القتالة، وَيُخَلِّلُ اللَّبَنَ والدم إذا جمدا في الجوف، وينفع الطَّحَالَ، ويدبغ المعدة، وَيَقْلِلُ البطن، ويقطع العطش، ويمنع الورم حيث يُريد أن يحدث، ويُمِين على الهضم، ويضاد البلغم، ويلطف الأغذية الغليظة، وَيُرِقُّ الدم.

وإذا شرب بالملح، نفع من أكل الفَطَرِ القَتَالِ، وإذا احتسب، قطع العلق المتعلق بأصل الحنك، وإذا تمضمض به مُسَخَّنًا، نفع من وجع الأسنان، وقوى اللثة.

وهو نافع للداحس، إذا طَلِيَ به، والنملة والأورام الحارة، وحرق النار، وهو مُشَّةٌ للأكل، مطيب للمعدة، صالح للشباب، وفي الصيف لسكان البلاد الحارة.

خلال: فيه حديثان لا يثبتان، أحدهما: يُروى من حديث أبي أيوب الأنصاري يرفعه: «يَا حَبَدَا الْمُخَلَّلُونَ مِنَ الطَّعَامِ، إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَشَدَّ عَلَى الْمَلِكِ مِنْ بَقِيَّةِ فِي الْقَمِّ مِنَ الطَّعَامِ» [احمد: ٢٣٥٢٧، وفي سنده ضعيف] وفيه وأصل بن السائب، قال البخاري والرازي: منكر الحديث، وقال النسائي والأزدي: متروك الحديث.

الثاني: يُروى من حديث ابن عباس، قال عبد الله بن أحمد: سألت أبي عن شيخ روى عنه صالح الوحاظي يقال له: محمد بن عبد الملك الأنصاري^(١)، حدثنا عطاء، عن ابن عباس، قال: نهى رسول الله ﷺ أن يتخلل بالليط والآس، وقال: إنهما يسقيان عُروَقَ الجذام، فقال أبي: رأيْتُ

الشاة [البخاري: ٥٤٠٨، ومسلم: ٧٩٢]. ويحدث المغيرة أنه لما أضافه أمر بِجَنْبِ فُشْوَيٍّ، ثم أَخَذَ الشُّفْرَةَ، فجعل يَحُزُّ [صحيح: احمد: ١٨٢١٢، وأبو داود: ١٨٨].

فصل

(أنواع الخبز وأنفعها)

وأحمدُ أنواع الخبز أجودها اختماراً وعجنًا، ثم خبزُ التتور أجودُ أصنافه، وبعده خبزُ القرن، ثم خبز المَلَّة في المرتبة الثالثة، وأجوده ما اتَّخَذَ مِنَ الحنطة الحديثة.

وأكثرُ أنواعه تغذيةً خبزُ السميد، وهو أبطلُّها هضمًا لقلة نخالته، ويتلوه خبز الحَوَارَى، ثم الحُشَكَار.

(الفضل لوفات أكله بعد خبزه)

وأحمدُ أوقات أكله في آخر اليوم الذي حُزِرَ فيه، واللينُ منه أكثرُ تليينًا وغذاءً وترطيباً وأسرعُ انحذاراً، واليابسُ بخلافه.

ومزاج الخبز من البُرِّ حار في وسط الدرجة الثانية، وقريبٌ من الاعتدال في الرطوبة واليبوسة، واليُسُّ يَغْلِبُ على ما جففته النارُ منه، والرطوبة على ضده.

(خبز الحنطة)

وفي خبز الحنطة خاصية، وهو أنه يُسَمَّنُ سريعاً، وخبز القطائف يُؤَلَّدُ خلطاً غليظاً، والفتيْتُ نفاخٌ بطيء الهضم، والمعمول باللبن مسدد كثير الغذاء، بطيء الانحذار.

(خبز الشعير)

وخبزُ الشعير بارد يابس في الأولى، وهو أقلُّ غذاء من خبز الحنطة.

خل: روى مسلم في «صحيحه»: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ سأل أهله لإدام، فقالوا: ما عندنا إلا خَلٌّ، فدعا به، وجعل يأكلُ ويقول: «نِعَمَ الإِدَامُ الْخَلُّ، نِعَمَ الإِدَامُ الْخَلُّ» [مسلم: ٥٣٥٢].

(١) مترجم في «ميزان الاعتدال» وأورد سؤال عبد الله عنه لأبيه. والليط جمع الليطة، وهي قشرة القصب التي تليط بها، أي: تلتق.

محمد بن عبد الملك - وكان أعمى - يضعُ الحديث، ويكذب.

وبعد: فالجِلْخال نافع لِلثَّمة والأسنان، حافظ لصحتها، نافع من تغير النكهة، وأجوده ما اتَّخَذَ مِنْ عيدان الأخلَّة، وخشب الزيتون والجَلْخاف، والتخلُّل بالقصب والآس والريحان والبادروج^(١) مضر.

حرف الدال

دهن: روى الترمذي في كتاب «الشمال» من حديث أنس بن مالك رضي الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ يُكَيِّرُ دُهْنَ رَأْيِهِ، وَتَسْرِيعَ لِحْيَتِهِ، وَيُكَيِّرُ الْقِنَاعَ كَأَنَّ قُوَّةَ ثَوْبٍ زَيَّاتٍ [الترمذي في «الشمال»: ٣٢، وسنده ضعيف].

الدهن يسد مسامَ البدن، ويمنع ما يتحلل منه، وإذا استُغْمِلَ بعد الاغتسال بالماء الحار، حَسَّنَ البدنَ ورطبه، وإن دهن به الشعر حَسَّنَه وطوَّله، ونفع من الحَصْبَةِ، ودفع أكثر الآفات عنه.

وفي الترمذي: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «كُلُّوا الزَّيْتُ وَأَدِهِنُوا بِهِ» [حسن: أحمد: ١٦٠٥٤، والترمذي: ١٨٥٣]. وسيأتي إن شاء الله تعالى.

والدهن في البلاد الحارة، كالحجاز ونحوه من أكد أسباب حفظ الصحة وإصلاح البدن، وهو كالضروري لهم، وأما البلاد الباردة، فلا يحتاج إليه أهلها، والإلحاح به في الرأس فيه خطر بالبصر.

وأنفع الأدهان البسيطة: الزيت، ثم السمن، ثم الشَّيْرَج.

(مناهي الأدهان المركبة)

وأما المركبة: فمنها بارد رطب، كدهن البنفسج ينفع من الصُّدَاعِ الحار، وينوم أصحاب السهر، ويُرَطِّبُ الدماغ، وينفع من الشَّقَاقِ، وغلبة اليس، والجفاف، ويَطْلِي به الجرب، والحكة اليابسة، فينفعها وَيُسَهِّلُ حركة المفاصل، ويصلح لأصحاب الأمزجة الحارة في زمن الصيف، وفيه حديثان باطلان موضوعان على رسول الله ﷺ، أحدهما: فضلُ دُهْنِ البنفسج على سائر الأدهان، كفضلي على سائر الناس.

والثاني: فضلُ دُهْنِ البنفسج على سائر الأدهان، كفضل الإسلام على سائر الأديان^(٢).

ومنها: حار رطب، كدهن البان، وليس دهن زهره، بل دُهْنُ يُسْتَخْرَجُ مِنْ حَبِّ أَيْضٍ أَغْبَرِ نَحْوِ الفستق، كثير الدهنية والدسم، ينفع من صلابة العصب، ويُلِينه، وينفع من البرش والنمش، والكَلَفِ والبَهَقِ، وَيُسَهِّلُ بَلغمًا غليظًا، ويلين الأوتار اليابسة، ويسخِّنُ العصب، وقد روي فيه حديث باطل مختلف لا أصل له: أَدِهِنُوا بِالْبَانِ، فَإِنَّهُ أَحْطَى لَكُمْ عِنْدَ نِسَاتِكُمْ. ومن منافعه أنه يجلو الأسنان، ويكسبها بهجة، ويُقَيِّمُها من الصدأ، ومن مسح به وجهه وأطرافه لم يصبه حصى ولا شقاق، وإذا دهن به جفوه ومذاكيره وما والاها، نفع من برد الكلَّيتين، وتقطير البول.

حرف الذال

ذرية: ثبت في «الصحيحين»: عن عائشة رضي الله عنها قالت: طيَّبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَيَّ، بِذَرِيرَةٍ فِي حَبَّةِ الْوَدَّاعِ لِحْلِهِ وإحرامه [البخاري: ٥٩٣٠، ومسلم: ٢٨٢٤]. تقدم الكلام في الذرية ومنافعها وماهيته، فلا حاجة لإعادته.

ذباب: تقدم في حديث أبي هريرة المتفق عليه في أمره ﷺ بِقَمَسِ الذَّبَابِ فِي الطَّعَامِ إِذَا سَقَطَ فِيهِ لِأَجْلِ الشَّفَاءِ الَّذِي فِي جَنَاحِهِ، وهو كالترياق للسم الذي في الجناح الآخر، وذكرنا منافع الذباب هناك.

ذهب: روى أبو داود، والترمذي: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَخَصَ لِعَرْفَجَةَ بْنِ أَسْعَدَ لَمَّا قُطِعَ أَنْفُهُ يَوْمَ الْكُلابِ، وَاتَّخَذَ أَنْفًا مِنْ وَرَقٍ، فَأَتَنَ عَلَيْهِ، فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَتَّخِذَ أَنْفًا مِنْ ذَهَبٍ» [أبو داود: ٤٢٣٢، والترمذي: ١٧٧٠]. وليس لعرفجة عندهم غير هذا الحديث الواحد.

الذهب: زينة الدنيا، وطلَّسُمُ الوجود، ومفرج النفوس، ومقوي الظهور، وسِرُّ الله في أرضه، ومزاجه في سائر الكيفيات، وفيه حرارة لطيفة تدخل في سائر المعجونات اللطيفة والمفرحات، وهو أعدل المعادن على الإطلاق وأشرفها.

(١) في «المعتمد»: ويسمى الحوك، وقال: وهو ريحانة معروفة. وقال التلغيسي: هو صنف من البقول.

(٢) انظر «المنار المنيف» للمؤلف ص (٥٤) «والفوائد المجموعة» ص (١٦٥، ١٩٦).

(خواصه)

ومن خواصه أنه إذا دُفِنَ في الأرض، لم يضره التراب، ولم ينقصه شيئاً، وبرادته إذا خلطت بالأدوية، نفعت من ضعف القلب، والرجفان العارض من السواد، وينفع من حديث النفس، والحزن، والغم، والفرح، والعشق، ويسمن البدن، ويقويه، ويذهب الصفار، ويحسن اللون، وينفع من الجُذام، وجميع الأوجاع والأمراض السوداوية، ويدخل بخاصية في أدوية داء الثعلب، وداء الحية شرباً وطلاء، ويجلو العين ويقويها، وينفع من كثير من أمراضها، ويقوي جميع الأعضاء. وإسكاه في الفم يُزيل البخر، ومن كان به مرض يحتاج إلى الكي، وكوي به، لم يتلف موضعهُ، ويبرأ سريعاً، وإن اتخذ منه ميلاً واكتحل به، قوى العين وجلاها، وإذا اتخذ منه خاتمٌ فُصِّ منه وأحمي، وكوي به قوادِمُ أجنحة الحمام، ألقت أبراجها، ولم تتجَلَّ عنها.

وله خاصية عجبية في تقوية النفوس، لأجلها أبيع في الحرب والسلاح منه ما أبيع، وقد روى الترمذي من حديث مزينة العصري رضي الله عنه، قال: دخل رسول الله ﷺ يوم الفتح، وعلى سيفه ذهبٌ وفضةٌ [الترمذي: ١٦٩٠].

وهو معشوقُ النفوس التي متى ظفرت به، سلاها عن غيره من محبوبات الدنيا، قال تعالى: ﴿رَيْنَ لِنَاسٍ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النُّكْلِ وَالْبَيْنِ وَالْفَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْثَمِ وَالْحَصَرِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وفي «الصحيحين»: عن النبي ﷺ: «لَوْ كَانَ لِأَبْنِ آدَمَ وَادٍ مِنْ ذَهَبٍ لَا يَبْتَغِي إِلَيْهِ ثَانِياً، وَلَوْ كَانَ لَهُ ثَانٍ، لَا يَبْتَغِي إِلَيْهِ ثَالِثاً، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ» [البخاري: ٦٤٣٦، ومسلم: ٢٤١٨].

هذا وإنه أعظم حائل بين الخليقة وبين فوزها الأكبر يوم معادها، وأعظم شيء عُصِيَ الله به، وبه قُطِعَتِ الأرحام، وأريقَتِ الدماء، واستُحِلَّتْ

المحارم، ومُنِعَتِ الحقوق، وتظالم العباد، وهو المرغَّب في الدنيا وعاجلها، والمزهد في الآخرة وما أعدّه الله لأوليائه فيها، فكم أميت به من حق، وأحبي به من باطل، ونَصَرَ به ظالم، وقَهَرَ به مظلوم، وما أحسن ما قال فيه الحريري^(١):

تَبَا لَهُ مِنْ خَادِعٍ مُمَادِّي
أُضْفَرَ ذِي وَجْهَيْنِ كَالْمُنَافِقِ
يَبْدُو بَوْضَيْنِ لِعَيْنِ الرَّايِقِ
زِينَةُ مَعْشُوقٍ وَلَوْنُ عَاشِقِ
وَحُبُّهُ عِنْدَ ذَوِي الْحَقَائِقِ
يَدْعُو إِلَى ارْتِكَابِ سُخْطِ الْخَالِقِ
لَوْلَاهُ لَمْ تُقْلَعْ يَمِينُ السَّارِقِ
وَلَا بَدَتْ مَظْلِمَةُ مَنْ فَاسِقِ
وَلَا اِسْتَأْزَرَ بِاجِلٍ مِنْ طَارِقِ
وَلَا اِسْتَعْيَدَ مِنْ حَسُودٍ رَاشِقِ
وَشَرُّ مَا فِيهِ مِنَ الْخَلَائِقِ
أَنْ لَيْسَ يُغْنِي عَنْكَ فِي الْمَضَائِقِ
إِلَّا إِذَا فَرَّ فِرَارَ الْآبِقِ
حرف الراء

رطب: قال الله تعالى لمريم: ﴿وَمَرْيَمَ إِذْ نَبَّأَتْ بِحَبْلِهَا فِي الْوُحُوشِ﴾ [مریم: ٢٢٠، ٢٢١]. وفي «الصحيحين» عن عبد الله بن جعفر، قال: رأيت رسول الله ﷺ يأكل القثاء بالرطب [البخاري: ٥٤٤، ومسلم: ٥٣٣٠].

وفي «سنن أبي داود» عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يَفْطُرُ عَلَى رُطَبَاتٍ قَبْلَ أَنْ يَصَلِّيَ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ رُطَبَاتٍ فَمَرَاتٍ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ فَمَرَاتٍ، حَسَا حَسَوَاتٍ مِنْ مَاءٍ [صحيح: أحمد: ١٧٦٦، وأبو داود: ٢٣٥٦، والترمذي: ٦٩٦].

طبع الرطب طبع المياه حار رطب، يقوي المعدة الباردة ويوافقها، ويزيد في الباه، ويخصب البدن، ويوافق أصحاب الأمزجة الباردة، ويغذو غذاءً كثيراً.

(١) هو أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصري صاحب المقامات التي رزق فيها الخطوة التامة، لما اشتملت على كثير من بلاغات العرب في لغاتها وأمثالها ورموز أسرار كلامها، توفي سنة (٥١٦هـ).

وهو من أعظم الفاكهة موافقة لأهل المدينة وغيرها من البلاد التي هو فاكهتهم فيها، وأنفعها للبدن، وإن كان من لم يَتَعَذَّ يُسْرَعُ التعفن في جسده، ويتولَّد عنه دم ليس بمحمود، ويحدث في إكثاره منه صُدَاعٌ وسوداء، ويؤذي أسنانه، وإصلاحه بالسكنجبين ونحوه.

(هوند فطر الصائم عليه)

وفي فطر النبي ﷺ من الصوم عليه، أو على التمر، أو الماء تدير لطيف جداً، فإن الصوم يخلي المعدة من الغذاء، فلا تَجِدُ الكبد فيها ما تجذبه وترسله إلى القوى والأعضاء، والحلو أسرع شيء وصولاً إلى الكبد، وأجبه إليها، ولا سيما إن كان رطباً، فيشتد قبولها له، فتنتفع به هي والقوى، فإن لم يكن، فالتمر لحلاوته وتغذيته، فإن لم يكن، فحسوات الماء تُطْفِئُ لهيبَ المعدة، وحرارة الصوم، فتنبه بعده للطعام، وتأخذه بشهوة.

ريحان: قال تعالى: ﴿فَلَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُتَرَبِّينَ ۝۵۵ فَرَجَّ وَرَيَّانًا وَحَنَّتْ نُفُوسُهُنَّ لِمَاجِدِ رَبِّهِنَّ ۝۵۶﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩]. وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُ ذُو الْأَلْبَانِ وَالرَّيْحَانُ ۝۵۷﴾ [الرحمن: ١٢].

وفي «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ: «مَنْ عَرَضَ عَلَيْهِ رَيْحَانٌ، فَلَا يَرُدُّهُ، فَإِنَّهُ خَفِيفُ الْمَحْمُولِ طَلِبُ الرَّاغِبَةِ» [مسلم: ٥٨٨٣].

وفي «سنن ابن ماجه»: من حديث أسامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «أَلَا مَشْمَرٌ لِلْجَنَّةِ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا، هِيَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، نُورٌ يَتَلَأَلُ، وَرَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ، وَقَصْرٌ مَشِيدٌ، وَنَهْرٌ مُطَرَّدٌ وَنَمْرَةٌ نَضِيجَةٌ، وَرَوْحَةٌ حَسَنَاءٌ جَمِيلَةٌ، وَحُلُلٌ كَثِيرَةٌ فِي مَقَامٍ أَبَدًا، فِي حَبْرَةٍ وَنَضْرَةٍ، فِي دُورٍ عَالِيَةٍ سَلِيمَةٍ بَيْتَةٍ»، قالوا: نعم يا رسول الله، نحن المشمرون لها قال: «قُولُوا: إِنَّ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى»، فقال القوم: «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» [ابن ماجه: ٤٣٣٢، وابن حبان: ٢٦٢٠، وفي سننه ضعف].

(أنواع الريحان)

الريحان كل نبت طيب الريح، فكل أهل بلد يخصصونه بشيء من ذلك، فأهل المغرب يخصصونه بالأس، وهو الذي يعرفه العرب من الريحان، وأهل العراق والشام يخصصونه بالحَبَقِ.

(مناافع القس وهو الريحان)

فأما الأس، فمزاجه بارد في الأولى، يابس في الثانية، وهو مع ذلك مرگب من قوى متضادة، والأكثَرُ فيه الجوهرُ الأرضي البارد، وفيه شيء حار لطيف، وهو يُجَفِّفُ تجفيفاً قوياً، وأجزاءه متقاربة القوة، وهي قوَّة قابضة حابسة من داخل وخارج معاً.

وهو قاطع للإسهال الصفراوي، دافع للبخار الرطب إذا شُمَّ، مفرج للقلب تفريحاً شديداً، وشمه مانع للوباء، وكذلك افتراشه في البيت.

ويُبرئ الأورام الحادثة في الحالين إذا وضع عليها، وإذا دُقَّ ورقه وهو غض وضرب بالخل، ووضع على الرأس، قطع الرعاف، وإذا سحق ورقه اليباس، ودُخِّرَ على القروح ذوات الرطوبة نفعها، ويقوي الأعضاء الواهية إذا ضُمَّدَّ به، وينفع داء الداحس، وإذا دُرَّ على البثور والقروح التي في اليدين والرجلين نفعها.

وإذا دُكِّلَ به البدن قطع العرق، ونشف الرطوبات الفضلية، وأذهب تَثَنُّ الإبط، وإذا جُلِسَ في طبيخه، نفع من خرايج المقعدة والرحم، ومن استرخاء المفاصل، وإذا صُبَّ على كسور العظام التي لم تلتحم نفعها.

ويجلو قشورَ الرأس وقروحه الرطبة، ويثوره، ويُمِسِّكُ الشعر المتساقط ويُسَوِّدُهُ، وإذا دُقَّ ورقه، وضُبَّ عليه ماء يسير، وخُلِطَ به شيء من زيت أو دهن الورد، وضمد به، وافق القروح الرطبة والنملة والحمرة، والأورام الحادة، والشرى والبواسير.

(مناافع حبه)

وحبه نافع من نفث الدم العارض في الصدر والرئة، دافع للمعدة وليس بضار للصدر ولا الرئة لجلالته، وخاصيته النفع من استطلاق البطن مع السعال، وذلك نادر في الأدوية، وهو مدر للبول، نافع من لذع المثانة وعض الرُّثِيَاءِ، ولسع العقارب، والتخلل بعرقه مضر، فليحذر.

(مناافع الريحان الفارسي المسمى الحبق)

وأما الرِّيحَانُ الفارسي الذي يُسَمَّى الحبق، فحار في أحد القولين، ينفع شمه من الصُدَاعِ الحار إذا رُشَّ

عليه الماء، ويبرد، ويرطب بالعرض، وبارد في الآخر، وهل هو رطب أو يابس؟ على قولين. والصحيح: أن فيه من الطباع الأربع، ويخلب النوم، ويژه حابس للإسهال الصفراوي، ومسكن للمغص، مقو للقلب، نافع للأمراض السوداء.

رمان: قال تعالى: ﴿يَهَيَّا فَلَكَهٗ وَخَلَّ رَمَانًا﴾ [الرَّحْمَنُ: ٦٨]. ويُذكر عن ابن عباس موقوفاً ومرفوعاً: «مَا مِنْ رَمَانٍ مِنْ رَمَانِكُمْ هَذَا إِلَّا وَهُوَ مُلَقَّحٌ بِحَبَّةٍ مِنْ رَمَانِ الْجَنَّةِ»^(١) والموقوف أشبه. وذكر حرب وغيره عن علي أنه قال: «كُلُوا الرِّمَانَ بِشَحْمِهِ، فَإِنَّهُ دِبَاحُ الْمَعِدَةِ».

حلو الرمان حار رطب، جيد للمعدة، مقو لها بما فيه من قبض لطيف، نافع للحلق والصدر والرئة، جيد للسعال، ماؤه ملين للبطن، يغذو البدن غذاءً فاضلاً يسيراً، سريع التحلل لرقته ولطافته، ويولد حرارة يسيرة في المعدة وريحاً، ولذلك يُعين على الباء، ولا يصلح للمحمومين، وله خاصية عجبية إذا أكل بالخبز يمنعه من الفساد في المعدة.

وحامضه بارد يابس، قابض لطيف، ينفع المعدة الملتهبة، ويُدِّر البول أكثر من غيره من الرمان، ويسكِّن الصفراء، ويقطع الإسهال، ويمنع القيء، ويلطف الفضول.

ويُطفئ حرارة الكبد ويُقوي الأعضاء، نافع من الخفقان الصفراوي، والآلام العارضة للقلب، وفم المعدة، ويُقوي المعدة، ويدفع الفضول عنها، ويُطفئ الجيرة الصفراء والدم.

وإذا استخرج ماؤه بشحمه، وطبخ ببسير من العسل حتى يصير كالمرهم واكتحل به، قطع الصفرة من العين، ونفَّأها من الرطوبات الغليظة، وإذا طُخ على اللثة، نفع من الأكلة العارضة لها، وإن استخرج ماؤهما بشحمهما، أطلق البطن، وأحدر الرطوبات العفنة المُرَّة، ونفع من حميات الغب المتطاولة.

وأما الرمان المر، فمتوسط طبعاً وفِعلاً بين النوعين، وهذا أميلُ إلى لطافة الحامض قليلاً، وحُب

الرمان مع العسل طلاء للداحس والقروح الخبيثة، وأقماعه للجراحات، قالوا: ومن ابتلع ثلاثة من جُتَيْدِ^(٢) الرمان في كل سنة، أمن من الرمدمسته كلها.

حرف الزاي

زيت: قال تعالى: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونٌ لَا شَرْقِيٌّ وَلَا غَرْبِيٌّ يَكَادُ زَيْتَابُ يُقَوِّهُ وَلَوْ لَمْ تَسْسَهُ نَارُ﴾ [التَّوْر: ٣٥].

وفي الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «كُلُوا الزَّيْتِ وَأَدْنُوا بِهِ، فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ» [حسن: أحمد: ١٦٠٥٤، والترمذي: ١٨٥٣].

ولليهيقي وابن ماجه أيضاً: عن ابن عمر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «اتَّيَدُوا بِالزَّيْتِ، وَأَدْنُوا بِهِ، فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ» [عبد الرزاق: ١٩٥٦٨، وابن ماجه: ٣٣١٩].

الزيت حار رطب في الأولى، وغلط من قال: يابس، والزيت بحسب زيتونه، فالمعتصر من النضيج أعدله وأجوده، ومن الفج فيه برودة ويؤسه، ومن الزيتون الأحمر متوسط بين الزيتين، ومن الأسود يُسخن ويرطب باعتدال، وينفع من السموم، ويُطلق البطن، ويخرج الدود، والعتيق منه أشد تسخيناً وتحليلاً، وما استخرج منه بالماء، فهو أقل حرارة، والطف وأبلغ في النفع، وجميع أصنافه مليئة للبشرة، وتطوى الشيب.

(منافع ماء الزيتون المالح)

وماء الزيتون المالح يمنع من تنطف حرق النار، ويشد اللثة، وورقه ينفع من الحمرة، والنملة، والقروح الوسخة، والشرى، ويمنع العرق، ومنافعه أضعاف ما ذكرنا.

زيد: روى أبو داود في «سننه»، عن ابني بُسر السُّلَمِيِّين رضي الله عنهما قالاً: دخل علينا رسول الله ﷺ، فقدمنا له زَيْدًا وَتَمْرًا، وكان يُحِبُّ الزَّيْدَ وَالتَّمْرَ [أبو داود: ٣٨٣٧، وابن ماجه: ٣٣٣٤].

(١) في سننه محمد بن الوليد بن أبان القلاسي وهو كذاب يضع الحديث.

(٢) جنيد الرمان: هو زهر الرمان البستاني، وقيل: هو عقد الرمان.

التمر، وإذا أكل منه يَجمعه كان أكثر نفعاً للمعدة والكبد والطحال، وإذا لُصِقَ لحمه على الأظافر المتحركة أسرع قلعها، والحلو منه وما لا عَجَمَ له نافع لأصحاب الرطوبات والبلغم، وهو يُخصب الكبد، وينفعها بخاصيته.

(نفعه للحفظ)

وفيه نفع للحفظ، قال الزهري: من أحب أن يحفظ الحديث، فليأكل الزبيب، وكان المنصور يذكر عن جده عبد الله بن عباس: عجمه داء، ولحمه دواء.

زنجبيل: قال تعالى: ﴿وَتَقَوَّيْنَا فِيهَا كُفَّاتًا كَانَتْ زَاجِبَةً زَبْجِيلاً﴾ [الإنسان: ١٧]. وذكر أبو نعيم في كتاب «الطب النبوي» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: أهدى ملك الروم إلى رسول الله ﷺ جرة زنجبيل، فأطعم كل إنسان قطعة، وأطعمني قطعة.

الزنجبيل حار في الثانية، رطب في الأولى، مسخن معين على هضم الطعام، ملين للبطن تليناً معتدلاً، نافع من سدد الكبد العارضة عن البرد والرطوبة، ومن ظلمة البصر الحادثة عن الرطوبة أكلاً واكتحالاً، معين على الجماع، وهو محلل للرياح الغليظة الحادثة في الأمعاء والمعدة.

وبالجملة فهو صالح للكبد والمعدة الباردتي المزاج، وإذا أخذ منه مع السكر وزن درهمين بالماء الحار، أسهل فضولاً لرجة لعابية، ويقع في المعجونات التي تحلل البلغم وتذيبه.

والمرّي منه حار يابس يهيج الجماع، ويزيد المنى، ويسخن المعدة والكبد، ويُعين على الاستمرار، وينشف البلغم الغالب على البدن، ويزيد في الحفظ، ويُوافق برد الكبد والمعدة، ويُزيل بِلَتَهَا الحادثة عن أكل الفاكهة، ويُطيب النكهة، ويدفع به ضرر الأطعمة الغليظة الباردة.

حرف السين

سنا: قد تقدم، وتقدم سُتوت أيضاً، وفيه سبعة أقوال، أحدها: أنه العسل. الثاني: أنه رُبُّ عَكَّة

الزبد حار رطب، فيه منافع كثيرة، منها الإنضاج والتحليل، ويُرى الأورام التي تكون إلى جانب الأذنين والحالين، وأورام الفم، وسائر الأورام التي تُعْرِضُ في أبدان النساء والصبيان إذا استعمل وحده، وإذا لعق منه، نفع في نفث الدم الذي يكون من الرقة، وأنضج الأورام العارضة فيها.

وهو ملين للطبيعة والعصب والأورام الصلبة العارضة من المرة السوداء والبلغم، نافع من اليُس العارض في البدن، وإذا طُلِيَ به على منابت أسنان الطفل، كان معيناً على نباتها وطلوعها، وهو نافع من السعال العارض من البرد واليس، ويذهب القُوباء والخشونة التي في البدن، ويُلين الطبيعة، ولكنه يُضعف شهوة الطعام، ويذهب بوخامته الحلو، كالعسل والتمر وفي جمعه ﷺ بين التمر وبينه من الحكمة إصلاح كل منهما بالآخر.

زيب: روي فيه حديثان لا يصحان. أحدهما: نَعَمْ الطعامُ الزبيبُ يُطِيبُ النكهة، ويُذِيبُ البلغم. والثاني: نَعَمْ الطعامُ الزبيبُ يذهب النصب، ويشد العَصَب، ويُطفئ الغَضَب، ويُصْفِي اللون، ويُطِيب النكهة وهذا أيضاً لا يصح فيه شيء عن رسول الله ﷺ.

(أجود أنواعه)

ويعد: فأجود الزبيب ما كبر جسمه، وسمن شحمه ولحمه، ورق قشره، ونزع عَجَمُه، وصغر جبه.

وجرم الزبيب حار رطب في الأولى، وجبه بارد يابس، وهو كالعنب المتخذ منه، الحلو منه حار، والحامض قابض بارد، والأبيض أشد قابضاً من غيره، وإذا أكل لحمه، وافق قسبة الرقة، ونفع من السعال، ووجع الكلى، والمثانة، ويقوي المعدة، ويُلين البطن.

والحلو اللحم أكثر غذاء من العتب، وأقل غذاء من التين اليابس، وله قوة منضجة هاضمة قابضة محللة باعتدال، وهو بالجملة يقوي المعدة والكبد والطحال، نافع من وجع الحلق والصدر والرقة والكلى والمثانة، وأعدله أن يؤكل بغير عَجَمه.

وهو يُغذي غذاء صالحاً، ولا يسدد كما يفعل

الأسمن يخرج خطماً سوداء على الأسمن. الثالث: أنه حبٌ يشبه الكمون، وليس بكمون. الرابع: الكمون الكرمانى. الخامس: أنه الشبث^(١)، السادس: أنه التمر. السابع: أنه الرازيانج.

ومعنى تجم الفؤاد: تريحه. وقيل: تفتحه وتوسعه، من جمام الماء، وهو اتساعه وكثرته، والطحاء للقلب مثل الغيم على السماء. قال أبو عبيد: الطحاء يثقل وعشي، تقول: ما في السماء طحاء، أي: سحب وظلمة.

سواك: في «الصحيحين» عنه ﷺ: «لَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أَمْنِي لَأَمْرُئُهُمْ بِالسَّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ» [البخاري: ٨٨٧، ومسلم: ٥٨٩].

وفيهما: أنه ﷺ، كان إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك [البخاري: ٨٨٩، ومسلم: ٥٩٥].

وفي «صحيح البخاري» تعليقاً عنه ﷺ: «السواك مظهرَةٌ لِلْفَمِ مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ» [البخاري تعليقاً: باب السواك الرطب واليابس للصائم].

وفي «صحيح مسلم»: أنه ﷺ كان إذا دخل بيته، بدأ بالسواك [مسلم: ٥٩٠].

والأحاديث فيه كثيرة، وصح عنه من حديث أنه استاك عند موته بسواك عبد الرحمن بن أبي بكر [البخاري: ٨٩٠]، وصح عنه أنه قال: «أَكْثَرْتُ عَلَيْكُمْ فِي السَّوَاكِ» [البخاري: ٨٨٨].

وأصلح ما اتخذ السواك من خشب الأراك ونحوه، ولا ينبغي أن يؤخذ من شجرة مجهولة، فربما كانت سماً، وينبغي القصد في استعماله، فإن بالغ فيه، فربما أذهب طلاوة الأسنان وصقلتها، وهياها لقبول الأبخرة المتصاعدة من المعدة والأوساخ، ومتى استعمل باعتدال، جلا الأسنان، وقوى العمود، وأطلق اللسان، ومنع الحقر، وطيب النكهة، ونقى الدماغ وشهى الطعام.

وأجود ما استعمل مبلولاً بماء الورد، ومن أنفعه أصول الجوز، قال صاحب «التيسير»: زعموا أنه إذا استاك به المستاك كل خماس من الأيام، نقى الرأس، وصفى الحواس، وأخذ الذهن.

سفرجل: روى ابن ماجه في «سننه»: من حديث إسماعيل بن محمد الطلحي، عن ثقيب بن حاجب، عن أبي سعيد، عن عبد الملك الزبيرى، عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قال: دخلت على النبي ﷺ ويده سفرجلة، فقال: «دُونَكْهَا يَا طَلْحَةُ، فَإِنَّهَا تُجِمُّ الْفُؤَادَ» [ابن ماجه: ٣٣٩، وسنده ضعيف].

ورواه النسائي من طريق آخر، وقال: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وهو في جماعة من أصحابه، ويده سفرجلة يقلبها، فلما جلس إلى، دحا بها إلي ثم قال: «دُونَكْهَا أَبَا ذَرٍّ، فَإِنَّهَا تُشَدُّ الْقَلْبَ، وَتُطَيِّبُ النَّفْسَ، وَتَذْهَبُ بِطَحَاءِ الصُّدْرِ»^(٢).

وقد روي في السفرجل أحاديث أخرى، هذا أمثلها، ولا تصح.

والسفرجل بارد يابس، ويختلف في ذلك باختلاف طعمه، وكله بارد قابض، جيد للمعدة، والحلو منه أقل برودة ويُسأ، وأميل إلى الاعتدال، والحايض أشد قبضاً ويُسأ وبرودة، وكله يسكن العطش والقيء، ويؤثر البول، ويعقل الطبع، وينفع من قرحة الأمعاء، ونفت الدم، والهضة، وينفع من القئان، ويمنع من تصاعد الأبخرة إذا استعمل بعد الطعام، وحرارة أغصانه وورقه المفسولة كالتوتياء في فعلها.

وهو قبل الطعام يقبض، وبعده يلين الطبع، ويسرع بانحدار الثفل، والإكثار منه مضر بالعصب، مولد للقولنج، ويعطف المرة الصفراء المتولدة في المعدة. وإن شوي كان أقل لخشونته، وأخف، وإذا قوّر وسطه، ونزع حبه، وجعل فيه العسل، وطبق جرمه بالعجين، وأودع الرماد الحار، نفع نفعا حسناً.

وأجود ما أكل مشوياً أو مطبوخاً بالعسل، وحبه ينفع من خشونة الحلق، وقصبة الرقة، وكثير من

(١) الشبث: نبات من فصيلة الخيميات يشبه الشمر، وهو من التوابل.

(٢) وهو ضعيف أيضاً.

(منافع السواك)

على صيامه، ولو أزاله بالسواك، كما أن الجريح يأتي يوم القيامة، ولو ن دم جرحه لو ن الدم، وريحه ريح المسك، وهو مأمور بإزالته في الدنيا.

وأيضاً فإن الخلوف لا يزول بالسواك، فإن سببه قائم، وهو خلو المعدة عن الطعام، وإنما يزول أثره، وهو المنعقد على الأسنان واللثة.

وأيضاً فإن النبي ﷺ علم أمته ما يستحب لهم في الصيام، وما يكره لهم، ولم يجعل السواك من القسم المكروه، وهو يعلم أنهم يفعلونه، وقد حضهم عليه بأبلغ الفاظ العموم والشمول، وهم يشاهدونه يستاك وهو صائم مراراً كثيرة تفوت الإحصاء، ويعلم أنهم يقتدون به، ولم يقل لهم يوماً من الدهر لا تستاكوا بعد الزوال، وتأخير البيان عن وقت الحاجة ممتنع، والله أعلم.

(أوقات استحبابه)

ويستحب كل وقت، ويتأكد عند الصلاة والوضوء، والانتباه من النوم، وتغيير رائحة الفم، ويستحب للمفطر والصائم في كل وقت لعموم الأحاديث فيه، ولحاجة الصائم إليه، ولأنه مرضاة للرب، ومرضاته مطلوبة في الصوم أشد من طلبها في الفطر، ولأنه مطهرة للفم، والظهور للصائم من أفضل أعماله.

(استياك الصائم)

وفي «السنن»: عن عامر بن ربيعة رضي الله عنه، قال: رأيت رسول الله ﷺ ما لا أخصي يستاك، وهو صائم [أحمد: ١٥٦٧٨، وأبو داود: ٢٣٦٤، وفي سننه ضعيف] وقال البخاري: قال ابن عمر: يستاك أول النهار وآخره.

وأجمع الناس على أن الصائم يتمضمض وجوباً واستحباباً، والمضمضة أبلغ من السواك، وليس لله غرض في التقرب إليه بالرائحة الكريهة، ولا هي من جنس ما شرع التعبد به، وإنما ذكر طيب الخلوف عند الله يوم القيامة حثاً منه على الصوم، لا حثاً على إبقاء الرائحة، بل الصائم أحوج إلى السواك من المفطر..

وأيضاً فإن رضوان الله أكبر من استطابته لخلوف فم الصائم.

وأيضاً فإن السواك لا يمنع طيب الخلوف الذي يؤزله السواك عند الله يوم القيامة، بل يأتي الصائم يوم القيامة، وخلوف فمه أطيب من المسك علامة

(منافع سمن البقر والمعز)

وأما سمن البقر والمعز، فإنه إذا شرب مع العسل نفع من شرب السم القاتل ومن لدغ الحيات والعقارب، وفي كتاب ابن السني، عن علي بن أبي

سمن: روى محمد بن جرير الطبري بإسناده، من حديث ضبيب يرفعه: «عَلَيْكُمْ بِأَلْبَانِ الْبَقَرِ، فَإِنَّهَا شِفَاءٌ، وَسَمْنُهَا دَوَاءٌ، وَلُحُومُهَا دَاءٌ» رواه عن أحمد بن الحسن الترمذي، حدثنا محمد بن موسى النسائي، حدثنا دقاع بن دغفل السدوسي، عن عبد الحميد بن صيفي بن صهيب، عن أبيه عن جده، ولا يثبت ما في هذا الإسناد^(١).

والسمن حار رطب في الأولى، وفيه جلاء يسير، ولطافة وتفتية الأورام الحادثة من الأبدان الناعمة، وهو أقوى من الزبد في الإنضاج والتلين، وذكر جالينوس: أنه أبرأ به الأورام الحادثة في الأذن، وفي الأرنبة، وإذا ذلك به موضع الأسنان، نبتت سريعاً، وإذا خلط مع عسل ولوز مر، جلا ما في الصدر والرئة، والكيموسات الغليظة اللزجة، إلا أنه ضار بالمعدة، سيما إذا كان مزاج صاحبها بلغمياً.

(١) دفاع بن دغفل ضعيف، وعبد الحميد بن صيفي لين، وأخرجه الحاكم (٤/٤٠٤) من حديث ابن مسعود، وسنده ضعيف.

طالب رضي الله عنه قال: لم يستشف الناس بشيء أفضل من السم.

سمك: روى الإمام أحمد ابن حنبل، وابن ماجه في «سننه»: من حديث عبد الله بن عمر، عن النبي ﷺ أنه قال: «أَجَلْتُ لَنَا مَيِّتَانِ وَدَمَانِ: السَّمَكُ وَالْجَرَادُ، وَالْكَبِدُ وَالطَّحَالُ» [أحمد: ٥٧٢٣، وابن ماجه: ٣٢١٨، وإسناده ضعيف، لكن رواه البيهقي موثقاً بإسناد صحيح (١)].

(أجود أصنافه وأصلح أماكنه)

أصناف السمك كثيرة، وأجوده ما لذ طعمه، وطاب ريحه، وتوسط مقداره، وكان رقيق القشر، ولم يكن صلب اللحم ولا يابس، وكان في ماء عذب جار على الحصباء، ويفتدي بالنبات لا الأقذار، وأصلح أماكنه ما كان في نهر جيد الماء، وكان يأوي إلى الأماكن الصخرية، ثم الرملية، والمياه الجارية العذبة التي لا قدر فيها، ولا حمأة، الكثيرة الاضطراب والتموج، المكشوفة للشمس والرياح.

(منافع السمك الطري)

والسمك البحري فاضل، محمود، لطيف، والطري منه بارد رطب، عسر الانهضام، يؤلّد بلغماً كثيراً، إلا البحري وما جرى مجراه، فإنه يولد خلطاً محموداً، وهو يُخصِبُ البدن، ويزيد في المنى، ويصلح الأمزجة الحارة.

(السمك المالح)

وأما المالح، فأجوده ما كان قريب العهد بالتملح، وهو حار يابس، وكلما تقدم عهده ازداد حره وبسه، والسَّلور منه كثير اللزوجة، ويسمى الجَرِّي، واليهود لا تأكله، وإذا أُكِلَ طرياً، كان مليناً للبطن، وإذا مُلِحَ وعقّق وأكِلَ، صفّى قسبة الرئة، وجوّد الصوت، وإذا دُقّ ووضع من خارج، أخرج السَّلَى^(١) والفضول من عمق البدن من طريق أن له قوة جاذبة.

وماء ملح الجَرِّي المالح إذا جلس فيه من كانت به قرحة الأمعاء في ابتداء العلة، وافقه بجذبه المواد إلى

ظاهر البدن، وإذا احتقن به، أبرأ من عرق النسا. (منافع الطري السمين منه)

وأجود ما في السمك ما قُرب من مؤخرها، والطري السمين منه يُخصِبُ البدن لحمه وودّته. وفي «الصحيحين»: من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: بعثنا النبي ﷺ في ثلاثمئة راكب، وأميرنا أبو عبيدة بن الجراح، فأتينا الساحل، فأصابنا جوع شديد، حتى أكلنا الخَبَطَ، فألقي لنا البحر حوتاً يقال لها: عنبر، فأكلنا منه نصف شهر، واتدمننا بؤذكه حتى ثابت أجسامنا، فأخذ أبو عبيدة ضلعاً من أضلاعه، وحمل رجلاً على بعيره، ونصبه، فمر تحته [البخاري: ٥٤٩٤، ومسلم: ٤٩٩٨].

سلق: روى الترمذي وأبو داود، عن أم المنذر، قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ ومعه علي رضي الله عنه، ولنا دَوَالٌ معلقة، قالت: فجعل رسول الله ﷺ يأكل وعليّ معه يأكل، فقال رسول الله ﷺ: «مَهْ يَا عَلِيّ فَإِنَّكَ نَافِعٌ»، قالت: فجعلت لهم سلقاً وشعيراً، فقال النبي ﷺ: «يَا عَلِيّ فَأَصِيبْ مِنْ هَذَا، فَإِنَّهُ أَوْفَقُ لَكَ». قال الترمذي: حديث حسن غريب [حسن: أحمد: ٢٧٠٥١، وأبو داود: ٣٨٥٦، والترمذي: ٢٠٣٨، وابن ماجه: ٣٤٤٢].

السَّلَق حار يابس في الأولى، وقيل: رطب فيها، وقيل: مركب منهما، وفيه برودة ملطفة، وتحليل، وتفتيح، وفي الأسود منه قبض ونفع من داء الثعلب، والكلف، والحزاز، والثآليل إذا طلي بمائه، ويقتل القمل، ويُطلى به القُوبَاء مع العسل، ويفتح سُدَد الكَبِد والطحال، وأسوده يعقل البطن، ولا سيما مع العدس، وهما رديتان. والأبيض: يلين مع العدس، ويحقن بمائه للإسهال، وينفع من القولنج مع المَرِيّ والتوابل، وهو قليل الغذاء، رديء الكيموس، يحرق الدم، ويصلحه الخل والخردل، والإكثار منه يؤلّد القبض والتفخ.

حرف الشين

شونيز: هو الحبة السوداء، وقد تقدم في حرف الحاء.

(١) السَّلَى: هو الجلد الرقيق الذي يخرج فيه الولد من بطن أمه مكشوفاً فيه.

شُبْرَم: روى الترمذي، وابن ماجه في «سنتهما»: من حديث أسماء بنت عميس، قالت: قال رسول الله ﷺ: «بِمَاذَا كُنْتُ تَسْتَمِيشِينَ؟» قالت: بِالشُّبْرَم. قال: «حَارٌّ جَارٌّ» [الترمذي: ٢٠٨٢، وابن ماجه: ٣٤٦١، وسنده ضعيف].

الشُّبْرَمُ شجر صغير وكبير، كقمامة الرجل وأرجح، له قُضبان حمر ملئمة ببياض، وفي رؤوس قُضبانهِ جُمَّةٌ مِن ورق، وله نَوْرٌ صِغار أصفر إلى البياض، يسقط ويخلفه مراود صِغار فيها حب صغير مثل البُظْم، في قدره، أحمر اللون، ولها عروق عليها قُشورٌ حمر، والمستعمل منه قُشْرُ عُرْوَقه، ولبن قُضبانهِ.

وهو حار يابس في الدرجة الرابعة، وَيُسَهِّلُ السوداء، والكَيْمُوسَات الغليظة، والماء الأصفر، والبلغم، مُكْرَبٌ، مُعَثٌّ، والإكثار منه يقتل، وينبغي إذا استعمل أن يُتَقَّع في اللبن الحليب يوماً وليلة، ويُغَيَّر عليها اللَّبَنُ في اليوم مرتين أو ثلاثاً، ويُخْرَج، وَيُجَفَّفُ في الظل، وَيُخَلَطُ معه الورود والكثيراء^(١)، ويشرب بماء العسل، أو عصير العنب، والشُّرْبَةُ منه ما بين أربع دوايق إلى دَافِقَيْنِ على حسب القوة، قال حُثَيْن: أما لَبَنُ الشُّبْرَم، فلا خير فيه، ولا أرى شُرْبَهُ البتة، فقد قَتَلَ به أطباء الطرقات كثيراً من الناس.

شعير: روى ابن ماجه: من حديث عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أخذ أحداً مِنْ أَهْلِهِ الْوَعَكُ، أَمَرَ بِالْحَسَاءِ مِنَ الشَّعِيرِ، فَصَنَعَ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ فَحَسَوْا مِنْهُ، ثم يقول: «إِنَّهُ لَيَزِيدُنَا قُوَادَ الْحَزِينِ وَيَسْرُو قُوَادَ السَّقِيمِ كَمَا تَسْرُو إِحْدَاكُنَّ الْوَسَخَ بِالمَاءِ عَنْ وَجْهَيْهَا» [أحمد: ٢٤٠٣٥، والترمذي: ٢٠٤٠، وابن ماجه: ٣٤٤٥]. ومعنى يرسوه: يشده ويقويه. ويسرو: يكشف، ويُزِيلُ.

(منافع ماء الشعير المغلي)

وقد تقدم أن هذا هو ماء الشعير المغلي، وهو أكثرُ غذاء من سويقه، وهو نافع للسعال، وخشونة الحلق، صالح لقمع جدة الفضول، مُبْرِئٌ للبول، جلاء لما في المعدة، قاطع للعطش، مُطْفِئٌ للحرارة، وفيه قوة يجلو بها ويلطف ويحلل.

وصفته: أن يُؤخذ مِنَ الشعير الجيد المروض

مقدار، ومن الماء الصافي العذب خمسة أمثاله، ويُلقَى في قدر نظيف، ويطبخ بنار معتدلة إلى أن يبقى منه خمساه، ويُصْفَى، ويُستعمل منه مقدار الحاجة مُحَلًّا.

شواء: قال الله تعالى في ضيافة خليله إبراهيم عليه السلام لأضيافه: «فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِمِثْلِ خَبِيرٍ» [هود: ٦٩] والحنيذ: المشوي على الرُضْف، وهي الحجارة المحماة.

وفي الترمذي: عن أم سلمة رضي الله عنها، أنها قربت إلى رسول الله ﷺ جنباً مشوياً، فأكل منه ثم قام إلى الصلاة ولم يتوضأ. قال الترمذي: حديث صحيح [صحيح: أحمد: ٢٦٦٢١، والترمذي: ١٨٣٠].

وفيه أيضاً: عن عبد الله بن الحارث قال: أكلنا مع رسول الله ﷺ شواءً في المسجد [أحمد: ١٧٧٠٢]. وفيه أيضاً: عن المغيرة بن شعبة قال: ضِفْتُ مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، فأمر بجنب، فشوي، ثم أخذ الشفرة، فجعل يَحْرِقُ لي بها منه، قال فجاء بلال يؤذن للصلاة، فألقى الشفرة فقال: «مَا لَهُ تَرَبُّثٌ يَدَاهُ» [صحيح: أحمد: ١٨٢١٢، وأبو داود: ١٨٨].

أنفع الشواء شواء الضأن الحولي، ثم العجل اللطيف السمين، وهو حار رطب إلى اليبوسة، كثير التوليد للسوداء، وهو من أغذية الأقوياء والأصحاء والمرتاضين، والمطبوخ أنفع وأخف على المعدة، وأرطب منه، ومن المُطْبَخِينَ.

وأردوه المشوي في الشمس، والمشوي على الجمر خير من المشوي باللهب، وهو الحنيذ.

شحم: ثم في «المسند»: عن أنس، أن يهودياً أضاف رسول الله ﷺ، فقدم له خُبْزَ شَعِيرٍ وإِهَالَةً سَنِخَةً [صحيح: أحمد: ١٣٢٠١]، والإِهَالَةُ: الشحم المذاب، والآلية، والسَنِخَةُ: المتغيرة.

وثبت في «الصحيح»: عن عبد الله بن مغفل، قال: دَلَّيْ جِرَابٌ مِنْ شَحْمِ يَوْمِ خَبِيرٍ، فالتزمتُه وقلْتُ: والله لا أعطي أحداً منه شيئاً فالتفت، فإذا رسول الله ﷺ يَضْحَكُ، ولم يقل شيئاً [مسلم: ٤٦٠٥].

أجود الشحم ما كان من حيوان مكتمل، وهو حار

(١) قال في «القاموس»: الكثيراء: رطوبة تخرج من أصل الشجرة تكون بجبال بيروت ولبنان.

رطب، وهو أقل رطوبة من السمن، ولهذا لو أذيب الشحم والسمن كان الشحم أسرع جموداً، وهو ينفع من خشونة الحلق، ويُرخي ويعفن، ويدفع ضرره بالليمون المملوح، والزنجبيل، وشحم المعز أقبض الشحوم، وشحم التيوس أشد تحليلاً، وينفع من قروح الأمعاء وشحم العنز أقوى في ذلك، ويحتقن به للسحج والزحير^(١).

حرف الصاد

صلاة: قال الله تعالى: ﴿وَأَسْتَبِيحُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْغَافِلِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَبِيحُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]. وقال تعالى: ﴿وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاسْطَرَّ عَلَيْكَ لَا تَتْلُكَ رِقَابًا تَمَنَّ رِزْقُكَ وَالْحَقِيقَةُ لِلْفُقَرَى﴾ [طه: ١٣٢].

وفي «السنن»: كان رسول الله ﷺ، إذا حَزَنَهُ أَمْرٌ، فَرَجَّعَ إِلَى الصَّلَاةِ [أحمد: ٣٣٢٩٩].

وقدم تقدم ذكر الاستشفاء بالصلاة من عامة الأوجاع قبل استحكامها.

(منافع الصلاة)

والصلاة مجلبة للرزق، حافظة للصحة، دافعة للأذى، مطردة للأدواء، مقوية للقلب، مبيضة للوجه، مُفْرِحَةٌ للنفس، مُذهبة للكسل، منشطة للجوارح، ممدة للقوى، شارحة للصدر، مغذية للروح، منورة للقلب، حافظة للنعمة، دافعة للفتنة، جالية للبركة، مُبْعِدَةٌ من الشيطان، مقربة من الرحمن.

وبالجملة: فلها تأثير عجيب في حفظ صحة البدن والقلب، وقوامها ودفع المواد الرديئة عنهما، وما ابتلي رجلاً بعمامة أو داء أو ميحة أو بلية إلا كان حظ المصلي منهما أقل، وعاقبته أسلم.

وللصلاة تأثير عجيب في دفع شرور الدنيا، ولا سيما إذا أعطيت حقها من التكميل ظاهراً وباطناً، فما استُدْفِئَتْ شرور الدنيا والآخرة، ولا استُجِلَّتْ

صبر: «الصبرُ نصفُ الإيمان» [أبو نعيم (٣٤/٥)، والخطيب في تاريخه (٢٢٦/٣)]، وفي سننه ضعيفاً، فإنه ماهية مركبة من صبر وشكر، كما قال بعض السلف: الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥] والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وهو ثلاثة أنواع: صبر على فرائض الله، فلا يُضَيِّعُهَا، وصبر عن محارمه، فلا يرتكبها وصبر على أقصيته وأقداره، فلا يستخفها، ومن استكمل هذه المراتب الثلاث، استكمل الصبر، ولذلة الدنيا والآخرة ونعيمها، والفوز والظفر فيهما، لا يصل إليه أحد إلا على جسر الصبر، كما لا يصل أحد إلى الجنة إلا على الصراط، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: خير عيش أدركناه بالصبر. وإذا تأملت مراتب الكمال المكتسب في العالم، رأيتها كلها منوطة بالصبر، وإذا تأملت النقصان الذي يذم صاحبه عليه، ويدخل تحت قدرته، رأيت كلاً من عدم الصبر، فالشجاعة والعفة، والجود والإيثار كله صبر ساعة.

فَالصَّبْرُ طَلْسَمٌ عَلَى كَثْرِ الْعُلَى
مَنْ حَلَّ ذَا الطَّلْسَمِ فَارَّ يَكْتَرِو^(٢)

(استكثر اسقام البدن والقلب من عدم الصبر)

وأكثر أسقام البدن والقلب، إنما تنشأ عن عدم الصبر، فما حُفِظَتْ صِحَّةُ القلوب والأبدان والأرواح بمثل الصبر، فهو الفاروق الأكبر، والثرياق الأعظم، ولو لم يكن فيه إلا معية الله مع أهله، فإن الله مع الصابرين ومحبه لهم، فإن الله يحب الصابرين ونصره لأهله، فإن النصر مع الصبر، وإنه خير

(١) السحج: داء في البطن قاسر. والزحير: استطلاق البطن.

(٢) الطلسم: جمع طلسمات، وهي خطوط أو كتابة يستعملها المشعوذ ويزعّم أنه يدفع بها كل مؤذ.

لأهله، «وَلَكِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ» [التحل: ١٢٦]، وإنه سبب الفلاح: «يَأْكُلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبَرُوا وَصَابَرُوا وَرَاطَبُوا وَأَتَقُوا اللَّهَ لَمَلَكُمْ تَغْلِبُوا» [آل عمران: ٢٠٠].

صبر^(١): روى أبو داود في كتاب (المراسيل) من حديث قيس بن رافع القيسي، أن رسول الله ﷺ قال: «مَاذَا فِي الْأَمْرَيْنِ مِنَ الشَّقَاءِ؟ الصَّبْرُ وَالْقَاءُ». وفي «السنن» لأبي داود: من حديث أم سلمة، قالت: دخل علي رسول الله ﷺ حين توفي أبو سلمة، وقد جعلت علي صبراً، فقال: «مَاذَا يَا أُمَّ سَلَمَةَ؟» فقلت: إنما هو صبر يا رسول الله، ليس فيه طيب، قال: «إِنَّهُ يَشُبُّ الْوَجْهَ، فَلَا تَجْعَلِيهِ إِلَّا بِاللَّيْلِ» ونهى عنه بالنهار [أبو داود: ٢٣٠٥، والنسائي (٢٠٤/٦) وسنده ضعيف].

(منافع الصبر عامة)

الصبر كثير المنافع، لا سيما الهندي منه، ويُقي الفضول الصفراوية التي في الدماغ وأعصاب البصر، وإذا طُلي على الجبهة والصدغ بذهن الورد، نفع من الصداع، وينفع من قروح الأنف والقم، ويسهل السوداء والماليخوليا.

(منافع الصبر الفارسي)

والصبر الفارسي يُدكي العقل، ويُمَدُّ الفؤاد، ويُقَيُّ الفضول الصفراوية والبلغمية مِنَ الْمَعْدَةِ إذا شُرِبَ منه ملعقتان بماء، ويردُّ الشهوة الباطلة والفاصلة، وإذا شرب في البرد، خيف أن يسهل دماً.

صوم: الصوم جنة من أدواء الروح والقلب والبدن، منافعة تفوت الإحصاء، وله تأثير عجيب في حفظ الصحة، وإذابة الفضلات، وحبس النفس عن تناول مؤذياتها، ولا سيما إذا كان باعتدال وقصد في أفضل أوقاته شرعاً، وحاجة البدن إليه طبعاً.

ثم إن فيه من إراحة القوى والأعضاء ما يحفظ عليها قواها، وفيه خاصية تقتضي إيثاره، وهي تفريره للقلب عاجلاً وآجلاً، وهو أنفع شيء لأصحاب الأمزجة الباردة والرطبة، وله تأثير عظيم في حفظ صحتهم.

وهو يدخل في الأدوية الروحانية والطبيعية، وإذا راعى الصائم فيه ما ينبغي مراعاته طبعاً وشرعاً، عظم انتفاع قلبه وبدنه به، وحبس عنه المواد الغريبة الفاسدة التي هو مستعد لها، وأزال المواد الرديئة الحاصلة بحسب كماله ونقصانه، ويحفظ الصائم مما ينبغي أن يُتَحَفَّظَ منه، ويعينه على قيامه بمقصود الصوم وسره وعلته الغائية، فإن القصد منه أمر آخر وراء ترك الطعام والشراب، وباعتبار ذلك الأمر اختص من بين الأعمال بأنه لله سبحانه، ولما كان وقاية وجنة بين العبد وبين ما يؤذي قلبه وبدنه عاجلاً وآجلاً، قال الله تعالى: «يَأْكُلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كَيْبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» [البقرة: ١٨٣]، فأحد مقصودي الصيام الجنة والوقاية، وهي حمية عظيمة النفع، والمقصود الآخر: اجتماع القلب والهم على الله تعالى، وتوفير قوى النفس على محابه وطاعته، وقد تقدم الكلام في بعض أسرار الصوم عند ذكر هديه ﷺ فيه.

حرف الضاد

ضب: ثبت في «الصحيحين»: من حديث ابن عباس، أن رسول الله ﷺ سئل عنه لما قدم إليه، وامتنع من أكله: أحرام هو؟ فقال: «لَا وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ بِأَرْضِ قَوْمِي، فَأَجِدُنِي أَغَاثُهُ. وَأَكِلَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَعَلَى مَا يَدِيهِ وَهُوَ يَنْتَظِرُ» [البخاري: ٥٤٠٠، ومسلم: ٥٠٣٥].

وفي «الصحيحين»: من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، عنه ﷺ أنه قال: «لَا أَجِلُهُ وَلَا أَحْرُمُهُ» [البخاري: ٥٥٣٦، ومسلم: ٥٠٢٨].

وهو حار يابس، يقوي شهوة الجماع، وإذا دق، ووضِعَ على موضع الشوكة اجتذبتها.

ضفدع: قال الإمام أحمد: الضفدع لا يحل في الدواء، نهى رسول الله ﷺ عن قتلها، يريد الحديث الذي رواه في «مسنده» من حديث عثمان بن عبد الرحمن رضي الله عنه، أن طبيباً ذكر ضفدعاً في دواء عند رسول الله ﷺ، فنهاه عن قتلها [صحيح: أحمد: ١٥٧٥٧، والنسائي (٢١٠/٧)].

(١) الصبر: يستعمل إلى الآن في العطاراة وفي الأدوية الحديثة.

قال صاحب القانون: من أكل من دم الضفدع أو جرمه، ورم بدنه، وكَمَدَ لونه، وقذف المنى حتى يموت، ولذلك ترك الأطباء استعماله خوفاً من ضرره، وهي نوعان: مائة وترايبية، والترايبية يقتل أكلها.

حرف الطاء

طيب: ثبت عن رسول الله ﷺ إنه قال: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَانَا: النَّسَاءُ وَالطَّيِّبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» [صحيح: أحمد: ١٢٢٩٤، والسنن: ٦١/٧].

وكان ﷺ يُكَبِّرُ الطَّيِّبَ، وتشتد عليه الرائحة الكريهة، وتَشَقُّ عليه، والطيب غذاء الروح التي هي مطية القوى تتضاعف وتزيد بالطيب، كما تزيد بالغذاء والشراب، والدعة والسرور، ومعاشرة الأحبة، وحدوث الأمور المحبوبة، وغيبية من تَسُرُّ غيبته، وتَشَقُّ على الروح مشاهدته، كالشقاء والبغضاء، فإن معاشرتهم توهن القوى، وتجلب الهم والغم، وهي للروح بمنزلة الحمى للبدن، وبمنزلة الرائحة الكريهة، ولهذا كان مما حُبِّبَ الله سبحانه الصحابة بهم من التخلق بهذا الخلق في معاشرته. رسول الله ﷺ لتأذيه بذلك، فقال: «إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْبُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَأَنْتَبِهُوا وَلَا مُسْتَقْبِلِينَ لِيَدِي إِِنَّ ذَالِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَعِجِي بِكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَعِجِي مِنْ أَحَدٍ» [الأحزاب: ٥٣].

والمقصود أن الطيب كان من أحب الأشياء إلى رسول الله ﷺ، وله تأثير في حفظ الصحة، ودفع كثير من الآلام، وأسبابها بسبب قوة الطبيعة به.

طين: ورد في أحاديث موضوعة لا يصح منها شيء مثل حديث من أكل الطين، فقد أعان على قتل نفسه ومثل حديث: يا حَمِيرَاءُ لَا تَأْكُلِي الطِّينَ فَإِنَّهُ يَغْصِمُ الْبَطْنَ، ويَصْفُرُّ اللَّوْنَ، وَيُذْهِبُ بَهَاءَ الْوَجْهِ^(١).

وكل حديث في الطين فإنه لا يصح، ولا أصل له عن رسول الله ﷺ، إلا أنه رديء مؤذ، يسد مجاري العروق، وهو بارد يابس، قوي التجفيف، ويمنع استطلاق البطن، ويوجب نفث الدم وقروح الفم.

طَلَح: قال تعالى: ﴿وَكُلَّجَ مَنُورٌ﴾ [الواقعة: ٢٩]، قال أكثر المفسرين، هو الموز. والمنضود: هو الذي قد نُضِدَ بعضه على بعض، كالمشط. وقيل: الطلح: الشجر ذو الشوك، نضد مكان كل شوك ثمرة، فثمره قد نُضِدَ بعضه إلى بعض، فهو مثل الموز، وهذا القول أصح، ويكون من ذكر الموز من السلف أراد التمثيل لا التخصيص والله أعلم.

وهو حار رطب، أجوده النضيج الحلو، ينفع من خشونة الصدر والرئة والسعال، وقروح الكليتين، والمثانة، ويؤدر البول، ويزيد في المنى، ويحرك الشهوة للجماع، ويلين البطن، ويؤكل قبل الطعام، ويضر المعدة، ويزيد في الصفراء والبلغم، ودفع ضرره بالسكر أو العسل.

طَلَع: قال تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاقِعَاتٍ لِّمَا طَلَعَ نَبْئِدٌ﴾ [ق: ١٠] وقال تعالى: ﴿وَنَخْلٍ طَلَمَها هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٨].

طلع النخل: ما يبدو من ثمرته في أول ظهوره، وقشره يُسمى الكُفْرَى، والنضيد: المنضود الذي قد نُضِدَ بعضه على بعض، وإنما يقال له: نضيد ما دام في كُفْرَاهُ، فإذا انفتح فليس بنضيد.

وأما الهضم: فهو المنضم بعضه إلى بعض، فهو كالنضيد أيضاً، وذلك يكون قبل تَشَقُّقِ الكُفْرَى عنه.

والطلع نوعان: ذكر وأنثى، والتلقيح هو أن يؤخذ من الذكر، وهو مثل دقيق الحنطة، فيجعل في الأنثى، وهو التأبير، فيكون ذلك بمنزلة اللقاح بين الذكر والأنثى، وقد روى مسلم في «صحيحه»: عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، قال: مررت مع رسول الله ﷺ في نخل، فرأى قوماً يُلْقَحُونَ، فقال: «مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءُ؟» قالوا: يأخذون من الذكر فيجعلونه في الأنثى، قال: «مَا أَظَلُّ ذَلِكَ يُغْنِي شَيْئاً، فليغهم، فتركوهم، فلم يَصْلُحْ، فقال النبي ﷺ: «إِنَّمَا هُوَ ظَنٌّ، فَإِنْ كَانَ يُغْنِي شَيْئاً، فاصنعوه، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، وَإِنَّ الظَّنَّ يُخْطِئُ وَيُصِيبُ، وَلَكِنْ مَا قُلْتُ لَكُمْ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ» [مسلم: ٦١٢٦]. انتهى.

طلع النخل ينفع من الباه، ويزيد في المباضة،

(١) انظر «المنار المنيف» ص (٦١) للمؤلف.

ودقيقُ طلمه إذا تحمّلت به المرأة قبل الجماع أعان على الحبل إعانة بالغة، وهو في البرودة واليبوسة في الدرجة الثانية، يقوي المعدة ويجففها، ويسكن ناثرة الدم مع غلظة ويطهه هضم.

ولا يحتّمه إلّا أصحاب الأمزجة الحارة، ومن أكثر منه فإنه ينبغي أن يأخذ عليه شيئاً من الجوارشات الحارّة، وهو يعقل الطبع، ويقوي الأحشاء، والجوّار^(١) يجري مجراه، وكذلك البلع، والبسر، والإكثار منه يضرّ بالمعدة والصدر، وربما أورت القولنج، وإصلاحه بالسمن، أو بما تقدم ذكره.

حرف العيس

عنب: في «الغيلانيات» من حديث حبيب بن يسار، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ يأكل العنب خَرطاً. قال أبو جعفر العقيلي: لا أصل لهذا الحديث، قلت: وفيه داود بن عبد الجبار أبو سليم الكوفي، قال يحيى بن معين: كان يكذب. ويذكر عن رسول الله ﷺ أنه كان يُحبّ العنب والبطيخ.

وقد ذكر الله سبحانه العنب في ستة مواضع من كتابه في جملة نعمه التي أنعم بها على عباده في هذه الدار وفي الجنة^(٢)، وهو من أفضل الفواكه وأكثرها منافع، وهو يؤكل رطباً ويابساً، وأخضر ويانعاً، وهو فاكهة مع الفواكه، وقوت مع الأقوات، وأدم مع الإدام، ودواء مع الأدوية، وشراب مع الأشربة، وطبيع طبع الحيات: الحرارة والرطوبة، وجيده الكبّار المائي، والأبيض أحمد من الأسود إذا تساوى في الحلاوة، والمتروك بعد قطفه يومين أو ثلاثة أحمد من المقطوف في يومه، فإنه منفخ مطلق للبطن، والمعلّق حتى يضمّر قشره جيد للغذاء، مقو للبدن، وغذاؤه كغذاء التين والزبيب، وإذا ألقى عَجَمُ العنب كان أكثر تلييناً للطبيعة، والإكثار منه مصدع للرأس، ودفع مضرته بالزمان المُز.

ومنتفعة العنب يسهل الطبع، ويسمن، ويغذو جيده غذاءً حسناً، وهو أحد الفواكه الثلاث التي هي ملوك الفواكه، هو والرّطب والتين.

صل: قد تقدم ذكر منافعه. قال ابن جريج: قال الزهري: عليك بالصل، فإنه جيد للحفظ، وأجوده أصفاه وأبيضه، وألينه جدّة، وأصدقه حلاوة، وما يؤخذ من الجبال والشجر له فضل على ما يؤخذ من الخلایا، وهو بحسب مرعى نحل.

عجوة: في «الصحيحين»: من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ تَصَبَّحَ بِسَبْعِ تَمَرَاتِ عَجْوَةٍ لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ يَوْمٌ سُمْ وَلَا سِحْرٌ» [البخاري: ٥٤٤٥، ومسلم: ٥٣٣٩].

وفي «سنن النسائي» وابن ماجه: من حديث جابر، وأبي سعيد رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ: «العجوة من الجوّ، وهي شِفَاءٌ مِنَ السُّمِّ، والكمأة مِنَ الْمَنْ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ» [حسن: أحمد: ١١٤٥٣، والترمذي: ٢٠٦٧، وابن ماجه: ٣٤٥٣].

وقد قيل: إن هذا في عجوة المدينة، وهي أحد أصناف التمر بها، ومن أنفع تمر الحجاز على الإطلاق، وهو صنف كريم، ملذذ، متين للجسم والقوة، من ألين التمر وأطيبه وألذّه، وقد تقدم ذكر التمر وطبعه ومنافعه في حرف التاء، والكلام على دفع العجوة للسّم والسحر، فلا حاجة لإعادته.

(إباحة ما في البحر لا يختص بالسّمك)

عنبر: تقدم في «الصحيحين» من حديث جابر، في قصة أبي عبيدة وأكلهم من العنبر شهراً، وأنهم تزوّدوا من لحمه وشأئق إلى المدينة، وأرسلوا منه إلى النبي ﷺ، وهو أحد ما يدل على أن إباحة ما في البحر لا يختصّ بالسّمك، وعلى أن ميتته حلال، واعتراض على ذلك بأن البحر لقاء حيّاً، ثم جَرَزَ عنه الماء فمات، وهذا حلال، فإن موته بسبب مفارقتة للماء، وهذا لا يصحّ، فإنهم إنما وجدوه ميتاً بالساحل، ولم يُشاهدوه قد خرج عنه حيّاً، ثم جزر عنه الماء.

وأيضاً: فلو كان حيّاً لما ألقاه البحر إلى ساحله، فإنه من المعلوم أن البحر إنما يقذف إلى ساحله الميت من حيواناته لا الحي منها.

وأيضاً: فلو قُدِّرَ احتمال ما ذكره لم يجز أن

(٢) ورد ذكر العنب في القرآن في أحد عشر موضعاً.

(١) الجوّار: شحم النخلة.

يكون شرطاً في الإباحة، فإنه لا يُباح الشيء مع الشك في سبب إباحته، ولهذا منع النبي ﷺ من أكل الصيد إذا وجده الصائد غريقاً في الماء للشك في سبب موته، هل هو الآلة أم الماء؟

(طبيب العنبر والمفاضلة بينه وبين المسك)

وأما العنبر الذي هو أحد أنواع الطيب، فهو من أفخر أنواعه بعد المسك، وأخطأ من قَدَّمه على المسك، وجعله سيد أنواع الطيب، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال في المسك: «هُوَ أَطْيَبُ الطَّيْبِ» [مسلم: ٢٢٥٣]، وسيأتي إن شاء الله تعالى ذكر الخصائص والمنافع التي تُخص بها المسك، حتى إنه طيب الجنة، والكثيران التي هي مقاعد الصديقين هناك من مسك لا من عنبر.

والذي غر هذا القائل أنه لا يدخله التغير على طول الزمان، فهو كالذهب، وهذا يدل على أنه أفضل من المسك، فإنه بهذه الخاصية الواحدة لا يُقاوم ما في المسك من الخواص.

(أنواع طيب العنبر)

وبعد فضروريه كثيرة، وألوانه مختلفة، فمنه الأبيض، والأشهب، والأحمر، والأصفر، والأخضر، والأزرق، والأسود، وذو الألوان وأجوده: الأشهب، ثم الأزرق، ثم الأصفر، وأردؤه: الأسود. وقد اختلف الناس في عُصره، فقالت طائفة: هو نبات ينبت في قعر البحر، فينبئ به بعض دوابه، فإذا تَمَلَّتْ منه قذفته رجياً، فيقلِّفه البحر إلى ساحله. وقيل: طُلَّ ينزل من السماء في جزائر البحر، فتلقيه الأمواج إلى الساحل، وقيل: روث دابة بحرية تُشبه البقرة. وقيل: بل هو جُفَاء من جُفَاء البحر، أي: زيد.

وقال صاحب «القانون»: هو فيما يُظن ينبع من عين في البحر، والذي يقال: إنه زيد البحر، أو روث دابة بعيد انتهى.

ومزاجه حار يابس، مقو للقلب، والدماغ،

والحواس، وأعضاء البدن، نافع من الفالج واللقوة، والأمراض البلغمية، وأوجاع المعدة الباردة، والرياح الغليظة، ومن السدد إذا شرب، أو طلي به من خارج، وإذا تُبَّخِر به، نفع من الرُّكَّام والصداع، والشقيقة الباردة^(١).

هود: العود الهندي نوعان، أحدهما: يُستعمل في الأدوية وهو الكُست، ويقال له: القسط، وسيأتي في حرف القاف. الثاني: يُستعمل في الطيب، ويقال له: الألوَّة. وقد روى مسلم في «صحيحه»: عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنه كان يَسْتَجِمِرُ بِالْأَلْوَةِ غَيْرَ مُطَرَّاةٍ، ويكافور يُطَرِّحُ مَعَهَا، ويقول: هكذا كان يستجمر رسول الله ﷺ [مسلم: ٥٨٨٤]، وثبت عنه في صفة نعيم أهل الجنة «مَجَامِرُهُمُ الْأَلْوَةُ» [البخاري: ٣٢٢٧، ومسلم: ٧١٤٩] والمجامر: جمع مجمر وهو ما يُتَجَمَّرُ به من عود وغيره، وهو أنواع. أجودها: الهندي، ثم الصُّبْيَنِي، ثم القماري، ثم المندي، وأجوده: الأسود والأزرق الصلب الرزنيُّ الدسم، وأقله جودة: ما خف وطفاً على الماء، ويقال: إنه شجر يقطع ويدفن في الأرض سنة، فتأكل الأرض منه ما لا ينفع، ويبقى عود الطيب، لا تعمل فيه الأرض شيئاً، ويتغن منه قشره وما لا طيب فيه.

وهو حار يابس في الثالثة، يفتح الشدد، ويكسر الرياح، ويذهب بفضل الرطوبة، ويقوي الأحشاء والقلب ويُقرحه، وينفع الدماغ، ويقوي الحواس، ويحبس البطن، وينفع من سلس البول الحادث عن برد المثانة.

قال ابن سنجون^(٢): العود ضروب كثيرة يجمعها اسم الألوَّة، ويستعمل من داخل وخارج، وتُتَجَمَّرُ به مفرداً ومع غيره، وفي الخلط للكافور به عند التجمير معنى طيب، وهو إصلاح كل منهما بالآخر، وفي التجمير مراعاة جوهر الهواء وإصلاحه، فإنه أحد الأشياء الستة الضرورية التي في صلاحها صلاح الأبدان.

علس: قد ورد فيه أحاديث كُلُّهَا باطلة على

(١) قال الدكتور الأزهرى: البحث الطبي لم يثبت أي فائدة علاجية للعنبر، فإنهم لا يزالون يستعملونه كمقو للجماع، وفي حالات الشلل، ويستعمل الآن طيباً في صناعة الأرواح العطرية فقط.

(٢) هو حامد بن سنجون من رجال القرن الرابع، فاضل في صناعة الطب، متميز في قوى الأدوية المفردة وأفعالها.

رسول الله ﷺ، لم يَقُلْ شيئاً منها، كحديث: إنه قُدْسٌ على لسان سبعين نبياً وحديث إنه يرق القلب، ويُغزِّرُ الدمعة، وإنه مأكول الصالحين، وأرفع شيء جاء فيه، وأصححه أنه شهوة اليهود التي قدموها على المن والسلوى، وهو قرين الثوم والبصل في الذكر.

وطبعه طبع المؤنث، بارد يابس، وفيه قوتان متضادتان. إحداهما: يعقل الطبيعة. والأخرى: يُطلقها، وقشره حار يابس في الثالثة، جَرِيْفٌ مطلق للطن، وترياقه في قشره، ولهذا كان صِباحه أنفع من مطحونه، وأخف على المعدة، وأقل ضرراً، فإن لُبَّه بطيئٌ الهضم لبرودته ويُبوسته، وهو مولدٌ للسوداء، ويَضُرُّ بالماليخوليا ضرراً بيّناً، ويَضُرُّ بالأعصاب والبصر.

وهو غليظ الدم، وينبغي أن يتجنبه أصحابُ السوداء، وإكثارهم منه يولد لهم أدواء رديئة، كالوسواس والجذام، وحمى الربيع، ويُقلِّلُ ضرره السلق والإسْقَانَاخ^(١)، وإكثار الدهن. وأردأ ما أكل بالنمكسود^(٢)، ولتجنب خلط الحلاوة به، فإنه يُورث سُدْداً كبديّة، وإدماؤه يُظلم البصر لشدة تجفيفه، ويُعَسِّرُ البول، ويوجب الأورام الباردة، والرياح الغليظة. وأجوده الأبيض السمين، السريع التّضج.

وأما ما يُظنه الجهال أنه كان سِمْاطَ الخليل الذي يَقدِّمه لأضيافه، فكذبٌ مفتري، وإنما حكى الله عنه الضيافة الشّواء، وهو العجل الحنيد.

(قول ابن المبارك في العمد)

وذكر البيهقي، عن إسحاق قال: مثل ابن المبارك عن الحديث الذي جاء في العمد، أنه قُدْسٌ على لسان سبعين نبياً، فقال: ولا على لسان نبي واحد، وإنه لمؤذ منفخ، من حديثكم به؟ قالوا: سلم بن سالم^(٣)، فقال: عمن؟ قالوا: عنك. قال: وعني أيضاً!!

حرف الغين

غيث: مذكور في القرآن في عدة مواضع، وهو لذيق

الاسم على السمع، والمسمّى على الروح والبدن، تبتهجُ الأسماعُ بذكره، والقلوب بوروده، وماؤه أفضلُ المياه، والطفها وأنفعها وأعظمها بركة، ولا سيما إذا كان من سحب راعد، واجتمع في مستقعات الجبال، وهو أَرطَبُ من سائر المياه، لأنه لم تَطُلْ مدته على الأرض، فيكتسب من يُبوستها، ولم يُخالطه جوهر يابس، ولذلك يتغيّر ويتعفن سريعاً للطفاته وسرعة انفعاله، وهل الغيثُ الربيعي الطّف من الشتوي أو بالعكس؟ فيه قولان.

(الترجيح بين الغيث الشتوي والربيعي)

قال من رجح الغيث الشتوي: حرارة الشمس تكون حينئذ أقل فلا تجذب من ماء البحر إلا الطّفه، والجو صافٍ وهو خالي من الأبخرة الدخانية، والغبار المخالط للماء، وكل هذا يوجب لطفه وصفاءه، وتخلّوه من مخالط.

قال من رجح الربيعي: الحرارة تُوجب تحلل الأبخرة الغليظة، وتوجب رقة الهواء ولطفاته، فيخفُ بذلك الماء، وتقلُّ أجزاءه الأرضية، وتُصادف وقت حياة النبات والأشجار وطيب الهواء.

(تبركه ﷺ بالمطر)

وذكر الشافعي رحمه الله عن أنس بن مالك رضي الله عنهما، قال: كنّا مع رسول الله ﷺ، فأصابنا مطرٌ، فجسر رسول الله ﷺ ثوبه، وقال: «إنّه حديثٌ عهدٌ بربّه» [سلم: ٢٠٨٣]، وقد تقدم في هديه في الاستسقاء ذكر استمطاره ﷺ، وتبركه بماء الغيث عند أول مجيئه.

حرف الفاء

فاتحة الكتاب: وأم القرآن، والسبع المثاني، والشفاء التام، والدواء النافع، والرّقية التامة، ومفتاح الغنى والفلاح، وحافظة القوة، ودافعة الهم والغم والخوف والحزن لمن عرف مقدارها وأعطاهها حقها، وأحسن تنزيلها على دائه، وعرف وجه الاستشفاء والتداوي بها، والسّر الذي لأجله كانت كذلك.

(١) في «القاموس»: والاسفاناخ: نبات معروف معرب، فيه قوة جالية خسالة يرفع الصدر والظهر، ملين.

(٢) النمكسود: هو اللحم إذا شرح وجعل عليه الملح والأبازير «المعتمد» ص (٥٢٥).

(٣) هو سلم بن سالم البلخي الزاهد، ضعفه ابن معين وأبو زرعة وأبو حاتم والنسائي.

ولما وقع بعضُ الصحابة على ذلك، رقى بها اللدنيخ، فبرأ لوقته، فقال له النبي ﷺ: «وَمَا أَذْرَاكَ أَنَّهَا رُقِيَّةٌ» [البخاري: ٥٧٤٩، ومسلم: ٥٧٣٣].

ومن ساعده التوفيق، وأعين بنور البصيرة حتى وقف على أسرار هذه السورة، وما اشتملت عليه من التوحيد، ومعرفة الذات والأسماء والصفات والأفعال، وإثبات الشرع والقدر والمعاد، وتجريد توحيد الربوبية والإلهية، وكمال التوكل والتفويض إلى من له الأمر كُلُّهُ، وله الحمد كُلُّهُ، وبيده الخير كُلُّهُ، وإليه يرجع الأمر كُلُّهُ، والافتقار إليه في طلب الهداية التي هي أصلُ سعادة الدارين، وعِلْمُ ارتباط معانيها بجلب مصالحهما، ودفع مفاسدهما، وأن العاقبة المطلقة التامة، والنعمة الكاملة منوطة بها، موقوفة على التحقق بها، أغتته عن كثير من الأدوية والرُقي، واستفتح بها من الخير أبوابه، ودفع بها من الشر أسبابه.

وهذا أمر يحتاج استحداث فِطْرَةٍ أُخْرَى، وعقل آخر، وإيمان آخر، وتالُّهُ لا تجد مقالةً فاسدة، ولا بدعةً باطلة إلا وفاتحة الكتاب متضمنة لردّها وإبطالها بأقرب الطرق، وأصحّها وأوضحها، ولا تجد باباً من أبواب المعارف الإلهية، وأعمال القلوب وأدويتها من عللها وأسقامها إلا وفي فاتحة الكتاب مفتاحه، وموضع الدلالة عليه، ولا منزلاً من منازل السائرين إلى ربِّ العالمين إلا وبدايته ونهايته فيها.

ولعمر الله إن شأنها لأعظم من ذلك، وهي فوق ذلك، وما تحقق عبدٌ بها، واعتصم بها، وعقل عن تكلم بها، وأنزلها شفاء تاماً، وعصمة بالغة، ونوراً مبیناً، وفهمها وفهم لوازمها كما ينبغي ولا وقع في بدعة ولا شرك، ولا أصابه مرضٌ من أمراض القلوب إلا إيماناً، غير مستقر.

هذا، وإنها المفتاح الأعظم لكنوز الأرض، كما أنها المفتاح لكنوز الجنة، ولكن ليس كل واحد يُحسن الفتح بهذا المفتاح، ولو أن طُلَّابَ الكنوز وقفوا على سر هذه السورة، وتحقّقوا بمعانيها، وركبوا لهذا المفتاح أسناناً، وأحسنوا الفتح به، لوصلوا إلى تناول الكُنُوزِ من غير معاق، ولا ممانع.

ولم نقل هذا مجازفة ولا استعارة، بل حقيقة، ولكن لله تعالى حكمة بالغة في إخفاء هذا السر عن نفوس أكثر العالمين، كما له حكمة بالغة في إخفاء كنوز الأرض عنهم، والكنوز المحجوبة قد استُخدم عليها أرواحٌ خبيثة شيطانية تحول بين الإنسان وبينها، ولا تقهرها إلا أرواحٌ علوية شريفة غالبية لها بحالها الإيماني، معها منه أسلحة لا تقوم لها الشياطين، وأكثر نفوس الناس ليست بهذه المثابة، فلا يقاوم تلك الأرواح ولا يقهرها، ولا ينال من سلبها شيئاً، فإن من قتل قتيلاً فله سلبه.

فاغية: هي نَزْوُ الجناء، وهي من أطيب الرياحين، وقد روى البيهقي في كتابه «شعب الإيمان» من حديث عبد الله بن بريدة، عن أبيه رضي الله عنه يرفعه: «سَيِّدُ الرِّيَاحِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ الْفَاطِمَةُ» [ابن نعيم في «الطب والطبراني في «الأوسط» وسنده ضعيف جداً] وروى فيه أيضاً، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كَانَ أَحَبَّ الرِّيَاحِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْفَاطِمَةُ». والله أعلم بحال هذين الحديثين، فلا نشهد على رسول الله ﷺ بما لا نعلم صحته.

وهي معتدلة في الحر واليُس، فيها بعضُ القبض، وإذا وُضِعَتْ بين طَيِّ ثياب الصوف حفظتها من السوس، وتدخل في مراهم الفالج والتمدد، ودُهنها يُحلِّلُ الأعضاء، ويلين العصب.

فضة: ثبت أن رسول الله ﷺ كان خاتمه من فضة، وفُضّه منه [البخاري: ٥٨٧٠]، وكانت قَبِيعةً سيفه فضةً [ابن داود: ٢٥٨٣، والترمذي: ١٦٩١، والنسائي (٢١٩/٨)]، ولم يصح عنه في المنع من لباس الفضة والتحلي بها شيء البتة، كما صح عنه المنع من الشرب في آئيتها، وباب الآنية أصيب من باب اللباس والتحلي، ولهذا يُباح للنساء لباساً وجلياً ما يحرم عليهن استعماله آتية، فلا يلزم من تحريم الآنية تحريم اللباس والحلية.

وفي «السنن» عنه: «وَأَنَا الْفِضَّةُ فَأَلْبَسُوا بِهَا لَعْباً» [حسن: أحمد: ٨٤١٦، وابن داود: ٤٢٣٦]. فالمنع يحتاج إلى دليل يبينه، إما نص أو إجماع، فإن ثبت أحدهما، وإلا ففي القلب من تحريم ذلك على الرجال شيء، والنبي ﷺ أمسك بيده ذهباً،

وبالأخرى حريراً، وقال: «هَذَانِ حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي، حِلٌّ لِإِنَاثِهِمْ» [حديث صحيح: انظر: «نصب الرتبة» للزيلعي (٢٢٢/٤-٢٢٥)].

والفضة سر من أسرار الله في الأرض، وطلّسُم الحاجات، وإحسان أهل الدنيا بينهم، وصاحبها مرموقٌ بالعيون بينهم، معظّم في النفوس، مصدّر في المجالس، لا تُغلق دونه الأبواب، ولا تُملّ مجالسته، ولا معاشرته، ولا يُستقل مكانه، تُشير الأصابع إليه، وتعقد العيون نطاقها عليه، إن قال، سَمِعَ قوله، وإن شَمِعَ، قُبِلَتْ شفاعته، وإن شهد، زُكِّيتْ شهادته، وإن خَطَبَ فَكُفَّ لا يُعَاب، وإن كان ذا شيبة بيضاء، فهي أجمل عليه من حلية الشباب.

وهي من الأدوية المفرحة النافعة من الهمِّ والغمِّ والحزن، وضعف القلب وخفقانه، وتدخّل في المعاجين الكُبار، وتجذب بخاصيتها ما يتولّد في القلب من الأخلاط الفاسدة، خصوصاً إذا أُضيفت إلى العسل المصفى، والزعفران.

ومزاجها إلى اليبوسة والبرودة، ويتولّد عنها من الحرارة والرطوبة ما يتولد، والجنان التي أَعَدَّها الله عز وجل لأوليائه يومَ يلقونه أربع: جنتان من ذهب، وجنتان من فضة، آتيتهما وحليتهما وما فيهما. وقد ثبت عنه ﷺ في «الصحيح» من حديث أم سلمة أنه قال: «الَّذِي يَشْرَبُ فِي آيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ إِنَّمَا يُجْرَجُ فِي بَطْنِهِ نَارُ جَهَنَّمَ» [البخاري: ٥٦٣٤، ومسلم: ٥٣٨٥].

وصح عنه ﷺ أنه قال: «لَا تَشْرَبُوا فِي آيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلَا تَأْكُلُوا فِي صَحَافِهِمَا، فَإِنَّهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَكُمْ فِي الْآخِرَةِ» [البخاري: ٥٤٢٦].

(علة تحريم الفضة)

فقيل: علة التحريم تضييقُ النقود، فإنّها إذا اتَّخَذْتَ أواني فانت الحكمة التي وضعت لأجلها من قيام مصالح بني آدم، وقيل: العلة الفخر والخيلاء. وقيل: العلة كسر قلوب الفقراء والمساكين إذا رأوها وعايروها.

وهذه العلل فيها ما فيها، فإن التعليل بتضييق النقود يمنع من التحلي بها وجعلها سبائك ونحوها

مما ليس بآنية ولا نقد، والفخر والخيلاء حرام بأي شيء كان، وكسر قلوب المساكين لا ضابط له، فإن قُلُوبَهُمْ تنكسر بالدور الواسعة والحدائق المعجبة، والمراكب الفارغة، والملابس الفاخرة، والأطعمة اللذيذة، وغير ذلك من المباحات، وكلُّ هذه علل متقنّضة، إذ تُوجد العلة، ويتخلف معلولها.

(علته عند المصنف)

فالصواب أن العلة. والله أعلم. ما يُكسب استعمالها القلب من الهيئة، والحالة المنافية للعبودية منافاةً ظاهرة، ولهذا علل النبي ﷺ بأنها للكفار في الدنيا، إذ ليس لهم نصيب من العبودية التي ينالون بها في الآخرة نعيمها، فلا يصلح استعمالها لعبيد الله في الدنيا، وإنما يستعملها مَنْ خرج عن عبوديته، ورَضِيَ بالدنيا عاجلها من الآخرة.

حرف القاف

قرآن: قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، والصحيح: أن «من» ههنا، لبيان الجنس لا للتبويض، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧].

فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة، وما كُلُّ أَحَدٍ يُؤَهِّل ولا يُوقِف للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداوي به، ووضع على دائه بصدق وإيمان، وقبول تام، واعتقاد جازم، واستيفاء شروطه، لم يُقاومهُ الداء أبداً.

وكيف تُقاومُ الأدواء كلام رب الأرض والسماء الذي لو نزل على الجبال، لصَدَعَهَا، أو على الأرض، لقطعها، فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلّا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه، والحكمة منه لمن رزقه الله فهماً في كتابه، وقد تقدّم في أول الكلام على الطب بيان إرشاد القرآن العظيم إلى أصوله ومجامعه التي هي حفظ الصحة والحمية، واستفراغ المؤذي، والاستدلال بذلك على سائر أفراد هذه الأنواع.

وأما الأدوية القلبية، فإنه يذكرها مفصلة، ويذكر

أسباب أدوائها وعلاجها. قال: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آتَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [التكوير: ٥١]، فمن لم يشفه القرآن، فلا شفاء الله، ومن لم يكفه، فلا كفاه الله.

قضاء: في «السنن»: من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان يأكل القثاء بالرطب، ورواه الترمذي وغيره [البخاري: ٥٤٤٧، ومسلم: ٥٣٣٠]: القثاء بارد رطب في الدرجة الثانية، مطفىء لحرارة المعدة الملتهبة، بطيء الفساد فيها، نافع مع وجع المثانة، ورائحته تنفع من الغشي، ويزره يدر البول، وورقه إذا اتخذ ضماداً، نفع من عضة الكلب، وهو بطيء الانحدار عن المعدة، ويرده مضر ببعضها، فينبغي أن يستعمل معه ما يصلحه ويكسر برودته ورطوبته، كما فعل رسول الله ﷺ إذ أكله بالرطب، فإذا أكل بتمر أو زبيب أو غسل عدله.

قسط وكست: بمعنى واحد. وفي «الصحيحين»: من حديث أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ «خَيْرُ مَا تَدَاوَيْتُمْ بِهِ الْجَمَامَةُ وَالْقُسْطُ الْبَحْرِي» [البخاري: ٥٦٩٦، ومسلم: ٤٠٣٩].

وفي «السد»: من حديث أم قيس، عن النبي ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْعُودِ الْهِنْدِيِّ، فَإِنَّ سَبْعَةَ أَشْفِيَةٍ مِنْهَا ذَاتُ الْجَنْبِ» [أحمد: ٢٧٠٠٤، والبخاري: ٥٦٩٢].

(أنواعه)

القُسْطُ: نوعان أحدهما: الأبيض الذي يقال له البحري. والآخر الهندي، وهو أشدهما حرّاً، والأبيضُ اليَنهُما، ومنافعُهما كثيرة جداً.

وهما حاران يابسان في الثالثة، يُشَفَّانِ البلغم، قاطعان للزكام، وإذا شربنا، نفعا من ضعف الكبد والمعدة ومن بردهما، ومن حُمَّى الدَّوَرِ والرَّيْحِ، وقطعا وجع الجنب، ونفعا من السُّمُومِ، وإذا طَلِيَ به الوجه معجوناً بالماء والعسل، قَلَعَ الكلف، وقال جالينوس: ينفع من الكُرَّازِ، ووجع الجنين، ويقتل حب القرع.

(ورد على من انكر نفعه للمجذوب)

وقد خفي على جهال الأطباء نفعه من وجع ذات الجنب، فانكروه ولو ظفر هذا الجاهل بهذا النقل عن جالينوس لنزله منزلة النص، كيف وقد نص كثير من الأطباء المتقدمين على أن القُسْطَ يصلح للنوع البلغمي من ذات الجنب، ذكره الخطابي عن محمد ابن الجهم.

وقد تقدم أن طب الأطباء بالنسبة إلى طب الأنبياء أقل من نسبة طب الطُّرُقَةِ والمعاجز إلى طب الأطباء، وأن بين ما يُلْقَى بالوحي، وبين ما يُلْقَى بالتجربة، والقياس من الفرق أعظم مما بين القَدَم والفرق.

ولو أن هؤلاء الجهال وجدوا دواء منصوصاً عن بعض اليهود والنصارى والمشركيين من الأطباء، لتلقَّوه بالقبول والتسليم، ولم يتوقَّفوا على تجربته.

نعم نحن لا ننكر أن للعادة تأثيراً في الانتفاع بالدواء وعلمه، فمن اعتاد دواءً وغذاءً، كان أنفع له، وأوفق ممن لم يعتده، بل ربما لم يتنفع به من لم يعتده.

وكلام فضلاء الأطباء وإن كان مطلقاً، فهو بحسب الأمزجة والأزمنة، والأماكن والعوائد، وإذا كان التقييد بذلك لا يقدح في كلامهم ومعارفهم، فكيف يقدح في كلام الصادق المصدق، ولكن نفوس البشر مركبة على الجهل والظلم، إلا من أیده الله بروح الإيمان، ونور بصيرته بنور الهدى.

قصب السكر: جاء في بعض ألفاظ الستة الصحيحة في الحوض «ماؤه، أحلى من السكر»^(١)، ولا أعرف السكر في الحديث إلا في هذا الموضع.

والسكر حادث لم يتكلم فيه متقدمو الأطباء، ولا كانوا يعرفونه، ولا يصفونه في الأشربة، وإنما يعرفون العسل، ويدخلونه في الأدوية، وقصب السكر حار رطب ينفع من السعال، ويجلو الرطوبة والمثانة، وقصب الرثة، وهو أشدُّ تليناً من السكر، وفيه معونة على القيء، ويُرِّد البول، ويزيد في الباه. قال عفان بن مسلم الصفار: مَنْ مَضَّ قَصَبَ السكر

(١) لم تقف على هذا اللفظ في وصف الحوض فيما بين أيدينا من المصادر، وإنما ورد بلفظ «أحلى من العسل» في صحيح مسلم (٥٨١).

ربّ جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، اشفِ صاحب هذا الكتاب بحولك وقوتك وجبروتك، إله الحق أمين.

(الاختلاف في حكم التمام)

قال المروزي: وقرأ على أبي عبد الله. وأنا أسمع. أبو المنذر عمرو بن مجمع، حدثنا يونس بن حبان، قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي أن أعلق التعميد، فقال: إن كان من كتاب الله أو كلام عن نبي الله فعلقه واستشف به ما استطعت. قلت: أكتب هذا من حُتى الربيع: باسم الله، وبالله، ومحمد رسول الله إلى آخره؟ قال: أي نعم.

وذكر أحمد عن عائشة رضي الله عنها وغيرها، أنهم سهّلوا في ذلك.

قال حرب: ولم يُشدّد فيه أحمد بن حنبل، قال أحمد: وكان ابن مسعود يكره كراهة شديدة جداً. وقال أحمد وقد سئل عن التمام تُعلّق بعد نزول البلاء؟ قال: أرجو أن لا يكون به بأس.

قال الخلال: وحدثنا عبد الله بن أحمد، قال: رأيت أبي يكتب التعميد للذي يفرغ، وللحمى بعد وقوع البلاء.

كتاب لعسر الولادة: قال الخلال: حدثني عبد الله ابن أحمد: قال رأيت أبي يكتب للمرأة إذا عسّر عليها ولادتها في جام أبيض، أو شيء نظيف، يكتب حديث ابن عباس رضي الله عنه: لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله ربّ العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين: ﴿كَانَ يَوْمَ يَرْؤُهَا مَا يُوعَدُونَ لَهَا يَلْبِثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلُغْتَ﴾ [الاحقاف: ٣٥]، ﴿كَانَ يَوْمَ يَرْؤُهَا لَهَا يَلْبِثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ [التازعات: ٤٦].

قال الخلال: أنبأنا أبو بكر المروزي، أن أبا عبد الله جاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله! تكتب لامرأة قد عسّر عليها ولدها منذ يومين؟ فقال: قلّ له يجيء بجم واسع، وزعفران، ورأيتُه يكتب لغير واحد ويذكر عن عكرمة، عن ابن عباس قال: مرّ عيسى صلى الله عليه وآله وسلم علي بقرة قد اعترضني ولدها في بطنها، فقالت: يا كلمة الله! ادع الله لي أن يخلصني مما أنا فيه، فقال: يا خالق

بعد طعامه، لم يزل يومه أجمع في سرور، انتهى. وهو ينفع من خشونة الصدر والحلق إذا شوي، ويولد رباحاً دفعها بأن يقشر، ويغسل بماء حار. والسكر حار رطب على الأصح، وقيل: بارد، وأجوده: الأبيض الشفاف الطّبرزد^(١)، وعتيقه الطّف من جديد، وإذا طيخ ونزعت رغوته، سكن العطش والسعال، وهو يضر المعدة التي تتولد فيها الصفراء لاستحالتها إليها، ودفع ضرره بماء الليمون أو النارج، أو الرمان اللّقان.

(الرد على من فضله على العسل)

وبعض الناس يفضلُه على العسل لقلّة حرارته وليته، وهذا تحامل منه على العسل، فإن منافع العسل أضعاف منافع السكر، وقد جعله الله شفاءً ودواءً، وإداماً وحلاوة، وأين نفع السكر من منافع العسل: من تقوية المعدة، وتليين الطبع، وإحداؤ البصر، وجلاء ظلمته، ودفع الخوانيق بالغرغرة به، وإبرائه من الفالج والقوة، ومن جميع العلل الباردة التي تحدث في جميع البدن من الرطوبات، فيجذبها من قعر البدن، ومن جميع البدن، وحفظ صحته وتسمينه وتسخيته، والزيادة في الباه، والتحليل والجلاء، وفتح أفواه العروق، وتنقية المعى، وإحداؤ الدود، ومنع التخم وغيره من العفن، والأدم النافع، وموافقة من غلب عليه البلغم والمشايخ وأهل الأمزجة الباردة، وبالجملّة: فلا شيء أنفع منه للبدن، وفي العلاج وعجز الأدوية، وحفظ قواها، وتقوية المعدة إلى أضعاف هذه المنافع، فأين للسكر مثل هذه المنافع والخصائص أو قريب منها؟

حرف الكاف

كتاب للحمى: قال المروزي أبا عبد الله أنني حممت، فكتب لي من الحُمى رقعةً فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، بسم الله، وبالله، محمد رسول الله، قلنا: يا نار كونِي برداً وسلاماً على إبراهيم، وأرادوا به كيداً، فجعلناهم الأخسرين، اللهم

(١) الطبرزد فارسي معرب، وأصله تبرزد، أي: أنه صلب ليس برخو ولا لين، والتبر: الفأس أي أنه يحت من نواحيه بالفأس.

النفس من النفس، ويا مخلص النفس من النفس، ويا مخرج النفس من النفس، خلصها. قال: فرمت بولدها، فإذا هي قائمة تشمه. قال: فإذا عسر على المرأة ولدها، فاكبه لها. وكل ما تقدم من الرقي، فإن كتابته نافعة.

(حكم كتابة بعض القرآن وشربه)

ورخص جماعة من السلف في كتابة بعض القرآن وشربه، وجعل ذلك من الشفاء الذي جعل الله فيه.

كتاب آخر لذلك: يكتب في إثناء نظيف: ﴿إِذَا أَنشَأْتَ أَنفَقْتَ﴾ وَأَوْتَتْ رِبَّهَا وَحُطَّتْ ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَخُلَّتْ ﴿الانشقاق: ١ - ٤﴾، وتشرب منه الحامل، ويؤرش على بطنها.

كتاب للمراهف: كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يكتب على جبهته: ﴿وَقِيلَ يَتَّزِلْ أَلْفِي مَاءٍ﴾ وَتَسْمَهُ أَفْلَى وَغِيصَ الْمَاءِ وَفِي الْأَمْرِ ﴿مُود: ٤٤﴾. وسمعه يقول: كتبها لغير واحد فبرأ، فقال: ولا يجوز كتابتها بدم الراعي، كما يفعله الجهال، فإن الدم نجس، فلا يجوز أن يكتب به كلام الله تعالى.

كتاب آخر له: خرج موسى عليه السلام برداء، فوجد شعبياً، فشده بردائه ﴿يَسْأَلُوا اللَّهَ مَا يَشَاءُ وَرَبُّهُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الزهد: ٣٩].

كتاب آخر للحراز: يكتب عليه: ﴿فَأَصَابَهَا إِمْرَأَتُ فَبِيءَ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ [البقرة: ٢٦٦] بحول الله وقوته.

كتاب آخر له: عند اصفرار الشمس يكتب عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُلِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

كتاب آخر للحمي المثلثة: يكتب على ثلاث ورقات لطاف: بسم الله قرأت، بسم الله مرت، بسم الله قلت، ويأخذ كل يوم ورقة، ويجعلها في فمه، ويتلونها بماء.

كتاب آخر لعرق النسا: بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم رب كل شيء، ومليك كل شيء، وخالق كل شيء، أنت خلقتني، وأنت خلقت النسا، فلا تسلطه عليّ بأذى، ولا تسلطني عليه بقطع، واشفني شفاء لا يغادر سقماً، لا شافي إلا أنت.

كتاب للعرق الضارب: روى الترمذي في «جامعه»: من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم من الحمى، ومن الأوجاع كلها أن يقولوا: «بسم الله الكبير، أعوذ بالله العظيم من شر كل عِرْقٍ نَعَارٍ، ومن شر حَرِّ النَّارِ» (١) [الترمذي: ٢٠٧٦، وفي سننه ضعيف].

كتاب لوجع الضرس: يكتب على الخد الذي يلي الوجع: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَنشَأَكُم وَجَعَلَ لَكُمُ اسْتَعِ وَالْأَصْنَ وَالْأَوْتِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣]، وإن شاء كتب: ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِي الْإِلِّ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْغَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١٣].

كتاب للخراج: يكتب عليه: ﴿يَسْتَلْزِمُكَ عَنِ الْإِلَالِ فَقُلْ يَسْئَلُهَا رَبِّي نَسْأًا﴾ فَيَنْزِلُهَا فَأَنَا صَفْصَفًا ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

كمأة: ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «الكمأة من المن وماؤها شفاء للعيني»، أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري: ٥٧٠٨، ومسلم: ٥٣٤٢].

(هل لفظة الكمأة مفرد أو جمع)

قال ابن الأعرابي: الكمأة: جمع، واحده كمء، وهذا خلاف قياس العربية، فإن ما بينه وبين واحده التاء، فالواحد منه التاء، وإذا حذفت كان للجمع. وهل هو جمع، أو اسم جمع؟ على قولين مشهورين، قالوا: ولم يخرج عن هذا إلا حرفان: كمأة وكمء، وجبأ وجبء، وقال غير ابن الأعرابي: بل هي على القياس: الكمأة للواحد، والكمء للكثير، وقال غيرهما: الكمأة تكون واحداً وجمعاً.

واحتج أصحاب القول الأول بأنهم قد جمعوا كمئاً على أكمؤ، قال الشاعر:

وَلَقَدْ جَنَيْتُكَ أَكْمُؤًا وَعَسَاقِلًا

وَلَقَدْ نَهَيْتُكَ عَنْ بَنَاتِ الْأَوْتِرِ (٢)

وهذا يدل على أن «كمء» مفرد، و«كمأة» جمع. والكمأة تكون في الأرض من غير أن تزرع، وسميت كمأة لاستمرارها، ومنه كما الشهادة: إذا سترها وأخفاها، والكمأة مخفية تحت الأرض لا ورق لها، ولا ساق، ومادتها من جوهر أرضي

(١) ونعر العرق بالدم: إذا علا وارفع.

(٢) البيت في «مجالس ثعلب» ص (٦٢٤).

العبد، وجعل سبحانه قُوَّتَهُم بالتيه الكمأة، وهي تقوم مقام الخبز، وجعل أدمهم السَّلوى، وهو يقوم مقام اللحم، وجعل حلواهم الطل الذي ينزل على الأشجار يقوم لهم مقام الحلوى، فكُلَّ عيشَهُم.

وتأمل قوله ﷺ: «الكمأة من المن الذي أنزله الله على بني إسرائيل» فجعلها من جملته، وفرداً من أفرادها، والترنجيبين^(١) الذي يسقط على الأشجار نوع من المن، ثم غلب استعمال المن عليه عرفاً حادثاً.

والقول الثاني: أنه شَبَّ الكمأة بالمن المنزل من السماء، لأنه يجمع من غير تعب ولا كلفة ولا زرع يزر ولا سقي.

(من أين أتى الضرر الواقع فيها)

فإن قلت: فإن كان هذا شأن الكمأة، فما بال هذا الضرر فيها، ومن أين أتاه ذلك؟ فاعلم أن الله سبحانه أتقن كُلَّ شيء صنعه، وأحسن كُلَّ شيء خلقه، فهو عند مبدأ خلقه بريء من الآفات والعلل، تأم المنفعة لما هُمىء وتخلَّق له، وإنما تعرض له الآفات بعد ذلك بأمور آخر من مجاورة، أو امتزاج واختلاط، أو أسباب آخر تقتضي فساده، فلو تَرَك على خلقته الأصلية من غير تعلق أسباب الفساد به، لم يفسد.

(قلة البركة والنقصات جاءت من كثرة الفساد)

ومن له معرفة بأحوال العالم ومبدئه يعرف أن جميع الفساد في جوه ونباته وحيوانه، وأحوال أهله حادث بعد خلقه بأسباب اقتضت حدوثه، ولم تزل أعمال بني آدم ومخالفتهم للرسول تحدث لهم من الفساد العام والخاص ما يجلب عليهم من الآلام، والأمراض، والأسقام، والطواعين والقحوط، والجذوب، وسلب بركات الأرض، وثمارها، ونباتها، وسلب منافعها، أو نقصانها أموراً متتابعة يتلو بعضها بعضاً، فإن لم يتسبَّح علمك لهذا فاكشف بقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الرُّوم: ٤١]، ونزل هذه الآية على أحوال

بخاري محتقن في الأرض نحو سطحها يحتقن ببرد الشتاء، وتُمنيه أمطار الربيع، فيتولد ويندفع نحو سطح الأرض متجسداً، ولذلك يقال لها: مُجْدِرِي الأرض، تشبيهاً بالمُجْدِرِي في صورته ومادته، لأن مادته رطوبة دموية، فتندفع عند سن الترعرع في الغالب، وفي ابتداء استيلاء الحرارة، ونماء القوة.

وهي مما يوجد في الربيع، ويؤكل نيئاً ومطبوخاً، وتُسميها العرب: نبات الرعد لأنها تكثر بكثرة، وتنفطر عنها الأرض، وهي من أطعمة أهل البوادي، وتكثر بأرض العرب، وأجودها ما كانت أرضها رملية قليلة الماء.

وهي أصناف: منها صنف قتال يضرب لونه إلى الحمرة يُخلِث الاختناق.

وهي باردة رطبة في الدرجة الثالثة، رديئة للمعدة، بطيئة الهضم، وإذا أدمت، أورثت القولنج والسكتة والفالج، ووجع المعدة، وعسر البول، والرطوبة أقل ضرراً من اليابسة، ومن أكلها فليدفعها في الطين الرطب، ويسلقها بالماء والملح والصعتر، ويأكلها بالزيت والتوابل الحارة، لأن جوهرها أرضي غليظ، وغذاؤها رديء، لكن فيها جوهر مائي لطيف يدل على خفتها، والاحتحال بها نافع من ظلمة البصر والرمد الحار، وقد اعترف فضلاء الأطباء بأن ماءها يجلو العين، وممن ذكره المسيحي، وصاحب القانون وغيرهما.

وقوله ﷺ: «الكمأة من المن» فيه قولان:

(معنى «الكمأة من المن»)

أحدهما: أن المن الذي أنزل على بني إسرائيل لم يكن هذا الحلو فقط، بل أشياء كثيرة من الله عليهم بها من النبات الذي يوجد عفواً من غير صنعة ولا علاج ولا حرث، فإن المن مصدر بمعنى المفعول، أي «ممنون» به، فكل ما رزقه الله العبد عفواً بغير كسب منه ولا علاج، فهو من مخض، وإن كانت سائر نعمه متناً منه على عبده، فخص منها ما لا كسب له فيه، ولا صنع باسم المن، فإنه من بلا واسطة

(١) الترنجيبين. قال في «المعتمد» ص(٥٠) هو طل يقع من السماء شبيه بالعميل، جامد متحب، وتأويله غسل الندى وأكثر ما يقع بخراسان على شجر الحاج: وهو شجر الفتاد.

العالم، وطابق بين الواقع وبينها، وأنت ترى كيف تحدث الآفات والعلل كل وقت في الثمار والزرع والحيوان، وكيف يحدث من تلك الآفات آفات أخرى متلازمة، بعضها أخذ برقاب بعض، وكلما أحدث الناس ظلماً وفجوراً، أحدث لهم ربهم تبارك وتعالى من الآفات والعلل في أغذيتهم وفواكههم، وأهويتهم ومياهم، وأبدانهم وخلقهم، وصورهم وأشكالهم وأخلاقهم من النقص والآفات، ما هو موجب أعمالهم وظلمهم وفجورهم.

(معنى «ماؤها شفاء للعين»)

وقوله ﷺ في الكمأة «وماؤها شفاء للعين» فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن ماءها يُخلط في الأدوية التي يُعالج بها العين، لا أنه يستعمل وحده، ذكره أبو عبيد.

الثاني: أنه يُستعمل بحثاً بعد شئها، واستقطار مائها، لأن النار تُلطفه وتنضجه، وتُذيب فضلاته ورطوبته المؤذية، وتبقي المنافع.

الثالث: أن المراد بمائها الماء الذي يحدث به من المطر، وهو أول قطر ينزل إلى الأرض، فتكون الإضافة إضافة اقتران، لا إضافة جزء، ذكره ابن الجوزي، وهو أبعد الوجوه وأضعفها.

وقيل: إن استعمل ماؤها لتبريد ما في العين، فماؤها مجرداً شفاء، وإن كان لغير ذلك، فمركب مع غيره.

وقال الغافقي: ماء الكمأة أصلح الأدوية للعين إذا عُجِنَ به الإثمد واكتحل به، ويقوّي أجفانها، ويزيد الروح الباصرة قوةً وِحدةً، ويدفع عنها نزول النوازل.

كباب: في «الصحيحين»: من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ نَجني الكبّاث، فقال: «عَلَيْكُمْ بِالْأَسْوَدِ مِنْهُ، فَإِنَّهُ أَطْيَبُ» [البخاري: ٥٤٥٣، ومسلم: ٥٣٤٩].

الكبّاث، بفتح الكاف، والباء الموحدة المخففة، والثاء المثناة، ثمر الأراك، وهو بأرض الحجاز، وطبعه حار يابس، ومنافعه كمنافع الأراك: يقوي المعدة، ويَجِدُّ الهضم، ويجلو البلغم، وينفع من أوجاع الظهر، وكثير من الأدوية. قال ابن جُلجل:

ولقد كانت الجبوب من الجنة وغيرها أكبر مما هي اليوم، كما كانت البركة فيها أعظم. وقد روى الإمام أحمد بإسناده: أنه وجد في خزائن بعض بني أمية صرة فيها حنطة أمثال نوى التمر مكتوب عليها: هذا كان ينبت أيام العدل. وهذه القصة، ذكرها في «مسنده» [٧٩٤٩]، على أثر حديث رواه.

وأكثر هذه الأمراض والآفات العامة بقية عذاب عُدَّت به الأمم السالفة، ثم بقيت منها بقية مرصدة لمن بقيت عليه بقية من أعمالهم، حكماً قسطاً، وقضاء عدلاً، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله في الطاعون: «إِنَّهُ بَقِيَّةُ رَجَزٍ أَوْ عَذَابٍ أُرْسِلَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ».

وكذلك سَلَطَ اللَّهُ سبحانه وتعالى الرِّيحَ على قوم عادٍ سبع ليالٍ وثمانية أيام، ثم أبقى في العالم منها بقية في تلك الأيام، وفي نظيرها عظة وعبرة.

وقد جعل الله سبحانه أعمال البرِّ والفاجر مقتضياتٍ لأنوارها في هذا العالم اقتضاء لا بد منه، فجعل منع الإحسان والزكاة والصدقة سبباً لمنع الغيث من السماء، والقحط والجذب، وجعل ظلم المساكين، والبخس في المكايل والموازين، وتعدي القوي على الضعيف سبباً لجور الملوك والولاة الذين لا يرحمون إن استزحموا، ولا يَعطِفُونَ إن استعطَفُوا، وهم في الحقيقة أعمال الرعايا ظهرت في

صور ولأنهم، فإن الله سبحانه بحكمته وعدله يُظهر للناس أعمالهم في قوالب وصورٍ تُناسبها، فتارةً يقحط وجذب، وتارةً بعدو، وتارةً بولاة جاثرين، وتارةً بأمراض عامة، وتارةً بهُموم وآلام وغموم تحضرها نفوسهم لا ينفكون عنها، وتارةً بمنع بركات

إذا شُرِبَ طحيته، أدرّ البول، ونفّى المثانة، قال ابن رضوان: يقوي المعدة، ويُمسك الطبيعة.

كتم: روى البخاري في «صحيحه»: عن عثمان بن عبد الله بن مَوْهَب، قال: دخلنا على أم سلمة رضي الله عنها، فأخرجت إلينا شعراً من شعر رسول الله ﷺ، فإذا هو مخضوب بالحناء والكتم [البخاري: ٥٨٩٧].

وفي «السنن الأربعة»: عن النبي ﷺ أنه قال: إنَّ أَحْسَنَ مَا غَيْرُنَا بِهِ الشَّيْبُ الْحِنَاءُ وَالكَتْمُ [صحيح: أحمد: ٢١٣٠٧، وأبو داود: ٤٢٠٥، والترمذي: ١٧٥٣، والنسائي: ١٣٩/٨].

وفي «الصحيحين»: عن أنس رضي الله عنه، أن أبا بكر رضي الله عنه اختضب بالحناء والكتم [البخاري: ٣٥٥٥، مختصراً، ومسلم: ٥٨٤٩].

وفي سنن أبي داود: عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: مر على النبي ﷺ رجلٌ قد خضب بالحناء فقال: «مَا أَحْسَنَ هَذَا؟» فمر آخر قد خَضَبَ بالحناء والكتم، فقال: «هَذَا أَحْسَنُ مِنْ هَذَا» فمر آخرٌ قد خَضَبَ بالصفرة، فقال: «هَذَا أَحْسَنُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ» [أبو داود: ٤٢١١، وابن ماجه: ٣٦٢٧].

قال الغافقي: الكتم نبتٌ يُنبِت بالسهول، ورقه قريب من ورق الزيتون، يعلو فوق القامة، وله ثمر قَدْرُ حَبِّ الْقُلْفَل، في داخله نوى، إذا رُضِخَ اسودَّ، وإذا استخرجتْ عُصَارَةُ ورقه، وشُرِبَ منها قدر أوقية، قِيّاً قِيّاً شديداً، وينفع من عضمة الكلب، وأصله إذا طَبِخَ بالماء كان منه مدادٌ يكتب به.

وقال الكندي: يزر الكتم إذا اكْتَحَلَ به، حُلِّلَ الماء النازل في العين وأبرأها.

وقد ظن بعض الناس أن الكتم هو الوسمة، وهي ورق النيل، وهذا وهم، فإن الوسمة غير الكتم. قال صاحب «الصحيح»: الكتم بالتحريك: نبت يُخلط بالوسمة يُخَضَّبُ به، قيل: والوسمة نباتٌ له ورق طويل يَضْرِبُ لونه إلى الزرقة أكبر من ورق الخِلاف، يُشبه ورق اللوبيا، وأكبر منه، يُؤْتَى به من الحجاز واليمن.

(هل اختضب النبي ﷺ)

فإن قيل: قد ثبت في «الصحيح» عن أنس رضي الله عنه، أنه قال: لم يختضب النبي ﷺ [البخاري: ٣٥٥٠، ومسلم: ٦٠٧٣].

قيل: قد أجاب أحمد ابن حنبل عن هذا وقال: قد شَهِدَ بِهِ غَيْرُ أَنَسٍ رضي الله عنه على النبي ﷺ أنه خضب، وليس مَنْ شَهِدَ بمنزلة من لم يشهد، فأحمد أثبت خضاب النبي ﷺ، ومعه جماعة من المحدثين، ومالك أنكره.

فإن قيل: فقد ثبت في «صحيح مسلم» النهي عن الخضاب بالسواد في شأن أبي قحافة لما أتى به ورأسه ولحيته كاللثامة بياضاً، فقال: «غَيِّرُوا هَذَا الشَّيْبَ وَجَنِّبُوهُ السَّوَادَ» [مسلم: ٥٥٠٨]. والكتم يسود الشعر.

(حكم الخضاب بالسواد)

فالجواب من وجهين، أحدهما: أن النهي عن التلوين البحت، فأما إذا أضيف إلى الحناء شيء آخر، كالكتم ونحوه، فلا بأس به، فإن الكتم والحناء يجعل الشعر بين الأحمر والأسود بخلاف الوسمة، فإنها تجعله أسود فاحماً، وهذا أصح الجوابين.

الجواب الثاني: أن الخضاب بالسواد المنهي عنه خضاب التدليس، كخضاب شعر الجارية، والمرأة الكبيرة تغرُّ الزوج، والسيد بذلك، وخضاب الشيخ يغرُّ المرأة بذلك، فإنه من الغش والخداع، فأما إذا لم يتضمن تدليساً ولا خداعاً، فقد صح عن الحسن والحسين رضي الله عنهما أنهما كانا يخضبان بالسواد، ذكر ذلك ابن جرير عنهما في كتاب «تهذيب الآثار» وذكره عن عثمان بن عفان، وعبد الله بن جعفر، وسعد بن أبي وقاص، وعقبة بن عامر، والمغيرة بن شعبة، وجرير بن عبد الله، وعمرو بن العاص، وحكاة عن جماعة من التابعين، منهم: عمرو بن عثمان، وعلي بن عبد الله بن عباس، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وعبد الرحمن بن الأسود، وموسى بن طلحة، والزهرى، وأيوب، وإسماعيل بن معدى كرب.

وحكاة ابن الجوزي عن محارب بن دثار، ويزيد وابن جريج، وأبي يوسف، وأبي إسحاق، وابن أبي

ليلى، وزياذ بن علاقة، وغيلان بن جامع، ونافع بن جبير، وعمرو بن علي المقدمي، والقاسم بن سلام.

كرم: شجرة العنب، وهي الحَبَلَةُ، ويكره تسميتها كَرْماً، لما روى مسلم في «صحيحه» عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ لِلْعِنَبِ الْكَرْمَ. الْكَرْمُ: الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ». وفي رواية: «إِنَّمَا الْكَرْمُ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ» [مسلم: ٥٨٦٧، وبنحوه البخاري: ٦١٨٢]، وفي أخرى: «لَا تَقُولُوا: الْكَرْمُ، وَقُولُوا: الْعِنَبُ وَالْحَبَلَةُ» [مسلم: ٥٨٧٢].

وفي هذا معنيان:

(علة النهي عن تسمية العنب كرمًا)

أحدهما: أن العرب كانت تُسمي شجرة العنب الكرم، لكثرة منافعها وخيرها، فكره النبي ﷺ تسميتها باسم يهيج النفوس على محبتها ومحبة ما يتخذ منها من المسكر، وهو أم الخبائث، فكره أن يسمى أصله بأحسن الأسماء وأجمعها للخير.

والثاني: أنه من باب قوله: «لَيْسَ الشَّيْءُ بِالضَّرْعَةِ» [البخاري: ٦١١٤، ومسلم: ٦٦٤٣]. «وليسَ الْمُسْكِينُ بِالطَّوَّافِ» [مسلم: ٢٣٩٣]. أي: أنكم تُسمون شجرة العنب كرمًا لكثرة منافعها، وقلبُ المؤمن أو الرجل المسلم أولى بهذا الاسم منه، فإن المؤمن خيرُ كله ونفع، فهو من باب التنبيه والتعريف لما في قلب المؤمن من الخير، والجود، والإيمان، والنور، والهدى، والتقوى، والصفات التي يستحق بها هذا الاسم أكثر من استحقاق الحَبَلَةِ له.

وبعد: ففوة الحَبَلَةِ باردة يابسة، وورقها وعلائقها وعروموشها مبرد في آخر الدرجة الأولى، وإذا دُفَّت وضُمِدَتْ بها من الصداع سكنته، ومن الأورام الحارة والتهاب المعدة. وعصارَةُ قضبانها إذا شُرِبَتْ سكنت القيء، وعقلت البطن، وكذلك إذا مُصِغَتْ قلوبها الرطبة. وعُصَارَةُ ورقها، تنفع من قروح الأمعاء، ونفت الدم وقينه، ووجع المعدة، ودمعُ شجره الذي يحمل على القضبان، كالصمغ إذا شُرِبَ أخرج الحصى، وإذا لَطِخَ به، أبرأ القَوَبُ والجربُ المتقرح وغيره، وينبغي غسل العضو قبل استعمالها بالماء

والنظرون، وإذا تمسح بها مع الزيت حلق الشعر، وزَمَاد قضبانها إذا تَضَمَّدَ به مع الخل ودهن الورد والسذاب، نفع من الورم العارض في الطحال، وقوة دهن زهرة الكرم قابضة شبيهة بقوة دهن الورد، ومنافعها كثيرة قريبة من منافع النخلة.

كَرْفَس: روي في حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ أنه قال: مَنْ أَكَلَهُ ثُمَّ نَامَ عَلَيْهِ، نَامَ وَنَكَهَتْهُ طَيِّبَةٌ، وَيَنَامُ آمِنًا مِنْ وَجَعِ الْأَضْرَاسِ وَالْأَسْنَانِ، وهذا باطل على رسول الله ﷺ، ولكن البُستاني منه يُطِيبُ النكهة جدًا، وإذا علق أصله في الرقبه نفع من وجع الأسنان.

وهو حار يابس، وقيل: رطب مفتَح لسُدَاد الكبد والطحال، وورقه رطباً يَنْفَعُ المعدة والكَبِدَ الباردة، وَيُذَرُّ البول والطمث، ويفتت الحصى، وجه أقوى في ذلك، ويهيج الباه، وينفَعُ من البخر. قال الرازي: وينبغي أن يُجْتَنَّبَ أكله إذا خِيفَ من لدغ العقارب.

كراث: فيه حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، بل هو باطل موضوع: مَنْ أَكَلَ الْكَرَاثَ ثُمَّ نَامَ عَلَيْهِ نَامَ آمِنًا مِنْ رِيحِ الْبَوَاسِيرِ وَاعْتَزَلَهُ الْمَلَكُ لِتَنِي نَكْهَتِهِ حَتَّى يُصْبِحَ^(١).

وهو نوعان: نبطي وشامي، فالنبطي: البقل الذي يوضع على المائدة. والشامي: الذي له رؤوس، وهو حار يابس مصدع، وإذا طَبِخَ وأُكِلَ، أو شرب ماؤه، نفع من البواسير الباردة، وإن سُحِقَ بزره، وَعُجِنَ بِقَطِرَانٍ، وَبُخِّرَتْ به الْأَضْرَاسُ التي فيها الدود نثرها وأخرجها، وَيُسَكَّنُ الوجع العارض فيها، وإذا دُخِنَتْ المقعدة ببزره خَفَّتِ البواسير، هذا كله في الكراث النبطي.

وفيه مع ذلك فساد الأسنان واللثة، ويصدع، ويُرِي أَحْلَامًا رديئةً، وَيُظْلِمُ البصر، ويتن النكهة، وفيه إدْرَارٌ للبول والطمث، وتحريك للباه، وهو بطيء الهضم.

(١) هو قطعة من حديث طويل موضوع أورده السيوطي في «ذيل الموضوعات» ص (١٤١ - ١٤٢).

حرف اللام

لحم: قال الله تعالى:

﴿وَأَمَّا نَسْتَنْتَهُمْ فَنُكَلِّمُهُمْ وَنُحَرِّمُهُمْ وَيَتَنَبَّهُونَ﴾ [الطور: ٢٢].
وقال: ﴿وَلَقَدْ كَلَّمْنَا نِسَاءً يَتَنَبَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٢١].

وفي «سنن ابن ماجه» من حديث أبي الدرداء، عن رسول الله ﷺ: «سَيِّدُ طَعَامِ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ اللَّحْمُ» [ابن ماجه: ٣٣٠٥، وسنده ضيف]. ومن حديث بُرَيْدَةَ يرفعه: «خَيْرُ الإِدَامِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ اللَّحْمُ»^(١).

وفي «الصحيح» عنه ﷺ: «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ» [البخاري: ٣٧٧٠، ومسلم: ٦٢٧٢]. والثريد: الخبز واللحم، قال الشاعر:
إِذَا مَا الْحُبْرُ تَأَدُّمُهُ بِلَحْمٍ

فَذَاكَ أَمَانَةُ اللَّوِ الثَّرِيدُ^(٢)
وقال الزهري: أكلُ اللحم يَزِيدُ سبعين قوة. وقال محمد بن واسع: اللحم يزيد في البصر، ويروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «كُلُوا اللَّحْمَ فَإِنَّهُ يُصْفِي اللَّوْنَ وَيُخَمِّصُ الْبَطْنَ، وَيُحَسِّنُ الْخُلُقَ» وقال نافع: كان ابن عمر إذا كان رمضان لم يفته اللحم، وإذا سافر لم يفته اللحم، ويذكر عن علي: من تركه أربعين ليلة ساء خلقه.

وأما حديث عائشة رضي الله عنها، الذي رواه أبو دواد مرفوعاً: «لَا تَقْطَعُوا اللَّحْمَ بِالسَّكِينِ، فَإِنَّهُ مِنْ صَنِيعِ الْأَعَاجِمِ، وَانْهَسُوهُ، فَإِنَّهُ أَمْرٌ» [أبو داود: ٣٧٧٨، وفي سنده ضيف]. فرده الإمام أحمد بما صحَّ عنه ﷺ مِنْ قَطْعِهِ بِالسَّكِينِ فِي حَدِيثَيْنِ، وقد تقدما. واللحم أجناس يختلِف باختلاف أصوله وطبائمه، فنذكر حكم كل جنس وطبعه ومنفعته ومضرته.

(لحم الضأن)

لحم الضأن: حار في الثانية، رطب في الأولى، جيده الحولي، يُؤلِّدُ الدم الم محمود القوي لمن جاد هضمه، يصلح لأصحاب الأمزجة الباردة والمعتدلة، ولأهل الرياضات التامة في المواضع والفصول الباردة، نافع لأصحاب البيرة السوداء، يقوي الدهن

والحفظ. ولحم الهَرَمِ والمعجف رديء، وكذلك لحم النَّعَاجِ، وأجوده: لحم الذكر الأسود منه، فإنه أخف وألذ وأنفع، والخصي أنفع وأجود، والأحمر من الحيوان السمين أخف وأجود غذاءً، والمجذع من المعز أقل تغذية، ويطفو في المعدة.

وأفضل اللحم عائله بالعظم، والأيمن أخف وأجود من الأيسر، والمقدم أفضل من المؤخر، وكان أحب الشاة إلى رسول الله ﷺ مقدهما، وكل ما علا منه سوى الرأس كان أخف وأجود مما سفل، وأعطى الفرزدق رجلاً يشتري له لحماً وقال له: خذ المقدم، وإياك والرأس والبطن، فإن الداء فيهما. ولحم العنق جيد لذيق، سريع الهضم خفيف، ولحم الذراع أخف اللحم وألذ والطهه وأبعده من الأذى، وأسرع انهضاماً.

وفي «الصحيحين»: أنه كان يُعجب رسول الله ﷺ [البخاري: ٣٣٤٠، ومسلم: ٤٨٠]. ولحم الظهر كثير الغذاء، يولد دماً محموداً. وفي «سنن ابن ماجه» مرفوعاً: «أَطْيَبُ اللَّحْمِ لَحْمُ الظَّهْرِ» [أحمد: ١٧٤٤، وابن ماجه: ٣٣٠٨، وفي سنده مجهول].

(لحم المعز)

لحم المعز: قليل الحرارة، يابس، ويخلطه المتولد منه ليس بقاضل وليس بجيد الهضم، ولا محمود الغذاء. ولحم التيس رديء مطلقاً، شديد اليبس، عسير الانهضام، مولد للخلط السوداءي.

قال الجاحظ: قال لي فاضل من الأطباء: يا أبا عثمان! إياك ولحم المعز، فإنه يورث الغم، ويحرك السوداء، ويورث النسيان، ويُفسد الدم، وهو والله يَحْبِلُ الأولاد.

وقال بعض الأطباء: إنما المذموم منه المسن، ولا سيما للمسنين، ولا رداة فيه لمن اعتاده. وجالينوس جعل الحولي منه من الأغذية المعتدلة المعدلة للكي موس الم محمود، وإنائه أنفع من ذكوره.

وقد روى النسائي في «سننه» عن النبي ﷺ: «أَحْسِنُوا إِلَى الْمَاعِزِ وَأَمِيطُوا عَنْهَا الْأَذَى فَإِنَّهَا مِنْ

(١) البيهقي، وفي سنده العباس بن بكار، وهو كذاب يضع.

(٢) لا يعرف قائله.

دَوَابِّ الْحَيَّةِ^(١). وفي ثبوت هذا الحديث نظر. وحكم الأطباء عليه بالمضرة حكم جزئي ليس بكلي عام، وهو بحسب المعدة الضعيفة، والأمزجة الضعيفة التي لم تعتده، واعتادت المأكولات اللطيفة، وهؤلاء أهل الرفاهية من أهل المدن، وهم القليلون من الناس.

(لحم الجدي)

لحم الجدي: قريب إلى الاعتدال، خاصة ما دام رضيعاً، ولم يكن قريب العهد بالولادة، وهو أسرع هضماً لِمَا فيه من قوة اللبن، ملين للطبع، موافق لأكثر الناس في أكثر الأحوال، وهو أَلَطُّ من لحم الجمل، والدم المتولد عنه معتدل.

(لحم البقر)

لحم البقر: بارد يابس، عسير الانهضام، بطيء الانحدار، يُؤَلَّدُ دماً سوداوياً، لا يصلح إلا لأهل الكد والتعب الشديد، ويؤثر إدمانه الأمراض السوداء، كالهبق والجرب، والقُوباء والجذام، وداء القيل، والسرطان، والوسواس، وحمى الربيع، وكثير من الأورام، وهذا لمن لم يعتده، أو لم يدفع ضرره بالفلفل والثوم والدارصيني، والزنجبيل ونحوه، وَذَكَرَهُ أَقْلُ بُرُودَةٍ، وَأَنَاءَهُ أَقْلُ يَسَاءٍ. ولحم العجل ولا سيما السمين من أعدل الأغذية وأطيبها وألذها وأحمقها، وهو حار رطب، وإذا انهضم غذى غذاءً قوياً.

(لحم الفرس)

لحم الفرس: ثبت في «الصحيح» عن أسماء رضي الله عنها قالت: نحرنا فرساً فأكلناه على عهد رسول الله ﷺ [مسلم: ٥٠٢٥]. وثبت عنه ﷺ أنه أذن في لحوم الخيل، ونهى عن لحوم الحُمُرِ أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري: ٥٥٢٦، ومسلم: ٥٠٢٢].

ولا يثبت عنه حديث المقدم بن معدي كرب - رضي الله عنه - أنه نهى عنه. قاله أبو داود وغيره من أهل الحديث [أبو داود: ٣٧٩٠، وفي سننه ضعف].

(سبب اختراع الخيل مع البغال والحمير في القرن)

واقترانه بالبغال والحمير في القرآن لا يدل على أن

حكم لحمه حكم لحومها بوجه من الوجوه، كما لا يدلُّ على أن حكمها في السهم في الغنمة حكم الفرس، والله سبحانه يقرُّ في الذكر بين التماثلات تارةً، وبين المختلفات، وبين المتضادات، وليس في قوله: ﴿لَتَكُونَنَّ﴾ [التحل: ٨]، ما يمنع من أكلها، كما ليس فيه ما يمنع من غير الركوب من وجوه الانتفاع، وإنما نصَّ على أجلِّ منافعها، وهو الركوب، والحديثان في جلها صحيحان لا معارض لهما، وبعد: فلحمها حار يابس، غليظ سوداوي مضر لا يصلح للأبدان اللطيفة.

(لحم الجمل)

لحم الجمل: فرق ما بين الرافضة وأهل السنة، كما أنه أحد الفروق بين اليهود وأهل الإسلام، فاليهود والرافضة تَنُذُّهُ ولا تأكله، وقد عَلِمَ بالاضطرار من دين الإسلام جلُّه، وطالما أكله رسول الله ﷺ وأصحابه حضراً وسفراً.

(علة الوضوء من لكل لحم الجمل)

ولحم الفصيل منه من ألد اللحوم وأطيبها وأقواها غذاءً، وهو لمن اعتاده بمنزلة لحم الضأن لا يضرهم البتة، ولا يُؤَلَّدُ لهم داء، وإنما ذمَّ بعض الأطباء بالنسبة إلى أهل الرفاهية من أهل الحضرة الذين لم يعتادوه، فإن فيه حرارةً وتيساً، وتوليداً للسوداء، وهو عسير الانهضام، وفيه قوة غير محدودة، لأجلها أمر النبي ﷺ بالوضوء من أكله في حديثين صحيحين لا معارض لهما، ولا يصح تأويلهما بغسل اليد، لأنه خلاف المعهود من الوضوء في كلامه ﷺ، لتفريقه بينه وبين لحم الغنم، فخير بين الوضوء وتركه منها، وحتم الوضوء من لحوم الإبل. ولو حمل الوضوء على غسل اليد فقط، لحمل على ذلك في قوله: «مَنْ مَسَّ قَرْحَهُ فَلْيَتَوَضَّأْ» [صحيح: مالك (٤٢/١)، وأحمد: ٢٧٢٩٣، وأبو داود: (١٨١)، والترمذي: ٨٢، والنسائي (١٠٠/١)، وابن ماجه: (٤٧٩)].

(الرد على من لم ير الوضوء منه)

وأيضاً: فإن أَكَلَهَا قد لا يباشر أكلها بيده بأن يوضع في فمه، فإن كان وضوؤه غسل يده، فهو

(١) لم تقف عليه.

عبث، وحمل لكلام الشارع على غير معهوده وعرفه، ولا يصح معارضته بحديث: «كان آخر الأمرين من رسول الله ﷺ ترك الوضوء مما مست النار» لعدة أوجه:

أحدها: أن هذا عام، والأمر بالوضوء، منها خاص.

الثاني: أن الجهة مختلفة، فالأمر بالوضوء منها بجهة كونها لحم إبل سواء كان نيئاً، أو مطبوخاً، أو قديداً، ولا تأثير للنار في الوضوء. وأما ترك الوضوء مما مست النار، ففيه بيان أن مس النار ليس بسبب للوضوء، فأين أحدهما من الآخر؟ هذا فيه إثبات سبب الوضوء، وهو كونه لحم إبل، وهذا فيه نفي لسبب الوضوء، وهو كونه ممسوس النار، فلا تعارض بينهما بوجه.

الثالث: أن هذا ليس فيه حكاية لفظ عام عن صاحب الشرع، وإنما هو إخبار عن واقعة فعل في أمرين، أحدهما: متقدم على الآخر، كما جاء ذلك مبيناً في نفس الحديث، أنهم قربوا إلى النبي ﷺ لحماً، فأكل، ثم حضرت الصلاة، فتوضأ فصلّى، ثم قربوا إليه فأكل، ثم صلى، ولم يتوضأ، فكان آخر الأمرين منه ترك الوضوء مما مست النار، هكذا جاء الحديث، فاختصره الراوي لمكان الاستدلال، فأين في هذا ما يصلح لنسخ الأمر بالوضوء منه، حتى لو كان لفظاً عاماً متأخراً مقاوماً، لم يصلح للنسخ، ووجب تقديم الخاص عليه، وهذا في غاية الظهور.

(لحم الضب)

لحم الضب: تقدّم الحديث في جله، ولحمه حار يابس، يقوي شهوة الجماع.

(لحم الغزال)

لحم الغزال: الغزال أصلح الصيد وأحمدّه لحماً، وهو حار يابس، وقيل: معتدل جداً، نافع للأبدان المعتدلة الصحيحة، وجيده الخشف.

(لحم الظبي)

لحم الظبي: حار يابس في الأولى، مجفّف للبدن، صالح للأبدان الرطبة. قال صاحب «القانون»: وأفضل لحوم الوحش لحم الظبي مع ميله إلى السوداوية.

(لحم الأرنب)

لحم الأرانب: ثبت في «الصحيحين»: عن أنس ابن مالك قال أنفجنا أرنباً فسَمَوْا في طلبها، فأخذوها، فبعث أبو طلحة بوركها إلى رسول الله ﷺ فقِيلَ [البخاري: ٥٥٣٥، ومسلم: ٥٠٤٨].

لحم الأرنب: معتدل إلى الحرارة واليبوسة، وأطيبها وبركها، وأحمدّه أكل لحمها مشوياً، وهو يعقل البطن، ويثير البول، ويقت الحصى، وأكل رؤوسها ينفع من العرشة.

(لحم حمار الوحش)

لحم حمار الوحش: ثبت في «الصحيحين»: من حديث أبي قتادة رضي الله عنه، أنهم كانوا مع رسول الله ﷺ في بعض عُمره، وأنه صَادَ حِمَارَ وحش، فأمرهم النبي ﷺ بأكله وكانوا محرمين، ولم يكن أبو قتادة محرماً.

وفي «سنن ابن ماجه»: عن جابر قال: أكلنا زمن خيبر الخيل وخمر الوحش [ابن ماجه: ٣١٩١].

(لحم الوحوش)

لحمه حار يابس، كثير التغذية، مولد دماً غليظاً سوداوياً، إلا أن شحمه نافع مع دهن الفسط لوجع الظهر والريح الغليظة المرخية للكلى، وشحمه جيد للكلّف طلاء، وبالجملة فلهوم الوحوش كلّها تولد دماً غليظاً سوداوياً وأحمدّه الغزال، ويعدّه الأرنب.

(لحوم الأجنة وحكم أكلها)

لحوم الأجنة: غير محمودة لاحتقان الدم فيها، وليست بحرام، لقوله ﷺ: «ذَكَاءُ الْجَيْنِ ذَكَاءُ أُمِّهِ» [صحيح: أحمد: ١١٢٦٠، وأبو داود: ٢٨٢٧، والترمذي: ١٤٧٦، وابن ماجه: ٣١٩٩].

ومنع أهل العراق من أكله إلا أن يُدرّكه حيّاً فيذّكه، وأولوا الحديث على أن المراد به أن ذكاته كذكاة أمه. قالوا: فهو حجة على التحريم، وهذا فاسد، فإن أول الحديث أنهم سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله! نذبح الشاة، فنجد في بطنها جنيناً أفناكله؟ فقال: «كُلُوهُ إِنْ شِئْتُمْ فَإِنَّ ذَكَاتَهُ ذَكَاءُ أُمِّهِ».

وأيضاً: فالقياس يقتضي جله، فإنه ما دام حَمَلاً

فهو جزء من أجزاء الأم، فذكائتها ذكاة لجميع أجزائها، وهذا هو الذي أشار إليه صاحب الشرع بقوله: «ذكائه ذكاة أمه» كما تكون ذكاتها ذكاة سائر أجزائها، فلو لم تأت عنه السنة الصريحة بأكله، لكان القياس الصحيح يقتضي حله.

(لحم القديد)

لحم القديد: في «السنن» من حديث ثوبان رضي الله عنه قال: ذبحت لرسول الله ﷺ شاة ونحن مسافرون، فقال: «أضليخ لحمتها» فلم أزل أطعمه منه إلى المدينة [مسلم: ٥١١٠].

القديد: أنفع من النمكسود، ويقوي الأبدان، ويحدث جكة، ودفع ضرره بالأبازير الباردة الرطبة، ويصلح الأمزجة الحارة والنمكسود: حار يابس مجفف، جيده من السمين الرطب، يضر بالقولنج، ودفع مضرته طبخه باللبن والدهن، ويصلح للمزاج الحار الرطب.

فصل

في لحوم الطير

قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ كَلِمَتًا يَتَّبِعُونَ﴾ [الواقعة:

٢١].

وفي «مسند البزار» وغيره مرفوعاً «إِنَّكَ لَتَنْظُرُ إِلَى الطَّيْرِ فِي الْجَنَّةِ، فَتَشْتَهِيهِ، فَيَخْرُ مَشْوِياً بَيْنَ يَدَيْكَ»^(١).

(الحرام من الطيور)

ومنه حلال، ومنه حرام. فالحرام: ذو المخلب، كالصقر والبازي والشاهين، وما يأكل الجيف كالنسر والرَّحِمَ واللَّقْلَقَ والعَقَّعَقَ والغُرَابَ الأبقع والأسود الكبير، وما نُهي عن قتله كالهذَّهْدِ والضَّرَدِ، وما أُمِرَ بقتله كالحدأة والغُرَاب.

(لحم الدجاج)

والحلال أصناف كثيرة، فمنه الدجاج، ففي «الصحيحين»: من حديث أبي موسى، أن النبي ﷺ أكل لحم الدجاج [البخاري: ٥٥١٧، ومسلم: ٤٢٦٣]. وهو حار رطب في الأولى، خفيف على المعدة،

سريع الهضم، جيد الخلط، يزيد في الدماغ والمنى، ويصفي الصوت، ويحسن اللون، ويقوي العقل، ويولد دماً جيداً، وهو مائل إلى الرطوبة، ويقال: إن مداومة أكله تورث الثقرس، ولا يثبت ذلك.

(لحم الديك)

ولحم الديك أسخن مزاجاً، وأقل رطوبة، والعتيق منه دواء ينفع القولنج والربو والرياح الغليظة إذا طليخ بماء القرطم^(٢) والشبث، وخصيتها محمود الغذاء، سريع الانهضام، والفرايج سريعة الهضم، مليئة للطبع، والدم المتولد منها دم لطيف جيد.

(لحم الدراج)

لحم الدراج: حار يابس في الثانية، خفيف لطيف، سريع الانهضام، مولد للدم المعتدل، والإكثار منه يجرد البصر.

(لحم الحجل)

لحم الحجل: يولد الدم الجيد، سريع الانهضام.

(لحم الإوز)

لحم الإوز: حار يابس، رديء الغذاء إذا اعتيد وليس بكثير الفضول.

(لحم البط)

لحم البط: حار رطب، كثير الفضول، غير الانهضام، غير موافق للمعدة.

(لحم الحباري)

لحم الحباري: في «السنن». من حديث بُرَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ سَفِينَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَكَلْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَحْمَ حُبَارَى [أبو داود: ٣٧٩٧، والترمذي: ١٨٢٩، وسنده ضعيف].

وهو حار يابس، غير الانهضام، نافع لأصحاب الرياضة والتعب.

(لحم الكركي)

لحم الكركي: يابس خفيف، وفي حره ويرده خلاف، يولد دماً سوداوياً، ويصلح لأصحاب الكد والتعب، وينبغي أن يترك بعد ذبحه يوماً أو يومين، ثم يؤكل.

(١) المؤلف في «حادي الأرواح» ص (١١٩)، وابن كثير (٢٨٧/٤) من طريق الحسن بن عرفة.

(٢) القرطم: هو حب العصفور، والشبث: بقلة.

(لحم المصاهير والقنابر)

لحم العصافير والقنابر: روى النسائي في «سننه»: من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ إِنْسَانٍ يَمُتُّ عُصْفُورًا فَمَا فَرْقُهُ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا سَأَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهَا. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وما حقه؟ قال: «تَذْبِيحُهُ فَتَأْكُلُهُ، وَلَا تَقْطَعُ رَأْسَهُ وَتُرْمِي بِهِ» [حسن: أحمد: ٦٥٥٠ - ٦٥٥١، والنسائي (٢٠٧/٧)].

وفي «سننه» أيضاً: عن عمرو بن الشريد، عن أبيه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ قَتَلَ عُصْفُورًا عَبَثًا، عَجَّ إِلَى اللَّهِ يَقُولُ: يَا رَبِّ إِنَّ فُلَانًا قَتَلَنِي، عَبَثًا، وَلَمْ يَقْتُلْنِي لِمَنْفَعَةٍ» [حسن: أحمد: ١٩٤٧٠، والنسائي (٣٣٩/٧)].

ولحمه حار يابس، عاقل للطبيعة، يزيد في الباء، ومرقه يلين الطبع، وينفع المفاصل، وإذا أكلت أدمغتها بالزنجبيل والبصل، هيبت شهوة الجماع، وخلطها غير محمود.

(لحم الحمام)

لحم الحمام: حار رطب، وحشيه أقل رطوبة، وفراخه أرطب خاصة، وما رُبِّي في الدور وناهضه أخف لحماً، وأحمد غذاء، ولحم ذكورها شفاء من الاسترخاء والخدر والسكته والرعدة، وكذلك شم رائحة أنفاسها، وأكل فراخها معين على النساء، وهو جيد للكلبي، يزيد في الدم، وقد روي فيها حديث باطل لا أصل له عن رسول الله ﷺ: أن رجلاً شكى إليه الوحدة، فقال: «اتَّخِذْ زَوْجًا مِنَ الْحَمَامِ»^(١). وأجود من هذا الحديث أنه ﷺ رأى رجلاً يتبع حمامة، فقال: شيطان يتبع شيطانة [حسن: أحمد: ٨٥٤٣، وأبو داود: ٤٩٤٠، وابن ماجه: ٣٧٦٥].

وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه في خطبته يأمر بقتل الكلاب وذبح الحمام.

(لحم القطا)

لحم القطا: يابس، يؤلّد السوداء، ويحبس الطبع، وهو من شر الغذاء، إلا أنه ينفع من الاستسقاء.

(لحم السماني)

لحم السماني: حار يابس، ينفع المفاصل، ويضرب بالكبد الحار، ودفع مضرته بالخل والكُسْفَرَة، وينبغي أن يُجْتَنَبَ مِنْ لَحْمِ الطَّيْرِ مَا كَانَ فِي الْأَجَامِ وَالْمَوَاضِعِ الْعَفَنَةِ، وَلَحْمُ الطَّيْرِ كُلُّهَا أَسْرَعُ انْهِضَامًا مِنَ الْمَوَاشِي، وَأَسْرَعُهَا انْهِضَامًا، أَقْلَهَا غِذَاءً، وَهِيَ الرِّقَابُ وَالْأَجْنَحَةُ، وَأَدْمَغْتُهَا أَحْمَدُ مِنْ أَدْمَغَةِ الْمَوَاشِي.

(الجراد)

الجراد: في «الصحيحين»: عن عبد الله بن أبي أوفى قال: غزونا مع رسول الله ﷺ سَبْعَ غَزَوَاتٍ نَأْكُلُ الْجَرَادَ [البخاري: ٥٤٩٥، ومسلم: ٥٠٤٥].

وفي «المسند» عنه: «أَجَلْتُ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ: الْحَوْثُ وَالْجَرَادُ، وَالْكَيْدُ وَالطَّحَالُ». يروى مرفوعاً وموقوفاً على ابن عمر رضي الله عنه [أحمد: ٥٧٢٣، وابن ماجه: ٣٢١٨، وهو ضعيف مرفوعاً، ورواه البيهقي (٢٥٤/١) موقوفاً بسند صحيح].

وهو حار يابس، قليل الغذاء، وإدامة أكله ثورث الهزال، وإذا تَبَخَّرَ به نفع من تقطير البول وعُسْرِهِ، وخصوصاً للنساء، وتَبَخَّرَ به للبواسير، ويسمانه يشوى ويؤكل للسم العقرب، وهو ضار لأصحاب الصرع، رديء الخلط، وفي إباحة ميتته بلا سبب قولان، فالجمهور على حله، وحرمه مالك، ولا خلاف في إباحة ميتته إذا مات بسبب، كالكبش والتحريق ونحوه [مالك (٩٣٥/٢)].

فصل

(ضرر الملوحة على اللحم)

وينبغي أن لا يُدَاوَمَ على أكل اللحم، فإنه يورث الأمراض الدموية والامتلاية، والحميات الحادة، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إياكم واللحم، فإن له ضراوة كضراوة الخمر، ذكره مالك في «الموطأ» عنه^(٢). وقال أبقراط: لا تجعلوا أجوافكم مقبرة للحيوان.

(١) انظر «المنار المنيف» للمؤلف ص (١٠٦).

(٢) انظر «المغني» (٨/ ٥٧٢، ٥٧٣).

(اللبن)

اللبن: قال الله تعالى: ﴿وَلَا لَكَ فِي الْأَنْفَرِ لَبِيرٌ﴾ شَفِيرُ يَمًا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ قَرْنَيْ وَدَّيْنِ لَنَا خَالِصًا سَائِبًا لِشَرِيرِينَ [التحل: ٦٦] وقال في الجنة: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ [مخمد: ١٥]. وفي «السنن» مرفوعاً: «مَنْ أَطْعَمَهُ اللَّهُ طَعَامًا فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وَارْزُقْنَا خَيْرًا مِنْهُ، وَمَنْ سَقَاهُ اللَّهُ لَبَنًا، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وَارْزُقْنَا مِنْهُ، فَإِنِّي لَا أَغْلَمُ مَا يُجْزَى مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَّا اللَّبَنُ» [حسن: أبو داود: ٣٧٣٠، والترمذي: ٢٤٥١].

اللبن: وإن كان بسيطاً في الحس، إلا أنه مركب في أصل الخلقة تركيباً طبيعياً من جواهر ثلاثة: الجنية، والسمنية، والمائية، فالجنية: باردة رطبة، مغذية للبدن، والسمنية: معتدلة الحرارة والرطوبة ملائمة للبدن الإنساني الصحيح، كثيرة المنافع، والمائية: حارة رطبة، مطلقة للطبيعة، مرطبة للبدن، واللبن على الإطلاق أبرد وأرطب من المعتدل.

وقيل: قوته عند حلبه الحرارة والرطوبة، وقيل: معتدل في الحرارة والبرودة.

وأجود ما يكون اللبن حين يُحلب، ثم لا يزال تنقص جودته على ممر الساعات، فيكون حين يُحلب أقل برودة، وأكثر رطوبة، والحايض بالعكس، ويختار اللبن بعد الولادة بأربعين يوماً، وأجوده ما اشتد بياضه، وطاب ريحه، ولذ طعمه، وكان فيه حلاوة يسيرة، ودسومة معتدلة، واعتدل قوامه في الرقة والغليظ، وحلب من حيوان فتي صحيح، معتدل اللحم، محمود المرعى والمشرّب.

وهو محمود يؤلد دعاً جيداً، ويرطب البدن اليابس، ويغذو غذاءً حسناً، وينفع من الوسواس والغم والأمراض السوداوية، وإذا شرب مع العسل نقى القروح الباطنة من الأخلاط العفنة، وشربه مع السكر يحسن اللون جداً، والحليب يتدارك ضرر الجماع، ويوافق الصدر والرقة، جيد لأصحاب السل، رديء للرأس والمعدة، والكبد والطحال، والإكثار منه مضر بالأسنان واللثة، ولذلك ينبغي أن

يتمضمض بعده بالماء، وفي «الصحيحين»: أن النبي ﷺ شرب لبناً، ثم دعا بماء فتمضمض وقال: «إِنَّ لَهُ دَسَمًا» [البخاري: ٢١١، ومسلم: ٧٩٨].

وهو رديء للمحمومين، وأصحاب الصداع، مؤذٍ للدماغ، والرأس الضعيف، والمداومة عليه تحدث ظلمة البصر والغشاء، ووجع المفاصل، وسدة الكبد، والنفخ في المعدة والأحشاء، وإصلاحه بالعسل والزنجبيل المرى ونحوه، وهذا كله لمن لم يعتده.

(لبن الضأن)

لبن الضأن: أغلظ الألبان وأرطبها، وفيه من الدسومة والزهومة ما ليس في لبن الماعز والبقر، يؤلد فضولاً بلغمياً، ويحدث في الجلد بياضاً إذا أدمن استعماله، ولذلك ينبغي أن يشاب هذا اللبن بالماء ليكون ما نال البدن منه أقل، وتسكينه للعطش أسرع، وتبريده أكثر.

(لبن المعز)

لبن المعز: لطيف معتدل، مطلق للبطن، مرطب للبدن اليابس، نافع من قروح الحلق، والسعال اليابس، ونفت الدم.

واللبن المطلق أنفع المشروبات للبدن الإنساني لما اجتمع فيه من التغذية والدسومة، ولاعتياده حال الطفولية، وموافقته للنفطرة الأصلية، وفي «الصحيحين»: أن رسول الله ﷺ أتته ليلة أُسري به بقَدَحٍ مِنْ خَمَرٍ، وَقَدَحٍ مِنْ لَبَنٍ، فنظر إليهما، ثم أخذ اللبن، فقال جبريل: الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. [البخاري: ٣٣٩٤، ومسلم: ٤٢٤]. والحامض منه بطيء الاستمراء، خام الخلط، والمعدة الحارة تهضمه وتنفع به.

(لبن البقر)

لبن البقر: يغذو البدن، ويخصبه، ويطلق البطن باعتدال، وهو من أعدل الألبان وأفضلها بين لبن الضأن، ولبن المعز في الرقة والغليظ والدسمة، وفي السنن: من حديث عبد الله بن مسعود يرفعه: «عَلَيْكُمْ بِاللَّبَنِ الْبَقَرِ، فَإِنَّهَا تَرُمُّ مِنْ كُلِّ الشَّجَرِ»^(١).

(١) لم يخرج أحد من أصحاب السنن، وإنما هو في «المستدرک» ١٩٧/٤ وهو حديث حسن.

(لبن الإبل)

لبن الإبل: تقدم ذكره في أول الفصل، وذكر منافعه، فلا حاجة لإعادته.

(بہان فائدتہ لطرد النسيان)

لَبَّانٌ: هو الكُنْدُرُ: قد ورد فيه عن النبي ﷺ: «يُبْحَرُوا بِبُيُوتِكُمْ بِاللَّبَّانِ وَالصَّعْتَرِ» ولا يصح عنه، ولكن يُروى عن علي أنه قال لرجل شكاً إليه النسيان: عليك باللَّبَّانِ، فإنه يَشْمَعُ الْقَلْبَ، وَيَذْهَبُ بِالنَّسيانِ. ويُذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما أن شربه مع السُّكَّرِ على الرِّيقِ جيّدٌ للبول والنَّسيانِ. ويُذكر عن أنس رضي الله عنه، أنه شكاً إليه رجل النسيان، فقال: عليك بالكُنْدُرِ وانقعه من الليل، فإذا أصبحت، فَخَذْ مِنْهُ شَرْبَةً على الرِّيقِ، فإنه جيّدٌ للنسيانِ.

ولهذا سبب طبيعي ظاهر، فإن النسيان إذا كان لسوء مزاج بارد رطب يغلب على الدماغ، فلا يحفظ ما ينطبع فيه، نفع منه اللَّبَّانُ، وأما إذا كان النسيانُ لغلبة شيء عارض، أمكن زواله سريعاً بالمرطبات. والفرق بينهما أن اليوسفي يتبعه سهر، وحفظ الأمور الماضية دون الحالية، والرطوبي بالعكس.

وقد يُحدث النسيانُ أشياءً بالخاصية، كحجامة نُقَرَةُ الْقَفَا، وإدمانٍ أكل الكُسْفَرَةِ الرطبة، والتفاح الحامض، وكثرة الهمِّ والغمِّ، والنظر في الماء الواقف، والبول فيه، والنظر إلى المصلوب، والإكثار من قراءة ألواح القبور، والمشى بين جملين مقطورين، وإلقاء القمل في الحياض وأكل سؤر الفأر، وأكثر هذا معروف بالتجربة^(١).

والمقصود: أن اللَّبَّانَ مسخّن في الدرجة الثانية، ومجفّف في الأولى، وفيه قبض يسير، وهو كثير المنافع، قليل المضار، فمن منافعه: أن ينفع من قذف الدم ونزفه، ووجع المعدة، واستطلاق البطن، ويهضم الطعام، ويطرّد الرياح، ويجلو قروح العين، ويثبت اللحم في سائر القروح، ويقوي المعدة الضعيفة، ويُسَخِّنُها، ويُجَفِّفُ البلغم، وينشف

رطوبات الصدر، ويجلو ظلمة البصر، ويمنع القروح الخبيثة من الانتشار، وإذا مُضِعَّ وحده، أو مع الصَّعْتَرِ الفارسي جلب البلغم، ونفع من اعتقال اللسان، ويزيد في الذهن ويذكّيه، وإن بُخِّرَ به ماء، نفع من الربو، وطيب رائحة الهواء.

حرف الميم

ماء: مادة الحياة، وسيّد الشراب، وأحد أركان العالم، بل ركّنه الأصلي، فإن السماوات خُلِقَتْ من بُخَّارِهِ، والأرض من زبدِهِ، وقد جعل الله منه كُلَّ شيء حي.

وقد اختلف فيه: هل يغذو، أو يُنفذ الغذاء فقط؟ على قولين، وقد تقدّم، وذكرنا القول الراجح ودليله. وهو بارد رطب، يقمع الحرارة، ويحفظ على البدن رطوباته، ويرد عليه بدل ما تحلّل منه، ويرقق الغذاء، ويُنفذه في العروق.

(اختبار جودة الماء)

وتعتبر جودة الماء من عشرة طرق:

أحدها: من لونه بأن يكون صافياً.

الثاني: من رائحته بأن لا تكون له رائحة البتة.

الثالث: من طعمه بأن يكون عذب الطعم خلوه، كماء النيل والفراة.

الرابع: من وزنه بأن يكون خفيفاً رقيقاً القيوم.

الخامس: من مجراه. بأن يكون طيب المجرى والمسلك.

السادس: من منبهه بأن يكون بعيد المنبع.

السابع: من بُروزه للشمس والريح، بأن لا يكون مختفياً تحت الأرض، فلا تتمكن الشمس والريح من قُصَّارته.

الثامن: من حركته بأن يكون سريع الجري والحركة.

التاسع: من كثرته بأن يكون له كثرة يدفع الفضلات الخالطة له.

العاشر: من مصبه بأن يكون آخذاً من الشمال إلى الجنوب، أو من المغرب إلى المشرق.

(١) هذا من طب المشعوذين الذي يروج عند العوام، ولشدة غلبة الوهم عليهم يظنون تجارب، ورحم الله المؤلف فلطالما حذر من مثل هذا.

وإذا اعتبرت هذه الأوصاف، لم تجدها بكمالها إلا في الأنهار الأربعة: النيل، والفرات، وسبحون، وجيحون.

وفي «الصحيحين»: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سَيِّحَانُ، وَجَيِّحَانُ، وَالنَّيْلُ، وَالْفَرَاتُ، كُلُّ مَنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ» [مسلم: ٧١٦١، وهو ليس في البخاري].

(اختبار خفة الماء)

وتعتبر خفة الماء من ثلاثة أوجه، أحدها: سرعة قبوله للحر والبرد، قال أبقراط: الماء الذي يسخن سريعاً، ويبرد سريعاً أخف المياه. الثاني: بالميزان، الثالث: أن تَبَل قُطْنَتَانِ متساويتا الوزن بماءين مختلفين، ثم يُجَفَّفَا بالغا، ثم توزنا، فأيتهما كانت أخف، فمأواها كذلك.

والماء وإن كان في الأصل بارداً رطباً، فإن قوته تتقل وتغير لأسباب عارضة تُوجب انتقالها، فإن الماء المكشوف للشمال المستور عن الجهات الأخر يكون بارداً، وفيه ييس مكتسب من ريح الشمال، وكذلك الحكم على سائر الجهات الأخر.

والماء الذي ينبع من المعادن يكون على طبيعة ذلك المعدن، ويؤثر في البدن تأثيره، والماء العذب نافع للمرضى والأصحاء، والبارد منه أنفع والذ، ولا ينبغي شربه على الريق، ولا عقيب الجماع، ولا الانتباه من النوم، ولا عقيب الحمام، ولا عقيب أكل الفاكهة، وقد تقدم. وأما على الطعام، فلا بأس به إذا اضطر إليه، بل يتعين ولا يُكثر منه، بل يتمصصه مضاً، فإنه لا يضره البتة، بل يقوي المعدة، ويُنهض الشهوة، ويُزيل العطش.

والماء القاتر ينفخ ويفعل ضد ما ذكرناه، وبأثته أجود من طريه وقد تقدم. والبارد ينفع من داخل أكثر من نفعه من خارج، والحر بالعكس، وينفع البارد من عفونة الدم، وصعود الأبخرة إلى الرأس، ويدفع العفونات، ويُوافق الأمزجة والأسنان والأزمان والأماكن الحارة، ويضر على كل حالة تحتاج إلى نضج وتحليل، كالزكام والأورام، والشديد البرودة منه يؤذي الأسنان، والإدمان عليه يحدث انفجار الدم والزلات، وأوجاع الصدر.

والبارد والحر بإفراط ضاران للعصب ولأكثر الأعضاء، لأن أحدهما محلل، والآخر مُكثف، والماء الحر يسكن لذع الأخلاط الحادة، ويحلل ويُنضج، ويُخرج الفضول، ويرطب ويُسخن، ويُسد الهضم شربه، ويطفو بالطعام إلى أعلى المعدة ويُرخيها، ولا يُسرّع في تسكين العطش، ويُذبل البدن، ويؤدي إلى أمراض رديئة، ويضر في أكثر الأمراض على أنه صالح للشيوخ، وأصحاب الصرع، والصُدَاع البارد، والرمد. وأنفع ما استعمل من خارج.

(الماء المشمس)

ولا يصح في الماء المسخن بالشمس حديث ولا أثر، ولا كره أحد من قدماء الأطباء، ولا عابوه، والشديد السخونة يُذيب شحم الكلى، وقد تقدم الكلام على ماء الأمطار في حرف العين.

ماء الثلج والبرد: ثبت في «الصحيحين»: عن النبي ﷺ أنه كان يدعو في الاستفتاح وغيره: «اللَّهُمَّ اغْنِني من خَطَايَايَ بِمَاءِ الثَّلَجِ وَالبَرْدِ» [البخاري: ٧٤٤، ومسلم: ٤١٣٥٤].

الثلج له في نفسه كيفية حادة دُخَانِيَّة، فمأوه كذلك، وقد تقدم وجه الحكمة في طلب الغسل من الخطايا بمائه لما يحتاج إليه القلب من التبريد والتصلب والتقوية، ويُستفاد من هذا أصل طب الأبدان والقلوب، ومعالجة أدوائها بضدها.

وماء البرد اللطيف والذ من ماء الثلج، وأما ماء الجمد وهو الجليد، فبحسب أصله.

والثلج يكتسب كيفية الجبال والأرض التي يسقط عليها في الجودة والرداءة، وينبغي تجنب شرب الماء المثلوج عقيب الحمام والجماع، والرياضة والطعام الحار، ولأصحاب السعال، ووجع الصدر، وضعف الكبد، وأصحاب الأمزجة الباردة.

ماء الآبار واللُغْنِي: مياه الآبار قليلة اللطافة، وماء اللُغْنِي المدفونة تحت الأرض ثقيل، لأن أحدهما محتقن لا يخلو عن تمفن، والآخر محجوب عن الهواء، وينبغي ألا يشرب على الفور حتى يصمد للهواء، وتأتي عليه ليلة، وأردؤه ما كانت مجاريه من

رصاص، أو كانت بثره معطلة، ولا سيما إذا كانت تربتها رديئة، فهذا الماء وبيء وخيم.

ماء زمزم: سيّد المياہ وأشرفها وأجلها قدراً، وأحبها إلى النفوس وأغلاها ثمناً، أنفُسها عند الناس، وهو هَزْمَةٌ جبريل وسُقيا الله إسماعيل [الدارقطني (٢/٢٨٩)، والحاكم (٤٧٣/١)].

وثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ، أنه قال لأبي ذرٍّ وقد أقام بين الكعبة وأستارها أربعين ما بين يوم ليلة، ليس له طعامٌ غيره، فقال النبي ﷺ: «إِنَّهَا طَعَامُ طُغَمٍ» [مسلم: ٩٣٥٩]. وزاد غيرُ مسلم بإسناده: «وَشِفَاءُ سَقَمٍ» [البيهقي (١٤٨/٥)، والطبراني (١٥٨/٢)].

(تحسين المصنف لحديث «ماء زمزم لما شرب له»)

وفي «سنن ابن ماجه». من حديث جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ» [ابن ماجه: ٣٠٦٢، والبيهقي (١٤٨/٥)]. وقد ضَعَفَ هذا الحديث طائفةٌ بعدد الله بن المؤمل راويه عن محمد بن المنكدر. وقد رويناه عن عبد الله بن المبارك، أنه لما حجَّ، أتى زمزم، فقال: اللهم إن ابنَ أبي الموالى حدثنا عن محمد بن المنكدر، عن جابر رضي الله عنه، عن نبيك ﷺ أنه قال: «مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ»، وَإِنِّي أَشْرَبُهُ لظُما يوم القيامة. وابن أبي الموالى ثقة، فالحديث إذاً حسن، وقد صححه بعضهم، وجعله بعضهم موضوعاً، وكلا القولين فيه مجازفة.

(تجريب المصنف له في الاستشفاء)

وقد جربتُ أنا وغيري من الاستشفاء بماء زمزم أموراً عجيبية، واستشفيْتُ به من عدة أمراض، فبرأت بإذن الله، وشاهدتُ من يتغذى به الأيام ذوات العدد قريباً من نصف الشهر، أو أكثر، ولا يجدُ جوعاً، ويطوفُ مع الناس كأحدهم، وأخبرني أنه ربما بقي عليه أربعين يوماً، وكان له قوة يجامع بها أهله، ويصوم ويطوف مراراً.

ماء النيل: أحدُ أنهار الجنة، أصله من وراء جبال القمر في أقصى بلاد الحبشة من أمطار تجتمعُ هناك،

وسيل يمدُّ بعضها بعضاً، فيسوقه الله تعالى إلى الأرض الجُرْز التي لا نبات لها، فيُخرج به زرعاً، تأكل منه الأنعام والأنام، ولما كانت الأرض التي يسوقه إليها إيليزاً^(١) صلبة، إن أمطرت مطر العادة، لم ترو، ولم تنهيا للنبات، وإن أمطرت فوق العادة ضرت المساكين والساكين، وعطلت المعاش والمصالح، فأمطر البلاد البعيدة، ثم ساق تلك الأمطار إلى هذه الأرض في نهر عظيم، وجعل سبحانه زيادته في أوقات معلومة على قدرِ رِيِّ البلادِ وكِفائيتها، فإذا أروى البلادَ وعَمَّها، أذن سبحانه بتناقصِهِ وهبوطه لتتم المصلحة بالتمكن من الزرع، واجتمع في هذا الماء الأمور العشرة التي تقدم ذكرها، وكان من لطف المياہ وأخفها وأعذبها وأحلاها.

ماء البحر: ثبت عن النبي ﷺ أنه قال في البحر: «هُوَ الظُّهُورُ مَاءُهُ الْجِلُّ مَيْتَتُهُ» [صحيح: أحمد: ٧٢٣٣، وأبو داود: ٨٣، والترمذي: ٦٩، والنسائي (٥٠/١)، وابن ماجه: ٣٨٦]. وقد جعله الله سبحانه ولعاً أجاجاً مرأ زعاقاً لتمام مصالح مَنْ هو على وجه الأرض من آدميين والبهايم، فإنه دائمٌ راکدٌ كثيرُ الحيوان، وهو يموتُ فيه كثيراً ولا يُقبر، فلو كان حلواً لأنن من إقامته وموت حيواناته فيه وأجاف، وكان الهواء المحيط بالعالم يكتسبُ منه ذلك، ويتثن ويخف، فيفسد العالم، فاقترضت حكمه الرب سبحانه وتعالى أن يجعله كالملاحاة التي لو ألقى فيه جيفَ العالم كلها وأنتانهُ وأمواته لم تُغيره شيئاً، ولا يتغير على مُكثهِ من حين خُلِق، وإلى أن يَطْوِيَ الله العالم، فهذا هو السبب الغائي الموجب لملوحته، وأما الفاعلي، فكونُ أرضه سَبِيحَةً مالحَةً.

(هوائد الغتسال به وما ينفع به مضرة الشرب منه)

وبعدُ فالأغتسال به نافع من آفات عديدة في ظاهر الجلد، وشربه مُضِرٌّ بداخله وخارجه، فإنه يُطلق البطن، ويهزل، ويحدث جُكَّةً وجرباً، ونفخاً وعطشاً، ومن اضطر إلى شربه فله طرق من العلاج يدفعُ بها مضرته.

منها: أن يُجعل في قدر، ويُجعل فوق القدر قصات

(١) طين الإبل: طين مصر الذي يتركه نيل مصر بعد انحساره عن الأرض.

وعليها صوفٌ جديدٌ منقوش، ويؤخذ تحت القدر حتى يرتفع بخارها إلى الصوف، فإذا كثُرَ عصره، ولا يزال يفعل ذلك حتى يجتمع له ما يريد، فيحصل في الصوف من البخار ما عذَّب، ويبقى في القدر الزُّعاق.

ومنها: أن يحفر على شاطئه حفرة واسعة يرشح ماؤه إليها، ثم إلى جانبها قريباً منها أخرى ترشح هي إليها، ثم ثالثة إلى أن يعذَّب الماء. وإذا ألجأته الضرورة إلى شرب الماء الكدِر، فعلاجه أن يلقي فيه نوى المِشمش، أو قطعة من خشب الساج، أو جمرأ ملتهاً يطفأ فيه، أو طيناً أرمنياً، أو سويق حنطة، فإن كدْرته ترسب إلى أسفل.

مسك: ثبت في صحيح مسلم، عن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: أَطْيَبُ اللَّطِيبِ الْمِسْكُ [مس: ٥٨٨].

وفي «الصحيحين»: عن عائشة رضي الله عنها: كُنْتُ أَطْيَبُ النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يُعْرَمَ وَيَوْمَ التَّحَرُّ قَبْلَ أَنْ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ طَبِيبٌ فِيهِ مِسْكٌ [البخاري: ١٥٣٩].
المِسْك: مَلِكٌ أَنْوَاعِ الطَّيْبِ، وَأَشْرَفُهَا وَأَطْيَبُهَا، وَهُوَ الَّذِي تُضْرَبُ بِهِ الْأَمْثَالُ، وَيُشَبَّهُ بِهِ غَيْرُهُ، وَلَا يُشَبَّهُ بِغَيْرِهِ، وَهُوَ كَثِيبَانِ الْجَنَّةِ، وَهُوَ حَارٌّ يَابِسٌ فِي الثَّانِيَةِ، يَسُرُّ النَّفْسَ وَيَقْوِيهَا، وَيَقْوِي الْأَعْضَاءَ الْبَاطِنَةَ جَمِيعَهَا شَرِباً وَشَمّاً، وَالظَّاهِرَةَ إِذَا وُضِعَ عَلَيْهَا. نَافِعٌ لِلْمَشَايِخِ، وَالْمَبْرُودِينَ، لَا سِيَّمَا زَمَنَ الشِّتَاءِ، جَيِّدٌ لِلْغَشْيِ وَالْخَفْقَانِ، وَضَعْفُ الْقُوَّةِ بِإِنْعَاشِهِ لِلْحَرَارَةِ الْغَرِيزِيَّةِ، وَيَجْلُو بَيَاضَ الْعَيْنِ، وَيُنْشِفُ رَطُوبَتَهَا، وَيَقْشُرُ الرِّيَّاحَ مِنْهَا وَمِنْ جَمِيعِ الْأَعْضَاءِ، وَيُبْطِلُ عَمَلَ السُّمُومِ، وَيَنْفَعُ مِنْ نَهَشِ الْأَفَاعِي، وَمَنَافِعُهُ كَثِيرَةٌ جَدّاً، وَهُوَ مِنْ أَقْوَى الْمَقْرَّحَاتِ.

مَرَزَنْجُوش^(١): ورد فيه حديث لا نعلم صحته: «عَلَيْكُمْ بِالْمَرَزَنْجُوشِ، فَإِنَّهُ جَيِّدٌ لِلْخَشَامِ»^(٢).
وَالْخَشَامُ: الزُّكَامُ.

وهو حار في الثالثة يابس في الثانية، ينفع شمه من

الصُّدَاعِ الْبَارِدِ، وَالْكَائِنِ عَنِ الْبَلْغَمِ، وَالسُّودَاءِ، وَالزُّكَامِ، وَالرِّيَّاحِ الْغَلِيظَةِ، وَيَفْتَحُ السُّدَّ الْحَادِثَةَ فِي الرَّأْسِ وَالْمَنْخَرَيْنِ، وَيُحَلِّلُ أَكْثَرَ الْأَوْرَامِ الْبَارِدَةِ، فَيَنْفَعُ مِنْ أَكْثَرِ الْأَوْرَامِ وَالْأَوْجَاعِ الْبَارِدَةِ الرُّطْبَةِ، وَإِذَا احْتَمَلَ، أَذَرَ الطَّمْثَ، وَأَعَانَ عَلَى الْحَبْلِ، وَإِذَا دُقَّ وَرَقُهُ الْيَابِسَ، وَكُوِّدَ بِهِ، أَذْهَبَ أَثَارَ الدَّمِ الْعَارِضِ تَحْتَ الْعَيْنِ، وَإِذَا ضُمِدَ بِهِ مَعَ الْخَلِّ، نَفَعَ لَسَعَةِ الْعَقْرَبِ.

ودهنه نافع لوجع الظهر والركبتين، ويذهب بالإعياء، ومن أدمن شمه لم ينزل في عينيه الماء، وإذا استعط بمائه مع دهن اللوز المر، فتح سد المنخرين، ونفعه من الريح العارضة فيها، وفي الرأس.

ملح: روى ابن ماجه في «سننه»: من حديث أنس يرفعه: «سَيِّدُ إِدَائِكُمُ الْمِلْحُ» [ابن ماجه: ٣٣١٥، وفي سننه متروكاً]. وسيد الشيء: هو الذي يصلحه، ويقوم عليه، وغالب الإدام إنما يصلح بالملح، وفي «مسند البزار» مرفوعاً: «سَيُورِيكَ أَنْ تَكُونُوا فِي النَّاسِ مِثْلَ الْمِلْحِ فِي الطَّعَامِ، وَلَا يَصْلُحُ الطَّعَامُ إِلَّا بِالْمِلْحِ» [الهيثم في «المجمع» (١٥/١٨)].

وذكر البغوي في «تفسيره»: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: «إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ أَرْزَجَ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ: الْحَدِيدَ، وَالنَّارَ، وَالْمَاءَ، وَالْمِلْحَ». والموقوف أشبه.

الملح يَصْلِحُ أَجْسَامَ النَّاسِ وَأَطْعَمَتَهُمْ، وَيُصْلِحُ شَيْءٌ يُخَالِطُهُ حَتَّى الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، وَذَلِكَ أَنَّ فِيهِ قُوَّةَ تَزْيِيدِ الذَّهَبِ صُفْرَةً، وَالْفِضَّةَ بَيَاضاً، وَفِيهِ جَلَاءٌ وَتَحْلِيلٌ، وَإِذَا هَابَ لِلرُّطُوبَاتِ الْغَلِيظَةِ، وَتَنْشِيفٌ لَهَا، وَقُوَّةٌ لِلْإِبْدَانِ، وَمَنْعٌ مِنْ عَفَوْنَتِهَا وَفَسَادِهَا، وَنَفْعٌ مِنَ الْجَرَبِ الْمُتَقَرِّحِ.

وإذا اكْتَحَلَ بِهِ، قَلَعَ اللَّحْمَ الزَّائِدَ مِنَ الْعَيْنِ، وَمَحَقَ الظَّفَرَةَ^(٣).

(١) المرزنجوش: هو نبات كثير الأغصان ينسبط على الأرض في نباته، وله ورق مستدير عليه زغب، وهو طيب الرائحة جداً.

(٢) ذكره السيوطي في «الجامع الصغير»، ورمز له بالضعف.

(٣) الظفرة: جليدة تغشي العين.

والأندراني^(١) أبلغ في ذلك، ويمنع القروح الخبيثة من الانتشار ويحلل البراز، وإذا ذُلك به بطون أصحاب الاستسقاء، نفعمهم، ويُنقي الأسنان، ويدفع عنها العفونة، ويشدُّ اللثة ويقويها، ومنافعه كثيرة جداً.

حرف النون

نخل: مذكور في القرآن في غير موضع، وفي «الصحيحين»: عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ، إذ أتني بجمار نخلة، فقال النبي ﷺ: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً مَثَلُهَا مَثَلُ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ لَا يَنْقُطُ وَرَقُهَا، أَخْبِرُونِي مَا هِيَ؟» فوقع الناس في شجر البوادي، فوقع في نفسي أنها النخلة، فأردت أن أقول: هي النخلة، ثم نظرت فإذا أنا أصغر القوم شيئاً، فسكت. فقال رسول الله ﷺ: «هِيَ النَّخْلَةُ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمْرٍ، فَقَالَ: لَأَنْ تَكُونَ قُلَّتْهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا» [البخاري: ٥٤٤٨، ومسلم: ٧٠٩٨].

(هolland حديث النخلة)

ففي هذا الحديث إلقاء العالم المسائل على أصحابه، وتمريضهم، واختيار ما عندهم.

وفيه ضرب الأمثال والتشبيه.

وفيه ما كان عليه الصحابة من الحياء من أكابرهم وإجلالهم وإمساحهم عن الكلام بين أيديهم.

وفيه فرح الرجل بإصابة ولده، وتوفيقه للصواب.

وفيه أنه لا يُكره للولد أن يُجيب بما يُعرف بحضرة أبيه، وإن لم يعرفه الأب، وليس في ذلك إساءة أدب عليه.

وفيه ما تضمنته تشبيه المسلم بالنخلة من كثرة خيرها، ودوام ظلها، وطيب ثمرها، وليس في ذلك إساءة أدب عليه.

وفيه ما تضمنته تشبيه المسلم بالنخلة من كثرة خيرها، ودوام ظلها، وطيب ثمرها، ووجوده على الدوام.

وثمرها يؤكل رطباً وباساً، ولباً ويانعاً، وهو غذاء ودواء وقوت وحلوى، وشراب وفاكهة، وجذوعها للبناء والآلات والأواني، ويُتخذ من خوصها الحُصْر والكاتِل والأواني والمراوح، وغير ذلك، ومن ليفها الحبال والحشايا وغيرها، ثم آخر شيء نواها علفٌ للابل، ويدخل في الأدوية والأكحال، ثم جمال ثمرتها ونباتها وحسن هيئتها، وبهجة منظرها، وحسن نضد ثمرها، وصنعتها وبهجته، ومسرة النفوس عند رؤيته، فرويتها مذكرة لفاطرها وخالقها، وبديع صنعة، وكمال قدرته، وتام حكمته، ولا شيء أشبه بها من الرجل المؤمن، إذ هو خير كُله، ونفع ظاهر وباطن.

وهي الشجرة التي حنَّ جذعها إلى رسول الله ﷺ لما فارقه شوقاً إلى قربهِ، وسماع كلامه، وهي التي نزلت تحتها مريم لما ولدت عيسى عليه السلام. وقد ورد في حديث في إسناده نظر: «أَثَرُكُمْ عَلَى النَّخْلَةِ، فَإِنَّهَا خُلِقَتْ مِنَ الطِّينِ الَّذِي خُلِقَ مِنْهُ آدَمُ»^(٢).

(اختلاف الناس في تفضيلها على الحيلة)

وقد اختلف الناس في تفضيلها على الحيلة أو بالعكس على قولين، وقد قرن الله بينهما في كتابه في غير موضع، وما أقرب أحدهما من صاحبه، وإن كان كل واحد منهما في محل سلطانه ومنته، والأرض التي توافقه أفضل وأنفع.

نرجس: فيه حديث لا يصح: «عَلَيْكُمْ بِشَمِّ النَّرْجِسِ فَإِنَّ فِي الْقَلْبِ حَبَّةَ الْجَنُونِ وَالْجَذَامِ وَالْبَرَصِ، لَا يَقْطَعُهَا إِلَّا شَمُّ النَّرْجِسِ»^(٣).

وهو حار يابس في الثانية، وأصله يُدمل القروح الغائرة إلى العصب، وله قوة غسالة جالية جابذة، وإذا طُبخ وشرب ماؤه، أو أكل مسلوفاً، هيج القيء، وجذب الرطوبة من قعر المعدة، وإذا طُبخ مع الكزبرة والعسل، نقي أوساخ القروح، وفجر اللبيلات العسيرة النضج.

(١) قال في «القاموس»: غلط صوابه ذرآني: وهو الملح الشديد البياض.

(٢) خبر لا يصح.

(٣) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات.

رسول الله ﷺ، ولا يثبت مثلها، بل هي موضوعة أحدها: «كُلُوا الْهِنْدَبَاءَ وَلَا تَقْضَوْهُ فَإِنَّهُ لَيْسَ يَوْمٌ مِنَ الْأَيَّامِ إِلَّا وَقَطَرَاتٌ مِنَ الْجَنَّةِ تَقَطَّرُ عَلَيْهِ». الثاني: «مَنْ أَكَلَ الْهِنْدَبَاءَ، ثُمَّ نَامَ عَلَيْهَا لَمْ يَحِلَّ فِيهِ سَمٌ وَلَا سِحْرٌ». الثالث: «مَا مِنْ وَرَقَةٍ مِنْ وَرَقِ الْهِنْدَبَاءِ إِلَّا وَعَلَيْهَا قَطْرَةٌ مِنَ الْجَنَّةِ»^(١).

ويعد فهي مستحيلة المزاج، منقلبة بانقلاب فصول السنة، فهي في الشتاء باردة رطبة، وفي الصيف حارة يابسة، وفي الربيع والخريف معتدلة، وفي غالب أحوالها تميل إلى البرودة واليبس، وهي قابضة مبردة جيدة للمعدة، وإذا طُبِّحَتْ وأُكِلَتْ بخُلٍ، عَقَلَتِ البطن وخاصة البري منها، فهي أجود للمعدة، وأشد قبضاً، وتنفع من ضعفها.

وإذا تَصَدَّ بها، سلبت الانتهاب العارض في المعدة، وتنفع التقرس، ومن أورام العين الحارة، وإذا تَصَدَّ بِوَرَقِهَا وأصولها، نفعت من لسع العقرب، وهي تُقَوِّي المعدة، وتفتح السُّدَّ العارضة في الكبد، وتنفع من أوجاعها حارّها وباردّها، وتفتح سُدَّ الطحال والعروق والأحشاء وتُنَقِّي مجاري الكلى.

وأنفعها للكبد أمرها، وماؤها المعتَصِر ينفع من اليرقان السلدي، ولا سيما إذا خُلط به ماء الرازيانج الرطب، وإذا دُقَّ ورُقها، ووضع على الأورام الحارة بردها وحلّلها، ويجلو ما في المعدة، ويُطْفِئ حرارة الدم والصفراء، وأصلح ما أكلت غير مغسولة ولا منقوضة، لأنها متى غُسِلَتْ أو نُفِضَتْ، فارقتها قُوَّتُهَا، وفيها مع ذلك قوة ترياقية تنفع من جميع السموم.

وإذا اكْتَحَلَ بمائها، نفع من الْعَسَا^(٢)، ويدخل ورُقها في الترياق، وينفع من لدغ العقرب، ويقاوم أكثر السموم، وإذا اعتَصِرَ ماؤها، وضُبَّ عليه الزيت، خلّص من الأدوية القتالة، وإذا اعتَصِرَ أصلها، وشُرِبَ ماؤه، نفع من لسع الأفاعي، ولسع العقرب، ولسع الزنبور، ولبن أصلها يجلو بياض العين.

وزهره معتدل الحرارة، لطيف ينفع الرُّكَام البارد، وفيه تحليل قوي، ويفتح سدود الدماغ والمنخرين، وينفع من الصداع الرطب والسوداوي، ويصدغ الرؤوس الحارة، والمحرق منه إذا شُقَّ بصله صلياً، وغُرِمَ، صار مضاعفاً، ومن أدمن شمه في الشتاء أمِنَ من البرسام في الصيف، وينفع من أوجاع الرأس الكائنة من البلغم والحرارة السوداء، وفيه من العطرية ما يقوي القلب والدماغ، وينفع من كثير من أمراضها. وقال صاحب التيسير: شمه يذهب بصرع الصبيان.

نورة: روى ابن ماجه: من حديث أم سلمة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ، كان إذا أَطْلَى بدأ بعورته، فطلاها بالنورة، وسائر جسده أهله [ابن ماجه: ٣٧٥١]، وقد ورد فيها عدة أحاديث هذا أمثلها.

قيل: إنَّ أول من دخل الحمام، وَضِنَتْ له النورة، سليمان بن داود، وأصلها: كلُّسُ جُرَّان، وزرنيخ جزء، يُخْلَطَانِ بالماء، ويتركان في الشمس أو الحمام بقدر ما تَنْضِجُ، وتشتد زرقته، ويُطلى به، ويجلس ساعة ريثما يعمل، ولا يمس بماء، ثم يغسل، ويُطلى مكانها بالحناء لإذهاب ناريتها.

نَبَق: ذكر أبو نعيم في كتابه «الطب النبوي» مرفوعاً: «إِنَّ آدَمَ لَمَّا أَهْبَطَ إِلَى الْأَرْضِ كَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ أَكَلَ مِنْ ثَمَارِهَا النَّبَقَ». وقد ذكر النبي ﷺ النَّبَقَ في الحديث المتفق على صحته: أنه رأى سدره المتهى ليلة أسري به، وإذا نَبَقُهَا مِثْلُ قَلَالِ هَجَرٍ [البخاري: ٣٢٠٧].

والنَّبَق: ثمر شجر السدر يعقل الطبيعة، وينفع من الإسهال، ويدبغ المعدة، ويسكن الصفراء، ويغذو البدن، ويشهي الطعام، ويولد بلغمًا، وينفع القُرْب الصفراوي، وهو بطيء الهضم، وسويقه يقوي الحشا، وهو يُضْلِحُ الأمزجة الصفراوية، وتدفع مضرتها بالشهد.

واخْتَلَفَ فيه، هل هو رطب أو يابس؟ على قولين. والصحيح: أن رطبه بارد رطب، ويابسه بارد يابس.

حرف الهاء

هِنْدَبَاء: ورد فيها ثلاثة أحاديث لا تصح عن

(٢) العسا: سوء البصر بالليل والنهار، كالعشاوة.

(١) انظر «المنار المنيف» للمؤلف ص (٥٤).

حرف السواو

ورس^(١): ذكر الترمذي في «جامعه»: من حديث زيد بن أرقم، عن النبي ﷺ، أنه كان ينعت الزَّيْتِ وَالْوَرَسَ مِنْ ذَاتِ الْجَنْبِ، قال قتادة: يُلْدُ بِهِ، وَيُلْدُ مِنَ الْجَانِبِ الَّذِي يَشْتَكِيهِ [الترمذي: ٢٠٧٩، وابن ماجه: ٣٤٦٧، وفي سنده ضعف].

وروى ابن ماجه في «سننه» من حديث زيد بن أرقم أيضاً، قال: نعت رسول الله ﷺ مِنْ ذَاتِ الْجَنْبِ وَرَساً وَقُسْطاً وَزَيْتاً يُلْدُ بِهِ.

وصح عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كَانَتْ النِّسَاءُ تَقْعُدُ بَعْدَ نَفَاسِهَا أَرْبَعِينَ يَوْماً، وَكَانَتْ إِحْدَانَا تَقْلِي الْوَرَسَ عَلَى وَجْهِهَا مِنَ الْكَلْفِ [سنده حسن: احمد: ٢٦٥٦١، وابوداود: ٣١١-٣١٢، والترمذي: ١٣٩].

قال أبو حنيفة اللغوي: الورس يُزْرَع زَرْعاً، وليس ببري، ولست أعرفه بغير أرض العرب، ولا من أرض العرب بغير بلاد اليمن.

وقوته في الحرارة واليبوسة في أول الدرجة الثانية، وأجوده الأحمر اللين في اليد، القليل النخالة، ينفع من الكلف، والحكة، والبثور الكائنة في سطح البدن إذا طُمِيَ بِهِ، وله قوة قابضة صابغة، وإذا شُرِبَ نفع من الوُضَحِ، ومقدار الشربة منه وزن درهم.

وهو في مزاجه ومنافعه قريب من منافع القسط البحري، وإذا لطخ به على البهق والحكة والبثور والسفحة نفع منها، والثوب المصبوغ بالورس يقوي على الباه.

وشمة: هي ورق النيل، وهي تسود الشعر، وقد تقدم قريباً ذكر الخلاف في جواز الصبغ بالسواد ومن فعله.

حرف الياء

يقطين: وهو الدُّبَاءُ والقرع، وإن كان اليقطين أعَمَّ، فإنه في اللغة: كل شجر لا تقوم على ساق، كالبطيخ والقثاء والخيار، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَّقِطِينَ﴾ [الصافات: ١٤٦].

(السبب في إطلاق القرآن على اليقطين اسم الشجر)

فإن قيل: ما لا يقوم على ساق يُسمى نجماً لا

شجراً، والشجر: ما له ساق، قاله أهل اللغة: فكيف قال: ﴿شَجَرَةً مِّنْ يَّقِطِينَ﴾ [الصافات: ١٤٦].

فالجواب: أن الشجر إذا أُطْلِقَ، كان ما له ساق يقوم عليه، وإذا قَيِّدَ بشيء تنقيد به، فالفرق بين المطلق والمقيد في الأسماء باب مهم عظيم النفع في الفهم، ومراتب اللغة.

واليقطين المذكور في القرآن: هو نبات الدُّبَاءِ، وثمره يُسمى الدُّبَاءُ والقرع، وشجرة اليقطين. وقد ثبت في «الصحيحين»: من حديث أنس بن مالك، أن خياطاً دعا رسول الله ﷺ لِعُطَامِ صَنَعِهِ، قال أنس رضي الله عنه: فذهب مع رسول الله ﷺ، فقترب إليه خُبْزاً من شعير، ومرقاً فيه دُبَاءٌ وقديد، قال أنس: فرأيت رسول الله ﷺ يَتَّبِعُ الدُّبَاءَ مِنْ حَوَالِي الصَّحْفَةِ، فلم أزل أحب الدُّبَاءَ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ [البخاري: ٥٤٣٦، ومسلم: ٥٣٢٥].

وقال أبو طالوت: دخلت على أنس بن مالك رضي الله عنه، وهو يأكل القرع، ويقول: يا لك من شجرة ما أحبك إليّ لحب رسول الله ﷺ إيَّاكَ.

وفي «الغيلانيات»: من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «يَا عَائِشَةُ إِذَا طَبَخْتُمْ قَدْرًا، فَأَكْثَرُوا فِيهَا مِنَ الدُّبَاءِ، فَإِنَّهَا تَشُدُّ قَلْبَ الْحَزِينِ».

اليقطين: بارد رطب، يغذو غذاءً يسيراً، وهو سريع الانحدار، وإن لم يفسد قبل الهضم، تولد منه خلط محمود، ومن خاصيته أنه يتولد منه خلط محمود مجانس لما يصحبه، فإن أكل بالخردل، تولد منه خلط جريء، وبالملاح خلط مالح، ومع القابض قابض، وإن طُبِخَ بالسفرجل غذا البدن غذاءً جيداً.

وهو لطيف مائي يغذو غذاءً رطباً بلغمياً، وينفع المحرورين، ولا يلائم المبرودين، ومن الغالب عليهم البلغم، وماؤه يقطع العطش، ويذهب الصداع الحار إذا شرب أو غسل به الرأس، وهو ملين للبطن كيف استعمل، ولا يتداوى المحرورون بمثله، ولا أعجل منه نفعاً.

ومن منافعه: أنه إذا لُطِخَ بعجين، وشوي في الفرن

(١) الورس: نبت أصفر، مثل نبات السمسم، يصبغ به ويتخذ منه حمرة للوجه لتحسين اللون.

أو التنور، واستخرج ماؤه وشرب ببعض الأشربة اللطيفة، سَكَنَ حرارة الحمى الملتهبة، وقطع العطش، وغذى غذاءً حسناً، وإذا شرب بترنجبين وسفرجل مرئى أسهل صفراء محضة.

وإذا طَبَخَ القرع، وشرب ماؤه بشيء من عسل، وشيء من نظرون، أَحَذَرَ بلغمًا ومرة معاً، وإذا دُقَّ وغُمِلَ منه ضماد على اليافوخ، نفع من الأورام الحارة في الدماغ.

وإذا عَصِرَتْ جُرَادَتُهُ^(١)، وَخُلِطَ ماؤها بذهن الورد، وقطر منها في الأذن، نفعت من الأورام الحارة، وجُرَادَتُهُ نافعة من أورام العين الحارة، وبين الثَّقرس الحار، وهو شديد النفع لأصحاب الأمزجة الحارة والمحمومين، ومتى صادف في المعدة خلطاً رديئاً، استحال إلى طبيعته، وفسد، ووُلِدَ في البدن خلطاً رديئاً، ودفع مضرته بالخل والمُرِّي^(٢).

وبالجملة فهو من ألطف الأغذية، وأسرعها انفعالاً، ويذكر عن أنس، رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ كان يكثر من أكله.

فصل

(منازل طبية لابن ماسويه)

وقد رأيتُ أن أُخَيِّمَ الكلامَ في هذا الباب بفصل مختصر عظيم النفع في المحاذير، والوصايا الكلية النافعة ليتمَّ منفعة الكتاب، ورأيتُ لابن ماسويه فصلاً في كتاب «المحاذير» نقلته بلفظه، قال:

من أكل البصل أربعين يوماً وكَلِيفَ، فلا يَلمُومَنَّ إلَّا نفسه.

ومن افتصدَ، فأكل مالِيحاً فأصابه بَهَقٌ أو جَرَبٌ، فلا يَلمُومَنَّ إلَّا نفسه.

ومن جمع في معدته البيض والسّمك، فأصابه فالج أو لَقْوَةٌ، فلا يَلمُومَنَّ إلَّا نفسه.

ومن دخل الحمام وهو ممتلئ، فأصابه فالج، فلا يَلمُومَنَّ إلَّا نفسه.

ومن جمع في معدته اللبن والسّمك، فأصابه جُذام، أو بَرَصٌ أو ثَقَرَسٌ، فلا يَلمُومَنَّ إلَّا نفسه.

ومن جمع في معدته اللبن واللبيذ، فأصابه بَرَصٌ أو ثَقَرَسٌ، فلا يَلمُومَنَّ إلَّا نفسه.

ومن احتلم، فلم يغتسل حتى وطىء أهله، فولدت معنونا أو مخبلاً، فلا يَلمُومَنَّ إلَّا نفسه.

ومن أكل بيضاً مسلوقاً بارداً، وامتلا منه، فأصابه ربو، فلا يَلمُومَنَّ إلَّا نفسه.

ومن جامع، فلم يَصْبِرَ حتى يُفْرَغَ، فأصابه حصاة، فلا يَلمُومَنَّ إلَّا نفسه.

ومن نظر في المرأة ليلاً، فأصابه لقوة، أو أصابه داء، فلا يَلمُومَنَّ إلَّا نفسه.

فصل

(منازل طبية لابن ماسويه)

وقال ابن بَخْتِيشُوع: احذر أن تجمعَ البيض والسّمك، فإنهما يُورِثان الثَّلَونَجَ، والبواسير، ووجع الأضراس.

وإدامة أكل البيض يُولِّدُ الكَلَفَ في الوجه، وأكلُ الملوحة والسّمك المالح والاقتصاد بعد الحمام يُولد البَهَقَ والجرب.

إدامة أكل كُلِّ الغنم يعقِرُ المثانة. الاغتسال بالماء البارد بعد أكل السّمك الطري يُولِّدُ الفالج.

وطء المرأة الحائض يُولِّدُ الجُذام، الجماعُ من غير أن يُهرق الماء عقيبه يُولِّدُ الحصاة، طول المكث في المخرج يُولِّدُ الداءَ الدوي.

(وصايا للفرط)

قال أبقراط: الإقلال من الضار خير من الإكثار من النافع.

وقال: استديموا الصحة بترك التكاسل عن التعب، وترك الامتلاء من الطعام والشراب.

(وصايا للحارث بن كلثة وغيره)

وقال بعض الحكماء: من أراد الصّحة، فليجود الغذاء، وليأكل على نقاء، وليشرب على ظمأ، وليُتَلَّ من شرب الماء، ويتملّد بعد الغذاء، ويتمشّ بعد العشاء، ولا ينم حتى يَعرُضَ نفسه على الخلاء، وليحذر دخول الحمام عقيب الامتلاء، ومرة في

(١) يريد قشر القرع. والجراة: من يقشر من العود.

(٢) المري: إدام كالكامخ.

الصيف خيرٌ من عشرٍ في الشتاء، وأكلُ القديد اليابس بالليل معينٌ على الفناء، ومجامعةُ العجائز تُهرُم أعمارَ الأحياء، وتسقم أبدانُ الأصحاء، ويروى هذا عن علي رضي الله عنه، ولا يصحُّ عنه، وإنما بعضه من كلام الحارث بن كَلْدَةَ طبيبِ العرب، وكلام غيره.

وقال الحارث: من سره البقاء - ولا بقاء - فليأْكِرِ الغداء، وليُجْعِلِ العشاء، وليُخَفِّفِ الرِّداء، وليُقِلِّ غشيانَ النساء.

وقال الحارث: أربعةُ أشياء تَهْلِكُ البدنَ: الجماعُ على البطنة، ودخولُ الحمامِ على الامتلاء، وأكلُ القديد، وجماعُ العجوز.

ولما احتَضَرَ الحارث اجتمع إليه الناسُ، فقالوا: مُرْنَا بأمرٍ تنتهي إليه مِن بعدك، فقال: لا تتزوجوا مِن النساءِ إِلَّا شابة، ولا تأكلوا مِن الفاكهةِ إِلَّا فِي أَوَانٍ نَضِجها، ولا يتعالَجَنَّ أَحَدُكُمْ ما احتمل بِلَنِّه الداء، وعليكم بِتَنْظِيفِ المَعِدَةِ فِي كلِّ شهرٍ، فَإِنَّها مُذْيِيَةٌ لِلْبَلْغَمِ، مُهْلِكَةٌ لِلْمَرَّةِ مُنْبِتَةٌ لِلْحَمِّ، وَإِذَا تَغَدَّي أَحَدُكُمْ، فَلْيَنْمِ عَلَى إِثْرِ غَدائِهِ سَاعَةً، وَإِذَا تَعَشَّى فَلْيَمِشْ أَرْبَعِينَ خُطْوَةً.

(وصايا لطبيب)

وقال بعضُ الملوك لطيبه: لعلَّكَ لا تَبْقَى لِي، فَصِفْ لِي صِفَةً أَخَذَهَا عَنْكَ، فقال: لا تَنْكِحْ إِلَّا شابة، ولا تَأْكُلْ مِنَ اللحمِ إِلَّا فِتْيَةً، ولا تَشْرَبِ الدَّوَاءَ إِلَّا مِنْ عِلَّةٍ، ولا تَأْكُلِ الْفَاكِهَةَ إِلَّا فِي نَضِجِها، واجِدْ مَضِغَ الطَّعَامِ. وَإِذَا أَكَلْتَ نَهَاراً فَلَا بَأْسَ أَنْ تَنَامَ، وَإِذَا أَكَلْتَ لَيْلاً فَلَا تَنَمْ حَتَّى تَمُوتَ وَلَوْ خَمْسِينَ خُطْوَةً، ولا تَأْكُلَنَّ حَتَّى تَجُوعَ، ولا تَتَكَارَهَنَّ عَلَى الْجَمَاعِ، ولا تحبس البول، وخذ من الحمام قبل أن يأخذ منك، ولا تأكلَنَّ طعاماً، وفي مَعِدَّتِكَ طعاماً: وإياكَ أَنْ تَأْكُلَ ما تعجز أسنانك عن مضغوه، فتعجز مَعِدَّتُكَ عن هضمه، وعليك في كل أسبوعٍ بِقِيَّةٍ تَنْفِي جَسْمَكَ، وَنِعْمَ الْكَثْرُ الدَّمُ فِي جَسَدِكَ، فَلَا تُخْرِجْهُ إِلَّا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَعَلَيْكَ بِدُخُولِ الْحَمَامِ، فَإِنَّهُ يُخْرِجُ مِنَ الْأَطْبَاقِ ما لا تَصِلُ الْأَدْوِيَةُ إِلَى إِخْرَاجِهِ.

(وصايا للشافعي)

وقال الشافعي:

أربعةٌ تُقْوِي البدنَ: أكلُ اللحمِ، وشُمُّ الطيبِ، وكثرةُ الغسلِ مِن غيرِ جماعٍ، ولبسُ الكَتَّانِ.

وأربعةٌ تُؤْهِنُ البدنَ: كثرةُ الجماعِ، وكثرةُ الهَمِّ، وكثرةُ شربِ الماءِ عَلَى الرِّيقِ، وكثرةُ أَكْلِ الحامِضِ.

وأربعةٌ تُقْوِي البصرَ: الجلوسُ حِبالَ الكعبةِ، والكحلُّ عِنْدَ النَّوْمِ، والنظرُ إِلَى الْخُضْرَةِ، وتَنْظِيفُ المَجْلِسِ.

وأربعةٌ نُوهِنُ البصرَ: النظرُ إِلَى الْقَدَرِ، وَإِلَى المَصْلُوبِ، وَإِلَى فَرْجِ الْمَرْأَةِ، والقعودُ مُسْتَدْبِرَ الْقِبْلَةِ.

وأربعةٌ تَزِيدُ فِي الْجَمَاعِ: أَكْلُ العَصافِيرِ، والإطْرِيفُ، والفَسَقُ، والخُرُوبُ.

وأربعةٌ تَزِيدُ فِي الْعَقْلِ: تَرْكُ الْفُضُولِ مِنَ الْكَلَامِ، والسَّوَاكِ، ومَجَالَسَةُ الصَّالِحِينَ، ومَجَالَسَةُ الْعُلَمَاءِ^(١).

(محاذير لأفلاطون)

وقال أفلاطون: خمسٌ يُدْبِنُ البدنَ وربما قَتَلَن: قَصْرُ ذَاتِ الْيَدِ، وفِرَاقُ الْأَحِبَّةِ، وتَجَرُّعُ الْمَغَايِظِ، وَرَدُّ النَّصِيحِ، وَضَحْكُ ذَوِي الْجَهْلِ بِالْعُقْلَاءِ.

(محاذير لطبيب المأمون)

وقال طبيبُ المأمون: عَلَيْكَ بِخَصَالٍ مِنْ حَفِظْها، فهو جَدِيرٌ أَنْ لَا يَعْتَلِ إِلَّا عِلَّةَ الْمَوْتِ: لَا تَأْكُلْ طَعَاماً وَفِي مَعِدَّتِكَ طَعَامٌ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَأْكُلَ طَعَاماً يُتَّعَبُ أَضْرَاسُكَ فِي مَضْغِهِ، فَتَعْجُزَ مَعِدَّتُكَ عَنْ هَضْمِهِ، وَإِيَّاكَ وَكَثْرَةَ الْجَمَاعِ، فَإِنَّهُ يُطْفِئُ نَوْرَ الْحَيَاةِ، وَإِيَّاكَ وَمِجَامِعَةَ الْعِجُوزِ، فَإِنَّهُ يُورِثُ مَوْتَ الْفَجَاءَةِ، وَإِيَّاكَ وَالْفَصْدَ إِلَّا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَعَلَيْكَ بِالْقِيَّةِ فِي الصَّيْفِ.

(وصية لأبقراط)

ومن جوامع كلمات أبقراط قوله: كُلُّ كَثِيرٍ فَهُوَ مُعَادٌ لِلطَّبِيعَةِ.

(١) راجع آداب الشافعي صفحة (٣٢٣) والآداب الشرعية، (٢/ ٣٩٠) وشرح القاموس، (٤١٦/٧).

حصل له من الضرر بحسبه، وإن فُقدت كلها أو أكثرها، فهو الهلاك المعجل.

فصل

(الحمية، ووصايا لجالينوس)

والحمية المفرطة في الصحة، كالتخليط في المرض، والحمية المعتدلة نافعة، وقال جالينوس لأصحابه: اجتنبوا ثلاثاً، وعليكم بأربع، ولا حاجة بكم إلى طبيب: اجتنبوا الغبار، والدخان، والشتن، وعليك بالدسم، والطيب، والحلوى، والحمام، ولا تأكلوا فوق شبعكم، ولا تتخللوا بالبادزوج^(١)، والرَّيحان، ولا تأكلوا الجوزَ عند المساء، ولا ينم من به زُكمة على قفاه، ولا يأكل من به غمٌ حايضاً، ولا يُسرع المشي من اقتصد، فإنه مخاطرة الموت، ولا يتقياً مَنْ تولمه عينه، ولا تأكلوا في الصيف لحماً كثيراً، ولا ينم صاحب الحمى الباردة في الشمس، ولا تقرّبوا الباذنجان العتيق المبزر، ومن شرب كل يوم في الشتاء قدحاً من ماء حار، أُمِن من الأعلال، ومن ذلك جسمه في الحمام بقشور الرمان أَمِن من الجرب والحكة، ومن أكل خمسَ سوسنات مع قليل مُضطكى رومي، وعود خام، ومسك بقي طولَ عمره لا تضعفَ مَعِدَتُهُ ولا تفسد، ومن أكل بزر البطيخ مع السكر، نظف الحصى من معدته، وزالت عنه حرقة البول.

فصل

(وصايا عامة)

أربعة تهديمُ البدن: الهمُّ، والحزن، والجوع، والسهر.

وأربعة تفرُّخ: النظر إلى الخضرة، وإلى الماء الجاري، والمحبوب، والثمار.

وأربعة تُظلم البصر: المشي حافياً، والتصبح والتسمي بوجه البغيض والثقيل، والعدو، وكثرة البكاء، وكثرة النظر في الخط الدقيق.

وأربعة تُقوي الجسم: لبسُ الثوب الناعم، ودخولُ الحمام المعتدل، وأكل الطعام الحلو

(وصية لجالينوس)

وقيل لجالينوس: مالك لا تمرض؟ فقال: لأنني لم أجمع بين طعامين رديين، ولم أذخل طعاماً على طعام، ولم أخس في المعدة طعاماً تأذيت به.

فصل

(أربعة أشياء تمرض الجسم)

وأربعة أشياء تمرض الجسم: الكلام الكثير، والنوم الكثير، والأكل الكثير، والجماع الكثير.

(مضار الكلام الكثير)

فالكلام الكثير: يُقلل مع الدماغ ويُضعفه، ويعجل الشيب.

(مضار النوم الكثير)

والنوم الكثير: يصفّر الوجه، ويُعمي القلب، ويهيج العين، ويُكسل عن العمل، ويولد الرطوبات في البدن.

(مضار الأكل الكثير)

والأكل الكثير يفسدُ المعدة، ويُضعف الجسم، ويولد الرياح الغليظة، والأدواء العسرة.

(مضار الجماع الكثير)

والجماع الكثير: يهدم البدن، ويُضعف القوى، ويحفّ رطوبات البدن، ويُرخي العصب، ويُورث السدد، ويُعم ضرره جميع البدن، ويخصّ الدماغ لكثرة ما يتحلل به من الروح النفساني، وإضعافه أكثر من إضعاف جميع المستفرغات، ويستفرغ من جوهر الروح شيئاً كثيراً.

(انفع الجماع)

وأنفع ما يكون إذا صادف شهوة صادقة من صورة جميلة حديثة السن حلالاً مع سنّ الشبوبة، وحرارة المزاج ورطوبته، وبعيد العهد به وخلاء القلب من الشواغل النفسانية، ولم يُفطر فيه، ولم يُقارنه ما ينبغي تركه من امتلاء مفرط، أو خواء، أو استفرغ، أو رياضة تامة أو حرّ مفرط، أو برد مفرط، فإذا راعى فيه هذه الأمور العشرة، انتفع به جداً، وأيها فقد فقد

(١) بقلة معروفة تقوي القلب جداً، وتقضي، إلا أن تصادف فضلة فتسهل. قاموس.

والدسم، وشم الروائح الطيبة. وأربعةٌ تبيس الوجه، وتذهب مائه وبهجته وطلاوته: الكذب، والوقاحة، وكثرة السؤال عن غير علم، وكثرة الفجور.

وأربعةٌ تزيد في ماء الوجه وبهجته: المروءة، والوفاء، والكرم، والتقوى.

وأربعةٌ تجلبُ البغضاء والمقت: الكبير، والحسد، والكذب، والنميمة.

وأربعةٌ تجلبُ الرزق: قيام الليل، وكثرة الاستغفار بالأسحار، وتعاقد الصدقة، والذكر أول النهار وآخره.

وأربعةٌ تمنع الرزق: نومُ الصبحة، وقلة الصلاة، والكسل، والخيانة.

وأربعةٌ تضرُّ بالفهم والذهن: إدمانُ أكل الحامض والفواكه، والنوم على القفا، والهَم، والغم.

وأربعةٌ تزيد في الفهم: فراغ القلب، وقلة التملُّي من الطعام والشراب، وحسن تدبير الغذاء بالأشياء الحلوَّة والدَّسمة، وإخراج الفضلات المثقَّلة للبدن.

ومما يضرُّ بالعقل: إدمانُ أكل البصل، والباقلَا، والزيتون، والباذنجان، وكثرة الجماع، والوحدة، والأفكار، والسُّكر، وكثرة الضحك، والغم.

قال بعض أهل النظر: قُطِعَتْ^(١) في ثلاث مجالس، فلم أجد لذلك علة إلا أنني أكثرْتُ من أكلِ الباذنجان في أحد تلك الأيام، ومن الزيتون في الآخر، ومن الباقلا في الثالث.

فصل

(فضل الطب النبوي)

قد أتينا على جملة نافعة من أجزاء الطبِّ العلمي والعملِّي، لعل الناظر لا يظفرُ بكثير منها إلا في هذا الكتاب، وأريناك قرب ما بينها وبين الشريعة، وأن الطبَّ النبوي نسبةٌ طبِّ الطبَّاعين إليه أقلُّ من نسبة طبِّ المعجَّز إلى طبِّهم.

والأمر فوق ما ذكرناه، وأعظمُ مما وصفناه بكثير، ولكن فيما ذكرناه تنبيه باليسير على ما وراءه، ومن لم

ولعل قائلًا يقول: ما لهدى الرسول ﷺ، وما لهذا الباب، وذكر قوى الأدوية، وقوانين العلاج، وتدبير أمر الصحة؟

وهذا من تقصير هذا القائل في فهم ما جاء به الرسول ﷺ، فإن هذا وأضعافه وأضعاف أضعافه من فهم بعض ما جاء به، وإرشاده إليه، ودلالته عليه، وحسنُ الفهم عن الله ورسوله مَنْ يَمُنُّ بالله به على مَنْ يشاء من عباده.

فقد أوجدناك أصول الطب الثلاثة في القرآن، وكيف تُنكر أن تكون شريعة المبعوث بصلاح الدنيا والآخرة مشتملة على صلاح الأبدان، كاشتمالها على صلاح القلوب، وأنها مرشدة إلى حفظ صحتها، ودفع آفاتنا بطرق كلية قد وُكِّل تفصيلها إلى العقل الصحيح، والفطرة السليمة بطريق القياس والتنبيه والإيماء، كما هو في كثير من مسائل فروع الفقه، ولا تكن ممن إذا جهل شيئاً أعاده.

ولو رزقَ العبدُ تضلعاً من كتاب الله وسنة رسوله، وفهماً تاماً في النصوص ولوازمها، لاستغنى بذلك عن كلِّ كلامٍ سواه، ولاستبقت جميع العلوم الصحيحة منه.

فمدارُ العلوم كلها على معرفة الله وأمره وخلقه، وذلك مسلَّم إلى الرسل صلوات الله عليهم وسلامه، فهم أعلمُ الخلق بالله وأمره وخلقه وحكمته في خلقه وأمره.

وطب أتباعهم: أصحُّ وأنفع من طب غيرهم. وطبُّ أتباع خاتمهم وسيدهم وإمامهم محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، وعليهم: أكملُ الطب وأصحُّه وأنفعه، ولا يَعْرِفُ هذا إلا من عرف طبَّ الناس سواهم وطبَّهم، ثم وازن بينهما، فحيثُ يظهر له التفاوت، وهم أصحُّ الأمم عقولاً وفطراً، وأعظمهم علماً، وأقربهم في كل شيء إلى الحق

(١) أي: غلب في المناظرة والمباحثة.

لأنهم خيرة الله من الأمم، كما أن رسولهم خيرته من الرسل. والعلم الذي وهبهم إياه، والحلم الحكمة أمر لا يدانهم فيه غيرهم، وقد روى الإمام أحمد في «مسنده»: من حديث بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنْتُمْ تَوْفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ» [حسن: أحمد: ٢٠٠٤٩، والترمذي: ٣٠٠١، وابن ماجه: ٤٢٨٨] فظَهَرَ أثرُ كرامتها على الله سبحانه في علومهم وعقولهم، وأحلامهم وفطرتهم، وهم الذين عُرِضَتْ عليهم علومُ الأمم قبلهم وعقولهم، وأعمالهم ودرجاتهم، فازدادوا بذلك علماً وحلماً وعقلاً إلى ما أفاض الله سبحانه وتعالى عليهم من علمه وحلمه.

(غلب على النصارى البلادة)

وعلى اليهود الهم وعلى المسلمين العقل والشجاعة ...)

ولذلك كانت الطبيعة الدموية لهم، والصفراوية لليهود، والبلغمية للنصارى، ولذلك غلب على النصارى البلادة، وقلة الفهم والفطنة، وغلب على اليهود الحزن والهَمُّ والغَمُّ والصَّغار، وغلب على المسلمين العقل والشجاعة والفهم والنجدة، والفرح والسرور.

وهذه أسرارٌ وحقائق إنما يعرف مقدارها من حَسَنَ فهمه، وَلَطَفَ ذِهنه، وَغَزَرَ عِلْمُه، وعرف ما عند الناس وبالله التوفيق.



فصل

في هديه ﷺ في الأقضية والأحكام

والبُيُوع

وليس الغرض من ذلك ذكر التشريع العام وإن كانت أقضيته الخاصة تشريعاً عاماً، وإنما الغرض ذكر هديه في الحكومات الجزئية التي فصل بها بين الخصوم، وكيف كان هديه في الحكم بين الناس، ونذكر مع ذلك قضايا من أحكامه الكلية.

فصل

(جواز الحبس)

ثبت عنه ﷺ من حديث بهز بن حكيم، عن أبيه،

عن جده، أن النبي ﷺ حَبَسَ رجلاً في تُهْمَةٍ. قال أحمد وعلي بن المديني: هذا إسناد صحيح [حسن: أبو داود: ٣٦٣٠، والترمذي: ١٤١٧، والنسائي (٨/٦٧)].

وذكر ابن زياد عنه ﷺ في «أحكامه»: أنه ﷺ سجن رجلاً أعتق شُرْكَاً له في عبد، فوجب عليه استئمان عتقه حتى باع عُتِمَةً له [عبد الرزاق: ١٦٧١٦، والبيهقي (١/٢٧٦)].

فصل

في حكمه فيمن قَتَلَ عبده

روى الأوزاعي، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رجلاً قتل عبده متعمداً، فجلده النبي ﷺ مئة جلدة، ونفاه سنة وأمره أن يعتق رقبةً ولم يُقْذَ به [حسن: الدارقطني (٣/١٤٣-١٤٤)].

وروى الإمام أحمد: من حديث الحسن، عن سَمُرَةَ رضي الله عنه، عنه ﷺ: «مَنْ قَتَلَ عَبْدَهُ قَتَلَنَاهُ» [سنه ضعيف: أحمد: ٢٠١٠٤ - ٢٠١٢٢، وأبو داود: ٤٥١٥، والترمذي: ١٤١٤، والنسائي (٨/٢٠-٢١)]. فإن كان هذا محفوظاً، وقد سمعه منه الحسن، كان قتله تعزيراً إلى الإمام بحسب ما يراه من المصلحة.

وأمر رجلاً بملازمة غريمه، كما ذكر أبو داود، عن النَّضَر بن شُمَيْل، عن الهرماس بن حبيب، عن أبيه، عن جده رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ بغريم لي، فقال لي: «الزَّمُّ» ثم قال لي: «يا أخا بني سَهْمٍ مَا تُرِيدُ أَنْ تَفْعَلَ بِأَبِيكَ؟» [أبو داود: ٣٦٢٩، وابن ماجه: ٢٤٢٨] وروى أبو عبيد، أنه ﷺ أمر بقتل القاتل، وصبر الصابر [عبد الرزاق: ١٧٨٩٢ - ١٧٨٩٥، والدارقطني (٣/١٤٠)]. قال أبو عبيد: أي: بحسبه للموت حتى يموت.

وذكر عبدُ الرزاق في «مصنفه» عن علي: يُحبس المُشْبِكُ في السَّجِنِ حتى يموت [عبد الرزاق: ١٧٨٩٣، ورجاله ثقات].

فصل

في حكمه في المحاربين

حكم يقطع أيديهم، وأرجلهم، وَسَمَلَ أعينهم، كما سَمَلُوا عَيْنَ الرُّعَاءِ، وتركهم حتى ماثوا جوعاً وعطشاً كما فعلوا بالرُّعَاءِ [البخاري: ٦٨٠٤، ومسلم: ٤٣٥٣].

فصل

في حكمه بين القاتل وولي المقتول

ثبت في «صحيح مسلم»: عنه ﷺ أن رجلاً أَدْعَى على آخر أنه قَتَلَ أَخَاهُ، فاعترف، فقال: «دُونَكَ صَاحِبِكَ»، فلما وُلِّي، قال: «إِنْ قَتَلْتَهُ، فَهُوَ مِثْلُهُ»، فرجع فقال: إنما أَخَذْتُهُ بِأَمْرِكَ، فقال ﷺ: «أَمَّا تُرِيدُ أَنْ يَبُوءَ بِإِثْمِكَ وَإِنَّمَا صَاحِبُكَ؟» فقال: بلى، فخلَّى سبيله [مسلم: ٤٣٨٧].

وفي قوله: «فهُوَ مِثْلُهُ»، قولان، أحدهما: أن القاتل إذا قِيدَ مِنْهُ، سقط ما عليه، فصار هو والمستقيد بمنزلة واحدة، وهو لم يقتل: إنه بمنزلة قبل القتل، وإنما قال: «إِنْ قَتَلْتَهُ فَهُوَ مِثْلُهُ»، وهذا يقتضي المماثلة بعد قتله، فلا إشكال في الحديث، وإنما فيه التعريض لصاحب الحق بترك القود والعفو.

والثاني: أنه إن كان لم يُرَدِّ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ بِهِ، فهو متعد مثله إذ كان القاتل متعدياً بالجناية، والمقتصّر متعدٍ يقتل من لم يتعمد القتل، ويدل على هذا التأويل ما روى الإمام أحمد في «مسنده»: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قُتِلَ رَجُلٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَرُفِعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فدفعه إلى وليّ المقتول، فقال القاتل: يا رسول الله! ما أردت قتله، فقال رسول الله ﷺ للولي: «أَمَّا إِنَّهُ إِذَا كَانَ صَادِقًا، ثُمَّ قَتَلْتَهُ دَخَلْتَ النَّارَ»، فخلّى سبيله [صحيح: أبو داود: ٤٤٩٨، والترمذي: ١٤٠٧، والنسائي (١٣/٨)، وابن ماجه: ٢٦٩٠]. وفي كتاب ابن حبيب في هذا الحديث زيادة، وهي: قال النبي ﷺ: «عَمْدُ يَدٍ، وَخَطَأُ قَلْبٍ».

فصل

في حكمه بالقود على من قتل جارية، وأنه يُقْتَلُ بِهِ كَمَا قُتِلَ

ثبت في «الصحيحين»: أن يهودياً رَضَّ رَأْسَ جَارِيَةٍ بَيْنَ حَجَرَيْنِ عَلَى أَوْصَاحِ لَهَا، أَي: خُلِيٍّ، فَأَخَذَ، فَاغْتَرَفَ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُرَضَّ رَأْسُهُ بَيْنَ حَجَرَيْنِ [البخاري: ٦٨٧٩، ومسلم: ٤٣٦١].

وفي هذا الحديث دليل على قتل الرجل بالمرأة، وعلى أن الجاني يفعل به كَمَا قُتِلَ، وأن القتل غيلة لا يُشْتَرَطُ فِيهِ إِذْنُ الْوَلِيِّ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لم يدفعه إلى أوليائها، ولم يقتل: إِنْ شِئْتُمْ فَاقْتُلُوهُ، وَإِنْ شِئْتُمْ فَاغْفُوا عَنْهُ، بَلْ قَتَلَهُ حَتْمًا، وَهَذَا مَذْهَبُ مَالِكٍ، وَاخْتِيَارُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ، وَمَنْ قَالَ: إِنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ لِنَقْضِ الْعَهْدِ، لَمْ يَصِحَّ، فَإِنَّ نَاقِضَ الْعَهْدِ لَا تُرَضُّ رَأْسُهُ بِالْحَجَارَةِ، بَلْ يُقْتَلُ بِالسِّيفِ.

فصل

في حكمه ﷺ فيمن ضرب امرأة حاملاً فطرحها

في «الصحيحين»: أن امرأتين مِنْ هُذَيْلٍ رَمَتَا أَحَدَهُمَا الْأُخْرَى بِحَجَرٍ فَقَتَلَتْهَا وَمَا فِي بَطْنِهَا، فَقَضَى فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَغْرَةً: عَبْدٌ أَوْ وَلِيدَةٌ فِي الْجَنِينِ، وَجَعَلَ دِيَّةَ الْمَقْتُولَةِ عَلَى عَصَبَةِ الْقَاتِلَةِ، هَكَذَا فِي «الصحيحين» [البخاري: ٦٩٠٤، ومسلم: ٤٣٨٩]. وفي النسائي: فقضى في حملها بَغْرَةً، وَأَنْ تُقْتَلَ بِهَا [صحيح: أحمد: ٣٤٣٩، وأبو داود: ٤٥٧٢، والنسائي (٢١/٨) - ٢٢، وابن ماجه: ٢٦٤١، وكذلك قال غيره أيضاً: إنه قتلها مكانها، والصحيح: أنه لم يقتلها^(١) لما تقدم. وقد روى البخاري في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قضى في جنين امرأة مِنْ بَنِي لَحْيَانَ بَغْرَةً: عَبْدٌ أَوْ وَلِيدَةٌ، ثُمَّ إِنْ الْمَرْأَةُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا بِالْبَغْرَةِ تُوفِيَتْ، فَقَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ مِيرَاثُهَا لِبَنِيهَا وَزَوْجِهَا، وَأَنْ الْعَقْلَ عَلَى عَصَبَتِهَا [البخاري: ٦٩٠٩].

وفي هذا الحكم أن شِيبَةَ الْعَمْدِ لَا يُوجِبُ الْقَوْدَ، وَأَنَّ الْعَاقِلَةَ تَحْمِلُ الثَّرَّةَ تَبْعًا لِلدِّيَةِ، وَأَنَّ الْعَاقِلَةَ هُمُ الْعَصْبَةُ، وَأَنَّ زَوْجَ الْقَاتِلَةِ لَا يَدْخُلُ مَعَهُمْ، وَأَنَّ أَوْلَادَهَا أَيْضًا لَيْسُوا مِنَ الْعَاقِلَةِ.

(١) «أفضية رسول الله ص (١٦، ١٧) لابن فرج المالكي.

فصل

في حكمه ﷺ بالقسامة^(١) فيمن لم يعرف قاتله

ومنها: أنه يبدأ بأيمان المذيعين في القسامة بخلاف غيرها من الدعاوى.

ومنها: أن أهل الذمة إذا منعوا حقاً عليهم، انتقض عهدهم لقوله ﷺ: «إما أن تدوه، وإما أن تأذنوا بحرب».

ومنها: أن المدعى عليه إذا بعد عن مجلس الحكم، كتب إليه، ولم يُشخصه.

ومنها: جواز العمل والحكم بكتاب القاضي وإن لم يشهد عليه.

ومنها: القضاء على الغائب.

ومنها: أنه لا يكتفى في القسامة بأقل من خمسين إذا وجدوا.

ومنها: الحكم على أهل الذمة بحكم الإسلام، وإن لم يتحاكموا إلينا إذا كان الحكم بينهم وبين المسلمين.

(الإشكال في محل الدية)

ومنها: - وهو الذي أشكل على كثير من الناس - إعطاؤه الدية من إبل الصدقة، وقد ظن بعض الناس أن ذلك من سهم الغارمين، وهذا لا يصح، فإن غارم أهل الذمة لا يعطى من الزكاة، وظن بعضهم أن ذلك مما فضل من الصدقة عن أهلها، فلإمام أن يصرفه في المصالح، وهذا أقرب من الأول، وأقرب منه:

أنه ﷺ وداه من عنده، واقتضى الدية من إبل الصدقة، ويدل عليه: «فوداه من عنده» وأقرب من هذا كله أن يقال: لما تحملها النبي ﷺ لإصلاح ذات البين بين الطائفتين، كان حكمها حكم القضاء على الغارم لما غرمه لإصلاح ذات البين، ولعل هذا مراد من قال: إنه قضاها من سهم الغارمين، وهو ﷺ لم يأخذ منها لنفسه شيئاً، فإن الصدقة لا تجل له، ولكن جرى إعطاء الدية منها مجرى إعطاء الغارم منها لإصلاح ذات البين. والله أعلم.

فإن قيل: فكيف تصنعون بقوله «فجعل عقله على اليهود»؟ فيقال: هذا مجمل لم يحفظ رواه كيفية جعله عليهم، فإنه ﷺ لما كتب إليهم أن يدوا القتيل،

ثبت في «الصحيحين»: أنه ﷺ حكم بها بين الأنصار واليهود، وقال لِحَوِيصَةٍ وَمُحَيِّصَةٍ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ: «أَتَقْلِفُونَ وَتَسْتَحِقُّونَ دَمَ صَاحِبِكُمْ؟» وقال البخاري: «وتستحقون قَاتِلَكُمْ أَوْ صَاحِبَكُمْ»، فقالوا: أمر لم نشهده ولم نره، فقال: «فَتَبَرُّكُمْ يَهُودُ بِأَيِّمَانِ خَمْسِينَ»، فقالوا: كيف تقبل أيمان قوم كفار؟ فوداه رسول الله ﷺ من عنده.

وفي لفظ: «وَيُقْسِمُ خَمْسُونَ مِنْكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَيُدْفَعُ بِرُمِّيَةِ إِلَيْهِ» [البخاري: ٦٨٩٨، وسلم: ٤٣٤٢] واختلف لفظ الأحاديث الصحيحة في محل الدية، ففي بعضها أنه ﷺ وداه من عنده، وفي بعضها وداه من إبل الصدقة.

وفي «سنن أبي داود»: أنه ﷺ ألقى ديته على اليهود، لأنه وجد بينهم [صحيح: أبو داود: ٤٥٢٦، ومجد الرزاق: ١٨٢٥٢، والبيهقي (١٢١/٨)].

وفي «مصنف عبد الرزاق»: أنه ﷺ بدأ بيهود، فأبوا أن يحلفوا، فرد القسامة على الأنصار، فأبوا أن يحلفوا فجعل عقله على يهود [مجد الرزاق: ١٨٢٥٢].

(ما تضمنه هذا الحكم من الأمور)

وفي «سنن النسائي»: فجعل عقله على اليهود، وأعانهم ببعضها [حسن: النسائي (١٢/٨)] وقد تضمنت هذه الحكومة أموراً:

منها: الحكم بالقسامة، وأنها من دين الله وشرعه.

ومنها: القتل بها لقوله: «فيدفع برميته إليه»، وقوله في لفظ آخر: «وتستحقون دَمَ صَاحِبِكُمْ»، فظاهر القرآن والسنة القتل بأيمان الزوج الملائع وأيمان الأولياء في القسامة، وهو مذهب أهل المدينة. وأما أهل العراق، فلا يقتلون في واحد منهما، وأحمد يقتل في القسامة دون اللعان، والشافعي عكسه.

(١) القسامة - بفتح القاف وتخفيف السين - مصدر: أقسم قسماً وقسامة، وهي الأيمان تقسم على أولياء القتيل إذا ادعوا الدم، أو على المدعى عليهم الدم، وخص القسم على الدم بلفظ القسامة.

أو يأذنوا بحرب، كان هذا كالإلزام لهم بالدية، ولكن الذي حفظوا أنهم أنكروا أن يكونوا قتلوا، وحلفوا على ذلك، وأن رسول الله ﷺ وداه من عنده، حفظوا زيادة على ذلك، فهم أولى بالتقديم.

فإن قيل: فكيف تصنعون برواية النسائي: «أنه قسمها على اليهود، وأعانهم ببعضها»؟ قيل: هذا ليس بمحفوظ قطعاً، فإن الدية لا تلزم المدعى عليهم بمجرد دعوى أولياء القتل، بل لا بُد من إقرار أو بيعة، أو أيمان المدعين، ولم يوجد هنا شيء من ذلك، وقد عرض النبي ﷺ أيمان القسامة على المدعين، فأبوا أن يحلفوا، فكيف يلزم اليهود بالدية بمجرد الدعوى.

فصل

في حكمه ﷺ في أربعة سقطوا في بئر،

فتملأ بعضهم ببعض، فهلکوا

ذكر الإمام أحمد، والبخاري، وغيرهما، أن قوماً احتفروا بئراً باليمن، فسقط فيها رجل، فتملأ بآخر، والثاني بالثالث، والثالث بالرابع، فسقطوا جميعاً، فماتوا، فارتفع أولياؤهم إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: اجتمعوا من حفر البئر من الناس، وقضى لأول برئع الدية، لأنه هلك فوقه ثلاثة، وللثاني بثلثها لأنه هلك فوقه اثنان، وللثالث بنصفها لأنه هلك فوقه واحد، وللرابع بالدية تامة، فأتوا رسول الله ﷺ العام المقبل، فقضوا عليه القصة، فقال: «هُوَ مَا قَضَى بَيْنَكُمْ»، هكذا سياق البخاري.

وسياق أحمد نحوه، وقال: إنهم أبوا أن يرضوا بقضاء علي، فأثروا رسول الله ﷺ وهو عند مقام إبراهيم عليه السلام، فقضوا عليه القصة، فأجازه رسول الله ﷺ، وجعل الدية على قبائل الذين ازدحموا [أحمد: ٥٧٣، وفي سنده ضعف].

فصل

في حكمه ﷺ فيمن تزوج امرأة أبيه

روى الإمام أحمد، والنسائي وغيرهما: عن البراء رضي الله عنه، قال: لقيت خالي أبا بردة ومعه الراية، فقال: أرسلني رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج

امراً أبيه أن أقتله وأخذ ماله [حسن: أحمد: ١٨٦١٠، وأبو داود: ٤٤٥٧، والترمذي: ١٣٦٢، والنسائي: ١٠٩٦/١-١١٠].

وذكر ابن أبي خيثمة في «تاريخه»، من حديث معاوية بن قرة، عن أبيه، عن جده، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ بعثه إلى رجل أغرس بامراً أبيه، فضرب عنقه، وخمس ماله. قال يحيى بن معين: هذا حديث صحيح.

وفي «سنن ابن ماجه» من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ وَقَعَ عَلَى ذَاتِ مَحْرَمٍ فَأَقْتَلُوهُ» [ابن ماجه: ٢٥٦٤].

وذكر الجوزجاني، أنه رُفِعَ إلى الحجاج رجل اغتصب أخته على نفسها، فقال: احبسوه، وسلوا من ههنا من أصحاب رسول الله ﷺ، فسألوا عبد الله ابن أبي مطرف رضي الله عنه، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ تَخَطَّى حُرْمَ الْمُؤْمِنِينَ، فَخُطُوا وَسَطَهُ بِالسَّيْفِ» [البيهقي: ٧٦٩/٦]، و«الإصابة»: ٤٩٦١].

وقد نص أحمد في رواية إسماعيل بن سعيد، في رجل تزوج امرأة أبيه أو بذات محرم، فقال: يُقْتَل، ويدخل ماله في بيت المال.

وهذا القول هو الصحيح، وهو مقتضى حكم رسول الله ﷺ.

وقال الشافعي ومالك وأبو حنيفة: حده حد الزاني، ثم قال أبو حنيفة: إن وطئها بعقد، عُرِّرَ، ولا حد عليه، وحكم رسول الله ﷺ وقضاؤه أحق وأولى.

فصل

في حكمه ﷺ بقتل من اتهم بأم ولده

فلما ظهرت براءته، أمسك عنه

روى ابن أبي خيثمة وابن السكن وغيرهما من حديث ثابت، عن أنس رضي الله عنه، أن ابن عم مارية كان يتهم بها، فقال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «اذْهَبْ فَإِنَّ وَجَدْتَهُ عِنْدَ مَارِيَةَ، فَاضْرِبْ عَنْقَهُ»، فاتاه علي فلذا هو في زكي يتبرؤ فيها، فقال له علي: اخرج، فناولوه يده، فأخرجه، فلذا هو

ظهراني ديار قوم: أنَّ الأيمانَ على المدعى عليهم، فإن نَكَلُوا، حُلَّتْ المدعون، واستحقُّوا، فإن نكل الفريقان، كانت الديةُ نصفُها على المدعى عليهم، وبطل النصف إذا لم يحلِّفوا [عبد الرزاق: ١٨٢٩٠].

وقد نص الإمام أحمد في رواية المروزي على القول بمثل رواية أبي سعيد، فقال: قلت لأبي عبد الله: القوم إذا أعطوا الشيء، فتيئروا أنه ظلم فيه قوم؟ فقال: يُرد عليهم إن عُرفَ القوم. قلت: فإن لم يُعرفوا؟ قال: يُفَرَّق على مساكين ذلك الموضع، فقلت: فما الحجة في أن يُفَرَّق على مساكين ذلك الموضع؟ فقال: عمر بن الخطاب رضي الله عنه جعل الدية على أهل المكان يعني القرية التي وُجِدَ فيها القتيل، فأراه قال: كما أن عليهم الدية هكذا يُفَرَّق فيهم، يعني: إذا ظلم قوم منهم ولم يُعرفوا، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد قضى بموجب هذا الحديث، وجعل الدية على أهل المكان الذي وُجِدَ فيه القتيل، واحتج به أحمد، وجعل هذا أصلاً في تفريق المال الذي ظلم فيه أهل ذلك المكان عليهم إذا لم يُعرفوا بأعيانهم.

وأما الأثر الآخر، فمرسل لا تقوم بمثله حجة، ولو صحَّ تعيَّن القول بمثله، ولم تُجَزَّ مخالفته، ولا يُخالف باب الدعاوي، ولا باب القسامة، فإنه ليس فيهم لوثٌ^(٢) ظاهر يُوجب تقديم المدعين، فيقدم المدعى عليهم في اليمين، فإذا نكلوا، قوي جانب المدعين من وجهين: أحدهما: وجود القتيل بين ظهرانيهم. والثاني: نكلهم عن براءة ساحتهم باليمين، وهذا يقوم مقام اللوث الظاهر، فيُحْلِف المدعون، ويستحقون، فإذا نكل الفريقان كلاهما، أورث ذلك شبهة مركبة من نكل كل واحد منهما، فلم ينهض ذلك سبباً لإيجاب كمال الدية عليهم إذا لم يحلف غراماً لهم، ولا إسقاطها عنهم بالكلية حيث لم يحلِّفوا، فجعلت الدية نصفين، ووجب نصفها على المدعى عليهم لثبوت الشبهة في حقهم بترك اليمين،

مجبوبٌ ليس له ذكر، فكفَّ عنه علي، ثم أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه مجبوب، ما له ذكر^(١). وفي لفظ آخر: أنه وجده في نخلة يجمع تمراً، وهو ملفوفٌ بخرقه، فلما رأى السيف، ارتعد وسقطت الخرقه، فإذا هو مجبوبٌ لا ذكر له.

وقد أشكل هذا القضاء على كثير من الناس، فظعن بعضهم في الحديث، ولكن ليس في إسناده من يتعلَّق عليه، وتأوله بعضهم على أنه ﷺ لم يُرِدْ حقيقة القتل، إنما أراد تخويفه ليزدجر عن مجيئه إليها. قال: وهذا كما قال سليمان للمراتين اللتين اختصمتا إليه في الولد: «علي بالسككين حتى أشق الولد بينهما»، ولم يرد أن يفعل ذلك، بل قصد استعلام الأمر من هذا القول، ولذلك كان من تراجم الأئمة على هذا الحديث: باب الحاكم يُوهم خلاف الحق ليتوصل به إلى معرفة الحق، فأحبَّ رسول الله ﷺ أن يَعْرِف الصحابة براءته، وبراءة مارية، وعلم أنه إذا عاين السيف، كشف عن حقيقة حاله، فجاء الأمر كما قدره رسول الله ﷺ.

وأحسن من هذا أن يقال: إن النبي ﷺ أمر علياً رضي الله عنه بقتله تعزيراً لإقدامه وجرائته على خلوته بأم ولده، فلما تبَيَّن لعلي حقيقة الحال، وأنه بريء من الرية، كفَّ عن قتله، واستغنى عن القتل بتبيين الحال، والتعزيرُ بالقتل ليس بلازم كالحدِّ، بل هو تابعٌ للمصلحة دائرٌ معها وجوداً وعدمًا.

فصل

في قضائه ﷺ في القتيل يُوجد بين قريتين

روى الإمام أحمد، وابن أبي شيبة، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: وُجِدَ قتيلٌ بين قريتين، فأمر النبي ﷺ فَنَزَعَ ما بينهما، فَوَجَدَ إلى أحدهما أقرب، فكانني أنظر إلى شبر رسول الله ﷺ، فالتقاء على أقربهما [أحمد: ١١٣٤١، وفي سننه ضيف].

وفي «مصنف عبد الرزاق» قال عمر بن عبد العزيز: قضى رسول الله ﷺ فيما بلغنا في القتيل يُوجد بين

(١) لقد أبعد المؤلف رحمه الله النجعة، فسبه لابن السكن وابن أبي خيثمة مع أنه في «صحيح مسلم» (٧٠٢٣).

(٢) في حديث القسامة ذكر اللوث: وهو أن يشهد شاهد واحد على إقرار المقتول قبل أن يموت: أن فلاناً قتلني، أو يشهد شاهدان على عداوة بينهما، أو تهديد منه له أو نحو ذلك.

ولم تَجِب عليهم بكمالها، لأنْ خُصِّصَ لهم لم يَحْلِفُوا، فلما كان اللوثُ متركباً من يمين المدعين، ونكول المدعى عليهم، ولم يتم، سقط ما يقابل إيمان المدعين وهو النصف، ووجب ما يقابل نكول المدعى عليهم وهو النصف، وهذا من أحسن الأحكام وأعدلها، وبالله التوفيق.

فصل

في قضائه ﷺ بتأخير القصاص من الجرح حتى يندمل

ذكر عبد الرزاق في «مصنفه» وغيره: من حديث ابن جريح، عن عمرو بن شعيب قال: قضى رسول الله ﷺ في رجل طعن آخر بقرن في رجله، فقال: يا رسول الله: أقذني، فقال: «حَتَّى تَبْرَأَ جِرَاحُكَ»، فأبى الرجل إلا أن يستقيده، فأقاده النبي ﷺ، فصَحَّ الاستقادُ منه، وعرج المستقيد، فقال: عرجتُ وبرا صاحبي، فقال النبي ﷺ: «أَلَمْ أَمُرْكَ أَنْ لَا تَسْتَقِدَ حَتَّى تَبْرَأَ جِرَاحُكَ فَعَصَيْتَنِي، فَأَبْعَدَكَ اللَّهُ وَيَطْلُ عَرَجُكَ»، ثم أمر رسول الله ﷺ من كان به جرح بعد الرجل الذي عَرَجَ أن لا يُستقاد منه حتى يبرأ جرح صاحبه. فالجراح على ما بلغ حتى يبرأ، فما كان من عَرَجٍ أو شللٍ، فلا قود فيه، وهو عقل، ومن استقاد جرحاً فأصيب المستقادُ منه، فعقل ما فضل من دينه على جرح صاحبه له [حسن: عبد الرزاق: ١٧٩٩١، والبيهقي (٦٨/٨)، والدارقطني (٨٨/٣)].

قلت: الحديث في «مسند الإمام أحمد» من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده متصل، أن رجلاً طعن بقرن في رُكْبَتِهِ، فجاء إلى النبي ﷺ فقال: أقذني. فقال: «حَتَّى تَبْرَأَ»، فقال: أقذني. فأقاده، ثم جاء إليه، فقال: يا رسول الله! عرجتُ، فقال: «قَدْ نَهَيْتَكَ فَعَصَيْتَنِي، فَأَبْعَدَكَ اللَّهُ وَيَطْلُ عَرَجُكَ»، ثم نهى رسول الله ﷺ أن يقتص من جرح حتى يبرأ صاحبه [صح: أحمد: ٧٠٣٤].

وفي سنن الدارقطني: عن جابر رضي الله عنه، أن رجلاً جرح، فأراد أن يستقيدَه، فنهى رسول الله ﷺ أن يُستقاد من الجراح حتى يبرأ المجروح [حسن: الدارقطني (٨٨/٣)].

وقد تضمنت هذه الحكومة، أنه لا يجوز الاقتصاص من الجرح حتى يستقر أمره، إما باندمالٍ، أو بسرايةٍ مستقرة، وأن سراية الجناية مضمونة بالقود، وجواز القصاص في الضربة بالعصا والقرن ونحوهما، ولا ناسخ لهذه الحكومة، ولا معارض لها، والذي نسخ بها تعجيل القصاص قبل الاندمال لا نفس القصاص فتأمله، وأن المجني عليه إذا بادر واقتص من الجاني، ثم سرت الجناية إلى عضو من أعضائه، أو إلى نفسه بعد القصاص، فالسراية هدر.

وأنه يُكتفى بالقصاص وحده دون تعزير الجاني وجبهه، قال عطاء: الجروح قصاص، وليس للإمام أن يضربه ولا يسجنه، إنما هو القصاص، وما كان ربك نسياً، ولو شاء، لأمر بالضرب والسجن. وقال مالك: يُقتص منه بحق الأدمي، ويُعاقب لجرائه.

(أنواع المعاصي من حيث العقوبة)

والجمهور يقولون: القصاص يُغني عن العقوبة الزائدة، فهو كالحَدِّ إذا أُقيم على المحدود، لم يحتج معه إلى عقوبة أخرى.

والمعاصي ثلاثة أنواع: نوعٌ عليه حدٌّ مقرر، فلا يُجمع بينه وبين التعزير. ونوعٌ لا حدَّ فيه، ولا كفارة، فهذا يُردع فيه بالتعزير، ونوع فيه كفارة، ولا حد فيه، كالوطء في الإحرام والصيام، فهل يُجمع فيه بين الكفارة والتعزير؟ على قولين للعلماء، وهما وجهان لأصحاب أحمد، والقصاص يجري مجرى الحدِّ، فلا يُجمع بينه وبين التعزير.

فصل

في قضائه ﷺ بالقصاص في كسر السن

في «الصحيحين»: من حديث أنس، أن ابنة النضر أخت الرُّبَيْعِ لَطَمَتْ جَارِيَةً، فكسرت سِنَهَا، فاخصموا إلى النبي ﷺ، فأمر بالقصاص، فقالت أمُّ الرُّبَيْعِ: يا رسول الله! أقتص من فلانة، لا والله لا يُقتص منها، فقال النبي ﷺ: «سُبْحَانَ اللَّهِ يَا أَمُّ الرُّبَيْعِ كِتَابُ اللَّهِ الْقَصَاصُ»، فقالت: لا والله لا يُقتص منها أبداً، فعفا القوم، وقبِلُوا الدية. فقال النبي ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِابْرَةِ» [البخاري: ٦٨٩٤، ومسلم: ٤٣٧٤].

وأحمد [صحيح: أحمد: ٣٤٦، والترمذي: ١٤٠٠، وابن ماجه: ٢٦٦٢].

وقضى أن المؤمنين تتكافأ دماؤهم، ولا يُقتل مؤمنٌ بكافر [البخاري: ٦٩١٥].

وقضى أن من قُتلَ له قاتل، فأهله بينَ خيرَتين، إما أن يقتلوا أو يأخذوا العقل [البخاري: ٦٨٨٠، ومسلم: ٣٣٠٥].

وقضى أن في دية الأصابع من اليدين والرجلين في كل واحدة عشرين من الإبل. وقضى في الأسنان في كل سن خمسين من الإبل، وأنها كلها سواء، وقضى في المواضع بخمسين خمسين [أبو داود: ٤٥٥٦، والنسائي (٥٦/٨)، وابن ماجه: ٢٦٥٤].

وقضى في العين السادة لمكانها إذا طُمِست بثلاث ديتها، وفي اليد الشلاء إذا قُطعت بثلاث ديتها، وفي السن السوداء إذا نُزعت بثلاث ديتها [أبو داود: ٤٥٦٧، والنسائي (٥٥/٨)].

وقضى في الأنف إذا جُدِعَ كُلُّهُ بالدية كاملة، وإذا جُدِعَتْ أُرْبُعُهُ بنصف الدية [حسن: أحمد: ٧٠٣٣، وأبو داود: ٤٥٦٤].

وقضى في المأمومة بثلاث الدية، وفي الجائفة بثلاثها، وفي المُقَلَّة بخمسة عشر من الإبل. وقضى في اللسان بالدية، وفي الشفتين بالدية، وفي اللبضتين بالدية، وفي الذكور بالدية، وفي الصُّلب بالدية، وفي العينين بالدية، وفي إحداهما بنصفها، وفي الرجل الواحدة بنصف الدية، وفي اليد بنصف الدية، وقضى أن الرجل يُقتل بالمرأة [الحاكم (٣٩٧/١)، والنسائي (٨/٥٧)، والدارقطني (٣٧٦) وابن حبان: ٧٩٣].

(دية الخطأ)

وقضى أن دية الخطأ على العاقلة مئة من الإبل، واختلفت الرواية عنه في أسنانها، ففي السنن الأربعة عنه من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده: «ثَلَاثُونَ بَنَتْ مَخَاضٍ، وَثَلَاثُونَ بَنَتْ لَبُونٍ، وَثَلَاثُونَ جِقَّةً، وَعَشْرَةُ بَنِي لَبُونٍ ذَكَرٌ» [حسن: أحمد: ٧٠٣٣، وأبو داود: ٤٥٤١، والنسائي (٤٢-٤٣)، وابن ماجه: ٢٦٣٠].

قال الخطابي: ولا أعلم أحداً من الفقهاء قال بهذا. وفيها أيضاً من حديث ابن مسعود: أنها أخماس:

فصل

في قضائه ﷺ فيمن عَضَّ يَدَ رَجُلٍ، فانتزع يده من فيه، فسقطت ثنية العاض بإهدارها

ثبت في «الصحيحين» أن رجلاً عَضَّ يَدَ رجل، فنزع يده من فيه، فوقع ثنياه، فاقتصموا إلى النبي ﷺ، فقال: «يَعَضُّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ كَمَا يَعَضُّ الْفَحْلُ، لَا دِيَّةَ لَكَ» [البخاري: ٦٩٩٢، ومسلم: ٤٣٦٦]. وقد تضمنت هذه الحكومة أن مَنْ خَلَصَ نَفْسَهُ مِنْ يَدِ ظَالِمٍ لَهُ، فَتَلَفَتْ نَفْسُ الظَّالِمِ، أَوْ شَيْءٌ مِنْ أَطْرَافِهِ أَوْ مَالِهِ بِذَلِكَ، فَهُوَ هَذَرٌ غَيْرُ مَضْمُونٍ.

فصل

في قضائه ﷺ فيمن اطلع في بيت رجلٍ بغير إذنه، فحذقه بحصاة أو عود، ففقا عينه، فلا شيء عليه

ثبت في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لَوْ أَنَّ امْرَأَةً أَطْلَعَتْ عَلَيْكَ بِغَيْرِ إِذْنٍ، فَحَذَقَتْهُ بِحَصَاةٍ، فَفَقَأَتْ عَيْنَهُ، لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ جُنَاحٌ» [البخاري: ٦٩٠٢، ومسلم: ٥٢٢٦].

وفي لفظ فيهما: «مَنْ أَطْلَعَ فِي بَيْتِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ، فَفَقَأُوا عَيْنَهُ، فَلَا دِيَّةَ لَهُ وَلَا قِصَاصٍ» [ليست في الصحيحين وإنما أخرجا أحمد: ٨٩٩٧، والنسائي (٦١/٨)].

وفيها: أن رجلاً اطلع من جُحرٍ في بعض حُجَرِ النبي ﷺ، فقام إليه بمشقة، وجعل يخلطه ليطمئنه [البخاري: ٦٩٠٠، ومسلم: ٥٦٤١]، فذهب إلى القول بهذه الحكومة، وإلى التي قبلها فقهاء الحديث، منهم: الإمام أحمد، والشافعي ولم يقل بها أبو حنيفة ومالك.

فصل

(ما يفعل بالحامل إذا قُتلت عمداً)

وقضى رسول الله ﷺ أن الحامل إذا قُتلت عمداً لا تُقتل حتى تَضَعَ ما في بطنها وحتى تُكْفَلَ وَلَدُهَا. ذكره ابن ماجه في «سننه» [ابن ماجه: ٢٦٩٤].

(لا يقتل الوالد بالولد)

وقضى أن لا يُقتل الوالد بالولد. ذكره النسائي

عَشْرُونَ بَنَتْ مَخَاضٍ، وَعَشْرُونَ بَنَتْ لَبُون، وَعَشْرُونَ
ابن مخاض، وعشرون حِقَّة، وعشرون جَذَعَة [أبو
داود: ٤٥٤٥، والترمذي: ١٣٨٦، والنسائي (٤٣/٨ - ٤٤) وابن
ماجه: ٢٦٣١].

(دية العمد إذا رضى بها اهله)

وقضى في العمد إذا رَضُوا بِالْذِّبَةِ ثَلَاثِينَ حِقَّةً،
وثلثين جَذَعَة، وأربعين خَلْفَة، وما صُولَحُوا عليه،
فهو لهم [حسن: أحمد: ٧٠٣٣، والترمذي: ١٣٨٧، وابن
ماجه: ٢٦٢٦].

فذهب أحمد وأبو حنيفة إلى القول بحديث ابن
مسعود رضي الله عنهما، وجعل الشافعي ومالك بدل
ابن مخاض ابن لبون، وليس في واحد من الحديثين.
وفرضها النبي ﷺ على أهل الإبل مئة من الإبل،
وعلى أهل البقر مئتي بقرة، وعلى أهل الشاء ألفي
شاة، وعلى أهل الحُلُل مئتي حلة [أبو داود: ٤٥٤٣].

وقال عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده
رضي الله عنه أنه ﷺ جعلها ثمانمئة دينار، أو ثمانمئة
آلاف درهم [ضعيف: أبو داود: ٤٥٤٢] ذكر أهل السنن
الأربعة من حديث عكرمة، عن ابن عباس رضي الله
عنهما، أن رجلاً قُتِلَ، فجعل النبي ﷺ دِيَّتَهُ اثْنَيْ عَشَرَ
أَلْفًا [حسن: أبو داود: ٤٥٥٦، والترمذي: ١٣٨٨، والنسائي (٨/)
٤٤]، وابن ماجه: ٢٦٣٢].

وثبت عن عمر أنه خطب فقال: إن الإبل قد
غلت، ففرضها على أهل الذهب ألف دينار، وعلى
أهل الورق إثني عشر ألفاً، وعلى أهل البقر مئتي
بقرة، وعلى أهل الشاء ألفي شاة، وعلى أهل الحُلُل
مئتي حلة، وترك دية أهل الزمة، فلم يرفعها فيما رَفَعَ
من الدية [أبو داود: بعد حديث: ٤٥٤٢، وحيد الرزاق:
١٧٧٧٢].

(دية المعاهد)

وقد روى أهل السنن الأربعة عنه ﷺ: «دِيَّةُ
الْمَعَاهِدِ يَضْفُ دِيَّةُ الْحُرِّ» [حسن: أحمد: ٦٦٩٢، وأبو داود:
٤٥٨٣، والترمذي: ١٤١٣، والنسائي (٨/٤٥)].

ولفظ ابن ماجه: قضى أن عقل أهل الكَتَائِبِ
يَضْفُ عَقْلُ الْمُسْلِمِينَ، وهم اليهود والنصارى
[حسن: أحمد: ٦٧١٦، وابن ماجه: ٢٦٤٤].

واختلف الفقهاء في ذلك، فقال مالك: ديتهم
نصف دية المسلمين في الخطأ والعمد، وقال
الشافعي: ثلثها في الخطأ والعمد. وقال أبو حنيفة:
بل كدِّية المسلم في الخطأ والعمد. وقال الإمام
أحمد: مثل دية المسلم في العمد. وعنه في الخطأ
روايتان، إحداهما: نصف الدية، وهي ظاهر مذهبه.
والثانية: ثلثها، فأخذ مالك بظاهر حديث عمرو بن
شعيب، وأخذ الشافعي بأن عَمَرَ جعل دية أربعة
آلاف، وهي ثلث دية المسلم، وأخذ أحمد بحديث
عمرو إلا أنه في العمدِ ضَعَفَ الدية عقوبة لأجل
سقوط القصاص، وهكذا عنده مَنْ سقط عنه
القصاص، ضَعَفَت عليه الدية عقوبة، نص عليه
توقيفاً، وأخذ أبو حنيفة بما هو أصله من جريان
القصاص بينهما، فتساوى ديتهما.

(عقل المرأة)

وقضى ﷺ أن عقل المرأة مثل عقل الرجل إلى
الثلث من ديتها ذكره النسائي [سنه ضعيف: النسائي (٨/)
٤٥]. فتصير على النصف من ديته، وقضى بالدية على
العاقلة، وبرأ منها الزوج، وولد المرأة القاتلة
[البخاري: ٦٩١٠، وسلم: ٤٣٨٩].

(الدية على من قتل المكاتب)

وقضى في المكاتب أنه إذا قُتِلَ يُودَى بِقَدْرِ مَا أَدَّى
من كتابته دية الحر، وما بقي فدية المملوك، قلت:
يعني قيمته. وقضى بهذا القضاء علي بن أبي طالب،
وإبراهيم النخعي، ويُذكر رواية عن أحمد، وقال
عمر: إذا أَدَّى شَطَرَ كتابته كان غريباً، ولا يرجع
رقيقاً، وبه قضى عبد الملك بن مروان. وقال ابن
مسعود: إذا أَدَّى الثلث، وقال عطاء: إذا أَدَّى ثلاثة
أرباع الكتابة، فهو غريم، والمقصود: أن هذا القضاء
النَّبَوِيُّ لم يُجْمَع الأمة على تركه، ولم يُعْلَم نسخه.

وأما حديث «المكاتبُ عَبْدٌ مَا بَقِيَ عَلَيْهِ دِزْهَمٌ»
[حسن: أبو داود: ٣٩٢٦] فلا معارضة بينه وبين هذا
القضاء، فإنه في الرق بعد، ولا تحصل حريته التامة
إلا بالآداء.

فصل

في قضائه ﷺ على من أقر بالزنى

ثبت في صحيح البخاري ومسلم أن رجلاً من أسلم جاء إلى النبي ﷺ، فاعترف بالزنى، فأعرض عنه النبي ﷺ، حتى شهد على نفسه أربع مرات، فقال النبي ﷺ: «أَبَيْكَ جُنُونٌ؟» قال: لا. قال: «أَخْصَنْتَ؟» قال: نعم، فأمر به، فُرْجِمَ في المصلّى، فلَمَّا أَذْلَقَتْهُ الْحِجَارَةُ، فَرَّ فَأَذْرَكَ، فُرْجِمَ حَتَّى مَاتَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ خَيْرًا، وَصَلَّى عَلَيْهِ.

وفي لفظ لهما: أنه قال له: «أَحَقُّ مَا بَلَغَنِي عَنْكَ»، قال: وما بلغك عني، قال: «بَلَغَنِي أَنَّكَ وَقَعْتَ بِجَارِيَةٍ بَنِي فَلَانٍ» فقال: نعم، قال: فَشَهِدْ عَلَى نَفْسِكَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ، ثُمَّ دَعَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «أَبَيْكَ جُنُونٌ؟» قال: لا، قال: «أَخْصَنْتَ؟» قال: نعم، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فُرْجِمَ.

وفي لفظ لهما: فلما شهد على نفسه أربع شهادات، دعاه النبي ﷺ فقال: «أَبَيْكَ جُنُونٌ؟» قال: لا. قال: «أَخْصَنْتَ؟» قال: نعم. قال: «اذْهَبُوا بِهِ، فَارْجُمُوهُ».

وفي لفظ للبخاري: أن النبي ﷺ قال: «لَعَلَّكَ كَبَلْتُ أَوْ عَمَزْتُ، أَوْ نَقَرْتُ!» قال: لا يا رسول الله. قال: «أَبَيْكَهَا؟ لَا يُكْنِي، قَالَ: نَعَمْ، فَيَعْنِدُ ذَلِكَ أَمْرَ بَرَجِهِ».

وفي لفظ لأبي داود: أنه شهد على نفسه أربع مرات، كُلُّ ذَلِكَ يُعْرَضُ عَنْهُ، فَأَقْبَلَ فِي الْخَامَةِ، قَالَ: «أَبَيْكَهَا؟» قال: نعم. قال: «حَتَّى غَابَ ذَلِكَ مِنْكَ فِي ذَلِكَ مِنْهَا؟» قال: نعم. قال: «كَمَا يَفِيضُ اللَّيْلُ فِي الْمُكْحَلَةِ وَالرَّشَاءِ فِي الْبَرِّ؟» قال: نعم. قال: «فَهَلْ تَذَرِي مَا الرُّزَى؟» قال: نعم أتيت منها حراماً ما يأتي الرجل من امرأته حلالاً. قال: «فَمَا تُرِيدُ بِهَذَا الْقَوْلِ؟» قال: أريد أن تطهرني قال: فَأَمَرَ بِهِ فُرْجِمَ [البخاري: ٥٢٧٠، ومسلم: ٤٤١٨].

وفي السنن: أنه لما وجد من الحجارة، قال: يا قوم ردوني إلى رسول الله ﷺ، فإن قومي قتلوني، وغرّوني من نفسي، وأخبروني أن رسول الله ﷺ غير قاتلي [أبو داود: ٤٤٢٠].

وفي «صحيح مسلم»: فجاءت الغامدية فقالت: يا رسول الله إني قد زني فطهرني، وأنه ردها، فلما كان من الغد، قالت: يا رسول الله لم تردني، لعلك أن تردني كما رددت معزاً؟ فوالله إني لحبلى، قال: «إِنَّمَا لَا، فَأَذْهَبِي حَتَّى تَلِدِي»، فلما ولدت، أتته بالصبي في خرقه، قالت: هذا قد ولدته، قال: «أَذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَقْطِعِيهِ»، فلما قطمته، أتته بالصبي في يده كسرة خبز، فقالت: هذا يا نبي الله قد قطمته، وقد أكل الطعام، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها، فَحُفِرَ لَهَا إِلَى صَدْرِهَا، وَأُمِرَ النَّاسُ فَرَجَمُوهَا، فَأَقْبَلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِحَجَرٍ، فَرَمَى رَأْسَهَا، فَانْتَضَحَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ، فَسَبَّهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَهْلًا يَا خَالِدُ قَوْلَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ»، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا، فَصَلَّى عَلَيْهَا، وَدُفِنَتْ [مسلم: ٤٤٣٢].

وفي «صحيح البخاري»: أن رسول الله ﷺ قضى فيمن زنى، ولم يُعَصِّنْ بَنِي عَامٍ، وإقامه الحد عليه [البخاري: ٦٨٣٣].

وفي «الصحيحين»: أن رجلاً قال له: أنشدك بالله إلا قضيت بيننا بكتاب الله، فقام خصمه، وكان أقره منه، فقال: صدق أقض بيننا بكتاب الله، واثقل لي، فقال: «قل» قال: إن ابني كان حسيفاً على هذا، فزني بامرأته، فافتديت منه بمئة شاة وخادم، وإني سألت أهل العلم، فأخبروني أن على ابني جلد مئة وتغريب عام، وأن على امرأه هذا الرجم، فقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا أَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ، الْمِئَةُ وَالْخَادِمُ رَدٌّ عَلَيْكَ، وَعَلَى ابْنِكَ جَلْدٌ مِئَةٌ وَتَغْرِيبٌ عَامٌ، وَاعْدُ يَا أُنَيْسُ عَلَى امْرَأَةٍ هَذَا، فَاسْأَلْهَا، فَإِنْ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا»، فاعترفت فَرَجَمَهَا [البخاري: ٦٨٢٧، ومسلم: ٤٤٣٥].

وفي «صحيح مسلم» عنه ﷺ: «الْيَبِّ بِالْيَبِّ جَلْدٌ مِئَةٌ وَالرَّجْمُ، وَالْيَكْرُ بِالْيَكْرِ جَلْدٌ مِئَةٌ وَتَغْرِيبٌ عَامٌ» [مسلم: ٤٤٣٥].

فتمت هذه الأفضية رجم الثيب، وأنه لا يُرجم حتى يُقَرَّ أربع مرات، وأنه إذا أقر دون الأربع، لم يلزم بتكميل نصاب الإقرار، بل للإمام أن يُعْرِضَ عنه، ويعرض له بعدم تكميل الإقرار.

وأن إقراراً زائل العقل بجنون، أو سكر ملغى لا عبرة به، وكذلك طلاقه وعتقه، وأيمانه ووصيته.

وجواز إقامة الحد في المصلّى، وهذا لا يُناقض نهيه أن تُقام الحدود في المساجد.

وأن الحر المحصّن إذا زنى بجارية، فحده الرجم، كما لو زنى بحرة. وأن الإمام يُستحب له أن يُعرض للمقر بأن لا يُعزّ، وأنه يجب استفسار المقر في محل الإجمال، لأن اليد والقَم والعين لما كان استمتاعها زنى استفسر عنه دفعاً لاحتماله.

وأن الإمام له أن يصرح باسم الوطء الخاص به عند الحاجة إليه، كالسؤال عن الفعل.

وأن الحد لا يجب على جاهل بالتحريم، لأنه ﷺ سأله عن حكم الزنى، فقال: أتيت منها حراماً ما يأتي الرجل من أهله حلالاً.

وأن الحد لا يُقام على الحامل، وأنها إذا ولدت الصبي أمهلت حتى تُرضعه وتقطعه، وأن المرأة يُحفر لها دون الرجل، وأن الإمام لا يجب عليه أن يبدأ بالرجم.

وأنه لا يجوز سب أهل المعاصي إذا تابوا، وأنه يُصلّى على من قُتل في حد الزنى، وأن المقر إذا استقال في أثناء الحد، وفرّ، ترك ولم يتم عليه الحد، فقليل: لأنه رجوع. وقيل: لأنه توبة قبل تكميل الحد، فلا يُقام عليه كما لو تاب قبل الشروع فيه. وهذا اختيار شيخنا.

وأن الرجل إذا أقر أنه زنى بفلانة، لم يُقم عليه حد القذف مع حد الزنى. وأن ما قُبِضَ من المال بالصلح الباطل باطل يجب رده.

وأن الإمام له أن يؤكّل في استيفاء الحد.

(لا يجمع على الشيب الحلد والرحم)

وأن الشيب لا يُجمع عليه بين الجلد والرحم، لأنه ﷺ لم يجلد ماعزاً ولا الغامدية، ولم يأمر أنيساً أن يجلد المرأة التي أرسله إليها، وهذا قول الجمهور، وحديث عبادة: «خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً: الشيب بالشيب جلد يائكة والرحم؟» منسوخ. فإن هذا كان في أول الأمر عند نزول حد الزاني، ثم رجم ماعزاً والغامدية، ولم يجلدهما، وهذا كان بعد حديث عبادة

بلا شك، وأما حديث جابر في «السنن»: أن رجلاً زنى، فأمر به النبي ﷺ فجلد الحد، ثم أقر أنه محصّن، فأمر به فرجم. فقد قال جابر في الحديث نفسه: إنه لم يعلم بإحصائه، فجلد، ثم علم بإحصائه، فرجم. رواه أبو داود [٤٤٣٨-٤٤٣٩].

(لا يسقط الجهل بالعقوبة الحد)

وفيه: أن الجهل بالعقوبة لا يسقط الحد إذا كان عالماً بالتحريم، فإن ماعزاً لم يعلم أن عقوبته القتل، ولم يسقط هذا الجهل الحد عنه.

(للمحاكم أن يحكم بالإقرار في مجلسه دون شاهدين)

وفيه: أنه يجوز للمحاكم أن يحكم بالإقرار في مجلسه، وإن لم يسمعه معه شاهدان، نص عليه أحمد، فإن النبي ﷺ لم يقل لأنيس: فإن اعترفت بحضرة شاهدين فارجمها.

وأن الحكم إذا كان حقاً محضاً لله لم يشترط الدعوى به عند الحاكم. وأن الحد إذا وجب على امرأة، جاز للإمام أن يبعث إليها من يقيم عليها، ولا يحضرها، وترجم النسائي على ذلك: صوناً للنساء عن مجلس الحكم. وأن الإمام والحاكم والمفتي يجوز له الخلف على أن هذا حكم الله عز وجل إذا تحقق ذلك، وتيقنه بلا ريب، وأنه يجوز التوكيل في إقامة الحدود، وفيه نظر، فإن هذا استنباط من النبي ﷺ، وتضمن تغريب المرأة كما يغرب الرجل، لكن يغرب معها محرماً إن أمكن، وإلا فلا، وقال مالك: لا تغريب على النساء. لأنهن عورة.

فصل

في حكمه ﷺ على أهل الكتاب في

الحدود بحكم الإسلام

ثبت في «الصحيحين» و«المسانيد»: أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال رسول الله ﷺ: «مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ؟» قالوا: نفصمهم ويجلدون، فقال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها الرجم، فأثروا بالتوراة، فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا فيها آية الرجم، فقالوا:

صَدَقَ يَا مُحَمَّد، إِنَّ فِيهَا الرِّجْمَ، فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **فَرَجَمَا** [البخاري: ٦٨٤١، ومسلم: ٤٤٣٧].

فتضمنت هذه الحكومة أن الإسلام ليس بشرط في الإحصان، وأن الذمي يُحصن الذمية، وإلى هذا ذهب أحمدُ والشافعي، ومن لم يقل بذلك اختلفوا في وجه هذا الحديث، فقال مالك في غير «الموطأ»: لم يكن اليهودُ بأهل ذمة. والذي في «صحيح البخاري»: أنهم أهل ذمة، ولا شك أن هذا كان بعد العهد الذي وقع بين النبي ﷺ وبينهم، ولم يكونوا إذ ذاك حرباً، كيف وقد تحاكموا إليه، ورضوا بحكمه؟ وفي بعض طرق الحديث: أنهم قالوا: اذهبوا بنا إلى هذا النبي، فإنه بعث بالتخفيف [أبو داود: ٤٤٥٠]، وفي بعض طرقه: أنهم دعوه إلى بيت مِذْرَاسِيهِمْ [أبو داود: ٤٤٤٩]، فأتاهم وحكم بينهم، فهم كانوا أهل عهد وُضِّلِحَ بلا شك.

وقالت طائفة أخرى: إنما رجمهما بحكم التوراة. قالوا: وسياقُ القصة صريحٌ في ذلك، وهذا مما لا يُجدي عليهم شيئاً البتة، فإنه حكم بينهم بالحق المحض، فيجبُ اتباعه بكلِّ حال، فماذا بعد الحق إلا الضلال.

وقالت طائفة: رجمهما سياسةً، وهذا من أقبح الأقوال، بل رجمهما بحكم الله الذي لا حكم سواه.

(اقبول شهادة الذميين على بعضهم)

وتضمنت هذه الحكومة أن أهل الذمة إذا تحاكموا إلينا لا نحكم بينهم إلا بحكم الإسلام.

وتضمنت قبول شهادة أهل الذمة بعضهم على بعض لأن الزانيين لم يُقرَّأ، ولم يشهد عليهما المسلمون، فإنهم لم يحضروا زناهما، كيف وفي «السنن» في هذه القصة، فدعا رسولُ الله ﷺ بالشهود، فجاءوا أربعة، فشهدوا أنهم رأوا ذكره في فرجها مثل الليل في المكحلة [أبو داود: ٤٤٥٧].

وفي بعض طرق هذا الحديث: فجاء أربعة منهم، وفي بعضها: فقال لليهود: «أثوني بأربعة منكم».

(لا يجمع بين الرجم والجلد)

وتضمنت الاكتفاء بالرجم، وأن لا يُجمع بينه وبين الجلد، قال ابنُ عباس: الرجمُ في كتاب الله لا

يغوصُ عليه إلا غواصٌ، وهو قوله تعالى: «يَتَأْخَذَ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ» [الأنعام: ١٥]، واستنبطه غيره من قوله: «إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَهْدِيكُمْ إِلَى التَّيْيِبَاتِ الَّتِي أَنْسَلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا» [المائدة: ٤٤].

قال الزهري في حديثه: فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم **«إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَهْدِيكُمْ إِلَى التَّيْيِبَاتِ الَّتِي أَنْسَلَمُوا»** [المائدة: ٤٤]، كان النبي ﷺ منهم [أبو داود: ٤٤٥٠ - ٤٤٥١].

فصل

في قضائه ﷺ في الرجل يزني بجارية امرأته

في «المسند» و«السنن» الأربعة: من حديث قتادة، عن حبيب بن سالم، أن رجلاً يقال له: عبد الرحمن ابن حُنين، وقع على جارية امرأته، فُرِّعَ إلى النعمان بن بشير، وهو أمير على الكوفة، فقال: لأقضيَنَّ فيكَ بقضية رسول الله ﷺ، إن كانت أحلتها لك، جلدتُكَ مئة جلدة، وإن لم تكن أحلتها، رجمتُكَ بالحجارة، فوجدوه أحلتها له، فجلده مئة [أحمد: ١٨٤٢٥، وأبو داود: ٤٤٥٨، ٤٤٥٩، والترمذي: ١٤٥١، والنسائي (١٢٤/٦)، وابن ماجه: ٢٥٥، وهو ضعيف]. قال الترمذي: في إسناده هذا الحديث اضطرابٌ، سمعتُ محمداً يعني البخاري يقول: لم يسمع قتادة من حبيب بن سالم هذا الحديث، إنما رواه عن خالد بن عُرفطة، وأبو بشر لم يسمعه أيضاً من حبيب بن سالم، إنما رواه عن خالد بن عرفطة، وسألت محمداً عنه؟ فقال: أنا أنفي هذا الحديث. وقال النسائي: هو مضطرب، وقال أبو حاتم الرازي: خالد ابن عرفطة مجهول.

وفي «المسند» و«السنن» عن قبيصة بن حُرَيْث، عن سلمة بن المحجَّج، أن رسولَ الله ﷺ قضى في رجل وقع على جارية امرأته، إن كان استكرهها، فهي حرة، وعليه لسيديتها مثلها، وإن كانت طاوَعته، فهي له، وعليه لسيديتها مثلها [أبو داود: ٤٤٦٠، ٤٤٦١، والنسائي: (١٢٤/٦)، وابن ماجه: ٢٥٥٢، والبيهقي: (٨/٢٤٠) ومجد الرزاق: ١٣٤١٧].

المالك وبين الانتفاع بملكه، ولا ريب أن جارية الزوجة إذا صارت موطوءة لزوجها، فإنها لا تبقى لسيدها كما كانت قبل الوطء، فهذا الحكم من أحسن الأحكام، وهو موافق للقياس الأصولي. وبالجملة: فالقول به مبني على قبول الحديث، ولا تضر كثرة المخالفين له، ولو كانوا أضعاف أضعافهم.

فصل

(الحكم في اللواط)

ولم يثبت عنه ﷺ أنه قضى في اللواط بشيء، لأن هذا لم تكن تعرفه العرب، ولم يُرفع إليه ﷺ، ولكن ثبت عنه أنه قال: «اقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ». رواه أهل السنن الأربعة، وإسناده صحيح، وقال الترمذي: حديث حسن [أحمد: ٢٧٣٢، ٢٧٣٧، وأبو داود: ٤٤٦٢، والترمذي: ١٤٥٦، وابن ماجه: ٢٥٦١، وسنده حسن].

وحكم به أبو بكر الصديق، وكتب به إلى خالد بعد مشاوره الصحابة، وكان عليّ أشدّهم في ذلك.

وقال ابنُ القصار، وشيخنا: أجمعت الصحابة على قتله، وإنما اختلفوا في كيفية قتله، فقال أبو بكر الصديق: يُرمى من شاطئ، وقال عليّ رضي الله عنه: يُهدم عليه حائط. وقال ابنُ عباس: يُقتل بالهجارة [المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/٩٩)]. فهذا اتفاق منهم على قتله، وإن اختلفوا في كيفية، وهذا موافق لحكمه ﷺ فيمن وطئ ذات محرم، لأن الوطء في الموضوعين لا يُباح للواطئ بحال، ولهذا جمع بينهما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما، فإنه روى عنه ﷺ أنه قال: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَمْعَلُ عَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوهُ»، وروى أيضاً عنه: «مَنْ وَقَعَ عَلَى ذَاتِ مَحْرَمٍ فَاقْتُلُوهُ»، وفي حديثه أيضاً بالإسناد: «مَنْ أَتَى بَهِيمَةً فَاقْتُلُوهُ وَاقْتُلُوهَا مَعَهُ» [أحمد: ٢٤٢٠، وأبو داود: ٤٤٦٤، والترمذي: ١٤٥٤، وسنده حسن].

وهذا الحكم على وفق حكم الشارع، فإن المحرمات كلّما تغلّظت، تغلّظت عقوباتها، ووطء

فاختلف الناس في القول بهذا الحكم، فأخذ به أحمد في ظاهر مذهبه، فإن الحديث حسن، وخالد ابن عُرفة قد روى عنه ثقتان: قتادة^(١)، وأبو بشر، ولم يُعرف فيه قدح، والجهالة ترتفع عنه برواية ثقتين، والقياس وقواعد الشريعة يقتضي القول بموجب هذه الحكومة، فإن إحلال الزوجة شبهة تُوجب سقوط الحد، ولا تُسقط التعزير، فكانت المثة تعزيراً، فإذا لم تكن أحلتها، كان زنى لا شبهة فيه، ففيه الرجم، فأبى شيء في هذه الحكومة مما يُخالف القياس.

وأما حديث سلمة بن المحبق: فإن صحّ، تعين القول به ولم يُعدّل عنه، ولكن قال النسائي: لا يصحّ هذا الحديث. قال أبو داود: سمعتُ أحمد ابن حنبل يقول: الذي رواه عن سلمة بن المحبق شيوخ لا يُعرف، ولا يُحدث عنه غير الحسن يعني قبيصة بن حريث. وقال البخاري في «التاريخ»: قبيصة بن حُرَيْث سمع سلمة بن المحبق، في حديثه نظر، وقال ابن المنذر: لا يثبت خبر سلمة بن المحبق، وقال البيهقي: وقبيصة بن حُرَيْث غير معروف، وقال الخطابي: هذا حديث منكر، وقبيصة غير معروف، والحجة لا تقوم بمثله، وكان الحسن لا يُيالي أن يروي الحديث ممن سمع.

وطائفة أخرى قبلت الحديث، ثم اختلفوا فيه، فقالت طائفة: هو منسوخ، وكان هذا قبل نزول الحدود.

وقالت طائفة: بل وجهه أنه إذا استكرهها، فقد أفسدها على سيدتها، ولم تبق ممن تصلح لها، ولحقّ بها العار، وهذا مثله معنوية، فهي كالمثلة الجنسية، أو أبلغ منها، وهو قد تضمن أمرين: إتلافها على سيدتها، والمثلة المعنوية بها، فيلزمه غرامتها لسيدتها، وتعتق عليه، وأما إن طاوعته، فقد أفسدها على سيدتها، فتلزمه قيمتها لها، ويميلُها لأن القيمة قد استحققت عليه، ويمطاوعيتها وإرادتها خرجت عن شبهة المثلة. قالوا: ولا بُدّ في تنزيل الإتلاف المعنوي منزلة الإتلاف الجنسي، إذ كلاهما يحول بين

(١) في الأصل: حبيب بن سالم، وهو وهم من المؤلف رحمه الله، لأن حبيب بن سالم شيخ خالد في هذا الحديث، وليس تلميذه.

نص في أن حُدّها بعد التزويج نصفُ حُدّ الحرة من الجلد، وأما قبل التزويج، فأمرٌ بجلدها.

وفي هذا الجلد قولان:

أحدهما: أنه الحد، ولكن يختلف الحال قبل التزويج وبعده، فإن للسيد إقامته قبله، وأما بعده، فلا يقيمه إلا الإمام.

والقول الثاني: أن جلدها قبل الإحصان تعزير لا حد، ولا يُطلّ هذا ما رواه مسلم في «صحيحه»: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه: «إِذَا زَنَتْ أُمَةٌ أَحَدَكُمْ، فَلْيَجْلِدْنَهَا وَلَا يُعَيِّرْهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَإِنْ عَادَتْ فِي الرَّابِعَةِ فَلْيَجْلِدْنَهَا وَلْيُعَيِّرْهَا وَلَوْ بِضَغِيرٍ»، وفي لفظ «فَلْيَضْرِبْنَهَا كِتَابَ اللَّهِ» [أبو داود: ٤٤٧٠ - ٤٤٧١].

وفي «صحيحه» أيضاً: من حديث علي رضي الله عنه أنه قال: «أَيُّهَا النَّاسُ أَقِيمُوا عَلَى أَرْقَائِكُمُ الْحُدَّ، مَنْ أَحْصَنَ مِنْهُنَّ، وَمَنْ لَمْ يُحْصَنْ، فَإِنَّ أُمَّةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ زَنَتْ، فَأَمَرَنِي أَنْ أَجْلِدَهَا، فَإِذَا هِيَ حَدِيثُةٌ عَهْدَ بَيْفَاسٍ، فَخَشِيتُ إِنْ أَنَا جَلَدْتُهَا أَنْ أَقْتُلَهَا، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «أَحْسَنْتَ» [مسلم: ٤٤٥٠].

فإن التعزير يدخلُ تحته لفظُ الحد في لسان الشارع، كما في قوله ﷺ: «لَا يُضْرَبُ فَوْقَ عَشْرَةِ أَسْوَاطٍ إِلَّا فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى» [البخاري: ٦٨٤٨، ومسلم: ٤٤٦٠].

وقد ثبت التعزيرُ بالزيادة على العشرة جنساً وقدرًا في مواضع عديدة لم يثبت نسخها، ولم تُجْعَلِ الأُمَّةُ على خلافها.

وعلى كل حال، فلا بد أن يُخَالَفَ حَالُهَا بِعَدِّ الإحصان حالها قبله، وإلا لم يكن للتعزير فائدة، فإما أن يُقال قبل الإحصان: لا حدٌ عليها، والسنة الصحيحة تبطلُ ذلك، وإما أن يُقال: حُدّها قبل الإحصان حدّ الحرة، وبعده نصفه، وهذا باطل قطعاً مخالف لقواعد الشرع وأصوله، وإما أن يُقال: جلنّها قبل الإحصان تعزير، وبعده حد، وهذا أقوى، وإما أن يُقال: الاتِّفَاقُ بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ فِي إِقَامَةِ الْحَدِّ لَا فِي قَدْرِهِ، وأنه في إحدى الحالتين للسيد، وفي الأخرى للإمام، وهذا أقرب ما يُقال.

وقد يقال: إن تنصيصه على التنصيف بعد

من لا يُباح بحال أعظمُ جرماً من وطء من يُباح في بعض الأحوال، فيكون حُدّه أغلظ، وقد نصَّ أحمدٌ في إحدى الروايتين عنه، أن حُكْمَ من أتى بهيمةً حُكْمُ اللواط سواء، فيُقتل بكل حال، أو يكون حُدّه حدّ الزاني.

واختلف السلفُ في ذلك، فقال الحسن: حُدّه حدّ الزاني. وقال أبو سلمة عنه: يقتل بكل حال، وقال الشعبي والنخعي: يُعَزَّرُ، وبه أخذ الشافعي ومالك وأبو حنيفة وأحمد في رواية فإن ابن عباس رضي الله عنه أفتى بذلك، وهو راوي الحديث.

فصل

(الحكم حين تقرر بالزنى بامرأة معينة)

وحكم ﷺ على من أقر بالزنى بامرأة معينة بحدّ الزنى دون حد القذف، ففي «السنن»: من حديث سهل بن سعد، أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فأقرّ عنده أنه زنى بامرأة سمّاها، فبعث رسول الله ﷺ إلى المرأة فسألها عن ذلك، فأنكرت أن تكون زنت، فجلده الحدّ وتركها [أبو داود: ٤٤٦٦، وسنده صحيح].

فتضمنت هذه الحكومة أمرين:

أحدهما: وجوبُ الحدّ على الرجل، وإن كذّبه المرأة خلافاً لأبي حنيفة وأبي يوسف أنه لا يُحد. الثاني: أنه لا يجب عليه حدّ القذف للمرأة.

وأما ما رواه أبو داود في «سننه»: من حديث ابن عباس رضي الله عنه، أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فأقرّ أنه زنى بامرأة أربع مرات، فجلده مئة جلدة وكان بكرًا، ثم سأله البيهقي عن المرأة فقالت: كذب والله يا رسول الله، فجلده حد الفرية ثمانين [أبو داود: ٤٤٦٧]. فقال النسائي: هذا حديث منكر. انتهى. وفي إسناده القاسم بن فياض الأنباري الصنعاني، تكلم فيه غير واحد، وقال ابن حبان: بطل الاحتجاجُ به.

فصل

(الحكم في الأمة الزانية)

وحكم في الأمة إذا زنت ولم تُحصن بالجلد [البخاري: ٦٨٣٧ - ٦٨٣٨، ومسلم: ٤٤٤٥]. وأما قوله تعالى في الإمام: «إِذَا أَحْسَنَ فَإِنَّ أَتَرَكَ يَتَحَسَّرُ فَلْيَتَوَّعْ يَصِفْ مَا عَلَى الْمُصَنَّفِ مِنَ الْعَذَابِ» [النساء: ٢٥]، فهو

الإحصان لثلاث يتوهم متوهم أن بالإحصان يزول التنصيف، ويصيرُ حدها حدُّ الحرية، كما أن الجلدَ زال عن البكر بالإحصان، وانتقل إلى الرجم، فبقي على التنصيف في أكمل حالتها، وهي الإحصان تنبهاً على أنه إذا اكتفي به فيها، ففيما قبل الإحصان أولى وأحرى، والله أعلم.

(هين لم يحتمل الحد)

وقضى رسولُ الله ﷺ في مريض زنى ولم يحتمل إقامة الحد، بأن يؤخذ له عُنْكَالٌ فيه مئة شِمْرَاخٍ، فيضربُ بها ضربةً واحدة^(١) [أحمد: ٢١٩٣٥، وأبو داود: ٤٤٧٢، وابن ماجه: ٢٥٧٤].

فصل

(متى نزل حد القذف)

وحكم رسولُ الله ﷺ بحدِّ القذف، لما أنزل الله سبحانه براءة زوجته من السماء، فجلد رجلين وامرأة. وهما: حسانُ بن ثابت، ومسطحُ بن أثاثه. قال أبو جعفر الثَّقَلِي: ويقولون: المرأة حَمْنَةُ بنتُ جحش [أبو داود: ٤٤٧٤ - ٤٤٧٥].

(حكم المرد)

وحكم فيمن بدل دينه بالقتل [البخاري: ٦٩٢٢]، ولم يخص رجلاً من امرأة، وقتل الصديق امرأة ارتدت بعد إسلامها يقال لها: أم قرفة.

(حكم شرب الخمر)

وحكم في شارب الخمر بضربه بالجريد والنعال، وضربه أربعين، وتبعه أبو بكر رضي الله عنه على الأربعين [البخاري: ٦٧٧٣، ومسلم: ٤٤٥٢].

وفي «مصنف عبد الرزاق»: أنه ﷺ جلد في الخمر ثمانين [عبد الرزاق: ١٣٥٤٨].

وقال ابنُ عباس رضي الله عنه: لم يؤقَّت فيها رسولُ الله ﷺ شيئاً [أبو داود: ٤٤٧٦].

وقال علي رضي الله عنه: جلد رسول الله ﷺ في الخمر أربعين، وأبو بكر أربعين، وكملها عمرُ ثمانين، وكلُّ سنة [مسلم: ٤٤٥٧].

(حكم من شرب في الرابعة)

وصح عنه ﷺ أنه أمر بقتله في الرابعة أو

الخامسة. واختلف الناس في ذلك، فقيل: هو منسوخ، وناسخه «لا يجلُّ دُمُ امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث» [البخاري: ٦٨٧٨، ومسلم: ٤٣٧٥]. وقيل: هو محكم، ولا تعارض بين الخاص والعام، ولا سيما إذا لم يُعلم تأخر العام. وقيل: ناسخه حديث عبد الله جمار، فإنه أتى به مراراً إلى رسول الله ﷺ فجلبه ولم يقتله [البخاري: ٦٧٨٠].

وقيل: قتله تعزيراً بحسب المصلحة، فإذا كثر منه ولم ينه الحد، واستهان به، فلإمام قتله تعزيراً لا حداً، وقد صحَّ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: اتتوني به في الرابعة فعلي أن أقتله لكم، وهو أحد رواة الأمر بالقتل عن النبي ﷺ، وهم: معاوية، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو، وقبيصة بن ذؤيب رضي الله عنهم [صحيح: أحمد: ٧٨٩٨، وأبو داود: ٤٤٨٢، والترمذي: ١٤٤٤، وابن ماجه: ٢٥٧٣، وابن حبان: ١٥١٩].

وحديث قبيصة: فيه دلالة على أن القتل ليس بحد، أو أنه منسوخ، فإنه قال فيه: فأتي رسول الله ﷺ برجل قد شرب، فجلبه، ثم أتى به، فجلبه، ثم أتى به فجلبه، ورفع القتل، وكانت رخصة. رواه أبو داود.

فإن قيل: فما تصنعون بالحديث المتفق عليه، عن علي رضي الله عنه أنه قال: ما كنت لأدي من أقمْتُ عليه الحد إلا شارب الخمر، فإن رسول الله ﷺ لم يسنَّ فيه شيئاً، إنما هو شيء قلناه نحن. لفظ أبي داود. ولفظهما: فإن رسول الله ﷺ مات ولم يسنَّ [البخاري: ٦٧٧٨، ومسلم: ٤٤٥٧].

قيل: المرادُ بذلك أن رسول الله ﷺ لم يُقدِّر فيه بقوله تقديرًا لا يُزاد عليه ولا يُقص كسائر الحدود، وإلا فعلي رضي الله عنه قد شهد أن رسول الله ﷺ قد ضرب فيها أربعين.

وقوله: إنما هو شيء قلناه نحن، يعني التقدير بثمانين، فإن عمر رضي الله عنه جمع الصحابة رضي الله عنهم واستشارهم، فأشاروا بثمانين،

(١) والشكال: هو العلق من أعناق النخلة، وهو كل غصن من أغصانها، والشمراخ: هو الذي عليه البسر.

وقال أحمد رحمه الله: بهذه الحكومة ولا معارض لها.

وحكم ﷺ بإسقاط القطع عن المنتهب، والمُخْتَلِس، والخائن [أبو داود: ٤٣٩١، والترمذي: ١٤٤٨، والنسائي (٨/٨٩)، وابن ماجه: ٢٥٩١] والمراد بالخائن: خائن الودعة.

(جحد العارية كالسرقه)

وأما جاحدُ العارية، فيدخلُ في اسم السارق شرعاً، لأن النبي ﷺ لما كَلَّمَهُ في شأن المستعيرة الجاحدة، قطعها، وقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ قَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا».

فأدخاله ﷺ جاحد العارية في اسم السارق، كإدخاله سائر أنواع المسكر في اسم الخمر، فتأمله، وذلك تعريف للأمة بمراد الله من كلامه.

وأسقط ﷺ القطع عن سارق الثمر والكثير، وحكم أن من أصاب منه شيئاً بفمه وهو محتاج، فلا شيء عليه، ومن خرج منه بشيء، فعليه غرامة مثليه والعقوبة، ومن سرق منه شيئاً في جريته هو يبدله، فعليه القطع إذا بلغ ثمن المجن^(٢) [أحمد: ٦٦٨٣ - ٦٧٤٦، وأبو داود: ١٧١٠ - ٤٣٩٠، والنسائي (٨/٦٥، ٨٦)] فهذا قضاؤه الفصل، وحكمه العدل.

وقضى في الشاة التي تُؤخذ من مراتعها بثمان مرتين، وضرب نكال، وما أُجِدَّ من عطنه، ففيه القطع إذا بلغ ثمن المجن [أحمد: ٦٦٨٣، والنسائي (٨/٨٦)، وابن ماجه: ٢٥٩٦].

وقضى بقطع سارق رداء صفوان بن أمية، وهو نائم عليه في المسجد، فأراد صفوان أن يهيه إياه، أو يبيعه منه، فقال: «هَلَا كَانَ قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَنِي بِهِ» [أبو داود: ٤٣٩٤، والنسائي (٨/٧٧)].

وقطع سارقاً سرق ثرساً من صُفَّة النساء في المسجد [أحمد: ١٧٦٣، وأبو داود: ٤٣٨٦، والنسائي (٨/٧٧)].

ودراً القطع عن عبد من رقيق الخمس سرق من

فامضاها، ثم جلد علي في خلافته أربعين، وقال: هذا أحب إلي.

ومن تأمل الأحاديث، رآها تدل على أن الأربعين حد، والأربعون الزائدة عليها تعزيرٌ اتفق عليه الصحابة رضي الله عنهم، والقتل إما منسوخ، وإما أنه إلى رأي الإمام بحسب تهالك الناس فيها واستهانتهم بحدها، فإذا رأى قتل واحد لينزجر الباقون، فله ذلك، وقد حلق فيها عمر رضي الله عنه وغرَّب، وهذا من الأحكام بالأئمة، وبالله التوفيق^(١).

فصل

في حكمه ﷺ في السارق

قطع سارقاً في مِجَن قيمته ثلاثة دراهم [البخاري: ٦٧٩٠، ومسلم: ٤٤٠٦].

وقضى أنه لا تُقطع اليدُ في أقل من رُبع دينار [البخاري: ٦٧٨٩، ومسلم: ٤٣٩٨].

وصح عنه أنه قال: «اقْطَعُوا فِي رُبْعِ دِينَارٍ، وَلَا تَقْطَعُوا فِيمَا هُوَ أَذْنَى مِنْ ذَلِكَ» ذكره الإمام أحمد رحمه الله [أحمد: ٢٤٥١٥].

وقالت عائشة رضي الله عنها: لم تكن تقطع يد السارق في عهد رسول الله ﷺ في أذن من ثمن المجن، تُرْسٍ أو جَحْفَةٍ، وكان كل منهما ذا ثمن [البخاري: ٦٧٩٤، ومسلم: ٤٣٩٨].

وصح عنه أنه قال: «لَعَنَ اللَّهُ السَّارِقَ يَسْرِقُ الْحَبْلَ فَتَقْطَعُ يَدُهُ وَيَسْرِقُ الْبَيْضَةَ فَتَقْطَعُ يَدُهُ» [البخاري: ٦٧٩٩، ومسلم: ٤٤٠٨]. فقيل: هذا حبل السفينة، وبَيْضَةُ الحديد، وقيل: بل كل حبل وبَيْضَةُ، وقيل: هو إخبار بالواقع، أي: إنه يسرق هذا، فيكون سبباً لقطع يده بتدرجه منه إلى ما هو أكبر منه. قال الأعمش: كانوا يرون أنه يبض الحديد، والحبل كانوا يرون أن منه ما يُساوي دراهم.

وحكم في امرأة كانت تستعير المتاع وتَجَحِّدُه بقطع يدها [مسلم: ٤٤١٢].

(١) قال المؤلف رحمه الله في «تهذيب السنن» (٦/٢٣٨): والذي يقتضيه الدليل أن الأمر بقتله ليس حتماً، ولكن تعزير بحسب المصلحة.

(٢) والكثير: جمار النخل. والجرين: موضع الثمر الذي يجفف فيه، مثل اليبدر للحنطة.

الخمس. وقال: «مَا لِلَّهِ سَرَقَ بَعْضُهُ بَعْضًا» رواه ابن ماجه [٢٥٩٠].

ورُفِعَ إليه سارق، فاعترف، ولم يُوجد معه متاع، فقال له: «مَا إِخَالَهُ سَرَقَ؟» قال: بلى، فأعادَ عليه مرتين أو ثلاثاً، فأمر به فُقطِعَ [أبو داود: ٤٣٨٠، والنسائي (٦٧/٨)، وابن ماجه: ٢٥٩٧].

ورفع إليه آخر فقال: «مَا إِخَالَهُ سَرَقَ؟» فقال: بلى، فقال: «أَذْهَبُوا بِهِ فَأَقْطَعُوهُ، ثُمَّ أَخِيْمُوهُ، ثُمَّ أَشْرُونِي بِهِ»، فقطع، ثم أتى به النبي ﷺ، فقال له: «تُبَّ إِلَى اللَّهِ»، فقال: تَبَّ إِلَى اللَّهِ، فقال: تَابَ اللَّهُ عَلَيْكَ [الحاكم (٣٨١/٤)، وعبد الرزاق: ١٨٩٢٣].

وفي الترمذي عنه أنه قطع سارقاً وعلق يده في عُقْقه. قال: حديث حسن [أبو داود: ٤٤١١، والترمذي: ١٤٤٧، والنسائي (٩٢/٨)، وابن ماجه: ٢٥٨٧].

فصل

في حكمه ﷺ على من اتهم رجلاً بسرقة

روى أبو داود: عن أزر بن عبد الله، أن قوماً سُرِقَ لهم متاع، فأتهموا ناساً من الحاكّة، فأتوا النعمان بن بشير صاحب رسول الله ﷺ، فحبسهم أياماً ثم خلى سبيلهم، فأتوه فقالوا: خَلَيْتَ سَبِيلَهُمْ بِغَيْرِ ضَرْبٍ وَلَا امْتِحَانٍ، فقال: مَا شُئْتُ، إِنْ شُئْتُ أَنْ أَضْرِبَهُمْ، فَإِنْ خَرَجَ مَتَاعُكُمْ فَذَلِكَ، وَإِلَّا أَخَذْتُ مِنْ ظُهُورِكُمْ مِثْلَ الَّذِي أَخَذْتُ مِنْ ظُهُورِهِمْ. فقالوا: هَذَا حُكْمُكَ؟ فقال: حُكْمُ اللَّهِ وَحُكْمُ رَسُولِهِ [أبو داود: ٤٣٨٢، والنسائي (٦٦/٨)].

فصل

(ما تضمنته القضية السابقة في السرقة من الأمور)

وقد تضمنت هذه الأفضية أموراً:

أحدها: أنه لا يقطع في أقل من ثلاثة دراهم، أو ربُع دينار.

(جواز لعن أصحاب الكبائر بأنواعهم دون أعيانهم)

الثاني: جواز لعن أصحاب الكبائر بأنواعهم دون أعيانهم، كما لعن السارق، ولعن آكل الربا وموكله، ولعن شارِبَ الخمر وعاصِرها، ولعن من عمل عمل قوم لوط [البخاري: ٦٧٨٠، ومسلم: ٤٤٠٨]، ونهى عن لعن عبد الله جِماراً وقد شرب الخمر [البخاري: ٦٧٨٠،

ولا تعارض بين الأمرين، فإن الوصف الذي علق عليه اللعن مقتض. وأما المعين، فقد يقوم به ما يمنع لحوق اللعن به من حسنات ماحية، أو توبة، أو مصائب مكفرة، أو عفو من الله عنه، فتلعن الأنواع دون الأعيان.

الثالث: الإشارة إلى سد الذرائع، فإنه أخبر أن سرقة الحبل والبيضة لا تدعه حتى تقطع يده.

الرابع: قطع جاحد العارية، وهو سارق شرعاً كما تقدم.

(مضاعفة الغرم)

الخامس: أن من سرق مالا قطع فيه، ضُوِّعَ عليه الغرم، وقد نص عليه الإمام أحمد رحمه الله، فقال: كل مَنْ سَقَطَ عَنْهُ الْقَطْعُ، ضُوِّعَ عَلَيْهِ الْغَرَمُ، وقد تقدّم الحكم النبوي به في صورتين: سرقة الثمار المعلقة، والشاة من المرتع.

السادس: اجتماع التعزير مع الغرم، وفي ذلك الجمع بين العقوبتين: مالية وبدنية.

(اعتبار الحرز في اللقطة)

السابع: اعتبار الحرز، فإنه ﷺ أسقط القطع عن سارق الثمار من الشجرة، وأوجه على سارقه من الجرين، وعند أبي حنيفة أن هذا لنقصان ماليته، لإسراع الفساد إليه، وجعل هذا أصلاً في كل ما نقصت ماليته بإسراع الفساد إليه. وقول الجمهور أصح، فإنه ﷺ جعل له ثلاثة أحوال: حالة لا شيء فيها، وهو ما إذا أكل منه بفيه، وحالة يُغْرَمُ مثليه، ويُضْرَبُ مِنْ غَيْرِ قِطْعٍ، وهو ما إذا أخذه من شجره وأخرجه، وحالة يُقَطَّعُ فيها، وهو ما إذا سرقه من يدره سواء كان قد انتهى جفافه أو لم ينته، فالعبرة للمكان والحرز لا لئسسه ورطوبته، ويدل عليه أنه ﷺ أسقط القطع عن سارق الشاة من مرعاها، وأوجه على سارقها من عطنها فإنه حرزها.

(إثبات العقوبات المالية)

الثامن: إثبات العقوبات المالية، وفيه عدة سنن ثابتة لا معارض لها، وقد عمل بها الخلفاء الراشدون وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم، وأكثر من عمل بها عمر رضي الله عنه.

التاسع: أن الإنسان حرز لثيابه ولفراشه الذي هو نائم عليه أين كان، سواء كان في المسجد أو في غيره.

العاشر: أن المسجد حرز لما يعتاد وضعه فيه، فإن النبي ﷺ قطع من سرق منه ترساً، وعلى هذا فيقطع من سرق بين حصيره وقناديله ويسطه، وهو أحد القولين في مذهب أحمد وغيره. ومن لم يقطعه، قال: له فيها حق، فإن لم يكن فيها حق، قطع كالذمي.

الثامن عشر: ضرب المتهم إذا ظهر منه أمارات الريبة، وقد عاقب النبي ﷺ في تهمة، وحبس في تهمة.

التاسع عشر: وجوب تخلية المتهم إذا لم يظهر عنه شيء مما اتهم به، وأن المتهم إذا رضي بضرب المتهم، فإن خرج ماله عنده، وإلا ضرب هو مثل ضرب من اتهمه إن أجب إلى ذلك، وهذا كله مع أمارات الريبة، كما قضى به النعمان بن بشير رضي الله عنه، وأخبر أنه قضاء رسول الله ﷺ.

العشرون: ثبوت القصاص في الضربة بالسوط والعصا ونحوهما.

فصل

(من تكرر منه الحد في السرقة)

وقد روى عنه أبو داود: أنه أمر بقتل سارق فقالوا: إنما سرق، فقال: «أقطعوه»، ثم جيء به ثانياً، فأمر بقتله، فقالوا: إنما سرق، فقال: «أقطعوه»، ثم جيء به في الثالثة، فأمر بقتله، فقالوا: إنما سرق، فقال: «أقطعوه»، ثم جيء به رابعة، فقال: «أقتلوه»، فقالوا: إنما سرق، فقال: «أقطعوه»، فأتى به في الخامسة، فأمر بقتله، فقتلوه [أبو داود: ٤٤١٠، والنسائي (٨/٩٠، ٩١)].

فاختلف الناس في هذه الحكومة: فالنسائي وغيره لا يصححون هذا الحديث. قال النسائي: هذا حديث منكر، ومُصعب بن ثابت ليس بالقوي، وغيره يُحسنه ويقول: هذا حكم خاص بذلك الرجل وحده، لما علم رسول الله ﷺ من المصلحة في قتله، وطائفة ثالثة تقبله، وتقول به، وأن السارق إذا سرق خمس مرات قتل في الخامسة، وممن ذهب إلى هذا المذهب أبو مصعب من المالكية.

وفي هذه الحكومة الإتيان على أطراف السارق

التاسع: أن الإنسان حرز لثيابه ولفراشه الذي هو نائم عليه أين كان، سواء كان في المسجد أو في غيره.

العاشر: أن المسجد حرز لما يعتاد وضعه فيه، فإن النبي ﷺ قطع من سرق منه ترساً، وعلى هذا فيقطع من سرق بين حصيره وقناديله ويسطه، وهو أحد القولين في مذهب أحمد وغيره. ومن لم يقطعه، قال: له فيها حق، فإن لم يكن فيها حق، قطع كالذمي.

(المطالبة في المسروق شرط في القطع)

الحادي عشر: أن المطالبة في المسروق شرط من القطع، فلو وهبه إياه، أو باعه قبل رفعه إلى الإمام، سقط عنه القطع، كما صرح به النبي ﷺ وقال: «مَلَأَ كَانْ قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَنِي بِهِ» [صحيح: أبو داود: ٤٣٩٤، والنسائي (٨/٦٨)].

(لا تسقط الحدود بعد رفعها للإمام)

الثاني عشر: أن ذلك لا يسقط القطع بعد رفعه إلى الإمام، وكذلك كل حد بلغ الإمام، وثبت عنده لا يجوز إسقاطه، وفي «السنن»: عنه: «إِذَا بَلَغَتْ الْحُدُودُ الْإِمَامَ، فَلَمْ يَنْزِلْ إِلَيْهِ الشَّافِعُ وَالْمُشَفِّعُ»^(١).

الثالث عشر: أن من سرق من شيء له فيه حق لم يُقطع.

(لا يقطع إلا بالإقرار مرتين أو لشهادة شاهدين)

الرابع عشر: أنه لا يقطع إلا بالإقرار مرتين، أو بشهادة شاهدين، لأن السارق أقرّ عنده مرة، فقال: «ما إخالك سرقت؟» فقال: بلى، فقطعه حينئذ، ولم يقطعه حتى أعاد عليه مرتين.

(التعريض للسارق بعدم الإقرار)

الخامس عشر: التعريض للسارق بعدم الإقرار، وبالرجوع عنه، وليس هذا حكم كل سارق، بل من الشراق من يتر بالعبوبة والتهديد، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

(الحسم بعد القطع)

السادس عشر: أنه يجب على الإمام حسمه بعد

(١) لم يخرج أحد من أصحاب السنن، وإنما هو في الموطأ (٢/٨٣٥).

الأربعة. وقد روى عبد الرزاق في «مصنفه»: أن النبي ﷺ أتى بعبد سرق، فأُتي به أربع مرات، فتركه، ثم أتى به الخامسة، فقطع يده، ثم السادسة فقطع رجله، ثم السابعة فقطع يده، ثم الثامنة فقطع رجله [عبد الرزاق: ١٨٧٧٣، والبيهقي (٢٧٣/٨)].

واختلف الصحابة ومن بعدهم، هل يُؤتى على أطرافه كلها، أم لا؟ على قولين. فقال الشافعي ومالك وأحمد في إحدى روايتيه: يُؤتى عليها كلها، وقال أبو حنيفة وأحمد في رواية ثانية: لا يُقطع منه أكثر من يد ورجل، وعلى هذا القول، فهل المحذور تعطيل منفعة الجنس، أو ذهاب عضوين من شق؟ فيه وجهان يظهر أثرهما فيما لو كان أقطع اليد اليمنى فقط، أو أقطع الرجل اليسرى فقط، فإن قلنا: يُؤتى على أطرافه، لم يؤثر ذلك، وإن قلنا: لا يُؤتى عليها، قُطعت رجله اليسرى في الصورة الأولى، ويذه اليمنى في الثانية على العلتين، وإن كان أقطع اليد اليسرى مع الرجل اليمنى لم يقطع على العلتين، وإن كان أقطع اليد اليسرى فقط، لم تقطع يمينه على العلتين، وفيه نظر، فتأمل.

وهل قطع رجله اليسرى يبتنى على العلتين؟ فإن عللنا بذهاب منفعة الجنس، قُطعت رجله، وإن عللنا بذهاب عضوين من شق، لم تُقطع.

وإن كان أقطع اليدين فقط، وعللنا بذهاب منفعة الجنس قُطعت رجله اليسرى، وإن عللنا بذهاب عضوين من شق، لم تُقطع، هذا طرد هذه القاعدة. وقال صاحب «المحرر» فيه: تقطع يمينه على الروائيتين، وفرق بينها وبين مسألة مقطوع اليدين، والذي يقال في الفرق: إنه إذا كان أقطع الرجلين، فهو كالمُتَّعِد، وإذا قُطعت إحدى يديه، انتفع بالأخرى في الأكل والشرب والوضوء والاستجمار وغيره، وإذا كان أقطع اليدين لم ينتفع إلا برجليه، فإذا ذهب إحدهما، لم يمكنه الانتفاع بالرجل الواحدة بلا يد، ومن الفرق أن اليد الواحدة تنفع مع عدم منفعة المشي، والرجل الواحدة لا تنفع مع عدم منفعة البطش.

فصل

في قضائه ﷺ فيمن سبه من مسلم أو ذمي أو معاهد

ثبت عنه ﷺ أنه قضى بإهدار دم أم ولد الأعمى لما قتلها مولاهما على السب [أبو داود: ٤٣٦١، والنسائي (١٠٧/٧)].

وقتل جماعة من اليهود على سبه وأذاه، وأمن الناس يوم الفتح إلا نفرًا ممن كان يؤذيه ويهجوه، وهم أربعة رجال وامرأتان [النسائي: (١٠٥/٧-١٠٦)]. وقال: «مَنْ لِكَغُيبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ» [البخاري: ٤٠٣٧]. وأهدر دمه ودم أبي رافع.

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لأبي برزة الأسلمي، وقد أراد قتل من سبه: ليس هذا لأحد بعد رسول الله ﷺ [أبو داود: ٤٣٦٣، والنسائي (١٠٨/٧)]. فهذا قضاءه ﷺ وقضاء خلفائه من بعده، ولا مخالف لهم من الصحابة، وقد أعادهم الله من مخالفة هذا الحكم.

وقد روى أبو داود في «سننه»: عن علي رضي الله عنه أن يهودية كانت تشتم النبي ﷺ وتقع فيه، فخنقها رجل حتى ماتت، فأبطل رسول الله ﷺ دمها [أبو داود: ٤٣٦٢].

وذكر أصحاب السير والمغازي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هجيت امرأة النبي ﷺ، فقال: «مَنْ لِي بِهَا؟» فقال رجل من قومها: أنا، فنهض فقتلها، فأخبر النبي ﷺ، فقال: «لَا يَنْتَظِحُ فِيهَا عَتْرَان»^(١).

وفي ذلك بضعة عشر حديثًا ما بين صحاح وجسان ومشاهير، وهو إجماع الصحابة.

وقد ذكر حرب في «مسائله»: عن مجاهد قال: أتى عمر رضي الله عنه برجل سب النبي ﷺ فقتله، ثم قال عمر رضي الله عنه: من سب الله وسوله، أو سب أحدًا من الأنبياء فاقتلوه. ثم قال مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما: أيما مسلم سب

(١) «الصارم السلول» ص (٩٤ - ٩٧).

والله ورسوله، أو سبَّ أحدًا من الأنبياء، فقد كُذِّبَ برسول الله ﷺ وهي ردة، يُستتاب، فإن رجع، وإلا قُتِل، وإيما مُّأَاهِدٍ عاند، فسبَّ الله أو سبَّ أحدًا من الأنبياء أو جهر به، فقد نقضَ العهد فاقتلوه.

فصل

في حكمه ﷺ في الساحر

في الترمذي. عنه ﷺ: «حَدَّثَنَا السَّاحِرُ ضَرَبَتْهُ بِالسَّيْفِ» [الترمذي: ١٤٦٠، والحاكم: (٣٦٠/٤)]. والصحيح أنه موقوف على جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ.

وصح عن عمر رضي الله عنه أنه أمر بقتله، وصح عن حفصة رضي الله عنها، أنها قتلت مدبرة سحرتهَا، فأنكر عليها عثمانُ إذ فعلته دون أمره. وروى عن عائشة رضي الله عنها أيضاً أنها قتلت مدبرة سحرتهَا، وروى أنها باعتها، ذكره ابن المنذر وغيره.

وقد صح أن رسول الله ﷺ لم يقتل من سحره من اليهود، فأخذ بهذا الشافعي، وأبو حنيفة رحمهما الله، وأما مالك، وأحمد رحمهما الله، فإنهما يقتلانه، ولكن منصوب أحمد رحمه الله، أن ساحر أهل الذمة لا يقتل، واحتج بأن النبي ﷺ لم يقتل لبيد بن الأعصم اليهودي حين سحره، ومن قال بقتل ساحرهم يُجيب عن هذا بأنه لم يُعْرَ، ولم يَمُت عليه يئنة، وبأنه خشي ﷺ أن يثير على الناس شراً بترك إخراج السحر من البشر، فكيف لو قتله.

فصل

في حكمه ﷺ في أول غنيمة كانت

في الإسلام وأول قتيل

لما بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحشٍ ومن معه سريةً إلى نخلة ترصد عيراً لقريش، وأعطاه كتاباً مختوماً، وأمره أن لا يقرأه إلا بعد يومين، فقتلوا عمرو بن الحضرمي، وأسروا عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، وكان ذلك في الشهر الحرام، فعنفهم المشركون، ووقف رسول الله ﷺ الغنيمة والأسيرين حتى أنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَهْرِ الْقَرَارِ فَقُلْ قَاتِلْ فِيهِ كَيْفَ وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَّرَ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْقَرَارِ وَإِخْرَاجَ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، فأخذ رسول الله ﷺ العير والأسيرين، وبعث إليهم قريشاً في فدائهما، فقال:

وذكر أحمد، عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه مرَّ به راهب، فقيل له: هذا يسبُّ النبي ﷺ، فقال ابن عمر رضي الله عنه: لو سمعته، لقتلته إنا لم نُعْطِهِم الذمة على أن يسبوا نبيَّنا. والآثار عن الصحابة بذلك كثيرة، وحكى غير واحد من الأئمة الإجماع على قتله. قال شيخنا: وهو محمول على إجماع الصدر الأول من الصحابة والتابعين. والمقصود: إنما هو ذكر حكم النبي ﷺ وقضائه فيمن سبه.

(له ﷺ العفو عن سبه في حياته)

وأما تركه ﷺ قتل من قدح في عدله بقوله: «اغْدِلْ فَإِنَّكَ لَمْ تَغْدِلْ» [مسلم: ٢٤٤٩]، وفي حكمه بقوله: «أَنْ كَانَ ابْنُ عَمَّتِكَ [البخاري: ٢٣٥٩، ومسلم: ٦١١٢]، وفي قصده بقوله: «إِنْ هَذِهِ قِسْمَةٌ مَا أُرِيدُ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ» [البخاري: ٣١٥٠، ومسلم: ٢٤٤٧]، أو في خلوته بقوله: «يَقُولُونَ إِنَّكَ تَنْهَى عَنِ الْغِيِّ وَتَسْتَخْلِي بِهِ» [أحمد: ٢٠٠١٧] وغير ذلك، فذلك أن الحقَّ له، فله أن يستوفيه، وله أن يتركه، وليس لأُمَّته تركُ استيفاء حقه ﷺ.

وأيضاً فإن هذا كان في أول الأمر حيث كان ﷺ مأموراً بالعفو والصَفْح.

وأيضاً فإنه كان يعفو عن حقه لمصلحة التأليف وجمع الكلمة، ولئلا يُنْفَرِ النَّاسَ عَنْهُ، ولئلا يتحدثوا أنه يقتل أصحابه، وكل هذا يختص بحياته ﷺ.

فصل

في حكمه ﷺ فيمن سَمَّه

ثبت في «الصحيحين»: أن يهودية سمته في شاة، فأكل منها لقمة، ثم لفظها، وأكل معه بشر بن البراء، فعفا عنها النبي ﷺ ولم يُعاقبها، هكذا في «الصحيحين».

وعند أبي داود: أنه أمر بقتلها [أبو داود: ٤٥١٤]، فقيل: إنه عفا عنها في حقه، فلما مات بشر بن البراء، قتلها به.

لا، حتى يُقَدَّم صاحبانا - يعني سعد بن أبي وقاص، وعُتْبَةُ بن غزوَان -، فإننا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما، نقتلُ صاحبَيْكم، فلما قَدِمَا، فاداهما رسولُ اللَّهِ ﷺ بعثمان والحكم، وقسم الغنيمة [الطبري (٣٤٩/٢)].

وذكر ابنُ وهب: أن النبي ﷺ ردَّ الغنيمة، وودى القَتيلَ.

والمعروفُ في السير خلاف هذا.

(إجازة الشهادة على الوصية المختومة)

وفي هذه القصة من الفقه إجازةُ الشهادة على الوصية المختومة، وهو قولُ مالك، وكثير من السلف، ويدل عليه حديث ابن عمر رضي الله عنهما في «الصحيحين»: «ما حقُّ امرئٍ مُسلمٍ لهُ شيءٌ يُوصي به يبيِّث لَيْلَتَيْنِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ» [البخاري: ٢٧٣٠، ومسلم: ٤٢٠٤].

(عدم معرفة حامل الكتاب بمضمونه)

وفيها: أنه لا يشترط في كتاب الإمام والحاكم البيعة، ولا أن يقرأه الإمام والحاكم على الحامل له، وكلُّ هذا لا أصل له في كتاب ولا سنة، وقد كان رسولُ اللَّهِ ﷺ يدفع كُتُبَهُ مع رُسله، ويُسيرها إلى من يكتب إليه، ولا يقرؤها على حاملها، ولا يقيم عليها شاهدين، وهذا معلوم بالضرورة من هديه وسنته.

فصل

في حكمه ﷺ في الجاسوس

ثبت أن حاطب بن أبي بلتعة لما جسَّ عليه، سأله عمرُ رضي الله عنه ضربَ عقبه، فلم يُمكنه، وقال: «مَا يَذْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اغْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ عَفَرْتُ لَكُمْ» [البخاري: ٣٠٠٧، ومسلم: ٦٤٠١]. وقد تقدم حكم المسألة مستوفى.

واختلف الفقهاء في ذلك، فقالَ سحنون: إذا كاتب المسلمُ أهلَ الحرب، قُتِلَ، ولم يُستَب، وماله لورثته، وقال غيره من أصحاب مالك رحمه الله: يُجلد جلدًا وجيعًا، ويُطال حبسه، ويُنفى من موضع يقرب من الكفار. وقال ابن القاسم: يُقتل ولا يعرف لهذا توبة، وهو كالزنديق.

وقال الشافعي، وأبو حنيفة، وأحمد رحمهم الله: لا يُقتل، والفرقان احتجاجوا بقصة حاطب، وقد تقدم ذكرُ وجه احتجاجهم، ووافق ابنُ عقيل من أصحاب أحمد مالكا وأصحابه.

فصل

في حكمه في الأسرى

ثبت عنه ﷺ في الأسرى أنه قَتَلَ بَعْضَهُمْ، وَمَنَّ على بعضهم، وفادى بعضهم بمال، وبعضهم بأسرى من المسلمين، واسترقَّ بعضهم، ولكن المعروف، أنه لم يَسْتَرْقِ رجلاً بالغاً.

فقتل يومَ بدر من الأسرى عُقْبَةُ بن أبي معيط، والنضر بن الحارث. وقتل من يهود جماعة كثيرين من الأسرى، وفادى أسرى بدر بالمال بأربعة آلاف إلى أربعين [أبو داود: ٢٦٩١]، وفادى بعضهم على تعليم جماعة من المسلمين الكتابة، ومنَّ علي أبي عَزَّةَ الشاعر يومَ بدر، وقال في أسارى بدر: «لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا، ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتِيِّ لَأُطْلَقْتُهُمْ لَهُ» [البخاري: ٢٠٢٤].

وفدى رجلين من المسلمين برجل من المشركين [أحمد: ١٩٧٢٧].

وفدى رجالاً من المسلمين بامرأة من السيي، استوهبها من سلمة بن الأكوع [مسلم: ٤٥٧٣].

ومنَّ علي ثُمَامَةُ بن أُنَال [البخاري: ٤٣٧٢، ومسلم: ٤٥٨٩]، وأطلقَ يوم فتح مكة جماعةً من قريش، فكان يُقال لهم: الطَّلَاق.

وهذه أحكام لم يُنسخ منها شيء، بل يُخير الإمامُ فيها بحسبِ المصلحة، واسترقَّ من أهل الكتاب وغيرهم، فسبايا أوطاس، وبني المصطلق لم يكونوا كتابيين، وإنما كانوا عبدة أوثان من العرب. واسترق الصحابةُ من سبي بني حنيفة، ولم يكونوا كتابيين. قال ابن عباس رضي الله عنهما: خيَّرَ رسولُ اللَّهِ ﷺ في الأسرى بينَ الفداءِ والمَنْ والقتل والاستعباد، يفعلُ ما شاء، وهذا هو الحق الذي لا قول سواه^(١).

(١) وهو قول الشافعي والثوري وأحمد وإسحاق، وقال الأوزاعي وأصحاب الرأي: لا يجوز الفداء والمن.

فصل

(حكمه ﷺ في اليهود)

وحكم في اليهود بعدة قضايا، فعاهدهم أول مقدمه المدينة، ثم حاربه بنو قَيْنَقَاع، فظَفِرَ بهم، ومنَّ عليهم، ثم حاربه بنو النضير، فظَفِرَ بهم، وأجلاهم، ثُمَّ حَارَبَهُ بنو قُرَيْظَةَ، فظَفِرَ بهم وقتلهم، ثم حاربه أهلُ خيبر، فظَفِرَ بهم وأقرهم في أرض خيبر ما شاء سيوى مَنْ قتل منهم.

ولما حكم سعد بن معاذ في بني قُرَيْظَةَ بأن تُقَتَّلَ مقاتلتهم، وتُسبى ذراريهم وتُغنم أموالهم، أخبره رسولُ الله ﷺ: أن هذا حُكْمُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ [البخاري: ٤١٢٢، ومسلم: ٤٥٩٦].

وتضمن هذا الحكم: أن ناقضي العهد يسري نقضهم إلى نساتهم وذُرِّيَّتِهِمْ إذا كان نقضهم بالحرب، ويعودون أهلَ حرب، وهذا عينُ حكمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

فصل

في حكمه ﷺ في فتح خيبر

حكم يومئذ بإقرار يهودَ فيها على شطرٍ ما يخرج منها من ثمر أو زرع [البخاري: ٢٢٨٥، ومسلم: ٣٩٦٢].

وحكم بقتل ابني أبي المُحَقِّقِ لما نقضوا الصلح بينهم وبينه، على أن لا يكتموا ولا يُغيَّبوا شيئاً من أموالهم، فكتُموا وغيَّبوا، وحكم بعقوبة المتهم بتغييب المال حتى أقر به، وقد تقدّم ذلك مستوفى في غزوة خيبر.

وكانت لأهل الحُدَيْبِيَّةِ خاصة، ولم يَغِبْ عنها إلا جابرُ بن عبد الله، فقسم له رسولُ الله ﷺ سهمه.

فصل

في حكمه ﷺ في فتح مكة

حكم بأن من أغلق بابَه، أو دخلَ دارَ أبي سفيان، أو دخلَ المسجد، أو وضع السلاح، فهو آمن، وحكم بقتل نفرستة، منهم: مَيْسِرُ بن صُبَايَةَ، وابنُ خطل، ومغنيين كانتا تغنيان بهجاءه، وحكم بأنه لا يُجهز على جريح، ولا يُجَبِّح مدبر، ولا يُقتل أسير، ذكره أبو عبيد في «الأموال». وحكم لخزاعة

أن يذلُّوا سيوفهم في بني بكر إلى صلاة العصر، ثم قال لهم: «يَا مَعْشَرَ خَزَاعَةَ ارْقُوعُوا أَيْدِيَكُمْ عَنِ الْقَتْلِ».

فصل

في حكمه ﷺ في قسمة الغنائم

(الفارس والراجل)

حكم ﷺ أن للفارس ثلاثة أسهم، وللراجل سهم، هذا حكمه الثابتُ عنه في مغازيه كُلِّهَا، وبه أخذ جمهورُ الفقهاء.

(السلب)

وحكم أن السلب للقاتل.

(الخمس)

وأما حكمه بإخراج الخمس، فقال ابن إسحاق: كانت الخيل يومَ بني قُرَيْظَةَ ستةً وثلاثين فرساً، وكان أولُ في وقت في السهمان، وأخرج منه الخمس، ومضت به السنة، ووافقه على ذلك القاضي إسماعيل بن إسحاق، فقال إسماعيل: وأحبُّ أن بعضهم قال: ترك أمرَ الخمس بعد ذلك، ولم يأت في ذلك من الحديث ما فيه بيانٌ شاف، وإنما جاء ذكرُ الخمس يقيناً في غنائم حُنين.

وقال الواقدي: أولُ خمسٍ خمسُ غزوة بني قَيْنَقَاعَ بعد بدرٍ بشهر وثلاثة أيام، نزلوا على حكمه، فصالحهم على أن له أموالهم، ولهم النساء والذرية، وخمسُ أموالهم.

وقال جُأْدَةُ بن الصامت: خرجنا مع رسولِ الله ﷺ إلى بدرٍ، فلما هَرَمَ اللَّهُ العُدُوَّ، تبعتهم طائفةٌ يقتلونهم، وأحدثت طائفةٌ برسولِ الله ﷺ، وطائفةٌ استولت على العسكر والغنيمة، فلما رجع الذين طلبوهم، قالوا: لنا القتل نحن طلبنا العُدُوَّ، وقال الذين أحدقوا برسولِ الله ﷺ: نحن أحقُّ به، لأننا أحدقنا برسولِ الله ﷺ أن لا ينال العُدُوَّ غزوته، وقال الذين استولوا على العسكر: هو لنا، نحن حوَّيناه. فأنزل الله عز وجل: ﴿يَتْلُوكَ عَنِ الْآلِفَالِ فِي الْأَنْفَالِ يَوْمَ الْأَنْفَالِ﴾ [الأنفال: ١]. فقسمه رسولُ الله ﷺ عن يَؤَاءٍ قبل أن ينزل: ﴿وَأَقْلَمُوا أَمَّا فَعِثْتُمْ مَن شَقَو فَاَن يَلُو

خُمْسُهُ ﴿الْأَنْفَالُ: ٤١﴾ [حسن: أحمد: ٢٢٧٦٢، وابن حبان: ١٦٩٣].

(العلّة هي قسم أموال بني النضير في المهاجرين)

وقال القاضي إسماعيل: إنما قسم رسول الله ﷺ أموال بني النضير بين المهاجرين، وثلاثة من الأنصار: سهل بن حنيف، وأبي دُجّانة، والحارث ابن الصّمة لأن المهاجرين حين قدموا المدينة، شاطرهم الأنصار ثمارهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إِنْ شِئْتُمْ قَسَمْتُ أَثْوَالَ بَنِي النَّضِيرِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ، وَأَقَمْتُكُمْ عَلَى مُوَاسَاتِهِمْ فِي ثِمَارِكُمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ أَغْطَيْنَاهَا لِلْمُهَاجِرِينَ دُونَكُمْ، وَقَطَعْتُ عَنْهُمْ مَا كُنتُمْ تُعْطَوْنَهُمْ مِنْ ثِمَارِكُمْ»، فقالوا: بل نعطهم دوننا، ونُشِيرُكَ ثَمَارَنَا، فأعطاهما رسول الله ﷺ المهاجرين، فاستغنوا بما أخذوا، واستغنى الأنصار بما رجع إليهم من ثمارهم، وهؤلاء الثلاثة من الأنصار شكّوا حَاجَةً.

فصل

(من ضرب له سهم ولم يحضر)

وكان طلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد رضي الله عنهما بالشام لم يشهدا بدرًا، فقسم لهما رسول الله ﷺ سهميهما، فقالا: وأجورنا يا رسول الله؟ فقال: «وأجوركما».

وذكر ابن هشام، وابن حبيب أن أبا لبابة، والحارث بن حاطب، وعاصم بن عدي خرجوا مع رسول الله ﷺ، فردّهم، وأمر أبا لبابة على المدينة، وابن أم مكتوم على الصلاة، وأسهم لهم.

والحارث بن الصّمة كُيّرَ بالروحاء، فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه.

قال ابن هشام: وخوات بن جبير ضرب له رسول الله ﷺ بسهمه. ولم يخلف أحد أن عثمان بن عفان رضي الله عنه تخلف على امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ، فضرب له بسهمه، فقال: وأجري يا رسول الله؟ قال: «وأجرك» [أبو داود: ٢٧٢٦]، قال ابن حبيب: وهذا خاصٌّ للنبي ﷺ، وأجمع المسلمون أن لا يُقسم لغائب.

قلت: وقد قال أحمد ومالك، وجماعة من

السلف والخلف: إن الإمام إذا بعث أحدًا في مصالح الجيش، فله سهمه.

قال ابن حبيب: ولم يكن النبي ﷺ يُسهم للنساء والصبيان والعبيد، ولكن كان يحذيهم من الغنيمة [اسلم: ٤٦٨٤].

فصل

(ما يعدل البعير من الفم والبقر)

وعدل في قسمة الإبل والغنم كل عشرة منها ببعير [البخاري: ٢٧٠٥، ومسلم: ٥٠٩٢]، فهذا في التقويم، وقسمة المال المشترك. وأما في الهدي، فقد قال جابر: نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة [اسلم: ٣١٨٥]. فهذا في الحديبية. وأما في حجة الوداع، فقال جابر أيضًا: أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقر كل سبعة منا في بدنة [اسلم: ٣١٨٦]، وكلاهما في الصحيح.

وفي «السنن» من حديث ابن عباس، أن رجلًا: أتى النبي ﷺ فقال: إن عليّ بدنة وأنا موير بها ولا أجدها فأشتريتها، فأمره أن يتاع سبع شياه، فيذبحهن [أحمد: ٢٨٣٩، وابن ماجه: ٣١٣٦].

فصل

(هل السلب من الخمس)

حكم النبي ﷺ بالسلب كله للقاتل، ولم يُخْمَسْ، ولم يجعله من الخمس، بل من أصل الغنيمة، وهذا حكمه وقضاؤه.

قال البخاري في «صحيحه»: السلب للقاتل إنما هو من غير الخمس، وحكم به بشهادة واحد، وحكم به بعد القتل، فهذه أربعة أحكام تضمنها حكمه ﷺ بالسلب لمن قتل قتيلاً.

وقال مالك وأصحابه: السلب لا يكون إلا من الخمس، وحكمه حكم النفل، قال مالك: ولم يُلْغُنا أن النبي ﷺ قال ذلك، ولا فعله في غير يوم حنين، ولا فعله أبو بكر، ولا عمر رضي الله عنهما. قال ابن المَوَاز: ولم يُعط غير البراء بن مالك سلب قتيله، وخُمِسَ.

قال أصحابه: قال الله تعالى: ﴿وَأَقْلَمُوا أَنَا غَنِمْتُمْ

بَيْنَ شَقِيهِ فَإِنَّ لِلَّهِ حُسْمَهُ» [الأنفال: ٤١]، فجعل أربعة أخماس الغنيمة لمن غنمها، فلا يجوز أن يؤخذ شيء مما جعله الله لهم بالاحتمال.

وأيضاً فلو كانت هذه الآية إنما هي في غير الأسلاب، لم يؤخر النبي ﷺ حكمهما إلى حين، وقد نزلت في قصة بدر، وأيضاً إنما قال: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ» [البخاري: ٣١٤٢، ومسلم: ٤٥٦٨]، بعد أن برد القتال. ولو كان أمراً مقدماً، لعلمه أبو قتادة فارس رسول الله ﷺ، وأحد أكابر أصحابه، وهو لم يطلبه حتى سمع منادي رسول الله ﷺ يقول ذلك.

قالوا: وأيضاً فالنبي ﷺ أعطاه إياه بشهادة واحد بلا يمين، فلو كان من رأس الغنيمة، لم يخرج حق مغنم إلا بما تخرج به الأملاك من البيئات، أو شاهد ويمين.

قالوا: وأيضاً فلو وجب للقاتل ولم يجد بيئته لكان يؤقف، كاللقطة ولا يقسم، وهو إذا لم تكن بيئته يقسم، فخرج من معنى الملك، ودل على أنه إلى اجتهد الإمام يجعله من الخمس الذي يجعل في غيره، هذا مجموع ما احتج به لهذا القول.

قال الآخرون: قد قال ذلك رسول الله ﷺ، وفعله قبل حين بستة أعوام، فذكر البخاري في «صحيحه»: أن معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن عفراء الأنصاريين، ضربا أبا جهل بن هشام يوم بدر بسيفيهما حتى قتلاه، فانصرفا إلى رسول الله ﷺ، فأخبراه، فقال: «أَيُّكُمَا قَتَلَهُ؟» فقال كل واحد منهما: أنا قتله، فقال: «هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا؟» قالا: لا، فنظر إلى السيفين، فقال: «كِلَاكُمَا قَتَلَهُ»، وسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح [البخاري: ٣١٤١، ومسلم: ٤٥٦٩]، وهذا يدل على أن كون السلب للقاتل أمر مقرر معلوم من أول الأمر، وإنما تجلّد يوم حين الإعلام العام، والمناداة به لا شرعيته.

وأما قول ابن المَوَاز: إن أبا بكر وعمر لم يفعلاه، فجوابه من وجهين، أحدهما: أن هذا شهادة على النبي، فلا تسمع، الثاني: أنه يجوز أن يكون ترك المناداة بذلك على عهدهما اكتفاء بما تقرر، وثبت من حكم رسول الله ﷺ وقضائه، وحتى لو صح عنهما ترك ذلك تركاً صحيحاً لا احتمال فيه، لم يُقَدَّم

على حكم رسول الله ﷺ.

وأما قوله: ولم يُعط غير البراء بن مالك سلب قتيله، فقد أعطى السلب لسلمة بن الأكوع، ولمعاذ ابن عمرو، ولأبي طلحة الأنصاري، قتلَ عشرين يومَ حنين، فأخذ أسلابهم، وهذه كلها وقائع صحيحة معظمها في الصحيح، فالشهادة على النبي لا تكاد تسلم من النقض.

وأما قوله: «وَحُمِسَهُ»، فهذا لم يُحفظ به أثر البتة، بل المحفوظ خلافه، ففي «سنن أبي داود»: عن خالد، أن النبي ﷺ، لم يُحْمَسِ السَّلْبُ [أحمد: ١٦٨٢٢، وأبو داود: ٢٧٢١، وسنده صحيح].

وأما قوله تعالى: «وَأَطِيعُوا أَمْرًا غَنَمْتُمْ بَيْنَ شَقِيهِ فَإِنَّ لِلَّهِ حُسْمَهُ» [الأنفال: ٤١]، فهذا عام، والحكم بالسلب للقاتل خاص، ويجوز تخصيص عموم الكتاب بالسنة، ونظائره مغلومة، ولا يمكن دفعها.

وقوله: «لا يجعل شيء من الغنيمة لغير أهلها بالاحتمال»، جوابه من وجهين، أحدهما: أنا لم نجعل السلب لغير الغانمين. الثاني: إنما جعلناه للقاتل بقول رسول الله ﷺ لا بالاحتمال، ولم يؤخر النبي ﷺ حكم الآية إلى يوم حنين كما ذكرتم، بل قد حكم بذلك يوم بدر، ولا يمنع كونه قاله بعد القتال من استحقاقه بالقتل.

وأما كون أبي قتادة لم يطلبه حتى سمع منادي النبي ﷺ يقوله، فلا يدل على أنه لم يكن مقررراً معلوماً، وإنما سكت عنه أبو قتادة لأنه لم يكن يأخذه بمجرد دعواه، فلما شهد له به شاهد أعطاه.

والصحيح: أنه يُكتفى في هذا بالشاهد الواحد، ولا يحتاج إلى شاهد آخر، ولا يمين، كما جاءت السنة الصحيحة الصريحة التي لا معارض لها، وقد تقدم هذا في موضعه.

وأما قوله: «إنه لو كان للقاتل، لو قف، ولم يقسم كاللقطة»، فجوابه أنه للغانمين، وإنما للقاتل حق التقديم، فإذا لم تعلم عين القاتل اشترك فيه الغانمون، فإنه حقهم، ولم يظهر مستحق التقديم منهم، فاشتركوا فيه.

فصل

في حكمه ﷺ فيما حازه المشركون
من أموال المسلمين، ثم ظهر
عليه المسلمون، أو أسلم
عليه المشركون

المسلمين ولحق بالمدينة فيستولون على داره
وعقاره، فمضت السنة أن الكفار المحاربين إذا
أسلموا، لم يضمنوا ما ألتفوه على المسلمين من نفس
أو مال، ولم يرثوا عليهم أموالهم التي غصبوها
عليهم، بل من أسلم على شيء، فهو له، هذا حكمه
وقضاؤه ﷺ.

فصل

في حكمه ﷺ فيما كان يهدى إليه

كان أصحابه رضي الله عنهم يهدون إليه الطعام
وغيره، فيقبل منهم، ويكافئهم أضعافها.
وكانت الملوك تهدي إليه، فيقبل هداياهم،
ويقسمها بين أصحابه، ويأخذ منها لنفسه ما يختاره،
فيكون كالصفي الذي له من المغنم.

وفي «صحيح البخاري»: أن النبي ﷺ أهديت
إليه أقيّة ديباج مزرّة بالذهب، فقسمها في ناس
من أصحابه، وعزل منها واحداً لمخرمة بن نوفل،
فجاء ومعه المسور ابنه، فقام على الباب، فقال:
ادعني لي، فسمع النبي ﷺ صوته، فتلقاه به
فاستقبله، وقال: يا أبا المسور خبأت هذا لك
[البخاري: ٣١٢٧، ومسلم: ٢٤٣١].

وأهدى له المقدّس مارية أم ولده، ويبرير التي
وهبا لحسان، وبغلة شهباء، وحماراً.

وأهدى له النجاشي هدية، فقبلها منه، وبعث إليه
هدية عوضها وأخبر أنه مات قبل أن تصل إليه، وأنها
ترجع، فكان الأمر كما قال [أحمد: ٢٧٧٧٦].

وأهدى له قزوة بن ثقاتة الجذامي بغلة بيضاء ركبها
يوم حنين، ذكره مسلم [مسلم: ٤٦١٢].

وذكر البخاري: أن ملك أيلة أهدى له بغلة بيضاء،
فكساه رسول الله ﷺ بُردة، وكتب له ببحرهم
[البخاري: ١٤٨١، ومسلم: ٤٦٣٧].

وأهدى له أبو سفيان هدية فقبلها.
وذكر أبو عبيد: أن عامر بن مالك ملاعب الأسيّة،
أهدى للنبي ﷺ فرساً فردّه، وقال: «إنا لا نقبل هديّة
مُشرك»^(١) وكذلك قال لعياض المجاشعي: «إنا لا

في «البخاري»: أن فرساً لابن عمر رضي الله عنه
ذهب، وأخذ العدو، فظهر عليه المسلمون، فرّد
عليه في زمن رسول الله ﷺ، وأبق له عبد، فلحق
بالروم، فظهر عليه المسلمون، فردّه عليه خالد في
زمن أبي بكر رضي الله عنه [البخاري: ٣٠٦٧].

وفي «سنن أبي داود»: أن رسول الله ﷺ هو الذي
رّد عليه الغلام [أبو داود: ٢٦٩٨]. وفي «المدونة»
و«الواضحة» أن رجلاً من المسلمين وجد بعيراً له في
المغانم، فقال له رسول الله ﷺ: «إِنْ وَجَدْتَهُ لَمْ
يُقَسِّمْ، فَخُذْهُ، وَإِنْ وَجَدْتَهُ قَدْ قُسِّمَ فَأَنْتَ أَحَقُّ بِهِ
بِالثَّمَنِ إِنْ أَرَدْتَهُ؟»

وصح عنه: أن المهاجرين طلبوا منه دُورهم يوم
الفتح بمكة، فلم يرد على أحد داره. وقيل له: أين
تنزل غداً من دارك بمكة؟، فقال: «وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ
مَنْزِلاً؟» [البخاري: ١٥٨٨، ومسلم: ٣٢٩٤]. وذلك أن
الرسول ﷺ لما هاجر إلى المدينة، وثب عقيل على
رباع النبي ﷺ بمكة، فحازها كلها، وحوى عليها،
ثم أسلم وهي في يده، وقضى رسول الله ﷺ أن من
أسلم على شيء فهو له، وكان عقيل ورث أبا طالب،
ولم يرثه علي لتقدم إسلامه على موت أبيه، ولم يكن
لرسول الله ﷺ ميراث من عبد المطلب، فإن أباه
عبد الله مات، وأبوه عبد المطلب حي، ثم مات
عبد المطلب، فورثه أولاده، وهم أعمام النبي ﷺ،
ومات أكثر أولاده، ولم يعقبوا، فحاز أبو طالب
رباعه، ثم مات، فاستولى عليها عقيل دون علي
لاختلاف الدين، ثم هاجر النبي ﷺ فاستولى عقيل
على داره، فلذلك قال رسول الله ﷺ: «وَهَلْ تَرَكَ لَنَا
عَقِيلٌ مَنْزِلاً؟»

وكان المشركون يعمدون إلى من هاجر من

(١) قال في «الفتح» (١٦٨/٥)، ورجاله ثقات إلا أنه مرسل، وقد وصله بعضهم ولا يصح.

تَقَبَّلَ زَيْدَ الْمُشْرِكِينَ [أحمد: ١٧٤٨٢، وأبو داود: ٣٠٥٧، والترمذي: ١٥٧٧] يعني: رَفَدَهُمْ.

قال أبو عبيد: وإنما قبل هدية أبي سفيان لأنها كانت في مدة الهدنة بينه وبين أهل مكة، وكذلك المقوقس صاحب الاسكندرية إنما قبل هديته لأنه أكرم حاطب بن أبي بلتعة رسوله إليه، وأقر بنبوته، ولم يؤيسه من إسلامه، ولم يقبل ﷺ هدية مشرك محاربٍ له قط.

فصل

(حكم الهدى للأئمة)

وأما حكم هدايا الأئمة بعده، فقال سُحُنُون من أصحاب مالك: إذا أهدى أميرُ الروم هديةً إلى الإمام، فلا بأس بقبولها، وتكون له خاصة، وقال الأوزاعي: تكون للمسلمين، ويكافئه عليها من بيت المال. وقال الإمام أحمد رحمه الله وأصحابه: ما أهداه الكفار للإمام، أو لأمير الجيش، أو قواده، فهو غنيمة، حكمها حكمُ الغنائم.

فصل

في حكمه ﷺ في قسمة الأموال

الأموال التي كان النبي ﷺ يَقسِمُها ثلاثة: الزكاة، والغنائم، والفيء.

فأما الزكاة والغنائم، فقد تقدم حكمهما، وبيننا أنه لم يكن يستوعب الأصناف الثمانية، وأنه كان رُبما وضعها في واحد.

(الحكم في الفيء)

وأما حكمه في الفيء، فثبت في الصحيح، أنه ﷺ قسم يومَ حُتَيْنٍ في المولفة قلوبهم من الفيء، ولم يُعط الأنصار شيئاً، فَعَتَبُوا عليه، فقال لهم: «أَلَا تَرَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاءِ وَالْبَجِيرِ، وَتَنْطَلِقُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَقْوُدُونَهُ إِلَى رَحَالِكُمْ، فَوَاللَّهِ لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا تَنْقَلِبُونَ بِهِ» [البخاري: ٣١٤٧، ومسلم: ٢٢٤٣٦] وقد تقدّم ذكرُ القصة وفوائدها في موضعها.

والقصة هنا أن الله سبحانه أباح لرسوله من الحكم في مال الفيء ما لم يُبَحْه لغيره، وفي «الصحيح» عنه ﷺ: «إني لأعطي أقواماً، وأدعُ غيرهم، والذي

أَدْعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الَّذِي أُعْطِيَ» [البخاري: ٧٥٣٥].

وفي «الصحيح» عنه: «إني لأعطي أقواماً أخاف ظَلَمَهُمْ وَجَزَعَهُمْ، وأكلُ أقواماً إلى ما جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْغِيِّ وَالْخَيْرِ، مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ». قال عمرو بن تغلب: فما أَحِبُّ أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حُمَرُ النَّعَمِ [البخاري: ٣١٤٥].

وفي «الصحيح»: أن علياً بعث إليه بِذُعَيْبٍ من اليمن، فَقسَمَهَا أرباعاً، فأعطى الأقرع بن حابس، وأعطى زيد الخيل، وأعطى علقمة بن علاثة، وعُيَيْنَةُ بن حصن، فقام إليه رجلٌ غائر العينين، نأتى الجبهة، كَثَّ اللَّحْيَةَ، محلوق الرأس، فقال: يا رسول الله اتق الله، فقال رسول الله ﷺ: «ويلك أو لست أحقُّ أهل الأرض أن يتقي الله؟!» الحديث [البخاري: ٧٤٣٢، ومسلم: ٢٤٥١].

(سهم ذوي القربى)

وفي «السنن»: أن رسول الله ﷺ وضع سهم ذي القربى في بني هاشم، وفي بني المطلب، وترك بني نوفل، وبني عبد شمس، فانطلق جبير بن مطعم، وعثمان بن عفان إليه، فقالا: يا رسول الله! لا تُنْكِرُ فضل بني هاشم لموضعهم منك، فما بال إخواننا بني عبد المطلب، أعطيتهم وتركنا، وإنما نحنُ وهم بمنزلة واحدة، فقال النبي ﷺ: «إِنَّا وَبَّوْهُ الْمُطَّلِبَ لَا نَفْتَرِقُ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ، إِنَّمَا نَحْنُ وَهُمْ شَيْءٌ وَاحِدٌ» وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ [البخاري: ٣١٤٠].

وذكر بعضُ الناس أن هذا الحكم خاص بالنبي ﷺ، وأن سهم ذوي القربى يُصرف بعده في بني عبد شمس، وبني نوفل، كما يُصرف في بني هاشم، وبني المطلب، قال: لأن عبد شمس، وهاشمًا، والمطلب، ونوفلاً إخوة، وهم أولادُ عبد مناف. ويقال: إن عبد شمس، وهاشمًا توأمان.

والصواب: استمرارُ هذا الحكم النبوي، وأن سهم ذوي القربى لبني هاشم وبني المطلب حيث خصه رسول الله ﷺ بهم، وقولُ هذا القائل: إن هذا خاصٌّ بالنبي ﷺ باطل، فإنه بين مواضع الخمس الذي جعله الله لذوي القربى، فلا يُتَعَدَّى به تلك المواضع، ولا يُقصر عنها، ولكن لم يكن يقيمه بينهم على السواء بين أغنيائهم وفقرائهم، ولا كان

يَقِسُّهُ قِسْمَةُ المِيرَاثِ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَى، بَلْ كَانَ يَصْرِفُهُ فِيهِمْ بِحَسَبِ الْمَصْلَحَةِ وَالْحَاجَةِ، فَيَزُوجُ مِنْهُ عَزِيْزَهُمْ، وَيَقْضِي مِنْهُ عَنْ غَارِمِهِمْ، وَيُعْطِي مِنْهُ فَقِيْرَهُمْ كَفَايَتَهُ.

وفي «سنن أبي داود»: عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: «ولأنني رسول الله ﷺ خُمَسَ الخمس، فوضعتُه مواضعه حياة رسول الله ﷺ، وحياة أبي بكر رضي الله عنه، وحياة عمر رضي الله عنه» [أبو داود: ٢٩٨٣].

وقد استدلَّ به على أنه كان يُصْرَفُ في مصارفه الخمسة، ولا يقوى هذا الاستدلال، إذ غاية ما فيه أنه صرفه في مصارفه التي كان رسول الله ﷺ يصرفه فيها، ولم يعلِّها إلى سواها، فأين تعميم الأصناف الخمسة به؟ والذي يدل عليه هدي رسول الله ﷺ وأحكامه أنه كان يجعل مصارف الخمس كمصارف الزكاة، ولا يخرج بها عن الأصناف المذكورة لا أنه يقسمه بينهم كقسمة الميراث، ومن تأمل سيرته وهديه حقَّ التأمل لم يشك في ذلك.

وفي «الصحيحين»: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: كَانَتْ أَمْوَالُ بَنِي النُّضَيْرِ مِمَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِمَّا لَمْ يُوجِبْ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ بَخِيلٌ وَلَا رِكَابٌ، فَكَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَاصَّةً يُنْفِقُ مِنْهَا عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً سَنَةً، وَفِي لَفْظٍ: «يَحِسُّ لِأَهْلِهِ قَوْتَ سِتِّهِمْ، وَيَجْعَلُ مَا بَقِيَ فِي الْكِرَاعِ وَالسَّلَاحِ عُدَّةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ» [البخاري: ٤٨٨٥، ومسلم: ٤٦١٢].

وفي «السنن»: عن عوف بن مالك رضي الله عنه، قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا آتَاهُ الْفَيْءُ، قَسَمَهُ مِنْ يَوْمِهِ، فَأَعْطَى الْأَهْلَ حَقْلَيْنِ، وَأَعْطَى الْعَزَبَ حَقًّا [أحمد: ٢٣٩٨٦، وأبو داود: ٢٩٥٣، وسنده صحيح].

فهذا تفضيل منه للأهل بحسب المصلحة والحاجة، وإن لم تكن زوجة من ذوي القرى.

(هل كان الفئء ملكاً له؟)

وقد اختلف الفقهاء في الفئء، هل كان ملكاً لرسول الله ﷺ يتصرف فيه كيف يشاء، أو لم يكن ملكاً له؟ على قولين في مذهب أحمد وغيره.

والذي تدل عليه سننه وهديه، أنه كان يتصرف فيه بالامر، فيضعه حيث أمره الله، ويقسمه على من أمر

بقسمته عليهم، فلم يكن يتصرف فيه تصرف المالك بشهوته وإرادته، يُعْطِي مَنْ أَحَبَّ، وَيُمْنَعُ مَنْ أَحَبَّ، وإنما كان يتصرف فيه تصرف العبد المأمور يُنْقِذُ ما أمره به سيده ومولاه، فيعطي من أمر بإعطائه، ويمنع من أمر بمنعه. وقد صرح رسول الله ﷺ بهذا فقال: «وَاللَّهِ إِنِّي لَا أُعْطِي أَحَدًا وَلَا أُمْنَعُهُ، إِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ أَضْعُ حَيْثُ أُمِرْتُ» [البخاري: ٣١١٧]، فكان عطاؤه ومنعه وقسمه بمجرد الأمر، فإن الله سبحانه خير بين أن يكون عبداً رسولاً، وبين أن يكون ملكاً رسولاً، فاختر أن يكون عبداً رسولاً.

(الفرق بين العبد الرسول وبين الملك الرسول)

والفرق بينهما أن العبد الرسول لا يتصرف إلا بأمر سيده ومُزِيلِهِ، وَالْمَلِكُ الرَّسُولُ لَهُ أَنْ يُعْطِيَ مَنْ يَشَاءُ، وَيُمْنَعُ مَنْ يَشَاءُ كَمَا قَالَ تَعَالَى لِلْمَلِكِ الرَّسُولِ سُلَيْمَانَ: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِمِيزَانٍ﴾ [ص: ٣٩]. أي: أعط من شئت، وامنع من شئت، لا نحاسبك، وهذه المرتبة هي التي عُرِضَتْ على نبينا ﷺ، فَرَغِبَ عَنْهَا إِلَى مَا هُوَ أَعْلَى مِنْهَا، وَهِيَ رِثْبَةُ الْعِبَادِيَّةِ الْمُحَضَّةِ الَّتِي تَصْرَفُ صَاحِبِهَا فِيهَا مَقْصُورٌ عَلَى أَمْرِ السَّيِّدِ فِي كُلِّ دَقِيقٍ وَجَلِيلٍ.

والمقصود: أن تصرفه في الفئء بهذه المثابة، فهو ملك يُخَالِفُ حُكْمَ غَيْرِهِ مِنَ الْمَالِكِينَ، وَلِهَذَا كَانَ يَنْفِقُ مِمَّا آفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِمَّا لَمْ يُوجِبْ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ بَخِيلٌ وَلَا رِكَابٌ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ نَفَقَةً سِتِّهِمْ، وَيَجْعَلُ الْبَاقِي فِي الْكِرَاعِ وَالسَّلَاحِ عُدَّةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهَذَا النَّوعُ مِنَ الْأَمْوَالِ هُوَ السَّهْمُ الَّذِي وَقَعَ بَعْدَهُ فِيهِ مِنَ النَّزَاعِ مَا وَقَعَ إِلَى الْيَوْمِ.

(طلب فاطمة ميراثها ومصارف الفئء)

فأما الزكاوات والغنائم، وقسمة الموارث، فإنها معينة لأهلها لا يشركهم غيرهم فيها، فلم يُشْكَلْ عَلَى وَلَاةِ الْأَمْرِ بَعْدَهُ مِنْ أَمْرٍ مَا أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْفَيْءِ، وَلَمْ يَقَعْ فِيهَا مِنَ النَّزَاعِ مَا وَقَعَ فِيهِ، وَلَوْلَا إِشْكَالُ أَمْرِهِ عَلَيْهِمْ، لَمَا طَلَبَتْ فَاطِمَةُ بَنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِيرَاثَهَا مِنْ تَرْكَتِهِ، وَظَنَّتْ أَنَّهُ يُورَثُ عَنْهُ مَا كَانَ مِلْكاً لَهُ كَسَائِرِ الْمَالِكِينَ، وَخَفِيَ عَلَيْهَا رِضَا اللَّهِ عَنْهَا حَقِيقَةُ الْمَلِكِ الَّذِي لَيْسَ مِمَّا يُورَثُ

عنه، بل هو صدقة بعده، ولما عَلِمَ ذلك خليفته الراشد البار الصديق، وَمَنْ بعده من الخلفاء الراشدين لم يجعلوا ما خلفه من الفيء ميراثاً يُقسم بين ورثته، بل دفعوه إلى علي والعباس يعملان فيه عملَ رسول الله ﷺ، حتى تنازعا فيه، وترافعا إلى أبي بكر الصديق، وعمر، ولم يقسم أحد منهما ذلك ميراثاً، ولا مَكُنًا منه عباساً وعلياً، وقد قال الله تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآلِ النَّبِيِّ كَىٰ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا إِلَهُكُمْ إِلَّا اللَّهُ فَبِأَنۢ بَصَرِكُمْ أَنتُمْ وَآلُكُمْ وَآلُكُمْ أَتَقْوُونَ لِلَّهِ لِمَا افْتَقَرْتُمْ إِلَيْهِ فَلْيُصَدِّقُوا الْبَيْنَ وَاللَّهُ لَمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مَا أَفَاءَ عَلَى رَسُولِهِ لِمَنْ دُكِرَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ، وَلَمْ يُخَصَّ مِنْهُ خَمْسَةٌ بِالْمَذْكُورِينَ، بَلْ عَمَّ وَأَطْلَقَ وَاسْتَوْعَبَ. وَيُصْرَفُ عَلَى الْمَصَارِفِ الْخَاصَةِ، وَهُمْ أَهْلُ الْخَمْسِ، ثُمَّ عَلَى الْمَصَارِفِ الْعَامَةِ، وَهُمْ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ وَاتَّبَاعُهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ. فالذي عمل به هو وخلفاؤه الراشدون هو المراد من هذه الآيات، ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيما رواه أحمد رحمه الله وغيره عنه: ما أخذ أحقُّ بهذا المال من أحد، وما أنا أحقُّ به من أحد، والله ما من المسلمين أحد إلَّا وله في هذا المال نصيب إلَّا عبد مملوك، ولكننا على منازلتنا من كتاب الله، وقسمنا من رسول الله ﷺ فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل. وقُدِّمَ في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته، والله لئن بقيت لهم ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال، وهو يَرعى مكانه [أحمد: ٢٩٢]. فهو لاء المسمون في آية الفيء هم المسمون في آية الخمس، ولم يدخل المهاجرون والأنصار واتباعهم في آية الخمس، لأنهم المستحقون لجملة الفيء، وأهل الخمس لهم استحقاقان: استحقاق خاص من الخمس، واستحقاق عام من جملة الفيء، فإنهم داخلون في التخصيص.

وكما أن قسمته من جملة الفيء بين مَنْ جعل له ليس قسمة الأملاك التي يشترك فيها المالكون، كقسمة الموارث والوصايا والأملاك المطلقة، بل بحسب الحاجة والنفع والغناء في الإسلام والبلاء فيه، فكذلك قسمة الخمس في أهله، فإن مخرجهما واحد في كتاب الله، والتنصيب على الأصناف الخمسة يُقيد تحقيق إدخالهم، وأنهم لا يخرجون من أهل الفيء بحال، وأن الخمس لا يعدوهم إلى غيرهم، كأصناف الزكاة لا تعدوهم إلى غيرهم، كما أن الفيء العام في آية الحشر للمذكورين فيها لا يتعداهم إلى غيرهم، ولهذا أفنى أئمة الإسلام، كمالك، والإمام أحمد وغيرهما، أن الرافضة لا حق لهم في الفيء لأنهم ليسوا من المهاجرين، ولا من الأنصار، ولا من الذين جاؤوا من بعدهم يقولون: ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذي سبقونا بالإيمان، وهذا مذهب أهل المدينة، واختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وعليه يدل القرآن، وفعل رسول الله ﷺ، وخلفاؤه الراشدون.

(هل تقسم الزكاة والفيء على الأصناف كلها)

وقد اختلف الناس في آية الزكاة وآية الخمس، فقال الشافعي: تجب قسمة الزكاة والخمس على الأصناف كلها، ويُعطي من كل صنف مَنْ يطلق عليه اسم الجمع.

وقال مالك رحمه الله وأهل المدينة: بل يُعطي في الأصناف المذكورة فيهما، ولا يعدوهم إلى غيرهم، ولا تجب قسمة الزكاة والفيء في جميعهم.

وقال الإمام أحمد وأبو حنيفة: يقول مالك رحمهم الله في آية الزكاة، ويقول الشافعي رحمه الله في آية الخمس.

ومن تأمل النصوص، وعملَ رسول الله ﷺ وخلفائه، وجده يدل على قول أهل المدينة، فإن الله سبحانه جعل أهل الخمس هم أهل الفيء، وعيَّنهم اهتماماً بشأنهم، وتقديماً لهم، ولما كانت الغنائم خاصة بأهلها لا يشركهم فيها سواهم، نصَّ على خمسها لأهل الخمس، ولما كان الفيء لا

يجيء شيء ينسخه البتة، ومن زعم أنه منسوخ، فليس بيده إلا الدعوى المجردة، وقد تقدم بيان ذلك في قصة الحديبية.

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا تَخَفَّتْ مِنْ قَوِيٍّ خِصَانَهُ فَأَيَّدَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

وقال ﷺ: «مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَحِلُّنَّ عَقْدًا، وَلَا يَشُدُّنَّهُ حَتَّى يَمْضِيَ أَمَدُهُ، أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ». قال الترمذي: حديث حسن صحيح [أحمد: ١٩٤٣٦، وأبو داود: ٢٧٥٩، والترمذي: ١٥٨٠].

ولما أسرت قريش حذيفة بن اليمان وأباه أطلقوهما، وعاهدوهما أن لا يقاتلانهما مع رسول الله ﷺ، وكانوا خارجين إلى بدر، فقال رسول الله ﷺ: «انصرفا، فني لهم بعهديهم، ونستعين الله عليهن» [مسلم: ٤٦٣٩].

فصل

في حكمه ﷺ في الأمان الصادر من الرجال والنساء

ثبت عنه ﷺ أنه قال: «الْمُسْلِمُونَ تَكَافَأُوا بِمَاؤُهُمْ وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَذْنَاهُمْ» [أحمد: ٦٦٩٢، وأبو داود: ٢٧٥١، وابن ماجه: ٢٦٨٥].

وثبت عنه أنه أجاز رجلين أجازتهما أم هانئ ابنة عمه [البخاري: ٢٨٠، ومسلم: ٧٦٤]، وثبت عنه أنه أجاز أبا العاص بن الربيع لما أجازته ابنته زينب، ثم قال: «يُجِيرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَذْنَاهُمْ» [حسن: أحمد: ١٧٧٦٥]. وفي حديث آخر: «يُجِيرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَذْنَاهُمْ وَيَرُدُّ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ» [حسن: أحمد: ٦٦٩٢].

فهذه أربع قضايا كلية، أحدها: تكافؤ ذماتهم، وهو يمنع قتل مسلمهم بكافهم.

والثانية: أنه يسعى بذمتهم أدناهم، وهو يوجب قبول أمان المرأة والعبد.

وقال ابن الماجشون: لا يجوز الأمان إلا لوالي الجيش، أو والي السرية. قال ابن شعبان: وهذا خلاف قول الناس كلهم.

والثالثة: أن المسلمين يد على من سواهم، وهذا

يختص بأحد دون أحد، جعل جملته لهم، وللمهاجرين والأنصار وتابعهم، فسوى بين الخمس وبين الفتي في المصريف، وكان رسول الله ﷺ يصرف سهم الله وسهمه في مصالح الإسلام، وأربعة أخماس الخمس في أهلها مقدماً للأهم فالأهم، والأحوج فالأحوج، فيزوج منه عزابهم، ويقضي منه ديونهم، ويعين ذا الحاجة منهم، ويعطي عزبهم حظاً، ومتزوجهم حظين، ولم يكن هو ولا أحد من خلفائه يجمعون اليتامى والمساكين وأبناء السبيل وذوي القربى، ويقسمون أربعة أخماس الفتي بينهم على السوية، ولا على التفضيل، كما لم يكونوا يفعلون ذلك في الزكاة، فهذا هديته وسيرته، وهو فصل الخطاب، ومحض الصواب.

فصل

في حكمه ﷺ في الوفاء بالعهد لعدوه وفي رسلمهم، أن لا يقتلوا ولا يجسوا، وفي النبذ إلى من عاهد على سواء إذا خاف منه نقض العهد

ثبت عنه أنه قال لرسولي مسيلمة الكذاب لما قال: نقول: إنه رسول الله: «لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تَقْتُلُ لَقَتَلْتُكُمْ» [أحمد: ١٥٩٨٩، وأبو داود: ٢٧٦١، وسنده قوي].

وثبت عنه أنه قال لأبي رافع وقد أرسلته إليه قريش، فأراد المقام عنده، وأنه لا يرجع إليهم، فقال: «إني لا أخيس بالعهود، ولا أخيس البرء، ولكن أرجع إلى قومك، فإن كان في نفسك الذي فيها الآن فأرجع» [أحمد: ٢٣٨٥٧، وأبو داود: ٢٧٥٨، وسنده صحيح].

وثبت عنه أنه رد إليهم أبا جندل للعهد الذي كان بينه وبينهم أن يرده إليهم من جاءه منهم مسلماً. ولم يرد النساء، وجاءت سبيعة الأسلمية مسلمة، فخرج زوجها في طلبها، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِالْإِيمَانِ إِنَّ عَلَيْتُمُوهُنَّ مَوَازِيْنَ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة: ١٠]، فاستحلها رسول الله ﷺ أنه لم يخرجها إلا الرغبة في الإسلام، وأنها لم تخرج لحدث أحدثته في قومها، ولا بغضاً لزوجها، فحلقت، فأعطى رسول الله ﷺ زوجها مهرها، ولم يردا عليه. فهذا حكمه الموافق لحكم الله، ولم

يمنع من تولية الكفار شيئاً من الولايات، فإن للوالي يداً على المولى عليه.

والرابعة: أنه يرد عليهم أقصاهم، وهذا يُوجب أن السرية إذا غنمت غنيمة بقوة جيش الإسلام كانت لهم، وللقاصي من الجيش إذ بقوته غنموها، وأن ما صار في بيت المال من الفبيء كان لقاصيهم ودانيهم، وإن كان سبب أخذه دانيهم، فهذه الأحكام وغيرها مستفادة من كلماته الأربعة صلوات الله وسلامه عليه.

فصل

في حكمه ﷺ في الجزية ومقدارها

وممن تقبل

(الامر بأخذ الجزية)

قد تقدم أن أول ما بعث الله عز وجل به نبيه ﷺ الدعوة إليه بغير قتال ولا جزية، فأقام على ذلك بضعة عشرة سنة بمكة، ثم أذن له في القتال لما هاجر من غير فرض له، ثم أمره بقتال من قاتله، والكف عن من لم يقاتله، ثم لما نزلت (براءة) سنة ثمان أمره بقتال جميع من لم يسلم من العرب، من قاتله، أو كف عن قتاله إلا من عاهد، ولم ينقضه من عهده شيئاً، فأمره أن يفي له بعهده، ولم يأمره بأخذ الجزية من المشركين، وحارب اليهود مراراً، ولم يؤمر بأخذ الجزية منهم.

ثم أمره بقتال أهل الكتاب كلهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية، فامتثل أمر ربه، فقاتلهم، فأسلم بعضهم، وأعطى بعضهم الجزية، واستمر بعضهم على محاربتة، فأخذها ﷺ من أهل نجران وأيلة، وهم من نصارى العرب، ومن أهل ذومة الجندل وأكثرهم عرب، وأخذها من المجوس، ومن أهل الكتاب باليمن، وكانوا يهوداً.

(هل تقبل الجزية من غير)

اليهود والنصارى والمجوس وهل تقبل من العرب؟)

ولم يأخذها من مشركي العرب، فقال أحمد، والشافعي: لا تؤخذ إلا من الطوائف الثلاث التي أخذها رسول الله ﷺ منهم، وهم: اليهود،

والنصارى، والمجوس. ومن عداهم فلا يقبل إلا الإسلام أو القتل. وقالت طائفة: في الأمم كلها إذا بذلوا الجزية، قيلت منهم: أهل الكتابين بالقرآن، والمجوس بالسنة، ومن عداهم ملحق بهم لأن المجوس أهل شرك لا كتاب لهم، فأخذها منهم دليل على أخذها من جميع المشركين، وإنما لم يأخذها ﷺ من عبدة الأوثان من العرب لأنهم أسلموا كلهم قبل نزول آية الجزية، فإنها نزلت بعد تبوك، وكان رسول الله ﷺ قد فرغ من قتال العرب، واستوتقت كلها له بالإسلام، ولهذا لم يأخذها من اليهود الذين حاربوه، لأنها لم تكن نزلت بعد، فلما نزلت، أخذها من نصارى العرب، ومن المجوس، ولو بقي حيث أخذ من عبدة الأوثان بذلها لقبها منه، كما قبلها من عبدة الصلبيان والنيران، ولا فرق ولا تأثير لتغليظ كفر بعض الطوائف على بعض، ثم إن كفر عبدة الأوثان ليس أغلظ من كفر المجوس، وأي فرق بين عبدة الأوثان والنيران، بل كفر المجوس أغلظ، وعباد الأوثان كانوا يقرّون بتوحيد الربوبية، وأنه لا خالق إلا الله، وأنهم إنما يعبدون آلهمم ليقربهم إلى الله سبحانه وتعالى، ولم يكونوا يقرّون بصانعين للعالم، أحدهما: خالق للخير، والآخر للشر، كما تقوله المجوس، ولم يكونوا يستحلون نكاح الأمهات والبنات والأخوات، وكانوا على بقايا من دين إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه.

وأما المجوس، فلم يكونوا على كتاب أصلاً، ولا دانوا بدين أحد من الأنبياء لا في عقائدهم ولا في شرائعهم، والأثر الذي فيه أنه كان لهم كتاب فرّغ، ورُفِعت شريعته لما وقع ملكهم على ابنته لا يعيخ البتة، ولو صح لم يكونوا بذلك من أهل الكتاب، فإن كتابهم رُفِغ، وشريعتهم بطلت، فلم يبقوا على شيء منها.

ومعلوم أن العرب كانوا على دين إبراهيم عليه السلام، وكان له صحف وشريعة، وليس تغيير عبدة الأوثان لدين إبراهيم عليه السلام وشريعته بأعظم من تغيير المجوس لدين نبيهم وكتابهم لو صح، فإنه لا يُعرف عنهم التمسك بشيء من شرائع

محاربين له، ناقضين لعهد برصاهم وإقرارهم لحلفائهم على الغدر بحلفائه، وألحق رداهم في ذلك بمباشرهم.

(مصالحته اليهود)

وثبت عنه أنه صالح اليهود، وعاهدهم لما قديم المدينة، فغدروا به، ونقضوا عهده مراراً، وكل ذلك يُحاربهم ويظفر بهم، وآخر ما صالح يهود خيبر على أن الأرض له، ويُقرهم فيها عمالاً له ما شاء، وكان هذا الحكم منه فيهم حجة على جواز الإمام لعدوه ما شاء من المدة، فيكون العقد جائزاً، له فسخه متى شاء، وهذا هو الصواب، وهو موجب حكم رسول الله ﷺ الذي لا ناسخ له.

فصل

(ما كان في صلحه)

لأهل مكة من دخول بعضهم في عهده ﷺ

وكان في صلحه لأهل مكة أن من أحب أن يدخل في عهد محمد وعقده دخل، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدهم دخل، وأن من جاءهم من عنده لا يردونه إليه، ومن جاءهم منهم ردّه إليهم، وأنه يدخل العام القابل إلى مكة، فيخلونها له ثلاثاً، ولا يدخلها إلا بجلبان السلاح^(١)، وقد تقدم ذكر هذه القصة وفقهاها في موضعه.

ذكر

أفضيته وأحكامه ﷺ في النكاح وتوابعه

فصل

في حكمه ﷺ في الثيب والبكر

يُزَوِّجُهُمَا أَبُوهُمَا

(لأن البكر والثيب)

ثبت عنه في «الصحيحين»: أن خنساء بنت خدام^(٢) زوّجها أبوها وهي كارهة وكانت ثيباً، فأثت

الأنبياء عليهم الصلوات والسلام، بخلاف العرب، فكيف يُجعل المجوس الذين دبتهم أقبح الأديان أحسن حالاً من مشركي العرب، وهذا القول أصح في الدليل كما ترى.

وفُرِّقت طائفة ثالثة بين العرب وغيرهم، فقالوا: تُؤخذ من كل كافر إلّا مشركي العرب.

ورابعة: فرقت بين قريش وغيرهم، وهذا لا معنى له، فإن قريشاً لم يبق فيهم كافر يحتاج إلى قتاله وأخذ الجزية منه البتة، وقد كتب النبي ﷺ إلى أهل هجر، وإلى المنذر بن ساوى، وإلى ملوك الطوائف يدعوهم إلى الإسلام أو الجزية، ولم يفرق بين عربي وغيره.

(مقدار الجزية)

وأما حكمه في قدرها، فإنه بعث معاذاً إلى اليمن، وأمره أن يأخذ من كلّ حالم ديناراً أو قيمته مَعَاوِر [أحمد: ٢٢٠١٣، وأبو داود: ٣٠٣٩، والترمذي: ٦٢٣، والنسائي (٢٥/٥)، وابن ماجه: ١٨٠٣، وابن حبان: ٧٩٤، والحاكم: ١/٣٩٨]، وهي ثياب معروفة باليمن. ثم زاد فيها عمر رضي الله عنه، فجعلها أربعةً ديناراً على أهل الذهب، وأربعين درهماً على أهل الورد [صحيح: مالك (٢٧٩/١)] في كل سنة، فرسول الله ﷺ علم ضعفت أهل اليمن، وعمر رضي الله عنه علم غنى أهل الشام وقوتهم.

فصل

في حكمه ﷺ في الهدنة وما ينقضها

(مصالحته أهل مكة)

ثبت عنه ﷺ أنه صالح أهل مكة على وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين، ودخل حلفاؤهم من بني بكر معهم، وحلفاؤه من خزاعة معه، فَعَدَّتْ حلفاء قريش على حلفائه، فغدروا بهم، فرضيت قريش ولم تُنكره، فجعلهم بذلك ناقضين للعهد، واستباح غزوهم من غير نبد عهدهم إليهم، لأنهم صاروا

(١) السيف والقس ونحوه، يريد ما يحتاج في إظهاره والقتال به إلى معاناة، لا كالرمح لأنها مظهرة يمكن تعجيل الأذى بها.

(٢) ضبطه الحافظ في «الفتح» و«التقريب» بالبدال المهملة، وهو كذلك في «الموطأ» وعند أبي داود والنسائي بالذال المعجمة.

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَرَدَّ يَكَاخَهَا [البخاري: ٥١٣٨].

وفي «السنن»: من حديث ابن عباس: أن جارية بكرأ أنت النبي ﷺ، فذكرت له أن أباه زوجها وهي كارهة، فخيرها النبي ﷺ [أحمد: ٥١٣٨، وأبو داود: ٢٠٩٦، وابن ماجه: ١٨٧٥]. وهذه غير خنساء، فهما قضيتان قضى في إحداهما بتخير الثيب، وقضى في الأخرى بتخير البكر.

وثبت عنه في «الصحيح» أنه قال: «لا تُنكح البكر حَتَّى تُسْتَأْذَنَ»، قالوا: يا رسول الله: وكيف إذنها؟ قال: «أَنْ تُسَكَّتَ» [البخاري: ٥١٣٦، ومسلم: ٣٤٧٣].

وفي «صحيح مسلم»: «البكر تُسْتَأْذَنُ فِي نَفْسِهَا، وَإِذْنُهَا ضَمَانُهَا» [مسلم: ٣٤٧٦].

وموجب هذا الحكم أنه لا تُجبر البكر البالغ على النكاح، ولا تزوج إلا برضاها، وهذا قول جمهور السلف، ومذهب أبي حنيفة وأحمد في إحدى الروايات عنه، وهو القول الذي ندين الله به، ولا نعتقد سواه، وهو الموافق لحكم رسول الله ﷺ وأمره ونهيه، وقواعد شريعته، ومصالح أمته.

(موافقة الإذن لحكمه ﷺ)

أما موافقته لحكمه، فإنه حَكَمَ بتخير البكر الكارهة، وليس رواية هذا الحديث مرسلّة بعلّة فيه، فإنه قد رُوِيَ مسنداً ومرسلاً، فإن قلنا بقول الفقهاء: إن الاتصال زيادة، ومن وصله مقدّم على من أرسله، فظاهر وهذا تصرفهم في غالب الأحاديث، فما بال هذا خرج عن حكم أمثاله، وإن حكمنا بالإرسال، كقول كثير من المحدثين، فهذا مرسل قوي قد عضدته الآثار الصحيحة الصريحة، والقياس وقواعد الشرع كما سنذكره، فيتمين القول به.

(موافقة الإذن لأمره ﷺ)

وأما موافقة هذا القول لأمره، فإنه قال: «والبكر تُسْتَأْذَنُ» وهذا أمر مؤكد، لأنه ورد بصيغة الخبر الدال على تحقق المخبر به وثبوته ولزومه، والأصل في أوامره ﷺ أن تكون للوجوب ما لم يقم إجماع على خلافه.

(موافقة الإذن لنهيه ﷺ)

وأما موافقته لنهيه، فلقوله: «لَا تُنكح البكر حَتَّى تُسْتَأْذَنَ»، فأمر ونهي، وحكم بالتخير، وهذا إثبات للحكم بأبلغ الطرق.

(موافقة الإذن لقواعد الشرع)

وأما موافقته لقواعد شرعه، فإن البكر البالغة العاقلة الرشيدة لا يتصرف أبوها في أقل شيء من مالها إلا برضاها، ولا يجبرها على إخراج السير منه بدون رضاها، فكيف يجوز أن يُرْفَقَ، ويُخْرَجَ بضعها منها بغير رضاها إلى من يُريدُه هو، وهي من أكره الناس فيه، أبغض شيء إليها؟ ومع هذا فينكحها إياه قهراً بغير رضاها إلى من يُريدُه، ويجعلها أسيرة عنده، كما قال النبي ﷺ: «اتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّهُنَّ عَوَانٍ عِنْدَكُمْ»^(١) [أحمد: ٢٠٦٩٥، والترمذي: ١١٦٣، وابن ماجه: ١٨٥١] أي: أسرى، ومعلوم أن إخراج مالها كله بغير رضاها أسهل عليها من تزويجها بمن لا تختاره بغير رضاها، ولقد أبطل من قال: إنها إذا عيّنت كُفُنًا تُحبّه، وعيّن أبوها كُفُنًا، فالعبرة بتعيينه، ولو كان بغيضاً إليها، قبيح الخلقة.

(موافقة الإذن لمصالح الأمة)

وأما موافقته لمصالح الأمة، فلا يخفى مصلحة البنت في تزويجها بمن تختاره وترضاه، وحصول مقاصد النكاح لها به، وحصول ضد ذلك بمن تبغضه وتنفّر عنه، فلو لم تأت السنة الصريحة بهذا القول، لكان القيام الصحيح، وقواعد الشريعة لا تقتضي غيره، وبالله التوفيق.

(الحجة على من استمسك)

بحديث: «الأيّم أحق بنفسها من غيرها» (في إيجاب البكر) فإن قيل: فقد حكم رسول الله ﷺ بالفرق بين البكر والثيب، وقال: «لَا تُنكح الأيّم حَتَّى تُسْتَأْذَنَ»، ولا تُنكح البكر حَتَّى تُسْتَأْذَنَ» وقال: «الأيّم أَحَقُّ بِنَفْسِهَا مِنْ وَلِيِّهَا»، والبكر يُسْتَأْذَنُ أَبُوهَا» [مسلم: ٣٤٧٧] فجعل الأيّم أحق بنفسها من وليها، فعلم أن ولي البكر أحق بها من نفسها، وإلا لم يكن لتخصيص الأيّم بذلك معنى.

(١) عوان جمع عانية بمعنى الأسيرة.

الرابع: أنه يُجبر بأيهما وجد، وهو الرواية الرابعة عنه.

الخامس: أنه يُجبر بالإيلاد، فتُجبرُ الثيب البالغ، حكاة القاضي إسماعيل عن الحسن البصري قال: وهو خلاف الإجماع. قال: وله وجه حسن من الفقه، فيا ليت شعري ما هذا الوجه الأسود المظلم؟!.

السادس: أنه يُجبر من يكون في عياله، ولا يخفى عليك الراجح من هذه المذاهب.

فصل

(إذن البكر الصمات وإذن الثيب الكلام)

وقضى ﷺ بأن إذن البكر الصمات، وإذن الثيب الكلام، فإن نطقت البكر بالإذن بالكلام فهو آكد، وقال ابن حزم: لا يصح أن تزوج إلا بالصمات، وهذا هو اللائق بظاهريته.

فصل

(جواز نكاح اليتيمة قبل البلوغ)

وقضى رسول الله ﷺ أن اليتيمة تُستأمر في نفسها، ولا يتم بعد اختلام [أبو داود: ٢٨٧٣]، فدل ذلك على جواز نكاح اليتيمة قبل البلوغ، وهذا مذهب عائشة رضي الله عنها، وعليه يدل القرآن والسنة، وبه قال أحمد وأبو حنيفة وغيرهما.

قال تعالى: ﴿وَسَتَتَوَكَّلُ فِي الْإِسَاءِ قُلُ اللَّهِ يُفَيِّصُكُمْ فِيهِمْ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَنَى الْإِسَاءَ الَّذِي لَا تُؤْتُونَهُمْ مَا كُتِبَ لَهُمْ وَرَرَّعُونَ أَنْ تَكُونُوا مِنَ النِّسَاءِ: [١٢٧].

قالت عائشة رضي الله عنها: هي اليتيمة تكون في حجر وليها، فيرغب في نكاحها، ولا يُقسط لها سنة صداقها، فتُها عن نكاحهن إلا أن يُقسطوا لهن سنة صداقهن [مسلم: ٧٥٢٨].

وفي السنن الأربعة: عنه ﷺ: «اليتيمة تُستأمر في نفسها فإن صممت فهو إذنُها وإن أبت، فلا جواز عليها» [أحمد: ١٩٥١٦، وأبو داود: ٢٠٩٣، والترمذي: ١١٠٩، والحاكم (١/١٦٦)].

وأيضاً فإنه فرّق بينهما في صفة الإذن، فجعل لإذن الثيب النطق، وإذن البكر الصمات، وهذا كُله يدل على عدم اعتبار رضاها، وأنها لا حق لها مع أيها.

فالجواب: أنه ليس في ذلك ما يدل على جواز تزويجها بغير رضاها مع بلوغها وعقلها ورشدتها، وأن يزوجه بأبغض الخلق إليها إذا كان كُفئاً، والأحاديث التي احتججتم بها صريحة في إبطال هذا القول، وليس معكم أقوى من قوله: «الأيّم أحق بنفسها من وليها»، هذا إنما يدل بطريق المفهوم، ومُتأزِعوكم يُتأزِعونكم في كونه حجة، ولو سلم أنه حجة، فلا يجوز تقديمه على المنطوق الصريح، وهذا أيضاً إنما يدل إذا قلت: إن للمفهوم عموماً، والصواب أنه لا عموم له، إذ دلالة ترجع إلى أن التخصيص بالمذكور لا بُدّ له من فائدة، وهي نفى الحكم عما عداها، ومعلوم أن انقسام ما عداها إلى ثابت الحكم ومتفيه فائدة، وأن إثبات حكم آخر للمسكوت عنه فائدة وإن لم يكن ضدّ حكم المنطوق، وأن تفصيله فائدة، كيف وهذا مفهوم مخالف للقياس الصريح، بل قياس الأولى كما تقدم، ويخالف النصوص المذكورة.

وتأمل قوله ﷺ: «والبكر يستأذنها أبوها» عقيب قوله: «الأيّم أحق بنفسها من وليها»، قطعاً لتوهم هذا القول، وأن البكر تزوج بغير رضاها ولا إذنِها، فلا حق لها في نفسها البتة، فوصل إحدى الجملتين بالأخرى دفعاً لهذا التوهم. ومن المعلوم أنه لا يلزم من كون الثيب أحق بنفسها من وليها أن لا يكون للبكر في نفسها حق البتة.

وقد اختلف الفقهاء في مناط الإجماع على ستة أقوال.

أحدها: أنه يُجبر بالبكارة، وهو قول الشافعي ومالك وأحمد في رواية.

الثاني: أنه يُجبر بالصغر، وهو قول أبي حنيفة، وأحمد في الرواية الثانية.

الثالث: أنه يجبر بهما معاً، وهو الرواية الثالثة عن أحمد.

فصل

في حكمه في النكاح بلا ولي

في «السنن» عنه من حديث عائشة رضي الله عنها: «أُتِيَ امْرَأَةٌ تَكَحُّثُ نَفْسَهَا بِغَيْرِ إِذْنٍ وَلَيْهَا فَيَكَاَحُهَا بَاطِلٌ، فَيَكَاَحُهَا بَاطِلٌ، فَيَكَاَحُهَا بَاطِلٌ، فَإِنْ أَصَابَهَا فَلَهَا مَهْرُهَا بِمَا أَصَابَ مِنْهَا، فَإِنْ اشْتَجَرُوا فَالْسلْطَانُ وَلِيٌّ مِنْ لَا وَلِيَّ لَهُ» [ابو داود: ٢٠٨٣، والترمذي: ١١٠٢، وابن ماجه: ١٨٧٩، وابن حبان: ١٢٤٨، والحاكم (٢/١٦٨)]. قال الترمذي حديث حسن.

وفي السنن الأربعة: عنه: «لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ»
[أحمد: ١٩٧١٠، وأبو داود: ٢٠٨٥، والترمذي: ١١٠١،
١١٠٢، والبيهقي (١٠٧/٧)].

وفيها عنه: «لَا تُزَوِّجُ الْمَرْأَةَ الْمَرْأَةَ، وَلَا تُزَوِّجُ الْمَرْأَةَ نَفْسَهَا، فَإِنَّ الزَّانِيَةَ هِيَ الَّتِي تُزَوِّجُ نَفْسَهَا» [ابن ماجه: ١٨٨٢].

فصل

(إذا زوج المرأة الوليان فهي للأول منهما)

وحكم أن المرأة إذا زوجها الوليان، فهي للأول
منهما، وأن الرجل إذا باع للرجلين، فالبيع للأول
منهما [أحمد: ٢٠٠٨٥، وأبو داود: ٢٠٨٨، والترمذي: ١١١٠،
والنسائي (٣١٤/٧)، ورجاله ثقات].

فصل

في قضائه في نكاح التفويض

ثبت عنه أنه قضى في رجل تزوج امرأة، ولم يفرض لها صداقاً ولم يدخل بها حتى مات أن لها مهرَ مِثْلِهَا، ولا وَكْسَ ولا شَطَطَ، ولها الميراث، وعليها العِدَّةُ أربعة أشهر وعشراً [صحيح: أحمد: ٤٠٩٩ - ٤١٠٠ - ٤٢٧٦، وأبو داود: ٢١١٤ - ٢١١٥ - ٢١١٦، والترمذي: ١١٤٥، والنسائي: (١٢١/٦ - ١٢٣)، وابن ماجه: ١٨٩١].

وفي «سنن أبي داود» عنه: أنه قال لرجل: «أترضى أن أزوجه فلانة؟» قال: نعم، وقال للمرأة: «أترضين أن أزوجه فلانا؟» قالت: نعم، فزوجه أحدهما صاحبه، فدخل بها الرجل، ولم يقرب لها صداقا، ولم يوطئها شيئا، فلما كان عند موته عوَّضها من صداقها سهما له بخير [أبو داود: ٢١١٧].

وقد تضمنت هذه الأحكام جوازَ النكاح من غير تسمية صداق، وجوازَ الدخول قبل التسمية، واستقرارَ مهر المثل بالموت، وإن لم يدخل بها، ووجوبَ عدة الوفاة بالموت، وإن لم يدخل بها الزوج، وبهذا أخذ ابن مسعود وفقهاء العراق، وعلماء الحديث، منهم: أحمد، والشافعي في أحد أقواله.

وقال علي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت رضي الله
عنهما: لا صداق لها، وبه أخذ أهل المدينة،
ومالك، والشافعي في قوله الآخر.

وتضمنت جواز تولي الرجل طرفي العقد، كوكيل
بين الطرفين، أو ولي فيهما، أو ولي وكنه الزوج، أو
زوج وكنه الولي، ويكفي أن يقول: زَوَّجْتُ فُلَانًا
فُلَانَةً مقتضراً على ذلك، أو تزوّجت فُلانة إذا كان هو
الزوج، وهذا ظاهر مذهب أحمد. وعنه رواية ثانية:
لا يجوز ذلك إلا للولي المجبر، كمن زوج أمته أو
ابنته المجبرة بعده المجبر، ووجه هذه الرواية أنه لا
يُعتبر رضًى واحد من الطرفين.

وفي مذهبه قول ثالث: أنه يجوز ذلك إلا للزوج خاصة، فإنه لا يصح منه تولي الطرفين لتضاد أحكام الطرفين فيه.

فصل

فِي حُكْمِهِ ﷺ فَيَمْنُ تَزُوجُ امْرَأَةً

فوجدما في الحبل

في «السنن» والمصنّف: عن سعيد بن المسيّب، عن بصرة بن أكم، قال: تزوجت امرأة يكرأ في سترها، فدخلت عليها، فإذا هي حُبلى، فقال النبي ﷺ: «لَهَا الصَّدَاقُ بِمَا اسْتَحْلَلْتَ مِنْ فَرْجِهَا وَالْوَلَدُ عَبْدٌ لَكَ، وَإِذَا وَلَدْتَ فَاجْلِدِيهَا»، وفرّق بينهما (ابن داود: ٢١٣١).

وقد تضمن هذا الحكم بطلان نكاح الحامل من زنى، وهو قول أهل المدينة، والإمام أحمد، وجمهور الفقهاء، وجوب المهر المسمى في النكاح الفاسد، وهذا هو الصحيح من الأقوال الثلاثة. والثاني: يجب مهر المثل، وهو قول الشافعي رحمه الله. والثالث: يجب أقل الأمرين.

وتضمنت وجوب الحد بالحبل وإن لم تقم بيته ولا اعتراف، والحبل من أقوى البيئات، وهذا مذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأهل المدينة، وأحمد في إحدى الروايتين عنه.

وأما حكمه بكون الولد عبداً للزوج، فقد قيل: إنه لما كان ولد زنى لا أب له، وقد غرته من نفسها، وغرم صداقها أخذه ولدها، وجعله له بمنزلة العبد لا أنه أرقه، فإنه انعقد حراً تبعاً لحرية أمه، وهذا محتمل، ويحتمل أن يكون أرقه عقوبة لأمه على زناها وتغريبها للزوج، ويكون هذا خاصاً بالنبي ﷺ، وبذلك الولد لا يتعدى الحكم إلى غيره، ويحتمل أن يكون هذا منسوخاً. وقد قيل: إنه كان في أول الإسلام يُسترق الحر في الذين، وعليه حمل بيعه ﷺ لمسترق في دينه. والله أعلم.

فصل

في حكمه ﷺ في الشروط في النكاح

في «الصحيحين» عنه: «إِنْ أَحَقَّ الشُّرُوطُ أَنْ تُؤْفُوا مَا اسْتَحْلَلْتُمْ بِهِ الْفُرُوجَ» [البخاري: ٥١٥١، ومسلم: ٣٤٧٢].

وفيها عنه: «لَا تَسَالِ الْمَرْأَةُ طَلَاقَ أَخْتِهَا لِتَسْتَفْرِغَ صَحْفَتَهَا وَلِتُنْكِحَ، فَإِنَّمَا لَهَا مَا قُدِّرَ لَهَا» [البخاري: ٥١٥٢، ومسلم: ٣٤٣٦].

وفيها: أنه نهى أن تشتتر المرأة طلاقاً أختها [البخاري: ٥١٥٢، ومسلم: ٣٤٥٨].

وفي «مسند أحمد»: عنه: «لَا يَحِلُّ أَنْ تُنْكَحَ امْرَأَةٌ بِطَلَاقِ أُخْرَى» [أحمد: ٦٦٤٧، وفي سننه ضعيف].

فتضمن هذا الحكم وجوب الوفاء بالشروط التي شرطت في العقد إذا لم تتضمن تغييراً لحكم الله ورسوله.

وقد أئق على وجوب الوفاء بتعجيل المهر أو تأجيله والضمين والرهن به، ونحو ذلك، وعلى عدم الوفاء باشتراط ترك الوطء، والإنفاق، والخلو عن المهر، ونحو ذلك.

واختلف في شرط الإقامة في بلد الزوجة، وشرط

دار الزوجة، وأن لا يتسرى عليها، ولا يتزوج عليها، فأوجب أحمد وغيره الوفاء به، ومتى لم يق به فلها الفسخ عند أحمد.

واختلف في اشتراط البكارة والنسب، والجمال والسلامة من العيوب التي لا يفسخ بها النكاح، وهل يؤثر عدمها في فسخه؟ على ثلاثة أقوال. ثالثها: الفسخ عند عدم النسب خاصة.

(بطلان اشتراط المرأة طلاقاً أختها)

وتضمن حكمه ﷺ بطلان اشتراط المرأة طلاقاً أختها، وأنه لا يجب الوفاء به، فإن قيل: فما الفرق بين هذا وبين اشتراطها أن لا يتزوج عليها حتى صححت هذا، وأبطلتم شرط طلاق الضرة؟ قيل: الفرق بينهما أن في اشتراط طلاق الزوجة من الإضرار بها، وكسر قلبها، وخراب بيتها، وشماتة أعدائها ما ليس في اشتراط عدم نكاحها، ونكاح غيرها، وقد فرق النص بينهما، فقياس أحدهما على الآخر فاسد.

فصل

في حكمه ﷺ في نكاح الشغار

والمحلل، والمتعة، ونكاح

المحرم، ونكاح الزانية

(النهي عن نكاح الشغار)

أما الشغار: فصَحَّ النهي عنه من حديث ابن عمر، وأبي هريرة، ومعاوية.

وفي «صحيح مسلم»: عن ابن عمر مرفوعاً «لَا شِغَارَ فِي الْإِسْلَامِ» [مسلم: ٣٤٦٨].

وفي حديث ابن عمر: والشغار: أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته وليس بينهما صداق [البخاري: ٥١١٢، ومسلم: ٣٤٦٥].

وفي حديث أبي هريرة: والشغار: أن يقول الرجل للرجل: زوجني ابنتك وأزوجك ابنتي، أو زوجني أختك وأزوجك أختي [مسلم: ٣٤٦٩].

وفي حديث معاوية: أن العباس بن عبد الله بن عباس أنكح عبد الرحمن بن الحكم ابنته، وأنكحه عبد الرحمن ابنته، وكانا جعلاً صداقاً، فكتب معاوية

رضي الله عنه إلى مروان يأمره بالتفريق بينهما، وقال: هذا الشغار الذي نهى عنه رسول الله ﷺ [أحمد: ١٦٨٥٦، وأبو داود: ٢٠٧٥، وسنده قوي].

فاختلف الفقهاء في ذلك، فقال الإمام أحمد: الشغار الباطل أن يزوجه وليته على أن يزوجه الآخر وليته، ولا مهر بينهما على حديث ابن عمر، فإن سموا مع ذلك مهرأ، صح العقد بالمسمى عنده. وقال الخرقي: لا يصح ولو سموا مهرأ على حديث معاوية. وقال أبو البركات ابن تيمية وغيره من أصحاب أحمد: إن سموا مهرأ وقالوا مع ذلك: بضع كل واحدة مهر الأخرى لم يصح، وإن لم يقولوا ذلك، صح.

(علة النهي عنه)

واختلفت في علة النهي، فقيل: هي جعل كل واحد من العقدين شرطاً في الآخر، وقيل: العلة التشريك في البضع، وجعل بضع كل واحدة مهرأ للأخرى، وهي لا تنفع به، فلم يرجع إليها المهر، بل عاد المهر إلى الولي، وهو مملكه لبضع زوجته بتملكه لبضع مؤلته، وهذا ظلم لكل واحدة من المرأتين، وإخلاء لنكاحهما عن مهر تنفع به، وهذا هو الموافق للغة العرب، فإنهم يقولون: بلد شاغر من أمير، ودار شاغرة من أهلها: إذا خلت، وشغل الكلْب: إذا رفع رجله، وأخلى مكانها. فإذا سموا مهرأ مع ذلك زال المحذور، ولم يبق إلا اشتراط كل واحد على الآخر شرطاً لا يؤثر في فساد العقد، فهذا منصوص أحمد.

وأما من فرق، فقال: إن قالوا مع التسمية: إن بضع كل واحدة مهر للأخرى، فسد، لأنها لم يرجع إليها مهرها، وصار بضعها لغير المستحق، وإن لم يقولوا ذلك، صح، والذي يجيء على أصله أنهم متى عقدوا على ذلك وإن لم يقولوه بالاستتم أنه لا يصح، لأن القصد في العقود معتبرة، والمشروط عرفاً كالمشروط لفظاً، فيبطل العقد بشرط ذلك، والتواطؤ عليه ونيته، فإن سمي لكل واحدة مهر مثلها، صح، وبهذا تظهر حكمة النهي واتفاق الأحاديث في هذا الباب.

فصل

(نكاح التحليل)

وأما نكاح المَحْلَل، ففي «المسند» والترمذي من

حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُحْلَلُ وَالْمُحْلَلُ لَهُ» [صحيح: أحمد: ٤٢٨٢، والترمذي: ١١٢٠، والنسائي: (١٤٩/٦)]. قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح.

وفي «المسند»: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «لَعَنَ اللَّهُ الْمُحْلَلُ وَالْمُحْلَلُ لَهُ» [أحمد: ٨٢٨٧] وإسناده حسن.

وفيه: عن علي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ مثله [حسن: أحمد: ٦٦٠، ٧١، والترمذي: ١١١٩، وابن ماجه: ١٩٣٥].

وفي «سنن ابن ماجه»: من حديث عُبَيْة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالتَّيْسِ الْمُسْتَعَارِ؟ قَالُوا: بلى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: هُوَ الْمُحْلَلُ لَعَنَ اللَّهُ الْمُحْلَلُ وَالْمُحْلَلُ لَهُ» [ابن ماجه: ١٩٣٦، والحاكم (٢/١٩٩)، والبيهقي (٧/٢٠٨)، وسنده حسن].

فهؤلاء الأربعة من سادات الصحابة رضي الله عنهم، وقد شهدوا على رسول الله ﷺ بلعنه أصحاب التحليل، وهم: الْمُحْلَلُ وَالْمُحْلَلُ لَهُ وهذا إما خبر عن الله فهو خبر صدق، وإما دعاء فهو دعاء مستجاب قطعاً، وهذا يُقيد أنه من الكبائر الملعون فاعلمها، ولا فرق عند أهل المدينة وأهل الحديث وفقهاءهم بين اشتراط ذلك بالقول أو بالتواطؤ، والقصد، فإن القصد في العقود عندهم معتبرة، والأعمال بالنيات، والشرط المتواطئ عليه الذي دخل عليه المتعاقدان كالمفروض عندهم، والألفاظ لا تُراد لعينها، بل للدلالة على المعاني، فإذا ظهرت المعاني والمقاصد، فلا عبرة بالألفاظ، لأنها وسائل، وقد تحققت غاياتها، فترتب عليها أحكامها.

فصل

(النهي عن نكاح المتعة)

وأما نكاح المتعة، فثبت عنه أنه أحلها عام الفتح، وثبت عنه أنه نهى عنها عام الفتح [مسلم: ٣٤١٩] واختلف هل نهى عنها يوم خيبر؟ على قولين، والصحيح: أن النهي إنما كان عام الفتح، وأن النهي يوم خيبر إنما كان عن الحُرِّ الأهلية، وإنما قال علي لابن عباس: إن رسول الله ﷺ نهى يوم خيبر عن متعة النساء، ونهى عن الحمر الأهلية محتجاً عليه في

المسألتين، فظنَّ بعضُ الرواة أن التقيّدَ بيومٍ خيرٍ راجع إلى الفضلَيْن، فرواه بالمعنى، ثم أفرد بعضهم أحدَ الفصلين وقَيّده بيومٍ خيرٍ، وقد تقدّم بيانُ المسألة في غزاة الفتح.

وظاهرُ كلام ابن مسعود لإباحتها، فإن في «الصحيحين»: عنه: كنا نغزو مع رسول الله ﷺ وليس معنا نساء، فقلنا: يا رسول الله! ألا نَسْتَحْصِي؟ فنهانا عن ذلك، ثم رَحَّصَ لنا بعد أن نَنكِحَ المرأةَ بالثوبِ إلى أجلٍ، ثم قرأ عبدُ الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا مَا آَلَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَقْتَدُوا بِهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُتَعَمِّينَ﴾ [البقرة: ٢٢١] (البخاري: ٤٦١٥، ومسلم: ٣٤١٠). ولكن في «الصحيحين»: عن علي رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ حَرَّمَ مُتَعَةَ النِّسَاءِ.

وهذا التحريمُ: إنما كان بعد الإباحة، وإلا لزم منه النسخُ مرتين، ولم يحتجَّ به علي على ابن عباس رضي الله عنهما، ولكن النظر: هل هو تحريمٌ بَنَاتٍ، أو تحريمٌ مِثْلُ تحريمِ الميتة والدم، وتحريم نكاح الأمة فيباح عند الضرورة وخوف العنت؟ هذا هو الذي لحظه ابنُ عباس، وأفتى بِحِلِّهَا للضرورة، فلما توسّع الناس فيها، ولم يقتصرُوا على موضع الضرورة، أمسك عن فتياه، ورجع عنها.

فصل

(نكاح المحرم في حج أو عمرة)

وأما نكاحُ الْمُحْرِمِ، فثبت عنه في «صحيح مسلم» من رواية عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَنْكِحُ الْمُحْرِمُ وَلَا يَنْكِحُ» [مسلم: ٣٤٤٦].

(هل تزوج ميمونة وهو محرم؟)

واختلِفَ عنه ﷺ، هل تزوج ميمونة حلالاً أو حراماً؟ فقال ابنُ عباس: تزوّجها مُحْرِمًا، وقال أبو رافع: تزوّجها حلالاً، وكنتُ الرسولَ بينهما [أحمد: ٢٧١٩٧، والترمذي: ٨٤١]. وقولُ أبي رافع أرجح لعدّة أوجه.

أحدها: أنه إذ ذاك كان رجلاً بالغاً، وابنُ عباس لم يكن حينئذ ممّن بلغ الحُلُم، بل كان له نحو العشر سنين، فأبو رافع إذ ذاك كان أحفظَ منه.

الثاني: أنه كان الرسولُ بين رسولِ الله ﷺ وبينها، وعلى يده دارَ الحديث، فهو أعلم به مِنه بلا شك، وقد أشار بنفسه إلى هذا إشارةً متحقّقاً له، ومتيقّنٌ ولم ينقله عن غيره، بل باشره بنفسه.

الثالث: أن ابن عباس لم يكن معه في تلك العمرة، فإنها كانت عمرة القضية، وكان ابنُ عباس إذ ذاك من المستضعفين الذين عَذَّرَهُمُ اللَّهُ مِنَ الْوِلْدَانِ، وإنما سمع القصة من غير حضور منه لها.

الرابع: أنه ﷺ حين دخل مكة، بدأ بالطواف بالبيت، ثم سعى بين الصفا والمروة، وحلق، ثم حَلَّ.

ومن المعلوم: أنه لم يتزوج بها في طريقه، ولا بدأ بالتزويج بها قبل الطواف بالبيت، ولا تزوّج في حال طوافه، هذا من المعلوم أنه لم يقع، فصَحَّ قولُ أبي رافع يقيناً.

الخامس: أن الصحابة رضي الله عنهم غَلَطُوا ابنُ عباس، ولم يُغلَطُوا أبا رافع.

السادس: أن قولَ أبي رافع موافقٌ لنهي النبي ﷺ عن نِكَاحِ الْمُحْرِمِ، وقول ابن عباس يُخالفه، وهو مستلزم لأحد أمرين، إما لنسخه، وإما لتخصيص النبي ﷺ بجواز النكاح محرمًا، وكلا الأمرين مخالفٌ للأصل ليس عليه دليل، فلا يُقبل.

السابع: أن ابنَ أختها يزيد بن الأصم شهد أن رسول الله ﷺ تزوّجها حلالاً قال: وكانت خالتي وخالة ابنِ عباس. ذكره مسلم [٣٤٥٣].

فصل

(تحريم نكاح الزانية)

وأما نكاحُ الزانية، فقد صرّحَ الله سبحانه وتعالى بتحريمه في سورة النور، وأخبر أن مَنْ نكحها، فهو إما زانٍ أو مشرك، فإنه إما أن يلتزم حُكْمُه سبحانه ويعتقد وجوبه عليه، أولاً، فإن لم يلتزمه ولم يعتقد، فهو مشرك. وإن التزمه واعتقد وجوبه وخالفه، فهو زانٍ، ثم صرّح بتحريمه فقال: ﴿وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣].

ولا يخفى أن دعوى نسخ الآية بقوله: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَبْنَاءَ بَنَاتِكُمْ﴾ [الشورى: ٣٧] من أضعف ما يُقال:

وأضعف منه حملُ النكاح على الزنى إذ يصير معنى الآية: الزاني لا يزني إلا بزانية أو مشركة، والزانية لا يزني بها إلا زانٍ أو مشرك، وكلام الله ينبغي أن يُصان عن مثل هذا.

(الرد على من حمل)

معنى الزانية هي التي على بغي مشركة

وكذلك حملُ الآية على امرأة بغي مشركة في غاية البعد عن لفظها وسياقها، كيف وهو سبحانه إنما أباح نكاح الحرائر والإماء بشرط الإحصان، وهو العفة، فقال: ﴿فَأَنكِحُوهُنَّ بِأَذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفَّحَاتٍ وَلَا مُنْجَذَبَاتٍ أَخَذْنَ [النساء: ٢٥] فإنما أباح نكاحها في هذه الحالة دون غيرها، وليس هذا من باب دلالة المفهوم، فإن الأبحاث في الأصل على التحريم، فيقتصر في إباحتها على ما ورد به الشرع، وما عداها، فعلى أصل التحريم.

وأيضاً، فإنه سبحانه قال: ﴿لَقَدْ يَنْكِحَ الَّذِينَ يُبَيِّتُ لِلْغَيْبَةِ وَالْغَيْبَتُونَ لِلَّذِينَ ابْتَوُوا﴾ [النور: ٢٦] والخبيثات: الزواني. وهذا يقتضي أن من تزوج بهن، فهو خبيث مثلهن.

وأيضاً، فمن أقبح القبايح أن يكون الرجلُ زوج بغي، وتُحِبُّ هذا مستقر في فطر الخلق، وهو عندهم غاية المسبّة.

وأيضاً، فإن البغي لا يؤمن أن تُسَيِّدَ على الرجل فِرَاشه، وتعلّق عليه أولاداً من غيره، والتحريم ثبت بدون هذا.

وأيضاً، فإن النبي ﷺ فرق بين الرجل وبين المرأة التي وجدها حُبلى من الزنى.

وأيضاً، فإن مرثد بن أبي مرثد الغنوي استأذن النبي ﷺ أن يتزوج عناق وكانت بغيّاً، فقرأ عليه رسول الله ﷺ آية النور وقال: «لا تَنْكِحَهَا» [ابو داود: ٢٠٥١، والترمذي: ٢١٧٦، والنسائي ٦٦/٦٧].

فصل

في حكمه ﷺ فيمن أسلم على أكثر من أربع نسوة أو على أختين

في الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن

غيلان^(١) أسلم وتحتة عشر نسوة، فقال له النبي ﷺ: «اختر مِنْهُنَّ أَرْبَعاً». وفي طريق أخرى: «وَقَارِئُ سَائِرُهُنَّ» [أحمد: ٤٦٠٩، ٤٦٣١، والترمذي: ١١٢٨، وابن ماجه: ١٩٥٣، وابن حبان: ١٢٧٧].

وأسلم فيروز الدليمي وتحتة أختان، فقال له النبي ﷺ: «اخترْ أَيْتَهُمَا شِئْتَ» [أحمد: ٤٦٠٩].

فتضمن هذا الحكم صحة نكاح الكفار، وأنه له أن يختار مَنْ شاء من السوابق واللواحق لأنه جعل الخيرة إليه، وهذا قول الجمهور. وقال أبو حنيفة: إن تزوجهن في عقد واحد، فسد نكاح الجميع، وإن تزوجهن مترتبات، ثبت نكاح الأربع، وفسد نكاح من بعدهن ولا تخيير.

فصل

(إذا تزوج العبد بغير إذن مولاه فهو عاهر)

وحكم ﷺ: أن العبد إذا تزوج بغير إذن مولاه، فهو عاهر. قال الترمذي: حديث حسن [ابو داود: ٢٠٧٨، والترمذي: ١١١١].

فصل

(منعه ﷺ علياً أن يجمع بين فاطمة وبنت أبي جهل)

واستأذنه بنو هشام بن المغيرة أن يُزَوِّجُوا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ابنة أبي جهل، فلم يأذن في ذلك، وقال: «إِلَّا أَنْ يُرِيدَ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يُطْلَقَ ابْنَتِي، وَيَنْكِحَ ابْنَتَهُمْ، فَإِنَّمَا فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي يَرِيئِي مَا رَأَيْتُهَا، وَيُؤْذِنِي مَا آذَاهَا، إِنِّي أَخَافُ أَنْ تُفْتَنَ فَاطِمَةُ فِي بَيْنِهَا، وَإِنِّي لَسْتُ أَحَرِّمُ حَلَالاً، وَلَا أَجْلُ حَرَاماً، وَلَكِنْ وَاللَّهِ لَا تَجْعَلُ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ وَبَيْنَ عَدُوِّ اللَّهِ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ أَبَدًا».

وفي لفظ فذكر صهراً له فأنى عليه، وقال: «حَدَّثَنِي فَصَّدَقَنِي، وَوَعَدَنِي فَوْفَى لِي» [البخاري: ٥٢٣٠، ومسلم: ٦٣٠٧].

(ما تضمنه هذا الحكم من الأمور)

فتضمن هذا الحكم أموراً:

(إذا خيّر الرجل لزوجته أن لا يتزوج عليها لزمه الوفاء)

أحدها: أن الرجل إذا شرط لزوجته أن لا يتزوج

(١) هو غيلان بن سلمة الطقي من أشرف ثقيف ووجهاتهم، أسلم بعد فتح الطائف هو وأولاده.

عليها، لزمه الوفاء بالشرط، ومتى تزوج عليها، فلها الفسخ، ووجه تضمن الحديث لذلك أنه ﷺ أخبر أن ذلك يؤذي فاطمة ويريبها، وأنه يؤذي ﷺ ويريبه، ومعلوم قطعاً أنه ﷺ إنما زوجه فاطمة رضي الله عنها على أن لا يؤذيها ولا يريبها، ولا يؤذي أباه ﷺ ولا يريبه، وإن لم يكن هذا مشروطاً في صلب العقد، فإنه من المعلوم بالضرورة أنه إنما دخل عليه، وفي ذكره ﷺ صهره الآخر، وثناءه عليه بأنه حدثه فصدقه، ووعدته فوفى له تعريضاً بعلي رضي الله عنه، وتهيجاً له على الاقتداء به، وهذا يشعر بأنه جرى منه وعد له بأنه لا يريبها ولا يؤذيها، فهيجبه على الوفاء له، كما وفى له صهره الآخر.

فصل

فيما حَكَمَ اللَّهُ سبحانه بتحريمه من النساء

على لسان نبيه ﷺ

(تحريم الأمهات)

حَرَّمَ الأمهات، وهُنَّ كل من بينك وبينه إيلاد من جهة الأمومة أو الأبوة، كأمهاته، وأمهاة آبائه وأجداده من جهة الرجال والنساء وإن علون.

(تحريم البنات)

وَحَرَّمَ البنات وهُنَّ كُلُّ من انتسب إليه بإيلاد، كبناتِ ضلبي، وبناتِ بناته، وأبنائهن وإن سَقَلْنَ.

(تحريم الأخوات والعمات)

وَحَرَّمَ الأخوات من كل جهة، وحرَّم العَمَاتِ وهُنَّ أخواتُ آبائه وإن عَلَوْنَ من كل جهة.

(التفصيل في عمه العم)

وأما عمَةُ العمِّ، فإن كان العمُّ لأب، فهي عمَّة أبيه، وإن كان لأم، فعمَّتُه أجنبية منه، فلا تدخل في العمات، وأما عمَةُ الأم، فهي داخلة في عمَّاته، كما دخلت عمَّةُ أبيه في عمَّاته.

(تحريم الخالات والتفصيل في خالة العمه وعمه الخالة)

وَحَرَّمَ الخالات وهُنَّ أخواتُ أمهاتِه وأمهاة آبائه وإن عَلَوْنَ، وأما خالةُ العمه، فإن كانت العمه لأب فخالَّتُها أجنبية، وإن كانت لأم فخالَّتُها حراماً، لأنها خالة، وأما عمَةُ الخالة، فإن كانت الخالة لأم، فعمَّتُها أجنبية، وإن كانت لأب، فعمَّتُها حراماً، لأنها عمه الأم.

(المشروط عرفاً كالمشروط لفظاً)

فيؤخذ من هذا أن المشروط عرفاً كالمشروط لفظاً، وأن عدمه يملك الفسخ لمشرطه، فلو قُرِضَ من عادة قوم أنهم لا يُخرجون نساءهم من ديارهم ولا يُمكنون أزواجهم من ذلك البتة، واستمرت عاداتهم بذلك كان كالمشروط لفظاً، وهو مقترد على قواعد أهل المدينة، وقواعد أحمد رحمه الله: أن الشرط العرفي كاللفظي سواء، ولهذا أوجبوا الأجرة على من دفع ثوبه إلى غسال أو قصار، أو صجينة إلى خباز، أو طعامه إلى طبّاخ يعملون بالأجرة، أو دخل الحمام، أو استخدم من يغسله ممن عادته يغسل بالأجرة ونحو ذلك، ولم يشترط لهم أجرة أنه يلزمه أجرة المثل. وعلى هذا، فلو قُرِضَ أن المرأة من بيت لا يتزوج الرجل على نسايتهم ضرةً، ولا يُمكنونه من ذلك، وعادتهم مستمرة بذلك، كان كالمشروط لفظاً.

وكذلك لو كانت ممن يعلم أنها لا تُمكن إدخال الضرة عليها عادةً لشرفها وحسبها وجلالتها، كان ترك التزوج عليها كالمشروط لفظاً سواء.

وعلى هذا فسيدة نساء العالمين، وابنة سيد ولد آدم أجمعين أحقُّ النساء بهذا، فلو شرطه علي في صلب العقد كان تأكيداً لا تأسيساً.

(حكمه منع علي من هذا الجمع)

وفي منع علي من الجمع بين فاطمة رضي الله عنها، وبين بنتِ أبي جهل حكمةً بديعة، وهي أن المرأة مع زوجها في درجته تبع له، فإن كانت في

(تحريم بنت الأخ وبنت الأخت)

وحرّم بنات الأخ، وبنات الأخت، فيعُم الأخ والأخت من كل جهة وبناتهما وإن نزلت درجتُهُن.

(التفصيل في تحريم الرضاعة)

وحرّم الأم من الرضاعة، فيدخل في أمهاتها من قبل الآباء والأمهات وإن علون، وإذا صارت المرصعة أمّه، صار صاحب اللبن - وهو الزوج أو السيد إن كانت جارية - أباه، وآبؤه أجداده، فنبّه بالمرصعة صاحبة اللبن التي هي مودع فيها للآب، على كونه أباً بطريق الأولى، لأن اللبن له، ويوطئه ثاب، ولهذا حكم رسول الله ﷺ بتحريم لبن الفحل، فثبت بالنص وإيمانه انتشار حرمة الرضاع إلى أم المرتضع وأبيه من الرضاعة، وأنه قد صار ابناً لهما، وصاراً أبوين له، فلزم من ذلك أن يكون إختوتهما وأخواتهما خالات له وعمات، وأبناؤهما وبناتهما إخوة له وأخوات، فنبّه بقوله: ﴿وَلَا تَحْرُمُوا أَخَوَاتَكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] على انتشار حرمة الرضاع إلى إختوتهما وأخواتهما، كما انتشرت منهما إلى أولادهما فكما صاروا إخوة وأخوات للمرتضع، فأخواتهما وخالاتهما أخوال وخالات له، وأعمام وعمات له: الأول بطريق النص، والآخر بتنبيه، كما أن الانتشار إلى الأم بطريق النص، وإلى الأب بطريق تنبيهه.

وهذه طريقة عجيبة مطردة في القرآن لا يقع عليها إلا كل غائض على معانيه، ووجوه دلالاته، ومن هنا قضى رسول الله ﷺ أنه «يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ» [البخاري: ٥٠٩٩، مسلم: ٣٥٦٨] ولكن الدلالة دالتان: خفية وجلية، فجمعهما للأمة، ليتم البيان ويزول الالتباس، ويقع على الدلالة الجلية الظاهرة مَنْ قَصَرَ فَعَهْمُهُ عَنِ الْخَفِيَّةِ.

(تحريم أمهات الزوجات)

وحرّم أمهات النساء، فدخل في ذلك أم المرأة وإن علت من نسب أو رضاع، دخل بالمرأة أو لم يدخل بها، لصدق الاسم على هؤلاء كلهن.

(تحريم بنات الزوجات)

وحرّم الربايب اللاتي في حجور الأزواج وهُنَّ بنات نسائهم المدخول بهن، فتناول بذلك بناتهن،

وبنات بناتهن، وبنات أبنائهن، فإنهن داخلات في اسم الربايب، وقيد التحريم بقيدتين، أحدهما: كونهن في حجور الأزواج. والثاني: الدخول بأمهاتهن. فإذا لم يوجد الدخول لم يثبت التحريم، وسواء حصلت الفرقة بموت أو طلاق، هذا مقتضى النص.

وذهب زيد بن ثابت، ومن وافقه، وأحمد في رواية عنه: إلى أن موت الأم في تحريم الربيبة كالدخول بها، لأنه يكمل الصداق، ويوجب العدة والتوارث، فصار كالدخول، والجمهور أبوا ذلك، وقالوا: الميتة غير مدخول بها، فلا تحرم ابنتها، والله تعالى قيد التحريم بالدخول، وصرح بغيه عند عدم الدخول.

وأما كونها في حجره، فلما كان الغالب ذلك ذكره لا تقيداً للتحريم به، بل هو بمنزلة قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِنْ تَمُوتُوا﴾ [الإسراء: ٣١] ولما كان من شأن بنت المرأة أن تكون عند أمّها، فهي في حجر الزوج وقوعاً وجوازاً، فكانه قال: اللاتي من شأنهن أن يكنّ في حجوركم، ففي ذكر هذا فائدة شريفة، وهي جواز جعلها في حجره، وأنه لا يجب عليه إبعادها عنه، وتجنب مؤاكلتها، والسفر، والخلوة بها، فأفاد هذا الوصف عدم الامتناع من ذلك.

ولما خفي هذا على بعض أهل الظاهر، شرط في تحريم الربيبة أن تكون في حجر الزوج، وقيد تحريمها بالدخول بأمرها، وأطلق تحريم أم المرأة ولم يقيد بالدخول، فقال جمهور العلماء من الصحابة ومن بعدهم: إن الأم تحرم بمجرد العقد على البنت، دخل بها أو لم يدخل، ولا تحرم البنت إلا بالدخول بالأم، وقالوا: أبهّموا ما أبهّم الله. وذهبت طائفة إلى أن قوله: ﴿الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣] وصف لنسائكم الأولى والثانية، وأنه لا تحرم الأم إلا بالدخول بالبنت، وهذا يردّه نظم الكلام، وحيلولة المعطوف بين الصفة والموصوف، وامتناع جعل الصفة للمضاف إليه دون المضاف إلا عند البيان، فإذا قلت: مرت بغلام زيد العاقل، فهو صفة للغلام لا لزيد إلا عند زوال اللبس، كقولك: مرت بغلام هند الكاتبة، ويردّه أيضاً جعله صفة واحدة

لموصوفين مختلفي الحكم والتعلق والعامل، وهذا لا يُعرف في اللغة التي نزل بها القرآن.
وأيضاً فإن الموصوف الذي يلي الصفة أولى بها لجواره، والجائر أحق بصقبه^(١) ما لم تدع ضرورة إلى نقلها عنه، أو تخفيفها إياه إلى الأبعد.

(وجه دخول بنت جاريته في التحريم)

فإن قيل: فمن أين أدخلتم ربيته التي هي بنت جاريته التي دخل بها، وليست من نسائه؟

قلنا: السرية قد تدخل في جملة نسائه، كما دخلت في قوله: ﴿وَسَأَوْتُمْ حُرَّتْ لَكُمْ فَأَتُوا حُرَّتَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] ودخلت في قوله: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةٌ أَصْبَاهُ الرَّقْطِ إِنَّكُمْ لَنَسَاءُكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] ودخلت في قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ بَنَاتَ النَّسَاءِ﴾ [النساء: ٢٢].

(دخول أم الجارية المدخول بها في التحريم)

فإن قيل: فليزكم على هذا إدخالها في قوله: ﴿وَأَتَمَمْتُ نِسَاءَكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] فتحرم عليه أم جاريته؟

قلنا: نعم وكذلك نقول: إذا وطئ أمته، حرمت عليه أمها وابنتها.

فإن قيل: فأنتم قد قررتم أنه لا يشترط الدخول بالبنات في تحريم أمها فكيف تشترطونه ها هنا؟

قلنا: لتصير من نسائه، فإن الزوجة صارت من نسائه بمجرد العقد، وأما المملوكة، فلا تصير من نسائه حتى يطأها، فإذا وطئها، صارت من نسائه، فحرمت عليه أمها وابنتها.

(وجه عدم دخول الجوازي في الظهار والإيلاء)

فإن قيل: فكيف أدخلتم السرية في نسائه في آية التحريم، ولم تدخلوها في نسائه في آية الظهار والإيلاء؟

قيل: السياق والواقع يأبى ذلك، فإن الظهار كان عندهم طلاقاً، وإنما محله الأزواج لا الإماء، فنقله الله سبحانه من الطلاق إلى التحريم الذي تزيله الكفارة، ونقل حكمه وأبقى محله، وأما الإيلاء،

فصريح في أن محله الزوجات، لقوله تعالى: ﴿لَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّبِيمٌ ۝ وَلَئِنْ عَزَبُوا عَلَى الْكَلْفِ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦، ٢٢٧].

(تحريم حلائل الأبناء)

وحرّم سبحانه حلائل الأبناء، وهن موطأت الأبناء بِنكاح أو ملك يمين، فإنها حليلة بمعنى محللة، ويدخل في ذلك ابن صلبه، وابن ابنة، وابن ابنته، ويخرج بذلك ابن التبني، وهذا التقيد قصّد به إخراجها.

(الاختلاف في حلائل الأبناء من الرضاع)

وأما حليلة ابنه من الرضاع، فإن الأئمة الأربعة ومن قال بقولهم يدخلونها في قوله: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ﴾ [النساء: ٢٣] ولا يخرجونها بقوله: ﴿الَّذِينَ مِن أُمَّتِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] ويحتجون بقول النبي ﷺ: «حَرَّمُوا مِنَ الرِّضَاعِ مَا تُحَرِّمُونَ مِنَ النَّسَبِ» [بخاري: ٥١١، ومسلم: ٣٥٧١]، قالوا: وهذه الحليلة تحرم إذا كانت لابن النسب، فتحرّم إذا كانت لابن الرضاع. قالوا: والتقيد لإخراج ابن التبني لا غير، وحرّموا من الرضاع بالصهر نظير ما يحرم بالنسب. ونازعهم في ذلك آخرون، وقالوا: لا تحرم حليلة ابنه من الرضاعة، لأنه ليس من صلبه، والتقيد كما يخرج حليلة ابن التبني يخرج حليلة ابن الرضاع سواء، ولا فرق بينهما. قالوا: وأما قوله ﷺ: «يُحَرِّمُ مِنَ الرِّضَاعِ مَا يُحَرِّمُ مِنَ النَّسَبِ» فهو من أكبر أدلتنا، وعمدتنا في المسألة، فإن تحريم حلائل الآباء والأبناء إنما هو بالصهر لا بالنسب، والنبي ﷺ قد قصر تحريم الرضاع على نظيره من النسب لا على شقيقه من الصهر، فيجب الاقتصاد بالتحريم على مورد النص.

قالوا: والتحريم بالرضاع فرع على تحريم النسب، لا على تحريم المصاهرة، فتحريم المصاهرة أصل قائم بذاته، والله سبحانه لم ينص في كتابه على تحريم الرضاع إلا من جهة النسب، ولم ينه عن التحريم به من جهة الصهر البتة، لا بنص ولا إيماء ولا إشارة، والنبي ﷺ أمر أن يحرم به ما يحرم

(١) الصب: القرب والملاصقة.

من النسب، وفي ذلك إرشاد إلى أنه لا يحرم به ما يحرم بالصهر، ولولا أنه أراد الاختصار على ذلك لقال: «حَرِّمُوا مِنَ الرِّضَاعِ ما يحرم من النَّسَبِ والصَّهْرِ».

قالوا: وأيضاً فالرِّضَاعُ مشبّه بالنسب، ولهذا أخذ منه بعض أحكامه وهو الحرمة والمحرمية فقط دون التوارث، والإنفاق وسائر أحكام النسب، فهو نسب ضعيف، فأخذ بحسب ضعفه بعض أحكام النسب، ولم يقو على سائر أحكام النسب، وهو الصق به من المصاهرة، فكيف يقوى على أخذ أحكام المصاهرة مع قصوره عن أحكام مشبهه وشقيقه؟!

وأما المصاهرة والرِّضَاع، فإنه لا نسب بينهما ولا شبهة نسب، ولا بعضية، ولا اتصال. قالوا: ولو كان تحريم الصهرية ثابتاً لبيّنه الله ورسوله بياناً شافياً يُقيم الحجة ويقطع العذر، فَمِنَ الله البيان، وعلى رسوله البلاغ، وعلىنا التسليم والانقياد، فهذا منتهى النظر في هذه المسألة، فمن ظفر فيها بحجة، فليرشد إليها وليدل عليها، فإنها لها منقادون، وبها معصمون، والله الموفق للصواب.

فصل

(تحريم نكاح من نكحهن الآباء)

وحَرِّمَ سبحانه وتعالى نكاح من نكحهنّ الآباء، وهذا يتناول منكوحاتهم بملك اليمين أو عقد نكاح، ويتناول آباء الآباء، وآباء الأمهات وإن علون، والاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢]، من مضمون جملة النهي، وهو التحريم المستلزم للتأثير والعقوبة، فاستثنى منه ما سلف قبل إقامة الحجة بالرسول والكتاب.

فصل

(تحريم الجمع بين الأختين)

(الاختلاف في الجمع بين الأختين من ملك اليمين)

وحَرِّمَ سبحانه الجمع بين الأختين، وهذا يتناول الجمع بينهما في عقد النكاح، وملك اليمين، كسائر محرمات الآية، وهذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم، وهو الصواب، وتوقفت طائفة في تحريمه بملك اليمين لمعارضة هذا العموم بعموم قوله

سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَخْتَيْهِمْ حَوَاطِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٣]، وأيضاً قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَخْتَيْهِمْ حَوَاطِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٣]، ولهذا قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: أحلتها آية، وحرمتهما آية.

وقال الإمام أحمد في رواية عنه: لا أقول: هو حرام، ولكن نهي عنه، فمن أصحابه من جعل القول بإباحته رواية عنه. والصحيح: أنه لم يُحِمْه، ولكن تأدّب مع الصحابة أن يُطلق لفظ الحرام على أمر توقّف فيه عثمان، بل قال: نهي عنه.

والذين جزموا بتحريمه، رجّحوا آية التحريم من وجوه.

(أدلة من رجح تحريم الجمع بين الأختين من ملك اليمين) أحدها: أن سائر ما ذُكر فيها من المحرمات عام في النكاح وملك اليمين، فما بال هذا وحده حتى يخرج منها، فإن كانت آية الإباحة مقتضية لحل الجمع بالملك، فلتكن مقتضية لحل أم موطوءته بالملك، ولموطوءة أبيه وابنه بالملك، إذ لا فرق بينهما البتة، ولا يُعلم بهذا قائل.

الثاني: أن آية الإباحة بملك اليمين مخصوصة قطعاً بصور عديدة لا يختلف فيها اثنان، كأمة وابنته، وأخت وعمته وخالتها من الرضاغة، بل كأخت وعمته من النسب عند من لا يرى عقن بالملك، كمالك والشافعي، ولم يكن عموم قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣]، معارضاً لعموم تحريمهن بالعقد والملك، فهذا حكم الأختين سواء.

الثالث: أن حلّ الملك ليس فيه أكثر من بيان جهة الحل وسببه، ولا تعرض فيه لشروط الحل، ولا لموانعه، وآية التحريم فيها بيان موانع الحل من النسب والرضاع والصهر وغيره، فلا تعارض بينهما البتة، وإلا كان كل موضع ذكر فيه شرط الحل وموانعه معارضاً لمقتضى الحل، وهذا باطل قطعاً، بل هو بيان لما سكت عنه دليل الحل من الشروط والموانع.

الرابع: أنه لو جاز الجمع بين الأختين المملوكتين في الوطء، جاز الجمع بين الأم وابنتها المملوكتين، فإن نص التحريم شامل للصورتين شمولاً واحداً، وأن إباحة المملوكات إن عمّت الأختين، عمّت الأم وابنتها.

الخامس: أن النبي ﷺ قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلَا يَجْمَعُ مَاءَهُ فِي رِجَمِ أُخْتَيْنِ» ولا ريب أن جمع الماء كما يكون بعقد النكاح يكون بملك اليمين، والإيمان يمنع منه.

فصل

(تحريم الجمع بين المرأة وعمتها والمرأة وخالتها)

«وقضى رسول الله ﷺ بتحريم الجمع بين المرأة وعمتها، والمرأة وخالتها» [البخاري: ٥١٠٨، ومسلم: ٣٦٩٧] وهذا التحريم مأخوذ من تحريم الجمع بين الأخنتين، لكن بطريق خفي، وما حرّمه رسول الله ﷺ مثل ما حرّمه الله، ولكن هو مستنبط من دلالة الكتاب.

(حرص الصحابة على استنباط الأحاديث من القرآن)

وكان الصحابة رضي الله عنهم أحرص شيء على استنباط أحاديث رسول الله ﷺ من القرآن، ومن ألزم نفسه ذلك، وقرع بابه، ووجه قلبه إليه، واعتنى به بفطرة سليمة، وقلب ذكي، رأى السنة كلها تفصيلاً للقرآن، وتبيناً لدلالته، وبياناً لمراد الله منه، وهذا أعلى مراتب العلم، فمن ظفر به، فليحمد الله، ومن فات، فلا يلوم من إلا نفسه وحمته وعجزه.

واستفيد من تحريم الجمع بين الأخنتين وبين المرأة وعمتها، وبينها وبين خالتها، أن كل امرأتين بينهما قرابة لو كان أحدهما ذكراً، حرّم على الآخر، فإنه يحرم الجمع بينهما، ولا يُستثنى من هذا صورة واحدة، فإن لم يكن بينهما قرابة، لم يحرم الجمع بينهما، وهل يكره؟ على قولين، وهذا كالجمع بين امرأة ورجل وابنته من غيرها.

(تحريم نكاح امرأة يحرم)

وطؤها بملك اليمين إلا إماء أهل الكتاب)

واستفيد من عموم تحريمه سبحانه المحرمات المذكورة: أن كل امرأة حرّم نكاحها، حرّم وطؤها بملك اليمين إلا إماء أهل الكتاب، فإن نكاحهن حرام عند الأكثرين، ووطؤون بملك اليمين جائز، وسوى أبو حنيفة بينهما، فأباح نكاحهن كما يباح ووطؤون بالملك.

والجمهور: احتجوا عليه بأن الله سبحانه وتعالى

إنما أباح نكاح الإماء بوصف الإيمان. فقال تعالى: «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيِّئِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ» [النساء: ٢٥]. وقال تعالى: «وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ» [البقرة: ٢٢١]. خص ذلك بحرائر أهل الكتاب، بقي الإماء على قضية التحريم، وقد فهم عمر رضي الله عنه وغيره من الصحابة إدخال الكتابيات في هذه الآية، فقال: لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول: إن المسيح إلهها.

وأيضاً فالأصل في الأبضاع الحرمة، وإنما أبيح نكاح الإماء المؤمنات، فمن عداهن على أصل التحريم، وليس تحريمهن مستفاداً من المفهوم.

(أمر تستفاد من سياق الآية)

واستفيد من سياق الآية ومدلولها أن كل امرأة حرمت، حرمت ابنتها إلا العمة والخالة، وحليلة الابن، وحليلة الأب، وأم الزوجة، وأن كل الأقارب حرام إلا الأربعة المذكورات في سورة الأحزاب، وهن بنات الأعمام والعمات، وبنات الأخوال والخالات.

فصل

(الإشكال الوارد في)

استثناء ملك اليمين من تحريم المتزوجات)

ومما حرّمه النص، نكاح المتزوجات، وهن المحصنات، واستثنى من ذلك ملك اليمين، فأشكّل هذا الاستثناء على كثير من الناس، فإن الأمة المتزوجة يحرم وطؤها على مالكةا، فأين محل الاستثناء؟

(شرح لمعنى الاستثناء المنقطع)

وضوابطه والرد على من قال بأن الآية من هذا النوع)

فقال طائفة: هو منقطع، أي لكن ما ملكت أيمانكم، وزد هذا لفظاً، ومعنى، أما اللفظ فإن الانقطاع إنما يقع حيث يقع التفرغ، وبابه غير الإيجاب من النفي والنهي والاستفهام، فليس الموضع موضع انقطاع، وأما المعنى: فإن المنقطع لا بد فيه من رابط بينه وبين المستثنى منه بحيث يخرج ما توهم دخوله فيه بوجوه ما، فأنك إذا قلت: ما بالدار من أحد، دل على انتفاء من بها بدواهم وأمتعتهم،

فإذا قلت: إلا حماراً، أو إلا الأثافي ونحو ذلك، أزلت توهم دخول المستثنى في حكم المستثنى منه. وأبين من هذا قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوُونَ فِيهَا لَقَوْا إِلَّا سَكَنًا﴾ [مریم: ٦٢] فاستثناء السلام أزال توهم نفي السماع العام، فإن عدم سماع اللغو يجوز أن يكون لعدم سماع كلام ما، وأن يكون مع سماع غيره، وليس في تحريم نكاح المزوجة ما يؤهم تحريم وطء الإمام بملك اليمين حتى يُخرجه.

(من قال بان ملك الرجل الأمة المزوجة طلاق لها)

وقالت طائفة: بل الاستثناء على بابه، ومتى ملك الرجل الأمة المزوجة كان ملكه طلاقاً لها، وحلّ له وطؤها، وهي مسألة بيع الأمة: هل يكون طلاقاً لها، أم لا؟ فيه مذهبان للصحابة، فابن عباس رضي الله عنه يراه طلاقاً، ويحتج له بالآية، وغيره يأبى ذلك، ويقول: كما يُجامع الملك السابق للنكاح اللاحق اتفاقاً ولا يتنافيان، كذلك الملك اللاحق لا يُنافي النكاح السابق، قالوا: وقد خير رسول الله ﷺ بريرة لما بيعت [البخاري: ٥٢٨٣] ولو انفسخ نكاحها لم يُخيرها. قالوا: وهذا حجة على ابن عباس رضي الله عنه، فإنه هو راوي الحديث، والأخذ برواية الصحابي لا برأيه.

(من قال، إن كان المشتري امرأة لم ينفسخ النكاح)

وقالت طائفة ثالثة: إن كان المشتري امرأة لم ينفسخ النكاح، لأنها لم تملك الاستمتاع ببضع الزوجة، وإن كان رجلاً انفسخ، لأنه يملك الاستمتاع به، وملك اليمين أقوى من ملك النكاح، وهذا الملك يُبطل النكاح دون العكس، قالوا: وعلى هذا فلا إشكال في حديث بريرة.

(أورد على من قال به)

وأجاب الأولون عن هذا بأن المرأة وإن لم تملك الاستمتاع ببضع أمتها، فهي تملك المعاوضة عليه، وتزويجها، وأخذ مهرها، وذلك كملك الرجل، وإن لم تستمتع بالبضع.

(من قال، القبة خاصة بالمسببات)

وقالت فرقة أخرى: الآية خاصة بالمسيبات، فإن المسبية إذا سبيت، حلّ وطؤها لسايبها بعد

الاستبراء، وإن كانت مزوجة، وهذا قول الشافعي وأحد الوجهين لأصحاب أحمد، وهو الصحيح، كما روى مسلم في «صحيحه» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ بعث جيشاً إلى أوطاس، فلقي عدواً، فقاتلوه، فظهروا عليهم، وأصابوا سبايا، وكان ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ تحرجوا من غشيانهن من أجل أزواجهن من المشركين، فأنزل الله عز وجل في ذلك: ﴿وَالْمَسْكُونَةُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] أي: فهن لكم حلال إذا انقضت عدتهن [مسلم: ٣٦٠٨].

فتضمن هذا الحكم إباحة وطء المسيبة وإن كان لها زوج من الكفار، وهذا يدل على انفساخ نكاحه، وزوال عصمة بضع امرأته، وهذا هو الصواب، لأنه قد استولى على محلّ حقه، وعلى ربة زوجته، وصار سايبها أحقّ بها منه، فكيف يُحرّم بضعها عليه، فهذا القول لا يعارضه نص ولا قياس.

(أورد على من قال بان وطأها إنما يباح إذا سببت وحدها)

والذين قالوا من أصحاب أحمد وغيرهم: إن وطأها إنما يباح إذا سببت وحدها. قالوا: لأن الزوج يكون بقاؤه مجهولاً، والمجهول كالمعدوم، فيجوز وطؤها بعد الاستبراء، فإذا كان الزوج معها، لم يجز وطؤها مع بقائه، فأورد عليهم ما لو سببت وحدها وتيقناً بقاء زوجها في دار الحرب، فإنهم يجوزون وطأها، فأجابوا بما لا يجدي شيئاً، وقالوا: الأصل إلحاق الفرد بالأعم الأغلب، فيقال لهم: الأعم الأغلب بقاء أزواج المسيبات إذا سبين منفردات، وموتهم كلهم نادر جداً، ثم يقال: إذا صارت ربة زوجها وأملاكه ملكاً للسايب، وزالت العصمة عن سائر أملاكه وعن رقبته، فما الموجب لثبوت العصمة في فرج امرأته خاصة وقد صارت هي وهو وأملاكهما للسايب؟

(جواز وطء الودنيات بملك اليمين)

ودلّ هذا القضاء النبويّ على جواز وطء الإمام الودنيات بملك اليمين، فإن سبايا أوطاس لم يكن كتابيات، ولم يشترط رسول الله ﷺ في وطنهن إسلامهن، ولم يجعل المانع منه إلا الاستبراء فقط،

وَتَأخِيرُ الْبَيَانِ عَنْ وَقْتِ الْحَاجَةِ مَمْتَنٌّ مَعَهُمْ حَدِيثُ
عَهْدِ بِالْإِسْلَامِ حَتَّى خَفِيَ عَلَيْهِمْ حُكْمُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ،
وَحَصُولُ الْإِسْلَامِ مِنْ جَمِيعِ السَّبَايَا وَكَانُوا عِدَّةَ آلَافٍ
بَحِيثٌ لَمْ يَتَخَلَّفْ مِنْهُمْ عَنِ الْإِسْلَامِ جَارِيَةً وَاحِدَةً وَمَا
يُعْلَمُ أَنَّهُ فِي غَايَةِ الْبُعْدِ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يُكْرَهْنَ عَلَى
الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُنَ مِنَ الْبَصِيرَةِ وَالرَّغْبَةِ وَالْمَحَبَّةِ
فِي الْإِسْلَامِ مَا يَقْتَضِي مِبَادِرْتَهُنَ إِلَيْهِ جَمِيعاً، فَمَقْتَضَى
السَّنَةِ، وَعَمَلُ الصَّحَابَةِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَعْدَهُ
جَوَازُ وَطْءِ الْمَمْلُوكَاتِ عَلَى أَيِّ دِينٍ كُنَّ، وَهَذَا
مَذْهَبُ طَاوُسٍ وَغَيْرِهِ، وَقَوَاهُ صَاحِبُ «الْمَغْنِي» فِيهِ،
وَرَجَّحَ أَدْلَتَهُ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

وَمَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ اشْتِرَاطِ إِسْلَامِهِنَّ، مَا رَوَى
التِّرْمِذِيُّ فِي «جَامِعِهِ» عَنْ عِرْبَابِ بْنِ سَارِيَةَ، أَنَّ
النَّبِيَّ ﷺ حَرَّمَ وَطْءَ السَّبَايَا حَتَّى يَضَعْنَ مَا فِي بَطُونِهِنَّ
[صحيح: أحمد: ١٦٩٩٣، والتِّرْمِذِيُّ: ١٥٦٤]. فَجَعَلَ
لِلتَّحْرِيمِ غَايَةَ وَاحِدَةً وَهِيَ وَضْعُ الْحَمَلِ، وَلَوْ كَانَ
مَتَوَقَّفاً عَلَى الْإِسْلَامِ، لَكَانَ بَيَانُهُ أَهَمُّ مِنْ بَيَانِ
الْإِسْتِبْرَاءِ.

وَمَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ اشْتِرَاطِ إِسْلَامِهِنَّ، مَا رَوَى
التِّرْمِذِيُّ فِي «جَامِعِهِ» عَنْ عِرْبَابِ بْنِ سَارِيَةَ، أَنَّ
النَّبِيَّ ﷺ حَرَّمَ وَطْءَ السَّبَايَا حَتَّى يَضَعْنَ مَا فِي بَطُونِهِنَّ
[صحيح: أحمد: ١٦٩٩٣، والتِّرْمِذِيُّ: ١٥٦٤]. فَجَعَلَ
لِلتَّحْرِيمِ غَايَةَ وَاحِدَةً وَهِيَ وَضْعُ الْحَمَلِ، وَلَوْ كَانَ
مَتَوَقَّفاً عَلَى الْإِسْلَامِ، لَكَانَ بَيَانُهُ أَهَمُّ مِنْ بَيَانِ
الْإِسْتِبْرَاءِ.

وَمَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ اشْتِرَاطِ إِسْلَامِهِنَّ، مَا رَوَى
التِّرْمِذِيُّ فِي «جَامِعِهِ» عَنْ عِرْبَابِ بْنِ سَارِيَةَ، أَنَّ
النَّبِيَّ ﷺ حَرَّمَ وَطْءَ السَّبَايَا حَتَّى يَضَعْنَ مَا فِي بَطُونِهِنَّ
[صحيح: أحمد: ١٦٩٩٣، والتِّرْمِذِيُّ: ١٥٦٤]. فَجَعَلَ
لِلتَّحْرِيمِ غَايَةَ وَاحِدَةً وَهِيَ وَضْعُ الْحَمَلِ، وَلَوْ كَانَ
مَتَوَقَّفاً عَلَى الْإِسْلَامِ، لَكَانَ بَيَانُهُ أَهَمُّ مِنْ بَيَانِ
الْإِسْتِبْرَاءِ.

وَمَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ اشْتِرَاطِ إِسْلَامِهِنَّ، مَا رَوَى
التِّرْمِذِيُّ فِي «جَامِعِهِ» عَنْ عِرْبَابِ بْنِ سَارِيَةَ، أَنَّ
النَّبِيَّ ﷺ حَرَّمَ وَطْءَ السَّبَايَا حَتَّى يَضَعْنَ مَا فِي بَطُونِهِنَّ
[صحيح: أحمد: ١٦٩٩٣، والتِّرْمِذِيُّ: ١٥٦٤]. فَجَعَلَ
لِلتَّحْرِيمِ غَايَةَ وَاحِدَةً وَهِيَ وَضْعُ الْحَمَلِ، وَلَوْ كَانَ
مَتَوَقَّفاً عَلَى الْإِسْلَامِ، لَكَانَ بَيَانُهُ أَهَمُّ مِنْ بَيَانِ
الْإِسْتِبْرَاءِ.

وَمَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ اشْتِرَاطِ إِسْلَامِهِنَّ، مَا رَوَى
التِّرْمِذِيُّ فِي «جَامِعِهِ» عَنْ عِرْبَابِ بْنِ سَارِيَةَ، أَنَّ
النَّبِيَّ ﷺ حَرَّمَ وَطْءَ السَّبَايَا حَتَّى يَضَعْنَ مَا فِي بَطُونِهِنَّ
[صحيح: أحمد: ١٦٩٩٣، والتِّرْمِذِيُّ: ١٥٦٤]. فَجَعَلَ
لِلتَّحْرِيمِ غَايَةَ وَاحِدَةً وَهِيَ وَضْعُ الْحَمَلِ، وَلَوْ كَانَ
مَتَوَقَّفاً عَلَى الْإِسْلَامِ، لَكَانَ بَيَانُهُ أَهَمُّ مِنْ بَيَانِ
الْإِسْتِبْرَاءِ.

وَمَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ اشْتِرَاطِ إِسْلَامِهِنَّ، مَا رَوَى
التِّرْمِذِيُّ فِي «جَامِعِهِ» عَنْ عِرْبَابِ بْنِ سَارِيَةَ، أَنَّ
النَّبِيَّ ﷺ حَرَّمَ وَطْءَ السَّبَايَا حَتَّى يَضَعْنَ مَا فِي بَطُونِهِنَّ
[صحيح: أحمد: ١٦٩٩٣، والتِّرْمِذِيُّ: ١٥٦٤]. فَجَعَلَ
لِلتَّحْرِيمِ غَايَةَ وَاحِدَةً وَهِيَ وَضْعُ الْحَمَلِ، وَلَوْ كَانَ
مَتَوَقَّفاً عَلَى الْإِسْلَامِ، لَكَانَ بَيَانُهُ أَهَمُّ مِنْ بَيَانِ
الْإِسْتِبْرَاءِ.

وَمَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ اشْتِرَاطِ إِسْلَامِهِنَّ، مَا رَوَى
التِّرْمِذِيُّ فِي «جَامِعِهِ» عَنْ عِرْبَابِ بْنِ سَارِيَةَ، أَنَّ
النَّبِيَّ ﷺ حَرَّمَ وَطْءَ السَّبَايَا حَتَّى يَضَعْنَ مَا فِي بَطُونِهِنَّ
[صحيح: أحمد: ١٦٩٩٣، والتِّرْمِذِيُّ: ١٥٦٤]. فَجَعَلَ
لِلتَّحْرِيمِ غَايَةَ وَاحِدَةً وَهِيَ وَضْعُ الْحَمَلِ، وَلَوْ كَانَ
مَتَوَقَّفاً عَلَى الْإِسْلَامِ، لَكَانَ بَيَانُهُ أَهَمُّ مِنْ بَيَانِ
الْإِسْتِبْرَاءِ.

وَمَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ اشْتِرَاطِ إِسْلَامِهِنَّ، مَا رَوَى
التِّرْمِذِيُّ فِي «جَامِعِهِ» عَنْ عِرْبَابِ بْنِ سَارِيَةَ، أَنَّ
النَّبِيَّ ﷺ حَرَّمَ وَطْءَ السَّبَايَا حَتَّى يَضَعْنَ مَا فِي بَطُونِهِنَّ
[صحيح: أحمد: ١٦٩٩٣، والتِّرْمِذِيُّ: ١٥٦٤]. فَجَعَلَ
لِلتَّحْرِيمِ غَايَةَ وَاحِدَةً وَهِيَ وَضْعُ الْحَمَلِ، وَلَوْ كَانَ
مَتَوَقَّفاً عَلَى الْإِسْلَامِ، لَكَانَ بَيَانُهُ أَهَمُّ مِنْ بَيَانِ
الْإِسْتِبْرَاءِ.

فصل

فِي حُكْمِهِ ﷺ فِي الزَّوْجَيْنِ يُسَلِّمُ

أَحَدُهُمَا قَبْلَ الْآخَرِ

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: رَدَّ رَسُولُ اللَّهِ

(١) هِيَ لِلتِّرْمِذِيِّ، وَفِي ابْنِ مَاجَةَ: بَعْدَ سَتَيْنِ، وَالرَّوَايَتَانِ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ انْظُرْ «فَتْحُ الْقَدِيرِ» (٥١١/٢) لِلْكَمَالِ بْنِ الْهَمَامِ.

(٢) فِي الْأَصْلِ: «التِّرْمِذِيُّ» وَهُوَ وَهْمٌ مِنَ الْمُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

نكحها وهي في عِدَّةٍ من غيره، أو تحريماً مجمعاً عليه، أو مؤبداً كما إذا كانت محرماً له بنسب أو رضاع، أو كانت مما لا يجوز له الجمع بينها وبين من معه، كالأختين والخمس وما فوقهن، فهذه ثلاث صور أحكامها مختلفة.

فإذا أسلما وبينها وبينه محرمة من نسب أو رضاع، أو صهر، أو كانت أخت الزوجة أو عمتها أو خالتها، أو من يحرم الجمع بينها وبينها، فُرِّقَ بينهما بإجماع الأمة، لكن إن كان التحريم لأجل الجمع، خُيِّرَ بين إمساك أَيْتَمَها شاء، وإن كانت بنته من زنى، فُرِّقَ بينهما أيضاً عند الجمهور، وإن كان يعتقده ثبوت النسب بالزنى فرق بينهما اتفاقاً، وإن أسلم أحدهما وهي في عِدَّةٍ من مسلم متقدمة على عقده، فُرِّقَ بينهما اتفاقاً، وإن كانت العِدَّةُ من كافر، فإن اعتبرنا دوام المفسد أو الإجماع عليه، لم يُفَرَّقَ بينهما لأن عِدَّةَ الكافر لا تدوم، ولا تمنع النكاح عند من يُبطلُ أنكحة الكفار، ويجعل حكمها حكم الزنى.

وإن أسلم أحدهما وهي حُبلى من زنى قبل العقد، فقولان مبنيان على اعتبار قيام المفسد أو كونه مجمعاً عليه.

(لا دليل لمن قال بمراعاة زمن العدة)

وإن أسلما وقد عقدها بلا ولي، أو بلا شهود، أو في عِدَّةٍ وقد انقضت، أو على أخت وقد ماتت، أو على خامسة كذلك، أُقِرَّأَ عليه، وكذلك إن قهر حريمي حربيةً، واعتقدها نكاحاً ثم أسلما، أُقِرَّأَ عليه.

وإن أسلم أحدهما وهي حُبلى من زنى قبل العقد، فقولان مبنيان على اعتبار قيام المفسد أو كونه مجمعاً عليه.

وذكر سفيان بن عيينة، عن مُطَرِّفِ بْنِ طَرِيفٍ، عن الشعبي، عن علي: هو أحقُّ بها ما لم يخرج من بصرها.

وذكر ابنُ أبي شيبة، عن معتمر بن سليمان، عن معمر، عن الزُّهْرِيِّ، إن أسلمت ولم يُسَلِّمْ زوجها، فهما على نكاحهما إلا أن يُفَرَّقَ بينهما سلطاناً^(١).

ولا يُعرف اعتبارُ العدة في شيء من الأحاديث، ولا كان النبي ﷺ يسأل المرأة هل انقضت عدتها أم لا، ولا ريب أن الإسلام لو كان بمجرد فرقة، لم تكن فرقة رجعية بل بائنة، فلا أثر للعدة في بقاء النكاح، وإنما أثرها في منع نكاحها للغير، فلو كان الإسلام قد نجز الفرقة بينهما، لم يكن أحقُّ بها في العدة، ولكن الذي دلَّ عليه حُكْمُهُ ﷺ، أن النكاح موقوف، فإن أسلم قبل انقضاء عدتها، فهي زوجته، وإن انقضت عدتها، فلها أن تنكح من شاءت، وإن أحبَّت، انتظرت، فإن أسلم، كانت زوجته من غير حاجة إلى تجديد النكاح.

ولا تعلم أحداً جدد للإسلام نكاحه البتة، بل كان الواقع أحد أمرين: إما افتراقهما ونكاحها غيره، وإما

وإن أسلما وقد عقدها بلا ولي، أو بلا شهود، أو في عِدَّةٍ وقد انقضت، أو على أخت وقد ماتت، أو على خامسة كذلك، أُقِرَّأَ عليه، وكذلك إن قهر حريمي حربيةً، واعتقدها نكاحاً ثم أسلما، أُقِرَّأَ عليه.

وإن أسلم أحدهما وهي حُبلى من زنى قبل العقد، فقولان مبنيان على اعتبار قيام المفسد أو كونه مجمعاً عليه.

وإن أسلم أحدهما وهي حُبلى من زنى قبل العقد، فقولان مبنيان على اعتبار قيام المفسد أو كونه مجمعاً عليه.

وإن أسلما وقد عقدها بلا ولي، أو بلا شهود، أو في عِدَّةٍ وقد انقضت، أو على أخت وقد ماتت، أو على خامسة كذلك، أُقِرَّأَ عليه، وكذلك إن قهر حريمي حربيةً، واعتقدها نكاحاً ثم أسلما، أُقِرَّأَ عليه.

(إذا أسلم أحد الزوجين)

قبل الآخر له بمسح النكاح بإسلامه،

وتضمن أن أحد الزوجين إذا أسلم قبل الآخر، لم ينفسخ النكاح بإسلامه، فُرِّقَتِ الهجرة بينهما، أو لم تُفَرَّقَ، فإنه لا يُعرف أن رسول الله ﷺ جدد نكاح زوجين سبق أحدهما الآخر بإسلامه قط، ولم يزل الصحابة يُسَلِّمُ الرجل قبل امرأته، وامرأته قبله، ولم يُعرف عن أحد منهم البتة أنه تلفظ بإسلامه هو وامرأته، وتساوقا فيه حرفاً بحرف، هذا مما يُعلم أنه لم يقع البتة، وقد ردَّ النبي ﷺ ابنته زينب على أبي العاص بن الربيع، وهو إنما أسلم زمنَ الحُدَيْبِيَّةِ،

(١) الأثران في «المحلى» (٧/٣١٤)، وهما صحيحان.

نكاحهما، وأسلم حكيمٌ بنُ حزام قبل امرأته، وخرج أبو سفيان بن الحارث، وعبد الله بن أبي أمية عام الفتح، فلقيا النبي ﷺ بالأبواء، فأسلما قبل منكوحتهما، فبقيا على نكاحهما، ولم يعلم أن رسول الله ﷺ فرّق بين أحد من أسلم وبين امرأته.

(بطلان من أجاب بتجديد نكاح من أسلم)

وجواب من أجاب بتجديد نكاح من أسلم في غاية البطلان، ومن القول على رسول الله ﷺ بلا علم، واتفاق الزوجين في التلطف بكلمة الإسلام معاً في لحظة واحدة معلوم الانتفاء.

(الرد على من ينف الفرقة على انقضاء العدة)

ويلي هذا القول مذهبٌ من يقف الفرقة على انقضاء العدة مع ما فيه، إذ فيه آثار وإن كانت منقطعة، ولو صحت لم يجز القول بغيرها. قال ابن شبرمة: كان الناس على عهد رسول الله ﷺ يُسلم الرجل قبل المرأة، والمرأة قبل الرجل، فأيهما أسلم قبل انقضاء عدة المرأة، فهي امرأته، وإن أسلم بعد العدة، فلا نكاح بينهما. وقد تقدّم قول الترمذي في أول الفصل، وما حكاه ابنُ حزم عن عمر رضي الله عنه، فما أدري من أين حكاه؟ والمعروف عنه خلافه، فإنه ثبت عنه من طريق حماد بن سلمة، عن أيوب وقتادة كلاهما عن ابن سيرين، عن عبد الله بن يزيد الخطمي، أن نصرانياً أسلمت امرأته، فخيرها عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه إن شاءت فارقه، وإن شاءت أقامت عليه [صحيح: «المعلی» (٣١٣/٧)]. ومعلوم بالضرورة، أنه إنما خيرها بين انتظاره إلى أن يسلم، فتكون زوجته كما هي أو تُفارق، وكذلك صح عنه: أن نصرانياً أسلمت امرأته، فقال عمرُ رضي الله عنه: إن أسلم فهي امرأته، وإن لم يسلم، فرّق بينهما، فلم يسلم، ففرق بينهما.

وكذلك قال لعُباد بن النعمان التغلبي وقد أسلمت امرأته: إما أن تسلم، وإلا نزعتهما منك، فأبى، فنزعها منه.

فهذه الآثار صريحة في خلاف ما حكاه أبو محمد بن حزم عنه، وهو حكاه، وجعلها روايات آخر، وإنما تمسك أبو محمد بآثار فيها، أن عمر، وابن عباس، وجابر، فرّقوا بين الرجل وبين امرأته

بقاؤها عليه وإن تأخر إسلامها أو إسلامه، وإما تنجز الفرقة أو مراعاة العدة، فلا تعلم أن رسول الله ﷺ قضى بواحدة منهما مع كثرة من أسلم في عهده من الرجال وأزواجهن، وقرب إسلام أحد الزوجين من الآخر وبعده منه، ولولا إقراره ﷺ الزوجين على نكاحهما وإن تأخر إسلام أحدهما عن الآخر بعد صلح الحديبية وزمن الفتح، لقلنا بتعجيل الفرقة بالإسلام من غير اعتبار عدة، لقوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ لَكُمْ مَنَافِعُ وَلَا هُمْ يُنْفَعُونَ لَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠] وقوله: ﴿وَلَا تُنكِحُوا بِعِصْمِ الْكَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠] وأن الإسلام سبب الفرقة، وكل ما كان سبباً للفرقة تعقبه الفرقة، كالرضاع والخلع والطلاق، وهذا اختيار الخلال، وأبي بكر صاحبه، وابن المنذر، وابن حزم، وهو مذهب الحسن، وطاوس، وعكرمة، وقتادة، والحكم. قال ابن حزم: وهو قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وجابر بن عبد الله، وابن عباس، وبه قال حماد بن زيد، والحكم بن عتيبة، وسعيد بن جبير، وعمر بن عبد العزيز، وعدي بن عدي الكندي، والشعبي، وغيرهم. قلت: وهو أحد الروایتين عن أحمد، ولكن الذي أنزل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا بِعِصْمِ الْكَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وقوله: ﴿لَا هُنَّ لَكُمْ مَنَافِعُ وَلَا هُمْ يُنْفَعُونَ لَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠]، لم يحكم بتعجيل الفرقة، فروى مالك في «موطئه» عن ابن شهاب، قال: كان بين إسلام صفوان بن أمية، وبين إسلام امرأته بنت الوليد بن المغيرة نحو من شهر، أسلمت يوم الفتح، وبقي صفوان حتى شهد حنيناً والطائف هو كافر، ثم أسلم، ولم يفرّق النبي ﷺ بينهما، واستقرت عنده امرأته بذلك النكاح [مالك (٥٤٣/٢) بلائاً]. وقال ابنُ عبد البر: وشهرة هذا الحديث أقوى من إسناده.

وقال ابنُ شهاب: أسلمت أم حكيم يوم الفتح، وهرب زوجها عكرمة حتى أتى اليمن، فدعته إلى الإسلام، فأسلم وقدم، فبايع النبي ﷺ، فبقيا على نكاحهما.

ومن المعلوم يقيناً، أن أبا سفيان بن حرب خرج، فأسلم عام الفتح قبل دخول النبي ﷺ مكة، ولم يسلم هند امرأته حتى فتح رسول الله ﷺ مكة، فبقيا على

بالإسلام، وهي آثار مجملة ليست بصريحة في تعجيل التفرقة، ولو صحت، فقد صَحَّ عن عمر ما حكيناه، وعن علي ما تقدم، وبالله التوفيق.

فصل

في حكمه ﷺ في العزل

ثبت في «الصحيحين»: عن أبي سعيد قال: أصبنا سبياً، فكنّا نَعَزُّ، فسالنا رسول الله ﷺ فقال: «وَأَنْتُمْ لَتَقْلُونَ؟» قالها ثلاثاً. «مَا مِنْ نَسَمَةٍ كَانَتْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا وَهِيَ كَأَنَّهُ» [البخاري: ٥٢١٠، ومسلم: ٣٥٤٤].

وفي السنن: عنه، أن رجلاً قال: يا رسول الله إن لي جارية وأنا أعزّل عنها، وأنا أكره أن تحمل، وأنا أريد ما يريد الرجال، وإن اليهود تحدّث أن العزل المؤودة الصغرى، قال: «كَذَبَتْ يَهُودٌ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَهُ مَا اسْتَطَعَتْ أَنْ تَصْرِفَهُ» [حسن: أحمد: ١١٢٨٨، وأبو داود: ٢١٧١، والترمذي: ١١٣٦].

وفي «الصحيحين»: عن جابر قال: كنا نَعَزُّ على عهد رسول الله ﷺ والقرآن ينزل [البخاري: ٥٢٠٨، ومسلم: ٣٥٥٩].

وفي «صحيح مسلم» عنه: كنا نَعَزُّ على عهد رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فلم ينهنا [مسلم: ٣٥٦١].

وفي «صحيح مسلم» أيضاً: عنه قال: سأل رجل النبي ﷺ فقال: إن عِنْدِي جارية، وأنا أعزّل عنها، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ ذَلِكَ لَا يَمْنَعُ شَيْئاً أَرَادَهُ اللَّهُ»، قال: فجاء الرجل فقال: يا رسول الله إن الجارية التي كُنْتُ ذَكَرْتُهَا لَكَ حَمَلَتْ، فقال رسول الله ﷺ: «أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ» [مسلم: ٣٥٥٧].

وفي «صحيح مسلم» أيضاً: عن أسامة بن زيد، أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! إني أعزّل عن امرأتي، فقال له رسول الله ﷺ: «لِمَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟» فقال الرجل: أشفق على ولدها، أو قال: على أولادها، فقال رسول الله ﷺ: «لَوْ كَانَ ضَارّاً ضَرَّ فَارِسَ وَالرُّومَ» [مسلم: ٣٥٦٧].

وفي «مسند أحمد»، و«سنن ابن ماجه»، من حديث عُمَرُ بن الخطاب رضي الله عنه قال: نهى

رسول الله ﷺ أن يُعَزَلَ عَنِ الْحُرَّةِ إِلَّا بِإِذْنِهَا [أحمد: ٢١٢، وابن ماجه: ١٩٢٨، وفي سننه ضعيف].

وقال أبو داود: سمعتُ أبا عبد الله ذكر حديث ابن لهيعة، عن جعفر بن ربيعة، عن الزهري، عن المُحَرَّرِ بن أبي هريرة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يُعَزَّلُ عَنِ الْحُرَّةِ إِلَّا بِإِذْنِهَا»، فقال: ما أنكره.

فهذه الأحاديث صريحة في جواز العزل، وقد رُوِيَ الرخصة فيه عن عشرة من الصحابة: علي، وسعيد بن أبي وقاص، وأبي أيوب، وزيد بن ثابت، وجابر، وابن عباس، والحسن بن علي، وخبّاب بن الأَرث، وأبي سعيد الخدري، وابن مسعود، رضي الله عنهم.

قال ابن حزم: وجاءت الإباحة للعزل صحيحة عن جابر، وابن عباس، وسعيد بن أبي وقاص، وزيد بن ثابت، وابن مسعود، رضي الله عنهم، وهذا هو الصحيح.

(من قال بتحريره ومن حوز به باذن الحرة)

وحَرَّمه جماعة، منهم أبو محمد بن حزم وغيره. وفُرِّق طائفة بين أن تأذن له الحرة، فيباح، أو لا تأذن فيحرّم، وإن كانت زوجته أمة، أبيع بإذن سيدها، ولم يبح بدون إذنه، وهذا منصوص أحمد، ومن أصحابه من قال: لا يُباح بحال، ومنهم من قال: يُباح بكلّ حال. ومنهم من قال: يباح بإذن الزوجة حرة كانت أو أمة، ولا يُباح بدون إذنها حرة كانت أو أمة.

(ما احتج به المبيحون ورد المحرمين على المبيحين)

فمن أباحه مطلقاً، احتج بما ذكرنا من الأحاديث، وبأن حق المرأة في ذوق العسيلة لا في الإنزال، ومن حرّمه مطلقاً احتج بما رواه مسلم في «صحيحه» من حديث عائشة رضي الله عنها، عن جُدّامة بنت وهب أخت عكاشة، قال: حضرْتُ رسول الله ﷺ في أناس، فسألوه عن العزل، فقال رسول الله ﷺ: «ذَلِكَ الرَّأْدُ الْحَقِي»، وهي: «وَلَا أَلْوَدَّةُ سَلَتْ» [التكوير: ٨] [مسلم: ٣٥٦٥]، قالوا: وهذا ناسخ لأخبار الإباحة، فإنه ناقل عن الأصل وأحاديث الإباحة على

وفق البراءة الأصلية، وأحكام الشرع ناقلة عن البراءة الأصلية. قالوا: وقول جابر رضي الله عنه: كنا نيزل القرآن ينزل، فلو كان شيئاً ينهى عنه، لنهى عنه القرآن.

فيقال: قد نهى عنه مَنْ أنزل عليه القرآن بقوله: «إنه الموءودة الصغرى» والوَاد كُله حرام. قالوا: وقد فهم الحسن البصري، النهي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه لَمَّا ذَكَرَ العَزْلَ عند رسول الله ﷺ قال: «لَا عَلَيْكُمْ إِلَّا تَعَلُّوا ذَاكُمْ، فَإِنَّمَا هُوَ الْقَدَرُ» قال ابنُ عون: فَحَدَّثْتُ بِهِ الْحَسَنَ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَكَأَنَّ هَذَا زَجْرٌ [مسلم: ٣٥٥٠]. قالوا: ولأن فيه قطع النسل المطلوب من النكاح، وسوء العشرة، وقطع اللذة عند استدعاء الطبيعة لها.

قالوا: ولهذا كان ابنُ عمر رضي الله عنه لا يعزل، وقال: لو علمتُ أن أحداً من ولدي يَعرِزُ، لنكَلْتُهُ، وكان عليّ يكره العزل، ذكره شعبة عن عاصم عن زُرِّ عنه. وصح عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال في العزل: هو الموءودة الصغرى. وصح عن أبي أمامة أنه سئل عنه فقال: مَا كُنْتُ أَرَى مُسْلِمًا يَفْعَلُهُ. وقال نافع عن ابن عمر: ضرب عمر على العزل بَقْعَ بَنِيهِ. وقال يحيى بن سعيد الأنصاري، عن سعيد بن المسيَّب، قال: كان عمرُ وعثمانُ يَنْهَيَانِ عَنِ الْعَزْلِ [ابن حزم في «المحلى» (١٠/٧١)].

(التوهيق بين الأحاديث المظنون بها التعارض)

وليس في هذا ما يُعارضُ أحاديث الإباحة مع صراحتها وصحتها، أما حديث جُدَامَةَ بنت وهب، فإنه وإن كان رواه مسلم، فإن الأحاديث الكثيرة على خلافه، وقد قال أبو داود: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبان، حدثنا يحيى، أن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان حدثه، أن رِفَاعَةَ حَدَّثَهُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِن لِي جَارِيَةً، وَأَنَا أَعَزُّ عَنْهَا، وَأَنَا أَكْرَهُ أَنْ تَحْمِلَ وَأَنَا أُرِيدُ مَا يُرِيدُ الرِّجَالُ، وَإِنَّ الْيَهُودَ تُحَدِّثُ أَنَّ الْعَزْلَ الْمُوَوَّدَةَ الصَّغْرَى، قَالَ: «كَذَبَتْ

يَهُودُ، لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَهُ مَا اسْتَطَعَتْ أَنْ تَصْرِفَهُ».

وحسبك بهذا الإسناد صحة، فكُلُّهُمْ ثِقَاتٌ حِفَافٌ، وَقَدْ أَعْلَهُ بَعْضُهُمْ بِأَنَّهُ مُضْطَرِبٌ، فَإِنَّهُ اخْتَلَفَ فِيهِ عَلَى يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، فَقِيلَ: عَنْهُ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ ثَوْبَانَ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَمِنْ هَذِهِ الطَّرِيقِ: أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ (١). وقيل: فيه عن أبي مُطْعِمٍ بْنِ رِفَاعَةَ، وَقِيلَ: عَنْ أَبِي رِفَاعَةَ، وَقِيلَ: عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَهَذَا لَا يَقْدَحُ فِي الْحَدِيثِ، فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ عِنْدَ يَحْيَى، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ جَابِرٍ، وَعِنْدَهُ عَنْ ابْنِ ثَوْبَانَ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَعِنْدَهُ عَنْ ابْنِ ثَوْبَانَ عَنْ رِفَاعَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ. وَيَبْقَى الْاِخْتِلَافُ فِي اسْمِ أَبِي رِفَاعَةَ، هَلْ هُوَ أَبُو رَافِعٍ، أَوْ ابْنُ رِفَاعَةَ، أَوْ أَبُو مُطْعِمٍ؟ وَهَذَا لَا يَضُرُّ مَعَ الْعِلْمِ بِحَالِ رِفَاعَةَ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ أَحَادِيثَ جَابِرٍ صَرِيحَةٌ صَحِيحَةٌ فِي جَوَازِ الْعَزْلِ، وَقَدْ قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَنَحْنُ نُرْوِي عَنْ عِدَدٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُمْ رَخَّصُوا فِي ذَلِكَ، وَلَمْ يَرَوْا بِهِ بَأْسًا. قَالَ الْبَيْهَقِيُّ: وَقَدْ رَوَيْنَا الرِّخْصَةَ فِيهِ، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ، وَأَبِي أَيُّوبِ الْأَنْصَارِيِّ، وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، وَابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِمْ [البَيْهَقِيُّ (٧/٢٣٠)]، وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ، وَالشَّافِعِيِّ، وَأَهْلِ الْكُوفَةِ، وَجُمْهُورِ أَهْلِ الْعِلْمِ.

(قول من حمله على التنزيه ورد بعضهم عليه)

وقد أُجِيبَ عَنْ حَدِيثِ جُدَامَةَ، بِأَنَّهُ عَلَى طَرِيقِ التَّنْزِيهِ، وَضَعْفَتُهُ طَائِفَةٌ، وَقَالُوا: كَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ ﷺ كَذَّبَ الْيَهُودَ فِي ذَلِكَ، ثُمَّ يُخْبِرُ بِهِ كُخْبَرَهُمْ؟! هَذَا مِنَ الْمَحَالِ الْبَيِّنِ، وَرَدَّتْ عَلَيْهِ طَائِفَةٌ أُخْرَى، وَقَالُوا: حَدِيثُ تَكْذِيبِهِمْ فِيهِ اضْطِرَابٌ، وَحَدِيثُ جُدَامَةَ فِي «الصَّحِيحِ».

(من جعل التكذيب لمنع الحمل)

وَجُمِعَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى بَيْنَ الْحَدِيثَيْنِ، وَقَالَتْ: إِنْ الْيَهُودُ كَانَتْ تَقُولُ: إِنْ الْعَزْلَ لَا يَكُونُ مَعَ حَمْلِ أَصْلًا، فَكَذَّبَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي ذَلِكَ، وَيَذُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ ﷺ: «لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَهُ لَمَّا اسْتَطَعَتْ أَنْ

تَضَرَّفَهُ، وقوله: «إِنَّهُ الْوَادُ الْخَفِيُّ»، فإنه وإن لم يمنح الحمل بالكُفَّة، كترك الوطء، فهو مؤثر في تقليله.

(من قال بان حديث التحريم ناسخ وورد عليه)

وقالت طائفة أخرى: الحديثان صحيحان، ولكن حديث التحريم ناسخ، وهذه طريقة أبي محمد بن حزم وغيره. قالوا: لأنه ناقل عن الأصل والأحكام كانت قبل التحريم على الإباحة، ودعوى هؤلاء تحتاج إلى تاريخ محقق يبين تأخر أحد الحديثين عن الآخر وأتى لهم به، وقد اتفق عُمرُ وعلي رضي الله عنهما على أنها لا تكون مؤودة حتى تمرَّ عليها التاراث السبع، فروى القاضي أبو يعلى وغيره بإسناده، عن عُبيد بن رفاع، عن أبيه، قال: جلس إلى عمرَ عليّ والزبير وسعد رضي الله عنهم في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، وتذاكروا العزل، فقالوا: لا بأس به، فقال رجل: إنهم يزعمون أنها المؤودة الصغرى، فقال علي رضي الله عنه: لا تكون مؤودة حتى تمرَّ عليها التاراث السبع: حتى تكون من سلالة من طين، ثم تكون نطفة، ثم تكون علقة، ثم تكون مضغة، ثم تكون عظاماً، ثم تكون لحماً، ثم تكون خلقاً آخر، فقال عمر رضي الله عنه: صدقت أطل الله بقاءك. وبهذا احتج من احتج على جواز الدعاء للرجل بطول البقاء.

(ذكر من حوزة بلاد الحرة)

وأما من جوزه بإذن الحرة، فقال: للمرأة حق في الولد، كما للرجل حق فيه، ولهذا كانت أحق بحضانتها، قالوا: ولم يُعْتَبَرِ إذنُ السُّرَّةِ فيه لأنها لا حق لها في القسم، ولهذا لا تُطالبه بالفيئة. ولو كان لها حق في الوطء لَطَوَّلَ المُولي منها بالفيئة.

قالوا: وأما زوجته الرقيقة، فله أن يعزل عنها بغير إذنها صيانة لولده عن الرق، ولكن يُعْتَبَرِ إذنُ سيدها، لأن له حقاً في الولد، فاعتبرَ إذنه في العزل كالحرة، ولأن بدل البضع يحصل للسيد كما يحصل للحرة، فكان إذنه في العزل كإذن الحرة.

قال أحمد رحمه الله في رواية أبي طالب في الأمة إذا نكحها: يستأذن أهلها، يعني في العزل، لأنهم يريدون الولد، والمرأة لها حق، تريد الولد، ومملك يمينه لا يستأذنها.

وقال في رواية صالح، وابن منصور، وحنبل، وأبي الحارث، والفضل بن زياد، والمروزي: يعزل عن الحرة بإذنها، والأمة بغير إذنها، يعني أمتها، وقال في رواية ابن هانئ: إذا عزل عنها، لزمه الولد، قد يكون الولد مع العزل. وقد قال بعض من قال: ما لي ولد إلا من العزل. وقال في رواية المروزي: في العزل عن أم الولد: إن شاء، فإن قالت: لا يجزئ لك؟ ليس لها ذلك.

فصل

في حكمه ﷺ في الغيل، وهو وطء المرضعة

ثبت عنه في «صحيح مسلم»: أنه قال: «لَقَدْ مَمَسْتُ أَنْ أَنهى عَنِ الْغَيْلَةِ حَتَّى ذَكَرْتُ أَنَّ الرُّومَ وَفَارِسَ يَصْنَعُونَ ذَلِكَ فَلَا يَضُرُّ أَوْلَادَهُمْ» [مسلم: ٣٥٦٤].

وفي «سنن أبي داود» عنه، من حديث أسماء بنت يزيد: «لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِيراً، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَيَذَرُكَ الْفَارِسَ قَيْدَ غَيْرُهُ».

قال: قلت: ما يعني؟ قالت: الغيلة: يأتي الرجل امرأته وهي ترضع [حسن: أحمد: ٢٧٥٦٢، وأبو داود: ٣٨٨١، وابن ماجه: ٢٠١٢، وابن حبان: ١٣٠٤].

قلت: أما الحديث الأول، فهو حديث جدامة بنت وهب، وقد تضمن أمرين لكل منهما معارض: فصدره هو الذي تقدم: «لقد هممت أن أنهي عن الغيلة»، وقد عارضه حديث أسماء، وعجزه: ثم سألوه عن العزل، فقال: «ذلك الواد الخفي»، وقد عارضه حديث أبي سعيد: «كذبت يهود»، وقد يقال: إن قوله: «لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِيراً» نهي أن يتسبب إلى ذلك، فإنه شبه الغيل بقتل الولد، وليس بقتل حقيقة، وإلا كان من الكبائر، وكان قرين الإشراك بالله، ولا ريب أن وطء المرضع مما تعم به البلوى، ويتعذر على الرجل الصبر عن امرأته مدة الرضاع، ولو كان وطؤه حراماً لكان معلوماً من الدين، وكان يأنه من أهم الأمور، ولم تُهْمَلِ الأُمَّةُ، وخير القرون، ولا يُصْرَحُ أحدٌ منهم بتحريمه، فَعَلِمَ أن حديث أسماء على وجه الإرشاد والاحتياط للولد، وأن لا يعرضه

أقرع بين نسائه، فأَيَّهن خرج سهمها، خَرَجَ بها معه [البخاري: ٥٢١١، ومسلم: ٤٢٩٨].

وفي «الصحيحين»: أن سودة وهبت يومها لعائشة رضي الله عنها، وكان النبي ﷺ يَقْسِمُ لعائشة يَوْمَها ويَوْمَ سودة [البخاري: ٥٢١٢، ومسلم: ٣٦٢٩].

وفي «السنن»: عن عائشة رضي الله عنها، كان النبي ﷺ لَا يُفْضَلُ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْقَسَمِ مِنْ مُكْنَاهُ عِنْدَنَا، وَكَانَ قَلَّ يَوْمٌ إِلَّا وَهُوَ يَطْلُوفُ عَلَيْنَا جَمِيعاً، فَيَدْنُو مِنْ كُلِّ امْرَأَةٍ مِنْ غَيْرِ مَسِيسٍ حَتَّى يَبْلُغَ إِلَى الَّتِي هُوَ يَوْمُهَا، فَيَقْسِمُ عِنْدَهَا [أبو داود: ٢١٣٥].

وفي «صحيح مسلم»: إِنْهُنَّ كُنَّ يَجْتَمِعْنَ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي بَيْتِ الَّتِي يَأْتِيهَا [مسلم: ٣٦٢٨].

وفي «الصحيحين»: عن عائشة رضي الله عنها، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَیْهَا شُؤْرًا أَوْ إِمْرَأَةً﴾ [النساء: ١٢٨]، أُنْزِلَتْ فِي الْمَرْأَةِ تَكُونُ عِنْدَ الرَّجُلِ فَتَطْلُفُ صَحْبَتِهَا، فَيُرِيدُ طَلَاقَهَا، فَتَقُولُ: لَا تُطْلِقْنِي وَأَمْسِكْنِي، وَأَنْتَ فِي جِلٍّ مِنَ النِّفَاقِ عَلَيَّ وَالْقَسَمِ لِي، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨] [البخاري: ٥٢٠٦، ومسلم: ٧٥٣٧].

وقضى خليفته الراشد، وابنُ عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أَنَّهُ إِذَا تَزَوَّجَ الْحُرَّةُ عَلَى الْأَمَةِ قَسَمَ لِلْأَمَةِ لَيْلَةً، وَلِلْحُرَّةِ لَيْلَتَيْنِ. وقضاء خلفائه وإن لم يكن مساوياً لقضائه، فهو كقضائه في وجوبه على الأمة، وقد احتج الإمام أحمد بهذا القضاء عن علي رضي الله عنه، وقد ضعفه أبو محمد بن حزم بالمنهال بن عمرو، وبابن أبي ليلى، ولم يصنع شيئاً، فإنهما يُقْتَنَانِ حَافِظَانِ جَلِيلَانِ، وَلَمْ يَزَلِ النَّاسُ يَحْتَجُّونَ بِابْنِ أَبِي لَيْلَى عَلَى شَيْءٍ مَا فِي حِفْظِهِ يَتَّقَى مِنْهُ مَا خَالَفَ فِيهِ الْأَنْبِيَاءَ، وَمَا تَقَرَّدَ بِهِ عَنِ النَّاسِ، وَإِلَّا فَهُوَ غَيْرُ مَدْفُوعٍ عَنِ الْأَمَانَةِ وَالصَّدَقِ فَتَضَمَّنَ هَذَا الْقَضَاءُ أُمُوراً.

(وجوب قسم الابتداء)

منها وجوب قسم الابتداء، وهو أنه إذا تزوج بكرة على ثيب، أقام عندها سبعاً، ثم سَوَّى بينهما، وإن كانت ثيباً، خَيْرَهَا بَيْنَ أَنْ يَقْسِمَ عِنْدَهَا سَبْعاً، ثُمَّ يَقْضِيهَا لِلْبَوَاقِي، وَيَبْنِي أَنْ يَقْسِمَ عِنْدَهَا ثَلَاثاً وَلَا

لفساد اللين بالحمل الطاريء عليه، ولهذا كان عادة العرب أن يسترضعوا لأولادهم غير أمهاتهم، والمنع منه غايته أن يكون من باب سد الذرائع التي قد تُفْضِي إِلَى الإضرار بالولد، وقاعدة باب سد الذرائع إذا عارضه مصلحة راجحة، قُدِّمَتْ عَلَيْهِ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ مَرَاراً وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فصل

فِي حُكْمِهِ ﷺ فِي قِسْمِ الْإِبْتِدَاءِ

وَالدَّوَامِ بَيْنَ الزَّوْجَاتِ

ثَبِتَ فِي «الصحيحين»: عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: مِنْ السَّنَةِ إِذَا تَزَوَّجَ الرَّجُلُ الْبِكْرَ عَلَى الثَّيْبِ، أَقَامَ عِنْدَهَا سَبْعاً وَقَسَمَ، وَإِذَا تَزَوَّجَ الثَّيْبَ، أَقَامَ عِنْدَهَا ثَلَاثاً، ثُمَّ قَسَمَ. قَالَ أَبُو قِلَابَةَ: وَلَوْ شِئْتُ، لَقُلْتُ: إِنْ أَنَسًا رَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ [البخاري: ٥٢١٤، ومسلم: ٣٦٢٦].

وهذا الذي قاله أبو قِلَابَةَ، قد جاء مصرحاً به عن أنس، كما رواه البزار في «مسنده»، من طريق أيوب السخيتاني، عن أبي قِلَابَةَ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ جَعَلَ لِلْبِكْرِ سَبْعاً، وَلِلثَّيْبِ ثَلَاثاً.

وروى الثوري، عن أيوب، وخالد الحذاء، كلاهما عن أبي قِلَابَةَ، عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا تَزَوَّجَ الْبِكْرَ، أَقَامَ عِنْدَهَا سَبْعاً، وَإِذَا تَزَوَّجَ الثَّيْبَ، أَقَامَ عِنْدَهَا ثَلَاثاً».

وفي «صحيح مسلم»: عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، لَمَّا تَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا، أَقَامَ عِنْدَهَا ثَلَاثاً، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّهُ لَيْسَ بِكَ عَلَى أَهْلِكَ هَوَانٌ، إِنْ شِئْتَ سَبَعْتُ لَكَ، وَإِنْ سَبَعْتُ لَكَ، سَبَعْتُ لِنِسَائِي»، وَلَهُ فِي لَفْظٍ: «لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، أَخَذَتْ بِثَوْبِهِ فَقَالَتْ: «إِنْ شِئْتَ زِدْتُكَ وَحَاسَبْتُكَ بِهِ، لِلْبِكْرِ سَبْعٌ، وَلِلثَّيْبِ ثَلَاثٌ» [مسلم: ٣٦٢١].

وفي «السنن»: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْسِمُ كَيْتِدُونَ، وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنَّ هَذَا قَسَمِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلَا تَلْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ»، يَعْنِي الْقَلْبَ [أبو داود: ٢١٣٤، والترمذي: ١١٤٠، والنسائي: ٦٤/٧]، وَابْنُ مَاجَةَ: ١٩٧١.

وفي «الصحيحين»: أَنَّهُ ﷺ كَانَ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا،

والثالث: أنه إن أقرع لم يقض، وإن لم يُقرع قضى، وهذا قول أحمد والشافعي.

(للمرأة أن تصب ليلتها لضرتها)

ومنها: أن للمرأة أن تَهَبَ ليلتها لِضَرَّتِهَا، فلا يجوزُ له جعلُها لغير الموهوبة، وإن وهبتها للزوج، فله جعلُها لمن شاء منهن، والفرقُ بينهما أن الليلةَ حقٌّ للمرأة، فإذا أسقطتها، وجعلتها لضرتها، تعينت لها، وإذا جعلتها للزوج، جعلها لمن شاء من نسائه، فإذا اتفق أن تكون ليلة الواهبة تلي ليلة الموهوبة، قسم لها ليلتين متواليتين، وإن كانت لا تليها فهل له نقلُها إلى مجاورتها، فيجعل الليلتين متجاورتين؟ على قولين للفقهاء، وهما في مذهب أحمد والشافعي.

ومنها: أن الرجلَ له أن يَدْخُلَ على نِسائه كُلِّهِنَّ في يومٍ إحداهن، ولكن لا يطؤها في غير نوبتها.

ومنها: أن لِنِسائه كُلِّهِنَّ أن يجتمعا في بيت صاحبة النوبة يتحدثن إلى أن يجيء وقت النوم، فتؤوب كُلُّ واحدةٍ إلى منزلها.

(لن رضىت الزوجة بالإقامة عند الزوج ولا حق لها

في القسم والوطء والنفقة فليس لها المطالبة بعد ذلك)

ومنها: أن الرجل إذا قضى وَطْراً من امرأته، وكرهتها نفسه، أو عَجَزَ عن حقوقها، فله أن يَطْلُقَهَا، وله أن يَخَيَّرَهَا، إن شاءت أقامت عنده ولا حقَّ لها في القسم والوطء والنفقة، أو في بعض ذلك بحسب ما يصطلحان عليه، فإذا رضىت بذلك، لزم، وليس لها المطالبة به بعد الرضى.

هذا موجب السنة ومقتضاها، وهو الصواب الذي لا يسوغُ غيره، وقولُ من قال: إن حقها يتجدد، فلها الرجوع في ذلك متى شاءت، فاسد، فإن هذا خرج مخرجَ المعاوضة، وقد سماه الله تعالى صلحاً، فليزم كما يلزم ما صالح عليه من الحقوق والأموال، ولو مُكِّنَتْ مِنْ طلبِ حقِّها بعد ذلك، لكان فيه تأخيرُ الضرر إلى أكمل حالته، ولم يكن صلحاً، بل كان من أقرب أسباب المعاداة، والشرعةُ منزهة عن ذلك، ومن علامات المنافق أنه إذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، والقضاء النبوي يردُّ هذا.

يُحاسِبُها، هذا قول الجمهور، وخالف فيه إمامُ أهل الرأي، وإمامُ أهل الظاهر، وقالوا: لا حقٌّ للجديدة غير ما تستحقه التي عنده، فيجب عليه التسوية بينهما.

(إذا اختارت النيب سبع فضاهن للبواقي)

ومنها أن النيب إذا اختارت السبع، قضاهن للبواقي، واحتسبَ عليها بالثلاث، ولو اختارت الثلاث، لم يحتسبَ عليها بها، وعلى هذا من سُمِحَ بثلاث دون ما فوقها، ففعل أكثرَ منها، دخلت الثلاث في الذي لم يُسمح به بحيث لو ترتب عليه إثم، أثم على الجميع، وهذا كما رخص النبي ﷺ للمهاجر أن يُقيم بعد قضاء نسكه ثلاثاً، فلو أقام أبداً، دُمَّ على الإقامة كُلِّها.

(لا تجب التسوية)

بين النساء في المحبة والاختلاف في الوطء)

ومنها: أنه لا تجب التسوية بين النساء في المحبة، فإنها لا تُمْلَكُ، وكانت عائشة رضي الله عنها أحبَّ نسائه إليه. وأخذ من هذا أنه لا تجبُ التسوية بينهما في الوطء، لأنه موقوف على المحبة والميل، وهي بيد مقلب القلوب.

وفي هذا تفصيل، وهو أنه إن تركه لعدم الداعي إليه، وعدم الانتشار، فهو معذور، وإن تركه مع الداعي إليه، ولكن داعيه إلى الضرة أقوى، فهذا مما يدخل تحت قدرته وملكه، فإن أدى الواجب عليه منه، لم يبقَ لها حقٌّ، ولم يلزمه التسوية، وإن ترك الواجب منه، فلها المطالبة به.

(الإقراع بين نسائه هي السفر وإنه لا يقضي للبواقي إذا قدم)

ومنها: إذا أراد السفر، لم يجز له أن يُسافر بإحداهن إلا بقُرعة.

ومنها: أنه لا يقضي للبواقي إذا قَدِمَ، فإن رسول الله ﷺ لم يكن يقضي للبواقي.

وفي هذا ثلاثة مذاهب.

أحدها: أنه لا يقضي، سواء أقرع أو لم يُقرع، وبه قال أبو حنيفة، ومالك.

والثاني: أنه يقضي للبواقي أقرع أو لم يُقرع، وهذا مذهب أهل الظاهر.

قال أبو محمد بن حزم: لا يَصِحُّ في تحريم وطء الحامل خبرٌ غيرُ هذا. انتهى، وقد روى أهل «السنن» من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال في سبأيا أوطاس: «لا تُوطأ حَامِلٌ حَتَّى تَضَعَ، ولا غَيْرُ حَامِلٍ حَتَّى تَحِيضَ حَيْضَةً» [أبو داود: ٢١٥٧، والحاكم (١٩٥/٢)].

وفي الترمذي وغيره: من حديث زُوَيْفِع بن ثابت رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَسْقِ مَاءَهُ وَلَدَ غَيْرِهِ» [صحيح: أحمد: ١٦٩٩٠، وأبو داود: ٢١٥٨، والترمذي: ١١٣١]. قال الترمذي: حديث حسن...

وفيه عن العرياض بن سارية رضي الله عنه، أن النبي ﷺ حَرَّمَ وطء السبأيا حتى يَضَعْنَ ما في بطونهن [حسن: أحمد: ١٦٩٩٣، والترمذي: ١٥٦٤].

وقوله ﷺ: «كَيْفُ يُوْرَثُهُ وَهُوَ لَا يَحِلُّ لَهُ، كَيْفُ يَسْتَحْدِمُهُ وَهُوَ لَا يَحِلُّ لَهُ»، كان شيخنا يقولُ في معناه: كيف يجعله عبداً موروثاً عنه، ويستحْدِمُهُ استخدام العبيد وهو ولده، لأن وطأه زاد في خَلْقِهِ؟ قال الإمام أحمد: الوطء يزيد في سمعه وبصره. قال فيمن اشترى جارية حاملاً من غيره، فوطئها قبل وضعها، فإن الولد لا يلحق بالمشتري، ولا يتبعه، لكن يعقبه لأنه قد شرك فيه، لأن الماء يزيد في الولد، وقد روي عن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، مرَّ بامرأة مُجْبِجٍ على باب فسطاط، فقال: «لعله يُرِيدُ أَنْ يُلْمَ بها» وذكر الحديث. يعني: أنه إن استلحقه وشركه في ميراثه، لم يحل له، لأنه ليس بولده، وإن أخذه مملوكاً يستحْدِمُهُ لم يَحِلَّ له لأنه قد شرك فيه لكون الماء يزيد في الولد.

وفي هذا دلالة ظاهرة على تحريم نكاح الحامل، سواء كان حملها من زوج أو سيّد أو شُبْهة أو زنى، وهذا لا خلاف فيه إلّا فيما إذا كان الحمل من زنى، ففي صحة العقد قولان، أحدهما: بطلانه وهو مذهب أحمد ومالك، والثاني: صحته وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي ثم اختلفا، فمنع أبو حنيفة من

ومنها: أن الأمّة المزوجة على النصف من الحرّة، كما قضى به أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، ولا يُعرف له في الصحابة مخالف، وهو قول جمهور الفقهاء إلّا رواية عن مالك: أنهما سواء، وبها قال أهل الظاهر، وقول الجمهور هو الذي يقتضيه العدل، فإن الله سبحانه لم يَسُوِّ بين الحرّة والأمّة لا في الطلاق، ولا في العِدّة، ولا في الحدّ، ولا في الملك، ولا في الميراث، ولا في الحجّ، ولا في مدة الكون عند الزوج ليلاً ونهاراً، ولا في أصل النكاح، بل جعل نكاحها بمنزلة الضرورة، ولا في عدد المنكوحات، فإن العبد لا يتزوج أكثر من اثنتين، هذا قول الجمهور، وروى الإمام أحمد بإسناده: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: يتزوَّج العبد اثنتين، ويطلق ثنتين، وتعتدُ امرأته حبيشتين، واحتج به أحمد، ورواه أبو بكر عبد العزيز، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: لا يَحِلُّ للعبد من النساء إلّا ثنتان.

وروى الإمام أحمد بإسناده، عن محمد بن سيرين قال: سأَل عمر رضي الله عنه الناس: كم يتزوَّج العبد؟ فقال عبد الرحمن: ثنتين وطلاقه ثنتين. فهذا عمر، وعلي، وعبد الرحمن، رضي الله عنهم، ولا يعرف لهم مخالف في الصحابة مع انتشار هذا القول وظهوره، وموافقته للقياس.

فصل

في قضائه ﷺ في تحريم وطء المرأة

الحبلى من غير الواطىء

ثبت في «صحيح مسلم»: من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، أن النبي ﷺ أتى بامرأة مُجْبِجٍ^(١) على باب فسطاط، فقال: «لعله يُرِيدُ أَنْ يُلْمَ بها»^(٢). فقالوا: نعم، فقال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَلْعَنَهُ لَعْنًا يَدْخُلُ مَعَهُ قَبْرُهُ، كَيْفَ يُوْرَثُهُ، وَهُوَ لَا يَحِلُّ لَهُ، كَيْفَ يَسْتَحْدِمُهُ وَهُوَ لَا يَحِلُّ لَهُ» [مسلم: ٣٥٦٢].

(٢) يلم بها: يطؤها، وكانت حاملاً مسبية.

(١) المجج: هي الحامل التي قربت ولادتها.

الوطء حتى تنقضي العدة، وكرهه الشافعي، وقال أصحابه: لا يحرم.

فصل

في حكمه ﷺ في الرجل يعتق أمته

ويجعل عتقها صداقها

ثبت عنه في «الصحيح»: أنه أعتق صفية وجعل عتقها صداقها. قيل لأنس: ما أضدقها؟ قال: أضدقها نفسها [البخاري: ٥٠٨٦، ومسلم: ٣٣٢١]. وذهب إلى جواز ذلك علي بن أبي طالب، وفعله أنس بن مالك، وهو مذهب أعلم التابعين، وسيدهم سعيد بن المسيب، وأبي سلمة بن عبد الرحمن، والحسين البصري، والزهرري، وأحمد، وإسحاق.

وعن أحمد رواية أخرى، أنه لا يصح حتى يستأنف نكاحها بإذنها فإن أبى ذلك، فعليها قيمتها.

وعنه رواية ثالثة: أنه يؤكل رجلاً يزوجه إياها.

والصحيح: هو القول الأول الموافق للسنة، وأقوال الصحابة والقياس، فإنه كان يملك رقبته، فأزال ملكه عن رقبته، وأبقى ملك المنفعة بعقد النكاح، فهو أولى بالجواز مما لو أعتقها، واستثنى خدمتها، وقد تقدم تقرير ذلك في غزاة خير.

فصل

في قضائه ﷺ في صحة النكاح

الموقوف على الإجازة

(تخبر الكاهنة)

في «السنن»: عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن جارية بكراً أتت النبي ﷺ، فذكرت أن أباه زوجها وهي كاهنة، فخيرها النبي ﷺ [صحيح: أحمد: ٢٤٦٩، وأبو داود: ٢٠٩٦، وابن ماجه: ١٨٧٥].

(تخبر الصغير وتخير المتهمة عند البلوغ)

وقد نص الإمام أحمد على القول بمقتضى هذا، فقال في رواية صالح في صغير زوجته، قال: إن رضي به في وقت من الأوقات، جاز، وإن لم يرض فسخ، ونقل عنه ابنه عبد الله، إذا زوجت اليتيمة، فإذا بلغت، فلها الخيار، وكذلك نقل ابن منصور عنه

حكى له قول سفيان في يتيمة زوجت ودخل بها الزوج، ثم حاضت عند الزوج بعد، قال: تُخير، فإن اختارت نفسها لم يقع التزويج، وهي أحق بنفسها، وإن قالت: اخترت زوجي؟ فليشهدوا على نكاحهما. قال أحمد: جيد.

(تخبر السيد بزواج عبده)

وقال في رواية حنبل في العبد إذا تزوج بغير إذن سيده، ثم علم السيد بذلك: فإن شاء يطلق عليه، فالطلاق بيد السيد، وإذا أذن له في التزويج، فالطلاق بيد العبد، ومعنى قوله: يطلق، أي: يطل العبد، ويمنع تنفيذه وإجازته، هكذا أوله القاضي، وهو خلاف ظاهر النص، وهذا مذهب أبي حنيفة ومالك على تفصيل في مذهبه، والقياس يقتضي صحة هذا القول، فإن الإذن إذا جاز أن يقدم القبول والإيجاب جاز أن يترأخى عنه.

وأيضاً فإنه كما يجوز وقفه على الفسخ يجوز وقفه على الإجازة كالوصية، ولأن المعتبر هو التراضي، وحصوله في ثاني الحال كحصوله في الأول، ولأن إثبات الخيار في عقد البيع هو وقت للعقد في الحقيقة على إجازة من له الخيار ورده، بالله التوفيق.

فصل

في حكمه ﷺ في الكفاءة في النكاح

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. وقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَفْهَمُونَ﴾ [التوبة: ٧١]. وقال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَبْسِغُ بِكُمْ غَيْلًا فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِنِّي أَكْثَرُ مُنْكَرٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وقال ﷺ: لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود. ولا لأسود على أبيض، إلا بالتقوى، الناس من آدم، وآدم من ثراب [صحيح: أحمد: ٢٣٤٨٩].

وقال ﷺ: «إن آل بني فلان ليسوا لي بأولياء، وإن أوليائي المتقون حيث كانوا وأين كانوا» [البخاري: ٥٩٩٠].

وفي الترمذي: عنه ﷺ: «إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوهُ، تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ». قالوا: يا رسول الله! وإن كان فيه؟ فقال: «إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ»، ثلاث مرات [الترمذي: ١٠٨٥، وابن ماجه: ١٩٦٧].

وقال النبي ﷺ لبني بَيَاضَةَ: «أَنْكِحُوا أَبَا هِنْدٍ، وَأَنْكِحُوا إِلَيْهِ» [صحيح: أبو داود: ٢١٠٢، والحاكم (١٦٤/٢)] وكان حجاً مأموراً.

وزوج النبي ﷺ زينب بنت جَحْشٍ القرشية من زيد بن حارثة مولاه، وزوج فاطمة بنت قيس الفهرية القرشية من أسامة ابنه [مسلم: ٣٦٩٧]، وتزوج بلال بن رباح بأخت عبد الرحمن بن عوف، وقد قال الله تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور: ٢٦]. وقد قال تعالى: ﴿فَأَنْكِحُوا مَا كَتَبَ لَكُمْ مِنَ الْيَتَامَى﴾ [النساء: ٣].

(لم يعتبر القرآن والسنة في الكفاءة إلا الدين)

فالذي يقتضيه حكمه ﷺ اعتبار الدين في الكفاءة أصلاً وكماً، فلا تزوج مسلمة بكافر، ولا عفيفة بفاجر، ولم يعتبر القرآن والسنة في الكفاءة أمراً وراء ذلك، فإنه حرم على المسلمة نكاح الزاني الخبيث، ولم يعتبر نسباً ولا صناعة، ولا غنى ولا حرية، فجوز للعبد القن نكاح الحرّة النسبية الغنية إذا كان عفيفاً مسلماً، وجوز لغير القرشيين نكاح القرشيات، ولغير الهاشميين نكاح الهاشميات، وللفقراء نكاح الموسرات.

(مذهب مالك)

وقد تنازع الفقهاء في أوصاف الكفاءة، فقال مالك في ظاهر مذهبه: إنها الدين، وفي رواية عنه: إنها ثلاثة: الدين، والحرية، والسلامة من العيوب.

(مذهب أبي حنيفة)

وقال أبو حنيفة: هي النسب والدين.

(مذهب أحمد)

وقال أحمد في رواية عنه: هي الدين والنسب خاصة. وفي رواية أخرى: هي خمسة: الدين، والنسب، والحرية، والصناعة، والمال. وإذا اعتبر

فيها النسب، فعنه فيه روايتان. إحداهما: أن العرب بعضهم لبعض أكفاء. الثانية: أن قريشاً لا يكافئهم إلا قرشي، وبنو هاشم لا يكافئهم إلا هاشمي.

(مذهب أصحاب الشافعي)

وقال أصحاب الشافعي: يُعتبر فيها الدين، والنسب، والحرية، والصناعة، والسلامة من العيوب المتفرقة.

(لمن حق الكفاءة)

ولهم في اليسار ثلاثة أوجه: اعتباره فيها، ولغاؤه، واعتباره في أهل المدن دون أهل البوادي، فالمعجمي ليس عندهم كُفُؤاً للعربي، ولا غير القرشي للقرشية، ولا غير الهاشمي للهاشمية، ولا غير المتسبة إلى العلماء والصلحاء المشهورين كُفُؤاً لمن ليس متسبباً إليهما، ولا العبد كُفُؤاً للحرّة، ولا العتيق كُفُؤاً لحرّة الأصل، ولا من مَسَّ الرَّقُّ أحد آياته كُفُؤاً لمن لم يمسه رِق، ولا أحداً من آبائهما، وفي تأثير رِق الأمهات وجهان، ولا من به عيب مثبت للفسخ كُفُؤاً للسليمة منه، فإن لم يثبت الفسخ وكان متفراً كالعمى والقطع، وتشويه الخلقة، فوجهان. واختار الروياني، أن صاحبه ليس بكفوء، ولا الحجام والحائك والحارس كُفُؤاً لبنت التاجر والخياط ونحوهما، ولا المحترف لبنت العالم، ولا الفاسق كُفُؤاً للعفيفة، ولا المبتدع للسنية، ولكن الكفاءة عند الجمهور هي حق للمرأة والأولياء.

ثم اختلفوا، فقال أصحاب الشافعي: هي لمن له ولاية في الحال. وقال أحمد في رواية: حق لجميع الأولياء، قريبهم وبعيدهم، فمن لم يرض منهم، فله الفسخ. وقال أحمد في رواية ثالثة: إنها حق اللو، فلا يصح رضاهم بإسقاطه، ولكن على هذه الرواية لا تُعتبر الحرية ولا اليسار، ولا الصناعة ولا النسب، إنما يُعتبر الدين فقط، فإنه لم يقل أحمد، ولا أحد من العلماء: إن نكاح الفقير للموسرة باطل وإن رضيت، ولا يقول هو ولا أحد: إن نكاح الهاشمية لغير الهاشمي، والقرشية لغير القرشي باطل، وإنما نبهنا على هذا لأن كثيراً من أصحابنا يحكون الخلاف في الكفاءة، هل هي حق لله أو للأدعي؟ ويطلقون مع قولهم: إن الكفاءة هي الخصال المذكورة، وفي هذا من التساهل وعدم التحقيق ما فيه.

فصل

في حكمه ﷺ في ثبوت الخيار

للمعتقة تحت العبد

ثبت في «الصحيحين»، و«السنن»: أن بريرة كاتبت أهلها، وجاءت تسأل النبي ﷺ في كتابتها، فقالت عائشة رضي الله عنها: إن أحب أهلك أن أعدها لهم، ويكون ولاؤك لي فعلت، فذكرت ذلك لأهلها، فأبوا إلا أن يكون الولاء لهم، فقال النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «اشترها واشترطي لهم الولاء، فإنما الولاء لمن أغتق»، ثم خطب الناس فقال: «ما بال أقوام يشترون شروطاً ليس في كتاب الله، من اشترط شرطاً ليس في كتاب الله، فهو باطل، وإن كان مائة شرط، قضاء الله أحق، وشرط الله أوثق، وإنما الولاء لمن أغتق»، ثم خيرها رسول الله ﷺ بين أن تبقى على نكاح زوجها، وبين أن تنفسه، فاختارت نفسها، فقال لها: «إنه زوجك وأبو ولدك»، فقالت: يا رسول الله! تأمرني بذلك؟ قال: «لا، إنما أنا شافع»، قالت: فلا حاجة لي فيه، وقال لها إذ خيرها: «إن قرئك، فلا خيار لك»، وأمرها أن تعتد، وتصدق عليها بلحم، فأكل منه النبي ﷺ وقال: «هو عليها صدقة، ولنا هديئة» [البخاري: ٢٧٢٦، ومسلم: ٣٧٧٦].

(جواز مكاتبة المرأة وبيع المكاتب وإن لم يعجزه سيده)

وكان في قصة بريرة من الفقه جواز مكاتبة المرأة، وجواز بيع المكاتب وإن لم يعجزه سيده، وهذا مذهب أحمد المشهور عنه، وعليه أكثر نصوصه. وقال في رواية أبي طالب: لا يطل مكاتبته، ألا ترى أنه لا يقدر أن يبيعه. وبهذا قال أبو حنيفة، ومالك، والشافعي. والنبي ﷺ أقر عائشة رضي الله عنها على شرائها، وأهلها على بيعها، ولم يسأل: أعجزت أم لا، ومجيؤها تستعين في كتابتها لا يستلزم عجزها، وليس في بيع المكاتب محذور، فإن يبيعه لا يطل كتابته، فإنه يبقى عند المشتري كما كان عند البائع، إن أدى إليه، عتق، وإن عجز عن الأداء، فله أن يعيده إلى الرق

كما كان عند بائعه، فلو لم تأت السنة بجواز بيعه، لكان القياس يقتضيه.

وقد ادعى غير واحد الإجماع القديم على جواز بيع المكاتب. قالوا: لأن قصة بريرة وردت بنقل الكافة، ولم يبق بالمدينة من لم يعرف ذلك، لأنها صفقة جرت بين أم المؤمنين، وبين بعض الصحابة رضي الله عنهم، وهم موالى بريرة، ثم خطب رسول الله ﷺ الناس في أمر بيعها خطبة في غير وقت الخطبة، ولا يكون شيء أشهر من هذا، ثم كان من مشي زوجها خلفها باكية في أزقة المدينة ما زاد الأمر شهرة عند النساء والصبيان، قالوا: فظهر يقيناً أنه إجماع من الصحابة، إذ لا يُنظر بصاحب أنه يخالف من سنة رسول الله ﷺ مثل هذا الأمر الظاهر المستفيض. قالوا: ولا يمكن أن توجدوا عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم المنع من بيع المكاتب إلا رواية شاذة عن ابن عباس لا يعرف لها إسناد.

(مستمك من منع بيع المكاتب)

واعترض من منع بيعه بعذرين. أحدهما: أن بريرة كانت قد عجزت، وهذا عذر أصحاب الشافعي. والثاني: أن البيع ورد على مال الكتابة لا على رقبته، وهذا عذر أصحاب مالك.

(الرد على من ادعى عجز بريرة عن تلبية المكاتب عليه)

وهذان العذران أخرج إلى أن يعتذر عنهما من الحديث، ولا يصح واحد منهما، أما الأول: فلا ريب أن هذه القصة كانت بالمدينة، وقد شهدها العباس وابنه عبد الله، وكانت الكتابة تسع سنين في كل سنة أوقية، ولم تكن بعد أدت شيئاً، ولا خلاف أن العباس وابنه إنما سكنا المدينة بعد فتح مكة، ولم يعيش النبي ﷺ بعد ذلك إلا عامين، وبعض الثالث، فإن العجز وحلول النجوم؟!

وأيضاً، فإن بريرة لم تقل: عجزت، ولا قالت لها عائشة: أعجزت؟ ولا اعترف أهلها بعجزها، ولا حكم رسول الله ﷺ بعجزها، ولا وصفها به، ولا أخبر عنها البتة، فمن أين لكم هذا العجز الذي تعجزون عن إثباته؟!

وأيضاً، فإنها إنما قالت لعائشة: كاتبت أهلي على

تسع أواق في كل سنة أوقية، وإنِّي أُحِبُّ أَنْ تُعِينَنِي، ولم تقل: لم أَوْدُ لهم شيئاً، ولا مضت عليَّ نجومٌ عِدَّةٌ عجزت عن الأداء فيها، ولا قالت: عَجَزَنِي أهلي.

وأيضاً فإنهم لو عَجَزَوْهَا، لعادت في الرِّق، ولم تكن حينئذ لتسعى في كتابتها، وتستعين بعائشة على أمر قد يَظَلُّ.

فإن قيل: الذي يدل على عَجَزِهَا قولُ عائشة: إن أحب أهلك أن اشتريكَ وأعتقَكَ، ويكون ولاؤك لي فعلتُ. وقول النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «اشْتَرِيَهَا فَأَعْتِقِيهَا»، وهذا يدل على إنشاء عتق من عائشة رضي الله عنها، وعتق المكاتب بالأداء لا بإنشاء من السيد. قيل: هذا هو الذي أوجب لهم القول بطلان الكتابة. قالوا: ومن المعلوم أنها لا تبطل إلَّا بعجز المكاتب أو تعجيزه نفسه، وحينئذ فيعود في الرِّق، فإنما ورد البيع على رقيق، لا على مكاتب.

وجوابُ هذا: أن ترتيب العتق على الشراء لا يدلُّ على إنشائه، فإنه ترتيبٌ للمسبب على سببه، ولا سيما فإن عائشة لما أرادت أن تُعَجِّلَ كتابتها جملة واحدة، كان هذا سبباً في إعتاقها، وقد قلتم أنتم: إن قول النبي ﷺ: «لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدُهُ إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ» (مسلم: ٣٧٩٩).

(الرد على من قال إن البيع

ورد على مال الكتابة لا على رقبته)

إن هذا من ترتيب المسبب على سببه، وأنه بنفس الشراء يُعتق عليه لا يحتاج إلى إنشاء عتق.

وأما العذر الثاني: فأمره أظهر، وسياقُ القصة يُبَيِّنُهُ، فإن أم المؤمنين اشتَرَتْها، فأعتقها، وكان ولاؤها لها، وهذا مما لا ريب فيه، ولم تشتتر المال، والمال كان تسع أواق منجمّة، فعُدَّتْها لهم جملةً واحدة، ولم تتعرَّض للمال الذي في ذمتها، ولا كان غرضها بوجوب ما، ولا كان لعائشة غرض في شراء الدرهم المؤجلة بعدها حالة.

(لا يجوز اشتراط ما يخالف حكم الله)

وفي القصة جوازُ المعاملة بالنقود عدداً إذا لم

يختلف مقدارها، وفيها أنه لا يجوز لأحد من المتعاقدين أن يشترط على الآخر شرطاً يخالف حكم الله ورسوله، وهذا معنى قوله: «ليس في كتاب الله»، أي: ليس في حكم الله جوازها، وليس المراد أنه ليس في القرآن ذِكْرُهُ وإباحته، ويدل عليه قوله: «كتاب الله أحق، وشرط الله أوثق».

(هل يصح العقد الذي فيه شرط فاسد؟)

وقد استدل به من صحَّح العقد الذي شرط فيه شرط فاسد، ولم يبطل العقد به، وهذا فيه نزاع وتفصيل يظهر الصواب منه في تبين معنى الحديث، فإنه قد أشكل على الناس قوله: «اشترطي لهم الولاء فإن الولاء لمن أعتق»، فأذن لها في هذا الاشتراط، وأخبر أنه لا يفيد. والشافعي طعن في هذه اللفظة وقال: إن هشام بن عروة انفرد بها، وخالفه غيره، فردها الشافعي، ولم يشبها، ولكن أصحاب «الصحيحين» وغيرهم أخرجوها، ولم يطعنوا فيها، ولم يُعللها أحد سوى الشافعي فيما نعلم.

(معنى اللام هي واشترطي لهم)

ثم اختلفوا في معناها، فقالت طائفة: اللام ليست على بابها، بل هي بمعنى «على». كقوله: «إِنْ أَحْسَنْتَ أَحْسَنْتَ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتَ فَلَهَا» [الإسراء: ٧] أي: فعلينا، كما قال تعالى: «مَنْ عَمِلْ مِثْلًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَلِنَفْسِهِ» [فصلت: ٤٦].

ورَدَّت طائفة هذا الاعتذار بخلافه لسياق القصة، ولموضوع الحرف، وليس نظير الآية، فإنها قد فُرِّقت بين ما للنفس وبين ما عليها، بخلاف قوله: «اشترطي لهم».

وقالت طائفة: بل اللام على بابها، ولكن في الكلام محذوف تقديره: اشترطي لهم، أو لا تشتري، فإن الاشتراط لا يُقيد شيئاً لمخالفته لكتاب الله.

ورَدَّ غيرهم هذا الاعتذار لاستلزامه إضماراً ما لا دليل عليه، والعلم به من نوع علم الغيب.

(من قال بأن الأمر امر تهديد)

وقالت طائفة أخرى: بل هذا أمر تهديد لا إباحة، كقوله تعالى: «أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ» [فصلت: ٤٠]. وهذا في البطلان من جنس ما قبله وأظهر فساداً، فما

لعائشة، وما للتهديد هنا؟، وأين في السياق ما يقتضي التهديد لها؟ نعم هُم أحقُّ بالتهديد، لا أم المؤمنين.

(من قال بان الأمر امر لإباحة)

وقالت طائفة: بل هو أمر بإباحة وإذن، وأنه يجوزُ اشتراطُ مثل هذا، ويكونُ ولاءُ المكاتب للبائع، قاله بعضُ الشافعية، وهذا أفسدُ من جميع ما تقدّم، وصريحُ الحديث يقتضي بطلانه ورده.

(من قال هو وسيلة لإظهار بطلان هذا الشرط)

وقالت طائفة: إنّما أُذِنَ لها في الاشتراط، ليكون وسيلةً إلى ظهور بطلانِ هذا الشرط، وعلم الخاص العام به، وتقرّر حكمه ﷺ، وكان القومُ قد علّموا حكمه ﷺ في ذلك، فلم يقنعوا دون أن يكون الولاءُ لهم، فعاقبهم بأن أُذِنَ لعائشة في الاشتراط، ثم خطبُ الناس فأذّنَ فيهم ببطلانِ هذا الشرط، وتضمّن حكماً من أحكام الشريعة، وهو أن الشرط الباطل إذا شُرِطَ في العقد، لم يجز الوفاء به، ولولا الإذن في الاشتراط لما علّم ذلك، فإن الحديث تضمّن فسادَ هذا الحكم، وهو كونُ الولاءِ لغير المعتق.

وأما بطلانه إذا شرط، فإنما استُتيِدَ من تصريح النبي ﷺ ببطلانه بعد اشتراطه، ولعلَّ القومَ اعتقدوا أن اشتراطه يُقيد الوفاء به، وإن كان خلاف مقتضى العقد المطلق، فأبطله النبي ﷺ، وإن شرط كما أبطله بدون الشرط.

فإن قيل: فإذا فات مقصودُ المشترط ببطلان الشرط، فإنه إما أن يُسلطَ على الفسخ، أو يُعطى من الأرض بقدر ما فات من غرضه، والنبي ﷺ لم يقض بواحد من الأمرين.

قيل: هذا إنما يثبت إذا كان المشترط جاهلاً بفساد الشرط، فأما إذا علم بطلانه ومخالفته لحكم الله، كان عاصياً أتماً بإقدامه على اشتراطه، فلا فسخ له ولا أرض، وهذا أظهرُ الأمرين في موالي بريرة، والله أعلم.

فصل

(ما هي «إنما الولاء لمن اعتق» من العموم)

وفي قوله ﷺ: «إنما الولاء لمن أعتق» من العموم

ما يقتضي ثبوته لمن أعتق سائبةً، أو زكاةً، أو كفارةً، أو عتق واجب، وهذا قولُ الشافعي وأبي حنيفة، وأحمد في إحدى الروايات، وقال في الرواية الأخرى: لا ولاء عليه، وقال في الثالثة: يُرد ولاءه في عتق مثله، ويحتجُّ بعمومه أحمد ومن وافقه في أن المسلم إذا أعتق عبداً ذمياً، ثم مات العتيق، ورثه بالولاء، وهذا العمومُ أخص من قوله: «لا يَرِثُ المُسْلِمُ الكَافِرَ» [البخاري: ٧٧٦٤، ومسلم: ٤١٤٠] فيخصه أو يقيد، وقال الشافعي ومالك وأبو حنيفة: لا يَرِثُهُ بالولاء إلا أن يموت العبدُ مسلماً، ولهم أن يقولوا: إن عموم قوله: «الولاء لمن أعتق»، مخصوص بقوله: «لا يَرِثُ المُسْلِمُ الكَافِرَ».

فصل

(تفسير الأمة المزوجة إذا اعتقت وزوجها عبد)

وفي القصة من الفقه تخييرُ الأمة المزوجة إذا أعتقت وزوجها عبد، وقد اختلفت الرواية في زوج بريرة، هل كان عبداً أو حراً؟ فقال القاسم، عن عائشة رضي الله عنها: كان عبداً ولو كان حراً لم يُخَيِّرْها. وقال عروة عنها: كان حراً. وقال ابنُ عباس: كان عبداً أسوداً يقال له: مغيث، عبداً لبني فلان، كأنني أنظر إليه يطوف وراءها في سكك المدينة، وكل هذا في الصحيح. وفي «سنن أبي داود» عن عروة عن عائشة: كان عبداً لآل أبي أحمد، فخَيَّرَها رسولُ الله ﷺ وقال لها: «إِنْ قَرَّبَكَ، فَلَا خِيَارَ لَكَ» [أبو داود: ٢٧٣٦].

وفي «مسند أحمد»، عن عائشة رضي الله عنها: أن بريرة كانت تحتَ عبد، فلما أعتقتها، قال لها رسولُ الله ﷺ: «اخْتَارِي فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَمْكُنِي تَحْتَ هذا العَبْدِ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَفَارِقِي» [حسن: أحمد: ٢٥٤٦٨].

وقد روي في «الصحيح»: أنه كان حراً.

وأصحُّ الروايات، وأكثرها: أنه كان عبداً، وهذا الخبرُ رواه عن عائشة رضي الله عنها ثلاثة: الأسود، وعروة، والقاسم، أما الأسود، فلم يختلف عنه عن عائشة أنه كان حراً، وأما عروة، فعنه روايتان صحيحتان متعارضتان، إحداهما: أنه كان حراً، والثانية: أنه كان عبداً، وأما عبد الرحمن بن القاسم،

فعنه روايتان صحيحتان، إحداهما: أنه كان حرًا، والثانية: الشك. قال داود بن مقاتل: ولم تختلف الرواية عن ابن عباس أنه كان عبدًا.

(اختلاف العلماء في تخيير الأمة إذا اعتقت وزوجها حر

وماخذ تحقيق المناط في إثبات الخيار للمعتقة)

واتفق الفقهاء على تخيير الأمة إذا أعتقت وزوجها عبد، واختلفوا إذا كان حرًا، فقال الشافعي ومالك وأحمد في إحدى الروايتين عنه: لا تخيير، وقال أبو حنيفة وأحمد في الرواية الثانية: تُخَيَّر. وليست الروايتان مبنيّتين على كون زوجها عبدًا أو حرًا، بل على تحقيق المناط في إثبات الخيار لها، وفيه ثلاثة مآخذ للفقهاء، أحدها: زوال الكفاءة، وهو المعبر عنه بقولهم: كملت تحت ناقص، الثاني: أن عتقها أوجب للزوج ملك طليقة ثالثة عليها لم تكن مملوكة له بالعقد، وهذا مأخذ أصحاب أبي حنيفة، وينو على أصلهم أن الطلاق معتبر بالنساء لا بالرجال، الثالث: ملكها نفسها، ونحن نبين ما في هذه.

(الرد على المآخذ الثول وهو كمالها تحت ناقص)

المآخذ الأول: وهو كمالها تحت ناقص، فهذا يرجع إلى أن الكفاءة معتبرة في الدوام، كما هي معتبرة في الابتداء، فإذا زالت، خُيرت المرأة، كما تُخَيَّر إذا بان الزوج غير كفو لها، وهذا ضعيف من وجهين.

أحدهما: أن شروط النكاح لا يُعتبر دواؤها واستمرارها، وكذلك توابعه المقارئة لعقده لا يُشترط أن تكون توابع في الدوام، فإن رضى الزوجة غير المجبرة شرط في الابتداء دون الدوام، وكذلك الولي والشاهدان، وكذلك مانع الإحرام والعدة والزنى عند من يمنع نكاح الزانية، إنما يمنع ابتداء العقد دون استدامته، فلا يلزم من اشتراط الكفاءة ابتداء اشتراط استمرارها ودوامها.

الثاني: أنه لو زالت الكفاءة في أثناء النكاح بفسق الزوج، أو حدوث عيب موجب للفسخ، لم يُثبت الخيار على ظاهر المذهب، وهو اختيار قدماء الأصحاب، ومذهب مالك. وأثبت القاضي الخيار بالعيب الحادث، ويلزمه إثباته بحدوث فسق الزوج،

وقال الشافعي: إن حدث بالزوج، ثبت الخيار، وإن حدث بالزوجة، فعلى قولين.

(الرد على المآخذ الثاني)

وهو أن عتقها أوجب للزوج عليها ملك طليقة ثالثة)

وأما المآخذ الثاني: وهو أن عتقها أوجب للزوج عليها ملك طليقة ثالثة، فمأخذ ضعيف جداً، فأي مناسبة بين ثبوت طليقة ثالثة، وبين ثبوت الخيار لها؟ وهل نصب الشارع ملك الطليقة الثالثة سبباً لملك الفسخ، وما يُتوهم - من أنها كانت تُبين منه بائنتين فصارت لا تُبين إلا بثلاث، وهو زيادة إمساك وحبس لم يقتضيه العقد - قاصد، فإنه يملك ألا يفارقها البتة، ويُمسكها حتى يُفرق الموت بينهما، والنكاح عقد على مدة العمر، فهو يملك استدامة إمساكها، وعتقها لا يسلبه هذ الملك، فكيف يسلبه إياه ملكه عليها طليقة ثالثة، وهذا لو كان الطلاق معتبراً بالنساء، فكيف والصحيح أنه معتبر بمن هو بيده وإليه، ومشروع في جانبه.

(ترجيح المصنف للمآخذ الثالث وهو ملكها نفسها)

وأما المآخذ الثالث: وهو ملكها نفسها، فهو أرجح المآخذ وأقربها إلى أصول الشرع، وأبعدها من التناقض، وسر هذا المآخذ أن السيد عقد عليها بحكم الملك حيث كان مالكا لرقبتها ومنافعها، والعق يقتضي تملك الرقة والمنافع للمعتق، وهذا مقصود العتق وحكمته، فإذا ملكت رقتها، ملكت بُضعها ومنافعها، ومن جعلتها منافع البُضع، فلا يملك عليها إلا باختيارها، فخيرها الشارع بين أن تُقيم مع زوجها، وبين أن تفسخ نكاحه، إذ قد ملكت منافع بُضعها، وقد جاء في بعض طرق حديث بريرة، أنه ﷺ قال لها: «مَلِكْتَ نَفْسَكَ فَأَخْتَارِي».

فإن قيل: هذا يقتض بما لو زوجها ثم باعها، فإن المشتري قد ملك رقتها وبُضعها ومنافعها، ولا تسلطونه على فسخ النكاح. قلنا: لا يرد هذا نقضاً، فإن البائع نقل إلى المشتري ما كان مملوكاً له، فصار المشتري خليفته، وهو لما زوجها، أخرج منفعة البُضع عن ملكه إلى الزوج، ثم نقلها إلى المشتري مسلوقة منفعة البُضع، فصار كما لو أجز عبده مدة، ثم باع. فإن قيل: فهب أن يستقيم لكم فيما إذا باعها،

فهلا قلتم ذلك إذا أعتقها، وأنها ملكت نفسها مسلوية منفعة البضع، كما لو آجرها، ثم أعتقها، ولهذا يتقضى عليكم هذا المأخذ؟

قيل: الفرق بينهما: أن العتق في تملك العتق رقبته ومنافعه أقوى من البيع، ولهذا ينفذ فيما لم يعتقه ويسري في حصة الشريك، بخلاف البيع، فالعتق إسقاط ما كان السيد يملكه من عتيقه، وجعله له محرراً، وذلك يقتضي إسقاط ملك نفسه ومنافعها كلها. وإذا كان العتق يسري في ملك الغير المحض الذي لا حق له فيه البتة، فكيف لا يسري إلى ملكه الذي تعلق به حق الزوج، فإذا سري إلى نصيب الشريك الذي حق للعتق فيه، فسريانه إلى ملك الذي يتعلق به حق الزوج أولى وأحرى، فهذا محض العدل والقياس الصحيح.

فإن قيل: فهذا فيه إبطال حق الزوج من هذه المنفعة، بخلاف الشريك، فإنه يرجع إلى القيمة.

قيل: الزوج قد استوفى المنفعة بالوطء، فطريان ما يُزيل دوامها لا يسقط له حقاً، كما لو طراً ما يفسده أو يفسد برضاع أو حدوث عيب، أو زوال كفاءة عند من يفسخ به.

(اشكالان على تخيير الممتعة إذا كانت متزوجة بحق)

فإن قيل: فما تقولون فيما رواه النسائي، من حديث ابن مَوْهَب، عن القاسم بن محمد، قال: كان لعائشة رضي الله عنها غلام وجارية، قالت: فأردت أن أعتقهما، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «إبدئي بالغلام قبل الجارية» [النسائي ٦١٦١]. ولولا أن التخيير يمنع إذا كان الزوج حراً لم يكن للبداء بعتق الغلام فائدة، فإذا بدأت به، عتقت تحت حر، فلا يكون لها اختيار.

وفي «سنن النسائي» أيضاً: أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا أَمَةٌ كَانَتْ تَحْتَ عَبْدٍ فُعِّقَتْ، فَهِيَ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَطَّأَهَا زَوْجُهَا» [سنن ضعيف: أحمد: ١٦٦٢٠].

قيل: أما الحديث الأول: فقال أبو جعفر العقيلي

وقد رواه: هذا خبر لا يعرف إلا بعبيد الله بن عبد الرحمن بن مَوْهَب وهو ضعيف. وقال ابن حزم: هو خبر لا يصح. ثم لو صح لم يكن فيه حجة، لأنه ليس فيه أنهما كانا زوجين، بل قال: كان لها عبد وجارية. ثم لو كانا زوجين لم يكن في أمره لها بعتق العبد أولاً ما يسقط خيار الممتعة تحت الحر، وليس في الخبر أنه أمرها بالابتداء بالزوج لهذا المعنى، بل الظاهر أنه أمرها بأن تبتدىء بالذكر لفضل عتقه على الأنثى، وأن عتق أنثيين يقوم مقام عتق ذكر، كما في الحديث الصحيح ميبأ.

وأما الحديث الثاني: فضعف، لأنه من رواية الفضل^(١) بن حسن بن عمرو بن أمية الضمري وهو مجهول. فإذا تقرر هذا، وظهر حكم الشرع في إثبات الخيار لها، فقد روى الإمام أحمد بإسناده، عن النبي ﷺ: «إِذَا أُعْتِقَتِ الْأَمَةُ، فَهِيَ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَطَّأَهَا، إِنْ شَاءَتْ فَارَقَتْهُ، وَإِنْ وَطَّئَهَا فَلَا خِيَارَ لَهَا وَلَا تَسْتَطِيعُ فِرَاقَهُ»^(٢) ويستفاد من هذا قضيتان.

(خيار الممتعة على التراخي)

إحدهما: أن خيارها على التراخي ما لم تُمَكَّنْ مِن وَطْئِهَا، وهذا مذهب مالك، وأبي حنيفة، وأحمد. والشافعي ثلاثة أقوال، هذا أحدها، والثاني: أنه على الفور، والثالث: أنه إلى ثلاثة أيام.

(التمكين من الوطء يسقط)

الثانية: أنها إذا مكَّته من نفسها، فوطئها، سقط خيارها، وهذا إذا علمت بالعتق وثبوت الخيار به، فلو جهلتها، لم يسقط خيارها بالتمكين من الوطء. وعن أحمد رواية ثانية: أنها لا تعذر بجهلها بملك الفسخ، بل إذا علمت بالعتق، ومكَّته من وطئها، سقط خيارها ولو لم تعلم أن لها الفسخ، والرواية الأولى أصح، فإن عتق الزوج قبل أن تختار - وقلنا: إنه لا خيار للممتعة تحت حر - بطل خيارها لمساواة الزوج لها، وحصول الكفاءة قبل الفسخ. قال الشافعي في أحد قوله - وليس هو المنصور عند أصحابه - لها الفسخ لتقدم ملك

(٢) إسناده ضعيف.

(١) في الأصل: حسن بدل الفضل، وهو تحريف.

ملكته، سقط المهر، أو انتصف، فلم تخرج من
الثالث، فترك بعضها، فميت الفسخ قبل الدخول،
بخلاف ما إذا لم تملكه، فإنها تخرج من الثالث،
فيعتق جميعها.

فصل

في قوله ﷺ: «لو راجعته» فقالت: أتأمرني؟
فقال: «لا، إنما أنا شافع»، فقالت: لا حاجة لي
فيه، فيه ثلاث قضايا.

(المر يقتضي الوجوب)

أحداها: أن أمره على الوجوب، ولهذا فرق بين
أمره وشفاعته، ولا ريب أن امتثال شفاعته من أعظم
المستحبات.

(لا يحرم عصيان شفاعته ﷺ)

الثانية: أنه ﷺ لم يَعْصَ على بريرة، ولم يُنكر
عليها إذ لم تقبل شفاعته، لأن الشفاعة في إسقاط
المشفوع عنده حقه، وذلك إليه، إن شاء أسقطه، وإن
شاء أبقاء، فلذلك لا يحرم عصيان شفاعته ﷺ،
ويحرم عصيان أمره.

(معنى المراجعة هي لسان الشارع)

الثالثة: أن اسم المراجعة في لسان الشارع قد
يكون مع زوال عقد النكاح بالكلية، فيكون ابتداء
عقد، وقد يكون مع تشعته، فيكون إمساكاً، وقد
سُمي سبحانه ابتداء النكاح للمطلق ثلاثاً بعد الزوج
الثاني مُراجعةً، فقال: «إِنْ كَلَّمَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ أَنْ
يَرْجِعَ» [البقرة: ٢٣٠] أي: إن طلقها الثاني، فلا
جناح عليها، وعلى الأول أن يترجعا نكاحاً
مستأنفاً.

فصل

(ما يستنبط من أكله ﷺ من

اللحم الذي تصدق به على بريرة)

وفي أكله ﷺ من اللحم الذي تُصَدَّقُ به على
بريرة، وقال: «هُوَ عَلَيْهَا صَدَقَةٌ وَلَنَا هَدِيَّةٌ»، دليل على
جواز أكل الغني، وبني هاشم، وكل من تحرم عليه
الصدقة مما يُهديه إليه الفقير من الصدقة لاختلاف
جهة المأكول، ولأنه قد بلغ محله، وكذلك يجوز له

الخيار على العتق، فلا يبطله، والأول أقيس لزوال
سبب الفسخ بالعتق، وكما لو زال العيب في البيع
والنكاح قبل الفسخ به، وكما لو زال الإعسار في
زمن ملك الزوجة الفسخ به. وإذا قلنا: العلة ملكها
نفسها، فلا أثر لذلك، فإن طلقها طلاقاً رجعياً،
فعتقت في عدتها، فاختارت الفسخ، بطلت
الرجعة، وإن اختارت المقام معه، صح، وسقط
اختيارها للفسخ، لأن الرجعية كالزوجة.

وقال الشافعي وبعض أصحاب أحمد: لا يسقط
خيارها إذا رضيت بالمقام دون الرجعة، ولها أن
تختار نفسها بعد الارتجاع، ولا يصح اختيارها في
زمن الطلاق، فإن الاختيار في زمن هي فيه صائرة
إلى بينونة، ممتنع. فإذا راجعها، صح حينئذ أن
تختاره وتقيم معه، لأنها صارت زوجة، وعمل
الاختيار عمله، وترتب أثره عليه. ونظير هذا إذا
ارتد زوج الأمة بعد الدخول، ثم عتقت في زمن
الرَّدة، فعلى القول الأول لها الخيار قبل إسلامه،
فإن اختارته، ثم أسلم، سقط ملكها للفسخ، وعلى
قول الشافعي: لا يصح لها خيار قبل إسلامه، لأن
العقد صائر إلى البطلان، فإذا أسلم، صح خيارها.

فإن قيل: فما تقولون إذا طلقها قبل أن تفسخ،
هل يقع الطلاق أم لا؟

قيل: نعم يقع، لأنها زوجة، وقال بعض أصحاب
أحمد وغيرهم: يُوقَف الطلاق، فإن فسخت، تبيّن أنه
لم يقع، وإن اختارت زوجها تبيّن وقوعه. فإن قيل:
فما حكم المهر إذا اختارت الفسخ؟

قيل: إما أن تفسخ قبل الدخول أو بعده، فإن
فسخت بعده، لم يسقط المهر، وهو ليسدها سواء
فسخت أو أقامت، وإن فسخت قبله ففيه قولان، هما
روايتان عن أحمد، إحداهما: لا مهر، لأن الفرقة من
جهتها، والثانية، يجب نصفه، ويكون لسيدها لا لها.

فإن قيل: فما تقولون في المعتق نصفها، هل لها
خيار؟ قيل: فيها قولان، وهما روايتان عن أحمد،
فإن قلنا: لا خيار لها كزوج مدبرة له لا يملك غيرها
وقيمتها مئة، فعقد على مائتين مهرأ، ثم مات،
عتقت، ولم تملك الفسخ قبل الدخول، لأنها لو

أن يشتريه منه بماله . هذا إذا لم تكن صدقة نفسه، فإن كانت صدقته، لم يجز له أن يشتريها، ولا يهبها، ولا يقبلها هدية. كما نهى رسول الله ﷺ عمر رضي الله عنه عن شراء صدقته وقال: «لا تشتريه، وإن أعطاكهُ يذرهم» [البخاري: ٢٦٢٣، ومسلم: ٤١٦٣].

فصل

في قضائه ﷺ في الصداق بما قل وكثر، وقضائه بصحة النكاح على ما مع الزوج من القرآن

ثبت في «صحيح مسلم»: عن عائشة رضي الله عنها: كانَ صَدَاقُ النَّبِيِّ ﷺ لأزواجه اثني عشرة أوقية ونشأ، فذلك خمسمئة [مسلم: ٣٤٨٩].

وقال عُمَرُ رضي الله عنه: ما عَلِمْتُ رسولَ الله ﷺ نَكَحَ شَيْئاً مِنْ نِسَائِهِ، وَلَا أَنْكَحَ شَيْئاً مِنْ بَنَاتِهِ عَلَى أَكْثَرِ مِنْ اثْنَيْ عَشَرَ أَوْقِيَةً [حسن: أحمد: ٢٨٥ - ٢٨٧، والترمذي: ١١١٤]. قال الترمذي: حديث حسن صحيح. انتهى.

والأوقية: أربعون درهماً.

وفي «صحيح البخاري»: من حديث سهل بن سعد، أن النبي ﷺ قال لرجل: «تَزَوَّجْ وَلَوْ بِخَاتَمٍ مِنْ حَلِيدٍ» [البخاري: ٥١٥٠].

وفي «سنن أبي داود»: من حديث جابر، أن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَعْطَى فِي صَدَاقٍ مِلَّةً كَفَيْهِ سَوِيْقاً أَوْ ثَمَرًا، فَقَدْ اسْتَحْلَ» [أبو داود: ٢١١٠].

وفي الترمذي: أن امرأة من بني قزاعة تزوجت على نعلين، فقال رسول الله ﷺ: «رَضِيتَ مِنْ نَفْسِكَ وَمَالِكَ بنعلين؟» قالت: نعم، فأجازه [الترمذي: ١١١٣، وابن ماجه: ١٨٨٨]. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وفي «مسند الإمام أحمد»: من حديث عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ: «إِنْ أَغْطَمَ النِّكَاحُ بَرَكَةَ أَيْسَرِهِ مُؤُونَةً» [حسن لغيره: أحمد: ٢٤٥٢٩، والحاكم: ١٧٨/٢].

وفي «الصحيحين»: أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله! إني قد وهبت نفسي

لك، فقامت طويلاً، فقال رجل: يا رسول الله، رَوَّجْنِيهَا إِنْ لَمْ تَكُنْ لَكَ بِهَا حَاجَةٌ، فقال رسول الله ﷺ: «فَهَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ تُضِدُّهَا إِيَّاهُ؟» قال: ما عندي إلا إزارِي هذا، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّكَ إِنْ أَغْطَيْتَهَا إِزَارَكَ جَلَسَتْ وَلَا إِزَارَكَ، فَالْتَمِسْ شَيْئاً»، قال: لا أجد شيئاً، قال: «فَالْتَمِسْ وَلَوْ خَاتِماً مِنْ حَلِيدٍ»، فالتمس فلم يجد شيئاً، فقال رسول الله ﷺ: «هَلْ مَعَكَ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ؟» قال: نعم سورة كذا وسورة كذا يسور سماها، فقال رسول الله ﷺ: «قَدْ رَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ» [البخاري: ٥١٤٩، ومسلم: ٣٤٨٧].

وفي النسائي: أن أبا طلحة خطب أُمَّ سُلَيْمٍ، فقالت: واللَّهِ يا أبا طلحة، ما مثلك يُرِدُّ ولكنك رجلٌ كافر، وأنا امرأة مسلمة، ولا يحلُّ لي أن أتزوجك، فإن تُسَلِّمَ، فذاك مهري، وما أسألك غيره، فأسلمَ فكان ذلك مهرَها. قال ثابت: فما سمعنا بامرأة قط كانت أكرمَ مهراً من أُمِّ سُلَيْمٍ، فدخل بها، فولدت له [النسائي: ١١٤/٦].

فتضمن هذا الحديث أن الصداق لا يتقدر أقله، وأن قبضة السوق، وخاتم الحديد، والتعلين يصح تسميتها مهراً، وتحلُّ بها الزوجة.

وتضمن أن المغالاة في المهر مكروهة في النكاح، وأنها من قلة بركته وعُسره.

وتضمن أن المرأة إذا رَضِيت بعلم الزوج، وحفظه للقرآن أو بعضه من مهرها، جاز ذلك، وكان ما يحصل لها من انتفاعها بالقرآن والعلم هو صداقها، كما إذا جَمَلَ السيد عَتَقَهَا صداقها وكان انتفاعها بحريتها وملكها لرقبتها هو صداقها، وهذا هو الذي اختارته أُمُّ سُلَيْمٍ من انتفاعها بإسلام أبي طلحة، وبذلها نفسها له إن أسلم، وهذا أحبُّ إليها من المال الذي يَبْذُلُهُ الزوج، فإن الصداق شرع في الأصل حقاً للمرأة تنتفع به، فإذا رَضِيت بالعلم والدين، وإسلام الزوج، وقراءته للقرآن، كان هذا من أفضل المهور وأنفعها وأجلها، فما خلا العقد عن مهر، وأين الحكم بتقدير المهر بثلاثة دراهم، أو عشرة من

وفي «الموطأ»: عن عمر أنه قال: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ غَرَّ بِهَا رَجُلٌ، بِهَا جُنُونٌ أَوْ جَذَامٌ أَوْ بَرَصٌ، فَلَهَا الْمَهْرُ بِمَا أَصَابَ مِنْهَا، وَصَدَاقُ الرَّجُلِ عَلَى مَنْ غَرَّه» [صحيح: مالك (٥٢٦/٢)، وعبد الرزاق: ١٠٦٧٩، والبيهقي (٧/٢١٤)].

وفي لفظ آخر: قَضَى عمر في الْبَرَصَاءِ، وَالْجَذَمَاءِ، وَالْمَجْنُونَةِ، إِذَا دَخَلَ بِهَا، فَرَّقَ بَيْنَهُمَا، وَالصَّدَاقُ لَهَا بِمِيسِيرِهَا، وَهُوَ لَهَا عَلَى وَلِيِّهَا [البيهقي (٧/٢١٥)].

وفي «سنن أبي داود»: من حديث عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: طَلَّقَ عَبْدُ يُزِيدُ أَبُو رُكَانَةَ زَوْجَتَهُ أُمَّ رُكَانَةَ، وَنَكَحَ امْرَأَةً مِنْ مُزَيْنَةَ، فَجَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَتْ: مَا يُغْنِي عَنِّي إِلَّا كَمَا تُغْنِي هَذِهِ الشَّعْرَةُ لِشَعْرَةٍ أَخَذْتُهَا مِنْ رَأْسِهَا، فَفَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، فَأَخَذْتُ النَّبِيَّ ﷺ حَوِيَّةً، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ. وفيه: أَنَّهُ ﷺ قَالَ لَهُ: «طَلَّقْهَا»، ففعل، ثم قال: «رَاجِعِ امْرَأَتَكَ أُمَّ رُكَانَةَ»، فقال: «إِنِّي طَلَقْتُهَا ثَلَاثًا يَا رَسُولَ اللَّهِ»، قَالَ: «قَدْ عَلِمْتُ ارْجِعْهَا»، وتلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَ ذُنُوبَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١] [أبو داود: ٢١٩٦، وعبد الرزاق: ١١٣٣٥].

ولا عِلَّةَ لهذا الحديث إِلَّا رَوَايَةُ ابْنِ جُرَيْجٍ لَهُ عَنْ بَعْضِ بَنِي أَبِي رَافِعٍ، وَهُوَ مَجْهُولٌ، وَلَكِنْ هُوَ تَابِعِي، وَابْنُ جُرَيْجٍ مِنَ الْأَثَمَةِ الثَّقَاتِ الْعَدُولِ، وَرَوَايَةُ الْعَدْلِ عَنْ غَيْرِهِ تَعْدِيلٌ لَهُ مَا لَمْ يُعْلَمْ فِيهِ جَرَحٌ، وَلَمْ يَكُنِ الْكَذِبُ ظَاهِرًا فِي التَّابِعِينَ، وَلَا سِيَمَا التَّابِعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَلَا سِيَمَا مُوَالِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا سِيَمَا مِثْلَ هَذِهِ السَّنَةِ الَّتِي تَشْتَدُّ حَاجَةُ النَّاسِ إِلَيْهَا لَا يُظَنُّ بِابْنِ جُرَيْجٍ أَنَّهُ حَمَلَهَا عَنْ كَذَابٍ، وَلَا عَنْ غَيْرِ نَفَقَةٍ عِنْدَهُ، وَلَمْ يُبَيِّنْ حَالَهُ.

(التفريق بالعدة)

وجاء التفريقُ بِالْعُدَّةِ عَنْ عُمَرَ، وَعُثْمَانَ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَسَمُرَةَ بْنِ جَنْدَبٍ، وَمَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ، وَالْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَيْعَةَ، وَالْمَغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، لَكِنْ عُمَرُ، وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَالْمَغِيرَةُ، أَجْلَوْهُ سَنَةً، وَعُثْمَانُ وَمَعَاوِيَةُ وَسَمُرَةُ لَمْ يُؤْجَلَوْهُ، وَالْحَارِثُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَجْلَّهُ عَشْرَةَ أَشْهُرٍ [عبد الرزاق: ١٠٧٢٠-١٠٧٢٢].

النصر؟ والقياس إلى الحكم بصحة كون المهر ما ذكرنا نصاً وقياساً، وليس هذا مستويًا بين هذه المرأة وبين الموهوبة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ وهي خالصة له من دون المؤمنين، فإن تلك وهبت نفسها هبةً مجردة عن ولي وصداق، بخلاف ما نحن فيه، فإنه نكاح بولي وصداق، وإن كان غير مالي، فإن المرأة جعلته عوضاً عن المال لما يرجع إليها من نفقه، ولم تهب نفسها للزوج هبةً مجردةً كهية شيء من مالها بخلاف الموهوبة التي خصص الله بها رسوله ﷺ، هذا مقتضى هذه الأحاديث.

وقد خالف في بعضه من قال: لا يكون الصداق إِلَّا مَالًا، وَلَا تَكُونُ مَنَافِعُ أُخْرَى، وَلَا عِلْمُهُ، وَلَا تَعْلِيمُهُ صَدَاقًا، كَقَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَحْمَدَ فِي رَوَايَةٍ عَنْهُ. ومن قال: لا يكون أَقْلٌ مِنْ ثَلَاثَةِ دَرَاهِمٍ كَمَا لَكَ، وَعَشْرَةُ دَرَاهِمٍ كَأَبِي حَنِيفَةَ، وَفِيهِ أَقْوَالُ أُخَرُ شَاذَةٌ لَا دَلِيلَ عَلَيْهَا مِنْ كِتَابٍ، وَلَا سَنَةٍ، وَلَا إِجْمَاعٍ، وَلَا قِيَاسٍ، وَلَا قَوْلٍ صَاحِبٍ.

ومن ادعى في هذه الأحاديث التي ذكرناها اختصاصها بالنبي ﷺ، أو أنها منسوخة، أو أن عمل أهل المدينة على خلافها، فدعوى لا يقوم عليها دليل، والأصل يردُّها، وقد زَوَّجَ سَيِّدُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مِنَ التَّابِعِينَ سَعِيدُ بْنُ الْمَسِيبِ ابْنَتَهُ عَلَى دِرْهَمَيْنِ، وَلَمْ يُنْكَرْ عَلَيْهِ أَحَدٌ، بَلْ عُدَّ ذَلِكَ فِي مَنَاقِبِهِ وَفَضَائِلِهِ، وَقَدْ تَزَوَّجَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ عَلَى صَدَاقٍ خَمْسَةَ دَرَاهِمٍ، وَأَقْرَهُ النَّبِيُّ ﷺ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى اثْبَاتِ الْمَقَادِيرِ إِلَّا مِنْ جِهَةِ صَاحِبِ الشَّرْعِ.

فصل

في حكمه ﷺ، وخلفائه في أحد الزوجين يجد بصاحبه برصاً أو جنوناً أو جذاماً، أو يكون الزوج عتيماً

في «مسند أحمد»: من حديث يزيد بن كعب بن عَجْرَةَ رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ تزوج امرأة من بني غِفَارٍ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا، وَوَضَعَ ثَوْبَهُ، وَقَعَدَ عَلَى الْفِرَاشِ، أَبْصَرَ بِكَشْحِهَا بِيَاضًا، فَأَمَّازَ عَنِ الْفِرَاشِ، ثُمَّ قَالَ: «خُذِي عَلَيْكَ ثِيَابَكَ»، وَلَمْ يَأْخُذْ مِمَّا آتَاهَا شَيْئًا [أحمد: ١٦٠٣٢، والبيهقي (٧/٢١٤)].

(التفريق بالمعنى)

وذكر سعيد بن منصور: حدثنا هشيم، أنبأنا عبد الله بن عوف، عن ابن سيرين، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث رجلاً على بعض السَّعَاية، فتزوج امرأة وكان عقيماً، فقال له عمر: أَعْلَمْتَهَا أَنَّكَ عَقِيمٌ؟

قال: لا، قال: فانطلق فأغْلِمْهَا، ثم خيّرهما [عبد الرزاق: ١٠٣٤٦].

وأجل مجنوناً سنة، فإن أفاق وإلا فَرَّقْ بينه وبين امرأته.

(التفريق بالجنون واختلاف الفقهاء فيما سبق)

فاختلف الفقهاء في ذلك، فقال داود، وابن حزم، ومن وافقهما: لا يفسخ النكاح بغيب البتة، وقال أبو حنيفة: لا يفسخ إلا بالجبِّ والعُتَّةِ خاصة. وقال الشافعي ومالك: يفسخ بالجنون والبرص، والجذام والقرن، والجبِّ والعُتَّةِ خاصة، وزاد الإمام أحمد عليهما: أن تكون المرأة فتقاء منخرقة ما بين السيلين، ولأصحابه في تننِ الفرج والقم، وانخراقٍ مخرجي البول والمني في الفرج، والقروح السيالة فيه، والبواسير، والنَّاصور، والاستحاضة، واستطلاق البول، والنجو، والخصي وهو قطع البيضتين، والسَّل وهو سَلُّ البيضتين، والرجء وهو رُضْهُمَا، وكون أحدهما خُتِي مشكلاً، والعيب الذي يصاحبه مثله من العيوب السبعة، والعيب الحادث بعد العقد، وجهان.

وذهب بعض أصحاب الشافعي إلى ردِّ المرأة بكلِّ عيب تُرَدُّ به الجارية في البيع، وأكثرهم لا يَعْرِفُ هذا الوجه ولا مَطْلَته، ولا مَنْ قاله. ومن حكاه: أبو عاصم العباداني في كتاب طبقات أصحاب الشافعي، وهذا القول هو القياس، أو قول ابن حزم ومن وافقه.

وأما الاختصار على عيين أو ستة أو سبعة أو ثمانية دون ما هو أولى منها أو مساوٍ لها، فلا وجه له، فالعمى والخرس والطرش، وكونها مقطوعة اليدين أو الرجلين، أو إحداهما، أو كون الرجل كذلك من أعظم المنقّرات، والسكوت عنه من أقبح التدليس والغش، وهو مُتَنَافٍ للدين، والإطلاق إنما يتصرف إلى السلامة، فهو كالمشروط عرفاً، وقد قال أمير

المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمن تزوج امرأة وهو لا يولد له: أَخْبِرْهَا أَنَّكَ عَقِيمٌ وَخَيْرٌهَا. فماذا يقول رضي الله عنه في العيوب التي هذا عندها كمالٌ لا نقص؟!

والقياس: أن كُلَّ عيب ينفِرُ الزَّوْجَ الآخر منه، ولا يحصل به مقصودُ النكاح من الرحمة والمودة يُوجب الخيارَ، وهو أولى من البيع، كما أن الشروط المشترطة في النكاح أولى بالوفاء من شروط البيع، وما ألزم الله ورسوله مغروراً قط، ولا مغبوناً بما غرَّ به وغرَّبَ به، ومن تدبَّر مقاصد الشرع في مصادره وموارده وعدله وحِكمته، وما اشتمل عليه من المصالح لم يخفَّ عليه رجحانُ هذا القول، وقربُه من قواعد الشريعة.

وقد روى يحيى بن سعيد الأنصاري، عن ابن المسيب قال: قال عمر: أيُّما امرأة زُوِّجَتْ وبها جنونٌ أو جُذامٌ أو بَرَصٌ فدخل بها ثم اطلع على ذلك، فلها مهرها بمسيسه إياها، وعلى الولي الصَّدَاقُ بما دلَّسَ كما غرَّه.

ورَدَّ هذا بأن ابن المسيب لم يسمع من عمر من باب الهذيان البارد المخالف لإجماع أهل الحديث قاطبة، قال الإمام أحمد: إذا لم يقبل سعيد بن المسيب عن عمر، فمن يقبل، وأئمة الإسلام وجمهورهم يحتجون بقول سعيد بن المسيب: قال رسول الله ﷺ، فكيف بروايته عن عُمَرَ رضي الله عنه؟! وكان عبد الله بن عمر يرسل إلى سعيد يسأله عن قضايا عمر، فيُفْتِي بها، ولم يطعن أحد قط من أهل عصره، ولا مَنْ بعدهم ممن له في الإسلام قولٌ معتبر في رواية سعيد بن المسيب عن عمر، ولا عبرة بغيرهم.

وروى الشعبي عن علي: أيُّما امرأة نكحت وبها بَرَصٌ أو جنونٌ أو جُذامٌ أو قَرْنٌ، فزوجها بالخيار ما لم يمسه، إن شاء أمسك، وإن شاء طلق، وإن مسها فلها المهرُ بما استحل من فرجها [صحيح: البيهقي (٧/ ٢١٥)، وعبد الرزاق: ١٠٦٧٧].

وقال وكيع: عن سفيان الثوري، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن عُمَرَ، قال: إذا تزوجها برصاء، أو عمياء، فدخل بها، فلها

الصدائق، ويرجع به على مَنْ غَرَّه^(١). وهذا يدل على أن عمر لم يذكر تلك العيوب المتقدمة على وجه الاختصاص والحصر دون ما عداها، وكذلك حكم قاضي الإسلام حقاً الذي يُضرب المثل بعلمه ودينه وحُكمه شريح، قال عبد الرزاق: عن معمر، عن أيوب، عن ابن سيرين، خاصم رجل إلى شريح، فقال: إن هؤلاء قالوا لي: إنا نزوجك بأحسن الناس، فجأؤوني بامرأة عمشاء، فقال شريح: إن كان دُلْس لك بعبب لم يَجُزْ [عبد الرزاق: ١٠٦٨٥]. فتأمل هذا القضاء، وقوله: إن كان دُلْس لك بعبب، كيف يقتضي أن كل عيب دُلْس به المرأة، فللزواج الرُدُّ به. وقال الزهري يُرَدُّ النكاح من كل داء عُضَالٍ.

(ترجيح المصنف الرد بكل عيب)

ومن تأمل فتاوى الصحابة والسلف، علم أنهم لم يخصوا الرُدَّ بعبب دون عيب، إلا رواية رُويت عن عمر رضي الله عنه: لا تُرَدُّ النساء إلا من العيوب الأربعة: الجنون، والجذام، والبرص، والداء في الفرج. وهذه الرواية لا نعلم لها إسناداً أكثر من أصبغ عن ابن وهب، عن عُمَرُ وَعَلِي. روي عن ابن عباس ذلك بإسناد متصل، ذكره سفيان، عن عمرو بن دينار عنه. هذا كُلُّه إذا أُلْطِقَ الزَّوْجُ، وأما إذا اشترط السلامة، أو شرط الجمال، فبانت شوها، أو شرطها شاباً حديث السن، فبانت عجوزاً شمطاء، أو شرطها بيضاء، فبانت سوداء، أو يكرأ فبانت ثيباً، فله الفسخ في ذلك كُلُّه.

فإن كان قبل الدخول، فلا مهر لها، وإن كان بعده، فلها المهر، وهو عُرْمٌ على وليها إن كان غَرَّه، وإن كانت هي الغارّة، سقط مهرها أو رَجَعَ عليها به إن كانت قبضته، ونص على هذا أحمد في إحدى الروايتين عنه، وهو أقيسهما وأولاهما بأصوله فيما إذا كان الزوج هو المشتراط.

وقال أصحابه: إذا شرطت فيه صفة، فبان بخلافها، فلا خيار لها إلا في شرط الحرية إذا بان عبداً، فلها الخيار، وفي شرط النسب إذا بان بخلافه وجهان، والذي يقتضيه مذهبه وقواعده، أنه لا فرق

بين اشتراطه واشتراطها، بل إثبات الخيار لها إذا فات ما اشترطته أولى، لأنها لا تتمكّن من المفارقة بالطلاق، فإذا جاز له الفسخ مع تمكّنه من الفراق بغيره، فلأن يجوز لها الفسخ مع عدم تمكّنها أولى، وإذا جاز لها الفسخ إذا ظهر الزوج ذا صناعة دينية لا تشينه في دينه ولا في عرضه، وإنما تمنع كمال لذتها واستمتاعها به، فإذا شرطته شاباً جميلاً صحيحاً، فبان شيخاً مشوهاً أعمى أطرش أخرس أسود، فكيف تلزم به، وتمنع من الفسخ؟ هذا في غاية الامتناع والتناقض، والبعد عن القياس، وقواعد الشرع، وبالله التوفيق.

وكيف يمكن أحد الزوجين من الفسخ بقدر العدسة من البرص، ولا يمكن منه بالجرب المستحكم المتمكّن وهو أشدّ إعداء من ذلك البرص اليسير وكذلك غيره من أنواع الداء العُضَالِ؟

وإذا كان النبي ﷺ حرّم على البائع يَمَاناً عيب سلته، وحرّم على مَنْ علمه أن يكتّمه من المشتري، فكيف بالعيوب في النكاح؟ وقد قال النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس حين استشارته في نكاح معاوية، أو أبي الجهم: «أَمَّا مُعَاوِيَةُ، فَصُغْلُوْكَ لَا مَالَ لَهُ، وَأَمَّا أَبُو جَهْمٍ، فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ» [مسلم: ٣٦٩٧]، فعلم أن بيان العيب في النكاح أولى وأوجب، فكيف يكون كتمانُه وتدليسُه والغشُّ الحرامُّ به سبباً للزومه، وجعل ذا العيب عُلاً لازماً في عُقْصِ صاحبه مع شدة نفرتة عنه، ولا سيما مع شرط السلامة منه، وشرط خلافه، وهذا مما يُعلم يقيناً أن تصرفات الشريعة وقواعدها وأحكامها تأباه والله أعلم.

وقد ذهب أبو محمد بن حزم إلى أن الزوج إذا شرط السلامة من العيوب، فوجَدَ أي عيب كان، فالنكاح باطل من أصله غير منعقد، ولا خيار له فيه، ولا إجازة ولا نفقة، ولا ميراث. قال: لأن النبي أدخلت عليه غير التي تزوج، إذ السالمة غير المعيبة بلا شك، فإذا لم يتزوجها، فلا زوجية بينهما.

فصل

في حُكْمِ النَّبِيِّ ﷺ فِي خِدْمَةِ الْمَرْأَةِ لزوجها

قال ابنُ حبيب في «الواضحة»: حُكْمُ النَّبِيِّ ﷺ بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وبين زوجته فاطمة رضي الله عنها حين اشتكى إليه الخِدمة، فحكم على فاطمة بالخدمة الباطنة خِدمة البيت، وحكم على عليٍّ بالخدمة الظاهرة، ثم قال ابنُ حبيب: والخدمة الباطنة: العجِينُ، والطَبْخُ، والفرشُ، وكَسُّ البيت، واستقاء الماء، وعملُ البيت كله^(١).

وفي «الصحيحين»: أن فاطمة رضي الله عنها أتت النبي ﷺ تشكو إليه ما تلقى في يَدَيْهَا مِنَ الرَّحَى، وتسأله خادماً فلم تجده، فذكرت ذلك لِعائشة رضي الله عنها، فلما جاء رسولُ الله ﷺ أخبرته. قال علي: فجاءنا وقد أخذنا مَضَاجِعَتًا، فذهبنا نقومُ، فقال: مَكَانُكُمَا، فجاء فقعدَ بَيْنَنَا حتى وجدت بردَ قَدَمَيْهِ على بطني، فقال: «أَلَا أَذْكَمًا عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِمَّا سَأَلْتُمَا، إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا فَسَبِّحَا اللَّهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَاحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبِّرَا أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ». قال عليٌّ: فما تركتها بَعْدَ، قِيلَ: ولا ليلةً صَفِين؟ قال: ولا ليلةً صَفِين [البخاري: ٣٧٠٥، ومسلم: ١٩١٥].

وصحَّ عن أسماء أنها قالت: كُنْتُ أَخْدِمُ الزُّبَيْرَ خِدْمَةَ الْبَيْتِ كُلِّهِ، وَكَانَ لَهُ قَرَسٌ، وَكُنْتُ أُسْوِسُهُ، وَكُنْتُ أَخْتَشُّ لَهُ، وَأَقُومُ عَلَيْهِ [صحيح: أحمد: ٢٦٩٧٢].

وصحَّ عنها أنها كانت تَغْلِفُ فَرَسَهُ، وَتَسْقِي الْمَاءَ، وَتَحْرُرُ الدَّلَوُ، وَتَعْجِنُ، وَتَقْلُ التَّوَى عَلَى رَأْسِهَا مِنْ أَرْضٍ لَهُ عَلَى ثَلَاثِي قَرَسٍ [صحيح: أحمد: ٢٦٩٣٧].

فاختلف الفقهاء في ذلك، فأوجب طائفةٌ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ خِدْمَتَهَا لَهُ فِي مَصَالِحِ الْبَيْتِ، وَقَالَ أَبُو ثَوْرٍ: عَلَيْهَا أَنْ تَخْدُمَ زَوْجَهَا فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَمَنْعَتْ طَائِفَةٌ وَجُوبَ خِدْمَتُهُ عَلَيْهَا فِي شَيْءٍ، وَمَنْعَ ذَهَبَ إِلَى ذَلِكَ مَالِكٌ، وَالشَّافِعِيُّ، وَأَبُو حَنِيفَةَ، وَأَهْلُ الظَّاهِرِ، قَالُوا: لِأَنَّ عَقْدَ النِّكَاحِ إِنَّمَا اقْتَضَى الْاسْتِمَاعَ، لَا

الاستخدام وبذل المنافع، قالوا: والأحاديثُ المذكورة إنما تدلُّ على التطوُّع ومكارِمِ الأخلاق، فأين الوجوبُ منها؟

واحتج من أوجب الخدمة، بأن هذا هو المعروف عند من خاطبهم الله سبحانه بكلامه، وأما ترفيهُ المرأة، وخدمة الزوج، وكسُّه، وطحنه، وعجنه، وغسيله، وفرشه، وقيامه بخدمة البيت، فَمِنْ الْمُنْكَرِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَلَعَنَ مِثْلَ الَّذِي عَلَيْنَ بِالْمَرْءِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. وقال: ﴿الرِّجَالُ قَوَّاتٌ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤] وإذا لم تخدمه المرأة، بل يكون هو الخادِمُ لها، فهي القَوَّامَةُ عليه.

وأيضاً: فإن المهر في مقابلة البُضع، وكُلُّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ يَقْضِي وَطْرَهُ مِنْ صَاحِبِهِ، فَإِنَّمَا أُوجِبَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ نَفَقَتَهَا وَكُسُوتَهَا وَمَسْكَنَتَهَا فِي مَقَابِلَةِ اسْتِمَاعِهِ بِهَا وَخِدْمَتِهَا، وَمَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ الْأَزْوَاجِ.

وأيضاً فإن العقود المطلقة إنما تنزلُ على العرف، والعرفُ خدمةُ المرأة، وقيامُها بمصالح البيت الداخلة، وقولُهم: إن خدمة فاطمة وأسماء كانت تبرعاً وإحساناً يَرُدُّهُ أَنَّ فَاطِمَةَ كَانَتْ تَشْتَكِي مَا تَلْقَى مِنَ الْخِدْمَةِ، فَلَمْ يَقُلْ لِعَلِي: لَا خِدْمَةَ عَلَيْهَا، وَإِنَّمَا هِيَ عَلَيْكَ، وَهُوَ ﷺ لَا يُحَاطِي فِي الْحُكْمِ أَحَدًا، وَلَمَّا رَأَى أَسْمَاءَ وَالْعَلْفَ عَلَى رَأْسِهَا، وَالزُّبَيْرَ مَعَهُ، لَمْ يَقُلْ لَهُ: لَا خِدْمَةَ عَلَيْهَا، وَأَنَّ هَذَا ظَلَمٌ لَهَا، بَلْ أَقْرَهُ عَلَى اسْتِخْدَامِهَا، وَأَقْرَبُ سَائِرِ أَصْحَابِهِ عَلَى اسْتِخْدَامِ أَزْوَاجِهِمْ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّ مِنْهُمْ الْكَارِهَةَ وَالرَّاضِيَةَ، هَذَا أَمْرٌ لَا رَيْبَ فِيهِ.

وَلَا يَصِحُّ التَّفْرِيقُ بَيْنَ شَرِيفَةٍ وَدَنِيئَةٍ، وَفَقِيرَةٍ وَغَنِيَةٍ، فَهَذِهِ أَشْرَفُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ كَانَتْ تَخْدُمُ زَوْجَهَا، وَجَاءَتْهُ ﷺ تَشْكُو إِلَيْهِ الْخِدْمَةَ، فَلَمْ يُشْكِبْهَا، وَقَدْ سَمَى النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الْمَرْأَةَ عَائِنَةً، فَقَالَ: «اتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّهُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ» [صحيح: أحمد: ٢٠٦٩٥، والترمذي: ١١٦٣، وابن ماجه: ١٨٥١]. والعاني: الأسير، ومرتبته الأسير خِدمَةٌ مِنْهُ هُوَ تَحْتَ يَدِهِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ النِّكَاحَ نَوْعٌ مِنَ الرِّقِّ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: النِّكَاحُ رِقٌّ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ عِنْدَ

(١) ذكره ابن فرج القرطبي المالكي في «أفضية رسول الله»، ص (٧٣). وابن حبيب.

من يرقى كرمته، ولا يخفى على المتصف الراجع من المذهبيين، والأقوى من الدليلين.

حُكْمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ يَقَعُ الشَّقَاقُ بَيْنَهُمَا

روى أبو داود في «سننه»: من حديث عائشة رضي الله عنها، أن حبيبة بنت سهل كانت عند ثابت بن قيس بن شماس، فضرى بها، فكسرت بعضها، فأنت النبي ﷺ بعد الصبح، فدعا النبي ﷺ ثابته، فقال: «خُذْ بَعْضَ مَا لَهَا وَفَارِقْهَا»، فقال: ويصلح ذلك يا رسول الله؟ قال: «نعم»، قال: فإني أصدقتهما حديثين، وهما بيدهما، فقال النبي ﷺ: «خُذْهُمَا وَفَارِقْهُمَا»، ففعل [حسن: أبو داود: ٢٢٢٨].

وقد حكم الله تعالى بين الزوجين يقع الشقاق بينهما بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَفَثَتْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْصُرُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّي اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ٣٥﴾ [النساء: ٣٥].

(هل الحكمان حاكمان أو وكيلان؟)

وقد اختلف السلف والخلف في الحكمين: هل هما حاكمان، أو وكيلان؟ على قولين.

أحدهما: أنهما وكيلان، وهو قول أبي حنيفة، والشافعي في قول، وأحمد في رواية.

والثاني: أنهما حاكمان، وهذا قول أهل المدينة، ومالك، وأحمد في الرواية الأخرى، والشافعي في القول الآخر، وهذا هو الصحيح.

(ادلة المصنف في ترجيح كون الحكمين حاكمين)

والعجب كل العجب ممن يقول: هما وكيلان لا حاكمان، والله تعالى قد نصبهما حَكَمِينَ، وجعل نصيهما إلى غير الزوجين، ولو كانا وكيلين، لقال: فليبعث وكيلاً من أهله، ولتبعث وكيلاً من أهلها.

وأيضاً فلو كانا وكيلين، لم يختصا بأن يكونا من الأهل.

وأيضاً فإنه جعل الحكم إليهما فقال: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّي اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: ٣٥]، والوكيلان لا إرادة لهما، إنما يتصرفان بإرادة موكليهما.

وأيضاً فإن الوكيل لا يسمى حَكَمًا في لغة القرآن،

ولا في لسان الشارع، ولا في العرف العام ولا الخاص.

وأيضاً فالحكم مَنْ له ولاية الحكم والإلزام، وليس للوكيل شيء من ذلك.

وأيضاً فإن الحكم أبلغ من حاكم، لأنه صفة مشبهة باسم الفاعل دالة على الثبوت، ولا خلاف بين أهل العربية في ذلك، فإذا كان اسم الحاكم لا يصدق على الوكيل المحض، فكيف بما هو أبلغ منه.

وأيضاً فإنه سبحانه خاطب بذلك غير الزوجين، وكيف يصح أن يؤكل عن الرجل والمرأة غيرهما، وهذا يحوج إلى تقدير الآية هكذا: ﴿وَإِنْ جَفَثَتْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ [النساء: ٣٥]، فمروهما أن يؤكلا وكيلين: وكيلاً من أهله، ووكيلاً من أهلها، ومعلومٌ بُعد لفظ الآية ومعناها عن هذا التفسير، وأنها لا تدل عليه بوجه، بل هي دالة على خلافه، وهذا بحمد الله واضح.

وبعث عثمان بن عفان عبد الله بن عباس ومعاوية حَكَمَيْنِ بين عقيل بن أبي طالب وامراته فاطمة بنت عتبة بن ربيعة، فقيل لهما: إن رأيكما أن تفرقا فرقتما [عبد الرزاق: ١١٨٨٥، والطبري (٤٥/٥)].

وصح عن علي بن أبي طالب أنه قال للحكمتين بين الزوجين، عليكما إن رأيكما أن تفرقا، فرقتما، وإن رأيكما أن تجتمعا، جمعتهما [صحيح: الشافعي (٣٦٢/٢)، والطبري: ٩٤٠٧، وعبد الرزاق: ١١٨٣، والبيهقي (٣٠٥/٧) - (٣٠٦)].

فهذا عثمان، وعلي، وابن عباس، ومعاوية، جعلوا الحكم إلى الحكمين، ولا يُعرف لهم من الصحابة مخالف، وإنما يُعرف الخلاف بين التابعين فمن بعدهم، والله أعلم.

وإذا قلنا: إنهما وكيلان، فهل يُجبر الزوجان على توكيل الزوج في الفرقة بعوض وغيره، وتوكيل الزوجة في بذل العوض، أو لا يُجبران؟ على روايتين، فإن قلنا: يجبران، فلم يوكلا، جعل الحاكم ذلك إلى الحكمين بغير رضى الزوجين، وإن قلنا: إنهما حَكَمَان، لم يحتج إلى رضى الزوجين.

وعلى هذا النزاع يبين ما لو غاب الزوجان أو أحدهما، فإن قيل: إنهما وكيلان، لم ينقطع نظر

الحكمين، وإن قيل: حكمان، انقطع نظرهما لعدم الحكم على الغائب، وقيل: يبقى نظرهما على القولين لأنهما يتطرفان لحظهما، فهما كالناظرين. وإن جُنَّ الزوجان، انقطع نظر الحكمين، إن قيل: إنهما وكيلان، لأنهما فرع الموكلين، ولم ينقطع إن قيل: إنهما حكمان، لأن الحاكم يلي على المجنون. وقيل: ينقطع أيضاً لأنهما منصوبان عنهما، فكأنهما وكيلان، ولا ريب أنهما حكمان فيهما شابة الوكالة، ووكيلان منصوبان للحكم، فمن العلماء من رجح جانب الحكم، ومنهم من رجح جانب الوكالة، ومنهم من اعتبر الأمرين.

حكم رسول الله ﷺ في الخلع

في «صحيح البخاري»: عن ابن عباس رضي الله عنه، أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس، أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله! ثابت بن قيس ما أعيب عليه في خلعي، ولا دين، ولكني أكثره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «تَرُدِّينَ عَلَيَّ حَديقَتَهُ؟» قالت: نعم، قال رسول الله ﷺ: «اقْبَلِ الحَديقَةَ وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً» [البخاري: ٥٢٧٣].

وفي «سنن النسائي»، عن الرُّبَيْعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ، أن ثابت بن قيس بن شماس ضَرَبَ امرأته فَكَسَرَ يدها، وهي جميلة بنت عبد الله بن أبي، فأتى أخوها يشتكيه إلى رسول الله ﷺ، فأرسل إليه، فقال: «خُذْ الَّذِي لَهَا عَلَيْكَ وَخَلِّ سَبِيلَهَا»، قال: نعم، فأمرها رسول الله ﷺ أن تَرَبِّصَ حِيضَةً وَاحِدَةً وتَلْحَقَ بأهلها [حسن: النسائي (١٨٦/٦)].

وفي «سنن أبي داود»: عن ابن عباس، أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس اختلعت من زوجها، فأمرها النبي ﷺ أن تعتدَّ حِيضَةً [حسن: أبو داود: ٢٢٢٥، والترمذي: ١١٨٥].

وفي «سنن الدارقطني» في هذه القصة: فقال النبي ﷺ: «أَتَرُدِّينَ عَلَيَّ حَديقَتَهُ الَّتِي أَعْطَاكَ؟» قالت: نَعَمْ وَزِيَادَةً، فقال النبي ﷺ: «أَمَّا الزِّيَادَةُ، فَلَا،

فَتَضْمِنُ هَذَا الْحُكْمَ النَّبَوِيَّ عِدَّةَ أَحْكَامٍ.

(جواز الخلع)

أحدها: جواز الخلع كما دلَّ عليه القرآن، قال تعالى: «وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُضَاهِيَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ بِمَا جَنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيهَا أَفَدَّتْ يَدُ» [البقرة: ٢٢٩]، ومنع الخلع طائفة شاذة من الناس خالفَت النصَّ والإجماع.

(حصول البينة بالخلع)

وفي الآية دليل على جوازه مطلقاً بإذن السلطان وغيره، ومنعه طائفة بدون إذنه، والأئمة الأربعة والجمهور على خلافه.

وفي الآية دليل على حصول البينة به، لأنه سبحانه سَمَّاهُ فدية، ولو كان رجعياً كما قاله بعض الناس لم يحصل للمرأة الافتداء من الزوج بما بذلته له، ودلَّ قوله سبحانه: «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيهَا أَفَدَّتْ يَدُ» [البقرة: ٢٢٩]، على جوازه بما قل وكثر، وأنَّ له أن يأخذ منها أكثر مما أعطاه.

وقد ذكر عبد الرزاق، عن معمر، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، أن الرُّبَيْعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ بن عفراء حدثته، أنها اختلعت من زوجها بِكُلِّ شيء تملكه، فحوصِمَ في ذلك إلى عثمان بن عفان، فأجازه، وأمره أن يأخذ عَقَاصَ رأسها فما دُونَهُ [عبد الرزاق: ١١٨٥٠].

وذكر أيضاً عن ابن جريج، عن موسى بن عقبة، عن نافع، أن ابن عمر جاءته مولاة لامرأته اختلعت من كل شيء لها وكلُّ ثوب لها حتى نُفِيتِهَا^(١) [عبد الرزاق: ١١٨٥٣].

ورفعت إلى عمر بن الخطاب امرأة نشزت عن زوجها، فقال: اخلعها ولو من قُرطها. ذكره حماد بن

(١) والنقبة: قال الجوهري: ثوب كالإزار يجعل له حجة مخيطة من غير بُقْعِي، ويشد كما يشد السراويل. وقد تحرفت هذه اللفظة في «المصنف» المطبوع إلى «نفسها».

سلمة، عن أيوب، عن كثير بن أبي كثير عنه [ابن حزم
(١٠/٢٤٠)، ومبد الرزاق: ١١٨٥١].

فصل

(حكم الرجعة من الخلع في العدة)

وفي تسميته سبحانه الخلع قديّة، دليل على أن فيه معنى المعاوضة، ولهذا اعتُبر فيه رضى الزوجين، فإذا تَقَايَلَا الخَلْعُ ورُدَّ عليها ما أخذ منها، وارتجعها في العِدَّة، فهل لهما ذلك؟ منعه الأئمة الأربعة وغيرهم وقالوا: قد بانت منه بنفس الخلع، وذكر عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، عن سعيد بن المسيّب أنه قال في المختلعة: إن شاء أن يُراجِعَهَا، فليردَّ عليها ما أخذ منها في العدة، وليشهد على رجعتها. قال معمر: وكان الزهري يقول مثل ذلك [عبد الرزاق: ١١٧٩٧]. قال قتادة: وكان الحسن يقول: لا يُراجِعها إلَّا بِخُطْبَةٍ [عبد الرزاق: ١١٧٩٥].

ولقول سعيد بن المسيّب، والزهري وجّهٌ دقيق من الفقه، لطيف المأخذ، تتلقاه قواعدُ الفقه وأصوله بالقبول، ولا نكارة فيه، غير أن العمل على خلافه، فإن المرأة ما دامت في العدة فهي في حبسه، ويلحقها صريح طلاق المنجز عند طائفة من العلماء، فإذا تَقَايَلَا عقد الخلع، وتراجعا إلى ما كانا عليه بتراضيهما، لم تمنع قواعدُ الشرع ذلك، وهذا بخلاف ما بعد العِدَّة، فإنها قد صارت منه أجنبية محضة، فهو خاطبٌ من الخطاب، ويدلُّ على هذا أن له أن يتزوجها في عدتها منه بخلاف غيره.

فصل

(ما يستنبط من أمره ﷺ المختلعة)

إن تعدد بحيضة واحدة عدة المختلعة حيضة واحدة) وفي أمره ﷺ المختلعة أن تعدت بحيضة واحدة، دليل على حكمين، أحدهما: أنه لا يجبُ عليها ثلاث حيض، بل تكفيها حيضة واحدة، وهذا كما أنه صريحُ السنة، فهو مذهبُ أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، والرُّبَيْع بنتُ معوذ، وعمها وهو من كبار الصحابة، لا يُعرف لهم مخالفتُ منهم، كما رواه الليث بن سعد، عن نافع مولى ابن عمر، أنه سمع الرُّبَيْع بنتَ معوذ بن عفراء وهي تُخبرُ عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنها اختلعت من زوجها على عهد

وذكر عبد الرزاق، عن معمر، عن ليث، عن الحكم بن عُتَيْبَة، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لا يأخذُ منها فوق ما أعطاهَا [عبد الرزاق: ١١٨٤٤].

وقال طاوس: لا يَحِلُّ أن يأخذَ منها أكثرَ مما أعطاهَا [عبد الرزاق: ١١٨٣٩]. وقال عطاء: إن أخذ زيادة على صداقتها فالزيادةُ مردودة إليها. وقال الزهري: لا يَحِلُّ له أن يأخذَ منها أكثرَ مما أعطاهَا. وقال ميمون بن مهران: إن أخذَ منها أكثرَ مما أعطاهَا لم يُسَرِّحْ بإحسان. وقال الأوزاعي: كانت القضاة لا تُجيز أن يأخذَ منها شيئاً إلَّا ما ساق إليها [المعلّى، (١٠/٢٤٠)].

والذين جَوَّزوه احتجوا بظاهر القرآن، وآثار الصحابة، والذين منعه، احتجوا بحديث أبي الزبير، أن ثابت بن قيس بن شماس لما أراد خَلَعَ امرأته، قال النبي ﷺ: «أَتَرَدِّينَ عَلَيَّ حَدِيثَهُ؟» قالت: نعم وَزِيادَة، فقال النبي ﷺ: «أما الزيادة، فلا [الدارقطني (٣٩١ - ٣٩٢)]. قال الدارقطني: سمعه أبو الزبير من غير واحد، وإسناده صحيح.

قالوا: والآثار من الصحابة مختلطة، فمنهم من رُوِيَ عنه تحريمُ الزيادة، ومنهم من رُوِيَ عنه إباحتها، ومنهم مَنْ رُوِيَ عنه كراهتها، كما روى وكيع عن أبي حنيفة، عن عمار بن عمران الهمداني، عن أبيه، عن علي رضي الله عنه، أنه كره أن يأخذ منها أكثر مما أعطاهَا، والإمامُ أحمد أخذ بهذا القول، ونصَّ على الكراهة، وأبو بكر من أصحابه حرَّم الزيادة، وقال: ترد عليها.

وقد ذكر عبد الرزاق، عن ابن جريج، قال: قال لي عطاء: أتت امرأة رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله! إني أبغضُ زوجي وأحبُّ فراقه، قال: «فَتَرَدِّينَ عَلَيَّ حَدِيثَهُ الَّتِي أَصْدَقَكِ؟» قالت: نعم وَزِيادَة من مالي، فقال رسول الله ﷺ: «أما الزيادة من مالك فلا ولكنَّ الحَدِيثَ»، قالت: نعم، فقضى بذلك على الزوج [عبد الرزاق: ١١٨٤٢] وهذا وإن كان مرسلًا، فحديث أبي الزبير مُقَوَّى له، وقد رواه ابنُ جريج عنهما.

وعثمان بن عفان، فجاء عُمها إلى عثمان بن عفان، فقال له: إن ابنة مُعَوِّذٍ اختلعت من زوجها اليوم، أفتنتقل؟ فقال عثمان: لَيْسَتْ بِمِيرَاثٍ بَيْنَهُمَا، وَلَا عِدَّةٌ عَلَيْهَا إِلَّا أَنَّهُ لَا تَنْكِحُ حَتَّى تَحِيضَ حِيضَةً خَشِيَةَ أَنْ يَكُونَ بِهَا حَبْلٌ. فقال عبد الله بن عمر: فعثمان خيرُنا وأعلمُنا [ابن حزم ١٠/٣٧]، وذهب إلى هذا المذهب إسحاق بن راهويه، والإمام أحمد في رواية عنه، اختارها شيخُ الإسلام ابن تيمية.

قال من نصر هذا القول: هو مقتضى قواعد الشريعة، فإن العدة إنما جُعِلَتْ ثَلَاثَ حِيضٍ لِيُطَوَّلَ زَمَنُ الرَّجْعَةِ، فَيَتَرَوَّى الزَّوْجُ، وَيَتَمَكَّنَ مِنَ الرَّجْعَةِ فِي مَدَةِ الْعِدَّةِ، فَإِذَا لَمْ تَكُنْ عَلَيْهَا رَجْعَةً، فَالْمَقْصُودُ مَجْرَدُ بَرَاءَةِ رَجْعِهَا مِنَ الْحَمْلِ، وَذَلِكَ يَكْفِي فِي حِيضَةٍ، كَالِاسْتِبْرَاءِ. قالوا: وَلَا يَنْتَقِضُ هَذَا عَلَيْنَا بِالْمَطْلَقَةِ ثَلَاثًا، فَإِنَّ بَابَ الطَّلَاقِ جُوعِلَ حَكْمُ الْعِدَّةِ فِيهِ وَاحِدًا بَائِتَةً وَرَجْعِيَّةً.

(الخلع فسخ)

قالوا: وهذا دليل على أن الخلع فسخ، وليس بطلاق، وهو مذهبُ ابن عباس، وعثمان، وابن عمر، والرُّبَيْع، وعُمها، وَلَا يَصِحُّ عَنْ صَحَابِيٍّ أَنَّهُ طَلَّقَ الْبَيْتَةَ، فَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ عَمْرٍو، عَنْ طَاوُسٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: الْخُلْعُ تَفْرِيقٌ، وَلَيْسَ بِطَلَّاقٍ [ابن حزم ١٠/٢٣٧].

وذكر عبد الرزاق، عن سُفْيَانَ، عَنْ عَمْرٍو، عَنْ طَاوُسٍ، أَنَّ إِبْرَاهِيمَ بْنَ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ سَأَلَهُ عَنْ رَجُلٍ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ تَطْلِيقَتَيْنِ، ثُمَّ اخْتَلَعَتْ مِنْهُ، أَيْنَكُحُّهَا؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَعَمْ ذَكَرَ اللَّهُ الطَّلَاقَ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ وَأَخْرَجَهَا، وَالْخُلْعَ بَيْنَ ذَلِكَ [عبد الرزاق: ١١٧٧١].

فإن قيل: كيف تقولون: إنه لا مخالف لمن ذكرتم من الصحابة، وقد روى حماد بن سلمة، عن هشام ابن عروة، عن أبيه، عن جُمُهَا، أَنَّ أُمَّ بَكْرَةَ الْأَسْلَمِيَّةِ كَانَتْ تَحْتَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُسَيْدٍ وَاخْتَلَعَتْ مِنْهُ، فَتَبَيَّنَا، فَارْتَفَعَا إِلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ، فَاجَازَ ذَلِكَ، وَقَالَ: هِيَ وَاحِدَةٌ إِلَّا أَنْ تَكُونَ سَمْتًا شَيْئًا، فَهُوَ عَلَى مَا سَمْتُ [البهقي ٧/٣١٦].

(الدليل على أن الخلع ليس بطلاق)

وأما أثر علي بن أبي طالب، فقال أبو محمد بن حزم: رويناه من طريق لا يصح عن علي رضي الله عنه. وأمثلة: أثر ابن مسعود على سوء حفظ ابن أبي ليلى، ثم غايته إن كان محفوظاً أن يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الطَّلَاقَ فِي الْخُلْعِ تَقَعُ بَائِتَةً لَا أَنَّ الْخُلْعَ يَكُونُ طَلَاقًا بَائِتًا، وَبَيْنَ الْأَمْرَيْنِ فَرْقٌ ظَاهِرٌ. وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِطَلَّاقٍ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى رَتَّبَ عَلَى الطَّلَاقِ بَعْدَ الدُّخُولِ الَّذِي لَمْ يَسْتَوْفِ عَدَدَهُ ثَلَاثَةَ أَحْكَامٍ، كُلُّهَا مُتَضَمِّةٌ عَنِ الْخُلْعِ. أَحَدُهَا: أَنَّ الزَّوْجَ أَحَقُّ بِالرَّجْعَةِ فِيهِ. الثَّانِي: أَنَّهُ مُحْسُوبٌ مِنَ الثَّلَاثِ، فَلَا تَجُلُّ بَعْدَ اسْتِيفَاءِ الْعِدَّةِ إِلَّا بَعْدَ زَوْجٍ وَإِصَابَةٍ. الثَّلَاثُ: أَنَّ الْعِدَّةَ فِيهِ ثَلَاثَةُ قُرُوءٍ، وَقَدْ ثَبِتَ بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ أَنَّهُ لَا رَجْعَةَ فِي الْخُلْعِ، وَثَبِتَ بِالسَّنَةِ وَأَقْوَالِ الصَّحَابَةِ أَنَّ الْعِدَّةَ فِيهِ حِيضَةٌ وَاحِدَةٌ، وَثَبِتَ بِالنَّصِّ جَوَازَهُ بَعْدَ طَلْقَتَيْنِ، وَوُقُوعَ ثَالِثَةٍ بَعْدَهُ، وَهَذَا ظَاهِرٌ جَدًّا فِي كَوْنِهِ لَيْسَ بِطَلَّاقٍ، فَإِنَّهُ سَبَّحَانَهُ قَالَ: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِذْنٍ وَلَا يُحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وَهَذَا وَإِنْ لَمْ يَخْتَصْ بِالْمَطْلُوقَةِ تَطْلِيقَتَيْنِ، فَإِنَّهُ يَتَنَاولُهَا وَغَيْرُهَا، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرُ إِلَى مَنْ لَمْ يَذْكَرْ، وَيُخْلَى مِنْهُ الْمَذْكُورُ، بَلْ إِمَّا أَنْ يَخْتَصَّ بِالسَّابِقِ أَوْ يَتَنَاولَهُ وَغَيْرِهِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ

لَوْ مِنْ بَدْءِ [البقرة: ٢٣٠]، وهذا يتناول مَنْ طَلقت بعد فدية وطلقتين قطعاً لأنها هي المذكورة، فلا بُدَّ من دخولها تحت اللفظ، وهكذا فهِمَ تَرْجُمَانُ الْقُرْآنِ الَّذِي دَعَا لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُعَلِّمَهُ اللَّهُ تَأْوِيلَ الْقُرْآنِ، وهي دعوة مستجابة بلا شك.

وإذا كانت أحكام الفدية غير أحكام الطلاق، ذَلَّ على أنها من غير جنسه، فهذا مقتضى النص، والقياس، وأقوال الصحابة، ثم من نظر إلى حقائق العقود ومقاصدها دون ألفاظها يَدُ الخلع فسخاً بأي لفظ كان حتى بلفظ الطلاق، وهذا أحد الوجهين لأصحاب أحمد، وهو اختيار شيخنا. قال: وهذا ظاهر كلام أحمد، وكلام ابن عباس وأصحابه. قال ابن جريج: أخبرني عمرو بن دينار، أنه سمع عكرمة مولى ابن عباس يقول: ما أجازَه المال، فليس بطلاق. قال عبد الله بن أحمد: رأيت أبي كان يذهب إلى قول ابن عباس. وقال عمرو، عن طاوس عن ابن عباس: الخلع تفریق وليس بطلاق، وقال ابن جريج، عن ابن طاوس: كان أبي لا يرى الفداء طلاقاً ويُخَيَّرُهُ.

ومن اعتبر الألفاظ ووقف معها، واعتبرها في أحكام العقود، جعله بلفظ الطلاق طلاقاً، وقواعد الفقه وأصوله تشهد أن المَرْعِيَّ في العقود حقائقها ومعانيها لا صورها وألفاظها، وبالله التوفيق.

ومما يَدُلُّ على هذا، أن النبي ﷺ أمر ثابت بن قيس أن يُطَلِّقَ امرأته في الخُلْعِ طليقةً، ومع هذا أمرها أن تعتد بحیضة، وهذا صريح في أنه فسخ، ولو وقع بلفظ الطلاق.

وأيضاً فإنه سبحانه علّق عليه أحكام الفدية بكونه فدية، ومعلوم أن الفدية لا تختص بلفظ، ولم يُعين الله سبحانه لها لفظاً معيناً، وطلاق الفداء طلاق مقيد، ولا يدخل تحت أحكام الطلاق المطلق، كما لا يدخل تحتها في ثبوت الرجعة والاعتداد بثلاثة قروء بالسنة الثابتة، وبالله التوفيق.

ذكر أحكام رسول الله ﷺ في الطلاق

ذكر حكمه ﷺ في طلاق الهازل، وزائل العقل، والمكره والتطليق في نفسه

في «السنن»: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، «ثَلَاثُ جُذُوعٍ جِدُّ، وَهَزْلُهُنَّ جِدُّ: النِّكَاحُ، وَالطَّلَاقُ، وَالرَّجْعَةُ» [أبو داود: ٢١٩٤، والترمذي: ١١٨٤].

وفيها: عنه من حديث ابن عباس^(١): «إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنِ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالشَّيْثَانَ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ» [ابن ماجه: ٢٠٤٥، والداودقني (٧٩٧)، والحاكم (١٩٨/٢)، وابن حبان: ١٤٩٨، والبيهقي (٣٥٦/٧)، وسنده قوي].

وفيها: عنه ﷺ، «لَا طَّلَاقَ وَلَا عِتَاقَ فِي إِغْلَاقٍ» [حسن: أحمد: ٢٦٣٦٠، وأبو داود: ٢١٩٣، وابن ماجه: ٢٠٤٦].

وصح عنه أنه قال للمُقَرَّرِ بالزنى: «أَبِكَ جُنُونٌ؟» وثبت عنه أنه أمر به أن يُسْتَنَكَهُ.

وذكر البخاري في «صحيحه»: عن علي، أنه قال لِعُمَرَ: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الْقَلَمَ رُفِعَ عَنْ ثَلَاثَ: عَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُقَيَّقَ، وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يُدْرِكَ، وَعَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ^(٢).

وفي «الصحيح» عنه ﷺ، «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُهَا مَا لَمْ تَكَلِّمْ، أَوْ تَعْمَلْ بِهِ» [البخاري: ٥٢٦٩، ومسلم: ١٣٣١].

(النية والقصد عفو غير لازم إن لم ينطق بها اللسان) فتضمنت هذه السنن، أن ما لم يُنطَقْ به اللسان من طلاق أو عتاق، أو يمين، أو نذر ونحو ذلك، عفو غير لازم بالنية والقصد، وهذا قول الجمهور، وفي المسألة قولان آخران.

أحدهما: التوقف فيها، قال عبد الرزاق، عن معمر: سئل ابن سيرين عن من طلق في نفسه، فقال: أليس قد عَلِمَ اللَّهُ مَا فِي نَفْسِكَ؟ قال: بلى، قال: فلا أقول فيها شيئاً.

(١) في الأصل عائشة، وهو وهم من المؤلف، فلم يروه عنها أحد فيما نعلم.

(٢) البخاري باب الطلاق في الإغلاق والمكره والسكران والمجنون وأمرهما والغلط والنسيان.

القلب، فإن الكبر والمُجَب والرياء وظنُّ السوء محرّمات على القلب، وهي أمور اختيارية يمكن اجتنبائها فيستحق العقوبة على فعلها، وهي أسماء لمعان مسمياتها قائمة بالقلب.

وأما الحِثاق والطلاق، فاسمان لمسميين قائمين باللسان، أو ما ناب عنه من إشارة أو كتابة، وليس اسمين لما في القلب مجرداً عن النطق.

(كلام الهازل بالطلاق والنكاح والرجعة معتبر)

وتضمنت أن المكلف إذا هَزَلَ بالطلاق، أو النكاح، أو الرجعة، لَزَمَهُ ما هَزَلَ به، فدل ذلك على أن كلام الهازل معتبر وإن لم يُعتبر كلامُ النائم والناسي، وزائل العقل والمكره، والفرق بينهما أن الهازل قاصد للفظ غير مريد لحكمه، وذلك ليس إليه، وإنما إلى المكلف الأسباب، وأما ترتُّب مسبباتها وأحكامها، فهو إلى الشارع قصده المكلف أو لم يقصده، والعبرة بقصده السبب اختياراً في حال عقله وتكليفه، فإذا قصده، رتَّب الشارعُ عليه حكمه جدُّ به أو هَزَلَ، وهذا بخلاف النائم والمبرَّس، والمجنون والسكران وزائل العقل، فإنهم ليس لهم قصد صحيح، وليسوا مكلفين، فالفاظُّهم لغو بمنزلة الفاظُ الطفل الذي لا يعقل معناها، ولا يقصده.

وبير المسألة الفرق بين من قصد اللفظ، وهو عالم به ولم يُرد حكمه، وبين من لم يقصد اللفظ ولم يعلم معناه، فالمراتب التي اعتبرها الشارع أربعة.

إحداها: أن لا يقصد الحكم ولا يتلفظ به.

الثانية: أن لا يقصد اللفظ ولا حكمه.

الثالثة: أن يقصد اللفظ دون حكمه.

(ما يباح للمكره وما لا يباح)

الرابعة: أن يقصد اللفظ والحكم، فالأوليان لغو، والآخرتان معتبرتان. هذا الذي استُقيِد من مجموع نصوصه وأحكامه، وعلى هذا فكلّام المكره كلّ لغو لا عبرة به، وقد دلّ القرآن على أن من أكره على التكلم بكلمة الكفر لا يكفر، ومن أكره على الإسلام لا يصير به مسلماً، ودلّت السنة على أن الله سبحانه تجاوز عن المكره، فلم يؤاخذه بما أكره عليه، وهذا يُراد به كلامه قطعاً، وأما أفعاله، ففيها تفصيل، فما أبيض منها بالإكراه فهو متجاوز عنه، كالأكل في نهار

والثاني: وقوعه إذا جرّم عليه، وهذا رواية أشهب عن مالك، ورؤي عن الزهري، وحجة هذا القول قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»، وأن من كفر في نفسه، فهو كفر، وقوله تعالى: ﴿وإن تُبدُوا ما في أنفسكم أو تُخفوهوا يُعاسبكم به الله﴾ [البقرة: ٢٨٤]، وأن المصّر على المعصية فاسق مؤاخذ وإن لم يفعلها، وبأن أعمال القلوب في الثواب والعقاب كأعمال الجوارح، ولهذا يُناب على الحب والبغض، والموالة والمعاداة في الله، وعلى التوكل والرّضى، والعزم على الطاعة، ويُعاقب على الكبر والحسد، والمُجَب والشك، والرياء وظنُّ السوء بالأبرياء.

ولا حجة في شيء من هذا على وقوع الطلاق والعتاق بمجرد النية من غير تلفظ، أما حديث «الأعمال بالنيات»: فهو حجة عليهم، لأنه أخبر فيه أن العمل مع النية هو المعتبر، لا النية وحدها، وأما من اعتقد الكفر بقلبه أو شك، فهو كافر لزوال الإيمان الذي هو عقد القلب مع الإقرار، فإذا زال العقد الجازم، كان نفس زواله كفراً، فإن الإيمان أمر وجودي ثابت قائم بالقلب، فما لم يقم بالقلب، حصلَّ ضده وهو الكفر، وهذا كالعلم والجهل إذا فقد العلم، حصل الجهل، وكذلك كلّ نقيضين زال أحدهما خلفه الآخر.

وأما الآية فليس فيها أن المحاسبة بما يُخفيه العبد إلزامه بأحكامه بالشرع، وإنما فيها محاسبته بما يُبديه أو يُخفيه، ثم هو مغفور له أو معذَّب، فأين هذا من وقوع الطلاق بالنية. وأما أن المصّر على المعصية فاسق مؤاخذ، فهذا إنما هو فيمن عيّل المعصية، ثم أصرَّ عليها، فهنا عمل اتصل به العزم على معاودته، فهذا هو المصّر، وأما مَنْ عزم على المعصية ولم يعمَلها، فهو بين أمرين، إما أن لا تُكتب عليه، وإما أن تُكتب له حسنة إذا تركها لله عزَّ وجلَّ. وأما الثواب والعقاب على أعمال القلوب فحق، والقرآن والسنة مملوآن به، ولكن وقوع الطلاق والعتاق بالنية من غير تلفظ أمر خارج عن الثواب والعقاب، ولا تلازم بين الأمرين، فإن ما يُعاقب عليه من أعمال القلوب هو معاصٍ قلبية يستحق العقوبة عليها، كما يستحقه على المعاصي البدنية إذ هي مُنافية لعبودية

أردت؟ قال: واحدة، قال: أَلَّوْ، قال: أَلَّوْ، قال: هو ما أردت [أحمد: ٢٣٨٧، وأبو داود: ٢٢٠٦، وابن حبان: ١٣٢١، والحاكم (١٩٩/٢)] فقبل منه نَيْتُهُ في اللفظ المحتمل. وقد قال مالك: إذا قال: أنت طالق البتة، وهو يُريد أن يحلف على شيء ثم بدا له، فترك اليمين، فليست طالقاً، لأنه لم يُرد أن يطلقها، وبهذا أفتى الليث بن سعد، والإمام أحمد، حتى إن أحمد في رواية عنه: يُقبل منه ذلك في الحكم.

وهذه المسألة لها ثلاث صور.

أحداها: أن يرجع عن يمينه ولم يكن التنجيز مراده، فهذه لا تطلق عليه في الحال، ولا يكون حالاً.

الثانية: أن يكون مقصوده اليمين لا التنجيز، فيقول: أنت طالق، ومقصوده: إن كلمت زيداً.

الثالثة: أن يكون مقصوده اليمين من أول كلامه، ثم يرجع عن اليمين في أثناء الكلام، ويجعل الطلاق منجزاً، فهذا لا يقع به، لأنه لم ينو به الإيقاع، وإنما نوى به التعليق، فكان قاصراً عن وقوع المنجز، فإذا نوى التنجيز بعد ذلك لم يكن قد أتى في التنجيز بغير النية المجردة، وهذا قول أصحاب أحمد. وقد قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفُلُوْغِ فِيْ أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

(اللفو في اليمين)

واللفو: نوعان، أحدهما: أن يحلف على الشيء يظنه كما حلف عليه، فيتبين بخلافه. والثاني: أن تجري اليمين على لسانه من غير قصد للحلف، كلاً والله، وبلى والله في أثناء كلامه، وكلاهما رفع الله المؤاخذه به، لعدم قصد الحالف إلى عقد اليمين وحقيقتها، وهذا تشريع منه سبحانه لعباده ألا يرتبوا الأحكام على الألفاظ التي لم يقصد المتكلم بها حقائقها ومعانيها، وهذا غير الهازل حقيقةً وحكماً.

(لا يقع طلاق المكره وإقراره)

وقد أفتى الصحابة بعدم وقوع طلاق المكره وإقراره، فصح عن عمر أنه قال: ليس الرجل بأمين على نفسه إذا أوجعته أو ضربته أو أوثقته، وصح عنه أن رجلاً تدلى بحبل ليشتار عسلاً، فأتت امرأته فقالت: لأقطعن الحبل، أو لتطلقني، فناشدها الله،

رمضان، والعمل في الصلاة، ولبس المخيط في الإحرام ونحو ذلك، وما لا يُباح بالإكراه، فهو مؤاخذ به، كقتل المعصوم، وإتلاف ماله، وما اختلف فيه كشرب الخمر والزنى والسرقة هل يُحَدُّ به أو لا؟ فالاختلاف، هل يباح ذلك بالإكراه أو لا؟ فمن لم يُبَيِّحْ حدّه به، ومن أباحه بالإكراه لم يُحدّه، وفيه قولان للعلماء، وهما روايتان عن الإمام أحمد.

(عدم وقوع الطلاق بلفظ لم يقصد به الطلاق)

والفرق بين الأقوال والأفعال في الإكراه، أن الأفعال إذا وقعت، لم ترتفع مفسدتها، بل مفسدتها معها بخلاف الأقوال، فإنها يمكن إلغاؤها وجعلها بمنزلة أقوال النائم والمجنون، فمفسدة الفعل الذي لا يُباح بالإكراه ثابتة بخلاف مفسدة القول، فإنها إنما تثبت إذا كان قائله عالماً به مختاراً له. وقد روى وكيع عن ابن أبي ليلى، عن الحكم بن عتيبة، عن خيثمة بن عبد الرحمن، قال: قالت امرأة لزوجها: سمني، فسمّاها الظبية، فقالت: ما قلت شيئاً، قال: فهات ما أسميك به، قالت: سمني خلية طالقاً، قال: أنت خلية طالق، فأتت عمر بن الخطاب، فقالت: إن زوجي طلقني، فجاء زوجها، فقص عليه القصة، فأوجع عمر رأسها، وقال لزوجها: خذ بيدها، وأوجع رأسها.

فهذا الحكم من أمير المؤمنين بعدم الوقوع لما لم يقصد الزوج اللفظ الذي يقع به الطلاق، بل قصد لفظاً لا يُريد به الطلاق، فهو كما لو قال لأميته أو غلامه: إنها حرة، وأراد أنها ليست بفاجرة، أو قال لامرأته: أنت مسرحة، أو سرحك، ومراده تسريح الشعر ونحو ذلك، فهذا لا يقع عقده ولا طلاقه بينه وبين الله تعالى، وإن قامت قرينة أو تصادقا في الحكم لم يقع به.

فإن قيل: فهذا من أي الأقسام؟ فإنكم جعلتم المراتب أربعة، ومعلوم أن هذا ليس بمكره ولا زائل العقل، ولا هازل، ولا قاصد لحكم اللفظ؟ قيل: هذا متكلم باللفظ مريد به أحد معنييه، فلزم حكم ما أراده بلفظه دون ما لم يردّه، فلا يلزم بما لم يردّه باللفظ إذا كان صالحاً لما أراده، وقد استحلّف النبي ﷺ زكّانة لما طلق امرأته البتة، فقال: ما

قابت، فطلقها، فأتى عمر فذكر له ذلك، فقال له: ارجع إلى امرأتك، فإن هذا ليس بطلاق. وكان علي لا يُجيز طلاق المكره، وقال ثابت الأعرج: سألت ابنَ عمر، وابن الزبير عن طلاق المكره، فقالا جميعاً: ليس بشيء.

فإن قيل: فما تصنعون بما رواه الغازي بن جبلة، عن صفوان بن عمران الأصم، عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، أن رجلاً جلست امرأته على صدره، وجعلت السكين على حلقه، وقالت له: طلقني أو لأذبحنك، فناشدتها، قابت، فطلقها ثلاثاً، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «لا قِيلُولَةٌ فِي الطَّلَاقِ»^(١) رواه سعيد بن منصور في «سننه». وروى عطاء بن عجلان، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «كُلُّ الطَّلَاقِ جَائِزٌ إِلَّا طَّلَاقَ الْمَغْتَوِّ وَالْمَغْلُوبِ عَلَى عَقْلِهِ».

فصل

(طلاق السكران)

وأما طلاق السكران، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الشَّكْرَةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، فجعل سُبْحَانَهُ قول السكران غير معتبر، لأنه لا يَعْلَمُ ما يقول، وصَحَّ عنه ﷺ أنه أمر بالمُقَرَّر بالزنى أن يُسْتَنَكَّ ليعتبر قوله الذي أقر به أو يُلغى.

وفي «صحيح البخاري» في قصة حمزة، لما عَفَرَ بَعِيزَ عَلِيٍّ، فجاء النبي ﷺ، فَوَقَفَ عَلَيْهِ يَلُومُهُ، فَصَعَّدَ فِيهِ النَّظَرَ وَصَوَّبَهُ وَهُوَ سَكَرَانٌ، ثُمَّ قَالَ: هَلْ أَنْتُمْ إِلَّا عَبِيدٌ لَأَيٍّ، فَكَصَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى عَقْبِهِ [البخاري: ٤٠٠٣]. وهذا القول لو قاله غير سكران، لكان رَدَةً وَكُفْرًا، ولم يُؤَاخَذَ بِذَلِكَ حمزة.

وصح عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال: ليس لِمَجْنُونٍ، ولا سكران طلاق. رواه ابن أبي شيبة، عن وكيع، عن ابن أبي ذئب، عن الزهري، عن أبان بن عثمان، عن أبيه^(٢).

وقال عطاء: طلاق السكران لا يجوز، وقال ابن طاوس عن أبيه: طلاق السكران لا يجوز [عبد الرزاق: ١٢٣٠٩]. وقال القاسم بن محمد: لا يجوز طلاقه.

وصح عن عمر بن عبد العزيز أنه أتى بِسَكَرَانَ طَلَّقَ، فاستحلفه بالله الذي لا إله إلا هو: لقد طلقها وهو لا يَعْقِلُ، فحلف، فَرَدَّ إِلَيْهِ امرأته، وضربه الحد [المعلى: (١٠/٢١٠)].

وهو مذهب يحيى بن سعيد الأنصاري، وحديد بن عبد الرحمن، وربيعة، والليث بن سعد، وعبد الله بن

فإن قيل: فما تصنعون بما رواه الغازي بن جبلة، عن صفوان بن عمران الأصم، عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، أن رجلاً جلست امرأته على صدره، وجعلت السكين على حلقه، وقالت له: طلقني أو لأذبحنك، فناشدتها، قابت، فطلقها ثلاثاً، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «لا قِيلُولَةٌ فِي الطَّلَاقِ»^(١) رواه سعيد بن منصور في «سننه». وروى عطاء بن عجلان، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «كُلُّ الطَّلَاقِ جَائِزٌ إِلَّا طَّلَاقَ الْمَغْتَوِّ وَالْمَغْلُوبِ عَلَى عَقْلِهِ».

وروى سعيد بن منصور: حدثنا فرج بن فضالة، حدثني عمرو بن شراحيل المعافري، أن امرأة استلث سيفاً، فوضعت على بطن زوجها، وقالت: والله لأنفذنك، أو لتطلقني، فطلقها ثلاثاً فَرَفَعَ ذَلِكَ إِلَى عمر بن الخطاب، فأَمْضَى طلاقها. وقال علي: كل الطلاق جائرٌ إِلَّا طلاق المعتوه.

قيل: أما خبر الغازي بن جبلة، ففيه ثلاث علل. إحداها: ضعف صفوان بن عمرو، والثانية: لين الغازي بن جبلة، والثالثة: تدليس بقية الراوي عنه، ومثل هذا لا يحتج به. قال أبو محمد بن حزم: وهذا خبر في غاية السقوط.

وأما حديث ابن عباس: «كل الطلاق جائز» فهو من رواية عطاء بن عجلان، وضعفه مشهور، وقد رُمي بالكذب. قال أبو محمد بن حزم: وهذا الخبر شرٌّ من الأول.

وأما أثر عمر، فالصحيح عنه خلافه كما تقدم، ولا يعلم معاصرة المعافري لعمر، وفرج بن فضالة فيه ضعف.

(١) الغازي بن جبلة، قال البخاري: حديث منكر في طلاق المكره، وصفوان بن عمران قال أبو حاتم: ليس بقوي، وقال البخاري: حديث منكر لا يتابع عليه.

(٢) رجاله ثقات.

عن الحسن، وإسحاق بن راهويه، وأبي ثور، والشافعي في أحد قوليه، واختاره المزي وغيره من الشافعية، ومذهب أحمد في إحدى الروايات عنه، وهي التي استقر عليها منعه، وصرح برجوعه إليها، فقال في رواية أبي طالب: الذي لا يأمر بالطلاق، إنما أتى خصلة واحدة، والذي يأمر بالطلاق، فقد أتى خصلتين، حرّمها عليه، وأحلّها لغيره، فهذا خير من هذا، وأنا أتقي جميعاً. وقال في رواية الميموني: قد كنت أقول: إن طلاق السكران يجوز حتى تبيته، فقلب علي: أنه لا يجوز طلاقه، لأنه لو أقر، لم يلزمه، ولو باع، لم يجز بيعه، قال: وألزمه الجنابة، وما كان من غير ذلك، فلا يلزمه. قال أبو بكر عبد العزيز: وبهذا أقول، وهذا مذهب أهل الظاهر كلّهم، واختاره من الحنفية أبو جعفر الطحاوي، وأبو الحسن الكرخي.

(حجج من أوقع طلاق السكران)

والذين أوقعوه لهم سبعة مآخذ.

أحدها: أنه مكلف، ولهذا يؤخذ بجنائياته.

والثاني: أن إيقاع الطلاق عقوبة له.

والثالث: أن ترتب الطلاق على التطليق من باب ربط الأحكام بأسبابها، فلا يؤثر فيه السكر.

والرابع: أن الصحابة أقاموه مقام الصّاحي في كلامه، فإنهم قالوا: إذا شرب، سكر، وإذا سكر، هذى، وإذا هذى، افترى، وخذ المفترى ثمانون.

والخامس: حديث: «لا قيلولة في الطلاق» وقد تقدم.

السادس: حديث: «كل طلاق جائز إلا طلاق المعتوه»، وقد تقدم.

والسابع: أن الصحابة أوقعوا عليه الطلاق، فرواه أبو عبيد عن عمر، ومعاوية، ورواه غيره عن ابن عباس. قال أبو عبيد: حدثنا يزيد بن هارون، عن جرير بن حازم، عن الزبير بن الحارث، عن أبي ليلى، أن رجلاً طلق امرأته وهو سكران، فرفع إلى عمر بن الخطاب، وشهد عليه أربع نسوة ففرق عمر بينهما [المحلى] (٢٠٩/١٠)، وسنن البيهقي (٣٥٩/٧).

قال: وحدثنا ابن أبي مريم، عن نافع بن يزيد،

(الرد على حجج من أوقع طلاق السكران)

فأما المآخذ الأول، وهو: أنه مكلف، فباطل، إذ الإجماع منعقد على أن شرط التكليف العقل، ومن لا يعقل ما يقول، فليس بمكلف.

وأيضاً فلو كان مكلفاً، لوجب أن يقع طلاقه إذا كان مكرهاً على شربها، أو غير عالم بأنها خمر، وهم لا يقولون به.

وأما خطابه، فيجب حملُه على الذي يعقل الخطاب، أو على الصّاحي، وأنه نُهي عن السكر إذا أراد الصلاة، وأما من لا يعقل، فلا يؤمر ولا ينهى.

وأما إلزامه بجنائياته، فمحل نزاع لا محل وفاق، فقال عثمان البتي: لا يلزمه عقد ولا بيع، ولا حد إلا حد الخمر فقط، وهذا إحدى الروايتين عن أحمد أنه كالمجنون في كل فعل يُعتبر له العقل.

والذين اعتبروا أفعاله دون أقواله، فرّقوا بفرقين، أحدهما: أن إسقاط أفعاله ذريعة إلى تعطيل القصص، إذ كل من أراد قتل غيره أو الزنى أو السرقة أو الجرب، سكر وفعل ذلك، فيقام عليه الحد إذا أتى جرماً واحداً، فإذا تضاعف جرّمه بالسكر كيف يسقط عنه الحد؟ هذا مما تاباه قواعد الشريعة وأصولها، وقال أحمد منكراً على من قال ذلك: وبعض من يرى طلاق السكران ليس بجائز، يزعم أن السكران لو جنى جنابة، أو أتى حداً، أو ترك الصيام أو الصلاة، كان بمنزلة المُبرّس المجنون، هذا كلام سوء.

والفرق الثاني: أن إلغاء أقواله لا يتضمّن مفسدة، لأن القول المجرد من غير العاقل لا مفسدة فيه بخلاف الأفعال، فإن مفاصلها لا يمكن إلغاؤها إذا وقعت، فالإلغاء أفعاله ضرر محض، وفساد منتشر بخلاف أقواله، فإن صَحّ هذان الفرقان، بطل الإلحاق، وإن لم يصح، كانت التسوية بين أقواله وأفعاله متعينة.

وأما المآخذ الثاني - وهو أن إيقاع الطلاق به

عقوبة له - ففي غاية الضعف، فإن الحد يكفيه عقوبة، وقد حصل رضى الله سبحانه من هذه العقوبة بالحد، ولا عهد لنا في الشريعة بالعقوبة بالطلاق، والتفريق بين الزوجين.

وأما المأخذ الثالث: أن إيقاع الطلاق به من ربط الأحكام بالأسباب، ففي غاية الفساد والسقوط، فإن هذا يُوجب إيقاع الطلاق ممن سكر مكرهاً، أو جاهلاً بأنها خمر، وبالمجنون والمُبْرَسَم، بل وبالنائم، ثم يُقال: وهل ثبت لكم أن طلاق السكران سبب حتى يُربط الحكم به، وهل النزاع إلا في ذلك؟

وأما المأخذ الرابع: وهو أن الصحابة جعلوه كالصاحي في قولهم: إذا شرب، سَكِرَ، وإذا سَكِرَ، هذى [عبد الرزاق: ١٣٥٤٢، ومالك (٢/٨٤٢)، والبيهقي (٨/٣١٢)]. فهو خبر لا يصح البتة.

قال أبو محمد بن حزم: وهو خبر مكذوب قد نزه الله علياً وعبد الرحمن بن عوف منه، وفيه من المناقضة ما يدل على بطلانه، فإن فيه إيجاب الحد على من هذى، والهاذي لا حدَّ عليه.

وأما المأخذ الخامس، وهو حديث: «لا قيلولة في الطلاق»، فخير لا يصحُّ، ولو صحَّ، لوجب حمله على طلاق مكلفٍ يعقلُ دون من لا يعقل، ولهذا لم يدخل فيه طلاق المجنون والمُبْرَسَم والصبي.

وأما المأخذ السادس، وهو خبر: «كلُّ طلاق جائز إلا طلاق المعتوه»، فمثله سواء لا يصح، ولو صح، لكان في المكلف، وجواب ثالث: أن السكران الذي لا يعقلُ إما معتوه، وإما مُلحق به، وقد ادعت طائفة أنه معتوه. قالوا: المعتوه في اللغة: الذي لا عقل له، ولا يدري ما يتكلم به.

وأما المأخذ السابع: وهو أن الصحابة أوقعوا عليه الطلاق، فالصحابة مختلفون في ذلك، فصح عن عثمان ما حكيناه عنه.

وأما أنث بن عباس، فلا يصحُّ عنه، لأنه من طريقتين، في أحدهما الحجاج بن أرطاة، وفي الثانية إبراهيم بن أبي يحيى، وأما ابن عمر ومعاوية، فقد خالفهما عثمان بن عفان.

فصل

(طلاق الإغلاق)

وأما طلاق الإغلاق، فقد قال الإمام أحمد في رواية حنبل: وحديث عائشة رضي الله عنها: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا طلاق ولا عتاق في إغلاق» [حسن: أحمد: ٢٦٣٦٠، وأبو داود: ٢١٩٣، وابن ماجه: ٢٠٤٦]، يعني الغضب، هذا نصُّ أحمد حكاه عنه الخلال، وأبو بكر في «الشافعي» و«زاد المسافر». فهذا تفسير أحمد.

وقال أبو داود في «سننه»: أظنه الغضب، وترجم عليه: «باب الطلاق على غلط» [أبو داود: ٢١٩٣]. وفسره أبو غنيد وغيره: بأنه الإكراه، وفسره غيرهما: بالمجنون، وقيل: هو نهْي عن إيقاع الطلقات الثلاث دفعةً واحدة، فيُعْلَقُ عليه الطلاق حتى لا يبقى منه شيء، كَقَلَّتِ الرهن، حكاه أبو غنيد الهروي.

قال شيخنا، وحقيقة الإغلاق: أن يُغلق على الرجل قلبه، فلا يقصِدُ الكلام، أو لا يعلم به، كأنه انغلق عليه قصده وإرادته. قلت: قال أبو العباس المبرّد: «الغلق: ضيق الصدر، وقلة الصبر بحيث لا يجد مخلصاً قال شيخنا: ويدخل في ذلك طلاق المكره والمجنون، ومن زال عقله بسكر أو غضب، وكُلُّ من لا قصد له ولا معرفة له بما قال.

والغضب على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما يُزيل العقل، فلا يشعرُ صاحبه بما قال، وهذا لا يقع طلاقه بلا نزاع.

والثاني: ما يكون في مباديه بحيث لا يمنع صاحبه من تصور ما يقول وقصده، فهذا يقع طلاقه.

الثالث: أن يستحيكُم ويشدُّ به، فلا يُزيل عقله بالكلية، ولكن يحول بينه وبين نيته بحيث يندم على ما فرط منه إذا زال، فهذا محل نظر، وعدم الوقوع في هذه الحالة قوي متجه.

حكم رسول الله ﷺ في الطلاق

قبل النكاح

في «السنن»: من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا نذر لابن آدم فيما لا يملك، ولا عتق لهُ فيما لا يملك،

ولا طَّلَاقٌ لَهُ فِيمَا لَا يَمْلِكُ» [حسن: أحمد: ٦٧٦٩، والترمذي: ١١٨١]. قال الترمذي: هذا حديث حسن، وهو أحسن شيء في هذا الباب، وسألت محمد بن إسماعيل، فقلت: أي شيء أصح في الطلاق قبل النكاح؟ فقال: حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده.

وروى أبو داود: «لَا يَبِيعُ إِلَّا فِيمَا يَمْلِكُ، وَلَا وِفَاءً نَذْرٍ إِلَّا فِيمَا يَمْلِكُ» [أبو داود: ٢١٩٠].

وفي «سنن ابن ماجه»: عن المنصور بن مخرمة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لَا طَّلَاقُ قَبْلَ النِّكَاحِ وَلَا عِتْقُ قَبْلَ مِلْكٍ» [ابن ماجه: ٢٠٤٨].

وقال وكيع: حدثنا ابن أبي ذئب، عن محمد بن المنكدر، وعطاء بن أبي رباح، كلاهما عن جابر بن عبد الله يرفعه: «لَا طَّلَاقُ قَبْلَ نِكَاحٍ»^(١).

وذكر عبد الرزاق، عن ابن جريج، قال: سمعتُ عطاء يقول: قال ابن عباس رضي الله عنه: لا طلاق إلا من بعد نكاح.

قال ابن جريج: بلغ ابن عباس أن ابن مسعود يقول: إن طلق ما لم ينكح فهو جائز، فقال ابن عباس: أخطأ في هذا، إن الله تعالى يقول: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ [الأحراب: ٤٩]، ولم يقل: إذا طلقتم المؤمنات ثم نكحتموهن [عبد الرزاق: ١١٤٦٨].

وذكر أبو عبيد: عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنه سُئِلَ عن رجل قال: إن تزوجت فلانة، فهي طالق، فقال علي: ليس طلاق إلا من بعد ملك.

وثبت عنه رضي الله عنه أنه قال: لا طلاق إلا من بعد نكاح وإن سماها، وهذا قول عائشة، وإليه ذهب الشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأصحابهم، وداود وأصحابه، وجمهور أهل الحديث.

ومن حجة هذا القول: أن القائل: إن تزوجت فلانة، فهي طالق مُطْلَقٌ لأجنبية، وذلك محال، فإنها حين الطلاق المعلق لأجنبية، والمتجدد هو نكاحها، والنكاح لا يكون طلاقاً، فعلم أنها لو طلقت، فإنما

يكون ذلك استناداً إلى الطلاق المتقدم معلقاً، وهي إذ ذاك أجنبية، وتجدد الصفة لا يجعله متكلماً بالطلاق عند وجودها، فإنه عند وجودها مختار للنكاح غير مرید للطلاق، فلا يصح، كما لو قال لأجنبية: إن دخلت الدار فأنت طالق، فدخلت وهي زوجته، لم تطلق بغير خلاف.

(الفرق بين تعليق الطلاق وتعليق العتق)

فإن قيل: فما الفرق بين تعليق الطلاق وتعليق العتق؟ فإنه لو قال: إن ملكت فلاناً، فهو حر، صح التعليق، وعتق بالملك؟

قيل: في تعليق العتق قولان، وهما روايتان عن أحمد، كما عنه روايتان في تعليق الطلاق، والصحيح من مذهبه الذي عليه أكثر نصوصه، وعليه أصحابه: صحة تعليق العتق دون الطلاق، والفرق بينهما أن العتق له قوة وسراية، ولا يعتد على نفوذ الملك، فإنه ينفذ في ملك الغير، ويصح أن يكون الملك سبباً لزواله بالعتق عقلاً وشرعاً، كما يزول ملكه بالعتق عن ذي رحمه المحرم بشرائه، وكما لو اشترى عبداً ليعتقه في كفارة أو نذر، أو اشتراه بشرط العتق، وكل هذا يشرع فيه جعل الملك سبباً للعتق، فإنه قرينة محبوبة لله تعالى، فشرع الله سبحانه التوسل إليه بكل وسيلة مفضية إلى محبوه، وليس كذلك الطلاق، فإنه بغض إلى الله، وهو أبغض الحلال إليه، ولم يجعل ملك البضع بالنكاح سبباً لإزالته البتة، وفرق ثانٍ أن تعليق العتق بالملك من باب نذر القرب والطاعات والتبرر، كقوله: لنن آتاني الله من فضله، لأتصدقن بكذا وكذا، فإذا وُجِدَ الشرط، لزمه ما علقه به من الطاعة المقصودة، فهذا لون، وتعليق الطلاق على الملك لون آخر.

حُكِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي تَحْرِيمِ طَلَاقِ

الْحَائِضِ وَالنِّسَاءِ وَالْمَوْطُوءَةِ

فِي طَهْرِهَا، وَتَحْرِيمِ إِيْقَاعِ

الثَّلَاثِ جَمْلَةً

في «الصحيحين»: أن ابن عمر رضي الله عنه طلق امرأته وهي حائض على عهد رسول الله ﷺ، فسأل

إباحة الطلاق قبل الدخول، لمنع من طلاق مَنْ لا عدة له عليها.

وفي «سنن النسائي» وغيره: من حديث محمود بن لبيد، قال: أخبر رسول الله ﷺ عن رجلٍ طلق امرأته ثلاث تطليقاتٍ جميعاً، فقام غضبان، فقال: «أُبَلِّغُ بِكِتَابِ اللَّهِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ»، حتى قام رجلٌ، فقال: يا رسول الله! أفلا أقتله [النسائي (١٤٢/٦)].

وفي «الصحيحين»: عن ابن عمر رضي الله عنه، أنه كان إذا سئل عن الطلاق قال: أما أنت إن طَلَّقْتَ امْرَأَتَكَ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَنِي بِهَذَا، وَإِنْ كُنْتَ طَلَّقْتَهَا ثَلَاثًا، فَقَدْ حَرَمْتَ عَلَيْكَ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَكَ، وَعَصَيْتَ اللَّهَ فِيمَا أَمَرَكَ مِنْ طَلَاقِ امْرَأَتِكَ [البخاري: ٥٦٦٤، ومسلم: ٣٦٥٣].

فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ النُّصُوصُ أَنَّ الْمُطَلَّقةَ نَوَاعِنُ: مَدْخُولٌ بِهَا، وَغَيْرُ مَدْخُولٍ بِهَا، وَكِلَاهُمَا لَا يَجُوزُ تَطْلِيلُهَا ثَلَاثًا مَجْمُوعَةً، وَيَجُوزُ تَطْلِيلُ غَيْرِ الْمَدْخُولِ بِهَا طَاهِرًا وَحَائِضًا.

وأما المدخولُ بها، فإن كانت حائضًا أو نفساء، حرم طلاقُها، وإن كانت طاهراً، فإن كانت مستبينةً الحمل، جاز طلاقُها بعد الوطء وقبله، وإن كانت حائلاً لم يُجْزَ طلاقُها بعد الوطء في طهر الإصابة، ويجوز قبله. هذا الذي شرعه الله على لسان رسوله من الطلاق، وأجمع المسلمون على وقوع الطلاق الذي أذن الله فيه، وأباحه إذا كان من مكلفٍ مختارٍ، عالم بمدلول اللفظ، قاصدٍ له.

(الاختلاف في وقوع المحرم من الطلاق)

واختلفوا في وقوع المحرم من ذلك، وفيه مسألان:

المسألة الأولى: الطلاق في الحيض، أو في الطهر الذي واقعها فيه.

المسألة الثانية: في جمع الثلاث، ونحن نذكر المسألتين تحريراً وتقريراً، كما ذكرناهما تصويراً، ونذكر حُجَجَ الْفَرِيقَيْنِ، ومنتهى أقدام الطائفتين، مع العلم بأن المقلد المتعصب لا يترك مَنْ قَلَّده ولو جاءته كُلُّ آيَةٍ، وأن طالب الدليل لا ياتم بسواه، ولا

عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «مُرَّةٌ فَلْيُرَاجِعْهَا ثُمَّ لِيَمْسِكْهَا حَتَّى تَظْهَرَ ثُمَّ تَحِيضُ، ثُمَّ تَظْهَرَ، ثُمَّ إِنْ شَاءَ أَمْسَكَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِنْ شَاءَ يُطْلَقُ قَبْلَ أَنْ يَمْسَ، فَيَلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ تُطْلَقَ لَهَا النِّسَاءُ».

ولمسلم: «مُرَّةٌ فَلْيُرَاجِعْهَا، ثُمَّ لِيُطْلَقْهَا طَاهِرًا أَوْ حَائِضًا».

وفي لفظ: «إِنْ شَاءَ طَلَّقَهَا طَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَمْسَ، فَذَلِكَ الطَّلَاقُ لِلْعِدَّةِ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى». وفي لفظ للبخاري: «مُرَّةٌ فَلْيُرَاجِعْهَا ثُمَّ لِيُطْلَقْهَا فِي قَبْلِ عِدَّتِهَا» [البخاري: ٥٢٥٨، ومسلم: ٣٦٥٣].

وفي لفظ لأحمد، وأبي داود، والنسائي، عن ابن عمر رضي الله عنهما: قال: طلق عبد الله بن عمر امرأته وهي حائض، فردّها عليه رسول الله ﷺ، ولم يرها شيئاً، وقال: «إِذَا ظَهَرَتْ فَلْيُطْلَقْ أَوْ لِيُؤْمَسِكْ».

وقال ابن عمر رضي الله عنه: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ [الطلاق: ١] [أحمد: ٥٥٢٤، وأبو داود: ٢١٨٥، ورجاله ثقات] في قَبْلِ عِدَّتِهِنَّ.

(أنواع الطلاق من حيث الحل والحرم)

فتضمّن هذا الحكم أن الطلاق على أربعة أوجه: وجهان حلال، ووجهان حرام.

فالحلالان: أن يطلق امرأته طاهراً من غير جماع، أو يطلقها حاملاً مستبينةً حملها.

والحرامان: أن يطلقها وهي حائض، أو يطلقها في طهر جامعها فيه هذا في طلاق المدخول بها.

وأما من لم يدخل بها، فيجوز طلاقُها حائضاً وطاهراً، كما قال تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكَ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَقْرِبُوهُنَّ لَهُنَّ فَرِيضَةٌ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَمُدُّوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩] [النسائي (٦/١٤٤)]، وقد دلّ على هذا قوله تعالى: ﴿فَلْيُطْلَقُوا لِيَمْسُوهُنَّ﴾ [الطلاق: ١] وهذه لا عدة لها، وبه عليه رسول الله ﷺ بقوله: «فَيَلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ تُطْلَقَ لَهَا النِّسَاءُ»، ولولا هاتان الآيتان اللتان فيهما

يُحَكِّمُ إِلَّا إِيَّاهُ، ولكل من الناس مَوْرِدٌ لا يتعداه، وسبيل لا يتخطاه، ولقد عَلِيزَ مَنْ حَمَلَ ما انتهت إليه قواه، وسعى إلى حيث انتهت إليه خُطاه.

(هل يقع الطلاق في الحيض أو في الطهر الذي وضعها فيه)
فأما المسألة الأولى، فإن الخلاف في وقوع الطلاق المحرّم لم يزل ثابتاً بين السلف والخلف، وقد وَهَمَ من ادعى الإجماع على وقوعه، وقال بمبلغ علمه، وخفي عليه من الخلاف ما اطلع عليه غيره، وقد قال الإمام أحمد: من ادعى الإجماع، فهو كاذب، وما يدرية لعل الناس اختلفوا.

كيف والخلاف بين الناس في هذه المسألة معلوم الثبوت عن المتقدمين والمتأخرين؟ قال محمد بن عبد السلام الخُشني: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الوهّاب بن عبد المجيد القُففي، حدثنا عُبيد الله ابن عمر، عن نافع مولى: بن عمر، عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال في رجل طلق امرأته وهي حائض: قال ابن عمر: لا يعتد بذلك، ذكره أبو محمد بن حزم في «المحلى» [١٠/١٦٣] بإسناده إليه.

وقال عبد الرزاق في «مصنفه»: عن ابن جريج، عن ابن طاوس، عن أبيه أنه قال: كان لا يرى طلاقاً ما خالف وجه الطلاق، ووجه العدة، وكان يقول: وجه الطلاق: أن يُطْلَقَها، طاهراً من غير جماع وإذا استبان حملها [عبد الرزاق: ١٠٩٢٣].

وقال الخُشني: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا همام بن يحيى، عن قتادة، عن خلاس بن عمرو أنه قال في الرجل يُطْلَقَ امرأته وهي حائض: قال: لا يُعتدُّ بها [ابن حزم ١٠/١٦٣] قال أبو محمد بن حزم: والعجب من جرأة من ادّعى الإجماع على خلاف هذا، وهو لا يجد فيما يُوافق قوله في إمضاء الطلاق في الحيض أو في طهر جامعاً فيه كلمة عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم غير رواية عن ابن عمر قد عارضها ما هو أحسن منا عن ابن عمر، وروايتين ساقطتين عن عثمان وزيد بن ثابت رضي الله عنهما. إحداهما: رويناهما من طريق ابن وهب عن ابن سميان، عن رجل أخبره أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يقضي في المرأة التي يُطْلَقُها زوجها وهي حائض أنها لا تعتد بحيضتها تلك، وتعتدُّ بعدها بثلاثة قروء. قلت: وابن

سمعان هو عبد الله بن زياد بن سميان الكذاب، وقد رواه عن مجهول لا يُعرف. قال أبو محمد: والأخرى من طريق عبد الرزاق، عن هشام بن حسان، عن قيس بن سعد مولى أبي علقمة، عن رجل سماه، عن زيد بن ثابت أنه قال فيمن طلق امرأته وهي حائض: يلزمه الطلاق، وتعتد بثلاث حيض سوى تلك الحيضة.

قال أبو محمد: بل نحنُ أسعدُ بدعوى الإجماع هاهنا لو استجزنا ما يستجيزون، ونعوذُ بالله من ذلك، وذلك أنه لا خلاف بين أحد من أهل العلم قاطبة، ومن جملتهم جميع المخالفين لنا في ذلك أن الطلاق في الحيض أو في طهر جامعاً فيه بدعة نهى عنها رسول الله ﷺ مخالفةً لأمره، فإذا كان لا شك في هذا عندهم، فكيف يستجيزون الحكم بتجوز البدعة التي يقولون أنها بدعة وضلالة، أليس بحكم المشاهدة مجيئ البدعة مخالفاً لإجماع القائلين بأنها بدعة؟ قال أبو محمد: وحتى لو لم يبلغنا الخلاف، لكان القاطع على جميع أهل الإسلام بما لا يقين عنده، ولا بلغه عن جميعهم كاذباً على جميعهم.

(أدلة المانع من وقوع الطلاق المحرم)

قال المانعون من وقوع الطلاق المحرم: لا يُزَالُ النكاحُ المتيقنُ إلا بيقين مثله من كتاب، أو سنة، أو إجماع متيقن. فإذا أوجدتونا واحداً من هذه الثلاثة، رفعا حُكْمَ النكاح به، لا سبيلَ إلى رفعه بغير ذلك. قالوا: وكيف والأدلة المتكاثرة تدل على عدم وقوعه، فإن هذا الطلاق لم يشرعه الله تعالى البتة، ولا أذن فيه، فليس في شرعه، فكيف يُقال بنفوذه وصحته؟

قالوا: وإنما يقع من الطلاق المحرم ما ملكه الله تعالى للمطلق، ولهذا لا يقع به الرابعة، لأنه لم يملكها إياه، ومن المعلوم أنه لم يملكه الطلاق المحرم، ولا أذن له فيه، فلا يصح، ولا يقع.

قالوا: ولو وكل وكيلاً أن يُطْلَقَ امرأته طلاقاً جائزاً، فطلق طلاقاً محرماً، لم يقع، لأنه غير مأذون له فيه، فكيف كان إذن المخلوق معتبراً في صحة إيقاع الطلاق دون إذن الشارع، ومن المعلوم أن المكلف إنما يتصرف بالإذن، فما لم يأذن به الله ورسوله لا يكون محلاً للتصرف البتة.

اللَّهُ ورَسُولُهُ، وموجب عقد النكاح أحد أمرين: إما إمساك بمعروف، أو تسريح بإحسان، والتسريح المحرّم أمر ثالث غيرهما، فلا عبرة به البتة.

قالوا: وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِيَذْهَبْنَ﴾ [الطلاق: ١]، وصحّ عن النبي ﷺ المبيّن عن الله مراده من كلامه، أن الطلاق المشروع المأذون فيه هو الطلاق في زمن الطهر الذي لم يُجامع فيه، أو بعد استبانة الحمل، وما عداهما فليس بطلاق للعدة في حق المدخول بها، فلا يكون طلاقاً، فكيف تحرم المرأة به؟

قالوا: وقد قال تعالى: ﴿أَطْلَقْتُ مَرْثَانًا﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ومعلوم أنه إنما أراد الطلاق المأذون فيه، وهو الطلاق للعدة، فدل على أن ما عداه ليس من الطلاق، فإنه حصر الطلاق المشروع المأذون فيه الذي يملك به الرجعة في مرتين، فلا يكون ما عداه طلاقاً. قالوا: ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم يقولون: إنهم لا طاقة لهم بالفتوى في الطلاق المحرّم، كما روى ابن وهب، عن جرير بن حازم، عن الأعمش، أن ابن مسعود رضي الله عنه قال: من طلق كما أمره الله فقد بين الله له، ومن خالف، فإنا لا نطبق خلافه. ولو وقع طلاق المخالف لم يكن الإفتاء به غير مطاق لهم، ولم يكن للتفريق معنى إذ كان النوعان واقعين نافذين.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه أيضاً: من أتى الأمر على وجهه فقد بين الله له، وإلا فوالله ما لنا طاقة بكل ما تُخديثون.

وقال بعض الصحابة وقد سئل عن الطلاق الثلاث مجموعة: مَنْ طلق كما أمر، فقد بين له، ومن لبس، تركناه وتليسه.

قالوا: ويكفي من ذلك كله ما رواه أبو داود بالسند الصحيح الثابت: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا ابن جريج، قال: أخبرني أبو الزبير أنه سمع عبد الرحمن بن أيمن مولى عروة يسأل ابن عمر قال أبو الزبير وأنا أسمع: كيف ترى في رجل طلق امرأته حائضاً؟ فقال: طلق ابن عمر امرأته حائضاً على عهد رسول الله ﷺ، فسأل عمر عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: إن عبد الله بن عمر طلق

قالوا: وأيضاً فالشارع قد حجر على الزوج أن يُطلق في حال الحيض أو بعد الوطء في الطهر، فلو صح طلاقه لم يكن لحجر الشارع معنى، وكان حجر القاضي على من منعه التصرف أقوى من حجر الشارع حيث يُبطل التصرف بحجره.

قالوا: وبهذا أبطلنا البيع وقت النداء يوم الجمعة، لأنه بيع حجر الشارع على بائعه هذا الوقت، فلا يجوز تنفيذه وتصحيحه.

قالوا: ولأنه طلاق محرّم منهى عنه، فالنهي يقتضي فساد المنهي عنه، فلو صححناه، لكان لا فرق بين المنهي عنه والمأذون فيه من جهة الصحة والفساد.

قالوا: وأيضاً فالشارع إنما نهى عنه وحرّمه، لأنه يُبغضه، ولا يُحبّ وقوعه، بل وقوعه مكروه إليه، فحرّمه لئلا يقع ما يُبغضه ويكرهه، وفي تصحيحه وتنفيذه ضد هذا المقصود.

قالوا: وإذا كان النكاح المنهي عنه لا يصح لأجل النهي، فما الفرق بينه وبين الطلاق، وكيف أبطلتم ما نهى الله عنه من النكاح، وصححت ما حرّمه ونهى عنه من الطلاق، والنهي يقتضي البطلان في الموضوعين؟

قالوا: ويكفي من هذا حكم رسول الله ﷺ العام الذي لا تخصيص فيه برد ما خالف أمره وإبطاله وإلغاءه، كما في «الصحيح» عنه، من حديث عائشة رضي الله عنها: «كُلَّ عَمَلٍ لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» وفي رواية: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» [البخاري: ٢٦٩٧، ومسلم: ٤٤٩٢]. وهذا صريح أن هذا الطلاق المحرّم الذي ليس عليه أمره ﷺ مردود باطل، فكيف يُقال: إنه صحيح لازم نافذ؟ فأين هذا من الحكم برده؟

قالوا: وأيضاً فإنه طلاق لم يشرعه الله أبداً، وكان مردوداً باطلاً كطلاق الأجنبية، ولا ينفعكم الفرق بأن الأجنبية ليست محللاً للطلاق بخلاف الزوجة، فإن هذه الزوجة ليست محللاً للطلاق المحرّم، ولا هو مما ملّكه الشارع إياه.

قالوا: وأيضاً فإن الله سبحانه إنما أمر بالتسريح بإحسان، ولا أشر من التسريح الذي حرّمه

امراته وهي حائض، قال عبد الله: فردّها علي ولم يرّها شيئاً، وقال: إذا طهرت، فليطلق أو ليُمسك، قال ابن عمر: وقرأ رسول الله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ [الطلاق: ١] في قُبُلِ عِدَّتِهِنَّ [أحمد: ٥٥٢٤، وإبو داود: ٢١٨٥]. قالوا: وهذا إسناد في غاية الصحة، فإن أبا الزبير غير مدفوع عن الحفظ والثقة، وإنما يخشى من تدليس، فإذا قال: سمعتُ، أو حدثني، زال محذورُ التدليس، وزالت العلة المتوهمّة، وأكثرُ أهل الحديث يحتجّون به إذا قال: «عن» ولم يُصرّح بالسماع، ومسلم يُصحّح ذلك من حديثه، فأما إذا صرّح بالسماع، فقد زال الإشكال، وصحّ الحديث، وقامت الحجة.

قالوا: ولا نعلم في خبر أبي الزبير هذا ما يوجب ردّه، وإنما ردّه مَنْ ردّه استبعاداً واعتقاداً أنه خلاف الأحاديث الصحيحة، ونحن نحكي كلام من ردّه، ونبين أنه ليس فيه ما يوجب الرد.

قال أبو داود: والأحاديث كُلُّها على خلاف ما قال أبو الزبير.

وقال الشافعي: ونافع أثبت عن ابن عمر من أبي الزبير، والأثبت من الحديثين أولى أن يقال به إذا خالفه.

وقال الخطابي: حديثُ يونس بن جبير أثبت من هذا، يعني قوله: «مُرّة فليُراجِعْها»، وقوله: «أرأيت إن عجز واستحمق؟» قال: فمه.

قال ابن عبد البر: وهذا لم ينقله عنه أحد غير أبي الزبير، وقد رواه عنه جماعةٌ أَجَلّة، فلم يقل ذلك أحدٌ منهم، وأبو الزبير ليس بحجة فيما خالفه فيه مثله، فكيف بخلاف مَنْ هو أثبت منه.

وقال بعضُ أهل الحديث: لم يروِ أبو الزبير حديثاً أنكر من هذا.

فهذا جملة ما رُدّ به خبرُ أبي الزبير، وهو عند التأمل لا يوجب ردّه ولا بطلانه.

(الرد على من ضعف حديث أبي الزبير)

أما قولُ أبي داود: الأحاديثُ كلها على خلافه، فليس بأيديكم سوى تقليد أبي داود، وأنتم لا ترضون ذلك، وتزعمون أن الحجة من جانبكم، فدعوا

التقليد، وأخبرونا أين في الأحاديث الصحيحة ما يُخالف حديثَ أبي الزبير؟ فهل فيها حديثٌ واحد أن رسول الله ﷺ احتسب عليه تلك الطلقة، وأمره أن يعتدّ بها، فإن كان ذلك، فنعم والله هذا خلاف صريح لحديث أبي الزبير، ولا تجدون إلى ذلك سيلاً، وغاية ما بأيديكم «مُرّة فليُراجِعْها»، والرجعة تستلزم وقوع الطلاق. وقول ابن عمر وقد سئل: أتعتمد بتلك التطبيق؟ فقال: «أرأيت إن عجز واستحمق؟» وقول نافع أو مَنْ دونه: «فحسبت من طلاقها» وليس وراء ذلك حرفٌ واحد يدُلُّ على وقوعها، والاعتداد بها، ولا ريب في صحة هذه الألفاظ، ولا مطعن فيها، وإنما الشأنُ كُلُّ الشأن في معارضتها، لقوله: «فردّها عليّ ولم يرّها شيئاً»، وتقديماً عليه، ومعارضتها لتلك الأدلة المتقدمة التي سقناها، وعند الموازنة يظهر التفاوت، وعدم المقاومة، ونحن نذكر ما في كلمة كلمة منها.

(معنى المراجعة هي كلام الله ورسوله)

أما قوله: «مره فليُراجِعْها»، فالمراجعة قد وقعت في كلام الله ورسوله على ثلاث معان.

أحدها: ابتداء النكاح، كقوله تعالى: ﴿إِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَلَا أَنْ يَقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، ولا خلاف بين أحد من أهل العلم بالقرآن أن المطلق ها هنا: هو الزوج الثاني، وأن التراجعَ بينها وبين الزوج الأول، وذلك نكاح مبتدأ.

وثانيهما: الردّ الحسي إلى الحالة التي كان عليها أولاً، كقوله لأبي النعمان بن بشير لما نَحَلَ ابنه غلاماً خصّه به دون ولده: «رُدّه»، فهذا ردٌّ ما لم تصح فيه الهبة الجائزة التي سماها رسول الله ﷺ جوراً، وأخبر أنها لا تصلح، وأنها خلاف العدل، كما سيأتي تقريره إن شاء الله تعالى.

ومِن هذا قوله لمن فرّق بين جارية وولدها في البيع، فنهاء عن ذلك، ورد البيع، وليس هذا الرد مستلزماً لصحة البيع، فإنه يبيع باطل، بل هو ردّ شيئين إلى حالة اجتماعهما كما كانا، وهكذا الأمر بمراجعة ابن عمر امرأته ارتجاع ورد إلى حالة الاجتماع كما كانا قبل الطلاق، وليس في ذلك ما يقتضي وقوع الطلاق في الحيض البتة.

وأما قوله: «أَرَأَيْتَ إِنْ عَجَزَ وَاسْتَحَقَّ»، فإيا سبحانَ الله أين البيان في هذا اللفظ بأن تلك الطلقة حَسِبَها عليه رسولُ الله ﷺ، والأحكام لا تُؤخذ بمثل هذا ولو كان رسولُ الله ﷺ قد حَسِبَها عليه، واعتدَّ عليه بها لم يَعْدِلْ عن الجواب بفعله وشرعه إلى أَرَأَيْتَ، وكان ابنُ عمر أكره ما إليه «أَرَأَيْتَ»، فكيف يَعْدِلُ للسائل عن صريح السنة إلى لفظة «أَرَأَيْتَ» الدالة على نوع من الرأي سبَّه عجز المطلق وحمقه عن إيقاع الطلاق على الوجه الذي أذن الله له فيه، والأظهر فيما هذه صفته أنه لا يعتد به، وأنه ساقط من فعل فاعله، لأنه ليس في دين الله تعالى حكم نافذ سبَّه العجز والحمق عن امتثال الأمر، إلا أن يكون فعلاً لا يمكن ردُّه بخلاف العقود المحرمة التي منَّ عقدها على الوجه المحرَّم، فقد عجز واستحَقَّ، وحيثُتذ، فيقال: هذا أدلُّ على الردِّ منه على الصحة واللزوم، فإنه عقدٌ عاجز أحقُّ على خلافٍ أمر الله ورسوله، فيكون مردوداً باطلاً، فهذا الرأي والقياس أدلُّ على بطلان طلاق من عجز واستحَقَّ منه على صحته واعتباره.

وأما قوله: «فَحَبِثْتُ مِنْ طَلَاقِهَا». ففعل مبني لما لم يسم فاعله، فإذا سُمِّيَ فاعله، ظهر، وتبين، هل في حُسابانه حُجَّةٌ أو لا؟ وليس في حُسابان الفاعلِ المجعولٍ دليلُ البتة. وسواء كان القائلُ: «فَحَبِثْتُ» ابن عمر أو نافعاً أو من دونه، وليس فيه بيان أن رسول الله ﷺ هو الذي حَسِبَها حتى تلزَمَ الحجة به، وتحرم مخالفته، فقد تبين أن سائر الأحاديث لا تُخَالِفُ حديث أبي الزبير، وأنه صريح في أن رسول الله ﷺ لم يرها شيئاً، وسائر الأحاديث مجملة لا بيان فيها.

(رد الموقعين للطلاق على المانعين)

قال الموقعون: لقد ارتقيتم أيها المانعون مرتقى صعباً، وأبطلتم أكثر طلاق المُطَلِّقين، فإن غايه طلاق بدعي، وجاهرتم بخلاف الأئمة، ولم تتحاشوا خلافَ الجمهور، وشذذتم بهذا القول الذي أفنى جمهورُ الصحابة ومن بعدهم بخلافه، والقرآن

والسنن تدل على بطلانه. قال تعالى: «إِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَدْحٍ تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ» [البقرة: ٢٣٠]، وهذا يعم كل طلاق، وكذلك قوله: «وَالطَّلَاقُ يَرْفَعُ عَنْ أَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ فُجُورٍ» [البقرة: ٢٢٨] ولم يفرق، وكذلك قوله تعالى: «الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ» [البقرة: ٢٢٩]، وقوله: «وَالطَّلَاقُ مَتْنَعٌ» [البقرة: ٢٤١]، وهذه مطلقة وهي عموماً لا يجوز تخصيصها إلا بنص أو إجماع.

قالوا: وحديث ابن عمر دليل على وقوع الطلاق المحرَّم من وجوه. أحدها: الأمر بالمراجعة، وهي لمْ شعثُ النكاح، وإنما شعثه وقبُح الطلاق.

الثاني: قول ابن عمر، فراجعتمْها، وحسبت لها التولية التي طَلَّقَها، وكيف يُظن بـابن عمر أنه يخالف رسول الله ﷺ فيحسبها من طلاقها، ورسول الله ﷺ لم يرها شيئاً.

الثالث: قول ابن عمر لمَّا قيل له: أيحسب بتلك التولية؟ قال: أَرَأَيْتَ إِنْ عَجَزَ وَاسْتَحَقَّ، أي: عجزه وحمقه لا يكون عذراً له في عدم احتسابه بها.

الرابع: أن ابن عمر قال: وما يمنعني أن أعتدَّ بها، وهذا إنكارٌ منه لعدم الاعتداد بها، وهذا يبطل تلك اللفظة التي رواها عنه أبو الزبير، إذ كيف يقول ابن عمر: وما يمنعني أن أعتدَّ بها؟ وهو يرى رسول الله ﷺ قد ردَّها عليه، ولم يرها شيئاً.

الخامس: أن مذهب ابن عمر الاعتداد بالطلاق في الحيض، وهو صاحبُ القصة، وأعلمُ الناس بها، وأشدُّهم اتباعاً للسنن، وتحرجاً من مخالفتها. قالوا: وقد روى ابن وهب في «جامعه»، حدثنا ابن أبي ذئب، أن نافعاً أخبرهم عن ابن عمر، أنه طلق امرأته وهي حائض، فسأل عُمَرُ رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «مَرَّةً فَلْيُرَاجِعْهَا ثُمَّ لِيُسَيِّئْهَا حَتَّى تَطْلُقَ ثُمَّ تَحِيضَ ثُمَّ تَطْلُقَ، ثُمَّ إِنْ شَاءَ أَمْسَكَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِنْ شَاءَ طَلَّقَ قَبْلَ أَنْ يَمْسَ، فَيَلِكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ تُطْلَقَ لَهَا النِّسَاءُ» وهي واحدة^(١) هذا لفظ حديثه.

قالوا: وروى عبد الرزاق، عن ابن جريج قال: أرسلنا إلى نافع وهو يترجلُ في دار الندوة ذاهباً إلى المدينة، ونحن مع عطاء: هل حسبت تولية

عبد الله بن عمر امرأته حائضاً على عهد رسول الله ﷺ قال: نعم [عبد الرزاق: ١٠٩٥٧].

قالوا: وروى حماد بن زيد، عن عبد العزيز بن صهيب، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ طَلَّقَ فِي بَذْعَةِ الزَّمَانِ بِذَعْتِهِ»، رواه عبد الباقي بن قانع، عن زكريا الساجي حدثنا إسماعيل بن أمية الذارع حدثنا حماد فذكره [ابن حزم (١٦٤/١٠)].

قالوا: وقد تقدّم مذهب عثمان بن عفان، وزيد بن ثابت في فتواهما بالوقوع.

قالوا: وتحريمه لا يمنع ترتب أثره، وحكمه عليه كالظهار، فإنه منكر من القول وزور، وهو محرم بلا شك، وترتب أثره عليه وهو تحريم الزوجة إلى أن يكفر، فهكذا الطلاق البدعي محرم، وترتب عليه أثره إلى أن يُراجع، ولا فرق بينهما.

قالوا: وهذا ابن عمر يقول للمطلق ثلاثاً: حُرِّمَتْ عَلَيْكَ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَكَ، وعصيت ربك فيما أمرك به من طلاق امرأتك [عبد الرزاق: ١٠٩٦٤]. فأوقع عليه الطلاق الذي عصى به المطلق ربه عز وجل.

قالوا: وكذلك القذف محرم، وترتب عليه أثره من الحد، وردّ الشهادة وغيرهما.

قالوا: والفرق بين النكاح المحرم، والطلاق المحرم، أن النكاح عقد يتضمن حلّ الزوجة ومُلك بضعها، فلا يكون إلا على الوجه المأذون فيه شرعاً، فإن الأبضاع في الأصل على التحريم، ولا يُباح منها إلا ما أباحه الشارع، بخلاف الطلاق، فإنه إسقاط لحقه، وإزالة لملكه، وذلك لا يتوقّف على كون السبب المنزّل مأذوناً فيه شرعاً، كما يزول ملكه عن العيين بالإتلاف المحرم، وبالإقرار الكاذب، وبالتبرع المحرم، كهبته لمن يعلم أنه يستعين بها على المعاصي والآثام.

قالوا: والإيمان أصل العقود وأجلّها وأشرّفها، يزول بالكلام المحرم إذا كان كفراً، فكيف لا يزول عقد النكاح بالطلاق المحرم الذي وضع لإزالته.

قالوا: ولو لم يكن معنا في المسألة إلا طلاق الهازل، فإنه يقع مع تحريمه لأنه لا يحلّ له الهزل

بآيات الله، وقد قال النبي ﷺ: «ما بال أقوام يتخذون آيات الله هزواً: طلقك راجعتك، طلقك راجعتك» فإذا وقع طلاق الهازل مع تحريمه، فطلاق الجاذ أولى أن يقع مع تحريمه.

قالوا: وفرق آخر بين النكاح المحرم، والطلاق المحرم، أن النكاح نعمة، فلا تُستباح بالمحرمات، وإزالته وخروج البضع عن ملكه بقعة، فيجوز أن يكون سببها محرماً.

قالوا: وأيضاً فإن الفروج يُحتاط لها، والاحتياط يقتضي وقوع الطلاق، وتجديد الرجعة والعقد.

قالوا: وقد عهدنا النكاح لا يدخل فيه إلا بالتشديد والتأكيد من الإيجاب والقبول، والولي والشاهدين، ورضى الزوجة المعتبر رضاها، ويُخرجُ منه بأسر شيء، فلا يحتاج الخروج منه إلى شيء من ذلك، بل يدخل فيه بالعزيمة، ويُخرج منه بالشبهة، فأين أحدهما من الآخر حتى يُقاس عليه.

قالوا: ولو لم يكن بأيدينا إلا قول حملة الشرع كلّهم قديماً وحديثاً: طلق امرأته وهي حائض، والطلاق نوعان: طلاق سنة، وطلاق بدعة، وقول ابن عباس رضي الله عنه: الطلاق على أربعة أوجه: وجهان حلال، وجهان حرام [عبد الرزاق: ١٠٩٥٠]، فهذا الإطلاق والتقسيم دليل على أنه عندهم طلاق له حقيقة، وشمول اسم الطلاق له كشموله للطلاق الحلال، ولو كان لفظاً مجرداً لغواً لم يكن له حقيقة، ولا قيل: طلق امرأته، فإن هذا اللفظ إذا كان لغواً كان وجوده كعدمه، ومثلهذا لا يقال فيه: طلق، ولا يقسم الطلاق - وهو غير واقع - إليه وإلى الواقع، فإن الألفاظ اللاغية التي ليس لها معاني ثابتة لا تكون هي ومعانيها قسماً من الحقيقة الثابتة لفظاً، فهذا أقصى ما تمسك به الموقعون، وربما ادعى بعضهم الإجماع لعدم علمه بالتزاع.

(رد المانعين على الموقعين)

قال المانعون من الوقوع: الكلام معكم في ثلاث مقامات بها يستبين الحق في المسألة.

المقام الأول: بطلان ما زعمتم من الإجماع، وأنه لا سبيل لكم إلى إثباته البتة، بل العلم بانتفائه معلوم.

المقام الثاني، أن فتوى الجمهور بالقول لا يدل على صحته، وقول الجمهور ليس بحجة.

المقام الثالث: أن الطلاق المحرم لا يدخل تحت نصوص الطلاق المطلقة التي رتب الشارع عليها أحكام الطلاق، فإن ثبت لنا هذه المقامات الثلاث، كنا أسعد بالصواب منكم في المسألة.

فقول: أما المقام الأول، فقد تقدم من حكاية النزاع ما يعلم معه بطلان دعوى الإجماع، كيف ولو لم يعلم ذلك، لم يكن لكم سبيل إلى إثبات الإجماع الذي تقوم به الحجة، وتنقطع معه المعذرة، وتحرم معه المخالفة، فإن الإجماع الذي يوجب ذلك هو الإجماع القطعي المعلوم.

وأما المقام الثاني: وهو أن الجمهور على هذا القول، فأوجدونا في الأدلة الشرعية أن قول الجمهور حجة مضافة إلى كتاب الله وستة رسوله، وإجماع أمته.

ومن تأمل مذاهب العلماء قديماً وحديثاً من عهد الصحابة وإلى الآن، واستقرأ أحوالهم وجددهم مُجمعين على تسويغ خلاف الجمهور، ووجد لكل منهم أقوالاً عديدة انفرد بها عن الجمهور، ولا يُستثنى من ذلك أحد قط، ولكن مستثقل ومستكثر، فمن شتم سميتهم من الأئمة تبّعوا ما له من الأقوال التي خالف فيها الجمهور، ولو تبّعنا ذلك وعددناه، لطلال الكتاب به جداً، ونحن نُحيلكم على الكتب المتضمنة لمذاهب العلماء واختلافهم، ومن له معرفة بمذاهبهم وطرائقهم، يأخذ إجماعهم على ذلك من اختلافهم، ولكن هذا في المسائل التي يسوغ فيها الاجتهاد، ولا تدفعها السنة الصحيحة الصريحة، وأما ما كان هذا سبيله، فإنهم كالمثقفين على إنكاره ورده، وهذا هو المعلوم من مذاهبهم في الموضوعين.

وأما المقام الثالث: وهو دعواكم دخول الطلاق المحرم تحت نصوص الطلاق، وشمولها للنوعين إلى آخر كلامكم، فنسألکم: ما تقولون فيمن ادعى دخول أنواع البيع المحرم، والنكاح المحرم تحت نصوص البيع والنكاح، وقال: شمول الاسم للصحيح من ذلك والفاسد سواء، بل وكذلك سائر العقود المحرمة إذا ادعى دخولها تحت ألفاظ العقود

الشرعية، وكذلك العبادات المحرمة المنهي عنها إذا ادعى دخولها تحت الألفاظ الشرعية، وحكم لها بالصحة لشمول الاسم لها، هل تكون دعواه صحيحة أو باطلة؟ فإن قلتم: صحيحة ولا سبيل لكم إلى ذلك، كان قولاً معلوماً الفساد بالضرورة من الدين، وإن قلتم: دعواه باطلة، تركتم قولكم ورجعتم إلى ما قلناه، وإن قلتم: تُقبل في موضع، وتُرد في موضع، قيل لكم: ففرقوا بفرقان صحيح مقرر منعكس، معكم به برهان من الله بين ما يدخل من العقود المحرمة تحت ألفاظ النصوص، فيثبت له حكم الصحة، وبين ما لا يدخل تحتها، فيثبت له حكم البطلان، وإن عجزتم عن ذلك، فاعلموا أنه ليس بأيديكم سوى الدعوى التي يُخسِنُ كُلُّ أَحَدٍ مَقَابِلَتَهَا بِمَثَلِهَا، أو الاعتماد على من يُخْتَجُّ لِقَوْلِهِ لا بقوله، وإذا كُشِفَ الغطاء عما قرّتموه في هذه الطريق وجَدَ عين محل النزاع فقد جعلتموه مقدمة في الدليل، وذلك عين المصادرة على المطلوب، فهل وقع النزاع إلا في دخول الطلاق المحرم المنهي عنه تحت قوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَدَّدْنَ عَلَى مَا ظَنَّنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وتحت قوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَدَّدْنَ عَلَى مَا ظَنَّنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وأمثال ذلك، وهل سلم لكم منازعوكم قط ذلك حتى تجعلوه مقدمة لدليلكم؟

قالوا: وأما استدلالكم بحديث ابن عمر، فهو إلى أن يكون حجة عليكم أقرب منه إلى أن يكون حجة لكم من وجوه.

أحدها: صريح قوله: فردها عليّ ولم يرها شيئاً، وقد تقدّم بيان صحته. قالوا: فهذا الصريح الصحيح ليس بأيديكم ما يُقَامُوه في الموضوعين، بل جميع تلك الألفاظ إما صحيحة غير صريحة، وإما صريحة غير صحيحة كما ستقفون عليه.

الثاني: أنه قد صحَّ عن ابن عمر رضي الله عنه بإسناد كالشمس من رواية عبيد الله، عن نافع عنه، في الرجل يُطَلِّق امرأته وهي حائض، قال: لا يُعتدُّ بذلك وقد تقدم.

الثالث: أنه لو كان صريحاً في الاعتداد به، لما عدل به إلى مجرّد الرأي. وقوله للسائل: أرايت؟

الرابع: أن الألفاظ قد اضطربت عن ابن عمر في

ذلك اضطراباً شديداً، وكلها صحيحة عنه، وهذا يدلُّ على أنه لم يكن عنده نصٌّ صريح عن رسول الله ﷺ في وقوع تلك الطلقة والاعتداد بها، وإذا تعارضت تلك الألفاظ، نظرنا إلى مذهب ابن عمر، وفتواه، فوجدناه صريحاً في عدم الوقوع، ووجدنا أحد ألفاظ حديثه صريحاً في ذلك، فقد اجتمع صريحُ روايته وفتواه على عدم الاعتداد، وخالف في ذلك ألفاظُ مجملة مضطربة، كما تقدم بيانه.

وأما قولُ ابن عمر رضي الله عنه: وما لي لا أعتدُّ بها، وقوله: أرايت إن عجز واستحقم، فغاية هذا أن يكونَ رواية صريحة عنه بالوقوع، ويكون عنه روايتان.

وقولكم: كيف يفتي بالوقوع وهو يعلم أن رسول الله ﷺ قد ردّها عليه ولم يعتدُّ عليه بها؟ فليس هذا بأوّل حديث خالفه راويه، وله غيره من الأحاديث التي خالفها راويها أسوةً حسنةً في تقديم رواية الصحابي ومن بعده على رأيه.

وقد روى ابن عباس حديثَ بريدة، وأن بيعَ الأمة ليس بطلاقها، وأتى بخلافه، فأخذ الناس بروايته، وتركوا رأيه، وهذا هو الصواب، فإن الرواية معصومة عن معصوم، والرأي بخلافها، كيف وأصرحُ الروايين عنه موافقته لما رواه من عدم الوقوع على أن في هذا يقهاً دقيقاً إنما يعرفه من له غور على أقوال الصحابة ومذاهبهم، وفهيمهم عن الله ورسوله، واحتياطهم للأمة، ولعلك تراه قريباً عند الكلام على حكمه ﷺ في إيقاع الطلاق الثلاث جملة.

وأما قوله في حديث ابن وهب عن ابن أبي ذئب في آخره: وهي واحدة. فلعمري الله لو كانت هذه اللفظة من كلام رسول الله ﷺ ما قدّمنا عليها شيئاً، ولصيرنا إليها بأوّل وهلة، ولكن لا ندري أقالها ابن وهب من عنده، أم ابن أبي ذئب، أم نافع، فلا يجوز أن يُضافَ إلى رسول الله ﷺ ما لا يُتيقَّن أنه من كلامه، ويشهد به عليه، وترتب عليه الأحكام،

ويقال: هذا من عند الله بالوهم والاحتمال، والظاهر أنها من قول مَنْ دون ابن عمر رضي الله عنه، ومراده بها أن ابن عمر إنما طلقها طلقة واحدة، ولم يكن ذلك منه ثلاثاً، أي طلق ابن عمر رضي الله عنه امرأته واحدة على عهد رسول الله ﷺ فذكره.

وأما حديث ابن جريج عن عطاء عن نافع، أن تطلقه عبد الله حُبيبتٌ عليه، فهذا غايته أن يكون من كلام نافع، ولا يعرف من الذي حسبها، أهو عبد الله نفسه، أو أبوه عمر، أو رسول الله ﷺ؟ ولا يجوز أن يشهد على رسول الله ﷺ بالوهم والحسبان، وكيف يعارض صريح قوله: ولم يرها شيئاً بهذا المجمع؟ والله يشهد - وكفى بالله شهيداً - أنا لو تيقنا أن رسول الله ﷺ هو الذي حسبها عليه، لم نتعد ذلك، ولم نذهب إلى سواء.

وأما حديث أنس: «مَنْ طَلَّقَ فِي بِدْعَةِ أَزْمَنَاهُ بِدْعَتَهُ»، فحديث ياطل على رسول الله ﷺ، ونحن نشهد بالله أنه حديث باطل عليه، ولم يروه أحدٌ من الثقات من أصحاب حماد بن زيد، وإنما هو حديث إسماعيل بن أمية الذارع الكذاب^(١) الذي يذرع ويفصل، ثم الراوي له عنه عبد الباقي بن قانع^(٢)، وقد ضعفه البرقاني وغيره، وكان قد اختلط في آخر عمره، وقال الدارقطني: يُخطئ كثيراً، ومثلُ هذا إذا تفرد بحديث لم يكن حديثه حجةً.

وأما إفتاء عثمان بن عفان، وزيد بن ثابت رضي الله عنهما بالوقوع، فلو صحَّ ذلك ولا يصحُّ أبداً، فإن أثر عثمان، فيه كذاب عن مجهول لا يعرف عينه ولا حاله، فإنه من رواية ابن سمعان، عن رجل، وأثر زيد فيه مجهول عن مجهول: قيس بن سعد، عن رجل سمّاه عن زيد، فيالله العجب، أين هاتان الروايتان من رواية عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي، عن عبيد الله حافظ الأمة، عن نافع، عن ابن عمر أنه قال: لا يُعتدُّ بها. فلو كان هذا الأثر من قبلكم، لصلّتم به وجلّتم.

(١) لم نقف على نص عند أئمة الجرح والتعديل في تكذيبه، والمنقول عنهم تضعيفه وجهالته انظر: «الميزان» (١/٢٢٧).

(٢) لقد وهم المؤلف رحمه الله، فإن ابن قانع رواه عن زكريا الساجي، عنه.

فيجوز أن يكون سببه معصية، فيقال: قد يكون الطلاق من أكبر النعم، التي يفك بها المطلق العلق من عتقه، والقيد من رجليه، فليس كل طلاق يقمة، بل من تمام نعمة الله على عباده أن مكّنهم من المفارقة بالطلاق إذا أراد أحدهم استبدال زوج مكان زوج، والتخلّص ممن لا يحبها ولا يلائمها، فلم يُر للمتحابين مثل النكاح، ولا للمتباعضين مثل الطلاق، ثم كيف يكون يقمة والله تعالى يقول: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتَ النِّسَاءَ فَمَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ لِيَذْنِبْنَ﴾ [الطلاق: ١]؟

وأما قولكم: إن الفروج يُحتاط لها، فنعم، وهكذا قلنا سواء، فلأننا احتطنا، وأبقينا الزوجين على يقين النكاح حتى يأتي ما يُزيله بيقين، فإذا أخطأنا، فخطؤنا في جهة واحدة، وإن أصبنا، فصوابنا في جهتين، جهة الزوج الأول، وجهة الثاني، وأنتم ترتكبون أمرين: تحريم الفرج على من كان حلالاً له ييقن، وإحلاله لغيره، فإن كان خطأ، فهو خطأ من جهتين، فتبين أننا أولى بالاحتياط منكم، وقد قال الإمام أحمد في رواية أبي طالب: في طلاق السكران نظير هذا الاحتياط سواء، فقال: الذي لا يأمر بالطلاق: إنما أتى خصلة واحدة، والذي يأمر بالطلاق أتى خصلتين حرّمها عليه، وأحلّها لغيره، فهذا خير من هذا.

وأما قولكم: إن النكاح يُدخل فيه بالعزيمة والاحتياط، ويُخرج منه بأدنى شيء، قلنا: ولكن لا يُخرج منه إلا بما نصّب الله سبباً يُخرج به منه، وأذن فيه، وأما ما ينصبّه المؤمن عنده، ويجعله هو سبباً للخروج منه، فكلّا. فهذا منتهى أقدام الطائفتين في هذه المسألة الضيقة المعترك، الوعرة المسلك التي يتجاذب أعنة أدلتها الفرسان، وتتضاءل لدى صولتها شجاعة الشجعان، وإنما نهينا على ما خدعنا وأدلتها ليعلم الغرّ الذي بضاعته من العلم مُزجاة، أن هناك شيئاً آخر وراء ما عنده، وأنه إذا كان ممن قَصُرَ في العلم بأهله، فضعف خلف الدليل، وتقاصر عن جنى ثماره ذراعه، فليقلّز من شمر عن ساق عزمه، وحام

وأما قولكم: إن تحريره لا يمنع ترتب أثره عليه، كالظهار، فيقال أولاً: هذا قياس يدفعه ما ذكرناه من النص، وسائر تلك الأدلة التي هي أرجح منه، ثم يقال ثانياً: هذا معارض بمثل سواء معارضة القلب بأن يقال: تحريره يمنع ترتب أثره عليه كالنكاح، ويقال ثالثاً: ليس للظهار جهتان: جهة جلّ وجهه حرمة، بل كلّ حرام، فإنه منكر من القول وزور، فلا يُمكن أن ينقسم إلى حلال جائز، وحرام باطل، بل هو بمنزلة القذف من الأجني والردة، فإذا وجد لم يوجد إلا مع مفسدته، فلا يتصور أن يقال: منه حلال صحيح، وحرام باطل، بخلاف النكاح والطلاق والبيع، فالظهار نظير الأفعال المحرمة التي إذا وقعت، قارنتها مفسدتها فترتبت عليها أحكامها، والحاق الطلاق بالنكاح، والبيع والإجارة والعقود المنقسمة إلى حلال وحرام، وصحيح وباطل، أولى.

وأما قولكم: إن النكاح عقد يملك به البضع، والطلاق عقد يخرج به، فنعم. من أين لكم برهان من الله ورسوله بالفرق بين العقدين في اعتبار حكم أحدهما، والإنزام به وتنفيذه، وإلغاء الآخر وإبطاله؟ وأما زوال ملكه عن العين بالإتلاف المحرّم، فذلك ملك قد زال جساً، ولم يبق له محل. وأما زواله بالإقرار الكاذب، فأبعد وأبعد، فلأن صدقناه ظاهراً في إقراره، وأزلنا ملكه بالإقرار المصدق فيه وإن كان كاذباً.

وأما زوال الإيمان بالكلام الذي هو كفر، فقد تقدم جوابه، وأنه ليس في الكفر حلال وحرام.

وأما طلاق الهازل، فإنما وقع، لأنه صادف محلاً، وهو طهر لم يجامع فيه فتغذ، وكونه هزل به إرادة منه أن لا يترتب أثره عليه، وذلك ليس إليه، بل إلى الشارع، فهو قد أتى بالسبب التام، وأراد ألا يكون سببه، فلم ينفعه ذلك، بخلاف من طلق في غير زمن الطلاق، فإنه لم يأت بالسبب الذي نصّب الله سبحانه مفضياً إلى وقوع الطلاق، وإنما أتى بسبب من عنده، وجعله هو مفضياً إلى حكمه، وذلك ليس إليه.

وأما قولكم: إن النكاح نعمة، فلا يكون سببه إلا طاعة بخلاف الطلاق، فإنه من باب إزالة النعم،

أحوط إذا تيقن الراوي أنها نسخة الشيخ بعينها، وهذه طريقة الصحابة والسلف، وقد كان رسول الله ﷺ يبعث كتبه إلى الملوك، وتقوم عليهم بها الحجة، وكتب كتبه إلى عماله في بلاد الإسلام، فعملوا بها، واحتجوا بها، ودفع الصديق كتاب رسول الله ﷺ في الزكاة إلى أنس بن مالك، فحمله، وعملت به الأمة، وكذلك كتابه إلى عمرو بن حزم في الصدقات الذي كان عند آل عمرو، ولم يزل السلف والخلف يحتجون بكتاب بعضهم إلى بعض، ويقول المكتوب إليه: كتب إلي فلان أن فلاناً أخبره، ولو بطل الاحتجاج بالكتب، لم يبق بأيدي الأمة إلا أيسر اليسير، فإن الاعتماد إنما هو على الشيخ لا على الحفظ، والحفظ خوآن، والنسخة لا تخون، ولا يحفظ في زمن من الأزمان المتقدمة أن أحداً من أهل العلم رد الاحتجاج بالكتاب، وقال: لم يُشافهني به الكاتب، فلا أقبله، بل كلهم مجمعون على قبول الكتاب والعمل به إذا صح عنده أنه كتابه.

الجواب الثاني: أن قول من قال: لم يسمع من أبيه، معارض بقول من قال: سمع منه، ومعه زيادة علم وإثبات، قال عبد الرحمن بن أبي حاتم: سئل أبي عن مخرمة بن بكير؟ فقال: صالح الحديث. قال: وقال ابن أبي أويس: وجدت في ظهر كتاب مالك: سألت مخرمة عما يحدث به عن أبيه، سمعها من أبيه؟ فحلف لي: ورب هذه البنية - يعني المسجد - سمعت من أبي. قال علي بن المديني: سمعت معن بن عيسى يقول: مخرمة سمع من أبيه، وعرض عليه ربيعة أشياء من رأي سليمان بن يسار، وقال علي: ولا أظن مخرمة سمع من أبيه كتاب سليمان، لعله سمع منه الشيء اليسير، ولم أجد أحداً بالمدينة يخبرني عن مخرمة بن بكير أنه كان يقول في شيء من حديثه: سمعت أبي، ومخرمة ثقة. انتهى. ويكفي أن مالكا أخذ كتابه، فنظر فيه، واحتج به، في «موطئه»، وكان يقول: حدثني مخرمة، وكان رجلاً صالحاً. وقال أبو حاتم: سألت إسماعيل بن أبي أويس، قلت: هذا الذي يقول مالك بن أنس: حدثني الثقة، من هو؟ قال: مخرمة بن بكير. وقيل لأحمد ابن صالح المصري: كان مخرمة من ثقات الرجال؟

حول آثار رسول الله ﷺ وتحكيمها، والتحاكم إليها بكل همة، وإن كان غير عاذر لمنازعه في قصوره ورغبته عن هذا الشأن البعيد، فليعذر منازعه في رغبته عما ارتضاه لنفسه من محض التقليد، ولينظر مع نفسه أيهما هو الممذور، وأي السعيرين أحق بأن يكون هو السعي المشكور، والله المستعان وعليه التكلان، وهو الموفق للصواب، الفاتح لمن أم بابه طالباً لمرضاته من الخير كل باب.

فصل

في حكمه ﷺ فيمن طلق ثلاثاً بكلمة واحدة

قد تقدم حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ أخبر عن رجل طلق امرأته ثلاث تطبيقات جميعاً، فقام مغضباً، ثم قال: «أَيْلَعَبُ بِكِتَابِ اللَّهِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟!» وإسناده على شرط مسلم، فإن ابن وهب قد رواه عن مخرمة بن بكير بن الأشج، عن أبيه قال: سمعت محمود بن لبيد ذكره، ومخرمة ثقة بلا شك، وقد احتج مسلم في «صحيحه» بحديثه عن أبيه.

والذين أعلنوه قالوا: لم يسمع منه، وإنما هو كتاب... قال أبو طالب: سألت أحمد بن حنبل عن مخرمة بن بكير؟ فقال: هو ثقة، ولم يسمع من أبيه، إنما هو كتاب مخرمة، فنظر فيه، كل شيء يقول: بلغني عن سليمان بن يسار، فهو من كتاب مخرمة. وقال أبو بكر بن أبي خيثمة: سمعت يحيى بن معين يقول: مخرمة بن بكير وقع إليه كتاب أبيه، ولم يسمعه. وقال في رواية عباس الدوري: هو ضعيف، وحديثه عن أبيه كتاب، ولم يسمعه منه، وقال أبو داود: لم يسمع من أبيه إلا حديثاً واحداً، حديث الوتر، وقال سعيد بن أبي مريم عن خاله موسى بن سلمة: أتيت مخرمة فقلت: حدثك أبوك؟ قال: لم أدرك أبي، ولكن هذه كتبه.

والجواب عن هذا من وجهين:

أحدهما: أن كتاب أبيه كان عنده محفوظاً مضبوطاً، فلا فرق في قيام الحجة بالحديث بين ما حدثه به، أو رآه في كتابه، بل الأخذ عن النسخة

قال: نعم، وقال ابنُ عدي عن ابن وهب ومعن ابن عيسى عن مخزومة: أحاديثُه جِسانٌ مستقيمة، وأرجو أنه لا بأس به.

وفي «صحيح مسلم» قولُ ابن عمر للمطلق ثلاثاً: «حَرَمْتُ عَلَيْكَ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَكَ، وَعَصَيْتُ رَبَّكَ فِيمَا أَمَرَكَ بِهِ مِنْ طَلَاقِ أَمْرَاتِكَ» [مسلم: ٣٦١٩]، وهذا تفسيرٌ منه للطلاق المأمور به، وتفسيرُ الصحابي حُجَّةٌ، وقال الحاكم: هو عندنا مرفوع^(١).

ومن تأمل القرآن حقَّ التأمل، تبين له ذلك، وعرف أن الطلاق المشروع بعد الدخول هو الطلاق الذي يملك به الرجعة، ولم يشرع الله سبحانه إيقاع الثلاث جملةً واحدة البتة، قال تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ولا تعقلُ العرب في لغتها وقوعَ المرتين إلا متعاقبتين، كما قال النبي ﷺ: «مَنْ سَبَّحَ اللَّهَ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَحَمِدَهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبَّرَهُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ»، ونظائره فإنه لا يُعقل من ذلك إلا تسبيح وتكبير وتحميد متوالي يتلو بعضه بعضاً، فلو قال: سبحانه الله ثلاثاً وثلاثين، والحمد لله ثلاثاً وثلاثين، والله أكبر أربعاً وثلاثين بهذا اللفظ، لكان ثلاث مرات فقط. وأصرح من هذا قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَزْنُونَ أَرْبَعَهُمْ ذَكَرَ يَوْمَ نُفْثِلَهُ إِلَّا أَتَيْنَهُمْ مِنْهُمُ أَرْبَعٌ حَوْرٌ أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ شَهَادَاتُ بِاللَّهِ [النور: ٦] فلو قال: أشهد بالله أربع شهادات إنني لمن الصادقين، كانت مرةً، وكذلك قوله: ﴿وَيَذَرُهَا الْفَلَسُ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [النور: ٨] فلو قالت: أشهد بالله أربع شهادات إنه لمن الكاذبين، كانت واحدة، وأصرح من ذلك قوله تعالى: ﴿سَتَعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ [التوبة: ١٠١] فهذا مرة بعد مرة، ولا يتقضى هذا بقوله تعالى: ﴿تُؤْتِيهِمَا لَبَاسَهُمَا مَرَّتَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣١]، وقوله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ» [البخاري: ٩٧، ومسلم: ٣٨٧]، فإن المرتين هنا هما الضَّعْفَانِ، وهما المثلان، وهما مثلان في القدر، كقوله تعالى: ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، وقوله: «فَقَالَتْ أَكْثَلُهَا ضِعْفَيْنِ» [البقرة: ٢٦٥]. أي: ضعفي ما يُعَذَّب به غيرها،

وضعفي ما كانت تُؤْتِي، ومن هذا قولُ أنس: انشق القمرُ على عهد رسول الله ﷺ مرتين، أي: شقتين وفتقتين، كما قال في اللفظ الآخر: انشق القمرُ فَلْتَيْنِ [البخاري: ٤٨٦٨، ومسلم: ٧٠٧٦]. وهذا أمر معلوم قطعاً أنه إنما انشق القمر مرة واحدة، والفرقُ معلوم بين ما يكون مرتين في الزمان، وبين ما يكون مثلين وجزأين ومرتين في المضاعفة. فالثاني: يتصور فيه اجتماعُ المرتين في آن واحد، والأول لا يتصور فيه ذلك.

ومما يدل على أن الله لم يشرع الثلاث جملةً: أنه قال تعالى: ﴿وَالطَّلَاقُ يَرْتَبِعُ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] إلى أن قال: ﴿وَيُؤْتِيَهُنَّ أَحَقُّ بِرَّيْنِ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فهذا يدلُّ على أن كل طلاق بعد الدخول، فالمطلق أحقُّ فيه بالرجعة سوى الثالثة المذكورة بعد هذا، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَطَاعَتْهُ إِلَّا نَفْسُهَا فَطَلَّقُوهُنَّ إِيمَازًا﴾ [الطلاق: ١] إلى قوله: ﴿فَإِذَا بَلَغَ الْأِمْرَأَةُ بِمَا صَلَّيْتُ فِيهَا حَرْمَهَا فَأَنْسَاهُنَّ أَنَّ هُنَّ رِجَالٌ فَأُولَئِكَ يَفْرَقُونَ﴾ [الطلاق: ٢]، فهذا هو الطلاق المشروع، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أقسامَ الطلاق كُلِّها في القرآن، وذكر أحكامها، فذكر الطلاق قبل الدخول، وأنه لا عِدَّةَ فيه، وذكر الطلقة الثالثة، وأنها تُحرِّمُ الزوجة على المطلق حتى تنكِح زوجاً غيره، وذكر طلاق الفداء الذي هو الخُلْعُ، وسماه فدية، ولم يحسبه من الثلاث كما تقدم، وذكر الطلاق الرجعي الذي المطلق أحقُّ فيه بالرجعة، وهو ما عدا هذه الأقسام الثلاثة.

وبهذا احتج أحمدُ والشافعي وغيرُهما على أنه ليس في الشرع طلقةً واحدة بعد الدخول بغير عوض بائنة، وأنه إذا قال لها: أنت طالق طلقة بائنة كانت رجعية، ويلغو وصفها بالبينونة، وأنه لا يملك إبانيتها إلا بعوض. وأما أبو حنيفة، فقال: تبينُ بذلك، لأن الرجعة حق له، وقد أسقطها، والجمهور يقولون: وإن كانت الرجعة حقاً له لكن نفقة الرجعية وكسوتها حق عليه، فلا يملك إسقاطها إلا باختيارها، وبذلها العوض، أو سؤالها أن تفتدي نفسها منه بغير عوض

(١) لقد أوضح المؤلف رحمه الله في «إعلام الموقعين» (٤/١٥٣) قول الحاكم هذا.

في أحد القولين، وهو جواز الخلع بغير عوض.

وأما إسقاط حقها من الكسوة والنفقة بغير سؤالها ولا بذليها العوض، فخلافاً للنص والقياس.

قالوا: وأيضاً فالله سبحانه شرع الطلاق على أكمل الوجوه وأنفعها للرجل والمرأة، فإنهم كانوا يُطلقون في الجاهلية بغير عدد، فيطلق أحدهم المرأة كلما شاء، ويُراجعها، وهذا وإن كان فيه رفق بالرجل، ففيه إضرار بالمرأة، فنسخ سبحانه ذلك بثلاث، وقصر الزوج عليها، وجعله أحق بالرجعة ما لم تنقض عدتها، فإذا استوفى العدد الذي مُلكه، حرمت عليه، فكان في هذا رفق بالرجل إذ لم تحرم عليه بأول طلاق، وبالمرأة حيث لم يجعل إليه أكثر من ثلاث، فهذا شرعه وحكمته، وحدوده التي حُدّها لعباده، فلو حرمت عليه بأول طلاق يطلقها كان خلافاً شرعه وحكمته، وهو لم يملك إيقاع الثلاث جملة، بل إنما ملك واحدة، فالزائد عليها غير مأذون له فيه.

قالوا: وهذا كما أنه لم يملك إبانيتها بطلقة واحدة، إذ هو خلاف ما شرعه، لم يملك إبانيتها بثلاث مجموعة، إذ هو خلاف شرعه.

ونكتة المسألة أن الله لم يجعل للامة طلاقاً بائناً قط إلا في موضعين. أحدهما: طلاق غير المدخول بها. والثاني: الطلقة الثالثة، وما عداها من الطلاق، فقد جعل للزوج فيه الرجعة، هذا مقتضى الكتاب كما تقدم تقريره، وهذا قول الجمهور، منهم: الإمام أحمد، والشافعي، وأهل الظاهر، قالوا: لا يملك إبانيتها بدون الثلاث إلا في الخلع.

ولأصحاب مالك ثلاثة أقوال فيما إذا قال: أنت طالق طلقة لا رجعة فيها. أحدها: أنها ثلاث، قاله ابن المأجشون لأنه قطع حقه في الرجعة، وهي لا تنقطع إلا بثلاث، فجاءت الثلاث ضرورة. الثاني: أنها واحدة بائنة، كما قال، هذا قول ابن القاسم، لأنه يملك إبانيتها بطلقة بعوض، فملكها بدونه، والخلع عنده طلاق. الثالث: أنها واحدة رجعية، وهذا قول ابن وهب، وهو الذي يقتضيه الكتاب والسنة والقياس، وعليه الأكثر.

فصل

(هل يقع الطلاق ثلاثاً حين قاله بكلمة واحدة)

وأما المسألة الثانية، وهي وقوع الثلاث بكلمة واحدة، فاختلف الناس فيها على أربعة مذاهب. أحدها: أنها تقع، وهذا قول الأئمة الأربعة، وجمهور التابعين، وكثير من الصحابة رضي الله عنهم.

الثاني: أنها لا تقع بل تُرد لأنها بدعة محرمة، والبدعة مردودة، لقوله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» [مسلم: ٤٤٩٣] وهذا المذهب حكاه أبو محمد ابن حزم، وحكي للإمام أحمد فأنكره، وقال: هو قول الرافضة.

الثالث: أنه يقع به واحدة رجعية، وهذا ثابت عن ابن عباس، ذكره أبو داود عنه. قال الإمام أحمد: وهذا مذهب ابن إسحاق، يقول: خالف السنة فيرد إلى السنة، انتهى. وهو قول طاوس، وعكرمة، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية.

الرابع: أنه يُفرق بين المدخول بها وغيرها، فتقع الثلاث بالمدخول بها، ويقع بغيرها واحدة، وهذا قول جماعة من أصحاب ابن عباس، وهو مذهب إسحاق بن راهويه فيما حكاه عنه محمد بن نصر المروزي في كتاب «اختلاف العلماء».

(حجج من لم يعتد بها شيئاً)

فأما من لم يُوقعها جملة، فاحتجوا بأنه طلاق بدعة محرمة، والبدعة مردودة، وقد اعترف أبو محمد ابن حزم بأنها لو كانت بدعة محرمة، لوجب أن تُرد وتبطل، ولكنه اختار مذهب الشافعي أن جمع الثلاث جائز غير محرمة، وستأتي حجة هذا القول.

(حجج من جعلها واحدة)

وأما من جعلها واحدة، فاحتج بالنص والقياس، فأما النص، فما رواه معمر، وابن جريج عن ابن طاوس، عن أبيه، أن أبا الصهباء قال لابن عباس: ألم تعلم أن الثلاث كانت تُجعل واحدة على عهد رسول الله ﷺ، وأبي بكر، وصدرأ من إمارة عمر؟ قال نعم. رواه مسلم في «صحيحه». وفي لفظ: ألم تعلم أن الثلاث كانت على عهد

رسول الله ﷺ، وأبي بكر، وصدرًا من خلافة عمر تُرَدُّ إلى واحدة؟ قال: نعم [مسلم: ٣٦٧٣].

وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا عبد الرزاق، أن ابن جريج قال: أخبرني بعض بني أبي رافع مولى رسول الله ﷺ، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: طلق عبدُ يزيد - أبو ركانة وإخوته - أم ركانة، ونكح امرأةً من مُزينة، فجاءت النبي ﷺ فقالت: ما يُغني عني إلا كما تغني هذه الشعرة، لشعرة أخذتها من رأسها، ففرَّق بيني وبينه، فأخذت النبي ﷺ حَمِيَّةً فدعا بُرْكَانَةَ وإخوته، ثم قال لجلسائه: «أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ فُلَانًا يُشْبِهُ مِنَّهُ كَذَا وَكَذَا مِنْ عَبْدِ يَزِيدَ، وَفُلَانًا مِنَّهُ كَذَا وَكَذَا؟» قالوا: نعم، قال النبي ﷺ لعبد يزيد: «طَلِّقْهَا»، ففعل ثم قال: «رَاجِعْ أَمْرَاتَكَ أُمَّ رُكَانَةَ وإخوته»، فقال: «إني طَلَّقْتُهَا ثَلَاثًا يَا رَسُولَ اللَّهِ»، قال: «قَدْ عَلِمْتُ رَاجِعَهَا وَتَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنْكَارُكَ الْإِسْلَامَ فَلَاقُوا لِيَذْنِبَنَّ﴾ [الطلاق: ١]» [أبو داود: ٢١٩٦].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سعد بن إبراهيم، قال: حدثنا أبي، عن محمد بن إسحاق، قال: حدثني داود بن الحصين، عن عكرمة مولى ابن عباس، عن عبد الله بن عباس، قال: طلق رُكَانَةُ بن عبد يزيد أخو بني المطلب امرأته ثَلَاثًا في مجلس واحد، فَحَزَنَ عليها حُزْنًا شَدِيدًا، قال: فسأله رسول الله ﷺ: «كَيْفَ طَلَّقْتُهَا؟» فقال: طَلَّقْتُهَا ثَلَاثًا، فقال: «فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ؟» قال: نعم، قال: «فَإِنَّمَا تِلْكَ وَاحِدَةٌ فَارْجِعْهَا إِنْ شِئْتَ؟» قال: فَرَجَعَهَا. فكان ابنُ عباس يرى أنما الطلاق عند كل طهر [أحمد: ٢٣٨٧، وفي سنده ضعف].

قالوا: وأما القياسُ، فقد تقدَّم أن جمعَ الثلاثِ محَرَّمٌ وبِدْعَةٌ، والبدعةُ مردودة، لأنها ليست على أمر رسول الله ﷺ، قالوا: وسائرُ ما تقدم في بيان التحريم يدلُّ على عدم وقوعها جملة. قالوا: ولو لم يكن معنا إلا قوله تعالى: «فَتَشَدُّوا حَبْرَةً أَوْ شَهْدَتَيْنِ بِإِقْرَارٍ» [النور: ٦]، وقوله: «وَيَذَرُوا عَنَّا الْكِتَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِإِقْرَارٍ» [النور: ٨]، قالوا: وكذلك كُلُّ ما يُعْتَبَرُ به التكرار من حلف أو إقرار أو شهادة، وقد قال النبي ﷺ: «تَحْلِفُونَ خَمْسِينَ يَمِينًا، وَتَسْتَحِقُّونَ دَمَ صَاحِبِكُمْ» [البخاري: ٦٨٨٩، ومسلم: ٤٣٤٢].

فلو قالوا: نحلفُ باللهِ خمسِينَ يمينًا: إن فلانًا قتله، كانت يمينًا واحدة. قالوا: وكذلك الإقرار بالزنى، كما في الحديث: أن بعض الصحابة قال لِمَاعِزٍ: إن أقررت أربعمائة، رجمتك رسول الله ﷺ، فهذا لا يُعْقَلُ أن تكون الأربع فيه مجموعةً بضم واحد.

(حجج من فرق بين المدخول بها وغيرها)

وأما الذين فرَّقوا بين المدخول بها وغيرها، فلمهم حجتان.

أحدهما: ما رواه أبو داود بإسناد صحيح، عن طائوس، أن رجلاً يُقال له: أبو الصهباء كان كثير السؤال لابن عباس، قال له: أما علمت أن الرجل كان إذا طلق امرأته ثَلَاثًا قبل أن يدخل بها جعلوها واحدة على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وصدرًا من إمارة عمر؟ فلما رأى عمرُ الناس قد تابَعُوا فيها، قال: أجزوهن عليهم [أبو داود: ٢١٩٩].

الحجة الثانية: أنها تبينُ بقوله: أنت طالق، فُصَادِفُهَا ذِكْرُ الثَلَاثِ وهي بائن، فتلغو، ورأى هؤلاء أن إلزام عمر بالثلاث هو في حق المدخول بها، وحديث أبي الصهباء في غير المدخول بها. قالوا: ففي هذا التفريق موافقةُ المنقول من الجانبين، وموافقةُ القياس، وقال بكل قول من هذه الأقوال جماعة من أهل الفتوى، كما حكاه أبو محمد بن حزم وغيره، ولكن عدم الوقوع جملة هو مذهبُ الإمامية، وحكَّوه عن جماعة من أهل البيت.

(حجج من لوقعها ثلاثًا)

قال الموقعون للثلاث: الكلامُ معكم في مقامين.

أحدهما: تحريم جمع الثلاث. والثاني: وقوعها جملة ولو كانت محرمة، ونحن نتكلَّم معكم في المقامين. فأما الأول:

فقد قال الشافعي، وأبو ثور، وأحمد بن حنبل في إحدى الروايات عنه، وجماعة من أهل الظاهر: إن جمع الثلاث سنة، واحتجوا عليه بقوله تعالى: «وَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا عِلَّ لَهُ مِنْ بَدَلٍ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرًا» [البقرة: ٢٣٠]، ولم يفرَّق بين أن تكون الثلاث مجموعة، أو مفرقة، ولا يجوز أن يفرَّق بين ما جمع الله بينه، كما لا نجتمع بين ما فرَّق الله بينه. وقال تعالى: «وَإِنْ

طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسُوهُنَّ» [البقرة: ٢٣٧]، ولم يفرق وقال: «لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَسُوهُنَّ» [البقرة: ٢٣٦] الآية، ولم يفرق وقال: «وَالطَّلَاقُ مَتَّعٌ بِالْمَرْوَةِ» [البقرة: ٢٤١]، وقال: «يَكَايَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَكَثَّرَ الْمُؤْمِنَاتُ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسُوهُنَّ» [الأحزاب: ٤٩]، ولم يفرق. قالوا: وفي «الصحيحين»، أن عويمراً العجلاني طلق امرأته ثلاثاً بحضرة رسول الله ﷺ قبل أن يأمره بطلاقها [بخاري: ٥٢٥٩، ومسلم: ٣٧٤٣]. قالوا: فلو كان جمع الثلاث معصية لما أقر عليه رسول الله ﷺ، ولا يخلو طلاقها أن يكون قد وقع وهي امرأته، أو حين حرمت عليه باللعان، فإن كان الأول، فالحجة منه ظاهرة، وإن كان الثاني، فلا شك أنه طلقها، وهو يظنها امرأته، فلو كان حراماً، لبيّنها له رسول الله ﷺ، وإن كانت قد حرمت عليه. قالوا: وفي «صحيح البخاري»، من حديث القاسم بن محمد، عن عائشة أم المؤمنين، أن رجلاً طلق امرأته ثلاثاً، فتزوجت، فطلقت، فستل رسول الله ﷺ، أتحل للأول؟ قال: «لَا حَتَّى يَذُوقَ عُسَيْلَتَهَا كَمَا ذَاقَ الْأَوَّلُ» [بخاري: ٥٠٦٩٠، فلم يُكَبِّرْ ﷺ ذلك، وهذا يدل على إباحة جمع الثلاث، وعلى وقوعها، إذ لو لم تقع، لم يوقف رجوعها إلى الأول على ذوق الثاني عسيلتها.

قالوا: وفي «الصحيحين» من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن، أن فاطمة بنت قيس أخبرته أن زوجها أبا حفص بن المغيرة المخزومي طلقها ثلاثاً، ثم انطلق إلى اليمن، فانطلق خالد بن الوليد في نفر، فاتوا رسول الله ﷺ في بيت ميمونة أم المؤمنين، فقالوا: إن أبا حفص طلق امرأته ثلاثاً، فهل لها من نفقة؟ فقال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ لَهَا نَفَقَةٌ وَعَلَيْهَا الْعِدَّةُ» [مسلم: ٣٧٠٠].

وفي «صحيح مسلم» في هذه القصة: قالت فاطمة، فأتيت رسول الله ﷺ، فقال: «كَمْ طَلَّقَكَ؟» قلت: ثلاثاً، فقال: «صَدَقَ لَيْسَ لِكَ نَفَقَةٌ».

وفي لفظ له: قالت: يا رسول الله! إن زوجي

طلقني ثلاثاً، وإنني أخاف أن يُفْتَحَمَ عَلَيَّ [مسلم: ٣٧١٨].

وفي لفظ له: عنها، أن النبي ﷺ قال في المطلقة ثلاثاً: «لَيْسَ لَهَا سُكْنَى وَلَا نَفَقَةٌ» [مسلم: ٣٧٠٨].

قالوا: وقد روى عبد الرزاق في «مصنفه» عن يحيى بن العلاء، عن عبيد الله بن الوليد الوصافي، عن إبراهيم بن عبيد الله بن عبادة بن الصامت، عن داود بن عبادة بن الصامت^(١)، قال: طلق جدي امرأة له ألفت تطليقة، فانطلق أبي إلى رسول الله ﷺ، فذكر له ذلك، فقال النبي ﷺ: «مَا أَتَى اللَّهَ جَدُّكَ، أَمَّا ثَلَاثَ قَلْبِهِ، وَأَمَّا تَسْعِمَتُهُ وَسَبْعَةُ وَتَسْعُونَ فَعُدْوَانٌ وَظُلْمٌ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَذْبُهُ، وَإِنْ شَاءَ عَقَرُ لَهُ» [ضميف جداً: عبد الرزاق: ١٣٣٩، والدارقطني (٤١٣٣)].

ورواه بعضهم عن صدقة بن أبي عمران، عن إبراهيم بن عبيد الله بن عبادة بن الصامت، عن أبيه، عن جده، قال: طلق بعض آبائي امرأته، فانطلق بنوه إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله! إن أبانا طلق أمنا ألفاً، فهل له من مخرج؟ فقال: «إِنْ أَبَاكُمْ لَمْ يَتَّقِ اللَّهَ، فَيَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً، بَأَنْتَ مِنْهُ بِثَلَاثَ عَلَى غَيْرِ السُّنَّةِ، وَتَسْعِمَتُهُ وَسَبْعَةُ وَتَسْعُونَ إِنْمَ فِي عُنُقِهِ».

قالوا: وروى محمد بن شاذان، عن معلّى بن منصور، عن شعيب بن زريق، أن عطاء الخراساني حدثهم عن الحسن، قال: حدثنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنه طلق امرأته وهي حائض، ثم أراد أن يتبعها بطليقتين أخريين عند القرأين الباقيين، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «يَا ابْنَ عُمَرَ! مَا هَكَذَا أَمَرَكَ اللَّهُ، أَخْطَأْتَ السُّنَّةَ...» وذكر الحديث وفيه، فقلت: يا رسول الله! لو كنت طلقها ثلاثاً، أكان لي أن أجمعها، قال: «لَا، كَأَنْتَ تَبِينُ وَتَكُونُ مَعْصِيَةً» [المحلى: (١٠/١٦٩)].

قالوا: وقد روى أبو داود في «سننه»: عن نافع بن عجير بن عبد يزيد بن ركانة، أن ركانة بن عبد يزيد طلق امرأته سبيعة البثة، فأخبر النبي ﷺ بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «وَاللَّهِ مَا أَرَدْتُ إِلَّا وَاحِدَةً؟» فقال ركانة: واللّه ما أردتُ إِلَّا واحدة، فردّها إليه

(١) كذا في الأصل وفي «المصنف» ورواه الدارقطني عن إبراهيم بن عبيد الله بن عبادة بن الصامت، عن أبيه، عن جده.

رسول الله ﷺ، فطلقها الثانية في زمن عمر، والثالثة في زمن عثمان [أبو داود: ٢٢٠٦].

وفي «جامع الترمذي»: عن عبد الله بن علي بن يزيد بن ركانة، عن أبيه، عن جده، أنه طلق امرأته البتة، فأتى رسول الله ﷺ فقال: «مَا أَرَدْتُ بِهَا؟» قال: واحدة، قال: «أَلَّه»، قال: أَلَّه، قال: «هُوَ عَلَى مَا أَرَدْتُ» [الترمذي: ١١٧٧]. قال الترمذي: لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وسألت محمداً - يعني البخاري - عن هذا الحديث؟ فقال: فيه اضطراب.

ووجه الاستدلال بالحديث، أنه ﷺ أحلفه أنه أراد بالبتة واحدة، فدل على أنه لو أراد بها أكثر، لوقع ما أراد، ولو لم يفرق الحال لم يحلفه. قالوا: وهذا أصح من حديث ابن جريج عن بعض بني أبي رافع عن عكرمة، عن ابن عباس أنه طلقها ثلاثاً. قال أبو داود: لأنهم ولد الرجل، وأهلُه أعلمُ به أن ركانة إنما طلقها البتة.

قالوا: وابن جريج إنما رواه عن بعض بني أبي رافع. فإن كان عبيد الله فهو ثقة معروف، وإن كان غيره من إخوانه، فمجهول العدالة لا تقوم به حجة.

قالوا: وأما طريق الإمام أحمد، ففيها ابن إسحاق، والكلام فيه معروف، وقد حكى الخطابي، أن الإمام أحمد كان يُصَفِّطُ طرقَ هذا الحديث كلها.

قالوا: وأصح ما معكم حديثُ أبي الصهباء عن ابن عباس، وقد قال البيهقي: هذا الحديث أحد ما اختلف فيه البخاري ومسلم، فأخرجه مسلم وتركه البخاري، وأظنه تركه لمخالفته سائر الروايات عن ابن عباس، ثم ساق الروايات عنه بوقوع الثلاث، ثم قال: فهذه رواية سعيد بن جبيرة، وعطاء بن أبي رباح، ومجاهد، وعكرمة، وعمرو بن دينار، ومالك بن الحارث، ومحمد بن إياس بن البكير، قال: ورويناه عن معاوية بن أبي عياش الأنصاري، كلُّهم عن ابن عباس، أنه أجاز الثلاث وأماهن.

وقال ابن المنذر: فغير جائز أن يُظنَّ بابن عباس أنه يحفظ عن النبي ﷺ شيئاً ثم يقتي بخلافه.

وقال الشافعي: فإن كان معنى قول ابن عباس: إن

الثلاث كانت تُحسب على عهد رسول الله ﷺ واحدة، يعني أنه بأمر النبي ﷺ، فالذي يُشبهه - والله أعلم - أن يكون ابن عباس قد علم أنه كان شيئاً فنسخ. قال البيهقي: ورواية عكرمة عن ابن عباس فيها تأكيد لصحة هذا التأويل - يريد البيهقي - ما رواه أبو داود والنسائي، من حديث عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَالطَّلَاقُ بَرَاءَةٌ بِرَفْعٍ وَأَنْفُسُهُنَّ ثَلَاثَةٌ قُرُوءٌ...﴾ الآية [البقرة: ٢٢٨] وذلك أن الرجل كان إذا طلق امرأته فهو أحق برجعتها، وإن طلقها ثلاثاً، فنسخ ذلك، فقال: ﴿الطَّلَاقُ مَرَكَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩] [حسن: أبو داود: ٢١٩٥، والنسائي (٢١٧/٦)].

قالوا: فيحتل أن الثلاث كانت تُجعل واحدة من هذا الوقت، بمعنى أن الزوج كان يتمكن من المراجعة بعدها، كما يتمكن من المراجعة بعد الواحدة، ثم نسخ ذلك.

وقال ابن سريج^(١): يُمكن أن يكون ذلك إنما جاء في نوع خاص من الطلاق الثلاث، وهو أن يفرق بين الألفاظ، كأن يقول: أنت طالق، أنت طالق، أنت طالق، وكان في عهد رسول الله ﷺ، وعهد أبي بكر رضي الله عنه الناس على صدقهم وسلامتهم لم يكن فيهم الخب والخداع، فكانوا يُصدِّقون أنهم أرادوا به التأكيد، ولا يُريدون به الثلاث، فلما رأى عمر رضي الله عنه في زمانه أموراً ظهرت، وأحوالاً تغيَّرت، منع من حمل اللفظ على التكرار، وألزمهم الثلاث.

وقالت طائفة: معنى الحديث أن الناس كانت عادتُهم على عهد رسول الله ﷺ إيقاع الواحدة، ثم يدعها حتى تنقضي عدتها، ثم اعتادوا الطلاق الثلاث جملة، وتنايَعُوا فيه، ومعنى الحديث على هذا: كان الطلاق الذي يُوقعه المطلق الآن ثلاثاً يُوقعه على عهد رسول الله ﷺ، وأبي بكر واحدة، فهو إخبار عن الواقع، لا عن المشروع.

وقالت طائفة: ليس في الحديث بيان أن رسول الله ﷺ هو الذي كان يجعل الثلاث واحدة، ولا أنه أعلم بذلك فأقرَّ عليه، ولا حجة إلا فيما قاله

(١) في الأصل «ابن جريج» وهو تحريف.

أو فعله، أو علم به فأقرَّ عليه، ولا يُعلم صحة واحدة من هذه الأمور في حديث أبي الصهباء.

قالوا: وإذا اختلفت علينا الأحاديث، نظرنا إلى ما عليه أصحاب رسول الله ﷺ، فإنهم أعلمُ بستته، فنظرنا فإذا الثابت عن عمر بن الخطاب الذي لا يثبت عنه غيره ما رواه عبد الرزاق، عن سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل، حدثنا زيد بن وهب، أنه رُفِعَ إلى عمر بن الخطاب رجل طلق امرأته ألفاً، فقال له عمر: أطلقتِ امرأتك؟ فقال: إنما كنتُ لعب، فعلاه عُمَرُ بالدَّرَّةِ، وقال: إنما يكفيك من ذلك ثلاث [مبد الرزاق: ١١٣٤٠، والبيهقي (٣٣٤/٧)].

وروى وكيع، عن الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، قال: جاء رجل إلى علي بن أبي طالب، فقال: إني طلقْتُ امرأتي ألفاً، فقال له عليٌّ: بانت منك ثلاث، واقسيم سائرهن بين نساءك [ابن حزم (١٧٢/١٠)].

وروى وكيع أيضاً، عن جعفر بن بُرقان، عن معاوية بن أبي يحيى، قال: جاء رجلٌ إلى عثمان بن عفان، فقال: طلقْتُ امرأتي ألفاً، فقال: بانت منك ثلاث [ابن حزم (١٧٢/١٠)].

وروى عبدُ الرزاق، عن سفيان الثوري، عن عمرو بن مرة، عن سعيد بن جبيرة، قال: قال رجلٌ لابن عباس: طلقْتُ امرأتي ألفاً، فقال له ابنُ عباس: ثلاث تُحرِّمُها عليك، وبقيتها عليك وزر، اتخذت آيات الله هزواً [عبد الرزاق: ١١٣٥٣].

وروى عبدُ الرزاق أيضاً، عن معمر، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، قال: جاء رجلٌ إلى ابن مسعود، فقال: إني طلقْتُ امرأتي تسعاً وتسعين، فقال له ابنُ مسعود: ثلاث تُبينها منك، وسائرهن عُدوان [عبد الرزاق: ١١٣٤٣].

وذكر أبو داود في «سننه»، عن محمد بن لباس، أن ابن عباس، وأبا هريرة، وعبدُ الله بن عمرو بن العاص، سُئِلُوا عن البكر يطلقها زوجها ثلاثاً، فكلُّهم قال: لا تحلُّ له حتى تنكحَ زوجاً غيره [أبو داود: ٢١٩٨].

قالوا: فهؤلاء أصحابُ رسول الله ﷺ كما

تسمعون قد أوقعوا الثلاث جملةً، ولو لم يكن فيهم إلا عمر المحدث المُلْهُم وحده، لكفى، فإنه لا يُظن به تغييرٌ ما شرعه النبي ﷺ من الطلاق الرجعي، فيجمله محرماً، وذلك يتضمَّن تحريمَ فرج المرأة على من لم تُحرِّمْ عليه، وإباحته لمن لا تحلُّ له، ولو فعل ذلك عمر، لما أقرَّه عليه الصحابة، فضلاً عن أن يُوافقوه، ولو كان عند ابن عباس حجة عن رسول الله ﷺ أن الثلاث واحدة لم يُخالفها. ويُفتي بغيرها موافقةً لعمر، وقد علم مخالفته له في العول، وحجب الأم بالاثنتين من الإخوة والأخوات، وغير ذلك.

قالوا: ونحن في هذه المسألة تبع لأصحاب رسول الله ﷺ، فَهَمَّ أعلَمُ بستته وشرعه، ولو كان مستقراً من شريعتي أن الثلاث واحدة وتؤثني والأمر على ذلك لم يُخَفَ عليهم، ويعلمه مَنْ بعدهم، ولم يُحرِّمُوا الصَّواب فيه، ويُوقَفَ له مَنْ بعدهم، ويروي حبرُ الأمة وفتيها خبرُ كونِ الثلاث واحدة ويُخالفه.

(حجج المانعين من وقوع الثلاث)

قال المانعون من وقوع الثلاث: التحاكم في هذه المسألة وغيرها إلى من أقسم الله سبحانه وتعالى أصدقَ قَسَم، وأبره، أننا لا نُؤمِّنُ حتى نُحكِّمَه فيما شَجَرَ بيننا، ثم نَرْضَى بِحُكْمِهِ، ولا يلحقنا فيه حرجٌ، ونسلم له تسليمًا لا إلى غيره كائنًا مَنْ كان، اللهم إلا أن تُجمِعَ أمته إجماعاً متيقناً لا نشكُّ فيه على حُكْم، فهو الحقُّ الذي لا يجوزُ خلافه، ويأبى الله أن تجتمع الأمة على خلاف سنة ثابتة عنه أبداً، ونحن قد أوجدناكم من الأدلة ما تثبتُ المسألة به، بل وبدونه، ونحن نناظركم فيما طعتم به في تلك الأدلة، وفيما عارضتمونا به على أننا لا نحكم على أنفسنا إلا نصاً عن الله، أو نصاً ثابتاً عن رسول الله ﷺ، أو إجماعاً متيقناً لا شكَّ فيه، وما عدا هذا فعرضة للنزاع، وغايته أن يكون سائغُ الاتِّباع لا لازمه، فلتكن هذه المقدمة سلفاً لنا عندكم، وقد قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، فقد تنازعنا نحن وأنتم في هذه المسألة، فلا سبيلَ إلى ردِّها إلى غير الله ورسوله البتة، وسيأتي أننا أحقُّ بالصحابة، وأسعدُ بهم فيها، فنقول:

أما منعكم لتحريم جمع الثلاث، فلا ريب أنها مسألة نزاع، ولكن الأدلة الدالة على التحريم حجة عليكم.

أما قولكم: إن القرآن دل على جواز الجمع، فدعوى غير مقبولة، بل باطلة، وغاية ما تمسكن به إطلاق القرآن للفظ الطلاق، وذلك لا يعم جائزه ومحرمه، كما لا يدخل تحته طلاق الحائض، وطلاق الموطوءة في طهرها، وما مثلكم في ذلك إلا كمثل من عارض السنة الصحيحة في تحريم الطلاق المحرم بهذه الإطلاقات سواء، ومعلوم أن القرآن لم يدل على جواز كل طلاق حتى تحمله ما لا يطيقه، وإنما دل على أحكام الطلاق، والمبني عن الله عز وجل بين حلاله وحرامه، ولا ريب أنا أسمع بظاهر القرآن كما بينا في صدر الاستدلال، وأنه سبحانه لم يشرع قط طلاقاً بآثاء بغير عوض لمدخول بها، إلا أن يكون آخر العدد، وهذا كتاب الله بيننا وبينكم، وغاية ما تمسكن به الفاظ مطلقة قيدتها السنة، وبينت شروطها وأحكامها.

وأما استدلالكم بأن الملاعن طلق امرأته ثلاثاً بحضرة رسول الله ﷺ، فما أصح من حديث، وما أبعد من استدلالكم على جواز الطلاق الثلاث بكلمة واحدة في نكاح يقصد بقاءه ودوامه، ثم المستدل بهذا إن كان ممن يقول: إن الفرقة وقعت عقيب إعان الزوج وحده، كما يقوله الشافعي، أو عقيب لعانها وإن لم يفرق الحاكم، كما يقوله أحمد في إحدى الروايات عنه، فالاستدلال به باطل، لأن الطلاق الثلاث حيث لا لغو لم يقد شيئاً، وإن كان ممن يوقف الفرقة على تفريق الحاكم، لم يصح الاستدلال به أيضاً لأن هذا النكاح لم يبق سبيلاً إلى بقاءه ودوامه، بل هو واجب الإزالة، ومؤيد التحريم، فالطلاق الثلاث مؤيد لمقصود اللعان، ومقرر له، فإن غايته أن يحرمها عليه حتى تنكح زوجاً غيره، وفرقة اللعان تحرمها عليه على الأبد، ولا يلزم من نفوذ الطلاق في نكاح قد صار مستحق التحريم على التأيد نفوذه في نكاح قائم مطلوب البقاء والدوام، ولهذا لو طلقها في هذا الحال وهي حائض، أو نفساء أو في طهر جامعها فيه، لم يكن عاصياً، لأن هذا النكاح مطلوب

الإزالة مؤيد التحريم، ومن العجب أنكم متمسكون بتقرير رسول الله ﷺ على هذا الطلاق المذكور، ولا تتمسكون بإنكاره وغضبه للطلاق الثلاث من غير الملاعن، وتسميته لعباً بكتاب الله كما تقدم، فكيف بين هذا الإقرار، وهذا الإنكار؟ ونحن بحمد الله قائلون بالأمرين، مقرّون لما أقره رسول الله ﷺ، منكرون لما أنكره.

وأما استدلالكم بحديث عائشة رضي الله عنها، أن رجلاً طلق امرأته ثلاثاً فتنوّجت، فسئل رسول الله ﷺ، هل تحل للأول؟ قال: «لا، حتى تذوق العسيلة»، فهذا لا تنازعكم فيه، نعم هو حجة على من اكتفى بمجرد عقد الثاني، ولكن أين في الحديث أنه طلق الثلاث بضم واحد، بل الحديث حجة لنا، فإنه لا يقال: فعل ذلك ثلاثاً، وقال ثلاثاً إلا من فعل، وقال: مرة بعد مرة، هذا هو المعقول في لغات الأمم عربهم وعجمهم، كما يقال: قذفه ثلاثاً، وشتمه ثلاثاً، وسلم عليه ثلاثاً.

قالوا: وأما استدلالكم بحديث فاطمة بنت قيس، فمن العجب العجائب، فإنكم خالفتموه فيما هو صريح فيه لا يقبل تأويلاً صحيحاً، وهو سقوط النفقة والكسوة للبانن مع صحته وصراحته، وعدم ما يُعارضه مقاوماً له، وتمسكن به فيما هو مجمل، بل بيانه في نفس الحديث مما يُبطل تعلّقكم به، فإن قوله: طلقها ثلاثاً ليس بصريح في جمعها، بل كما تقدم، كيف وفي «الصحيح» في خبرها نفسه من رواية الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، أن زوجها أرسل إليها بتطبيق كانت بقيت لها من طلاقها [مسلم: ٣٧٠٤].

وفي لفظ في «الصحيح»: أنه طلقها آخر ثلاث تطليقات [مسلم: ٣٧٠٢]، وهو سند صحيح متصل مثل الشمس، فكيف ساغ لكم تركه إلى التمسك بلفظ مجمل، وهو أيضاً حجة عليكم كما تقدم؟

قالوا: وأما استدلالكم بحديث عبادة بن الصامت الذي رواه عبد الرزاق، فخير في غاية السقوط، لأن في طريقه يحيى بن العلاء، عن عبيد الله بن الوليد الوصافي، عن إبراهيم بن عبيد الله - ضعيف - عن هالك، عن مجهول، ثم الذي يدل على كذبه

وَبُطْلَانُهُ، أَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْآثَارِ صَحِيحَهَا وَلَا سَقِيمَهَا، وَلَا مُتَّصِلَهَا وَلَا مُنْقَطِعَهَا، أَنَّ وَالِدَ عِبَادَةَ ابْنِ الصَّامِتِ أَدْرَكَ الْإِسْلَامَ، فَكَيْفَ بِجَدِّهِ، فَهَذَا مُحَالٌ بِلَا شَكٍّ، وَأَمَّا حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍ، فَأَصْلُهُ صَحِيحٌ بِلَا شَكٍّ، لَكِنْ هَذِهِ الزِّيَادَةُ وَالْوَصْلَةُ الَّتِي فِيهِ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: لَوْ طَلَقْتُهَا ثَلَاثًا أَكَانَتْ تَجَلُّ لِي؟ إِنَّمَا جَاءَتْ مِنْ رِوَايَةِ شُعَيْبِ بْنِ زُرَيْقٍ، وَهُوَ الشَّامِيُّ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: زُرَيْقُ بْنُ شُعَيْبٍ، وَكَيْفَمَا كَانَ، فَهُوَ ضَعِيفٌ^(١)، وَلَوْ صَحَّ، لَمْ يَكُنْ فِيهِ حُجَّةٌ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: لَوْ طَلَقْتُهَا ثَلَاثًا بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِ: لَوْ سَلِمْتَ ثَلَاثًا، أَوْ أَقْرَرْتَ ثَلَاثًا، أَوْ نَحَوَهُ مِمَّا لَا يُعْقَلُ جَمْعُهُ.

وَأَمَّا حَدِيثُ نَافِعِ بْنِ عَجِيرٍ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، أَنَّ رِكَانَةَ طَلَّقَ أَمْرَأَتَهُ الْبَتَّةَ، فَأَحْلَفَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أَرَادَ إِلَّا وَاحِدَةً، فَمِنْ الْعَجَبِ تَقْدِيمُ نَافِعِ بْنِ عَجِيرٍ الْمَجْهُولِ الَّذِي لَا يُعْرَفُ حَالُهُ الْبَتَّةَ، وَلَا يُدْرَى مَنْ هُوَ، وَلَا مَا هُوَ عَلَى ابْنِ جَرِيرٍ، وَمَعْمَرٍ، وَعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ طَاوُسٍ فِي قِصَّةِ أَبِي الصَّهْبَاءِ، وَقَدْ شَهِدَ إِمَامُ أَهْلِ الْحَدِيثِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْبَخَارِيُّ بِأَنَّهُ فِيهِ اضْطِرَابٌ، هَكَذَا قَالَ التِّرْمِذِيُّ فِي «الْجَامِعِ»، وَذَكَرَ عَنْهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: أَنَّهُ مُضْطَرِبٌ. فَتَارَةً يَقُولُ: طَلَّقَهَا ثَلَاثًا، وَتَارَةً يَقُولُ: وَاحِدَةً، وَتَارَةً يَقُولُ: الْبَتَّةَ. وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: وَطَرَفُهُ كُلُّهَا ضَعِيفَةٌ، وَضَعْفُهُ أَيْضًا الْبَخَارِيُّ، حَكَاهُ الْمُنْذَرِيُّ عَنْهُ.

ثُمَّ كَيْفَ يُقَدِّمُ هَذَا الْحَدِيثَ الْمُضْطَرِبُ الْمَجْهُولُ رِوَايَةَ عَلَى حَدِيثِ عَبْدِ الرَّزَاقِ عَنْ ابْنِ جَرِيرٍ لِيَجْهَلَ بِبَعْضِ بَنِي أَبِي رَافِعٍ، هَذَا وَأَوْلَادُهُ تَابِعِيُّونَ، وَإِنْ كَانَ عِيْدُ اللَّهِ أَشْهَرَهُمْ وَلَيْسَ فِيهِمْ مَتَّحٌ بِالْكَذِبِ، وَقَدْ رَوَى عَنْهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَمَنْ يَقْبَلُ رِوَايَةَ الْمَجْهُولِ، أَوْ يَقُولُ: رِوَايَةُ الْعَدْلِ عَنْهُ تَعْدِيلٌ لَهُ، فَهَذَا حُجَّةٌ عِنْدَهُ، فَأَمَّا أَنْ يُضَعِّفَهُ وَيُقَدِّمَ عَلَيْهِ رِوَايَةً مِنْ هُوَ مِثْلُهُ فِي الْجَهَالَةِ، أَوْ أَشَدُّ، فَكَلَّا، فَغَاثَةُ الْأَمْرِ أَنْ تَتَسَاوَتْ

رِوَايَتَا هَذَيْنِ الْمَجْهُولَيْنِ، وَيُعَدَّلُ إِلَى غَيْرِهِمَا، وَإِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ، نَظَرْنَا فِي حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، فَوَجَدْنَاهُ صَحِيحَ الْإِسْنَادِ، وَقَدْ زَالَتْ عِلَّةُ تَدْلِيلِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ بِقَوْلِهِ: حَدَّثَنِي دَاوُدُ بْنُ الْحَصِينِ [أَحْمَدُ: ٢٣٨٧]، وَقَدْ احْتَجَّ أَحْمَدُ بِإِسْنَادِهِ فِي مَوَاضِعَ، وَقَدْ صَحَّحَ هُوَ وَغَيْرُهُ بِهَذَا الْإِسْنَادِ بِعَيْنِهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَدَّ زَيْنَبَ عَلَى زَوْجِهَا أَبِي الْعَاصِ بْنِ الرَّيِّعِ بِالنِّكَاحِ الْأَوَّلِ، وَلَمْ يُحَدِّثْ شَيْئًا.

وَأَمَّا دَاوُدُ بْنُ الْحَصِينِ، عَنْ عِكْرَمَةَ، فَلَمْ تَزَلِ الْأُئِمَّةُ تَحْتَجُّ بِهِ^(٢)، وَقَدْ احْتَجُّوا بِهِ فِي حَدِيثِ الْغَرَايَا فِيمَا شُكَّ فِيهِ، وَلَمْ يُجْزَمْ بِهِ مِنْ تَقْدِيرِهَا بِخَمْسَةِ أَوْسُقٍ أَوْ دُونِهَا مَعَ كَوْنِهَا عَلَى خِلَافِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي نَهَى فِيهَا عَنْ بَيْعِ الرُّطْبِ بِالْتَمَرِ، فَمَا ذَنْبُهُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ سِوَى رِوَايَةِ مَا لَا يَقُولَانِ بِهِ، وَإِنْ قَدْ حُتِمَ فِي عِكْرَمَةَ - وَلَعَلَّكُمْ فَاعِلُونَ - جَاءَكُمْ مَا لَا يَقِيلُ لَكُمْ بِهِ مِنْ التَّنَاقُضِ فِيمَا احْتَجَّجْتُمْ بِهِ أَنْتُمْ وَأُئِمَّةُ الْحَدِيثِ مِنْ رِوَايَتِهِ، وَارْتِضَاءِ الْبَخَارِيِّ لِإِدْخَالِ حَدِيثِهِ فِي «صَحِيحِهِ».

فصل

وَأَمَّا تِلْكَ الْمَسَالِكُ الْوُغَرَةُ الَّتِي سَلَكْتُمُوهَا فِي حَدِيثِ أَبِي الصَّهْبَاءِ، فَلَا يَبْصُرُ شَيْءٌ مِنْهَا.

أَمَّا الْمَسْلُكُ الْأَوَّلُ، وَهُوَ انْفِرَادُ مُسْلِمٍ بِرِوَايَتِهِ، وَإِعْرَاضُ الْبَخَارِيِّ عَنْهُ، فَبَيْنَكَ شَكَاةٌ ظَاهِرَةٌ عَنْكَ غَارِظًا، وَمَا ضَرُّ ذَلِكَ الْحَدِيثِ انْفِرَادُ مُسْلِمٍ بِهِ شَيْئًا، ثُمَّ هَلْ تَقْبَلُونَ أَنْتُمْ، أَوْ أَحَدٌ مِثْلُ هَذَا فِي كُلِّ حَدِيثٍ يُتَّفَرَّدُ بِهِ مُسْلِمٌ عَنِ الْبَخَارِيِّ، وَهَلْ قَالَ الْبَخَارِيُّ قَطُّ: إِنَّ كُلَّ حَدِيثٍ لَمْ أُدْخِلْهُ فِي كِتَابِي، فَهُوَ بَاطِلٌ، أَوْ لَيْسَ بِحُجَّةٍ، أَوْ ضَعِيفٌ، وَكَمْ قَدْ احْتَجَّ الْبَخَارِيُّ بِأَحَادِيثٍ خَارِجٍ الصَّحِيحِ لَيْسَ لَهَا ذِكْرٌ فِي «صَحِيحِهِ»، وَكَمْ صَحَّحَ مِنْ حَدِيثٍ خَارِجٍ عَنْ صَحِيحِهِ، فَأَمَّا مَخَالَفَةُ سَائِرِ الرِّوَايَاتِ لَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فَلَا رَيْبَ أَنَّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رِوَايَتَيْنِ

(١) فِي «التَّقْرِيبِ» صَدُوقٌ يَخْطِئُ، وَمِثْلُهُ يَدُّ حَسَنَ الْحَدِيثِ، لَكِنْ ذَكَرَ فِي التَّهْلِيلِ أَنَّهُ يَعْتَبِرُ مِنْ غَيْرِ رِوَايَتِهِ عَنْ عَطَاءِ الْخُرَاسَانِيِّ، وَهَذَا الْحَدِيثُ رَوَاهُ عَنْ عَطَاءٍ فَهُوَ ضَعِيفٌ كَمَا قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) لَكِنْ قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ: مَا رَوَى عَنْ عِكْرَمَةَ فَمُنْكَرٌ، وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ: أَحَادِيثُهُ عَنْ شَيْخُوهُ مُسْتَقِيمَةٌ، وَأَحَادِيثُهُ عَنْ عِكْرَمَةَ مُنْكَائِرٌ، وَفِي «التَّقْرِيبِ» ثَقَّةٌ إِلَّا فِي عِكْرَمَةَ.

الصحيحين بلا شك. إحداهما: تُوافق هذا الحديث، والأخرى: تُخالفه، فإن أسقطنا رواية برواية، سَلِمَ الحديثُ على أنه بحمد الله سالم. ولو اتفقت الرواياتُ عنه على مخالفته، فله أسوة أمثاله، وليس بأوّل حديث خالفه راويه، فنسألکم: هل الأخذُ بما رواه الصحابي عندكم، أو بما رآه؟ فإن قلتم: الأخذُ بروايته، وهو قولُ جمهوركم بل جمهورُ الأمة على هذا، كفيثُمونا مؤونة الجواب. وإن قلتم: الأخذُ برأيه، أريناكم من تناقضكم ما لا جيلة لكم في دفعه، ولا سيما عن ابن عباس نفسه، فإنه روى حديثَ بَريرة وتخيرها، ولم يكن بيعُها طلاقاً، ورأى خلافه، وأن بيعَ الأمة طلاقُها، فأخذتم - وأصبتم - بروايته، وتركتم رأيه، فهلا فعلتم ذلك فيما نحن فيه، وقلتم: الرواية معصومة، وقولُ الصحابي غيرُ معصوم، ومخالفته لما رواه يحتجّل احتمالاتٌ عديدة من نسيان أو تأويل، أو اعتقاد مُعارض راجح في ظنه، أو اعتقاد أنه منسوخ أو مخصوص، أو غير ذلك من الاحتمالات، فكيف يسوغُ ترك روايته مع قيام هذه الاحتمالات؟ وهل هذا إلا تركُ معلومٍ لمُظنون، بل مجهول؟ قالوا: وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه حديثَ التسبيع من ولوغ الكلب [البخاري: ١٧٢، وسلم: ٦٤٨]، وأفتى بخلافه، فأخذتم بروايته، وتركتم فتواه. ولو تتبعنا ما أخذتم فيه برواية الصحابي دون فتواه، لطلال.

قَالُوا: وأما دعواكم نسخ الحديث، فموقوفة على ثبوت معارض مُقاوم متراخ، فأين هذا؟! وأما حديثُ عكرمة، عن ابن عباس في نسخ المراجعة بعد الطلاق الثلاث، فلو صحَّ، لم يكن فيه حجة، فإنه إنما فيه أن الرَّجل كان يُطَلِّق امرأته ويُراجعها بغير عدد، فُتَسِخَ ذلك، وقُصِرَ على ثلاث، فيها تنقطع الرجعة، فأين في ذلك الإلزام بالثلاث بغير واحد، ثم كيف يستمرُّ المنسوخ على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر، وصدرًا من خلافة عمر، لا تعلم به الأمة، وهو من أهم الأمور

قَالُوا: وأما دعواكم نسخ الحديث، فموقوفة على ثبوت معارض مُقاوم متراخ، فأين هذا؟!.

وأما حديثُ عكرمة، عن ابن عباس في نسخ المراجعة بعد الطلاق الثلاث، فلو صحَّ، لم يكن فيه حجة، فإنه إنما فيه أن الرَّجل كان يُطَلِّق امرأته ويُراجعها بغير عدد، فُتَسِخَ ذلك، وقُصِرَ على ثلاث، فيها تنقطع الرجعة، فأين في ذلك الإلزام بالثلاث بغير واحد، ثم كيف يستمرُّ المنسوخ على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر، وصدرًا من خلافة عمر، لا تعلم به الأمة، وهو من أهم الأمور

وأما حملُكم الحديثَ على قول المطلق: أنت طالق، أنت طالق، أنت طالق، ومقصودُه التأكيد بما بعد الأول، فسياقُ الحديث من أوله إلى آخره يرُدُّه، فإنَّ هذا الذي أوْلتم الحديثَ عليه لا يتغيّرُ بوفاء رسول الله ﷺ، ولا يخلُفُ على عهده وعهده خُلفائه، وهَلُمَّ جرًّا إلى آخر الدهر، ومن ينويه في قصد التأكيد لا يُفَرِّقُ بين بَرٍّ وفاجر، وصادق وكاذب، بل يرُدُّه إلى نيته، وكذلك مَنْ لا يقبله في الحكم لا يقبله مطلقاً بَرًّا كان أو فاجراً.

وأيضاً فإن قوله: إن الناس قد استعجلوا وتنايعوا في شيء كانت لهم فيه أناة، فلو أنا أمضيته عليهم. إخبار من عمر بأن الناس قد استعجلوا ما جعلهم الله في فُسحة منه، وشرَّعة متراخياً بعضه عن بعض رحمةً بهم، ورفقاً وأناة لهم، لئلا يندم مطلق، فيذهب حبيبُه من يديه من أول وهلة، فَيَعِزُّ عليه تداركُه، فجعل له أناةً ومُهلةً يستعِثُّ فيها، ويرضيه ويَزُولُ ما أحدثه العتبُ الداعي إلى الفراق، ويُراجع كُلَّ منهما الذي عليه بالمعروف، فاستعجلوا فيما جعل لهم فيه أناة ومُهلة، وأوقعوه بغير واحد، فرأى عمر رضي الله عنه أنه يلزمهم ما التزموه عقوبةً لهم، فإذا عَلِمَ المطلق أن زوجته وسكنه تحرُّم عليه من أول مرة بجمعه الثلاث، كَفَّ عنها، ورجع إلى الطلاق المشروع المأذون فيه، وكان هذا من تأديب عمر لرعيته لما أكثرُوا من الطلاق الثلاث، كما سيأتي مزيدُ تقريره عند الاعتذار عن عمر رضي الله عنه في إلزامه بالثلاث، هذا وجهُ الحديث الذي لا وجه له غيره، فأين هذا من تأويلكم المستكروه المستبعد الذي لا تُوافقه ألفاظُ الحديث، بل تنبؤ عنه، وتُنافره.

وأما قولُ مَنْ قال: إن معناه كان وقوعَ الطلاق الثلاث الآن على عهد رسول الله ﷺ واحدة، فإن

(١) بل هو حسن الحديث كما يعلم من كتب الرجال.

حقيقة هذا التأويل: كان الناس على عهد رسول الله ﷺ يُطْلَقُونَ واحدة، وعلى عهد عمر صاروا يُطْلَقُونَ ثلاثاً، والتأويل إذا وصل إلى هذا الحد، كان من باب الإلغاز والتحريف، لا من باب بيان المراد، ولا يَصِحُّ ذلك بوجه ما، فإن الناس ما زالوا يُطْلَقُونَ واحدة وثلاثاً، وقد طَلَّقَ رجالٌ نساءهم على عهد رسول الله ﷺ ثلاثاً، فمنهم من رَدَّها إلى واحدة، كما في حديث عكرمة عن ابن عباس، ومنهم من أنكر عليه، وَغَضِبَ، وجعله متلاعباً بكتاب الله، ولم يُعْرِفْ ما حكم به عليهم، وفيهم من أَقَرَّه لتأكيد التحريم الذي أوجبه اللعان، ومنهم من ألزمه بالثلاث، لكون ما أتى به من الطلاق آخر الثلاث، فلا يَصِحُّ أن يقال: إن الناس ما زالوا يطلقون واحدة أثناء خلافه عمر، فطلقوا ثلاثاً، ولا يَصِحُّ أن يقال: إنهم قد استعجلوا في شيء كانت لهم فيه أناة، فنمضيه عليهم، ولا يَلَامُ هذا الكلام الفرق بين عهد رسول الله ﷺ، وبين عهده بوجه ما، فإنه ماضٍ منكم على عهده وبعد عهده.

ثم إن في بعض ألفاظ الحديث الصحيحة: ألم تعلم أنه من طَلَّقَ ثلاثاً جُعِلَتْ رَاحِدَةً على عهد رسول الله ﷺ (مسلم: ٣٦٧٣).

وفي لفظ: أما عَلِمْتَ أن الرجل كان إذ طَلَّقَ امرأته ثلاثاً قبل أن يدخل بها جعلوها واحدة على عهد رسول الله ﷺ، وأبي بكر، وصدرًا من خلافة عمر، فقال ابن عباس: بلى كان الرجل إذا طَلَّقَ امرأته ثلاثاً قبل أن يدخل بها جعلوها واحدة على عهد رسول الله ﷺ، وأبي بكر، وصدرًا من إمارة عمر، فلما رأى الناس - يعني عمر - قد تتايعوا فيها، قال: أجزؤهن عليهم [ابوداود: ٢١٩٩]، هذا لفظ الحديث، وهو بأصح إسناد، وهو لا يحتلُّ ما ذكرتم من التأويل بوجه ما، ولكن هذا كله عَمَلٌ من جعل الأدلة تبعاً للمذهب، فاعتقد، ثم استدل. وأما من جعل المذهب تبعاً للدليل، واستدل، ثم اعتقد، لم يمكنه هذا العمل.

وأما قول من قال: ليس في الحديث بيان أن رسول الله ﷺ كان هو الذي يجعل ذلك، ولا أنه علم

به، وأقره عليه، فجوابه أن يقال: سُبْحَانَكَ هذا بهتان عظيم أن يستمر هذا الجعل الحرام المتضمن لتغيير شرع الله ودينه، وإباحة الفرج لمن هو عليه حرام، وتحريمه على من هو عليه حلال، على عهد رسول الله ﷺ وأصحابه خير الخلق، وهم يفعلونه، ولا يعلمونه، ولا يعلمه هو، والوحي ينزل عليه، وهو يُقَرِّمُ عليه، فَهَبْ أن رسول الله ﷺ لم يكن يعلمه، وكان الصحابة يعلمونه، ويُبدلون دينه وشرعه، والله يعلم ذلك، ولا يُوحى إلى رسوله، ولا يُعلمه به، ثم يتوقى الله رسوله ﷺ، والأمر على ذلك، فيستمر هذا الضلال العظيم، والخطأ المبين عندكم مدة خلافة الصديق كلها، يُعَمَلُ به ولا يُغَيَّرُ إلى أن فارق الصديق الدنيا، واستمر الخطأ والضلال المرگب صدرًا من خلافة عمر، حتى رأى بعد ذلك برأيه أن يُلَزِمَ الناس بالصواب، فهل في الجهل بالصحابة، وما كانوا عليه في عهد نبيهم وخلفائه أقبح من هذا، وتألَّلوا لو كان جعل الثلاث واحدة خطأ محضاً، لكان أسهل من هذا الخطأ الذي ارتكبنموه، والتأويل الذي تأولتموه، ولو تركتم المسألة بهياتها، لكان أقوى لإشائها من هذه الأدلة والأجوبة.

قالوا: وليس التحاكم في هذه المسألة إلى مقلد متعصب، ولا هياب للجمهور، ولا مستوحش من التفرد إذا كان الصواب في جانبه، وإنما التحاكم فيها إلى راسخ في العلم قد طال منه باع، ورحب بنيله فزاعه، وفَرَّقَ بين الشبهة والدليل، وتلقَّى الأحكام من نفس مشكاة الرسول، وعرف المراتب، وقام فيها بالواجب، وبأشرف قلبه أسرار الشريعة وحكمها الباهرة، وما تَضَمَّتْ من المصالح الباطنة والظاهرة، وخاض في مثل هذه المضايق لججها، واستوفى من الجانيين حُجَجَها، والله المستعان، وعليه التكلان.

قالوا: وأما قولكم: إذا اختلفت علينا الأحاديث، نظرنا فيما عليه الصحابة رضي الله عنهم، فنعم والله وحيها يَزِيدُ^(١) الإسلام، وعصاة الإيمان.

فَلَا تَطْلُبْ لِي الْأَعْوَاضَ بَعْدَهُمْ
فَإِنَّ قَلْبِي لَا يَرْضَى بِغَيْرِهِمْ

(١) أي طلائع الإسلام، والكلمة فارسية.

ورحمته به، وإحساناً إليه، وأنه قابلهما بضدّها، ولم يقبل رخصة الله، وما جعله له من الأناة عاقبه بأن حال بينه وبينها، وألزمه ما ألزمه من الشدة والاستعجال، وهذا موافق لقواعد الشريعة، بل هو موافق لحكمة الله في خلقه قدراً وشرعاً، فإن الناس إذا تعدّوا حدوده، ولم يقفوا عندها، ضيق عليهم ما جعله لمن اتقاه من المخرج، وقد أشار إلى هذا المعنى بعينه من قال من الصحابة للمطلق ثلاثاً: إنك لو اتقيت الله، لجعل لك مخرجاً، كما قاله ابن مسعود، وابن عباس. فهذا نظر أمير المؤمنين، ومن معه من الصحابة، لا أنه رضي الله عنه أحكام الله، وجعل حلالها حراماً، فهذا غاية التوفيق بين النصوص، وفعل أمير المؤمنين ومن معه، وأنتم لم يُمكنكم ذلك إلا بإلغاء أحد الجانبين، فهذا نهاية أقدام الفريقين في هذا المقام الضنك، والمعتك الصعب، وبالله التوفيق^(١).

حكم رسول الله ﷺ في العبد يُطلق زوجته تطليقتين، ثم يُعتق بعد ذلك هل تحل له بدون زوج وإصابة؟

روى أهل السنن: من حديث أبي الحسن مولى بني نوفل، أنه استفتى ابن عباس في مملوك كانت تحته مملوكة، فطلقها تطليقتين، ثم عُتق بعد ذلك، هل يصلح له أن يخطبها؟ قال: نعم قضى بذلك رسول الله ﷺ [أبو داود: ٢١٨٧، النسائي (١٥٥/٦)، وابن ماجه: ٢٠٨٢].

وفي لفظ: قال ابن عباس: بقيت لك واحدة، قضى به رسول الله.

قال الإمام أحمد: عن عبد الرزاق، أن ابن المبارك قال لمعمر: من أبو حسن هذا؟ لقد تحمّل صخرة عظيمة انتهى. قال المنذري: وأبو حسن هذا قد دُكرَ بخير وصلاح، وقد وثقه أبو زرعة وأبو حاتم الرازيان، غير أن الراوي عنه عُمَرُ بن معتب، وقد قال علي بن المديني: هو منكّر الحديث، وقال النسائي: ليس بالقوي.

ولكن لا يليق بكم أن تدعونا إلى شيء، وتكونوا أول نافر عنه، ومخالف له، فقد توفي النبي ﷺ عن أكثر من مئة ألف عيّن كلّهم قد رآه وسمِع منه، فهل صَحَّ لكم عن هؤلاء كلّهم، أو عُشرهم، أو عُشر عُشرهم، أو عُشر عُشر عُشرهم القول بلزوم الثلاث بضم واحد؟ هذا ولو جهّذتم كلّ الجهد لم تطيقوا نقله عن عشرين نفساً منهم أبداً مع اختلاف عنهم في ذلك، فقد صَحَّ عن ابن عباس القولان، وصَحَّ عن ابن مسعود القول بلزوم، وصَحَّ عنه التوقف، ولو كاثرتكم بالصحابة الذين كان الثلاث على عهدهم واحدة، لكانوا أضعاف من نُقل عنه خلاف ذلك، ونحن نُكاثِرُكم بكلّ صحابي مات إلى صدر من خلافة عمر، ويكفيها مقدّمهم، وخيرهم وأفضلهم، ومن كان معه من الصحابة على عهده، بل لو شئنا لقلنا، ولصدقنا: إن هذا كان إجماعاً قديماً لم يَخْتَلَف فيه على عهد الصديق الثنائي، ولكن لم ينقرض عصر المجمعين حتى حدث الاختلاف، فلم يستقرّ الإجماع الأول حتى صار الصحابة على قولين، واستمرّ الخلاف بين الأمة في ذلك اليوم، ثم نقول: لم يُخالف عمر إجماع من تقدّمه، بل رأى إلزامهم بالثلاث عقوبة لهم لما علّموا أنه حرام، وتتابعوا فيه، ولا ريب أن هذا سائغ للأمة أن يلزموا الناس بما ضيقوا به على أنفسهم، ولم يقبلوا فيه رخصة الله عز وجل وتسهيله، بل اختاروا الشدة والعسر، فكيف بأمر المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكمال نظره للأمة، وتأديبه لهم، ولكن العقوبة تختلف باختلاف الأزمنة والأشخاص، والتمكن من العلم بتحريم الفعل المعاقب عليه وخفائه، وأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لم يُقلّ لهم: إن هذا عن رسول الله ﷺ، وإنما هو رأي رآه مصلحة للأمة يكتفهم بها عن التسارع إلى إيقاع الثلاث، ولهذا قال: فلو أنا أمضيناه عليهم، وفي لفظ آخر: «فأجيزوهن عليهم» أفلا يرى أن هذا رأي منه رآه للمصلحة لا إخبار عن رسول الله ﷺ، ولما علم رضي الله عنه أن تلك الأناة والرخصة نعمة من الله على المطلق،

(١) وانظر أيضاً ما كتبه المؤلف عن هذه المسألة في «إعلام الموقعين» (٣/٣٠، ٤٠)، و«إغاثة اللهفان» ص (١٥٣، ١٨٣).

وإذا عُتِقَ العبدُ والزوجة في جباله، ملكَ تمامُ الثلاث، وإن عُتِقَ وقد طَلَّقَهَا اثنتين، ففيها أربعة أقوال للفقهاء.

أحدها: أنها لا تحلُّ له حتى تنكح زوجاً غيره حرّةً كانت أو أمة، وهذا قولُ الشافعي، وأحمد في إحدى الروايتين بناءً على أن الطلاقَ بالرجال، وأن العبدَ إنما يملكُ طَلْقَتَيْنِ ولو كانت زوجته حرّةً.

والثاني: أن له أن يعقّد عليها عقداً مستأنفاً من غير اشتراط زوج وإصابة، كما دلَّ عليه حديثُ عمر بن معتب هذا، وهذا إحدى الروايتين عن أحمد، وهو قولُ ابنِ عباس، وأحدُ الوجهين للشافعية، ولهذا القولُ فقه دقيق، فإنها إنما حرمتها عليه التطلّقتانِ لنقصه بالرّق، فإذا عُتِقَ وهي في العدّة، زال النقص، ويوجدُ سببُ ملك الثلاث، وآثارُ النكاح باقية، فملك عليها تمامَ الثلاث، وله رجعتها، وإن عُتِقَ بعد انقضاء عدتها، بانت منه، وحلّت له بدون زوج وإصابة، فليس هذا القولُ ببعيدٍ في القياس.

والثالث: أن له أن يرّجعها في عدتها، وأن ينكحها بعدنما بدون زوج وإصابة، ولو لم يعتق، وهذا مذهبُ أهل الظاهر جميعهم، فإن عندهم أن العبدَ والحرَّ في الطلاق سواء.

وذكر سُفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن أبي معبد مولى ابنِ عباس، عن ابنِ عباس رضي الله عنهما، أن عبداً له طَلَّقَ امرأته تطلّقتين، فأمره ابنُ عباس أن يرّجعها، فأبى، فقال ابنُ عباس: هي لك فاستحلّها بملك اليمين.

والقول الرابع: أن زوجته إن كانت حرّةً، ملك عليها تمامَ الثلاث، وإن كانت أمةً، حرمت عليه حتى تنكح زوجاً غيره، وهذا قولُ أبي حنيفة.

وهذا موضعُ اختلافٍ فيه السلف والخلف على أربعة أقوال.

أحدها: أن طلاقَ العبد والحر سواء، وهذا مذهبُ أهل الظاهر جميعهم، حكاه عنهم أبو محمد ابن حزم، واحتجوا بعموم النصوص الواردة في الطلاق، وإطلاقها، وعدم تفريقها بين حرٍّ وعبد، ولم تُجمع الأُمّة على التفرّيق، فقد صحَّ عن ابنِ عباس أنه أنقضى غلاماً له برجة زوجته بعد طَلْقَتَيْنِ،

وكانت أمة. وفي هذا النقل عن ابنِ عباس نظر، فإن عبد الرزاق روى عن ابنِ جريج، عن عمرو بن دينار، أن أبا معبد أخبره، أن عبداً كان لابنِ عباس، وكانت له امرأة جارية لابنِ عباس، فطلقها فبئها، فقال له ابنُ عباس: لا طلاق لك فارجمها [عبد الرزاق: ١٢٩٦٢].

قال عبدُ الرزاق: حدثنا معمر، عن سِمَاك بن الفضل، أن العبد سأل ابنِ عمر رضي الله عنهما، فقال: لا ترجع إليها وإن ضُربَ رأسُك [عبد الرزاق: ١٢٩٦٣].

فأخذ هذه الفتوى، أن طلاق العبد بيد سيده، كما أن نكاحه بيده، كما روى عبد الرحمن بن مهدي، عن الثوري، عن عبد الكريم الجزري، عن عطاء، عن ابنِ عباس قال: ليس طلاق العبد ولا فرقته بشيء.

وذكر عبد الرزاق، عن ابنِ جريج، عن أبي الزبير، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول في الأمة والعبد: سيّدُهُما يجمعُ بينهما، ويفرق [عبد الرزاق: ١٢٩٦٤]. وهذا قولُ أبي الشَّثَاء، وقال الشعبي: أهل المدينة لا يرون للعبد طلاقاً إلا بإذن سيده. فهذا مأخذُ ابنِ عباس، لا أنه يرى طلاق العبد ثلاثاً إذا كانت تحته أمة، وما علمنا أحداً من الصحابة قال بذلك.

والقول الثاني: أن أيَّ الزوجين رُق كان الطلاقُ بسبب رقه اثنتين، كما روى حمادُ بن سلمة، عن عبد الله بن عمر، عن نافع، عن ابنِ عمر رضي الله عنهما قال: الحرُّ يطلقُ الأمة تطلّقتين، وتعتدُّ بحضنتين، والعبد يطلقُ الحرة تطلّقتين، وتعتدُّ ثلاث جِيز. وإلى هذا ذهب عثمان البتي.

والقول الثالث: أن الطلاق بالرجال، فيملكُ الحرُّ ثلاثاً، وإن كانت زوجته أمة، والعبد اثنتين وإن كانت زوجته حرّة، وهذا قولُ الشافعي ومالك وأحمد في ظاهر كلامه، وهذا قولُ زيد بن ثابت، وعائشة، وأم سلمة أم المؤمنين، وعثمان بن عفان، وعبد الله بن عباس، وهذا مذهبُ القاسم، وسالم، وأبي سلمة، وعمر بن عبد العزيز، ويحيى بن سعيد، وربيعة، وأبي الزناد، وسليمان بن يسار، وعمرو بن شعيب، وابنِ المسيّب، وعطاء.

والقول الرابع: أن الطلاق بالنساء كالعدّة، كما

روى شعبة عن أشعث بن سوار، عن الشعبي، عن مسروق، عن ابن مسعود: السنة: الطلاق والعدة بالنساء.

وروى عبد الرزاق: عن محمد بن يحيى وغير واحد، عن عيسى عن الشعبي عن اثني عشر من صحابة النبي ﷺ، قالوا: الطلاق والعدة بالمرأة [بعد الرزاق: ١٢٩٥٦]، هذا لفظه، وهذا قول الحسن، وابن سيرين، وقتادة، وإبراهيم، والشعبي، وعكرمة، ومجاهد، والثوري، والحسن بن حي، وأبي حنيفة وأصحابه.

فإن قيل: فما حُكِّم رسول الله ﷺ في هذه المسألة؟ قيل: قد قال أبو داود: حدثنا محمد بن مسعود حدثنا أبو عاصم، عن ابن جريج، عن مظاهر بن أسلم، عن القاسم بن محمد، عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: «طَلَّاقُ الْأَمَةِ تَطْلِيْقَتَانِ، وَقَرْوَاهَا حَيْضَتَانِ» [أبو داود: ٢١٨٩، والترمذي: ١١٨٢، وابن ماجه: ٢٠٨٠].

وروى زكريا بن يحيى الساجي، حدثنا محمد بن إسماعيل بن سمرة الأحمسي، حدثنا عُمرُ بن شبيب المُسلي، حدثنا عبد الله بن عيسى، عن عطية، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «طَلَّاقُ الْأَمَةِ ثِنْتَانِ، وَعِدَّتُهَا حَيْضَتَانِ» [ابن ماجه: ٢٠٧٩].

وقال عبدُ الرزاق: حدثنا ابن جريج، قال: كتب إليَّ عبدُ الله بن زياد بن سمعان، أن عبد الله بن عبد الرحمن الأنصاري، أخبره عن نافع، عن أم سلمة أم المؤمنين، أن غلاماً لها طلق امرأة له حرةً تطليقتين، فاستفتت أم سلمة النبي ﷺ، فقال: «حَرَمْتُ عَلَيْكَ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ» [بعد الرزاق: ١٢٩٥٢] وقد تقدم حديث عمر بن معتب، عن أبي حسن، عن ابن عباس رضي الله عنه، ولا يُعرف عن النبي ﷺ غير هذه الآثار الأربعة على عُجْرَهَا وَبُجْرَهَا.

أما الأول: فقال أبو داود: هو حديث مجهول، وقال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث مظاهر بن أسلم، ومظاهر لا يُعرف له في

العلم غيرُ هذا الحديث انتهى. وقال أبو القاسم ابن عساكر في «أطرافه» بعد ذكر هذا الحديث: روى أسامة بن زيد بن أسلم، عن أبيه، أنه كان جالساً عند أبيه، فأتاه رسولُ الأمير، فأخبره أنه سأل القاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله عن ذلك، فقالا هذا، وقالوا له: إن هذا ليس في كتاب الله، ولا سنة رسول الله ﷺ، ولكن عَمِلَ به المسلمون. قال الحافظ: فدلَّ على أن الحديث المرفوع غيرُ محفوظ. وقال أبو عاصم النبيل: مظاهر بن أسلم ضعيف. وقال يحيى بن معين: ليس بشيء، مع أنه لا يُعرف، وقال أبو حاتم الرازي: منكر الحديث. وقال البيهقي: لو كان ثابتاً لقلنا به إلا أننا لا نُثَبِّت حديثاً يرويه من نهج عدالته.

وأما الأثر الثاني: ففيه عمر بن شبيب المُسلي ضعيف، وفيه عطية وهو ضعيف أيضاً.

وأما الأثر الثالث: ففيه ابن سمعان الكذاب، وعبد الله بن عبد الرحمن مجهول.

وأما الأثر الرابع: ففيه عمر بن معتب، وقد تقدم الكلام فيه.

والذي سلم في المسألة الآثار عن الصحابة رضي الله عنهم والقياس.

أما الآثار، فهي متعارضة كما تقدم، فليس بعضها أولى من بعض. بقي القياس، وتجاذبه طرفان: طرف المطلق، وطرف المطلقة. فمن راعى طرف المطلق، قال: هو الذي يملك الطلاق، وهو بيده، فيتنصّف برّقه كما يتنصّف نصاب المنكوحات برّقه، ومن راعى طرف المطلقة، قال: الطلاق يقع عليها، وتلزمها العدة والتحريم وتوابعها، فتُنصّف برّقها كالعدة، ومن نصّف برّقها كالعدة، ومن نصف برّق أي الزوجين كان راعى الأمرين، وأعمل الشبهين، ومن كملّه وجعله ثلاثاً رأى أن الآثار لم تثبت، والمنقول عن الصحابة، متعارض، والقياس كذلك، فلم يتعلّق بشيء من ذلك، وتمسك بإطلاق النصوص الدالة على أن الطلاق الرجعي طلقتان، ولم يُفرّق الله بين حرٍّ وعبد، ولا بين حرة وأمة، «وَمَا كَانَ رِكَكُ شَيْئًا» [مریم: ٦٤]. قالوا: والحكمة التي لأجلها جعل الطلاق الرجعي اثنتين في الحر والعبد سواء، قالوا: وقد قال مالك:

عباس رضي الله عنهما المتقدم، وإن كان في إسناده ما فيه، فالقرآن يَنْقُضُهُ، وعليه عمل الناس.

حُكْمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي مَنْ طَلَّقَ دُونَ

الثلاث، ثم راجعها بعد زوج

أنها على بقية الطلاق

ذكر ابنُ المبارك، عن عثمان بنِ وقَّش، أنه أخبره، أنه سمع نُبَيْهَ بنَ وهب، يُحَدِّثُ عن رجلٍ من قومه، عن رجلٍ من أصحاب رسول الله ﷺ: أن رسول الله ﷺ قضى في المرأة يُطَلِّقُها زوجها دون الثلاث، ثم يَرْتَجِعُها بعد زوج أنها على ما بقي من الطلاق [عبد الرزاق: ١١١٥٩].

وهذا الأثر وإن كان فيه ضعيف ومجهول، فعليه أكابرُ الصحابة، كما ذكر عبد الرزاق في «مصنفه»، عن مالك، وابن عيينة، عن الزُّهري، عن ابن المسيب، وحميد بن عبد الرحمن، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، وسليمان بن يسار، كلهم يقول: سمعتُ أبا هريرة يقول: سمعتُ عمر بن الخطاب يقول: أئِماً امرأة طَلَّقَها زوجها تطليقةً أو تطليقتين، ثم تركها حتى تَنْكِحَ زوجاً غيره، فيموت عنها، أو يُطَلِّقَها ثم يتكحها زوجها الأول، فإنها عنده على ما بقي من طلاقها [صحيح: عبد الرزاق: ١١١٥٠].

وعن علي بن أبي طالب، وأبي بن كعب، وعمران بن حصين رضي الله عنهم مثله [عبد الرزاق: ١١١٦٣].

قال الإمام أحمد: هذا قولُ الأكابر من أصحاب النبي ﷺ.

وقال ابنُ مسعود، وابنُ عمر، وابنُ عباس، رضي الله عنهم: تعودُ على الثلاث [عبد الرزاق: ١١١٦٣]، قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: نِكَاحٌ جديدٌ، وطلاقٌ جديد.

وذهب إلى القولِ الأوَّلِ أهلُ الحديث، فيهم أحمدٌ، والشافعي، ومالك، وذهب إلى الثاني أبو حنيفة، هذا إذا أصابها الثاني، فإن لم يُصِبْها فهي على ما بقي من طلاقها عند الجميع، وقال النخعي: لم أسمع فيها اختلافاً، ولو ثبت الحديث لكان فصل

إن له أن يَنْكِحَ أربعاً كالحرِّ، لأن حاجته إلى ذلك كحاجة الحرِّ، وقال الشافعي وأحمد: أجله في الإيلاء كأجل الحرِّ، لأنَّ ضررَ الزوجة في الصورتين سواء. وقال أبو حنيفة: إن طلاقه وطلاق الحرِّ سواء إذا كانت امرأتاهما حرتين إعمالاً لإطلاق نصوص الطلاق، وعمومها للحرِّ والعبد.

وقال أحمد بن حنبل والناسُ معه: صياؤه في الكفارات كلها، وصياؤه الحرِّ سواء، وحده في السرقة والشراب، وحده الحرِّ سواء. قالوا: ولو كانت هذه الآثار أو بعضها ثابتاً، لما سبقتمونا إليه، ولا غلبتمونا عليه، ولو اتفقت آثارُ الصحابة لم نَعُدْها إلى غيرها، فإن الحق لا يعدوهم، وبالله التوفيق.

حُكْمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَأَنَ الطَّلَاقِ

بيد الزوج لا بيد غيره

قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحُوا الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْنَهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩]، وقال: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَتِيَهُنَّ بِمَهْرٍ أَوْ سَرِيحَةٍ بِمَرْوَةٍ﴾ [البقرة: ٢٣١] فنجعل الطلاق لمن نكح، لأن له الإمساك، وهو الرجعة، وروى ابن ماجه في «سننه»: من حديث ابن عباس، قال: أتى النبي ﷺ رجلاً فقال: يا رسول الله! سيدي زَوَّجني أمته، وهو يُريد أن يفرِّق بيني وبينها. قال: فَصَدَّ رسولُ الله ﷺ المنبرَ، فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَا بَالُ أَحَدِكُمْ يُزَوِّجُ عَبْدَهُ أَمَتَهُ ثُمَّ يُريدُ أَنْ يَفَرِّقَ بَيْنَهُمَا، إِنَّمَا الطَّلَاقُ لِمَنْ أَخَذَ بِالسَّاقِ» [ابن ماجه: ٢٠٨١].

وقد روى عبد الرزاق، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس رضي الله عنهما، كان يقول: طلاقُ العبدِ بيد سيده، إن طلقَ، جاز، وإن فرَّق، فهي واحدة إذا كانا له جميعاً، فإن كان العبدُ له، والأمةُ لغيره، طلق السيدُ أيضاً إن شاء [عبد الرزاق: ١٢٩٦٠].

وروى الثوريُّ عن عبد الكريم الجزري، عن عطاء، عنه: ليس طلاقُ العبد ولا فرقته بشيء.

وذكر عبد الرزاق، حدثنا ابن جريج، أخبرني أبو الزبير سمع جابراً يقول في الأمة والعبد: سيدهما يجمعُ بينهما ويُفرِّق [عبد الرزاق: ١٢٩٦٤].

وقضاء رسول الله ﷺ أحقُّ أن يُتَّبَعَ، وحديثُ ابن

التزاع في المسألة، ولو اتفقت آثار الصحابة، لكانت فصلاً أيضاً.

وأما فقه المسألة فمتجاذب، فإن الزوج الثاني إذا هَدَمَتْ إصابته الثلاث، وأعادتها إلى الأول بطلاق جديد، فما دُونُها أولى، وأصحاب القول الأول يقولون: لما كانت إصابة الثاني شرطاً في جُلِّ المطلقة ثلاثاً للأول لم يكن بُدٌّ مِنْ هدمها وإعادتها على طلاق جديد، وأما مَنْ طَلَّقَتْ دُونَ الثلاث، فلم تُصَادَفْ إصابة الثاني فيها تحريماً يُزِيلُهُ، ولا هي شرط في الجُلِّ للأول، فلم تَهْدِمْ شيئاً، فوجودها كعدمها بالنسبة إلى الأول، وإحلالها له، فعادت على ما بقي كما لو لم يُصَبِّها، فإن إصابته لا أثر لها البتة، ولا نكاحه، وطلاقه معلق بها بوجه ما، ولا تأثير لها فيه.

حُكْمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَطْلُوقَةِ ثَلَاثًا لَا تَحِلُّ لِلأَوَّلِ حَتَّى يَطَّأَهَا الزَّوْجُ الثَّانِي

ثبت في «الصحيحين»: عن عائشة رضي الله عنها، أن امرأة رفاعة القرظي جاءت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله! إن رفاعة طَلَّقَنِي، فَبَسْتُ طَلَاقِي، وإني نكحتُ بعده عبد الرحمن بن الزبير القرظي، وإنَّ ما معه مثلُ الهُدْبَةِ، فقال رسول الله ﷺ: «لَعَلَّكَ تُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رِفَاعَةَ. لَا، حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ وَتَذُوقِي عُسَيْلَتَكَ» [البخاري: ٥٢٦٠، ومسلم: ٣٥٢٦].

وفي «سنن النسائي»: عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «العُسَيْلَةُ: الْجِمَاعُ وَلَوْ لَمْ يُنْزَلْ» [أحمد: ٢٤٣٣١، وفي سننه مجهول].

وفيها عن ابن عمر، قال: سئِلَ رسول الله ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُطَلِّقُ امْرَأَتَهُ ثَلَاثًا، فَيَتَزَوَّجُهَا الرَّجُلُ، فَيُعْلِقُ البابَ، وَيُرْخِي السُّتْرَ، ثُمَّ يُطَلِّقُهَا قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِهَا؟ قال: «لَا تَحِلُّ لِلأَوَّلِ حَتَّى يُجَامِعَهَا الآخَرُ» [أحمد: ٤٧٧٦، والنسائي (١٤٩/٦)].

فتضمن هذا الحكم أموراً.

أحدها: أنه لا يقبل قول المرأة على الرجل أنه لا يقدرُ على جماعها.

الثاني: أن إصابة الزوج الثاني شرط في حلِّها للأول، خلافاً لمن اكتفى بمجرد العقد، فإن قوله مردود بالسنة التي لا مرد لها.

الثالث: أنه لا يشترط الإنزال، بل يكفي مجرد الجماع الذي هو ذوق العسيلة.

الرابع: أنه ﷺ لم يجعل مجرد العقد المقصود الذي هو نكاح رغبة كافياً، ولا اتصال الخلوة به، وإغلاق الأبواب، وإرخاء الستور حتى يتصل به الوطء، وهذا يدلُّ على أنه لا يكفي مجرد عقد التحليل الذي لا غرض للزوج والزوجة فيه سوى صورة العقد، وإحلالها للأول بطريق الأولى، فإنه إذا كان عقد الرغبة المقصود للدوام غير كافٍ حتى يوجد فيه الوطء، فكيف يكفي عقد تيسٍ مستعار ليحلِّها لا رغبة له في إمساكها، وإنما هو عارية كحمار العشرين المستعار للضراب؟

حُكْمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَرْأَةِ تُقِيمُ شَاهِدًا وَاحِدًا عَلَى طَلَاقِ زَوْجِهَا وَالزَّوْجُ مَنْكُرٌ

ذكر ابنُ وَضَّاحٍ عن ابن أبي مريم، عن عمرو بن أبي سلمة، عن زهير بن محمد، عن ابن جريج، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ، قال: «إِذَا ادَّعَتِ الْمَرْأَةُ طَلَاقَ زَوْجِهَا، فَجَاءَتْ عَلَى ذَلِكَ بِشَاهِدٍ وَاحِدٍ عَدْلٍ، اسْتَحْلِفَ زَوْجُهَا، فَإِنْ حَلَفَ بَطَلَتْ عَنْهُ شَهَادَةُ الشَّاهِدِ، وَإِنْ نَكَلَ فَتَكُونُ لَهُ بِمَنْزِلَةِ شَاهِدٍ آخَرَ، وَجَارَ طَلَاقُهُ» [ابن ماجه: ٢٠٣٨]، فتضمن هذا الحكم أربعة أمور:

أحدها: أنه لا يكفي بشهادة الشاهد الواحد في الطلاق، ولا مع يمين المرأة، قال الإمام أحمد: الشاهد واليمين إنما يكون في الأموال خاصة لا يقع في حدٍّ، ولا نكاح، ولا طلاق، ولا إعتاق، ولا سرقة، ولا قتل. وقد نصَّ في رواية أخرى عنه على أن العبد إذا ادَّعى أن سيده أعتقه، وأتى بشاهد، حلف مع شاهده، وصار حراً، واختاره الجرجي، ونص أحمد في شريكين في عبد ادَّعى كُلُّ واحد منهما أن شريكه أعتق حقه منه، وكانا مُعَسَّرَيْنِ عدلين، فللعبد أن يحلف مع كُلِّ واحد منهما، ويصير

حرّاً، ويحلف مع أحدهما، ويصيرُ نصُّه حرّاً، ولكن لا يعرف عنه أن الطلاق يثبتُ بشاهِدٍ وبعين.

وقد دلَّ حديثُ عمرو بن شعيب هذا على أنه يثبتُ بشاهِدٍ ونكول الزوج، وهو الصوابُ إن شاء الله تعالى، فإن حديثَ عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، لا يُعرف من أئمة الإسلام إلّا من احتج به، وبنى عليه وإن خالفه في بعضِ المواضع، وزهيرُ بن محمد، الراوي عن ابن جريج، ثقة محتج به في «الصحيحين»، وعمرو بن أبي سلمة، هو أبو حفص التنيسي، محتج به في «الصحيحين» أيضاً، فمن احتجَّ بحديث عمرو بن شعيب، فهذا من أصح حديثه.

الثاني: أن الزوجَ يُستحلف في دعوى الطلاق إذا لم تَقُم المرأة به بينة، لكن إنما استحلّفه مع قوة جانب الدعوى بالشاهد.

الثالث: أنه يحكم في الطلاق بشاهِدٍ، ونكول المدعى عليه، وأحمد في إحدى الروايتين عنه يحكمُ بوقوعه بمجرد النكول من غير شاهد، فإذا ادّعت المرأة على زوجها الطلاق، وأحلفناه لها في إحدى الروايتين، فنكَل، قضى عليه، فإذا أقامت شاهداً واحداً ولم يحلف الزوج على عدم دعواها، فالقضاء بالنكول عليه في هذه الصورة أقوى.

وظاهر الحديث: أنه لا يحكم على الزوج بالنكول إلّا إذا أقامت المرأة شاهداً واحداً، كما هو إحدى الروايتين عن مالك، وأنه لا يُحكم عليه بمجرد دعواها مع نكوله، لكن من يقضي عليه به يقول: النكول إما إقرار، وإما بينة، وكلاهما يُحكم به، ولكن يتيقن هذا عليه بالنكول في دعوى القصاص، ويُجاب بأن النكول بدل استغني به فيما يُباح بالبدل، وهو الأموال وحقوقها دون النكاح وتوابعه.

الرابع: أن النكول بمنزلة البينة، فلما أقامت شاهداً واحداً وهو شرطُ البينة كان النكول قائماً، مقام تمامها.

ونحن نذكرُ مذاهبَ الناس في هذه المسألة، فقال أبو القاسم بن الجلاب في «تفريعه»: وإذا ادّعت المرأة الطلاق على زوجها لم يُحلف بدعواها، فإن أقامت على ذلك شاهداً واحداً، لم تُحلف مع

شاهدها، ولم يثبت الطلاق على زوجها، وهذا الذي قاله لا يُعلم فيه نزاع بين الأئمة الأربعة. قال: ولكن يحلف لها زوجها، فإن حلف، برئ من دعواها.

قلت: هذا فيه قولان للفقهاء، وهما روايتان عن الإمام أحمد.

إحداهما: أنه يحلفُ لدعواها، وهو مذهب الشافعي، ومالك، وأبي حنيفة. والثانية: لا يحلف. فإن قلنا: لا يحلف، فلا إشكال. وإن قلنا: يحلف، فنكل عن اليمين، فهل يقضى عليه بطلاق زوجته بالنكول؟ فيه روايتان عن مالك، إحداهما: أنها تطلقُ عليه بالشاهد والنكول عملاً بهذا الحديث، وهذا اختيارُ أشهب، هذا فيه غاية القوة، لأن الشاهد والنكول سببان من جهتين مختلفتين، فقوي جانب المدعي بهما، فحكم له، فهذا مقتضى الأثر والقياس.

والرواية الثانية عنه: أن الزوج إذا نكَل عن اليمين، حُسِب، فإن طال حبسه، تُرِكَ. واختلفت الرواية عن الإمام أحمد، هل يقضى بالنكول في دعوى المرأة الطلاق؟ على روايتين. ولا أثر عنده لإقامة الشاهد الواحد، بل إذا ادّعت عليه الطلاق، ففيه روايتان في استحلافه، فإن قلنا: لا يُستحلف، لم يكن لدعواها أثر، وإن قلنا: يستحلف، فأبى فهل يُحكم عليه بالطلاق؟ فيه روايتان، وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام في القضاء بالنكول، وهل هو إقرار أو بدل، أو قائم مقام البينة في موضعه من هذا الكتاب؟

حكم رسول الله ﷺ في تخيير أزواجه

بين المُقام معه وبين مفارقتهن له

ثبت في «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما أُمِر رسولُ الله ﷺ بتخيير أزواجه، بدأ بي، فقال: «إني ذاكركَ أمراً فلا عَلَيْكَ ألا تنجلي حتى تستأيري أبوك». قالت: وقد علم أن أبوي لم يكونا ليأمراني بفراقه، ثم قرأ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ يَتَّبِعِيكَ أَزْوَاجُكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قد قرئ الله لكُ عَمَلُ آبَائِكَمْ [التحریم: ٢٠١]، فقلت: في هذا أستمأر أبوي؟ فإني أريدُ الله ورسوله والدار الآخرة. قالت عائشة: ثم فَعَلَ أزواجُ النبي ﷺ بِمَثَلِ مَا فَعَلْتُ

فلم يكن ذلك طلاقاً [البخاري: ٤٧٨٦، ومسلم: ٣٦٨١].

قال ربيعة وابنُ شهاب: فاختارت واحدةً منهن نفسها، فذهبت وكانت البتة. قال ابن شهاب: وكانت بدوية. قال عمرو بن شعيب: وهي ابنة الضحَّاك العامرية رجعت إلى أهلها، وقال ابنُ حبيب: قد كان دخل بها. انتهى.

وقيل: لم يدخل بها، وكانت تلتقط بعد ذلك البعر، وتقول: أنا الشقية.

واختلف الناس في هذا التخير، في موضعين. أحدهما: في أي شيء كان؟ والثاني: في حكمه، فأما الأول: فالذي عليه الجمهور أنه كان بين المقام معه والفراق، وذكر عبد الرزاق في «مصنفه»، عن الحسن، أن الله تعالى إنما خيَّرهُم بين الدنيا والآخرة، ولم يَخَيِّرْهُم في الطلاق [عبد الرزاق: ١١٩٨٤]، وسياق القرآن، وقول عائشة رضي الله عنها يؤدُّ قوله، ولا ريب أنه سبحانه خيَّرهن بين الله ورسوله والدار الآخرة، وبين الحياة الدنيا وزينتها، وجعل موجب اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة المقام مع رسوله، وموجب اختيارهن الدنيا وزينتها أن يُمتنعنَّ ويُسرَّحنَّ سراحاً جميلاً، وهو الطلاق بلا شك ولا نزاع.

(مكان التخير بين المقام معه والفراق)

وأما اختلافهم في حكمه، ففي موضعين: أحدهما: في حكم اختيار الزوج، والثاني: في حكم اختيار النفس، فأما الأول: فالذي عليه معظم أصحاب النبي ﷺ ونسأوه كُلُّهُنَّ ومعظم الأمة أن من اختارت زوجها لم تطلق، ولا يكون التخير بمجرد طلاقاً صحَّ ذلك عن عمر، وابن مسعود، وابن عباس، وعائشة. قالت عائشة: خيَّرنا رسول الله ﷺ فاخترناه، فلم نعد طلاقاً، وعن أم سلمة، وقُرْبِية أختها، وعبد الرحمن بن أبي بكر.

وصح عن علي، وزيد بن ثابت، وجماعة من الصحابة: أنها إن اختارت زوجها، فهي طليقة رجعية، وهو قول الحسن، ورواية عن أحمد رواها عنه إسحاق بن منصور، قال: إن اختارت زوجها، فواحدة يملك الرجعة، وإن اختارت نفسها، فثلاث، قال أبو بكر: انفرد بهذا إسحاق بن منصور، والعمل

على ما رواه الجماعة. قال صاحب «المغني»: ووجه هذه الرواية أن التخير كناية نوى بها الطلاق، فوقع بمجرد كسائر كناياته، وهذا هو الذي صرحت به عائشة رضي الله عنها، والحق معها بإنكاره ورده، فإن رسول الله ﷺ لما اختاره أزواجه لم يَقُلْ: وقع بكن طليقة، ولم يُراجعهن، وهي أعلم الأمة بشأن التخير، وقد صح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لم يكن ذلك طلاقاً، وفي لفظ: «لم نعد طلاقاً». وفي لفظ: «خيَّرنا رسول الله ﷺ»، أفكان طلاقاً؟ [مسلم: ٣٦٨٤].

والذي لحظه من قال: إنها طليقة رجعية أن التخير تمليك، ولا تملك المرأة نفسها إلا وقد طُلِّقت، فالتمليك مستلزم لوقوع الطلاق، وهذا مبني على مقدمتين. إحداهما: أن التخير تمليك. والثانية: أن التملك يستلزم وقوع الطلاق، وكلا المقدمتين ممنوعة، فليس التخير بتمليك، ولو كان تمليكاً لم يستلزم وقوع الطلاق قبل إيقاع من ملكه، فإن غاية أمره أن يملكه الزوجة كما كان الزوج يملكه، فلا يقع بدون إيقاع من ملكه، ولو صح ما ذكره، لكان بائناً، لأن الرجعية لا تملك نفسها.

(هل التخير يستلزم الطلاق؟)

وقد اختلف الفقهاء في التخير: هل هو تمليك أو توكيل، أو بعضه تمليك، وبعضه توكيل، أو هو تطبيق منجز، أو لغو لا أثر له البتة؟ على مذاهب خمسة: التفريق هو مذهب أحمد ومالك. قال أبو الخطاب في «رؤوس المسائل»: هو تمليك يقف على القبول، وقال صاحب «المغني» فيه: إذا قال: أمرك بيدك، أو اختاري، فقالت: قبلت، لم يقع شيء، لأن «أمرك بيدك» توكيل، فقولها في جوابه: قبلت ينصرف إلى قبول الوكالة، فلم يقع شيء، كما لو قال لأجنبية: أمر امرأتي بيدك، فقالت: قبلت، وقوله: اختاري: في معناه، وكذلك إن قالت: أخذت أمري، دخل عليهما أحمد في رواية إبراهيم بن هانئ. إذا قال لامرأة: أمرك بيدك، فقالت: قبلت، ليس بشيء حتى يتبين، وقال: إذا قالت: أخذت أمري، ليس بشيء، قال: وإذا قال لامرأة: اختاري، فقالت: قبلت نفسي، أو اخترت نفسي، كان أبين.

انتهى. وفرق مالك بين «اختاري»، وبين «أمرُك بيدك»، فجعل «أمرُك بيدك» تملكاً، و«اختاري» تخيراً لا تملكاً. قال أصحابه: وهو توكيلٌ.

وللشافعي قولان. أحدهما: أنه تملك، وهو الصحيح عند أصحابه، والثاني: أنه توكيل وهو القديم، وقالت الحنفية: تملك. وقال الحسن وجماعة من الصحابة: هو تطليق تقع به واحدة منجزة، وله رجعتها، وهي رواية ابن منصور عن أحمد.

وقال أهل الظاهر وجماعة من الصحابة: لا يقع به طلاق، سواء اختارت نفسها، أو اختارت زوجها، ولا أثر للتخير في وقوع الطلاق. ونحن نذكر مأخذ هذه الأقوال على وجه الإشارة إليها.

(حجج من قال بان التخير تملك)

قال أصحاب التملك: لما كان البضع يعود إليها بعد ما كان للزوج، كان هذا حقيقة التملك.

قالوا: وأيضاً فالتوكيل يستلزم أهلية الوكيل لمباشرة ما وُكِّلَ فيه، والمرأة ليست بأهل لإيقاع الطلاق، ولهذا لو وُكِّلَ امرأة في طلاق زوجها، لم يصح في أحد القولين، لأنها لا تبشر الطلاق، والذين صحَّحوه قالوا: كما يصح أن يوكل رجلاً في طلاق امرأته، يصح أن يوكل امرأة في طلاقها.

(حجج من قال بانه توكيل)

قالوا: وأيضاً فالتوكيل لا يُعقل معناه ما هنا، فإن الوكيل هو الذي يتصرف لموكله لا لنفسه، والمرأة هاهنا إنما تتصرف لنفسها ولحفظها، وهذا يُنافي تصرف الوكيل. قال أصحاب التوكيل، واللفظ لصاحب «المغني»: وقولهم: إنه توكيل لا يصح، فإن الطلاق لا يصح تملكه، ولا ينتقل عن الزوج، وإنما ينبئ فيه غيره عنه، فإذا استتاب غيره فيه، كان توكيلاً لا غير.

قالوا: ولو كان تملكاً لكان مقتضاه انتقال الملك إليها في بضعها، وهو محال، فإنه لم يخرج عنها، ولهذا لو وُطئت بشبهة كان المهر لها للزوج، ولو ملك البضع، لملك عوضه، كمن ملك منفعة عين كان عوض تلك المنفعة له.

قالوا: وأيضاً فلو كان تملكاً، لكانت المرأة مالكة للطلاق، وحيث يجب أن لا يبقى الزوج مالكا لاستحالة كون الشيء الواحد بجميع أجزائه ملكاً لمالكين في زمن واحد، والزوج مالك للطلاق بعد التخير، فلا تكون هي مالكة له، بخلاف ما إذا قلنا: هو توكيل واستتابة، كان الزوج مالكا، وهي نائبة ووكيله عنه.

قالوا: وأيضاً فلو قال لها: طلقي نفسك، ثم حلف أن لا يُطلق، فطلقت نفسها، حيث، فدل على أنها نائبة عنه، وأنه هو المطلق.

قالوا: وأيضاً فقولكم: إنه تملك، إما أن تريدوا به أنه ملكها نفسها، أو أنه ملكها أن تُطلق، فإن أردتم الأول، لزمكم أن يقع الطلاق بمجرد قولها: قبلت، لأنه أتى بما يقتضي خروج بضعها عن ملكه، واتصل به القبول، وإن أردتم الثاني، فهو معنى التوكيل، وإن غُيِّرَت العبارة.

(حجج المفرقين بين بعض صور التخير وبعض)

قال المفرقون بين بعض صوره وبعض، - وهم أصحاب مالك -: إذا قال لها: أمرُك بيدك، أو جعلت أمرُك إليك، أو ملكك أمرُك، فذاك تملك، وإذا قال: اختاري فهو تخيير، قالوا: والفرق بينهما حقيقةً وحكماً. أما الحقيقة، فلأن «اختاري» لم يتضمن أكثر من تخييرها، لم يملكها نفسها، وإنما خيَّرها بين أمرين، بخلاف قوله: أمرُك بيدك، فإنه لا يكون بيدها إلا وهي مالكة، وأما الحكم، فإنه إذا قال لها: أمرُك بيدك، وقال: أردت به واحدة، فالقول قوله مع يمينه، وإذا قال: اختاري، فطلقت نفسها ثلاثاً، وقعت، ولو قال: أردت واحدة إلا أن تكون غير مدخول بها، فالقول قوله في إرادته الواحدة. قالوا: لأن التخير يقتضي مدخولاً بها، لم تبين إلا بالثلاث، وإن لم تكن مدخولاً بها، بانته بالواحدة، وهذا بخلاف: أمرُك بيدك، فإنه لا يقتضي تخييرها بين نفسها وبين زوجها، بل تملكها أمرها، وهو أعم من تملكها الإبانة بثلاث أو بواحدة تنقضي بها عدتها، فإن أراد بها أحد محتمليه، قيل قوله، وهذا بعينه يرد عليهم في «اختاري»، فإنه أعم من أن تختار البيوتة بثلاث أو بواحدة تنقضي بها عدتها،

بل: «أمرك بيدك» أصرح في تملكك الثلاث من «اختاري»، لأنه مضاف ومضاف إليه، فيعم جميع أمرها. بخلاف «اختاري» فإنه مطلق لا عموم له، فمن أين يُستفاد منه الثلاث؟ وهذا منصوح الإمام أحمد، فإنه قال في اختاري: إنه لا تملك به المرأة أكثر من طلبة واحدة إلا بنية الزوج، ونص في «أمرك بيدك، وطلاقك بيدك، ووكلتك في الطلاق»: على أنها تملك به الثلاث. وعنه رواية أخرى: أنها لا تملكها إلا بنيه.

(حجة من جعله تطليقاً منجزاً)

وأما من جعله تطليقاً منجزاً، فقد تقدّم وجه قوله وضعفه.

(حجج من جعله لغواً)

وأما من جعله لغواً، فلهم مأخذان، أحدهما: أن الطلاق لم يجعله الله بيد النساء، إنما جعله بيد الرجال، ولا يتغير شرع الله باختيار العبد، فليس له أن يختار نقل الطلاق إلى من لم يجعل الله إليه الطلاق البتة.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام! حدثنا أبو بكر بن عياش، حدثنا حبيب بن أبي ثابت، أن رجلاً قال لامرأة له: إن أدخلت هذا العذل إلى هذا البيت، فأمر صاحبك بيدك، فأدخلته، ثم قالت: هي طالق، فرفع ذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأبانها منه، فمروا بعبد الله بن مسعود، فأخبروه، فلذهب بهم إلى عمر، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله تبارك وتعالى جعل الرجال قوامين على النساء، ولم يجعل النساء قوامات على الرجال، فقال له عمر: فما ترى؟ قال: أراها امرأته. قال: وأنا أرى ذلك، فجعلها واحدة.

قلت: يحتمل أنه جعلها واحدة بقول الزوج: فأمر صاحبك بيدك، ويكون كناية في الطلاق، ويحتمل أنه جعلها واحدة بقول ضررتها: هي طالق، ولم يجعل للضررة إبانته، لئلا تكون هي القوامة على الزوج، فليس في هذا دليل لما ذهب إليه هذه الفرقة، بل هو حجة عليها.

وقال أبو عبيد: حدثنا عبد الغفار بن داود، عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، أن ربيعة الفارسية كانت تحت محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر، فملكها أمرها، فقالت: أنت طالق ثلاث مرات، فقال عثمان بن عفان: أخطأت، لا طلاق لها، لأن المرأة لا تطلق.

وهذا أيضاً لا يدل لهذه الفرقة، لأنه إنما يوقع الطلاق لأنها أضافته إلى غير محله وهو الزوج، وهو لم يقل: أنا منك طالق، وهذا نظير ما رواه عبد الرزاق، حدثنا ابن جريج، أخبرني أبو الزبير، أن مجاهداً أخبره، أن رجلاً جاء إلى ابن عباس رضي الله عنهما، فقال: ملكك امرأتي أمرها، فطلقني ثلاثاً، فقال ابن عباس: «خطأ الله نوءها، إنما الطلاق لك عليها، وليس لها عليك»^(١) [عبد الرزاق: ١١٩١٨].

قال الأثرم: سألت أبا عبد الله، عن الرجل يقول لامرأته: أمرك بيدك؟ فقال: قال عثمان، وعلي رضي الله عنهما: القضاء ما قضت، قلت: فإن قالت: قد طلق نفسي ثلاثاً قال: القضاء ما قضت. قلت: فإن قالت: طلقك ثلاثاً، قال: المرأة لا تطلق، واحتج بحديث ابن عباس رضي الله عنهما: «خطأ الله نوءها». ورواه عن وكيع، عن شعبة، عن الحكم، عن ابن عباس رضي الله عنه، في رجل جعل أمر امرأته في يدها، فقالت: قد طلقك ثلاثاً، قال ابن عباس: «خطأ الله نوءها، أفلا طلقت نفسها» [البيهقي (٣٤٩/٧)]. قال أحمد: صحف أبو مطر، فقال: «خطأ الله فوها» ولكن روى عبد الرزاق، عن ابن جريج، قال: سألت عبد الله بن طاوس، كيف كان أبوك يقول في رجل ملك امرأته أمرها، أتملك أن تطلق نفسها، أم لا؟ قال: كان يقول: ليس إلى النساء طلاق، فقلت له: فكيف كان أبوك يقول في رجل ملك رجلاً أمر امرأته، أتملك الرجل أن يطلقها؟ قال: لا [عبد الرزاق: ١١٩١٣]. فهذا صريح من منذهب طاوس أنه لا يطلق إلا الزوج، وأن تملك الزوجة أمرها لغو، وكذلك توكله غيره في الطلاق.

(١) خطأ الله نوءها: معناه لو طلقت نفسها، لوقع، فحيث طلقت زوجها، لم يقع، فكانت كمن يخطئ النوء، فلا يطر عليه.

قال أبو محمد بن حزم: وهذا قول أبي سليمان، وجميع أصحابنا.

الحجة الثانية لهؤلاء: أن الله سبحانه إنما جعل أمر الطلاق إلى الزوج دون النساء، لأنهن ناقصات عقل ودين، والغالب عليهن السفه، وتذهب بهن الشهوة والميل إلى الرجال كُلِّ مذهب، فلو جُعِلَ أمر الطلاق إليهن، لم يستقيم للرجال معهن أمر، وكان في ذلك ضرر عظيم بأزواجهن، فاقضت حكمته ورحمته أنه لم يجعل بأيديهن شيئاً من أمر الفراق، وجعله إلى الأزواج، فلو جاز للأزواج نقل ذلك إليهن، لناقض حكمة الله ورحمته، ونظره للأزواج. قالوا: والحديث إنما دلَّ على التخيير فقط، فإن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة كما وقع كثر أزواجه بحالهن، وإن اخترن أنفسهن، متعن، وطلقهن هو بنفسه، وهو السراخ الجميل، لا أن اختيارهن لأنفسهن يكون هو نفس الطلاق، وهذا في غاية الظهور كما ترى.

قال هؤلاء: والأثار عن الصحابة في ذلك مختلفة اختلافاً شديداً، فصَحَّ عن عمر، وابن مسعود، وزيد بن ثابت في رجل جعل أمر امرأته بيدها فطلقت نفسها ثلاثاً، أنها طلقة واحدة رجعية، وصَحَّ عن عثمان رضي الله عنه. أن القضاء ما قضت، ورواه سعيد بن منصور، عن ابن عمر، وغيره عن ابن الزبير. وصَحَّ عن علي، وزيد، وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم: أنها إن اختارت نفسها، فواحدة بآثته، وإن اختارت زوجها فواحدة رجعية.

وصح عن بعض الصحابة: أنها إن اختارت نفسها، فثلاث بكل حال: وروي عن ابن مسعود فيمن جعل أمر امرأته بيد آخر فطلقتها، فليس بشيء.

قال أبو محمد بن حزم: وقد تقصينا من رويناه عن من الصحابة أنه يقع به الطلاق، فلم يكونوا بين من صحَّ عنه، ومن لم يصحَّ عنه إلا سبعة، ثم اختلفوا، وليس قول بعضهم أولى من قول بعض، ولا أثر في شيء منها، إلا ما رويناه من طريق النسائي، أخبرنا نصر بن علي الجهضمي، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، قال: قلت لأبيوب السخثياني: هل علمت أحداً قال في «أمرك بيدك»: إنها ثلاث غير الحسن؟ قال: لا، اللهم غفراً إلا ما حدثني به قتادة،

عن كثير مولى ابن سمرة، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: ثلاث. قال أيوب: فلقيت كثيراً مولى ابن سمرة، فسأته، فلم يعرفه، فرجعت إلى قتادة، فأخبرته، فقال: نسي. قال أبو محمد: كثير مولى ابن سمرة مجهول، ولو كان مشهوراً بالثقة والحفظ، لما خالفنا هذا الخبر، وقد أوقفه بعض رواته على أبي هريرة. انتهى [ابن حزم (١١٨/١٠-١١٩)].

وقال المروزي: سألت أبا عبد الله، ما تقول في امرأة خُيرت، فاختارت نفسها؟ قال: قال فيها خمسة من أصحاب رسول الله ﷺ: إنها واحدة ولها الرجعة: عمر، وابن مسعود، وابن عمر، وعائشة. وذكر آخر، قال غير المروزي: هو زيد بن ثابت.

قال أبو محمد، ومن خير امرأته، فاختارت نفسها، أو اختارت الطلاق، أو اختارت زوجها، أو لم تختار شيئاً، فكل ذلك لا شيء وكل ذلك سواء، ولا تطلق بذلك، ولا تحرُّم عليه، ولا شيء من ذلك حكم، ولو كرَّر التخيير، وكررت هي اختيار نفسها، أو اختيار الطلاق ألف مرة، وكذلك إن ملكها نفسها، أو جعل أمرها بيدها، ولا فرق [ابن حزم (١١٧/١٠)].

ولا حجة في أحد دون رسول الله ﷺ، وإذ لم يأت في القرآن، ولا عن رسول الله ﷺ، أن قول الرجل لامرأته: أمرك بيدك، أو قد ملكتك أمرك، أو اختاري، يُوجب أن يكون طلاقاً، أو أن لها أن تطلق نفسها، أو تختار طلاقاً، فلا يجوز أن يُحرِّم على الرجل فرج أباحه الله تعالى له ورسوله ﷺ بأقوال لم يُوجبها الله، ولا رسوله ﷺ، وهذا في غاية البيان. انتهى كلامه [ابن حزم (١٢٤/١٠)].

قالوا: واضطراب أقوال الموقعين، وتناقضها، ومعارضة بعضها لبعض يدل على فساد أصلها، ولو كان الأصل صحيحاً لا طردت فروعه، ولم تتناقض، ولم تختلف، ونحن نُشير إلى طرف من اختلافهم.

فاختلفوا: هل يقع الطلاق بمجرد التخيير، أو لا يقع حتى تختار نفسها؟ على قولين: تقدم حكايتهما، ثم اختلف الذين لا يُوقعونه بمجرد قوله: أمرك بيدك: هل يختص اختيارها بالمجلس، أو يكون في يدها ما

نية، فله أن يُوقع ما شاء. وإذا قال: اختاري، وقال: أردت واحدة، فاختارت نفسها، طلقت ثلاثاً، ولا يقبل قوله.

ثم هاهنا فروغٌ كثيرة مضطربة غاية الاضطراب لا دليل عليها من كتاب ولا سنة، ولا إجماع، والزوجة زوجته حتى يقوم دليل على زوال عصمته عنها.

قالوا: ولم يجعل الله إلى النساء شيئاً من النكاح، ولا من الطلاق، وإنما جعل ذلك إلى الرجال، وقد جعل الله سبحانه الرجال قوامين على النساء، إن شاؤوا أمسكوا، وإن شاؤوا طلقوا، فلا يجوز للرجل أن يجعل المرأة قوامة عليه، إن شاءت أمسكت، وإن شاءت طلقت. قالوا: ولو أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على شيء لم نتعد إجماعهم، ولكن اختلفوا، فطلبتا الحجة لأقوالهم من غيرها، فلم نجد الحجة تقوم إلّا على هذا القول. وإن كان من روي عنه قد روي عنه خلافه أيضاً، وقد أبطل من ادعى الإجماع في ذلك، فالنزاع ثابت بين الصحابة والتابعين، كما حكيتنا، والحجة لا تقوم بالخلاف، فهذا ابن عباس، وعثمان بن عفان، قد قالوا: إن تملك الرجل لامرأته أمرها ليس بشيء، وابن مسعود يقول فيمن جعل أمر امرأته بيد آخر فطلقها: ليس بشيء، وطاوس يقول فيمن ملك امرأته أمرها: ليس إلى النساء طلاق، ويقول فيمن ملك رجلاً أمر امرأته، أيملك الرجل أن يطلقها؟ قال: لا.

قلت: أما المنقول عن طاوس، فصحيح صريح لا مطعن فيه سنداً وصرحة. وأما المنقول عن ابن مسعود، فمختلف، فنقل عنه موافقة علي وزيد في الوقوع، كما رواه ابن أبي ليلى عن الشعبي: أن أمرك بيدك، واختاري سواء في قول علي وابن مسعود وزيد، ونقل عنه فيمن قال لامرأته: أمرُ فلانة بيدك إن أدخلت هذا العدل البيت، ففعلت، أنها امرأته، ولم يطلقها عليه.

وأما المنقول عن ابن عباس، وعثمان، فإنما هو فيما إذا أضافت المرأة الطلاق إلى الزوج، وقالت: أنت طالق. وأحمد ومالك يقولان ذلك مع قولهما بوقوع الطلاق إذا اختارت نفسها، أو طلقت نفسها، فلا يُعرف عن أحد من الصحابة إلغاء التخيير

لم يفسخ، أو يطأ؟ على قولين. أحدهما، أنه يتقيد بالمجلس، وهذا قول أبي حنيفة، والشافعي، ومالك في إحدى الروايتين عنه. الثاني: أنه في يدها أبداً حتى يفسخ أو يطأ، وهذا قول أحمد، وابن المنذر، وأبي ثور. والرواية الثانية عن مالك. ثم قال بعض أصحابه: وذلك ما لم تَظَلْ حتى يتبين أنها تركته، وذلك بأن يتعدى شهرين، ثم اختلفوا هل عليها يمين: أنها تركت، أم لا؟ على قولين.

ثم اختلفوا إذا رجع الزوج فيما جعل إليها، فقال أحمد وإسحاق والأوزاعي، والشعبي، ومجاهد، وعطاء: له ذلك، ويبطل خيارها.

وقال مالك، وأبو حنيفة والثوري، والزهري: ليس له الرجوع، وللشافعية خلاف مبني على أنه توكيل، فيملك الموكل الرجوع، أو تملك، فلا يملكه، قال بعض أصحاب التملك: ولا يمتنع الرجوع، وإن قلنا إنه تملك، لأنه لم يتصل به القبول، فجاز الرجوع فيه كالبهية والبيع.

واختلفوا: فيما يلزم من اختيارها نفسها. فقال أحمد والشافعي: واحدة رجعية وهو قول ابن عمر، وابن مسعود، وابن عباس، واختاره أبو عبيد، وإسحاق. وعن علي: واحدة بائنة، وهو قول أبي حنيفة وعن زيد بن ثابت، ثلاث، وهو قول الليث، وقال مالك: إن كانت مدخولاً بها، فثلاث، وإن كانت غير مدخول بها، قبل منه دعوى الواحدة.

واختلفوا: هل يفترق قوله: أمرك بيدك إلى نية أم لا؟ فقال أحمد والشافعي وأبو حنيفة: يفترق إلى نية، وقال مالك: لا يفترق إلى نية، واختلفوا: هل يفترق وقوع الطلاق إلى نية المرأة إذا قالت: اخترت نفسي، أو فسخت نكاحك؟ فقال أبو حنيفة: لا يفترق وقوع الطلاق إلى نيتها إذا نوى الزوج. وقال أحمد والشافعي: لا بد من نيتها إذا اختارت بالكناية، ثم قال أصحاب مالك: إن قالت: اخترت نفسي، أو قبلت نفسي، لزم الطلاق، ولو قالت: لم أرد، وإن قالت: قبلت أمري، سئلت عما أرادت؟ فإن أرادت الطلاق كان طلاقاً، وإن لم تُردّه لم يكن طلاقاً. ثم قال مالك: إذا قال لها: أمرُك بيدك، وقال: قصدت طلاقاً واحدة، فالقول قوله مع يمينه، وإن لم تكن له

الله، ولا مخالفةً لدينه، فإن الزوج هو الذي يُطلق إما بنفسه، أو بوكيله، وقد يكون أتمّ نظراً للرجل من نفسه، وأعلم بمصلحته، فيفوض إليه ما هو أعلم بوجه المصلحة فيه منه، وإذا جاز التوكيل في العتي والنكاح، والخلع والإبراء، وسائر الحقوق من المطالبة بها وإثباتها واستيفائها، والمخاصمة فيها، فما الذي حرّم التوكيل في الطلاق؟ نعم الوكيل يقوم مقام الموكل فيما يملكه من الطلاق، وما لا يملكه، وما يحلّ له منه، وما يحرم عليه، ففي الحقيقة لم يُطلق إلا الزوج إما بنفسه أو بوكيله.

حكم رسول الله ﷺ الذي بيّنه عن ربه تبارك وتعالى فيمن حرّم أمته أو زوجته أو متاعه

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ يَتَّبِعُونَ مَثَلَكُمْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَسُولَهُ﴾ [التحریم: ١، ٢]، ثبت في «الصحيحين»، أنه ﷺ شربَ عسلاً من بيت زينب بنت جحش^(١)، فاحتالت عليه عائشة وحفصة، حتى قال: «لَنْ أَعُوذَ لَهُ». وفي لفظ: وقد حلفت [البخاري: ٤٩١٢]، ومسلم: ٣٦٧٨.

وفي «سنن النسائي»: عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرّمها، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحریم: ١] [النسائي: ٧/٢٧١].

وفي «صحيح مسلم»: عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: إذا حرّم الرجلُ امرأته، فهي يمينٌ يُكْفَرُها، وقال: لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة [البخاري: ٤٩١١]، ومسلم: ٣٦٧٧.

وفي «جامع الترمذي»: عن عائشة رضي الله عنها، قالت: ألى رسول الله ﷺ من نسائه وحرّم، فَجَعَلَ الْحَرَامَ حَلَالًا، وَجَعَلَ فِي الْيَمِينِ كِفَارَةً [الترمذي: ١٢٠١]. هكذا رواه مسلمة بن علقمة، عن داود، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة، ورواه

والتعليك البتة، إلا هذه الرواية عن ابن مسعود، وقد روي عنه خلافها، والثابت عن الصحابة اعتبار ذلك، ووقوع الطلاق به، وإن اختلفوا فيما تملك به المرأة كما تقدم، والقول بأن ذلك لا أثر له لا يعرف عن أحد من الصحابة البتة، وإنما وهم أبو محمد في المنقول عن ابن عباس وعثمان، ولكن هذا مذهب طاوس، وقد نقل عن عطاء ما يدل على ذلك، فروى عبد الرزاق، عن ابن جريج، قلت لعطاء: رجل قال لامرأته: أمرك بيدك بعد يوم أو يومين، قال: ليس هذا بشيء. قلت: فأرسل إليها رجلاً أن أمرها بيدها يوماً أو ساعة، قال: ما أدري ما هذا؟ ما أظن هذا شيئاً. قلت لعطاء: أملكك عائشة حفصة حين ملكها المنذر أمرها، قال عطاء: لا، إنما عرضت عليها أن تطلقها أم لا، ولم تملكها أمرها [عبد الرزاق: ١١٩٥٤].

ولولا هيئة أصحاب رسول الله ﷺ لما عدلنا عن هذا القول، ولكن أصحاب رسول الله ﷺ هم القدوة وإن اختلفوا في حكم التخيير، ففي ضمن اختلافهم اتفاقهم على اعتبار التخيير، وعدم إلغائه، ولا مفسدة في ذلك، والمفسدة التي ذكرتموها في كون الطلاق بيد المرأة إنما تكون لو كان ذلك بيدها استقلالاً، فأما إذا كان الزوج هو المستقل بها، فقد تكون المصلحة له في تفويضها إلى المرأة ليصير حاله معها على بينة إن أحبته، أقامت معه، وإن كرهته، فارقته، فهذا مصلحة له ولها، وليس في هذا ما يقتضي تغيير شرع الله وحكمته، ولا فرق بين توكيل المرأة في طلاق نفسها وتوكيل الأجنبي، ولا معنى لمنع توكيل الأجنبي في الطلاق، كما يصح توكيله في النكاح والخلع.

وقد جعل الله سبحانه للحكمين النظر في حال الزوجين عند الشقاق إن رآيا التفریق فرّقا، وإن رآيا الجمع جمعا، وهو طلاق أو فسخ من غير الزوج، إما برضاه إن قيل: هما وكيلان، أو بغير رضاه إن قيل: هما حكمان، وقد جعل للحاكم أن يطلق على الزوج في مواضع بطريق النيابة عنه، فإذا وكل الزوج من يطلق عنه، أو يخالعه، لم يكن في هذا تغيير لحكم

(١) في الأصل: ميمونة، وهو خطأ.

علي بن مُسهر، وغيره، عن الشعبي، عن النبي ﷺ مرسلًا وهو أصح، انتهى كلام أبي عيسى.

وقولُها: جعل الحرام حلالاً، أي: جعل الشيء الذي حرّمه وهو العسل، أو الجارية، حلالاً بعد تحريمه إياه.

رسول الله ﷺ، وهذا الثاني أظهر، وهذه المسألة فيها عشرون مذهباً للناس، ونحن نذكرها، ونذكر وجوهاً ومآخذها، والراجح منها بعون الله تعالى وتوفيقه.

(من قال بان التحريم لغو لا شيء فيه)

أحدهما: أن التحريم لغو لا شيء فيه، لا في الزوجة، ولا في غيرها، لا طلاق ولا إيلاء، ولا يمين ولاظهار، روى وكيع، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، عن مسروق: ما أبالي حرمتُ امرأتي أو قصعتُ من ثريد. وذكر عبد الرزاق، عن الثوري، عن صالح بن مسلم، عن الشعبي، أنه قال في تحريم المرأة: لَهي أهونُ علي من نعلي [عبد الرزاق: ١١٣٧٨].

وذكرَ عن ابن جريج، أخبرني عبد الكريم، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، أنه قال: ما أبالي حرمتُها يعني امرأتها، أو حرمتُ ماء النهر. وقال قتادة: سأل رجل حميد بن عبد الرحمن الحميري، عن ذلك؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿إِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ وَلَكَ نِكَاحٌ فَانصَبْ [الم نشرح: ٧، ٨] وأنت رجل تلعب، فاذهب فالتعب، هذا قول أهل الظاهر كلهم.

(من قال بان التحريم في الزوجة طلاق ثلاث)

المذهب الثاني: أن التحريم في الزوجة طلاق ثلاث. قال ابن حزم: قاله علي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت، وابن عمر، وهو قول الحسن، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وروي عن الحكم بن عتيبة. قلت: الثابت عن زيد بن ثابت، وابن عمر، ما رواه هو من طريق الليث بن سعد، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي هُبيرة، عن قبيصة، أنه سأل زيد بن ثابت وابن عمر عن قول لامرأتها: أنت علي حرام، فقالا جميعاً: كفارة يمين، ولم يصح عنهما خلاف ذلك، وأما علي، فقد روى أبو محمد ابن حزم، من طريق يحيى القطان، حدثنا إسماعيل ابن أبي خالد، عن الشعبي، قال: يقول رجال في الحرام: هي حرام حتى تنكح زوجاً غيره، ولا والله

وقال الليث بن سعد: عن يزيد بن أبي حبيب، عن عبد الله بن هُبيرة، عن قبيصة بن ذؤيب، قال: سألت زيد بن ثابت، وابن عمر رضي الله عنهم، عن قول لامرأتها، أنت علي حرام، فقالا جميعاً: كفارة يمين^(١). وقال عبد الرزاق، عن ابن عُيينة، عن ابن أبي نجيج، عن مجاهد، عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال في التحريم: هي يمينٌ يكفرها [عبد الرزاق: ١١٣٦٦].

قال ابن حزم: وروي ذلك عن أبي بكر الصديق، وعائشة أم المؤمنين. وقال الحجاج بن منهال: حدثنا جرير بن حازم، قال: سألت نافعاً مولى ابن عمر رضي الله عنه عن الحرام، أطلاق هو؟ قال: لا أوليس قد حرّم رسول الله ﷺ جاريته، فأمره الله عز وجل أن يكفر عن يمينه، ولم يحرمها عليه^(٢).

وقال عبد الرزاق: عن معمر، عن يحيى بن أبي كثير، وأيوب السختياني، كلاهما عن عكرمة أن عمر بن الخطاب قال: هي يمين، يعني التحريم [عبد الرزاق: ١١٣٦٠، والبيهقي (٧/٣٥٠)].

وقال إسماعيل بن إسحاق: حدثنا المُقَدَّمِيُّ: حدثنا حماد بن زيد، عن صخر بن جويرية، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: الحرام يمين^(٣).

(مذاهب الناس في تحريم الرجل امته أو زوجته أو متاعه) وفي «صحيح البخاري»: عن سعيد بن جبير، أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقول: إذا حرّم امرأتها، ليس بشيء، وقال: لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة [البخاري: ٤٩١١] فقيل: هذا رواية أخرى عن ابن عباس. وقيل: إنما أراد أنه ليس بطلاق وفيه كفارة يمين، ولهذا احتج بفعل

(٣) رجاله ثقات.

(١) رجاله ثقات.

(٢) رجاله ثقات.

شيء، وقيل: بل يلزمه كفارة يمين، وإن لم ينو شيئاً، ففيه قولان: أحدهما: لا يلزمه شيء. والثاني: عليه كفارة يمين. وإن صادف غير الزوجة والأمة لم يحرم، ولم يلزمه به شيء، وهذا مذهب الشافعي.

(المذهب السادس)

المذهب السادس: أنه يظهر بإطلاقه، نواه أو لم ينوه، إلا أن يصرّفه بالنية إلى الطلاق، أو اليمين، فينصرف إلى ما نواه، هذا ظاهر مذهب أحمد. وعنه رواية ثانية: أنه بإطلاقه يمين إلا أن يصرّفه بالنية إلى الظهار أو الطلاق، فينصرف إلى ما نواه، وعنه رواية أخرى ثالثة: أنه يظهر بكل حال ولو نوى غيره، وفيه رواية رابعة حكاهما أبو الحسين في «فروعه»، أنه طلاق باتن.

ولو وصله بقوله: أعني به الطلاق فعنه فيه روايتان: إحداهما: أنه طلاق، فعلى هذا هل تلزمه الثلاث، أو واحدة؟ على روايتين، والثانية: أنه يظهر أيضاً كما لو قال: أنت عليّ كظهر أمي: أعني به الطلاق، هذا تلخيص مذهب.

(المذهب السابع)

المذهب السابع: أنه إن نوى به ثلاثاً، فهي ثلاث، وإن نوى به واحدة، فهي واحدة بائنة، وإن نوى به يميناً، فهي يمين، وإن لم ينو شيئاً، فهي كذبة لا شيء فيها، وهذا مذهب سفيان الثوري، حكاه عنه أبو محمد بن حزم.

(المذهب الثامن)

المذهب الثامن: أنه طلقة واحدة بائنة بكل حال، وهذا مذهب حماد بن أبي سليمان.

(المذهب التاسع)

المذهب التاسع: أنه إن نوى ثلاثاً فثلاث، وإن نوى واحدة، أو لم ينو شيئاً، فواحدة بائنة، وهذا مذهب إبراهيم النخعي، حكاه عنه أبو محمد بن حزم.

(المذهب العاشر)

المذهب العاشر: أنه طلقة رجعية، حكاه ابن الصباغ وصاحبه أبو بكر الشاشي عن الزهري، عن عمر بن الخطاب.

ما قال ذلك علي، وإنما قال علي: ما أنا بمحلّها ولا بمحرّمها عليك، إن شئت فتقدّم، وإن شئت فتأخّر. وأما الحسن، فقد روى أبو محمد من طريق قتادة عنه، أنه قال: كلُّ حلال علي حرام، فهو يمين. ولعل أبا محمد غلط على علي وزيد وابن عمر من مسألة الخلية والبرية والبثة، فإن أحمد حكى عنهم أنها ثلاث. وقال: هو عن علي وابن عمر صحيح، فوهم أبو محمد، وحكاه في: أنت علي حرام، وهو وهم ظاهر، فإنهم فرّقوا بين التحريم، فافتوا فيه بأنه يمين، وبين الخلية فافتوا فيها بالثلاث، ولا أعلم أحداً قال: إنه ثلاث بكل حال.

(المذهب الثالث)

المذهب الثالث: أنه ثلاث في حق المدخول بها لا يقبل منه غير ذلك، وإن كانت غير مدخول بها، وقع ما نواه من واحدة واثنين وثلاث، فإن أطلق، فواحدة، وإن قال: لم أرد طلاقاً، فإن كان قد تقدّم كلام يجوز صرفه إليه قبل منه، وإن كان ابتداءً لم يقبل، وإن حرم أمته أو طعامه أو متاعه، فليس بشيء، وهذا مذهب مالك.

(المذهب الرابع)

المذهب الرابع: أنه إن نوى الطلاق كان طلاقاً، ثم إن نوى به الثلاث فثلاث، وإن نوى دونها فواحدة بائنة، وإن نوى يميناً فهو يمين فيها كفارة، وإن لم ينو شيئاً، فهو إيلاء فيه حكم الإيلاء، فإن نوى الكذب، صدّق في الفتيا ولم يكن شيئاً، ويكون في القضاء إيلاء، وإن صادف غير الزوجة الأمة والطعام وغيره، فهو يمين فيه كفارتها، وهذا مذهب أبي حنيفة.

(المذهب الخامس)

المذهب الخامس: أنه إن نوى به الطلاق، كان طلاقاً، ويقع ما نواه، فإن أطلق، وقعت واحدة، وإن نوى الظهار، كان ظهاراً، وإن نوى اليمين، كان يميناً، وإن نوى تحريم عينها من غير طلاق ولا ظهار، فعليه كفارة يمين، وإن لم ينو شيئاً، ففيه قولان: أحدهما: لا يلزمه شيء. والثاني: يلزمه كفارة يمين. وإن صادف جارية، فنوى عتقها وقع العتق، وإن نوى تحريمها لزمه بنفس اللفظ كفارة يمين، وإن نوى الظهار منها، لم يصح، ولم يلزمه

(المذهب الحادي عشر)

يُحَرِّمُ ما أحلَّ الله له، فكيف يجعلُ لغيره التحريم؟
قالوا: وقد قال النبي ﷺ: «كُلُّ عَمَلٍ لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» [البخاري: ٢٦٩٧، ومسلم: ٤٤٩٢] وهذا التحريمُ كذلك، فيكون ردّاً باطلاً.

قالوا: ولأنه لا فرق بين تحريم الحلال، وتحليل الحرام، وكما أن هذا الثاني لغوٌ لا أثر له، فكذلك الأول.

قالوا: ولا فرق بين قوله لامرأته: أنت عليّ حرام، وبين قوله ل طعامه: هو عليّ حرام.

قالوا: وقوله: أنت عليّ حرام، إما أن يُريد به إنشاء تحريمها، أو الإخبار عنها بأنها حرام، وإنشاء تحريمها محال، فإنه ليس إليه، إنما هو إلى من أحلَّ الحلال، وحَرَّمَ الحرام، وشرع الأحكام، وإن أراد الإخبار، فهو كذب، فهو إما خبرٌ كاذب، أو إنشاء باطل، وكلاهما لغو من القول.

قالوا: ونظرنا فيهما سوى هذا القول، فرأيناها أقوالاً مضطربة متعارضة يردُّ بعضها بعضاً، فلم يحرم الزوجة شيء منها بغير برهان من الله ورسوله، فنكون قد ارتكبنا أمرين: تحريمها على الأول، وإحلالها لغيره، والأصل بقاء النكاح حتى تُجمع الأمة، أو يأتي برهان من الله ورسوله على زواله، فيتعين القول به، فهذا حجة هذا الفريق.

فصل

(حجج من قال بأنها ثلاث)

وأما من قال: إنه ثلاث بكل حال، إن ثبت هذا عنه، فيحتجُّ له بأن التحريم جُعِلَ كناية في الطلاق، وأعلى أنواعه تحريمُ الثلاث، فيُحمل على أعلى أنواعه احتياطاً للأبضاع.

وأيضاً فإننا تيقننا التحريمَ بذلك، وشككنا: هل هو تحريمٌ تُزيله الكفارة كالظهار، أو يُزيله تجديد العقد كالخلع، أو لا يُزيله إلا زوج وإصابة كتحريم الثلاث؟ وهذا متيقن، وما دونه مشكوك فيه، فلا يحلُّ بالشك.

قالوا: ولأن الصحابة أفتوا في الخلية والبرية بأنها ثلاث. قال أحمد: هو عن علي وابن عمر صحيح، ومعلوم أن غاية الخلية والبرية أن تصير إلى

المذهب الحادي عشر: أنها حرمت عليه بذلك فقط، ولم يذكر هؤلاء ظهاراً ولا طلاقاً ولا يميناً، بل ألزموه موجب تحريمه. قال ابن حزم: صح هذا عن علي بن أبي طالب، ورجال من الصحابة لم يُسمُوا، وعن أبي هريرة، وصح عن الحسن، وإخلاس بن عمرو، وجابر بن زيد، وقتادة، أنهم أمروه باجتنابها فقط.

(المذهب الثاني عشر)

المذهب الثاني عشر: التوقف في ذلك لا يُحرِّمها المفتي على الزوج، ولا يحلُّها له، كما رواه الشعبي عن علي أنه قال: ما أنا بمحلها ولا محرِّمها عليك، إن شئت فتقدَّم، وإن شئت فتأخر.

(المذهب الثالث عشر)

المذهب الثالث عشر: الرقُّ بين أن يُوقع التحريم منجزاً أو معلقاً تعليقاً مقصوداً، وبين أن يُخرجه مخرجَ اليمين، فالأول: ظاهر بكل حال ولو نوى به الطلاق، ولو وصله بقوله: أعني به الطلاق. والثاني: يمين يلزمه به كفارة يمين، فإذا قال: أنت عليّ حرام، أو إذا دخل رمضان، فأنيت عليّ حرام، فظهار، وإذا قال: إن سافرت، أو إن أكلت هذا الطعام أو كلمت فلاناً، فامرأتي عليّ حرام، فيمين مكفرة، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، فهذه أصول المذاهب في هذه المسألة، وتفرُّع إلى أكثر من عشرين مذهباً.

فصل

(حجج من قال بأن التحريم لغو)

فأما من قال: التحريمُ كُلُّه لغو لا شيء فيه، فاحتجُّوا بأن الله سبحانه لم يجعل للعبد تحريماً ولا تحليلاً، وإنما جعل له تعاطي الأسباب التي تجلُّ بها العين وتحرِّم، كالطلاق والنكاح، والبيع والعق، وأما مجرد قوله: حرَّمت كذا وهو عليّ حرام، فليس إليه. قال تعالى: «وَلَا تَقُولُوا لِمَا صِفَتْ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذْبَ. هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَقُولُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ» [النحل: ١١٦]، وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ» [التحریم: ١] فإذا كان سبحانه لم يجعل لرسوله أن

التحريم، فإذا صرَّحَ بالغاية، فهي أولى أن تكون ثلاثاً، ولأن المحرم لا يسبق إلى وهمه تحريم امرأته بدون الثلاث، فكان هذا اللفظ صار حقيقة عرفية في إيقاع الثلاث.

وأيضاً فالواحدة لا تحرم إلا بعوض، أو قبل الدخول، أو عند تقييدها بكونها بائنة عند من يراه، فالتحريم بها مقيد، فإذا أطلق التحريم، ولم يقيد، انصرف إلى التحريم المطلق الذي يثبت قبل الدخول أو بعده، وبالعوض وغيره وهو الثلاث.

فصل

(حجج المذهب الثالث)

وأما من جعله ثلاثاً في حق المدخول بها، وواحدة بائنة في حق غيرها، فحجته أن المدخول بها لا يحرمها إلا الثلاث، وغير المدخول بها تحرمها الواحدة، فالزائدة عليها ليست من لوازم التحريم، فأورد على هؤلاء أن المدخول بها يملك الزوج إبانها بواحدة بائنة، فأجابوا بما لا يجدي عليهم شيئاً، وهو أن الإبانة بالواحدة الموصوفة بأنها بائنة إبانة مقيدة، بخلاف التحريم، فإن الإبانة به مطلقة، ولا يكون ذلك إلا بالثلاث، وهذا القدر لا يخصهم من هذا الإلزام، فإن إبانة التحريم أعظم تقييداً من قوله: أنت طالق طلاق بائنة، فإن غاية البائنة أن تحرمها، وهذا قد صرَّح بالتحريم، فهو أولى بالإبانة من قوله: أنت طالق طلاق بائنة.

فصل

(حجج من قال بانها واحدة بائنة)

وأما من جعلها واحدة بائنة في حق المدخول بها وغيرها، فمأخذ هذا القول أنها لا تُفيد عدداً بوضعها، وإنما تقتضي بينونة يحصل بها التحريم، وهو يملك إبانها بعد الدخول بها بواحدة بدون عوض، كما إذا قال: أنت طالق طلاق بائنة، فإن الرجعة حق له، فإذا أسقطها سقطت، ولأنه إذا ملك إبانها بعوض يأخذه منها، ملك الإبانة بدونه، فإنه محسن بتركه، ولأن الجورس مستحق له، لا عليه، فإذا أسقطه وأبانها، فله ذلك.

فصل

(حجج من قال بانها واحدة رجعية)

وأما من قال: إنها واحدة رجعية، فمأخذه أن التحريم يُفيد مطلق انقطاع الملك، وهو يصدق بالمتيقن منه وهو الواحدة، وما زاد عليها، فلا تعرض في اللفظ له، فلا يسوغ إثباته بغير موجب، وإذا أمكن إعمال اللفظ في الواحدة، فقد وفي بموجبه، فالزيادة عليه لا موجب لها. قالوا: وهذا ظاهر جداً على أصل من يجعل الرجعية محرمة، وحينئذ فنقول: التحريم أعم من تحريم رجعية، أو تحريم بائن، فالدال على الأعم لا يدل على الأخص، وإن شئت قلت: الأعم لا يستلزم الأخص، أو ليس الأخص من لوازم الأعم، أو الأعم لا ينتج الأخص.

فصل

(حجج من قال، يسال عن نيته)

وأما من قال: يُسأل عما أراد من ظاهر أو طلاق رجعي، أو محرّم، أو يمين، فيكون ما أراد من ذلك، فمأخذه أن اللفظ لم يوضع لإيقاع الطلاق خاصة، بل هو محتمل للطلاق والظهار والإيلاء، فإذا صُرِفَ إلى بعضها بالنية فقد استعمله فيما هو صالح له، وصرفه إليه بنيته، فينصرف إلى ما أَراده، ولا يتجاوز به ولا يقصُر عنه، وكذلك لو نوى عتق أمته بذلك، عتقت، وكذلك لو نوى الإيلاء من الزوجة، واليمين من الأمة، لزمه ما نواه، قالوا: وأما إذا نوى تحريم عينها، لزمه بنفس اللفظ كفارة يمين اتباعاً لظاهر القرآن، وحديث ابن عباس الذي رواه مسلم في «صحيحه»: إذا حَرَّمَ الرجلُ امرأته فهي يمين يكفرها، وتـسـلـا: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ» [الأحزاب: ٢١] [مسلم: ٣٦٧٦]، وهذا يُشبه ما قاله مجاهد في الظهار: إنه يلزمه بمجرد التكلم به كفارة الظهار، وهو في الحقيقة قول الشافعي رحمه الله، فإنه يُوجب الكفارة إذا لم يُطلق عقيبه على الفور. قالوا: ولأن اللفظ يحتمل الإنشاء والإخبار، فإن أراد الإخبار، فقد استعمله فيما هو صالح له، فيقبل منه، وإن أراد الإنشاء سئل عن السبب الذي حرّمها به،

فإن قال: أردت ثلاثاً أو واحدة، أو اثنتين، قُبِلَ منه لصلاحيّة اللفظ له واقتراحه بنية، وإن نوى الظهار، كان كذلك، لأنه صرّح بموجب الظهار، لأن قوله: **أَنْتِ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي** موجب التحريم، فإذا نوى ذلك بلفظ التحريم، كان ظهاراً، واحتماله للطلاق بالنية لا يزيد على احتماله للظهار بها، وإن أراد تحريمها مطلقاً، فهو يمين مكفرة، لأنه امتناع منها بالتحريم، فهو كامتناعها باليمين.

فصل

(حجج من قال: بانه ظهار إلا أن ينوي به طلاقاً)

وأما من قال: إنه ظهار إلا أن ينوي به طلاقاً، فمأخذ قوله: أن اللفظ موضوع للتحريم، فهو منكرو من القول وزور، فإن العبد ليس إليه التحريم والتحليل، وإنما إليه إنشاء الأسباب التي يرتب عليها ذلك، فإذا حرّم ما أحل الله له، فقد قال المُنْكَر والزُّور، فيكون كقوله: **أَنْتِ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي**، بل هذا أولى أن يكون ظهاراً، لأنه إذا شبهها بمن تحرم عليه، دل على التحريم باللزوم، فإذا صرّح بتحريمها، فقد صرح بموجب التشبيه في لفظ الظهار، فهو أولى أن يكون ظهاراً. قالوا: وإنما جعلناه طلاقاً بالنية، فصرّفناه إليه بها، لأنه يصلح كناية في الطلاق، فينصرف إليه بالنية بخلاف إطلاقه، فإنه ينصرف إلى الظهار، فإذا نوى به اليمين، كان يميناً، إذ من أصل أرباب هذا القول أن تحريم الطعام ونحوه، يمين مكفرة، فإذا نوى بتحريم الزوجة اليمين، نوى ما يصلح له اللفظ، فقبِلَ منه.

فصل

(حجج من قال: بانه ظهار)

وأما من قال: إنه ظهار وإن نوى به الطلاق، أو وصله بقوله: أعني به الطلاق، فمأخذ قوله ما ذكرنا من تقرير كونه ظهاراً، ولا يخرج عن كونه ظهاراً بنية الطلاق، كما لو قال: **أَنْتِ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي** ونوى به الطلاق، أو قال: أعني به الطلاق، فإنه لا يخرج بذلك عن الظهار، ويصير طلاقاً عند الأكثرين إلا على قول شاذ لا يلتفت إليه لموافقة ما كان الأمر عليه في الجاهلية من جعل الظهار طلاقاً، ونسخ

الإسلام لذلك، وإبطاله، فإذا نوى به الطلاق، فقد نوى ما أبطله الله ورسوله مما كان عليه أهل الجاهلية عند إطلاق لفظ الظهار طلاقاً، وقد نوى ما لا يحتمله شرعاً، فلا تؤثر نيته في تغيير ما استقر عليه حكم الله الذي حكم به بين عباده، ثم جرى أحمد وأصحابه على أصله من التسوية بين إيقاع ذلك، والحلف به كالطلاق والعتاق، وفرّق شيخ الإسلام بين البابين على أصله في التفريق بين الإيقاع والحلف، كما فرّق الشافعي وأحمد رحمهما الله، ومن وافقهما بين البابين في النذر بين أن يحلف به، فيكون يميناً مكفرة، وبين أن ينجزه أو يعلّقه بشرط يقصد وقوعه، فيكون نذراً لازم الوفاء كما سيأتي تقريره في الأيمان إن شاء الله تعالى. قال: فليزعمهم على هذا أن يفرقوا بين إنشاء التحريم، وبين الحلف، فيكون في الحلف به حالفاً يلزمه كفارة يمين، وفي تنجزه أو تعليقه بشرط مقصود مظاهراً يلزمه كفارة الظهار، وهذا مقتضى المنقول عن ابن عباس رضي الله عنهما، فإنه مرّةً جعله ظهاراً ومرّةً جعله يميناً.

فصل

(حجج من قال بانه يمين مكفرة بكل حال)

وأما من قال: إنه يمين مكفرة بكل حال، فمأخذ قوله: أن تحريم الحلال من الطعام والشراب واللباس يمين تكفر بالنص، والمعنى، وأثار الصحابة، فإن الله سبحانه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا مَا حَلَ اللَّهُ لَكُم مِّنْ بَنِي مَرْثَاتٍ زَوْجِكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢٤١﴾ قد قرئ **اللَّهُ لَكُمْ حَلَالَةٌ آمَنِيكُمْ** [التحریم: ٢٤١]، ولا بد أن يكون تحريم الحلال داخلاً تحت هذا الفرض، لأنه سببه، وتخصيص محل السبب من جملة العام ممتنع قطعاً، إذ هو المقصود بالبيان أولاً، فلو حصّس لخلا سبب الحكم عن البيان، وهو ممتنع، وهذا الاستدلال في غاية القوة، فسألت عنه شيخ الإسلام رحمه الله تعالى، فقال: نعم التحريم يمين تكبرى في الزوجة كفارتها كفارة الظهار، ويمين صغرى فيما عداها كفارتها كفارة اليمين بالله. قال: وهذا معنى قول ابن عباس وغيره من الصحابة ومن بعدهم، إن التحريم يمين تكفر، فهذا تحرير المذاهب في هذه المسألة نقلاً، وتقريباً استدلالاً، ولا يخفى - على من أثر

العلم والإنصاف، وجانب التعصب ونصرة ما بني عليه من الأقوال - الراجع من المرجوح، وبالله المستعان.

فصل

(الاختلاف في تحريم غير الزوجة)

وقد تبين بما ذكرنا، أن من حُرِّم شيئاً غير الزوجة من الطعام والشراب واللباس، أو أمته لم يَحْرُم عليه بذلك، وعليه كفارة يمين، وفي هذا خلاف في ثلاثة مواضع.

(قول أبي حنيفة بأنه يحرم تحريماً مقيداً تنزيه الكفارة)

أحدها: أنه لا يحرم، وهذا قول الجمهور، وقال أبو حنيفة: يحرم تحريماً مقيداً تنزيه الكفارة، كما إذا ظاهراً من امراته، فإنه لا يَحِلُّ له وطؤها حتى يَكْفُرَ، ولأن الله سبحانه سَمَّى الكفارة في ذلك تَجَلَّةً، وهي ما يُوجب الجَلَّ، فدلَّ على ثبوت التحريم قبلها، ولأنه سبحانه قال لنبيه ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّم مَّا أَمَلَ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحریم: ١]، ولأنه تحريم لما أبيع له، فيحرم بتحريمه كما لو حُرِّم زوجته.

(رد من قال بأنه لا يحرم)

ومنازعوه يقولون: إنما سُميت الكفارة تَجَلَّةً من الحَلِّ الذي هو ضدُّ العقيد لا من الجَلِّ الذي هو مقابل التحريم، فهي تَحُلُّ اليمين بعد عقدها، وأما قوله: ﴿لَا تُحَرِّم مَّا أَمَلَ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحریم: ١]، فالمراد تحريم الأمة أو العسل، ومنع نفسه منه، وذلك يُسمى تحريماً، فهو تحريم بالقول، لا إثبات للتحريم شرعاً.

وأما قياسه على تحريم الزوجة بالظهار، أو بقوله: أنت علي حرام، فلو صَحَّ هذا القياس، لوجب تقديم التكفير على الحنث قياساً على الظهار، إذ كان في معناه، وعندهم لا يجوزُ التكفيرُ إلا بعد الحنث، فعلى قولهم: يلزم أحد أمرين، ولا بد إما أن يفعله حراماً وقد فرض الله تَجَلَّةَ اليمين، فيلزم كون المحرم مفروضاً، أو من ضرورة المفروض، لأنه لا يَصِلُ إلى التَجَلَّةِ إلا بفعل المحلوف عليه، أو أنه لا سبيلَ له إلى فعله حلالاً، لأنه لا يجوز تقديم الكفارة، فيستفيد بها الحل، وإقدامه عليه وهو حرامٌ ممتنع، هذا ما قيل في المسألة من الجانبين.

وبعد، فلها غور، وفيها دقة وغموض، فإن من حُرِّم شيئاً، فهو بمنزلة من حَلَفَ بالله على تركه، ولو حلف على تركه، لم يَجَزْ له هتْكُ حرمة المحلوف به بفعله إلا بالتزام الكفارة، فإذا التزمها، جاز له الإقدام على فعل المحلوف عليه، فلو عزم على ترك الكفارة، فإن الشارع لا يُبيح له الإقدام على فعل ما حلف عليه، ويأذن له فيه، وإنما يأذن له فيه ويبيحه إذا التزم ما فرض الله من الكفارة، فيكون إذنه له فيه، وإباحته بعد امتناعه منه بالحلف أو التحريم رُخْصَةً من الله له، ونعمة منه عليه بسبب التزامه لحكمه الذي فرض له من الكفارة، فإذا لم يلتزمه بقي المنع الذي عقده على نفسه إصراراً عليه، فإن الله إنما رفع الأصار عمن اتقاه، والتزم حكمه، وقد كانت اليمين في شرع من قبلنا يتحتم الوفاء بها، ولا يجوز الحنث، فوسَّع الله على هذه الأمة، وجوَّز لها الحنث بشرط الكفارة، فإذا لم يَكْفُرْ لا قبل ولا بعد لم يُوسَّع له في الحنث، فهذا معنى قوله: إنه يحرم حتى يَكْفُرَ.

وليس هذا من مفردات أبي حنيفة، بل هو أحد القولين في مذهب أحمد يوضحه: أن هذا التحريم والحلف قد تعلَّق به نعان: منع من نفسه لفعله، ومنع من الشارع للحنث بدون الكفارة، فلو لم يُحرِّمه تحريمه أو يمينه، لم يكن لمنعه نفسه، ولا لمنع الشارع له أثر، بل كان غاية الأمر أن الشارع أوجب في ذمته بهذا المنع صدقة أو عتقاً أو صوماً لا يتوقَّف عليه حلُّ المحلوف عليه ولا تحريمه البتة، بل هو قبل المنع ويعده على السواء من غير فرق، فلا يكون للكفارة أثر البتة، لا في المنع منه، ولا في الإذن، وهذا لا يخفى فساده.

وأما إلزامه بالإقدام عليه مع تحريمه حيث لا يجوز تقديم الكفارة، فجوابه أنه إنما يجوز له الإقدام عند عزمه على التكفير، فعزمه على التكفير منع من بقاء تحريمه عليه، وإنما يكون التحريم ثابتاً إذا لم يلتزم الكفارة، ومع التزامها لا يستمر التحريم.

فصل

(كفارة التحريم)

الثاني: أنه يلزمه كفارة بالتحريم، وهو بمنزلة اليمين، وهذا قول من سميناه من الصحابة، وقول

بتحريم الحلال، وهو أعم من تحريم الأمة وغيرها، فتجب الكفارة حيث وجد سببها، وقد تقدم تقريره.

حكم رسول الله ﷺ في قول الرجل لامرأته: الحقي بأهلك

ثبت في «صحيح البخاري»: أن ابنة الجوز لما دخلت على رسول الله ﷺ، ودنا منها قالت: أعوذ بالله منك، فقال: «عُذْتُ بِعَظِيمِ الْحَقِّي بِأَهْلِكَ» [البخاري: ٥٢٥٤].

وثبت في «الصحيحين»: أن كعب بن مالك رضي الله عنه لما أتاه رسول الله ﷺ، يأتريه أن يعتزل امرأته، قال لها: الحقي بأهلك [البخاري: ٤٦٧٨، ومسلم: ٧٠١٦].

(من قال ليس بطلاق نواه أو لم ينوه)

فاختلف الناس في هذا، فقالت طائفة: ليس هذا بطلاق، ولا يقع به الطلاق نواه أو لم ينوه، وهذا قول أهل الظاهر. قالوا: والنبي ﷺ لم يكن عقد على ابنة الجوز، وإنما أرسل إليها ليخطبها. قالوا: ويدل على ذلك ما في «صحيح البخاري»: من حديث حمزة بن أبي أسيد، عن أبيه، أنه كان مع رسول الله ﷺ وقد أتته بالجوزية، فأنزلت في بيت أميمة بنت النعمان بن شراحيل في نخل ومعهما دابتهما، فدخل عليها رسول الله ﷺ، فقال: «هَبِي لِي نَفْسِكَ»، فقالت: «وَهَلْ تَهَبُ الْمَلِكَةَ نَفْسَهَا لِلشُّوْقَةِ، فَأَهْوَى لِيَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا لِيَسْكُنَ»، فقالت: أعوذ بالله منك، فقال: «قَدْ عُذْتُ بِعَمَّادَةٍ»، ثم خرَّج فقال: «يَا أَبَا أُسَيْدٍ اكْسُهَا رَازِقَتَيْنِ وَالْحِقْهَا بِأَهْلِهَا» [البخاري: ٥٢٥٥].

وفي «صحيح مسلم»: عن سهل بن سعد، قال: ذُكِرَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ امْرَأَةٌ مِنَ الْعَرَبِ، فَأَمَرَ أَبَا أُسَيْدٍ أَنْ يُرْسِلَ إِلَيْهَا، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا، فَقَدِمَتْ، فَتَزَلَّتْ فِي أَجْمِ بَنِي سَاعِدَةَ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى جَاءَهَا دَخَلَ عَلَيْهَا، فَإِذَا امْرَأَةٌ مَتَكِّسَةٌ رَأْسَهَا، فَلَمَّا كَلِمَهَا، قَالَتْ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ»، قَالَ: «قَدْ أَعَذْتُكَ مِنِّي»، فَقَالُوا لَهَا: «أَنْتَدِرِينَ مَنْ هَذَا؟» قَالَتْ: لَا، قَالُوا: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَاءَكَ لِيُخْطَبَكَ، قَالَتْ: أَنَا كُنْتُ أَشْقَى مِنْ ذَلِكَ [مسلم: ٥٢٣٦].

فقهاء الرأي والحديث إلا الشافعي ومالكاً، فإنهما قالا: لا كفارة عليه بذلك.

والذين أوجبوا الكفارة أسعد بالنص من الذين أسقطوها، فإن الله سبحانه ذكر تحلة الأيمان عقب قوله: ﴿لَا تَحْرِمُوا مَا مَلَكَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [التحریم: ١]، وهذا صريح في أن تحريم الحلال قد فرض فيه تحلة الأيمان، إما مختصاً به، وإما شاملاً له ولغيره، فلا يجوز أن يخلى سبب الكفارة المذكورة في السياق عن حكم الكفارة، ويُعلّق بغيره، وهذا ظاهر الامتناع.

وأيضاً فإن المنع من فعله بالتحريم كالمنع منه باليمين، بل أقوى، فإن اليمين، إن تضمنت منك حُرمة اسمه سبحانه، فالتحريم تضمنت منك حُرمة شرعه وأمره، فإنه إذا شرع الشيء حلالاً فحرّمه المكلف، كان تحريمه منكاً لحُرمة ما شرعه، ونحن نقول: لم يتضمن الجنت في اليمين منك حُرمة الاسم، ولا التحريم منك حُرمة الشرع، كما يقوله من يقول من الفقهاء، وهو تعليل فاسد جداً، فإن الجنت إما جائز، وإما واجب أو مستحب، وما جوز الله لأحد البتة، يَهْنِك حُرمة اسمه، وقد شرع لعباده الجنت مع الكفارة، وأخبر النبي ﷺ أنه إذا حلف على يمين ورأى غيرها خيراً كفر عن يمينه، وأتى بالمحلوب عليه، ومعلوم أن منك حُرمة اسمه تبارك وتعالى لم يُح في شريعة قط، وإنما الكفارة، كما سماها الله تعالى تحلة وهي تفعله من الحل، فهي تحل ما عقد به اليمين ليس إلا، وهذا العقد كما يكون باليمين يكون بالتحريم، وظهر مير قوله تعالى: ﴿قَدْ فُضَّ اللَّهُ لَكُمْ حِلَّةٌ أَيْمَنِيكُمْ﴾ [التحریم: ٢] عقيب قوله: ﴿لَا تَحْرِمُوا مَا مَلَكَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [التحریم: ١].

فصل

(الحكم في تحريم الأمة)

الثالث: أنه لا فرق بين التحريم في غير الزوجة بين الأمة وغيرها عند الجمهور إلا الشافعي وحده، أوجب في تحريم الأمة خاصة كفارة يمين، إذ التحريم له تأثير في الإيضاع عنده دون غيرها.

وأيضاً فإن سبب نزول الآية تحريم الجارية، فلا يخرج محل السبب عن الحكم، ويتعلّق بغيره، ومنازعه يقولون: النص علق فرض تحلة اليمين

قالوا: وهذه كلها أخبارٌ عن قصة واحدة، في امرأة واحدة، في مقام واحد، وهي صريحة أن رسول الله ﷺ لم يكن تزوجها بعد، وإنما دخل عليها ليخطبها.

(من قال يقع إن نواه)

وقال الجمهور - منهم الأئمة الأربعة وغيرهم -: بل هذا من ألفاظ الطلاق إذا نوى به الطلاق، وقد ثبت في «صحيح البخاري»: أن أبا ناسٍ إسماعيل بن إبراهيم طلق به امرأته لما قال لها إبراهيم: «مُريه فليُغَيَّرَ عَتَبَةٌ بِإِيه»، فقال لها: أنتِ العتبة، وقد أمرني أن أفارقكِ، الحقني بأهلك [البخاري: ٣٣٦٥]. وحديث عائشة كالصريح، في أنه ﷺ كان عَقَدَ عليها، فإنها قالت: لما أدخلت عليه، فهذا دخول الزوج بأهله، ويؤكد قولها: ودنا منها.

وأما حديث أبي أسيد، فغاية ما فيه قوله: «هي لي نفسكِ»، وهذا لا يدل على أنه لم يقدم نكاحه لها، وجاز أن يكون هذا استدعاءً منه ﷺ للدخول لا للعقد.

وأما حديث سهل بن سعد، فهو أصرحها في أنه لم يكن وُجِدَ عقد، فإن فيه أنه ﷺ لما جاء إليها قالوا: هذا رسول الله جاء ليخطبك، والظاهر أنها هي الجونية، لأن سهلاً قال في حديثه: فأمر أبا أسيد أن يُرْسِلَ إليها، فأرسل إليها. فالقصة واحدة دارت على عائشة رضي الله عنها وأبي أسيد وسهل، وكلُّ منهم رواها، والألفاظُ فيها متقاربة، ويبقى التعارض بين قوله: جاء ليخطبك، وبين قوله: فلما دخل عليها، ودنا منها: فإما أن يكون أحد اللفظين وهمًا، أو الدخول ليس دخول الرجل على امرأته، بل الدخول العام، وهذا محتمل.

وحديث ابن عباس رضي الله عنهما في قصة إسماعيل صريح، ولم يزل هذا اللفظ من الألفاظ التي يُطلق بها في الجاهلية والإسلام، ولم يغيره النبي، بل أقرهم عليه، وقد أوقع أصحاب رسول الله ﷺ الطلاق وهم القدوة: بأنَّ حرام، وأمرك بيدك، واختاري، وهبتك لأهلك، وأنت خلية وقد خلوت مني، وأنت برة وقد أبرأتك، وأنت مبرأة، وحبلك على غاربك، وأنت الحرج. فقال

علي وابن عمر: الخلية ثلاث، وقال عمر: واحدة، وهو أحقُّ بها، وفُرق معاوية بين رجل وامرأة قال لها: إن خرجت فأنت خلية، وقال علي وابن عمر رضي الله عنهما، وزيد في البرية: إنها ثلاث. وقال عمر رضي الله عنه: هي واحدة وهو أحقُّ بها، وقال علي في الحرج: هي ثلاث، وقال عمر: واحدة، وقد تقدم ذكر أقوالهم في أمرك بيدك، وأنت حرام.

والله سبحانه ذكر الطلاق ولم يُعين له لفظاً، فعلم أنه ردُّ الناس إلى ما يتعارفونه طلاقاً، فأَيُّ لفظ جرى عرفهم به، وقع به الطلاق مع النية.

والألفاظ لا تُراد لعينها، بل للدلالة على مقاصد لانفها، فإذا تكلم بلفظ دال على معنى، وقصد به ذلك المعنى، ترتب عليه حكمه، ولهذا يقع الطلاق من العجمي والتركي والهندي بالستهم، بل لو طلق أحدهم بصريح الطلاق بالعربية ولم يفهم معناه، لم يقع به شيء قطعاً، فإنه تكلم بما لا يفهم معناه ولا قصده، وقد دل حديث كعب بن مالك على أن الطلاق لا يقع بهذا اللفظ وأمثاله إلا بالنية.

(ترجيح المصنف بان)

جميع الألفاظ صريحا وكنائيا لا تقع إلا بالنية)

والصواب أن ذلك جارٍ في سائر الألفاظ صريحها وكنائيتها، ولا فرق بين ألفاظ العتق والطلاق، فلو قال: غلامي غلامٌ حرٌّ لا يأتي الفواحش، أو أمتي أمةٌ حرة لا تبغي الفجور، ولم يخطر بباله العتق ولا نواه، لم يعتق بذلك قطعاً، وكذلك لو كانت معه امرأته في طريق فافترقا، فقيل له: أين امرأتك؟ فقال: فارقتها، أو سرح شعرها وقال: سرحتها ولم يُرد طلاقاً، لم تطلق. كذلك إذا ضربها الطلق، وقال لغيره إخباراً عنها بذلك: إنها طالق، لم تطلق بذلك، وكذلك إذا كانت المرأة في وثاق فأطلقت منه، فقال لها: أنت طالق، وأراد من الوثاق. هذا كله مذهب مالك وأحمد في بعض هذه الصور، وبعضها نظير ما نص عليه، ولا يقع الطلاق به حتى ينويه، ويأتي بلفظ دال عليه، فلو انفرد أحد الأمرين عن الآخر، لم يقع الطلاق، ولا العتاق، وتقسم الألفاظ إلى صريح وكناية وإن كان تقسيماً صحيحاً في أصل الوضع، لكن يختلف باختلاف الأشخاص والأزمنة

الصامت ظاهر من زوجته خولة بنت مالك بن ثعلبة، وهي التي جادلت فيه رسول الله ﷺ واشتكت إلى الله، وسمع الله شكواها من فوق سبع سماوات، فقالت: يا رسول الله! إن أوس بن الصامت تزوجني وأنا شابة مرغوب في، فلما خلا سني، ونثرت له بطني، جعلني كأمه عنده، فقال لها رسول الله ﷺ: **مَا عِنْدِي فِي أَمْرِكَ شَيْءٌ**، فقالت: اللهم إني أشكو إليك ^(١) [ابن ماجه: ٢٠٦٣، والحاكم (٢/ ٤٨١)، والبيهقي (٧/ ٣٨٢)].

وَرَوَى أَنهَا قَالَتْ: إِنَّ لِي صَبِيَّةً صَغِيرًا إِنَّ ضَمُّهُمْ إِلَيْهِ ضَاعُوا، وَإِنْ ضَمَمْتُهُمْ إِلَيَّ جَاعُوا، فَتَزَلَّ الْقُرْآنُ. وَقَالَتْ عَائِشَةُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسَّعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتْ خَوْلَةُ بَنْتُ ثَعْلَبَةَ تَشْكُو إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا فِي كَيْسْرِ الْبَيْتِ يَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُ كَلَامِهَا، فَاذَلَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (قَدْ وَسَّعَ اللَّهُ قَوْلَ أَلْفِي مُجْدَلُكَ فِي زَيْجِهَا وَتَشْكِيكِ إِلَيَّ أَفَوَ اللَّهِ وَسَّعَ تَحَاوُرُكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَعِيرٌ) [المجادلة: ١] [علق بعضه البخاري بعد حديث: ٧٣٨٦]. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لِيُعْتَنَى رَقَبَةٌ»، قَالَتْ: لَا يَجِدُ، قَالَ: «فَيَصُومُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ»، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّهُ شَيْخٌ كَبِيرٌ مَا يَوْمُ مِنْ صِيَامٍ، قَالَ: «فَلْيُطْعِمَ يَتِيمَيْنِ وَمَسْكِينًا»، قَالَتْ: مَا عِنْدَهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَصَدَّقُ بِهِ، قَالَتْ: «فَأَنْتِي سَاعِثَتُهُ بِعَرَقِي مِنْ تَمَرٍ»، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنِّي أَعِينُهُ بِعَرَقِي آخَرَ، قَالَ: «أَحْسَنْتِ فَأَطْعِمِي عَنْهُ يَتِيمَيْنِ وَمَسْكِينًا وَارْجِعِي إِلَى ابْنِ عَمَلِكٍ» [ابو داود: ٢٢١٤، وابن حبان: ١٣٣٤، والبيهقي (٧)].

وفي «السنن»: أن سلمة بن صخر الياضي ظاهر من امرأته مدة شهر رمضان، ثم واقعها ليلة قبل انسلخه، فقال له النبي ﷺ: «أَنْتَ بِذَاكَ يَا سَلَمَةَ»، قال: قلت: أنا بِذَاكَ يا رسول الله مرتين وأنا صابر لأمر الله، فاحكمم في بما أراك الله، قال: «حَرِّزْ رَقَبَةً»، قلتُ: والذي بعثك بالحق نبياً ما أملك رقبة غيرها، وضربت صفحة رقبتى، قال: «فَصُمْ شَهْرَيْنِ مُتَابِعَيْنِ»، قال: وهل أصبت الذي أصبت إلا في الصيام، قال: «فاطعم، وسقاً من تمر بين سِتَيْنِ

والأمكنة، فليس حكماً ثابتاً للفظ لذاته، فربّ لفظ صريح، عند قوم كناية عند آخرين، أو صريح في زمان أو مكان كناية في غير ذلك الزمان والمكان، والواقع شاهد بذلك، فهذا لفظ السراح لا يكاد أحد يستعمله في الطلاق لا صريحاً ولا كناية، فلا يسوغ أن يقال: إن من تكلم به، لزمه طلاقُ امرأته نواه أو لم ينوه، ويدّعي أنه ثبت له عُرف الشرع والاستعمال، فإن هذه دعوة باطلة شرعاً واستعمالاً، أما الاستعمال، فلا يكاد أحد يطلق به البتة، وأما الشرع، فقد استعمله في غير الطلاق، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدْوٍ مَعْدُونَةٍ فَيَمْسُوهُنَّ وَيَسْرِيوهُنَّ سِرّاً بَيْتاً﴾ [الأحزاب: ٤٩]، فهذا السراح غير الطلاق قطعاً، وكذلك الفراق استعمله الشرع في غير الطلاق، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَقْتُمُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١] إلى قوله: ﴿فَمَا بَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَسْكِنُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢] فالإمساك هنا: الرجعة، والمفارقة: ترك الرجعة لا إنشاء طلاق ثانية، هذا مما لا خلاف فيه البتة، فلا يجوز أن يقال: إن من تكلم به طلق زوجته، فهم معناه أو لم يفهم، وكلاهما في البطلان سواء، وبالله التوفيق.

حُكْمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الظَّهَارِ وَبَيَانُ
مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِيهِ، وَمَعْنَى الْعَوْدِ
الْمَوْجِبِ لِلْكَفَّارَةِ

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُلْقُونَ مِنْكُمْ فِي سَبِيلِهِمَا مَائًا مِنْ
أَنْهَارِهِمْ إِنْ لَمْ تُؤْمَرْ بِهِمْ لَآ آفَ وَلَآ نَذْرٌ إِنَّهُمْ يُلْقُونَ مِنْكُمْ
مِنْ الْقُلُوبِ وَنَدًّا وَلَئِنَّ اللَّهَ لَمَعْلُومٌ عَوْدٌ ۝ وَالَّذِينَ يُلْقُونَ مِنْ
سَبِيلِهِمْ ثُمَّ يَبْهُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْمِلُهُ رِقَابُهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَنَاسَّ
فَلِذَلِكَ تُشَفَّوْنَ بِهِ ۝ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ
فَعِيَامَ شُرَكَائِهِمْ فَتُحْلِقُونَ قَبْلِ أَنْ يَتَنَاسَّ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ
فَلِطَعَامٍ سِتِينَ مِثْقَالًا ذَلِكَ لِإِثْمِهِمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ عَلِيمٌ
أَلَدُّ الْآفِكِ وَالْكَاثِبِينَ عَذَابُ اللَّهِ ۝﴾ [المجادلة: ٢-٤].

ثبت في «السنن» و«المسانيد»: أن أوس بن

(١) وقولها: نثرت له بطني، أي: أكثر له الأولاد، تريد أنها كانت تلد الأولاد عنده، يقال: امرأة تنور: كثيرة الأولاد.

مُسْكِينًا» قلت: والذي بعثك بالحق لقد بَشَّنا وَحَشَيْنَ ما لنا طَعَام، قال: «فَانْطَلِقْ إِلَى صَاحِبِ صَدَقَةِ بَنِي زُرَيْقٍ فَلْيَذِقْهَا إِلَيْكَ فَأَطْلِعْهُمْ سِتِينَ مِسْكِينًا وَسَقًا مِنْ تَمَرٍ وَكُلْ أَنْتَ وَعِيَالُكَ بِقِيَّتِهَا». قال: فَرُحْتُ إِلَى قَوْمِي، فَقُلْتُ: وجدت عندكم الضيقَ وسوء الرأي، ووجدت عند رسول الله ﷺ السَّعةَ وَحُسْنَ الرَّأْيِ، وقد أمر لي بصدَقَتِكُمْ [حسن: أحمد: ٢٣٧٠٠، وأبو داود: ٢٢١٣، والترمذي: ٣٢٩٥، وابن ماجه: ٢٠٦٢].

وفي «جامع الترمذي» عن ابن عباس، أن رجلاً أتى النبي ﷺ قد ظاهَر من امرأته فوقع عليها، فقال: يا رسول الله إني ظاهرتُ من امرأتي، فوقعْتُ عليها قَبْلَ أَنْ أَكْفُرَ، قال: «وَمَا حَمَلُكَ عَلَى ذَلِكَ يَرْحَمُكَ اللَّهُ؟» قال: رَأَيْتُ خَلْعًا لَهَا فِي ضَوْءِ الْقَمَرِ، قال: «فَلَا تَقْرُبْهَا حَتَّى تَفْعَلَ مَا أَمَرَكَ اللَّهُ» قال: هذا حديث حسن غريب صحيح [أبو داود: ٢٢٢٣، والترمذي: ١١٩٩، والنسائي (١٦٧/٦)].

وفيه أيضاً: عن سلمة بن صخر، عن النبي ﷺ، في المظاهر يُواقِعُ قبل أن يُكْفِرَ، فقال: «كَفَّارَةٌ وَاحِدَةٌ» [الترمذي: ١١٩٨، وابن ماجه: ٢٠٦٤]. وقال: حسن غريب، انتهى، وفيه انقطاع بين سليمان بن يسار، وسلمة بن صخر.

وفي «مسند الزبار»، عن إسماعيل بن مسلم، عن عمرو بن دينار، عن طاوس، عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: أتى رجل إلى النبي ﷺ، فقال: إني ظاهرتُ من امرأتي، ثم وقعتُ عليها قبل أن أكفر، فقال رسول الله ﷺ: «ألم يقل الله: ﴿وَبَيْنَ قَبْلَ أَنْ يَبْشَأَنَّ﴾؟» فقال: أعجبتني، فقال: «أَمْسِكْ عنها حَتَّى تُكْفِرَ» [البيهقي (٣٨٦/٧)] قال الزبار: لا نعلمه يروى بإسناد أحسن من هذا، على أن إسماعيل بن مسلم قد تكلم فيه، وروى عنه جماعة كثيرة من أهل العلم.

فتضمنت هذه الأحكام أموراً.

(إبطال ما كان عليه أهل)

الجاهلية من كون الظهار طلاقاً وكذلك إن نوى به الطلاق) أحدها: إبطال ما كانوا عليه في الجاهلية، وفي صدر الإسلام من كون الظهار طلاقاً، ولو صرح بنيته له، فقال: أنت علي كظهر أمي، أعني به الطلاق، لم

يكن طلاقاً وكان ظهاراً، وهذا بالاتفاق إلا ما عساه من خلاف شاذ، وقد نصَّ عليه أحمد والشافعي وغيرهما. قال الشافعي: ولو ظاهر يُريد طلاقاً، كان ظهاراً، أو طلق يُريد ظهاراً كان طلاقاً، هذا لفظه، فلا يجوز أن يُنسب إلى مذهبه خلافُ هذا، ونص أحمد: على أنه إذا قال: أنت علي كظهر أمي أعني به الطلاق أنه ظهار، ولا تطلق به، وهذا لأن الظهار كان طلاقاً في الجاهلية، فنسخ، فلم يجز أن يُعاد إلى الحكم المنسوخ.

وأيضاً فأوس بن الصامت إنما نوى به الطلاق على ما كان عليه، وأجرى عليه حكم الظهار دون الطلاق. وأيضاً فإنه صريح في حكمه، فلم يجز جعله كناية في الحكم الذي أبطله عز وجل بشعره، وقضاء الله أحق، وحكم الله أوجب.

(حرمة الظهار)

ومنها أن الظهار حرام لا يجوز الإقدام عليه لأنه كما أخبر الله عنه منكر من القول وزور، وكلاهما حرام، والفرق بين جهة كونه منكراً وجهه كونه زوراً أن قوله: أنت علي كظهر أمي يتضمن إخباره عنها بذلك، وإنشاءه تحريمها، فهو يتضمن إخباراً وإنشاءً، فهو خبر زور وإنشاء منكر، فإن الزور هو الباطل خلاف الحق الثابت، والمنكر خلاف المعروف، وختم سبحانه الآية بقوله تعالى: ﴿وَلَيْتَ اللَّهُ لَعَنَ عُفُؤَ﴾ [المجادلة: ٢]. وفيه إشعار بقيام سبب الإثم الذي لولا عُفُو الله ومغفرته لأخذ به.

(لا تجب الكفارة إلا بالعود)

ومنها: أن الكفارة لا تجب بنفس الظهار، وإنما تجب بالعود، وهذا قول الجمهور، وروى الثوري، عن ابن أبي نجيح، عن طاوس قال: إذا تكلم بالظهار، فقد لزمه، وهذه رواية ابن أبي نجيح عنه، وروى معمر، عن طاوس، عن أبيه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَرْدُونَ لَهَا قَالُوا﴾ [المجادلة: ٣]، قال: جعلها عليه كظهر أمه، ثم يعود، فيطوؤها، فتحرير ربة. وحكى الناس عن مجاهد: أنه تجب الكفارة بنفس الظهار، وحكاها ابن حزم عن الثوري، وعثمان البتي، وهؤلاء لم يخف عليهم أن العود شرط في الكفارة، ولكن العود عندهم هو العود إلى ما كانوا عليه في

شرطاً، لسألهما عنه؟ قيل: أما من يجعلُ العود نفس الإمساك بعد الظهار زمناً يُمكن وقوع الطلاق فيه، فهذا جارٍ على قوله، وهو نفس حجته، ومن جعل العود هو الوطء والعزم، قال: سياق القصة بين في أن المتظاهرين كان قصدهم الوطء، وإنما أمسكوا له، وسيأتي تقرير ذلك إن شاء الله تعالى.

وأما كون الظهار منكراً من القول وزوراً، فنعم هو كذلك، ولكن الله عز وجل إنما أوجب الكفارة في هذا المنكر والزور بأمرين: به، وبالعود، كما أن حكم الإيلاء إنما يترتب عليه وعلى الوطء لا على أحدهما.

فصل

(قول الظاهرة بان معنى العود أي إعادة اللفظ)

وقال الجمهور: لا تجب الكفارة إلا بالعود بعد الظهار، ثم اختلفوا في معنى العود: هل هو إعادة لفظ الظهار بعينه، أو أمر وراه؟ على قولين، فقال أهل الظاهر كلهم: هو إعادة لفظ الظهار، ولم يحكوا هذا عن أحد من السلف البتة، وهو قول لم يُسبقوا إليه، وإن كانت هذه الشكاة لا يكاد مذهب من المذاهب يخلو عنها. قالوا: فلم يوجب الله سبحانه الكفارة إلا بالظهار المعاد لا المبتدأ. قالوا: والاستدلال بالآية من ثلاثة وجوه:

أحدها: أن العرب لا يُعقل في لغاتها العود إلى الشيء إلا فعل مثله مرة ثانية، قالوا: وهذا كتاب الله، وكلامُ رسوله، وكلامُ العرب بيننا وبينكم. قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، فهذا نظير الآية سواء في أنه عدى فعل العود باللام، وهو إتيانهم مرة ثانية بمثل ما أتوا به أولاً، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا عُدْتُمْ عَدَاً﴾ [الإسراء: ٨] أي: إن كررتم للذنوب، كررنا العقوبة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ التَّجَرُّعِ ثُمَّ يَمُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٨] وهذا في سورة الظهار نفسها، وهو يُبين المراد من العود فيه، فإنه نظيره فعلاً وإرادة، والعهد قريبٌ بذكره.

قالوا: وأيضاً، فالذي قالوه: هو لفظُ الظهار، فالعود إلى القول هو الإتيان به مرة ثانية لا تعقل العرب غير هذا. قالوا: وأيضاً فما عدا تكرار اللفظ إما إمساكاً، وإما عزم، وإما فعل، وليس واحدٌ منها

الجاهلية من التظاهر، كقوله تعالى في جزاء الصيد: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ [المائدة: ٩٥] أي: عاد إلى الاصطياد بعد نزول تحريمه، ولهذا قال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ [المائدة: ٩٥] قالوا: ولأن الكفارة إنما وجبت في مقابلة ما تكلم به من المنكر والزور، وهو الظهار دون الوطء، أو العزم عليه، قالوا: ولأن الله سبحانه لما حرّم الظهار، ونهى عنه كان العود هو فعل المنهي عنه، كما قال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكَ أَنْ يَرْحَمَكُمُ وَلَئِنْ عُدْتُمْ عَدَاً﴾ [الإسراء: ٨] أي: إن عدتم إلى الذنب، عدنا إلى العقوبة، فالعود هنا نفس فعل المنهي عنه.

قالوا: ولأن الظهار كان طلاقاً في الجاهلية، فنقل حكمه من الطلاق إلى الظهار، ورتب عليه التكفير، وتحريم الزوجة حتى يكفر، وهذا يقتضي أن يكون حكمه معتبراً بلفظه كالطلاق.

ونازعهم الجمهور في ذلك، وقالوا: إن العود أمرٌ وراه مجرد لفظ الظهار، ولا يصح حمل الآية على العود إليه في الإسلام ثلاثة أوجه.

أحدها: أن هذه الآية بيان لحكم من يُظاهر في الإسلام، ولهذا أتى فيها بلفظ الفعل مستقبلاً، فقال: يُظاهرون، وإذا كان هذا بياناً لحكم ظهار الإسلام، فهو عندكم نفس العود، فكيف يقول بعده: ثم يعودون، وأن معنى هذا العود غير الظهار عندكم؟

الثاني: أنه لو كان العود ما ذكرتم، وكان المضارع بمعنى الماضي، كان تقديره: والذين ظاهروا من نسائهم، ثم عادوا في الإسلام، ولما وجبت الكفارة إلا على من تظاهر في الجاهلية ثم عاد في الإسلام، فمن أين تُوجِبونها على من ابتدأ الظهار في الإسلام غير عائد؟ فإن هنا أمرين: ظهار سابق، وعود إليه، وذلك يطل حكم الظهار الآن بالكلية إلا أن تجعلوا «يظاهرون» لفرقة ويعودون لفرقة، ولفظ المضارع نائباً عن لفظ الماضي، وذلك مخالف للنظم، ومخرج عن الفصاحة.

الثالث: أن رسول الله ﷺ أمر أوس بن الصامت، وسلمة بن صخر بالكفارة، ولم يسألهم: هل تظاهرا في الجاهلية أم لا؟ فإن قلتم: ولم يسألهم عن العود الذي تجعلونه شرطاً، ولو كان

بقول، فلا يكون الإتيان به عوداً، لا لفظاً ولا معنى، ولأن العزم والوطء والإمساك ليس ظاهراً، فيكون الإتيانُ بها عوداً إلى الظهار.

قالوا: ولو أريد بالعود الرجوعُ في الشيء الذي منع منه نفسه كما يقال، عاد في الهبة، لقال: ثم يعودون فيما قالوا، كما في الحديث: «الْعَائِدُ فِي هِبَتِهِ، كَالْعَائِدِ فِي قَيْتِهِ» [البخاري: ٢٦٢١، ومسلم: ٤١٧٠].

واحتج أبو محمد بن حزم، بحديث عائشة رضي الله عنها، أن أوس بن الصامت كان به لمم، فكان إذا اشتدَّ به لَمَمُهُ، ظاهرٌ من زوجته، فأنزل الله عز وجل فيه كفارة الظهار^(١) [ابوداود: ٣٢١٩]. فقال: هذا يقتضي التكرارَ ولا بُدَّ، قال: ولا يصحُّ في الظهار إلا هذا الخبر وحده. قال: وأما تشييعكم علينا بأن هذا القول لم يَقُلْ به أحد من الصحابة، فأرونا من الصحابة من قال: إن العود هو الوطء، أو العزم، أو الإمساك، أو هو العود إلى الظهار في الجاهلية ولو عن رجل واحد من الصحابة، فلا تكونون أسعدَ بأصحاب رسول الله ﷺ منا أبداً.

فصل

(رد الجمهور على الظاهرية)

ونازعهم الجمهورُ في ذلك، وقالوا: ليس معنى العود إعادة اللفظ الأول، لأن ذلك لو كان هو العود، لقال: ثُمَّ يُعِيدُونَ لما قالوا، لأنه يقال: أعاد كلامه بعينه، وأما عاد، فإنما هو في الأفعال، كما يقال: عاد في فعله، وفي هبته، فهذا استعماله بـ«في». ويقال: عاد إلى عمله وإلى ولايته، وإلى حاله، وإلى إحسانه وإساءته، ونحو ذلك، وعاد له أيضاً.

وأما القول: فإنما يقال: أعاده كما قال ضِماد^(٢) بن ثعلبة للنبي ﷺ: «أَعَدَّ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ» وكما قال أبو سعيد: «أَعَدَّهَا عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ»، وهذا ليس بلازم، فإنه يقال: أعاد مقالته، وعاد لمقالته، وفي الحديث: «فعاد لمقالته»، بمعنى أعادها سواء، وأفسد من هذا ردُّ مَنْ ردَّ عليهم بأن

إعادة القول محال، كإعادة أمس. قال: لأنه لا يتهيأ اجتماعُ زمانين، وهذا في غاية الفساد، فإن إعادة القول من جنس إعادة الفعل، وهي الإتيان بمثل الأول لا بعينه، والعجبُ من متعصّب يقول: لا يُغْتَدُّ بخلاف الظاهرية، ويبحثُ معهم بمثل هذه البحوث، ويردُّ عليهم بمثل هذا الردِّ، وكذلك ردُّ مَنْ ردَّ عليهم بمثل العائد في هبته، فإنه ليس نظيرَ الآية، وإنما نظيرُها «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوُا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَودُّونَ لِمَا نَهَوْا عَنْهُ» [المجادلة: ٨]، ومع هذا فهذه الآية تُبين المراد من آية الظهار، فإن عودَهم لِمَا نَهَوْا عنه، هو رجوعُهم إلى نفس المنهي عنه، وهو النجوى، وليس المرادُ به إعادة تلك النجوى بعينها، بل رجوعُهم إلى المنهي عنه، وكذلك قوله تعالى في الظهار: «يُؤَدُّونَ لِمَا قَالُوا» [المجادلة: ٣] أي: لقولهم. فهو مصدر بمعنى المفعول، وهو تحريمُ الزوجة بتشبيهها بالمحرمة، فالعودُ إلى المحرم هو العودُ إليه، وهو فعله، فهذا مأخذُ من قال: إنه الوطء.

ونكتة المسألة: أن القولَ في معنى المقول، والمقول هو التحريم، والعود له هو العودُ إليه، وهو استباحته عائداً إليه بعد تحريمه، وهذا جار على قواعد اللغة العربية واستعمالها، وهذا الذي عليه جمهورُ السلف والخلف، كما قال قتادة، وطاوس، والحسن، والزهرى، ومالك، وغيرهم، ولا يُعرف عن أحد من السلف أنه فسر الآية بإعادة اللفظ البتة لا من الصحابة، ولا من التابعين، ولا مَنْ بعدهم، وهاهنا أمرٌ خفي على مَنْ جعله إعادة اللفظ، وهو أن العودَ إلى الفعل يستلزمُ مفارقة الحال التي هو عليها الآن، وعوده إلى الحال التي كان عليها أولاً، كما قال تعالى: «وَلَمَّا عُدْتُمْ عَدَاكُ» [الإسراء: ٨]. ألا ترى أن عودهم مفارقة ما هم عليه من الإحسان، وعودهم إلى الإساءة، وكقول الشاعر:

وإن عادَ للإحسانِ فالعودُ أحمَدُ

والحالُ التي هو عليها الآن التحريمُ بالظهار، والتي كان عليها إباحةُ الوطء بالنكاح الموجب للحل، فعودُ المظاهر عوداً إلى جِلِّ كان عليه قبل

(١) وقال الخطابي: معنى اللمم ما هنا: الإلمامُ بالنساء وشدة الحرص عليهن والتوقان إليهن.

(٢) في الأصل: ضمام، وهو تحريف، مسلم (٢٠٠٨).

الظهار، وذلك هو الموجب للكفارة فتأمل، فالعود يقتضي أمراً يعود إليه بعد مفارقتها، وظهر سير الفرق بين العود في الهبة، وبين العود لما قال المظاهر، فإن الهبة بمعنى الموهوب وهو عين يتضمن عودَه فيه إدخاله في ملكه وتصرفه فيه، كما كان أولاً، بخلاف المظاهر، فإنه بالتحريم قد خرج عن الزوجية، وبالعود قد طلب الرجوع إلى الحال التي كان عليها معها قبل التحريم، فكان الأليق أن يقال: عاد لكذا، يعني: عاد إليه. وفي الهبة: عاد إليها، وقد أمر النبي ﷺ أوس بن الصامت، وسلمة بن صخر بكفارة الظهار، ولم يتلفظ به مرتين، فإنهما لم يُخبرا بذلك عن أنفسهما، ولا أخبر به أزواجهما عنهما، ولا أحد من الصحابة، ولا سألهما النبي ﷺ: هل قلتما ذلك مرة أو مرتين؟ ومثل هذا لو كان شرطاً لما أهمل بيانه.

وسير المسألة أن العود يتضمن أمرين: أمراً يعود إليه، وأمراً يعود عنه، ولا بُدَّ منهما فالذي يعود عنه يتضمن نقضه وإبطاله، والذي يعود إليه يتضمن إثاره وإرادته، فعود المظاهر يقتضي نقض الظهار وإبطاله، وإثار ضده وإرادته، وهذا عين فهم السلف من الآية، فبعضهم يقول: إن العود هو الإصابة، وبعضهم يقول: الوطء، وبعضهم يقول: اللمس، وبعضهم يقول: العزم.

وأما قولكم: إنه إنما أوجب الكفارة في الظهار المعاد، إن أردتم به المعاد لفظه، فدعوى بحسب ما فهمتموه، وإن أردتم به الظهار المعاد فيه لما قال المظاهر، لم يستلزم ذلك إعادة اللفظ الأول.

وأما حديث عائشة رضي الله عنها في ظهار أوس بن الصامت، فما أصحّه، وما أبعد دلالة على مذهبيكم.

على قولين: فقالت طائفة: هو إمساكها زمناً يتسع لقوله: أنت طالق، فمتى لم يصل الطلاق بالظهار، لزمته الكفارة، وهو قول الشافعي، قال منازعوه: وهو في المعنى قول مجاهد، والثوري، فإن هذا النفس الواحد لا يخرج الظهار عن كونه موجب الكفارة، ففي الحقيقة لم يوجب الكفارة إلا لفظ الظهار، وزمّن قوله: أنت طالق لا تأثير له في الحكم إيجاباً ولا نفيًا، فتعلق الإيجاب به ممتنع، ولا تُسمى تلك اللحظة والنفس الواحد من الأنفاس عوداً لا في لغة العرب ولا في عرف الشارع، وأي شيء في هذا الجزء اليسير جداً من الزمان من معنى العود أو حقيقته؟

قالوا: وهذا ليس بأقوى من قول من قال: هو إعادة اللفظ بعينه، فإن ذلك قول معقول يفهم منه العود لغةً وحقيقةً، وأما هذا الجزء من الزمان، فلا يفهم من الإنسان فيه العود البتة. قالوا: ونحن نطالبكم بما طالبتم به الظاهرية: من قال هذا القول قبل الشافعي؟ قالوا: واللّه سبحانه أوجب الكفارة بالعود بحرف «ثم» الدالة على التراخي عن الظهار، فلا بد أن يكون بين العود وبين الظهار مدة متراخية، وهذا ممتنع عندهم وبمجرد انقضاء قوله: أنت عليّ كظهر أمي صار عائداً ما لم يصله بقوله: أنت طالق، فأين التراخي والمهلة بين العود والظهار؟ والشافعي لم ينقل هذا عن أحد من الصحابة والتابعين، وإنما أخبر أنه أولى المعاني بالآية، فقال: الذي عَقَلْتُ ممّا سَمِعْتُ في ﴿يُؤَدُّونَ لِمَا قَالُوا﴾ [المجادلة: 3]، أنه إذا أتت على المظاهر مدة بعد القول بالظهار، لم يُحرّمها بالطلاق الذي يحرم به، وجبت عليه الكفارة، كأنهم يذهبون إلى أنه إذا أمسك ما حرّم على نفسه أنه حلال، فقد عاد لما قال، فخالفه، فأحل ما حرّم، ولا أعلم له معنى أولى به من هذا^(١). انتهى.

فصل

(من قال بان العود هو العزم على الوطء)

والذين جعلوه أمراً وراء الإمساك اختلفوا فيه، فقال مالك في إحدى الروايات الأربع عنه، وأبو

فصل

(من قال بان العود هو إمساكها زمناً يتسع لقوله أنت طالق)

ثم الذين جعلوا العود أمراً غير إعادة اللفظ اختلفوا فيه: هل هو مجرد إمساكها بعد الظهار، أو أمراً غيره؟

(١) «الأم» (٢٧٩/٥)، «مختصر المزني» ص (٢٠٣-٢٠٤).

عُبِيد: هو العزم على الوطء، وهذا قول القاضي أبي يعلى وأصحابه، وأنكره الإمام أحمد، وقال مالك: يقول: إذا أجمع، لزمته الكفارة، فكيف يكون هذا لو طلقها بعد ما يُجمع، أكان عليه كفارة إلا أن يكون يذهب إلى قول طاوس إذا تكلم بالظهار، لزمه مثلُ الطلاق؟

(من قال بانه العزم على الإمساك أو العزم على الإمساك والوطء معاً ومن قال إنه الوطء نفسه)

ثم اختلف أربابُ هذا القول فيما لو مات أحدهما، أو طلق بعد العزم، وقبل الوطء، هل تستقرُّ عليه الكفارة؟ فقال مالك وأبو الخطاب: تستقرُّ الكفارة. وقال القاضي وعامة أصحابه: لا تستقرُّ، وعن مالك رواية ثانية: أنه العزم على الإمساك وحده، ورواية «الموطأ» خلاف هذا كله: أنه العزم على الإمساك والوطء معاً. وعنه رواية رابعة: أنه الوطء نفسه، وهذا قولُ أبي حنيفة وأحمد. وقد قال أحمد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوَدُّونَ لِمَا قَالُوا﴾ [المجادلة: ٣]، قال: الغشيان إذا أراد أن يغشى كَفَرًا، وليس هذا باختلاف رواية، بل مذهبه الذي لا يُعرف عنه غيره أنه الوطء ويلزمه إخراجها قبله عند العزم عليه.

(حجج من قال إنه العزم)

(حجج من قال إنه الوطء)

واحتجَّ أرباب هذا القول بأن الله سبحانه قال في الكفارة: ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَمْسَأَ﴾ [المجادلة: ٣] فأوجب الكفارة بعد العدد، وقبل التماس، وهذا صريح في أن العود غير التماس، وأن ما يحرم قبل الكفارة، لا يجوز كونه متقدماً عليها. قالوا: ولأنه قصد بالظهار تحريمها، والعزم على وطئها عود فيما قصده. قالوا: ولأن الظهار تحريم، فإذا أراد استباحتها، فقد رجع في ذلك التحريم، فكان عائداً. قال الذين جعلوه الوطء: لا ريب أن العود فعلٌ ضدُّ قوله، كما تقدم تقريره، والعائد فيما نهى عنه وإليه وله: هو فاعله لا مريئده، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوَدُّونَ لِمَا تَبَوَّأُوا مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٨]، فهذا فعل المنهي عنه نفسه لا إرادته، ولا يلزم أرباب هذا القول ما ألزمهم به أصحاب العزم، فإن قولهم: إن العود يتقدم التكفير، والوطء متأخر عنه، فهم يقولون: إن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوَدُّونَ

لِمَا قَالُوا﴾ [المجادلة: ٣] أي: يريدون العود كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [التحل: ٩٨]، وكفوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، ونظائره مما يطلق الفعل فيه على إرادته لوقوعه بها. قالوا: وهذا أولى من تفسير العود بنفس اللفظ الأول، وبالإمساك نفساً واحداً بعد الظهار، ويتكرر لفظ الظهار، وبالعزم المجزئ لو طلق بعده، فإن هذه الأقوال كلها قد تبين ضعفها، فأقرب الأقوال إلى دلالة اللفظ وقواعد الشريعة وأقوال المفسرين، هو هذا. وبالله التوفيق.

فصل

(من عجز عن الكفارة لم تسقط عنه)

ومنها: أن من عجز عن الكفارة، لم تسقط عنه، فإن النبي ﷺ أعان أوس بن الصامت بِعَرَقٍ من تمر، وأعانه امرأته بمثله، حتى كفر، وأمر سلمة بن صخر أن يأخذ صدقة قومه، فيكفر بها عن نفسه، ولو سقطت بالعجز، لما أمرهما بإخراجها، بل تبقى في ذمته ديناً عليه، وهذا قول الشافعي، وأحد الروايتين عن أحمد.

وذهبت طائفة إلى سقوطها بالعجز، كما تسقط الواجبات بمعجزه عنها، وعن إبدالها.

وذهبت طائفة أن كفارة رمضان لا تبقى في ذمته، بل تسقط، وغيرها من الكفارات لا تسقط، وهذا الذي صححه أبو البركات ابن تيمية.

واحتجَّ من أسقطها بأنها لو وجبت مع العجز، لما ضُرِفَتْ إليه، فإن الرجل لا يكون مَضْرُفًا لكفارته، كما لا يكون مَضْرُفًا لزكاته، وأرباب القول الأول يقولون: إذا عجز عنها، وكفر الغير عنه، جاز أن يَضْرِفَهَا إليه، كما صرف النبي ﷺ كفارة من جامع في رمضان إليه وإلى أهله، وكما أباح لسلمة بن صخر أن يأكل هو وأهله من كفارته التي أخرجها عنه من صدقة قومه، وهذا مذهب أحمد، رواية واحدة عنه في كفارة من وطئ أهله في رمضان، وعنه في سائر الكفارات روايتان.

والسنة تدلُّ على أنه إذا أعسر بالكفارة، وكفَّر عنه غيره، جاز صرف كفارته إليه، وإلى أهله.

فإن قيل: فهل يجوز له إذا كان فقيراً له عيال وعليه

زكاة يحتاج إليها أن يصرفها إلى نفسه وعياله؟ قيل: لا يجوز ذلك لعدم الإخراج المستحق عليه، ولكن للإمام أو الساعي أن يدفع زكاته إليه بعد قبضها منه في أصح الروايتين عن أحمد.

فإن قيل: فهل له أن يسقطها عنه؟ قيل: لا، نص عليه، والفرق بينهما واضح.

فإن قيل: فإذا أذن السيد لعبده في التكفير بالعتق، فهل له أن يعتق نفسه؟ قيل: اختلفت الرواية فيما إذا أذن له في التكفير بالمال، هل له أن ينتقل عن الصيام إليه؟ على روايتين إحداهما: أنه ليس له ذلك، وفرضه الصيام، والثانية: له الانتقال إليه، ولا يلزمه لأن المنع لحق السيد، وقد أذن فيه، فإذا قلنا: له ذلك، فهل له العتق؟ اختلفت الرواية فيه عن أحمد، فغنى في ذلك روايتان، ووجه المنع: أنه ليس من أهل الولاء، والعتق يقتضي الولاء، واختار أبو بكر وغيره أن له الاعتاق، فعلى هذا، هل له عتق نفسه؟ فيه قولان في المذهب، ووجه الجواز إطلاق الإذن ووجه المنع أن الإذن في الاعتاق ينصرف إلى اعتاق غيره، كما لو أذن له في الصدقة انصرف الإذن إلى الصدقة على غيره.

فصل

(لا يجوز وطء المظاهر منها قبل التكفير)

ومنها: أنه لا يجوز وطء المظاهر منها قبل التكفير، وقد اختلف هاهنا في موضعين. أحدهما: هل له مباشرتها دون الفرج قبل التكفير، أم لا؟ والثاني: أنه إذا كانت كفارته الإطعام، فهل له الوطء قبله أم لا؟ وفي المسألتين قولان للفقهاء، وهما روايتان عن أحمد، وقولان للشافعي.

ووجه منع الاستمتاع بغير الوطء، ظاهر قوله تعالى: ﴿يَنْبَغِي أَنْ يَسْأَلَ﴾ [المجادلة: ٢٣]، ولأنه شبهها بمن يحرم وطؤها ودواعيه، ووجه الجواز أن التماس كناية عن الجماع، ولا يلزم من تحريم الجماع تحريم دواعيه، فإن الحائض يحرم جماعها دون دواعيه، والصائم يحرم منه الوطء دون دواعيه، والمسيبة يحرم وطؤها دون دواعيه، وهذا قول أبي حنيفة.

وأما المسألة الثانية وهي وطؤها قبل التكفير: إذا كان بالإطعام، فوجه الجواز أن الله سبحانه قيّد التكفير بكونه قبل المسيس في العتق والصيام، وأطلقه في الإطعام، ولكل منهما حكمه، فلو أراد التقييد في الإطعام، لذكره كما ذكره في العتق والصيام، وهو سبحانه لم يقيد هذا ويطلق هذا عبثاً، بل لفائدة مقصودة، ولا فائدة إلا تقييد ما قيده، وإطلاق ما أطلقه. ووجه المنع استفادة حكم ما أطلقه مما قيده، إما بياناً على الصحيح، وإما قياساً قد ألغى فيه الفارق بين الصورتين، وهو سبحانه لا يفرق بين المتماثلين، وقد ذكر: ﴿يَنْبَغِي أَنْ يَسْأَلَ﴾ [المجادلة: ٢٣] مرتين، فلو أعاده ثالثاً، لطال به الكلام، ونبّه بذكره مرتين على تكرار حكمه في الكفارات، ولو ذكره في آخر الكلام مرة واحدة، لأوهم اختصاصه بالكفارة الأخيرة، ولو ذكره في أول مرة لأوهم اختصاصه بالأولى، وإعادته في كل كفارة تطويل، وكان أفصح الكلام وأبلغه وأوجزه ما وقع.

وأيضاً فإنه نبّه بالتكفير قبل المسيس بالصوم مع تطاول زمنه، وشدة الحاجة إلى مسيس الزوجة على أن اشتراط تقدمه في الإطعام الذي لا يطول زمنه أولى.

فصل

(هل يبطل المس تتابع الصيام)

ومنها: أنه سبحانه أمر بالصيام قبل المسيس، وذلك يعم المسيس ليلاً ونهاراً، ولا خلاف بين الأئمة في تحريم وطنها في زمن الصوم ليلاً ونهاراً، وإنما اختلفوا، هل يبطل التتابع به؟ فيه قولان: أحدهما: يبطل وهو قول مالك، وأبي حنيفة، وأحمد في ظاهر مذهبه، والثاني: لا يبطل، وهو قول الشافعي، وأحمد في رواية أخرى عنه.

والذين أبطلوا التتابع معهم ظاهر القرآن، فإنه سبحانه أمر بشهرين متتابعين قبل المسيس، ولم يوجد، ولأن ذلك يتضمن النهي عن المسيس قبل إكمال الصيام وتحريمه، وهو يوجب عدم الاعتداد بالصوم، لأنه عمل ليس عليه أمر رسول الله ﷺ، فيكون ردّاً.

وسر المسألة أنه سبحانه أوجب أمرين: أحدهما: تتابع الشهرين. والثاني: وقوعُ صيامهما قبل التماس، فلا يكون قد أتى بما أمر به إلاً بمجموع الأمرين.

فصل

(لا يشترط في إطعام المساكين

التملك ولا إطعامهم جملة أو مفردين)

ومنها: أنه سبحانه وتعالى أطلق إطعام المساكين ولم يُقيده بقدر، ولا تتابع، وذلك يقتضي أنه لو أطعمهم فغداًهم وعشاهم من غير تملك حب أو تمر جاز، وكان ممثلاً لأمر الله، وهذا قول الجمهور ومالك، وأبي حنيفة، وأحمد في إحدى الروايتين عنه، وسواء أطعمهم جملة أو متفرقين.

فصل

(لا بد من إطعام ستين مسكيناً مختلفين)

ومنها: أنه لا بُدَّ من استيفاء عدد الستين، فلو أطعم واحداً ستين يوماً لم يجزه إلاً عن واحد، هذا قول الجمهور: مالك، والشافعي، وأحمد في إحدى الروايتين عنه. والثانية: أن الواجب إطعام ستين مسكيناً، ولو لواحد وهو مذهب أبي حنيفة. والثالثة: إن وجد غيره لم يجز، وإلاً أجزأه، وهو ظاهر مذهبه، وهي أصح الأقوال.

فصل

(لا تلغى الكفارة إلا إلى المساكين ويدخل فيهم الفقراء)

ومنها: أنه لا يجزئه دفعُ الكفارة إلاً إلى المساكين، ويدخلُ فيهم الفقراء كما يدخل المساكين في لفظ الفقراء عند الإطلاق، وعمم أصحابنا وغيرهم الحكم في كل من يأخذ من الزكاة لحاجته، وهم أربعة: الفقراء والمساكين، وابن السبيل، والغارم لمصلحته، والمكاتب. وظاهر القرآن اختصاصها بالمساكين، فلا يتعداهم.

فصل

(ترجيح المصنف اشتراط الإيمان في الرقبة)

ومنها: أن الله سبحانه أطلق الرقبة ههنا، ولم

يقيدها بالإيمان، ويُقيدُها في كفارة القتل بالإيمان، فاختلف الفقهاء في اشتراط الإيمان في غير كفارة القتل، على قولين: فشرطه الشافعي، ومالك، وأحمد في ظاهر مذهبه، ولم يشترطه أبو حنيفة، ولا أهلُ الظاهر، والذين لم يشترطوا الإيمان قالوا: لو كان شرطاً لبيَّنه الله سبحانه، كما بيَّنه في كفارة القتل، بل يُطلق ما أطلقه، ويُقيد ما قيده، فيعمل بالملوك والمقيد. وزادت الحنفية أن اشتراط الإيمان زيادة على النص، وهو نسخ، والقرآن لا يُنسخ إلاً بالقرآن أو خير متواتر.

قال الآخرون: واللفظ للشافعي: شرط الله سبحانه في رقبة القتل مؤمنة، كما شرط العدل في الشهادة، وأطلق الشهود في مواضع، فاستدلنا به على أن ما أطلق من الشهادات على مثل معنى ما شَرَطَ وإنما رد الله أموال المسلمين على المسلمين لا على المشركين وفرض الله الصدقات، فلم تجز إلاً للمؤمنين، فكذلك ما فرض من الرقاب لا يجوز إلاً لمؤمن^(١)، فاستدل الشافعي بأن لسان العرب يقتضي حمل المطلق على المقيد إذا كان من جنسه، فحمل عرف الشرع على مقتضى لسانهم.

وهنا أمران: أحدهما: أن حمل المطلق على المقيد بيان لا قياس. الثاني: أنه إنما يحمل عليه بشرطين: أحدهما: اتحاد الحكم. والثاني: أن لا يكون للمطلق إلاً أصل واحد، فإن كان بين أصلين مختلفين، لم يُحمل إطلاقه على أحدهما إلاً بدليل يُعينه. قال الشافعي: ولو نذر رقبةً مطلقةً لم يجزه إلاً مؤمنة، وهذا بناء على هذا الأصل، وأن النذر محمول على واجب الشرع، وواجب العتق لا يتأدى إلاً بعتق المسلم. ومما يدل على هذا، أن النبي ﷺ قال لمن استفتى في عتق رقبةً منذورة: اتني بها، فسألها أين الله؟ فقالت: في السماء، فقال: من أنا؟ قالت: أنت رسولُ الله، فقال: أعتقها فإنها مؤمنة [مسلم: ١١٩٩]. قال الشافعي: فلما وصفت الإيمان، أمر بعتقها. انتهى.

وهذا ظاهر جداً أن العتق المأمور به شرعاً لا

(١) «الأم» (٥/٢٨٠)، «مختصر المزني» ص (٢٠٤).

يُجزىء إلا في رقبة مؤمنة، وإلا لم يكن للتعليل بالإيمان فائدة، فإن الأعمّ متى كان علة للحكم كان الأخصّ عديم التأثير.

وأيضاً فإن المقصود من إعتاق المسلم تفرّغه لعبادة ربه، وتخليصه من عبودية المخلوق إلى عبودية الخالق، ولا ريب أن هذا أمر مقصود للشارع محبوب له، فلا يجوز إلغاؤه، وكيف يستوي عند الله ورسوله تفرّغ العبد لعبادته وحده، وتفرّغه لعبادة الصليب، أو الشمس والقمر والنار، وقد بين سبحانه اشتراط الإيمان في كفارة القتل، وأحال ما سكّت عنه على بيانه، كما بين اشتراط العدالة في الشاهدين، وأحال ما أطلقه، وسكّت عنه على ما بينه، وكذلك غالب مطلقات كلامه سبحانه ومقيداته لمن تأملها، وهي أكثر من أن تُذكر، فمنها: قوله تعالى فيمن أمر بصدقة، أو معروف، أو إصلاح بين الناس: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ آتِنَاكَ مَرْغَبَاتٍ أَثَرًا فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَثَرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]، وفي موضع آخر، بل مواضع يُعلق الأجر بنفس العمل اكتفاء بالشرط المذكور في موضعه، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الأنبياء: ٩٤]، وفي موضع يُعلق الجزاء بنفس الأعمال الصالحة اكتفاء بما علم من شرط الإيمان، وهذا غالب في نصوص الوعد والوعيد.

فصل

(لو اعتق نصفي رقبتي لم يكن معتقاً لرقبة) ومنها: أنه لو اعتق نصفي رقبتي لم يكن معتقاً لرقبة، وفي هذا ثلاثة أقوال للناس، وهي روايات عن أحمد، ثانيها: الإجزاء، وثالثها وهو أصحها: أنه إن تكملت الحرية في الرقبتي أجزأه، وإلا فلا، فإنه يصدّق عليه أنه حرّ رقبة، أي: جعلها حرّة بخلاف ما إذا لم تكمل الحرية.

فصل

(لا تسقط الكفارة بالوطء قبل التكفير ولا تتضاعف) ومنها: أن الكفارة لا تسقط بالوطء قبل التكفير، ولا تتضاعف، بل هي بحالها كفارة

واحدة، كما دلّ عليه حكم رسول الله ﷺ الذي تقدم، قال الصلت بن دينار: سألت عشرة من الفقهاء عن المظاهر يُجامع قبل أن يكفر، فقالوا: كفارة واحدة. قال: وهم الحسن، وابن سيرين، ومسروق، وبكر، وقتادة، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، وعكرمة. قال: والعاشر، أراه نافعاً، وهذا قول الأئمة الأربعة.

وصحّ عن ابن عمر، وعمر بن العاص، أن عليه كفارتين، وذكر سعيد بن منصور، عن الحسن، وإبراهيم في الذي يظاهر، ثم يطؤها قبل أن يكفر: عليه ثلاث كفارات، وذكر عن الزهري، وسعيد بن جبير، وأبي يوسف، أن الكفارة تسقط، ووجه هذا أنه فات وقتها، ولم يبق له سبيل إلى إخراجها قبل المسيس.

وجواب هذا، أن فوات وقت الأداء لا يسقط الواجب في الذمة كالصلاة والصيام وسائر العبادات، ووجه وجوب الكفارتين أن إحداهما للظهار الذي اقترن به العود، والثانية للوطء المحرم، كالوطء في نهار رمضان، وكوطء المخرم، ولا يُعلم لإيجاب الثلاث وجه، إلا أن يكون عقوبة على إقدامه على الحرام، وحكم رسول الله ﷺ يدلّ على خلاف هذه الأقوال، والله أعلم.

حُكْمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

في الإيلاء

ثبت في «صحيح البخاري»: عن أنس قال: ألى رسول الله ﷺ من نسائه، وكانت انفكت رجله، فأقام في مشربة له تسعاً وعشرين ليلة، ثم نزل، فقالوا: يا رسول الله، أليت شهراً، فقال: «إِنَّ الشَّهْرَ يَكُونُ تِسْعاً وَعِشْرِينَ» [البخاري: ١٩١١].

وقد قال سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْذُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصًا أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ قَامُوا فَرَغَ اللَّهُ عَنْهُمُ رَجُوعًا وَلَوْ تَوَلَّوْا فَانْطَلَقَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتَّبِعُ عَمَلَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٦-٢٢٧].

الإيلاء: لغة: الامتناع باليمين، وحُصّ في عرف الشرع بالامتناع باليمين من وطء الزوجة، ولهذا عُذّي فعلة بأداة «من» تضميناً له معنى «يمتنعون» من نسائهم، وهو أحسن من إقاية «من» مقام «على»، وجعل سبحانه للأزواج مدة أربعة أشهر يمتنعون فيها من وطء نسائهم بالإيلاء، فإذا مضت فإما أن يقيء،

ولما أن يُطْلَق، وقد اشتهر عن علي، وابن عباس، أن الإيلاء إنما يكون في حال الغضب دون الرضى، كما وقع لرسول الله ﷺ مع نسائه، وظاهر القرآن مع الجمهور.

وقد تناظر في هذه المسألة محمد بن سيرين، ورجل آخر، فاحتج على محمد بقول علي، فاحتج عليه محمد بالآية، فسكت.

(الأحكام المستنبطة من آية الإيلاء)

وقد دلَّت الآية على أحكام.

منها: هذا. ومنها: أن من حلف على ترك الوطء أقل من أربعة أشهر لم يكن مؤلّياً، وهذا قول الجمهور، وفيه قول شاذ، أنه مؤل.

(لا يثبت حكم الإيلاء)

حتى يحلف على أكثر من أربعة أشهر

ومنها: أنه لا يثبت له حكم الإيلاء حتى يَحْلِفَ على أكثر من أربعة أشهر، فإن كانت مدة الامتناع أربعة أشهر، لم يثبت له حكم الإيلاء، لأن الله جعل لهم مدة أربعة أشهر، وبعد انقضائها إما أن يُطْلَقُوا، وإما أن يفيؤوا، وهذا قول الجمهور، منهم، أحمد، والشافعي، ومالك، وجعله أبو حنيفة مؤلّياً بأربعة أشهر سواء، وهذا بناء على أصله أن المدة المضروبة أجل لوقوع الطلاق بانقضائها، والجمهور يجعلون المدة أجلاً لاستحقاق المطالبة، وهذا موضع اختلف فيه السلف من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين ومن بعدهم، فقال الشافعي، حدثنا سفيان، عن يحيى بن سعيد، عن سليمان بن يسار، قال: أدركت بضعة عشر رجلاً من الصحابة، كلهم يوقفت المؤلى [الشافعي (٣٨٦/٢)]. يعني: بعد أربعة أشهر. وروى سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، قال: سألت اثني عشر رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ عن المؤلى، فقالوا: ليس عليه شيء حتى تمضي أربعة أشهر [الدارقطني (٤٥١)]. وهذا قول الجمهور من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم.

وقال عبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت: إذا مضت أربعة أشهر ولم يفيء فيها، طلقت منه بمضيها [البيهقي (٣٧٩/٧)]، وهذا قول جماعة من التابعين، وقول أبي حنيفة وأصحابه، فعند هؤلاء يستحق

المطالبة قبل مضي الأربعة الأشهر، فإن فاء وإلا طلقت بمضيها. وعند الجمهور، لا يستحق المطالبة حتى تمضي الأربعة الأشهر، فحيث يقال: إما أن تفيء، وإما أن تُطْلَق، وإن لم يفيء، أخذ بلإيقاع الطلاق، إما بالحاكم، وإما بحسه حتى يطلّق.

(حجج من أوقع الطلاق بمضي المدة)

قال الموقعون للطلاق بمضي المدة: آية الإيلاء تدل على ذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن عبد الله بن مسعود قرأ: ﴿وَإِنْ قَامُوا فَلَهُنَّ أَفْعَوْهُنَّ رَجِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦] فإضافة الفينة إلى المدة تدل على استحقاق الفينة فيها، وهذه القراءة إما أن تُجرى مُجرى الخبر الواحد، فتوجب العمل، وإن لم تُوجب كونها من القرآن، وإما أن تكون قرآناً نسخ لفظه، وبقي حكمه لا يجوز فيها غير هذا البتة.

الثاني: أن الله سبحانه جعل مدة الإيلاء أربعة أشهر، فلو كانت الفينة بعدها، لزادت على مدة النص، وذلك غير جائز.

الثالث: أنه لو وطئها في مدة الإيلاء، لوقعت الفينة موقعها، فدل على استحقاق الفينة فيها.

قالوا: ولأن الله سبحانه وتعالى جعل لهم تريض أربعة أشهر، ثم قال: ﴿وَإِنْ قَامُوا فَلَهُنَّ أَفْعَوْهُنَّ رَجِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦ - ٢٢٧] وظاهر هذا أن هذا التقسيم في المدة التي لهم فيها تريض، كما إذا قال لغريمه: أصبر عليك بدني أربعة أشهر، فإن وفيتني وإلا حبستك، ولا يُفهم من هذا إلا إن وفيتني في هذه المدة، ولا يُفهم منه إن وفيتني بعدها، وإلا كانت مدة الصبر أكثر من أربعة أشهر، وقراءة ابن مسعود صريحة في تفسير الفينة بأنها في المدة، وأقل مراتبها أن تكون تفسيراً. قالوا: ولأنه أجل مضروب للفرقة، فتعقبه الفرقة كالعدة، وكالأجل الذي ضُرب لوقوع الطلاق، كقوله: إذا مضت أربعة أشهر، فأنت طالق.

قال الجمهور: لنا من آية الإيلاء عشرة أدلة:

(حجج الجمهور بعدم إيقاع لطلاق بمضي المدة)

أحدها: أنه أضاف مدة الإيلاء إلى الأزواج، وجعلها لهم، ولم يجعلها عليهم، فوجب ألا يستحق المطالبة فيها، بل بعدها، كأجل الدين، ومن أوجب

المطالبة فيها لم يكن عنده أجلاً لهم، ولا يُعقل كونها أجلاً لهم، ويستحق عليهم فيها المطالبة.

الدليل الثاني: قوله: ﴿إِنْ قَالُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦]، فذكر الفينة بعد المدة بقاء التعقيب، وهذا يقتضي أن يكون بعد المدة، ونظيره قوله سبحانه: ﴿الطَّلَاقُ مَرْكَاتٌ فَأَسْأَلُ بِمَعْرِفٍ أَوْ تَنْرِيحٍ بِإِحْسَنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وهذا بعد الطلاق قطعاً.

فإن قيل: فاء التعقيب تُوجب أن يكون بعد الإيلاء لا بعد المدة؟ قيل: قد تقدّم في الآية ذكر الإيلاء، ثم تلاه ذكر المدة، ثم أعقبها بذكر الفينة، فإذا أوجبت الفاء التعقيب بعد ما تقدم ذكره، لم يجوز أن يعود إلى أبعد المذكورين، ووجب عودها إليهما أو إلى أقربهما.

الدليل الثالث: قوله: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ [البقرة: ٢٢٧]، وإنما العزم ما عزم العازم على فعله، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْرِبُوا عُقَدَهُ الَّتِي كُنْتُمْ بَيْنَكُمْ عَلَى الْكَلْبِ أَجَلَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، فإن قيل: فترك الفينة عزم على الطلاق؟ قيل: العزم هو إرادة جازمة لفعل المعزوم عليه أو تركه، وأنتم تُوقعون الطلاق بمجرد مضي المدة وإن لم يكن منه عزم لا على وطء ولا على تركه، بل لو عزم على الفينة، ولم يُجامع طلقتم عليه بمضي المدة، ولم يعزم الطلاق، فكيفما قدرتم، فالآية حجة عليكم.

الدليل الرابع: أن الله سبحانه خيّر في الآية بين أمرين: الفينة أو الطلاق، والتخيير بين أمرين لا يكون إلا في حالة واحدة كال كفارات، ولو كان في حالتين، لكان ترتيباً لا تخييراً، وإذا تقرر هذا، فالفينة عندكم في نفس المدة، وعزم الطلاق بانقضاء المدة، فلم يقع التخيير في حالة واحدة.

فإن قيل: هو مخير بين أن يفني في المدة، وبين أن يترك الفينة، فيكون عازماً للطلاق بمضي المدة. قيل: ترك الفينة لا يكون عزمًا للطلاق وإنما يكون عزمًا عندكم إذا انقضت المدة، فلا يتأتى التخيير بين عزم الطلاق وبين الفينة البتة، فإنه بمضي المدة يقع الطلاق عندكم فلا يمكنه الفينة، وفي المدة يمكنه الفينة، ولم يحضر وقت عزم الطلاق الذي هو مضي المدة، وحيثن هذا دليل خامس مستقل.

الدليل السادس: أن التخيير بين أمرين يقتضي أن يكون فعلهما إليه، ليصح منه اختيار فعل كل منهما وتركه، وإلا لبطل حكم خياره، ومضي المدة ليس إليه.

الدليل السابع: أنه سبحانه قال: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٧]، فافتضى أن يكون الطلاق قولاً يُسمع، ليحسن ختم الآية بصفة السمع.

الدليل الثامن: أنه لو قال لغريمه: لك أجل أربعة أشهر، فإن وفيتني، قبلت منك، وإن لم تُوفني، حبستك، كان مقتضاه أن الوفاء والحبس بعد المدة لا فيها، ولا يُعقل المخاطب غير هذا.

فإن قيل: ما نحن فيه نظير قوله: لك الخيار ثلاثة أيام، فإن فسخت البيع وإلا لزمك، ومعلوم أن الفسخ إنما يقع في الثلاث لا بعدها؟ قيل: هذا من أقوى حُججنا عليكم، فإن موجب العقد للزوم، فجعل له الخيار في مدة ثلاثة أيام، فإذا انقضت ولم يفسخ، عاد العقد إلى حكمه، وهو الزوم، وهكذا الزوجة لها حق على الزوج في الوطء، كما له حق عليها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَمْنُنَ الَّذِي أَلْزَمَهُنَّ بِالنَّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فجعل له الشارع امتناع أربعة أشهر لا حق لها فيهن، فإذا انقضت المدة، عادت على حقها بموجب العقد، وهو المطالبة لا وقوع الطلاق، وحيثن هذا دليل تاسع مستقل.

(إبطال ما عليه اهل

الجاهلية من جعل الإيلاء والظهار طلاقاً)

الدليل العاشر: أنه سبحانه جعل للمولين شيئاً، وعليهم شيئين، فالذي لهم ترئص المدة المذكورة، والذي عليهم إما الفينة وإما الطلاق، وعندكم ليس عليهم إلا الفينة فقط، وأما الطلاق فليس عليهم، بل ولا إليهم، وإنما هو إليه سبحانه عند انقضاء المدة، فيحكم بطلانها عقوب انقضاء المدة شاء أو أبى، ومعلوم أن هذا ليس إلى المؤلي ولا عليه، وهو خلاف ظاهر النص. قالوا: ولأنها يمين بالله تعالى توجب الكفارة، فلم يقع بها الطلاق كسائر الأيمان، ولأنها مدة قدرها الشرع، لم تتقدمها الفرقة، فلا يقع بها بينونة، كأجل العنين، ولأنه لفظ لا يصح أن يقع به الطلاق المعجل، فلم يقع به المؤجل كالظهار،

ولأن الإيلاء كان طلاقاً في الجاهلية، فنسخ كالظهار، فلا يجوز أن يقع به الطلاق لأنه استيفاء للحكم المنسوخ، ولما كان عليه أهل الجاهلية.

قال الشافعي: كانت الفِرْقُ الجاهلية تحلِف بثلاثة أشياء: بالطلاق، والظهار، والإيلاء، فنقل الله سبحانه وتعالى الإيلاء والظهار عما كانا عليه في الجاهلية من إيقاع الفرقة على الزوجة إلى ما استقرَّ عليه حكمهما في الشرع، وبقي حكم الطلاق على ما كان عليه، هذا لفظه [١١٥/٥] (٢٧٧).

قالوا: ولأن الطلاق إنما يقع بالصريح والكناية، وليس الإيلاء واحداً منهما، إذ لو كان صريحاً، لوقع معجلاً إن أطلقه، أو إلى أجل مسمى إن قيده ولو كان كناية، لرجع فيه إلى نيته، ولا يردُّ على هذا اللعان، فإنه يُوجب الفسخ دون الطلاق، والفسخ يقع بغير قول، والطلاق لا يقع إلا بالقول.

قالوا: وأما قراءة ابن مسعود، فغايثها أن تدلَّ على جواز الفينة في مدة التريض، لا على استحقاق المطالبة بها في المدة، وهذا حق لا ننكره.

وأما قولكم: جواز الفينة في المدة دليل على استحقاقها فيها، فهو باطل بالدليل المؤجل.

وأما قولكم: إنه لو كانت الفينة بعد المدة، لزادت على أربعة أشهر، فليس بصحيح، لأنَّ الأربعة الأشهر مدة لزمن الصبر الذي لا يستحق فيه المطالبة، فبمجرد انقضائها يستحقُّ عليه الحق، فلها أن تعجل المطالبة به، وإما أن تُنظره، وهذا كسائر الحقوق المعلقة بأجال معدودة، إنما تُستحق عند انقضاء آجالها، ولا يُقال: إن ذلك يستلزم الزيادة على الأجل، فكذا أجل الإيلاء سواء.

فصل

(الحجة في أن المؤلي مخير بين الطلاق والعود)

ومسألة في قوله: إن وطئتك فانت طالق ثلاثاً)

ودلت الآية على أن كلَّ مَنْ صَحَّ منه الإيلاء بأيِّ يمين حلف، فهو مؤلٍ حتى يَبْرَ، إما أن يفِيء، وإما أن يُطلق، فكان في هذا حجة لما ذهب إليه مَنْ يقول من السلف والخلف: إن المؤلي باليمين بالطلاق، إما أن يفِيء، وإما أن يطلق، ومن يلزمه الطلاق على كل

حال لم يُمكنه إدخال هذه اليمين في حكم الإيلاء، فإنه إذا قال: إن وطئتك إلى سنة، فانت طالق ثلاثاً، فإذا مضت أربعة أشهر لا يقولون له: إما أن تطأ، وإما أن تطلق، بل يقولون له: إن وطئت طلقت، وإن لم تطأها، طلقنا عليك، وأكثرهم لا يُمكنه من الإيلاج لوقوع النزاع الذي هو جزء الوطء في أجنبية، ولا جواب عن هذا إلا أن يقال: بأنه غير مؤل، وحينئذ فيقال: فلا تُوقفوه بعد مضي الأربعة الأشهر، وقولوا: إن له أن يمتنع من وطئها بيمين الطلاق دائماً، فإن ضربتم له الأجل، أثبت له حكم الإيلاء من غير يمين، وإن جعلتموه مؤلياً ولم تجيزوه، خالفتم حكم الإيلاء، وموجب النص، فهذا بعض حجج هؤلاء على منازعهم.

فإن قيل: فما حكم هذه المسألة، وهي إذا قال: إن وطئتُك، فانت طالق ثلاثاً؟

قيل: اختلف الفقهاء فيها، هل يكون مؤلياً أم لا؟ على قولين، وهما روايتان عن أحمد، وقولان للشافعي في الجديد: أنه يكون مؤلياً، وهو مذهب أبي حنيفة، ومالك. وعلى قولين: فهل يُمكن من الإيلاج؟ فيه وجهان لأصحاب أحمد والشافعي.

أحدهما: أنه لا يُمكن منه، بل يحرم عليه، لأنها بالإيلاج تطلق عندهم ثلاثاً، فيصيرُ ما بعد الإيلاج محرماً، فيكون الإيلاج محرماً، وهذا كالصائم إذا تيقن أنه لم يبق إلى طلوع الفجر إلا قدر إيلاج الذكر دون إخراجِه، حَرَّمَ عليه الإيلاج، وإن كان في زمن الإباحة، لوجود الإخراج في زمن الحظر، كذلك هاهنا يحرم عليه الإيلاج، وإن كان قبل الطلاق لوجود الإخراج بعده.

والثاني: أنه لا يحرم عليه الإيلاج، قال الماوردي: وهو قول سائر أصحابنا، لأنها زوجته، ولا يحرم عليه الإخراج، لأنه ترك، وإن طلقت بالإيلاج، ويكون المحرم بهذا الوطء استدامة الإيلاج لا الابتداء والنزع، وهذا ظاهر نص الشافعي، فإنه قال: لو طلع الفجر على الصائم وهو مجامع وأخرجه مكانه كان على صومه، فإن مكث بغير إخراجِه أظُر، ويكفّر. وقال في كتاب الإيلاء: ولو قال: إن وطئتُك، فانت طالق ثلاثاً وقف، فإن

أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا أَبْقَتْهُ
فَفَتَقَلُّوهُ، أَمْ كَيْفَ يَفْعَلُ؟ فَسَلِ لِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،
فَسَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَكَرِهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسَائِلَ
وَعَابَهَا، حَتَّى كَبَّرَ عَلَى عَاصِمٍ مَا سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ
ﷺ، ثُمَّ إِنَّ عَومِرًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ،
فَقَالَ: «قَدْ نَزَلَ فِيكَ وَفِي صَاحِبَتِكَ، فَادْهَبْ فَأَتِ
بِهَا»، فَتَلَّعْنَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا فَرَعَا قَالَ:
كَذِبَتْ عَلَيْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَمْسَكْتُهَا، فَطَلَقْتُهَا ثَلَاثًا
قَبْلَ أَنْ يَأْتِرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. قَالَ الزَّهْرِيُّ: فَكَانَتْ
تِلْكَ سَنَةَ الْمُتَلَاعِنَيْنِ. قَالَ سَهْلٌ: وَكَانَتْ حَامِلًا،
وَكَانَ ابْنُهَا يُنْسَبُ إِلَى أُمِّهِ، ثُمَّ جَرَتْ السَّنَةُ أَنْ يَرِيَهَا
وَتَرِثَ مَتْنَهُ مَا قَرَضَ اللَّهُ لَهَا.

وفي لفظ: فتلاعنا في المسجد، ففارقها عند
النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «ذَاكُمُ التَّفْرِيقُ بَيْنَ كُلِّ
مُتَلَاعِنَيْنِ» [البخاري: ٥٣٠٩، ومسلم: ٣٧٤٣].

وقول سهل: وكانت حاملاً إلى آخره، هو عند
البخاري من قول الزهري، وللبخاري: ثُمَّ قَالَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «انْظُرُوا فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَسْحَمُ أَدْعَجَ
الْعَيْنَيْنِ عَظِيمَ الْأَلْيَتَيْنِ، خَذَلَجَ السَّاقَيْنِ فَلَا أَحْسِبُ
عُومِرًا إِلَّا قَدْ صَدَقَ عَلَيْهَا، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَحْوَرُ كَأَنَّهُ
وَحْرَةٌ فَلَا أَحْسِبُ عُومِرًا إِلَّا قَدْ كَذَبَ عَلَيْهَا»،
فجاءت به على الثغب الذي نعت به رسول الله ﷺ
من تصديق عويمر.

وفي لفظ: وكانت حاملاً، فأنكر حملها^(١)
[البخاري: ٤٧٤٥].

وفي «صحيح مسلم»: من حديث ابن عمر، أن
فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَرَأَيْتَ لَوْ وَجَدَ
أَحَدُنَا امْرَأَتَهُ عَلَى فَاحِشَةٍ، كَيْفَ يَصْنَعُ، إِنْ تَكَلَّمَ،
تَكَلَّمَ بِأَمْرِ عَظِيمٍ، وَإِنْ سَكَتَ، سَكَتَ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ؟
فَسَكَتَ النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمْ يُجِبْهُ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ، أَتَاهُ
فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي سَأَلْتُكَ عَنْهُ قَدْ ابْتُلِيتَ بِهِ، فَانْزِلْ
اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ فِي سُورَةِ النُّورِ: ﴿وَالَّذِينَ
يُرِيُونَ آثَرَهُمْ﴾ [النور: ٦]، فتلاهن عليه ووعظه، وذكره
وأخبره أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة.
قَالَ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا كَذَبْتُ عَلَيْهَا، ثُمَّ

فَاءَ، فَإِذَا غَيَّبَ الْحَشْفَةَ، طَلَقْتَ مِنْهُ ثَلَاثًا، فَإِنْ أَخْرَجَهُ
ثُمَّ أَدْخَلَهُ، فَعَلِيهِ مَهْرٌ مِثْلُهَا. قَالَ هَؤُلَاءِ: وَيَدُلُّ عَلَى
الْجَوَازِ أَنَّ رَجُلًا لَوْ قَالَ لِرَجُلٍ: ادْخُلْ دَارِي، وَلَا
تَقُمْ، اسْتَبَاحَ الدَّخُولَ لوجوده عن إذن، ووجب عليه
الخروجُ لَمَنَعِهِ مِنَ الْمَقَامِ، وَيَكُونُ الْخُرُوجُ وَإِنْ كَانَ
فِي زَمَنِ الْحَظَرِ مَبَاحًا، لِأَنَّهُ تَرَكَ، كَذَلِكَ هَذَا الْمُؤَلِّي
يَسْتَبِيحُ أَنْ يُولِجَ، وَيَسْتَبِيحُ أَنْ يَنْزِعَ، وَيَحْرُمُ عَلَيْهِ
اسْتِدْمَاةُ الْإِيلَاجِ، وَالْخِلَافُ فِي الْإِيلَاجِ قَبْلَ الْفَجْرِ
وَالنَّزْعُ بَعْدَهُ لِلصَّائِمِ، كَالْخِلَافِ فِي الْمُؤَلِّي، وَقِيلَ:
يَحْرُمُ عَلَى الصَّائِمِ الْإِيلَاجُ قَبْلَ الْفَجْرِ، وَلَا يَحْرُمُ عَلَى
الْمُؤَلِّي، وَالْفَرْقُ أَنَّ التَّحْرِيمَ قَدْ يَطْرَأُ عَلَى الصَّائِمِ بِغَيْرِ
الْإِيلَاجِ، فَجَازَ أَنْ يَحْرُمَ عَلَيْهِ الْإِيلَاجُ، وَالْمُؤَلِّي لَا
يَطْرَأُ عَلَيْهِ التَّحْرِيمُ بِغَيْرِ الْإِيلَاجِ، فَافْتَرَقَا.

وقالت طائفة ثالثة: لَا يَحْرُمُ عَلَيْهِ الْوُطْءُ، وَلَا
تَطَلُّقُ عَلَيْهِ الزَّوْجَةُ، بَلْ يُوقَفُ، وَيَقَالُ لَهُ: مَا أَمْرُ
اللَّهِ: إِمَّا أَنْ تَفِيءَ، وَإِمَّا أَنْ تَطْلُقَ. قَالُوا: وَكَيْفَ
يَكُونُ مُؤَلِّيًا وَلَا يُمَكَّنُ مِنَ الْفِتْنَةِ. بَلْ يُلْزَمُ بِالطَّلَاقِ،
وَإِنْ مَكَنَ مِنْهَا، وَقَعَ بِهِ الطَّلَاقُ، فَالطَّلَاقُ وَاقِعٌ بِهِ
عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ مَعَ كَوْنِهِ مُؤَلِّيًا؟ فَهَذَا خِلَافُ ظَاهِرِ
الْقُرْآنِ، بَلْ يَقَالُ لِهَذَا: إِنْ فَاءَ لَمْ يَقَعْ بِهِ الطَّلَاقُ، وَإِنْ
لَمْ يَفِيءَ، أُلْزِمَ بِالطَّلَاقِ، وَهَذَا مَذْهَبٌ مِنْ يَرَى الْيَمِينَ
بِالطَّلَاقِ لَا يُوجِبُ طَلَاقًا، وَإِنَّمَا يُجْزِئُهُ كِفَارَةُ يَمِينٍ،
وَهُوَ قَوْلُ أَهْلِ الظَّاهِرِ، وَطَاوُسٍ، وَعُكْرَمَةَ، وَجَمَاعَةٍ
مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ، وَاخْتِيَارَ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ
قَدَسَ اللَّهُ رُوحَهُ.

حُكْمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

فِي اللَّعَانِ

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُرِيثُونَ زَوَاجَهُمْ وَكَرِهُوا مِمَّا شَاءَ إِلَّا
أَنَّهُمْ مُشَاهِدَةٌ لِمِصْرٍ أَرَبَعَ شَهَدَاتٍ بِأَنَّهُ لَيْسَ بِالْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾
وَالْمُنَافِقِينَ أَلَمْ نَعْنِ أَفْوَ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢﴾ وَيَذَرُوا عَنَّا
الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِأَنَّهُ لَيْسَ بِالْمُشْرِكِينَ ﴿٣﴾
وَالْمُنَافِقِينَ أَلَمْ نَعْنِ أَفْوَ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ﴿٤﴾﴾
[النور: ٦-٩].

وثبت في «الصحيحين»: من حديث سهل بن
سعد، أن عُومِرًا الْعَجَلَانِيَّ قَالَ لِعَاصِمِ بْنِ عَدِي:

(١) والأسحم: الشديد السواد، وخذلج الساقين: عظيمهما، والوحرة: دُوبية شبه الوزغة تلزق بالأرض جمعها: وحر.

دعاها فوعظَهَا، وذكرها، وأخبرها أن عذاب الدنيا أهونُ من عذاب الآخرة، قالت: لا والذي بَعَثَكَ بالْحَقِّ إنه لكاذِبٌ، فبدأ الرَّجُلُ فَشَهِدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إنه لمن الصادقين، والخامسة أن لعنةَ اللَّهِ عليه إن كان من الكاذِبِينَ، ثم ثنى بالمرأة، فشَهِدَتْ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إنه لمن الكاذِبِينَ، والخامسة أن عَصَبَ اللَّهِ عليها إن كان من الصّادقين، ثم فَرَّقَ بينهما [مسلم: ٣٧٤٦].

وفي «الصحيحين» عنه، قال رسولُ اللَّهِ ﷺ للمُتَلَاعِنِينَ: «جَسَابُكُمَا عَلَى اللَّهِ، أَحَدُكُمَا كَاذِبٌ، لَا سَبِيلَ لَكَ عَلَيْهَا»، قال: يا رسولَ اللَّهِ! مالي؟ قال: «لَا مَالَ لَكَ، إِنْ كُنْتَ صَدَقْتَ عَلَيْهَا، فَهُوَ بِمَا اسْتَحْلَلْتَ مِنْ فَرْجِهَا، وَإِنْ كُنْتَ كَذَبْتَ عَلَيْهَا، فَهُوَ أَبْعَدُ لَكَ مِنْهَا».

وفي لفظ لهما: فَرَّقَ رسولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ الْمُتَلَاعِنِينَ، وقال: «وَاللَّهِ إِنْ أَحَدُكُمَا كَاذِبٌ، فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ؟» [البخاري: ٥٣١٢، ومسلم: ٣٧٤٨].

وفيهما عنه: أن رجلاً لَاعَنَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ففَرَّقَ رسولُ اللَّهِ ﷺ بينهما، والحق الولد بأمه [البخاري: ٥٣١٥، ومسلم: ٣٧٥٢].

وفي «صحيح مسلم»: من حديث ابن مسعود رضي الله عنه في قِصَّةِ الْمُتَلَاعِنِينَ، فشَهِدَ الرَّجُلُ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إنه لَمِنَ الصّادِقِينَ، ثم شهد الخامسة أن لعنةَ اللَّهِ عليه إن كان من الكاذِبِينَ، فذهبت لتلعن، فقال لها رسولُ اللَّهِ ﷺ: «مَهْ! قَائِبَتْ، فَلَعَنْتُ، فَلَمَّا أَدْبَرَ، قَالَ: لَعَلَّهَا أَنْ تَجِيءَ بِهِ أَسْوَدَ جَعْدًا؟ فَجَاءَتْ بِهِ أَسْوَدَ جَعْدًا» [مسلم: ٣٧٥٥].

وفي «صحيح مسلم» من حديث أنس بن مالك، أن هِلَالَ بن أمية قذف امرأته بِشَرِيكِ بن سَخْمَاءَ، وكان أخا البراء بن مالك لأمه، وكان أوَّلَ رجلٍ لَاعَنَ فِي الإسلام، فقال النبي ﷺ: «أَبْصِرُوهَا فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَيْضَ سَبْطًا قُضِيَ الْعَيْنَتَيْنِ، فَهُوَ لِهِلَالِ بن أمية، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَكْحَلُ جَعْدًا حَمَشَ السَّاقَيْنِ، فَهُوَ لِشَرِيكِ ابن سَخْمَاءَ»، قال: فَأُبَيِّنْتُ أَنَّهَا جَاءَتْ بِهِ أَكْحَلُ جَعْدًا حَمَشَ السَّاقَيْنِ^(١) [مسلم: ٣٧٥٧].

وفي «الصحيحين»: من حديث ابن عباس نحو هذه القصة، فقال له، رجل: أُمِّي الْمَرْأَةُ الَّتِي قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ رَجَمْتُ أَحَدًا بِغَيْرِ بَيِّنَةٍ لَرَجَمْتُ هَذِهِ»، فقال ابنُ عباس: لا، يَلْكَ امرأةٌ كَانَتْ تَظْهَرُ فِي الإِسْلَامِ السُّوءَ [البخاري: ٥٣١٦، ومسلم: ٣٧٥٨].

ولأبي داود في هذا الحديث عن ابن عباس، ففَرَّقَ رسولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَهُمَا وَقَضَى أَنْ لَا يُدْعَى وَلَدُهَا لِأَبٍ، وَلَا تَرْمَى، وَلَا يُرْمَى وَلَدُهَا وَمَنْ رَمَاهَا، أَوْ رَمَى وَلَدَهَا، فَعَلِيهِ الْحَدُّ، وَقَضَى أَلَّا يَتَّ لَهَا عَلَيْهِ، وَلَا قُوَّةَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمَا يَتَفَرَّقَانِ مِنْ غَيْرِ طَلَاقٍ، وَلَا مَتْرُوفٍ عَنْهَا [أحمد: ٢١٣١، وأبو داود: ٢٢٥٦، وفي سننه ضعيف].

وفي القصة قال عكرمة: فكان بعد ذلك أميراً على مصر وما يُدعى لأب.

وذكر البخاري: أن هِلَالَ بن أمية قذف امرأته عند رسولِ اللَّهِ ﷺ بِشَرِيكِ بن سَخْمَاءَ، فقال النبي ﷺ: «الْبَيِّنَةُ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ»، فقال: يا رسولَ اللَّهِ! إِذَا رَأَى أَحَدُنَا عَلَى امْرَأَتِهِ رَجُلًا يَنْطَلِقُ يَلْتَمِسُ الْبَيِّنَةَ؟ فَجَعَلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «الْبَيِّنَةُ وَالْأَحَدُ فِي ظَهْرِكَ»، فقال: والذي بعثك بالحق إني لصَادِقٌ، وَلَيُتَزَلَّ اللَّهُ مَا يُبْرَى ظَهْرِي مِنَ الْحَدِّ، فَنَزَلَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ: «وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ...» [النور: ٦]. الآيات، فانصرف النبي ﷺ إِلَيْهَا، فَجَاءَ هِلَالَ، فَشَهِدَ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدُكُمَا كَاذِبٌ فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ؟ فَشَهِدَتْ، فَلَمَّا كَانَتْ عِنْدَ الْخَامِسَةِ وَقَفَّوْهَا، وَقَالُوا: إِنَّهَا مُوجِبَةٌ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: فَتَلْكَاتٍ وَنَكَصَتْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهَا تَرْجِعُ، ثُمَّ قَالَتْ: لَا أَقْضِي قَوْمِي سَائِرَ الْيَوْمِ، فَمَضَتْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَبْصِرُوهَا فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَكْحَلُ الْعَيْنَتَيْنِ، سَابِغُ الْأَلْيَتَيْنِ، خَدْلَجُ السَّاقَيْنِ، فَهُوَ لِشَرِيكِ بن سَخْمَاءَ»، فَجَاءَتْ بِهِ كَذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ لَا مَا مَضَى مِنْ كِتَابِ اللَّهِ كَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ» [البخاري: ٤٧٤٧].

وفي «الصحيحين»: أن سعد بن عُبَادَةَ، قال: يا رسولَ اللَّهِ! أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَجِدُ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا

(١) وقضي العينين: قضيه على وزن فعل: فاسلعهما بكثرة دمع أو حمرة أو غير ذلك.

مسلمين عدلين حرين غير محدودين في قذف، وهو رواية عن أحمد.

وماخذ القولين، أن اللعان يجمع وصفين: اليمين والشهادة، وقد سماه الله سبحانه شهادة، وسماه رسول الله ﷺ يميناً حيث يقول: «لَوْلَا الْإِيمَانُ، لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ»، فمن غلب عليه حكم الأيمان قال: يَصِحُّ مِنْ كُلِّ مَنْ يَصِحُّ يَمِينُهُ. قالوا: ولعموم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْزَنَى﴾ [النور: ٦]، قالوا: وقد سماه رسول الله ﷺ يميناً. قالوا: ولأنه مفتقر إلى اسم الله، وإلى ذكر القسم المؤكد وجوابه. قالوا: ولأنه يستوي فيه الذكر والأنثى، بخلاف الشهادة. قالوا: ولو كان شهادة، لما تكرّر لفظه، بخلاف اليمين، فإنه قد يشرع فيها التكرار، كإيمان القسامة. قالوا: ولأن حاجة الزوج التي لا تصيح منه الشهادة إلى اللعان ونفي الولد، كحاجة من تصيح شهادته سواء، والأمر الذي ينزل به مما يدعو إلى اللعان، كالذي ينزل بالعدل الحر، والشرعة لا ترفع ضرر أحد النوعين، وتجعل له فرجاً ومخرجاً مما نزل به، وتدع النوع الآخر في الأصار والأغلال، لا فرج له مما نزل به، ولا مخرج، بل يستغيث فلا يُغاث، ويستجير فلا يُجار، إن تكلم تكلم بأمر عظيم، وإن سكت سكت على مثله، قد ضاقت عنه الرحمة التي وسعت من تصيح شهادته، وهذا تاباه الشرعة الواسعة الحنيفة السمحة.

قال الآخرون: قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْزَنَى﴾ وَكَرَّ بَيْنَهُمْ شَهَادَةً إِلَّا أَشْفَعُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ [النور: ٦]، وفي الآية دليل من ثلاثة أوجه.

أحدها: أنه سبحانه استثنى أنفسهم من الشهداء، وهذا استثناء متصل قطعاً، ولهذا جاء مرفوعاً.

والثاني: أنه صرح بأن التعانهم شهادة، ثم زاد سبحانه هذا بياناً، فقال: ﴿وَيَذَرُوا عَنَّا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْكَذِبِيِّ﴾ [النور: ٨].

والثالث: أنه جعله بدلاً من الشهود، وقائماً مقامهم عند عدمهم.

قالوا: وقد روى عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن النبي ﷺ قال: «لَا لِعَانَ بَيْنَ مَمْلُوكَيْنِ وَلَا كَافِرَيْنِ»، ذكره أبو عمر بن عبد البر في «التمهيد».

أيقنله؟ فقال رسول الله ﷺ: لا، فَقَالَ سَعْدُ: بَلَى وَالَّذِي بَعَثَ بِالْحَقِّ، فقال رسول الله ﷺ: «اسْمَعُوا إِلَى مَا يَقُولُ سَيِّدُكُمْ»: وفي لفظ آخر: يا رسول الله! إن وجدت مع امرأتي رجلاً أمهلته حتى أتني بأربعة شهداء؟ قال: «نعم». وفي لفظ آخر: لو وجدت مع أهلي رجلاً لم أهجه حتى أتني بأربعة شهداء؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم»، قال: كَلَّا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ نَبِيًّا إِنْ كُنْتُ لِأَعَاجِلُهُ بِالسَّيْفِ قَبْلَ ذَلِكَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اسْمَعُوا إِلَى مَا يَقُولُ سَيِّدُكُمْ إِنَّهُ لَعَيُورٌ وَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللَّهِ أَغْيَرُ مِنِّي».

وفي لَفْظٍ: لو رأيت مع امرأتي رجلاً لضربتُه بالسَّيْفِ غَيْرَ مُضَفَّحٍ، فقال النبي ﷺ: «اتَّعَجِبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ، قَوْلَ اللَّهِ لَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللَّهِ أَغْيَرُ مِنِّي، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا شَخْصَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ، وَلَا شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ اللَّهُ الْمُرْسَلِينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، وَلَا شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَذْحَةُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَعَدَ اللَّهُ الْجَنَّةَ» [البغاري: ٧٤١٦، ومسلم: ٣٧١٦].

فصل

واستقيّد من هذا الحكم النبوي عدة أحكام:

(يصح اللعان من كل زوجين)

وان كانا فاسقين محدودين في قذف أو كافرين)

الحكم الأول: أن اللعان يصح من كل زوجين سواء كانا مسلمين أو كافرين، عدلين أو فاسقين محدودين في قذف، أو غير محدودين، أو أحدهما كذلك، قال الإمام أحمد في رواية إسحاق بن منصور: جميع الأزواج يلتعنون، الحر من الحرّة والأمة إذا كانت زوجة، والعبد من الحرّة، والأمة إذا كانت زوجة، والمسلم من اليهودية والنصرانية، وهذا قول مالك وإسحاق وقول سعيد بن المسيب، والحسن، وربيعة، وسليمان بن يسار.

(من قال بان اللعان لا يكون إلا بين زوجين)

مسلمين عدلين حرين غير محدودين في قذف)

وذهب أهل الرأي، والأوزاعي، والشوري، وجماعة إلى أن اللعان لا يكون إلا بين زوجين

وذكر الدارقطني من حديثه أيضاً، عن أبيه، عن جده مرفوعاً: «أَرْبَعَةٌ لَيْسَ بَيْنَهُمْ لِعَانَ: لَيْسَ بَيْنَ الْحُرِّ وَالْأَمَةِ لِعَانٌ، وَلَيْسَ بَيْنَ الْحُرِّ وَالْعَبْدِ لِعَانٌ، وَلَيْسَ بَيْنَ الْمُسْلِمِ وَالْيَهُودِيِّ لِعَانٌ، وَلَيْسَ بَيْنَ الْمُسْلِمِ وَالنَّصْرَانِيِّ لِعَانٌ» [الدارقطني: (١٦٣/٣)، وابن ماجه: ٢٠٧١].

وذكر عبد الرزاق في «مصنفه»، عن ابن شهاب، قال: من وصية النبي ﷺ لِعَتَابِ بْنِ أَسِيدٍ: أَنْ لَا لِعَانَ بَيْنَ أَرْبَعٍ، فذكر معناه [عبد الرزاق: (١٢٤٩٨)].

قالوا: ولأن اللعانَ جُعِلَ بَدَلُ الشَّهَادَةِ، وقائماً مقامها عند عدمها فَلَا يَصِحُّ إِلَّا مَنْ تَصَحَّحَ مِنْهُ، ولهذا تُحَدُّ الْمَرْأَةُ بِلِعَانِ الزَّوْجِ، ونكولها تنزيلاً للعانته منزلة أربعة شهود.

قالوا: وأما الحديث: «لَوْلَا مَا مَضَى مِنْ الْأَيْمَانِ، لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ»، فالمحفوظ فيه: لولا ما مضى من كتاب الله، هذا لفظ البخاري في «صحيحه». وأما قوله: «لَوْلَا مَا مَضَى مِنَ الْأَيْمَانِ، فَمِنْ رَوَايَةِ عِبَادِ بْنِ مَنْصُورٍ، وَقَدْ تَكَلَّمَ فِيهِ غَيْرُ وَاحِدٍ. قَالَ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ: لَيْسَ بِشَيْءٍ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ الْجَنِيدِ الرَّازِيُّ: مَتْرُوكٌ قَدْرِي. وَقَالَ النَّسَائِيُّ: ضَعِيفٌ».

وقد استقرت قاعدة الشريعة أن البينة على المدعى، واليمين على المدعى عليه، والزواج ههنا مُدْعٍ، فلعانته شهادة، ولو كان يميناً لم تُشرع في جانبهِ.

قال الأولون: أما تسميته شهادة، فليقول الملتصق في يمينه، أشهد بالله، فسمي بذلك شهادة، وإن كان يميناً اعتباراً بلفظها. قالوا: وكيف وهو مصرح فيه بالقسم وجوابه، وكذلك لو قال: أشهد بالله، انعقدت يمينته بذلك، سواء نوى اليمين أو أطلق، والعربُ تُعَدُّ ذَلِكَ يَمِيناً فِي لَفْظِهَا وَاسْتِعْمَالِهَا. قَالَ قَيْسٌ:

فَأَشْهَدُ عِنْدَ اللَّهِ أَنِّي أَجِبُهَا

فَهَذَا لَهَا عِنْدِي فَمَا عِنْدَهَا لِيَا^(١)

وفي هذا حجة لمن قال: إن قوله: «أشهد» تنعقد به اليمين، ولو لم يقل: بالله، كما هو إحدى الروایتين عن أحمد. والثانية: لا يكون يميناً إلا بالنية، وهو قول الأكثرين. كما أن قوله: أشهد بالله يمين عند الأكثرين بمطلقه.

قالوا: وأما استثناءه سبحانه أنفسهم من الشهداء، فيقال أولاً: «إلا» ههنا صفة بمعنى غير، والمعنى: ولم يكن لهم شهداء غير أنفسهم، فإن «غيراً»، و«إلا» يتعاضدان الوصفية والاستثناء، فاستثنى «غير» حملاً على «إلا»، ويوصف به «إلا» حملاً على «غير».

ويقال ثانياً: إن «أنفسهم» مستثنى من الشهداء، ولكن يجوز أن يكون منقطعاً على لغة بني تميم، فإنهم يُبَدِّلُونَ فِي الْانْقِطَاعِ، كما يُبَدِّلُ أَهْلُ الْحِجَازِ وَهُمْ فِي الْإِتِّصَالِ.

(أنواع التأكيد في الشهادة على اللعان)

ويقال ثالثاً: إنما استثنى «أنفسهم» من الشهداء لأنه نزلهم منزلتهم في قبول قولهم، وهذا قوي جداً على قول من يرحم المرأة باللعان الزوج إذا نكلت وهو الصحيح، كما يأتي تقريره إن شاء الله تعالى. والصحيح: أن لعانهم يجمع الوصفين، اليمين والشهادة، فهو شهادة مؤكدة بالقسم والتكرار، ويمين مغلظة بلفظ الشهادة والتكرار لاقتضاء الحال تأكيد الأمر، ولهذا اعتبر فيه من التأكيد عشرة أنواع: أحدها: ذكر لفظ الشهادة.

الثاني: ذكر القسم بأحد أسماء الرب سبحانه وأجمعها لمعاني أسمائه الحسنى، وهو اسم الله جلَّ ذِكْرُهُ.

الثالث: تأكيد الجواب بما يؤكد به المقسم عليه: من «إن»، واللام، وإتيانه باسم الفاعل الذي هو صادق وكاذب دون الفعل الذي هو صدق وكذب.

الرابع: تكرار ذلك أربع مرات.

الخامس: دعاؤه على نفسه في الخامسة بلعنة الله إن كان من الكاذبين.

(١) البيت في ديوانه ص(٣٠٠) من قصيدته التي مطلعها:

تَذَكَّرْتُ لَيْلَى وَالسَّيْنَيْنِ الْحَوَالِيَا

وَأَيَّامٌ لَا تَخْشَى عَلَى اللَّهِو نَاهِيَا

السادس: إخباره عند الخامسة أنها الموجبة لعذاب الله، وأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة.

السابع: جعل لعانه مقتضى لحصول العذاب عليها، وهو إما الحد أو الحبس، وجعل لعانها دارئاً للعذاب عنها.

الثامن: أن هذا اللعان يُوجب العذاب على أحدهما إما في الدنيا، وإما في الآخرة.

التاسع: التفريق بين المتلاعنين، وخراب بيتها، وكسرها بالفراق.

العاشر: تأييد تلك الفقرة ودوام التحريم بينهما، فلما كان شأن هذا اللعان هذا الشأن، جعل يميناً مقروناً بالشهادة، وشهادة مقرونة باليمين، وجعل الملتعن لقبول قوله كالشاهد، فإن نكلت المرأة، مضت شهادته وحُذِّث، وأفادت شهادته ويمينه شيئين: سقوط الحد عنه، ووجوبه عليها. وإن التعتت المرأة وعارضت لعانه بلعان آخر منها، أفاد لعانه سقوط الحد عنه دون وجوبه عليها، فكان شهادة ويميناً بالنسبة إليه دونها، لأنه إن كان يميناً محضة فهي لا تحد بمجرد حلفه، وإن كان شهادة فلا تحد بمجرد شهادته عليها وحده. فإذا انضم إلى ذلك نكولها، قوي جانب الشهادة واليمين في حقه بتأكيده ونكولها، فكان دليلاً ظاهراً على صدقه، فأسقط الحد عنه، وأوجب عليها، وهذا أحسن ما يكون من الحكم، ومن أحسن من الله حكماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ، وقد ظهر بهذا أنه يمين فيها معنى الشهادة، وشهادة فيها معنى اليمين.

وأما حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، فما أبين دلالته لو كان صحيحاً بوصوله إلى عمرو، ولكن في طريقه إلى عمرو مهالك ومفاوز. قال أبو عمرو بن عبد البر: ليس دون عمرو بن شعيب من يحتج به.

وأما حديثه الآخر الذي رواه الدارقطني، فعلى طريق الحديث عثمان بن عبد الرحمن الوقاصي، وهو متروك بإجماعهم، فالطريق به مقطوعة.

وأما حديث عبد الرزاق، فمراسيل الزهري عندهم

ضعيفة لا يُحتج بها، وعُتِّبُ بْنُ أَسِيدٍ كَانَ عَامِلًا لِلنَّبِيِّ ﷺ عَلَى مَكَّةَ، وَلَمْ يَكُنْ بِمَكَّةَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا الْبَتَّةَ حَتَّى يُوصِيَهُ أَنْ لَا يُلَاعِنَ بَيْنَهُمَا.

قالوا: وأما ردكم لقوله: «لولا ما مضى من الأيمان، لكان لي ولها شأن» وهو حديث رواه أبو داود في «سننه»، وإسناده لا بأس به، وأما تعلُّقكم فيه على عبَّاد بن منصور، فأكثر ما عيب عليه أنه قدرى داعية إلى القدر^(١)، وهذا لا يوجب رد حديثه، ففي الصحيح: الاحتجاجُ بجماعة مِنَ الْقَدَرِيَّةِ وَالْمَرْجُتَةِ وَالشَّيعَةِ مِمَّنْ غُلِّمَ صِدْقُهُ^(٢)، ولا تنافي بين قوله: «لولا ما مضى من كتاب الله تعالى»، «لولا ما مضى من الأيمان»، فيحتاج إلى ترجيح أحد اللفظين، وتقديمه على الآخر، بل الأيمان المذكورة هي في كتاب الله، وكتاب الله تعالى حكمه الذي حكم به بين المتلاعنين، وأراد ﷺ: لولا ما مضى من حكم الله الذي فصل بين المتلاعنين، لكان لها شأن آخر.

قالوا: وأما قولكم: إن قاعدة الشريعة استقرت على أن الشهادة في جانب المدعى، واليمين في جانب المدعى عليه، فجوابه من وجوه، أحدها: أن الشريعة لم تستقر على هذا، بل قد استقرت في القسامة بأن يبدأ بأيمان المدعى، وهذا لقوة جانبهم باللوث، وقاعدة الشريعة أن اليمين تكون من جنبة أقوى المتداعيين، فلما كان جانب المدعى عليه قوياً بالبراءة الأصلية، شرعت اليمين في جانبه، فلما قوي جانب المدعي في القسامة باللوث كانت اليمين في جانبه، وكذلك على الصحيح لما قوي جانب المدعى، صارت اليمين في جانبه، فيقال له: احلف واستحق، وهذا من كمال حكمة الشارع واقتضائه للمصالح بحسب الإمكان، ولو شرعت اليمين من جانب واحد دائماً، لذهبت قوة الجانب الراجح هدرًا، وحكمة الشارع تأبى ذلك، فالذي جاء به هو غاية الحكمة والمصلحة.

(لذا لم تلتعن المرأة)

فهل تحد أو تحبس حتى تقر أو تلاغن؟

وإذا عُرِفَ هذا، فجانِبِ الزَّوْجِ ههنا أقوى من

(١) بل هو سيء الحفظ ومُدَلَّس، وقد تغير بآخر حياته. (٢) انظر قول ابن حبان في «صحيحه» (١/١٢٠).

كعمر بن الخطاب ومن وافقه، وقد قال عمر بن الخطاب على منبر رسول الله ﷺ: والرجم واجب على كل من زنى من الرجال والنساء إذا كان محصناً إذا قامت بينة، أو كان الحبل، أو الاعتراف [البخاري: ٦٨٢٥، وسلم: ٤٤١٨]. وكذلك قال علي رضي الله عنه، فجعلنا طريق الحد ثلاثة لم يجعلنا فيها اللعان.

قالوا: وأيضاً فهذه لم يتحقق زناها، فلا يجب عليها الحد، لأن تحقق زناها إما أن يكون بلعان الزوج وحده، لأنه لو تحقق به، لم يسقط بلعانها الحد، ولما وجب بعد ذلك حد على قاذفها، ولا يجوز أن يتحقق بنكولها أيضاً، لأن الحد لا يثبت بالنكول، فإن الحد يدرأ بالشبهات، فكيف يجب بالنكول، فإن النكول يحتمل أن يكون لشدة خفوها، أو لعقلة لسانها، أو لدهشها في ذلك المقام الفاضح المخزي، أو لغير ذلك من الأسباب، فكيف يثبت الحد الذي اعتبر في بيته من العدد ضعف ما اعتبر في سائر الحدود، وفي إقراره أربع مرات بالنسبة الصحيحة الصريحة، واعتبر في كل من الإقرار والبينة أن يتضمن وصف الفعل والتصريح به مبالغة في الستر، ودفعاً لإثبات الحد بأبلغ الطرق وأكديها، وتوسلاً إلى إسقاط الحد بأدنى شبهة، فكيف يجوز أن يقضى فيه بالنكول الذي هو في نفسه شبهة لا يقضى به في شيء من الحدود والعقوبات البتة ولا فيما عدا الأموال؟

قالوا: والشافعي رحمه الله تعالى لا يرى القضاء بالنكول في درهم فما دونه، ولا في أدنى تعزير، فكيف يقضى به في أعظم الأمور وأبعدها ثبوتاً، وأسرعها سقوطاً، ولأنها لو أقرت بلسانها، ثم رجعت، لم يجب عليها الحد، فلأن لا يجب بمجرد امتناعها من البمين على براءتها أولى، وإذا ظهر أنه لا تأثير لواحد منهما في تحقق زناها، لم يجز أن يقال بتحقيقه بهما لوجهين:

أحدهما: أن ما في كل واحد منهما من الشبهة لا يزول بضم أحدهما إلى الآخر، كشهادة مئة فاسق، فإن احتمال نكولها لفرط حياتها، وهيبة ذلك المقام

جانبها، فإن المرأة تنكّر زناها، وتبته، والزوج ليس له غرض في هتك حرمة، وإفساد فراشه، ونسبة أهله إلى الفجور، بل ذلك أشوش عليه، وأكره شيء إليه، فكان هذا لوئاً ظاهراً، فإذا انضاف إليه نكول المرأة قوي الأمر جداً في قلوب الناس خاصتهم وعامتهم، فاستقل ذلك بثبوت حكم الزنى عليها شرعاً، فحدث بلعانه، ولكن لما لم تكن إيمانه بمنزلة الشهداء الأربعة حقيقة، كان لها أن تعارضها بإيمان أخرى مثلها يدرأ عنها بها العذاب عذاب الحد المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَلَيْهِمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢٢]، ولو كان إيمانه بينة حقيقة، لما دفعت إيمانها عنها شيئاً، وهذا يتضح بالفصل الثاني المستفاد من قضاء رسول الله ﷺ، وهو أن المرأة إذا لم تلتعن، فهل تحد أو تحبس حتى تقهر، أو تلاعن؟ فيه قولان للفقهاء: فقال الشافعي، وجماعة من السلف والخلف: تحد، وهو قول أهل الحجاز. وقال أحمد: تحبس حتى تقهر أو تلاعن، وهو قول أهل العراق. وعنه رواية ثانية: لا تحبس ويخلى سبيلها.

(حجج من قال، تحبس)

قال أهل العراق ومن وافقهم: لو كان لعان الرجل بينة توجب الحد عليها، لم تملك إسقاطه باللعان، وتكذيب البينة، كما لو شهد عليها أربعة.

قالوا: ولأنه لو شهد عليها مع ثلاثة غيره، لم تحد بهذه الشهادة، فلأن لا تحد بشهادته وحده أولى وأحرى. قالوا: ولأنه أحد المتلاعنين، فلا يوجب حد الآخر، كما لم يوجب لعانها حده.

قالوا: وقد قال النبي ﷺ: «الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي»^(١). ولا ريب أن الزوج هاهنا مدعى.

قالوا: ولأن موجب لعانه إسقاط الحد عن نفسه لا إيجاب الحد عليها، ولهذا قال النبي ﷺ: «الْبَيِّنَةُ وَإِلَّا حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ»، فإن موجب قذف الزوج، كموجب قذف الأجنبية وهو الحد، فجعل الله سبحانه له طريقاً إلى التخلص منه باللعان، وجعل طريق إقامة الحد على المرأة أحد أمرين: إما أربعة شهود، أو اعتراف، أو الحبل عند من يحد به من الصحابة،

(١) حديث حسن بطرقه وشواهد، استوفى تخريجه الحافظ ابن رجب الحنبلي في «جامع العلوم والحكم» ص (٢٩٤، ٢٩٥).

والجمع، وشدة الحَقَر، وعجزها عن النطق، وعُقلة لسانها لا يزولُ بلعان الزوج ولا ينكولها.

الثاني: أن ما لا يقضى فيه باليمين المفردة لا يقضى فيه باليمين مع النكول كسائر الحقوق.

قالوا: وأما قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُهَا الْغَدَابُ أَنْ تَشْهَدَ﴾ [النور: ٨]، فالعذاب ههنا يجوز أن يُراد به الحد، وأن يُراد به الحبس والعقوبة المطلوبة، فلا يتعين إرادة الحد به، فإن الدال على المطلق لا يدلُّ على المقيد إلا بدليل من خارج، وأدنى درجات ذلك الاحتمال، فلا يثبت الحدُّ مع قيامه، وقد يرجح هذا بما تقدّم من قول عمر وعلي رضي الله عنهما: إن الحدَّ إنما يكون بالبيّنة أو الاعتراف أو الحبل.

ثم اختلف هؤلاء فيما يصنع بها إذا لم تُلاعِن، فقال أحمد: إذا أبت المرأة أن تلتعن بعد التعان الرجل، أجبرتها عليه، وهبَّت أن أخكم عليها بالرجم، لأنها لو أقرَّت بلسانها، لم أرجمها إذا رجعت، فكيف إذا أبت لللعان؟ وعنه رحمه الله تعالى رواية ثانية: يخلّى سبيلها، اختارها أبو بكر، لأنها لا يجبُ عليها الحد، فيجب تخليّة سبيلها، كما لو لم تكمل البيّنة.

فصل

(حجج الموجبين للحد)

قال الموجبون للحد: معلوم أن الله سبحانه وتعالى جعل التعان الزوج بدلاً عن الشهود، وقائماً مقامهم، بل جعل الأزواج الملتعين شهداء كما تقدّم، وصرّح بأن لعانهم شهادة، وأوضح ذلك بقوله: ﴿وَيَذَرُهَا الْغَدَابُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْتَ شَهَدَتِي بِاللَّهِ﴾ [النور: ٨]، وهذا يدلُّ على أن سبب العذاب الدنيوي قد وُجِدَ، وأنه لا يدفعه عنها إلا لعانها، والعذاب المدفوع عنها بلعانها هو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عُلَاقَتُهَا طَائِفَةً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]، وهذا عذاب الحد قطعاً، فذكره مضافاً، ومعرّفاً بلام العهد، فلا يجوز أن ينصرف إلى عقوبة لم تُذكر في اللفظ، ولا دلُّ عليها بوجوه من حبس أو غيره، فكيف يخلّى سبيلها، ويدراً عنها العذاب بغير لعان، وهل هذا إلا مخالفة لإظهار القرآن؟

قالوا: وقد جعل الله سبحانه لعان الزوج دارثاً

لحدّ القذف عنه، وجعل لعان الزوجة دارثاً لعذاب حدّ الزنى عنها، فكما أن الزوج إذا لم يُلاعِن يُحدُّ حدّ القذف، فكذلك الزوجة إذا لم تُلاعِن يجب عليها الحدُّ.

قالوا: وأما قولكم: إن لعان الزوج لو كان بيّنة تُوجب الحدَّ عليها لم تملك هي إسقاطه باللعان، كشهادة الأجنبي.

فالجواب: أن حكم اللعان حكم مستقلٌّ بنفسه غير مردود إلى أحكام الدعاوى والبيّنات، بل هو أصل قائم بنفسه شرّعه الذي شرع نظيره من الأحكام، وفصله الذي فصل الحلال والحرام، ولما كان لعان الزوج بدلاً عن الشهود لا جرم نزل عن مرتبة البيّنة، فلم يستقلَّ وحدّه بحكم البيّنة، وجعل للمرأة معارضته بلعان نظيره، وحيتّذ فلا يظهر ترجيح أحد اللعانين على الآخر لنا، والله يعلم أن أحدهما كاذب، فلا وجه لحدّ المرأة بمجرد لعان الزوج، فإذا مُكنت من معارضة وإتيانها بما يُرىء ساحتها، فلم تفعل، ونكلت عن ذلك، عملٌ المقتضى عمله، وانضاف إليه قرينة قوّته وأكدته، وهي نكول المرأة وإعراضها عمّا يُخلّصها من العذاب، وَيَذَرُوه عنها.

قالوا: وأما قولكم: إنه لو شهد عليها مع ثلاثة غيره لم تُحدَّ بهذه الشهادة، فكيف تُحدُّ بشهادته وحده؟ فجوابه أنها لم تُحدَّ بشهادة مجرّدة، وإنما حُدَّت بمجموع لعانه خمس مرات، ونكولها عن معارضته مع قدرتها عليها، فقام من مجموع ذلك دليل في غاية الظهور والقوة على صحة قوله، والظنُّ المستفاد منه أقوى بكثير من الظن المستفاد من شهادة الشهود.

وأما قولكم: إنه أحد اللعانين، فلا يُوجب حدّ الآخر، كما لم يُوجب لعانها حدّه، فجوابه أن لعانها إنما شرع للدفع، لا للإيجاب، كما قال تعالى: ﴿وَيَذَرُهَا الْغَدَابُ أَنْ تَشْهَدَ﴾ [النور: ٨] فدلّ النصُّ على أن لعانه مقتضى لإيجاب الحد، ولعانها دافع ودارئ لا موجب، فقياس أحد اللعانين على الآخر جمع بين ما فرّق الله سبحانه بينهما وهو باطل. قالوا: وأما قول النبي ﷺ: «البيّنة على المُدّعي»، فسمعا وطاعة لرسول الله ﷺ، ولا ريب أن لعان الزوج المذكور

الثالث: أنهم خالفوا هذا المفهوم لمنطوق تلك الأدلة التي تقدمت، ولمفهوم قوله: ﴿وَيَذَرُهَا عَنِ الْعَذَابِ أَنْ تَشْهَدَ﴾ [التور: ٨]، ولا ريب أن هذا المفهوم أقوى من مفهوم سقوط الحد بقولهم: إذا كانت البيئة أو الحبل أو الاعتراف، فهم تركوا مفهوماً لما هو أقوى منه وأولى، هذا لو كانوا قد خالفوا الصحابة، فكيف وقولهم موافق لأقوال الصحابة؟ فإن اللعان مع نكول المرأة من أقوى البيئات كما تقرر.

قالوا: وأما قولكم: لم يتحقق زناها إلى آخره، فجوابه إن أردتم بالتحقيق اليقين المقطوع به كالمحرمات، فهذا لا يشترط في إقامة الحد، ولو كان هذا شرطاً، لما أقيم الحد بشهادة أربعة، إذ شهادتهم لا تجعل الزنى محققاً بهذا الاعتبار. وإن أردتم بعدم التحقق أنه مشكوك فيه على السواء، بحيث لا يترجح ثبوته، فباطل قطعاً، وإلا لما وجب عليها العذاب المدرأ بلعانها، ولا ريب أن التحقق المستفاد من لعانه المؤكد المكرر مع إعراضها عن معارضة ممكنة منه أقوى من التحقق بأربع شهود، ولعل لهم غرضاً في قذفها وهتكها وإفسادها على زوجها، والزواج لا غرض له في ذلك منها.

وقولكم: إنه لو تحقق، فلما أن يتحقق بلعان الزوج، أو بنكولها، أو بهما، فجوابه: أنه تحقق بهما، ولا يلزم من عدم استقلال أحد الأمرين بالحد وضعفه عنه عدم استقلالهما معاً، إذ هذا شأن كل مفرد لم يستقل بالحكم بنفسه، ويستقل به مع غيره لقوته به.

وأما قولكم: عجباً للشافعي كيف لا يقضي بالنكول في درهم، ويقضي به في إقامة حد بالغ الشارح في ستره، واعتبر له أكمل بيئة، فهذا موضع لا يتنصر فيه للشافعي ولا لغيره من الأئمة، وليس لهذا وضع كتابنا هذا، ولا قصدنا به نصرة أحد من العالمين، وإنما قصدنا به مجرد هدي رسول الله ﷺ في سيرته وأقضيته وأحكامه، وما تضمن سوى ذلك، فتبع مقصود لغيره، فهب أن من لم يقض بالنكول تناقض، فماذا يضّر ذلك هدي رسول الله ﷺ.

المكرر بيئة، وقد انضم إليها نكولها الجاري مجرى إقرارها عند قوم، ومجرى بيئة المدعين عند آخرين، وهذا من أقوى البيئات، ويدل عليه أن النبي ﷺ قال له: «البيئة وإلا حد في ظهرك»، ولم يبطل الله سبحانه هذا، وإنما نقله عند عجزه عن بيئة منفصلة تسقط الحد عنه يعجز عن إقامتها، إلى بيئة يتمكن من إقامتها، ولما كانت دونها في الرتبة، اعتبر لها مقو منفصل، وهو نكول المرأة عن دفعها، ومعارضتها مع قدرتها وتمكنها، قالوا: وأما قولكم: أن موجب لعانه إسقاط الحد عن نفسه لا إيجاب الحد عليها إلى آخره، فإن أردتم أن من موجب إسقاط الحد عن نفسه فحق، وإن أردتم أن سقوط الحد عنه يسقط جميع موجب، ولا موجب له سواء، فباطل قطعاً، فإن وقوع الفرقة، أو وجوب التفريق والتحريم المؤبد، أو المؤقت، ونفي الولد المصرح بنفيه، أو المكفى في نفيه باللعان، ووجوب العذاب على الزوجة إما عذاب الحد، أو عذاب الحس، كل ذلك من موجب اللعان، فلا يصح أن يقال: إنما يوجب سقوط حد القذف عن الزوج فقط.

قالوا: وأما قولكم: إن الصحابة جعلوا حد الزنى بأحد ثلاثة أشياء: إما البيئة، أو الاعتراف، أو الحبل، واللعان ليس منها، فجوابه: أن منازعكم يقولون: إن كان إيجاب الحد عليها باللعان خلافاً لأقوال هؤلاء الصحابة، فإن إسقاط الحد بالحبل أدخل في خلافهم وأظهر، فما الذي سؤخ لكم إسقاط حد أوجبوه بالحبل، وصريح مخالفتهم، وحرّم على منازعكم مخالفتهم في إيجاب الحد بغير هذه الثلاثة، مع أنهم أعذر منكم، لثلاثة أوجه:

أحدها: أنهم لم يخالفوا صريح قولهم، وإنما هو مخالفة لمفهوم سكّتوا عنه، فهو مخالفة لسكوتهم، وأنتم خالفتم صريح أقوالهم.

الثاني: أن غاية ما خالفوه مفهوم قد خالفه صريح عن جماعة منهم بإيجاب الحد، فلم يخالفوا ما أجمع عليه الصحابة، وأنتم خالفتم منطوقاً، لا يعلم لهم فيه مخالف البتة هنا، وهو إيجاب الحد بالحبل، فلا يحفظ عن صحابي قط مخالفة عمر وعلي رضي الله عنهما في إيجاب الحد به.

وَتِلْكَ شَكَاةُ ظَاهِرٍ عَنْهُ عَارُهَا^(١).

على أن الشافعي رَجَمَهُ اللَّهُ تعالى لم يتناقض، فإنه فرق بين نكول مجرد لا قوة له، وبين نكول قد قارنه التعان مؤكِّد مكرَّر أقيم في حق الزوج مقام البينة مع شهادة الحال بكراهة الزوج لزنى امراته، وفضيحتها، وخراب بيتها، وإقامة نفسه وجبه في ذلك المقام العظيم بمشهد المسلمين يدعو على نفسه باللعنة إن كان كاذباً بعد حلفه بالله جَهْدَ إيمانه أربع مرات إنه لمن الصادقين، والشافعي رحمه الله إنما حكم بنكول قد قارنه ما هذا شأنه، فمن أين يلزمه أن يحكم بنكول مجرد؟

قالوا: وأما قولكم: إنها لو أقرت بالزنى ثم رجعت، لسقط عنها الحد، فكيف يجب بمجرّد امتناعها من اليمين؟ فجوابه: ما تقرر آنفاً.

قالوا: وأما قولكم: إن العذاب المُدْرَأ عنها بلعانها هو عذاب الحيس أو غيره، فجوابه: أن العذاب المذكور، إما عذاب الدنيا، أو عذاب الآخرة، وحمل الآية على عذاب الآخرة باطل قطعاً، فإن إيمانها لا يدروه إذا وجب عليها، وإنما هو عذاب الدنيا وهو الحد قطعاً فإنه عذاب المحدود، وهو فداء له من عذاب الآخرة، ولهذا شرعه سبحانه طهرة وفدية من ذلك العذاب، كيف وقد صرح به في أول السورة بقوله: ﴿وَلَنَشَدَّ عَلَيْهَا زُلْزِلَةً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التور: ٢]، ثم أعاده بعينه بقوله: ﴿وَنِدْرًا عَنْهَا الْعَذَابُ﴾ [التور: ٨]، فهذا هو العذاب المشهود مَكْنَهَا من دفعه بلعانها، فأين هنا عذاب غيره حتّى تُفسَّر الآية به؟ وإذا تبين هذا، فهذا هو القول الصحيح الذي لا نعتقد سواه، ولا نرتضي إلا إياه، وبالله التوفيق.

فإن قيل: فلو نكل الزوج عن اللعان بعد قذفه، فما حكم نكوله؟ قلنا: يُحَدُّ حَدُّ الْقَذْفِ عند جمهور العلماء من السلف والخلف، وهو قول الشافعي ومالك وأحمد وأصحابهم، وخالف في ذلك أبو حنيفة وقال: يُحْبَسُ حتى يُلاعِنَ، أو تُفَرِّجَ الزوجة،

وهذا الخلاف مبني على أن موجب قذف الزوج لامرأته هل هو الحد، كقذف الأجنبية، وله إسقاطه باللعان، أو موجه اللعان نفسه؟ فالأول: قول الجمهور. والثاني: قول أبي حنيفة، واحتجوا عليه بعموم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَا يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَالْيَدُ لِلرَّائِبَةِ وَالْأُخْرَى لِلْعَذَابِ﴾ [التور: ٤]، ويقولون: لهلل بن أمية: «الْبَيِّنَةُ أَوْحَدٌ فِي ظَهْرِكَ» [البخاري: ٤٧٤٧]، ويقولون له: «عَذَابُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ» [مسلم: ٣٧٤٦]، وهذا قاله لهلل بن أمية قبل شروعه في اللعان. فلو لم يجب الحد بقذفه، لم يكن لهذا معنى، وبأنه قذف حرة عفيفة يجري بينه وبينها القود، فحدّ بقذفها كالأجنبي، وبأنه لو لاعنها، ثم أكذب نفسه بعد إيمانها، لوجب عليه الحد، فدل على أن قذفه سبب لوجوب الحد عليه، وله إسقاطه باللعان، إذ لو لم يكن سبباً لما وجب بإكذابه نفسه بعد اللعان، وأبو حنيفة يقول: قذفه لها دعوى تُوجب أحد أمرين، إما لعانه، وإما إقرارها، فإذا لم يُلاعِن، حُبِسَ حتى يلاعِن، إلا أن تُقَرَّ فيزول موجب الدعوى، وهذا بخلاف قذف الأجنبي، فإنه لا حق له عند المقذوفة، فكان قاذفاً محضاً، والجمهور يقولون: بل قذفه جنابة منه على عرضها، فكان موجب الحد كقذف الأجنبي، ولما كان فيها شائبة الدعوى عليها بإتلافها لِحَقِّهِ وخيانتها فيه، ملك إسقاط ما يُوجب القذف من الحد بلعانه، فإذا لم يُلاعِن مع قدرته على اللعان، وتمكّنه منه، عمل مقتضى القذف عمله، واستقلّ بإيجاب الحد، إذ لا معارض له، وبالله التوفيق.

فصل

(ومن الأحكام المستنبطة)

من أحاديث اللعان أنه ﷺ إنما كان يقضي بالوحي

ومنها: أن رسول الله ﷺ إنما كان يقضي

(١) عجزيت، وصلره:

وَعِزَّيْرَهَا الْوَاشُونَ أَنِّي أَجِبُهَا

وهو في ديوان الهنليين ص (٢١) لأبي ذؤيب.

أمية أن النبي ﷺ قال له: «قم فاشهد أربع شهادات بالله».

وفي «الصحيحين»: في قصة المرأة، ثم قامت فشهدت، ولأنه إذا قام شاهده الحاضرون، فكان أبلغ في شهرته، وأوقع في النفوس، وفيه سير آخر، وهو أن الدعوة التي تطلب إصابتها إذا صادفت المدعو عليه قائماً نفذت فيه، ولهذا لما دعا حبيب على المشركين حين صلبوه، أخذ أبو سفيان معاوية فأضجعه، وكانوا يرون أن الرجل إذا لطىء بالأرض، زلت عنه الدعوة.

فصل

(البداة بالرجل في اللعان)

ومنها: البداوة بالرجل في اللعان، كما بدأ الله عز وجل ورسوله به، فلو بدأت هي، لم يعتد بلعانها عند الجمهور، واعتد به أبو حنيفة. وقد بدأ الله سبحانه في الحد بذكر المرأة فقال: ﴿أَزَّائِيَّةَ الرَّأْسِ فَلْيَبْدُوا كَلَّ ذَهَبٍ وَتَنْتَهَا يَأْتِي جَلَّةٍ﴾ [النور: ٢]، وفي اللعان بذكر الزوج، وهذا في غاية المناسبة، لأن الزنى من المرأة أفتح منه بالرجل، لأنها تزيد على هتك حق الله إفساداً فراشاً بعلمها، وتعلق نسب من غيره عليه، وفضيحة أهلها وأقاربها، والجناية على محض حق الزوج، وخيائته فيه، وإسقاط حرمة عند الناس، وتعبيره بمسك البغي، وغير ذلك من مفاصد زناها، فكانت البداوة بها في الحد أهم، وأما اللعان: فالزواج هو الذي قذفها وعرضها لللعان، وهتك عرضها، ورماها بالعظيمة، وفضحها عند قومها وأهلها، ولهذا يجب عليه الحد إذا لم يلاعن، فكانت البداوة به في اللعان أولى من البداوة بها.

فصل

(وعظهما قبل اللعان)

ومنها: وعظ كل واحد من المتلاعنين عند إرادة الشروع في اللعان، فيُوعظ ويُذَكَّر، ويقال له: عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فإذا كان عند الخامسة، أعيد ذلك عليهما، كما صحت السنة بهذا وهذا.

بالوحي، وبما أراه الله، لا بما رآه هو، فإنه ﷺ لم يقض بين المتلاعنين حتى جاءه الوحي، ونزل القرآن، فقال ليعومر حينئذ: «قد نزل فيك وفي صحابتك، فاذهب فأنت بها»، وقد قال ﷺ: «لَا يَسْأَلُنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ شَيْءٍ أَخَذْتَهَا فِيكُمْ لَمْ أَوْمَرْ بِهَا»^(١) وهذا في الأقضية، والأحكام، والسنن الكلية، وأما الأمور الجزئية التي لا ترجع إلى أحكام، كالنزول في منزل معين، وتأخير رجل معين، ونحو ذلك مما هو متعلق بالمشاورة المأمور بها بقوله: ﴿وَسَاوِرُهُمْ فِي الْأَثَرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فتلك للرأي فيها مدخل، ومن هذا قوله ﷺ في شأن تلقيح النخل: «إِنَّمَا هُوَ رَأْيِي رَأَيْتُهُ»^(٢). فهذا القسم شيء، والأحكام والسنن الكلية شيء آخر.

فصل

(يكون اللعان بحضرة الإمام أو نائبه)

ومنها: أن النبي ﷺ أمره بأن يأتي بها، فتلاعنا بحضرة، فكان في هذا بيان أن اللعان إنما يكون بحضرة الإمام أو نائبه، وأنه ليس لأحد الرعية أن يلاعن بينهما، كما أنه ليس له إقامة الحد، بل هو للإمام أو نائبه.

فصل

(يسن التلاعن بمحضر جماعة من الناس)

ومنها: أنه يسن التلاعن بمحضر جماعة من الناس يشهدونه، فإن ابن عباس، وابن عمر، وسهل بن سعد، حضروه مع حادثة أسنانهم، فدل ذلك على أنه حضره جمع كثير، فإن الصبيان إنما يحضرون مثل هذا الأمر تبعاً للرجال. قال سهل بن سعد: فتلاعنا وأنا مع الناس عند النبي ﷺ وحكمة هذا - والله أعلم - أن اللعان بني على التغليظ بالمعنة في الردع والزجر، وفعله في الجماعة أبلغ في ذلك.

فصل

(القيام عند الملاعة)

ومنها: أنهما يتلاعنان قياماً، وفي قصة هلال بن

(٢) لم نجده بهذا اللفظ.

(١) لم نقف عليه.

فصل

(لا يقبل منهما أقل من خمس مرات)

ففي هذا النص أنه لا يُشترط أن يقول: من الزنى، ولا تقوله هي، ولا يُشترط أن يقول عند الخامسة: فيما رميتها به، وتقول هي: فيما رماني به، والذي اشترطوا ذلك حججهم أن قالوا: ربما نوى: إني لمن الصادقين في شهادة التوحيد أو غيره من الخير الصادق، ونوت: إنه لمن الكاذبين في شأن آخر، فإذا ذكرا ما رُميت به من الزنى، انتفى هذا التأويل.

قال الآخرون: هب أنهما نويا ذلك، فإنهما لا ينتفعان ببيتهما، فإن الظالم لا ينفعه تأويله، ويمينه على نية خصمه، ويمينه بما أمر الله به إذا كان مجاهراً فيها بالباطل، والكذب موجه عليه اللعنة أو الغضب، نوى ما ذكرتم، أو لم ينو، فإنه لا يمؤه على من يعلم السر وأخفى بمثل هذا.

فصل

(هل ينتفي الحمل باللعان)

ومنها: أن الحمل ينتفي بلعانه، ولا يحتاج أن يقول: وما هذا الحمل مني، ولا يحتاج أن يقول: وقد استبرأتهما، هذا قول أبي بكر عبد العزيز من أصحاب أحمد، وقول بعض أصحاب مالك، وأهل الظاهر، وقال الشافعي: يحتاج الرجل إلى ذكر الولد، ولا تحتاج المرأة إلى ذكره، وقال الخرقي وغيره: يحتاجان إلى ذكره، وقال القاضي: يشترط أن يقول: هذا الولد من زنى وليس هو مِنِّي. وهو قول الشافعي، وقول أبي بكر أصح الأقوال، وعليه تدل السنة الثابتة.

فإن قيل: فقد روى مالك، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ لا عن بَيْن رجل وامرأته، وانتفى من ولدها، ففرق بينهما، والحق الولد بالمرأة [البخاري: ٥٣٠٦، ومسلم: ٣٧٥٢].

وفي حديث سهل بن سعد: وكانت حاملاً فأنكر حملها [البخاري: ٤٧٤٦].

وقد حكم ﷺ «بأن الولد للفراش» [البخاري: ٦٨١٨] وهذه كانت فراشاً له حال كونها حاملاً، فالولد له، فلا ينتفي عنه إلا بنفيه.

قيل: هذا موضع تفصيل لا بُدَّ منه، وهو أن الحمل إن كان سابقاً على ما رماها به، وعلم أنها

ومنها: أنه لا يقبل من الرجل أقل من خمس مرات، ولا من المرأة، ولا يقبل منه إبدال اللعنة بالغضب والإبعاد والسخط، ولا منها إبدال الغضب باللعنة والإبعاد والسخط، بل يأتي كُلُّ منهما بما قسم الله له من ذلك شرعاً وقدرأ، وهذا أصح القولين في مذهب أحمد ومالك وغيرهما.

(لا تستحب الزيادة على

الألفاظ المذكورة في الكتاب والسنة)

ومنها: أنه لا يفتقر أن يزيد على الألفاظ المذكورة في القرآن والسنة شيئاً، بل لا يُستحب ذلك، فلا يحتاج أن يقول: أشهد بالله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة الذي يعلم من السر ما يعلم من العلانية، ونحو ذلك، بل يكفي أن يقول: أشهد بالله إني لمن الصادقين، وهي تقول: أشهد بالله إنه لمن الكاذبين، ولا يحتاج أن يقول: فيما رميتها به من الزنى، ولا أن تقول هي: إنه لمن الكاذبين فيما رماني به من الزنى، ولا يُشترط أن يقول إذا ادعى الرؤية: رأيتهما تزني كالمرور في المُكْحَلَةِ، ولا أصل لذلك في كتاب الله، ولا سنة رسوله، فإن الله سبحانه بعلمه وحكمته كفانا بما شرع لنا وأمرنا به عن تكلف زيادة عليه.

قال صاحب «الإفصاح» وهو يحيى بن محمد بن هبيرة في «إفصاحه»: من الفقهاء من اشترط أن يزداد بعد قوله من الصادقين: فيما رميتها به من الزنى، واشترط في نفيها عن نفسها أن تقول: فيما رماني به من الزنى. قال: ولا أراه يحتاج إليه، لأن الله تعالى أنزل ذلك وبينه، ولم يذكر هذا الاشتراط.

وظاهر كلام أحمد، أنه لا يشترط ذكر الزنى في اللعان، فإن إسحاق بن منصور قال: قلت لأحمد: كيف يُلاعِن؟ قال: على ما في كتاب الله يقول أربع مرات: أشهد بالله إني فيما رميتها به لمن الصادقين، ثم يقف عند الخامسة فيقول: لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، والمرأة مثل ذلك.

الحكم الديني، وأن الله سبحانه سيجعل في الولد دليلاً على ذلك، ويدل عليه أنه ﷺ قال ذلك بعد انتفاؤه من الولد، وقال: «إن جاءت به كذا وكذا، فلا أراه إلا صدق عليها، وإن جاءت به كذا وكذا، فلا أراه إلا كذب عليها»، فجاءت به على النعيت المكروه، فعلم أنه صدق عليها، ولم يغرض لها، ولم يفسخ حكم اللعان، فيحكم عليها بحكم الزانية مع العلم بأنه صدق عليها، فكذا لو جاءت به على شبه الزوج يعلم أنه كذب عليها، ولا يغير ذلك حكم اللعان، فيحد الزوج ويلحق به الولد، فليس قوله: «إن جاءت به كذا وكذا فهو لهلال بن أمية إلحاقاً له به في الحكم، كيف وقد نفاه باللعان، وانقطع نسبه به، كما أن قوله: «إن جاءت به كذا وكذا، فهو للذي رميت به ليس إلحاقاً به، وجعله ابنه، وإنما هو إخبار عن الواقع، وهذا كما لو حكم بإيمان القسامَةِ ثم أظهر الله سبحانه آية تدل على كذب الحالفين، لم ينتقض حُكْمُها بذلك، وكذا لو حكم بالبراءة من الدعوى بيمين، ثم أظهر الله سبحانه آية تدل على أنها يمينٌ فاجرة، لم يبطل الحكم بذلك.

فصل

(هل يحد إذا قذف امرأته بالزنى برجل بعينه؟)

ومنها: أن الرجل إذا قذف امرأته بالزنى برجل بعينه، ثم لاعنها، سقط الحدُّ عنه لهما، ولا يحتاجُ إلى ذكر الرجل في لعانه، وإن لم يُلاعن، فعليه لكل واحد منهما حدُّه، وهذا موضعٌ اختلف فيه، فقال أبو حنيفة ومالك: يُلاعن للزوجة، ويحدُّ للأجنبي، وقال الشافعي في أحد قولي: يجب عليه حدُّ واحد، ويسقط عنه الحدُّ لهما بلعانه، وهو قولُ أحمد، والقول الثاني للشافعي: أنه يحدُّ لكل واحد حدًّا، فإن ذكر المقدور في لعانه، سقط الحدُّ، وإن لم يذكره فعلى قولين، أحدهما: يستأنف اللعان، ويذكره فيه، فإن لم يذكره، حُدَّ له. والثاني: أنه يسقط حدُّه بلعانه، كما يسقط حدُّ الزوجة.

وقال بعضُ أصحاب أحمد: القذف للزوجة وحدها، ولا يتعلقُ بغيرها حق المطالبة ولا الحد. وقال بعضُ أصحاب الشافعي: يجبُ الحدُّ لهما،

زنت وهي حامل منه، فالولد له قطعاً، ولا ينتفي عنه بلعانه، ولا يحلُّ له أن ينفيه عنه في اللعان، فإنها لما علفت به، كانت فراشاً له، وكان الحملُ لاحقاً به، فزناها لا يُزيل حكم لحوقه به، وإن لم يعلم حملها حال زناها الذي قد قذفها به، فهذا ينظر فيه، فإن جاءت به لأقلَّ من ستة أشهر من الزنى الذي رماها به، فالولدُ له، ولا ينتفي عنه بلعانه وإن ولدته لأكثر من ستة أشهر من الزنى الذي رماها به، نظر، فإذا أن يكون استبرأها قبل زناها، أو لم يستبرئها، فإن كان استبرأها انتفى الولد عنه بمجرد اللعان، سواء نفاه، أو لم ينفيه، ولا بدُّ من ذكره عند من يشترط ذكره، وإن لم يستبرئها، فهنا أمكن أن يكون الولدُ منه، وأن يكون من الزاني، فإن نفاه في اللعان، انتفى، وإلا لحق به، لأنه أمكن كونه منه ولم ينفيه.

فإن قيل: فالنبي ﷺ قد حكم بعد اللعان، ونفى الولد بأنه إن جاء يُشبه الزوج صاحب الفراش فهو له، وإن جاء يُشبه الذي رميت به، فهو له، فما قولكم في مثل هذه الواقعة إذا لاعن امرأته وانتفى من ولدها، ثم جاء الولدُ يُشبهه، هل تُلحقونه به بالشبه عملاً بالقافة، أو تحكمون بانقطاع نسبه منه عملاً بموجب لعانه؟ قيل: هذا مجال ضنك، وموضع ضيق تجاذب أعنته اللعانُ المقتضي لانقطاع النسب، وانتفاء الولد، وأنه يُدعى لأمه ولا يدعى لأب، والشبه الدال على ثبوت نسبه من الزوج، وأنه ابنه، مع شهادة النبي ﷺ بأنها إن جاءت به على شبهه، فالولدُ له، وأنه كذب عليها، فهذا مضيق لا يتخلَّص منه إلا المستبصرُ البصير بأدلة الشرع وأسراره، والخبيرُ بجمعه وفرقه الذي سافرت به هِمَّتُه إلى مطلع الأحكام، والمشكاة التي منها ظهر الحلال والحرام، والذي يظهر في هذا، والله المستعان وعليه التكلان، أن حكم اللعان قطع حكم الشبه، وصار معه بمنزلة أقوى الدليلين مع أضعفهما، فلا عبرة للشبه بعد مضي حكم اللعان في تغيير أحكامه، والنبي ﷺ لم يُخبر عن شأن الولد وشبهه ليغير بذلك حكم اللعان، وإنما أخبر عنه، ليتبين الصادقُ منهما من الكاذب الذي قد استوجب اللعنة والغضب، فهو إخبار عن أمر قدرِي كوني يتبين به الصادقُ من الكاذب بعد تقرر

وهل يجب حدٌ واحد، أو حدَّان؟ على وجهين، وقال بعض أصحابه: لا يجب إلَّا حدٌ واحد قولاً واحداً، ولا خلاف بين أصحابه أنه إذا لاعن وذكر الأجنبي في لعانه أنه يسقط عنه حُكْمُهُ، وإن لم يذكره فعلى قولين: الصحيح عندهم أنه لا يسقط.

والذين أسقطوا حكم قذف الأجنبي باللَّعَان، حجَّتْهم ظاهرة وقوية جداً، فإنه ﷺ لم يحدِّ الزوج بشريك بن سحماء، وقد سماه صريحاً، وأجاب الآخرون عن هذا بجوابين: أحدهما: أن المقدوف كان يهودياً، ولا يجب الحدُّ بقذف الكافر. والثاني: أنه لم يُطالب به، وحدُّ القذف إنما يُقام بعد المطالبة.

وأجاب الآخرون عن هذين الجوابين، وقالوا: قولٌ من قال: إنه يهودي باطل، فإنه شريك بن عبدة وأمه سحماء، وهو حليفُ الأنصار، وهو أخو البراء بن مالك لأمه. قال عبد العزيز بن بريدة^(١) في شرحه لأحكام عبد الحق: قد اختلف أهل العلم في شريك بن سحماء المقدوف، فقيل: إنه كان يهودياً وهو باطل، والصحيح: أنه شريك بن عبدة حليف الأنصار، وهو أخو البراء بن مالك لأمه. وأما الجواب الثاني، فهو ينقلب حُجَّةً عليكم، لأنه لما استقرَّ عنده أنه لا حقَّ له في هذا القذف، لم يُطالب به، ولم يتعرض له، وإلا كيف يسكت عن براءة عرضه، وله طريق إلى إظهارها بعد قاذفه، والقوم كانوا أشدَّ حميةً وأنفً من ذلك؟ وقد تقدَّم أن اللعان أقيم مقام البيِّنة للحاجة، وجعل بدلاً من الشهود الأربعة، ولهذا كان الصحيح أنه يُوجبُ الحدَّ عليها إذا نكلت، فإذا كان بمنزلة الشهادة في أحد الطرفين كان بمنزلة في الطرف الآخر، ومن المحال أن تحدَّ المرأة باللَّعَان إذا نكلت، ثم يحدُّ القاذف حدَّ القذف وقد أقام البيِّنة على صدق قوله، وكذلك إن جعلناه يميناً فإنها كما درأت عنه الحدَّ من طرف الزوجة، درأت عنه من طرف المقدوف، ولا فرق، لأنه به حاجة إلى قذف الزاني لما أفسد عليه من فراشه، وربما يحتاجُ إلى ذكره ليستدل بشبه الولد له على

صدق قاذفه، كما استدل النبي ﷺ على صدق هلال شبه الولد بشريك بن سحماء، فوجب أن يسقط حكم قذفه ما أسقط حكم قذفها، وقد قال النبي ﷺ للزوج: «البيِّنة وإلا حدٌ في ظهرك»، ولم يقل: وإلا حدَّان، هذا والمرأة لم تُطالبَ بحدِّ القذف، فإن المطالبة شرطٌ في إقامة الحدِّ، لا في وجوبه، وهذا جواب آخر عن قولهم: إن شريكاً لم يُطالب بالحدِّ، فإن المرأة أيضاً لم تُطالب به، وقد قال له النبي ﷺ «البيِّنة وإلا حدٌ في ظهرك».

فإن قيل: فما تقولون: لو قذف أجنبية بالزنى برجل سماء؟ فقال: زنى بك فلان، أو زنىت به؟ قيل: هاهنا يجب عليه حدان، لأنه قاذف لكل واحد منهما، ولم يأت بما يُسقط موجب قذفه، فوجب عليه حكمه، إذ ليس هنا بيِّنة بالنسبة إلى أحدهما، ولا ما يقوم مقامها.

فصل

(إذا لاعنها وهي حامل وانتهى من

حملها انتفى عنه ولم يحتج إلى أن يلاعن بعد وضعه)

ومنها: أنه إذا لاعنها وهي حامل، وانتهى من حملها، انتفى عنه، ولم يَحْتَجْ إلى أن يلاعن بعد وضعه كما دلت عليه السنة الصحيحة الصريحة، وهذا موضع اختلف فيه. فقال أبو حنيفة رحمه الله: لا يلاعن إنفيه حتى تَضَعَ لاحتمال أن يكون ريحاً فتَنْفُسُ، ولا يكون للَّعَان حيثن معنى، وهذا هو الذي ذكره الخرقى في «مختصره»، فقال: وإن نفى الحمل في التعانه لم يَنْتَفِ عنه حتى يَنْفِيَه عند وضعها له ويلاعن، وتبعه الأصحاب على ذلك، وخالفهم أبو محمد المقدسي كما يأتي كلامه. وقال جمهور أهل العلم: له أن يلاعن في حال الحمل اعتماداً على قصة هلال بن أمية، فإنها صريحةٌ صحيحة في اللعان حال الحمل، ونفى الولد في تلك الحال، وقد قال النبي ﷺ: «إن جاءت به على صِفَةٍ كذا وكذا، فلا أراه إلَّا قد صدق عليها... الحديث». قال الشيخ في «المغني»: وقال مالك، والشافعي، وجماعة من

(١) هو عبد العزيز بن إبراهيم بن أحمد القرشي التميمي التونسي المعروف بابن بريدة المتوفى سنة (٦٦٢هـ) مترجم في «نيل الأبتهاج» (١٧٨) للتبكي.

أحدها: أنه يُحَدُّ وَيُلْحَقُ به الولدُ، ولا يُمَكَّن من اللعان.

والثاني: أنه يُلاعِن، وينتفي الحمل.

والثالث: أنه يُلاعِن للزَّاد، ويلحقه الولدُ، والثلاثة روايات عن مالك، والمنصوص عن أحمد: أنه لا يَصِحُّ استلحاقُ الولد كما لا يصح نفيه.

قال أبو محمد: وإن استلحق الحمل، فمن قال: لا يَصِحُّ نفيه، قال: لا يصح استلحاقه، وهو المنصوص عن أحمد، ومن أجاز نفيه، قال: يَصِحُّ استلحاقه، وهو مذهب الشافعي، لأنه محكوم بوجوده بدليل وجوب النفقة ووقف الميراث، فصح الإقرار به كالمولود، وإذا استلحقه، لم يملك نفيه بعد ذلك، كما لو استلحقه بعد الوضع. ومن قال: لا يَصِحُّ استلحاقه، قال: لو صح استلحاقه، للزمه بترك نفيه كالمولود، ولا يلزمه ذلك بالإجماع، وليس لِلشَّيْءِ أثر في الإلحاق، بدليل حديثِ المُلَاعِنَةِ، وذلك مختص بما بعد الوضع، فاختص صحة الإلحاق به، فعلى هذا لو استلحقه، ثم نفاه بعد وضعه كان له ذلك، فأما إن سكت عنه، فلم ينفعه، ولم يستلحقه، لم يلزمه عند أحد علمنا قوله، لأنه تركه محتمل، لأنه لا يَتَحَقَّقُ وجوده إِلَّا أن يُلاعِنها، فإن أبا حنيفة ألزمه الولد على ما أسلفناه.

فصل

وقولُ ابن عباس: ففرَّق رسولُ الله ﷺ بينهما، وقضى أَلَّا يُدعى ولدها لأب، ولا تُرمى، ومن رماها، أو رمى ولدها، فعليه الحدُّ، وقضى أن لا يبيِّن لها عليه، ولا قوت، من أجل أنهما يفترقان من غير طلاق ولا متوفى عنها.

وقولُ سهل: فكان ابنُها يُدعى إلى أمِّه، ثم جرت السنة أنه يرثُها وتَرِث منه ما فرض الله لها.

وقوله: مضت السنة في المتلاعنين أن يُفرَّق بينهما، ثم لا يجتمعان أبداً.

وقال الزهري، عن سهل بن سعد: فرَّق رسولُ الله ﷺ بينهما، وقال: لا يجتمعان أبداً.

وقول الزوج: يا رسولَ الله! مالي؟ قال: «لا مال لك، إن كُنْتُ صَدَقْتُ عليها، فهو بما استحلَّلت مِن

أهل الحجاز: يَصِحُّ نفي الحمل، وينتفي عنه، محتجين بحديثِ هلال، وأنه نفى حملها، فنفاه عنه النبي ﷺ، وألحقه بالأُمِّ، ولا خفاءً أنه كان حملاً، ولهذا قال النبي ﷺ: «انظروها، فإن جاءت به كذا وكذا»، قال: ولأن الحمل مظنون بأمارات تدل عليه، ولهذا ثبت للحامل أحكامٌ تُخالف فيها الحائِل من النفقة والفِطْر في الصيام، وترك إقامة الحدِّ عليها، وتأخير القصاص عنها، وغير ذلك مما يطول ذكره، ويَصِحُّ استلحاقُ الحمل، فكان كالولد بعد وضعه. قال: وهذا القول هو الصحيح، لموافقته ظواهر الأحاديث، وما خالف الحديث لا يُعْبَأ به كائناً ما كان وقال أبو بكر: ينتفي الولد بزوال الفراش، ولا يحتاجُ إلى ذكره في اللعان احتجاجاً بظواهر الأحاديث، حيث لم ينقل نفي الحمل، ولا تعرض لنفيه.

وأما مذهب أبي حنيفة رحمه الله، فإنه لا يَصِحُّ نفي الحمل واللعان عليه، فإن لَاعَنَهَا حاملاً، ثم أتت بالولد، لزمه عنده، ولم يتمكن من نفيه أصلاً، لأن اللعان لا يكون إِلَّا بين الزوجين، وهذه قد بانت بلعانها في حال حملها.

قال المنازعون له: هذا فيه إلزامه ولداً ليس منه، وسدُّ باب الانتفاء من أولاد الزنى، والله سبحانه قد جعل له إلى ذلك طريقاً، فلا يجوز سُدُّها، قالوا: وإنما تعتبر الزوجة في الحال التي أضاف الزنى إليها فيها، لأن الولد الذي تأتي به يلحقه، إذا لم ينفعه، فيحتاج إلى نفيه، وهذِهِ كانت زوجته في تلك الحال، فملك نفي ولدها. وقال أبو يوسف ومحمد: له أن ينفي الحمل ما بين الولادة إلى تمام أربعين ليلة منها. وقال عبد الملك بن الماجشون: لا يُلاعِن لنفي الحمل إِلَّا أن ينفيه ثانية بعد الولادة. وقال الشافعي: إذا عَلِمَ بالحمل فأمكنه الحاكم من اللعان، فلم يلاعِن، لم يكن له أن ينفيه بعد.

(مسألة فيما لو استلحق الحمل وقذفها بالزنى)

فإن قيل: فما تقولون: لو استلحق الحمل، وقذفها بالزنى، فقال: هذا الولدُ مني وقد زنت، ما حُكِمَ هذه المسألة؟ قيل: قد اختلف العلماء في هذه المسألة على ثلاثة أقوال.

فرجها، وإن كنت كذبت عليها، فهو أبعد لك منها». فتضمنت هذه الجملة عشرة أحكام.

(التفريق بين المتلاعنين)

الحكم الأول: التفريق بين المتلاعنين، وفي ذلك خمسة مذاهب:

(من يفرق بمجرد القذف)

من قال: لا يقع باللعان فرقة)

أحدها: أن الفرقة تحصل بمجرد القذف، هذا قول أبي عبيد، والجمهور خالفوه في ذلك، ثم اختلفوا، فقال جابر بن زيد، وعثمان البتي، ومحمد بن أبي صفرة، وطائفة من فقهاء البصرة: لا يقع باللعان فرقة البتة، وقال ابن أبي صفرة: اللعان لا يقطع العصمة، واحتجوا بأن النبي ﷺ لم يكره عليه الطلاق بعد اللعان، بل هو أنشأ طلاقها، ونزّه نفسه أن يمسك من قد اعترف بأنها زنت، أو أن يقوم عليه دليل كذب بإمسакها، فجعل النبي ﷺ يقله سنة، ونازع هؤلاء جمهور العلماء، وقالوا: اللعان يوجب الفرقة، ثم اختلفوا على ثلاثة مذاهب.

(قول من قال: تحصل الفرقة بمجرد لعان الزوج وحده)

أحدها: أنها تقع بمجرد لعان الزوج وحده، وإن لم تلتصق المرأة، وهذا القول مما تفرّد به الشافعي، واحتج له بأنها فرقة حاصلة بالقول، فحصلت بقول الزوج وحده كالطلاق.

(قول من قال: إن الفرقة تحصل بعد اللعان)

المذهب الثاني: أنها لا تحصل إلا بلعانها جميعاً، فإذا تمّ لِعانها، وقعت الفرقة، ولا يُعتبر تفريق الحاكم، وهذا مذهب أحمد في إحدى الروايتين عنه اختارها أبو بكر، وقول مالك وأهل الظاهر، واحتج لهذا القول بأن الشرع إنما ورد بالتفريق بين المتلاعنين، ولا يكونان متلاعنين بلعان الزوج وحده، وإنما فرق النبي ﷺ بينهما بعد تمام اللعان منهما، فالقول بوقوع الفرقة قبله مخالف لمدلول السنة وفعل النبي ﷺ، واحتجوا بأن لفظ اللعان لا يقتضي فرقة، فإنه إما إيمان على زناها، وإما شهادة به وكلاهما لا يقتضي فرقة، وإنما ورد الشرع بالتفريق بينهما بعد تمام لِعانها لمصلحة

ظاهرة، وهي أن الله سبحانه جعل بين الزوجين مودة ورحمة، وجعل كلاً منهما سكناً للآخر، وقد زال هذا بالقذف، وأقامها مقام الخزي والعار والفضيحة، فإنه إن كان كاذباً فقد فضحها وبهتّها، ورمّاها بالداء العضال، ونكس رأسها ورؤوس قومها، وهتكها على رؤوس الأشهاد. وإن كانت كاذبة، فقد أفسدت فراشه، وعرضته للفضيحة والخزي والعار بكونه زوجاً بغي، وتعليق ولد غيره عليه، فلا يحصل بعد هذا بينهما من المودة والرحمة والسكن ما هو مطلوب بالنكاح، فكان من محاسن شريعة الإسلام التفريق بينهما، والتحريم المؤبد على ما سنذكره، ولا يترتب هذا على بعض اللعان كما لا يترتب على بعض لعان الزوج قالوا: ولأنه فسخ ثبت بإيمان متحالفين، فلم يثبت بإيمان أحدهما، كالفسخ لتخالف المتبايعين عند الاختلاف.

(قول من قال: إن الفرقة)

لا تحصل إلا بتمام لِعانها وتفريق الحاكم)

المذهب الثالث: أن الفرقة لا تحصل إلا بتمام لِعانها، وتفريق الحاكم، وهذا مذهب أبي حنيفة، وإحدى الروايتين عن أحمد، وهي ظاهر كلام الخرقي، فإنه قال: ومتى تلاعنا، وفرق الحاكم بينهما، لم يجتمعا أبداً. واحتج أصحاب هذا القول بقول ابن عباس في حديثه: ففرّق رسول الله ﷺ بينهما. وهذا يقتضي أن الفرقة لم تحصل قبله، واحتجوا بأن عويمراً قال: كذبت عليها يا رسول الله، إن أمسكتها، فطلقها ثلاثاً قبل أن يأمُرهُ رسول الله ﷺ، وهذا حجة من وجهين، أحدهما: أنه يقتضي إمكان إمساكها. والثاني: وقوع الطلاق، ولو حصلت الفرقة باللعان وحده، لما ثبت واحد من الأمرين، وفي حديث سهل بن سعد: أنه طلقها ثلاثاً، فأنفذه رسول الله ﷺ. رواه أبو داود [٣٢٥٠، والبيهقي (٤١٠/٧)].

قال الموقعون للفرقة بتمام اللعان بدون تفريق الحاكم: اللعان معنى يقتضي التحريم المؤبد، كما سنذكره، فلم يقف على تفريق الحاكم كالرضاع، قالوا: ولأن الفرقة لو وقعت على تفريق الحاكم، لساغ ترك التفريق إذا كرهه الزوجان، كالتفريق

بالعيب والإعسار، قالوا: وقوله: فَرَّقَ النبي ﷺ،
يحتمل أموراً ثلاثة: أحدها: إنشاء الفرقة. والثاني:
الإعلامُ بها. والثالث: إلزامه بموجبها من الفرقة
الحسية.

وأما قوله: كذبت عليها إن أمسكتها، فهذا لا يدل
على أن إمساكها بعد اللعان مآذون فيه شرعاً، بل هو
بادر إلى فراقها، وإن كان الأمر صائراً إلى ما بادر
إليه، وأما طلاقه ثلاثة، فما زاد الفرقة الواقعة إلّا
تأكيداً، فإنها حرمت عليه تحريماً مؤبداً، فالطلاق
تأكيد لهذا التحريم، وكأنه قال: لا تجلّ لي بعد هذا.
وأما إنفاذ الطلاق عليه، فتقرير لموجه من التحريم،
فإنها إذا لم تجلّ له باللعان أبداً، كان الطلاق الثلاث
تأكيداً للتحريم الواقع باللعان، فهذا معنى إنفاذه،
فلما لم ينكره عليه، وأقره على التكلم به وعلى
موجبه، جعل هذا إنفاذاً من النبي ﷺ، وسهل لم
يحلّ لفظ النبي ﷺ أنه قال: وقع طلاقك، وإنما
شاهد القصة، وعدم إنكار النبي ﷺ للطلاق، فظن
ذلك تنفيذاً، وهو صحيح بما ذكرنا من الاعتبار،
والله أعلم.

فصل

(فرقة اللعان فسخ)

الحكم الثاني: أن فرقة اللعان فسخ، وليست
بطلاق، وإلى هذا ذهب الشافعي وأحمد، ومن قال
بقولهما، واحتجوا بأنها فرقة توجب تحريماً مؤبداً،
فكانت فسخاً كفرقة الرضاع، واحتجوا بأن اللعان
ليس صريحاً في الطلاق، ولا نوى الزوج به الطلاق،
فلا يقع به الطلاق، قالوا: ولو كان اللعان صريحاً في
الطلاق، أو كناية فيه، لوقع بمجرد لعان الزوج، ولم
يتوقف على لعان المرأة، قالوا: ولأنه لو كان طلاقاً،
فهو طلاق من مدخول بها بغير عوض لم ينو به
الثلاث، فكيف يكون رجعيّاً. قالوا: ولأنّ الطلاق
يبد الزوج، إن شاء طلق، وإن شاء أمسك، وهذا
الفسخ حاصل بالشرع وبغير اختياره، قالوا: وإذا
ثبت بالسنة وأقوال الصحابة، ودلالة القرآن، أن فرقة
الخلع ليست بطلاق، بل هي فسخ مع كونها
بتراضيهما، فكيف تكون فرقة اللعان طلاقاً؟

فصل

(توجب هذه الفرقة تحريماً مؤبداً والحكمة من ذلك)
الحكم الثالث: أن هذه الفرقة توجب تحريماً
مؤبداً لا يجتمعان بعدها أبداً. قال الأوزاعي: حدثنا
الزيدي، حدثنا الزهري، عن سهل بن سعد، فذكر
قصة المتلاعنين، وقال: ففرق رسول الله ﷺ بينهما
وقال: «لا يجتمعان أبداً» [البيهقي (٤١٠/٧)].

وذكر البيهقي من حديث سعد بن جبير، عن ابن
عمر، عن النبي ﷺ قال: «المتلاعنان إذا تفرقا لا
يجتمعان أبداً» [الدارقطني (٤٠٦/٢)].

قال: وروينا عن علي، وعبد الله بن عباس رضي
الله عنهما، قالوا: مضت السنة في المتلاعنين أن لا
يجتمعا أبداً [عبد الرزاق: ١٢٤٣٦، والبيهقي (٤١٠/٧)].
قال: وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه
قال: يفرق بينهما ولا يجتمعان أبداً [عبد الرزاق:
١٢٤٣٣، والبيهقي (٤١٠/٧)] وإلى هذا ذهب أحمد،
والشافعي، ومالك، والثوري، وأبو عبيد، وأبو
يوسف.

وعن أحمد رواية أخرى: أنه إن أكذب نفسه،
حلّت له، وعاد فراشه بحاله، وهي رواية شاذة شدّ
بها حنبل عنه. قال أبو بكر: لا نعلم أحداً رواها
غيره، وقال صاحب «المغني»: وينبغي أن تحمل هذه
الرواية على ما إذا لم يُفرّق بينهما. فأما مع تفريق
الحاكم بينهما، فلا وجه لبقاء النكاح بحاله.

قلت: الرواية مطلقة، ولا أثر لتفريق الحاكم في
دوام التحريم، فإن الفرقة الواقعة بنفس اللعان أقوى
من الفرقة الحاصلة بتفريق الحاكم، فإذا كان إكذاب
نفسه مؤثراً في تلك الفرقة القوية، رافعاً للتحريم
الناسئ منها، فلأن يؤثّر في الفرقة التي هي دونها،
ويرفع تحريمها أولى.

وإنما قلنا: إن الفرقة بنفس اللعان أقوى من الفرقة
بتفريق الحاكم، لأن فرقة اللعان تستند إلى حكم الله
ورسوله، سواء رضي الحاكم والمتلاعنان التفريق أو
أبوّه، فهي فرقة من الشارع بغير رضى أحدٍ منهم ولا
اختياره، بخلاف فرقة الحاكم، فإنه إنما يفرّق
باختياره.

المقام المُخزي، فحصل لِكُلِّ واحدٍ منهما من صاحبه من الثَّرة والوحشة، وسوء الظن ما لا يكاد يلتئم معه شملُهما أبداً، فاقتضت حِكْمَةُ مَنْ شَرَعَهُ كُلَّهُ حِكْمَةً ومصلحةً وعَدْلٌ ورحمةٌ تحثُّمُ الفرقةَ بينهما، وقطع الصَّحبةَ المتمحِّضةَ مفسدةً.

وأيضاً فإنه إذا كان كاذباً عليها، فلا ينبغي أن يُسلَّطَ على إمسакها مع ما صَنَعَ من القبيح إليها، وإن كان صادقاً فلا ينبغي أن يُمسيكها مع علمه بحالها، ويرضى لنفسه أن يكون زوجٌ بغي.

فإن قيل: فما تقولون: لو كانت أمة ثم اشتراها، هل يَحِلُّ له وطؤها بملك اليمين؟ قلنا: لا تَحِلُّ له لأنه تحريم مؤبد، فحرمت على مشتريها كالزَّرع، ولأن المطلق ثلاثاً إذا اشترى مطلقة لم تَحِلَّ له قبل زوج وإصابة، فهنا أولى، لأن هذا التحريم مؤبد، وتحريم الطلاق غير مؤبد.

فصل

(لا يسقط صدق الملائنة بعد الدخول)

الحكم الرابع: أنها لا يسقط صدقها بعد الدخول، فلا يرجعُ به عليها، فإنه إن كان صادقاً، فقد استحلَّ من فرجها عوضَ الصداق، وإن كان كاذباً فأولى وأحرى.

(هل يحكم للملائنة)

بنصف المهر إذا وقع اللعان قبل الدخول)

فإن قيل: فما تقولون: لو وقع اللعان قبل الدخول، هل تحكمون عليه بنصف المهر، أو تقولون: يسقط جملة؟

قيل: في ذلك قولان للعلماء، وهما روايتان عن أحمد مأخذهما: أن الفرقة إذا كانت بسبب من الزوجين كلعانها أو منهما ومن أجنبي، كشرائها لزوجها قبل الدخول، فهل يسقط الصداق تغليياً لجانبها كما لو كانت مستقلة بسبب الفرقة، أو نصفه تغليياً لجانبه، وأنه هو المشارك في سبب الإسقاط، والسيد الذي باعه متسبب إلى إسقاطه ببيعه إياها؟ فهذا الأصل فيه قولان. وكلُّ فرقة جاءت من قبل الزوج نصَّبت الصداق كطلاقه، إلَّا فسخه ليعيها، أو فوات شرط شرَّطه، فإنه يسقط كُلُّه، وإن كان هو

وأيضاً فإن اللعان يكون قد اقتضى بنفسه التفريق لقوته وسلطانه عليه، بخلاف ما إذا توقَّف على تفريق الحاكم، فإنه لم يَقوَ بنفسه على اقتضاء الفرقة، ولا كان له سلطانٌ عليها، وهذه الرواية هي مذهب سعيد بن المسيَّب، قال: فإن أكذب نفسه، فهو خاطبٌ من الخطَّاب، ومذهب أبي حنيفة ومحمد، وهذا على أصله اطرَد، لأن فرقة اللعان عنده طلاق. وقال سعيد بن جبير: إن أكذب نفسه، رُدَّت إليه ما دامت في العدة.

والصحيح: القول الأوَّل الذي ذُلت عليه السُّنة الصحيحة الصريحة، وأقوال الصحابة رضي الله عنهم، وهو الذي تقتضيه حِكْمَةُ اللعان، ولا تقتضي سواء، فإن لعنة الله تعالى وغضبه قد حلَّ بأحدهما لا محالة، ولهذا قال النبي ﷺ عند الخامسة: «إنها المُوجِبَةُ»، أي الموجبة لهذا الوعيد، ونحن لا نعلم عيْنَ مَنْ حَلَّت به يقيناً، ففرق بينهما خشية أن يكون هو الملعون الذي قد وجبت عليه لعنة الله وباء بها، فيعلو امرأة غير ملعونة، وحكمة الشرع تأبى هذا، كما أبت أن يعلو الكافر مسلمة والزاني عفيفة.

فإن قيل: فهذا يوجب ألا يتزوج غيرها لما ذكرتم بعينه؟

قيل: لا يُوجب ذلك، لأننا لم نتحقق أنه هو الملعون، وإنما تحققنا أن أحدهما كذلك، وشككتنا في عينه، فإذا اجتمعما، لزمه أحد الأمرين ولا بدَّ، إما هذا وإما إمسأك ملعونة مغضوباً عليها قد وجب عليها غضبُ الله، وباءت به، فأما إذا تزوجت بغيره، أو تزوج بغيرها، لم تتحقق هذه المفسدة فيهما.

وليضاً فإن الثَّرة الحاصلة من إساءة كُلِّ واحدٍ منهما إلى صاحبه لا تزول أبداً، فإن الرجل إن كان صادقاً عليها، فقد أشاعَ فاجشتها، وفضَّحها على رؤوس الأشهاد، وأقامها مقام الخزي، وحقق عليها الخزي والغضب، وقطع نسب ولدها، وإن كان كاذباً، فقد أضافت إلى ذلك بهتتها بهذه الفرية العظيمة، وإحراق قلبها بها، والمرأة إن كانت صادقة فقد أكذبت على رؤوس الأشهاد، وأوجبت عليه لعنة الله، وإن كانت كاذبة، فقد أفسدت فراشه وخانت في نفسها، وألزمت العارَ والفضيحة، وأحوجته إلى هذا

الذي فسخ، لأن سبب الفسخ منها وهي الحاملة له عليه. ولو كانت الفرقة بإسلامه، فهل يسقط عنه، أو يُنصفه؟ على روايتين. فوجه إسقاطه، أنه فعل الواجب عليه، وهي الممتعة من فعل ما يجب عليها، فهي المتسببة إلى إسقاط صداقها بامتناعها من الإسلام، ووجه التنصيف أن سبب الفسخ من جهته. فإن قيل: فما تقولون في الخلع: هل يُنصفه أو يُسقطه؟

(هل ينصف الخلع المهر أو يسقطه إذا وقع قبل الدخول؟)

قيل: إن قلنا: هو طلاق يُنصفه، وإن قلنا: هو فسخ، فقال أصحابنا: فيه وجهان: أحدهما: كذلك تغليبا لجانبه. والثاني: يسقطه لأنه لم يستقل بسبب الفسخ، وعندني أنه إن كان مع أجنبي نصفه وجهاً واحداً، وإن كان معها، ففيه وجهان.

فإن قيل: فما تقولون: لو كانت الفرقة بشرائه لزوجته من سيدها: هل يُسقطه أو يُنصفه؟

قيل: فيه وجهان: أحدهما: يسقطه، لأن مستحق مهرها تسبب إلى إسقاطه ببيعها، والثاني: يُنصفه لأن الزوج تسبب إليه بالشراء، وكُلُّ فرقة جاءت من قبلها كردتها، وإرضاعها من يفسخ إرضاعه نكاحها، وفسخها لإعساره أو عيبه، فإنه يسقط مهرها.

فإن قيل: فقد قلتم: إن المرأة إذا فسخت لعيب في الزوج سقط مهرها، إذ الفرقة من جهتها، وقلتم: إن الزوج إذا فسخ لعيب في المرأة سقط أيضاً، ولم تجعلوا الفسخ من جهته فتنصفوه، كما جعلتموه لفسخها لعيبه من جهتها، فأسقطتموه، فما الفرق؟ قيل: الفرق بينهما أنه إنما بذل المهر في مقابلة بضع سليم من العيوب، فإذا لم يتبين كذلك، وفسخ، عاد إليها كما خرج منها، ولم يستوفه، ولا شيئاً منه، فلا يلزمه شيء من الصداق، كما أنها إذا فسخت لعيبه لم تُسلم إليه المعقود عليه، ولا شيئاً منه، فلا تستحق عليه شيئاً من الصداق.

فصل

(لا نفقة للملاعة على الملاح ولا سكنى)

الحكم الخامس: أنها لا نفقة لها عليه ولا سكنى، كما قضى به رسول الله ﷺ، وهذا موافق

لحكمه في المبتوتة التي لا رجعة لزوجها عليها، كما سيأتي بيان حكمه في ذلك، وأنه موافق لكتاب الله، لا مخالف له، بل سقوط النفقة والسكنى للملاعة أولى من سقوطها للمبتوتة، لأن المبتوتة له سبيل إلى أن ينكحها في عدتها، وهذه لا سبيل له إلى نكاحها لا في العدة ولا بعدها، فلا وجه أصلاً لوجوب نفقتها وسكنائها، وقد انقطعت العصمة انقطاعاً كلياً.

فأقضيت بأن يوافق بعضها بعضاً، وكلها توافق كتاب الله والميزان الذي أنزله ليقوم الناس بالقسط، وهو القياس الصحيح، كما ستر عينك إن شاء الله تعالى بالوقوف عليه عن قريب.

وقال مالك، والشافعي: لها السكنى. وأنكر القاضي إسماعيل بن إسحاق هذا القول إنكاراً شديداً. وقوله: «من أجل أنهما يترقان من غير طلاق، ولا متوفى عنها» لا يدلُّ مفهومه على أن كل مطلقة، ومتوفى عنها لها النفقة والسكنى، وإنما يدلُّ على أن هاتين الفرقتين قد يجبُ معهما نفقة وسكنى، وذلك إذا كانت المرأة حاملاً، فلها ذلك في فرقة الطلاق اتفاقاً، وفي فرقة الموت ثلاثة أقوال، أحدها: أنه لا نفقة لها ولا سكنى، كما لو كانت حائلاً، وهذا مذهب أبي حنيفة وأحمد في إحدى روايتيه، والشافعي في أحد قولي، لزوال سبب النفقة بالموت على وجه لا يرجى عودهُ، فلم يبق إلا نفقة قريب، فهي في مال الطفل إن كان له مال، وإلا فعلى من تلزمه نفقته من أقاربه.

والثاني: أن لها النفقة والسكنى في تركه تُقدم بها على الميراث، وهذا إحدى الروايتين عن أحمد، لأن انقطاع العصمة بالموت لا يزيد على انقطاعها بالطلاق البائن، بل انقطاعها بالطلاق أشد، ولهذا تغسل المرأة زوجها بعد موته عند جمهور العلماء حتى المطلقة الرجعية عند أحمد ومالك في إحدى الروايتين عنه، فإذا وجبت النفقة والسكنى للبائن الحامل، فوجوبها للمتوفى عنها زوجها أولى وأحرى.

والثالث: أن لها السكنى دون النفقة حاملاً كانت أو حائلاً، وهذا قول مالك وأحد قولي الشافعي إجراء لها مجرى المبتوتة في الصحة، وليس هذا

الفراش، ودعوى الزاني، فأبطل دعوى الزاني للولد، وحكم به لصاحب الفراش، وههنا صاحب الفراش قد نفى الولد عنه.

فإن قيل: فما تقولون: لولا عن لمجرد نفى الولد مع قيام الفراش، فقال: لم تزني، ولكن ليس هذا الولد ولدي؟

قيل: في ذلك قولان للشافعي، وهما روايتان منصوستان عن أحمد:

إحدهما: أنه لا إيمان بينهما، ويلزمه الولد، وهي اختيار الخرقي.

والثانية: أن له أن يلاعن لنفي الولد، فينتفي عن بلعانه وحده، وهي اختيار أبي البركات بن تيمية، وهي الصحيحة.

فإن قيل: فخالفتم حكم رسول الله ﷺ «أن الولد للفراش» قلنا: معاذ الله، بل وافقنا أحكامه حيث وقع غيرنا في خلاف بعضها تأويلاً، فإنه إنما حكم بالولد للفراش حيث ادعاه صاحب الفراش، فرجع دعواه بالفراش، وجعله له، وحكم بنفيه عن صاحب الفراش حيث نفاه عن نفسه، وقطع نسبه منه، وقضى ألا يدعى لأب، فوافقنا الحكمين، وقلنا بالأمرين، ولم نفرق تفريقاً بارداً جداً سمحاً لا أثر له في نفي الولد حملاً ونفيه مولوداً، فإن الشريعة لا تأتي على هذا الفرق الصوري الذي لا معنى له البتة، وإنما يرتضي هذا من قل نصيبه من ذوق الفقه وأسرار الشريعة، وحكيها ومعانيها، والله المستعان، وبه التوفيق.

فصل

(الحاق ولد اللعان بأمه)

الحكم السامع: إلحاق الولد بأمه عند انقطاع نسبه من جهة أبيه، وهذا الإلحاق يُفيد حكماً زائداً على إلحاقه بها مع ثبوت نسبه من الأب، وإلا كان عديم الفائدة، فإن خروج الولد منها أمر محقق، فلا بد من الإلحاق من أمر زائد عليه، وعلى ما كان حاصله مع ثبوت النسب من الأب، وقد اختلفت في ذلك.

فقال طائفة: أفاد هذا الإلحاق قطع توهم انقطاع نسب الولد من الأم، كما انقطع من الأب، وأنه لا

موضع بسيط هذه المسائل وذكر أدلتها، والتمييز بين راجحها ومرجوحها، إذ المقصود أن قوله: «من أجل أنهما يفترقان من غير طلاق ولا متوفى عنها زوجها» إنما يدل على أن المطلقة والمتوفى عنها قد يجب لهما القوت والبيت في الجملة، فهذا إن كان هذا الكلام من كلام الصحابي، والظاهر - والله أعلم - أنه مُدرج من قول الزهري.

فصل

(انقطاع نسب ولد اللعان من جهة الأب)

الحكم السادس: انقطاع نسب الولد من جهة الأب، لأن رسول الله ﷺ قضى ألا يدعى ولدُها لأب، وهذا هو الحق، وهو قول الجمهور، وهو أجل فوائد اللعان، وشذ بعض أهل العلم، وقال: المولود للفراش لا ينفيه اللعان البتة، لأن النبي ﷺ قضى أن الولد للفراش، وإنما ينفي اللعان الحمل، فإن لم يلاعنها حتى ولدت، لاعت لإسقاط الحد فقط، ولا ينتفي ولدُها منه، وهذا مذهب أبي محمد بن حزم، واحتج عليه بأن رسول الله ﷺ قضى أن الولد لصاحب الفراش، قال: فصيح أن كل من وُلدَ على فراشه ولد، فهو ولده إلا حيث نفاه الله على لسان رسوله ﷺ، أو حيث يوقن بلا شك أنه ليس ولده، ولم ينه ﷺ إلا وهي حامل باللعان فقط، فبقي ما عدا ذلك على لحاق النسب، قال: ولذلك قلنا: إن صدقته في أن الحمل ليس منه، فإن تصديقها له لا يلتفت إليه لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ هُمْ يُلَاقُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤] فوجب أن إقرار الأبوين يصدق على نفى الولد، فيكون كسباً على غيرهما، وإنما نفى الله سبحانه الولد إذا أكذبت الأم، والتعننت هي والزوج فقط، فلا ينتفي في غير هذا الموضع. انتهى كلامه [المحلى، (١٠/١٤٧)].

وهذا ضد مذهب من يقول: إنه لا يصح اللعان على الحمل حتى تضع، كما يقول أحمد وأبو حنيفة، والصحيح: صحته على الحمل، وعلى الولد بعد وضعه، كما قاله مالك والشافعي، فالأقوال ثلاثة.

ولا تنافي بين هذا الحكم وبين الحكم بكون الولد للفراش بوجه ما، فإن الفراش قد زال باللعان، وإنما حكم رسول الله ﷺ بأن الولد للفراش عند تعارض

يُنسب إلى أم، ولا إلى أب، فقطع النبي ﷺ هذا الزهْم، والحق الولد بالأم، وأكَّد هذا بإيجابه الحدَّ على من قذفه أو قذفت أمه، وهذا قول الشافعي ومالك، وأبي حنيفة، وكل من لا يرى أن أمه وعصباتها له.

وقالت طائفة ثانية: بل أفادنا هذا الإلحاق فائدة زائدة، وهي تحويلُ النسب الذي كان إلى أبيه إلى أمه، وجعل أمه قائمةً مقام أبيه في ذلك، فهي عصبة وعصباتها أيضاً عصبة، فإذا مات، حازت ميراثه، وهذا قول ابن مسعود، ويروى عن علي، وهذا القول هو الصواب، لما روى أهل السنن الأربعة، من حديث واثلة بن الأسقع، عن النبي ﷺ أنه قال: «تَحُورُ الْمَرْأَةُ ثَلَاثَةَ مَوَارِيثَ: عَتِيقُهَا، وَلَقِيطُهَا، وَوَلَدُهَا الَّذِي لَاعَنَتْ عَلَيْهِ» [صحيح: أحمد: ١٦٠٠٤، وأبو داود: ٢٩٠٦، والترمذي: ٢١١٦، وابن ماجه: ٢٧٤٢]، ورواه الإمام أحمد وزعم إليه.

وروى أبو داود في «سننه»: من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ، أنه جعل ميراثَ ابن المَلَاعَةِ لأمه ولورثتها مِنْ بَعْدِهَا [أبو داود: ٢٩٠٨، وسنده حسن].

وفي «السنن» أيضاً مرسلًا: من حديث مكحول، قال: جعل رسول الله ﷺ ميراثَ ابن المَلَاعَةِ لأمه ولورثتها مِنْ بَعْدِهَا [أبو داود: ٢٩٠٧، ورجاله ثقات].

وهذه الآثار موافقة لمحض القياس، فإن النسب في الأصل للأب، فإذا انقطع من جهته صار للأم، كما أن الولاء في الأصل لمعتق الأب، فإذا كان الأب رقيقاً، كان لمعتق الأم. فلو أعتق الأب بعد هذا، انجَرَّ الولاء من موالِي الأم إليه، ورجع إلى أصله، وهو نظير ما إذا كذب الملاعن نفسه، واستلحق الولد رجع النسب والتعصيب من الأم وعصبتها إليه. فهذا محض القياس، وموجب الأحاديث والآثار، وهو مذهب خير الأمة وعالمها عبد الله بن مسعود، ومذهب إمامي أهل الأرض في زمانهما، أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، وعليه

يُدُلُّ القرآن بالطف إيماء وأحسنه، فإن الله سبحانه جعل عيسى من ذرية إبراهيم بواسطة مريم أمه، وهي من صميم ذرية إبراهيم، وسيأتي مزيد تقرير لهذا عند ذكر أقضية النبي ﷺ وأحكامه في الفرائض إن شاء الله تعالى.

فإن قيل: فما تصنعون بقوله في حديث سهل الذي رواه مسلم في «صحيحه» في قصة اللعان: وفي آخره: ثم جرت السنة أن يَرِثَ مِنْهَا وَتَرِثَ مِنْهُ مَا فَرَضَ اللَّهُ لَهَا؟ قيل: نلتقاء بالقبول والتسليم والقول بموجبه، وإن أمكن أن يكون مدرجاً من كلام ابن شهاب^(١) وهو الظاهر، فإن تعصّب الأم لا يُسقط ما فرض الله لها من ولدها في كتابه، وغايتها أن تكون كالأب حيث يجتمع له الفرض والتعصيب، فهي تأخذ فرضها ولا بُدَّ فإن فضل شيء أخذته بالتعصيب، وإلا فازت بفرضها، فنحن قائلون بالآثار كُلُّهَا في هذا الباب بحمد الله وتوفيقه.

فصل

(يحد قاذفها وقاذف ولدها)

الحكم الثامن: «أنها لا تُرمى ولا يُرمى ولدها، ومن رماها أو رمى ولدها، فعليه الحد» وهذا لأن لعانها نفى عنها تحقيق ما رُميت به، فيُحد قاذفها وقاذف ولدها، هذا الذي دلَّت عليه السنة الصحيحة الصريحة، وهو قول جمهور الأمة، وقال أبو حنيفة: إن لم يكن هناك ولد نُفِّيَ نسبه، حُدَّ قاذفها، وإن كان هناك ولد نُفِّيَ نسبه، لم يُحد قاذفها، والحديث إنما هو فيمن لها ولد نفاه الزوج، والذي أوجب له هذا الفرق أنه متى نُفِّيَ نسب ولدها، فقد حكم بزناها بالنسبة إلى الولد، فأثر ذلك شبهة في سقوط حد القذف.

فصل

(لا تترتب الأحكام السابقة إلا بعد تمام اللعان)

الحكم التاسع: أن هذه الأحكام إنما ترتبت على لعانها معاً، وبعد أن تَمَّ اللعانان، فلا يترتب شيء منها على لعان الزوج وحده، وقد خرَّج أبو

(١) وقال الشافعي: إن نسبته إلى ابن شهاب الزهري لا تمنع نسبته إلى سهل.

البركات بن تيمية على هذا المذهب انتفاء الولد بلعان الزوج وحده، وهو تخريج صحيح، فإن لعانه كما أفاد سقوط الحد وعار القذف عنه من غير اعتبار لعانها، أفاد سقوط النسب الفاسد عنه، وإن لم تُلاعن هي، بطريق الأولى، فإن تضرره بدخول النسب الفاسد عليه أعظم من تضرره بحد القذف، وحاجته إلى نفيه عنه أشد من حاجته إلى دفع الحد، فلعانه كما استقل بدفع الحد استقل بنفي الولد، والله أعلم.

فصل

(وجوب النفقة والسكنى

للمطلقة والمتوفى عنها إذا كانتا حاملين)

الحكم العائش: وجوب النفقة والسكنى للمطلقة والمتوفى عنها إذا كانتا حاملين، فإنه قال: «من أجل أنهما يفرقان عن غير طلاق ولا متوفى عنها»، فأفاد ذلك أمرين، أحدهما: سقوط نفقة البائن وسكنائها إذا لم تكن حاملاً من الزوج. والثاني: وجوبهما لها، وللمتوفى عنها إذا كانتا حاملين من الزوج.

فصل

(اعتبار الحكم بالقافة في الإلحاق بالنسب)

وقوله ﷺ: «أَبْصِرُوهَا فَإِنْ جَاءَتْ بِوَكْذَا وَكَذَا، فَهِيَ لِهَالِلِ بْنِ أُمَيَّةَ، وَإِنْ جَاءَتْ بِوَكْذَا وَكَذَا فَهِيَ لِشَرِيكِ بْنِ سَحْمَاءَ»، إرشاد منه ﷺ إلى اعتبار الحكم بالقافة، وأن للشبهة مدخلاً في معرفة النسب، وإلحاق الولد بمنزلة الشبه، وإنما لم يلحق بالملاعن لو قدر أن الشبهة له، لمعارضة اللعان الذي هو أقوى من الشبه له، كما تقدم.

فصل

(من قتل رجلاً في داره مدعيًا زناه

بحريمه قتل به إن لم يات ببينة أو لقرار الولي)

وقوله في الحديث: «لَوْ أَنَّ رَجُلًا وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا يَقْتُلُهُ فَتَقْتُلُونَهُ بِهِ» دليل على أن من قتل رجلاً في داره، وأدعى أنه وجدته مع امرأته أو حريمه، قتل فيه، ولا يقبل قوله، إذ لو قبل قوله، لأهْلِيَتْ الدماء، وكان كل من أراد قتل رجل أدخله داره وأدعى أنه وجدته مع امرأته.

ولكن ههنا مسألتان يجب التفريق بينهما: إحداهما: هل يسعه فيما بينه وبين الله تعالى أن يقتله، أم لا؟ والثاني: هل يقبل قوله في ظاهر الحكم أم لا؟ وبهذا التفريق يزول الإشكال فيما نُقِلَ عن الصحابة رضي الله عنهم في ذلك، حتى جعلها بعض العلماء مسألة نزاع بين الصحابة، وقال: مذهب عمر رضي الله عنه: أنه لا يقتل به، ومذهب علي: أنه يقتل به، والذي غره ما رواه سعيد بن منصور في «سننه»، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: بينا هو يوماً يتغدى، إذ جاءه رجل يعدو وفي يده سيف ملطخ بدم، ووراءه قوم يعدون، فجاء حتى جلس مع عمر، فجاء الآخرون، فقالوا يا أمير المؤمنين: إن هذا قتل صاحبنا، فقال له عمر رضي الله عنه: ما تقول؟ فقال له: يا أمير المؤمنين! إني ضربت بين فخذي امرأتي، فإن كان بينهما أحد فقد قتلتها، فقال عمر: ما تقولون؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين! إنه ضرب بالسيف، فوقع في وسط الرجل وفخذي المرأة، فأخذ عمر رضي الله عنه سيفه فهزّه، ثم دفعه إليه، وقال: إن عاد، فعد. فهذا ما نُقِلَ عن عمر رضي الله عنه.

وأما علي، فُسئِلَ عَمَّنْ وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا فَقَتَلَهُ، فقال: إن لم يأت بأربعة شهداء، فليُغَطَّ بِرُؤْمَتِهِ [مالك ٢/٧٣٧-٧٣٨، وعبد الرزاق: ١٧٩١٥]. فظن أن هذا خلافت المنقول عن عمر، فجعلها مسألة خلاف بين الصحابة، وأنت إذا تأملت حكميهما، لم تجد بينهما اختلافًا فإن عمر إنما أسقط عنه القود لما اعترف الولي بأنه كان مع امرأته، وقد قال أصحابنا واللفظ لصاحب «المغني»: فإن اعترف الولي بذلك، فلا قصاص ولا دية، لما روي عن عمر، ثم ساق القصة، وكلامه يعطي أنه لا فرق بين أن يكون محصناً وغير محصن، وكذلك حكم عمر في هذا القتل، وقوله أيضاً: «فإن عادوا فعد» ولم يفرق بين المحصن وغيره، وهذا هو الصواب، وإن كان صاحب «المستوعب» قد قال: وإن وجد مع امرأته رجلاً ينال منها ما يوجب الرجم، فقتله، وأدعى أنه قتله لأجل ذلك، فعليه القصاص في ظاهر الحكم، إلا أن يأتي بيينة بدعواه، فلا يلزمه القصاص، قال: وفي عدد البينة روايتان، إحداهما: شاهدان، اختارها أبو

بكر، لأن البيعة على الوجود لا على الزنى، والأخرى لا يُقبل أقل من أربعة، والصحيح أن البيعة متى قامت بذلك، أو أقر به الولي، سقط القصاص محصناً كان أو غيره، وعليه يدل كلام علي، فإنه قال فيمن وجد مع امرأته رجلاً فقتله: إن لم يأت بأربعة شهداء «فليُعْطَ بِرُمْيِهِ» وهذا لأن هذا القتل ليس بحد للزنى، ولو كان حداً لما كان بالسيف ولا عتير له شروط إقامة الحد وكيفيته، وإنما هو عقوبة لمن تعدى عليه، وهتك حرمة، وأفسد أهله، وكذلك فعل الزبير رضي الله عنه لما تخلف عن الجيش ومعه جارية له؛ فأناه رجلان فقالا: أعطنا شيئاً، فأعطاهما طعاماً كان معه، فقالا: خلّ عن الجارية، فضر بهما بسيفه فقطعهما بضربة واحدة. وكذلك من أطلع في بيت قوم من ثقب، أو شق في الباب بغير إذنهم، فنظر حرمة أو عورة، فلهم خذفه وطعنه في عينه، فإن انقلعت عينه، فلا ضمان عليهم. قال القاضي أبو يعلى: هذا ظاهر كلام أحمد أنهم يدفعونه، ولا ضمان عليهم من غير تفصيل.

وفصل ابن حامد فقال: يدفعه بالأسهل فالأسهل، فيبدأ بقوله: انصرف واذهب، وإلا فعل بك كذا.

قلت: وليس في كلام أحمد، ولا في السنة الصحيحة ما يقتضي هذا التفصيل، بل الأحاديث الصحيحة تدل على خلافه، فإن في «الصحيحين» عن أنس، أن رجلاً أطلع من جحر في بعض حجر النبي ﷺ، فقام إليه بمشاقص أو بمشاقص، وجعل يَحْتَلِه لِيَطْعَنَهُ [البخاري: ٦٩٠١، ومسلم: ٥٦٤١]، فأين الدفع بالأسهل وهو ﷺ يَحْتَلِه، أو يَحْتَبِيءَ له، ويَحْتَفِي لِيَطْعَنَهُ.

وفي «الصحيحين» أيضاً: من حديث سهل بن سعد، أن رجلاً أطلع في جحر في باب النبي ﷺ، وفي يد النبي ﷺ يَذْرَى يَحْتَكُ بِهِ رَأْسَهُ، فلما رآه قال: لَوْ أَعْلَمْتُ أَنَّكَ تَنْتَظِرُنِي لَطَعَنْتُ بِهِ فِي عَيْنِكَ، إِنَّمَا جُعِلَ الْإِذْنُ مِنْ أَجْلِ الْبَصَرِ [البخاري: ٦٩٠١، ومسلم: ٥٦٣٨].

وفيها أيضاً: عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّ امْرَأَةً أَطْلَعَتْ عَلَيْكَ بَغِيرَ إِذْنٍ، فَخَذَفَتْهُ بِحَصَاةٍ، فَفَقَاتَ عَيْنَهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ جُنَاحٌ» [البخاري: ٦٩٠٢، ومسلم: ٥٦٤٢].

وفيها أيضاً: «مَنْ أَطْلَعَ فِي بَيْتِ قَوْمٍ بَغِيرَ إِذْنِهِمْ، فَفَقَّوْا عَيْنَهُ فَلَا دِيَّةَ لَهُ وَلَا قِصَاصَ» [ليس في الصحيحين وإنما أخرجه أحمد: ٨٩٩٧، والنسائي (٦١/٨)، وسنده صحيح].

وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وقال: ليس هذا من باب دفع الصائل، بل من باب عقوبة المعتدي المؤذي، وعلى هذا فيجوز له فيما بينه وبين الله تعالى قتل من اعتدى على حريمه، سواء كان محصناً أو غير محصن، معروفاً بذلك أو غير معروف، كما دل عليه كلام الأصحاب، وفتاوى الصحابة، وقد قال الشافعي وأبو ثور: يسعه قتله فيما بينه وبين الله تعالى إذا كان الزاني محصناً، جعلاه من باب الحدود. وقال أحمد وإسحاق: يُهْدَرُ دَمُهُ إذا جاء بشاهدين ولم يُفَصِّلَا بين المحصن وغيره. واختلف قول مالك في هذه المسألة، فقال ابن حبيب: إن كان المقتول محصناً، وأقام الزوج البيعة، فلا شيء عليه، وإلا قُتِلَ به، وقال ابن القاسم: إذا قامت البيعة فالمحصن وغير المحصن سواء، ويُهدر دمه، واستحب ابن القاسم الدية في غير المحصن.

فإن قيل: فما تقولون في الحديث المتفق على صحته، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن سعد بن عبادَةَ رضي الله عنه قال: يا رسول الله! أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَجِدُ مع امرأته رجلاً أَيْقَلَهُ؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا»، فقال سَعْدٌ: بَلَى وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، فقال رسول الله ﷺ: «اسْمَعُوا إِلَى مَا يَقُولُ سَيِّدُكُمْ».

وفي اللفظ الآخر: «إِنْ وَجَدْتَ مَعَ امْرَأَتِي رَجُلًا أَمْنَهُلَهُ حَتَّى آتِي بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ؟ قال: «نعم» قال: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، إِنْ كُنْتُ لِأَعَاجِلُهُ بِالسَّيْفِ قَبْلَ ذَلِكَ، قال رسول الله ﷺ: «اسْمَعُوا إِلَى مَا يَقُولُ سَيِّدُكُمْ إِنَّهُ لَغَيُورٌ وَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللَّهِ أَغْيَرُ مِنِّْي؟».

قلنا: نلتقاه بالقبول والتسليم، والقول بموجبه، وأخر الحديث دليل على أنه لو قتله لم يُقدَّ به، لأنه قال: بلى والذي أكرمك بالحق، ولو وجب عليه القصاص بقتله، لما أقره على هذا الحلف، ولما أثنى على غَيْرَتِهِ، ولقال: لو قتله قُتِلْتَ به، وحديث أبي هريرة صريح في هذا، فإن رسول الله ﷺ قال: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةٍ سَعْدِ قَوْلِ اللَّهِ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ وَاللَّهِ أَغْيَرُ مِنِّْي»، ولم ينكر عليه، ولا نهاه عن قتله لأن قوله ﷺ

(لا يجب الحد بالتعريض

إذا كان على وجه السؤال والاستفتاء)

وفي هذا الحديث من الفقه: أن الحد لا يجب بالتعريض إذا كان على وجه السؤال والاستفتاء، ومن أخذ منه أنه لا يجب بالتعريض ولو كان على وجه المُقَابَحة والمُشَاتَمَة، فقد أَبْعَدَ النُّجْعَةَ، وَرُبَّ تعريض أفهم، وأوجع للقلب، وأبلغ في النكاية من التصريح، وبساط الكلام وسياقه يرد ما ذكره من الاحتمال، ويجعل الكلام قطعي الدلالة على المراد.

وفيه أن مجرد الرِّبِّيَّة لا يُسَوِّغُ اللَّعَانَ ونفي الولد.

وفيه ضربُ الأمثال والأشياء والنظائر في الأحكام، ومن تراجم البخاري في «صحيحه» على هذا الحديث: باب من شبه أصلاً معلوماً بأصل ميبين قد بين الله حكمه لِيُفْهَمَ السَّائِلُ، وساق معه حديث: «أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكَ ذَيْنِ؟» [البخاري: ٧٣١٥].

فصل

في حكمه ﷺ بالولد للفراش، وأن الأمة

تكون فراشاً، وفيمن استلحق

بعد موت أبيه

ثبت في «الصحيحين»، من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: اختصم سعد بن أبي وقاص، وعبد بن زعفة في غلام، فقال سعد: هذا يا رسول الله ابن أخي عتبة بن أبي وقاص عَهْدَ إِلَيَّ أنه ابْنُهُ، انْظُرْ إِلَى شَبْهِهِ، وقال عبد بن زعفة: هذا أخي يا رسول الله وَلَدٌ عَلَى فِرَاشِ أَبِي مِنْ وَلِيدَتِهِ، فنظر رسول الله ﷺ، فرأى شَبْهاً بَيَّناً بَعْتَةً، فقال: «هُوَ لَكَ يَا عَبْدُ بْنُ زَمْعَةَ، الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ، وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ وَاحْتِجِي بِهِ يَا سَوْدَةَ»، فلم تَرَ سَوْدَةَ قَطُّ [البخاري: ٢٤٢١، ومسلم: ٣٦١٣].

فهذا الحكم النبوي أصل في ثبوت النسب بالفراش، وفي أن الأمة تكون فِرَاشاً بالوطء، وفي أن الشَّبه إذا عارضَ الفِرَاشَ، قُدِّمَ عليه الفِرَاشُ، وفي أن أحكام النسب تتبعُ، فتبَّتْ من وجوه دُونَ وجه، وهو الذي يُسميه بعضُ الفقهاء حُكْماً بَيْنَ حُكْمَيْنِ، وفي أن القافَّة حق، وأنها من الشرع.

حُكْم ملزم، وكذلك فتواه حكم عام للأمة، فلو أذن له في قتله، لكان ذلك حكماً منه بأن دمه هدرٌ في ظاهر الشرع وباطنه، ووقعت المفسدة التي درأها الله بالقصاص، وتهالك الناس في قتل من يريدون قتله في دورهم، ويدعون أنهم كانوا يَرَوْنَهُمْ على حريمهم، فسَدَ الدَّرِيْعَةُ، وَحُمِيَ المَفْسَدَةُ، وصان الدماء، وفي ذلك دليل على أنه لا يَقْبَلُ قَوْلُ الْقَاتِلِ، ويُقَاد به في ظاهر الشرع، فلما حلف سعد أنه يقتله ولا ينتظر به الشهود، عَجِبَ النَّبِيُّ ﷺ من غَيْرَتِهِ، وأخبر أنه غَيُورٌ، وأنه ﷺ أغبر منه، والله أشدُّ غيرةً، وهذا يحتلُّ معنيين:

أحدهما: إقراره وسكوته على ما حلف عليه سعد أنه جائر له فيما بينه وبين الله، ونهيه عن قتله في ظاهر الشرع، ولا يناقض أول الحديث آخره.

والثاني: أن رسول الله ﷺ قال ذلك كالمنكر على سعد، فقال: «أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى مَا يَقُولُ سَيِّدُكُمْ»، يعني: أنا أنهار عن قتله وهو يقول: بلى، والذي أكرمك بالحق، ثم أخبر عن الحامل له على هذه المخالفة، وأنه شِدَّةُ غَيْرَتِهِ، ثم قال: «أَنَا أَغْبِرُ مِنْهُ، وَاللَّهِ أَغْبِرُ مِنْي». وقد شرع إقامة الشهداء الأربعة مع شِدَّةِ غَيْرَتِهِ سبحانه، فهي مقرونة بحكمة ومصلحة، ورحمة وإحسان، فالله سبحانه مع شِدَّةِ غَيْرَتِهِ أعلم بمصالح عباده، وما شرعه لهم من إقامة الشهود الأربعة دون المبادرة إلى القتل، وأنا أغبر من سعد، وقد نهيته عن قتله، وقد يُريد رسول الله ﷺ كلا الأمرين، وهو الأليق بكلامه وسياق القصة.

فصل

في حكمه ﷺ في لحوق النسب بالزوج إذا خالف لونٌ ولده لونه

ثبت عنه في «الصحيحين» أن رجلاً قال له: إن امرأتي ولدت غلاماً أسوداً كأنه يُعْرَضُ بِنْفِيهِ، فقال النبي ﷺ: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبْلِ؟» قال: نعم. قال: «مَا لَوْنُهَا؟» قال: حُمْرٌ. قال: «فَهَلْ فِيهَا مِنْ أَوْزَقٍ؟» قال: نعم. قال رسول الله ﷺ: «فَأَنْتَ أَتَانَا ذَلِكَ؟» قال: لَعَلَّهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَكُونُ نَزْعُهُ عِزْقٌ. فقال النبي ﷺ: «وَهَذَا لَعَلَّهُ يَكُونُ نَزْعُهُ عِزْقٌ» [البخاري: ٥٣٠٥، ومسلم: ٣٧٦٦].

قُلْتُ: إنه إذا استلحق ولداً من أمته لم يلحقه ما بعده إلا باستلحاق مستأنف، بخلاف الزوجة، والفرق بينهما: أن عقد النكاح إنما يُراد للوطء والاستفراش، بخلاف مُلك اليمين، فإن الوطء والاستفراش فيه تابع، ولهذا يجوزُ ورودُه على من يحرم عليه وطؤها بخلاف عقد النكاح. قالوا: والحديث لا حُجَّةَ لكم فيه، لأن وطء زمة لم يثبت، وإنما الحقُّ النبي ﷺ لعبد أخاً، لأنه استلحقه، فألحقه باستلحاقه، لا بفراش الأب.

قال الجمهور: إذا كانت الأمة موطوءة، فهي فراش حقيقة وحُكماً، واعتباراً ولادتها السابقة في صيرورتها فراشاً اعتباراً ما لا دليل على اعتباره شرعاً، والنبي ﷺ لم يعتبره في فراش زمة، فاعتباره تحكماً.

وقولكم: إن الأمة لا تُراد للوطء، فالكلام في الأمة الموطوءة التي اتخذت سريةً وفراشاً، وجُعِلَتْ كالزوجة، أو أحظى منها، لا في أمته التي هي أخته من الرضاع ونحوها.

وقولكم: إن وطء زمة لم يثبت حتى يلحق به الولد، ليس علينا جوابه، بل جوابه على من حكم بلحق الولد بزمة، وقال لابنه: هو أخوك.

وقولكم: إنما ألحقه بالأخ لأنه استلحقه: باطل، فإن المستلحق إن لم يُقرَّ به جميع الورثة، لم يلحق بالمقر إلا أن يشهدَ منهم اثنان أنه وَلِدٌ على فراش الميت، وعَبْدٌ لم يكن يُقرُّ له جميع الورثة، فإن سودة زوجة النبي ﷺ أخته، وهي لم تُقرَّ به، ولم تُستلحق، وحتى لو أَقَرَّتْ به مع أخيها عبد، لكان ثبوت النسب بالفراش لا بالاستلحاق، فإن النبي ﷺ صرح عقيب حكمه بإلحاق النسب، بأن الولد للفراش، معللاً بذلك، منبهاً على قضية كلية عامة تتناول هذه الواقعة وغيرها. ثم جواب هذا الاعتراض الباطل المحرَّم، أن ثبوت كون الأمة فراشاً بالإقرار من الراطيء، أو وارثه كافٍ في لحوق النسب، فإن النبي ﷺ ألحقه به بقوله: ابن وليدة أبي وَلِدٌ على فراشه، كيف وزمة كان صهر النبي ﷺ، وابنته تحته، فكيف لا يثبت عنده الفراش الذي يلحق به النسب؟

وأما ما نقضتم به علينا أنه إذا استلحق ولداً من

فأما ثبوت النسب بالفراش، فأجمعت عليه الأمة، وجهات ثبوت النسب أربعة: الفراش، والاستلحاق، واليثة، والفاقة، فالثلاثة الأول، متفق عليها، واتفق المسلمون على أن النكاح يثبت به الفراش، واختلفوا في التسري، فجعله جمهور الأمة موجباً للفراش، واحتجوا بصريح حديث عائشة الصحيح، وأن النبي ﷺ قضى بالولد لزمة، وصرح بأنه صاحب الفراش، وجعل ذلك علة للحكم بالولد له، فسبب الحكم ومحلُّه إنما كان في الأمة، فلا يجوز إخلاء الحديث منه وحمله على الحرَّة التي لم تذكر البتة، وإنما كان الحكم في غيرها، فإن هذا يستلزم إلغاء ما اعتبره الشارع وعلق الحكم به صريحاً، وتعطيل محل الحكم الذي كان لأجله وفيه.

ثم لو لم يرد الحديث الصحيح فيه، لكان هو مقتضى الميزان الذي أنزله الله تعالى ليقوم الناس بالقسط، وهو التسوية بين المتماثلين، فإن السرية فراش حساً وحقيقةً وحُكماً، كما أن الحرَّة كذلك، وهي تُراد لما تُراد له الزوجة من الاستمتاع والاستيلاء، ولم يزل الناس قديماً وحديثاً يرغبون في السراي لاستيلائهن واستفراشهن، والزوجة إنما سُمِّيَتْ فراشاً لمعنًى هي والسرية فيه على حد سواء.

وقال أبو حنيفة: لا تكون الأمة فراشاً بأول ولد ولدته من السيد، فلا يلحقه الولد إلا إذا استلحقه، فيلحقه حينئذ بالاستلحاق، لا بالفراش، فما ولدت بعد ذلك لحقه إلا أن ينفيه، فعندهم ولد الأمة لا يلحق السيد بالفراش، إلا أن يتقدمه ولد مُستلحق، ومعلوم أن النبي ﷺ ألحق الولد بزمة، وأثبت نسبه منه، ولم يثبت قط أن هذه الأمة ولدت له قبل ذلك غيره، ولا سأل النبي ﷺ عن ذلك ولا استفصل فيه.

قال منازعهم: ليس لهذا التفصيل أصل في كتاب ولا سنة، ولا أثر عن صاحب، ولا تقتضيه قواعد الشرع وأصوله، قالت الحنفية: ونحن لا ننكر كون الأمة فراشاً في الجملة، ولكنه فراش ضعيف، وهي فيه دون الحرَّة، فاعتبرنا ما تعتق به بأن تلد منه ولداً فيستلحقه، فما ولدت بعد ذلك، لحق به إلا أن ينفيه، وأما الولد الأول، فلا يلحقه إلا بالاستلحاق، ولهذا

إلى ثبوت المحرمية بينه وبين سودة، وهذا من أحسن الأحكام وأبينها، وأوضحها، ولا يمنع ثبوت النسب من وجه دون وجه، فهذا الزاني يثبت النسب منه بينه وبين الولد في التحريم والبعضية دون الميراث والنفقة والولاية وغيرها، وقد يتخلف بعض أحكام النسب عنه مع ثبوته لمانع، وهذا كثير في الشريعة، فلا يُنكر من تخلف المحرمية بين سودة وبين هذا الغلام لمانع الشبه بعتبة، وهل هذا إلا محض الفقه؟ وقد علم بهذا معنى قوله: «ليس لك بأخ»، لو صحت هذه اللفظة مع أنها لا تصيح، وقد ضعفها أهل العلم بالحديث، ولا بُدَّ أن يثبتها مع قوله لعبد: «هُوَ أَخُوكَ» وإذا جمعت أطراف كلام النبي ﷺ، وقرنت قوله: «هو أخوك»، بقوله: «الولد للفراش، وللعاهر الحجر»، تبين لك بطلان ما ذكره من التأويل، وأن الحديث صريح في خلافه لا يحتمله بوجه والله أعلم. والعجب أن منازعنا في هذه المسألة يجعلون الزوجة فراشاً لمجرد العقد، وإن كان بينها وبين الزوج بُعد المشرقين، ولا يجعلون سُرَّتَهُ التي يتكرر استفراشه لها ليلاً ونهاراً فراشاً.

فصل

(الاختلاف فيما تصير به الزوجة فراشاً)

واختلف الفقهاء فيما تصير به الزوجة فراشاً، على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه نفس العقد وإن علم أنه لم يجتمع بها، بل لو طلقها عقبيه في المجلس، وهذا مذهب أبي حنيفة.

والثاني: أنه العقد مع إمكان الوطء، وهذا مذهب الشافعي وأحمد.

والثالث: أنه العقد مع الدخول المحقق لا إمكانه المشكوك فيه، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وقال: إن أحمد أشار إليه في رواية حرب، فإنه نص في روايته فيمن طلق قبل البناء، وأنت امرأته بولد، فأنكره أنه ينتهي عنه بغير لعان، وهذا هو الصحيح المجزوم به، وإلا فكيف تصير المرأة فراشاً ولم يدخل بها الزوج، ولم يبين بها لمجرد إمكان بعيد؟ وهل يعدُّ أهل العرف واللفظة المرأة فراشاً قبل البناء بها، وكيف تأني الشريعة بالحاق نسب بمن لم يبين بامرأته، ولا دخل

أتمه، لم يلحقه ما بعده إلا بإقرار مستأنف، فهذا فيه قولان لأصحاب أحمد، هذا أحدهما، والثاني: أنه يلحقه وإن لم يستأنف إقراراً، ومن رجح القول الأول قال: قد يستبرئها السيد بعد الولادة، فيزول حكم الفراش بالاستبراء، فلا يلحقه ما بعد الأول إلا باعتراف مستأنف أنه وطنها، كالحال في أول ولد، ومن رجح الثاني قال: قد يثبت كونها فراشاً أولاً، والأصل بقاء الفراش حتى يثبت ما يزيله، إذ ليس هذا نظير قولكم: إنه لا يلحقه الولد مع اعترافه بوطئها حتى يستلحقه، وأبطل من هذا الاعتراض قول بعضهم، إنه لم يلحقه به أخاً، وإنما جعله له عبداً، ولهذا أتى فيه بلام التملك فقال: «هُوَ لَكَ»، أي: مملوك لك، وقوى هذا الاعتراض بأن في بعض ألفاظ الحديث «هُوَ لَكَ عَبْد»، وبأنه أمر سودة أن تحتجب منه، ولو كان أخاً لها لما أمرها بالاحتجاب منه، فدلَّ على أنه أجنبي منها. قال: وقوله: «الولد للفراش»، تنبيه على عدم لحوق نسبه بزمعة أي: لم تكن هذه الأمة فراشاً له، لأن الأمة لا تكون فراشاً، والولد إنما هو للفراش، وعلى هذا يصحُّ أمر احتجاب سودة منه، قال: ويؤكد أنه في بعض طرق الحديث «احتجبي منه، فإنه ليس لك بأخ» قالوا: وحيثما فتبين أنا أسعد بالحديث وبالقضاء النبوي منكم.

قال الجمهور: الآن حَوِيَ الوطيس، والتقت حلقتا البطن فنقول - والله المستعان - : أما قولكم: إنه لم يلحقه به أخاً، وإنما جعله عبداً، يرده ما رواه محمد بن إسماعيل البخاري في «صحيحه» في هذا الحديث: «هو لك، هو أخوك يا عبد بن زمة» [البخاري: ٤٣٠٣] وليس اللام للتمليك، وإنما هي للاختصاص، كقوله: «الولد للفراش». فأما لفظة قوله: «هو لك عبد»، فرواية باطلة لا تصحُّ أصلاً. وأما أمره سودة بالاحتجاب منه، فإما أن يكون على طريق الاحتياط والورع لمكان الشبهة التي أورثها الشبهة البين بعتبة، وإما أن يكون مراعاة للشبهتين وإعمالاً للدليلين، فإن الفراش دليل لحوق النسب، والشبه بغير صاحبه دليل نفيه، فأعمل أمر الفراش بالنسبة إلى المدعي لقوته، وأعمل الشبه بعتبة بالنسبة

بها، ولا اجتمع بها بمجرد إمكان ذلك؟ وهذا الإمكان قد يقطع بانتفائه عادة، فلا تصير المرأة فراشاً إلا بدخول محقق، وبالله التوفيق. وهذا الذي نصّ عليه في رواية حرب، هو الذي تقتضيه قواعده وأصول مذهبه والله أعلم.

(الاختلاف فيما تصير به الأمة فراشاً)

واختلفوا أيضاً فيما تصير به الأمة فراشاً، فالجمهور على أنها لا تصير فراشاً إلا بالوطء، وذهب بعض المتأخرين من المالكية إلى أن الأمة التي تشتري للوطء دون الخدمة، كالمرتفعة التي يفهم من قرائن الأحوال أنها إنما تُراد للتسري، فتصير فراشاً بنفس الشراء، والصحيح أن الأمة والحرّة لا تصيران فراشاً إلا بالدخول.

فصل

فهذا أحد الأمور الأربعة التي يثبت بها النسب، وهو الفراش.

(الاستلحاق)

الثاني: الاستلحاق وقد اتفق أهل العلم على أن للأب أن يستلحق، فأما الجد، فإن كان الأب موجوداً لم يؤثر استلحاقه شيئاً، وإن كان معدوماً، وهو كُلُّ الورثة، صح إقراره، وثبت نسب المُقرّ به، وإن كان بعض الورثة وصدّقه، فكذلك، وإلا لم يثبت نسبه إلا أن يكون أحد الشاهدين فيه.

والحكم في الأخ كالحكم في الجد سواء، والأصل في ذلك أن من حاز المال يثبت النسب بإقراره واحداً كان أو جماعة، وهذا أصل مذهب أحمد والشافعي، لأن الورثة قاموا مقام الميت، وحلوا محله. وأورد بعض الناس على هذا الأصل، أنه لو كان إجماع الورثة على إلحاق النسب يثبت النسب، للزم إذا اجتمعوا على نفي حمل من أمة وطنها الميت أن يحلوا محله في نفي النسب، كما حلوا محله في إلحاقه، وهذا لا يلزم، لأنا اعتبرنا جميع الورثة والحمل من الورثة، فلم يُجمع الورثة على نفيه.

فإن قيل: فأنتم اعتبرتم في ثبوت النسب إقرار

جميع الورثة، والمقر ههنا إنما هو عبد، وسودّة لم تُقرّ به وهي أخته، والنبي ﷺ الحقّ بعيد باستلحاقه، ففيه دليل على استلحاق الأخ وثبوت النسب بإقراره، ودليل على أن استلحاق أحد الأخوة كافٍ.

قيل: سودّة لم تكن منكراً، فإن عبداً استلحقه، وأقرته سودّة على استلحاقه، وإقرارها وسكوّتها على هذا الأمر المتعدي حكمه إليها من خلوته بها، ورويته إياها وصيرورته أخاً لها تصديق لأخيها عبد، وإقرار بما أقر به، وإلا لبادرت إلى الإنكار والتكذيب، فجرى رضاها وإقرارها مجرى تصديقها، هذا إن كان لم يصدّر منها تصديق صريح، فالواقعة واقعة عين، ومتى استلحق الأخ أو الجد أو غيرهما نسب من لو أقر به مورثهم لحقه، ثبت نسبه ما لم يكن هنا وارث منازع، فالاستلحاق مقتضى لثبوت النسب، ومنازعة غيره من الورثة مانع من الثبوت، فإذا وُجد المقتضي، ولم يمنع مانع من اقتضائه، ترتّب عليه حكمه. ولكن هاهنا أمر آخر، وهو أن إقرار من حاز الميراث واستلحاقه هل هو إقرار خلافة عن الميت، أو إقرار شهادة؟ هذا فيه خلاف، فمذهب أحمد والشافعي رحمهما الله، أنه إقرار خلافة، فلا تُشترط عدالة المستلحق، بل ولا إسلامه، بل يصح ذلك من الفاسق والذّين، وقالت المالكية: هو إقرار شهادة، فتعتبر فيه أهلية الشهادة، وحكى ابن القصار عن مذهب مالك: أن الورثة إذا أقرّوا بالنسب لحق، وإن لم يكونوا عدولاً، والمعروف من مذهب مالك خلافة.

فصل

(البينة)

الثالث: البينة، بأن يشهد شاهدان أنّه ابنه، أو أنه ولّد على فراشه من زوجته، أو أمته، وإذا شهد بذلك اثنان من الورثة لم يلتفت إلى إنكار بقية، وثبت نسبه، ولا يعرف في ذلك نزاع.

فصل

(القافة)

الرابع: القافة، حكم رسول الله ﷺ وقضاؤه باعتبار القافة وإلحاق النسب بها.

ثبت في «الصحيحين»: من حديث عائشة

رضي الله عنها قالت: دخل علي رسول الله ﷺ ذات يوم مسروراً تَبَرَّقَ أسارير وجهه، فقال: «أَلَمْ تَرَي أَنْ مُجَزَّراً الْمُدْلِجِي نَظَرَ أَنْفًا إِلَى زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ وَأَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ وَعَلَيْهِمَا قَطِيفَةٌ قَدْ غَطَّيَا رُؤُوسَهُمَا وَبَدَتْ أَقْدَامُهُمَا، فقال: إِنَّ هَذِهِ الْأَقْدَامُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ» [البخاري: ٣٧٣١، ومسلم: ٣٦١٧]، فَسَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِ الْقَائِفِ وَلَوْ كَانَتْ كَمَا يَقُولُ الْمُتَنَازِعُونَ مِنْ أَمْرِ

الجاهلية كالكهانة ونحوها لما سَرَّ بها، ولا أُعْجِبَ بِهَا، وَلَكَانَتْ بِمَنْزِلَةِ الْكُهَانَةِ، وَقَدْ صَحَّ عَنْهُ وَعِيدٌ مَنْ صَدَّقَ كَاهِنًا. قال الشافعي: والنبي ﷺ أثبت علمًا، ولم يُنْكِرْهُ، ولو كان خطأ لأنكره، لأن في ذلك قذف المحصنات، ونفي الأنساب، انتهى.

(حجج من انكسر ثبوت النسب بالقافة)

قالت الحنفية: قد أُجْلِبْتُمْ عَلَيْنَا فِي الْقَافَةِ بِالْخِيَلِ وَالرَّجُلِ، وَالْحُكْمُ بِالْقِيَافَةِ تَعْوِيلٌ عَلَى مَجْرَدِ الشَّيْبِ وَالظَّنِّ وَالتَّخْمِينِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الشَّيْبَ قَدْ يُوجَدُ مِنَ الْأَجَانِبِ، وَيَسْتَفِي عَنْ الْأَقَارِبِ، وَذَكَرْتُمْ قِصَّةَ أُسَامَةَ وَزَيْدٍ، وَنَسِيتُمْ قِصَّةَ الَّذِي وَلَدَتْ امْرَأَتُهُ غَلَامًا أَسْوَدَ يُخَالِفُ لَوْنَهُمَا، فَلَمْ يُمَكِّنْهُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ نَفْيِهِ، وَلَا جَعَلَ لِلشَّيْبِ وَلَا لِعَدَمِهِ أَثَرًا، وَلَوْ كَانَ لِلشَّيْبِ أَثَرٌ، لَاسْتَفِي بِهِ فِي وَلَدِ الْمَلَاعَةِ، وَلَمْ يَحْتَجْ إِلَى اللَّعَانِ، وَلَكِنْ يَنْتَظَرُ وَلَادَتِهِ، ثُمَّ يُلْحَقُ بِصَاحِبِ الشَّيْبِ، وَيَسْتَفِي بِذَلِكَ عَنِ اللَّعَانِ، بَلْ كَانَ لَا يَصِحُّ نَفْيُهُ مَعَ وَجُودِ الشَّيْبِ بِالزَّوْجِ، وَقَدْ ذَلَّتِ السُّنَّةُ الصَّحِيحَةُ الصَّرِيحَةُ عَلَى نَفْيِهِ عَنِ الْمَلَاعِنِ، وَلَوْ كَانَ الشَّيْبُ لَهُ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَبْصُرُوهَا فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ كَذًّا وَكَذَا، فَهُوَ لِهَلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ»، وَهَذَا قَالَهُ بَعْدَ اللَّعَانِ وَنَفْيِ النَّسَبِ عَنْهُ، فَعُلِمَ أَنَّهُ لَوْ جَاءَ عَلَى الشَّيْبِ الْمَذْكُورِ، لَمْ يَثْبُتْ نَسَبُهُ مِنْهُ، وَإِنَّمَا كَانَ مَجِيئُهُ عَلَى شَبْهِهِ دَلِيلًا عَلَى كَذِبِهِ، لَا عَلَى لِحَاقِ الْوَلَدِ بِهِ.

قالوا: وأما قصة أسامة وزيد، فالمنافقون كانوا يطعنون في نسبه من زيد لمخالفة لونه لون أبيه، ولم يكونوا يكتفون بالفراش، وحكم الله ورؤسوله في أنه ابنه، فلما شهد به القائف وافقت شهادته حكم الله ورسوله، فسُرَّ به النبي ﷺ لموافقتهما حكمه، ولتكذيبها قول المنافقين، لا أنه أثبت نسبه بها، فأين في هذا إثبات النسب بقول القائف؟

قالوا: وهذا معنى الأحاديث التي ذكر فيها اعتبارُ الشَّيْبِ، فَإِنَّهَا إِنَّمَا اعْتَبِرَتْ فِيهِ الشَّيْبَ بِنَسَبٍ ثَابِتٍ يَغِيرُ الْقَافَةَ، وَنَحْنُ لَا نُنْكِرُ ذَلِكَ. قالوا: وأما حكم عمر وعلي، فقد اختلف على عمر، فروي عنه ما ذكرتم، وروى عنه أن القائف لما قال له: قد اشتركا فيه، قال

رضي الله عنها قالت: دخل علي رسول الله ﷺ ذات يوم مسروراً تَبَرَّقَ أسارير وجهه، فقال: «أَلَمْ تَرَي أَنْ مُجَزَّراً الْمُدْلِجِي نَظَرَ أَنْفًا إِلَى زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ وَأَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ وَعَلَيْهِمَا قَطِيفَةٌ قَدْ غَطَّيَا رُؤُوسَهُمَا وَبَدَتْ أَقْدَامُهُمَا، فقال: إِنَّ هَذِهِ الْأَقْدَامُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ» [البخاري: ٣٧٣١، ومسلم: ٣٦١٧]، فَسَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِ الْقَائِفِ وَلَوْ كَانَتْ كَمَا يَقُولُ الْمُتَنَازِعُونَ مِنْ أَمْرِ

الجاهلية كالكهانة ونحوها لما سَرَّ بها، ولا أُعْجِبَ بِهَا، وَلَكَانَتْ بِمَنْزِلَةِ الْكُهَانَةِ، وَقَدْ صَحَّ عَنْهُ وَعِيدٌ مَنْ صَدَّقَ كَاهِنًا. قال الشافعي: والنبي ﷺ أثبت علمًا، ولم يُنْكِرْهُ، ولو كان خطأ لأنكره، لأن في ذلك قذف المحصنات، ونفي الأنساب، انتهى.

كيف والنبي ﷺ قد صرَّح في الحديث الصحيح بصحتها واعتبارها، فقال في ولد الملاعة: «إِنْ جَاءَتْ بِهِ كَذَا وَكَذَا فَهُوَ لِهَلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ كَذَا وَكَذَا فَهُوَ لَشَرِيكَ بْنِ سَحْمَاءَ»، فَلَمَّا جَاءَتْ بِهِ عَلَى شَبْهِ الَّذِي رَمِيَتْ بِهِ قَالَ: «لَوْلَا الْإِيمَانُ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ» [البخاري: ٤٧٤٧] وهل هذا إلا اعتبار للشَّيْبِ وهو عين القافة، فَإِنَّ الْقَائِفَ يَتَّبِعُ أَثَرُ الشَّيْبِ، وَيَنْظُرُ إِلَى مَنْ يَتَّصِلُ، فَيَحْكُمُ بِهِ لَصَاحِبِ الشَّيْبِ، وَقَدْ اعْتَبَرَ النَّبِيُّ ﷺ الشَّيْبَ وَبَيَّنَّ سَبَبَهُ، وَلِهَذَا لَمَّا قَالَتْ لَهُ أُمُّ سَلَمَةَ: أَوْ تَحْتَلِمُ الْمَرْأَةُ، فَقَالَ: «وَمِمَّ يَكُونُ الشَّيْبُ» [البخاري: ١٣٠، ومسلم: ٧١٢].

وأخبر في الحديث الصحيح، «أَنَّ مَاءَ الرَّجُلِ إِذَا سَبَقَ مَاءَ الْمَرْأَةِ، كَانَ الشَّيْبُ لَهُ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُهَا مَاءَهُ، كَانَ الشَّيْبُ لَهَا» [البخاري: ٣٣٢٩]. فهذا اعتبار منه للشَّيْبِ شرعاً وقدرًا، وهذا أقوى ما يكون من طرق الأحكام أن يتوارد عليه الخلق والأمر والشرع والقدر، ولهذا تبعه خلفاؤه الراشدون في الحكم بالقافة.

قال سعيد بن منصور: حدثنا سفيان، عن يحيى بن سعيد، عن سليمان بن يسار، عن عمر في امرأة وطئها رجلان في طهر، فقال القائف، قد اشتركا فيه جميعاً، فجعله بينهما.

قال الشعبي: وعلي يقول: هو ابنتهما، وهما أبواه يرثانه، ذكره سعيد أيضاً.

وروى الأثرم بإسناده، عن سعيد بن المسيب، في رجلين اشتركا في طهر امرأة، فحملت، فولدت

وَالِ أَيُّهُمَا شَتَّى [مالك (٢/٧٤٠)]. فلم يعتبر قول القائف.

قالوا: وكيف تقولون بالشبه، ولو أقر أحد الورثة بأخ، وأنكره الباقون، والشبه موجود، لم تُثبتوا النسب به، وقلتم: إن لم تتفق الورثة على الإقرار به لم يثبت النسب؟

(رد المتهين على النافهين)

قال أهل الحديث: من العجب أن يُنكر علينا القول بالقافة، ويجعلها من باب الحدس والتخمين مَنْ يُلْحَق وَلَدَ المَشْرُقِي بِمَنْ فِي أَقْصَى المَغْرِبِ، مع القطع بأنهما لم يتلاقيا طرفة عين، ويلحق الولد باثنين مع القطع بأنه ليس ابناً لأحدهما، ونحن إنما ألحقنا الولد بقول القائف المستند إلى الشبه المعتبر شرعاً وقدرأ، فهو استناد إلى ظن غالب، ورأي راجح، وأمانة ظاهرة بقول من هو من أهل الخبرة، فهو أولى بالقبول من قول المقومين، وهل يُنكر مجيء كثير من الأحكام مستنداً إلى الأمارات الظاهرة، والظنون الغالبة؟

وأما وجود الشبه بين الأجانب، وانتفاؤه بين الأقارب، وإن كان واقعاً، فهو من أندر شيء وأقله، والأحكام إنما هي للغالب الكثير، والنادر في حكم المعلوم.

وأما قصة من ولدت امرأته غلاماً أسود، فهو حجة عليكم، لأنها دليل على أن العادة التي فطر الله عليها الناس اعتبار الشبه، وأن خلافه يوجب ريبة، وأن في طباع الخلق إنكار ذلك ولكن لما عارض ذلك دليل أقوى منه وهو الفراش، كان الحكم للدليل القوي، وكذلك نقول نحن وسائر الناس: إن الفراش الصحيح إذا كان قائماً، فلا يعارض بقافة ولا شبه، فمخالفة ظاهر الشبه للدليل أقوى منه - وهو الفراش - غير مستنكر، وإنما المستنكر مخالفة هذا الدليل للظاهر بغير شيء.

وأما تقديم اللعان على الشبه، وإلغاء الشبه مع وجوده، فكذلك أيضاً هو من تقديم أقوى الدليلين

على أضعفهما، وذلك لا يمنع العمل بالشبه مع عدم ما يُعارضه، كالبينة تُقدَّم على اليد والبراءة الأصلية، ويُعمل بهما عند عدمهما.

وأما ثبوت نسب أسامة من زيد بدون القیافة، فنحن لم نثبت نسبه بالقیافة، والقیافة دليل آخر موافق للدليل الفراش، فسروا النبي ﷺ، وفرحه بها، واستبشاره لتعاضد أدلة النسب وتضافرها، لا لإثبات النسب بقول القائف وحده، بل هو من باب الفرح بظهور أعلام الحق وأدلتها وتكاثرها، ولو لم تصلح القیافة دليلاً لم يفرح بها ولم يسر، وقد كان النبي ﷺ يفرح ويسر إذا تعاضدت عنده أدلة الحق، ويخبر بها الصحابة، ويحب أن يسمعوها من المخبر بها، لأن النفوس تزداد تصديقاً بالحق إذا تعاضدت أدلتها، وتسُر به وتفرح، وعلى هذا فطر الله عباده، فهذا حكم اتفقت عليه الفطرة والشرعة وبالله التوفيق.

وأما ما روي عن عمر أنه قال: وَالِ أَيُّهُمَا شَتَّى، فلا تعرف صحته عن عمر، ولو صح عنه لكان قولاً عنه، فإن ما ذكرنا عنه في غاية الصحة^(١)، مع أن قوله: وال أيهما شتَّى ليس بصريح في إبطال قول القائف، ولو كان صريحاً في إبطال قوله، لكان في مثل هذا الموضع إذا الحق باثنين، كما يقوله الشافعي ومن وافقه.

وأما إذا أقر أحد الورثة بأخ، وأنكره الباقون، فإنما لم يثبت نسبه لمجرد الإقرار، فأما إذا كان هناك شبه يستند إليه القائف، فإنه لا يُعتبر إنكار الباقيين، ونحن لا نقصر القافة على بني مُذَلِّج، ولا نعتبر تعدد القائف، بل يكفي واحد على الصحيح بناء على أنه خبر، وعن أحمد رواية أخرى: أنه شهادة، فلا بد من اثنين، ولفظ الشهادة بناء على اشتراط اللفظ.

(إذ الحقته القافة بأكثر من اب فهل يلحق بهم؟)

فإن قيل: فالمنقول عن عمر أنه الحق بأبوين، فما تقولون فيما إذا الحقته القافة بأبوين، هل تلحقونه بهما، أو لا تلحقونه إلا بواحد، وإذا الحقتموه بأبوين، فهل يختص ذلك باثنين، أم يلحق بهم وإن

(١) ربما يكون مراد المصنف رحمه الله أن الحديث بطريقه طريق سليمان بن يسار، وطريق سعيد بن المسيب في غاية الصحة.

كثروا، وهل حُكِمَ الاثنين في ذلك حكم الأبوين أم
ماذا حُكِمَهما؟

فإن قيل: إذا اشتمل الرحم على ماء الرجل، وأراد
الله أن يخلق منه الولد، انضَمَّ عليه أحكم انضمام،
وأتمه حتى لا يُقْسَد، فكيف يدخل عليه ماء آخر؟
قيل: لا يمتنع أن يصل الماء الثاني إلى حيث وصل
الأول، فينضم عليهما، وهذا كما أن الولد يتعقد من
ماء الأبوين، وقد سبق ماء الرجل ماء المرأة أو
بالعكس، ومع هذا فلا يمتنع وصول الماء الثاني إلى
حيث وصل الأول، وقد علم بالعادة أن الحامل إذا
تويع وطوها، جاء الولد عبل^(١) الجسم ما لم يعارض
ذلك مانع، ولهذا ألهم الله سبحانه الدواب إذا
حملت أن لا تمكن الفحل أن يتزو عليها، بل تنفّر عنه
كل الثّمار، وقال الإمام أحمد: إن الوطء الثاني يزيد
في سمع الولد ويصره، وقد شبهه النبي ﷺ بسقي
الزروع، ومعلوم أن سقيه يزيد في ذاته والله أعلم.

(أو استلحق الزاني ولدا لا هراش)

هناك يعارضه فهل يلحقه نسبه؟

فإن قيل: فقد دلّ الحديث على حكم استلحاق
الولد، وعلى أن الولد للفراش، فما تقولون لو
استلحق الزاني ولدا لا فراش هناك يعارضه، هل
يلحقه نسبه، ويثبت له أحكام النسب؟

قيل: هذه مسألة جليّة اختلف أهل العلم فيها،
فكان إسحاق بن راهويه يذهب إلى أن المولود من
الزّنى إذا لم يكن مولوداً على فراش يدهيه صاحبه،
وادعاه الزّاني، ألحق به، وأول قول النبي ﷺ:
«الولد للفراش»، على أنه حكم بذلك عند تنازع
الزّاني وصاحب الفراش، كما تقدم، وهذا مذهب
الحسن البصري، ورواه عنه إسحاق بإسناده، في رجل
زنى بامرأة، فولدت ولداً، فأدّاه ولدها فقال: يُجلد
ويلزّمه الولد، وهذا مذهب عروة بن الزبير،
وسليمان بن يسار ذكر عنهما أنهما قالوا: أيما رجل
أتى إلى غلام يزعم أنه ابن له، وأنه زنى بأمه ولم يدّع
ذلك الغلام أحد، فهو ابنه، واحتج سليمان، بأن
عمر بن الخطاب كان يُلَيِّط أولاد الجاهلية بمن
ادعاهم في الإسلام، وهذا المذهب كما تراه قوة

قيل: هذه مسائل فيها نزاع بين أهل العلم، فقال
الشافعي ومن وافقه: لا يُلحق بأبوين، ولا يكون
للرجل إلا أب واحد، ومتى ألحقته القافة باثنين،
سقط قولها، وقال الجمهور: بل يلحق باثنين، ثم
اختلفوا، فنص أحمد في رواية مهنا بن يحيى: أنه
يُلحق بثلاثة، وقال صاحب المغني: ومقتضى هذا
أنه يُلحق بمن ألحقته القافة به وإن كثروا، لأنه إذا
جاز إلحاقه بأكثر من ذلك، وهذا مذهب أبي حنيفة،
لكنه لا يقول بالقافة، فهو يُلحقه بالمذعن وإن
كثروا، وقال القاضي: يجب أن لا يُلحق بأكثر من
ثلاثة، وهو قول محمد بن الحسن، وقال ابن
حامد: لا يُلحق بأكثر من اثنين، وهو قول أبي
يوسف، فمن لم يُلحقه بأكثر من واحد، قال: قد
أجرى الله سبحانه عاداته أن للولد أباً واحداً، وأماً
واحدة، ولذلك يُقال: فلان ابن فلان، وفلان ابن
فلانة فقط. ولو قيل: فلان ابن فلان وفلان، لكان
ذلك منكراً، وثُبت قديماً، ولهذا إنما يُقال يوم
القيامة: أين فلان ابن فلان؟ وهذه غزوة فلان ابن
فلان، ولم يُعهد قط في الوجود نسبة ولد إلى أبوين
قط، ومن ألحقه باثنين، احتج بقول عمر، وإقرار
الصحابه له على ذلك. وبأن الولد قد يتعقد من ماء
رجلين، كما يتعقد من ماء الرجل والمرأة، ثم قال
أبو يوسف: إنما جاء الاثر بذلك، فيختصر عليه.
وقال القاضي: لا يتعدى به ثلاثة، لأن أحمد إنما
نصّ على الثلاثة، والأصل ألا يُلحق بأكثر من
واحد، وقد دلّ قول عمر على إلحاقه باثنين مع
انعقاده من ماء الأم، فدل على إمكان انعقاده من ماء
ثلاثة، وما زاد على ذلك، فمشكوك فيه.

قال المُلْحِقُونَ له بأكثر من ثلاثة: إذا جاز تخليقه
من ماء رجلين وثلاثة، جاز خلقة من ماء أربعة
 وخمسة، ولا وجه لاقصاره على ثلاثة فقط، بل إما
أن يُلحق بهم وإن كثروا، وإما أن لا يتعدى به أحد،
ولا قول سوى القولين والله أعلم.

(١) هذه الملاحظة نابعة عن الصواب؛ فإن المشاهد المحسوس أن الجنين يسمن من ترف الحامل، وكثرة تغليظها بالمواد
الدسمة بدون حركة منها، ولو لم يطأها زوجها طول مدة الحمل ولا مرة.

قبله من الميراث، وما أذكرك من ميراث لم يُقسم، فله نصيبه، ولا يلحق إذا كان أبوه الذي يدعى له أنكره، وإن كان من أمه لم يملكها، أو من حرة عاهر بها، فإنه لا يلحق ولا يرث، وإن كان الذي يدعى له هو ادّعاء، فهو من ولد زنية من حرة كان أو أمة.

وفي رواية: وهو ولد زنى لأهل أمه من كانوا حرة أو أمة. وذلك فيما استلحق في أول الإسلام، «فما اقتسم من مال قبل الإسلام، فقد مضى» [حسن: أبو داود: ٢٢٦٥ - ٢٢٦٦] وهذا لأهل الحديث في إسناده مقال، لأنه من رواية محمد بن راشد المكحولي.

وكان قوم في الجاهلية لهم إماء بغايا، فإذا ولدت أمة أحدهم وقد وطئها غيره بالزنى، فربما ادّعاء سيدها، وربما ادّعاء الزاني، واختصما في ذلك، حتى قام الإسلام، فحكم النبي ﷺ بالولد للسيد، لأنه صاحب الفراش، ونفاه على الزاني.

ثم تضمن هذا الحديث أموراً:

منها: أن المستلحق إذا استلحق بعد أبيه الذي يدعى له ادّعاء ورثته، فإن كان الولد من أمة يملكها الواطيء يوم أصابها، فقد لحق بمن استلحقه، يعني إذا كان الذي استلحقه ورثته مالك الأمة، وصار ابنه من يومئذ، وليس له مما قسم قبله من الميراث شيء، لأن هذا تجديد حكم نسبه، ومن يومئذ يثبت نسبه، فلا يرجع بما اقتسم قبله من الميراث، إذ لم يكن حكم البتة ثابتاً، وما أدرك من ميراث لم يقسم، فله نصيبه منه، لأن الحكم ثبت قبل قسمه الميراث، فيستحق منه نصيبه، وهذا نظير من أسلم على ميراث قبل قسمه، قسم له في أحد قولي العلماء، وهو إحدى الروايتين عن أحمد، وإن أسلم بعد قسم الميراث، فلا شيء له، فثبت النسب هاهنا بمنزلة الإسلام بالنسبة إلى الميراث.

قوله: «ولا يلحق إذا كان أبوه الذي يدعى له أنكره» هذا، يبين أن التنازع بين الورثة، وأن الصورة الأولى أن يستلحقه ورثة أبيه الذي كان يدعى له، وهذه الصورة إذا استلحقه ورثته وأبوه الذي يدعى له كان ينكر، فإنه لا يلحق، لأن الأصل الذي الورثة خلف عنه منكره، فكيف يلحق به مع إنكاره؟ فهذا إذا كان من أمة يملكها، أما إذا كان من أمة لم

ووضوحاً، وليس مع الجمهور أكثر من «الولد للفراش» وصاحب هذا المذهب أول قائل به، والقياس الصحيح يقتضيه، فإن الأب أحد الزانين، وهو إذا كان يلحق بأمه، وينسب إليها، وترثه ويرثها، ويثبت النسب بينه وبين أقارب أمه مع كونها زنت به، وقد وجد الولد من ماء الزانين، وقد اشتركا فيه، واتفقا على أنه ابنهما، فما المانع من لحوقه بالأب إذا لم يدعي غيره؟ فهذا محض القياس، وقد قال جريج للغلام الذي زنت أمه بالراعي: من أبوك يا غلام؟ قال: فلان الراعي [البخاري: ٣٤٣٦، ومسلم: ٦٥٠٨]، وهذا إنطاق من الله لا يمكن فيه الكذب.

فإن قيل: فهل لرسول الله ﷺ في هذه المسألة حكم؟ قيل: قد روي عنه فيها حديثان، نحن نذكر شأنهما.

فصل

ذكر حكم رسول الله ﷺ في استلحاق

ولد الزنى وتوريثه

ذكر أبو داود في «سننه»: من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا مُسَاعَاةَ فِي الْإِسْلَامِ، مَنْ سَاعَى فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَدْ لَحِقَ بِعَصِيَّتِهِ، وَمَنْ أَدَّعَى وَلَدًا مِنْ غَيْرِ رَشَدٍ، فَلَا يَرِثُ وَلَا يُورَثُ» [سنه ضيف: أحمد: ٣٤١٦، وأبو داود: ٢٢٦٤].

المساعاة: الزنى، وكان الأصمعي يجعلها في الإماء دون الحرائر، لأنهن يسهين لمواليهن، فيكتسبنّ لهم، وكان غليهن ضرائب مقررة، فأبطل النبي ﷺ المساعاة في الإسلام، ولم يلحق النسب بها، وعفا عما كان في الجاهلية منها، وألحق النسب به. وقال الجوهري: يقال: زنى الرجل وعهره، فهذا قد يكون في الحرة والأمة، ويقال في الأمة خاصة: قد ساعاها. ولكن في إسناده هذا الحديث رجل مجهول، فلا تقوم به حجة.

وروي أيضاً في «سننه» من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن النبي ﷺ، قضى أن كل مستلحق استلحق بعد أبيه الذي يدعى له، ادّعاء ورثته، فقضى أن كل من كان من أمه يملكها يوم أصابها، فقد لحق بمن استلحقه، وليس له مما قسم

لِلنَّبِيِّ ﷺ، فضحك حتى بدت نواجذه (أبو داود: ٢٢٧٠، والنسائي (١٨٢/٦)). وقد أعل هذا الحديث بأنه روي عن عبد خير بإسقاط زيد بن أرقم، فيكون مرسلًا. قال النسائي: وهذا أصوب. وهذا أعجب، فإن إسقاط زيد بن أرقم من هذا الحديث لا يجعله مرسلًا، فإنه عبد خير أدرك عليًا وسمع منه، وعلي صاحبُ القصة، فهب أن زيد بن أرقم لا ذكر له في السند فمن أين يجيء الإرسال، إلا أن يقال: عبد خير لم يشاهد ضحك النبي ﷺ، وعلي إذ ذاك كان باليمن، وإنما شاهد ضحكه ﷺ زيد بن أرقم أو غيره من الصحابة وعبد خير لم يذكر من شاهد ضحكه، فصار الحديث به مرسلًا. فيقال: إذا: قد صحَّ السند عن عبد خير، عن زيد بن أرقم، متصلًا، فمن رجح الاتصال، لكونه زيادة من الثقة فظاهر، ومن رجح رواية الأحفظ والأضبط، وكان الترجيح من جانبه ولم يكن علي قد أخبره بالقصة، فغائتها أن تكون مرسلة، وقد يقوى الحديث بروايته من طريق أخرى متصلًا.

(اختلاف الفقهاء في حكم علي)

وبعد، فاختلف الفقهاء في هذا الحكم، فذهب إليه إسحاق بن راهويه، وقال: هو السنة في دعوى الولد، وكان الشافعي يقول به في القديم، وأما الإمام أحمد، فسنل عن هذا الحديث، فرجح عليه حديث القافة، وقال: حديث القافة أحب إلي.

وها هنا أمران: أحدهما: دخول القرعة في النسب، والثاني: تغريم من خرجت له القرعة ثلثي دية ولده لصاحبه. وأما القرعة، فقد تستعمل عند فقدان مرجح سواها من بينة أو إقرار، أو قافة، وليس ببعيد تعيين المستحق بالقرعة في هذه الحال، إذ هي غاية المقدور عليه من أسباب ترجيح الدعوى، ولها دخول في دعوى الأملاك المرسلة التي لا تثبت بقرينة ولا أمانة، فدخلها في النسب الذي يثبت بمجرد الشبه الخفي المستند إلى قول القائف أولى وأحرى. وأما أمرُ الدية فمشكل جداً، فإن هذا ليس بموجب الدية، وإنما هو تفويتُ نسبه بخروج القرعة، فيقال: وطء كل واحد صالح لجعل الولد له، فقد فوّته كل واحد منهم على صاحبه بوطئه، ولكن لم يتحقق من

يَمْلِكُهَا، أو من حُرّة عَاهَرَ بها، فإنه لا يلحق، ولا يَرِث، وإن ادعاه الواطيء وهو ولد زنية من أمة كان أو من حرة، وهذا حجة الجمهور على إسحاق ومن قال بقوله: إنه لا يلحق بالزاني إذا ادعاه، ولا يرثه، وأنه ولد زنى لأهل أمّه من كانوا حُرّة كانت أو أمة.

وأما ما اقتسم من مال قبل الإسلام، فقد مضى، فهذا الحديث يردُّ قول إسحاق ومن وافقه، لكن فيه محمد بن راشد، ونحن نحتج بعمرو بن شعيب، فلا يُعلل الحديث به، فإن ثبت هذا الحديث، تعمّن القول بموجبه، والمصير إليه، وإلا فالقول قول إسحاق ومن معه، والله المستعان.

ذكر الحكم الذي حكم به علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الجماعة الذين وقعوا على امرأة في طهر واحد، ثم تنازعوا الولد، فأقرع بينهم فيه، ثم بلغ النبي ﷺ، فضحك ولم ينكره

ذكر أبو داود والنسائي في «سنتهما»، من حديث عبد الله بن الخليل، عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ، فجاء رجل من أهل اليمن، فقال: إن ثلاثة نفر من أهل اليمن أتوا علياً يختصمون إليه في ولد، قد وقعوا على امرأة في طهر واحد، فقال لاثنين: طيبا بالولد لهذا فقلّيا، ثم قال لاثنين: طيبا بالولد لهذا، فقلّيا، ثم قال لاثنين: طيبا بالولد لهذا، فقلّيا، فقال: أنتم شركاء متشاكسون، إني مُقرع بينكم، فمن قرع، فله الولد وعليه لصاحبه ثلثا الدية، فأقرع بينهم، فجعله لمن قرع، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت أضراسه أو نواجذه [سند ضيف: أحمد: ١٩٣٢٩، وأبو داود: ٢٢٦٩، والنسائي (٦/١٨٣)]. وفي إسناده يحيى بن عبد الله الكندي الأجلح ولا يحتج بحديثه، لكن رواه أبو داود والنسائي بإسناد كلهم ثقات إلى عبد خير، عن زيد بن أرقم. قال: أتى علي بن أبي طالب بثلاثة وهو باليمن وقعوا على امرأة في طهر واحد، فسأل اثنين أثقرا لهذا بالوليد؟ قالوا: لا، حتّى سألهم جميعاً، فجعل كلما سأل اثنين قالوا: لا، فأقرع بينهم، فالحق الولد بالذي صارت عليه القرعة، وجعل عليه ثلثي الدية، قال: فذكر ذلك

كان له الولد منهم، فلما أخرجته القرعة لأحدهم، صار مُفَوَّتاً لنسبه عن صاحبيه، فأجري ذلك مجرى إتلاف الولد، ونزل الثلاثة منزلة أب واحد، فحصة المتلف منه ثلث الدية، إذ قد عاد الولد له، فيغرم لكل من صاحبيه ما يخصه، وهو ثلث الدية.

ووجه آخر أحسن من هذا، أنه لما أتلّفه عليهما بوطئه ولحق الولد به، وجب عليه ضمان قيمته، وقيمة الولد شرعاً هي ديتة، فلزمه لهما ثلثا قيمته، وهي ثلثا الدية، وصار هذا كمن أتلّف عبداً بينه وبين شريكين له، فإنه يجبّ عليه ثلثا القيمة لشريكيه، فإتلاف الولد الحر عليهما بحكم القرعة، كإتلاف الرقيق الذي بينهم.

ونظير هذا تضمنُ الصحابة المغرور بحرية الأمة قيمة أولاده لسيّد الأمة لما فات رثمهم على السيد لحريتهم، وكانوا يصدّد أن يكونوا أرقاء، وهذا اللطف ما يكون من القياس وأدقه، وأنت إذا تأملت كثيراً من أقيسة الفقهاء وتشبيهااتهم، وجدت هذا أقوى منها، واللطف مسلّكاً، وأدقّ مأخذاً، ولم يضحك منه النبي ﷺ سُدًى.

وقد يقال: لا تعارض بين هذا وبين حديث القافة، بل إن وجدت القافة تعيّن العمل بها، وإن لم توجد قافة، أو أشكل عليهم، تعيّن العمل بهذا الطريق، والله أعلم.

فصل

ذَكَرَ حَكَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْوَلَدِ

مَنْ أَحَقُّ بِهِ فِي الْحِضَانَةِ

روى أبو داود في «سننه»: من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدّه عبد الله بن عمرو بن العاص، أن امرأة قالت: يا رسول الله! إن ابني هذا كان يظني له وعاء، وثديي له سقاء، وحجّري له جواء، وإن أباه طلقني، فأراد أن يتزوّج مني، فقال لها رسول الله ﷺ: «أَنْتِ أَحَقُّ بِهِ مَا لَمْ تُنْكِحِي» [حسن: أحمد: ٦٧٠٧، وأبو داود: ٢٢٧٦].

وفي «الصحيحين»: من حديث البراء بن عازب، أن ابنة حمزة اختصم فيها عليّ وجعفر وزيد. فقال علي: أنا أحقُّ بها وهي ابنة عمي، وقال جعفر: ابنة

عمي وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي، فقضى بها رسول الله ﷺ لخالتها، وقال: «الْحَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ» [البخاري: ٢٦٩٩].

وروى أهل السنن: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ خيّر غلاماً بين أبيه وأُمِّه [حسن: أحمد: ٧٣٤٦، وأبو داود: ٢٢٧٧، والترمذي: ١٣٥٧، والنسائي (١٨٥/٦ - ١٨٦)، وابن ماجه: ٢٣٥١]. قال الترمذي: حديث صحيح.

وروى أهل السنن أيضاً: عنه، أن امرأة جاءت، فقالت يا رسول الله! إن زوجي يريد أن يذهب بابني، وقد سقاني من بشر أبي عتبة وقد نفعني، فقال رسول الله ﷺ: «اسْتَهْمَا عَلَيْهِ»، فقال زوجها: من يُحَاقُّني في ولدي؟ فقال رسول الله ﷺ: «هَذَا أَبُوكَ وَهَذِهِ أُمُّكَ وَخُذْ يَدَيْهِمَا شِئْتَ»، فأخذ بيد أمّه، فانطلقت به. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وفي «سنن النسائي»: عن عبد الحميد بن سلمة الأنصاري، عن أبيه، عن جدّه، أن جدّه أسلم وأبّت امرأته أن تُسلم، فجاء بابت له صغير لم يبلغ، قال: فأجلس النبي ﷺ الأب هاهنا والأم هاهنا، ثم خيّرهُ وقال «اللَّهُمَّ اهْدِهَا» فذهب إلى أبيه [النسائي (١٨٥/٦)].

ورواه أبو داود عنه وقال: أخبرني جدّي رافع بن سنان، أنه أسلم وأبّت امرأته أن تُسلم، فأبّت النبي ﷺ، فقالت: ابتي وهي قَطيْم أو شبيهه، وقال رافع: ابتي، فقال له رسول الله ﷺ: «أَقْعِدْ نَاحِيَةَ»، وقال لها: «أَقْعِدِي نَاحِيَةَ»، فأقعد الصّبيّ بينهما، ثم قال: «ادْعُواهَا»، فمآلت إلى أمّها، فقال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ اهْدِهَا»، فمآلت إلى أبيها، فأخذها [حسن: أبو داود: ٢٢٤٤].

فصل

الكلام على هذه الأحكام

(سقوط الحضانة بالتزويج)

أما الحديث الأول، فهو حديث احتجّ الناس فيه إلى عمرو بن شعيب، ولم يجدوا بُدّاً من الاحتجاج هنا به، ومدار الحديث عليه، وليس عن النبي ﷺ حديث في سقوط الحضانة بالتزويج غير هذا، وقد ذهب إليه الأئمة الأربعة وغيرهم، وقد صرح بأن

الجد هو عبد الله بن عمرو، فبطل قول مَنْ يقول: لعله محمد والد شعيب، فيكون الحديث مرسلًا. وقد صحَّ سماعُ شعيب من جدِّه عبد الله بن عمرو، فبطل قول من قال: إنه منقطع، وقد احتج به البخاريُّ خارج صحيحه، ونص على صحة حديثه، وقال: كان عبد الله بن الزبير الحميدي وأحمد وإسحاق وعلي بن عبد الله يحتجون بحديثه، فَمَنْ النَّاسُ بَعْدَهُمْ؟! هذا لفظه. وقال إسحاق بن راهويه: هو عندنا، كأبوب عن نافع، عن ابن عمر. وحكى الحاكم في «علوم الحديث» له الاتفاق على صحة حديثه، وقال أحمد بن صالح: لا يختلف على عبد الله أنها صحيحة.

وقولها: «كان بطني وعاء» إلى آخره، إدلاء منها، وتوسُّل إلى اختصاصها به، كما اختصَّ بها في هذه المواطن الثلاثة، والأب لم يُشاركها في ذلك، فنبت في هذا الاختصاص الذي لم يُشاركها فيه الأب على الاختصاص الذي طلبته بالاستفتاء والمخاصمة.

(اعتبار المعاني والعلل وتأثيرها في الأحكام)

وفي هذا دليل على اعتبار المعاني والعلل، وتأثيرها في الأحكام، وإناطتها بها، وأن ذلك أمر مستقر في الفِطْرِ السَّليمة حتى فطر النساء، وهذا الوصف الذي أدلت به المرأة وجعلته سبباً لتعليق الحكم به، قد قرَّره النبي ﷺ ورَتَّب عليه أثره، ولو كان باطلاً أُلغاه، بل ترتب عليه الحكم عقيبه دليل على تأثيره فيه، وأنه سببه.

(القضاء على الغائب)

واستدل بالحديث على القضاء على الغائب، فإن الأب لم يذكر له حضور ولا مخاصمة، ولا دلالة فيه لأنها واقعة عين، فإن كان الأب حاضراً فظاهر، وإن كان غائباً، فالمرأة إنما جاءت مستغية أفاها النبي ﷺ بمقتضى مسائلها، وإلا فلا يقبل قولها على الزوج إنه طلقها حتى يحكم لها بالولد بمجرد قولها.

فصل

(الأم أحق بالولد من الأب)

ودل الحديث على أنه إذا افرق الأبوان، وبينهما

ولد، فالأم أحقُّ به من الأب ما لم يقم بالأم ما يمنع تقديمها، أو بالولد وصفت يقتضي تخييره، وهذا ما لا يُعرف فيه نزاع، وقد قضى به خليفَةُ رسول الله ﷺ أبو بكر على عمر بن الخطاب، ولم يُنكر عليه مُنكرٌ. فلما وَلِيَ عمرُ قضى بمثلها، فروى مالك في «الموطأ»: عن يحيى بن سعيد أنه قال: سمعت القاسم بن محمد يقول: كانت عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه امرأة من الأنصار، فولدت له عاصم ابن عمر، ثم إن عمرَ فارَّقها، فجاء عمرُ قباء، فوجد ابنه عاصماً يلعب بفناء المسجد، فأخذ بعضديه، فوضعه بين يديه على الدابة، فأدركته جدَّة الغلام، فنازعته إياه، حتَّى أتيا أبا بكر الصديق رضي الله عنه، فقال عمر: ابني. وقالت المرأة: ابني. فقال أبو بكر رضي الله عنه: خَلَّ بيننا وبينه، فما راجعه عمرُ الكلام (مالك (٢/٧٦٧-٧٦٨)، والبيهقي (٥/٨)).

قال ابن عبد البر: هذا خبر مشهور من وجوه منقطعة ومتصلة، تلقاه أهل العلم بالقبول والعمل، وزوجة عمر أم ابنه عاصم: هي جميلة ابنة عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح الأنصاري.

قال: وفيه دليل على أن عمر كان مذهبه في ذلك خلاف أبي بكر، ولكنه سلَّم للقضاء ممن له الحكم والإمضاء، ثم كان بعد في خلافته يقضي به ويُفتي، ولم يُخالف أبا بكر في شيء منه ما دام الصبي صغيراً لا يُعَيَّر، ولا مخالف لهما من الصحابة.

وذكر عبد الرزاق، عن ابن جريج، أنه أخبره عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس قال: طلق عمرُ بن الخطاب امرأته الأنصارية أم ابنه عاصم، فلقيها تحمُّله بمحسر، وقد قُطِم ومشى، فأخذ بيده ليرتزعها منها، ونازعها إياه حتَّى أوجع الغلام ويكي، وقال: أنا أحقُّ بابني مِنْكَ، فاخصمنا إلى أبي بكر، فقضى لها به وقال: ربيها وفرأشها وحجرها خيرٌ له منك حتى يَشِبَّ ويختار لنفسه. ومحسر: سوق بين قباء والمدينة [عبد الرزاق: ١٢٦٠١].

وذكر عن الثوري، عن عاصم، عن عكرمة قال: خاصمت امرأة عمرَ عمرَ إلى أبي بكر رضي الله عنه، وكان طلقها، فقال أبو بكر رضي الله عنه: الأم أعطف، والطف، وأرحم، وأحن، وأراث، هي

أحقُّ بولدها ما لم تتزوج [عبد الرزاق: ١٢٦٠٠].

وذكر عن معمر قال: سمعتُ الزهري يقول: إن أبا بكر قضى على غمَّر في ابنه مع أمِّه، وقال: أمُّه أحقُّ به ما لم تتزوج [عبد الرزاق: ١٢٥٩٨].

فإن قيل: فقد اختلفت الرواية هل كانت المنازعة وقعت بينه وبين الأم أولاً، ثم بينه وبين الجدة، أو وقعت مرة واحدة بينه وبين إحداهما؟

قيل: الأمر في ذلك قريب، لأنها إن كانت من الأم فواضح، وإن كانت من الجدة، فقضاء الصديق رضي الله عنه لها يدلُّ على أن الأم أولى.

فصل

(يقدم الأب في ولاية المال والنكاح)

وتقدم الأم في ولاية الحضانة والرضاع)

والولاية على الطفل نوعان: نوع يقدم فيه الأب على الأم ومن في جهتها، وهي ولاية المال والنكاح، ونوعٌ تُقدَّم فيه الأم على الأب، وهي ولاية الحضانة والرضاع، وقُدِّمَ كُلُّ من الأبوين فيما جعل له من ذلك لتمام مصلحة الولد، وتوقف مصلحته على من يلي ذلك من أبويه، وتحصل به كفايته.

ولمَّا كان النساءُ أعرفَّ بالتربية، وأقدرَ عليها، وأصبرَ وأراقت وأفرغَ لها، لذلك قُدِّمَتِ الأم فيها على الأب.

ولما كان الرجالُ أقومَ بتحصيل مصلحة الولد والاحتياط له في البضع، قُدِّمَ الأب فيها على الأم، فتقدِّمُ الأم في الحضانة من محاسن الشريعة والاحتياط للأطفال، والنظر لهم، وتقدِّمُ الأب في ولاية المال والتزويج كذلك.

(هل يقدم لأقارب الأم على أقارب الأب في الحضانة؟)

إذا عُرِفَ هذا، فهل قُدِّمَتِ الأمُّ لكون جهتها مقدمة على جهة الأبوة في الحضانة، فقدمت لأجل الأمومة، أو قُدِّمَت على الأب، لكون النساء أقوم بمقاصد الحضانة والتربية من الذكور، فيكون تقدُّمُها لأجل الأنوثة؟ ففي هذا للناس قولان وهما في مذهب أحمد يظهر أثرهما في تقديم نساء العصبية على أقارب الأم أو بالعكس، كأم الأم، وأم الأب، والأخت من الأب، والأخت من الأم، والخالة،

والعمة، وخالة الأم، وخالة الأب، ومن يُدلي من الخالات والعَمات بأم، ومن يُدلي منهن بآب، ففيه روايتان عن الإمام أحمد: إحداهما: تقدُّمُ أقارب الأم على أقارب الأب. والثانية: وهي أصحُّ دليلاً. واختيار شيخ الإسلام ابن تيمية: تقدُّمُ أقارب الأب وهذا هو الذي ذكره الخرقي في «مختصره»، فقال: والأخت من الأب أحقُّ من الأخت من الأم وأحقُّ من الخالة، وخالة الأب أحقُّ من خالة الأم، وعلى هذا فأُمُّ الأب مقدَّمة على أُمِّ الأم كما نصَّ عليه أحمد في إحدى الروايتين عنه.

(هل لأقارب الأم من الرجال مدخل في الحضانة؟)

وعلى هذه الرواية: فأقارب الأب من الرجال مقدَّمون على أقارب الأم، والأخُّ للأب أحقُّ من الأخ للأم، والعَمُّ أولى من الخال، هذا إن قلنا إن لأقارب الأم من الرجال مدخلاً في الحضانة، وفي ذلك وجهان في مذهب أحمد والشافعي: أحدهما: أنه لا حضانة إلا للرجل من العصبية مَحْرَمٍ، أو لأمراة وارثة، أو مُدلية بعصبية، أو وارث.

(التدليل على تقديم جهة الأبوة في الحضانة)

والثاني: أن لهم الحضانة والتفريع على هذا الوجه، وهو قول أبي حنيفة، وهذا يدل على رجحان جهة الأبوة على جهة الأمومة في الحضانة، وأن الأم إنما قُدِّمَت لكونها أنثى لا لتقدم جهتها، إذ لو كان جهتها راجحةً لترجَّح رجالها ونساؤها على الرجال والنساء من جهة الأب، ولما لم يترجَّح رجالها اتفاقاً فكذلك النساء، وما الفرقُ المؤثر؟

وأيضاً فإن أصولَ الشرع وقواعدهُ شاهدةٌ بتقديم أقارب الأب في الميراث، وولاية النكاح، وولاية الموت وغير ذلك، ولم يُعهد في الشرع تقدُّمُ قرابة الأم على قرابة الأب في حكم من الأحكام، فمن قُدِّمها في الحضانة، فقد خرج عن موجب الدليل.

(علة تقديم الأم في الحضانة)

فالصوابُ في المأخذ هو أن الأم إنما قُدِّمَت، لأن النساء أرفقُ بالطفل، وأخبرُ بتربيته، وأصبرُ على ذلك، وعلى هذا فالجدة أم الأب أولى من أم الأم، والأخت للأب أولى من الأخت للأم، والعمة أولى من الخالة، كما نصَّ عليه أحمد في إحدى الروايتين،

وعلى هذا فُقَدِمَ أمُّ الأب على أب الأب، كما تُقَدَّم الأم على الأب.

(تقديم الأثنى على الذكر حين اتفاق القرابة والدرجة)

وتقديم جهة الأب حين اتفاق الدرجة واختلاف القرابة)

وإذا تقرر هذا الأصل، فهو أصل مطَّرد منضبط لا تتناقض فروعه، بل إن اتفقت القرابة والدرجة واحدة قُدِّمَت الأثنى على الذكر، فُقَدِمَت الأخت على الأخ، والعمة على العم، والخالة على الخال، والجدة على الجد، وأصله تقديم الأم على الأب.

وإن اختلفت القرابة، قُدِّمَت قرابة الأب على قرابة الأم، فتقدم الأخت للأب على الأخت للأم، والعمة على الخالة، وعمة الأب على خالته، وهلمَّ جراً.

(بيان تناقض من قدم أم على أم الأب ثم اختلفا في

تقديم الأخت للأم على الأخت للأب والخالة على العمة)

وهذا هو الاعتبار الصحيح، والقياس المطَّرد، وهذا هو الذي قضى به سيّد قضاة الإسلام شريح، كما روى وكيع في «مصنفه»: عن الحسن بن عتبة، عن سعيد بن الحارث قال: اختصم عمٌ وخالٌ إلى شريح في طفل، ففضى به للعم، فقال الخال: أنا أنفق عليه من مالي، فدفعه إليه شريح.

ومن سلك غير هذا المسلك لم يجد بداً من التناقض، مثاله: أن الثلاثة وأحمد في إحدى روايته، يُقَدَّمون أم الأم على أم الأب، ثم قال الشافعي في ظاهر مذهبه، وأحمد في المنصوص عنه: تُقَدَّم الأخت للأب على الأخت للأم، فتركوا القياس، وطَّردوه أبو حنيفة، والمزني، وابن سريج، فقالوا: تُقَدَّم الأخت للأم على الأخت للأب. قالوا: لأنها تُدلي بالأم، والأخت للأب بالأب، فلما قُدِّمَت الأم على الأب، قُدِّمَ من يُدلي بها على من يُدلي به، ولكن هذا أشدُّ تناقضاً من الأول لأن أصحاب القول الأول جَرَّوْا على القياس والأصول في تقديم قرابة الأب على قرابة الأم، وخالفوا ذلك في أم الأم وأم الأب، وهؤلاء تركوا القياس في الموضوعين، وقَدِّمُوا القرابة التي أخرجها الشرع، وأخروا القرابة التي قَدِّمَهَا، ولم يمكنهم تقديمها في كُلِّ موضع، فقَدِّمُوا في موضع، وأخروها في غيره مع تساويهما، ومن ذلك تقديم الشافعي في الجديد

الخالة على العمة مع تقديمه الأخت للأب على الأخت للأم، وطَّرد قياسه في تقديم أم الأم على أم الأب، فوجب تقديم الأخت للأم، والخالة على الأخت للأب والعمة، وكذلك مَنْ قَدِّمَ من أصحاب أحمد الخالة على العمة، وقَدِّمَ الأخت للأب على الأخت للأم، كقول القاضي وأصحابه، وصاحب «المغني» فقد تناقضوا.

(علة تقديم العمة على الخالة)

فإن قيل: الخالة تُدلي بالأم، والعمة تُدلي بالأب، فكما قُدِّمَت الأم على الأب، قُدِّمَ من يُدلي بها، ويزيده بياناً كونُ الخالة أمّاً كما قال النبي ﷺ، فالعمة بمنزلة الأب.

قيل: قد بينا أنه لم يقدم الأم على الأب لقوة الأمومة، وتقديم هذه الجهة، بل لكونها أثنى، فإذا وُجِدَ عمةٌ وخالة، فالمعنى الذي قُدِّمَت له الأم موجود فيهما، وامتنازت العمة بأنها تُدلي بأقوى القرابتين، وهي قرابة الأب، والنبي ﷺ قضى بآبنة حمزة لخالتها، وقال: «الخالة أمٌّ» حيث لم يكن لها مزاحم من أقارب الأب تُساويها في درجتها.

(صفة بنت عبد المطلب وقتلها رجلاً من اليهود)

فإن قيل: فقد كان لها عمةٌ وهي صفيّة بنت عبد المطلب أختُ حمزة، وكانت إذ ذاك موجودة في المدينة، فإنها هاجرت، وشهدت الخندق، وقتلت رجلاً من اليهود كان يُطيفُ بالحصن الذي هي فيه، وهي أوّل امرأةٍ قتلت رجلاً من المشركين، وبقيت إلى خلافة عمر رضي الله عنه، فقَدِّمَ النبي ﷺ الخالة عليها، وهذا يدلُّ على تقديم مَنْ في جهة الأم على مَنْ في جهة الأب.

قيل: إنما يدلُّ هذا إذا كانت صفيّة قد نازعت معهم، وطلبت الحضانة، فلم يقض لها بها بعد طلبها، وقَدِّمَ عليها الخالة، هذا إذا كانت لم تمنع منها لعجزها عنها، فإنها تُوفيت سنة عشرين عن ثلاث وسبعين سنة، فيكون لها وقت هذه الحكومة بضع وخمسون سنة، فيحتجّل أنها تركتها لعجزها عنها، ولم تطلبها مع قدرتها، والحضانة حقٌّ للمرأة، فإذا تركتها، انتقلت إلى غيرها.

وبالجملة، فإنما يدل الحديث على تقديم الخالة

على العمّة إذا ثبت أن صفةً خاصمت في ابنة أخيها، وطلبت كفالتهما، فقدم رسول الله ﷺ الخالة، وهذا لا سبيل إليه.

فصل

(تناقض من قدم أم أم ثم الخالة على الأب وأم الأب)

وتناقض الرواية عن أحمد في تقديم الأخت عن الأم)

ومن ذلك أن مالكا لما قدم أم الأم على أم الأب، قدم الخالة بعدها على الأب وأمّه، واختلف أصحابه في تقديم خالة الخالة على هؤلاء على وجهين، فأحد الوجهين: تقديم خالة الخالة على الأب نفسه، وعلى أمّه، وهذا في غاية البعد، فكيف تقدم قرابة الأم وإن بعدت على الأب نفسه، وعلى قرابته مع أن الأب وأقاربه أشفق على الطفل، أرعى لمصلحته من قرابة الأم؟ فإنه ليس إليهم بحال، ولا يُنسب إليهم، بل هو أجنبيّ منهم، وإنما نسبه وولاه إلى أقارب أبيه، وهم أولى به، يعقلون عنه، ويُنفقون عليه عند الجمهور، ويتوارثون بالتعصيب وإن بعدت القرابة بينهم بخلاف قرابة الأم، فإنه لا يثبت فيها ذلك، ولا توارث فيها إلّا في أمهاتها، وأول درجة من فروعها، وهم ولدها، فكيف تقدم هذه القرابة على الأب، ومن في جهته، ولا سيما إذا قيل بتقديم خالة الخالة على الأب نفسه وعلى أمّه، فهذا القول مما تاباه أصول الشريعة وقواعدها، وهذا نظير إحدى الروايتين عن أحمد في تقديم الأخت على الأم، والخالة على الأب، وهذا أيضاً في غاية البعد، ومخالفة القياس.

وحجة هذا القول: أن كليتهما تُدليان بالأم المقدمة على الأب، فتقدمان عليه، وهذا ليس بصحيح، فإن الأم لما ساوت الأب في الدرجة، وامتازت عليه بكونها أقوم بالحضانة، وأقدر عليها وأصبر، فقدمت عليه، وليس كذلك الأخت مع الأم، والخالة مع الأب، فإنهما لا يساويانه، وليس أحد أقرب إلى ولده منه، فكيف يُقدم عليه بنتُ امرأته، أو أختها؟ وهل جعل الله الشفقة فيهما أكمل منه؟

(اختلاف أصحاب أحمد في فهم نصه السابق)

ثم اختلف أصحاب الإمام أحمد في فهم نصه هذا على ثلاثة أوجه:

أحدها: إنما قدمها على الأب لأنوثتها، فعلى هذا تُقدم نساء الحضانة على كل رجل، فتقدم خالة الخالة وإن علت، وبت الأخت على الأب.

الثاني: أن الخالة والأخت للأم لم تدليا بالأب، وهما من أهل الحضانة، فتقدم نساء الحضانة على كل رجل إلّا على من أدلين به، فلا تقدم عليه، لأنهن فرعه، فعلى هذا الوجه لا تقدم أم الأب على الأب، ولا الأخت والعمّة عليه، وتقدم عليه أم الأم، والخالة، والأخت للأم، وهذا أيضاً ضعيف جداً، إذ يستلزم تقديم قرابة الأم البعيدة على الأب وأمّه، ومعلوم أن الأب إذا قدم على الأخت للأب فتقدمه على الأخت للأم أولى، لأن الأخت للأب مقدمة عليها، فكيف تقدم على الأب نفسه؟ هذا تناقض بين.

الثالث: تقديم نساء الأم على الأب وأمّهات وسائر من في جهته، قالوا: فعلى هذا، فكل امرأة في درجة رجل تقدم عليه، وتقدم من أدلى بها على من أدلى بالرجل، فلما قدمت الأم على الأب وهي في درجته قدمت الأخت من الأم على الأخت من الأب، وقدمت الخالة على العمّة. هذا تقرير ما ذكره أبو البركات بن تيمية في «محرره» من تنزيل نص أحمد على هذه المحامل الثلاث، وهو مخالف لعامة نصوصه في تقديم الأخت للأب على الأخت للأم، وعلى الخالة، وتقديم خالة الأب على خالة الأم، وهو الذي لم يذكر الخرق في «مختصره» غيره، وهو الصحيح، وخرجها ابن عقيل على الروايتين في أم الأم، وأم الأب، ولكن نصه ما ذكره الخرق، وهذه الرواية التي حكّاها صاحب «المحرر» ضعيفة مرجوحة، فلماذا جاءت فروعها ولوازمها أضعف منها بخلاف سائر نصوصه في جادة مذهبه.

فصل

(ضابط في الحضانة لبعض أصحاب أحمد)

وقد ضبط بعض أصحابه هذا الباب بضابط، فقال: كل عصبه فإنه يُقدم على كل امرأة هي أبعد منه، ويتأخر عن من هي أقرب منه، وإذا تساوى، فعلى وجهين. فعلى هذا الضابط يُقدم الأب على أمّه،

وعلى أم الأم ومن معها، ويُقدَّم الأخ على ابنته وعلى العمة، والعمة على عمة الأب، وتقدَّم أم الأب على جد الأب، وفي تقديمها على أب الأب وجهان. وفي تقديم الأخت للأب على الأخ للأب وجهان، وفي تقديم العمة على العم وجهان.

والصواب: تقديم الأنثى مع التساوي، كما قُدِّمَت الأم على الأب لما استويا، فلا وجه لتقديم الذكر على الأنثى مع مساواتها له، وامتنازها بقوة أسباب الحضانة والتربية فيها.

واختلف في بنات الإخوة والأخوات، هل يقدمن على الخالات والعمات، أو تقدم الخالات والعمات عليهن؟ على وجهين مأخذهما: أن الخالة والعمة تُدليان بأخوة الأم والأب، وبنات الإخوة والأخوات يُدلين ببنوة الأب، فمن قُدِّم بنات الإخوة، راعى قوة البنوة على الأخوة، وليس ذلك بجيد، بل الصواب تقديم العمة والخالة لوجهين:

أحدهما: أنها أقرب إلى الطفل من بنات أخيه، فإن العمة أخت أبيه، وابنة الأخ ابنة ابن أبيه، وكذلك الخالة أخت أمه، وبنات الأخت من الأم، أو لأب بنت بنت أمه أو أبيه، ولا ريب أن العمة والخالة أقرب إليه من هذه القرابة.

الثاني: أن صاحب هذا القول إن طُرِدَ أصله، لزمه ما لا قبل له به من تقديم بنت بنت الأخت وإن نزلت على الخالة التي هي أم، وهذا فاسدٌ من القول، وإن خصَّ ذلك ببنت الأخت دون من سفل منها تناقض.

واختلف أصحاب أحمد أيضاً في الجد والأخت للأب أيهما أولى؟ فالمذهب: أن الجد أولى منها وحكى القاضي في «المجرد» وجهاً: أنها أولى منه، وهذا يجيء على أحد التأويلات التي تأوَّل عليها الأصحاب نص أحمد، وقد تقدمت.

فصل

(بيان تناقض الضابط السابق)

ومما يُبين صحة الأصل المتقدم أنهم قالوا: إذا عِدَّ الأمهات، ومن في جهتهن، انتقلت الحضانة إلى العصباء، وقُدِّم الأقرب فالأقرب منهم، كما في

الميراث، فهذا جارٍ على القياس، فيقال لهم: هلأ راعيتُم هذا في جنس القرابة، فقدمتم القرابة القوية الراجحة على الضعيفة المرجوحة، كما فعلتم في العصباء؟

وأيضاً فإن الصحيح في الأخوات عندكم أنه يُقدَّم منهن من كانت لأبوين، ثم من كانت لأب، ثم من كانت لأم، وهذا صحيح موافق للأصول والقياس، لكن إذا ضُمَّ هذا إلى قولهم بتقديم قرابة الأم على قرابة الأب جاء التناقض، وتلك الفروع المشكلة المتناقضة.

وأيضاً فقد قالوا بتقديم أمهات الأب والجد على الخالات والأخوات للأم، وهو الصواب الموافق لأصول الشرع، لكنه مناقض لإتدعيمهم أمهات الأم على أمهات الأب، ويُناقض تقديم الخالة والأخت للأم على الأب، كما هو إحدى الروايتين عن أحمد رحمه الله، والقول القديم للشافعي. ولا ريب أن القول به أطرُدُ للأصل، لكنه في غاية البعد من قياس الأصول كما تقدم، ويلزمهم من طَرَدُوا أيضاً تقديم من كان من الأخوات لأم على من كان منهم لأب، وقد التزمه أبو حنيفة، والمزني، وابن سريج، ويلزمهم من طَرَدُوا أيضاً تقديم بنت الخالة على الأخت للأب، وقد التزمه زفر، وهو رواية عن أبي حنيفة، ولكن أبو يوسف استشنع ذلك، فقُدِّم الأخت للأب كقول الجمهور، ورواه عن أبي حنيفة.

ويلزمهم أيضاً من طرده تقديم الخالة والأخت للأم على الجدة أم الأب، وهذا في غاية البعد والوهن، وقد التزمه زفر، ومثُل هذا من المقاييس التي حذر منها أبو حنيفة أصحابه، وقال: لا تأخذوا بمقاييس زفر، فإنكم إن أخذتم بمقاييس زفر حرَّمْتُم الحلال، وحلَّلتُم الحرام.

فصل

(ضابط آخر في الحضانة)

(لبعض أصحاب أحمد وبيان تناقضه)

وقد رام بعض أصحاب أحمد ضبط هذا الباب بضابط زعم أنه يتخلَّص به من التناقض، فقال: الاعتبار في الحضانة بالولادة المتحققة وهي

الأمومة، ثم الولادة الظاهرة وهي الأبوة، ثم الميراث. قال: ولذلك تُقدَّمُ الأخت من الأب على الأخت من الأم، وعلى الخالة، لأنها أقوى إرثاً منهما. قال: ثم الإدلاء، فتقدَّم الخالة على العمَّة لأن الخالة تدلي بالأم، والعمَّة تدلي بالأب، فذكر أربع أسباب للحضانة مرتبة: الأمومة، ثم بعدها الأبوة، ثم بعدها الميراث، ثم الإدلاء، وهذه طريقة صاحب «المستوعب»، وما زادتُه هذه الطريقة إلا تناقضاً وبعداً عن قواعد الشريعة، وهي من أسد الطرق، وإنما يتبينُ فسادُها بلوازمها الباطلة، فإنه إن أراد بتقديم الأمومة على الأبوة تقديم من في جهتها على الأب ومن في جهته، كانت تلك اللوازم الباطلة المتقدمة من تقديم الأخت للأم، وبنت الخالة على الأب وأمه، وتقديم الخالة على العمَّة، وتقديم خالة الأم على الأب وأمه، وتقديم بنات الأخت من الأم على أم الأب، وهذا مع مخالفته لنصوص إمامه، فهو مخالفٌ لأصول الشرع وقواعده.

وإن أراد أن الأم نفسها تُقدَّم على الأب، فهذا حق لكن الشأن في مناط هذا التقديم هل هو لكون الأم ومن في جهتها تقدم على الأب ومن في جهته، أو لكونها أنثى في درجة ذكر، وكل أنثى كانت في درجة ذكر قُلِّمَتْ عليه مع تقديم قرابة الأب على قرابة الأم؟ وهذا هو الصواب كما تقدم، وكذلك قوله: «ثم الميراث» إن أراد به أن المقدم في الميراث مقدم في الحضانة فصحيح، وطرده تقديم قرابة الأب على قرابة الأم، لأنها مقلَّمة عليها في الميراث، فتقدم الأخت على العمَّة والخالة. وقوله: «وكذلك تقديم الأخت للأب على الأخت للأم، والخالة، لأنها أقوى إرثاً منهما، فيقال: لم يكن تقديمها لأجل الإرث وقوته، ولو كان لأجل ذلك، لكان العصباء أحقَّ بالحضانة من النساء، فيكون العمُّ أولى من الخالة والعمَّة، وهذا باطل.

فصل

(ضابط الحضانة عند ابن قدامة)

وقد ضبط الشيخ في «المغني» هذا الباب بضابط آخر فقال: فصل في بيان الأولى فالأولى من أهل

الحضانة عند اجتماع الرجال والنساء. وأولى الكل بها: الأم، ثم أمهاتها وإن علون يُقدَّمُ منها الأقرب فالأقرب لأنهنَّ نساء ولادتهن متحققة، فهنَّ في معنى الأم. وعن أحمد، أن أم الأب وأمهايتها يُقدَّمُ على أم الأم، فعلى هذه الرواية يكون الأب أولى بالتقديم، لأنهنَّ يُدلين به، فيكون الأب بعد الأم، ثم أمهاته، والأولى هي المشهورة عند أصحابنا، فإن المقدم الأم، ثم أمهاتها، ثم الأب، ثم أمهاته، ثم الجد، ثم أمهاته، ثم جد الأب، ثم أمهاته، وإن كُنَّ غير وارثات لأنهنَّ يُدلين بعصية من أهل الحضانة، بخلاف أم أب الأم. وحكي عن أحمد رواية أخرى: أن الأخت من الأم والخالة أحقُّ من الأب، فتكون الأخت من الأبوين أحقُّ منه ومنهما، ومن جميع العصباء، والأولى هي المشهورة من المذهب، فإذا انقرض الآباء والأمهات، انتقلت الحضانة إلى الأخوات وتقدَّمُ الأخت من الأبوين، ثم الأخت من الأب، ثم الأخت من الأم، وتقدَّمُ الأخت على الأخ لأنها امرأة من أهل الحضانة، فقُلِّمَتْ على مَنْ في درجتها من الرجال، كالأم تُقدَّم على الأب، وأم الأب على أب الأب، وكلُّ جدة في درجة جد تُقدَّم عليه لأنها تلي الحضانة بنفسها، والرجل لا يليها بنفسه.

وفيه وجه آخر: أنه يقدم عليها لأنه عصبه بنفسه، والأول أولى، وفي تقديم الأخت من الأبوين، أو من الأب على الجد وجهان، وإذا لم تكن أخت فالأخ للأبوين أولى، ثم الأخ للأب، ثم ابناهما، ولا حضانة للأخ من الأم لما ذكرنا.

فإذا علموا، صارت الحضانة للمخالات على الصحيح، وترتيبهن فيها كترتيب الأخوات، ولا حضانة للأخوال، فإذا علموا، صارت للعمات ويقلمن على الأعمام كتقديم الأخوات على الإخوة، ثم للعم للأبوين، ثم للعم للأب، ولا حضانة للعم من الأم، ثم ابناهما، ثم إلى خالات الأب على قول الخرقى، وعلى القول الآخر: إلى خالات الأم، ثم إلى عمات الأب، ولا حضانة لعمات الأم، لأنهنَّ يُدلين بأب الأم، ولا حضانة له. وإن اجتمع شخصان أو أكثر من أهل الحضانة في درجة قدَّم المستحق منهم بالقرعة. انتهى كلامه.

(المؤاخلت على ضابط ابن قدامة)

وهذا خير مما قبله من الضوابط، ولكن فيه تقديم أم الأم وإن علت على الأب وأمهاته، فإن طرّد تقديم من في جهة الأم على من في جهة الأب جاءت تلك اللوازم الباطلة، وهو لم يُطرده، وإن قُدّم بعض من في جهة الأب على بعض من في جهة الأم كما فعل، طوليّب بالفرق، وبمَنَاط التقديم.

وفيه إثبات الحضانة للأخت من الأم دون الأخ من الأم، وهو في درجتها ومساوٍ لها من كل وجه، فإن كان ذلك لأنوثتها وهو ذكر، انتقض برجال العصبية كلهم، وإن كان ذلك لكونه ليس من العصبية، والحضانة لا تكون لرجل إلا أن يكون من العصبية. قيل: فكيف جعلتموها لإنساء ذوي الأرحام مع مساوات قرابتهن لقرابة من في درجتهن من الذكور من كل وجه؟ فإما أن تعتبروا الأنوثة فلا تجعلوها للذكر، أو الميراث فلا تجعلوها لغير وارث، أو القرابة فلا تمنعوا منها الأخ من الأم والخال وأبا الأم، أو التعصيب، فلا تعطوها لغير عصبية.

فإن قلتم: بقي قسم آخر وهو قولنا، وهو اعتبار التعصيب في الذكور والقرابة في النساء.

قيل: هذا مخالف لباب الولايات، وباب الميراث، والحضانة ولاية على الطفل، فإن سلكتكم بها مسلّك الولايات، فخصوها بالأب والجد، وإن سلكتكم بها مسلّك الميراث، فلا تعطوها لغير وارث، وكلاهما خلاف قولكم وقول الناس أجمعين.

وفي كلامه أيضاً: تقديم ابن الأخ وإن نزلت درجته على الخالة التي هي أم، وهو في غاية البعد، وجمهور الأصحاب إنما جعلوا أولاد الإخوة بعد أب الأب والعمات وهو الصحيح، فإن الخالة أخت الأم، وبها تدلي، والأم مقدّمة على الأب، وابن الأخ إنما يدلّ بالآخ الذي يدلّ بالأب، فكيف يُقدّم على الخالة، وكذا العمة أخت الأب وشقيقته، فكيف يُقدّم ابن ابنه عليها.

(ضابط الحضانة عند ابن تيمية وبیان صحته وإطراده)

وقد ضبط هذا الباب شيخنا شيخ الإسلام ابن تيمية بضابط آخر. فقال: أقرب ما يُضبط به باب الحضانة أن يقال: لما كانت الحضانة ولاية تعتمد

الشفقة والتربية والملاطفة كان أحقّ الناس بها أقومهم بهذه الصفات وهم أقاربهم يُقدّم منهم أقربهم إليه وأقومهم بصفات الحضانة. فإن اجتمع منهم اثنان فصاعداً، فإن استوت درجتهن قُدّمت الأنثى على الذكر، فتقدّم الأم على الأب، والجدّة على الجد، والخالة على الخال، والعمة على العم، والأخت على الأخ. فإن كانا ذكراً أو أنثيين، قُدّم أحدهما بالقرعة يعني مع استواء درجتهما، وإن اختلفت درجتهما من الطفل، فإن كانوا من جهة واحدة، قُدّم الأقرب إليه، فتقدّم الأخت على ابنتها، والخالة على خالة الأبوين، وخالة الأبوين على خالة الجد والجدّة، والجد أبو الأم على الأخ للام، هذا هو الصحيح لأن جهة الأبوة والأمومة في الحضانة أقوى من جهة الأخوة فيها. وقيل: يقدم الأخ للام لأنه أقوى من أب الأم في الميراث. والوجهان في مذهب أحمد.

وفيه وجه ثالث: أنه لا حضانة للأخ من الأم بحال، لأنه ليس من العصبية، ولا من نساء الحضانة، وكذلك الخال أيضاً، فإن صاحب هذا الوجه يقول: لا حضانة له، ولا نزاع أن أبا الأم وأمهاته أولى من الخال وإن كانوا من جهتين، كقرابة الأم وقرابة الأب مثل العمة والخالة، والأخت للأب، والأخت للام، وأم الأب، وأم الأم، وخالة الأب، وخالة الأم قُدّم من في جهة الأب في ذلك كله على إحدى الروايتين فيه. هذا كله إذا استوت درجتهن، أو كانت جهة الأب أقرب إلى الطفل، وأما إذا كانت جهة الأم أقرب، وقرابة الأب أبعد، كام الأم، وأم أب الأب، وكخالة الطفل، وعمّة أبيه، فقد تقابل الترجيحان، ولكن يُقدّم الأقرب إلى الطفل لقوة شفقتة وحنّؤه على شفقة الأبعد، ومن قُدّم قرابة الأب، فإنما يُقدّمها مع مساواة قرابة الأم لها، فأما إذا كانت أبعد منها، قُدّمت قرابة الأم القريبة، وإلا لزم من تقديم القرابة البعيدة لوازم باطلة لا يقول بها أحد، فهذه الضابط يُمكن حصر جميع مسائل هذا الباب وجريها على القياس الشرعي، وإطرادها وموافقتها لأصول الشرع، فأی مسألة وردت عليك أمكن أخذها من هذا الضابط مع كونه مقتضى الدليل، ومع سلامته من التناقض ومناقضة قياس الأصول، وبالله التوفيق.

فصل

(الحضانة حق للأم وهل تحقق لها الأجرة؟)

أحدهما : تعود بمجرد، وهو ظاهر مذهب الشافعي .
والثاني : لا تعود حتى تنقضي العدة، وهو قول أبي حنيفة والمزني، وهذا كله تفرع على أن قوله : «ما لم تنكحي» تعليل، وهو قول الأكثرين . وقال مالك في المشهور من مذهبه : إذا تزوجت ودخل بها، لم يعد حقها من الحضانة، وإن طلقت، قال بعض أصحابه : وهذا بناء على أن قوله : «ما لم تنكحي»، للتوقيت أي : حقك من الحضانة مؤقت إلى حين نكاحك، فإذا نكحت، انقضى وقت الحضانة، فلا تعود بعد انقضاء وقتها، كما لو انقضى وقتها ببلوغ الطفل واستغنائه عنها . وقال بعض أصحابه : يعود حقها إذا فارقها زوجها، كقول الجمهور، وهو قول المغيرة، وابن أبي حازم . قالوا : لأن المقتضي لحقها من الحضانة هو قرابتها الخاصة، وإنما عارضها مانع النكاح لما يوجب من إضاعة الطفل، واشتغالها بحقوق الزوج الأجنبي منه عن مصالحه، ولما فيه من تغذية وتربية في نعمة غير أقاربه، وعليهم في ذلك مئة وعصاة، فإذا انقطع النكاح بموت، أو فرقة، زال المانع، والمقتضي قائم، فترتب عليه أثره، وهكذا كل من قام به من أهل الحضانة مانع منها، ككفر، أو رق، أو فسق، أو بدو، فإنه لا حضانة له، فإن زالت الموانع، عاد حقهم من الحضانة، فهكذا النكاح والفرقة.

وأما النزاع في عود الحضانة بمجرد الطلاق الرجعي، أو بوقفه على انقضاء العدة، فمأخذه كون الرجعية زوجة في عامة الأحكام، فإنه يثبت بينهما التوارث والنفقة، ويصح منها الظهار والإيلاء، ويحرم أن ينكح عليها أختها، أو عمتها، أو خالتها، أو أربعاً سواها، وهي زوجة، فمن راعى ذلك، لم تعد إليها الحضانة بمجرد الطلاق الرجعي حتى تنقضي العدة، فتبين حينئذ، ومن أعاد الحضانة بمجرد الطلاق، قال : قد عزلها عن فراشه، ولم يبق لها عليه قسم، ولا لها به شغل، والجلة التي سقطت الحضانة لأجلها قد زالت بالطلاق، وهذا هو الذي رجحه الشيخ في «المغني» وهو ظاهر كلام الخرقي، فإنه قال : وإذا أخذ الولد من الأم إذا تزوجت ثم طلقت، رجعت على حقها من كفالته .

وقوله ﷺ : «أنت أحق به ما لم تنكحي»، فيه دليل على أن الحضانة حق للأم، وقد اختلف الفقهاء، هل هي للحاضن أم عليه؟ على قولين في مذهب أحمد ومالك، وينبغي عليهما هل لمن له الحضانة أن يسقطها فينزل عنها؟ على قولين . وأنه لا يجب عليه خدمة الولد أيام حضانته إلا بالأجرة إن قلنا : الحق له، وإن قلنا : الحق عليه، وجب خدمته مجاناً، وإن كان الحاضن فقيراً، فله الأجرة على القولين .

وإذا وهبت الحضانة للأب، وقلنا : الحق لها، لزمت الهبة ولم ترجع فيها، وإن قلنا : الحق عليها، فلها العود إلى طلبها .

والفرق بين هذه المسألة وبين ما لم يثبت بعد كهية الشفعة قبل البيع حيث لا تازم في أحد القولين : أن الهبة في الحضانة قد وجد سببها، فصار بمنزلة ما قد وجد، وكذلك إذا وهبت المرأة نفقتها لزوجها شهراً ألزمت الهبة، ولم ترجع فيها . هذا كله كلام أصحاب مالك وتفرعهم، والصحيح أن الحضانة حق لها، وعليها إذا احتاج الطفل إليها، ولم يوجد غيرها، وإن اتفقت هي، وولي الطفل على نقلها إليه جاز، والمقصود أن في قوله ﷺ : «أنت أحق به»، دليلاً على أن الحضانة حق لها .

فصل

(هل سقوط الحضانة بالنكاح للتعليل أو للتوقيت؟)

وقوله : «ما لم تنكحي»، اختلف فيه : هل هو تعليل أو توقيت؟ على قولين ينبغي عليهما ما لو تزوجت وسقطت حضانتها، ثم طلقت، فهل تعود الحضانة؟ فإن قيل : اللفظ تعليل، عادت الحضانة بالطلاق، لأن الحكم إذا ثبت بعلة زال بزوالها، وعلة سقوط الحضانة التزويج، فإن طلقت زالت العلة، فزال حكمها، وهذا قول الأكثرين، منهم : الشافعي، وأحمد، وأبو حنيفة .

ثم اختلفوا فيما إذا كان الطلاق رجعياً، هل يعود حقها بمجرد، أو يتوقف عودها على انقضاء العدة؟ على قولين، وهما في مذهب أحمد والشافعي،

فصل

(هل مجرد عقد النكاح يسقط الحضانة؟)

والقول الرابع: أنها إذا تزوجت بنسب من الطفل لم تسقط حضانتها، ثم اختلف أصحاب هذا القول، على ثلاثة أقوال: أحدها: أن المشترط أن يكون الزوج نسيباً للطفل فقط، وهذا ظاهر قول أصحاب أحمد. الثاني: أنه يشترط أن يكون مع ذلك ذا رحم محرم، وهو قول أصحاب أبي حنيفة. الثالث: أنه يشترط أن يكون بين الزوج وبين الطفل إيلاد، بأن يكون جداً للطفل، وهذا قول مالك، وبعض أصحاب أحمد، فهذا تحرير المذاهب في هذه المسألة.

(حجة من أسقط الحضانة بالتزويج مطلقاً)

فأما حجة من أسقط الحضانة بالتزويج مطلقاً، فثلاث حجج: إحداها: حديث عمرو بن شعيب المتقدم ذكره. الثانية: اتفاق الصحابة على ذلك، وقد تقدم قول الصديق لعمر: هي أحق به ما لم تزوج، وموافقة عمر له على ذلك، ولا مخالف لهما من الصحابة البتة، وقضى به شريح، والقضاة بعده إلى اليوم في سائر الأعصار والأمصار.

(اعتراض ابن حزم على الأدلة السابقة ورد المصنف عليه)

الثالثة: ما رواه عبد الرزاق: حدثنا ابن جريج، حدثنا أبو الزبير، عن رجل صالح من أهل المدينة، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، قال: كانت امرأة من الأنصار تحت رجل من الأنصار، فقُتِلَ عنها يوم أحد وله منها ولد، فخطبها عمٌ ولدها وزَّجَلَ آخر إلى أبيها، فأنكح الآخر، فجاءت إلى النبي ﷺ، فقالت: أنكحني أبي رجلاً لا أريدُه، وترك عمٌ ولدي، فيؤخذ مني ولدي، فدعا رسولُ الله ﷺ أباهَا، فقال: أنكحت فلاناً فلانة؟ قال: نعم، قال: «أنت الذي لا ينكح لك، ادَّهَيْي فأنكحي عمٌ ولديك» [عبد الرزاق: ١٠٣٠٤]، فلم ينكر أخذ الولد منها لما تزوجت، بل أنكحها عم الولد لتبقى لها الحضانة، ففيه دليل على سقوط الحضانة بالنكاح، وبقيائها إذا تزوجت بنسب من الطفل. واعترض أبو محمد بن حزم على هذا الاستدلال، بأن حديث عمرو بن شعيب صحيفة، وحديث أبي سلمة هذا مرسل، وفيه مجهول. وهذان الاعتراضان ضعيفان، فقد بينا احتجاج الأئمة بعمرو في تصحيحهم حديثه، وإذا تعارض معنا في

وقوله: «ما لم تنكحي»، اختلف فيه: هل المراد به مجرد العقد، أو العقد مع الدخول؟ وفي ذلك وجهان: أحدهما: أنها بمجرد العقد تزول حضانتها، وهو قول الشافعي، وأبي حنيفة، لأنه بالعقد يملك الزوج منافع الاستمتاع بها، ويملك نفعها من حضانة الولد. والثاني: أنها لا تزول إلا بالدخول، وهو قول مالك، فإن بالدخول يتحقق اشتغالها عن الحضانة، والحديث يحتمل الأمرين، والأشبه سقوط حضانتها بالعقد، لأنها حينئذ صارت في مظنة الاشتغال عن الولد والتهيؤ للدخول، وأخذها حينئذ في أسبابه، وهذا قول الجمهور.

فصل

(اختلاف الفقهاء في سقوط الحضانة بالنكاح)

واختلف الناس في سقوط الحضانة بالنكاح، على أربعة أقوال:

أحدها: سقوطها به مطلقاً، سواء كان المحضون ذكراً، أو أنثى، وهذا مذهب الشافعي، ومالك، وأبي حنيفة، وأحمد في المشهور عنه. قال ابن المنذر: أجمع على هذا كل من أحفظ عنه من أهل العلم، وقضى به شريح.

والقول الثاني: أنها لا تسقط بالتزويج بحال، ولا فرق في الحضانة بين الأيم وذوات البعل، وحكي هذا المذهب عن الحسن البصري، وهو قول أبي محمد بن حزم.

القول الثالث: أن الطفل إن كان بنتاً لم تسقط الحضانة بنكاح أمها، وإن كان ذكراً سقطت، وهذه إحدى الروايتين عن أحمد رحمه الله نص عليه في رواية مهنا بن يحيى الشامي، فقال: إذا تزوجت الأم وابنتها صغير، أخذ منها. قيل له: والجارية مثل الصبي؟ قال: لا، الجارية تكون مع أمها إلى سبع سنين. وعلى هذه الرواية: فهل تكون عندها إلى سبع سنين أو إلى أن تبلغ؟ على روايتين. قال ابن أبي موسى: وعن أحمد، أن الأم أحق بحضانة البنت وإن تزوجت إلى أن تبلغ.

الاحتجاج برجل قول ابن حزم، وقول البخاري، وأحمد، وابن المديني، والحميدي وإسحاق بن راهويه وأمثالهم، لم يُلْتَفَت إلى سواهم.

وأما حديث أبي سلمة هذا، فإن أبا سلمة من كبار التابعين، وقد حكى القصة عن الأنصارية، ولا يُنْكَر لقاؤه لها، فلا يتحقق الإرسال، ولو تحقق، فمرسل جيد، له شواهد مرفوعة وموقوفة، وليس الاعتماد عليه وحده، وعنى بالمجهول الرجل الصالح الذي شهد له أبو الزبير بالصلاح، ولا ريب أن هذه الشهادة لا تُعْرَف به، ولكن المجهول إذا عدله الراوي عنه الثقة ثبتت عدالته وإن كان واحداً على أصح القولين، فإن التعديل من باب الإخبار والحكم لا من باب الشهادة، ولا سيما التعديل في الرواية، فإنه يكتفى فيه بالواحد، ولا يزيد على أصل نصاب الرواية، هذا مع أن أحد القولين إن مجرد رواية العدل عن غيره تعديل له وإن لم يصرح بالتعديل، كما هو إحدى الروایتين عن أحمد، وأما إذا روى عنه وصرح بتعديله، فقد خرج عن الجهالة التي تُرد لأجلها روايته لا سيما إذا لم يكن معروفاً بالرواية عن الضعفاء والمتهمين، وأبو الزبير وإن كان فيه تدليس، فليس معروفاً بالتدليس عن المتهمين والضعفاء، بل تدليسه من جنس تدليس السلف، لم يكونوا يُدلسون عن متهم ولا مجروح، وإنما كثر هذا النوع من التدليس في المتأخرين.

(حجة ابن حزم على عدم سقوط الحضانة بالتزويج)

واحتج أبو محمد على قوله، بما رواه من طريق البخاري، عن عبد العزيز بن صهيب، عن أنس قال: قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينة وليس له خادم، فأخذ أبو طلحة يدي، وانطلق بي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إن أنساً غلامٌ كَيِّسٌ، فَلْيَخْذُلْكَ. قال: فخذمته في السفر والحضر [البخاري: ٢٧٦٨، ومسلم: ٦٠١١]. وذكر الخبر.

قال أبو محمد: فهذا أنس في حضانة أمه، ولها زوج، وهو أبو طلحة بعلم رسول الله ﷺ، وهذا الاحتجاج في غاية السقوط، والخبر في غاية الصحة، فإن أحداً من أقارب أنس لم يُنَازِعْ أمه فيه إلى النبي ﷺ وهو طفل صغير لم يُنْفِزْ، ولم يأكل

وحده، ولم يشرب وحده، ولم يميز، وأمّه مزوجة، فحكم به لأمه، وإنما يَتِم الاستدلال بهذه المقدمات كلها، والنبي ﷺ لما قَدِمَ المدينة كان لأنس من العمر عشر سنين، فكان عند أمه، فلما تزوجت أبا طلحة لم يأت أحداً من أقارب أنس يُنَازِعُها في ولدها ويقول: قد تزوجت فلا حضانة لك، وأنا أطلب انتزاعه منك، ولا ريب أنه لا يحرم على المرأة المزوجة حضانة ابنها إذا اتفقت هي والزوج وأقارب الطفل على ذلك، ولا ريب أنه لا يجب، بل لا يجوز أن يُفَرَّق بين الأم ولدها إذا تزوجت من غير أن يُخاصمها مَنْ له الحضانة، ويُطْلَب انتزاع الولد، فالاحتجاج بهذه القصة من بعد الاحتجاج وأبروه.

ونظير هذا أيضاً، احتجاجهم بأن أم سلمة لما تزوجت برسول الله ﷺ لم تسقط كفالتها لابنها، بل استمرت على حضانتها، فيا عجبا من الذي نازع أم سلمة في ولدها، ورغب عن أن يكون في حجر النبي ﷺ.

واحتج لهذا القول أيضاً بأن رسول الله ﷺ قضى بابتنة حمزة لخالتها وهي مزوجة بجعفر، فلا ريب أن للناس في قصة ابنة حمزة ثلاث مآخذ: أحدها: أن النكاح لا يُسقط الحضانة. الثاني: أن المحضونة إذا كانت بنتاً، فنكاح أمها لا يُسقط حضانتها، ويسقطها إذا كان ذكراً. الثالث: أن الزوج إذا كان نسيباً من الطفل، لم تسقط حضانتها، وإلا سقطت، فالاحتجاج بالقصة على أن النكاح لا يُسقط الحضانة مطلقاً لا يَتِم إلا بعد إبطال ذينك الاحتمالين الآخرين.

فصل

وقضاؤه ﷺ بالولد لأمه، وقوله: «أَنْتِ أَحَقُّ بِهِ مَا لَمْ تَنْكِحِي»، لا يُستفاد منه عموم القضاء لكل أم حتى يقضي به للأم. وإن كانت كافرة، أو رقيقة، أو فاسقة، أو مسافرة، فلا يصح الاحتجاج به على ذلك، ولا نفيه، فإذا دلّ دليل منفصل على اعتبار الإسلام والحرية والديانة والإقامة، لم يكن ذلك تخصيصاً ولا مخالفةً لإظهار الحديث.

(شروط الحاضن الاتفاق في الدين)

وقد اشترط في الحاضن ستة شروط:

اتفاقهما في الدين، فلا حضانة لكافر على مسلم لوجهين.

أحدهما: أن الحاضن حريص على تربية الطفل على دينه، وأن ينشأ عليه، ويتربى عليه، فيصعب بعد كبره وعقله انتقاله عنه، وقد يغيره عن فطرة الله التي فطر عليها عباده، فلا يُراجعها أبداً، كما قال النبي ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَدُّ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِيهِ أَوْ نَصْرَانِيهِ، أَوْ يُمَجْسَانِيهِ» [البخاري: ١٣٨٥، ومسلم: ٦٧٥٥]. فلا يؤمن تهويد الحاضن وتنصيره للطفل المسلم.

فإن قيل: الحديث إنما جاء في الأبوين خاصة.

قيل: الحديث خرج مخرج الغالب إذ الغالب المعتاد نشوء الطفل بين أبويه، فإن قُذِّ الأبوَانِ أو أحدهما قام ولي الطفل من أقاربه مقامهما.

(حجة من اثبت الحضانة للكافرة على الولد المسلم)

الوجه الثاني: أن الله سبحانه قطع الموالاة بين المسلمين والكفار، وجعل المسلمين بعضهم أولياء بعض، والكفار بعضهم من بعض، والحضانة من أقوى أسباب الموالاة التي قطعها الله بين الفريقين. وقال أهل الرأي، وابن القاسم، وأبو ثور: تثبت الحضانة لها مع كُفْرها وإسلام الولد، واحتجوا بما روى النسائي في «سننه»، من حديث عبد الحميد بن جعفر عن أبيه، عن جده رافع بن سنان، أنه أسلم وأبت امرأته أن تُسلم، فأتت النبي ﷺ، فقالت: ابنتي هي فطيمة أو يشبهه، وقال رافع: ابنتي، فقال النبي ﷺ: «أَفْعُدْ نَاجِيَةً»، وقال لها: «أَفْعُدِي نَاجِيَةً»، وقال لهما: «ادْعُواها»، فمالت الصبية إلى أمها، فقال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ اهْدِمَا»، فمالت إلى أبيها فأخذها [حسن: أبو داود: ٢٢٤٤، والنسائي (١٨٥/٦)].

قالوا: ولأن الحضانة لأمرين: الرضاع، وخدمة الطفل، وكلاهما يجوز من الكافرة.

(رد المسقطين لحق الحضانة للكافرة على المئتين)

قال الآخرون: هذا الحديث من رواية عبد الحميد بن جعفر بن عبد الله بن الحكم بن رافع بن سنان الأنصاري الأوسي، وقد ضعفه إمام العلل يحيى بن سعيد القطان، وكان سفيان الثوري يحول عليه، وضعف ابن المنذر الحديث، وضعفه

غيره، وقد اضطرب في القصة، فروى أن المخير كان بتناً، وروى أنه كان ابناً. وقال الشيخ في «المغني»: وأما الحديث، فقد روي على غير هذا الوجه، ولا يشته أهل النقل. وفي إسناده مقال، قاله ابن المنذر.

ثم إن الحديث قد يحتج به على صحة مذهب من اشترط الإسلام، فإن الصبية لما مالت إلى أمها دعا النبي ﷺ لها بالهداية، فمالت إلى أبيها، وهذا يدل على أن كونها مع الكافر خلافت هدى الله الذي أرادته من عباده، ولو استقر جعلها مع أمها، لكان فيه حجة، بل أبطله الله سبحانه بدعوة رسوله.

(اشتراط الخلو من الفسق في الحضانة)

ومن العجب أنهم يقولون: لا حضانة للفساق، فأَيُّ فسق أكبر من الكفر؟ وأَيُّ الضرر المتوقع من الفاسق بنشوء الطفل على طريقته إلى الضرر المتوقع من الكافر، مع أن الصواب أنه لا تشتط العدالة في الحاضن قطعاً، وإن شرطها أصحاب أحمد والشافعي وغيرهم، واشترطها في غاية البعد. ولو اشترط في الحاضن العدالة لضاع أطفال العالم، ولعظمت المشقة على الأمة، واشتد العنت، ولم يزل من حين قام الإسلام إلى أن تقوم الساعة أطفال الفساق بينهم لا يتعرض لهم أحد في الدنيا، مع كونهم الأكثرين. ومتى وقع في الإسلام انتزاع الطفل من أبويه أو أحدهما بفسقه؟ وهذا في الحرج والعسر، واستمرار العمل المتصل في سائر الأمصار والأعصار على خلافه بمنزلة اشتراط العدالة في ولاية النكاح، فإنه دائم الوقوع في الأمصار والأعصار، والقرى والبادي، مع أن أكثر الأولياء الذين يلون ذلك فساق، ولم يزل الفسق في الناس، ولم يمنع النبي ﷺ، ولا أحد من الصحابة فاسقاً من تربية ابنه وحضنته له، ولا من تزويجه موليته، والعادة شاهدة بأن الرجل ولو كان من الفساق، فإنه يحتاط لابنته، ولا يضيعها، ويحرص على الخير لها بجهد، وإن قُدِّرَ خلاف ذلك، فهو قليل بالنسبة إلى المعتاد، والشارع يكتفي في ذلك بالبائع الطبيعي، ولو كان الفاسق مسلوب الحضانة، وولاية النكاح، لكان بياناً هذا للأمة من أهم الأمور، واعتناء الأمة بنقله، وتوارث العمل به مقدماً على كثير مما نقلوه،

عاماً كلياً: أن كل امرأة تزوجت سقطت حضانتها في جميع الأحوال حتى يكون إثبات الحضانة للأم في هذه الحالة مخالفة للنص.

(اتحاد الدار شرط من شروط الحاضن)

وأما اتحاد الدار، فإن كان سفر أحدهما حاجة، ثم يعود والآخر مقيم، فهو أحق به، لأن السفر بالولد الطفل ولا سيما إن كان رضيعاً إضراراً به وتضييع له، هكذا أطلقوه، ولم يستثنوا سفر الحج من غيره، وإن كان أحدهما منتقلاً عن بلد الآخر للإقامة، والبلد وطريقه مخوفان، أو أحدهما، فالمقيم أحق، وإن كان هو وطريقه آمين، ففيه قولان، وهما روايتان عن أحمد، إحداهما: أن الحضانة للاب ليمكن من تربية الولد وتأديبه وتعليمه، وهو قول مالك والشافعي، وقضى به شريح. والثانية: أن الأم أحق. وفيها قول ثالث: أن المنتقل إن كان هو الأب، فالأم أحق به، وإن كان الأم، فإن انتقلت إلى البلد الذي كان فيه أصل النكاح فهي أحق به، وإن انتقلت إلى غيره فالأب أحق، وهو قول الحنفية. وحكوا عن أبي حنيفة رواية أخرى: أن نقلها إن كان من بلد إلى قرية، فالأب أحق، وإن كان من بلد إلى بلد فهي أحق، وهذه أقوال كلها - كما ترى - لا يقوم عليها دليل يسكن القلب إليه، فالصواب النظر والاحتياط للطفل في الأصلح له والأمنع من الإقامة أو النقلة، فأيهما كان أنفع له وأصون وأحفظ روعي، ولا تأثير لإقامة ولا نقلة، هذا كله ما لم يرد أحدهما بالنقلة مضارة الآخر، وانتزاع الولد منه، فإن أراد ذلك، لم يجب إليه، والله الموفق.

فصل

(قول من اشترط لسقوط)

الحضانة مع عقد النكاح والدخول حكم الحاكم)

وقوله: «أنت أحق به ما لم تنكحي»، قيل: فيه إضمار تقديره: ما لم تنكحي، ويدخل بك الزوج، ويحكم الحاكم بسقوط الحضانة. وهذا تعسف بعيد لا يشعر به اللفظ، ولا يدل عليه بوجه، ولا هو من دلالة الاقتضاء التي تتوقف صحة المعنى عليها،

وتوارثوا العمل به، فكيف يجوز عليهم تضييعه واتصال العمل بخلافه. ولو كان الفسق يُنافي الحضانة، لكان من زنى أو شرب خمر، أو أتى كبيرة، فُرق بينه وبين أولاده الصغار، والتوس لهم غيره والله أعلم.

(اشتراط العقل في الحاضن)

نعم، العقل مشروط في الحضانة، فلا حضانة لمجنون ولا معتوه ولا طفل، لأن هؤلاء يحتاجون إلى من يحضنهم ويكفلهم، فكيف يكونون كافلين لغيرهم.

(الحرية)

وأما اشتراط الحرية، فلا يتنهض عليه دليل يزكّن القلب إليه، وقد اشترطه أصحاب الأئمة الثلاثة. وقال مالك في حرّ له ولد من أمة: إن الأم أحق به إلا أن تباع، فتنتقل، فيكون الأب أحق به، وهذا هو الصحيح، لأن النبي ﷺ قال: «لا تؤلّه والدّة عن ولديها» [البهيقي (٥/٨)]. وقال: «مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا، فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [حسن: أحمد: ٢٣٤٩٩-٢٣٥١٣، والترمذي: ١٢٨٣]. وقد قالوا: لا يجوز التفريق في البيع بين الأم وولدها الصغير فكيف يُفَرَّقون بينهما في الحضانة؟ وعموم الأحاديث تمنع من التفريق مطلقاً في الحضانة والبيع، واستدلّ لهم بكون منافعها مملوكة للسيد، فهي مستغرقة في خدمته، فالتفريق لحضانة الولد ممنوع، بل حق الحضانة لها، تُقدّم به في أوقات حاجة الولد على حق السيد، كما في البيع سواء. وأما اشتراط خلوها من النكاح، فقد تقدم.

(الخلو من النكاح)

وهنا مسألة ينبغي التنبيه عليها وهي أنا إذا أسقطنا حقها من الحضانة بالنكاح، ونقلناها إلى غيرها فأتفق أنه لم يكن له سواها، لم يسقط حقها من الحضانة، وهي أحق به من الأجنبي الذي يدفعه القاضي إليه، وتربيته في حجر أمه ورأيه أصلح من تربيته في بيت أجنبي محض لا قرابة بينهما تُوجب شفقتة ورحمته وحنوّه، ومن المحال أن تأتي الشريعة بدفع مفسدة بمفسدة أعظم منها بكثير، والنبي ﷺ لم يحكم حكماً

والدخول داخل في قوله: «تتكحي»، عند من اعتبره، فهو كقوله: «حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ» [البقرة: ٢٣٠]، ومن لم يعتبره، فالمراد بالنكاح عنده العقد.

وأما حكم الحاكم بسقوط الحضانة، فذاك إنما يحتاج إليه عند التنازع والخصومة بين المتنازعين، فيكون منفذاً لحكم رسول الله ﷺ، لا أن رسول الله ﷺ أوقف سقوط الحضانة على حكمه، بل قد حكم هو بسقوطها، حكم به الحكام بعده أو لم يحكموا. والذي دل عليه هذا الحكم النبوي، أن الأم أحق بالطفل ما لم يوجد منها النكاح، فإذا نكحت، زال ذلك الاستحقاق، وانتقل الحق إلى غيرها. فأما إذا طلبه من له الحق، وجب على خصمه أن يبذله له، فإن امتنع أجبره الحاكم عليه، وإن أسقط حقه، أو لم يطالب به، بقي على ما كان عليه أولاً، فهذه قاعدة عامة مستفادة من غير هذا الحديث.

فصل

(اختلاف الفقهاء في التخيير بين الأبوين)

وقد احتج من لا يرى التخيير بين الأبوين بظاهر هذا الحديث، ووجه الاستدلال أنه قال: «أنت أحق به»، ولو تخير الطفل لم تكن هي أحق به إلا إذا اختارها، كما أن الأب لا يكون أحق به إلا إذا اختاره، فإن قدر: أنت أحق به إن اختارك، فقدر ذلك في جانب الأب، والنيي ﷺ جعلها أحق به مطلقاً عند المنازعة، وهذا مذهب أبي حنيفة ومالك. ونحن نذكر هذه المسألة ومذاهب الناس فيها، والاحتجاج لأقوالهم، ونرجح ما وافق حكم رسول الله ﷺ منها.

ذكر قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه

ذكر عبد الرزاق عن ابن جريج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: طلق عمر بن الخطاب رضي الله عنه امرأته، فذكر الأثر المتقدم، وقال فيه: ربيها وفرأشها خير له منك حتى يشب ويختار لنفسه، فحكم به لأنه حين لم يكن له تمييز إلى أن يشب ويُميز ويخير حيثن.

ذكر قول عمر بن الخطاب

رضي الله عنه

قال الشافعي: حدثنا ابن عيينة، عن يزيد بن يزيد بن جابر، عن إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر، عن عبد الرحمن بن غنم، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. تخير غلاماً بين أبيه وأمه^(١).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج، عن عبد الله بن عبيد بن عمير، قال: تخير عمر رضي الله عنه غلاماً ما بين أبيه وأمه، فاختر أمه، فانطلقت به.

وذكر عبد الرزاق أيضاً: عن معمر، عن أيوب، عن إسماعيل بن عبيد الله، عن عبد الرحمن بن غنم، قال: اختصم إلى عمر بن الخطاب في غلام، فقال: هو مع أمه حتى يُغرب عنه لسانه ليختار [عبد الرزاق: ١٢٦٠٦، ورجاله ثقات].

وذكر سعيد بن منصور عن هشيم، عن خالد، عن الوليد بن مسلم، قال: اختصموا إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في يتيم فخير، فاختر أمه على عمه، فقال عمر: إن لطف أمك خير من خضب عمك.

ذكر قول علي بن أبي طالب

رضي الله عنه

قال الشافعي رحمه الله تعالى: أنبأنا ابن عيينة، عن يونس بن عبد الله الجرمي، عن عمارة الجرمي، قال: خيرني علي بين أمي وعمي، ثم قال لأخ لي أصغر مني: وهذا أيضاً لو بلغ مبلغ هذا لخيرته [عبد الرزاق: ١٢٦٠٩، والبيهقي (٤/٨)].

قال الشافعي رحمه الله: قال إبراهيم: عن يونس عن عمارة عن علي مثله^(٢) قال في الحديث: وكنت ابن سبع سنين، أو ثمان سنين.

قال يحيى القطان: حدثنا يونس بن عبد الله الجرمي، حدثني عمارة بن روية، أنه تخصص في أمه وعمه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: فخيرني علي ثلاثاً، كلهن اختار أمي، ومعني أخ لي صغير، فقال علي: هذا إذا بلغ مبلغ هذا خير.

(١) رجاله ثقات.

(٢) إبراهيم هو ابن محمد بن أبي يحيى الأسلمي: متروك.

ذكر قول أبي هريرة رضي الله عنه

قال أبو خيثمة زهير بن حرب: حدثنا سفيان بن عيينة، عن زياد بن سعد، عن هلال بن أبي ميمونة قال: شهدت أبا هريرة خيّر غلاماً بين أبيه وأمه، وقال: إن رسول الله ﷺ خيّر غلاماً بين أبيه وأمه [أحمد: ٧٣٤٦، وأبو داود: ٢٢٧٧، والترمذي: ١٣٥٧، والنسائي: ١٨٥/٦، وابن ماجه: ٢٣٥١].

(مذهب ابن راهويه في التخيير)

فهذا ما ظفرت به عن الصحابة. وأما الأئمة، فقال حرب بن إسماعيل: سألت إسحاق بن راهويه، إلى متى يكون الصبي والصبيّة مع الأم إذا طُلقت؟ قال: أحب إليّ أن يكون مع الأم إلى سبع سنين، ثم يُخيّر. قلت له: أترى التخيير؟ قال: شديداً. قلت: فأقلّ من سبع سنين لا يُخيّر؟ قال: قد قال بعضهم إلى خمس، وأنا أحب إليّ سبع.

(مذهب أحمد)

وأما مذهب الإمام أحمد، فإما أن يكون الطفل ذكراً أو أنثى، فإن كان ذكراً، فإما أن يكون ابن سبع أو دونها، فإن كان له دون السبع، فأُمّه أحقّ بحضائنه من غير تخيير، وإن كان له سبع، ففيه ثلاث روايات: إحداها - وهي الصحيحة المشهورة من مذهبه - : أنه يخير، وهي اختيار أصحابه، فإن لم يختر واحداً منهما، أقرع بينهما، وكان لمن قرع، وإذا اختار أحدهما، ثم عاد فاختر الآخر نقل إليه، وهكذا أبداً.

والثانية: أن الأب أحقّ به من غير تخيير.

والثالثة: أن الأم أحقّ به كما قبل السبع.

وأما إذا كان أنثى، فإن كان لها دون سبع سنين، فأُمّها أحقّ بها من غير تخيير، وإن بلغت سبعاً، فالمشهور من مذهبه، أن الأم أحقّ بها إلى تسع سنين، فإذا بلغت تسعاً، فالأب أحقّ بها من غير تخيير.

وعنه رواية رابعة: أن الأم أحقّ بها حتى تبلغ، ولو تزوجت الأم.

وعنه رواية خامسة: أنها تخير بعد السبع كالغلام،

نصّ عليها، وأكثر أصحابه إنما حكوا ذلك وجهاً في المذهب، هذا تلخيص مذهبه وتحريره.

(مذهب الشافعي)

وقال الشافعي: الأم أحقّ بالطفل ذكراً كان أو أنثى إلى أن يبلغا سبع سنين، فإذا بلغا سبعاً وهما يعقلان عقل مثلهما، خيّر كلّ منهما بين أبيه وأمه، وكان مع من اختار.

(مذهب مالك وإبي حنيفة)

وقال مالك وأبو حنيفة لا تخيير بحال، ثم اختلفا فقال أبو حنيفة: الأم أحقّ بالجارية حتى تبلغ، وبالغلام حتى يأكل وحده، ويشرب وحده، وليس وحده، ثم يكونان عند الأب، ومن سوى الأبوين أحقّ بهما حتى يستغنيا، ولا يُعتبر البلوغ، وقال مالك: الأم أحقّ بالولد ذكراً كان أو أنثى حتى يُنخر، هذه رواية ابن وهب، وروى ابن القاسم: حتى يبلغ، ولا يُخيّر بحال.

(مذهب الليث)

وقال الليث بن سعد: الأم أحقّ بالابن حتى يبلغ ثمان سنين، وبالبنت حتى تبلغ، ثم الأب أحقّ بهما بعد ذلك.

(مذهب الحسن ابن حي)

وقال الحسن بن حي: الأم أولى بالبنت حتى يكفّ ثديها، وبالغلام حتى يتفّع، فيُخيران بعد ذلك بين أبيهما، الذكر والأنثى سواء.

(مذهب من قال بالتخيير في الغلام دون الجارية)

قال المخيرون في الغلام دون الجارية: قد ثبت التخيير عن النبي ﷺ في الغلام، من حديث أبي هريرة، وثبت عن الخلفاء الراشدين، وأبي هريرة، ولا يُعرف لهم مخالفت في الصحابة البتة، ولا أنكره منكر. قالوا: وهذا غاية في العدل الممكن، فإن الأم إنما قُدِّمت في حال الصغر لحاجة الولد إلى التريبة والحمل والرضاع والمداواة التي لا تنهيا لغير النساء، وإلا فالأم أحد الأبوين، فكيف تُقدّم عليه؟ فإذا بلغ الغلام حداً يُغربّ فيه عن نفسه، ويستغني عن الحمل والوضع وما تُعانيه النساء، تساوى الأبوان، وزال السبب الموجب لتقديم الأم، والأبوان

فَمَالَتْ إِلَى أَبِيهَا فَأَخَذَهَا [حسن: أبو داود: ٢٧٢٤].
قَالُوا: وَلَوْ لَمْ يَرِدْ هَذَا الْحَدِيثُ لَكَانَ حَدِيثُ أَبِي
هَرِيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَالْأَثَارُ الْمَتَقَدِّمَةُ حُجَّةً فِي تَخْيِيرِ
الْأَثَرِ، لِأَنَّهُ كَوْنُ الطِّفْلِ ذِكْرًا لَا تَأْثِيرَ لَهُ فِي الْحُكْمِ،
بَلْ هِيَ كَالذِّكْرِ فِي قَوْلِهِ ﷺ: «مَنْ وَجَدَ مَتَاعَهُ عِنْدَ
رَجُلٍ قَدْ أَفْلَسَ» [البخاري: ٤٢٠٢]. وَفِي قَوْلِهِ «مَنْ أَغْتَقَ
شِرْكَاءَ لَهْ فِي عَبْدٍ» [البخاري: ٢٥٢٢، ومسلم: ٣٧٧٠]، بَلْ
حَدِيثُ الْحَضَانَةِ أَوَّلَى بِعَدَمِ اشْتِرَاطِ الذِّكُورَةِ فِيهِ،
لِأَنَّهُ لَفْظُ الصَّبِيِّ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ الشَّارِعِ، إِنَّمَا الصَّحَابِيُّ
حَكَى الْقِصَّةَ، وَأَنَّهَا كَانَتْ فِي صَبِيٍّ، فَإِذَا نَفَعَ الْمَنَاطُ
تَبَيَّنَ أَنَّهُ لَا تَأْثِيرَ لِكَوْنِهِ ذِكْرًا.

(رد الحنابلة على من اجاز التخيير للذكر والأنثى)

قَالَتِ الْحَنَابِلَةُ: الْكَلَامُ مَعَكُمْ فِي مَقَامَيْنِ،
أَحَدُهُمَا: اسْتِدْلَالُكُمْ بِحَدِيثِ رَافِعٍ، وَالثَّانِي:
الْغَاوِكُمُ وَصَفَ الذِّكُورَةَ فِي أَحَادِيثِ التَّخْيِيرِ.

فَأَمَّا الْأَوَّلُ، فَالْحَدِيثُ قَدْ ضَعَّفَهُ ابْنُ الْمُنْذِرِ
وغيره، وَضَعَفَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ وَالشُّورِي
عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ جَعْفَرٍ، وَأَيْضًا قَدْ اخْتَلَفَ فِيهِ عَلَى
قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْمَخْيَرَ كَانَ بَتْنًا، وَرَوَى: أَنَّهُ
كَانَ ابْنًا. فَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنَا سَفِيَّانُ، عَنْ
عُثْمَانَ الْبَتِيِّ، عَنْ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ أَبِيهِ،
عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ أَبَوَيْهِ اخْتَصَمَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، أَحَدُهُمَا
مُسْلِمٌ، وَالْآخَرُ كَافِرٌ، فَتَوَجَّهَ إِلَى الْكَافِرِ، فَقَالَ
النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ اهْدِهِ»، فَتَوَجَّهَ إِلَى الْمُسْلِمِ، فَقَضَى
لَهُ بِهِ [عبد الرزاق: ١٦١٦].

قَالَ أَبُو الْفَرَجِ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: وَرَوَايَةٌ مِنْ رَوَى أَنَّهُ
كَانَ غُلَامًا أَصَحَّ. قَالُوا: وَلَوْ سَلِمَ لَكُمْ أَنَّهُ كَانَ أَنْثَى،
فَأَنْتُمْ لَا تَقُولُونَ بِهِ، فَإِنَّ فِيهِ أَنَّ أَحَدَهُمَا كَانَ مُسْلِمًا،
وَالْآخَرُ كَافِرًا، فَكَيْفَ تَحْتَجُّونَ بِمَا لَا تَقُولُونَ بِهِ.

قَالُوا: وَأَيْضًا فَلَوْ كَانَا مُسْلِمَيْنِ، فَقَبِلَ الْحَدِيثُ أَنَّ
الطِّفْلَ كَانَ فَطِيمًا، وَهَذَا قَطْعًا دُونَ السَّبْعِ، وَالظَّاهِرُ
أَنَّهُ دُونَ الْخَمْسِ، وَأَنْتُمْ لَا تُخَيِّرُونَ مَنْ لَهُ دُونَ السَّبْعِ،
فَظَهَرَ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُكُمْ الْاسْتِدْلَالُ بِحَدِيثِ رَافِعٍ هَذَا عَلَى
كُلِّ تَقْدِيرٍ.

فَبَقِيَ الْمَقَامُ الثَّانِي، وَهُوَ الْإِغَاءُ وَصَفَ الذِّكُورَةَ فِي
أَحَادِيثِ التَّخْيِيرِ وَغَيْرِهَا، فَنَقُولُ: لَا رَيْبَ أَنَّ مِنْ
الْأَحْكَامِ مَا يَكْفِي فِيهَا وَصَفَ الذِّكُورَةَ، أَوْ وَصَفَ

مُتَسَاوِيَانِ فِيهِ، فَلَا يُقَدَّمُ أَحَدُهُمَا إِلَّا بِمَرَجِّحٍ،
وَالْمَرَجِّحُ إِمَّا مِنْ خَارِجٍ، وَهُوَ الْقُرْعَةُ، وَإِمَّا مِنْ جِهَةِ
الْوِلْدِ، وَهُوَ اخْتِيَارُهُ، وَقَدْ جَاءَتِ السُّنَّةُ بِهَذَا وَهَذَا،
وَقَدْ جَمَعَهُمَا حَدِيثُ أَبِي هَرِيرَةَ، فَاعْتَبَرْنَا هُمَا جَمِيعًا،
وَلَمْ نَدْفَعْ أَحَدَهُمَا بِالْآخَرِ، وَقَدَمْنَا مَا قَدَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ،
وَأَخَّرْنَا مَا أَخَّرَهُ، فَقَدِمَ التَّخْيِيرُ، لِأَنَّ الْقُرْعَةَ إِنَّمَا يُصَارُ
إِلَيْهَا إِذَا تَسَاوَتْ الْحَقُوقُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، وَلَمْ يَبْقَ مَرَجِّحٌ
سِوَاهَا، وَهَكَذَا فَعَلْنَا هَهُنَا قَدَمْنَا أَحَدَهُمَا بِالْآخَرِ،
فَإِنْ لَمْ يَخْتَرْ، أَوْ اخْتَارَهُمَا جَمِيعًا، عَدَلْنَا إِلَى الْقُرْعَةِ،
فَهَذَا لَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مُوَافَقَةُ السُّنَةِ، لَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ
الْأَحْكَامِ، وَأَعْدَلُهَا، وَأَقْطَعُهَا لِلنِّزَاعِ بِتَرَاضِي
الْمُتَنَازِعِينَ.

وَفِيهِ وَجْهٌ آخَرٌ فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ وَالشَّافِعِيِّ: أَنَّهُ إِذَا
لَمْ يَخْتَرْ وَاحِدًا مِنْهُمَا كَانَ عِنْدَ الْأَمِّ بِلَا قُرْعَةٍ، لِأَنَّ
الْحَضَانَةَ كَانَتْ لَهَا، وَإِنَّمَا نَقَلَهُ عَنْهَا بِاخْتِيَارِهِ، فَإِذَا
لَمْ يَخْتَرْ، بَقِيَ عِنْدَهَا عَلَى مَا كَانَ.

فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ قَدَّمْتُمُ التَّخْيِيرَ عَلَى الْقُرْعَةِ،
وَالْحَدِيثُ فِيهِ تَقْدِيمُ الْقُرْعَةِ أَوَّلًا، ثُمَّ التَّخْيِيرَ، وَهَذَا
أَوَّلَى، لِأَنَّ الْقُرْعَةَ طَرِيقٌ شَرْعِيٌّ لِلتَّقْدِيمِ عِنْدَ تَسَاوِيِ
الْمُسْتَحَقِّينَ، وَقَدْ تَسَاوَى الْأَبَوَانِ، فَالْقِيَامُ تَقْدِيمُ
أَحَدِهِمَا بِالْقُرْعَةِ، فَإِنَّ أَيْدِيَ الْقُرْعَةِ، لَمْ يَبْقَ إِلَّا اخْتِيَارُ
الصَّبِيِّ، فَيُرجَحُ بِهِ، فَمَا بَالُ أَصْحَابِ أَحْمَدَ
وَالشَّافِعِيِّ قَدَّمُوا التَّخْيِيرَ عَلَى الْقُرْعَةِ.

قِيلَ: إِنَّمَا قَدَّمْنَا التَّخْيِيرَ لِاتِّفَاقِ أَلْفَاظِ الْحَدِيثِ
عَلَيْهِ، وَعَمَلِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ بِهِ، وَأَمَّا الْقُرْعَةُ،
فَبَعْضُ الرِّوَاةِ ذَكَرَهَا فِي الْحَدِيثِ، وَبَعْضُهُمْ لَمْ
يَذْكُرْهَا، وَإِنَّمَا كَانَتْ فِي بَعْضِ طُرُقِ أَبِي هَرِيرَةَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَحْدَهُ، فَقَدَّمْنَا التَّخْيِيرَ عَلَيْهَا، فَإِذَا تَعَذَّرَ
الْقَضَاءُ بِالتَّخْيِيرِ، تَعَيَّنَتِ الْقُرْعَةُ طَرِيقًا لِلتَّرْجِيحِ إِذْ لَمْ
يَبْقَ سِوَاهَا.

(رد المخبرين على من اقتصر بالتخيير على الغلام)

ثُمَّ قَالَ الْمُخْبِرُونَ لِلْغُلَامِ وَالْجَارِيَةِ: رَوَى النَّسَائِيُّ
فِي «سُنَنِهِ»، وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ» مِنْ حَدِيثِ
رَافِعِ بْنِ سَنَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ تَنَازَعَ هُوَ وَأُمُّ فِي
ابْنَتِهِمَا، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَقْعَدَهُ نَاحِيَةً، وَأَقْعَدَ الْمَرْأَةَ
نَاحِيَةً، وَأَقْعَدَ الصَّبِيَّةَ بَيْنَهُمَا، وَقَالَ: «اذْعُوَاهَا»،
فَمَالَتْ إِلَى أُمِّهَا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ اهْدِيهَا»

الأنوثة قطعاً، ومنها ما لا يكفي فيه، بل يُعتبر فيه إما هذا وإما هذا، فيُلغى الوصف في كل حكم تعلق بالنوع الإنساني المشترك بين الأفراد، ويُعتبر وصف الذكورة في كل موضع كان له تأثير فيه، كالشهادة والميراث، والولاية في النكاح، ويعتبر وصف الأنوثة في كل موضع يختص بالإناث، أو يُقدم فيه على الذكور، كالحضانة، إذا استوى في الدرجة الذكر والأنثى، قُدِّمَت الأنثى.

بقي النظر فيما نحن فيه من شأن التخيير، هل لوصف الذكورة تأثير في ذلك فيلحق بالقسم الذي يعتبر فيه، أو لا تأثير له فيلحق بالقسم الذي يلغى فيه؟ ولا سبيل إلى جعلها من القسم الملغى فيه وصف الذكورة، لأن التخيير هاهنا تخيير شهوة، لا تخيير رأي ومصلحة، ولهذا إذا اختار غير مَنْ اختاره أولاً نقل إليه، فلو خيرت البنت، أفضى ذلك إلى أن تكون عند الأب تارة، وعند الأم أخرى، فإنها كلما شاءت الانتقال أُجيبَت إليه، وذلك عكس ما شرع للإناث من لزوم البيوت، وعدم البروز، ولزوم الخدور وراء الأستار، فلا يليق بها أن تمكن من خلاف ذلك. وإذا كان هذا الوصف معتبراً قد شهد له الشرعُ بالاعتبار لم يمكن إلغاؤه.

قالوا: وأيضاً فإن ذلك يُفضي إلى ألا يبقى الأب موثقاً بحفظها، ولا الأم لتقلها بينهما، وقد عُرف بالعادة أن ما يتناوب الناس على حفظه، ويتواكلون فيه، فهو آيل إلى ضياع، ومن الأمثال السائرة: «لا يصلح القدر بين طبّاخين».

قالوا: وأيضاً فالعادة شاهدة بأن اختيار أحدهما يُضعف رغبة الآخر فيه بالإحسان إليه وصيانيته، فإذا اختار أحدهما، ثم انتقل إلى الآخر لم يبق أحدهما تام الرغبة في حفظه والإحسان إليه.

فإن قلت: فهذا بعينه موجود في الصبي، ولم يمنع ذلك تخييره. قلنا: صدقتم لكن عارضه كون القلوب مجبولة على حُب البنين، واختيارهم على البنات، فإذا اجتمع نقص الرغبة، ونقص الأنوثة، وكراهة البنات في الغالب، ضاعت الطُّفلة، وصارت إلى فساد يفسد تلافيه، والواقع شاهد بهذا، والفقه تنزيل المشروع على الواقع، وسير الفرق أن البنت تحتاج

من الحفظ والصيانة فوق ما يحتاج إليه الصبي، ولهذا شرع في حق الإناث من الستر والحَفَر ما لم يُشرع مثله للذكور في اللباس وإرخاء الذيل شيراً أو أكثر، وجمع نفسيهما في الركوع والسجود دون التجافي، ولا ترفع صوتها بقراءة القرآن، ولا ترمُل في الطواف، ولا تتجرّد في الإحرام عن المخيط، ولا تكشف رأسها، ولا تُسافِر وحدها، هذا كله مع كبرها ومعرفتها، فكيف إذا كانت في سن الصغر وضعف العقل الذي يقبل فيه الانخداع؟ ولا ريب أن تردّها بين الأبوين مما يعود على المقصود بالإبطال، أو يُخلُّ به، أو يُنقصه لأنها لا تستقر في مكان معين، فكان الأصلح لها أن تجعل عند أحد الأبوين من غير تخيير، كما قاله الجمهور: مالك، وأبو حنيفة، وأحمد، وإسحاق، فتخييرها ليس منصوباً عليه، ولا هو في معناه فيلحق به.

(اختلاف الفقهاء في تعيين أحد الأبوين لمقام البنت عنده) ثم هاهنا حصل الاجتهاد في تعيين أحد الأبوين لمقامها عنده، وأيهما أصلح لها، فمالك، وأبو حنيفة، وأحمد في إحدى الروايتين عنه: عَيَّنوا الأم، وهو الصحيح دليلاً، وأحمد رحمه الله في المشهور عنه، واختيار عامة أصحابه عَيَّنوا الأب.

قال مَنْ رَجَّح الأم: قد جرت العادة بأن الأب يتصرّف في المعاش، والخروج، ولقاء الناس، والأم في خدورها مقصورة في بيتها، فالبنت عندها أصون وأحفظ بلا شك، وعيُنُها عليها دائماً بخلاف الأب، فإنه في غالب الأوقات غائب عن البنت، أو في مَظَنَّة ذلك، فجعلها عند أمها أصون لها وأحفظ.

قالوا: وكل مفسدة يعرض وجودها عند الأم، فإنها تعرض أو أكثر منها عند الأب، فإنه إذا تركها في البيت وحدها لم يأمن عليها، وإن تركها عند امرأته أو غيرها، فالأم أشفق عليها وأصون لها من الأجنبية.

قالوا: وأيضاً فهي محتاجة إلى تعلّم ما يصلح للنساء من الغزل والقيام بمصالح البيت، وهذا إنما تقوم به النساء لا الرجال، فهي أحوج إلى أمها لتعلمها ما يصلح للمرأة، وفي دفعها إلى أيها تعطيل هذه المصلحة، وإسلامها إلى امرأة أجنبية تُعلمها ذلك، وترديدها بين الأم وبينه، وفي ذلك تمرين لها

على البروز والخروج، فمصلحة البنت والام والأب أن تكون عند أمها، وهذا القول هو الذي لا نختار سواء.

قال من رجع الأب: الرجال أغبر على البنات من النساء، فلا تستوي غير الرجل على ابنته، وغير الأم أبداً، وكم من أم تُساعد ابنتها على ما تهواه، ويحملها على ذلك ضعف عقلها، وسرعة انخداعها، وضعف داعي الغيرة في طبعها، بخلاف الأب، ولهذا المعنى وغيره جعل الشارع تزويجها إلى أبيها دون أمها، ولم يجعل لأمها ولاية على بضعها البتة، ولا على مالها، فكان من محاسن الشريعة أن تكون عند أمها ما دامت محتاجة إلى الحضانة والتربية، فإذا بلغت حداً تُشتهي فيه، وتصلح للرجال، فمن محاسن الشريعة أن تكون عند من هو أغبر عليها، وأحرص على مصلحتها، وأصون لها من الأم.

قالوا: ونحن نرى في طبيعة الأب وغيره من الرجال من العنصرية، ولو مع فسقه وفجوره ما يحمله على قتل ابنته وأخته ومولته إذا رأى منها ما يُريبه لشدة الغيرة، ونرى في طبيعة النساء من الانحلال والانخداع ضد ذلك، قالوا: فهذا هو الغالب على النوعين، ولا عبرة بما خرج عن الغالب، على أنا إذا قدمنا أحد الأبوين فلا بد أن نراعي صيانه وحفظه للطفل، ولهذا قال مالك والليث: إذا لم تكن الأم في موضع حرز وتحصين، أو كانت غير مرضية، فللاب أخذ البنت منها، وكذلك الإمام أحمد رحمه الله في الرواية المشهورة عنه، فإنه يعتبر قدرته على الحفاظ والصيانة، فإن كان مهملًا لذلك، أو عاجزاً عنه، أو غير مرضي، أو ذا ديانة والأم بخلافه، فهي أحق بالبنت بلا ريب، فمن قدمناه بتخيير أو قرعة أو بنفسه، فإنما نُقدمه إذا حصلت به مصلحة الولد، ولو كانت الأم أصون من الأب وأغبر منه قدمت عليه، ولا التفات إلى قرعة ولا اختيار الصبي في هذه الحالة، فإنه ضعيف العقل يؤثر البطالة واللعب، فإذا اختار من يُساعده على ذلك، لم يلتفت إلى اختياره، وكان عند من هو أنفع له وأخير، ولا تحتل الشريعة غير هذا، والنبي ﷺ قد قال: «مروهم بالصلاة يسبحوا ضربوهم على تركها

يعشر وقرؤوا بينهم في المضاجع» [حسن: أبو داود: ٤٩٥]. والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التخريم: ٦]. وقال الحسن: علموهم وأدبوهم وفقوهم، فإذا كانت الأم تتركه في المكتب، وتعلمه القرآن والصبي يؤثر اللعب ومعاشرة أقرانه، وأبوه يمكنه من ذلك، فإنه أحق به بلا تخيير ولا قرعة، وكذلك العكس، ومتى أخل أحد الأبوين بأمر الله ورسوله في الصبي وعقله، والآخر مُراعٍ له، فهو أحق وأولى به.

وسمعت شيخنا رحمه الله يقول: تنازع أبوان صبياً عند بعض الحكام، فخير بينهما، فاختار أباه، فقالت له أمه: سلّه لأي شيء يختار أباه، فسأله، فقال: أمني تبعثني كل يوم للكتاب، والفقيه يضريني، وأمي يتركني للعب مع الصبيان، ففضي به للأم. قال: أنت أحق به.

قال شيخنا: وإذا ترك أحد الأبوين تعليم الصبي، وأمره الذي أوجبه الله عليه، فهو عاصٍ، ولا ولاية له عليه، بل كل من لم يقيم بالواجب في ولايته فلا ولاية له، بل إما أن تُرفع يده عن الولاية ويقام من يفعل الواجب، وإما أن يُضم إليه مَنْ يقوم معه بالواجب، إذ المقصود طاعة الله ورسوله بحسب الإمكان. قال شيخنا: وليس هذا الحق من جنس الميراث الذي يحصل بالرحم، والنكاح، والولاء، سواء كان الوارث فاسقاً أو صالحاً، بل هذا من جنس الولاية التي لا بُدّ فيها من القدرة على الواجب والعلم به، وفعله بحسب الإمكان. قال: فلو قدر أن الأب تزوج امرأة لا تراعي مصلحة ابنته، ولا تقوم بها وأمها أقوم بمصلحتها من تلك المرأة، فالحضانة هنا للأم قطعاً، قال: ومما ينبغي أن يعلم أن الشارع ليس عنه نص عام في تقديم أحد الأبوين مطلقاً، ولا تخيير الولد بين الأبوين مطلقاً، والعلماء متفقون على أنه لا يتعين أحدهما مطلقاً، بل لا يقدم ذو العُدوان والتفريط على البَرِّ العادل المحسن، والله أعلم.

(مذهب من قال ببطان التخيير)

قالت الحنفية والمالكية: الكلام معكم في مقامين، أحدهما: بيان الدليل الدال على بطلان التخيير، والثاني: بيان عدم الدلالة في الأحاديث

التمييز، فهي أحقُّ به أيضاً، ولكن هذه الأولوية مشروطة بشرط، والحكم إذا عُلّقَ بشرط صدق إطلاقه اعتماداً على تقدير الشرط، وحيثُ قدّمَ فيها أحقُّ به بشرط اختياره لها، وغاية هذا أنه تقييد للمطلق بالأدلة الدالة على تخييره. ولو حمل على إطلاقه، وليس بممكن البتة، لاستلزم ذلك إبطال أحاديث التخيير، وأيضاً فإذا كنتم قديتموه بأنها أحقُّ به إذا كانت مقيمة وكانت حرة ورشيده وغير ذلك من القيود التي لا ذكر لشيء منها في الأحاديث البتة، فتقيده بالاختيار الذي دلّت عليه السنة، واتفق عليه الصحابة أولى.

(الرد على من قال، إن التخيير يحصل بعد البلوغ)

وأما حملكم أحاديث التخيير على ما بعد البلوغ، فلا يصح لخمس أوجه:

أحدها: أن لفظ الحديث أنه خيرٌ غلاماً بين أبويه، وحقيقة الغلام من لم يبلغ، فحملة على البالغ إخراج له عن حقيقته إلى مجازه بغير موجب، ولا قرينة صارفة.

الثاني: أن البالغ لا حضنة عليه، فكيف يصح أن يخير ابن أربعين سنة بين أبوين؟ هذا من الممتنع شرعاً وعادة، فلا يجوز حمل الحديث عليه.

الثالث: أنه لم يفهم أحدٌ من السامعين أنهم تنازعوا في رجل كبير بالغ عاقل، وأنه خيرٌ بين أبويه، ولا يسبق إلى هذا فهم أحد البتة، ولو فرض تخييره، لكان بين ثلاثة أشياء: الأبوين، والآنفراد بنفسه.

الرابع: أنه لا يعقل في العادة ولا العرف ولا الشرع أن يتنازع الأبوان في رجل كبير بالغ عاقل، كما لا يعقل في الشرع تخيير من هذه حاله بين أبويه.

الخامس: أن في بعض ألفاظ الحديث أن الولد كان صغيراً لم يبلغ ذكره النسائي، وهو حديث رافع ابن سنان، وفيه: فجاء ابن لها صغير لم يبلغ، فأجلس النبي ﷺ الأب ههنا، والأم هاهنا ثم خيره.

وأما قولكم: إن بشر أبي عتبة على أميال من المدينة، فجوابه مطالبتكم أولاً: بصحة هذا الحديث ومن ذكره، وثانياً: بأن مسكن هذه المرأة كان بعيداً من هذه البئر، وثالثاً: بأن من له نحو العشر سنين لا يمكنه أن يستقي من البئر المذكور عادة، وكُلُّ هذا مما لا سبيل إليه، فإن العرب وأهل البوادي يستقي أولادهم الصغار من آبار هي أبعد من ذلك.

التي استدللتم بها على التخيير، فأما الأول: فيدل عليه قوله ﷺ: «أنت أحقُّ به»، ولم يُخيره. وأما المقام الثاني: فما روئتم من أحاديث التخيير مطلقة لا تقييد فيها، وأنتم لا تقولون بها على إطلاقها، بل قيدتم التخيير بالسبع، فما فوقها، وليس في شيء من الأحاديث ما يدل على ذلك، ونحن نقول: إذا صار للغلام اختيار معتبر، خُيرَ بين أبويه، وإنما يعتبر اختياره إذا اعتبر قوله، وذلك بعد البلوغ، وليس تقييدكم وقت التخيير بالسبع أولى من تقييدنا بالبلوغ، بل الترجيح من جانبنا، لأنه حيثُ يُعتبر قوله ويدل عليه قولها: «وقد سقاني من بئر أبي عتبة»، وهي على أميال من المدينة، وغير البالغ لا يتأتى منه عادة أن يَحْمِلَ الماءَ من هذه المسافة ويستقي من البئر، سلمنا أنه ليس في الحديث ما يدل على البلوغ، فليس فيه ما ينفيه، والواقعة واقعة عين، وليس عن الشارع نص عام في تخيير من هو دون البلوغ حتى يجب المصير إليه، سلمنا أنه فيه ما ينفي البلوغ، فمن أين فيه ما يقتضي التقييد بسبع كما قلتم؟

(رد المبتدئين للتخيير على مبطله)

قالت الشافعية والحنابلة ومن قال بالتخيير: لا يتأتى لكم الاحتجاج بقوله ﷺ: «أنت أحقُّ به ما لم تنكح»، بوجه من الوجوه، فإن منكم من يقول: إذا استغنى بنفسه، وأكل بنفسه، وشرب بنفسه، فالأب أحقُّ به بغير تخيير، ومنكم من يقول: إذا اتَّفَرَ فالأب أحقُّ به.

فنقول: النبي ﷺ قد حكم لها به ما لم تنكح، ولم يفرق بين أن تنكح قبل بلوغ الصبي السن الذي يكون عنده أو بعده، وحيثُ فالجواب يكون مشتركاً بيننا وبينكم، ونحن فيه على سواء، فما أجبتُم به، أجاب به منازعوكم سواء، فإن أضمرتم أضمرُوا، وإن قيدتم قيدُوا، وإن خصصتم خصصُوا. وإذا تبين هذا، فنقول: الحديث اقتضى أمرين:

أحدهما: أنها لا حقُّ لها في الولد بعد النكاح.

والثاني: أنها أحقُّ به ما لم تنكح، وكونها أحقُّ به له حالتان، أحدهما: أن يكون الولد صغيراً لم يميز، فهي أحقُّ به مطلقاً من غير تخيير. الثاني: أن يبلغ سن

يُستحق بها الحضانة؟ على قولين: أحدهما: يُستحق بها وهو منصوص الشافعي، وقول مالك، وأحمد، وغيرهم، لأنه عصبية، وله ولاية بالقرابة، فقدم على الأجنبي، كما يُقدَّم عليهم في الميراث، وولاية النكاح، وولاية الموت، ورسول الله ﷺ لم يُنكر على جعفر وعلي أدعاءهما حضانتها، ولو لم يكن لهما ذلك لأنكر عليهما الدعوى الباطلة، فإنها دعوى ما ليس لهما، وهو لا يُقرُّ على باطل.

والقول الثاني: أنه لا حضانة لأحد من الرجال سوى الآباء والأجداد، هذا قول بعض أصحاب الشافعي، وهو مخالف لنصه، وللدليل. فعلى قول الجمهور - وهو الصواب - إذا كان الطفل أنثى، وكان ابنُ العم محرماً لها برضاع أو نحوه، كان له حضانتها وإن جاوزت السبع، وإن لم يكن محرماً، فله حضانتها صغيرة حتى تبلغ سبعاً، فلا يبقى له حضانتها، بل تُسلم إلى محرماً، أو امرأة ثقة. وقال أبو البركات في «محرره»: لا حضانة له ما لم يكن محرماً برضاع أو نحوه.

(هل وقع الحكم للخالة أو لجعفر؟)

فإن قيل: فالحكم بالحضانة من النبي ﷺ في هذه القصة، هل وقع للخالة، أو لجعفر؟

قيل: هذا مما اختلف فيه على قولين، منشوهما اختلاف ألفاظ الحديث في ذلك، ففي «صحيح البخاري»، من حديث البراء: فقضى بها النبي ﷺ لخالته [البخاري: ٢٦٩٩].

وعن أبي داود: من حديث رافع بن عجير، عن أبيه، عن علي في هذه القصة: «وأما الجارية، فأقضي بها لجعفر، تكون مع خالتها، وإنما الخالة أم» ثم ساقه من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى وقال: قضى بها لجعفر، لأن خالتها عنده، ثم ساقه من طريق إسرائيل عن أبي إسحاق عن هانيء بن هانيء، وهيرة بن يريم، وقال: فقضى بها النبي ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم» [أبو داود: ٢٢٧٨-٢٢٧٩].

(استشكل الفقهاء هذا الحكم)

طلعن ابن حزم في القصة

واستشكل كثير من الفقهاء هذا وهذا، فإن القضاء إن كان لجعفر، فليس محرماً لها، وهو وعلي في

وأما تقييدنا له بالسبع، فلا ريب أن الحديث لا يقتضي ذلك، ولا هو أمرٌ مجمع عليه، فإن للمخيرين قولين، أحدهما: أنه يُخيرُ لخمس، حكاه إسحاق بن راهويه، ذكره عنه حرب في «مسائله»، ويحتج لهؤلاء بأن الخمس هي السن التي يصح فيها سماع الصبي، ويمكن أن يعقل فيها، وقد قال محمود بن الربيع: عقلتُ عن النبي ﷺ مجةً مجها في في وأنا ابن خمس سنين [البخاري: ١٧٧]. والقول الثاني: أنه إنما يُخيرُ لسبع، وهو قول الشافعي، وأحمد وإسحاق رحمهم الله، واحتج لهذا القول بأن التخير يستدعي التمييز والفهم، ولا ضابط له في الأطفال، فضبط بمطنته وهي السبع، فإنها أول سن التمييز، ولهذا جعلها النبي ﷺ حداً للوقت الذي يؤمر فيه الصبي بالصلاة. وقولكم: إن الأحاديث وقائع أعيان، فتعم هي كذلك، ولكن يمتنع حملها على تخيير الرجال البالغين، كما تقدم. وفي بعضها لفظ: غلام، وفي بعضها لفظ: صغير لم يبلغ، وبالله التوفيق.

فصل

(الاختلاف في قصة بنت حمزة)

وأما قصة بنت حمزة، واختصاص علي، وزيد، وجعفر رضي الله عنهم فيها، وحكم رسول الله ﷺ بها لجعفر، فإن هذه الحكومة كانت عقيب فراغهم من عمرة القضاء، فإنهم لما خرجوا من مكة تبعتهم ابنة حمزة تنادي يا عم يا عم، فأخذ علي بيدها، ثم تنازع فيها هو وجعفر وزيد، وذكر كل واحد من الثلاثة ترجيحاً، فذكر زيد أنها ابنة أخيه للمواخاة التي عقدها رسول الله ﷺ بينه وبين حمزة، وذكر علي كونها ابنة عمه، وذكر جعفر مرجحين: القرابة، وكون خالتها عنده، فتكون عند خالتها، فاعتبر النبي ﷺ مرجح جعفر دون مرجح الآخرين، فحكم له، وجبر كل واحد منهم وطيب قلبه بما هو أحب إليه من أخذ البنت.

فأما مرجح المواخاة، فليس بمقتض للحضانة، ولكن زيداً كان وصي حمزة، وكان الإخاء حينئذ يثبت به التوارث، فظن زيد أنه أحقُّ بها لذلك.

(هل يستحق ببنوة العم الحضانة)

وأما مرجح القرابة ههنا وهي بنوة العم، فهل

القرابة منها سواء، وإن كان للخالة فهي مزوجة، والحاضة إذا تزوجت سقطت حضانتها، ولما ضاق هذا على ابن حزم، طعن في القصة بجميع طرقها، وقال: أما حديث البخاري، فمن رواية إسرائيل، وهو ضعيف، وأما حديث هانئ وهبيرة، فمجهولان، وأما حديث ابن أبي ليلى فمرسل، وأبو فروة الراوي عنه هو مسلم بن سالم الجهني ليس بالمعروف، وأما حديث نافع بن عجير، فهو وأبوه مجهولان، ولا حجة في مجهول، قال: إلا أن هذا الخبر بكل وجه حجة على الحنفية والمالكية والشافعية، لأن خالتها كانت مزوجة بجعفر، وهو أجمل شاب في قرش، وليس هو ذا رحم محرم من بنت حمزة. قال: ونحن لا نُنكر قضاءها بها لجعفر من أجل خالتها، لأن ذلك أحفظ لها.

(رد المصنف على ابن حزم)

قلت: وهذا من تهويله رحمه الله، وإقدامه على تضعيف ما اتفقت الناس على صحته، فخالقهم وحده، فإن هذه القصة شهرتها في الصحاح والسنن، والمسانيد، والسير، والتواريخ تفني عن إسناده، فكيف وقد اتفق عليها صاحب الصحيح، ولم يُحفظ عن أحد قبله الطعن فيها البتة، وقوله: إسرائيل ضعيف، فالذي غره في ذلك تضعيف علي ابن المديني له، ولكن أبي ذلك سائر أهل الحديث، واحتجوا به، ووثقوه وثبتوه. قال أحمد: ثقة وتُعجب من حفظه، وقال أبو حاتم: وهو من أثق أصحاب أبي إسحاق ولا سيما وقد روى هذا الحديث عن أبي إسحاق، وكان يحفظ حديثه كما يحفظ السورة من القرآن. وروى له الجماعة كلهم محتجين به.

وأما قوله: إن هانئاً وهبيرة مجهولان، فنعم مجهولان عنده، معروفان عند أهل السنن، وثقهما الحفاظ، فقال النسائي: هانئ بن هانئ ليس به بأس، وهبيرة روى له أهل السنن الأربعة، وقد وثق.

وأما قوله: حديث ابن أبي ليلى، وأبو فروة الراوي عنه مسلم بن مسلم الجهني ليس بالمعروف، فالتعليان باطلان، فإن عبد الرحمن بن أبي ليلى روى عن علي غير حديث، وعن عمر، ومعاذ رضي الله عنهما، والذي غرأ محمد أن أبا داود

قال: حدثنا محمد بن عيسى، حدثنا سفيان عن أبي فروة، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى بهذا الخبر، وظن أبو محمد، أن عبد الرحمن لم يذكر علياً في الرواية، فرماه بالإرسال، وذلك من وهمه، فإن ابن أبي ليلى روى القصة عن علي، فاختصرها أبو داود، وذكر مكان الاحتجاج، وأحال على العلم المشهور برواية عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن علي، وهذه القصة قد رواها علي، وسمعا منه أصحابه: هانئ بن هانئ، وهبيرة بن يريم، وعجير بن عبد يزيد، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، فذكر أبو داود حديث الثلاثة الأولين لسياقهم لها بتمامها، وأشار إلى حديث ابن أبي ليلى، لأنه لم يتمه، وذكر السند منه إليه، فبطل الإرسال، ثم رأيت أبا بكر الإسماعيلي قد روى هذا الحديث في مسند علي مصرحاً فيه بالاتصال، فقال: أخبرنا الهيثم بن خلف، حدثنا عثمان بن سعيد المقرئ، حدثنا يوسف بن عدي، حدثنا سفيان، عن أبي فروة، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن علي، أنه اختصم هو وجعفر وزيد، وذكر الحديث.

وأما قوله: إن أبا فروة ليس بالمعروف، فقد عرفه سفيان بن عيينة وغيره، وخرجاه في «الصحيحين». وأما رمية نافع بن عجير وأباه بالجهالة: فنعم، ولا يُعرف حالهما، وليس من المشهورين بنقل العلم، وإن كان نافع أشهر من أبيه لرواية تفتين عنه: محمد ابن إبراهيم التميمي، وعبد الله بن علي، فليس الاعتماد على روايتهما، وبالله التوفيق، فثبت صحة الحديث.

(رد المصنف على الاستشكال السابق)

وأما الجواب عن استشكال من استشكله، فنقول وبالله التوفيق: لا إشكال، سواء كان القضاء لجعفر أو للخالة، فإن ابنة العم إذا لم يكن لها قرابة سوى ابن عمها، جاز أن تجعل مع امرأتها في بيته، بل يتعين ذلك وهو أولى من الأجنبي لا سيما إن كان ابن العم مبرزاً في الديانة، والعفة، والصيانة، فإنه في هذه الحال أولى من الأجانب بلا ريب.

(علة عدم أخذه ﷺ بنت حمزة)

فإن قيل: فالنبي ﷺ كان ابن عمها، وكان محرماً

لها، لأن حمزة كان أخاه من الرضاعة، فهلا أَخَذَهَا هو؟

قيل: رسول الله ﷺ كان في شغل شاغل بأعباء الرسالة، وتبليغ الوحي، والدعوة إلى الله، وجهاد أعداء الله عن فراغه للحضانة، فلو أخذها، لدفعها إلى بعض نسائه، فخالها أمس بها رحماً وأقرب.

(ترجيح المصنف أن الحكم كان للخالة وبه رد للإشكال) وأيضاً فإن المرأة من نسائه لم تكن تجبها النوبة إلا بعد تسع ليال، فإن دارت الصبية معه حيث دار، كان مشقة عليها، وكان فيه من بروزها وظهورها كُل وقت ما لا يخفى، وإن جلست في بيت إحداهن كانت لها الحضانة وهي أجنبية. هذا إن كان القضاء لجعفر، وإن كان للخالة - وهو الصحيح وعليه يدل الحديث الصحيح الصريح - فلا إشكال لوجوه:

أحدها: أن نكاح الحاضنة لا يُسقط حضانة البنت كما هو إحدى الروايتين عن أحمد وأحد قولي العلماء، وحجة هذا القول الحديث، وقد تقدم بين الفرق بين الذكر والأنثى.

الثاني: أن نكاحها قريباً من الطفل لا يُسقط حضانتها، وجعفر ابن عمها.

الثالث: أن الزوج إذا رضي بالحضانة، وأثر كون الطفل عنده في حجره، لم تسقط الحضانة، هذا هو الصحيح، وهو مبني على أصل، وهو أن سقوط الحضانة بالنكاح هو مراعاة لحق الزوج، فإنه يتنقص عليه الاستمتاع المطلوب من المرأة لحضانتها لولد غيره، ويتنكّد عليه عيشه مع المرأة، لا يؤمن أن يحصل بينهما خلاف المودة والرحمة، ولهذا كان للزوج أن يمنعه من هذا مع اشتغالها هي بحقوق الزوج، فتضيع مصلحة الطفل، فإذا أثر الزوج ذلك وطلبه، وحرص عليه، زالت المفسدة التي لأجلها سقطت الحضانة، والمقتضي قائم، فيترتب عليه أثره، يوضحه أن سقوط الحضانة بالنكاح ليست حقاً لله، وإنما هي حق للزوج وللطفل وأقاربه، فإذا رضي من له الحق جاز، فزال الإشكال على كل تقدير، وظهر أن هذا الحكم من رسول الله ﷺ من أحسن الأحكام وأوضحها وأشدّها موافقة للمصلحة، والحكمة، والرحمة، والعدل، وبالله التوفيق.

(الاختلاف في إسقاط الحضانة بالتزويج)

فهذه ثلاثة مدارك في الحديث للفقهاء: أحدها: أن نكاح الحاضنة لا يُسقط حضانتها، كما قاله الحسن البصري، وقضى به يحيى بن حمزة، وهو مذهب أبي محمد بن حزم. والثاني: أن نكاحها لا يُسقط حضانة البنت، ويسقط حضانة الابن، كما قاله أحمد في إحدى روايته.

والثالث: أن نكاحها لقريب الطفل لا يُسقط حضانتها، ونكاحها للأجنبي يسقطها، كما هو المشهور من مذهب أحمد.

(مذهب الطبري في الحضانة وسقوطها بالتزويج)

وفيه مدرك رابع لمحمد بن جرير الطبري، وهو أن الحاضنة إن كانت أمّاً والمنازع لها الأب، سقطت حضانتها بالتزويج، وإن كانت خالة أو غيرها من نساء الحضانة، لم تسقط حضانتها بالتزويج، وكذلك إن كانت أمّاً، والمنازع لها غير الأب من أقارب الطفل لم تسقط حضانتها.

ونحن نذكر كلامه، وما له وعليه فيه، قال في «تهذيب الآثار» بعد ذكر حديث ابنة حمزة: فيه الدلالة الواضحة على أن قيم الصبية الصغيرة، والطفل الصغير من قرابتهما من قبل أمهاتهما من النساء أحقّ بحضانتهم من عصاباتهما من قبل الأب، وإن كنّ ذوات أزواج غير الأب الذي هما منه، وذلك أن رسول الله ﷺ قضى بابنة حمزة لخالها في الحضانة، وقد تنازع فيها ابنا عمها، عليّ وجعفر ومولاها وأخو أبيها، الذي كان رسول الله ﷺ أخى بيته وبيته، وخالها يومئذ لها زوج غير أبيها وذلك بعد مقتل حمزة، وكان معلوماً بذلك صحة قول من قال: لا حقّ لعصبة الصغير والصغيرة من قبل الأب في حضانتها ما لم تبلغ حد الاختيار، بل قرابتهما من النساء من قبل أمهما أحقّ، وإن كن ذوات أزواج.

فإن قال قائل: فإن كان الأمر في ذلك عندك على ما وصفت من أن أم الصغير والصغيرة وقرابتهما من النساء من قبل أمهاتهما أحقّ بحضانتهم، وإن كنّ ذوات أزواج من قرابتهما من قبل الأب من الرجال الذين هم عصبتهم، فهلا كانت الأم ذات الزوج

كذلك مع والدهما الأدنى والأبعد، كما كانت الخالة أحقَّ بهما؟ وإن كان لها زوج غير أبيهما، وإلا فما الفرق؟

قيل: الفرق بينهما واضح، وذلك لقيام الحجة بالنقل المستفيض روايته عن النبي ﷺ أن الأم أحقُّ بحضانة الأطفال إذا كانت بانت من والدهم ما لم تنكح زوجاً غيره، ولم يخالف في ذلك من يجوز الاعتراضُ به على الحجة فيما نعلمه. وقد روي في ذلك خبر، وإن كان في إسناده نظر، فإن النقل الذي وصفتُ أمره دال على صحته، وإن كان واهي السند. ثم ساق حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: «أنت أحقُّ به ما لم تنكحني» من طريق المثنى بن الصباح عنه.

ثم قال: وأما إذا نازعها فيه عصبَةُ أبيه، فصحة الخبر عن النبي ﷺ الذي ذكرناه أنه جعل الخالة ذات الزوج غير أبي الصبية أحقُّ بها من بني عمها وهم عصبَتها، فكانت الأمُّ أحقُّ بأن تكون أولى منهم وإن كان لها زوج غير أبيها، لأن النبي ﷺ إنما جعل الخالة أولى منهم لقرباتها من الأم، وإذا كان ذلك كالذي وصفنا، تبين أن القول الذي قلناه في المسألتين أصلُ إحداهما من جهة النقل المستفيض، والأخرى من جهة نقل الأحاد العدول، فإذا كان كذلك، فغير جائز ردُّ حكم إحداهما إلى حكم الأخرى، إذ القياسُ إنما يجوزُ استعماله فيما لا نصُّ فيه من الأحكام، فأما ما فيه نص من كتاب الله، أو خبر عن رسول الله ﷺ، فلا حظ فيه للقياس.

فإن قال قائل: زعمتُ أنك إنما أبطلت حق الأم من الحضانة إذا نكحت زوجاً غير أبي الطفل، وجعلت الأب أولى بحضانتها منها بالنقل المستفيض، فكيف يكون ذلك كما قلت؟ وقد علمت أن الحسن البصري كان يقول: المرأة أحقُّ بولدها، وإن تزوجت، وقضى بذلك يحيى بن حمزة.

قيل: إن النقل المستفيض الذي تلزمُ به الحجة في الدين عندنا ليس صفة ألا يكون له مخالف، ولكن صفة أن ينقله قولاً وعملاً من علماء الأمة مَنْ يَتَّبِعِي عنه أسبابُ الكذب والخطأ، وقد نقلَ مَنْ صَفَّته ذلك من علماء الأمة، أن المرأة إذا نكحت بعد بينوتها من

زوجها زوجاً غيره، أن الأب أولى بحضانة ابنتها منها، فكان ذلك حجة لازمة غيرَ جائز الاعتراضُ عليها بالرأي، وهو قول من يجوز عليه الغلط في قوله. انتهى كلامه.

ذكر ما في هذا الكلام من مقبول ومردود

(التعقيب على كلام الطبري)

فأما قوله: إن فيه الدلالة على أن قرابة الطفل من قبل أمهاته من النساء أحقُّ بحضانه من عصباته من قبل الأب وإن كن ذوات أزواج، فلا دلالة فيه على ذلك البتة، بل أحد ألفاظ الحديث صريحٌ في خلافه، وهو قوله ﷺ: «وأما الابنة فإني أقضي بها لجعفر» وأما اللفظ الآخر، «فقضى بها لخالتها»، وقال: هي أم» وهو اللفظ الذي احتج به أبو جعفر، فلا دليل على أن قرابة الأم مطلقاً أحقُّ من قرابة الأب، بل إقرارُ النبي ﷺ علياً وجعفرأً على دعوى الحضانة يدل على أن لقرابة الأب مدخلاً فيها، وإنما قدَّم الخالة لكونها أنثى من أهل الحضانة، فتقدمها على قرابة الأب كتقديم الأم على الأب، والحديث ليس فيه لفظ عام يدل على ما ادَّعاه، لا من أن مَنْ كان من قرابة الأم أحقُّ بالحضانة من العصبَةِ مِنْ قِبَلِ الأب، حتى تكون بنتُ الأخت للأم أحقُّ من العم، وبنت الخالة أحقُّ من العم والعمة، فأين في الحديث دلالة على هذا فضلاً عن أن تكون واضحة.

قوله: وكان معلوماً بذلك صحة قول من قال: لا حق لعصبَةِ الصغير والصغيرة من قبل الأب في حضانه ما لم يبلغ حد الاختيار، يعني: فيختر بين قرابة أبيه وأمه، فيقال: ليس ذلك معلوماً من الحديث، ولا مظنوناً، وإنما دل الحديث على أن ابن العم المزوج بالخالة أولى من ابن العم الذي ليس تحته خالة الطفل، ويبقى تحقيق المناط: هل كانت جهة التعصيب مقتضيةً للحضانة فاستوت في شخصين؟ فرجح أحدهما بكون خالة الطفل عنده وهي من أهل الحضانة، كما فهمه طائفة من أهل الحديث، أو أن قرابة الأم وهي الخالة أولى بحضانة الطفل من عصبَةِ الأب، ولم تسقط حضانتها بالتزويج إما لكون الزوج لا يسقط الحضانة مطلقاً، كقول الحسن ومن وافقه، وإما لكون المحضونة بنتاً، كما

إذ الحاكم غير متصد للحضانة بنفسه، فهل يشك أحد أن ما حكم به النبي ﷺ في هذه الواقعة هو عين المصلحة والحكمة والعدل، وغاية الاحتياط للنبات والنظر لها، وأن كل حكم خالفه لا ينفك عن جور أو فساد لا تأتي به الشريعة، فلا إشكال في حكمه ﷺ، والإشكال كل الإشكال فيما خالفه، والله المستعان، وعليه التكلان.

ذكر حكمه ﷺ في النفقة

على الزوجات

وأنه لم يُقدِّرها، ولا ورد عنه ما يدل على تقديرها، وإنما رد الأزواج فيها إلى العرف.

ثبت عنه في «صحيح مسلم»: أنه قال في خطبة حجة الوداع بمحضر الجمع العظيم قبل وفاته ببضعة وثمانين يوماً: «وَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ» [مسلم: ٢٩٥].

وثبت عنه ﷺ في «الصحيحين»: أن هنداً امرأة أبي سفيان قالت له: إن أبا سفيان رجلٌ شحيحٌ ليس يُعطيني من النفقة ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، فقال: «خُذِي مَا يَخْفِيكَ وَوَلَدُكَ بِالْمَعْرُوفِ» [البخاري: ٥٣٦٤، ومسلم: ٤٤٩٢].

وفي «سنن أبي داود»: من حديث حكيم بن معاوية، عن أبيه رضي الله عنه، قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله! ما تقول في نساءنا؟ قال: «أَطْعِمُوهُنَّ مِمَّا تَأْكُلُونَ، وَاكْسُوهُنَّ مِمَّا تَلْبَسُونَ، وَلَا تَضْرِبُوهُنَّ وَلَا تَقْبَحُوهُنَّ» [أبو داود: ٢١٤٤].

وهذا الحكم من رسول الله ﷺ مطابق لكتاب الله عز وجل حيث يقول تعالى: «وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْفِقَ مِنْهُنَّ الزَّكَاةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ» [البقرة: ٢٣٣]، والنبي ﷺ جعل نفقة المرأة مثل نفقة الخادم، وسوى بينهما في عدم التقدير، وردعهما إلى المعروف، فقال: «لِلْمَمْلُوكِ طَعَامُهُ وَكِسْوَتُهُ بِالْمَعْرُوفِ» [مسلم: ٤٣١٦]. فجعل نفقتهما بالمعروف، ولا ريب أن نفقة الخادم غير مقدرة، ولم يقل أحد بتقديرها.

قاله أحمد في رواية، وإما لكون الزوج قرابة الطفل كالمشهور من مذهب أحمد، وإما لكون الحاضنة غير أم نازعها الأب، كما قاله أبو جعفر، فهذه أربعة مدارك، ولكن المدرك الذي اختاره أبو جعفر ضعيف جداً، فإن المعنى الذي أسقط حضانة الأم بتزويجها هو بعينه موجود في سائر نساء الحضانة، والخالة غائبة أن تقوم مقام الأم، وتُشَبَّه بها، فلا تكون أقوى منها، وكذلك سائر قرابة الأم، والنبي ﷺ لم يحكم حكماً عاماً أن سائر أقارب الأم من كن لا تسقط حضانتهم بالتزويج، وإنما حكم حكماً معيناً لخالة ابنة حمزة بالحضانة مع كونها مزوجةً بقريب من الطفل، والطفل ابنة.

وأما الفرق الذي فرق بين الأم وغيرها بالنقل المستفيض إلى آخره، فيريد به الإجماع الذي لا ينقضه عنده مخالفة الواحد والاثنين، وهذا أصل تفرد به ونازعه فيه الناس.

وأما حكمه على حديث عمرو بن شعيب بأنه واو، فمبني على ما وصل إليه من طريقه، فإن فيه المثنى بن الصباح، وهو ضعيف أو متروك، ولكن الحديث قد رواه الأوزاعي عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده رواه أبو داود في «سننه».

فصل

(المسلك الخامس في قصة بنت حمزة)

وفي الحديث مسلك خامس، وهو أن النبي ﷺ قضى بها لخالتها وإن كانت ذات زوج، لأن البنت تحرم على الزوج تحريم الجمع بين المرأة وخالتها، وقد ثبت النبي ﷺ على هذا بعينه في حديث داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس، فذكر الحديث بطوله، وقال فيه: «وَأَنْتَ يَا جَعْفَرُ أَوْلَى بِهَا، تَحْتَكَ خَالَتُهَا، وَلَا تُنْكِحُ الْمَرْأَةَ عَلَى عَمَّتِهَا، وَلَا عَلَى خَالَتِهَا»، وليس عن النبي ﷺ نص يقتضي أن يكون الحاضن ذا رحم تحرم عليه البنت على التأيد حتى يُعترض به على هذا المسلك، بل هذا مما لا تأباه قواعد الفقه وأصول الشريعة، فإن الخالة ما دامت في عصمة الحاضن، فبنت أختها محرمة عليه، فإذا فارقتها فهي مع خالتها، فلا محذور في ذلك أصلاً، ولا ريب أن القول بهذا أخيراً وأصلح للنبات من رفعها إلى الحاكم يدفعها إلى أجنبي تكون عنده،

وصح عنه في الرقيق أنه قال: «أَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ، وَأَلْبِسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ». رواه مسلم [٤٣١٣]، كما قال في الزوجة سواء.

وصح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: امرأئك تقول: إما أن تطعمني، وإما أن تطلقني، ويقول العبد: أظعمني واستعملني، ويقول الابن أظعمني إلى من تدعني [البخاري: ٥٣٥٥]. فجعل نفقة الزوجة والرقيق والولد كلها الإطعام لا التمليك.

وروى النسائي هذا مرفوعاً إلى النبي ﷺ كما سيأتي.

وقال تعالى: ﴿يَنْ أَوْسَطَ مَا تَطْمَعُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: الخبز والزيت [ابن كثير في تفسيره، (٨٩/٢)]، وصح عن ابن عمر رضي الله عنه: الخبز والسمن، والخبز والتمر، ومن أفضل ما تطعمون الخبز واللحم [ابن جرير في التفسير، (١٧/٧)] وسنده صحيح.

فسر الصحابة إطعام الأهل بالخبز مع غيره من الأدم، والله ورسوله ذكرا الإنفاق مطلقاً من غير تحديد، ولا تقدير، ولا تقييد، فوجب ردّه إلى العرف لو لم يرد إليه النبي ﷺ، فكيف وهو الذي ردّ ذلك إلى العرف، وأرشد أمته إليه؟ ومن المعلوم أن أهل العرف إنما يتعارفون بينهم في الإنفاق على أهلهم حتى من يوجب التقدير: الخبز والإدام دون الحب، والنبي ﷺ وأصحابه إنما كانوا يُنفقون على أزواجهم، كذلك دون تمليك الحب وتقديره، ولأنها نفقة واجبة بالشرع، فلم تقدر بالحب كنفقة الرقيق، ولو كانت مقدرة لأمر النبي ﷺ هنذاً أن تأخذ المقدّر لها شرعاً، ولما أمرها أن تأخذ ما يكفيها من غير تقدير، وردّ الاجتهاد في ذلك إليها، ومن المعلوم أن قدر كفايتها لا ينحصر في مدّين، ولا في رطلين بحيث لا يزيد عليهما ولا ينقص، ولفظه لم يدل على ذلك بوجه، ولا إيماء، ولا إشارة، وإيجاب مدّين أو رطلين خبزاً قد يكون أقلّ من الكفاية، فيكون تركاً للمعروف، وإيجاب قدر الكفاية مما يأكل الرجل وولده ورقيقه، وإن كان أقلّ من مدّ أو من رطلي خبز، إنفاق بالمعروف، فيكون هذا هو الواجب

بالكتاب والسنة، ولأن الحب يحتاج إلى طحنه وخبزه وتوابع ذلك، فإن أخرجت ذلك من مالها، لم تحصل الكفاية بنفقة الزوج، وإن فرض عليه ذلك لها من ماله كان الواجب حباً ودرهم، ولو طلبت مكان الخبز درهم أو حباً أو دقيقاً أو غيره، لم يلزمه بذلك، ولو عرض عليها ذلك أيضاً، لم يلزمها قبوله لأن ذلك معاوضة، فلا يجبر أحدهما على قبولها، ويجوز تراضيهما على ما اتفقا عليه.

(الاختلاف في مقدار النفقة عند من قدرها)

والذين قدروا النفقة اختلفوا، فمنهم من قدرها بالحب وهو الشافعي، فقال: نفقة الفقير مدّ بمدّ النبي ﷺ، لأن أقل ما يدفع في الكفارة إلى الواحد مدّ، والله سبحانه اعتبر الكفارة بالنفقة على الأهل، فقال: ﴿فَكَفَّرْنَاهُ بِطَعَامٍ عَشْرَةَ مَسْكِينٍ يَنْ أَوْسَطَ مَا تَطْمَعُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، قال: وعلى المؤسّر مدّان، لأن أكثر ما أوجب الله سبحانه للواحد مدّان في كفارة الأذى، وعلى المتوسط مدّ ونصف، ونصف نفقة المؤسّر، ونصف نفقة الفقير.

وقال القاضي أبو يعلى: مقدرة بمقدار لا يختلف في القلة والكثرة، والواجب رطلان من الخبز في كل يوم في حق المؤسّر والمُعسر اعتباراً بالكفارات، وإنما يختلفان في صفته وجودته، لأن المؤسّر والمُعسر سواء في قدر المأكول، وما تقوم به البنية، وإنما يختلفان في جودته، ف كذلك النفقة الواجبة.

(حجج الجمهور على عدم التقدير)

والجمهور قالوا: لا يُحفظ عن أحد من الصحابة قطّ تقدير النفقة، لا بمدّ، ولا برطل، والمحمّوظ عنهم، بل الذي اتصل به العمل في كل عصر ومصر ما ذكرناه.

قالوا: ومن الذي سلّم لكم التقدير بالمدّ والرطل في الكفارة، والذي دلّ عليه القرآن والسنة أن الواجب في الكفارة الإطعام فقط لا التمليك، قال تعالى في كفارة اليمين: ﴿فَكَفَّرْنَاهُ بِطَعَامٍ عَشْرَةَ مَسْكِينٍ يَنْ أَوْسَطَ مَا تَطْمَعُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، وقال في كفارة الظهار: ﴿فَمَنْ لَرَّ يَسْخَرْ بِطَعَامٍ سِتِينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٤]، وقال في فدية الأذى: ﴿فَدْيَةٌ بَيْنَ يَمَافِ

يحيى بن أيوب، عن حميد، أن أنساً رضي الله عنه مرض قبل أن يموت، فلم يستطيع أن يصوم، وكان يجمع ثلاثين مسكيناً فيطعمهم خبزاً ولحماً أكلة واحدة^(٣).

(أقوال التابعين في الكفارة)

وأما التابعون، فثبت ذلك عن الأسود بن يزيد، وأبي رزين، وعبيدة، ومحمد بن سيرين، والحسن البصري، وسعيد بن جبير، وشريح، وجابر بن زيد، وطاوس، والشعبي، وابن بريدة، والضحاك، والقاسم، وسالم، ومحمد بن إبراهيم، ومحمد بن كعب، وقتادة، وإبراهيم النخعي، والأسانيد عنهم بذلك في أحكام القرآن لإسماعيل بن إسحاق، منهم من يقول: يغذي المساكين ويُعشيهم، ومنهم من يقول: أكلة واحدة، ومنهم من يقول: خبز ولحم، خبز وزيت، خبز وسمن، وهذا مذهب أهل المدينة، وأهل العراق، وأحمد في إحدى الروايتين عنه، والرواية الأخرى: أن طعام الكفارة مقدّر دون نفقة الزوجات.

فالأقوال ثلاثة: التقدير فيهما، كقول الشافعي وحده، وعدم التقدير فيهما، كقول مالك وأبي حنيفة وأحمد في إحدى الروايتين. والتقدير في الكفارة دون النفقة، كالرواية الأخرى عنه.

(قول من قال بالتقدير في الكفارة دون النفقة)

قال من نصر هذا القول: الفرق بين النفقة والكفارة: أن الكفارة لا تختلف باليسار والإعسار، ولا هي مقدّرة بالكفاية، ولا أوجبها الشارع بالمعروف، كنفقة الزوجة والخدام، والإطعام فيها حق لله تعالى لا لأدمي معين، فيُرضى بالعوض عنه، ولهذا لو أخرج القيمة لم يُجزئه، ورؤي التقدير فيها عن الصحابة، فقال القاضي إسماعيل: حدثنا حجاج بن المنهال، حدثنا أبو غوانة، عن منصور، عن أبي وائل، عن يسار بن نمير، قال: قال عمر: إن

أَوْ مَدَقَّقَ أَوْ شُلُّوْا [البقرة: ١٩٦]، وليس في القرآن في إطعام الكفارات غيرُ هذا، وليس في موضع واحد منها تقديرُ ذلك بمد ولا رطل، وصح عن النبي ﷺ أنه قال لمن وطئ في نهار رمضان: «أَطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِينًا» [البخاري: ١٩٣٦، ومسلم: ٢٥٩٥]. وكذلك قال للمظاهر، ولم يَحُدْ ذلك بمد ولا رطل.

(أقوال الصحابة في الكفارة)

فالذي دلّ عليه القرآن والسنة، أن الواجب في الكفارات والنفقات هو الإطعام لا التملك، وهذا هو الثابت عن الصحابة رضي الله عنهم. قال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا أبو خالد، عن حجاج، عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي: يُغذيهم، ويُعشيهم خبزاً وزيتاً.

وقال إسحاق، عن الحارث كان عليّ يقول في إطعام المساكين في كفارة البين: يُغذيهم ويُعشيهم خبزاً وزيتاً، أو خبزاً وسمناً [تفسير الطبري، (٢١/٧)].

وقال ابن أبي شيبة: حدثنا يحيى بن يعلى، عن ليث، قال: كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: «مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ» [المائدة: ٨٩] قال: الخبز والسمن، والخبز والزيت، والخبز واللحم^(١).

وصحّ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أوسط ما يُطعم الرجلُ أهله: الخبز واللبن، والخبز والزيت، والخبز والسمن، ومن أفضل ما يُطعم الرجلُ أهله: الخبز واللحم [ابن جرير (١٧/٧)، وسنده صحيح].

وقال يزيد بن زريع: حدثنا يونس، عن محمد بن سيرين، أن أبا موسى الأشعري كثر عن يعين له مرة، فأمر بجيراً، أو جبيراً يُطعم عنه عشرة مساكين خبزاً ولحماً، وأمر لهم بثوب مُعَقَّد أو ظهрани^(٢) [اليهقي (٥٦/١٠)].

وقال ابن أبي شيبة: حدثنا يحيى بن إسحاق حدثنا

(١) ليث هو ابن أبي سليم ضعيف.

(٢) والمعقد: ضرب من برود هجر، والظهري: منسوب إلى مر الظهران - قرية عند وادي بين عسفان ومكة -، وقيل: إلى ظهران - قرية من قرى البحرين - كما في «النهاية».

(٣) يحيى بن إسحاق هو البجلي، لين الحديث.

ناساً يأتوني يسألوني، فأخلفت أني لا أعطيهم، ثم يبدو لي أن أعطيهم، فإذا أمرتُك أن تكفر، فأطعم عني عشرة مساكين، لِكُلِّ مسكينٍ صاعاً من تمر أو شعير، أو نصف صاع من برّ.

حدثنا حجاج بن المنهال وسليمان بن حرب، قالوا: حدثنا حماد بن سلمة، عن سلمة بن كهيل، عن يحيى بن عباد، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: **يَا أَيُّهَا** ^(١) إذا حلفتُ فحنثتُ، فأطعم عني ليميني خمسة أصْوَاعٍ عشرة مساكين.

وقال ابن أبي شيبة، حدثنا وكيع، عن ابن أبي ليلى، عن عُمر بن أبي مرة، عن عبد الله بن سلمة، عن علي قال: كفارة اليمين إطعام عشرة مساكين لِكُلِّ مسكين نصف صاع.

حدثنا عبد الرحيم، وأبو خالد الأحمر، عن حجاج، عن قُرط، عن جدته، عن عائشة رضي الله عنها قالت: **إِنَّا نَطْعُمُ** نصف صاعٍ من برّ، أو صاعاً من تمر في كفارة اليمين.

وقال إسماعيل: حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا هشام بن أبي عبد الله، حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن زيد بن ثابت، قال: يُجْزَىء في كفارة اليمين لِكُلِّ مسكينٍ مُدٌّ حِنْطَةٍ.

حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن يزيد، عن أيوب، عن نافع، أن ابن عمر رضي الله عنه كان إذا ذكر اليمين اعتق، وإذا لم يذكرها أطعم عشرة مساكين، لِكُلِّ مسكينٍ مُدٌّ مُدٌّ.

وصحّ عن ابن عباس رضي الله عنهما: في كفارة اليمين مُدٌّ، ومعه أدمه.

وأما التابعون، فثبت ذلك عن سعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقال: كل طعام ذكر في القرآن للمساكين، فهو نصف صاع، وكان يقول في كفارة الأيمان كلها: **مُدًّا** لِكُلِّ مسكين.

وقال حماد بن زيد عن يحيى بن سعيد، عن سليمان بن يسار: أدركتُ النَّاسَ وهم يُعطون في كفارة اليمين مُدًّا بالمُدِّ الأول. وقال القاسم،

وسالم، وأبو سلمة: مُدٌّ مُدٌّ من برّ، وقال عطاء: فرقاً بين عشرة، ومرة قال: مُدٌّ مُدٌّ.

قالوا: وقد ثبت في «الصحيحين» أن النبي ﷺ قال **لِكُفِّ** بن عَجْرَةٍ في كفارة فدية الأذى: «أَطْعِمُ سِتَّةَ مَسَاكِينَ نِصْفَ صَاعٍ نِصْفَ صَاعٍ طَعَاماً لِكُلِّ مَسْكِينٍ» [البخاري: ٦٧٠٨، ومسلم: ٢٨٧٧]. فقدّر رسول الله ﷺ فدية الأذى، فجعلنا تقديرها أصلاً، وعدّيناها إلى سائر الكفارات، ثم قال من قدر طعام الزوجة: ثم رأينا النِّقَاطَ والكفارات قد اشتركا في الوجوب، فاعتبرنا إطعام النِّقَاطِ بطعام الكفارة، ورأينا الله سبحانه قد قال في جزاء الصيد: «أَوْ كَفَّرْتُ طَعَاماً مَسْكِينٍ» [المائدة: ٩٥]، وما أجمعت الأمة أن الطعام مقدّر فيها، ولهذا لو عَدِمَ الطعام، صام عن كل مدٍّ يوماً، كما أفتى به ابنُ عباس والناس بعده، فهذا ما احتجّت به هذه الطائفة على تقدير طعام الكفارة.

(حجة من قال بعدم التقدير في النِّقَاطِ والكفارات)

قال الآخرون: لا حُجَّة في أحد دون الله ورسوله وإجماع الأمة، وقد أمرنا تعالى أن نَرُدَّ ما تنازعنا فيه إليه وإلى رسوله، وذلك خيرٌ لنا حالاً وعاقبةً، ورأينا الله سبحانه إنما قال في الكفارة: «**لَطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ**» [المائدة: ٨٩]، و«**لَطْعَامُ سِتِّينَ مَسْكِيناً**» [المجادلة: ٤]، فعلق الأمر بالمصدر الذي هو الإطعام، ولم يحدّ لنا جنس الطعام ولا قدره، وحدّ لنا جنس المطعمين وقدرهم، فأطلق الطعام وقبّد المطعمين، ورأيناه سبحانه حيث ذكر إطعام المسكين في كتابه، فإنما أراد به الإطعام المعهود المتعارف، كقوله تعالى: «**وَمَا آذَرْتِكَ مَا الْقَفْءُ**» ﴿١٠﴾ **فَكَ رَقِئْ** ﴿١١﴾ **أَوْ لَطْعَمِي فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ** ﴿١٢﴾ **يَسْمَا** ﴿١٣﴾ **الْبَلَدُ**: ١٢ - ١٥. وقال: «**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَشَكَّةً وَسَقَاءً**» [الأنسان: ٨] وكان من المعلوم يقيناً، أنهم لو غدّوهم أو عثّوهم أو أطعموهم خبزاً ولحماً أو خبزاً ومرقاً ونحوه لكانوا ممدوحين داخلين فيمن أننى عليهم، وهو سبحانه عدّل عن الطعام الذي هو اسم للمأكول إلى الإطعام الذي هو مصدرٌ صريح، وهذا نصٌّ في أنه إذا أطعم المساكين ولم يُملِكهم فقد امتثل

(١) ضبطوه بفتح الياء وسكون الراء بعدها فاء مشبعة بغير همز وقد تهمز، وكان من موالي عمر أدرك الجاهلية، ولا تعرف له صيغة، وقد حج مع عمر بخلافة أبي بكر، وعاش إلى خلافة معاوية.

ما أمر به، وصحَّ في كل لغة وعرف أنه أطعمهم.

قالوا: وفي أي لغة لا يصدق لفظ الإطعام إلا بالتملك؟ ولما قال أنس رضي الله عنه: إن النبي ﷺ أطعم الصحابة في وليمة زينب خيراً ولحماً [البخاري: ٤٧٩٣]. كان قد اتخذ طعاماً، ودعاهم إليه على عادة الولائم، وكذلك قوله في وليمة صفية: «أَطْعَمَهُمْ حَيْساً» [البخاري: ٥٠٨٥، مسلم: ٣٣٢١]، وهذا أظهر من أن نذكر شواهده، قالوا: وقد زاد ذلك إيضاحاً وبياناً بقوله: «مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعُمُونَ أَفْلِيكُمْ» [المائدة: ٨٩]،

ومعلوم يقيناً، أن الرجل إنما يُطعم أهله الخبز واللحم، والمرق واللبن، ونحو ذلك، فإذا أطعم المساكين من ذلك، فقد أطعمهم من أوسط ما يُطعم أهله بلا شك، ولهذا اتفق الصحابة رضي الله عنهم في إطعام الأهل على أنه غير مقدّر، كما تقدّم، والله سبحانه جعله أصلاً لطعام الكفارة، فدل بطريق الأولى على أن طعام الكفارة غير مقدّر.

وأما من قدّر طعام الأهل، فإنما أخذ من تقدير طعام الكفارة، فيقال: هذا خلاف مقتضى النص، فإن الله أطلق طعام الأهل، وجعله أصلاً لطعام الكفارة، فعلم أن طعام الكفارة لا يتقدّر كما لا يتقدّر أصله، ولا يُعرف عن صحابي البتة تقدير طعام الزوجة مع عموم هذه الواقعة في كل وقت.

قالوا: فأما الفروق التي ذكرتموها، فليس فيها ما يستلزم تقدير طعام الكفارة، وحاصلها خمسة فروق، أنها لا تختلف باليسار والإعسار، وأنها لا تتقدّر بالكفاية، ولا أوجبها الشارع بالمعروف، ولا يجوز إخراج الجوز عنها، وهي حق لله لا تسقط بالإسقاط بخلاف نفقة الزوجة، فيقال: نعم لا شك في صحة هذه الفروق، ولكن من أين يستلزم وجوب تقديرها بمدٍّ ومدين؟ بل هي إطعام واجب من جنس ما يُطعم أهله، ومع ثبوت هذه الأحكام لا يدل على تقديرها بوجه.

وأما ما ذكرتم عن الصحابة من تقديرها، فجوابه من وجهين:

أحدهما: أننا قد ذكرنا عن جماعة، منهم: علي، وأنس، وأبو موسى، وابن مسعود رضي الله عنهم أنهم قالوا: يُجزىء أن يغذيهم ويعشيهم.

الثاني: أن مَنْ روي عنهم المدّ والمدان لم يذكرُوا ذلك تقديرًا وتحديداً، بل تمثيلاً، فإن منهم مَنْ روي عنه المدّ، ورُوي عنه مدان، ورُوي عنه مكوك، ورُوي عنه جوارز التغذية والتعشية، ورُوي عنه أكلة، ورُوي عنه رغيف أو رغيفان، فإن كان هذا اختلافاً فلا حجة فيه، وإن كان بحسب حال المستفتي وبحسب حال الحالف والمكفر فظاهر، وإن كان ذلك على سبيل التمثيل فذلك. فعلى كُلِّ تقدير لا حجة فيه على التقديرين.

قالوا: وأما الإطعام في فدية الأذى، فليس من هذا الباب، فإن الله سبحانه قال: «فِدْيَةٌ بَيْنَ يَدَيْهِ أَوْ صَدَقَةٌ أَوْ صُلُوةٌ» [البقرة: ١٩٦]، والله سبحانه أطلق هذه الثلاثة ولم يقيدها. وصح عن النبي ﷺ تقييد الصيام بثلاثة أيام، وتقييد النكاح بذيء شاة، وتقييد الإطعام بستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع، ولم يقل سبحانه في فدية الأذى: فإطعام ستة مساكين، ولكن أوجب صدقة مطلقة، وصوماً مطلقاً، ودماً مطلقاً، فعينه النبي ﷺ بالفَرْقِ، والثلاثة الأيام، والشاة.

وأما جزاء الصيد، فإنه من غير هذا الباب، فإن المُخْرِجَ إنما يُخرج قيمة الصيد من الطعام، وهي تختلف بالقلة والكثرة، فإنها بدَل مُتَلَفٍ لا يُنظر فيها إلى عدد المساكين، وإنما يُنظر فيها إلى مبلغ الطعام، فيطعمه المساكين على ما يرى من إطعامهم وتفضيل بعضهم على بعض، فتقدير الطعام فيها على حسب المتلف، وهو يَبَلُّ ويكثر، وليس ما يُعطاه كُلُّ مسكين مقدراً.

ثم إن التقدير بالحب يستلزم أمراً باطلاً بين البطلان، فإنه إذا كان الواجب لها عليه شرعاً الحب، وأكثر الناس إنما يطعم أهله الخبز، فإن جعلتم هذا معاوضة كان رياءً ظاهراً، وإن لم تجعلوه معاوضة فالحب ثابت لها في ذمته، ولم تَقْتَضِ عنه، فلم تبرأ ذمته منه إلا بإسقاطها وإبرائها، فإذا لم تُبرئه طالبتة بالحب مدة طويلة مع إنفاقه عليها كل يوم حاجتها من الخبز والادَم، وإن مات أحدهما كان الحب ديناً له أو عليه، يُؤخذ من التركة مع سعة الإنفاق عليها كل يوم.

ومعلوم أن الشريعة الكاملة المشتبهة على العدل والحكمة والمصلحة تأبى ذلك كُلَّ الإباء، وتدفعه كُلَّ

الدفع كما يدفعه العقل والرُف، ولا يُمكن أن يُقال: إن النفقة التي في ذمته تسقط بالذي له عليها من الخبز والادَم لوجهين: أحدهما: أنه لم يبعه إياها، ولا اقترضه منها حتى يثبت في ذمتها، بل هي معه فيه على حكم الضيف، لامتناع المعاوضة عن الحب بذلك شرعاً. ولو قُدِّرَ ثبوته في ذمتها، لما أمكنت المقاصة، لاختلاف الدينين جنساً، والمقاصة تعتمد اتفاقهما. هذا وإن قيل بأحد الوجهين: إنه لا يجوز المعاوضة على النفقة مطلقاً لا بدراهم ولا بغيرها لأنه معاوضة عما لم يستقر، ولم يجب، فإنها إنما تجب شيئاً فشيئاً، فإنه لا تصح المعاوضة عليها حتى تستقر بمضي الزمان، فيعاض عنها كما يُعاض عما هو مستقر في الذمة من الديون. ولما لم يجز بعض أصحاب الشافعي من هذا الإشكال مخلصاً قال: الصحيح أنها إذا أكلت سقطت نفقتها. قال الرافعي في «محرره»: أولى الوجهين السقوط، وصححه النووي لجريان الناس عليه في كل عصر ومصر، واكتفاء الزوجة به. وقال الرافعي في «الشرح الكبير»، والأوسط: فيه وجهان: أقسهما: أنها لا تسقط، لأنه لم يوف الوَجب، وتطوع بما ليس بواجب، وصرحوا بأن هذين الوجهين في الرشيدة التي أذن لها قِيمها، فإن لم يأذن لها لم تسقط وجهاً واحداً.

فصل

(ما استنبط من حديث

شكوى هند، وجواز ذكر العيوب عند الشكوى)

وفي حديث هند: دليل على جواز قول الرجل في غريمه ما فيه من العيوب عند شكواه، وأن ذلك ليس بغيبة، ونظير ذلك قول الآخر في خصمه: يا رسول الله! إنه فاجر لا يُيالي ما حلف عليه.

(تفرد الأب بنفقة أولاده)

وفيه دليل على تفرد الأب بنفقة أولاده، ولا تُشاركه فيها الأم، وهذا إجماع من العلماء إلا قول شاذ لا يلتفت إليه، أن على الأم من النفقة بقدر ميراثها، وزعم صاحب هذا القول: أنه طرد القياس على كل من له ذكر وأُنثى في درجة واحدة، وهما وارثان، فإن النفقة عليهما، كما لو كان له أخ

وأخت، أو أم وجد، أو ابن وبنت، فالنفقة عليهما على قدر ميراثهما، فكذا الأب والأم.

والصحيح: انفرد العصبه بالنفقة، وهذا كله كما ينفرد الأب دون الأم بالإنفاق، وهذا هو مقتضى قواعد الشرع، فإن العصبه تنفرد بحمل العقل، وولاية النكاح، وولاية الموت والميراث بالولاء، وقد نص الشافعي على أنه إذا اجتمع أم وجد أو أب، فالنفقة على الجد وحده، وهو إحدى الروايات عن أحمد، وهي الصحيحة في الدليل، وكذلك إن اجتمع ابن وبنت، أو أم وابن، أو بنت وابن ابن، فقال الشافعي: النفقة في هذه المسائل الثلاث على الابن لأنه العصبه، وهي إحدى الروايات عن أحمد. والثانية: أنها على قدر الميراث في المسائل الثلاث، وقال أبو حنيفة: النفقة في مسألة الابن والبنت عليهما نصفان لتساويهما في القرب، وفي مسألة بنت وابن ابن، النفقة على البنت؛ لأنها أقرب، وفي مسألة أم وبنت على الأم الربع، والباقي على البنت، وهو قول أحمد، وقال الشافعي: تنفرد بها البنت، لأنها تكون عصبه مع أخيها، والصحيح: انفرد العصبه بالإنفاق، لأنه الوارث المطلق.

وفيه دليل على أن نفقة الزوجة والأقارب مقدرة بالكفاية، وأن ذلك بالمعروف، وأن لمن له النفقة له أن يأخذها بنفسه، إذا منعه إياها من هي عليه.

(عدم صحة الاحتجاج به على جواز الحكم على الغائب)

وقد احتج بهذا على جواز الحكم على الغائب، ولا دليل فيه، لأن أبا سفيان كان حاضراً في البلد لم يكن مسافراً، والنبي ﷺ لم يسألها البيعة، ولا يُعطى المدعي بمجرد دعواه، وإنما كان هذا فتوى منه ﷺ.

(عدم صحة الاحتجاج به على جواز الأخذ من مال الغريم...)

وقد احتج به على مسألة الظفر، وأن للإنسان أن يأخذ من مال غريمه إذا ظفر به بقدر حقه الذي جحدته إياه، ولا يدل لثلاثة أوجه: أحدها: أن سب الحق ههنا ظاهر، وهو الزوجية، فلا يكون الأخذ خيانة في الظاهر، فلا يتناول قول النبي ﷺ: «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تحزن من خانك» [ابو داود: ٣٥٣٥، والترمذي: ١٢٦٦]. ولهذا نص أحمد على المسألتين مفرقاً بينهما، فمنع من الأخذ في مسألة الظفر، وجوز

للزوجة الأخذ، وعمل بكلا الحديثين.

الثاني: أنه يشقُّ على الزوجة أن ترفعه إلى الحاكم، فيلزمه بالإتفاق أو الفراق، وفي ذلك مضرةٌ عليها مع تمكنها من أخذ حقِّها.

الثالث: أن حقها يتجددُ كُلَّ يوم، فليس هو حقاً واحداً مستقراً يُمكن أن تستدينَ عليه، أو ترفعه إلى الحاكم بخلاف حق الدين.

فصل

(هل تسقط النفقة بمضي الزمن؟)

وقد احتج بقصة هند هذه على أن نفقة الزوجة تَسْقُطُ بمضي الزمان، لأنه لم يُمكنها من أخذ ما مضى لها من قدر الكفاية مع قولها: إنه لا يُعطيها ما يكفيها، ولا دليل فيها، لأنها لم تدع به ولا طلبته، وإنما استفتته: هل تأخذ في المستقبل ما يكفيها؟ فأفتاها بذلك.

وبعد، فقد اختلف الناس في نفقة الزوجات والأقارب، هل يسقطان بمضي الزمان كلاهما، أو لا يسقطان، أو تسقط نفقة الأقارب دون الزوجات؟ على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهما يسقطان بمضي الزمان، وهذا مذهب أبي حنيفة، وإحدى الروايتين عن أحمد.

والثاني: أنهما لا يسقطان إذا كان القريب طفلاً، وهذا وجه للشافعية.

والثالث: تسقط نفقة القريب دون نفقة الزوجة، وهذا هو المشهور من مذهب الشافعي وأحمد ومالك. ثم الذين أسقطوه بمضي الزمان، منهم من قال: إذا كان الحاكم قد فرضها لم تسقط، وهذا قول بعض الشافعية والحنابلة. ومنهم من قال: لا يؤثر فرض الحاكم في وجوبها شيئاً إذا سقطت بمضي الزمان، والذي ذكره أبو البركات في «محرره»، الفرق بين نفقة الزوجة ونفقة القريب في ذلك، فقال: وإذا غاب مدة ولم يُنفق، لزمه نفقة الماضي، وعنه لا يلزمه إلا أن يكون الحاكم قد فرضها.

وأما نفقة أقاربه، فلا تلزمه لما مضى، وإن فرضت إلا أن يستدان عليه بإذن الحاكم، وهذا هو الصواب، وأنه لا تأثير لفرض الحاكم في وجوب نفقة القريب

لما مضى من الزمان نقلاً وتوجيهاً، أما النقل، فإنه لا يُعرف عن أحمد، ولا عن قدماء أصحابه استقرار نفقة القريب بمضي الزمان إذا فرضها الحاكم، ولا عن الشافعي، وقداماء أصحابه والمحققين لمذهبه منهم، كصاحب «المهذب»، و«الحاوي»، و«الشامل»، و«النهاية»، و«التهذيب»، و«البيان»، و«الذخائر» وليس في هذه الكتب إلا السقوط بدون استثناء فرض، وإنما يوجد استقرارها إذا فرضها الحاكم في «الوسيط» و«الوجيز»، وشرح الرافعي وفروعه، وقد صرح نصر المقدسي في «تهذيبه»، والمحاملي في «العدة»، ومحمد بن عثمان في «التمهيد»، والبندنجي في «المعتمد» بأنها لا تستقر ولو فرضها الحاكم، وعللوا السقوط بأنها تجب على وجه المواساة لإحياء النفس، لهذا لا تجب مع يسار المتفق عليه، وهذا التعليل يُوجب سقوطها فُرِضَتْ أو لم تفرض. وقال أبو المعالي: ومما يدل على ذلك أن نفقة القريب إمتناع لا تمليك، وما لا يجب فيه التمليك وانتهى إلى الكفاية، استحالة مصيره ديناً في الذمة، واستبعد لهذا التعليل قول من يقول: إن نفقة الصغير تستقر بمضي الزمان، وبالف في تضعيفه من جهة أن إيجاب الكفاية مع إيجاب عوض ما مضى متناقض، ثم اعترض عن تقديرها في صورة الحمل على الأصح. إذا قلنا: إن النفقة له بأن الحامل مستحقة لها أو مستغنة بها فهي كنفقة الزوجة. قال: ولهذا قلنا: تنقذ، ثم قال: هذا في الحمل والولد الصغير، أما نفقة غيرهما، فلا تصير ديناً أصلاً. انتهى.

وهذا الذي قاله هؤلاء هو الصواب، فإن في تصور فرض الحاكم نظراً، لأنه إما أن يعتد سقوطها بمضي الزمان أو لا، فإن كان يعتد به، لم يسغ له الحكم بخلافه، وإلزام ما يعتد أنه غير لازم، وإن كان لا يعتد سقوطها مع أنه لا يعرف به قائل إلا في الطفل الصغير على وجه لأصحاب الشافعي، فلما أن يعني بالفرض الإيجاب، أو إثبات الواجب، أو تقديره أو أمراً رابعاً فإن أريد به الإيجاب فهو تحصيل الحاصل ولا أثر لفرضه، وكذلك إن أريد به إثبات الواجب ففرضه وعدمه سببان، وإن أريد به تقدير الواجب فالتقدير إنما يؤثر في صفة الواجب من الزيادة

والتقصان، لا في سقوطه ولا ثبوته، فلا أثر لفرضه في الواجب البتة، هذا مع ما في التقدير من مُصادمة الأدلة التي تقدمت على أن الواجب النفقة بالمعروف، فَيُطْعَمُهُمْ مما يأكل، ويكسوهم مما يلبس. وإن أريد به أمر رابع، فلا بد من بيانه لينظر فيه.

فإن قيل: الأمر الرابع المراءى هو عدم السقوط بمضي الزمان، فهذا هو محل الحكم، وهو الذي أثر فيه حكم الحاكم، وتعلق به. قيل: فكيف يُمكن أن يعتدَّ السقوط، ثم يلزم ويقضي بخلافه؟ وإن اعتدَّ عدم السقوط، فخلاف الإجماع، ومعلوم أن حكم الحاكم لا يزيل الشيء عن صفته، فإذا كانت صفة هذا الواجب سقوطه بمضي الزمان شرعاً لم يُزَلَّه حكم الحاكم عن صفته.

فإن قيل: بقي قسم آخر، وهو أن يعتدَّ الحاكم السقوط بمضي الزمان ما لم يفرض، فإن فُرِضَتْ استقرت فهو يحكم باستقرارها لأجل الفرض لا بنفس مضي الزمان.

قيل: هذا لا يُجدي شيئاً، فإنه إذا اعتدَّ سقوطها بمضي الزمان، وإن هذا هو الحق والشرع، لم يُجْزَلْه أن يلزم بما يعتدَّ سقوطه وعدم ثبوته، وما هذا إلا بمثابة ما لو ترافع إليه مضطر، وصاحب طعام غير مضطر، فقضي به للمضطر بعوضه، فلم يتفق أخذه حتى زال الاضطرار، ولم يُعطَ صاحبه العوض أنه يلزمه بالعوض، ويُلزَمُ صاحب الطعام ببذله له، والقريب يستحق النفقة لإحياء مَهْجَتِهِ، فإذا مضى زمن الوجوب، حصل مقصود الشارع من إحيائه، فلا فائدة في الرجوع بما فات من سبب الإحياء، ووسيلته مع حصول المقصود والاستغناء عن السبب بسبب آخر.

فإن قيل: فهذا ينتقض عليكم بنفقة الزوجة، فإنها تستقر بمضي الزمان، ولو لم تُفرض مع حصول هذا المعنى الذي ذكرتموه بعينه.

(الفرق بين نفقة الأقارب والزوجات)

قيل: التقصُّ لا بُدَّ أن يكون بمعلوم الحكم بالنص أو الإجماع، وسقوط نفقة الزوجة بمضي الزمان مسألة نزاع، فأبو حنيفة وأحمد في رواية يُسْقِطَانَهَا، والشافعي وأحمد في الرواية الأخرى لا يُسْقِطَانَهَا،

والذين لا يُسْقِطُونَهَا فَرَّقُوا بينها وبين القريب بفروق: أحدها: أن نفقة القريب صلة.

الثاني: أن نفقة الزوجة تجب مع اليسار والإعسار بخلاف نفقة القريب.

الثالث: أن نفقة الزوجة تجب مع استغنائها بمالها، ونفقة القريب لا تجب إلا مع إعساره وحاجته.

الرابع: أن الصحابة رضي الله عنهم أوجبوا للزوجة نفقة ما مضى، ولا يُعرف عن أحد منهم قط أنه أوجب للقريب نفقة ما مضى، فصَحَّ عن عمر رضي الله عنه أنه كتب إلى أمراء الأجناد في رجال غابوا عن نساءهم، فأمرهم بأن يُنفقوا أو يُطْلَقُوا، فإن طلقوا، يعثوا بنفقة ما مضى، ولم يُخالف عمر رضي الله عنه في ذلك منهم مخالف. قال ابن المنذر رحمه الله: هذه نفقةٌ وجبت بالكتاب والسنة والإجماع، ولا يزول ما وجب بهذه الحجج إلا بمثلها.

قال المسقطون: قد شكت هند إلى النبي ﷺ أن أبا سفيان لا يُعطِيها كفايتها، فأباح لها أن تأخذ في المستقبل قدر الكفاية، ولم يُجْزَلْ لها أخذ ما مضى، وقولكم: إنها نفقة معاوضة، فالمعاوضة إنما هي بالصدق، وإنما النفقة لكونها في حبه، فهي عانية عنده كالأسير، فهي من جملة عياله، ونفقتهُا مواساة، وإلا فكل من الزوجين يحصل له من الاستمتاع مثل ما يحصل للآخر، وقد عاوضها على المهر، فإذا استغنت عن نفقة ما مضى فلا وجه للإلزام الزوج به، والنبي ﷺ جعل نفقة الزوجة كنفقة القريب بالمعروف مواساة لإحياء نفس من هو في ملكه وحبه، ومَنْ يَبْنِي وَيَبْنِي رَجْمٌ وقرابة، فإذا استغنى عنها بمضي الزمان، فلا وجه للإلزام الزوج بها، وأيّ معروف في إلزامه نفقة ما مضى وحبه على ذلك، والتضييق عليه، وتعذيبه بطول الحبس، وتعريض الزوجة لقضاء أوطارها من الدخول والخروج وعُشْرَةِ الأخدان بانقطاع زوجها عنها، وغيبة نظره عليها، كما هو الواقع، وفي ذلك من الفساد المنتشر ما لا يعلمه إلا الله، حتى إن الفروج لَتُعْجِجُ إلى الله من حبس حُمَاتِهَا ومن يصونها عنها، وتسيبها في

يُجبر على المعاوضة على ذلك بدراهم من غير رضا، ولا إيجاب صاحب الشرع له على ذلك، فهذا مخالف لقواعد الشرع، ونصوص الأئمة، ومصالح العباد، ولكن إن اتفق المنقّ والمنفق عليه على ذلك جاز باتفاقهما، هذا مع أنه في جواز اعتياض الزوجة عن النفقة الواجبة لها نزاع معروف في مذهب الشافعي وغيره، فقيل: ما تعاض، لأن نفقتها طعام ثبت في الذمة عوضاً، فلا تعاض عنه قبل القبض، كالمسلم فيه، وعلى هذا فلا يجوز الاعتياض لا بدارهم ولا ثياب، ولا شيء البتة، وقيل: تعاض بغير الخبز والدقيق، فإن الاعتياض بهما رباحاً، هذا إذا كان الاعتياض عن الماضي، فإن كان عن المستقبل، لم يصح عندهم وجهاً واحداً، لأنها بصدد السقوط، فلا يُعلم استقرارها.

ذكر ما روي من حكم رسول الله ﷺ

في تمكين المرأة من فراق زوجها

إذا أعسر بنفقتها

روى البخاري في «صحيحه»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ مَا تَرَكَ غَنِيٌّ»، وفي لفظ: «مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنَى، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَإِذَا يَمَنُ تَعَوُّنٌ»، تقول المرأة: إما أَنْ تُطْعِمَنِي، وإما أَنْ تُطَلِّقَنِي، ويقول العبد: أطعمني واستعملني، ويقول الولد: أطعمني، إلى من تدعني؟ قالوا: يا أبا هريرة سمعت هذا من رسول الله ﷺ قال: لا. هذا من كيس أبي هريرة [البخاري: ٥٣٥٥].

وذكر النسائي هذا الحديث في كتابه وقال فيه: «وَإِذَا يَمَنُ تَعَوُّنٌ»، فقيل: من أعول يا رسول الله؟ قال: «أَمْرَأَتُكَ تَقُولُ: أَطْعِمْنِي وَإِلَّا فَأَرْقِي، خَادِمُكَ يَقُولُ: أَطْعِمْنِي وَاسْتَعْمِلْنِي، وَلَكَ يَقُولُ: أَطْعِمْنِي إِلَى مَنْ تَتَرَكْنِي؟». وهذا في جميع نسخ كتاب النسائي، هكذا، وهو عنده من حديث سعيد بن أيوب، عن محمد بن عجلان، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وسعيد ومحمد ثقتان [حسن: أحمد: ٩٦١١-٧٧٢٧].

وقال الدارقطني: حدثنا أبو بكر الشافعي، حدثنا

أوطارها، ومعاذ الله أن يأتي شرع الله لهذا الفساد الذي قد استطار شراره، واستعرت ناره، وإنما أمر عمر بن الخطاب الأزواج إذا طلقوا أن يبعثوا بنفقة ما مضى، ولم يأمرهم إذا قديموا أن يفرضوا نفقة ما مضى، ولا يُعرف ذلك عن صحابي البتة، ولا يلزم من الإلزام بالنفقة الماضية بعد الطلاق وانقطاعها بالكلفة الإلزام بها إذا عاد الزوج إلى النفقة والإقامة، واستقبل الزوجة بكل ما تحتاج إليه، فاعتبار أحدهما بالآخر غير صحيح، ونفقة الزوجة تجب يوماً بيوم، فهي كنفقة القريب، وما مضى فقد استغنت عنه بمضي وقته، فلا وجه للإلزام الزوج به، وذلك منشأ العداوة والبغضاء بين الزوجين، وهو ضيد ما جعله الله بينهما من المودة والرحمة، وهذا القول هو الصحيح المختار الذي لا تقتضي الشريعة غيره، وقد صرح أصحاب الشافعي، بأن كسوة الزوجة وسكنها يسقطان بمضي الزمان إذا قيل: إنهما إمتاع لا تمليك، فإن لهم في ذلك وجهين.

فصل

(فرض الدراهم في النفقة لا أصل له في الكتاب والسنة)

وأما فرض الدراهم، فلا أصل له في كتاب الله تعالى، ولا سنة رسوله ﷺ، ولا عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم البتة، ولا التابعين، ولا تابعيهم، ولا نص عليهم أحد من الأئمة الأربعة، ولا غيرهم من أئمة الإسلام، وهذه كتب الآثار والسنن، وكلام الأئمة بين أظهرنا، فأوجدونا من ذكر فرض الدراهم، والله سبحانه أوجب نفقة الأقارب والزوجات والرقيق بالمعروف، وليس من المعروف فرض الدراهم، بل المعروف الذي نص عليه صاحب الشرع أن يُطعمهم مما يأكل، ويكسوهم مما يلبس، ليس المعروف سوى هذا، وفرض الدراهم على المنفق من المنكر، وليست الدراهم من الواجب ولا عوضه، ولا يصح الاعتياض عما لم يستقر ولم يملك، فإن نفقة الأقارب والزوجات إنما تجب يوماً فيوماً، ولو كانت مستقرة لم تصح المعاوضة عنها بغير رضى الزوج والقريب، فإن الدراهم تجعل عوضاً عن الواجب الأصلي، وهو إما البر عند الشافعي، أو الطعام المعتاد عند الجمهور، فكيف

والقول الثاني: ليس لها أن تفسخ، لكن يرفع الزوج يده عنها لتكتسب، والمذهب أنها تملك الفسخ.

قالوا: وهل هو طلاق أو فسخ؟ فيه وجهان:

(هل هذا الفراق طلاق أو فسخ)

أحدهما: أنه طلاق، فلا بد من الرفع إلى القاضي حتى يلزمه أن يطلقها أو يتفق، فإن أبى طلق الحاكم عليه طلاقاً رجعيّاً، فإن راجعها، طلق عليه ثانية، فإن راجعها، طلق عليه ثالثة.

والثاني: أنه فسخ، فلا بد من الرفع إلى الحاكم ليثبت الإعسار، ثم تفسخ هي، وإن اختارت المقام، ثم أرادت الفسخ ملكته، لأن النفقة يتجدد وجوبها كل يوم، وهل تملك الفسخ في الحال أولاً تملكه إلا بعد مضي ثلاثة أيام؟ وفيه قولان. الصحيح عندهم: الثاني. قالوا: فلو وجد في اليوم الثالث نفقتها وتعذر عليه نفقة اليوم الرابع، فهل يجب استئناف هذا الإمهال؟ فيه وجهان. وقال حماد بن أبي سليمان: يؤجل سنة ثم يفسخ قياساً على العنين. وقال عمر بن عبد العزيز: يضرب له شهر أو شهران. وقال مالك: الشهر ونحوه. وعن أحمد روايتان: إحداهما، وهي ظاهر مذهبه: أن المرأة تخير بين المقام معه وبين الفسخ، فإن اختارت الفسخ رفعته إلى الحاكم، فيُخير الحاكم بين أن يفسخ عليه أو يجبره على الطلاق، أو يأذن لها في الفسخ، فإن فسخ أو أذن في الفسخ، فهو فسخ لا طلاق ولا رجعة له، وإن أيسر في العدة، وإن أجبره على الطلاق، فطلق رجعيّاً، فله رجعتها، فإن راجعها وهو مُعسر، أو امتنع من الإنفاق عليها، فطلبت الفسخ، فسخ عليه ثانياً وثالثاً، وإن رضيت المقام معه مع عُسرته، ثم بدا لها الفسخ، أو تزوجته عالمة بعُسرته، ثم اختارت الفسخ فلها ذلك.

قال القاضي: وظاهر كلام أحمد: أنه ليس لها الفسخ في الموضعين، وببطل خيارها، وهو قول مالك لأنها رضيت بعيه، ودخلت في العقد عالمة به، فلم تملك الفسخ، كما لو تزوّجت عتيّاً عالمة بعُتته وقالت بعد العقد: قد رضيت به عتيّاً. وهذا الذي قاله القاضي: هو مقتضى المذهب والحجة.

محمد بن بشر بن مطر، حدثنا شيبان بن فروخ، حدثنا حماد بن سلمة، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «المرأة تقول لزوجها: أظعنني أو طلقني» الحديث [حسن: الدارقطني (٢٩٧/٣)].

وقال الدارقطني: حدثنا عثمان بن أحمد بن السماك، وعبد الباقي بن قانع، وإسماعيل بن علي، قالوا: أخبرنا أحمد بن علي الخزاز، حدثنا إسحاق بن إبراهيم الباوردي، حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا حماد بن سلمة، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، في الرجل لا يجد ما يتفق على امرأته، قال: يُفَرَّقُ بَيْنَهُمَا [الدارقطني (٢٩٧/٣)]. وبهذا الإسناد إلى حماد بن سلمة، عن عاصم بن بهدلة، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ مثله [الدارقطني (٢٩٧/٣)].

وقال سعيد بن منصور في «سننه»: حدثنا سفيان، عن أبي الزناد، قال: سألت سعيد بن المسيب عن الرجل لا يجد ما يتفق على امرأته، أيُفَرَّقُ بينهما؟ قال: نعم. قلت سنة؟ قال: سنة. وهذا ينصرف إلى سنة رسول الله ﷺ، فغايته أن يكون من مراسيل سعيد بن المسيب.

واختلف الفقهاء في حكم هذه المسألة على أقوال:

أحدها: أنه يُجبر على أن يتفق أو يطلق، روى سفيان عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن ابن المسيب، قال: إذا لم يجد الرجل ما يتفق على امرأته، أُجِرَ على طلاقها.

الثاني: إنما يطلقها عليه الحاكم، وهذا قول مالك، لكنه قال: يؤجل في عدم النفقة شهراً ونحوه، فإن انقضى الأجل وهي حائض، أُخِّرَ حتى تطهر، وفي الصداقة عامين، ثم يطلقها عليه الحاكم طلاقاً رجعيّاً، فإن أيسر في العدة فله ارتجاعها، وللشافعي قولان: أحدهما: أن الزوجة تخير إن شاءت أقامت معه، وتبقى نفقة المُعسر ديناً لها في ذمته. قال أصحابه: هذا إذا أمكنته من نفسها، وإن لم تمكنه، سقطت نفقتها، وإن شاءت فسخت النكاح.

والذين قالوا: لها الفسخ - وإن رضيت بالمقام - قالوا: حقها متجدد كل يوم، فيتجدد لها الفسخ بتجدد حقها، قالوا: ولأن رضاها يتضمن إسقاط حقها فيما لم يجب فيه من الزمان، فلم يسقط كإسقاط الشفعة قبل البيع. قالوا: وكذلك لو أسقطت النفقة المستقبلية لم تسقط، وكذلك لو أسقطت العقد جملة ورضيت بلا نفقة، وكذلك لو أسقطت المهر قبله لم يسقط، وإذا لم يسقط وجوبها لم يسقط الفسخ الثابت به. والذين قالوا بالسقوط أجابوا عن ذلك بأن حقها في الجماع يتجدد، ومع هذا إذا أسقطت حقها من الفسخ بالغة سقط، ولم تملك الرجوع فيه.

قالوا: وقياسكم ذلك على إسقاط نفقتها قياساً على أصل غير متفق عليه، ولا ثابت بالدليل، بل الدليل يدل على سقوط الشفعة بإسقاطها قبل البيع، كما صرح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يجل له أن يبيع حتى يؤذن شريكه»، فإن باعه ولم يؤذنه، فهو أحق بالبيع (مسلم: ٤١٢٧)، وهذا صريح في أنه إذا أسقطها قبل البيع لم يملك طلبها بعده، وحيث لا يجعل هذا أصلاً لسقوط حقها من النفقة بالإسقاط، ونقول: خياراً لدفع الضرر، فسقط بإسقاطه قبل ثبوته، كالشفعة، ثم يتفرض هذا بالعيب في العين المؤجرة، فإن المستأجر إذا دخل عليه، أو علم به، ثم اختار ترك الفسخ، لم يكن له الفسخ بعد هذا، وتجدد حقه بالانتفاع كل وقت، كتجدد حق المرأة من النفقة سواء ولا فرق، وأما قوله: لو أسقطها قبل النكاح، أو أسقط المهر قبله، لم يسقط، فليس إسقاط الحق قبل انعقاد سببه بالكلية كإسقاطه بعد انعقاد سببه، هذا إن كان في المسألة إجماع، وإن كان فيها خلاف، فلا فرق بين الإسقاطين، وسويتنا بين الحكمين، وإن كان بينهما فرق امتنع القياس.

وعنه رواية أخرى: ليس لها الفسخ، وهذا قول أبي حنيفة وصاحبيه. وعلى هذا لا يلزمها تمكينه من الاستمتاع، لأنه لم يسلم إليها عوضه، فلم يلزمها تسليمه، كما لو أعسر المشتري بضمن المبيع، لم يجب تسليمه إليه، وعليه تخليتها سبيلها ليكتسب لها، وتحصل ما تُنفقه على نفسها، لأن في حبسها بغير نفقة إضراراً بها.

فإن قيل: فلو كانت مويرة، فهل يملك حبسها؟ قيل قد قالوا أيضاً: لا يملك حبسها، لأنه إنما يملكه إذا كفاها المونة، وأغناها عما لا بد لها منه من النفقة والكسوة، ولحاجته إلى الاستمتاع الواجب له عليها، فإذا انتفى هذا وهذا لم يملك حبسها، وهذا قول جماعة من السلف والخلف.

ذكر عبد الرزاق عن ابن جريج قال: سألت عطاء عن لا يجد ما يصلح امرأته من النفقة؟ قال: ليس لها إلا ما وجدت، ليس لها أن يطلقها. وروى حماد بن سلمة، عن جماعة، عن الحسن البصري أنه قال في الرجل يفجز عن نفقة امرأته قال: ثواسيه وتشي الله وتصير، ويُنفق عليها ما استطاع. وذكر عبد الرزاق، عن معمر، قال: سألت الزهري عن رجل لا يجد ما يُنفق على امرأته، أيفرق بينهما؟ قال: تستأني به ولا يفرق بينهما، وتلا: ﴿لَا يَكُفُّ اللَّهُ قَسَا إِلَّا مَا آتَيْنَاهُ سَيِّئِلُ اللَّهِ بَدْعٌ عُشْرُ مِثْلٍ﴾ [الطلاق: ١٧]. قال معمر: وبلغني عن عمر بن عبد العزيز مثل قول الزهري سواء. وذكر عبد الرزاق، عن سفيان الثوري، في المرأة يُغَيِّرُ زوجها بنفقتها: قال: هي امرأة ابتليت، فلتصبر، ولا تأخذ بقول من فرّق بينهما.

قلت: عن عمر بن عبد العزيز ثلاث روايات، هذه إحداها.

والثانية: روى ابن وهب، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، قال: شهدت عمر بن عبد العزيز يقول لزوج امرأة شكت إليه أنه لا يُنفق عليها: اضربوا له أجلاً شهراً أو شهرين، فإن لم يُنفق عليها إلى ذلك الأجل، فرّقوا بينه وبينها.

والثالثة: ذكر ابن وهب، عن ابن لهيعة، عن محمد بن عبد الرحمن، أن رجلاً شكى إلى عمر بن عبد العزيز بأنه أنكح ابنته رجلاً لا يُنفق عليها، فأرسل إلى الزوج فأتى، فقال: أنكحتني، وهو يعلم أنه ليس لي شيء، فقال عمر: أنكحت وأنت تعرفه؟ قال: نعم. قال: فما الذي أصنع؟ اذهب بأهلك.

(منه من لم ير الفسخ بالإعسار)

والقول بعدم التفريق مذهب أهل الظاهر كُلِّهم، وقد تناظر فيها مالك وغيره، فقال مالك: أدركت

الناس يقولون: إذا لم يُنفق الرجل على امرأته فُرّق بينهما. فقيل له: قد كانت الصحابة رضي الله عنهم يُعسرُونَ ويحتاجون، فقال مالك: ليس الناس اليوم كذلك، إنما تزوجته رجاءً.

ومعنى كلامه: أن نساء الصحابة رضي الله عنهم كُنَّ يُرَدْنَ الدارَ الآخرة، وما عند الله، ولم يكن مرادهنَّ الدنيا، فلم يكنَّ يبالين بعسر أزواجهن، لأن أزواجهن كانوا كذلك. وأما النساء اليوم، فإنما يتزوجن رجاءً دنيا الأزواج ونفقتهم وكسوتهم، فالمرأة إنما تدخل اليوم على رجاء الدنيا، فصار هذا المعروف كالمشروط في العقد، وكان عرفُ الصحابة ونسائهم كالمشروط في العقد، والشرط العرفي في أصل مذهبه كاللفظي، وإنما أنكر على مالك كلامه هذا من لم يفهمه ويفهم غوره.

(مذهب من قال بالحبس في الإعسار)

وفي المسألة مذهب آخر، وهو أن الزوج إذا أعسر بالنفقة، حُجِسَ حتى يجد ما يُنفقه، وهذا مذهب حكاه الناس عن ابن حزم، وصاحب «المغني» وغيرهما عن عبيد الله بن الحسن العنبري قاضي البصرة. وبالله العجب! لأي شيء يُسجن ويُجمع عليه بين عذاب السجن وعذاب الفقر، وعذاب البعد عن أهله؟ سبحانه هذا بهتان عظيم، وما أظن من شَم رائحة العلم يقول هذا.

(مذهب ابن حزم من تكليف)

المرأة الإنفاق على الزوج إذ كان عاجزاً عن نفقة نفسه) وفي المسألة مذهب آخر، وهو أن المرأة تُكَلَّف الإنفاق عليه إذا كان عاجزاً عن نفقة نفسه، وهذا مذهب أبي محمد بن حزم، وهو خيرُ بلا شك من مذهب العنبري. قال في «المحلى»: فإن عجز الزوج عن نفقة نفسه، وامرأته غنية، كُلفت النفقة عليه، ولا ترجع بشيء من ذلك إن أيسر، برهان ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَعَلَى الْمَوْلَاةِ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ وِثْرًا إِلَّا وَسْعَهَا لَا تُضْرَكُ وَآيَةٌ يُؤْتِيهَا وَلَا مَوْلَاةٌ لَمْ يَوْلَوْهُ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٢٣٣] فالزوجة وارثة، فعليها النفقة بنص القرآن.

ويا عجباً لأبي محمد! لو تأمل سياق الآية، لتبين له منها خلافاً ما فهمه، فإن الله سبحانه قال: ﴿وَعَلَى

الْمَوْلَاةِ لَمْ يَوْلَوْهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] وهذا ضميرُ الزوجات بلا شك، ثم قال: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، فجعل سبحانه على وارث المولود له، أو وارث الولد من رزق الوالدات وكسوتهن بالمعروف مثل ما على الموروث، فأين في الآية نفقة على غير الزوجات؟ حتى يحمل عمومها على ما ذهب إليه.

(حجج من لم ير الفسخ بالإعسار)

واحتج من لم ير الفسخ بالإعسار بقوله تعالى: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ يُغْفِرْ لَّهِ إِنَّمَا اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا أَتَتْهَا﴾ [الطلاق: ٧] قالوا: وإذا لم يُكَلِّفْ الله النفقة في هذه الحال، فقد ترك ما لا يجب عليه، ولم يأثم بتركه، فلا يكون سبباً للتفريق بينه وبين حبه وسكنه وتعذيبه بذلك. قالوا: وقد روى مسلم في «صحيحه»: من حديث أبي الزبير، عن جابر، دخل أبو بكر وعمر رضي الله عنهما على رسول الله ﷺ، فوجدها جالساً حوله نساءً واجماً ساكناً، فقال أبو بكر: يا رسول الله! لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقممتُ إليها، فوجأت عتقها، فضحك رسول الله ﷺ وقال: هُنَّ حَوْلِي كما ترى يسألنني النفقة، فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عتقها، وقام عمر إلى حفصة يجأ عتقها، كلاهما يقول: تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده، فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ شيئاً أبداً ما ليس عنده، ثم اعتزلهن رسول الله ﷺ شهراً وذكر الحديث [مسلم: ٣٦٩٠].

قالوا: فهذا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يضريان ابنتيهما بحضرة رسول الله ﷺ إذ سألاه نفقة لا يجدها، ومن المحال أن يضريا طالبتين للحق، ويُقرهما رسول الله ﷺ على ذلك، فدلَّ على أنه لا حق لهما فيما طلبته من النفقة في حال الإعسار، وإذا كان طلبهما لها باطلاً، فكيف تمكن المرأة من فسخ النكاح بعدم ما ليس لها طلبه، ولا يحلُّ لها، وقد أمر الله سبحانه صاحب الدين أن يُنظر المُعسرَ إلى الميسرة، وغاية النفقة أن تكون ديناً، والمرأة مأمورة بإنتظار الزوج إلى الميسرة بنص القرآن هذا إن قيل: ثبت في ذمة الزوج، وإن قيل: تسقط بمضي الزمان، فالفسخ أبعد وأبعد.

قالوا: فالله تعالى أوجب على صاحب الحق الصبر على المعسر، وندبه إلى الصدقة بترك حقه، وما عدا هذين الأمرين، فجور لم يُحبه له، ونحن نقول لهذه المرأة كما قال الله تعالى لها سواء بسواء؛ إما أن تُنظره إلى الميسرة، وإما أن تصدقي، ولا حق لك فيما عدا هذين الأمرين.

قالوا ولم يزل في الصحابة المُعسر والموسر، وكان مُعسرهم أضعاف أضعاف موسرهم، فما مكن النبي ﷺ قط امرأة واحدة من الفسخ بإعسار زوجها، ولا أعلمها أن الفسخ حق لها فإن شاءت صبرت، وإن شاءت فسخت، وهو يشرع الأحكام عن الله تعالى بأمره، فهب أن الأزواج تركن حقهن، أفما كان فيهن امرأة واحدة تُطالب بحقها، وهؤلاء نساؤه ﷺ خير نساء العالمين يُطالبن بالنفقة حتى أغضبته، وحلفت ألا يدخل عليهن شهراً من شدة مؤجذته عليهن، فلو كان من المستقر في شرعه أن المرأة تمليك الفسخ بإعسار زوجها لرفع إليه ذلك، ولو من امرأة واحدة، وقد رُفِعَ إليه ما ضرورته دون ضرورة فقد النفقة من فقد النكاح، وقالت له امرأة رفاة: إني نكحت بعد رفاة عبد الرحمن بن الزبير، وإن ما معه مثل هذبة الثوب. تُريد أن يُفرق بينه وبينها. ومن المعلوم أن هذا كان فيهم في غاية الندرة بالنسبة إلى الإعسار، فما طلبت منه امرأة واحدة أن يفرق بينه وبينها بالإعسار.

قالوا: وقد جعل الله الفقر والغنى مطيئين للعباد، فيفتقر الرجل الوقت ويستغني الوقت، فلو كان كل من افتقر فسخت عليه امرأته، لعن البلاء، وتفاقم الشر، وفسخت أنكحة أكثر العالم، وكان الفراق بيد أكثر النساء، فمن الذي لم تُصِبْ عُسرة، ويعوز النفقة أحياناً.

قالوا: ولو تعلد من المرأة الاستمتاع بمرض متناول، وأعسرت بالجماع، لم يمكن الزوج من فسخ النكاح، بل يُوجبون عليه النفقة كاملة مع إعسار زوجته بالوطء، فكيف يُمكنونها من الفسخ بإعساره عن النفقة التي غايتها أن تكون عوضاً عن الاستمتاع؟ قالوا: وأما حديث أبي هريرة، فقد صرح فيه بأن قوله: امرأتك تقول: أنفق علي وإلا طلقني من كيسه،

لا من كلام النبي ﷺ، وهذا في «الصحیح» عنه. ورواه عنه سعيد بن أبي سعيد، وقال: ثم يقول أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث: امرأتك تقول، فذكر الزيادة.

وأما حديث حماد بن سلمة، عن عاصم بن بهدلة، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بمثله، فأشار إلى حديث يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب في الرجل لا يجد ما ينفق على امرأته قال: يُفرق بينهما؛ فحديث منكر لا يحتمل أن يكون عن النبي ﷺ أصلاً، وأحسن أحواله أن يكون عن أبي هريرة رضي الله عنه موقوفاً، والظاهر: أنه روي بالمعنى، وأراد قول أبي هريرة رضي الله عنه: امرأتك تقول: أطعني أو طلقني، وأما أن يكون عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، أنه سئل عن الرجل لا يجد ما يُنفق على امرأته، فقال: يُفرق بينهما، فوالله ما قال هذا رسول الله ﷺ، ولا سمعه أبو هريرة، ولا حدث به، كيف وأبو هريرة لا يستجيز أن يروي عن النبي ﷺ: «امراتك تقول: أطعني وإلا طلقني»، ويقول: هذا من كيس أبي هريرة لثلاثتهم نسبت إلى النبي ﷺ.

والذي تقتضيه أصول الشريعة وقواعدها في هذه المسألة أن الرجل إذا غر المرأة بأنه ذو مال، فتزوجته على ذلك، فظهر مُغديماً لا شيء له، أو كان ذا مال، وترك الإنفاق على امرأته، ولم تقلد على أخذ كفايتها من ماله بنفسها، ولا بالحاكم أن لها الفسخ، وإن تزوجته عالمة بعُسرتها، أو كان موسراً، ثم أصابته جائحة اجتاحت ماله، فلا فسح لها في ذلك، ولم تزل الناس تصيهم الفاقة بعد اليسار، ولم ترفعهم أزواجهم إلى الحكام، ليفرقوا بينهم وبينهن، وبالله التوفيق.

(هل يثبت الفسخ بالإعسار بالصداق)

وقد قال جمهور الفقهاء: لا يثبت لها الفسخ بالإعسار بالصداق، وهذا قول أبي حنيفة وأصحابه، وهو الصحيح من مذهب أحمد رحمه الله، اختاره عامة أصحابه، وهو قول كثير من أصحاب الشافعي. وفصل الشيخ أبو إسحاق وأبو علي بن أبي هريرة، فقالا: إن كان قبل الدخول، ثبت به الفسخ، وبعده لا

يُثْبِت، وهو أحد الوجوه من مذهب أحمد هذا مع أنه عِوض محض، وهو أحق أن يوفى من ثمن المبيع، كما دلَّ عليه النص، كلُّ ما تقرر في عدم الفسخ به، فمثله في النفقة وأولى.

فإن قيل: في الإعسار بالنفقة من الضرر اللاحق بالزوجة ما ليس في الإعسار بالصدّاق، فإن البنية تقوم بدونه بخلاف النفقة. قيل: والبنية قد تقوم بدون نفقة بأن تُنفق من مالها، أو يُنفق عليها ذو قرابتها، أو تأكل من غزلها، وبالجمل، فتعيش بما تعيش به زمن العدة، وتقدر زمن عُسرة الزوج كله عدّة.

ثم الذين يُجوزون لها الفسخ يقولون: لها أن تفسخ ولو كان معها القناطير المقنطرة من الذهب والفضة إذا عجز الزوج عن نفقتها، وبإزاء هذا القول قولٌ ومنجنيق الغرب أبي محمد بن حزم: إنه يجب عليها أن تُنفق عليه في هذه الحال، فتعطيه مالها، وتُمكنه من نفسها، ومن العجب قولُ العبري بأنه يُحبس.

وإذا تأملت أصول الشريعة وقواعدها، وما اشتملت عليه من المصالح ودرء المفاسد، ودفع أعلى المفسدين باحتمال أدناها، وتفويت أدنى المصلحتين لتحصيل أعلاهما، تبين لك القول الراجح من هذه الأقوال، وبالله التوفيق.

فصل

في حكم رسول الله ﷺ الموافق لكتاب الله أنه لا نفقة للمبتوتة

ولا سكنى

روى مسلم في «صحيحه»، عن فاطمة بنت قيس، أن أبا عمرو بن حفص طلقها البتة وهو غائب، فأرسل إليها وكيله بشعير، فسخطته فقال: والله مالك علينا من شيء، فجاءت رسول الله ﷺ، فذكرت ذلك له وما قال، فقال: «لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِ نَفَقَةٌ»، فأمرها أن تعتد في بيت أم شريك، ثم قال: «بِئْسَ امْرَأَةٌ يَغْشَاهَا أَصْحَابِي، اغْتَدِي عِنْدَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ أَعْمَى، تَضَعِينَ ثِيَابَكَ، فَإِذَا حَلَلْتَ فَأَنِينِي». قالت: فلما حللت، ذكرت له أن معاوية بن أبي سفيان

وأبا جهم خطباني، فقال رسول الله ﷺ: «أَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَلَا يَصُحُّ عَصَاهُ عَنْ عَائِقِهِ، وَأَمَّا مُعَاوِيَةُ فَضَعْلُوكَ لَا مَالَ لَهُ، أَنْكِحِي أَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ» فكرهته، ثم قال: «أَنْكِحِي أَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ» فنكحته، فجعل الله فيه خيراً واغتبطت [مسلم: ٣٦٩٧].

وفي «صحيحه» أيضاً: عنها أنها طلقها زوجها في عهد رسول الله ﷺ، وكان أنفق عليها نفقةً دوناً فلما رأت ذلك، قالت: والله لأُعلمَنَّ رسول الله ﷺ، فإن كانت لي نفقة أخذت الذي يُصلحني، وإن لم تكن لي نفقة، لم آخذ منه شيئاً، قالت: فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «لَا نَفَقَةَ لَكَ وَلَا سَكْنَى» [مسلم: ٣٦٩٨].

وفي «صحيحه» أيضاً عنها، أن أبا حفص بن المغيرة المخزومي طلقها ثلاثاً، ثم انطلق إلى اليمن، فقال لها أهله: ليس لك علينا نفقة، فانطلق خالد بن الوليد في نفر، فأتوا رسول الله ﷺ في بيت ميمونة، فقالوا: إن أبا حفص طلق امرأته ثلاثاً، فهل لها من نفقة؟ فقال رسول الله ﷺ: «لَيْسَتْ لَهَا نَفَقَةٌ وَعَلَيْهَا الْعِدَّةُ»، وأرسل إليها: «أَنْ لَا تَسْبِقَنِي بِتَفْسِكَ»، وأمرها أن تنتقل إلى أم شريك، ثم أرسل إليها: «أَنْ أُمُّ شَرِيكِ يَأْتِيهَا الْمُهَاجِرُونَ الْأَوَّلُونَ، فَاذْهَبِي إِلَى ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ الْأَعْمَى فَإِنَّكَ إِذَا وَضَعْتَ خِمَارَكَ لَمْ يَرَكْ»، فانطلقت إليه، فلما انقضت عدتها أنكحها رسول الله ﷺ أسامة بن زيد بن حارثة [مسلم: ٣٧٠٠].

وفي «صحيحه» أيضاً، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، أن أبا عمرو بن حفص بن المغيرة خرج مع علي بن أبي طالب إلى اليمن، فأرسل إلى امرأته فاطمة بنت قيس بتطليقة كانت بقيت من طلاقها، وأمر لها الحارث بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة بنفقة، فقالا لها: والله ما لك نفقة إلا أنها تكوني حاملاً، فأنت النبي ﷺ، فذكرت له قولهما، فقال: «لَا نَفَقَةَ لَكَ»، فاستأذنته في الانتقال، فأذن لها، فقالت: أين يا رسول الله؟ قال: «إِلَى ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ»، وكان أعمى تَضَعُ ثِيَابَهَا عِنْدَهُ وَلَا يَرَاهَا، فلما مضت عدتها، أنكحها النبي ﷺ أسامة بن زيد، فأرسل إليها مروان قبيصة بن ذؤيب يسألها عن الحديث، فحدثته به، فقال مروان لم نسمع هذا الحديث إلا من امرأة،

منزلكم؟ قال: لا، فشدت علي ثيابي، وأتيت رسول الله ﷺ، فقال: «كَمْ طَلَّقَكَ؟» قلت: ثلاثاً. قال: «صَدَقَ، لَيْسَ لَكَ نَفَقَةٌ، اَعْتَدِي فِي بَيْتِ ابْنِ عَمِّكَ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ، فَإِنَّ ضَرِيرَ الْبَصَرِ تَضْمِينُ تَوْبِكَ عِنْدَهُ، فَإِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُكَ فَأَذِينِي» [مسلم: ٣٧١٣].

وروى النسائي في «سننه» هذا الحديث بطرقه وألفاظه، وفي بعضها بإسناد صحيح لا مطعن فيه، فقال لها النبي ﷺ: «إِنَّمَا النَّفَقَةُ وَالسُّكْنَى لِلْمَرْأَةِ إِذَا كَانَ لِرُجْعِهَا عَلَيْهَا الرَّجْعَةُ» [النسائي (١٤٤/٦)]، ورواه الدارقطني وقال: فأتت رسول الله ﷺ، فذكرت ذلك له، قالت: فلم يجعل لي سكنى ولا نفقة، وقال: «إِنَّمَا السُّكْنَى وَالنَّفَقَةُ لِمَنْ يَمْلِكُ الرَّجْعَةَ». وروى النسائي أيضاً هذا اللفظ، وإسنادهما صحيح [النسائي (١٤٤/٦)].

ذكر موافقة هذا الحكم لكتاب الله عز وجل

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِمِذَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَالَّذِي هُوَ اللَّهُ وَمَنْ يَعْتَدِ عُدْوَةَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُخْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١-٣]، فإذا بلغن أجلهن فأتىكمهن بمعروفٍ أو فارقوهن بمعروفٍ وأشهدوا ذوي عدلٍ نكحوا وأقيموا الشهادة لله، إلى قوله: ﴿فَدَّ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ١-٣]، فأمر الله سبحانه الأزواج الذين لهم عند بلوغ الأجل الإمساك والتسريح بأن لا يخرجوا أزواجهن من بيوتهم، وأمر أزواجهن أن لا يخرجن، فدل على جواز إخراج من ليس لزوجها إمساكها بعد الطلاق، فإنه سبحانه ذكر لهؤلاء المطلقات أحكاماً متلازمة لا ينفك بعضها عن بعض.

أحدها: أن الأزواج لا يخرجوهن من بيوتهن.

والثاني: أنهن لا يخرجن من بيوت أزواجهن.

والثالث: أن لأزواجهن إمساكهن بالمعروف قبل انقضاء الأجل، وترك الإمساك، فيُسرحوهن بإحسان.

سنأخذ بالعصمة التي وجدنا الناس عليها، فقالت فاطمة حين بلغها قول مروان: بيني وبينكم القرآن، قال الله عز وجل: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُخْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١]، قالت: هذا لمن كان له مراجعة فأمر يحدث بعد الثلاث!؟ فكيف تقولون: لا نفقة لها إذا لم تكن حاملاً، فعلام تحبسونها؟! [مسلم: ٣٧٠٤].

وروى أبو داود في هذا الحديث بإسناد مسلم عقيب قول عياض بن أبي ربيعة والحارث بن هشام: لا نفقة لك إلا أن تكوني حاملاً، فأتى النبي ﷺ، فقال: «لَا نَفَقَةٌ لَكَ إِلَّا أَنْ تَكُونِي حَامِلًا» [أبو داود: ٢٢٩٠].

وفي «صحيحه» أيضاً^(١) عن الشعبي قال: دخلت على فاطمة بنت قيس، فسألتها عن قضاء رسول الله ﷺ عليها، فقالت: طلقها زوجها البتة، فخاصمته إلى رسول الله ﷺ في السكنى والنفقة، قالت: فلم يجعل لي سكنى ولا نفقة، وأمرني أن أعتد في بيت ابن أم مكتوم [مسلم: ٣٧٠٥].

وفي «صحيحه» عن أبي بكر بن أبي الجهم العدوي، قال: سمعت فاطمة بنت قيس تقول: طلقها زوجها ثلاثاً، فلم يجعل لها رسول الله ﷺ سكنى ولا نفقة، قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «إِذَا حَلَلْتَ فَأَذِينِي»، فأذنته، فخطبها معاوية، وأبو جهم، وأسامة بن زيد، فقال رسول الله ﷺ: «أَمَّا معاوية فَرَجُلٌ تَرَبَّ لَا مَالَ لَهُ، وَأَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَرَجُلٌ ضَرَبَ لِلنِّسَاءِ، وَلَكِنْ أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ»، فقالت بيدها هكذا: أسامة! أسامة! فقال لها رسول الله ﷺ: «طَاعَةُ اللَّهِ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ خَيْرٌ لَكَ»، فتزوجته، فاغتبطت [مسلم: ٣٧١٢].

وفي «صحيحه» أيضاً عنها قالت: أرسل إلي زوجي أبو عمرو بن حفص بن المغيرة عياض بن أبي ربيعة بطلاقي، فأرسل معه بخمسة أضع تمر، وخمسة أصع شعير، فقلت: أما لي نفقة إلا هذا؟ ولا أعتد في

(١) «صحيح مسلم».

بانت عنه، وهي معتدة منه، قد تعدلّ منهما الاستمتاع، لأنها لو وجبت لها السكنى، لوجب لها النفقة، كما يقوله من يوجبها. فأما أن تجب لها السكنى دون النفقة، فالتصّ والقياس يدفعه، وهذا قول عبد الله بن عباس وأصحابه، وجابر بن عبد الله، وفاطمة بنت قيس إحدى فقهاء نساء الصحابة وكانت فاطمة تُناظر عليه، وبه يقول أحمد ابن حنبل وأصحابه، وإسحاق بن راهويه وأصحابه، وداود بن علي وأصحابه، وسائر أهل الحديث. وللفقهاء في هذه المسألة ثلاثة أقوال، وهي ثلاث روايات عن أحمد: أحدها: هذا. والثاني: أن لها النفقة والسكنى، وهو قول عمر بن الخطاب، وابن مسعود، وفقهاء الكوفة. والثالث: أن لها السكنى دون النفقة، وهذا مذهب أهل المدينة، وبه يقول مالك والشافعي.

ذكر المطاعن التي طعن بها على حديث

فاطمة بنت قيس قديماً وحديثاً

فأولها طعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فروى مسلم في «صحيحه»: عن أبي إسحاق، قال: كنت مع الأسود بن يزيد جالساً في المسجد الأعظم، ومعنا الشعبي، فحدث الشعبي بحديث فاطمة بنت قيس، أن رسول الله ﷺ لم يجعل لها سكنى ولا نفقة، ثم أخذ الأسود كفاً من حصي، فحصبه به، فقال: وَتِلْكَ تُحَدِّثُ بِمَثَلِ هَذَا؟ قال عمر: لَا تَتْرُكُ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّنا ﷺ لِقَوْلِ امْرَأَةٍ لَا نَدْرِي لَعَلَّهَا حَفِظَتْ أَوْ نَبِيَتْ؟ لَهَا السُّكْنَى وَالنَّفَقَةُ؟ قال الله عز وجل: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفِتْنَةٍ سَوِيَّةٍ﴾ [سلم: ٣٧١٠] قالوا: فهذا عمر يخبر أن سنة رسول الله ﷺ أن لها النفقة والسكنى، ولا ريب أن هذا مرفوع، فإن الصحابي إذا قال: من سنة كذا، كان مرفوعاً، فكيف إذا قال: من سنة رسول الله ﷺ؟ فكيف إذا كان القائل عمر بن الخطاب؟ وإذا تعارضت رواية عمر رضي الله عنه، ورواية فاطمة، فرواية عمر رضي الله عنه أولى لا سيما ومعها ظاهر القرآن، كما سذكر. وقال سجد بن منصور: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، قال: كان عمر بن الخطاب إذا دُكِرَ عنده

والرابع: إسهاد ذوي عدل، وهو إسهاد على الرجعة إما وجوباً، وإما استحباباً، وأشار سبحانه إلى حكمة ذلك، وأنه في الرجعات خاصة بقوله: ﴿لَا تَذَرِي لَمَلَّ اللَّهِ يُحْيِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ والامر الذي يُرْجَى إحداثه هاهنا: وهو المراجعة. هكذا قال السلف ومن بعدهم. قال ابن أبي شيبة: حدثنا أبو معاوية، عن داود الأودي، عن الشعبي: ﴿لَا تَذَرِي لَمَلَّ اللَّهِ يُحْيِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾، قال: لعلك تَنْدَمُ، فيكون لك سبيلٌ إلى الرجعة، وقال الضحاك: ﴿لَمَلَّ اللَّهِ يُحْيِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ قال: لعله أن يُراجِعَهَا في العِدَّة، وقاله عطاء، وقنادة، والحسن، وقد تقدّم قول فاطمة بنت قيس: أي أمر يحدث بعد الثلاث؟ فهذا يدل على أن الطلاق المذكور: هو الرجعي الذي ثبتت فيه هذه الأحكام، وأن حكمة أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، اقتضته لعل الزوج أن يَنْدَمَ، ويَزُولَ الشَّرُّ الذي تَزَعُّهُ الشيطان بينهما، فتبعضا نفسه، فُراجِعَهَا، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لو أن الناس أخذوا بأمر الله في الطلاق، ما تبع رجل نفسه امرأة يُطَلِّقُهَا أبداً.

ثم ذكر سبحانه الأمر بإسكان هؤلاء المطلقات، فقال: ﴿أَتَكْفُرُونَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ بَيْنِكُمْ﴾ [الطلاق: ٦]، فالضامائر كلها يُجَدُّ مفسرها، وأحكامها كلها متلازمة، وكان قول النبي ﷺ: ﴿إِنَّمَا النَّفَقَةُ وَالسُّكْنَى لِلْمَرْأَةِ إِذَا كَانَ لِرُزْجِهَا عَلَيْهَا رَجْعَةٌ﴾، مشتقاً من كتاب الله عز وجل، ومفسراً له، وياناً لمراد المتكلم به منه، فقد تبين اتحاد قضاء رسول الله ﷺ، وكتاب الله عز وجل، والميزان العادل معهما أيضاً لا يُخالفهما، فإن النفقة إنما تكون للزوجة، فإذا بانت منه، صارت أجنبية حكماً حكم سائر الأجنيات، ولم يبق إلا مجرد اعتنادها منه، وذلك لا يوجب لها نفقة، كالمطووعة بشبهة أو زنى، ولأن النفقة إنما تجب في مقابلة التمكن من الاستمتاع، وهذا لا يمكن استمتاعه بها بعد بينوتها، ولأن النفقة لو وجبت لها عليه لأجل عدتها، لوجب للمتوفى عنها من ماله، ولا فَرْقَ بينهما البتة، فإن كُلَّ واحد منهما قد

حديث فاطمة بنت قيس قال: ما كنا نغير في ديننا بشهادة امرأة.

ذكر طعن عائشة رضي الله عنها

في خبر فاطمة بنت قيس

في «الصحيحين»: من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، قال: تزوج يحيى بن سعيد بن العاص بنت عبد الرحمن بن الحكم فطلقها، فأخرجها من عنده، فعاب ذلك عليهم عروة، فقالوا: إن فاطمة قد خرجت، قال عروة: فأتيت عائشة رضي الله عنها، فأخبرتها بذلك، فقالت: ما لفاطمة بنت قيس خير أن تذكر هذا الحديث. وقال البخاري: فانتقلها عبد الرحمن، فأرسلت عائشة إلى مروان وهو أمير المدينة، أتى الله وأرؤدها إلى بيتها. قال مروان: إن عبد الرحمن بن الحكم غلبي، وقال القاسم بن محمد: أو ما ببلغ شأن فاطمة بنت قيس؟ قالت: لا يضررك، ألا تذكر حديث فاطمة، فقال مروان: إن كان بك شر، فحسبك ما بين هذين من الشر [البخاري: ٥٣٢١، ومسلم: ٣٧١٧].

ومعنى كلامه: إن كان خروج فاطمة لما يقال من شر كان في لسانها، فيكفيك ما بين يحيى بن سعيد بن العاص وبين امرأتين من الشر.

وفي «الصحيحين»: عن عروة، أنه قال لعائشة رضي الله عنها: ألم تري إلى ثلاثة بنات الحكم طلقها زوجها البتة فخرجت، فقالت: بلئس ما صنعت، فقلت: ألم تسمعي إلى قول فاطمة، فقالت: أما إنه لا خير لها في ذكر ذلك [البخاري: ٥٣٢٥، ومسلم: ٣٧١٩].

وفي حديث القاسم، عن عائشة رضي الله عنها يعني: في قولها: لا سكنى لها ولا نفقة. وفي «صحيح البخاري»: عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لفاطمة: ألا تتقي الله، تعني في قولها لا سكنى لها ولا نفقة [البخاري: ٥٣٢٣ - ٥٣٢٤] وفي «صحيحه» أيضاً عنها قالت: إن فاطمة كانت في مكان وحش، فخيف على ناحيتها، فلذلك أرحص النبي ﷺ لها [البخاري: ٥٣٢٣ - ٥٣٢٤].

وقال عبد الرزاق: عن ابن جريج، أخبرني ابن شهاب، عن عروة، أن عائشة رضي الله عنها أنكرت ذلك على فاطمة بنت قيس، تعني: «انتقال المطلقة ثلاثاً» [مسلم: ٣٧٠٢].

وذكر القاضي إسماعيل حدثنا نصر بن علي، حدثني أبي، عن هارون عن محمد بن إسحاق، قال: أحسبه عن محمد بن إبراهيم، أن عائشة رضي الله عنها قالت لفاطمة بنت قيس: إنما أخرجك هذا اللسان.

ذكر طعن أسامة بن زيد حب رسول الله

وابن حبه على حديث فاطمة

روى عبد الله بن صالح كاتب الليث، قال: حدثني الليث بن سعد، حدثني جعفر، عن ابن هرمز، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، قال: كان محمد بن أسامة بن زيد يقول: كان أسامة إذا ذكرت فاطمة شيئاً من ذلك يعني انتقالها في عدتها رماها بما في يده^(١).

ذكر طعن مروان على حديث فاطمة

روى مسلم في «صحيحه»: من حديث الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة حديث فاطمة هذا: أنه حدث به مروان، فقال مروان: لم نسمع هذا إلا من امرأة سناخذ بالعصمة التي وجدنا الناس عليها [مسلم: ٣٧٠٤].

ذكر طعن سعيد بن المسيب

روى أبو داود في «سننه»: من حديث ميمون بن مهران، قال: قدمت المدينة، فدفعني إلى سعيد بن المسيب، فقلت: فاطمة بنت قيس طلقت، فخرجت من بيتها، فقال سعيد: تلك امرأة قتلت الناس إنها كانت امرأة لينة، فوضعت على يدي ابن أم مكتوم الأعمى [أبو داود: ٢٢٩٦].

ذكر طعن سليمان بن سيار

روى أبو داود في «سننه» أيضاً، قال في خروج فاطمة: إنما كان من سوء الخلق [أبو داود: ٢٢٩٤].

(١) عبد الله بن صالح كاتب الليث ضعيف.

ذكر طعن الأسود بن يزيد

الانقطاع، وفي بعضها من الضعف، وفي بعضها من البطلان ما سَنَبَّه عليه، وبعضها صحيح عمن نسب إليه بلا شك.

(رد المطنن الأول وهو ككون الراوي امرأة)

فأما المطنن الأول: وهو كَوْنُ الراوي امرأة، فمطنن باطلٌ بلا شك، والعلماء قاطبة على خلافه، والمحتجُّ بهذا من أتباع الأئمة أوّل مبطل له ومخالف له، فإنهم لا يختلفون في أن السنن تُؤخذ عن المرأة كما تُؤخذ عن الرجل، هذا وكَم من سنة تلقاها الأئمة بالقبول عن امرأة واحدة من الصحابة، وهذه مسانيدُ نساء الصحابة بأيدي الناس لا تشاء أن ترى فيها سنة تفرّدت بها امرأةٌ منهم إلّا رأيتها، فما ذنبُ فاطمة بنتِ قيس دون نساء العالمين، وقد أخذ الناسُ بحديثِ فُرَيْعة بنت مالك بن سنان أختِ أبي سعيد في اعتدادِ المتوفى عنها في بيت زوجها [صحيح: أحمد: ٢٧٠٨٧،

وابو داود: ٢٣٠٠، والترمذي: ١٢٠٤، وابن ماجه: ٢٠٣١] وليست فاطمة بدونها علماً وجملاً وثقةً وأمانةً، بل هي أفقهُ منها بلا شك، فإن فُرَيْعة لا تُعرف إلّا في هذا الخبر وأما شهرةُ فاطمة، ودعاؤها من نازعها من الصحابة إلى كتاب الله، ومناظرتها على ذلك فأمر مشهور، وكانت أسعدَ بهذه المناظرة ممن خالفها كما مضى تقريره، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يختلفون في الشيء، فتروى لهم إحدى أمهات المؤمنين عن النبي ﷺ شيئاً فيأخذون به، ويرجعون إليه، ويتركون ما عندهم له، وإنما فُضِّلَ على فاطمة بنت قيس بكونهن أزواجَ رسول الله ﷺ، وإلا فهي من المهاجرات الأول، وقد رضيها رسول الله ﷺ ليحبّه وابن جبه أسامة بن زيد، وكان الذي خطبها له. وإذا شئت أن تعرف مقدارَ حفظها وعلمها، فاعرفه من حديث الدُّجَالِ الطويل الذي حدث به رسول الله ﷺ على المنبر، فوعته فاطمة وحفظته، وأدته كما سمعته [سلم: ٧٣٨٦]، ولم ينكره عليها أحد مع طولهِ وغرابته، فكيف بقصة جرت لها وهي سببها، وخاصمت فيها، وحكم فيها بكلمتين: وهي لا نفقة ولا سكتى، والعادة تُوجبُ حفظ مثل هذا وذكره، واحتمال النسيان فيه أمر مشترك بينها وبين من أنكر عليها، فهذا عمرٌ قد نسي تيمّم الجنب،

تقدّم حديثُ مسلم: أن الشعبي حَدَّث بحديث فاطمة، فأخذ الأسودُ كُفّاً من حصباء فحصبه به، وقال: وملك تحدث بمثل هذا؟! وقال النسائي: وملك لِم تُفتي بمثل هذا؟ قال عمر لها: إن جئت بشاهدين يشهدان أنهما سمعاه من رسول الله ﷺ، وإلا لم نترك كتابَ رَبِّنا لِقَوْلِ امرأةٍ [النسائي (٢٠٩/٦)].

ذكر طعن أبي سلمة بن عبد الرحمن

قال الليث: حدثني عقيل، عن ابن شهاب، قال: أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن، فذكر حديث فاطمة ثم قال: فأنكر الناسُ عليها ما كانت تُحدِّث من خروجها قبل أن تجلّ، قالوا: وقد عارض رواية فاطمة صريحُ رواية عُمر في إيجاب النفقة والسكنى، فروى حماد بن سلمة، عن حماد بن أبي سليمان، أنه أخبر إبراهيم النخعي بحديث الشعبي عن فاطمة بنت قيس، فقال له إبراهيم: إن عمر أخبرَ بقولها، فقال: لسنا بشاركي آية من كتاب الله وقول النبي ﷺ لقول امرأة لعلها أوهمت، سمعتُ النبي ﷺ يقول: «لَهَا السُّكْنَى وَالنَّفَقَةُ» ذكره أبو محمد في «المحلى» [١٠/ ٢٩٧ - ٢٩٨]، فهذا نص صريح يجب تقديمه على حديث فاطمة لإجلالة رواته، وترك إنكارِ الصحابة عليه وموافقة لكتاب الله.

ذكر الأجوبة عن هذه المطاعن

وبيان بطلانها

وحاصلها أربعة:

أحدها: أن راويتها امرأة لم تأت بشاهدين يُتابعانها على حديثها.

الثاني: أن روايتها تضمنت مخالفة القرآن.

الثالث: أن خروجها من المنزل لم يكن لأنه لا حق لها في السكنى، بل لأذاها أهل زوجها بلسانها.

الرابع: معارضة روايتها برواية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

ونحن نبين ما في كل واحد من هذه الأمور الأربعة بحول الله وقوته، هذا مع أن في بعضها من

وذكره عمار بن ياسر أمر رسول الله ﷺ لهما بالتيمم من الجنابة [البخاري: ٣٣٨، ومسلم: ٨١٨]، فلم يذكره عمر رضي الله عنه، وأقام على أن الجنب لا يصلي حتى يجد الماء.

ونسى قوله تعالى: ﴿وَلَنْ أَرَدْتُمْ أَنْتَبَدَالَ زَوْجٍ مَصَكَاتٍ زَوْجٍ وَمَا تَشْتَرُونَ إِلَّا نَسْفَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ [النساء: ٢٠]، حتى ذكرته به امرأة، فرجع إلى قولها [تفسير ابن كثير (١/٤٦٧)].

ونسى قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلَهُمْ مَنَئِنُ﴾ [الزمر: ٣٠]، حتى ذكر به، فإن كان جواز النسيان على الراوي يُوجب سقوط روايته، سقطت رواية عمر التي عارضتم بها خبر فاطمة، وإن كان لا يُوجب سقوط روايته، بطلت المعارضة بذلك، فهي باطلة على التقديرين، ولو رُدَّتِ السُّنَنُ بمثل هذا، لم يبق بأيدي الأمة منها إلا اليسير، ثم كيف يُعارض خبر فاطمة، ويُظعن فيه بمثل هذا من يرى قبول خبر الواحد العدل، ولا يشترط للرواية نصاباً، وعمر رضي الله عنه أصابه في مثل هذا ما أصابه في رد خبر أبي موسى في الاستئذان حتى شهد له أبو سعيد [البخاري: ٦٢٤٥، ومسلم: ٥٦٢٦]، وردَّ خبر المغيرة بن شعبة في إملاص المرأة حتى شهد له مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمَةَ [البخاري: ٧٣١٨]، وهذا كان تبييناً منه رضي الله عنه حتى لا يركب الناس الصُّعْبَ وَالذَّلُولَ في الرواية عن رسول الله ﷺ، وإلا فقد قِيلَ خَيْرُ الضَّحَّاكِ بْنُ سَفْيَانَ الْكَلَابِي وحده وهو أعرابي، وقبل لعائشة رضي الله عنها عدة أخبار تفرَّدت بها، وبالجمل، فلا يقول أحد: إنه لا يُقبل قول الراوي الثقة العدل حتى يشهد له شاهدان لا سيما إن كان من الصحابة.

فصل

(رد القول بان رواية فاطمة مخالفة للقرآن)

وأما المظن الثاني: وهو أن روايتها مخالفة للقرآن، فتجيب بجوابين: مجمل، ومفصل، أما المُجْمَل: فنقول: لو كانت مخالفة كما ذكرتم، لكانت مخالفة لعمومه، فتكون تخصيصاً للعام، فحكمها حكم تخصيص قوله: ﴿يُؤَيِّدُكُمُ اللَّهُ فِي أَفْعَالِكُمْ﴾ [النساء: ١١]، بالكافر، والريق،

والقاتل، وتخصيص قوله: ﴿وَأَعْلَمُ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ [النساء: ٢٤]، بتحريم الجمع بين المرأة وعمتها، وبينها وبين خالتها ونظائره، فإن القرآن لم يخص البائن بأنها لا تُخرج ولا تُخرج، وبأنها تسكن من حيث يسكن زوجها، بل إما أن يعمها وعم الرجعية، وإما أن يخص الرجعية.

فإن عم النوعين، فالحديث مخصص لعمومه، وإن خص الرجعيات - وهو الصواب للسياق الذي من تدبره وتأمله قطع بأنه في الرجعيات من عدة أوجه قد أشرنا إليها - فالحديث ليس مخالفاً لكتاب الله، بل موافق له، ولو دُكِّرَ أمير المؤمنين رضي الله عنه بذلك، لكان أول راجع إليه، فإن الرجل كما ينهل عن النص ينهل عن دلالته وسياقه، وما يقترن به مما يبين المراد منه، وكثيراً ما ينهل عن دخول الواقعة المعينة تحت النص العام واندرجه تحتها، فهذا كثير جداً، والتفطن له من الفهم الذي يؤتيه الله من يشاء من عباده، ولقد كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه من ذلك بالمتزلة التي لا تُجهل، ولا تستغرقها عبارة، غير أن النسيان والذهول عُرْضَةٌ لِلْإِنْسَانِ، وإنما الفاضل العالم من إذا دُكِّرَ ذَكَرَ وَرَجَعَ.

فحديث فاطمة رضي الله عنها مع كتاب الله على ثلاثة أطباق لا يخرج عن واحد منها، إما أن يكون تخصيصاً لعامه. الثاني: أن يكون بياناً لما لم يتاوله، بل سكت عنه. الثالث: أن يكون بياناً لما أريد به وموافقاً لما أرشد إليه سياقه وتعليقه وتبيينه، وهذا هو الصواب، فهو إذن موافق له لا مخالف، وهكذا ينبغي قطعاً، ومعاذ الله أن يحكم رسول الله ﷺ بما يخالف كتاب الله تعالى أو يعارضه، وقد أنكر الإمام أحمد رحمه الله هذا من قول عمر رضي الله عنه، وجعل يتبسّم ويقول: أين في كتاب الله لإيجاب السكنى والنفقة للمطلقة ثلاثاً، وأنكرته قبله الفقيه الفاضلة فاطمة، وقالت: بيني وبينكم كتاب الله، قال الله تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لَمَلَّ اللَّهُ بِحَيْثُ بَدَّلَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١]، وأي أمر يحدث بعد الثلاث، وقد تقدم أن قوله: ﴿إِنَّمَا يَلْقَى الْفُلُ لَهَا مِنَّا غَاسِقًا﴾ [الطلاق: ٢]، يشهد بأن الآيات كلها في الرجعيات.

فصل

(رد مطعن ان خروجها كان لفحش لسانها)

لله، وأحرص على تبليغ سُنَنِ رسولِ الله ﷺ أن تكونَ
هذه السنةُ عنده ثم لا يرويهَا أصلاً، ولا يُبينها ولا
يُبلغها عن رسول الله ﷺ.

وأما حديثُ حماد بن سلمة عن حماد بن أبي
سليمان، عن إبراهيم، عن عمر رضي الله عنه،
سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لَهَا السُّكْنَى وَالتَّقَةُ»،
فنحن نشهدُ بالله شهادةً نُسألُ عنها إذا لقيناه، أن هذا
كذبٌ على عُمَرَ رضي الله عنه، وكذب على
رسولِ الله ﷺ، وينبغي أن لا يحولَ الإنسانُ فرطَ
الانتصار للمذاهب والتعصب لها على معارضة سُنَنِ
رسولِ الله ﷺ الصحيحة الصريحة بالكذب البحت،
فلو يكونُ هذا عند عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ،
لَخَرَسَتْ فاطمة وذووها، ولم يَنْبَسُوا بكلمة، ولا
دَعَتْ فاطمةُ إلى المناظرة، ولا احتيجَ إلى ذكر
إخراجها لبذاء لسانها، ولما فات هذا الحديثُ أئمةُ
الحديثِ والمصنفين في السنن والأحكام المتصرين
للسنن فقط لا لِمذهب، ولا لرجل، هذا قبل أن يُصَلَّ
به إلى إبراهيم، ولو قدر وصولنا بالحديث إلى إبراهيم
لا نقطعُ نَحَاغَهُ، فإن إبراهيم لم يُولد إلا بعد موت عمر
رضي الله عنه بسنين، فإن كان مخبرٌ أخبر به إبراهيم
عن عمر رضي الله عنه، وحسناً به الظن، كان قد
روى له قول عمر رضي الله عنه بالمعنى، وظنُّ أن
رسولَ الله ﷺ هو الذي حكم بثبوت النفقة والسكنى
للمطلقة، حتى قال عمر رضي الله عنه: لا ندع كتابَ
ربنا لِقَوْلِ امرأة، فقد يكون الرجل صالحاً ويكون
مَغْفَلاً، ليس تحمُلُ الحديثَ وحفظه وروايته من
شأنه، وبالله التوفيق.

(مناظرة ميمون لابن المسيب)

في حديث فاطمة وذكر المصنف بعض الأحكام

(المستنبطة من حديث فاطمة)

وقد تناظر في هذه المسألة ميمونُ بن مهران،
وسعيدُ بن المسيب، فذكر له ميمون خبر فاطمة، فقال
سعيد: تلك امرأة فتنَتِ الناسَ، فقال له ميمون: لئن
كانت إنما أخذت بما أفتاها به رسولُ الله ﷺ ما فتنَتِ
الناسَ، وإن لنا في رسولِ الله ﷺ أسوةً حسنة، مع
أنها أحرمتُ الناسَ عليه ليس لها عليه رجعة، ولا بينهما

وأما المطعن الثالث: وهو أن خروجها لم يكن إلا
لفحش من لسانها، فما أبرده من تأويل وأسمجه، فإن
المرأةَ من خيار الصحابة رضي الله عنهم وأفضلاتهم،
ومن المهاجرات الأول، ومن لا يحملها رقة الدين
وقلة التقوى على فُحْشٍ يُوجب إخراجها من دارها،
وأن يمنع حقها الذي جعله الله لها، ونهى عن
إضاعته، فيا عجباً! كيف لم يُنَكِّرْ عليها النبي ﷺ هذا
الفُحْشَ؟ ويقول لها: اتقي الله، وكُفِّي لسانك عن
أذى أهل زوجك، واستقري في مسكنك؟ وكيف
يَعْدِلُ عن هذا إلى قوله: «لا نفقة لك ولا سكنى»،
إلى قوله: «لِنَا السُّكْنَى وَالتَّقَةُ لِلْمَرْأَةِ إِذَا كَانَ
لِرِزْقِهَا عَلَيْهَا رَجْعَةٌ؟» فيا عجباً! كيف يترك هذا
المانع الصريح الذي خرج من بين شفتي النبي ﷺ،
ويُعلِّلُ بأمرٍ موهوم لم يعلل به رسول الله ﷺ البتة،
ولا أشار إليه، ولا نبه عليه؟ هذا من المحال البين.
ثم لو كانت فاحشة اللسان وقد أعادها الله من ذلك،
لقال لها النبي ﷺ، وسمعتُ وأطاعت: كُفِّي لِسَانَكَ
حتى تنقضي عِدَّتُكَ، وكان من دونها يسمع ويطيع لثلاث
تخرج من سكتة.

فصل

(رد مطعن معارضة روايتها برواية عمر)

وأما المطعن الرابع: وهو معارضة روايتها برواية
عمر رضي الله عنه، فهذه المعارضة تُورد من
وجهين: أحدهما: قوله: لا ندع كتابَ ربنا وسنةً
نبينا، وأن هذا من حكم المرفوع. الثاني: قوله:
سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لَهَا السُّكْنَى وَالتَّقَةُ».

ونحن نقول: قد أعاد الله أمير المؤمنين من هذا
الكلام الباطل الذي لا يصحُّ عنه أبداً. قال الإمام
أحمد: لا يصحُّ ذلك عن عمر. وقال أبو الحسن
الدارقطني: بل السنة بيد فاطمة بنت قيس قطعاً، ومن
له إمام بسنة رسولِ الله ﷺ يشهد شهادة الله أنه لم
يكن عند عمر رضي الله عنه سنة عن رسولِ الله ﷺ
أن للمطلقة ثلاثاً السكنى والنفقة، وعمر كان أتقى

ميراث. انتهى. ولا يعلم أحد من الفقهاء رحمهم الله إلا وقد احتجَّ بحديث فاطمة بنت قيس هذا، وأخذ به في بعض الأحكام كمالك، والشافعي. وجمهور الأمة يحتجون به في سقوط نفقة المبتوتة إذا كانت حائلاً، والشافعي نفسه احتج به على جواز جمع الثلاث، لأن في بعض ألفاظه: فطلقني ثلاثاً، وقد بينا أنه إنما طلقها آخر ثلاث كما أخبرت به عن نفسها. واحتجَّ به من يرى جواز نظر المرأة إلى الرجال، واحتج به الأئمة كلُّهم على جواز خطبة الرجل على خطبة أخيه إذا لم تكن المرأة قد سكنت إلى الخاطب الأول، واحتجوا به على جواز بيان ما في الرجل إذا كان على وجه النصيحة لمن استشاره أن يزوجه، أو يعامله، أو يسافر معه، وأن ذلك ليس بغيبة، واحتجوا به على جواز نكاح القرشية من غير القرشي، واحتجوا به على وقوع الطلاق في حال غيبة أحد الزوجين عن الآخر، وأنه لا يشترط حضوره ومواجهته به، واحتجوا به على جواز التعريض بخطبة المعتدة البائن، وكانت هذه الأحكام كلها حاصلة ببركة روايتها، وصدق حديثها، فاستنبطتها الأمة منها، وعملت بها، فما بال روايتها ترد في حكم واحد من أحكام هذا الحديث، وتقبل فيما عداه؟! فإن كانت حفظته، قبلت في جميعه، وإن لم تكن حفظته وجب أن لا يقبل في شيء من أحكامه وبالله التوفيق.

(معنى «أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم»)

فإن قيل: بقي عليكم شيء واحد، وهو أن قوله سبحانه: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ﴾ [الطلاق: ٦]، إنما هو في البوائن لا في الرجعيات، بدليل قوله عقيب: ﴿وَلَا تُضَارَّوهُنَّ لِضَعْفِهِنَّ وَلَكِنْ كُنَّ أُولَئِكَ حَمَلَ فَأَنْقِوْهُنَّ عَلَىٰ حَقِّ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٦]، فهذا في البائن، إذ لو كانت رجعية لما قيد النفقة عليها بالحمل، ولكان عديم التأثير، فإنها تستحقها حائلاً كانت أو حاملاً، والظاهر: أن الضمير في «أسكنوهن» هو، والضمير في قوله: ﴿وَلَكِنْ كُنَّ أُولَئِكَ حَمَلَ فَأَنْقِوْهُنَّ عَلَىٰ حَقِّ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٦] واحد.

فالجواب: أن مؤرِدَ هذا السؤال إما أن يكون من الموجبين للنفقة والسكنى، أو ممن يُوجب

السكنى دون النفقة، فإن كان الأول، فالآية على زعمه حجة عليه، لأنه سبحانه شرط في إيجاب النفقة عليهن كونهن حوامل، والحكم المعلق على الشرط ينتفي عند انتفائه، فدل على أن البائن الحائلاً لا نفقة لها.

فإن قيل: فهذه دلالة على المفهوم، ولا يقول بها. قيل: ليس ذلك من دلالة المفهوم، بل من انتفاء الحكم عند انتفاء شرطه، فلو بقي الحكم بعد انتفائه، لم يكن شرطاً، وإن كان فمن يوجب السكنى وحدها فيقال له: ليس في الآية ضمير واحد يخص البائن، بل ضمائرها نوعان: نوع يخص الرجعية قطعاً، كقوله: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأِمْرَةُ أَهْلَهُنَّ فَأَسْكِنُوهُنَّ بِمَقْرُونٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَقْرُونٍ﴾ [الطلاق: ٢] ونوع يحتمل أن يكون للبائن، وأن يكون للرجعية، وأن يكون لهما، وهو قوله: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ [الطلاق: ١] وقوله: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ﴾ [الطلاق: ٦] فحمله على الرجعية هو المتعين لتشدد الضمائر ومفسرها، فلو حمل على غيرها لزم اختلاف الضمائر ومفسرها، وهو خلاف الأصل، والحمل على الأصل أولى.

فإن قيل: فما الفائدة في تخصيص نفقة الرجعية بكونها حاملاً؟

قيل: ليس في الآية ما يقتضي أنه لا نفقة للرجعية الحائلاً، بل الرجعية نوعان، قد بين الله حكمهما في كتابه: حائلاً، فلها النفقة بعقد الزوجية، إذ حكمها حكم الأزواج، أو حامل، فلها النفقة بهذه الآية إلى أن تضع حملها، فتصير النفقة بعد الوضع نفقة قريب لافقة زوج، فيخالف حالها قبل الوضع حالها بعده، فإن الزوج يُنفق عليها وحده إذا كانت حاملاً، فإذا وضعت صارت نفقتها على من تجب عليه نفقة الطفل، ولا يكون حالها في حال حملها كذلك، بحيث تجب نفقتها على من تجب عليه نفقة الطفل، فإنه في حال حملها جزء من أجزائها، فإذا انفصل كان له حكم آخر، وانتقلت النفقة من حكم إلى حكم، فظهرت فائدة التقييد وسر الاشتراط والله أعلم بما أراد من كلامه.

ذكر حكم رسول الله ﷺ الموافق

لكتاب الله تعالى من وجوب

النفقة للأقارب

روى أبو داود في «سننه»: عن كليب بن منفعة، عن جده، أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! من أبر؟ قال: «أُمُّكَ وَأَبَاكَ وَأَخْتُكَ وَأَخَاكَ وَمَوْلَاكَ الَّذِي يَلِي ذَاكَ، حَقٌّ وَاجِبٌ وَرَجِمَ مُؤْصَلَةٌ» [أبو داود: ٥١٤٠].

وروى النسائي عن طارق المحاربي قال: قدمت المدينة، فإذا رسول الله ﷺ قائم على المنبر يخطب الناس وهو يقول: «يَدُ الْمُغْطِي الْمُلْتَبَا، وَإِنْدَا يَمَنُ تَعُولُ: أُمُّكَ وَأَبَاكَ، وَأَخْتُكَ وَأَخَاكَ، ثُمَّ أَذْنَاكَ أَذْنَاكَ» [النسائي (٦١/٥)].

وفي «الصحيحين»: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أُمُّكَ»، قال: ثم من؟ قال: «أُمُّكَ»، قال: ثم من؟ قال: «أُمُّكَ»، قال: ثم من؟ قال: «أَبُوكَ ثُمَّ أَذْنَاكَ أَذْنَاكَ» [البخاري: ٥٩٧١، ومسلم: ٦٥٠٠].

وفي الترمذي، عن معاوية القشيري رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله! من أبر؟ قال: «أُمُّكَ»، قلت: ثم من؟ قال: «أُمُّكَ»، قلت: ثم من؟ قال: «أُمُّكَ»، قلت: ثم من؟ قال: «أَبَاكَ ثُمَّ الْأَقْرَبُ فَلِأَقْرَبَ» [أبو داود: ٥١٣٩، والترمذي: ١٨٩٧].

وقد قال النبي ﷺ ليهند: «خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِالْمَعْرُوفِ» [البخاري: ٥٣٦٤، ومسلم: ٤٤٧٧].

وفي «سنن أبي داود»، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ، وَإِنْ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ فَكُلُوهُ هَنِيئًا» [أبو داود: ٣٥٣٠، وابن ماجه: ٢٢٩٢]. ورواه أيضاً من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً [حسن: أحمد: ٢٤٠٣٢، وأبو داود: ٣٥٢٨].

وروى النسائي من حديث جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْدَا يَنْفَسِكْ فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا فَإِنْ

فَضَلَ شَيْءٌ فَلَا هُلْكَ، فَإِنْ فَضَلَ عَنْ أَهْلِكَ شَيْءٌ فَلِذِي قَرَابَتِكَ فَإِنْ فَضَلَ عَنْ ذِي قَرَابَتِكَ فَهَكَذَا وَهَكَذَا» [النسائي (٦٩/٥ - ٧٠)].

وهذا كله تفسير لقوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦] وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقًّا﴾ [الإسراء: ٢٦] فجعل سبحانه حق ذي القربى يلي حق الوالدين، كما جعله النبي ﷺ سواء بسواء، وأخبر سبحانه أن لذي القربى حقاً على قرابته، وأمر بإتيانه إياه، فإن لم يكن ذلك حق النفقة، فلا نذري أي حق هو. وأمر تعالى بالإحسان إلى ذي القربى. ومن أعظم الإساءة أن يراه يموت جوعاً وغرياً، وهو قادر على سد خلته وستر غوريته، ولا يطعمه لقمة، ولا يستر له عورة إلا بأن يقرضه ذلك في ذمته، وهذا الحكم من النبي ﷺ مطابق لكتاب الله تعالى حيث يقول: ﴿وَالْوَالِدَتِ رِضْعَانِ أَوْلَدَهُنَّ حَلَالَيْنِ كَأَمَلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْفِقَ رِزْقًا وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ وِثْرًا وَلَا سُعْمًا لَا تَنْسَكَ وَلَدُهُ يُولَدُهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ يُولَدُوهَا وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٢٣٣] فأوجب سبحانه وتعالى على الوارث مثل ما أوجب على المولود له، وبمثل هذا الحكم حكم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فروى سفيان بن عيينة، عن ابن جريج، عن عمرو بن شعيب، عن سعيد بن المسيب، أن عمر رضي الله عنه حبس عَصْبَةَ صَبِيٍّ على أن ينفقوا عليه، الرجال دون النساء.

وقال عبد الرزاق: حدثنا ابن جريج، أخبرني عمرو بن شعيب، أن ابن المسيب أخبره، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقف بني عم على منقوس كلاله بالنفقة عليه مثل العاقلة، فقالوا: لا مال له، فقال: ولَوْ، وقوفهم بالنفقة عليه كهيئة العقل^(١) [عبد الرزاق: ١٢١٨، والطبري (٥٠٠/٢)]، قال ابن المديني: قوله: ولو، أي: ولو لم يكن له مال.

وذكر ابن أبي شيبة، عن أبي خالد الأحمر، عن حجاج، عن عمرو، عن سعيد بن المسيب، قال: جاء ولي يتيم إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه،

(١) كلاله: هو الطفل الذي مات أبوه وليس له وارث من والد أو ولد غيره.

فقال: أنفق عليه، ثم قال: لو لم أجد إلا أفضى عشيرته لَفَرَضْتُ عليهم. وحكم بمثل ذلك أيضاً زيد بن ثابت.

قال ابن أبي شيبه: حدثنا حميد بن عبد الرحمن، عن حسن، عن مطرف، عن إسماعيل، عن الحسن، عن زيد بن ثابت، قال: إذا كان أم وعم، فعلى الأم بقدر ميراثها، وعلى العم بقدر ميراثه، ولا يعرف لعمر وزيد مخالف في الصحابة البتة.

وقال ابن جريج: قلت لعطاء: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ يَثُلُ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، قال: على ورثة اليتيم أن ينفقوا عليه كما يرثونه. قلت له: أَيْخَسُّ وارث المولود إن لم يكن للمولود مال؟ قال: أفيدعه يموت؟ وقال الحسن: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ يَثُلُ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٢٣٣] قال: على الرجل الذي يرث أن ينفق عليه حتى يستغني. وبهذا فسر الآية جمهور السلف [الطبري (٢/٥٠٠-٥٠١)]، منهم: قتادة، ومجاهد، والضحاك، وزيد بن أسلم، وشريح القاضي، وقبيصة بن ذؤيب، وعبد الله بن عتبة بن مسعود، وإبراهيم النخعي، والشعبي، وأصحاب ابن مسعود، ومن بعدهم: سفيان الثوري، وعبد الرزاق، وأبو حنيفة وأصحابه، ومن بعدهم: أحمد، وإسحاق، وداود وأصحابهم.

(اختلاف الفقهاء في النفقة للأقارب)

وقد اختلف الفقهاء في حكم هذه المسألة على عدة أقوال:

أحدها: أنه لا يُجْبَرُ أحدٌ على نفقة أحدٍ من أقاربه، وإنما ذلك برِّ وصِلَة، وهذا مذهب يُعزى إلى الشعبي. قال عبد بن حميد الكشي: حدثنا قبيصة، عن سفيان الثوري، عن أشعث، عن الشعبي، قال: ما رأيت أحداً أجبر أحداً على أحد، يعني على نفقته. وفي إثبات هذا المذهب بهذا الكلام نظر، والشعبي أفتق من هذا، والظاهر أنه أراد: أن الناس كانوا اتقى لله من أن يحتاج الغني أن يجبره الحاكم على الإنفاق على قريبه المحتاج، فكان الناس يكفون بليجباب الشرع عن إيجاب الحاكم أو إجباره.

المذهب الثاني: أنه يجب عليه النفقة على أبيه الأدنى، وأمه التي ولدته خاصة، فهذان الأبوان يجبر الذكر والأنثى من الولد على النفقة عليهما إذا كانا

فقيرين، فأما نفقة الأولاد فالرجل يُجْبَرُ على نفقة ابنه الأدنى حتى يبلغ فقط، وعلى نفقة بنته الدنيا حتى تُزَوِّجَ، ولا يجبر على نفقة ابن ابنته، ولا بنت ابنه وإن سفلا، ولا تُجْبَرُ الأم على نفقة ابنها وابنتها ولو كانا في غاية الحاجة والأم في غاية الغنى، ولا تجب على أحد النفقة على ابن ابن، ولا جد، ولا أخ، ولا أخت، ولا عم، ولا عمّة، ولا خال ولا خالّة، ولا أحد من الأقارب البتة سوى ما ذكرنا. وتجب النفقة مع اتحاد الدّين واختلافه حيث وجبت، وهذا مذهب مالك، وهو أصيق المذاهب في النفقات.

المذهب الثالث: أنه تجب نفقة عمودي النسب خاصة، دون مَنْ عداهم، مع اتفاق الدّين، وسائر المنفق، وقدرته، وحاجة المنفق عليه، وعجزه عن الكسب بصغر أو جنون أو زمانة إن كان من العمود الأسفل. وإن كان من العمود الأعلى: فهل يشترط عجزهم عن الكسب؟ على قولين. ومنهم من طرد القولين أيضاً في العمود الأسفل. فإذا بلغ الولد صحياً، سقطت نفقته ذكراً كان أو أنثى، وهذا مذهب الشافعي، وهو أوسع من مذهب مالك.

المذهب الرابع: أن النفقة تجب على كل ذي رحم مَحْرَمٍ لذي رحمه فإن كان من الأولاد وأولادهم، أو الآباء والأجداد، وجبت نفقتهم مع اتحاد الدّين واختلافه، وإن كان من غيرهم، لم تجب إلا مع اتحاد الدّين، فلا يجب على المسلم أن ينفق على ذي رحمه الكافر، ثم إنما تجب النفقة بشرط قدرة المنفق وحاجة المنفق عليه، فإن كان صغيراً اغْتَبِرَ فقره فقط، وإن كان كبيراً فإن كان أنثى فكَذَلِكَ، وإن كان ذكراً فلا بُدَّ مع فقره من عَمَاهُ أو رَمَانَتِهِ، فإن كان صحياً بصيراً لم تجب نفقته، وهي مرتبة عنده على الميراث إلا في نفقة الولد، فإنها على أبيه خاصة على المشهور من مذهبه.

وروي عن الحسن بن زياد اللؤلؤي: أنها على أبويه خاصة بقدر ميراثهما طرداً للقياس، وهذا مذهب أبي حنيفة، وهو أوسع من مذهب الشافعي. المذهب الخامس: أن القريب إن كان من عمودي

وبالرحم بسنة رسول الله ﷺ. وقد تقدّم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حبس عَصْبَةَ صَبِيٍّ أَنْ يَنْفَقُوا عليه، وكانوا بني عمه، وتقدّم قول زيد بن ثابت: إذا كان عَمٌّ وَأُمٌّ فعلى العم بقدر ميراثه، وعلى الأم بقدر ميراثها، فإنه لا مخالف لهما في الصحابة البتة، وهو قول جمهور السلف، وعليه يدل قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ذَا الْقَرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ [الإسراء: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَالْأُولَآئِينَ إِحْسَنًا وَيَذِى الْقُرْبَى﴾ [النساء: ٣٦]، وقد أوجب النبي ﷺ العطية للأقارب، وصرّح بأنسابهم، فقال: «وَأَخْتِكَ وَأَخَاكَ، ثُمَّ أَذْنَاكَ فَأَذْنَاكَ، حَقٌّ وَاجِبٌ وَرَجْمٌ مُّؤَصِّلَةٌ».

فإن قيل: فالمراد بذلك البِرُّ والصِّلَةُ دون الوجوب.

قيل: يَرُدُّ هذا أنه سبحانه أمر به وسَمَّاهُ حَقًّا، وأضافه إليه بقوله: (حَقُّهُ)، وأخبر النبي ﷺ بأنه حقٌّ، وأنه واجبٌ، وبعض هذا ينادي على الوجوب جهاراً.

فإن قيل: المراد بحقه ترك قطيعته.

فالجواب: من وجهين: أحدهما: أن يقال: فأي قطيعه أعظم من أن يراه يتلظى جوعاً وعطشاً، ويتأذى غاية الأذى بالحر والبرد، ولا يَطْعُمُهُ نَفْسُهُ، ولا يَسْقِيهِ جَرْعَةً، ولا يكسوه ما يستر عَوْرَتَهُ وَيَقِيهِ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ، وَيُسْكِنُهُ تحت سقف يظله، هذا وهو أخوه ابن أمه وأبيه، أو عمه صِئْرُ أَبِيهِ، أو خالته التي هي أمه، إنما يجب عليه من ذلك ما يجب بِذَلِكَ لِلْأَجْنِيِّ الْبَعِيدِ، بَأَن يَعَاوِضَهُ عَلَى ذَلِكَ فِي الدَّمَةِ إِلَى أَنْ يُوسِرَ، ثم يسترجع به عليه، هذا مع كونه في غاية الْيَسَارِ وَالْجِدَّةِ، وَسَعَةِ الْأُمُورِ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ قَطِيعَةً، فَإِنَّا لَا نَدْرِي مَا هِيَ الْقَطِيعَةُ الْمَحْرَمَةُ، وَالصِّلَةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا، وَحَرَّمَ الْجَنَّةَ عَلَى قَاطِعِهَا.

الوجه الثاني: أن يقال: فما هذه الصلة الواجبة التي نادى عليها النصوص، وبالغت في إيجابها، وَتَمَّتْ قَاطِعُهَا؟ فإي قَدَرٍ زَائِدٍ فِيهَا عَلَى حَقِّ الْأَجْنِيِّ حَتَّى تَعْقِلَهُ الْقُلُوبُ، وَتُخْبِرَ بِهِ الْأَلْسَنَةُ، وَتَعْمَلَ بِهِ الْجَوَارِحُ؟ أَمُو السَّلَامُ عَلَيْهِ إِذَا لَقِيَهُ، وَعِيَادَتُهُ إِذَا مَرَضَ، وَتَشْمِيَّتُهُ إِذَا عَطَسَ، وَإِجَابَتُهُ إِذَا دَعَاهُ، وَإِنْ كَمَ

النسب وجبت نفقته مطلقاً، سواء كان وارثاً أو غير وارث، وهل يشترط اتحاد الدِّينِ بينهم؟ على روايتين وعنه رواية أخرى: أنه لا تجب نفقتهم إلا بشرط أن يرثهم بِقَرَضٍ أو تَعْصِيبِ كَسَائِرِ الْأَقَارِبِ، وإن كان من غير عمودي النسب، وجبت نفقتهم بشرط أن يكون بينه وبينهم توارث. ثم هل يشترط أن يكون التوارث من الجانبين، أو يكفي أن يكون من أحدهما؟ على روايتين. وهل يشترط ثبوت التوارث في الحال، أو أن يكون من أهل الميراث في الجملة؟ على روايتين. فإن كان الأقارب من ذوي الأرحام الذين لا يرثون، فلا نفقة لهم على المتصوص عنه، وخرّج بعض أصحابه وجوبها عليهم من مذهبه من توارثهم، ولا بد عنده من اتحاد الدِّينِ بين المتنفق والمتنقّى عليه حيث وجبت النفقة إلا في عمودي النسب في إحدى الروايتين. فإن كان الميراث بغير القرابة، كالولاء وجبت النفقة به في ظاهر مذهبه على الوارث دون الموروث، وإذا لزمته نفقة رجل لزمته نفقة زوجته في ظاهر مذهبه. وعنه: لا تلزمه. وعنه: تلزمه في عمودي النسب خاصة دون مَنْ عداهم. وعنه: تلزمه لزوجة الأب خاصة ويلزمه إعفاف عمودي نسبه بتزويج أو تَسَرُّعٍ إِذَا طَلَبُوا ذَلِكَ.

قال القاضي أبو يعلى: وكذلك يجيء في كل مَنْ لزمته نفقته: أخ، أو عم، أو غيره ما يلزمه إعفافه، لأن أحمد رحمه الله قد نص في العبد يلزمه أن يزوجه إذا طلب ذلك، وإلا بيع عليه، وإذا لزمه إعفاف رجل لزمه نفقة زوجته، لأنه لا تُمْكِنُ مِنَ الْإِعْفَافِ إِلَّا بِذَلِكَ، وهذه غير المسألة المتقدمة، وهو وجوب الاتفاق على زوجة المتنفق عليه، ولهذه مأخذ، ولتلك مأخذ، وهذا مذهب الإمام أحمد، وهو أوسع من مذهب أبي حنيفة، وإن كان مذهب أبي حنيفة أوسع منه من وجه آخر حيث يُوجِبُ النَّفَقَةُ عَلَى ذَوِي الْأَرْحَامِ وهو الصحيح في الدليل، وهو الذي تقتضيه أصول أحمد ونصوصه وقواعد الشرع، وصلة الرحم التي أمر الله أن تُوصَلَ، وَحَرَّمَ الْجَنَّةَ عَلَى كُلِّ قَاطِعٍ رَحِمَ، فَالنَّفَقَةُ تَسْتَحَقُّ بِشَيْئَيْنِ: بِالميراث بكتاب الله،

لا تُوجِبون شيئاً من ذلك إلا ما يجبُ نظيره للأجنبي على الأجنبي؟ وإن كانت هذه الصلّة ترك ضربه وسبه وأذاه والإزراء به، ونحو ذلك، فهذا حق يجب لكل مسلم على كل مسلم، بل للذمي البعيد على المسلم، فما خصوصية صلّة الرحم الواجبة؟ ولهذا كان بعض فضلاء المتأخرين يقول: أعياني أن أعرف صلّة الرحم الواجبة. ولما أوردَ الناسُ هذا على أصحاب مالك، وقالوا لهم: ما معنى صلّة الرحم عندكم؟ صَنَّف بعضهم في صلّة الرحم كتاباً كبيراً، وأوعب فيه من الآثار المرفوعة والموقوفة، وذكر جنس الصلّة وأنواعها وأقسامها، ومع هذا فلم يتخلص من هذا الإلزام، فإن الصلّة معروفة يعرفها الخاص والعام، والآثار فيها أشهر من العلم، ولكن ما الصلّة التي تختص بها الرحم، وتجب له الرحمة، ولا يُشاركه فيها الأجنبي؟ فلا يمكنكم أن تعيّنوا وجوب شيء إلا وكانت النفقة أوجب منه ولا يمكنكم أن تذكروا مُسْقِطاً لوجوب النفقة إلا وكان ما عداها أولى بالسقوط منه، والنبِيُّ ﷺ قد قرَنَ حقَّ الأخ والأخت بالأب والأم، فقال: «أُمُّكَ وَأَبَاكَ، وَأَخُكَ وَأَخَاكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ فَأَدْنَاكَ»، فما الذي نسخ هذا، وما الذي جعل أوْلَهُ للوجوب، وآخرَهُ للاستحباب؟ وإذا عُرِفَ هذا، فليس من برِّ الوالدين أن يدع الرجلُ أباهُ يَكْنُسُ الكُنُفَ، ويكاري على الحُمر، ويوقِد في أثونِ الحِمَام، ويَحْمِلُ للناس على رأسه ما يَنْقُوتُ بأجرته، وهو في غاية الغنى واليسار، وسَعَةِ ذات اليد، وليس من برِّ أُمِّهِ أَنْ يَدْعَهَا تَخْدُمُ النَّاسَ، وتغسلُ ثيابهم، وتسقي لهم الماء ونحو ذلك، ولا يَصُونُهَا بما يَنْفِقُهُ عليها، ويقول: الأباوان مُكْتَسِبَانِ صحيحان، وليسا بِزَمَتَيْنِ ولا أَغَمَّتَيْنِ، فيالله العجب: أين شرط الله ورسوله في برِّ الوالدين، وِصْلَةَ الرَّحِمِ أن يكون أحدهم زَيْناً أو أعمى، وليست صلّة الرَّحِمِ ولا يَرُ الوالدين موقوفة على ذلك شرعاً ولا لغةً ولا عرفاً. وبالله التوفيق.

ذَكَرُ حَكَمَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الرِّضَاعَةِ
وَمَا يَحْرُمُ بِهَا، وَمَا لَا يَحْرُمُ، وَحُكْمُهُ
فِي الْقَدْرِ الْمَحْرُمِ مِنْهَا وَحُكْمُهُ فِي
إِرْضَاعِ الْكَبِيرِ، هَلْ لَهُ تَأْثِيرٌ،
أَمْ لَا؟

ثبت في «الصحيحين»: من حديث عائشة رضي الله عنها، عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ الرِّضَاعَةَ تُحَرِّمُ مَا تُحَرِّمُ الْوِلَادَةُ» [البخاري: ٥٠٩٩، ومسلم: ٣٥٦٨].

وثبت فيهما: من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ أُرِيدَ على ابنة حمزة، فقال: «إِنَّهَا لَا تَحِلُّ لِي، إِنَّهَا ابْنَةُ أَخِي مِنَ الرِّضَاعَةِ وَتَحَرَّمَ مِنَ الرِّضَاعَةِ مَا يَحَرَّمُ مِنَ الرَّحِمِ» [البخاري: ٢٦٤٦، ومسلم: ٣٥٨٣].

وثبت فيهما: أنه قال لعائشة رضي الله عنهما: «اتَّذَنِي لِأَفْلَحَ أَخِي أَبِي الْقُعَيْسِ، فَإِنَّهُ عَمُّكَ» وكانت امرأته أرضعت عائشة رضي الله عنها [البخاري: ٥١٠٣، ومسلم: ٣٥٧١].

وبهذا أجاب ابنُ عباس لما سئل عن رجل له جاريتان، أرضعت إحداها جارية، والأخرى غُلاماً: أيجلُّ للغلام أن يتزوَّج الجارية؟ قال: لا اللَّقَاحُ واجِدٌ [مالك (٦٠٢/٢)، والترمذي: ١١٤٩].

وثبت في «صحيح مسلم» عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ: «لَا تُحَرِّمُ الْمَصَّةُ وَالْمَصَّانِ» [مسلم: ٣٥٩٠].

وفي رواية: «لَا تُحَرِّمُ الْإِمْلَاجَةُ وَالْإِمْلَاجَتَانِ» [مسلم: ٣٥٩١].

وفي لفظ له: أن رجلاً قال: يا رسول الله هل تحرم الرضعة الواحدة؟ قال: لا [مسلم: ٣٥٩٢].

وثبت في «صحيحه» أيضاً: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كَانَ فِيمَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ: عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ ثُمَّ تُسْحَنُ بِخَمْسِ مَعْلُومَاتٍ، فتوفي رسول الله ﷺ، وهُنَّ فِيمَا يَقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ^(١) [مسلم: ٣٥٩٧].

(١) ومعناه: أن النسخ بخمس رضعات تأخر إزاله جداً حتى إنه ﷺ توفي وبعض الناس يقرأ: خمس رضعات ويجعلها قرآناً متلوّاً، لكونه لم يبلغه النسخ لقرب عهده، فلما بلغهم النسخ بعد ذلك رجعوا عن ذلك، وأجمعوا على أن هذا لا يتلى.

وثبت في «الصحيحين»: من حديث عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال: «إنما الرضاعة من المَجَاعَة» [البخاري: ٥١٠٢، ومسلم: ٣٦٠٦].

وثبت في «جامع الترمذي»: من حديث أم سلمة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يُحَرِّمُ مِنَ الرضاعة إِلَّا ما فَتَقَ الْأَمْعَاءُ فِي الثَّدي وَكَانَ قَبْلَ الْفِطَامِ» [الترمذي: ١١٥٢]، وقال الترمذي: حديث صحيح.

وفي «سنن الدارقطني» بإسناد صحيح، عن ابن عباس يرفعه: «لا رضاع إِلَّا ما كان في الحولين» [الدارقطني: (١٧٤/٤)].

وفي «سنن أبي داود»: من حديث ابن مسعود يرفعه: «لا يحرم من الرضاع إِلَّا ما أَنْبَتَ اللَّحْمُ وَأَنْشَرَ الْعَظْمُ» [أبو داود: ٢٥٠٩-٢٥٦٠].

وثبت في «صحيح مسلم»: عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت سَهْلَةُ بنتُ سُهَيْلٍ إلى النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله! إني أرى في وجه أبي حَذِيفَةَ من دُخُولِ سالم وهو حَلِيفُهُ، فقال النبي ﷺ: «أَرْضِعِيه تَحْرُمِي عَلَيْهِ».

وفي رواية له عنها قالت: جاءت سَهْلَةُ بنتُ سُهَيْلٍ إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله! إني أرى في وجه أبي حَذِيفَةَ من دخول سالم وهو حليفه، فقال النبي ﷺ: «أَرْضِعِيه»، فقالت: وكيف أرضعُهُ وهو رَجُلٌ كبير، فتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وقال: «قد عَلِمْتُ أَنَّهُ كبير» [مسلم: ٣٦٠١].

وفي لفظ لمسلم: أن أم سلمة رضي الله عنها قالت لعائشة رضي الله عنها: إنه يدخل عليك الغلام الأَيْفَعُ الذي ما أَحْبَبُ أن يدخل عليّ، فقالت عائشة رضي الله عنها: أما لَكَ في رسول الله ﷺ أسوء؟ إن امرأة أبي حَذِيفَةَ قالت: يا رسول الله! إن سالماً يدخل عليّ وهو رَجُلٌ، وفي نفس أبي حَذِيفَةَ منه شيء، فقال رسول الله ﷺ: «أَرْضِعِيه حَتَّى يَدْخُلَ عَلَيْكَ» [مسلم: ٣٦٠٣].

وساقه أبو داود في «سننه» سياقه تامة مطولة، فرواه من حديث الزهري، عن عروة، عن عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما، أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس كان تَبَنَّى سالماً، وأنكحه ابنة

أخيه هنداً بنت الوليد بن عتبة، وهو مولى لامرأة من الأنصار، كما تَبَنَّى رسول الله ﷺ زيداً، وكان مَنْ تَبَنَّى رجلاً في الجاهلية دعاه النَّاسُ إليه، وَوَرِثَ ميراثه، حتى أنزل الله تعالى في ذلك: ﴿أَدْعَوْهُمْ لِأَصْبَابِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَقْلَمُوا مَاءَ بَنَاتِهِمْ فَلَاحِقٌ لَكُمْ فِي الَّذِينَ وَمَوْلَاكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، فردوا إلى آبائهم فمن لم يَعْلَمْ له أبٌ كان مولى وأخاً في الدين، فجاءت سَهْلَةُ بنتُ سُهَيْلٍ بن عمرو القرشي، ثم العامري، وهي امرأة أبي حذيفة، فقالت: يا رسول الله! إنا كُنَّا نرى سالماً ولداً، وكان يأوي معي ومع أبي حذيفة في بيت واحد، ويراني فضلاً، وقد أنزل الله تعالى فيهم ما قد عَلِمْتُ، فكيف تَرَى فيه؟ فقال رسول الله ﷺ: «أَرْضِعِيه» فأَرْضَعَتْهُ خمس رضعات، فكان بمنزلة وليها من الرضاعة، فبذلك كانت عائشة رضي الله عنها تأمُرُ بنات إخوتها، وبنات أخواتها أن يَرْضَعْنَ مَنْ أَحَبَّتْ عائشة رضي الله عنها أن يَرَاهَا ويدخل عليها - وإن كان كبيراً - خَمْسَ رضعات، ثُمَّ يَدْخُلُ عليها، وَأَبَتْ ذلك أُمُّ سَلَمَةَ وسائر أزواج النبي ﷺ أن يَدْخُلْنَ عَلَيْهِنَّ أَحداً بتلك الرضاعة من الناس حتى يرضع في المهد، وقلن لعائشة: والله ما ندري لعلها كانت رُخْصَةً من النبي ﷺ لسالم دُونَ الناس [أبو داود: ٢٥٦١].

فتضمنت هذه السُّنَنُ الثابتة أحكاماً عديدة، بعضها متفق عليه بين الأمة، وفي بعضها نزاع:

(الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة)

الحكم الأول: قوله ﷺ: «الرَضَاعَةُ تُحَرِّمُ ما تُحَرِّمُ الولادة»، وهذا الحكم متفق عليه بين الأمة حتى عند من قال: إن الزيادة على النص نسخ، والقرآن لا يُنسخ بالسُّنَّةِ، فإنه اضْطُرَّ إلى قبول هذا الحكم وإن كان زائداً على ما في القرآن، سواء سماه نسخاً أو لم يُسمه، كما اضْطُرَّ إلى تحريم الجمع بين المرأة وعمَّتها، وبينها وخالتها، مع أنه زيادة على نص القرآن، وذكرها هذا مع حديث أبي القَعَيْسِ في تحريم لبن القَحْلِ على أن المرضعة والزوج صاحب اللَّبَنِ قد صارا أبوين للطفل، وصار الطفل ولداً لهما، فانتشرت الحرمة من هذه الجهات الثلاث، فأولادُ الطفل - وإن نزلوا - أولادٌ وليهما، وأولادُ كُلِّ واحد

من المرضعة والزوج من الآخر ومن غيره إخوانه وأخواته من الجهات الثلاث، فأولاد أحدهما من الآخر إخوانه وأخواته لأبيه وأمه، وأولاد الزوج من غيرها إخوانه وأخواته من أبيه، وأولاد المرضعة من غيره إخوانه وأخواته لأمه، وصار أبواها أجداده وجداته، وصار إخوة المرأة وأخواتها أخواله وخالاته، وإخوة صاحب اللبن وأخواته أعمامه وعمّاتِه، فَحُرْمَةُ الرُّضَاعِ تنتشر من هذه الجهات الثلاث فقط.

ولا يتعدى التحريم إلى غير المرتضع ممن هو في درجته من إخوانه وأخواته، فبإباح لأخيه نكاح مَنْ أَرْضَعَتْ أَخَاهُ وَبَنَاتِهَا وَأُمَّهَاتِهَا، وبإباح لأخته نكاحَ صَاحِبِ اللَّبَنِ وَأَبَاهُ وَبَنِيهِ، وكذلك لا ينتشر إلى مَنْ فَوْقَ مَنْ أَبَاهُ وَأُمَّهَاتِهِ، وَمَنْ فِي دَرَجَتِهِ مِنْ أَعْمَامِهِ وَعَمَّاتِهِ وَأَخْوَالِهِ وَخَالَاتِهِ، فَلَا يَبْغِي الْمَرْتَضِعُ مِنَ النَّسَبِ وَأَجْدَادَهُ أَنْ يَنْكَحُوا أُمَّ الْطِّفْلِ مِنَ الرُّضَاعِ وَأُمَّهَاتِهَا وَأَخْوَاتِهَا وَبَنَاتِهَا، وَأَنْ يَنْكَحُوا أُمَّهَاتِ صَاحِبِ اللَّبَنِ وَأَخْوَاتِهِ وَبَنَاتِهِ، إِذْ نَظِيرُ هَذَا مِنَ النَّسَبِ حَلَالٌ، فَلَلَاخِ مِنَ الْأَبِ أَنْ يَنْزَوِجَ أختَ أَخِيهِ مِنَ الْأُمِّ، وَلَلَاخِ مِنَ الْأُمِّ أَنْ يَنْكَحَ أختَ أَخِيهِ مِنَ الْأَبِ، وَكَذَلِكَ يَنْكَحُ الرَّجُلُ أُمَّ ابْنِهِ مِنَ النَّسَبِ وَأختَهَا، وَأَمَّا أُمُّهَا وَبَنَاتُهَا فَإِنَّمَا حُرِّمَتْ بِالْمَصَاهِرَةِ.

(هل يحرم نظير المصاهرة بالرضاع؟)

وهل يحرم نظير المصاهرة بالرضاع، فيحرم عليه أُمُّ امْرَأَتِهِ مِنَ الرُّضَاعِ، وَبَنَاتُهَا مِنَ الرُّضَاعِ، وامْرَأَةُ ابْنِهِ مِنَ الرُّضَاعِ، أَوْ يَحْرُمُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ مِنَ الرُّضَاعِ، أَوْ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَعَمَّتِهَا، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ خَالَاتِهَا مِنَ الرُّضَاعِ؟ فَحُرْمَةُ الْأَثَمَةِ الْأَرْبَعَةِ وَاتِّبَاعُهُمْ، وَتَوَقَّفُ فِيهِ شَيْئُنَا وَقَالَ: إِنْ كَانَ قَدْ قَالَ أَحَدٌ بَعْدَ التَّحْرِيمِ فَهُوَ أَقْوَى.

قال المحرّمون: تحريمٌ هذا يدخلُ في قوله ﷺ: «يَحْرُمُ مِنَ الرُّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ» فأجرى الرُّضَاعَ مجرى النسب، وشبَّهها به، فثبت تنزيلُ ولد الرضاعة وأبي الرضاعة منزلة ولد النسب وأبيه، فما ثبت للنسب من التحريم ثبت للرُّضَاعِ، فإذا حُرِّمَتْ امْرَأَةُ الْأَبِ وَالْإِبْنِ، وَأُمُّ الْمَرْأَةِ، وَابْنَتُهَا مِنَ النَّسَبِ، حُرِّمَتْ بِالرُّضَاعِ. وَإِذَا حُرِّمَ الْجَمْعُ بَيْنَ أُخْتِي النَّسَبِ

حُرِّمَ بَيْنَ أُخْتِي الرُّضَاعِ، هَذَا تَقْدِيرُ احْتِجَاجِهِمْ عَلَى التَّحْرِيمِ. قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ: اللَّهُ سَبَحَانَهُ حُرِّمَ سَبْعًا بِالنَّسَبِ، وَسَبْعًا بِالضُّهْرِ، كَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ [البخاري: ٥١٠٥]. قَالَ: وَمَعْلُومٌ أَنَّ تَحْرِيمَ الرُّضَاعِ لَا يُسَمَّى ضُهُرًا، وَإِنَّمَا يَحْرُمُ مِنْهُ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «يَحْرُمُ مِنَ الرُّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ الْوِلَادَةِ». وَفِي رِوَايَةٍ: «مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ». وَلَمْ يَقُلْ: وَمَا يَحْرُمُ بِالْمَصَاهِرَةِ، وَلَا ذَكَرَهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ، كَمَا ذَكَرَ تَحْرِيمَ الضُّهْرِ، وَلَا ذَكَرَ تَحْرِيمَ الْجَمْعِ فِي الرُّضَاعِ كَمَا ذَكَرَهُ فِي النَّسَبِ، وَالضُّهْرُ قِسْمٌ مِنَ النَّسَبِ وَشَقِيقُهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَلَدَى خَلْقٍ بَيْنَ الْمَلَكِ بَشَرًا فَمَعْلَمٌ لَنَا وَبَيْنَهُمْ﴾ [الفرقان: ٥٤]، فَالْعَلَاقَةُ بَيْنَ النَّاسِ بِالنَّسَبِ وَالضُّهْرِ، وَهِيَ سَبِيلُ التَّحْرِيمِ، وَالرُّضَاعُ فَرَعٌ عَلَى النَّسَبِ، وَلَا تَعْقُلُ الْمَصَاهِرَةَ إِلَّا بَيْنَ الْأَنْسَابِ، وَاللَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا حَرَّمَ الْجَمْعَ بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ، وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ وَعَمَّتِهَا، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ خَالَاتِهَا، لِثَلَاثِ تَقْضِي إِلَى قَطِيعَةِ الرَّحِمِ الْمُحَرَّمَةِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْأَخْتَيْنِ مِنَ الرُّضَاعِ لَيْسَ بَيْنَهُمَا رَجَمٌ مُحَرَّمٌ فِي غَيْرِ النِّكَاحِ، وَلَا تَرْتَبُ عَلَى مَا بَيْنَهُمَا مِنْ أَخَوَاتِ الرُّضَاعِ حَكْمٌ قَطُّ غَيْرُ تَحْرِيمٍ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ، فَلَا يَتَّقَى عَلَيْهِ بِالْمَلِكِ، وَلَا يَرْتَبُ، وَلَا يَسْتَحِقُّ النِّفَاقَ عَلَيْهِ، وَلَا يَثْبُتُ لَهُ عَلَيْهِ وَلَايَةُ النِّكَاحِ وَلَا الْمَوْتُ، وَلَا يَغْفُلُ عَنْهُ، وَلَا يَدْخُلُ فِي الْوَصِيَّةِ وَالْوَقْفِ عَلَى أَقَارِبِهِ وَذَوِي رَحِمِهِ، وَلَا يَحْرُمُ التَّفْرِيقُ بَيْنَ الْأُمِّ وَلَدِهَا الصَّغِيرِ مِنَ الرُّضَاعِ، وَيَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ، وَالتَّفْرِيقُ بَيْنَهُمَا فِي الْمَلِكِ كَالْجَمْعِ بَيْنَهُمَا فِي النِّكَاحِ سِوَاهُ، وَلَوْ مَلَكَ شَيْئًا مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ بِالرُّضَاعِ، لَمْ يَتَّقَى عَلَيْهِ بِالْمَلِكِ، وَإِذَا حُرِّمَتْ عَلَى الرَّجُلِ أُمُّهُ وَبَنَاتُهَا وَأَخْتُهُ وَعَمَّتُهَا وَخَالَاتُهَا مِنَ الرُّضَاعِ، لَمْ يَلْزَمْ أَنْ يَحْرُمَ عَلَيْهِ أُمُّ امْرَأَتِهِ الَّتِي أَرْضَعَتْ امْرَأَتَهُ، فَإِنَّهُ لَا نَسَبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا، وَلَا مَصَاهِرَةَ، وَلَا رَضَاعَ، وَالرُّضَاعُ إِذَا جَعَلَتْ كَالنَّسَبِ فِي حَكْمٍ لَا يَلْزَمُ أَنْ تَكُونَ مِثْلَهُ فِي كُلِّ حَكْمٍ، بَلْ مَا افْتَرَقَا فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ أَضْعَافٌ مَا اجْتَمَعَا فِيهِ مِنْهَا، وَقَدْ ثَبِتَ جَوَازُ الْجَمْعِ بَيْنَ اللَّتَيْنِ بَيْنَهُمَا مُصَاهِرَةٌ مُحَرَّمَةٌ، كَمَا جَمَعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ بَيْنَ امْرَأَةٍ عَلَيَّ وَابْنَتِهِ مِنْ غَيْرِهَا. وَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا تَحْرِيمٌ يَمْنَعُ جَوَازَ نِكَاحِ أَحَدُهَا لِلْآخَرِ لَوْ كَانَ ذَكَرًا، فَهَذَا نَظِيرُ الْأَخْتَيْنِ

من الرضاعة سواء، لأن سبب تحريم النكاح بينهما في أنفسهما، ليس بينهما وبين الأجنبي منهما الذي لا رضاع بينه وبينهما ولا صهر، وهذا مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم.

واحتج أحمد بأن عبد الله بن جعفر جمع بين امرأة علي وابنته، ولم ينكر ذلك أحد، قال البخاري: وجمع الحسن بن الحسن بن علي، بين بنتي عم في ليلة، وجمع عبد الله بن جعفر بين امرأة علي وابنته، وقال ابن شبرمة: لا بأس به، وكرهه الحسن مرة ثم قال: لا بأس به. وكرهه جابر بن زيد للقطيع، وليس فيه تحريم، لقوله عز وجل: ﴿وَأَمِلْ لَكُمْ ثَاوِيَةً﴾ [النساء: ٢٤]، هذا كلام البخاري [٥١٠٥].

وبالجملة: فثبت أحكام النسب من وجوه لا يستلزم ثبوتها من كل وجه، أو من وجه آخر، فهؤلاء نساء النبي ﷺ من أمهات المؤمنين في التحريم والحُرمة فقط، لا في المحرمية، فليس لأحد أن يخلو بهن، ولا ينظر إليهن، بل قد أمرهن الله بالاحتجاب عمن حرم عليه نكاحهن من غير أقاربهن، ومن بينهن وبينه رضاع، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَّكَ فَسَوِّغْنَ مِنَ اللَّحْمِ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، ثم هذا الحكم لا يتعدى إلى أقاربهن البتة، فليس بناتهن أخوات المؤمنين يحرمن على رجالهم، ولا بنوهن إخوة لهم يحرم عليهن بناتهن، ولا أخواتهن وإخواتهن خالات وأخوالاً، بل من حلال للمسلمين باتفاق المسلمين، وقد كانت أم الفضل أخت ميمونة زوج رسول الله ﷺ تحت العباس، وكانت أسماء بنت أبي بكر أخت عائشة رضي الله عنها تحت الزبير، وكانت أم حفصة تحت عمر رضي الله عنه، وليس لرجل أن يتزوج أمه، وقد تزوج عبد الله بن عمر وإخوته، وأولاد أبي بكر، وأولاد أبي سفيان من المؤمنات، ولو كانوا أخوالاً لهن لم يخز أن ينكحوهن، فلم تنتشر الحُرمة من أمهات المؤمنين إلى أقاربهن، وإلا لزم من ثبوت حكم من أحكام النسب بين الأمة وبينهن ثبوت غيره من الأحكام.

ومما يدل على ذلك أيضاً قوله تعالى في المحرمات: ﴿وَلَكَيْلٌ أَتَاهُمْ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ﴾ [النساء: ٢٣].

ومعلوم أن لفظ الابن إذا أطلق لم يدخل فيه ابن الرضاع، فكيف إذا قيّد بكونه ابن صلب، وقصد إخراج ابن النبي بهذا لا يمنع إخراج ابن الرضاع، ويوجب دخوله، وقد ثبت في «الصحيح»: أن النبي ﷺ أمر سَهْلَةَ بنت سَهْلٍ أن ترضع سالماً مولى أبي حذيفة ليصير مخزماً لها، فأرضعته بلبن أبي حذيفة زوجها، وصار ابنها ومحرماً بنص رسول الله ﷺ، سواء كان هذا الحكم مختصاً بسالم أو عاماً كما قالته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فبقي سالم مخزماً لها، لكونها أرضعته وصارت أمه، ولم يصير مخزماً لها، لكونها امرأة أبيه من الرضاعة، فإن هذا لا تأثير فيه لرضاعة سَهْلَةَ له، بل لو أرضعته جارية له، أو امرأة أخرى، صارت سَهْلَةُ امرأة أبيه، وإنما التأثير لكونه ولداً نفسياً، وقد علل بهذا في الحديث نفسه ولفظه: فقال النبي ﷺ: «أرضعيه»، فأرضعته خمس رضعات، وكان بمنزلة ولدها من الرضاعة، ولا يُمَكِّن دعوى الإجماع في هذه المسألة، ومن ادعاه فهو كاذب، فإن سعيد بن المسيب، وأبا سلمة بن عبد الرحمن، وسليمان بن يسار، وعطاء بن يسار، وأبا قلاب، لم يكونوا يثبتون التحريم بلبن الفحل، وهو مروى عن الزبير، وجماعة من الصحابة، كما سيأتي إن شاء الله تعالى، وكانوا يرون أن التحريم إنما هو من قبل الأمهات فقط، فهؤلاء إذا لم يجعلوا المرتضع من لبن الفحل ولداً له، فإن لا يحرّموا عليه امرأته، ولا على الرضيع امرأة الفحل بطريق الأولى، فعلى قول هؤلاء فلا يحرّم على المرأة أبو زوجها من الرضاعة، ولا ابنه من الرضاعة.

فإن قيل: هؤلاء لم يثبتوا البتة بين المرتضع وبين الفحل، فلم تثبت المصاهرة، لأنها فرع ثبوت بؤنة الرضاع، فإذا لم تثبت له لم يثبت قرعها، وأما من أثبت بؤنة الرضاع من جهة الفحل كما دلت عليه السنة الصحيحة الصريحة، وقال به جمهور أهل الإسلام، فإنه تثبت المصاهرة بهذه البؤنة، فهل قال أحد ممن ذهب إلى التحريم بلبن الفحل: إن زوجة أبيه وابنته من الرضاعة لا تحرم؟

قيل: المقصود أن في تحريم هذه نزاعاً، وأنه ليس

نعم، قال: كانت في حَجْرِكَ؟ قلت: لا، هي في الطائف. قال: فانكحها، قلت: فأين قوله تعالى: ﴿رَبِّبِكُمْ أَلْتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]. قال: إنها لم تكن في حجرِك، وإنما ذلك إذا كانت في حَجْرِكَ [عبد الرزاق: ١٠٨٣٤].

وصح عن إبراهيم بن ميسرة، أن رجلاً من بني سِوَاءَ يقال له: عُبيد الله بن معبد، أثنى عليه خيراً، أخبره أن أباه أو جدّه كان قد نكح امرأة ذات ولدٍ من غيره، ثم اصطحبها ما شاء الله، ثم نكح امرأة شابة، فقال: أحدُ بني الأولى قد نكحتُ على أُمِّنا وكبرت واستغنيت عنها بامرأة شابة فطلقها، قال: لا والله إلا أن تُنكحني ابنتك، قال: فطلقها وأنكحها ابنته، ولم تكن في حَجْرِهِ هي ولا أبوها. قال: فبحث سفيان بن عبد الله، فقلت: استفت لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه. قال: لَتَحْبِرَنَّ معي، فادخلني على عمر رضي الله عنه يميني، فقصصتُ عليه الحَجْرَ، فقال عمر: لا بأس بذلك، فاذهب فسل فلاناً، ثم تعال فأخبرني. قال: ولا أراه إلا علياً قال: فسأته، فقال: لا بأس بذلك [عبد الرزاق: ١٠٨٣٥]، وهذا مذهب أهل الظاهر. فإذا كان عمر وعلي رضي الله عنهما ومن يقول بقولهما قد أباحا الرِّبِّيَّةَ إذا لم تكن في حَجْرِ الزوج، مع أنها ابنة امرأته من النسب، فكيف يُحرمان عليه ابنتها من الرضاع، وهذه ثلاثة قيود ذكرها الله سبحانه وتعالى في تحريمها: أن تكون في حَجْرِهِ، وأن تكون من امرأته، وأن يكون قد دخل بأُمِّها. فكيف يحرم عليه مجرد ابنتها من الرضاعة، وليست في حَجْرِهِ، ولا هي ربيته لغة، فإن الرِّبِّيَّةَ بنتُ الزوجة، والرَّيبُ ابْنُها باتفاق الناس، وسَمِيّاً ربيّاً ورَبِّيَّةً لأن زوج أمهما يَرُبُّهما في العادة، وأُمّاً مَنْ أرضعتها امرأته بغير لبنه، ولم يَرُبُّها قط، ولا كانت في حَجْرِهِ، فدخلوها في هذا النص في غاية البعد لفظاً ومعنى، وقد أشار النبي ﷺ بتحريم الرِّبِّيَّةَ بكونها في الحَجْرِ. ففي «صحيح البخاري» من حديث الزهري، عن عروة، أن زينب بنت أم سلمة أخبرته أن أم حبيبة بنت أبي سفيان قالت: يا رسول الله! أخبرتُ أنك تتخطب بنت أبي سلمة، فقال: بنت أم سلمة؟ قالت: نعم، فقال: «إنها لو لم

مجمعاً عليه، وبقي النظر في مأخذِهِ، هل هو إلغاء لبن الفحل، وأنه لا تأثير له، أو إلغاء المصاهرة من جهة الرضاع، وأنه لا تأثير لها، وإنما التأثير لمصاهرة النسب؟

ولا شك أن المأخذ الأول باطل، ثبوت السُّنَّةِ الصريحة بالتحريم بلبن الفحل، وقد بينا أنه لا يلزم من القول بالتحريم به إثبات المصاهرة به إلا بالقياس، وقد تقدّم أن الفارق بين الأصل والفرع أضعاف أضعاف الجامع، وأنه لا يلزم من ثبوت حكم من أحكام النسب ثبوت حكم آخر.

ويدل على هذا أيضاً أنه سبحانه لم يجعل أم الرضاع، وأخت الرضاعة داخلة تحت أمهاتنا وأخواتنا، فإنه سبحانه قال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخُوتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، ثم قال: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخُوتُكُمْ بِرَبِّ الرِّضَاعَةِ﴾ [النساء: ٢٣]، فدل على أن لفظ أمهاتنا عند الإطلاق: إنما يراد به الأم من النسب، وإذا ثبت هذا، فقله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ مثل قوله: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، إنما من أمهات نساتنا من النسب، فلا يتناول أمهاتهن من الرضاعة، ولو أريد تحريمهن لقال: وأمهاتهن اللاتي أرضعنهن، كما ذكر ذلك في أمهاتنا، وقد بينا أن قوله: «يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ»، إنما يدل على أن من حرم على الرجل من النسب حرم عليه نظيره من الرضاعة، ولا يدل على أن من حرم عليه بالظهر أو بالجمع، حُرْمَ عليه نظيره من الرضاعة، بل يدل مفهومه على خلاف ذلك، مع عموم قوله: ﴿وَأَجَلٌ لَكُمْ مَا وَزَّكَ ذَلِكَ﴾ [النساء: ٢٤].

(من جوز من السلف

نكاح بنات الزوجة إذا لم تكن في حجره)

ومما يدل على أن تحريم امرأة أبيه وابنه من الرضاعة ليس مسألة إجماع، أنه قد ثبت عن جماعة من السلف جواز نكاح بنتِ امرأته إذا لم تكن في حَجْرِهِ، كما صحَّ عن مالك بن أوس بن الحدثان النَّضْرِي، قال: كانت عندي امرأة وقد ولدت لي، فتوفيت، فَوَجِدْتُ عليها، فَلَقِيتُ عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه، قال لي: مالك؟ قلتُ: توفيت المرأة، قال: لها ابنة؟ قلتُ:

تَكُنْ رَبِيبَتِي فِي حَجَرِي لَمَّا حَلَّتْ لِي [البخاري: ٥١٠١]. وهذا يدل على اعتباره ﷺ القيد الذي قيده الله في التحريم، وهو أن تكون في حجر الزوج.

ونظير هذا سواء، أن يقال في زوجة ابن الصليب إذا كانت مُحَرَّمَةً برضاع: لو لم تكن حليمة ابني الذي لصلبي، لما حَلَّتْ لِي سواء، ولا فرق بينهما، وبالله التوفيق.

فصل

(التحريم بلبن الفعل)

الحكم الثاني: الاستفادة من هذه السُنَّة، أَنَّ لبن الفعل يُحَرِّم، وأن التحريم يَتَشَبَّهُ مِنْهُ كما يَتَشَبَّهُ مِنَ الْمَرْأَةِ، وهذا هو الحق الذي لا يجوز أن يُقَالَ بغيره، وإن خالف فيه مَنْ خَالَفَ مِنَ الصَّحَابَةِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ، فَسُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحَقُّ أَنْ تُتَّبَعَ، وَيُتْرَكُ مَا خَالَفَهَا لِأَجْلِهَا، وَلَا تُتْرَكُ هِيَ لِأَجْلِ قَوْلِ أَحَدٍ كَانَتْ مِنْ كَانَ. وَلَوْ تَرَكْتَ السُّنَّةَ لِخِلَافٍ مِنْ خَالَفَهَا لَعَدِمَ بُلُوغُهَا لَهُ، أَوْ لِتَأْوِيلِهَا، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، تَرَكْتُ سُنَّةً كَثِيرَةً جَدًّا، وَتَرَكْتُ الْحُجَّةَ إِلَى غَيْرِهَا، وَقَوْلٌ مِنْ يَجِبُ اتِّبَاعُهُ إِلَى قَوْلٍ مِنْ لَا يَجِبُ اتِّبَاعُهُ، وَقَوْلُ الْمَعْصُومِ إِلَى قَوْلِ غَيْرِ الْمَعْصُومِ، وَهَذِهِ بَلِيَّةٌ، نَسَأَ اللَّهُ الْعَافِيَةَ مِنْهَا، وَأَنْ لَا نَلْقَاهَا بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

قال الأعمش: كان عماره، وإبراهيم، وأصحابنا لَا يَرَوْنَ بَلْبِنَ الْفَحْلِ بَاسًا حَتَّى أَتَاهُمُ الْحُكْمُ مِنْ عُنْيَةِ بَخِيرِ أَبِي الْقَعَسِ، يَعْنِي: فَتَرَكُوا قَوْلَهُمْ، وَرَجَعُوا عَنْهُ، وَهَكَذَا يَضُنُّ أَهْلُ الْعِلْمِ إِذَا أَتَتْهُمْ السُّنَّةُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، رَجَعُوا إِلَيْهَا، وَتَرَكُوا قَوْلَهُمْ بِغَيْرِهَا.

(حجة من قال بعدم التحريم)

قال الذين لَا يَحَرِّمُونَ بَلْبِنَ الْفَحْلِ: إِنَّمَا ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ التَّحْرِيمَ بِالرَّضَاعَةِ مِنْ جِهَةِ الْأُمِّ، فَقَالَ: ﴿وَأَنْتُمْ تُكَلِّمُ الْكَلِمَ أَتَضَعُكُمْ وَأَتُضَعُّكُمْ وَتَرَكُ الرِّضَاعَةَ﴾ [النساء: ٢٣]، وَاللَّامُ: لِلْمَعْدِ تَرْجِعُ إِلَى الرِّضَاعَةِ الْمَذْكُورَةِ، وَهِيَ رِضَاعَةُ الْأُمِّ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَجَلٌ لَكُمْ مَا وَزَّكَاءُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]، فَلَوْ أَثْبَتْنَا التَّحْرِيمَ بِالْحَدِيثِ لَكُنَّا قَدْ نَسَخْنَا الْقُرْآنَ بِالسُّنَّةِ، وَهَذَا - عَلَى أَصْلٍ مِنْ يَقُولُ: الزِّيَادَةُ عَلَى النَّصِّ نَسْخٌ - الزُّمُّ، قَالُوا: وَهَؤُلَاءِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ هُمْ أَعْلَمُ الْأُمَّةِ بِسُنَّتِهِ، وَكَانُوا لَا يَرَوْنَ التَّحْرِيمَ بِهِ،

فَصَحَّ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَمْعَةَ أَنَّ أُمَّهُ زَيْنَبَ بِنْتَ أُمِّ سَلَمَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَرْضَعَتْهَا أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ امْرَأَةً الزَّيْبِرِ بْنِ الْعَوَامِ، قَالَتْ زَيْنَبُ: وَكَانَ الزَّيْبِرُ يَدْخُلُ عَلَيَّ وَأَنَا أُمْتَضِطُّ فَيَأْخُذُ بِقُرْنٍ مِنْ قُرُونِ رَأْسِي، وَيَقُولُ: أَقْبِلِي عَلَيَّ فَحَدَّثَنِي أَرَى أَنَّهُ أَبِي، وَمَا وَلَدَتْهُ مِنْهُ: فَهَمَّ إِخْوَتِي، ثُمَّ إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزَّيْبِرِ أَرْسَلَ إِلَيَّ يَخْطُبُ أُمَّ كُلثُومَ ابْنَتِي عَلَى حِمَزَةٍ مِنَ الزَّيْبِرِ، وَكَانَ حِمَزَةً لِلْكَلْبِيَّةِ، فَقَالَتْ لِرَسُولِهِ: وَهَلْ تَجِلُّ لِي؟ وَإِنَّمَا هِيَ ابْنَةُ أُخْتِي، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: إِنَّمَا أَرَدْتُ بِهَذَا الْمَنْعَ مِنْ قَبْلِكَ، أَمَّا مَا وَلَدَتْ أَسْمَاءُ فَهَمَّ إِخْوَتُكَ، وَمَا كَانَ مِنْ غَيْرِ أَسْمَاءَ فَلَيْسُوا لَكَ بِإِخْوَةٍ، فَأَرْسَلِي فَاسْأَلِي عَنْ هَذَا، فَأَرْسَلْتُ فَسَأَلْتُ، وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُتَوَافِرُونَ، فَقَالُوا لَهَا: إِنَّ الرِّضَاعَةَ مِنْ قَبْلِ الرَّجُلِ لَا تَحَرِّمُ شَيْئًا، فَأَنْكِحِيهَا إِيَّاهُ، فَلَمْ تَزَلْ عِنْدَهُ حَتَّى هَلَكَ عَنْهَا [الشافعي في مسنده (١/ ٢٣٠)].

قالوا: وَلَمْ يَنْكَرْ ذَلِكَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قَالُوا: وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الرِّضَاعَةَ مِنْ جِهَةِ الْمَرْأَةِ لَا مِنَ الرَّجُلِ.

(رد من قال بالتحريم)

قال الجمهور: لَيْسَ فِيمَا ذَكَرْتُمْ مَا يُعَارِضُ السُّنَّةَ الصَّحِيحَةَ الصَّرِيحَةَ، فَلَا يَجُوزُ الْعُدُولُ عَنْهَا. أَمَّا الْقُرْآنُ، فَإِنَّهُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَتَنَاوَلَ الْأَخْتَ مِنَ الْأَبِ مِنَ الرِّضَاعَةِ فَيَكُونُ دَالًّا عَلَى تَحْرِيمِهَا، وَإِمَّا أَنْ لَا يَتَنَاوَلَهَا فَيَكُونُ سَاكِنًا عَنْهَا، فَيَكُونُ تَحْرِيمُ السُّنَّةِ لَهَا تَحْرِيمًا مُبْتَدَأً وَمَخْصَصًا لِعُمُومِ قَوْلِهِ: ﴿وَأَجَلٌ لَكُمْ مَا وَزَّكَاءُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] وَالظَّاهِرُ يَتَنَاوَلُ لَفْظَ الْأَخْتِ لَهَا، فَإِنَّهُ سَبَّحَانَهُ عَمَّ لَفْظَ الْأَخَوَاتِ مِنَ الرِّضَاعَةِ، فَدَخَلَ فِيهِ كُلُّ مَنْ أَطْلَقَ عَلَيْهَا أُخْتَهُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ أُخْتَهُ مِنْ أَبِيهِ مِنَ الرِّضَاعَةِ لَيْسَتْ أَخْتًا لَهُ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إِذْنِي لِأَفْلَحَ فَإِنَّهُ عَمَّكَ، فَأَثْبَتَ الْعُمُومَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ بَلْبِنَ الْفَحْلِ وَحْدَهُ، فَإِذَا ثَبَتَ الْعُمُومَةُ بَيْنَ الْمَرْتَضِعَةِ وَبَيْنَ أَخِي صَاحِبِ اللَّبَنِ، فَثَبُوتُ الْأَخَوَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ابْنِهِ بِطَرِيقِ الْأُولَى أَوْ مِثْلِهِ.

فَالسُّنَّةُ بَيِّنَةٌ مَرَادَ الْكِتَابِ، لَا أَنَّهَا خَالَفَتْهُ، وَغَايَتُهَا أَنْ تَكُونَ أَثْبَتُ تَحْرِيمٍ مَا سَكَتَ عَنْهُ، أَوْ

تخصيص ما لم يرد عمومه .

الرضاع وكثيره محرّم، فالزوجات الأربع أمهات للمرتضع، فإذا قلنا بثبوت الأبوة وهو الصحيح، حرّمت المرضعات على الطفل، لأنه ربيهنّ وهنّ موطوءات أبيه، فهو ابنٌ بعلهنّ. وإن قلنا: لا تثبت الأبوة لم يخرمن عليه بهذا الرضاع.

وعلى هذه المسألة، ما لو كان لرجل خمس بنات، فأرضعن طفلاً، كل واحدة رضةً، لم يصرن أمهات له. وهل يصير الرجل جدّاً له، وأولاده الذين هم إخوة المرضعات أخوالاً له وخالات؟ على وجهين: أحدهما: يصير جدّاً، وأخوهن خالاً، لأنه قد كمل المرتضع خمس رضعات من لبن بناته، فصار جدّاً، كما لو كان المرتضع بنتاً واحدة، وإذا صار جدّاً كان أولاده الذين هم إخوة البنات أخوالاً وخالات، لأنهن إخوة من كمل له منهن خمس رضعات، فنزلوا بالنسبة إليه منزلة أم واحدة. والآخر: لا يصير جدّاً، ولا أخواتهن خالات، لأن كونه جدّاً فرع على كون ابنته أمّاً، وكون أخيها خالاً فرع على كون أخته أمّاً، ولم يثبت الأصل، فلا يثبت فرعه، وهذا الوجه أصح في هذه المسألة، بخلاف التي قبلها، فإن ثبوت الأبوة فيها لا يستلزم ثبوت الأمومة على الصحيح. والفرق بينهما: أن الفرعية متحققة في هذه المسألة بين المرضعات وأبيهن، فإنهن بناتهن، واللبن ليس له، فالتحريم هنا بين المرضعة وابنها، فإذا لم تكن أمّاً لم يكن أبوها جدّاً، بخلاف تلك، فإن التحريم بين المرتضع وبين صاحب اللبن، فسواء ثبتت أمومة المرضعة أولاً، فعلى هذا إذا قلنا: يصير أخوهن خالاً، فهل تكون كل واحدة منهن خالة له؟ فيه وجهان: أحدهما: لا تكون خالة، لأنه لم يرتضع من لبن أخواتها خمس رضعات، فلا تثبت الخولة. والثاني: تثبت، لأنه قد اجتمع من اللبن المحرّم خمس رضعات، وكان ما ارتضع منها ومن أخواتها مثبّتاً للخولة، ولا تثبت أمومة واحدة منهن إذ لم يرتضع منها خمس رضعات، ولا يستبعد ثبوت خولة بلا أمومة، كما ثبت في لبن الفحل أبوة بلا أمومة، وهذا ضعيف. والفرق بينهما: أن الخولة فرع محض على الأمومة، فإذا لم يثبت الأصل، فكيف يثبت فرعه؟ بخلاف الأبوة

وأما قولكم: إن أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون التحريم بذلك، فدعوى باطلة على جميع الصحابة، فقد صح عن علي رضي الله عنه إثبات التحريم به، وذكر البخاري في «صحيحه» أن ابن عباس سئل عن رجل كانت له امرأتان أرضعت إحداهما جارية، والأخرى غلاماً، أيحل أن ينكحها؟ فقال ابن عباس: لا، اللقاح واحد. وهذا الأثر الذي استدللتم به صريح عن الزبير أنه كان يعتقد أن زينب ابنته بتلك الرضاعة، وهذه عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها كانت تفتي: أن لبن الفحل ينشئ الحرمة، فلم يبق بأيديكم إلا عبد الله بن الزبير، وأين يقع من هؤلاء.

وأما الذين سألنهم فأفتوها بالحل، فجهولون غير مسمّين، ولم يقل الراوي: فسألت أصحاب رسول الله ﷺ وهم متوافرون، بل لعلها أرسلت فسألت من لم تبلغه السنّة الصحيحة منهم، فأفتاها بما أفتاها به عبد الله بن الزبير، ولم يكن الصحابة إذ ذاك متوافرين بالمدينة، بل كان معظمهم وأكابرهم بالشام والعراق ومصر.

وأما قولكم: إن الرضاعة إنما هي من جهة الأم، فالجواب أن يقال: إنما اللبن للآب الذي ثار بوطئه، والآم وعاء له، وبالله التوفيق.

فإن قيل: فهل تثبت أبوة صاحب اللبن وإن لم تثبت أمومة المرضعة، أو ثبوت أبوته فرع على ثبوت أمومة المرضعة؟

قيل: هذا الأصل فيه قولان للفقهاء، وهما وجهان في مذهب أحمد والشافعي، وعليه مسألة من له أربع زوجات، فأرضعن طفلة كل واحدة منهن رضةً، فإنهن لا يصرن أمّاً لها، لأن كل واحدة منهن لم ترضعها خمس رضعات. وهل يصير الزوج أباً للطفلة؟ فيه وجهان: أحدهما: لا يصير أباً، كما لم يصير المرضعات أمهات، والثاني وهو الأصح: يصير أباً، لكون الولد ارتضع من لبنه خمس رضعات، ولبن الفحل أصل بنفسه، غير متفرّع على أمومة المرضعة، فإن الأبوة إنما تثبت بحصول الارتضاع من لبنه، لا لكون المرضعة أمه، ولا يجيء هذا على أصلي أبي حنيفة ومالك، فإن عندهما قليل

والأمومة، فإنهما أصلان لا يلزم من انتفاء أحدهما انتفاء الآخر.

وعلى هذا مسألة، ما لو كان لرجل أم، وأخت، وابنة، وزوجة ابن، فأرضعن طفلة كل واحدة منهن رَضْعَةً، لم تَصِرْ واحدةً منهن أمها، وهل تحرم على الرجل؟ على وجهين: أوجههما: ما تقدم. والتحريم ههنا بعيد، فإن هذا اللبن الذي كمل للطفل لا يجعل الرجل أباً له، ولا جدّاً، ولا أخاً، ولا خالاً، والله أعلم.

فصل

(تحريم المخلوقة من ماء الزاني)

وقد دلّ التحريم بلبن الفحل على تحريم المخلوقة من ماء الزاني دلالة الأولى والأخرى، لأنه إذا حرم عليه أن يَنكِحَ من قد تغذّت بلبن ثار بوطه، فكيف يَجِلُّ له أن يَنكِحَ من قد خُلِقَ مِن نفس مائه بوطه؟ وكيف يَحْرُمُ الشارعُ بنته من الرضاع لما فيها من لبن كان وطء الرجل سبباً فيه، يُبيح له نِكَاحَ مَنْ خُلِقَتْ بِنَفْسِ وطء ومائه؟ هذا من المستحيل، فإن الْبَعْضِيَّةَ التي بينه وبين المخلوقة من مائه اكمل وأتم من الْبَعْضِيَّةِ التي بينه وبين من تغذّت بلبنه، فإن بنت الرضاع فيها جزء ما من البعضية، والمخلوقة من مائه كاسمها مخلوقة من مائه، فنصّها أو أكثرها بعضه قطعاً، والشطر الآخر للأمم، وهذا قول جمهور المسلمين، ولا يُعرف في الصحابة من أباحها، ونص الإمام أحمد رحمه الله، على أن من تزوّجها قُتِلَ بالسيف محصناً كان أو غيره. وإذا كانت بنته من الرضاعة بنتاً في حكمين فقط: الحرمة، والمحرمية، وتختلف سائر أحكام البنت عنها لم تُخرجها عن التحريم، وتوجب جُلّها، فكذا بنته من الزنى تكون بنتاً في التحريم، وتخلّف أحكام البنت عنها لا يُوجب حلّها، والله سبحانه خاطب العرب بما تعقّله في لغاتها، ولفظ البنت لفظ لغوي لم ينقله الشارع عن موضعه الأصلي، كلفظ الصلاة والإيمان ونحوهما، فيحمل على موضوعه اللغوي حتى يثبت نقل الشارع له عنه إلى غيره، فلفظ البنت كلفظ الأخ والعم والخال ألفاظاً باقية على موضوعاتها اللغوية. وقد ثبت في «الصحيح» أن الله تعالى أنطق ابن

الراعي الزاني بقوله: «أبي فلان الراعي» [مسلم: ٢٥٠٨]، وهذا الإنطاق لا يحتلّ الكذب، وأجمعت الأمة على تحريم أمّه عليه. وخلقه من مائه، وماء الزاني خلق واحد، وإثمه في سواء، وكونه بعضاً له مثل كونه بعضاً لها، وانقطاع الإرث بين الزاني والبنت لا يُوجب جواز نكاحها، ثم من العجب كيف يُحرّم صاحب هذا القول أن يستمني الإنسان بيده، ويقول: هو نكاحٌ ليده، ويُجوز للإنسان أن يَنكِحَ بعضه، ثم يُجوز له أن يستغش بعضه الذي خلّقه الله من مائه، وأخرجه من صلبه، كما يستغش الأجنبية.

فصل

(لا تحرم المصّة والمصتان من الرضاع)

والحكم الثالث: أنه لا تحرم المصّة والمصتان، كما نص عليه رسول الله ﷺ، ولا يحرم إلا خمس رضعات، وهذا موضع اختلف فيه العلماء. فأثبت طائفة من السلف والخلف التحريم بقليل الرضاع وكثيره، وهذا يروى عن علي وابن عباس، وهو قول سعيد بن المسيب، والحسن والزهري، وقتادة، والحكم، وحماد، والأوزاعي، والثوري، وهو مذهب مالك، وأبي حنيفة، وزعم الليث بن سعد أن المسلمين أجمعوا على أن قليل الرضاع وكثيره يُحرّم في المهد ما يُفطر به الصائم، وهذا رواية عن الإمام أحمد رحمه الله. وقالت طائفة أخرى: لا يثبت التحريم بأقل من ثلاث رضعات، وهذا قول أبي ثور، وأبي عبيد، وابن المنذر، وداود بن علي، وهو رواية ثانية عن أحمد.

وقالت طائفة أخرى: لا يثبت بأقل من خمس رضعات، وهذا قول عبد الله بن مسعود، وعبد الله ابن الزبير، وعطاء، وطاوس، وهو إحدى الروايات الثلاث عن عائشة رضي الله عنها، والرواية الثانية عنها: أنه لا يحرم أقل من سبع، والثالثة: لا يحرم أقل من عشر. والقول بالخمس مذهب الشافعي، وأحمد في ظاهر مذهبه، وهو قول ابن حزم، وخالف داود في هذه المسألة.

(حجة من علق التحريم بقليل الرضاع وكثيره)

فحجة الأولين أنه سبحانه علّق التحريم باسم الرضاعة، فحيث وجد اسمها وجد حكمها،

والنبي ﷺ قال: «يَحْرُمُ مِنَ الرُّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ» وهذا موافق لإطلاق القرآن.

وثبت في «الصحيحين»، عن عتبة بن الحارث، أنه تزوج أم يحيى بنت أبي إهاب، فجاءت أمه سوداء، فقالت: قد أرضعتكما، فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فأعرض عني، قال: فتنحيت فذكرت ذلك له، قال: «وكيف وقد زعمت أنها قد أرضعتكما فنهاه عنها» [البخاري: ٢٦٤٠]، ولم يسأل عن عدد الرضاع، قالوا: ولأنه فعل يتعلق به التحريم، فاستوى قليله وكثيره، كالوطء الموجب له، قالوا: ولأن إنشاز العظم، وإنبات اللحم يحصل بقليله وكثيره. قالوا: ولأن أصحاب العدد قد اختلفت أقوالهم في الرضعة وحقيقتها، واضطربت أشد الاضطراب، وما كان هكذا لم يجعله الشارع نصاباً لعدم ضبطه والعلم به.

(حجة من علق التحريم بثلاث رضعات)

قال أصحابُ الثلاث: قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تُحْرَمُ المصَّةُ والمصَّتَانِ»، وعن أم الفضل بنت الحارث قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تُحْرَمُ الإِمْلاجَةُ والإِمْلاجَتَانِ». وفي حديث آخر: أن رجلاً قال: يا رسول الله! هل تُحْرَمُ الرضعة الواحدة؟ قال: «لا». وهذه أحاديث صحيحة صريحة، رواها مسلم في «صحيحه» [٣٥٩٠]، فلا يجوز العدول عنها فأثبتنا التحريم بثلاث لعموم الآية، ونفيًا للتحريم بما دونها بصريح السنة قالوا: ولأن ما يُعتبر فيه العدد والتكرار يُعتبر فيه الثلاث. قالوا: ولأنها أول مراتب الجمع، وقد اعتبرها الشارع في مواضع كثيرة جداً.

(حجة من علق التحريم بخمس رضعات)

قال أصحابُ الخمس: الحجة لنا ما تقدّم في أول الفصل من الأحاديث الصحيحة الصريحة، وقد أخبرت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ توفي والأمْر على ذلك، قالوا: ويكفي في هذا قولُ النبي ﷺ: «لِسَهْلَةَ بِنْتِ سَهْلٍ: «أَرْضِيعِي سَالِمًا خَمْسَ رَضَعَاتٍ تُحْرِمِي عَلَيَّ». قالوا: وعائشة أعلم الأمة بحكم هذه المسألة هي ونساء النبي ﷺ، وكانت عائشة رضي الله عنها إذا أرادت أن يَدْخُلَ عليها أحد أمرت إحدى بنات إخوتها أو أخواتها فأرضعته خَمْسَ رَضَعَاتٍ. قالوا: ونفي التحريم بالرضعة والرضعتين

صريح في عدم تعليق التحريم بقليل الرضاع وكثيره، وهي ثلاثة أحاديث صحيحة صريحة بعضها خرج جواباً للسائل، وبعضها تأسيس حكم مبتدأ. قالوا: وإذا علقنا التحريم بالخمسة، لم نكن قد خالفنا شيئاً من النصوص التي استدللتم بها، وإنما نكون قد قيدنا مطلقها بالخمسة، وتقيّد المطلق بيان لا نسخ ولا تخصيص.

وأما من علق التحريم بالقليل والكثير، فإنه يُخالف أحاديث نفي التحريم بالرضعة والرضعتين، وأما صاحبُ الثلاث، فإنه وإن لم يُخالفها، فهو مخالفت لأحاديث الخمس.

قال من لم يُقيده بالخمسة: حديثُ الخمس لم تنقله عائشة رضي الله عنها نقل الأخبار فيحتج به، وإنما نقلته نقل القرآن، والقرآن إنما يثبت بالتواتر، والأمة لم تنقل ذلك قرآناً، فلا يكون قرآناً، وإذا لم يكن قرآناً ولا خبراً، امتنع إثبات الحكم به.

قال أصحابُ الخمس: الكلام فيما نقل من القرآن آحاداً في فصلين، أحدهما: كونه من القرآن، والثاني: وجوب العمل به، ولا ريب أنهما حكمان متغايران، فإن الأول يُوجب انعقاد الصلاة به، وتحريم مسه على المحدث، وقراءته على الجنب، وغير ذلك من أحكام القرآن، فإذا انتفتت هذه الأحكام لعدم التواتر، لم يلزم انتفاء العمل به، فإنه يكفي فيه الظن، وقد احتج كل واحد من الأئمة الأربعة به في موضع، فاحتج به الشافعي وأحمد في هذا الموضع، واحتج به أبو حنيفة في وجوب التتابع في صيام الكفارة بقراءة ابن مسعود «فصيام ثلاثة أيام متتابعات». واحتج به مالك والصحابة قبله في فرض الواحد من ولد الأم أنه السدس بقراءة أبي، «وإن كان رجل يُورث كلاله، أو امرأة وله أخ، أو أخت من أم، فلكل واحد منهما السدس»، فالناس كلهم احتجوا بهذه القراءة، ولا مستند للإجماع سواها.

قالوا: وأما قولكم إما أن يكون نقله قرآناً أو خبراً، قلنا: بل قرآناً صريحاً. قولكم: فكان يجب نقله متواتراً، قلنا: حتى إذا نسخ لفظه أو بقي، أما الأول، فممنوع، والثاني، مسلم، وغاية ما في الأمر أنه قرآن نُسخ لفظه، وبقي حكمه، فيكون له حكم

قوله: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما» مما اكتفَى بنقله أحاداً، وحكمه ثابت، وهذا مما لا جواب عنه. وفي المسألة مذهبان آخران ضعيفان:

(من حرم سبع رضعات)

أحدهما: أن التحريم لا يثبت بأقل من سبع، كما سئل طاوس عن قول من يقول: لا يحرم من الرضاع دون سبع رضعات، فقال: قد كان ذلك، ثم حدث بعد ذلك أمر جاء بالتحريم، المرة الواحدة تحرم، وهذا المذهب لا دليل عليه.

(من حرم بعشر رضعات)

الثاني: التحريم إنما يثبت بعشر رضعات، وهذا يروى عن حفصة وعائشة رضي الله عنهما.

وفيها مذهب آخر، وهو الفرق بين أزواج النبي ﷺ وغيرهن قال طاوس: كان لأزواج النبي ﷺ رضعات محرمات، ولسائر الناس رضعات معلومات، ثم ترك ذلك بعد، وقد تبين الصحيح من هذه الأقوال، وبالله التوفيق.

فصل

(أحد الرضعة)

فإن قيل: ما هي الرضعة التي تنفصل من أختها، وما حدها؟ قيل: الرضعة فعلة من الرضاع، فهي مرة منه بلا شك، كضربة وجلسة وأكلة، فمتى التقم الثدي، فامتص منه ثم تركه باختياره من غير عارض كان ذلك رضعة، لأن الشرع ورد بذلك مطلقاً، فحِيلَ على العُرف، والعُرف هذا، والقطع العارض لتنفس أو استراحة يسيرة، أو لشيء يلقيه ثم يعود عن قرب لا يخرج به عن كونه رضعة واحدة، كما أن الأكل إذا قطع أكلته بذلك، ثم عاد عن قريب لم يكن ذلك أكلتين بل واحدة، هذا مذهب الشافعي، ولهم فيما إذا قطعت الرضعة عليه، ثم أعادته وجهان: أحدهما: أنها رضعة واحدة ولو قطعت مراراً حتى يقطع باختياره. قالوا: لأن الاعتبار بفعله لا بفعل المرضعة، ولهذا لو ارتضع منها وهي نائمة حُسِبَتْ رضعة، فإذا قطعت عليه لم يُعتد به، كما لو شرع في

أكلة واحدة أمره بها الطبيب، فجاء شخص فقطعها عليه، ثم عاد فإنها أكلة واحدة.

والوجه الثاني: أنها رضعة أخرى، لأن الرضاع يصح من المرتضع ومن المرضعة، ولهذا لو أوجرته وهو نائم احتسب رضعة.

ولهم فيما إذا انتقل من ثدي المرأة إلى ثدي غيرها وجهان: أحدهما: لا يعتد بواحد منهما لأنه انتقل من إحداهما إلى الأخرى قبل تمام الرضعة، فلم تتم الرضعة من إحداهما. ولهذا لو انتقل من ثدي المرأة إلى ثديها الآخر كانا رضعة واحدة.

والثاني: أنه يحتسب من كل واحد منهما رضعة، لأنه ارتضع، وقطعه باختياره من شخصين.

وأما مذهب الإمام أحمد رحمه الله، فقال صاحب «المغني»: إذا قطع قطعاً بيناً باختياره، كان ذلك رضعة، فإن عاد كان رضعة أخرى، فأما إن قطع لضيق نفس، أو للانتقال من ثدي إلى ثدي، أو لشيء يلقيه، أو قطعت عليه المرضعة نظرنا، فإن لم يعد قريباً، فهي رضعة، وإن عاد في الحال ففيه وجهان: أحدهما: أن الأولى رضعة، فإذا عاد فهي رضعة أخرى، قال: وهذا اختيار أبي بكر، وظاهر كلام أحمد في رواية حنبل، فإنه قال: أما ترى الصبي يرتضع من الثدي، فإذا أدركه النفس، أمسك عن الثدي ليتنفس، أو ليستريح، فإذا فعل ذلك فهي رضعة، قال الشيخ: وذلك أن الأولى رضعة لو لم يعد، فكانت رضعة، وإن عاد كما لو قطع باختياره. والوجه الآخر أن جميع ذلك رضعة، وهو مذهب الشافعي إلا فيما إذا قطعت عليه المرضعة، ففيه وجهان، لأنه لو حلف: لا أكلت اليوم إلا أكلة واحدة، فاستدام الأكل زمناً، أو انقطع لشرب ماء، أو انتقال من لون إلى لون، أو انتظار لما يُحمل إليه من الطعام لم يعد إلا أكلة واحدة فكذا ههنا، والأول أصح، لأن اليسير من السعوط والوجور رضعة، فكذا هذا^(١).

قلت، وكلام أحمد يحتمل أمرين: أحدهما: ما ذكره الشيخ، ويكون قوله: «فهي رضعة»، عائداً إلى الرضعة الثانية. الثاني: أن يكون المجموع رضعة، فيكون قوله: «فهي رضعة» عائداً إلى الأول والثاني،

(١) المغني (٧/٥٣٧).

وهذا أظهر محتمليه، لأنه استدل بقطعه للتنفس، أو الاستراحة على كونها رضعة واحدة. ومعلوم أن هذا الاستدلال اليقيني يكون الثانية مع الأولى واحدة من كون الثانية رضعة مستقلة، فتأمل.

وأما قياسُ الشيخ له على يسير السعوط والوجور، فالفرق بينهما أن ذلك مستقل ليس تابعاً لرضعة قبله، ولا هو من تمامها، فيقال: رضعة بخلاف مسألتنا، فإن الثانية تابعة للأولى، وهي من تمامها فافترقا.

فصل

(زمن الرضاع المحرم)

والحكم الرابع: أن الرضاع الذي يتعلّق به التحريم ما كان قبل الفطام في زمن الارتضاع المعتاد، وقد اختلف الفقهاء في ذلك، فقال الشافعي، وأحمد، وأبو يوسف، ومحمد: هو ما كان في الحولين، ولا يُحرّم ما كان بعدهما، وصح ذلك عن عمر، وابن مسعود، وأبي هريرة، وابن عباس، وابن عمر، وروى عن سعيد بن المسيّب، والشعبي وابن شُبْرَمَةَ، وهو قولُ سفيان، وإسحاق وأبي عبيد، وابن حزم، وابن المنذر، وداود، وجمهور أصحابه.

وقالت طائفة: الرضاعُ المحرم ما كان قبل الفطام، ولم يحدوه بزمن، صحّ ذلك عن أم سلمة، وابن عباس وروى عن علي، ولم يصح عنه، وهو قولُ الزهري، والحسن، وقتادة، وعكرمة، والأوزاعي. قال الأوزاعي: إن فُطمَ وله عام واحد واستمر فطامه، ثم رضع في الحولين، لم يُحرّم هذا الرضاع شيئاً، فإن تمادى رضاعه ولم يُفطم، فما كان في الحولين فإنه يُحرّم، وما كان بعدهما فإنه لا يُحرّم وإن تمادى الرضاع. وقالت طائفة: الرضاعُ المحرم ما كان في الصغر، ولم يوقته هؤلاء بوقت، وروى هذا عن ابن عمر، وابن المسيّب، وأزواج رسول الله ﷺ خلا عائشة رضي الله عنها. وقال أبو حنيفة وزفر: ثلاثون شهراً، وعن أبي حنيفة رواية أخرى، كقول أبي يوسف ومحمد. وقال مالك في المشهور من مذهبه: يُحرّم في الحولين، وما قاربهما، ولا حرمة له بعد ذلك. ثم روي عنه اعتبار أيام يسيرة، وروي عنه شهران، وروي شهر، ونحوه.

وروى عنه الوليد بن مسلم وغيره: أن ما كان بعد الحولين من رضاع بشهر أو شهرين أو ثلاثة أشهر، فإنه عندي من الحولين، وهذا هو المشهور عند كثير من أصحابه. والذي رواه عنه أصحاب الموطأ وكان يقرأ عليه إلى أن مات قوله فيه: وما كان من الرضاع بعد الحولين كان قليلاً وكثيره لا يُحرّم شيئاً، إنما هو بمنزلة الطعام، هذا لفظه [مالك (٢/٦٠٤)]. وقال: إذا فصل الصبي قبل الحولين، واستغنى بالطعام عن الرضاع، فما ارتضع بعد ذلك لم يكن للرضاع حرمة. وقال الحسن بن صالح، وابن أبي ذئب وجماعة من أهل الكوفة: مدة الرضاع المُحرّم ثلاث سنين، فما زاد عليها لم يُحرّم، وقال عمر بن عبد العزيز: مدته إلى سبع سنين، وكان يزيد بن هارون يحكيه عنه كالمتعجب من قوله. وروي عنه خلافاً هذا، وحكى عنه ربيعة أن مدته حولان واثنا عشر يوماً.

(من قال بتحريم رضاع الكبير)

وقالت طائفة من السلف والخلف: يحرم رضاع الكبير، ولو أنه شيخ، فروى مالك، عن ابن شهاب، أنه سئل عن رضاع الكبير، فقال: أخبرني عروة بن الزبير، بحديث أمر رسول الله ﷺ سهلة بنت سهيل برضاع سالم، ففعلت، وكانت تراه ابناً لها. قال عروة: فأخذت بذلك عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فيمن كانت تُحب أن يدخل عليها من الرجال، فكانت تأمر أختها أم كلثوم، وبنات أخيها يرضعن من أحبّت أن يدخل عليها من الرجال [مالك (٢/١٧٧)]، وأبو داود: ٢٠٦١.

وقال عبد الرزاق: حدثنا ابن جريج، قال: سمعتُ عطاء بن أبي رباح وسأله رجلٌ فقال: سقتني امرأة من لبنها بعد ما كنت رجلاً كبيراً، أفأنكحها؟ قال عطاء: لا تنكحها، فقلت له: وذلك رأيك؟ قال: نعم، كانت عائشة رضي الله عنها تأمر بذلك بنات أخيها [عبد الرزاق: ١٣٨٨٣]. وهذا قولٌ ثابت عن عائشة رضي الله عنها. ويروى عن علي، وعروة بن الزبير، وعطاء بن أبي رباح، وهو قولُ الليث بن سعد [عبد الرزاق (٧/٤٥٨ - ٤٦٣)، والبيهقي (٧/٤٥٩ - ٤٦١)]، وأبي محمد ابن حزم، قال: ورضاعُ الكبير ولو أنه شيخ يُحرّم كما يُحرّم رضاع الصغير ولا فرق [المحلى: ١٠/١٧]، فهذه مذاهب الناس في هذه المسألة.

ولنذكر مناظرة أصحاب الحولين، والقائلين
برضاع الكبير، فإنهما طرفان، وسائر الأقوال
مقاربة.

(حجة من قال بعدم التحريم برضاع الكبير)

قال أصحاب الحولين: قال الله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَتُ
يَرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةُ﴾
[البقرة: ٢٣٣]، قالوا: فجعل تمام الرضاعة حولين،
فدل على أنه لا حكم لما بعدهما، فلا يتعلق به
التحريم. قالوا: وهذه المدة هي مدة المجاعة التي
ذكرها رسول الله ﷺ، وقصر الرضاعة المحرمة
عليها. قالوا: وهذه مدة الثدي الذي قال فيها: «لا
رضاع إلا ما كان في الثدي»، أي في زمن الثدي،
وهذه لغة معروفة عند العرب، فإن العرب يقولون:
فلان مات في الثدي، أي: في زمن الرضاع قبل
القطام، ومنه الحديث المشهور: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ مَاتَ
فِي الثَّدْيِ وَإِنْ لَهُ مُرْضِعًا فِي الْجَنَّةِ تُنِمُّ رَضَاعُهُ» [مسلم:
٦٠٢٦]. يعني إبراهيم ابنه صلوات الله وسلامه عليه.
قالوا: وأكد ذلك بقوله: «لا رضاع إلا ما فتق
الأمعاء» وكان في الثدي قبل القطام، فهذه ثلاثة
أوصاف للرضاع المحرم، ومعلوم أن رضاع الشيخ
الكبير عارٍ من الثلاثة.

قالوا: وأصرح من هذا حديث ابن عباس: «لا
رضاع إلا ما كان في الحولين».
قالوا: وأكدّه أيضاً حديث ابن مسعود: «لا يُحْرَمُ
مِنَ الرِّضَاعَةِ إِلَّا مَا أَتَبَتِ اللَّحْمَ وَأَنْشَرَتِ الْعَظْمَ»،
ورضاع الكبير لا يثبت لحماً، ولا ينشز عظماً.

قالوا: ولو كان رضاع الكبير محرماً لما قال
النبي ﷺ لعائشة - وقد تغير وجهه، وكره دخول أخيها
من الرضاعة عليها لما رآه كبيراً: - «انظرون من
إخوانكن» فلو حرم رضاع الكبير، لم يكن فرق بينه
وبين الصغير، ولما كره ذلك وقال: «انظرون من
إخوانكن» ثم قال: «فإنما الرضاعة من المجاعة»
وتحت هذا من المعنى خشية أن يكون قد ارتضع في
غير زمن الرضاع وهو زمن المجاعة، فلا ينشر
الحرمة، فلا يكون أخاً.

قالوا: وأما حديث سهولة في رضاع سالم، فهذا
كان في أول الهجرة لأن قصته كانت عقيب نزول قوله

تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، وهي نزلت
في أول الهجرة.

وأما أحاديث اشتراط الصغر، وأن يكون في
الثدي قبل القطام، فهي من رواية ابن عباس، وأبي
هريرة، وابن عباس إنما قدم المدينة قبل الفتح، وأبو
هريرة إنما أسلم عام فتح خيبر بلا شك، كلاهما قدم
المدينة بعد قصة سالم في رضاعه من امرأة أبي
حذيفة.

(حجة من حرم برضاع الكبير)

قال المبتنون للتحريم برضاع الشيوخ: قد صح
عن النبي ﷺ صحة لا يمتري فيها أحد أنه أمر
سهلة بنت سهيل أن ترضع سالماً مولى أبي حذيفة،
وكان كبيراً ذا لحية، وقال: «أَرْضِعِيهِ تَحْرُمِي
عَلَيْهِ»، ثم ساقوا الحديث وطرقه وألفاظه وهي
صحيحة صريحة بلا شك. ثم قالوا: فهذه الأخبار
ترفع الإشكال، وتبين مراد الله عز وجل في
الآيات المذكورات أن الرضاعة التي تنمّ بتمام
الحولين، أو بتراضي الأبوين قبل الحولين إذا رأيا
في ذلك صلاحاً للرضيع، إنما هي الموجبة للنفقة
على المرأة المرضعة، والتي يُجبر عليها الأبوان
أحبا أم كرها. ولقد كان في الآية كفاية من هذا
لأنه تعالى قال: ﴿وَالْوَالِدَتُ يَرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ
كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةُ وَعَلَى الْوَالِدِ لَمْ يَرْضَعَنَّ
وَكُنَّ يَتَرَفَّعْنَ بِالْمَقْرُونِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، فأمر الله تعالى
الوالدات بإرضاع المولود عامين، وليس في هذا
تحريم للرضاعة بعد ذلك، ولا أن التحريم ينقطع
بتمام الحولين، وكان قوله تعالى: ﴿وَأَنْهَيْتُكُمْ أَنْ تَتَرَفَّعُوا
أَوْلَادَكُمْ بِالْحُفَرِ وَأَنْهَيْتُكُمْ مِّنَ الرِّضَاعَةِ﴾ [النساء: ٢٣]،
ولم يقل في حولين، ولا في وقت دون وقت زائداً
على الآيات الأخر، وعمومها لا يجوز تخصيصه
إلا بنص يبين أنه تخصيص له، لا بظن، ولا
محتمل لا بيان فيه، وكانت هذه الآثار يعني التي
فيها التحريم برضاع الكبير قد جاءت مجيء
التواتر، رواها نساء النبي ﷺ، وسهلة بنت سهيل،
وهي من المهاجرات، وزينب بنت أم سلمة وهي
ربيعة النبي ﷺ، ورواها من التابعين: القاسم بن
محمد، وعروة بن الزبير، وحُميد بن نافع، ورواها

فإن قلتم: فما فائدة ذكره إذا كان الكبير والصغير فيه سواء؟ قلنا: فائدته إبطال تعلق التحريم بالقطرة من اللبن، أو المصّة الواحدة التي لا تُغني من جوع، ولا تُبَتِّت لحمًا، ولا تُنشِز عظمًا.

قالوا: وقوله ﷺ: «لا رضاع إلا ما كان في الحولين، وكان في الثدي قبل الفطام» ليس بأبلغ من قوله ﷺ: «لا ربا إلا في النسيئة»، وإنما الربا في النسيئة [البخاري: ٢١٧٨، ومسلم: ٤٠٨٨]، ولم يمنع ذلك ثبوت ربا الفضل بالأدلة الدالة عليه، فكذا هذا.

فأحاديث رسول الله ﷺ، وسنته الثابتة كلها حق يجب اتباعها، ولا يضرب بعضها ببعض، بل تُستعمل كل منها على وجهه. قالوا: ومما يدل على ذلك أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وأفقها نساء الأمة هي التي روت هذا وهذا، فهي التي روت: «إنما الرضاعة من المجاعة»، وروت حديث سهلة، وأخذت به فلو كان عندها حديث «إنما الرضاعة من المجاعة» مخالفًا لحديث سهلة، لما ذهبت إليه وتركت حديثًا واجهها به رسول الله ﷺ، وتغيّر وجهه، وكره الرجل الذي رآه عندها، وقالت: هو أخي.

قالوا: وقد صحّ عنها أنها كانت تُدْخِلُ عليها الكبير إذا أرضعته في حال كبره أحت من أخواتها الرضاع المُحَرَّم، ونحن نشهدُ بشهادة الله، ونقطع قطعاً نلقاه به يوم القيامة، أن أم المؤمنين لم تكن لِيُتَبَيَّنَ بِشَرِّ رسول الله ﷺ بحيث ينتهكه من لا يحلُّ له انتهاكه، ولم يكن الله عز وجل ليبيح ذلك على يد الصديقة بنت الصديق المبرأة من فوق سبع سَمَاوَات، وقد عصم الله سبحانه ذلك الجناب الكريم، والحمى المنيع، والشرف الرفيع أتمَّ عَصَمَة، وصانة أعظم صيانة، وتولّى صيانتَه وحمايَتَه والذَّبُّ عنه بنفسه ووجهه وكلامه، قالوا: فنحن نُوقِرُ ونقطع، ونَبُتُّ الشهادة لله، بأن فعلَ عائشة رضي الله عنها هو الحقُّ، وأن رضاعَ الكبير يقع به من التحريم والمحرمية ما يقع برضاع الصغير، ويكفيها أثنا أفقه نساء الأمة على الإطلاق، وقد كانت تُناظر في ذلك نساءه ﷺ، ولا يُجَبِّتها بغير قولهن: ما أحدٌ داخلٌ علينا بتلك الرضاعة. ويكفيها في ذلك أنه مذهب ابن

عن هؤلاء: الزهري، وابن أبي مليكة، وعبد الرحمن بن القاسم، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وربيعة، ثم رواها عن هؤلاء: أيوب السَّخْتِيَّاني، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، وشعبة، ومالك، وابن جريج، وشعيب، ويونس، وجعفر بن ربيعة، ومعمّر، وسليمان بن بلال، وغيرهم، ثم رواها عن هؤلاء الجُمُ الغفير، والعدد الكثير، فهي نقلٌ كافة لا يختلفُ مؤالف ولا مخالف في صحتها، فلم يبق من الاعتراض إلا قولُ القائل: كان ذلك خاصًا بسالم، كما قال بعضُ أزواج رسول الله ﷺ وَمَنْ تَبِعَهُنَّ فِي ذَلِكَ، فليعلم من تعلق بهذا أنه ظنَّ ممن ظن ذلك منهم رضي الله عنهم. هكذا في الحديث أنهن قلن: ما نرى هذا إلا خاصًا بسالم، وما ندري لعلها كانت رخصة لسالم. فإذا هو ظن بلا شك فإن الظن لا يُعارض به السنن الثابتة، قال الله تعالى: ﴿إِذْ أَلْفَلَقَ لَا يَفْقَهُ مِنْ أَلْفٍ شَيْئًا﴾ [يونس: ٣٦]، وشتان بين احتجاج أم سلمة رضي الله عنها بظنها، وبين احتجاج عائشة رضي الله عنها بالسنة الثابتة، ولهذا لما قالت لها عائشة: أما لك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، سكّت أم سلمة، ولم تنطق بحرف، وهذا إما رجوعٌ إلى مذهب عائشة، وإما انقطاع في يدها.

قالوا: وقولُ سهلة لرسول الله ﷺ: كيف أرضعهُ وهو رجل كبير؟ بيان جلي أنه بعد نزول الآيات المذكورات.

قالوا: ونعلم يقيناً أنه لو كان ذلك خاصًا بسالم، لقطع النبي ﷺ الإلحاق، ونص على أنه ليس لأحد بعده، كما بيّن لأبي بردة بن نيار، أن جذعته تُجْزَى عنه، ولا تجزى عن أحد بعده [البخاري: ٥٥٤٥، ومسلم: ٥٠٦٩]. وأين يقع ذنب جذعة أضحية من هذا الحكم العظيم المتعلق به حلُّ الفرج وتحريمه، وثبوت المحرمية والخلوة بالمرأة والسفر بها؟ فمعلوم قطعاً أن هذا أولى ببيان التخصيص لو كان خاصًا. قالوا: وقول النبي ﷺ: «إنما الرضاعة من المجاعة» حجة لنا، لأن شرب الكبير للبن يؤثر في دفع مجاعته قطعاً، كما يؤثر في الصغير أو قريباً منه.

أصحابه قدراً على تقديره وتصحيحه، فاجلس أيها العالم المنصف مجلس الحكم بين هذين المتنازعين، وافصل بينهما بالحجة والبيان لا بالتقليد وقال فلان.

(رد القائلين بالحولين على حديث سهلة ولولها رده بالنسخ)
واختلف القائلون بالحولين في حديث سهلة هذا على ثلاثة مسالك: أحدها: أنه منسوخ، وهذا مسلك كثير منهم، ولم يأتوا على النسخ بحجة سوى الدعوى، فإنهم لا يُمكنهم إثبات التاريخ المعلوم التأخر بينه وبين تلك الأحاديث. ولو قلب أصحاب هذا القول عليهم الدعوى، وادعوا نسخ تلك الأحاديث بحديث سهلة، لكانت نظير دعواهم.

وأما قولهم: إنها كانت في أول الهجرة، وحين نزول قوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، ورواية ابن عباس رضي الله عنه، وأبي هريرة بعد ذلك، فجوابه من وجوه:

أحدها: أنهم لم يصرحوا بسماعه من النبي ﷺ، بل لم يسمع منه ابن عباس إلا دون العشرين حديثاً، وسأثرها عن الصحابة رضي الله عنهم.

الثاني: أن نساء النبي ﷺ لم تحتج واحدة منهن، بل ولا غيرهن على عائشة رضي الله عنها بذلك، بل سلكن في الحديث بتخصيصه بسالم، وعدم إلحاق غيره به.

الثالث: أن عائشة رضي الله عنها نفسها روت هذا وهذا، فلو كان حديث سهلة منسوخاً، لكانت عائشة رضي الله عنها قد أخذت به، وتركته الناسخ، أو خفي عليها تقدّمه مع كونها هي الراوية له، وكلاهما ممتنع، وفي غاية البعد.

الرابع: أن عائشة رضي الله عنها ابتليت بالمسألة، وكانت تعمل بها، وتناظر عليها، وتدعو إليها صواحبها فلها بها مزيد اعتناء، فكيف يكون هذا حكماً منسوخاً قد بطل كونه من الدين جملة، ويخفى عليها ذلك، ويخفى على نساء النبي ﷺ فلا تذكره لها واحدة منهن.

(رد حديث سهلة بالخصوصية بسالم)

المسلك الثاني: أنه مخصوص بسالم دون من

عم نينا، وأعلم أهل الأرض على الإطلاق حين كان خليفة، ومذهب الليث بن سعد الذي شهد له الشافعي بأنه كان أفقه من مالك، إلا أنه ضيعه أصحابه، ومذهب عطاء بن أبي رباح ذكره عبد الرزاق عن ابن جريج عنه. وذكر مالك عن الزهري، أنه سُئل عن رضاع الكبير، فاحتج بحديث سهلة بنت سهيل في قصة سالم مولى أبي حذيفة، وقال عبد الرزاق: وأخبرني ابن جريج، قال: أخبرني عبد الكريم، أن سالم بن أبي جعد المولى الأشجعي أخبره أن أباه أخبره، أنه سأل علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: أردت أن أتزوج امرأة قد سقتني من لبنها وأنا كبير تدأوي به، فقال له علي: لا تنكحها، ونهاه عنها [عبد الرزاق: ١٣٨٨٨].

فهؤلاء سلفنا في هذه المسألة، وتلك نصوصنا كالشمس صحة وصراحة. قالوا: وأصرح أحاديثكم حديث أم سلمة ترفعه: «لا يُحرّم من الرضاع إلا ما فتق الأثماء في الثدي وكان قبل الفطام» فما أصرحه لو كان سليماً من العلة، لكن هذا حديث منقطع^(١)، لأنه من رواية فاطمة بنت المنذر عن أم سلمة، ولم تسمع منها شيئاً، لأنها كانت أسراً من زوجها هشام باثني عشر عاماً، فكان مولده في سنة ستين، ومولد فاطمة في سنة ثمان وأربعين، وماتت أم سلمة سنة تسع وخمسين، وفاطمة صغيرة لم تبلغها، فكيف تحفظ عنها، ولم تسمع من خالة أيها شيئاً وهي في حجرها، كما حصل سماعها من جدتها أسماء بنت أبي بكر؟

قالوا: وإذا نظر العالم المنصف في هذا القول، ووازن بينه وبين قول من يحدّد مدة الرضاع المحرّم بخمسة وعشرين شهراً، أو ستة وعشرين شهراً أو سبعة وعشرين شهراً، أو ثلاثين شهراً من تلك الأقوال التي لا دليل عليها من كتاب الله، أو سنة رسوله، ولا قول أحد من الصحابة، تبين له فضل ما بين القولين. فهذا منتهى أقدام الطائفتين في هذه المسألة، ولعل الواقف عليها لم يكن يخطر له أن هذا القول تنتهي قوته إلى هذا الحد، وأنه ليس بأيدي

(١) هذه دعوى مردودة على قائلها، فالحديث متصل الإسناد، صحيح على شرط الشيخين، صححه غير واحد من الأئمة.

عدها، وهذا مسلك أم سلمة ومن معها من نساء النبي ﷺ ومن تبعهن، وهذا المسلك أقوى مما قبله، فإن أصحابه قالوا مما يبين اختصاصه بسالم أن فيه: أن سهلة سألت رسول الله ﷺ بعد نزول آية الحجاب، وهي تقتضي أنه لا يحل للمرأة أن تبدي زينتها إلا لمن ذكر في الآية وسُمِّيَ فيها، ولا يخص من عموم من عداهم أحد إلا بدليل. قالوا: والمرأة إذا أرضعت أجنبياً، فقد أبدت زينتها له، فلا يجوز ذلك تمسكاً بعموم الآية، فعلمنا أن إبداء سهلة زينتها لسالم خاص به. قالوا: وإذا أمر رسول الله ﷺ واحداً من الأمة بأمر، أو أباح له شيئاً أو نهاه عن شيء وليس في الشريعة ما يعارضه ثبت ذلك في حق غيره من الأمة ما لم ينص على تخصيصه، وأما إذا أمر الناس بأمر، أو نهاهم عن شيء، ثم أمر واحداً من الأمة بخلاف ما أمر به الناس، أو أطلق له ما نهاهم عنه، فإن ذلك يكون خاصاً به وحده، ولا نقول في هذا الموضع: إن أمره للواحد أمر للجميع، وإباحته للواحد إباحة للجميع، لأن ذلك يؤدي إلى إسقاط الأمر الأول والنهي الأول، بل نقول: إنه خاص بذلك الواحد لتتفق النصوص وتألف، ولا يعارض بعضها بعضاً، فحرم الله في كتابه أن تبدي المرأة زينتها لغير محرّم، وأباح رسول الله ﷺ لسهلة أن تبدي زينتها لسالم وهو غير محرّم عند إبداء الزينة قطعاً، فيكون ذلك رخصة خاصة بسالم، مستثناة من عموم التحريم، ولا نقول: إن حكمها عام، فيبطل حكم الآية المحرمة.

قالوا: ويتعين هذا المسلك لأننا لو لم نسلكه، لزمنا أحد مسلكين، ولا بد منهما إما نسخ هذا الحديث بالأحاديث الدالة على اعتبار الصغر في التحريم، وإما نسخها به، ولا سبيل إلى واحد من الأمرين لعدم العلم بالتاريخ، ولعدم تحقق المعارضة، وإمكان العمل بالأحاديث كلها، فإننا إذا حملنا حديث سهلة على الرخصة الخاصة، والأحاديث الأخر على عمومها فيما عدا سالم لم تتعارض، ولم ينسخ بعضها بعضاً، وغول بجمعها.

قالوا: وإذا كان النبي ﷺ قد بين أن الرضاع إنما يكون في الحولين، وأنه إنما يكون في الثدي، وإنما

قالوا: وأما تفسير حديث «إنما الرضاعة من المجاعة» بما ذكرتموه، ففي غاية البعد من اللفظ، ولا تتبادر إليه أفهام المخاطبين، بل القول في معناه ما قاله أبو عبيد والناس، قال أبو عبيد: قوله: «إنما الرضاعة من المجاعة» يقول: إن الذي إذا جاع كان طعامه الذي يشبعه اللبن، إنما هو الصبي الرضيع، فأما الذي شبعه من جوعه الطعام، فإن رضاعه ليس برضاع، ومعنى الحديث: إنما الرضاع في الحولين قبل الفطام، هذا تفسير أبي عبيد والناس، وهو الذي يتبادر فهمه من الحديث إلى الأذهان، حتى لو احتمل الحديث التفسيرين على السواء، لكان هذا المعنى أولى به لمساعدة سائر الأحاديث لهذا المعنى، وكشفها له، وإيضاحها، ومما يبين أن غير هذا التفسير خطأ، وأنه لا يصح أن يراد به رضاعة الكبير، أن لفظة «المجاعة» إنما تدل على رضاعة الصغير، فهي تثبت رضاعة المجاعة، وتنفي غيرها، ومعلوم يقيناً أنه إنما أراد مجاعة اللبن لا مجاعة الخبز واللحم، فهذا لا يخطر ببال المتكلم ولا السامع، فلو جعلنا حكم الرضاعة عاماً لم يبق لنا ما ينقضي ويثبت. وسياق قوله: لما رأى الرجل الكبير، فقال: «إنما الرضاعة من المجاعة»، يبين المراد، وأنه إنما يحرم رضاعة من يجوع إلى لبن المرأة، والسياق ينزل اللفظ منزلة الصريح، فتغير وجهه الكريم صلوات الله وسلامه عليه وكرامته لذلك الرجل، وقوله: «انظروا من إخوانكم» إنما هو للحفاظ في الرضاعة، وأنها لا تحرم كل وقت، وإنما تحرم وقتاً دون وقت، ولا يفهم أحد من هذا أنما الرضاعة ما كان عددها خمساً فيعبر عن هذا المعنى بقوله «من المجاعة»، وهذا ضد البيان الذي كان عليه ﷺ.

وقولكم: إن الرضاعة تطرد الجوع عن الكبير، كما تطرد الجوع عن الصغير كلام باطل، فإنه لا يعمد ذو لحية قط يشبعه رضاع المرأة ويطرده عنه الجوع، بخلاف الصغير فإنه ليس له ما يقوم مقام اللبن، فهو

يَقْرُدُّ عَنْهُ الْجُوعُ، فَالْكَبِيرُ لَيْسَ ذَا مَجَاعَةٍ إِلَى اللَّبَنِ أَصْلًا، وَالَّذِي يُوضَّحُ هَذَا أَنَّهُ ﷺ لَمْ يُرِدْ حَقِيقَةَ الْمَجَاعَةِ، وَإِنَّمَا أَرَادَ مَظَنَّتَهَا وَزَمْنَهَا، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ الصَّغَرُ، فَإِنْ أَيْتِمَ إِلَّا الظَّاهِرِيَّةُ، وَأَنَّهُ أَرَادَ حَقِيقَتَهَا، لَزِمَكُمْ أَنْ لَا يُحَرِّمَ رِضَاعُ الْكَبِيرِ إِلَّا إِذَا ارْتَضَعَ وَهُوَ جَائِعٌ، فَلَوْ ارْتَضَعَ وَهُوَ شَبَعَانٌ لَمْ يُوْثِرْ شَيْئًا.

وَأَمَّا حَدِيثُ السُّتْرِ الْمَصُونِ، وَالْحُرْمَةِ الْعَظِيمَةِ، وَالْجَمْعِ الْمُنْبِعِ، فَرَضِيَ اللَّهُ عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهَا وَإِنْ رَأَتْ أَنَّ هَذَا الرِّضَاعَ يُبَيِّتُ الْمَحْرَمَةَ، فَسَائِرُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَخَالِفْنَهَا فِي ذَلِكَ، وَلَا يَرَيْنَ دُخُولَ هَذَا السُّتْرِ الْمَصُونِ، وَالْجَمْعِ الرَّفِيعِ بِهِذِهِ الرِّضَاعَةِ، فَهِيَ مَسْأَلَةٌ اجْتِهَادٍ، وَاحِدُ الْحَزْبَيْنِ مَاجُورٌ أَجْرًا وَاحِدًا، وَالْآخَرُ مَاجُورٌ أَجْرَيْنِ، وَأَسْعَدُهُمَا بِالْأَجْرَيْنِ مَنْ أَصَابَ حُكْمَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فِي هَذِهِ الْوَاقِعَةِ، فَكُلُّ مَنْ الْمُدْخَلُ لِلْسُّتْرِ الْمَصُونِ بِهِذِهِ الرِّضَاعَةِ، وَالْمَانِعُ مِنَ الدُّخُولِ فَائِزٌ بِالْأَجْرِ، مُجْتَهِدٌ فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ وَطَاعَةٌ لِرَسُولِهِ، وَتَفْهِيمُ حُكْمِهِ، وَلَهُمَا أَسْوَةٌ بِالنَّبِيِّينَ الْكَرِيمِينَ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ اللَّذَيْنِ أَثْنَى اللَّهُ عَلَيْهِمَا بِالْحِكْمَةِ وَالْحُكْمِ، وَخَصَّ بِهِمَا الْحُكْمَةَ أَحَدُهُمَا.

فصل

(تقوية حديث أم سلمة)

وَأَمَّا رُدُّكُمْ لِحَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ، فَتَحَسَّنَتْ بَارِدًا، فَلَا يَلْزَمُ انْقِطَاعُ الْحَدِيثِ مِنْ أَجْلِ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ الْمُنْذَرِ لَقِيتْ أُمَّ سَلَمَةَ صَغِيرَةً، فَقَدْ يَعْقِلُ الصَّغِيرُ جَدًّا أَشْيَاءَ وَيَحْفَظُهَا، وَقَدْ عَقَلَ مُحَمَّدُ بْنُ الرَّبِيعِ الْمَجَنَّةَ وَهُوَ ابْنُ سَبْعِ سِنِينَ [البخاري: ٧٧]، وَيَعْقِلُ أَصْغَرُ مِنْهُ. وَقَدْ قُلْتُمْ: إِنَّ فَاطِمَةَ كَانَتْ وَقْتُ وَفَاةِ أُمِّ سَلَمَةَ بِنْتُ إِحْدَى عَشْرَةِ سَنَةٍ، وَهَذَا سَبِينٌ جَيِّدٌ، لَا سَبِيلَ لِلْمَرْأَةِ، فَإِنَّهَا تَصْلُحُ فِيهِ لِلزَّوْجِ، فَمَنْ هِيَ فِي حَدِّ الزَّوْجِ، كَيْفَ يُقَالُ: إِنَّهَا لَا تَعْقِلُ مَا تَسْمَعُ، وَلَا تَدْرِي مَا تُحَدِّثُ بِهِ؟ هَذَا هُوَ الْبَاطِلُ الَّذِي لَا تُرَدُّ بِهِ السُّنَنُ، مَعَ أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ كَانَتْ مُصَادِقَةً لَجَدَّتِهَا أَسْمَاءُ، وَكَانَتْ دَارَهُمَا وَاحِدَةً، فَنَشَأَتْ فَاطِمَةُ هَذِهِ فِي حَجَرِ جَدَّتِهَا أَسْمَاءَ مَعَ خَالَةِ أَبِيهَا عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَأُمِّ سَلَمَةَ، وَمَاتَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا سَنَةَ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ. وَقِيلَ: سَنَةٌ

ثَمَانٌ وَخَمْسِينَ، وَقَدْ يُمَكِّنُ سَمَاعُ فَاطِمَةَ مِنْهَا، وَأَمَّا جَدَّتُهَا أَسْمَاءُ، فَمَاتَتْ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ، وَفَاطِمَةُ إِذْ ذَاكَ بِنْتُ خَمْسٍ وَعَشْرِينَ سَنَةً، فَلِلَّذَلِكَ كَثْرُ سَمَاعِهَا مِنْهَا، وَقَدْ أَفْتَتْ أُمُّ سَلَمَةَ بِمَثَلِ الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَتْهُ أَسْمَاءُ. فَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ يَحْيَى بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَاطِبٍ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ: أَنَّهَا سُئِلَتْ مَا يُحَرِّمُ مِنَ الرِّضَاعِ؟ فَقَالَتْ: مَا كَانَ فِي الثَّدْيِ قَبْلَ الْفِطَامِ^(١). فَرَوَتْ الْحَدِيثَ، وَأَفْتَتْ بِمُوجِبِهِ.

وَأَفْتَى بِهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَمَا رَوَاهُ الدَّارِقُطْنِيُّ مِنْ حَدِيثِ سَفْيَانَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ يَقُولُ: «لَا رِضَاعَ إِلَّا فِي الْحَوْلَيْنِ فِي الصَّغَرِ» [الدارقطني: ٤/١٧٢].

وَأَفْتَى بِهِ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: لَا رِضَاعَةَ إِلَّا لِمَنْ أَرْضَعَ فِي الصَّغَرِ، وَلَا رِضَاعَةَ لِكَبِيرٍ [مالك: ٢/٦٠٣].

وَأَفْتَى بِهِ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَقَالَ أَبُو عِيْدٍ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ، عَنْ سَفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، عَنْ عَاصِمِ الْأَحْوَلِ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَا رِضَاعَ بَعْدَ فِطَامِ عَبْدِ الرَّزَاقِ: ١٣٩٠٣].

(رجوع أبي موسى الأشعري)

إلى عدم التحريم إلا برضاع الصغير)

وَتَنَاطَرُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَأَبُو مُوسَى، فَأَفْتَى ابْنُ مَسْعُودٍ بِأَنَّهُ لَا يُحَرِّمُ إِلَّا فِي الصَّغَرِ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ أَبُو مُوسَى، فَذَكَرَ الدَّارِقُطْنِيُّ أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ قَالَ لِأَبِي مُوسَى: أَنْتَ تُفْتِي بِكَذَا وَكَذَا، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا رِضَاعَ إِلَّا مَا شَدَّ الْعَظْمَ وَأَنْبَتَ اللَّحْمَ» [الدارقطني: ٤/١٧٢].

وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلِيمَانَ الْأَنْبَارِيُّ، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، حَدَّثَنَا سَلِيمَانُ بْنُ الْمَغِيرَةِ، عَنْ أَبِي مُوسَى الْهَلَالِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يُحَرِّمُ

مِنَ الرِّضَاعِ إِلَّا مَا أُثْبِتَ اللَّحْمَ وَأَنْشَرَ الْعَظْمَ [أحمد: ٤١١٤، وأبو داود: ٢٠٦٠].

ثم أفنى بذلك كما ذكره عبد الرزاق عن الثوري، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبي خُصين، عن أبي عطية الوادعي، قال: جاء رَجُلٌ إلى أبي موسى، فقال: إن امرأتي وَرِمَ ثديها فَمَصَصْتُهُ، فدخل حلقي شيء سبقتي، فشدد عليه أبو موسى، فأنى عبد الله بن مسعود، فقال: سألت أحداً غيري؟ قال: نعم أبا موسى، فشدد علي، فأنى أبا موسى، فقال: أرضع هذا؟ فقال أبو موسى: لا تسألوني ما دام هذا الحبر بين أظهركم [عبد الرزاق: ١٣٨٩٥، والبيهقي (٤٦١/٧)، ومالك (٦٠٧/٢)]. فهذه روايته وفتواه.

وأما علي بن أبي طالب، فذكر عبد الرزاق، عن الثوري، عن جُوَيْر، عن الضحاك، عن الثَّزَال بن سبرة، عن علي: لا رَضَاع بَعْدَ الْفُضَال [عبد الرزاق: ١٣٨٩٨].

وهذا خلاف رواية عبد الكريم، عن سالم بن أبي الجعد، عن أبيه عنه لكن جُوَيْر لا يُحتج بحديثه، وعبد الكريم أقوى منه.

فصل

(رد حديث سهلة بانه

رخصة للحاجة لمن لا يستغني عن دخوله على المرأة)

المسلك الثالث: أن حديث سهلة ليس بمنسوخ، ولا مخصوص، ولا عام في حق كل أحد، وإنما هو رخصة للحاجة لمن لا يستغني عن دخوله على المرأة، وَيَشُقُّ احتجاؤها عنه، كحال سالم مع امرأة أبي حذيفة، فمثل هذا الكبير إذا أرضعته للحاجة أثر رضاعه، وأما من عدا، فلا يُؤثر إلا رضاع الصغير، وهذا مسلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، والأحاديث النافية للرضاع في الكبير إما مطلقة، فتقيد بحديث سهلة، أو عامة في الأحوال فتخصيص هذه الحال من عمومها، وهذا أولى من النسخ ودعوى التخصيص بشخص بعينه، وأقرب إلى العمل بجميع الأحاديث من الجانبين، وقواعد الشرع تشهد له، والله الموفق.

ذكر حكمه ﷺ في العِدَّة

هذا الباب قد تولى الله - سبحانه - بيانه في كتابه أنتم بيان، وأوضحه، وأجمعه بحيث لا تشذ عنه معتدة، فذكر أربعة أنواع من العِدَّة، وهي جملة أنواعها:

(عدة الحامل)

النوع الأول: عِدَّة الحامل بوضع الحمل مطلقاً بائنة كانت أو رجعية، مفارقة في الحياة، أو متوفى عنها، فقال: ﴿وَأُولَئِكَ أَكْثَالُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]، وهذا فيه عموم من ثلاث جهات: أحدها: عموم المخبر عنه، وهو أولات الأحمال، فإنه يتناول جميعهن.

الثاني: عموم الأجل، فإنه أضافه إليهن، وإضافة اسم الجمع إلى المعرفة يعم، فجعل وضع الحمل جميع أجلهن، فلو كان لبعضهن أجل غيره لم يكن جميع أجلهن.

الثالث: أن المبتدأ والخبر معرفتان، أما المبتدأ: فظاهر، وأما الخبر وهو قوله تعالى: ﴿أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]، ففي تأويل مصدر مضاف، أي: أجلهن وضع حملهن، والمبتدأ والخبر إذا كانا معرفتين اقتضى ذلك حصر الثاني في الأول، كقوله: ﴿يَكَايَا أَتَى النَّاسَ أُنْتُمْ أَفْقَرُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْغَنِيُّ﴾ [فاطر: ١٥]، وبهذا احتج جمهور الصحابة على أن الحامل المتوفى عنها زوجها عِدَّتُها وضع حملها، ولو وضعته والزوج على المغتسل كما أفنى به النبي ﷺ لِسَيِّعَةِ الْأَسْلَمِيَّة [البخاري: ٥٣٢٠]، وكان هذا الحكم والفتوى منه مشتقاً من كتاب الله، مطابقاً له.

فصل

(عدة المطلقة التي تحيض)

النوع الثاني: عدة المطلقة التي تحيض، وهي ثلاثة قُرُوء، كما قال الله تعالى: ﴿وَالطَّلَقَتْ يُرْصَدُ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

(عدة التي لا حيض لها)

النوع الثالث: عدة التي لا حيض لها، وهي نوعان: صغيرة لا تحيض، وكبيرة قد يشمت من الحيض. فبين الله سبحانه عِدَّة النوعين بقوله: ﴿وَأَلَّتِي

يَسْنَ مِنَ الْمَحْضِ مِنْ نِسَائِهِ إِنْ أَرَبَتْهُ فَمَدَّتْهُ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ
وَأُولَى لَمْ يَحْضَنَّ [الطلاق: ٤] أي: فعدتهن كذلك.

(عدة المتوفى عنها زوجها)

النوع الرابع: المتوفى عنها زوجها فبين عدتها - سبحانه - بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِنْكُمْ وَيَدْرُونَ أَرْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِمْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، فهذا يتناول المدخول بها وغيرها، والصغيرة والكبيرة، ولا تدخل فيه الحامل، لأنها خرجت بقوله: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]، فجعل وضع حملهن جميع أجلهن، وحصره فيه، بخلاف قوله في المتوفى عنهن: ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فإنه فعل مطلق لا عموم له، وإيضاً فإن قوله: ﴿أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤] متأخر في الزول عن قوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾، وإيضاً فإن قوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] في غير الحامل بالاتفاق، فإنها لو تمادى حملها فوق ذلك تربصته، فعمومها مخصوص اتفاقاً، وقوله: ﴿أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤] غير مخصوص بالاتفاق، هذا لو لم تأت السنة الصحيحة بذلك، ووقعت الحوالة على القرآن، فكيف والسنة الصحيحة موافقة لذلك، مقرر له.

فهذه أصول العدد في كتاب الله مفصلة مينة، ولكن اختلف في فهم المراد من القرآن ودلالته في مواضع من ذلك، وقد دلت السنة بحمد الله على مراد الله منها، ونحن نذكرها ونذكر أولى المعاني وأشبهها بها، ودلالة السنة عليها.

(الاختلاف في المتوفى عنها إذا كانت حاملاً)

فمن ذلك اختلاف السلف في المتوفى عنها إذا كانت حاملاً، فقال علي، وابن عباس، وجماعة من الصحابة: أبعد الأجلين من وضع الحمل، أو أربعة أشهر وعشراً، وهذا أحد القولين في مذهب مالك - رحمه الله - اختاره سحنون. قال الإمام أحمد في رواية أبي طالب عنه: علي بن أبي طالب وابن عباس يقولان في المعتدة الحامل: أبعد الأجلين [البخاري: ٤٩٠٩، ومسلم: ٣٧٢٣]، وكان ابن مسعود يقول: من شاء باهله، إن سورة النساء القصوى نزلت بعد [البخاري: ٤٩١٠]، وحديث سبيعة يقضي بينهم إذا

وَضَعَتْ، فَقَدْ حَلَّتْ. وابن مسعود يتأول القرآن: ﴿أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤] هي في المتوفى عنها، والمطلقة مثلها إذا وضعت، فقد حلت، وانقضت عدتها، ولا تنقضي عدة الحامل إذا أسقطت حتى يتبين خلقه، فإذا بان له يد أو رجل، عتقت به الأمة، وتنقضي به العدة، وإذا ولدت ولدًا وفي بطنها آخر، لم تنقض العدة حتى تلد الآخر، ولا تغيب عن منزلها الذي أصيب فيه زوجها أربعة أشهر وعشراً إذا لم تكن حاملاً، والعدة من يوم يموت أو يطلق، هذا كلام أحمد.

وقد تناظر في هذه المسألة: ابن عباس، وأبو هريرة رضي الله عنهما، فقال أبو هريرة: عدتها وضع الحمل، وقال ابن عباس: تعتد أقصى الأجلين، فعكسا أم سلمة رضي الله عنها، فحكمت لأبي هريرة، واحتجت بحديث سبيعة [مالك (٥٨٩/٢)]، والنسائي (١٩١/٦).

وقد قيل: إن ابن عباس رجع.

وقال جمهور الصحابة ومن بعدهم، والأئمة الأربعة: إن عدتها وضع الحمل، ولو كان الزوج على مقتله فوضعت حلت.

قال أصحاب الأجلين: هذه قد تناولها عموماً، وقد أمكن دخولها في كليهما، فلا تخرج من عدتها يبين حتى تأتي بأقصى الأجلين، قالوا: ولا يمكن تخصيص عموم إحداهما بخصوص الأخرى، لأن كل آية عامة من وجه، خاصة من وجه، قالوا: فإذا أمكن دخول بعض الصور في عموم الآيتين، يعني إعمالاً للعموم في مقتضاه.

فإذا اعتدت أقصى الأجلين دخل أدناها في أقصاهما.

والجمهور أجابوا عن هذا بثلاثة أجوبة:

أحدها: أن صريح السنة يدل على اعتبار الحمل فقط، كما في [الصحيحين]: أن سبيعة الأسلمية توفى عنها زوجها وهي حبل، فوضعت، فأرادت أن تنكح، فقال لها أبو السنايل: ما أنت بناكحة حتى تعتدي آخر الأجلين، فسألت النبي ﷺ، فقال: «كذب أبو السنايل، قد حلت فأنكحي من شئت» [البخاري: ٥٣١٨، ومسلم: ٣٧٢٢].

فصل

(لا تنقضي العدة حتى

تضع جميع الحمل ويكتفى في عدة المتوفى عنها

زوجها بالترخيص اربعة اشهر وعشراً)

ودل قوله سبحانه: ﴿أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤] على أنها إذا كانت حاملاً بتوأمين لم تنقضي العدة حتى تضعهما جميعاً، ودلت على أن من عليها الاستبراء، فعدتها وضع الحمل أيضاً، ودلت على أن العدة تنقضي بوضعه على أي صفة كان حياً أو ميتاً، تأم الخلقه أو ناقصها، يُفخ فيه الروح أو لم يُفخ، ودل قوله: ﴿يَرْصَنَ بِأَفْسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] على الاكتفاء بذلك وإن لم تحض وهذا قول الجمهور، وقال مالك: إذا كان عادتها أن تحيض في كل سنة مرة، فتوفي عنها زوجها لم تنقض عدتها حتى تحيض حيضتها، فتبرأ من عدتها. فإن لم تحض، انتظرت تمام تسعة أشهر من يوم وفاته، وعنه رواية ثانية: كقول الجمهور، أنه تعتد أربعة أشهر وعشراً، ولا تنتظر حيضها.

فصل

(من قال: إن الأقراء هي الحيض)

ومن ذلك اختلافهم في الأقراء، هل هي الحيض أو الأطهار؟ فقال أكابر الصحابة: إنها الحيض، هذا قول أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وابن مسعود، وأبي موسى، وعُبادة بن الصامت، وأبي الدرداء، وابن عباس، ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم، وهو قول أصحاب عبد الله بن مسعود كلهم كعلقمة، والأسود، وإبراهيم، وشريح، وقول الشعبي، والحسن، وقتادة، وقول أصحاب ابن عباس، سعيد بن جبير، وطاوس، وهو قول سعيد بن المسيب، وهو قول أئمة الحديث: كإسحاق بن إبراهيم، وأبي عبيد القاسم، والإمام أحمد رحمه الله، فإنه رجع إلى القول به، واستقر مذهبه عليه، فليس له مذهب سواه، وكان يقول: إنها الأطهار، فقال في رواية الأثرم: رأيت الأحاديث عن قال: إنه القروء الحيض تختلف، والأحاديث عن قال: إنه أحق بها حتى تدخل في الحيضة الثالثة أحاديث

الثاني: أن قوله: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْصَالُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤] نزلت بعد قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرْصَنَ بِأَفْسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] وهذا جواب عبد الله بن مسعود، كما في «صحيح البخاري» عنه: أن جعلون عليها التخليط، ولا تجعلون لها الرخصة، أشهد لنزلت سورة النساء القصص بعد الطولي: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْصَالُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤] [البخاري: ٤٥٣٠].

(مفهوم النسخ عند السلف)

وهذا الجواب يحتاج إلى تقرير، فإن ظاهره أن آية الطلاق مقدّمة على آية البقرة لتأخرها عنها، فكانت ناسخة لها، ولكن النسخ عند الصحابة والسلف أعم منه عند المتأخرين، فإنهم يريدون به ثلاثة معان: أحدها: رفع الحكم الثابت بخطاب.

الثاني: رفع دلالة الظاهر إما بتخصيص، وإما بتقييد، وهو أعم مما قبله.

الثالث: بيان المراد باللفظ الذي بيانه من خارج، وهذا أعم من المعنيين الأولين، فابن مسعود رضي الله عنه أشار بتأخر نزول سورة الطلاق، إلى أن آية الاعتداد بوضع الحمل ناسخة لآية البقرة إن كان عمومها مراداً، أو مخصصة لها إن لم يكن عمومها مراداً، أو مبيّنة للمراد منها، أو مقيدة لإطلاقها، وهذا من كمال فقهه رضي الله عنه، ورسوخه في العلم، ومما يبين أن أصول الفقه سجية للقوم، وطبيعة لا يتكلفونها، كما أن العريّة والمعاني والبيان وتوابعها لهم كذلك، فمن بعدهم وإنما يجهد نفسه ليتعلق بغيرهم وأنى له؟!.

الثالث: أنه لو لم تأت السنة الصريحة باعتبار الحمل، ولم تكن آية الطلاق متأخرة، لكان تقديمها هو الواجب لما قررناه أولاً من جهات العموم الثلاثة فيها، وإطلاق قوله ﴿يَرْصَنَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقد كانت الحوالة على هذا الفهم ممكنة، ولكن لغموضه ووقته على كثير من الناس، أحيل في ذلك الحكم على بيان السنة، وبالله التوفيق.

صباح قوية، وهذا النص وحده هو الذي ظفر به أبو عمر بن عبد البر، فقال: رجع أحمد إلى أن الأقراء: الأطهار، وليس كما قال، بل كان يقول هذا أولاً، ثم توقف فيه، فقال في رواية الأثرم أيضاً: قد كنت أقول الأطهار، ثم وقفت كقول الأكابر، ثم جزم أنها الحيض، وصرح بالرجوع عن الأطهار، فقال في رواية ابن هانئ: كنت أقول: إنها الأطهار، وأنا اليوم أذهب إلى أن الأقراء الحيض، قال القاضي أبو يعلى: وهذا هو الصحيح عن أحمد رحمه الله، وإليه ذهب أصحابنا، ورجع عن قوله بالأطهار، ثم ذكر نص رجوعه من رواية ابن هانئ كما تقدم، وهو قول أئمة أهل الرأي كأبي حنيفة وأصحابه.

(من قال بان الأقراء هي الأطهار)

وقالت طائفة: الأقراء: الأطهار، وهذا قول عائشة أم المؤمنين، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عمر.

ويروى عن الفقهاء السبعة، وأبان بن عثمان والزهرى، وعامة فقهاء المدينة، وبه قال مالك، والشافعي، وأحمد في إحدى الروايتين عنه.

وعلى هذا القول، فمتى طلقها في أثناء طهر، فهل تحتسب ببقية قرء؟ على ثلاثة أقوال:

أحدها: تحتسب به، وهو المشهور.

والثاني: لا تحتسب به - وهو قول الزهرى - كما لا تحتسب ببقية الحيضة عند من يقول: القرء: الحيض اتفاقاً.

والثالث: إن كان قد جامعها في ذلك الطهر، لم تحتسب ببقية، وإلا احتسبت، وهذا قول أبي عبيد. فإذا طعن في الحيضة الثالثة أو الرابعة على قول الزهرى، انقضت عدتها. وعلى قول الأول، لا تنقضي العدة حتى تنقضي الحيضة الثالثة.

(هل يقف انقضاء العدة)

على اغتسال المعتدة من حيضتها الثالثة)

وهل يقف انقضاء عدتها على اغتسالها منها؟ على ثلاثة أقوال: أحدها: لا تنقضي عدتها حتى تغتسل، وهذا هو المشهور عن أكابر الصحابة، قال الإمام أحمد: وعمر، وعلي، وابن مسعود يقولون: له

رجعها قبل أن تغتسل من الحيضة الثالثة، انتهى. وروى ذلك عن أبي بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وأبي موسى، وعادة، وأبي الدرداء، ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم، كما في مصنف وكيع، عن عيسى الخياط، عن الشعبي، عن ثلاثة عشر من أصحاب النبي ﷺ الخَيْرُ فَالْخَيْرُ، منهم: أبو بكر، وعمر، وابن عباس: أنه أحقُّ بها ما لم تغتسل من الحيضة الثالثة.

وفي «مصنفه» أيضاً: عن محمد بن راشد، عن مكحول، عن معاذ بن جبل وأبي الدرداء مثله.

وفي «مصنف عبد الرزاق»: عن معمر، عن زيد بن رفيع، عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، قال: أرسل عثمان إلى أبي بن كعب في ذلك، فقال أبي بن كعب: أرى أنه أحقُّ بها حتى تغتسل من حيضتها الثالثة، وتحل لها الصلاة، قال: فما أعلم عثمان إلا أخذ بذلك [عبد الرزاق: ١٠٩٨٧].

وفي «مصنفه» أيضاً: عن عمر بن راشد، عن يحيى بن أبي كثير، أن عبادة بن الصامت قال: لا تبيِّن حتى تغتسل من الحيضة الثالثة، وتحل لها الصلاة [عبد الرزاق: ١١٠٠٠].

فهؤلاء بضعة عشر من الصحابة، وهو قول سعيد بن المسيب، وسفيان الثوري وإسحاق بن راهويه. قال شريك: له الرجعة وإن فرطت في الغسل عشرين سنة، وهذا إحدى الروايات عن الإمام أحمد رحمه الله.

والثاني: أنها تنقضي بمجرد طهرها من الحيضة الثالثة، ولا تقف على الغسل، وهذا قول سعيد بن جبير، والأوزاعي، والشافعي في قوله القديم حيث كان يقول: الأقراء: الحيض، وهو إحدى الروايات عن الإمام أحمد اختارها أبو الخطاب.

والثالث: أنها في عدتها بعد انقطاع الدم، ولزوجها رجعتها حتى يمضي عليها وقت الصلاة التي طهرت في وقتها، وهذا قول الثوري، والرواية الثالثة عن أحمد، حكاه أبو بكر عنه، وهو قول أبي حنيفة رحمه الله، لكن إذا انقطع الدم لأقل الحيض، وإن انقطع الدم لأكثره انقضت العدة عنها بمجرد انقطاعه.

(هل يشترط كون

الطهر مسبوقاً بدم قبله على من قال بالأطهار)

قرآن، ولحظة من الثالث، وإطلاق الثلاثة على هذا مجاز بعيد لنصية الثلاثة في العدد المخصوص.

فإن قلتم: بعض الطهر المطلق فيه عندنا قرء كامل، قيل: جوابه من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن هذا مختلف فيه كما تقدم، فلم تُجمع الأمة على أن بعض القرء قرء قط، فدعوى هذا يفتقر إلى دليل.

الثاني: أن هذا دعوى مذهبية، أوجب حمل الآية عليها إلزام كون الأقراء الأطهار، والدعاوي المذهبية لا يُفسرُ بها القرآن، وتُحمل عليها اللغة، ولا يُعقل في اللغة قط أن اللحظة من الطهر تُسمى قرءاً كاملاً، ولا اجتمعت الأمة على ذلك، فدعواه لا تثبت نقلاً ولا إجماعاً، وإنما هو مجرد الحمل، ولا ريب أن الحمل شيء، والوضع شيء آخر، وإنما يُقيد ثبوت الوضع لغة أو شرعاً أو عرفاً.

الثالث: أن القرء إما أن يكون اسماً لمجموع الطهر، كما يكون اسماً لمجموع الحيضة أو لبعضه، أو مشتركاً بين الأمرين اشتراكاً لفظياً، أو اشتراكاً معنوياً، والأقسام الثلاثة باطلة فتعين الأول، أما بطلان وضعه لبعض الطهر، فلأنه يلزم أن يكون الطهر الواحد عدة أقراء، ويكون استعمال لفظ «القرء» فيه مجازاً. وأما بطلان الاشتراك المعنوي، فمن وجهين، أحدهما: أنه يلزم أن يصدق على الطهر الواحد أنه عدة أقراء حقيقة. والثاني: أن نظرية - وهو الحيض - لا يُسمى جزؤه قرءاً اتفاقاً، ووضع القرء لهما لغة لا يختلف، وهذا لاخفاء به.

(حمل المشترك على

معنييه والتشكيك في نسبته للشافعي والبالغاني)

فإن قيل: نختار من هذه الأقسام أن يكون مشتركاً بين كُله وجزئه اشتراكاً لفظياً، ويُحمل المشترك على معنييه، فإنه أحفظ، وبه تحصل البراءة بيقين. قيل: الجواب من وجهين: أحدهما: أنه لا يصح اشتراكه كما تقدم. الثاني: أنه لو صح اشتراكه، لم يجوز حمل على مجموع معنييه. أما على قول من لا يجوز حمل المشترك على معنييه فظاهر، وأما من يجوز حمل عليهما، فإنما يجوزونه إذا دل الدليل على إرادتهما

وأما من قال: إنها الأطهار، اختلفوا في موضعين: أحدهما: هل يشترط كون الطهر مسبوقاً بدم قبله، أو لا يشترط ذلك؟ على قولين لهم، وهما وجهان في مذهب الشافعي وأحمد: أحدهما: يُحتسب، لأنه طهر بعده حيض، فكان قرءاً، كما لو كان قبله حيض. والثاني: لا يُحتسب، وهو ظاهر نص الشافعي في الجديد، لأنها لا تُسمى من ذوات الأقراء إلا إذا رأت الدم.

(هل تنقضي العدة

بالطمع في الحيضة الثالثة على من قال بالأطهار)

الموضع الثاني: هل تنقضي العدة بالطمع في الحيضة الثالثة أو لا تنقضي حتى تحيض يوماً وليلة؟ على وجهين لأصحاب أحمد، وهما قولان منصوبان للشافعي، ولأصحابه وجه ثالث: إن حاضت للعادة، انقضت العدة بالطمع في الحيضة، وإن حاضت لغير العادة، بأن كانت عاداتها أن ترى الدم في عاشر الشهر، فرأته في أوله، لم تنقض حتى يمضي عليها يوم وليلة. ثم اختلفوا: هل يكون هذا الدم محسوباً من العدة؟ على وجهين، تظهر فائدتهما في رجعتها في وقته، فهذا تقرير مذاهب الناس في الأقراء.

(حجة من فسر الأقراء بالحيض)

قال من نص: إنها الحيض. الدليل عليه وجوه:

(الدليل الأول لمن حمل القرء على الحيض)

أحدها: أن قوله تعالى: ﴿يَرْبِّصْنَ أَنْفُسَهُنَّ تِلْكَ الْأَيَّامُ﴾ [البقرة: ٢٢٨] إما أن يراد به الأطهار فقط، أو الحيض فقط، أو مجموعهما. والثالث محال إجماعاً، حتى عند من يحول اللفظ المشترك على معنييه. وإذا تعين حمله على أحدهما، فالحيض أولى به لوجوه:

(الوجه الأول الدال على

أولوية حمل القرء في الآية على الحيض)

أحدها: أنها لو كانت الأطهار فالمعتدة بها يكفيها

مفاهيم، فالحمل على أحد مفاهيمه دون غيره بغير موجب ممتنع.

الثالث: أنه حينئذ يستحيل حملُهُ على جميع معانيه، إذ حملُهُ على هذا وحده، وعليهما معاً مستلزم للجمع بين النقيضين، فيستحيل حملُهُ على جميع معانيه، وحملُهُ عليهما معاً حملٌ له على بعض مفهوماته، فحملُهُ على جميعها يُبطل حملُهُ على جميعها.

الرابع: أن هاهنا أموراً: أحدها: هذه الحقيقة وحدها، والثاني: الحقيقة الأخرى وحدها، والثالث: مجموعهما، والرابع: مجاز هذه وحدها، والخامس: مجاز الأخرى وحدها، والسادس: مجازهما معاً، والسابع: الحقيقة مع مجاز الأخرى، والثامن: الحقيقة الواحدة مع مجازهما، والعاشر: الحقيقة الأخرى مع مجازها، والحادي عشر: مع مجاز الأخرى، والثاني عشر: مع مجازهما، فهذه اثنا عشر محملاً بعضها على سبيل الحقيقة، وبعضها على سبيل المجاز، فتعين معنى واحد مجازي دون سائر المجازات والحقائق ترجيح من غير مرجح، وهو ممتنع.

الخامس: أنه لو وجب حملُهُ على المعنيين جميعاً لصار من صيغ العموم، لأن حكم الاسم العام وجوب حملهِ على جميع مفرداته عند التجرد من التخصيص، ولو كان كذلك لجاز استثناء أحد المعنيين منه، ولسبق إلى الذهن منه عند الإطلاق العموم، وكان المستعمل له في أحد معنيهِ بمنزلة المستعمل للاسم العام في بعض معانيهِ، فيكون متجاوزاً في خطابه غير متكلم بالحقيقة، وأن يكون من استعماله في معنيهِ غير محتاج إلى دليل، وإنما يحتاج إليه من نفى المعنى الآخر، ولوجب أن يفهم منه الشمول قبل البحث عن التخصيص عند من يقول بذلك في صيغ العموم، ولا ينفي الإجمال عنه، إذ يصير بمنزلة سائر الألفاظ العامة، وهذا باطل قطعاً، وأحكام الأسماء المشتركة لا تُفارق أحكام الأسماء العامة، وهذا مما يعلم بالاضطرار من اللغة، ولكانت الأمة قد أجمعت في هذه الآية على حملها

معاً. فإذا لم يدل الدليل وقفوه حتى يقوم الدليل على إرادة أحدهما، أو إرادتهما، وحكى المتأخرون عن الشافعي، والقاضي أبي بكر، أنه إذا تجرد عن القرائن، وجب حملُهُ على معنيهِ، كالاسم العام لأنه أحوط، إذ ليس أحدهما أولى به من الآخر، ولا سبيل إلى معنى ثالث، وتعطيلُهُ غير ممكن، ويمتنع تأخيرُ البيان عن وقت الحاجة. فإذا جاء وقت العمل، ولم يتبين أن أحدهما هو المقصود بعينه، عَلِمَ أن الحقيقة غير مرادة، إذ لو أريدت لبيّنت، فتعين المجاز، وهو مجموع المعنيين، ومن يقول: إن الحمل عليهما بالحقيقة يقول: لما لم يتبين أن المراد أحدهما علم أنه أراد كليهما.

(فساد حمل المشترك على معنيهِ)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: في هذه الحكاية عن الشافعي والقاضي نظر، أما القاضي، فمن أصله الوقف في صيغ العموم، وأنه لا يجوز حملها على الاستغراق إلا بدليل، فمن يَقِفُ في ألفاظ العموم كيف يَجْزُمُ في الألفاظ المشتركة بالاستغراق من غير دليل؟ وإنما الذي ذكره في كتبه إحالة الاشتراك رأساً، وما يُدعى فيه الاشتراك، فهو عنده من قبيل المتواطىء، وأما الشافعي فنصبه في العلم أجل من أن يقول مثل هذا، وإنما استنبط هذا من قوله: إذا أوصى لمواليه تناول المولى من فوق ومن أسفل. وهذا قد يكون قاله لاعتقاده أن المولى من الأسماء المتواطئة، وأن موضعه القدر المشترك بينهما، فإنه من الأسماء المتضايقة، كقوله «من كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَي مَوْلَاهُ» (صحيح: أحمد: ٣٠٦١) ولا يلزم من هذا أن يُحكى عنه قاعدة عامة في الأسماء التي ليس من معانيها قدر مشترك أن تُحمل عند الإطلاق على جميع معانيها، ثم الذي يدلُّ على فساد هذا القول وجوه:

أحدها: أن استعمال اللفظ في معنيهِ إنما هو مجاز، إذ وَضَعَهُ لكل واحد منهما على سبيل الانفراد هو الحقيقة، واللفظ المطلق لا يجوز حملُهُ على المجاز، بل يجب حملُهُ على حقيقته.

الثاني: أنه لو قُدِّرَ أنه موضوع لهما منفردين، ولكل واحد منهما مجتمعين، فإنه يكون له حينئذ ثلاثة

على خلاف ظاهرها ومطلقها إذ لم يصِر أحدٌ منهم إلى حمل «القرء» على الطهر والحيض معاً، وبهذا يتبين بطلان قولهم: حملة عليهما أحوط، فإنه لو قُدِّرَ حملُ الآية على ثلاثة من الحيض والأطهار لكان فيه خروجٌ عن الاحتياط.

وإن قيل: نحمله على ثلاثة من كل منهما، فهو خلاف نص القرآن إذ تصير الأقراء ستة.

(الوجه الثاني الدال على

اولوية حمل القرء في التبة على الحيض)

قولهم: إما أن يُحمل على أحدهما بعينه، أو عليهما إلى آخره قلنا: مثلُ هذا لا يجوز أن يعرَى عن دلالة تبيين المراد منه كما في الأسماء المجملة، وإن خفيت الدلالة على بعض المجتهدين، فلا يلزم أن تكون خفية عن مجموع الأمة، وهذا هو الجواب عن الوجه الثالث، فالكلام إذا لم يكن مطلقاً يدل على المعنى المراد، فلا بد من بيان المراد. وإذا تعين أن المراد بالقرء في الآية أحدهما لا كلاهما، فإرادة الحيض أولى لوجوه: منها: ما تقدم. الثاني: أن استعمال القرء في الحيض أظهر منه في الطهر، فإنهم يذكرونه تفسيراً للفظه، ثم يُردفونه بقولهم: وقيل، أو قال فلان، أو يقال: على الطهر، أو وهو أيضاً الطهر، فيجعلون تفسيره بالحيض كالمستقر المعلوم المستفيض، وتفسيره بالطهر قول قيل. وهاك حكاية ألفاظهم.

قال الجوهرى: القرء بالفتح: الحيض، والجمع أقراء وقُروء.

وفي الحديث: «لَا صَلَاةَ أَيَّامَ أَقْرَائِكَ».

والقرء أيضاً: الطهر، وهو من الأضداد.

وقال أبو عبيد: الأقراء: الحيض، ثم قال: الأقراء الأطهار، وقال الكسائي: والقراء أقراء المرأة: إذا حاضت.

وقال ابن فارس: القُروء: أوقات، يكون للطهر مرة، وللحيض مرة، والواحد قرء ويقال: القرء: وهو الطهر، ثم قال: وقوم يذهبون إلى أن القرء الحيض، فحكى قولَ مَنْ جعله مشتركاً بين أوقات الطهر والحيض، وقولَ مَنْ جعله لأوقات الطهر، وقولَ مَنْ جعله لأوقات الحيض، وكأنه لم يختَر

واحداً منهما، بل جعله لأوقاتها. قال: وأقرأت المرأة إذا خرجت من حيض إلى طهر، ومن طهر إلى حيض، وهذا يدل على أنه لا بُدَّ من مسمى الحيض في حقيقته يوضحه أن من قال: أوقاْتُ الطهر تُسمى قروءاً، فإنما يريد أوقات الطهر التي يحتوشها الدم، وإلا فالصغيرة والآيسة لا يقال لزمان طهرهما أقراء، ولا هُما مِن ذوات الأقراء باتفاق أهل اللغة.

(الدليل الثاني لمن

حمل القرء على الحيض وعدة الأمة حيضتان)

الدليل الثاني: أن لفظ القرء لم يستعمل في كلام الشارع إلا للحيض، ولم يجرى عنه في موضع واحد استعماله للطهر، فحملة في الآية على المجهود المعروف من خطاب الشارع أولى، بل متعين، فإنه ﷺ قال للمستحاضة: «دعي الصَّلَاةَ أَيَّامَ أَقْرَائِكَ» (ابو داود: ٢٩٧، والترمذي: ١٢٦، وابن ماجه: ٦٢٥) وهو ﷺ المعبّر عن الله تعالى، وبلغة قومه نزل القرآن، فإذا ورد المشترك في كلامه على أحد معنيين، وجب حمُّله في سائر كلامه عليه إذا لم تثبت إرادة الآخر في شيء من كلامه البتة، ويصيرُ هو لغة القرآن التي خوطبنا بها، وإن كان له معنى آخر في كلام غيره، ويصير هذا المعنى الحقيقة الشرعية في تخصيص المشترك بأحد معنييه، كما يُخصَّص المتواطئ بأحد أفراده، بل هذا أولى، لأن أغلب أسباب الاشتراك تسمية أحد القيلتين الشيء باسم، وتسمية الأخرى بذلك الاسم مسمى آخر، ثم تشيع الاستعمالات، بل قال المبرّد وغيره: لا يقع الاشتراك في اللغة إلا بهذا الوجه خاصة، والواضع لم يضع لفظاً مشتركاً البتة، فإذا ثبت استعمالُ الشارع لفظ القروء في الحيض، علم أن هذا لفته، فيتعين حمُّله على ما في كلامه. ويوضح ذلك ما في سياق الآية من قوله «وَلَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ يَكُنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَزْوَاجِهِنَّ» [البقرة: ٢٢٨] وهذا هو الحيض، والحمل عند عامة المفسرين، والمخلوق في الرحم إنما هو الحيض الوجودي، ولهذا قال السلف والخلف: هو الحمل والحيض، وقال بعضهم: الحمل، وبعضهم: الحيض، ولم يقل أحد قط: إنه الطهر، ولهذا لم ينقله من عَنِي بجمع أقوال أهل التفسير، كابن

الجوزي وغيره. وأيضاً فقد قال سبحانه: ﴿وَالَّذِي يَبْتَنِ مِنَ الْمَجِيزِ مِنْ سِلَاحِكُمْ إِنَّ أَنْتُمْ فَعِدَّتُهُمْ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّذِي لَا يَحِضُنَّ﴾ [الطلاق: ٤] فجعل كل شهر بإزاء حيضة، وعلّق الحكم بعدم الحيض لا بعدم الطهر من الحيض. وأيضاً فحديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: «طَلَاقُ الْأُمَةِ تَطْلِيْقَتَانِ، وَعِدَّتُهَا حَيْضَتَانِ»، رواه أبو داود [٢١٨٩] وابن ماجه [٢٠٨٠]، والترمذي [١١٨٢] وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث مظاهر بن أسلم، ومظاهر لا يعرف له في العلم غير هذا الحديث، وفي لفظ للدارقطني فيه: «طَلَاقُ الْعِدَّةِ اثْنَتَانِ»، وروى ابن ماجه من حديث عطية القوفي، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «طَلَاقُ الْأُمَةِ اثْنَتَانِ، وَعِدَّتُهَا حَيْضَتَانِ» [ابن ماجه: ٢٠٧٩، ومالك (٥٧٤/٢)]. وأيضاً: قال ابن ماجه في «سننه»: حدثنا علي بن محمد، حدثنا وكيع، عن سفيان، عن منصور، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة رضي الله عنها قالت: أمرت بريرة أن تعتد ثلاث حيض [ابن ماجه: ٢٠٧٧].

وفي «المسند»: عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ خير بريرة، فاختارت نفسها، وأمرها أن تعتد عدة الحرة [صحيح: احمد: ٢٥٤٢ - ٣٤٠٥]. وقد فسر عدة الحرة بثلاث حيض في حديث عائشة رضي الله عنها. فإن قيل: فمذهب عائشة رضي الله عنها، أن الأقراء: الأطهار؟ قيل: ليس هذا بأول حديث خالفه راويه، فأخذ بروايته دون رأيه، وأيضاً ففي حديث الرُبَيْع بنت مَعُوذ: أن النبي ﷺ أمر امرأة ثابت بن قيس بن شماس لما اختلعت من زوجها أن تترئص حيضة واحدة، وتلحق بأهلها، رواه النسائي [١٨٦/٦].

وفي «سنن أبي داود» عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت من زوجها، فأمرها النبي ﷺ أن تعتد بحيضة [أبو داود: ٢٢٢٩، والترمذي: ١١٨٥].

(استبراء الأمة حيضة)

وفي الترمذي: أن الرُبَيْع بنت معوذ اختلعت على عهد رسول الله ﷺ، فأمرها النبي ﷺ أو أمرت أن تعتد بحيضة [الترمذي: ١١٨٥]. قال الترمذي: حديث

الرُبَيْع الصحيح أنها أمرت أن تعتد بحيضة. وأيضاً، فإن الاستبراء هو عدة الأمة، وقد ثبت عن أبي سعيد: أن النبي ﷺ قال في سبايا أوطاس: «لَا تُوطَأُ حَامِلٌ حَتَّى تَضَعَ وَلَا غَيْرُ ذَاتِ حَمْلٍ حَتَّى تَحِيضَ حَيْضَةً»، رواه أحمد وأبو داود [حسن: احمد: ١٥٩ - ١٨٢٣، وأبو داود: ٢١٥٧].

فإن قيل: لا نسلم أن استبراء الأمة بالحيضة، وإنما هو بالطهر الذي هو قبل الحيضة، كذلك قال ابن عبد البر، وقال: قولهم: إن استبراء الأمة حيضة بإجماع ليس كما ظنوا، بل جائز لها عندنا أن تنكح إذا دخلت في الحيضة، واستيقنت أن دمها دم حيض، كذلك قال إسماعيل بن إسحاق ليحيى بن أكثم حين أدخل عليه في مناظرته إياه.

قلنا: هذا يرده قوله ﷺ: «لَا تُوطَأُ الْحَامِلُ حَتَّى تَضَعَ وَلَا حَائِلٌ حَتَّى تُسْتَبْرَأَ بِحَيْضَةٍ».

وأيضاً فالمقصود الأصلي من العدة إنما هو استبراء الرحم، وإن كان لها فوائد أخرى، ولشرف الحرية المنكحة وخطرها، جعل العلم الدال على براءة رحمها ثلاثة أقراء، فلو كان القراء: هو الطهر، لم تحصل بالقراء الأول دلالة، فإنه لو جامعها في الطهر، ثم طلقها، ثم حاضت كان ذلك قرأاً محسوباً من الأقراء عند من يقول: الأقراء الأطهار. ومعلوم: أن هذا لم يدل على شيء، وإنما الذي يدل على البراءة الحيض الحاصل بعد الطلاق، ولو طلقها في طهر، لم يُصَبِّها فيه، فإنما يعلم هنا براءة الرحم بالحيض الموجود قبل الطلاق، والعدة لا تكون قبل الطلاق لأنها حكمه، والحكم لا يسبق سببه، فإذا كان الطهر الموجود بعد الطلاق لا دلالة له على البراءة أصلاً، لم يجوز إدخاله في العدد الدالة على براءة الرحم، وكان مثله كمثل شاهد غير مقبول، ولا يجوز تعليق الحكم بشهادة شاهد لا شهادة له، يوضحه أن العدة في المنكوحات، كالاستبراء في المملوكات.

وقد ثبت بصريح السنة أن الاستبراء بالحيض لا بالطهر، فكذلك العدة إذ لا فرق بينهما إلا بتعدد العدة، والاكتفاء بالاستبراء بقرء واحد، وهذا لا يُوجب اختلافهما في حقيقة القراء، وإنما يختلفان في

يتجدد الطهر، لكن لزوال المغير الذي هو الحيض، فإنها تعود بعد الطهر إلى ما كانت عليه قبل الحيض من غير أن يُجدد لها الطهر حكماً، والقرء أمر يُغير أحكام المرأة، وهذا التغيير إنما يحصل بالحيض دون الطهر. فهذا الوجه دال على فساد قول من يحتسب بالطهر الذي قبل الحيضة قرءاً فيما إذا طلقت قبل أن تحيض، ثم حاضت، فإن من اعتد بهذا الطهر قرءاً جعل شيئاً ليس له حكم في الشريعة قرءاً من الأقراء، وهذا فاسد.

فصل

(حجة من فسر الأقراء بالطهار)

قال من جعل الأقراء الأطهار: الكلام معكم في مقامين:

أحدهما: بيان الدليل على أنها الأطهار.
الثاني: في الجواب عن أدلتكم.

(دليلهم على أن الأقراء هي الأطهار)

أما المقام الأول: فقوله تعالى: ﴿يَأْتِيَا أَنتَ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَقْتُمُوهُنَّ لِمَدَّتِ﴾ [الطلاق: ١] ووجه الاستدلال به: أن اللام هي لام الوقت، أي: فطلقوهن في وقت عدتهن، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَمِعَ الزَّوْجَ الْقَتْلَ يُرْوَرُ أَلَيْسَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] أي: في يوم القيامة، وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّوْكَ لَالْتَّيْسِ﴾ [الأنبياء: ٧٨] أي: وقت الدلوكة، وتقول العرب: جئتكَ ثلاث بقين من الشهر، أي: في ثلاث بقين منه، وقد فسر النبي ﷺ هذه الآية بهذا التفسير، ففي «الصحيحين»: عن ابن عمر رضي الله عنه: أنه لما طلق امرأته وهي حائض، أمره النبي ﷺ أن يُراجِعَهَا، ثم يُطَلِّقَهَا، وهي طاهر، قبل أن يمَسَّهَا، ثم قال: «فَقِيلَ لَكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ تُطَلِّقَ لَهَا النِّسَاءَ» [البخاري: ٥٣٣٣، ومسلم: ٣٦٥٢] فبين النبي ﷺ أن العدة التي أمر الله أن تُطلق لها النساء هي الطهر الذي بعد الحيضة، ولو كان القرء هو الحيض، كان قد طلقها قبل العدة لا في العدة، وكان ذلك تطويلاً عليها، وهو غير جائز، كما لو طلقها في الحيض.

(نقل كلام الشافعي في ذلك)

قال الشافعي: قال الله تعالى: ﴿وَالطَّلَاقُ ثَلَاثٌ

القدر المعبر عنهما، ولهذا قال الشافعي في أصح القولين عنه: إن استبراء الأمة يكون بالحيض، وفرق أصحابه بين البابين، بأن العدة وجبت قضاء لحق الزوج، فاخْتُصِتْ بأزمان حقه، وهي أزمان الطهر، وبأنها تتكرر، فتُعَلَّم معها البراءة بتوسط الحيض بخلاف الاستبراء فإنه لا يتكرر، والمقصود منه مجرد البراءة، فاكْتَفَى فيه بحيضة. وقال في القول الآخر: تُسْتَبْرَأُ بطهر طرداً لأصله في العدد، وعلى هذا، فهل تُحْتَسَب ببعض الطهر؟ على وجهين لأصحابه، فإذا احْتُسِبَتْ به، فلا بُدَّ من ضَمِّ حيضة كاملة إليه. فإذا طعنت في الطهر الثاني حُلَّت، وإن لم تحتسب به، فلا بُدَّ من ضَمِّ طهر كامل إليه، ولا تحتسب ببعض الطهر عنده قرءاً قولاً واحداً.

(علة لولوية اعتداد الحرة على الأمة بالحيض)

والمقصود: أن الجمهورَ على أن عدة الاستبراء حيضة لا طهر، وهذا الاستبراء في حق الأمة كالعدة في حق الحرة، قالوا: بل الاعتداد في حق الحرة بالحيض أولى من الأمة من وجهين:

أحدهما: أن الاحتياط في حقها ثابت بتكرير القرء ثلاث استبراءات، فهكذا ينبغي أن يكونَ الاعتدادُ في حقها بالحيض الذي هو أحوط من الطهر، فإنها لا تُحْتَسَبُ ببقية الحيضة قرءاً، وتُحْتَسَبُ ببقية الطهر قرءاً.

الثاني: أن استبراء الأمة فرع على عدة الحرة، وهي الثابتة بنص القرآن، والاستبراء إنما ثبت بالسنة، فإذا كان قد احتاط له الشارعُ بأن جعله بالحيض، فاستبراء الحرة أولى، فعدة الحرة استبراء لها، واستبراء الأمة عدة لها.

وأيضاً فالأدلة والعلامات والحدود والغايات إنما تحصل بالأمور الظاهرة المتميزة عن غيرها، والطهر هو الأمر الأصلي، ولهذا متى كان مستمراً مستصحباً لم يكن له حكم يُفرد به في الشريعة، وإنما الأمر المتميز هو الحيض، فإن المرأة إذا حاضت تَغَيَّرَتْ أحكامها من بلوغها، وتحريم العبادات عليها من الصلاة والصوم والطواف واللبث في المسجد وغير ذلك من الأحكام.

ثم إذا انقطع الدَّمُ واغتسلت، فلم تتغير أحكامها

بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ» [البقرة: ٢٢٨] عندنا - والله أعلم -
الأنهار، فإن قال قائل: ما دل على أنها الأنهار وقد
قال غيرُكم: الحيض؟ قيل: له دالتان: إحداهما:
الكتاب الذي دلت عليه السنة، والأخرى: اللسان.
فإن قال: وما الكتاب؟ قيل: قال الله تبارك وتعالى:
﴿إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِقُوهُنَّ لِغَيْرَتِكُنَّ﴾ [الطلاق: ١] وأخبرنا
مالك: عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنه: أنه
طلق امرأته وهي حائض في عهد النبي ﷺ، فسأل
عمر رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال رسول الله ﷺ:
«مَرَّةٌ فَلْيُرَاجِعْهَا، ثُمَّ لِيُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهَرُ، ثُمَّ تَحِيضْ،
ثُمَّ تَطْهَرُ، ثُمَّ إِنْ شَاءَ أَمْسَكَ بِعَدْوٍ شَاءَ طَلَّقَ قَبْلَ أَنْ
يَمْسَ، فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ تُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ»
[الشافعي (٢٠٩/٥)، ومالك (٥٧٦/٢)].

أخبرنا مسلم، وسعيد بن سالم، عن ابن جريج،
عن أبي الزبير، أنه سمع ابن عمر يذكر طلاق امرأته
حائضاً، فقال: قال النبي ﷺ: «إِذَا طَهَرَتْ فَلْيُطَلَّقْ أَوْ
يُمْسَكْ»، وتلا النبي ﷺ: ﴿إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِقُوهُنَّ﴾
لِقَبْلِ أَوْ فِي قَبْلِ عِدَّتِهِنَّ [مسلم: ٣٦٧٠]. [الطلاق: ١] قال
الشافعي رحمه الله: أنا شككت، فأخبر
رسول الله ﷺ عن الله عز وجل: أن العدة الظهر دون
الحيض، وقرأ: (فَطَلِقُوهُنَّ لِقَبْلِ عِدَّتِهِنَّ) وهو أن
يطلقها طاهراً، لأنها حينئذ تستقبل عدتها، ولو طُلِّقت
حائضاً، لم تكن مستقبل عدتها إلا بعد الحيض.

فإن قال: فما اللسان؟ قيل: القرء: اسم وُضِعَ
لمعنى، فلما كان الحيض دماً يُرَخِيه الرحم فيخرج،
والطهر دماً يحتبس فلا يخرج، وكان معروفاً من لسان
العرب أن القرء: الحبس. تقول العرب: هو يقري
الماء في حوضه وفي سقائه، وتقول العرب: هو
يقري الطعام في شدقه، يعني: يحبسه في شدقه.
وتقول العرب: إذا حبس الرجل الشيء، قرأه.
يعني: خبأه، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:
تُقرى في صحافها، أي: تُحبس في صحافها.

قال الشافعي: أخبرنا مالك، عن ابن شهاب، عن
عروة، عن عائشة رضي الله عنها، انتقلت حفصة بنت
عبد الرحمن حين دخلت في الدَّم من الحيضة الثالثة.
قال ابن شهاب: فذَكَرَ ذلك لعمرة بنت عبد الرحمن،
فقال: صدق عروة. وقد جادلها في ذلك ناس.

وقالوا: إن الله تعالى يقول: ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة:
٢٢٨]، فقالت عائشة رضي الله عنها: صدقتم، وهل
تدرون ما الأقراء؟ الأنهار [الشافعي في (٥/٥)]
[٢٠٩]. أخبرنا مالك، عن ابن شهاب قال: سمعت
أبا بكر بن عبد الرحمن يقول: ما أدركت أحداً من
فقهائنا إلا وهو يقول هذا. يريد الذي قالت عائشة
رضي الله عنها [٥/٥] (٢٠٩). قال الشافعي رحمه
الله: وأخبرنا سفيان، عن الزهري، عن عمرة، عن
عائشة رضي الله عنها: إذا طلعَت المطلق في الدم من
الحيضة الثالثة، فقد برئت منه [٥/٥] (٢٠٩).

وأخبرنا مالك رحمه الله، عن نافع، وزيد بن
أسلم عن سليمان بن يسار، أن الأحوص - يعني ابن
حكيم - هلك بالشام حين دخلت امرأته في الحيضة
الثالثة، وقد كان طلقها، فكتب معاوية إلى زيد بن
ثابت يسأله عن ذلك؟ فكتب إليه زيد: إنها إذا دخلت
في الدَّم من الحيضة الثالثة، فقد برئت منه، وبرئ
منها، ولا ترثه، ولا يرثها [٥/٥] (٢٠٩).

وأخبرنا سفيان، عن الزهري، قال: حدثني
سليمان بن يسار، عن زيد بن ثابت، قال: إذا طلعَت
المرأة في الحيضة الثالثة فقد برئت [٥/٥] (٢٠٩).

وفي حديث سعيد بن أبي غروبة، عن رجل، عن
سليمان بن يسار، أن عثمان بن عفان وابن عمر قالوا:
إذا دخلت في الحيضة الثالثة فلا رجعة له عليها.

وأخبرنا مالك: عن نافع، عن ابن عمر رضي الله
عنهما قال: إذا طلق الرجل امرأته فدخلت في الدم
من الحيضة الثالثة، فقد برئت منه، ولا ترثه، ولا
يرثها.

أخبرنا مالك رحمه الله، أنه بلغه عن القاسم بن
محمد، وسالم بن عبد الله، وأبي بكر بن
عبد الرحمن، وسليمان بن يسار، وابن شهاب [٥/٥]
[٢٠٩]، أنهم كانوا يقولون: إذا دخلت المطلقة في
الدم من الحيضة الثالثة، فقد بانت منه، ولا ميراث
بينهما. زاد غيرُ الشافعي عن مالك رحمهما الله: ولا
رجعة له عليها. قال مالك: وذلك الأمر الذي أدركت
عليه أهل العلم ببلندا.

قال الشافعي رحمه الله: ولا بُد أن تكون الأقراء
الأنهار - كما قالت عائشة رضي الله عنها، والنساء

من جهتهن، فدلَّ على أنهنَّ أعلمُ بذلك من الرجال، فإذا قالت أمُّ المؤمنين رضي الله عنها: إن الأقراء الأطهار.

فَقَدْ قَالَتْ حَدَّامٌ قَصَدُوهُمَا
فَإِنَّ الْقَوْلَ مَا قَالَتْ حَدَّامٌ

(الرد المفصل)

قالوا: وأما الجوابُ المفصلُ، فنُفَرِّدُ كُلَّ واحدٍ من أدلتكم بجواب خاص، فهاكم الأجوبة:

أما قولكم: إما أن يُراد بالأقراء في الآية الأطهار فقط، أو الحيض فقط، أو مجموعهما إلى آخره.

فجوابه أن نقول: الأطهار فقط، لما ذكرنا من الدلالة. قولكم النص اقتضى ثلاثة إلى آخره. قلنا: عنه جوابان:

(بقية الطهر قرء كامل)

أحدهما: أن بقية الطهر عندنا قرء كامل، فما اعتدت إلا بثلاث كوامل.

(وقد يطلق الجمع على اثنين وبعض الثالث)

الثاني: أن العرب تُوقع اسم الجمع على اثنين، وبعض الثالث، كقوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَمْلُوءَةٌ﴾ [البقرة: 197] فإنها شوال، وذو العقدة، وعشر من ذي الحجة، أو تسع، أو ثلاثة عشر. ويقولون: لفلان ثلاث عشرة سنة، إذا دخل في السنة الثالثة عشر. فإذا كان هذا معروفاً في لغتهم، وقد دل الدليل عليه، وجب المصير إليه.

وأما قولكم: إن استعمال القرء في الحيض أظهر منه في الطهر، فمقابل بقول منازعيكم.

قولكم: إن أهل اللغة يُصدرون كتبهم بأن القرء هو الحيض، فيذكرونه تفسيراً للفظ، ثم يُردفونه بقولهم: بقل، أو وقال بعضهم: هو الطهر.

قلنا: أهل اللغة يحكون أن له مسميين في اللغة، ويُصريحون بأنه يُقال على هذا، وعلى هذا، ومنهم من يجعله في الحيض أظهر، ومنهم من يحكي إطلاقه عليهما من غير ترجيح، فالجوهري: رجَّح الحيض. والشافعي من أئمة اللغة، وقد رجَّح أنه الطهر، وقال أبو عبيد: القرء يصلح للطهر والحيض، وقال الزجاج: أخبرني من أثق به، عن يونس: أن القرء

بهذا أعلم، لأنه فيهن لا في الرجال - أو الحيض، فإذا جاءت بثلاث حيض حلت، ولا نجد في كتاب الله للغسل معنى، ولستم تقولون بواحد من القولين، يعني: أن الذين قالوا: إنها الحيض، قالوا: وهو أحق برجعتهما حتى تغتسل من الحيضة الثالثة، كما قاله علي، وابن مسعود، وأبو موسى، وهو قول عمر بن الخطاب أيضاً. فقال الشافعي: فقل لهم يعني للعراقيين: لم تقولوا بقول من احتجتم بقوله، ورويت هذا عنه، ولا بقول أحد من السلف علمناه؟ فإن قال قائل: أين خالفناهم؟ قلنا: قالوا: حتى تغتسل وتحل لها الصلاة، وقتلتم: إن فرطت في الغسل حتى يذهب وقت الصلاة حلت وهي لم تغتسل، ولم تحل لها الصلاة. انتهى كلام الشافعي رحمه الله (الإمام، ٢٠٩/٥).

قالوا: ويدل على أنها الأطهار في اللسان قول الأعشى:

أَفِي كُلِّ عَامٍ أَنْتَ جَائِسٌ عَزْوَةٌ

تَشُدُّ لِأَقْصَا مَا عَزَيْمَ عَزَائِكَا
مُؤَزَّةَ عِزًّا وَفِي الْحَيِّ رَفْعَةً

لِمَا ضَاعَ فِيهَا مِنْ قُرُوءِ نِسَائِكَا
فالقروء في البيت: الأطهار، لأنه ضيع أطهارهن في غزاته، وأثرها عليهن.

قالوا: ولأن الطهر أسبق إلى الوجود من الحيض، فكان أولى بالاسم، قالوا: فهذا أحد المقامين.

(رد المفسرين بالطهار على ادلة المفسرين بالحيض)

وأما المقام الآخر، وهو الجواب عن أدلتكم: فنُجيبكم بجوابين، مجمل ومفصل:

(الرد المجمل)

أما المجمل: فنقول: من أنزل عليه القرآن، فهو أعلم بتفسيره، وبمراد المتكلم به من كل أحد سواء، وقد فسر النبي ﷺ العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء بالأطهار، فلا التفات بعد ذلك إلى شيء خالفه، بل كُلُّ تفسير يُخالف هذا فباطل. قالوا: وأعلم الأمة بهذه المسألة أزواجُ رسول الله ﷺ، وأعلمهن بها عائشة رضي الله عنها، لأنها فيهن لا في الرجال، ولأن الله تعالى جعل قولهن في ذلك مقبولا في وجود الحيض والحمل، لأنه لا يُعلم إلا

عنده يصلح للطهر والحيض، وقال أبو عمرو بن العلاء: القراء الوقت، وهو يصلح للحيض، ويصلح للطهر، وإذا كانت هذه نصوص أهل اللغة، فكيف يحتاجون بقولهم: إن الأقراء الحيض؟

قولكم: إن من جعله الطهر، فإنه يُريد أوقات الطهر التي يحتوشها الدم، وإلا فالصغيرة والآيسة ليستا من ذوات الأقراء، وعنه جوابان:

أحدهما: المنع، بل إذا طلقت الصغيرة التي لم تحض ثم حاضت، فإنها تعد بالطهر الذي طُلقت فيه قرءاً على أصح الوجهين عندنا، لأنه طهر بعده حيض، وكان قرءاً كما لو كان قبله حيض.

(ذكر أشياء لا تسمى باسماء معينة إلا بشرط معين)

الثاني: إنا وإن سلمنا ذلك، فإن هذا يدل على أن الطهر لا يُسمى قرءاً حتى يحتوشه دمان، وكذلك نقول: فالدم شرط في تسميته قرءاً، وهذا لا يدل على أن مسماه الحيض، وهذا كالكأس الذي لا يُقال على الإناء إلا بشرط كون الشراب فيه، وإلا فهو رُجاجة أو قده، والمائدة التي لا تُقال للخوان إلا إذا كان عليه طعام، وإلا فهو خوان، والكوز الذي لا يُقال لمسماه إلا إذا كان ذا عروة، وإلا فهو كُوب، والقلم الذي يُشترط في صحته إطلاقه على القصبه كونها مبرية، ويدون البري فهو أنبوب أو قصبه، والخاتم شرط إطلاقه أن يكون ذا فصٍّ منه أو من غيره، وإلا فهو قَنَاقَة، والفرو شرط إطلاقه على مسماه الصوف، وإلا فهو جلد، والرَّيْطَة شرط إطلاقها على مسماها أن تكون قطعة واحدة، فإن كانت مُلْفَقَة من قطعتين فهي مُلاءة، والحَلَة شرط إطلاقها أن تكون ثوبين، إزارٌ ورداء، وإلا فهو ثوب، والأريكة لا تُقال على السرير إلا إذا كان عليه حَجَلَة، وهي التي تُسمى بشخانة وخرگاه، وإلا فهو سرير، واللَّيْطَة لا تُقال للجمال إلا إذا كان فيها طيب، وإلا فهي عَيْرٌ، والنَّق لا يُقال إلا لما له منفذ، وإلا فهو سَرَبٌ، والمُهَنُّ لا يُقال للصوف إلا إذا كان مصبوغاً، وإلا فهو صوف، والخِذْر لا يُقال إلا لما اشتمل على المرأة، وإلا فهو سِترٌ، والمِخْجَنُّ لا يُقال للعصا إلا إذا كان مَخْنِيَةً الرأس، وإلا فهي عصا، والرَّيْكِيَّة لا تُقال على البشر إلا بشرط كون الماء فيها، وإلا فهي بثر، والوَقُود لا يُقال للحطب إلا إذا كانت النار فيه، وإلا فهو حطب،

ولا يُقال للتراب تَرَى إلا بشرط نداوته، وإلا فهو تراب، ولا يُقال للرسالة: مُعَلَّلَة إلا إذا حُبِلَتْ من بلد إلى بلد، وإلا فهي رسالة، ولا يُقال للأرض قَرَّاح إلا إذا هُبِثت للزراعة، ولا يُقال لهروب العبد: إباق إلا إذا كان هروبه من غير خوف ولا جُوع ولا جَهد، وإلا فهو هروب، والريق لا يُقال له رُضاب إلا إذا كان في القم، فإذا فارقه فهو بُصاق وبُساق، والشجَاع لا يُقال له: كَمي إلا إذا كان شاكلي السلاح، وإلا فهو بطل، وفي تسميته بطلاً قولان أحدهما: لأنه تَبَطَّل شجاعته قرنه وضربه وطعنه، والثاني: لأنه تَبَطَّل شجاعته الشجعان عنده، فعلى الأول، فهو فَعَلَ بمعنى فاعل، وعلى الثاني، فَعَلَ بمعنى مفعول، وهو قياس اللغة. والبعير لا يُقال له: راوية إلا بشرط حمله للماء، والطبق لا يُسمى مهدي إلا أن يكون عليه هدية، والمرأة لا تُسمى طَلْعِيَّة إلا بشرط كونها في الهودج، هذا في الأصل، وإلا فقد تُسمى المرأة طلعينة، وإن لم تكن في هودج، ومنه في الحديث: «فَمَرَّتْ طَلْعُنٌ يَجْرِيْنَ» [مسلم: 2950]، والدلو لا يُقال له: سَجَلٌ إلا ما دام فيه ماء، ولا يُقال لها: ذَنُوبٌ إلا إذا امتلأت به، والسرير لا يُقال له: نعش إلا إذا كان عليه مَيِّت، والعظم لا يُقال له: عَرَقٌ إلا إذا اشتمل عليه لحم، والخِيط لا يُسمى سِمْطاً إلا إذا كان فيه خَرَزٌ، ولا يُقال للحَبْل: قَرَنٌ إلا إذا قُرِنَ فيه اثنان فصاعداً، والقوم لا يسمون رَفَقَة إلا إذا انضموا في مجلس واحد، وسير واحد، فإذا تفرقوا زال هذا الاسم، ولم يَزَلْ عنهم اسمُ الرفيق، والحجارة لا تسمى رَضْفاً إلا إذا حُجِيت بالشمس أو بالنار، والشمس لا يُقال لها: غزاة إلا عند ارتفاع النهار، والثوب لا يُسمى مِظْرَفاً إلا إذا كان في طرفيه عِلْمَان، والمجلس لا يُقال له: النادي إلا إذا كان أهله فيه، والمرأة لا يُقال لها: عاتقٌ إلا إذا كانت في بيت أبيها، ولا يسمى الماء أَلْمَحْ أجاباً إلا إذا كان مع ملوحته مَرّاً، ولا يُقال للسير: إهطاع إلا إذا كان معه خوفٌ، ولا يُقال للفرس: مُحَجَّلٌ إلا إذا كان البياض في قوائمها كُلِّها، أو أكثرها، وهذا باب طويل لو تفصيناه، فكذلك لا يُقال للطهر: قرء إلا إذا كان قبله دم، ويَعَدُّ دم، فأين في هذا ما يُدَلُّ على أنه حيض؟

(نفي انحصاره في لسان الشرع على معنى الحيض)

العدة تنقضي بظهور الولادة، فهكذا تنقضي بظهور الحيض تسوية بينهما في إثبات المرأة على كل واحد منهما.

وأما استدلالكم بقوله تعالى: ﴿وَالَّتِي يَسْنَ مِنْ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبَتْ فَمَا تَعْلَمُ أَهْلَتْهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق: ٤] فجعل كل شهر بإزاء حيضة، فليس هذا بصريح في أن القروء هي الحيض، بل غاية الآية أنه جعل اليأس من الحيض شرطاً في الاعتداد بالأشهر، فما دامت حائضاً لا تنتقل إلى عدة الآيسات، وذلك أن الأقراء التي هي الأطهار عندنا لا توجد إلا مع الحيض، لا تكون بدونه، فمن أين يلزم أن تكون هي الحيض؟

(ضعف حديث عدة الأمة حيضتان)

وأما استدلالكم بحديث عائشة رضي الله عنها: «طَلَّقَ الْأُمَّةُ طَلْقَتَانِ وَقَرَّوْهُمَا حَيْضَتَانِ»، فهو حديث لو استدللنا به عليكم لم تقبلوا ذلك منا، فإنه حديث ضعيف معلول، قال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من حديث مظاهر بن أسلم، ومظاهر لا يُعرف له في العلم غير هذا الحديث، انتهى. ومظاهر بن أسلم هذا، قال فيه أبو حاتم الرازي: منكر الحديث. وقال يحيى بن معين: ليس بشيء، مع أنه لا يعرف، وضعفه أبو عاصم أيضاً. وقال أبو داود: هذا حديث مجهول، وقال الخطابي: أهل الحديث ضعفوا هذا الحديث، وقال البيهقي: لو كان ثابتاً لقُلْنَا به إلا أنا لا نُثبت حديثاً يرويه من تُجهل عدالته، وقال الدارقطني: الصحيح عن القاسم بخلاف هذا، ثم روى عن زيد بن أسلم قال: سئل القاسم عن الأمة كم تطلق؟ قال: طلاقها ثنتان، وعدتها حيضتان. قال: فقيل له: هل بلغك عن رسول الله ﷺ في هذا؟ فقال: لا [الدارقطني (٤٤٤)]. وقال البخاري في «تاريخه»: مظاهر بن أسلم، عن القاسم، عن عائشة رضي الله عنها يرفعه: «طَلَّقَ الْأُمَّةُ طَلْقَتَانِ، وَعِدَّتُهَا حَيْضَتَانِ». قال أبو عاصم: أخبرنا ابن جريج، عن مظاهر، ثم لقيت مظاهراً، فحدثنا به، وكان أبو عاصم يُصَعِّفُ مظاهراً، وقال يحيى بن سليمان: حدثنا ابن وهب، قال: حدثني أسامة بن زيد بن أسلم: أنه كان جالساً عند أبيه، فأتاه رسول الأمير،

قالوا: وأما قولكم: إنه لم يَجِء في كلام الشارع إلا للحيض، فنحن نمنع مجيئه في كلام الشارع للحيض البتة، فضلاً عن الحصر. قالوا: إنه قال للمستحاضة: «دعي الصلاة أيام أقرائك»، فقد أجاب الشافعي عنه في كتاب حرمة بما فيه شفاء، وهذا لفظه. قال: وزعم إبراهيم بن إسماعيل بن علية: أن الأقراء: الحيض، واحتج بحديث سفيان، عن أيوب، عن سليمان بن يسار، عن أم سلمة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال في امرأة استحيضت: «تَدَعِ الصَّلَاةَ أَيَّامَ أَقْرَائِهَا» قال الشافعي رحمه الله: وما حدث بهذا سفيان قط، إنما قال سفيان، عن أيوب، عن سليمان بن يسار، عن أم سلمة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «تَدَعِ الصَّلَاةَ عَدَّةَ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ الَّتِي كَانَتْ تَحِيضُهَا». أو قال: «أَيَّامَ أَقْرَائِهَا»، الشك من أيوب لا يدري قال: هذا أو هذا، فجعله هو حديثاً على ناحية ما يريد، فليس هذا بصدق، وقد أخبرنا مالك، عن نافع، عن سليمان بن يسار، عن أم سلمة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال: «لَتَنْظُرَ عَدَّةَ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ الَّتِي كَانَتْ تَحِيضُهَا مِنْ الشَّهْرِ قَبْلَ أَنْ يُصَيِّبَهَا الَّذِي أَصَابَهَا، ثُمَّ لَتَدَعِ الصَّلَاةَ، ثُمَّ لَتَغْتَسِلَ وَلَتُصَلَّ» [مالك (٦٧/١)، وأبو داود: ٢٧٤، وابن ماجه: ١٢٣]. ونافع أحفظ عن سليمان من أيوب وهو يقول: بمثل أحد معنيي أيوب اللذين رواهما، انتهى كلامه. قالوا: وأما الاستدلال بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لِمَنْ أَنْ يَكْتَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. وأنه الحيض، أو الحبل أو كلاهما، فلا ريب أن الحيض داخل في ذلك، ولكن تحريره كتمان لا يدل على أن القروء المذكورة في الآية هي الحيض، فإنها إذا كانت الأطهار، فإنها تنقضي بالطعن في الحيضة الرابعة أو الثالثة، فإذا أرادت كتمان انقضاء العدة لأجل النفقة أو غيرها، قالت: لم أحض، فتنقضي عدتي، وهي كاذبة وقد حاضت وانقضت عدتها، وحيث فتكون دلالة الآية على أن القروء الأطهار أظهر، ونحن نقنع باتفاق الدلالة بها، وإن أبيت إلا الاستدلال، فهو من جانبنا أظهر، فإن أكثر المفسرين قالوا: الحيض والولادة. فإذا كانت

فقال: إن الأمير يقول لك: كم عدة الأمة؟ فقال: عدة الأمة حيضتان، وطلاق الحر الأمة ثلاث، وطلاق العبد الحرة تطليقتان، وعدة الحرة ثلاث حيض، ثم قال للرسول: أين تذهب؟ قال: أمرني أن أسأل القاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله، قال: فأقسيم عليك ألا رجعت إلي فأخبرتني ما يقولان، فذهب ورجع إلى أبي، فأخبره أنهما قالا كما قال، وقالا له: قل له: إن هذا ليس في كتاب الله، ولا سنة رسول الله ﷺ، ولكن عمل به المسلمون.

وقال أبو القاسم بن عساكر في «أطرافه»: فدل ذلك على أن الحديث المرفوع غير محفوظ.

وأما استدلالكم بحديث ابن عمر مرفوعاً: «طلاق الأمة نيتان، وعدتها حيضتان»، فهو من رواية عطية ابن سعد العوفي، وقد ضعفه غير واحد من الأئمة. قال الدارقطني: والصحيح عن ابن عمر رضي الله عنه ما رواه سالم، ونافع من قوله، وروى الدارقطني أيضاً عن سالم ونافع، أن ابن عمر كان يقول: طلاق العبد الحرة تطليقتان، وعدتها ثلاثة قروء، وطلاق الحر الأمة عدة الأمة حيضتان [الدارقطني (٤٤١)].

قالوا: والثابت بلا شك، عن ابن عمر رضي الله عنه، أن الأقراء: الأطهار.

قال الشافعي رحمه الله: أخبرنا مالك رحمه الله، عن نافع، عن ابن عمر قال: إذا طلق الرجل امرأته، فدخلت في الدم من الحيضة الثالثة، فقد برئت منه، ولا ترثه ولا يرثها [الشافعي (٤٠٤/٢)، ومالك (٥٧٨/٢)].

قالوا: فهذا الحديث مداره على ابن عمر، وعائشة، ومذهبهما بلا شك أن الأقراء: الأطهار، فكيف يكون عندهما عن النبي ﷺ خلاف ذلك، ولا يذهبان إليه؟ قالوا: وهذا بعينه هو الجواب عن حديث عائشة الآخر: أمرت بريرة أن تعتد ثلاث حيض. قالوا: وقد روي هذا الحديث بثلاثة ألفاظ: أمرت أن تعتد، وأمرت أن تعتد عدة الحرة، وأمرت أن تعتد ثلاث حيض، فلعل رواية من روى «ثلاث حيض» محمولة على المعنى، ومن العجب أن يكون عند عائشة رضي الله عنها هذا وهي تقول: الأقراء:

الأطهار، وأعجب منه أن يكون هذا الحديث بهذا السند المشهور الذي كُلهم أئمة، ولا يخرجهم أصحاب الصحيح، ولا المسانيد، ولا من اعتنى بأحاديث الأحكام وجمعها، ولا الأئمة الأربعة، وكيف يصبر عن إخراج هذا الحديث من هو مضطر إليه، ولا سيما بهذا السند المعروف الذي هو كالشمس شهرة، ولا شك أن بريرة أمرت أن تعتد، وأما أنها أمرت بثلاث حيض، فهذا لو صح لم نَعُدّه إلى غيره، ولبادرنا إليه.

(الفرق بين الاستبراء والعدة)

قالوا: وأما استدلالكم بشأن الاستبراء، فلا ريب أن الصحيح كونه بحيضة، وهو ظاهر النص الصحيح، فلا وجه للاشتغال بالتعلل بالقول: إنها تُستبرأ بالطهر، فإنه خلاف ظاهر نص الرسول ﷺ، وخلاف القول الصحيح من قول الشافعي، وخلاف قول الجمهور من الأئمة، فالوجه العدول إلى الفرق بين البابين، فنقول: الفرق بينهما ما تقدم أن العدة وجبت قضاء لحق الزوج، فاختصت بزمان حقه، وهو الطهر بأنها تتكرر، فيعلم منها البراءة بواسطة الحيض بخلاف الاستبراء.

قولكم: لو كانت الأقراء الأطهار لم تحصل بالقرء الأول دلالة، لأنه لو جامعها ثم طلقها فيه حُبِيت بقيته قرءاً، ومعلوم قطعاً أن هذا الطهر لا يدل على شيء.

فجوابه أنها إذا طهرت بعد طهرين كاملين، صحت دلالة بانضمامها إليهما.

قولكم: إن الحدود والعلامات والأدلة إنما تحصل بالأمور الظاهرة إلى آخره.

جوابه: أن الطهر إذا احتوشه دمان، كان كذلك، وإذا لم يكن قبله دم، ولا بعده دم، فهذا لا يُعتد به البتة.

قالوا: ويزيد ما ذهبنا إليه قوة أن القرء هو الجمع، وزمان الطهر أولى به، فإنه حينئذ يجتمع الحيض، وإنما يخرج بعد جمعه. قالوا: وإدخال التاء في (ثلاثة قروء) يدل على أن القرء مذكر، وهو الطهر، فلو كان الحيض لكان بغير تاء لأن واحداً حيضة.

فهذا ما احتج به أرباب هذا القول استدلالاً

وجواباً، وهذا موضع لا يُمكن فيه التوسط بينَ الفريقين، إذ لا توسط بين القولين، فلا بد من التحيز إلى أحد الفئتين، ونحن متحيزون في هذه المسألة إلى أكابر الصحابة وقائلون فيها بقولهم: إن القَرء الحيض، وقد تقدم الاستدلال على صحة هذا القول، فنجيب عما عارض به أرباب القول الآخر، ليتين ما رجحناه، وبالله التوفيق.

(رد المصنف على اعتراضات)

من فسر الأقراء بالأطهار والطلاق قبل العدة)

فنقول: أما استدلالكم بقوله تعالى: ﴿فَلْيَقْوَئَنَّ لِيَذْتَهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]، فهو إلى أن يكون حجة عليكم أقرب منه إلى أن يكون حجة لكم، فإن المراد طلاقها قبل العدة ضرورة، إذ لا يمكن حمل الآية على الطلاق في العدة، فإن هذا - مع تضمنه لكون اللام للظرفية بمعنى «في» فاسد معنى، إذ لا يُمكن إيقاع الطلاق في العدة، فإنه سببها، والسبب يتقدم الحكم، وإذا تقرر ذلك فمن قال: الأقراء الحيض، فقد عمل بالآية، وطلّق قبل العدة.

فإن قلتم: ومن قال: إنها الأطهار فالعدة تتبع الطلاق، فقد طلّق قبل العدة، قلنا: فبطل احتجاجكم حينئذ، وصحّ أن المراد الطلاق قبل العدة لا فيها، وكلا الأمرين يصح أن يُراد بالآية، لكن إرادة الحيض أرجح، وبيانه أن العدة فعلة مما تعد يعني معدودة، لأنها تعد وتُحصى، كقوله: ﴿وَأَصْحَابُ الْآيَةِ﴾ [الطلاق: ١]، والطهر الذي قبل الحيضة مما يعد ويُحصى، فهو من العدة، وليس الكلام فيه، وإنما الكلام في أمر آخر، وهو دخوله في مسمى القروء الثلاثة المذكورة في الآية أم لا؟ فلو كان النص: فطلقوهن لقروئن، لكان فيه تعلق، فهنا أمران: قوله تعالى: ﴿يَرْبِصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، والثاني: قوله: ﴿فَلْيَقْوَئَنَّ لِيَذْتَهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]، ولا ريب أن القائل: افعل كذا ثلاث بَيِّنٍ من الشهر، إنما يكون المأمور مستثلاً إذا فعله قبل مجيء الثلاث، وكذلك إذا قال: فعلته ثلاث مضيّن من الشهر، إنما يصدق إذا فعله بعد مضي الثلاث، وهو بخلاف حرف الظرف الذي هو «في» فإنه إذا قال: فعلته في ثلاث بقين، كان الفعل واقعاً في نفس الثلاث، وهاهنا نكتة حسنة،

وهي أنهم يقولون: فعلته ثلاث ليال خلّون أو بقين من الشهر، وفعلته في الثاني أو الثالث من الشهر، أو في ثانيه أو ثالثه، فمتى أرادوا مضي الزمان أو استقباله أتوا باللام، ومتى أرادوا وقوع الفعل فيه أتوا بفي، وسرّ ذلك أنهم إذا أرادوا مضي زمن الفعل أو استقباله أتوا بالعلامة الدالة على اختصاص العدد الذي يلفظون به بما مضى، أو بما يُستقبل، وإذا أرادوا وقوع الفعل في ذلك الزمان أتوا بالأداة المعينة له، وهي أداة «في»، وهذا خير من قول كثير من النحاة: إن اللام تكون بمعنى قبل في قولهم: كتبته ثلاث بقين، وقوله: ﴿فَلْيَقْوَئَنَّ لِيَذْتَهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]. وبمعنى بعد، كقولهم: ثلاث خلون. وبمعنى في: كقوله تعالى: ﴿وَضَعُ الْمَوَاقِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقوله: ﴿كَذَلِكَ إِذَا جِئْتَهُمْ لِيُؤْمِرُوا بِرَبِّ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٢٥]، والتحقيق أن اللام على بابها للاختصاص بالوقت المذكور، كأنهم جعلوا الفعل للزمان المذكور اتساعاً لاختصاصه به، فكانه له، فتامله.

وفرق آخر: وهو أنك إذا أتيت باللام، لم يكن الزمان المذكور بعده إلا ماضياً أو مستظراً، ومتى أتيت بفي لم يكن الزمان المجزوء بها إلا مقارناً للفعل، وإذا تقرّر هذا من قواعد العربية، فقوله تعالى: ﴿فَلْيَقْوَئَنَّ لِيَذْتَهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]، معناه: لاستقبال عدتهن لا فيها، وإذا كانت العدة التي يُطلق لها النساء مستقبلية بعد الطلاق، فالمستقبل بعدها إنما هو الحيض، فإن الطاهر لا تستقبل الطهر إذ هي فيه، وإنما تستقبل الحيض بعد حالها التي هي فيها، هذا المعروف لغةً وعرفاً، فإنه لا يقال لمن هو في عافية: هو مستقبل العافية، ولا لمن هو في أمن: هو مستقبل الأمن، ولا لمن هو في قبض مغله وإحرازه: هو مستقبل المغل، وإنما المعهود لغةً وعرفاً أن يستقبل الشيء من هو على حال ضيده، وهذا أظهر من أن نُكثر شواهد.

فإن قيل: فيلزم من هذا أن يكون من طلق في الحيض مطلقاً للعدة عند من يقول: الأقراء الأطهار، لأنها تستقبل طهرها بعد حالها التي هي فيها، قلنا: نعم يلزمهم ذلك، فإنه لو كان أول العدة التي تُطلق

لها المرأة هو الطهر، لكان إذا طلقها في أثناء الحيض مطلقاً للعدة، لأنها تستقبل الطهر بعد ذلك الطلاق.

فإن قيل: «اللام» بمعنى «في»، والمعنى: فطلقوهن في عدتهن، وهذا إنما يمكن إذا طلقها في الطهر، بخلاف ما إذا طلقها في الحيض. قيل: الجواب من وجهين:

أحدهما: أن الأصل عدم الاشتراك في الحروف، والأصل إفراد كل حرف بمعناه، فدعوى خلاف ذلك مردودة بالأصل.

الثاني: أنه يلزم منه أن يكون بعض العدة ظرفاً لزمن الطلاق، فيكون الطلاق واقعاً في نفس العدة ضرورة صحة الظرفية، كما إذا قلت: فعلته في يوم الخميس، بل الغالب في الاستعمال من هذا أن يكون بعض الظرف سابقاً على الفعل، ولا ريب في امتناع هذا، فإن العدة تتبع الطلاق ولا تقارنه، ولا تتقدم عليه.

قالوا: ولو سلمنا أن «اللام» بمعنى «في»، وساعد على ذلك قراءة ابن عمر رضي الله عنه وغيره: (فطلقوهن في قبلي عدتهن)، فإنه لا يلزم من ذلك أن يكون القرء هو الطهر، فإن القرء حينئذ يكون هو الحيض، وهو المعداد والمحسوب، وما قبله من الطهر يدخل في حكمه تبعاً وضمناً لوجهين:

(من ضرورة الحيض أن يتقدمه طهر)

أحدهما: أن من ضرورة الحيض أن يتقدمه طهر، فإذا قيل: ترتضي ثلاث حيض، وهي في أثناء الطهر كان ذلك الطهر من مدة التريص، كما لو قيل لرجل: أقم هاهنا ثلاثة أيام، وهو في أثناء ليلة، فإنه يدخل بقية تلك الليلة في اليوم الذي يليها، كما تدخل ليلة اليومين الآخرين في يوميهما. ولو قيل له في النهار: أقم ثلاث ليال، دخل تمام ذلك النهار تبعاً لليلة التي تليه.

(الطهر سبب لوجود الحيض)

الثاني: أن الحيض إنما يتم باجتماع الدم في الرحم قبله، فكان الطهر مقدماً وسبباً لوجود الحيض، فإذا علق الحكم بالحيض، فمن لوازمه ما لا يوجد الحيض إلا بوجوده، وبهذا يظهر أن هذا أبلغ من الأيام والليالي، فإن الليل والنهار متلازمان،

وليس أحدهما سبباً لوجود الآخر، وهاهنا الطهر سبب لاجتماع الدم في الرحم، فقولُه سبحانه وتعالى: ﴿لِيَدْرِيَنَّ﴾ [الطلاق: ١] أي: لاستقبال العدة التي ترتبها، وهي تربص ثلاث حيض بالأطهار التي قبلها. فإذا طلقت في أثناء الطهر، فقد طلقت في الوقت الذي تستقبل فيه العدة المحسوبة، وتلك العدة هي الحيض بما قبلها من الأطهار، بخلاف ما لو طلقت في أثناء حيضة، فإنها لم تطلق لعدة تحسبها، لأن بقية ذلك الحيض ليس هو العدة التي تعتد بها المرأة أصلاً ولا تبعاً لأصل، وإنما تسمى عدة لأنها تحبس فيها عن الأزواج، إذا عرف هذا، فقله: ﴿وَنَصَحَ الْمَوَدَّيْنَ الْقِسْطَ يُؤِيرُ الْقِسْمَةَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، يجوز أن تكون اللام لام التعليل، أي: لأجل يوم القيامة. وقد قيل: إن القسط منصوب على أنه مفعول له، أي: نضعها لأجل القسط، وقد استوفى شروط نصبه، وأما قوله تعالى: ﴿أَقِرَّ الْمَلَكَةُ لِيُؤْكَ الْأُنثَى﴾ [الأسراء: ٧٨]، فليست اللام بمعنى «في» قطعاً، بل قيل: إنها لام التعليل، أي: لأجل ذلك الشمس، وقيل: إنها بمعنى بعد، فإنه ليس المراد إقامتها وقت الدلوك سواء فسر بالزوال أو الغروب، وإنما يؤمر بالصلاة بعده، ويستحيل حمل آية العدة على ذلك، وهكذا يستحيل حمل آية العدة عليه، إذ يصير المعنى: فطلقوهن بعد عدتهن. فلم يبق إلا أن يكون المعنى: فطلقوهن لاستقبال عدتهن، ومعلوم أنها إذا طلقت طاهراً استقبلت العدة بالحيض، ولو كانت الأقراء الأطهار، لكانت السنة أن تطلق حائضاً لتستقبل العدة بالأطهار، فين النبي ﷺ أن العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء هي أن تطلق طاهراً لتستقبل عدتها بعد الطلاق.

فإن قيل: فإذا جعلنا الأقراء: الأطهار، استقبلت عدتها بعد الطلاق بلا فصل، ومن جعلها الحيض لم تستقبلها على قوله حتى ينقضي الطهر.

قيل: كلام الرب تبارك وتعالى لا بد أن يحمل على فائدة مستقلة، وحمل الآية على معنى: فطلقوهن طلاقاً تكون العدة بعده لا فائدة فيه، وهذا بخلاف ما إذا كان المعنى: فطلقوهن طلاقاً يستقبلن فيه العدة لا يستقبلن فيه طهراً لا تعتد به، فإنها إذا طلقت حائضاً

استقبلت طهراً لا تعتد به، فلم تُطلق لاستقبال العدة، ويوضحه قراءة من قرأ: فَطَلَّقُوهُنَّ فِي قُبُلِ عِدَّتِهِنَّ. وقُبُلُ العدة: هو الوقت الذي يكون بين يدي العدة تستقبل به، كقبل الحائض، يوضحه أنه لو أريد ما ذكره، لقيل: في أولِ عدتهن، فالفرق بين قُبُلِ الشيء وأوله.

(يجب تأخر العدة عن الطلاق)

وأما قولكم: لو كانت القروء هي الحيض، لكان قد طلقها قُبُلُ العدة. قلنا: أجل، وهذا هو الواجب عقلاً وشرعاً، فإن العدة لا تُفارق الطلاق ولا تُسبِّقه، بل يجب تأخرها عنه.

(التطويل عند الطلاق في الحيض)

قولكم: وكان ذلك تطويلاً عليها، كما لو طلقها في الحيض، قيل: هذا مبني على أن العلة في تحريم طلاق الحائض خشية التطويل عليها، وكثير من الفقهاء لا يرضون هذا التعليل، ويفسدونه بأنها لو رضيت بالطلاق فيه، واختارت التطويل لم يُبَحِّ له، ولو كان ذلك لأجل التطويل، لم تبَحِّ له برضاها، كما يُباح إسقاط الرجعة الذي هو حق المطلق بتراضيهما بإسقاطها بالعوض اتفاقاً، وبدونه في أحد القولين، وهذا هو مذهب أبي حنيفة، وإحدى الروايتين عن أحمد ومالك، ويقولون: إنما حرُم طلاقها في الحيض، لأنه طلقها في وقت رغبة عنها، ولو سلمنا أن التحريم لأجل التطويل عليها، فالتطويل المضر أن يُطلقها حائضاً، فتتطرَّع مضي الحيضة والطهر الذي يليها، ثم تأخذ في العدة، فلا تكون مستقبلة لعدتها بالطلاق، وأما إذا طلقت طاهراً، فإنها تستقبل العدة عقيب انقضاء الطهر، فلا يتحقق التطويل.

(القرء مشتق من الجمع أي زمن الطهر)

وقولكم: إن القرء مشتق من الجمع، وإنما يُجمع الحيض في زمن الطهر. عنه ثلاثة أجوبة:

(الرد على ذلك بأن ذلك مشتق من المعتل لا المهور)

أحدها: أن هذا ممنوع، والذي هو مشتق من الجمع إنما هو من باب الباء من المعتل، من قرى يقري، كقضى يقضي، والقرء من المهور من بنات

المهر، من قرأ يقرأ، كنحر ينحر، وهما أصلان مختلفان فإنهم يقولون: قرئ الماء في الحوض أقربه، أي: جمعته، ومنه سميت القرية، ومنه قرية النمل: للبيت الذي تجتمع فيه، لأنه يقرىها، أي: يضمها ويجمعها. وأما المهور، فإنه من الظهور والخروج على وجه التوقيت والتحديد، ومنه قراءة القرآن، لأن قارئه يُظهره ويُخرجه مقداراً محدوداً لا يزيد ولا ينقص، ويدل عليه قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٧]، ففرق بين الجمع والقرآن، ولو كانا واحداً، لكان تكريراً محضاً، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿إِذَا قَرَأْتَهُ فَلْيَجْعَلْهُ﴾ [القيامة: ١٨]، فإذا بيناه^(١)، فجعل قراءة نفس إظهاره وبيانه، لا كما زعم أبو عبيدة أن القرآن مشتق من الجمع. ومنه قولهم: ما قرأت هذه الناقة سَلَى قَطُّ، وما قرأت جنيثاً هو من هذا الباب، أي ما ولدته وأخرجته وأظهرته، ومنه: فلان يقرؤك السلام، ويقرأ عليك السلام، هو من الظهور والبيان، ومنه قولهم: قرأت المرأة حيضة أو حيضتين، أي: حاضتهما، لأن الحيض ظهور ما كان كامناً، كظهور الجنين، ومنه: قروء الثريا، وقروء الريح، وهو الوقت الذي يظهر المطر والريح، فإنهما يظهران في وقت مخصوص، وقد ذكر هذا الاشتقاق المصنفون في كتب الاشتقاق، وذكره أبو عمرو وغيره، ولا ريب أن هذا المعنى في الحيض أظهر منه في الطهر.

(الرد على قولهم: النساء أعلم بهذا الباب من الرجال)

قولكم: إن عائشة رضي الله عنها قالت: القُروء: الأطهار، والنساء أعلم بهذا من الرجال.

فالجواب أن يُقال: مَنْ جَعَلَ النساء أعلم بمراد الله من كتابه، وأفهم لمعناه من أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وأبي الدرداء رضي الله عنهم، وأكابر أصحاب رسول الله ﷺ! فنزول ذلك في شأنهن لا يدل على أنهن أعلم به من الرجال، وإلا كانت كُلُّ آية نزلت في النساء تكون النساء أعلم بها من الرجال، ويجب على الرجال

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٨٩) ونسبه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

الرجال، فيجب أن يستوي النساء معهم فيه، وهذا لا خفاء به. ثم يرجح قول الرجال في هذه المسألة، بأن رسول الله ﷺ شهد لواحده من هذا الحزب، بأن الله ضرب الحق على لسانه وقلبه^(٢). وقد وافق ربّه تبارك وتعالى في عدة مواضع قال فيها قولاً، فنزل القرآن بمثل ما قال [البخاري: ٤٠٢، ومسلم: ٦٢٠٦]، وأعطاه النبي ﷺ فضل إنائه في النوم، وأوله بالعلم [البخاري: ٣٦٨١، ومسلم: ٦١٢٦] وشهد له بأنه محدّث ملهم [البخاري: ٣٦٨٩، ومسلم: ٦٢٠٤]، فإذا لم يكن بُد من التقليد، فتقليده أولى، وإن كانت الحجة هي التي تفصل بين المتنازعين، فتحكيه هو الواجب.

(الأخذ بقول علي، هو أحق برجعتهما ما لم تغتسل)

قولكم: إن من قال: إن الأقراء الحيض، لا يقولون بقول علي، وابن مسعود، ولا بقول عائشة، فإن علياً يقول: هو أحق برجعتهما ما لم تغتسل، وأنتم لا تقولون بواحد من القولين، فهذا غايته أن يكون تناقضاً ممن لا يقول بذلك، كأصحاب أبي حنيفة، وتلك شكاة ظاهرٌ عنك غارها عمن يقول بقول علي، وهو الإمام أحمد وأصحابه، كما تقدم حكاية ذلك، فإن العدة تبقى عنده إلى أن تغتسل كما قاله علي، ومن وافقه، ونحن نعتذرُ عمن يقول: الأقراء الحيض في ذلك، ولا يقول: هو أحقُّ بها ما لم تغتسل، فإنه وافق من يقول: الأقراء الحيض في ذلك، وخالفه في توقف انقضائها على الغسل لمعارض أوجب له مخالفته، كما يفعله سائر الفقهاء. ولو ذهبنا نعد ما تصرفتم فيه هذا التصرف بعينه، فإن كان هذا المعارض صحيحاً لم يكن تناقضاً منهم، وإن لم يكن صحيحاً، لم يكن ضعيفاً قولهم في إحدى المسألتين عندهم بمانع لهم من موافقتهم لهم في المسألة الأخرى، فإن موافقة أكابر الصحابة وفيهم من فيهم من الخلفاء الراشدين في معظم قولهم خير، وأولى من مخالفتهم في قولهم جميعه وإلغائه بحيث لا يُعتبر البتة.

قالوا: ثم لم نخالفهم في توقف انقضائها على

تقليدُهم في معناها وحكمها، فيكنّ أعلم من الرجال بآية الرضاع، وآية الحيض، وتحريم وطء الحائض، وآية عدة المتوفى عنها، وآية الحمل والفصال ومدتهما، وآية تحريم إبداء الزينة إلّا لمن ذكر فيها، وغير ذلك من الآيات التي تتعلق بهن، وفي شأنهن نزلت، ويجب على الرجال تقليدُهم في حكم هذه الآيات ومعناها، وهذا لا سبيل إليه البتة. وكيف ومدار العلم بالوحي على الفهم والمعرفة ووفور العقل، والرجال أحقُّ بهذا من النساء، وأوفر نصيباً منهن، بل لا يكاد يختلف الرجال والنساء في مسألة إلّا والصواب في جانب الرجال^(١)، وكيف يقال: إذا اختلفت عائشة، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود في مسألة: إن الأخذ بقول عائشة رضي الله عنها أولى، وهل الأولى إلّا قولٌ فيه خليفتان راشدان؟ وإن كان الصديق معهما كما حكي عنه، فذلك القول مما لا يعدوه الصواب البتة، فإن النقل عن عمر، وعلي ثابت، وأما عن الصديق، ففيه غرابة، ويكتفينا قول جماعة من الصحابة فيهم مثل: عمر، وعلي، وابن مسعود، وأبي الدرداء، وأبي موسى، فكيف نقدم قول أم المؤمنين وفهمها على أمثال هؤلاء؟

ثم يقال: فهذه عائشة رضي الله عنها ترى رضاع الكبير ينشُرُ الحرمة، وثبتت المحرمية، ومعها جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، وقد خالفها غيرُها من الصحابة، وهي روت حديث التحريم به، فهلاً قلتم: النساء أعلم بهذا من الرجال، ورجعتم قولها على قول من خالفها؟

ونقول لأصحاب مالك رحمه الله: وهذه عائشة رضي الله عنها لا ترى التحريم إلّا بخمس رضعات، ومعها جماعة من الصحابة، وروت فيه حديثين، فهلاً قلتم: النساء أعلم بهذا من الرجال، وقدمتم قولها على قول من خالفها؟

فإن قلتم: هذا حكم يتعدى إلى الرجال، فيستوي النساء معهم فيه، قيل: ويتعدى حكم العدة مثله إلى

(١) ليس هذا على إطلاقه، فكثيراً ما يكون الصواب في جانب المرأة لا سيما إذا كانت فقيهة ومحدثة كعائشة رضي الله عنها، ومن طالع كتاب «مستدركات عائشة على الصحابة» للزركشي يتحقق مما قلناه.

(٢) يريد عمر بن الخطاب أخرجه أحمد (٥١٤٥) (٥٦٩٧) (٩٢١٣)، والترمذي (٣٦٨٣).

الغسل، بل قلنا: لا تنقضي حتى تتغسل، أو يمضي عليها وقت صلاة، فوافقناهم في قولهم بالغسل، وزدنا عليهم انقضاءها بمضي وقت الصلاة، لأنها صارت في حكم الطاهرات بدليل استقرار الصلاة في ذمتها، فأبى المخالف الصريحة للخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم.

(الاختلاف فيما ينقضي به أجل العدة)

وقولكم: لا نجد في كتاب الله للغسل معنى. فيقال: كتاب الله تعالى لم يتعرض للغسل بنفي ولا إثبات، وإنما علقَ الجُلَّ واليَنونة بانقضاء الأجل.

وقد اختلف السلف والخلف فيما ينقضي به الأجل، فقيل: بانقطاع الحيض. وقيل: بالغسل أو مضي صلاة، أو انقطاعه لأكثره. وقيل: بالظن في الحيضة الثالثة، وحجة من وقفه على الغسل قضاء الخلفاء الراشدين، قال الإمام أحمد: عمر، وعلي، وابن مسعود يقولون: حتى تتغسل من الحيضة الثالثة. قالوا: وهم أعلم بكتاب الله، وحدود ما أنزل على رسوله، وقد روي هذا المذهب عن أبي بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وأبي موسى، وعُبادَة، وأبي الدرداء، حكاها صاحب «المغني» وغيره عنهم. ومن هاهنا قيل: إن مذهب الصديق ومن ذكر معه، أن الأقرء: الحيض.

قالوا: وهذا القول له حظ وافر من الفقه، فإن المرأة إذا انقطع حيضها صارت في حكم الطاهرات من وجه، وفي حكم الحيض من وجه، والوجوه التي هي فيها في حكم الحيض أكثر من الوجوه التي هي فيها في حكم الطاهرات، فإنها في حكم الطاهرات في صحة الصيام، ووجوب الصلاة، وفي حكم الحيض في تحريم قراءة القرآن عند من حرمه على الحائض، واللبث في المسجد، والطواف بالبيت، وتحريم الوطء، وتحريم الطلاق في أحد القولين، فاحتاط الخلفاء الراشدون وأكابر الصحابة للنكاح، ولم يخرجوها منه بعد ثبوته إلا بقيد لا ريب فيه، وهو ثبوت حكم الطاهرات في حقها من كل وجه، إزالةً لليقين بيقين مثله، إذ ليس جعلها حائضاً في تلك الأحكام أولى من جعلها حائضاً في بقاء الزوجية، وثبوت الرجعة، وهذا من أدق الفقه وألطفه مأخذاً.

قالوا: وأما قول الأعشى:

لِمَا ضَاعَ فِيهَا مِنْ قُرْوٍ نَسَاكَ
فغايته استعمال القروء في الطهر، ونحن لا ننكره.

(الرد على من يقول السبق لولي بالاسم)

قولكم: إن الطهر أسبق من الحيض، فكان أولى بالاسم، فترجيح طريف جداً، فمن أين يكون أولى بالاسم إذا كان سابقاً في الوجود؟ ثم ذلك السابق لا يُسمى قرءاً ما لم يسبقه دم عند جمهور من يقول: الأقرء الأطهار، وهل يقال في كل لفظ مشترك: إن أسبق معانيه إلى الوجود أحق به، فيكون عَسَسَ من قوله: «وَأَكْبَلْ لِمَا سَمَسَ» [التكوير: ١٧]، أولى بكونه لإقبال الليل لسبقه في الوجود، فإن الظلام سابق على الضياء.

(الرد على ادعاء تفسيره ﴿الْقُرْوُ بِالطَّهَارِ﴾)

وأما قولكم: إن النبي ﷺ فسر القروء بالطهار، فلمعُر الله لو كان الأمر كذلك، لما سبقتمونا إلى القول بأنها الأطهار، ولبادرنا إلى هذا القول اعتقاداً وعملاً، وهل المعوّل إلا على تفسيره وبيانه: تَقُولُ سُلَيْمَى لَوْ أَقْنَمْتُ بَارِضِنَا وَكَمْ تَنْذِرُ أُنِّي لِنَمْقَامِ أَطْوَفُ فقد بينا من صريح كلامه ومعناه ما يدل على تفسيره للقروء بالحيض، وفي ذلك كفاية.

فصل

في الأجوبة عن اعتراضكم على أدلتنا

قولكم في الاعتراض على الاستدلال بقوله: «ثلاثة قروء»، فإنه يقتضي أن تكون كوامل، أي: بقية الطهر قرء كامل، فهذا ترجمة المذهب، والشأن في كونه قرءاً في لسان الشارع، أو في اللغة، فكيف تستدلون علينا بالمذهب، مع منازعة غيركم لكم فيه ممن يقول: الأقرء: الأطهار كما تقدم؛ ولكن أوجدونا في لسان الشارع، أو في لغة العرب، أن اللحظة من الطهر تسمى قرءاً كاملاً، وغاية ما عندكم أن بعض من قال: القروء الأطهار، لا كُلُّهم يقولون: بقية القروء المطلق فيه قرء، وكانَ ماذا؟ كيف وهذا الجزء من الطهر بعض طهر بلا ريب؟ فإذا كان مسمى القروء في الآية هو الطهر، وجب أن يكون هذا بعض

قرء يقيناً، أو يكون القرء مشتركاً بينَ الجميع والبعض، وقد تقدّم إبطالُ ذلك، وأنه لم يقل به أحد.

(الرد على قولهم إن العرب

توقع اسم الجمع على اثنين وبعض الثالث)

قولكم: إن العرب تُوقع اسم الجمع على اثنين وبعض الثالث، جوابه من وجوه:

(الفرق بين أسماء الجموع وصيغ العدد)

أحدهما: أن هذا إن وقع، فإنما يقع في أسماء الجموع التي هي ظواهر في مسماها، وأما صيغ العدد التي هي نصوص في مسماها، فكلاً ولماً، ولم تَرُدْ صيغة العدد إلا مسبوقاً بمسماها، كقوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٦]. وقوله: ﴿وَلْيَتَوَكَّلْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ لَيَالٍ سِيَّتًا﴾ [الكهف: ٢٥]. وقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ اللَّهِ يَكْفُرُ﴾ [البقرة: ١٩٦]. وقوله: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَنَاضًى﴾ [الحاقة: ٧]. ونظائره مما لا يُراد به في موضع واحد دون مسماها من العدد. وقوله: ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. اسم عدد ليس بصيغة جمع، فلا يصحُّ إلحاقه بأشهر معلومات، لوجهين:

أحدهما: أن اسم العدد نص في مسماها لا يقبلُ التخصيصَ المنفصل، بخلاف الاسم العام، فإنه يقبلُ التخصيصَ المنفصل، فلا يلزم من التوسع في الاسم الظاهر التوسع في الاسم الذي هو نص فيما يتناولُه.

الثاني: أن اسم الجمع يصحُّ استعماله في اثنين فقط مجازاً عند الأكثرين، وحقيقة عند بعضهم، فصحة استعماله في اثنين، وبعض الثالث أولى بخلاف الثلاثة، ولهذا لما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلْيَأْوِ إِلَى أَثْنَيْنِ﴾ [النساء: ١١]، حمله الجمهور على أخوين، ولما قال: ﴿فَتَهَيَّئْ لِحَيِّهِمْ أَرْبَعَهُ شَهْدَاتٍ﴾ [النور: ٦]، لم يحملها أحدٌ على ما دون الأربع.

والجواب الثاني: أنه وإن صح استعمال الجمع في اثنين، وبعض الثالث، إلا أنه مجاز، والحقيقة أن يكون المعنى على وفق اللفظ، وإذا دار اللفظ بين حقيقته ومجازه فالحقيقة أولى به.

الجواب الثالث: أنه إنما جاء استعمالُ الجمع في اثنين، وبعض الثالث في أسماء الأيام والشهور

والأعوام خاصة، لأن التاريخ إنما يكون في أثناء هذه الأزمنة، فتارةً يُدخلون السنة الناقصة في التاريخ، وتارة لا يُدخلونها، وكذلك الأيام، وقد توسّعوا في ذلك ما لم يتوسعوا في غيره، فاطلقوا الليالي، وأرادوا الأيام معها تارة، وبدونها أخرى وبالعكس.

الجواب الرابع: أن هذا التجوُّز جاء في جمع القلة، وهو قوله: ﴿الْعَجُ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]. وقوله: ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] جمع كثرة، وكان من الممكن أن يُقال: ثلاثة أقراء، إذ هو الأغلب على الكلام، بل هو الحقيقة عند أكثر النحاة، والعدولُ عن صيغة القلة إلى صيغة الكثرة لا بد له من فائدة، ونفي التجوُّز في هذا الجمع يصلح أن يكون فائدة، ولا يظهر غيرها، فوجب اعتبارها.

(يطلق اسم الجمع على

اثنين وبعض الثالث فيما يقبل التبعية)

الجواب الخامس: أن اسم الجمع إنما يُطلق على اثنين، وبعض الثالث فيما يقبل التبعية، وهو اليوم والشهر والعام، ونحو ذلك دون ما لا يقبله، والحيض والطهر لا يتبعضان، ولهذا جُعِلَتْ عدة الأمة ذات الأقراء قرءين كاملين بالاتفاق، ولو أمكن تنصيف القرء، لجعلت قرءاً ونصفاً، هذا مع قيام المقتضي للتبعية، فإن لا يجوز التبعية مع قيام المقتضي للتكميل أولى، وسيُرى المسألة أن القرء ليس لبعضه حكم في الشرع.

الجواب السادس: أنه سبحانه قال في الآية والصغيرة: ﴿فَيَدْتَحْنَنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق: ٤]، ثم اتفقت الأمة على أنها ثلاثة كوامل، وهي بدلٌ عن الحيض، فتكميلُ المبدل أولى.

قولكم: إن أهل اللغة يُصرِّحون بأن له مسميين: الحيض والطهر، لا ننازعكم فيه، ولكن حمله على الحيض أولى للوجوه التي ذكرناها، والمشارك إذا اقترن به قرائن تُرجِّح أحد معانيه، وجب الحملُ على الراجح.

(الرد على ادعائهم أن الطهر الذي لم يسبقه دم هو قرء)

قولكم: إن الطهر الذي لم يسبقه دم قرء على الأصح، فهذا ترجيحٌ وتفسير للفظه بالمذهب، وإلا فلا يُعرف في لغة العرب قط أن طهر بنت أربع سنين

يُسمى قرءاً، ولا تُسمى من ذوات الأقرء، لا لغة ولا عرفاً ولا شرعاً، فثبت أن الدم داخل في مسمى القرء، ولا يكون قرءاً إلا مع وجوده.

(بهان مجيء القرء على لسان الشارع للحيض)

قولكم: إن الدم شرط للتسمية، كالكأس والقلم وغيرهما من الألفاظ المذكورة تنظييراً فاسد، فإن مسمى تلك الألفاظ حقيقة واحدة مشروطة بشروط، والقرء مشترك بين الطهر والحيض، يقال: على كل منهما حقيقة، فالحيض مسماه حقيقة لا أنه شرط في استعماله في أحد مسميه فافترقا.

(تقوية حديث، «دعي الصلاة إماماً لقرئته»)

قولكم: لم يجيء في لسان الشارع للحيض، قلنا: قد بينا مجيئه في كلامه للحيض، بل لم يجيء في كلامه للطهر البتة في موضع واحد، وقد تقدم أن سفيان بن عيينة روى عن أيوب، عن سليمان بن يسار، عن أم سلمة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ في المستحاضة: «تَدْعُ الصَّلَاةَ أَيَّامَ أَقْرَائِهَا».

قولكم: إن الشافعي قال: ما حدث بهذا سفيان قط، جوابه أن الشافعي لم يسمع سفيان يحدث به، فقال بموجب ما سمعه من سفيان، أو عنه من قوله: «لتنظر عدد الليالي والأيام التي كانت تحيضهن من الشهر» وقد سمعه من سفيان من لا يُستتاب بحفظه وصدقه وعدالته. وثبت في السنن، من حديث فاطمة بنت أبي حبيش، أنها سألت رسول الله ﷺ، فشكت إليه الدم، فقال لها رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا ذَلِكَ عِرْقٌ، فَاَنْظُرِي، فَإِذَا أَتَى قَرْوُكَ، فَلَا تُصَلِّي، وَإِذَا مَرَّ قَرْوُكَ، فَتَطَهَّرِي، ثُمَّ صَلِّي مَا بَيْنَ الْقَرْءِ إِلَى الْقَرْءِ» [أبو داود: ٢٨٠، والنسائي (١٨٣/١)]. رواه أبو داود بإسناد صحيح، فذكر فيه لفظ القرء أربع مرات، في كل ذلك يريد به الحيض لا الطهر، وكذلك إسناد الذي قبله، وقد صححه جماعة من الحفاظ.

وأما حديث سفيان الذي قال فيه: «لَتَنْتَظُرْ عَدَدَ الليالي والأيام التي كانت تحيضهن من الشهر»، فلا تعارض بينه وبين اللفظ الذي احتجاجنا به بوجه ما حتى يُطلب ترجيح أحدهما على الآخر، بل أحد اللفظين يجري من الآخر مجرى التفسير والبيان، وهذا يدل على أن القرء اسم لتلك الليالي والأيام،

فإنه إن كانا جميعاً لفظ رسول الله ﷺ - وهو الظاهر - فظاهر، وإن كان قد روي بالمعنى، فلولا أن معنى أحد اللفظين معنى الآخر لغة وشرعاً، لم يجعل الراوي أن يُبدل لفظ رسول الله ﷺ بما لا يقوم مقامه، ولا يسوغ له أن يُبدل اللفظ بما يُوافق مذهبه، ولا يكون مرادفاً للفظ رسول الله ﷺ، لا سيما والراوي لذلك من لا يُدفع عن الإمامة والصدق والورع، وهو أيوب السخيتاني، وهو أجل من نافع وأعلم.

وقد روى عثمان بن سعد الكاتب، حدثنا ابن أبي مليكة، قال: جاءت خالتي فاطمة بنت أبي حبيش إلى عائشة رضي الله عنها، فقالت: إني أخاف أن أقع في النار، أدع الصلاة السنة والستين، قالت: انتظري حتى يجيء رسول الله ﷺ، فجاء، فقالت عائشة رضي الله عنها: هذه فاطمة تقول: كذا وكذا، قال: «قُولِي لَهَا فَلْتَدْعِ الصَّلَاةَ فِي كُلِّ شَهْرٍ أَيَّامَ قَرْيَئِهَا» [أحمد: ٢٧٣٠، والحاكم (١٧٥/١)]. قال الحاكم: هذا حديث صحيح، وعثمان بن سعد الكاتب بصري ثقة عزيز الحديث، يُجمع حديثه، قال البيهقي: وتكلم فيه غير واحد [البيهقي (٣٣٢/١)]. وفيه: أنه تابعه الحجاج بن أرطاة عن ابن أبي مليكة، عن عائشة رضي الله عنها.

وفي «المسند»: أن رسول الله ﷺ قال لفاطمة: إِذَا أَقْبَلْتَ أَيَّامَ أَقْرَائِكَ فَأَمْسِكِي عَلَيْكِ... الحديث [أحمد: ٢٤٥٨-٢٤٥٩].

وفي «سنن أبي داود» من حديث عدي بن ثابت، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ في المستحاضة: «تَدْعُ الصَّلَاةَ أَيَّامَ أَقْرَائِهَا، ثُمَّ تَغْتَسِلُ وَتُصَلِّي» [أبو داود: ٢٩٧].

وفي «سننه» أيضاً: أن فاطمة بنت أبي حبيش سألت رسول الله ﷺ، فشكت إليه الدم، فقال لها رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا ذَلِكَ عِرْقٌ فَاَنْظُرِي، فَإِذَا أَتَى قَرْوُكَ، فَلَا تُصَلِّي، فَإِذَا مَرَّ قَرْوُكَ فَتَطَهَّرِي ثُمَّ صَلِّي مَا بَيْنَ الْقَرْءِ إِلَى الْقَرْءِ» [أبو داود: ٢٨٠]. وقد تقدم.

قال أبو داود: وروى قتادة، عن عروة، عن زينب، عن أم سلمة رضي الله عنها: أن أم حبيبة بنت جحش رضي الله عنها استحاضت، فأمرها النبي ﷺ

أَنْ تَدَعَ الصَّلَاةَ أَيَّامَ أَقْرَابِهَا [أبو داود: ٢٢٨١].

وتعليل هذه الأحاديث، بأن هذا من تغيير الرواية، رَوَاهُ بِالْمَعْنَى لَا يُلْتَمَسُ إِلَيْهِ، وَلَا يُعْرَجُ عَلَيْهِ، فَلَوْ كَانَتْ مِنْ جَانِبِ مَنْ عُلِّلَ بِهَا، لِأَعَادَ ذِكْرَهَا وَأَبْدَاهُ، وَشَتَّ عَلَى مَنْ خَالَفَهَا.

وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: إِنْ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ الْيَأْسَ مِنَ الْحَيْضِ شَرْطًا فِي الْإِعْتِدَادِ بِالْأَشْهُرِ، فَمَنْ أَيْنَ يَلْزَمُ أَنْ تَكُونَ الْقُرْءُ هِيَ الْحَيْضُ؟ قُلْنَا: لِأَنَّهُ جَعَلَ الْأَشْهُرَ الثَّلَاثَةَ بَدَلًا عَنِ الْأَقْرَاءِ الثَّلَاثَةِ، وَقَالَ: ﴿وَالَّذِي يَتَسَنَّيَنَّ مِنَ الْمَجِيزِ مِنْ سِتَائِكُمْ﴾ [الطلاق: ٤٤]، فَنَقُلُهُنَّ إِلَى الْأَشْهُرِ عِنْدَ تَعَدُّرِ مَبْدَلِهِنَّ، وَهُوَ الْحَيْضُ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْأَشْهُرَ بَدَلَ عَنِ الْحَيْضِ الَّذِي يَتَسَنَّيَنَّ مِنْهُ، لَا عَنِ الطَّهَرِ، وَهَذَا وَاضِحٌ.

(الجواب عن تضعيف حديث: «عدة الأمة حيضتان»)

قَوْلُكُمْ: حَدِيثُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مَعْلُومٌ بِمُظَاهَرِ بْنِ أَسْلَمَ، وَمُخَالَفَةُ عَائِشَةَ لَهُ، فَنَحْنُ إِنَّمَا احْتَجَجْنَا عَلَيْكُمْ بِمَا اسْتَدَلُّنَا بِهِ عَلَيْنَا فِي كَوْنِ الطَّلَاقِ بِالنِّسَاءِ لَا بِالرِّجَالِ، فَكُلُّ مَنْ صَنَفَ مِنْ أَصْحَابِكُمْ فِي طَرِيقِ الْخِلَافِ، أَوْ اسْتَدَلَّ عَلَى أَنَّ طَلَاقَ الْعَبْدِ طَلَقَتَانِ، احْتَجَّ عَلَيْنَا بِهَذَا الْحَدِيثِ. وَقَالَ: جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ طَلَاقَ الْعَبْدِ تَطْلِيقَتَيْنِ، فَاعْتَبَرَ الطَّلَاقَ بِالرِّجَالِ لَا بِالنِّسَاءِ، وَاعْتَبَرَ الْعِدَّةَ بِالنِّسَاءِ، فَقَالَ: وَعِدَّةُ الْأَمَةِ حَيْضَتَانِ. فَيَا سُبْحَانَ اللَّهِ، يَكُونُ الْحَدِيثُ سَلِيمًا مِنَ الْعِلْلِ إِذَا كَانَ حُجَّةً لَكُمْ، إِذَا احْتَجَّ بِهِ مَنَازَعُوكُمْ عَلَيْكُمْ اعْتَوْرَتَهُ الْعِلْلُ الْمُخْتَلِفَةُ، فَمَا أَشْبَهَهُ يَقُولُ الْقَائِلُ:

يَكُونُ أَجَاجًا ذُونُكُمْ فَإِذَا انْتَهَى

إِلَيْكُمْ تَلَقَّى نَشْرُكُكُمْ فَيَطِيبُ

فَنَحْنُ إِنَّمَا كَلْنَا لَكُمْ بِالصَّاعِ الَّذِي كَلَّمْنَا بِهِ بِخَسَاءٍ بِبَخْسٍ، وَإِيْفَاءٍ بِإِيْفَاءٍ، وَلَا رَيْبَ أَنْ مُظَاهَرًا مِمَّنْ لَا يُحْتَجُّ بِهِ، لَكِنْ لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يُعْتَصَدَ بِحَدِيثِهِ، وَيَقْوَى بِهِ، وَالِدَلِيلُ غَيْرُهُ.

وَأَمَّا تَعْلِيلُهُ بِخِلَافِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لَهُ، فَأَيْنَ ذَلِكَ مِنْ تَقْرِيزِكُمْ، أَنْ مُخَالَفَةَ الرَّائِي لَا تُوجِبُ رَدَّ حَدِيثِهِ، وَأَنْ الْإِعْتِبَارَ بِمَا رَوَاهُ لَا بِمَا رَأَاهُ، وَتَكْتَرِكُ مِنَ الْأَمْثَلَةِ الَّتِي أَخَذَ النَّاسُ فِيهَا بِالرَّوَايَةِ دُونَ مُخَالَفَةِ

رَاوِيَهَا لَهَا، كَمَا أَخَذُوا بِرَوَايَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ الْمُتَضَمِّنَةِ لِبَقَاءِ النِّكَاحِ مَعَ بَيْعِ الزَّوْجَةِ، وَتَرَكُوا رَأْيَهُ بِأَنْ يَبِيعَ الْأَمَةُ طَلَاقًا، وَغَيْرَ ذَلِكَ.

وَأَمَّا رَدُّكُمْ لِحَدِيثِ ابْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «طَلَاقُ الْأَمَةِ طَلَقَتَانِ، وَقُرْءُهَا حَيْضَتَانِ». بِعَطِيَّةِ الْعَوْفِيِّ، فَهُوَ وَإِنْ ضَعُفَهُ أَكْثَرُ أَهْلِ الْحَدِيثِ، فَقَدْ احْتَمَلَ النَّاسُ حَدِيثَهُ، وَخَرَجُوا فِي السَّنَنِ، وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ فِي رَوَايَةِ عَبَّاسِ الدُّورِيِّ عَنْهُ: صَالِحُ الْحَدِيثِ، وَقَالَ أَبُو أَحْمَدَ بْنُ عَدِي رَحِمَهُ اللَّهُ: رَوَى عَنْهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الثَّقَاتِ، وَهُوَ مَعَ ضَعْفِهِ يُكْتَبُ حَدِيثُهُ، فَيُعْتَصَدُ بِهِ وَإِنْ لَمْ يُعْتَمَدَ عَلَيْهِ وَحْدَهُ.

وَأَمَّا رَدُّكُمْ الْحَدِيثَ بِأَنْ ابْنَ عَمْرِو مَذْهَبُهُ: أَنَّ الْقُرْءُ الْأَطْهَارَ، فَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا يُورِثُ شُبْهَةً فِي الْحَدِيثِ، وَلَكِنْ لَيْسَ هَذَا بِأَزْلٍ حَدِيثَ خَالَفَهُ رَاوِيهِ، فَكَانَ الْإِعْتِبَارُ بِمَا رَوَاهُ لَا بِمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ، وَهَذَا هُوَ الْجَوَابُ عَنْ رَدِّكُمْ لِحَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِمَذْهَبِهَا، وَلَا يُعْتَرَضُ عَلَى الْأَحَادِيثِ بِمُخَالَفَةِ الرَّوَاةِ لَهَا.

(الجواب عن عدة المختلعة بحيضة)

وَأَمَّا رَدُّكُمْ لِحَدِيثِ الْمُخْتَلَعَةِ، وَأَمْرُهَا أَنْ تَعْتَدَ بِحَيْضَةٍ، فَإِنَّا لَا نَقُولُ بِهِ، فَلِلنَّاسِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ قَوْلَانِ، وَهُمَا رَوَاتَانِ عَنْ أَحْمَدَ أَحَدَهُمَا: أَنَّ عِدَّتَهَا ثَلَاثُ حَيْضٍ، كَقَوْلِ الشَّافِعِيِّ، وَمَالِكٍ، وَأَبِي حَنِيفَةَ. وَالثَّانِي: أَنَّ عِدَّتَهَا حَيْضَةٌ، وَهُوَ قَوْلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَانَ بْنِ عِفَّانَ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي بَانٍ بْنِ عُمَانَ، وَبِهِ يَقُولُ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوِيَّةَ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ فِي الدَّلِيلِ، وَالْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِيهِ لَا مَعَارِضَ لَهَا، وَالْقِيَاسُ يَقْتَضِيهِ حُكْمًا، وَسَنِينُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ عِنْدَ ذِكْرِ حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي عِدَّةِ الْمُخْتَلَعَةِ.

قَالُوا: وَمُخَالَفَتُنَا لِحَدِيثِ اعْتِدَادِ الْمُخْتَلَعَةِ بِحَيْضَةٍ فِي بَعْضِ مَا اقْتَضَاهُ مِنْ جَوَازِ الْإِعْتِدَادِ بِحَيْضَةٍ لَا يَكُونُ عَدْرًا لَكُمْ فِي مُخَالَفَةِ مَا اقْتَضَاهُ مِنْ أَنَّ الْقُرْءُ الْحَيْضُ، فَنَحْنُ وَإِنْ خَالَفْنَاهُ فِي حُكْمٍ، فَقَدْ وَافَقْنَاهُ فِي الْحُكْمِ الْآخَرِ، وَهُوَ أَنَّ الْقُرْءَ الْحَيْضُ، وَأَنْتُمْ خَالَفْتُمُوهُ فِي الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا، هَذَا مَعَ أَنَّ مَنْ يَقُولُ: الْأَقْرَاءُ الْحَيْضُ، وَيَقُولُ: الْمُخْتَلَعَةُ تَعْتَدُ بِحَيْضَةٍ، قَدْ سَلِمَ مِنْ هَذِهِ الْمَطَالِبَةِ، فَمَاذَا تَرُدُّونَ بِهِ قَوْلَهُ؟

(الرد على الفرق بين الاستبراء والعدة)

لنا زواج الإمام أنه يكون عليهن العدة المذكورات، وما فرق عز وجل بين حرة ولا أمة في ذلك، وما كان ربك نسياً.

(قول من قال: إن عدة الأمة نصف عدة الحرة)

وثبت عن سلف مثل قولنا: قال محمد بن سيرين رحمه الله: ما أرى عدة الأمة إلا كعدة الحرة، إلا أن يكون مضت في ذلك سنة، فالتسنة أحق أن تتبع. قال: وقد ذكر أحمد بن حنبل، أن قول مكحول: إن عدة الأمة في كل شيء، كعدة الحرة، وهو قول أبي

سليمان، وجميع أصحابنا، هذا كلامه، وقد خالفهم في ذلك جمهور الأمة، فقالوا: عدتها نصف عدة الحرة، هذا قول فقهاء المدينة: سعيد بن المسيب، والقاسم، وسالم، وزيد بن أسلم، وعبد الله بن عتبة، والزهرري، ومالك، وفقهاء أهل مكة: كعطاء بن أبي رباح، ومسلم بن خالد وغيرهما، وفقهاء البصرة: كقتادة، وفقهاء الكوفة، كالثوري وأبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله. وفقهاء الحديث كأحمد وإسحاق، والشافعي، وأبي ثور رحمهم الله وغيرهم، وسلفهم في ذلك الخليلتان الراشدان: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، رضي الله عنهما، صح ذلك عنهما، وهو قول عبد الله بن عمر رضي الله عنه، كما رواه مالك، عن نافع، عنه: عدة الأمة حيضتان، وعدة الحرة ثلاث حيض، وهو قول زيد بن ثابت، كما رواه الزهري، عن قبيصة بن ذؤيب، عن زيد بن ثابت: عدة الأمة حيضتان، وعدة الحرة ثلاث حيض. وروى حماد بن زيد، عن عمرو بن أوس الثقفي، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لو استطعت أن أجعل عدة الأمة حيضةً ونصفاً لفعلت، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين! فاجعلها شهراً ونصفاً.

وقال عبد الرزاق: حدثنا ابن جريج، أخبرني أبو الزبير، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: جعل لها عمر رضي الله عنه حيضتين، يعني: الأمة المطلقة [عبد الرزاق: ١٢٨٧٥].

وروى عبد الرزاق أيضاً: عن ابن عيينة، عن محمد بن عبد الرحمن، عن سليمان بن يسار، عن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن عمر رضي الله عنه:

وأما قولكم في الفرق بين الاستبراء والعدة: إن العدة وجبت قضاء لحق الزوج، فاختصت بزمان حقه، كلام لا تحقيق وراءه، فإن حقه في جنس الاستمتاع في زمن الحيض والطهر، وليس حقه مختصاً بزمن الطهر، ولا العدة مختصة بزمن الطهر دون الحيض، وكلا الوقتين محسوب من العدة، وعدم تكرار الاستبراء لا يمنع أن يكون طهراً محتوشاً بدمين، كقرء المطلقة، فتبين أن الفرق غير طائل.

قولكم: إن انضمام قرءين إلى الطهر الذي جامع فيه يجعله علماً، جوابه أن هذا يُضفي إلى أن تكون العدة قرءين فحسب، فإن ذلك الذي جامع فيه لا دلالة له على البراءة البتة، وإنما الدال القرآن بعده، وهذا خلاف موجب النص، وهذا لا يلزم من جعل الأقراء الحيض، فإن الحيضة وحدها علم، ولهذا اكتفي بها في استبراء الإمام.

قولكم: إن القرء هو الجمع، والحيض يجتمع في زمان الطهر، فقد تقدم جوابه، وأن ذلك في المعتل لا في المهموز.

قولكم: دخول التاء في ثلاثة، يدل على أن واحداً مذكراً، وهو الطهر، جوابه أن واحد القراء قرء، وهو مذكر، فأتى بالتاء مراعاة للفظه، وإن كان مسماة حيضة، وهذا كما يقال: جاني ثلاثة أنفس، ومُنْ نساء باعتبار اللفظ. والله أعلم.

فصل

(قول من سوى بين عدة الحرة والأمة)

وقد احتج بمعوم آيات العدة الثلاث من يرى أن عدة الحرة والأمة سواء، قال أبو محمد بن حزم: وعدة الأمة المتزوجة من الطلاق والوفاة، كعدة الحرة سواء بسواء، ولا فرق، لأن الله تعالى علّمنا العدة في الكتاب، فقال: ﴿وَالْعَلْفَتُ يَرْيَعُونَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرْيَعْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَزْوَاجَهُنَّ أَشْهُرَ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وقال الله تعالى: ﴿وَالَّذِي يَسْتَبْرَأُ مِنَ الْحَيْضِ مِنْ سَابِقِهَا إِلَى أَنْ تَبْدَأَ فَيَدْنُوَ فَلَا يَحْطِئُ بِهَا مِنْ سَبِقِهَا فَلَا يَحْطِئُ بِهَا مِنْ سَبِقِهَا وَأُولَئِكَ الْأَحْزَابُ لَأَجْلَهُنَّ أَنْ يَحْضَرَ حَمْلُهُنَّ﴾ [التلاق: ٤]، وقد علم الله تعالى إذ أباح

ينكح العبد اثنتين، ويطلق تطليقتين، وتعتد الأمة حيفتين، فإن لم تحض، فشهريين أو قال: فشهرًا ونصفًا [عبد الرزاق: ١٢٨٧٢، والبيهقي (٤٢٥/٧)].

وذكر عبد الرزاق أيضاً: عن معمر، عن المغيرة، عن إبراهيم النخعي، عن ابن مسعود قال: يكون عليها نصف العذاب، ولا يكون لها نصف الرخصة [عبد الرزاق: ١٢٨٧٩].

وقال ابن وهب: أخبرني رجال من أهل العلم: أن نافعاً، وابن قسيط، ويحيى بن سعيد، وربيعة، وغير واحد من أصحاب رسول الله ﷺ، والتابعين، قالوا: عِدَّةُ الْأُمَةِ حِيضَتَانِ. قالوا: ولم يزل هذا عمل المسلمين.

قال ابن وهب: أخبرني هشام بن سعد، عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم، قال: عِدَّةُ الْأُمَةِ حِيضَتَانِ.

قال القاسم: مع أن هذا ليس في كتاب الله عز وجل، ولا نعلمه سُنَّةً عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ولكن قد مضى أمرُ النَّاسِ على هذا، وقد تقدَّم هذا الحديث بعينه، وقول القاسم وسالم فيه لرسول الأمير، قل له: إن هذا ليس في كتاب الله، ولا سُنَّةُ رسول الله ﷺ، ولكن عمل به المسلمون. قالوا: ولو لم يكن في المسألة إلا قول عمر، وابن مسعود، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عمر لكفى به.

وفي قول ابن مسعود رضي الله عنه: تجعلون عليها نصف العذاب، ولا تجعلون لها نصف الرخصة، دليل على اعتبار الصحابة للأقيسة والمعاني، والحاق النظر بالنظر.

ولما كان هذا الأثر مخالفاً لقول الظاهرية في الأصل والفرع، طعن ابن حزم فيه وقال: لا يصح عن ابن مسعود: قال: وهذا بعيد على رجل من غرض الناس، فكيف عن مثل ابن مسعود؟ وإنما جرَّاه على الطعن فيه، أنه من رواية إبراهيم النخعي عنه، رواه عبد الرزاق عن معمر، عن المغيرة، عن إبراهيم، وإبراهيم لم يسمع من عبد الله، ولكن الواسطة بينه وبينه أصحاب عبد الله كعلقة ونحوه، وقد قال إبراهيم: إذا قلت: قال عبد الله، فقد حدثني به غير واحد عنه، وإذا قلت: قال فلان عنه، فهو عمن

سَمِعْتُ، أو كما قال. ومن المعلوم: أن بين إبراهيم، وعبد الله أئمة ثقات، لم يسم قطُّ متهما، ولا مجروحاً، ولا مجهولاً، فشيوخه الذين أخذ عنهم عن عبد الله أئمة أجلاء نبلاء، وكانوا كما قيل: سُرُجُ الْكُوفَةِ، وكل من له ذوق في الحديث إذا قال إبراهيم: قال عبد الله، لم يتوقف في ثبوته عنه، وإن كان غيره ممن في طبقته لو قال: قال عبد الله، لا يحصل لنا الثبوت بقوله، فإبراهيم عن عبد الله نظير ابن المسيب عن عمر، ونظير مالك عن ابن عمر، فإن الوسائط بين هؤلاء وبين الصحابة رضي الله عنهم إذا سَمَوْهُمْ وَجَدُوا مِنْ أَجْلِ النَّاسِ، وأوثقهم، وأصدقهم، ولا يُسْمُون سواهم البتة، ودفع ابن مسعود في هذه المسألة، فكيف يخالف عمر، وزيداً، وابن عمر، وهم أعلم بكتاب الله وسُنَّةُ رسوله، ويخالف عمل المسلمين، لا إلى قول صاحب البتة، ولا إلى حديث صحيح، ولا حسن، بل إلى عموم أمره ظاهر عند جميع الأئمة، ليس هو مما تخفى دلالة، ولا موضعه، حتى يظفر به الواحد والاثنان دون سائر الناس، هذا من أبين المحال.

ولو ذهبنا نذكر الآثار عن التابعين بتتصيف عِدَّةِ الْأُمَةِ، لطالت جداً، ثم إذا تأملت سياق الآيات التي فيها ذكر العَدَدِ، وجدتها لا تتناول الإماماء، وإنما تتناول الحرائر، فإنه سبحانه قال: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْجِعْنَ إِلَى أَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكُنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَنْفُسِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَهُنَّ أَثَرُ بِرِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] إلى أن قال: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ مِنْهَا إِلَّا أَنْ يُحَاقَ الْأُيُتِمَا حَدُّهُ اللَّهُ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُحِيقَا حَدُّهُ اللَّهُ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْمَا فِيمَا اقْتَدَتْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وهذا في حق الحرائر دون الإماماء، فإن افتداء الأمة إلى سيدها، لا إليها. ثم قال: ﴿فَإِنْ عَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَدْنِهَا حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْمَا أَنْ يَرْجِعَا﴾ [البقرة: ٢٣٠]، فجعل ذلك إليها، والتراجع المذكور في حق الأمة، وهو العقد، إنما هو إلى سيدها، لا إليها، بخلاف الحرة، فإنه إليها بإذن وليها، وكذلك قوله سبحانه في عدة الوفاة: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرْجِعْنَ إِلَى أَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي

أَنْفُسِهِمْ بِالْمَرْوَةِ» [البقرة: ٢٣٤]، وهذا إنما هو في حق الحرية، وأما الأمة، فلا فعل لها في نفسها البتة، فهذا في العدة الأصلية. وأما عدة الأشهر ففرع وبدل. وأما عدة وضع الحمل، فيستويان فيها، كما ذهب إليه أصحاب رسول الله ﷺ، والتابعون، وعمل به المسلمون، وهو محض الفقه، وموافق لكتاب الله في تنصيف الحد عليها، ولا يعرف في الصحابة مخالف في ذلك، وقهّم أصحاب رسول الله ﷺ عن الله أولى من قهّم من شدّ عنهم من المتأخرين، وبالله التوفيق.

ولا تعرف التسوية بين الحرّة والأمة في العدة عن أحد من السلف إلا عن محمد بن سيرين، ومكحول. فأما ابن سيرين، فلم يجزّم بذلك، وأخبر به عن رايه، وعلّق القول به على عدم سُنّة تُتَّبَعُ. وأما قول مكحول، فلم يذكر له سنداً، وإنما حكاه عنه أحمد رحمه الله، وهو لا يقبل عند أهل الظاهر، ولا يصح، فلم يبق معكم أحد من السلف إلا رأي ابن سيرين وحده المعلق على عدم سُنّة مُتَّبَعَةٍ، ولا ريب أن سُنّة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك مُتَّبَعَةٌ، ولم يخالفه في ذلك أحد من الصحابة رضي الله عنهم، والله أعلم.

(عدة الأمة غير الباقية)

فإن قيل: كيف تدعون إجماع الصحابة وجماهير الأمة، وقد صرح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن عدة الأمة التي لم تبلغ ثلاثة أشهر، وصح ذلك عن عمر بن عبد العزيز، ومجاهد، والحسين، وربيعة. والليث بن سعد، والزهرري، وبكر بن الأشج، ومالك، وأصحابه، وأحمد بن حنبل في إحدى الروايات عنه.

ومعلوم أن الأشهر في حق الآية، والصغيرة بدّل عن الأقراء الثلاث، فدل على أن بدّلها في حقها ثلاثة.

فالجواب: أن القائلين بهذا هم بأنفسهم القائلون: إن عدتها حيضتان، وقد أفترّا بهذا، وهذا، ولهم في الاعتداد بالأشهر ثلاثة أقوال، وهي للشافعي، وهي ثلاث روايات عن أحمد. فأكثر الروايات عنه أنها

شهران، رواه عنه جماعة من أصحابه، وهو إحدى الروايتين عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ذكرها الأثرم وغيره عنه.

وحجة هذا القول: أن عدتها بالأقراء حيضتان، فجعل كل شهر مكان حيضة.

والقول الثاني: أن عدتها شهر ونصف، نقلها عنه الأثرم، والميموني، وهذا قول علي بن أبي طالب، وابن عمر، وابن المسيّب، وأبي حنيفة، والشافعي في أحد أقواله. وحجته: أن التنصيف في الأشهر ممكن، فتنصفت، بخلاف القروء. ونظير هذا: أن المخرم إذا وجب عليه في جزاء الصيد نصف مُدٍّ أخرجه، فإن أراد الصيام مكانه، لم يجزه إلا صوم يوم كامل.

والقول الثالث: أن عدتها ثلاثة أشهر كوامل، وهو إحدى الروايتين عن عمر رضي الله عنه، وقول ثالث للشافعي، وهو فيمن ذكرتموه.

والفرق عند هؤلاء بين اعتدادها بالأقراء، وبين اعتدادها بالشهور، أن الاعتبار بالشهور للعلم ببراءة رحمها، وهو لا يحصل بدون ثلاثة أشهر في حق الحرية والأمة جميعاً، لأن الحمل يكون نطفة أربعين يوماً، ثم علقه أربعين، ثم مضغة أربعين، وهو الظهور الثالث الذي يمكن أن يظهر فيه الحمل، وهو بالنسبة إلى الحرية والأمة سواء، بخلاف الأقراء، فإن الحيضة الواحدة علّم ظاهر على الاستبراء، ولهذا اكتفي بها في حق المملوكة، فإذا زوّجت فقد أخذت شبهاً من الحرائر، وصارت أشرف من ملك اليمين، فجعلت عدتها بين العديتين.

قال الشيخ في «المغني»: ومن ردّ هذا القول، قال: هو مخالف لإجماع الصحابة، لأنهم اختلفوا على القولين الأوّلين، ومتى اختلفوا على قولين، لم يجز إحداث قول ثالث، لأنه يفضي إلى تخطئهم، وخروج الحق عن قول جميعهم. قلت: وليس في هذا إحداث قول ثالث، بل هو إحدى الروايتين عن عمر، ذكرها ابن وهب وغيره، وقال به من التابعين من ذكرناهم وغيرهم.

فصل

(عدة القيسة والتي لم تحض وحد الإياس)

والروايات عن أحمد في حد الإياس)

وأما عدة الآيسة، والتي لم تحض، فقد بينها سبحانه في كتابه فقال: ﴿وَالَّتِي يَلَسَ مِنْ الْمَحْضِ مِنْ سَائِكُرٍ إِنْ أَزْنَتَ فَمَدَّتْ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَ﴾ [الطلاق: ٤]، وقد اضطرب الناس في حد الإياس اضطراباً شديداً، فمنهم من حده بخمسين سنة، وقال: لا تحيض المرأة بعد الخمسين، وهذا قول إسحاق ورواية عن أحمد رحمه الله، واحتج أرباب هذا القول بقول عائشة رضي الله عنها: إذا بلغت خمسين سنة، خرجت من حد الحيض. وحده طائفة بستين سنة، وقالوا: لا تحيض بعد الستين، وهذه رواية ثانية عن أحمد. وعنه رواية ثالثة: الفرق بين نساء العرب وغيرهم، فحده ستون في نساء العرب، وخمسون في نساء العجم. وعنه رواية رابعة: أن ما بين الخمسين والستين دم مشكوك فيه، تصوم وتصلّي، وتقضي الصوم المفروض، وهذه اختيار الخرقي. وعنه رواية خامسة: أن الدم إن عاود بعد الخمسين وتكرر فهو حيض، وإلا فلا.

(مذهب الشافعي في حد الإياس)

وأما الشافعي رحمه الله، فلا نص له في تقدير الإياس بمدة، وله قولان بعد: أحدهما: أنه يُعرف بإياس أقاربها. والثاني: أنه يعتبر بإياس جميع النساء، فعلى القول الأول: هل المعتبر جميع أقاربها، أو نساء عَصَبَاتِها، أو نساء بِلَدِها خاصة؟ فيه ثلاثة أوجه، ثم إذا قيل: يعتبر بالأقارب، فاختلقت عادتهن، فهل يعتبر بأقل عادة منهن، أو بأكثرهن عادة، أو بأقصر امرأة في العالم عادة؟ على ثلاثة أوجه. والقول الثاني للشافعي رحمه الله: أن المعتبر جميع النساء. ثم اختلف أصحابه: هل لذلك حد، أم لا؟ على وجهين: أحدهما: ليس له حد، وهو ظاهر نصه. والثاني: له حد، ثم اختلفوا فيه على وجهين: أحدهما: أنه ستون سنة، قاله أبو العباس بن القاص، والشيخ أبو حامد. والثاني: اثنان وستون سنة، قاله الشيخ أبو إسحاق في «المهذب»، وابن الصبّاغ في «الشامل».

وأما أصحاب مالك رحمه الله، فلم يحدوا بين الإياس بعد البتة.

وقال آخرون، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية: الإياس يختلف باختلاف النساء، وليس له حد يتفق فيه النساء. والمزاد بالآية، أن يأس كل امرأة من نفسها، لأن الإياس ضد الرجاء، فإذا كانت المرأة قد يشت من الحيض، ولم ترجه، فهي آيسة، وإن كان لها أربعون أو نحوها، وغيرها لا يأس منه وإن كان لها خمسون.

وقد ذكر الزبير بن بكار: أن بعضهم قال: لا تُلدُ لخمسين سنةً إلا عريّة، ولا تُلدُ لستين سنةً إلا قرشيّة. وقال: إن هند بنت أبي عبيدة بن عبد الله بن ربيعة، ولدت موسى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ولها ستون سنة. وقد صح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في امرأة طُلقت، فحاضت حَيْضَةً أو حَيْضَتَيْنِ، ثم يرتفع حيضها لا تدري ما رَفَعَهُ أنها تتربّص تسعة أشهر، فإن استبان بها حمل، وإلا اعتدت ثلاثة أشهر. وقد وافقه الأكثرون على هذا، منهم: مالك، وأحمد، والشافعي في القديم. قالوا: تتربّص غالب مدة الحمل، ثم تعتد عدة الآيسة، ثم تحلّ للأزواج ولو كانت بنت ثلاثين سنة، أو أربعين، وهذا يقتضي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومن وافقه من السلف والخلف، تكون المرأة آيسة عندهم قبل الخمسين، وقبل الأربعين، وأن الإياس عندهم ليس وقتاً محدوداً للنساء، بل مثل هذه تكون آيسة وإن كانت بنت ثلاثين، وغيرها لا تكون آيسة وإن بلغت خمسين. وإذا كانوا فيمن ارتفع حيضها ولا تدري ما رَفَعَهُ، جعلوها آيسة بعد تسعة أشهر، فالتى تدري ما رَفَعَهُ إما بدواء يعلم أنه لا يعود مَعَهُ، وإما بعادة مستقرّة لها من أهلها وأقاربها أولى أن تكون آيسة. وإن لم تبلغ الخمسين، وهذا بخلاف ما إذا ارتفع لمرض، أو رضاع، أو حمل، فإن هذه ليست آيسة، فإن ذلك يزول.

فالمراتب ثلاثة: أحدها: أن ترتفع ليّاس معلوم متيقّن، بأن تنقطع عاماً بعد عام، ويتكرّر انقطاعه

أعواماً متتابعة، ثم يطلق بعد ذلك، فهذه تتربص ثلاثة أشهر بنص القرآن، سواء كانت بنت أربعين أو أقل أو أكثر، وهي أولى بالتربص بثلاثة أشهر من التي حكم فيها الصحابة والجمهور بتربصها تسعة أشهر ثم ثلاثة، فإن تلك كانت تحيض وطلقت وهي حائض، ثم ارتفع حيضها بعد طلاقها لا تدري ما رفعه، فإذا حكم فيها بحكم الآيات بعد انقضاء غالب مدة الحمل، فكيف بهذه؟ ولهذا قال القاضي إسماعيل في «أحكام القرآن»: إذا كان الله سبحانه قد ذكر اليأس مع الرؤية، فقال تعالى: ﴿وَالَّتِي يَحْسَبُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِذَا انْتَبَذَتْ فِعْذَتُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق: ٤]، ثم جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لفظ موافق لظاهر القرآن، لأنه قال: أيما امرأة طُلقت فحاضت حيضة، أو حيضتين، ثم ارتفعت حيضتها لا تدري ما رفعها، فإنها تنتظر تسعة أشهر، ثم تعتد ثلاثة أشهر. فلما كانت لا تدري ما الذي رفع الحيضة، كان موضع الارتباب، فحكم فيها بهذا الحكم، وكان اتباع ذلك الزم وأولى من قول من يقول: إن الرجل يطلق امرأته تطليقة أو تطليقتين، فيرتفع حيضها وهي شابة: أنها تبقى ثلاثين سنة معتدة، وإن جاءت بولد لأكثر من ستين لم يلزمه، فخالف ما كان من إجماع المسلمين الذين مضوا، لأنهم كانوا مجبوعين على أن الولد يلحق بالاب ما دامت المرأة في عذتها، فكيف يجوز أن يقول قائل: إن الرجل يطلق امرأته تطليقة أو تطليقتين، ويكون بينها وبين زوجها أحكام الزوجات ما دامت في عذتها من الموارثة وغيرها؟ فإن جاءت بولد لم يلحقه، وظاهر عدة الطلاق أنها جعلت من الدخول الذي يكون منه الولد، فكيف تكون المرأة معتدة والولد لا يلزم؟

قلت: هذا إلزام منه لأبي حنيفة، فإن عنده أقصر مدة الحمل ستان، والمراتب في أثناء عذتها لا تزال في عدة حتى تبلغ سن الإياس، فتعتد به، وهو يلزم الشافعي في قوله الجديد سواء، إلا أن مدة الحمل عنده أربع سنين، فإذا جاءت به بعدها لم يلحقه، وهي في عذتها منه. قال القاضي إسماعيل: واليأس يكون بعضه أكثر من بعض، وكذلك القنوط، وكذلك الرجاء، وكذلك الظن، ومثل هذا يتسع الكلام فيه،

فإذا قيل منه شيء، أنزل على قدر ما يظهر من المعنى فيه، فمن ذلك أن الإنسان يقول: قد يست من مريض، إذا كان الأغلب عنده أنه لا يبرأ ويست من غائب، إذا كان الأغلب عنده أنه لا يقدم، ولو قال: إذا مات غائبه، أو مات مريضه: قد يست منه، لكان الكلام عند الناس على غير وجهه، إلا أن يتبين معنى ما قصد له في كلامه، مثل أن يقول: كنت وجلاً في مرضه مخافة أن يموت، فلما مات وقع اليأس، فينصرف الكلام على هذا وما أشبهه إلا أن أكثر ما يلفظ باليأس إنما يكون فيما هو الأغلب عند اليأس أنه لا يكون، وليس واحد من اليأس والطامع يعلم يقيناً أن ذلك الشيء يكون أو لا يكون، وقال الله تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ [النور: ٦٠]، والرجاء ضد اليأس، والقاعدة من النساء قد يمكن أن تزوج، غير أن الأغلب عند الناس فيها أن الأزواج لا يرغبون فيها. وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْفِتْنَةَ مِنْ بَيْنِ مَا قَنَطُوا﴾ [الشورى: ٢٨]، والقنوط شبه اليأس، وليسوا يعلمون يقيناً أن المطر لا يكون، ولكن اليأس دخلهم حين تطاول إبطاؤه. وقال الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَكَانُوا فِي ظُلُمٍ أَمْتٍ لَبِيٍّ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ﴾ [يوسف: ١١٠]، فلما ذكر أن الرسل هم الذين استياسوا كان فيه دليل على أنهم دخل قلوبهم يأس من غير يقين استيقنوه، لأن اليقين في ذلك إنما يأتيهم من عند الله، كما قال في قصة نوح: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ أَنَّمَا لَكَ بُرْءٌ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا يَتَّبِعُكَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]، وقال الله تعالى في قصة إخوة يوسف: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا يَسَّهُ حَكَمُوا بِحَبْلِ الْجَنَّةِ﴾ [يوسف: ٨٠]، فدل الظاهر على أن يأسهم ليس بيقين، وقد حدثنا ابن أبي أونس، حدثنا مالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول في خطبته: تعلم أن الناس أن الطمع فقر، وأن اليأس غنى، وأن المرء إذا يأس من شيء استغنى عنه. فجعل عمر اليأس بإزاء الطمع، وسمعت أحمد بن المعدل يشد شعراً لرجل من القدماء يصف ناقة:

صَفَرَاءُ مِنْ تَلَدِ بَنِي الْعَبَّاسِ
صَبَّرْتُهَا كَالظَّنِّي فِي الْكِتَابِ
تَلِيدُ أَنْ تَسْمَعَ بِإِلْسَانِ
فَالنَّفْسُ بَيْنَ طَمَحٍ وَيَاسٍ^(١)
فجعل الطمع بإزاء اليأس.

وحدثنا سليمان بن حرب، حدثنا جرير بن حازم، عن الأعمش، عن سلام بن شرحبيل، قال: سمع حبة بن خالد، وسواء بن خالد: أنهما أتيا النبي ﷺ، قالا: علمنا شيئا، ثم قال: «لَا تَيَاسَا مِنَ الْخَيْرِ مَا تَهْزَهَرْتَ رُؤُوسُكُمَا فَإِنَّ كُلَّ عَبْدٍ يُؤَلِّدُ أَحْمَرَ لَيْسَ عَلَيْهِ قِشْرَةٌ ثُمَّ يَرْزُقُهُ اللَّهُ وَيُعْطِيهِ» [أحمد: ١٥٨٥٥، وابن ماجه: ٤١٦٥].

وحدثنا علي بن عبد الله، حدثنا ابن عيينة، قال: قال هشام بن عبد الملك لأبي حازم: يا أبا حازم، ما مالك. قال: خير مالٍ تقني بالله، ويأسي مما في أيدي الناس. قال: وهذا أكثر من أن يحصى، انتهى.

قال شيخنا: وليس للنساء في ذلك عادة مستمرة، بل فيهن مَنْ لَا تَحِيضُ وَإِنْ بَلِغَتْ، وفيهن من تَحِيضُ حِيضًا يسيراً يتباعد ما بين أقرانها حتى تَحِيضُ فِي السَّنةِ مَرَّةً، ولهذا اتفق العلماء على أن أكثر الطهر بين الحيضتين لَا حُدُّ لَهُ، وغالبُ النساءِ يَحِيضُ كُلَّ شَهْرٍ مَرَّةً، وَيَحِيضُ رُبْعَ الشَّهْرِ، ويكون طهرهنَّ ثلاثةَ أرباعه. ومنهن من تطهر الشهور المتعددة لقلَّةِ رطوبتها، ومنهنَّ مَنْ يسرع إليها الجفاف، فينقطع حيضها، وتيأس منه وإن كان لها دون الخمسين، بل والأربعين. ومنهن من لَا يسرع إليها الجفاف، فتجاوز الخمسين وهي تَحِيضُ. قال: وليس في الكتاب ولا السُّنَّةِ تحديدُ اليأس بوقت، ولو كان المراد بالآيسة من المَحِيضِ مَنْ لَهَا خَمْسُونَ سَنَةً أَوْ سِتُونَ سَنَةً أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، لَقِيلَ: وَاللَّائِي يَلِغُنْ مِنَ السِّنِّ كَذَا وَكَذَا، وَلَمْ يَقُلْ: يَتَسَنُّ. وأيضاً، فقد ثبت عن الصحابة رضي الله عنهم أنهم جعلوا من ارتفع حَيْضُهَا قَبْلَ ذَلِكَ يَاسَةً، كما تقدم. والوجود مختلف في وقت يَاسِهِنَّ غَيْرَ مُتَوَقَّعٍ، وأيضاً فإنه سبحانه قال:

﴿وَالَّتِي يَتَسَنُّ﴾ [الطلاق: ٤]، ولو كان له وقت محدود، لكانت المرأة وغيرها سواء في معرفة يَاسِهِنَّ، وهو سبحانه قد خص النساء بأنهن اللاتي يتسن، كما خصهن بقوله: ﴿وَالَّتِي لَمْ يَحِيضْ﴾ [الطلاق: ٤]، فالتِي تَحِيضُ، هي التي تَيَاسُ، وهذا بخلاف الارتياب، فإنه سبحانه قال: ﴿إِنْ أَرَبْتُمْ﴾، ولم يقل: إِنْ أَرَبْتِ، أي: إِنْ أَرَبْتُمْ فِي حُكْمِهِنَّ، وشككنكم فيه، فهو هذا لَا هذا الذي عليه جماعة أهل التفسير، كما روى ابن أبي حاتم في تفسيره، من حديث جرير، وموسى بن أعين، واللفظ له، عن مطرف بن طريف، عن عمرو بن سالم، عن أبي بن كعب، قال: قلت: يا رسول الله! إِنْ نَاسًا بِالْمَدِينَةِ يَقُولُونَ فِي عِدَّةِ النِّسَاءِ مَا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ الصَّغَارَ وَالْكِبَارَ وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ ﴿وَالَّتِي يَتَسَنُّ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِيضْ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]، فَأَجَلُ إِحْدَاهُمَا أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا، فَإِذَا وَضَعَتْ، فَقَدْ قَضَتْ عِدَّتَهَا [ابن كثير ٣٠٨/٤]. ولفظ جرير: قلت: يا رسول الله! إِنْ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ فِي عِدَّةِ النِّسَاءِ، قَالُوا: لَقَدْ بَقِيَ مِنْ عِدَّةِ النِّسَاءِ عِدَّةٌ لَمْ يَذْكُرْ فِي الْقُرْآنِ، الصَّغَارُ وَالْكِبَارُ الَّتِي قَدْ انْقَطَعَ عَنْهَا الْحِيضُ، وَذَوَاتُ الْحَمْلِ، قَالَ: فَأَنْزَلَتْ الَّتِي فِي النِّسَاءِ الْقُصْرَى، ﴿وَالَّتِي يَتَسَنُّ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرَبْتُمْ﴾ [الطلاق: ٤] ثُمَّ رَوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالَّتِي يَتَسَنُّ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ يَعْنِي الْآيَةَ الْعَجُوزَ الَّتِي لَا تَحِيضُ، أَوِ الْمَرْأَةَ الَّتِي قَعَدَتْ عَنِ الْحِيضَةِ، فَلَيْسَتْ هَذِهِ مِنَ الْقُرْءِ فِي شَيْءٍ. وَفِي قَوْلِهِ: ﴿إِنْ أَرَبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٦] فِي الْآيَةِ، يَعْنِي إِنْ شَكَكْتُمْ، فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ، وَعَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿إِنْ أَرَبْتُمْ﴾ لَمْ تَعْلَمُوا عِدَّةَ الَّتِي قَعَدَتْ عَنِ الْحِيضِ، أَوِ الَّتِي لَمْ تَحِيضْ، فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ. فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَرَبْتُمْ﴾، يَعْنِي: إِنْ سَأَلْتُمْ عَنْ حُكْمِهِنَّ، وَلَمْ تَعْلَمُوا حُكْمَهُنَّ، وَشَكَكْتُمْ فِيهِ، فَقَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ، فَهُوَ بَيَانٌ لِنَعْمَتِهِ عَلَى مَنْ طَلَبَ عَلَيْهِ ذَلِكَ، لِيُزِيلَ مَا عِنْدَهُ

(١) الإيساس عند الحلب: أن يقال للثاقة: يس، بس، وثاقة بسوس تدر عند الإيساس، وفي المثل: «الإيساس قبل الإيساس» يضرب في المداراة عند الطلب.

(الاختلاف في حكمة)

عدة الوفاة من قال هي لبراءة الرحم)

وقد اضطرب الناس في حكمة عدة الوفاة وغيرها، فقيل: هي لبراءة الرحم، وأورد على هذا القول وجوه كثيرة:

منها: وجوبها قبل الدخول في الوفاة، ومنها: أنها ثلاثة قروء، وبراءة الرحم يكفي فيها حيضة، كما في المستبرأة، ومنها: وجوب ثلاثة أشهر في حق من يُقطع ببراءة رحمها لصفرها أو كبرها.

(من قال هو تعبد لا يعقل معناه)

ومن الناس من يقول: هو تعبد لا يُعقل معناه، وهذا فاسد لوجهين:

أحدهما: أنه ليس في الشريعة حكم إلا وله حكمة وإن لم يعقلها كثير من الناس أو أكثرهم.

الثاني: أن العدد ليست من العبادات المحضة، بل فيها من المصالح رعاية حق الزوجين والولد والناكح.

(حكمة عدة الوفاة عند ابن تيمية)

قال شيخنا: والصواب أن يقال: أما عدة الوفاة فهي حرم لانقضاء النكاح، ورعاية لحق الزوج، ولهذا تُحد المتوفى عنها في عدة الوفاة رعاية لحق الزوج، فجعلت العدة حريماً لحق هذا العقد الذي له خطر وشأن، فيحصل بهذه فصل بين نكاح الأول ونكاح الثاني، ولا يتصل الناكحان، ألا ترى أن رسول الله ﷺ لما عظم حقه، حرم نساؤه بعده، وبهذا اختص الرسول ﷺ، لأن أزواجه في الدنيا هن أزواجه في الآخرة بخلاف غيره، فإنه لو حرم على المرأة أن تتزوج بغير زوجها، تضررت للمتوفى عنها، وربما كان الثاني خيراً لها من الأول. ولكن لو تأملت على أولاد الأول، لكانت محمودة على ذلك، مستحبة لها، وفي الحديث: «أنا وامرأة سَفْعَاءُ الْخَدَّيْنِ، كَهَاتَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وأوماً بالوسطى والسبابة، امرأة آمت من زوجها ذات منصب وجمال، وحسنت نفسها على يتامى لها حتى بأتوا أو ماتوا» [أحمد: ٢٤٠٠٦، وأبو داود: ٥١٤٩، وفي سننه ضعيف]. وإذا كان المقتضي لتحريمها قائماً، فلا أقل

من الشك والرَّيب، بخلاف المُفْرَض عن طلب العلم. وأيضاً، فإن النساء لا يستوين في ابتداء الحيض، بل منهن من تحيض لعشر أو اثنتي عشرة، أو خمس عشرة، أو أكثر من ذلك، فكذا لا يستوين في آخر سن الحيض الذي هو سن اليأس، والوجود شاهد بذلك. وأيضاً، فإنهم تنازعوا فيمن بلغت ولم تحض، هل تعد بثلاثة أشهر، أو بالحول كالتى ارتفع حبضها لا تدري ما رفعه؟ وفيه روايتان عن أحمد.

قلت: والجمهور على أنها تعد بثلاثة أشهر، ولم يجعلوا للصغر الموجب للاعتداد بها حداً، فكذا لا يجب أن لا يكون للكبر الموجب للاعتداد بالشهور حداً، وهو ظاهر، والله الحمد.

فصل

وأما عدة الوفاة، فتجب بالموت، سواء دخل بها، أو لم يدخل اتفاقاً، كما دل عليه عموم القرآن والسنة، واتفقوا على أنهما يتوارثان قبل الدخول، وعلى أن الصداق يستقر إذا كان مسمى، لأن الموت لما كان انتهاء العقد استقرت به الأحكام، فتوارثا، واستقر المهر، ووجبت العدة.

(الاختلاف في وجوب من المثل)

إذا لم يكن مسمى للمتوفى عنها وزوجها قبل الدخول) واختلفوا في مسألتين: إحداهما: وجوب مهر المثل إذا لم يكن مسمى، فأوجه أحمد وأبو حنيفة، والشافعي في أحد قوليه، ولم يوجب ماله، والشافعي في القول الآخر، وقضى بوجوبه رسول الله ﷺ، كما جاء في السنة الصحيحة الصريحة من حديث بَرَّوَج بنت واشق وقد تقدم. ولو لم ترد به السنة، لكان هو محض القياس، لأن الموت أجري مجرى الدخول في تقرير المسمى، ووجوب العدة.

(هل يثبت تحريم الربيبة بموت الأم)

والمسألة الثانية: هل يثبت تحريم الربيبة بموت الأم، كما يثبت بالدخول بها؟ وفيه قولان للصحابه، وهما روايتان عن أحمد.

والمقصود: أن العدة فيه ليست للعلم ببراءة الرحم، فإنها تجب قبل الدخول، بخلاف عدة الطلاق.

من مدة تتربصُها، وقد كانت في الجاهلية تتربصُ سنة، فخففها الله سبحانه بأربعة أشهر وعشر، وقيل لسعيد بن المسيب: ما بال العشر؟ قال: فيها يُنفخ الروح، فيحصل بهذه المدة براءة الرحم حيث يحتاج إليه، وقضاء حق الزوج إذا لم يحتج إلى ذلك.

فصل

(حكمه عدة الطلاق)

وأما عدة الطلاق، فهي التي أشكلت، فإنه لا يُمكن تعليلها بذلك، لأنها إنما تجب بعد المسيس، ولأن الطلاق قطعٌ للنكاح، ولهذا يتنصّف فيه المسمى، ويسقط فيه مهرُ المثل.

فيقال - والله الموفق للصواب -: عدة الطلاق وجبت ليتمكن الزوج فيها من الرجعة، ففيها حقٌ للزوج، وحقٌ لله، وحقٌ للولد، وحقٌ للنكاح الثاني. فحق الزوج، ليتمكن من الرجعة في العدة، وحق الله، لوجوب ملازمتها المنزل، كما نصّ عليه سبحانه، وهو متصوصٌ أحمد، ومذهب أبي حنيفة. وحق الولد، لثلا يضيّع نسبه، ولا يُدرى لأي الواطئين. وحق المرأة، لما لها من النفقة زمن العدة لكونها زوجة تَرث وتُورث، ويدل على أن العدة حق للزوج قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسُوْهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَمُدُّنَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩]، ف قوله: فما لكم عليهن من عدة، دليل على أن العدة للرجل على المرأة، وأيضاً فإنه سبحانه قال: ﴿وَيُؤْتِيْنَهُنَّ أَهْلُ بَيْتِهِ فِي ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فجعل الزوج أحقّ بردها في العدة، وهذا حق له. فإذا كانت العدة ثلاثة قُروء، أو ثلاثة أشهر، طالت مدة التربص لينظر في أمره: هل يُمسكها، أو يُسرحها كما جعل سبحانه للمؤلي تربص أربعة أشهر لينظر في أمره: هل يُمسك ويقي، أو يُطلق، وكان تخيير المطلق كتخيير المؤلي، لكن المؤلي جعل له أربعة أشهر، كما جعل مدة التبشير أربعة أشهر، لينظروا في أمرهم.

(معنى بلوغ الأجل في العدة)

وهل الاغتسال من الحيض ومن تمام العدة شرط في عقد

(النكاح وفي الوطء)

ومما يُبين ذلك، أنه سبحانه قال: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمْ

الْإِسَاءَ فَلَنْتُمْ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَمْسُوهُنَّ أَنْ يَكُنَّ أَرْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَصُوا بَيْنَهُنَّ بِالْمَقْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وبلوغ الأجل: هو الوصول والانتهاء إليه، وبلوغ الأجل في هذه الآية مجاوزته، وفي قوله: ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ فَاتَّسُكُوهُنَّ يَمَقْرُوفٍ﴾، مقاربه ومشارفته، ثم فيه قولان، أحدهما: أنه حدٌ من الزمان، وهو الطعن في الحيضة الثالثة، أو انقطاع الدم منها، أو من الرابعة، وعلى هذا، فلا يكون مقدوراً لها، وقيل: بل هو فعلها، وهو الاغتسال كما قاله جمهور الصحابة، وهذا كما أنه بالاغتسال يحل للزوج وطؤها، ويحل لها أن تمكث من نفسها، فالإغتسال عندهم شرط في النكاح الذي هو العقد، وفي النكاح الذي هو الوطء.

وللناس في ذلك أربعة أقوال:

أحدهما: أنه ليس شرطاً، لا في هذا، ولا في هذا، كما يقوله من يقول من أهل الظاهر.

(ترجيح المصنف أنه عند

انقضاء القروء الثلاثة بخبر الزوج بين الإمساك أو التسريح)

والثاني: أنه شرط فيهما، كما قاله أحمد، وجمهور الصحابة كما تقدّم حكايته عنهم. والثالث: أنه شرط في نكاح الوطء، لا في نكاح العقد، كما قاله مالك والشافعي. والرابع: أنه شرط فيهما، أو ما يقوم مقامه، وهو الحكم بالطهر بمضي وقت صلاة، وانقطاعه لأكثره، كما يقوله أبو حنيفة فإذا ارتجعهما قبل غسلها، كان غسلها، لأجل وطئه لها، وإلا كان لأجل جلها لغيره، وبالاغتسال يتحقق كمال الحيض وتماؤه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، والله سبحانه أمرها أن تتربص ثلاثة قُروء، فإذا مضت الثلاثة فقد بلغت أجلها، وهو سبحانه لم يقل: إنها عقيب القريتين تبيّن من الزوج، خير الزوج عند بلوغ الأجل بين الإمساك والتسريح، فظاهر القرآن كما فهمه الصحابة رضي الله عنهم، أنه عند انقضاء القروء الثلاثة يُخير الزوج بين الإمساك بالمعروف، أو التسريح بالإحسان، وعلى هذا فيكون بلوغ الأجل في القرآن واحداً لا يكون قسمين، بل يكون باستيفاء المدة واستكمالها، وهذا كقوله تعالى إخباراً عن أهل

النار: ﴿وَبَلَّغْنَا الْكَلِمَةَ لَبَّى لَبَّى﴾ [الأنعام: ١٢٨]، وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغَ الْأَجَلَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ فِيمَا فَعَلْنَا فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٤]. وإنما حمل من قال: إن بلوغ الأجل هو مقارنته أنها بعد أن تجلَّ للخطاب لا يبقى الزوج أحقَّ برجعتها، وإنما يكون أحقَّ بها ما لم تحل لغيره، فإذا حُلَّ لغيره أن يتزوج بها صار هو خاطباً من الخطاب. ومنشأ هذا ظن أنها ببلوغ الأجل تجلَّ لغيره، والقرآن لم يدلَّ على هذا، بل القرآن جعل عليها أن تربعص ثلاثة قروء، وذكر أنها إذا بلغت أجلها، فإما أن تُمسك بمعروف، وإما أن تُسرح بإحسان. وقد ذكر سبحانه هذا الإمساك أو التسريح عقب الطلاق، فقال: ﴿الَّذِينَ مَرَكَاتٍ فَلَيْسَ لَهُنَّ يَمْرُوفٌ أَوْ تَسْرِيعٌ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ثم قال: ﴿وَلِذَا كُنَّتُمُ الْيَتَامَىٰ فَكُنَّ لَكُمْ أَٰبَآءُ فَلَا تَقْسُوا مِنَّ عَمَلِكُمْ شَيْئاً﴾ [آل عمران: ٢٢٢]، وهذا هو تزوجها بزوجه الأول المطلق الذي كان أحقَّ بها، فالنهي عن عضلهم مؤكَّد لحق الزوج، وليس في القرآن أنها بعد بلوغ الأجل تجلَّ للخطاب، بل فيه أنه في هذه الحال، إما أن يُمسك بمعروف، أو يُسرح بإحسان، فإن سرح بإحسان، حلت حيثن للخطاب، وعلى هذا، فدلالة القرآن بينة أنها إذا بلغت أجلها وهو انقضاء ثلاثة قروء بانقطاع الدم، فإما أن يُمسكها قبل أن تفتسل، فتفتسل عنده، وإما أن يُسرحها فتفتسل وتكبح من شاءت، وبهذا يُعرف قدر فهم الصحابة رضي الله عنهم، وأن من بعدهم إنما يكون غاية اجتهداه أن يفهم ما فهموه، ويعرف ما قالوه.

فإن قيل: فإذا كان له أن يرجعها في جميع هذه المدة ما لم تفتسل، فلم يَدَّ التخيير ببلوغ الأجل؟ قيل: ليتبين أنها في مدة العدة كانت متربصة لأجل حق الزوج، والربعص: الانتظار، وكانت منتظرة، هل يُمسكها أو يُسرحها؟ وهذا التخيير ثابت له من أول المدة إلى آخرها، كما خُير المُولي بين الفينة وعدم الطلاق، وهنا لما خيَّره عند بلوغ الأجل كان تخييره قبله أولى وأحرى، لكن التسريح بإحسان إنما يُمكن إذا بلغت الأجل، وقبل ذلك هي في العدة.

(التسريح هو إرسالها إلى أهلها)

وقد قيل: إن تسريحها بإحسان مؤثر فيها حين

تنقضي العدة، ولكن ظاهر القرآن يدل على خلاف ذلك، فإنه سبحانه جعل التسريح بإحسان عند بلوغ الأجل، ومعلوم أن هذا الترك ثابت من أول المدة، فالصواب أن التسريح إرسالها إلى أهلها بعد بلوغ الأجل، ورفع يده عنها، فإنه كان يملك حبسها مدة العدة، فإذا بلغت أجلها فحيثن إن أمسكها كان له حبسها، وإن لم يُمسكها كان عليه أن يُسرحها بإحسان، ويدل على هذا قوله تعالى في المطلقة قبل المسيس: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدُوٍّ فَعَدُوْنَهَا فَتَيَمُّوهُنَّ وَيَتَزَوَّجُوهُنَّ سَرَكَأَ جَيْلًا﴾ [الأحراب: ٤٩]، فأمر بالسراح الجميل ولا عدة، فَعَلِمَ أن تخلية سبيلها إرسالها، كما يقال: سَرَحَ الماء والناقة: إذا مكنها من الذهاب، وبهذا الإطلاق والسراح يكون قد تم تطلقها وتخليتها، وقبل ذلك لم يكن الإطلاق تاماً، وقبل ذلك كان له أن يُمسكها وأن يُسرحها، وكان مع كونه مطلقاً، قد جعل أحقَّ بها من غيره مدة التربعص، وجعل التربعص ثلاثة قروء لأجله، ويؤيد هذا أشياء:

أحدها: أن الشارع جعل عدة المختلعة حيضة، كما ثبتت به السنة، وأقرَّ به عثمان بن عفان، وابن عباس، وابن عمر رضي الله عنهم، وحكاها أبو جعفر النحاس في «ناسخه ومنسوخه» إجماع الصحابة، وهو مذهب إسحاق، وأحمد بن حنبل في أصح الروايتين عنه دليلاً، كما سيأتي تقرير المسألة عن قرب إن شاء الله تعالى. فلما لم يكن على المختلعة رجعة، لم يكن عليها عدة، بل استبراء بحيضة، لأنها لما افتدت منه، ويانت، ملكت نفسها، فلم يكن أحقَّ بإمساكها، فلا معنى لتطويل العدة عليها، بل المقصود العلم ببراءة رحمها، فيكفي مجرد الاستبراء.

والثاني: أن المهاجرة من دار الحرب قد جاءت السنة بأنها إنما تُستبرأ بحيضة، ثم تزوج كما سيأتي.

الثالث: أن الله سبحانه لم يشرع لها طلاقاً بانئاً بعد الدخول إلا الثالثة، وكل طلاق في القرآن سواها فرجعي، وهو سبحانه إنما ذكر القروء الثلاثة في هذا الطلاق الذي شرعه لهذه الحكمة. وأما المفتدية، فليس افتداؤها طلاقاً، بل خلعاً غير

محسوب من الثلاث، والمشروع فيه حيضة .

فإن قيل : فهذا ينتقض عليكم بصورتين :

إحداهما : بمن استوفت عدد طلاقها، فإنها تعتد ثلاثة قروء، ولا يتمكن زوجها من رجعتها .

الثانية : بالمخيرة إذا عتقت تحت حر أو عبد، فإن عدتها ثلاثة قروء بالسنة، كما في «السنن» من حديث عائشة رضي الله عنها : أُمِرَتْ بِريرة أن تعتد عدة الحرة [أحمد : ٣٤٠٥، وأبو داود : ٢٢٣٢، ورجاله ثقات] .

وفي «سنن ابن ماجه» : أُمِرَتْ أن تعتد ثلاث حيض [صحيح : ابن ماجه : ٢٠٧٧] ولا رجعة لزوجها عليها .

(الحكمة من بقاء المبتوتة في بيت الزوج في العدة

ومذهب ابن اللبان في عدة المبتوتة التي من ذوات الحيض

والقيسة والصغيرة)

فالجواب : أن الطلاق المحرم للزوجة يجب فيه التبرص لأجل رجعة الزوج، بل جُمِلَ حريماً للنكاح، وعقوبة للزوج بتطويل مدة تحريمها عليه، فإنه لو سوغ لها أن تتزوج بعد مجرد الاستبراء بحيضة، لأمكن أن يتزوجها الثاني ويُطلقها بسرعة، إما على قصد التحليل أو بدونه، فكان تيسير عودها إلى المطلق، والشارع حرّمها عليه بعد الثالثة عقوبة له، لأن الطلاق الذي هو أبغض الحلال إلى الله، إنما أباح منه قدر الحاجة، وهو الثلاث، وحرّم المرأة بعد الثالثة حتى تنكح زوجاً غيره، وكان من تمام الحكمة أنها لا تنكح حتى تبرص ثلاثة قروء، وهذا لا ضررَ عليها به، فإنها في كل مرة من الطلاق لا تنكح حتى تبرص ثلاثة قروء، فكان التبرص هناك نظراً في مصلحته، لما لم يُوقع الثلاث المحرمة، وهنا التبرص بالثلاث من تمام عقوبته، فإنه عوقِبَ بثلاثة أشياء : أن حرمت عليه حبيته، وجعل تبرصها ثلاثة قروء، ولم يجز أن تعود إليه حتى يحظى بها غيره حظوة الزوج الراغب بزوجه المرغوب فيها، وفي كل من ذلك عقوبة مؤلمة على إيقاع البغيض إلى الله

المكروه له، فإذا عَلِمَ أنه بعد الثالثة لا تجل له إلا بعد تبرص، وتزوج بزوج آخر، وأن الأمر بيد ذلك الزوج، ولا بد أن تذوق غسيلته، ويدوق غسيلتها، عَلِمَ أن المقصود أن يئأس منها، فلا تعود إليه إلا باختيارها لا باختياره، ومعلوم أن الزوج الثاني إذا كان قد نكح نكاح رغبة وهو النكاح الذي شرعه الله لعباده، وجعله سبباً لمصالحهم في المعاش والمعاد، وسبباً لحصول الرحمة والوداد، فإنه لا يُطلقها لأجل الأول، بل يُسبكُ امرأته، فلا يصير لأحد من الناس اختياراً في عودها إليه، فإذا اتفق فراق الثاني لها بموت أو طلاق، كما يفترق الزوجان اللذان هما زوجان، أبيح للمطلق الأول نكاحها، كما يُباح للرجل نكاح مطلقة الرجل ابتداءً، وهذا أمر لم يُحرّمه الله سبحانه في الشريعة الكاملة المهيمنة على جميع الشرائع، بخلاف الشريعتين قبلنا، فإنه في شريعة التّوّاة قد قيل : إنها متى تزوّجت بزوج آخر لم تجلّ للأول أبداً . وفي شريعة الإنجيل، قد قيل : إنه ليس له أن يطلقها البتة، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الفاضلة على أكمل الوجوه وأحسنها وأصلحها للخلق، ولهذا لما كان التحليل مباحاً للشرائع كلّها، والعقل والفطرة، ثبت عن النبي ﷺ : لَعَنَ الْمُحْلِلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ . ولعنه ﷺ لهما، إما خَبَرٌ عن الله تعالى بوقوع لعنته عليهما، أو دعاء عليهما بالعنة، وهذا يدل على تحريمه، وأنه من الكبائر . والمقصود : أن إيجاب القروء الثلاث في هذا الطلاق من تمام تأكيد تحريمها على الأول، على أنه ليس في المسألة إجماع، فذهب ابن اللبان الفُرْضي^(١) صاحب «الإيجاز» وغيره، إلى أن المطلقة ثلاثاً ليس عليها غير استبراء بحيضة، ذكره عنه أبو الحسين بن القاضى أبي يعلى، فقال : مسألة : إذا طلق الرجل امرأته ثلاثاً بعد الدخول، فعدتها ثلاثة أقراء إن كانت من ذوات الأقراء، وقال ابن اللبان : عليها الاستبراء بحيضة، دليلنا قوله تعالى : ﴿وَالطَّلَقُ تَبْرُءٌ فَإِنَّهُمْ لَكَ لِلْفَرْجِ عَرَبٌ﴾ [البقرة : ٢٢٨]، ولم يقف شيخ الإسلام على هذا القول، وعلق تسويغه على ثبوت الخلاف، فقال : إن كان فيه نزاع

(١) هو محمد بن عبد الله بن الحسن البصري بن اللبان الفُرْضي الشافعي المتوفى (٤٠٢هـ) . مترجم في «سير أعلام النبلاء»

(١٧/٦٥٣)، وتاريخ بغداد (٥/٤٧٢) .

والمهاجرة، والمختلعة والزانية على أصح القولين
فيهما دليلاً، وهما روايتان عن أحمد.

فصل

(الفرق بين عدة الرجعية والبانن)

ومما يُبين الفرق بين عدة الرجعية والبانن، أن عدة
الرجعية لأجل الزوج وللمرأة فيها النفقة والسكنى
باتفاق المسلمين، ولكن سُكناها، هل هي سكنى
الزوجة، فيجوز أن يُنْقَلَهَا المطلق حيث شاء، أم
يتعين عليها المنزل، فلا تُخْرَج ولا تُخْرَجُ؟ فيه
قولان: وهذا الثاني، هو المنصوص عن أحمد،
وأبي حنيفة، وعليه يدل القرآن. والأول: قول
الشافعي، وهو قول بعض أصحاب أحمد.

والصواب: ما جاء به القرآن، فإن سُكنى الرجعية
من جنس سكنى المتوفى عنها، ولو تراضيا بإسقاطها
لم يجز، كما أن العدة فيها كذلك بخلاف البانن،
فإنها لا سُكنى لها، ولا عليها، فالزوج له أن
يُخرجها، ولها أن تخرج، كما قال النبي ﷺ لفاطمة
بنت قيس: «لَا نَفَقَةَ لَكَ وَلَا سُكْنَى».

(هل الرجعة حق للزوج)

وأما الرجعة: فهل هي حق للزوج يملك إسقاطها
بأن يطلقها واحدة بائنة، أم هي حق لله فلا يملك
إسقاطها؟ ولو قال: أنت طالق طلقة بائنة، وقعت
رجعية، أم هي حق لهما فإن تراضيا بالخُلْع بلا
عوض، وقع طلاقاً بائناً، ولا رجعة فيه؟ فيه ثلاثة
أقوال:

فالأول: مذهب أبي حنيفة، وإحدى الروايات عن
أحمد.

والثاني: مذهب الشافعي، والرواية الثانية عن
أحمد.

والثالث: مذهب مالك، والرواية الثالثة عن
أحمد.

والصواب: أن الرجعة حق لله تعالى ليس لهما أن
يَتَّفَقَا على إسقاطها، وليس له أن يُطْلَقَهَا طلقة بائنة،
ولو رضيت الزوجة، كما أنه ليس لهما أن يتراضيا
بفسخ النكاح بلا عوض بالاتفاق.

كان القول بأنه ليس عليها، ولا على المعتقة المخيرة
إلا الاستبراء قولاً متوجهاً، ثم قال: ولازم هذا
القول: أن الأيسة لا تحتاج إلى عدة بعد الطلقة
الثالثة. قال: وهذا لا نعلم أحداً قاله.

وقد ذكر الخلاف أبو الحسين، فقال: مسألة: إذا
طَلَّقَ الرجلُ زوجته ثلاثاً، وكانت ممن لا تحيضُ
لِصْفَرٍ أو هَرَمٍ، فعدتها ثلاثة أشهر خلافاً لابن اللبان
أنه لا عدة عليها، دليلنا: قوله تعالى: ﴿وَأَلَّتِي يَتَنَزَّاهُ
مِنَ الْحَيْضِ مِنْ نِكَاحٍ إِنْ أَرْتَنَنْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ
وَأَلَّتِي لَمْ يَحِضْ﴾ [الطلاق: ٤].

(عدة الفسخ والخلع)

قال شيخنا: وإذا مضت السنة بأن على هذه ثلاثة
أقراء، لم يجز مخالفتها، ولو لم يجمع عليها، فكيف
إذا كان مع السنة إجماع؟ قال: وقوله ﷺ لفاطمة بنت
قيس: «اعْتَدِي»، قد فهم منه العلماء أنها تعدت ثلاثة
قروء، فإن الاستبراء قد يُسمى عدة. قلت: كما في
حديث أبي سعيد في سبأيا أوطاس: أنه فسر قوله
تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٢٤] بالسبأيا،
ثم قال: أي: فهن لكم حلال إذا انقضت عدتهن،
فجعل الاستبراء عدة. قال: فأما حديث عائشة
رضي الله عنها: أُمِرَتْ بريرة أن تعدت ثلاث حيض،
فحديث منكر. فإن مذهب عائشة رضي الله عنها أن
الأقراء الأطهار. قلت: ومن جعل أن عدة المختلعة
حيضة، فبطريق الأولى تكون عدة الفسوخ كلها عنده
حيضة، لأن الخلع الذي هو شقيق الطلاق، وأشبهُ به
لا يجب فيه الاعتدادُ عنده بثلاثة قروء، فالفسخ
أولى، وأخرى من وجوه:

أحدها: أن كثيراً من الفقهاء يجعل الخلع طلاقاً
ينقص به عدده، بخلاف الفسخ لِرِضَاعٍ ونحوه.

الثاني: أن أبا ثور ومن وافقه يقولون: إن الزوج
إذا رد العوض، ورضيت المرأة برده، وراجعها،
فلهما ذلك بخلاف الفسخ.

الثالث: أن الخُلْعَ يُمكن فيه رجوع المرأة إلى
زوجها في عدتها بعقد جديد، بخلاف الفسخ لِرِضَاعٍ
أو عَدَدٍ، أو محرمة حيث لا يُمكن عودها إليه،
فهذه بطريق الأولى يكفيها استبراء بحيضة، ويكون
المقصود مجرد العلم ببرائة رحمها، كالمسبية

إليه في الطلاق والرجعة، فكما لا يكون الطلاق بيدها لا تكون الرجعة بيدها، فإن شئت راجعته، وإن شئت فلا، فتبقى الرجعة موقوفة على اختيارها، وإذا كان لا يملك الطلاق البائن، فلان لا يملك الطلاق المحرم ابتداءً أولى وأحرى، لأن الندم في الطلاق المحرم أقوى منه في البائن. فمن قال: إنه لا يملك الإبانة، ولو أتى بها لم تبئن، كما هو قول فقهاء الحديث، لزمه أن يقول: إنه لا يملك الثلاث المحرمة ابتداءً بطريق الأولى والأحرى، وأن له رجعتها، وإن أوقعها، كان له رجعتها، وإن قال: أنت طالق واحدة بائنة، فإذا كان لا يملك إسقاط الرجعة، فكيف يملك إثبات التحريم الذي لا تعود بعده إلا بزواج وإصابة؟

فإن قيل: فلازم هذا أنه لا يملكه ولو بعد اثنتين، قلنا: ليس ذلك بلازم، فإن الله سبحانه ملكه الطلاق على وجه معين، وهو أن يطلق واحدة، ويكون أحق برجعتها ما لم تنقض عدتها، ثم إن شاء طلق الثانية كذلك، ويبقى له واحدة، وأخبر أنه إن أوقعها حرمت عليه، ولا تعود إليه إلا أن تتزوج غيره، ويصحبها ويُفارقها، فهذا هو الذي ملكه إياه، لم يملكه أن يحرمها ابتداءً تحريماً تاماً من غير تقديم تطليقتين. وبالله التوفيق.

فصل

(عدة المختلعة)

قد ذكرنا حكم رسول الله ﷺ في المختلعة أنها تعتد بحیضة، وأن هذا مذهب عثمان بن عفان، وابن عباس، وإسحاق بن راهويه، وأحمد بن حنبل في إحدى الروايتين عنه، اختارها شيخنا. ونحن نذكر الأحاديث بذلك بإسنادها.

قال النسائي في «سننه الكبير»: باب في عدة المختلعة. أخبرني أبو علي محمد بن يحيى المروزي، حدثنا شاذان عبد العزيز بن عثمان أخو عبدان، حدثنا أبي، حدثنا علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير، قال: أخبرني محمد بن عبد الرحمن، أن ربيع بنت معوذ بن عقراء، أخبرته أن ثابت بن قيس بن شماس ضرب امرأته، فكسر

فإن قيل: فكيف يجوز الخلع بغير عوض في أحد القولين في مذهب مالك وأحمد، وهل هذا إلا اتفاق من الزوجين على فسخ النكاح بغير عوض؟ قيل: إنما يجوز أحمد في إحدى الروايتين الخلع بلا عوض إذا كان طلاقاً، فأما إذا كان فسخاً، فلا يجوز بالاتفاق، قاله شيخنا رحمه الله. قال: ولو جاز هذا لجاز أن يتفقا على أن يبينها مرة بعد مرة من غير أن ينقص عدد الطلاق، ويكون الأمر إليهما إذا أرادا أن يجعلا الفرق بين الثلاث جعلها، وإن أرادا، لم يجعلها من الثلاث، ويلزم من هذا إذا قالت: فادني بلا طلاق، أن يبينها بلا طلاق، ويكون مخيراً إذا سأله إن شاء أن يجعله رجعيًا، وإن شاء أن يجعله بائنًا، وهذا ممتنع، فإن مضمونه أنه يُخير، إن شاء أن يحرمها بعد المرة الثالثة، وإن شاء لم يحرمها، ويمتنع أن يخير الرجل بين أن يجعل الشيء حلالاً، وأن يجعله حراماً، ولكن إنما يُخير بين مباحين له، وله أن يباشر أسباب الحمل وأسباب التحريم، وليس له إنشاء نفس التحليل والتحريم. والله سبحانه إنما شرع له الطلاق واحدة بعد واحدة، ولم يشرع له إيقاعه مرة واحدة، لثلاث يندم، وتزول نزع الشيطان التي حملته على الطلاق، فتتبع نفسه المرأة، فلا يجد إليها سبيلاً، فلو ملكه الشارع أن يطلقها طلاقاً بائنًا ابتداءً، لكان هذا المحذور بعينه موجوداً، والشرعة المشتملة على مصالح العباد تآبى ذلك، فإنه يبقى الأمر بيدها إن شاءت راجعته، وإن شاءت فلا، والله سبحانه جعل الطلاق بيد الزوج لا بيد المرأة رحمةً منه وإحساناً، ومراعاةً لمصلحة الزوجين.

نعم له أن يملكها أمرها باختياره، فيخيرها بين القيام معه وفراقها. وأما أن يخرج الأمر عن يد الزوج بالكلية إليها، فهذا لا يمكن فليس له أن يسقط حقه من الرجعة، ولا يملك ذلك، فإن الشارع إنما يملك العبد ما ينفعه ملكه، ولا يتضرر به، ولهذا لم يملكه أكثر من ثلاث، ولا ملكه جمع الثلاث، ولا ملكه الطلاق في زمن الحيض، والطهر المواقف فيه، ولا ملكه نكاح أكثر من أربع، ولا ملك المرأة الطلاق، وقد نهى سبحانه الرجال أن يؤثروا النساء أموالهم التي جعل الله لهم قياماً، فكيف يجعلون أمر الأيضاح

يدها وهي جميلة بنت عبد الله بن أبي، فجاء أخوها يشتكيه إلى رسول الله ﷺ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى ثابت، فقال: «خُذ الذي لها عليك، وخلّ سبيلها» فقال: نعم، فأمرها رسول الله ﷺ أن تترى حية واحدة، وتلحق بأهلها [النسائي في «المجتبى» (٦/١٨٦)، وسنده حسن].

أخبرنا عبيد الله بن سعد بن إبراهيم بن سعد، قال: حدثني عمي، قال: أخبرنا أبي، عن ابن إسحاق، قال: حدثني عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت، عن ربيع بنت معوذ، قال: قلت لها: حدثيني حديثك، قالت: اختلعت من زوجي، ثم جئت عثمان، فسألت ماذا عليّ من العدة، قال: لا عدة عليك إلا أن يكون حديث عهد بك فتمكثين حتى تحيض حيضة. قالت: وإنما تبّع في ذلك قضاء رسول الله ﷺ في مريم المصاليّة، كانت تحت ثابت ابن قيس بن شماس، فاختلعت منه [النسائي (٦/١٨٦) - (١٨٧)، وابن ماجه: ٢٠٥٨، وسنده قوي].

وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه، أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت منه، فجعل رسول الله ﷺ عدتها حيضة. رواه أبو داود عن محمد بن عبد الرحيم البزاز، عن علي بن بحر القطان، عن هشام بن يوسف، عن معمر، عن عمرو بن مسلم، عن عكرمة [حسن: أبو داود: ٢٢٢٩، والترمذي: ١١٨٥، والبيهقي (٧/٤٥٠)]. ورواه الترمذي: عن محمد بن عبد الرحيم بهذا السند بعينه. وقال: حديث حسن غريب.

وهذا كما أنه موجب السنة وقضاء رسول الله ﷺ، وموافق لأقوال الصحابة، فهو مقتضى القياس، فإنه استبراء لمجرد العلم ببراءة الرحم، فكفت فيه حيضة، كالمسبية والأمة المستبرأة، والحرّة، والمهاجرة، والزانية إذا أرادت أن تنكح.

وقد تقدم أن الشارع من تمام حكمته جعل عدة الرجعية ثلاثة قروء لمصلحة المطلق والمرأة؛ ليطول زمان الرجعة، وقد تقدم النص على هذه الحكمة، والجواب عنه.

ذكر

حكم رسول الله ﷺ باعتداد المتوفى عنها في منزلها الذي توفي زوجها وهي فيه وأنه غير مخالف لحكمه بخروج المبتوتة

واعتادها حيث شاءت

ثبت في «السنن»: عن زينب بنت كعب بن عجرة، عن الفريرة بنت مالك أخت أبي سعيد الخدري: أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله أن ترجع إلى أهلها في بني خُدرة، فإن زوجها خرج في طلب أغبيد له أبغوا، حتى إذا كانوا بطرف القُدوم، لحقهم فقتلوه، فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلي، فأني لم يتركني في مسكن يملكه ولا نفقة، فقال رسول الله ﷺ: «نعم» فخرجت حتى إذا كنت في الحجرة أو في المسجد، دعاني أو أمرني فديعت له، فقال: «كيف قلت؟» فرددت عليه القصة التي ذكرت من شأن زوجي، قالت: فقال: «أمكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله»، قالت: فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرًا، قالت: فلما كان عثمان، أرسل إليّ فسألني عن ذلك، فأخبرته، ف قضى به، وأتبعه [صحيح: مالك (٢/٥٩١)، وأحمد: ٢٧٠٨٧، وأبو داود: ٢٣٠٠، والترمذي: ١٢٠٤، وابن ماجه: ٢٠٣١].

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقال أبو عمرو بن عبد البر: هذا حديث مشهور معروف عند علماء الحجاز والعراق. وقال أبو محمد بن حزم: هذا الحديث لا يثبت، فإن زينب هذه مجهولة، لم يرو حديثها غير سعد بن كعب وهو غير مشهور بالعدالة، ومالك رحمه الله وغيره يقول فيه: سعد بن إسحاق، وسفيان يقول: سعيد. وما قاله أبو محمد غير صحيح، فالحديث حديث صحيح مشهور في الحجاز والعراق، وأدخله مالك في «موطئه»، واحتج به، وبنى عليه مذهبه.

وأما قوله: إن زينب بنت كعب مجهولة، فنعم مجهولة عنده، فكان ماذا؟ وزينب هذه من التابعيات، وهي امرأة أبي سعيد، روى عنها سعد بن إسحاق بن كعب، وليس بسعيد، وقد ذكرها ابن حبان في كتاب الثقات. والذي غرأ أبو محمد قول علي بن المديني:

لم يرو عنها غير سعد بن إسحاق وقد رويها في «مسند الإمام أحمد»: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثني عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر بن حزم، عن سليمان بن محمد بن كعب بن عُجرة، عن عمته زينب بنت كعب بن عُجرة وكانت عند أبي سعيد الخُدري، عن أبي سعيد، قال: اشتكى الناس علياً رضي الله عنه، فقام النبي ﷺ خطيباً، فسمعه يقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَشْكُرُوا عَلِيًّا، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ لَأَخْسَنُ فِي ذَاتِ اللَّهِ أَوْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» [صحيح: أحمد: ١١٨١٧]، فهذه امرأة تابعة كانت تحت صحابي، وروى عنها الثقات، ولم يُطعن فيها بحرف، واحتج الأئمة بحديثها وصححوه.

وأما قوله: إن سعد بن إسحاق غير مشهور بالعدالة، فقد قال إسحاق بن منصور، عن يحيى بن معين: ثقة. وقال النسائي أيضاً، والدارقطني أيضاً: ثقة. وقال أبو حاتم: صالح، وذكره ابن حبان في كتاب الثقات، وقد روى عنه الناس: حماد بن زيد، وسفيان الثوري، وعبد العزيز الدراودي، وابن جريج، ومالك بن أنس، ويحيى بن سعيد الأنصاري، والزهري، وهو أكبر منه، وحاتم بن إسماعيل وداد بن قيس، وخلق سواهم من الأئمة، ولم يُعلم فيه قبح ولا جرح البتة، ومثل هذا يُحتج به اتفاقاً.

(اختلاف الفقهاء في هذه المسألة)

ومن أفتى بخروج المتوفى عنها زوجها ومن قال،

تعتد حيث شاءت)

وقد اختلف الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم في حكم هذه المسألة، فروى عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن عروة بن الزبير، عن عائشة رضي الله عنها: أنها كانت تُفتي المتوفى عنها بالخروج في عدتها، وخرجت بأختها أم كلثوم حين قُتل عنها طلحة بن عبيد الله إلى مكة في عمرة [عبد الرزاق: ١٢٠٥٤].

ومن طريق عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج،

أخبرني عطاء، عن ابن عباس أنه قال: إنما قال الله عز وجل: تعتد أربعة أشهر وعشراً، ولم يقل: تعتد في بيتها، فتعتد حيث شاءت [عبد الرزاق: ١٢٠٥١] وهذا الحديث سمعه عطاء من ابن عباس، فإن علي بن المدني قال: حدثنا سفيان بن عيينة، عن ابن جريج، عن عطاء، قال: سمعت ابن عباس يقول: قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، ولم يقل: يَتَرَبَّصْنَ فِي بَيْتِهِنَّ، تعتد حيث شاءت. قال سفيان: قاله لنا ابن جريج كما أخبرنا.

وقال عبد الرزاق: حدثنا ابن جريج، أخبرني أبو الزبير، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: تعتد المتوفى عنها حيث شاءت [عبد الرزاق: ١٢٠٥٩].

وقال عبد الرزاق عن الثوري، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان يُرْحَلُ المتوفى عنهن في عدتهن [عبد الرزاق: ١٢٠٥٦].

وذكر عبد الرزاق أيضاً، عن محمد بن مسلم، عن عمرو بن دينار، عن طاروس وعطاء، قالاً جميعاً: الميتة والمتوفى عنها تُحْجَّانِ وتعتَمِرَانِ، وتنتقلان وتبتنان [عبد الرزاق: ١٢٠٦٠].

وذكر أيضاً عن ابن جريج، عن عطاء قال: لَا يَصْرُ المتوفى عنها أين اعتدت [عبد الرزاق: ١٢٠٥٠].

وقال ابن عيينة: عن عمرو بن دينار، عن عطاء وأبي الشعثاء، قالاً جميعاً: المتوفى عنها تخرج في عدتها حيث شاءت [«المعلی» (١٠/٢٨٥)].

وذكر ابن أبي شيبه، حدثنا عبد الوهاب الثقفي، عن حبيب المعلم، قال: سألت عطاء عن المطلقة ثلاثاً، والمتوفى عنها، أَمْحَجَانِ في عدتهما؟ قال: نعم^(١). وكان الحسن يقول بمثل ذلك.

وقال ابن وهب: أخبرني ابن لهيعة، عن حنين بن أبي حكيم، أن امرأة مُزاحم لما توفي عنها زوجها بخنصرة، سألت عمر بن عبد العزيز: أَمْكث حتى

تَنْقُضِي عِدَّتِي؟ فَقَالَ لَهَا: بَلِ الْحَقِّي بِقِرَارِكَ وَدَارِ أَيْبِكَ، فَاعْتَدِي فِيهَا^(١).

قال ابن وهب: وأخبرني يحيى بن أيوب، عن يحيى بن سعيد الأنصاري: أنه قال في رجل توفي بالإسكندرية ومعه امرأته، وله بها دار، وله بالفسطاط دار، فقال: إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ تَعْتَدَ حَيْثُ تُوْفِّي زَوْجَهَا فَلْتَعْتَدِ، وَإِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى دَارِ زَوْجَهَا وَقَرَارِهِ بِالْفُسْطَاطِ، فَتَعْتَدِ فِيهَا فَلْتَرْجِعِ^(٢).

قال ابن وهب: وأخبرني عمرو بن الحارث، عن بكير بن الأشج، قال: سألت سالم بن عبد الله بن عمر عن المرأة يخرج بها زوجها إلى بلد فيتوفى؟ قال: تعتد حيث توفي عنها زوجها، أو ترجع إلى بيت زوجها حتى تنقضي عدتها^(٣). وهذا مذنب أهل الظاهر كلهم.

ولأصحاب هذا القول حجتان، احتج بهما ابن عباس، وقد حكينا إحداهما، وهي: أن الله سبحانه إنما أمرها باعتداد أربعة أشهر وعشر، ولم يأمرها بمكان معين.

والثانية: ما رواه أبو داود: حدثنا أحمد بن محمد المروزي، حدثنا موسى بن مسعود، حدثنا شبيل، عن ابن أبي نجيج، قال: قال عطاء: قال ابن عباس: نسخت هذه الآية عدتها عند أهلها، فتعتد حيث شئت، وهو قول الله عز وجل ﴿عَبْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠] قال عطاء: إن شاءت اعتدت عند أهله، وسكنت في وصيتها، وإن شاءت خرجت لقول الله عز وجل: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]، قال عطاء: ثم جاء الميراث، فنسخ السكنى، تعتد حيث شئت [أبو داود: ٢٣٠١، والنسائي (٢٠٠/٦)].

(من قال تعتد في منزلها التي توفي زوجها وهي فيه) وقالت طائفة ثانية من الصحابة والتابعين ومن

بعدهم: تعتد في منزلها التي توفي زوجها وهي فيه، قال وكيع: حدثنا الثوري، عن منصور، عن مجاهد، عن سعيد بن المسيب: أن عمر رد نسوة من ذي الحليفة حاجات أو معتمرات توفي عنهن أزواجهن^(٤).

وقال عبد الرزاق: حدثنا ابن جريج، أخبرنا حميد الأعرج، عن مجاهد قال: كان عمر وعثمان يرجعانهن حاجات ومعتمرات من الجحفة وذوي الحليفة [المصنف: ١٤٠٧].

وذكر عبد الرزاق، عن معمر، عن أيوب، عن يوسف بن ماهك، عن أمه مسيكة: أن امرأة متوفى عنها زارت أهلها في عدتها، فضر بها الطلق، فأتوا عثمان، فقال: أحملوها إلى بيتها وهي تطلق [عبد الرزاق: ١٢٠٦٧، وابن حزم (٢٨٦/١٠)].

وذكر أيضاً عن معمر، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر: أنه كانت له ابنة تعتد من وفاة زوجها، وكانت تأتيهم بالنهار، فتتحدث إليهم، فإذا كان الليل، أمرها أن ترجع إلى بيتها [عبد الرزاق: ١٢٠٦٤].

وقال ابن أبي شيبة: حدثنا وكيع، عن علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير، عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان: أن عمر رخص للمتوفى عنها أن تأتي أهلها بياض يومها، وأن زيد بن ثابت لم يرخص لها إلا في بياض يومها أو ليلها^(٥).

وذكر عبد الرزاق عن سفيان الثوري، عن منصور بن المعتمر، عن إبراهيم النخعي، عن علقمة، قال: سأل ابن مسعود نساء من همدان نعي إليهن أزواجهن، فقلن: إنا نستوحش، فقال ابن مسعود: تجتمعن بالنهار، ثم ترجع كل امرأة منكن إلى بيتها بالليل [عبد الرزاق: ١٢٠٦٨].

وذكر الحجاج بن المنهال، حدثنا أبو عوانة، عن

(١) رجاله ثقات، وخاتمة بليدة من أعمال حلب تعادي قسرين نحو البادية، وذكرها المتنبى فقال:

أحب جمصاً إلى خناصرة
وكل نفس تحب محياها

(٢) رجاله ثقات.

(٣) رجاله ثقات.

(٤) رجاله ثقات.

(٥) رجاله ثقات.

منصور، عن إبراهيم: أن امرأة بعثت إلى أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها: إن أبي مريض، وأنا في عدة، أفأتيه أمرضه؟ قالت: نعم ولكن بيتي أحد طرفي الليل في بيتك [عبد الرزاق: ١٢٠٧٠].

وقال سعيد بن منصور: حدثنا هُشيم، أنبأنا إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، أنه سُئِلَ عن المتوفى عنها: أتخرج في عدتها؟ فقال: كان أكثر أصحاب ابن مسعود أشد شيء في ذلك، يقولون: لا تخرج، وكان الشيخ - يعني علي بن أبي طالب رضي الله عنه - يُرحلها^(١).

وقال حماد بن سلمة: أخبرنا هشام بن غروة، أن أباه قال: المتوفى عنها زوجها تعتد في بيتها إلا أن يتوي أهلها فتتوي معهم [عبد الرزاق: ١٢٠٧٩].

وقال سعيد بن منصور: حدثنا هُشيم، أخبرنا يحيى بن سعيد هو الأنصاري أن القاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله، وسعيد بن المسيب قالوا في المتوفى عنها: لا تبرح حتى تنقضي عدتها.

وذكر أيضاً عن ابن عُيينة، عن عمرو بن دينار، عن عطاء وجابر، كلاهما قال في المتوفى عنها: لا تخرج.

وذكر وكيع، عن الحسن بن صالح، عن المغيرة، عن إبراهيم في المتوفى عنها: لا بأس أن تخرج بالنهار، ولا تبيت عن بيتها.

وذكر حماد بن زيد، عن أيوب السخيتاني، عن محمد بن سيرين: أن امرأة تُوفي عنها زوجها وهي مريضة، فنقلها أهلها، ثم سألوا، فكلهم يأمرهم أن تُرد إلى بيت زوجها، قال ابن سيرين: فردناها في نَمَط. وهذا قول الإمام أحمد، ومالك، والشافعي، وأبي حنيفة رحمهم الله، وأصحابهم، والأوزاعي، وأبي عُبيد، وإسحاق.

قال أبو عمر بن عبد البر: وبه يقول جماعة فقهاء الأمصار بالحجاز، والشام، والعراق، ومصر.

وحجة هؤلاء حديث الفريعة بنت مالك، وقد تلقاه عثمان بن عفان رضي الله عنه بالقبول، وقضى به بمحضر المهاجرين والأنصار، وتلقاه أهل المدينة

والحجاز، والشام، والعراق، ومصر بالقبول، ولم يُعْلَم أن أحداً منهم طعن فيه، ولا في رواته، وهذا مالك مع تحريه وتشدُّد في الرواية، وقوله للسائل له عن رجل: أفقة هو؟ فقال: لو كان ثقة لرأيت في كتيبي، قد أدخله في «موطئه»، وبني عليه مذهبه.

قالوا: ونحن لا نُنكر النزاع بين السلف في المسألة، ولكن السنة تفصل بين المتنازعين. قال أبو عمر بن عبد البر: أما السنة، فتأبى بحمد الله. وأما الإجماع، فسمتغنى عنه مع السنة، لأن الاختلاف إذا نزل في مسألة كانت الحجة في قول من وافقته السنة.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، قال: أخذ المترخصون في المتوفى عنها بقول عائشة رضي الله عنها، وأخذ أهل العزم والورع بقول ابن عمر [عبد الرزاق: ١٢٠٨٠].

(هل ملازمة المنزل حق على المعتدة أو حق لها)

فإن قيل: فهل ملازمة المنزل حقٌ عليها، أو حق لها؟ قيل: بل هو حقٌ عليها إذا تركه لها الورثة، ولم يكن عليها فيه ضررٌ أو كان المسكن لها، فلو حوّلها الورث، أو طلبوا منها الأجرة، لم يلزمها السكن، وجاز لها التحول.

ثم اختلف أصحاب هذا القول: هل لها أن تتحول حيث شاءت، أو يلزمها التحول إلى أقرب المساكن إلى مسكن الوفاة؟ على قولين. فإن خافت هداماً أو غرقاً، أو عدواً أو نحو ذلك، أو حوّلها صاحب المنزل لكونه عارية رجع فيها، أو بإجارة انقضت مدتها، أو منعها السكنى تعدياً، أو امتنع من إيجارته، أو طلب به أكثر من أجر المثل، أو لم تجد ما تكتري به، أو لم تجد إلا من مالها فلها أن تنتقل، لأنها حالٌ عذر، ولا يلزمها بذل أجر المسكن، وإنما الواجب عليها فعل السكنى لا تحصيل المسكن، وإذا تعذرت السكنى سقطت، وهذا قول أحمد والشافعي.

(هل الإسكان حق على الورثة يقدم على الغرماء؟)

فإن قيل: فهل الإسكان حقٌ على الورثة تُقدَّم الزوجة به على الغرماء، وعلى الميراث، أم لا حق لها في التركة سوى الميراث؟ قيل:

وأما مذهب الشافعي: فإن له في سُكْنَى المتوفى عنها قولين، أحدهما: لها السُكْنَى حاملاً كانت أو حائلاً. والثاني: لا سُكْنَى لها حاملاً كانت أو حائلاً. ويجب عنده ملازمتها للمسكن في العدة بئناً كانت أو متوفى عنها، وملازمة البائن للمنزل عنده أكَّد من ملازمة المتوفى عنها، فإنه يجوز للمتوفى عنها الخروجُ نهاراً لقضاء حوائجها، ولا يجوزُ ذلك في البائن في أحد قوليه وهو القديم، ولا يُوجبُه في الرجعية بل يستحبُه.

وأما أحمد، فعنده ملازمة المتوفى عنها أكَّد من الرجعية، ولا يُوجبُه في البائن. وأورد أصحاب الشافعي رحمه الله على نفيه بوجوب ملازمة المنزل على المتوفى عنها مع نفيه في أحد القولين، على أنه لا سُكْنَى لها سؤلاً، وقالوا: كيف يجتمع النِّصَّان، وأجابوا بجوابين: أحدهما: أنه لا تجبُ عليها ملازمة المسكن على ذلك القول، لكن لو ألزم الوارثُ أجره المسكن، وجبت عليها الملازمة حينئذ، وأطلق أكثر أصحابه الجواب هكذا.

والثاني: أن ملازمة المنزل واجبة عليها ما لم يكن عليها فيه ضرر بأن تُطالب بالأجرة، أو يُخرجها الوارث، أو المالك، فتسقط حينئذ. وأما أصحاب أبي حنيفة، فقالوا: لا يجوزُ للمطلقة الرجعية، ولا للبائن الخروجُ من بيتها ليلاً ولا نهاراً، وأما المتوفى عنها، فتخرج نهاراً وبعض الليل، ولكن لا تبيتُ إلا في منزلها، قالوا: والفرقُ أن المطلقة نفقتُها في مال زوجها فلا يجوزُ لها الخروجُ كالزوجة، بخلاف المتوفى عنها فإنها لا تَفَقُّ لها، فلا بد أن تُخرَجَ بالنهار لإصلاح حالها، قالوا: وعليها أن تعتد في المنزل الذي يُصاف إليها بالسكنى حال وقوع الفِرقة، قالوا: فإن كان نصيبُها من دار الميت لا يكفيها، أو أخرجها الورثة من نصيبهم انتقلت، لأن هذا عذر، والكونُ في بيتها عبادة، والعبادة تسقط بالعذر قالوا: فإن عجزت عن كراء البيت الذي هي فيه لكثرتُه، فلها أن تنتقلَ إلى بيت أقلَّ كراء منه، وهذا من كلامهم يدل على أن أجره السكنى عليها، وإنما يسقط السكنى عنها لِعجزها عن أجرته، ولهذا صرَّحوا بأنها تسكن في نصيبها من التركة إن كفاهها، وهذا لأنه لا سُكْنَى عندهم للمتوفى

هذا موضوع اختلف فيه: فقال الإمام أحمد: إن كانت حائلاً فلا سُكْنَى لها في التركة، ولكن عليها ملازمة المنزل إذا بُدِّل لها كما تقدم، وإن كانت حاملاً ففيه روايتان: إحداهما: أن الحكم كذلك. والثاني: أن لها السُكْنَى حقاً ثابتاً في المال، تُقدَّم به على الورثة والغرماء، ويكون من رأس المال، لا تُباع الدار في دينه بيعاً يمنحها سكنها حتى تنقضي عدتها، وإن تعذر ذلك، فعلى الوارث أن يكتري لها سكناً من مال الميت، فإن لم يفعل، أجبره الحاكم، وليس لها أن تتنقل عنه إلأى لضرورة.

وإن اتفق الوارث والمرأة على نقلها عنه، لم يجز، لأنه يتعلق بهذه السكْنَى حقُّ الله تعالى، فلم يجز اتفاقهما على إبطالها، بخلاف سُكْنَى النكاح، فإنها حقُّ لله تعالى، لأنها وجبت من حقوق العدة، والعدة فيها حقٌّ للزوجين. والصحيح المنصوص: أن سُكْنَى الرجعية كذلك، ولا يجوزُ اتفاقهما على إبطالها، هذا مقتضى نص الآية، وهو منصوص أحمد وعنه رواية ثالثة: أن للمتوفى عنها السُكْنَى بكل حال، حاملاً كانت أو حائلاً، فصار في مذهبه ثلاثُ روايات: وجوبها للحامل والحائِل، وإسقاطها في حقهما ووجوبها للحامل دون الحائِل، هذا تحصيلُ مذهب أحمد في سُكْنَى المتوفى عنها.

وأما مذهب مالك، فإيجاب السكْنَى لها حاملاً كانت أو حائلاً، وإيجابُ السكْنَى عليها مدة العدة، قال أبو عمرو: فإذا كان المسكن بكراً؟ فقال مالك: هي أحقُّ بسكناء من الورثة والغرماء، وهو من رأس مال المتوفى، إلا أن يكونَ فيه عقد لزوجها وأراد أهل المسكن إخراجها. وإذا كان المسكنُ لزوجها، لم يُبع في دينه حتى تنقضي عدتها. انتهى كلامه.

وقال غيره من أصحاب مالك: هي أحقُّ بالسكْنَى من الورثة والغرماء إذا كان الملك للميت، أو كان قد أدَّى كراءه، وإن لم يكن قد أدى ففي «التهذيب»: لا سُكْنَى لها في مال الميت، وإن كان مويراً. وَرَوَى محمد، عن مالك: الكراء لازم للميت في ماله، ولا تكون الزوجةُ أحقُّ به، وتُحاصُّ الورثة في السكْنَى وللورثة إخراجُها إلأى أن تُحبَّ أن تسكن في حصتها، وتؤدي كراء حصتهم.

عنها حاملاً كانت أو حائلاً، وإنما عليها أن تلزم مسكنها الذي توفي زوجها وهي فيه ليلاً لا نهاراً، فإن بذله لها الورثة وإلا كانت الأجرة عليها، فهذا تحرير مذاهب الناس في هذه المسألة، وما أخذ الخلاف فيها وبالله التوفيق.

ولقد أصاب فريضة بنت مالك في هذا الحديث نظير ما أصاب فاطمة بنت قيس في حديثها، فقال بعض المنازعين في هذه المسألة: لا ندع كتاب ربنا لقول امرأة، فإن الله سبحانه إنما أمرها بالاعتداد بأربعة أشهر وعشر، ولم يأمرها بالمنزل. وقد أنكرت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وجوب المنزل، وأفتت المتوفى عنها بالاعتداد حيث شاءت كما أنكرت حديث فاطمة بنت قيس، وأوجب السكنى للمطلقة.

وقال بعض من نازع في حديث الفريضة: قد قُتل من الصحابة رضي الله عنهم على عهد رسول الله ﷺ خلق كثير يوم أحد، ويوم بئر معونة، ويوم مؤتة وغيرها، واعتد أزواجهم بعدهم، فلو كان كل امرأة منهم تُلَازم منزلها زمن العدة، لكان ذلك من أظهر الأشياء، وأبينها بحيث لا يخفى على من هو دون ابن عباس وعائشة، فكيف خفي هذا عليهما وعلى غيرهما من الصحابة الذين حكى أقوالهم، مع استمرار العمل به استمراراً شائعاً، هذا من أبعد الأشياء، ثم لو كانت السنة جارية بذلك، لم تات الفريضة تستأذنه ﷺ أن تلحق بأهلها، ولما أذن لها في ذلك، ثم يأمر بردها بعد ذهابها، ويأمرها بأن تمكث في بيتها فلو كان ذلك أمراً مستمراً ثابتاً، لكان قد نسخ بإذنه لها في اللحاق بأهلها، ثم نسخ ذلك الإذن بأمره لها بالمكث في بيتها، فيقضي إلى تغيير الحكم مرتين، وهذا لا عهد لنا به في الشريعة في موضع متيقن.

قال الآخرون: ليس في هذا ما يوجب رد هذه السنة الصحيحة الصريحة التي تلقاها أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وأكابر الصحابة بالقبول، ونفذها عثمان، وحكم بها، ولو كنا لا نقبل رواية النساء عن النبي ﷺ، لذهبت سنن كثيرة من سنن الإسلام لا يُعرف أنه رواها عنه إلا النساء، وهذا كتاب الله ليس فيه ما ينبغي وجوب الاعتداد في المنزل حتى تكون

السنة مخالفة له، بل غايتها أن تكون بياناً لحكم سكت عنه الكتاب، ومثل هذا لا تُرد به السنن، وهذا الذي حذر منه رسول الله ﷺ بعينه أن تترك السنة إذا لم يكن نظير حكمها في الكتاب.

وأما ترك أم المؤمنين رضي الله عنها لحديث الفريضة، فلعله لم يبلغها، ولو بلغها فلعلها تأولته، ولو لم تأولها، فلعله قام عندها معارض له، وبكل حال فالقاتلون به في تركهم لتركها لهذا الحديث أعذر من التاركين له لترك أم المؤمنين له، فبين التاركين فرق عظيم.

وأما من قُتل مع النبي ﷺ، ومن مات في حياته، فلم يأت قط أن نساءهم كن يعتديذن حيث شئن، ولم يأت عنهن ما يخالف حكم حديث فريضة البتة، فلا يجوز ترك السنة الثابتة لأمر لا يعلم كيف كان، ولو علم أنهم كن يعتديذن حيث شئن، ولم يأت عنهن ما يخالف حكم حديث الفريضة، فلعل ذلك قبل استقرار هذا الحكم وثبوته حيث كان الأصل براءة الذمة، وعدم الوجوب.

وقد ذكر عبد الرزاق عن ابن جريج، عن عبد الله ابن كثير، قال: قال مجاهد: استشهد رجال يوم أحد، فجاء نساؤهم إلى رسول الله ﷺ، فقلن: إنا نستوحش يا رسول الله بالليل، فنبيت عند إحدانا، حتى إذا أصبحنا تبددنا في بيوتنا، فقال رسول الله ﷺ: «تَحَدَّثْنَ عِنْدَ إِحْدَاكُنَّ مَا بَدَأَ لَكُنَّ، فَإِذَا أَرَدْتُنَّ النَّوْمَ فَلْتَوْبِ كُلُّ امْرَأَةٍ إِلَى بَيْتِهَا» [عبد الرزاق: ١٢٠٧٧]. وهذا وإن كان مرسلاً، فالظاهر أن مجاهداً إما أن يكون سمعه من تابعي ثقة، أو من صحابي، والتابعون لم يكن الكذب معروفاً فيهم، وهم ثاني القرون المفضلة، وقد شاهدوا أصحاب رسول الله ﷺ، وأخذوا العلم عنهم، وهم خير الأمة بعدهم، فلا يُظن بهم الكذب على رسول الله ﷺ، ولا الرواية عن الكذابين، ولا سيما العالم منهم إذا جزم على رسول الله ﷺ بالرواية، وشهد له بالحديث، فقال: قال رسول الله ﷺ، وفعل رسول الله ﷺ، وأمر ونهى، فبعد كل البعد أن يُقدم على ذلك مع كون الواسطة بينه وبين رسول الله ﷺ كذاباً أو مجهولاً، وهذا بخلاف مراسيل من بعدهم، فكلما

مات، ثم تخرج، فتعطي بعة، فترمي بها، ثم تراجع بعد ما شاءت من طيب أو غيره [البخاري: ٥٣٣٧، ومسلم: ٣٧٢٩]. قال مالك تفتض: تمسح به جلدها.

وفي «الصحيحين»: عن أم سلمة رضي الله عنها، أن امرأة توفي عنها زوجها، فخافوا على عينها، فأثوا النبي ﷺ، فاستأذنوه في الكحل، فقال رسول الله ﷺ: «قَدْ كَانَتْ إِحْدَاكُنَّ تَكُونُ فِي شَرِّ بَيْتِهَا، أَوْ فِي شَرِّ أَخْلَاسِهَا فِي بَيْتِهَا حَوْلًا، فَإِذَا مَرَّ كَلْبٌ رَمَتْ بِبَغْرَةٍ، فَخَرَجَتْ أَقْلًا أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا»^(١) [البخاري: ٥٣٣٨، ومسلم: ٣٧٣١].

وفي «الصحيحين» عن أم عطية الأنصارية رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تُحْدُ الْمَرْأَةُ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ إِلَّا عَلَى زَوْجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا، وَلَا تَلْبَسُ نَوْبًا مَضْبُوعًا إِلَّا تَوْبٌ غَضِبَ، وَلَا تَكْتَحِلُ وَلَا تَمَسُّ طَبِيبًا إِلَّا إِذَا ظَهَرَتْ بُذَّةٌ مِنْ قُنْطٍ أَوْ أَظْفَارٍ» [البخاري: ٥٣٤١، ومسلم: ٥٩٩٦].

وفي «سنن أبي داود»: من حديث الحسن بن مسلم، عن صفية بنت شيبة، عن أم سلمة زوج النبي ﷺ، أنه قال: «الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا لَا تَلْبَسُ الْمُعْضَفَرِ مِنَ الثِّيَابِ وَلَا الْمُمَشَّقَةِ، وَلَا الْحُلِيِّ وَلَا تَكْتَحِلُ، وَلَا تَخْتَضِبُ» [أبو داود: ٢٣٠٤].

وفي «سننه» أيضاً: من حديث ابن وهب، أخبرني مخرمة، عن أبيه قال: سمعت المغيرة بن الضحاك يقول: أخبرني أم حكيم بنت أسيد، عن أمها: أن زوجها توفي، وكانت تشتكي عينها فتكحل بالجلء - قال أحمد بن صالح رحمه الله: الصواب: يكحل بالجلء - فأرسلت مولاة لها إلى أم سلمة رضي الله عنها، فسألته عن كحل الجلء، قالت: لا تكحلي به إلا من أمر لا بد منه يشتد عليك، فتكحلي بالليل، وتمسح به بالنهار، ثم قالت عند ذلك أم سلمة: دخل علي رسول الله ﷺ حين توفي أبو سلمة وقد جعلت على عيني صبراً، فقال: «ما هذا يا أم سلمة؟» فقلت: إنما هو صبر يا رسول الله، ليس فيه طيب. فقال: «إِنَّهُ يَشُبُّ الْوَجْهَ فَلَا تَجْعَلِيهِ إِلَّا بِاللَّيْلِ، وَتَنْزِعِيهِ

تأخرت القرون ساء الظن بالمراسيل، ولم يشهد بها على رسول الله ﷺ، وبالجملة فليس الاعتماد على هذا المرسل وحده، وبالله التوفيق.

ذِكْرُ حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي إِحْدَادِ الْمُعْتَدَةِ نَفِيًّا وَإِبْثَاتًا

ثبت في «الصحيحين»: عن حميد بن نافع، عن زينب بنت أبي سلمة أنها أخبرته هذه الأحاديث الثلاثة، قالت زينب: دخلت على أم حبيبة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ حين توفي أبوها أبو سفيان، فدعت أم حبيبة رضي الله عنها بطيب فيه صفرة: خلوق أو غيره، فدهنت منه جارية، ثم مسّت بعارضيهما، ثم قالت: والله مالي بالطيب من حاجة، غير أني سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «لَا يَجِلُّ لِمَرْأَةٍ تَوَمَّنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ تُحْدُ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ إِلَّا عَلَى زَوْجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا».

قالت زينب: ثم دخلت على زينب بنت جحش حين توفي أخوها فدعت بطيب، فمسّت منه، ثم قالت: والله مالي بالطيب من حاجة، غير أني سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «لَا يَجِلُّ لِمَرْأَةٍ تَوَمَّنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ تُحْدُ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ إِلَّا عَلَى زَوْجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا».

قالت زينب: وسمعت أمي أم سلمة رضي الله عنها تقول: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله: إن بنتي توفي عنها زوجها، وقد اشتكت عينها، أفنكحلها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا»، مرتين، أو ثلاثاً، كل ذلك يقول: «لا»، ثم قال: «إِنَّمَا هِيَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ، وَقَدْ كَانَتْ إِحْدَاكُنَّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَرْمِي بِالْبَغْرَةِ عَلَى رَأْسِ الْحَوْلِ».

فقالت زينب: كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها، دخلت جفشاً، ولبست شرّ ثيابها، ولم تمسّ طيباً ولا شيئاً حتى يمرّ بها سنة، ثم توتى بداية حمار، أو شاة، أو طير، فتفتض به، فقلما تفتض بشيء إلا

(١) والعصب: نوع من البرود يعصب غزله، ثم يصبغ، ثم ينسج، والنيلة: القطعة والشئ اليسير، والقسط: عود طيب الريح يحمل من الهند يتبرخ به النساء، والأظفار: جنسي من الطيب لا واحد له من لفظه.

بِالنَّهَارِ، وَلَا تَمْتَشِطِي بِالطَّيْبِ وَلَا بِالْحِنَاءِ فَإِنَّهُ خِضَابٌ»، قالت: قلت: بأي شيء أمتشط يا رسول الله؟ قال: «بِالسَّدْرِ تُغْلِفِينَ بِرَأْسِكَ» [ابوداود: ٢٣٠٥، والنسائي (٦/٢٠٤)].

(مدة الإحداد)

وقد تضمنت هذه السنة أحكاماً عديدة: أحدها: أنه لا يجوز الإحداد على ميت فوق ثلاثة أيام كائناً من كان، إلا الزوج وحده.

وتضمن الحديث الفرق بين الإحدايين من وجهين:

(وجوب الإحداد وجوازه)

أحدهما: من جهة الوجوب والجواز، فإن الإحداد على الزوج واجب، وعلى غيره جائز.

(مدة الإحداد)

الثاني: من مقدار مدة الإحداد، فالإحداد على الزوج عزيمة، وعلى غيره رخصة، وأجمعت الأمة على وجوبه على المتوفى عنها زوجها، إلا ما حكى عن الحسن، والحكم بن عتيبة. أما الحسن، فروى حماد بن سلمة، عن حميد، عنه، أن المطلقة ثلاثاً، والمتوفى عنها زوجها تكتحلان وتمشطان، وتطيبان وتختضببان، وتنتقلان، وتصنعان ما شاءتا، وأما الحكم، فذكر عنه شعبة: أن المتوفى عنها لا تُحْد.

قال ابن حزم: واحتج أهل هذه المقالة، ثم ساق من طريق أبي الحسن محمد بن عبد السلام، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، حدثنا الحكم بن عتيبة، عن عبد الله بن شداد بن الهاد: أن رسول الله ﷺ قال لامرأة جعفر بن أبي طالب: «إِذَا كَانَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَالْبَسِي مَا شِئْتَ، أَوْ إِذَا كَانَ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ شَبْعَةَ شُكَّ».

ومن طريق حماد بن سلمة، حدثنا الحجاج بن أرطاة، عن الحسن بن سعيد، عن عبد الله بن شداد: أن أسماء بنت عميس استأذنت النبي ﷺ أن تبكي على جعفر وهي امرأته، فأذن لها ثلاثة أيام، ثم بعث إليها بعد ثلاثة أيام أن تطهري واكتحلي.

قالوا: وهذا ناسخ لأحاديث الإحداد، لأنه بعدها، فإن أم سلمة رضي الله عنها روت حديث الإحداد، وأنه ﷺ أمرها به إثر موت أبي سلمة، ولا خلاف أن موت أبي سلمة كان قبل موت جعفر رضي الله عنهما.

وأجاب الناس عن ذلك بأن هذا حديث منقطع، فإن عبد الله بن شداد بن الهاد^(١) لم يسمع من رسول الله ﷺ، ولا رآه، فكيف يُقدَّم حديثه على الأحاديث الصحيحة المسندة التي لا مطعن فيها؟ وفي الحديث الثاني: الحجاج بن أرطاة^(٢)، ولا يُعارض بحديثه حديث الأئمة الأثبات الذين هم فرسان الحديث.

فصل

(تبعية الإحداد للعدة)

الحكم الثاني: أن الإحداد تابع للعدة بالشهور، أما الحامل، فإذا انقضى حملها، سقط وجوب الإحداد عنها اتفاقاً، فإن لها أن تزوج، وتتجمل، وتطيب لزوجها، وتزني له ما شاءت.

فإن قيل: فإذا زادت مدة الحمل على أربعة أشهر وعشر، فهل يسقط وجوب الإحداد، أم يستمر إلى حين الوضع؟ قيل: بل يستمر الإحداد إلى حين الوضع، فإنه من توابع العدة، ولهذا قيّد بمدها، وهو حكم من أحكام العدة، وواجب من واجباتها، فكان معها وجوداً وعدمًا.

فصل

(تستوي الزوجات بالإحداد حتى الكافرة والأمة والصغيرة)

الحكم الثالث: أن الإحداد تستوي فيه جميع الزوجات المسلمة والكافرة، والحرة والأمة، والصغيرة والكبيرة، وهذا قول الجمهور: أحمد، والشافعي، ومالك إلا أن أشهب، وابن نافع قالوا: لا إحداد على الذمية، ورواه أشهب عن مالك، وهو قول أبي حنيفة، ولا إحداد عنده على الصغيرة.

واحتج أرباب هذا القول بأن النبي ﷺ جعل الإحداد من أحكام من يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا

(١) رجاله ثقات إلا أنه مرسل، وعبد الله بن شداد لم يسمع من رسول الله ﷺ شيئاً.

(٢) الحجاج بن أرطاة موصوف بكثرة الخطأ والتدليس، وقد عنعن.

تدخل فيه الكافرة، ولأنها غير مكلفة بأحكام الفروع. قالوا: وعدوله عن اللفظ العام المطلق إلى الخاص المقيد بالإيمان يقتضي أن هذا من أحكام الإيمان ولو أزمه وواجباته، فكانه قال: من التزم الإيمان، فهذا من شرائعه وواجباته.

والتحقيق أن نفي جلّ الفعل عن المؤمنين لا يقتضي نفي حكمه عن الكفار، ولا إثباته لهم أيضاً، وإنما يقتضي أن من التزم الإيمان وشرائعه، فهذا لا يحلّ له، ويجب على كل حال أن يلزم الإيمان ألا وشرائعه، ولكن لا يلزمه الشارع شرائع الإيمان إلا بعد دخوله فيه، وهذا كما لو قيل: لا يحلّ لمؤمن أن يترك الصلاة والحجّ والزكاة، فهذا لا يدل على أن ذلك حلّ للكافر. وهذا كما قال في لباس الحرير: «لَا يَنْبَغِي هَذَا لِلْمُتَّقِينَ» [البخاري: ٣٧٥، ومسلم: ٥٤٢٧]، فلا يدل أنه ينبغي لغيرهم. وكذا قوله: «لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ لَعَنًا» [مسلم: ٦٦٠٨].

وسر المسألة: أن شرائع الحلال والحرام والإيجاب، إنما شرعت لمن التزم أصل الإيمان، ومن لم يلتزمه وخلي بينه وبين دينه، فإنه يخلى بينه وبين شرائع الدين الذي التزمه، كما خلى بينه وبين أصله ما لم يُحاكم إلينا، وهذه القاعدة متفق عليها بين العلماء، ولكن عذر الذين أوجبوا الإحداً على الذمية، أنه يتعلق به حق الزوج المسلم، وكان منه إلزامها به كإصل العدة، ولهذا لا يلزمونها به في عدتها من الذمي، ولا يتعرض لها فيها، فصار هذا كعقودهم مع المسلمين، فإنهم يلزمون فيها بأحكام الإسلام وإن لم يتعرض لعقودهم مع بعضهم بعضاً، ومن يَنازعهم في ذلك يقولون: الإحداً حق لله تعالى، ولهذا لو اتفقت هي والأولياء والمتوفى على سقوطه بأن أوصاها بتركه، لم يسقط، ولزمها الاتيان به فهو جار مجرى العبادات، وليست الذمية من أهلها، فهذا سر المسألة.

فصل

(لا يجب الإحداً على الأمة ولا أم الولد)

الحكم الرابع: أن الإحداً لا يجب على الأمة، ولا أم الولد إذا مات سيدهما، لأنها ليسا بزوجين. قال ابن المنذر: لا أعلمهم يختلفون في ذلك.

فإن قيل: فهل لهما أن تُحدّا ثلاثة أيام؟ قيل: نعم لهما ذلك، فإن النصّ إنما حرم الإحداً فوق الثلاث على غير الزوج، وأوجبته أربعة أشهر وعشراً على الزوج، فدخلت الأمة وأم الولد فيمن يحلّ لهن الإحداً، لا فيمن يَحْرُمُ عليهن، ولا فيمن يجب.

(لا إحداً على غير المتوفى عنها زوجها)

فإن قيل: فهل يجب على المعتدة من طلاق أو وطء شبهة، أو زنى، أو استبراء إحداً؟

قلنا: هذا هو الحكم الخامس الذي دلّت عليه السنة، أنه لا إحداً على واحدة من هؤلاء، لأن السنة أثبتت ونفت، فخصت بالإحداً الواجب الزوجات، وبالجائز غيرهن على الأموات خاصة، وما عداهما فهو داخل في حكم التحريم على الأموات، فمن أين لكم دخوله في الإحداً على المطلقة البائن؟ وقد قال سعيد بن المسيب، وأبو عبيد، وأبو ثور، وأبو حنيفة وأصحابه، والإمام أحمد في إحدى الروايتين عنه اختارها الجرحي: إن البائن يجب عليها الإحداً، وهو محض القياس، لأنها معتدة بائن من نكاح، فلزمها الإحداً كالمتوفى عنها، لأنهما اشتركا في العدة، واختلفا في سببها، ولأن العدة تُحرّم النكاح، فَحَرُمَتْ دواعيه. قالوا: ولا ريب أن الإحداً معقول المعنى، وهو أن إظهار الزينة والطيب والمُحلي، مما يدعو المرأة إلى الرجال، ويدعو الرجال إليها: فلا يؤمن أن تكذب في انقضاء عدتها استعجالاً لذلك، فَمُنِعَتْ من دواعي ذلك، وسدت إليه الذريعة، هذا مع أن الكذب في عدة الوفاة يتعدّر غالباً بظهور موت الزوج، وكون العدة أَيْاماً معدودة، بخلاف عدة الطلاق، فإنها بالأقراء وهي لا تعلم إلا من جهتها، فكان الاحتياط لها أولى.

قيل: قد أنكر الله سبحانه وتعالى على مَنْ حَرَّمَ زِينَتَهُ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، وهذا يدل على أنه لا يجوز أن يُحرّم من الزينة إلا ما حرّمه الله ورسوله، والله سبحانه قد حرّم على لسان رسوله ﷺ زينة الإحداً على المتوفى عنها مدة العدة، وأباح رسوله الإحداً بتركها على غير الزوج، فلا يجوز تحريم غير ما حرّمه، بل هو على أصل

ولا الشيرج، ولا السمن، ولا تُمنع من الأدهان بشيء من ذلك.

فصل

(تجنب الحادة الزينة في بدنها)

الحكم السابع: وهي ثلاثة أنواع: أحدها: الزينة في بدنها، فيحرم عليها الخضاب، والنقش، والتطريف، والحُمرة، والاسفيداج، فإن النبي ﷺ نص على الخضاب منها به على هذه الأنواع التي هي أكثر زينة منه، وأعظم فتنة، وأشدّ مضادة لمقصود الإحدا، ومنها: الكحل، والنهي عنه ثابت بالنص الصريح الصحيح.

ثم قال طائفة من أهل العلم من السلف والخلف: منهم أبو محمد بن حزم: لا تكتحل ولو ذهبت عيناها لا ليلاً ولا نهاراً. ويُساعِد قولهم، حديث أم سلمة المتفق عليه: أن امرأة توفي عنها زوجها، فخافوا على عيناها، فأَتَوْا النبي ﷺ، فاستأذَنوه في الكحل، فما أذن فيه، بل قال: «لا» مرتين أو ثلاثاً، ثم ذكر لهم ما كانوا يفعلونه في الجاهلية من الإحدا البليغ سنّة، ويصيرن على ذلك، أفلا يصيرن أربعة أشهر وعشراً [مالك (٢/ ٥٩٩)]. ولا ريب أن الكحل من أبغى الزينة، فهو كالطيب، أو أشد منه. وقال بعض الشافعية: للسوداء أن تكتحل، وهذا تصرف مُخَالِف للنص والمعنى، وأحكام رسول الله ﷺ لا تُفَرَّق بين السود والبيض، كما لا تُفَرَّق بين الطوال والقصار، ومثُل هذا القياس بالرأي الفاسد الذي اشتد نكير السلف له، وذمهم إياه.

وأما جمهور العلماء، كمالك، وأحمد، وأبي حنيفة والشافعي، وأصحابهم، فقالوا: إن اضطرت إلى الكحل بالإثم تدوايلاً لا زينة، فلها أن تكتحل به ليلاً وتمسحه نهاراً، وحجّتهم: حديث أم سلمة المتقدم رضي الله عنها، فإنها قالت في كحل الجلاء: لا تكتحل إلّا لما لا بُدّ منه، يَشْتَدُّ عَلَيْكَ فتكتحلين بالليل، وتغسلينه بالنهار. ومن حجّتهم: حديث أم سلمة رضي الله عنها الآخر: أن رسول الله ﷺ دخل عليها، وقد جعلت عليها صبراً فقال: ما هذا يا أم سلمة؟ فقلت: صبر يا رسول الله، ليس فيه طيب فقال: «إِنَّهُ يُشِبُّ الْوَجْهَ»، فقال: «لَا

الإباحة، وليس الإحدا من لوازم العدة، ولا توابعها، ولهذا لا يجب على الموطوءة بشبهة، ولا المزني بها، ولا المستبرأة، ولا الرجعية اتفاقاً، وهذا القياس أولى من قياسها على المتوفى عنها لما بين العديتين من القُروء قدراً أو سبباً وحكماً، فالحاقّ عِدّة الأقراء بالأقراء أولى من إلحاق عِدّة الأقراء بعِدّة الوفاة، وليس المقصود من الإحدا على الزوج الميت مجرّداً ما ذكرتم من طلب الاستعجال، فإن العدة فيه لم تكن لمجرد العلم ببراءة الرّجَم، ولهذا تجب قبل الدخول، وإنما هو من تعظيم هذا العقد وإظهار خطره وشرفه، وأنه عند الله بمكان، فجعلت العدة حريماً له، وجعل الإحدا من تمام هذا المقصود وتأكيده، ومزيد الاعتناء به، حتى جعلت الزوجة أولى بفعله على زوجها من أبيها وابنها وأخيها وسائر أقاربها، وهذا من تعظيم هذا العقد وتشريفه، وتأكيّد الفرق بينه وبين السفّاح من جميع أحكامه، ولهذا شرّع في ابتدائه إعلانه، والإشهاد عليه، والضرب بالذِّف لتحقق المضادة بينه وبين السفّاح، وشرع في آخره، وانتهائه من العدة والإحدا ما لم يُشرع في غيره.

فصل

(الخصال التي تجنبها الحادة)

الحكم السادس في الخصال التي تجنبها الحادة، وهي التي دل عليها النصّ دون الآراء والأقوال التي لا دليل عليها وهي أربعة:

(الطيب)

أحدها: الطيب بقوله في الحديث الصحيح: «لَا تَمْسُ طَيْباً». ولا خلاف في تحريمه عند من أوجب الإحدا، ولهذا لما خرجت أم حبيبة رضي الله عنها من إحداها على أبيها أبي سفيان، دعت بطيب، فدهنت منه جارية، ثم مست بعارضيها، ثم ذكرت الحديث، ويدخل في الطيب: المسك، والعنبر، والكافور، والند، والغالية، والزباد، والذّرية، والبخور، والأدهان العطية، كدُهن البان، والورد، والبنفسج، والياسمين، والمياه المعتصرة من الأدهان الطيبة، كماء الورد، وماء القرنفل، وماء زهر النارج، فهذا كُلُّ طيب، ولا يدخل فيه الزيت،

تجعليه إلا بالليل وتَنَزَّعَ به بالنَّهَارَ، وهما حديث واحد، فَرَّقَهُ الرواةُ، وأدخل مالك هذا القدر منه في «موطئه» بلاغاً، وذكر أبو عمرو في «التَّمْهيد» له طرقاً يَشُدُّ بعضها بعضاً، ويكفي احتجاجُ مالك به، وأدخله أهلُ السنن في كتبهم، واحتج به الأئمةُ، وأقلُّ درجاته أن يكون حسناً، ولكن حديثها هذا مخالف في الظاهر لحديثها المسند المتفق عليه، فإنه يَدُلُّ على المتوفى عنها لا تكتحلُ بحال، فإن النبي ﷺ لم يأذن للمشتكية عنها في الكحل لا ليلاً ولا نهاراً، ولا من ضرورة ولا غيرها، وقال: «لا»، مرتين أو ثلاثاً، ولم يقل: إلا أن تضطر. وقد ذكر مالك عن نافع، عن صفية بنت عبيد: أنها اشتكت عينها وهي حادَّة على زوجها عبد الله بن عمر، فلم تكتحل حتى كادت عيناها تَرْمَضَانِ [«الأم»، (٢٣٢/٥)].

قال أبو عمرو: وهذا عندي وإن كان ظاهره مخالفاً لحديثها الآخر لما فيه من إباحته بالليل وقوله في الحديث الآخر: «لا» مرتين أو ثلاثاً على الإطلاق، أن ترتب الحديثين والله أعلم على أن الشكاية التي قال فيها رسولُ الله ﷺ: لا، لم تبلغ - والله أعلم - منها مبلغاً لا بُدَّ لها فيه من الكحل، فلذلك نهاها، ولو كانت محتاجة مضطرة تخافُ ذهابَ بصرها، لأباح لها ذلك، كما فعل بالنبي قال لها: «اجعلي بالليل وامسحي بالنَّهَارَ»، والنظر يشهد لهذا التأويل، لأن الضرورات تنقل المحظورات إلى حال المباح في الأصول، ولهذا جعل مالك فتوى أم سلمة رضي الله عنها تفسيراً للحديث المسند في الكحل، لأن أم سلمة رضي الله عنها روته، وما كانت ليتخالفه إذا صحَّ عندها، وهي أعلمُ بتأويله ومخرجه، والنظرُ يشهد لذلك، لأن المضطر إلى شيء لا يُحكم له بحكم المرفقة المتزين بالزينة، وليس الدواء والتداوي من الزينة في شيء، وإنما نُهيَّت الحادة عن الزينة لا عن التداوي، وأم سلمة رضي الله عنها أعلم بما روت مع صحته في النظر، وعليه أهلُ الفقه، وبه قال مالك والشافعي وأكثر الفقهاء.

وقد ذكر مالك رحمه الله في «موطئه»: أنه بلغه عن سالم بن عبد الله، وسليمان بن يسار أنهما كانا

يقولان في المرأة يُتوفى عنها زوجها: إنها إذا خشيت على بصرها من رمدِ بعينيها، أو شكوى أصابتها، أنها تكتحل وتداوي بالكحل وإن كان فيه طيب. قال أبو عمرو: لأن القصد إلى التداوي لا إلى التطيب، والأعمال بالنيات.

وقال الشافعي رحمه الله: الصبر يصفر، فيكون زينة، وليس بطيب، وهو كحل الجلاء، فأذنت أم سلمة رضي الله عنها للمرأة بالليل حيث لا يرى، وتمسحه بالنهار حيث يرى، وكذلك ما أشبهه.

وقال أبو محمد بن قدامة في «المغني»: وإنما تُمنع الحادة من الكحل بالإئتمد، لأنه الذي تحصل به الزينة، فأما الكحل بالتوتيا والعزروت ونحوهما، فلا بأس به، لأنه لا زينة فيه، بل يُقَبِّح العين ويزيدها مَرَهًا. قال: ولا تُمنع من جعل الصبر على غير وجهها من بدنها، لأنه إنما مُنِعَ منه في الوجه، لأنه يُصفره، فيشبه الخضاب، فلهذا قال النبي ﷺ: «إنه يُسَبِّح الوجه».

قال: ولا تُمنع من تقليم الأظفار، ونفث الإبط، وحلق الشعر المندوب إلى حلقة، ولا من الاغتسال بالسدر، والامتنشاط به، لحديث أم سلمة رضي الله عنها، ولأنه يراد للتنظيف لا للتطيب، وقال إبراهيم بن هانئ النيسابوري في «مسائله»: قيل لأبي عبد الله: المتوفى عنها تكتحل بالإئتمد؟ قال: لا، ولكن إذا أرادت، اكتحل بالصبر، إذا خافت على عينها واشتكت شكوى شديدة.

فصل

(تجنب الحادة زينة الثياب)

النوع الثاني: زينة الثياب، فيحرم عليها ما نهاها عنه النبي ﷺ، وما هو أولى بالمنع منه، وما هو مثله. وقد صح عنه أنه قال: «وَلَا تَلْبَسُ ثَوْبًا مَضْبُوعًا». وهذا يعم المعصفر والمزعفر، وسائر المصبوغ بالأحمر والأصفر، والأخضر، والأزرق الصافي، وكل ما يُصْبَغُ للتحسين والتزين. وفي اللفظ الآخر: «وَلَا تَلْبَسُ الْمُعَصْفَرُ مِنَ الثِّيَابِ، وَلَا الْمُمَشَّقُ».

وهاهنا نوعان آخران: أحدهما: مأذون فيه، وهو ما تُسَجُّ من الثياب على وجهه، ولم يدخل فيه صبيغ

من خز، أو قز، أو قطن، أو كتان، أو صوف، أو وبر، أو شعر، أو صبيغ غزله ونسج مع غيره كالبرود. والثاني: ما لا يُراد بصيغه الزينة مثل السواد، وما صُيغ لتقييح، أو ليستر الوسخ، فهذا لا يمنع منه.

قال الشافعي رحمه الله: في الثياب زينتَان: إحداهما: جمال الثياب على اللابسين، والسترة للعودة. فالثياب زينة لمن يلبسها، وإنما نُهِيت الحادة عن زينة بدنِها، ولم تُنه عن ستر عورتها، فلا بأس أن تلبس كُلُّ ثوبٍ من البياض، لأن البياض ليس بمزين، وكذلك الصوف والوبر، وكل ما يُنسج على وجهه ولم يدخل عليه صبيغ من خز أو غيره، وكذلك كُلُّ صبيغ لم يرد به تزيين الثوب مثل السواد، وما صبيغ لتقيحه، أو لنفي الوسخ عنه، فأما ما كان من زينة، أو وشي في ثوبه أو غيره، فلا تلبسه الحادة، وذلك لكل حرة أو أمة، كبيرة أو صغيرة، مسلمة أو ذمية. انتهى كلامه [١٠٤٠/٥] (٢٣٢).

قال أبو عمر: وقول الشافعي رحمه الله في هذا الباب نحو قول مالك، وقال أبو حنيفة: لا تلبس ثوب عصب ولا خز وإن لم يكن مصبوغاً إذا أرادت به الزينة، وإن لم تُرد بلبس الثوب المصبوغ الزينة، فلا بأس أن تلبسه. وإذا اشتكت عينها، اكتحل بالأسود وغيره، وإن لم تشتك عينها، لم تكتحل.

فصل

وأما الإمام أحمد رحمه الله، فقال في رواية أبي طالب: ولا تزين المعتدة، ولا تطيب بشيء من الطيب، ولا تكتحل بكحل زينة، وتدهن بدهن ليس فيه طيب، ولا تُقرَّب مسكاً، ولا زعفراناً للطيب، والمطلقة واحدة أو اثنتين تزين، وتشوف لعله أن يُراجعها.

وقال أبو داود في «مسائله»: سمعت أحمد قال: المتوفى عنها زوجها، والمطلقة ثلاثاً، والمحرمة يجتنبن الطيب والزينة.

وقال حرب في «مسائله»: سألت أحمد رحمه الله، قلت: المتوفى عنها زوجها والمطلقة، هل تلبسان البرد ليس بحرير؟ فقال: لا تطيب المتوفى عنها، ولا تزين بزينة، وشدد في الطيب إلا أن يكون

قليلاً عند طهرها. ثم قال: وشبهت المطلقة ثلاثاً بالمتوفى عنها لأنه ليس لزوجها عليها رجعة، ثم ساق حرب بإسناده إلى أم سلمة قال: المتوفى عنها لا تلبس المعصفر من الثياب، ولا تختضب، ولا تكتحل، ولا تطيب، ولا تمتشط بطيب.

وقال إبراهيم بن هانيء النيسابوري في «مسائله»: سألت أبا عبد الله عن المرأة تتقب في عدتها، أو تدهن في عدتها؟ قال: لا بأس به، وإنما كره للمتوفى عنها زوجها أن تزين. وقال أبو عبد الله: كل دهن فيه طيب، فلا تدهن به، فقد دار كلام الإمام أحمد، والشافعي، وأبي حنيفة رحمهم الله على أن الممنوع منه من الثياب ما كان من لباس الزينة من أي نوع كان، وهذا هو الصواب قطعاً، فإن المعنى الذي مُنعت من المعصفر والممشق لأجله مفهوم، والنبي ﷺ خصه بالذكر مع المصبوغ تنبيهاً على ما هو مثله، وأولى بالمنع، فإذا كان الأبيض، والبرود المحبرة الرفيعة الغالية الأثمان مما يُراد للزينة لارتفاعهما وتناهي جودتهما، كان أولى بالمنع من الثوب المصبوغ. وكل من عقل عن الله ورسوله لم يسترَب في ذلك، لا كما قال أبو محمد بن حزم: إنها تجنب الثياب المصبغة فقط، ومباح لها أن تلبس بعد ما شاءت من حرير أبيض وأصفر من لونه الذي لم يُصبيغ، وصوف البحر الذي هو لونه، وغير ذلك. ومباح لها أن تلبس المنسوج بالذهب والحلي كله من الذهب والفضة، والجوهر والياقوت، والزمرد وغير ذلك، فهي خمسة أشياء تجنبها فقط، وهي: الكحل كله لضرورة أو لغير ضرورة، ولو ذهبت عيناها لا ليلاً ولا نهاراً، وتجنب فرضاً: كُلُّ ثوب مصبوغ مما يُلبس في الرأس والجسد، أو على شيء منه، سواء في ذلك السواد والخضرة، والحمرة والصفرة، وغير ذلك، إلا العصب وحده وهي ثياب موشاة تُعمل في اليمن، فهو مباح لها. وتجنب أيضاً فرضاً: الخضاب كُلُّه جملة، وتجنب: الامتشاط حاشا التسريح بالمشط فقط، فهو حلال لها، وتجنب أيضاً فرضاً: الطيب كُلُّه، ولا تقرب شيئاً حاشا شيئاً من قسط أو أظفار عند طهرها فقط، فهذه الخمسة التي ذكرها حكينا كلامه فيها بنصه.

سمعت مالك بن سليمان يقول: مات إبراهيم بن طهمان سنة ثمان وستين ومئة بمكة ولم يخلف مثله [تهذيب الكمال، (٥٧-٥٨)].

وقد أفتى الصحابة رضي الله عنهم بما هو مطابق لهذه النصوص، وكاشف عن معناها ومقصودها، فصَحَّ عن ابن عمر أنه قال: لا تكتحل، ولا تطيب، ولا تَحْتَضِب، ولا تلبس المعصر، ولا ثوباً مصبوغاً، ولا برداً، ولا تزين بحلي، ولا تلبس شيئاً تُريد به الزينة، ولا تكتحل بكحل تُريد به الزينة، إلا أن تشتكي عينها.

وصح عنه من طريق عبد الرزاق، عن سفيان الثوري، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر: ولا تمس المتوفى عنها طيباً، ولا تختضب ولا تكتحل، ولا تلبس ثوباً مصبوغاً إلا ثوب عصب تتجلبب به [عبد الرزاق: ١٢١١٥، والبيهقي (٧/٤٤٠)].

وصح عن أم عطية: لا تلبس الثياب المصبغة إلا العصب، ولا تمس طيباً إلا أدنى الطيب بالقسط والأظفار، ولا تكتحل بكحل زينة.

وصح عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: تجتنب الطيب والزينة.

وصح عن أم سلمة رضي الله عنها: لا تلبس من الثياب المصبغة شيئاً، ولا تكتحل، ولا تلبس حلياً، ولا تختضب، ولا تطيب.

وقالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: لا تلبس معصراً، ولا تُقرب طيباً، ولا تكتحل، ولا تلبس حلياً، وتلبس إن شاءت ثياب العصب.

فصل

(هل تجتنب الحادة النقاب)

وأما النقاب، فقال الخرقي في «مختصره»: وتجتنب الزوجة المتوفى عنها زوجها الطيب، والزينة، والبيتوتة في غير منزلها، والكحل بالإنمد، والنقاب. ولم أجد بهذا نصاً عن أحمد.

وقد قال إسحاق بن هانيء في «مسائله»: سألت أبا عبد الله عن المرأة تتجيب في عديتها، أو تدخن في عديتها؟ قال: لا بأس به، وإنما كرهة للمتوفى عنها زوجها أن تتزين. ولكن قد قال أبو داود في «مسائله»

وليس يعجب منه تحریم لبس ثوب أسود عليها من الزينة في شيء، وإباحة ثوب يتقد ذهباً ولؤلؤاً وجوهرأ، ولا تحریم المصبوغ الغليظ لحمل الوسخ، وإباحة الحرير الذي يأخذ بالعيون حسنه وبهاؤه وزواؤه، وإنما العجب منه أن يقول: هذا دين الله في نفس الأمر، وأنه لا يحل لأحد خلافه. وأعجب من هذا إقدامه على خلاف الحديث الصحيح في نهيه ﷺ لها عن لباس الحلي. وأعجب من هذا، أنه ذكر الخبر بذلك، ثم قال: ولا يصح ذلك، لأنه من رواية إبراهيم بن طهمان، وهو ضعيف، ولو صح لقلنا به، قلله ما لقي إبراهيم بن طهمان من أبي محمد بن حزم، وهو من الحفاظ الأثبات الثقات الذين اتفق الأئمة الستة على إخراج حديثه، واتفق أصحاب الصحيح، وفهم الشيخان على الاحتجاج بحديثه، وشهد له الأئمة بالثقة والصدق، ولم يحفظ عن أحد منهم فيه جرح ولا خدش، ولا يحفظ عن أحد من المحدثين قط تعليل حديث رواه، ولا تضعيفه به. وقرئ على شيخنا أبي الحجاج الحافظ في «التهذيب» وأنا أسمع: قال: إبراهيم بن طهمان بن سعيد الخراساني أبو سعيد الهروي، ولد بهراة، وسكن نيسابور وقدم بغداد، وحدث بها، ثم سكن بمكة حتى مات بها، ثم ذكر عن روى، ومن روى عنه، ثم قال: قال نوح بن عمرو بن المروزي: عن سفيان بن عبد الملك، عن ابن المبارك: صحيح الحديث، وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: عن أبيه، وأبي حاتم: ثقة، وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل، عن يحيى بن معين: لا بأس به، وكذلك قال العجلي، وقال أبو حاتم: صدوق حسن الحديث، وقال عثمان بن سعيد الدارمي: كان ثقة في الحديث، ثم لم تزل الأئمة يشتهون حديثه، ويرغبون فيه، ويوثقونه. وقال أبو داود: ثقة. وقال إسحاق بن راهويه: كان صحيح الحديث، حسن الرواية، كثير السماع، ما كان بخراسان أكثر حديثاً منه، وهو ثقة، وروى له الجماعة. وقال يحيى بن أكثم القاضي: كان من أبل من حدث بخراسان والعراق والحجاز، وأوثقهم، وأوسعهم علماً. وقال المسعودي:

عن المتوفى عنها زوجها، والمطلقة ثلاثاً، والمُحرمة: تجتنب الطيب والزينة. فجعل المتوفى عنها بمنزلة المُحرمة فيما تجتنبه، فظاهر هذا أنها تجتنب النقاب، فلعل أبا القاسم أخذ من نصه هذا - والله أعلم - وبهذا علله أبو محمد في «المغني» فقال: الفصل الثالث: فيما تجتنبه الحادة النقاب، وما في معناه مثل البرقع ونحوه، لأن المعتدة مشبهة بالمُحرمة، والمحرمة تمتنع من ذلك. وإذا احتاجت إلى ستر وجهها، سددت عليه كما تفعل المحرمة.

فصل

(هل تلبس الحادة الثوب إذا صبغ غزله ثم نسج؟)

فإن قيل: فما تقولون في الثوب إذا صبغ غزله ثم نسج، هل لها لبسه؟ قيل: فيه وجهان، وهما احتمالان في المغني أحدهما: يحرم لبسه، لأنه أحسن وأرفع، ولأنه مصبوغ للحسن، فأشبه ما صبغ بعد نسجه، والثاني: لا يحرم لقول رسول الله ﷺ في حديث أم سلمة رضي الله عنها: «إِلَّا تَوْبَ عَصَبٍ»، وهو ما صبغ غزله قبل نسجه، ذكره القاضي، قال الشيخ: والأول أصح، وأما العصب: فالصحيح: أنه نبت تصبغ به الثياب، قال السهيلي: الورس والعصب نبتان باليمن لا يبتتان إلا به، فأرخص النبي ﷺ للحادة في لبس ما يصبغ بالعصب، لأنه في معنى ما يصبغ لغير تحسين، كالأحمر والأصفر، فلا معنى لتجويز لبسه مع حصول الزينة بصبغه، كحصولها بما صبغ بعد نسجه. والله أعلم.

ذَكَرُ حَكَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْإِسْتِبْرَاءِ

ثَبِتَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»: مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ بَعَثَ جَيْشًا إِلَى أَوْطَاسٍ، فَلَقِيَ عَدُوًّا، فَقَاتَلُوهُمْ، فَظَهَرُوا عَلَيْهِمْ، وَأَصَابُوا سَبَايَا، فَكَانَ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَحَرَّجُوا مِنْ غَشْيَانِهِمْ مِنْ أَجْلِ أَزْوَاجِهِمْ مِنَ الْمَشْرِكِينَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلِكَ: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْكَسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]، أَي: فَهِنَّ لَكُمْ حَلَالٌ إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ [مسلم: ٣٦٠٨].

وَفِي «صَحِيحِهِ» أَيْضًا: مِنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِامْرَأَةٍ مُجْعٍ عَلَى بَابِ قُسْطَاطٍ، فَقَالَ: «لَعَلَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُلِمَّ بِهَا». فَقَالُوا: نَعَمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَلْعَنَهُ لَعْنًا يَدْخُلُ مَعَهُ قَبْرُهُ، كَيْفَ يُورَثُهُ وَهُوَ لَا يَحِلُّ لَهُ، كَيْفَ يَسْتَخْدِمُهُ وَهُوَ لَا يَحِلُّ لَهُ» [مسلم: ٣٥٦٢].

وَفِي التِّرْمِذِيِّ: مِنْ حَدِيثِ عِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَرَّمَ وَطْءَ السَّبَايَا حَتَّى يَضَعْنَ مَا فِي بُطُونِهِنَّ [حسن: أحمد: ٥١٩٦، والتِّرْمِذِيُّ: ١٥٦٤].

وَفِي «الْمُسْنَدِ»، وَ«سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ»: مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي سَبَايَا أَوْطَاسٍ: «لَا تَوَطُّأُ حَامِلٌ حَتَّى تَضَعَ، وَلَا غَيْرُ ذَاتِ حَمْلٍ حَتَّى تَحِيضَ حَيْضَةً» [حسن: أحمد: ١٨٢٣، وَأَبُو دَاوُدَ: ٢١٥٧].

وَفِي التِّرْمِذِيِّ: مِنْ حَدِيثِ رُوَيْفِعِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلَا يَسْقِي مَاءَهُ وَلَدَ غَيْرِهِ» [صحيح: أحمد: ١٦٩٩١، وَأَبُو دَاوُدَ: ٢١٥٨، والتِّرْمِذِيُّ: ١١٣١]. قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَلِأَبِي دَاوُدَ، مِنْ حَدِيثِهِ أَيْضًا: «لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَقَعَ عَلَى امْرَأَةٍ مِنَ السَّبَايَا حَتَّى يَسْتَبْرَأَ».

وَلِأَحْمَدَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَنْكِحَنَّ نَيْبًا مِنَ السَّبَايَا حَتَّى تَحِيضَ».

وَذَكَرَ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»: قَالَ ابْنُ عُمَرَ: إِذَا وَهَبَتْ الْوَلِيدَةُ الَّتِي تَوَطُّأُ، أَوْ بَيْعَتْ، أَوْ عْتَقَتْ، فَلْتَسْتَبْرَأَ بِحَيْضَةٍ، وَلَا تُسْتَبْرَأَ الْعَذْرَاءُ [البخاري قبل حديث: ٢٢٣٥، وتعليقًا].

وَذَكَرَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ طَاوُسٍ: أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنَادِيًّا فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ: «لَا يَقَعَنَّ رَجُلٌ عَلَى حَامِلٍ، وَلَا حَامِلٍ حَتَّى تَحِيضَ» [«المصنف»: ١٢٩٠٣].

وَذَكَرَ عَنْ سَفْيَانَ الشُّوَرِيِّ: عَنْ زَكَرِيَّا، عَنْ الشَّعْبِيِّ، قَالَ: أَصَابَ الْمُسْلِمُونَ سَبَايَا يَوْمَ أَوْطَاسٍ، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ لَا يَقَعُوا عَلَى حَامِلٍ حَتَّى تَضَعَ، وَلَا عَلَى غَيْرِ حَامِلٍ حَتَّى تَحِيضَ [عبد الرزاق: ١٢٩٠٤].

فصل

فتضمنت هذه السنن أحكاماً عديدة:

(لا يجوز وطء المسبية حتى يعلم براءة رحمها)

أحدها: أنه لا يجوز وطء المسبية حتى يُعلم براءة رحمها، فإن كانت حاملاً فبوضع حملها، وإن كانت حائلاً فبأن تحيضَ حيضة. فإن لم تكن من ذوات الحيض، فلا نص فيهما، واختلف فيها وفي البكر، وفي التي يُعلم براءة رحمها بأن حاضت عند البائع، ثم باعها عقيبَ الحيض ولم يطأها، ولم يُخرجها عن ملكه، أو كانت عند امرأة وهي مصونة، فانتقلت عنها إلى رجل، فأوجب الشافعي وأبو حنيفة وأحمد الاستبراء في ذلك كله، أخذاً بعموم الأحاديث، واعتباراً بالعدة حيث تجب مع العلم ببراءة الرحم، واحتجاجاً بآثار الصحابة، كما ذكر عبد الرزاق: حدثنا ابن جريج، قال: قال عطاء: تداول ثلاثة من التجار جارية، فولدت، فدعا عمر بن الخطاب رضي الله عنه القافة، فالحقوا ولدها بأحدهم، ثم قال عمر رضي الله عنه: من ابتاع جارية قد بلغت المحيض، فليترى بها حتى تحيض، فإن كانت لم تحض، فليترى بها خمساً وأربعين ليلة [عبد الرزاق: ١٢٨٨٤-١٢٨٩٦].

قالوا: وقد أوجب الله العدة على من يشت من المحيض، وعلى من لم تبلغ سن المحيض، وجعلها ثلاثة أشهر، والاستبراء عدة الأمة، فيجب على الآيسة، ومن لم تبلغ سن المحيض.

وقال آخرون: المقصود من الاستبراء العلم ببراءة الرحم، فحيث يقن المالك براءة رحم الأمة، فله وطؤها ولا استبراء عليه، كما رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنه قال: إذا كانت الأمة عذراء لم يستبرئها إن شاء، وذكره البخاري في «صحيحه» عنه^(١).

وذكر حماد بن سلمة، حدثنا علي بن زيد، عن أيوب بن عبد الله اللخمي، عن ابن عمر قال: وقعت في سهمي جارية يوم جلولاء، كأن عُنُقها إبريق فضة،

قال ابن عمر: فما ملكت نفسي أن جعلت أقبليها والناس ينظرون^(٢).

ومذهب مالك إلى هذا يرجع، وهاك قاعدته وفروعها: قال أبو عبد الله المازري وقد عقد قاعدة لباب الاستبراء فنذكرها بلفظها:

والقول الجامع في ذلك: أن كل أمة آمن عليها الحمل، فلا يلزم فيها الاستبراء، وكل من غلب على الظن كونها حاملاً، أو شك في حملها، أو تردد فيه، فلا استبراء لازم فيها، وكل من غلب الظن ببراءة رحمها، لكنه مع الظن الغالب يجوز حصوله، فإن المذهب على قولين في ثبوت الاستبراء وسقوطه.

ثم خرج على ذلك فروغ المختلفة فيها، كاستبراء الصغيرة التي تُطبق الوطء، والآيسة، وفيه روايتان عن مالك، قال صاحب «الجواهر»: ويجب في الصغيرة إذا كانت ممن قارب سن الحمل، كبنات ثلاث عشرة، أو أربع عشرة، وفي إيجاب الاستبراء إذا كانت ممن تُطبق الوطء، ولا يُحِيلُ مثلها كبنات تسع وعشر، روايتان، أثبت في رواية ابن القاسم، ونفاه في رواية ابن عبد الحكم، وإن كانت ممن لا يُطبق الوطء، فلا استبراء فيها. قال: ويجب الاستبراء فيمن جاوزت سن الحيض، ولم تبلغ سن الآيسة، مثل ابنة الأربعين والخمسين. وأما التي قعدت عن المحيض، ويشت عنه، فهل يجب فيها الاستبراء، أو لا يجب؟ روايتان لابن القاسم، وابن عبد الحكم. قال المازري: ووجه استبراء الصغيرة التي تُطبق الوطء والآيسة، أنه يُمكن فيهما الحمل على الندور، أو ليحماية الذريعة، لئلا يدعى في مواضع الإمكان أن لا إمكان.

قال: ومن ذلك استبراء الأمة خوفاً أن تكون زنت، وهو المعبر عنه بالاستبراء لسوء الظن، وفيه قولان، والنفي لأشهب.

قال: ومن ذلك استبراء الأمة الوحش، فيه قولان، الغالب: عدم وطء السادات لهن، وإن كان يقع في النادر.

(١) تقدم قريباً.

(٢) علي بن زيد وهو ابن جدعان ضعيف، وأيوب بن عبد الله اللخمي مجهول.

ومن ذلك استبراء مَنْ باعها مجبوبةً، أو امرأة، أو ذو محرم، ففي وجوبه روايتان عن مالك.

ومن ذلك استبراء المكاتب إذا كانت تتصرف ثم عجزت، فرجعت إلى سيدها، فابن القاسم يُثبِت الاستبراء، وأشهبُ ينفيه.

ومن ذلك استبراء البكر، قال أبو الحسن اللخمي: هو مستحب على وجه الاحتياط غير واجب، وقال غيره من أصحاب مالك: هو واجب.

ومن ذلك إذا استبرأ البائع الأمة، وعلم المشتري أنه قد استبرأها، فإنه يُجزى استبراء البائع عن استبراء المشتري.

ومن ذلك إذا أودعه أمة، فحاضت عند المودع حيضة، ثم استبرأها، لم يحتج إلى استبراء ثانٍ، وأجزاء تلك الحيضة عن استبرائها، وهذا بشرط أن لا تخرج، ولا يكون سيدها يدخل عليها.

ومن ذلك أن يشتريها من زوجته، أو ولد له صغير في عياله وقد حاضت عند البائع، فابن القاسم يقول: إن كانت لا تخرج، أجزاء ذلك، وأشهبُ يقول: إن كان مع المشتري في دار وهو الذائب عنها، والناظر في أمرها، أجزاء ذلك، سواء كانت تخرج أو لا تخرج.

ومن ذلك: إن كان سيد الأمة غائباً، فحين قدم، اشتراها منه رجل قبل أن تخرج، أو خرجت وهي حائض، فاشترها قبل أن تطهر، فلا استبراء عليه.

ومن ذلك إذا بيعت وهي حائض في أول حيضها، فالمشهور من مذهبه أن ذلك يكون استبراء لها لا يحتاج إلى حيضة مستأنفة.

ومن ذلك: الشريك يشتري نصيب شريكه من الجارية وهي تحت يد المشتري منهما، وقد حاضت في يده، فلا استبراء عليه.

وهذه الفروع كلها من مذهبه تُنبئ عن مأخذه في الاستبراء، وأنه إنما يجب حيث لا يعلم ولا يُظن براءة الرحم، فإن علمت أو ظنت، فلا استبراء، وقد قال أبو العباس بن سريج وأبو العباس بن تيمية: إنه لا يجب استبراء البكر، كما صح عن ابن عمر رضي الله عنهما، وبقولهم نقول، وليس عن النبي ﷺ نص عام في وجوب استبراء كل من تجدد له عليها ملك على أي حالة كانت، وإنما نهى عن وطء السبايا

حتى تضع حواملهن، وتحيض حواملهن. فإن قيل: فعمومه يقتضي تحريم وطء أبكارهن قبل الاستبراء، كما يمتنع وطء الثيب؟

قيل: نعم، وغايته أنه عموم أو إطلاق ظهر القصد منه، فيخص أو يُقيد عند انتفاء موجب الاستبراء، ويخص أيضاً بمفهوم قوله ﷺ في حديث روي عن: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَنْكِحُ ثَيِّبًا مِنَ السَّبَايَا حَتَّى تَحِيضَ». ويخص أيضاً بمذهب الصحابي، ولا يعلم له مخالف.

وفي «صحيح البخاري»: من حديث بريدة، قال: بعث رسول الله ﷺ علياً رضي الله عنه إلى خالد - يعني: باليمن - ليقبض الخُمُسَ، فاصطفى علياً منها سبيّةً، فأصبح وقد اغتسل، فقلت لخالد: أما ترى إلى هذا؟ وفي رواية: فقال خالد لبريدة: ألا ترى ما صنّع هذا؟ قال بريدة: وَكُنْتُ أَبْغِضُ عَلِيًّا رضي الله عنه، فلما قدمنا إلى النبي ﷺ، ذكرت ذلك له، فقال: «يَا بُرَيْدَةُ أَتُبْغِضُ عَلِيًّا؟ قلت: نعم، قال: «لَا تُبْغِضُهُ فَإِنَّ لَهُ فِي الْخُمُسِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ» [البخاري: 4350]. فهذه الجارية إما أن تكون بكرًا فلم ير علي وجوب استبرائها، وإما أن تكون في آخر حيضها، فاكتفى بالحيضة قبل تملكه لها. ويكل حال، فلا بد أن يكون تحقق براءة رحمها بحيث أغناه عن الاستبراء.

فإذا تأملت قول النبي ﷺ حق التأمل، وجدت قوله: «وَلَا تُؤْطَأُ حَامِلٌ حَتَّى تَضَعَ، وَلَا غَيْرُ ذَاتِ حَمْلٍ حَتَّى تَحِيضَ»، ظهر لك منه أن المراد بغير ذات الحمل مَنْ يجوز أن تكون حاملاً، وأن لا تكون، فيمسك عن وطئها مخافة الحمل، لأنه لا علم له بما اشتمل عليه رحمها، وهذا قاله في المسبيات لعدم علم السابي بحالهن.

(عدة أم الولد)

وعلى هذا فكُلُّ مَنْ ملك أمة لا يعلم حالها قبل الملك، هل اشتمل رحمها على حمل أم لا؟ لم يطأها حتى يستبرئها بحيضة، هذا أمر معقول، وليس بتعبد محض لا معنى له، فلا معنى لاستبراء العذراء والصغيرة التي لا يحتمل مثلها، والتي اشتراها من أمراته وهي في بيته لا تخرج أصلاً، ونحوها ممن

مات رجل عن زوجته الأمة، فعتقت بعد موته، فليست هذه رواية إسحاق بن منصور عن أحمد.

قال أبو بكر عبد العزيز في «زاد المسافر»: باب القول في عدة أم الولد من الطلاق والوفاة. قال أبو عبد الله في رواية ابن القاسم: إذا مات السيد وهي عند زوج، فلا عدة عليها، كيف تعتد وهي مع زوجها؟ وقال في رواية مهنا: إذا اعتق أم الولد، فلا يتزوج أختها حتى تخرج من عدتها. وقال في رواية إسحاق بن منصور: وعدة أم الولد عدة الأمة في الوفاة والطلاق والفرقة، انتهى كلامه.

وحجة من قال: عدتها أربعة أشهر وعشر، ما رواه أبو داود عن عمرو بن العاص، أنه قال: لا تُقيدوا علينا سنة نبينا محمد ﷺ، عدة أم الولد إذا توفي عنها سبعا أربعة أشهر وعشر [أبو داود: ٢٣٠٨]. وهذا قول السعديين، ومحمد بن سيرين، ومجاهد، وعمر بن عبد العزيز، وخلاس بن عمرو، والزهري، والأوزاعي، وإسحاق. قالوا: لأنها حرة تعتد للوفاة، فكانت عدتها أربعة أشهر وعشر، كالزوجة الحرة.

وقال عطاء، والنخعي، والثوري، وأبو حنيفة، وأصحابه: تعتد بثلاث حيض، وحكي عن علي، وابن مسعود، قالوا: لأنها لا بد لها من عدة، وليست زوجة، فتدخل في آية الأزواج المتوفى عنهن، ولا أمة، فتدخل في نصوص استبراء الإماء بحيضة، فهي أشبه شيء بالمطلقة، فتعتد بثلاثة أقراء.

والصواب من هذه الأقوال: أنها تُستبرأ بحيضة، وهو قول عثمان بن عفان، وعائشة، وعبد الله بن عمر، والحسن، والشعبي، والقاسم بن محمد، وأبي قلاب، ومكحول، ومالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل في أشهر الروايات عنه، وهو قول أبي عبيد، وأبي ثور، وابن المنذر، فإن هذا إنما هو لمجرد الاستبراء لزوال الملك عن الرقية، فكان حيضة واحدة في حق من تحيض، كسائر استبراءات المعتقات، والمملوكات، والمسيبات. وأما حديث عمرو بن العاص، فقال ابن المنذر: ضعف أحمد وأبو عبيد حديث عمرو بن العاص. وقال محمد بن موسى: سألت أبا عبد الله عن حديث عمرو بن

يُعلم براءة رحمها، فكذلك إذا زنت المرأة وأرادت أن تتزوج، استبرأها بحيضة، ثم تزوجت، وكذلك إذا زنت وهي مزوجة، أمسك عنها زوجها حتى تحيض حيضة، وكذلك أم الولد إذا مات عنها سيدها، اعتدت بحيضة.

قال عبد الله بن أحمد: سألت أبي: كم عدة أم الولد إذا توفي عنها مولاه أو أعتقها؟ قال: عدتها حيضة، وإنما هي أمة في كل أحوالها، إن جنت فعلى سيدها قيمتها، وإن جُنِيَ عليها فعلى الجاني ما نقص من قيمتها، وإن ماتت، فما تركت من شيء فليسيدها، وإن أصابت حداً فحد أمة، وإن زوجها سيدها فما ولدت، فهم بمنزلتها يُعتقون بعثتها، ويُرقون برقها.

وقد اختلف الناس في عدتها، فقال بعض الناس: أربعة أشهر وعشر، فهدء عدة الحرة، وهذه عدة أمة خرجت من الرق إلى الحرية، فيلزم من قال: أربعة أشهر وعشر أن يُورثها، وأن يجعل حكمها حكم الحرة، لأنه قد أقامها في العدة مقام الحرة. وقال بعض الناس: عدتها ثلاث حيض، وهذا قول ليس له وجه، إنما تعتد ثلاث حيض المطلقة، وليست هي بمطلقة ولا حرة، وإنما ذكر الله العدة فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَثَمَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وليست أم الولد بحرة ولا زوجة، فتعتد بأربعة أشهر وعشر. قال: ﴿وَالطَّلَقُ ثَلَاثٌ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وإنما هي أمة خرجت من الرق إلى الحرية، وهذا لفظ أحمد رحمه الله.

وكذلك قال في رواية صالح: تعتد أم الولد إذا توفي عنها مولاه، أو أعتقها بحيضة، وإنما هي أمة في كل أحوالها.

وقال في رواية محمد بن العباس: عدة أم الولد أربعة أشهر وعشر إذا توفي عنها سيدها.

وقال الشيخ في «المغني»: وحكى أبو الخطاب رواية ثالثة عن أحمد: أنها تعتد بشهرين وخمسة أيام. قال: ولم أجد هذه الرواية عن أحمد رحمه الله في «الجامع»، ولا أظنها صحيحة عن أحمد رحمه الله، وروي ذلك عن عطاء وطاوس وقتادة، لأنها حين الموت أمة، فكانت عدتها عدة الأمة، كما لو

العاصي، فقال: لا يصح. وقال الميموني: رأيت أبا عبد الله يعجب من حديث عمرو بن العاص هذا، ثم قال: أين سنة رسول الله ﷺ في هذا؟ وقال: أربعة أشهر وعشراً إنما هي عدة الحرة من النكاح، وإنما هذه أمة خرجت من الرق إلى الحرية، ويلزم من قال بهذا أن يورثها، وليس لقول من قال: تعتد ثلاث حيض وجه، إنما تعتد بذلك المطلقة، انتهى كلامه.

وقال المنذري: في إسناده حديث عمرو: مطر بن طهمان أبو رجاء الوراق، وقد ضعفه غير واحد، وأخبرنا شيخنا أبو الحجاج الحافظ في كتاب «التهذيب» قال أبو طالب: سألت أحمد بن حنبل عن مطر الوراق. فقال: كان يحيى بن سعيد يضعف حديثه عن عطاء، وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سألت أبي عن مطر الوراق، قال: كان يحيى بن سعيد يشبه حديث مطر الوراق بآب أبي ليلى في سوء الحفظ، قال عبد الله: فسألت أبي عنه؟ فقال: ما أقرب من ابن أبي ليلى في عطاء خاصة، وقال: مطر في عطاء: ضعيف الحديث، قال عبد الله: قلت ليحيى بن معين: مطر الوراق؟ فقال: ضعيف في حديث عطاء بن أبي رباح، وقال النسائي: ليس بالقوي. وبعد، فهو ثقة، قال أبو حاتم الرازي: صالح الحديث، وذكره ابن حبان في كتاب الثقات، واحتج به مسلم. فلا وجه لضعف الحديث به^(١).

وإنما علة الحديث أنه من رواية قبيصة بن ذؤيب، عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، ولم يسمع منه، قاله الدارقطني: وله علة أخرى، وهي أنه موقوف لم يقل: لا تلبسوا علينا سنة نبينا. قال الدارقطني: والصواب: تلبسوا علينا ديننا. موقوف. وله علة أخرى، وهي اضطراب الحديث، واختلافه عن عمرو على ثلاثة أوجه: أحدها: هذا والثاني: عدة أم الولد عدة الحرة. والثالث: عدتها إذا توفي عنها سيدها أربعة أشهر وعشراً، فإذا اعتقت، فعدتها ثلاث حيض، والأقوال الثلاثة عنه ذكرها البيهقي. قال الإمام أحمد: هذا حديث منكر. حكاه البيهقي عنه، وقد روى خلاس، عن علي مثل رواية قبيصة عن عمرو: أن عدة أم الولد

أربعة أشهر وعشر، ولكن خلاس بن عمرو قد تكلم في حديثه، فقال أيوب: لا يروى عنه، فإنه صحفي، وكان مغيرة لا يُعْبَأُ بحديثه. وقال أحمد: روايته عن علي يقال: إنه كتاب، وقال البيهقي: روايات خلاس عن علي ضعيفة عند أهل العلم بالحديث، فقال: هي من صحيفة. ومع ذلك فقد روى مالك، عن نافع، عن ابن عمر في أم الولد يُتوفى عنها سيدها، قال: تعتد بحيضة [مالك (٢/ ٥٩٣)، وعبد الرزاق: ١٢٨٧٠]. فإن ثبت عن علي وعمرو ما روي عنهما، فهي مسألة نزاع بين الصحابة، والدليل هو الحاكم، وليس مع من جعلها أربعة أشهر وعشراً إلا التعلق بعموم المعنى، إذ لم يكن معهم لفظ عام، ولكن شرط عموم المعنى تساوي الأفراد في المعنى الذي ثبت الحكم لأجله، فما لم يعلم ذلك لا يتحقق الإلحاق، والذين ألحقوا أم الولد بالزوجة رأوا أن الشبه الذي بين أم الولد وبين الزوجة أقوى من الشبه الذي بينها وبين الأمة من جهة أنها بالموت صارت حرة، فلزمتها العدة مع حرمتها، بخلاف الأمة، ولأن المعنى الذي جعلت له عدة الزوجة أربعة أشهر وعشراً، موجود في أم الولد، وهو أدنى الأوقات الذي يتيقن فيها خلق الولد، وهذا لا يفترق الحال فيه بين الزوجة وأم الولد، والشرعة لا تفرق بين متماثلين، ومنازعوهم يقولون: أم الولد أحكامها أحكام الإماء، لا أحكام الزوجات، ولهذا لم تدخل في قوله: ﴿وَلَكُمْ نِسَاءٌ مَا تَرَكَ آبَاؤُكُمْ﴾ [النساء: ١٢]، وغيرها، فكيف تدخل في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ آبَاؤَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٤]؟ قالوا: والعدة لم تجعل أربعة أشهر وعشراً لأجل مجرد براءة الرحم، فإنها تجب على من يتيقن براءة رحمها، وتجب قبل الدخول والخلو، فهي من حريم عقد النكاح وتماه.

وأما استبراء الأمة، فالمقصود منه العلم ببراءة رحمها، وهذا يكفي فيه حيضة، ولهذا لم يجعل استبراءها ثلاثة قروء، كما جعلت عدة الحرة كذلك تطويلاً لزمان الرجعة، ونظراً للزوج، وهذا المعنى

(١) كيف وقد ضعفه غير واحد، وأبانونا عن علة ضعفه بأنه كثير الخطأ، وكونه ممن احتج به مسلم لا يفيد توثيقه كما هو معلوم لكل من مارس هذا العلم.

لهم: فيكون الاعتماد عليهم حينئذ على بعض الحيضة، وليس ذلك قرأً عند أحد؟ فإن قالوا: هو اعتماد على بعض حيضة وطهر. قلنا: هذا قول ثالث في مسمى القروء، ولا يعرف، وهو أن تكون حقيقته مركبة من حيض وطهر.

فإن قالوا: بل هو اسم للطهر بشرط الحيض. فإذا انتفى الشرط، انتفى المشروط، قلنا: هذا إنما يمكن لو علق الشارع الاستبراء بقرء، فأما مع تصريحه على التعليق بحيضة، فلا.

فصل

(لا يحصل ببعض حيضة في بد المشتري اكتفاء بها)
الحكم الثالث: أنه لا يحصل ببعض حيضة في بد المشتري اكتفاء بها. قال صاحب «الجواهر»: فإن بيعت الأمة في آخر أيام حيضها، لم يكن ما بقي من أيام حيضها استبراء لها من غير خلاف، وإن بيعت وهي في أول حيضتها، فالمشهور من المذهب أن ذلك يكون استبراء لها.

وقد احتج من نازع مالكا بهذا الحديث، فإنه علق الحل بحيضة، فلا بُدَّ من تمامها، ولا دليل فيه على بطلان قوله، فإنه لا بُدَّ من الحيضة بالاتفاق، ولكن النزاع في أمر آخر، وهو أنه هل يشترط أن يكون جميع الحيضة وهي في ملكه، أو يكفي أن يكون معظمها في ملكه، فهذا لا ينفيه الحديث، ولا يُثبت، ولكن لما نزاعه أن يقولوا: لما اتفقتنا على أنه لا يكفي أن يكون بعضها في ملك المشتري، وبعضها في ملك البائع إذا كان أكثرها عند البائع، علم أن الحيضة المعتبرة أن تكون وهي عند المشتري، ولهذا لو حاضت عند البائع، لم يكن ذلك كافياً في الاستبراء. ومن قال بقول مالك، يُجيب عن هذا بأنها إذا حاضت قبل البيع وهي مودعة عند المشتري، ثم باعها عقيب الحيضة، ولم تخرج من بيته، اكتفي بتلك الحيضة، ولم يجب على المشتري استبراء ثان، وهذا أحد القولين في مذهب مالك كما تقدم، فهو يجوز أن يكون الاستبراء واقعاً قبل البيع في صور، منها: هذه.

ومنها: إذا وضعت للاستبراء عند ثالث، فاستبرأها، ثم بيعت بعده. قال في «الجواهر»: ولا يجزىء الاستبراء قبل البيع إلا في حالات، منها: أن

مقصود في المستبراء، فلا نص يقتضي إلحاقها بالزوجات ولا معنى، فأولى الأمور بها أن يُشرع لها ما شرعه صاحب الشرع في المسيات والمملوكات، ولا تتعدها، وبالله التوفيق.

فصل

(لا يحصل استبراء المسبية بطهر بل لا بد من حيضة)
الحكم الثاني: أنه لا يحصل الاستبراء بطهر البتة، بل لا بُدَّ من حيضة، وهذا قول الجمهور، وهو الصواب، وقال أصحاب مالك والشافعي في قول له: يحصل بطهر كامل، ومتى طعت في الحيضة، تم استبرأؤها بناء على قولهما: إن الأقراء: الأطهار، ولكن يرُدُّ هذا، قول رسول الله ﷺ: «لَا تُوطَأُ حَامِلٌ حَتَّى تَضَعَ، وَلَا حَائِلٌ حَتَّى تُسْتَبْرَأَ بِحَيْضَةٍ». وقال زُوفِع بن ثابت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول يوم حنين: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَطَأُ جَارِيَةً مِنَ السَّبْيِ حَتَّى يُسْتَبْرَأَ بِحَيْضَةٍ». رواه الإمام أحمد وعنده فيه ثلاثة ألفاظ: هذا أحدها.

الثاني: نهى رسول الله ﷺ أن لا توطأ الأمة حتى تحيض، وعن الخبالي حتى تضعن.

الثالث: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَنْكِحَنَّ نِكَاحًا مِنَ السَّبَا حَتَّى تَحِيضَ» [صحيح: أحمد: 16998]. فعلق الحل في ذلك كله بالحيض وحده لا بالطهر، فلا يجوز إلغاء ما اعتبره، واعتبار ما ألغاه، ولا تعويل على ما خالف نصه، وهو مقتضى القياس المحض، فإن الواجب هو الاستبراء، والذي يدل على البراءة هو الحيض، فأما الطهر، فلا دلالة فيه على البراءة، فلا يجوز أن يُعَوَّلَ في الاستبراء على ما لا دلالة له فيه عليه دون ما يدل عليه، وبناءً على هذا على أن الأقراء هي الأطهار، بناء على الخلاف للخلاف، وليس بحجة ولا شبهة، ثم لم يُمكنهم بناء هذا على ذلك حتى خالفوه، فجعلوا الطهر الذي طلقها فيه قرأً، ولم يجعلوا طهر المستبراء التي تجدد عليها الملك فيه، أو مات سيدها فيه قرأً، وحتى خالفوا الحديث أيضاً، كما تبين، وحتى خالفوا المعنى كما بيناه، ولم يُمكنهم هذا البناء إلا بعد هذه الأنواع الثلاثة من المخالفة، وغاية ما قالوا: أن بعض الحيضة المقترن بالطهر يدل على البراءة، فيقال

زَرْعَ غَيْرِهِ، وهذا يَعْمُ الزَّرْعُ الطيب والخبيث، ولأن صيانة ماء الواطئ عن الماء الخبيث حتى لا يختلط به أولى من صيانته عن الماء الطيب، ولأن حمل الزاني وإن كان لا حُرْمَة له، ولا لِمائِهِ، فحملُ هذا الواطئ وماؤه محترم، فلا يجوزُ له خلطه بغيره، ولأن هذا مخالف لسنة الله في تمييز الخبيث من الطيب، وتخليصه منه، وإلحاق كل قسم بمجانسه ومشاكله.

والذي يقضي منه العجب، تجويزُ من جوز من الفقهاء الأربعة العقد على الزانية قبل استبائها ووطئها عقِبَ العقد، فتكون الليلة عند الزاني وقد عقلت منه، واللييلة التي تليها فراشاً للزوج.

ومن تأمل كمال هذه الشريعة، علم أنها تأتي ذلك كُلُّ الإباء، وتَمْنَعُ منه كُلُّ المنع.

(تحريم نكاح الزانية)

ومن محاسن مذهب الإمام أحمد: أن حرَمَ نكاحها بالكُلية حتى تتوب، ويرتفع عنها اسمُ الزانية والبغْيُ والفاجرة، فهو رحمه الله لا يجوز أن يكون الرجل زوجَ بغي، ومنازعهو يجوزون ذلك، وهو أسعدُ منهم في هذه المسألة بالأدلة كُلُّها من النصوص والآثار، والمعاني والقياس، والمصلحة والحكمة، وتحريم ما رآه المسلمون قبيحاً. والناس إذا بالغوا في سبِّ الرجل صرَّحو له بالزاني والقاف، فكيف تجوز الشريعةُ مثل هذا، مع ما فيه من تعرُّضه لإفساد فراشه، وتعليق أولاد عليه من غيره، وتعرضه للاستمراء المذموم عند جميع الأمم؟ وقياس قول من جوَّزَ العقد على الزانية ووطئها قبل استبائها حتى لو كانت حاملاً، أن لا يوجب استبراء الأمة إذا كانت حاملاً من الزنى، بل يطوُّها عقيب ملكها، وهو مخالفٌ لصريح السنة. فإن أوجب استبراءها، نقض قوله بجواز وطء الزانية قبل استبائها، وإن لم يوجب استبراءها، خالف النصوص، ولا ينفعه الفرق بينهما، بأن الزوج لا استبراء عليه، بخلاف السيد، فإن الزوج إنما لم يجب عليه الاستبراء، لأنه لم يعقد على معتدة، ولا حامل من غيره بخلاف السيد، ثم إن الشارع إنما حرم الوطء، بل العقد في العدة خشية إمكان الحمل، فيكون واطئاً حاملاً من غيره، وساقياً

تكون تحت يده للاستبراء، أو بالوديعة، فتحيضُ عنده، ثم يشتريها حينئذ، أو بعد أيام، وهي لا تخرُجُ، ولا يدخل عليها سيدها.

ومنها: أن يشتريها ممن هو ساكن معه من زوجته، أو ولده صغير في عياله، وقد حاضت، فابن القاسم يقول: إن كانت لا تخرج أجزاه ذلك. وقال أشهب: إن كانت معه في دار وهو الذَّاب عنها، والناظرُ في أمرها، فهو استبراء، سواء كانت تخرُجُ أو لا تخرُجُ. ومنها: إذا كان سيدها غائباً، فحين قدم استبرأها قبل أن تخرُجُ، أو خرجت وهي حائض، فاشترها منه قبل أن تطهر.

ومنها: الشريك يشتري نصيب شريكه من الجارية وهي تحت يد المشتري منهما، وقد حاضت في يده. وقد تقدمت هذه المسائل، فهذه وما في معناها تضمنت الاستبراء قبل البيع، واكتفى به مالك عن استبراء ثان.

فإن قيل: فكيف يجتمع قوله هذا، وقوله: إن الحيضة إذا وجد معظمها عند البائع لم يكن استبراء؟ قيل: لا تنافضُ بينهما، وهذه لها موضع وهذه لها موضع، فكل موضع يحتاج فيه المشتري إلى استبراء مستقل لا يُجزئ إلا حيضة لم يوجد معظمها عند البائع، وكل موضع لا يحتاج فيه إلى استبراء مستقل لا يحتاج فيه إلى حيضة ولا بعضها، ولا اعتبار بالاستبراء قبل البيع، كهذه الصور ونحوها.

فصل

(استبراء المسبية الحامل بوضع الحمل)

الحكم الرابع: أنها إذا كانت حاملاً، فاستبرأها بوضع الحمل، وهذا كما أنه حكم النص، فهو مجمع عليه بين الأمة.

فصل

(لا يجوز وطء المسبية الحامل قبل وضع حملها)

الحكم الخامس: أنه لا يجوزُ ووطئها قبل وضع حملها، أي حمل كان، سواء كان يلحق بالواطئ، كحمل الزوجة والمملوكة، والموطوءة بشبهة، أو لا يلحق به، كحمل الزانية، فلا يحل وطء حامل من غير الواطئ البتة، كما صرح به النص، وكذلك قوله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَسْفِي مَاءَهُ»

جدير باللعن، بل قد صرح جماعة من الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم: بأن الرجل إذا ملك زوجته الأمة، لم يطأها حتى يستبرئها خشية أن تكون حاملاً منه في صلب النكاح، فيكون على ولده الولاء لموالي أمه بخلاف ما علقت به في ملكه، فإنه لا ولاء عليه، وهذا كله احتياط لولده: هل هو صريح الحرية لا ولاء عليه، أو عليه ولاء؟ فكيف إذا كانت حاملاً من غيره؟

فصل

(لا تحيض الحامل)

الحكم السادس: استنبط من قوله: «لَا تُوطَأُ حَامِلٌ حَتَّى تَضَع» وَلَا حَائِلٌ حَتَّى تُسْتَبْرَأَ بِحَيْضَةٍ، أن الحامل لا تحيض، وأن ما تراه من الدم يكون دم فساد بمنزلة الاستحاضة، تصوم وتصلّي، وتطوف بالبيت، وتقرأ القرآن، وهذه مسألة اختلف فيها الفقهاء، فذهب عطاء والحسن، وعكرمة ومكحول، وجابر بن زيد، ومحمد بن المنكدر، والشعبي، والنخعي، والحكم، وحمام، والزهري، وأبو حنيفة وأصحابه، والأوزاعي، وأبو عبيد، وأبو ثور، وابن المنذر، والإمام أحمد في المشهور من مذهبه، والشافعي في أحد قوله: إلى أنه ليس دم حيض.

وقال قتادة، وربيعة، ومالك، والليث بن سعد، وعبد الرحمن بن مهدي، وإسحاق بن راهويه: إنه دم حيض، وقد ذكره البيهقي في «سننه»، وقال إسحاق بن راهويه: قال لي أحمد بن حنبل: ما تقول في الحامل ترى الدم؟ فقلت: تصلّي، واحتججت بخبر عطاء عن عائشة رضي الله عنها. قال: فقال أحمد ابن حنبل، أين أنت عن خبر المدنيين، خبر أم علقمة مولاة عائشة رضي الله عنها؟ فإنه أصح. قال إسحاق: فرجعت إلى قول أحمد، وهو كالتصريح من أحمد، بأن دم الحامل دم حيض، وهو الذي فهمه إسحاق عنه، والخبر الذي أشار إليه أحمد، وهو ما روينا من طريق البيهقي، أخبرنا الحاكم، حدثنا أبو بكر بن إسحاق، حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا ابن بكير، حدثنا الليث، عن بكير بن عبد الله، عن أم علقمة مولاة عائشة، أن عائشة رضي الله عنها سئلت

مائة لزرع غيره مع احتمال أن لا يكون كذلك، فكيف إذا تحقق حملها.

وغاية ما يقال: إن ولد الزانية ليس لاحقاً بالواطئ الأول، فإن الولد للفراس، وهذا لا يجوز إقدامه على خلط مائه ونسبه بغيره، وإن لم يلحق بالواطئ الأول، فصيانة مائه ونسبه عن نسب لا يلحق بواضعه لصيانه عن نسب يلحق به.

والمقصود: أن الشرع حرّم وطء الأمة الحامل حتى تضع، سواء كان حملها محرماً أو غير محرّم وقد فرق النبي ﷺ بين الرجل والمرأة التي تزوج بها، فوجدها حُبلى، وجلدها الحدّ، وقضى لها بالصدّاق، وهذا صريح في بطلان العقد على الحامل من الزنى. وصح عنه: أنه مر بامرأة مُجْبِجٍ على باب فسقاط، فقال: «لَعَلَّ سَيْدَهَا يُرِيدُ أَنْ يَلْمَ بِهَا؟» قالوا: نعم. قال: «لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَلْعَنَهُ لَعْنًا يَدْخُلُ مَعَهُ قَبْرُهُ، كَيْفَ يَسْتَحْدِمُهُ وَهُوَ لَا يَحِلُّ لَهُ، كَيْفَ يُوْرَثُهُ وَهُوَ لَا يَحِلُّ لَهُ؟!».

فجعل سبب هَمِّه بلعته وطأه للأمة الحامل، ولم يستفصل عن حملها، هل هو لاحق بالواطئ أم غير لاحق به؟ وقوله: «كيف يستحْدِمُهُ وهو لا يحلُّ له» أي: كيف يجعله عبداً له يستحْدِمُهُ، وذلك لا يحل، فإن ماء هذا الواطئ يزيد في خلق الحمل، فيكون بعضه منه، قال الإمام أحمد: يزيد وطؤه في سمعه وبصره.

وقوله: «كيف يورثه وهو لا يحلُّ له»، سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول فيه: أي: كيف يجعله تركة مورثة عنه، فإنه يعتقد عبده، فيجعله تركة تُورث عنه، ولا يحلُّ له ذلك، لأن ماء زاد في خلقه، ففيه جزء منه.

وقال غيره: المعنى: كيف يورثه على أنه ابنه، ولا يحلُّ له ذلك، لأن الحمل من غيره، وهو بوطئه يريد أن يجعله منه، فيورثه ماله، وهذا يرثه أول الحديث، وهو قوله: «كيف يستعبده؟» أي: كيف يجعله عبده؟ وهذا إنما يدل على المعنى الأول. وعلى القولين، فهو صريح في تحريم وطء الحامل من غيره، سواء كان الحمل من زنى أو من غيره، وأن فاعل ذلك

أَنْ يَمَسَّ، فَلَتَكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ تُطْلَقَ لَهَا
النِّسَاءُ».

(طلاق الحامل ليس ببعدة)

ووجه الاستدلال به، أن طلاق الحامل ليس ببدعة
في زمن الدم وغيره إجماعاً، فلو كانت تحيض، لكان
طلاقها فيه، وفي طهرها بعد الميسيس بدعة عملاً
بعموم الخبر، قالوا: وروى مسلم في «صحيحه» من
حديث ابن عمر أيضاً «مُرَّةٌ فَلْيَرَا جَنَافَهَا ثُمَّ لِيُطْلَقْهَا
ظَاهِرًا أَوْ حَامِلًا»، وهذا يدل على أن ما تراه من الدم
لا يكون حيضاً، فإنه جعل الطلاق في وقته نظير
الطلاق في وقت الطهر سواء. فلو كان ما تراه من
الدم حيضاً، لكان لها حالان، حال طهر، وحال
حيض، ولم يجز طلاقها في حال حيضها، فإنه يكون
بدعة. قالوا: وقد روى أحمد في «مسنده» من حديث
رويفع، عن النبي ﷺ، قال: «لَا يَحِلُّ لَأَحَدٍ أَنْ يَسْفِي
مَاءَهُ رَزَعٌ غَيْرِهِ، وَلَا يَقَعَ عَلَى أُمِّهِ حَتَّى تَحِيضَ أَوْ يَتَبَيَّنَ
حَمْلُهَا». فجعل وجود الحيض علماً على براءة الرحم
من الحمل. قالوا: وقد روي عن علي أنه قال: إن
الله رفع الحيض عن الحبل، وجعل الدم مما تغيض
الأرحام.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: إن الله رفع
الحيض عن الحبل، وجعل الدم رزقاً للولد، رواه
أبو حفص بن شاهين.

قالوا: وروي الأثر، والدارقطني بإسنادهما، عن
عائشة رضي الله عنها في الحامل ترى الدم، فقالت:
الحامل لا تحيض، وتغتسل، وتصلّي.

وقولها: وتغتسل، بطريق النذب لكونها
مستحاضة، قالوا: ولا يُعرف عن غيرهم خلافهم،
لكن عائشة قد ثبت عنها أنها قالت: الحامل لا
تُصلّي. وهذا محمول على ما تراه قريباً من الولادة
باليومين ونحوهما، وأنه نفاس جمعاً بين قولها،
قالوا: ولأنه دم لا تنقضي به العدة، فلم يكن حيضاً
كالاستحاضة.

عن الحامل ترى الدم، فقالت: لَا تُصَلِّي [اليهقي (٧/٤٢٣)]، قال الیهقي: ورويناه عن أنس بن مالك.

وروي عن عمر بن الخطاب، ما يدل على ذلك.
وروي عن عائشة رضي الله عنها، أنها أنشدت
لرسول الله ﷺ بيت أبي كبير الهذلي:
وَمُبَرَّأً مِنْ كُلِّ غُبَرٍ حَيْضَةٍ

وَفَسَادٍ مُرْضِعَةٍ وَدَاءٍ مُغِيلٍ^(١)
قال: وفي هذا دليل على ابتداء الحمل في حال
الحيض حيث لم ينكر الشُّغْرُ.

قال: وروينا عن مطر، عن عطاء، عن عائشة
رضي الله عنها أنها قالت: الحبل لا تحيض، إذا
رأت الدم، صلت. قال: وكان يحيى القطان ينكر
هذه الرواية، ويضعف رواية ابن أبي ليلى، ومطر عن
عطاء.

قال: وروى محمد بن راشد، عن سليمان بن
موسى، عن عطاء، عن عائشة رضي الله عنها نحو
رواية مطر، فإن كانت محفوظة، فيشبه أن تكون
عائشة كانت تراها لا تحيض، ثم كانت تراها
تحيض، فرجعت إلى ما رواه المدنيون، والله أعلم.

(أدلة من منع كون دم الحامل دم حيض)

قال المانعون من كون دم الحامل دم حيض: قد
قسم النبي ﷺ الإمام قسمين: حاملاً وجعل عدتها
وضع الحمل، وحائلاً فجعل عدتها حيضة، فكانت
الحيضة علماً على براءة رحمها، فلو كان الحيض
يُجامع الحمل، لما كانت الحيضة علماً على عدمه،
قالوا: ولذلك جعل عدة المطلقة ثلاثة أقراء، ليكون
دليلاً على عدم حملها، فلو جامع الحمل الحيض،
لم يكن دليلاً على عدمه. قالوا: وقد ثبت في
«الصحيح»: أن النبي ﷺ قال لعمر بن الخطاب
رضي الله عنه حين طلق ابنته امرأته وهي حائض:
«مُرَّةٌ فَلْيَرَا جَنَافَهَا ثُمَّ لِيُتَسَكَّهَا حَتَّى تَظْهَرَ، ثُمَّ تَحِيضَ،
ثُمَّ تَظْهَرَ، ثُمَّ إِنْ شَاءَ أَمْسَكْهَا بَعْدَ، وَإِنْ شَاءَ طَلَّقْ قَبْلَ

(١) ديوان الهذليين (٩٣/٢) من قصيدة مطلعها:

أَمْ لَا سَبِيلَ إِلَى الشَّبَابِ الْأَوَّلِ

أَزْهِيْرُ مَلَّ عَنْ شَيْبَةٍ مِنْ مَغْيِلٍ

والغير: البقية، وفساد مرضعة. يقول: لم تحمل عليه فتسقيه الغيل، والمغيل من الغيل: وهو أن تنشى المرأة وهي
ترضع، فذلك اللبن الغيل.

وحديث عائشة رضي الله عنها يدل على أن الحائض قد تحبل، ونحن نقول بذلك، لكنه يقطع حيضها ويرفعه. قالوا: ولأن الله سبحانه أجرى العادة بانقلاب دم الطمث لبناً غذاءً للولد، فالخارج وقت الحمل يكون غيره، فهو دم فساد.

(ادلة من جواز كون دم الحامل دم حيض)

قال المحيضون: لا نزاع أن الحامل قد ترى الدم على عادتها، لا سيما في أول حملها، وإنما النزاع في حكم هذا الدم، لا في وجوده. وقد كان حيضاً قبل الحمل بالاتفاق، فنحن نستصحب حكمه حتى يأتي ما يرفعه بيقين. قالوا: والحكم إذا ثبت في محل، فالأصل بقاءه حتى يأتي ما يرفعه، فالأول استصحاب لحكم الإجماع في محل النزاع، والثاني استصحاب للحكم الثابت في المحل حتى يتحقق ما يرفعه، والفرق بينهما ظاهر. قالوا: وقد قال النبي ﷺ: «إِذَا كَانَ دَمُ الْحَيْضِ فَإِنَّهُ أَسْوَدُ يُعْرَفُ» [ابن داود: ٢٨٦، وابن حبان: ١٣٣٨، والحاكم (١/١٧٤)]. وهذا أسود يُعرف، فكان حيضاً.

قالوا: وقد قال النبي ﷺ: «أَلَيْسَتْ إِخْدَاكُنْ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تَضُمِّي وَلَمْ تُصَلِّي؟» [البخاري: ٣٠٤]. وحيض المرأة خروج دمها في أوقات معلومة من الشهر لغة وشرعاً، وهذا كذلك لغة، والأصل في الأسماء تقريرها لا تغييرها.

قالوا: ولأن الدم الخارج من الفرج الذي رتب الشارع عليه الأحكام قسمان: حيض واستحاضة، ولم يجعل لهما ثالثاً، وهذا ليس باستحاضة، فإن الاستحاضة الدم المطبق، والزائد على أكثر الحيض، أو الخارج عن العادة، وهذا ليس واحداً منها، فبطل أن يكون استحاضة، فهو حيض، قالوا: ولا يمكنكم إثبات قسم ثالث في هذا المحل، وجعله دم فساد، فإن هذا لا يثبت إلا بنص أو إجماع أو دليل يجب المصير إليه، وهو متصف. قالوا: وهو رد النبي ﷺ المستحاضة إلى عادتها، وقال: «اجْلِسِي قَدْرَ الْأَيَّامِ الَّتِي كُنْتِ تَحِيضِينَ» [البخاري: ٣٢٥]. فدل على أن عادة النساء معتبرة في وصف الدم وحكمه، فإذا جرى دم الحامل على عادتها المعتادة، ووقتها من غير زيادة

ولا نقصان ولا انتقال، دلت عادتها على أنه حيض، ووجب تحكيّم عادتها، وتقديمها على الفساد الخارج عن العادة. قالوا: وأعلم الأمة بهذه المسألة نساء النبي ﷺ، وأعلمهن عائشة، وقد صح عنها من رواية أهل المدينة، أنها لا تُصلي، وقد شهد له الإمام أحمد بأنه أصح من الرواية الأخرى عنها، ولذلك رجع إليه إسحاق وأخبر أنه قول أحمد بن حنبل، قالوا: ولا تُعرف صحة الآثار بخلاف ذلك عمن ذكرتم من الصحابة، ولو صحت فهي مسألة نزاع بين الصحابة، ولا دليل يفصل.

قالوا: ولأن عدم مجامعة الحيض للحمل، إما أن يُعلم بالحس أو بالشرع، وكلاهما متصف، أما الأول: فظاهر، وأما الثاني: فليس عن صاحب الشرع ما يدل على أنهما لا يجتمعان.

وأما قولكم: إنه جعله دليلاً على براءة الرحم من الحمل في العدة والاستبراء. قلنا: جعل دليلاً ظاهراً أو قطعياً الأول: صحيح. والثاني: باطل، فإنه لو كان دليلاً قطعياً لما تخلف عنه مدلوله، ولكانت أول مدة الحمل من حين انقطاع الحيض، وهذا لم يقله أحد، بل أول المدة من حين الوطء، ولو حاضت بعده عدة حيض، فلو وطئها، ثم جاءت بولد لأكثر من ستة أشهر من حين الوطء، ولأقل منها من حين انقطاع الحيض، لحقه النسب اتفاقاً، فقلّم أنه أمانة ظاهرة، قد يتخلف عنها مدلولها تخلف المطر عن الغيم الرطب، وبهذا يخرج الجواب عما استدللتم به من السنة، فإننا بها قائلون، وإلى حكمها صائرون، وهي الحكم بين المتنازعين. والنبي ﷺ قسم النساء إلى قسمين: حامل فعدتها وضع حملها، وحائض فعدتها بالحيض، ونحن قائلون بموجب هذا غير متنازعين فيه، ولكن أين فيه ما يدل على أن ما تراه الحامل من الدم على عادتها تصوم معه وتُصلي؟ هذا أمر آخر لا تعرض للحديث به، وهذا يقول القائلون بأن دمها دم حيض هذه العبارة بعينها، ولا يُعد هذا تناقضاً ولا خلافاً في العبارة.

قالوا: وهكذا قوله في شأن عبد الله بن عمر رضي الله عنه: «مَرَّةً فَلْيَرَا جَفْهًا ثُمَّ لِيَطْلُقْهَا ظَاهِراً قَبْلَ

أَنْ يَمَسَّهَا، إنما فيه إباحة الطلاق إذا كانت حائلاً بشرطين: الطهر وعدم المسيس، فأين في هذا التعرض لحكم الدم الذي تراه على حملها؟

وقولكم: إن الحامل لو كانت تحيض، لكان طلاقها في زمن الدم بدعة، وقد اتفق الناس على أن طلاق الحامل ليس ببدة وإن رأت الدم؟

قلنا: إن النبي ﷺ قسم أحوال المرأة التي يريد طلاقها إلى حال حمل، وحالٍ خلو عنه، وجوز طلاق الحامل مطلقاً من غير استثناء، وأما غير ذات الحمل، فإنما أباح طلاقها بالشرطين المذكورين، وليس في هذا ما يدل على أن دم الحامل دم فساد، بل على أن الحامل تخالف غيرها في الطلاق، وأن غيرها إنما تطلق طاهراً غير مصابة، ولا يشترط في الحامل شيء من هذا، بل تطلق عقيب الإصابة، وتطلق وإن رأت الدم، فكما لا يحرم طلاقها عقيب إصابتها، لا يحرم حال حيضها. وهذا الذي تقتضيه حكمة الشارع في وقت الطلاق إذن ومنعاً، فإن المرأة متى استبان حملها كان المطلق على بصيرة من أمره، ولم يعرض له من الندم ما يعرض لهن كلهن بعد الجماع، ولا يشعر بحملها، فليس ما منع منه نظير ما أُذِنَ فيه، لا شرعاً، ولا واقعاً، ولا اعتباراً، ولا سيما مَنْ علل المنع من الطلاق في الحيض بتطويل العدة، فهذا لا أثر له في الحامل.

قالوا: وأما قولكم: إنه لو كان حيضاً، لانقضت به العدة، فهذا لا يلزم، لأن الله سبحانه جعل عدة الحامل بوضع الحمل، وعدة الحائِل بالأقراء، ولا يمكن انقضاء عدة الحامل بالأقراء لإفضاء ذلك إلى أن يملكها الثاني ويتزوجها وهي حامل من غيره، فيسقي ماء زرع غيره.

قالوا: وإذا كنتم سلمتم لنا أن الحائض قد تحبل، وحملتم على ذلك حديث عائشة رضي الله عنها ولا يمكنكم منع ذلك لشهادة الحسن به، فقد أعطيتُم أن الحيض والحبل يجتمعان، فبطل استدلالكم من رأسه، لأن مداره على أن الحيض لا يُجامع الحبل.

فإن قلتم: نحن إنما جوزنا ورود الحمل على الحيض، وكلامنا في عكسه، وهو ورود الحيض على الحمل، وبينهما فرق.

قيل: إذا كانا متنافيين لا يجتمعان، فأين فرق بين ورود هذا على هذا وعكسه؟

وأما قولكم: إن الله سبحانه أجرى العادة بانقلاب دم الطمث لبناً يتغذى به الولد، ولهذا لا تحيض المراضع. قلنا: وهذا من أكبر حجتنا عليكم، فإن هذا الانقلاب والتغذية باللبن إنما يستحكم بعد الوضع، وهو زمن سلطان اللبن، وارتضاع المولود، وقد أجرى الله العادة بأن المرضع لا تحيض. ومع هذا، فلو رأت دمًا في وقت عاداتها، لحكم له بحكم الحيض بالاتفاق، فلأن يحكم له بحكم الحيض في الحال التي لم يستحكم فيها انقلابه، ولا تغذي الطفل به أولى وأحرى. قالوا: وهب أن هذا كما تقولون، فهذا إنما يكون عند احتياج الطفل إلى التغذية باللبن، وهذا بعد أن يُفخ فيه الروح، فأما قبل ذلك، فإنه لا يتقلب لبناً لعدم حاجة الحمل إليه.

وأيضاً، فإنه لا يستحيل كله لبناً، بل يستحيل بعضه، ويخرج الباقي، وهذا القول هو الراجح كما تراه نقلاً ودليلاً، والله المستعان.

(هل يمنع من الاستمتاع بالمستبرأة بغير

الوطء في الموضع الذي يجب فيه الاستبراء؟ مباشرة

الصغيرة في وقت الاستبراء)

فإن قيل: فهل تمنعون من الاستمتاع بالمستبرأة بغير الوطء في الموضع الذي يجب فيه الاستبراء؟ قيل: أما إذا كانت صغيرة لا يوطأ مثلها، فهذه لا تحرم قبلتها ولا مباشرتها، وهذا منصوص أحمد في إحدى الروايتين عنه، اختارها أبو محمد المقدسي، وشيخنا وغيرهما، فإنه قال: إن كانت صغيرة بأي شيء تستبرأ إذا كانت رضية؟ وقال في رواية أخرى: تستبرأ بحيضة إن كانت تحيض، وإلا ثلاثة أشهر إن كانت ممن توطأ وتحبل. قال أبو محمد: فظاهر هذا أنه لا يجب استبراؤها، ولا تحرم مباشرتها، وهذا اختيار ابن أبي موسى، وقول مالك وهو الصحيح، لأن سبب الإباحة متحقق، وليس على تحريمها دليل، فإنه لا نص فيها ولا معنى نص، فإن تحريم مباشرة الكبيرة إنما كان لكونه داعياً إلى الوطء المحرم، أو خشية أن تكون أم ولد لغيره، ولا يتوهم هذا في هذه، فوجب العمل بمقتضى الإباحة، انتهى كلامه.

فصل

(مباشرة البكر في وقت الاستبراء)

وإن كانت ممن يُوطأ مثلها، فإن كانت بكرًا، وقلنا: لا يجب استبراؤها، فظاهر، وإن قلنا: يجب استبراؤها، فقال أصحابنا: تحرم قبلتها ومباشرتها، وعندي أنه لا يحرم، ولو قلنا بوجوب استبرائها، لأنه لا يلزم من تحريم الوطء تحريم دواعيه، كما في حق الصائم، لا سيما وهم إنما حرّموا تحريم مباشرتها لأنها قد تكون حاملاً، فيكون مستمتعاً بأمة الغير، هكذا عللوا تحريم المباشرة، ثم قالوا: ولهذا لا يحرم الاستمتاع بالمسيية بغير الوطء قبل الاستبراء في إحدى الروايتين، لأنها لا يتوهم فيها انفساخ الملك، لأنه قد استقرّ بالسبي، فلم يبق لمنع الاستمتاع بالقبلة وغيرها من البكر معنى.

وإن كانت ثيباً، فقال أصحاب أحمد، والشافعي وغيرهم: يحرم الاستمتاع بها قبل استبراء، قالوا: لأنه استبراء يحرم الوطء، فحرم الاستمتاع بها قبل الاستبراء كالعدة، ولأنه لا يأمن كونها حاملاً، فتكون أم ولد، والبيع باطل، فيكون مستمتعاً بأم ولد غيره. قالوا: ولهذا فارق وطء تحريم الحائض والصائم.

وقال الحسن البصري: لا يحرم من المستبرأة إلا فرجها، وله أن يستمتع منها بما شاء ما لم يطأ، لأن النبي ﷺ إنما منع من الوطء قبل الاستبراء، ولم يمنع مما دونه، ولا يلزم من تحريم الوطء تحريم ما دونه، كالحائض والصائمة، وقد قيل: إن ابن عمر قبل جاريته من السبي حين وقعت في سهمه قبل استبرائها. ولمن نصر هذا القول أن يقول: الفرق بين المشتراة والمعتدة أن المعتدة قد صارت أجنبية منه، فلا يحلّ وطؤها ولا دواعيه، بخلاف المملوكة، فإن وطأها إنما يحرم قبل الاستبراء خشية اختلاط مائه بماء غيره، وهذا لا يوجب تحريم الدواعي، فهي أشبه بالحائض والصائمة، ونظير هذا أنه لو زنت امرأته أو جاريته، حرم عليه وطؤها قبل الاستبراء، ولا يحرم دواعيه، وكذلك المسيية كما سيأتي. وأكثر ما يتوهم كونها حاملاً من سيدها، فينفسخ البيع، فهذا بناء على تحريم بيع أمهات الأولاد على علاته،

ولا يلزم القائل به، لأنه لما استمتع بها، كانت ملكة ظاهراً، وذلك يكفي في جواز الاستمتاع، كما يخلو بها ويحدثها، وينظر منها ما لا يُباح من الأجنبية، وما كان جوابكم عن هذه الأمور، فهو الجواب عن القبلة والاستمتاع، ولا يعلم في جواز هذا نزاع، فإن المشتري لا يُمنع من قبض أمته وحوزها إلى بيته، وإن كان وحده قبل الاستبراء، ولا يجب عليها أن تستر وجهها منه، ولا يُحرّم عليه النظر إليها والخلوة بها، والأكل معها، واستخدامها، والانتفاع بمنافعها، وإن لم يجز له ذلك في ملك الغير.

فصل

(الاستمتاع بغير الوطء للمسبية)

وإن كانت مسبية، ففي جواز الاستمتاع بغير الوطء قولان للفقهاء، وهما روايتان عن أحمد رحمه الله:

إحدهما: أنها كغير المسيية، فيحرم الاستمتاع منها بما دون الفرج، وهو ظاهر كلام الخرقي، لأنه قال: ومن ملك أمة، لم يصنها ولم يقبلها حتى يستبرئها بعد تمام ملكه لها.

والثانية: لا يحرم، وهو قول ابن عمر رضي الله عنه. والفرق بينها وبين المملوكة بغير السبي، أن المسيية لا يتوهم فيها كونها أم ولد، بل هي مملوكة له على كل حال، بخلاف غيرها كما تقدّم، والله أعلم.

(هل تبدأ مدة الاستبراء من حين البيع؟)

فإن قيل: فهل يكون أول مدة الاستبراء من حين البيع، أو من حين القبض؟

قيل: فيه قولان، وهما وجهان في مذهب أحمد رحمه الله: أحدهما: من حين البيع، لأن الملك ينتقل به. والثاني: من حين القبض لأن القصد معرفة براءة رحمها من ماء البائع وغيره، ولا يحصل ذلك مع كونها في يده، وهذا على أصل الشافعي وأحمد. أما على أصل مالك، فيكفي عنده الاستبراء قبل البيع في المواضع التي تقدّمت. فإن قيل: فإن كان في البيع خيار، فمتى يكون ابتداء مدة الاستبراء؟

قيل: هذا ينبي على الخلاف في انتقال الملك في مدة الخيار، فمن قال: ينتقل، فابتداء المدة عنده من حين البيع، ومن قال: لا ينتقل فابتدؤها عنده من حين انقطاع الخيار.

فإن قيل: فما تقولون لو كان الخيارُ خيارَ عَيْبٍ؟
قيل: ابتداء المدة من حين البيع قولاً واحداً، لأنَّ خيارَ العيب لا يمنع نقل الملك بغير خلاف، والله أعلم.

فصل

(هل سكنت السنة عن استبراء الآيسة والتي لم تحض؟)

فإن قيل: قد دلت السنة على استبراء الحامل بوضع الحمل، وعلى استبراء الحائض بحيضة فكيف سكنت عن استبراء الآيسة والتي لم تحض ولم تسكت عنهما في العدة؟

قيل: لم تسكت عنهما بحمد الله، بل بينهما بطريق الإيماء والتنبيه، فإن الله سبحانه جعل عِدَّةَ الحرة ثلاثة قُرُوء، ثم جعل عِدَّةَ الآيسة والتي لم تحض ثلاثة أشهر، فعلم أنه سبحانه جعل في مقابلة كل قَرء شهرًا. ولهذا أجرى سبحانه عادته الغالبة في إمامته، أن المرأة تحيض في كل شهر حيضة، ويثبت السنة أن استبراء الأمة الحائض بحيضة، فيكون الشهر قائماً مقام الحيضة، وهذا إحدى الروايات عن أحمد، وأحد قولي الشافعي، وعن أحمد رواية ثانية: أنها تُستبرأ بثلاثة أشهر، وهي المشهورة عنه، وهو أحد قولي الشافعي، ووجه هذا القول، ما احتج به أحمد في رواية أحمد بن القاسم، فإنه قال: قلت لأبي عبد الله: كيف جعلت ثلاثة أشهر مكان حيضة، وإنما جعل الله سبحانه في القرآن مكان كل حيضة شهراً؟

فقال أحمد: إنما قلنا: ثلاثة أشهر من أجل الحمل، فإنه لا يتبين في أقل من ذلك، فإن عمر بن عبد العزيز سأل عن ذلك، وجمع أهل العلم والقوابل، فأخبروا أن الحمل لا يتبين في أقل من ثلاثة أشهر، فأعجبه ذلك، ثم قال: ألا تسمع قول ابن مسعود: إن النطفة تكون أربعين يوماً علقه، ثم أربعين يوماً مضغة بعد ذلك، فإذا خرجت الثمانون، صارت بعدها مضغة، وهي لحم، فيتبين حينئذ.

قال ابن القاسم: قال لي: هذا معروف عند النساء، فأما شهر، فلا معنى فيه، انتهى كلامه.

وعنه رواية ثالثة: أنها تُستبرأ بشهر ونصف، فإنه قال في رواية حنبل: قال عطاء: إن كانت لا تحيض، فخمسة وأربعون ليلة. قال حنبل: قال عمي: لذلك

أذهب، لأن عدة المطلقة الآيسة كذلك، انتهى كلامه.
ووجه هذا القول: أنها لو طلقت وهي آيسة، اعتدت بشهر ونصف في رواية، فلأنَّ تُستبرأ الأمة بهذا القدر أولى.

وعن أحمد رواية رابعة: أنها تُستبرأ بشهرين، حكاهما القاضي عنه، واستشكلها كثير من أصحابه، حتى قال صاحب «المغني»: ولم أر لذلك وجهًا. قال: ولو كان استبرأؤها بشهرين، لكان استبراء ذات القُرُوء بقرَءين، ولم تعلم به قائلًا.

ووجه هذه الرواية، أنها اعتبرت بالمطلقة، ولو طُلِّقَتْ وهي أمة لكانت عدتها شهرين، هذا هو المشهور عن أحمد رحمه الله، واحتج فيه بقول عمر رضي الله عنه، وهو الصواب، لأن الأشهر قائمة مقام القُرُوء، وعِدَّة ذات القُرُوء قرءان، فبدلهما شهران، وإنما صرنا إلى استبراء ذات القرء بحيضة، لأنها علِّمَ ظاهر على براءتها من الحمل، ولا يحصل ذلك بشهر واحد، فلا بد من مدة تظهر فيها براءتها، وهي إما شهران أو ثلاثة، فكانت الشهران أولى، لأنها جُعِلَتْ علماً على البراءة في حق المطلقة، ففي حق المُستبرأة أولى، فهذا وجه هذه الرواية.

وبعد، فالراجح من الدليل: الاكتفاء بشهر واحد، وهو الذي دل عليه إيماء النص وتنبيهه، وفي جعل مدة استبرائها ثلاثة أشهر تسويةً بينها وبين الحرة، وجعلها بشهرين تسويةً بينها وبين المطلقة، فكان أولى المُدَد بها شهراً، فإنه البديل التام، والشارع قد اعتبر نظيرَ هذا البديل في نظيرِ الأمة، وهي الحرة، واعتبره الصحابة في الأمة المطلقة، فصح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: عدتها حيفتان، فإن لم تكن تحيض، فشهران، احتج به أحمد رحمه الله. وقد نص أحمد رحمه الله في أشهر الروايات عنه على أنها إذا ارتفع حيضها لا تدري ما رَفَعَهُ اعتدت بعشرة أشهر، تسعة للحمل، وشهر مكان الحيضة.

وعنه رواية ثانية: تعتد بسنة، هذه طريقة الشيخ أبي محمد، قال: وأحمد هاهنا جعل مكان الحيضة شهراً، لأن اعتبار تكرارها في الآيسة يُعَلِّمُ براءتها من الحمل، وقد علم براءتها منه هاهنا بمضي غالب مدته، فجعل الشهر مكان الحيضة على وفق القياس،

لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا جَمَلُوهُ ثُمَّ بَاغَوْهُ فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ
[البخاري: ٢٢٣٩، ومسلم: ٤٠٤٨].

وفيهما أيضاً: عن ابن عباس، قال: بَلَغَ عُمَرُ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ سَمُرَةَ بَاعَ خَمْرًا، فَقَالَ: قَاتَلَ اللَّهُ
سَمُرَةَ، أَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ
الْيَهُودَ حَرَمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ، فَجَمَلُوهَا فَبَاغَوْهَا»
[البخاري: ٢٢٣٣، ومسلم: ٤٠٥٠].

فهذا من مسند عمر رضي الله عنه، وقد رواه
البيهقي، والحاكم في مستدركه، فجعله من مسند
ابن عباس، وفيه زيادة، ولفظه: عن ابن عباس،
قال: كان النبي ﷺ في المسجد - يعني الحرام -،
فرفع بصره إلى السماء فتبسّم، فقال: «لَعَنَ اللَّهُ
الْيَهُودَ، لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ، لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ
وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَيْهِمُ الشُّحُومَ، فَبَاغَوْهَا، وَأَكَلُوا ثَمَنَهَا،
إِنَّ اللَّهَ إِذَا حَرَّمَ عَلَى قَوْمٍ أَكَلَ شَيْءٌ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ ثَمَنَهُ»
[أبو داود: ٣٤٨٨، والبيهقي: (١٣/٦)] وإسناده صحيح، فإن
البيهقي رواه عن ابن عبدان، عن الصفار، عن
إسماعيل القاضي، حدثنا مُسَدَّدٌ، حدثنا بشر بن
المفضل، حدثنا خالد الحذاء، عن بركة أبي الوليد،
عن ابن عباس.

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله
عنه نحوه، دون قوله: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا حَرَّمَ أَكَلَ شَيْءٌ حَرَّمَ
ثَمَنَهُ».

(أجناس المحرمات)

فاشتملت هذه الكلمات الجوامع على تحريم ثلاثة
أجناس: مشارب تُفْسِدُ العقول، ومطاعم تُفْسِدُ
الطَّبَاعَ وتَغْذِي غَدَاءَ خِيثًا، وأعيان تُفْسِدُ الأديان،
وتدعو إلى الفتنة والشرك.

فصان بتحريم النوع الأول العقول عما يُزِيلُهَا
ويُفْسِدُهَا، وبالثاني: القلوب عما يُفْسِدُهَا مِنْ وُضُوءٍ
أَثَرِ الْغَدَاءِ الْخَبِيثِ إِلَيْهَا، وَالْغَاذِي شَيْءٌ بِالْمَغْذِي،
وبالثالث: الأديان عما وُضِعَ لِإِسْأَادِهَا.

فتضمن هذا التحريم صِيَانَةَ العقول والقلوب
والأديان.

ولكن الشَّانَ فِي معرفة حدود كلامه صلوات الله
عليه، وما يدخل فيه، وما لا يدخل فيه، لِنَسْتَتِينُ عَمُّومَ
كلماته وَجَمْعِهَا، وَتَنَاوُلِهَا لِجَمِيعِ الْأَنْوَاعِ الَّتِي شَمِلَهَا

وهذا هو الذي ذكره الخِرَقِيُّ مَفْرُقًا بَيْنَ الْآيَةِ، وَبَيْنَ
مَنْ ارْتَفَعَ حَيْضُهَا، فَقَالَ: فَإِنْ كَانَتْ آيَةً، فِثْلَاثَةِ
أَشْهُرٍ، وَإِنْ ارْتَفَعَ حَيْضُهَا لَا تَدْرِي مَا رَفَعَهُ، اعْتَدَتْ
بِتِسْعَةِ أَشْهُرٍ لِلْحَمْلِ، وَشَهْرٍ مَكَانَ الْحَيْضَةِ.

وأما الشَّيْخُ أَبُو الْبَرَكَاتِ، فَجَعَلَ الْخِلَافَ فِي الَّذِي
ارْتَفَعَ حَيْضُهَا، كَالْخِلَافِ فِي الْآيَةِ، وَجَعَلَ فِيهَا
الرَّوَايَاتِ الْأَرْبَعَ بَعْدَ غَالِبِ مَدَّةِ الْحَمْلِ تَسْوِيَةً بَيْنَهَا
وَبَيْنَ الْآيَةِ، فَقَالَ فِي «مَحْرَرِهِ»: وَالْآيَةُ، وَالصَّغِيرَةُ
بِمَضِيِّ شَهْرٍ. وَعَنْهُ: بِمَضِيِّ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ. وَعَنْهُ:
شَهْرَيْنِ، وَعَنْهُ: شَهْرٌ وَنِصْفٌ. وَإِنْ ارْتَفَعَ حَيْضُهَا لَا
تَدْرِي مَا رَفَعَهُ، فَبِذَلِكَ بَعْدَ تِسْعَةِ أَشْهُرٍ.

وطريقة الْخِرَقِيِّ، وَالشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدٍ أَصَحُّ، وَهَذَا
الَّذِي اخْتَرَاهُ مِنَ الْإِكْتِفَاءِ بِشَهْرٍ هُوَ الَّذِي مَالَ إِلَيْهِ
الشَّيْخُ فِي «الْمَغْنِيِّ» فَإِنَّهُ قَالَ: وَوَجْهَ اسْتِبْرَآئِهَا بِشَهْرٍ،
أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ الشَّهْرَ مَكَانَ الْحَيْضَةِ، وَلِذَلِكَ اخْتَلَفَتْ
الشُّهُورُ بِاخْتِلَافِ الْحَيْضَاتِ، فَكَانَتْ عِدَّةُ الْحُرَّةِ
الْآيَةِ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ مَكَانَ الثَّلَاثَةِ قُرُوءٍ، وَعِدَّةُ الْأُمَةِ
شَهْرَيْنِ، مَكَانَ الْقَرْنَيْنِ، وَلِلْأُمَةِ الْمُسْتَبْرَأَةِ الَّتِي ارْتَفَعَ
حَيْضُهَا عَشْرَةُ أَشْهُرٍ، تِسْعَةٌ لِلْحَمْلِ، وَشَهْرٌ مَكَانَ
الْحَيْضَةِ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَكَانَ الْحَيْضَةِ هُنَا شَهْرٌ،
كَمَا فِي حَقِّ مَنْ ارْتَفَعَ حَيْضُهَا.

قال: فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ وَجَدْتُمْ مَا دَلَّ عَلَى الْبَرَاءَةِ وَهُوَ
تَبَرُّصُ تِسْعَةِ أَشْهُرٍ.

قلنا: وَهَاهُنَا مَا يَدُلُّ عَلَى الْبَرَاءَةِ وَهُوَ الْإِيَّاسُ،
فَاسْتَوِيَ.

ذَكَرَ أَحْكَامَهُ ﷺ

فِي الْبَيْعِ

ذَكَرَ حَكْمَهُ ﷺ فِيمَا يَحْرُمُ بَيْعَهُ

ثَبِتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»: مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ
عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:
«إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ، وَالْمَيْتَةِ، وَالْخِنْزِيرِ،
وَالْأَضْنَامِ». فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَرَأَيْتَ شُحُومَ
الْمَيْتَةِ، فَإِنَّهَا يُطْلَى بِهَا الشُّعْنُ، وَيُدَهَّنُ بِهَا الْجُلُودُ،
وَيَسْتَضِيحُ بِهَا النَّاسُ؟ فَقَالَ: «لَا، هُوَ حَرَامٌ» ثُمَّ قَالَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عِنْدَ ذَلِكَ: «قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ؛ إِنَّ اللَّهَ

عموم كلماته، وتأويلها بجميع الأنواع التي شملها عموم لفظه ومعناه، وهذه خاصية الفهم عن الله ورسوله التي تفاوت فيه العلماء، ويؤتيه الله من يشاء.

(تحريم بيع الخمر)

فإنما تحريم بيع الخمر، فيدخل فيه تحريم بيع كل مسكر، مائعاً كان، أو جامداً، عصيراً، أو مطبوخاً، فيدخل فيه عصير العنب، وخمر الزبيب، والتمر، والذرة، والشعير، والفسل، والجنترة، واللحم الملعونة لقمة الفسق والقلب التي تحرك القلب الساكن إلى أحب الأماكن، فإن هذا كله خمر بنص رسول الله ﷺ الصحيح الصريح الذي لا مظعن في سنده، ولا إجمال في متنه، إذ صح عنه قوله: «كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ» [مسلم: ٥٢١٨].

وصح عن أصحابه رضي الله عنهم الذين هم أعلم الأمة بخطابه ومراده: أن الخمر ما خامر العقل [البخاري: ٥٥٨١]. فدخلت هذه الأنواع تحت اسم الخمر، كدخل جميع أنواع الذهب والفضة، والبر والشعير، والتمر والزبيب، تحت قوله: «لا تبيعوا الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح إلا مثلاً بمثل» [مسلم: ٤٠٦١].

فكما لا يجوز إخراج صنف من هذه الأصناف عن تناول اسمه له، فهكذا لا يجوز إخراج صنف من أصناف المسكر عن اسم الخمر، فإنه يتضمن محذورين:

أحدهما: أن يخرج من كلامه ما قصد دخوله فيه.

والثاني: أن يشرع لذلك النوع الذي أخرج حكم غير حكمه، فيكون تغييراً لألفاظ الشارع ومعانيه، فإنه إذا سمي ذلك النوع بغير الاسم الذي سماه به الشارع، أزال عنه حكم ذلك المسمى، وأعطاه حكماً آخر. ولما علم النبي ﷺ أن من أمته من يتلى بهذا، كما قال: «لِيُشْرَبَ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا» [صحیح: أحمد: ٢٢٩٠، وأبو داود: ٣٦٨٨]. قضى قضية كلية عامة لا يتطرق إليها إجمال،

ولا احتمال، بل هي شافية كافية، فقال: «كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ»، هذا ولو أن أبا عبيدة، والخليل وأضرابهما من أئمة اللغة ذكروا هذه الكلمة هكذا، لقالوا: قد نص أئمة اللغة على أن كل مسكر خمر، وقولهم حجة، وسيأتي إن شاء الله تعالى عند ذكر هذبه في الأطعمة والأشربة مزيد تقرير لهذا^(١)، وأنه لو لم يتناوله لفظه، لكان القياس الصريح الذي استوى فيه الأصل والفرع من كل وجه حاكماً بالتسوية بين أنواع المسكر في تحريم البيع والشرب، فالتفريق بين نوع ونوع، تفريق بين متماثلين من جميع الوجوه.

فصل

(تحريم بيع الميتة)

(تحريم بيع شحم الميتة)

وأما تحريم بيع الميتة، فيدخل فيه كل ما يسمى ميتة، سواء مات حتف أنفه، أو ذكّي ذكاة لا تُفيد جلّه. ويدخل فيه أعضاؤها أيضاً، ولهذا استشكل أصحابه رضي الله عنهم تحريم بيع الشحم، مع ما لهم فيه من المنفعة، فأخبرهم النبي ﷺ أنه حرام وإن كان فيه ما ذكروا من المنفعة، وهذا موضع اختلف الناس فيه لاختلافهم في فهم مراده ﷺ، وهو أن قوله: «لا، هو حرام»: هل هو عائد إلى البيع، أو عائد إلى الأفعال التي سألوها عنها؟ فقال شيخنا: هو راجع إلى البيع، فإنه ﷺ لما أخبرهم أن الله حرم بيع الميتة، قالوا: إن في شحومها من المنافع كذا وكذا، يعنون، فهل ذلك مسوغ لبيعها؟ فقال: «لا، هو حرام».

قلت: كأنهم طلبوا تخصيص الشحوم من جملة الميتة بالجواز، كما طلب العباس رضي الله عنه تخصيص الإذخير من جملة تحريم نبات الحرم بالجواز، فلم يجبهم إلى ذلك، فقال: «لا، هو حرام».

وقال غيره من أصحاب أحمد وغيرهم: التحريم عائد إلى الأفعال المسؤول عنها، وقال: هو حرام، ولم يقل: هي، لأنه أراد المذكور جميعه، ويرجع

(١) لم يذكر شيئاً من ذلك فيما بعد، وليس في الأصول ما ينبئ عن وجود سقط فيها، ويغلب على الظن أنه رحمه الله كان في نيته أن يكتب أكثر من بحث يكمل به الكتاب، ولكن عاقبه عن ذلك عواقب، فاكفني بما تيسر له، والله أعلم.

قولهم عود الضمير إلى أقرب مذكور، ويرجحه من جهة المعنى أن إباحة هذه الأشياء ذريعة إلى اقتناء الشحوم وبيعها، ويرجحه أيضاً: أن في بعض ألفاظ الحديث، فقال: «لا، هي حرام»، وهذا الضمير إما أن يرجع إلى الشحوم، وإما إلى هذه الأفعال، وعلى التقديرين، فهو حجة على تحريم الأفعال التي سألوها عنها.

ويرجحه أيضاً قوله في حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الفأرة التي وقعت في السمن: «إِنْ كَانَ جَائِداً فَأَلْقَوْهَا وَمَا حَوْلَهَا وَكُلُّوهُ، وَإِنْ كَانَ مَائِماً فَلَا تَقْرُبُوهُ» [صحیح: أحمد: ٧٦٠١، وأبو داود: ٣٨٤٢]. وفي الانتفاع به في الاستصباح وغيره قربان له. ومن رجع الأول يقول: ثَبَّتَ عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّمَا حَرَّمَ مِنَ الْمَيْتَةِ أَكْلُهَا» [البخاري: ٥٥٣١]، وهذا صريح في أنه لا يحرم الانتفاع بها في غير الأكل، كالوقيد، وسدُّ البُثُوقِ، ونحوهما. قالوا: والخبيث إنما تحرم ملاسته باطناً وظاهراً، كالأكل واللُبْس، وأما الانتفاعُ به من غير مُلاسة، فلا شيء يحرم؟

قالوا: ومن تأمل سياق حديث جابر، علم أن السؤال إنما كان منهم عن البيع، وأنهم طلبوا منه أن يُرَخِّصَ لهم في بيع الشحوم، لما فيها من المنافع، فأبى عليهم، وقال: «هو حرام»، فإنهم لو سألوه عن حكم هذه الأفعال لقالوا: رأيت شحوم الميتة، هل يجوز أن يستصيح بها الناس، وتُدَهَّنَ بها الجلود، ولم يقولوا: فإنه يفعل بها كذا وكذا، فإن هذا إخبار منهم، لا سؤال، وهم لم يُخبروه بذلك عقيب تحريم هذه الأفعال عليهم، ليكون قوله: «لا، هو حرام» صريحاً في تحريمها، وإنما أخبروه به عقيب تحريم بيع الميتة، فكانهم طلبوا منه أن يرخص لهم في بيع الشحوم لهذه المنافع التي ذكروها، فلم يفعل. ونهاية الأمر أن الحديث يحتمل الأمرين، فلا يحرم ما لم يعلم أن الله ورسوله حرّمه.

قالوا: وقد ثبت عنه أنه نهاهم عن الاستسقاء من آبار تمود، وأباح لهم أن يُطْعِمُوا ما هَجَّتُوا مِنْهُ من تلك الآبار للبهائم [البخاري: ٣٣٧٩، ومسلم: ٧٤٦٦]، قالوا: ومعلوم أن إيقاد النجاسة والاستصباح بها انتفاع خالي عن هذه المفسدة، وعن ملاستها باطناً

وظاهراً، فهو نفع مخص لا مفسدة فيه. وما كان هكذا، فالشرعة لا تحرّمه، فإن الشرعة إنما تحرم المفسد الخالصة أو الراجحة، وطرقها وأسبابها الموصلة إليها.

قالوا: وقد أجاز أحمد في إحدى الروايتين الاستصباح بشحوم الميتة إذا خالطت دهنًا طاهراً، فإنه في أكثر الروايات عنه يجوز الاستصباح بالزيت النجس، وطلبي السفن به، وهو اختيار طائفة من أصحابه، منهم: الشيخ أبو محمد، وغيره، واحتج بأن ابن عمر أمر أن يُستصيح به.

وقال في رواية ابنه صالح وعبد الله: لا يعجبني بيع النجس، ويستصيح به إذا لم يمسوه، لأنه نجس. وهذا يعم النجس، والمتنجس، ولو قلّرت أنه إنما أراد به المتنجس، فهو صريح في القول بجواز الاستصباح بما خالطه نجاسة ميتة أو غيرها، وهذا مذهب الشافعي، وأي فرق بين الاستصباح بشحم الميتة إذا كان منفرداً، وبين الاستصباح به إذا خالطه دهن طاهر فنجهه؟

فإن قيل: إذا كان مفرداً، فهو نجس العين، وإذا خالطه غيره تنجس به، فأمكن تطهيره بالغسل، فصار كالثوب النجس، ولهذا يجوز بيع الدهن المتنجس على أحد القولين دون دهن الميتة.

قيل: لا ريب أن هذا هو الفرق الذي عول عليه المفرقون بينهما، ولكنه ضعيف لوجهين:

أحدهما: أنه لا يعرف عن الإمام أحمد، ولا عن الشافعي البتة غسل الدهن النجس، وليس عنهم في ذلك كلمة واحدة، وإنما ذلك من فتوى بعض المتسبين، وقد روي عن مالك: أنه يظهر بالغسل، هذه رواية ابن نافع، وابن القاسم عنه.

الثاني: أن هذا الفرق وإن تأتى لأصحابه في الزيت والشرج ونحوهما، فلا يتأتى لهم في جميع الأدهان، فإن منها ما لا يمكن غسله، وأحمد والشافعي قد أطلقا القول بجواز الاستصباح بالدهن النجس من غير تفریق.

وأيضاً: فإن هذا الفرق لا يُفيد في دفع كونه مستعملاً للخبيث والنجاسة، سواء كانت هينة أو طارئة، فإنه إن حرم الاستصباح به لما فيه من

استعمال الخبيث، فلا فرق، وإن حرم لأجل دُخان النجاسة، فلا فرق، وإن حرم لكون الاستصباح به ذريعة إلى اقتنائه، فلا فرق، فالفرق بين المذهبين في جواز الاستصباح بهذا دون هذا لا معنى له.

وأيضاً: فقد جوز جمهور العلماء الانتفاع بالسرقين النجس في عمارة الأرض للزُّرع، والتمر، والبقل مع نجاسة عينه، وملابسة المستعمل له أكثر من ملابسة الموقد، وظهور أثره في البقول والزرور، والثمار، فوق ظهور أثر الوقيد، وإحالة النار أتم من إحالة الأرض والهواء والشمس للسرقين، فإن كان التحريم لأجل دُخان النجاسة، فَمَنْ سَلَّمَ أَنْ دُخَانَ النجاسة نجس، وبأي كتاب، أم بآية سُبِّتَ ذلك؟ وانقلاب النجاسة إلى الدُخان أتم من انقلاب عين السرقين والماء النجس ثمرأً أو زرعاً، وهذا أمر لا يُشَكُّ فيه، بل معلوم بالحس والمشاهدة، حتى جوز بعض أصحاب مالك، وأبي حنيفة رحمهما الله بيعه، فقال ابن الماجشون: لا بأس ببيع العذرة، لأن ذلك من منافع الناس. وقال ابن القاسم: لا بأس ببيع الزُّبُل. قال اللخمي: وهذا يدل من قوله على أنه يرى بيع العذرة. وقال أشهب في الزُّبُل: المشتري أعذر فيه من البائع، يعني في اشتراؤه. وقال ابن عبد الحكم: لم يَغْدِرِ الله واحداً منهما، وهما سيئان في الإثم.

قلت: وهذا هو الصواب، وأن بيع ذلك حَرَامٌ وإن جاز الانتفاع به، والمقصود: أنه لا يلزم من تحريم بيع الميتة تحريم الانتفاع بها في غير ما حَرَّمَ الله ورسوله منها، كالوقيد، وإطعام الصقور والبُزاة وغير ذلك. وقد نص مالك على جواز الاستصباح بالزُّبُلِ النجس في غير المساجد، وعلى جواز عمل الصابون منه، وينبغي أن يُعْلَمَ أَنَّ بَابَ الانتفاع أوسع من باب البيع، فليس كُلُّ مَا حَرَّمَ بَيْعُهُ حَرَّمَ الانتفاع به، بل لا تلازم بينهما، فلا يؤخذ تحريم الانتفاع من تحريم البيع.

فصل

(تحريم بيع أجزاء الميتة التي تحلها الحياة)

وتفارقها بالموت وحل بيع الشعر والوبر والصوف)

ويدخل في تحريم بيع الميتة بيع أجزائها التي

تحلها الحياة، وتُفَارِقُهَا بالموت، كاللحم والشحم والعصب، وأما الشعر والوبر والصوف، فلا يدخل في ذلك، لأنه ليس بميتة، ولا تحله الحياة. وكذلك قال جمهور أهل العلم: إن شعور الميتة وأصوافها وأوبارها طاهرة إذا كانت من حيوان طاهر، هذا مذهب مالك وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل، والليث، والأوزاعي، والشوري، وداود، وابن المنذر، والمزني، ومن التابعين: الحسن، وابن سيرين، وأصحاب عبد الله بن مسعود، وانفرد الشافعي بالقول بنجاستها، واحتجَّ له بأن اسم الميتة يتناولها كما يتناول سائر أجزائها بدليل الأثر والنظر، أما الأثر، ففي «الكامل» لابن عدي: من حديث ابن عمر يرفعه: «اذْفَنُوا الْأَغْفَارَ، وَالْدَّمَ وَالشَّعْرَ، فَإِنَّهَا مَيْتَةٌ». وأما النظر، فإنه متصل بالحيوان ينمو بنمائه، فينجس بالموت كسائر أعضائه، وبأنه شعر نابت في محل نجس، فكان نجساً كشعر الخنزير، وهذا لأن ارتباطه بأصله خلقة يقتضي أن يثبت له حكمه تبعاً، فإنه محسوب منه عرفاً، والشارع أجرى الأحكام فيه على وفق ذلك، فأوجب غسله في الطهارة، وأوجب الجزء بأخذه من الصيد كالأعضاء، والحقه بالمرأة في النكاح والطلاق جلاً وحرمة، وكذلك هاهنا، وبأن الشارع له تشوف إلى إصلاح الأموال وحفظها وصيانتها، وعدم إضاعتها، وقد قال لهم في شاة ميمونة: «هَلَّا أَخَذْتُمْ إِبَاهِيهَا فَدَبَّغْتُمُوهُ فَانْتَفَعْتُمْ بِهِ» [البخاري: ١٤٩٧، ومسلم: ١٨٠٥]. ولو كان الشعر طاهراً، لكان إرشادهم إلى أخذه أولى، لأنه أقل كلفة، وأسهل تناولاً.

قال المصنفون للشعور: قال الله تعالى: ﴿وَيَنْ أَصَوِّفَهَا وَأَوْبَارَهَا وَأَشْعَارَهَا أَتَنَّا وَمَتَنَّا لَكِنْ جِيءَ﴾ [التحل: ٨٠]، وهذا يعم أحياءها وأمواتها، وفي «مسند أحمد»: عن عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: مرَّ النبي ﷺ بشاة لميمونة ميتة، فقال: «أَلَا انْتَفَعْتُمْ بِإِهَابِهَا»، قالوا: وكيف وهي ميتة؟ قال: «إِنَّمَا حَرَّمَ لَحْمَهَا» [صحيح: أحمد: ٣٤٥٧].

وهذا ظاهرٌ جداً في إباحة ما سوى اللحم، والشحم، والكبد والطحال، والآلية كُلُّهَا داخله في اللحم، كما

دخلت في تحريم لحم الخنزير، ولا يتنقض هذا بالعظم والقرن، والظفر والحافر، فإن الصحيح طهارة ذلك كما سطره عقيب هذه المسألة.

قالوا: ولأنه لو أخذ حال الحياة، لكان طاهراً فلم ينجس بالموت، كالبيض، وعكسه الأعضاء. قالوا: ولأنه لما لم ينجس بجزءه في حال حياة الحيوان بالإجماع، دل على أنه ليس جزءاً من الحيوان، وأنه لا روح فيه لأن النبي ﷺ قال: «مَا أَيْبَنُ مِنْ حَيٍّ، فَهُوَ مَيِّتٌ» [سند حسن: أحمد: ٢١٩٠٣، وأبو داود: ٢٨٥٨، والترمذي: ١٤٨٠]، رواه أهل السنن. ولأنه لا يتألم بأخذه، ولا يحس بمسه، وذلك دليل عدم الحياة فيه، وأما النماء، فلا يدل على الحياة والحيوانية التي يتنجس الحيوان بمفارقة، فإن مجرد النماء لو دل على الحياة، ونجس المحل بمفارقة هذه الحياة، لتنجس الزرع بيبسه، لمفارقة حياة النمو والاعتذاء له.

قالوا: فالحياة نوعان: حياة حس وحركة، وحياة نمو واعتذاء، فالأولى: هي التي يؤثر فقدها في طهارة الحي دون الثانية.

قالوا: واللحم إنما ينجس لاحتقان الرطوبات والفضلات الخبيثة فيه، والشعور والأصواف بريئة من ذلك، ولا يتنقض بالعظام والأظفار لما سنذكره.

قالوا: والأصل في الأعيان الطهارة، وإنما يطرا عليها التنجيس باستحالتها، كالرجيع المستحيل عن الغذاء، وكالخمير المستحيل عن العصير وأشباهاها، والشعور في حال استحالتها كانت طاهرة، ثم لم يعرض لها ما يوجب نجاستها بخلاف أعضاء الحيوان، فإنها عرض لها ما يقتضي نجاستها، وهو احتقان الفضلات الخبيثة.

قالوا: وأما حديث عبد الله بن عمر^(١)، ففي إسناده عبد الله بن عبد العزيز بن أبي رواد. قال أبو حاتم الرازي: أحاديثه منكورة ليس محله عندي الصدق، وقال علي بن الحسين بن الجعيد: لا يساري فلساً، يحدث بأحاديث كذب.

وأما حديث الشاة الميتة، وقوله: «ألا انتفعتم بإهابها»، ولم يتعرض للشعر، فعنه ثلاثة أجوبة:

أحدها: أنه أطلق الانتفاع بالإهاب، ولم يأمرهم بإزالة ما عليه من الشعر، مع أنه لا بُدَّ فيه من شعر، وهو ﷺ لم يقيد الإهاب المنتفع به بوجه دون وجه، فدل على أن الانتفاع به فرواً وغيره مما لا يخلو من الشعر.

والثاني: أنه ﷺ قد أرشداهم إلى الانتفاع بالشعر في الحديث نفسه حيث يقول: «إِنَّمَا حَرَّمَ مِنَ الْمَيِّتَةِ أَكْلُهَا أَوْ لَحْمُهَا».

والثالث: أن الشعر ليس من الميتة ليتعرض له في الحديث، لأنه لا يحلُّ الموت، وتعليقهم بالتبعية يبطل بجلد الميتة إذا دُبِّعَ، وعليه شعر، فإنه يطهر دون الشعر عندهم، وتمسكهم بغسله في الطهارة يتطلُّ بالجيرة، وتمسكهم بضمائه من الصيد يبطل بالبيض، وبالحمل. وأما في النكاح، فإنه يتبع الجملة لاتصاله، وزوال الجملة بانفصاله عنها، وهاهنا لو فارق الجملة بعد أن تبعها في التنجس، لم يفارقها فيه عندهم، فعلم الفرق.

فصل

(هل يحرم بيع عظم الميتة وقرنها وجلدها بعد الدباغ)

فإن قيل: فهل يدخل في تحريم بيعها تحريم بيع عظمها وقرنها وجلدها بعد الدباغ لشمول اسم الميتة لذلك؟ قيل: الذي يحرم بيعه منها هو الذي يحرم أكله واستعماله، كما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا حَرَّمَ شَيْئاً حَرَّمَ ثَمَنَهُ» [صحيح: أحمد: ٢٢٢١ - ٢٦٧٨، وأبو داود: ٣٤٨٨]. وفي اللفظ الآخر: «إِذَا حَرَّمَ أَكْلَ شَيْءٍ، حَرَّمَ ثَمَنَهُ». فنبه على أن الذي يحرم بيعه يحرم أكله.

(بيع جلد الميتة)

وأما الجلد إذا دبغ، فقد صار عيناً طاهرة ينتفع به في اللبس والفرش، وساير وجوه الاستعمال، فلا يمتنع جوار بيعه، وقد نص الشافعي في كتابه القديم على أنه لا يجوز بيعه، واختلف أصحابه، فقال

(١) وهو «ادفنوا الأظفار والدم والشعر فإنها ميتة».

القفال: لا يتجه هذا إلا بتقدير قول يُوافق مالكا في أنه يظهر ظاهره دون باطنه، وقال بعضهم: لا يجوز بيعه، وإن طهر ظاهره وباطنه على قوله الجديد، فإنه جزء من الميتة حقيقة، فلا يجوز بيعه كعظمها ولحمها. وقال بعضهم: بل يجوز بيعه بعد الدبغ لأنه عين طاهرة يُتفَع بها، فجاز بيعها كالمذكي، وقال بعضهم: بل هذا ينبنى على أن الدبغ إزالة أو إحالة، فإن قلنا: إحالة، جاز بيعه لأنه قد استحال من كونه جزء ميتة إلى عين أخرى، وإن قلنا: إزالة، لم يجز بيعه، لأن وصف الميتة هو المحرم لبيعه، وذلك باق لم يستحل.

وبنوا على هذا الخلاف جواز أكله، ولهم فيه ثلاثة أوجه: أكله مطلقاً، وتحريمه مطلقاً، والتفصيل بين جلد المأكول وغير المأكول، فأصحاب الوجه الأول، غلبوا حكم الإحالة، وأصحاب الوجه الثاني، غلبوا حكم الإزالة، وأصحاب الوجه الثالث أجروا الدبغ مجرى الذكاة، فأباحوا بها ما يُباح أكله بالذكاة إذا ذكي دون غيره، والقول بجواز أكله باطل مخالف لصريح السنة، ولهذا لم يُمكن قائله القول به إلا بعد منعه كون الجلد بعد الدبغ ميتة، وهذا منع باطل، فإنه جلد ميتة حقيقة، وحساً وحكماً، ولم يحدث له حياة بالدبغ ترفع عنه اسم الميتة، وكون الدبغ إحالة باطل حساً، فإن الجلد لم يستحل ذاته، وأجزأوه، وحقيقته بالدبغ، فدعوى أن الدبغ إحالة عن حقيقة إلى حقيقة أخرى، كما تُحيل النار الحطب إلى الرماد، والملاحة ما يُلقي فيها من الميتات إلى الملح دعوى باطلة.

وأما مذهب الإمام أحمد: فإنه لا يصح عنده بيع جلد الميتة قبل دبغه. وعنه في جوازه بعد الدبغ روايتان، هكذا أطلقهما الأصحاب، وهما عندي مبيتان على اختلاف الرواية عنه في طهارته بعد الدبغ.

(بيع الدهن النجس)

وأما بيع الدهن النجس، ففيه ثلاثة أوجه في مذهبه:

أحدها: أنه لا يجوز بيعه.

والثاني: أنه يجوز بيعه لكافر يعلم نجاسته، وهو المنصوص عنه. قلت: والمراد بعلم النجاسة: العلم بالسبب المنجس لا اعتقاد الكافر نجاسته.

والثالث: يجوز بيعه لكافر ومسلم. وخرج هذا الوجه من جواز إيقاده، وخرج أيضاً من طهارته بالغسل، فيكون كالثوب النجس، وخرج بعض أصحابه وجهاً ببيع السرقين النجس للوقيد من بيع الزيت النجس له، وهو تخريج صحيح.

(بيع السرجين النجس)

وأما أصحاب أبي حنيفة فجزوا بيع السرقين النجس إذا كان تبعاً لغيره، ومنعوه إذا كان مفرداً.

فصل

(بيع عظم الميتة)

وأما عظمها، فمن لم ينجسه بالموت، كأبي حنيفة، وبعض أصحاب أحمد، واختيار ابن وهب من أصحاب مالك، فيجوز بيعه عندهم، وإن اختلف مأخذ الطهارة، فأصحاب أبي حنيفة قالوا: لا يدخل في الميتة، ولا يتناولها اسمها، ومنعوا كون الألم دليل حياته، قالوا: وإنما تؤلمه لما جاوره من اللحم لا ذات العظم، وحملوا قوله تعالى: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رِيبٌ﴾ [يس: ٧٨] على حذف مضاف، أي أصحابها. وغيرهم ضَعَف هذا المأخذ جداً، وقال: العظم يألم حساً، وألمه أشد من ألم اللحم،

وأما أصحاب مالك رحمه الله ففي «المدونة» لابن القاسم المنع من بيعها وإن دبغت، وهو الذي ذكره صاحب «التهذيب». وقال المازري: هذا هو مقتضى القول بأنها لا تطهر بالدبغ. قال: وأما إذا فرعنا على أنها تطهر بالدبغ طهارة كاملة، فإننا نُجيز بيعها لإباحة جملة منافعها.

قلت: عن مالك في طهارة الجلد المدبوغ روايتان: إحداهما: يظهر ظاهره وباطنه، وبها قال وهب، وعلى هذه الرواية جوز أصحابه بيعه. والثانية: - وهي أشهر الروايتين عنه - أنه يظهر طهارة

وقتله. وههنا لما حرم البيع ذكر جملته، ولم يخص التحريم بلحمه؛ ليتناول بيعه حياً وميتاً.

فصل

(تحريم بيع الأصنام)

وأما تحريم بيع الأصنام، فيستفاد منه تحريم بيع كل آلة متخذة للشرك على أي وجه كانت، ومن أي نوع كانت صنماً أو وثناً أو صليماً، وكذلك الكتب المشتملة على الشرك، وعبادة غير الله، فهذه كلها يجب إزالتها وإعدامها، وبيعها ذريعة إلى اقتنائها واتخاذها، فهو أولى بتحريم البيع من كل ما عداها، فإن مفسدة بيعها بحسب مفسدتها في نفسها، والنبي ﷺ لم يؤخر ذكرها لخفة أمرها، ولكنه تدرج من الأسهل إلى ما هو أغلظ منه، فإن الخمر أحسن حالاً من الميتة، فإنها قد تصير مالاً محترماً إذا قلبها الله سبحانه ابتداء خلاً، أو قلبها الآدمي بصنعه عند طائفة من العلماء، وتضمن إذا اتلفت على النمي عند طائفة بخلاف الميتة، وإنما لم يجعل الله في أكل الميتة حداً اكفاء بالزاجر الذي جعله الله في الطباع من كراهتها، والنفرة عنها، وإبعادها عنها، بخلاف الخمر. والخنزير أشد تحريماً من الميتة، ولهذا أفرده الله تعالى بالحكم عليه أنه رجس في قوله: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أَوْحَى إِلَيَّ مَثَراً عَلَى طَائِعٍ يَعْلَمُهُ﴾ [آلَ أَنْعَامِ: ١٤٥]، فالضمير في قوله: «فإنه» وإن كان عوده إلى الثلاثة المذكورة باعتبار لفظ المحرم، فإنه يترجح اختصاص لحم الخنزير به لثلاثة أوجه: أحدها: قرينه منه، والثاني: تذكيره دون قوله، فإنها رجس، والثالث: أنه أتى «بالفاء» وإن تنبيهاً على علة التحريم لتزجر النفوس عنه، ويقابل هذه العلة ما في طباع بعض الناس من استلذازه، واستطابته، فنفى عنه ذلك، وأخبر أنه رجس، وهذا لا يحتاج إليه في الميتة والدم، لأن كونهما رجساً أمر مستقر معلوم عندهم، ولهذا في القرآن نظائر، فتأملها. ثم ذكر بعد تحريم بيع الأصنام، وهو أعظم تحريماً وثاماً، وأشد منافاة للإسلام من بيع الخمر والميتة والخنزير.

ولا يصح حمل الآية على حذف مضاف، لوجهين: أحدهما: أنه تقدير ما لا دليل عليه، فلا سبيل إليه. الثاني: أن هذا التقدير يستلزم الإضراب عن جواب سؤال السائل الذي استشكل حياة العظام، فإن أبي بن خلف أخذ عظماً بالياً، ثم جاء به إلى النبي ﷺ، ففته في يده، فقال: يا محمدا! أترى الله يحيي هذا بعد ما رم؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، ويبعثك، ويدخلك النار»^(١).

فأخذ الطهارة أن سبب تنجيس الميتة منتفٍ في العظام، فلم يُحكم بنجاستها، ولا يصح قياسها على اللحم، لأن احتقان الرطوبات والفضلات الخبيثة يختص به دون العظام، كما أن ما لا نفس له سائلة لا ينجس بالموت، وهو حيوان كامل؛ لعدم سبب التنجيس فيه، فالعظم أولى، وهذا المأخذ أصح وأقوى من الأول، وعلى هذا، فيجوز بيع عظام الميتة إذا كانت من حيوان طاهر العين.

وأما من رأى نجاستها، فإنه لا يجوز بيعها، إذ نجاستها عينية، قال ابن القاسم: قال مالك: لا أرى أن تُشترى عظام الميتة ولا تباع، ولا أنياب الفيل، ولا يتجر فيها، ولا يمتشط بأشاطها، ولا يدهن بمداهنها، وكيف يجعل الدهن في الميتة؛ ويمشط لحيته بعظام الميتة، وهي مبلولة، وكره أن يطبخ بعظام الميتة، وأجاز مطرف، وابن الماجشون بيع أنياب الفيل مطلقاً، وأجاز ابن وهب وأصعب إن غليت وسُلقت، وجعل ذلك دباغاً لها.

فصل

(تحريم بيع الخنزير)

وأما تحريم بيع الخنزير، فيتناول جملته، وجميع أجزائه الظاهرة والباطنة، وتأمل كيف ذكر لحمه عند تحريم الأكل إشارة إلى تحريم أكله ومعظمه اللحم، فذكر اللحم تنبيهاً على تحريم أكله دون ما قبله، بخلاف الصيد، فإنه لم يقل فيه: وحرم عليكم لحم الصيد، بل حرم نفس الصيد، ليتناول ذلك أكله

(١) أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٢٦٩)، ونسبه إلى ابن مردويه، «جامع البيان» (٢٣/٣٠، ٣١).

فصل

(تحريم الشيء تحريم لنمته)

وفي قوله: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا حَرَّمَ شَيْئًا أَوْ حَرَّمَ أَكْلَ شَيْءٍ حَرَّمَ ثَمَنَهُ»، يُراد به أمران: أحدهما: ما هو حرام العين والانتفاع جملة، كالخمر، والميتة، والدم، والخنزير، وآلات الشرك، فهذه ثمنها حرام كيفما اتفقت.

والثاني: ما يُباح الانتفاع به في غير الأكل، وإنما يحرم أكله، كجلد الميتة بعد الدباغ، وكالحمر الأهلية، والبغال ونحوها مما يحرم أكله دون الانتفاع به، فهذا قد يُقال: إنه لا يدخل في الحديث، وإنما يدخل فيه ما هو حرام على الإطلاق. وقد يقال: إنه داخل فيه، ويكون تحريم ثمنه إذا بيع لأجل المنفعة التي حرمت منه، فإذا بيع البغل والحمار لأكلهما، حرم ثمنهما بخلاف ما إذا بيعا للركوب وغيره، وإذا بيع جلد الميتة للانتفاع به، حل ثمنه، وإذا بيع لأكله، حرم ثمنه، وطرد هذا ما قاله جمهور من الفقهاء، كأحمد، ومالك وأتباعهما: إنه إذا بيع العنب لمن يعصره خمراً، حرم أكل ثمنه، بخلاف ما إذا بيع لمن يأكله، وكذلك السلاح إذا بيع لمن يُقاتل به مسلماً، حرم أكل ثمنه، وإذا بيع لمن يغزوه في سبيل الله، فثمنه من الطيبات، وكذلك ثياب الحرير إذا بيعت لمن يلبسها ممن يحرم عليه، حرم أكل ثمنها بخلاف بيعها ممن يحل له لبسها.

(هل يجوز بيع المسلم الخمر والخنزير للذمي؟)

فإن قيل: فهل تُجوزون للمسلم بيع الخمر والخنزير من الذمي لاعتقاد الذمي حلها، كما جوزتم بيعه الدهن المتنجس إذا بين حاله لاعتقاده طهارته وحله؟ قيل: لا يجوز ذلك، وثمنه حرام، والفرق بينهما: أن الدهن المتنجس عين طاهرة خالطها نجاسة، ويسوغ فيها النزاع. وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه لا ينجز إلا بالتغير. وإن تغير، فذهب طائفة إلى إمكان تطهيره بالغسل، بخلاف العين التي حرمها الله في كُلِّ ملة، وعلى لسان كل

رسول، كالميتة، والدم، والخنزير، فإن استباحته مخالفة لما أجمعت الرسل على تحريمه، وإن اعتقد الكافر حله، فهو كبيع الأصنام للمشركين، وهذا هو الذي حرّمه الله ورسوله بعينه، وإلا فالمسلم لا يشتري صنماً.

فإن قيل: فالخمر حلال عند أهل الكتاب، فجوزوا بيعها منهم.

قيل: هذا هو الذي توهمه من توهمه من عمال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حتى كتب إليهم عمر رضي الله عنه ينهاهم عنه، وأمر عماله أن يؤلوا أهل الكتاب يبيعها بأنفسهم، وأن يأخذوا ما عليهم من أثمانها، فقال أبو عبيد: حدثنا عبد الرحمن، عن سفيان بن سعيد، عن إبراهيم بن عبد الأعلى الجعفي، عن سويد بن غفلة، قال: بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن ناساً يأخذون الجزية من الخنازير، فقام بلال، فقال: إنهم ليفعلون، فقال عمر رضي الله عنه: لا تفعلوا، ولوهم يبيعها^(١).

قال أبو عبيد: وحدثنا الأنصاري، عن إسرائيل، عن إبراهيم بن عبد الأعلى، عن سويد بن غفلة، أن بلالاً قال لعمر رضي الله عنه: إن عمالك يأخذون الخمر والخنزير في الخراج، فقال: لا تأخذوا منهم، ولكن ولوهم يبيعها، وخذوا أنتم من الثمن^(٢).

قال أبو عبيد: يريد أن المسلمين كانوا يأخذون من أهل الذمة الخمر والخنزير من جزية رؤوسهم، وخراج أرضهم بقيمتها، ثم يتولّى المسلمون بيعها، فهذا الذي أنكره بلال، ونهى عنه عمر، ثم رخص لهم أن يأخذوا ذلك من أثمانها إذا كان أهل الذمة هم المتولين لبيعها، لأن الخمر والخنزير مال من أموال أهل الذمة، ولا تكون مالاً للمسلمين.

قال: ومما يُبين ذلك حديث آخر لعمر رضي الله عنه حدثنا علي بن مبدع، عن عبيد الله بن عمرو، عن ليث بن أبي أسلم: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى العمال يأمرهم بقتل الخنازير وقبض أثمانها لأهل الجزية من جزيتهم^(٣). قال أبو عبيد: فهو لم

(٣) ليث ضعيف، لم يدرك عمر.

(١) رجاله ثقات، هو في «الأموال» ص (٦٢).

(٢) هو في «الأموال» ص (٦٢).

يجعلها قصاصاً من الجزية إلا وهو يراها من أموالهم. فأما إذا مر الذمي بالخمير والخنازير على العاشر، فإنه لا يطيب له أن يُعشرها، ولا يأخذ ثمن العشر منها، وإن كان الذمي هو المتولي لبيعها أيضاً، وهذا ليس من الباب الأول، ولا يشبهه، لأن ذلك حق وجب على رقابهم وأراضيهم، وأن العشر هاهنا إنما هو شيء يُوضع على الخمير والخنازير أنفسها، وكذلك ثمنها لا يطيب لقول رسول الله ﷺ: «إن الله إذا حرم شيئاً حرم ثمنه». وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه أفنى في مثل هذا بغير ما أفنى به في ذاك، وكذلك قال عمر بن عبد العزيز.

حدثنا أبو الأسود المصري، حدثنا عبد الله بن لهيعة، عن عبد الله بن هبيرة السبائي: أن عتبة بن فرقد بعث إلى عمر بن الخطاب بأربعين ألف درهم صدقة الخمير، فكتب إليه عمر رضي الله عنه: بعثت إليَّ بصدقة الخمير، وأنت أحقُّ بها من المهاجرين، وأخيرٌ بذلك للناس، وقال: والله لا استعملتُك على شيء بعدها، قال: فتركه^(١).

حدثنا عبد الرحمن، عن المثنى بن سعيد الضبي، قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة، أن ابعت إليَّ بتفصيل الأموال التي قبلك، من أين دخلت؟ فكتب إليه بذلك وصفه له، وكان فيما كتب إليه من عشر الخمير أربعة آلاف درهم. قال: فليتنا ما شاء الله، ثم جاء جواب كتابه: إنك كتبت إليَّ تذكر من عشور الخمير أربعة آلاف درهم، وإن الخمير لا يُعشرها مسلم، ولا يشتريها، ولا يبيعها، فإذا أتاك كتابي هذا، فاطلب الرجل، فاردِّدْها عليه، فهو أولى بما كان فيها. فطلب الرجل، فردَّت عليه.

قال أبو عبيد: فهذا عندي الذي عليه العمل، وإن كان إبراهيم النخعي قد قال غير ذلك. ثم ذكر عنه في الذمي يُمَرُّ بالخمير على العاشر، قال: يضاعف عليه العشور^(٢).

قال أبو عبيد: وكان أبو حنيفة يقول: إذا مرَّ على العاشر بالخمير والخنازير، عَشَرَ الخمير، ولم يُعشَّر الخنازير، سمعتُ محمد بن الحسن يُحدث بذلك

عنه، قال أبو عبيد: وقول الخليفين عمر بن الخطاب، وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما أولى بالاتباع، والله أعلم.

حُكْمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي ثَمَنِ الْكَلْبِ وَالسُّنُورِ

في «الصحيحين»: عن أبي مسعود: أن رسول الله ﷺ نهى عَنْ ثَمَنِ الْكَلْبِ وَمَهْرِ الْبَغِي، وَخُلُوتِ الْكَاهِنِ [البخاري: ٢٢٣٧، ومسلم: ٤٠٠٩].

وفي «صحيح مسلم»: عن أبي الزبير، قال: سألت جابراً عن ثمن الكلب والسُّنُور، فقال: رَجَرَ النبي ﷺ عن ذلك [مسلم: ٤٠١٥].

وفي «سنن أبي داود»: عنه: أن النبي ﷺ نهى عن ثمن الكلبِ والسُّنُورِ [أبو داود: ٣٤٧٩، والترمذي: ١٢٧٩].

وفي «صحيح مسلم»: من حديث رافع بن خديج، عن رسول الله ﷺ قال: «شَرُّ الْكُتُبِ مَهْرُ الْبَغِي وَثَمَنُ الْكَلْبِ وَكُتُبُ الْحَجَّامِ» [مسلم: ٤٠١١].

فتضمنت هذه السنن أربعة أمور:

(تحريم بيع الكلب)

أحدها: تحريمُ بيع الكلب، وذلك يتناول كل كلب صغيراً كان أو كبيراً للصيد، أو للماشية، أو للحرث، وهذا مذهبُ فقهاء أهل الحديث قاطبة، والنزاعُ في ذلك معروف عن أصحاب مالك، وأبي حنيفة، فحوز أصحاب أبي حنيفة بيع الكلاب، وأكل أثمانها، وقال القاضي عبد الوهَّاب: اختلف أصحابنا في بيع ما أذن في اتخاذه من الكلاب، فمنهم من قال: يُكره، ومنهم من قال: يحرم، انتهى.

وعقد بعضهم فصلاً لما يصح بيعه، وبنى عليه اختلافهم في بيع الكلب، فقال: ما كانت منافعه كلها محرمة لم يجز بيعه، إذ لا فرق بين المعدوم حساً، والممنوع شرعاً، وما تنوعت منافعه إلى محللة ومحرمة، فإن كان المقصودُ من العين خاصة، كان الاعتبارُ بها، والحكم تابع لها، فاعتبر نوعها، وصار الآخر كالمعدوم. وإن توزعت في النوعين، لم يصح

البيع، لأن ما يُقابل ما حرم منها أكل مال بالباطل، وما سواه من بقية الثمن يصير مجهولاً.

قال: وعلى هذا الأصل مسألة بيع كلب الصيد، فإذا بُني الخلاف فيها على هذا الأصل، قيل: في الكلب من المنافع كذا وكذا، وعُددت جملة منفعه، ثم نظر فيها، فمن رأى أن جملتها محرمة منع، ومن رأى جميعها مُحللة أجاز، ومن رآها متنوعة، نظر: هل المقصود المحلل، أو المحرم، فجعل الحكم للمقصود، ومن رأى منفعة واحدة منها محرمة وهي مقصودة منع أيضاً، ومن التبس عليه كونها مقصودة وقف أو كره، فتأمل هذا التأصيل والتفصيل، وطابق بينهما يظهر لك ما فيهما من التناقض والخلل، وأن بناء بيع كلب الصيد على هذا الأصل من أفسد البناء، فإن قوله: من رأى أن جملة منافع كلب الصيد محرمة بعد تعددها، لم يجز بيعه، فإن هذا لم يقله أحد من الناس قط، وقد اتفقت الأمة على إباحة منافع كلب الصيد من الاصطياد والحراسة، وهما جُلُّ منفعه، ولا يُقتنى إلا لذلك، فمن الذي رأى منافعه كُلُّها محرمة، ولا يصح أن تراد منفعة الشرعية؟ فإن إعارته جائزة.

وقوله: ومن رأى جميعها محللة أجاز، كلام فاسد أيضاً، فإن منافعه المذكورة محللة اتفاقاً، والجمهور على عدم جواز بيعه.

وقوله: ومن رآها متنوعة، نظر، هل المقصود المحلل أو المحرم؟ كلام لا فائدة تحته البتة، فإن منفعة كلب الصيد هي الاصطياد دون الحراسة، فأين التنوع وما يُقدَّر في المنافع من التحريم يُقدَّر مثله في الحمار والبغل؟ وقوله: ومن رأى منفعة واحدة محرمة وهي مقصودة منع. أظهرُ فساداً مما قبله، فإن هذه المنفعة المحرمة ليست هي المقصودة من كلب الصيد، وإن قُدِّر أن مشترية قصدها، فهو كما لو قصد منفعة محرمة من سائر ما يجوز بيعه، وتبين فساد هذا التأصيل، وأن الأصل الصحيح هو الذي دل عليه

(تضعيف المصنف لأحاديث استثناء كلب المشاة)

فإن قيل: كَلْبُ الصَّيْدِ مستثنى من النوع الذي نهى عنه رسول الله ﷺ، بدليل ما رواه الترمذي، من حديث جابر رضي الله عنه: أن النبي ﷺ نهى عن ثَمَنِ الْكَلْبِ إِلَّا كَلْبَ الصَّيْدِ [الترمذي: ١٢٨١].

وقال النسائي: أخبرني إبراهيم بن الحسن المصيصي، حدثنا حجاج بن محمد، عن حماد بن سلمة، عن أبي الزبير، عن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ نهى عن ثَمَنِ الْكَلْبِ وَالسُّورِ إِلَّا كَلْبَ الصَّيْدِ [النسائي: ٣٠٩/٧].

وقال قاسم بن أصبغ: حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا ابن أبي مريم، أخبرنا يحيى بن أيوب، حدثنا المثنى بن الصباح، عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «ثَمَنُ الْكَلْبِ سُخْتٌ إِلَّا كَلْبَ صَيْدٍ»^(١).

وقال ابن وهب عَمَّنْ أخيره، عن ابن شهاب، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ثَلَاثٌ هُنَّ سُخْتٌ: حُلْوَانُ الْكَاهِنِ، وَمَهْرُ الزَّائِغَةِ، وَثَمَنُ الْكَلْبِ الْعَقُورِ»^(٢).

وقال ابن وهب: حدثني الشُّمْرُ بن عبد الله بن ضميرة، عن أبيه، عن جده، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أن النبي ﷺ نهى عن ثَمَنِ الْكَلْبِ الْعَقُورِ^(٣).

ويدل على صحة هذا الاستثناء أيضاً، أن جابراً أخذ من روى عن النبي ﷺ النهي عن ثَمَنِ الْكَلْبِ، وقد رخص جابر نفسه في ثمن كلب الصيد، وقول الصحابي صالح لتخصيص عموم الحديث عند من جعله حجة، فكيف إذا كان معه النص باستثنائه والقياس؟ وأيضاً: لأنه يُباح الانتفاع به، ويُصَحُّ نقلُ اليد فيه بالميراث، والوصية، والهبة، وتجرؤ إعارته

(١) - يحيى بن أيوب مختلف فيه، والمثنى بن الصباح ضعيف، والحديث في «التمحيص» ١٠/٩ - ١١.

(٢) - فيه جهالة وانقطاع.

(٣) - الشمر هو ابن نمير ضعيف، وحسين بن ضميرة كذبه مالك، وقال أبو حاتم: متروك الحديث كذاب.

وإجارته في أحد قولَي العلماء، وهما وجهان للشافعية، فجاز بيعه كالبغل والحمار.

فالجواب: أنه لا يَصِحُّ عن النبي ﷺ استثناء كلب الصيد بوجه. أما حديث جابر رضي الله عنه، فقال الإمام أحمد وقد سئل عنه: هذا من الحسن بن أبي جعفر، وهو ضعيف، وقال الدارقطني: الصواب أنه موقوف على جابر. وقال الترمذي: لا يصح إسناد هذا الحديث.

وقال في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: هذا لا يصح، أبو المهرم ضعيف، يريد رواه عنه. وقال البيهقي: روى عن النبي ﷺ النهي عن ثمن الكلب جماعة، منهم: ابن عباس، وجابر بن عبد الله، وأبو هريرة، ورافع بن خديج، وأبو جحيفة، اللفظ مختلف، والمعنى واحد. والحديث الذي رُوي في استثناء كلب الصيد لا يصح وكان مَنْ رواه أراد حديث النهي عن اقتنائه، فَشَبَّهَ عليه، والله أعلم.

وأما حديث حماد بن سلمة، عن أبي الزبير، فهو الذي ضعفه الإمام أحمد رحمه الله بالحسن بن أبي جعفر، وكأنه لم يقع له طريق حجاج بن محمد، ومنو الذي قال فيه الدارقطني: الصواب أنه موقوف، وقد أعله ابن حزم، بأن أبا الزبير لم يصرح فيه بالسماع من جابر، وهو مدلس، وليس من رواية الليث عنه. وأعله البيهقي بأن أحد رواه وهم من استثناء كلب الصيد مما نُهي عن اقتنائه من الكلاب، فنقله إلى البيع.

قلت: ومما يدل على بطلان حديث جابر هذا، وأنه خُلِطَ عليه أنه صَحَّ عنه، أنه قال: أربع من السحت: ضِرَابُ الفَحْل، وَثَمَنُ الكلب، وَمَهْرُ البغي، وكسب الحجام. وهذا علة أيضاً للموقوف عليه من استثناء كلب الصيد، فهو علة للموقوف والمرفوع.

وأما حديث المثنى بن الصباح، عن عطاء، عن أبي هريرة رضي الله عنه، فباطل، لأن فيه يحيى بن أيوب، وقد شهد مالك عليه بالكذب، وجرحه الإمام أحمد. وفيه المثنى بن الصباح، وضعفه عندهم مشهور، ويدل على بطلان الحديث، ما رواه

النسائي: حدثنا الحسن بن أحمد بن حبيب، حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير، حدثنا أسباط، حدثنا الأعمش، عن عطاء بن أبي رباح، قال: قال أبو هريرة رضي الله عنه: أربع من السحت: ضِرَابُ الفَحْل، وَثَمَنُ الكلب، وَمَهْرُ البغي، وَكَسْبُ الحجام^(١).

وأما الأثر عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فلا يُدرى من أخبر ابن وهب عن ابن شهاب، ولا من أخبر ابن شهاب عن الصديق رضي الله عنه، ومثل هذا لا يُحتج به.

وأما الأثر عن علي رضي الله عنه، ففيه ابن ضميرة في غاية الضعف، ومثل هذه الآثار الساقطة المعلولة لا تُقدم على الآثار التي رواها الأئمة الثقات الأثبات، حتى قال بعض الحفاظ: إن نقلها نقل تواتر، وقد ظهر أنه لم يَصِحَّ عن صحابي خلافاً للبتة، بل هذا جابر، وأبو هريرة، وابن عباس يقولون: ثمن الكلب خبيث.

قال وكيع: حدثنا إسرائيل، عن عبد الكريم، عن قيس بن خبّز، عن ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه: وَثَمَنُ الكلب، وَمَهْرُ البغي، وَثَمَنُ الحَمَرِ حَرَامٌ [صح: أحمد: ٢٠٩٤].

وهذا أقل ما فيه أن يكون قول ابن عباس.

وأما قياس الكلب على البغل والحمار، فمن أفسد القياس، بل قياسه على الخنزير أصح من قياسه عليهما، لأن الشبه الذي بينه وبين الخنزير أقرب من الشبه الذي بينه وبين البغل والحمار، ولو تعارض القياسان لكان القياس المؤيد بالنص الموافق له، أصح وأولى من القياس المخالف له.

فإن قيل: كان النهي عن ثمنها حين كان الأمر يقتلها، فلما حُرِّمَ قتلها وأبيعَ اتخذ بعضها، نُسيخَ النهي، فنسخ تحريم البيع.

قيل: هذه دعوى باطلة ليس مع مدعيها لصحتها دليل، ولا شبهة، وليس في الأثر ما يدل على صحة هذه الدَعْوَى البتة بوجه من الوجوه، ويدل على بطلانها: أن أحاديث تحريم بيعها وأكل ثمنها مطلقة

فصل

(تحريم مهر البغي)

هل للحرمة المكروهة على الزنى مهر؟

والحكم الثالث: مهر البغي، وهو ما تأخذه الزانية في مقابلة الزنى بها، فحكم رسول الله ﷺ أن ذلك خبيثٌ على أي وجه كان، حرّة كانت أو أمة، ولا سيما فإن البغاء إنما كان على عهدهم في الإمامة دون الحرائر، ولهذا قالت هند وقت البيعة: أو تزني الحرة؟! ولا نزاع بين الفقهاء في أن الحرمة البالغة العاقلة إذا مكنت رجلاً من نفسها فزنى بها أنه لا مهر لها، واختلف في مسألتين: إحداهما: الحرمة المكروهة. والثانية: الأمة المطاوعة، فأما الحرمة المكروهة على الزنى، ففيها أربعة أقوال، وهي روايات منصوبات عن أحمد:

أحدها: أن لها المهر بكرًا كانت أو ثيبًا، سواء وطئت في قبلها أو دبرها.

والثاني: أنها إن كانت ثيبًا، فلا مهر لها، وإن كانت بكرًا، فلها المهر، وهل يجب معه أرش البكارة؟ على روايتين منصوبتين، وهذا القول اختيارُ أبي بكر.

والثالث: أنها إن كانت ذات محرم، فلا مهر لها، وإن كانت أجنبية، فلها المهر.

والرابع: أن من تحرم ابنتها كالأم والبنت والأخت، فلا مهر لها، ومن تحل ابنتها كالعمة والخالة، فلها المهر.

وقال أبو حنيفة رحمه الله: لا مهر للمكروهة على الزنى بحال، بكرًا كانت أو ثيبًا.

فمن أوجب المهر، قال: إن استيفاء هذه المنفعة جعل مقومًا في الشرع بالمهر، وإنما لم يجب للمختارة، لأنها باذلة للمنفعة التي عوضها لها، فلم يجب لها شيء، كما لو أذنت في إتلاف عضو من أعضائها لمن أتلفه.

ومن لم يوجب قال: الشارع إنما جعل هذه المنفعة مقومة بالمهر في عقد أو شبهة عقد، ولم يقومها بالمهر في الزنى البتة، وقياس السفاح على النكاح من أفسد القياس. قالوا: وإنما جعل الشارع في مقابلة

عامة كُلتها، وأحاديث الأمر بقتلها، والنهي عن اقتنائها نوعان: نوع كذلك وهو المتقدم، ونوع مقيد مخصص وهو المتأخر، فلو كان النهي عن بيعها مقيداً مخصصاً، لجاءت به الآثار كذلك فلما جاءت عامة مطلقة، عُلِمَ أن عمومها وإطلاقها مراد، فلا يجوز إبطاله. والله أعلم.

فصل

(تحريم بيع السنور)

الحكم الثاني: تحريم بيع السنور، كما دل عليه الحديث الصحيح الصحيح الذي رواه جابر، وأفتى بموجبه، كما رواه قاسم بن أصبغ: حدثنا محمد بن وضاح، حدثنا محمد بن آدم، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا حماد بن سلمة، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله: أنه كره ثمن الكلب والسنور. قال أبو محمد: فهذه فتيا جابر بن عبد الله، أنه كره بما رواه، ولا يُعرف له مخالف من الصحابة، وكذلك أفتى أبو هريرة رضي الله عنه، وهو مذهب طائوس، ومجاهد، وجابر بن زيد، وجميع أهل الظاهر، وإحدى الروايتين عن أحمد، وهي اختيارُ أبي بكر عبد العزيز، وهو الصواب لصحة الحديث بذلك، وعدم ما يُعارضه، فوجب القولُ به.

قال البيهقي: ومن العلماء من حمل الحديث على أن ذلك حين كان محكوماً بنجاستها، فلما قال النبي ﷺ: «الْهَرَّةُ لَيْسَتْ بِنَجَسٍ» [حسن: أحمد: ٢٢٥٨٠، وأبو داود: ٧٥، والترمذي: ٩٢]. صار ذلك منسوخاً في البيع. ومنهم من حمله على السنور إذا تَوَخَّشَ، ومتابعة ظاهر السنة أولى. ولو سمع الشافعي رحمه الله الخبر الواقع فيه، لقال به إن شاء الله، وإنما لا يقول به مَنْ تَوَقَّفَ في تثبيت روايات أبي الزبير، وقد تابعه أبو سفيان عن جابر على هذه الرواية من جهة عيسى بن يونس، وحفص بن غياث عن الأعمش، عن أبي سفيان، انتهى كلامه.

ومنهم من حمله على الهر الذي ليس بمملوك، ولا يخفى ما في هذه المحامل من الوهن.

هذا الاستمتاع الحَدَّ والعقوبة، فلا يجمع بينه وبين ضمان المهر. قالوا: والوجوب إنما يُتلقى من الشارع من نص خطابه أو عمومه، أو فحواه، أو تنبيهه، أو معنى نصّه، وليس شيء من ذلك ثابتاً متحققاً عنه. وغاية ما يُدعى قياسُ السفاح على النكاح، وما يُعدّ ما بينهما. قالوا: والمهر إنما هو من خصائص النكاح لفظاً ومعنى، ولهذا إنما يُضاف إليه فيقال: مهر النكاح، ولا يُضاف إلى الزنى، فلا يقال: مهر الزنا، وإنما أطلق النبي ﷺ المهر وأراد به العقد، كما قال: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخَنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ» [البخاري: ٢٢٣٦]. وكما قال: «وَرَجُلٌ بَاعَ خُرّاً فَأَكَلَتْ ثَمَنَهُ» [البخاري: ٢٢٢٧]. ونظائره كثيرة.

وقد اختلف في هذه المسألة الشيخان: أبو البركات بن تيمية، وأبو محمد بن قدامة، فقال أبو البركات في «محرره»: «يجب مهر المثل للمطوعة بشبهة، والمكرهة على الزنى في قبل أو دبر، وقال أبو محمد في «المغني»: «لا يجب المهر بالوطء في الدبر، ولا اللواط، لأن الشرع لم يَرِدْ بِذَلِكَ، ولا هو إتلافٌ لشيء، فأشبه القيلة والوطء دون الفرج، وهذا القول هو الصواب قطعاً، فإن هذا الفعل لم يجعل له الشارع قيمة أصلاً، ولا قدر له مهرًا بوجه من الوجوه، وقياسه على وطء الفرج من أفسد القياس، ولازم من قاله إيجابُ المهر لمن فعلت به اللوطية من الذكور، وهذا لم يقل به أحد البتة.

فصل

(هل للامة المطاوعة على الزنى مهر؟)

وأما المسألة الثانية: وهي الأمة المطاوعة، فهل يجب لها المهر؟ فيه قولان: أحدهما: يجب، وهو قول الشافعي، وأكثر أصحاب أحمد رحمه الله. قالوا: لأن هذه المنفعة لغيرها، فلا يسقط بدلها مجاناً، كما لو أذنت في قطع طرفها. والصواب المقطوع به: أنه لا مهر لها، وهذه هي البغي التي نهى رسول الله ﷺ عن مهرها، وأخبر أنه خبيث، وحكم عليه وعلى ثمن الكلب، وأجر الكاهن بحكم واحد، والأمة داخلة في هذا الحكم دخولاً أولياً، فلا يجوز تخصيصها من عمومها؛ لأن الإمامة من اللاتي كُنَّ يُعرفن بالبغاء، وفيهن وفي ساداتهن أنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَاتِكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ حَصْنَ﴾ [الثور: ٣٣]، فكيف يجوز أن تُخرج الإمامة من نص أردن به قطعاً، ويُحمل على غيرهن.

وأما قولكم: إن متفعتها لسيدها، ولم يأذن في استيفائها، فيقال: هذه المنفعة يملك السيد استيفاءها بنفسه، ويملك المعاوضة عليها بعقد النكاح أو شبهته، ولا يملك المعاوضة عليها إلا إذا أذنت، ولم

والأولون يقولون: الأصل في هذه المنفعة: أن تقوم بالمهر، وإنما أسقطه الشارع في حق البغي، وهي التي تزني باختيارها، وأما المكرهة على الزنى فليست بغياً، فلا يجوز إسقاط بدل متفعتها التي أكرهت على استيفائها، كما لو أكره الحر على استيفاء منافعه، فإنه يلزمه عوضها، وعوض هذه المنفعة شرعاً هو المهر، فهذا مأخذ القولين.

ومن فرق بين البكر والثيب، رأى أن الواطء لم يذهب على الثيب شيئاً، وحسبه العقوبة التي ترتبت على فعله، وهذه المعصية لا يقابلها شرعاً مال يلزم من أقدم عليها، بخلاف البكر، فإنه أزال بكارتها، فلا بُد من ضمان ما أزاله، فكانت هذه الجنائية مضمونة عليه في الجملة، فضمن ما أثلفه من جزء منفعة، وكانت المنفعة تابعة للجزء في الضمان، كما كانت تابعة له في عدمه من البكر المطاوعة.

ومن فرق بين ذوات المحارم وغيرهن، رأى أن تحريرهن لما كان تحريراً مستقراً، وأنهن غير محل الوطء شرعاً، كان استيفاء هذه المنفعة منهن بمنزلة التلوط، فلا يوجب مهرًا. وهذا قول الشعبي، وهذا بخلاف تحريم المصاهرة، فإنه عارض يمكن زواله.

ومن فرق بين ذوات المحارم وغيرهن، رأى أن يكون تحريرهن لما كان تحريراً مستقراً، وأنهن غير محل الوطء شرعاً، كان استيفاء هذه المنفعة منهن بمنزلة التلوط، فلا يوجب مهرًا. وهذا قول الشعبي، وهذا بخلاف تحريم المصاهرة، فإنه عارض يمكن زواله.

قال صاحب «المغني»: وهكذا ينبغي أن يكون الحكم فيمن حرمت بالزواج، لأنه طارئ أيضاً. ومن فرق في ذوات المحارم، بين من تحرم ابتنتها، وبين من لا تحرم، فكانه رأى أن من لا تحرم ابتنتها

يجعل الله ورسوله للزنى عوضاً قط غير العقوبة، فيفوت على السيد حتى يقضى له، بل هذا تقويم مال أهده الله ورسوله، وإثبات عوض حكم الشارع بخبثه، وجعله بمنزلة ثمن الكلب، وأجر الكاهن، وإن كان عوضاً خبيثاً شرعاً، لم يجوز أن يقضى به.

ولا يقال: فأجر الحجام خبيث، ويقضى له به، لأن منفعة الحجامه منفعة مباحة، وتجوز، بل يجب على مستأجره أن يؤفيه أجره، فأين هذا من المنفعة الخبيثة المحرمة التي عوضها من جنسها، وحكمه حكمها، وإيجاب عوض في مقابلة هذه المعصية، كإيجاب عوض في مقابلة اللواط، إذ الشارع لم يجعل في مقابلة هذا الفعل عوضاً.

فإن قيل: فقد جعل في مقابلة الوطء في الفرج عوضاً، وهو المهر من حيث الجملة، بخلاف اللواط.

قلنا: إنما جعل في مقابلته عوضاً، إذا استوفي بعقد أو بشبهة عقد، ولم يجعل له عوضاً إذا استوفي بزنى محض لا شبهة فيه، وبالله التوفيق. ولم يعرف في الإسلام قط أن زانياً قضي عليه بالمهر للزني بها، ولا ريب أن المسلمين يرون هذا قبيحاً، فهو عند الله عز وجل قبيح.

فصل

(ما تفعل الزانية بكسبها إذا قبضته ثم تاب؟)

فإن قيل: فما تقولون في كسب الزانية إذا قبضته، ثم تاب، هل يجب عليها رد ما قبضته إلى أربابه، أم يطيب لها، أم تصدق به؟

قيل: هذا ينبغي على قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام، وهي أن من قبض شيئاً ليس له قبضه شرعاً، ثم أراد التخلص منه، فإن كان المقبوض قد أخذ بغير رضى صاحبه، ولا استوفى عوضه، رده عليه، فإن تعذر رده عليه، قضى به ديناً يعلمه عليه، فإن تعذر ذلك، رده إلى ورثته، فإن تعذر ذلك، تصدق به عنه، فإن اختار صاحب الحق ثوابه يوم القيامة، كان له، وإن أبي إلا أن يأخذ من حسنات القابض، استوفى منه نظير ماله، وكان ثواب الصدقة للمتصدق بها، كما ثبت عن الصحابة رضي الله عنهم.

وإن كان المقبوض برضى الدافع وقد استوفى عوضه المحرم، كمن عاوض على خمر أو خنزير، أو على زنى أو فاحشة، فهذا لا يجب ردّ العوض على الدافع، لأنه أخرجه باختياره، واستوفى عوضه المحرم، فلا يجوز أن يجمع له بين العوض والمعوض، فإن في ذلك إعانة له على الإثم والعدوان، وتيسير أصحاب المعاصي عليه، وماذا يريد الزاني وفاعل الفاحشة إذا علم أنه ينال غرضه، ويسترد ماله، فهذا مما تُصان الشريعة عن الإتيان به، ولا يسوغ القول به، وهو يتضمن الجمع بين الظلم والفاحشة والغدر. ومن أفتح القبيح أن يستوفي عوضه من المزني بها، ثم يرجع فيما أعطاه قهراً، وقبح هذا مستقر في فطر جميع العقلاء، فلا تأتي به شريعة، ولكن لا يطيب للقابض أكله، بل هو خبيث كما حكم عليه رسول الله ﷺ، ولكن خبثه لخبث مكسبه، لا لظلم من أخذ منه، فطريق التخلص منه، وتمام التوبة بالصدقة به، فإن كان محتاجاً إليه، فله أن يأخذ قدر حاجته، ويتصدق بالباقي، فهذا حكم كل كسب خبيث لخبث عوضه عيناً كان أو منفعة، ولا يلزم من الحكم بخبثه وجوب رده على الدافع، فإن النبي ﷺ حكم بخبث كسب الحجام، ولا يجب رده على دافعه.

فإن قيل: فالدافع ماله في مقابلة العوض المحرم دفع ما لا يجوز دفعه، بل حجر عليه فيه الشارع، فلم يقع قبضه موقعه، بل وجود هذا القبض كعدمه، فيجب رده على مالكه، كما لو تبرع المريض لوارثه بشيء، أو لأجنبي بزيادة على الثلث، أو تبرع المحجور عليه بفلس، أو سفه، أو تبرع المضطر إلى قوته بذلك، ونحو ذلك. وسر المسألة أنه محجور عليه شرعاً في هذا الدفع فيجب رده.

قيل: هذا قياس فاسد، لأن الدفع في هذه الصور تبرع محض لم يعاوض عليه، والشارع قد منعه منه؛ لتعلق حق غيره به، أو حق نفسه المقدمة على غيره، وأما ما نحن فيه، فهو قد عاوض بماله على استيفاء منفعة، أو استهلاك عين محرمة، فقد قبض عوضاً محرماً، وأقبض مالاً محرماً، فاستوفى ما لا يجوز استيفاؤه، وبذل فيه ما لا يجوز بذله، فالقابض قبض

مالاً محرماً، والدافع استوفى عوضاً محرماً، وقضية العدل تردُّ العوضين، لكن قد تعذر ردُّ أحدهما، فلا يُوجب رد الآخر من غير رجوع عوضه. نعم لو كان الخمر قائماً بعينه لم يستهلكه، أو دفع إليها المال ولم يفجر بها، وجب ردُّ المال في صورتين قطعاً كما في سائر العقود الباطلة إذا لم يتصل بها القبض.

فإن قيل: وأيُّ تأثير لهذا القبض المحرم حتى جعل له حرمة، ومعلوم أن قبض ما لا يجوز قبضه بمنزلة عدمه، إذ الممنوعُ شرعاً كالمنوع حساً، فقباضُ المال قبضه بغير حق، فعليه أن يردَّه إلى دافعه؟

قيل: والدافع قبض العين، واستوفى المنفعة بغير حق، كلاهما قد اشتركا في دفع ما ليس لهما دفعه، وقبض ما ليس لهما قبضه، وكلاهما عاصي لله، فكيف يُخص أحدهما بأن يجمع له بين العوض والمعوض عنه، ويفوت على الآخر العوض والمعوض.

فإن قيل: هو فوّت المنفعة على نفسه باختياره. قيل: والآخر فوّت العوض على نفسه باختياره، فلا فرق بينهما، وهذا واضح بحمد الله.

وقد توقف شيخنا في وجوب ردِّ عوض هذه المنفعة المحرمة على بآذله، أو الصدقة به في كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم»، وقال: الزاني، ومستمع الغناء والنوح قد بذلوا هذا المال عن طيب نفوسهم، فاستوفوا العوض المحرم، والتحريم الذي فيه ليس لحقهم، وإنما هو لحق الله تعالى، وقد فاتت هذه المنفعة بالقبض، والأصول تقتضي أنه إذا رد أحد العوضين، رد الآخر، فإذا تعذر على المستأجر ردُّ المنفعة لم يرد عليه المال، وهذا الذي استوفيت منفعتَه عليه ضرر في أخذ منفعتَه، وأخذ عوضها جميعاً منه، بخلاف ما إذا كان العوض خمرأً أو ميتة، فإن تلك لا ضرر عليه في فواتها، فإنها لو كانت باقية لأتلفناها عليه، ومنفعة الغناء والنوح لو لم تفت، لتوفرت عليه بحيث كان يتمكن من صرف تلك المنفعة في أمر آخر، أعني من صرف القوة التي عمل بها. ثم أورد على نفسه سؤالا، فقال: فيقال على هذا: فينبغي أن تقضوا بها

إذا طالب بقبضها. وأجاب عنه بأن قال: قيل: نحن لا نأمر بدفعها ولا بردها كعقود الكفار المحرمة، فإنهم إذا أسلموا قبل القبض لم يحكم بالقبض، ولو أسلموا بعد القبض لم يُحكم بالرد، ولكن المسلم تحرم عليه هذه الأجرة، لأنه كان معتقداً لتحريمها بخلاف الكافر، وذلك لأنه إذا طلب الأجرة، قلنا له: أنت فرطت حيث صرفت قوتك في عمل يحرم، فلا يُقضى لك بالأجرة. فإذا قبضها، وقال الدافع هذا المال: اقضوا لي برده، فإني أقبضته إياه عوضاً عن منفعة محرمة، قلنا له: دفعته معاوضة رضىت بها، فإذا طلبت استرجاع ما أخذ، فاردد إليه ما أخذت إذا كان له في بقائه معه منفعة، فهذا محتمل. قال: وإن كان ظاهر القياس ردها لأنها مقبوضة بعقد فاسد، انتهى.

(هل لمن حمل خمرأً أو ميتة أو خنزيراً لنصراني كراه؟)

وقد نص أحمد في رواية أبي النضر فيمن حمل خمرأً، أو خنزيراً، أو ميتة لنصراني: أكره أكل كرائه، ولكن يُقضى للحمال بالكراء. وإذا كان لمسلم، فهو أشدُّ كراهة. فاختلف أصحابه في هذا النص على ثلاث طرق:

إحداها: إجراؤه على ظاهره، وأن المسألة رواية واحدة. قال ابن أبي موسى: وكره أحمد أن يُؤجر المسلم نفسه لحمل ميتة أو خنزير لنصراني. فإن فعل، قضى له بالكراء، وهل يطيب له أم لا؟ على وجهين: أوجهما: أنه لا يطيب له، ويتصدق به، وكذا ذكر أبو الحسن الأمدي، قال: إذا أجر نفسه من رجل في حمل خمر، أو خنزير، أو ميتة، كره، نص عليه، وهذه كراهة تحريم؛ لأن النبي ﷺ لعن حاملها. إذا ثبت ذلك، فيقضى له بالكراء، وغير ممتنع أن يقضى له بالكراء، وإن كان محرماً، كإجارة الحجام، انتهى. فقد صرح هؤلاء، بأنه يستحق الأجرة مع كونها محرمة عليه على الصحيح.

الطريق الثانية: تأويلُ هذه الرواية بما يُخالف ظاهرها، وجعل المسألة رواية واحدة، وهي أن هذه الإجارة لا تصح، وهذه طريقة القاضيين في «المجرد»، وهي طريقة ضعيفة، وقد رجع عنها في كتبه المتأخرة، فإنه صنف «المجرد» قديماً.

الطريقة الثالثة: تخريج هذه المسألة على روايتين إحداهما: أن هذه الإجارة صحيحة يستحق بها الأجرة مع الكراهة للفعل والأجرة. والثانية: لا تصح الإجارة، ولا يستحق بها أجرة وإن حمل. وهذا على قياس قوله في الخمر: لا يجوز إمساكها، وتجب إراقتها. قال في رواية أبي طالب: إذا أسلم وله خمر أو خنازير، تُصب الخمر، وتسرخ الخنازير، وقد حرما عليه، وإن قتلها، فلا بأس. فقد نص أحمد: أنه لا يجوز إمساكها، ولأنه قد نص في رواية ابن منصور: أنه يكره أن يؤاجر نفسه لنظارة كرم لنصراني؛ لأن أصل ذلك يرجع إلى الخمر إلا أن يعلم أنه يُباع لغير الخمر، فقد منع من إجارة نفسه على حمل الخمر، وهذه طريقة القاضي في «تعليقه» وعليها أكثر أصحابه، والمنصور عندهم: الرواية المخرجة، وهي عدم الصحة، وأنه لا يستحق أجرة، ولا يقضى له بها، وهي مذهب مالك، والشافعي، وأبي يوسف، ومحمد. وهذا إذا استأجره على حملها إلى بيته للشرب، أو لأكل الخنزير، أو مطلقاً، فأما إذا استأجره لحملها ليُرَبِّقها، أو لينقل الميتة إلى الصحراء لئلا يتأذى بها، فإن الإجارة تجوز حيث لا عمل مباح، لكن إن كانت الأجرة جلد الميتة لم تصح، واستحق أجرة المثل، وإن كان قد سلخ الجلد وأخذه، رده على صاحبه، هذا قول شيخنا، وهو مذهب مالك. والظاهر: أنه مذهب الشافعي. وأما مذهب أبي حنيفة رحمه الله: فمذهبه كالرواية الأولى، أنه تصح الإجارة، ويُقضى له بالأجرة، ومأخذه في ذلك، أن الحمل إذا كان مطلقاً، لم يكن المستحق نفس حمل الخمر، فذكره وعدم ذكره سواء، وله أن يحمل شيئاً آخر غيره، كخل وزيت، وهكذا قال: فيما لو أجره داره، أو حانوته ليتخذها كنيسة، أو ليبيع فيها الخمر، قال أبو بكر الرازي: لا فرق عند أبي حنيفة بين أن يشترط أن يبيع فيها الخمر، أو لا يشترط وهو يعلم أنه يبيع فيه الخمر: أن الإجارة تصح؛ لأنه لا يستحق عليه بعقد الإجارة فعل هذه الأشياء، وإن شرط ذلك؛ لأن له أن لا يبيع فيه الخمر، ولا يتخذ الدار كنيسة، ويستحق عليه الأجرة بالتسليم في المدة، فإذا لم يستحق عليه فعل هذه

الأشياء، كان ذكرها وتركها سواء، كما لو اكرى داراً لينام فيها أو ليسكنها، فإن الأجرة تستحق عليه، وإن لم يفعل ذلك، وكذا يقول فيما إذا استأجر رجلاً ليحمل خمرأ أو ميتة، أو خنزيراً: أنه يصح، لأنه لا يتعين حمل الخمر، بل لو حمله بدله عصيراً استحق الأجرة، فهذا التقييد عندهم لغو، فهو بمنزلة الإجارة المطلقة، والمطلقة عنده جائزة. وإن غلب على ظنه أن المستأجر يعصي فيها، كما يجوز بيع العصور لمن يتخذ خمرأ، ثم إنه كره بيع السلاح في الفتنة. قال: لأن السلاح معمول للقتال لا يصلح لغيره، وعامة الفقهاء خالفوه في المقدمة الأولى، وقالوا: ليس المقيد كالمطلق، بل المنفعة المعقود عليها هي المستحقة، فتكون هي المقابلة بالعوض، وهي منفعة محرمة، وإن كان للمستأجر أن يقيم غيرها مقامها، والزموه فيما لو اكرى داراً ليتخذها مسجداً، فإنه لا يستحق عليه فعل المعقود عليه، ومع هذا فإنه أبطل هذه الإجارة بناء على أنها اقتضت فعل الصلاة، وهي لا تستحق بعقد إجارة.

ونازعه أصحاب أحمد ومالك في المقدمة الثانية، وقالوا: إذا غلب على ظنه أن المستأجر يتنفع بها في محرم، حرمت الإجارة؛ لأن النبي ﷺ لعن عاصِرَ الخمر ومعتصرها، والعاصر إنما يعصر عصيراً، ولكن لما علم أن المعتصر يريد أن يتخذ خمرأ، فيعصره له، استحق اللعنة.

قالوا: وأيضاً فإن في هذا معاونة على نفس ما يَسَخُطُ الله ويُبغِضه، ويلعن فاعله، فأصول الشرع وقواعده تقتضي تحريمه وبطلان العقد عليه، وسيأتي مزيد تقرير هذا عند الكلام على حكمه ﷺ بتحريم العينة وما يترتب عليها من العقوبة.

قال شيخنا: والأشبه طريقة ابن موسى، يعني أنه يُقضى له بالأجرة وإن كانت المنفعة محرمة، ولكن لا يطيب له أكلها. قال: فإنها أقرب إلى مقصود أحمد، وأقرب إلى القياس، وذلك لأن النبي ﷺ لعن عاصِرَ الخمر، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه. فالعاصر والحامل، قد عاوضا على منفعة تستحق عوضاً، وهي ليست محرمة في نفسها، وإنما حُرِّمت بقصد المعتصر والمستحمل، فهو كما لو باع عبداً

على كهاتته، وهو من أكل المال بالباطل، والحلوان
في أصل اللغة: العطية. قال: علقمة:
فَمَنْ رَجُلٌ أَخْلَوْهُ رَحْلِي وَنَاقَتِي
يُلْغِي عَنِّي الشَّعْرَ إِذْ مَاتَ فَأَيْلَهُ^(١)
انتهى.

وتحريم حلوان الكاهن تنبيه على تحريم حلوان
المنجم، والزاجر، وصاحب القرعة التي هي شقيقة
الأزلام، وضاربة الحصاص، والعرفاء، والرّمّال
ونحوهم ممن تطلب منهم الأخبار عن المغيبات،
وقد نهى النبي ﷺ عن إتيان الكهّان، وأخبر أن مَنْ
أَتَى عَرَفًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ
عَلَيْهِ ﷺ [صحيح: أحمد: ١٩٥٣٦] ولا ريب أن الإيمان
بما جاء به محمد ﷺ، وبما يجيء به هؤلاء، لا
يجتمعان في قلب واحد، وإن كان أحدهم قد يصدّق
أحياناً، فصدقه بالنسبة إلى كذبه قليل من كثير،
وشيطانه الذي يأتيه بالأخبار لا يد له أن يصدقه
أحياناً؛ ليغوي به الناس، ويفتنهم به.

وأكثر الناس مستجيبيون لهؤلاء، مؤمنون بهم، ولا
سيما ضعفاء العقول، كالشفهاء، والجّهّال،
والنساء، وأهل البوادي، ومن لا علم لهم بحقائق
الإيمان، فهؤلاء هم المفتونون بهم، وكثير منهم
يُحْسِنُ الظَّنَّ بأحدهم، ولو كان مشركاً كافراً بالله
مجاهراً بذلك، ويزوره، وينذر له، ويلتمس دعاءه.
فقد رأينا وسيغنا من ذلك كثيراً، وسبب هذا كله
خفاء ما بعث الله به رسوله من الهدى ودين الحق
على هؤلاء وأمثالهم، ﴿وَيَنْزِلُ إِلَيْكَ اللَّهُ لَكُمْ تَوَكُّلاً﴾^(٢)
[التور: ٤٠] وقد قال الصحابة رضي الله عنهم
لنبي ﷺ: وَإِنَّ هَؤُلَاءِ يُحَدِّثُونَنَا أحياناً بالامر، فيكون
كما قالوا، فأخبرهم أن ذلك من جهة الشياطين،
يُلْقُونَ إِلَيْهِمُ الْكَلِمَةَ تَكُونُ حقاً، فيزيدونهم ممها مئة
كذبة [بخاري: ٣٢١٠، ومسلم: ٥٨١٦] فيصدقون من أجل
تلك الكلمة.

(ما تتركب عليه الملاحم)

وأما أصحاب الملاحم، فركبوا ملاحمهم من
أشياء:

وعصيراً لمن يتخذ خمرأ، وفات العصير والخمر في
يد المشتري، فإن مال البائع لا يذهب مجاناً، بل
يُقضى له بعوضه. كذلك هنا المنفعة التي وفاها
الموَجَر، لا تذهب مجاناً، بل يُعطى بدلها، فإن تحريم
الانتفاع بها إنما كان من جهة المستاجر، لا من جهة
الموَجَر، فإنه لو حملها للإزاقة، أو لإخراجها إلى
الصحراء خشية التأذي بها، جاز. ثم نحن نحرم
الأجرة عليه لحق الله سبحانه لا لحق المستاجر
والمشتري، بخلاف من استوَجَر للزنى أو التلوط أو
القتل أو السرقة، فإن نفس هذا العمل محرم لأجل
قصد المستاجر، فهو كما لو باع ميتة أو خمرأ، فإنه لا
يُقبض له بثمنها؛ لأن نفس هذه العين محرمة، وكذلك
لا يُقبض له بعوض هذه المنفعة المحرمة.

قال شيخنا: ومثل هذه الإجارة، والجعلالة
- يعني: الإجارة على حمل الخمر والميتة - لا
تُوصف بالصحة مطلقاً، ولا بالفساد مطلقاً، بل
يقال: هي صحيحة بالنسبة إلى المستاجر، بمعنى أنه
يجب عليه العوض، وفاسدة بالنسبة إلى الأجير،
بمعنى أنه يحرم عليه الانتفاع بالأجر، ولهذا في
الشرعية نظائر. قال: ولا يُنافي هذا نص أحمد على
كراهة نظارة كرم النصراني، فإنما انتهاء عن هذا الفعل
وعن عوضه، ثم نقضي له بكرائه، قال: ولو لم
يفعل هذا، لكان في هذا منفعة عظيمة للعصاة، فإن
كل من استأجروه على عمل يستعينون به على
المعصية قد حصلوا غرضهم منه، فإذا لم يعطوه
شيئاً، ووجب أن يرد عليهم ما أخذ منهم، كان ذلك
أعظم العون لهم، وليسوا بأهل أن يُعاونوا على
ذلك، بخلاف من سَلَّمَ إليهم عملاً لا قيمة له بحال،
يعني كالزانية، والمغني، والناتحة، فإن هؤلاء لا
يُقبض لهم بأجرة، ولو قبضوا منهم المال، فهل
يلزمهم ردّه عليهم، أم يتصدقون به؟ فقد تقدم الكلام
مستوفى في ذلك، وبيننا أن الصواب: أنه لا يلزمهم
رده، ولا يطيب لهم أكله، والله الموفق للصواب.

فصل

(تحريم حلوان الكاهن)

الحكم الخامس: حلوان الكاهن. قال أبو عمر بن
عبد البر: لا خلاف في حلوان الكاهن: أنه ما يُعطاه

(١) ديوان علقمة ص (١٣١).

أحدها: من أخبار الكهان.

والثاني: من أخبار منقولة عن الكتب السالفة متوارثة بين أهل الكتاب.

والثالث: من أمور أخبر نبينا ﷺ بها جملة وتفصيلاً.

والرابع: من أمور أخبر بها من له كشف من الصحابة ومن بعدهم.

والخامس: من منامات متواطئة على أمر كلي وجزئي. فالجزئي: يذكرونه بعينه، والكلي: يُفصلونه بحدس وقرائن تكون حقاً أو تقارب.

والسادس: من استدلال بآثار غلوية جعلها الله تعالى علامات وأدلة وأسباباً لحوادث أرضية لا يعلمها أكثر الناس، فإن الله سبحانه لم يخلق شيئاً سدى ولا عبثاً، وربط سبحانه العالم العلوي بالسفلي، وجعل غلويه مؤثراً في سفليه دون العكس، فالشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، وإن كان كسوفهما يسبب شر يحدث في الأرض، ولهذا شرع سبحانه تغيير الشر عند كسوفهما بما يدفع ذلك الشر المتوقع من الصلاة والذكر والدعاء والتوبة والاستغفار والعق، فإن هذه الأشياء تعارض أسباب الشر، وتقاومها، وتدفع موجباتها إن قويت عليها.

وقد جعل الله سبحانه حركة الشمس والقمر، واختلاف مطالعتهما سبباً للفصول التي هي سبب الحر والبرد، والشتاء والصيف، وما يحدث فيهما مما يليق بكل فصل منها، فمن له اعتناء بحركاتهما، واختلاف مطالعتهما، يستدل بذلك على ما يحدث في النبات والحيوان وغيرهما، وهذا أمر يعرفه كثير من أهل الفلاحة والزراعة، ونواتي السفن لهم استدلالات بأحوالهما وأحوال الكواكب على أسباب السلامة والعطب من اختلاف الرياح وقوتها وعصفوها، لا تكاد تختل.

والأطباء لهم استدلالات بأحوال القمر والشمس على اختلاف طبيعة الإنسان وتغيثها لقبول التغير، واستغدادها لأمور غريبة ونحو ذلك.

وواضعو الملاحم لهم عناية شديدة بهذا، وأمور متوارثة عن قدماء المنجمين، ثم يستتجون من هذا كله قياسات وأحكاماً تشبه ما تقدم ونظيره. وسنة الله

في خلقه جارية على سنن اقتضتها حكمته، فحكم النظر حكم نظيره، وحكم الشيء حكم مثله، وهؤلاء صرفوا قوى أذهانهم إلى أحكام القضاء والقدر، واعتبار بعضه ببعض، والاستدلال ببعضه على بعض، كما صرف أئمة الشرع قوى أذهانهم إلى أحكام الأمر والشرع، واعتبار بعضه ببعض، والاستدلال ببعضه على بعض، والله سبحانه له الخلق والأمر، ومصدر خلقه وأمره عن حكمة لا تختل ولا تعطل ولا تنقص، ومن صرف قوى ذهنه وفكره، واستند ساعات عمره في شيء من أحكام هذا العالم وعلمه، كان له فيه من النفوذ والمعرفة والاطلاع ما ليس لغيره.

ويكفي الاعتبار بفرع واحد من فروعه، وهو عبارة الرؤيا، فإن العبد إذا نفذ فيها، وكمل اطلاعه، جاء بالعجائب. وقد شاهدنا نحن وغيرنا من ذلك أموراً عجيبة، يحكم فيها المعبر بأحكام متلازمة صادقة، سريعة وبطيئة، ويقول سامعها: هذه علم غيب. وإنما هي معرفة ما غاب عن غيره بأسباب انفرد هو بعلمها، وخفيت على غيره، والشارع صلوات الله عليه حرم من تعاطي ذلك ما مضرت راحته على منفعة، أو ما لا منفعة فيه، أو ما يخشى على صاحبه أن يجره إلى الشرك، وحرّم بذل المال في ذلك، وحرّم أخذه به صيانة للأمة عما يُفسد عليها الإيمان أو يخدشها، بخلاف علم عبارة الرؤيا، فإنه حق لا باطل؛ لأن الرؤيا مستندة إلى الوحي المنامي، وهي جزء من أجزاء النبوة، ولهذا كلما كان الرائي أصدق كانت رؤياه أصدق، وكلما كان المعبر أصدق، وأبر وأعلم، كان تعبيره أصح، بخلاف الكاهن والمنجم وأضرابهما ممن لهم مدد من إخوانهم من الشياطين، فإن صناعتهم لا تصح من صادق ولا بار ولا متقيد بالشرعية، بل هم أشبه بالسحرة الذين كلما كان أحدٌهم أكذب وأفجر وأبعد عن الله ورسوله ودينه، كان السحر معه أقوى وأشدّ تأثيراً، بخلاف علم الشرع والحق، فإن صاحبه كلما كان أبر وأصدق وأدين، كان علمه به ونفوذه فيه أقوى، وبالله التوفيق.

فصل

(خَبِثَ كَسْبُ الْحَجَّامِ)

الحكم السادس: خَبِثَ كَسْبُ الْحَجَّامِ، ويدخل فيه الفاسد والشارط، وكل من يكون كسبه من إخراج الدم، ولا يدخل فيه الطيب ولا الكحل ولا البيطار لا في لفظه ولا في معناه، وصح عن النبي ﷺ: أَنَّهُ حَكَمَ بِخَبْثِهِ وَأَمَرَ صَاحِبَهُ أَنْ يَغْلِقَهُ نَاصِحَهُ أَوْ رَقِيقَهُ [صحيح: أحمد: ٢٣٦٩٠، وأبو داود: ٣٤٢٢، والترمذي: ١٢٧٧، وابن ماجه: ٢١٦٦] وصح عنه: أَنَّهُ احْتَجَمَ وَأَعْطَى الْحَجَّامَ أَجْرَهُ [البخاري: ٢١٠٣، ومسلم: ٤٠٣٨].

فأشكل الجمع بين هذين على كثير من الفقهاء، وظنوا أن النهي عن كسبه منسوخ بإعطائه أجره، ويمن سلك هذا المسلك الطحاوي، فقال في احتجاجة للكوفيين في إباحة بيع الكلاب، وأكل أثمانها: لما أمر النبي ﷺ بقتل الكلاب، ثم قال: «ما لي وللكلاب»، ثم رخص في كلب الصيد، وكلب الغنم، وكان بيع الكلاب إذ ذاك والاتفاق به حراماً، وكان قاتله مؤدياً للفرص عليه في قتله، ثم نُسِخَ ذلك، وأباح الاصطياد به، فصار كسائر الجوارح في جواز بيعه، قال: ومثل ذلك نهيه ﷺ عن كَسْبِ الْحَجَّامِ وقال: «كَسْبُ الْحَجَّامِ خَبِيثٌ» ثم أعطى الحجَّامَ أجره، وكان ذلك ناسخاً لمنعه وتحريمه ونهيه. انتهى كلامه.

وأسهل ما في هذه الطريقة أنها دعوى مجردة لا دليل عليها، فلا تقبل، كيف وفي الحديث نفسه ما يُبطلها، فإنه ﷺ أمر بقتل الكلاب، ثم قال: «ما بالهم وبإل الكلاب» ثم رخص لهم في كلب الصيد.

وقال ابن عمر: أمر رسول الله ﷺ بقتل الكلاب إلا كلب الصيد أو كلب غنم أو ماشية [مسلم: ٤٠١٩]. وقال عبد الله بن مقبل: أمرنا رسول الله ﷺ بقتل الكلاب ثم قال: ما بالهم وبإل الكلاب، ثم رخص في كلب الصيد وكلب الغنم [مسلم: ٦٥٣]. والحديثان في «الصحيح»، فدل على أن الرخصة في كلب الصيد وكلب الغنم وقعت بعد الأمر بقتل الكلاب، فالكلب الذي أذن رسول الله ﷺ في اقتنائه هو الذي حرّم ثمه، وأخبر أنه خبيث دون الكلب الذي أمر بقتله، فإن المأمور بقتله غير مستبقى حتى تحتاج الأمة إلى

بيان حكم ثمنه، ولم تجر العادة ببيعه وشرائه بخلاف الكلب المأذون في اقتنائه، فإن الحاجة داعية إلى بيان حكم ثمنه أولى من حاجتهم إلى بيان ما لم تجر عادتهم ببيعه، بل قد أمروا بقتله.

ومما يبين هذا أنه ﷺ ذكر الأربعة التي تُبذل فيها الأموال عادة لحرص النفوس عليها وهي ما تأخذ الزانية والكاهن والحجّام وبائع الكلب فكيف يُحمل هذا على كلب لم تجر العادة ببيعه، وتخرج منه الكلاب التي إنما جرت العادة ببيعها هذا من الممتنع اليين امتناعه، وإذا تبين هذا، ظهر فساد ما شبه به من نسخ خبيث أجره الحجَّام، بل دعوى النسخ فيها أبعد.

وأما إعطاء النبي ﷺ الحجَّام أجره، فلا يُعارض قوله: «كسب الحجَّام خبيث» فإنه لم يقل: إن إعطاءه خبيث بل إعطاؤه إما واجب، وإما مستحب، وإما جائز، ولكن هو خبيث بالنسبة إلى الآخذ، وخبيثه بالنسبة إلى أكله، فهو خبيث الكسب، ولم يلزم من ذلك تحريمه، فقد سمى النبي ﷺ الثوم والبصل خبيثين مع إباحة أكلهما، ولا يلزم من إعطاء النبي ﷺ الحجَّام أجره حل أكله فضلاً عن كون أكله طيباً، فإنه قال: «إِنِّي لأُعْطِي الرَّجُلَ الْعَطِيَّةَ يَخْرُجُ بِهَا يَتَأَبَّطُهَا نَارًا» [حسن: أحمد: ١١٠٠٤]، والنبي ﷺ قد كان يُعطي المؤلفة قلوبهم من مال الزكاة والفيء مع غناهم، وعدم حاجتهم إليه، ليجلوا من الإسلام والطاعة ما يجب عليهم بذلك بدون العطاء، ولا يجز لهم توقف بذلك على الآخذ، بل يجب عليهم المبادرة إلى بذله بلا عوض.

وهذا أصل معروف من أصول الشرع: أن العقد والبذل قد يكون جائزاً، أو مستحباً، أو واجباً من أحد الطرفين، مكروهاً أو محرماً من الطرف الآخر، فيجب على الباذل أن يتبذل، ويحرم على الآخذ أن يأخذه.

وبالجملة فخبث أجر الحجَّام من جنس خبيث أكل الثوم والبصل، لكن هذا خبيث الرائحة، وهذا خبيث لكسبه.

(أطيب المكاسب وإحله)

فإن قيل: فما أطيب المكاسب وأحلها؟ قيل هذا فيه ثلاثة أقوال للفقهاء:

أحدها: أنه كَسَبُ التجارة.

والثاني: أنه عملُ اليد في غير الصنائع الدنيئة كالحجامة ونحوها.

والثالث: أنه الزَّراعَةُ، ولكل قولٍ من هذه وجه من الترجيح أثرًا ونظرًا، والراجح أن أحلَّها الكسبُ الذي جعل منه رِزْقُ رسولِ اللَّهِ ﷺ وهو كَسَبُ الغانمين وما أُبيع لهم على لسان الشارع، وهذا الكسبُ قد جاء في القرآن مدحُه أكثر من غيره، وأُثني على أهله ما لم يُثَنَّ على غيرهم، ولهذا اختاره اللَّهُ لخير خلقه، وخاتم أنبيائه ورسله حيث يقول: «يُعْثُثُ بالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذَّلَّةُ وَالضَّعَافُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي»، وهو الرِّزْقُ المأخوذُ بعزةٍ وشرفٍ وقهرٍ لأعداءِ اللَّهِ، وجعل أحب شيءٍ إلى اللَّهِ، فلا يُقاومه كسبٌ غيره. واللَّهُ أعلم.

فصل

في حُكْمِهِ ﷺ في بيعِ عَسْبِ الفَحْلِ وضُرَابِهِ في «صحيح البخاري»: عن ابن عمر: أن النَّبِيَّ ﷺ نهى عن عَسْبِ الفَحْلِ [البخاري: ٢٢٨٤].

وفي «صحيح مسلم» عن جابر: أن النَّبِيَّ ﷺ نهى عن بَيْعِ ضُرَابِ الفَحْلِ [مسلم: ٤٠٠٤]. وهذا الثاني تفسيرٌ للآول، وسمى أجرة ضُرَابِهِ بيعاً إما لكون المقصود هو الماء الذي له، فالثمنُ مبذولٌ في مقابلة عين مائه، وهو حقيقة البيع، وإما أنه سُمي لإجارتِهِ لذلك بيعاً، إذ هي عقد معاوضة وهي بيع المنافع، والعادة أنهم يستأجرون الفحل للضُرَابِ، وهذا هو الذي نُهي عنه، والعقدُ الوارد عليه باطل، سواء كان بيعاً أو إجارة، وهذا قولُ جمهور العلماء، منهم أحمدُ والشافعي، وأبو حنيفة وأصحابهم.

وقال أبو الوفاء بن عقيل: ويحتلُّ عندي الجواز، لأنه عقد على منافع الفحل، ونزوه على الأنثى وهي متفعة مقصودة، وماء الفحل يدخل تبعاً، والغالب حصوله عقيب نزوه، فيكون كالعقد على الظئر،

ليحصل اللبنُ في بطن الصبي، وكما لو استأجر أرضاً، وفيها بئر ماء، فإن الماء يدخل تبعاً وقد يغتفر في الاتباع ما لا يُغتفر في المتبوعات.

وأما مالك فحَكِيَ عنه جوازُه، والذي ذكره أصحابه التفصيل، فقال صاحب «الجواهر»^(١) في باب فساد العقد من جهة نهْي الشارع: ومنها بيعُ عَسْبِ الفَحْلِ، ويحمل النهي فيه على استئجار الفحل على إلقاء الأنثى وهو فاسد؛ لأنه غيرُ مقدور على تسليمه، فأما أن يستأجرَه على أن يتزو عليه دفعاتٍ معلومة، فذلك جائز، إذ هو أمدٌ معلوم في نفسه، ومقدورٌ على تسليمه.

(علة النهي عن عَسْبِ الفحل)

والصحيحُ تحرُّمُه مطلقاً وفسادُ العقد به على كل حال، ويحرُم على الآخر أخذُ أجرة ضرابه، ولا يحرم على المعطي، لأنه بذل ماله في تحصيل مباح يحتاج إليه، ولا يمنع من هذا كما في كسب الحجام، وأجرة الكسَّاح، والنبي ﷺ نهى عما يعتادونه من استئجار الفحل للضُرَابِ، وسمى ذلك بيع عَسْبِهِ، فلا يجوزُ حمل كلامه على غير الواقع والمعتاد وإخلاء الواقع من البيان مع أنه الذي قصد بالنتهي، ومن المعلوم أنه ليس للمستأجر غرض صحيح في نزو الفحل على الأنثى الذي له دفعات معلومة، وإنما غرضُه نتيجة ذلك وثمرته، ولأجله بذل ماله. وقد علَّلَ التحريمُ بعدة علل:

إحداها: أنه لا يقدر على تسليم المعقود عليه، فأشبه إجارة الأبق، فإن ذلك متعلق باختيار الفحل وشهوته.

الثانية: أن المقصود هو الماء، وهو مما لا يجوز إفراؤه بالعقد، فإنه مجهولُ القدر والعين وهذا بخلاف إجارة الظئر، فإنها احتملت بمصلحة الآدمي، فلا يُقاسُ عليها غيرها، وقد يقال - واللَّهُ أعلم -: إن النهي عن ذلك من محاسن الشريعة وكمالها، فإن مقابلة ماء الفحل بالأثمان، وجعله محلاً لعقود المعاوضات مما هو مستقبح ومستهجن عند العقلاء،

(١) ألفه العلامة جمال الدين أبو محمد عبد الله بن نجم بن شاس بن نزار الجذامي السعدي المصري شيخ المالكية في عصره.

وقال: هذا مقتضى النظر، لكن ترك مقتضاه في الحجام، فبقي فيما عداه على مقتضى القياس. وقال أبو محمد في «المغني»: كلام أحمد يُحمل على الورع لا على التحريم، والجواز أرفق بالناس، وأوفق للقياس.

ذكر حكم رسول الله ﷺ في المنع من بيع الماء الذي يشترك فيه الناس

ثبت في «صحيح مسلم» من حديث جابر رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن بيع فضل الماء [مسلم: ٤٠٠٤].

وفيه: عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن بيع ضرب الفحل، وعن بيع الماء والأرض يُتخَرَت، فعن ذلك نهى رسول الله ﷺ [مسلم: ٤٠٠٥].

وفي «الصحيحين»: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يُمْنَعُ فَضْلُ الْمَاءِ لِيُمْنَعَ بِهِ الْكَلَاءُ» وفي لفظ آخر «لَا تَمْنَعُوا فَضْلَ الْمَاءِ لِيَتَمْنَعُوا بِهِ الْكَلَاءُ»، وقال البخاري في بعض طرقه: «لَا تَمْنَعُوا فَضْلَ الْمَاءِ لِيَتَمْنَعُوا بِهِ فَضْلَ الْكَلَاءِ».

وفي «المسند» من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ مَنَعَ فَضْلَ مَائِهِ أَوْ فَضْلَ كَلْبِهِ، مَنَعَهُ اللَّهُ فَضْلَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [حسن: أحمد: ٦٦٧٣].

وفي «سنن ابن ماجه» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثٌ لَا يُمْنَعُنَ: الْمَاءُ وَالْكَالُ وَالنَّارُ» [ابن ماجه: ٢٤٧٣].

وفي «سننه» أيضاً: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثٍ: الْمَاءِ وَالنَّارِ وَالْكَالِ، وَتَمَنُّهُ حَرَامٌ» [ابو داود: ٣٤٧٧، وابن ماجه: ٢٤٧٢].

وفي «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: رَجُلٌ كَانَ لَهُ فَضْلُ مَاءٍ بِالطَّرِيقِ فَمَنَعَهُ

وفاعل ذلك عندهم ساقط من أعينهم في أنفسهم، وقد جعل الله سبحانه فِطْرَ عباده لا سيما المسلمين ميزاناً للحسن والقيح، فما رآه المسلمون حسناً، فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون قبيحاً، فهو عند الله قبيح^(١).

ويزيد هذا بياناً أن ماء الفحل لا قيمة له، ولا هو مما يُعاوض عليه، ولهذا لو نزا فحل الرجل على رَمَكَةٍ غيره، فأولدها، فالولد لصاحب الرَمَكَةِ اتفاقاً، لأنه لم ينفصل عن الفحل إلا مجرد الماء وهو لا قيمة له، فحرمت هذه الشريعة الكاملة المعاوضة على ضرابه ليتناوله الناس بينهم مجاناً، لما فيه من تكثير النسل المحتاج إليه من غير إضرار بصاحب الفحل، ولا نقصان من ماله، فمن محاسن الشريعة إيجاب بدل هذا مجاناً، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ مِنْ حَقِّهَا إِطْرَاقَ فَحْلِهَا وَإِعَارَةَ ذَلَوَّهَا» [مسلم: ٢٢٩٦] فهذه حقوق يضر بالناس من شأنها إلا بالمعاوضة، فأوجب الشريعة بذلها مجاناً.

فإن قيل: فإذا أهدى صاحب الأتني إلى صاحب الفحل هدية، أو ساق إليه كرامة، فهل له أخذها؟ قيل: إن كان ذلك على وجه المعاوضة والاشتراط في الباطن لم يحل له أخذها، وإن لم يكن كذلك فلا بأس به، قال أصحاب أحمد والشافعي: وإن أعطى صاحب الفحل هدية، أو كرامة من غير إجازة جاز، واحتج أصحابنا بحديث زوي عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: إذا كان إكراماً، فلا بأس. ذكره صاحب «المغني» ولا أعرف حال هذا الحديث، ولا من خرَّجه، وقد نص أحمد في رواية ابن القاسم على خلافه، فقيل له: ألا يكون مثل الحجام يُعطى، وإن كان منهياً عنه؟ فقال: لم يبلغنا أن النبي ﷺ أعطى في مثل هذا شيئاً كما بلغنا في الحجام.

واختلف أصحابنا في حمل كلام أحمد رحمه الله على ظاهره، أو تأويله، فحمله القاضي على ظاهره،

(١) هو من قول ابن مسعود. أخرجه عنه أحمد (٣٦٩١)، ولا يصح مرفوعاً.

ابن السَّيْلِ، وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامَهُ لَا يُبَايِعُهُ إِلَّا لِلدُّنْيَا فَإِنْ أَعْطَاهُ مِنْهَا رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ مِنْهَا سَخِطَ، وَرَجُلٌ أَقَامَ سِلْعَةً بَعْدَ الْعَصْرِ فَقَالَ: وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ لَقَدْ أُعْطِيتُ بِهَا كَذَا وَكَذَا، فَصَدَّقَهُ رَجُلٌ، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَآيَاتِهِمْ فَمَا كَثِيلًا﴾ [آل عمران: ٧٧] الآية [البخاري: ٢٣٥٨].

وفي «سنن أبي داود»: عن بُهَيْسَةَ قَالَتْ: اسْتَأْذَنَ أَبِي النَّبِيِّ ﷺ، فَمَجَّلَ يَدْنُو مِنْهُ وَيَلْتَرِمُهُ، ثُمَّ قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا الشَّيْءُ الَّذِي لَا يَحِلُّ مِنْهُ؟ قَالَ: «الْمَاءُ» قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا الشَّيْءُ الَّذِي لَا يَحِلُّ مِنْهُ؟ قَالَ: «الْمِلْحُ»، قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا الشَّيْءُ الَّذِي لَا يَحِلُّ مِنْهُ؟ قَالَ: «أَنْ تَفْعَلَ الْخَيْرَ خَيْرٌ لَكَ» [أبو داود: ١٦٦٩].

الماء خلقه الله في الأصل مشتركاً بين العباد والبهائم، وجعله سقياً لهم، فلا يكون أحدٌ أخَصَّ به من أحد، ولو أقام عليه، وتَنَأَّ عليه، قال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه: ابْنُ السَّبِيلِ أَحَقُّ بِالْمَاءِ مِنَ الثَّانِي عَلَيْهِ، ذَكَرَهُ أَبُو عُبَيْدٍ عَنْهُ^(١).

وقال أبو هريرة: ابْنُ السَّبِيلِ أَوْلَى شَارِبٍ.

(جواز بيع الماء إذا كان في قريته أو إنائه)

فَأَمَّا مَنْ حَازَهُ فِي قَرْبَتِهِ أَوْ إِنَائِهِ، فَذَاكَ غَيْرُ الْمَذْكُورِ فِي الْحَدِيثِ، وَهُوَ بِمِثْلَةِ سَائِرِ الْمَبَاحَاتِ إِذَا حَازَهَا إِلَى مَلَكِهِ، ثُمَّ أَرَادَ بَيْعَهَا كَالْحَطَبِ وَالْكَلَا وَالْمِلْحِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَأْتِيَ بِحُرْمَةٍ حَطَبَ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا، فَيَكُفَّ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ» رواه البخاري [البخاري: ١٤٧١].

وفي «الصحيحين»: عن علي رضي الله عنه قال: أَصَبْتُ شَارِقًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي مَغْنَمٍ يَوْمَ بدر، وَأَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَارِقًا آخَرَ، فَأَنْخَتُهُمَا يَوْمًا عِنْدَ بَابِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَخْجَلَ عَلَيْهِمَا إِذْخَرَا لِأَيِّعَهُ [البخاري: ٣٠٩١، ومسلم: ٥١٢٧]. وذكر الحديث، فهذا في الكَلَا والحَطَبِ المباح بعد أخذه

وإحرازه، وكذلك السمك وسائر المباحات، وليس هذا محلُّ النهي بالضرورة ولا محلُّ النهي أيضاً ببيع مياه الأنهار الكبار المشتركة بين الناس، فإن هذا لا يُمكن منعها، والحجرُ عليها، وإنما محلُّ النهي صور: أحدها: المياه المنتقعة من الأمطار إذا اجتمعت في أرض مباحة، فهي مشتركة بين الناس، وليس أحدٌ أَحَقَّ بها من أحدٍ إِلَّا بالتقديم لِقُرْبِ أرضه كما سيأتي إن شاء الله تعالى، فهذا النوعُ لَا يَحِلُّ بَيْعُهُ وَلَا مَنَعُهُ، ومَانَعُهُ عَاصٍ مُسْتَوْجِبٌ لَوْعِيدِ اللَّهِ وَمَنْعَ فَضْلِهِ إِذْ مَنْعَ فَضْلٍ مَا لَمْ تَعْمَلْ يَدَاهُ.

فإن قيل: فلو اتخذ في أرضه المملوكة له حفرةً يجمع فيها الماء، أو حفر بئراً، فهل يملكه بذلك، ويحلُّ له بيعه؟ قيل: لا ريب أنه أَحَقُّ بِهِ مِنْ غَيْرِهِ، ومتى كان الماءُ النابع في ملكه، والكَلَا والمعدن فوق كفايته لشربه وشرب ماشيته ودوابه، لم يجب عليه بذله، نص عليه أحمد، وهذا لا يَدْخُلُ تَحْتَ وَعِيدِ النَّبِيِّ ﷺ، فإنه إنما تَوَعَّدُ مَنْ مَنْعَ فَضْلَ الْمَاءِ، وَلَا فَضْلَ فِي هَذَا.

فصل

(يجب بذل ما فضل من الماء عن حاجته وحاجة بهائمهم)

وزرعه لمن طلبه لحاجته أو حاجة بهائمهم والاختلاف في

بذله لزراع غيره)

وما فَضَّلَ مِنْهُ عَنْ حَاجَتِهِ وَحَاجَةِ بَهَائِمِهِ وَزَرْعِهِ، وَاحْتِاجَ إِلَيْهِ أَدَمِي مِثْلَهُ أَوْ بَهَائِمِهِ، بِذَلِكَ بَغَيْرِ عَوْضٍ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ أَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَى الْمَاءِ وَيَشْرَبَ وَيَسْقِي مَاشِيَتَهُ، وَلَيْسَ لَصَاحِبِ الْمَاءِ مِنْهُ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا يُلْزَمُ الشَّارِبُ وَسَاقِي الْبَهَائِمِ عَوْضٌ. وهل يلزمه أَنْ يَبْذُلَ لَهُ الدَّلْوَّ وَالْبَكْرَةَ وَالْحِجْلَ مَجَانًّا، أَوْ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ أَجْرَتَهُ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ وَهُمَا وَجْهَانِ لِأَصْحَابِ أَحْمَدَ فِي وَجوبِ إِعَارَةِ الْمَتَاعِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، أَظْهَرُهُمَا دَلِيلًا وَجُوبُهُ، وَهُوَ مِنَ الْمَاعُونِ. قال أحمد: إنما هذا في الصحاري والبرية دون البنيان يعني: أن البنيان إذا كان فيه الماء، فليس لأحد الدخولُ إليه إِلَّا بِإِذْنِ صَاحِبِهِ، وهل يلزمه بذل فضل مائه لزراع غيره؟ فيه

(١) قال ابن الأثير: أراد بقوله: «الثاني» ابن السبيل إذا مَرَّ بِرَكِيَّةٍ عَلَيْهَا قَوْمٌ مُقِيمُونَ، فهو أَحَقُّ بِالْمَاءِ مِنْهُمْ، لِأَنَّهُ مُجْتَازٌ وَهُمْ مُقِيمُونَ، يُقَالُ: تَنَأَّ، فَهُوَ ثَانِيٌ. إِذَا أَقَامَ فِي الْبَلَدِ وَغَيْرِهِ.

وجهان، وهما روايتان عن أحمد:

أحدهما: لا يلزمه، وهو مذهب الشافعي؛ لأن الزرع لا حرمة له في نفسه، ولهذا لا يجب على صاحبه سقيه بخلاف الماشية.

والثاني: يلزمه بذله، واحتج لهذا القول بالأحاديث المتقدمة وعمومها، وبما روي عن عبد الله بن عمرو: أَنَّ قَيْمَ أرضه بالوهط كتب إليه يُخبره أنه سقى أرضه، وَفَضَّلَ له مِنَ الماء فَضْلُ يُطْلَب بثلاثين ألفاً، فكتب إليه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أَمَّ قُلْدُكَ، ثم اسق الأذنَى، فالأذنَى، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ ينهى عن بَيْعِ فَضْلِ الْمَاءِ^(١).

قالوا: وفي منعه من سقي الزرع إهلاكه وإفساده، فحرم كالماشية. وقولكم: لا حرمة له، فلصاحبه حرمة، فلا يجوز التسبب إلى إهلاك ماله، ومن سلم لكم أنه لا حرمة للزرع؟ قال أبو محمد المقدسي: ويحتمل أن يمنع نفي الحرمة عنه، فإن إضاعة المال منهي عنها، وإتلافه محرم، وذلك دليل على حرمة.

(هل تملك البئر النابعة أو)

العين المستنبطة والمعادن في أرضه)

فإن قيل: فإذا كان في أرضه أو داره بئر نابعة، أو عين مستنبطة، فهل تكون ملكاً له تبعاً لملك الأرض والدار؟ قيل: أما نفس البئر وأرض العين، فمملوكة لمالك الأرض، وأما الماء، ففيه قولان، وهما روايتان عن أحمد، ووجهان لأصحاب الشافعي:

أحدهما: أنه غير مملوك، لأنه يجري من تحت الأرض إلى ملكه، فأشبه الجاري في النهر إلى ملكه.

والثاني: أنه مملوك له، قال أحمد في رجل له أرض ولآخر ماء، فاشترك صاحب الأرض وصاحب الماء في الزرع: يكون بينهما؟ فقال: لا بأس، وهذا القول اختيار أبي بكر.

وفي معنى الماء المعادن الجارية في الأملاك كالقار والنفط والمُوميا والملح، وكذلك الكلا النابت في أرضه كُلُّ ذَلِكَ يُخرج على الرويتين في الماء، وظاهر المذهب أن هذا الماء لا يملك،

وكذلك هذه الأشياء، قال أحمد: لا يُعجبني بيع الماء البتة، وقال الأثرم: سمعتُ أبا عبد الله يسأل عن قوم بينهم نهر تشرب منه أرضهم: لهذا يوم، ولهذا يومان يَقِفُونَ عليه بالحصص، فجاء يومي ولا احتاج إليه أكره بدراهم؟ قال: ما أدري، أما النبي ﷺ، فنهى عن بيع الماء، قيل: إنه ليس يبيعه، إنما يكرهه، قال: إنما احتالوا بهذا ليُحسِنُوهُ، فأبي شيء هذا إلا البيع انتهى.

(ترجيح المصنف المنع من البيع)

وأحاديث اشتراك الناس في الماء دليل ظاهر على المنع من بيعه، وهذه المسألة التي سئل عنها أحمد هي التي قد ابتلي بها الناس في أرض الشام وبساتينه وغيرها، فإن الأرض والبستان يكون له حق من الشرب من نهر، فيفصل عنه، أو يبنيه دوراً، وحوانيت، ويؤجر ماءه، فقد توقف أحمد أولاً، ثم أجاب بأن النبي ﷺ نهى عن بيع الماء، فلما قيل له: إن هذه إجارة، قال: هذه التسمية جيلة، وهي تحسين اللفظ، وحقيقة العقد البيع، وقواعد الشريعة تقتضي المنع من بيع هذا الماء، فإنه إنما كان له حق التقديم في سقي أرضه من هذا الماء المشترك بينه وبين غيره، فإذا استغنى عنه، لم يجوز له المعاوضة عنه، وكان المحتاج إليه أولى به بعده، وهذا كمن أقام على معدن، فأخذ منه حاجته، لم يجوز له أن يبيع باقيه بعد نزعه عنه.

وكذلك مَنْ سبق إلى الجلوس في رَحْبَةٍ أو طريق واسعة، فهو أحقُّ بها ما دام جالساً، فإذا استغنى عنها، وأجر مقعده، لم يجوز، وكذلك الأرض المباحة إذا كان فيها كلاً أو عشب، فسبق بدوابه إليه، فهو أحقُّ بِرَعْيِهِ ما دامت دوابُّه فيه، فإذا طلب الخروج منها، وبيع ما فَضَّلَ عنه، لم يكن له ذلك وهكذا هذا الماء سواء، فإنه إذا فارق أرضه، لم يبق له فيه حق، وصار بمنزلة الكلا الذي لا اختصاص له به، ولا هو في أرضه.

فإن قيل: الفرق بينهما أن هذا الماء في نفس

(١) ذكره أبو عبيد في «الأموال» ص (٣٧٩، ٣٨٠)، والوهط: قرية بالطائف على ثلاثة أميال من مرج وفيها كرم لعبد الله بن عمرو بن العاص كان على ألف ألف، وقوله: «قلدك» أي إذا سقيت أرضك يوم نوبتها فأعط من يليك.

أرضه، فهو منفعةٌ من منافعها، فملكه بملكها كسائر منافعها بخلاف ما ذكرتم من الصور، فإن تلك الأعيان ليست من ملكه، وإنما له حق الانتفاع والتقديم إذا سبق خاصة.

قيل: هذه النكته التي لأجلها جَوَزَ من جَوَزَ يبعه، وجعل ذلك حقاً من حقوق أرضه، فَمَلَكَ المعاوضة عليه وحده كما يملك المعاوضة عليه مع الأرض، فيقال: حق أرضه في الانتفاع لا في ملك العين التي أودعها الله فيها بوصف الاشتراك، وجعل حقه في تقديم الانتفاع على غيره في التحجر والمعاوضة، فهذا القول هو الذي تقتضيه قواعد الشرع وحكمته واشتماله على مصالح العالم، وعلى هذا فإذا دخل غيره بغير إذنه، فأخذ منه شيئاً ملكه؛ لأنه مباح في الأصل، فأشبه ما لو عَشَشَ في أرضه طائر، أو حصل فيها ظبي، أو نصب ماؤها عن سمك، فدخل إليه، فأخذه.

(يجوز الدخول في ملك)

غيره بغير إذنه للرعي وسقي البهائم)

فإن قيل: فهل له منعه من دخول ملكه، وهل يجوز دخوله في ملكه بغير إذنه؟

قيل: قد قال بعض أصحابنا: لا يجوز له دخول ملكه لأخذ ذلك بغير إذنه، وهذا لا أصل له في كلام الشارع، ولا في كلام الإمام أحمد، بل قد نص أحمد على جواز الرعي في أرض غير مباحة مع أن الأرض ليست مملوكة له ولا مستأجرة، ودخولها لغير الرعي ممنوع منه. فالصواب أنه يجوز له دخولها لأخذ ما له أخذه، وقد يتعدى عليه غالباً استئذان مالكها، ويكون قد احتاج إلى الشرب وسقي بهائم، ورعي الكلا، ومالك الأرض غائب، فلو منعناه من دخولها إلا بإذنه كان في ذلك إضرار ببهائم.

وأيضاً فإنه لا فائدة لهذا الإذن، لأنه ليس لصاحب الأرض منعه من الدخول، بل يجب عليه تمكينه، فغاية ما يقدر أنه لم يأذن له، وهذا حرام عليه شرعاً لا يجل له منعه من الدخول، فلا فائدة في توقف دخوله على الإذن.

وأيضاً فإنه إذا لم يتمكن من أخذ حقه الذي جعله له الشارع إلا بالدخول، فهو مأذون فيه شرعاً، بل لو

كان دخوله بغير إذنه لغيره على حريمه وعلى أهله، فلا يجوز له الدخول بغير إذن، فأما إذا كان في الصحراء، أو دار فيها بشر ولا أنيس بها، فله الدخول بإذن وغيره، وقد قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٩]، وهذا الدخول الذي رفع عنه الجناح هو الدخول بلا إذن، فإنه قد منعهم قبل من الدخول لغير بيوتهم حتى يستأنسوا ويسلموا على أهلها، والاستئناس هنا: الاستئذان، وهي في قراءة بعض السلف كذلك، ثم رفع عنهم الجناح في دخول البيوت غير المسكونة لأخذ متاعهم، فدل ذلك على جواز الدخول إلى بيت غيره وأرضه غير المسكونة، لأخذ حقه من الماء والكلا، فهذا ظاهر القرآن، وهو مقتضى نص أحمد وبالله التوفيق.

(يجوز بيع البشر والعين)

ومشتريها أحق بمائها وشراء عثمان بشر رومة)

فإن قيل: فما تقولون في بيع البشر والعين نفسها: هل يجوز؟ قال الإمام أحمد: إنما نهي عن بيع فضل ماء البشر والعين في قراره، ويجوز بيع البشر نفسها والعين، ومشتريها أحق بمائها، وهذا الذي قاله الإمام أحمد هو الذي دلت عليه السنة، فإن النبي ﷺ قال: «مَنْ يَشْتَرِ بَشَرًا رُومَةً يَوْسَعُ بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَلَهُ الْجَنَّةُ» [الترمذي: ٥٣٧١٤، والنسائي (٢٣٥/٦)، والبيهقي (١٦٨/٦)] أو كما قال، فاشترأها عثمان بن عفان رضي الله عنه من يهودي بأمر النبي ﷺ وسبّلها للمسلمين وكان اليهودي يبيع ماءها. وفي الحديث: أن عثمان رضي الله عنه اشترى منه نصفها باني عشر ألفاً، ثم قال لليهودي: اختر إما أن تأخذها يوماً وأخذها يوماً، وإما أن تنصّب لك عليها دلوأ، وأنصّب عليها دلوأ، فاختار يوماً ويوماً، فكان الناس يستقون منها في يوم عثمان لليومين، فقال اليهودي: أفسدت عليّ بئري، فاشترى باقيها، فاشترأ بثمانية آلاف، فكان في هذا حجة على صحة بيع البشر وجواز شرائها، وتسييلها، وصحة بيع ما يسقى منها، وجواز قسمة الماء بالمهاياة، وعلى كون المالك أحق بمائها، وجواز قسمة ما فيه حق وليس بمملوك.

(كان إقرار اليهودي على بيع الماء في أول الإسلام)

حصله في شيءٍ مُعَدٍّ له، فلا يجوز أخذ شيءٍ منه إلا بإذن مالكه.

وفي هذا نظر مذهباً ودليلاً، أما المذهبُ فإن أحمد قال: إنما نهى عن بيع فضل ماء البئر والعيون في قراره، ومعلوم أن ماء البئر لا يُفارقها، فهو كالبركة التي اتخذت مقراً كالبئر سواء، ولا فرق بينهما، وقد تقدم من نصوص أحمد ما يدل على المنع من بيع هذا، وأما الدليل فما تقدم من النصوص التي سقناها، وقوله في الحديث الذي رواه البخاري في وعيد الثلاثة: «وَالرَّجُلُ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ يَمْتَنِعُهُ ابْنُ السَّبِيلِ» ولم يُفَرِّق بين أن يكون ذلك الفضل في أرضه المختصة به، أو في الأرض المباحة، وقوله: «التَّاسُ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثٍ» ولم يشترط في هذه الشركة كون مقره مشتركاً، وقوله وقد سئل: ما الشيء الذي لا يَحِلُّ منه؟ فقال: الماء، ولم يشترط كون مقره مباحاً، فهذا مقتضى الدليل في هذه المسألة أثراً ونظراً.

ذِكْرُ حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي مَنَعِ الرَّجُلِ مِنْ بَيْعِ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ

في «السنن» و«المسند» من حديث حَكِيم بن حزام قال: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَأْتِينِي الرَّجُلُ يَسْأَلُنِي مِنَ الْبَيْعِ مَا لَيْسَ عِنْدِي، فَأُبَيِّعُهُ مِنْهُ، ثُمَّ أَبْتَاعُهُ مِنَ السُّوقِ، فَقَالَ «لَا تَبِيعْ مَا لَيْسَ عِنْدَكَ» [ابوداود: ٣٥٠٣، والترمذي: ١٢٣٢، والنسائي (٧/٢٨٩)] قال الترمذي: حديث حسن.

وفي «السنن» نحوه من حديث ابن عمرو رضي الله عنه، ولفظه: «لَا يَحِلُّ سَلَفٌ وَبَيْعٌ، وَلَا شَرْطَانِ فِي بَيْعٍ، وَلَا رِبْحٌ مَا لَمْ يُضْمَنْ، وَلَا بَيْعٌ مَا لَيْسَ عِنْدَكَ» [حسن: أحمد: ٦٦٢٨، ٦٦٧١، وإبو داود: ٤٣٥٠٤، والنسائي (٧/٢٨٨)] قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

فاتفق لفظُ الحديثين على نهيه ﷺ عن بيع ما ليس عنده، فهذا هو المحفوظ من لفظه ﷺ وهو يتضمن نوعاً من العَرَرِ، فإنه إذا باعه شيئاً معيناً، وليس في ملكه، ثم مضى ليشتريه، أو يسلمه له، كان متردداً بين الحصول وعدمه، فكان غرراً يشبه القمار، فنهى عنه.

وقد ظنَّ بعضُ الناس: أنه إنما نهى عنه؛ لكونه

فإن قيل: فإذا كان الماء عندكم لا يملك، ولكل واحد أن يستقي منه حاجته، فكيف أمكن اليهودي تحجره حتى اشترى عثمانُ البئرَ وسبَّلَهَا، فإن قلتم: اشترى نفسَ البئر وكانت مملوكة، ودخل الماء تبعاً، أشكل عليكم من وجه آخر وهو أنكم قررتم أنه يجوز للرجل دخول أرض غيره لأخذ الكلأ والماء، وقضية بئر اليهودي تدل على أحد أمرين ولا بُد، إما ملك الماء بملك قراره، وإما على أنه لا يجوز دخول الأرض لأخذ ما فيها من المباح إلا بإذن مالكها.

قيل: هذا سؤال قوي، وقد يتمسك به من ذهب إلى واحد من هذين المذهبين، ومن منع الأمرين، يُجيب عنه بأن هذا كان في أول الإسلام، وحين قدم النبي ﷺ وقبل تقرر الأحكام، وكان اليهود إذ ذاك لهم شوكة بالمدينة، ولم تكن أحكام الإسلام جارية عليهم، والنبي ﷺ لما قدم صالحهم، وأقرهم على ما بأيديهم، ولم يتعرض لهم، ثم استقرت الأحكام، وزالت شوكة اليهود لعنهم الله، وجرت عليهم أحكام الشريعة، وسباق قصة هذه البئر ظاهر في أنها كانت حينَ مقدم النبي ﷺ المدينة في أول الأمر.

فصل

(هل يملك ماء البرك والمصانع؟)

وأما المياهُ الجارية، فما كان نابعاً من غير ملك كالأنهار الكبار وغير ذلك، لم يملك بحال، ولو دخل إلى أرض رجل، لم يملكه بذلك وهو كالطير يدخل إلى أرضه، فلا يملك بذلك، ولكل واحد أخذه وصيده، فإن جعل له في أرضه مصنعاً أو بركة يجتمع فيها، ثم يخرج منها، فهو كتقع البئر سواء، وفيه من النزاع ما فيه وإن كان لا يخرج منها، فهو أحق به للشرب والسقي، وما فضل عنه، فحكمه حكم ما تقدم.

وقال الشيخ في «المغني»: وإن كان ماءً يسيراً في البركة لا يخرج منها، فالأولى أنه يملكه بذلك على ما سذكروه في مياه الأمطار.

ثم قال: فأما المصانعُ المتخذة لمياه الأمطار تجتمع فيها ونحوها من البرك وغيرها، فالأولى أن يملك ماؤها، ويصح بيعه إذا كان معلوماً، لأنه مباح

معدوماً، فقال: لا يَصِحُّ بيعُ المعدوم، وروى في ذلك حديثاً: أَنَّهُ ﷺ نَهَى عَنْ بَيْعِ الْمَعْدُومِ، وهذا الحديث لا يُعرف في شيء من كتب الحديث، ولا له أصل، والظاهر أَنَّهُ مروى بالمعنى من هذا الحديث، وَغَلِطَ مَنْ ظَنَّ أَن معناه واحد، وَأَنَّ هذا المنهي عنه في حديث حكيم وابن عمرو رضي الله عنه لا يلزم أَن يكون معدوماً، وإن كان، فهو معدوم خاص، فهو كبيع حَبْلِ الْخَبَلَةِ وهو معدوم يتضمن غرراً وتردداً في حصوله.

(أقسام المعدوم اولها بيع السلم)

والمعدوم ثلاثة أقسام: معدوم موصوف في الذمة، فهذا يجوز بيعه اتفاقاً، وإن كان أبو حنيفة شرط في هذا النوع أَن يكون وقت العقد في الوجود من حيث الجملة، وهذا هو السَّلَمُ، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

(ثانيها بيع الثمار بعد بدو صلاحها)

والثاني: معدوم تبع للموجود، وإن كان أكثر منه وهو نوعان: نوع متفق عليه، ونوع مختلف فيه، فالمتفق عليه بيع الثمار بعد بدو صلاح ثمرة واحدة منها، فاتفق الناس على جواز بيع ذلك الصنف الذي بدأ صلاح واحد منه، وإن كانت بقية أجزاء الثمار معدومة وقت العقد، ولكن جاز بيعها تبعاً للموجود، وقد يكون المعدوم متصلاً بالموجود، وقد يكون أعياناً آخر منفصلة عن الوجود لم تُخلق بعد.

(الاختلاف في بيع المقائى والمباطخ إذا طابت)

والنوع المختلف فيه كبيع المقائى والمباطخ إذا طابت، فهذا فيه قولان، أحدهما: أَنَّهُ يجوز بيعها جملة، وبأخذها المشتري شيئاً بعد شيء، كما جرت به العادة، ويجري مجرى بيع الثمرة بعد بدو صلاحها، وهذا هو الصحيح من القولين الذي استقر عليه عمل الأمة، ولا غنى لهم عنه، ولم يأت بالمنع منه كتاب ولا سنة ولا إجماع، ولا أثر ولا قياس صحيح، وهو مذهب مالك وأهل المدينة، وأحد القولين في مذهب أحمد، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية.

والذين قالوا: لا يُباع إلا لُقْطَةُ لُقْطَةٍ لا ينضبط قولهم شرعاً، ولا عرفاً، ويتعذر العمل به غالباً، وإن

أمكن، ففي غاية العسر، ويؤدي إلى التنازع والاختلاف الشديد، فإن المشتري يريد أخذ الصغار والكبار، ولا سيما إذا كان صغاره أطيب من كباره، والبائع لا يؤثر ذلك، وليس في ذلك عرف منضبط، وقد تكون المقثاة كثيرة، فلا يستوعب المشتري اللُقْطَةُ الظاهرة حتى يحدث فيها لُقْطَةُ أخرى، ويختلط المبيع بغيره، ويتعذر تمييزه، ويتعذر أو يتعسر على صاحب المقثاة أَن يُخَصِّرَ لها كُلَّ وقت من يشتري ما تجدد فيها، ويُفرده بعقد، وما كان هكذا، فإن الشريعة، لا تأتي به، فهذا غير مقدور ولا مشروع، ولو ألزم الناس به، لفسدت أموالهم وتعطلت مصالحهم ثم إنه يتضمن التفريق بين متماثلين من كل الوجوه، فإن بدو الصلاح في المقائى بمنزلة بدو الصلاح في الثمار، وتلاحق أجزاءها كتلاحق أجزاء الثمار، وجعل ما لم يُخلق منها تبعاً لما أُخلق في الصورتين واحد، فالتفريق بينهما تفريق بين متماثلين.

ولما رأى هؤلاء ما في بيعها لُقْطَةُ لُقْطَةٍ من الفساد والتعذر قالوا: طريق رفع ذلك بأن يبيع أصلها معها، ويقال: إذا كان بيعها جملة مفسدة عندكم، وهو بيع معدوم وعرر، فإن هذا لا يرتفع ببيع العروق التي لا قيمة لها، وإن كان لها قيمة، فسيرة جداً بالنسبة إلى الثمن المبذول، وليس للمشتري قصد في العروق، ولا يدفع فيها الجملة من المال، وما الذي حصل ببيع العروق معها من المصلحة لهما حتى شرط، وإذا لم يكن بيع أصول الثمار شرطاً في صحة بيع الثمرة المتلاحقة كالتين والتوت وهي مقصودة، فكيف يكون بيع أصول المقائى شرطاً في صحة بيعها وهي غير مقصودة، والمقصود أَن هذا المعدوم يجوز بيعه تبعاً للموجود، ولا تأثير للمعدوم، وهذا كالمنافع المعقود عليها في الإجارة، فإنها معدومة، وهي مورد العقد؛ لأنها لا يمكن أَن تحدث دفعة واحدة، والشرائع مبناها على رعاية مصالح العباد، وعدم الحجر عليهم فيما لا بُدَّ لهم منه، ولا تتم مصالحهم في معاشهم إلا به.

فصل

(الثالث من أقسام المعدوم)

(التفريق بين هذا وبين السلم)

الثالث: معدوم لا يدري يحصل أو لا يحصل، ولا ثقة لبائعه بحصوله، بل يكون المشتري منه على خطر، فهذا الذي منع الشارع بيعه لا يكون معدوماً، بل لكونه غَرَرًا، فمنه صورة النهي التي تضمنها حديث حكيم بن حزام وابن عمر رضي الله عنهما، فإن البائع إذا باع ما ليس في ملكه، ولا له قدرة على تسليمه، ليذهب ويحصله، ويسلمه إلى المشتري، كان ذلك شبيهاً بالقمار والمخاطرة من غير حاجة بهما إلى هذا العقد، ولا تتوقف مصلحتهما عليه، وكذلك بيع حَبْلِ الْحَبَلَةِ، وهو بيع حمل ما تحيل ناقته، ولا يختص هذا النهي بحمل الحمل، بل لو باعه ما تحيل ناقته أو بقرته أو أمته، كان من بيع الجاهلية التي يعتادونها، وقد ظن طائفة أن بيع السلم مخصوص من النهي عن بيع ما ليس عنده، وليس هو كما ظنوه، فإن السلم يرد على أمر مضمون في الذمة، ثابت فيها، مقدور على تسليمه عند محله، ولا غرر في ذلك، ولا خطر، بل هو جعل المال في ذمة المسلم إليه، يجب عليه أدائه عند محله، فهو يشبه تأجيل الثمن في ذمة المشتري، فهذا شغل لذمة المشتري بالثمن المضمون، وهذا شغل لذمة البائع بالمبيع المضمون، فهذا لون، وبيع ما ليس عنده لون، ورأيت لشيخنا في هذا الحديث فصلاً مفيداً وهذه سياقه.

(كلام لابن تيمية)

عن حديث النهي عن بيع ما ليس عندك

قال: للناس في هذا الحديث أقوال قيل: المراد بذلك أن يبيع السلعة المعينة التي هي مال الغير، فيبيعها، ثم يملكها، ويسلمها إلى المشتري، والمعنى: لا تبع ما ليس عندك من الأعيان، ونقل هذا التفسير عن الشافعي، فإنه يجوز السلم الحال، وقد لا يكون عند المسلم إليه ما باعه، فحملة على بيع الأعيان، ليكون بيع ما في الذمة غير داخل تحته سواء كان حالاً أو مؤجلاً.

وقال آخرون: هذا ضعيف جداً، فإن حكيم بن

حزام ما كان يبيع شيئاً معيناً هو ملك لغيره، ثم ينطلق فيشتريه منه، ولا كان الذين يأتونه يقولون: نطلب عبد فلان، ولا دار فلان، وإنما الذي يفعله الناس أن يأتيه الطالب، فيقول: أريد طعاماً كذا وكذا، أو ثوباً كذا وكذا، أو غير ذلك، فيقول: نعم أعطيك، فيبيعه منه، ثم يذهب، فيحصله من عند غيره إذا لم يكن عنده، هذا هو الذي يفعله من يفعله من الناس، ولهذا قال: «يأتيني فيطلب مني المبيع ليس عندي» لم يقل يطلب مني ما هو مملوك لغيري، فالطالب طلب الجنس لم يطلب شيئاً معيناً، كما جرت به عادة الطالب لما يؤكل ويلبس ويركب، إنما يطلب جنس ذلك، ليس له غرض في ملك شخص بعينه دون ما سواه، مما هو مثله أو خير منه، ولهذا صار الإمام أحمد وطائفة إلى القول الثاني، فقالوا: الحديث على عموميه يقتضي النهي عن بيع ما في الذمة إذا لم يكن عنده، وهو يتناول النهي عن السلم إذا لم يكن عنده، لكن جاءت الأحاديث بجواز السلم المؤجل، فبقي هذا في السلم الحال.

والقول الثالث - وهو أظهر الأقوال -: إن الحديث لم يرد به النهي عن السلم المؤجل، ولا الحال مطلقاً، وإنما أريد به أن يبيع ما في الذمة مما ليس هو مملوكاً له، ولا يقدر على تسليمه، ويربح فيه قبل أن يملكه، ويضمنه، ويقدر على تسليمه، فهو نهى عن السلم الحال إذا لم يكن عند المستسلم ما باعه، فليزم ذمته بشيء حال، ويربح فيه، وليس هو قادراً على إعطائه، وإذا ذهب يشتريه، فقد يحصل وقد لا يحصل، فهو من نوع الغرر والمخاطرة، وإذا كان السلم حالاً، وجب عليه تسليمه في الحال، وليس بقادر على ذلك، ويربح فيه على أن يملكه ويضمنه، وربما أحاله على الذي ابتاع منه، فلا يكون قد عمل شيئاً، بل أكل المال بالباطل، وعلى هذا فإذا كان السلم الحال والمسلم إليه قادراً على الإعطاء، فهو جائز، وهو كما قال الشافعي إذا جاز المؤجل، فالحال أولى بالجواز.

ومما يبين أن هذا مراد النبي ﷺ أن السائل إنما سأله عن بيع شيء مطلق في الذمة كما تقدم، لكن إذا لم يجز بيع ذلك، فيبيع المعين الذي لم يملكه أولى

بالمنع، وإذا كان إنما سألَه عن بيع شيء في الذمة، فإنما سألَه عن بيعه حالاً، فإنه قال: أبيعُه، ثم أذهب فأتباعه، فقال له: «لَا تَبِعْ مَا لَيْسَ عِنْدَكَ»، فلو كان السلفُ الحال لا يجوزُ مطلقاً، لقال له ابتداء: لا تبع هذا سواء كان عنده أو ليس عنده، فإن صاحبَ هذا القول يقول: يبيع ما في الذمة حالاً لا يجوز، ولو كان عنده ما يُسلمه، بل إذا كان عنده، فإنه لا يبيع إلا معيناً لا يبيع شيئاً في الذمة، فلما لم يَنْه النبي ﷺ عن ذلك مطلقاً، بل قال: «لَا تَبِعْ مَا لَيْسَ عِنْدَكَ»، علم أنه ﷺ فرّق بين ما هو عنده ويملكه ويقدر على تسليمه، وما ليس كذلك، وإن كان كلاهما في الذمة.

ومن تدبّر هذا تبين له أن القولَ الثالث هو الصواب، فإن قيل: إن بيعَ المؤجل جائز للضرورة وهو بيعُ المفاليس، لأن البائع احتاج أن يبيع إلى أجل، وليس عنده ما يبيعه الآن، فأما الحال، فيمكنه أن يحضر المبيع فيراه، فلا حاجة إلى بيع موصوف في الذمة، أو بيع عين غائبة موصوفة لا يبيع شيئاً مطلقاً؟ قيل: لا نسلم أن السلمَ على خلاف الأصل، بل تأجيلُ المبيع تأجيلُ الثمن، كلاهما من مصالح العالم.

(الاختلاف في مبيع الغائب)

والناسُ لهم في مبيع الغائب ثلاثة أقوال: منهم من يُجوزُه مطلقاً، ولا يجوزُه معيناً موصوفاً كالشافعي في المشهور عنه، ومنهم من يجوزُه معيناً موصوفاً، ولا يجوزُه مطلقاً كأحمد وأبي حنيفة، والأظهرُ جوازُ هذا وهذا، ويقال للشافعي مثل ما قال هو لغيره: إذا جاز بيعَ المطلق الموصوف في الذمة، فالمعینُ الموصوف أولى بالجواز، فإن المطلق فيه من الغرر والخطر والجهل أكثر مما في المعين، فإذا جاز بيعَ حنطة مطلقة بالصفة، فجوازُ بيعها معينة بالصفة أولى، بل لو جازَ بيع المعين بالصفة، فلمشتري الخيار إذا رآه، جاز أيضاً، كما نقل عن الصحابة، وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد في إحدى الروايتين، وقد جوز القاضي وغيره من أصحاب أحمد السلمَ الحال بلفظ البيع.

(بيع السلف)

والتحقيق: أنه لا فرق بين لفظٍ ولفظ، فالاعتبارُ

في العقود بحقائقها ومقاصدها لا بمجرد ألفاظها، ونفسُ بيع الأعيان الحاضرة التي يتأخر قبضُها يُسمى سلفاً إذا عجل له الثمن، كما في «المسند»: عن النبي ﷺ: أَنَّهُ نَهَى أَنْ يُسَلَّمَ فِي الْحَائِطِ بَعْنِيهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ بَدَأَ صَلَاحُهُ، فإذا بدأ صلاحُه، وقال: أسلمتُ إليك في عشرة أوسق من تمر هذا الحائط، جاز كما يجوز أن يقول: ابتعت عشرة أوسق من هذه الصبرة، ولكن الثمن يتأخر قبضُه إلى كمال صلاحه، فإذا عجل له الثمن قيل له: سلف، لأن السلف هو الذي تقدم، والسالف المتقدم قال الله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦] والعرب تسمي أول الرواحل السالفة، ومنه قولُ النبي ﷺ: «الْحَقُّ بِسَلْفَيْنَا الصَّالِحِ عُمَانُ بْنُ مَطْعُونٍ» [مجمع الزوائد (٢٠٧/٩)]. وقول الصديق رضي الله عنه: لا قاتلُهم حتى تفردَ سالفتي. وهي العنق.

ولفظ السلف يتناولُ القرضَ والسلم؛ لأن المقرض أيضاً أسلف القرض، أي: قدمه، ومنه هذا الحديث «لَا يَجِلُّ سَلْفٌ وَبَيْعٌ» ومنه الحديث الآخر «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَسَلَفَ بَكْرًا، وَقَضَى جَمَلًا رَبَاعِيًا» [البخاري: ٢٣٠٥] والذي يبيع ما ليس عنده لا يقصد إلا الربح، وهو تاجر، فَيَسْتَلِفُ بسعر، ثم يذهب فيشتري بمثل ذلك الثمن، فإنه يكون قد أعْتَبَ نفسه لغيره بلا فائدة، وإنما يفعل هذا من يتوكل لغيره فيقول: أعطني، فانا أشتري لك هذه السلعة، فيكون أميناً، أما أنه يبيعها بثمن معين يقبضه، ثم يذهب فيشتريها بمثل ذلك الثمن من غير فائدة في الحال، فهذا لا يفعله عاقل، نعم إذا كان هناك تاجرٌ، فقد يكون محتاجاً إلى الثمن، فَيَسْتَلِفُهُ ويتفجّع به مدة إلى أن يحصل تلك السلعة، فهذا يقع في السلم المؤجل، وهو الذي يسمى بيعُ المفاليس، فإنه يكون محتاجاً إلى الثمن وهو مفلس، وليس عنده في الحال ما يبيعه، ولكن له ما ينتظره من مَعْلٍ أو غيره، فيبيعه في الذمة، فهذا يفعل مع الحاجة، ولا يُفعل بدونها إلا أن يقصد أن يَجْعَلَ بالثمن في الحال، أو يرى أنه يحصل به من الربح أكثر مما يفوت بالسلم، فإن المستسلف يبيع السلعة في الحال بدون ما تساوي نقداً، والمستلف يرى أن يشتريها إلى أجل بأرخص

هو، وليست هذه المخاطرة مخاطرة التجار بل مخاطرة المستعجل بالبيع قبل القدرة على التسليم، فإذا اشترى التاجر السلعة، وصارت عنده ملكاً وقبضاً، فحينئذ دخل في خطر التجارة، وباع يبيع التجارة كما أحله الله بقوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بِعَارَةً عَنْ بَعْضِهَا﴾ [النساء: ٢٩]، والله أعلم.

ذِكْرُ حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْعِ الْحَصَاةِ وَالْقَرَرِ وَالْمَلَامَسَةِ وَالْمُنَابَذَةِ

في «صحيح مسلم»: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عَنْ بَيْعِ الْحَصَاةِ وَعَنْ بَيْعِ الْقَرَرِ [مسلم: ٣٨٠٨].

وفي «الصحيحين»: عنه أن رسول الله ﷺ نهى عن الملامسة والمُنَابَذَةِ. زاد مسلم: أمّا الملامسة: فإن يُلْمَسَ كُلُّ مِثْمَا ثَوْبَ صَاحِبِهِ بِغَيْرِ تَأْمُلٍ، والمُنَابَذَةُ: أَنْ يَنْبِذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِثْمَا ثَوْبَهُ إِلَى الْآخَرِ، وَلَمْ يَنْظُرْ وَاحِدٌ مِثْمَا إِلَى ثَوْبِ صَاحِبِهِ الْآخَرِ [البخاري: ٢١٤٦، ومسلم: ٣٨٠١].

وفي «الصحيحين»: عن أبي سعيد قال: نهى رسول الله ﷺ عَنْ بَيْعَتَيْنِ وَلُبْسَتَيْنِ: نَهَى عَنِ الْمَلَامَسَةِ وَالْمُنَابَذَةِ فِي الْبَيْعِ. والملامسة: لمس الرجل ثوب الآخر بيده بالليل أو بالنهار ولا يقلبه إلا بذلك، والمُنَابَذَةُ: أَنْ يَنْبِذَ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ ثَوْبَهُ، وَيَنْبِذَ الْآخَرُ ثَوْبَهُ، ويكون ذلك بيعهما من غير نظر ولا تراض [البخاري: ٢٢١٤٤، ومسلم: ٣٨٠٦].

(بيع الحصاة)

أما بيع الحصاة، فهو من باب إضافة المصدر إلى نوعه، كبيع الخيار، وبيع النسيئة ونحوهما، وليس من باب إضافة المصدر إلى مفعوله، كبيع الميتة والدم.

والبيع المنهي عنها ترجع إلى هذين القسمين، ولهذا فُسر بيع الحصاة بأن يقول: ارم هذه الحصاة، فعلى أي ثوب وقعت، فهو لك ب درهم، وفسر بأن يبعه من أرضه قدر ما انتهت إليه رمية الحصاة، وُفسر بأن يقبض على كف من حصا، ويقول: لي بعدد ما خرج في القبضة من الشيء

مما يكون عند حصولها، وإلا فلو علم أنها عند طرد الأصل تُباع بمثل رأس مال السلم لم يُسلم فيها، فيذهب نفع ماله بلا فائدة، وإذا قصد الأجر، أقرضه ذلك قرضاً، ولا يجعل ذلك سَلَمًا إِلَّا إِذَا ظُنَّ أَنَّهُ فِي الْحَالِ أَرْخَصُ مِنْهُ وَقْتَ حُلُولِ الْأَجْلِ، فالسلم المؤجل في الغالب لا يكون إلا مع حاجة المستسلف إلى الثمن، وأما الحال، فإن كان عنده، فقد يكون محتاجاً إلى الثمن، فيبيع ما عنده معيناً تارة، وموصوفاً أخرى، وأما إذا لم يكن عنده، فإنه لا يفعله إلا إذا قصد التجارة والربح، فيبيعه بسعر، ويشتريه بأرخص منه.

ثم هذا الذي قدره قد يحصل كما قدره، وقد لا يحصل له تلك السلعة التي يسلف فيها إلا بثمن أعلى مما أسلف فيندم، وإن حصلت بسعر أرخص من ذلك، قدم السلف إذ كان يمكنه أن يشتريه هو بذلك الثمن، فصار هذا من نوع الميسر والقمار والمخاطرة، كبيع العبد الأبق، والبعر الشارد يُباع بدون ثمنه، فإن حصل، ندم البائع، وإن لم يحصل، ندم المشتري، وكذلك يبيع حَبْلُ الْحَبْلَةِ، وبيع الملاقيع والمضامين، ونحو ذلك مما قد يحصل، وقد لا يحصل، فبائع ما ليس عنده من جنس بائع الغرر الذي قد يحصل، وقد لا يحصل وهو من جنس القمار والميسر. والمخاطرة مخاطرتان: مخاطرة التجارة وهو أن يشتري السلعة بقصد أن يبيعها ويربح ويتوكل على الله في ذلك، والخطر الثاني: الميسر الذي يتضمن أكل المال بالباطل، فهذا الذي حرّمه الله تعالى ورسوله مثل بيع الملامسة والمُنَابَذَةِ، وَحَبْلُ الْحَبْلَةِ وَالْمَلَقِيقِ وَالْمُضَامِينِ، وبيع الثمار قبل بُدُو صلاحها، ومن هذا النوع يكون أحدهما قد قَمَرَ الآخر، وظلمه، ويتظلم أحدهما من الآخر بخلاف التاجر الذي قد اشترى السلعة، ثم بعد هذا نقص سعرها، فهذا من الله سبحانه ليس لأحد فيه حيلة، ولا يتظلم مثل هذا من البائع، وبيع ما ليس عنده من قسم القمار والميسر؛ لأنه قصد أن يربح على هذا لما باعه ما ليس عنده، والمشتري لا يعلم أنه يبيعه، ثم يشتري من غيره، وأكثر الناس لو عَلِمُوا ذلك لم يشتروا منه، بل يذهبون ويشترون من حيث اشترى

إِنَّ الْمَضَامِينَ الَّتِي فِي الصُّلْبِ
مَاءُ الْقُحُولِ فِي الظُّهُورِ الْحُدْبِ
ومنه يَبِيعُ الْمَجْرُ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنْهُ [اليهني] (٥)
[٣٤١]. قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: الْمَجْرُ مَا فِي بَطْنِ النَّاقَةِ،
وَالْمَجْرُ: الرِّبَا، وَالْمَجْرُ: الْقِمَارُ، وَالْمَجْرُ:
الْمُحَاقَلَةُ وَالْمَزَابَنَةُ.

(بيع الملامسة والمناذبة)

ومنه يَبِيعُ الملامسة والمناذبة وقد جاء تفسيرهما في
نفس الحديث، ففي «صحيح مسلم»: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نَهَى عَنْ بَيْعَتَيْنِ: الْمَلَامَسَةِ وَالْمُنَاذَبَةِ.
أَمَّا الْمَلَامَسَةُ فَأَنْ يَلْمَسَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ثَوْبَ صَاحِبِهِ
بِغَيْرِ تَأْمَلٍ. وَالْمُنَاذَبَةُ: أَنْ يَنْبِذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ثَوْبَهُ
إِلَى الْآخَرِ، وَلَمْ يَنْظُرْ وَاحِدٌ مِنْهُمَا إِلَى ثَوْبِ صَاحِبِهِ،
هَذَا لَفْظُ مُسْلِمٍ [٣٨٠٥].

وفي «الصحيحين»: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: نَهَانَا
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ بَيْعَتَيْنِ وَلَيْسَتَيْنِ فِي الْبَيْعِ،
وَالْمَلَامَسَةُ: لَمَسُ الرَّجُلِ ثَوْبَ الْآخَرِ يَدُهُ بِاللَّيْلِ أَوْ
بِالنَّهَارِ، وَلَا يَقْلِبُهُ إِلَّا بِذَلِكَ، وَالْمُنَاذَبَةُ: أَنْ يَنْبِذَ
الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ ثَوْبَهُ، وَيَنْبِذَ الْآخَرُ إِلَيْهِ ثَوْبَهُ،
وَيَكُونُ ذَلِكَ بَيْعَهُمَا مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ وَلَا تَرَاوٍ [البخاري:
٢١٤٤، ومسلم: ٣٨٠٦].

وُفُسِّرَتِ الْمَلَامَسَةُ بِأَنْ يَقُولَ: بَعْتُكَ ثَوْبِي هَذَا عَلَى
أَنْتَ مَتَى لَمَسْتَهُ، فَهُوَ عَلَيْكَ بِكَذَا، وَالْمُنَاذَبَةُ بِأَنْ
يَقُولَ: أَيُّ ثَوْبٍ نَبَذْتَهُ إِلَيَّ، فَهُوَ عَلَيَّ بِكَذَا، وَهَذَا
أَيْضاً نَوْعٌ مِنَ الْمَلَامَسَةِ وَالْمُنَاذَبَةِ، وَهُوَ ظَاهِرُ كَلَامِ
أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَالْغَرَرُ فِي ذَلِكَ ظَاهِرٌ، وَلَيْسَ الْعِلَّةُ
تَعْلِيقُ الْبَيْعِ شَرْطاً، بَلْ مَا تَضَمَّنَهُ مِنَ الْخَطَرِ وَالْغَرَرِ.

فصل

(بيع المغيبات)

وليس من بيع الغرر بيع المغيبات في الأرض
كاللثِّ والجَزَرِ والفِجْلِ والقَلْقَاسِ والبَصْلِ ونحوها،
فإنها معلومة بالعادة يَعْرِفُهَا أَهْلُ الْخَبَرَةِ بِهَا، وَظَاهِرُهَا
عَنْ بَاطِنِهَا، فَهُوَ كَظَاهِرِ الصُّبْرِ مَعَ بَاطِنِهَا، وَلَوْ
قُدِّرَ أَنْ فِي ذَلِكَ غَرَرٌ، فَهُوَ غَرَرٌ يَسِيرُ يُغْتَفَرُ فِي جَنْبِ
الْمَصْلَحَةِ الْعَامَةِ الَّتِي لَا بَدَ لِلنَّاسِ مِنْهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ غَرَرٌ
لَا يَكُونُ مُوجِباً لِلنَّعْيِ، فَإِنَّ إِجَارَةَ الْحَيَوَانِ وَالْدَّارِ

الْمَبِيعِ، أَوْ يَبِيعُهُ سَلْعَةً، وَيُقْبَضُ عَلَى كَفِّ مِنَ
الْحَصَا، وَيَقُولُ: لِي بِكُلِّ حَصَاةٍ دَرَاهِمَ، وَفُسِّرَ بِأَنْ
يَمْسَكَ أَحَدُهُمَا حَصَاةً فِي يَدِهِ، وَيَقُولُ: أَيُّ وَقْتُ
سَقَطَتِ الْحَصَاةُ، وَجِبَ الْبَيْعُ، وَفُسِّرَ بِأَنْ يَتَبَايَعَا،
وَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: إِذَا نَبَذْتَ إِلَيَّ الْحَصَاةَ، فَقَدْ وَجِبَ
الْبَيْعُ، وَفُسِّرَ بِأَنْ يَتَرَضَّ الْقَطِيعُ مِنَ الْغَنَمِ، فَيَأْخُذُ
حَصَاةً، وَيَقُولُ: أَيُّ شَاةٍ أَصَبْتُهَا فَهِيَ لَكَ بِكَذَا،
وَهَذِهِ الصُّورُ كُلُّهَا فَاسِدَةٌ لَمَّا تَضَمَّنَتْ مِنْ أَكْلِ الْمَالِ
بِالْبَاطِلِ، وَمِنْ الْغَرَرِ وَالْخَطَرِ الَّذِي هُوَ شَبِيهُ بِالْقِمَارِ.

فصل

(بيع الغرر)

وَأَمَّا بَيْعُ الْغَرَرِ، فَمِنْ إِضَافَةِ الْمَصْدَرِ إِلَى مَفْعُولِهِ
كَبَيْعِ الْمَلَاقِيحِ وَالْمَضَامِينِ. وَالْغَرَرُ: هُوَ الْمَيْبَعُ نَفْسُهُ،
وَهُوَ فِعْلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، أَيُّ: مَغْرُورٌ بِهِ كَالْقَبْضِ
وَالسَّلْبِ بِمَعْنَى الْمَقْبُوضِ وَالْمَسْلُوبِ، وَهَذَا كَبَيْعِ
الْعَبْدِ الْأَبْقَى الَّذِي لَا يَقْدَرُ عَلَى تَسْلِيمِهِ، وَالْفَرَسِ
الشَّارِدِ، وَالطَّيْرِ فِي الْهَوَاءِ، وَكَبَيْعِ ضَرْبَةِ الْغَائِصِ وَمَا
تَحْمِلُ شَجَرَتُهُ أَوْ نَاقَتُهُ، أَوْ مَا يَرْضَى لَهُ بِهِ زَيْدٌ، أَوْ
يَهْبِي لَهُ، أَوْ يُوَرِّثُهُ إِيَّاهُ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَعْلَمُ حَصُولَهُ
أَوْ لَا يَقْدَرُ عَلَى تَسْلِيمِهِ، أَوْ لَا يَعْرِفُ حَقِيقَتَهُ
وَمَقْدَارَهُ، وَمِنْهُ بَيْعُ حَبْلِ الْحَبْلَةِ، كَمَا ثَبَتَ فِي
«الصحيحين»: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنْهُ [البخاري: ٢١٤٣،
ومسلم: ٣٨٠٩]، وَهُوَ نَتَاجُ النَّتَاجِ فِي أَحَدِ الْأَقْوَالِ،
وَالثَّانِي: أَنَّهُ أَجَلٌ، فَكَانُوا يَتَبَايَعُونَ إِلَيْهِ هَكَذَا. رَوَاهُ
مُسْلِمٌ، وَكِلَاهُمَا غَرَرٌ، وَالثَّالِثُ: أَنَّهُ يَبِيعُ حَمْلَ الْكَرْمِ
قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ، قَالَهُ الْمُبَرِّدُ. قَالَ: وَالْحَبْلَةُ: الْكَرْمُ
بِسُكُونِ الْبَاءِ وَقَتْحِهَا، وَأَمَّا ابْنُ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،
فَإِنَّهُ فَسَّرَهُ بِأَنَّهُ أَجَلٌ كَانُوا يَتَبَايَعُونَ إِلَيْهِ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ
مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ، وَأَمَّا أَبُو عُبَيْدَةَ، فَفَسَّرَهُ بِبَيْعِ نَتَاجِ
النَّتَاجِ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ أَحْمَدُ، وَمِنْهُ بَيْعُ الْمَلَاقِيحِ
وَالْمَضَامِينِ، كَمَا ثَبَتَ فِي حَدِيثِ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ،
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنْ
الْمَضَامِينِ وَالْمَلَاقِيحِ [جد الرزاق: ١٤١٣٨]. قَالَ أَبُو
عُبَيْدَةَ: الْمَلَاقِيحُ مَا فِي الْبَطُونِ مِنَ الْأَجْنَةِ،
وَالْمَضَامِينُ: مَا فِي أَصْلَابِ الْفُحُولِ، وَكَانُوا يَبِيعُونَ
الْجَنِينَ فِي بَطْنِ النَّاقَةِ، وَمَا يَضْرِبُهُ الْفُحْلُ فِي عَامٍ أَوْ
أَعْوَامٍ وَأَنْشَدَ:

فصل

(بيع المسك في فارتته)

وليس منه بيعُ المسك في فارتته، بل هو نظيرُ ما أأكوله في جوفه كالجوز واللوز والفستق وجوز الهند، فإن فارتته وعاء له تصونه من الآفات، وتحفظ عليه رطوبته ورائحته، ويقاؤه فيها أقرب إلى صيانه من الغش والتغير، والمسك الذي في الفأرة عند الناس خير من المنفوس، وجرت عادة التجار ببيعه وشرائه فيها، ويعرفون قدره وجنسه معرفة لا تكاد تختلف، فليس من الغرر في شيء، فإن الغرر هو ما تردد بين الحصول والفوات، وعلى القاعدة الأخرى: هو ما طُوِّبَت معرفته، وَجْهَلَتْ عينه، وأما هذا ونحوه، فلا يُسمى غرراً لا لغة ولا شرعاً ولا عرفاً، ومن حرّم بيع شيء، وادعى أنه غرر، طُوبِل بدخوله في مسمى الغرر لغة وشرعاً، وجوازُ بيع المسك في الفأرة أحد الوجهين لأصحاب الشافعي، وهو الراجحُ دليلاً، والذين منعه جعلوه مثل بيع النوى في التمر، والبيض في الدجاج، واللبن في الضرع، والسمن في الوعاء، والفرق بين النوعين ظاهر.

ومنازعوهم يجعلونه مثل بيع قلب الجوز واللوز والفستق في صوانه، لأنه من مصلحته، ولا ريب أنه أشبه بهذا منه بالأول، فلا هو مما نهى عنه الشارع، ولا في معناه، فلم يشمله نهيه لفظاً ولا معنى.

(بيع السمن في الوعاء)

وأما بيعُ السمن في الوعاء، ففيه تفصيل، فإنه إن فتحه، ورأى رأسه بحيث يذله على جنسه ووصفه، جاز بيعه في السقاء، لكنه يصيرُ كييع الصبرة التي شاهد ظاهرها وإن لم يره، ولم يُوصف له، لم يجز بيعه لأنه غرر، فإنه يختلف جنساً ونوعاً ووصفاً، وليس مخلوقاً في وعائه كالبيض والجوز واللوز والمسك في أوعيتها، فلا يصح إلحاقه بها.

(بيع اللبن في الضرع)

وأما بيعُ اللبن في الضرع، فمنعه أصحاب أحمد

والحانوت مساناة^(١) لا تغلُو عن غرر، لأنه يعرض فيه موث الحيوان، وانهدام الدار، وكذا دخول الحمام، وكذا الشرب من فم السقاء، فإنه غير مقدر مع اختلاف الناس في قدره، وكذا بيع السلم، وكذا بيع الصبرة العظيمة التي لا يعلم مكيلها، وكذا بيع البيض والرمان والبطيخ والجوز واللوز والفستق، وأمثال ذلك مما لا يخلو من الغرر، فليس كل غرر سبباً للتحريم، والغرر إذا كان يسيراً أو لا يمكن الاحتراز منه، لم يكن مانعاً من صحة العقد، فإن الغرر الحاصل في أساسات الجدران، وداخل بطون الحيوان، أو آخر الثمار التي بدا صلاح بعضها دون بعض لا يمكن الاحتراز منه، والغرر الذي في دخول الحمام، والشرب من السقاء ونحوه غرر يسير، فهذان النوعان لا يمنعان البيع بخلاف الغرر الكثير الذي يمكن الاحتراز منه، وهو المذكور في الأنواع التي نهى عنها رسول الله ﷺ، وما كان مساوياً لها لا فرق بينها وبينه، فهذا هو المانع من صحة العقد.

فإذا عُرِفَ هذا، فبيعُ المغيبات في الأرض، انتهى عنه الأمران، فإن غرره يسير، ولا يمكن الاحتراز منه، فإن الحقول الكبار لا يمكن بيع ما فيها من ذلك إلا وهو في الأرض، فلو شرط لبيعه إخراجَه دفعة واحدة كان في ذلك من المشقة، وفساد الأموال ما لا يأتي به شرع، وإن منع بيعه إلا شيئاً فشيئاً كلما أخرج شيئاً باعه، ففي ذلك من الحرج والمشقة، وتعطيل مصالح أرباب تلك الأموال، ومصالح المشتري ما لا يخفى، وذلك مما لا يوجب الشارع، ولا تقوم مصالح الناس بذلك البتة حتى إن الذين يمنعون من بيعها في الأرض إذا كان لأحدهم خراج كذلك، أو كان ناظراً عليه، لم يجد بداً من بيعه في الأرض اضطراراً إلى ذلك، وبالجمله، فليس هذا من الغرر الذي نهى عنه رسول الله ﷺ، ولا نظيراً لما نهى عنه من البيوع.

(١) يقال: مساناة وسناء: استأجره السنة، والمساناة: المسانعة: وهو الأجل إلى سنة.

هو الذي يعلفها، وإنما يأخذ المشتري لبناً مقدراً، فهذا بيع محض، وإن كان يأخذ اللبن مطلقاً، فهو بيع أيضاً، فإن صاحب اللبن يوفيه اللبن بخلاف الظئر، فإنما هي تسقي الطفل، وليس هذا داخلياً فيما نهى عنه ﷺ من بيع القَرَر؛ لأن القَرَر تردّد بين الوجود والعدم، فنهى عن بيعه؛ لأنه من جنس القمار الذي هو الميسر، واللّه حرم ذلك لما فيه من أكل المال بالباطل، وذلك من الظلم الذي حرمه الله تعالى، وهذا إنما يكون قماراً إذا كان أحد المتعاضين يحصل له مال، والآخر قد يحصل له وقد لا يحصل، فهذا الذي لا يجوز كما في بيع العبد الآبق، والبعير الشارد، وبيع حبل الحبلّة، فإن البائع يأخذ مال المشتري، والمشتري قد يحصل له شيء، وقد لا يحصل، ولا يعرف قدر الحاصل، فاما إذا كان شيئاً معروفاً بالعادة كمنافع الأعيان بالإجارة مثل منفعة الأرض والدابة، ومثل لبن الظئر المعتاد، ولبن البهائم المعتاد، ومثل الثمر والزروع المعتاد، فهذا كله من باب واحد وهو جائز.

ثم إن حصل على الوجه المعتاد، وإلا حطّ عن المستأجر بقدر ما فات من المنفعة المقصودة، وهو مثل وضع الجائحة في البيع، ومثل ما إذا تلف بعض المبيع قبل التمكن من القبض في سائر البيوع.

(إيراد على جواز هذه الإجارة)

فإن قيل: مؤرّد عقد الإجارة إنما هو المنافع، لا الأعيان، ولهذا لا يصحّ استئجار الطعام ليأكله، والماء ليشربه، وأما إجارة الظئر، فعلى المنفعة وهي وضع الطفل في حجرها، وإقامته ثديها، واللبن يدخل ضمناً وتبعاً، فهو كمنع البئر في إجارة الدار، ويغتنر فيما دخل ضمناً وتبعاً ما لا يُغتنر في الأصول والمتبوعات.

(الجواب عن هذا الإيراد)

قيل: الجواب عن هذا من وجوه:

(دبوت ورود الإجارة على الأعيان)

أحدها: منع كون عقد الإجارة لا يردّ إلا على

والشافعي وأبي حنيفة والذي يجب فيه التفصيل، فإن باع الموجود المشاهد في الضرع، فهذا لا يجوز مفرداً، ويجوز تبعاً للحیوان، لأنه إذا بيع مفرداً تعذر تسليم المبيع بعينه، لأنه لا يعرف مقداراً ما وقع عليه البيع، فإنه وإن كان مشاهداً كاللبن في الظرف، لكنه إذا حلبه خلفه مثله مما لم يكن في الضرع، فاختلط المبيع بغيره على وجه لا يتميز، وإن صح الحديث الذي رواه الطبراني في «معجمه»^(١) من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ «نهى أن يُباع صوف على ظهر، أو لبن في ضرع» فهذا إن شاء الله محمله، وأما إن باعه أصعاً معلومة من اللبن يأخذه من هذه الشاة، أو باعه لبنها أياماً معلومة، فهذا بمنزلة بيع الثمار قبل بدو صلاحها لا يجوز، وأما إن باعه لبناً مطلقاً موصوفاً في الذمة، واشترط كونه من هذه الشاة أو البقرة، فقال شيخنا: هذا جائز، واحتج بما في «المسند» من أن النبي ﷺ نهى أن يُسلم في حائط بعينه إلا أن يكون قد بدا صلاحه. قال فإذا بدا صلاحه وقال: أسلمت إليك في عشرة أوسق من تمر هذا الحائط، جاز كما يجوز أن يقول: ابتعت منك عشرة أوسق من هذه الصبرة، ولكن الثمن يتأخر قبضه إلى كمال صلاحه، هذا لفظه.

فصل

(إجارة الحوية مدة معلومة لأخذ لبنها)

وأما إن أجره الشاة أو البقرة أو الناقة مدة معلومة لأخذ لبنها في تلك المدة، فهذا لا يجوز الجمهور، واختار شيخنا جوازه، وحكاها قولاً لبعض أهل العلم، وله فيها مصنّف مفرد، قال: إذا استأجر غنماً أو بقرأ، أو نوقاً أياماً اللبن بأجرة مسماة، وعلفها على المالك، أو بأجرة مسماة مع علفها على أن يأخذ اللبن، جاز ذلك في أظهر قولي العلماء كما في الظئر قال: وهذا يُشبه البيع، ويُشبه الإجارة، ولهذا يذكره بعض الفقهاء في البيع، وبعضهم في الإجارة، لكن إذا كان اللبن يحصل بعلف المستأجر وقيامه على الغنم، فإنه يشبه استئجار الشجر، وإن كان المالك

(١) في الأصل: «ابن ماجه في سننه» وهو وهم من المؤلف رحمه الله، وهو عند الطبراني من حديث حفص بن عمر الحوضي، وأخرجه الدارقطني (٢/٢٩٥)، والبيهقي (٥/٣٤٠) عن عمر بن فروخ.

وبين الأعيان التي لا تُسْتَحْلَفُ، فبينما أن ينظر في شَبْهِه بأي النوعين، فيُلْحَق به، ومعلوم أن شَبْهَهُ بالمنافع أقوى، فإلحاقها بها أولى.

(نص القرآن على إجارة الظئر)

يوضحه الوجه الرابع: وهو أن الله سبحانه نص في كتابه على إجارة الظئر، وسمى ما تأخذه أجراً، وليس في القرآن إجارة منصوص عليها في شريعتنا إلا إجارة الظئر بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ لَكُمْ فَتَاوَهُنَّ لِحُورَهُنَّ وَاتَّخِذُوا بَيْنَكُمْ بِمَرْثُومٍ﴾ [الطلاق: ٦]، قال شيخنا: وإنما ظن الظن أنها خلاف القياس حيث توهم أن الإجارة لا تكون إلا على منفعة، وليس الأمر كذلك، بل الإجارة تكون على كل ما يستوفى مع بقاء أصله، سواء كان عيناً أو منفعة، كما أن هذه العين هي التي تُوقَف وتُعار فيما استفاد الموقوف عليه والمستعير بلا عوض يستوفيه المستأجر وبالعوض، فلما كان لبن الظئر، مستوفى مع بقاء الأصل، جازت الإجارة عليه كما جازت على المنفعة، وهذا محض القياس، فإن هذه الأعيان يُحدثها الله شيئاً بعد شيء، وأصلها باقٍ كما يُحدث الله المنافع شيئاً بعد شيء، وأصلها باقٍ.

(الأصل في العقود وجوب الوفاء)

ويوضحه الوجه الخامس: وهو أن الأصل في العقود وجوب الوفاء إلا ما حرّمه الله ورسوله، فإن المسلمين على شروطهم إلا شرطاً أحلّ حراماً، أو حرّم حلالاً، فلا يحرم من الشروط والعقود إلا ما حرّمه الله ورسوله، وليس مع المانعين نص بالتحريم البتة، وإنما معهم قياس قد عُلِمَ أن بين الأصل والفرع فيه من الفرق ما يمنع الإلحاق، وأن القياس الذي مع مَنْ أجاز ذلك أقرب إلى مساواة الفرع لأصله، وهذا ما لا حيلة فيه، وبالله التوفيق.

(ما تمحله المانعون لعدة جواز إجارة الظئر)

يوضحه الوجه السادس: وهو أن الذين منعوا هذه الإجارة لما رأوا إجارة الظئر ثابتة بالنص والإجماع، والمقصود بالعقد إنما هو اللبن، وهو عين، تمحلوا لجوازها أمراً يعلمون هم والمرضعة والمستأجر بطلانه، فقالوا: العقد إنما وقع على وضعها الطفل في حجرها وإقامته لديها فقط، واللبن يدخل تبعاً، والله يعلم والمقلاء قاطبة أن الأمر ليس كذلك، وأن

منفعة، فإن هذا ليس ثابتاً بالكتاب ولا بالسنة ولا بالإجماع، بل الثابت عن الصحابة خلافه، كما صح عن عمر رضي الله عنه: أنه قُبِلَ حديقه أسيد بن حضير ثلاث سنين، وأخذ الأجرة فقضى بها دينه، والحديقه: هي النخل، فهذه إجارة الشجر لأخذ ثمرها، وهو مذهب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولا يُعلم له في الصحابة مخالف، واختاره أبو الوفاء بن عقيل من أصحاب أحمد، واختيار شيخنا، فقولكم: إن مورد عقد الإجارة لا يكون إلا منفعة، غير مسلم، ولا ثابت بالدليل، وغاية ما معكم قياس محل النزاع على إجارة الخبز للأكل، والماء للشرب، وهذا من أفسد القياس، فإن الخبز تذهب عينه ولا يُسْتَحْلَفُ مثله بخلاف اللبن ونقع البئر، فإنه لما كان يستخلف ويحدث شيئاً فشيئاً، كان بمنزلة المنافع.

(التمر يجري مجرى المنافع)

يوضحه الوجه الثاني: وهو أن التمر يجري مجرى المنافع والفوائد في الوقف والعارية ونحوها فيجوز أن يقف الشجرة لينتفع أهل الوقف بثمراتها كما يقف الأرض، لينتفع أهل الوقف بغلاتها، ويجوز إعاره الشجرة، كما يجوز إعاره الظهر، وعارية الدار، ومنيحة اللبن، وهذا كله تبرع ببناء المال وفائدته، فإن من دفع عقاره إلى مَنْ يسكنه، فهو بمنزلة مَنْ دفع دابته إلى من يركبها، وبمنزلة مَنْ دفع شجرة إلى من يستثمرها، وبمنزلة مَنْ دفع أرضه إلى من يزرعها، وبمنزلة مَنْ دفع شاته إلى من يشرب لبنها، فهذه الفوائد تدخل في عقود التبرع، سواء كان الأصل مُحْبَساً بالوقف، أو غير محبس. ويدخل أيضاً في عقود المشاركات، فإنه إذا دفع شاة، أو بقرة، أو ناقة إلى من يعمل عليها بجزء من دَرَّها ونسلها، صح على أصح الروايتين عن أحمد فكذلك يدخل في العقود للإيجارات.

(الرتبة الوسطى بين المنافع والأعيان)

يوضحه الوجه الثالث: وهو أن الأعيان نوعان: نوع لا يُسْتَحْلَفُ شيئاً فشيئاً، بل إذا ذهب، ذهب جملة، ونوع يُسْتَحْلَفُ شيئاً فشيئاً، كُلُّما ذهب منه شيء خلفه شيء مثله، فهذا رتبة وسطى بين المنافع

هذه الواقعة، وسنبين إن شاء الله تعالى أنها محض القياس، وأن المانعين منها لا بد لهم منها، وأنهم يتحيلون عليها بحيل لا تجوز.

(تشابه إجارة الأرض بإجارة الحيوان)

الوجه التاسع: أن المستوفى بعقد الإجارة على زرع الأرض هو عين من الأعيان، وهو المغل الذي يستغله المستأجر، وليس له مقصود في منفعة الأرض غير ذلك، وإن كان له قصد جرى في الانتفاع بغير الزرع، فذلك تبع.

فإن قيل: المقعود عليه هو منفعة شق الأرض وبذرها وفلاحتها والعين تتولد من هذه المنفعة، كما لو استأجر لحفر بئر، فخرج منها الماء، فالمقعود عليه هو نفس العمل لا الماء.

قيل: مستأجر الأرض ليس له مقصود في غير المغل، والعمل وسيلة مقصودة لغيرها، ليس له فيه منفعة، بل هو تعب ومشقة، وإنما مقصوده ما يُحدثه الله من الحب بسقيه وعمله، وهكذا مستأجر الشاة لبنها سواء مقصوده ما يُحدثه الله من لبنها بعلفها وحفظها والقيام عليها، فلا فرق بينهما البتة إلا ما لا تُنابط به الأحكام من الفروق المملغة، وتنظيركم بالاستئجار لحفر البئر تنظير فاسد، بل نظير حفر البئر أن يستأجر أكارا ليحرق أرضه وبذرها ويسقيها، ولا ريب أن تنظير إجارة الحيوان للبنه بإجارة الأرض لمغلها هو محض القياس، وهو كما تقدم أصح من التنظير بإجارة الخبز للأكل.

(الفرق في إجارة الأرض اعظم منه في إجارة الحيوان)

يوضحه الوجه العاشر: وهو أن الغرر والخطر الذي في إجارة الأرض لحصول مغلها أعظم بكثير من الغرر الذي في إجارة الحيوان للبنه، فإن الآفات والموانع التي تعرض للزرع أكثر من آفات اللبن، فإذا اغتفر ذلك في إجارة الأرض، فلأن يغتفر في إجارة الحيوان للبنه أولى وأحرى.

وضع الطفل في حجرها ليس مقصوداً أصلاً، ولا ورد عليه عقد الإجارة، لا عرفاً ولا حقيقةً ولا شرعاً، ولو أرضعت الطفل وهو في حجر غيرها، أو في مهده، لاستحقت الأجرة، ولو كان المقصود إلقام الثدي المجرد، لاستؤجر له كل امرأة لها ثدي، ولو لم يكن لها لبن، فهذا هو القياس الفاسد حقاً، والفقه البارد، فكيف يقال: إن إجارة الظئر على خلاف القياس، ويدعى أن هذا هو القياس الصحيح.

(ننبه ﷺ إلى منيحة الغنم للبنها)

الوجه السابع: أن النبي ﷺ ندب إلى منيحة العنبر، والشاة للبنها، وحض على ذلك، وذكر ثواب فاعله [البخاري: ٢٦٣١]. ومعلوم أن هذا ليس ببيع ولا هبة، فإن هبة المعلوم المجهول لا تصح، وإنما هو عارية الشاة للانتفاع بلبنها كما يُعيره الدابة لركوبها، فهذا إباحة للانتفاع بدها، وكلاهما في الشرع واحد، وما جاز أن يُستوفى بالعارية جاز أن يُستوفى بالإجارة، فإن موردتهما واحد، وإنما يختلفان في التبرع بهذا والمعاوضة على الآخر.

(إجارة الشجر لأخذ ثمرها)

والوجه الثامن: ما رواه حرب الكرماني في «مسائله»: حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا عباد بن عباد، عن هشام بن عروة، عن أبيه: أن أسيد بن حضير توفي وعليه ستة آلاف درهم ديناً، فدعا عمر بن الخطاب رضي الله عنه غرماءه، فقَبَلَهُمْ أرضه ستين^(١)، وفيها الشجر والنخل، وحدائق المدينة الغالب عليها النخل، والأرض البيضاء فيها قليل، فهذا إجارة الشجر لأخذ ثمرها، ومن ادعى أن ذلك خلاف الإجماع، فَمِنْ عدم علمه، بل ادعاء الإجماع على جواز ذلك أقرب، فإن عمر رضي الله عنه فعل ذلك بالمدينة النبوية بمشهد المهاجرين والأنصار وهي قصة في مِطْطَةِ الاشتهار، ولم يُقابلها أحد بالإنكار، بل تلقاها الصحابة بالسليم والإقرار، وقد كانوا يُنكرون ما هو دُونُهَا وإن فعله عمر رضي الله عنه، كما أنكر عليه عمران بن حصين وغيره شأن متعة الحج [البخاري: ١٥٧١، ومسلم: ٢٩٧٢] ولم ينكر أحد

(١) رجاله ثقات إلا أن عروة بن الزبير لم يدرك عمر «الإصابة» ت (١٨٣).

فصل

فالأقوال في العقد على اللبن في الضرع ثلاثة:

(الاختلاف في العقد على اللبن في الضرع)

أحدهما: منعه بيعاً وإجارة وهو مذهب أحمد والشافعي وأبي حنيفة.

والثاني: جوازه بيعاً وإجارة.

والثالث: جوازه إجارة لا بيعاً، وهو اختيار شيخنا رحمه الله.

وفي المنع من بيع اللبن في الضرع حديثان: أحدهما: حديث عمر بن فروخ وهو ضعيف عن حبيب بن الزبير، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: نَهَى أَنْ يُبَاعَ صُوفٌ عَلَى ظَهْرٍ، أَوْ سَنْنٌ فِي لَبَنٍ، أَوْ لَبَنٌ فِي ضَرْعٍ. وقد رواه أبو إسحاق عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما من قوله دون ذكر السمن. رواه البيهقي وغيره.

(جملة ببوع منهى عنها)

والثاني: حديث رواه ابن ماجه عن هشام بن عمار، حدثنا حاتم بن إسماعيل، حدثنا جَهْضَمُ بن عبد الله اليماني، عن محمد بن إبراهيم البَاهِلِي، عن محمد بن زيد العبدي، عن شهر بن حوشب، عن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه قال: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ شِرَاءِ مَا فِي بَطُونِ الْأَنْعَامِ حَتَّى تَضَعَ، وَعَمَّا فِي ضُرُوعِهَا إِلَّا بِكَيْلٍ أَوْ وَزْنٍ، وَعَنْ شِرَاءِ الْعَبْدِ وَهُوَ أَبَقٍ، وَعَنْ شِرَاءِ الْمَغَانِمِ حَتَّى تَقْسَمَ، وَعَنْ شِرَاءِ الصَّدَقَاتِ حَتَّى تَقْبُضَ، وَعَنْ ضَرْبِ الْغَائِصِ إِبْنِ مَاجِهٍ: ٢١٩٦. ولكن هذا الإسناد لا تقوم به حجة، والنهي عن شراء ما في بطون الأنعام ثابت بالنهي عن الملاقيع والمضامين، والنهي عن شراء العبد الأبَق، وهو أبَق معلومٌ بالنهي عن بيع الغرر، والنهي عن شراء المغانم حتى تُقَسَمَ داخل في النهي عن بيع ما ليس عنده، فهو بيعٌ غررٍ ومخاطرة، وكذلك الصدقات قبل قبضها، وإذا كان النبي ﷺ نهى عن بيع الطعام قبل قبضه مع انتقاله إلى المشتري وثبوت ملكه عليه، وتعيينه له، وانقطاع تعلق غيره به، فالمغانم والصدقات قبل قبضها أولى بالنهي. وأما ضربة

الغائِص، فغرر ظاهر لا خفاء به.

(بيع اللبن في الضرع)

وأما بيع اللبن في الضرع، فإن كان معيناً لم يمكن تسليم المبيع بعينه، وإن كان بيع لبن موصوف في الذمة، فهو نظير بيع عشرة أفقرة مطلقة من هذه الصبرة وهذا النوع له جهران: جهة إطلاق وجهة تعيين، ولا تنافي بينهما، وقد دل على جوازه نهى النبي ﷺ أَنْ يُسَلَّمَ فِي حَائِطٍ بَعِينِهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ بَدَأَ صَلَاحَهُ. رواه الإمام أحمد. فإذا أسلم إليه في كيل معلوم من لبن هذه الشاة وقد صارت لبوناً جاز، ودخل تحت قوله ونهى عن بيع ما في ضروعها إلا بكيل أو وزن فهذا إذن لبيعه بالكيل والوزن معيناً أو مطلقاً، لأنه لم يُفَصَّل، ولم يشترط سوى الكيل والوزن، ولو كان التعيين شرطاً لذكره.

فإن قيل فما تقولون لو باعه لبناً أياماً معلومة من غير كيل ولا وزن.

قيل: إن ثبت الحديث، لم يجز بيعه إلا بكيل أو وزن، وإن لم يثبت، وكان لبناً معلوماً لا يختلف بالعادة، جاز بيعه أياماً، وجرى حكمه بالعادة مجرى كَيْلِهِ أَوْ وَزْنِهِ، وإن كان مختلفاً فمرة يزيده، ومرة ينقص، أو يقطع، فهذا غرر لا يجوز، وهذا بخلاف الإجارة، فإن اللبن يحدث على ملكه بعلفه الدابة كما يحدث الحب على ملكه بالسقي، فلا غرر في ذلك، نعم إن نقص اللبن عن العادة، أو انقطع، فهو بمنزلة نقصان المنفعة في الإجارة، أو تعطيلها يثبت للمستأجر حق الفسخ، أو ينقص عنه من الأجرة بقدر ما نقص عليه من المنفعة، هذا قياس المذهب، وقال ابن عقيل، وصاحب «المغني»: إذا اختار الإمساك لزمته جميع الأجرة، لأنه رضي بالمنفعة ناقصة، فلزمه جميع العوض، كما لو رضي بالمبيع معيناً، والصحيح أنه يسقط عنه من الأجرة بقدر ما نقص من المنفعة؛ لأنه إنما بذل العوض الكايل في منفعة كاملة سليمة، فإذا لم تسلم له، لم يلزمه جميع العوض.

وقولهم: إنه رضي بالمنفعة معينة، فهو كما لو رضي بالبيع معيناً، جوابه من وجهين:

أحدهما: أنه إن رضي به معيناً، بأن يأخذ أرشه كان له ذلك على ظاهر المذهب، فَرَضَهُ بالعيب مع الأرض لا يُسقط حقه.

الثاني: إن قلنا: إنه لا أرش للمسك له الرد، لم يلزم سقوط الأرض في الإجارة؛ لأنه قد استوفى بعض المعقود عليه، فلم يُمكنه ردُّ المنفعة كما قبضها؛ ولأنه قد يكون عليه كضرر في رد باقي المنفعة، وقد لا يتمكن من ذلك، فقد لا يجد بداً من الإمساك، فإلزامه بجميع الأجرة مع العيب المنقص ظاهراً، ومنعه من استدراك ظلامته إلّا بالفسخ ضرر عليه، ولا سيما لمستأجر الزرع والغرس والبناء، أو مستأجر دابة للسفر فتتعب في الطريق، فالصواب أنه لا أرش في المبيع للمسك له الرد، وأنه في الإجارة له الأرض.

والذي يُوضح هذا أن النبي ﷺ حكم بوضع الجوائح وهي أن يسقط عن مشتري الثمار من الثمرة، بقدر ما أذهبت عليه الجائحة من ثمرته وُمسك الباقي بقسطه من الثمن، وهذا لأن الثمار لم تستكمل صلاحها دفعة واحدة، ولم تجر العادة بأخذها جملة واحدة، وإنما تؤخذ شيئاً فشيئاً، فهي بمنزلة المنافع في الإجارة سواء، والنبي ﷺ في المصرة خير المشتري بين الرد وبين الإمساك بلا أرش، وفي الثمار جعل له الإمساك مع الأرض، والفرق ما ذكرناه، والإجارة أشبه ببيع الثمار، وقد ظهر اعتبارُ هذا الشبه في وضع الشارع للجائحة قبل قبض الثمن.

فإن قيل: فالمنافع لا تُوضع فيها الجائحة باتفاق العلماء.

قيل ليس هذا من باب وضع الجوائح في المنافع، ومن ظن ذلك فقد وهم، قال شيخنا: وليس هذا من باب وضع الجائحة في المبيع كما في الثمر المشتري، بل هو من باب تلف المنفعة المقصودة بالمقد أو فواتها، وقد اتفق العلماء على أن المنفعة

في الإجارة إذا تلفت قبل التمكن من استيفائها، فإنه لا تجب الأجرة مثل أن يستأجر حيواناً فيموت قبل التمكن من قبضه، وهو بمنزلة أن يشتري قفيزاً من صبرة فتتلف الصبرة قبل القبض والتميز، فإنه من ضمان البائع بلا نزاع، ولهذا لو لم يتمكن المستأجر من ازدراع الأرض لآفة حصلت لم يكن عليه الأجرة.

وإن نبت الزرع، ثم حصلت آفة سماوية أتلفت قبل التمكن من حصاده، ففيه نزاع، فطائفة ألحقته بالثمرة والمنفعة، وطائفة فرقت، والذين فرقوا بينه وبين الثمرة والمنفعة قالوا: الثمرة هي المعقود عليها وكذلك المنفعة، وهنا الزرع ليس معقوداً عليه، بل المعقود عليه هو المنفعة وقد استوفاهما، والذين سَوَّوا بينهما، قالوا: المقصود بالإجارة هو الزرع، فإذا حالت الآفة السماوية بينه وبين المقصود بالإجارة، كان قد تلف المقصود بالعقد قبل التمكن من قبضه، وإن لم يُعاض على زرع، فقد عاوض على المنفعة التي يتمكن بها المستأجر من حصول الزرع، فإذا حصلت الآفة السماوية المُفسدة للزرع قبل التمكن من حصاده لم تسلم المنفعة المعقود عليها، بل تلفت قبل التمكن من الانتفاع، ولا فرق بين تعطيل منفعة الأرض في أول المدة أو في آخرها إذا لم يتمكن من استيفاء شيء من المنفعة، ومعلوم أن الآفة السماوية إذا كانت بعد الزرع مطلقاً بحيث لا يتمكن من الانتفاع بالأرض مع تلك الآفة، فلا فرق بين تقدمها وتأخرها.

فصل

(بيع الصوف على الظهر)

وأما بيع الصوف على الظهر، فلو صَحَّ هذا الحديث بالنهي عنه، لوجب القول به، ولم تسخ مخالفته وقد اختلفت الرواية فيه عن أحمد، فمرة منعه، ومرة أجاز به بشرط جزؤه في الحال، ووجه هذا القول أنه معلوم يُمكن تسليمه، فجاز بيعه كالرطبة، وما يقدر من اختلاط المبيع الموجود بالحادث على ملك البائع يزول بجزؤه في الحال، والحادث يسير

جداً لا يمكن ضبطه، هذا ولو قيل بعدم اشتراط جزئه في الحال، ويكون كالرطبة التي تؤخذ شيئاً فشيئاً، وإن كانت تطول في زمن أخذها كان له وجه صحيح، وغايته بيع معدوم لم يخلق تبعاً للموجود، فهو كأجزاء الثمار التي لم تُخلق، فإنها تتبع الموجود منها، فإذا جعلاً للصوف وقتاً معيناً يؤخذ فيه كان بمنزلة أخذ الثمرة وقت كمالها .

ويُوضح هذا أن الذين منعه قاسوه على أعضاء الحيوان، وقالوا: متصل بالحيوان فلم يجز إفراده بالبيع كأعضائه، وهذا من أفسد القياس؛ لأن الأعضاء لا يُمكن تسليمها مع سلامة الحيوان .

فإن قيل: فما الفرق بينه وبين اللبن في الضرع وقد سوغتم هذا دونه؟ قيل: اللبن في الضرع، يختلط ملك المشتري فيه بملك البائع سريعاً، فإن اللبن سريع الحدوث كلما حلبه دَرٌّ، بخلاف الصوف . والله أعلم وأحكم .

تم الكتاب

والحمد لله رب العالمين



فهرس الموضوعات

٢٢	(اضطرار العباد إلى معرفة الرسول)	٥	مقدمة
٢٢	فصل	٧	ابنُ قَيم الجوزية
	(إشارة المصنف إلى تأليف هذا الكتاب في السفر مع	٩	مقدمة المؤلف
٢٢	تشئت القلب وفقد الكتاب)		(لا تنزل قلما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن
٢٣	فصل: في نسبة ﷺ	٩	الشهادتين)
٢٣	(بطلان القول بأن النبيح هو إسحاق)	٩	(افترض على العباد طاعة الرسول)
٢٤	(مولده ﷺ)	١٠	(الفرق بين الحسب والتأييد)
٢٥	(وفاة أبيه)		(المراد بالاختيار في «وريك يخلق ما يشاء ويختار».
٢٥	(نبوته ﷺ)	١١	وهو الاصطفاء) ما في «ما كان لهم الخيرة» للنفي
٢٥	(مراتب الوحي)		(الرد على من قال: إن ما موصولة وهي مفعول
٢٦	فصل: في ختانه ﷺ	١١	«ويختار»)
٢٧	فصل: في أمهاته ﷺ اللاتي أرضعنه	١٢	فصل
٢٧	فصل: في حواضنه ﷺ	١٢	(الاختيار دال على ربوبيته سبحانه)
٢٧	فصل: في مبته ﷺ وأول ما نزل عليه	١٣	(بيان الاختيار من البشر)
٢٨	فصل: في ترتيب الدعوة ولها مراتب	١٤	(اختيار البلد الحرام وبيان خصائصه)
٢٨	فصل: (الجههر بالدعوة)		(ترجيح المصنف تحريم استقبال البلد الحرام واستدباره
٢٨	فصل: في اسمائه ﷺ	١٥	عند قضاء الحاجة حتى في البنيان)
٢٩	فصل: في شرح معاني اسمائه ﷺ	١٥	(المسجد الحرام أول مسجد وضع في الأرض)
٢٩	(هل أحمد تفضيل بمعنى فاعل أو مفعول)		(اختلاف العلماء في جواز دخولها لغير أصحاب
٣٠	(ترجيح المصنف أنه بمعنى المفعول)	١٥	الحوائج المتكررة بغير إحرام)
٣٠	(كتابة المؤلف كتابه حال السفر)	١٥	(المعاقبة فيه على الهم بالسيئات)
٣١	(تفسير معنى المتوكل)	١٥	(مضاعفة مقادير السيئات فيه)
٣١	(تفسير الماحي)	١٦	(انجذاب الأفتلة إلى البلد الحرام)
٣١	(تفسير الحاشر)	١٧	(التفضيل بين الأزمنة)
٣١	(تفسير العاقب)	١٨	(المفاضلة بين عشر ليلة القدر وعشر ذي الحجة)
٣١	(تفسير المقفي)		(جواب ابن تيمية عن التفضيل بين ليلتي القدر
٣١	(نبي التوبة)	١٨	والإسراء)
٣١	(نبي الملحمة)	١٨	(المفاضلة بين يومي الجمعة وعرفة)
٣١	(نبي الرحمة)	١٩	(مزنة وقفة الجمعة يوم عرفة)
٣١	(القائح)	١٩	(الحكمة في استحباب فطر يوم عرفة بعرفة)
٣٢	(الأمين)	٢٠	فصل
٣٢	(الضحوك القتال)	٢٠	(خصائص الطيب من عباد الله)
		٢٢	فصل

٤٠	(الكتاب إلى المقوقس)	٣٢	(البشير)
٤٠	(الكتاب إلى ملك البلقاء)	٣٢	(المنير)
٤٠	(الكتاب إلى عاملي عُمان)	٣٢	فصل: في ذكرى المهجرتين الأولى والثانية
٤٠	(الكتاب إلى ملك البحرين)		(الحصر في الشعب ثم وفاة خديجة فعنه فخروجه
٤٠	(الكتاب إلى ملك اليمن)	٣٢	للطائف)
٤٠	(بعوث أخرى)	٣٢	(سماع نفر من الجن للقرآن والإسراء)
٤١	فصل: في مؤنثيه	٣٣	(دعوة القبائل والهجرة إلى المدينة)
٤١	فصل: في أمرائه	٣٤	فصل: في أولاده
٤٢	فصل: في حرسه	٣٤	فصل: في أعمامه وعمّاته
٤٢	فصل: فيمن كان يضرب الأعتاق بين يديه	٣٤	فصل: في أزواجه
فصل: فيمن كان على نفقاته وخائمه ونعله وسواكه		٣٤	(خديجة)
ومن كان يأذن عليه		٣٤	(سودة)
٤٢	فصل: في شعرائه وخطبائه	٣٤	(عائشة)
٤٢	فصل: في خُدّاته الذين كانوا يحدون بين يديه	٣٥	(حفصة)
السفر		٣٥	(زينب بنت خزيمة)
٤٢	فصل: في غزواته وبعوثه وسراياه	٣٥	(أم سلمة من ولي تزويجها)
٤٢	فصل: في ذكر سلاحه وأثائه	٣٥	(زينب بنت جحش)
٤٣	فصل: في دوابه	٣٦	(جويرية)
٤٤	فصل: في ملابسه	٣٦	(أم حبيبة)
٤٤	(النهى عن لبس الأحمر)	٣٦	(توهيم حديث عرض أبي سفيان أم حبيبة عليه)
٤٥	فصل: (الإشارة إلى كراهة لبس الطيلسان)	٣٧	(صفية)
٤٦	فصل: (غالب لبسه هو وأصحابه القطن)	٣٧	(جواز جعل عتق المرأة صداقها)
٤٧	(السنة لبس ما تيسر)	٣٧	(ميمونة)
٤٧	(لبس الثرد)	٣٧	(ريحانة)
٤٧	(مخدته)	٣٨	فصل: في سراريه
٤٧	(الرد على من يمتنعون عما أباح الله)	٣٨	فصل: في مواليه
٤٧	(النهى عن لباس الشهرة سواء للفخر أو للترهد)	٣٨	فصل: في خُدّامه
٤٨	فصل: (هلبه في الطعام)	٣٨	فصل: في كتابه
٤٩	فصل: في هلبه في النكاح ومعاشرته أهله		فصل: في كتبه التي كتبها إلى أهل الإسلام في
٥٠	فصل: في هلبه وسيرته في نومه وانتباهه	٣٩	الشرائع
٥١	فصل: في هلبه في الركوب	٣٩	فصل: في كتبه ورسله إلى الملوك
فصل: (اتخاذ الغنم والرقيق وعتاقه من العبيد		٣٩	(الكتاب إلى النجاشي)
أكثر من الإماء والمواضع التي تكون فيها الأنثى على		٣٩	(الكتاب إلى هرقل)
		٤٠	(الكتاب إلى كسرى)

٦٤	فصل: في هديه ﷺ في المسح على الخفين	٥١	النصف من الذكر
٦٤	فصل: في هديه ﷺ في التيمم	٥٢	فصل: (هديه ﷺ في العقود)
٦٥	فصل: في هديه ﷺ في الصلاة	٥٢	(الضمان)
٦٥	(لم يثلف بالنية)	٥٣	(الاستثناء في اليمين)
٦٥	(الإحرام)	٥٣	(المزاح)
٦٥	(رفع اليدين عند الإحرام)	٥٣	فصل:
٦٥	(الاستفتاح)	٥٣	(جمع القرآن لأصول الطب)
٦٦	(اختيار الإمام أحمد لدعاء: «سبحانك اللهم» والتعليل له)	٥٤	فصل: في هديه ﷺ في معاملته
٦٦	(سكتات الإمام)	٥٤	(السلف في العقود)
٦٧	(قراءته ﷺ في الصلاة)	٥٤	فصل: في هديه ﷺ في مشيه وحده ومع أصحابه
٦٧	فصل	٥٤	(أنواع المشي)
٦٨	(معنى «أيكم أم فليخفف»)	٥٥	(مشيه مع أصحابه)
٦٩	فصل	٥٥	فصل: في هديه ﷺ في جلوسه واثكائه
٦٩	(عدم تعيينه ﷺ سورة بعينها)	٥٥	فصل: في هديه ﷺ عند قضاء الحاجة
٦٩	فصل	٥٥	(هل يجوز التبول قائماً؟)
٦٩	(إطالته ﷺ الركعة الأولى على الثانية وتعليل إطالته ﷺ صلاة الصبح)	٥٦	فصل: في هديه ﷺ في الفطرة وتوابعها
٦٩	فصل	٥٨	فصل: في هديه ﷺ في قص الشارب
٦٩	(الركوع)	فصل: في هديه ﷺ في كلامه وسكوته وضحك	
٧٠	(الاعتدال)	٥٩	وبكائه
٧١	فصل	٥٩	(أسباب الضحك)
٧١	(السجود)	٥٩	(بكاه ﷺ)
٧١	(مبحث في ترجيح وضع الركبتين قبل اليدين)	٦٠	(أنواع البكاء)
٧١	(شرح بروك البعير)	٦٠	(الفرق بين بكاء الحزن وبكاء الخوف)
٧٥	(استحباب الدعاء في السجود)	٦٠	(هينات البكاء)
٧٥	فصل	٦٠	فصل: في هديه ﷺ في خطبته
٧٥	(أيهما أفضل السجود أم القيام)	٦١	(صفة منبره ﷺ)
٧٦	فصل	٦١	(التوكؤ على العصا)
٧٦	(الجلوس بين السجدين)	٦٢	فصول: في هديه ﷺ في العبادات
٧٦	فصل	٦٢	فصل: في هديه ﷺ في الوضوء
٧٦	(جلسة الاستراحة)	٦٢	(كيفية المضمضة والاستنشاق)
٧٧	(جلسة التشهد الأول)	٦٢	(مسح الرأس)
٧٨	(النهوض للركعة الثالثة)	٦٣	(حكم التبشيف بعد الوضوء وتخليل اللحية)
		٦٤	(تخليل الأصابع)
		٦٤	(تحريك الخاتم)

فصل	٩٧
(الستر في الصلاة)	٩٧
فصل: في هديه ﷺ في السنن الرواتب	٩٨
(كان يصلي عامة السنن في بيته)	٩٩
(لم يكن يصلي في السفر من السنن إلا سنتي الفجر والوتر)	١٠٠
(أيهما أكد سنة الفجر أو الوتر)	١٠٠
(توضيح لمعنى: سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن والزلزلة نصفه والكافرون ربعه)	١٠٠
فصل	١٠١
(ضجعت بعد سنة الفجر على شقه الأيمن)	١٠١
فصل: في هديه ﷺ في قيام الليل	١٠٣
(هل كان قيام الليل عليه فرضاً؟)	١٠٣
(مثاربه عليه سراً وحضراً)	١٠٣
(عدد ركعاته في القيام)	١٠٤
(مجموع الركعات التي كان يحافظ عليها أربعون ركعة وتدخل فيها ركعات الفريضة)	١٠٤
فصل: في سياق صلاته ﷺ بالليل ووتره وذكر صلاة أول الليل	١٠٤
(أنواع صلاة القيام)	١٠٥
فصل	١٠٦
(الركعتان بعد الوتر)	١٠٦
فصل	١٠٦
(قنوت الوتر)	١٠٦
(الدعاء في آخر الوتر وبعده)	١٠٧
(كيفية قراءته للقرآن)	١٠٧
(هل الأفضل الترتيل مع قلة القراءة أو السرعة مع كثرتها؟)	١٠٨
(صلاة التطوع على الراحلة)	١٠٩
فصل: في هديه ﷺ في صلاة الضحى	١٠٩
(من روى ترك النبي ﷺ فعلها)	١٠٩
(من روى صلاة النبي لها وعدد ركعاتها)	١٠٩
(بيان أدلة من رجح الفعل على الترك مع بيان العدد)	١١١
(بيان من رجح صلاة الضحى)	١١٣

(لم يثبت عنه أنه قرأ في الركعتين الآخرين شيئاً)	٧٩
(كان يفعل في الصلاة شيئاً لعارض لم يكن يفعله)	٧٩
(الالتفات في الصلاة)	٧٩
(إطالة الركعتين الأوليين)	٨٠
(إطالة الفجر على سائر الصلوات وكذا أول الصلاة على آخرها وإشارة إلى الركعتين بعد الوتر)	٨٠
فصل	٨١
(الجلوس للشهادة الأخير)	٨١
فصل	٨١
(وضع اليد في التشهد)	٨١
(مواضع استقبال أصابعه القبلة)	٨٢
(مواضع الدعاء في الصلاة)	٨٢
(رأي المصنف في الدعاء بعد الصلاة)	٨٢
فصل	٨٣
(التسليم وبيان أنه لم تثبت عنه التسليم الواحدة)	٨٣
فصل	٨٤
(الدعاء قبل التسليم)	٨٤
فصل	٨٤
(المحفوظ في أدعيته في الصلاة بلفظ الأفراد)	٨٤
فصل	٨٥
(كان يراعي حال المأمومين وغيرهم)	٨٥
(رد السلام في الصلاة)	٨٥
(البكاء والنحيب)	٨٦
(الحفي والانتعال)	٨٦
(الصلاة بالثوب الواحد)	٨٦
(القنوت)	٨٦
فصل: في هديه ﷺ في سجود السهو	٩٢
(المواضع التي سجد فيها للسهو)	٩٢
فصل	٩٢
فصل	٩٤
(لم يكن من هديه تغميض عينيه في الصلاة)	٩٤
فصل: فيما كان رسول الله ﷺ يقوله بعد انصرافه من الصلاة، وجلوسه بعدها، وسرعاً لانتقال منها، وما شرعه لأمته من الأدكار والقراءة بعدها	٩٤

١٣٦	(خيرة الله من أيام الأسبوع)	١١٣	(بيان من استحب فعلها غُيًا)
١٣٦	(فيه تدنو أرواح الموتى من قبورهم)	١١٣	(تفعل الضحى لسبب)
١٣٧	(يكراه إفراجه بالصوم)	١١٤	(ترجيح المصنف لفعلها بسبب)
١٣٨	(علة كراهة صوم يوم الجمعة)	١١٦	فصل
	(يوم اجتماع الناس وعلة قراءة سورتي السجدة والذهر)	١١٦	(سجود الشكر)
١٣٩	(في صلاة فجر يوم الجمعة)	١١٦	فصل: في هديه ﷺ في سجود القرآن
١٤٠	(كانت خطبته تقريراً لأصول الإيمان)	١١٦	فصل: في هديه ﷺ في الجمعة وذكر خصائص
١٤٠	فصل: في هديه ﷺ في خطبه	١١٧	يومها
١٤١	(الأمر بالإنصات للخطبة)	١١٧	(هدي الله هذه الأمة له)
١٤٢	(لا سنة قبل الخطبة)	١٢٠	فصل: في مبدأ الجمعة
١٤٤	(ذكر بعض الأحاديث المقلوبة)	١٢١	فصل
١٤٥	السنة بعد الجمعة	١٢١	(خواص يوم الجمعة وهي ثلاث وثلاثون)
١٤٥	فصل: في هديه ﷺ في العيدين	١٢٦	فصل
١٤٦	(كان يخطبهم في العيد قائماً على الأرض)	١٢٦	(بيان اختلاف الناس في ساعة الإجابة)
١٤٧	(كان يفتح خطبه بالحمدلة)	١٢٦	(دليل من قال بأن ساعة الإجابة من جلوس الإمام إلى
١٤٨	(التكبير من فجر يوم عرفة)	١٢٦	انقضاء الصلاة)
١٤٨	فصل: في هديه ﷺ في صلاة الكسوف	١٢٦	(ترجيح المصنف بأنها بعد العصر مع أدلته)
١٤٩	(بيان الاختلاف في صفة صلاة الكسوف)	١٢٧	(رد المصنف على بقية الأقوال)
١٥٠	فصل: في هديه ﷺ في الاستسقاء		(ساعة الصلاة ساعة ترجى فيها الإجابة ولكنها ليست
١٥٢	(طلب الإجابة عند نزول الغيث)	١٢٨	الساعة المخصوصة)
١٥٢	فصل: في هديه ﷺ في سفره وعبادته فيه		(آخر ساعة من يوم الجمعة يعظمها جميع أهل
١٥٣	(مبحث في قصر الصلاة)	١٢٨	الملل)
١٥٦	فصل	١٢٨	(متابعة المصنف لرد بقية الأقوال)
	(كان يقتصر في سفره على الفرض والوتر وسنة الفجر	١٢٩	(متابعة لخواص الجمعة)
١٥٦	من الرواتب)		(المقصود بالساعة في قوله: «من راح في الساعة
١٥٧	فصل	١٢٩	الأولى)
١٥٧	(صلاته على راحلته)		(أدلة من قال بأن الساعة الأولى من أول النهار وترجيح
١٥٧	فصل	١٣٠	المصنف له)
	(الجمع بين الصلاتين وإعلال عجب للحاكم لحديث	١٣١	(قد يأتي الروح بمعنى الذهاب)
١٥٧	صحيح)	١٣١	(قد يأتي التهجير بمعنى التكبير)
١٥٨	فصل	١٣٣	(يوم تجلي الله فيه أولياته في الجنة)
١٥٨	(كان يجمع إذا جد به السير)	١٣٤	(هو الشاهد في قوله تعالى: «وشاهد ومشهود»)
١٥٩	(حد المسافة للقصر والفطر)		(هو اليوم الذي تفرع فيه الخلائق إلا الإنس
	فصل: في قراءة القرآن، واستماعه، وخشوعه،	١٣٥	والجن)
	وبكائه عند قراءته، واستماعه وتحسين صوته به	١٣٥	(واليوم الذي هدى الله هذه الأمة له)

١٧٢	(حكم الدفن وسنية اللحد)	١٥٩	وتوابع ذلك
١٧٢	(تلقين الميت)	١٥٩	(اختلاف الناس في معنى التغني بالقرآن)
١٧٢	فصل	١٦٣	فصل: في هديه ﷺ في عيادة المرضى
١٧٢	(لا تعلّى القبور ولا تشيّد)	١٦٤	(الريقة والاسترقاء)
١٧٣	(لا تتخذ القبور مساجد)	فصل:	في هديه ﷺ في الجنائز والصلاة عليها،
١٧٣	في هديه ﷺ في زيارة القبور	وأتباعها، ودفنها، وما كان يدعو به للميت في	
١٧٣	(حكم التعزية وعدم الاجتماع لها)	صلاة الجنائز وبعد الدفن وتوابع ذلك	١٦٥
١٧٣	(صلاة الخوف)	فصل	١٦٥
١٧٤	فصل: في هديه ﷺ في الصدقة والزكاة	(الإسراع بتجهيز الميت)	١٦٥
١٧٥	(الأصناف التي تجب فيها الزكاة)	(حكم الصلاة على الميت في المسجد)	١٦٦
١٧٥	(وقت وجوبها)	فصل	١٦٦
١٧٥	(نصاب الزكاة)	فصل	١٦٧
١٧٥	(أصناف من يأخذ الزكاة)	(لم يكن يصلي على المدين)	١٦٧
١٧٦	فصل	فصل	١٦٧
١٧٦	(إعطاؤه من هو أهل للزكاة)	(الدعاء للميت في الصلاة عليه)	١٦٧
١٧٦	(تفريق الزكاة على المستحقين من أهل البلد)	(التكبير في الصلاة على الجنائز)	١٦٨
١٧٦	(بعث السعاة لجباية الزكاة)	فصل	١٦٨
١٧٦	(بعض الأصناف التي لا تجب فيها الزكاة)	(التسليم من صلاة الجنائز)	١٦٨
١٧٦	فصل	(رفع اليدين في صلاة الجنائز)	١٦٩
١٧٦	(زكاة العسل)	(وضع اليمين على الشمال في صلاة الجنائز)	١٦٩
١٧٧	(من قال: ليس في العسل زكاة)	فصل	١٦٩
١٧٨	(من قال: في العسل زكاة)	(الصلاة على القبر)	١٦٩
١٧٨	فصل	فصل	١٦٩
١٧٨	(دعاؤه ﷺ لجباية الزكاة والنهي عن الأخذ من كرائم	(الصلاة على الطفل)	١٦٩
١٧٨	الأموال)	فصل	١٧٠
١٧٨	فصل	(الصلاة على المتمتع والغال والمقتول حدًا)	١٧٠
١٧٨	(التصرف في الصدقة)	فصل	١٧١
١٧٩	في هديه ﷺ في زكاة الفطر	(أبحاث المشي أمام الجنائز والإسراع بها)	١٧١
١٧٩	(من تجب عليه ومقدارها)	فصل	١٧١
١٧٩	فصل	(الصلاة على الغائب)	١٧١
١٧٩	(وقت إخراج صدقة الفطر وكذا الأضحية)	فصل	١٧٢
١٨٠	فصل	(القيام للجنائز)	١٧٢
١٨٠	(لا تعطى صدقة الفطر إلا للمساكين)	فصل	١٧٢
١٨٠	فصل: في هديه ﷺ في صدقة التطوع		

فصل: في أسباب شرح الصدور وحصولها على
الكمال له ١٨٠
فصل: في هديه ١٨٢ في الصيام
(المقصود من الصيام وفوائده) ١٨٢
(زمن فرضية الصيام) ١٨٣
فصل ١٨٣
(إكثار العبادات في رمضان) ١٨٣
(الوصال ومعنى قوله ١٨٣: «يطعمني ربي ويسقيني»)
(الاختلاف في حكم الوصال وترجيح المصنف بجوازه
من السحر إلى السحر) ١٨٤
فصل ١٨٦
(ثبوت رمضان) ١٨٦
(حكم صوم يوم الغيم) ١٨٦
(مرد المصنف لروايات من صام يوم الغيم) ١٨٧
(الجواب على من صام يوم الغيم) ١٨٨
(ترجيح المصنف لجواز صوم يوم الغيم احتياطاً والنهي
عنه تطوعاً) ١٨٩
(بعض المسائل التي ترخص بها ابن عباس وتشدد بها
ابن عمر) ١٨٩
(الدليل على أن الصحابة لم يصوموا يوم الغيم على
سبيل الوجوب) ١٩٠
فصل ١٩٠
(ثبوت شوال) ١٩٠
(فوائد الفطر على التمر) ١٩١
فصل ١٩١
(ما يفطر عليه) ١٩١
(الذكر عند الإفطار) ١٩١
(إجابة دعوة الصائم) ١٩١
(تحديد وقت الإفطار ونهي الصائم عن الرفث) ١٩١
فصل ١٩١
(الفطر في السفر) ١٩١
(الفطر في القتال) ١٩١
فصل ١٩٢
(الفطر في السفر) ١٩٢
(ما اعتمر ١٩٢ إلا في ذي القعدة)

فصل	٢١٧
(عذر من قال: اعتمر ❸ من التمتع بعد الحج)	٢١٧
فصل	٢١٧
(عذر من قال: لم يعتمر ❸ في حجته)	٢١٧
فصل	٢١٧
(عذر من قال: اعتمر ❸ عمرة حل منها)	٢١٧
فصل: في أضرار الذين وهوا في صفة حجته	٢١٨
(عذر من قال: حج ❸ مفرداً ولم يعتمر فيه)	٢١٨
فصل	٢٢٠
(وجوه الترجيح لرواية من روى القرآن)	٢٢٠
(قول المصنف: التمتع أفضل من الأفراد)	٢٢١
فصل	٢٢١
(عذر من قال: حج ❸ متمتاً متمتاً حل فيه من إحرامه)	٢٢١
فصل	٢٢٢
(عذر من قال: حج ❸ متمتاً متمتاً لم يحل منه لأجل سوق الهدى)	٢٢٢
(الفرق بين القارن والمتمتع الساق للهدى)	٢٢٣
(إن ساق الهدى فالقران أفضل وإن لم يسق فالتمتع أفضل)	٢٢٤
(هل التمتع مع ترك سوق الهدى أفضل من القران مع السوق؟)	٢٢٤
(قول المصنف: التمتع أفضل من أفراد تعقبه عمرة)	٢٢٤
فصل	٢٢٥
(عذر من قال: حج ❸ قارناً طاف لهما طوافين وسعى لهما سبعين)	٢٢٥
(هل على القارن والمتمتع سعيان أو سعي واحد؟)	٢٢٧
فصل	٢٢٧
(عذر من قال: حج ❸ مفرداً اعتمر عقبيه من التمتع)	٢٢٧
فصل	٢٢٧
(عذر من قال: لبي ❸ بالعمرة وحدها واستمر عليها)	٢٢٧
فصل	٢٢٧

(العمرات التي اعتمرها ❸ وأنها كانت في ذي القعدة)	٢٠٤
فصل	٢٠٥
(العمرة للداخل إلى مكة)	٢٠٥
فصل	٢٠٥
(كانت عمره في أشهر الحج)	٢٠٥
(الاعتماد في أشهر الحج أفضل من الاعتماد في رمضان)	٢٠٦
(كان ❸ يترك العمل خشية المشقة على أمته)	٢٠٦
فصل: (لم يعتمر ❸ في السنة إلا مرة واختلاف الناس في تكرارها)	٢٠٦
فصل: في سياق هديه ❸ في حجته	٢٠٨
(لما فرض الحج سنة تسع أو عشر بادر ❸ إليه على الفور سنة عشر وهي حجته الوحيدة)	٢٠٨
فصل	٢٠٨
(خروجه ❸ بعد أن أعلم الناس)	٢٠٨
(ترجيح المصنف أن خروجه ❸ كان يوم السبت)	٢٠٨
(إكمال المصنف لسياق حجه ❸)	٢١٠
(حج ❸ قارناً والدليل على ذلك)	٢١٠
(القران أحد نوعي التمتع وهو لغة القرآن)	٢١٢
(الرد على من ادعى حجه ❸ مفرداً)	٢١٥
(الرد على من ادعى حجه ❸ متمتاً)	٢١٦
فصل	٢١٦
(غلط الناس في عُمره ❸)	٢١٦
فصل	٢١٦
(غلط الناس في حجه ❸)	٢١٦
فصل	٢١٦
(غلط الناس في إحرامه ❸)	٢١٦
فصل	٢١٧
في أضرار القائلين بهذه الأقوال، وبيان منشأ الوهم والغلط	٢١٧
(عذر من قال: اعتمر ❸ في رجب)	٢١٧
فصل	٢١٧
(عذر من قال: اعتمر ❸ في شوال)	٢١٧

٢٣٦	فصل	٢٢٧	(عذر من قال: لبي ﷺ بالحج وحده واستمر عليه)
٢٣٦	(هل كانت عمرة التمتع مجزئة لعائشة عن عمرة الإسلام؟)	٢٢٧	فصل
٢٣٧	فصل	٢٢٧	(عذر من قال: لبي ﷺ بالحج وحده ثم أدخل عليه العمرة)
٢٣٧	(موضع حيفة عائشة وطهرها)	٢٢٨	(هل يجوز إدخال العمرة على الحج)
٢٣٧	فصل	٢٢٨	فصل
٢٣٧	(العودة إلى سياق حجة ﷺ)	٢٢٨	(عذر من قال: أحرم ﷺ بعمرة ثم أدخل عليها الحج)
٢٣٧	(بحث في فسخ الحج إلى العمرة)	٢٢٨	فصل
٢٣٩	(غضبه ﷺ ممن لم يفسخ الحج إلى العمرة)	٢٢٩	(عذر من قال: أحرم ﷺ إحراماً مطلقاً لم يعين فيه نسكاً ثم عينه بعد إحرامه)
٢٤٠	(أعذار من لم يأخذ بفسخ الحج إلى العمرة)	٢٢٩	فصل
٢٤١	(عذر من ادعى النسخ لهذا الفسخ)	٢٣٠	ولنرجع إلى سياق حجة ﷺ
٢٤١	فصل	٢٣٠	فصل
٢٤١	(عذر من ادعى اختصاص الصحابة بهذا الفسخ)	٢٣١	فصل
٢٤٢	(الأصل في المسائل الأحكام حتى يثبت نسخها أو اختصاصها بأحد)	٢٣١	(تخييره ﷺ لأصحابه بين الأنساك الثلاثة)
٢٤٤	فصل	٢٣١	(السنن التي وردت في قصة ولادة أسماء بنت عميس بندي الحليفة)
٢٤٤	(عذر من ادعى معارضة أحاديث الفسخ بما يدل على خلافها)	٢٣١	(جواز أكل المحرم من صيد الحلال إذا لم يصد له لأجله)
٢٤٥	(رد المصنف عليهم)	٢٣١	فصل
٢٤٦	فصل	٢٣١	(قتل المحرم للصيد يجعله بمنزلة الميتة)
٢٤٨	فصل	٢٣١	فصل
٢٤٩	(بيان أن عمر لم ينه عن المتعة البتة)	٢٣٢	فصل
٢٥٠	فصل	٢٣٢	(رده ﷺ حمار الوحش مع تعليله بأنه محرم)
٢٥٠	(بقية طرق المانعين من فسخ الحج إلى العمرة)	٢٣٢	(الأرجح بأن الحمار كان لحماً لا حياً)
٢٥٠	(يشرع الاحتياط إذا لم تبين السنة)	٢٣٣	فصل
٢٥٠	فصل	٢٣٣	(مروره ﷺ بوادي عسفان)
٢٥٠	(بطلان قول من قال: أمرهم ﷺ بالفسخ ليبين لهم جواز العمرة في أشهر الحج من أحد عشر وجهاً)	٢٣٣	(بحث في إحرام عائشة وهي حائض)
٢٥٢	(بحث في موافقة فسخ الحج إلى العمرة لقياس الأصول)	٢٣٣	(ما تفعل المرأة إذا أحرمت بالعمرة فحاضت ولم يمكنها الطواف قبل التعريف)
٢٥٤	فصل	٢٣٤	فصل
٢٥٤	فصل	٢٣٤	(ما أحرمت به عائشة أولاً؟)
٢٥٤	(العودة إلى سياق حجة ﷺ عند نزوله بندي طوى)	٢٣٦	فصل
٢٥٤	(دخوله ﷺ المسجد)	٢٣٦	(ما المراد من عمرة التمتع لعائشة؟)

٢٦٩	فصل	٢٥٥	فصل
٢٦٩	(منى كلها منحرو منى مناخ لمن سبق إليه) ...	٢٥٥	(صلاته ﷺ خلف المقام والسمي بين الصفا والمروة)
٢٦٩	فصل	٢٥٦	فصل
٢٦٩	(الحلق والتقصير)	٢٥٦	(طواف القدوم)
٢٧٠	فصل	٢٥٧	فصل
٢٧٠	(ترجيح المصنف بأنه ﷺ لم يطف غير طواف الإفاضة بعد إفاضته إلى مكة) ...	٢٥٧	(غلط ابن حزم وبيان أنه لم يحج)
٢٧٠	(رد القول بالطواف والسمي للقدوم بعد إحرام المتمتع بالحج من مكة) ...	٢٥٧	(متابعة سياق الحج)
٢٧١	فصل	٢٥٧	(خطبة الوداع)
٢٧٢	(الرد على من قال: إن القارن يحتاج إلى سعيين) ...	٢٥٨	(أهل مكة يقصرون ويجمعون بعرفة)
٢٧٢	فصل	٢٥٨	(الوقوف بعرفة)
٢٧٢	فصل	٢٥٩	(ما ورد في دعائه ﷺ بعرفة)
٢٧٣	فصل	٢٥٩	(بحث يتعلق برجل محرم مات في عرفة)
٢٧٣	(تعليق شربه ﷺ قائماً)	٢٥٩	(لا يتجسس المسلم بموته)
٢٧٣	(طاف ﷺ طواف الإفاضة على راحلته) ...	٢٦٠	(التغير بالظواهرات لا يسلب الماء طهوريته)
٢٧٣	فصل	٢٦٠	(إباحة الفسل للمحرم)
٢٧٣	(أين صلى ﷺ الظهر حين رجوعه إلى منى) ...	٢٦٠	(إباحة الماء والسدر للمحرم)
٢٧٥	فصل	٢٦٠	(الكفن مقدم على ما سواه)
٢٧٥	(ذكر طواف أم سلمة)	٢٦٠	(المحرم ممنوع من الطيب)
٢٧٥	(طواف عائشة)	٢٦١	(المحرم ممنوع من تغطية رأسه)
٢٧٥	فصل	٢٦٢	(لا ينقطع الإحرام بالموت)
٢٧٥	(رمي الجمار)	٢٦٢	فصل
٢٧٥	(التعليل لترك الدعاء بعد العقبة)	٢٦٢	(متابعة سياق حجته ﷺ)
٢٧٦	فصل	٢٦٢	(الإفاضة من عرفة)
٢٧٦	(ميل المصنف بأنه ﷺ رمى قبل الصلاة) ...	٢٦٣	(هل يجوز رمي الجمار قبل الفجر)
٢٧٦	فصل	٢٦٤	فصل
٢٧٦	(وقفات الدعاء في الحج)	٢٦٤	(مذهب من قال بركنية الوقوف بمزدلفة والمبيت بها)
٢٧٦	فصل	٢٦٥	فصل
٢٧٦	(خطبتا منى)	٢٦٥	(قصة الفضل مع الخنمية)
٢٧٦	فصل	٢٦٥	(الحج عن الأم)
٢٧٧	(ترخيصه ﷺ لمن له عذر بالمبيت خارج منى ويجمع رمي يومين بعد يوم النحر في أحدهما) ...	٢٦٥	فصل
٢٧٧	فصل	٢٦٥	(خطبة منى)
٢٧٧	(أين لقي ﷺ عائشة بعد رجوعها من عمرة التعميم)	٢٦٦	(بحث في نحره ﷺ ثلاثاً وستين بلدة بيده)
		٢٦٧	(بيان بطلان قول ابن حزم بأنه لا هدي على القارن)

٢٨٢	فصل	٢٧٨	(هل التحصيص سنة؟)
٢٨٢	فصل	٢٧٩	فصل
٢٨٢	فصل	٢٧٩	(هل دخل المسجد البيت؟)
٢٨٢	فصل	٢٧٩	فصل
٢٨٢	فصل	٢٧٩	(هل وقف المسجد في الملتزم بعد الوداع)
٢٨٣	فصل	٢٨٠	فصل
٢٨٣	فصل	٢٨٠	(أين صلى المسجد الصبح ليلة الوداع؟)
٢٨٣	فصل	٢٨٠	فصل
٢٨٣	فصل	٢٨٠	(ارتحاله المسجد إلى المدينة)
٢٨٣	فصل	٢٨٠	فصل
٢٨٣	فصل	٢٨٠	في الأوهام
٢٨٣	فصل	٢٨٠	(وهم ابن حزم في قوله: إنه المسجد أعلم الناس وقت
٢٨٣	فصل	٢٨٠	خروجه أن عمرة في رمضان تعدل حجة)
٢٨٤	فصل	٢٨١	فصل
فصل: في هديه المسجد في الهدايا والضحايا		٢٨١	فصل
٢٨٤	والمعقبة	٢٨١	(وهم محب الدين الطبري بقوله: خرج المسجد يوم الجمعة
٢٨٥	فصل	٢٨١	بعد الصلاة)
٢٨٥	(هدية المسجد في ذبيح هدي العمرة والقران)	٢٨١	فصل
٢٨٥	فصل: وأما هديه في الأضاحي	٢٨١	(وهم القاضي عياض أنه المسجد تطيب قبل غسله ثم غسل
٢٨٥	(وقت الذبيح)	٢٨١	الطيب عنه لما اغتسل)
٢٨٦	فصل	٢٨١	فصل
٢٨٦	(مسائل تتعلق بالأضحية)	٢٨١	(وهم ابن حزم أنه المسجد أحرم قبل الظهر)
٢٨٦	فصل	٢٨١	فصل
٢٨٦	(كان المسجد يضحى بالمصلى)	٢٨١	(وهم ابن حزم أنه المسجد ساق الهدي مع نفسه وكان هدي
٢٨٦	(دعاؤه المسجد قبل الذبيح)	٢٨١	تطوع)
٢٨٦	(تجزئ الشاة عن الرجل وأهل بيته)	٢٨١	فصل
٢٨٧	فصل	٢٨٢	فصل
٢٨٧	في هديه المسجد في المعقبة	٢٨٢	فصل
٢٨٧	(معنى: «كل غلام رهينة بعقيقته»)	٢٨٢	فصل
٢٨٧	(هل التدمية من المعقبة صحيحة أو غلط؟)	٢٨٢	فصل
٢٨٨	فصل	٢٨٢	فصل
٢٨٨	(هل عقيقة الغلام شاتان)	٢٨٢	فصل
٢٨٩	فصل	٢٨٢	فصل

(النهى عن قول القائل بعد فوات الأوان: «لو أني فعلت كذا») ٢٩٦
 (التوكل) ٢٩٩
 فصل: في هديه ﷺ في الذكر ٣٠٠
 (الذكر عند الاستيقاظ من الليل) ٣٠٠
 (الذكر عند الخروج من البيت) ٣٠٠
 (دعاء دخول المسجد) ٣٠١
 (أدعية الصباح والمساء) ٣٠١
 (الرسول مرسل إلى نفسه وأمه) ٣٠٢
 فصل: في هديه ﷺ في الذكر عند لبس الثوب وغوي ٣٠٤
 فصل: في هديه ﷺ عند دخوله إلى منزله ٣٠٤
 فصل: في هديه ﷺ في الذكر عند دخوله الخلاء ٣٠٤
 (النهى عن استقبال القبلة واستدبارها ببول أو غائط) ٣٠٥
 فصل ٣٠٥
 (دعاء الخروج من الخلاء) ٣٠٥
 فصل: في هديه ﷺ في أذكار الوضوء ٣٠٥
 فصل: في هديه ﷺ في الأذان وأذكاره ٣٠٦
 (هديه ﷺ في الأذان) ٣٠٦
 فصل ٣٠٧
 (الذكر عند الأذان وبعده) ٣٠٧
 فصل ٣٠٨
 (الدعاء في العشر) ٣٠٨
 (التكبير من فجر يوم عرفة إلى عصر ثالث أيام التشريق) ٣٠٨
 فصل: في هديه ﷺ في الذكر عند رؤية الهلال ٣٠٨
 فصل: في هديه ﷺ في أذكار الطعام قبله وبعده ٣٠٨
 فصل ٣٠٩
 (هل تزول مشاركة الشيطان للأكلين بتسمية أحدهم؟) ٣٠٩
 فصل ٣١٠
 (أحكام الدعوة إلى الطعام) ٣١٠
 (عدم الأنفة من مأكلة أي إنسان) ٣١١

فصل ٢٨٩
 (هل عرق ﷺ عن نفسه؟) ٢٨٩
 فصل ٢٨٩
 (الأذان في أذن المولود) ٢٨٩
 فصل: في هديه ﷺ في تسمية المولود وختانه ٢٨٩
 فصل: في هديه ﷺ في الأسماء والكُنى ٢٩٠
 فصل: في فقه هذا الباب ٢٩٠
 (اختيار الأسماء الحسنة لأن الأسماء قوالب للمعاني) ٢٩٠
 فصل ٢٩٢
 فصل ٢٩٢
 فصل ٢٩٢
 فصل ٢٩٢
 (علة النهى عن التسمية بيسار وأفلح ونجيج ورياح) ٢٩٢
 فصل ٢٩٣
 (الكنية) ٢٩٣
 (حكم التكني بأبي القاسم) ٢٩٣
 فصل ٢٩٤
 (التكني بأبي عيسى) ٢٩٤
 (كنى أمهات المؤمنين) ٢٩٤
 فصل ٢٩٤
 (النهى عن تسمية العنب كرمًا) ٢٩٤
 فصل ٢٩٥
 (هل تجوز تسمية صلاة العشاء بصلاة العتمة) ٢٩٥
 (محافظته ﷺ على الأسماء التي سمى الله بها العبادات) ٢٩٥
 فصل: في هديه ﷺ في حفظ المنطق واختيار الألفاظ ٢٩٥
 (كراهة استعمال اللفظ الشريف في حق من ليس كذلك) ٢٩٥
 فصل ٢٩٦
 (كراهة إطلاق ألفاظ الذم على من ليس من أهلها) ٢٩٦
 فصل ٢٩٦

٣١٨	(التسليم قبل الاستئذان)	٣١١	(الأكل باليمين)
٣١٨	(الاستئذان ثلاثاً)	فصل: في هديه ﷺ في السلام والاستئذان وتشميت	
٣١٩	فصل	العاطس	٣١١
٣١٩	(ذكر المستأذن ما يدل عليه)	(السلام)	٣١١
٣١٩	فصل	(فضائل الإنصاف)	٣١١
٣١٩	(رسول الرجل إلى الرجل إذنه)	(بذل السلام)	٣١٣
٣١٩	فصل	(الإنفاق من الإقتار)	٣١٣
(استئذان الممالك ومن لم يبلغ الحلم في العورات		فصل	٣١٣
٣١٩	(الثلاث)	(السلام على الصبيان والنسوان)	٣١٣
٣٢٠	فصل: في هديه ﷺ في أذكار العطاس	فصل	٣١٣
٣٢٠	(حكم التشميت)	(تحية المسجد قبل السلام)	٣١٣
٣٢٠	(ليس محل السلام عند العطاس)	فصل	٣١٤
٣٢١	(معاني كلمة أمي)	فصل	٣١٤
٣٢١	(علة الحمد بعد العطاس ومعنى التشميت)	(السلام قبل السؤال)	٣١٤
٣٢١	فصل	فصل	٣١٤
(آداب العطاس)	٣٢١	(تحميل السلام للغائبين)	٣١٤
(متى يقطع التشميت؟)	٣٢١	فصل	٣١٥
(هل التشميت على من سمع حمد العاطس؟)	٣٢٢	(صيغة السلام)	٣١٥
(هل يستحب تذكير العاطس بالحمد؟)	٣٢٢	فصل	٣١٥
فصل	٣٢٢	(السلام ثلاثاً)	٣١٥
(الرد على من عطس من اليهود)	٣٢٢	فصل	٣١٥
فصل: في هديه ﷺ في أذكار السفر وآدابه	٣٢٢	(رد السلام)	٣١٥
(الاستخارة)	٣٢٢	فصل	٣١٥
فصل	٣٢٣	(كراهية قول المبتدئ: «عليك السلام»)	٣١٥
(الذكر عند ركوب الراحلة)	٣٢٣	(بحث في الرد على المسلم بـ «وعليك السلام» والفرق	
فصل	٣٢٤	بينها وبين الرد على أهل الكتاب)	٣١٦
(توديع المسافرين)	٣٢٤	فصل: في هديه ﷺ في السلام على أهل الكتاب	٣١٧
(الذكر عند علو الشاي والهبوط)	٣٢٤	فصل	٣١٧
(كيفية السير)	٣٢٤	فصل	٣١٧
(كرامة السفر وحيداً)	٣٢٤	(هل رد السلام فرض كفاية؟)	٣١٧
(دعاء النزول)	٣٢٤	فصل	٣١٨
(دعاء إدراك المسافر الليل)	٣٢٥	(رد السلام على المريب والمبلغ)	٣١٨
(التعمير والسفر في الخصب)	٣٢٥	(ترك السلام ابتداءً ورداً على من أحدث حدثاً)	٣١٨
(دعاء الدخول إلى قرية)	٣٢٥	فصل: في هديه ﷺ في الاستئذان	٣١٨
(دعاء بدو الفجر في السفر)	٣٢٥		

٣٣١	(كان الجهاد في أول الإسلام بتبليغ الحجة) ..
٣٣١	(جهاد أعداء الله فرع على جهاد النفس)
٣٣١	(هناك جهاد ثالث هو جهاد الشيطان)
٣٣٢	(جهاد هؤلاء الأعداء الثلاثة ليمتحن من يتولاه)
٣٣٢	(معنى «وجاهدوا في الله حق جهاده»)
٣٣٢	(معنى «وما جعل عليكم في الدين من حرج»)
٣٣٣	فصل
٣٣٣	(مراتب الجهاد)
٣٣٣	(مراتب جهاد النفس)
٣٣٣	فصل
٣٣٣	(مراتب جهاد الشيطان)
٣٣٣	فصل
٣٣٣	(مراتب جهاد الكفار والمنافقين)
٣٣٣	فصل
٣٣٣	(جهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات)
٣٣٣	فصل
٣٣٣	(شرط الجهاد)
٣٣٤	فصل
٣٣٤	(أكمل الخلق من كمل مراتب الجهاد وأكملهم محمد ﷺ)
٣٣٤	(ذكر الابتلاء في أول الدعوة)
٣٣٥	(من أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً)
٣٣٥	(تعزية الله عباده المؤمنين بأن الحياة الدنيا قصيرة)
٣٣٦	(من جاهد فإنما يجاهد لنفسه)
٣٣٦	(معنى «فإذا أوذى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله»)
٣٣٦	فصل
٣٣٦	(ذكر السابقين إلى الإسلام وأبو بكر الصديق)
٣٣٦	(خديجة الكبرى)
٣٣٧	فصل
٣٣٧	(علي بن أبي طالب)
٣٣٧	(زيد بن حارثة و ورقة بن نوفل)
٣٣٧	(بداية الأذى بمن أسلم)
٣٣٨	فصل

٣٢٥	(السرعة في الإياب)
٣٢٥	(دعاء الإياب)
٣٢٥	(النهى عن طروق الأهل ليلاً)
٣٢٥	(مسائل تتعلق بالقدوم من السفر)
٣٢٥	فصل: في هديه ﷺ في أذكار النكاح
٣٢٥	فصل: في هديه ﷺ فيما يقول مَنْ رأى ما يُعجبه من أهله وماله
٣٢٦	فصل: فيما يقول من رأى مبتلى
٣٢٦	فصل: فيما يقوله من لحقه الظُّمِرُ
٣٢٦	فصل: فيما يقوله من رأى في منامه ما يكرهه
٣٢٦	فصل: فيما يقوله ويفعله من ابتلى بالوسْوَاسِ، وما يستعين به على الوسوسة
٣٢٧	فصل: فيما يقوله ويفعله من اشتد غضبه
٣٢٨	فصل
٣٢٨	(الدعاء لرؤية ما يحب وما يكره)
٣٢٨	فصل
٣٢٨	(ما يفعل مع من صنع إليه معروفًا)
٣٢٨	(الإثابة على الهدية)
٣٢٩	فصل
٣٢٩	(الذكر في المجلس)
٣٢٩	فصل
٣٢٩	(الدعاء عند الأرق)
٣٢٩	(الدعاء عند الفزع)
٣٢٩	فصل: في الفاظ كان ﷺ يكره أن تُقال
٣٣٠	فصل
٣٣٠	(كراهة تسمية أدلة القرآن والسنة ظواهر لفظية ومجازات)
٣٣٠	فصل
٣٣١	فصل
٣٣١	(التحذير من: «أنا» و«لي» و«عندي»)
٣٣١	فصل: في هديه في الجهاد والغزوات
٣٣١	فصل: في هديه ﷺ في الجهاد والمغازي والشرابا والبُغُوث

٣٤٧	(قصة هجرته ﷺ)	٣٣٨	(شراء الصديق للعبيد المعذبين)
٣٤٧	(نوم علي في مضجعه ﷺ)		(الهجرة الأولى إلى الحبشة وهل قدم ابن مسعود مكة)
٣٤٨	(قصة سراقه)	٣٣٨	من الهجرة الأولى إلى الحبشة)
٣٤٩	فصل	٣٣٩	(الهجرة الثانية إلى الحبشة)
٣٤٩	(أم معبد)	٣٤٠	فصل
٣٤٩	فصل	٣٤٠	(محاولة المشركين رد التجاشي المهاجرين)
٣٤٩	(وصوله ﷺ إلى المدينة)	٣٤٠	فصل
٣٥٠	(معنى: «أدخلني مدخل صدق...»)	٣٤٠	(مقاطعة قريش لبني هاشم وبني المطلب)
٣٥١	(قدوم أهله ﷺ من مكة)	٣٤٠	(نقض الصحيفة)
٣٥١	فصل	٣٤١	فصل
٣٥١	في بناء المسجد	٣٤١	(الخروج إلى الطائف)
٣٥١	فصل	٣٤١	(استماع الجن لقراءته ﷺ)
٣٥١	(المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار)	٣٤١	(دخوله ﷺ مكة بجوار المطعم)
٣٥٢	فصل	٣٤٢	فصل
٣٥٢	(معاذته ﷺ مع يهود)	٣٤٢	(الإسراء)
٣٥٢	فصل	٣٤٢	(المعراج)
٣٥٢	(تحويل القبلة)	٣٤٢	(هل رأى ﷺ ربه ليلة المعراج)
٣٥٣	فصل	٣٤٣	فصل
٣٥٣	(الأذان وزيادة الصلاة إلى رباعية)	٣٤٣	(إخباره ﷺ لقريش بالإسراء)
٣٥٣	فصل	٣٤٣	فصل
٣٥٣	(الإذن بالقتال)		(الفرق بين من قال: كان الإسراء بالروح وبين أن يقال: كان مناماً)
٣٥٤	فصل	٣٤٤	فصل
٣٥٤	(فرض القتال)	٣٤٤	(الصحيح أن الإسراء كان مرة)
٣٥٤	(التحقيق في مسألة فرضية الجهاد)	٣٤٤	فصل
٣٥٥	(شراؤه ﷺ بغيراً من جابر)	٣٤٤	(دعوته ﷺ القبائل)
٣٥٨	(فضل الرمي)	٣٤٥	فصل
٣٥٩	فصل	٣٤٥	(لقيامه ﷺ لمن قدم من الأوس والخزرج)
٣٥٩	فصل	٣٤٥	فصل
٣٥٩	(فضل الشهيد)	٣٤٥	(لقي النبي ﷺ ستة نفر من الخزرج)
٣٦٠	فصل	٣٤٥	(بيعة العقبة الأولى)
٣٦٠	(مبايعته ﷺ أصحابه)	٣٤٦	(بيعة العقبة الثانية)
٣٦١	(مشورته ﷺ في الجهاد)	٣٤٧	(بلده الهجرة إلى المدينة)
٣٦١	(دعاء لقاء العدو)	٣٤٧	فصل
٣٦١	(عدته ﷺ في الحرب)	٣٤٧	(اتهام قريش به ﷺ لقتله)

٣٦٨	فصل	٣٦٢	(الدعوة قبل القتال)
٣٦٨	(الإقامة بين المشركين)	٣٦٢	(الأسلاب والغنائم)
فصل: في هديه في الأمان، والصلح، ومعاملة رسل		٣٦٢	(حكم الأنفال)
الكفار، وأخذ الجزية، ومعاملة أهل الكتاب،		٣٦٢	(الصفى)
والمنافقين، وإجارة من جاءه من الكفار حتى يسمع		٣٦٢	(السهم لمن غاب لمصلحة المسلمين)
كلام الله، وردّه إلى مأمته، ووفائه بالعهد، وبرأته		٣٦٢	(التجارة في الغزو)
من الغدر		٣٦٣	(التشارك في الغنيمة)
٣٦٩	فصل	٣٦٣	فصل
٣٦٩	(تقرير مصير الكفار مع النبي ﷺ)	٣٦٣	(سهم ذي القربى)
٣٦٩	(محاورة بنو قينقاع للمسلمين)	٣٦٣	فصل
٣٧٠	فصل	٣٦٣	(لا يُخمس الطعام)
٣٧٠	(نقض بني النضير العهد)	٣٦٣	فصل
٣٧٠	فصل	٣٦٣	(حكم النهية والمثلة)
٣٧٠	(نقض قريضة العهد)	٣٦٣	(النهي عن استعمال الفياء في غير حال الحرب)
(الاختلاف في قوله ﷺ: «لا يصلين أحدكم العصر إلا		٣٦٤	فصل
في بني قريظة)		٣٦٤	(الغلول)
٣٧١	فصل	٣٦٤	فصل
٣٧٢	فصل	٣٦٤	(تحريق متاع الغال وضربه)
٣٧٣	فصل	٣٦٤	فصل
٣٧٣	(حكم من نقض العهد وأقر به الباقر)	٣٦٤	في هديه ﷺ في الأسارى
٣٧٣	(فتوى المصنف لولي الأمر)	٣٦٥	(أسارى بدر)
٣٧٣	فصل	٣٦٥	(الفداء)
(من دخل في عقد المصالحين ثم حارب المسلمين فقد		٣٦٥	(الاسترقاق)
نقض العهد)		٣٦٦	فصل
٣٧٤	فصل	٣٦٦	(لا يفرق في السبي بين الوالدة وولدها)
٣٧٤	(رسل الأعداء لا يُعرض لها)	٣٦٦	فصل: في هديه فيمن جَسَّ عليه
٣٧٤	فصل	٣٦٦	فصل
٣٧٤	(صلحه ﷺ مع قريش)	(من أسلم على شيء في يده فهو له ولم ينظر إلى سببه	
٣٧٥	(تحريم نكاح المشركة على المسلم)	٣٦٦	قبل الإسلام)
٣٧٥	فصل	٣٦٧	فصل
(الصلح مع أهل خيبر وقصة حيي في تغييبه المسك		٣٦٧	في هديه في الأرض المغنومة
والحلي)		٣٦٧	(هل الأرض تدخل في الغنائم)
٣٧٦	(جواز المساقاة والمزارعة)	٣٦٨	فصل
٣٧٦	(جواز عقد الهدنة)	٣٦٨	(الأدلة على أن مكة فتحت عنوة)
٣٧٦	(جواز تعزيز المتهم)		

٣٨٢	(سرية سعد إلى بطن رايغ)	٣٧٦	(جواز الأخذ بالقرائن)
٣٨٢	فصل	٣٧٦	(اعتبار القرائن)
٣٨٢	(غزوة الأبياء وهي أول غزوة غزاها بنفسه ﷺ)		(قبول شهادة أهل الكتاب على المسلمين في الوصية في السفر)
٣٨٣	فصل	٣٧٧	(استدلال الشاهد في قصة يوسف بقرينة قد القميص)
٣٨٣	(غزوة بواط)	٣٧٨	(جواز خرس الثمار البادي صلاحها)
٣٨٣	فصل	٣٧٨	فصل
٣٨٣	(خروجه في طلب كرز الفهري)	٣٧٨	(عقد الذمة وأخذ الجزية)
٣٨٣	فصل	٣٧٨	(بيان تزوير طائفة من اليهود كتاباً فيه إسقاطه ﷺ الجزية)
٣٨٣	(غزوة العشيرة)	٣٧٨	فصل
٣٨٣	فصل	٣٧٩	(هل يجوز أخذ الجزية من غير المجوس واليهود والنصارى؟)
	(سرية نخلة وأول خمس وأول قتل وأول أسيرين في الإسلام والقتال في الأشهر الحرم ومعنى «الفتنة أكبر من القتل»)	٣٧٩	فصل
٣٨٣	فصل	٣٧٩	(صلحه ﷺ مع أهل نجران)
٣٨٥	(تحويل القبلة)	٣٨٠	(الجزية تقدر بحسب حاجة المسلمين)
٣٨٥	فصل		(تؤخذ الجزية من العرب والعجم بغير اعتبار لأبائهم)
٣٨٥	في غزوة بدر الكبرى	٣٨٠	فصل
٣٨٦	(لم يشهد بديراً زهري)		(في ترتيب سياق هلبه مع الكفار والمنافقين، من حين بعث إلى حين لقي الله عز وجل)
٣٨٦	(معنى مردفين)		(الفرق بين أشهر التسيير الحرم وبين الأشهر الحرم)
٣٨٧	(الاختلاف في إمداد الله لهم)	٣٨١	فصل
٣٨٧	فصل	٣٨١	(سيرته ﷺ في أولياته وحزبه)
٣٨٨	(طلب المبارزة)	٣٨١	(معنى «أخذ العفو وأمر بالعرف»)
٣٨٨	(اشتداد القتال)		فصل: في سياق مغازيه ويعوئه على وجه الاختصار
٣٨٨	(النصر)	٣٨٢	(سرية حمزة إلى سيف البحر)
٣٨٨	فصل	٣٨٢	فصل
	(ظهور إبليس في صورة سراقاة الكنانني ووسوسته لقريش)		(سرية عبيدة بن الحارث بن المطلب وسعد هو أول من رمى بسهم في سبيل الله)
٣٨٨	(استشهاد عمير بن الحمام)	٣٨٢	فصل
٣٨٩	(شان «وما رميت إذ رميت»)		(سرية عبيدة بن الحارث بن المطلب وسعد هو أول من رمى بسهم في سبيل الله)
٣٨٩	(مشاركة الملائكة)		فصل
٣٨٩	(قصة إبليس مع أبي جهل)		
٣٨٩	(دعاء أبي جهل لربه)		
٣٨٩	(كراهة سعد بن معاذ لأسر المشركين)		
٣٨٩	(إجهاز ابن مسعود على أبي جهل)		
٣٩٠	(قتل أمية بن خلف وابنه)		

٣٩٦	(النحاس في أحد)	٣٩٠	(انقطاع سيف عكاشة)
٣٩٦	(دفاع ملكين عنه ﷺ)		(قتل الزبير عبيدة بحريته وما كان من أمر هذه
٣٩٦	(دفاع سبعة من الأنصار عنه ﷺ)	٣٩٠	الحربة)
	(دفاع طلحة عنه ﷺ ونزع أبي عبيدة حلقة المغفر من	٣٩٠	(فقه عين رفاعه بن رافع)
٣٩٦	جيشه ﷺ)	٣٩٠	(وقوفه ﷺ على القتلى)
٣٩٦	(سهم سعد)	٣٩٠	(رجوعه ﷺ من بدر)
٣٩٧	(غسل علي وفاطمة جرح النبي ﷺ)	٣٩١	(جملة من حضر بدرًا)
٣٩٧	(نزل قوله تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء...﴾)	٣٩١	(شهداء المسلمين)
٣٩٧	(عدم انهزام أنس بن النضر عندما انهزم الناس)	٣٩١	فصل
٣٩٧	(قتل المسلمين والد حذيفة وهم يظنونه مشركًا)	٣٩١	(غزو بني سليم)
٣٩٧	(إقراؤه السلام لسعد بن الربيع وهو بين القتلى)	٣٩١	فصل
٣٩٧	(نزل قوله تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول...﴾)	٣٩١	(غزوة السويق)
٣٩٧	(تمبيره ﷺ رؤيا والد جابر بالشهادة)	٣٩١	فصل
٣٩٧	(دعاؤه ﷺ لخيشة بالشهادة)	٣٩١	(غزوة الفُرع)
٣٩٨	(دعاء عبد الله بن جحش لنفسه بالشهادة)	٣٩١	فصل
٣٩٨	(استشهاد عمرو بن الجموح)	٣٩١	(غزوة بني قينقاع)
٣٩٨	(أنس بن النضر وقتاله)	٣٩١	فصل
٣٩٨	(طلعه ﷺ أبي بن خلف بحربة)	٣٩١	في قتل كعب بن الأشرف
٣٩٨	(رواية ابن عمر أبي بن خلف)	٣٩٢	فصل
	(صرف الله نظر عبد الله بن شهاب الزهري عن النبي	٣٩٢	في غزوة أحد
٣٩٨	ﷺ)	٣٩٢	(مشورته ﷺ أصحابه في الخروج)
	(مص مالك والد أبي سعيد الخدري جرح النبي	٣٩٢	(رؤياه ﷺ)
٣٩٨	ﷺ)	٣٩٢	(انخزال ابن أبي بنحو ثلث المسكر)
٣٩٨	(يوم أحد يوم تمحيص)	٣٩٣	(مشاركة الشباب)
	فصل: فيما اشتملت عليه هذه الغزاة من الأحكام	٣٩٣	(خبر أبي عامر الفاسق)
٣٩٩	والفقه		(عصيان الرماة لأمره ﷺ وانتهاز المشركين هذه الفرصة
٣٩٩	(الجهاد يلزم بالشروع فيه)	٣٩٣	وما أصيب به ﷺ)
٣٩٩	(جواز دعاء الرجل أن يقتل في سبيل الله)	٣٩٤	(قتل مصعب بن عمير وشأن مالك بن سنان)
٣٩٩	(المتحرم من أهل النار)	٣٩٤	(قول أنس بن النضر وجرح عبد الرحمن بن عوف)
٣٩٩	(لا يفصل الشهيد ولا يكفن ولا يصلى عليه)	٣٩٤	(قتله ﷺ أبي بن خلف)
٣٩٩	(يدفن الشهداء في مصارعهم)	٣٩٤	(حنظلة غسيل الملائكة)
٤٠٠	(يجوز دفن الثلاثة في القبر الواحد)	٣٩٥	(أم عمارة)
٤٠٠	(حفر قبر والد جابر بعد ست وأربعين سنة)	٣٩٥	(شهادة الأصمير مع أنه لم يصل صلاة قط)
٤٠٠	(هل دفن الشهداء في ثيابهم على الوجوب؟)	٣٩٥	(منادة أبي سفيان للمسلمين)
٤٠٠	(شهيد المعركة لا يصلى عليه)	٣٩٦	(نصر الله رسوله يوم أحد)

(من قتل في الجهاد مظنوناً كفره فعلى بيت المال ديته)	٤٠١
فصل: في ذكر بعض الحكم والغايات المحمودة التي كانت في وقعة أحد	٤٠١
(تعريفهم سوء عاقبة المعصية)	٤٠١
(وتلك الأيام نداولها بين الناس)	٤٠١
(الرسول تبلى ثم تكون لهم العاقبة)	٤٠١
(تميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب)	٤٠١
(استخراج عبودية أوليائه في السراء والضراء)	٤٠١
(حكمة تبدل الأحوال)	٤٠٢
(الخضوع لجبروته تعالى)	٤٠٢
(رفع منازلهم)	٤٠٢
(تحريضهم على الجد في العبودية لله)	٤٠٢
(الشهادة)	٤٠٢
(إهلاك الأعداء بعد ازدياد بغيتهم وبسط الآيات) ولا تنهوا ولا تحزنوا)	٤٠٢
(وتلك الأيام نداولها بين الناس)	٤٠٣
(وليعلم الله الذين آمنوا)	٤٠٣
(حب الله للشهداء)	٤٠٣
(وليمحص الله الذين آمنوا)	٤٠٣
(ويمحق الكافرين) و(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما) و(لقد كنتم تمنون الموت)	٤٠٣
(وما محمد إلا رسول .. أفإن مات) و(وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله ..)	٤٠٣
(سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب)	٤٠٤
(ولقد صدقكم الله وعده)	٤٠٤
(إذ تصعدون ولا تلوون على أحد) شرح (فأنا بكم غماً بكم)	٤٠٤
(ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة ناعساً ..) ومعنى (ظن الجاهلية)	٤٠٥
فصل	٤٠٩
(وليبتلي الله ما في صدوركم)	٤٠٩
(وليمحص ما في قلوبكم)	٤٠٩
(إن الذين تولوا منكم)	٤٠٩
(ولقد عفا الله عنهم) و(أو لما أصابتكم مصيبة) إثبات القدر والسبب)	٤٠٩

(وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله) و(وليعلم الذين نافقوا)	٤١٠
(ولا تحسبن الذين قتلوا) و(يستبشرون بنعمة من الله) و(لقد من الله على المؤمنين)	٤١٠
فصل	٤١٠
(خروج علي في آثار المشركين)	٤١٠
فصل	٤١١
(سرية أبي سلمة إلى بني أسد)	٤١١
فصل	٤١١
(بعث ﷺ عبد الله بن أنيس لقتل ابن نبيح الهذلي)	٤١١
(يوم الرجيع وسنة صلاة القتل)	٤١١
فصل	٤١٢
(بئر معونة)	٤١٢
(غزوة بني النضير)	٤١٣
(تحريم الخمر)	٤١٣
(نزول سورة الحشر)	٤١٣
(غزواته ﷺ مع اليهود)	٤١٣
فصل	٤١٣
(القنوت)	٤١٣
فصل	٤١٤
(غزوة ذات الرقاع ومتى شرعت صلاة الخوف)	٤١٤
(ترجيح المصنف أن ذات الرقاع كانت بعد خيبر)	٤١٤
(قصة بيع جابر جملة منه ﷺ)	٤١٥
(حرص الصحابة على إتمام الصلاة)	٤١٥
(الرد على موسى بن عقبة)	٤١٥
فصل	٤١٥
(غزوة بدر الآخرة)	٤١٥
فصل	٤١٥
في غزوة دومة الجندل	٤١٥
فصل: في غزوة المزيج	٤١٦
(غزوة بني المصطلق)	٤١٦
(زواجه ﷺ من جويرة بنت الحارث)	٤١٦
(فقد عائشة العقد وما تلاه من أمور)	٤١٦
(حادثة الإفك واستشارته ﷺ أصحابه في فراقها)	٤١٦
(الحكم من ترققه ﷺ في أمرها)	٤١٧

٤٢٤ فصل: في غزوة الغابة

٤٢٤ فصل

(كانت هذه الغزوة بعد الحديبية وتوهم من قال بخلاف ذلك) ٤٢٤

(سرايا سنة ست وسرية عكاشة بن محصن إلى الغمر) ٤٢٤

(سرية أبي عبيدة إلى ذي القصة) ٤٢٥

(سرية محمد بن مسلمة) ٤٢٥

(سرية زيد إلى الجموم) ٤٢٥

(سرية زيد إلى الطرف) ٤٢٥

(سرية زيد إلى العيص وإجارة زينب بنت النبي ﷺ أبا العاص وهو على شركه) ٤٢٥

(رواية موسى بن عقبة لقصة أبي العاص) ٤٢٥

(ترجيح المصنف لرواية ابن عقبة) ٤٢٦

(سرية زيد إلى حسمى وهي بعد الحديبية) ٤٢٦

(سرية علي إلى فذك) ٤٢٦

(سرية ابن عوف إلى دومة الجندل) ٤٢٦

(سرية كرز إلى العرنين وكانت قبل الحديبية) ٤٢٦

(الفقه المستنبط من حديث العرنين) ٤٢٧

فصل: في قصة الحديبية ٤٢٧

(متى حدثت) ٤٢٧

(كم ائتمر ﷺ في حياته) ٤٢٧

(كم كان معه ﷺ) ٤٢٧

فصل ٤٢٨

(تقليده ﷺ الهدي بذئ الحليفة وبعثه عيناً له ابن خزاعة إلى قريش واستشارته ﷺ أصحابه فيما يفعله ورؤيتهم لخالد بن الوليد وفراره منهم ويروك القصواء ونزولهم بالحديبية) ٤٢٨

(إرسال عثمان إلى قريش) ٤٢٨

(بيعة الرضوان) ٤٢٩

(رجوع عثمان) ٤٢٩

(بديل بن ورقاء) ٤٢٩

(إرسال عروة الثقفي إليه ﷺ) ٤٢٩

(إرسال مكرز إليه ﷺ ورد أبي جندل إلى المشركين) ٤٢٩

(النحر) ٤٣٠

(الامتحان له ﷺ) ٤١٧

(حبس الوحي لتمحيص القضية وازدياد حاجته ﷺ له) ٤١٨

(إظهار الله منزلته ﷺ وأهل بيته عنده) ٤١٨

(ثبوت براءة عائشة الصديقة) ٤١٨

(حد القذف والسبب في عدم حد ابن أبي) ٤١٨

(من حد في حادثة الإفك) ٤١٨

فصل ٤١٨

(قوة إيمان عائشة) ٤١٨

فصل ٤١٩

(الاختلاف فيمن أجاب طلبه ﷺ بعذره في رجل بلغه أذاه في أهل بيته وكذا في متى كانت غزوة بني المصطلق ونزول الحجاب) ٤١٩

فصل ٤١٩

(مسروق سمع من أم رومان وماتت بعد النبي ﷺ) ٤١٩

فصل ٤٢٠

(هل الجارية الشاهدة على عائشة هي بريرة؟) ٤٢٠

فصل ٤٢٠

(قول ابن أبي: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) ٤٢٠

فصل: في غزوة الخندق ٤٢٠

فصل ٤٢١

(رأي سلمان بحفر الخندق) ٤٢١

(نقض بني قريظة العهد بتحريض من حيي بن أخطب) ٤٢١

(همه ﷺ بصلح غطفان على ثلث ثمار المدينة) ٤٢٢

(خدعة نعيم بن مسعود للمشركين ويهود ونصر الله للمسلمين) ٤٢٢

فصل ٤٢٣

(اغتيال عبد الله بن أنيس أبا رافع) ٤٢٣

فصل ٤٢٣

(غزوة بني لحيان) ٤٢٣

فصل: في سرية نجد ٤٢٣

(إسلام ثمامة بن أثال) ٤٢٣

فصل: في الإشارة إلى بعض الحكيم التي تضمنتها
 هذه الهدنة ٤٣٦
 (مقدمة للفتح) ٤٣٦
 (هي من أعظم الفتح) ٤٣٦
 (زيادة الإيمان والإذعان) ٤٣٧
 (بسط لمعنى قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾) ٤٣٧
 (هو الذي أنزل السكينة) و﴿إن الذين يباعدون﴾ ٤٣٧
 (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول) ٤٣٧
 (لقد رضي الله) ٤٣٧
 (معنى ﴿فعجل لكم هذه﴾ و﴿وكف أيدي الناس عنكم﴾) ٤٣٧
 (ولتكون آية للمؤمنين) و﴿ويهدىكم صراطاً مستقيماً﴾ و﴿وأخرى لم تقدروا عليها﴾ ٤٣٨
 (ولو قاتلكم الذين كفروا) ٤٣٨
 (وهو الذي كف) ٤٣٨
 (إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية) ٤٣٨
 (فأنزل الله سكينته) ٤٣٨
 (لقد صدق الله رسوله الرؤيا) ٤٣٩
 (هو الذي أرسل رسوله بالهدى) ٤٣٩
 (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار) ٤٣٩
 فصل: في غزوة خيبر ٤٣٩
 (تاريخها) ٤٣٩
 (قدوم أبي هريرة) ٤٤٠
 (قصة عامر بن الأكوع) ٤٤٠
 فصل ٤٤٠
 (القدوم إلى خيبر) ٤٤٠
 (إعطاء الراية لعلي) ٤٤٠
 (من قتل مرحب اليهودي؟) ٤٤١
 (قتل الزبير أخا مرحب) ٤٤١
 (حصار حصن القموص وفيه النهي عن أكل الحمر الأهلية وقصة العبد الذي أسلم ثم استشهد ولم يصل سجدة قط) ٤٤١
 (قصة استشهاد رجل) ٤٤٢
 (قصة أعرابي استشهد) ٤٤٢
 (فتح قلعة الزبير والصلح مع من كان في حصن ابن أبي الحقيق ثم نكثهم العهد بتغيب مسك حبي بن

(قصة أبي بصير) ٤٣١
 (فور بثر الحدية بالماء بركته) ٤٣١
 (فور الماء من بين أصابعه) ٤٣١
 (مطول المطر) ٤٣٢
 فصل ٤٣٢
 (ما جرى عليه الصلح) ٤٣٢
 (فنية الأذى لمن حلق رأسه) ٤٣٢
 (عدم رده) أم كلثوم بنت عقبة إلى المشركين ٤٣٢
 فصل: في بعض ما في قصة الحُدَيْبِيَّة مِنَ الْفَوَائِدِ
 الفقهية ٤٣٢
 (الإحرام بالعمرة من الميقات أفضل) ٤٣٢
 (استحباب مغايظة أعداء الله) ٤٣٣
 (الاستعانة بالمشرك) ٤٣٣
 (استحباب الشورى) ٤٣٣
 (رد الكلام الباطل ولو نسب إلى غير المكلف) ٤٣٣
 (استحباب الحلف على الخبر الديني الذي يراد تأكيده) ٤٣٣
 (إذا طلب المشركون وأهل البدع والفجور والبغاة والظلمة أمراً يعظمون فيه حرمة من حرّمات الله أعينوا عليه) ٤٣٣
 (مضاعفة الصلاة بمكة تتعلق بجميع الحرم لا يخص بها المسجد) ٤٣٤
 (سنية القيام بالسيف على رأس القائد عند قدوم رسل العدو) ٤٣٤
 (مال المشرك المعاهد معصوم) ٤٣٤
 (جواز التصريح باسم العورة إذا كان فيه مصلحة) ٤٣٤
 (احتمال قلة أدب رسول الكفار) ٤٣٤
 (يفني في المشهود عيه إذا عرف باسمه واسم أبيه عن ذكر الجد) ٤٣٤
 (لا يجب على المحصر القضاء) ٤٣٥
 (الأمر المطلق على الفور) ٤٣٥
 (الأصل مشاركة أمته له) في الأحكام إلا ما خصه الدليل ٤٣٥
 (خروج البضع من ملك الزوج متقوم) ٤٣٥

(إذا خالف أهل الذمة شيئاً مما شرط عليهم لم يبق لهم
 ذمة) ٤٥١
 (جواز الأخذ في الأحكام بالقرائن) ٤٥١
 (الغلول قبل القسم لا يملك وإن كان دون الحق) ٤٥١
 (استحباب التناول) ٤٥١
 (جواز إجلاء أهل الذمة من دار الإسلام إذا استغني
 عنهم) ٤٥١
 (جواز جعل عتق الرجل أمتة صداقاً لها بغير إذنها وبلا
 شهود ولا ولي غيره) ٤٥١
 (جواز كذب الإنسان على نفسه وعلى غيره إذا كان
 يتوصل بالكذب إلى حقه ما لم يتضمن ضرر ذلك
 الغير) ٤٥٢
 (الاختلاف في موجب قتل اليهودية) ٤٥٢
 (هل فتحت خيبر عنوة أم صلحاً؟ والأحكام المترتبة
 على ذلك) ٤٥٣
فصل ٤٥٣
 (الانصراف إلى وادي القرى وقتل مدعم عبد النبي ﷺ
 وبيان أنه كان غالاً) ٤٥٣
 (فتح وادي القرى ومصالحة يهود تيماء النبي ﷺ
 وإخراج عمر يهود خيبر وفدك من جزيرة العرب
 والرجوع إلى المدينة) ٤٥٤
 (نوم المسلمين عن الفجر) ٤٥٤
 (الاختلاف في زمن هذه القصة) ٤٥٤
فصل: في فقه هذه القصة ٤٥٥
 (السنن الرواتب تقضى) ٤٥٥
 (الفاتة يؤذن لها ويقام) ٤٥٥
 (القضاء على الفور) ٤٥٥
 (اجتناب الصلاة في أمكنة الشيطان) ٤٥٥
فصل ٤٥٥
 (رد المهاجرين منافع الأنصار) ٤٥٥
فصل ٤٥٥
 (السرايا بين مقدمه من خيبر إلى شوال) ٤٥٥
 (سرية الصديق إلى بني فزارة) ٤٥٥
 (سرية عمر نحو هوازن) ٤٥٥
 (سرية ابن رواحة إلى يسير بن رزام اليهودي) ٤٥٦
 (سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى بني مرة بفدك وسرية

أخطب) ٤٤٢
 (زواجه ﷺ بصفية) ٤٤٣
فصل ٤٤٤
 (قسم خيبر على المسلمين وهل فتحت خيبر صلحاً أم
 عنوة؟) ٤٤٤
 (ترجيح المصنف فتحها عنوة وبيان حكم الأرض
 المفتوحة عنوة) ٤٤٤
 (لم يغب عن خيبر من أهل الحديبية إلا جابر) ٤٤٤
 (الاختلاف في أسهم الراجل والفرسان) ٤٤٤
فصل ٤٤٥
 (قدوم جعفر بن أبي طالب والأشعرين) ٤٤٥
 (ضعف قصة حجلان جعفر إعظماً له ﷺ وبطلان
 جعلها مستنداً للرقص) ٤٤٦
 (عدم إعانة بني فزارة أهل خيبر اتفاقاً معه ﷺ) ٤٤٦
 (قصة عينة بن حصن) ٤٤٦
فصل ٤٤٦
 (قصة سم يهودية النبي ﷺ) ٤٤٦
 (قتل اليهودية لما مات بشر بن البراء) ٤٤٧
 (التراحم بين قريش فيمن يتصر في خيبر) ٤٤٧
**فصل: فيما كان في غزوة خيبر من الأحكام
 الفقهية** ٤٤٨
 (جواز القتال في الأشهر الحرم) ٤٤٨
 (ليس في سورة المائدة منسوخ) ٤٤٩
فصل ٤٤٩
فصل ٤٤٩
 (تحريم لحوم الحمر الإنسية) ٤٤٩
فصل ٤٤٩
 (ترجيح المصنف تحريم المتعة عام الفتح) ٤٤٩
فصل ٤٥٠
 (جواز المساقاة والمزارعة بجزء مما يخرج من
 الأرض) ٤٥٠
فصل ٤٥٠
 (عدم اشتراط كون البئر من رب الأرض) ٤٥٠
فصل ٤٥٠
 (جواز نسخ الأمر قبل فعله) ٤٥٠

العظيمة تكون كالمدخل إليها المنية لها كقصّة المسيح
 ونسخ القبلّة وغيرها) ٤٧٨
 فصل ٤٧٩
 فصل ٤٧٩
 (انتقاص عهد الردء والمباشرين إذا رضوا بذلك) ٤٧٩
 فصل ٤٧٩
 فصل ٤٧٩
 فصل ٤٧٩
 (رسول الكفار لا يقتل) ٤٧٩
 فصل ٤٨٠
 فصل ٤٨٠
 (جواز قتل الجاسوس وإن كان مسلماً) ٤٨٠
 فصل ٤٨٠
 (جواز تجريد المرأة للمصلحة العامة) ٤٨٠
 فصل ٤٨٠
 فصل ٤٨٠
 (الكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تكفر بالحسنة
 الكبيرة الماحية) ٤٨٠
 (قوة إيمان حاطب في شهود بدر محت ما صنع) ٤٨١
 فصل ٤٨١
 (جواز مباغته المعاهدين إذا نقضوا العهد) ٤٨١
 فصل ٤٨٢
 (استحباب كثرة المسلمين لرسول العدو إذا جاؤوا إلى
 الإمام) ٤٨٢
 فصل ٤٨٢
 (جواز دخول مكة للقتل المباح بغير إحرام) ٤٨٢
 (هل يجوز دخول مكة بغير إحرام لمن لم يرد الحج
 والعمرة) ٤٨٢
 فصل ٤٨٢
 (فتحت مكة عنوة والخلاف في قسم الغنائم) ٤٨٢
 فصل ٤٨٤
 (يمنع قسمة مكة لأنها دار نساك) ٤٨٤
 (جمهور الأئمة على عدم جواز بيع أراضي مكة ولا
 إجارة بيوتها) ٤٨٥

(تجهيز الجيش) ٤٧٠
 (كتابة حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش بمسيره ﷺ إليهم
 وإخبار الوحي له ﷺ بذلك) ٤٧٠
 (لقاءه ﷺ العباس وأبا سفيان بن الحارث ابن عمه
 وعبد الله ابن أبي أمية ابن عمته) ٤٧١
 (إيقاد النيران بمر الظهران ولقي العباس أبا سفيان
 وركوبه معه إليه ﷺ) ٤٧٢
 (رجوع أبي سفيان إلى قريش ودخوله ﷺ مكة ومقاتلة
 المسلمين بعض سفهاء قريش) ٤٧٣
 (دخول المسجد) ٤٧٤
 (دخوله ﷺ الكعبة) ٤٧٤
 (إبقاء مفتاح الكعبة في آل عثمان بن طلحة) ٤٧٤
 (أذان بلال على الكعبة) ٤٧٥
 فصل ٤٧٥
 (صلاة الفتح) ٤٧٥
 (إجارة أم هانئ حمويين لها) ٤٧٥
 فصل ٤٧٥
 (من أمر ﷺ بقتلهم) ٤٧٥
 (ابن أبي السرح) ٤٧٥
 (عكرمة بن أبي جهل) ٤٧٥
 (خطة الفتح) ٤٧٥
 (إيثاره ﷺ المدينة على مكة) ٤٧٦
 (من هم بقتل النبي ﷺ) ٤٧٦
 (فرار صفوان وعكرمة) ٤٧٦
 (إسلام زوجة عكرمة) ٤٧٦
 (كسر الأوثان) ٤٧٦
 (هدم خالد للزرى) ٤٧٦
 (هدم ابن العاص لسويع) ٤٧٦
 (هدم سعد بن زيد الأشهلي لمناة) ٤٧٧
 ذكر سرية خالد بن الوليد إلى بني جذيمة ٤٧٧
 فصل ٤٧٧
 (إنشاد حسان في عمرة الحديبية) ٤٧٧
 فصل : في الإشارة إلى ما في الغزوة ٤٧٨
 من الفقه واللطائف ٤٧٨
 (من شأنه سبحانه تقديم مقدمات بين يدي الأمور

(الصلاة في المكان المصور أشد كراهة من الصلاة في الحمام) ٤٩٣	٤٨٥ (ترجيح المصنف منع الإجارة وجواز البيع)
٤٩٤ فصل	٤٨٦ (نظائر في الشريعة لمنع الإجارة وجواز البيع)
(جواز لبس السواد) ٤٩٤	٤٨٦ فصل
٤٩٤ فصل	(هل يضرب الخراج على مزارع مكة كسائر أرض
(متى حرمت متعة النساء؟) ٤٩٤	المنوة؟) ٤٨٦
(ترجيح المصنف تحريم المتعة عام الفتح) ٤٩٤	٤٨٦ (تعين قتل الساب له ﷺ)
٤٩٦ فصل	(له ﷺ الخيار في حياته لقتل من سبه) ٤٨٧
(جواز إجارة المرأة وأمانها للرجلين) ٤٩٦	(من أسباب عدم قتله ﷺ من سبه تأليف الناس وعدم
(جواز قتل المرتد الذي تغلظت ردة من غير استتابة) ٤٩٦	بلوغهم أنه يقتل أصحابه) ٤٨٧
٤٩٦ فصل: في غزوة حنين وتسمى غزوة أوطاس	فصل: فيما في خطبته العظيمة ثاني يوم الفتح من
(أعطى ﷺ المؤلفة قلوبهم أول الناس منهم أبو سفيان وحكيم بن حزام) ٤٩٩	أنواع العلم ٤٨٧
(إرضاءه ﷺ الأنصار) ٤٩٩	(تحريم الله لمكة) ٤٨٧
(قدوم أخته ﷺ من الرضاعة) ٥٠٠	(تحريم سفك الدم فيها) ٤٨٨
٥٠٠ فصل	(لا تقاتل الطائفة الممتنعة بها من مبايعة الإمام) ٤٨٨
(قدوم وفد هوازن) ٥٠٠	(الفرق بين اللاجئ والمتهمك) ٤٩٠
٥٠٠ فصل: في الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة من	٤٩٠ فصل
المسائل الفقهية والتكت الحكيمية ٥٠١	(هل يجوز قلع شجر مكة الذي أنبته الأديمي؟) ٤٩٠
(تسبب حرب هوازن له ﷺ في إظهار أمر الله) ٥٠١	(هل يجوز الانتفاع بما انقلع بنفسه أو بقلع قالع؟) ٤٩١
(كانت هزيمة المسلمين في أول المعركة لتعليمهم عدم الاغترار بقوتهم) ٥٠١	٤٩١ فصل
(الإكرام بالغنائم الكثيرة بعد أن منعوا غنائم مكة) ٥٠١	(لا يقطع حشيش مكة ما دام رطباً) ٤٩١
(اشتراك الملائكة في غزوتي بدر وحنين) ٥٠١	٤٩١ فصل
٥٠٢ فصل	(لا ينفر صيدها) ٤٩١
(إيجاب بعث العيون والسير إلى العدو إذا سمع بقصده له) ٥٠٢	٤٩٢ فصل
(جواز استعارة سلاح المشركين) ٥٠٢	(لا تملك لقطة الحرم) ٤٩٢
(من تمام التوكل استعمال الأسباب) ٥٠٢	٤٩٢ فصل
٥٠٣ فصل	(لا يتعين في قتل العمد القصاص) ٤٩٢
(هل العارية مضمونة؟) ٥٠٣	٤٩٣ فصل
٥٠٣ فصل	(إباحة قطع الإذخر) ٤٩٣
(جواز عقر مركوب العدو إذا كان عوناً على قتله) ٥٠٣	(لا يشترط في الاستثناء نيته من أول الكلام ولا قبل فراغه) ٤٩٣
(عفوه ﷺ عن من هم يقتله) ٥٠٣	٤٩٣ فصل
	(الدليل على كتابة العلم) ٤٩٣
	٤٩٣ فصل

٥٢٨	(بيان وهم ابن إسحاق في روايته هذه)	٥٢٠	فصل: في غزوة تبوك
٥٢٩	فصل: في أمر مسجد الفرار الذي نهى الله رسوله	٥٢١	(استحمال البكائين النبي ﷺ)
٥٢٩	أن يقوم فيه، فهدمه ﷺ	٥٢١	فصل
٥٢٩	فصل	٥٢١	(قصة علبه بن زيد)
٥٢٩	(استقبال الناس له ﷺ)	٥٢١	(المعذرون من الأعراب)
٥٢٩	(موضوع ثنيات الوداع وغلط من قال إن الشعر أنشد	٥٢١	(تخلف جمع ابن أبي وبعض الصحابة)
٥٢٩	عند قدومه من مكة)	٥٢١	(استخلاف علي على المدينة)
٥٣٠	(سماعه ﷺ مدح العباس له)	٥٢٢	(الحاق أبي خيثمة به ﷺ)
٥٣٠	فصل	٥٢٢	(المرور بديار ثمود والنهي عن شرب مائه واستعماله
٥٣٠	(اعتذار المخلفين واعتذار كعب بن مالك ورفيقه)	٥٢٢	للوضوء والأكل)
٥٣٢	(رواية أخرى)	٥٢٣	فصل
٥٣٢	فصل: في الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة	٥٢٣	(استسقاءه ﷺ)
٥٣٢	من الفقه والقوائد	٥٢٣	(إخبار الله نبيه ﷺ بمكان ناقته)
٥٣٢	(جواز القتال في الأشهر الحرم)	٥٢٣	(تخلف بعضهم في الطريق)
٥٣٢	(إذا استنفر الإمام الجيش لزمهم النفير)	٥٢٣	(إبطاء بعير أبي ذر)
٥٣٣	(وجوب الجهاد بالمال)	٥٢٣	(موت أبي ذر وحده)
٥٣٣	(نفقة عثمان العظيمة)	٥٢٤	(قصة رطط من المناقنين)
٥٣٣	(لا يعذر العاجز بماله حتى يبذل جهده)	٥٢٤	(نهي ﷺ عن مس عين تبوك حتى يأتي)
٥٣٣	(استخلاف الإمام إذا سافر رجلاً من الرعية على من	٥٢٤	فصل
٥٣٣	بقي، وقد خلف النبي ﷺ علياً على أهله خاصة ومحمد	٥٢٤	(الصلح مع صاحب أيلة)
٥٣٣	بن مسلمة الأنصاري على المدينة)	٥٢٤	فصل: في بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى
٥٣٣	(جواز الخرص للربط على رؤوس النخل)	٥٢٥	أكثيبر دومة
٥٣٣	(لا يجوز الشرب ولا الطبخ ولا العجن ولا الطهارة من	٥٢٥	(الرجوع من تبوك وهل قصة النهي عن الشرب من
٥٣٣	آبار ثمود)	٥٢٥	وادي المشقق وعين تبوك قصة واحدة)
٥٣٣	(الإسراع والبكاء حين المرور بديار المغضوب	٥٢٥	(قصة ذي البجادين)
٥٣٣	عليهم)	٥٢٦	(ثواب من حبسهم العذر)
٥٣٤	(جواز الجمع بين الصلاتين في السفر)	٥٢٦	فصل
٥٣٤	(جواز التيمم بالرمل)	٥٢٦	في خطبته ﷺ بتبوك وصلاته
٥٣٤	(ترجيح المصنف قصر الصلاة في السفر دون تحديد	٥٢٦	(قصة رجل مر بين يديه ﷺ وهو يصلي فدعا بقطع
٥٣٤	مدة الإقامة)	٥٢٦	أثره)
٥٣٤	(مذاهب الناس في مدة الإقامة التي يجوز فيها	٥٢٧	فصل: في جمعه بين الصلاتين في غزوة تبوك
٥٣٤	القصر)	٥٢٧	فصل: في رجوع النبي ﷺ من تبوك وما هم
٥٣٥	فصل	٥٢٧	المنافقون به من الكيِّد به وعصمة الله إياه
٥٣٥	(استحباب حث الحالف في يمينه إذا رأى غيرها خيراً	٥٢٨	فصل
٥٣٥	منها)		

٥٣٩ (جواز الطعن اجتهداً)
 ٥٣٩ (الحكم بالظاهر)
 ٥٣٩ (ترك رد السلام على من أحدث حدثاً)
 ٥٣٩ (تبسم الغضب)
 ٥٣٩ (جواز معاينة الإمام والمطاع أصحابه)
 ٥٤٠ (توفيق الله لكعب وصاحبه)

(ينبغي للرجل أن يرد حر المصيبة بروح التأمي بمن لقي
 مثل ما لقي، والإشارة إلى هم الزهري في جعله
 صاحبي كعب ممن شهد بداراً ولم يخلط إلا في هذا
 الموضوع) ٥٤٠
 فصل ٥٤٠
 (نهيه ﷺ عن كلام هؤلاء الثلاثة لتأديبهم دليل على
 صدقهم) ٥٤٠
 (جواز الهجر للتأديب) ٥٤٠
 (التنكر والوحشة دليل على حياة القلب) ٥٤١
 فصل ٥٤١
 (علة تخلف صديقي كعب عن صلاة الجماعة) ٥٤١
 (رد السلام على من يستحق الهجر غير واجب) ٥٤١
 (دخول دار الصاحب من غير إذن) ٥٤١
 (قول: الله ورسوله أعلم ليس بخطاب) ٥٤١
 (إشارة الناس إلى النبطي على كعب دون نطقهم بتحقيق
 لمقصود الهجران) ٥٤١
 (ابتلاء الله لكعب بمكانة ملك غسان له) ٥٤٢
 (إتلاف ما يخشى منه المضرّة في الدين) ٥٤٢
 (عداوة غسان لرسول الله ﷺ وكتابه ﷺ لهم) ٥٤٢
 فصل ٥٤٢
 (أمره ﷺ لهؤلاء الثلاثة باعتزال نسايتهم كالإشارة
 بمقلدات الفرج من حيث إرساله لهم بذلك والجد في
 العبادة باعتزال النساء) ٥٤٢
 (لفظ الطلاق والعنق لا يقع إذا لم يرد) ٥٤٣
 فصل ٥٤٣
 (كان سجود الشكر من عادة الصحابة) ٥٤٣
 (حرص الصحابة على الخير) ٥٤٣
 (إعطاء البشير من مكارم الأخلاق) ٥٤٣
 (استحباب تهتة من تجددت له نعمة دينية) ٥٤٣

(هل يجوز تقديم الكفارة على الحنث) ٥٣٥
 فصل ٥٣٥
 (انعقاد اليمين في حال الغضب إلا حين الإغلاق) ٥٣٥
 فصل ٥٣٦
 (لا متعلق للجبرية بقوله ﷺ: «ما أنا حملتكم ولكن الله
 حملكم») ٥٣٦
 فصل ٥٣٦
 (تركه ﷺ قتل المنافقين) ٥٣٦
 (تركه ﷺ قتل المنافقين لتأليف القلوب) ٥٣٦
 فصل ٥٣٦
 (إذا أحدث أحد من أهل الذمة حدثاً فيه ضرر على
 المسلمين انتقض عهده) ٥٣٦
 فصل ٥٣٧
 (جواز الدفن ليلاً) ٥٣٧
 فصل ٥٣٧
 (إذا بعث الإمام سرية فغتمت كان ما حصل من ذلك لها
 بعد تخميسه) ٥٣٧
 فصل ٥٣٧
 (ثواب من حبسه العذر) ٥٣٧
 فصل ٥٣٧
 (تحريق أمكنة المعصية وهدمها) ٥٣٧
 (الوقوف لا يصح على غير بر ولا قرية ومنها هدم
 المساجد المبنية على القبور) ٥٣٨
 فصل ٥٣٨
 (جواز إنشاد الشعر للمقام فرحاً به) ٥٣٨
 (استماعه ﷺ مدح المادحين له) ٥٣٨
 (الفوائد المستنبطة من قصة المتخلفين الثلاثة) ٥٣٨
 (جواز إخبار الرجل عن تفریطه) ٥٣٨
 (جواز مدح الرجل نفسه) ٥٣٨
 (بيعة العقبة من أفضل مشاهد الصحابة) ٥٣٨
 (لم يكن ديوان للجيش) ٥٣٨
 (المبادرة إلى انتهاز فرصة الطاعة) ٥٣٨
 (لم يكن يتخلف عنه ﷺ إلا منافق أو معذور أو من
 خلفه النبي ﷺ) ٥٣٩
 (تذكير الإمام والمطاع المتخلفين بالتوبة) ٥٣٩

(عدم عد الحج في هذه الخصال دليل على عدم فرضيته	٥٤٣ (يوم توبة المسلم خير الأيام)
في ذلك الوقت) ٥٥٢	(سروره ﷺ بتوبة الله على المخلفين دليل على شفقتة
(لا يكره قول: رمضان للشهر) ٥٥٢	على أمته) ٥٤٤
(النهي عن الانتباز في الأوعية المذكورة وبيان	(استحباب الصدقة عند التوبة) ٥٤٤
الاختلاف في ذلك) ٥٥٢	(من نذر الصدقة بكل ماله لم يلزمه إخراج جميعه) ٥٤٤
(مدح الحلم والأناة) ٥٥٢	(من نذر صدقة وعليه دين) ٥٤٤
(قد يحصل الخلق بالخلق) ٥٥٢	فصل ٥٤٥
(الله خالق أفعال العباد وأخلاقهم) ٥٥٣	(عظمة الصديق) ٥٤٥
(إثبات الجبل لله والفرق بينه وبين الجبر) ٥٥٣	(فضل التوبة) ٥٤٦
(لا يجوز للرجل أن ينتفع بالضالة التي لا يجوز	فصل ٥٤٦
التقاطها) ٥٥٣	(معنى تكرير الله للفظ التوبة في الآية) ٥٤٦
فصل ٥٥٣	فصل ٥٤٦
في قدوم وفد بني حنيفة ٥٥٣	(معنى كلمة خلفوا في الآية) ٥٤٦
فصل ٥٥٤	فصل: في حجة أبي بكر الصديق رضي الله عنه سنة
في فقه هذه القصة ٥٥٤	تسع بعد مقدمه من ثبوك ٥٤٦
(تأويل رؤيا للنبي ﷺ بأن الصديق يحيط أمر	(هل كانت حجة الصديق قبل فرضية الحج وإلغاء
مسيلة) ٥٥٤	النسيء) ٥٤٧
(تأويل رؤيا لباس الحلي للرجل وذكر قصص عبرها	فصل: في قدوم وفود العرب وغيرهم على النبي ﷺ
الشهاب العابر شيخ المصنف) ٥٥٥	(وفد ثقيف) ٥٤٧
(تعريف بالشهاب العابر) ٥٥٥	فصل ٥٥٠
فصل ٥٥٦	(إذا قدم الحربي مسلماً لا يضمن ما أخذه أو فعله قبل
في قدوم وفد طيء على النبي ﷺ ٥٥٦	إسلامه) ٥٥٠
فصل ٥٥٦	(جواز إنزال المشرك في المسجد) ٥٥٠
في قدوم وفد كندة على رسول الله ﷺ ٥٥٦	(حسن سياسته الوفد) ٥٥٠
(ولد النضر من قريش) ٥٥٦	(هدم مواضع الشرك) ٥٥٠
(جواز إتلاف المال المحرم استعماله) ٥٥٦	(استحباب اتخاذ المساجد مكان بيوت الطراغيت) ٥٥٠
(من أكل المرار؟) ٥٥٧	(التعوذ من الشيطان) ٥٥٠
فصل ٥٥٧	فصل ٥٥٠
في قدوم وفد الأشعرين وأهل اليمن ٥٥٧	(الوفود) ٥٥٠
فصل ٥٥٧	فصل ٥٥٠
في قدوم وفد الأزدي على رسول الله ﷺ ٥٥٧	(وفد بني عامر) ٥٥٠
فصل ٥٥٨	فصل: في قدوم وفد عبد القيس ٥٥١
في قدوم وفد بني الحارث بن كعب عل	فصل ٥٥٢
رسول الله ﷺ ٥٥٨	(الإيمان بالله يتضمن خصالاً أخرى من قول وفعل) ٥٥٢

- فصل: في قدوم وفد مُهَذَّانَ عليه ﷺ ٥٥٨
- فصل: في قدوم وفد مُزينة على رسول الله ﷺ ٥٥٨
- فصل: في قدوم وفد دوس على رسول الله ﷺ قبل ذلك بخير ٥٥٩
- فصل: في فقه هذه القصة ٥٦٠
- (غسل الدخول في الإسلام) ٥٦٠
- (لا ينبغي للمقاتل أن يقتل الناس في المندح والذم) ٥٦٠
- (وقوع كرامات الأولياء) ٥٦٠
- (التأني والصبر في الدعوة إلى الله) ٥٦٠
- (بيان تأويل الطفيل لرؤياه) ٥٦٠
- فصل ٥٦٠
- في قدوم وفد نجران عليه ﷺ ٥٦٠
- (ذكر أبي حارثة حبرهم) ٥٦١
- (كان أبو حارثة يعلم أن محمداً النبي الموعود) ٥٦١
- (ظن الوفد أنه ﷺ دعاهم إلى عبادته) ٥٦١
- (نزول فاتحة آل عمران في وفد نجران) ٥٦١
- (المباهلة في شأن عيسى) ٥٦٢
- (كتابه ﷺ لهم) ٥٦٣
- (رجوعهم إلى نجران) ٥٦٣
- فصل ٥٦٤
- في فقه هذه القصة ٥٦٤
- (تمكين أهل الكتاب من صلاتهم بحضرة المسلمين) ٥٦٥
- (إقرار الكاهن الكتابي له ﷺ بأنه نبي لا يدخله في الإسلام ما لم يلتزم طاعته واختلاف الناس في ذلك) ٥٦٥
- (جواز مجادلة أهل الكتاب) ٥٦٥
- (مناظرة المصنف لأحد علماء أهل الكتاب في نبوته ﷺ) ٥٦٥
- فصل ٥٦٦
- (من عظم مخلوقاً بحيث أخرجه عن منزلة العبودية المحضة فقد أشرك) ٥٦٦
- (جواز إهانة رسل الكفار) ٥٦٦
- (المباهلة سنة فيمن أصر على العناد من أهل الباطل) ٥٦٧
- (جواز صلح أهل الكتاب على ما يريد الإمام من الأموال والنياب وغيرها) ٥٦٧
- (جواز ثبوت الحلل في الذمة) ٥٦٧
- (جواز اشتراط الإمام على الكفار عارية ما يحتاج المسلمون إليه) ٥٦٧
- (لا يقر أهل الكتاب على الربا والسكر وغيرهما) ٥٦٧
- (لا عهد لهم ولا ذمة إذا غشوا المسلمين وأفسدوا في دينهم) ٥٦٧
- (بعث الإمام الرجل الأمين العالم إلى أهل الهند في مصلحة الإسلام) ٥٦٧
- (يحمل الكلام عند الإطلاق على ظاهره) ٥٦٨
- (بيان أن أهل نجران صنفان نصارى وأميون وقصة بعث خالد إليهم) ٥٦٨
- فصل: في قدوم رسول قُرَوَّةَ بن عمرو الجُدَامِي ملك عرب الروم ٥٦٨
- فصل: في قدوم وفد بني سعد بن بكر على رسول الله ﷺ ٥٦٨
- فصل: في قدوم طارق بن عبد الله وقومه على رسول الله ﷺ ٥٦٩
- فصل: في قدوم وفد عُجَيْب ٥٧٠
- فصل: في قدوم وفد بني سَعْدِ مَذْمُومٍ مِن قُضَاعَةَ ٥٧١
- فصل: في قدوم وفد بني قُرَازَةَ ٥٧١
- فصل: في قدوم وفد بني أَسَد ٥٧٢
- فصل: في قدوم وفد بَجْرَاء ٥٧٢
- فصل: في قدوم وفد عُدْرَةَ ٥٧٢
- فصل: في قدوم وفد بَلِيٍّ ٥٧٣
- فصل ٥٧٣
- (حق الضيف) ٥٧٣
- (جواز التقاط الغنم) ٥٧٣
- (لا يجوز التقاط البعير إلا أن يكون قلوأ صغيراً) ٥٧٤
- فصل: في قدوم وفد ذي مُرَّة ٥٧٤
- فصل في قدوم وفد خَوْلَان ٥٧٤
- فصل: في قدوم وفد محارب ٥٧٥
- فصل: في قدوم وفد صُدَاءَ في سنة ثمان ٥٧٥

فصل: في فقه هذه القصة ٥٧٦	(النجاشي الذي صلى عليه ﷺ ليس بالنجاشي الذي كتب إليه يدعو) ٥٨٦
(فوران الماء من بين أصابعه ﷺ لا من خلال اللحم والدم) ٥٧٧	فصل ٥٨٦
(سنية الإقامة لمن أذن) ٥٧٧	(الكتاب إلى المقوقس) ٥٨٦
(جواز تأمير الإمام وتوليته لمن سأل ذلك إذا رآه كفتاً) ٥٧٧	فصل ٥٨٧
(جواز الوضوء بالماء المبارك) ٥٧٧	(الكتاب إلى المنذر بن ساوى عامل البحرين) ٥٨٧
فصل: في قدوم وفد غسان ٥٧٧	فصل ٥٨٧
فصل: في قدوم وفد سلمان ٥٧٧	(الكتاب إلى ملك عمان) ٥٨٧
فصل: في قدوم وفد بني عُبْس ٥٧٨	فصل ٥٨٨
فصل: في قدوم وفد غامد ٥٧٨	(الكتاب إلى صاحب اليمامة) ٥٨٨
فصل: في قدوم وفد الأزدي على رسول الله ﷺ ٥٧٨	فصل: في كتابه إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ٥٨٩
فصل: في قدوم وفد بني المُتَشَقِّقِ على رسول الله ﷺ ٥٧٩	فصل: القلب النبوي ٥٨٩
(بيان من أخرجه) ٥٨١	(المرض نوعان) ٥٨٩
(الضحك من صفات الله الفعلية وكذلك النزول وغيرهما) ٥٨١	(نوعا مرض القلوب) ٥٨٩
(موت الملائكة) ٥٨١	فصل ٥٨٩
(جواز الإقسام بصفات الله) ٥٨٢	(مرض الأبدان) ٥٨٩
(كان الصحابة يخوضون في دقائق المسائل) ٥٨٢	(الحمية) ٥٩٠
(كان الصحابة يوردون عليه ﷺ ما يشكل عليهم من الأسئلة والشبهات) ٥٨٢	(طب القلوب) ٥٩٠
(حكم الشيء حكم نظيره) ٥٨٢	فصل ٥٩٠
(إثبات صفة اليد لله) ٥٨٢	(طب الأبدان) ٥٩٠
(هل الحوض قبل الصراط؟) ٥٨٣	(أحوال البدن) ٥٩٠
(معنى ما بين البابين مسيرة سبعين عاماً) ٥٨٣	(وظيفة الطبيب) ٥٩١
(صفة خمر الجنة) ٥٨٣	فصل ٥٩١
(هل تلد نساء أهل الجنة) ٥٨٣	(التداوي) ٥٩١
(من مات مشركاً قبل البعثة فهو في النار) ٥٨٤	(فضل طبه ﷺ على طب الأطباء) ٥٩١
فصل: في قدوم وفد النخع على رسول الله ﷺ ٥٨٤	فصل ٥٩٢
فصل: ذكر هلبه ﷺ في مكاتباته إلى الملوك وغيرهم ٥٨٥	(الحث على التداوي وربط الأسباب بالمسيبات) ٥٩٢
(الكتاب إلى هرقل) ٥٨٥	(معنى لكل داء دواء) ٥٩٢
(الكتاب إلى كسرى) ٥٨٥	(الأمر بالتداوي ويأمنه لا يتأمنه التوكل) ٥٩٣
(الكتاب إلى النجاشي) ٥٨٥	(التداوي والشفاء مقدر والرد على الجبرية) ٥٩٣
	فصل: في هلبه ﷺ في الاحتماء من التخيم، والزيادة في الأكل على قدر الحاجة، والقانون الذي ينبغي مراعاته في الأكل والشرب ٥٩٤
	(سبب الأمراض المادية) ٥٩٤

٦٠٤	فصل
٦٠٤	(النهي عن الدخول إلى أرض الطاعون والخروج منها)
٦٠٤	(معنى النهي عن الخروج من البلد)
٦٠٤	(يجب على المطعمون السكون والدعة وهو منافي للسفر)
٦٠٤	(حكم المنع من الدخول)
٦٠٤	(حماية النفوس عن العدوى والطيقة)
٦٠٤	(قصة عمر في امتناعه عن دخول الشام لوقوع الطاعون بها)
٦٠٥	فصل: في هديه في داء الاستسقاء وعلاجه
٦٠٥	(علة الاستسقاء بأبوال الإبل والبانها)
٦٠٦	(طهارة بول مأكول اللحم)
٦٠٦	(مقاتلة الجاني بمثل ما فعل)
٦٠٦	(اجتماع الحد والقصاص)
٦٠٦	(إذا تعددت الجنايات تغلظت عقوباتها)
٦٠٦	(حكم رده المحاربين حكم مباشرهم)
٦٠٦	(قتل الغيلة يوجب قتل القاتل حداً)
٦٠٦	فصل: في هديه في علاج الجرح
٦٠٧	فصل: في هديه في العلاج بشرب العسل، والحجامة، والكلي
٦٠٧	(الأمراض المزاجية وعلاجها)
٦٠٧	(العلاج بإخراج الدم)
٦٠٧	(العلاج بالكلي)
٦٠٧	فصل
٦٠٧	(العلاج بالحجامة)
٦٠٨	فصل
٦٠٨	(منافع الحجامة)
٦٠٨	(الإشارة بالحجامة إلى أهل الحجاز ومواضع الفصد ونفعها)
٦٠٩	فصل
٦٠٩	(اختلاف الأطباء في الحجامة على نقرة القفا)
٦٠٩	فصل
٦٠٩	(تنمة الكلام على مواضع الحجامة ونفعها)
٦١٠	فصل: في هديه في أوقات الحجامة

٥٩٤	(مراتب الغذاء)
٥٩٤	(هل في البدن جزء ناري؟)
٥٩٦	(حجج من ادعى وجود النار في البدن)
٥٩٦	(الرد على حجج المثبتين)
٥٩٧	فصل
٥٩٧	(أنواع علاجه ﷺ)
٥٩٧	ذكر القسم الأول: وهو العلاج بالأدوية الطبيعية
٥٩٧	فصل: في هديه في علاج الحمى
٥٩٧	(خطابه ﷺ نوعان عام لأهل الأرض وخاص ببعضهم)
٥٩٧	(حديث الحمى خاص بأهل الحجاز وأسباب الحمى)
٥٩٧	(تبرئ الحمى كثيراً من الأمراض)
٥٩٨	(تأكيد هذا القول للمصنف من قبل بعض الأطباء)
٥٩٨	(اعتراف جالينوس بأن الماء البارد ينفع في الحمى)
٥٩٨	(قول الرازي)
٥٩٨	(معنى: «الحمى من فيح جهنم»)
٥٩٨	(معنى: «فأبردوها»)
٥٩٨	(معنى: «بالماء»)
٥٩٩	(الحمى تنفع البدن والقلب)
٦٠٠	فصل: في هديه في علاج استطلاق البطن
٦٠٠	(علاجه بالعسل)
٦٠٠	(منافع العسل)
٦٠١	(فائدة تكرار سقي العسل)
٦٠١	(معنى: «صدق الله وكذب بطن أخيك»)
٦٠١	فصل
٦٠١	(بيان أن العسل فيه شفاء للناس)
٦٠١	فصل: في هديه في الطاعون، وعلاجه، والاحتراز منه
٦٠٢	(ما هو الطاعون؟)
٦٠٢	(آثار الطاعون)
٦٠٢	(بيان ما للجن من تأثير في الطاعون - وكيفية دفعه)
٦٠٢	(فساد الهواء جزء من أسباب الطاعون وبيان حاله في الفصول)
٦٠٣	

فصل: في هديه ﷺ في علاج ذات الجنب .. ٦١٨	(مفاصد الحجامة على الشيع) ٦١٠
٦١٩ (معاقة الجاني بمثل ما فعل) ..	فصل ٦١٠
فصل: في هديه ﷺ في علاج الصداع والشقيقة ٦٢٠	(اختيار أيام الأسبوع للحجامة) ٦١٠
٦٢٠ (حقيقة الصداع) ..	فصل ٦١١
٦٢٠ (أسباب الصداع) ..	(جواز احتجام الصائم والخلاف في فطره) ٦١١
٦٢٠ فصل ..	(جواز التكسب بصناعة الحجامة) ٦١١
(سبب صداع الشقيقة وتعصيب الرأس يسكن الوجع) ٦٢٠	(جواز ضرب الرجل الخراج على عبده كل يوم شيئاً معلوماً) ٦١١
٦٢١ فصل ..	فصل: في هديه ﷺ في قطع العروق والكي ٦١١
٦٢١ (علاج الصداع) ..	فصل: في هديه ﷺ في علاج الصرع ٦١٢
٦٢١ (العلاج بالحناء جزئي) ..	(إثبات صرع الأرواح) ٦١٢
٦٢١ فصل ..	(العلاج من صرع الأرواح) ٦١٣
٦٢١ (منافع الحناء وخواصه) ..	(علاج ابن تيمية للمصروع) ٦١٣
فصل: في هديه ﷺ في معالجة المرضى بترك إعطائهم ما يكرهونه من الطعام والشراب، وأنهم لا يكرهون على تناولهما ٦٢٢	(الثقات المصنف إلى خراب القلوب) ٦١٣
٦٢٢ (إجبار المريض على الطعام) ..	فصل ٦١٤
٦٢٢ (معنى: «فإن الله يطعمهم ويسقيهم») ..	(صرع الأخلاط) ٦١٤
٦٢٣ (وصاله ﷺ في الصوم) ..	(لعل صرع المرأة التي وردت في الحديث كان صرعها من صرع الأخلاط) ٦١٤
فصل: في هديه ﷺ في علاج العُذرة، وفي العلاج بالتسوط ٦٢٣	(جواز ترك التداوي وأن علاج الأرواح بالترجى إلى الله يفعل ما لا يناله علاج الأطباء) ٦١٤
٦٢٣ (علاج العذرة بسعوط القسط) ..	فصل في هديه ﷺ في علاج عرق النسا ٦١٤
٦٢٤ فصل: في هديه ﷺ في علاج المفوود ..	فصل في هديه ﷺ في علاج بيس الطبع، واحتياجه إلى ما يمشيه ويئلينه ٦١٥
٦٢٤ (علاج المفوود بالتمر) ..	(العلاج بالشبرم) ٦١٥
٦٢٤ (فوائد التمر) ..	(ما المقصود بالإتياع) ٦١٦
٦٢٥ (اختصاص الأدوية بالأمكنة) ..	(نبات السنّا) ٦١٦
٦٢٥ (خاصية عدد سبع) ..	(ما هو السنوت؟) ٦١٦
٦٢٦ فصل ..	فصل: في هديه ﷺ في علاج حكة الجسم وما يولد القمل ٦١٦
(من شرط انتفاع العليل بالدواء قبوله واعتقاد النفع به) ٦٢٦	(حكم لبس الحرير) ٦١٧
فصل: في هديه ﷺ في دفع ضرر الأغذية والفاكهة وإصلاحها بما يدفع ضررها، ويقوي نفعها ٦٢٦	فصل ٦١٧
٦٢٧ فصل: في هديه ﷺ في الحمية ..	(فوائد الحرير) ٦١٧
	(أقسام الملابس من حيث تسخين البدن) ٦١٧
	(علة تحريم الحرير) ٦١٨

٦٣٥	اليهود به
٦٣٥	(علاج السحر)
٦٣٥	(استخراج السحر وإبطاله)
٦٣٥	(الاستفراغ في المحل الذي يصل إليه أذى السحر)
٦٣٦	فصل
٦٣٦	(علاج السحر بالأذكار والآيات)
٦٣٦	فصل: في هديه ﷺ في الاستفراغ بالقيء
٦٣٧	(أصول الاستفراغ)
٦٣٧	(أنواع القيء)
٦٣٧	(أسباب القيء)
٦٣٧	(الأعراض النفسانية من أسباب القيء)
٦٣٧	(إخبار أحد الأطباء المصنف بقصتين عن نقل العرض بروية المريض)
٦٣٧	فصل
٦٣٧	(أنفع الأمكنة والأزمنة للقيء والإسهال)
٦٣٨	(كيفية إزالة الأخلاط ودفعها)
٦٣٨	فصل
٦٣٨	(فوائد القيء)
٦٣٨	(وقت القيء وضرر الإكثار من القيء ومن يجب عليه اجتنابه)
٦٣٨	(مضار القيء بعد امتلاء المعدة)
٦٣٨	(أفضل أوقاته وكيفية)
٦٣٨	(الفرق بين القيء والاستفراغ)
٦٣٨	فصل: في هديه ﷺ في الإرشاد إلى معالجة أحقق الطيبين
٦٣٨	(ينبغي الاستعانة في كل علم وصناعة بأحقق من فيها فالأحقق)
٦٣٩	(معنى: «أنزل الداء والدواء»)
٦٣٩	(كما يتلى الله عباده فإنه يسر لهم ما يضاذه)
٦٤٠	فصل: في هديه ﷺ في تضمين من طب الناس، وهو جاهل بالطب
٦٤٠	(معنى الطب لغة)
٦٤١	(إيجاب الضمان على الطبيب الجاهل)
٦٤١	(أقسام الأطباء من جهة إتلاف الأعضاء وذكر القسم الأول)

٦٢٨	فصل
٦٢٨	(لا حرج في تناول الإنسان ما يشتبهه عن جوع صادق وكان فيه ضرر ما)
٦٢٨	فصل: في هديه ﷺ في علاج الرمد بالسكون، والدُّعْق، وترك الحركة، والحمية مما يبيح الرمد
٦٢٨	(حقيقة الرمد)
٦٢٨	(سببه)
٦٢٩	(علة الامتناع عن الجماع حال الرمد)
٦٢٩	(علاجه)
٦٢٩	فصل: في هديه ﷺ في علاج الخدران الكلي الذي يجمد معه البدن
٦٣٠	فصل: في هديه ﷺ في إصلاح الطعام الذي يقع فيه الذباب، وإرشاده إلى دفع مضرات السموم بأضدادها
٦٣٠	(إذا مات الذباب في مائع لا ينجسه)
٦٣٠	(فائدة غمس الذباب)
٦٣١	فصل: في هديه ﷺ في علاج البثرة
٦٣١	فصل: في هديه ﷺ في علاج الأورام، والخرجات التي تبرا بالبطن والتبرؤ
٦٣١	فصل: في هديه ﷺ في علاج المرضى بتطبيب نفوسهم وتقوية قلوبهم
٦٣٢	فصل: في هديه ﷺ في علاج الأبدان بما اعتادته من الأدوية والأغذية دون ما لم تعتده
٦٣٢	فصل: في هديه ﷺ في تغذية المريض بالطب ما اعتاده من الأغذية
٦٣٣	(التلين وفوائده)
٦٣٣	(علة ذهاب التلية ببعض الحزن)
٦٣٤	فصل: في هديه ﷺ في علاج السم الذي أصابه بخير من اليهود
٦٣٤	(بمعالج السم بالاستفراغات وبالأدوية المبطللة لفعل السم)
٦٣٤	(استشهاده ﷺ بالسم)
٦٣٥	فصل: في هديه ﷺ في علاج السحر الذي سحرته

فصل: (القسم الثاني)	٦٤١	(التحذير من الركوع والانحناء لغير الله وكذا القيام على رؤوس الأكابر وهم جلوس)	٦٤٩
فصل: (القسم الثالث)	٦٤٢	(أمره ﷺ أصحابه إذا صلى جالساً أن يصلوا جلوساً لثلاثا يقوموا على رأسه وهو جالس)	٦٥٠
فصل: (القسم الرابع)	٦٤٢	فصول: في هديه ﷺ في العلاج بالأدوية الروحانية والإلهية المفردة، والمركبة منها، ومن الأدوية الطبيعية	٦٥٠
فصل: (القسم الخامس)	٦٤٢	فصل: في هديه ﷺ في علاج المصاب بالعين	٦٥٠
فصل	٦٤٢	(قول من أبطل الإصابة بالعين)	٦٥١
(أقسام الأطباء المذكورة سابقاً تتناول الطب عملاً أو قولاً إنساناً أو حيواناً واسم كل منهم)	٦٤٢	(الرد على من أنكر الإصابة بالعين والحاسد أعم من العائن)	٦٥١
فصل	٦٤٢	فصل	٦٥٢
(ما يراعيه الطبيب الحاذق من الأمور)	٦٤٢	(علاج المعيون بالتعوذات والرقى)	٦٥٢
(أن يكون قصده إزالة العلة على وجه يأمن معه حدوث أصعب منها)	٦٤٣	(عبارات من التعوذات النبوية)	٦٥٢
(أن يعالج بالأسهل فالأسهل)	٦٤٣	فصل	٦٥٣
(أن يكون له خبرة باعتلال القلوب)	٦٤٣	(ما يقوله العائن خشية من ضرر عينه)	٦٥٣
فصل	٦٤٣	(الرقية للمعين)	٦٥٣
(مراعاة الطبيب لأحوال المريض)	٦٤٣	(كتابة الآيات ثم شربها)	٦٥٣
فصل	٦٤٣	فصل	٦٥٣
(من حذق الطبيب التدبير بالأسهل)	٦٤٤	(استفسال العائن للمعين والرد على من أنكره من الأطباء)	٦٥٣
(ما يفعله الطبيب إذا اجتمعت أمراض)	٦٤٤	(حكمة الاستفسال)	٦٥٣
فصل: في هديه ﷺ في التحرز من الأدوية المعدية بطبعها وإرشاده الأصحاء إلى مجانبة أهلها	٦٤٤	(حكمة صب ماء الاستفسال على المعين)	٦٥٤
(ما هو الجذام)	٦٤٥	فصل	٦٥٤
(سبب تسمية الجذام بداء الأسد)	٦٤٥	(للاحتراز من الإصابة بالعين ستر محاسن من يخاف عليه العين)	٦٥٤
(علة الابتعاد عن المجذوم والمسلول)	٦٤٥	فصل	٦٥٤
(التوفيق بين الأحاديث السابقة وبين نفي العدوى والأكل مع المجذوم)	٦٤٥	(ذكر رقية ترد العين)	٦٥٤
(التوفيق بينها من كلام ابن قتيبة)	٦٤٥	فصل: في هديه ﷺ في العلاج العام لكل	٦٥٥
فصل: في هديه ﷺ في المنع من التداوي بالمهرمات	٦٤٧	شكوى بالرقية الإلهية	٦٥٥
(بيان قبح المعالجة بالمهرمات عقلاً)	٦٤٨	(التوفيق بين جواز الرقية لكل شكوى وبين «لا رقية إلا من عين أو حمة»)	٦٥٥
(التداوي به فريعة إلى تعاطيه)	٦٤٨	فصل: في هديه ﷺ في رقية اللبيغ بالفاتحة	٦٥٥
فصل: في هديه ﷺ في علاج القمل الذي في الرأس وإزالته	٦٤٨	(فائدة الرقية بالقرآن وبخاصة فاتحة الكتاب)	٦٥٥
(علاجه بالحلوق ثم بالطلي بالأدوية)	٦٤٩		
(أنواع حلق الرأس)	٦٤٩		

(الجزع يشمت الأعداء) ٦٦١
 (لذة الصبر ومنها بيت الحمد) ٦٦١
 (ترويح القلب برجاء الخلف من الله) ٦٦٢
 (الحظ من المصيبة ما تحدثه له) ٦٦٢
 (آخر أمره الجزع إلى صبر الاضطراب) ٦٦٢
 (أنفع الأدوية موافقة الله فيما أحبه) ٦٦٢
 (لذة التمتع بثواب الله أعظم من لذة التمتع بما أصيب به) ٦٦٢
 (ابتلاء الله العبد لامتحان صبره) ٦٦٢
 (المصيبة كاسرة لداء الكبر وقسوة القلب) ٦٦٣
 (مرارة الدنيا حلوة الآخرة) ٦٦٣
فصل في هديه ﷺ في علاج الكرب والهم والنغم والحزن ٦٦٣
 (ما تضمنته الأدوية السابقة من أنواع الدواء) .. ٦٦٤
فصل: في بيان جهة تأثير هذه الأدوية في هذه الأمراض ٦٦٥
 (وظيفة القلب) ٦٦٥
 (أمراض القلب) ٦٦٥
 (علاجات أمراض القلب) ٦٦٥
 (فوائد التوحيد وفوائد التوبة) ٦٦٥
 (الهموى أكبر أمراض القلب فلا بد من مخالفته) ٦٦٦
 (حديث ابن عباس مشتمل على توحيد الإلهية والربوبية وصفتي العظمة والحلم) ٦٦٦
 (فوائد صفتي «الحي القيوم») ٦٦٦
 (توسله ﷺ بربوبية الله لجبريل وميكائيل وإسرافيل) ٦٦٦
 (ما في: «اللهم رحمتك أرجو...» و«الله ربي...») ٦٦٧
 (ما في: «اللهم إني عبدك وابن عبدك» من الفوائد) ٦٦٧
 (إثبات القدر والعدل لله في «ماض في حكمك...») ٦٦٧
 (أسألك بكل اسم هو لك ...) ٦٦٧
 (وأن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي...) ٦٦٧
 (دعوة ذي النون) ٦٦٧
 («اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن...») ٦٦٨
 (التوبة والاستغفار) ٦٦٨
 (الصلاة وتأثيرها في تفريح القلب) ٦٦٨
 (الرد على الأطباء المنكرين لفائدة الصلاة في العلاج) ٦٦٨

(قراءة المصنف الفاتحة على ماء زمزم وذلك عند سقمه في مكة) ٦٥٦
فصل ٦٥٦
 (نفس الراقي تفعل في نفس المرقى فتدفع عنه المرض بإذن الله) ٦٥٦
 (النفث له تأثير في دفع المرض) ٦٥٦
فصل ٦٥٧
 (في هديه ﷺ في علاج لدغة) ٦٥٧
 (العقرب بالرقية) ٦٥٧
 (ما لسورة الإخلاص من الفائدة في علاج اللدغة) ٦٥٧
 (ما للمعوذتين من الفائدة في علاج اللدغة) ... ٦٥٧
 (الفائدة في الملح في علاج اللدغة) ٦٥٧
فصل ٦٥٨
 (في هديه ﷺ في رقية النملة) ٦٥٨
 (جواز تعليم النساء الكتابة) ٦٥٨
فصل ٦٥٩
 (في هديه ﷺ في رقية الحية) ٦٥٩
فصل ٦٥٩
 (في هديه ﷺ في رقية القرحة والجرح) ٦٥٩
 (علة استعمال التراب في هذه الرقية) ٦٥٩
 (كيفية استعمال هذه الرقية) ٦٥٩
 (هل المقصود باستعمال التراب تربة جميع الأرض أو أرض المدينة) ٦٥٩
فصل: في هديه ﷺ في علاج الوجع بالرقية ٦٦٠
 (تضمنت هذه الرقية التوسل إلى الله بتوحيده وإحسانه وربوبيته) ٦٦٠
فصل: في هديه ﷺ في علاج حرّ المصيبة وحزنها ٦٦٠
 (إذا تحقق العبد بأنه وأن مصيره إليه تسلى عن مصيبته) ٦٦٠
 (ذكر بعض العلاجات منها النظر إلى ما أبقى الله عليه من النعم) ٦٦١
 (التأسي بأهل المصائب وذكر قصص في ذلك) ٦٦١
 (الجزع يضاعف المرض) ٦٦١
 (فوت ثواب الصبر أعظم من المصيبة) ٦٦١

٦٧٤	(الأوقات التي ينصح فيها بعدم الشرب)	٦٦٩	(تأثير الجهاد في دفع الهم)
٦٧٤	فصل	٦٦٩	(تأثير الحوقلة في دفع الهم)
٦٧٤	(هديه ﷺ في الشراب وشربه ﷺ العسل الممزوج بالماء البارد وفوائده)	فصل: في هديه ﷺ في علاج القَرْع، والأَرْقِ المانِع من النوم	٦٦٩
٦٧٤	(منافع الماء البارد)	٦٦٩	فصل: في هديه ﷺ في علاج داء الحريق وإطفائه
٦٧٤	(هل الماء البارد يغذي البدن؟)	٦٦٩	(أثر التكبير في إخماد النار مادة الشيطان)
٦٧٥	(من أنكر حصول التغذية بالماء البارد)	٦٧٠	فصل: في هديه ﷺ في حفظ الصحة
٦٧٥	(منافع الماء الباث)	(قوام البدن على الحرارة والرطوبة ما يستفاد من قوله «وكلوا واشربوا ولا تسرفوا»)	٦٧٠
٦٧٥	(الماء الذي في القرب والشنان ألد من الذي في آنية الفخار والأحجار وغيرهما)	(غاية علاج الإنسان الاعتدال بين الحرارة والرطوبة)	٦٧٠
٦٧٥	(معنى «الحلو البارد»)	(الصحة من أجل النعم وذكر الأخبار في ذلك)	٦٧٠
٦٧٥	(معنى الكرع وبيان الاختلاف فيه)	(هديه ﷺ في مراعاة أمور الصحة)	٦٧١
٦٧٦	فصل	فصل: (هديه ﷺ في المطعم والمشرب)	٦٧١
٦٧٦	(بيان الاختلاف في جواز الشرب قائماً)	(تعديل الطعام بضده)	٦٧١
٦٧٦	(آفات الشرب قائماً)	(ترك ما تعافه النفس)	٦٧١
٦٧٦	فصل	(محبه ﷺ للذراع)	٦٧١
٦٧٦	(تنفسه ﷺ في الشراب ثلاثاً)	(أكله ﷺ للرقبة)	٦٧٢
٦٧٦	(فوائد تكرار الشرب)	(محبه ﷺ للحلواء والعسل وبيان أنهما مع اللحم أفضل الأغذية)	٦٧٢
٦٧٦	(معنى «أمراً»)	(يؤدم ﷺ خبز الشعير باللحم والبطيخ والتمر والخل وفوائد ذلك ومعنى الأدم)	٦٧٢
٦٧٦	(آفات الشرب نهلة واحدة)	(أكله ﷺ الفاكهة)	٦٧٢
٦٧٦	(فوائد تكرار الشرب)	فصل	٦٧٢
٦٧٧	(ورود الماء جملة واحدة على الكبد يؤلمها) ..	في هديه ﷺ في هيئة الجلوس للأكل	٦٧٢
٦٧٧	(فوائد التسمية)	(عدم الإنكاء عند الإكل)	٦٧٢
(كمال الطعام في التسمية والحمد وتكثير الأيدي وأن يكون حلالاً)	٦٧٧	(عدم الأكل مع الانبطاح)	٦٧٢
٦٧٧	فصل	(تفسير الانكاء)	٦٧٣
٦٧٧	(تغطية الإناء وإيكاء السقاء)	فصل	٦٧٣
(النهي عن الشرب من قم السقاء والآداب المترتبة عليه)	٦٧٧	(الأكل بالأصابع الثلاث)	٦٧٣
(ضعف حديث الشرب من قم الإداوة)	٦٧٧	فصل	٦٧٣
٦٧٨	فصل	(عدم الأكل أو الجمع بين بعض الأطعمة)	٦٧٣
(النهي عن الشرب من ثلثة القدح وبيان مفساده)	٦٧٨	(تعديل الطعام بضده)	٦٧٣
(مقاصد النفخ في الشراب)	٦٧٨	(الأمر بالعشاء، وعدم النوم على الأكل)	٦٧٣
(كان ﷺ يتنفس في الشرب ولا يتنفس في الإناء)	٦٧٨	(عدم الشرب على الطعام)	٦٧٤
٦٧٨	فصل		

٦٨٥	(الفصل من الجماع)	٦٧٨	(شرب اللبن خالصاً ومشوباً بالماء ومنافعه)
٦٨٥	(منافع الغسل والوضوء بعد الوطء)	٦٧٨	فصل
٦٨٥	فصل	٦٧٨	(الانتباذ في الماء)
٦٨٥	(وقته والتحذير من جماع العجوز والصغيرة وجماع الثيب)	٦٧٩	فصل: في تدييره لأمر الملبس
٦٨٥	(أسباب الترخيب بالبكر)	٦٧٩	فصل: في تدييره لأمر المسكن
٦٨٦	(أحسن أشكاله)	٦٧٩	فصل: في تدييره لأمر النوم واليقظة
٦٨٦	(أردأ أشكاله)	٦٨٠	(نوعا النوم الطبيعي)
٦٨٦	(تحريم الدبر)	٦٨٠	(النوم غير الطبيعي)
٦٨٨	(مفاسد إتيان الدبر)	٦٨٠	(فائدة النوم)
٦٨٩	فصل	٦٨٠	(أنفع كفيات النوم)
٦٨٩	(أنواع الجماع الضار)	٦٨٠	(أردأ نوعيات النوم)
٦٨٩	فصل: في هديه ﷺ في علاج العشق	٦٨٠	(منافع النوم المعتدل)
٦٩٠	(سبب طلاق زيد لزينب)	٦٨٠	(مفاسد نوم النهار وبخاصة آخره)
٦٩٠	فصل	٦٨١	(مفاسد نوم الصبحة)
٦٩٠	(الإخلاص سبب لدفع العشق)	٦٨١	(مفاسد النوم في الشمس أو بعضه في الشمس)
٦٩٠	(علة العشق)	٦٨١	(الحكمة من النوم على الجانب الأيمن)
٦٩١	(أنواع المحبة)	٦٨١	(فوائد الدعاء قبل النوم)
٦٩١	(سبب كون العشق أحياناً من طرف واحد)	٦٨٢	فصل
٦٩٢	فصل	٦٨٢	(هديه ﷺ في اليقظة)
٦٩٢	(علاج العشق بالزواج بالمعشوق)	٦٨٢	فصل
٦٩٢	فصل	٦٨٢	(هديه ﷺ في الرياضة)
٦٩٢	(ومن علاجه إشعار النفس اليأس منه إن كان الوصال متعذراً قدرأ وشرعاً)	٦٨٢	(السبب الموجب للرياضة)
٦٩٢	(إن كان الوصال متعذراً شرعاً فعلاجه إنزاله منزلة المتعذر قدرأ وذكر علاجات أخرى)	٦٨٢	(فوائد الرياضة)
٦٩٣	(بطلان حديث «من عشق فف»...)	٦٨٢	(وقتها وأنواعها)
٦٩٤	فصل: في هديه ﷺ في حفظ الصحة بالطيب	٦٨٣	(رياضة النفوس)
٦٩٥	فصل: في هديه ﷺ في حفظ صحة العين	٦٨٣	(فائدة الصلاة)
٦٩٥	(حفظ صحة العين بالاكتمال)	٦٨٣	(فائدة الصوم)
٦٩٥	(فوائد الكحل للعين)	٦٨٣	(فائدة الجهاد ورياضات أخرى)
٦٩٥	فصل: في ذكر شيء من الأدوية والأغذية المفردة التي جاءت على لسانه ﷺ مرتبة على حروف المعجم	٦٨٣	فصل
٦٩٥	حرف الهمزة	٦٨٣	(هديه ﷺ في الجماع ومقاصد الجماع)
		٦٨٣	(الجماع من أسباب الصحة)
		٦٨٤	(منافعه ومجته ﷺ له)
		٦٨٤	(الحث على الزواج)
		٦٨٤	(الحث على نكاح الولود)
		٦٨٥	(أمور تتعلق بما قبل الجماع)

٧٠٩	(أجود أنواعه)	٦٩٦	(منافع قشره)
٧٠٩	(نفعه للحفظ)	٦٩٦	(منافع لحمه)
٧٠٩	حرف السين	٦٩٦	(منافع حمضه)
٧١١	(منافع السواك)	٦٩٦	(منافع بزره)
٧١١	(أوقات استحبابه)	٦٩٦	(قصة عن الأترج)
٧١١	(أستياك الصائم)	٦٩٦	(تشبيه المؤمن به)
٧١١	(منافع سمن البقر والمعز)	٦٩٧	حرف الباء
٧١٢	(أجود أصنافه وأصلح أماكنه)	٦٩٨	(منافعه)
٧١٢	(منافع السمك الطري)	٦٩٨	(ضرره)
٧١٢	(السمك المالح)	٦٩٩	حرف التاء
٧١٢	(منافع الطري السمين منه)	٦٩٩	حرف الثاء
٧١٢	حرف الشين	٦٩٩	(الداء يداوى بضده)
٧١٣	(منافع ماء الشعير المغلي)	٧٠٠	(مضاره)
٧١٤	حرف الصاد	٧٠٠	(تنافز الناس في أفضلية اللحم على الخبز)
٧١٤	(منافع الصلاة)	٧٠٠	حرف الجيم
٧١٤	(أكثر أسقام البدن والقلب من عدم الصبر)	٧٠١	حرف الحاء
٧١٥	(منافع الصبر عامة)	٧٠٣	حرف الخاء
٧١٥	(منافع الصبر الفارسي)	٧٠٣	(لا يصح حديث في النهي عن قطع الخبز بالسكين)
٧١٥	حرف الضاد	٧٠٤	فصل
٧١٦	حرف الطاء	٧٠٤	(أنواع الخبز وأنفعها)
٧١٧	حرف العين	٧٠٤	(أفضل أوقات أكله بعد خبزه)
٧١٧	(إباحة ما في البحر لا يختص بالسمك)	٧٠٤	(خبز الحنطة)
٧١٨	(طيب العنبر والمفاضلة بينه وبين المسك)	٧٠٤	(خبز الشعير)
٧١٨	(أنواع طيب العنبر)	٧٠٥	حرف الدال
٧١٩	(قول ابن المبارك في العسل)	٧٠٥	(منافع الأدهان المركبة)
٧١٩	حرف الغين	٧٠٥	حرف الذال
٧١٩	(الترجيح بين الغيث الشتوي والريعي)	٧٠٦	(خواصه)
٧١٩	(تبركه ﷺ بالمطر)	٧٠٦	حرف الراء
٧١٩	حرف الفاء	٧٠٧	(فوائد فطر الصائم عليه)
٧٢١	(علة تحريم الفضة)	٧٠٧	(أنواع الريحان)
٧٢١	(علته عند المصنف)	٧٠٧	(منافع الآس وهو الريحان!!)
٧٢١	حرف القاف	٧٠٧	(منافع حبه)
٧٢٢	(أنواعه)	٧٠٧	(منافع الريحان الفارسي المسمى الحيق)
٧٢٢	(الرد على من أنكر نفعه للمجنوب)	٧٠٨	حرف الزاي
٧٢٣	(الرد على من فضله على العسل)	٧٠٨	(منافع ماء الزيتون المالح)

٧٣٢ (لحم البط)	٧٢٣ حرف الكاف
٧٣٢ (لحم الحبارى)	٧٢٣ (الاختلاف في حكم التمام)
٧٣٢ (لحم الكركي)	٧٢٤ (حكم كتابة بعض القرآن وشربه)
٧٣٣ (لحم العصافير والقناير)	٧٢٤ (هل لفظة الكمأة مفرد أو جمع)
٧٣٣ (لحم الحمام)	٧٢٥ (معنى «الكمأة من المن»)
٧٣٣ (لحم القطا)	٧٢٥ (من أين أتى الضرر الواقع فيها)
٧٣٣ (لحم السمانى)	٧٢٥ (قلة البركة والآفات جاءت من كثرة الفساد)
٧٣٣ (الجراد)	٧٢٦ (معنى «ماؤها شفاء للمين»)
٧٣٣ فصل	٧٢٧ (هل اختضب النبي ﷺ)
٧٣٣ (ضرر المداومة على اللحم)	٧٢٧ (حكم الخضاب بالسواد)
٧٣٤ (اللبن)	٧٢٨ (علة النهي عن تسمية العنب كرماً)
٧٣٤ (لبن الضأن)	٧٢٩ حرف اللام
٧٣٤ (لبن المعز)	٧٢٩ (لحم الضأن)
٧٣٤ (لبن البقر)	٧٢٩ (لحم المعز)
٧٣٥ (لبن الإبل)	٧٣٠ (لحم الجدي)
٧٣٥ (بيان فائدته لطرده النسيان)	٧٣٠ (لحم البقر)
٧٣٥ حرف الميم	٧٣٠ (لحم الفرس)
٧٣٥ (اختبار جودة الماء)	٧٣٠ (سبب اقتران الخيل مع البغال والحمير في القرآن)
٧٣٦ (اختبار خفة الماء)	٧٣٠ (لحم الجمل)
٧٣٦ (الماء المشمس)	٧٣٠ (علة الوضوء من أكل لحم الجمل)
٧٣٧ (تحسين المصنف لحديث «ماء زمزم لما شرب له»)	٧٣٠ (الرد على من لم ير الوضوء منه)
٧٣٧ (تجريب المصنف له في الاستشفاء)	٧٣١ (لحم الضب)
٧٣٧ (فوائد الاغتسال به وما يدفع به مضرة الشرب منه)	٧٣١ (لحم الغزال)
٧٣٩ حرف النون	٧٣١ (لحم الظبي)
٧٣٩ (فوائد حديث النخلة)	٧٣١ (لحم الأرنب)
٧٣٩ (اختلاف الناس في تفضيلها على الحبله)	٧٣١ (لحم حمار الوحش)
٧٤٠ حرف الهاء	٧٣١ (لحم الوحش)
٧٤١ حرف الواو	٧٣١ (لحوم الأجنة وحكم أكلها)
٧٤١ حرف الياء	٧٣٢ (لحم القديد)
٧٤١ (السبب في إطلاق القرآن على اليقطين اسم الشجر)	٧٣٢ فصل : في لحوم الطير
٧٤٢ فصل	٧٣٢ (الحرام من الطيور)
٧٤٢ (محاذير طيبة لابن ماسويه)	٧٣٢ (لحم الدجاج)
٧٤٢ فصل	٧٣٢ (لحم الديك)
٧٤٢ (محاذير طيبة لابن بختيشوع)	٧٣٢ (لحم الدراج)
٧٤٢		٧٣٢ (لحم الحجل)
٧٤٢		٧٣٢ (لحم الإوز)

٧٦٣	مَعَاهِد	فصل: في حكمه ﷺ على أهل الكتاب في الحدود
٧٦٤	(له ﷺ العفو عن سبه في حياته)	بمُحكَم الإسلام ٧٥٥
٧٦٤	فصل: في حكمه ﷺ فيمن سَمَّه	(قبول شهادة الذميين على بعضهم) ٧٥٦
٧٦٤	فصل: في حكمه ﷺ في الساحر	(لا يجمع بين الرجم والجلد) ٧٥٦
فصل: في حكمه ﷺ في أول غنيمة كانت في		فصل: في قضائه ﷺ في الرجل يزني بجارية
٧٦٤	الإسلام وأوَّل قَتِيل	امراته ٧٥٦
٧٦٥	(إجازة الشهادة على الوصية المختومة)	فصل ٧٥٧
٧٦٥	(عدم معرفة حامل الكتاب بمضمونه)	(الحكم في اللواط) ٧٥٧
٧٦٥	فصل: في حكمه ﷺ في الجاسوس	فصل ٧٥٨
٧٦٥	فصل: في حكمه في الأُمرى	(الحكم فيمن أقر بالزنى بامرأة معينة) ٧٥٨
٧٦٦	فصل: (حكمه ﷺ في اليهود)	فصل ٧٥٨
٧٦٦	فصل: في حكمه ﷺ في فتح خير	(الحكم في الأمة الزانية) ٧٥٨
٧٦٦	فصل: في حكمه ﷺ في فتح مكة	(فيمن لم يحتمل الحدّ) ٧٥٩
٧٦٦	فصل: في حكمه ﷺ في قسمة الغنائم	فصل ٧٥٩
٧٦٦	(الفارس والراجل)	(متى نزل حد القذف) ٧٥٩
٧٦٦	(السلب)	(حكم المرتد) ٧٥٩
٧٦٦	(الخمس)	(حكم شرب الخمر) ٧٥٩
٧٦٧	(العلقة في قسم أموال بني النضير في المهاجرين)	(حكم من شرب في الرابعة) ٧٥٩
٧٦٧	فصل	فصل: في حكمه ﷺ في السارق ٧٦٠
٧٦٧	(من ضرب له سهم ولم يحضر)	(جحد العارية كالسرقة) ٧٦٠
٧٦٧	فصل	فصل: في حكمه ﷺ على من اتهم رجلاً بسرقة ٧٦١
٧٦٧	(ما يعدل البعير من الغنم والبقرة)	فصل ٧٦١
٧٦٧	فصل	(ما تضمنته الأفضية السابقة في السرقة من الأمور) ٧٦١
٧٦٧	(هل السلب من الخمس)	(جواز لعن أصحاب الكباير بأنواعهم دون أعيانهم) ٧٦١
فصل: في حكمه ﷺ فيما حازه المشركون من أموال		(مضاعفة الغرم) ٧٦١
المسلمين، ثم ظهر عليه المسلمون، أو أسلم عليه		(اعتبار الحرز في إقامة الحد) ٧٦١
المشركون ٧٦٩		(إثبات العقوبات المالية) ٧٦١
فصل: في حكمه ﷺ فيما كان يهدى إليه ٧٦٩		(المطالبة في المسروق شرط في القطع) ٧٦٢
فصل ٧٧٠		(لا تسقط الحدود بعد رفعها للإمام) ٧٦٢
(حكم المُهْدَى لِلأَئِمَّة) ٧٧٠		(لا يقطع إلا بالإقرار مرتين أو لشهادة شاهدين) ٧٦٢
فصل: في حكمه ﷺ في قسمة الأموال ٧٧٠		(التمريض للمسارق بعدم الإقرار) ٧٦٢
(الحكم في الفِيَء) ٧٧٠		(الحسم بعد القطع) ٧٦٢
(سهم ذوي القربى) ٧٧٠		فصل ٧٦٢
		(من تكرر منه الحد في السرقة) ٧٦٢
		فصل: في قضائه ﷺ فيمن سَبَّه مِن مسلم أو ذِمِّي أو

فصل	٧٧٧
(جواز نكاح اليتيمة قبل البلوغ)	٧٧٧
فصل: في حكمه ﷺ في النكاح بلا ولي	٧٧٨
فصل	٧٧٨
(إذا تزوج المرأة الوليان فهي للأول منهما)	٧٧٨
فصل: في قضائه في نكاح التضيض	٧٧٨
فصل: في حكمه ﷺ فيمن تزوج امرأة فوجدها في الحبل	٧٧٨
فصل: في حكمه ﷺ في الشروط في النكاح	٧٧٩
(بطلان اشتراط المرأة طلاق أختها)	٧٧٩
فصل: في حكمه ﷺ في نكاح الشغار والمحلل، والمتعة ونكاح المحرم، ونكاح الزانية	٧٧٩
(النهي عن نكاح الشغار)	٧٧٩
(علة النهي عنه)	٧٨٠
فصل	٧٨٠
(نكاح التحليل)	٧٨٠
فصل	٧٨٠
(النهي عن نكاح المتعة)	٧٨٠
فصل	٧٨١
(نكاح المحرم في حج أو عمرة)	٧٨١
(هل تزوج ميمونة وهو محرم؟)	٧٨١
فصل	٧٨١
(تحريم نكاح الزانية)	٧٨١
(الرد على من حمل معنى الزانية في الآية على بغني مشركة)	٧٨٢
فصل	٧٨٢
في حكمه ﷺ فيمن أسلم على أكثر من أربع نسوة أو على أختين	٧٨٢
فصل	٧٨٢
(إذا تزوج العبد بغير إذن مولاه فهو عاهر)	٧٨٢
فصل	٧٨٢
(منعه ﷺ علماً أن يجمع بين فاطمة و بنت أبي جهل)	٧٨٢
(ما تضمنته هذا الحكم من الأمور)	٧٨٢

(هل كان الفيء ملكاً له؟)	٧٧١
(الفرق بين العبد الرسول وبين الملك الرسول)	٧٧١
(طلب فاطمة ميراثها ومصارف الفيء)	٧٧١
(هل تقسم الزكاة والفيء على الأصناف كلها)	٧٧٢
فصل: في حكمه ﷺ في الوفاء بالعهد لعدوه وفي رسلهم، أن لا يقتلوا ولا يُجسوا، وفي التبذ إلى من عاهده على سواء إذا خاف منه نقض العهد	٧٧٣
فصل: في حكمه ﷺ في الأمان الصادر من الرجال والنساء	٧٧٣
فصل: في حكمه ﷺ في الجزية ومقدارها ومن تقبل	٧٧٤
(الأمر بأخذ الجزية)	٧٧٤
(هل تقبل الجزية من غير اليهود والنصارى والمجوس وهل تقبل من العرب؟)	٧٧٤
(مقدار الجزية)	٧٧٥
فصل: في حكمه ﷺ في الهدنة وما ينقضها	٧٧٥
(مصالحته أهل مكة)	٧٧٥
(مصالحته اليهود)	٧٧٥
فصل	٧٧٥
(ما كان في صلحه لأهل مكة من دخول بعضهم في عهده ﷺ)	٧٧٥
ذكر أفضيته وأحكامه ﷺ في النكاح وتوابعه	٧٧٥
فصل: في حكمه ﷺ في الثيب والبكر يُزوجهما أبوهما	٧٧٥
(إذن البكر والثيب)	٧٧٥
(موافقة الإذن لحكمه ﷺ)	٧٧٦
(موافقة الإذن لأمره ﷺ)	٧٧٦
(موافقة الإذن لنهيه ﷺ)	٧٧٦
(موافقة الإذن لقواعد الشرع)	٧٧٦
(موافقة الإذن لمصالح الأمة)	٧٧٦
(الحجة على من استمسك بحديث: «الأيمن أحق بنفسها من وليها» في إيجاب البكر)	٧٧٦
فصل	٧٧٧
(إذن البكر الصمات وإذن الثيب الكلام)	٧٧٧

٧٨٧ (أهل الكتاب)
 ٧٨٧ (أمور تستفاد من سياق الآية)
 ٧٨٧ فصل
 (الإشكال الوارد في استثناء ملك اليمين من تحريم المتزوجات)
 ٧٨٧
 (شرح لمعنى الاستثناء المنقطع وضوابطه والرد على من قال بأن الآية من هذا النوع)
 ٧٨٧
 (من قال بأن ملك الرجل الأمة المزوجة طلاق لها)
 ٧٨٨
 (من قال: إن كان المشتري امرأة لم يفسخ النكاح)
 ٧٨٨
 (الرد على من قال به)
 ٧٨٨
 (من قال: الآية خاصة بالمسييات)
 ٧٨٨
 (الرد على من قال بأن وطأها إنما يباح إذا سبيت وحدها)
 ٧٨٨
 (جواز وطء الوثنيات بملك اليمين)
 ٧٨٨
 فصل: في حكمه ﷺ في الزوجين يُسَلِّمُ أحدهما قبل الآخر
 ٧٨٩
 (إذا أسلم أحد الزوجين قبل الآخر لم يفسخ النكاح بإسلامه)
 ٧٩٠
 (لا دليل لمن قال بمرأعة زمن العدة)
 ٧٩٠
 (بطلان من أجاب بتجديد نكاح من أسلم)
 ٧٩١
 (الرد على من يقف الفقرة على انقضاء العدة)
 ٧٩١
 فصل: في حكمه ﷺ في العزلي
 ٧٩٢
 (من قال بتحريمه ومن جوزه بإذن الحرة)
 ٧٩٢
 (ما احتج به المبيحون ورد المحرمين على الميحيين)
 ٧٩٢
 (التوفيق بين الأحاديث المظنون بها التعارض)
 ٧٩٣
 (قول من حمله على التنزيه ورد بعضهم عليه)
 ٧٩٣
 (من جعل التكذيب لمنع الحمل)
 ٧٩٣
 (من قال بأن حديث التحريم ناسخ والرد عليه)
 ٧٩٤
 (ذكر من جوزه بإذن الحرة)
 ٧٩٤
 فصل: في حكمه ﷺ في الفيل، وهو وطء المريضة
 ٧٩٤
 فصل: في حكمه ﷺ في قسم الابتداء والدوام بين الزوجات
 ٧٩٥
 (وجوب قسم الابتداء)
 ٧٩٥

(إذا شرط الرجل لزوجته أن لا يتزوج عليها لزمه الوفاء)
 ٧٨٢
 (المشروط عرفاً كالمشروط لفظاً)
 ٧٨٣
 (حكمة منع عليّ من هذا الجمع)
 ٧٨٣
 فصل
 فيما حَكَمَ اللَّهُ سبحانه بتحريمه من النساء
 ٧٨٣
 على لسان نبيه ﷺ
 ٧٨٣
 (تحريم الأمهات)
 ٧٨٣
 (تحريم البنات)
 ٧٨٣
 (تحريم الأخوات والعمات)
 ٧٨٣
 (التفصيل في عمّة العم)
 ٧٨٣
 (تحريم الخالات والتفصيل في خالة العمّة وعمّة الخالة)
 ٧٨٣
 (تحريم بنات الأخ وبنات الأخت)
 ٧٨٤
 (التفصيل في تحريم الرضاعة)
 ٧٨٤
 (تحريم أمهات الزوجات)
 ٧٨٤
 (تحريم بنات الزوجات)
 ٧٨٤
 (وجه دخول بنت جاريته في التحريم)
 ٧٨٥
 (دخول أم الجارية المدخول بها في التحريم)
 ٧٨٥
 (وجه عدم دخول الجوّاري في الظهار والإيلاء)
 ٧٨٥
 (تحريم حلائل الأبناء)
 ٧٨٥
 (الاختلاف في حلائل الأبناء من الرضاع)
 ٧٨٥
 فصل
 (تحريم نكاح من نكهن الآباء)
 ٧٨٦
 فصل
 (تحريم الجمع بين الأختين الاختلاف في الجمع بين الأختين من ملك اليمين)
 ٧٨٦
 (أدلة من رجح تحريم الجمع بين الأختين من ملك اليمين)
 ٧٨٦
 فصل
 (تحريم الجمع بين المرأة وعمتها والمرأة وخالتها)
 ٧٨٧
 (حرص الصحابة على استنباط الأحاديث من القرآن)
 ٧٨٧
 (تحريم نكاح امرأة يحرم وطؤها بملك اليمين إلا إماء

٨٠١	(لا يجوز اشتراط ما يخالف حكم الله)	٧٩٦	(إذا اختارت الثيب السبع قضاها للبوافي) ...
٨٠١	(هل يصح العقد الذي فيه شرط فاسد؟)		(لا تجب التسوية بين النساء في المحبة والاختلاف في
٨٠١	(معنى اللام في «اشترطي لهم»)	٧٩٦	الوطء)
٨٠١	(من قال بأن الأمر أمر تهديد)		(الإقراع بين نسائه في السفر وأنه لا يقضي للبوافي إذا
٨٠٢	(من قال بأن الأمر أمر إباحة)	٧٩٦	قدم)
٨٠٢	(من قال هو وسيلة لإظهار بطلان هذا الشرط)	٧٩٦	(للمرأة أن تهب ليلتها لضررتها)
٨٠٢	فصل		(إن رضيت الزوجة بالإقامة عند الزوج ولا حق لها في
٨٠٢	(ما في «إنما الولاء لمن أعتق» من العموم) ...	٧٩٦	القسم والوطء والنفقة فليس لها المطالبة بعد ذلك)
٨٠٢	فصل	٧٩٧	(الأمة المزوجة على النصف من الحرية)
٨٠٢	(تخيير الأمة المزوجة إذا أعتقت وزوجها عبد)		فصل: في قضاائه ﷺ في محرم وطء المرأة الحبل من
	(اختلاف العلماء في تخيير الأمة إذا أعتقت	٧٩٧	غير الواطيء)
	وزوجها حر ومآخذ تحقيق المناط في إثبات الخيار	٧٩٧	(الاختلاف في نكاح الحامل من زنى)
٨٠٣	للمعتقة)		فصل: في حكمه ﷺ في الرجل يمتق أمته ويعمل
٨٠٣	(الرد على المأخذ الأول وهو كمالها تحت ناقص)	٧٩٨	عتقها صداقها)
	(الرد على المأخذ الثاني وهو أن عتقها أوجب للزوج		فصل: في قضاائه ﷺ في صحة النكاح الموقوف على
٨٠٣	عليها ملك طلبة ثالثة)	٧٩٨	الإجازة)
	(ترجيح المصنف للمأخذ الثالث وهو ملكها	٧٩٨	(تخيير الكارمة)
٨٠٣	نفسها)	٧٩٨	(تخيير الصغير وتخيير اليتيمة عند البلوغ)
	(إشكالان على تخيير المعتقة إذا كانت متزوجة	٧٩٨	(تخيير السيد بزواج عبده)
٨٠٤	بحر)	٧٩٨	فصل: في حكمه ﷺ في الكفاءة في النكاح
٨٠٤	(خيار المعتقة على التراخي)	٧٩٩	(لم يعتبر القرآن والسنة في الكفاءة إلا الدين)
٨٠٤	(التمكين من الوطء يسقط)	٧٩٩	(مذهب مالك)
٨٠٥	فصل	٧٩٩	(مذهب أبي حنيفة)
٨٠٥	(الأمر يقتضي الرجوع)	٧٩٩	(مذهب أحمد)
٨٠٥	(لا يحرم عصيان شفاعته ﷺ)	٧٩٩	(مذهب أصحاب الشافعي)
٨٠٥	(معنى المراجعة في لسان الشارع)	٧٩٩	(لمن حق الكفاءة)
٨٠٥	فصل		فصل: في حكمه ﷺ في ثبوت الخيار للمعتقة تحت
	(ما يستنبط من أكله ﷺ من اللحم الذي تصدق به على	٨٠٠	العبد)
٨٠٥	بريرة)		(جواز مكاتب المرأة وبيع المكاتب وإن لم يعجزه
	فصل: في قضاائه ﷺ في الصداق بما قل	٨٠٠	سيده)
	وكثر، وقضاؤه بصحة النكاح على ما مع الزوج من	٨٠٠	(مستمسك من منع بيع المكاتب)
٨٠٦	القرآن		(الرد على من ادعى عجز بريرة عن تأدية المكاتب
	فصل: في حكمه ﷺ، وخلفائه في أحد الزوجين يجد	٨٠٠	عليه)
	بصاحبه برصاً أو جنوناً أو جذاماً، أو يكون الزوج		(الرد على من قال إن البيع ورد على مال الكتابة لا على
٨٠٧	عتيقاً	٨٠١	رقبتها)

٨٢٠	حكم رسول الله ﷺ في الطلاق قبل النكاح	٨٠٧	(التفريق بالعنة)
٨٢١	(الفرق بين تعليق الطلاق وتعليق العتق)	٨٠٨	(التفريق بالمعقم)
٨٢١	حُكْمُ رسولِ الله ﷺ في تحريم طلاق	٨٠٨	(التفريق بالجنون واختلاف الفقهاء فيما سبق)
	الحائض والنفساء والموطوءة في طهرها، وتحريم إيقاع	٨٠٩	(ترجيح المصنف الرد بكل عيب)
٨٢١	الثلاث جملة	٨١٠	فصل: في حُكْم النبي ﷺ في خِدْمَةِ المرأة لزوجها
٨٢٢	(أنواع الطلاق من حيث الحل والحرم)	٨١١	حُكْمُ رسولِ الله ﷺ بَيْنَ الزوجين
٨٢٢	(الاختلاف في وقوع المحرم من الطلاق)	٨١١	يَقَعُ الشَّقَاقُ بينهما
	(هل يقع الطلاق في الحيض أو في الطهر الذي واقعها	٨١١	(هل الحكمان حاكمان أو وكيلان؟)
٨٢٣	فيه)	٨١١	(أدلة المصنف في ترجيح كون الحكمين حاكمين)
٨٢٣	(أدلة المانعين من وقوع الطلاق المحرم)	٨١٢	حُكْمُ رسولِ الله ﷺ في الخُلَع
٨٢٥	(الرد على من ضعف حديث أبي الزبير)	٨١٢	(جواز الخلع)
٨٢٥	(معنى المراجعة في كلام الله ورسوله)	٨١٢	(حصول البيونة بالخلع)
٨٢٦	(رد الموقعين للطلاق على المانعين)	٨١٣	فصل
٨٢٧	(رد المانعين على الموقعين)	٨١٣	(حكم الرجعة من الخلع في العدة)
	فصل: في حكمه ﷺ فيمن طلق ثلاثاً بكلمة	٨١٣	فصل
٨٣١	واحدة		(ما يستنبط من أمره ﷺ المختلفة أن تعتد بحيضة واحدة
٨٣٣	فصل	٨١٣	عدة المختلفة حيضة واحدة)
٨٣٣	(هل يقع الطلاق ثلاثاً فيمن قاله بكلمة واحدة)	٨١٤	(الخلع فسخ)
٨٣٣	(حجج من لم يعتد بها شيئاً)	٨١٤	(الدليل على أن الخلع ليس بطلاق)
٨٣٣	(حجج من جعلها واحدة)	٨١٥	ذكرُ أحكام رسولِ الله ﷺ في الطلاق
٨٣٤	(حجج من فرق بين المدخول بها وغيرها)		ذكر حكمه ﷺ في طلاق الهازل، وزائل العقل،
٨٣٤	(حجج من أوقعها ثلاثاً)	٨١٥	والمكره والتطليق في نفسه
٨٣٧	(حجج المانعين من وقوع الثلاث)	٨١٥	(النية والقصد عفو غير لازم إن لم ينطق بها اللسان)
٨٣٩	فصل	٨١٦	(كلام الهازل بالطلاق والنكاح والرجعة معتبر)
	حُكْمُ رسولِ الله ﷺ في العبد يُطَلِّقُ زوجته	٨١٦	(ما يباح للمكره وما لا يباح)
	تطليقتين، ثم يُعْتَقُ بعد ذلك هل يُحِلُّ له بدون زوج	٨١٧	(عدم وقوع الطلاق بلفظ لم يقصد به الطلاق)
٨٤٢	وإصابة؟	٨١٧	(اللفظ في اليمين)
	حُكْمُ رسولِ الله ﷺ بأن الطلاق بيد الزوج لا بيد	٨١٧	(لا يقع طلاق المكره وإقراره)
٨٤٥	غيره	٨١٨	فصل
	حُكْمُ رسولِ الله ﷺ فيمن طَلَّقَ دونَ الثلاث، ثم	٨١٨	(طلاق السكران)
٨٤٥	راجعها بعدَ زوج أنها على بقية الطلاق	٨١٩	(حجج من أوقع طلاق السكران)
٨٤٦	حُكْمُ رسولِ الله ﷺ في المطلقة ثلاثاً	٨١٩	(الرد على حجج من أوقع طلاق السكران)
٨٤٦	لا يُحِلُّ للأول حتى يطأها	٨٢٠	فصل
		٨٢٠	(طلاق الإغلاق)

٨٥٧	فصل	٨٤٦	الزَّوْجُ الثَّانِي
٨٥٧	(حجج المذهب الثالث)	٨٤٦	حُكْمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَرَاةِ تُقِيمُ
٨٥٧	فصل	٨٤٦	شَاهِدًا وَاحِدًا عَلَى طَلَاقٍ
٨٥٧	(حجج من قال بأنها واحدة بائنة)	٨٤٦	زَوْجِهَا وَالزَّوْجُ مُنْكَرٌ
٨٥٧	فصل	٨٤٧	حُكْمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي تَخْيِيرِ أَزْوَاجِهِ
٨٥٧	(حجج من قال بأنها واحدة رجعية)	٨٤٧	بَيْنَ الْمَقَامِ مَعَهُ وَبَيْنَ مَفَارِقَتِهِنَّ لَهُ
٨٥٧	فصل	٨٤٨	(كَانَ التَّخْيِيرُ بَيْنَ الْمَقَامِ مَعَهُ وَالْفِرَاقِ)
٨٥٧	(حجج من قال: يسأل عن نيته)	٨٤٨	(هَلِ التَّخْيِيرُ يَسْتَلْزِمُ الطَّلَاقَ ؟)
٨٥٨	فصل	٨٤٩	(حجج من قال بأن التخيير تمليك)
٨٥٨	(حجج من قال: بأنه ظهار إلا أن ينوي به طلاقاً)	٨٤٩	(حجج من قال بأنه توكيل)
٨٥٨	فصل	٨٤٩	(حجج المفرقين بين بعض صور التخيير وبعض)
٨٥٨	(حجج من قال: بأنه ظهار)	٨٥٠	(حجة من جعله تطليقاً منجزاً)
٨٥٨	فصل	٨٥٠	(حجج من جعله لغواً)
٨٥٨	(حجج من قال بأنه يمين مكفرة بكل حال)	٨٥٣	حُكْمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي بَيَّنَّهُ عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى
٨٥٩	فصل	٨٥٣	فِيمَنْ حَرَّمَ أُمْتَهُ أَوْ زَوْجَتَهُ أَوْ مَتَاعَهُ
٨٥٩	(الاختلاف في تحريم غير الزوجة)	٨٥٤	(مَذَاهِبُ النَّاسِ فِي تَحْرِيمِ الرَّجُلِ أُمْتَهُ أَوْ زَوْجَتَهُ أَوْ
٨٥٩	(قول أبي حنيفة بأنه يحرم تحريماً مقيداً تزيله الكفارة)	٨٥٤	مَتَاعَهُ)
٨٥٩	(رد من قال بأنه لا يحرم)	٨٥٤	(من قال بأن التحريم لغو لا شيء فيه)
٨٥٩	فصل	٨٥٤	(من قال بأن التحريم في الزوجة طلاق ثلاث)
٨٥٩	(كفارة التحريم)	٨٥٥	(المذهب الثالث)
٨٦٠	فصل	٨٥٥	(المذهب الرابع)
٨٦٠	(الحكم في تحريم الأمة)	٨٥٥	(المذهب الخامس)
٨٦٠	حُكْمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي قَوْلِ الرَّجُلِ لِمَرَأَتِهِ: الْحَقِي	٨٥٥	(المذهب السادس)
٨٦٠	بِأَهْلِكَ	٨٥٥	(المذهب السابع)
٨٦٠	(من قال ليس بطلاق نواه أو لم ينوه)	٨٥٥	(المذهب الثامن)
٨٦١	(من قال يقع إن نواه)	٨٥٥	(المذهب التاسع)
٨٦١	(ترجيح المصنف بأن جميع الألفاظ صريحها وكنيتها	٨٥٥	(المذهب العاشر)
٨٦١	لا تقع إلا بالنية)	٨٥٦	(المذهب الحادي عشر)
٨٦١	حُكْمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الظَّهَارِ وَبَيَانُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ	٨٥٦	(المذهب الثاني عشر)
٨٦٢	فِيهِ، وَمَعْنَى الْعَوْدِ الْمَوْجِبِ لِلْكَفَّارَةِ	٨٥٦	(المذهب الثالث عشر)
٨٦٣	(إبطال ما كان عليه أهل الجاهلية من كون الظهار طلاقاً	٨٥٦	فصل
٨٦٣	وكذا إن نوى به الطلاق)	٨٥٦	(حجج من قال بأن التحريم لغو)
٨٦٣	(حرمة الظهار)	٨٥٦	فصل
٨٦٣	(لا تجب الكفارة إلا بالعود)	٨٥٦	(حجج من قال بأنها ثلاث)

٨٧١ (الأحكام المستنبطة من آية الإيلاء)
 (لا يثبت حكم الإيلاء حتى يحلف على أكثر من أربعة أشهر) ٨٧١
 (حجج من أوقع الطلاق بمضي المدة) ٨٧١
 (حجج الجمهور بعدم إيقاع لطلاق بمضي المدة) ٨٧١
 (إبطال ما عليه أهل الجاهلية من جعل الإيلاء والظهار طلاقاً) ٨٧٢
 فصل ٨٧٣
 (الحجة في أن المؤلّي مخير بين الطلاق والعود ومسألة في قوله: إن وطنتك فأنت طالق ثلاثاً) ٨٧٣
 حُكْمُ رسولِ اللَّهِ ﷺ ٨٧٤
 في اللعان ٨٧٤
 فصل ٨٧٦
 (يصح اللعان من كل زوجين وإن كانا فاسقين محدودين في قذف أو كافرين) ٨٧٦
 (من قال بأن اللعان لا يكون إلا بين زوجين مسلمين عدلين حرين غير محدودين في قذف) ٨٧٦
 (أنواع التأكيد في الشهادة على اللعان) ٨٧٧
 (إذا لم تلتعن المرأة فهل تحد أو تحبس حتى تقر أو تلاعن؟) ٨٧٨
 (حجج من قال: تحبس) ٨٧٩
 فصل ٨٨٠
 (حجج الموجبين للحد) ٨٨٠
 فصل ٨٨٢
 (ومن الأحكام المستنبطة من أحاديث اللعان أنه ﷺ إنما كان يقضي بالوحي) ٨٨٢
 فصل ٨٨٣
 (يكون اللعان بحضرة الإمام أو نائبه) ٨٨٣
 فصل ٨٨٣
 (يسن التلاعن بمحضر جماعة من الناس) ٨٨٣
 فصل ٨٨٣
 (القيام عند الملاعة) ٨٨٣
 فصل ٨٨٣
 (البداء بالرجل في اللعان) ٨٨٣

فصل ٨٦٤
 (قول الظاهرية بأن معنى العود أي إعادة اللفظ) ٨٦٤
 فصل ٨٦٥
 (رد الجمهور على الظاهرية) ٨٦٥
 فصل ٨٦٦
 (من قال بأن العود هو إمساكها زمناً يتسع لقوله أنت طالق) ٨٦٦
 فصل ٨٦٦
 (من قال بأن العود هو العزم على الوطء) ٨٦٦
 (من قال بأنه العزم على الإمساك أو العزم على الإمساك والوطء معاً ومن قال إنه الوطء نفسه) ٨٦٧
 (حجج من قال إنه العزم حجج من قال إنه الوطء) ٨٦٧
 فصل ٨٦٧
 (من عجز عن الكفارة لم تسقط عنه) ٨٦٧
 فصل ٨٦٨
 (لا يجوز وطء المظاهر منها قبل التكفير) ٨٦٨
 فصل ٨٦٨
 (هل يطل المس نتابع الصيام) ٨٦٨
 فصل ٨٦٩
 (لا يشترط في إطعام المساكين التملك ولا إطعامهم جملة أو مفرقين) ٨٦٩
 فصل ٨٦٩
 (لا بد من إطعام ستين مسكيناً مختلفين) ٨٦٩
 فصل ٨٦٩
 (لا تدفع الكفارة إلا إلى المساكين ويدخل فيهم الفقراء) ٨٦٩
 فصل ٨٦٩
 (ترجيح المصنف اشتراط الإيمان في الرقة) ٨٦٩
 فصل ٨٧٠
 (لو أعتق نصفي رقتين لم يكن معتقاً لرقة) ٨٧٠
 فصل ٨٧٠
 (لا تسقط الكفارة بالوطء قبل التكفير ولا تتضاعف) ٨٧٠
 حُكْمُ رسولِ اللَّهِ ﷺ في الإيلاء ٨٧٠

٨٩١	(لا نفقة للملاعة على الملاعن ولا سكتى) ..	٨٨٣	فصل
٨٩٢	فصل	٨٨٣	(وعظهما قبل اللعان)
٨٩٢	(انقطاع نسب ولد اللعان من جهة الأب)	٨٨٤	فصل
٨٩٢	فصل	٨٨٤	(لا يقبل منهما أقل من خمس مرات)
٨٩٢	(إلحاق ولد اللعان بأمه)	٨٨٤	(لا تستحب الزيادة على الألفاظ المذكورة في الكتاب
٨٩٣	فصل	٨٨٤	والسنة)
٨٩٣	(يحد قاذفها وقاذف ولدها)	٨٨٤	فصل
٨٩٣	فصل	٨٨٤	(هل ينتفي الحمل باللعان)
٨٩٣	(لا تترتب الأحكام السابقة إلا بعد تمام اللعان)	٨٨٥	فصل
٨٩٤	فصل	٨٨٥	(هل يحد إذا قذف أمراه بالزنى برجل بعينه؟)
٨٩٤	(وجوب النفقة والسكنى للمطلقة والمتوفى عنها إذا	٨٨٦	فصل
٨٩٤	كانتا حاملين)	٨٨٦	(إذا لاعنها وهي حامل وانتفى من حملها انتفى عنه ولم
٨٩٤	فصل	٨٨٦	يحتج إلى أن يلاعن بعد وضعه)
٨٩٤	(اعتبار الحكم بالقافة في الإلحاق بالنسب) ..	٨٨٧	(مسألة فيما لو استلحق الحمل وقذفها بالزنى)
٨٩٤	فصل	٨٨٧	فصل
٨٩٤	(من قتل رجلاً في داره مدعيًا زناه بحريمه قتل به إن لم	٨٨٨	(التفريق بين المتلاعنين)
٨٩٤	يأت بيينة أو إقرار الولي)	٨٨٨	(من يفرق بمجرد القذف من قال: لا يقع باللعان
٨٩٤	فصل: في حُكمه ﷺ في حقوق النسب بالزَّوج إذا	٨٨٨	فرقة)
٨٩٦	خالف لونُ ولده لونه	٨٨٨	(قول من قال: تحصل الفرقة بمجرد لعان الزوج
٨٩٦	(لا يجب الحد بالتعريض إذا كان على وجه السؤال	٨٨٨	وحده)
٨٩٦	والاستفتاء)	٨٨٨	(قول من قال: إن الفرقة تحصل بعد اللعان) ..
٨٩٦	فصل: في حُكمه ﷺ بالوليد للفراش، وأن الأمة	٨٨٨	(قول من قال: إن الفرقة لا تحصل إلا بتمام لعانها
٨٩٦	تكون فراشاً، وفيمن استلحق بعدَ مَوْتِ أبيه ..	٨٨٨	وتفريق الحاكم)
٨٩٧	(جهات ثبوت النسب والأمة تكون فراشاً)	٨٨٩	فصل
٨٩٨	فصل	٨٨٩	(فرقة اللعان فسخ)
٨٩٨	(الاختلاف فيما تصير به الزوجة فراشاً)	٨٨٩	فصل
٨٩٩	(الاختلاف فيما تصير به الأمة فراشاً)	٨٨٩	(توجب هذه الفرقة تحريماً مؤبداً والحكمة من
٨٩٩	فصل	٨٨٩	ذلك)
٨٩٩	(الاستلحاق)	٨٩٠	فصل
٨٩٩	فصل	٨٩٠	(لا يسقط صداق الملاعة بعد الدخول)
٨٩٩	(البينة)	٨٩٠	(هل يحكم للملاعة بنصف المهر إذا وقع اللعان قبل
٨٩٩	فصل	٨٩٠	الدخول)
٨٩٩	(القافة)	٨٩١	(هل ينصف الخلع المهر أو يسقطه إذا وقع قبل
٩٠٠	(حجج من أنكر ثبوت النسب بالقافة)	٨٩١	الدخول؟)
		٨٩١	فصل

فصل ٩٠٩
 (تناقض من قدم أم أم ثم الخالة على الأب وأم الأب وتناقض
 الرواية عن أحمد في تقديم الأخت عن الأم) ٩٠٩
 (اختلاف أصحاب أحمد في فهم نصه السابق) ٩٠٩
 فصل ٩٠٩
 (ضابط في الحضانة لبعض أصحاب أحمد) ٩٠٩
 فصل ٩١٠
 (بيان تناقض الضابط السابق) ٩١٠
 فصل ٩١٠
 (ضابط آخر في الحضانة لبعض أصحاب أحمد وبيان
 تناقضه) ٩١٠
 فصل ٩١١
 (ضابط الحضانة عند ابن قدامة) ٩١١
 (المواخذات على ضابط ابن قدامة) ٩١٢
 (ضابط الحضانة عند ابن تيمية وبيان صحته وأطراده) ٩١٢
 فصل ٩١٣
 (الحضانة حق للأم وهل تحق لها الأجرة؟) ٩١٣
 فصل ٩١٣
 (هل سقوط الحضانة بالنكاح للتعليل أو للتوقيت؟) ٩١٣
 فصل ٩١٤
 (هل مجرد عقد النكاح يسقط الحضانة؟) ٩١٤
 فصل ٩١٤
 (اختلاف الفقهاء في سقوط الحضانة بالنكاح)
 (حجة من أسقط الحضانة بالتزويج مطلقاً) ٩١٤
 (اعتراض ابن حزم على الأدلة السابقة ورد المصنف
 عليه) ٩١٤
 (حجة ابن حزم على عدم سقوط الحضانة بالتزويج) ٩١٥
 فصل ٩١٥
 (شروط الحاضن الاتفاق في الدين) ٩١٥
 (حجة من أثبت الحضانة للكافرة على الولد المسلم)
 (رد المسقطين لحق الحضانة للكافرة على الميثنيين)
 (اشتراط الخلو من الفسق في الحضانة) ٩١٦
 (اشتراط العقل في الحاضن) ٩١٧
 (الحرية) ٩١٧
 (الخلو من النكاح) ٩١٧

(رد الميثنيين على النافين) ٩٠١
 (إذ الحقته القافة بأكثر من أب فهل يلحق بهم؟) ٩٠١
 (لو استلحق الزاني ولدًا لا فراش هناك يعارضه فهل
 يلحقه نسبه؟) ٩٠٢
 فصل: ذَكَرَ حُكْمَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي اسْتِلْحَاقِ وَلَدِ
 الزَّوْنِ وَتَوْرِيثِهِ ٩٠٣
 ذَكَرَ الْحَكَمَ الَّذِي حَكَمَ بِهِ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُ فِي الْجَمَاعَةِ الَّذِينَ وَقَعُوا عَلَى امْرَأَةٍ فِي ظَهْرِ
 وَاحِدٍ، ثُمَّ تَنَازَعُوا الْوَلَدَ، فَأَقْرَعَ بَيْنَهُمْ فِيهِ، ثُمَّ بَلَغَ
 النَّبِيُّ ﷺ، فَضَحَكَ وَلَمْ يَنْكَرْهُ ٩٠٤
 (اختلاف الفقهاء في حكم علي) ٩٠٤
 فصل: ذَكَرَ حُكْمَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْوَلَدِ مَنْ أَحَقُّ
 بِهِ فِي الْحَضَانَةِ ٩٠٥
 فصل: الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْأَحْكَامِ ٩٠٥
 (سقوط الحضانة بالتزويج) ٩٠٥
 (اعتبار المعاني والعلل وتأثيرها في الأحكام) ٩٠٦
 (القضاء على الغائب) ٩٠٦
 فصل ٩٠٦
 (الأم أحق بالولد من الأب) ٩٠٦
 فصل ٩٠٧
 (يقدم الأب في ولاية المال والنكاح وتقدم الأم في
 ولاية الحضانة والرضاع) ٩٠٧
 (هل يقدم أقارب الأم على أقارب الأب في
 الحضانة؟) ٩٠٧
 (هل لأقارب الأم من الرجال مدخل في الحضانة؟)
 (التلليل على تقديم جهة الأبوة في الحضانة) ٩٠٧
 (علة تقديم الأم في الحضانة) ٩٠٧
 (تقديم الأنثى على الذكر حين اتفاق القرابة والدرجة
 وتقديم جهة الأب حين اتفاق الدرجة واختلاف
 القرابة) ٩٠٨
 (بيان تناقض من قدم أم أم على أم الأب ثم اختلافهم
 في تقديم الأخت للأم على الأخت للأب والخالة على
 العمة) ٩٠٨
 (علة تقديم العمة على الخالة) ٩٠٨
 (صفية بنت عبد المطلب وقتلها رجلاً من اليهود) ٩٠٨

- (اتحاد الدار شرط من شروط الحاضن) ٩١٧
- فصل ٩١٧
- (قول من اشترط لسقوط الحضانة مع عقد النكاح والدخول حكم الحاكم) ٩١٧
- فصل ٩١٨
- (اختلاف الفقهاء في التخيير بين الأبوين) ٩١٨
- ذكر قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه ٩١٨
- ذكر قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٩١٨
- ذكر قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه ٩١٨
- ذكر قول أبي هريرة رضي الله عنه ٩١٩
- (مذهب ابن راهويه في التخيير) ٩١٩
- (مذهب أحمد) ٩١٩
- (مذهب الشافعي) ٩١٩
- (مذهب مالك وأبي حنيفة) ٩١٩
- (مذهب الليث) ٩١٩
- (مذهب الحسن ابن حي) ٩١٩
- (مذهب من قال بالتخيير في الغلام دون الجارية) ٩١٩
- (رد المخيرين على من اقتصر بالتخيير على الغلام) ٩٢٠
- (رد الحنابلة على من أجاز التخيير للذكر والأنثى) ٩٢٠
- (اختلاف الفقهاء في تعيين أحد الأبوين لمقام البنت عنده) ٩٢١
- (مذهب من قال ببطان التخيير) ٩٢٢
- (رد المثبتين للتخيير على مطلبه) ٩٢٣
- (الرد على من قال: إن التخيير يحصل بعد البلوغ) ٩٢٣
- فصل ٩٢٤
- (الاختلاف في قصة بنت حمزة) ٩٢٤
- (هل تستحق بينة العم الحضانة) ٩٢٤
- (هل وقع الحكم للخالة أو لجعفر؟) ٩٢٤
- (استشكال الفقهاء هذا الحكم) ٩٢٤
- طعن ابن حزم في القصة) ٩٢٤
- (رد المصنف على ابن حزم) ٩٢٥
- (رد المصنف على الاستشكال السابق) ٩٢٥
- (علة عدم أخذه ﷺ بنت حمزة) ٩٢٥
- (ترجيح المصنف أن الحكم كان للخالة وبه رد للإشكال) ٩٢٦
- (الاختلاف في إسقاط الحضانة بالتزويج) ٩٢٦
- (مذهب الطبري في الحضانة وسقوطها بالتزويج) ٩٢٦
- ذكر ما في هذا الكلام من مقبول ومردود ... ٩٢٧
- (التعقيب على كلام الطبري) ٩٢٧
- فصل ٩٢٨
- (المسلك الخامس في قصة بنت حمزة) ٩٢٨
- ذكر حكمه ﷺ في النفقة على الزوجات ٩٢٨
- (الاختلاف في مقدار النفقة عند من قدرها) ٩٢٩
- (حجج الجمهور على عدم التقدير) ٩٢٩
- (أقوال الصحابة في الكفارة) ٩٣٠
- (أقوال التابعين في الكفارة) ٩٣٠
- (قول من قال بالتقدير في الكفارة دون النفقة) ٩٣٠
- (حجة من قال بعدم التقدير في النفقة والكفارات) ٩٣١
- فصل ٩٣٣
- (ما استنبط من حديث شكوى هند، وجواز ذكر العيوب عند الشكوى) ٩٣٣
- (نفرد الأب بنفقة أولاده) ٩٣٣
- (عدم صحة الاحتجاج به على جواز الحكم على الغائب) ٩٣٣
- (عدم صحة الاحتجاج به على جواز الأخذ من مال الغريم...) ٩٣٣
- فصل ٩٣٤
- (هل تسقط النفقة بمضي الزمن؟) ٩٣٤
- (الفرق بين نفقة الأقارب والزوجات) ٩٣٥
- فصل ٩٣٦
- (فرض الدراهم في النفقة لا أصل له في الكتاب والسنة) ٩٣٦
- ذكر ما روي من حكم رسول الله ﷺ في تمكين المرأة من فراق زوجها إذا أعسر بنفقتها ٩٣٦
- (هل هذا الفراق طلاق أو فسخ) ٩٣٧
- (مذهب من لم ير الفسخ بالإعسار) ٩٣٨
- (مذهب من قال بالحيس في الإعسار) ٩٣٩
- (مذهب ابن حزم من تكليف المرأة الإنفاق على الزوج إذ كان عاجزاً عن نفقة نفسه) ٩٣٩
- (حجج من لم ير الفسخ بالإعسار) ٩٣٩
- (هل يثبت الفسخ بالإعسار بالصداق) ٩٤٠

٩٥٤	(هل يحرم نظير المصاهرة بالرضاع؟)
٩٥٦	(من جوز من السلف نكاح بنات الزوجة إذا لم تكن في حجره)
٩٥٧	فصل
٩٥٧	(التحريم بلين الفحل)
٩٥٧	(حجة من قال بعدم التحريم)
٩٥٧	(رد من قال بالتحريم)
٩٥٩	فصل
٩٥٩	(تحريم المخلوقة من ماء الزاني)
٩٥٩	فصل
٩٥٩	(لا تحرم المصة والمصتان من الرضاع)
٩٥٩	(حجة من علق التحريم بقليل الرضاع وكثيره)
٩٦٠	(حجة من علق التحريم بثلاث رضعات)
٩٦٠	(حجة من علق التحريم بخمس رضعات)
٩٦١	(من حرم بسبع رضعات)
٩٦١	(من حرم بعشر رضعات)
٩٦١	فصل
٩٦١	(حد الرضعة)
٩٦٢	فصل
٩٦٢	(زمن الرضاع المحرم)
٩٦٢	(من قال بتحريم رضاع الكبير)
٩٦٣	(حجة من قال بعدم التحريم برضاع الكبير)
٩٦٣	(حجة من حرم برضاع الكبير)
٩٦٥	(رد القائلين بالحوالين على حديث سهلة وأولها رده بالنسخ)
٩٦٥	(رد حديث سهلة بالخصوصية بسالم)
٩٦٧	فصل
٩٦٧	(تقوية حديث أم سلمة)
٩٦٧	(رجوع أبي موسى الأشعري إلى عدم التحريم إلا برضاع الصغير)
٩٦٨	فصل
٩٦٨	(رد حديث سهلة بأنه رخصة للحاجة لمن لا يستغني عن دخوله على المرأة)
٩٦٨	ذكر حكمه ﷺ في العَدَد
٩٦٨	(عدة الحامل)

٩٤١	فصل: في حكم رسول الله ﷺ الموافق لكتاب الله
٩٤١	أنه لا نفقة للمبتوتة ولا سكتى
٩٤٢	ذكر موافقة هذا الحكم لكتاب الله عز وجل
٩٤٣	ذكر المطاعن التي طعن بها على حديث
٩٤٣	فاطمة بنت قيس قديماً وحديثاً
٩٤٤	ذكر طعن عائشة رضي الله عنها في خبر فاطمة بنت قيس
٩٤٤	ذكر طعن أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ وابن حبه على حديث فاطمة
٩٤٤	ذكر طعن مروان على حديث فاطمة
٩٤٤	ذكر طعن سعيد بن المسيب
٩٤٤	ذكر طعن سليمان بن سيار
٩٤٥	ذكر طعن الأسود بن يزيد
٩٤٥	ذكر طعن أبي سلمة بن عبد الرحمن
٩٤٥	ذكر الأجوبة عن هذه المطاعن وبيان بطلانها
٩٤٥	(رد المطعن الأول وهو كون الراوي امرأة)
٩٤٦	فصل
٩٤٦	(رد القول بأن رواية فاطمة مخالفة للقرآن)
٩٤٧	فصل
٩٤٧	(رد مطعن أن خروجها كان لفحش لسانها)
٩٤٧	فصل
٩٤٧	(رد مطعن معارضة روايتها برواية عمر)
٩٤٧	(مناظرة ميمون لابن المسيب في حديث فاطمة وذكر المصنف بعض الأحكام المستنبطة من حديث فاطمة)
٩٤٨	(معنى «أسكنوهن من حيث سكتن من وجدكم»)
٩٤٩	ذكر حكم رسول الله ﷺ الموافق
٩٤٩	لكتاب الله تعالى من وجوب
٩٤٩	النفقة للأقارب
٩٥٠	(اختلاف الفقهاء في النفقة للأقارب)
٩٥٢	ذكر حكم رسول الله ﷺ في الرضاة وما يحرم بها، وما لا يحرم، وحكمه في القنن المهرم منها وحكمه في إرضاع الكبير، هل له تأثير، أم لا؟
٩٥٣	(الرضاة تحرم ما تحرم الولادة)

٩٧٨	(الرد المجمل)	٩٦٨	فصل
٩٧٨	(الرد المفصل)	٩٦٨	(عدة المطلقة التي تحيض)
٩٧٨	(بقية الطهر قرء كامل)	٩٦٨	(عدة التي لا حيض لها)
٩٧٨	(قد يطلق الجمع على اثنين وبعض الثالث)	٩٦٩	(عدة المتوفى عنها زوجها)
٩٧٩	(ذكر أشياء لا تسمى بأسماء معينة إلا بشرط معين)	٩٦٩	(الاختلاف في المتوفى عنها إذا كانت حاملاً)
٩٨٠	(نفي انحصاره في لسان الشرع على معنى الحيض)	٩٧٠	(مفهوم النسخ عند السلف)
٩٨٠	(ضعف حديث عدة الأمة حيضتان)	٩٧٠	فصل
٩٨١	(الفرق بين الاستبراء والعدة)		(لا تنقضي العدة حتى تضع جميع الحمل ويكتفى في عدة
	(رد المصنف على اعتراضات من فسر الأقراء بالأطهار)	٩٧٠	المتوفى عنها زوجها بالتربص أربعة أشهر وعشراً)
٩٨٢	(والطلاق قبل العدة)	٩٧٠	فصل
٩٨٣	(من ضرورة الحيض أن يتقدمه طهر)	٩٧٠	(من قال: إن الأقراء هي الحيض)
٩٨٣	(الطهر سبب لوجود الحيض)	٩٧١	(من قال بأن الأقراء هي الأطهار)
٩٨٤	(يجب تأخر العدة عن الطلاق)		(هل يقف انقضاء العدة على اغتسال المعتدة من
٩٨٤	(التطويل عند الطلاق في الحيض)	٩٧١	حيضتها الثالثة)
٩٨٤	(القرء مشتق من الجمع أي زمن الطهر)		(هل يشترط كون الطهر مسبوqاً بدم قبله على من قال
	(الرد على ذلك بأن ذلك مشتق من المعطل لا	٩٧٢	بالأطهار)
٩٨٤	المهموز)		(هل تنقضي العدة بالطعن في الحيضة الثالثة على من
	(الرد على قولهم: النساء أعلم بهذا الباب من	٩٧٢	قال بالأطهار)
٩٨٤	الرجال)	٩٧٢	(حجة من فسر الأقراء بالحيض)
٩٨٥	(الأخذ بقول علي: هو أحق برجعتها ما لم تغتسل)	٩٧٢	(الدليل الأول لمن حمل القرء على الحيض)
٩٨٦	(الاختلاف فيما ينقضي به أجل العدة)		(الوجه الأول الدال على أولوية حمل القرء في الآية
٩٨٦	(الرد على من يقول الأسبق أولى بالاسم)	٩٧٢	على الحيض)
٩٨٦	(الرد على ادعاء تفسيره ۞ القروء بالأطهار)		(حمل المشترك على معنييه والتشكيك في نسبته
٩٨٦	فصل: في الأجوبة عن اعتراضكم على أدلتنا	٩٧٢	للشافعي والباقلاني)
	(الرد على قولهم إن العرب توقع اسم الجمع على اثنين	٩٧٣	(فساد حمل المشترك على معنييه)
٩٨٧	وبعض الثالث)		(الوجه الثاني الدال على أولوية حمل القرء في الآية
٩٨٧	(الفرق بين أسماء الجموع وصيغ العدد)	٩٧٤	على الحيض)
	(يطلق اسم الجمع على اثنين وبعض الثالث فيما يقبل	٩٧٤	(الدليل الثاني لمن حمل القرء على الحيض وعدة الأمة
٩٨٧	التبعض)		حيضتان)
	(الرد على ادعائهم أن الطهر الذي لم يسبقه دم هو	٩٧٥	(استبراء الأمة حيضة)
٩٨٧	قرء)	٩٧٦	(علة أولوية اعتداد الحرة على الأمة بالحيض)
٩٨٨	(بيان مجيء القرء على لسان الشارع للحيض)	٩٧٦	فصل
٩٨٨	(تقوية حديث: «دعي الصلاة أيام أقراءك»)	٩٧٦	(حجة من فسر الأقراء بالأطهار)
	(الجواب عن تضعيف حديث: «عدة الأمة	٩٧٦	(دليلهم على أن الأقراء هي الأطهار)
٩٨٩	حيضتان»)	٩٧٦	(نقل كلام الشافعي في ذلك)
٩٨٩	(الجواب عن عدة المختلعة بحيضة)		(رد المفسرين بالأطهار على أدلة المفسرين
		٩٧٨	بالحيض)

لحكمه بخروج المبتوتة ١٠٠٢
 واعتدادها حيث شاءت ١٠٠٢
 (اختلاف الفقهاء في هذه المسألة ومن أفتى بخروج المتوفى عنها زوجها ومن قال: تعتد حيث شاءت) ١٠٠٣
 (من قال تعتد في منزلها التي توفي زوجها وهي فيه) ١٠٠٤
 (هل ملازمة المنزل حق على المعتدة أو حق لها) ١٠٠٥
 (هل الإسكان حق على الورثة يقدم على الغرماء؟) ١٠٠٥
 ذَكَرُ حَكَمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي إِحْدَادِ الْمُعْتَدَةِ نَفِيًّا وَإِثْبَاتًا ١٠٠٨
 (مدة الإحداد) ١٠٠٩
 (وجوب الإحداد وجوازه) ١٠٠٩
 (مدة الإحداد) ١٠٠٩
 فصل ١٠٠٩
 (تبعية الإحداد للعدة) ١٠٠٩
 فصل ١٠٠٩
 (تستوي الزوجات بالإحداد حتى الكافرة والأمة والصغيرة) ١٠٠٩
 فصل ١٠١٠
 (لا يجب الإحداد على الأمة ولا أم الولد) ١٠١٠
 (لا إحداد على غير المتوفى عنها زوجها) ١٠١٠
 فصل ١٠١١
 (الخصال التي تجتنبها الحادة) ١٠١١
 (الطيب) ١٠١١
 فصل ١٠١١
 (تجتنب الحادة الزينة في بدنها) ١٠١١
 فصل ١٠١٢
 (تجتنب الحادة زينة الثياب) ١٠١٢
 فصل ١٠١٣
 (الرد على ابن حزم في تضعيفه إبراهيم بن طهمان) ١٠١٤
 فصل ١٠١٤
 (هل تجتنب الحادة النقاب) ١٠١٤
 فصل ١٠١٥
 (هل تلبس الحادة الثوب إذا صيغ غزله ثم نسج؟) ١٠١٥

(الرد على الفرق بين الاستبراء والعدة) ٩٩٠
 فصل ٩٩٠
 (قول من سوى بين عدة الحرة والأمة) ٩٩٠
 (قول من قال: إن عدة الأمة نصف عدة الحرة) ٩٩٠
 (عدة الأمة غير البالغة) ٩٩٢
 فصل ٩٩٣
 (عدة الأيسة والتي لم تحض وحد الإياس والروايات عن أحمد في حد الإياس) ٩٩٣
 (مذهب الشافعي في حد الإياس) ٩٩٣
 فصل ٩٩٦
 (الاختلاف في وجوب من المثل إذا لم يكن مسمى للمتوفى عنها زوجها قبل الدخول) ٩٩٦
 (هل يثبت تحريم الربيبة بموت الأم) ٩٩٦
 (الاختلاف في حكمة عدة الوفاة من قال هي لبراءة الرحم) ٩٩٦
 (من قال هو تعبد لا يعقل معناه) ٩٩٦
 (حكمة عدة الوفاة عند ابن تيمية) ٩٩٦
 فصل ٩٩٧
 (حكمة عدة الطلاق) ٩٩٧
 (معنى بلوغ الأجل في العدة وهل الاغتسال من الحيض ومن تمام العدة شرط في عقد النكاح وفي الوطء) ٩٩٧
 (ترجيح المصنف أنه عند انقضاء القروء الثلاثة يخير الزوج بين الإمساك أو التسريح) ٩٩٧
 (التسريح هو إرسالها إلى أهلها) ٩٩٨
 (الحكمة من بقاء المبتوتة في بيت الزوج في العدة ومذهب ابن اللبان في عدة المبتوتة التي من ذوات الحيض والأيسة والصغيرة) ٩٩٩
 (عدة الفسخ والخلع) ١٠٠٠
 فصل ١٠٠٠
 (الفرق بين عدة الرجعية والبائن) ١٠٠٠
 (هل الرجعة حق للزوج) ١٠٠٠
 فصل ١٠٠١
 (عدة المختلعة) ١٠٠١
 ذكر حَكَمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِاعْتِدَادِ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا فِي مَنَازِلِهَا الَّذِي تَوَفَّى زَوْجَهَا وَهِيَ فِيهِ وَأَنَّهُ غَيْرُ مُخَالَفٍ

١٠٢٩	(تحريم بيع الميتة تحريم بيع شحم الميتة)
١٠٣١	فصل
١٠٣١	(تحريم بيع أجزاء الميتة التي تحلها الحياة وتنفارقها بالموت وحل بيع الشعر والوبر والصوف) .. ١٠٣١
١٠٣٢	فصل
١٠٣٢	(هل يحرم بيع عظم الميتة وقرنها وجلدها بعد الدباغ)
١٠٣٢	(بيع جلد الميتة)
١٠٣٣	(بيع الدهن النجس)
١٠٣٣	(بيع السرجين النجس)
١٠٣٣	فصل
١٠٣٣	(بيع عظم الميتة)
١٠٣٤	فصل
١٠٣٤	(تحريم بيع الخنزير)
١٠٣٤	فصل
١٠٣٤	(تحريم بيع الأصنام)
١٠٣٥	فصل
١٠٣٥	(تحريم الشيء تحريم لثمنه)
١٠٣٥	(هل يجوز بيع المسلم الخمر والخنزير للذمي؟) ١٠٣٥
١٠٣٦	حُكْمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي ثَمَنِ الْكَلْبِ وَالسَّوْرِ ١٠٣٦
١٠٣٦	(تحريم بيع الكلب)
١٠٣٦	(تضعيف المصنف لأحاديث استثناء كلب الماشية)
١٠٣٧	فصل
١٠٣٩	(تحريم بيع السور)
١٠٣٩	فصل
١٠٣٩	(تحريم مهر البغي هل للمحرمة المكروهة على الزنى مهر؟)
١٠٤٠	فصل
١٠٤٠	(هل للأمة المطاوعة على الزنى مهر؟)
١٠٤١	فصل
١٠٤١	(ما تفعل الزانية بكسبها إذا قبضته ثم تاب؟) ١٠٤١
١٠٤٢	(هل لمن حمل خمرًا أو ميتة أو خنزيرًا لنصراني كراء؟)
١٠١٥	ذَكَرَ حُكْمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْإِسْتِبْرَاءِ
١٠١٦	فصل
١٠١٦	(لا يجوز وطء المسبية حتى يعلم براءة رحمها) ١٠١٦
١٠١٧	(عدة أم الولد)
١٠٢٠	فصل
١٠٢٠	(لا يحصل استبراء المسبية بطهر بل لا بد من حيضة)
١٠٢٠	فصل
١٠٢٠	(لا يحصل ببعض حيضة في يد المشتري اكتفاء بها)
١٠٢١	فصل
١٠٢١	(استبراء المسبية الحامل بوضع الحمل)
١٠٢١	فصل
١٠٢١	(لا يجوز وطء المسبية الحامل قبل وضع حملها) ١٠٢١
١٠٢١	(تحريم نكاح الزانية)
١٠٢٢	فصل
١٠٢٢	(لا تحيض الحامل)
١٠٢٣	(أدلة من منع كون دم الحامل دم حيض)
١٠٢٣	(طلاق الحامل ليس ببذعة)
١٠٢٤	(أدلة من جوز كون دم الحامل دم حيض)
١٠٢٤	(هل يمنع من الاستمتاع بالمستبرأة بغير الوطء في الموضع الذي يجب فيه الاستبراء؟ مباشرة الصغيرة في وقت الاستبراء)
١٠٢٦	فصل
١٠٢٦	(مباشرة البكر في وقت الاستبراء)
١٠٢٦	فصل
١٠٢٦	(الاستمتاع بغير الوطء للمسبية)
١٠٢٦	(هل تبدأ مدة الاستبراء من حين البيع؟)
١٠٢٧	فصل
١٠٢٧	(هل سكنت السنة عن استبراء الأيسة والتي لم تحضر؟)
١٠٢٨	ذكر أحكامه ﷺ في البيوع
١٠٢٨	ذكر حكمه ﷺ فيما يحرم بيعه
١٠٢٨	(أجناس المحرمات)
١٠٢٩	(تحريم بيع الخمر)
١٠٢٩	فصل

١٠٥٥	(الاختلاف في بيع الغائب)	١٠٤٤	فصل
١٠٥٥	(بيع السلف)	١٠٤٤	(تحريم حلوان الكاهن)
١٠٥٦	وَكُرِّحُكُم رَسُوْلُ اللّٰهِ ﷺ فِي بَيْعِ الْحَصَاةِ	١٠٤٤	(ما تركب عليه الملاحم)
١٠٥٦	وَالْقَرَرِ وَالْمَلَامَةِ وَالْمُنَابَذَةِ	١٠٤٦	فصل
١٠٥٦	(بيع الحصاة)	١٠٤٦	(خبث كسب الحمام)
١٠٥٧	فصل	١٠٤٦	(أطيب المكاسب وأحلها)
١٠٥٧	(بيع الغرر)	فصل: فِي حُكْمِهِ ﷺ فِي بَيْعِ عَسْبِ الْفَحْلِ	
١٠٥٧	(بيع الملامسة والمنابذة)	١٠٤٧	وَضَرَايِهِ
١٠٥٧	فصل	١٠٤٧	(علة النهي عن عسب الفحل)
١٠٥٧	(بيع المغيات)	ذكر حُكْمِ رَسُوْلِ اللّٰهِ ﷺ فِي الْمَنْعِ مِنْ بَيْعِ الْمَاءِ الَّذِي	
١٠٥٨	فصل	يَشْتَرِكُ فِيهِ النَّاسُ	
١٠٥٨	(بيع المسك في فآرته)	١٠٤٨	(جواز بيع الماء إذا كان في قرية أو إناثه)
١٠٥٨	(بيع السمن في الوعاء)	١٠٤٩	فصل
١٠٥٨	(بيع اللبن في الضرع)	١٠٤٩	(يجب بذل ما فضل من الماء عن حاجته وحاجة بهائمه
١٠٥٩	فصل	وزرعه لمن طلبه لحاجته أو حاجة بهائمه والاختلاف	
١٠٥٩	(إجارة الحلوة مدة معلومة لأخذ لبنها)	١٠٤٩	في بذله لزرع غيره)
١٠٥٩	(إيراد على جواز هذه الإجارة)	(هل تملك البئر التابعة أو العين المستنبطة والمعادن في	
١٠٥٩	(الجواب عن هذا الإيراد)	أرضه)	
١٠٥٩	(ثبوت ورود الإجارة على الأعيان)	١٠٥٠	(ترجيح المصنف المنع من البيع)
١٠٦٠	(الثمر يجري مجرى المنافع)	١٠٥٠	(يجوز الدخول في ملك غيره بغير إذنه للرعي وسقي
١٠٦٠	(الرتبة الوسطى بين المنافع والأعيان)	١٠٥١	البهائم)
١٠٦٠	(نص القرآن على إجارة الظئر)	(يجوز بيع البئر والعين ومشتريها أحق بمائها وشراء	
١٠٦٠	(الأصل في العقود وجوب الوفاء)	عثمان بئر رومة)	
١٠٦٠	(ما تحمله المانعون لعله جواز إجارة الظئر)	١٠٥٢	(كان إقرار اليهودي على بيع الماء في أول الإسلام)
١٠٦١	(ندبه ﷺ إلى منيحة الغنم للبنها)	١٠٥٢	فصل
١٠٦١	(إجارة الشجر لأخذ ثمرها)	١٠٥٢	(هل يملك ماء البرك والمصانع؟)
١٠٦١	(تشابه إجارة الأرض بإجارة الحيوان)	وَكُرِّحُكُم رَسُوْلُ اللّٰهِ ﷺ فِي مَنَعَ الرَّجُلِ	
١٠٦١	(الغرر في إجارة الأرض أعظم منه في إجارة	مِنْ بَيْعِ مَا لَيْسَ عَنْده	
١٠٦١	الحيوان)	١٠٥٣	(أقسام المعدم أولها بيع السلم)
١٠٦٢	فصل	١٠٥٣	(ثانيها بيع الثمار بعد بدو صلاحها)
١٠٦٢	(الاختلاف في العقد على اللبن في الضرع)	١٠٥٣	(الاختلاف في بيع المقائى والمباطخ إذا طابت)
١٠٦٢	(جملة يبيع منه عنها)	١٠٥٤	فصل
١٠٦٢	(بيع اللبن في الضرع)	(الثالث من أقسام المعدم التفريق بين هذا وبين	
١٠٦٣	فصل	السلم)	
١٠٦٣	(بيع الصوف على الظهر)	(كلام لابن تيمية عن حديث النهي عن بيع ما ليس	
١٠٦٥	فهرس الموضوعات	عندك)	